العقد الفريد

تأليف

الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي

المتوفى سنة ٣٢٨هـ

بتحقيق

دكتور

مفيد محمد قميحة

الجزء الأول

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م

يطلب من: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
صندوق بريد ٩٤٢٤ - ١١ . هاتف ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤
الرملة البيضاء - بناية ملكارت سنتر

العقد الفريد

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

« مُقدّمة المحقّق »

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين، نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد، فمنذ أن فتح العرب بلاد الأندلس عام ٩٢ للهجرة نجد أن تلك الأصقاع قد شهدت نزوح كثير من القبائل العربية إليها حيث ألقت هناك عصا الترحال واستقرّ بها النّوى، ومكّنها ذلك فيما بعد من إحداث نهضة أدبية سرعان ما نمت وتطوّرت وعرفت في عصر الدولة الأموية التي أنشئت هناك على أنقاض الدولة الأموية التي انهارت في المشرق العربي تحت ضربات العباسيين، أوج ازدهارها، وقمّة عطائها، وقد ظهر في تلك الديار النائية التي لم تفقد في يوم من الأيام صلتها بالمشرق الأم، كثير من العلماء والأدباء الذين حاكوا بنتاجهم أكثر ما ظهر في المشرق العربي من نتاج، والتزموا بأذواقهم الذوق الأدبي السائد آنذاك، حتى أنّ الصاحب بن عباد بعد اطلاعه على « العقد الفريد » نراه يقول: « هذه بضاعتنا ردَّت إلينا »، ومن هؤلاء الأدباء الكثر، صاحب العقد أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم القرطبي، الذي كان مولىً لهشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان.

ولد الرجل في مدينة قرطبة في العاشر من شهر رمضان سنة ٢٤٦هـ الموافق للتاسع والعشرين من تشرين الثاني سنة ٨٦٠م. وقرطبة حيث ولد ابن عبد ربّه من أعظم المدن الأندلسيّة، وكانت عظيمة الشبه بمدينة بغداد حاضرة العباسيين، وعنها يقول المقّري صاحب نفح الطيب: « يحكى أنّ العمارة في مباني قرطبة والزاهرة والزهراء اتصلت إلى أنه كان يُمشى فيها بضوء السُّرج المتصلة عشرة أميال، وفيها جبل الورد الذي صار أصحابه يرون الفضل لمن قطف بيده ما يمنحونه منه، ونهرها

إن صغر عندها عن عُظْمِهِ عند اشبيلية فإنّ لتقارب برّيه هنالك، وتقطّع غدره ومروجه معنىً آخر، وحلاوة أخرى، وزيادة أنس، وكثرة آمانٍ من الغرق، وفي جوانبه من البساتين والمروج ما زاده نضارةً وبهجة.

في هذه البيئة المليئة بالعطر والورود والأفياء نشأ صاحب العقد، وأمضى سحابة شبابه مستمتعاً بطبيعة بلاده وأجوائها المساعدة على النظم واللهو والغناء، ولذا فقد أولع الرجل بسماع الغناء والطرب اللذين شاعا في المدن الأندلسيّة أيّما شيوع، حتىّ أصبحت بلاطات الأمراء مسارح للمغنّيات والقيان اللواتي كنّ يفدن إلى هناك من مختلف الأقطار العربية في بداية الأمر كالجارية العجفاء، وقد استأثرت قرطبة باستقبال روّاد هذا الفن، ثم انتقل مركز الغناء إلى اشبيلية حتى ظنّ أنّها عاصمة هذا الفنّ. وتفرّدت قرطبة بالعلم والفقه، وأصبحت عاصمة الأدب وحاضنة علوم الدين.

وكان طبيعيّاً أن يتأثر أديبنا بطبيعة بلاده، ويساير تلك الموجة العارمة من الطرب واللهو والعبث والمجون، فشرب الخمرة، وطرب لسماع الأصوات العذبة، وهذا ما يمكننا أن نستشفّه من خلال شعره المبثوث في ثنايا عقده. ومن الواضح أنّ الرجل قد تاب عن غيّه وعاد إلى رشده خلال العقد الرابع من عمره، فطرق باب الفقه، وتتلمذ على شيوخ عدة نذكر منهم الخشني، وابن وضاح، وبقي بن مخلد، وفي تلك الحقبة من الزمن كانت دراسة الفقه مدخلاً وممهداً لتسلّم المراكز الرفيعة، فامتلأت المدن الأندلسية التي خضعت للحكم العربي وخاصة قرطبة بالعلماء والأدباء والفقهاء..

ويظهر أنّ صاحب العقد كان على صلة مع أمراء عصره، فقد مدح أمير قرطبة محمد بن عبد الرحمن الحكم، كما كان على صلةٍ بابنه المنذر أيضاً، وفي هذه الحقبة من تاريخ الأندلس كثرت الفتن، حتى أن أحد قوّاد الفتنة، عمر بن حفصون، قد هدّد السلطة الأمويّة، وقد نعته ابن عبد ربه، بالمارق الفاسق..

واتصل صاحب العقد كذلك بالقائد العربي ابراهيم بن الحجاج الذي جعل أمارته في أشبيلية، وكان كريماً سخيّاً على الأدباء والشعراء، فوفد إلى بلاطه معظم علماء الأندلس وشعرائها.

وأقام الرجل كذلك علاقاتٍ طيبة مع عبد الرحمن بن محمد الملقّب بالملك الناصر، الذي بنى مدينة الزهراء، ومدحه بقصائد كثيرة منها قصيدته الرائعة التي أدرجها في المجلد الثالث من العقد. وابن عبد ربه الذي يقول فيه الثعالبي النيسابوري صاحب يتيمة الدهر إنّه «أحد محاسن الأندلس علماً وفضلاً وأدباً ومثلاً، وشعره في نهاية الجزالة والحلاوة، وعليه رونق البلاغة والطلاوة» أصيب آخر أعوامه بالفالج، كما أصيب الجاحظ من قبله، وأبو الفرج الأصبهاني من بعده، وتوفي يوم الأحد لثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادي الأولى سنة ٣٢٨ هجرية وهو ابن إحدى وثمانين سنة وثمانية أشهر وثمانية أيّام ودفن في اليوم التالي لوفاته...

هذه لمحةٌ موجزة عن حياة الرجل، أما عن أعماله الأدبية فقد كان «العقد» أكثر كتبه شهرة، وقد تحدّث نفسه عن تسميته بهذا الاسم فقال: «وسمّيتهُ كتاب العقد الفريد لما فيه من مختلف جواهر الكلام، مع دقة المسلك وحسن النظام» وقد اعتمد كما لاحظنا في تأليفه واختياره لموضوعاته وأخباره على مصادر كثيرة، منها ما هو ديني كالقرآن والانجيل والتوراة، والحديث النبويّ الشّريف، ومنها ما هو أدبيٌّ وتاريخيّ، كعيون الأخبار، والمعارف لابن قتيبة، والحيوان، والبخلاء، والبيان والتبيين، للجاحظ، والكامل للمبرّد وكليلة ودمنة والأدب الكبير والصغير لابن المقفّع، والأمالي لأبي عليٍّ القالي، ودواوين كثيرة لشعراء جاهليين وإسلاميين، وغير ذلك من الكتب التي تناولتها يداه...

وقد قسّم الرجل كتابه إلى فنون عديدة، وضمّنه خمسةً وعشرين كتاباً انفرد كلّ كتاب منها باسم جوهرةٍ من جواهر العقد «بحيث يقع على كلٍّ من جانبي واسطة العقد، اثنتا عشرة جوهرة، كلّ منها سمّيت باسم التي تقابلها من الجانب الآخر، وبذلك تكون أولى جواهر العقد وآخره على اسمٍ واحد، ففي العقد لؤلؤتان وزبرجدتان وياقوتتان وجمانتان وهلمّ جرّا» وقد أشار ابن عبد ربّه في مقدمة كتابه إلى ذلك فقال: «وجزّأته على خمسة وعشرين كتاباً كلّ كتابٍ منها جزآن، فتلك خمسون جزءاً في خمسةٍ وعشرين كتاباً».

أمّا الموضوعات التي تناولها العقد، فقد تنوّعت وتوزّعت بين السياسة والسلطات، والحروب ومدار أمرها، والأمثال والمواعظ، والتّعازي والمراثي وكلام الأعراب وخطبهم وأنسابهم وعلومهم وأدابهم وأيّامهم وآخبار مشهوريهم من الخلفاء والقادة، هذا فضلاً عن تضمينه كتابه كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وكثيراً من الأشعار والأخبار التاريخية، وإثباته لنفسه كثيراً من القصائد التي وردت على شكل معارضات لشعر كبار الشعراء في الموضوعات التي استشهد بأشعارهم عليها.

وقد صاغ صاحب العقد موضوعاته وما تضمّنها من معلومات بأسلوبٍ أدبيّ، واضح بحيث نراه يهذّب كلّ ما جمعه، ويصفّيه من الأسانيد التاريخية لأنّ غايته من تأليف كتابه كانت أدبيّة بحتة، هذا ونلاحظ في كتابه ميلاً إلى الفكاهة والدّعابة، ونزوعاً إلى القصص والنّوادر والنكات، فنراه في كتابه يذكر الكثير من ذلك أو لا يستنكف عن ذكر بذيء اللفظ وسافل المعنى، ورغم كلّ ذلك فإنّ المسحة الأدبيّة تبدو قويّة في كتابه بحيث يشعر بها كلّ من يقرأ العقد أو يتصفّحه فقد أراد الرجل أن يكون كتابه «مجموعة من متخيَّر الآداب ومحصول جوامع البيان» وقد وفّق إلى ذلك وسبق الكثيرين ممّن ألفّوا على شاكلة كتابه، وامتاز على غيره بالوضوح والسهولة وحسن الترتيب والتنسيق حتى غدا كتابه كلاًّ متماسكاً وسفراً جامعاً لأكثر علوم عصره إن لم نقل كلّها، هذا وقد تضمّن العقد «ما لا يقل» عن عشرة آلاف بيت من الشعر لأكثر من مئتي شاعر من العصر الجاهلي والأموي والعباسي، وربّما يصعب أن نذكر شاعراً معروفاً لا نرى عنه خبراً أو نتفاً من شعره، استشهد بها ابن عبد ربه لمناسبة ما فضلاً عن تخصيصه كتاباً لأعاريض الشعر وعلل القوافي، كما تضمّن العقد خطباً كثيرة ورسائل عديدة لكثير من الأدباء والمتراسلين..

كذلك فإنّ في العقد فصولاً نقدية قيِّمة نقلها من الكتب السابقة لكتابه ويجدر بمن يتعاطى مهنة الأدب أن يطلع عليها للإفادة منها، كما أن فيه فصولاً دينيةً قيّمة، فقد ذكرنا من قبل أنّ الرجل كان فقيهاً، فلا غرو إذا ظهرت في كتابه الثقافة الدينية بمختلف فروعها، ونستطيع في هذا المجال أن نلاحظ أخبار كثيرٍ من الائمة الذين تقدّموه كما نلاحظ كثيراً من أقوالهم وأحكامهم وفتاويهم في بعض المسائل.

بعد هذا العرض الموجز لما تضمّن العقد من مادة غنيّة ومتنوعة، نستطيع القول: إنّ العقد كتاب عظيم النفع جليل القيمة، وافر المعلومات واسع الأفق، بحيث نراه يتحوّل بجهد صاحبه إلى سفرٍ موسوعيٍّ ضخم يتضمَّن كثيراً من المعارف والعلوم والآداب، التي رتبها ابن عبد ربه ونسّقها بحيث غدت متّصلة العرى متآلفة الموضوعات متماسكة الحلقات، تشهد للرجل بحسن البراعة والاختيار، كما تشهد له بالعلم والمعرفة وسعة الاطلاع، فالرجل في مصنّفه لم يكن مجرَّد ناقلٍ ومبوّب، بل كان صاحب رأيٍ وصاحب ذوقٍ يطلان في كثير من الآماكن بشكلٍ واضح وجليّ، فضلاً عن كونه شاعراً بارعاً قويّ الديباجة، سلس الأسلوب دقيق المعاني، ولكن مع ميلٍ إلى تقليد المشارقة، والعمل على محاكاتهم وإظهار التفوّق عليهم في أغلب الأحيان.

وهكذا فإنّ العقد بجواهره النفيسة التي تشعّ كثيراً من الأضواء والمعارف، كتاب ينبغي الاقتناء له والاستفادة من ألقه الرائع بين السطور والكلمات.

والله من وراء القصد.

د. مفيد محمد قميحة

العِقدُ الفريد

تأليف

الفقيه أحمد بن محمّد بن عبد ربّه الأندلسي

المتوفى سنة ٣٢٨هـ

بتحقيق

دكتور

مُفيد محمّد قميحة

الجُزء الأول

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ -١٩٨٣م

يطلب من: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
صندوق بريد ٩٤٢٤ - ١١ . هاتف ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤
الرملة البيضاء - بناية ملكارت سنتر

بسم الله الرحمن الرحيم

[ربِّ يسِّر وأعِن

قال أبو عمرو أحمدُ بنُ عَبْدِ ربِّه الأندلسيُّ، رحمه الله]:

الحمد لله الأوَّلِ بلا ٱبتداء، الآخِرِ بلا انْتِهاء؛ المُنْفرِدِ بقُدْرته، المُتَعالِي في سُلْطانه؛ الذي لا تَحْويه الجِهات ولا تَنْعَته الصِّفات؛ ولا تُدْركه العُيون، ولا تَبْلُغه الظنُّون؛ البَادِيء بالإحسان، العائِد بالامْتِنان؛ الدالِّ على بَقائه بفناء خَلْقِه، وعلى قُدْرته بعَجْز كلِّ شيء سواه؛ المُغتفِر إساءَةَ المُذْنِب بعَفْوه، وجَهْلَ المُسِيء بحِلْمه؛ الذي جَعل مَعْرِفَته ٱضْطراراً، وعبادتَه ٱختياراً؛ وخَلَق الخَلْق مِن [بين] ناطِق مُعْتَرِف بوَحْدانيّته، وصَامِتٍ مُتَخَشِّعٍ لرُبُوبيّته؛ لا يَخْرُج شيء عن قُدْرَته، ولا يَعْزُب[١] عن رُؤْيته؛ الذي قَرَن بالفضل رَحْمَتَه، وبالعَدْل عَذابَه؛ فالناسُ مَدِينُون بين فَضْله وعَدْله، آذِنُون بالزَّوال، آخِذون في الانتِقال؛ من دار بَلاء، إلى دار جزاء.

أَحْمَدُهُ على حِلْمه بعد عِلْمه، وعلى عَفْوه بعد قُدْرته؛ فإنّه رَضِي الحمدَ ثَمَناً لجزيل نَعْمائه، وجَلِيل آلائِه[٢]؛ وجعله مِفْتاح رَحْمته، وكِفاءَ نِعْمته، وآخِرَ دَعوى أهلِ جنّته، بقوله جلَّ وعَزّ: ﴿وآخِرُ دَعْواهُمْ أنِ ٱلْحَمْدُ للهِ رَبِّ ٱلْعَالَمين﴾[٣]

(١) يعزب: يغيب.

(٢) آلائه: نعمه.

(٣) سورة يونس الآية ١٠.

وصلّى الله على [سيّدنا محمد] النبيّ المُكرَّم، الشافع المقرَّب، الذي بُعِث آخِراً وآصطُفِيَ أوّلاً، وجَعَلَنا مِن أهل طاعته، وعُتَقاء شفاعته.

وبعد: فإنَّ أهلَ كلِّ طبقة، وجَهابِذَة[1] كلِّ أُمَّة، قد تكلّموا في الأَدَب وتَفَلسَفوا في العلوم على كلّ لِسان، ومع كلّ زمان؛ وإنّ كلّ متكلّم منهم قد استفرغ غايتَه وبذَل مجهوده في اختِصار بَديعِ مَعاني المُتقدِّمين، واختيار جواهر ألفاظ السالِفين؛ وأكثروا في ذلك حتى احتاج المُخْتَصَر منها إلى اختصار، والمُتخَيَّر إلى آخْتِيار.

ثم إني رأيتُ آخِرَ كلِّ طَبقة، وواضِعي كلِّ حكْمة ومؤلِّفي كل أدَب، أعذبَ ألفاظاً وأسهلَ بِنْيةً وأحْكمَ مَذْهباً وأوضحَ طريقةً من الأوّل، لأنه ناكِصٌ مُتَعقِّب[2]، والأوّل بادِئٌ مُتقدِّم.

فَليَنْظُر الناظرُ إلى الأوضاعِ المُحْكَمة والكُتب المُتَرجَمة بعَيْن إنْصاف، ثم يَجْعَل عقله حَكَماً عادِلاً [وفَيْصلاً] قاطِعاً؛ فعِنْد ذلك يعلم أنها شَجَرة باسِقة الفَرْع، طَيِّبة المَنْبت، زَكِيَّة التُّربة، يانِعة الثَّمَرَة. فمن أَخَذ بنَصيبه منها كان على إرْثٍ من النّبوَّة، ومِنْهاجٍ من الحِكمة؛ لا يَسْتوحِش صاحبُه، ولا يَضِلّ من تَمسَّك به.

وقد ألّفتُ هذا الكتابَ وتخيَّرت جواهرَه من مُتَخَيَّر جواهِرِ الآداب ومَحْصول جوامع البَيان، فكان جَوْهَر الجَوْهَر ولُباب اللُّباب؛ وإنّما لي فيه تأليفُ [الأخبار، وفضل] الاختيار، وحُسْن الاختِصار، وفَرْش في صَدْر كلّ كِتاب؛ وما سِوَاه فمأخوذ من أفواه العُلَماء، ومأثورٌ عن الحُكماء والأدباء. واختيار الكلام أصعبُ من تأليفه. وقد قالوا: اختيار الرجل وافِدُ عَقْله[3]. وقال الشاعر:

قد عَرَفْناك بآختيارِك إذ كا ... نَ دليلاً على اللَّبيب آختِيارُهْ

(١) الجهابذة: جمع جهبذ، وهو الخبير بالأمور المميّز بين جيدها ورديئها.

(٢) متعقب: متأخر. (٣) وافد عقله: أي صادر عنه ودليلٌ عليه.

وقال أفْلاَطون: عُقُول الناس مُدوَّنة في أطراف أقلامهم، وظاهرة في حُسْن اختيارهم.

فتطلَّبتُ نظائرَ الكلام وأشكالَ المَعاني وجواهرَ الحِكَم وضُروبَ الأدب ونوادرَ الأمثال، ثم قَرَنْتُ كلَّ جِنْس منها إلى جِنْسه، فجعلته باباً على حِدَته؛ ليَسْتَدلّ الطالبُ للخَبَر على مَوْضعه من الكتاب، ونظيره في كلِّ باب.

وقصدتُ مِن جُمْلة الأخبار وفُنون الآثار أشرفَها جَوْهراً، وأظهرَها رَوْنقاً، وألطفَها معنًى، وأجْزلَها لَفْظاً، وأحسنَها ديباجة، وأكثرَها طلاوَةً وحلاوة؛ آخذاً بقول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه﴾ (١).

وقال يحيى بن خالد: الناس يَكتُبون أحسنَ ما يَسْمعون، ويَحفْظون أحسنَ ما يكتبون: ويتحدَّثون بأَحْسنِ ما يَحفْظون.

وقال ابن سِيرين: العِلم أكْثَر من أن يُحاط به فخُذوا من كلِّ شيء أحسنَه.

وفيما بين ذلك سَقَط الرأي، وزَلَل القَوْل؛ ولكلِّ عالِمٍ هَفوَة [ولكلِّ جَوادٍ كَبْوَة]، ولكل صارِمٍ (٢) نَبْوَة.

وفي بعض الكتب: انفرد الله تعالى بالكمال، ولم يَبرَأ أحدٌ من النُّقْصان.

وقيل للعَتّابي: هل تَعْلم أحداً لا عَيْبَ فيه؟ قال: إنّ الذي لا عيبَ فيه لا يموت [أبداً]، ولا سَبيل إلى السّلامة من ألسنة العامّة.

وقال العَتّابي: من قَرَضَ شِعْراً أو وَضَع كِتاباً فقد ٱستَهدف للخُصوم وٱستشرف للألْسُن، إلا عند من نَظر فيه بعَيْن العَدْل، وحَكَم بغَيْر الهوى، وقَليلٌ ما هُم.

وحذفتُ الأسانيدَ من أكثر الأخبار طَلَباً للاستِخفاف والإيجاز، وهرباً من

---

(١) سورة الزمر الآية ١٨.

(٢) نبا السيف عن الضريبة نبوة: لم يصبها.

التثْقيل والتَّطْويل؛ لأنها أَخْبارٌ مُمْتِعة وحِكَمٌ ونَوادر، لا ينفعها الإسْناد باتّصالِه، ولا يَضُرّها ما حُذِف منها.

وقد كان بعضُهم يَحْذِف أسانيدَ الحديث من سنّةٍ مُتَّبَعة، وشَريعةٍ مَفْروضة؛ فكيف لا نحذِفه من نادِرَةٍ شاردة، ومَثَل سائر، وخبرٍ مُسْتَطرَفٍ، [وحديثٍ يَذهَب نورُه إذا طال وكَثُر].

سأل حَفْصُ بنُ غِيَاث الأَعْمشَ عن إسناد حديث. فأخذ بحَلْقه وأسْنَدَه إلى حائط وقال: هذا إسنادُه!

وحدّث ابنُ السَّمّاك بِحَديث، فقيل له: ما إسنادُه؟ فقال: هو من المُرْسَلات عُرْفاً[1].

[وروَى الأصمعِيّ خبراً، فَسُئِل عن إسناده. فقال: هو من الآيات المحْكَمات التي لا تحتاج إلى دليل وحُجَّة].

وحَدّث الحسنُ البَصْريُّ بحديث، فقيل له: يا أبا سَعيد، عَمّن؟ قال: وما تَصْنع بعَمّن يا بنَ أخي؟ أمّا أنت فنالتْك موعظتُه، وقامتْ عليك حُجّته.

وقد نظرتُ في بعض الكُتُب المَوْضوعة فوجدتها غَيرَ متصرّفة في فُنون الأخبار، ولا جامعةٍ لجمل الآثار؛ فجعلتُ هذا الكتابَ كافياً [شافياً] جامعاً لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامّة والخاصّة. وتَدُور على أَلْسِنة المُلوك والسُّوقة. وحَلَّيت كلَّ كِتاب منها بشواهدَ من الشِّعر، تُجانِس الاخْبار في مَعانيها، وتُوافِقُها في مَذَاهِبها؛ وقَرَنْتُ بها غرائبَ من شِعري، لِيَعْلَمَ الناظرُ فِي كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصِيته[2]، وبَلدِنا على انقطاعه، حظّاً من المنظوم والمَنْثور.

---

(١) المرسلات عرفا: قيل الرياح المرسلات، وعرفاً: يتبع بعضها بعضاً.

(٢) قاصيته: بعده.

وسمّيته كتابَ (العقد الفريد) لِمَا فيه من مُختلف جَواهر الكلام، مع دقّة السِّلْك وحُسْن النِّظام؛ وجَزّأته على خمسةٍ وعِشْرينَ كتاباً، كل كتاب منها جُزآن، فتلك خمسون جزءاً في خمسة وعشرين كتاباً [و] قد انفرد كلُّ كتاب منها بآسم جَوْهرة من جواهر العِقْد، فأوّلها:

كتاب اللؤلؤة في السلطان.
ثم كتاب الفَريدة في الحُروب [ومَدار أمرها].
ثم كتاب الزَّبَرْجدة في الأجواد والأصفاد.
ثم كتاب الجُمَانة في الوُفود.
ثم كتاب المَرْجانة في مُخاطبة الملوك.
ثم كتاب الياقوتة في العِلْم والأدب.
ثم كتاب الجوهرة في الأمثال.
ثم كتاب الزُّمُرُّدة في المواعظ والزُّهد.
ثم كتاب الدُّرّة في التعازي والمَراثي.
ثم كتاب اليَتيمة في النسب [وفَضائل العَرب].
ثم كتاب المَسْجَدة في كلام الأعراب.
ثم كتاب المُجَنِّبة في الأَجْوبة.
ثم كتاب الواسطة في الخُطَب.
ثم كتاب المُجَنِّبة الثانية في التَّوْقيعات والفُصول والصُّدور وأخبار الكتَبة.
ثم كتاب المَسْجدة الثانية في الخُلفاء وتَواريخهم وأيامهم.
ثم كتاب اليَتيمة الثانية في أخبار زياد والحجّاج [والطالبيِّين والبرامكة].
ثم كتاب الدرة الثانية في أيام العرب ووقائعهم.
ثم كتاب الزُّمرّدة الثانية في فضائل الشِّعر ومَقاطعه ومَخارجه.
ثم كتاب الجوهرة الثانية في أَعاريض الشِّعر وعِلَل القوافي.

ثم كتاب الياقوتة الثانية في[علم][1] الألحان واختلاف الناس فيه .

ثم كتاب المَرجانة الثانية في النّساء وصِفاتهنّ .

ثم كتاب الجُمَانة الثانية في المُتنبِّئين والمَمْرورين والبُخَلاء والطُّفيليّين .

ثم كتاب الزَّبرجدة الثانية في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان [وتفاضل البلدان] .

ثم كتاب الفَريدة الثانية في الطَّعام والشراب .

ثم كتاب اللؤلؤة الثانية في [النُّتف والهدايا و] الفُكاهات والمُلَح .

(١) هذه الكلمة التي بين مربعين ساقطة من الأصل؛ وقد أثبتناها أخذاً عن عنوان هذا الباب في موضعه من الكتاب .

كتاب اللؤلؤة في السلطان

فرش الكتاب:

السلطان زمام الأمور، ونظام الحقوق، وقِوام الحُدود والقطب الذي عليه مدار [الدين و] الدنيا . وهو حِمَى الله في بلاده وظِلّه الممدود على عباده، به يَمتنع حريمُهم، ويَنتصر مظلومهم، وينقمع ظالمهم[١]، ويأمن خائفهم.

للحكماء:

قالت الحكماء: إمام عادل، خير من مَطر وابل[٢]. وإمام غَشوم، خير من فِتنة تدوم. ولَمَا يَزَعُ الله بالسلطان أكثر مما يَزَع بالقرآن[٣].

وقال وهب بن مُنَبِّه: فيما أنزل الله على نبيه داودَ عليه السلام: إني أنا الله مالك الملوك، قُلوب الملوك بيدي. فمن كان لي على طاعة جَعلت الملوك عليهم رحمة، ومن كان لي على مَعصية جعلت الملوك عليهم نقمة.

فحق على من قلّده الله أزمَّة حُكمه، وملّكه أمورَ خَلْقه، واختصه بإحسانه، ومَكّن له في سلطانه، أن يكون من الاهتمام بمصالح رعيّته، والاعتناء بمرافق أهل طاعته، بحيث وضعه اللهُ من الكرامة، وأجْرَى عليه من أسباب السعادة.

قال الله عز وجل: ﴿الَّذينَ إنْ مَكّنّاهُمْ في الأَرْض أقامُوا الصَّلاة وآتوا الزّكاةَ وأَمَرُوا بالْمَعْرُوفِ ونَهَوْا عَن الْمُنْكر ولله عاقِبَةُ الأمور﴾[٤].

---

(١) ينقمع: يرتدع.
(٢) الوابل: المطر المنهمر.
(٣) يزع: يمنع المحارم.
(٤) سورة الحجّ الآية ٤١.

للنبي ﷺ :

وقال النبي ﷺ :« عدل ساعةٍ في حُكومة خيرٌ من عبادةِ ستين سنة » .وقال ﷺ . كلّكم راعٍ ، وكلّ راعٍ مسئولٌ عن رعيته .

وقال الشاعر:

فكُلُّكُـمُ رَاعٍ ونَحْـنُ رَعِيّـة وكلٌّ يُلاقِـي رَبَّـهُ فيُحـاسِبُـهْ

ومن شأن الرعيّة قلة الرضى عن الأئمة ، وتَحَجُّرُ العُذْر عليهم[1] ، وإلزامُ اللائمة لهم ورب مَلومٍ لا ذنب له . ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة إذ كان رضى جملتها ، وموافقةُ جماعتها من المُعجز الذي لا يُدْرَك والمُمتنعِ الذي لا يُملك .

ولكلِّ حِصتُه من العدل، ومنزلتُه من الحكم. فمن حقّ الإمام على رعيته أن يقضَي عليهم بالأغلب من فعله والأعمِّ من حكمه ، ومن حق الرعيّة على إمامها حُسنُ القبول لظاهر طاعتها وإضرابُه صفحاً عن مكاشفتها ، كما قال زياد لما قَدِم العراق والياً عليها : أيها الناس، قد كانت بين وبينكم إحَن[2] ، فجعلت ذلك دَبْرَ[3] أذني وتحت قدمي، فمن كان مُحسناً فليزددْ في إحسانه، ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته . إني لو علمتُ أنّ أحدكم قد قتله السِّل من بغضي لم أكشف له قناعاً ولم أهتِك له سِتراً حتى يُبدي صفحتَه لي[4] .

لابن عمر:

وقال عبد الله بن عمر: إذا كان الإمام عادلاً فله الأجر وعليك الشكر، وإذا كان الإمام جائراً فله الوزْرُ وعليك الصبر .

لكعب الأحبار:

وقال كعب الأحبار: مَثل الإسلام والسلطان والناس: مَثل الفُسطاط والعمود

---

(١) التحجُّر: التضييق.

(٢) الإحن: الحزازات والعداوات.

(٣) دبر: خلف.

(٤) صفحته: طويته.

والأوتاد. فالفسطاط الإسلام، والعمود السلطان، والأوتاد الناس. ولا يصلح بعضها إلا ببعض.

وقال الأفوه الأوديّ:

لا يَصْلُح الناسُ فوْضَى لاسَرَاة لهم ... ولا سَرَاة إذا جُهَّالُهم سادُوا[1]
والبَيْتُ لا يُبْتَنَى إلا لـه عَمَدٌ ... ولا عِمادَ إذا لم تُرْسَ أَوْتَادُ
وإنْ تَجَمَّعَ أوتادٌ وأعْمِدَةٌ ... يوماً فقدْ بَلَغُوا الأمْرَ الذي كادُوا

نصيحة السلطان ولزوم طاعته

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يأيُّها الذينَ آمَنُوا أطِيعُوا الله وأطِيعُوا الرّسُول وأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[2].

وقال أبو هُريرة: لما نَزلت هذه الآية أُمرنا بطاعة الأئمة. وطاعتُهم من طاعة الله، وعصيانُهم من عصيان الله.

للنبي ﷺ:

وقال النبي ﷺ: «مَن فارق الجماعة أو خَلع يداً من طاعة مات مِيتةً جاهليّة».

وقال ﷺ: «الدينُ النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة. قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأُولي الأمر منكم».

فنُصْح الإمام ولزومُ طاعته فرضٌ واجب وأمرٌ لازم، ولا يتم إيمانٌ إلاّ به، ولا يثبت إسلام إلا عليه.

مما وصى به العباس ابنه حين قدمه عمر:

الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال لي أبي: أرى هذا الرجل ـ يعني عمر بن الخطاب ـ يَستفهمك ويقدّمك على الأكابر من أصحاب محمد ﷺ. وإني

---

(١) السراة: السادة والقادة. (٢) سورة النساء الآية ٥٩.

مُوصيك بخلال أربع: لا تُفْشِيَنَّ له سرّاً، ولا يُجَرِّبَنَّ عليك كذباً، ولا تَطْوِ عنه نصيحة، ولا تغْتابَنَّ عنده أحدا.

قال الشعبي: فقلت لآبن عباس: كل واحدة خير من ألف. قال: إي والله، ومن عشرة آلاف.

لرجل من الهند ينصح ملكاً:

وفي كتاب للهند[١]: أنّ رجلاً دخل على بعض ملوكهم فقال: أيها الملك، إنّ نصيحتك واجبة في الصغير الحقير والكبير الخطير، ولولا الثقةُ بفضيلة رأيك، واحتمالِك ما يَشُق[٢] موقعُه [من الأسماع والقلوب][٣] في جَنْب صلاح العامة وتلافي الخاصة، لكان خُرْقاً مني[٤] أن أقول؛ ولكنا إذا رجعنا إلى أنّ بقاءنا موصول ببقائك، وأنفُسَنا متعلقة بنفسك، لم نجد بدّاً من أداء الحق إليك وإن أنت لم تسلني ذلك، فإنه يقال: مَن كَتم السلطانَ نصيحتَه، والأطباء مرضَه، والإخوانَ بَثّه[٥]، فقد أخلّ بنفسه؛ وأنا أعلم أنّ كل كلام يكرهه سامعُه لا يتشجّع عليه قائلُه، إلا أن يثق بعقل المَقُول؛ فإنه إذا كان عاقلاً آحتمل ذلك؛ لأنه ما كان فيه من نَفْع فهو للسامع دون القائل. وإنّك أيها الملك ذو فضيلة في الرأي وتصرُّفٍ في العلم، ويُشجعني ذلك على أن أخبرك بما تكره، واثقاً بمعرفتك نصيحتي لك وإيثاري إيّاك على نفسي.

ابن عتبة ينصح الوليد:

وقال عمرو بن عُتبة للوليد حين تغيّر الناسُ عليه: يا أمير المؤمنين، إنه يُنطقني الأُنسُ بك، وتُسكتني الهيبة لك، وأراك تأمن أشياءَ أخافها عليك، أفأسكتُ مُطيعاً أم أقولُ مشفقاً؟ قال: كلٌّ مقبول منك، ولله فينا عِلمُ غيب نحن صائرون إليه. فقُتل بعد ذلك بأيام.

---

(١) يقصد كليلة ودمنة، لابن المقفع، وكذلك شأنه في أكثر ما يقول: «كتاب الهند».

(٢) يشق: يضني ويتعب.

(٣) التكملة من عيون الأخبار لابن قتيبة.

(٤) الخرق: الجهل والطيش.

(٥) البث: نشر الحديث والافصاح عنه.

لابن صفوان في خالصة السلطان:

وقال خالد بن صَفوان: مَن صحب السلطانَ بالصحّة والنصيحة أكثرُ عَدُوّاً ممن صحبه بالغش والخيانة؛ لأنه يَجتمع على الناصح عدوُّ السلطان وصديقُه بالعداوة والحسد، فصديقُ السلطان يُنافسه في مَرتبته، وعدوُّه يُبغضه لنصيحته.

ما يصحب به السلطان

لابن المقفع في خادم السلطان:

قال ابن المقفع: ينبغي لمن خَدم السلطان ألا يغتر به إذا رضي ولا يتغيّر له إذا سَخط، ولا يَستثقل ما حمّله، ولا يُلحف في مسألته. وقال أيضاً: لا تكن صُحبتُك للسلطان إلا بعد رياضة[1] منك لنفسك على طاعتهم. فإن كنتَ حافظاً إذا ولّوك، حَذِراً إذا قرّبوك، أميناً إذا آئتمنوك ذليلاً إذا صَرَموك[2]، راضياً إذا أسخطوك، تعلِّمهم وكأنك متعلّم منهم، وتؤدّبهم وكأنك متأدب بهم، وتشكرهم ولا تكلفهم الشكر. وإلا فالبعدَ منهم كلَّ البعد، والحذرَ منهم كل الحذر.

وقال المأمون: الملوك تتحمّل كل شيء إلا ثلاثة أشياء: القَدحَ في الملك، وإفشاءَ السر، والتعرُّضَ للحَرَم.

وقال ابن المقفع: إذا نزلت من السلطان بمنزلة الثقة فلا تلزم الدعاء له في كل كلمة؛ فإنّ ذلك يُوجب الوحشةَ ويُلزم الانقباض[3].

وقال الأصمعي: توصلتُ بالمُلَح وأدركتُ بالغريب[4].

وقال أبو حازم الأعرج لسليمان بن عبد الملك: إنما السلطان سوق، فما نفق عنده حُمِل إليه.

---

(١) رياضة النفس: تدريبها.
(٢) الصرم: الهجر والقطيعة.
(٣) الانقباض: التجهُّم والتبرُّم.
(٤) الملح: نوادر الظرف والأدب.

وصاة أبي سفيان وزوجه لابنهما معاوية حين عمل لعمر:

ولما قَدِم معاوية من الشام، وكان عمر قد استعمله عليها، دخل على أمه هِند؛ فقالت له: يا بُنيّ، إنه قلما ولدت حُرة مثلك، وقد استعملك هذا الرجل، فآعمل بما وافقه أحببتَ ذلك أم كرهتَه. ثم دخل على أبيه أبي سفيان؛ فقال له: يا بنيّ، إنّ هؤلاء الرهط[1] من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم، فرفَعَهم سَبَقُهُم وقصّر بنا تأخُّرنا، فصِرنا أتباعاً وصاروا قادة؛ وقد قلّدوك جسيماً من أمرهم؛ فلا تخالفن أمرهم، فإنك تجري إلى أمدٍ لم تبلغه، ولو قد بلغتَه لتنفَّسْت[2] فيه.

قال معاوية: فعجبت من آتفاقهما في المعنى على آختلافهما في اللفظ.

لابرويز ينصح صاحب بيت ماله:

وقال أبْرَويز لصاحب بيت المال: إني لا أعذرك في خيانة درهم، ولا أحمدك على صيانة ألف ألف؛ لأنك إنما تَحقن بذلك دمك وتُقيم أمانتك، فإنك إن خُنت قليلاً خنت كثيراً. واحترس من خصلتين: النُّقصان فيما تأخذ، والزيادةِ فيما تعطي؛ وآعلم أني لم أجعلك على ذخائر الملك وعمارة المملكة والعُدَّة على العدوّ، إلا وأنت عندي آمَنُ من موضعه الذي هو فيه، وخواتمه التي هي عليه، فحقِّق ظني باختياري إياك أحقق ظنَّك في رجائك إياي؛ ولا تتعوَّض بخير شرّاً، ولا برفعة ضعة، ولا بسلامة ندامة، [ولا بأمانة خيانة][3].

ليزيد بن معاوية ينصح سلما حين ولاه خراسان:

ولما ولّى يزيد بن معاوية سَلَمَ بن زياد خُراسانَ قال له: إنّ أباك كفى أخاه عظيما، وقد استكفيتُك صغيراً؛ فلا تتكلنّ على عُذر مني فقد اتكلتُ على كفاية منك. وإياك مني قبل أن أقول إياي منك؛ فإن الظن إذا أَخلف مني فيك أخلف منك فيّ؛ وأنت في أدنَى حظك فاطلُب أقصاه، وقد أتعبك أبوك فلا تريحنَ نفسك.

---

(١) الرهط: الجماعة. (٢) تنفست فيه: أي استرحت عنده.

(٣) التكملة من عيون الأخبار.

لعمر بن الخطاب ومعاوية حين قدم عليه الشام:

قال يزيد: حدّثني أبي أنّ عمر بن الخطاب لما قَدِم الشام قدم على حِمار ومعه عبدُ الرحمن بن عوف على حمار، فتلقَّاهما معاوية في موكب ثقيل، فجاوزَ عمرَ معاوية حتى أُخبر به، فرجع إليه. فلما قرُب منه نزل إليه، فأعرض عنه، فجعل يمشي إلى جنبه راجلاً. فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبتَ الرجل. فأقبل عليه عمر فقال: يا معاوية، أنت صاحبُ الموكب آنفاً مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ولم ذاك؟ قال: لأنا في بلدٍ لا نَمتنع فيها من جواسيس العدوّ ولا بُدّ لهم مما يُرهبهم من هيبة السلطان؛ فإن أمرتني بذلك أقمت عليه، وإن نهيتني عنه انتهيت. فقال: لئن كان الذي تقول حقاً فإنه رأيُ أريب[١]؛ وإن كان باطلاً خُدعة أديب، وما آمرك به ولا أنهاك عنه. فقال عبد الرحمن بن عوف: لحَسَنٌ ما صَدَر هذا الفتى عما أوردته فيه! فقال: لِحُسن موارده جَشَّمناه ما جشّمناه[٢].

الربيع الحارثي في حضرة ابن الخطاب:

وقال الربيع بن زياد الحارثيّ: كنت عاملاً لأبي موسى الأشعري على البَحْرين. فكتب إليه عمر بن الخطاب يأمره بالقُدوم عليه هو وعُمّاله وأن يستخلفوا مَن هو مِن ثقاتهم حتى يرجعوا. فلما قدِمْنا أتيتُ يرفأ[٣]، فقلت: يا يرفأ، ابنُ سبيلٍ مُسترشد، أخبرني أيّ الهيئات أحبُّ إلى أمير المؤمنين أن يَرى فيها عُمّاله؟ فأومأ إلى الخشونة. فأخذت خُفَّين مطارَقين[٤]، ولبست جُبة صوف، ولُثت رأسي. بعمامة دَكْناء. ثم دخلنا على عمر، فصفّنا بين يديه وصعّد فينا نظره وصَوَّب[٥]، فلم تأخذ عينُه أحداً غيري، فدعاني؛ فقال: من أنت؟ قلت: الربيع بن زياد الحارثي. قال: وما تتولى من أعمالنا؟ قلت: البحرين. قال: فكم تُرزق؟ قلت: خمسة دراهم في كل

---

(١) رأي أريب: رأي فيه الصواب والعقل.
(٢) جشمناه: حمّلناه.
(٣) يرفأ: غلام عمر بن الخطاب.
(٤) مطارقين: أي أطبقت نعل على نعل ثم خرزتا.
(٥) صوّب: أمعن النظر ووجّهه.

يوم. قال: كثير! فما تصنع بها؟ قلت: أتقوّت منها شيئاً وأعود بباقيها على أقارب لي، فما فَضَل منها فَعلى فقراء المسلمين. فقال: لا بأس، آرجع إلى موضعك؛ فرجعت إلى موضعي من الصف. ثم صعّد فينا وصوّب، فلم تقع عينه إلا عليّ، فدعاني؛ فقال: كم سِنُوك؟ فقلت: ثلاث وأربعون سنة قال: الآن حين استحكَمْت. ثم دعا بالطعام، وأصحابي حديثُو عهد بلين العيش وقد تجوّعت له، فأُتيَ بخبز يابس وأكسار بعير[1]، فجعل أصحابي يعافون ذلك، وجعلت آكل فأُجيد الأكل. فنظرتُ فإذا به يلحظني من بينهم، ثم سبقتْ مني كلمة تمنيت أني سُخْت في الأرض ولم ألفِظ بها، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الناس يحتاجون إلى صلاحك، فلو عمدتَ إلى طعام هو أَلْيَنُ من هذا. فزجرني وقال: كيف قلتَ؟ قلت: أقول: لو نظرتَ يا أمير المؤمنين إلى قُوتِك من الطحين فيُخبز لك قبل إرادتك إياه بيوم، ويُطبخ لك اللحم كذلك، فتُؤْتى بالخبز ليّناً وباللحم غريضاً. فسكَّن من غَربه وقال: هذا قصدتَ؟ قلت: نعم. قال: يا ربيع، إنا لو نشاء لملأنا هذه الرِّحاب من صلائق وسبائك وصِناب، ولكني رأيت الله تعالى نَعى على قوم شهواتِهم فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ في حَياتِكُمُ الدُّنْيا وآسْتَمْتَعْتم بها﴾[2] ثم أمر أبا موسى أن يُقِرّني وأن يَستبدل بأصحابي!

ابن عبد ربه يفسر غريب الخبر:

قوله «لثتها على رأسي». يقال: رجل ألوث، إذا كان شديداً، وذلك من اللَّوث؛ ورجل ألوث، إذا كان أهوج، مأخوذ من اللَّوثة. يقال: (لثت عمامة على رأسي) يقول: أدرتها بعضها على بعض على غير استواء.

وقوله «صلائق» هي شيء يعمل من اللحم، فمنها ما يطبخ ومنها ما يشوى، يقال: صلقت اللحم، إذا طبخته، وصلقته إذا شويته.

وقوله «غريضاً» يقول طرياً. يقال: لحم غريض، تراد به الطراوة قال العتابي:

---

(١) في أكثر الأصول: وأكسارِ بغير آدام.

(٢) سورة الأحقاف الآية ٢٠.

إذا مـا فـاتني لحم غـريـض ضربت ذراع بكـري فـاشتـويـتُ

و« سبائك » يريد الحُوَّارى من الخبز، وذلك أنه يُسبك فيؤخذ خالصه، والعرب تسمي الرقاق: السبائك.

و« الصناب » طعام يؤخذ من الزبيب والخردل، ومنه قيل للفرس: صِنابي إذا كان في لونه حمرة. قال جرير:

تُكَلِّفُني مَعـايشَ آل زَيْـدٍ ومَـنْ لِـي بـالمُرَقَّـق والصِّنـاب

وقوله: « أكسار بعير » فالكِسْر والقصَل والجزْل: العظم يفصل ما عليه من اللحم. وقوله « نعى على قوم شهواتهم » أي عابهم بها ووبّخهم.

زياد أول من استن ترك السلام على قادم عند السلطان:

ومما يُصحب به السلطان: ألا يُسَلَّم على قادم بين يديه، وإنما استَنَّ ذلك زياد بن أبيه؛ وذلك أن عبد الله بن عباس قَدِم على معاوية وعنده زياد؛ فرحّب به معاوية وألطفه وقرَّب مجلسَه ولم يكلِّمه زياد شيئاً فابتدأه ابن عباس وقال: ما حالك أبا المغيرة! كأنك أردتَ أن تُحدث بيننا وبينك هجرا. قال: لا، ولكنه لا يُسَلَّم على قادم بين يدي أمير المؤمنين. فقال له ابن عباس: ما تَرك الناسُ التحية بينهم بين يدي أمرائهم. فقال له معاوية: كُفَّ عنه يا بن عباس، فإنك لا تشاء أن تغْلِب إلا غَلَبْت.

ترك أبي مسلم السلام على المنصور بحضرة السفاح:

دخل أبو مسلم على أبي العباس وعنده المنصور. فسلم على أبي العباس. فقال له: يا أبا مسلم؛ هذا أبو جعفر! فقال له: يا أمير المؤمنين. هذا موضع لا يُقضَى فيه إلا حقك!

معاوية وابن العاص بين يدي عمر حين مقدمهما من الشام ومصر:

أبو حاتم عن العتبي قال: قَدِم معاوية من الشام، وعمروُ بن العاص من مصر على عمر بن الخطاب، فأقعدهما بين يديه وجعل يسائلهما عن أعمالهما، إلى أن آعترض عمروٌ في حديث معاوية، فقال له معاوية: أَعَمَلي تَعيب وإليّ تقصد؟ هلم تخبر أمير المؤمنين عن عملي وأخبره عن عملك! قال عمرو: فعلمتُ أنه بعملي أبصر مني بعمله، وأنّ عمر لا يدع أولَ هذا الحديث حتى يصير إلى آخره؛ فأردت أن أفعل شيئاً أشغل به عمر عن ذلك، فرفعتُ يدي فلطمتُ معاوية. فقال عمر: تالله ما رأيت رجلاً أسفهَ منك! قُم يا معاوية فاقتص منه. قال معاوية: إن أبي أمرني ألاّ أقضي أمراً دونه. فأرسل عمر إلى أبي سفيان. فلما أتاه ألقى له وسادة وقال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه». ثم قصّ عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية. فقال: لهذا بعثت إليّ؟ أخوه وابن عمه؛ وقد أتى غيرَ كبير، وقد وهبتُ ذلك له.

لبعضهم في تلمس الحيلة لنصيحة السلطان:

وقالوا: ينبغي لمن صحب السلطان أن لا يكتم عنه نصيحةً وإن آستثقلها، وليكن كلامه له كلامَ رفق لا كلام خُرق، حتى يُخبره بعيبه من غير أن يُواجهه بذلك ولكن يضرب له الأمثال، ويُخبره بعيب غيره ليعرف عيبَ نفسه.

وقالوا: من تعرّض للسلطان آزدراه، ومن تطامن له تخطّاه[1]. فشبهوا السلطانَ في ذلك بالريح الشديد التي لا تَضُر بما لانَ وتمايلَ معها من الحشيش والشجر، وما آستهدف لها قصمتهْ[2]. قال الشاعر:

إن الرّياح إذا ما أَعْصَفَتْ قَصَفَتْ عِيدانَ نَبْعٍ ولا يَعْبَأْنَ بالـرَّتَـمِ[3]

لشبيب في مسايرة السلطان:

وقال شبيب بن شيبة: ينبغي لمنساير خليفة أن يكون بالموضع الذي إذا أراد

---

(١) تطامن له: تطاول واستشرف. (٢) قصمته: قطعته.

(٣) النبع: من شجر الجبال تتخذ منه القسيّ، وربما افتدح به، والرتم: نبات من أدق الشجر كأنّه من دقته يشبّه بالرتم، وهي الخيوط.

الخليفة أن يسأله عن شيء لم يحتج إلى أن يلتفت، ويكون من ناحية إذا التفت لم تستقبله الشمس.

وزير للهند بين الملك والملكة:

وقرأت في كتاب للهند أنه أُهدي لملك ثياب وحَلى، فدعا بامرأتين له، وخيَّر أحظاهما عنده بين اللباس والحلى. وكان وزيره حاضراً فنظرت المرأة كالمشيرة له، فغمزها باللباس تغضينا[1] بعينه، فلحظه الملك. فاختارت الحِلْية لئلا يفطن للغمزة وصار اللباس للأخرى. فأقام الوزير أربعين سنة كاسراً عينه لئلا تَقَرَّ في نفس الملك، وليظن أنها عادة وخِلْقة.

اختيار السلطان لأهل عمله

لابن هبيرة يوصي مسلم بن سعيد حين وجهه إلى خراسان:

لما وجّه عُمر بن هُبيرة مُسلم بن سعيد إلى خُراسان قال له: أوصيك بثلاثة: حاجبك، فإنه وجهك الذي به تلْقى الناس: إن أحسن فأنت المحسن، وإن أساء فأنت المسيء؛ وصاحب شرطتك، فإنه سوطُك وسيفك: حيث وضعتَها فأنت وضعتَها؛ وعُمّال القَدْر[2] قال: وما عمال القدر؟ قال: أن تختار من كل مورة[3] رجالاً لعملك، فإن أصابوا فهو الذي أردت، وإن أخطئوا فهم المخطئون وأنت المصيب.

اختيار ابن أرطاة بين إياس والقاسم:

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة: أن آجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجَوْشنيّ فوَلِّ القضاء أنفذهما؛ فجمع بينهما، فقال له إياس: أيها الرجل، سَلْ عني وعن القاسم فقيهيَ البصرة: الحسنَ وابن سيرين ـ وكان القاسم يأتي

(١) تغضيناً: إطباقاً وكسراً. (٢) عمال القدر: ذوو الشرف والحسب.

(٣) الكورة: المدينة والبقعة.

الحسنَ وابنَ سيرين وكان إياس لا يأتيهما ـ فعلم القاسم أنه إن سألهما أشارا به. فقال القاسم: لا تسأل عني ولا عنه؛ فوالله الذي لا إله إلا هو إنّ إياس بن معاوية أفقهُ مني وأعلم بالقضاء؛ فإن كنت كاذباً فما ينبغي أن توليني، وإن كنتُ صادقاً فينبغي لك أن تقبل قولي. فقال له إياس: إنك جئتَ برجل فوقفته على شفير[1] جهنم فنجَّى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف. فقال له عدي: أما إذ فهمتَها فأنت لها. فآستقضاه.

بين عدي وإياس في القراء:

وقال عدي بن أرطاة لإياس بن معاوية: دُلَّني على قوم من القُرّاء أوَلِّهم. فقال له: القرّاء ضربان: فضرب يعملون للآخرة ولا يعملون لك. وضرب يعملون للدنيا. فما ظنك بهم إذا أمكنْتَهم منها؟ ولكن عليك بأهل البيوتات الذين يَسْتَحْيُون لأحسابهم فوَلِّهم.

أبو قلابة والقضاء:

أيوب السَّخْتِياني، قال: طُلب أبو قِلاَبة لقضاء البصرة، فهرب إلى الشام فأقام حيناً ثم رجع. قال أيوب: فقلت له: لو أنك وَليتَ القضاء وعدلت كان لك أجران. قال: يا أيوب، إذا وقع السابح في البحر فكم عسى أن يسبح.

تولية عبد الملك الشعبي على قضاء البصرة:

وقال عبد الملك بن مروان لجلسائه: دلّوني على رجل أستعمله. فقال له رَوْح ابن زِنْباع: أدلك يا أمير المؤمنين على رجل إن دعوتموه أجابكم، وإن تركتموه لم يأتكم، ليس بالمُلحف طلباً، ولا بالمُمعِن هرباً: عامر الشَّعبي؛ فولاه قضاء البصرة.

عمر بن عبد العزيز يسأل أبا مجلز عمّن يوليه خراسان:

وسأل عمر بن عبد العزيز أبا مِجْلز[2] عن رجل يولِّيه خراسان. فقال له: ما

---

(١) الشفير: الحافة.

(٢) في الأصول «أبا مخلد» والتصويب من الطبري.

تقول في فلان؟ قال: مَصنوع له وليس بصاحبها. قال: ففلان؟ قال: سريع الغضب بعيد الرضا، يسأل الكثير ويمنع القليل، يحدس أخاه وينافس أباه ويحقر مولاه. قال: ففلان؟ قال: يكافىء الأكفاء ويعادي الأعداء ويفعل ما يشاء. قال: ما في واحد من هؤلاء خير.

عمر ورجل طلب عملاً:

وأراد عمر بن الخطاب أن يستعمل رجلاً، فبدر الرجل يطلب منه العمل فقال عمر: والله لقد أردتك لذلك، ولكن مَن طلبَ هذا الأمر لم يُعَنْ عليه.

وطلب رجلٌ من النبي ﷺ أن يستعمله. فقال: «إنا لا نستعمل على عملنا من يريده».

وطلب العباس عم النبي ﷺ إلى النبي ولاية. فقال: «ياعم، نفسٌ تحييها خير من ولاية لا تحصيها».

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لخالد بن الوليد: فِرّ من الشرف يَتبعك الشرف؛ واحرص على الموت تُوهبْ لك الحياة.

وتقول النصارى: لا يُختار للجَثْلقة[1] إلا زاهداً فيها غيرَ طالب لها.

توليه ابن هبيرة لإياس:

وقال إياس بن معاوية: أرسل إليّ ابنُ هبيرة فأتيتُه، فساكتَني فسكتّ، فلما أطلت قال: هيه. قلت: سل عما بدا لك. قال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم. قال: أتفرض الفرائض؟ قلت: نعم. قال: أتعرف من أيام العرب شيئاً؟ قلت: نعم. قال: أتعرف من أيام العجم شيئاً؟ قلت: أنا بها أعرَف. قال: إني أريد أن أستعين بك على عملي. قلت: إن فِيّ خلالاً[2] ثلاثاً لا أصلح معها للعمل. قال: ما هي؟ قلت: أنا دَميم كما ترى، وأنا حديد، وأنا عَيّ[3]. قال: أما دَمامتك فإني لا أُريد أن أُحاسن الناس

(١) الجثلقة: رياسة النصارى. (٢) الخلال: الصفات والمزايا.

(٣) الحديد: من الحدّة في الطبع، والعي: عدم القدرة على الافصاح والتعبير.

بك. وأما العيّ فإني أراك تُعرب عن نفسك، وأما الحدّة فإن السوط يقوّمك. [قُم قد ولّيتُك] قال: فولاّني وأعطاني مائة درهم، فهي أوّل مال تموّلتُه.

وقال الأصمعي: ولِيَ سليمان بن حَبيب المحاربي قضاءَ دمشق لعبد الملك والوليد وسليمانَ وعمرَ بن عبد العزيز ويزيدَ وهشام.

وأراد عمرُ بن عبد العزيز مكحولاً على القضاء فأبى عليه. قال له: وما يمنعك قال مكحول: قال رسول الله ﷺ: « لا يَقْضِي بين الناس إلا ذو شرف في قومه، وأنا مولى ».

توليه ابن الخطاب للمغيرة مكان ابن أبي وقاص على الكوفة:

ولما قَدِم رجالُ الكوفة على عمرَ بن الخطاب يشكون سعدَ بن أبي وقّاص، قال: مَن يَعذِرني من أهل الكوفة، إن وليتُ عليهم التقيّ ضعَّفوه، وإن وليت عليهم القويّ فَجَّروه[1]؟ فقال له المغيرة: يا أمير المؤمنين، إن التقيّ الضعيف له تقواه وعليك ضعفُه، والقويّ الفاجر لك قوّتُه وعليه فجورُه. قال: صدقت، فأنت القويُّ الفاجر فاْخرج إليهم. فلم يزل عليهم أيامَ عمرَ وصدراً من أيام عثمان وأيام معاوية، حتى مات المغيرة[2].

حسن السياسة وإقامة المملكة

للحجاج يصف سيرته للوليد:

كتب الوليدَ ن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف يأمره أن يكتب إليه بسيرته، فكتب إليه: إني أيقظتُ رأيي وأنمتُ هواي، فأدنيت السيّدَ المُطاع في قومه، ووليت المجرِّب[3] الحازمَ في أمره، وقلّدت الخراجَ الموفِّر لأمانته، وقَسمت لكل خَصم من

(١) فجّروه: اتهموه بالفجر.
(٢) الخبر في شرح نهج البلاغة، ومحاضرات الادباء.
(٣) المجرّب: أي صاحب التجربة والخبره، وفي عيون الأخبار « الحَرْبَ »، وهو الشديد القوي.

نفسي قسماً أعطيه حظّاً من لطيف عنايتي ونظري؛ وصرفتُ السيفَ إلى النَّطِف[1] المسيء، والثوابَ إلى المحسن البريء؛ فخاف المريبُ صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب.

لأردشير يوصي ابنه:

وقال أردشير لابنه: يا بني، إنّ المُلْك والعَدل أَخَوان لا غِنى بأحدهما عن صاحبه فالمُلْك أُسٌّ والعدل حارس، وما لم يكن أُسٌّ فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع. يا بُنيّ اجعل حديثَك مع أهل المراتب، وعطيتَك لأهل الجهاد، وبشْرَك لأهل الدين، وسرَّك لمن عَنَاه ما عناك من ذوي العقول[2].

للحكماء في واجب السلطان:

وقالت الحكماء: مما يجب على السلطان العدلُ في ظاهر أفعاله لإقامة أمر سلطانه، وفي باطن ضميره لإقامة أمر دينه؛ فإذا فسدت السياسة ذهب السلطان. ومدار السياسة كلها على العدل والإنصاف، لا يقوم سلطان لأهل الكفر والإيمان إلا بهما ولا يدور إلا عليهما، مع ترتيب الأمور مراتبها وإنزالها منازلها. وينبغي لمن كان سلطاناً أن يُقيم على نفسه حُجة الرعية. ومن كان رعية أن يقيم على نفسه حجة السلطان. وليكن حكمه على غيره بمثل حكمه على نفسه؛ فإنما يعرف حقوقَ الأشياء من عَرف مبلغ حدودها ومواقعَ أقدارها. ولا يكون أحد سلطاناً حتى يكون قبلَ ذلك رعيّة.

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: كلكم يترشح لهذا الأمر، ولا يصلُح له منكم إلا من كان له سيف مَسلول، ومال مبذول، وعدل تطمئن إليه القلوب.

لبعض الملوك يصف سياسه:

ووصف بعض الملوك سياسته فقال: لم أهزل في وعد ولا وعيد، ولا أمرٍ ولا نهي

---

(١) النّطف: المتهم المريب.

(٢) انظر عيون الأخبار (١ ـ ١٣٠) ومحاضرات الأدباء (١ ـ ١٠٤) فبين الخبر هنا وهناك اختلاف في بعض الألفاظ.

ولا عاقبت للغضب. واستكفيت[١]، وأثْبَتُّ[٢] على الغَناء لا للهوى. وأودعت القلوب هيبة لم يَشبْها مقت[٣]، وودّاً لم تَشُبْه جرأة. وعَمَمت بالقُوت، ومنعتُ الفضول.

لأعرابي في وصف أمير:

وذكر أعرابي أميراً فقال: كان إذا وَلِي لم يُطابق بين جفونه، وأرسل العيون على عيونه[٤]؛ فهو غائب عنهم شاهد معهم؛ فالمحسن راج والمسيء خائف.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يصلُح لهذا الأمر إلا اللينُ في غير ضعف، القويُّ في غير عُنف.

بين الوليد بن عبد الملك وأبيه في السياسة:

وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه: يا أبت، ما السياسة؟ قال: هيبة الخاصة مع صدق مودَّتها واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها، واحتمال هفوات الصنائع[٥].

لأرسطوطاليس يوصي الإسكندر:

وكتب أرسطو طاليس إلى الإسكندر: أملك الرعية بالإحسان إليها تظفْر بالمحبة منها، فإنّ طَلَبَك ذلك منها بإحسانك أدومُ بقاءً منه باعتسافك[٦]. واعلم أنك إنما تملك الأبدانَ فاّجمع لها القلوب بالمحبة؛ واعلم أن الرعية إذا قَدَرت أن تقول قدَرتْ أن تفعل؛ فاّجهد ألاّ تقولَ تسلم من أن تفعل.

وقال أردشير لأصحابه: إني إنما أملك الأجساد لا النيّات، وأحكم بالعدل لا بالرضى، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر.

---

(١) استكفيت: ولّيت الأكفاء. (٢) أثبت: أجزت وكافأت.

(٣) المقت: البغض. (٤) العيون: الجواسيس.

(٥) الصنائع: أي الرجال الذين اتخذهم السلطان لنفسه وكلّفهم ببعض المهام.

(٦) الاعتساف: الجور والظلم.

وكان عمرو بن العاص يقول في معاوية: اتقوا أدَمَ[1] قريش وابنَ كريمها، من يضحك في الغَضب، ولا ينام إلا على الرضى، ويتناول ما فوقه من تحته[2] .

لمعاوية في سياسته:

وقال معاوية: إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سَوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني؛ ولو أنّ بيني وبين الناس شعرةً ما انقطعت. فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا مدوها أرخيتُها، وإذا أرخوها مددتها.

لعمرو بن العاص في معاوية وسياسته:

وقال عمرو بن العاص: رأيتُ معاوية في بعض أيامنا بصفّين خرج في عدّة لم أره خرج في مثلها، فوقف في قَلْب عسكره فجعل يَلْحظ مَيمنتَه فيرى الخَلل، فيبدُر إليه من يَسُدّه. ثم يفعل ذلك بميسرته، فتُغنيه اللحظة عن الإشارة. فدخله زَهْوٌ مما رأى، فقال: يا بن العاص، كيف ترى هؤلاء وما هم عليه؟ فقلت: والله يا أمير المؤمنين لقد رأيتُ من يسوس الناسَ بالدين والدنيا فما رأيت أحداً أُوتي له من طاعة رعيّته ما أُوتي لك من هؤلاء. فقال: أفتدري متى يَفسُد هذا وفي كم ينتقض جميعه؟ قلت: لا. قال: في يوم واحد. قال: فأكثرتُ التعجب. قال: إي والله وفي بعض يوم. قلت: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا كُذِبوا في الوعد والوعيد، وأُعطو على الهوى لا على الغناء: فسدَ جميعُ ما ترى.

لابن عباس يوصي الحسن:

وكتب عبد الله بن عباس إلى الحسن بن علي إذ ولاه الناس أمْرهم بعد علي رضي الله عنه: أنْ شمّرْ للحرب[3]، وجاهد عدوّك، وآشتر من الظّنين[4] دينه بما لا يثْلِم[5]

(١) الأدم: الأسوة والسيد.
(٢) يصف حسن تأتيه للأمر وقدرته على الصعاب ويّسيرها وتذليلها.
(٣) شمّر: استعد.
(٤) الظّنين: المتّهم في دينه.
(٥) يثلم: ينقص ويعيب.

دينك، ووَلِّ أهل البيوتات تستصلحْ به عشائرهم.

للحكماء في السياسة:

وقالت الحكماء: أسْوَسُ الناس لرعيته من قاد أبدانها بُقلوبها، وقلوبَها بخواطرها. وخواطرها بأسبابها من الرغبة والرهبة.

لأبرويز يوصي ابنه شيرويه:

وقال أبرويز لابنه شِيرَوَيْهِ: لا توسّعن على جُندك سعة يستغنون بها عنك ولا تضيِّقنّ عليهم ضِيقاً يضجون به منك؛ ولكن أعطهم عطاءً قَصْداً، وآمنعهم منعاً جميلاً، وابسُط لهم في الرجاء، ولا تبسط لهم في العطاء.

بين المنصور وقواده:

ونحو هذا قولُ المنصور لبعض قُوّاده. صدَق الذي قال: أَجِعْ كلبَك يَتْبعْك، وسَمِّنْه يأكلك. فقال له أبو العباس الطُّوسيّ: يا أمير المؤمنين، أما تخشى إن أجعته أن يُلَوّح له غيرُك برغيف فيتبعَه ويدعَك.

لأبرويز ينصح ابنه شيرويه:

وكتب أبرويز إلى ابنه شِيرويه من الحبس: آعلم أنّ كلمةً منك تَسفك دماء وأخرى تَحقن دماء، وأنّ سخطكَ سيفٌ مسلول على من سَخطْتَ عليه، وأن رضاك بَرَكةٌ مُستفيضة على مَن رَضِيت عنه، وأنّ نفاذ أمرك مع ظهور كلامك. فاحترس في غضبك من قولك أن يُخطىء. ومن لونك أن يتغيّر، ومن جَسدك أن يخِفَّ؛ فإن الملوك تُعاقب حَزْماً وتعفو حِلْماً. وآعلم أنك تجلّ عن الغضب، وأن مُلكك يصغُر عن رضاك، فقدِّر لسُخطك من العقاب كما تُقدر لرضاك من الثواب[1].

(١) الخبر في عيون الأخبار على اختلافٍ وزيادة.

من خطبة لسعيد ابن سويد:

وخطب سعيد بن سُويد بحمص، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناسُ إنّ للإسلام حائطاً مَنيعاً، وباباً وثيقاً. فحائط الإسلام الحق وبابه العدل، ولا يزال الإسلام مَنيعاً ما آشتدّ السلطان، وليست شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط ولكن قضاءٌ بالحق وأخذٌ بالعدل.

لابن الحكم في الحاقد على السلطان:

وقال عبد الله بن الحكم إنه قد يضطغن على السلطان رجلان: رجل أحسن في مُحْسِنِينَ فأثيبوا وحرم، ورجلٌ أساء في مسيئين فعُوقب وعُفِي عنهم؛ فينبغي للسلطان أن يحترس منهما.

لأبرويز يوصي ابنه شيرويه:

وفي التاج: كتب أبرويز لابنه شِيرويه يُوصيه: ليكن مَن تختاره لولايتك آمرءاً كان في ضَعَة فرفعته، أو ذا شرف كان مهمَلاً فآصطنعته. ولا تجعله امرءاً أصبتَه بُقعوبة فآتضع لها، ولا آمرءاً اطاعك بعد ما أذللته. ولا أحداً ممن يقع بقلبك أن إزالة سُلطانك أحبُّ إليه من ثبوته؛ وإياك أن تستعمله ضَرَعاً غَمْراً[1] كثيراً اعجابُهُ بنفسه، قليلاً تجربتُه في غيره. ولا كبيراً مُدْبراً قد أخذ الدهرُ من عقله كما أخذت السنّ من جسمه.

بسط المعدلة وردّ المظالم

إنصاف المأمون أمة من ابنه:

الشَّيباني قال: حدّثنا محمد بن زكريا عن عباس بن الفضل الهاشمي عن قحطبة بن حُميد قال: إني لواقفٌ على رأس المأمون يوماً وقد جلس للمظالم، فكان آخر من

(١) الضرع: الضعيف، والغمر: من لا تجربة له.

تقدم إليه ـ وقد همَّ بالقيام ـ آمرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثة، فوقفت بين يديه فقالت السلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فنظر المأمون إلى يحي ابن أكثم، فقال لها يحي: وعليك السلام يا أمة الله، تكلمي في حاجتك. فقالت:

يا خَيْرَ مُنْتَصِفٍ يُهْدَى لَـهُ الرّشَـدُ ... ويا إمـامـاً بـه قـدْ أشْـرَقَ البَلَـدُ
تَشْكو إلَيكَ عَميدَ القَـوْمِ أرْمَلَـةٌ ... عَدّي عَليها فلَمْ يُتْرَكْ لَهَا سَبَـدُ[١]
وابْتُزَّ مِنّي ضِيَاعِـي بَعْـدَ مَنْعَتِهـا ... ظُلْماً وفُرِّقَ مِني الأهْـلُ والوَلَـدُ[٢]

فأطرق المأمون حيناً، ثم رفع رأسه إليها وهو يقول:

في دُون ما قُلْتِ زَالَ الصَّبْرُ والْجَلَدُ ... عني وأقْرحَ مِنِّي القَلْبُ والكبِـدُ[٣]
هٰذَا أذَانُ صَلاةِ العَصْرِ فانْصَـرِفي ... وأَحْضِري الخَصْمَ في اليَوْمِ الّذي أعِدُ
والمَجْلِسُ السَّبْتُ إنْ يُقْضَ الجُلُوسُ لَنَا ... نُنْصِفْكِ مِنْهُ وإلاَّ المَجْلِسُ الأحَـدُ

قال: فلما كان يوم الأحد جلس، فكان أول من تقدّم إليه تلك المرأة، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته. فقال: وعليك السلام، أين الخصم؟ فقالت: الواقفُ على رأسك يا أمير المؤمنين. وأومأت إلى العباس آبنِه. فقال: يا أحمد بن أبي خالد، خُذ بيده فأجلسه معها مجلسَ الخصوم. فجعل كلامُها يعلو كلامَ العباس، فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله، إنك بين يدي أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأمير، فآخفضي من صوتك. فقال المأمون: دعها يا أحمد، فإن الحق أنطقها وأخرسه. ثم قضى لها برد ضيعتها إليها، وظلم العباس بظلمه لها، وأمر بالكتاب لها إلى العامل الذي ببلدها أن يُوغِر لها ضيعتها[٤] ويُحسن معاونتها، وأمر لها بنفقة.

الحكم على هشام في خصومة بينه وبين إبراهيم بن محمد:

العتبي قال: إني لقاعد عند قاضي هشام بن عبد الملك إذ أقبل إبراهيم بن محمد ابن

---

(١) السبد: الشعر، ويكنى به عن الابل. (٢) ابتز: سلب ظلماً.
(٣) أقرحه: أغمّه. (٤) يوغر لها ضيعتها: يسقط عنها الخراج.

طلحة وصاحب حَرَس هشام، حتى قعدا بين يديه، فقال: إن أمير المؤمنين جرَّاني[1] في خُصومة بينه وبين إبراهيم. فقال القاضي: شاهديك على الجراية. قال أتُراني قلت على أمير المؤمنين ما لم يقل، وليس بيني وبينه إلا هذه السُّترة؟ قال: بلى، ولكنه لا يثُبت الحق لك ولا عليك إلا ببينة. قال: فقام الحرسيّ فدخل إلى هشام فأخبره، فلم نلبْث أن قَعقعت الأبواب[2] وخرج الحرسي فقال: هذا أمير المؤمنين. وخرج هشام، فلما نظر إليه القاضي قام، فأشار إليه وبسط له مُصلى، فقعد عليه وإبراهيم بين يديه، وكنا حيث نسمع بعض كلامهم ويخفى عنّا بعضه. قال: فتكلما وأحضرا البيّنة. فقضى القاضي على هشام. فتكلم إبراهيم بكلمة فيها بعض الخُرْق[3]، فقال: الحمد لله الذي أبان للناس ظلمك. فقال له هشام: لقد هممتُ أن أضربك ضربة ينتثر منها لحمك عن عظمك. قال: أمَا والله لئن فعلت لتفعلنه بشيخ كبير السن قريب القرابة واجب الحق. فقال هشام: آسترها عليّ! قال: لا ستَر الله عليَّ إذاً ذنبي يوم القيامة إن سترتُها. قال: فإني مُعطيك عليها مائة ألف. قال إبراهيم: فسترتُها عليه حياتَه ثمناً لما أخذتُ منه، وأذعتها بعد مماته تزييناً له.

الحجاج وسليك ابن سلكة:

قال: وورد على الحجاج بن يوسف سُليكُ بن سُلَكة[4] فقال: أصلح الله الأمير، أَرْعِني سمعَك[5]، واغضُض عني بصرك، واكفُف عني غربك[6]؛ فإن سمعتَ خطأً أو زللا دونك والعقوبة. قال: قل. فقال: عصى عاص من عُرض العشيرة؛ فَحُلِّق على اسمي[7] وهُدِم منزلي، وحُرِمْتُ عطائي. قال: هيهات! أوَ ما سمعت قول الشاعر:

(١) جرّاني: وكّلني، والجراية: الوكالة. (٢) قعقعت: أحدثت أصواتاً.

(٣) الخرق: الجهل والطيش.

(٤) لعله فرعون بن عبد الرحمن المعروف بابن سلكه الذي عاصر الحجاج، إذ أنّ سليك بن سلكه قتل في الجاهلية.

(٥) أرعني سمعك: أي استمع مقولتي بصبر وأناة. (٦) الغرب: حدّ السيف.

(٧) حلق على اسمي: أي ضرب عليه بحلقة من المداد لمنع العطاء عنه.

جـانِيـكَ مَـنْ يَجْني عَلَيْـكَ وقَـدْ ... تُعْـدِي الصِّحـاحَ مَبـاركُ الجُرْب
ولَـرُبَّ مـأخـوذٍ بـذَنْـب عَشِيرهِ ... ونَجا المُقـارفُ صـاحِـبُ الذَّنْـب

قال: أصلح الله الأمير، إني سمعت الله عز وجل قال غير هذا. قال: وما ذاك؟ قال: قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّها العَزِيزُ إنّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إنَّا نَرَاكَ مِن الْمُحسِنِينَ قَال مَعاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إلا مَنْ وجَدْنَا مَتاعَنا عِنْدَهُ إنَّا إذاً لَظَالِمُونَ﴾ [1]. فقال الحجاج: عليّ بيزيد بن أبي مسلم. فمثل بين يديه، فقال: افكُكْ لهذا عن اسمه، واصْككْ له بعطائه، وآبن له منزلَه، ومُرْ منادياً ينادي: صدق الله وكذب الشاعر.

وقال معاوية: إني لأستحي أن أظلم من لا يجد عليّ ناصراً إلا الله.

لعمر بن عبد العزيز يوصي عاملاً:

وكتب إلى عمر بن عبد العزيز بعضُ عماله يستأذنه في تحصين مدينته. فكتبَ إليه: حَصِّنْها بالعدل ونَقِّ طُرُقَها من الظلم.

للمهدي يوصي ابن أبي الجهم:

وقال المهدي للربيع بن أبي الجهم - وهو والي أرض فارس: يا ربيع، آثِر الحق، والزم القصد، وابسط العدل، وارفُق بالرعية، وآعلم أن أعدل الناس من أنصَفَ من نفسه [2]، وأجْوَرَهم من ظلم الناس لغيره.

بين ابن عامر وابن أصبغ:

وقال ابن أبي الزناد: عن هشام بن عُروة قال: استعمل ابن عامر عمرو بن أصبغ على الأهواز، فلما عزله قال له: ما جئتَ به؟ قال له ما معي إلا مائة درهم وأثواب.

---

(١) سورة يوسف الآية ٧٨ و ٧٩.

(٢) أنصف من نفسه: أي أمكن العدل منها.

قال: كيف ذلك؟ قال: أرسلتني إلى بلدٍ أهلُه رجلان: رجل مُسلم له ما لي وعليه ما عليّ، ورجل له ذمةُ الله ورسوله، فوالله ما دريتُ أين أضع يدي. قال: فأعطاه عشرين ألفاً. وقال جعفر بن يحيي: الخراج عمود الملك، وما استُغْزر بمثل العدل، ولا استُنْزرَ بمثل الظلم[1].

وقال النبي ﷺ: «الظلمُ ظُلُماتٌ يومَ القِيامَةِ».

صلاح الرعية بصلاح الإمام

قال الحكماء: الناس تَبعٌ لإمامهم في الخير والشر.

وقال أبو حازم الأعرج: الإمام سُوق، فما نَفَقَ عنده جُلِبَ إليه.

عمر بن الخطاب وتاج كسرى وسواريه:

ولما أُتي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتاج كسرى وسِوَارَيْه. قال: إن الذي أدّى هذا لأمين. قال له رجل: يا أمير المؤمنين، أنت أمين الله، يُؤَدُّون إليك ما أدّيتَ إلى الله تعالى، فإن رتعت رتعوا[2].

ومن أمثالهم في هذا قولهم: إذا صلحت العَيْن صلحت سواقيها.

الأصمعي قال: يقال: صنفان إذا صلحا صلح الناس: الأمراء والفقهاء.

بين مروان ووكيله:

اطلع مروان بن الحكم على ضيعة له بالغُوطة، فأنكر منها شيئاً، فقال لوكيله: ويحك! إني لأظنك تَخونني. قال: أتظن ذلك ولا تستيقنه. قال: وتفعله؟ قال: نعم والله، إني لأخونك، وإنك لتخون أمير المؤمنين، وإن أمير المؤمنين ليخون الله؛ فَلَعَنَ الله شر الثلاثة.

---

(١) استنزر: استقل.

(٢) رتعت: تنادمت عن حقوق الله.

قولهم في الملك وجلسائه ووزرائه

للحكماء في الملك والوزراء:

قالت الحكماء: لا ينفع الملك إلا بوزرائه وأعوانه ولا ينفع الوزراء والأعوان إلا بالمودّة والنصيحة، ولا تنفع المودة والنصيحة إلا مع الرأي والعفاف. ثم على الملوك بعدُ ألاّ يتركوا مُحسناً ولا مسيئاً مّا دونِ جزاء؛ فإنهم إذا تركوا ذلك، تهاون المحسن، وآجترأ المسيء، وفسد الأمر، وبطل العمل.

للأحنف في فساد البطانة:

وقال الأحنف بن قيس: من فسدت بطانتُه[1] كان كمن غَصّ بالماء، ومن غص بالماء فلا مَساغ له، ومن خانه ثِقاته فقد أُتِي من مأمنه[2].

وقال العباس بن الأحنف:

قلْبي إلى ما ضَرّني داعِي ... يُكْثِرُ أحزَانِي وأوْجاعِي
كيْفَ احتِرَاسي مِنْ عَدُوّي إذا ... كانَ عَدُوّي بَينَ أضلاعي

وقال آخر:

كنتُ من كُرْبَتِي أَفِرُّ إليْهِمْ ... فهُمُ كُرْبتِي فأَيْنَ الفِرارُ

لعدي بن زيد:

وأول من سبق إلى هذا المعنى عديّ بن زيد في قوله للنعمان بن المنذر:

لَوْ بغَيْرِ الْمَاءِ حَلْقِي شَرِقٌ ... كُنْتُ كالغَصّان بالماء اعْتِصاري[3]

وقال آخر:

إلَى الماءِ يَسْعَى مَنْ يَغَصُّ بريقِه ... فقُلْ أَيْنَ يسعَى مَنْ يغَصُّ بمَاء

---

(١) البطانة: الحاشية المقرّبة. (٢) أتي من مأمنه: أي تمكّن منه الذي يريد به الايقاع.

(٣) الاعتصار: أن يترشّف الماء قليلاً قليلاً.

لابن العاص في العدل:

وقال عمرو بن العاص: لا سُلطان إلا برجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل.

وقالوا: إنما السلطان بأصحابه كالبحر بأمواجه.

قالوا: ليس شيء أضر بالسلطان من صاحبٍ يُحسِنُ القول ولا يحسن الفعل ولا خير في القول إلا مع الفعل، ولا في المال إلا مع الجود، ولا في الصدق إلا مع الوفاء، ولا في الفقه إلا مع الورع، ولا في الصدقة إلا مع حُسن النية، ولا في الحياة إلا مع الصحة.

قالوا: إن السلطان إذا كان صالحاً ووزراؤه وزراءَ سَوْء آمتنع خيره من الناس ولم يستطع أحد أن ينتفع منه بمنفعة. وشبهوا ذلك بالماء الصافي يكون فيه التمساح، فلا يسنطيع أحدٌ أن يدخله وإن كان محتاجاً إليه.

صفة الإمام العادل

كتاب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز في وصف الإمام العادل:

كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولِيَ الخلافة إلى الحسن بن أبي الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل فكتب إليه الحسن رحمه الله:

آعلم يا أمير المؤمنين أن الله جَعَلَ الإمامَ العادلَ قِوامَ كلِّ مائل[1]، وقَصْد كل جائر، وصلاحَ كل فاسد، وقُوةَ كل ضعيف، ونَصَفَةَ كل مظلوم، ومَفْزَع كل ملهوف[2]. والإمامُ العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيبَ المرعى، ويذودها عن مراتع الهَلَكة، ويحميها من السباع، ويكُنُّها من أذى الحرّ والقُرّ[3]. والإمام العادل يا أمير المؤمنين، كالأب الحاني على

---

(١) قوام: اعتدال وصلاح واستقامة.

(٢) المفزع: الملجأ. (٣) القرّ: البرد.

ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين، كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كُرها ووضعته كرهاً، وربّته طفلاً، تَسهر بسهره، وتسكُن بسكونه، تُرضعه تارة وتَفطمه أخرى، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين، وصيّ اليتامى، وخازن المساكين، يربّي صغيرهم، ويَمُون كبيرهم. والإمام العادل يا أمير المؤمنين، كالقلب بين الجوارح: تصلح الجوارحُ بصلاحه وتفسد بفساده. والإمام العادل يا أمير المؤمنين، هو القائم بين الله وبين عباده، يَسْمَعُ كلامَ الله ويُسْمِعُهم، وينظر إلى الله ويُريهم، وينقاد إلى الله ويقُودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملّكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيّده واستحفظه مالَه وعياله، فبدّد المال، وشرّد العيال، فأفقر أهلَه وفرّق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجُر بها عن الخبائث والفواحش فكيف إذا أتاها من يليها؟ وأن الله أنزل القصاص حياةً لعباده، فكيف إذا قتلهم من يَقْتَصُّ لهم؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموتَ وما بعده، وقلةَ أشياعِك عنده وأنصارك عليه؛ فتزوّد له ولما بعده من الفزع الأكبر.

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثَواؤك، ويفارقك أحِبَّاؤك، يُسلمونك في قعره فريداً وحيداً. فتَزَوَّدْ له ما يَصْحَبك ﴿يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وأُمِّهِ وأَبِيهِ، وصَاحِبَتِهِ وبَنِيهِ﴾[1].

واذكر يا أمير المؤمنين ﴿إِذَا بُعثِرَ مَا في الْقبُور، وحُصِّلَ مَا في الصُّدُور﴾[2] فالأسرار ظاهرة، والكتاب ﴿لاَ يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾[3].

فالآن يا أمير المؤمنين، وأنت في مَهَل، قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل، لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ولا

---

(١) سورة عبس الآية ٣٤ و ٣٥ و ٣٦.

(٢) سورة العاديات الآية ٩ و ١٠. (٣) سورة الكهف الآية ٤٩.

تسلّط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقُبون في مؤمن إلاًّ[1] ولا ذِمّة، فتبوء بأوزارك وأوزارٍ معَ أوزارك، وتحمل أثقالَكَ وأثقالاً مع أثقالك. ولا يغرّنّك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك. ولا تنظرنّ إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قُدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوفٌ بين يَدَي الله تعالى في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد ﴿عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلحَيِّ القَيُّوم﴾[2].

إني يا أمير المؤمنين، وإن لم أبلغ بعِظَتي ما بلغه أولُو النُّهى من قبلي، فلم آلك[3] شفقةً ونصحاً، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يَرجو له في ذلك من العافية والصحة. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

هيبة الإمام في تواضعه

لابن السماك:

قال ابن السماء لعيسى بن موسى: تواضُعُك في شرفك أكبر من شرفك!

وقال عبد الملك بن مروان: أفضل الرجال من تواضَعَ عن رفعة، وزَهِد عن قُدرة، وأنصف عن قُوّة.

النجاشي وقد ولد له ولد:

ذكر عن النجاشي أمير الحبشة أنه أصبح يوماً جالساً على الأرض والتاج على رأسه، فأعْظَم ذلك أساقِفتُه؛ فقال لهم: إني وجدتُ فيما أنزل الله تعالى على المسيح عليه السلام، يقول له: إذا أنعمتُ على عبدي نعمةً فتواضع إليّ أتممتُها عليه، وإني وُلِدَ لي الليلةَ غلام، فتواضعت لذلك شكراً لله تعالى.

---

(١) الإلّ: العهد والحلف. (٢) سورة طه الآية ١١١.

(٣) آلك: أقصر.

لبعض الشعراء في التواضع:

وقال ابن قتيبة: لم يُقَلْ بيتٌ أبدعُ من قول الشاعر لبعض خلفاء بني أمية:

يُغْضِي حياءً ويُغْضَى مـن مهـابتـهِ فَلاَ يُكلَّـــمُ إلاّ حين يَبْتسمُ[1]

وأحسن منه عندي قول الآخر:

فَتًـى زادهُ عِــزُّ المهـابَـةِ ذِلَّــةً فَكـلٌّ عَـزيـز عِنـدهُ مُتَـوَاضـع

وقال أبو العتاهية:

يا مَـنْ تَشرّف بـالـدُّنيـا وزينتِهـا ليس التّشرُّف رَفْعَ الطِّين بالطين[2]

إذا أردت شَـريـفَ النّـاس كلِّهِـم فـانظُـرْ إلى مَلـكٍ في زيٍّ مِسْكين

ذَاك الّذي عَظُمــت والله نِعْمتُــه وذاك يَصْلـحُ للـدُّنيـا وللـدِّيــن

وقال الحسن بن هانيء في هيبة السلطان مع محبة الرعية:

إمــامٌ عليــه هَيبـــةٌ ومَحَبـــةٌ ألا بـأبي ذاك الحْبيـبُ الْمُحَبَّــبُ

وقال آخر في الهيبة وإن لم تكن في طريق السلطان:

بنَفْسي مـن لَـوْ مَـرَّ بَـرْدُ بَنـانـه على كبدِي كانـتْ شفـاءً أنـاملُـهْ

ومَنْ هابَني في كُـلِّ شَـيءٍ وهِبْتُـهُ فلاَ هـو يُعْطِيني ولا أنـا سـائِلُـهْ

ولابن هرمة في المنصور:

لـه لحظـاتٌ عـن حِفـافيْ سريـره إذا كرّها فيهـا عقـابٌ ونـائـلُ[3]

كريمٌ له وجهان وجهٌ لدى الرضـى أسيلٌ ووجهٌ في الكريهة بـاسـلُ[4]

فــأُم الذي آمنــتَ آمنــةُ الرَّدي وأم الذي أو عدت بالثّكل ثاكــلُ

وليس بمُعطي العفو من غير قـدرةٍ ويعفـو إذا مـا مكّنتـه المقـاتـلُ

وقال آخر في الهيبة:

أهـاشمُ يـا فتَــى ديــنِ ودُنيـا ومن هو في اللّباب مِن اللباب[5]

---

(١) البيت للفرزدق في زين العابدين علي بن الحسين.

(٢) في الديوان «يا من تشرّف بالدنيا وطينتها».

(٣) حفافي سريره: جانباه.

(٤) الأسيل: الرقيق الناعم، والباسل: الشجاع.

(٥) اللباب: الخالص من كلّ شيء.

أهابُك أن أبُوح بذَات نفْسي وتَرْكي للعِتاب مِنَ العتاب

وقال أشجع بن عمرو في هيبة السلطان:

منعتْ مهابتُك النّفوسَ حَديثَها بالشّيء تَكرهه وإنْ لم تَعلمِ
ومن الولاةِ مُفخَّمٌ لا يُتَّقى والسّيْفُ تقطرُ شفرتاهْ منَ الدّمِ

وقال أيضاً لهرون الرشيد:

وعلى عدُوِّكَ يا بْنَ عَمِّ مُحمَّدٍ رَصَدان: ضَوءُ الصُّبْح والإظْلامُ
فإذا تَنبَّه رُعْتَه، وإذا غفا سَلَّتْ عليه سيوفَك الأحْلامُ[1]

وقال الحسن بن هانيء في الهيبة فأفرط:

مَلِك تَصوّرَ في القُلُوب مِثالُه فكأنّه لَمْ يَخْلُ منه مكانُ
ما تَنْطوي عنه القلوب بفَجرةٍ إلاّ يُكلّمه بها اللّحظانُ[2]
حتى الّذي في الرِّحْم لم يك صُورَةً لفُؤاده من خَوفْه خفَقانُ

فمجاز هذا البيت في إفراطه أن الرجل إذا خاف شيئاً أو أحبّه أحبه بسمعه وبصره وشَعره وبَشَره ولحمه ودمه وجميع أعضائه، فالنُّطف التي في الأصلاب داخلة في هذه الجملة.

قال الشاعر:

ألاَ تَرْثي لِمُكْتَئِب يُحِبُّك لَحمُهُ وَدَمُهْ

وقال المكفوف في آل محمد:

أُحِبُّكُمُ حُبّاً على اللهِ أجْرُهُ تَضمّنه الأحْشاءُ واللحم والدمُ

ومثل هذا قول الحسن بن هانيء:

وأخَفْتَ أَهْلَ الشرْكِ حتى إنّهُ لَتَخافُكَ النُّطَفُ التي لَمْ تُخْلَقِ

---

(١) رعته: أخفته، وسلّت: شهرت.

(٢) الفجرة: المرّة من الفجر، وهو الانبعاث في المعاصي، واللحظان: النظر بمؤخر العين.

فإذا خافه أهل الشرك خافتْه النطف التي في أصلابهم، على المجاز الذي ذكرناه.

ومجاز آخر: أنّ النطف التي أخذ الله ميثاقها يجوز أن يضاف إليها ما هي لا بد فاعلةٌ من قبل أن تفعله، كما جاء في الأثر: إن الله عز وجل عَرَضَ على آدم ذريتَه فقال: هؤلاء أهل الجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء أهلُ النار وبعمل أهل النار يعملون.

شعر للمؤلف في الهيبة:

وها أنا أقول في الهيبة:

يـا مـن يُجَـرِّد مِـنْ بَصيرتـهِ	تحت الحوادث صـارمَ العَـزْمِ
رُعـت العـدُوّ فما مَثَلْـتَ لـه	إلا تَفَـزَّعَ منـك في الحُلْـمِ
أضْحَـى لـك التَّـدبيرُ مُطَّـرداً	مِثْـل اطِّـراد الفِعْـل للإسْـم
رَفَـع الحسودُ إليـكَ نـاظِـرَهُ	فـرآكَ مُطَّلعـاً مـع النَّجـمِ

للأخطل في معاوية:

أبو حاتم سهل بن محمد قال: أنشدني العتبي للأخطل في معاوية:

تَسْمـو العيـونُ إلى إمـامٍ عـادِلٍ	مُعْطَـى المَهـابـةِ نـافِـعٍ ضَـرَّار
وتـرى عليـه إذا العيـونُ لَمحْنَـهُ	سِيما الحليمِ وهَيْبَـةَ الجبَّـارِ

حسن السيرة والرفق بالرعية

مما جاء في الكتاب والسنة في معنى هذا العنوان:

قال الله تعالى لنبيه ﷺ فيما أوصاه به من الرفق بالرعية: ﴿ولَوْ كُنتَ فَظّاً غليظَ القلب لآنفَضّوا مِن حوْلِكَ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩

وقال النبي ﷺ : « مَنْ أُعطِيَ حظَّه مِنَ الرِّفقِ فقد أُعْطِيَ حَظّه مِنَ الخير كله ، ومن حُرم حظه من الرفق فقد حُرم حظه من الخير كله » .

مشورة سالم وابن كعب على عمر بن عبد العزيز حين ولي الخلافة:

ولما آستُخلف عمر بن عبد العزيز أرسل إلى سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب. فقال لهما: أشيرا عليّ. فقال له سالم: اجعل الناسَ أباً وأخاً وابناً، فَبرّ أباك، وآحفظ أخاك، وارحم ابنك. وقال محمد بن كعب: أَحْبب للناس ما تحب لنفسكَ واكره لهم ما تكره لنفسك، واعلم أنك أولُ خليفة يموت.

بين عمر بن عبد العزيز وابنه في الرفق:

وقال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه عمر: يا أبت، مالك لا تَنْفُذُ في الأمور، فوالله لا أبالي في الحق لو غَلَت بي وبك القُدور. قال له عمر: لا تعجل يا بُني، فإن الله تعالى ذم الخمر في القرآن مرتين وحرّمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدفعوه وتكونَ فتنة.

من عمر إلى ابن أرطاة في الرفق:

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدِيّ بن أَرْطَأة: أما بعد، فإن أمكنتك القُـدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق عليك، وآعلم أن مالك عند الله مثلُ ما للرعية عندك.

مما وصى المنصور به ابنه:

وقال المنصور لولده عبد الله المهدي: لا تُبْرم (١) أمراً حتى تفكر فيه؛ فإن فكرة العاقل مرآته تُريه حسناتِه وسيآته؛ واعلم أن الخليفة لا يُصلحه إلا التقوى، والسلطانَ لا تصلحه إلا الطاعة، والرعية لا يصلحها إلا العدل وأوْلى الناس بالعفو أقدرُهم على العقوبة، وأنْقَصَ الناس عقلاً من ظَلَمَ مَن هو دونه.

---

(١) تبرم: تعقد وتنفّذ.

وصية خالد القسري لبلال:

وقال خالدُ بن عبد الله القسريّ لبلال بن أبي بُردة: لا يَحملنَّك فضلُ المقدرة على شدَّة السطوَة، ولا تطلُب من رعيّتك إلا ما تبذُله لها؛ فـ﴿إنّ اللهَ مَعَ الذِينَ اتقَوْا والذِينَ هُمْ مُحْسِنُون﴾[1].

وقال أبو عبد الله كاتبُ المهديّ: ما أحوج ذا القدرة والسلطان إلى قرين[2] يحجُزه، وحياء يكفّه، وعقلٍ يعقله[3]، وإلى تجربة طويلة، وعين حفيظة، وأعراق تسري إليه، وأخلاق تُسهِّل الأمور عليه؛ وإلى جليس شفيق، وصاحب رقيق، وإلى عين تُبصر العواقب، وقلبٍ يخاف الغير. ومن لم يعرف لؤم الكِبْر لم يَسلم من فَلَتات اللسان، ولم يتعاظم ذنباً وإن عظم، ولا ثناء وإن سُمِح[4].

وكتب أردشير إلى رعيّته: من أردشير المؤيد ملك الملوك ووارث العظماء، إلى الفقهاء الذين هم حملة الدين، والأساورَة الذين هم حفظة البَيْضة[5]، والكتّاب الذين هم زينة المملكة، وذوي الحرْث الذين هم عماد البلاد: السلام عليكم، فإنا بحمد الله إليكم سالمون؛ فقد وضعنا عن رعيّتنا بفضل رأفتنا بها إتاوتَها الموضوعة عليها[6]، ونحن مع ذلك كاتبون إليكم بوصية فاحفظوها: لا تستشعروا الحِقدَ فيدهمكم العدو، ولا تحتكروا فيشملكم القحط؛ وتزوّجوا في الأقارب فإنه أمس للرحم وأثبت للنسب، ولا تَعُدُّوا هذه الدنيا شيئاً؛ فإنها لا تُبقِي على أحد، ولا ترفضوها فإن الآخرة لا تُدْرَك إلا بها.

وصية مروان ابن الحكم لعبد العزيز ابنه حين ولاه مصر:

ولما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام آستعمل عبد العزيز ابنَه على

(١) سورة النحل الآية ١٢٨.
(٢) القرين: من القرن، وهو القيد، أو هو الصاحب.
(٣) يعقله: يربطه ويمنعه.
(٤) سمح: كان سمحاً ليناً وسهلاً.
(٥) الأساورة: الأسود أو الشجعان وحفظة البيضة: حفظة الحمى والذّمار.
(٦) الاتاوة: الضرائب.

مصر، وقال له حين ودّعه: أرسل حكيماً ولا تُوصِه. أي بُنيّ، انظر إلى عُمّالك، فإن كان لهم عندك حقٌّ غُدْوَةً فلا تؤخرهم إلى عشية، وإن كان لهم عشيةً فلا تؤخرهم إلى غدوة، وأعطهم حقوقهم عند محلها تستوجب بذلك الطاعة منهم. وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب، فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدّقوك في الحق. واستشر جلساءك وأهل العلم؛ فإن لم يَسْتبنْ لك فاكتب إليّ يأتِك رأيي فيه إن شاء الله تعالى. وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخِذْه به عند سَوْرَة الغضب[1]، واحبس عنه عقوبتك حتى يَسكن غضبُك ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب منطفىء الجمرة، فإن أولَ مَنْ جَعَل السجنَ كان حليماً ذا أناة[2]. ثم انظر إلى ذوي الحسب والدين والمروءة فليكونوا أصحابك وجلساءك؛ ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم، على غير آسترسال ولا انقباض، أقول هذا وأستخلف الله عليك.

من معاوية إلى زياد في رجل فر إليه:

قال أبو بكر بن أبي شيبة عن عبد الله بن مجالد عن الشعبي، قال: قال زياد: ما غلبني أميرُ المؤمنين معاوية في شيء من السياسة إلا مرة واحدة، استعملت رجلاً فكسر خراجَه، فخشي أن أعاقبه ففرّ إليه وآستجار به فأمنه؛ فكتبت إليه: إن هذا أدب سوًّأ منْ قِبلي. فكتب إليّ: إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة، لا نلنْ جميعاً فتمرح الناس في المعصية، ولا نستبد جميعاً فنحمل الناس على المهالك. ولكن تكون أنت للشدة والغلظة وأكون أنا للرأفة والرحمة.

ما يأخذ به السلطان من الحزم والعزم

قالت الحكماء: أحزم الملوك من قهر جدُّه هزلَه: وغلب رأيُه هواه، وجعل له الفكر صاحباً يُحسِّنُ له العواقب، وأعرب عن ضميره فعلُه، ولم يخدعه رضاه عن سخطه ولا غضبُه عن كيده.

---

(١) سورة الغضب: حدّته وشدّته.

(٢) الأناة: الصبر والرويّة.

وصية عبد الملك لولي عهده الوليد:

وقال عبد الملك بن مروان لابنه الوليد وكان ولي عهده: يا بُنيّ، اعلم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملك الرعية أو تملكه إلا حرفان: حزمٌ وتوان.

لبعضهم في اليسير من الزلل:

وقالوا: ينبغي للعاقل ألاّ يستصغر شيئاً من الخطأ والزلل، فانه متى ما آستصغر الصغير يوشك أن يقع في الكبير؛ فقد رأينا الملك يُؤْتَى من العدوّ المحتقَر، ورأينا الصحة تُؤْتى من الدواء اليسير، ورأينا الأنهار تتدفق من الجداول الصغار.

في الذم يكون من الرعية:

وقالوا: لا يكون الذم من الرعية لراعيها إلا لأحد ثلاثة: كريم قُصِّر به عن قدره فاحتمل لذلك ضِغْنا، أو لئيم بُلِغَ به ما لا يستحق فأورثه ذلك بطرا[1]، أو رجل مُنِعَ حظَّه من الإنصاف فشكا تفريطا.

من كلام للهند في الملوك:

وفي كتاب الهند: خير الملوك من أشبه النسر حوله الجيَف لا من أشبه الجيف حولها النسور.

وقيل لملك سُلِب مُلكَه: ما الذي سلبك ملكك؟ قال: دَفْعُ شغلِ اليوم إلى غد، والتماسُ عُدَّةٍ بتضييع عُدَد، واستكفاءُ كلِّ مخدوع عن عقله. والمخدوعُ عن عقله من بلغ قدراً لا يستحقه، وأثيبَ ثوابا لا يستوجبه.

لابن أبي طالب في الفرص:

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: انتهزوا هذه الفرَص فإنها تمرّ مرّ السحاب، ولا تطلبوا أثراً بعد عَيْن.

---

(١) البطر: جحود النعمة.

شي عن عمر ولعائشة فيه:

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحزمَ الخلفاء، وكانت عائشة رضي الله عنها إذا ذُكر عُمر تقول: كان والله أَحْوَزِيّاً[1] نسيجَ وَحدْه، قد أعدّ للأمور أقرانَها[2].

وقال المُغيرة بن شُعبة: ما رأيتُ أحداً هوْ أحزم من عمر: كان والله له فضل يمنعه أن يَخدع، وعقل يمنعه أن يُخدع.

وقال عمر: لست بخَبّ والخَبُّ لا يَخدعني[3].

عمر وعامل البحرين:

ومر عمر ببنيان يُبنى، بآجرّ وجَصّ، فقال: لمن هذا؟ قيل: لعاملك على البحرين. فقال: أبَتِ الدراهم إلا أن تُخرج أعناقها[4]، فأرسل إليه فشاطره ماله.

عمر وابن أبي وقاص:

وكان سعد بن وقاص يقال له المُستجاب، لقول النبي ﷺ: « اتقوا دعوة سعد ». فلما شاطره عمر ماله، قال له سعد: لقد هممتُ. قال له عمر: بأن تدعو عليّ. قال: نعم. قال إذاً لا تجدُني بدعاء ربي شقياً.

ابن أبي وقاص وشاعر هجاه:

وهجا رجل من الشعراء سعد بن أبي وقاص يوم القادسية، فقال:

ألم تَرَ أنّ اللهَ أظْهر دِينَه ... وسَعْدٌ بباب القادسيَّة مُعْصِمُ[5]

فأبنا وقدْ آمَتْ نِساءٌ كثيرةٌ ... ونسوةُ سَعْدٍ ليس فيهنّ أيّم[6]

فقال سعد: اللهم اكفني يده ولسانه. فقطعت يده وبُكِم لسانه.

---

(١) الأحوزي: الحسن السياق للأمور. (٢) اقرانها: أي أكفاءها.

(٣) الخبّ: المخادع. (٤) أي إلاّ أن تظهر وتعرف.

(٥) معصم: معتصم. (٦) آمت: فقدت أزواجها.

عمر وأبو موسى الأشعري وأبو هريرة والحارث:

ولما عَزَلَ عمرُ أبا موسى الأشعريّ عن البصرة وشاطره ماله وعزل أبا هُريرة عن البحرين وشاطره ماله، وعزل الحارث بن كعب بن وهب وشاطره ماله، دعا أبا موسى فقال له: ما جاريتان بلغني أنهما عندك، إحداهما تُدْعَى عقيلة والأخرى من بنات الملوك؟ قال: أما عقيلة فجارية بيني وبين الناس، وأما التي هي من بنات الملوك فإني أردتُ بها غَلاء الفِداء. قال: فما جَفنتان تعملان عندك؟ قال: رزقي شاةٌ في كل يوم، فيُعمل نِصفُها غُدوة ونصفها عشية. قال: فما مِكيالان بلغني أنهما عندك؟ قال: أمّا أحدهما فأوفّي أهلي به ودَيْني، وأمّا الآخر فيتعامل الناس به. قال: آدفع لنا عقيلة، والله إنك لمؤمن لا تُغلّ أو فاجرٌ مُبلّ[1]؛ ارجع إلى عملك عاقصاً بقَرْنك مُكْتَسِعاً بذَنَبك[2]؛ والله إن بلغني عنك أمرٌ لم أُعِدك.

ثم دعا أبا هريرة فقال له: هل علمت من حين أني آستعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين، ثم بلغني أنك آبتعتَ أفراساً بألف دينار وستمائة دينار؟ قال: كانت لنا أفراس تناتجت. وعطايا تلاحقت. قال قد حَسَبتُ لك رزقَك ومؤونتك وهذا فضلٌ فأدِّه. قال: ليس لك ذلك. قال: بلى والله وأوجع ظهرَك! ثم قام إليه بالدِّرَّة فضربه حتى أدماه، ثم قال: إيت بها. قال: احتسبتها عند الله. قال: ذلك لو أخذتَها من حلال وأديتها طائعاً، أجئت من أقصى حَجْر بالبحرين يجبي[3] الناس لك لا لله ولا للمسلمين؟ ما رجعت بك أُمَيْمَةُ إلا لرعيَةِ الحُمُر. وأميمة أم أبي هريرة.

وفي حديث أبي هريرة قال: لما عزلني عمر عن البحرين قال لي: يا عدوّ الله وعدوّ كتابه، سرقتَ مال الله؟ قال: فقلت: ما أنا عدوّ الله ولا عدوّ كتابه، ولكني عدوّ مَن عاداهما، وما سرقتُ مال الله. قال: فمن أين آجتمعت لك عشر آلاف؟ قلت:

---

(١) لا تُغل: لا تخون، والمبلّ الخبيث الداهية أو الغالب بحجته.

(٢) القرن: من الشعر، وعقصه: عقده والاكتساع بالذَّنَب: إدخاله بين الأرجل وأراد بالعبارتين: الذلة والمهانة.

(٣) يجبي: من الجباية أي جمع الضرائب.

خيل تناتجت، وعطايا تلاحقت، وسهام تتابعت. قال: فقبضها مني، فلما صليتُ الصبح آستغفرت لأمير المؤمنين. فقال لي بعد ذلك: ألا تعمل؟ قلت لا. قال: قد عمل من هو خير منك يوسف صلواتُ الله عليه. قلت: يوسف نبيّ وأنا ابن أميمة، أخشى أن يُشْتم عِرضي، ويُضْرَبَ ظهري، ويُنْزَعَ مالي.

قال: ثم دعا عمرُ الحارثَ بن وهب، فقال: ما قِلاصٌ وأعْبُدٌ بعتَها بمائتي دينار؟ قال: خرجتُ بنفقةٍ معي فتَجَرْتُ فيها. فقال: أما والله ما بعثناكم لِتَتَّجروا في أموال المسلمين، أدِّها. فقال: أما والله لا عَمِلْتُ عملاً بعدها! قال: آنتظر حتى أستعملك!

بين عمر بن الخطاب وابن العاص:

وكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص. وكان عامله على مصر: من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، سلامٌ عليك، أما بعد. فإنه بلغني أنه فَشت لك فاشيةٌ[1] من خَيل وإبل وغنم وبقر وعَبيد، وعهدي بك قبل ذلك أن لا مالَ لك. فاكتب إليّ من أين أصْلُ هذا المال ولا تكتمه.

فكتب إليه: من عمرو بن العاص إلى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإنه أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فَشا لي، وأنه يعرفني قبل ذلك لا مال لي. وإني أعْلمُ أمير المؤمنين أني بأرضِ السِّعْر فيه رخيص، وأني أعالج من الحِرفة والزراعة ما يُعالج أهله، وفي رزق أمير المؤمنين سَعة. والله لو رأيت خيانتَك حلالاً ما خنتك؛ فأقصِر أيها الرجل، فإن لنا أحساباً هي خيرٌ من العمل لك، إن رجعنا إليها عِشنا بها. ولعمري إن عندك من لا يذم معيشته ولا تذم له [وذكرت أن عندك من المهاجرين الأولين من هو خيرٌ مني][2] فأنّى كان ذلك ولم يُفْتَح قُفلُك ولم نَشْرَكْكَ في عملك؟

---

(١) فشت: كثرت.

(٢) التكملة من شرح نهج البلاغة (١ ـ ٨).

فكتب إليه عمر: أما بعد، فإني والله ما أنا من أساطيرك التي تُسطر ونَسقك الكلام في غير مَرجع، وما يغني عنك أن تزكّي نفسَك. وقد بعثت إليك محمد بن مَسلمة فشاطرْه مالَك؛ فإنكم أيها الرَّهط الأمراء جلستم على عيران المال، لم يُعوزكم عُذر، تجمعون لأبنائكم، وتمهِّدون لأنفسكم. أما إنكم تجمعون العارَ وتورِّثون النار. والسلام.

فلما قدم عليه محمد بن مسلمة صنع له عمرو طعاماً كثيراً. فأبى محمد بن مسلمة أن يأكل منه شيئاً. فقال له عمرو: أتحرّمون طعامَنا؟ فقال: لو قَدّمت إليّ طعامَ الضيف أكلتُه، ولكنك قدّمت إليّ طعاماً هو تقدمة شر. والله لا أشرب عندك ماء. فاكتبْ لي كل شيء هو لك ولا تكتمْه. فشاطرَه ماله بأجمعه، حتى بقيت نعلاه، فأخذ إحداهما وترك الأخرى! فغضب عمرو بن العاص فقال: يا محمد بن مسلمة، قَبح اللهُ زماناً عمرو بنُ العاص لعمرَ بن الخطاب فيه عامل. والله إني لأعرف الخطاب يحمل فوق رأسه حُزمةً من الحطب وعلى آبنه مثلُها، وما منهما إلا في نَمِرَةٍ[1] لا تبلغ رُسْغَيْهِ؛ والله ما كان العاص بن وائل يَرضى أن يلبس الديباج مزوّراً[2] بالذهب.

قال له محمد: اسكت، والله إن عمر لخيرٌ منك، وأما أبوك وأبوه ففي النار، والله لولا الزمان الذي سبقك به لألْفيت مُقْتعد شاة يسرك غَزْرُها[3] ويسوءك بَكْؤُها[4]. فقال عمرو: هي عندك بأمانة الله. فلم يخبر بها عمر.

وأبو سفيان في مال وأدهم:

ومن حديث زيد بن أسلم عن أبيه قال: بعث معاويةُ إلى عمر بن الخطاب وهو على الشام بمالٍ وأدهم، وكتب إلى أبيه أبي سُفيان أن يدفع ذلك إلى عمر - يعني بالأدهم القيد - وكتب إلى عمر يقول: إني وجدت في حصون الروم جماعة من أسارى

---

(١) النمرة: بردة من صوف تلبسها الأعراب. (٢) مزوّراً: مزيناً.
(٣) غزرها: درّها. (٤) بكؤها: قلة لبنها.

المسلمين مقيدين بقيود حديد ـ أنفذت منها هذا ليراه أمير المؤمنين ـ وكانت العرب قبل ذلك تقيد بالقيد. قال جرير: . . . أو لجدل الأداهم[1].

فخرج الرسول حتى قدم على أبي سفيان بالمال والأدهم. قال: فذهب أبو سفيان بالأدهم والكتاب إلى عمر وآحتبس المال لنفسه. فلما قرأ عمر الكتاب، قال: فأين المال يا أبا سفيان؟ قال: كان علينا دَين ومَعونة، ولنا في بيت المال حق، فإذا أخرجت لنا شيئاً قاصصتنا به. فقال عمر: آطرحوه في الأدهم حتى يأتي بالمال. قال: فأرسل أبو سفيان من أتاه بالمال. فأمر عمر بإطلاقه من الأدهم. قال: فلما قدم الرسول على معاوية قال له: رأيتَ أمير المؤمنين أُعْجبَ بالأدهم؟ قال: نعم، وطَرح فيه أباك. قال: ولِمَ؟ قال: جاءه بالأدهم وحَبَس المال؛ قال: إي والله، والخطّاب لو كان لطرحه فيه!

عمر وأبو سفيان في مال حاول إخفاءه:

زار أبو سفيان معاوية بالشام، فلما رجع من عنده دخل على عمر فقال: أَجزْنا أبا سفيان. قال: ما أصبْنَا شيئاً فنُجيزك به. فأخذ عمر خاتمة فبعث به إلى هِند، وقال للرسول: قل لها: يقول لك أبو سفيان: انظري إلى الخُرْجَيْن اللذين جئتُ بهما فأحضريهما. فما لبث عمر أن أُتِيَ بخرجين فيهما عشرةُ آلاف درهم، فطرحهما عمر في بيت المال. فلما وليَ عثمان ردّهما عليه. فقال أبو سفيان: ما كنت لآخذ مالاً عابه عليّ عمر.

عمر وعتبة في مال وجده معه:

ولما ولّى عمر بن الخطاب عتبة بن أبي سفيان الطائفَ وصدقاتِها ثم عزله، تلقّاه في بعض الطريق، فوجد معه ثلاثين ألفاً، فقال: أنى لك هذا؟ قال: والله ما هو لك

---

(١) البيت:

هـو القين وابن القين لا قين مثله ... لبطح المساحي أو لجدل الأداهم

ولا للمسلمين، ولكنه مال خرجتُ به لضيعةٍ أشتريها. فقال عمر: عاملُنا وجدنا معه مالاً، ما سبيلُه إلا بيت المال. ورفعه؛ فلما وليَ عثمان قال لعتبة: هل لك في هذا المال، فإني لم أر لأخذ ابن الخطاب فيه وجهاً؟ قال: والله إن بنا إليه لحاجة، ولكن لا تَرُدَّ علي من قبلَك فيَرُدَّ عليك مَن بعدك.

عمر وأبو سفيان في رجل دعا بدعاء الجاهلية:

القَحْذمي[1] قال: ضَرب عمر رجلاً بالدرّة، فنادى: يا لَقُصيّ! فقال أبو سفيان: يا بن أخي، لو قبل اليوم تنادي قصياً لأتتك منها الغطاريف[2]. فقال له عمر: اسكت لا أبالك. قال أبو سفيان: ها، ووضع سبّابته على فيه.

كتاب يزيد إلى مروان يأمره بالبيعة:

خليفة بن خياط قال: كتب يزيد بن الوليد المعروف بالناقص - وإنما قيل له الناقص لفرط كماله - إلى مروان بن محمد - وبلغه عنه تلكؤ في بيعته -: أما بعد، فإني أراك تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى. فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام. فأتته بيعته.

أبو غسان وأهل مرو حين منعوا المال:

ولما منع أهلُ مَرو أبا غسان الماء وزجّته[3] إلى الصحارى، كتب إليهم أبو غسان: إلى بني الأستاه من أهل مرو؛ ليُمسيني الماء أو لتُصَبِّحنكم الخيل. فما أمسى حتى أتاه الماء. فقال: الصدق يُنبيء عنك لا الوعيد.

كتاب ابن طاهر إلى الحسن التغلبي:

وكتب عبد الله بن طاهر الخراسانيّ إلى الحسن بن عمر التغلبيّ: أما بعد، فقد بلغني ما كان مِن قَطْع الفَسَقَة الطريق ما بلغ، فلا الطريقَ تَحمِي، ولا اللصوص

---

(١) هو الوليد بن هشام القحذمي. (٢) زجته: أبعدته لإخفائه.

(٣) الغطاريف: السادة الأشراف.

تَكفِي، ولا الرعيةَ تُرْضِي، وتطمع بعد هذا في الزيادة! إنك لَمفسح الأمل. وآيم الله لتَكفيني مَن قِبَلك أو لأوجِّهَن إليك رجالاً لا تعرف مُرّةَ من جَهم ولا عَديّ من رُهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كتاب الحجاج إلى قتيبة في أمر وكيع:

وكتب الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم واليه بخراسان: أما بعد، فإن وكيعَ ابن حسان كان بالبصرة منه ما كان، ثم صار لصاً بسِجِسْتان، ثم صار إلى خراسان، فإذا أتاك كتابي هذا: فاهدم بناءه، واحْلُلْ لواءه. وكان على شرطة قتيبة فعزله. وولى الضَّبِّيَّ عمَّ مسعود بن الخطاب.

كتاب الحجاج إلى قوم يفسدون في الأرض:

وبلغ الحجاجَ أن قوماً من الأعراب يُفسدون الطريق، فكتب إليهم: أما بعد، فإنكم قد استخفّتكم الفتنة، فلا عن حق تُقاتلون. ولا عن منكر تَنْهَوْن، وإني أهمُ أن تَرِدَ عليكم مني خيلٌ تَنسِف الطارفَ والتالد[1]، وتدَعُ النساءَ أيامى والأبناء يتامى والديار خراباً! فلما أتاهم كتابه كفّوا عن الطريق.

التعرّض للسلطان والردّ عليه

قالت الحكماء: من تعرّض للسلطان أرداه، ومن تطامن له تخطاه[2]. وشبهوه في ذلك بالريح العاصفة التي لا تضر بما لان لها من الشجر ومال معها من الحشيش. وما آستهدف لها من الدوح العِظام قَصَفَتْه. قال الشاعر:

إنّ الرياح إذا ما أعْصفتْ قصفَتْ ... عِيدانَ نَبْعٍ ولا يعْبأن بالرَّتَم[3]

وقال حبيب بن أوس، وهو أحسن ما قيل في السلطان:

---

(١) الطارف والتليد: المال المحدث والموروث.

(٢) تطامن له: انخفض.

(٣) سبقت هذه العبارة في صفحة سابقة مع تغيير يسير.

هو السَّيْل إن واجهْتَه ٱنْقَدتَ طَوْعَه وتَقتاده مِن جانبَيه فيَتبَعُ

وقال آخر:

هو السَّيف إن لاينتهُ لان مَتْنُه وحَدَّاهُ إن خاشنْتَهُ خَشِنان

بين معاوية وأبي الجهم:

وقال معاوية لأبي الجهم العدويّ: أنا أكبر أم أنت؟ فقال: لقد أكلتُ في عُرس أمِّك يا أمير المؤمنين. قال: عند أيِّ أزواجها؟ قال: عند حفص بن المُغيرة. قال: يا أبا الجهم، إيّاك والسلطان، فإنه يغضب غضب الصبيّ ويأخذ أخذَ الأسد.

وأبو الجهم هو القائل في معاوية:

ونُغْضِبه لنَخْبُرَ حالتَيه فنخبُر منهما كرَماً ولِينَا
نَميلُ على جَوانبه كأنّا نَميلُ إذا نَميل على أبينا

معاوية وعقيبة الأسدي:

وقدم عُقَيبة الأسدي على معاوية ودفع إليه رقعة فيها هذه الأبيات:

مُعَاويَ إنَّنا بشرٌ فأَسْجِحْ فلسنا بالجبال ولا الحديدِ[1]
أكلتُمْ أرضَنا فجرَدْتموها فهل مِن قائمٍ أو من حصيدِ
أتَطْمَع بالخُلود إذا هلكنا وليس لنا ولا لك من خُلُودِ
فهبْنا أمةً هلكت ضَياعاً يَزيدُ أميرُها وأبو يزيدِ

فدعا به معاوية فقال: ما جرّأك عليّ؟ قال: نَصَحْتُك إذا غَشوك، وصدَقْتُك إذ كذَبُوك. فقال: ما أظنكَ إلا صادقاً، وقضى حوائجه.

ومن حديث زياد عن مالك بن أنس قال: خطب أبو جعفر المنصور، فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، اتقوا الله. فقام إليه رجل من عُرض الناس فقال:

---

(١) فأسجح: فأحسن.

أذكرك الله الذي ذكّرتنا به يا أمير المؤمنين. فأجابه أبو جعفر بلا فكرة ولا رويّة: سمعاً وطاعة لمن ذكَّر بالله، وأعوذ بالله أن اذكَّر به وأنساه فتأخذني العزة بالإثم لـ﴿قد ضَلَلتُ إذاً وما أنا من المهتدين﴾[1]. وأما أنت، فوالله ما الله أردتَ بها، ولكن ليقال: قال فعوقبَ فصبر! وأهْوِنْ بها لو كانت، وأنا أحذّرُكم أيها الناس أختها؛ فإن الموعظة علينا نزلت، ومنا أخِذَت. ثم رجع إلى موضعه من الخطبة.

الرشيد ومعترض عليه في خطبته:

وقام رجل إلى هارون الرشيد وهو يخطب بمكة، فقال: ﴿كبُرَ مَقْتاً عندَ الله أن تَقُولُوا مَالاَ تَفْعَلُون﴾[2] فأمر به فضُرب مائة سوط، فكان يئنُّ الليل كله ويقول: الموت! الموت. فأخبر هارون أنه رجل صالح، فأرسل إليه فاستحلّه، فأحلّه.

الوليد ومعترض عليه في خطبته:

المدائني قال: جلس الوليد بن عبد الملك على المِنبر يومَ الجمعة حتى اصفرّت الشمس، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إن الوقت لا ينتظرك، وإنّ الرب لا يَعذِرُك. قال: صدقت، ومَن قال مثلَ مقالتك فلا ينبغي له أن يقوم مثل مَقامك. من ها هنا من أقرب الحرس يقوم إليه فيضربُ عنقَه؟

مخاطر بين معاوية وزياد:

الرياشيّ عن الأصمعي قال: خاطر رجل رجلاً أن يقوم إلى معاوية إذا سجد فيضع يدَه على كَفَله ويقول: سبحان الله يا أمير المؤمنين! ما أشبه عَجيزتَك بعجيزةِ أمّك هند! ففعل ذلك. فلما انفتل معاوية عن صلاته قال:

يا بن أخي، إن أبا سفيان كان إلى ذلك منها أَمْيَل؛ فخذْ ما جعلوا لك. فأخذه.

---

(١) سورة الانعام. الآية ٥٦.

(٢) سورة الصف الآية ٣.

ثم خاطر أيضاً أن يقوم إلى زياد وهو في الخطبة فيقول له: أيها الأمير، من أبوك؟ ففعل. فقال له زياد: هذا يُخْبرك ـ وأشار إلى صاحب الشُّرْطة ـ فقدّمه فضَرَب عُنقَه. فلما بلغ ذلك معاوية قال: ما قتله غيري، ولو أدبتُه على الأولى ما عاد إلى الثانية.

وخاطر رجلٌ أن يقوم إلى عمرو بن العاص وهو في الخطبة فيقول: أيها الأمير، أمك؟ ففعل. فقال له: النابغةُ بنتُ عبد الله، أصابتها رماحُ العرب فبيعتْ فبعُكاظ، فاشتراها عبد الله بن جدعان للعاص بن وائل، فولدت فأنجبت، فإن كانوا جعلوا لك شيئاً فخذه.

بين معاوية وخريم:

دخل خُريم الناعم على معاوية بن أبي سفيان: فنظر معاوية إلى ساقَيه فقال: أيّ ساقين! لو أنهما على جارية! فقال له خريم: في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين! قال: واحدة بأخرى والبادىء أظلم.

تحلّم السلطان

على أهل الدين والفضل إذا اجترءوا عليه

أبو جعفر مع مالك وابن طاوس:

زياد عن مالك بن أنس قال: بعث أبو جعفر المنصور إليّ وإلى ابن طاوس؛ فأتيناه فدخلنا عليه، فإذا هو جالس على فُرُش قد نُضّدت، وبين يديه أنطاع قد بُسِطت، وجلاوزة[1] بأيديهم السيوف يضربون الأعناق، فأومأ إلينا أن آجلسا، فجلسنا. فأطرق عنا طويلا، ثم رفع رأسه والتفت إلى آبن طاوس فقال له: حدّثني عن أبيك. قال: نعم، سمعت ابي يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً

---

(١) الجلاوزة: الشرطة.

يوم القيامة رجلٌ أشرَكَه الله في حكمه فأدخل عليه الجَوْرَ في عدله » . فأمسك ساعة ؛ قال مالك: فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني من دمِه . ثم التفت إليه أبو جعفر فقال: عِظني يا بن طاوس قال: نعم يا أمير المؤمنين ، [إنّ] الله تعالى يقول ﴿ألم تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بعَادٍ . إرَمَ ذَاتِ العِمادِ . التي لم يُخْلَق مِثْلُهَا في البلادِ . وثمودَ الذينَ جابُوا الصَّخْرَ بالوادِ . وفِرْعَونَ ذِي الأوْتادِ . الذين طَغَوْا في البلادِ . فأكْثَرُوا فيها الفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّك سَوْطَ عَذَاب . إنّ رَبَّكَ لَبالمِرْصَادِ﴾ (١) قال مالك: فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني من دمه . فأمسك ساعة حتى اسوَدَّ ما بيننا وبينه ، ثم قال: يا بن طاوس ناولني هذه الدواة . فأَمْسَكَ عنه . ثم قال: ناولني هذه الدواة . فأمسك عنه ؛ فقال: ما يمنعك أن تناولنيها ؟ قال: أخشى أن تكتُب بها معصية لله فأكونَ شريكك فيها . فلما سمع ذلك قال: قُوما عني . قال ابن طاوس: ذلك ما كنا نبغي منذ اليوم .

قال مالك: فما زلتُ أعرفُ لابن طاوس فضلَه .

أبو هريرة ومروان حين أبطأ بالجمعة:

أبو بكر بن أبي شيبة قال: قام أبو هريرة إلى مروان بن الحكم وقد أبطأ بالجمعة فقال له: أتظل عند آبنة فلان تُـرَوِّحُـك بـالمَرَاوح وتَسقيـك الماء البـارد، وأبنـاء المهاجرين والأنصار يُصْهَرون من الحرّ؟ لقد هممت أن أفعل وأفعل، ثم قال: آسمعوا من أميركم .

بين أبي جعفر وابن أبي ذئب:

فرج بن سلام عن أبي حاتم عن الأصمعي قال: حدّثني رجل من أهل المدينة كان ينزل بشقّ بني زُرَيْق، قال: سمعت محمد بن إبراهيم يحدّث قال: سمعت أبا جعفر بالمدينة وهو ينظر فيما بين رجل من قريش وأهل بيت من المهاجرين بالمدينة ليسوا من

---

(١) سورة الفجر الآيات ٦ ـ ١٤ .

قريش؛ فقالوا لأبي جعفر: آجعل بيننا وبينه ابن أبي ذئب. فقال أبو جعفر لابن أبي ذئب: ما تقول في بني فلان؟ قال: أشرار من أهل بيتِ أشرار. قالوا: اسأله يا أمير المؤمنين عن الحسن بن زيد. وكان عامله على المدينة. قال: ما تقول في الحسن بن زيد؟ قال: يأخذ بالإحنة[1] ويقضي بالهوى. فقال الحسن: يا أمير المؤمنين، والله لو سألتَه عنْ نفسك لرماك بداهية أو وصفك بشرّ، قال: ما تقول فيّ؟ قال: أعْفِني. قال: لا بدّ أن تقول. قال: لا تعدلُ في الرعية، ولا تقسم بالسويّة. قال: فتغيْر وجهُ أبي جعفر. فقال ابراهيم بن يحي بن محمد بن علي صاحب الموصل: طَهِّرْني بدمه يا أمير المؤمنين. قال: آقعد يا بنيّ، فليس في دم رجل يشهد أن لا إله إلا الله طَهور. قال: ثم تدارك ابن أبي ذئب الكلامَ فقال: يا أمير المؤمنين، دعنا مما نحن فيه؛ بلغني أنّ لك ابناً صالحاً بالعراق، يعني المهدي قال: أما إنك قلت ذلك، إنه الصّوام القوّام البعيد ما بين الطرفين[2] قال: ثم قام ابنُ أبي ذئب فخرج، فقال أبو جعفر: أما والله ما هو بمُستوثَق العقل، ولقد قال بذات نفسه.

قال الاصمعي: ابن أَبي ذئب، من بني عامر بن لؤي، من أنفُسهم.

المأمون والحارث بن مسكين:

قال: ودخل الحارثُ بن مسكين على المأمون فسأله عن مسألة فقال: أقول فيها كما قال مالك بن أنس لأبيك هارون الرشيد، وذكر قوله فلم يُعجب المأمون. فقال: لقد تَيَّست فيها وتَيَّس مالك. قال الحارثُ بن مسكين: فالسامعْ يا أمير المؤمنين من التَّيسين أتْيَس؛ فتغيَّر وجه المأمون. وقام الحارثُ بن مسكين فخرج وتندّم على ما كان من قوله، فلم يستقرّ في منزله حتى أتاه رسولُ المأمون، فأيقن بالشر ولبس ثياب أكفانه؛ ثم أقبل حتى دخل عليه، فقرّبه المأمونُ من نفسه، ثم أقبل عليه بوجهه فقال له: يا هذا، إن الله قد أمر مَن هو خير منك بالإلانَة القول لمن هو شرٌّ مني، فقال

---

(١) الإحنة: العداوة والبغضاء.

(٢) بعد الطرفين: كناية عن شرف النسب.

لنبيه موسى ﷺ إذ أرسله إلى فرعون: ﴿فقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[١] قال: يا أمير المؤمنين، أبوء[٢] بالذنب، وأستغفرُ الرب. قال: عفا الله عنك، آنصرفْ إذا شئتْ.

المنصور وأبو سفيان الثوري:

وأرسل أبو جعفر إلى سُفيان الثَّوريّ، فلما دخل عليه قال: عِظني ابا عبدالله. قال: وما عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ فأعظك فيما جهلْتَ؟ فما وجد له المنصور جوابا.

أبو النضر وعامل للخليفة:

ودخل أبو النضر سالم مولي عمر بن عبدالله على عامل للخليفة، فقال له أبا النضر، إنّا تأتينا كتب من عند الخليفة فيها وفيها، ولا نجد بداً من إنفاذها، فما ترى؟ قال له أبو النضر؛ قد أتاك كتاب من الله تعالى قبل كتاب الخليفة؛ فأيُّهما اتبعتَ كنتَ من أهله.

ونظير هذا القول ما رواه الأعمش عن الشَّعبيّ. أنّ زياداً كتب إلى الحكم بن عمرو الغِفاريّ، وكان على الصائفة[٣]: إن أمير المؤمنين معاوية كتب إليّ يأمرني أن أصطفي له الصفراء والبيضاء، فلا تَقسم بين الناس ذهباً ولا فضة [واقسم ما سوى ذلك] فكتب إليه: «إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين. واللهِ لو أن السموات والأرض كانتا رَتقاً[٤] على عبد فآتقى اللهَ لجعل له منها مخرجا» ثم نادى في الناس فقسّم فيهم ما اجتمع له من الفيء.

ابن هبيرة والحسن البصري والشعبي:

ومثله قول الحسن حين أرسل إليه ابنُ هبيرة وإلى الشعبي فقال له: ما ترى أبا سعيدٍ في كُتب تأتينا من عند يزيد بن عبد الملك فيها بعضُ ما فيها، فإن أنفذنها

---

(١) سورة طه الآية ٤٤.
(٢) أبوء: أتحمل وأعترف.
(٣) الصائفة: الغزاة في الصيف.
(٤) التكملة في البيان والتبيين.

وافقتْ سخطَ الله، وإن لم أنفذها خشيت على دمي؟ فقال له الحسن: هذا عندك، الشعبيّ فقيه الحجاز. فسأله فَرَقّق له الشعبيّ وقال له: قارب وسدّد، فإنما أنت عبد مأمور، ثم التفت ابنُ هبيرة إلى الحسن وقال: ما تقول يا أبا سعيد؟ فقال الحسن: يا ابن هُبيرة، خَفِ الله في يزيدَ ولا تخف يزيد في الله. يا بن هبيرة، إن الله مانِعُكَ من يزيد وإن يزيدَ لا يمنعُك من الله. يا بن هبيرة، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فانظر ما كتبَ إليك فيه يزيدُ فأعرضه على كتاب الله تعالى، فما وافق كتابَ الله تعالى فأنفذه، وما خالف كتابَ الله فلا تُنفذه؛ فإن الله أولى بك من يزيد، وكتاب الله أولى بك من كتابه. فضرب ابن هبيرة بيده على كتف الحسن وقال: هذا الشيخ صَدَقَني وربّ الكعبة. وأمر للحسن بأربعة آلاف، وللشعبي بألفين؛ فقال الشعبي: رققنا فرقق لنا. فأما الحسن فأرسل إلى المساكين، فلما اجتمعوا فرّقها، وأما الشعبي فإنه قبلها وشكر عليها.

معاوية والأحنف في استخلاف يزيد:

ونظير هذا: قولُ الأحنف بن قيس لمعاوية حين شاوره في آستخلاف يزيد. فسكت عنه، فقال: مالك لا تقول؟ فقال: إن صدَقناك أسخطناك، وإن كذَبناك أسخطنا الله، فسُخْطُ أمير المؤمنين أهون علينا من سخط الله! فقال له: صدقت.

كتاب أبي الدرداء إلى معاوية:

وكتب أبو الدرداء إلى معاوية: أما بعد. فإنه مَن يلتمس رضا الله بسُخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومَن التمس رضا الناس بسخط الله وكَلَه الله إلى الناس.

كتاب عائشة إلى معاوية:

وكتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية: أما بعد فإنه من يعمل بمساخط الله يصرْ حامدُه من الناس ذاماً له. والسلام.

هشام وناصح نصحه بأربع:

أبو الحسن المدائني قال: خرج الزّهري يوماً من عند هشام بأربع، قيل له: وما هن؟ قال: دخل رجل على هشام فقال: يا أمير المؤمنين، احفظ عني أربع كلمات فيهن صلاحُ مُلكك واستقامة رعيتك. فقال: هاتهن. فقال: لا تَعِدَنّ عِدَةً لا تثق من نفسك بإنجازها. قال: هذه واحدة فهات الثانية. قال لا يَغُرّنّك المرتقَى وإن كان سهلا إذا كان المُنْحَدَرُ وعْرا. قال: هات الثالثة. قال: واعلم أن للأعمال جزاء فاتق العواقب. قال: هات الرابعة. قال: واعلم أن الأمور بَغَتَاتٌ فكن على حذر.

قعد معاوية بالكوفة يبايع الناس على البراءة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، نطيع أحياءكم ولا نتبرأ من موتاكم! فالتفت إلى المغيرة فقال له: هذا رجل فاسْتَوْص به خيرا.

عبد الملك والحارث في ابن الزبير:

وقال عبد الملك بن مروان للحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة: ما كان يقول الكذّاب في كذا وكذا؟ - يعني ابن الزبير -؛ فقال: ما كان كذابا. فقال له يحي بن الحكم: من أمّك يا حار؟ قال: هي التي تعلم. قال له عبد الملك: اسكت فهي أنجب من أمّك.

الوليد ابن عبد الملك والزهري:

دخل الزهري على الوليد بن عبد الملك، فقال له: ما حديث يحدّثنا به أهل الشام؟ قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال يحدّثوننا أن الله إذا آسترعى عبداً رعيةً كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات. قال: باطلٌ يا أمير المؤمنين، أنبيٌّ خليفةٌ أكرم على الله أم خليفةٌ غيرُ نبيّ؟ قال بل نبيّ خليفة. قال: فإن الله يقول لنبيه داود: ﴿يَا دَاوُدُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْض فَآحْكُمْ بَيْنَ النَّاس بالْحقِّ ولا تَتَّبع الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبيل ٱللهِ، إنّ ٱلّذينَ يَضِلّون عَنْ سَبيل اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ

بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ﴾[1] فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبيّ خليفة؛ فما ظنك بخليفة غير نبيّ؟ قال: إن الناس ليُغْروننا عن ديننا.

بين ابن يسار وعبد الملك:

الأصمعي عن إسحاق بن يحيي عن عطاء بن يسار قال: قلت للوليد بن عبد الملك: قال عمر بن الخطاب: «وددتُ أني خرجت من هذا الأمر كفافا[2] لا عليّ ولا لي». فقال: كذبت. فقلت: أوَ كُذِّبْتُ! فما أفلتَّ منه إلا بجُرَيْعَةِ الذَّقَن[3].

المشورة

قال النبي ﷺ: «ماندم من استشار، ولا شقي من استخار».

من كلام الله تعالى:

وقد أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بمشاورة من هو دونه في الرأي، فقال: ﴿وَشَاوِرهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾[4].

عثمان وثقيف لما همت بالارتداد:

ولما هَمَّتْ ثقيف بالارتداد بعد موت النبي ﷺ استشاروا عثمانْ بن أبي العاصي، وكان مطاعا فيهم؛ فقال لهم لا تكونوا آخر العرب إسلاما وأولهم ارتداداً؛ فنفعهم الله برأيه.

لبعض الحكماء فيما ينفع ويضر:

وسئل بعضُ الحكماء: أيُّ الأمور أشدّ تأييداً للفتى وأيها أشد إضراراً به؟ فقال: أشدها تأييدا له ثلاثة أشياء: مُشاورة العلماء، وتجربة الأمور، وحُسن التثبُّت.

---

(١) سورة ص الآية ١٧. (٢) الكفاف: اليسير الذي يكفي العيش.

(٣) مثل يضرب لمن نجا من التلف وقد أشرف عليه أي أن الموت قرب منه كقرب الجريعة من الذقن.

(٤) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

وأشدها إضرارا به ثلاثة أشياء: الاستبداد، والتهاون، والعجلة.

بين حكيم وحكيم:

وأشار حكيم على حكيم برأي فقبله منه. فقال له: لقد قلتَ بما يقول به الناصح الشفيق الذي يخلط حُلوَ كلامه بمرِّه، وسهله بوَعْره، ويحرّك الإشفاقُ منه ما هو ساكنٌ من غيره، وقد وعيتُ النصح وقبلتُه؛ إذ كان مصدره مِن عند مَن لا يُشَكُّ في مودّته وصفاء غيبه ونُصْح جيبه. وما زلتَ بحمد الله إلى الخير طريقاً واضحا، ومناراً بيِّنا.

للراسبي في الرأي الفطير:

وكان عبد الله بن وهب الراسبيّ يقول: إياكم والرأيَ الفطيرَ.[1] وكان يستعيذ بالله من الرأي الدّبريِّ[2] الخَمير.

لعلي في رأي الشيخ:

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: رأيُ الشيخ أحسن من مشهد الغلام.

لابن هبيرة يوصي ابنه:

وأوصى ابنُ هُبيرة ولده فقال: لا تكن أول مُشير، وإياك والهوى والرأي الفطير. ولا تشيرَنّ على مستبد [ولا على وغد ولا على مسكون ولا على لجوج، وخف الله في موافقة هوى المستشير][3]، فإن التماس موافقته لؤم، والاستماع منه خيانة.

---

(١) الرأي الفطير: الرأي المعجّل به دون الإعمال والتبصر.

(٢) الرأي الدبريّ: الذي يسنح بعد فوات الفرصه.

(٣) التكملة من البيان والتبيين للجاحظ.

لعامر بن الظرب:

وكان عامر بن الظرب حكيم العرب يقول: دعوا الرأي يغبّ حتى يختمر، وإياكم والرأي الفطير. يريد الأناة في الرأي والتثبّت فيه.

ومن أمثالهم في هذا قولهم: لا رأي لمن لا يُطاع.

للمهلب في الرأي:

وكان المهلَّب يقول: إن من البليّة أن يكون الرأي بيد من يملكه دون من يُبصره.

لعبسّيٍ في الحزم:

العتبي قال: قيل لرجل من عَبس: ما أكثر صوابَكم؟ قال: نحن ألف رجل وفينا حازمٌ واحد، فنحن نشاوره، فكأنّا ألفُ حازم.

قال الشاعر:

الرأي كـالليـل مُسـودٌّ جـوانبُــه   والليـل لا يَنْجَلِـي إلاّ بـإصبـاح
فاْضُممْ مصابيحَ آراءِ الرجـال إلى   مصباحِ رأيك تَزْدَدْ ضوءَ مِصبْـاح

عبد الله بن عبد الأعلى بعد سخط الخليفة عليه:

العتبي قال: أخبرني من رأى عبد الله بن عبد الأعلى وهو أول داخلٍ على الخليفة وآخرُ خارج من عنده. قال: ثم رأيته وإنه ليُتَّقَي كما يُتّقَى البعيرُ الأجرب، فقال لي: يا أخا العراق، اتّهمنا القومُ في سريرتنا، ولم يقبلوا منا علانَيتَنا، ومِن ورائهم وورائنا حكَمٌ عَدْل.

لسبيع في أهل اليمامة:

ومن أحسن ما قيل فيمن أشِير عليه فلم يقبل، قولُ سُبيع لأهل اليمامة بعد إيقاع

خالد بهم: يا بَني حَنيفة، بُعْداً لكم كما بَعِدَتْ عاد وثمود.[1] أما والله لقد أنبأتكم بالأمر قبل وقوعه، كأنّي أسمع جَرْسَه وأُبصر غَيْبَهُ، ولكنكم أبيتم النصيحة فاجتنيتم الندامة. وإنّي لمّا رأيتكم تتهمون النَّصِيح وتُسَفِّهون الحليم، استشعرتُ منكم اليأس وخِفتُ عليكم البلاء. والله ما منعكم الله التوبة ولا أخَذَكم على غِرّة،[2] ولقد أمهلكم حتى مَلّ الواعظُ ووهن الموعوظ، وكنتم كأنما يُعْنَى بما أنتم فيه غيرُكم، فأصبحتم وفي أيديكم من تكذيبي التصديق، ومن نصيحتي الندامة؛ وأصبح في يدي من هلاككم البكاء، ومن ذُلّكم الجزع. وأصبح ما فات غيرَ مردود، وما بقي غيرَ مأمون.

وقال القُطاميّ في هذا المعنى:

ومَعْصيةُ الشَّفيق عليك مّما ... يزيدك مرّةً مِنه اسْتِماعا

وخير الأمر ما استقبلتَ منه ... وليس بأن تَتَبَّعه اتَّباعا

كذاك وما رأيت الناسَ إلا ... إلى ما جرّ غاويهم سراعا

تراهم يغمزون من استركّوا ... ويجتنبون من صدق المِصَاعا[3]

وكان يقال: لا تستشر معلما ولا حائكا ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء.

وأنشد في المعلمين:

وكيف يُرجَّى العقلُ والرأي عند منْ ... يروح إلى أنثى ويغدو إلى طفل

وكان يقال: لا تشاور صاحب حاجة يريد قضاءها.

وكان يقال: لا رأي لحاقن ولا حازق: وهو الذي ضغطه الخف. ولا الحاقب وهو الذي يجد رزاً في بطنه.

ويُنشد في الرأي بعد فوته:

وعاجز الرأي مضياعٌ لفرصته ... حتى إذا فات أمرٌ عاتب القدرا

---

(١) بعداً لكم: أي الهلاك لكم. (٢) الغرّة: الغفلة.

(٣) المصاع: المقاتلة والمجالدة بالسيف.

شعر للمؤلف:

ومن قولنا في هذا المعنى:

فَلِئِنْ سَمِعتَ نصيحتي وعَصيتها   مَا كُنتُ أولَ ناصِحٍ مَعْصِيِّ

وقال حبيب في بني تغلب عند إيقاع مالك بن طوق بهم:

لَمْ يألُكم مالكٌ صَفحاً ومَغْفرةً   لوْ كانَ ينْفخ قيْنُ الحَيّ في فَحم[1]

حفظ الأسرار

قالت الحكماء: صدرك أوْسَعُ لسرْك من صدر غيرك.

وقالوا: سرّك من دمك. يعنون أنه ربّما كان في إفشائه سَفْكُ دَمك.

وكتب عبدُ الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف:

ولا تُفْش سِرَّك إلاّ إليك   فإنّ لكُلِّ نَصِيحٍ نَصِيحَا

وإنّي رَأيْتُ غُواةَ الرجَال   لا يَتْركونَ أدِيماً صَحِيحَا[2]

وقالت الحكماء: ما كنتَ كاتِمَه من عَدُوِّكَ فلا تُطلع عليه صديقك.

وقال عمرو بن العاص: ما استودعتُ رجلا سراً فأفشاه فلُمْتُه؛ لأني كنت أضيقَ صدراً منه حين استودعتُه إياه حين أفشاه.

وقال الشاعر:

إذا ضاق صدر المرء عن سرّ نفسه   فصدر الذي يُستْودع السرّ أضيقُ

لبعض الأعراب:

قيل لأعرابي: كيف كتمانك للسر؟ قال: أجحد المُخْبر وأحلف للمستخبر.

---

(١) يألكم: يقصّر عنكم، والقين: الحداد.

(٢) الأديم: الجلد، يريد أنّ الغواة يمزّقون أعراض الناس.

وقيل لآخر: كيف كتمانك للسر؟ قال: ما قلبي له إلا قبر.

وقال المأمون: الملوك تحتمل كل شيء إلا ثلاثة أشياء: القدْح في الملوك، وإفشاء السر، والتعرّض للحُرَم.

وقال الوليد بن عُتبة لأبيه: إن أمير المؤمنين أَسرّ إليّ حديثا، أفلا أُحدثك به؟ قال لا، يا بني، إنه من كتم سره كان الخيار له، [ومن أفشاه كان الخيار عليه[1]] فلا تكن مملوكا بعد أن كنتَ مالكا.

ملك من ملوك العجم استشار وزيريه:

وفي التاج أنّ بعض ملوك العجم استشار وزيريه، فقال أحدهما: لا ينبغي للملك أن يَستشير منّا أحداً إلا خالياً به؛ فإنه أَمْوَتُ للسر، وأحزم للرأي، وأجدر بالسلامة، وأعفَى لبعضنا من غائلة بعض؛[2] فإن إفشاء السرّ إلى رجل واحدٍ أَوْثَقُ من إفشائه إلى اثنين، وإفشاءه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جماعة؛ لأن الواحد رَهنٌ بما أفشِيَ إليه، والثاني مطلِقٌ عنه ذلك الرهنَ. والثالث عِلاوة فيه. فإذا كان السر عند واحد كان أحرى أن لا يُظهره رغبة ورهبة، وإن كان عند اثنين دخلت على الملك الشبهة، واتسعت على الرجلين المَعاريض. فإن عاقَبَهما عاقَبَ اثنين بذنب واحد، وإن اتهمهما اتهم بريئاً بخيانةِ مجرم، وإن عفا عنهما كان العفوُ عن أحدهما ولا ذنب له، وعن الآخَر ولا حُجة معه.

لعمر بن ابي ربيعة في السر:

ومن أحسن ما قالت الشعراء في السر قولُ عمر بن أبي ربيعة:

فقالَتْ وأَرْخَتْ جانِبَ السِتْـر: إنما ... معي فتَحَدَّثْ غَيْرَ ذِي رقْبَةٍ أَهْلِـي
فقُلْتُ لها: مـا بي لهم مـن تَـرَقُّـبٍ ... ولٰكِنَّ سِـرِّي ليس يَحْمِلـه مِثْلِـي

(١) التكملة من عيون الأخبار.
(٢) الغائلة: المهلكة والشرّ والحقد.

وقال أبو مِحْجن الثقفي:

لا تسألي الناسَ عن مالي وكَثْرتـه　　وسائِلي الناسَ عن بَأْسِي وعن خُلُقِي
قَدْ أَطْعَن الطَّعْنَةَ النَّجْلاء عَنْ عُرُضٍ　　وأَكْتُمُ السّرّ فيه ضَرْبَـةُ العُنُـق[1]

وقال الحطيئة يهجو:

أَغِـرْبَـالاً إِذَا اُسْتُـرِدِعْـت سِـراً　　وكـانُـونـاً على المُتحَـدِّثِينَـا

الإذن

بين زياد وحاجبه:

قال زيادٌ لحاجبه عَجْلان: كيف تأْذَنُ للناس؟ قال: على البيوتات، ثم على الأسنان، ثم على الآداب. قال: فمن تُؤخّر؟ قال: مَن لا يَعْبَأ اللهُ بهم. قال: ومَن هم؟ قال: الذين يلبَسون كُسوةَ الشتاء في الصيف وكسوةَ الصيف في الشتاء.

لسعيد بن عتبة في بعده عن الآذن:

وكان سعيد بن عُتبة بن حُصين إذا حضر باب أحدٍ من السلاطين جلس جانباً؛ فقيل له: إنك لتَتَباعد من الآذِن جُهْدَك؛ قال: لأَنْ أُدْعَى من بعيد خيرٌ من أن أُقْصَى من قريب. ثم قال[2]:

وإنّ مَسيري في البلاد ومَنْـــزلي　　هـو المنـزلُ الأقْصى إذا لم أُقـرَّب
ولست وإن أُدْنيتُ يـومـاً ببـائـعٍ　　خَلاقـي ولا ديني ابْتغـاءَ التَّحبُّب
وقـد عـدّهُ قـومٌ تجارةَ رابـحٍ　　ويمنعني مـــن ذاك دِيني ومَنْصِبِي

وقال آخر:

رأيـتُ أُنـاسـاً يُسرعـون تَبـادراً　　إذا فتـح البـوابُ بـابـك إصْبَعَـا
ونحن جلـوسٌ سـاكنـون رزانـةً　　وحِلماً إلى أنْ يُفتحَ الباب أجمعـا[3]

---

(١) النجلاء: الواسعة.　　(٢) الشعر: للبعيث بن حريث، «انظر الحماسة».

(٣) الشعر للحصين بن المنذر «انظر البيان والتبيين».

بين معاوية وابن الأشعث في الدخول على الملوك:

ووقف الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث بباب معاوية، فأذِن للأحنف، ثم أذن لآبن الأشعث، فأسرع في مِشيته حتى تقدم الأحنف ودخل قبله. فلما رآه معاوية غَمّه ذلك وأحْنَقَه، فالتفت إليه فقال: والله إني ما اذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله، وإنا كما نلي أمورَكم نلي آدابَكم، ولا يزيد مُتزيّدٌ في خطوِه إلا لنقص يجده من نفسه.

وقال همام الرقاشي[1]:

أبْلِغْ أبـا مِسمَـعٍ عنّـي مغلغلـةً ... وفي العتـاب حَيـاةٌ بين أقـوام

قدّمْت قَبلي رجـالاً مـا يكـون لهم ... في الحقّ أنْ يلِجُوا الأبْواب قدّامى

لَوْ عُـدّ قبرٌ وقبرٌ كنـت أقـربَهـم ... قُربى وأبعدَهُـمْ مِـن مَنـزل الذّام

حتى جَعلتُ إذا ما حاجةٌ عَرَضـتْ ... بباب قصْركَ أدْلُوها بـأَقْـوام[2]

لمعاوية في آذنه:

قيل لمعاوية: إن آذِنَك يقدم معارفه في الإذن على وجوه الناس. قال: وما عليه؟ إنّ المعرفة لتنفع في الكلب العقور والجمل الصَّئول[3]؛ فكيف في رجل حَسيبٍ ذي كرم ودين؟

للحكماء في الوصول إلى المراد:

وقالت الحكماء: لا يُواظب أحد على باب السلطان فيُلقِي عن نفسِه الأنفة ويحتمل الأذى ويكظم الغيظ إلا وصل إلى حاجته.

وقالوا: من أدمن قَرْع الباب يوشك أن يُفْتَحَ له.

---

(١) في نسبة هذه الأبيات خلافٌ كبير بين ابن قتيبة والجاحظ وصاحب تاج العروس.

(٢) أدلوها باقوام: أستشفع بهم.

(٣) الصئول: المؤذي للناس.

وقال الشاعر[1]:

كم من فتًى قصَّرت في الرزق خُطوتهُ	أصبتُه بسهام الرزق قد فَلَجَا
إنّ الأمور إذا انسدّت مسالكها	فالصبر يفتق منها كلّ ما ارتتجا[2]
لا تيأسنّ وإن طالت مطالبةٌ	إذا استعنت بصبرٍ أن ترى فرجا
أخلِقْ بذي الصبْر أنْ يحظى بحاجَته	ومُدْمن القَرع لْلأبواب أن يَلجا[3]

بين رجل وروح:

ونظر رجل إلى رَوْح بن حاتم واقفاً في الشمس عند باب المنصور؛ فقال له: لقد طال وقوفك في الشمس. فقال: ذلك ليطولَ جلوسي في الظل.

بين رجل والحسن بن عبد الحميد:

ونظر آخر إلى الحسن بن عبد الحميد يُزاحم الناسَ على باب محمد بن سليمان، فقال: أمثلك يَرضى بهذا! فقال:

أُهِينُ لهن نفسي لأكْرمها بهم	ولا يُكرم النَّفسَ الذي لا يُهينُها

من كلام للهند:

وفي كتاب للهند: إن السلطان لا يقرّب الناس لقرب آبائهم ولا يبعدهم لبُعدهم، ولكن ينظر ما عند كل رجل منهم، فيُقرِّب البعيد لنفعه، ويُبعد القريبَ لضُرِّه. وشَبّهوا ذلك بالجُرَذِ الذي هو في البيت مجاور، فمن أجْل ضرِّه نُفي، والبازي الذي هو وحشيّ، فمن أجل نفعِه اُقتُني.

بين النبي ﷺ ومستأذن:

استأذن رجل على النبي ﷺ وهو في بيت فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرُج إلى هذا فَعلِّمه الاستئذان وقلْ له يقول: السلام عليكم، أأدخل»؟

---

(١) ينسب هذا الشعرلبشار بن برد، ولمحمد بن بشير على خلافٍ في ذلك.

(٢) أرتج: أقفل.	(٣) أخلق: أحسن وأحرى وأجدر، ويلج: يدخل.

وقال النبي ﷺ: « الاستئذان ثلاث، فإن أُذِن لك وإلا فارْجع ».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه. الأولى إذْن، والثانية مؤامرة، والثالثة عزمة، إما أن يأذنوا وإما أن يرجع.

الحجاب

زياد وحاجبه:

قال زياد لحاجبه: يا عجلان، إني وليتك حِجَابتي وعزلتك عن أربع: هذا المنادي إلى الله في الصلاة والفلاح، لا تحجبه عني فلا سُلطان لك عليه، وطارق الليل لا تحجبْه، فشر ما جاء به، ولو كان خيراً، ما جاء به تلك الساعة؛ ورسول الثغر[1] فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عملَ سنة، فأدْخِلْه عليّ وإن كنتُ في لحافي، وصاحب الطعام، فإن الطعام إذا أعيد تسخينُه فَسَد.

ووقف أبو سفيان بباب عثمان بن عفان وقد آشتغل ببعض مصالح المسلمين فحجبه؛ فقال له رجل وأراد أن يُغريه: يا أبا سفيان ما كنت أرى أن تقف بباب مُضَريّ فيحجُبَك، فقال أبو سفيان: لا عدِمْتُ مِن قومي من أقف ببابه فيحجبني.

أبو الدرداء بباب معاوية:

استأذن أبو الدرداء على معاوية فحجبه؛ فقال: من يَغْشَ أبواب الملوك يَقُمْ ويقعد، ومن يجد باباً مُغلقاً يجد إلى جانبه باباً مفتوحاً، إن دَعا أُجيبَ وإن سأل أُعْطِي.

قال محمود الوراق:

شاد الملوك قصورهم فتحصّنوا ... من كلّ طالب حاجةٍ أو راغب
غالَوْا بأبْواب الحديد لِعزِّها ... وتنوَّقوا في قُبْح وجه الحَاجب[2]

---

(١) الثغر: الفرجة في الجبل أو غيره مقابل الأعداء.

(٢) غالوا: أكثروا المغالاة، وتنوّقوا: أي بالغوا.

فـإذا تَلطَّـف للـدُّخُـول عليهـم راجٍ تَلقّـوْه بـوعـدٍ كـاذِبِ
فاطلُب إلى ملك الملوك ولا تكـن بَادِي الضراعَة طالباً مِـنْ طـالـبِ

بين سعيد بن مسلم وأبي هفان في الحجاب:

سعيد بن مسلم، قال: كنت والياً بإرمينية، فغبر[1] أبو هفان أياماً ببابي. فلما وصل إليّ مَثَل قائماً بين السماطين وقال: والله إني لأعرف أقواماً لو علموا أن سَفّ التراب يُقيم من أوَدِ[2] أصلابهم لجعلوه مُسْكَةً لأرماقهم إيثاراً للتنزه عن عيش رقيق الحواشي. أما والله إني لبعيد الوثبة، بطيءُ العطفة. إنه والله لا يثنيني عنك إلا ما يصرفك عني، ولأَنْ أكون مُقِلاً مُقَرّباً أحَبُّ إليّ من أن أكون مُكْثِراً مبعداً؛ والله ما نسأل عملاً لا نضبطه، ولا مالاً إلا ونحن أكثرُ منه؛ وهذا الأمر الذي قد صار إليك وفي يديك قد كان في يدي غيرك، فأمسوا والله حديثاً، إنْ خيراً فخير إن شراً فشر. فتحببْ إلى عباد الله بحسن البشر ولين الجانب وتسهيل الحجاب، فإن حُبّ عبادِ الله موصولٌ بحب الله، وبُغضَهم موصولٌ ببغضه، لأنهم شهداء الله على خلقه، ورقباؤه على من اعْوَجَّ عن سبيله.

بين أبي مسهر وابن عبد كان:

أبو مسهر قال: أتيت أبا جعفر محمد بن عبد الله بن عبدكان فحجبني، فكتبت إليه:

إنّـي أتيتـك للتّسليم أمس فلمْ تأذَنْ عليك لي الأسْتَارُ والحُجُـبُ
وقـد علمـتَ بـأنّـي لم أردَّ ولا واللهِ مـا رُدّ إلا العِلْـمُ والأدبُ

فأجابني ابن عبدكان، فقال:

لو كنت كافأتَ بالحُسنى لقلت كما قال ابنُ أَوْسٍ وفيما قَـالـه أدب[3]
«ليس الْحِجابُ بمُقصٍ عنك لي أمَلاً إنّ السماءَ تُـرجَّـي حِين تحْتَجـبُ»

---

(١) غبر: مكث وبقي. (٢) الأود: الاعوجاج.
(٣) هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي.

ابن منصور ورجل من خاصته حجب عنه:

وقف بباب محمد بن منصور رجلٌ من خاصته فَحُجب عنه؛ فكتب إليه:

على أي باب أطْلب الإذنَ بعدما ... حُجبتَ عَن الباب الذي أنا حاجبُهْ

وقف أبو العتاهية إلى باب بعض الهاشميين فطلب الإذن، فقيل له: تكون لك عودة، فقال:

لئنْ عدتُ بعد اليوم إنّي لظالمٌ ... سأصْرفُ وجهي حَيثُ تُبغي المكارمُ

متى يَظفر الغادِي إليك بحاجةٍ ... ونِصفُك محجوبٌ ونصفك نائمُ؟

ونظير هذا المعنى للعتابي حيث يقول:

قدْ أتيْناك للسّلام مراراً ... غيرَ من منّا بذاك المزار

فإذا أنت في اسْتِتارك باللّيـ ... ـل على مثل حالنا بالنهار

أبو دلف ورجل حجب عنه:

وقف رجل بباب أبي دُلَف، فقام به حينا لا يصل إليه، فتلطّف في رقعة وأوصلها إليه، وكتب فيها:

إذا كان الكريمُ له حِجابٌ ... فما فضل الكريم على اللئيم؟

فأجابه:

إذا كان الكريمُ قليلَ مال ... ولم يعذرْ تعلّل بالحجاب

وأبوابُ الملوكِ مُحَجّباتٌ ... فلا تَسْتعْظمنْ حُجّابَ بابي

وقال حبيب الطائي في الحجاب:

سأترُك هذا الباب ما دامَ إذنهُ ... على ما أرى، حتى يلين قليلا

فما خاب من لم يأته متعمّداً ... ولا فاز مَن قدْ نالَ مِنه وصولا

ولا جُعلتْ أرزاقنا بَيد أمريءٍ ... حمى بابه من أن يُنال دُخُولاَ

إذا لم نجد للإذن عندك مَوْضعاً ... وَجدنا إلى ترك المجيء سبيلا

وأنشد أبو بكر العطار:

مالك قد حُلت عن وَفائكَ واستبدلتَ يا عمروُ شيمةً كدِرَهْ
لسْتُم ترجَّوْن للحساب ولا يومَ تكونُ السماءُ منْفطرهْ[1]
قد كان وجهي لديك معرفةً فاليوم أضْحَى باباً من النكِرَهْ

وقال غيره:

أتيتكَ للتسليم؛ لا أنني امرؤٌ أَرَدْتُ بإتيانِيكَ أسبابَ نائلِكْ
فألفيت بواباً ببابكَ مُغْرَماً بهدِمِ الذي وطَدتَهُ من فضائِلك[2]
وقد قال قومٌ: حاجبُ المرء عاملٌ على عرضِهِ؛ فاحذَرْ خيانةَ عاملكْ

وقال الحسن بن هانيء:

أيها الراكب المُغِذّ[3] إلى الفضل ترفّقْ فدونَ فضلِ حِجابُ
ونعَمْ هَبْكَ قد وصلت إلى الفضْل فهل في يديكَ إلا الترابُ!

وقال آخر - وهو محمود البغدادي:

حِجابكَ من مَهابته عسيرٌ وخيرك في اليدين غَدا يسيرَا
خرجتُ كما دخلتُ إليكَ إلاّ تُراباً صارَ في خُفَّي كثيرَا

وقال العتابي:

حِجابُك ليس يشبهه حِجابُ وخيرك دون مَطلِبه السَّحابُ
ونومكَ نومُ من ورد المنايا فليس له إلى الدنيا إيابُ

وقال غيره:

أنا بالباب واقفٌ منذ أصبحتُ على السَّرْج مُمسِكاً بعناني
وبعين البَوّاب كلُّ الذي بي ويراني كأنهُ لا يراني

---

(١) منفطرة: متشققة. (٢) وطّدته: دعمته وأرسيت قواعده.

(٣) المغذّ: المسرع.

وقال غيره:

إذا ما أتيناهُ في حاجةٍ رَفعنا الرقاع له بالقَصبْ
لَهُ حاجبٌ دُونهُ حاجبٌ وحاجبُ حاجبه مُحتَجبْ[1]

بين أبي بشير وبعض كتاب العسكر:

قال أبو بشير[2]: حجبني بعض كتاب العسكر، فكتبت إليه: إن من لم يرفعه الإذن لم يضعه الحجابُ، وأنا أرفعك عن هذه المنزلة، وأرغب بك عن هذه الخليقة. وكل من قام في منزلك، عظم قدرهُ أو صَغُر. وحاولَ حِجَابَ الخليفة، أمْكَنه؛ فتأمَّلْ هذه الحال وانظر إليها بعين الفهم ترها في أقبح صورة وأدنى منزلة.

لابن عبد ربه:

وقد قلت في ذلك:

إذا كنت تأتي المرءَ تعظم حقّهُ ويجهل منك الحقّ فالهجر أوسعُ
وفي النّاس أبدالٌ وفي الهجر راحةٌ وفي النّاس عمّن لا يُواتيك مقنع
وإنّ امْرءًا يَرضى الهوان لِنفسه حَريٌّ بجدع الأنف والأنف أشنعُ[3]

وقال آخر:

يا أبا مُوسَى وأنْت فتًى ماجدٌ حُلْوٌ ضَرَائِبُهُ[4]
كن على منهاج مَعرفةٍ إنّ وجه المرءِ حاجبُهُ
فبه تبدو محاسنه وبه تبدو معايبهُ

---

(١) كذا في نهاية الأرب، والبيت هناك منسوب للعماني.

(٢) هو أبو بشير رازم مولى خالد بن عبد الله القسري وفي الأصول أبو اليسير.

(٣) جدع الأنف: قطعه وإرغام صاحبه.

(٤) ضَرَائِبُهُ: سجاياه.

وأنشد حُسين الجمل، وبَكَر إلى باب سليمان بن وهب فحجبه الحاجب وأدخل ابن سَعْوة وحَمدَويه:

ولَعمري لئنْ حُجبْنا عَن الشَّيـ - ـخ فلا عن وجهِ هناك وجيهِ
لا ولا عن طعامه التافِه النَّزْ ر الذي حولهُ لطامُ بَنيه[1]
بل حُجبنا به عن الخسْف والمسـ - ـخ وذاكَ التَّبْريق والتَّمويهِ
فَجزَى اللهُ حاجباً لك فظّاً كلَّ خيْرٍ عنّا إذا يَجْزيهِ
إنّ ذَبْحي نَذالَةً قد تأتّي مِنْ صباحي بقُبح تِلك الْوُجُوهِ

وقال أحمد بن محمد البغدادي في الحسن بن وهب الكاتب:

ومُسْتنبِ عن الحسن بن وهب وعَمّا فيه مِنْ كرمٍ وخير[2]
أتاني كيْ أُخبّره بعلْمي فقلتُ له سقطتَ على خبير
هوَ الرّجلُ المهذّبُ غير أنيّ أراهُ كثيرَ إرْخاءِ السُّتُورِ
وأكْثرُ ما يُغنّيه فتاهُ حُسَيْن حينَ يَخلو بالسُّرُور
«ولولا الريحُ أُسمع أهْلُ حَجْرِ صليلَ البيْض تُقرع بالذُّكور»[3]

ومن قولنا في هذا المعنى:

ما بالُ بابكَ محروساً ببوّاب يَحْميه منْ طارقٍ يأتي ومُنتاب[4]
لا يحتجب وجهكَ الممقوتُ عَنْ أحدٍ فالمقتُ يحْجُبُه من غير حُجّاب[5]
فاعْزلْ عن الباب مَن قد ظلَّ يحجبه فإنّ وجهكَ طلّسْمٌ على الباب[6]

وقف حبيب الطائي بباب مالك بن طوق فحجب عنه؛ فكتب إليه يقول:

قل لابن طَوْقٍ رَحَى سَعدٍ إذا خَبطت نَوائبُ الدَّهْر أعْلاها وأسْفلها[7]

---

(١) النّزر: القليل من كلّ شيء. (٢) الخير: الكرم والشرف.

(٣) هذا البيت لمهلهل بن ربيعة، وحجر: هي اليمامة.

(٤) الطارق: الضيف الذي يطرق ليلاً، والمنتاب: القاصد.

(٥) المقت: البغض.

(٦) الطّلسم: خطوط وأعداد يستعملها السحرة.

(٧) رحى سعد: أي سيدها الذي يدور عليه مدار آمرها، ويريد بسعد: بني سعد بن زهير بن جشم بن بكر قبيلة مالك بن طوق.

أصبْحت حاتمها جُوداً، وأحْنَفها حِلْماً، وكيِّسَها عِلْماً، ودَغْفَلَها[1]
مالي أرَى القُبةَ البَيضاءَ مُقْفلةً دُوني وقد طال ما اسْتَفْتَحْتُ مَقْفَلها
أظنُّها جَنَّةَ الفِرْدوْس مَعْرضةً وليس لي عملٌ زَاكٍ فأَدْخُلها

باب الوفاء والغدر

بين مروان وعبد الحميد الكاتب:

قال مروان بن محمد لعبد الحميد الكاتب حين أيقن بزوال مُلكه: قد احتجتَ إلى أن تصير مع عدّوي وتُظهر الغدرَ بي؛ فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك تدعوهم إلى حسن الظنّ بك، فإن استطعتَ أن تنفعني في حياتي، وإلا لم تعجز عن حفظ حُرمتي بعد مماتي. فقال عبد الحميد: إن الذي أمرتَ به أنفعُ الأشياء لك وأقبحها بي، وما عندي غير الصبر معك حتى يفتح الله عليك أو أُقتل معك. وأنشأ يقول:

أُسِرُّ وفاءً ثم أُظهر غدرةً فمن لي بعذرٍ يُوسع الناسَ ظاهرُهْ

عبد الملك بعد قتله ابن سعيد:

أبو الحسن المدائني قال: لما قَتَل عبدُ الملك بن مروان عمرو بن سعيد بعد ما صالحه وكتب له أماناً وأشهد شهوداً. قال عبد الملك بن مروان لرجل كان يستشيره ويُصدر عن رأيه إذا ضاق به الأمر: ما رأيك في الذي كان مني؟ قال: أمرٌ قد فات دركه[2]! قال: لتقولنّ! قال حَزْمٌ لو قتلتَه وحَيِيت. قال: أولستُ بحيّ؟ فقال: ليس بحيّ مَن أوقفَ نفسه موقفاً لا يُوثَق له بعهد ولا بعقْد. قال عبد الملك: كلام لو سَبَقَ سماعُه فِعْلي لأمسكْت.

---

(١) يعني: حاتماً الطائي، والأحنف بن قيس، والكيس بن أبي الكيس المحدث، أو زيد بن الكيس النمري النسّابة، ودغفل بن حنظلة الشيباني النسابة.

(٢) دركه: نيله وإدراكه.

أبو جعفر وابن هبيرة:

المدائني قال: لما كتب أبو جعفر أمان ابن هبيرة واختلف فيه الشهود أربعين يوماً[1] ركب في رجال معه حتى دخل على المنصور، فقال: إن دولتكم هذه جديدة، فأذيقوا الناس حلاوتها وجنّبوهم مرارتها، لتسرعَ محبتُكم إلى قلوبهم ويَعْذُب ذكرُكم على ألسنتهم، وما زلتُ منتظراً لهذه الدعوة. فأمر أبو جعفر برفع الستر بينه وبينه، فنظر إلى وجهه وباسطه بالقول حتى اطمأنّ قلبه. فلما خرج قال أبو جعفر لأصحابه: عجباً من كل من يأمرني بقتل مثل هذا! ثم قتله بعد ذلك غدراً.

أبو جعفر وسلم في قتل أبي مسلم:

وقال أبو جعفر لسَلْم بن قُتيبة: ما ترى في قتل أبي مسلم؟ قال: لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، قال: حسبك الله أبا أمية.

قال أبو عمرو بن العلاء: كانت بنو سعد بن تميم أغدرَ العرب، وكانوا يُسمون الغَدر في الجاهلية كيسان، فقال فيهم الشاعر:

إذا كنتَ في سَعدٍ وخالُك منهمُ ... غريباً، فلا يَغررْك خالك مِنْ سعْد
إذا ما دعوْا كَيْسانَ كانت كهولهم ... إلى الغَدر أدْنى من شبابهم المُرْدِ

الولاية والعزل

قال النبي ﷺ: «ستحرصون على الإمارة ثم تكون حسرة وندامة؛ فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة».

لابن شعبة في حب الولاية وكراهيتها:

وقال المغيرة بن شعبة: أحب الإمارة لثلاث وأهجرها لثلاث: أحبها لرفع

(١) لما هم أبو جعفر أن يكتب الأمان لابن هبيرة يزيد بن عمر الذي كان عاملاً لمروان بن محمد آخر ملوك بني أمية على العراق، مكث يشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى رضيه ابن هبيرة.

الأولياء، ووضع الأعداء واسترخاص الأشياء. وأكرهها لـروعـة البريـد، ومَـوْت العزل[1]، وشماتة العدوّ.

بين ابن شبرمة وأبيه في موكب طارق:

وقال وَلَدُ ابن شُبرُمة القاضي: كنت جالساً مع أبي قبل أن يلي القضاء. فمرّ به طارقُ بن أبي زياد في موكب نبيل، وهو والي البصرة، فلما رآه أبي تنفس الصعداء وقال:

أراهـا وإنْ كـانـت تحَبُّ كـأنها ... سَحَائبُ صَيفٍ عنْ قَريب تقَشَّعُ[2]

ثم قال: اللهم لي ديني ولهم دنياهم: فلما ابتُلي بالقضاء قلت له: يا أبت، أتذكر يوم طارق؟ قال: يا بنيّ، إنهم يجدون خلفاً من أبيك، وإن أباك لا يجد خلفاً منهم: إن أباك حَط في أهوائهم، وأكل من حلوائهم!

لابن الحسن في رجل غيرته الولاية:

قيل لعبد الله بن الحسن: إنّ فلاناً غيّرته الولاية. قال: من وَلِيَ ولاية يراها أكبرَ منه تغيّر لها، ومن ولي ولاية يرى نفسه أكبر منها لم يتغيّر لها.

بين عمر والمغيرة حين عزله:

ولما عَزل عمرُ بن الخطاب المُغيرة بن شعبةَ عن كتابة أبي موسى، قال له: أعَنْ عجز أم خيانة يا أمير المؤمنين؟ قال: لا عن واحدة منهما، ولكني أكره أن أحمل فضل عقلك على العامة.

دعوة ابن عمر على زياد:

وكتب زياد إلى معاوية: قد أخذتُ العراق بيميني وبقيت شمالي فارغة ـ يُعرِّض له

---

(١) العزل: الاقصاء عن الولاية.

(٢) تقشع: تزول وتنكشف عمّا تحجبه.

بالحجاز ـ فبلغ ذلك عبدَ الله بن عمر، فرفع يده إلى السماء وقال: اللهم اكفنا شِمالَ زياد: فخرجت في شماله قرحة فقتلته.

بين ابن الخطاب وأبي هريرة:

ولقي عمر بن الخطاب أبا هريرة، فقال له: ألا تعمل؟ قال: لا أريد العمل. قال: قد طلب العملَ مَن هو خير منك يوسف عليه الصلاة والسلام، قال: ﴿اجْعَلني عَلى خَزَائِنِ الأرْض إني حَفِيظٌ عَلِيم﴾[1].

خالد القسري وتوليته بلالا:

المدائني قال: كان بلال بن أبي بردة ملازماً لباب خالد بن عبد الله القَسريّ، فكان لا يركب خالد إلا رآه في موكبه، فبرم به[2]، فقال لرجل من الشرط: إيت ذلك الرجلَ صاحبَ العمامة السوداء فقل له: يقول لك الأمير: مالزومُك بابي وموكبي؟ لا أوّليك ولاية أبداً. فأتاه الرسول فأبلغه. فقال له بلال: هل أنت مُبلغ عني الأمير كما بلغتني عنه؟ قال: نعم. قال: قل له: والله لئن وليتني لا عزلتني. فأبلغه ذلك. فقال خالد: مالَه قاتَله الله! إنه ليَعِدُ من نفسه بكفاية. فدعاه فولاّه.

بين عمر وطالب عمل:

وأراد عمر بن الخطاب أن يستعمل رجلاً، فبادر الرجل فطلب منه العمل، فقال له عمر: والله لقد كنتُ أردتُك لذلك، ولكن مَنْ طلب هذا الأمر لم يُعَنْ عليه.

بين النبي ﷺ والعباس:

وطلب العباسُ عم النبي ﷺ من النبي ولاية، فقال له: « ياعم، نفسٌ تحييها، خيرٌ من ولاية لا تحصيها ».

---

(١) سورة يوسف الآية ٥٥.

(٢) برم به: ملّه واستثقله.

بين النبي ﷺ ورجل طلب عملاً:

وطلب رجل من أصحاب النبي ﷺ عملاً، فقال له: «إنالا نستعين على عملنا بمن يريده».

وتقول النصارى: لا نختار للجثلقة إلا زاهداً فيها غير طالب لها.

لزياد في أغبط الناس عيشاً:

وقال زياد لأصحابه: من أغْبَطُ الناس عيشاً؟ قالوا: الأميرُ وأصحابه! قال: كلا، إنّ لأعواد المِنبر لهيبة، ولِقَرع لجام البريد لفَزْعة؛ ولكن أغبط الناس عيشاً رجل له دار يجري عليه كِراؤها[1]، وزوجةٌ قد وافقته في كَفاف من عيشه، لا يعرفنا ولا نعرفه؛ فإن عَرفنا وعرفناه أفسدْنا عليه آخرته ودنياه.

بين معاوية والمغيرة حين كبر:

وكتب المُغيرة بن شعبة إلى معاوية حين كبر وخاف أن يُستبدل به:

أما بعد، فقد كبرتْ سنّي، ورقّ عظمي، وآقترب أجلي، وسفَّهني سفهاء قريش، فرأيُ أمير المؤمنين في عمله مُوَفَّق.

فكتب إليه معاوية: أمّا ما ذكرتَ من كِبَر سنّك، فأنت أكلتَ شبابك؛ وأما ما ذكرت من اقتراب أجلك، فإني لو أستطيع دفعَ المنية لدفعتها عن آل أبي سفيان؛ وأما ما ذكرت من سفهاء قريش، فحلماؤها أحلّوك ذلك المحل؛ وأما ما ذكرت من العمل، فـ«ضَحِّ رُوَيْداً يدْرك الْهَيْجَا حَمَل»[2] وهذا مثل، وقع وقع تفسيره في كتاب الأمثال.

فلما انتهى الكتابُ إلى المُغيرة كتب إليه يستأذنه في القدوم عليه، فأذن له فخرج

---

(١) الكراء: الأجرة

(٢) حمل: هو حمل بن بدر من فرسان العرب والمثل في النهي عن العجلة، والأصل فيه النهي عن العجلة في الذبح، ثم استعمل في النهي عن العجلة عامة.

وخرجنا معه، فلما دخل عليه قال له: يا مُغيرة، كَبرت سنك ورقّ عظمك ولم يبق منك شيء، ولا أراني إلا مستبدلاً بك. قال المحدِّث عنه: فانصرف إلينا ونحن نرى الكآبة في وجهه، فأخبرنَا بما كان من أمره. قلنا له: فما تُريد أن تصنع؟ قال: ستعلمون ذلك. فأتى معاويةَ فقال له: يا أمير المؤمنين، إنّ الأنفس ليُغْدَى عليها ويُراح، ولستَ في زمن أبي بكر ولا عمر، فلو نصبتَ لنا عَلَماً من بعدك نصير إليه! فإني قد كنت دعوتُ أهل العراق إلى بيعة يزيد. فقال: يا أبا محمد، انصرف إلى عملك ورُمْ هذا الأمر لابن أخيك. فأقبلنا نركُض على النَّجُب[1]، فالتفت فقال: والله لقد وضعتُ رجلَه في ركاب طويل ألْقَى عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

باب من أحكام القضاة

قال عمرُ بن عبد العزيز: إذا كان في القاضي خمسُ خصال فقد كَمُل: عِلمٌ بما كان قبله، ونزاهةٌ عن الطمع، وحِلمٌ عن الخَصم، واقتداءٌ بالأئمة، ومشاورةٌ أهل العلم والرأي.

وقال عمر بن عبد العزيز: إذا أتاك الخصم وقد فُقِئت عينه، فلا تحكم له حتى يأتيَ خصمُه؛ فلعله قد فُقئت عيناه جميعاً.

كتاب عمر بن الخطاب إلى معاوية في القضاء:

وكتب عمر بن الخطاب إلى معاوية في القضاء كتاباً يقول فيه: إذا تقدّم إليك الخصمان فعليك بالبيّنة العادلة أو اليمين القاطعة، وإدناء الضعيف حتى يشتدّ قلبُه وينبسطَ لسانه، وتَعَاهَد الغريب! فإنك إن لم تتعاهده سقط حقّه ورجع إلى أهله؛ وإنما ضيّع حقَّه من لم يَرْفُق به: وآس بين الناس في لحظك وطرفك، وعليك بالصلح بين الناس مالم يتبين لك فصل القضاء.

---

(١) النجب: الإبل.

العُتبي قال: تنازع إبراهيمُ بن المهديّ هو وبُخْتَيْشوع الطبيب بين يدي أحمد بن أبي دواد القاضي في مجلس الحكْم في عَقار بناحية السَّواد؛ فزَرَى عليه ابن المهدي وأغلظ له بين يدي أحمد بن أبي دُواد، فأحفظه ذلك[1]، فقال: يا إبراهيم، إذا نازعت أحداً في مجلس الحكم فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتاً، ولا أشرت إليه بيدٍ، وليكن قصدك أمماً، وطريقُك نهجاً، وريحُك ساكنة؛ ووفِّ مجالس الحكومة حقوقها مع التوقير والتعظيم والتوجيه إلى الواجب؛ فإن ذلك اشْبهُ بك، وأشكل لمذهبك في مَحْتدِك[2] وعِظَم خَطرك؛ ولا تعجل؛ فرُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثاً. والله يعصمك من الزلل، وخَطل القول والعمل[3]، ويُتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل، إن ربك حكيم عليم. قال إبراهيم: أصلحك الله، أمرتَ بسَداد، وحَضضْتَ على رشاد. ولستُ بعائدٍ إلى ما يثلم مروءتي عندك[4]، ويُسقطني من عينك، ويُخرجني عن مقادر الواجب إلى الاعتذار؛ فها أنذا معتذر إليك من هذه البادرة اعتـذارَ مُقِـرٍّ بذنبه، باخِع[5] بجُرْمِه وتلك عادةُ عندنا منك، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وقد وهبـتُ حقي من هذا العقار لبُخْتَيشوع! فليت ذلك يقوم بأرْشِ[6] الجناية؛ ولن يَتْلَـفَ مـالٌ أفاد موعظة، وبالله التوفيق.

كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء:

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري، رواها ابن عُيينة: أما بعد فإنّ القضاء فريضةٌ مُحكمة، وسُنَة متّبعة؛ فافهم إذا أُدْلي إليك الخصم؛ فإنه لا ينفع تَكَلّمٌ بحق لا نفاذ له، آس بين الناس في مجلسك ووجهك؛ حتى لا يطمع شريف في حَيْفك[7] ولا يخاف ضعيفٌ من جَوْرك. البينةُ على من آدّعى واليمينُ على من أنكر

---

(١) أحفظه: وجد عليه. (٢) المحتد: الأصل.
(٣) الخطل: الفساد. (٤) يثلم: يعيب وينقص.
(٥) باخع: متذلّل معترف. (٦) الأرش: الدية.
(٧) الحيف: الظلم.

والصلح جائز بين المُسلمين إلا صلحاً أحَلَّ حراماً أو حَرَّمَ حلالاً. ولا يمنعْك قضاءٌ قضيت به بالأمس ثم راجعتَ فيه نفسك وهُدِيتَ فيه لرشدك أن ترجع عنه؛ فإن الحق قديم والرجوع إليه خير من التمادي على الباطل. الْفَهْمَ الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما لم يبلغك به كتاب الله ولا سنة نبيه ﷺ. واعرف الأمثال والأشباه، وقِس الأمورَ عند ذلك ثم آعمد إلى أحَبِّها عند الله ورسوله وأشبهها بالحق؛ واجعل للمدعي أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بيّنته أخذتَ له بحقه وإلا وجّهت عليه القضاء؛ فإن ذلك أجلى للعمَى وأبْلَغُ في العُذر. والمسلمون عُدول[1] بعضهم على بعض، إلا مجلوداً في حَدّ، أو مُجَرَّباً عليه شهادةُ زور، أو ظنيناً في ولاء أو قَرابة أو نَسب؛ فإنّ الله تَولَّى منكم السرائر، ودَرَأ[2] عنكم بالبينات والأيمان؛ ثم إياك والتأذّيَ بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحقوق التي يُوجب اللهُ بها الأجر ويُحسن بها الذخر، فإنه من تَخْلُصُ نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس، ومن تَزَيَّنَ للناس بما يعلم اللهُ خِلافَه منه هَتَكَ اللهُ ستره.

وله أيضاً يوصيه:

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: أما بعد؛ فإنّ للناس نُفرةً عن سلطانهم؛ فاحذر أن تدركني وإيّاك عَمياء مجهولة، وضغائنُ محمولة، وأهواء مُتَّبعة، ودُنيا مؤثرة. أقم الحدود واجلس للمظالم ولو ساعة من النهار وأخِف الفُسّاق واجعلهم يداً يداً ورجْلا رجْلا، وإذا كانت بين القبائل نائرة[3] فنادوا يا لَفُلان! فإنما تلك نجوى من الشيطان، فاضْرِبْهم بالسيف حتى يَفيئوا[4] إلى أمر الله وتكونَ دَعَواتُهم إلى الله والإسلام وَاستدِم النعمةَ بالشكر، والطاعة بالتألُّف، والمقدرةَ بالعفو والنُّصرةَ بالتواضع والمحبةِ للناس. وبلغني أن ضَبَّةَ تنادى: يا لَضَبّة. والله ما علمتُ أن ضبة ساق الله بها خيراً قط ولا صرف بها شرّا. فإذا جاءك كتابي

---

(١) العدول: الأعباء والأعمال. (٢) درأ: منع وأبعد.

(٣) النائرة: العداوة الشديدة. (٤) يفيئوا: يذعنوا.

هذا فأنهكهم عقوبة حتى يَفْرَقُوا إن لم يفقهوا، وألصق بغَيلان بن خَرشة مَن بينهم: وعُدْ مَرْضَى المسلمين، وآشهد جنائزهم، وباشرْ أمورهم، وافتح بابك لهم؛ فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلَهم حملا وقد بلغ أميرَ المؤمنين أنه فَشت لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومَركبك ليس للمسلمين مثلُها؛ فإيّاك يا عبد الله أن تكون كالبهيمة: هَمُّها في السِّمَنِ والسِّمَنُ حَتْفُها. وآعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيتُه، وأشقى الناس من يشقى به الناس. والسلام.

ابن الخطاب وابن العاص والغزو في البحر:

أراد عمر بن الخطاب أن يغزو قوماً في البحر، فكتب إليه عمرو بن العاص وهو عاملُه على مصر: يا أمير المؤمنين، إنّ البحر خلق عظيم، يركبه خلق صغير، دُودٌ على عود. فقال عمر: لا يسألني الله عن أحد أحمله فيه.

الشعبي قال: كنت جالساً عند شُريح إذ دخلت عليه آمرأة تشتكي زوجها وهو غائب وتبكي بكاء شديداً، فقلت: أصلحك الله، ما أراها إلا مظلومة. قال: وما علمك؟ قلت: لبكائها. قال: لا تفعل؛ فإن إخوة يوسف جاءُوا أباهُمْ عِشاءً يَبْكونَ، وهم له ظالمون.

الحسن ورجل رد إياس شهادته:

وكان الحسن بن أبي الحسن، لا يرى أن يرد شهادة رجل مسلم إلا أن يجرّحه المشهودُ عليه؛ فأقبل إليه رجل فقال: يا أبا سعيد، إنّ إياساً ردّ شهادتي. فقام معه الحسن إليه فقال: يا أبا وائلة، لِمَ رَددتَ شهادة هذا المسلم وقد قال رسول الله ﷺ: من صلى صلاتَنا واستقبل قِبلتنا فهو المسلم: له مالنا وعليه ما علينا؟ فقال: يا أبا سعيد، إن الله يقول: ﴿مِمَّن تَرضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾[1] وهذا لا يُرْضَى.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٢

من عدل شريح القاضي:

ودخل الأشعث بن قيس على شُرَيح القاضي في مجلس الحكومة، فقال: مرحباً وأهلاً بشيخنا وسيدنا، وأجلسه معه. فبينما هو جالس عنده إذ دخل رجل يتظلم من الأشعث. فقال له شُريح: قُم فاجلس مجلس الخصم وكلِّم صاحبك. قال بل أكلّمه من مجلسي. فقال له: لتَقُومَنَّ أو لآمُرَنّ من يُقيمك. فقال له الأشعث: لشدّ ما ارتفعت؟ قال: فهل رأيتَ ذلك ضَرَّك؟ قال: لا. قال: فأراك تعرفُ نعمة الله على غيرك وتجهلُها على نفسك.

إياس ورده لشهادة ابن أبي سود

وأقبل وكيع بن أبي سود صاحب خراسان ليشهد عند إياس بشهادة، فقال: مرحبا وأهلا بأبي مُطَرِّف وأجلسه معه، ثم قال له ما جاء بك؟ قال لأشهد لفلان. فقال: مالك وللشهادة! إنما يَشْهَدُ الموالي والتجار والسُّوقة. قال صدقت، وانصرف من عنده فقيل له: خدَعَك، إنه لا يَقبل شهادتَك. قال: لو علمتُ ذلك لعلوتُه بالقضيب.

عدي بن أرطاة وشريح:

دخل عديّ بن أرطأة على شريح فقال: أين أنتَ أصلحَك الله؟ قال: بينك وبين الجدار. قال: إني رجل من أهل الشام. قال: نائي المحلِّ سحيقُ الدار. قال: قد تزوجتُ عندكم. قال: بالرفاء والبنين. قال: ووُلِد لي غلام. قال: لِيَهْنِك الفارس. قال: وأردتُ أن أرحِّلها. قال: الرجل أحقّ بأهله. قال: وشرطتُ لها دارها، قال: الشرطُ أمْلَك. قال: فاحكم الآن بيننا. قال: قد فعلت. قال: على من قضيتَ؟ قال: على آبن أمك. قال: بشهادةِ مَنْ؟ قال: بشهادة آبن أختِ خالتِك؛ يريد إقراره على نفسه.

شريح ورجل يخاصم في سنور:

سفيان الثوري قال: جاء رجل يُخاصم إلى شُريح في سِنَّوْر، قال: بيّنتَك. قال: ما أجد بينة في سنور وُلِدَتْ عندنا. قال شُريح: فاذهبوا بها إلى أمها فأرسلوها، فإن استقرت واستمرت ودرّت فهي سنورك، وإن هي اقشعرت وازْبأَرَّتْ[1] فليست بسنورك.

سفيان الثوري قال: جاء رجل إلى شُريح فقال: ما تقول في شاة تأكل الدَّبَى[2]؟ فقال: لبنٌ طيِّب وعلَف مجّان.

لشريح وقد سئل حكما:

وقيل لشريح: أيها أطيب الجوز ينق أو اللآزينق؟ قال: لست أحكم على غائب.

الشعبي في الفصل بين رجل وامرأته:

ودخل رجل على الشَّعبي في مجلس القضاء ومعه امرأة، وهي من أجمل النساء فاختصما إليه؛ فأدلت المرأة بحُجتها وقرّبت بينّتها. فقال للزوج: هل عندكَ من مَدْفَع؟ فأنشأ يقول:

فتِن الشَّعبيُّ لَمَّا رَفع الطَّرف إليها
فَتَنته بدلال وبخطَّيْ حاجبيها
قال لِلجلواز قَرِّبْها وأحْضِرْ شاهِدَيْها[3]
فَقضى جَوْراً على الخَصْم ولَمْ يَقْض عليها

قال الشعبي: فدخلت على عبد الملك بن مروان، فلما نظر إليَّ تبسم وقال:
فُتِنَ الشَّعْبيُّ لَمَا رَفعَ الطَّرْف إليها

---

(١) ازبأرّت: انتفشت وتهيأت للشرّ.

(٢) الدَّبى: الجراد وقيل صغاره. (٣) الجلواز: الشرطي.

ثم قال: ما فعلتَ بقائل هذه الأبيات؟ قلت: أوجعْتُه ضرباً يا أمير المؤمنين؛ بما انتهك من حُرمتي في مجلس الحكومة وبما افتري به عليّ! قال: أحسنت.

تم الجزء الثاني من كتاب اللؤلؤة في السطان. ولله المنة

يتلوه إن شاء الله تعالى «كتاب الفريدة في الحروب» وهو الجزء الثالث من قسمة خمسة وعشرين من قسمة للمؤلف والحمد لله أولا وآخرا. وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

كتاب الفريدة
في الحروب ومدار أمرها

فرش كتاب الحروب

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه:

قد مضى قولنا في السلطان وتعظيمه وما على الرعية من لزوم طاعته وإدامة نصحيته، وما على السلطان من العدل في رعيته والرفق بأهل مملكته. ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الحروب ومدار أمرها، وقَوْد الجيوش وتَدبيرها، وما على المُدبّر لها من أعمال الخدمة، وانتهاز الفرصة، والتماس الغِرَّة، وإذكاء العيون، وإفشاء الطلائع، وآجتناب المضايق، والتحفظ في البيات. هذا بعد معرفة أحكامها، وإحكام معرفته، وطول تجربته لها، ولمقاساة الحروب ومعاناة الجيوش، وعلمه أن لا دِرْعَ كالصبر، ولا حِصْن كاليقين. ثم نذكر كرمَ الإقدام ومحمودَ عاقبته، ولؤمَ الفرار ومذمومَ مَغَبّتِه، والله المُعين.

صفة الحروب

الحرب: رحى، ثِفالُها[1] الصبر؛ وقُطْبُها المكْر، ومدارها الاجتهاد، وثِقافُها الأناة[2]، وزمامها الحذر. ولكل شيء من هذه ثمرة: فثمرة المكر الظفَر، وثمرة الصبر التأييد، وثمرة الاجتهاد التوفيق، وثمرة الأناة اليُمْن، وثمرة الحذَر السلامة؛ ولكل

---

(١) الثفال: ما يبسط تحت الرّحى ليكون عليه الدقيق.

(٢) الثقاف: ما تسوّى به الرماح.

مقام مقال، ولكل زمان رجال والحرب بين الناس سجال[1]، والرأي فيها أبلغ من القتال.

قال عمر بن الخطاب لعمرو بن معد يكرب: صف لنا الحرب. قال: مُرَّةُ المَذاق، إذا كشفت عن ساق؛ من صَبَر فيها عُرِف، ومن نكل عنها تَلِف، ثم أنشأ يقول:

الحرْبُ أوّلَ ما تكون فُتَيَّةً   تَسْهى بزينتها لكُلِّ جَهول
حتى إذا حَمِيتْ وشَبَّ ضرامُها   عادتْ عجوزاً غير ذات خَليل[2]
شَمطاءَ جَزَّتْ رأسها وتنكَّرَتْ   مَكْروهةً للشَّمِّ والتقبيلِ[3]

وقيل لعنترة الفوارس: صف لنا الحرب. فقال: أوّلها شكوى، وأوسطها نجوى، وآخرها بلوى.

وقال الكميت:

والناسُ في الحرب شتّى وهْي مُقبلةٌ   ويستوون إذا ما أدْبر القُبُلُ
كلٌّ بأمْسِيِّها طَبٌّ مُوَلِّيَةً   والعالمون بذي غُدْوِيِّها قُلُلُ[4]

وقال نصر بن سيار صاحب خُراسان يصف الحرب ومبتدَأ أمرها:

أرى خَلَلَ الرَّماد ومِيضَ نارِ   ويُوشك أن يكون له ضِرَامُ
فإنّ النَّار بالعُودَيْن تُذْكى   وإنّ الحربَ أولها الكلامُ

من حكمة لسليمان:

وفي حكمة سليمان بن داود عليهما السلام: الشر حلوٌ أوله، مُرٌّ آخره.

للعرب:

والعرب تقول: الحرب غشوم؛ لأنها تَنال غيرَ الجاني.

(١) سجال: مداورة.   (٢) شبّ ضرامها: اتّقد لهبها.
(٣) الشمطاء: التي خالط سواد شعرها البياض.
(٤) طبٌّ: خبير وعالم، وغدوّتها: أي ما يحمله الغد، وقلل: أي قلّة.

وقال حبيب[1] :

والحرب تَرْكب رأسَها في مشْهَدٍ عُدِلَ السَّفيهُ به بألْفِ حليمِ
في ساعةٍ لو أنّ لُقمانا بها وهو الحيكمُ لكانَ غير حكيمِ

وقال أكثمُ بن صيفيّ حكيمُ العرب: لا حلم لمن لا سفيه له.

ونحو هذا هول الأحنفِ بن قيس: ما قَلَّ سفهاءُ قومٍ قَطُّ إلا ذلُّوا.

وقال: لأنْ يطيعني سفهاءُ قومي أحَبُّ إليّ مِن أن يُطيعني حلماؤهم.

وقال: أكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم النارَ والعار.

للنابغة الجعدي ودعوة النبي ﷺ :

وقال النابغة الجعدي:

ولا خيرَ في حِلْمٍ إذا لم تكن له بَوادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أن يُكدَّرا

وأنشد هذا الشعر للنبي ﷺ، فلما آنتهى إلى هذا البيت. قال له النبي ﷺ: لا يَفْضُض الله فاك. فعاش ثلاثين ومائة سنة لم تسقط له ثنيّة.

وقال النابغة الذّبياني يصف الحرب:

تَبدو كواكبه والشمسُ طالِعةٌ لا النُّورُ نُورٌ ولا الإظلامُ إظلامُ

يريد بقوله: «تبدو كواكبه والشمس طالعة، شدَة الهول والكرب، كما تقول العامة: أرْيتُه النجومَ وسط النهار. قال الفرزدق:

أُريكَ نجومَ الليلِ والشمسُ حيَّةٌ

وقال طرفة بن العبد:

وتريكَ النَّجْمَ يَجْري بالظُّهر

(١) هو حبيب بن أوس الطائي، أبو تمام.

وإليه ذهب جرير في قوله:

والشمسُ طالِعةٌ ليست بكاسِفَةٍ تبكي عليك نجومَ الليلِ والقَمَرَا

يقول: إن الشمس طالعة وليست بكاسفةٍ نجومَ الليل، لشدة الغم والكرب الذي فيه الناس.

لابن عبد ربه:

ومن قولنا في صفة الحرب:

ومُغْبَرِّ السماءِ إذا تَجَلَّى يُغادِرُ أَرْضَه كالأُرْجُوان

كأنّ نهاره ظَلْماءُ ليْلٍ كَوَاكِبه مِنَ السُّمر اللِّدان(1)

سَمَوْتُ لهُ سُمُوَّ النَّقْعِ فيهِ بكلِّ مُدَلَّقٍ سَلِبَ السَّنَان(2)

وكل مُشطَّب المتنين صافٍ كلون الملحِ منصلتٌ يمانِ(3)

وفي صفة المعترك:

ومُعْترِكٍ تَهزُّ به المنايا ذُكُورَ الهندِ في أَيْدِي ذُكُور(4)

لوَامِعُ يُبْصِر الأعْمَى سَناها ويَعمَى دونها طَرْفُ البَصِير

وخافِقةِ الذَّوائبِ قد أَنافَتْ على حَمْراءَ ذات شَباً طَرير(5)

يُحَوِّم حولَها عِقْبان مَوْتٍ تَخطَّفَتِ القُلُوبَ مِنَ الصُّدُور

بيَوْمٍ رَاحَ في سِرْبالِ ليلٍ فما عُرفَ الأصِيلُ من البُكور

وعَيْنُ الشمس تَرْنُو في قَتامٍ رُنُوَّ البكْر من بين السُّتُور(6)

فكم قَصَّرْت مِنْ عُمُرٍ طَويلٍ بهِ، وأَطَلْتَ مِنْ عُمُرٍ قصير

(1) السمر اللدان: الرماح اللينة.

(2) النّقع: الغبار، والمذلّق: المحدّد وسلب: طويل.

(3) مشطب: كناية عن السيف المصقول الأبيض الذي نسبته اليمن.

(4) ذكور الهند: سيوفها القاطعة.

(5) الذوائب: خصلات الشعر، وأراد بالحمراء: القناة والشبا: جمع شباة وهي الحد، والطرير: المحدّد.

(6) ترنو: تنظر، والقتام: الغبار.

العمل في الحروب

قيل لأكثم بن صَيفيّ: صف لنا العمل في الحرب. قال أقِلّوا الخلاف على أمراتكم، فلا جماعةَ لمن اختُلف عليه. واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل؛ فتثبَّتوا؛ فإن أحْزَمَ الفريقين الرَّكِين. ورُبَّ عجلةٍ تُعْقِبُ رَيْثاً. وادَّرعوا اللَّيْلَ فإنه أخْفَى للوَيل، وتحفَّظوا من البيات.

وقال شَبيب الحَروريّ: الليل يكفيك الجبان ونصفَ الشجاع. وكان إذا أمسى يقول لأصحابه: أتاكم المدد.

وقالت عائشةُ رضي الله تعالى عنها يوم الجمل، وسمعتْ منازعةَ أصحابها وكثرةَ صياحهم: المُنازعة في الحرب خَوَر[1]، والصياحُ فيها فَشَل، وما برأيي خَرَجْتُ مع هؤلاء.

وقال عُتبة بن ربيعة لأصحابه يوم بدر لما رأى عسكر رسول الله ﷺ: أمَا تَرَوْنَهم خُرْساً لا يتكلَّمون، يتلَمَّظُونَ تَلمُّظَ الحيات[2].

لابن أبي طالب في العواقب:

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: مَن أكثر النظرَ في العواقب لم يَشجُع.

وقال النعمان بن مُقَرِّنَ لأصحابه عند لقاء العدوّ: إني هازٌّ لكم الراية، فليُصْلح كلّ رجل منكم من شأنه ولْيَشُدَّ على نفسه وفرسه؛ ثم إني هازُّها لكم الثانية. فلينظر كل رجل منكم موقعَ سهمه وموضعَ عدوِّه ومكان فرصته؛ ثم إني هازُّها لكم الثالثة وحامل، فاحملوا على اسم الله.

---

(١) الخور: الضعف.

(٢) تلّمظت الحيَّة: أخرجت لسانها.

لعمر بن الخطاب في ابن مقرن:

وللنعمان بن مقرّن هذا؛ يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ تكاملت [الخيل] وتطلع الصحابة إلى التقدم عليها: لأُقلّدنّ أعنَّتَها رجلا يكون غداً لأول أسنَّةٍ يلقاها، فقلدها النعمان بن مقرن.

لعلي في الفرصه:

وقال علي رضي الله عنه: انتهزوا الفرصة فإنها تمرّ مرّ السحاب، ولا تطلبوا أثرا بعد عين.

وقال بعض الحكماء: انتهز الفرصة فإنها خلْسة؛ وثِب عند رأس الأمر ولا تثب عند ذنَبه؛ وإياك والعجزَ فإنه أذَلُّ مَرْكب، والشفيعُ المهين فإنه أضعف وسيلة.

لابن مسلم في ابن أبي سود

وخرجتْ خارجةٌ بخراسانَ على قتُيبة بن مسلم فأهمه ذلك، فقيل له: ما يهمُّك منهم؟ وجِّه إليهم وكيع بن أبي سُود فإنه يكفيهم. فقال: لا، إن وكيعا رجل به كِبْرٌ يحتقر أعداءه، ومن كان هكذا قَلت مبالاته بأعدائه فلم يحترس منهم. فيجد عدوُّه غِرَّةً منه[1].

لبعض الملوك في الحزم:

وسئل بعض الملوك عن وثائق الحزم في القتال فقال: مخاتلة العدو[2] عن الريف وإعدادا العيون[3] على الرَّصد، وإعطاء المُبلّغين على الصدق، ومعاقبة المتوصّلين بالكذب، وألاّ تخرج هاربا إلى قتال؛ ولا تُضيّق أمانا على مستأمن، ولا تشدَهنَّك[4] الغنيمة عن المحاذرة.

---

(١) الغرّة: الغفلة. (٢) المخاتلة: الخداع.
(٣) العيون: الجواسيس. (٤) تشدهنَّك: تدهشنّك.

للعجم في أشد الأمور تدريباً:

وفي بعض كتب العجم: إن حكيماً سُئل عن أشد الأمور تدريباً للجنود وشحذاً لها. فقال: تَعَوُّدُ القتال، وكثرةُ الظّفر، وأن يكون لها موادٌّ من ورائها.

بين معاوية وعمرو بن العاص:

وقال عمرو بن العاص لمعاوية: والله ما أدري يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان؟ فقال معاوية:

شُجَاعٌ إذا ما أمْكنتْنيَ فُرْصَةٌ ... وإن لم تَكُنْ لي فُرصةٌ فَجَبانُ

وقال الأحنف بن قيس: إن رأيت الشر يتركك إن تركته، فاتركه.

قال هُدبة العذري:

ولا أتّمنى الشرَّ والشرُّ تاركي ... ولكنْ متى أُحْمَلْ على الشرِّ أركَبِ[1]

ولستُ بمفْراحٍ إذا الدهرُ سَرَّني ... ولا جازعٍ من صَرْفِهِ المتقلّبِ

الصبر والإقدام في الحرب

جمع الله تبارك وتعالى تدبير الحرب في آيتين من كتابه فقال تعالى: ﴿يأيُّها الذين آمنُوا إذا لقِيتم فِئَةً فاثْبُتوا واذْكُرُوا اللهَ كَثِيرا لعَلَكُمْ تُفلِحُون وأَطِيعُوا ٱللهَ ورَسُولَهُ ولا تَنازَعُوا فتَفْشَلوا وتذْهَبَ رِيحُكم وٱصْبِروُا إنّ اللهَ مَعَ الصَّابرين﴾[2].

للعرب في الشجاعة:

وتقول العرب: الشجاعة وقاية والجبن مَقْتلة. واعتبر من ذلك أن من يُقْتلُ مدبراً أكثرُ ممن يُقْتل مُقْبلا.

---

(١) أحمل: أدفع وأقاد، أي أنّه حتى لا يجد مناصاً من الشرّ فإنّه فاعله.

(٢) سورة الأنفال الآية ٤٥.

لأبي بكر يوصي خالداً:

ولذلك قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه لخالد بن الوليد: احرص على الموت توهَبْ لك الحياة.

للعرب:

والعرب تقول: الشجاع مُوَقَّى والجبان مُلَقّى.

وقال أعرابي: الله مُخْلف ما أتلف الناس. والدهرُ متلف ما جمعوا، وكم من مُنية عِلّتها طلب الحياةِ، وحياةٍ سببِها التعرّض للموت.

لخالد في الصبر:

وكان خالد بن الوليد يسير في صفوف يُذمّرُ[1] الناس ويقول: يا أهل الإسلام: إن الصبر عز، وإن الفشل عجز، وإن مع الصبر النصر.

وكتب أنو شروان إلى مرازبته: عليكم بأهل السخاء والشجاعة؛ فإنهم أهلُ حُسْن الظنّ بالله.

وقالت الحكماء: استقبال الموت خير من استدباره.

وقال حسان بن ثابت:

ولسْنا على الأعْقاب تَدْمَى كُلُومُنا ... ولكن على أعْقابنا تَقْطُرُ الدَّما[2]

وقال العلوي في هذا المعنى:

مُحَرَّمةٌ أكْفالُ خَيلِي على القَنا ... ودامِيَةُ لَبَّاتها ونحورُها[1]

حرامٌ على أرْماحنا طَعنُ مُدْبرِ ... وتَنْدَقُّ منها في الصدور صُدورُها

(١) يذمّرهم: يحضّهم على القتال.

(٢) روي هذا البيت في الحماسة للحصين بن الحمام المرّي، من شعراء الجاهلية.

(٣) يقصد أنّه كرّارٌ غير فرّار، لأن الجراح من قبل وليست من دبُر.

وكانوا يتمادحون بالموت قَعْصاً[1] ويتهاجون بالموت على الفراش، ويقولون فيه: مات فلانٌ حَتْفَ أنفِهِ. وأول من قال ذلك النبيُّ عليه الصلاة والسلام.

عبد الله بن الزبير في مقتل أخيه مصعب:

وخطب عبد الله بن الزُّبير الناسَ لما بلغه قتلُ مصعب أخيه، فقال: إن يُقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه، إنا والله لا نموت حتفاً ولكن قعصا بأطراف الرماح، موتاً تحت ظلال السيوف؛ وإن يُقتل مصعب فإن في آل الزبير خلفاً منه. وقال السموأل بن عادياء:

وما مات منّا سيِّد حتْفَ أنْفِه ... ولا طُلّ منّا حيثُ كان قَتيلُ[2]
تَسِيلُ على حدِّ الظّباتِ نفوسُنا ... وليس على غير السُّيُوفِ تَسِيلُ[3]

وقال آخر:

وإنا لتَسْتَحْلي المنايا نُفوسُنا ... ونَتْرِكُ أُخْرى مُرّها فنذوقُها

وقال الشَّنْفري:

فلا تدفِنوني، إنّ دَفْني مُحَرَّمٌ ... عليكم ولكنْ خامِري أُمَّ عامِرِ
إذا حُمِلَتْ رأسي وفي الرأس أكْثري ... وغُودِرَ عند المُلتقَى ثَمّ سائري
هنالك لا أبْغي حَياةً تسُرُّني ... سجيسَ اللّيالي مُبْسَلاً بالجرائر[4]

قوله «خامري أُمْ عامر»: هي الضبع. يعني: إذا قتلتموني فلا تدفنوني ولكن ألقوني إلى التي يقال لها: خامري أمّ عامر، وهي الضبع. وهذا اللفظ بعيد من المعنى.

---

(١) يقولون مات قعصاً: أي أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه.
(٢) حتف أنفه: أي على فراشه. وطُلّ: ذهب دمه هدراً ولم يثأر له.
(٣) تسيل: أيّ تزهق والظبات: السيوف والرماح وغيرها.
(٤) سجيس الليالي: أي أبداً: ومبسلاً: أي مسلّماً.

لعلي بن أبي طالب:

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ـ وقيل له: أتقتل أهل الشام بالغداة وتظهر بالعشيّ في ازار ورداء؟ فقال: أبالموت تخوِّفوني؟ فوالله ما أبالي أسقطتُ على الموت أم سقط عليّ.

وقال لابنه الحسن عليهما السلام: لا تدعُونّ أحدا إلى المبارزة، وإن دُعيت إليها فأجب، فإن الداعي إليها باغ والباغي مصروع.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: بقية السيف أنْمَى عدداً، وأطيَبُ ولداً. يريد أن السيف إذا أسرع في أهل بيت كثر عددُهم ونما ولدُهم.

ومما يستدلْ به على صدق قوله: ما عَمِل السيفُ في آل الزبير وآل أبي طالب وما أكْثَرَ مِن عددِهم.

وقال أبو دلف العِجْليّ:

سَيْفـــــي بلَيْلي قَبَسي ... وفي نَهـــاري أنسي[1]
إنّـــــي فتىً عَـــوَّدَني ... مُهْـري رُكُـوبَ الغَلس
يَحْمَـــدُني سيْفِني كما ... يَحْمَـدُ كَـرِّي فــرسي

وقال محمد بن عبد الله بن طاهر صاحب خراسان:

لَسْـتُ لِـرَيْحَـانِ ولا رَاح ... ولا على الجار بنَفّـــاح[2]
فـإنْ أَرَدْتَ الآنَ لي مـوْقِفـاً ... فبَيْـن أسْيــافٍ وأرْمـاحِ
تَـرَى فتىً تَحْـت ظلال القَنـا ... يَقْبـض أرْوَاحــاً بــأرْوَاحِ

وقال أشهب بن رميلة:

أَسُودُ شرًى لاقـت أَسُـودَ خَفِيَّـةٍ ... تلاقوا على جُـرْدٍ بماءِ الأسـاود[3]

---

(١) القبس: الضوء.

(٢) النفّاح: الذي ينفح الطيب، كناية عن العطاء وحسن المعاملة.

(٣) الجرد: الغضب.

للمهلب في أعجب ما رأى في حرب الأزارقة:

وقيل للمُهلب بن أبي صُفرة: ما أعجبُ ما رأيتَ في حرب الأزارقة؟ قال: فتى كان يخرج إلينا منهم في كل غداة فيقف فيقول:

وسائِلَةٍ بالغَيْب عنّي ولو دَرَتْ ... مُقَارَعَتي الأبْطَال طال نَحِيبُهَا
إذا ما التَقَينا كنتُ أوّلَ فارسٍ ... يَجُود بنَفْسٍ أثْقَلَتها ذُنُوبُها

ثم يحمل فلا يقوم له شيء إلا أقعده، فإذا كان من الغد عاد لمثل ذلك.

بين هشام وأخيه مسلمة في الذعر:

وقال هشام بن عبد الملك لأخيه مسلمة: يا أبا سعد، هل دخلك ذعرٌ قط لحرب أو عدوّ؟ قال: ما سلمت في ذلك من ذعر يُنبِّه على حِيلة، ولم يُغشَني ذعرٌ قَطُّ سلبني رأيي. قال هشام: صدقت هذه والله البسالة.

وقيل لعنترة: كم كنتم يومَ الفَرُوق[1]؟ قال: كُنَّا مائة لم نكثر فنتكل، ولم نقِلَّ فنذلّ.

ما كان يتمثل به ابن المهلب:

وكان يزيدُ بن المهلّب يتمثل كثيراً في الحرب بقول حُصين بن الحُمام:

تأَخَّرْتُ أسْتَقِي الحَياةَ فلَمْ أجِدْ ... لنَفْسي حَياةً مِثْل أنْ أتقَدَّمَا

وقالت الخَنساء:

نهِينُ النَّفُوسَ وبَذْلُ النفُو ... س يَوْمَ الكريهةِ أبْقَى لها

وقيل لعبّاد بن الحُصين، وكان من أشدّ أهل البصر: في أيّ عُدَّة كنت تُريد أن تلقَى عدوّك؟ قال: في أجل مستأخرٍ.

وكان مما يتمثل به معاوية رضي الله تعالى عنه يوم صفّين:

---

(١) من أيام عبس وذبيان.

أَبَــتْ لي شِيمَتي وأبَــى بلائِــي	وأخْذِي الْحَمْدَ بـالثَّمَـن الرَّبيـح
وإقـدامِـي على المكـروهِ نفْسِــي	وضَـرْبِي هـامَـةَ البطَـل المُشِيـح
وقوْلي كُلَّمَـا جَشـأَتْ وجـاشَـتْ	مكانَكِ تُحْمَـدِي أوْ تَسْتَـريحِي[1]
لأدْفَـعَ عَـنْ مَـآثِـرَ صـالِحَــاتٍ	وأحْمِي بَعْدُ عن عِـرْضٍ صَحيـح

ونظير هذا قول قطَريّ بن الفُجاءة:

[اقُولُ لها وقدْ طارَتْ شعَاعـاً][2]	مِنَ الْأَبْطـال ويْحَـكِ لا تُـرَاعِـي
فإنَّـكِ لـو سـألْـتِ حَيَـاةَ يَـوْمٍ	سِوَى الأجَل الذي لَكِ لم تُطاعِـي

لابن أبي طالب في صفين:

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يخرج كل يوم بصفّين حتى يقف بين الصفَّين ويقول:

أيَّ يَــوْمَــي مــن الموْت أفِــرّ	يــوْم لا يُقْــدَرُ أو يَــوْمَ قــدِرْ
يَـــوْمَ لا يُقْــدَرُ لا أرْهَبُــــهُ	ومِـنَ المَقْــدُور لا يُنْجــى الحَذرْ

ومثله قول جرير:

قلْ لِلجبـان إذا تـأَخَّـرَ سَـرْجُـهُ	هل أنت من شَـرَكِ المنيَّـة نـاج[3]

وهذا البيت في شعره الذي أوله:

هاج الفراقُ لقلبك المهتاج

ومدح فيه الحجاج، فلما أنشده:

قل للجبان إذا تأخَّر سرجه

(١) جشأت: أيّ تطلعت ونهضت جزعا وكراهة.
(٢) في الأصل: «وقولي كلّما جشأت لنفسي».
(٣) شرك المنية: حبائلها.

قال له: جرّأت عليّ الناس يا بن اللّخناء! قال: والله ما ألقيتُ لها بالا أيها الأمير إلا وقتي هذا.

عاصم بن الحدثان والفرزدق:

وكان عاصم بن الحدثان عالما ذكيّا، وكان رأس الخوارج بالبصرة، وربما جاء الرسول منهم من الجزيرة يسأله عن الأمر يختصمون فيه، فمرّ به الفرزدق، فقال لآبنه: أنشد أبا فراس، فأنشده:

وهُمُ إذا كسرُوا الجُفُون أكارمٌ صُبُرٌ وحِين تُحَلَّل الأزْرَارُ[1]
يَغْشَوْنَ حَوْمات المَنُون وإنَّها في الله عند نُفُوسهمْ لَصِغَارُ
يَمشُونَ بالخطِّيِّ لا يثْنيهِمُ والقوْمُ إن رَكِبُوا الرماحَ تَجَارُ[2]

فقال له الفرزدق: ويحك! اكتم هذا لا يسمعه النساجون فيخرجوا علينا بخفوفهم[3] فقال أبوه: هو شاعر المؤمنين وأنت شاعر الكافرين.

ونظير هذا مما يشجّع الجبان قولُ عنترة الفوارس:

بَكَرَتْ تُخَوِّفُني الْحتُوفَ كأنّني أصبحتُ عن غرض الْحتُوفِ بمعْزِل[4]
فأجبتُها: إنّ الْمنِيَّة مَنْهلٌ لا بُدَّ أن أُسْقَى بكأس المَنْهَلِ
فاقْنَيْ حيَاءَكِ لا أبالَكِ واعْلَمي أنّي امْرُؤٌ سأمُوتُ إن لم أُقْتَلِ[5]

ومن أحسن ما قالوه في الصبر، قولُ نَهشل بن حَريّ بن ضَمْرة النهشليّ:

ويومٍ كأنّ المصْطَلِينَ بحرّه وإن لم تكنْ نَارٌ وقُوفٌ على جَمْرِ[6]
صَبَرنَا له حتى يَبُوخَ، وإنما تفَرَّجُ أيامُ الكريهةِ بالصَّبْرِ[7]

---

(١) الجفون: الأغماد، وكسر الجفون وحلّ الأزرار كناية عن الاستعداد والنهوض للحرب.
(٢) الخطّيّ: الرماح منسوبة إلى الخطّ. وتجار: يمارسون البيع والشراء، أي يقتلون ويُقتلون.
(٣) الخفّ: المنسج. (٤) بكرت: عجلت.
(٥) فاقني حياءك: الزميه. (٦) المصطلين: الذين يعانون من حرّه وسعيره.
(٧) يبوخ: يسكن. والكريهة: الحرب.

وأحسن من هذا عندي قولُ حبيب:

فأَثْبَتَ في مُستنقع الموتِ رِجْلَهُ ... وقالَ لها مِنْ تَحْت إخْمَصِكِ الحَشرُ
تَرَدَّى ثِيَابَ الموتِ حُمْراً فما أَتَى ... لها الليلُ إلا وهْيَ مِنْ سُنْدُس خُضْر

وأحسن من هذا قوله:

يستعذِبون منايـاهـم كـأنهمُ ... لا يخرجون منَ الدنيا إذا قُتِلوا

وقولهُ في المعنى:

قوْمٌ إذا لبِسوا الحديدَ حسِبتَهم ... لم يحسَبوا أنّ المنيَّةَ تُخلقُ
انظُرْ بحيث ترى السُّيوف لَوامِعاً ... أبدا وفوقَ رُءُوسِهم تتألَّقُ

وقال الجحّاف بن حكيم:

شهِدنَ مع النبيّ مُسَوَّماتٍ ... حُنَيْناً وهي دامية الحوامي[1]
ووقعةَ راهطٍ شهِدتْ وحلَّت ... سنابكُهُنَّ بالبلدِ الحرامِ
تعرّض للطِّعانِ إذا التقينا ... خُدُوداً لا تعَرَّضُ لِلِّطامِ

أخذه من قولهم: ضربة بسيف في عزّ، خيرٌ من لطمة في ذلّ.

ومن أحسن ما وُصِفت به رجالُ الحرب قولُ الشاعر[2]:

رُوَيداً بني شيبانَ بعضَ وعيدِكُم ... تَلاقوا غَداً خَيلي على سفوان[3]
تُلاقوا رِجالا لا تَحيد عنِ الوغى ... إذا الخيلُ جالتْ في فنا الميدان
إذا استُنجدوا لم يسألوا من دَعاهُمُ ... لأيّةِ أرضٍ أو لأيّ مكان

ونظير هذا قول الآخر:

قومٌ إذا نزل الغريبُ بدارِهِمْ ... تركوهُ ربَّ صَواهلٍ وقِيانِ[4]

---

(١) المسوّمات: المعارك. والحوامي: ميامن الحافر ومياسره.

(٢) هو وداك بن نميل المازني.

(٣) سفوان: هبوب وعَجَل، والسافنة الريح التي تهبُّ على وجه الأرض.

(٤) أي تركوه صاحب خيل وعبيد، كناية عن إغنائهم إيّاه.

وإذا دعوتَهُمُ ليومِ كريهةٍ سَدُّوا شُعاعَ الشمسِ بالفُرْسانِ
لا يَنكُتُونَ الأرضَ عند سُؤَالِهِمْ لتطلُّبِ العِلاَّتِ بالعِيدانِ[1]
بل يُسفِرون وجوهَهم فترى لها عند السُّؤالِ كأحسنِ الأَلْوَانِ

ومن أحسن المحدّثين تشبيهاً في الحرب، مُسلم بن الوليد الأنصاري في قوله ليزيد بن مزْيد:

تَلقَي المنيَّةَ في أمثالِ عُدّتِها كالسَّيلِ يَقذِف جلْمودا بِجلمودِ
تجودُ بالنفس إذ ضَنّ الجواد بها والجود بالنَّفس أقصَى غايةِ الجودِ

وقوله أيضا:

مُوفٍ على مُهَجٍ في يومِ ذي رَهَجٍ كأنّه أجلٌ، يسعَى إلى أمَلِ[2]
يَنالُ بالرّفْقِ ما تَعيا الرجالُ به كالموت مستعجلاً يأتي على مَهَلِ

وقال أبو العتاهية:

كأنّك عند الكرّ في الحرب إنّما تفرُّ عن السّلم الذي من ورائِكا
كأنّ المنايا ليْس تجْرِي لَدَى الْوَغى إذا التقتِ الأبطالُ إلاّ برأيكا
فما آفةُ الآجالِ غيْرُك في الوغَى وما آفة الأموال غير حِبائكا[3]

وقال زيد الخيل:

وقد علمتْ سلامةُ أنّ سيْفي كريهٌ كلّما دُعِيتْ نَزالِ
أُحادِثُهُ بِصَقْلٍ كلّ يوْمٍ وأعْجمُه بهاماتِ الرجالِ

وقال أبو محلّم السعديّ:

تقولُ وصَكّت وجهَها بيمينِها أبعْلِيَ هذا بالرّحَى المُتقاعسُ[4]

(١) ينكتون الأرض: كناية عن التفكير في توسل العلل المانعة للعطاء.
(٢) الرهج: الغبار، والأجل: الموت. (٣) الحباء: العطاء.
(٤) صكّت: لطمت، والمتقاعس: الذي دخل ظهره وخرج صدره، يقول: إنّ امرأته حين رأته متشاغلاً بالرّحى لطمت وجهها لأن هذا العمل ليس من عاداته وأفعاله.

فقلـــت لها لا تعْجلـــي وتَبيَّني ... بلائـي إذا التفَّـتْ عليّ الفَـوارسُ

ألسْتُ أرُدُّ القِرْنَ يـركـب رَدعـه ... وفيه سِنان ذو غـراريـن نـائس(١)

إذا هاب أقْـوامٌ تقحَّمْـتُ غمـرةً ... يَهـاب حُميَّـاهُ الألـدُّ المداعِسُ(٢)

لعَمْــرُ أبيـك الخير إنّــي لخادمٌ ... لضَيْفي وإنّي إن ركبـتُ لفـارسُ

وقال آخر يمدح المهلّب بالصبر :

وإذا جُـدِدْتَ فكـلُّ شيءٍ نـافـعٌ ... وإذا حُدِدْتَ فكلُّ شيءٍ ضـائـرُ(٣)

وإذا أتــاك مُهلّبيٌّ في الوغـــى ... في كفّـه سيْـفٌ فنِعْـم النـاصِـرُ

ومن قولنا في القائد أبي العباس في الحرب :

نفسي فِـداؤك والأبطـالُ واقِفـةٌ ... والموْتُ يَقسِـمُ في أرواحِهـا النّقَما

شاركْتَ صَرْف المنايا في نُفوسِهـمُ ... حتى تحكّمْتَ فيها مثْل مـا احتَكما

لو تسْتطيع العُلا جاءَتْك خاضعـةً ... حتى تُقَبِّل منـكَ الكَـفَّ والقَـدَمـا

ومن قولنا في وصف الحرب :

سيوفٌ يَقيـلُ الموْتُ تحت ظُبـاتها ... لها في الكُلَى طُعْمٌ وبينَ الكُلَي شرْب(٤)

إذا اصْطَفَّت الرايات حُمْراً مُتونُهـا ... ذَوائِبُهـا تَهْفـو فيهْفـو لها القلـبُ

ولم تَنطِـقِ الأبطــالُ إلاّ بفعْلِهــا ... فألْسنُهـا عُجْـمٌ وأفعـالُهـا عـربُ

إذا ما التقَوا في مأزقٍ وتَعـانقـوا ... فلُقْياهُمْ طَعْـنٌ وتَعْنِيقُهُـمْ ضَـرْبُ

ومن قولنا في رجال الحرب و أنّ الوغى قد أخذت منهم ومن أجسامهم فهي مثلُ السيوف في رقّتها وصلابتها :

سيْـــفٌ تقلّـــدَ مِثْلـــهُ ... عَطْفَ القَضيـب على القضِيـبْ

---

(١) يركب ردعه : أي يخرّ صريعاً لوجهه والنائس : المضطرب ، والغرار : الحدّ .

(٢) تقحّمت : أي أقدمت ، والغمرة : الحرب وحمياها : شدّتها ، والألد : اللجوج الشديد الخصومة والمداعس : المطاعن .

(٣) جُددت : أي كنت محظوظاً .

(٤) يقيل الموت : أي يتقيّل ويرتاح والظباة : حدّ السيف والسهم وغيرهما .

هــذا تُجَــزُّ بــه الرِّقــا ... بُ وذا تُجَرُّ بـه الخطـوبْ

ومن قولنا أيضاً:

تــراهُ في الْوَغَــى سيْفــاً صَقيلاً ... يُقَلِّـبُ صفْحتَـيْ سيْـفٍ صقِيـلِ

ومن قولنا أيضاً:

سيْـفٌ عليـه نِجادُ سَيْـفٍ مِثْلـهِ ... في حَـدِّهِ لِلْمُفْسِـديـنَ صلاحُ

ومن قولنا أيضاً في الحرب وذكر القائد:

مَقِيلُـــكَ تحت أظْلالِ العـــوالي ... وبيْتُـك فـوْق صَهْـواتِ الجيـادِ
تَبَخْتَـرُ في قميـصٍ مِـنْ دِلاصٍ ... وتَـرْفُـل في رداءٍ مِـن نِجـادِ(١)
كأنَّـك لِلحـروب رَضيـعُ ثَدْيٍ ... غَـذَتْـك بكُـلِّ داهِيَـةٍ نـآدِ(٢)
فكَـمْ هـذا التَّمني لِلْمَنـايـا ... وكم هـذا التَّجلُّـدُ لِلجلادِ
لئِـنْ عُـرِف الجهـادُ بكُـلِّ عـامٍ ... فـإنَّـك طـولَ دَهْـرِكَ في جهـادِ
وإنَّـك حين أُبْـتَ بكُـلِّ سَعْـدٍ ... كمِثْـلِ الرُّوحِ آبَ إلى الفُـؤادِ
رأينَـا السَّيـف مُـرتَـدِياً بسَيْـفٍ ... وعَـاينَّـا الجواد على الجواد

وقد وصفنا الحربَ بتشبيه عجيب لم يُتَقدَّمْ عليه، ومعنى بديعٍ لا نظير له، فمن ذلك قولُنا:

وجيش كظهْرِ اليَمِّ تنْفحُـهُ الصَّبـا ... يَعُبُّ عُبابـاً مـنْ قنـاً وقنـابِـلِ(٣)
فتَنْـزِلُ أُولاهُ وليس بنـــازلٍ ... وتَرحـلُ أُخْـرَاهُ وليس بـراحِـلِ
ومُعتَرَكٍ ضَنْـكٍ تعـاطَـتْ كُماتُـهُ ... كئوسَ دِماءٍ مـنْ كُلَىً ومفَـاصـلِ
يُدِيرونَها راحـاً مـنَ الرُّوح بيْنَهـم ... بِبيضٍ رِقاقٍ أو بِسُمرٍ ذوابِـلِ(٤)

---

(١) الدلاص: الدرع، والنجاد: حمائل السيف.

(٢) النآد: الداهية. (٣) القنابل: القطع من الخيل.

(٤) الراح: الخمر، والبيض: السيوف والسمر الذوابل: الرماح الدقيقة يريد أنّ هذه الخمر من أرواح القتلى بالسيوف والرماح.

وتُسْمِعُهُـم أُمَّ المَنِيَّـة وسْطَهـا	غِناءَ صليل البِيض تَحْتَ المَناصِلِ[1]

ومن قولنا في هذا المعنى:

سيـفٌ مِـن الْحَتْـف تَـرَدَّى بـه	يـومَ الوغَـى سيـفٌ مِـن الحزْمِ
مـواصلاً أَعْـداءَهُ عـن قِلىً	لا صِلـةَ القـربَـى ولا الرَّحْـمِ[2]
وصـلٌ يَحِـنُّ الإلْـفُ مِـن بُغْضـهِ	شـوقـاً إلى الهجـرانِ والصَّـرْمِ
حتى إذا نـادمُهـم سيفـه	بكـلِّ كـأسٍ مُـرَّةِ الطَّعْـمِ
تَـرى حُمَيَّـاهـا بهـامـاتِهـم	تغُـور بين الجِلْـدِ والعظْـمِ[3]
على أهـازِيـجِ ظُبـاً بينَهـا	ما شئْتَ منْ حَذْفٍ ومنْ خَـرْمِ[4]
طاعـوا لـه مِـن بعـدِ عِصْيانِهـم	وطـاعَـةُ الأعْـداء عـن رَغْـمِ
وكم أَعَـدُّوا واستَعـدُّوا لـه	هيْهات ليس الخضْمُ كـالقَضْـمِ[5]

ومن قولنا في شبهه:

كم أَلْحَمَ السَّيف في أَبْنـاءِ مَلْحَمـةٍ	ما مِنهُمُ فوق متْنِ الأرضِ دَيَّارُ[6]
وأوردَ النَّـارَ مِـن أرواحِ مـارِقـةٍ	كادتْ تَميَّزُ من غَيـظٍ لها النَّـارُ[7]
كأنَّمـا صـالَ في ثِنْيَـيْ مُفـاضتـه	مُستأسدٌ حنِقُ الأحْشـاءِ هـدَّارُ[8]
لما رأى الفِتنةَ العَمياءَ قـد رحُبَـتْ	منهـا على النَّـاسِ آفـاقٌ وأقْطـارُ
وأطبقَـت ظُلَـمٌ مِـن فـوقِهـا ظُلَمٌ	مـا يُسْتضـاءُ بها نُـورٌ ولا نـارُ
قـاد الجيـادَ إلى الأعْـداءِ سـارِيـةً	قُبّاً طَواها كطيِّ العصْـبِ إضْمارُ[9]

---

(١) الصليل: صوت السيف عند القراع.
(٢) القلى: الكره.
(٣) الحميّا: الخمرة وأثرها.
(٤) الخرم: اختراق الشيء من ناحية إلى ناحية.
(٥) الخضم: الأكل بالأضراس والقطم. الأكل بأطراف الأسنان، وهو أشدّ.
(٦) ألحم السيف: امتزج، ومتن الأرض: ظهرها.
(٧) المارقة: الخارجون عن الجماعة.
(٨) المفاضة: الدّرع الواسعة. (٩) القَبّ: الضوامر البطون: الواحد أقب.

ملمومـــةً تتبــارى في مُلَمْلَمَــةٍ كأنَّها لاَعْتِدالِ الخلْقِ أَفْهارُ (١)
تَزْوَرُّ عِندَ احتِماسِ الطَّعنِ أَعْيُنُهـا وهُنَّ منْ فُرُجاتِ النَّقْعِ نُظّارُ (٢)
تفُوتُ بالثَّأر أقـواماً وتُـدْرِكُـه مـن آخَـريـن إذ لَمْ يُـدْرَك الثّارُ
فانْسَاب نَاصِرُ دِينِ اللهِ يقْدُمُهُمْ وحـولَـهُ مـن جنـودِ اللهِ أنصَارُ
كتـائِـبٌ تتبـارى حـولَ رايتـه وجحْفَـلٌ كَسَـوادِ الليـلِ جَـرَّارُ
قومٌ لهم في مكرِّ اللَّيـلِ غَمْغمَـةٌ تحت العجاجِ وإقبـالٌ وإدبـارُ (٣)
يَستَقْبِلـون كـرادِيسـاً مكَـردسـةً كما تَـدافـعَ بـالتَّيّـارِ تيَّـارُ (٤)
من كلِّ أَرْوعَ لا يَـرْعَـى لِهاجسَـةٍ كأَنَّهُ مُخْدِرٌ في الْخَيْلِ هَصّارُ (٥)
في قسْطلٍ من عَجاجِ الحرب مُدَّ لهُ بين السماءِ وبين الأرضِ أَسْتـــارُ
فكم بساحَتِهم مـن شِلْـوِ مُطَّـرَحٍ كأنه فوقَ ظَهْرِ الأرضِ إجّارُ (٦)
كـأنَّما رأْسُـهُ أفلاقُ حنْظَلَـــةٍ وساعِداهُ إلى الزَّنْـدَيْـنِ جُمّارُ (٧)
وكم على النَّهْـرِ أَوْصـالاً مُفـرَّقَـةً تَقَّسمتْهـا المنـايـا فهْـيَ أشطـارُ
قد فُلِّقتْ بصفِيحِ الهنْـدِ هـامُهُـمُ فهُنَّ بين حَوامِي الخيْلِ أَعشارُ (٨)

ومن قولنا في الحروب:

وحـوْمـةٍ عــادرْت فُـرْســانها في مبركٍ لِلْحَـرْبِ جعْجـاعِ (٩)
مُستلْحَـمٍ بـالموتِ مستشعـرٍ مُفَـرِّقٍ لِلشَّمْـلِ جَمّـاعِ

---

(١) الأفهار: حجارة يدقّ بها الطيب.

(٢) تزورّ: تنظر بضيق.

(٣) الغمغمة: أصوات غير مفهومة، والعجاج: الغبار.

(٤) الكراديس: القطع العظيمة من الجيش.

(٥) المخدر: الأسد، والهصار: الفتّاك.

(٦) الشلو: العضو المقطوع المطروح. والإجّار: السطح، يريد أنّ ذلك الشلو قد سوّي بالأرض فصار كالسطح على سطحها.

(٧) الحنظلة: نبات مرّ، وجمّار.

(٨) الحوامي: ميامن الحافر ومياسره، يشبه هامات القتلى بجزور الميسر، أي أنها مقسّمة بين حوافر الخيل.

(٩) الجعجاع: الموضع الضيّق الخشن.

وبلْدة صحصَحَتْ منها الرُّبا　　لفَيْلَقٍ كالسَّيلِ دَفَّاعِ[1]
كأنَّما باضتَّ نعامُ الفَلا　　منهم بهامٍ فوْقَ أدْراعِ
تراهُمُ عند احْتِماسِ الوَغى　　كأنَّهُم جِنٌّ بِأجْراعِ[2]
بكلِّ مأْثُورٍ على متْنِهِ　　مِثْلُ مدَبِّ النَّملِ في القاعِ
يَرْتَدُّ طرْفُ العيْنِ من حَدِّهِ　　عن كوْكبٍ للموتِ لمَّاعِ

ومن قولنا في الحروب:

ورُبَّ مُلْتفَّةِ العوالي　　يلتَمِعُ الموتُ في ذُراها[3]
إذا تَوطَّت حُزُون أَرْضٍ　　طحْطَحَتِ الشُّمَّ من رُباها[4]
يقُودُها منهُ ليْثُ غابٍ　　إذا رأى فُرْصةً قضاها
تَمْضي بِآرائِهِ سُيوفٌ　　يَسْتبِقُ الموتُ في ظُباها[5]
بيضٌ تَحُلّ القلوب سُوداً　　إذا انْتضَى عزْمَهُ انتضاها[6]
تَتْبعُهُ الطَّيرُ في الأعادي　　تَجْني كَلاَ العُشب من كُلاَها[7]
أقدم إذْ كاعَ كلُّ ليْثٍ　　عن حوْمة الموتِ إذْ رآها[8]
فأَقحم الخيلَ في غِمارٍ　　تفغَرُ بالموتِ لهوتاها[9]
عنَت لهُ أوْجُهُ المنايا　　فعافها القومُ واشْتَهاها

---

(١) صحصحت منها الربا: أي جعلت مستوية.
(٢) الأجراع: الأرض ذات الحزونة، وقيل هي الرمال السهلة المستوية.
(٣) العوالي: الرماح.
(٤) توَطَّتْ: أي توطأت، وطحطحت الشمّ من رباها: أي كسرتها ودققتها.
(٥) الظبَا: الحدّ من السيف وغيره.
(٦) انتضى: استلَّ وشهر.　　(٧) الكلأ: العشب.
(٨) كاع: جبن.
(٩) تفغر: تفتح: اللهوة: من اللهاة.

ابن مكدم وقول حسان فيه:

كان فارس العرب في الجاهلية ربيعة بن مُكدَّم. من بني فراس بن غَنْم بن مالك ابن كنانة، وكان يُعْقَر على قبره في الجاهلية. ولم يُعقر على قبر أحد غيره. وقال حسان بن ثابت وقد مرّ على قبره:

نفرَتْ قلوصِي من حِجَارَةِ حرّةٍ بُنِيَت على طَلْقِ اليدين وهُوبِ
لا تنْفري يا ناقُ منه فإنَّه شِرِّيبُ خَمْرٍ مِسْعَرٌ لِحُرُوبِ
لولا السَّفارُ وطولُ قفْرٍ مهْمَهٍ لتركتُها تحبو على عُرْقوبِ[1]

فراس بن غنم وكلمة لعلي فيهم:

وكان بنو فراس بن غنم بن كنانة أنجد العرب. كان الرجل منهم يعدل عشرة من غيرهم. وفيهم يقول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لأهل الكوفة: من فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخيب، أبدلكم الله بي مَن هو شرٌّ لكم، وأبدلني بكم من هو خيرٌ منكم. ودِدْت والله أنّ لي بجميعكم - وأنتم مائةُ ألف - ثلثمائة من بني فراس بن غنم.

ومن فرسان العرب في الجاهلية عنترة الفوارس، وعُتيبة بن الحارث بن شهاب؛ وأبو براء عامر بن مالك مُلاعب الأسنة، وزيد الخيل، وبِسطام بن قيس، والأُحَيْمِر السعدي، وعامر بن الطُّفيل، وعمرو بن عبد ودّ، وعمرو بن معد يكرب.

وفي الإسلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، والزبير، وطلحة، ورجال الأنصار: عبد الله بن خازم السُّلمي، وعباد بن الحُصين، وعُمَيْر بن الحباب، وقطريّ بن الفُجاءة، والحريش بن هِلال السعدي، وشبيب الحروريّ.

---

(١) المهمة: القفر والفلاة. والعرقوب: عصبٌ غليظ فوق العقب، ومن الدابة في رجلها كالركبة في يدها.

للعرب في بعض فرسانهم:

وقالوا: ما استحيا شجاع قطٌّ أن يفرّ من عبد الله بن خازم وقطريٍّ بن الفجاءة، صاحب الأزارقة.

وقالوا: ذهب حاتم بالسخاء، والأحنف بالحلم، وخُرَيم بالنعمة، وعُمير بن الحباب بالشدّة.

ابن خازم مع ابن زياد في جرذ:

وبينا عبد الله بن خازم عند عبيد الله بن زياد إذ دُخل عليه بِجُرَذٍ أبيض، فعجب منه عبيد الله، وقال: هل رأيت يا أبا صالح أعجب من هذا؟ ونظر إليه، فإذا عبد الله قد تضاءل حتى صار كأنه فرخ، واصفرّ كأنه جرادةٌ ذكر فقال عبيد الله: أبو صالح يعصى الرحمن، ويتهاون بالسلطان، ويقبض على الثعبان، ويمشي إلى الليث، ويلقى الرماح بنحره، وقد آعتراه من جُرذ ما ترون، أشهد أن الله على كل شيء قدير.

وكان شبيب الحروريّ: يصيح في جَنبات الجيش فلا يُلوي أحد على أحد. وفيه يقول الشاعر:

إنَّ صاحَ يوْماً حَسِبْتَ الصَّخْرَ منحدراً والريحَ عاصِفَةً والموْجَ يَلتطمُ

ولما قُتل أمر الحجاج بشق صدره. فإذا له فؤاد مثل فؤاد الجمل. فكانوا إذا ضربوا به الأرض ينزو كما تنزو المثانة المنفوخة[١].

لابن عباس في الأنصار:

ورجال الأنصار أشجع الناس؛ قال عبد الله بن عباس: ما استلَّت السيوف، ولا زحفت الزحوف، ولا أُقيمت الصفوف، حتى أسلم ابنا قيلة: يعني الأوس والخزرج، وهما الأنصار، من بني عمرو بن عامر من الأزد.

---

(١) ينزو: ينضج.

أبو براء لما أسن:

العتبي: لما أسنَّ أبو بَراء عامر بن مالك وضعّفه بنو أخيه وخرّفوه. ولم يكن له ولد يحميه، أنشأ يقول:

دَفعْتُكُمُ عنيِّ وما دفْعُ راحةٍ بشيءٍ إذا لم تَسْتعِنْ بالأناملِ
يُضَعّفُني حِلْمي وكثرةُ جهلِكُمْ عليَّ وأنّي لا أَصُولُ بِجاهِلِ (١)

لعلي في همدان:

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إذ رأى همدان وغَناءها في الحرب يوم صفين:

ناديت هَمْدانَ والأبْوابُ مغلقةٌ ومثْلُ هَمْدانَ سَنّى فَتْحةَ الباب (٢)
كالْهُنْدُوانيِّ لم تُفْللْ مضارِبُهُ وجهٌ جميل وقلبٌ غيْرُ وجّابِ (٣)

وقال ابن برّاقة الهمداني:

كذبتم وبَيْتِ اللهِ لا تأخذونها مُراَغَمةً ما دام للسيفِ قائمُ (٤)
متى تجمعِ القلبَ الذّكِيّ وصارماً وأنْفاً حَمِياً تجتنبْكَ المظالمُ
وكنتُ إذا قومٌ غَزوْني غزوْتُهُمْ فهل أنا في ذا يا لهمدان ظالمُ

وقال تأبط شراً:

قليلُ التَّشكّي لِلمُهِمِّ يُصِيبُهُ كثيرُ النوى شَتُّ الهوى والمسالك
يَبيتُ بمَوْماةٍ ويُضحْى بغيرها جَحِيشاً ويَعْرَوْري ظُورَ المهالك (٥)
إذا حاص عينيه كرى النوم لم يَزَل لهُ كالئٌ من قلب شَيْحانَ فاتكِ (٦)

---

(١) أصول: أثب وأسطو. (٢) سنّى: فتح.

(٣) تفلل: تتصدّع، والوجّاب: المضطرب. (٤) قائم السيف: مقبضه.

(٥) الموماة: المفازة لا ماء فيها، وجحيشاً: متفرداً ويعروري: أي يركب، واصله من اعرورى الدابة، إذا ركبها عارية الظهر.

(٦) حاص عينيه: ضيّقها، والشيحان: الحازم.

ويجعـــلُ عينيـــه ربيئـــةَ قلبـــه　　إلى سَلّةٍ مِن حدِّ أخْلَـقَ بـاتِـكِ[1]
إذا هَـزَّهُ في عَظْـم قـرْن تهَلَّـلتْ　　نوَاجذُ أفْواه المنايـا الضَّـواحِـكِ

وقال أبو سعيد المخزومي ـ وكان شجاعا:

وما يُريدُ بنو الأغبار مـن رجـلٍ　　بالجَمرِ مُكتحِلٍ بالنبلِ مُشْتَمـلِ[2]
لا يشرب الماءَ إلاّ مـن قَلِيـب دمٍ　　ولا يَبيـتُ لـه جـارٌ على وجَـلِ[3]

ونظير هذا قول بشّار العقيلي:

فَتـــىً لا يَبيـــتُ علـــى دِمنـــةٍ　　ولا يَشْـــربُ المـــاءَ إلا بِـــدَمْ[4]

بين ابن الزبير والأشتر:

وقال عبدُ الله بن الزُّبير: التقيت بالأشتر النخعي يوم الجمل، فما ضربته ضربةً حتى ضربني خمساً أو ستا، ثم أخذ برجلي فألقاني في الخندق، وقال: والله لولا قرابتُك من رسول الله ﷺ ما اجتمع منك عضو إلى آخرِ.

جائزة عائشة لمن بشرها بنجاة ابن الزبير:

وقال أبو بكر بن أبي شَيبة: أعطت عائشة الذي بشّرها بحياة ابن الزُّبير إذ التقى مع الأشتر عشرة آلاف.

لمنعم في أخيه:

وذكر متمِّم بن نُوَيرة أخاه مالكا وجَلَدَه، فقال: كان يخرج في الليلة الصِّنَّبْرِ[5]، عليه الشملةُ الفلُوت، بيْنَ المزَادتَيْن على الجمل الثَّفال[6]، مُعتقِل الرُّمْحِ الخطيّ. قالوا: وأبيك إن هذا لهو الجلَد.

(١) الربيئة: الرقيب، والسَّلّة: المرّة من سلَّ السيف إذا جرّده، والأخلق: الأملس والباتك: القاطع.
(٢) الأغبار: جمع غبر وهو بقية الحيض، وهو من صفات اكزمّ عندهم.
(٣) القليب: البئر، والوجل: الخوف.　　(٤) الدمنة: الحقد.
(٥) الصِّنَّبر: الشديدة البرد.　　(٦) الثفال: البطيء.

من عمر إلى ابن مقرن في الصائفة:

وكتب عمر بن الخطاب إلى النعمان بن مُقرّن وهو على الصائفة: أن استعِن في حَربك بعمرو بن معد يكرب، وطُليحة الأزري، ولا تُولِّهما من الأمر شيئا ؛ فإن كل صانع أعلمُ بصناعته.

وقال عمرو بن معد يكرب يصف صبره وجَلَده في الحرب:

أعاذلُ عُدَّتي بَزّي ورُمحي ... وكلّ مُقلَّصٍ سَلِسِ القِيادِ[1]
أعاذلُ إنما أفنَى شبابي ... إجابتيَ الصَّريخ إلى المنادِي[2]
مع الأبطال حتى سَلَّ جِسْمِي ... وأقرحَ عاتقي حَمْلُ النَّجَادِ
ويَبْقَى بَعدَ حِلْمِ القومِ حِلمي ... ويَفْنَى قبلَ زاد القومِ زادِيّ
ومنْ عجبٍ عَجِبْتُ له حديثٌ ... بديعٌ ليس من بدعِ السّدادِ
تمنَّى أن يُلاقيني أُبيٌّ ... ودِدْتُ وأينما منّي ودادي
تَمنَّاني وسابِغَتي قميصي ... كأنّ قتيرَها حَدقُ الجرادِ[3]
وسيفٌ لابن ذي كنعان عندي ... تُخُيِّر نصلُهُ من عهدِ عادِ
فلَوْ لاقيتَني للَقيتَ ليثاً ... هصوراً ذا ظُباً وشباً حِدادِ[4]
ولاسْتَيقنتَ أنّ الموتَ حقٌّ ... وصرَّحَ شَحْمُ قلبِكَ عن سوادِ
أُريدُ حياتَهُ ويُريدُ قتْلي ... عذِيرَك من خليلِكَ من مُرادِ

ومن قوله في قيس بن مكشوح المرادي:

تَمنَّاني على فرسٍ ... عليْهِ جالسٌ أسدُهُ
عليَّ مُفاضةٌ كالنَّهْيِ ... أخلص ماءَهُ جدَدُهْ[5]
فلو لاقيتني للقيتَ ليثاً فوقهُ لِبَدُهْ

---

(١) البزّ: السلاح، والمقلّص: الفرس الطويل القوائم المشرف المشمر.

(٢) الصّريخ: المستغيث به. (٣) السابقة: الدرع، والقتير: المسامير التي تكون بين حلقاتها.

(٤) المصور: الذي يقضي على فريسته.

(٥) المفاضة: الدرع الواسعة، والنّهي: الغدير من الماء، والجدد: الأرض الصلبة، شبّه الدرع بالغدير في صفائها واطرادها.

سبَنْتَــــي ضَيغماً هَصراً صلَخْداً نـاشـزاً كتـدهْ[١]
يُســامــي القِــرْنَ إن قِــرنٌ تيمَّمــــه فيعتضِـــدهْ[٢]
فيــأْخُــذه فيُــرْدِيــه فيخفِضُــه فيقْتصِـــدُهْ[٣]
فيــدمغُــه فيحطمُــهُ فيخصِمــهُ فيـــزدَردُهْ

المكيدة في الحرب

قال النبي ﷺ: الحرب خدعة.

وقال المهلَّب لبنيه: عليكم بالمكيدة في الحرب فإنها أبلغ من النجدة.

وكان المهلّب يقول: أناةٌ في عواقبها فوْت، خيرٌ من عجلة في عواقبها دَرَك[٤].

وقال مسلمة بن عبد الملك: ما أخذتُ أمراً قط بحزم فلمتُ نفسي فيه وإن كانت العاقبةُ عليّ. ولا أخذت أمراً قطُّ وضيَّعتُ الحزم فيه إلا لُمت نفسي عليه وإن كانت لي العاقبة.

وسئل بعض أهل التمرس بالحرب: أيُّ المكايد فيها أحزم؟ قال: إذكاء العيون[٥]، وإفشاء الغلبة، واستطلاع الأخبار، وإظهار السرور، وإماتةُ الفرَق[٦]، والاحتراس من البطانة[٧] من غير إقصاء لمن يُستنصح، ولا استناد لمن يُستغشّ، وإشغالُ الناس عما هم فيه من الحرب بغيره.

وفي كتاب للهند: الحازم يحذر عدوّه على كل حال: يحذر المواثبة إن قرُب، والغارة إن بعُد، والكمينَ إن انكشف، والاستطراد إن ولّى.

بين المأمون والفضل بن سهل في رأي فات الأمين:

قال المأمون للفضل بن سهل: قد كان لأخي رأي لو عمل به لظفر. فقال له

---

(١) السبنتي الجريء المقدام، والنمر، والصلخد: الصلب القوي، والناشز: المرتفع، والكند: ما بين الكتفين.
(٢) تيمّمه: قصده، ويعتضده: أي يحمله ويرفعه.
(٣) فيقتصده: أي يقتله.
(٤) درك: نيل.
(٥) إذكاء العيون: نشر الجواسيس.
(٦) الفرق: الخوف.
(٧) البطانة: الحاشية المقرّبة، الخاصة.

الفضل: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال لو كتب إلى أهل خراسان وطَبَرِسْتان والري ودُنْياوند أنه قد وهب لهم الخراج لسنة، لم نخل نحن من إحدى خصلتين: إما رددنا فعله ولم نلتفت إليه فَعَصانا أهلُ هذه البلدان وفسدت نياتهم فانقطعوا عن معاونتنا. وإما قبلناه وأمضيناه فلا نجد ما نعطي منه مَن معنا، وتفرّق جندُنا ووهى أمرنا. فقال الفضل: الحمد لله الذي ستر هذا الرأي عنه وعن أصحابه.

وكتب الحجاج إلى المهلب يستعجله في حرب الأزارقة، فكتب إليه: إن من البلية أن يكون الرأي بيد من يملكه دون من يُبصره.

لبعض أهل التمرس:

وكان بعض أهل التمرس يقول لأصحابه: شاوروا في حربكم الشجعان من أولي العزم، والجبناء من أولى الحزم؛ فإن الجبان لا يألو[1] برأيه ما يقي مُهجَكم، والشجاع لا يعدو ما يشُدّ نُصرتكم؛ ثم خلِّصوا من بين الرأيين نتيجة تحمل عنكم مَعَرَّةَ الجبان[2]، وتَهوُّرَ الشجعان، فتكونَ أنفذَ من السهم الزالج[3]، والحسام الوالج[4].

بين الاسكندر ومؤدبه في مدينة فتحها:

وكان الإسكندر لا يدخل مدينة إلا هَدَمَها وقتل أهلها، حتى مرَّ بمدينة كان مؤدِّبُه فيها؛ فخرج إليه، فألْطَفَهُ الإسكندر وأعظمه. فقال له: أصلح الله الملك، إن أحقَّ مَن زيَّن لك أمرك، وأعانك على كل ما هَويتَ لأنَا، وإن أهل هذه المدينة قد طمعوا فيك لمكاني منك، فأُحب أن تشفِّعني فيهم، وألاّ تخالفني في كل ما سألتك لهم. فأعطاه من العهود والمواثيق على ذلك ما لا يقدر على الرجوع عنه. فلما توثّق منه قال: فإن حاجتي إليك أن تَهدمها وتقتل أهلها. قال: ليس إلى ذلك سبيل، ولا بد من مخالفتك. فقال له: ارحل عنا.

---

(١) يألو: يقصِّر.

(٢) معرّة الجبان: أي عيبه وعاره.

(٣) الزالج: النافذ الذي يخترق المصاب به.

(٤) الوالج: الداخل.

سعيد بن العاص وحصن فتحه:

قيل: صالَح سعيدُ بن العاص حصناً من حصون فارس على ألاّ يقتل منهم رجلاً واحداً، فقتلهم كلهم إلا رجلاً واحداً.

عمرو بن العاص وعلم قيسارية:

ابن الكلبي قال: لما فتح عمرو بن العاص قَيساريّة سار حتى نزل غزَّة، فبعث إليه علْجُها[1]: أن آبعث إليّ رجلاً من أصحابك أكلّمه. ففكّر عمرو وقال: ما لهذا أحدٌ غيري. قال: فخرج حتى دخل على العلج فكلمه فسمع كلاماً لم يسمع قطٌّ مثله. فقال العلج: حدِّثني: هل في أصحابك أحد مثلك؟ قال لا تسأل عن هذا، إني هيِّنٌ عليهم إذ بعثوا بي إليك وعَرَّضُوني لما عرّضوني له، ولا يدرون ما تصنع بي. قال: فأمر له بجائزة وكسوة، وبعث إلى البواب: إذا مر بك فآضرب عنقه وخذ ما معه. فخرج من عنده فمرّ برجل من نصاري غسّان فعرَفه؛ فقال: يا عمرو قد أحسنت الدخول فأحسِن الخروج. ففطن عمرو لما أراده، فرجع. فقال له الملك: ما ردَّك إلينا؟ قال: نظرت فيما أعطيتَني فلم أجد ذلك يَسَعُ بني عمي، فأردتُ أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية، فيكون معروفك عند عشرة خيراً من أن يكون عند واحد. فقال: صدقت. أعجل بهم. وبعث إلى البواب أن خَلِّ سبيله. فخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أمِنَ قال: لا عُدْتُ لمثلها أبداً. فلما صالحه عمرو ودخل عليه العلج قال له: أنت هو؟ قال: نعم، على ما كان من غدرك.

عمر والهرمزان:

وقال: ولما أُتِي بالهُرْمزَان أسيراً إلى عمر بن الخطاب قيل له: يا أمير المؤمنين، هذا زعيم العَجم وصاحب رُسْتَم[2] فقال له عمر: أعرِض عليك الإسلام نُصحاً لك في

---

(١) العلج: الكافر، وهنا رئيسها.

(٢) هو رستم بن فرخزاد، كان من أعظم رجال فارس وقائد جيوش يزدجرد ملك ساسان في وقعة القادسية، وقد قتل رستم في هذه الوقعة.

عاجلك وآجلك. قال: يا أمير المؤمنين، إنما أعتقد ما أنا عليه ولا أرغب في الإسلام. فدعا له عمر بالسيف. فلما همّ بقتله قال: يا أمير المؤمنين، شربةً من ماء أفضَلُ من قتلي على ظمأ. فأمر له بشربة من ماء. فلما أخذها قال: أنا آمن حتى أشربها؟ قال: نعم. فرمَى بها وقال: الوفاءُ يا أمير المؤمنين نورٌ أبلج. قال: صدقتَ، لك التوقفُ عنك والنظر في أمرك؛ ارفعا عنه السيف. فلما رُفع عنه. قال: الآن يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وما جاء به حق من عنده. قال عمر: أسلمتَ خيرَ إسلام، فما أخّرَك؟ قال كرهتُ أن تظُن أني أسلمت جزعاً من السيف وإيثاراً لدينه بالرهبة. فقال عمر: إن لأهل فارس عقولاً بها آستحقوا ما كانوا فيه من الملك. ثم أمر به أن يُبَرّ ويُكْرَمَ، فكان عمر يشاوره في توجيه العساكر والجيوش لأهل فارس.

معن ونفر من الأسرى:

وهذا نظير فعل الأسير الذي أتى به مَعْنُ بن زائدة في جملة الأسرى. فأمَرَ بقتلهم، فقال له: أتقتل الأسرى عطاشاً يا مَعْن فأمر بهم فسُقُوا، فلما شربوا قال: أتقتل أضيافك يا معن؟ فخلى سبيلهم.

ملك من ملوك العجم:

وذكروا: أن ملكاً من ملوك العجم كان معروفاً ببُعد الغور[1] ويقظة الفطنة وحسن السياسة، وكان إذا أراد محاربة ملك من الملوك وجه إليه من يبحث عن أخباره وأخبار رعيته قبل أن يُظهِر محاربته، فيكشف عن ثلاث خصال من حاله؛ فكان يقول لعيونه: انظروا، هل ترِد على الملك أخبار رعيته على حقائقها أم يخدعه عنها المُنهي ذلك إليه؟ وانظروا إلى الغنى في أي صنف هو من رعيته، أفيمن اشتدّ أنَفُهُ وقلَّ شرهَهُ، أم فيمن قلَّ أنَفُه واشتدّ شرهُه؟ وانظروا في أي صنف من رعيته

---

(١) بعد الغور: يعني عمق التفكير.

القوّامُ بأمره؟ أفيمن نظر ليومه وغده، أم مَن شغله يومُه عن غده؟ فإن قيل له: لا يُخْدَع عن أخباره؛ والغِنَى فيمن قلَّ شرهُه واشتد انفه، والقوّام بأمره مَن نَظَر ليومه وغده، قال: اشتغلوا عنه بغيره. وإن قيل له ضدّ ذلك قال: نار كانةٌ تنتظر مُو قِدا، وأضغانٌ مُزملةٌ[1] تنتظر مخْرَجاً، اقصدوا له، فلا حَيْنَ أحْيَنُ من سلامةٍ مع تضييع، ولا عدوَّ أعدى من أمْن أدّى إلى اغترار.

وقيعة ملك الهياطلة بيزدجرد:

كانت ملوك العجم قبل ملوك الطوائف تنزل بلخ، ثم نزلت بابل، ثم نزل أردشير ابن بابك فارس، فصارت دارَ مملكتهم، وصار بخراسان ملوكُ الهياطلة وهم الذين قتلوا فيروزَ بن يَزْدَجرد بن بهرام مَلِكَ فارس، وكان غزاهم؛ فكاده ملكُ الهياطلة بأن عَمد إلى رجل ممن عرفه بالمكايدة وحُسن الإدارة، فأظهر السخط عليه وأوقع به على أعين الناس توقيعاً قبيحاً ونكّل به تنكيلاً شديداً. ثم أرسله وقد واطأه[2] على أمر أبطنه معه وظاهره عليه فخرج حتى أتى فيروز في طريقه، فأظهر النزوع[3] إليه والآستنصار به من عظيم ما ناله. فلما رأى فيروزُ ما به من التوقيع والنكاية فيه، وثِقَ به وآستنام إليه. فقال: أنا أدلك أيها الملك على غِرة القوم وعورتهم وأُعْلمك مكان غفلتهم. فسلك به سبيلَ مهلكة مُعْطِشة؛ ثم خرج إليه ملك الهياطلة فأسره وأكثرَ أصحابه، فسألهم أن يمنوا عليه وعلى من معه، وأعطاهم موثقاً لا يغزوهم أبداً، ونصب لهم حجَرا جعله حداً بينه وبينهم، وحلف لهم ألاّ يجاوزه هو ولا جنودُه، وأشهد الله عليه وعلى من حضر من قرابته وأساورته؛ فمنُّوا عليه وأطلقوه ومنْ معه. فلما عاد إلى مملكته أخذته الأنفَة مما أصابه، فعاد إلى غزوهم ناكثاً لعهده غادراً بذمته، إلا أنه تلطف في ذلك بحيلة ظنَّها مجْزِئَةً في أيمانه، فجعل الحجر الذي نصبه لهم على فِيل في مقدّمة عسكره، وتأوّل في ذلك أنه لا يجاوزه فلما صار إليهم ناشدوه

---

(١) أضغان مزمّلة: أحقاد مستورة ومغطّاة.

(٢) واطأه: اتفق معه. (٣) النزوع: الميل والتقرّب.

الله وذكَّروه الأيمان به، وما جعل على نفسه من عهده وذمته، فأبى إلا لجاجاً[1] ونكثا. فواقعوه فظفروا به فقتلوه وقتلوا حُماته واستباحوا عسكره.

للنبي صلى الله عليه وسلم:

أسامة بن زيد اللَّيثي قال: كان النبي ﷺ «إذا غزا أخذ طريقاً وهو يريد أُخرى، ويقول: الحرب خدعة».

مالك الخثعمي وتسميته بالثعلب:

زياد عن مالك بن أنس قال: كان مالك بن عبد الله الخثعميّ، وهو على الصائفة. يقوم في الناس كلما أراد أن يرحل؛ فيحمد الله تعالى ويثني عليه ثم يقول. إني دارب[2] بالغداة إن شاء الله تعالى دربَ كذا. فتتفرق الجواسيس عنه بذلك؛ فإذا أصبح الناس سلك بهم طريقاً أخرى. فكانت تُسميه الروم: الثعلب.

وصايا أمراء الجيوش

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح: إنه بلغني أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث جيشاً أو سريَّة قال: اغْزُوا بسم الله، وفي سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تغلُّوا ولا تَغدروا ولا تُمثِّلوا ولا تقتُلوا امرأة ولا وليداً. فإذا بعثتَ جيشاً أو سرية فمُرْهم بذلك.

وكان عمر بن الخطاب يقول عند عقد الألوية: بسم الله وبالله وعلى عون الله. امضوا بتأييد الله. وما النصر إلا من عند الله ولزوم الحقِّ والصبر. فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. ولا تَجْبُنُوا عند اللقاء، ولا تُمَثِّلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هَرِماً ولا امرأة ولا وليدا،

(١) لجاجاً: تمادياً ومعاودة لسيرته والنكث: عدم الوفاء بالعهد والميثاق.
(٢) دارب: سالك.

وتَوَقَّوا قتلَهم إذا التقى الزحفان، وعند شنِّ الغارات.

أبو بكر يوصي يزيد بن أبي سفيان:

ولما وجّه أبو بكر رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان إلى الشام شيَّعه راجلاً. فقال له يزيد: إما أن تركب وإما أن أنزل. فقال: ما أنت بنازل وما أنا براكب. إني أحتسب خُطاي[١] هذه في سبيل الله. ثم قال: إنك ستجد قوماً حبسوا أنفسهم لله، فذرْهم وما حبسوا أنفسهم له - يعني الرهبان - وستجد قوماً فحصوا[٢] عن أوساط رؤسهم الشَّعر، فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف. ثم قال له: إني موصيك بعشر: لا تغدر، ولا تمثّل، ولا تقتُل هَرِما ولا آمرأة ولا وليدا، ولا تَقِرَن شاة ولا بعيرا إلا ما أكلتم، ولا تحرقنّ نخلا، ولا تخرّبن عامرا، ولا تغُلّ ولا تبخس.

أبو بكر يوصي خالد بن الوليد:

وقال أبو بكر رضي الله عنه لخالد بن الوليد، حين وجهه لقتال أهل الردّة: سِر على بركة الله، فإذا دخلت أرض العدوّ فكن بعيداً من الحملة، فإني لا آمن عليك الجولة، واستظهر بالزاد، وسِرْ بالأدِلاء، ولا تقاتل بمجروح، فإنّ بعضه ليس منه؛ واحترس من البَيات، فإنّ في العرب غِرّة[٣]؛ وأقلل من الكلام، فإنما لك ما وُعِيَ عنك؛ واقبل من الناس علانيتهم، وكِلهُمْ إلى الله في سرائرهم، وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.

من خالد إلى مرازبة فارس:

كتب خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس مع ابن نُفيلة الغساني: الحمد لله الذي فضّ حُزمتكم[٤]، وفرّق جمعكم، وأوهن بأسكم، وسلَب ملككم، وأذلّ عزكم؛ فإذا أتاكم كتابي هذا فابعثوا إليّ بالرُّهن، واعتقدوا منا الذمة، وأجيبوا إلى الجزية، وإلا

---

(١) احتسب خطاي: أي أجعلها واحتسبها. (٢) فحصوا: قلبوا وكشفوا.

(٣) الغرّة: الغفلة، وعدم الخبرة. (٤) فضّ حزمتكم: فرّقها.

والله الذي لا إله إلا هو، لأسيرن إليكم بقوم يُحبون الموت كما تحبون الحياة، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا .

من عمر إلى ابن أبي وقاص:

كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنهما - ومن معه من الأجناد:

أما بعد؛ فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال؛ فإن تقوى الله أفضلُ العدّة على العدوّ، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمُرك ومن معك أن تكونوا أشدّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوّكم، فإن ذنوب الجيش أخوفُ عليهم من عدوّهم، وإنما يُنصَرُ المسلمون بمعصية عدوّهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عُدَّتنا كعدّتهم، فإذا استَوَينا[1] في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نُنْصَرْ عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا . واعلموا أن عليكم في مسيركم حَفَظَةً من الله يعلمون ما تفعلون، فاستَحْيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله؛ ولا تقولوا إن عدوّنا شر منا فلن يُسَلَّط علينا وإن أسأنا؛ فرُبّ قوم سُلّط عليهم شر منهم، كما سُلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كُفّارُ المجوس ﴿فَجَاسُوا خِلاَلَ آلديارِ وكانَ وَعْداً مفْعُولا﴾[2] . واسألوا الله العونَ على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوّكم . أسأل الله ذلك لنا ولكم . وتَرَفّقْ بالمسلمين في مسيرهم، ولا تُجَشّمْهُم مسيرا يُتعبهم، ولا تُقَصر بهم عن منزل يَرْفُقُ بهم، حتى يبلغوا عدوَّهم والسفر لم ينقُص قوتَهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكُراع[3] . وأقِمْ بمن معك في كل جمعة يوماً وليلةٍ، حتى تكون لهم راحةٌ يجمّون[4] فيها أنفسَهم، ويَرُمّون[5] أسلحتَهم وأمتعتهم . ونَحّ منازلهم عن قرى أهل

---

(١) استوينا في المعصية: أي كنّا سواء . (٢) سورة الإسراء الآية ٥ .
(٣) الكراع: الخيل . (٤) يجمون فيها أنفسهم: أي يريحونها .
(٥) يرمون: يصلحون .

الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه. ولا يَرْزَأ أحداً من أهلها شيئاً: فإن لهم حرمة وذمة ابْتليتم بالوفاء بها كما ابتُلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فتولَّوهم خيراً، ولا تستبصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح. وإذا وطئت أدنى أرض العدو فأذكِ العيونَ بينك وبينهم، ولا يخفَ عليك أمرُهم وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإنّ الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدَقَك في بعضه، والغاشّ عينٌ عليك وليس عيناً لك. وليكن منك عند دنوِّك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبُث السرايا بينك وبينهم. فتقطع السرايا أمدادَهم ومرافقَهم، وتتبع الطلائعُ عوراتِهم. وانتق للطلائع أهلَ الرأي والبأس من أصحابك، وتخيَّر لهم سوابقَ الخيل؛ فإن لقُوا عدوّاً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك. واجعل أمرَ السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد، ولا تَخُص بها أحداً بهوى، فيضيع من رأيك وأمرك أكثرُ مما حابيتَ[1] به أهلَ خاصتِك. ولا تبعثن طليعةً ولا سريةً في وجهِ تتخوّف فيه غلبةَ أو ضيعة ونِكاية[2]؛ فإذا عاينت العدو فاضمُمْ إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتك وقوّتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة، ما لم يستكرهك قتال، حتى تُبصرَ عورةَ عدوك ومقاتلَه، وتعرفَ الأرض كلها كمعرفة أهلها، فتصنعَ بعدوّك كصُنعِه بك، ثم أذْكِ أحراسَك على عسكرك، وتَحَفّظ من البيات[3] جُهدَك. ولا تُؤتَ بأسيرٍ له عهدٌ إلا ضربتَ عنقَه، لتُرهبَ بذلك عدوّ الله وعدوك. والله ولي أمرِك ومن معك، ووليُّ النصر لكم على عدوّكم، والله المستعان.

عبد الملك يوصي أميره إلى أرض الروم:

وأوصى عبد الملك بن مروان أميراً سيره إلى أرض الروم فقال: أنت تاجرُ اللهِ لعباده، فكن كالمضارِب الكيِّس[4] الذي إن وجد ربحاً تَجرَ وإلا تَحَفّظَ برأس المال.

(١) حابيت: توددت وأظهرت الميل.
(٢) النكاية: القهر والغلبة. (٣) البيات: الإقامة ليلاً.
(٤) الكيّس: العاقل اللبق.

ولا تطلب الغنيمة حتى تحْرِز السلامة . وكن من احتيالك على عدوِّك أشدّ حذراً من احتيال عدوِّك عليك .

زياد يوصي قواده:

وكان زياد يقول لقواده: تجنّبوا آثنين لا تقاتلوا فيهما العدو: الشتاءَ، وبطون الأودية .

بين الوليد وعباد في زياد:

وأغزى الوليدُ بن عبد الملك جيشاً في الشتاء، فغنِموا وسلموا . فقال لعبّاد: يا أبا حرب، أين رأي زياد من رأينا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قد أخطأت، وليس كل عورة تُصاب .

معاوية وقد أراد استعمال ابن خالد ثم الغامدي:

العُتبي قال: جاشت الرُّوم وغزت المسلمين براً وبحراً، فاستعمل معاوية على الصائفة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فلما كتب له عهدَه قال: ما أنت صانع بعهدي؟ قال: أتخذه إماماً لا أعصيه . قال: أرْدُدْ عليّ عهدي . ثم بعث إلى سُفيان ابن عوف الغامديّ فكتب له عهده، ثم قال له: ما أنت صانع بعهدي؟ قال: أتخذه إماماً أمام الحزم، فإن خالفَه خالفتُه . فقال معاوية: هذا الذي لا يُكَفْكَفُ من عجلة، ولا يُدفَع في ظهره من خَوَر[1]، ولا يُضْرَبُ على الأمور ضَرْبَ الجمل الثفال[2] .

دريد وابن عوف النصري:

وقال دُريد بن الصمّة لمالك بن عوف النَّصري، قائد هوازن، يوم حنين: يا مالك، إنك قد أصبحتَ رئيسَ قومك، وإنّ هذا يومٌ له ما بعده من الأيام، مالي أسمع رُغاء البعير، ونهيق الحمير، وبُكاء الصغير، ويُعار الشاء؟ قال: سقتُ مع الناس

(١) خور: أي سقط وضعف. (٢) الثفال: البطيء.

أبناءهم ونساءهم وأموالهم. قال: ولِمَ؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجلٍ أهلَه ومالَه ليقاتل عنهم. فأنقض به[1]، وقال: راعي ضأن الله! وهل يَرُدُّ المنهزِمَ شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجلٌ بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك، فُضِحْتَ في أهلك ومالك؛ وَيْحَكَ! إنك لم تصنع بتقديم البيْضَةِ بَيْضَةِ هوازن[2] إلى نحور الخيل شيئاً، ارفعهم إلى مُتَمَنَّعِ بلادِهم وعُلْيا قومِهم، ثم الق الصُّبّاء[3] على متون الخيل؛ فإن كانت لك لَحِقَ بك من وراءك، وإن كانت عليك كنتَ قد أحرزتَ أهلك ومالك. قال: لا والله لا أفعل ذلك؛ إنك قد كبرتَ وذهل عقلُك. قال دريد: هذا يوم أشهده ولم يَفُتْني. ثم أنشأ يقول:

يـا لَيْتَني فيهـا جَـذَعْ ... أخُـبُّ فيهـا وأَضَـعْ[4]
أَقُـودُ وَطْفـاء الزَّمَـعْ ... كـأنَّهـا شـاةٌ صَـدَعْ[5]

لقتيبة ينصح أصحابه:

وكان قتيبة بن مُسلم يقول لأصحابه: إذا غزوتم، فأطيلوا الأظفار، وقصِّروا الشعور، والحظوا الناس شَزْرا[6]، وكلِّموهم رمزاً، واطعنوهم وخزاً[7].

لأبي مسلم ينصح قواده:

وكان أبو مسلم يقول لقواده: أشعروا قلوبكم الجرأة فإنها من أسباب الظفر، وأكثروا ذكر الضغائن فإنها تبعث على الإقدام، والزموا الطاعة فإنها حصن المحارب.

---

(١) انقض به: أي أنكر عليه، وزجره. (٢) بيضة هوازن: أي جماعتهم.

(٣) الصباء: يريد المسلمين، كان المشركون يسمّونهم بهذا الاسم لأنهم تركوا دينهم وخرجوا من دين الجاهلية إلى الاسلام.

(٤) الجذع: الشاب او الخبب والوضع: ضربان من السَّير.

(٥) الوطفاء: الطويلة الشعر، والزمع: الشعر الذي فوق مربط قيد الدابة، والشاة: الوعل أي تيس الجبل، هنا، والصدع: من الأوعال والظباء والحمر: الفتي الشاب القوي.

(٦) شزراً: أي بمؤخّرة عيونكم، غضابى. (٧) الوخز: أي كوخز الابر.

وكان سعيد بن زيد يقول لبنيه: قصّروا الأعنَّة، واشحذوا الأسنة، تأكلوا القريب، ويرهبكم البعيد.

المنصور وعيسى ابن موسى:

وقال عيسى بن موسى: لما وجهني المنصور إلى المدينة لمحاربة عبد الله بن الحسن، جعل يُوصيني ويكثر، فقلت: يا أمير المؤمنين، إلى متى توصيني؟

إنّي أنا ذاك الحسامُ الهِنْدِي أكلتُ جَفْني وفَرَيْتُ غِمْدِي[1]
فكلُّ ما تَطْلُبُ عندِي عِنْدِي

المحاماة عن العشيرة ومنع المستجير

لجعيل يصف لعبد الملك قومه:

قال عبد الملك بن مروان لجُعَيل بن عَلقمة الثعلبي: ما مَبْلَغ عزّكم؟ قال: لم يُطمَعْ فينا ولم يُؤمن منّا. قال: فما مبلغ حِفظكم؟ قال: يدفع الرجل منّا عمن استجار به غير قومه كدفاعه عن نفسه. قال عبد الملك: مثلُك من يصف قومه.

لابن مطاع:

وقال عبد الملك بن مروان لابن مُطاع العنزي: أخبرني عن مالك بن مِسْمَع قال له: لو غضب مالكُ لغضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه في أي شيء غضب. قال عبد الملك: هذا والله السُّودد.

قال: ولم يَلِ قطُّ مالكُ بن مِسْمع ولا أسماء بن خارجة شيئاً للسلطان.

للعرب في الدفاع عن الجار:

وكانت العرب تمتدح بالذّبّ[2] عن الجار، فيقولون: فلانٌ منيعُ الجار حامي

(١) الجفن: غمد السيف، وفريت: قطعت. (٢) الذبّ: الدفاع.

الذمار[1] . نعم، حتى كان فيهم من يحمي الجراد إذا نزل في جواره، فسُمّي مجير الجراد .

وقال مَروان بن أبي حَفصة يمدح مَعن بن زائدة ويصف مَفاخر بني شيبان ومَنْعهم لمن آستجار بهم:

هُمُ القوْمُ إن قالُوا أصابوا وإن دُعُـوا   أجابوا، وإنْ أعْطَوْا أطابوا وأجْزَلُوا
هُـمُ يَمنعُـون الجارَ حتّـى كـأنّما   لِجَارِهِـمْ بينَ السّماكَيْـنَ مَنـزِلُ[2]

وقال آخر:

هُـمُ يَمنعُـون الجارَ حتّـى كـأنّـهُ   كَثِيبَةَ زَوْرٍ بين خـافِيَتَـيْ نَسْـرِ[3]

معاوية وهانيء في مال اختانه ابن شهاب:

وذكر أن معاوية ولّى كَثير بن شهاب المذحجيّ خُراسان، فاختان مالاً كثيراً . ثم هرب فاستتر عند هانيء بن عُروة المُرادي . فبلغ ذلك معاوية فهدر دمَ هانيء . فخرج هانيء إلى معاوية، فكان في جواره . ثم حضر مجلسه وهو لا يعرفه . فلما نهض الناسُ ثبت مكانه، فسأله معاوية عن أمره، فقال: أنا هانيء بن عروة، فقال: إنّ هذا اليوم ليس باليوم الذي يقول فيه أبوك:

أُرَجِّـلُ جُمّتي وأَجُـرُّ ذَيلي   وتَحمل شِكّتي أفقّ كُمَيْـتُ[4]
وأمشي في سَراة بني غُطَيـفٍ   إذا مـا سـاءني أمـرٌ أبَيْـتُ[5]

قال: أنا والله يا أمير المؤمنين اليومَ أعزُّ مني ذلك اليوم . قال: بِمَ ذلك؟ قال: بالإسلام . قال: أين كثير بن شهاب؟ قال: عندي وعندك يا أمير المؤمنين . قال: انظر إلى ما اختانه فخذ منه بعضاً وسوِّغه بعضاً، وقد أمَّنّاه ووهبناه لك .

---

(١) الذّمار: ما يحمى ويدافع عنه كالعرض والشرف .
(٢) السماكين: نجمين في السماء .
(٣) كثيبة الزور: أي مجتمعه . والخافية: الريش في الجناح بعد القوادم جمعه: خوافي .
(٤) الأفق: الفرس الرائعة الكريمة . (٥) السراة: السادة .

مقتل محمد ابن أبي بكر:

الشيباني قال: لما نزل محمد بن أبي بكر مصر وصَيَّر إليه معاويةُ معاويةَ بن حديج الكندي. تفرّق عن محمد من كان معه، فتغيّب فدُلّ عليه، فأخذه فضرب عُنقه وبعث برأسه إلى معاوية. فكان أولَ رأس طِيفَ به في الإسلام. وكان محمد بن جعفر بن أبي طالب معه، فاستجار بأخواله من خَثعم فغيّبوه؛ وكان سيّد خثعم يومئذ رجلاً في ظهره بَزَخ[1] مِن كسْرٍ أصابه، فكان إذا مشى ظنّ الجاهل أنه يتبختر في مِشيته، فذُكِر لمعاوية أنه عنده، فقال له: أسلم إلينا هذا الرجل. فقال: ابن أختنا لجأ إلينا لنحقن دمه، فدعْه عنك يا أمير المؤمنين. قال: والله لا أدعه حتى تأتيني به. قال: لا والله لا آتيك به. قال: كذبت، والله لتأتينّي به، إنك ما علمتُ لأوْرَه[2]. قال: أجل، إني لأورهُ حين أقاتلك على ابن عمك لتحقن دمه، وأقدِّم ابن عمي دونه تسفك دمه. فسكت عنه معاوية وخلّى بينه وبينه.

المهدي ومعن في رجل أهدر دمه:

الشيباني قال: قال سعيد بن سلم: أهدر المهدي دم رجل من أهل الكوفة فأقام الرجل حيناً متوارياً، ثم إنه ظهر بمدينة السلام، فكان ظاهراً كغائب، خائفاً مترقباً. فبينا هو يمشي في بعض نواحيها إذ بَصُرَ به رجل من أهل الكوفة فعرفه فأهوى إلى مجامع ثوبه وقال هذا بُغْيَةُ أمير المؤمنين. فأمكنَ الرجلَ من قياده ونظر إلى الموت أمامه. فبينا هو على تلك الحالة إذ سمع وَقْعَ الحوافر من وراء ظهره، فالتفت فإذا معن بن زائدة، فقال: يا أبا الوليد، أجرني أجارك الله. فوقف وقال للرجل الذي تعلق به: ما شأنك؟ قال: بُغيةُ أمير المؤمنين الذي أهدر دمه وأعطى لمن دَلّ عليه مائة ألف. فقال: يا غلام، انزل عن دابتك واحمل أخانا. فصاح الرجل: يا معشر الناس، يُحالُ بيني وبين من طَلَبه أمير المؤمنين. قال له معن: اذهب فأخبره أنه عندي. فانطلق إلى باب أمير المؤمنين فأخبر الحاجب، فدخل إلى المهدي فأخبره، فأمر بحبس

---

(١) البزخ: خروج الصدر ودخول الظهر. (٢) الأوره: الأحمق.

الرجل ووجَّه إلى معن من يَحْضرُ به، فأتته رسلُ أمير المؤمنين وقد لبس ثيابه وقُرِّبتْ إليه دابتُه، فدعا أهل بيته ومواليه فقال: لا يُخلَصَنّ[1] إلى هذا الرجل وفيكم عَيْنٌ تَطرف. ثم ركب ودخل حتى سلم على المهدي، فلم يردّ عليه، فقال: يا معن، أتُجير عَليَّ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ونعم أيضاً! واشتدّ غضبه. فقال معن: يا أمير المؤمنين، قَتَلتُ في طاعتكم باليمن في يوم واحد خمسة عشَر ألفاً، ولِي أيام كثيرة قد تقدّم فيها بلائي وحسن غَنائي، فما رأيتموني أهلاً أن تهبوا لي رجلاً واحداً آستجار بي؟ فأطرق المهدي طويلاً ثم رفع رأسه وقد سُرِّي عنه[2]، فقال: قد أجَرْنا من أجَرْت. قال معن: فإن رأى أمير المؤمنين أن يصله ـ فيكون قد أحياه وأغناه ـ فَعَل. قال: قد أمرنا له بخمسة آلاف. قال: يا أمير المؤمنين، إنّ صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية وإن ذنب الرجل عظيم؛ فأجزل له الصلة. قال: قد أمرنا له بمائة ألف. قال: فَتُعَجِّلُها يا أمير المؤمنين بأفضل الدعاء. ثم انصرف ولحقه المال؛ فدعا الرجل فقال له: خذ صلتك والحق بأهلك، وإياك ومخالفة خلفاء الله تعالى.

الجبن والفرار

لعمرو بن معديكرب في الفزعات:

قال عمرو بن معديكرب: الفَزَعات ثلاث: فمن كانت فَزْعَته في رجليه فذلك الذي لا تُقلّه رجلاه، ومَن كانت فَزعته في رأسه فذلك الذي يفرُّ عن أبويه، ومن كانت فزعته في قلبه فذلك الذي يقاتل.

وقال الأحنف: أسرعُ الناس إلى الفتنة، أقلهم حياءً من الفرار.

وقالت عائشة أم المؤمنين: إنّ لله خَلقاً قلوبُهم كقلوب الطير، كلما خَفَقت الريح خفقت معها؛ فأفٍ للجبناء!

وقال الشاعر:

(١) لا يخلصنّ: لا يصل أحلٌ إليه. (٢) سرِّي عنه: زال غضبه.

يَفِرُّ جَبانُ القومِ عن أمِّ نَفْسِهِ ويحمي شجاع القوم مَن لا يُناسِبُهْ
ويُرْزَقُ مَعْروفَ الجَوادِ عَدُوُّهُ ويُحرَمُ مَعْرُوفَ البخيلِ أقارِبُهُ[1]

وقال خالد بن الوليد عند موته: لقد لَقِيتُ كذا وكذا زَحْفاً، وما في جسمي موضعُ شبرٍ إلا وفيه ضربةٌ أو طعنة أو رَمْية؛ ثم هأنذا أموت حَتْف نَفْسي كما يموت العَيْر[2]؛ فلا نامت أعينُ الجبناء.

للفرار السلمي في الفرار:

ومن أشعار الفرّارين الذين حَسَّنوا فيها الفرار على قبحه حتى حَسُن، قول الفرار السلمي[3]:

وكتيبةٍ لَبَّسْتها بكتيبةٍ حتى إذا الْتَبَسَتْ أَمَلْتُ بها يدي[4]
وتركتهم تَقِصُ الرماحُ ظُهورَهم مِن بين مقتولٍ وآخَرَ مُسْنَدِ[5]
هل يَنْفَعَنِّي أن تقولَ نساؤُهم وقُتِلْتُ دون رجالها: لا تَبْعَدِ

للحارث بن هشام في الفرار:

وقال أبو عُبيدة مَعمر بن المثنَّى: ما آعتذر أحد من الفرّارين بأحسن مما آعتذر به الحارث بن هشام حيث يقول:

الله يعلَم ما تركتُ قِتالَهُم حتى رمَوْا مُهْري بأشْقرَ مُزْبِد
وعلمت أنّي إنْ أقاتل واحداً أُقتل ولا يضرر عدوّي مشهدي
فَصَدَفْتُ عنهم والأحِبَّةُ فيهمُ طمعاً لهم بعقابِ يوم مرصد[6]

وهذا الذي سمعه صاحب رتْبيل فقال: يا معشر العرب، حسَّنتم كلّ شيء فَحَسُنَ حتى الفرار.

(١) معروف الجواد: أي كرمه. (٢) العير: الحمار.
(٣) هو حيان بن الحكم شاعر مخضرم صحابي، كان صاحب راية بني سليم يوم الفتح.
(٤) لبستها: أي خلطتها، ونفضت لها يدي: كناية عن الاعراض عنها.
(٥) تَقِص: تكسر وتقصم. (٦) صدفت عنهم: أعرضت عنهم.

وبعد هذا يأتي قول حسان في ذلك.

وأسلم الحارث يوم فتح مكة وحَسُن إسلامه، وخرج في زمن عمر إلى الشام من مكة بأهله وماله، فاتبعه أهل مكة يبكون، فرقّ وبكى وقال: أما لو كنا نستبدل داراً بدارنا، أو جاراً بجارنا، ما رأينا بكم بدلاً؛ ولكنها النُّقلة إلى الله فلم يزل هناك مجاهداً حتى مات.

وقال آخر:

قامتْ تُشَجِّعُني هندٌ وقد علمت ... أنّ الشَّجاعة مقرُونٌ بها العطَبُ
لا والذي منَعَ الأبصَارَ رُؤْيتَهُ ... ما يشْتَهي الموتَ عِنْدِي من له أَدَبُ
للحرب قومٌ أضلَّ اللهُ سعْيهُمُ ... إذا دعتهُم إلى نِيرانِها وثبوا
ولَسْتُ منهم ولا أهْوى فِعالَهُمُ ... لا القتلُ يُعجبني منها ولا السَّلَبُ

وقال محمود الوراق:

أيها الفارسُ المُشِيخُ المغِيرُ ... إنّ قلبي من السَلاحِ يطِيرُ[1]
ليْسَ لي قُوَّةٌ على رهَجِ الخَيْـ ... ـلِ إذا ثوّرَ الغُبارَ مُثِيرُ[2]
واستَدارتْ رَحى الحرُوبِ بِقوْمٍ ... فقتِيلُ وهارِبٌ وأسيرُ[3]
حيثُ لا يَنطِق الجبانُ منَ الذُّعـ ... ـرِ ويَعْلُو الصّياحُ والتَّكْبيرُ
أنا في مِثْلِ ذا وهٰذا بليدٌ ... ولَبيبٌ في غيْرِه نِحْرِيرُ[4]

وقال أيْمَن بن خُرَيْم:

إنَّ لِلْفِتنةِ مَيْطاً بيِّنا ... فرُوَيْد الميطَ منها يعتدِلْ[5]
فإذا كان عطاءٌ فَأْتِهِمْ ... وإذا كان قِتالٌ فاعْتَزِلْ
إنما يُوقِدُها جُهّالُها ... حطَب النَّارِ فدَعْها تشْتعِلْ

---

(١) المشيح: الجاد الماضي في أموره.
(٢) الرهج: الغبار الساطع.
(٣) الرّحى: الطاحون.
(٤) النحرير: العالم.
(٥) الميط: الهياج والصخب.

لصاحب كليلة ودمنة:

ومما يحتج به الفارّون: ما قاله صاحب كليلة ودمنة: إن الحازم يكره القتال ما وجد بُدّاً منه؛ لأن النفقة[1] فيه من النفس، والنفقة في غيره من المال.

أخذ هذا المعنى حبيب فنظمه في شعره حيث يقول:

كَمْ بيْنَ قَوْمٍ إنَّمَا نفَقَاتُهُمْ مالٌ وقَوْمٍ ينْفِقُونَ نُفُوسَا

ومن الفرّارين عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث؛ فرّ من الأزارقة وكان في عشرة آلاف، وكان قد بعث إليه المهلّب: يا بن أخي، خَنْدِقْ على نفسك وعلى أصحابك، فإني عالم بأمر الخوارج، ولا تغترّ. فبعث إليه: أنا أعلم بهم منك، وهم أهْوَنُ عليّ من ضَرطة الجمل فبيَّته قطَرِيٌّ صاحب الأزارقة فقَتَل من أصحابه خمسمائة، وفرّ لا يلوي على أحد. فقال فيه الشاعر:

تَرَكتَ وِلْدَاننا تَدْمَى نُحورُهُمُ وجِئْتَ مُنْهزِماً يا ضَرطَةَ الجمَلِ

ومن الفرارين أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد؛ فرّ يوم مرداء هَجَر من أبي فدَيْك، فسار من البحرين إلى البصرة في ثلاثة أيام، فجلس يوماً بالبصرة فقال: سرت على فرسي « المِهْرجانِ » من البحرين إلى البصرة في ثلاثة أيام. فقال له بعض جلسائه: أصلح الله الأمير، فلو ركبت « النّيروزَ » لسرتَ إليها في يوم واحد. فلما دخل عليه أهلُ البصرة لم يروا كيف يُكلّمونه، ولا ما يُلْقُونه من القول، أيهنّئونه أم يُعزّونه؛ حتى دخل عليه عبدُ الله بن الأهتم فاستشرف[2] الناسُ له، وقالوا: ما عسى أن يُقال للمنهزِم؟ فسلم ثم قال: مرحباً بالصابر المخذول، الذي خذله قومه. الحمد لله الذي نظر لنا عليك ولم ينظر لك علينا فقد تعرّضت للشهادة جهدَك، ولكِنْ عَلِم الله حاجةَ أهل الإسلام إليك، فأبقاك لهم بخذلانِ مَن معك لك. فقال أمية بن عبد الله: ما وجدت أحداً أخبرَني عن نفسي غيركَ. وفيه يقول الشاعر:

(١) النفقة: الموت، ونفقت الماشية: هلكت.

(٢) استشرف الناس له توجّهت إليه الأبصار.

إذا صوَّتَ العُصْفُورُ طـارَ فـؤادُه ... وليْثٌ حديدُ النَّابِ عِنْدَ الثَّرَائِـدِ[1]

الحجاج وخيل لأمية:

أتى الحجاج بدواب من دواب أمية قد وُسم على أفخاذها: «عُدّة» فأمر الحجاج أن يكتب تحت ذلك: «للفرار».

وقال أبو دُلامة: كنت مع مروان[2] أيام الضحاك الحروري، فخرج فارس منهم فدعا إلى البِراز، فخرج إليه رجل، فقتله، ثم ثان، ثم ثالث. فانقبض الناس عنه، وجعل يدنو ويهدِر كالفحل المغتلم[3]، فقال مروان: من يخرج إليه وله عشرة آلاف؟ قال: فلما سمعتُ عشرة آلاف هانت عليّ الدنيا وسَخَوْتُ بنفسي في سبيل عشرة آلاف وبرزت إليه. فإذا عليه فَرْوٌ قد بلّه المطر فارْمَعَلّ[4]، ثم أصابته الشمس فاقفعلّ[5]، وله عينان تتقدان كأنهما جمرتان؛ فلما رآني فهِم الذي أخرجني، فأقبل نحوي وهو يرتجز ويقول:

وخارجٍ أخْـرَجَـهُ حُـبُّ الطَّمَـعْ ... فـرَّ مِـنَ المَوْتِ وفي المَوْتِ وقَـعْ
مَنْ كانَ يَنْوِي أهْلَهُ فلا رَجَعْ

فلما رأيته قَنَّعْتُ رأسي ووليت هارباً ومروان يقول: مَن هذا الفاضح؟ لا يفوتكم! فدخلت في غمار الناس.

لأعرابي في الغزو:

وقيل لأعرابي: ألا تغزو العدوّ؟ قال: وكيف يكونون لي عدوّاً وما أعرفهم ولا يعرفونني؟

---

(١) الثرايد: أي الأكل السهل الطري، والثريد: طعام من خبزٍ مفتت ومرق.
(٢) هو مروان بن محمد.
(٣) المغتلم: المتهيّج. (٤) فارمعلّ: ابتل.
(٥) فاقفعل: أي تقبّض.

وقيل للآخر: ألا تغزو العدوّ؟ قال: والله إني لأبغض الموت على فراشي، فكيف أخبّ[1] إليه ركضا!

لحسان يعير الحارث بن هشام:

ومما قيل في الفرّارين الجبناء من الشعر قولُ حسان بن ثابت يعيّر الحارث بن هشام بفراره يوم بدر، وقد تقدم ذكر ذلك:

إنْ كنتِ كاذبَةَ الذي حدَّثْتِني فنجوْت مَنْجَى الحارثِ بن هشام
تركَ الأحِبَّةَ لم يُقاتِلْ دونَهم ونَجا برأسِ طِمِرَّةٍ ولجام[2]
مَلأتْ به الفرْجَيْن فامتدّتْ به وثوَى أحبَّتُه بِشَرِّ مُقام

وقال بعض العراقيين في رجل أكول جبان:

إذا صوَّتَ العُصفورُ طار فؤادُه وليثٌ حديدُ الناب عند الثَّرائِد

وقال فيه:

ضعيفُ القلب رعْديدٌ عظيمُ الخلْقِ والمَنْظَرْ[3]
رَأى في النومِ عُصْفوراً فَوارى نفسَه أشهرْ

وقال آخر:

لو جرَتْ خَيْلٌ نُكوصاً لجرتْ خَيْلُ دُفافَهْ[4]
هيَ لا خيْلُ رَجاءٍ لا ولا خيْلُ مَخافَهْ

وقال آخر:

خَرجنا نُريدُ مُغاراً لنا وفينا زِيادٌ أبو صَعْصَعَهْ
فسِتَّةُ رَهْطٍ به خمسةٌ وخمسةُ رهْطٍ به أرْبعَهْ

(١) الخبب: نوعٌ من العَدْو.
(٢) الطمرّة: الأنثى من الجياد، وهي المستفزة للوثب والعدو، وقيل: هي الطويلة القوائم.
(٣) رعديد: جبان.
(٤) النكوص: الهرب والتراجع.

ولم يقل أحد في وصف الجبن والفرار مثل قول الطرِمّاح في بني تميم:

تميمٌ بطُرْقِ اللؤمِ أهْدى مِنَ القَطا ... ولو سَلَكَتْ سُبْلَ المكارمِ ضَلَّتِ
ولو أنّ بُرْغوثاً على ظَهْرِ قَملةٍ ... رأتْه تميمٌ يومَ زَحفٍ لولَّتِ
ولو جَمَعَتْ يوماً تميمٌ جموعَها ... على ذَرَّةٍ معقولةٍ لا شملَّتِ(١)

وليس يُعاب الشجاعُ والبُهْمة البطلُ بالفَرّة الواحدة تكون منه خاصة لا عامة؛ كما قال زُفر بن الحارث وفرّ يوم مرج راهط عن أبيه وأخيه فقال:

أيذْهبُ يومٌ واحدٌ إن أسأتُه ... بصالحِ أيّامي وحُسنِ بلائِيا(٢)
ولم تُرَ مني زَلّةٌ قبل هذه ... فِراري وتَرْكي صاحبَيَّ ورائيا

وفرّ عمرو بن معديكرب من عباس بن مرداس وأَسَرَ أختَه ريحانة: وفيها يقول عمرو:

أمِنْ رَيحانةَ الدّاعي السَّميعُ ... يُؤَرِّقُني وأصحابي هُجُوعُ

وفرّ عن بني عبس وفيهم زُهير بن جذيمة العبسي وولده شأس بن زهير وقيس بن زهير! فقال فيهم:

أجاعِلَةٌ أمُّ الثُوَيْر خزايَةً ... عليَّ فِراري إذْ لقيتُ بني عَبْس(٣)
لقِيتُ أبا شأسٍ وشأساً ومالكاً ... وقيْساً فَجاشت من لِقائِهم نفْسي(٤)
لقُونا فضمُّوا جانبيْنا بصادقٍ ... من الطعْنِ مثل النارِ في الحطبِ اليبْس
ولما دَخلنا تحتَ فَيءِ رِماحِهم ... خَبَطْتُ بكفّي أطلبُ الأرضَ باللّمْس(٥)
وليس يُعابُ المرءُ من جُبْنِ يومِه ... إذا عُرِفَتْ منه الشجاعةُ بالأمس

وقال أيضاً:

---

(١) اشمعلّت: تفرّقت

(٢) حسن البلاء: حسن الفعل والإقدام.

(٣) أمّ الثوير: هي امرأة عمر بن معد يكرب.

(٤) جاشت: اضطربت (٥) خبطت: ضربت

ولقـــــــد أجمع رجليّ بها   حـذَر الموت وإنِّــي لفَــرُورْ
ولقــد أعطفهــا كــارهــةً   حين للنفس من الموت هَريـرْ[1]
كـلّ مـا ذلـك منّــي خُلُــقٌ   وبكـلٍّ أنـا في الرَّوع جـديـرْ
وابن صبـحٍ سـادراً يُــودعني   ماله في الناس ما عِشْتُ مجير[2]

وقال الحارث لآمرأته، وذلك أنها نظرت إليه وهو يَحُدّ حربة يوم فتح مكة فقالت له: ما تصنع بهذه؟ قال: أعددتُها لمحمد وأصحابه. فقالت: ما أُرَى يقوم لمحمد وأصحابه شيء. قال: والله إني لأرجو أن أُخْدِمَك بعضهم! ثم أنشأ يقول:

إنْ يُقْبِلـوا اليـومَ فما بي علّــهْ   هــذا سلاحٌ كــامِــلٌ وألّــهْ[3]
وذو غرارَيْن سَريعُ السَّلّهْ

فلما لقيهم خالد يوم الخندمة[4] انهزم الرجل، فلامته آمرأته، فقال:

إنك لو شاهـدْتِ يـومَ الْخَنْـدَمَـهْ   إذْ فـرَّ صَفْـوَانُ وفـرَّ عِكْـرِمَــهْ
وأبـو يـزيـدَ قــائم كــالمُوتمــهْ   ولحقتْنـا بـالسيــوف المُسلمــه[5]
يفْلَقْـنَ كـلَّ سـاعـدٍ وجمْجُمَــهْ   ضَـربـاً فلا تُسْمَـعُ إلاّ غمغمه[6]
لهم نَهيــتٌ خلفنـــا وهمهمـــه   لم تَنطِقي في اللوْمِ أدْنَى كَلِمَـهْ[7]

بين ابن زياد وابن زرعة:

وكان أسلم بن زرعة وجَّهه عبيد الله بن زياد لحرب أبي بلال الخارجي في ألفين، وأبو بلال في أربعين رجلاً: فشدُّوا عليه شدّة رجل واحد فانهزم هو وأصحابه، فلما

---

(١) الهرير: الصياح.
(٢) سادراً: أي لا يبالي ما فعل.
(٣) الألّه: الحربة لها سنان طويل والغرار: الحدّ.
(٤) الخندمه: جبل دخل منه النبي صلى الله عليه وسلّم يوم فتح مكّة.
(٥) أبو يزيد: هو سهيل بن عمرو خطيب قريش والموتمه: المرأة مات زوجها وترك لها أيتاماً.
(٦) الغمغمة: أصوات غير واضحة.
(٧) النهيت: الزئير والزحير.

دخل على ابن زياد عنَّفه في ذلك وقال: ويلك! أتمضي في ألفين وتنهزم عن أربعين؟ فخرج عنه وهو يقول: لأنْ يذُمَّني ابن زيادٍ حيّاً خيرٌ من أن يَمدحني وأنا ميت ـ وفي رواية أخرى: أن يشتمَني الأميرُ وأنا حيٌّ أحبُّ إليّ من أن يدعو لي وأنا ميت. فقال شاعر الخوارج:

أألْفَا مُؤمنٍ فيما زَعَمْتُمْ ... ويهزمهم بآسَكَ أربَعونا
كذبْتُمْ، ليس ذلكُمُ كذاكُم ... ولكنّ الخوارجَ مؤمنونا
هُمُ الفئةُ القليلةُ قد عَلِمتُمْ ... على الفئةِ الكثيرةِ يُنْصَرُونا

ومثل ذلك قولُ عبد الله بن مطيع بن الأسود العَدوي، وكان فَرَّ يوم الحرَّة من جيش مُسلم بن عُقبة، فلما كان أيامَ حِصارِ الحجاج بمكة لعبد الله بن الزُّبير جعل يقاتل أهلَ الشام ويقول:

أنا الذي فررتُ يومَ الحرَّهْ ... والشيخُ لا يَفِر إلا مرّهْ
فاليومَ أجزي فرّةً بكرّه ... لا بأس بالكرَّة بعد الفرَّهْ

فلم يزل يُقاتل حتى قُتِل.

وأحسن ما قيل في الفرار كله ما قاله قيس بن الحطيم:

إذا ما فررْنا كان أَسْوَا فِرارِنا ... صدود الخُدودِ وازورار المناكب
أجالِدُهم يومَ الحديقة حاسراً ... كأنّ يدي بالسيف مِخْراقُ لاعبِ(١)

وفرّ عُتيبة بن الحارث بن هشام يوم ثبرة عن آبنه حَزْرة وقال:

يا حسرتي لقد لقِيتُ حَسْرَهْ ... يالتميم غشِيَتْني عبْرَهْ
نعم الفتى غادرْتُه بثَبَرهْ ... نَجَّيْتُ نفسي وتَركتُ حَزرَهْ
هل يترُكُ الحرُّ الكريمُ بِكْرَهْ(٢)

---

(١) الحديقة: قرية من أعراض المدينة في طريق مكة، كانت وقعة بين الأوس والخزرج قبل الاسلام. والمخراق: منديل أو نحوه يلوى فيضرب به أو يلف فيفزع به.

(٢) البكر: أوّل الصبية.

وفرَّ أبو خراش الهذلي من فائد وأصحابه، ورصدوه بعرفات فقال:

وفوني وقالوا يا خُوَيلد لا تُرَعْ ... فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ
وقلتُ وقد جاوزتُ أصحابَ فائدٍ ... أأعْجزتُ أولى الخيل أم أنا أحْلم
فلولا آدّراكُ الشرِّ قامت حليلتي ... تَخَيَّرُ من خُطَّابها وهْي أيِّمُ[1]
ولولا ادّراكُ الشرّ أتلفتُ مُهجتي ... وكان خراشٌ يومَ ذلك يَيْتَمُ

وفرّ خُبيب بن عوف يوم مَرْداء هجر من أبي فُديك، فقال:

بذلتُ لهم يا قَوم حوْلي وقوّتي ... ونُصْحي وما ضَمّت يداي مَن التبرِ
فلما تناهى الأمر بي من عدوكم ... إلى مُهجتي ولّيْتُ أعداءكم ظهري
وطِرتُ ولم أحفِل ملامَةَ عاجز ... يُقيم لأطرافِ الرُّدَيْنِيةِ السُّمْرِ
فلو كان لي روحان عَرّضْتُ واحداً ... لكلِّ رُدَيْنيٍّ وأبيضَ ذي أُثْر[2]

رَجَع بنا القول إلى الفرّارين والجبناء وما قيل فيهم.

للفرزدق في خالد ابن أسيد:

فرّ خالد بن عبد الله بن أسيد عن مصعب بن الزبير يوم الجُفْرة بالبصرة، فقال فيه الفرزدق:

وكلُّ بني السَّوداء قد فرّ فرّةً ... فلم يبق إلاّ فرّةٌ في آسْت خالدِ
فضحتم أمير المؤمنين وأنتمُ ... تمرُّون سُوداناً غِلاظَ السَّواعِدِ

وقيل لرجل جبان في بعض الوقائع: تقدّم. فأنشأ يقول:

وقالوا تقدّمْ، قلتُ لست بفاعلٍ ... أخافُ على فَخّارتي أن تَحطَّما
فلو كان لي رأسان أتلفتُ واحداً ... ولكنّه رأسٌ إذا راح أعقما
فلو كان مُبْتاعاً لدَى السوق مِثْلُهُ ... فعلتُ ولم أحفِلْ بأن أتقدّما
فأُوتِم أولاداً وأُرْمِلُ نِسوةً ... فكيف على هذا تَرون التقدُّما

---

(١) الأيّم: الأرمل. (٢) الرديني: الرمح، والأبيض: السيف والأثر: فرند السيف وجوهره.

بين هند وابن زنباع:

وقالت هند بنت النعمان بن بشير لزوجها رَوْح بن زنباع: كيف سَودك قومك وأنت جبانٌ غيور؟ قال: أما الجبن، فإن لي نفساً واحدة فأنا أحوطها، وأما الغيرة فما أحق بها مَن كانت له اَمرأة حمقاء مثلك، مخافة أن تأتيه بولد من غيره فترمي به في حِجْره.

وقال كعب بن زهير:

بُخْلا علينا وجُبْناً مِن عدوِّكم ... لبئْسَتِ الخلّتانِ البخلُ والجُبْنُ

فضائل الخيل

قال النبي ﷺ في صفة الخيل: «أعرافها أدفاؤها[1]، وأذنابها مَذَابُّها[2] والخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة».

وقال النبي ﷺ: «عليكم بإناث الخيل فإنّ بطونها كنز؛ وظهورها حِرْز، وأصحابها مُعانون عليها».

وسأل رجل النبي ﷺ فقال: إني أريد أن أشتري فرساً أُعِدُّهُ في سبيل الله. فقال له: اشتره أدْهَمَ أو كُمَيْتاً أقْرَحَ أرْثم، أو مُحجلا مطلق اليمين[3]، فإنها ميامينُ الخيل.

وقيل لبعض الحكماء: أي الأموال أشرف؟ قال: فَرسٌ تتبعها فرس في بطنها فرس.

---

(١) الأدفاء: الأجنحة. (٢) مذابُّها: أي ما يذبُّ عنها ويدفع.

(٣) الأدهم: الأسود، والكميت: من الكمتة وهي لون بين السّواد والحمره، والأقرح: ما كان في جبهته بياض قليلٌ دون الغرَه، والأثرم: هو ما كانت شفته العليا وأنفه أبيضين. والمحجّل: ما كانت قوائمه بيضاء، ومطلق اليمين: أي لا تحجيل فيها.

صفة جياد الخيل

للنبي صلى الله عليه وسلم:

كان رسول الله ﷺ يستحب من الخيل الشقر.

وقال: « لو جُمعتْ خيلُ العرب في صعيد واحد ما سبَقها إلا أشقر ».

وسأله رجل: أيُّ المال خير؟ قال: سِكة مأبورة، ومُهْرةٌ مأمورة[1].

وكان عليه الصلاة والسلام يكره الشّكال[2] في الخيل.

لبعضهم:

وقالوا: إنما سميت خيلاً لاختيالها.

ووصف أعرابيٌّ فرساً فقال: إذا تركته نَعَس، وإذا حرّكته طار.

وأرسلَ مُسلم بن عمرو لابن عم له بالشام يشتري له خيلاً، فقال له: لا علم لي بالخيل. فقال: ألست صاحب قَنْص؟ قال: بلى. قال: فانظر، كل شيء تستحسنه في الكلب فاطلبه في الفَرس. فأُتيَ بخيل لم يكن في العرب مثلها.

وقال بعض الضَّبّيّين في وصف فرس:

متقاذفٍ عبْلِ الشّوى شنِـج النَّسـا ... سَبّاقِ أنْـدِيَـةِ الجِيَـادِ عَمَيْثَـلِ[3]

وإذا تَعَلّـلَ بـالسّيـاطِ جِيـادُهـا ... أعطـاك نـائلـه ولم يتعلّـلِ

بين المهدي وابن دراج في أفضل الخيل:

سأل المهدي مطَربن درّاج عن أي الخيل أفضل؟ قال: الذي إذا استقبلته قلتَ نافر، وإذا استدبرتَه قلت زاخر[4]، وإذا استعرضته قلت زافر[5]. قال: فأيّ هذه

(١) السكّة: الطريق المصطفة من النخل، والمأبوره: الملقّحة، والمأمورة: الكثيرة النتاج.

(٢) الشّكال: أن تكون ثلاث قوائم محجّلة وواحدة مطلقة.

(٣) عبل الشّوى: العبل: الضخم، والشوى: القوائم والنسا: عرق من الورك الى الكعب. والعميثل: النشيط.

(٤) الزاخر: الممتلىء. (٥) الزافر: لعل المرّاد بالزافر: العظيم الزُفرة بالضمّ وهي وسط الفرس.

أفضل؟ قال: الذي طرفُه إمامُه، وسَوْطُه عنانُه.

وقال آخر: الذي إذا مَشَى رَدَى[1]، وإذا عدَا دَحا[2]، وإذا اسْتُقْبل أقْعى، وإذا ٱستُدْبَر جَبّى[3]، وإذا ٱستعرِض ٱستوى.

بين معاوية وصعصعة:

وسأل معاوية بن أبي سفيانَ صعصعة بن صُوحان: أي الخيل أفضل؟ قال: الطويل الثلاث، القصير الثلاث، العريض الثلاث، الصافي الثلاث. قال: فَسِّرْ لنا. قال: أما الطويل الثلاث، فالأُذن والعنق والحزام؛ وأما القصير الثلاث، فالصُّلب والعَسِيب والقضيب؛ وأما العريض الثلاث، فالجبهة والمِنْخَر والورِك؛ وأما الصافي الثلاث، فالأديم والعين والحافر.

بين عمر بن الخطاب وعمرو بن معديكرب في عراب الخيل:

وقال عمر بن الخطاب لعمرو بن معديكرب: كيف معرفتك بِعِراب الخيل؟ قال: معرفة الإنسان بنفسه وأهله وولده. فأمر بأفراس فعُرضت عليه، فقال: قدِّموا إليها الماء في التِّراس[4]، فما شرب ولم يَكْتِف[5] فهو من العِراب، وما ثَنَى سُنْبُكه[6] فليس منها.

قلت: إنما المحفوظ أن عمر شك في العِتاق والهُجن، فدعا سلمان بن ربيعة الباهلي فأخبره، فدعا سلمانُ بطست من ماء فوُضع بالأرض، ثم قدّم إليه الخيل فَرَساً فرساً، فما ثنى سنبكه وشرب هجَنه، وما شرب ولم يَثْنِ عَرَّبه.

---

(١) ردى: من الرديان، أي أن يرجم الأرض رجماً بين المشي والعدو.
(٢) دحا: أي أن الفرس في سيره يرمي بيديه لا يرفع سنبكة عن الأرض.
(٣) جبّى: انكبّ على وجهه.
(٤) التراس: جمع ترس، وهو صفحة مستديرة تحمل للوقاية من سيف ونحوه.
(٥) يكتف الفرس: أي ترتفع فروع كتفه.
(٦) السنبك: طرف الحافر، أو الزّمام.

وقال حسان بن ثابت يصف طولَ عنق الفرس:

بكلِّ كُميتٍ جَوْزُهُ نِصْفُ خَلْقِه   أقبَّ طُوَالٍ مُشرِفٍ في الحوارِكِ(١)

وقال زهير:

ومُلْجَمُنا ما إنْ ينالُ قذالُه   ولا قَدماه الأرْضَ إلا أنامِله(٢)

وقال آخر:

له ساقا ظَليمٍ خا   ضِبٍ فوجيءَ بالرُّعبِ(٣)
حديدُ الطَّرْفِ والمنْكـ   ـبِ والعُرْقوبِ والقَلْبِ

وقال آخر(٤):

هريتٌ قصير عذارِ اللجامِ   أسيلٌ طَويلُ عِذارِ الرسَن(٥)

لم يرد بقوله «قصير عذار اللجام» قِصر خدِّه، وإنما أراد طويل شق الفم؛ وأراد بطول عذار الرسن، طولَ الخدّ.

وقال آخر:

بكلِّ هَريتٍ نقيِّ الأديم   طويلِ الحزام قصير اللَّببْ(٦)

لأبي عبيدة في عتاقه الفرس:

وقال أبو عبيدة: يُستدلّ على عَتاقة الفرس جحافله وأرْنبَتِه، وسعة مِنْخَرَيْه، وعُرْى نواهقه(٧)، ودِقّة حَقْوَيه وما ظهر من أعالي أُذنيه، ورقة سالفتيه وأديمه، ولين

(١) الكميت، من الكمتة وهي لون بين السواد والحمرة وجوزه: وسطه، والأقبّ من الخيل: الدقيق الخصر الضامر البطن، والطوال: الطويل والحوارك: أعالي الكاهل.

(٢) القذال من الفرس: معقد الغدار خلف الناصية.

(٣) الظليم: ذكر النعام، والخاضب: الذي أعتلم فاحمرّت ساقاه.

(٤) هو تميم بن أبي مقبل أحد شعراء الجاهلية، مخضرم عاش مائة وعشرين سنة.

(٥) الهريت: الواسع الشدقين الطويل شقّ القمّ والأسيل: صفحة الخدّ الناعمة.

(٦) اللّبب: المنحر. (٧) النواهق: يريد بالنواهق: الناهقين وهما العظمان الشاخصان في مجرى الدمع.

شعره. وأبْيَنُ من ذلك كله لينُ شكير[1] ناصيته وعُرفه.

وكانوا يقولون: إذا اشتد نفَسُه، ورَحُبَ مُتَنَفَّسُه، وطال عنقه، واشتد حِقْوه، وانهَرَتَ شِدْقُه، وعظمت فخذاه، وانشبخت[2] أنساؤه، وعظمت فصوصه، وصلبت حوافره ووقُحت: أُلحق بجياد الخيل.

قيل لرجل من بني أسد: أتعرف الفرس الكريم من المُقرف[3]؟ قال نعم: أما الكريم فالجواد الجيد، الذي نَهَز نَهْز العَيْر[4]، وأُنِّف تأنيف السَّير، الذي إذا عدا اسلهب[5]، وإذا قُيِّد اجْلَعَبَّ[6]، وإذا انتصب اتلأَبَّ[7].

وأما المُقرف فإنه الذَّلول الحجبَة، الضخم الأرنبة، الغليظ الرقبة، الكثير الجلبة، الذي إذا أرسلته قال أمسِكني، وإذا أمسكته قال أرْسِلْني.

وكان محمد بن السائب الكَلْبي يحدث أنّ الصَّافنات[8] الجياد المعروضة على سليمان ابن داود عليهما السلام كانت ألف فرس ورثها عن أبيه، فلما عُرضت عليه ألهته عن صلاة العصر حتى توارت الشمس بالحجاب، فعَرْقبها إلا أفراساً لم تُعرض عليه، فوفد أقوامٌ من الأزد، وكانوا أصهاره، فلما فرغوا من حوائجهم، قالوا: يا نبيّ الله، إنّ أرضنا شاسعة فزوّدنا زاداً يبلّغنا. فأعطاهم فرساً من تلك الخيل، وقال: إذا نزلتم منزلا فاحملوا عليه غلاما واحتطبوا؛ فإنكم لا تورون ناركم حتى يأتيكم بطعامكم. فساروا بالفرس، فكانوا لا ينزلون منزلا إلا ركِبه أحدهم للقنْص فلا يفلته شيء وقعت عينه من ظبي أو بقر أو حمار، إلى أن قَدِموا إلى بلادهم فقالوا: «ما فرسُنا إلا زاد الراكب، فسموه زاد الراكب، فأصل فحول العرب من نتاجه.

---

(١) الشكير: ما أطاف بالناحية من قصير الشعر وهو مما يستدلّ به على العنق.

(٢) أشبخت: تقلّصت.

(٣) المقرف: البعيد عن الأصالة.

(٤) العير: الحمار الوحشي.

(٥) اسلهبّ: مضى. (٦) اجلعبّ: امتدّ على الأرض.

(٧) اتلأبّ: رفع صدره ورأسهُ.

(٨) الصافنات: جياد الخيل، والصافن: الفرس القائم على ثلاث قوائم

ويقال إن « أعوج » كان منها، وكان فحلا لهلال بن عامر أنتجته أُمه ببعض بيوت الحيّ، فنظروا إلى طِرْف يضع جَحْفَلَتَه على كاذَتها - على الفخذ مما يلي الحياء - فقالوا: أدركوا ذلك الفرس لا ينزو على فرسكم، لعظم، « أعوج » وطول قوائمه فقاموا إليه فوجدوا المهر، فسموه أعوج.

وأخبرنا فرج بن سلام عن أبي حاتم عن الأصمعي قال: أُغير على أهل النسارِ[1] وأعوج موثقٌ بثمامة،[2] فجال صاحبهُ في متنه ثم زجره فاقتلع الثمامة، فخرجت تَحُف في متنه كالخُذْروف[3] وراءه، فعدا بياضَ يومه وأمسى يتعشى من جَميم قُباء[4].

وقال الشاعر في وصف فرس:

وأحمرَ كالدِّيباج أمّا سماؤه فريَّا، وأمّا أرْضُه فمَحُول

قوله: سماؤه: أعلاه. وأرضه: أسفله، يريد قوائمه.

وللطائي نظير هذا حيث يقول:

مُبْتَلٌّ مَتْنٍ وصَهْوَتَيْن إلى حوافِرٍ صَلْبَةٍ لهُ مُلُسِ
فهو لَدَى الرَّوْع والجلائب ذو أعلى مُنَدًّى وأسفلٍ يَبَسِ
أو أدهم فيه كُمْتَةٌ أممٌ كأنَّهُ قطعةَ مِنَ الغَلَسِ[5]
صهْصلِقٌ في الصَّهيلِ، تحْسَبُهُ أُشرِجَ حُلقومُه على جَرَسِ

وقال حبيب أيضاً يصف فرساً أهداه إليه الحسن بن وهب الكاتب.

ما مُقْرَبٌ يختالُ في أشطانه ملآن مِنْ صَلَفٍ به وتَلَهْوُق[6]
بحوافرٍ حُفْرٍ وصُلْبٍ صُلَّب وأشاعرٍ شُعْر وحلْقٍ أحْلَق[7]

(١) النّسار: ماء لبني عامر، له يومٌ من ايام العرب.

(٢) ثمامة: أي بشجيرة من شجيرات الثمام المعروف.

(٣) الخذروف: عود صغير يدوّره الولد بخيط فيدور ويسمع له صوت.

(٤) الجميم: النبات الكثير، وقباء: بئر سمّيت باسمها قرية على ميلين من المدينة، وهي مساكن بني عمرو بن عوف من الأنصار.

(٥) الأمم: الشيء بين الشيئين، والغلس الظلام.

(٦) الأشطان: الحبال، والتلهوق: المبالغة في العجب والاختيال.

(٧) الصلب: الظهر، وتلّب: قوي، والأشاعر: ما استدار بالحافر من منتهى الجلد، وشعر: شديدة، وأحلق: واسع.

وبشُعلـــةٍ تبْــدُو كـــأنّ حُلــولها   في صَهْوَتَيْه بُـدُوُّ شيْـبِ المَفْـرَق
ذو أوْلَــقٍ تحت العَجـــاجِ وإنّما   من صِحَّةٍ إفراطُ ذاك الأولَـق[١]
تُغْرَى العيونُ بــه ويُفْلِـقُ شـاعـرٌ   في نَعْتِــه عفــواً وليس بمُفلِــقِ
بمُصَعَّـدٍ مـــن نعتـــه ومُصَـــوَّبٍ   ومُجَمَّـعٍ مــن حسنــه ومُفَــرَّق
قد سالتِ الأوضـاحُ سيْـلَ قـرارةٍ   فيــه فمفْترِقٌ عليـــه وملتقـــي[٢]
صـــافي الأديم كـــأنّما ألْبسَتَـــهُ   من سُنْـدُسٍ ثـوبـاً ومـن إستبرق
مُسْوَدّ شَطْرٍ مثل ما اسودّ الدُّجَـى   مُبيَضّ شطرٍ كابْيضاضِ المهْرق[٣]
فكـأن فـارسـه يُصَـرّفُ إذْ بَـدَا   في متنــه آبْنـاً للصّبــاحِ الأبلَــق
إمْليســـةٌ إمليـــدةٌ لـــو عُلّقَـــتْ   في صَهْـوَتيــه العينُ لم تتعلّـــق[٤]
يُرْقَى ومـا هـو بـالسَّليمِ ويغتَـدي   دونَ السلاحِ سلاحِ أروعَ مُملِقِ[٥]

لبعض الشعراء في أبي دلف:

وقال أبو سويد: شهد أبو دلف وقعة البَذّ[٦] وتحته فرس أدهم وعليه نَضْح الدم، فاستوقفه رجل من الشعراء وأنشد:

كم ذا تُجـرِّعُـــه المَنـــونَ ويَسْلَـــمُ   لو يَستطيـعُ شَكـا إليـكَ الأدْهَـمُ
في كلِّ مَنْبـتِ شعـرةٍ مـن جلْـدِهِ   نَمَـقٌ يُنَمِّقُـه الحُسـامُ المِخْـذَمُ[٧]
وكـأنّما عَقَـدَ النُّجُـومَ بطَــرفِــه   وكأنـــهُ بعُـرَى المجَـرَّةِ مُلجَـم[٨]
وكـــأنّـــه بين البَـــوارقِ لَقْـــوَةٌ   شَقراءُ كاسرةٌ طوَتْ مـا تطعـمُ[٩]
مــا تُـدركُ الأرواحُ أدْنَـــى سيره   لا بَلْ يفـوتُ الرِّيـحَ فهْـوَ مُقـدَّمُ

(١) الأولق: الجنون، يريد وصفه بشدّة النشاط.
(٢) الأوضاح: جمع وَضَحْ وهو البياض.
(٣) المهرق: ثوب حرير أبيض يسقى الصمغ ويُصقل ثم يكتب فيه.
(٤) إمليسه إمليده: أملسه أملده: أي لين ناعم والعين يريد بها التي تصيب الانسان وغيره.
(٥) يرقى من الرقية، والسليم: الذي لدغ، والأروع: الشجاع، والمملق: الذي لا سلاح له.
(٦) البذ: كورة بين أذربيجان وأران، بها كان مخرج بابك الخرمي في أيام المعتصم، وشهدها أبو دلف.
(٧) المخذم: القاطع.
(٨) يشير بهذا البيت إلى أنه مرتفع الرأس لا يخفضه.
(٩) البوارق: السيوف.

رَجَعَتْهُ أطرافُ الأسِنَةِ أشْقراً   واللوْن أدْهم حينَ ضَرَّجَهُ الدَّمُ

قال: فأمر له بعشرة آلاف.

لابن عبد ربه في وصف الفرس:

ومن قولنا في وصف الفرس:

ومُقْربةٍ يَشْقرُّ في النَّقْعِ كَمْتُها   ويَخْضَرُّ حيناً كلما بَلَّها الرَّشْحُ [1]

تطِيرُ بِلا رِيشٍ إلى كلِّ صَيْحةٍ   وتَسْبَحُ في البَرِّ الذي ما بِه سَبْحُ

وقال عديّ بن الرّقاع:

يَخرجن من فُرُجات النَّقْعِ دامِيَةً   كأنَّ آذانَها أطرافُ أقلامِ

وطلب البحتري الشاعر من سعيد بن حُمَيد بن عبد الحميد الكاتب فرساً ووصف له أنواعاً من الخيل في شعره فقال:

لأُكَلِّفَنَّ العِيسَ أبْعَدَ هِمَّةٍ   يَجري إليها خائفٌ أو مُرْتجي

وإلى سَرَاةِ بني حُميدٍ إنهمْ   أمْسَوْا كواكبَ أشرقَتْ في مَذْحِجِ

والبيتُ لولا أنّ فيه فضيلةً   تعلُو البيوتُ بفضلها لم يُحْجَجِ

فأعِنْ على غَزْوِ العدوِّ بمُنْطَوٍ   أحشاؤهُ طَيَّ الرِّداءِ المُدْرَجِ

إمّا بأشقرَ ساطِعٍ أغْشَى الْوَغَى   منهُ بمثلِ الكوكبِ المتأجّجِ

مُتَسَرْبِلٍ شِيَةً طَلَتْ أعطافَهُ   بدَمٍ فما تَلْقاهُ غيرَ مُضَرَّجِ [2]

أو أدْهَمٍ صافي الأديمِ كأنّهُ   تحتَ الكميّ مُظهَّرٌ بيَرَنْدَجِ [3]

ضَرِمٍ يَهيجُ السَّوْطُ من شُؤْبُوبِهِ   هَيْجَ الجَنائبِ من حريقِ العَرْفَجِ [4]

خَفَّتْ مَواقِعُ وَطْئِهِ فلَوَ انّه   يجري بَرملةِ عالجٍ لم يُرْهِجِ [5]

---

(١) النقع: الغبار. (٢) الشية: العلامة، واللون الذي يخالف غيره.

(٣) اليرندج: السواد يسوَّد به الخف، أو هو الزاج يسوّد به.

(٤) الشؤبوب: شدّة العدو، والجنائب: وهي من الرياح، والعرفج: ضرب من النبات سهل طيب الرائحة، ولهبه شديد الحمرة.

(٥) عالج: رمال بين فيد والقريات ينزلها بنو بحتر من طيء، وهي متصلة بالثعلبية على طريق مكة، ولم يرهج: أي لم يثر الغبار.

أو أشهبٍ يَقَقٍ يضيءُ وراءَه ... متنٌ كمتْنِ اللُّجةِ المُترجرِجِ (١)
تَخفى الحُجولُ ولو بَلغْنَ لَبانَه ... في أبيضٍ مُتألقٍ كالدُّمْلُجِ (٢)
أوْفَى بعُرْفٍ أسوْدٍ مُتَفرّدٍ ... فيما يليهِ وحافرٍ فيْرُوزَجي
أو أبلقٍ ملأ العيون إذا بَدا ... من كلِّ لون مُعْجبٍ بنَموذَجِ
جذلانَ تحسُدُه الجيادُ إذا مَشى ... عَنَقاً بأحسنِ حُلَّةٍ لم تُنْسَجِ (٣)
وعريض أعْلى المتن لو علَّيْتَه ... بالزئبقِ المُنهال لم يَتَدَحْرَجِ
خاضَتْ قوائمه الوثيقُ بناؤُها ... أمواجَ تَحْنيبٍ بهنَّ مُدرّجِ (٤)
ولأنتَ أبعدُ في السَّماحةِ همةً ... مِن أن تَضِنَّ بمُلْجمٍ أو مُسْرَجِ

لامريء القيس:

وأول من شبّه الخيل بالظباء والسِّرحان والنعامة، وتبعه الشعراء وحذوا حذوه وعلى مثاله ـ امرؤ القيس بن حجر:

لـه أيْطَلا ظَبْيٍ وساقا نَعامة ... وإرْخاءُ سِرْحان وتقْريبُ تتفلِ (٥)
كأنَّ على المَتْنَيْنِ منه إذا انْتَحى ... مَداكَ عروسٍ أو صَلاية حَنْظَلِ (٦)
مِكَرٍّمِفَرٍّمُقْبلٍ مُدْبرٍ معاً ... كجلْمودِ صَخْرٍ حَطّهُ السَّيْلُ منْ عَلِ
دَريرٍ كخُذْروفِ الوليدِ أمَرَّه ... تَتابُعُ كفَّيْهِ بخيْطٍ موَصَّلِ (٧)
كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِبْدُ عن حالِ مَتْنِه ... كما زلَّتِ الصَّفْواءُ بالمتنَزّلِ (٨)

---

(١) اليقق: الشديد البياض.
(٢) اللّبان: الصدر، والدّملج: حليّ يلبس في المعصم.
(٣) العنق: ضرب من السير فسيح سريع.
(٤) التحنيب: احديدابٌ في وظيفي يدي الفرس، ويوصف صاحبه بالشدّة، وقيل: هو بعد ما بين الرجلين من غير فجج.
(٥) الأيطل: الخاصرة، والإرخاء شدّة العدو، والسرحان: الذئب، والتتفل: ولد الثعلب.
(٦) المتنان: ما اكتنفا فقار الظهر، وانتحى: اعتمد وقصد والمداك: الحجر الذي يسحق عليه الطيب. والصلاية: الحجر الأملس الذي يسحق عليه حبُّ الحنظل وغيره.
(٧) الدرير: السريع العدو، والخذروف: عود أو قصبة مشقوقة تحدث أصواتاً يلعب به الصبيان، وأمرّه: قلبه ثم أداره بين كفيه.
(٨) الحال: وسط الظهر، والصفواء: الصخرة الملساء التي لا يثبت عليها شيء، والمتنزّل: المتزحلق عليها.

فأخذت الشعراء هذا التشبيه من امريء القيس فحذوا عليه، فقال طُفيل الخيل:

إنّـي وإنْ قَـلَّ مـالي لا يُفـارِقْني ... مثْلُ النَّعامـة في أوْصـالِهـا طـوْلُ
تقْريبهـا المَرَطـى والجوْزُ مُعتـدلٌ ... كـأنّـه سُبَـدٌ بـالماءِ مغسـولُ[1]
أو ساهِمُ الوجْهِ لم تُقْطَـعْ أبـاجلـهُ ... يُصانُ وهْوَ ليوْمِ الرَّوْعِ مَبْـذولُ[2]

بين عبد الملك بن مروان وأصحابه:

وقال عبد الملك بن مروان لأصحابه: أي المناديل أفضل؟ فقال بعضهم: مناديل مصر التي كأنها غِرْقِئ[3] البيض. وقال بعضهم: مناديل اليمن التي كأنها أنوار الربيع. فقال: ما صنعتم شيئا، أفضلُ المناديل مناديل عَبْدة بن الطَّبيب حيث يقول:

لَمّا نـزَلنـا ضَـربنـا ظِـلَّ أخْبيَـةٍ ... وفـارَ بـاللحـمِ للقَـوْم المراجيـلُ
ورداً وأشقـرَ لم يُنْهِئـه طـابخُهُ ... ما قاربَ النُّضْجَ منها فهو مأكولُ[4]
وقـد وثبنـا على عُـوجٍ مُسَـوَّمَـةٍ ... أعـرافُهـنَّ لأيْـدينـا منـاديـلُ[5]

سوابق الخيل

قال الأصمعي: ما سبق في الرهان فرسٌ أهْضَمُ قطُّ. وأنشد لأبي النَّجم:

مُنتفِجُ الجوْفِ عريضٌ كلكَلُهْ[6]

لأبي النجم في فرس هشام:

قال: وكان هشام بن عبد الملك رجلا مُسَبَّقا لا يكاد يَسبق، فسَبَقت له فرسٌ أنثى وصَلَّت أختها، ففرح لذلك فرحا شديداً، وقال: عليّ بالشعراء. قال أبو النجم:

---

(١) التقريب: ضرب من العدو، وهو أن يرفع الفرس يديه معا ويضعهما معا، والمَرَطى: فوق التقريب، والجوز: الوسط، والسبد: ثوب يسدُّ به الحوض المركو لئلا يتكدَّر الماء، يفرش فيه وتسقى الابل عليه.

(٢) الساهم: العابس، والأباجل: جمع أبجل، وهو عرق غليظ في الرجل، وهو في الفرس بمنزلة الأكحل في الانسان.

(٣) غرقيء البيض: القشرة الرقيقة الملتزمَة بالبياض من البيضة.

(٤) لم ينهئه: لم ينضجه.

(٥) الكلكل: الصدر. (٦) الجرد: الخيل القصار والشعر، والسوّمة: المعْلمة.

فدُعينا فقيل لنا: قولوا في هذا الفرس وأختها. فسأل أصحابُ النشيد النَّظِرَةَ حتى يقولوا. فقلت له: هل لك في رجل يَنْقُدُك إذا آستنسئوك[1]؟ قال: هات. فقلت من ساعتي:

أشاعَ للغَرَّاءِ فينا ذِكْرَها ... قَوائمٌ عوجٌ أطَعْنَ أمرَها
وما نسينا بالطريق مُهْرَها ... حين نَقيسُ قدره وقدرها
وصبرَهُ إذا عدا وصبرَها ... والماءُ يعلو نحره ونحرها
ملْمومة شدّ المليكُ أسْرَها ... أسْفَلَها وبطنَها وظهْرَها[2]
قد كاد هاديها يكونُ شَطْرَها ... لا تأخذُ الحَلْبةُ إلا سُؤْرَها[3]

قال أبو النجم: فأمر لي بجائزة وانصرفت.

بين الرشيد والأصمعي في فرس سابق:

أبو القاسم جعفر بن أحمد بن محمد، وأبو الحسن علي بن جعفر البصري، قالا: حدثنا أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي: أن هارون الرشيد ركب في سنة خمس وثمانين ومائة إلى الميدان لشهود الحلْبة. قال الأصمعي: فدخلت الميدان لشهودها فيمن شَهد من خواص أمير المؤمنين؛ والحلْبةُ يومئذ أفراسٌ للرشيد ولولديه الأمين والمأمون، ولسليمان بن أبي جعفر المنصور ولعيسى بن أبي جعفر فجاء فرس أدهم يقال له الربيذ لهرون الرشيد سابقاً؛ فابتهج لذلك ابتهاجا عُلم ذلك في وجهه، وقال عليّ بالأصمعي. فنوديتُ له من كل جانب، فأقبلت سريعا حتى مثلت بين يديه، فقال: يا أصمعي، خذ بناصية الربيذ ثم صفه من قوْنَسهِ إلى سُنْبُكه؛ فإنه يقال إن فيه عشرين اسما من أسماء الطير. قلت: نعم يا أمير المؤمنين؛ وأُنشدك شعراً جامعا لها من قول أبي حَزرة. قال: فأنشدنا للهِ أبوك. قال: فأنشدته:

وأقَبَّ كالسِّرحانِ تَمَّ له ... ما بين هامَتِه إلى النَّسْرِ

الأقب: اللاحق المُخْطَف البطن، وذلك يكون من خِلْقَةٍ وربما حدث من هُزال أو

(١) استنسئوك: أبعدوك وأخّروك.

(٢) ملومة: مجتمعة الخلق، والأسر: شدة الخلق.

(٣) الهادي: العنق، يريد وصفه بالطول وسؤرها فضل قوتها.

بُعْدِ قَوَد؛ والأنثى قَبّاء، والجمع قُبٌّ، والمصدر القَبب. والسِّرحان: الذئب، شبهه في ضُموره وعدْوه به، وجمعه سَراحين: وقد قالوا: سِرَاح. والهامة: أعلى الرأس، وهي أم الدماغ، وهي من أسماء الطير. والنسر: هو ما ارتفع من بطن الحافر من أعلاه كأنه النَّوى والحصى، وهو من أسماء الطير، وجمعه نُسور.

رَحُبَتْ نَعامتُه ووُفِّر فَرخُهُ ... وتمكن الصُّرَدان في النحْر

رَحُبت: اتسعت. ونعامته: جلدة رأسه التي تغطي الدماغ، وهي من أسماء الطير. وقوله « ووُفّر فرخه » الفرخ: هو الدماغ، وهو من أسماء الطيور. ووفّر أي تَمّم؛ يقال: وفّرت الشيء ووفَرته، بالتخفيف، موْفور. والصَرَدان: عرقان في أصل اللسان، ويقال إنهما عرقان أخضران مكتِنفان باطن اللسان، منهما الرّيقُ ونَفَس الرئة؛ وهما من أسماء الطير. وفي الظهر صُرَد أيضا، وهو بياض يكون في موضع السرج من أثر الدَّبَر؛ يقال: فرس صَرِد إذا كان ذلك به. والنحر: موضع القلادة من الصدر، وهو البَرْك.

وأنافَ بالعُصْفورِ من سَعَفٍ ... هامٍ أشمَّ مُوَثَّقُ الجِذْرِ

أناف: أشرف. والعصفور: أصل منبت الناصية. والعصفور أيضاً: عظم ناتيء في كل جبين. والعصفور: من الغرر أيضاً، وهي التي سالت ودّقت ولم تجاوز إلى العينين ولم تستدر كالقُرْحة؛ وهو من أسماء الطير. والسَّعَف، يقال: فرس بَيّن السَّعَف، وهو الذي سالت ناصيته. وهامٍ: أي سائل منتشر. وأشمّ: مرتفع؛ والشَّمم في الأنف: ارتفاع قصبته. ويروى: هادٍ أشم. يريد عُنقاً مرتفعاً، وجمعه هوادٍ. وقوله: موثّق، أي شديد قويّ. والجِذْر: الأصل من كل شيء. قال الأصمعي وغيره: هو بالفتح. وقال أبو عمرو بن العلاء: هو بالكسر.

وآزدانَ بالدّيكَيْنِ صَلصَله ... ونَبَتْ دجاجتُهُ عن الصَّدرِ

ازدان: افتعل، من قولك زان يزين، وكان الأصل: ازتان، فقلبت التاء دالا لقرب مخرجها من مخرج الزاي، وكذلك ازداد، من زاد يزيد. والديكان: واحدهما ديك، وهو العظم الناتيء خلف الأذن، وهو الذي يقال له الخُشَشاء والخشّاء. والصلصل: بياض في طرف الناصية: ويقال: هو أصل الناصية: والدجاجة: اللحم

الذي على زَوْره بين يديه؛ والديك والصلصل والدجاجة: من أسماء الطير.

والناهِضانِ أُمِرَّ جَلْزُهُمَا فكأنما عُثِما عَلى كَسْرِ

الناهضان: واحدهما ناهض، وهو لحم المنكبين؛ ويقال: هو اللحم الذي يلي العَضُدَيْن من أعلاهما؛ والجمع نواهض؛ ويقال في الجمع: أنْهُض، على غير قياس. والناهض: فرخ القطا، وهو من أسماء الطير. وقوله: أُمِرَّ جَلْزُهما: أي فُتِلَ وأُحْكِمَ؛ يقال أمررتُ الحبل فهو مُمَرٌّ، أي فتلته؛ والجَلْز: الشدّ. وقوله:

فكأنما عُثِما على كَسْرِ

أي كأنهما كُسِرَا ثم جُبرا؛ يقال: عُثِمَت يَدُه. والعَثْم: الجبر على عُقدة وعِوَج؛ وعُثْمان: فُعلان منه.

مُسْحَنْفِرُ الجَنْبَيْنِ مُلْتَئِمٌ ما بَيْنَ شيمَتِهِ إلى الغُرِّ

مسحنفر الجنبين: أي منتفخهما. مُلتئم: أي معتدل. وشيمته: نحْره والشيمة أيضا: من قولك: فرس أَشْيَمُ: بيِّنُ الشِّيمة، وهي بياض فيه؛ ويقال: أن تكون شامة أو شام في جسده. والغُرّ في الطير الذي يسمى الرخمة، وهي عضلة الساق.

وَصَفَتْ سمَاناهُ وحافِرُهُ وأديمُهُ ومَنَابِتُ الشَّعْرِ

السّمَانَي: طائر، وهو موضع من الفرس لا أحفظه، إلا أن يكون أراد السَّمَامة، وهي دائرة تكون في سالفة الفَرس، وهو عُنقه. والسَّمامة من الطير أيضا. والأديم: الجلد.

وسَمَا الغُرابُ لِمَوْقِعَيْهِ مَعاً فأُبِينَ بَيْنهُمَا على قَدْرِ

سما الغراب: أي ارتفع. والغراب: رأس الورك. ويقال للصَّلَوين: الغرابان، وهما مكتنفا عَجْب الذنب. ويقال: هما أعالي الوركين. والموقعان منه: في أعالي الخاصرتين. فأُبينَ: أي فُرِّق بينهما. على قدر، أي على استواء واعتدال.

واكْتَنَّ دونَ قَبيحِهِ خُطَّافُهُ ونَأَتْ سَمَامَتُهُ عن الصَّقْرِ

اكتنّ، أي استتر. والقبيح: ملتقى الساقين، ويقال إنه مُرَكَّب الذراعين في العضدين. والخُطّاف: من أسماء الطير، وهو حيث أدركت عَقِب الفارس إذا حرّك

رجليه، ويقال لهذين الموضعين من الفرس: الْمَرْكلان. ونأت. أي بعدت، والسَّامة: دائرة تكون في عُنق الفرس، وقد ذكرناها، وهي من أسماء الطير. والصقر: أحسبها دائرة في الرأس، وما وقفت عليها، وهي من أسماء الطير.

وتَقَدَّمَتْ عنه القَطاةُ له فنأتْ بمَوْقِعها عن الْحُرِّ

القطاة: مقعد الرِّدْف، وهي من أسماء الطير؛ والْحُرّ: من الطير، يقال: إنه ذكر الحمام. وهي من الفرس: سواد يكون في ظاهر أذنيه.

وسَما على نقْوَيْهِ دون حِداتِه خَرَبانِ بينهما مَدَى الشّبر

النّقْوان: واحدهما نقْو، والجمع أنقاء. وهو عظم ذو مُخ، وإنما عَنَى ها هنا عظامَ الوَركين؛ لأن الخَرَب هو الذي تراه مثل المدْهُن في ورَك الفرس. وهو من الطير: ذَكَرُ الحبارى. والحِدأة: من الطير: وأصله الهمز ولكنه خُفّف، وهي سالفة الفرس، وجمعها حِداء، على وزن فِعال، كما تقول: عَظاءة وعَظاء؛ ويقال: عَظاية. وإذا فتحت الفاء قلت حدَأة، وهو الفأس ذات الرأسين، وجمعها حَدَأ، مثل نَواة ونَوى، وقَطاة وقطا.

يدع الرّضِيم إذا جرى فِلَقا بتَوائِمٍ كمواسمٍ سُمْرِ

الرَّضيم: الحجارة. والفلق: المكسورة فِلَقا. بتوائم: جمع توْأم، وقد قالوا: تُؤَام، على وزن فُعال، جمع تَوْأم؛ وهي على غير قياس. يقول: هي مَثْنَى مَثْنَى، يعني حوافره. والمواسم: جمع مِيسَم الحديد، أي إنها كمواسم الحديد في صلابتها. وقوله سمر: أي لون الحافر، وهو أصلب الحوافر.

رُكِّبْنَ في مَحْض الشَّوَى سَبِطٍ كَفْتِ الوُثُوب مُشَدَّد الأسْرِ

الشوى ها هنا: القَوائم، والواحدة شَواة؛ ويقال: فرس محض الشوى، إذا كانت قوائمه معصوبة. سَبط: سهل. كَفْتِ الوثوب. أي مجتمع، من قولك: كَفَتُّ الشيء، إذا جمعته وتمّمته. مشدّد الأسر: أي الخلق.

قال الأصمعي: فأمر لي بألف درهم.

لأبي العتاهية في المشمر فرس الرشيد:

وسبق يوما فرس للرشيد، يسمى المشمِّر. وكان أجراه مع أفراس للفضل وجعفر ابني يحيى بن خالد البرمكي. فقال أبو العتاهية:

جاء المسمَّر والأفراس يقدُمها ... هَوناً على سرعة منها وما انتهرا[1]
وخلّف الريح حسرى وهي تتبعه ... ومرّ يختطف الأبصار والنظرا

لأبي النجم في الحلبة:

وقال أبو النجم في شعر يصف الفرس، وهو أجود شعر يصف الحلبة:

ثمّ سَمِعْنا بِرهانٍ نأمُلُهْ ... قِيدَ لهُ مِنْ كلِّ أُفْقٍ جَحْفَلُهْ
فقلتُ للسَّائس قُدْهُ أعْجِلُهْ ... واغْدُ لَعنَّا في الرِّهانِ نُرْسِلُهُ[2]
نعلو به الحَزْنَ ولا نُسهِّلُهْ ... إذا علا الأخْشَبَ صاح جندلُهْ[3]
تَرنّم النَّوَحِ يُبكي مُثْكِلُهْ ... كأنَّ في الصَّوْتِ الذي يُفصِّلُهْ
زُمّارَ دُفّ يَتغنى جُلجُلُهْ ... حتى وزدنا المِصْرَ يُطْوَى قَنبلُهْ[4]
طَيَّ التّجار العَصْبَ إذ تَنخَّلُهْ ... وقد رأينا فِعلَهُمْ فَنفْعلُهْ[5]
نطْويه والطَّيّ الرقيقُ يجدلُهْ ... نُضمِّرُ الشَّحْمَ ولسنا نَهزلُهْ
حتى إذا الليل تولّى أثجَلُهْ ... واتَّبعَ الأيديَ مِنه أرْجُلُهْ[6]
قمنا على هَوْلٍ شديدٍ وَجَلُهْ ... نَمُدُّ حَبْلا فوقَ خطٍّ نَعْدِلُه[7]
نقولُ قَدِّمْ ذا وهذا أدْخِلُهْ ... وقام مشقوقَ القميص يُعْجِلُه
فوق الخُماسِيِّ قليلاً يَفضُلُهْ ... أدْرَكَ عَقْلاً والرِّهانُ عَمِلُهْ[8]

---

(١) الهون: السكينة والهدوء. وانتهر: أي زجر من أجل السرعة.
(٢) الرِّهان: تضمير الخيل. (٣) الحزن: الأرض الوعرة المسالك، والجندل: الحجارة
(٤) القنبل: الطائفة من الخيل. (٥) العصب: ضرب من البرود، وتنخله: تختاره.
(٦) الأثجل: القطعة الضخمة من الليل. (٧) الوجل: الخوف.
(٨) الخماسي: يقال غلام خماسيّ إذا كان طوله خمسة أشبار.

حتى إذا أدركَ خيْلاً مُـــرسِلـــهْ ثـار عَجَـاجٌ مُسْتَطِيرٌ قَسْطلـــه[1]
تَنْفشُ منـه الخيـلُ مـا لا تغْـزلـهْ مَـراً يُغَطِّيهــا ومَـــراً تُنْعَلـــه
مَرَّ القَطَـا آنصبَّ عليـه أجْـدَلُـهْ وَهْو رَخِيُّ البـالِ سـامٍ وهَلـه[2]
قَـدَّمَـــهُ مِثْلاً لِمَـــنْ يمتثلـــه تُطيرُهُ الجنُّ وحينــاً تُـــرجلـــهْ
تَسْبَـحُ أُخــراهُ ويَطفــو أوَلـــهْ ترى الغلامَ ساجياً مـا يَـرْكلـهْ[3]
يعطيـهِ مـا شـاءَ وليْس يَسـألـــهْ كـأنَّـــهُ مِـن زَبـدٍ يُسَـرْبِلُـهُ
في كُـرْسُـفِ النَّـدَّافِ لـولا بَللـهُ تَخـالُ مِسكــاً عَلَــهُ مُعَلِّلُــهْ[4]
ثم تنــاولنـــا الغُلام تُنــزلـــهْ عن مُفْرعِ الكتِفيْنِ حُلْوٌ عَطَلـهْ[5]
مُنْتَفـج الجوْف عـرِيـضٌ كلْكلـه فـوافَـتِ الخيـلُ ونحن نَشكلـهْ[6]

والجنُّ عُكّافٌ به تُقبّلهْ

وقال آخر في فرس أبي الأعور السَّلمي:

مَـرَّ كلمـع البرْقِ سـامٍ نـاظِـرُهْ تَسْبَـحَ أُولاهَ ويَطفـــو آخِـــرَهْ

فما يَمَسُّ الأرضَ منه حافِرُهْ

قول هذا أشبه من قول أبي النجم: لأنه يقول:

تَسبحُ أُخْراهُ ويَطفو أوّلَهْ

وقال الأصمعي: إذا كان الفرس كما قال أبو النجم فحمار الكسَّاح[7] أسرع منه. لأن آضطراب مؤخره قبيح.

وقال الأصمعي: كان أبو النجم وصّافا للخيل إلا أنه غلط في هذا البيت، وقد غلط رُؤبة أيضا في الفرس فقال يصف قوائمه:

يَهوين شتّى ويقَعْن وفْقَا[8]

---

(١) العجاج والقسطل: الغبار.
(٢) الأجدل: الصقر، والوهل: الخوف.
(٣) الساجي: الساكن، ويركله: ينهره.
(٤) الكرسف: القطن.
(٥) مفرع الكتفين: عاليهما، والعطل: العنق، وقيل: الضمور.
(٦) منتفج: أي منتفخ.
(٧) الكسّاح: الكنّاس.
(٨) وفقاً: أي على نمطٍ واحد.

ولما أنشده مُسلم بن قتيبة، قال له: أخطأت في هذا يا أبا الجحَاف، جعلته مقيَّدا.

قال: قرّبني من ذَنب البعير.

وأنشد الأصمعي:

قـد أطـرُق الحيَّ على سـابـحٍ ... أسْطَعَ مِثْلِ الصَّدَعِ الأجْـرَدِ

لمّا أتيــتُ الحيَّ في مَتْنــه ... كـأنّ عُـرجـونا بمَثنى يـدِي[1]

أقبــلَ يختــالُ على شَــأْوه ... يضربُ في الأقــربِ والأبعــدِ

كـأنّــه سكـرانُ أو عــابِسٌ ... أو آبن ربٍّ حَـدَث المولَــدِ

وقال غيره:

أمــا إذا استقبلتَــه فكــأنــهُ ... جِذْعٌ سَمَا فـوق النَّخيـل مُشَـذَّبُ

وإذا اعترضت له استوتْ أقطـاره ... وكـأنّـه، مُسْتَـدْبَـراً، مُتَصـوِّبُ

وقال ابن المعتز:

وقد يحضُرُ الهيْجاءَ في شَنجِ النَّسـا ... تكامَلَ في أسْنانِـه فهْـو قـارِحُ[2]

لـه عُنـقٌ يغتـالُ طـولَ عِنـانـه ... وصدرٌ إذا أعطَيْته الجرْيَ سـابـحُ

إذا مال عن أعطافه قلـت شـاربٌ ... عنـاهُ بتصريـفِ المُدامـة طـافـحُ

وقال أيضاً:

ولقــد وطِئــتُ الغيْــثَ يحْملُني ... طِرْفٌ كَلوْنِ الصُّبْـحِ حين وقـدْ

يَمشي ويعــرِضُ في العِنـان كما ... صَدَفَ المُعَشَّق بالـدلال وصـدْ[3]

طـارت بــه رِجــلٌ مُــرَصَّعَــةٌ ... رَجّامةٌ لِحَصَى الطـريـقِ ويَـدْ[4]

فكــأنــه مــوجٌ يسيــلُ إذا ... أطلقتَــهُ وإذا حَبَسْــت جَمــدْ

---

(١) العرجون: أصل العذق، وهو عنقود النخل.

(٢) شنج النسا: أي تقبض عرق النّسا ويكون من الورك إلى الكعب. والقارح: الفرس في الخامسة من عمره.

(٣) صدف: امتنع وكذلك الصدّ.

(٤) رجّامة: من الرّجم، أي مثيرة لها.

الحلبة والرهان

والحلبة: مجمع الخيل، ويقال: مجتمع الخيل، ويقال: مجتمع الناس للرهان؛ وهو من قولك: حلب بنو فلان على بني فلان وأحلبوا: إذا اجتمعوا. ويقال منه: حَلَبَ الحالبُ اللبنَ في القدح: أي جمعه فيه. والمِقْوس: الحبل الذي يُمدُّ في صدور الخيل عند الإرسال للسياق. والمنّصبة: الخيل حين تُنَصب للإرسال.

وأصل الرهان من الرهن، لأن الرجل يراهن صاحبه في المسابقة، يضع هذا رهنا وهذا رهنا، فأيهما سبق فرسُه أخذ رهْنَه ورهْن صاحبه. والرهان، مصدر راهنته مراهنة ورهانا، كما تقول: قاتلته مقاتلة وقتالا. وهذا كان من أمر الجاهلية، وهو القِمار المنهيّ عنه. فإن كان الرهن من أحدهما بشيء مسمًّى على أنه إن سَبَق لم يكن له شيء، وإن سبقه صاحبُه أخذ الرهن، فهذا حلال؛ لأن الرهن إنما هو من أحدهما دون الآخر؛ وكذلك إن جعل كل واحد منهما رهنا وأدخلا بينهما محلِّلا، وهو فرس ثالث يكون مع الأولين، ويسمى أيضاً الدّخيل ولا يجعل لصاحب الثالث شيء، ثم يرسلون الأفراس الثلاثة، فإن سبق أحد الأوّلَيْن أخذَ رهْنَه ورهنَ صاحبه فكان له طيبا، وإن سبق الدخيل أخذ الرهنين جميعا، وإن سُبق هو لم يكن عليه شيء. ولا يكون الدخيل إلا رائعا جواداً، لا يأمنان أن يسبقهما؛ وإلا فهذا قمار، لأنهما كأنهما لم يُدخلا بينهما محلّلا.

قال الأصمعي: السابق من الخيل: الأول، والمصلّي: الثاني الذي يتلوه. قال: وإنما قيل له مُصَلٍّ، لأنه يكون عند صلوِي السابق، وهما جانبا ذَنَبه عن يمينه وشماله؛ ثم الثالث والرابع لا آسم لواحد منها إلى العاشر، فإنه يسمَّى سُكَيْتاً.

قال أبو عبيدة: لم نسمع في سوابق الخيل ممن يوثَق بعلمه آسما لشيء منها إلا الثاني والعاشر؛ فإن الثاني آسمه المصلّي، والعاشر السُّكَيْت؛ وما سوى ذينك يقال له الثالث والرابع، وكذلك إلى التاسع، ثم السُّكَيْت ويقال السُّكَّيْت، بالتشديد والتخفيف، فما جاء بعد ذلك لم يعتدّ به. والفِسْكِل ـ بالكسر ـ الذي يجيء آخر

الخيل، والعامة تسميه الفُسكل - بالضم.

وقال أبو عبيدة: القاشور، الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل، وهو الفِسْكل، وإنما قيل للسُّكيت؛ سُكَيت لأنه آخر العدد الذي يقف العادُّ عليه. والسَّكت: الوقوف، هكذا كانوا يقولون، فأما اليوم فقد غيَّروا.

وكان من شأنهم أن يمسحوا على وجه السابق. قال جرير:

إذا شِئتمُ أن تَمسحوا وجه سـابـقٍ جَوادٍ، فمُدُّوا في الرِّهـان عِنـانِيـا

ومن قولنا في هذا المعنى:

وإذا جياد الخيلِ مـا طَلَهـا المدى وتقطَّعـتْ في شـأوهـا المبهُـور[1]
خَلُّوا عِناني في الرّهـان ومسِّحـوا مِنّـي بغُـرَّةِ أبلـقٍ مشهــورِ[2]

وصف السلاح

درع عليّ:

كانت درعُ عليّ صدراً لا ظهر لها، فقيل له في ذلك؛ فقال: إذا استمكن عدوّي من ظهري فلا يُبْقِ.

ورؤي الجراح بن عبد الله قد ظاهَر بين درعين، فقيل له في ذلك؛ فقال: لست أقي بدني وإنما أقي صبري[3].

واشترى زيد بن حاتم أدراعا وقال: إني لست أشتري أدراعاً وإنما أشتري أعمارا.

وقال حبيب بن المُهلَّب لبنيه: لا يقعدنّ أحدكم في السوق، فإن كنتم لا بدَّ فاعلين، فإلى زراد، أو سَرَّاج، أو ورَّاق.

---

(١) الشأو: المدى والسبق.

(٢) الأبلق: الذي في لونه سوادٌ وبياض.

(٣) في الأصول «صدري» وما أثبت هنا من عيون الأخبار لابن قتيبة.

بين عمر بن الخطاب وعمرو بن معد يكرب في الصمصامة:

العتبي قال: بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن معد يكرب أن يبعث إليه بسيفه المعروف بالصَّمصامة، فبعث به إليه، فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه، فكتب إليه في ذلك، فرّد عليه: إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف، ولم أبعث بالساعد الذي يَضرب به.

وسأله عمر بن الخطاب يوما عن السلاح، فقال: يسألُ أميرُ المؤمنين عما بدا له. قال: ما تقول في التَّرس؟ قال: هو المِجنُّ الدائر، وعليه تدور الدوائر. قال: فما تقول في الرُّمح؟ قال: أخوك وربما خانك فانقصف. قال: فالنَّبل؟ قال: منايا تخْطِئُ وتصيب. قال: فما تقول في الدِّرع؟ قال: مُثقِلة للراجل، مُتْعبة للفارس، وإنها لحصنٌ حصين. قال: فما تقول في السيف؟ قال: هناك لا أمَّ لك يا أمير المؤمنين، فضربه عمر بالدّرة وقال: بل لا أمّ لك. قال: الحُمى أضرعتني لك[1].

لابن يامين في الصمصامة:

الهيثم بن عدي قال: وُصِف سيفُ عمرو بن معد يكرب الذي يقال له الصَّمصامة لموسى الهادي، فدعا به فوضع بين يديه مجرَّدا، ثم قال لحاجبه: إيذن للشعراء. فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا فيه، فبدرهم ابن يامين[2] فقال:

حازَ صَمْصامةَ الزُّبَيدِيِّ عَمْرٍو ... من جميع الأنام مُوسى الأمينُ
سَيْفَ عمروٍ وكان فيما سمِعْنا ... خَيْرَ ما أُغْمِدَتْ عليه الجفُونُ
أخضر المتنِ بين حَدَّيْهِ نُورٌ ... من فِرِنْدٍ تمتدُّ فيه العُيونُ
أوقدت فَوقَه الصواعقُ ناراً ... ثم ساطتْ به الذُّعافَ القُيونُ[3]
فإذا ما سللْته بَهر الشمْـ ... ـسَ ضِياءً فلم تكدْ تسْتَبِينُ

(١) أراد أنّ الإسلام قيّده، ولو كنت في الجاهلية لم تكلّمني بهذا الكلام، وهو مثل تضربه العرب إذا اضطرت للخضوع.

(٢) اضطرب هذا الاسم في الأصول: فمرّة «ابن قسي» ومرّة «ابن أقيس» وما أثبتناه هنا من رواية نهاية الأرب وابن خلّكان (٤٠٣/٢) ومروج الذهب (٢٨٦/٤) وديوان المعاني (٥٢/٢).

(٣) شابت: مزجت، والذّعاف: والقيون: جمع قين وهو الحدّاد.

فكـأنّ الفـرنـدَ والرّونـق الجا ريَ في صَفْحَتَيْـهِ مـاءٌ مَعِينُ
وكـأن المَنـون نيطَـتْ إليـه فهو مـن كـل جـانِبَيـهِ مَنُونُ[1]
نِعْمَ مِخْراق ذي الحفيظة في الهيـجاء يسطـو بـه ونعـم القـريـن
مـا يُبـالي مَـنِ أنتضـاهُ لحربٍ أشِمـالٌ سَطَـتْ بـه أم يَمينُ

فأمر له ببدرة وخرجوا .

الزبير بن العوام وسيف:

وضرَبَ الزبيرُ بن العوام يوم الخندق عثمانَ بن عبدالله بن المُغيرة فقطَّه إلى القَرَبُوس، فقالوا: ما أجود سيفك! فغضب ـ يريد أن العمل ليده لا لسيفه ـ وقال:

متى تَلْقني يَعـدو ببَـزِّي مقلَّـصٌ كُمَيْـتٌ بَهيم أو أغَـرُّ مُحَجَّـلُ[2]
تُلاقِ آمـرءً إنْ تَلْقَـهُ فبسَيْفِـهِ تُعَلِّمُك الأيـامُ مـا كنـتَ تجهـلُ

وقال أبو الشَّيص:

خَتَلَتْـهُ المَنُـونُ بعـدَ اْختِيـالِ بين صَفَّين مـن قنّـاً ونِصـالِ[3]
في رِداءٍ مـن الصفيـحِ صَقِيـلٍ وقميـصٍ مـن الحديـدِ مُـذَالِ[4]

لأبي الأغر يوصي ابنه:

وبلغ أبا الأغر التميميّ أنّ أصحابه بالبادية قد وقع بينهم شرٍ، فوجّه إليهم آبنه الأغرّ وقال: يا بنيّ، كن يداً لأصحابك على من قاتلهم، وإياك والسيف فإنه ظلّ الموت، وآتق الرُّمح فإنه رِشاءُ المنيّة[5]، ولا تقرب السهام فإنها رُسل لا تُؤامر مُرْسِلَها . قال: فبماذا أقاتل؟ قال: بما قال الشاعر:

جَلامِيـد يملأْنَ الأكُـفَّ كـأنّهـا رُءُوسُ رجال حُلِّقـتْ بـالمواسِمِ

(١) نيطت: أسندت وخصّت به .
(٢) البزّ: السلاح، والمقلّص من الأفراس: المشمّر المشرق الطويل القوائم، والبهيم: ما لاشية فيه . والأغر: الذي في جبهته بياض، والمحجل: الذي في قوائمه بياض .
(٣) ختلته: غدرته .
(٤) المذال: الذي له ذيل، أي أنّ الدرع كانت فضفاضة . (٥) رشاء المنيّة: حبلها .

وذكر أعرابيّ قوماً تحاربوا فقال: أقبلت الفحول، تمشي مشي الوعول، فلما تصافحوا بالسيوف، فَغرت[١] المنايا أفواهها.

وقال آخر يذكر قوما أُسروا: استنزلوهم عن الجياد بليِّنة الخُرصان[٢]، ونزعوهم نَزع الدّلاء بالأشطان[٣].

وقال أعرابي في آخرين ابتغَوا قوما أغاروا عليهم، فقال: احتثُّوا كل جُمَاليَّةٍ عَيْرَانَةٍ[٤]، كيما يخصفون أخفاف المطيِّ بحوافر الخيل، حتى أدركوهم بعد ثالثة، فجعلوا المرّان أَرْشِيَةَ المنايا فاستَقَوْا بها أرواحَهم.

ومن أحسن ما قيل في السيف قولُ حبيب:

ونَبَّهن مثلَ السيف لو لم تَسُلّهُ ... يَدانِ لسَلَّتْهُ ظُباهُ من الغِمْدِ

وقال في صفة الرماح:

مُثَقَّفاتٌ سَلَبْنَ الرومَ زُرْقَتها ... والعُرْبَ ألوانَها والعاشِقَ القضَفَا[٥]

ومن الإفراط القبيح قولُ النابغة في وصف السيف:

يَقُدُّ السَّلُوقيَّ المضاعَفَ نَسْجُهُ ... ويوقِدُ في الصّفّاح نارَ الحباحب[٦]

فذكر أنه يقُدّ الدرع المُضاعف نسجه، والفارسَ، والفرسَ، ويقع بها في الأرض فيقدح النار من الحجارة.

وأقبح منه في الإفراط قولُ الآخر:

تظل تحفِرُ عنه إن ضربتَ به ... بعدَ الذرّاعين والقيْدَيْن والهادي[٧]

---

(١) فغرت: فتحت.

(٢) الخرصان: القنا، الواحدة: خُرص بضم الخاء وتكسر.

(٣) الأشطان: الحبال.

(٤) الجمّالية: الناقة الوثيقة كالجمل، والعيرانة: الناجية في نشاط.

(٥) القضف: النحافة.

(٦) الحباحب: هي ما اقتدح من شرر النار في الهواء من اصطكاك الحجارة بعضها ببعض.

(٧) الهادي: العنق.

وقد جمع العلويّ وصف الخيل والسلاح كله فأحسن وجوّد حيث يقول:

بِحَسبيَ مِنْ مالي من الخَيْلِ أَعْيَطٌ سليمُ الشَّظَى عاري النَّواهِقِ أَمْعَطُ[1]
وأَبيَضُ من ماءِ الحديدِ مُهَنَّدٌ وأسمرُ عسَّالُ الكُعوب عَنَطْنَطُ[2]
وبيضاء كالضَّحضاح زَغْفٌ مُفاضةٌ يُكفِّتُها عنِّي نجادٌ مُخَطَّطُ[3]
ومَعْطوفةُ الاطْرافِ كَبْداءُ سَمْحةٌ مُنَفَّجَةُ الأعضادِ صفراءُ شَوْحَطُ[4]
فيا ليتَ مالي غَيرِ ما قد جمعْته على لُجَّةٍ تَيَّارُها يتَغَطْغَطُ[5]
ويا ليتني أُمْسِي على الدّهْرِ ليْلةً وليسَ على نفْسي أميرٌ مُسَلَّطُ

لابن عبد ربه:

ومن قولنا في وصف الرمح والسيف:

بكلِّ رُدَيْنِيٍّ كأنّ سِنانَهُ شِهَابٌ بَدا في ظُلْمةِ اللّيلِ ساطِعُ
تقاصَرتِ الآجالُ في طولِ مَتْنه وعادتْ به الآمالُ وهيَ فَجائِعُ
وساءَت ظُنونُ الحرْبِ في حُسْنِ ظَنَّه فهُنَّ ظُباتٌ للقلوب قوارِعُ[6]
وذي شُطَبٍ تقْضي المنايا بحُكْمه وليس لما تَقْضِي المنِيّةُ دافِعُ
فِرِنْدٌ إذا ما اعتنّ للعين راكدٌ وبرقٌ إذا ما آهتزّ بالكفِّ لامعُ
يُسَلِّلُ أرواحَ الْكُماةِ آنسلالَهُ ويرتاعُ منه الموتُ والموتُ رائعُ
إذا ما التَقَتْ أمثالُهُ في وقِيعَةٍ هنالك ظَنُّ النفسِ بالنفسِ واقعُ

ومن قولنا في وصف السيف:

---

(١) الأعيط: الطويل العنق، والشنطي: عظم لازق بالركبة أو بالذراع أو بالوطيف. والنواهق: يريد بها الناهقين: وهما عظمان شاخصان من ذي الحافر في مجرى الدمع. والأمعط: الذي لا شعر على جسده.

(٢) العسال: الرمح الشديد الاهتزاز والعنطنط: الطويل.

(٣) البيضاء: يريد بها الدرع، والضحضاح: الماء اليسير ويكفّتها عنّي: يريد أن زوائد هذه الدرع تلتصق بنجاد سيفه فلا تعوق حركته.

(٤) الكبداء: القوس بملأ الكفّ مقبضها، والسمحة: الواتية والشوحط: شجرٌ تتخذ منه القسيّ.

(٥) يتغطغط: أي يضطرب.

(٦) الظّبا: الحدّ في السيف وغيره.

بكلِّ مأثور على مَتْنِه   مِثْلُ مَدَب النّمْلِ بالقاعِ
يرتدّ طرْفُ العَيْنِ من حَدّه   عن كَوْكَبٍ لِلمَوْت لمّاعِ

وقال إسحاق بن خلف البَهْراني في صفة السيف:

أَلقَى بجانِب خَصْرِهِ   أمْضي مِن الأجَلِ المتاح
وكأنما ذَرّ الْهبا   عليهِ أنْفاسُ الرِّياح[1]

ومن جيد صفات السيف قول الغَنَوي:

حُسامٌ غداة الرّوع ماضٍ كأنّه   من الله في قبض النفوس رسولُ
كأنّ على إفرنده موج لُجّةٍ   تَقاصَرُ في ضحضاحه وتطول
كأنّ جُيوش الذّرّ كَسَّرْنَ فوقه   قرون جرادٍ بينهن ذُحول[2]

النزع بالقوس

إبراهيم الشيباني قال: كان رجل من أهل الكوفة قد بلغه عن رجل من أهل لسلطان أنه يعْرض له ضَيعة بواسطَ في مَغْرم لزمه للخليفة؛ فحمل وكيلا له على بغل وأترع[3] له خُرجاً بدنانير، وقال له: اذهب إلى واسط فاشتر لي هذه الضيعة المعروضة، فإن كفاك ما في هذا الخرج وإلا فاكتب إلى أُمدّك بالمال. فخرج، فلما أصحر عن البيوت، لحق به أعرابي راكب على حمار معه قوس وكنانة؛ فقال له: إلى أين تتوجه؟ فقال: إلى واسط. قال: فهل لك في الصُّحبة؟ قال: نعم. فسارا حتى فَوّزا، فعنت لهما ظباء، فقال له الأعرابي: أيُّ هذه الظباء أحبُّ إليك: المتقدم منها أم المتأخر فأزكِّيَه[4] لك؟ قال له: المتقدم. فرماه فخرمه بالسهم، فاشْتَوَيا وأكلا، فاغتبط الرجل بصحبة الأعرابي، ثم عنّ له زُفّة قطا، فقال: أيها تريد فأصرعَها لك؟

---

(١) الهباء: الشيء المنبث الذي تراه في الكوى من ضوء الشمس شبيهاً بالغبار.

(٢) الذحول: جمع ذحل: وهو الثأر.

(٣) أترع: ملأ.

(٤) فأزكيه: أي أرميه بالسهم فأجعله مزكّى يحلّ أكله.

فأشار إلى واحدة منها فرماها فأقْصَدَها، ثم اشتويا وأكلا، فلما انقضى طعامهما فوّق له الأعرابي سهماً ثم قال له: أين تريد أن أُصيبك؟ فقال له: اتق الله وٱحفظ زمام الصحبة. قال: لا بد منه! قال له: ٱتق الله ربك واستَبْقِني، ودونك البغل والخرج فإنه مُترعٌ مالا. قال: فاخلع ثيابك. فٱنسلخ من ثيابه ثوباً ثوبا حتى بقي مجرَّداً. قال له: اخلع أمواقك[١]. وكان لابساً خُفَّيْن طائفيَّين، فقال له: اتق الله فيّ ودع لي الخفين أتبلّغ بهما من الحرّ، فإن الرّمضاء تحرق قدميّ. قال: لا بدّ منه. قال فدونك الخُف فٱخلعه. فلما تناول الخفَّ، ذكر الرجل خنجراً كان معه في الخف، فٱستخرجه ثم ضرب به صدره فشقه إلى عانته، وقال له: الاستقصاء فرقة. فذهبت مثلا. وكان هذا الأعرابي من رُماة الحَدَق[٢].

بين لص ورام:

وحدّث العتبي عن بعض أشياخه قال: كنت عند المهاجر بن عبد الله والى اليمامة، فأُتي بأعرابي كان معروفا بالسَرَق فقال له: أخبرني عن بعض عجائبك. قال: عجائبي كثيرة، ومن أعجبها أنه كان لي بعير لا يُسْبَق، وكانت لي خيل لا تُلْحَق، فكنت أخرج فلا أرجع خائباً، فخرجت يوماً فاحترشتُ[٣] ضباً، فعلّقته على قَتَبي، ثم مررت بخباء ليس فيه إلا عجوز ليس معها غيرها، فقلت: يجب أن يكون لهذه رائحة من غنم وإبل. فلما أمسيتُ إذا بإبل مائة، وإذا شيخ عظيم البطن، شثْن الكفين[٤]، ومعه عبد أسود، فلما رآني رحب بي، ثم قام إلى ناقة فٱحتلبها، وناولني العُلْبة. فشربت ما يشرب الرجل، فتناول الباقي فضرب به جبهته، ثم احتلب تسع أينُق فشرب ألبانهن، ثم نحر حُوارا[٥] فطبخه، فأكلت شيئا، وأكل الجميع حتى ألقى عظامه بيضا، وجثا على كومة من البطحاء وتوسدها ثم غَطَ غطيط البَكْر. فقلت:

---

(١) الأمواق: جمع موق، وهو خفٌّ غليظ يلبس فوق الخفّ.

(٢) رماة الحدق: أي المهرة الحاذقين في الرميّ.

(٣) احترشت: اصطدت.

(٤) شثن الكفّين: غليظهما.

(٥) الحوار: ولد الناقة، من وقت ولادته إلى وقت فطامه.

هذه والله الغنيمة، ثم قمت إلى فحل إبله فخطمتُه[1]: ثم قرنته ببعيري وصحت به، فاتّبعني الفحل واتّبَعته الأبل إرْباباً به في قطار[2]، فصارت خلفي كأنها حبل ممدود؛ فمضيت أبادر ثنيّة بيني وبينها مسيرة ليلة للمُسْرِع، ولم أزل أضرب بعيري، مرة بيدي، ومرة برجلي، حتى طلع الفجر؛ فأبصرت الثنية، وإذا عليها سواد، فلما دَنَوْت منه إذا الشيخ قاعد وقوسُه في حِجره! فقال: أضيْفَنا؟ قلت: نعم! قال: أتسخو نفسك عن هذه الإبل؟ قلت: لا. فأخرج سهمّا كأنه لسان كلب، ثم قال: انظره بين أذني الضبِّ المعلّقِ في القَتَب. ثم رماه فصدع عظمَه عن دماغه، فقال لي: ما تقول؟ قلت: أنا على رأيي الأول. قال: انظر هذا السهم الثاني في فقرة ظهره الوسطى، ثم رمى به فكأنما قدّره بيده ثم وضعه بأصبعه، ثم قال: رأيَك؟ فقلت: إني أحب أن أستثبت. قال: آنظر هذا السهم الثالث في عُكْوة ذنَبه، والرابع والله في بطنك. ثم رماه فلم يخطيء العُكوة؛ قلت: أنزلُ آمنا؟ قال: نعم. فدفعت إليه خطام فحله وقلت: هذه إبلك لم تذهب منها وبرة. وأنا أنظر متى يرميني بسهم يُقْصِد به قلبي؛ فلما تباعدت قال: أقبل! فأقبلت والله فَرَقا من شره لا طمعاً في خيره. فقال: ما أحسبك تجشمت الليلة ما تجشمت إلا من حاجة! قلت نعم. قال: فاقرُن من هذه الإبل بعيرين وامض لِطيَّتِك. قال: قلت: أما والله لا أمضي حتى أخبرَك عن نفسك؛ فلا والله ما رأيت أعرابيا قط أشدّ ضِرساً، ولا أعْدَى رِجلا، ولا أرْمَى يداً، ولا أكرمَ عَفْوا، ولا أسْخَى نفساً، منك. فصرف وجهه عني حياءً وقال: خذ الإبل برمتها مباركا لك فيها.

للنبي ﷺ في الرمي:

وقال النبي ﷺ: «اركبوا وآرموا؛ وأنْ ترْموا أحبُّ إليّ من أن تركبوا».

وقال: «كل لَهْوِ المؤمن باطِلٌ إلا في ثلاث: تأديبه فرسَه ورمْيه عن كَبد قوسِه، وملاعَبَته امرأتَه؛ فإنه حق. إن الله ليُدْخِلُ الجنةَ بالسهم الواحد عامله المحتَسِب،

(١) خطمته: علّقته.

(٢) القطار: القافلة، والإرباب: الملازمة.

والقويّ به في سبيل الله، أي والرامي به في سبيل الله».

وروي عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو قائم على المنبر: ﴿وأعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[1]. ألا إنّ القوة الرمي. ألا إنّ القوةَ الرمي. ألا إنّ القوة الرمْي.

وكان أرمى أصحابِ رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص؛ لأن رسول الله ﷺ دعا له فقال: اللهم سدّد رمْيَتَه، وأَجِبْ دَعوَتَه. فكان لا يُردّ له دعاءٌ، ولا يخيب له سهم.

النبي ﷺ ورماة من أسلم:

وذكر أسامة بن زيد: أنّ شيوخا من أَسْلَمَ حدّثوه، أنّ رسول الله ﷺ جاءهم وهم يرمون ببُطْحان، فقال رسول الله ﷺ: ارمُوا يا بني إسمعيل، فقد كان أبوكم راميا، وأنا مع ابن الأدرع. فتعدّى القوم فقالوا: يا رسول الله، مَن كنت معه فقد نَضَلَ[2]. قال رسول الله ﷺ: أرموا وأنا معكم كلكم.فانتضلوا ذلك اليوم ثم رجعوا بالسواء؛ ليس لأحد على أحد منهم فضل.

لعمر بن الخطاب:

وقال عمر: ائتزروا وارتدوا، وانتعلوا واحتفوا، وارمُوا الأغراض، والقَوْا الرُّكُب، وانْزُوا على الخيل نَزْواً[3]، وعليكم بالمَعَدِّيّة - أو قال: بالعربية - ودَعُوا التنعُّم وزِيّ العجم.

وقال أيضا: لنْ تخور قواكم ما نَزَوْتُم ونَزَعْتُمْ. يعني نزوتم على ظهور الخيل ونزعتم بالقسيّ.

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦٠.

(٢) نضل: غلب في المناضلة، وهي المراماة.

(٣) انزوا: اقفزوا وثبوا.

لرجل من البادية يذمر قومه:

وجنى قوم من أهل اليمامة[(١)] جناية، فأرسل السلطانُ إليهم جُنداً من محاربة بن زياد. فقام رجل من أهل البادية يُذَمِّر أصحابه فقال: يا معشر العرب، ويا بني المُحصنات، قاتلوا عن أحسابكم وأنسابكم؛ فوالله لئن ظهر هؤلاء عليكم لا يدَعون بها لَبِنة حمراء ولا نخلة خضراء إلا وضعوها بالأرض، وَلَاَعْتَراكم من نُشّاب معهم في جعاب كأنها أُيور الفِيَلة ينزعون في قِسّيٍ كأنها الغُبط[(٢)]، تئطّ[(٣)] إحداهن أطيط الزُّرْنُوق[(٤)]، يَمَعط[(٥)] أحدهم فيها حتى يتفرّق شعر إبْطَيْه، ثم يرسل نُشّابة كأنها رِشاء منقطع، فما بين أحدكم وبين أن تنفضخ عينهُ أو ينصدع قلبه منزلة. فخلع قلوبَهم فطاروا رُعبا.

مشاروة المهدي لأهل بيته

في حرب خراسان

هذا ما تراجع فيه المهديُّ ووزراؤه، وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب خراسان، أيام تحاملت عليهم العمال وأعنفت، فحملتهم الدالة وما تقدّم لهم من المكانة على أن نكثوا بَيعتهم، ونقضوا موثقهم، وطردوا العُمال، والتوَوْا بما عليهم من الخراج. وحمل المهديَّ ما يُحب من مصلحتهم ويكره من عنَتهم على أن أقال عثرتهم[(٦)]، واغتفر زَلَّتهم، واحتمل دالَّتهم؛ تطوُّلاً بالفضل، واتساعا بالعفو، وأخذاً بالحُجة، ورفقاً بالسياسة؛ ولذلك لم يزل مذ حمَّله اللهُ أعباء الخلافة، وقلّده أمور

---

(١) كذا في بعض الأصول وعيون الأخبار، والذي في سائر الأصول: «المدينة».

(٢) الغبط: جمع غبيط، وهو الرحل الذي قتبه وأحناؤه واحدة.

(٣) تئط: تصوّت.

(٤) الزرنوق: واحد الزرنوقين، وهما منارتان تبنيان على رأس البئر من جانبيها فتوضع خشبة تعرض عليهما ثم تعلّق فيها بكره فيستقى بها.

(٥) يمعط: معط الرامي في قوسه: أغرق في مدّها.

(٦) أقال عثرتهم: أصلحها واغتفرها.

الرعية، رفيقاً بمدار سلطانه، بصيراً بأهل زمانه، باسطا للمعدلة في رعّيته؛ تسكُن إلى كنفه، وتأنس بعفوه، وتثق بحلمه؛ فإذا وقعت الأقضية اللازمة، والحقوق الواجبة، فليس عنده هوادة ولا إغضاء ولا مُداهنة[1]؛ أثرةً للحق، وقياما بالعدل، وأخذاً بالحزم. فدعا أهلَ خراسان الاغترارُ بحلمه، والثقةُ بعفوه، أن كسروا الخراج، وطردوا العمال، وسألوا ما ليس لهم من الحق؛ ثم خلطوا آحتجاجا باعتذار، وخصومةً بإقرار، وتنصّلا باعتلال. فلما انتهى ذلك إلى المهدي، خرج إلى مجلس خُلأَئه، وبعث إلى نفر من لُحْمَتِه ووزرائه، فأعلمهم الحال، واستنصحهم للرعية؛ ثم أمر الموالي بالابتداء؛ وقال للعباس بن محمد: أيْ عَمَ، تَعَقَّبْ قولَنا، وكُن حكما بيننا. وارسل إلى ولديه موسى وهارون فأحضرهما الأمر، وشاركهما في الرأي. وأمر محمد ابن الليث بحفظ مُراجَعَتِهم وإثبات مقالتهم في كتاب.

فقال سلاّم صاحب دار المظالم: أيها المهدي، إن في كل أمر غاية، ولكل قوم صناعة، آستفرغت رأيَهم، واستغرقت أشغالَهم، واستنفدت أعمارَهم، وذهبوا بها وذهبت بهم، وعُرفوا بها وعُرفت بهم؛ ولهذه الأمور التي جعلَتَنا فيها غايةً وطلبْت معونتنا عليها: أقوامٌ من أبناء الحرب، وساسة الأمور، وقادة الجنود، وفُرسان الهَزاهز[2]، وإخوان التجارب، وأبطال الوقائع، الذين رَشَحَتْهُمْ سِجَالُها، وفيَّأتهم ظلالُها، وعضَّتهم شدائدُها، وقرمتهم نواجذها[3]؛ فلو عَجَمْتَ ما قِبَلَهُم، وكشفت ما عندهم، لوجدتَ نظائرَ تؤيِّد أمرك، وتجارب توافق نظرك، وأحاديثَ تقوّي قلبَك. فأما نحن معاشرَ عُمّالك، وأصحاب دواوينك، فَحَسَنٌ بنا وكثيرٌ منّا أن نقوم بثقل ما حمّلتنا من عَملك، واستودعتَنا من أمانتك، وشغَلْتنا به من إمضاء عدلك وإنفاذ حكمك، وإظهار حقك.

فأجابه المهدي: إن في كل قوم حكمة، ولكل زمان سياسة، وفي كل حال تدبير يُبطل الآخرُ الأوّل؛ ونحن أعلم بزماننا وتدبير سلطاننا.

---

(١) المداهنة: المحاباة والتزلّف.

(٢) الهزاهز: الفتن والحروب. (٣) النواجذ: أواخر الأضراس في الفم.

قال: نعم أيها المهدي، أنت متسع الرأي، وثيق العقدة قوي المُنّة[١]، بليغ الفطنة، معصوم النية، محضور الرّويّة، مؤيّد البديهة، موفّق العزيمة، مُعان بالظفر، مَهْدِيٌّ إلى الخير؛ إن هممت ففي عزمك مواقع الظنّ، وإن أجمعت صدع فعلُك ملتبسَ الشك، فاعزم يَهْدِ اللهُ إلى الصواب قلبَك، وقُلْ يُنْطِقِ الله بالحق لسانَك، فإن جنودك جمة، وخزائنك عامرة، ونفسك سخية، وأمرك نافذ.

فأجابه المهدي: إن المشاورة والمناظرة بابا رحمة ومِفتاحا بركة، لا يَهلك عليهما رأي، ولا يتفيَّل[٢] معهما حزم؛ فأشيروا برأيكم، وقولوا بما يحضُركم؛ فإني من ورائكم، وتوفيقُ الله من وراء ذلك.

قال الربيع: أيها المهدي، إنّ تصاريف وجوه الرأي كثيرة، وإن الإشارة ببعض معاريض القول[٣] يسيرة؛ ولكنّ خراسان أرض بعيدة المسافة، متراخية الشُّقة، متفاوتة السُّبُل، فإذا ارتأيتَ من محكم التَّدبير، ومُبْرَم التقدير، ولباب الصواب. رأيا قد أحكمه نظرك، وقلّبه تدبيرُك، فليس وراءه مذهب لحجة طاعن، ولا دونه مُتَعَلق لخصومة عائب، ثم خَبّت[٤] البرُدُ به، وانطوت الرسلُ عليه. كان بالحَرَى ألاّ يصل إليهم محْكَمُهُ إلا وقد حدث منهم ما ينقضه؛ فما أيسرَ أن ترجع إليك الرسل وترِد عليك الكتب بحقائق أخبارهم، وشوارد آثارهم، ومصادر أمورهم؛ فتحدث رأياً غيره، وتبتدع تدبيراً سواه، وقد انفرجت الحَلَق[٥]، وتحلّلت العُقَد، واسترخى الحقاب[٦]، وامتد الزمان. ثم لعلّها مَوْقِعُ الآخرة كمصدر الأولى. ولكن الرأي لك أيها المهدي وفّقك الله، أن تصرف إجالة النظر، وتقليب الفكر فيما جمعتنا له واستشرتنا فيه من التدبير لحربهم والحِيل في أمرهم، إلى الطلب لرجل ذي دين

(١) المنّة: القوّة.

(٢) لا يتفيّل: لا يضعف.

(٣) معاريض القول: ما عرض به ولم يصرح، وهي التورية عن الشيء بالشيء.

(٤) خبّت البرد: أسرعت، والبرد: جمع بريد، وهو الرسول.

(٥) الحلق: جمع حلقه.

(٦) الحقاب: شيء تعلّق به المرأة الحليّ وتشده في وسطها.

فاضل، وعقل كامل، وورع واسع، ليس موصوفاً بهوى في سواك، ولا متهماً في أثَرة عليك، ولا ظنينا على دُخلة مكروهة، ولا منسوباً إلى بدعة محذورة، فيقدحَ في ملكك، ويربِّض الأمور لغيرك، ثم تُسند إليه أمورَهم، وتفوض إليه حربهم، وتأمره في عهدك ووصيتك إياه بلزوم أمرك ما لزمه الحزم، وخلافِ نهيك إذا خالفه الرأي، عند استحالة الأمور واستدارة الأحوال التي يُنْقَصُ أمرُ الغائب عنها، ويَثْبُت رأيُ الشاهد لها، فإنه إذا فعل ذلك فواثَب أمْرهم من قريب، وسقط عنه ما يأتي من بعيد، تمت الحيلة، وقَويت المكيدة، ونَفذ العمل، وأحد النظر إن شاء الله.

قال الفضل بن العباس: أيها المهدي، إن وليَّ الأمور، وسائس الحروب، ربما نَحّى جنودَه، وفرّق أموالهُ، في غير ما ضِيق أمرٍ حَزبه. ولا ضغطةِ حال اضطرّتْه، فيقعد عند الحاجة إليها وبعد التفرقة لها عديماً منها، فاقداً لها، لا يثق بقوة، ولا يصول بعُدّة، ولا يفزع إلى ثِقة. فالرأي لك أيها المهدي وفقك الله، أن تعفي خزائنك من الإنفاق للأموال، وجنودَك من مُكابدة الأسفار، ومقارعة الأخطار وتغرير القتال. ولا تسرع للقوم في الإجابة إلى ما يطلبون، والإعطاء لما يسألون، فيفسُد عليك أدبهم، وتُجَرِّيء من رعيتك غيرهم؛ ولكن اغْزُهُم بالحيلة، وقاتلهم بالمكيدة، وصارعهم باللين، وخاتلهم بالرفق[1]، وأَبْرق لهم بالقول، وأرعِد نحوهم بالفِعل، وابعث البُعوث، وجند الجنود وكَتِّب الكتائب، واَعْقِد الألوية، واَنصُب الرايات، وأظهر أنك موجِّهٌ إليهم الجيوش مع أحنق[2] قوادك عليهم، وأسوئهم أثراً فيهم، ثم ادْسُس الرسل، وابثُث الكتب، وضَع بعضهم على طمع من وعدك، وبعضاً على خوف من وعيدك، وأوقد بذلك وأشباهه نيرانَ التحاسد فيهم، واَغرس أشجار التنافس بينهم، حتى تملأ القلوب من الوحشة، وتَنطوي الصدور على البغضة، ويدخل كلاًّ من كلٍّ الحذرُ والهيبة؛ فإن مَرَام الظفر بالغِيلة، والقتالَ بالحيلة، والمُناصبة بالكتب، والمكايدة بالرسل، والمقارعةَ بالكلام اللطيف المدخل في القلوب، القوي الموقع من النفوس، المعقود بالحُجج، الموصول بالحِيل، المبنيّ على اللِّين، الذي

(١) خاتلهم: خادعهم.
(٢) احنق: أي أشدّهم حنقاً وغضباً.

يستميل القلوب، ويَسْتَرِقُّ العقول، ويسبي الآراء، ويستميل الأهواء، ويستدعي المواتاة[١] ـ أنْفَذُ من القتال بظُبات السيوف وأسنة الرماح: كما أن الوالي الذي يستنزل طاعة رعيّته بالحيل، ويُفرّق كلمة عدوه بالمكايدة، أحكمُ عملا وألطف نظراً وأحسن سياسة من الذي لا يَنال ذلك إلا بالقتال، والإتلاف للأموال، والتغرير والخِطار.

وليعلم المهدي ـ وفقه الله ـ أنه إن وجه لقتالهم رجلاً، لم يَسِرْ لقتالهم إلا بجنود كثيفة تخرج على حال شديدة، وتُقدم على أسفار ضيقة، وأهوال متفرّقة، وقواد غَشَشَة[٢]، إن ائتمنهم استنفدوا ماله، وإن استنصحهم كانوا عليه لا له.

قال المهدي: هذا رأي قد أسفر نوره، وبرق ضوؤه، وتمثل صوابه للعيون، وتجسد حقه في القلوب، ولكنْ فوق كلّ ذي علم عليم.

ثم نظر إلى ابنه عليّ فقال: ما تقول؟

قال علي: أيها المهدي، إن أهل خراسان لم يخلعوا من طاعتك يداً، ولم ينصبوا مِن دونك أحداً يكدح في تغيير ملكك، ويربِّض[٣] الأمور لفساد دولتك؛ ولو فعلوا لكان الخطب أيسر، والشأن أصغر، والحالُ أذل؛ لأن الله مع حقه الذي لا يخذله، وعند موعده الذي لا يُخلِفه: ولكنهم قوم من رعيتك، وطائفةٌ من شيعتك، الذين جعلك الله عليهم والياً، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً، طلبوا حقاً، وسألوا إنصافاً؛ فإن أجبتَ إلى دعوتهم، ونفست عنهم قبل أن تتلاحَم منهم حال، أو يحدثَ مِن عندهم فَتق، أطعتَ أمر الرب، وأطفأتَ نائرة الحرب[٤]، ووفّرت خزائنَ المال، وطرحت تغرير[٥] القتال؛ وحَمَل الناسُ مَحْملَ ذلك على طبيعة جُودك وسجيّة حِلْمك، وإسجاح خليقتك[٦]، ومعدلة نظرك؛ فأمنت أن تُنْسب إلى ضعفة، وأن يكون ذلك لهم فيما بقي دُربة. وإن مَنَعْتَهم ما طلبوا، ولم تُجبهم إلى ما سألوا،

---

(١) المواتاة: الموافقة.

(٢) قوّاد غششة: أي لا أمانة لهم.

(٣) يربّض: يثبّت.

(٤) نائره الحرب: أي المتقد منها.

(٥) تغرير القتال: هلاكه.

(٦) إسجاح خليقتك: حسنها وعفوها.

اعتدلت بك وبهم الحال، وساويتَهم في ميدان الخطاب. فما أَرَبُ المهدي أن يَعمد إلى طائفة من رعيته: مُقرّين بمملكته، مُذعِنين لطاعته، لا يُخرجون أنفسهم عن قُدرته، ولا يُبرئونها من عبوديّته، فيُمَلّكهم أنفسهم، ويخلعَ نفسه عنهم، ويقفَ على الجدل معهم، ثم يجازيَهم السوء في جد المقارعة، ومضمار المخاطرة؟ أيريد المهدي ـ وفقه الله ـ الأموال؟ فلعمري لا ينالها ولا يَظفَر بها إلا بإنفاق أكثر مما يطلب منهم، وأضعافِ ما يَدَّعي قِبَلهم؛ ولو نالها فحملِتْ إليه، أو وُضِعَتْ بخرائطها بين يديه، ثم تجافى لهم عنها، وطال عليهم بها، لكان مما إليه يُنْسَب وبه يُعْرَف، من الجود الذي طَبعه الله عليه، وجَعَل قُرّةَ عينه ونهمَةَ نفسه فيه. فإن قال المهدي: هذا رأي مستقيم سديد في أهل الخَراج الذين شكوْا ظلمَ عُمَّالنا وتحامُلَ وُلاتنا، فأما الجنودُ الذين نقضوا مواثيقَ العهود، وأنطقوا لسان الإرجاف[1]، وفتحوا بابَ المعصية، وكسروا قيْد الفتنة؛ فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالاً لغيرهم؛ وعِظةً لسواهم. فيعلم المهدي أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد، مُقَرَّنين في الأصفاد، ثم اتسع لحقن دمائهم عفوُه، ولإقالة عثرتِهم صفْحُه، واستبقاهم لما هُم فيه من حَرْبه، أو لمن بإزائهم من عدوّه، لما كان بدْعاً من رأيه، ولا مستنكراً من نظره. لقد علمَت العربُ أنه أعظمُ الخلفاء والملوك عفواً، وأشدُّها وقعاً، وأصدقها صولة، وأنه لا يتعاظمه عفو، ولا يتكاءدُه[2] صفح، وإن عَظُمَ الذنبُ وجلّ الخطب. فالرأي للمهدي ـ وفقه الله تعالى ـ أن يَحُل عقدةَ الغيْظ بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم، وأن يذكر أولى حالاتهم وضَيعة عِيالاتهم، برّاً بهم، وتوسّعاً لهم، فإنهم إخوان دولته، وأركانُ دعوته، وأساسُ حقه، الذين بعِزتهم يصُول، وبحجتهم يقول. وإنما مَثَلُهم فيما دخلوا فيه من مَساخطِه، وتَعَرَّضوا له من معاصيه، وانطوَوْا فيه عن إجابته؛ ومَثَلُهُ في قلة ما غيَّر ذلك من رأيه فيهم، أو نَقَل من حاله لهم، أو تغيّر من نعمته بهم ـ كمثل رجلين أخَوَين متناصرَيْن متوازرين، أصاب أحدَهما خَبَلٌ عارض[3]، ولهو حادث، فنهض

---

(١) الإرجاف: الخوض في أخبار الفتن لإيقاع الاضطراب في الناس. (٢) يتكاءده: يشق عليه.

(٣) الخبل العارض: الفساد في الرأي والعقل.

إلى أخيه بالأذى، وتحامل عليه بالمكروه؛ فلم يزدد أخوه إلا رقّة له، ولُطفاً به، واحتيالاً لمداواة مرضه، ومراجعة حاله، عطفاً عليه، وبرّاً به، ومَرْحمةً له.

فقال المهدي: أما عليّ فقد نوى اللّيان، وفضّ القلوب عن أهل خراسان، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون. ثم قال: ما ترى يا أبا محمد؟ يعني موسى ابنه.

فقال موسى: أيها المهدي، لا تسكن إلى حلاوة ما يجري من القول على ألسنتهم، وأنت ترى الدماء تَسيل من خَلل فِعلهم. والحال من القوم تنادي بمُضمرةِ شرّ، وخَفيَّة حقْد، قد جعلوا المعاذير عليها ستراً، واتخذوا العلل من دونها حِجاباً، رجاءَ أن يدافعوا الأيامَ بالتأخير، والأمورَ بالتطويل، فيكسروا حِيَل المهدي فيهم، ويَثنوا جنوده عنهم، حتى يتلاحم أمرُهم، وتتلاحق مادّتهم، وتستفحل حربُهم، وتستمرّ الأمورُ بهم؛ والمهديّ من قوتهم في حال غِرَة[1]! ولباس أمنَة، قد فتر[2] لها، وأنس بها، وسكن إليها. ولولا ما اجتمعت له قلوبهم، وبَردت عليه جلودهم، من المناصبة بالقتال، والإضمار للقِراع، عن داعية ضلال أو شيطان فساد، لرهبوا عواقبَ أحوال الولاة، وغِبَّ سكون الأمور. فليشددْ المهدي ـ وفقه الله ـ أزرَه لهم، ويكتِّبْ كتائبه نحوهم، وليضع الأمر على أشدّ ما يحضره فيهم، وليوقِن أنه لا يُعطيهم خطة يريد بها صلاحهم إلا كانت دُربة لفسادهم، وقوة على معصيتهم، وداعيةً إلى عودتهم، وسبباً لفساد من بحضرته من الجنود، ومن ببابه من الوفود الذين إن أقرّهم على تلك العادة، وأجراهم على ذلك الأدب لم يبرح في فَتقٍ حادث، وخلاف حاضر، لا يصلُح عليه دين، ولا تستقيم به دنيا. وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة، واستمرار الدَّربة، لم يصل إلى ذلك بالعقوبة المفرطة، والمئونة الشديدة. والرأي للمهدي ـ وفقه الله ـ ألاّ يقيل عثرتَهم، ولا يقبل معذرَتَهم، حتى تطأهم الجيوش، وتأخذهم السيوف. ويستحرّ[3] بهم القتل، ويُحدِق بهم الموت، ويُحيط بهم البلاء، ويُطبق عليهم الذل.

---

(١) الغرّة: الغفلة. (٢) فتر: ضعف.

(٣) يستحرّ: يشتدّ ويكثر.

فإن فعل المهديّ بهم ذلك كان مقطعةً لكل عادةِ سوءٍ فيهم، وهزيمةً لكل بادرة شرٍّ منهم. واحتمال المهدي مؤونة غزوتهم هذه يضع عنه غزواتٍ كثيرة، ونفقاتٍ عظيمة.

قال المهدي: قد قال القوم فاحكم يا أبا الفضل.

فقال العباس بن محمد: أيها المهدي، أما الموالي فأخذوا بفروع الرأي، وسلكوا جنبات الصواب، وتعدّوا أموراً قَصَّر بنظرهم عنها أنه لم تأت تجاربهم عليها.

وأما الفضل فأشار بالأموال ألا تُنفَق، والجنود ألا تفرَّق، وبأن لا يُعْطَى القومُ ما طَلبوا، ولا يُبذل لهم ما سألوا، وجاء بأمر بين ذلك، آستصغاراً لأمرهم وآستهانة بحربهم، وإنما يَهِيجُ جسيماتِ الأمورِ صغارُها.

وأما عليٌّ فأشار باللين وإفراط الرفق. وإذا جَرّد الوالي لمن غَمط[1] أمرَه وسَفِه حقَّه، اللينَ بَحتا، والخيرَ مَحضا، لم يخلطهما بشدة تعطف القلوبَ على لينه، ولا بشرٍ يَحيشهم[2] إلى خيره؛ فقد مَلَّكهم الخلعَ لِعُذْرهم[3] ووسّع لهم الفُرْجة لِثِنْي أعناقهم، فإن أجابوا دعوته، وقبلوا لينه من غير ما خوف اضطرهم، ولا شدةٍ حالٍ أخرجتهم، لم يزل ذلك يهيج عزة في نفوسهم، ونَزوةً في رءوسهم، يستدعون بها البلاءَ إلى أنفسهم؛ ويصرفون بها رأيَ المهدي فيهم. وإن لم يقبلوا دعوته، ويُسرعوا لإجابته باللِّين المحض والخير الصّراح، فذلك ما عليه الظنُّ بهم، والرأيُ فيهم، وما قد يُشبه أن يكون من مِثْلهم؛ لأن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم والمُلك الكبير ما لا يخطُر على قلب بشر، ولا تُدركه الفِكَر، ولا تعلمه نفس؛ ثم دعا الناس إليها ورغّبهم فيها؛ فلولا أنه خلق ناراً جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة، لما أجابوا ولا قبلوا.

وأما موسى فأشار بأن يُعْصَبوا بشدّةٍ لا لينَ فيها، وأن يُرْمَوا بشرٍّ لا خَيْرَ معه.

---

(١) غمط: جحد وأنكر. (٢) يحيشهم: يجعلهم يفزعون.

(٣) العذر: بضمتين جمع عذار، وهو من اللجام ما سال على خدِّ الفرس.

وإذا أضمر الوالي لمن فارق طاعتَه وخالف جماعته، الخوفَ مفرداً والشرَّ مجرداً، ليس معهما طمع يكسرهم، ولا لين يَثْنيهم، امتدت الأمور بهم، وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين: إما أن تدخلَهم الحميّةُ من الشدة، والأنفةُ من الذلّة، والامتعاضُ[1] من القَهر، فيدعوهم ذلك إلى التمادي في الخلافِ، والاستبسال في القتال، والاستسلام للموت؛ وإما أن ينقادوا بالكُرْه، ويُذعنوا بالقَهْر، على بغْضَة لازمة، وعداوة باقية، تُورث النفاق، وتُعْقِب الشقاق، فإذا أمكنتهم فرصة، أو ثابت لهم قدرة، أو قَويت لهم حال، عاد أمرُهم إلى أصعبَ وأغلظَ وأشدَّ مما كان.

وقال: في قول الفضل أيها المهدي، أكْفَى دليل، وأوضحُ برهان، وأَبْيَنُ خبرٍ بان. قد اجتمع رأيه، وحَزُم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم، وتوجيه البعوث نحوهم، مع إعطائهم ما سألوا من الحق، وإجابتهم إلى ما سألوه من العدل.

قال المهدي: ذلك رأي.

قال هارون: خلطتَ الشدة أيها المهدي باللين، فصارت الشدة أمرَّ فطامٍ لما تكره، وعاد اللين أهدى قائدٍ إلى ما تُحب؛ ولكن أرى غير ذلك.

قال المهدي: لقد قلتَ قولاً بديعاً، وخالفت به أهلَ بيتك جميعاً، والمرء مُتَّهم بما قال، وظنين بما ادَّعَى، حتى يأتي ببينة عادلة، وحجة ظاهرة، فاخْرُج عما قلت.

قال هارون: أيها المهدي، إن الحرب خُدعة، والأعاجم قومٌ مَكَرة، وربما اعتدلت الحالُ بهم، واتفقت الأهواء منهم، فكان باطن ما يُسِرُّون على ظاهر ما يعلنون؛ وربما افترقت الحالان، وخالف القلب اللسان، فانطوى القلبُ على مَحجوبةٍ تُبْطَن، واستسرّ بمدخولةٍ لا تُعْلَن؛ والطبيب الرفيق بطِبِّه، البصيرُ بأمره، العالم بمقدَّم يده، وموضع ميسمِه[2]، لا يتعجل بالدواء حتى يقع على معرفة الداء؛ فالرأي للمهدي ـ وفقه الله ـ أن يَفِرّ[3] باطنَ أمرهم فَرَّ المُسِنَّة، ويمخض ظاهرَ حالهم

---

(١) الامتعاض: الشعور بالكره والألم.

(٢) الميسم: المكواة. (٣) يفرّ: يختبر.

مَحْضَ السّقاء، بمتابعة الكتب، ومظاهرة الرسل، وموالاة العيون، حتى تهتَك حُجُبُ غُيوبهم، وتُكْشَفَ أغطيةُ أمورهم؛ فإن آنفرجت الحال له وأفضت الأمور به إلى تغيير حال أو داعيةِ ضلال، آشتملت الأهواء عليه، وانقاد الرجال إليه، وامتدت الأعناق نحوه، بدِين يعتقدونه. وإثم يستحلّونه، عَصَبَهم بشدَّة[1]. لا لينَ فيها، ورماهم بعقوبة لا عفوَ معها، وإن انفرجت الغيوب، واهتُصرت السُّتور، ورُفعت الحجب، والحالُ فيهم مَريعة[2]، والأمور بهم معتدلة، عن أرزاق يطلبونها، وأعمال يُنكرونها، وظُلامات يّدعونها، وحقوق يسألونها، بماتَّةِ سابقتهم، ودالَّةِ مناصحتهم. فالرأي للمهدي ـ وفقه الله ـ أن يتسع لهم بما طلبوا، ويَتجافى لهم عما كرهوا، ويَشْعبَ[3] من أمرهم ما صَدَعوا، ويرتق من فَتْقهم ما فتقوا؛ ويولِّي عليهم من أَحَبُّوا، ويُداوي بذلك مَرَضَ قلوبهم، وفسادَ أمورِهم؛ فإنما المهدي وأمتَه وسوادَ أهل مملكته بمنزلة الطبيب الرفيق، والوالد الشفيق، والراعي الحَدب، الذي يحتال لمرابِض غنمِه، وضوالِّ رعيته، حتى يبرىء المريضةَ من داءِ علتها، ويرد الضالَّة إلى أُنس جماعتها. ثم إن خراسان بخاصةٍ لهم دالّة محمولة، وماتّة مقبولة، ووسيلة معروفة، وحقوقٌ واجبة؛ لأنهم أيدي دولته، وسيوفُ دعوته، وأنصار حقه، وأعوان عدله. فليس من شأن المهدي الآضطغانُ عليهم، ولا المؤاخذة لهم، ولا التوعُّر بهم[4]، ولا المكافأة بإساءتهم؛ لأن مبادرة حسم الأمور ضعيفةً قبل أن تقوى، ومحاولةَ قطع الأصول ضئيلةً قبل أن تغلظ، أحزمُ في الرأي وأصحُّ في التدبير، من التأخير لها والتهاون بها، حتى يلتئم قليلُها بكثيرها، وتجتمعَ أطرافها إلى جمهورها.

قال المهدي: ما زال هارون يقع وَقْع الحيا، حتى خرج خروج القِدْح مما قال، وانسلّ انسلال السيف فيما ادعى، فدعوا ما قد سَبَق موسى فيه أنه هو الرأي، وثنَّى بعده هارون، ولكن مَن لأعِنَّة الخيل، وسياسةِ الحرب، وقيادة الناس، إن أمعن بهم اللجاج، وأفرطت بهم الدالّة؟[5]

---

(١) عصبهم بشدّة: أخذهم بالحزم.

(٢) مريعة: أي موفورة الرزق والخيرات.

(٣) يشعب: يصلح ويسوّي. (٤) التوعُّر: التشدّد. (٥) الدّالّة: الجرأة.

قال صالح: لسنا نبلغ أيها المهدي بدوام البحث وطول الفكر أدنى فِراسة رأيك، وبعضَ لحظات نظرك؛ وليس ينفضّ عنك من بيوتات العرب ورجالات العجم، ذو دين فاضل ورأي كامل، وتدبير قويّ، تُقلّده حربك، وتستودعه جندك، ممن يحتمل الأمانة العظيمة، ويضطلع بالأعباء الثقيلة. وأنت بحمد الله ميمون النقيبة، سبارك العزيمة، مخبور التجارب، محمود العواقب، معصوم العزم؛ فليس يقع آختيارُك ولا يقف نظرك على أحد تولّيه أمرك وتُسند إليه ثَغرَك إلا أراك الله ما تُحب، وجمع لك منه ما تريد.

قال المهدي: إني لأرجو ذلك. لقديم عادة الله فيه، وحسن معونته عليه. ولكن أُحب الموافقة على الرأي، والآعتبار للمشاورة في الأمر المهم.

قال محمد بن الليث: أهلُ خراسان ـ أيها المهدي ـ قوم ذوو عزة ومَنَعة، وشياطينُ خَدَعَة زُرع الحميةِ فيهم نابتة، وملابسُ الأنفة عليهم ظاهرة، فالرَّويَّة عنهم عازبة[1]، والعجلة فيهم حاضرة، تسبق سيولهم مطرّهم، وسيوفُهم عَذَلَهم، لأنهم بين سِفْلَة لا يعدو مبلغُ عقولهم منظرَ عيونهم، وبين رؤساء لا يُلْجمون إلا بشدّة ولا يُفْطمون إلا بالقهر؛ وإن ولّى المهدي عليهم وضيعالم تَنْقَد له العظماء، وإن ولّى أمْرَهم شريفا تحامل على الضعفاء. وإن أخَّر المهديّ أمرَهم ودافَعَ حَرْبَهم حتى يُصيب لنفسه من حشمه ومواليه، أو بني عمه أو بني أبيه، ناصحاً يتفق عليه أمرهم، وثقةً تجتمع له أملاؤهم[2]، بلا أنفة تَلزمهم، ولا حميّة تَدْخلهم، ولا عَصبية تُنفّرهم، تنفست الأيام بهم، وتراخت الحالُ بأمرهم، فدخل بذلك من الفساد الكبر والضياع العظيم ما لا يتلافاه صاحبُ هذه الصفة وإن جدّ ولا يَستَصلِحُه وإن جَهَد، إلا بعد دهر طويل، وشر كبير. وليس المهدي ـ وفقه الله ـ فاطماً عاداتهم ولا قارعاً صَفَاتَهم[3] بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما، ولا عِدْلَ في ذلك بهما: أحدهما لسان ناطق موصول بسَمعك،

---

(١) عازبة: مبتعدة ومفارقة وغائبة.

(٢) أملاؤهم: جماعاتهم، الواحد ملأ.

(٣) صفاتهم: صخورهم، والصفاة: الصخرة الملساء.

ويدٌ ممثّلة لعينك، وصخرة لا تُزَعْزَع، وبُهْمَة[1] لا ينثني، وبازِلٌ لا يُفزِعه صوتُ الجُلجل[2]، نقيّ العِرض، نزيه النفس، جليل الخطر، قد اتضعت الدنيا عن قدره، وسما نحو الآخرة بهمّته، فجعل الغرضَ الأقصى لعينه نُصْباً، والغرض الأدنى لقدَمه موطئاً، فليس يُغفل عملاً، ولا يتعدّى أملاً وهو رأس مواليك، وأنصحُ بني أبيك رجلٌ قد غُذِّي بلطيف كرامتك، ونَبت في ظل دولتك ونشأ على قويم أدبك؛ فإن قلدته أمرهم، وحمّلته ثِقلهم، وأسندت إليه ثغرهم: كان قُفْلاً فَتحه أمْرُك، وباباً أغْلَقَهُ نهْيك، فجعل العدل عليه وعليهم أميراً، والإنصافَ بينه وبينهم حاكماً. وإذا حكَم النصفة وسلَك المَعدلة فأعطاهم مالهم وأخذ منهم ما عليهم، غرس لك في الذي بين صدورهم، وأسكن لك في السُّويداء داخل قلوبهم طاعةً راسخَةَ العروق، باسقة الفروع، مُتمثّلة في حواشي عوامِّهم، متمكنّة من قلوب خواصهم، فلا يبقى فيهم ريب إلا نَفَوْه، ولا يلزمهم حق إلا أَدَّوْه، وهذا أحدهما.

والآخر عُود من غَيْضتك، ونَبعة[3] من أرومتك، فتيّ السنّ، كهل الحلم، راجح العقل، محمود الصّرامة، مأمون الخلاف، يُجرِّد فيهم سيفَه، ويبسط عليهم خيرَه بقدر ما يستحقون، وعلى حسب ما يستوجبون، وهو فلان أيها المهدي، فسلِّطه ـ أعزك الله ـ عليهم، ووجِّهه بالجيوش إليهم، ولا تمنعك ضراعة سنّه[4] وحداثة مولده؛ فإن الحلم والثقة مع الحداثة خيرٌ من الشك والجهل مع الكُهولة؛ وإنما أحداثكم أهل البيت فيما طَبعكم الله عليه وآختصّكم به من مكارم الأخلاق، ومحَامد الفِعال، ومحاسن الأمور، وصواب التدبير، وصَرامة الأنفس، كفراخ عِتاقِ الطير[5] المُحْكِمةِ لأخذ الصيد بلا تدريب، والعارفة لوجوه النفع بلا تأديب؛ فالحلم والعلم والعزم والحزم

---

(١) البُهمة: الصخرة الصلبة.

(٢) البازل: الجمل في السنة التاسعة ويطلق على الرجل الكامل في تجربته. والجلجل: واحدة الجلاجل تعلّق على الدابة.

(٣) نبعة من أرومتك: أصلٌ من أصولك.

(٤) ضراعة سنّه: حداثته وشبابه. (٥) عتاق الطير: كرامها.

والجود والتؤدة والرفق ثابت في صدوركم، مَرْروع في قلوبكم، مستحكم لكم، متكامل عندكم، بطبائع لازمة، وغرائز ثابتة.

قال معاوية بن عبد الله: أفتاءُ[1] أهلِ بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذُكر، وأهلُ خراسان في حال عِزٍّ على ما وصف. ولكنْ إن ولّى المهديُّ عليهم رجلاً ليس بقديم الذّكر في الجنود، ولا بنَبيه الصوت في الحروب، ولا بطويل التجربة للأمور، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة في الأعداء، دخل من ذلك أمران عظيمان، وخَطران مَهولان: أحدهما أن الأعداء يغتمزونها منه، ويحتقرونها فيه، ويجترءون بها عليه في النُّهوض به والمُقارعة له والخلاف عليه، قبل الآختبار لأمره، والتكشُّفِ لحاله، والعِلْم بطباعه. والأمر الآخر أن الجنود التي يقول، والجيوش التي يسوس، إذا لم يختبروا منه البأسَ والنجدة، ولم يعرفوه بالصَّوت والهيبة؛ انكسرت شجاعتُهم، وماتت نجدتهم، واستأخرت طاعتهم إلى حين آختبارهم ووقوع معرفتهم. وربما وقع البَوار قبل الآختبار. وبباب المهدي ـ وفقه الله ـ رجلٌ مَهيب نبيهٌ حَيكٌ صَيِّتٌ[2]، له نسب زاكٍ وصوتٌ عال، قد قاد الجيوش، وساس الحروب، وتألف أهلَ خُراسان وآجتمعوا عليه بالمِقَة[3]، ووَثِقوا به كل الثِّقة، فلو ولاّه المهدي أمرَهم لكفاه الله شرهم.

قال المهدي: جانبتَ قصد الرَّمِيَّة، وأبيتَ إلا عَصبية، إذ رأيُ الحَدَثِ من أهل بيتنا كرأي عشرة حُلماء من غيرنا، ولكن أين تركتم ولي العهد؟

قالوا: لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيهَ جدِّه، ونسيجَ وحده، ومن الدين وأهله بحيث يقصُر القول عن أدنى فضله، ولكن وجدنا الله عز وجل قد حَجَب عن خَلْقه، وستَر من دون عِباده، عِلْم ما تختلف به الأيام، ومعرفةَ ما تجري به المقادير، من حوادث الأمور وريب المنون، المخترِمَةِ لخوالي القرون ومواضي الملوك؛ فكرْهنا

---

(١) أفتاء: جمع فتي. (٢) صيّت: معروف ومشهور.

(٣) المقة: المحبّة.

شُسُوعه[1] عن محلةِ المُلْك، ودار السلطان، ومقرّ الإمامة والولاية، وموضع المدائن والخزائن، ومُستقرّ الجنود، وموضع الوُجوه، ومجمع الأموال التي جعلها الله قُطباً لمدار الملك، ومِصْيَدَةً لقلوب الناس، ومَثابة لإخوان الطمع، وثُوّار الفِتَن، ودواعي البِدَع، وفرسان الضلال، وأبناء المُروق؛ وقلنا: إن وجّه المهدي وليّ عهْدِه فحدَثَ في جيوشه وجنودِه ما قد حدث بجنود الرسل من قبله، لم يستطع المهدي أن يُعْقِبه بغيره، إلا أن ينهض إليهم بنفسه؛ وهذا خطر عظيم، وهَوْل شديد؛ وإن تنفّست الأيام بمَقامه، واستدامت الحال بأيامه، حتى يقع عَرَض لا يستغني فيه، أو يحدث أمرٌ لا بد فيه منه، صار ما بعده مما هو أعظمُ هَوْلاً وأجل خطراً. له تَبَعاً وبه مُتَّصلاً.

قال المهدي: الخطبُ أيسر مما تذهبون إليه؛ وعلى غير ما تصفون الأمر عليه، نحن أهلَ البيت. نجري من أسباب القضايا ومواقع الأمور على سابقٍ من العلم، ومحتوم من الأمر، قد أنبأت به الكُتب، وتتابعت عليه الرسل، وقد تناهى ذلك بأجمعه إلينا، وتكامل بحذافيره[2] عندنا، فبِهِ نُدبِّر، وعلى الله نتوكل: إنه لا بدّ لوليّ عهدي ـ ووليِّ عهدي عقبي بعدي ـ أن يقود إلى خُراسان البعوث، ويتوجّه نحوها بالجنود.

أما الأول فإنه يُقدِّم إليهم رُسُله، ويُعْمِل فيهم حِيَله، ثم يخرج نَشِطاً إليهم، حَنِقاً عليهم، يريد ألاّ يدع أحداً من إخوان الفتن، ودواعي البِدَع، وفُرسان الضلال، إلا توطّأه بحرِّ القتل، وألبسه قناع القهر، وطوّقَه طوقَ الذُّل. ولا أحداً من الذين عملوا في قَصّ جناح الفتنة، وإخماد نار البدعة، ونصرةُ ولاة الحق، إلا أجرى عليهم دِيَمَ فضلِهِ، وجداولَ بَذْله، فإذا خرج مُزْمعاً به مُجمعاً عليه؛ لم يَسِرِ إلا قليلاً حتى يأتيه أنْ قد عَمِلتْ حِيَله؛ وكدحت كتُبه؛ ونفذت مكايده؛ فهدأت نافرةُ القلوب، ووقعت طائرة الأهواء[3]، واجتمع عليه المختلفون بالرضا؛ فيميل نظراً لهم وبرّاً بهم وتعطّفاً عليهم، إلى عدُوّ قد أخاف سبيلهم، وقطع طريقهم، ومنع حُجّاجَهم بيتَ الله

(١) شسوعهُ: بعدهُ. (٢) حذافيره: نواحيه وجوانبه.

(٣) وقعت طائرة الأهواء: خمد غضبها وسكنت ثائرتها.

الحرام، وسَلب تجارَهم رزقَ الله الحلال.

وأما الآخر فإنه يوجه إليهم من يعتقد له الحجة عليهم بإعطاء ما يطلبون، وبَذْلِ ما يَسْألون، فإذا سمحت الفِرَق بقرانها له، وجَنَحَ أهلُ النواحي بأعناقهم نحوه، فأصغت إليه الأفئدة، واجتمعت له الكلمة، وقدِمَت عليه الوفود، قصد لأول ناحية بخعت[1] بطاعتها، وألقت بأزمتها، فألبسها جَناحَ نعمته، وأنزلها ظلّ كرامته، وخصّها بعظيم حِبائه، ثم عمّ الجماعة بالمعْدَلة؛ وتعطّف عليهم بالرحمة، فلا تبقى فيهم ناحية دانية، ولا فِرقة قاصية، إلا دخلت عليها بركتُه، ووصلت إليها منفعته، فأغنى فقيرَها، وجَبرَ كسيرها، ورفع وَضيعها، وزاد رفِيعَها، ما خلا ناحيتين: ناحيةً يغلب عليهم الشقاء وتستميلهم الأهواء فتستخف بدعوته، وتُبطيء عن إجابته، وتتثاقل عن حقه، فتكون آخرَ مَن يَبعث، وأبطأ من يُوَجَّه، فيضطمر عليها موجده،[2] ويبتغي لها علة، لا يلبث أن يجدها بحقٍّ يلزمهم؛ وأمرٍ يجب عليهم، فتستلحمهم الجيوش، وتأكلهم السيوف، ويستحرُّفيهم القتل، ويحيط بهم الأسْر، ويُفنيهم التتبُّع، حتى يُخرب البلاد، ويُؤتِم الأولاد. وناحيةً لا يبسط لهم أماناً، ولا يقبل لهم عهداً، ولا يجعل لهم ذمة؛ لأنهم أول من فتح باب الفرقة، وتدرّع جِلباب الفِتنة، ورَبض[3] في شقِّ العصا. ولكنه يقتل أعلامَهم، ويأسر قوّادهم، ويطلب هُرَّابهم في لُجَجِ البحار، وقُلل الجبال، وخَمر الأودية، وبطون الأرض، تقتيلاً وتغليلاً وتَنكيلاً؛ حتى يَدع الدِّيار خراباً، والنِّساء أيامى. وهذا أمر لا نَعرف له في كُتبنا وقتاً، ولا نصحّح منه غير ما قلنا تفسيراً.

وأما موسى ولي عهدي، فهذا أوان توجّهه إلى خراسان، وحُلوله بجُرْجان؛ وما قضى الله له من الشخوص[4] إليها والمُقام فيها، خيرٌ للمسلمين مَغَبّةً، وله بإذن الله عاقبة، من المقام بحيث يُغْمَر في لُجج بُحورنا ومدافع سيولِنا ومجامع أمواجنا،

---

(١) بخعت: أقرّت. (٢) الموجدة: الغضب.

(٣) ربض: أقام على المعصية واصرّ.

(٤) الشخوص: التوجه والذهاب بنفسه.

فيتصاغر عظيمُ فضلِه، ويتذأب[1] مشرقُ نُوره، ويُتقلل كثير ما هو كائنٌ منـه فمـن يَصحبُه من الوزراء ومن يُخْتارُ له من الناس؟

قال محمد بن الليث: أيها المهدي، إن وليّ عهدِك أصبح لأُمتك وأهل ملتك عَلَماً قد تثنّت نحوه أعناقُها، ومُدّتْ سَمْتَه أبصارُها، وقد كان لقرب داره منك، ومحلّ جواره لك، عُطُل الحال، غُفْلِ الأمر، واسع العذر، فأما إذا انفرد بنفسه، وخلا بنظره، وصار إلى تدبيره، فإن من شأن العامة وأمراء الأمة أن تتفقد مخارج رأيه، وتستنْصِتَ لمواقع آثاره، وتسألَ عن حوادث أحواله، في برِّه ومَرْحَمَتِه، وإقساطه ومَعدلته، وتدبيره وسياسته، ووزرائه وأصحابـه، ثم يكـون مـا سيـق إليهـم أغلـبَ الأشياءِ عليهم، وأملكَ الأمور بهم، وألزمها لقلوبهم، وأشدَّها استمالة لرأيهم، وعطفـاً لأهوائهم. فلا يفتأ المهدي ـ وفقه الله ـ ناظراً له فيما يُقَوِّي عَمَد مملكتِه، ويسدّد أركان ولايته، ويستجمع رضا أُمته، بأمر هو أزْين لحاله، وأظهر لجماله، وأفضلُ مَغَبَّةً لأمره، وأجلُّ موقعاً في قلوب رعيته، وأحمدُ حالاً في نفوس أهل مِلّته. ولا أوقع مع ذلك بآستجماع الأهواء له؛ وأبلغ في استعطاف القلوب عليه، من مَرْحَمَةٍ تَظْهر من فعله، ومَعْدلة تنتشر عن أثره، ومحبةٍ للخير وأهله، وأن يختار المهديُّ ـ وفقه الله ـ من خيار أهل كل بلدة، وفُقهاء أهلِ كلّ مصر. أقواماً تسكن العامةُ إليهم إذا ذُكروا، وتأنس الرعيةُ بهم إذا وُصفوا، ثم تُسهَّل لهم عمارة سُبُل الإحسان؛ وفَتْح باب المعروف كما قد كان فُتح له وسهل عليه.

قال المهدي: صدقت ونصحتَ. ثم بعث في ابنه موسى؛ فقال: أيْ بُنَيّ، إنك قد أصبحتَ لِسَمْتِ عيون العامة نُصْباً[2]، ولَمثْنَى أعطـافِ الرعيـة غـايـة، فحسنتُـك شاملة، وإساءتك نامية، وأمرُك ظاهر. فعليك بتقوى الله وطاعته، فاحتمل سخط الناس فيهما، ولا تطلب رضاهم بخلافهما؛ فإن الله عزّ وجلّ كافيك مَن أَسْخَطَه عليك إيثارُك رضاه؛ وليس بكافيك منْ يَسْخِطُه عليك إيثارُك رضا مَنْ سِواه.

ثم آعلم أن لله تعالى في كل زمان عتْرة من رسله، وبقايا من صفوة خلقه، وخبايا

---

(١) يتذأب: يضطرب.

(٢) السمت: الطريق، والنصب: الإمام والقدوة وجعله نصب عينيه: أي أمام عينيه مقتدياً به.

لنُصرة حقه، يجدِّد حبل الإسلام بدعواهم ويشيد أركان الدين بنُصرتهم، ويتخذهم لأولياء دينه أنصاراً، وعلى إقامة عدله أعواناً، يَسُدّون الخَلل، ويُقيمون المَيل، ويدفعون عن الأرض الفساد؛ وإنّ أهل خراسان أصبحوا أيديَ دولتِنا، وسيوفَ دعوتِنا الذين نستدفع المكاره بطاعتهم، ونصرف نزول العظائم بُمناصحتهم، وندافع ريبَ الزمان بعزائمهم، ونُزاحم ركنَ الدهرِ ببصائرهم. فهم عمادُ الأرض إذا أُرجفت كُنفُها[1]، وحُتوف الأعداءِ إذا أبرزت صَفحتها، وحصونُ الرعية إذا تضايقت الحال بها؛ قد مضت لهم وقائع صادقات؛ ومواطن صالحات، أخمدت نيرانَ الفتن، وقصمت دواعي البِدع، وأذلّت رقاب الجبّارين، ولم ينفكُّوا كذلك ما جَرَوْا مع ريح دولتنا، وأقاموا في ظلِّ دعوتنا، واعتصموا بحبل طاعتنا التي أعزّ الله بها ذِلّتهم، ورفع بها ضَعَتَهم، وجعلهم بها أرباباً في أقطار الأرضين، ومُلوكاً على رقاب العالمين، بعد لباس الذُّل، وقِناع الخوف وإطباق البلاء، ومُحالفة الأسى، وجَهد البأس والضر. فظاهرْ عليهم لباسَ كرامتك، وأنزلهم في حدائق نعمتك. ثم اعرف لهم حقَّ طاعتهم، ووسيلة دالَّتهم، وماتة[2] سابقتهم، وحرمةَ مُناصحتهم، بالإحسان إليهم، والتوسعة عليهم، والإثابة لمحسنهم، والإقالة لمسيئهم.

أيْ بُنَيّ؛ ثم عليك العامةَ. فاستَدْعِ رضاها بالعدل عليها. واستَجْلِبْ مودَّتها بالإنصاف لها، وتحسّنْ بذلك لربك، وتزيَّن به في عين رعيّتك، واجعل عُمال القَدْر، وولاَة الحُجج، مقدّمةً بين يدي عملك، ونَصَفَةً منك لرعيتك؛ وذلك أن تأمر قاضي كل بلد، وخيارَ أهل كل مصر، أن يختاروا لأنفسهم رجلاً تُولّيه أمرَهم، وتجعل العدلَ حاكماً بينه وبينهم، فإن أحسن حُمدت، وإن أساء عُذرت. هؤلاء عمال القدر؛ وولاة الحُجج. فلا يضيعنّ عليك ما في ذلك ـ إذا انتشر في الآفاق وسبق إلى الأسماع ـ من انعقاد ألسنةِ المُرجفين، وكَبْت قلوب الحاسدين، إطفاء نيران الحروب، وسلامة عواقب الأمور، ولا ينفكنَّ في ظل كرامتك نازلاً، وبعُرَا[3] حبلك متعلّقاً،

(١) الكنف: الجنبات.

(٢) الماتة: الصلة والسبب.

(٣) العُرا: الأواصر والصلات.

رجلان: أحدهما كريمةٌ من كرائم رجالات العرب، وأعلام بيوتات الشرف، له أدب فاضل، وحلم راجح، ودين صحيح. والآخر له دِينٌ غير مغموز، وموضعٌ غير مدخول، بصيرٌ بتقليب الكلام، وتصريف الرأي، وأنحاء الأدب، ووضعِ الكتب، عالم بحالات الحروب، وتصاريف الخطوب، يضع آداباً نافعة، وآثاراً باقية، من تجميل محاسنك، وتحسين أمرك، وتحلية ذكرك. فتستشيره في حربك، وتُدخله في أمرك. فرجُلٌ أصبته كذلك فهو يأوى إلى محلّتي، ويرعى في خُضرة جِناني؛ ولا تدعْ أن تختار لك من فُقهاء البلدان، وخِيَار الأمصار. أقواماً يكونون جيرانَك وسُمارَك، وأهلَ مشاورتك فيما تُورد، وأصحابَ مُناظرتك فيما تُصْدِر. فسِرِ على بركة الله، أَصْحَبَكَ اللهُ من عونه وتوفيقه دليلاً يهدي إلى الصواب قلبك، وهادياً يُنطق بالخير لسانَك.

وكُتب في شهر ربيع الآخرة سنة سبعين ومائة ببغداد[١].

باب في مداراة العدوّ

في كتاب للهند: أن العدو الشديد الذي لا تقوى له لا تردّ بأسه عنك بمثل الخشوع والخُضوع له، كما أنّ الحشيش إنما يسلم من الريح العاصفة بلينه وآنثنائه معها.

وقالوا: ازْفِن[٢] للقرد في دَوْلته.

أخذه الشاعر فقال:

لا تعبـدنْ صنَماً في فـاقـةٍ نـزلـتْ ... وآزفِن بلا حَرَجٍ للقـرد في زمنـهْ

وقال أحمد بن يوسف الكاتب: إذا لم تقدر أن تَعَضَّ يدَ عدوِّك فقبِّلها.

---

(١) كذا في الأصل، والذي يذكره المؤرّخون أن خروج موسى الهادي إلى جرجان كان في سنة ١٦٦هـ وكانت وفاة المهدي في شهر محرّم سنة ١٦٩ بعد الهجرة.

(٢) ازفن: ارقص.

وقال سابق البَلَوِيّ:

وداهِنْ إذا ما خِفْتَ يوماً مُسَلَّطاً عليك، ولَنْ يَحتالَ مَن لا يُدَاهِنُ[1]

وقالت الحكماء: رأسُ العقل مغافصة[2] الفُرصة عند إمكانها. والانصرافُ عما لا سبيل إليه.

وقال الشاعر:

بلاءٌ ليس يشبِهُهُ بَلاءٌ عَداوةُ غيرِ ذي حَسَبٍ ودِينِ
يُبيحُكَ منه عِرْضاً لم يَصُنْهُ ويَرْتَعُ منك في عِرْضٍ مَصُونِ

التحفظ من العدوّ وإن أبدى لك المودّة

قالت الحكماء: احذر الموتور ولا تطمئن إليه، وكُن أشدَّ ما تكون حذراً منه ألطَفَ ما يكون مُدَاخلةً لك؛ فإنما السلامةُ من العدوّ بتباعُدك منه، وانقباضِك عنه. وعند الأُنس إليه والثقة [به] تُمَكّنه من مقاتِلك.

قالوا: لا تطمئنّ إلى العدو وإن أبدى لك المُقاربة، وإن بسط لك وجهه وخَفض[3] لك جناحه؛ فإنه يتربّص بك الدوائر، ويُضمر لك الغوائل ولا يَرتجي صلاحاً إلا في فسادك، ولا رفعةً إلا بسُقوط جاهك.

للاخطل يحذر بني أمية:

كما قال الأخطل:

بنِي أمَيَّة إني ناصحٌ لَكُمُ فلا يَبيتَنَّ فيكم آمِناً زُفَرُ[4]
وأتخِذُوه عَدُوّاً إنّ شاهِدَه وما تَغَيَّبَ من أخْلاقِهِ دَعَرُ[5]

---

(١) داهن: صانع.

(٢) المغافصة: المفاجأة والأخذ على حين غرة.

(٣) خفض جناحه: تودّد وأظهر الدِّعة والتواضع.

(٤) هو زفر بن الحارث بن كلاب الكلابي، أخو بني نفيل بن عمرو بن كلاب. (٥) الوعر: الفساد.

إنّ الضَّغِينة تَلْقاهـا وإن قَـدُمَـتْ   كـالعُـرِّ يكْمُـنُ حِينـاً ثم يَنْتَشِـرُ [1]

وفي كتاب الهند: الحازم يحذر عدوَّه على كل حال: يحذر المُواثبة إن قَرُب والمعاودة إن بَعُد، والكمين إن انكشف، والاستطرادَ إن ولّى، والكرَّة إن فرّ.

وأوصى بعضُ الحكماء ملكاً فقال: لا يكونَنَّ العدوَّ الذي كشف لك عن عداوته بأخوفَ عندك من الظنين الذي يستتر لك بمخاتلته، فإنه ربما تخوَّف الرجلُ السُّمَّ الذي هو أقتل الأشياء، وقَتَله الماءُ الذي هو محيي الأشياء؛ وربما تخوَّفَ أن تقتله الملوك التي تَملكه، ثم تقتله العبيد التي يملكها.

ولم يقل أحد في العدوّ المُندمل [2] على العداوة مثلَ قول الأخطل:

إنّ الضغِينةَ تلقـاهـا وإن قَـدُمَـتْ   كـالعـرِّ يكمُـن حينـاً ثمَ يَنتشرُ

وقد أشار الحسنُ بن هانيء إلى هذا المعنى فأجاده حيث يقول:

وابْـنُ عَـمٍّ لا يُكـاشِفُنـا   قـد لَبِسنـاهُ على غَمـرِهْ [3]
كَمَـنَ الشنْـآنُ فيـه لنـا   كَكُمونِ النـار في حَجَـرِهْ [4]

وشبهوا العدوَّ إذا كان هذا فعلَه بالحية المُطرقة. قال ابنُ أخت تأبّط شرّاً: [5]

مُطْـرِقٌ يَـرْشَـحُ مَـوْتـاً كما   أَطْـرق أفعـى يَنفـث السّم صـلّ

بين معاوية وابن الزبير:

وقال عبد الله بن الزُّبير لمعاوية ـ ويقال معاوية قالها لعبد الله بن الزبير ـ: مالي أراك تُطرق إطراق الأفعوان في أُصول الشجر.

وفي كتاب الهند: إذا أحدث لك العدوُّ صداقة لعلة ألجأته إليك، فمع ذهاب

---

(١) العرّ: الجرب.

(٢) المندمل: المستتر، أو الذي يجعل العداوة في اعماقه مختبئة. (٣) الغمر: الحقد.

(٤) الشنآن: البغض، وفي حجره: يريد حجر القادح.

(٥) الرشح: العرق، والنفث: كالقذف. والصل: من صفة الأفعى، وكل خبيث يقال له: صَلَّ أصلاً.

العلّة رجوعُ العداوة، كالماء تُسخِّنه فإذا أمسكت عنه عاد إلى أصله بارداً والشجرةُ المُرّةُ لو طليتَها بالعسل لم تُثمر إلا مُرّاً.

وقال دريد:

وما تَخْفَى الضغِينة حيثُ كانتْ ولا النَّظرُ المريض من الصحيحِ

وقال زهير:

وما يَكُ في صديقٍ أو عَدُوٍّ تُخَبِّرْكَ العيونُ عنِ القلوبِ

وقيل لزياد: ما السرور؟ قال: من طال عمره حتى يرى في عدوه ما يسرّه.

باب من أخبار الأزارقة

كان أول من خرج من الخوارج بعد قتل عليّ رضي الله عنه، حَوْثرة الأقطع؛ فإنه خرج إلى النُّخَيْلة وآجتمع إليه جماعة من الخوارج، ومعاويةُ بالكوفة، وقد بايعه الحسن والحُسين وقيس بن سعد بن عُبادة؛ ثم خرج الحسن يريد المدينة؛ فوجه إليه معاوية وقد تجاوز في طريقه، يسأله أن يكون المتولِّيَ لمحاربتهم. فقال الحسن عليه السلام: والله لقد كففتُ عنك لحقن دماء المسلمين، و ما أحسب ذلك يسعني؛ فكيف أن أقاتل قوماً أنت أولَى بالقتال منهم؟ فلما رجع الجواب إليه وجّه إليهم جيشاً أكثرُه من أهلِ الكوفة، ثم قال لأبي حوثرة. تقدّمْ فاكفني أمرَ آبنك. فسار إليه أبوه، فدعاه إلى الرجوع، فأبى، فداوره فصمّم. فقال له: أيْ بنيّ، أجيئك بابنك لعلّك تراه فتحنّ إليه! فقال له: يا أبتِ، أنا والله إلى طَعنة نافذةٍ أتقلّب فيها على كعوب الرمح أشْوَقُ مني إلى آبني. فرجع إلى معاوية فأخبره، فقال: يا أبا حوثرة، جارَ هذا جداً. فلما نظر حوثرة إلى أهل الكوفة قال: يا أعداء الله! أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتَهُدُّوا سلطانه. واليوم تقاتلون معه لتشدّوا سلطانه؟ ثم جعل يَشُدّ عليهم ويقول:

احملْ على هذِي الجموعِ حَوْثَرَة فَعَنْ قَريبٍ سَتَنالُ المَغْفِرَة

فحمل عليه رجل من طيء فقتله، فرأي أثر السجود قد لوّح جبهته، فندم على قتله:

مرداس ومقتله:

وكان مرداس أبو بلال قد شهد صِفِّين مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأنكر التحكيم، وشهد النَّهروان ونجا فيمن نجا. فلما خرج من حبس ابن زياد ورأى شدّة الطلب للشُّراة[1]، عزم على الخروج، فقال لأصحابه: إنه والله ما يسعُنا المُقام مع هؤلاء الظالمين، تجري علينا أحكامُهم، مُجانبين للعدل مُفارقين للفضْل. والله إن الصبر على هذا لعظيم، وإنّ تجريد السيف وإخافة السبيل لشديد؛ ولكنا ننتبذ[2] عنهم ولا نجرّد سيفَنا ولا نُقاتل إلا من قاتَلَنا. فاجتمع إليه أصحابه زُهاء ثلاثين رجلاً، منهم: حُرَيث بن حَجْل وكَهْمس بن طلق الصَّريمي، فأرادوا أن يولّوا أمرهم حُرَيثا فأبى، فولوا أمرَهم مِرداسا، فلما مضى بأصحابه لقيهم عبدُ الله بن ربَاح الأنصاري، وكان له صديقاً؛ فقال له: يا بن أخي، أين تريد؟ فقال: أريد أهرُب بديني ودين أصحابي من أحكام هؤلاء الجَوْرَة. قال له: أعَلِمَ أحدٌ بكم؟ قال: لا. قال: فارجع. قال: أو تخاف عليّ مكروهاً؟ قال: نعم، وأن يُؤتَى بك. قال: فلا تخف. فإني لا أجرد سيفاً ولا أُخيف أحداً ولا أُقاتل إلا من قاتلني.

ثم مضى حتى نزل آسَك؛ فمرّ به مال يُحْمَل إلى آبن زياد وقد بلغ أصحابُه الأربعين، فحطّ ذلك المالَ فأخذ منه عطاءه وأعْطِياتِ أصحابه وترك ما بقي، وقال: قُولوا لصاحبكم إنما أخذنا أعْطِياتِنا. فقال له أصحابه: لماذا تترك الباقي؟ قال: إنهم يقسمون هذا الفيء كما يُقيمون الصلاة، فلا تُقاتلوهم ما داموا على الصلاة.

فوجّه إليهم ابنُ زياد أسلمَ بن زُرْعة الكِلابيّ في ألفين، فلما وصل إليهم، قال له مرداس: اتق الله يا أسلم، فإنا لا نُريد قتالاً ولا نُروِّع أحداً؛ وإنما هربنا من الظُّلم،

---

(١) الشراة: الذين اشتروا الآخر بحياتهم.

(٢) ننتبذ: نبتعد ونعتزل.

ولا نأخذ من الفيء إلا أعطياتنا، ولا نُقاتل إلا مَن قاتلَنا. قال: لا بد من ردّكم إلى ٱبن زياد. قال: وإن أراد قَتْلَنا؟ قال: وإن أراد قتلكم. قال: فَتشْرَكُ في دمائنا؟ قال: نعم. فشدّوا عليه شدّة رجل واحد فهزموه وقتلوا أصحابه.

ثم وجه إليهم ابنُ زياد عبّاداً، فقاتلهم يوم الجمعة حتى كان وقت الصلاة، فناداهم أبو بلال: يا قوم، هذا وقت الصلاة فوادِعُونا حتى نصلّي [وتُصلّوا[1]]. فوادَعُوهم؛ فلما دخلوا في الصلاة شدُّوا عليهم فقتلوهم، وهم بين راكع وساجد وقائم في الصلاة وقاعد. فقال عِمران بن حِطّان يرثي أبا بلال:

يا عينُ بَكّي لِمِرْداسٍ ومَصرَعِهِ ... يا ربَّ مرادسٍ ٱجعْلني كمرداس
أبقَيْتِني هائماً أبكي لمرزئتي ... في منْزِلٍ مُوحشٍ من بعد إيناس[2]
أنكرتُ بَعْدَك ما قد كنتُ أعْرِفه ... ما الناسُ بعدك يا مرداسُ بالناسِ
إمّا شَرِبْتَ بكأس دارَ أوّلَها ... على القُرون فذاقوا جَرْعَة الكاسِ
فكلُّ من لم يَذُقْها شاربٌ عَجِلاً ... منها بأنفاسِ وِردٍ بَعْدَ أَنفاسِ

وليس في الفرَق كلها وأهل البدع أشد بصائر من الخوارج، ولا أكثر اجتهاداً، ولا أوطن[3] أنفساً على الموت؛ منهم الذي طُعن فأنفذه الرمح فجعل يسعى إلى قاتله ويقول: عَجلت إليك ربِّ لترضى.

ولما مالت الخوارج إلى أصبهان حاصرتْ بها عَتّابَ بنَ وَرْقاءَ سبعةَ أشهر يقاتلهم في كل يوم وكان مع عتّاب بن ورقاء رجل يقال له: شريح. ويكنى أبا هريرة، فكان يخرج إليهم في يوم فيناديهم:

يا بنَ أبي الماحوز والأشرارِ ... كيف ترونَ يا كِلابَ النارِ[4]
شَدَّ أبي هريرَةَ الهرّارِ ... يَعْروكم بالليلِ والنَّهارِ
وهو مِنَ الرَّحْمٰنِ في جوَارِ

---

(١) زيادة من الكامل للمبرّد.

(٢) المرزئة: المصيبة. (٣) أوطن: أكثر تصمياً.

(٤) الماحوز: يريد الزبير بن علي بن الماحوز وكان على الخوارج.

فتعاظمهم ذلك. فكَمن له عبيدة بن هلال فضربه، واحتمله أصحابُه، فظنّت الخوارج أنه قد قُتل، فكانوا إذا تواقَفوا ينادونهم: ما فعل الهرار؟ فيقولون: ما به من بأس. حتى أبَلّ[1] من عِلّته، فخرج إليهم فقال: يا أعداء الله! أتَرَوْن بي بأساً؟ فصاحوا: قد كنا نرى أنك لحقت بأُمك الهاوية في النار الحامية.

فلما طال الحصار على عتّاب، قال لأصحابه: ما تنتظرون؟ إنكم والله ما تُؤْتَوْنَ من قلّة؛ وإنكم فُرسان عشائركم؛ ولقد حاربتموهم مراراً فانتصفتم منهم؛ وما بقي من هذا الحصار إلا أن تَفْنى ذخائرُهم فيموتَ أحدُكم فيدفنَه صاحبُه، ثم يموت هو فلا يجد مَن يدفنه! فقاتِلوا القومَ وبكم قُوة، من قبل أن يضعف أحدُكم عن أن يمشي إلى قِرْنه.

فلما أصبح صلى بهم الصبح، ثم خرج إلى الخوارج وهم غارُّون، وقد نصب لواءً لجارية يقال لها ياسَمين، فقال: من أراد البقاء فليلحق بلواء ياسَمين! ومن أراد الجِهاد فلْيَلْحَقْ بلوائي. قال: فخرج في ألفين وسبعمائة فارس، فلم تشعُر بهم الخوارج حتى غَشوهم. فقاتلوهم بجِدٍ لم ترَ الخوارج مثلَه، فقتلوا أميرَهم الزبيرَ بن عليّ، وآنهزمت الخوارج، فلم يتبعهم عتّاب بن ورقاء.

وخرج قُرَيْبُ بنُ مرة الأزدي وزَحّاف الطائي؛ وكانا مُجتهدين بالبصرة في أيام زياد فاعترضا الناسَ، فلقيا شيخاً ناسكاً من بني ضُبيعة بن ربيعة بن نزار فقتلاه، وتنادى الناس، فخرج رجل من بني قُطَيعة من الأزد بالسيف، فناداه الناس من بعض البيوت: الحروريةَ الحروريةَ! انجُ بنفسك. فنادوه: لسْنا حرُورِيّةً نحن الشُّرَط. فوقف فقتلوه.

وبلغ أبا بلال خبرُهما، وكان على دين الخوارج إلا أنه كان لا يرى اعتراضَ الناس، فقال: قُريبٌ، لا قرّبه الله من الخير، وزحّافٌ، لاعفا الله عنه، فلقد ركبَاها عشواءَ مُظلمة[2].

---

(١) أبلّ: شفي.

(٢) يريد اعتراضهما الناس، والعشواء. المظلمة: الناقة العمياء التي تتخبّط في سيرها.

ثم جعلا لا يَمُرّان بقبيلة إلا قتلا مَنْ وجَدا فيها، حتى مرّا ببني عليّ بن سُود، من الأزد، وكانوا رُماةً، وكان فيهم مائة يُجيدون الرمي، فرموهم رمياً شديداً، فصاحوا: يا بني عليّ، البُقْيَا، لارِماء بيننا. فقال رجل منهم:

لا شيء للقوم سوى السهام مشحوذةً في غلس الظلامِ

فهربت عنهم الخوارج؛ فاشتقُّوا مقبُرة بني يَشْكُو حتى خرجوا إلى مُزَيْنة، واستقبلهم الناس فقُتلوا عن آخرهم.

زياد والخوارج:

ثم عاد الناس إلى زياد، فقال: ألا يَنْهَى كلُّ قوم سفهاءهم؟ فكانت القبائل إذا أحست بخارجي فبهمْ أوثقوه وأتوا به زياداً، فمنهم من يَحبسه ومنهم من يقتله.

ولزيادٍ أخرى في الخوارج: أنه أُتي بامرأة منهم، فقتلها ثم عرّاها، فلم تَخْرج النساء إلا بعد زياد، وكنّ إذا أُرْغِمْن على الخروج قلن: لولا التَّعرية لسارعْنا.

ومن مشاهير فرسان الخوارج: عمرو القَنَا، من بني سعد بن زيد مناة؛ وعَبيدة بن هلال، من بني يشكر بن بكر بن وائل، وهو الذي طَعن صاحب المهلّب في فخذه؛ فشكَّها مع السرج؛ وهما اللذان يقول فيهما ابن المُنجِب السدوسي من فُرسان المهلَّب، وكان قال له مولاه خِلاج: وددت أنّا فَضضنا عسكرهم حتى أصير إلى مستقرّهم فأستلبَ منه جاريتين، إحداهما لك والأخرى لي:

أخلاجُ إنك لن تُعانِقَ طَفْلةً شَرقاً بها الجادِيُّ كالتِّمثال[1]
حتى تُعَانِقَ في الكتيبةِ مُعلِماً عَمْرَو القَنَا وعَبيدةَ بنَ هِلال[2]
وترى المُقَعْطَر في الكَتيبة مُقْدِماً في عُصْبةٍ قَسَطُوا مع الضُّلَّال[3]

---

(١) الطفلة: الناعمة، والجاديّ: الزعفران نسبة إلى جادية، قرية من عمل البلقاء من أرض الشام.

(٢) المعلم: المعروف المشهور.

(٣) المقعطر: من عبد القس، وقسطوا: جاروا.

والمُقَعْطَر: من مشاهير فرسانهم، وقَطريّ، أنجدهُم قاطبة؛ وصالح بن مِخراق، من بُهَمهم، وكذلك سعد الطلائع.

للمهلب في نفر من الخوارج:

ولما اختلف أمرُ الخوارج وانحاز قَطَرِيٌّ فيمن معه وبقي عبدُ ربّه، قال المهلّب لأصحابه: إن الله تعالى قد أراحكم من أقرانٍ أربعة: قطريّ بن الفُجاءة، وصالح بن مِخراق، وعَبيدة بن هلال، وسعد الطلائع؛ وإنما بين أيديكم عبدُ ربه في خُشَار[1] من خُشار الشيطان.

تعطش الخوارج إلى القتال:

وكانت الخوارج تُقاتل على السوط يؤخذ منها والعِلق الخسيس[2] أشدَّ قتال، وسقط في بعض أيامهم رُمح لرجل من مُرَاد من الخوارج، فقاتلوا عليه حتى كثر الجراحُ والقتل، وذلك مع المغرب، والمُرادي يرتجز:

اَللَّيلُ ليلٌ فيهِ وَيْلٌ ويلُ   وسالَ بالقومِ الشُّراةِ السَّيْلُ
إنْ جازَ للأعداء فينا قَوْلُ

وتفرقت مقالة الخوارج على أربعة أضرب: فقال نافعُ بن الأزرق: بآستعراض الناس والبراءة من عثمان وعليّ وطلحة والزبير، واستحلال الأمانة وقتلِ الأطفال.

وقال أبو بَيْهَس هَيصم بن جابر الضُّبَعِيّ: إن أعداءنا كأعداء الرسول ﷺ: يحلّ لنا المُقام فيهم كما أقام رسولُ الله ﷺ وأقام المسلمون بين المشركين. وأقول: إن مناكحتهم ومواريثهم تجوز، لأنهم منافقون يظهرون الإسلام وإن حكمهم عند الله حكم المشركين.

وقال عبد الله بن إباض: لا نقول فيمن خالفنا إنه مُشرك، لأن معهم التوحيدَ

(١) خشار: يريد سفلة الناس وأرذالهم.
(٢) العلق الخسيس: الجراب أو السيف أو الترس.

والإقرارَ بالكتاب والرسول، وإنما هم كُفَّارٌ للنِّعم، ومواريثُهم ومناكِحُهم والإقامة معهم: حِلٌّ، ودعوةُ الإسلام تجمعهم.

وقالت الصُّفْريّة بقول عبد الله بن إباض، ورأت القعودَ، حتى صار عامتهم قَعَداً، وإنما سُمّوا صُفْرِيةً لاَصفرار وجوههم، وقيل: لأنهم أصحاب ابن الصَّفَّار.

كتاب الزبرجدة
في الأجواد والأصفاد

فرش كتاب الزبرجدة

قال الفقيه أبو عمر أحمدُ بن محمد بن عبد ربه، تغمده الله برحمته: قد مضى قولنا في الحروب وما يدخلها من النقص والكمال، وتقدُّم الرجال، على منازلهم من الصبر والجلد، والعُدّة والعَدد.

ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الأجواد والأصفاد، إذ كان أشرفُ ملابس الدنيا وأزينُ حللها وأجلَبُها لحمد، وأدفعها لذَمّ، وأسترها لعيب: كرمَ طبيعة يتحلى بها السمحُ السريّ، والجواد السخي. ولو لم يكن في الكرم إلا أنه صفة من صفات الله تعالى، تَسَمَّى بها، فهو الكريم عز وجل. ومن كان كريماً من خَلْقِهِ، فقد تسمَّى باسمه، واحتذى على صفته.

وقال النبي ﷺ: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه».

وفي الحديث المأثور: «الخَلق عِيال الله، فأحَبُّ الخلق إلى الله أنفعهم لعياله».

وقال الحسن والحسين عليهما السلام لعبد الله بن جَعفر: إنك قد أسرفتَ في بذل المال. قال: بأبي وأُمي أنتما، إنّ الله قد عوّدني أن يتفضّل عليّ، وعوّدته أن أتفضل على عباده، فأخاف أن أقطعَ العادة فيقطعَ عني.

وقال المأمون لمحمد بن عبّاد المهلّبي: أنت مِتْلاف[1]! قال: مَنْعُ الجودِ سوءُ ظَنٍّ

(١) المتلاف: الكثير الإنفاق، المبذِّر.

بالمعبود. يقول الله عز وجل: ﴿وما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فهو يُخْلِفُهُ وهُوَ خَيْرُ الرّازِقينَ﴾[1] .

وقال النبي ﷺ: « أنفِقْ بلالا ولا تخشَ من ذي العرش إقلالا » .

مدح الكرم وذمّ البخل

قال النبي ﷺ: « اصطناع المعروف يَقي مصارع السوء » .

وقال عليه الصلاة والسلام: « إن الله يُحب الجُود ومكارم الأخلاق ويُبغض سَفْسافَها[2] » .

وقال النبي ﷺ لقوم من العرب: « من سيِّدُكم؟ قالوا الجدُّ بن قيس على بُخل فيه. فقال ﷺ: وأي داء أدْوَأ من البخل » .

وقال الله تعالى: ﴿ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾[3] .

وقال أكثم بن صيفيّ حكيم العرب: ذلّلوا أخلاقَكم للمطالب، وقُودوها إلى المحامد، وعلّموها المكارم، ولا تُقيموا على خُلق تَذُمُّونه من غيركم، وصِلُوا من رَغب إليكم، وتحلّوا بالجُود يَكْسبكم المحبة، ولا تعتقدوا البخل فتتعجلوا الفقر.

أخذه الشاعر فقال:

أَمِنْ خَوْفِ فَقْرٍ تعَجَّلته ... وأَخَّرْت إنفاق ما تَجْمَعُ
فصِرْتَ الفقيرَ وأنتَ الغنيُّ ... وما كنتَ تَعْدو الذي تصْنَع

سخي وبخيل:

وكتب رجل من البخلاء إلى رجل من الأسخياء يأمره بالإبقاء على نفسه ويُخوّفه الفقر. فردّ عليه: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ ويأْمُرُكُمْ بِالفَحشَاءِ واللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً

(١) سورة سبأ الآية ٣٩ .
(٢) سفسافها: المنحطّ منها والحقير الرديء. (٣) سورة الحشر الآية ٩

﴿مِنْهُ وَفَضْلاً﴾[1] وإني أكره أن أترك أمراً قد وقع، لأمرٍ لعله لا يقع.

من خطبة لخالد القسري:

وكان خالد بن عبد الله القسري يقول على المنبر: أيها الناس، عليكم بالمعروف؛ فإن الله لا يُعْدم فاعلهَ جَوازيَه؛ وما ضعفت الناسُ عن أدائه قَوِيَ اللهُ على جزائه.

أخذه من قول الحُطيئة:

مَنْ يَفْعلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جَوازِيَـهُ ... لا يَذْهَبُ العُرْفُ بين اللهِ والناس[2]

وأخذه الحطيئة من بعض الكتب القديمة: يقول الله تعالى فيما أنزله على داود عليه السلام: من يفعل الخير يجده عندي، لا يذهب العرف بيني وبين عبدي.

من خطبة لسعيد بن العاص:

وكان سعيد بن العاص يقول على المنبر: مَن رزقه الله رزقا حَسنا فلْيُنفق منه سرّا وجهراً، حتى يكون أسعدَ الناس به؛ فإنما يَترْك ما يترك لأحد رجلين: إمّا لمُصلحٍ فلا يَقِل عليه شيء، وإما لمُفسد فلا يبقى له شيء.

أخذخ الشاعر فقال:

أَسْعِد بمالِك في الحيـاةِ فـإنّما ... يَبْقى خِلافَكَ مُصْلِحٌ أو مُفْسِدُ

فـإذا جمعـتَ لمُفْسـدٍ لم يُغْنِـهِ ... وأخـو الصلاح قليلـهُ يَتَـزَيَّـدُ

قال أبو ذَر: إن لك في مالك شريكين: الحَدَثان[3] والوارث: فإن آستطعت ألاّ تكون أبخسَ الشركاء حظاًّ فافعل.

وقال بُزُرجِمْهر الفارسي: إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها، فإنها لا تفنى؛ وإذا أدبرت عنك فأنفِق منها فإنها لا تبقى.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٨

(٢) جوازيهُ: أي الجزاء عليه.

(٣) الحدثان: الليل والنهار.

أخذ الشاعر هذا المعنى فقال:

لا تَبخَلَنَّ بِدُنْيا وهْي مُقْبِلَة ... فليس يَنْقُصُها التَّبْذيرُ والسَّرَفُ
وإنْ تَولَّتْ فأحْرى أن تَجود بها ... فالحمدُ منها إذا ما أَدْبَرَتْ خَلَف

لكسرى في الأسخياء:

وكان كسرى يقول: عليكم بأهل السخاء والشجاعة، فإنهم أهلُ حسنِ الظنِّ بالله تعالى، ولو أنّ أهل البخل لم يدخل عليهم من ضَرر بُخلِهم ومَذَمّةِ الناس لهم وإطباق[1] القلوب على بُغضهم، إلا سوءُ ظنَهم بربِّهم في الخَلَفِ، لكان عظيما وأخذ هذا المعنى محمود الورّاق فقال:

مَن ظَنَّ باللهِ خيْراً جادَ مُبْتدِئاً ... والبُخْلُ مِن سوءِ ظَنّ المرءِ باللهِ

بين موسى والهادي وابن يزيد:

محمد بن يزيد بن عمرة بن عبد العزيز قال: خرجتُ مع موسى الهادي أمير المؤمنين من جُرجان، فقال لي: إمّا أنْ تَحملني وإما أن أحملك. ففهمت ما أراد، فأنشدتُه أبيات ٱبن صِرْمة الأنصاري.

أُوصيكُمُ باللهِ أوّل وَهْلةِ ... وأحسابِكُم، والبِرُّ باللهِ أوّلُ
وإن قومُكُم سادوا فلا تَحْسُدُوهُمُ ... وإن كنتُمُ أهلَ السيادةِ فاعْدِلُوا
وإن أنتمُ أعْوَزْتُمُ فَتَعَفَّفُوا ... وإن كان فضلُ المالِ فيكم فأفْضِلُوا

فأمر لي بعشرين ألفا.

وقال عبد الله بن عباس: ساداتُ الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء.

قال أبو مُسلم الخَوْلاني: ما شيء أحسن من المعروف إلا ثوابه، وما كلُّ من قدر على المعروف كانت له نيّة؛ فإذا ٱجتمعت القُدرة والنية تمت السعادة. وأنشد:

---

(١) إطباق القلوب: إجماعها واتفاقها.

إنّ المكـــارِمَ كُلّهـــا حَسَـــنٌ والبـذْلُ أَحْسَنُ ذلــك الحَســنِ
كم عــارِفٍ بي لَسْــتُ أعــرِفُــهُ ومُخَبِّــرٍ عنّــي ولم يَــــرَني
يــأتيهـــمُ خَبري وإن بَعُـــدَتْ داري وبُــوعِـــدَ عنهـــمُ وطني
إني لِحُــــرِّ المالِ مُمْتَهِـــــنٌ ولِحُـرِّ عِـرْضي غيْـرُ مُمْتَهــنِ[1]

وقال خالد بن عبد الله القسري: من أصابه غُبار مَرْكَبي فقد وجب عليّ شكرُه.

وقال عمرو بن العاص: والله لرَجُلٌ ذكرني، ينام على شقّة تمرة وعلى شقة أخرى، يراني موضعاً لحاجته، لأوجَبُ عليّ حقا إذا سألَنيها مني إذا قضيتُها له.

وقال عبد العزيز بن مروان: إذا أمكنني الرجل من نفسه حتى أضع معروفي عنده، فَيَدُهُ عندي أعظمُ من يدي عنده. وأنشد لآبن عبّاس رضي الله تعالى عنهما:

إذا طارِقاتُ الهمِّ ضاجَعَـتِ الفتَـى وأعمل فِكْرَ اللّيلِ واللّيْلُ عاكِـرُ[2]
وبـاكَـرَني في حـاجَـةٍ لم يكـن لها سِوَايَ ولا من نكْبَة الدَّهرِ نـاصر
فَرَجْـتُ بمالي هَمَّـه عـن خِنـاقِـه وَزاولَـهُ الهمُّ الطَّـرُوقُ المُســاوِرُ
وكــان لــه فضْــلٌ علَــيَّ بِظَنِّــه بيَ الخيرَ إنّي لِلَّـذِي ظَـنَّ شـاكِـرُ

لأبي عقيل في مروان:

وقيل لأبي عُقَيل البليغ العِرَاقي: كيف رأيتَ مروان بن الحكم عند طلب الحاجة إليه؟ قال: رأيتُ رغبته في الإنعام فوق رغبته في الشكر، وحاجتَه إلى قضاء الحاجة أشدّ من حاجة صاحب الحاجة.

وقال زياد: كفى بالبُخل عاراً أن آسمه لم يقع في حَمد قطّ، وكفى بالجود مجدا أن آسمه لم يقع في ذم قط.

وقال آخر:

---

(١) ممتهن: مستعبد.

(٢) طارقات الهمّ: نازلاته أثناء ضجوعه والطارق: الزائر ليلاً.

ألاَ تَـــراني وقـــد قطّعتَني عـــذَلاً ماذا من الفَضْلِ بيْن البُخْلِ والجُودِ
إلاّ يكُـــنْ ورقٌ يـــومـــاً أُراحُ بـــه للخـــابطِين فـــإني لَيّـــنُ العُـــودِ
لا يعـــدُم الســـائلـــون الخيرَ أفعلـــهُ إمّـــا نـــوالاً وإمـــا حُسْـــنَ مَـــرْدُودِ

قوله «إلا يكن ورق» يريد المال، وضَرَبه مثلا. ويقال: أتى فلان فلانا يختبط ما عنده. والآختباط: ضرب الشجر ليسقط الورق لتأكله السائبة، فجعل طالب الرزق مثل الخابط.

قال أسماء بن خارجة: ما أُحب أن أرُدّ أحداً في حاجة طلبها، لأنه لا يخلو أن يكون كريماً فأصون له عرضه، أو لئيما فأصون عرضي منه.

وقال أرسطا طاليس: من آنتجعك[1] من بلاده فقد آبتدأك بُحسن الظن بك والثقة بما عندك.

الترغيب في حسن الثناء واصطناع المعروف

قال النبي ﷺ: «إذا أردتم أن تعلموا ما للعبد عند ربّه فآنظروا ما يتبعه من حسن الثناء».

من عمر إلى أبي موسى:

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: اعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس، وآعلم أنّ مالك عند الله مثلُ ما للناس عندك.

وقيل لبعض الحكماء: ما أفادك الدهر؟ قال: العِلْم به. قيل: فما أحمدُ الأشياء؟ قال: أن تبقي للإنسان أُحدوثةٌ حسنة.

وقال بعض أهل التفسير في قول الله تعالى ﴿واجْعلْ لي لِسَانَ صِدْقٍ في الآخِرين﴾[2] إنه أراد حسن الثناء من بعده.

---

(١) انتجعك: قصدك للاقامة والطلب. (٢) سورة الشعراء الآية ٨٤.

وقال أكثم بن صيفي: إنما أنتم أخبار فطيِّبوا أخباركم.

أخذ هذا المعنى حبيب الطائي فقال:

وما ابنُ آدمَ إلاّ ذِكْرُ صالِحَةٍ   أو ذِكْرُ سيئةٍ يَسرى بها الكَلِمُ
أما سَمِعْتَ بدَهْرٍ بادَ، أُمَّتُه   جاءت بأخبارِها من بعْدِها أُمَمُ[1]

وقال أبو بكر محمد بن دريد:

وإنّما المرء حديثٌ بعده   فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وقالوا: الأيام مزارع، فما زرعتَ فيها حصدته.

لابن عبد ربه:

ومن قولنا في هذا المعنى وغيره من مكارم الأخلاق:

يا مَن تَجَلَّد للزَّما   نِ أَمَا زَمانُكَ مِنكَ أَجْلَدْ
سَلِّطْ نُهَاكَ على هَوَا   كَ وعُدَّ يومَكَ ليس مِن غَدْ
إن الحياةَ مزارِعٌ   فازرعْ بها ما شئت تَحْصُدْ
والناسُ لا يَبْقَى سِوَى   آثارِهم والعيْنُ تُفْقَدْ
أَوَ ما سَمِعْتَ بمَنْ مَضَى   هٰذا يُذَمُّ وذاك يُحْمَدْ
المالُ إنْ أَصْلَحتَه   يَصْلُحْ وإنْ أفسَدْتَ يَفْسُدْ

وقال الأحنف بن قيس: ما ادّخَرَت الآباء للأبناء، ولا أبقت الموتى للأحياء، شيئاً أفضلَ من آصطناع المعروف عند ذوي الأحساب.

وقالوا: تَربيب المعروف أولى من آصطناعه؛ لأنّ اصطناعه نافلة[2]، وتربيبه فريضة.

وقالوا: أحْيِ معروفَك بإماتة ذِكره، وعظِّمه بالتَّصغير له.

---

(١) باد: هلك.

(٢) النافلة: الصلاة التي ليست فريضة بل هي للتقرّب من الله.

وقالت الحكماء: مِن تَمام كَرم المنْعِم التغافلُ عن حُجته، والاقرارُ بالفضيلةِ لشاكرِ نعمتهِ.

وقالوا: للمعروف خصالٌ ثلاث: تَعجيله وتَيسيره وستره، فمن أخلَّ بواحدة منها فقد بَخس[1] المعروف حقه وسقط عنه الشكر.

وقيل لمعاوية: أي الناس أحب إليك؟ قال: من كانت له عندي يدٌ صالحة. قيل: فإن لم تكن له؟ قال: فمن كانت لي عنده يد صالحة.

وقال النبي ﷺ: «من عظُمت نعمة الله عنده عظمت مؤونة الناس عليه، فإن لم يقُم بتلك المؤونة عَرَّض النعمة للزوال».

عروة بن أدية في صلبه:

أبو اليقظان قال: أخذ عبيد الله بن زياد عروةَ بن أُدَيَّة أخا أبي بلال، وقطع يده ورجله، وصلبه على باب داره؛ فقال لأهله وهو مصلوب: انظروا إلى هؤلاء الموكلين بي فأحسنوا إليهم، فإنهم أضيافكم.

ابن المبارك عن حُميد عن الحسن قال: لأَن أقضي حاجةً لأخ لي، أحبُّ إليّ من عبادة سنة.

بين السندي وكوفي ذي مروءة:

وقال إبراهيم بن السِّندي: قلت لرجل من أهل الكوفة، من وجوه أهلها، كان لا يَجف لِبْدُه[2]، ولا يستريح قلبه، ولا تسكن حركته في طلب حوائج الرجال وإدخال المرافق على الضُّعفاء وكان رجلا مفوَّها؛ فقلت له: أخبرني عن الحالة التي خَفَّفتْ عنك النَّصَب[3] وهوَّنت عليك التعبَ في القيام بحوائج الناس، ما هي؟ قال قد والله

(١) بخس: أنقص وغبن.

(٢) لبدهُ: أي لبد فرسه. (٣) النّصب: التعب.

سمعتُ تغريد الطير بالأسحار، في فروع الأشجار، وسمعت خَفْق أوتار العيدان، وترجيعَ أصوات القِيان، فما طربتُ من صوت قط، طَرَبي من ثناءٍ حَسَن بلسانٍ حَسَن على رجل قد أحسن، ومن شكر حُرّ لمنعم حرّ، ومن شفاعة محتسب لطالبٍ شاكر. قال إبراهيم: فقلت له: لله أبوك! لقد حُشِيتَ كَرَما.

لجعفر بن محمد:

إسماعيل بن مسرور عن جعفر بن محمد[1] قال: إن الله خلق خلقاً من رحمته برحمته لرحمته، وهم الذين يقضون الحوائج للناس، فمن آستطاع منكم أن يكون منهم فليكن.

الجود مع الإقلال

قال الله تبارك وتعالى فيما حكاه عن الأنصار: ﴿ويُؤْثِرُون على أنْفسهم ولو كانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فأولٰئكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾[2]

وقال النبي ﷺ: «أفضل العطية ما كان من مُعْسِرٍ إلى مُعْسر».

وقال عليه الصلاة والسلام: «أفضل العطية جُهْدُ المُقِلّ».

وقالت الحكماء: القليل من القليل أحمدُ من الكثير إلى الكثير.

أخذ هذا المعنى حبيب فنظمه في أبيات كتب بها إلى الحسن بن وهب الكاتب وأهدى إليه قلما:

قد بَعَثْنا إليكَ أكْرَمَكَ اللهُ بشيءٍ فكُنْ له ذا قَبُول
لا تقِسْهُ إلى ندى كَفِّكَ الغمـ ـر ولا نَيْلِكِ الكثيرِ الجزيل[3]
واسْتَجِزْ قِلَّةَ الهَدِيَّةِ مِنِّي إنّ جُهْدَ المُقِلَّ غَيرُ قليل

(١) أي جعفر الصادق عليه السلام.

(٢) سورة الحشر الآية ٩.

(٣) الندى: الكرم، والغمر: الوفير.

وقالوا: جُهد المقلِّ أفضلُ من غِنَي المُكْثرِ.

وقال صريع الغواني:

لیس السَّماحُ لِمُكْثِرٍ في قومه   لكنْ لَمُقْتِرِ قَوْمِه المُتَحَمِّدِ

لأبي هريرة في جعفر بن أبي طالب:

وقال أبو هريرة: ما وددت أن أحداً ولدتني أمُّه إلا أُم جعفر بن أبي طالب؛ تبعتُه ذات يوم وأنا جائع، فلما بلغ الباب التفت فرآني، فقال لي: ادخل، فدخلت؛ ففكّر حينا فما وجد في بيته شيئاً إلا نِحْياً[1] كان فيه سمن مُرّة، فأنزله من رَف لهم، فشقّه بين أيدينا، فجعلنا نلعق ما كان فيه من السمن والزيت، وهو يقول:

ما كلَّفَ اللهُ نفساً فوقَ طاقَتِها   ولا تجودُ يدٌ إلاَّ بما تَجِدُ

وقيل لبعض الحكماء: مَن أجْوَدُ الناس؟ قال: من جاد من قلّة، وصان وجه السائل عن المَذَلَّة.

وقال حماد عجرد:

أَوْرقْ بخيرٍ تؤَمَّل للجزيلِ فما   ترْجَى الثِّمارُ إذا لم يُورِقِ العُودُ
إنّ الكريم ليُخفي عنك عسرته   حتى تراه غنياً وهو مجهود
بُثَّ النَّوَال ولا تَمْنَعْكَ قِلّتُهُ   فَكُلُّ ما سَدَّ فَقْراً فَهْوَ مَحْمُودُ[2]
وللبخيلِ على أمْوالِه عِلَلٌ   زُرْقُ العيونِ عَليها أوجُهٌ سُودُ

وقال حاتم:

أُضاحِكُ ضَيْفي قبْل إنزال رَحْلهِ   ويُخْصبُ عِندي والمحَلُّ جَدِيبُ
وما الخصْبُ للأضْياف أن يكْثُرَ الْقِرى   ولكنّما وجْهُ الكريم خَصِيبُ

---

(١) النحي: الزق، أو وعاء السمن.

(٢) بث النوال: انشره، وأكثر من العطاء.

وقال عبد الملك بن مَروان: ما كُنت أُحب أنّ أحداً ولدني من العرب إلا عُروة بن الورد لقوله:

أتهزأُ مني أنْ سَمِنْتَ وأنْ تَـرى ... بِجسمِيَ مسَّ الجوعِ والجوعُ جاهِدُ
لأني آمرُؤٌ عـافى إنـائـيَ شِـرْكَـةٌ ... وأنتَ آمرُؤٌ عافى إنـائِـك واحـدُ
أُقسِّـم جِسْمـي في جُسُـومٍ كثيرةٍ ... وأحْسُو قَـراحَ الماءِ والماءُ بـاردُ[1]

ومن أحسن ما قيل في الجود مع الإقلال قول صريع:

فلَوْ لم يكـن في كفِّـه غيرُ رُوحِـه ... لجادَ بها فلْيَتَّـقِ اللهَ سـائِلُـهُ

ومن أفرط ما قيل في الجود قول بَكْر بن النطّاح:

أقولُ لِمُرْتادِ النّـدَى عنْـدَ مـالِـكٍ ... تمسَّكْ بجَدْوَى مالِـكٍ وصِلاتِـه[2]
فتىً جَعَـلَ الدُّنيـا وقـاءً لِعْـرضِـهِ ... فأسْدَى بها المعروفَ قبلَ عداتِـه[3]
فلو خَـذَلَـت أمـوالَه جُـودَ كفّـهِ ... لقاسَمَ مَن يَرْجُـوهُ شَطْـرَ حيـاتـه
وإنْ لم يَجُزْ في العُمْر قَسْمٌ لِمالِـكٍ ... وجـازَ لـهُ أَعْطـاهُ مِـنْ حَسنـاتِـه
وجـادَ بها مِـن غيرِ كُفْـرٍ بـربِّـهِ ... وأشْـرَكَـهُ في صَـومِـهِ وصلاتِـه

وقال آخر في هذا المعنى وأحسن:

مَلأْتُ يَـدي مِـن الدنيـا مِـرارا ... وما طَمِـعَ العـواذِلُ في اقتِصَـادي
ولا وجبَـتْ علَـيَّ زَكـاةُ مـالٍ ... وهـل تجِبُ الزَّكـاة على الجواد

العطية قبل السؤال

قال سعيد بن العاص: قَبَحَ اللهُ المعروف إن لم يكن آبتداءً من غير مسألة، فالمعروف عوض من مسألة الرجل إذا بذل وجهه، فقلبه خائف، وفرائصه تُرْعَد، وجبينه يرشح؛ لا يَدري أيرجع بنُجْح الطلب، أم بسوء المنقَلَب، قد انتُقِعَ[4] لونهُ،

---

(١) قراح الماء: الخالص الصافي. (٢) الجدوى: العطاء والكرم.
(٣) أسدى المعروف: قدّمه. (٤) انتُقع: امتقع وتغيّر.

وذهب دمُ وجهه . اللهم فإن كانت الدنيا لها عندي حظٌّ فلا تجعل لي حظا في الآخرة .

وقال أكثم بن صيفي: كل سؤالٍ وإن قلَّ أكثرُ من كل نَوَال وإن جلّ .

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لأصحابه: منَ كانت له إليّ منكم حاجة فليرفعها في كتاب، لأصونَ وجوهَكم عن المسألة .

حبيب قال:

عطاؤكَ لا يفْنَى ويَستَغْـرِق المُنـى   وتَبقـى وُجـوهُ الرَّاغِبينَ بمائها [1]

وقال حبيب أيضاً:

ذُلُّ السُّؤالِ شَجاً في الحَلْقِ مُعْتَرِضُ   مِن دونهِ شَرَقٌ من خَلفه جَـرَضُ [2]
ما ماءُ كفّكَ إن جادتْ وإن بَخِلتْ   مِن ماءِ وَجهي إذا أَفْنيْتُـه عِـوَضُ
إنّـي بـأيَسرِ مـا أَدْنيْـتَ مُنْبسِـطٌ   كما بـأكثر مـا أَقْصَيْـتَ مُنْقَبِـضُ

وقالوا: من بذل إليك وجهه فقد وفّاك عن نعمتك .

وقالوا: أكمل الخِصال ثلاث: وقار بلا مهابة، وسماح بلا طلبِ مكافأة، وحِلم بغير ذلّ .

وقالوا: السخي من كان مَسروراً ببذله، متبرعا بعطائه، لا يلتمس عرض دنيا فيَحْبطَ عمله، ولا طَلب مكافأة فَيسقط شُكره، ولا يكون مَثله فيما أعْطى مثل الصائد الذي يُلقي الحب للطائر: لا يريد نفعها ولكن نفْعَ نفسِه .

بين ابن أبي سبرة وأبي الأسود:

نظر المنذر بن أبي سبرة إلى أبي الأسود الدؤلي وعليه قميصٌ مرقوع، فقال له: ما أصْبرَك على هذا القميص؟ فقال له: رُبَّ مملوكٍ لا يُستطاع فِراقُه . فبعث إليه

---

(١) يستعرق المنى: أي يكون قدرها وماء الوجوه: كرامتها وحياؤها .

(٢) الشجا: ما يعترض في الحلق من لحمة وغيرها . والجرض: الغصَصَ .

بتَخت من ثياب. فقال أبو الأسود:

كَسانِي ولم أَسْتَكْسِه فَحمِدتُهُ ... أَخٌ لكَ يُعطيك الجَزيلَ وناصِرُ
وإنّ أحقَّ الناسِ إن كُنتَ شاكِراً ... بشُكرِكَ مَن أعطاكَ والعِرْضُ وافِرُ

بين معاوية وابن صوحان في الجود:

وسأل معاوية صعصعةَ بن صُوحان: ما الجود؟ فقال: التبرّع بالمال، والعطّية قبل السؤال.

لابن عبد ربه:

ومن قولنا في هذا المعنى:

كَريمٌ على العِلاّتِ جزْلٌ عَطاؤهُ ... يُنِيلُ وإن لم يُعْتَمدْ لِنَوالِ[1]
وما الجُودُ مَن يُعطِي إذا ما سألتَهُ ... ولكِنَّ مَن يُعطي بغيرِ سُؤال

وقال بشّار العُقيلي:

مالكيٌّ ينشَقُّ عن وَجْهِه الجد ... بُ كما ٱنشَقّتِ الدُّجى عن ضِياء
فثُجوجُ السماء فيْضُ يَدَيْه ... لقريبٍ ونازحِ الدارِ ناءِ[2]
ليْسَ يُعْطيكَ للرَّجاء وللخو ... فِ ولكنْ يَلَذُّ طَعَمَ العَطاء
لا ولا أنْ يُقالَ شِيمَتُه الجُو ... دُ ولكِنْ طبائِعُ الآباء

وقال آخر:

إن بيْنَ السُّؤالِ والإعْتِذار ... خُطّةً صَعْبةً على الأحرار

وقال حبيب:

لئنْ جَحَدْتُكَ ما أوْلَيتَ مِنْ نِعَمِ ... إني لفي اللؤمِ أمْضَى منكَ في الكَرَمِ

---

(١) العلات: كلّ النّواحي. (٢) الثجوج: الأمطار الغزيرة.

أنسَى ابتسامُكَ والألوانُ كـاسفـةٌ   تَبسُّمَ الصُّبحِ في داجٍ مِنَ الظُّلَـمِ [1]
رددتَ رَوْنَق وجهـي في صحيفتِـه   رَدّ الصِّقال بهاءَ الصَّـارِمِ الخَذِمِ [2]
وما أُبـالي وخيرُ القـول أصْـدقُـهُ   حَقَنْتَ لي ماءَ وَجهي أم حقنْتَ دَمـي!

استنجاح الحوائج

عادتهم في ذلك:

كانوا يستفتحون حوائجهم بركعتين يقولون فيهما: اللهم بك أستنجح، وبآسمك أستفتح، وبمحمد نبيّك إليك أتوجه، اللهم ذلّل لي صعوبتَه، وسهّل لي حُزونته، وآرزقني من الخير أكثَرَ مما أرجو، وآصرِف عنّي من الشر أكثر مما أخاف.

وقال النبي ﷺ: «آستعينوا على حوائجكم بالكتمان لها، فإنّ كل ذي نعمة مَحسود».

وقال خالد بن صفوان: لا تطلُبوا الحوائج في غير حينها، ولا تطلُبوها من غير أهلها، فإنّ الحوائج تُطلب بالرجاء، وتُدرَك بالقضاء.

وقال: مفتاح نُجح الحاجة الصبرُ على طول المُدة. ومغْلاقُها آعتراض الكَسَل دونها.

قال الشاعر:

إني رأيـتُ وفي الأيـامِ تَجْـرِبَـةٌ   للصبرِ عـاقبـةً محمودةَ الأثـرِ
وقلَّ مَـن جَـدَّ في أمـرٍ يُحـاوِلُـهُ   واسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إلا فازَ بالظَّفَـرِ

ومن أمثال العرب في هذا: مَنْ أدمَنَ قرْعَ الباب يوشك أن يُفتح له.

أخذ الشاعر هذا المعنى فقال:

إن الأمور إذا آنسدّت مسـالكهـا   فالصبر يفتُق منها كل ما ارتتجـا [3]

(١) الكاسفة: المتغيّرة.   (٢) الخذم: القاطع.
(٣) ارتتج: أي أقفِل.

لا تيأسَنَّ وإنْ طالتْ مُطالَبةٌ إذا تضايَق أمرٌ أن ترى فَرَجا
أَخْلِقْ بِذِي الصَّبرِ أنْ يَحْظَى بحاجَتِهِ ومُدْمِنِ القَرْعِ للأبواب أن يَلِجا[1]

وقال خالد بن صفوان: فَوْتُ الحاجة خيرٌ من طلبها إلى غير أهلها، وأشدُّ من المُصيبة سوءُ الخَلَف منها.

وقالوا: صاحبُ الحاجة مَبْهوت، وطلب الحوائج كلِّها تعزير[2].

وقالت الحكماء: لا تطلب حاجتك من كذّاب؛ فإنه يقرِّ بها بالقول ويُبعدها بالفعل؛ ولا من أحمق، يريد نفعَك فيضرّك؛ ولا من رجل له أُكلة من جهة رجل، فإنه لا يؤثر حاجتك على أكلته.

وقال دعبل بن علي الخُزاعي:

جِئْتُكَ مُسْتَرفِداً بلا سَبَبِ إليْكَ إلاّ بحُرْمَةِ الأدَبِ[3]
فاقْضِ ذِمامي فإنني رَجُلٌ غيْرُ مُلِحٍّ عليْكَ في الطَّلَبِ

وقال شَبيب بن شَيبة: إني لأعرف أمراً لا يتلاقى به اثنان إلا وجب النُّجْحُ بينهما. قيل له: وما ذاك؟ قال: العقل؛ فإن العاقل لا يَسأل ما لا يُمكن، ولا يَرُدُّ عما يُمكن.

وقال الشاعر:

أَتيْتُكَ لا أُدْلي بقُرْبَى ولا يَدٍ إليْكَ سوى أنِّي بجودِك واثقُ
فإن تُولِني عُرْفاً أكُنْ لك شاكراً وإن قُلْت لي عُذْراً أقُلْ أنتَ صادقُ[4]

وقال الحسن بن هانيء:

فإن تُولِني منكَ الجميلَ فأهْلُه وإلا فإنِّي عاذرٌ وشَكُورُ

---

(١) أخلق: أي جديرٌ وحريٌّ ويلج: يدخل
(٢) التعزير: التشديد.
(٣) مسترفداً: طالباً العطاء.
(٤) أولاه العرف: أي وصله بكرمه.

وقال آخر:

لعَمْرُك ما أَخْلَقْتُ وَجْهاً بَذَلْتُهُ ... إليكَ ولا عَرَضْتُهُ لِلْمعَايِرِ

فتًى وفَّرَتْ أيدي المكارم عِرْضَهُ ... عليه وخلَّتْ مالَهُ غيرَ وَافِرِ

بين ابن واسع وأمير:

ودخل محمد بن واسع على بعض الأمراء فقال: أتيتك في حاجة فإن شئت قضيتَها وكنا كريمين، وإن شئتَ لم تَقضِها وكُنَّا لئيمين. أراد: إن قضيتَها كنتَ أنت كريماً بقضائها وكنتُ أنا كريماً بسؤالك إياها؛ لأني وضعت الطَّلِبَةَ في موضعها؛ فإن لم تقضها كنتَ أنتَ لئيماً بمنعك وكنت أنا لئيماً بسوء اختياري لك.

وسرق حبيب هذا المعنى فقال:

عَيَّاشُ إنكَ لَلَئِيمُ وإنّني ... مُذْ صِرْتَ مَوْضِعَ مَطْلَبي لَلَئيم

عبد الله بن طاهر وسوار القاضي:

ودخل سوار القاضي على عبد الله بن طاهر صاحب خراسان فقال: أصلح الله الأمير:

لنا حاجةٌ والعُذْرُ فيها مُقَدَّمٌ ... خفيفٌ مُعنَّاها مضاعفةُ الأجرِ(1)

فإن تَقْضِها فالحمدُ للهِ وَحْدَهُ ... وإن عاقَ مَقْدُورٌ ففي أوْسَعِ العُذْرِ(2)

قال له: ما حاجتُك أبا عبد الله؟ قال: كتابٌ لي: إن رأى الأميرُ أكرمه الله ـ أن يُنفذه في خاصته، كتب إلى موسى بن عبد الملك في تعجيل أرزاقي. قال: أوَ غير ذلك أبا عبد الله؟ نعجِّلها لك من مالك، وإذا وددت كنت مخيَّراً بين أن تأخذ أو تردّ. فأنشد سَوار يقول:

فبَابُكَ أيْمَنُ أبْوَابِهم ... ودَارُكَ مَأْهُولَةٌ عامِرَهْ

وكفُّك حينَ تَرى المجْتَدِيـ ... ـنَ أنْدَى من اللَّيْلَةِ الماطِرَهْ

---

(1) معنَّاها: أي عناؤها. (2) عاق مقدور: أي منع تنفيذها أمرٌ مقدَّر.

وَكلْبُـــكَ آنَسُ بـــالمُعْتَفِين من الأمِّ بابنِتِها الزَّائـرَهْ[1]

أبو حازم الأعرج وسلطان في حاجة:

ودخل أبو حازم الأعرج على بعض أهل السلطان فقال: أتيتك في حاجة رفعتُها إلى الله قَبلك، فإن يأذن الله في قضائها قضيتَها وحمدناك، وإن لم يأذن في قضائها لم تَقْضِها وعذرناك.

وفي بعض الحديث: «اُطلبوا الحوائج عند حِسانِ الوجوه».

أخذه الطائي فنظمه في شعره فقال:

قد تأوَّلتُ فيك قَوْلَ رسُول الله إذْ قــالَ مُفْصِحــاً إفصــاحَــا
إن طلبتم حــوائجاً عنــد قــوْمٍ فتَنَقَّـوْا لها الوجُــوهَ الصِّبــاحــا
فَلعَمْـرِي لقــد تَنَقَّيْــتُ وجْهــاً ما بِـه خـابَ مـن أرادَ النَّجَـاحـا

بين المنصور وطالب حاجة:

قال المنصور لرجل دخل عليه: سَل حاجتك فإنك لست تقدر على هذا المقام في كل حين. قال: يبقيك الله يا أمير المؤمنين، ما أستقصر عمرك ولا أخاف بخلك، وإنّ عطاءك لشرف، وإن سؤالك لزَيْن، وما بآمريء بذل إليك وجهه نَقْص ولا شَين[2]. فوصله وأحسن إليه.

استنجاز المواعد

كلمات في معنى هذا العنوان:

من أمثالهم في هذا: أَنْجَزَ حُرٌّ ما وعَد.

وقالوا: وعْدُ الكريمِ نقْد، ووعدُ اللئيم تسويف.

وقال الزُّهري: حقيق على من أورق بوعْدٍ أن يُثمر بفعل.

---

(١) المعتفين: السائلين النوال. (٢) الشين: العيب.

وقال المغيرة: من أخر حاجة فقد ضَمِنها.

وقال الموبذان الفارسي: الوعد السحابة، والإنجاز المطر.

وقال غيره: المواعيد رءوس الحوائج والإنجاز أبدانها.

وقال عبد الله بن عمر: خُلْفُ الوعدِ ثُلُثُ النفاق، وصِدق الوعد ثلثُ الإيمان، وما ظنُّك بشيء جَعله الله مِدْحةً في كتابه، وفخراً لأنبيائه، فقال تعالى: ﴿واذْكُرْ في الكتابِ إسْمَاعِيلَ إنهُ كان صادِقَ الوَعْدِ﴾[١].

لجبار في عامر ابن الطفيل:

وذكر جبار بن سُلمى عامر بن الطُّفيل فقال: كان والله إذا وعد الخير وفى، وإذا وعد الشر أخلف. وهو القائل:

ولا يرْهَبُ ابنَ العَمِّ ما عشتُ صَوْلتي ... ويأمن منّي سَطوة المُتهَدِّدِ[٢]

وإني وإن أوْعَدْتُهُ أو وعَدْتُهُ ... ليكذِبُ إيعادِي ويَصْدُقُ موعِدِي

وقال ابن أبي حازم:

إذا قلتَ في شيءٍ «نَعم» فأتِمَّهُ ... فإنّ «نَعمْ» دَيْنٌ على الحرِّ واجبُ

وإلا فقُلْ «لا» تَسترِحْ وتُرِحْ بها ... لئلا يقولَ الناسُ إنك كاذِبُ

ولو لم يكن في خُلْف الوعد إلا قولُ الله عز وجل: ﴿يا أيُّها الذِينَ آمنُوا لِمَ تقُولُونَ ما لا تفْعَلونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تقُولوا مَا لا تفْعَلونَ﴾[٣] لكفى.

وقال عمر بن الحارث: كانوا يفعلون ولا يقولون، ثم صاروا يقولون ويفعلون، ثم صاروا يقولون ولا يفعلون، ثم صاروا لا يقولون ولا يفعلون، فزعم أنهم ضَنُّوا بالكذب فضلاً عن الصدق.

---

(١) سورة مريم الآية ٥٤.

(٢) الصولة: القوة والبطش والسطوة؛ كذلك.

(٣) سورة الصف الآية ٦١.

وفي هذا المعنى يقول الحسن بن هانيء:

قالَ لِي تَرضَى بِوعْدٍ كاذِبٍ؟ قلْتُ إنْ لم يَكُ شَحْمٌ فنفش[١]

ومثله قول عباس بن الأحنف، ويقال إنها لمسلم بن الوليد صريع الغواني:

ما ضَرَّ مَنْ شَغَلَ الفؤادَ بِبُخْلِهِ لو كانَ عَلَّلني بِوَعْدٍ كاذب[٢]
صبراً عليكَ فما أرى لي حِيلةً إلاَّ التَّمَسُّكَ بالرجاءِ الخائبِ
سأموتُ من كمَدٍ وتَبْقَى حاجتي فيما لديكَ ومالها مِن طالب

بين عبد الملك وابن أم الحكم:

قال عبد الرحمن بن أم الحكم لعبد الملك بن مروان في مواعيد وعدها إياه فمطَله[٣] بها: نحن إلى الفِعل أحوج منا إلى القول، وأنت بالإنجاز أولى منك من المَطل، وآعلم أنك لا تستحق الشكر إلا بإنجازك الوعد وآستتمامك المعروف.

بين عيسى بن موسى وابن معن:

القاسم بن معن المسعودي قال: قلت لعيسى بن موسى: أيها الأمير، ما انتفعتُ بك منذ عرفتك، ولا أوصلت لي خيراً منذ صحبتُك. قال: ألم أكلِّم لك أميرَ المؤمنين في كذا وأسأله لك كذا؟ قال: قلت: بلى، فهل استنجزت ما وعدت، وآستتممت ما بدأت؟ قال: حال من دون ذلك أمور قاطعة، وأحوال عاذرة. قلت: أيها الأمير، فما زدت على أن نبَّهت العجز من رقدته، وأثَرْتَ الحزن من رَبْضَتِه، إنّ الوعد إذا لم يشفعه إنجاز يحقِّقه، كان كلفظ لا معنى له، وجِسم لا روح فيه.

وقال عبد الصمد بن الفضل الرقاشي لخالد بن دَيسم عامل الرّي:

أخالدُ إن الريَّ قد أجْحَفَتْ بنا وضاقَ علَيْنا رحْبُهَا ومَعاشُهَا
وقد أطمَعَتْنا مِنْك يَوْماً سحابَةٌ أضاءت لنا بَرقاً وأبطا رشاشها

---

(١) النفش: الصوف. (٢) علّلني: شغلني وجعلني أتأمّل.
(٣) مطله: من المطل وهو التسويف وعدم الوفاء بالوعد.

فلا غيْمُها يَصْحُو فييْئِسَ طـامِعـاً ولا ماؤها يـأتي فتروى عِطـاشهـا

بين بشار وسلم:

وقال سعيد بن سَلَم: وعد أبي بشارا العُقيلي حين مدحه بالقصيدة التي يقول فيها:

صَـدَّتْ بِخَدٍّ وجَلَـتْ عـن خـدِّ ثم آنْثَنـتْ كـالنَّفَسِ المُرْتَـدِّ[1]

فكتب إليه بشارٌ بالغد:

مـا زالَ مـا مَنَّيْتَنِـي مِـنْ هَمّـي الوعْـدُ فـأَرِحْ مِـنْ غَمّـي

إن لم تُرِدْ مَدْحِي فَراقِبْ ذَمِّي

فقال له أبي: يا أبا معاذ، هلا استنجزتَ الحاجة بدون الوعيد! فإذا لم تفعل فتربَّصْ ثلاثاً وثلاثاً؛ فإني والله ما رضيتُ بالوعد حتى سمعتُ الأبرش الكَلْبي يقول لهشام: يا أمير المؤمنين؛ لا تَصنع إليَّ معروفاً حتى تَعِدني؛ فإنه لم يأتني منك سَيْب[2] على غير وعد إلا هان عليّ قدرُه وقلّ مني شُكره. فقال له هشام: لئن قلت ذلك لقد قاله سيدُ أهلِك أبو مسلم الخَوْلاني: «إن أوقع المعروف في القُلوب، وأبردَه على الأكباد مَعروف منتظَر، بوعد لا يكدّره المَطْل».

يحي بن خالد وقضاء الحوائج:

وكان يحيي بن خالد بن برمك لا يقضي حاجة إلا بوعد، ويقول: من لم يَبِتْ على سرور الوَعد لم يجد للصنيعة طعماً.

وقالوا: الخُلف ألأم من البخل لأنه من لم يفعل المعروف لزمه ذمُّ اللؤم وحده، ومن وعَد وأخلف لزمه ثلاث مَذَمّات: ذمّ اللؤم، وذمّ الخلف، وذمّ الكذب.

وقال زياد الأعجم:

للهِ دَرُّكَ مِـــنْ فَتّـــى لـو كنـتَ تَفْعَـلُ مـا تَقُـولْ

---

(١) صدّت: أعرضت، وجلت: أظهرت وأسفرت.

(٢) السيب: العطاء.

لا خَيْـــرَ في كَـــذِبِ الجوَا ... دِ وحبَّــذا صِــدْقُ البخيــلْ

استبطأ حبيبٌ الطائي الحسنَ بن وهب في عِدَةٍ وعدها إياه، فكتب إليه أبياتاً يستعجله بها؛ فبعث إليه بألف درهم وكتب إليه:

أعْجَلْتَنا فأتاكَ عاجِلُ بِرّنا ... قلاًّ ولو أخّرْتَهُ لم يَقْلِلِ
فخُذِ القليلَ وكنْ كَمنْ لم يَسْألِ ... ونكون نحنُ كأننا لم نَفْعلِ

ابن دأب عند المهدي:

وقال عبد الملك بن مالك الخزاعي: دخلت على أمير المؤمنين المهدي وعنده ابن دأب وهو ينشد قول الشماخ:

وأشعث قد قَدّ السّفارُ قميصَهُ ... يَجُرُّ شواءً بالعَصا غيْرَ مَنْضَجِ (١)
دَعَوْتُ إلى ما نابَني فأجابَني ... كَرِيمٌ من الفتيانِ غيْرُ مُزَلَّجِ (٢)
فتى يُمرِيءُ الشِّيزَى ويُرْوي سِنانَه ... ويَضْرِبُ في رأسِ الكَمِيِّ المُدَجَّجِ (٣)
فتًى ليْس بالرّاضي بأدني معيشةٍ ... ولا في بُيُوتِ الحيّ بالمُتَوَلِّجِ

فرفع المهديُّ رأسه إليّ وقال: هذه صفتك أبا العباس. فقلت: بك نلتُها يا أمير المؤمنين. قال: فأنشدني. فأنشدته قول السموءل:

إذا المرءُ لم يدْنَسْ منَ اللُّؤم عِرْضُه ... فكلُّ رداءٍ يَرْتَديهِ جَميلُ
وإنْ هو لم يَحْملُ على النَّفْسِ ضَيْمَها ... فليْس إلى حُسْنِ الثَّناءِ سَبيلُ (٤)
إذا المرءُ أعْيَتْهُ المروءة يافِعاً ... فمطْلَبُها كَهْلاً عليهِ ثَقيلُ (٥)
تُعَيِّرُنا أنا قليلٌ عِدادُنا ... فقُلْتُ لها إنَّ الكِرامَ قليلُ
وما ضَرَّنا أنَّا قليلٌ وجارُنا ... عَزيزٌ وجارُ الأكثَرينَ ذَليلُ
ونحْنُ أُناسٌ لا نَرى القَتْلَ سُبَّةً ... إذا ما رأتْهُ عامِرٌ وسَلولُ (٦)

---

(١) الأشعث: صاحب الشعر الكثير الغبار الذي لم يرجّل من مدّه والسِّفار: أي السفر.

(٢) المزلّج: البخيل والناقص المروءة.

(٣) الشيزى: خشب أسودّ تتخذ منه القصاع.

(٤) الضيم: الظلم. (٥) يافعاً: شاباً. (٦) السُّبَّة: العار.

يُقَرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنا لنا وتَكْرَهُهُ آجالُهمْ فتَطُولُ
وما ماتَ منَّا سيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِه ولا طُلَّ منّا حيثُ كانَ قتيلُ[1]
تَسيلُ على حَدِّ السُّيوفِ نُفوسُنا وليْستْ على غيْرِ السُّيْوفِ تَسيلُ
ونُنْكِرُ إنْ شئنا على الناسِ قوْلَهمْ ولا يُنْكِرونَ القولَ حين نقولُ
فنحنُ كماءِ المُزْنِ ما في نِصابِنا كَهامٌ ولا فينا يُعَدُّ بَخيلُ[2]
وأسْيافُنا في كلِّ شَرْقٍ ومغربٍ بها مِنْ قِرَاعِ الدارِعِينَ فُلولُ[3]

فقال: أحسنت، اجلس، بهذا بلغتُم، سلْ حاجتك. قلت: يا أمير المؤمنين، تكتب لي العطاء ثلاثين رجلاً من أهلي. قال: نعم، عليّ إذا وعدْتُ، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنك متمكّن من القُدرة وليس دونك حاجز عن الفعل؛ فما معنى العِدة؟ فنظر إلى ابن دأب يريد منه كلاماً في فضل الموعد، فقال ابن دأب:

حلاوة الفِعلِ بوَعْدٍ يُنْجَزُ لا خيرَ في العُرْف كنَهْبٍ يُنْهَزُ[4]

فضحك المهدي وقال:

الفعْلُ أحسنُ ما يكو نُ إذا تقَدَّمَهُ ضَمان

للمهلب يوصي بنيه:

وقال المهلب بن أبي صفرة لبنيه: يا بَنِيّ، إذا غدا عليكم الرجل وراح مُسَلّماً فكفى بذلك تقاضيا .

وقال الشاعر:

أَرُوحُ بتَسْليمي عليك وأغْتَدي وحسبُكَ بالتَّسْليمِ مِنّي تقاضيا

وقال آخر:

---

(١) حتف أنفه: أي على الفراش وطلّ: ذهب دمه هدراً .

(٢) الكهام: الكليل الحدّ .

(٣) الفلول: الآثار والندوب

(٤) ينهز: أي يتحيّن الإنسان فرصةً مواتية لانتهابه .

كفاكَ مُخَبِراً وجْهِي بشَانِي　　وحسبُكَ أنْ أراكَ وأن تـراني
ومـا ظَنّـي بمن يعنيه أمْــرِي　　ويعْلَمُ حـاجتي ويَـرى مكـاني

وكتب العتابي إلى بعض أهل السلطان: أما بعد؛ فإن سحاب وعدك قد أبرقت، فليكن وبلها سالماً من علل الْمَطْل. والسلام.

وكتب الجاحظ إلى رجل وعَده: أما بعدُ فإن شجرة وعدك قد أورقت فليكن ثمرُها سالماً من جوائح الْمَطْل[1]. والسلام.

عبد الله بن طاهر ودعبل:

وعَدَ عبد الله بن طاهر دِعْبلا بغلام، فلما طال عليه تَصَدَّى له يوماً وقد ركب إلى باب الخاصّة، فلما رآه قال: أسأت الاقتضاء، وجهلت المأخذ، ولم تُحْسن النظر، ونحن أولى بالفضل؛ فلك الغلام والدابة متى ننزل إن شاء الله تعالى. فأخذ بعنانه دعبل وأنشده:

يا جَـوادَ اللّسـانِ مِـنْ غيرِ فعْـلٍ　　لَيْتَ في راحتيْكَ جُـودَ اللّسـانِ
عيْـنَ مِهْـرانَ قـد لطَمْـتَ مِـرَاراً　　فـاتّـقِ ذا الجلالِ في مِهْـرانِ
عُرْتَ عيْنـاً فـدَعْ لِمْهـرانَ عيْنـاً　　لا تَـدَعْـهُ يطـوفُ في العِمْيـانِ

قال: فنزل له عن دابته، وأمر له بالغلام.

أبان وخلف ابن خليفة:

وسأل خلف بن خليفة أبَانَ بن الوليد جارية، فوعده بها وأبطأت عليه، فكتب إليه:

أرى حاجتي عِنـد الأميرِ كـأنَّهـا　　تَهُـمُّ زمـانـاً عنـدَهُ بمُقـامِ
وأحْصَـرُ مـن إذْ كـارِهِ إن لقِيتُـه　　وصـدق الحيـاء مُلْجِـمٌ بلجـامِ
أراهـا إذا كـان النهـارُ نَسيئـةً　　وباللّيل تُقْضَى عنْدَ كُلِّ مَنامِ[2]

---

(١) المطل: عدم الوفاء بالوعد.　(٢) النسأة: تأخير الثمن.

فياربّ أخْرِجْها فإنك مُخرِجٌ   مِنَ الْميْتِ حيّاً مُفْصِحاً بكلامِ
فتَعْلَم ما شُكْري إذا ما قَضيْتَها   وكيْفَ صَلاتي عنْدَها وصيامي

وكتب أبو العتاهية إلى رجل وعده بِعِدَة ومَطَلَه بها.

لا جَعَلَ اللهُ لي إليكَ ولا   عِنْدَكَ ما عِشتُ حاجةً أبدَا
ما جِئْتُ في حاجةٍ أُسَرُّ بها   إلا تثاقلْتَ ثمّ قلْتَ غدَا

وكتب دعبل إلى رجل وعده وعداً وأخلفه:

أحسِبْتَ أرْضَ اللهِ ضَيِّقَةً   عَني فأَرْضُ اللهِ لم تَضِقِ
وجعلْتَني فَقْعاً بقَرْقَرَةٍ   فوَطِئْتَني وطْئاً على حَنَقِ[1]
فإذا سألْتكَ حاجة أبداً   فاضْرِبْ بها قُفْلاً على غَلَقِ
وأعِدَّ لي غُلاًّ وجامِعةً   فاجْمَعْ يَدَيَّ بها إلى عُنُقي[2]
ما أطْولَ الدُّنْيا وأوْسَعَها   وأدلَّني بمَسالِكِ الطُّرُقِ

لابن عبد ربه:

ومن قولنا في رجل كتب إليّ بعِدَةٍ في صحيفة ومطلني بها:

صَحِيفَةٌ طابَعُها اللّومُ   عُنْوانُها بالجَهْلِ مَخْتومُ
يُهدَى لها والخُلْفُ في طَيِّها   والمَطْلُ والتَّسْويفُ واللُّومُ
مَن وجْهُهُ نحسٌ ومَن قُرْبُهُ   رِجْسٌ ومَنْ عِرْفانُهُ شُومُ
لا تَهتَضِمِ إنْ بِتَّ ضَيْفاً لهُ   فخُبْزُهُ في الجَوْفِ هاضُومُ[3]
تَكْلِمُهُ الألحاظ مِنْ رِقَّةٍ   فهو بلحْظِ العيْنِ مَكْلُومُ[4]
لا تَأْتَدِمْ شيئاً على أكْلِهِ   فإنه بالجوعِ مَأْدومُ[5]

---

(١) الفقع: البيضاء الرخوة من الكمأة والقرقرة: الأرض المطمئنة اللينة، ويقال للذليل: هو أذلّ من فقع بقرقرة، لأنّه لا يمتنع على من اجتناه، أو لأنه يوطأ بالأرجل.

(٢) الجامعة: الغلّ والقيد، لأنها تجمع اليدين إلى العنف.

(٣) الهاضوم: الكثير الهضم. (٤) تكلمه: تجرحه. (٥) تأتدم: تأكل.

وقلت فيه:

صحيفـةٌ كُتِبَـتْ ليْـتٌ بها وعسى　　عُنْوانُها راحـةُ الرّاجـي إذا يئسـا
وعدٌ له هاجِسٌ في القلبِ قد بَرِمَتْ　　أحشاءُ صدري به مِن طول ما هَجَسا[1]
بَـراعـةٌ غَـرَّني منهـا ومِيـضُ سنيً　　حتى مَدَدْتُ إليها الكَفَّ مُقْتبِسـا[2]
فصادَفَتْ حَجَراً لو كنتَ تَضْرِبُـهُ　　مِن لُؤْمِه بعصا موسى لما انْبجَسـا[3]
كأنما صِيغَ منْ بُخْلٍ ومِن كَـذِبٍ　　فكـان ذاكَ لـه روحـاً وذا نَفَسـا

وقلت فيه:

رجـاءٌ دون أقْـرَبِـه السَّحـابُ　　ووعْـدٌ مثـلَ مـا لَمَـعَ السرابُ
وتَسْـويـفٌ يَكِـلُّ الصّبْرُ عنـه　　ومَطْـلٌ مـا يقـومُ لـه حِسـابُ[4]
وأيـام خلـت مـن كـلّ خيرٍ　　ودنيـا قـد تَـوَزَّعهـا الكلاب

لطيف الاستمناح

قالت الحكماء: لطيف الآستمناح سبب النجاح، والأنفس ربما انطلقت وانشرحتْ بلطيف السؤال، وانقبضت وامتنعت بجفاء[5] السائل؛ كما قال الشاعر:

وجفَوْتنِي فقَطَعْتُ عنك فـوائـدي　　كـالـدَّرِّ يَقْطَعُـه جَفـاءُ الحالِـب

وقال العتابي: إن طلبت حاجة إلى ذي سلطان فأجمل في الطلب إليه، وإياك والإلحاحَ عليه؛ فإنّ إلحاحك يَكْلِمُ[6] عِرْضَكَ ويُريق ماء وجهك، فلا تأخذ منه عِوَضاً لما يأخذ منك؛ ولعلّ الإلحاح يجمع عليك إخلاقَ ماءِ الوجه، وحرمانَ النجاح؛ فإنه ربما مَلّ المطلوبُ إليه حتى يستخف بالطالب.

---

(١) برمت: ملّت، وهجس: تحدّث به سرّاً.

(٢) مقتبساً: أي طالباً قبساً من وميضها وضوئها.

(٣) انبجس: تفجرّ.

(٤) التسويق: المطل، ويكلّ: يتعب.

(٥) الجفاء: من المجافاة، وهي المفارقة والبعد.　　(٦) يكلِم: يجرح.

وقال الحسن بن هانيء:

تـأنّ مـواعيـدَ الكـــرامِ فـــرُبّما حمَلْتَ من الإلحاحِ سَمْحاً على بَخْـلِ

وقال آخر:

إنْ كنت طالبَ حـاجـةٍ فتجَمَّـلِ فيها بأحسنِ مـا طَلَبْـتَ وأجْمِـلِ
إنَّ الكـريمَ أخـا المروءَة والنُّهَــى مَـن ليس في حـاجـاتـه بِمُثقِّـلِ

بين مروان ابن أبي حفصة وابن يزيد:

وقال مروان بن أبي حفصة: لقيت يزيد بن مَزْيد وهو خارج من عند المهدي فأخذت بعنان دابّته وقلت له: إني قلت فيك ثلاثة أبيات أريد بكل بيت منها مائة ألف. قال: هاتِ لله أبوك، فأنشأت أقول:

يا أكرم الناس من عُجمٍ ومن عرب بعد الخليفة يا ضرغامـة العـربِ[1]
أفنيـت مـالـك تعطيــه وتُنْهِبــه يـا آفـة الفضـة البيضـاء والذهـبِ
إنّ السنان وحَدَّ السيـف لـو نطقـا لأخبرا عنك في الهيجاء بـالعجـبِ

عبد الملك ونفر من بني أمية:

المدائني قال: قَدم قوم من بني أُمية على عبد الملك بن مروان، فقالوا: يا أمير المؤمنين، نحن ممن تعرف، وحقُّنا ما لا يُنكر، وجئناك من بعيد، ونَمُتُّ[2] بقريب، ومهما تعطنا فنحن أهلُه.

الرشيد وعبد الملك بن صالح:

دحل عبدُ الملك بن صالح على الرشيد فقال: أسألك بالقرابة والخاصة أم بالخلافة والعامة؟ قال: بل بالقرابة والخاصة. قال: يداك يا أمير المؤمنين أطْلَقُ من لساني بالمسألة، فأعطاه وأجزل له.

---

(١) الضرغامة: الأسد. (٢) نمتّ: نصل.

ودخل أبو الرَّيان على عبد الملك بن مروان، وكان عنده أثيراً، فرآه خائراً[1]، فقال: يا أبا الريان، مالك خائراً؟ قال: أشكو إليك الشرف يا أمير المؤمنين! قال: كيف ذلك؟ قال: نُسأل ما لا نقدر عليه ونَعتذر فلا نُعْذَر. قال عبد الملك: ما أحسنَ ما اسْتَمْنَحْتَ واعْتَرَرْت[2] يا أبا الريّان. أعطوه كذا وكذا.

الحجاج والشعبي:

العتّابي قال: كتب الشَّعبي إلى الحجاج يسأله حاجة، فاعتلَّ عليه[3]، فكتب إليه الشَّعبي: والله لا عَذَرْتُك وأنت والي العراقين وابنُ عظيم القَريتين. فقضى حاجته. وكان جدّ الحجاج لأمه عروة بن مسعود الثقفي.

معاوية وابن زرارة:

العتبي قال: قدم عبد العزيز بنُ زرارة الكِلابي على أمير المؤمنين معاوية فقال: إني لم أزل أهزّ ذوائب الرِّحال إليك، فلم أجد مُعَوَّلاً إلا عليك، أمتطي الليل بعد النهار، وأسِمُ[4] المجاهلَ بالآثار، يقودني إليك أملٌ، وتسوقني بلوى، والمجتهد يُعذر، وإذا بلغتك فَقَطني[5]. فقال: احطط عن راحلتك.

يزيد بن المهلب وكريز:

ودخل كُريز بن زُفر بن الحارث على يزيد بن المهلب فقال: أصلح الله الأمير، أنت أعظم من أن يُستعان بك ويُستعان عليك، ولست تفعل من الخير شيئاً إلا وهو يصغُر عنك وأنت أكبرُ منه، ولا العجب أن تفعل، ولكن العجب ألا تفعل. قال: سل حاجتك. قال: حملت عن عشيرتي عَشْر ديات. قال: قد أمرتُ لك بها وشفعتُها بمثلها.

---

(١) خائراً: ضعيفاً. (٢) اعترَّ: أتاه طالباً معروفة.

(٣) اعتلَّ عليه: أي أوجد لنفسه عللاً لعدم تلبية ما سأله

(٤) أسِمَ: أعلّم، والواسم: العلامة والأثر. (٥) فقطْني: مقيمة وقاطنة.

حاتم الطائي وسائل حاجة:

العتبي عن أبيه قال: أتى رجل إلى حاتم الطائي فقال: إنها وقعت بيني وبين قوم ديات، فاحتملتها في مالي وأملي، فعدِمْتُ مالي وكنتَ أملي، فإن تحملها عني فرُبَّ همّ قد فرجتَه، وغَمّ كفيتَه، ودين قضيتَه، وإن حال دون ذلك حائل لم أذمّ يومك، ولم أيأسْ من غدِك. فحملها عنه.

خالد القسري وسائل:

المدائني قال: سأل رجل خالداً القسري حاجة، فاعتل عليه، فقال له: لقد سألتُ الأمير من غير حاجة. قال: وما دعاك إلى ذلك؟ قال: رأيتك تُحب من لك عنده حُسْنُ بَلاء؛ فأردتُ أن أتعلّق منك بحبل مودة. فوصله وحباه وأدنى مكانَه.

المنصور والهجري:

الأصمعي قال: دخل أبو بكر الهَجريّ على المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين نَغَضَ فمي[1]، وأنتم أهلَ البيت بركة، فلو أذِنْتَ لي فقبَّلتُ رأسك لعل الله يُشدّد لي منه! قال: اختر منها أو من الجائزة. فقال: يا أمير المؤمنين. أهونُ عليّ من ذهاب درهم من الجائزة ألاّ تبقى حاكّة في فمي. فضحك المنصور وأمر له بجائزة.

أبو دلف وجار له:

وذكروا أن جاراً لأبي دلف ببغداد لزمه كبير دَين فادح، حتى احتاج إلى بيع داره، فساوموه بها، فسألهم ألفي دينار؛ فقالوا له: إنّ دارك تساوي خمسمائة. قال: وجواري من أبي دُلف بألف وخمسمائة! فبلغ أبا دلف؛ فأمر بقضاء دينه وقال له: لا تَبعْ دارَك ولا تَنتقل من جوارنا.

---

(١) نغص فمي: أي تحرّكت أسنانه وقلقت.

قيس بن سعد وامرأة:

ووقفت امرأة على قيس بن سعد بن عبادة فقالت: أشكو إليك قلة الجِرْذان. قال: ما أحسن هذه الكِناية! املأوا لها بيتَها خُبزاً ولحماً وسمناً.

المنصور وأزهر السمان:

إبراهيم بن أحمد عن الشّيباني قال: كان أبو جعفر المنصور أيام بني أمية إذا دخل البصرة دخل مستتراً، فكان يجلس في حلقة أزهر السمان المحدّث، فلما أفضت الخلافة إليه قدم عليه أزهر، فرحّب به وقرّبه، وقال له: ما حاجتك يا أزهر؟ قال: داري متهدمة، وعليّ أربعة آلاف درهم، وأريد لو أن ابني محمداً بَنَى بعِياله[1]. فوصله باثنى عشر ألفاً، وقال: قد قضينا حاجتك يا أزهر؛ فلا تأتنا طالباً. فأخذها وارتحل. فلما كان بعد سنةٍ أتاه، فلما رآه أبو جعفر قال: ما جاء بك يا أزهر؟ قال: جئتك مسلماً. قال: إنه يقع في خَلَد أمير المؤمنين أنك جئت طالباً. قال: ما جئت إلا مسلّماً. قال: قد أمرنا لك باثنى عشر ألفاً، واذهب فلا تأتنا طالباً ولا مسلّماً. فأخذها ومضى؛ فلما كان بعد سنة أتاه، فقال: ما جاء بك يا أزهر؟ قال: أتيت عائداً، قال: إنه يقع في خلدي أنك جئت طالباً. قال: ما جئتُ إلا عائداً. قال: قد أمرنا لك باثنى عشر ألفاً، واذهب فلا تأتنا طالباً ولا مسلماً ولا عائداً. فأخذها وانصرف؛ فلما مضت السنة أقبل، فقال له: ما جاء بك يا أزهر؟ قال: دعاءٌ كنتُ أسمعك تدعو به يا أمير المؤمنين، جئت لأكتبه. فضحك أبو جعفر وقال: إنه دعاء غير مُستجاب، وذلك أني قد دعوت الله به ألا أراك فلم يَسْتَجِبْ لي، وقد أمرنا لك باثنى عشر ألفاً وتعال متى شئت، فقد أعْيَتْني فيك الحيلة.

ابن المهلب وأعرابي:

أقبل أعرابي إلى داود بن المهلب فقال له. إني مدحتك فاستمع. قال: على رسْلِك[2]! ثم دخل بيته وتقلّد سيفه وخرج، فقال: قُل، فإن أحسنتَ حكّمناك، وإن

---

(١) بنى بعياله: أي دخل على زوجته وتزوّج بها. (٢) على رسلك: على مهلك لا تتعجّل.

أسأت قتلناك! فأنشأ يقول:

أمِنْتُ بداودٍ وجودِ يمينِه ... من الحَدَثِ المخْشِيِّ والبُؤْس والفقْر
فأصبحتُ لا أخشى بداودَ نَبْوَةً ... منَ الحدَثَان إذْ شَدَدْتُ به أَزْري[1]
له حُكْمُ لُقْمانٍ وصورَةُ يوسُفٍ ... وحُكْمُ سُلَيْمان وعَدْلُ أبي بكْر
فتًى تَفْرَقُ الأموالُ من جُودِ كفِّه ... كما يَفْرَقُ الشيطانُ من ليْلةِ القدرِ[2]

فقال: قد حكمناك؛ فإن شئت على قدرك، وإن شئت على قدري. قال: بل على قدري. فأعطاه خمسين ألفا، فقال له جلساؤه: هلا احتكمت على قدر الأمير؟ قال: لم يك في ماله ما يفي بقدْرِه! قال له داود: أنت في هذه أشعرُ منك في شعرك. وأمر له بمثل ما أعطاه.

الرشيد وإسحاق الموصلي:

الأصمعي قال: كنت عند الرشيد إذ دخل عليه إسحاق بن إبراهيم الموصلي فأنشده:

وآمِرَةٍ بالبُخلِ قلتُ لها اقْصري ... فليس إلى ما تأمُرينَ سبيلُ
فِعَالي فَعالُ المُكْثِرينَ تَجمُّلاً ... ومالي كما قد تَعْلَمينَ قليلُ
فكيفَ أخافُ الفقْرَ أو أُحْرَمُ الغِنَى ... ورأيُ أميرِ المؤمنينَ جميلُ

فقال له الرشيد: لله دَرُّ أبيات تأتينا بها! ما أحسنَ أصولها وأبْيَنَ فصولها، وأقلّ فضولها! يا غلام أعطه عشرين ألفا. قال: والله لا أخذت منها درهما واحدا! قال: ولم؟ قال: لأن كلامك والله يا أمير المؤمنين خيرٌ من شعري! قال: أعطوه أربعين ألفا. قال الأصمعي: فعلمت والله أنه أصْيَدُ لدراهم الملوك مني.

---

(١) النبوة: المصيبة والجفوة.

(٢) تفرق: تخاف، من الفرق.

معاوية وزيد ابن منية:

العتبي عن أبيه قال: قدم زيد بن مُنية من البصرة على معاوية، وهو أخو يعلي بن مُنية صاحب الجمل، جمل عائشة رضي الله عنها، ومتولي تلك الحروب، ورأس أهل البصرة؛ وكانت ابنة يعلي عند عتبة بن أبي سفيان؛ فلما دخل على معاوية شكا دَيْنَه، فقال: يا كعب، أعطه ثلاثين ألفا. فلما ولّى قال: ولِيوم الجمل ثلاثين ألفاً أخرى، ثم قال له: الْحَقْ بصهرك - يعني عُتبة - فقدم عليه مصر. فقال: إني سرت إليك شهرين، أخوض فيهما المتالف[١]، ألبس أردية الليل مرّة، وأخوض في لُجَج السراب أخرى، مُوقَراً[٢] من حُسن الظن بك، وهارباً من دهرٍ قَطِم[٣]، ومن دين لَزِم، بعد غِنىً جَدَعْنا به أنوفَ الحاسدين. فقال عتبة: إن الدهر أعاركم غنى، وخلطكم بنا ثم استردّ ما أمكنه أخذه، وقد أبقى لكم منّا ما لا ضَيْعَةَ معه، وأنا رافع يدي ويدك بيد الله، فأعطاه ستين ألفاً كما أعطاه معاوية.

ابن سويد وأبو ساسان:

إبراهيم الشيباني قال: قال عبد الله بن علي بن سُويد بن مَنْجوف: أعدَمَ أبي إعدامةً بالبصرة وأنفَض[٤]، فخرج إلى خراسان فلم يصب بها طائلا. فبينا هو يشكو تعزُّر الأشياء عليه، إذ عدا غلامُه على كسوته وبغلته فذهب بهما، فأتى أبا ساسان حُضين ابن المُنذر الرقاشي فشكا إليه حاله، فقال له: والله يا بن أخي، ما عمُّك ممن يحمل محاملَك، ولعلّي أن أحتال لك. فدعا بكَسوة حسنة فألبسني إياها، ثم قال: امض بنا. فأتى باب والى خراسان، فدخل وتركني بالباب، فلم ألبث أن خرج الحاجب فقال: أي عليّ بن سُويد؟ فدخلت إلى الوالي، فإذا حُضين على فراش إلى جانبه، فسلمت على الوالي فردّ عليّ، ثم أقبل عليه حُضين فقال: أصلح الله الأمير، هذا علي

---

(١) المتالف: أي ما فيه تلفٌ للنفس وهلاك.

(٢) موقراً: مزوّداً محملاً. (٣) دهرٌ قطم: دهرٌ صؤل.

(٤) وأنفض: أي لم يبق لديه شيء من مالٍ وغيره.

ابن سُويد بن مَنجوف سيد فتيان بكر بن وائل وابن سيد كهولها، وأكثر الناس مالا حاضراً بالبصرة وفي كل موضعٍ ملكتْ به بكرُ بن وائل مالا، وقد تحمّل بي إلى الأمير في حاجة. قال: هي مقضية. قال: فإنه يسألك أن تمُدّ يدك في ماله ومراكبه وسلاحه إلى ما أحببت. قال: لا والله لا أفعل ذلك به، نحن أولى بزيادته. قال: فقد أعفيناك من هذه إذْ كرهتَها، فهو يسألك أن تحمِّله حوائجك بالبصرة. قال: إن كانت حاجة فهو فيها ثقة، ولكن أسألك أن تكلّمه في قبول معونة منا؛ فإنا نحب أي يُرَى على مثله من أثَرنا. فأقبل عليّ فقال: يا أبا الحسن، عزمتُ عليك ألاّ تردّ على عمّك شيئاً أكرمك به. فسكتُّ. قال: فدعا لي بمال ودوابّ وكِساً ورقيق، فلما خرجت قلت: أبا ساسان، لقد أوقفتني على خطة ما وقفتُ على مثلها قط. قال: اذهب إليك يا بن أخي، فعمُّك أعلم بالناس منك؛ إن الناس إن علموا لك غِرارة[1] من مال حَثَوْا[2] لك أخرى وإن يعلموك فقيراً تعدّوا عليك مع فقرك.

المهدي وأبو دلامة:

إبراهيم الشيباني قال: ولد لأبي دلامة ابنة ليلا، فأوقد السِّراج وجعل يخيط خريطة من شُقق، فلما أصبح طواها بين أصابعه وغدا بها إلى المهدي فاستأذن عليه، وكان لا يحجب عليه، فأنشده:

لو كان يقعُدُ فوقَ الشمسِ من كَرَمٍ　　　قومُ لِقيلَ اقْعُدوا يا آل عبَّاسِ
ثم ٱرتَقوا من شُعاع الشمس في دَرَجٍ　　　إلى السماء فأنتْم أكرَمُ الناسِ

قال له المهدي: أحسنت والله أبا دلامة، فما الذي غدا بك إلينا؟ قال: ولدت لي جارية يا أمير المؤمنين. قال: فهل قلت فيها شعرا؟ قال: نعم قلت:

فما وَلَدَتْكِ مريمُ أُمّ عيسى　　　ولم يَكْفُلْكِ لقمانُ الحكيمُ
ولكنْ قد تَضُمُّكِ أُمّ سَوءٍ　　　إلى لَبّاتِها وأبٌ لئيمُ[3]

---

(١) الغرارة: الكيس الكبير.

(٢) حثوا: أعطوا وجمعوا وحثا التراب: أهاله

(٣) اللبّات: جمع لبّة، وهي الصدر أو موضع القلادة منه.

قال فضحك المهدي وقال: فما تريد أن أعينك به في تربيتها أبا دلامة؟ قال: تملأ هذه يا أمير المؤمنين. وأشار إليه بالخريطة بين إصبعيه. فقال المهدي: وما عسى أن تحمل هذه؟ قال: من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير. فأمر أن تُملأ مالا، فلما نُشرت أخذتْ عليهم صحنَ الدار، فدخل فيها أربعة آلاف درهم.

وكان المهدي قد كسا أبا دلامة ساجا[1]، فأُخذ به وهو سكران، فأُتي به إلى المهدي؛ فأمر بتمزيق الساج عليه وأن يحبس في بيت الدَّجاج؛ فلما كان في بعض الليل وصحا أبو دلامة من سُكره ورأى نفسه بين الدّجاج، صاح: يا صاحب البيت! فاستجاب له السجان، قال: مالك يا عدّو الله؟ قال: ويْلَك! من أدخلني مع الدَّجاج؟ قال: أعمالك الخبيثة! أُتي بك أمير المؤمنين وأنت سكران، فأمر بتمزيق ساجك وحبْسك مع الدّجاج. قال له: ويلك! أوَ تقدر على أن تُوقد لي سراجا وتَجيئني بدواة وورق ولك سَلَبي[2] هذا. فأتاه بدواة وورق؛ فكتب أبو دُلامة إلى المهديّ:

أَمِن صهْباءَ صافيةِ المِزاجِ ... كأنّ شعاعَها لهبُ السَّراجِ
تَهَشُّ لها النفوسُ وتشتهيها ... إذا بَرَزت تَرقرقُ في الزُّجاجِ
وقد طبخت بنار الله حتى ... لقد صارت من النُّطف النّضاج[3]
أميرَ المؤمنين فدتْكَ نفسي ... علامَ حبستِني وخرقت ساجي
أُقادُ إلى السجونِ بغير ذنبٍ ... كأنّي بعضُ عُمَّال الخَراجِ
ولو معهم حُبستُ لهان وجدي ... ولكنّي حُبستُ مع الدَّجاجِ
دَجاجاتٌ يُطيفُ بهنّ ديكٌ ... يُنادي بالصّياحِ إذا يُناجي
وقد كانت تُخبّرُني ذنوبي ... بأنّي من عذابك غيرُ ناجي
على أنيّ وإن لاقيتُ شراً ... لخيْرِك بعد ذاك الشرِّ راجي

ثم قال أوصِلها إلى أمير المؤمنين. فأوصلها إليه السجّان، فلما قرأها أمر بإطلاقه

(١) الساج: الطيلسان الأسود أو الأخضر.
(٢) السلب: الغنيمة. (٣) النُّطفة: الماء الصافي قلّ أو كثر.

وأدخله عليه، فقال له: أين بت الليلة أبا دُلامة؟ قال: مع الدجاج يا أمير المؤمنين. قال: فما كنتَ تصنع؟ قال: كنت أُقاقي معهن حتى أصبحْت. فضحك المهدي وأمر له بصلة جزيلة، وخلع عليه كسوة شريفة.

بين أبي دلامة وعيسى بن موسى:

وكتب أبو دُلامة إلى عيسى بن موسى وهو والي الكوفة رُقعة فيها هذه الأبيات:

إذا جئْـتَ الأميرَ فقـل سلامٌ ... عليـك ورحمةُ الله الرَّحيمِ
فـأمّـا بعـدَ ذاك فلِـي غـريمٌ ... مـن الأنصـارِ قُبـحَ مـنْ غـريمِ
لَـزومٌ مـا علِمـتُ لِبـابِ داري ... لُـزُومَ الكلـبِ أصحـاب الرَّقيمِ[1]
لـه مئـةٌ عليَّ ونِصـفُ أُخْـرَى ... ونِصـفُ النصْفِ في صكٍّ قديمِ
دراهِـمُ مـا انتفعْـتُ بها ولكـن ... وصَلْـتُ بها شُيـوخَ بني تميمِ
أتَـوني بـالعشيرة يسـألـوني ... ولم أكُ في العشيرة بـاللئيمِ

قال: فبعث إليه بمائة ألف درهم.

أبو دلف وأبو دلامة:

ولقي أبو دُلامة أبا دُلف في مصَادٍ له وهو والي العراق، فأخذ بعِنان فرسه وأنشده:

إنّـي حَلْفـتُ لئِـنْ رأيتُـكَ سـالماً ... بِقُـرَى العـراقِ وأنـتَ ذُو وَفْـرِ
لتُصَلّيَـنَّ عَلي النبيّ مُحَمَّـدٍ ... ولتَمْلأَنَّ دراهماً حِجْـرِي[2]

فقال: أمّا الصلاة على النبيّ فنعم، ﷺ. وأما الدراهم، فلمّا نرجع إن شاء الله تعالى. قال له: جُعلتُ فِداك. لا تَفْرق بينهما. فاستلَفها له وصُبَّت في حِجره حتى أثقلتْه.

(١) أصحاب الرقيم: أصحاب الكهف، وفي معنى الرقيم أقوال مختلفة، فقيل: هو الكتاب، وقيل: هو كتبت فيه أسماؤهم، أو هو الدواة، أو هو القرية أو هو الوادي.
(٢) حجري: حضني.

أبو دلامة والمهدي:

ودخل أبو دُلامة على المهدي، فأنشده أبياتاً أعجب بها، فقال له: سَلْني أبا دُلامة وٱحتكم وأفرِط ما شئت. فقال: كَلبٌ يا أمير المؤمنين أصطاد به. قال: قد أمرنا لك بكَلْب، وهاهنا بلغت همتك، وإلى هاهنا انتهت أُمنيتك؟ قال: لا تعْجَل عليّ يا أمير المؤمنين، فإنه بقي عليّ. قال: وما بقي عليك؟ قال: غلامٌ يقود الكلب. قال: وغلام يقود الكَلب. قال: وخادِم يَطبخ الصَّيد. قال: وخادم يطبخ الصيد. قال: ودار نَسكنها. قال: ودار تَسكنها. قال: وجارية نأوي اِليها. قال: وجارية تأوي إليها. قال: قد بقي الآن المعاش. قال: قد أقطعناك ألفي جريب[1] عامرة وألفي جريب غامرة. قال: وما الغامرة يا أمير المؤمنين؟ قال: التي لا تَعْمُر. قال: أنا أقطع أمير المؤمنين خمسين ألفا من فيافي بني أسد. قال: قد جعلتُها كلّها لك عامرة. قال: فيأذن لي أمير المؤمنين في تقبيل يده؟ قال: أما هذه فدعها. قال: ما منعتَني شيئاً أيسرَ على أمّ ولدي فقداً منه.

أبو دلامة والمنصور:

ودخل أبو دُلامة على أبي جعفر المَنصور يوماً وعليه قلنسوة طويلة، وكان قد أخذ أصحابَه بلباسها وأخذهم بلُبس دراريع، عليها مكتوب بين كتفي الرجل: ﴿فسيَكْفيكَهُمُ اللهُ وهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾[2] وأمرهم بتعليق السيوف على أوساطهم. فدخل عليه أبو دُلامة في ذلك الزِّيّ، فقال له: كيف أصبحت أبا دُلامة؟ قال: بشَرّ حال يا أمير المؤمنين. قال: كيف ذلك؟ ويلك. قال: وما ظنُّك يا أمير المؤمنين بمن أصبح وجههُ في وسطه، وسيفهُ على اسْتِه، وقد نَبَذ كتاب الله وراء ظهره؟ قال: فضحك أبو جعفر وأمر بتغيير ذلك، وأمر لأبي دُلامة بصلة.

---

(١) الجريب: ثلاثة آلاف وستمائة ذراع، وقيل عشرة آلاف ذراع.

(٢) سورة البقرة الآية ١٣٧.

هو والمنصور أيضاً:

وأوصل أبو دُلامة إلى العبّاس بن منصور رقعةً فيها هذه الأبيات:

قِفْ بالديار وأيَّ الدهرِ لم تَقِفِ ... على منازلَ بيْنَ السَّهْلِ والنجفِ
وما وُقُوفُكَ في أطْلال منزلةٍ ... لولا الذي استحدثتْ في قلبكَ الكَلِفِ[1]
إنْ كنتَ أصبَحْتَ مشْغوفاً بجاريَةٍ ... فلا وربِّكَ لا يشفيكَ من شَغَفِ
ولا يَزيدُك إلاّ العَلَّ من أَسَفِ ... فهل لقلبك مِن صبْرٍ على الأسفِ[2]
هذي مقالَةُ شَيْخٍ مِنْ بني أسدٍ ... يُهدِي السَّلامَ إلى العبَّاسِ في الصُّحُفِ
تَخُطُّها من جواري المصْرِ كاتبةٌ ... قد طالما ضُربت في اللام والألفِ
وطالَما اخْتَلَفتْ صَيْفاً وشاتِيَةً ... إلى مُعَلِّمِها باللّوْحِ والكتفِ
حتى إذا ما استوىَ الثَّدْيَان وامْتلأت ... منها وخِيفَتْ على الإسراف والقَرفِ[3]
صينتْ ثلاثَ سِنِين ما تَرَى أَحداً ... كما تُصانُ ببَحْرٍ دُرَّةُ الصَّدَفِ
بينا الفتَى يتَمَشَّى نحْوَ مَسْجدِهِ ... مُبادِراً لِصلاةِ الصُّبْحِ بالسُّدفِ[4]
حانتْ لهُ نَظْرَةٌ منها فأبْصَرَها ... مُطِلَّةً بين سجْفَيْها مِنَ الغُرَفِ
فَخَرَّ في التُّرْبِ ما يَدْرِي غَدَاتَئِذٍ ... أخَرَّ مُنْكَشِفاً أو غيرَ مُنْكَشِفِ
وجاءَهُ القَوْمُ أفْواجاً بمائِهِمُ ... لِيَنْضَحُوا الرجُلَ المَغْشِيَّ بالنُّطَفِ[5]
فَوَسْوَسُوا بقُرانٍ في مَسَامِعِهِ ... خوفاً من الجنّ والإنسان لم يَخَفِ...
... شيئاً، ولكنه منْ حُبِّ جاريَةٍ ... أمْسَى وأصبح منْ موْتٍ على شرفِ
قالوا لك الخيْرُ ما أبصرتَ قلتُ لهم ... جنِّيَّةٌ أقصَدَتْني من بني خَلَفِ
أبصرْتُ جاريةً مَحْجوبةً لهمُ ... تطلَّعَتْ من أعالي القصرِ ذي الشُّرَفِ
فقلتُ: أيُّكُمُ واللهُ يأجُرُهُ ... يُعيرُ قُوَّتَهُ منِّي إلى ضَعَفي
فقامَ شَيْخٌ بَهيٌّ منْ تجارهمُ ... قد طالما خَدَعَ الأقوامَ بالحَلِفِ

---

(١) الكلف: العاشق.

(٢) العَلّ: المرض والعلّة. (٣) القرف: التهمة.

(٤) السُّدف: جمع سدفة وهي الظلمة.

(٥) النُّطف: جمع نطفة، وهو الماء الصافي قلّ أو كثر.

فابتاعَها لي بـأَلْفَـيْ أَحْمَـرٍ فغَـدَا بها إليَّ فـألقـاهـا على كَتِفِـي
فبِـتُّ أَلثِمهـا طَـوْراً وتلثِمُني طوْراً ونفعلُ بعض الشيء في اللُّحُـفِ
بتنا كذلـك حتى جـاءَ صـاحِبُهـا يَبْغِي الدنانيرَ بالميزان ذي الكِفَف[1]
وذاك حقٌّ علي «زَنْدٍ» وكيف بـه والحقُّ في طرفٍ والعينُ في طرف[2]
وبين ذاك شهـودٌ لم أبـال بهم أكنـتُ مُعْتَرِفـاً أم غيرَ مُعْتَـرِفِ
فإن تصِلْنِي قَضَيْتُ القـومَ حَقهُـم وإن تَقُلْ لا فَحَقُّ القـوم في تَلَـفِ

فلما قرأ العباس الأبيات أُعجب بها وآستظرفها وقضى عنه ثمن الجارية. واسم أبي دلامة زَنْد.

جعفر بن يحي وعبد الملك بن صالح:

إبراهيم بن المهدي قال: قال لي جعفر بن يحي يوماً: إني آستأذنت أمير المؤمنين في الحجامة وأردتُ أن أخلوَ وأَفِرَّ من أشغال الناس وأتَرَوَّح، فهل أنت مساعدي قلت: جعلني الله فِداك، أنا أسعد الناس بمساعدتك وآنسُ بمُخالاتك[3]. قال: بكِّرْ إليَّ بُكُور الغراب. قال فأتيت عند الفجر الثاني، فوجدت الشمعةَ بين يديه، وهو قاعد ينتظرني للميعاد. قال فصيلنا ثم أفضْنا في الحديث حتى جاء وقت الحجامة فأُتى بحَجّام فحجَّمنا في ساعة واحدة، ثم قُدِّم إلينا طعامٌ فطَعِمْنا، فلما غسلنا أيدينا خُلع علينا ثياب المُنادمة، وضُمّخنا بالخَلُوق[4]، وظَلِلنا بأسَرِّ يومٍ مرَّ بنا، ثم إنه ذكر حاجة فدعا الحاجب، فقال: إذا جاء عبد الملك القَهرمانِي فأْذنْ له. فنسي الحاجب. وجاء عبدُ الملك بن صالح الهاشمي على جلالته وسنِّه وقَدره وأدبه، فأذِن له الحاجب. فما راعنا إلا طلعةُ عبد الملك. فتغيرُ لذلك جعفرُ بن يحي وتنغّص عليه ما كان فيه. فلما نظر عبد الملك إليه على تلك الحالة، دعا غلامَه فدفع إليه سيفَه وسوادَه وعمامتَه،

(١) ذي الكفف: أي الذي له كفّتان.
(٢) العين الذهب.
(٣) مخالاتك: أي الخلوة وإيّاك.
(٤) الخلوق: الطيب.

ثم جاء ووقف على باب المجلس، وقال: آصنعوا بي ما صنعتم بأنفسكم. قال: فجاء الغلام فطرح عليه ثياب المنادمة، ودعا بالطعام فطَعِم. ثم جاء بالشراب فشرِبَ ثلاثاً، ثم قال: ليُخفِّف عنيّ فإنه شيء ما شربتُه قط. فتهلل وجهُ جعفر وفرح. وكان الرشيد قد عتَب على عبد الملك بن صالح ووجد[1] عليه. فقال له جعفر بن يحيى: جعلني الله فداك، قد تفضَّلتَ وتطوّلت وأسعدت، فهل من حاجة تبلُغها مقدرتي، أو تحيط بها نِعمتي، فأقضيَها لك مكافأةً لما صنْعت؟ قال: بلى، إن قلب أمير المؤمنين عاتبٌ عليّ فسَلهُ الرضا عني. قال: قد رضي عنك أمير المؤمنين. ثم قال: عليَّ أربعة آلاف دينار. قال: حاضرة، ولكن من مال أمير المؤمنين أحبُّ اليك. قال: وابني إبراهيم أُحب أن أشُدّ ظهره بصهرٍ من أولاد أمير المؤمنين. قال: قد زوّجه أمير المؤمنين عائشة. قال: وأحب أن تَخفق الألويةُ على رأسه. قال: قد ولاّه أمير المؤمنين مِصر. قال: وانصرف عبد الملك ونحن نعجب من إقدامه على قضاء الحوائج من غير آستئذان أمير المؤمنين. فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد ودخل جعفر، فلم نلبث أن دُعي بأبي يوسف القاضي ومحمد بن الحسن وإبراهيم بن عبد الملك، فعقد النكاح وحُملت البدَرُ إلى منزل عبد الملك؛ وكتب سجلَّ إبراهيم على مصر.. وخرج جعفر فأشار إلينا، فلما صار إلى منزله ونحن خلفه، نزل ونزلنا بنزوله؛ فالتفت إلينا، فقال: تعلقت قلوبكم بأوّلِ أمرِ عبد الملك فأحببتم معرفة آخرِه، وإني لما دخلت على أمير المؤمنين مَثَلتُ بين يديه وابتدأت القصة من أولها؛ فجعل يقول: أحْسَن واللهِ، فما صنعتَ؟ فأخبرته بما سأل وبما أجبتُه به، فجعل يقول في ذلك: أحسنت: أحسنت! وخرج إبراهيم والياً على مصر.

ذو حاجة على باب ملك من الأكاسرة:

وقدم رجل على ملك من ملوك الأكاسرة، فمكث ببابه حيناً لا يصل إليه، فتلطف في رقعة أوصلها إليه، وفيها أَربعة أسطر:

---

(١) وجد: من الموجودة، وهي الغضب.

في السطر الأول: الضُّر والأمل أقدماني عليك.

والسطر الثاني: الفقر لا يكون معه صبر على المطالبة.

والسطر الثالث: الانصراف بلا فائدة فتنةٌ وشماتةٌ للعدوّ.

والسطر الرابع: فإما نعمْ مثمرة، وإما لا مُرِيحةَ.

فلما قرأها وقّع تحت كل سطر منها بألف مثقال وأمر له بها.

يحي بن خالد وشاعر:

وقد دخل رجل من الشعراء على يحي بن خالد بن يَرْمك فأنشده:

سألتُ النَّدَى هل أنت حُرٌّ؟ فقال لا ... ولكنَّني عبدٌ ليَحْيي بنِ خالِدِ
فقلتُ شِراءٌ قال لا بل وِراثةً ... تَوارَثَني عن والِدٍ بعدَ والِد

فأمر له بعشرة آلاف.

خالد القسري وأعرابي:

ودخل أعرابيّ على خالد بن عبد الله القسريّ فأنشده:

أخالِدُ إني لم أَزُرْكَ لخَلَّةٍ ... سِوى أنني عافٍ وأنتَ جوادُ[1]
أخالدُ بيْنَ الحمدِ والأجرِ حاجتي ... فأيَّهما تأتي فأنتَ عِمادُ

فأمر له بخمسة آلاف درهم.

العباس القائد وابن عبد ربه:

ومن قولنا في هذا المعنى - ودخلتُ على أبي العبّاس القائد فأنشدتُه:

اللهُ جَرَّد للنَّدَى والباسِ ... سيْفاً فقلّدَهُ أبا العبّاسِ
مَلِكٌ إذا اسْتَقْبَلْتَ غُرَّةَ وجهِه ... قبضَ الرَّجاءُ إليك روحَ الياسِ

(١) الخَلّة: الصداقة وعافٍ: معدم وفقير.

وجـهُ عليـه مـنَ الحياء سَكينـــةٌ ومحَبَّـةٌ تَجْـري مـــن الأنفـــاسِ
وإذا أحـبَّ اللهُ يَـــومـــاً عبْـــدَهُ أَلقـــى عليـــه محَبَّـــةً للنـــاس

ثم سألتهُ حاجة فيها بعضُ الغِلظ، فتلكأ عليّ. فأخذت سحَايةً[1] من بين يديه فوقّعتُ فيها على البديهة:

ما ضرَّ عندك حـاجتي مـا ضرَّهـا عُذراً إذا أعْطيْتَ نفسكَ قـدْرَهـا
انظرْ إلى عَـرْضِ البلادِ وطـولِهـا أَوَلسـتَ أكـرمَ أهلهـا وأبَـرَّهـا
حاشى لجودِك أنْ يُـوَعِّـرَ حـاجتي ثقَتي بِجودِك سَهَّلَـتْ لي وَعْـرَهـا
لا يَجْتَني حُلْـوَ المحـامـدِ مـاجِـدٌ حتى يذوقَ مـن المطـالـبِ مُـرَّهـا

فقضى الحاجة وسارع إليها.

المتوكل وعبدالله ابن يحي:

وأبطأ عبدُالله بن يحيي عن الديوان، فأرسل إليه المتوكل يتعرّف خبره، فكتب إليه:

عليـــلٌ مـــن مكـــانيْـــنِ مِـــنَ الإفلاسِ والدَّيْـــنِ
ففـــي هٰـــذيْـــنِ لي شُغْـــلٌ وحَسْبي شُغْـــلُ هٰـــذيْـــنِ

فبعث إليه بألف دينار.

الفضل بن يحي ومستمنح:

عبدالله بن منصور قال: كنت يوماً في مجلس الفضل بن يحي، فأتاه الحاجب فقال: إن بالباب رجلا قد أكثر في طلب الإذن وزَعَم أن له يداً يَمُتُّ بها فقال: أدْخِلْه. فدخل رجل جميل الوجه رَثُّ الهيئة، فسلّم فأحْسَن. فأومأ إليه بالجلوس فجلس؛ فلما علم أنه قد انطلق وأمكنه الكلام، قال له: ما حاجتك؟ قال له: قد

(١) السحاية: القرطاس.

أعربتْ بها رثاثةُ هيئتي، وضعفُ طاقتي! قال: أجلْ، فما الذي تَمُتُّ به؟ قال: ولادةٌ تقرب من ولادتك، وجِوار يدنو من جوارِك، واسم مشتق من اسمك. قال: أمّا الجوار فقد يمكن أن يكون كما قلت، وقد يُوافق الاسمُ الاسم، ولكن ما عِلْمُكَ بالولادة؟ قال: أعلمتْني أمي أنها لما وضَعتْني قيل إنه وُلد الليلةَ ليحيي بن خالد غلام وسُمّي الفضل؛ فسمّتني فُضَيْلاً، إعظاماً لاسمك أن تُلْحِقني بك. فتبسم الفضل وقال: كم أتى عليك من السنين؟ قال: خمسٌ وثلاثون. قال: صدقت، هذا المقدار الذي أَتيت عليه، فما فعلت أمُّك؟ قال: توفيت رحمها الله، قال: فما منعك عن اللّحوق بنا فيما مضى؟ قال: لم أرض نفسي للقائك، لأنها كانت في عامّية وحداثة تُقعِدني عن لقاء الملوك. قال: يا غلام أعطه لكل عام مضى من سِنيه ألفاً، وأعطه من كُسوتنا ومراكبنا ما يصلح له. فلم يخرج من الدار إلا وقد طاف به إخوانه وخاصة أهله.

من حبيب إلى ابن أبي دواد:

وكتب حبيب بن أوس الطائي إلى أحمد بن أبي دُواد:

اعلمْ وأنــتَ المرءُ غيْــرَ مُعلَّــمِ ... وافهمْ جُعِلْتُ فِداك غيْـرَ مُفَهَّـمِ

أنّ اصطناع العُـرْفِ مـا لم تُـولِـهِ ... مُستكْمِلا كالثّوْبِ مـا لم يُعْلَـمِ (١)

والشُّكـرُ مـا لم يُسْتَثَــرْ بصنيعَـةٍ ... كـالخَطِّ تَقْـرَؤُهُ وليس بمُعْجَـمِ (٢)

وتفنُّني في القـولِ إكثـارٌ وقــد ... أَسْرجْتَ في كرَمِ الفعالِ فألِجْمِ

وقال دعبل بن علي الخزاعي في طاهر بن الحسين صاحب خراسان:

أيـا ذا اليَمنَيْــنِ والدّعْــوتَيْــنِ ... ومـن عنـده العُـرْفُ والنّـائــلُ

أتــرْضى لمثلــيَ أنّــي مُقيمٌ ... ببــابِــكَ مُطّـرحٌ خـامِـلُ

رَضيـتُ مـن الْوُدِّ والعـائِـداتِ ... ومـن كـلّ مـا امّـلَ الآمِـلُ

بتَسليمَـةٍ بيْـنَ خمسٍ وسِــتّ ... إذا ضَمّـكَ المجلِسُ الحافِــلُ

وما كنتُ أرضى بذا مِـن سِواكَ ... أيَـرضى بـذا رَجُـلٌ عـاقِـلُ

---

(١) يعلم: يطرز ويوشّى. (٢) يستثر: يثار ويصحب الخط المعجم: المنقوط.

وإن نابَ شغْلٌ ففي دون ما تُدبِّرُهُ شُغُلٌ شاغلُ
عليكَ السلامُ فإني امرُؤٌ إذا ضاقَ بي بلدٌ راحِلُ

بين زياد وضبيّ:

الأصمعي قال: نظر زياد إلى رجل من ضَبّة يأكل أكلا قبيحاً، وهو أقبح الناس وجهاً، فقال: يا أخا ضبّة، كم عيالك؟ قال: سبع بنات أنا أجمل منهن وجهاً، وهنّ آكَلُ مني. فضحك زياد وقال: لله درك! ما ألطفَ سؤالك! افرضوا له ولكل واحدة منهن مائة وخادماً، وعجّلوا له ولهن بأرزاقهن. فخرج الضّبي وهو يقول:

إذا كنتَ مُرْتادَ السّماحةِ والنّدَى فنادِ زِياداً أَوْ أخاً لِزيادِ
يُجبْكَ امرُؤٌ يُعْطي على الحمدِ مالهُ إذا ضَنّ بالمعْروفِ كُلُّ جَوادِ
وما لَيَ لا أُثْني عليكَ وإنّما طَرِيفيَ من مَعروفكمْ وتِلادِي[1]

ووقف دعبل ببعض أمراء الرقّة، فلما مثل بين يديه قال: أصلح الله الأمير، إني لا أقول كما قال صاحب مَعْن:

بأيّ الخلّتَيْن عليك أُثني فإني عندَ مُنْصرَفي مَسُول
أبالحسنى وليس لها ضِياءٌ عليَّ فمنْ يُصَدِّقُ ما أقول
أمِ الأخرى ولستَ لها بأهْلٍ وأنتَ لكلِّ مَكْرُمَةٍ فَعُول

ولكني أقول:

ماذا أقولُ إذا أَتيْتُ مَعاشِري صِفْراً يَداي منَ الجواد المُجْزِلِ
إنْ قلتُ أَعطاني كذَبْتُ وإن أَقُلْ ضَنَّ الأميرُ بمالِهِ لم يَجْمُلِ
ولأَنْتَ أعْلَمُ بالمكارمِ والعُلا مِنْ أنْ أقولَ فعَلتَ ما لم تَفعلِ
فاخْتَرْ لنفسكَ ما أقولُ، فإنّني لا بُدَّ مُخْبِرهُمْ وإنْ لم أُسْأَلِ

قال له: قاتلك الله! وأمر له بعشرة آلاف درهم.

بشر بن مروان وابن عبدل:

العُتبي قال: دخل آبن عَبْدل على عبد الملك بن مبشر بن مروان لما ولي الكوفة،

---

(١) الطريف والتالد: المال المكتسب والموروث.

فقعد بين السماطين[1] ثم قال: أيها الأمير، إني رأيت رُؤيا فأذَنْ لي في قَصَصِها. فقال: قل. فقال:

أغفَيْت قبل الصُبْح نَومَ مُسَهّدٍ ... في ساعةٍ ما كنتُ قبلُ أنامُها
فرأيتُ أنكَ رُعْتَني بوَليدةٍ ... مَفلوجَةٍ حَسَنٍ عليَّ قيامُها[2]
وببدْرة حُمِلَت إليّ وبغْلةٍ ... شَهْباءَ ناجيَةٍ يَصِرُّ لَجامُها[3]

قال له عبد الملك بن بشر بن مروان: كل شيء رأبت فهو عندي إلا البغلة، فإنها دهماء فارهة[4]. قال: آمرأتي طالق ثلاثا إن كنتُ رأيتُها إلاّ دهماء، إلاّ أني غَلِطت.

علي الأرميني والبطين:

الشيباني عن البطَين الشاعر قال: قدمت على علي بن يحيى الأرمينيّ فكتبتُ إليه:

رأيتُ في النَّوْم أنّي راكبٌ فرساً ... ولي وصيفٌ وفي كفي دنانيرُ
فقال قومٌ لهم حذق ومعرفةٌ ... رأيتَ خيْراً وللأحْلام تعْبيرُ
رُؤياكَ فسِّر غداً عندَ الأمير تجدْ ... تعبيرَ ذاك وفي الفأل التَّباشيرُ
فجئْتُ مُسْتَبْشراً مُسْتَشعِراً فَرَحاً ... وعندَ مِثْلِكَ لي بالفعلِ تَيْسيرُ

قال: فوقّع لي في أسفل كتابي: ﴿أضغاثُ أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾[5] ثم أمر لي بكل شيء ذكرته في أبياتي ورأيته في منامي.

وقال بشار العقيلي:

حتى متَى ليْتَ شِعْري يا بن يَقْطِينِ ... أُثنِي عليْك بما لاَ منك تُوليني
أمَا عَلمتَ جَزاك اللهُ صالحةً ... عني وزادَك خيْراً يا بن يَقْطِينِ
أنّي أُريدُك للدُّنيا وزينتِها ... ولا أُريدُك يوْم الدِّين للدّين

---

(١) السماطين: الصفّين.
(٢) مفلوجة: من الفلج، وهو تباعد الأسنان بعضها عن بعض بحيث تكون سهلة التخلّل، وهي صفة تحبّها العرب.
(٣) البدرة: الصرّة من الدراهم والفاجية.
(٤) الفارهة: نشطية وشديدة الأكل. (٥) سورة يوسف الآية ٤٤.

وقال آخر في مثل هذا المعنى:

يا بنَ العلاءِ ويا بنَ القَرْمِ مِـرْداس ... إني لأَطْريـكَ في أهلي وجُلاَّسي [(١)]

أُثني عليـكَ ولي حــالٌ تُكـذِّبُني ... فيما أقولُ فأستحْيي مـن النـاس

حتى إذا قيلَ: ما أعْطاكَ مِن صَفَـدٍ ... طأطأتُ مِن سوءِ حالي عندها راسِي [(٢)]

الأخذ من الأمراء

لعثمان في جائزة السلطان:

حدّثنا جعفر بن محمد، عن يزيد بن سِمْعان، عن عبد الله بن ثَوْر، عن عبد الحميد ابن وهْب، عن أبي الخَلال، قال: سألت عثمان بن عفّان عن جائزة السلطان، فقال: لحمٌ طريٌّ ذكي.

عكرمة والجائزة:

جعفر بن محمد، عن يحيي بن محمد العامريّ، عن المُعتمر، عن عِمْران بن حُدَير، قال: انطلقت أنا ورجل إلى عكرمة، فرأى الرجل عليه عمامة متخرِّقة، فقال الرجل: عندنا عمائم، ألا نبعث إليك بعمامة منها؟ قال عكرمة: إنا لا نقبل من الناس شيئاً، إنما نقبل من الأمراء.

الحسن البصري وخميصته:

وقال هشام بن حسان: رأيتُ على الحسن البصري خَميصة [(٣)] لها أعلام يصلّي فيها، أهداها إليه مَسلمة بن عبد الملك.

وكان النبي ﷺ يلبس خُفَّين أسودين أهداهما إليه النجاشي صاحب الحبشة.

وقال نافع: كان عبد الله بن عمر يقبل هدايا أهل الفِتْنة، مثل المختار وغيره.

ودخل مالك بن أنس على هارون الرشيد فشكا إليه دَيْناً لزمه فأمر له بألف دينار

---

(١) القرم: السيِّد.

(٢) الصفد: العطاء. (٣) الخميصة: كساءٌ أسود مربع له علمان.

عَيْن. فلما وضع يديه للقيام، قال: يا أمير المؤمنين، وزوّجْتُ ابني محمداً فصار عليّ فيه ألفُ دينار. قال: ولابنه محمد ألف دينار.

قال: فلقد مات مالك وتركها لوارثه في مِزْود.

وقال الأصمعي: حدّثني إسحاق بن يحيي بن طلحة قال: كان الربيع بن خُثَيم في ألف ومائة من العطاء فكلم فيه أبي معاويةَ فألحقه بألفين؛ فلما حضر العطاء نودي الربيعُ بن خُثَيم، فقيل له: في ألفين. فقعد، فنظروا فوجدوا على اسمه مكتوباً: كَلَّم فيه يحيي بنُ طلحة أميرَ المؤمنين فألحقه بألفين.

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: يا أبا إسحاق، كنتُ أريد أن تقبل مني هذه الجُبة كُسوةً. قال: إن كنتَ غنياً قبلتُها منك، وإن كنتَ فقيراً لم أقبلها منك. قال: فإني غني. قال: وكم مالك؟ قال: ألفا دينار. قال: فأنتَ تودُّ أنها أربعة آلاف؟ قال: نعم. قال: فأنت فقير، لا أقبلها منك.

وأمر إبراهيم بن الأغلب المعروف بزيادة الله، بمال يقسم على الفقهاء، فكان منهم من قَبل ومنهم من لم يقبل، فكان أسدُ بن الفُرات فيمن قَبل، فجعل زيادة الله يَغْمِص[١] على كل من قَبِل منهم، فبلغ ذلك أسدَ بن الفرات، فقال: لا عليه، إنما أخذنا بعضَ حقوقنا والله سائلُه عما بقى!

وقد فخرت العربُ بأخذ جوائز الملوك وكان من أشرف ما يتموَّلونه، فقال ذو الرمة:

وما كان مـالي مـن تُـراثٍ ورِثْتُـهُ ... ولا ديةٍ كانـتْ ولا كَسْـب مَـأْثمِ
ولكن عطاءُ اللهِ مـن كـلِّ رحلـةٍ ... إلى كلّ مَحْجُوبِ السُّرادق خِضْرِمِ[٢]

وقال آخر يهجو مروان بن أبي حفصة ويعيبه بأخْذِه من العامة ويفخر بأنه لا يأخذ إلا من الملوك، فقال:

---

(١) يغمص: يعيب. (٢) الخضرم: الكريم.

عَطـايـا أمير المؤمنينَ، ولم تكــنْ مُقصَّمـةً مــنْ هــؤُلا وأُولئِكــا
وما نِلْـت حتّـى شبـتَ إلا عطيّـةً تَقـومُ بها مَصْـرورةً في رِدائِكــا

تفضيل بعض الناس على بعض في العطاء

ذَكر عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه الفقراء فقال: إن سعيد بن خِذْيم منهم. فأعطاه ألف دينار، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أعطيتَ فأَغْنِ».

وقدم على رسول الله ﷺ وفدٌ من العرب فأعطاهم وفضلَ رجلاً منهم؛ فقيل له في ذلك، فقال: كل القوم عِيالٌ عليه.

الرسول ﷺ والعباس بن مرداس:

وأعطى النبي ﷺ يوم حنين المؤلَّفةَ قلوبُهم، فأعطى الأقرعَ بن حابس التميمي. وعُيينة بن حصن الفَزاري، مائةً من الإبل، وأعطى العبّاس بن مرداس السُّلمي خمسين؛ فشق ذلك عليه، فقال أبياتاً. فأتاه بها وأنشده إياها وهي:

أيَـذْهـبُ نَهبـي ونَهْـبُ العُبيـــــدِ بيْــنَ عُيينَــةَ والأقْــرَعِ
ولا كــانَ حِصْــنٌ ولا حــابسٌ يَفُوقانِ مِـرْداسَ في مَجْمَـعِ
وما كنتُ غيْـرَ امـرِيءٍ منهُـمُ ومَن تَضَـعِ اليـومَ لم يُـرْفـعِ

فقال رسول الله ﷺ لبلال: اقطع عني لسان العباس. فأعطاه حتى أرضاه.

الرسول ﷺ وصفوان بن أمية:

وقال صفوان بن أُمية: لقد غزوت مع رسول الله ﷺ وما خَلق الله خلْقاً أبغَضَ إليّ منه فما زال يُعطيني حتى ما خلق الله خلقاً أحبَّ إليَّ منه. وكان صفوان بن أمية من المؤلَّفة قلوبُهم.

شكر النعمة

سُليمان التَّميميّ قال: إن الله أنعم على عباده بقدْر قُدرته، وكلَّفهم من الشكر بقدر طاقتهم.

وقالوا: مكتوبٌ في التوراة: آشكرْ لمن أنعَمَ عليك، وأنعمْ على من شكرك.

وقالوا: كفر النعمة يُوجب زوالها، وشكرُها يوجب المزيد فيها.

وقالوا: مَن حمدك فقد وفَّاك حقَّ نعمتك.

وجاء في الحديث: «مَن نَشر معروفاً فقد شكره، ومن ستره فقد كفره».

وقال عبد الله بن عباس: لو أن فرعونَ مصرَ أسدى إليّ يداً صالحة لشكرته عليها.

وقالوا: إذا قَصُرَتْ يداك عن المكافأة فلْيَطُلْ لسانك بالشكر.

وقالوا: ما نَحل الله تعالى عبادَه شيئاً أقلَّ من الشكر، وآعتبر ذلك بقول الله عز وجل: ﴿وقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(1).

الواقدي ويحيى البرمكي في قوم جاءوا يشكرونه:

محمد بن صالح الواقدي قال: دخلت على يحيى بن خالد البرمكي، فقلت: إن ها هنا قوماً جاءوا يشكرون لك معروفاً. فقال: يا محمد، هؤلاء يشكرون معروفاً، فكيف لنا بشكر شكرهم.

للنبي ﷺ في شكر النعمة وكفرها:

وقال النبي ﷺ: ما أنعم الله على عبده نعمة فرأى عليه أثرَها إلا كتِبَ: حبيبَ الله شاركاً لأنْعُمِه. وما أنعم الله على عبده نعمة فلم ير أثرَها عليه إلا كتب: بغيضَ الله كافراً لأنْعُمِه.

---

(1) سورة سبأ الآية ١٣.

بين عدي بن أرطاة وعمر بن عبد العزيز:

وكتب عديّ بن أرطاة إلى عُمَر بن عبد العزيز: إني بأرض كثُرتْ فيها النِّعم، وقد خِفْت على مَن قِبَلي من المسلمين قلّةَ الشكر والضعف عنه فكتب إليه عمر رضي الله عنه: إن الله تعالى لم يُنعم على قوم نعمة فحمدوه عليها إلا كان ما أعطوه أكثرَ مما أَخذوا. واعتبر ذلك لقول الله تعالى: ﴿ولقد آتَيْنَا دَاوُدَ وسُلَيْمَانَ عِلْماً وقَالا الحَمْدُ للهِ﴾[1]. فأي نعمة أفضل مما أوتي داودُ وسليمان.

بين النبي ﷺ وعائشة في أبيات لابن جناب:

وسمع النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها تنشد أبيات زُهير بن جَنَاب:

إرْفعْ ضَعيفَكَ لا يحُرْ بـك ضَعْفُـهُ ... يوماً فتُدرِكَهُ عواقِبُ مـا جَنَـى[2]
يَجْزيك أو يُثْني عليـك فـإنّ مَـنْ ... أَثْنى عليك بما فعلتَ كمنْ جَـزَى

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: صدق يا عائشة، لا شكَرَ الله مَن لا يَشكر الناس.

الخُشني قال: أنشدني الرياشي:

إذا أنـا لم أشكُرْ على الخير أَهْلَـهُ ... ولم أذْمُـم الجِبْسَ اللئيمَ المذَمَّمَـا[3]
ففيمَ عَرَفْتُ الخيرَ والشَّـرَّ بـاسمِـهِ ... وشَـقَّ لِـيَ اللهُ المسـامـعَ والفَمَـا

وأنشدني في الشكر:

سأشكرُ عَمْراً ما تَراخَـتْ مَنِيَّتِـي ... أيـادِيَ لم تُمْنَـنْ وإن هـي جَلَّـتِ
فَتًى غيرَ محجوبِ الغِنى عن صديقِهِ ... ولا مُظْهِرَ الشَّكْوَى إذا النَّعْلُ زَلّتِ
رأى خَلَّتي من حيث يَخْفَى مكانُهـا ... فكانت قذَى عَيْنَيْهِ حتى تَجَلَّـتِ[4]

---

(١) سورة النمل الآية ١٥. (٢) لا يحُرْ: لا يرجع.

(٣) الجبس: الجبان البخيل.

(٤) القذى: ما يسقط في العين من أذىً.

قلة الكرام في كثرة اللئام

قال النبي ﷺ: الناس كإبلٍ مائةٍ لا تكاد تَجد فيها راحلة.

وقالت الحكماء: الكرام في اللئام كالغرة في الفرس.

وقال الشاعر:

تُفاخِرُني بكثرتِها قريط ... وقلَّ والِدَ الحَجَلَ الصقورُ
فإنْ أكُ في شِرَارِكُمُ قليلاً ... فإنّي في خيارِكُم كثيرُ
بُغاثُ الطَّيرِ أكثَرُها فِراخاً ... وأم الصَّقْرِ مِقْلاتٌ نَزُورٌ[1]

وقال السموأل:

تُعَيِّرُنا أنّا قليلٌ عديدُنا ... فقلتُ لها إنّ الكرامَ قليلُ
وما ضرّنا أنّا قليلٌ وجارُنا ... عزيزٌ وجارُ الأكثرينَ ذَليلُ

وقال حبيب:

ولقد نكونُ ولا كريمَ ننالُهُ ... حتى نخوضَ إليه ألفَ لَئيمِ

وقال ابن أبي حازم:

وقالوا: لو مَدَحْتَ فتىً كريماً ... فقلتُ وكيفَ لي بِفتىً كريمِ
بَلَوْتُ ومَرَّ بي خمسونَ حولاً ... وحسبُكَ بالمُجَرّبِ من عَليمِ
فلا أحدٌ يُعَدُّ لِيَوْمِ خيرٍ ... ولا أحدٌ يَعودُ على عَديمِ[2]

وقال دِعْبل:

ما أكثرَ الناسَ لا بلْ ما أَقَلَّهُمُ ... واللهُ يَعلمُ أَنّي لم أَقُلْ فَنَدَا[3]
إني لأغْلقُ عيني ثم أفتَحُها ... على كثيرٍ ولكنْ ما أرى أحَدَا

---

(١) بغاث الطير: ضعافها، والمقلات: التي تلد واحداً ثم لا تلد بعد ذلك، ونزور: قليلة الولادة.

(٢) يعود: يتكرّم، والعديم: الفقير.

(٣) الفند: الكذب والفساد.

وأحسن ما قيل في هذا المعنى قول حبيب الطائي:

إنَّ الجِيادَ كثيرٌ في البلادِ وإنْ ... قلّوا، كما غَيْرُهُمْ قلَّ وإن كثُرُوا
لا يَدْهمنَّكَ من دَهْمائهم عَجَبٌ ... فإنَّ جُلَّهُمُ أو كُلهُم بَقَرُ
وكلّما أضْحَت الأخطارُ بينَهُمُ ... هلْكَى تَبيَّنَ مَنْ أَضْحَى له خَطَرُ
لو لم تُصادفْ شِيَاتُ البَهْم أكثر ما ... في الخيل لم تُحمد الأوضاح والغُرَرُ[1]

لكسرى في الشح:

الأصمعي قال: قال كسرى. أي شيء أضرّ؟ فأجمعوا على الفقر. فقال كسرى: الشحّ أضرّ منه، لأن الفقير يجد الفرجة فيتسع.

من جاد أولاً وضنّ آخراً

نزل أعرابيّ برجل من أهل البصرة، فأكرمه وأحسن إليه ثم أمسك، فقال الأعرابي:

تَسَرَّى فلما جاذَبَ المرءُ نفْسَه ... رأى أنَّه لا يستقيمُ له السَّرْوُ[2]

وكان يزيد بن منصور يُجري لبشّار العُقيلي وظيفةً في كل شهر، ثم قطعها عنه؛ فقال:

أبا خالدٍ ما زلتَ سابِح غَمرَةٍ ... صغيراً فلما شِبْتَ خَيَّمْتَ بالشّاطي[3]
جَرَيْتَ زماناً سابقاً ثم لم تَزَلْ ... تأَخَّرُ حتى جئتَ تَقْطُو مع القاطي[4]
كسِنَّوْرِ عبدِ اللهِ بيعَ بِدِرْهَمٍ ... صغيراً، فلما شَبَّ بيعَ بِقيراطِ

---

(١) الشيات: جمع شية، وهي سواد في بياض أو بياض في سواد، والأوضاح: جمع وضح، وهي التحجيل في القوائم، والغرر: جمع غرّة، وهو بياض في الجبهة.

(٢) السَّرو: المروءة والشرف.

(٣) خيَّمت: أقمت.

(٤) القاطي: الثقيل المشي، أو الذي يقارب في مشيه.

وقال مُسلم بن الوليد صريع الغواني لمحمد بن منصور بن زياد:

أبا حَسنٍ قد كنتَ قدَّمْتَ نعمةً ... وألحَقْتَ شُكْراً ثم أمْسَكتَ وانِيا[1]
فلا ضَيْرَ لم تَلْحَقْك مِني مَلامةٌ ... أسأتَ بنا عَوْداً وأحسنْتَ بادِيا
فأُقسِمُ لا أَجْزيكَ بالسُّوءِ مثْلَهُ ... كفى بالذي جازَيْتني لك جازِيَا

وقال سليمان الأعمى، وهو أخو صريع الغواني، في سليمان بن علي:

يا سوءةً يُكبِر الشيطانُ إنْ ذُكرتْ ... منها العجائب جاءت من سُليمانا
لا تَعجبنَّ بخيرٍ زلَّ عن يده ... فالكوكبُ النحسُ يسقي الأرض أحيانا

من ضن أولاً ثم جاد آخراً

قدِم الحارث بن خالد المخزوميّ على عبد الملك فلم يصلْه، فرجع وقال فيه:

صحِبْتُكَ إذ عَيْني عليها غِشاوةٌ ... فلما انْجَلَت قَطَّعْتُ نفسي ألومُها
حَبَسْتُ عليكَ النَّفْسَ حتّى كأنّما ... بِكفَّيْكَ يَجري بُؤسُها ونعيمُها

فبلغ قوله عبد الملك، فأرسل إليه فردّه وقال: أرأيت عليك غضاضة[2] من مُقامك ببابي؟ قال: لا، ولكني آشتقتُ إلى أهلي ووطني، ووجدت فضلاً من القول فقلت، وعليَّ دَين لَزمني. قال: وكم دَيْنُك؟ قال ثلاثون ألفاً. قال: فقضاءُ دينك أحَبُّ إليك أم ولايةُ مكة؟ قال: بل ولاية مكة. فولاه إياها.

وقدم الحطيئةُ المدينةَ فوقف إلى عُتيبة بن النهاس العجليّ، فقال: أعطني. فقال: مالَكَ عندي حقٌّ فأعطيكه، وما في مالي فَضْلٌ عن عيالي فأعودَ به عليك. فخرج عنه مُغضباً، وعرّفه به جلساؤه، فأمر بردِّه، ثم قال له: يا هذا، إنك وقفتَ إلينا فلم تَستأنس ولم تُسلّم، وكتمتَنا نفسَك، كأنك الحُطيئة؟ قال: هو ذلك. قال: اجلس فلك عندنا كلُّ ما تحب، فجلس فقال له: مَن أشعرُ الناس؟ قال الذي يقول:

(١) الوناة: التعب والفتور والانكسار.

(٢) غضاضة: بأس ونقصٌ وعيب.

ومن يَجعلِ المعروفَ مِن دون عِرضِهِ يَفِرْهُ ومَن لا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ[1]

يعني زهيراً. قال: ثم من؟ قال: الذي يقول:

مــن يسـأل النـــاس يحرمــوه وســـائـــلُ الله لا يخيـــبُ

يعني عبيداً. قال: ثم من؟ قال: أنا...

فقال لوكيله: خُذ بيد هذا فآمض به إلى السوق، فلا يُشيرَن إلى شيء إلا اشتريتَه له. فمضى معه إلى السوق، فعرض عليه الخزّ والقَز، فلم يلتفت إلى شيء منه. وأشار إلى الأكسية والكرابيس الغلاظ والأقبية، فاشترى له منها حاجته؛ ثم قال: أمسِك. قال: فإنه قد أمرني أن أبسُط يدي بالنفقة. قال: لا حاجة لي أن يكون له على قومي يد أعظم من هذه. ثم أنشأ يقول:

سُئِلْتَ فلم تَبخَــلْ ولم تُعْــطِ طـائِلاً فَسِيَّـانِ لا ذَمٌّ عليــكَ ولا حَمْــدُ
وأنت امرُؤٌ لا الجُودُ منك سَجيَّــةٌ فتُعطِي وقد يُعْدِي على النائِلِ الوُجْدُ[2]

من مدح أميراً فخيبه

قال سعيد بن سَلْم: مدحني أعرابيّ فأبلغ، فقال:

ألا قُلْ لِساري اللّيْلِ لا تَخْش ضِلَّةً سَعيـدُ بنُ سَلْـمٍ نُـورُ كــلِّ بلادِ
لنـا سيِّـدٌ أَرْبَـى على كـلِّ سيــدٍ جوادٌ حثـا في وجـهِ كـل جَـوادِ

قال: فتأخّرت عنه قليلاً، فهجاني فأبلغ، فقال:

لِكلِّ أخـي مَـدْحٍ ثـوابٌ عَلِمْتُـهُ وليس لمدح البـاهِلّـي ثـــوابُ
مَـدَحْـتُ سعيـداً والمديـح مهـزَّةٌ[3] فكـان كصَفْـوانٍ عليـه تُــرابُ

ومدح الحسنُ بن رجاء أبا دلف فلم يُعطه شيئاً؛ فقال:

---

(١) يفره: يوقره.

(٢) السجيّة: الطبع، ويعدي: يعين والوُجد: اليسار والسّعة.

(٣) مهزّة: أي باعث وحاث الإنسان على العطاء وصفوان: الحجر الصلد الأملس الذي لا ينبت شيئاً.

أبا دُلَفٍ ما أكذبُ النـاسِ كلِّهـم سِوايَ فإنّـي في مَـديحِكَ أكْـذَبُ

وقال آخر في مثل هذا المعنى:

إنّـي مَـدحتُـك كـاذِبـاً فـأثبْتَني لمّا مَـدحتُـك مـا يُثـابُ الكـاذِبُ

وقال آخر في مثل هذا المعنى:

لئـنْ أخطـأتُ في مَـدْحـك ما أخْطَأتَ في مَنْعِـي
لقـد أحْلَلْـتُ حـاجـاتِـي بِـوَادٍ غيْـرِ ذِي زَرْعِ

ومدح حبيب الطائي عيّاش بن لهيعة، وقدم عليه مصرَ واستسلفه مائتي مثقال، فشاور فيها زوجته، فقالت له: هو شاعر، يمدحك اليومَ ويهجوك غداً؛ فاعتلَّ عليه وٱعتذر إليه ولم يقض حاجته، فقال فيه:

عيّـاشُ، إنّـكَ لَلَئيمٌ وإنّني مُـذْ صِـرْتَ مَـوْضِـعَ مطلبي لَلَئيمُ

ثم هجاه حتى مات، وهجاه بعد موته فقال فيه:

لا سُقِيَـتْ أَطْلالُـكَ الدَّاثِـرة ولا انْقَضَـت عَثْـرتُـكَ العـاثِـرَهْ
يـا أسـدَ الموتِ تَخَلَّصْتـهُ مِن بيَـنِ فَكَّـيْ أسـد القـاصره[1]

لابن عبد ربه:

ومن قولنا في هذا المعنى ـ وسألتُ بعض موالي السلطان إطلاق محبوس فتلكأ فيه، فقلت:

حـاشـا لمثلِـكَ أن يَفُـكَّ أسيرَاً أو أنْ يكـونَ مِـن الزَّمـانِ مُجيرا
لَبِسَتْ قَوافي الشِّعر فيك مَدارعـاً سُوداً وضَلَّـت أوجُهـاً وصُـدورا
هلاَّ عَطفْـتَ بـرحمةٍ لما دَعَـتْ ويْلاً عليك مَـدائحـي وثُبـورا[2]
لو أنّ لُؤمَكَ عـادَ جـوداً عشْـرُهُ ما كـان عنـدَك حـاتمٌ مَـذْكـورا

---

(١) القاصرة: مكان في الطريق إلى مصر، يروون أنّ أسداً فيه أكل عتبة بن أبي لهب.
(٢) الويل: وادٍ في جهنم، والثبور: الهلاك.

ربيعة الرقي ويزيد بن حاتم:

قال: ومدح ربيعة الرقي يزيد بن حاتم الأزدي، وهو والي مصر، فاستبطأه ربيعة، فشخص عنه من مصر وقال:

أراني ولا كُفْـرانَ لله راجعـاً ... بِخُفَّيْ حُنَيْن من نَوالِ ابنِ حاتمِ [1]

فبلغ قولُه يزيدَ بن حاتم، فأرسل في طلبه فرُدّ إليه. فلما دخل عليه قال له: أنت القائل:

أراني ولا كفران لله راجعاً

قال: نعم. قال: فهل قلت غير هذا؟ قال: لا والله. قال: لترجعن بخُفَّيْ حنين مملوءة مالا فأمر بخلع نعليه ومُلئت له مالاً؛ فقال فيه لما عزل عن مصر وولي يزيد بن أسَيد السُّلمي مكانَه:

بكى أهلُ مِصْرٍ بالدُّموعِ السَّواجِمِ ... غَداةَ غَدَا منها الأغرُّ ابنُ حـاتمِ [2]

وفيها يقول:

لشَتَّان ما بَيْنَ اليَزيدَيْنِ في النـدَى ... يَـزيـد سُليمٍ والأغـرِّ ابن حـاتمِ

فهَـمُّ الفتى الأزْدِيِّ إنفـاقُ مـالِـه ... وهمُّ الفتى القيسي جَمْعُ الدَّراهِـمِ

فلا يَحْسَبِ التَّمْتامُ أنّي هَجَـوْتُـه ... ولكنّني فضَّلْتُ أهـلَ المكـارمِ [3]

أجواد أهل الجاهلية

الذين انتهى إليهم الجودُ في الجاهلية ثلاثةُ نفر: حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي، وهَرِم بن سنان المُرّي، وكعب بن مامَةَ الإيادي.

---

(١) خفّي حنين: مثل يضرب لمن عاد إلى أهله فاشلاً خاسراً.

(٢) السّواجم: الذارفة للدمع بكثرة والأغرّ: الأبيض الكريم.

(٣) التمتام: كثير التمتمة الذي يعجّل في كلامه ولا يبيّنه.

شيء عن حاتم:

ولكن المضروب به المثلُ حاتمٌ وحده، وهو القائل لغلامه يسار، وكان إذا اشتدّ البرد وكَلِب الشتاء أمر غلامه فأوقد ناراً في يفَاع من الأرض لينظُر إليها من أضلّ الطريق ليلاً فيصمِد نحوه، فقال في ذلك:

أَوْقِدْ فإنّ اللّيْلَ ليلٌ قَرُّ ... والريحُ يا موقد ريحٌ صِرُّ[1]
علَّ يَرى نارَك مَنْ يَمُرُّ ... إنْ جلَبتْ ضيفاً فأنت حُرُّ

وقالوا: لم يكن حاتم مُمسكاً شيئاً ما عدا فرسه وسلاحه، فإنه كان لا يجود بهما.

ومرّ حاتم في سفره على عَنَزة وفيهم أسير، فاستغاث بحاتم ولم يحضُره فكاكُه، فاشتراه من العنزيّين وأطلقه وأقام مكانَه في القيد حتى أدّى فداءه.

وقالت نوار امرأة حاتم: أصابتنا سنة اقشعرَّتْ لها الأرضُ واغبرّ أفقُ السماء، وراحت الإبلُ حُدْباً حَدابير[2]، وضنت المراضعُ على أولادها فما تبضّ[3] بقطرة، وحلَقت[4] السنةُ المال وأيقنّا بالهلاك. فوالله إنا لفي ليلة صِنَّبرٍ[5] بعيدةٍ ما بين الطرفين، إذ تضاغى صِبْيَتُنا جوعاً: عبدُ الله وعديّ وسَفّانة: فقام حاتم إلى الصَّبيَّين وقمتُ أنا إلى الصّبية، فوالله ما سكتوا إلا بعد هَدْأة من الليل، وأقبل يعلّلني بالحديث. فعرفت ما يريد فتناومتُ، فلما تهوّرَت النجوم إذا شيء قد رفع كِسْر البيت ثم عاد، فقال: من هذا؟ قالت: جارتك فلانة، أتيتُك من عند صِبية يتعاوَون عُواءَ الذئاب، فما وجدتُ مُعَوّلاً إلا عليك يا أبا عديّ، فقال: أعْجِليهم فقد أشبعكِ الله وإياهم: فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشي بجانبها أربعة؛ كأنها نعامة حولها رِئالُها؛ فقام إلى فرسه فوجأ لبته بمُديْة فخرّ، ثم كشطه عن جلده، ودفع المدية إلى المرأة فقال لها: شأنَك؛ فاجتمعنا على اللحم نشوي ونأكل، ثم جعل يمشي في الحى

---

(١) ريحٌ صِرّ: أي ريحٌ عاصفة باردة.
(٢) الحدابير: جمع حدبار وحدبير، وهي الناقة الضامر.
(٣) تبضّ: تجود.
(٤) حلقت المال: أهلكته وأفنته. (٥) صنَّبر: شديدة البرد.

يأتيهم بيتاً بيتاً فيقول: هُبُّوا أيها القوم، عليكم بالنار. فاجتمعوا والتفع في ثوبه ناحيةً ينظر إلينا، فلا والله إن ذاق منهُ مُزْعة وإنه لأحْوَجُ إليه منّا؛ فأصبحنا وما على الأرض من الفرس إلاّ عظم وحافر. فأنشأ حاتم يقول:

مَهْلاً نَـوَارُ أقِلّـي اللَّـوْمَ والعَـذلاَ ... ولا تقُـولي لشَـيء فـاتَ مـا فعَلا

ولا تقـولي لمالٍ كنـتُ مُهْلِكَـه ... مهْلاً وإن كنتُ أعطِي الأنسَ والخَبلاَ[1]

يَرَى البَخيلُ سبيـلَ المال واحِـدةً ... إنّ الجوادَ يـرى في مـالِـه سُبُلاَ

ورئي حاتم يوماً يضرب ولده لما رآه يضرب كلبة كانت تدلّ عليه أضيافه وهو يقول:

أقـول لابني وقـد سُطْـتُ يـديـه ... بكلبـةٍ لا يـزال يجلـدهـا[2]

أوصيـك خيراً بها فـإن لها ... عنـدي يـداً لا أزال أحمدهـا

تـدل ضيفـي عليّ في غلس الليـ ... ـل إذا النار نـام مُـوقـدهـا

ذكرت طيء عند عديّ بن حاتم أن رجلاً يعرف بأبي الخيْبريّ مر بقبر حاتم فنزل به وجعل ينادي: أبا عدي: أقْرِ أضيافك. قال: فيقال له: مهلاً ما تُكلم من رمَّة بالية؟ فقال: إن طيئا يزعمون أنه لم ينزل به أحد إلا قراه، كالمستهزيء فلما كان في السحر وثب أبو خيبري يصيح: واراحلتاه: فقال له أصحابه: ما شأنك؟ قال: خرج والله حاتم بالسيف حتى عقر ناقتي وأنا أنظر إليها. فتأملوا راحلته فإذا هي لا تنبعث. فقالوا: قد والله أقراك. فنحروها وظلوا يأكلون من لحمها، ثم أردفوه وانطلقوا. فبينما هم في مسيرهم إذ طلع عليهم عديّ ابن حاتم ومعه جمل قد قرنه ببعيره، فقال إن حاتماً جاء في النوم فذكر لي قولك وأنه أقراك وأصحابك راحلتك، وقال أبياتاً ردّدها عليّ حتى حفظتها، وهي:

أبـا الخَيْبَـريَّ وأنـت امـرؤٌ ... حسـود العشيرة شتّـامهـا

فماذا أردت إلى رمَّـة ... بـداويـةٍ صَخِـبٍ هـامُهـا[3]

---

(١) الخبل: الجنّ. (٢) سطت: منعت وأمسكت.

(٣) الرمّة: العظام البالية، والداوية: الفلاة والهام: جمع هامة، وهي طائر تزعم العرب أنّه كان يخرج من رأس القتيل ويصيح اسقوني، حتى يؤخذ بثأره.

أتبغـي أذاهـا وإعسارهـا   وحولـك غـوثٌ وأنعـامهـا
وإنّـا لنطعـم أضيـافنـا   من الكُوم بالسيف نعتـامهـا(١)

وأمرني بدفع راحلة عوض راحلتك، فخذها ؛ فأخذها .

ولحاتم بن عبد الله أيضاً :

أماويّ قد طالَ التجنُّبُ والهَجْـرُ   وقد عَذَرَتنـا في طِلابِكُـمُ العُـذْرُ
أمَـاويّ إنّ المالَ غـادٍ ورائـحٌ   ويَبقى مِنَ المالِ الأحاديثُ والذّكـرُ
أمـاويّ إمّـا مـانـعٌ فمبيّـنٌ   وإمـا عطـاءٌ لا يُنْهِنهُـهُ الزّجْـرُ
أمَـاويّ إني لا أقـولُ لِسـائـلٍ   إذا جاءَ يوْماً حَلَّ في مالِيَ النّـزر(٢)
أماويّ ما يُغْني الثّـراءُ عـن الفتَـى   اذا حَشْرَجَت يوماً وضاقَ بها الصَـدْرُ
أماويّ إن يُصبِحْ صـدايَ بقَفْـرةٍ   من الأرضِ لا ماءٌ لَـدَيَّ ولا خمْرُ
تَريْ أنّ ما أنفقْتُ لم يـكُ ضَـرَّني   وأنّ يَـدِي مما بَخِلْـت بـه صِفْـرُ
إذا أنـا دَلاني الذيـن يَلُـونني   بمُظلِمـةٍ زلـجٌ جَـوانبُهـا غبْـرُ(٣)
وراحوا سراعاً يَنْفُضـون أكفَّهُـمْ   يقولون قد أدْمَى أضافِرَنـا الحَفْـرُ
أمـاويّ إنّ المال مـالٌ بَـذَلْتُـه   فـأوّلُـه شُكْـرٌ وآخِـرُهُ ذكْـرُ
وقد يَعلَـم الأقـوامُ لـو أنّ حـاتِماً   أرادَ ثـراءَ المالِ كـان لـه وَفْـرُ
فـإنّـي وجـدّي رُبَّ واحـدِ أُمّـهِ   أَجَـرْتُ فلا قَتْـلٌ عليـه ولا أسْـرُ
ولا أظلم ابن العمِّ إنْ كـان إخـوتي   شُهوداً وقد أوْدَى بإخوتِـه الدّهـرُ
غَنِينا زَمانـاً بـالتَّصَعْلُـك والغِنـى   وكلاّ سَقـانـاه بكـاسيها الدهْـرُ
فما زادَنـا بَـأْواً على ذي قـرابـةٍ   غِنانا ، ولا أزْرَى بأحلامنا الفقْرُ(٤)

وأما هرم بن سنان فهو صاحب زهير الذي يقول فيه :

متَـى تُلاقِ على عِلاتِـه هَـرِمـاً   تلقَ السَّماحةَ في خَلْـقٍ وفي خُلُـقِ

---

(١) الكوم: جمع كوماء، وهي الناقة العظيمة السّنام ونعتامها: نختارها .
(٢) النزر: القلّة .   (٣) الزلج: الصخور الملساء .
(٤) البأو: الفخر والاستعلاء وأزرى: أعاب .

وكان سنان أبو هرم سيدَ غَطَفان، وماتت أمه وهي حامل به، وقالت: إذا أنا مت فشُقّوا بطني فإن سيد غطفان فيه. فلما ماتت شقوا بطنها فاستخرجوا منها سنانا. وفي بني سنان يقول زُهير:

قومٌ أبوهم سِنانٌ حين تَنسبُهُم ... طابوا وطابَ مِنَ الأولادِ ما وَلَدوا
لو كان يَقعُد فوْق الشمس مِن كَرَمٍ ... قومٌ بأوّلِهِمْ أو مَجدهِمْ، قعَدوا
جنٌّ إذا فَزِعوا إنسٌ إذا أمِنوا ... مُرزّءُون بَهاليلٌ إذا قُصدوا[1]
مُحَسَّدون على ما كان من نِعَمٍ ... لا يَنزِعُ اللهُ منهم مالَهُ حُسِدوا

وقال زهير في هرم بن سنان:

وأبيَض فيّاضٍ يَداهُ غَمامَةٌ ... على مُعْتفيه ما تُغِبُّ نوائلُه[2]
تَراه إذا ما جئته مُتهلّلاً ... كأنّك تُعْطِه الذي أنت سائلُهُ
أخو ثِقةٍ لا تُتْلِفُ الخمرُ مالَهُ ... ولكنه قد يُتلِفُ المالَ نائلُهْ

أخذ الحسن بن هانيء هذا المعنى فقال:

فتًى لا تغول الخَمْرُ شَحْمَةَ مالِهِ ... ولكنْ أيادٍ عُوَّدٌ وبوادِي

وقال زهير في هرم بن سنان وأهل بيته:

إليك أعْمَلتُها فُتْلاً مرافِقُها ... شهريْن يجهض من أرحامها العَلَقُ[3]
حتى دَفعْنَ إلى حُلْوٍ شمائلُهُ ... كالغيْثِ يَنبُتُ في آثارِهِ الورَقُ
من أهلِ بيْتٍ يَرى ذو العرشِ فضلَهُم ... يُبنى لهم في جنان الخُلْدِ مُرْتَفَقُ
المطعمون إذا ما أزْمَةٌ أزمتْ ... والطّيِّبون ثياباً كلّما عَرِقوا
كأنّ آخرَهُمْ في الجُودِ أوّلُهُمْ ... إنَّ الشّمائلَ والأخلاقَ تتّفِقُ
إن قامَرُوا قَمَروا أوْ فاخروا فخروا ... أو ناضَلوا نَضلوا أو سابقوا سبَقوا[4]

---

(١) بهاليل: سادة كرام شجعان.
(٢) المعتفين: السائلين، وتغب: تنقطع.
(٣) أعملتها: نظمتها وأحسنت مراجعتها والعلق: الدم الجامد.
(٤) قمروا: غلبوا وفازوا، وناضلوا: رموا.

تنافَس الأرْض موْتاهم إذا دُفِنوا كما تنُوفس عندَ الباعةِ الورِق[1]

وقال فيهم أيضاً:

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهُهم وأنديةٌ ينتابها القول والفعلُ
على مُكثريهم حقّ من يعتَفيهمُ وعند المُقلِّين السماحة والبذل
فما كان من خيرٍ أتوه فإنّما توارثه آباءُ أبائهم قَبْلُ
وهل يُنبت الخَطِّيَّ إلاّ وشيجُه وتُغرس إلاّ في منابتها النخل[2]

وأما كعب بن مامة الإياديّ فلم يأت عنه إلا ما ذُكر من إيثاره رفيقه النَّمَريّ بالماء حتى مات عطشاً ونجا النَّمريّ، وهذا أكثر من كل ما أثنى لغيره. وله يقول حبيب:

يُجودُ بالنّفْسِ إنْ ضنّ البخيلُ بها والجُودُ بالنَّفْسِ أقْصى غايةِ الجودِ

وله ولحاتم الطائي يقول:

كعْبٌ وحاتِمٌ اللذان تقَسَّما خِطَط العُلا مِنْ طارِفٍ وتليدِ
هذا الذي خَلَفَ السَحَابَ وماتَ ذَا في الجدّ مِيتةَ خِضْرِمٍ صِنْدِيدِ[3]
إلاّ يكنْ فِيها الشَّهِيدَ فقَوْمُهُ لا يَسْمَحُون به بألف شهيدٍ

أجواد أهل الإسلام

وأما أجواد أهل الإسلام فأحد عشر رجلا في عصر واحد، لم يكن قبلهم ولا بعدهم مثلهم.

فأجواد الحجاز ثلاثة في عصر واحد: عُبيد الله بن العباس، وعبد الله بن جعفر، وسعيد بن العاص.

وأجواد البصرة خمسة في عصر واحد وهم: عبد الله بن عامر بن كريز، وعُبيد الله

(١) الورَق: الذهب.
(٢) الخطيّ: شجر تنسب إليه الرماح والوشيج: أغصانه.
(٣) الخضرم: الكريم، والصنديد: الشجاع.

ابن أبي بكرة مولى رسول الله ﷺ، ومُسلم بن زياد، وعُبيد الله بن معمر القُرشي ثم التيمي. وطلحة الطلحات، وهو طلحة بن عبد الله بن خلف الخُزاعي، وله يقول الشاعر يرثيه، ومات بسجستان وهووالٍ عليها.

نضَّـــرَ اللهُ أعظُماً دفَنُـــوهـــا بسجِسْتـــانَ طلْحـــة الطَّلَحَـــاتِ

وأجواد أهل الكوفة ثلاثة في عصر واحد، وهم: عتّاب بن ورقاء الرّياحي وأسماء ابن خارجة الفَزاريّ. وعِكرمة بن رِبعي الفيّاض.

فمن جود عبيد الله بن عباس

أنه أول من فطّر جيرانه. وأول من وضع الموائد على الطرق، وأول من حَيّـا على طعامه، وأول من أنهبه، وفيه يقول شاعر المدينة:

وفي السّنةِ الشهباء أطْعَمْتَ حامِضـاً وحُلْواً ولَحْماً تَامِكـا ومَمَـزَّعَـا[1]
وأنــتَ ربيـعٌ لليتـامَـى وعِصْمَـةٌ إذا المَحْلُ مـن جَـوِّ السَّماء تطَلَّعَـا
أبوك أبو الفضل الذي كانَ رُحَمـةً وغَوْثـاً ونـوراً للخلائـق أجْمَعَـا

ومن جوده أنه أتاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه فقال: يا بن عباس إن لي عندك يداً وقد احتجت إليها. فصعَّد فيه بصره وصوبّه[2]، فلم يعرفه، ثم قال له: ما يَدُكَ عندنا؟ قال: رأيتك واقفاً بزَمْزم وغلامك يمتج[3] لك من مائها والشمس قد صهرتك، فظلّلتك بطرف كسائي حتى شربت. قال: إني لأذْكر ذلك وإنه يتردّد بين خاطري وفكري. ثم قال لقيِّمه: ما عندك؟ قال: مائتا دينار وعشرة آلاف درهم. قال: ادفعها إليه وما أراها تفي بحق يده عندنا. فقال له الرجل: والله لو لم يكن لإسماعيل ولد غيرك لكان فيه ما كفاه، فكيف وقد ولَد سيد الأولين والآخرين محمداً ﷺ، ثم شفع بك وبأبيك.

---

(١) السنة الشهباء: التي لا خضرة فيها ولا مطر وتامكاً: مكتنزاً، وممزّعاً: مقطّعاً.

(٢) صوّبه: وجهه نحوه. (٣) يمتج: يستقي.

ومن جوده أيضاً: أنّ معاوية حبس عن الحُسين بن عليّ صِلاتِه حتى ضاقت عليه حاله، فقيل [له]: لو وجَّهت إلى ابن عمك عبيد الله، فإنه قد قدم بنحو من ألف ألف درهم. فقال الحسين: وأين تقع ألف ألف من عُبيد الله؟ فوالله لَهُو أجْوَدُ من الريح إذا عصفت، وأسخى من البحر إذا زخر. ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب ذكر فيه حَبْسَ معاوية عنه صِلاتِه وضيقَ حاله وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم. فلما قرأ عبيد الله كتابه، وكان من أرقّ الناس قلباً وألينهم عطفاً. انهملت عيناه ثم قال: ويلك يا معاوية مما اجترحتْ يداك[1] من الإثم حين أصبحت ليّن المهاد رفيع العماد، والحسينُ يشكو ضيقَ الحال وكثرة العيال. ثم قال لقهرمانه: احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من فضّة وذهب وثوب ودابة، وأخبِرْه أني شاطرتهُ مالي، فإن أقنعه ذلك وإلا فارجع واحمل إليه الشطر الآخر. فقال له القيم: فهذه المُؤن التي عليك من أين تقوم بها؟ قال: إذا بلغنا ذلك دللتُك على أمر يُقيم حالك! فلما أتى الرسول برسالته إلى الحسين قال: إنا لله! حَمَلْتُ[2] والله على ابن عمي وما حسبتُه يتسع لنا بهذا كله. فأخذ الشطر من ماله. وهو أول مَن فعل ذلك في الإسلام.

ومن جوده أن معاوية بن أبي سفيان أهدى إليه وهو عنده بالشام من هدايا النّيروز حُللاً كثيرة ومِسْكا وآنية من ذهب وفضة، ووجَّهها مع حاجبه، فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب وهو ينظر إليها، فقال: هل في نفسك منها شيء؟ قال: نعم والله، إنّ في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف عليهما السلام. فضحك عُبيد الله وقال: فشأنَك بها فهي لك. قال: جُعلتُ فداك، أخاف أن يبلغ ذلك معاويةَ فيجدَ عليّ. قال: فاختمها بخاتمك وادفعها إلى الخازن، فإذا حان خروجنا حملها إليك ليلا. فقال الحاجب: والله لَهذه الحيلةُ في الكرم أكثرُ من الكرم، ولوددت أني لا أموت حتى أراك مكانه ـ يعني معاوية ـ فظنّ عبيد الله أنها مكيدة منه، قال: دع عنك هذا الكلام، فإنا قوم نَفي بما وعدنا ولا ننقص ما أكدنا.

---

(١) اجترحت يداك: اقترفت واكتسبت من إثم.

(٢) حملتُ: ضيّقت وكلّفته الكثير.

ومن جوده أيضاً أنه أتاه سائل وهو لا يعرفه فقال له: تَصدّق، فإني نُبِّئتُ أن عبيد الله بن عباس أعطى سائلا ألف درهم وآعتذر إليه! فقال له: وأين أنا من عُبيد الله؟ قال أين أنت منه في الحَسب أم كثرةِ المال؟ قال: فيهما. قال: أما الحَسب في الرجل فمروءتهُ وفعلهُ، وإذا شئتَ فعلت، وإذا فعلت كنت حَسيبا. فأعطاه ألفي درهم وآعتذر له من ضيق الحال: فقال له السائل: إن لم تكن عُبيد الله بن عباس فأنت خير منه، وإن كنت هو فأنت اليوم خيرٌ منك أمس. فأعطاه ألفاً أخرى. فقال السائل: هذه هِزَةُ كريم حسيب، والله لقد نقرت[1] حبة قلبي فأفرغتها في قلبك، فما أخطأت إلا باعتراض الشك بين جوانحي.

ومن جوده أيضاً: أنه جاءه رجل من الأنصار فقال: يا بن عم رسول الله، إنه وُلد لي في هذه الليلة مولود، وإني سمّيته باسمك تبرُّكا مني به، وإن أُمه ماتت. فقال عبيد الله: بارك الله لك في الهبة، وأجزل لك الأجر على المصيبة. ثم دعا بوكيله فقال: آنطلق الساعةَ فاشتر للمولود جاريةً تَحْضنه، وآدفع إليه مائتي دينار للنفقة على تربيته. ثم قال للأنصاري. عُدْ إلينا بعد أيام، فإنك جئتنا وفي العيش يُبس وفي المال قِلّة. قال الأنصاري: لو سبقتَ حاتماً بيوم واحد ما ذكرته العرب أبداً، ولكنه سبقك فصرتَ له تاليا، وأنا أشهد أنّ عفْوك أكثر من مجهوده، وطلّ كرمك أكثر من وابله.

جود عبدالله بن جعفر

ومن جُود عبد الله بن جعفر أن عبد الرحمن بن أبي عمّار دخل على نخّاس يعرض قِيانا له؛ فعلق واحدةً منهن، فشُهر بذكرها حتى مشى إليه عطاء وطاووس ومُجاهد يعذُلونه، فكان جوابه أن قال:

يَلومُنـي فِيـكِ أَقْـوامٌ أُجالِسُهُـم   فما أُبـالي أَطـارَ اللَّـوْمُ أَمْ وقعَـا

---

(١) حبّة القلب: مهجته.

فانتهى خبره إلى عبد الله بن جعفر، فلم يكن له همّ غيره، فحج فبعث إلى مولى الجارية فاشتراها منه بأربعين ألف درهم، وأمر قيّمة جواريه أن تزيّنها وتحلّيها ففعلت؛ وبلغ الناسَ قدومهُ فدخلوا عليه، فقال: مالي لا أرى ابن أبي عمار زارَنا؟ فأُخْبِر الشيخُ، فأتاه مسلِّما. فلما أراد أن ينهض آستجلسه، ثم قال: ما فَعَل حُبُّ فلانة؟ قال: في اللحم والدم والمُخ والعُصب. قال: أتعرفها لو رأيتها؟ قال: لو أُدْخِلتُ الجنةَ لم أنكرها. فأمر بها عبدُ الله أن تخرج إليه، وقال له: إنما اشتريتها لك، ووالله ما دنوتُ منها، فشأنك بها مباركا لك فيها. فلما ولّى قال: يا غلام، احمل معه مائة ألف درهم ينعم بها معها. قال: فبكى عبد الرحمن فرحا وقال: يأهل البيت، لقد خصّكم الله بشرف ما خَصَّ به أحداً قبلكم من صُلب آدم، فتهنئكم هذه النعمة، وبورك لكم فيها.

ومن جوده أيضاً أنه أعطى امرأة سألته مالا عظيما، فقيل له: إنها لا تعرفك وكان يُرضيها اليسير. قال: إن كان يرضيها اليسير فإني لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي.

جود سعيد بن العاص

ومن جود سعيد بن العاص أنه مرض وهو بالشام، فعاده معاوية ومعه شُرحبيل بن السِّمْط، ومُسلم بن عُقبة المُرّي، ويزيد بن شجرة الرّهاوي. فلما نظر سعيد معاوية وثَب عن صدر مجلسه إعظاماً لمعاوية، فقال له معاوية: أقسمتُ عليك أبا عثمان ألا تتحرّك، فقد ضَعُفْتَ بالعلة. فسقط؛ فتبادر معاويةُ نحوه حتى حنا عليه، وأخذ بيده فأقعده على فراشه وقعد معه، وجعل يْسائله عن عِلّته ومنَامه وغذائه، ويصف له ما ينبغي أن يتوقّاه، وأطال القُعود معه؛ فلما خرج التفت إلى شُرحبيل بن السِّمط، ويزيد ابن شجرة، فقال: هل رأيتما خَللا في مال أبي عثمان؟ فقالا: ما رأينا شيئاً ننكره. فقال لمسلم بن عقبة: ما تقول؟ قال: رأيت. قال: وما ذاك؟ قال: رأيت على حَشَمه ومواليه ثياباً وَسِخة، ورأيتُ صحن داره غيرَ مكنوس، ورأيت التجّار يُخاصمون

قَهرمانه. قال: صدقت، كل ذلك قد رأيتُه. فوجه إليه مع مُسلم بثلثمائة ألف، فسبق رسولٌ يبّشره بها ويُخبره بما كان. فغضب سعيد وقال للرسول: إن صاحبك ظن أنه أحسنَ فأساء، وتأوّل فأخطأ؛ فأما وسخ ثياب الحشم فمن كثرة حركتِه آتسخ ثوبه، وأما كَنْس الدار فليست أخلاقنا أخلاقَ من جعل دارَه مِرآته وتَزَيِّنَه لُبْسَه، ومعروفَه عِطره، ثم لا يبالي بمن مات هُزْلا من ذي لحُمة أو حُرمة. وأما مُنازعة التجار قهرماني فمن كثرة حوائجه وبيعه وشرائه؛ لم يجد بُدًّا من أن يكون ظالماً أو مظلوماً. وأما المال الذي أمر به أمير المؤمنين فوصلته كل ذي رحم قاطعة وهنأته كرامُته المُنعَم بها عليه، وقد قَبلناه وأمرنا لصاحبك منه بمائة ألف، ولشُرحبيل بن السّمط بمثلها، وليزيد بن شَجرة بمثلها، وفي سعة الله وبَسْط يد أمير المؤمنين ما عليه مُعَوَّلنا.

فركب مُسلم بن عُقبة إلى معاوية فأعلمه، فقال: صدق آبن عمي فيما قال، وأحطأت فيما انتهيت إليه، فاجعل نصيبك من المال لروْح بن زِنْباع عقُوبةً لك، فإنه من جنى جناية عوقب بمثلها، كما أنه من فعل خيرا كوفيء عليه.

ومن جوده أيضا أن معاوية كان يُداول بينه وبين مروان بن الحكم في ولاية المدينة، فكان مروان يُقارضه(١)، فلما دخل على معاوية قال له: كيف تركت أبا عبد الملك؟ يعني مروان. قال: تركته منفِّذا لأمرك، مُصلحا لعملك. قال معاوية: إنه كصاحب الخُبْزة: كُفي إنضاجها فأكلها! قال: كلا يا أمير المؤمنين؛ إنه من قوم لا يأكلون إلا ما حصدوا، ولا يحصدون إلا ما زرعوا. قال: فما الذي باعد بينك وبينه؟ قال خِفتُه على شرفي وخافني على مثله. قال: فأي شيء كان له عندك؟ قال: أسْوَؤُهُ حاضرا وأسَرُّه غائبا. قال: يا أبا عثمان، تركتَنا في هذه الحروب. قال: حملتَ الثقل وكُفيتَ الحزم. قال: فما أبطأ بك؟ قال غنَاؤك عني أبطأني عنك، وكنتُ قريبا لو دعوتَ لأجبناك، ولو أمرتَ لأطعناك. قال: ذلك ظنُّنا بك. فأقبل معاوية على أهل الشام فقال يأهل الشام، هؤلاء قومي وهذا كلامهم. ثم قال: أخبرني عن مالِك،

---

(١) يقارضه: أي ينظر كلّ واحدٍ إلى صاحبه شزراً.

فقد نُبِّئت أنك تَتَحَرَّى فيه. قال: يا أمير المؤمنين، لنا مالٌ يَخْرُج لنا منه فَضْل، فإذا كان ما خرج قليلا أنفقناه على قِلّته، وإن كان كثيرا فكذلك، غير أنا لا ندّخر منه شيئا عن مُعْسِر ولا طالب ولا مستحمل، ولا نستأثر منه بِفلذة لحم ولا مُزعة(1) شحم. قال: فكم يدوم لك هذا؟ قال من السَّنة نِصْفَها. قال: فما تصنع في باقيها؟ قال: نجد من يُسلفنا ويُسارع إلى معاملتنا. قال: ما أحدٌ أحْوَج إلى أن يصلح من شأنه منك. قال: إن شأننا لصالح يا أمير المؤمنين، ولو زدت في مالي مثلَه ما كنتُ إلا بمثل هذه الحال. فأمر له معاوية بخمسين ألف درهم، وقال: اشترِ بها ضيعة تُعينك على مروأتك. فقال سعيد: بل أشترى بها حمداً وذكرا باقيا. أُطعم بها الجائع، وأُزوج بها الأيّم، وأفكّ بها العاني(2)، وأواسي بها الصديق، وأصلح بها حال الجار فلم تأت عليه ثلاثة أشهرٍ وعنده منها درهم. فقال معاوية: ما فضيلةٌ بعد الإيمان بالله هي أرفعُ في الذكر ولا أنبه في الشرف من الجود، وحَسبك أن الله تبارك وتعالى جعل الجود أحد صفاته.

ومن جوده أيضا ما حكاه الأصمعي، قال: كان سعيد بن العاص يسمرُ معه سماره إلى أن ينقضي حينٌ من الليل، فانصرف عنه القوم ليلةً ورجلٌ قاعد لم يقم، فأمر سعيد بإطفاء الشمعة وقال: حاجتَك يافتى؟ فذكر أنّ عليه ديناً أربعة آلافِ درهم. فأمر له بها، وكان إطفاؤه للشمعة أكثرَ من عطائه.

جود عبيد الله بن أبي بكرة

ومن جود عبيد الله بن أبي بكرة أنه أدلى إليه رجل بحرمة، فأمر له بمائة ألف درهم، فقال: أصلحك الله، ما وصلني أحدٌ بمثلها قط، ولقد قطعتَ لساني عن شكر غيرك، وما رأيتُ الدنيا في يد أحد أحسنَ منها في يدك، ولولا أنت لم تبق لها بهجةٌ إلا أظلمتْ، ولا نورٌ إلا انطمس.

---

(1) المزعة: القطعة. (2) العاني: الأسير.

جود عبيد الله بن معمر القرشي التيمي

ومن جود عبيد الله بن معمر القرشي، أن رجلا أتاه من أهل البصرة كانت له جارية نفيسة قد أدّبها بأنواع الأدب حتى برعت وفاقت في جميع ذلك، ثم إنّ الدهر قعد بسيِّدها ومال عليه. وقَدِمَ عبيدُ الله بن مَعمر البصرة من بعض وجوهه، فقالت لسيّدها: إني أريد أن أذكر لك شيئا أستحي منه، إذ فيه جفاء مني، غير أنه يُسَهّلُ ذلك عليّ ما أرى من ضيق حالك وقلة مالك وزوال نعمتك، وما أخافه عليك من الاَحتياج وضيق الحال، وهذا عُبيد الله بن معمر قدم البصرة، وقد علمتَ شرفه وفضلَه وسعة كفِّه وجودَ نفسه، فلو أذنت لي فأصلحت من شأني ثم تقدمتَ بي إليه وعرضتَني عليه هدية، رجوتُ أن يأتيك من مُكافأته ما يُقيلك الله به ويُنهضُك إن شاء الله. قال: فبكى وجداً عليها وجزعا لفراقها منه، ثم قال لها: لولا أنك نطقت بهذا ما ٱبتدأتك به أبدا. ثم نهض بها حتى أوقفها بين يدي عبيد الله فقال: أعزك الله، هذه جاريةٌ ربّيتها ورضيتُ بها لك، فٱقبلْها مني هدية. فقال: مثلي لا يَستهدي من مثلك؛ فهل لك في بيعها فأُجزلَ لك الثمن عليها حتى ترضى؟ قال: الذي تراه. قال: يُقْنِعُك مني عَشْرُ بدَرٍ في كل بدرة عشرةُ آلاف درهم؟ قال: والله يا سيدي ما امتد أملي إلى عُشْرِ ما ذكرت، ولكن هذا فضلك المعروف وجودك المشهور. فأمر عبيد الله بإخراج المال حتى صار بين يدي الرجل وقبضه، وقال للجارية: ادخلي الحجاب. فقال سيدها: أعزك الله! لو أذنتَ لي في وداعها! قال: نعم. فوقفت وقام، وقال لها وعيناه تدمعان:

أبوحُ بحُزْنٍ من فِراقِكَ مُوجِعٍ ... أُقاسِي به ليْلاً يُطيلُ تَفكُّري
ولولا قُعودُ الدهرِ بي عنك لم يكنْ ... يُفَرِّقُنا شيءٌ سوى الموتِ فاعْذُري
عليكِ سلامٌ لا زيارةَ بيننا ... ولا وصْلَ إلا أنْ يشاء ابنُ مَعْمَرِ

قال عبيد الله بن معمر: قد شئتُ ذلك، فخذ جاريتك وبارك الله لك في المال. فذهب بجاريته ومالِه فعادَ غنيّا.

فهؤلاء أجواد الإسلام المشهورون في الجُود المنسوبون إليه، وهم أحد عشر رجلا كما ذكرنا وسَمَّينا، وبعدهم طبقة أخرى من الأجواد، قد شُهروا بالجود وعُرفوا بالكرم، وحُمدت أفعالهم، وسنذكر ما أمكننا ذكره منها إن شاء الله تعالى.

الطبقة الثانية من الأجواد

فمنهم الحكم بن حَنْطب

قيل لنصيب بن رباح: خَرِفَ شِعرُك أبا محجن! قال لا، ولكن خَرِف الكرم؛ لقد رأيتُني ومدحتُ الحكم بن حنطب، فأعطاني ألف دينار ومائة ناقة وأربعمائة شاة.

وسأل أعرابي الحكم بن حَنطب، فأعطاه خمسمائة دينار، فبكى الأعرابي، فقال: ما يُبكيك يا أعرابي؟ لعلك استقللت ما أعطيناك! قال: لا والله، ولكني أبكي لِما تأكلُ الأرضُ منك، ثم أنشأ يقول:

وكـأنّ آدمَ حين حـانَ وفـاتُـهُ ... أوْصاكَ وهْوَ يَجودُ بـالحَوْبـاءِ[1]

ببنَيـهِ أن تَـرْعـاهـمُ فَـرعَيْتَهُـم ... فكفَيْـتَ آدمَ عَيْلَـةَ الأبنـاءِ[2]

العتبي قال: أخبرني رجل من أهل منبج، قال: قدم علينا الحكم بن حنطب وهو مُمْلِق[3] فأغنانا! قال له: كيف أغناكم وهو مُملق؟ قال: علَّمنا المكارمَ، فعاد غنيُّنا على فقيرنا.

ومنهم معن بن زائدة

وكان يقال فيه: حدِّث عن البحر ولا حَرَج، وحدَّث عن معن ولا حَرَج.

وأتاه رجل يسأله أن يحمله، فقال: يا غلام، أعطِه فرسا وبِرْذَوْناً وبَغلا وعَيْراً وبَعِيرا وجارية. وقال: لو عرفتُ مركوبا غير هؤلاء لأعطيتك.

---

(١) الحوباء: النفس. (٢) عيلة الأبناء: أي معيشتهم.
(٣) الإملاق: الفقر.

العتبي قال: لما قدم معن بن زائدة البصرة واجتمع إليه الناس، أتاه مروان بن أبي حفصة فأخذ بعضادتَي[1] الباب، فأنشده شعره الذي قاله فيه:

فما أحجَمَ الأعداءُ عنكَ بَقيَّةً — علَيْكَ، ولكنْ لم يَرَوْا فيكَ مطْمَعا
لهُ راحتانِ الْحَتْفُ والجُودُ فيهما — أبَى اللهُ إلاّ أنْ يضُرَّ وينفعا

ومنهم يزيد بن المهلب

وكان هشام بن حسّان إذا ذكره قال: والله إن كانت السفنُ لتَجْري في جوده.

وقيل ليزيدِ بن المهّلب: مالك لا تبني دارا؟ قال: منزلي دار الإمارة أو الحبس.

ولما أُتى يزيدُ بن عبد الملك برأس يزيد بن المهلب، نال منه بعضُ جلسائه فقال له: مَهْ[2]! إن يزيد بن المهلّب طلب جسيما وركب عظيما ومات كريما.

ودخل الفرزدق على يزيد بن المهلّب في الحبس فأنشده:

صَحَّ في قَيْدِكَ السماحَةُ والمجْـ — ـدُ وفَكُّ العُناة والإفضالُ

قال: أتمدحني وأنا في هذه الحال؟ قال. أصبتُك رخيصاً فاشتريتك. فأمر له بعشرة آلاف.

وقال سليمان بن عبد الملك لموسى بن نُصير: آغْرَم[3] ديتَك خمسين مرة. قال: ليس عندي ما أغْرَم. قال: والله لتَغْرَمَنْ ديتك مائة مرة. قال يزيد بن المهلّب: أنا أغرمها عنه يا أمير المؤمنين. قال: آغرم. فغرمها عنه مائة ألف.

العتبي قال: أخبرني عَوانة قال: استعمل الوليدُ بن عبد الملك عثمان بن حيّان المُرّي على المدينة وأمره بالغِلظة على أهل الظّنة؛ فلما اُستُخْلِف سليمان أخذه بألفي ألف درهم؛ فاجتمعت القيسية في ذلك فتحمّلوا شطرها وضاقوا ذرعا بالشطر الثاني.

---

(١) عضادتي الباب: خشبتان من جانبيه.

(٢) مه: إسم فعل مبني على السكون بمعنى كفّ. (٣) اغرم: ضاعف.

ووافق ذلك استعمالُ سليمانَ يزيد بن المهلب على العراق. فقال عمر بن هبيرة: عليكم بيزيد بن المهلَّبْ، فما لها أحدٌ غيره! فتحملوا إلى يزيد وفيهم عُمر بن هُبيرة، والقَعقاع بن حبيب، والهُذيل بن زُفر بن الحارث، وانتهوا إلى رُواق يزيد. قال يحيى ابن أقْتل ـ وكان حاجباً ليزيد بن المهلب وكان رجلا من الأزد ـ فاستأذنت لهم فخرج يزيد إلى الرواق فقرّب ورحّب، ثم دعا بالغداء، فأُتوا بطعامٍ ما أنكروا منه أكثر مما عرفوا، فلما تغَدَّوْا تكلم عثمان بن حيّان وكان لَسناً مفوّها، وقال: زادك الله في توفيقك أيها الأمير، إن الوليد بن عبد الملك وجَهني إلى المدينة عاملا عليها، وأمرني بالغلظة على أهل الظنّة والأخذ عليهم؛ وإن سليمان أغرمني غُرماً، والله ما يَسَعهُ مالي ولا تحمله طاقتي؛ فأتيناك لتحمل من هذا المال ما خفّ عليك، وما بقي والله ثقيلٌ عليّ. ثم تكلم كل منهم بما حضره، وقد اختصرنا كلامهم.

فقال يزيد بن المهلب: مرحباً بكم وأهلا، إن خير المال ما قُضي فيه الحقوقُ وحُمِلت به المغارم، وإنما لي من المال ما فَضَلَ عن إخواني، وآيمُ اللهِ لو علمتُ أن أحدا أملأ بحاجتكم مني لهديتُكم إليه فاحتكموا وأكثِروا. فقال عثمان بن حيان: النصف أصلح الله الأمير. قال: نعم وكرامة، اغدُوا علي مالكم فخذوه.

فشكروا له وقاموا فخرجوا. فلما صاروا على باب السرادق قال عمر بن هُبيرة: قبّح الله رأيكم، والله ما يبالي يزيد أنصِفها تَحَمَّل أم كلَّها. فمن لكم بالنصف الباقي؟ قال القوم: هذا والله الرأيُ! وسمع يزيدُ مُناجاتهم، فقال لحاجبه: انظر يا يحيى إن كان بقي على القوم شيء فليرجعوا، فرجعوا إليه وقالوا: أقِلْنا[1] قال: قد فعلت. قالوا: فإن رأيت أن تحملها كلَّها فأنت أهلُها، وإن أبيْتَ فما لها أحد غيرك، قال: قد فعلت.

وغدَا يزيدُ بن المهلب إلى سليمان فقال: يا أمير المؤمنين، أتاني عثمان بن حيّان وأصحابه. قال: أمْسِكُ في المال؟ قال: نعم. قال سليمان: والله لآخذَنَّهُ منهم. قال

---

(١) أقلنا: أعنّا واعفنا.

يزيد: إني قد حملتهُ. قال: فأدِّه: قال يزيد والله ما حملته إلا لأؤدّيه ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن هذه الحَمَالة وإن عظُم خطبُها، فَحْمدُها والله أعظمُ منها، ويدي مبسوطة بيدك، فابسطها لسؤالها. ثم غدا يزيد بالمال على الخُزّان فدفعه إليهم فدخلوا على سليمان فأخبروه بقبض المال، فقال: وفت يمينُ سليمان احملوا إلى أبي خالد ماله.

فقال عدي بن الرقاع العاملي:

وللهِ عَيْنا مَنْ رأى كحَمَالةٍ تَحمَّلَها كبْش العِرَاقِ يَزيدُ

الأصمعي قال: قدم على يزيد بن المهلّب قومٌ من قُضاعة من بني ضبّة، فقال رجل منهم:

واللهِ ما نَدْري إذا ما فاتَنا طلَبٌ إليكَ مَن الّذي نتَطَلّبُ؟
ولقدْ ضَربنا في البلادِ فلمْ نَجِدْ أحداً سِواكَ إلى المكارمِ يُنْسَبُ
فاصبرْ لعادَتِنا التي عوّدتَنا أوْ لا فأرشِدْنا إلى مَنْ نَذْهَبُ؟

فأمر له بألف دينار، فلما كان في العام المقبل وفد عليه فقال:

مالي أرَى أبوابَهُمْ مَهْجُورةً وكأنّ بابَكَ مَجْمَعُ الأسْواقِ
أرَجَوْكَ أمْ خافُوكَ أمْ شامُوا النَّدَى بيدَيْك فاجْتَمَعُوا مِنَ الآفاقِ
إنّي رأيْتُكَ للمكارِمِ عاشِقاً والمكْرُماتُ قَليلةُ العُشّاقِ

فأمر له بعشرة آلاف درهم.

ومر يزيد بن المهلّب في طريق البصرة بأعرابيّة، فأهدت إليه عنزا، فقبلها وقال لابنه معاوية: ما عندك من نفقة؟ قال: ثمانمائة درهم. قال: ادفعها إليها! قال إنها لا تعرفك ويُرضيها اليسير قال: إن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي، وإن كان يُرضيها اليسير فأنا لا أرضى إلا بالكثير.

ومنهم يزيد بن حاتم

وكتب إليه رجل من العلماء يستوصله، فبعث إليه ثلاثين ألف درهم، وكتب إليه: «أما بعد، فقد بعثت إليك بثلاثين ألفاً، لا أُكثِّرها آمتناناً، ولا أقلّلها تجبُّراً، ولا أستثيبك عليها ثناء، ولا أقطع لك بها رجاء، والسلام».

وكان ربيعة الرَّقي قد قدم مصر فأتى يزيدَ بن حاتم الوردي فلم يُعطه شيئا، فشغل عنه ببعض الأمر، فخرج وهو يقول:

أراني ولا كفْرانَ للهِ راجِعاً ... بخفي حُنَيْن من نَوالِ ابنِ حاتِمِ

فسأل عنه يزيد، فأُخبر أنه قد خرج وقال كذا، وأُنشد البيت؛ فأرسل في طلبه فأُتي به، فقال: كيف قلت؟ فأنشده البيت: فقال شُغِلنا عنك! ثم أمر بخُفَّيْهِ فخلِعَتا من رجليه ومُلِئتا مالاً، وقال: ارجع بهما بدلا من خُفَّيْ حُنَين! فقال فيه لما عُزل عن مصر وولي مكانه يزيد بن حاتم:

بكَى أهلُ مِصرٍ بالدُّمُوعِ السَّواجِمِ ... غداةَ غداً منها الأغَرُّ ابنُ حاتِمِ

وفيها يقول:

لشَتَّانَ ما بَينَ اليزيدَيْنِ في النَّدى ... يَزيدَ سُلَيم والأغرِّ ابنِ حاتِمِ
فهَمُّ الفَتى الأزْديّ إتلافُ مالِهِ ... وهَمُّ الفتى القيْسيِّ جَمْعُ الدَّراهِمِ
فلا يَحْسَبِ التَّمتَامُ أَنّي هَجَوْتُهُ ... ولكنَّني فضَّلتُ أهلَ المكارِمِ

وخرج إليه رجل من الشعراء يمدحه، فلما بلغ مصر وجده قد مات؛ فقال فيه:

لئن مِصْرُ فاتتْني بما كُنْتُ أرتَجي ... وأخلَفَني منها الذي كُنْتُ آمُلُ
فما كُلُّ ما يَخْشَى الفتَى بمُصيبِه ... ولا كُلُّ ما يَرْجُو الفتَى هُوَ نائِلُ
وما كان بيْني لوْ لقِيتُك سالِماً ... وبيْنَ الغِنى إلا ليالٍ قلائِلُ

ومنهم أبو دُلف

واسمه القاسم بن إسماعيل، وفيه يقول عليٌّ بن جَبلة:

إنما الدنْيـا أبـو دُلـفٍ ... بين مَبْـدَاهُ ومُحْتضَـرِهْ[1]
فـإذا ولّـي أبـو دُلَـفٍ ... ولّـتِ الدنيـا على أثَـرِهْ

وقال فيه رجل من شعراء الكوفة:

الله أجرى مـن الأرزاق أكْثَرهـا ... على العبادِ، على كفـيْ أبي دلَـفِ
بَارَى الرياحَ فأعطَـى وهْيَ جـاريـةٌ ... حتى إذا وقفَتْ أعطى ولم يقِـفِ[2]
ما خَطَّ «لا» كاتِباه في صحِيفَتِـهِ ... يَوْماً كما خُطَّ «لا» في سائرِ الصحُف

فأعطاه ثلاثين ألفاً.

ومدحه آخر فقال فيه:

يُشْبِهُـه الرَّعْـدُ إذا الرعـدُ رَجَـفْ ... كـأنـهُ البَـرْقُ إذا البرقُ خَطَـفْ
كـأنـه الموتُ إذا الموتُ أَزِفْ ... تَحمِلُهُ إلى الوغَى الخيْلُ القُطُـفْ[3]
إن سارَ سارَ المجدُ أو حَلَّ وقَـفْ ... انظر بعينَيـكَ إلى أسْنَـى الشَّـرَفْ
هـل نـالـه بقُـدْرةٍ أو بِكُلَـفْ ... خَلْقٌ من الناسِ سِوى أبي دُلَـفْ

فأعطاه خمسين ألفاً.

ومن أخبار معن بن زائدة

شيء عنه:

قال شَراحيل بن معن بن زائدة: حج هارون الرشيد وزميله أبو يوسف القاضي، وكنت كثيراً ما أسايره، إذ عرض له أعرابيّ من بني أسد فأنشده شعراً مدحه فيه

(١) مبداه ومختصره: يريد حلوله البادية وحلوله الحضر.

(٢) بارى الرياح: نافسها. (٣) القطف: جمع قطوف: وهي الفرس تقارب الخطو في سرعة.

وأفرط، فقال له هارون: ألم أنْهَكَ عن مثل هذا في مدحك يا أخا بني أسد؟ إذا قلت فينا فقل كقول القائل في أب هذا:

بَنو مطرٍ يوم اللقاء كأنهمْ أُسودٌ لها في غِيلِ خِفّانَ أَشْبُلُ[1]
همُ يَمنعون الجارَ حتّى كأنّما لجارِهِمُ بيْنَ السِّماكَيْنِ مَنزِلُ[2]
بَهاليلُ في الإسلام سادوا ولم يكن كأوّلِهمْ في الجاهليّةِ أوّلُ
وما يَستطيعُ الفاعلون فَعالهمْ وإن أحْسَنوا في النائباتِ وأجْمَلوا
هم القومُ إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا وإن أَعْطَوْا أطابوا وأجزلوا

ومنهَم خالد بن عبد الله القسري

وهو الذي يقول فيه الشاعر:

... إلى خالدٍ حتى أُنِخْنَ بِخالِدٍ فنِعْم الفتَى يُرْجى ونعمَ المُؤَمّلُ

بينا خالد بن عبد الله القسري جالس في مظلة له، إذ نظر إلى أعرابي يخبّ[3] به بعيره مُقبلاً نحوه؛ فقال لحاجبه. إذا قدم فلا تَحجبْه. فلما قدم أدخله عليه، فسلّم وقال:

أصْلحَكَ اللهُ قلَّ ما بيَدي فما أُطِيقُ العِيالَ إذْ كثُروا
أناخَ دهْرٌ ألْقى بكَلْكَلِهِ فأرْسَلوني إليكَ وانْتظروا[4]

فقال خالد: أرسلوك وانتظروا؟ والله لا تنزل حتى تنصرف إليهم بما يسرُّهم. وأمر له بجائزة عظيمة وكسوة شريفة.

ومنهم عديّ بن حاتم

دخل عليه ابن دارة فقال: إني مدحتُك. قال: أَمْسِك حتى آتيك بمالي ثم امدحْني على حَسبه، فإني أكره ألا أُعطيك ثمنَ ما تقول، لي ألفُ شاة، وألفُ درهم، وثلاثةُ

(١) غيل خفّان: موضع كثير الغياض قرب الكوفة وهو مأسدة. (٢) السِّماكين: نجمين في السماء.
(٣) يخبّ: من الخبب وهو ضربٌ من العدو. (٤) كلكله: صدره، أي أثقل الدهر عليه.

أعبد، وثلاث إماء، وفرسي هذا حُبس في سبيل الله، فامدحني على حسب ما أخبرتك. فقال:

تَجِنْ قَلُوصِي في مَعَدٍّ، وإنّما | تُلاقي الرَّبيعَ في ديارِ بني ثُعَلْ
وأبقَى الليالي من عَدِيٍّ بن حاتمٍ | حُساماً كنَصْل السيْف سُلَّ مِنَ الخِلَلْ[1]
أبوك جَوَادٌ لا يُشَقُّ غُبارُهُ | وأنت جَوادٌ لستَ تُعْذَر بالعِلَلْ
فإنْ تَفعلوا شرّاً فمثلُكُمُ اتّقي | وإن خيراً فمثلُكُم فَعَلْ

قال له عدي: أمسك؛ لا يبلغُ مالي أكثرَ من هذا.

أصفاد الملوك على المدح

سعيد بن مُسلم الباهلي قال: قدم على الرشيد أعرابي من باهلة وعليه جُبة حبرة، ورداء يمَان قد شدَّه على وسطه ثم ثناه على عاتقه، وعمامة قد عصبها على فَوْدَيه وأرخى لها عَذَبة[2] من خَلْفه، فمثَلَ بين يدي الرشيد، فقال سعيد: يا أعرابي، خذ في شَرَفِ أمير المؤمنين. فاندفع في شعره. فقال الرشيد: يا أعرابي، أسمعك مستحسناً وأُنكرك متَّهماً؛ فقل لنا بيتين في هذين - يعني محمداً الأمينَ وعبدَ الله المأمونَ ابنيه، وهما عن حفافيه، فقال: يا أمير المؤمنين، حملْتني على الوعْرِ القَرْدَد[3] ورجعْتني عن السَّهْل الجَدَد[4]، روعةُ الخلافة، وبُهْرُ الدرجة، ونفورُ القوافي على البديهة؛ فأَرْوِدْني[5] تتألف لي نوافِرُ ويسكن روعي. قال: قد فعلتُ، وجعلتُ اعتذارَك بدلاً من امتحانك. قال: يا أمير المؤمنين، نفّست الخناق، وسهلت ميدان السباق؛ فأنشأ يقول:

---

(١) الخلل: جمع خلة، وهي جفن السيف المغشى بالأدم.
(٢) عذبة لسان وطرف.
(٣) القردد: ما ارتفع وغلظ من الأرض.
(٤) الجدد: الأرض الغليظة المستوية.
(٥) فأرودني: أمهلني.

بَنَيْـــتَ لعبـــدِ اللهِ ثمَّ مُحمـــدٍ ذُرا قُبةِ الإسلامِ فاخْضَرَّ عودُهـا
هما طُنُبـــاهــا، بـــاركَ اللهُ فيهما وأنــتَ أميرَ المؤمنينَ عمـودُهـا[1]

فقال الرشيد: وأنت يا أعرابي، بارك الله فيك! فَسَلْ ولا تكن مسألتُك دون إحسانك. قال الهُنَيْدَة[2] يا أمير المؤمنين. فأمر له بمائة ناقة وسبع خِلَع.

المهدي ومروان ابن أبي حفصة:

وقال مَروان بن أبي حفصة: دخلت على المهديّ فآستنشدني، فأنشدته الشعر الذي أقول فيه:

طَـرقَتْـكَ زائـرةً فحـيِّ خَيـالَهـا بَيضـاءُ تَنشُـرُ بـالخِبـاءِ دلالَهـا
قـادتْ فـؤادَكَ فـاسْتَقـادَ ومِثلُهـا قادَ القلـوبَ إلى الصِّبـا فـأمـالَهـا

حتى انتهيت إلى قولي:

شَهدتْ من الأنفـالِ آخـرُ آيـةٍ[3] بتُـراثِهِـمْ فـرجـوْتُـمُ إبطـالَها
هل تَطْمِسـونَ مـنَ السماءِ نجومَهـا بـأكُفِّكُـمْ أو تَسْتُـرون هِلالَها
أو تجحـدون مَقـالـةً عـن ربِّكُـمْ جبريـــلُ بَلَّغَهـــا النبيَّ فقـــالها

قال: وأنشدته أيضاً شعري الذي أقول فيه:

يـا بن الذي وَرِثَ النبيَّ مُحمـــداً دون الأقارب منْ ذوي الأرحـامِ
الوحـيُ بيْـنَ بَني البَنـاتِ وبينَكُـمْ قُطع الخِصـام فلاَتَ حين خِصـامِ
ما للنسـاءِ مـع الرِّجـالِ فـريضـةٌ نـزَلـت بـذلـك سـورةُ الأنعـامِ
أنّـى يكـون وليسَ ذاك بكـائـنٍ لِبَني البنـــاتِ وِراثـــةُ الأعْمامِ

---

(١) الطنب: الحبل، أو الوتد.

(٢) الهنيدة: اسم للمائة من الابل، أو لما فوقها ودونها، أو للمائتين.

(٣) يريد قوله تعالى «والذين أمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكلّ شيءٍ عليم».

أَلغَى سِهامَهمُ الكتابُ فحاوَلوا ... أن يَشْرَعوا فيها بغيْرِ سِهامِ
ظفِرَتْ بَنو ساقي الحَجيجِ بحَقِّهم ... وغُرِرْتُمُ بتَوَهُّمِ الأحْلامِ

قال مروان بن أبي حفصة: فلما أنشدت المهديّ الشعرين قال: وجب حقُّك على هؤلاء ـ وعنده جماعة من أهل بيته ـ قد أمرتُ لك بثلاثين ألفاً، وفَرَضْتُ على موسى خمسة آلاف، وعلى هارون مثلَها، وعلى عليّ أربعة آلاف، وعلى العبّاس كذا، وعلى فلان كذا فحسَبتُ سبعين ألفاً. قال: فأمر بالثلاثين ألفاً فأتى بها، ثم قال: اغدُ على هؤلاء وخُذْ ما فَرضتُ لك. فأتيت موسى فأمر لي بخمسة آلاف، وأتيت هارون فأمر لي بمثلها، وأتيت عليا، قال: قَصَّر بي دون إخوتي فلن أُقصِّر بنفسي. فأمر لي بخمسة آلاف فأخذت من الباقين سبعين ألفاً.

عبد الملك وأعشى ربيعة:

ودخل أعشى ربيعة على عبد الملك بن مروان، وعن يمينه الوليد وعن يساره سليمان؛ فقال له عبد الملك: ماذا بقي يا أبا المغيرة؟ قال: مضى ما مضى وبقي ما بقي. وأنشأ يقول:

وما أنا في حَقّي ولا في خُصومتي ... بمُهْتَضَمٍ حَقّي ولا قارِعٍ سِنّي[1]
ولا مُسلمٍ مَوْلاي مِن سوء ما جَنَى ... ولا خائفٍ مولاي من سوء ما أَجْنِي
وفضلِيَ في الأقوامِ والشِّعرِ أنني ... أقولُ الذي أعْني وأعْرِفُ ما أعني
وأنّ فؤادي بين جَنْبَيَّ عالِمٌ ... بما أبصَرَتْ عيْني وما سَمِعَتْ أُذْني
وإني وإنْ فَضّلتُ مروانَ وابنَهُ ... على الناسِ، قد فَضَّلْتُ خيْرَ أبٍ وابْن

فضحك عبد الملك وقال للوليد وسليمان: أتلومانني على هذا؟ وأمر له بعشرة آلاف.

---

(١) قارع سنّي: كناية عن الندم.

عبد الرحمن بن الحكم والفرزدق:

العتبي قال: دخل الفرزدق على عبد الرحمن الثقفي بن أم الحكم، فقال له عبد الرحمن: أبا فراس، دعني من شعرك الذي لا يأتي آخره حتى يُنْسَى أولُه، وقل فيّ بيتين يعلقان[1] أفواهَ الرواة، وأُعطيكَها عطيةً لم يُعطِها أحدٌ قبلي فغدا عليه وهو يقول:

وأنت ابن بَطْحاوَيْ قُرَيْشٍ فإن تَشَأْ ... فكن مِنْ ثَقيفٍ سَيْلِ ذي حَدَبٍ غَمْرِ[2]

وأنت ابن فَرْعٍ ماجدٍ لعَقيلةٍ ... تلقَّتْ له الشمس المُضيئة بالبدر

قال: أحسنت، وأمر له بعشرة آلاف.

الفضل بن يحي وفتى من التجار:

أبو سويد قال: أخبرني الكوفي قال: آعترض الفضلَ بن يحي بن خالد في وقت خروجه إلى خراسان فتى من التجار كان شَخص إلى الكوفة فقُطع به وأُخِذ جميعُ ما كان معه، فأخذ بعنان دابة الفضل وقال:

سأُرْسِلُ بيْتاً ليس في الشِّعْرِ مِثْلُه ... يُقَطِّعُ أَعناقَ البيوتِ الشَّوارِدِ

أقامَ النَّدى والبأسُ في كلِّ منزلٍ ... أَقامَ به الفضلُ بنُ يحي بنِ خالِد

قال فأمر له بمائة ألف درهم.

زبيدة وابن أبي حفصة في أبيات مدح بها الأمين:

العتبي: قال أبو الجنوب مروان بن أبي حفصة أبياتاً ورفعها إلى زبيدة ابنة جعفر يمتدح ابنها محمداً، وفيها يقول:

للهِ دَرُّك يا عَقيلةَ جعفرٍ ... ماذا وَلَدْتِ من العُلا والسُّؤددِ[3]

---

(١) يعلقان: أي يترددان على أفواهها.

(٢) الحدب: الحدور في صبب.

(٣) العقيلة: السيدة الكريمة والسؤدد: المجد والرفعة.

إنّ الخلافةَ قـد تَبيّـنَ نـورُهـا　　للناظـريـنَ على جَبينِ مُحمـدِ

فأمرت أن يُملأ فمُهُ دُرّاً.

الحسن بن سهل وعلي بن جبلة:

وقال الحسن بن رجاء الكاتب: قَدِم علينا علي بن جبلة إلى عسكر الحسن بن سهل، والمأمون هناك بانياً على خديجة بنت الحسن بن سهل، المعروفة ببوران، ونحن إذ ذاك نُجري على نيّف وسبعين ألف فلاح. وكان الحسن بن سهل مع المأمون يَتصبّح؛ فكان الحسن يجلس للناس إلى وقت انتباهه، فلما قدم علي بن جبلة نزل بي، فقلتُ له: قد قوي شُغل الأمير. قال: إذاً لا أضيع معك! قلت: أجل. فدخلت على الحسن بن سهل في وقت ظُهوره فأعلمتُه مكانه؛ فقال: ألا ترى ما نحن فيه؟ قلت: لستَ بمشغولٍ عن الأمر له. فقال: يُعْطَى عشرة آلاف إلى أن نتفرّغ له. فأعلمتُ علي بن جبلة؛ فقال في كلمة له:

أعطَيْتَنـي يـا وَلِـيَّ الحقِّ مُبتـدئـاً　　عَطِيَّةً كـافـأَتْ حَمْـدي ولم تَـرَنـي

ما شِمـتُ بَـرْقَـكَ حتى نِلـتُ رَيِّقَـهُ　　كـأنّما كنـت بـالجَدْوَى تُبـادِرُني[1]

ابن طوق ورجل عرض له:

عرض رجل لابن طَوْق وقد خرج متنزهاً في الرحبة فناوله رقعة فيها جميع حاجته؛ فأخذها فإذا فيها:

جعَلتُك دُنيايَ فانْ أَنْتَ جُدْتَ لِـي　　بخَيْـرٍ وإلا فـالسّلامُ على الدُّنْيـا

فقال: والله لأصَدقنَّ ظنَك. فاعطاه حتى أغناه.

عبد الله بن طاهر ودعبل بن علي:

عرض دعبل بن علي الشاعر لعبد الله بن طاهر الخراساني وهو راكب في حرّاقة له في دجلة، فأشار إليه برقعة، فأمر بأخذها، فإذا فيها:

(١) شمت: نظرت وتطلّعت، وريّقه: مطره وصوبه، كناية عن العطاء والجدوى: العطاء.

عجِبْــتُ لحرّاقِــةِ بنِ الحُسَــــيْنِ كيـفَ تسيرُ ولا تغْـرَقُ
وبَحْرانِ مِـنْ تَحْتِها واحِـدٌ وآخـرُ مِـنْ فـوْقِهـا مُطْبَـقُ
وأَعجَـبُ مِـنْ ذاكَ عِيـدانُهـا إذا مسّهـا كيْــف لا تُــورِقُ

فأمر له بخمسة آلاف درهم وجارية وفرس.

وخرج عبد الله بن طاهر فتلقاه دعبل برقعة فيها:
طَلَعتْ قناتـكَ بـالسَّعَـادةِ فـوْقها مَعْقـودةً بلـواءِ مُلْـكٍ مُقبَـلِ[1]
تَهتـزُّ فـوْقَ طَـريـدَتَيْـنِ كـأنّما تَهْفو يُقَصُّ لها جَناحَـا أَجْـدَلِ[2]
ربِحَ البخيلُ على احتيالِ عِـرْضَـهُ بنَدى يـديْـكَ ووجْهِـكَ المُتَهلّـلِ
لو كانَ يعْلَـمُ أنّ نيلَـكَ عـاجِـلٌ ما فاضَ مِنْـهُ جَـدْوَلٌ في جـدْوَلِ

فأمر له بخمسة آلاف.

ووقف رجل من الشعراء إلى عبد الله بن طاهر فأنشده:
إذا قِيـلَ: أيَّ فتًـى تعْلَمـونَ أَهَشَّ إلى البـأسِ والنـائِـلِ
وأضْـرَبَ لِلْهـامِ يـوْمَ الوغَـى وأَطْعَـمَ في الزمَـنِ الماحِـلِ؟
أشـارَ إليـك جَمِيـعُ الأنـامِ إشـارةَ غـرْقَـى إلى سـاحِـلِ

فأمر له بخمسة آلاف درهم.

أحمد بن مُطير قال: أنشدت عبد الله بن طاهر أبياتاً كنتُ مدحت بها بعض الوُلاة، وهي:
له يوْمُ بُؤْسٍ فيهِ للنـاسِ أبْـؤسٌ ويـوْمُ نعيمٍ فيـهِ للنـاسِ أنْعُـمُ
فيقْطُر يومَ الجودِ من كفِّهِ النّـدى ويقطُر يومَ البؤسِ من كفّـه الدّمُ
فلوْ أنَّ يَوم البُؤسِ لَمْ يثْـنِ كفّـهُ على الناسِ لم يُصْبحْ على الأرض مُجْرِمُ
ولـو أنّ يـوم الجودِ فـرّغَ كفَّـهُ لبذْلِ النّدَى ما كانَ بالأرضِ مُعْدِمِ

---

(١) يريد بالقناة: القناة التي يعقد فوقها لواء الإمارة.
(٢) الأجدل: الصقر.

فقال لي عبد الله: كم أعطاكِ؟ قلت: خمسة آلاف. قال: فقبلتها؟ قلت: نعم. قال لي: أخطأت؛ ما ثمن هذه إلا مائةُ ألف.

أبو جعفر وحماد عجرد:

ودخل حماد عجرد على أبي جعفر بعد موت أبي العبّاس أخيه فأنشده:

أبوكَ بعدَ أبي العبَّاسِ إذ بانا ... يا أكرمَ الناسِ أَعْراقاً وعيدَانا
لو مجَّ عودٌ على قومٍ عُصارتَهُ ... لَمجَّ عودُك فينا المِسْكَ والبانَا[1]

فأمر له بخمسة آلاف درهم.

سعيد بن خالد وموسى شهوات:

القحذمي قال: جاء موسى شَهوات إلى سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان، فقال: إن هنا جارية تعشّقْتُها، وأبوا أن ينقُصوني عن مائتي دينار. فقال: بورك فيه فذهب إلى سعيد بن خالد بن أسيد، وأمُّه عائشةَ بنت طلحة الطلحات فدَعا بمطْرَف[2] خَزّفبسطه وعقد في كل ركن من أركانه مائة دينار، وقال لموسى. خذ المطرف بما فيه. فأخذه، ثم غدا عليه فأنشده:

أبا خالدٍ أعني سعيدَ بنَ خالدٍ ... أخا العُرْف، لا أعني ابن بنتِ سعيدِ
ولكنَّني أعنِي ابنَ عائشةَ الذي ... أبو أبَوَيهِ خالدُ بنُ أسيدِ
عَميدَ النَّدى ما عاشَ يرْضَى به النّدى ... فإن ماتَ لم يَرْضَ النّدى بعَمِيدِ
دعوه دعُوه إنّكُمْ قد رقدْتُمُ ... وما هو عنْ أحسابِكُم بِرَقُودِ

للزبيري في آل مروان:

العتبي قال: سمعت عمي ينشد لأبي العباس الزبيرى:

وكلُّ خليفةٍ ووليِّ عهدٍ ... لكمُ يا آل مَرْوانَ الفِداءُ
إمارتُكُمْ شفاءٌ حَيْثُ كانتْ ... وبعْضُ امارةِ الأقوامِ داءُ

---

(١) المسك والبان؛ من الطيب. (٢) المطرف: الوشاح.

فـأنتمْ تُحْسنُـون إذا مَلكْتُـم وبعضُ القومِ إن مَلكـوا أسـاءوا
أأَجْعلُكُـم وغيْـرَكُـم سَـواءٌ وبينكـم وبيْنهُـمُ الهواءُ
هُـمُ أرْضٌ لأرجُلكُـمْ وأنْتُـمْ لأيْـديِهِمْ وأرجُلِهِـمْ سَماءُ

فقلت له: كم أعطى عليها؟ قال: عشرين ألفاً.

أبو مسلم ورؤبة:

الأصمعي قال: حدثني رؤبة قال: دخلت على أبي مُسلم صاحب الدعوة، فلما أبصرني نادى: يا رؤبة. فأجبته:

لَبَّيْـكَ إذْ دعَـوْتني لبَيْكـا أحْمَـدُ ربـاً سـاقني إليْكـا
الحمدُ والنّعْمَةُ في يَدَيْكا

قال: بل في يدي اللهِ تعالى. قلت له: وأنت إذا أنعمتَ أجدت. ثم قلت: يأذن لي أمير المؤمنين في الإنشاد؟ قال: نعم؛ فأنشدته:

مـا زال يـأتي المُلْكَ في أقطـارِهِ وعَـنْ يَمينـهِ وعَـنْ يسـارِهِ
مُشَمِّـراً لا يصْطلي بِنَـارِهِ حتى أقـرَّ المُلْـك في قـرارِهِ

فقال: يا رؤبة، إنك أتيتنا وقد شفّ المالُ واستنفده الإنفاق، وقد أمرنا لك بجائزة، وهي تافهة يسيرة، ومنك العوْد وعلينا المَعوَّل، والدهر أَطْرَقُ مُستَتبّ[1]، فلا تجعل بيننا وبينك الأسِدَّة[2]. قال رؤبة: فقلت: الذي أفادني الأميرُ من كلامه أكثرُ من الذي أفادني من ماله.

ودخل نصيب بن رباح على هشام فأنشده:

إذا استبـقَ النـاسُ العُلا سَبَقْتَهُـمُ يَمينُكَ عفْواً ثم صَلّـتْ شِمالكـا

فقال هشام: بلغتَ غاية المدح فسَلْني. فقال: يا أمير المؤمنين، يداك بالعطيّة أطلق

---

(١) الأطراف والمستتب: من أوصاف البعير، وهو المزيل الذليل.

(٢) الأسدَّة: الحواجز.

من لساني بالمسألة. قال: لا بُد أن تفعل. قال: لي ابنة نفَضْتُ عليها من سوادي فكسّدها، فلو أنفقها أميرُ المؤمنين بشيء يجعله لها. قال: فأقطعها أرضاً، وأمر لها بحلي وكسوة. فنفقت السوداء.

عبد الله بن جعفر ونصيب:

الرياشي عن الأصمعي قال: مدح نُصيب بن رباح عبد الله بن جعفر فأمر له بمال كثير وكُسوة شريفة ورواحل مُوقَرة[١] بُرّاً وتمراً؛ فقيل له: أتفعل هذا بمثل هذا العبد الأسود؟ قال: أما لئن كان عبداً إن شعره فيّ لحُرّ؛ ولئن كان أسود إنّ ثناءه لأبيض، وإنما أخذ مالاً يَفنى وثياباً تَبلى ورواحلَ تَنضَى[٢]، وأعطى مديحاً يُرْوى وثناء يَبْقى.

هشام وأبو النجم:

وذكروا عن أبي النجم العِجْلي أنه أنشد هشاماً شعره الذي يقول فيه:

الحمد لله الوهوبِ المُجزلِ

وهو من أجود شعره، حتى انتهى إلى قوله:

والشمس في الجوِّ كعينِ الأحول

وكان هشام أحول، فأغضبه ذلك، فأمر به فطُرِد. فأمّل أبو النجم رجعته، فكان يأوي إلى المسجد، فأرق هشام ذات ليلة فقال لحاجبه: أبْغِني رجلاً عربياً فصيحاً يُحدّثني وينشدني. فطَلَب له ما سأل، فوجد أبا النجم، فأتى به، فلما دخل عليه قال: أين تكون منذ أقصيناك؟ قال: حيث ألفاني رسولك. قال: فمن كان أبا النجم مَثْواك؟ قال: رجلين، أتَغدّى عند أحدهما وأتعشّى عند الآخر. قال: فما لَكَ من الولد؟ قال: ابنتان، قال أزَوّجْتَهما؟ قال: زَوّجْتُ إحداهما. قال: فبِمَ أوصيتَها ليلة أهديتَها؟ قال: قلت لها:

---

(١) موقرة: محملة. (٢) تنضى: تغنى وتبلى.

سُبِّي الحماةَ وابهتِي عليها وأن أبت فازْدَلفي إليها[1]
ثم اقْرَعِي بالعودِ مِرْفقَيْها وجدِّدي الخُلف به عليها
لا تخْبري الدْهرَ بذاكِ ابنَيْها

فقال: فهل أوصيتها بعد هذا؟ قال: نعم.

أَوْصيْتُ من بَرَّةَ قلباً بَرّا بالكلبِ خيْراً والحماةِ شَرّاً
لا تَسأمي خَنْقاً لها وجَرّاً والحيَّ عُمِّيهمْ بشرٍّ طُرّا
وإن كسَوْكِ ذَهَباً ودُرّا حتى يَروْا حُلْوَ الحياةِ مُرّا

قال هشام: ما هكذا أوصى يعقوبُ ولده. قال أبو النجم: ولا أنا كيعقوب، ولا ولدي كولده. قال: فما حال الأخرى؟ قال هي ظلامة التي أقول فيها:

كأنّ ظَلامةَ أُخْتَ شَيْبانْ يَتيمةٌ ووالِداها حيّانْ
الرَّأسُ قَمْلٌ كُلُّهُ وصِئْبانْ وليس في الرجْلَيْنِ إلاّ خيطانْ
فَهْيَ التي يُذْعَرُ مِنها الشَّيْطان

قال هشام لحاجبه: ما فعلتَ بالدنانير التي أمرتُك بقبضها؟ قال: هي عندي، وهي خمسمائة دينار. قال له: ادفعها لأبي النّجم ليجعلها في رجلَيْ ظلامة مكان الخيطين.

مروان بن محمد وطريح وذو الرمة:

أبو عبيدة قال: حدّثني يونس بن حبيب قال: لما اسْتُخْلِفَ مروان بن محمد دخل عليه الشعراء يهنئونه بالخلافة، فتقدّم إليه طُريح بن إسماعيل الثقفي، خال الوليد بن يزيد، فقال: الحمد لله الذي أنعم بك على الإسلام إماماً، وجعلك لأحكام دينه قِواماً، ولأمة محمد المصطفى جُنّة[2] ونظاماً. ثم أنشده شعره الذي يقول فيه:

تُسوءُ عِداكَ في سَدادٍ ونَعْمَةٍ خِلافتُنا تِسْعِين عاماً وأَشْهُرَا

(١) ابهتي عليها: افتري عليها واكذبي فازدلفي: فتقرّبي.

(٢) الجنّة: الدرع والستر.

فقال مروان: كم الأشهر؟ قال: وفاء المائة يا أمير المؤمنين، تبلغ فيها أعلى درجة وأسعد عاقبة في النصرةِ والتمكين. فأمر له بمائة ألف درهم.

ثم تقدّم إليه ذو الرّمة متحانياً كبْرة، قد انحلّت عمامتُه مُنحدرة عن وجهه، فوقف يُسوّيها، فقيل له: تقدّم. قال: إني أُجلّ أميرَ المؤمنين أن أخطب بشرفه مادحاً بلَوْثة عمامتي. فقال مروان: ما أملتُ أنه أبقَتْ لنا منك مَيّ ولا صَيْدَحُ[1] في كلامك إمتاعا. قال: بلى والله يا أمير المؤمنين؛ أرِدُ منه قَراحاً، والأحسن امتداحاً، ثم تقدّم فأنشد شعراً يقول فيه:

فقلتُ لها سِيري، أمامَكِ سيِّدٌ تفرّعَ مِن مَرْوانَ أو من مُحمّدِ

فقال له: ما فعلت مَي؟ فقال:

طُوِيتْ غدائرُها ببُرْد بِلًى ومَحا التُّرابُ مَحاسنَ الخدّ

فالتفت مروان إلى العباس بن الوليد، فقال: أما ترى القوافي تنثال انثيالاً؟ يُعْطَى بكل مَن سَمّى من آبائي ألفَ دينار. قال ذو الرمة: لو علمتُ لبلغتُ به عبدَ شمس.

المنصور وابن هرمة:

الربيع حاجب المنصور قال: قلت يوماً للمنصور: إن الشعراء ببابك وهم كثيرون، طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم. فقال: اخرج إليهم فاقرأ عليهم السلام، وقل لهم من مدحني منكم فلا يصفني بالأسد، فإنما هو كلب من الكلاب؛ ولا بالحيّة، فإنما هي دُويبّة مُنتنة تأكل التراب؛ ولا بالجبل، فإنما هو حجر أصم؛ ولا بالبحر، فإنما هو غُطامط لجب[2]؛ ومن ليس في شعره هذا فليدخل؛ ومن كان في شعره فلينصرف. فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هرمة، فإنه قال له. أنا له يا ربيع، فأدخلني. فأدخله، فلما مثل بين يديه، قال المنصور: يا ربيع، قد علمتُ أنه لا

---

(١) ميّ: صاحبته، وصيدح: ناقته.

(٢) غطامط لجب: عظيم الأمواج.

يُجيبك أحدٌ غيره؛ هات يا بن هرمة. فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

له لحظاتٌ عن حفافَيْ سَريرِهِ إذا كرَّها فيها عذابٌ ونائلُ
لهم طِينة بيْضاءُ من آل هاشم إذا اسْوَدَّ من كُوم التراب القبائلُ
إذا ما أبى شيئاً مضى كالذي أبى وإن قال إنّي فاعلٌ فهْوَ فاعِلُ

فقال: حسبك! ها هنا بلغْت، هذا عين الشعر، قد أمرت لك بخمسة آلاف درهم. فقمتُ إليه وقبلتُ رأسه وأطرافه ثم خرجت، فلما كدت أن أخفى على عينيه سمعته يقول: يا إبراهيم! فأقبلت إليه فزعاً، فقلت: لبيك فداك أبي وأمي. قال: آحتفظ بها فليس لك عندنا غيرها! فقلت: بأبي وأمي أنت، أحفظُها حتى أوافيك بها على الصراط بخاتَم الجهبذ[1].

جعفر وابن الجهم:

علي بن الحسين قال؛ أنشد عليّ بن الجهم جعفراً المتوكل شعره الذي أوله:

هي النفسُ ما حَمَّلْتَها تتحمّلُ

وكان في يد المتوكل جوهرتان، فأعطاه التي في يمينه؛ فأطرق متفكّراً في شيء يقوله ليأخذ التي في يساره، فقال: مالك مفكراً؟ إنما تفكر فيما تأخذ به الأخرى! خُذها لا بُورك لك فيها! فأنشأ يقول:

بِسُرَّ مَن رَا إمامُ عَدْلٍ تَعْرفُ مِن بَحْرِهِ البِحارُ
يُرْجى ويُخْشى لكلِّ أمرٍ كأنَّه جَنَّةٌ ونارُ
المُلْكُ فيه وفي بَنِيهِ ما اخْتَلَفَ الليلُ والنهارُ
يَداه في الجودِ ضَرَّتان عليه كِلْتاهُما تَغارُ
لم تَأتِ منه اليمينُ شيئاً إلا أتت مثْلَه اليسارُ

وقال آخر في الهَوْل:

(١) الجهبذ: الخبير بالأمور المميّز بين جيّدها ورديئها.

إذا سَألت النَّدَى عن كلِّ مَكرُمَـةٍ لم تُلْـفِ نِسْبتَهــا إلاّ إلى الهول
لو زاحَم الشمسَ ألفَى الشمسَ مُظْلِمةً لو زاحم الصُّمَّ أَلجاها إلى الميْـلِ(١)
أمضى منَ الدهرِ إنْ نابَتْـهُ نـائبـةٌ وعندَ أَعدائِـهِ أَمْضى مـنَ السّيْـلِ

ودخل شاعر من أهل الريّ. يقال له أبو يزيد، على عبد الله بن طاهر صاحب خراسان، فأنشده:

آشربْ هنيئاً عليكَ التاجُ مُـرْتفِقـاً من شادمهْرَ ودَعْ غُمدان لليمـنِ(٢)
فأنـت أَوْلى بتـاجِ المُلْـكِ تَلْبَسُـه من هَـوْذَةَ بن عليٍّ وابن ذي يـزنِ

فأمر له بعشرة آلاف درهم.

ودخلت ليلى الأخيليّة على الحجّاج فأنشدته:

إذا وَرَد الحَجّاجُ أرضـاً مـريضـةً تتَبَّــعَ أقصى دائها فَشفــاهــا
شَفاها مـن الداءِ العُضـال الذي بها غُلامٌ إذا هَـزَّ القَنـاةَ سَقـاهــا(٣)

فقال لها: لا تقولي غلام، ولكن قولي: همام. ثم قال: أي النساء أحبُّ إليك أنْزِلُكِ عندها؟ قالت: ومَن نساؤك أيها الأمير؟ قال: أُم الجُلاس بنت سعيد بن العاص الأموية، وهند بنت أسماء بن خارجة الفَزارية، وهند بنت المهلب بن أبي صفرة العتكيّة. قالت: القيسية أحبّ إليّ. فلما كان من الغد دخلت عليه. قال: يا غلام، أعطِها خمسمائة. قالت: أيها الأمير، أحسبها أُدْماً(٤). قال قائل: إنما أمر لك بشاء. قالت: الأمير أكرمُ من ذلك. فجعلها إبلاً على آستحياء، وإنما كان أمر لها بشاءٍ أوّلاً.

---

(١) الصمّ: الجبال.
(٢) مرتفقا: ثابتاً دائماً، وشادمهر: موضع بنيسابور.
(٣) الداء العضال: المرض المستعصي والقناة: الرمح.
(٤) الأدم: البيض من الإبل، وهي أكرمها.

كتاب الجمانة في الوفود

فرش كتاب الوفود

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه:

قد مضى قولنا في الأجواد والأصفاد[1] على مراتبهم ومنازلهم، وما جَروا عليه، وما نَدبوا إليه من الأخلاق الجميلة، والأفعال الجزيلة. ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الوفود الذين وفدوا على النبي ﷺ، وعلى الخلفاء والملوك؛ فإنها مقامات فَضل، ومشاهد حَفل؛ يُتَخَيَّر لها الكلام، وتُستَهذب الألفاظ، وتُستجزل المعاني. ولا بد للوافد عن قومه أن يكون عميدهم وزعيمَهم الذي عن قُوّته ينزعون[2]، وعن رأيه يُصدرون؛ فهو واحد يَعدل قبيلة، ولسان يُعرب عن ألسنة، وما ظنّك بوافد قوم يتكلّم بين يدي النبي ﷺ أو خليفته، أو بين يدي ملك جبار في رغبة أو رهبة، فهو يوطد لقومه مرّة ويتحفّظ من أمامه أخرى. أتُراه مدّخِراً نتيجة من نتائج الحكمة، أو مُستبقياً غريبة من غرائب الفِطنة؛ أم تظن القوم قدّموه لفضل هذه الخُطة إلا وهو عندهم في غاية الحَذلقة[3] واللَّسن، ومَجمع الشعر والخطابة. ألا ترى أنّ قيس بن عاصم المِنقريّ لمّا وفد على النبي ﷺ بَسَط له رداءه وقال: هذا سيد الوَبَر. ولما تُوفي قيس بن عاصم قال فيه الشاعر[4]:

عليكَ سلامُ اللهِ قَيْسَ بنَ عـاصِـمٍ ورحمتُـهُ مـا شـاءَ أن يَتَـرحّما

(١) الأصفاد: الكرام وأصحاب العطاء. (٢) ينزعون: يذهبون.

(٣) الحذلقه: الظرف والحذق. (٤) هو عبدة بن الطبيب.

تحيّة من ألبَسْتَه منك نِعمةً إذا زار عن شَحْطٍ بلادَك سَلّما[1]
وما كانَ قيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحِدٍ ولكنه بُنْيانُ قوْم تهدَّما

وفود العرب على كسرى

ابن الفطامي عن الكلبيّ قال: قَدم النعمانُ بن المُنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين، فذكروا من ملوكهم وبلادهم. فافتخر النعمان بالعرب وفضّلهم على جميع الأمم، لا يستثنى فارسَ ولا غيرها، فقال كسرى وأخذته عزةُ الملك: يا نعمان، لقد فكرتُ في أمر العرب وغيرهم من الأمم، ونظرتُ في حال من يقدَم عليّ من وفود الأمم، فوجدت الروم لها حظٌّ في اجتماع أُلفتها، وعِظم سلطانها، وكثرة مدائنها، ووثيق بُنيانها: وأنّ لها ديناً يبيِّن حلالها وحرامها ويردّ سفيهها ويُقيم جاهلها. ورأيت الهند نحواً من ذلك في حكمتها وطِبّها، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها، وعجيب صناعاتها، وطيّب أشجارها، ودقيق حسابها، وكثرة عددها. وكذلك الصين في اجتماعها. وكثرة صناعات أيديها في آلة الحرب وصناعة الحديد، وفروسيّتها وهمتها، وأنّ لها مُلكاً يجمعها. والترك والخَزر على ما بهم من سوء الحال في المعاش، وقلّة الريف والثمار والحصون، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، لهم مُلوك تضمّ قواصيهم وتُدبّر أمرهم. ولم أر للعرب شيئاً من خِصال الخير في أمرِ دينٍ ولا دُنيا، ولا حزم ولا قُوة، مع أن مما يدل على مهانتها وذُلّها وصِغَرِ همتها، محلّتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة، والطير الحائرة، يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة، قد خرجوا من مَطاعم الدنيا وملابسها، ومشاربها ولهوها ولذّاتها، فأفضلُ طعام ظفِرَ به ناعُمهم لحومُ الإبل التي يعافها كثيرٌ من السباع لثِقلها وسوء طعمها وخوف دائها، وإنْ قَرَى أحدهم ضيفاً عدّها مَكْرُمة، وإن أُطعمَ أكلة عدّها غنيمة؛ تنطق بذلك أشعارهُم، وتفتخر بذلك رجالُهم، ما خلا هذه التَّنوخيّة التي

---

(١) شحطٍ: بعدٍ.

أسس جدِّي اجتماعها، وشدّ مملكتها، ومنعَهَا من عدوِّها؛ فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا، وإنّ لها مع ذلك آثاراً ولَبُوسا، وقُرى وحُصونا، وأموراً تُشبه بعض أمور الناس - يعني اليمن - ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلّة والقلّة والفاقة والبؤس، حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس.

قال النعمان: أصلح الله الملك، حقّ لأُمةٍ الملك منها أن يسمو فضلها، ويعظم خطْبها، وتعلو درجتها. إلا أنّ عندي جواباً في كل ما نطق به الملك، في غير ردٍّ عليه، ولا تكذيب له، فإن أمّنني من غضبه نطقتُ به.

قال كسرى: قل فأنت آمن.

قال النعمان: أمّا أُمتك أيها الملك فليست تُنازَع في الفضل، لموضِعِها الذي هي به من عقولها وأحلامها، وبسطةِ محلِّها، وبُحْبُوحَةِ عِزِّها، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك. وأما الأُمم التي ذكرتَ، فأيّ أمة تَقْرِنها بالعرب إلا فَضَلَتْها.

قال كسرى: بماذا؟

قال النعمان: بعزّها ومنعَتِها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأَنَفَتها ووفائها:

فأما عِزُّها ومنعَتُها؛ فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوّخوا البلاد، ووطّدوا الملك، وقادوا الجند، لم يطمع فيهم طامع، ولم ينلهم نائل، حصونُهم ظهورُ خيلهم، ومهادُهم الأرض، وسُقوفهم السماء، وجُنّتهم[1] السيوف، وعُدّتهم الصبر. إذْ غيْرُها من الأمم إنما عزّها الحجارة والطين وجزائر البحور.

وأما حُسْنُ وجوهها وألوانها فقد يُعْرَف فضلُهم في ذلك على غيرهم من الهند، والصين المُنحفة، والترك المشوّهة، والروم المقشّرة.

---

(١) جنتهم: دروعهم.

وأما أنسابها وأحسابها، فليست أُمة من الأمم إلا وقد جَهلتْ آباءها وأصولها وكثيراً من أوّلها، حتى إنّ أحدهم ليُسْأَلُ عمن وراء أبيه دُنْيا فلا ينْسُبه ولا يعرفه وليس أحد من العرب إلا يسمِّي آباءه أباً فأباً، حاطوا بذلك أحسابهم، وحفظوا به أنسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه: ولا ينتسب إلى غير نسبه، ولا يُدعى إلى غير أبيه.

وأما سخاؤها، فإنّ أدناهم رجلاً الذي تكون عنده البكرةُ والناب عليها بلاغُه[1] في حُموله وشِبعه وريِّه، فيطرقه الطارق[2] الذي يكتفي بالفِلْذة[3] ويجتزيء بالشَّربة فيعَقِرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يُكسبه حُسْنَ الأحدوثة وطيبَ الذكر.

وأما حكمة ألسنتهم فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورَونق كلامهم وحُسنه ووزنه وقوافيه، مع مَعرفتهم بالأشياء، وضَربهم للأمثال، وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس. ثم خيْلهم أفضلُ الخيل، ونساؤهم أعفُّ النساء، ولباسُهم أفضل اللباس ومعادنهم الذهب والفضة، وحجارة جِبالهم الجَزْع[4]، ومطاياهم التي لا يبلغ على مثلها سَفْر، ولا يُقطع بمثلها بلدٌ قفر.

وأما دينها وشريعتها، فإنهم متمسّكون به، حتى يبلغ أحدُهم من نسكه بدينه أن لهم أشهراً حُرماً، وبلدا محرماً، وبيتاً محجوجاً يَنسكون فيه مناسكَهم، ويذبحون فيه ذبائحهم، فيلقى الرجلُ قاتل أبيه أو أخيه، وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رغبته منه، فيَحجزه كرمُه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى.

وأما وفاؤها، فإنّ أحدهم يلحظ اللحظة ويُومىء الإيماءة فهي ولَثٌ[5] وعُقدة لا يحلّها إلا خروج نفْسِه، وإنّ أحدَهم ليرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدَينه فلا

(١) الناب: الناقة المسنّة وبلاغه: معوّله وكفايته.

(٢) الطارق: الزائر ليلاً. (٣) الفلذة: القطعة.

(٤) الجزع: خرز يماني فيه سوادٌ وبياض. (٥) الولث: العهد.

يغْلَق رهنُه ولا تُخفر ذمته، وإن أحدهم ليبلُغه أن رجلاً استجار به، وعسى أن يكون نائياً عن داره، فيصاب، فلا يَرضَى حتى يُفنى تلك القبيلة التي أصابتْه أو تفنى قبيلتُه لِما خُفر من جواره؛ وإنه ليلجأ إليهم المجرمُ المُحدث من غير معرفة ولا قرابة، فتكون أنفُسهم دون نفسه، وأموالهم دون ماله.

وأما قولك أيها الملك: يئدون أولادهم، فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفَةً من العار وغيْرة من الأزواج.

أما قولك: إنّ أفضل طعامهم لحومُ الإبل على ما وصفت منها، فما تركوا ما دونها إلا احتقارا له، فعمَدوا إلى أجلِّها وأفضلها، فكانت مراكبَهم وطعامَهم مع أنها أكثر البهائم شحوماً، وأطيبُها لحوما، وأرقّها ألبانا، وأقلها غائلة، وأحلاها مَضغة، وإنه لا شيء من اللّحمان يعالج ما يعالج به لحمُها إلا آستبان فضلُها عليه.

وأما تحاربُهم وأكلُ بعضِهم بعضا، وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم؛ فإنما يفعل ذلك منَ يفعله من الأمم إذا أنِستْ من نفسها ضَعفاً وتخوّفت نُهوض عدوها إليها بالزحف، وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهلُ بيتٍ واحد يعْرَفُ فضلُهم على سائر غيرهم، فيلْقون إليهم أمورهم، وينقادون لهم بأزمّتهم: وأما العرب فإن ذلك كثيرٌ فيهم، حتى لقد حاولوا أن يكونوا مُلوكا أجمعين، مع أنفَتهم من أداء الخراج والوطَف[1] بالعسْف.

وأما اليمن التي وصفها الملك فإنما أتى جدَّ الملك وليُّها الذي أتاه عند غلبة الحَبَش له على ملك متَّسق؛ وأمرٍ مجتمع؛ فأتاه مسلوباً طريداً مستصرخا، وقد تقاصر عن إيوائه، وصغُر في عينه ما شيّد من بنائه. ولولا ما وتر[2] به من يليه من العرب لمال إلى مجال، ولوَجد من يُجيد الطعان ويغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار.

قال: فعجب كسرى لِما أجابه النعمانُ به؛ وقال: إنك لأهلٌ لموضعك من الرياسة

---

(١) الوطف: طردك الطريدة ثم تكون في إثرها.
(٢) وتر به: تعلّق به.

في أهل إقليمك ولما هو أفضل . ثم كساه من كسوته ، وسرّحه إلى موضعه من الحيرة .

فلمَّا قدم النعمانُ الحيرةَ وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تَنَقص العرب وتَهجين أمرهم ، بعث إلى أكثَمَ بن صَيْفيّ وحاجبِ بن زُرارة التميميّين ، وإلى الحارث ابن عُباد وقيس بن مسعود البكريّين ، وإلى خالد بن جعفر ، وعَلقمة بن معد يكرب الزّبيدي ، والحرث بن ظالم المُرّي ؛ فلما قدموا عليه في الخَوَرْنَق ، قال لهم : قد عَرفتم هذه الأعاجمَ وقُرْبَ جوارِ العرب منها ، وقد سمعتُ من كسرى مقالاتٍ تخوَّفتُ أن يكونَ لها غور ، وأن يكونَ إنما أظهرها لأمرٍ أراد أن يتخذ به العرب خَوَلا[١] كبعض طَماطمته[٢] في تأديتهم الخَراج إليه ، كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله .

فاقتصَّ عليهم مقالاتِ كسرى وما ردّ عليه ؛ فقالوا : أيها الملك ، وفّقك الله ، ما أحسنَ ما رَدَدْت ، وأبلغَ ما حَجَجْتَه به ؛ فُمرْنا بأمرِك ، وادْعُنا إلى ما شئت .

قال : إنما أنا رجل منكم ، وإنما ملكت وعَزَزْتُ بمكانكم وما يُتخوَّف من ناحيتكم . وليس شيء أحبَّ إليَّ مما سدّد الله به أمركم ، وأصلح به شأنكم ، وأدام به عزَّكم ؛ والرأيُ أن تَسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتَنطلقوا إلى كسرى ، فإذا دخلتم نَطق كل رجل منكم بما حضره ، ليعلم أنّ العرب على غير ما ظن أو حدَّثَتْه نفسُه ؛ ولا ينَطق رجل منكم بما يُغضبه ، فإنه ملك عظيم السلطان ، كثيرُ الأعوان مُتْرَف مُعْجَبٌ بنفسه ، ولا تنخزلوا[٣] له انخزال الخاضع الذليل ، ولْيكن أمرٌ بين ذلك ، تظهر به وَثاقةُ حُلومكم ، وفضلُ منزلتكم ، وعظمة أخطاركم ؛ وليكن أولَ من يبدأ منكم بالكلام أكثمُ بن صيفي ، لِسَنّي حالِه ، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتُكم بها ؛ فإنما دعاني إلى التَّقدمة بينكم علمي بمَيْل كل رجل منكم على التقدم قبل صاحبه ؛ فلا يكوننّ ذلك منكم فيجدَ في آدابكم مَطْعَنا ؛ فإنه ملك مُترَف ، وقادرٌ مسلَّط .

(١) الخول : العبيد .
(٢) الطماطمة : من في لسانهم عجمة ، يريد رعيته من الأعاجم .
(٣) تنخزلوا : تتذللوا وتستضعفوا نفوسكم .

ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائق حُلَل الملوك، كل رجل منهم حُلّة، وعَمّمه عمامة، وختّمه بياقوتة؛ وأمر لكل رجل منهم بنجيبة مَهْرية وفرس نَجيبة، وكتب معهم كتاباً:

أما بعد، فإن المَلِك ألقَى إليّ من أمر العرب ما قد عَلِم، وأجبتُه بما قد فَهِم بما أحببتُ أن يكون منه على عِلْم، ولا يتلجلج في نفسه أن أُمة من الأُمم التي ٱحتجزت دونه بمملكتها، وحَمَتْ ما يليها بفضل قُوّتها، تبلُغها في شيء من الأمور التي يتعزّز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة. وقد أوفدتُ أيها الملك رهطا من العرب؛ لهم فضلٌ في أحسابهم وأنسابهم وعُقولِهم وآدابِهم؛ فليسمع الملك، ولْيُغْمِضْ عن جفاءٍ إن ظهر من منطقهم، وليُكرِمْني بإكرامهم وتعجيل سراحهم، وقد نسبتُهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائرهم.

فخرج القوم في أُهبتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن، فدفعوا إليه كتاب النعمان، فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم. فلما أن كان بعد ذلك بأيام، أمر مرازبته[٢] ووجوهَ أهل مملكته، فحضروا وجلسوا على كراسيّ عن يمينه وشماله؛ ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وضعهم النعمانُ بها في كتابه؛ وأقام التّرجمانَ ليؤديَ إليه كلامَهم، ثم أذن لهم في الكلام.

فقام أكثمُ بن صيفيّ فقال: إن أفضلَ الأشياء أعاليها، وأعلى الرجالِ ملوكها، وأفضل الملوك أعمُّها نفعا، وخيرَ الأزمنة أخصبُها، وأفضلَ الخطباء أصدقُها. الصدق مَنْجاة، والكذب مَهْواة، والشرُّ لَجاجة[١]، والحزم مَركَبٌ صعب، والعَجز مركبٌ وطيء. آفةُ الرأي الهوى، والعجزُ مِفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر. حُسن الظن ورَطة، وسوء الظن عِصمة. إصلاح فساد الرعية خيرٌ من إصلاح فسادِ الراعي. من فَسدت بطانتُه كان كالغاصّ بالماء. شر البلاد بلاد لا أمير بها. شَر الملوك من

---

(١) المرازبة: الرؤساء.

(٢) اللجاجة: تماحك الخصمين وتماديهما، أي ان أصل الشرّ اللجاجة.

خافه البَريء. المرء يَعجز لا المحالة. أفضلُ الأولادِ البَرَرَة. وخيرُ الأعوان من لم يُراءِ[1] بالنصيحة. أحقُّ الجنود بالنصر من حَسُنَتْ سريرتهُ. يكفيك من الزاد ما بلّغك المحلّ. حسبك من شرٍّ سماعهُ. الصمت حكمٌ وقليل فاعلهُ. البلاغة الإيجاز. من شدّد نفر، ومن تراخى تألف.

فتعجب كسرى من أكثم، ثم قال: ويحك يا أكثم! ما أحكمك وأوثق كلامك لولا وَضْعُك كلامَك في غير موضعه.

قال أكثم: الصدقُ يُنبيء عنك لا الوعيد.

قال كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى.

قال أكثم: رُبَّ قولٍ أنفذُ من صول.

ثم قام حاجب بن زرارة التميمي، فقال وَرَى زَنْدُك، وعلَت يدُك، وهيبَ سلطانُك. إن العرب أمة قد غلُظت أكبادُها، وآستحصدت مِرَّتُها[2]، ومنعت درّتها[3]؛ وهي لك وامقةٌ[4] ما تألفْتَها، مُسترسِلة ما لاينتها، سامعةٌ ما سامَحتَها، وهي العلقم مرارة، والصاب غضاضة، والعسل حلاوة، والماء الزلالُ سلاسة. نحن وُفودها إليك، وألسنتها لديك؛ ذمّتنا محفوظة، وأحسابنا ممنوعة، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة؛ إن نؤُبْ لك حامدين خيراً فلك بذلك عمومُ مَحْمَدَتنا، وإن نَذُم لم نَخص بالذمّ دونها.

قال كسرى: يا حاجب، ما أشبه حجَر التلال بألوان صخرها.

قال حاجب: بل زئيرَ الأُسْدِ بصولتها.

قال كسرى: وذلك.

(١) المراءاة: الملق والرياء.

(٢) المرّة: طاقة الحبل، واستحصدت: استحكمت وهذا كناية عن قوتهم.

(٣) درّتها: لبنها. (٤) وامقة: محبة.

ثم قام الحارث بن عُبَاد البَكري فقال: دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظّها، وعلوّ ثنائها. من طال رِشاؤه كثر مَتْحُه[١]، ومن ذهب ماله قلّ مَنْحُه. تناقُلُ الأقاويلِ يعرِّف اللُّب؛ وهذا مقام سيوجِف[٢] بما يُنطقُ فيه الرَّكْب، وتَعرف به كُنْهَ حالنا العجمُ والعرب؛ ونحن جيرانك الأدْنَوْن، وأعوانك المُعينون، خيولنا جَمّة، وجُيوشنا فخمة، إن استنجدتَنا فغيرُ رُبُض[٣]، وإن استطرقتنا فغير جُهُض[٤]، وإن طَلَبتنا فغيرُ غُمض، لا نَنثني لذُعر، ولا نَتنكّر لدهر، رِماحنا طِوال، وأعمارنا قِصار.

قال كسرى: أنفسٌ عزيزة، وأُمة واللهِ ضعيفة.

قال الحارث: أيها الملك، وأنى يكون لضعيفٍ عِزّة، أو لصغيرٍ مِرَّة؟

قال كسرى: لو قَصُر عُمرك لم تستولِ على لسانِك نفسُك.

قال الحارث: أيها الملك، إن الفارس إذا حَمل نفسَه على الكَتيبة مغرِّرا بنفسه على الموت، فهي مَنِيْةٌ استقبلها، وحياةٌ استدبرها؛ والعرب تعلم أني أبعث الحرب قُدُما، وأحبسها وهي تصرّف بهم، حتى إذا جاشت نارها، وسعَرَت لظاها، وكَشفت عن ساقها، جعلتُ مَقادَها رُمحى، وبَرْقها سيفي، ورَعدها زئيري، ولم أُقصّر عن خوض خُضاخضها[٥]، حتى أنغمس في غَمرات لججها، وأكون فُلْكا لفُرساني إلى بُحبوحة كَبْشها، فأستمطرها دما، وأترك حُماتَها جَزَرَ السباع وكلِّ نَسْر قَشْعَم[٦].

ثم قال كسرى لمن حضره من العرب: أكذلك هو؟

---

(١) الرشاء: الحبل، والمتح: إخراج الماء من البئر.

(٢) الايجاف: سرعة السير.

(٣) ربض: جمع ربوض، من ربضت الشاة إذا أقامت مكانها ولزمته.

(٤) وإن استطرقتنا فغير جُهض: أي إذا استغنت بنا لم تخب استعانتك، والأصل في الاستطراق: طلبك الفحل يضرب في إبلك وجُهض: جمع جهيض، وهو سقط الناقة، أي أن فحلنا إذا ضرب النياق لم تأت بجهيض بل تنتج.

(٥) الخضاخض: المكان الكثير الماء. (٦) القشعم: المسنّ.

قالوا: فعاله أنطق من لسانه.

قال كسرى: ما رأيتُ كاليوم وفداً أحْشَدَ، ولا شهوداً أوْفَد.

ثم قام عمرو بن الشريد السُّلمي فقال: أيها الملك نِعَم بالُك، ودام في السرور حالك؛ إنّ عاقبة الكلام متدبّرة، وأشكال الأمور مُعتبرَة، وفي كثير ثَقْلة، وفي قليل بُلْغة، وفي الملوك سورةُ العزّ[١]، وهذا منطق له ما بعده، شَرُفَ فيه مَن شَرُف، وخَمل فيه مَن خَمل، لم نأت لضَيْمِك، ولم نَفِدْ لسُخطِك، ولم نتعرّض لرفْدِك. إنّ في أموالنا مُرتقدا، وعلى عزنا مُعتمدا؛ إن أورينا نارا أثْقبنا، وإن أَودَ[٢] دهرٌ بنا اعتدلنا، إلا أنّا مع هذا لِجوارِك حافظون، ولمن رامك مكافحون، حتى يُحمد الصَّدَر، ويُستطاب الخَبر.

قال كسرى: ما يقوم قصدُ مَنطقك بإفراطك، ولا مدحُك بذمِّك.

قال عمرو: كفى بقليلِ قَصْدي هاديا، وبأيسرِ إفراطي مُخبرا، ولم يُلَمْ من عَزَفت[٣] نفسُه عما يعلم، ورضي من القصد بما بلغ.

قال كسرى: ما كل ما يَعرف المرءُ ينطق به. اجلس.

ثم قام خالد بن جعفر الكِلابيّ فقال: أحضرَ اللهُ الملك إسعادا، وأرشده إرشادا؛ إنّ لكل منطق فُرصة، ولكل حاجة غُصة، وعِيُّ المنطق أشدُّ من عيِّ السكوت، وعِثار القول أنْكى من عثار الوَعْث[٤]، وما فُرصة المنطق عندنا إلا بما نهوى، وغُصة المنطق بما لا نهوى غير مُستساغةٍ، وتركي ما أعلم من نفسي ويعلم مَن سَمِعَني أنني له مُطيق أحَبُّ إليّ من تَكلُّفي ما أتخوّف ويتخَوَفَّ مني. وقد أوفدَنا إليك مَلِكنا النعمان، وهو لك من خير الأعوان، ونِعْمَ حاملُ المعروفِ والإحسان. أنفُسنا بالطاعة لك باخعة[٥]، ورقابُنا بالنصيحة خاضعة، وأيدينا لك بالوفاء رهينة.

---

(١) سورة العزّ: سطوته. (٢) الأود: الإعوجاج.

(٣) عزفت: مالت. (٤) الوعث: المكان السهل الذي تغيب فيه الأقدام.

(٥) باخعة: خاضعة ومقرّة.

قال له كسرى: نطقتَ بعقل، وسَمَوْتَ بفضل، وعلوت بنبل.

ثم قام علقمة بن عُلاثة العامريّ فقال: أنهجتْ لك سبلُ الرشاد، وخَضعت لك رقابُ العباد: إن للأقاويل مناهج، وللآراء موالج، وللعويص مخَارج؛ وخير القول أصدقُه، وأفضلُ الطلب أنجحُه. إنّا وإن كانت المحبّة أحضرتْنا، والوفادة قرّبتنا، فليس مَن حَضَرَك منا بأفضلَ ممن عَزَب[1] عنك، بل لو قِسْتَ كلَّ رجل منهم وعلمت منهم ما علمنا، لوجدتَ له في آبائه دُنْياً أندادا وأكفاء، كلهم إلى الفضل منسوب، وبالشرف والسودد موصوف، وبالرأي الفاضل والأدب النافذ معروف، يحمي حِماه، ويُروى نَداماه، ويَذود أعداه؛ لا تَخَمد ناره، ولا يحترز منه جاره. أَيها الملك، من يَبْلُ العرب يعرف فضلَهم؛ فاصطنع العرب، فإنها الجبال الرواسي عزّا، والبحور الزواخر طُمِيّاً[2]، والنجوم الزواهر شرفا، والحَصَى عددا؛ فإن تعرفْ لهم فضلهم يُعزِوّك، وإن تَستصرخهم لا يخذُلوك.

قال كسرى - وخشي أن يأتي منه كلام يحمله على السخط عليه: حسْبُك، أبْلَغْتَ وأحسَنْت.

ثم قام قيس بن مسعود الشَّيباني فقال: أطاب الله بك المَراشد، وجنَّبك المصائب، ووقاك مكروهَ الشَّصائب[3]؛ ما أحقَّنا إذ أتيناك بإسماعك ما لا يُحْنِق صدرَك، ولا يَزرع لنا حقدا في قلبك؛ لم نقدَم أيها الملك لمساماة، ولم ننتسبْ لمعاداة، ولكن لتعلم أنت ورعيتُك ومَن حَضَرَك مِن وفود الأمم أنّا في المنطق غير مُحجمين، وفي اليأس غيرُ مقصرين؛ إن جُورينا فغير مسبوقين، وإن سُومينا فغير مغلوبين.

قال كسرى: غير أنكم إذا عاهدتم غيرُ وافين. وهو يُعرِّض به في تركه الوفاء بضمانه السَّواد[4].

---

(١) عزب: غاب.

(٢) الطمي: الامتلاء وارتفاع الموج.

(٣) الشصائب: الشدائد.

(٤) يريد سواد العراق.

قال قيس: أيا الملك، ما كنتُ في ذلك إلا كوافٍ غُدِر به، أو كخافر[١] أخفر بذمته.

قال كسرى: ما يكون لضعيفٍ ضمان، ولا لذليلٍ خِفارة.

قال قيس: أيها الملك، ما أنا فيما خُفر من ذمتي، أحقُّ بالزامي العارَ منك فيما قُتل من رعيتك، وانْتُهك من حُرْمتك.

قال كسرى: ذلك، لأن مَن ائتَمن الخانة، وآستنجد الأَثَمَة، ناله من الخطأ ما نالني، وليس كلُّ الناس سواء؛ كيف رأيت حاجب بن زُرارة لِمَ يُحكم قُواه فيُبْرِم، ويعهد فيُوفى، ويعِد فيُنجِز؟

قال: وما أحقَّه بذلك وما رأيته إلا لي.

قال كسرى: القوم بُزُل فأفضلها أشدُّها.

ثم قام عامر بن الطُّفيل العامريّ فقال: كثُر فُنون المنطق، وليس القول أعمى من حِنْدِسِ[٢] الظَّلماء، وإنما الفخر في الفَعال، والعِزّ في النجدة؛ والسُّودَدُ مطاوعَةُ القدْرة. وما أعلمك بقدْرنا، وأبصَرك بفضلنا؛ وبالَحري[٣] إن أدالت الأيام، وثابت الأحلام، أن تُحْدِث لنا أموراً لها أعلام.

قال كسرى: وما تلك الأعلام؟

قال: مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر، على أمر يُذكر.

قال كسرى: وما الأمر الذي يُذْكر؟

قال: مالي علم بأكثر مما خبّرني به مُخبر.

---

(١) الخافر: المجير.

(٢) الحندس: الظلمة. (٣) الحريّ: الخليق الجدير.

قال كسرى: متى تكاهَنْتَ يا بن الطُّفيل؟

قال: لستُ بكاهن، ولكني بالرمح طاعن.

قال كسرى: فإن أتاك آتٍ من جهة عينك العوراء ما أنت صانع؟

قال: ما هيبتي في قَفاي بدون هَيبتي في وجهي، وما أذهبَ عيني عَيْثٌ[١] ولكن مطاوعة العيث.

ثم قام عمرو بن معد يكرب الزّبيدي فقال: إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانِه فبلاغ المنطق الصواب، ومِلاك النَّجْعة الآرتياد، وغفْو الرأي خيرٌ من استكراه الفكرة، وتوقّف الخِبرة خيرٌ من اعتساف الحيرة، فاجتَبِذ[٢] طاعتَنا بلفظك، واكْتَظِمْ[٣] بادِرَتَنا بحِلْمك، وألِنْ لنا كنفك[٤] يسلُسْ لك قيادَنا، فإنّا أُناس لم يُوقِس[٥] صَفاتَنا قِراعُ مَناقيرِ من أراد لنا قضما، ولكن منعْنا حِمانا مِن كل مَن رام لنا هَضْما.

ثم قام الحارث بن ظالم المرّي فقال: إنّ من آفة المنطق الكذب، ومن لؤم الأخلاق الملَق[٦]، ومن خطلِ الرأي خفة الملك المُسلّط، فإن أعلمنْاك أن مواجهتَنا لك عن ائتلاف، وانقيادَنا لك عن تَصاف، ما أنت لقبولِ ذلك منا بخليق، ولا للاعتماد عليه بحقيق، ولكن الوفاء بالعهود، وإحكام ولْثِ العقود، والأمر بيننا وبينك مُعتدل، ما لم يأْت من قبلك ميلٌ أو زلل.

قال كسرى: من أنت؟

قال: الحارث بن ظالم.

قال: إن في أسماء آبائك لدليلا على قلة وفائك، وأن تكون أولى بالغدر، وأقرب من الوزر.

---

(١) العيث: الفساد. (٢) اجتبذ: اجتذب واستمل.
(٣) اكتظم: احتمل واصطبر (٤) كنفك: جانبك.
(٥) لم يوقس: لم يخدش. (٦) الملق: الرياء.

قال الحارث: إنّ في الحق مغَضبة، والسَّرْوُ التغافل[1]، ولن يستوجب أحدٌ الحلم إلا مع القدرة، فلتُشبه أفعالُك مجلسَك.

قال كسرى: هذا فتى القوم.

ثم قال كسرى: قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم، وتفنّن فيه متكلّموكم ولولا أني أعلم أن الأدب لم يُثقّف أوَدَكم، ولم يُحكم أمركم، وأنه ليس لكم مَلكٌ يجمعكم فتنطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة، فنطقتم بما استولى على ألسنتكم، وغلب على طباعِكم، لم أُجِزْ لكم كثيراً مما تكلمتم به. وإني لأكره أن أجبِّه[2] وفودي أو أُحْنِق صدورهم، والذي أُحبُّ هو إصلاح مُدْبركم، وتألف شواذِّكم، والإعذار إلى الله فيما بيني وبينكم؛ وقد قبلت ما كان في منطقكم من صواب. وصفحت عما كان فيه من خَلل؛ فانصرفوا إلى مَلَكِكم فأحسِنوا مُؤازرته والتزِموا طاعته، وارْدَعُوا سُفهاءكم وأقيموا أودَهم، وأحسنوا أدبهم، فإن في ذلك صلاح العامّة.

وفود حاجب بن زرارة على كسرى

العتبي عن أبيه: أن حاجب بن زُرارة وفد على كسرى لما مَنع تميماً من رِيف العراق، فاستأذن عليه، فأَوْصَل إليه فقال: أسيِّد العربِ أنت؟ قال: لا. قال: فسيّد مُضر؟ قال: لا. قال: فسيّد بني أبيك أنت؟ قال: لا. ثم أذن له فدخل عليه. قال: من أنت؟ قال: سيد العرب! قال: أليس قد أوْصلْتُ إليك: أسيّد العرب أنت؟ فقلت: لا، حتى اقتصرتُ بك على بني أبيك، فقلت: لا؟ قال له: أيها الملك، لم أكن كذلك حتى دخلتُ عليك، فلما دخلتُ عليك صرتُ سيدَ العرب. قال كسرى: زِه[3]! املئوا فاه دُرّاً. ثم قال: إنكم معشر العرب غُدُر، فإن أذنتُ لكم أفسدتم البلاد، وأغرتم على العباد، وأذيتموني. قال حاجب: فإني ضامن للملك ألاّ يفعلوا.

---

(١) السترو: المروءة والشرف. (٢) أجبّه: أواجه.

(٣) زه: أحسنت، دليل على الإعجاب.

قال: فمن لي بأن تفي أنت؟ قال: أَرْهَنك قوسي. فلما جاء بها ضَحِك مَن حوله وقالوا: لهذه العصا يفي! قال كسرى: ما كان ليُسْلِمها لشيء أبداً. فقبضها منه، وأذِن لهم أن يدخلوا الريف.

ومات حاجب بن زرارة، فارتحل عطارد بن حاجب إلى كسرى يطلب قوسَ أبيه؛ فقال له: ما أنت الذي رهنتَها! قال: أجل. قال: فما فعل؟ قال. هلك، وهو أبي، وقد وفَى له قومُه ووفى هو للملك. فردّها عليه وكساه حُلة.

فلما وفد إلى النبي ﷺ عُطاردُ بن حاجب، وهو رئيس تميم، وأسلم على يديه، أهداها للنبي ﷺ، فلم يقبلها؛ فباعها من رجل من اليهود بأربعة آلاف درهم.

ثم إن مضر أتت النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، هلك قومك وأكلتهم الضَّبُع. يريدون الجوع ـ والعرب يسمُّون السَّنة الضَّبعَ والذئب. قال جرير:

من ساقَه السنة الحصّاء والذِّيبُ[1]

فدعا لهم النبي ﷺ فأُحْيُوا، وقد كان دعا عليهم فقال: اللهم آشدُدْ وطأتك على مُضر، وابعثْ عليهم سنين كسِنِي يوسف.

وفود أبي سفيان إلى كسرى

الأصمعي قال: حدثنا عبدُ الله بن دينار عن عبد الله بن بكر المُرّي، قال: قال أبو سفيان: أهديتُ لكسرى خيلاً وأدَماً، فقَبل الخيلَ وردّ الأدم، وأُدْخِلتُ عليه فكأنّ وجهه وجهان من عِظَمه، فألقى إليّ مخدّةً كانت عنده، فقلت: واجُوعاه! أهذه حظّي من كسري بن هُرمز؟ قال: فخرجتُ من عنده، فما أَمرُّ على أحد من حَشَمه إلا أعْظَمَها، حتى دُفعتْ إلى خازن له: فأخذها وأعطاني ثمانمائة إناء من فضةٍ وذهب.

قال الأصمعي؛ فحدثتُ بهذا الحديث النَّوشجان الفارسي، فقال: كانت وظيفة المخدّة ألفاً، إلا أن الخازن اقتطع منها مائتين.

(١) صدره: يأوي إليكم بلامنّ ولا جحدِ.

وفود حسان بن ثابت على النعمان بن المنذر

قال: وفد حسان بن ثابت على النعمان بن المُنذر، قال: فلقيت رجلاً ببعض الطريق، فقال لي: أين تُريد؟ قلت: هذا الملك. قال: فإنك إذا جئته متروكٌ شهراً، ثم تُتْرك شهراً آخر، ثم عسى أن يأذن لك؛ فإن أنت خلوتَ به وأعجبتَه فأنت مُصيبٌ منه خيراً، وإن رأيت أبا أُمامةَ النابغةَ فاظعَن[1]، فإنه لا شيء لك! قال: فقدمْتُ عليه، ففعل بي ما قال، ثم خلوتُ به وأصبتُ مالاً كثيراً ونادمتُه فبينما أنا معه إذا رجل يرتجز حول القُبة ويقول:

أنامَ أَمْ يَسْمَعُ ربُّ القُبَّهْ   يا أَوْهَبَ الناسِ لعُنْسٍ صُلْبهْ[2]
ضرَّابَةٍ بالمِشْفَرِ الأذِبَّهْ   ذات هياتٍ في يديها جَذْبهْ[3]

فقال النعمان: أبو أمامة، آئذنوا له فدخل فحيّاه وشرب معه، ووردت النَّعَم السود. ولم يكن لأحد من العرب بعيرٌ أسودُ غيره ولا يُفتحل أحدٌ فحلاً أسود. فآستأذنه النابغة في الإنشاد، فأذن له، فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

فإنك شمسٌ والملوكُ كَواكِبٌ   إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهنَّ كوكبُ

فأمر له بمائة ناقة من الإبل السُّود برُعاتها؛ فما حسدتُ أحداً قط حَسَدي له في شعره وجزيلِ عطائه.

وفود قريش على سيف بن ذي يزن

بعد قتله الحبشة

نعيم بن حَمّاد قال: أخبرنا عبد الله بن المُبارك، عن سُفيان الثّوري، قال: قال ابنُ عباس: لما ظَفِر سيفُ بن ذي يزن بالحبشة، وذلك بعد مولد النبي ﷺ، أتته وفودُ العرب وأشرافُها وشعراؤها تُهنئه وتمدحه وتذكر ما كان من بلائه وطَلَبه بثأر قومه،

---

(١) الظعن: الرحيل.   (٢) العنس: النوق القوية.

(٣) المشفر: من البعير بمنزلة الشفة للإنسان، والأذبة: الذّبان والهيات: الصياح، وهيّت: صاح.

فأتاه وفدُ قريش، فيهم: عبدُ المطلب بن هاشم، وأُميةُ بن عبد شمس، وأسد بن عبد العُزّى، وعبد الله بن جُدعان، فقَدموا عليه وهو في قصر له يقال له غُمْدان، وله يقول أبو الصلت، والد أُمية ابن أبي الصلت:

لم يُدْرِك الثأرَ أمثالُ ابن ذي يَـزَنٍ ... لجّجَ في البحرِ للأعداءِ أحْـوالاَ[1]
أتَى هِرَقْل وقـد شـالـتْ نعـامتُـه ... فلم يَجِدْ عندهُ القولَ الذي قـالاَ[2]
ثم انْثَنى نحوَ كِسْرى بعـد تـاسِعةٍ ... مِـن السِّنين لقـد أبعَـدْت إيغـالاَ
حتى أتى ببَني الأحْـرارِ يقْـدُمُهُـمْ ... إنكَ عَمْرِي لقد أسْرَعْتَ إرْقـالاَ[3]
مَنْ مِثْلُ كِسرى وبَهْرامَ الجُنود لَهُ ... ومِثْلُ وهْرِزَ يـوم الجيش إذ جـالا
للهِ درهُـمُ مِـنْ عُصْبـةٍ خـرجُـوا ... ما إن رأينـا لَهُمْ في النـاس أمْثـالاَ
صِيداً جَحاجَحةً، بِيضاً خَضارمـةً ... أُسْداً تربّبُ في الغاباتِ أشْبـالاَ[4]
أَرسَلت أُسْداً على سُودِ الكِلابِ فقَدْ ... غادرْتَ أوْجُهَهُمْ في الأرضِ أفْلالا[5]
اشرَبْ هنيئاً عليْكَ التاجُ مُـرْتفِقـاً ... في رأسِ غُمْدانَ داراً مِنْكَ مِحْلالا
ثم آطل بالمسْكِ إذْ شالتْ نعامَتُهُـمْ ... وأَسْبِل اليوْم في بُـرديْـك إسْبـالاَ[6]
تلك المكارِمُ لا قعبـانِ مِـن لبَـنٍ ... شيبَـا بماءٍ فعـادَا بعـدُ أبْـوالاَ[7]

فطلبوا الإذن عليه، فأذن لهم، فدخلوا، فوجدوه متضمِّخاً بالعنبر، يلمع وبَيص المسك في مفرق رأسه، وعليه بُردانِ أخضران قد ائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر، وسيفهُ بين يديه، والملوك عن يمينه وشماله، وأبناءُ الملوك والمَقاوِل.

فدنا عبدُ المطلب فآستأذنه في الكلام، فقال له: قُل. فقال: إنّ الله تعالى أيها

---

(١) لجج: خاض اللّجة.
(٢) شالت نعامته: غضب وأخذته الغرّة.
(٣) بنو الأحرار: الفرس، والإرقال: الإسراع.
(٤) الصّيد: الملوك، والجحاجحة: السادة والخضارمة: الأكارم: وتربّب: أي تربّى من التربية.
(٥) أفلالاً: منهزمين.
(٦) شالت نعامتهم: تفرقوا او هلكوا.
(٧) القعبان: الأقداح يحلب فيها وشيبا: مزجا.

الملك أحلَّك محلاً رفيعاً صَعْباً مَنيعاً، باذخاً[1] شامخاً؛ وأنبتك مَنبتاً طابت أَرومتُه، وعزَّتْ جُرثومته[2]، ونبل أصلُه، وبَسَق فرْعُه، في أكرم معدن، وأطيب موطن؛ فأنت أبيْتَ اللّعنَ رأسُ العرب، وربيعُها الذي به تُخْصِب، ومَلكُها الذي به تنقاد، وعمودُها الذي عليه العماد، ومعقِلُها الذي إليه يلجأ العباد، سَلَفُك خيرُ سلف، وأنت لنا بعدهم خيرُ خلف، ولن يَهلك مَن أنت خَلَفُه، ولن يَخمُل من أنت سلفهُ. نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمّتِه وسدَنة[3] بيتِه، أشخَصَنا إليك الذي أنهجك لكشف الكَرْبِ الذي فدَحنا، فنحن وفْد التهنئة لا وفود المرْزِئة.

قال: من أنت أيها المتكلم.

قال: أنا عبد المطلب بن هاشم.

قال: ابنُ أختنا؟ قال: نعم. فأدناه وقرّبه؛ ثم أقبل عليه وعلى القوم وقال: مَرحبا وأهلاً، وناقةً ورحْلاً، ومُسْتناخاً سهلاً، ومَلِكاً رِبَحْلا[4]، يُعطي عطاءً جزْلاً. فذهبت مثلاً.

وكان أول ما تكلم به قد سمع الملك مقالتكم، وعرف قرابتكم، وقبِل وسيلتكم فأهُل الشرف والنباهة أنتم، ولكم القُربى ما أقمتم، والحِباء إذا ظعنتم.

قال: ثم استنهِضوا إلى دارِ الضيافةِ والوفود، وأجْريتْ عليهم الأنزال. فأقاموا ببابه شهراً لا يصِلون إليه ولا يأذن لهم في الانصراف. ثم انتبه إليهم انتباهة، فدعا بعبد المطلب من بينهم، فخلا به وأدنى مجلسه، وقال: يا عبد المطلب، إني مفوِّض إليك مِن سرّ عِلمي أمراً غَيْرُك كانَ لم أبِحْ له به، ولكنّني رأيتك موضعه فأطلعتُك عليه؛ فليكن مَصوناً حتى يأذن الله فيه؛ فإنّ الله بالغُ أمرِه: إني أجد في العلم المخزون؛ والكتاب المكنون الذي آدخرناه لأنفسنا، واحتجبناه دون غيرنا، خبراً

(١) الباذخ: الرفيع. (٢) الجرثومة: الأصل.

(٣) السدنة: الحفظة والخدم.

(٤) الربحل: العظيم.

عظيماً، وخطراً جسيماً، فيه شرفُ الحياة، وفضيلة الوفاة، للناس كافة، ولرهطك عامة، ولنفسك خاصة.

قال عبد المطلب: مِثْلُك أيها الملك مَن بَرَّ وسَرَّ وبَشَّر، ما هُوَ؟ فِداك أهلُ الوَبَر، زُمَراً بعد زُمَر.

قال ابن ذي يزن: إذا وُلد مولود بِتهامة، بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة، إلى يوم القيامة.

قال عبد المطلب: أبيتَ اللعن، لقد أُبتُ بخيرٍ ما آبَ به أحد؛ فلولا إجلالُ المِلِك لسألته أن يزيدني في البشارة ما أزداد به سروراً.

قال ابن ذي يزن: هذا حِينُه الذي يُولَد فيه أو قَد وُلِد، يموت أبوه وأمُه، ويكفله جدُّه وعمه؛ قد وجدناه مراراً، والله باعثه جهاراً، وجاعلٌ له مِنّا أنصاراً، يُعِزُّ بهم أولياءه، ويُذلّ بهم أعداءه، ويفتتح كرائمَ الأرض، ويضرب بهم الناس عن عُرض[1]؛ يُخمد النِّيران، ويكسر الأوثان، ويَعبد الرحمن، قولُه حَكَم وفَصل؛ وأمره حَزم وعدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويُبطله.

فقال عبدُ المطلب: طال عُمرك، ودام مُلكك، وعلا جَدُّك، وعَز فخرك؛ فهل المَلِك يَسُرُّني بأن يُوضح فيه بعضَ الإيضاح؟

فقال ابن ذي يزن: والبيت ذي الطُّنُب، والعلاماتِ والنُّصب، إنك يا عبد المطلب، لجَدُّه من غير كَذِب. فَخرَّ عبدُ المطلب ساجداً.

قال ابن ذي يزن: آرفع رأسك؛ ثَلج صدرك، وعلا أمرك؛ فهل أحسست شيئاً مما ذكرتُ لك؟

قال عبدُ المطلب: أيها الملك، كان لي ابنٌ كنتُ له مُحِباً، وعليه حَدِباً مُشفقاً،

---

(١) عرض: قوة.

فزوجتُه كريمة من كرائم قومه، يقال لها آمنة بنت وهب بن عبد مناف، فجاءت بغلام بين كتفيه شامة، فيه كلُّ ما ذكرتَ من عَلامة؛ مات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمُّه.

قال ابن ذي يزن: إن الذي قلتُ لك كما قلت، فاحفظ ابنَك وآحذر عليه اليهود؛ فإنهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم سبيلاً، آطوِ ما ذكرت لك، دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإني لست آمَنُ أن تَدْخُلَهم النَّفاسة، من أن تكون لكم الرِّياسة، فيَبغون له الغوائل، ويَنصبون له الحبائل، وهم فاعلون وأبناؤهم. ولولا أني أعلم أن الموت مُجْتاحِي قبل مَبعثِه، لسرتُ بخيلي ورَجْلي حتى أصير بيثرب دارِ مُهاجَرِه؛ فإني أجد في الكتاب الناطق، والعلم السابق، أن يثرب دارُ هجرته، وبيتُ نُصرته؛ ولولا أني أتَوَقَّى عليه الآفات، وأحذر عليه العاهات، لأعلنتُ على حداثة سنِّه أمره، وأوطأتُ أقدامَ العربِ عَقِبَه؛ ولكني صارف إليك ذلك عن غير تقصير مني بمن معك.

ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعْبد، وعشر إماء سُود، وخمسة أرطال فضة، وحُلّتين من حُلَل اليمن، وكَرِش[1] مملوءة عنبراً، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال: إذا حال الحول فأنبئني بما يكون من أمره.

فلما حال الحولُ حتى مات ابنُ ذي يزن، فكان عبد المطلب بن هشام يقول: يا معشر قريش، لا يَغبطني رجلٌ منكم بجزيل عطاء الملك فإنه إلى نَفاد، ولكن يغبطني بما يبقى لي ذكرُه وفخره لِعَقبي. فإذا قالوا له: وما ذاك؟ قال: سيظهر بعد حين.

وفود عبد المسيح على سطيح

جرير بن حازم عن عِكْرمة عن ابن عباس، قال: لما كان ليلة وُلد النبي ﷺ، ارتجّ إيوان كسرى، فسقطت منه أربع عشرة شُرفة؛ فعظُم ذلك على أهل مَملكته،

---

(١) الكرش: وعاء الطيب.

فلما كان أوشك أن كتب إليه صاحبُ اليمن يُخبره أن بُحيرة ساوةَ غاضت تلك الليلة، وكتب إليه صاحبُ السَّماوة يُخبره أن وادي السماوة آنقطع تلك الليلة، وكتب إليه صاحب طَبَريّة أن الماء لم يَجرِ تلك الليلة في بحيرة طبرية؛ وكتب إليه صاحبُ فارس يُخبره أن بُيوت النيران خَمدت تلك الليلة، ولم تَخمُد قبل ذلك بألف سنة. فلما تواترت الكُتب أبرز سريـرَه وظهـر لأهـل مملكتـه، فـأخبرهـم الخبر؛ فقـال المُوبذان[1]: أيها الملك، إني رأيت تلك الليلةَ رُؤيا هالتني. قال له: وما رأيتَ؟ قال: رأيت إبلاً صِعابا، تقود خيلاً عِراباً، قد اقتحمت دِجْلة، وانتشرت في بلادنا. قال: رأيتَ عظيماً، فما عندك في تأويلها؟ قال: ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، أرْسل إلى عاملك بالحيرة، يُوجِّه إليك رجلاً من عُلمائهم، فإنهم أَصحابُ علم بالحِدثان. فَبَعَثَ إليه عبدَ المسيح بن نُفيلة الغَساني: فلما قدم عليه أخبره كسري الخبر. فقال له: أيها الملك. والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء ولكن جَهّزني إلى خالٍ لي بالشام، يقال له سَطيح، قال: جَهِّزوه. فلما قدم على سطيح وجده قد احْتُضِر؛ فناداه فلم يُجبْه، وكَلمه فلم يَرُدّ عليه، فقال عبد المسيح:

أَصَمُّ أَمْ يَسمَـعُ غِطْـريـفُ اليَمَـنْ ... يا فاصِلَ الخُطَّةِ أَعْيت مَنْ ومَـن[2]

أتـاكَ شيـخُ الحيِّ مِـنْ آل سنَنْ ... أبْيَـضَ فَضْفـاضَ الرِّداءِ والبـدنْ

رسولُ قيلِ العجْم يَهْوِي لِلْـوَثَـنْ ... لا يَرْهَبُ الوَعْدَ ولا رْيبَ الزَّمَـنْ[3]

فرفع إليه رأسه، وقال: عبد المسيح، على جمل مُشيح، إلى سَطيح، وقد أوفى على الضريح؛ بعثـك ملـكُ بني سـاسـان، لآرتجاج الإيـوان، وخُمـودِ النيران، ورُؤيـا المُوابَذَان؛ رأى إبلاً صعاباً، تقود خَيلاً عِراباً. قداقتحمت في الواد، وآنتشرت في البلاد يا عبدَ المسيح، إذا ظهرت التِّلاوة، وفاض وادي السَّماوة، وغاضت بحيرة ساوة وظهر صاحب الهِراوة، وخمدت نار فارس، فليست بابل للفُرس مقاماً، ولا الشام

---

(١) الموبذان: فقيه الفرس وحاكم المجوس.

(٢) الغطريف السيد الشريف. (٣) القيل: الملك.

لسطيحٍ شاما . يملك منهم ملوك وملكات، عدد سُقوط الشُّرفات، وكل ما هو آت آت . ثم قال:

إن كان مُلْكُ بني ساسانَ أفْرَطَهُـمْ فإنّ ذا الدَّهْرَ أطْـوارٌ دَهـاريـرُ[1]
منهُمْ بنو الصرْحِ بِهرامٌ وإخْوتُـهُ والهُرْمُـزَانُ وسـابُـورٌ وسـابـورُ
فـرُبَّما أَصْبَحـوا منهُـمْ بِمنْـزِلـةٍ يَهابُ صَوْلَهُمُ الأُسْدُ المهـاصيرُ[2]
حَثُّوا المَطيَّ وجدُّوا في رِحـالِهِـمُ فما يَقـومُ لهم سرْحٌ ولا كـورُ[3]
والناسُ أولادُ عَلاتٍ فمـن عَلِمـوا أن قـد أقـلَّ فَمْحقـورٌ ومهجـور
والخير والشرُّ مَقْرونـانِ في قَـرنٍ فـالخير مُتَّبَـعٌ والشرُّ محذورُ[4]

ثم أتى كسرى فأخبره، فغمه ذلك . ثم تعزّى فقال: إلى أن يملك منا أربعةَ عشرَ ملكاً يدور الزمان . فهلكوا كلهم في أربعين سنة .

وفود همدان على النبي

صلى الله عليه وسلم

قدم مالك بن نَمَط في وفد همدان على رسول الله ﷺ ، فلقُوه مُقْبلاً من تَبوك ، فقال مالك بن نَمَط: يا رسول الله نصيّة[5] من همْدان، من كل حاضر وباد، أتَوْك على قُلُص نَوَاج، متصلة بحبائل الإسلام، لا تأخذهم في الله لومة لائم، من مخلاف خارف ويام وشاكر، عهدُهم لا يُنقض، عن سُنّة ماحل[6] ولا سوداء عَنْقفير[7] ، ما أقامت لَعْلع، وما جرى اليَعفورُ بصُلّع[8] .

(١) أفرطهم: تركهم، ودهارير: شديدة .
(٢) المهاصير : جمع مهصار: وهو الأسد ، مأخوذة من الهصر، وهو الكسر والجذب والإمالة .
(٣) الكور: الرحل بأداته .
(٤) مقرونان في قرنٍ : أي مرتبطان في سلكٍ واحد .
(٥) النصيّة: خيار القوم .
(٦) الماحل: الساعي بالنميمة والإفساد . (٧) العنقفير : الداهية .
(٨) اليعفور: ولد الظبية، ولعلع: جبل وصلع: الأرض لانبات لها .

فكتب إليهم النبي ﷺ: هذا كتاب من محمد رسول الله إلى مِخلاف خارف، وأهل جنَاب الهَضْب، وجِفَاف الرمل، مع وفدها ذي المِشعار مالك بن نَمَط ومن أسلم من قومه، أن لهم فِرَاعَها ووِهاطها وعَزَازَها، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون عِلافَها، ويرعون عَفَاها، لنا من دِفْئِهم وصِرامِهم ما سلموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثِّلْبُ[1] والناب والفصيل والفارض الداجن والكبش الحَوري؛ وعليهم الصَّالغ[2] والقارح.

وفود النخع على النبي

صلى الله عليه وسلم

قدم أبو عمرو النَّخعي على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيت في طريقي هذه رُؤيا، رأيت أتاناً تركتُها في الحيّ ولدت جَدْياً أسْفَعَ أحوى[3]. فقال رسول الله ﷺ: هل لك من أمة تركتها مُصِرَّة[4] حملاً؟ قال: نعم، تركت أمة لي أظنها قد حملت؟ قال: فقد ولدت غلاماً وهو ابنك. قال: فما باله أسفع أحوى؟ قال: ادُن منّي. فدنا منه؛ فقال: هلْ بك بَرَصٌ تكتُمه؟ قال نعم، والذي بعثك بالحق ما رآه مخلوق ولا عِلم به. قال: فهو ذلك. قال: ورأيت النُّعمان بن المُنذر عليه قُرطان ودُمْلجان ومَسَكتان. قال: ذلك مُلك العرب عاد إلى أفضل زيِّه وبَهجته. قال: ورأيت عجوزاً شمطاء تخرج من الأرض قال: تلك بقيّة الدنيا. قال: ورأيت ناراً خرجت من الأرض فحالت بيني وبين ابن لي يُقال له عمرو، ورأيتها تقول: لظًى لظًى! بصيرٌ وأعمى! أطعموني! آكلكم آكلكم! أهلككم ومالَكم. فقال النبي ﷺ: تلك فتنة في آخر الزمان. قال: وما الفتنة يا رسول الله؟ قال: يقتل الناس إمامهم ثم

---

(١) الثلب: الجمل تكسّرت أسنانه.

(٢) الصالغ: من الشياه: كالقارح من الخيل، وهي التي دخلت في الخامسة أو السادسة.

(٣) الأسفع: الأسود المشرب بالحمرة، والأحوى: الأحمر إلى سواد.

(٤) مصرّة حملاً: أي ذات حمل محقق.

يشتجرون[1] اشتجار أطْباق الرأس - وخالف رسولُ الله ﷺ بين أصابعه - يحسب المُسيء أنه محسن، ودمُ المؤمن عند المؤمن أحلى من شُرب الماء.

وفود كلب على النبي

صلى الله عليه وسلم

قدِمَ قطن بن حارثة العُليمي في وفد كلب على النبي ﷺ، فذكر كلاماً، فكتب له رسول الله ﷺ كتاباً نُسخته:

هذا كتاب من محمد رسول الله لعمائر كلب وأحلافها، ومن ظأَرَهُ[2] الإسلام من غيرها، مع قطن بن حارثة العُليمي، بإقامة الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة لحقها، في شدة عَقْدها، ووفاء عهدها، بمَحضر شهود من المسلمين: سَعد بن عُبادة، وعبد الله ابن أُنيس، ودِحْية بن خليفة الكلبي، عليهم في الهُمولَةِ الراعية البِساطِ الظُّؤار[3]، في كلٍّ خمسين ناقةٌ غيرُ ذات عوَار[4]، والحَمُولةُ المائرة لهم لاغيَة، وفي الشَّوِيِّ الوَرِيِّ[5] مُسِنَّة حامل أو حائل، وفيما سقى الجدولُ من العينِ المَعين العُشْرُ من ثمرها مما أخرجت أرضُها، وفي العِذْى[6] شطرُه بقيمة الأمين، فلا تُزاد عليهم وظيفة ولا يُفرَّق. يشهد الله تعالى على ذلك ورسوله.

وكتب ثابت بن قيس بن شمّاس.

وفود ثقيف على النبي

صلى الله عليه وسلم

وفدت ثَقيف على النبي ﷺ، فكتب لهم كتاباً حين أسلموا: أن لهم ذمة الله، وأن واديهم حرام، عِضاهُه[7] وصَيْدُهُ وظُلْمٌ فيه، وأن ما كان لهم من دَين إلى أجل فبلغ

(١) الدملج: شيءٌ يشبه السوار، والمسكة: السوار من ذبل أوعاج.

(٢) ظأره: أي عطفه عليه.

(٣) الظؤار: جمع ظئر، وهي المرضعة.

(٤) العوار: العيب. (٥) الوري: السمين.

(٦) العذي من الزرع والنخيل: ما لا يسقى إلاّ بماء السماء.

(٧) العضاه: شجر عظيم له شوك.

أجلَه فإنه لِياط[1] مُبرَّأ من الله ورسوله، وأن ما كان لهم من دَين ومن رَهن وراء عُكاظ، فإنه يُقْضَى إلى رأسه ويُلاَطُ بعُكاظ ولا يؤخَّر.

وفود مذحج على النبي

صلى الله عليه وسلم

وفَد ظَبْيان بن حدّاد في سراة مَذْحج على النبي ﷺ، فقال بعد السلام على رسول الله ﷺ، والثناء على الله عزَّ وجل بما هو أهله.

الحمد لله الذي صَدع الأرض بالنبات، وفتق السماء بالرَّجْع[2]. ثم قال: نحن قوم من سَراة مذحج من يُحابِر بن مالك. ثم قال: فتَوَقَّلَت[3] بنا القلاص؛ من أعالي الحَوْف ورءوس الهضاب، ترفعها عُرَر[4] الرُّبا وتَخفِضُها بُطْنان الرقاق، وتلْحَقُها دياجي الدُّجى. ثم قال: وسروات الطائف كانت لبني مهْلائيل بن قَيْنان: غَرَسُوا وديانَه وذلَّلوا خِشَانَه، ورَعوا قُربانه. ثم ذكر نُوحا حين خرج من السفينة بمن معه، قال فكان أكثرَ بنيه بَناتاً. وأسرعَهم نَباتاً، عادٌ وثمود، فرماهم الله بالدُّمالق[5]، وأهلكهم بالصواعق. ثم قال: وكانت بنو هانيء من ثمود تسكن الطائف، وهم الذين خطُّوا مَشاربها، وأَتَوْا جداولَها، وأحيَوْا غِراسها، ورفعوا عَريشها. ثم قال: وإن حِمْير ملكوا مَعاقل الأرض وقَرارَها، وكهول الناس وأغمارَها، ورُءوسَ الملوكِ وغِرارَها، فكان لهم البَيضاءُ والسوداءُ، وفارسُ الحمراء، والجِزية الصفراء؛ فبطروا النِّعم، وآستحقوا النِّقم، فضرب الله بعضَهم ببعض. ثم قال: وإن قبائل من الأزد نزلوا على عهد عمرو بن عامر، ففتحوا فيها الشرائع، وبنوا فيها المصَانع، وآتخذوا الدسَائع[6]؛ ثم ترامتْ مذحج بأسنّتها، وتَنَزَّتْ بأعنّتها: فغلب العزيزُ أذلها، وقتل

---

(١) اللياط: الرِّبا. (٢) الرَّجع: المطر.

(٣) توقلت: صعدت.

(٤) العرر: جمع عُرّة، وهي شحمة السنام العليا.

(٥) الدّمالق: الأملس المستدير من الحجارة.

(٦) الدسائع: الدساكر: الواحدة دسيعة.

الكثيرُ أقلَّها . ثم قال: وكان بنو عمرو بن جَذيمة يَخْبِطون عَضِيدها[1]، ويأكلون حَصيدها، ويُرَشِّحون خَضِيدَها[2].

فقال رسول الله ﷺ . إنّ نعيم الدنيا أقلُّ وأصغر عند الله من خُرْءِ بُعَيضة، ولو عَدَلَت عند الله جَناحَ ذبابٍ لم يكن لكافر منها خَلاق، ولا لمسلم منها لَحاق.

وفود لقيط بن عامر بن المنتفق على النبي صلى الله عليه وسلم

وَفَدَ لقيط بن عامر بن المُنتفق على النبي ﷺ ومعه صاحبٌ له يقال له نَهِيكُ بن عاصم بن مالك بن المُنتفق.

قال لَقيط: فخرجتُ أنا وصاحبي حتى قَدِمنا المدينة لآنسلاخ رجب، فأتينا رسولَ الله ﷺ، فوافيناه حين آنصرف من صلاة الغَداة، فقام في الناس خَطيباً، فقال: أيها الناس، ألا إني قد خَبَأتُ لكم صَوْتي منذ أربعة أيام، لتسمعوا الآن، ألا فهل من امرىءٍ قد بَعثه قومُه؟ ـ فقالوا: اعْلَمْ لنا ما يقول رسولُ الله ﷺ ـ ألاَ، ثم لعله أن يُلهيه حديثُ نفسه أو حديث صاحبه أو يلهيه ضالٌّ، ألا وإني مسئول هل بلّغت، ألا اسمعوا ألا اجلسوا.

فجلس الناس وقمت أنا وصاحبي، حتى إذا فرغ لنا فؤادُه وبصرُه، قلت: يا رسول الله، ما عندك من عِلْمِ الغيب؟ فضحك لَعَمْرُ الله وهزّ رأسَه، وعلم أني أبتغي سَقَطه؛ فقال: ضَنَّ رَبُّكَ بمفاتيح خمسٍ من الغَيب لا يعلمهن إلا الله ـ وأشار بيده ـ قلت: وما هي؟ قال: عِلْم المنيّة، قد علم متى مَنِيَّةُ أحدِكم ولا تعلمونه؛ وعِلم ما في غد وما أنت طاعم غداً، ولا تعلمه، وعلم المَنِيّ حين يكون في الرَّحم، قد علمه ولا

---

(١) العضيد: المقطوع من الشجر علفاً للحيوانات.

(٢) الخضيد: المقطوع من شجر التمر، وترشيحهم له إصلاحهم له إلى أن تعود ثمراته فتطلع.

تعلمونه؛ وعِلم الغيث، يُشرف عليكم آزلين مُسْنِتين[١] فيظلّ يضحك، قد عَلِمَ أن عونكم قريب.

قال لقيط: قالت: لن نَعدم من رب يَضحك خيراً.

وعلم يوم الساعة. قلت: يا رسول الله، إني سائلك عن حاجتي فلا تعجلني.
قال: سَل عما شئت.

قال: قلت: يا رسول الله، علّمنا مما لا يعلم الناس ومما تَعْلم؛ فإنا من قَبيلٍ لا يصدّقون تصديقَنا أحداً؛ مِن مذحج التي تدنو إلينا، وخثعم التي توالينا، وعشيرتنا التي نحن منها.

قال رسول الله ﷺ: تلبثون ما لبثتم، ثم يُتَوَفّى نبيُّكم ثم تلبثون حتى تُبعث الصيحة، فلعَمْرُ إلهك ما تدع على ظهرها من شيء إلا مات، والملائكة الذين عند ربك؛ فيُصبح ربُّك يطوف في الأرض وقد خَلَت عليه البلاد. فيرسل ربُّك السماءَ بهَضْب[٢] من عند العرش، فلَعَمْرُ إلهك ما تدع على ظهرها من مَصْرع قَتيل، ولا مَدفن ميّت، إلا شقّت القبر عنه حتى تخلقه من قِبل رأسه فيستوي جالساً، ثم يقول ربك: مَهْيَم[٣] ـ لما كان فيه ـ فيقول: يا رب، أمس! اليوم! ولعهده بالحياة يحسبه حديث عهد بأهله.

فقلت: يا رسول الله، كيف يجمعنا بعد ما تفرقنا الرياح والبِلَى والسباع؟

قال: أنبئك بمثل ذلك في إلّ[٤] الله، أشرفتُ على الأرض وهي مَدَرة[٥] يابسة فقلت: لا تَحيا هذه أبداً، ثم أرسل ربُّك عليها السماء فلم تلبث إلا أياماً حتى أشرفتُ

---

(١) آزلين: قد صرتم في جدب وقحط، ومسنتين: قد أصابتكم الشدّة.
(٢) الهضب: المطر. (٣) مهيم: كلمة يمانية ومعناها: ما الأمر وما الشأن.
(٤) في إلّ الله: أي في ربوبيته وقدرته وعلمه.
(٥) المددة: القطعة من المدر، وهو الطين.

عليها وهي شَرَبَة واحدة[1]، ولَعَمْر إلهِك لهو أقدرُ على أن يَجمعكم من الماء على أن يَجمع نباتَ الأرض، فتخرجون من الأصواء ـ قال ابن إسحاق: الأصواء أعلام القبور ـ ومن مصارعكم، فتنظرون إليه وينظر إليكم.

قال: قلت: يا رسول الله، وكيف، نحن مِلء الأرض وهو شخص واحد ننظر إليه وينظر إلينا؟

قال: أُنبئك بمثل ذلك في إلّ الله: الشمس والقمر آية منه صغيرة ترونهما ويريانكم ساعة واحدة، ولعمر إلهك لهو أقدر على أن يراكم وتَروه من أن تروهما ويرياكم، لا تُضارون في رؤيتهما.

قال: قلت: يا رسول الله، فما يفعل بنا ربنا إذا لقيناه؟

قال: تُعرضون عليه باديةً له صفحاتُكم لا يخفي عليه منكم خافية، فيأخذ ربك بيده غَرفة من الماء، فينَضح بها قُبْلكم، فلعمر إلهك ما تُخطيء وجه أحدكم منها قطرة. فأما المُسلم فتدع وجهه مثل الرَّيْطةِ[2] البيضاء، وأما الكافر فتَخطمه[3] بمثل الحمم[4] الأسود. ثم ينصرف نبيّكم ويتفرق على أثره الصالحون. قال: فتسلكون جسراً من النار، فيطأ أحدكم الجمر يقول: حس! يقول ربك: أوَ إنّه؟ فتطَّلعون على حوض الرسول لا يظمأ والله ناهلُه، فلعمر إلهك ما يبسُط أحد منكم يده إلا وضع عليها قدح يُطهره من الطَّوْف[5] والبول والأذى، وتُحبس الشمس والقمر ولا ترون منهما واحداً.

قال: قلت: يا رسول الله، فبم نُبصر يومئذ؟

---

(١) الشربة: حوض يكون في أصل النخلة وحولها يملأ ماء تشربه.

(٢) الريطة: الملاءة.

(٣) تخطمه: أي تصيب خطمه، وهو أنفه فتعجل فيه أثراً.

(٤) الحمم: الفحم.

(٥) الطوف: الحدث من الطعام.

قال: بمثل بصرك ساعتك هذه؛ وذلك قبل طلوع الشمس في يوم أشرقته الأرض وواجهته الجبال.

قال: قلت: يا رسول الله، فبم نُجْزَى من سيّئاتنا وحسناتنا؟

قال: الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، إلا أن يعفو.

قال: قلت: يا رسول الله، فما الجنة وما النار؟

قال: لعمر إلهك إنّ للنار لسبعة أبواب، ما منها بابان إلاّ يسير الراكب بينهما سبعين عاماً. وإن للجنة لثمانيةَ أبواب، ما منها بابان إلاّ يسير الراكب بينهما سبعين عاماً.

قال: قلت: يا رسول الله، فعلام نطّلع من الجنة؟

قال: على أنها من عسل مُصفّى، وأنهار من كأس ما بها من صداع ولا ندامة وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه، وماء غير آسن وفاكهة لعمر إلهك ما تعلمون، وخير مِن مثله معه، وأزواج مطهَّرة.

قال: قلت: يا رسول الله، أو لنا فيها أزواج؟ أوَ منهن صالحات؟

قال: الصالحات للصالحين، تلَذُّون بهن مثل لذاتكم في الدنيا، ويلْذَذْنَ بكم، غير أنْ لا توالد.

قال لقيط: قلت: أقصى ما نحن بالغون ومنتهون إليه، فلم يجبه النبي ﷺ.

قال: قلت: يا رسول الله، علام أبايعك؟ قال: فبسط إليّ يده وقال: على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وزيال الشِّرك[1]، وألاّ تشرك بالله إلهاً غيره.

قال: فقلت: وإنّ لنا ما بين المشرق والمغرب؟.

فقبض ﷺ يده وظن أني مُشتْرِطٌ شيئاً لا يُعطينيه.

قال: قلت نَحُلّ منها حيث شئنا، ولا يجزي عن امرىء إلا نفسه؟ فبسط إليّ يده

(١) زيال الشرك: مفارقته.

وقال: ذلك لك: حُلّ حيث شئت، ولا يجزي عنك إلا نفسك. قال: فانصرفنا عنه.

وفود قيلة على النبي

صلى الله عليه وسلم

خرجت قيْلة بنت مخرمة التميمية تبغي الصُّحبة إلى رسول الله ﷺ، وكان عمُّ بناتها، وهو أثوب بن أزهر، قد انتزع منها بناتها، فبكت جُويريةٌ منهن حُديباء قد أخذتها الفَرْصة[١]، عليها سُبيِّج من صوف، فرَحِمْتها فذهبت بها. فبينما هما تُرْتكان[٢] الجمل إذ انتفخت منه الأرنب؛ فقالت الحُديباء: الفَصْية. والله لا يزال كعبك أعلى من كعب أثوب. ثم سنَح الثعلب، فسمّته اسما غير الثعلب نسِيَه ناقلُ الحديث. ثم قالت فيه مثل ما قالت في الأرنب، فبينما هما تُرتكان الجمل إذ برك الجمل وأخذته رعِدة. فقالت الحديباء: أخذتك والأمانةِ إخذةَ أثوب. قالت قَيلة: فقلت لها: فما أصنع، ويحك! قالت: قلِّبي ثيابك ظهورَها لبطونها، وادَّحْرجي ظهرك لبطنك، وقلِّبي أحلاس[٣] جَملك. ثم خلعت سُبَيِّجها فقلبته، ثم ادحرجت ظهرها لبطنها، فلما فعلتُ ما أمرتني به انتفض الجمل، ثم قام فنأج[٤] وبال، فقالت: أعيدي عليه أداتك. ففعلتُ، ثم خرجنا نُرتك، فإذا أثوبُ يسعى وراءنا بالسيف صَلْتا، فوَأَلْنا إلى حِواء ضخم فداراه، حتى ألقى الجمل إلى رُواقه الأوسط، وكان جملاً ذلولا، واقتحمتُ داخله وأدركني بالسيف، فأصابت ظُبته طائفةً من قرون رأسِيَهْ؛ ثم قال: ألقي إليّ ابنة أخي يادَفارِ[٥]. فألقيتها إليه. فجعلها على مِنكبه وذهب بها. وكنتُ أَعلمَ به من أهل البيت، وخرجتُ إلى أخت لي ناكحٍ في بني شَيبان أبتغي الصحبة إلى رسول الله ﷺ. فبينا أنا عندها تحَسب أني نائمة، إذ جاء زوجها من السامر، فقال لها: وأبيك لقد وجدتُ لقيلة صاحبَ صدق. قالت أختي: مَن هو؟

---

(١) الفرصة: أي ريح الحدب فيصير صاحبها أحدب.

(٢) ترتكان الجمل: تحمِلانه على السير السريع.

(٣) الأحلاس: جمع حلس وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب.

(٤) نأج: صاح. (٥) يادفار: أي يا منتنة.

قال: حُريث بن حسّان الشَّيباني، وافد بكر بن وائل عاويا ذا صباح. فقالت أختي: الويل لي، لا تخبرها فتتبعَ أخا بكر بن وائل بين سمع الأرض وبصرها، ليس معها أحد من قومها. قال: لا ذكرتهُ.

قالت: وسمعت ما قالا: فغدون إلى جملي فشددت عليه، ثم نشدتُ عنه فوجدته غيرَ بعيد. فسألته الصُّحبة فقال: نعَمْ وكرامة، وركابه مُناخة عنده.

قالت: فسرت معه صاحبَ صِدق؛ حتى قَدِمنا على رسول الله ﷺ وهو يصلي بالناس صلاة الغداة: قد أُقيمت حين شق الفجر، والنجوم شابكة في السماء، والرجال لا تكاد تعارفُ من ظلْمة الليل؛ فصففت مع الرجال؛ وأنا امرأة قريبة عهد بجاهلية؛ فقال الرجل الذي يليني من الصف: امرأة أنتِ أم رجل؟ فقلت: لا بل امرأة. فقال: إنك كدت تَفْتنيني، فصلّي في النساء وراءك. فإذا صَفّ من نساء قد حدث عند الحُجرات لم أكن رأيتُه إذْ دخلت؛ فكنت فيهن؛ حتى إذا طلعت الشمس دنوتُ؛ فجعلت إذا رأيت رجلا ذا رُواء وذا قِشْر[1] طَمَح إليه بصري لأرى رسولَ الله فوق الناس، حتى جاء رجل؛ فقال: السلام عليك يا رسول الله. فقال: وعليك السلام ورحمة الله. وعليه تعني النبي ﷺ - أسمالُ مُلَيتيْن، كانتا مزعفرتين وقد نفضتا؛ ومعه عُسيّب نخلة مَقْشُوّ[2] غير خُوصتين من أعلاه: وهو قاعد القُرفصاء. فلما رأيت رسول الله ﷺ متخشّعاً في الجلسة أُرعدت من الفَرَق، فقال جليسهُ: يا رسول الله، أُرعدت المسكينة. فقال رسول الله، ولم ينظر إلي وأنا عند ظهره: يا مسكينة، عليكِ السكينة.

قالت: فلما قالها ﷺ أذهب الله ما كان دخل في قلبي من الرعب.

وتقدّم صاحبي أول رجل فبايعه على الإسلام عليه وعلى قومه، ثم قال: يا رسول الله، اكتُب بيننا وبين تميم كتابا بالدَّهناء لا يُجاوزها إلينا منهم إلا مسافرٌ أو مجاوزٌ.

---

(١) القشر: اللباس. (٢) مقشوّ: أي مقشور عنه خوصه.

قال: يا غلام، اكتب له بالدَّهناء.

قالت: فلما رأيتهُ أمر بأن يُكتب له؛ شخِص بي. وهي وطني وداري؛ فقلت: يا رسول الله؛ إنه لم يسألك السويّة من الأرض إذ سألك؛ إنما هذه الدهناء مُقَيَّدُ الجمل ومَرعى الغنم؛ ونساء بني تميم وأبناؤها وراء ذلك. فقال: أمسك يا غلام، صدقت المسكينة المُسلم أخو المُسلم، يسعهما الماء والشجر. ويتعاونان على الفَتَّان[1].

فلما رأى حُريث أن قد حيل دون كتابه، قال كنت أنا وأنت كما قال في المثل: حتفَها تَحْمِلُ ضأنٌ بأظلافها! فقلت: أمَا والله ما علمت إن كنتَ لدليلا في الظلماء، جوادا لدَى الرَّحل، عفيفاً عن الرفيقة حتى قدمنا على رسول الله ﷺ ولكن لا تلمني أن أسأل حظي إذ سألت حظَّك. قال: وأيّ حظ لك في الدهناء لا أبالك.

قلت مُقّيد جملي تُريده لجمل آمرأتك! فقال: لا جرم إني أُشهد رسول الله أني لك أخٌ ما حَييت؛ إذ أثنيتِ عليّ عنده. فقلت: أمَّا إذ بدأتها فلن أضيعها.

فقال رسول الله ﷺ: أيلام ابنُ هذه أن يَفصل الخُطة، وينتصر من وراء الحَجَزة. فبكيتُ ثم قلت: فقد والله ولدته يا رسول الله حراما، فقاتل معك يوم الرَّبذة، ثم ذهب يمتري من خَيبر، فأصابته حُمَّاها فمات فقال: لو لم تكوني مسكينة لجررناك على وجهك. أيُغلب أُحَيْدُكم على أن يصاحب صُويحبه في الدنيا معروفا، فإذا حال بينه وبينه من هو أولى به استرجع ثم قال: ربِّ آسِني لما أمضيت، وأعنّي على ما أبقيت. فوالذي نفسُ محمد بيده إنّ أحدكم ليبكي فيستعبر له صُويحبه؛ فيا عباد الله لا تعذِّبوا إخوانكم ثم كتب لها في قطعة أدم أحمر: لقَيلة والنسوة من بنات قيلة يُظلمن حقّا، ولا يُكرهن على مَنكح، وكل مؤمن مسلم لهن نصير أحْسِنَّ ولا تسئْنَ.

---

(١) الفتّان: الشياطين.

كتاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم

لأكيدر دومة

من محمد رسول الله ﷺ لأُكيدر دُومة، حين أجاب إلى الإسلام، وخلع الأنداد والأصنام، مع خالد بن الوليد سيفِ الله في دُومة الجندل وأكنافها:

إن لنا الضاحية من الضَّحل والبَوْرِ والمَعامِي وأغفال الأرض والحَلْقة والسِّلاحِ والحافر والحصنْ، ولكم الضَّامنة من النخل والمَعين من المعمور، لا تعدل سارحتُكم ولا تُعدْ فاردتُكم[١]، ولا يُحظَر عليكم النبات. تُقيمون الصلاة لوقتها، وتُؤتون الزكاة لحقها، عليكم بذلك عهد الله والميثاق، ولكم به الصدق والوفاء. شهد الله ومن حضر من المسلمين.

كتابه صلى الله عليه وسلم

لوائل بن حجر الحضرمي

من محمد رسول الله إلى الأقيال العباهلة[٢] والارواع المشابيب[٣] من أهل حَضر موت بإقامة الصلاة، وايتاء الزكاة: في التيعة[٤] شاة، لا مُقوَّرة الألياط ولا ضِنَاك، وانطوا الثَّبْجَة[٥] والتيمة لصاحبها، وفي السُّيُوب الخُمس؛ لا خِلاط، ولا وِرَاط،

---

(١) الفاردة: ما لا تجب فيه الصدقة.

(٢) الأقيال العباهلة: أي الملوك القار ملكهم.

(٣) الأرواع المشابيب: الحسان الوجوه السادة الرؤساء.

(٤) التيعة: اسم لأدنى ما تجب فيه الزكاة من الحيوان.

(٥) الإقورار: الاسترخاء في الجلود، والألياط: جمع ليط، وهو العود شبّه به الجلد لالتزاقه باللحم والضناك: الكثيرة اللحم، وأنطوا: أعطو والشبجة: الوسط، والتيمة: الشاة الزائدة على الأربعين حتى تبلغ الفريضة الأخرى، وقيل هي الشاة التي تكون لصاحبها في منزلة غير سائمة.

ولا شِناق، ولا شِغار[1]، ومن أَجْبَى فقد أَرْبى[2]، وكُل مُسكرٍ حرام.

حديث جرير بن عبد الله البجلي

قدم جرير بن عبد الله البَجَليّ على رسول الله ﷺ: فسأله عن منزله ببيشة، فقال سَهْل ودَكْداك[3]، وسَلَم وأراك، وحَمّض وعَلاك، إلى نخلة ونخلة، ماؤها ينبوع، وجنابها مَريع، وشِتاؤها ربيع.

فقال رسول الله ﷺ: إنّ خير الماء الشَّبِم[4]، وخير المال الغنم، وخير المرعى الأراك، والسَّلَم إذا أخلف كان لَجِينا، وإذا أَسقط كان دَرِينا[5]، وإذا أكل كان لَبِينا.

وفي كلامه عليه السلام: إن الله خلق الأرض السُّفلى من الزبد الجُفاء والماء والكُباء.

حديث عياش بن أبي ربيعة

بعث رسول الله ﷺ عيّاش بن أبي ربيعة إلى بني عبد كُلال وقال له: خُذ كتابي بيمينك وآدفعه بيمينك في أيمانهم، فهم قائلون لك اقرأ. فاقرأ: ﴿لم يَكُنِ الذينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكتابِ والمُشْرِكينَ مُنْفَكّينَ﴾[6]. فإذا فرغت منها فقل: آمن محمد وأنا أول المؤمنين. فلن تأتيك حجة إلا وقد دُحِضت ولا كتاب زخرف إلا وذهب

(١) الخلاط: المخالطة، والوراط: أن تجعل الغنم في وهدة من الأرض لتخفى عن المصدق ولاشناق: أي يخلط غنمه إلى مال غيره والشغار: زواج في الجاهلية وهو أن يزوج الرجل أخته لرجل ما على أن يتزوّج أخت ذلك الرجل.

(٢) أجبى: من الإجباء وهو بيع الزرع قبل ان يبدو صلاحه.

(٣) الدكداك: ما تلبدّ من الرمل بالأرض ولم يرتفع كثيراً.

(٤) الشبم: البارد. (٥) الدرين: ما بليَ من الحشيش.

(٦) سورة البينة الآية ١.

نُوره ومَحّ[١] لونه، وهم قارئون، فإذا رَطنوا فقد ترجموا. فقُل: حَسَن، آمنت بالله وما أنزل من كتاب الله. فإذا أسلموا فسَلْهم قُضُبَهم الثلاثة التي إذا تخصّروا بها سُجد لهم، وهي الأثل قضيب ملمع ببياض، وقضيب ذو عُجَر كأنه من خيزران، والأسود البهيم، كأنه من ساسَم[٢]. ثم اخرُج بها فحرِّقها في سُوقهم.

حديث راشد بن عبد ربه السلمي

عبد الله بن الحكم الواسطيّ عن بعض أشياخ أهل الشام، قال: قال استعمل رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب على نَجران، فولّاه الصلاة والحرب، ووجّه راشد بن عبد ربه أميراً على القضاء والمظالم. قال راشد بن عبد ربه:

ضحا القلبُ عن سَلْمَى وأقْصَر شأوهُ … ورَدّتْ عليه ما نَفَتْهُ تُمَاضِرُ
وحكّمه شَيْبُ القذالِ عن الصبا … وللشَّيْبُ عن بعضِ الغَوَايَةِ زاجرُ
فأقْصَرَ جهلي اليومَ وارتدّ باطِلي … عن الجهلِ لما ابْيَضّ مِنّي الغدائرُ
على أنه قد هاجَهُ بعد صَحْوَةٍ … بمعرض ذي الآجامِ عيسٌ بواكرُ
ولما دَنَتْ من جانِبِ الغُوط أَخْصَبَتْ … وحَلّتْ وَلاَقَاها سليمٌ وعامِرُ
وخَبَّرها الرُّكْبانُ أنْ ليس بينَها … وبين قُرَى بُصْرَى ونَجرانَ كافِرُ
فألْقَتْ عَصاها واستقَرّت بها النّوى … كما قَرَّ عيْناً بالإيابِ المُسافِرُ[٣]

وفود نابغة بني جعدة

على النبي صلى الله عليه وسلم

وَفَدَ أبو ليلى نابغةُ بني جَعدة على النبي ﷺ، فأنشده شعره الذي يقول فيه:

بَلَغْنا السماءَ مَجدُنا وسَنَاؤنا … وإنا لنَبْغِي فوق ذلك مَظهَرَا

---

(١) محّ لونه: درس وبلي.

(٢) الساسم: شجرٌ أسود، أو هو الابنوس. (٣) النّوى: الترحال والبعد.

قال له النبي ﷺ : إلى أين أبا ليلى؟ قال: إلى الجنة . قال النبي ﷺ : إن شاء الله .

فلما انتهى إلى قوله :

ولا خَيْـرَ في حِلمٍ إذا لم تكـن لــه بَوادِرُ تَحْمِـي صَفْـوَهُ أنْ يُكَـدَّرَا

قال له النبي ﷺ : لا يَفْضُضِ اللهُ فاك! فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنفَضّ له سِنّ، وبقي حتى وفد على عبد الله بن الزبير في أيامه بمكة وامتدحه، فقال له: يا أبا ليلى، إنّ أدنى وسائلك عندنا الشعر، لك في مال الله حَقّان: حق برؤيتك رسول الله ﷺ، وحقّ بشركتك أهل الإسلام في فَيْئهم. ثم أحسن صلته وأجازه.

وفود طهفة بن أبي زهير النهدي

على رسول الله صلى الله عليه وسلم

لما قدمت وفود العرب على النبي ﷺ، قام طهفة ابن أبي زُهير، فقال: يا رسول الله، أتيناك من غَوْرَي تهامة بأكوار المَيْس[١]، ترمى بنا العِيس، نَستحلب الصبيّر، ونَستخلب الخبير؛ ونستعضد البَرير، ونَستخيل الرِّهام[٢]، ونستخيل الجَهـام[٣]، مـن أرض غائلة النَّطاء[٤]، غليظة الوِطاء، قد نَشِفَ المدْهُن[٥] ويَبس الجِعثن[٦]، وسَقط الأملوج[٧]، ومات العُسلوج[٨]؛ وهلك الهَدِيّ، ومات الْوَدِي[٩]، برئْنا يا رسول الله من الوَثَن والعَنَن[١٠]، وما يُحدث الزمن؛ لنا دعوة السلام، وشريعة الإسلام، ماطَمَى

---

(١) أكوار الميس، الأكوار: الرحال، والميس: شجر تصنع منه.

(٢) الرهام: الأمطار الضعيفة.

(٣) الجهام: السحاب الذي لا ماء فيه، ونستجيل: نراه جائلاً يذهب هنا وهنالك.

(٤) النّطاء: البعد. (٥) المدهُن: ما حفره السّيل.

(٦) الجعثن: أصل النبات.

(٧) الاملوج: ورق شجر يشبه الطرفاء والسرو.

(٨) العسلوج: الغصن إذا يبس وذهبت طراوته.

(٩) الوديّ: فسيل النحل. (١٠) العنن: الاعتراض، يريد الشرك والظلم.

البحر، وقام تِعَار؛ ولنا نَعمٌ هُمّل أغفال، ما تَبِضّ ببلال؛ ووَقيرٌ[1] كثير الرَّسْل، قليل الرِّسْل، أصابتها سُنَيّةٌ حمراء مؤزِلة[2]، ليس بها علل ولا نهل.

فقال رسول الله ﷺ: اللهم بارك لهم في مَحْضها ومَخْضها ومَذْقها[3]، وآبعث راعيها في الدَّثَر[4]، بيانع الثمر، وافجُر له الثَّمد[5]، وبارك له في المال والولد، من أقام الصلاة كان مُسلما، ومن آتى الزكاة كان مُحسنا، ومن شَهد أن لا إله إلا الله كان مُخلصا. لكم يا بني نَهد، ودائع الشِّرك، ووضائع الملك، لا تُلطِط[6] في الزكاة، ولا تُلحِد في الحياة، ولا تَثاقل عن الصلاة.

وكتب معه كتاباً إلى بني نهد: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى بني نهد بن زيد، السلامُ على من آمن بالله ورسوله، لكم يا بني نَهد في الوظيفة الفَريضة، ولكم الفارض[7] والفَريش، وذو العِنَان الرَّكوب والفِلو الضَبيس[8]، لا يُمنع سَرحكم، ولا يُعْضد طَلْحكم، ولا يُحبس دَرّكم، ما لم تُضمروا الإمآق[9]، وتأكلوا الرِّباق[10]. من أقر بما في هذا الكتاب فله من رسول الله ﷺ الوفاء بالعهد والذمة، ومن أبى عليه فعليه الرّبوة.

وفود جبلة بن الأيهم

على عمر بن الخطاب رضي الله عنه

العِجْلي قال: حدّثني أبو الحسن عليّ بن أحمد بن عمرو بن الأجدع الكُوفي بهيت، قال: حدّثني إبراهيم بن عليّ مولى بني هاشم، قال: حدّثنا ثِقات شيوخنا أن جبلة بن

---

(١) الوقير: القطيع من الغنم.
(٢) مؤزلة: شديدة الضيق.
(٣) المذق: اللبن الممزوج بالماء.
(٤) الدثر: الماء الكثير والخصب.
(٥) الثمد: الماء القليل.
(٦) تلطط: تمنع.
(٧) الفارض: المريضة.
(٨) الضبيس: الصعب العسر الرّكوب.
(٩) الإماق: الغيظ والبكاء.
(١٠) الرّباق: جمع ربق، وهو الحبل يجعل فيه عرى وتشدّ به البهيمة.

الأيهم بن أبي شمر الغسّاني لما أراد أن يُسلم كتب إلى عمر بن الخطاب من الشام يُعلمه بذلك ويَستأذنه في القدوم عليه. فسُرَّ بذلك عمرُ والمسلمون، فكتب إليه أن اقْدَمْ ولك مالَنا وعليك ما علينا، فخرج جبَلة في خمسمائة فارس من عكّ وجَفنة، فلما دنا من المدينة ألبسهم ثيابَ الوشي المنسوج بالذهب والفِضة، ولبس يومئذ جبلةُ تاجَه وفيه قُرط مارية، وهي جدّته فلم يبق يومئذ بالمدينة أحدٌ إلا خرج ينظر اليه، حتى النساء والصبيان، وفرح المُسلمون بقدومه وإسلامه، حتى حضر الموسمَ من عامهِ ذلك مع عمرَ ابن الخطاب؛ فبينا هو يطوف بالبيت إذ وطيء على إزاره رجلٌ من بني فَزارة فَحَلّه، فالتفت إليه جَبَلةُ مُغضبا. فلطمه فهشم أنفه، فاستعدى عليه الفَزاري عمرَ بن الخطاب. فبعث إليه فقال: ما دعاك يا جَبلة إلى أن لطمتَ أخاك هذا الفَزاري فهشمت أنفه؟

فقال: إنّه وَطيء إزاري فحلّه، ولولا حُرمة هذا البيت لأخذت الذي فيه عيناه. فقال له عمر: أمّا أنت فقد أقررت. إمّا أن تُرضيه وإلا أقدْتُه[1] منك قال: أتُقيده مني وأنا ملك وهو سُوقة؟ قال: يا جبلة، إنه قد جمعك وإيّاه الإسلام، فما تفضُله بشيء إلا [بالتُّقى] بالعافية. قال: والله لقد رجوت أن أكون في الإسلام أعزَّ مني في الجاهلية. قال عمر: دع عنك ذلك. قال: إذن أتَنَصَّر. قال: إن تنصَّرت ضربتُ عنقك. قال: واجتمع قومُ جَبلة وبنو فَزارة فكادت تكون فِتنة، فقال جبلة: أخِّرني إلى غد يا أمير المؤمنين. قال: ذلك لك.

فلما كان جنح الليل خرج جبلةُ وأصحابه، فلم يثن[2] حتى دخل القسطنطينية على هرقل، فتنصَّر وأقام عنده، وأعظم هرقلُ قدومَ جبلة، وسُر بذلك وأقطعه الأموال والأرضين والرِّباع.

ثم بعث عمر بن الخطاب رسولاً إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، فأجابه إلى المصالحة على غير الإسلام، فلما أراد أن يكتب جواب عمر قال للرسول: ألَقيتَ ابنَ عمك هذا

---

(١) أقدته منك: أمكنته. (٢) لم يثن: لم يتوقف ويتمهل.

الذي ببلدنا ـ يعني جبلة ـ الذي أتانا راغباً في ديننا ؟ قال: ما لقيتهُ .

قال: القَهْ، ثم آئتني أُعطِك جواب كتابك .

وذهب الرسول إلى باب جبلة، فإذا عليه من القَهارمة والحُجاب والبهجة وكثرة الجمع مثلُ ما على باب هرقل .

قال الرسول: فلم أزل أتلطف في الإذن حتى أُذن لي، فدخلت عليه، فرأيت رجلاً أصهب اللحية ذا سِبال؛ وكان عهدي به أسمر أسودَ اللحية والرأس. فنظرتُ إليه فأنكرته، فإذا هو قد دعا بُسحَالة الذهب[1] فذرّها في لِحيته حتى عاد أصهب، وهو قاعدٌ على سرير من قوارير، قوائمه أربعة أسُود من ذهب، فلما عَرفني رفعني معه في السرير، فجعل يُسائلني عن المسلمين، فذكرتُ خيراً، وقلت: قد أُضعفوا أضعافا على ما تعرف. فقال: كيف تركت عمر بن الخطاب؟ قلت: بخير. فرأيت الغم قد تبيّن فيه لما ذكرت له من سلامة عمر. قال: فانحدرت عن السرير. فقال: لِمَ تأبَى الكرامة التي أكرمناك بها ؟ قلت: إنّ رسول الله ﷺ نَهى عن هذا .

قال: نعم، ﷺ، ولكن نقِّ قلبك من الدَّنس ولا تُبال علامَ قعدت. فلما سمعته يقول: ﷺ طمعتُ فيه، فقلت له: ويحك يا جبلة! ألا تُسلم وقد عرفت الإسلام وفضله؟ قال: أبَعْدَ ما كان مني؟

قلت: نعم، قد فعل رجلٌ من بني فَزارة أكثرَ مما فعلت: ارتد عن الإسلام وضَرب وجوهَ المسلمين بالسيف، ثم رجع إلى الإسلام وقُبِل ذلك منه وخلّفته بالمدينة مُسلما .

قال: ذَرني من هذا؛ إن كنتَ تضَمن لي أن يزوِّجني عمر ابنته ويولِّيني الأمر بعده رجعتُ إلى الإسلام. قلت: ضمنت لك التزويج ولم أضمن لك الإمرة .

قال: فأومأ إلى خادم بين يديه، فذهب مُسرعا، فإذا خدم قد جاءوا يحملون الصناديق فيها الطعام، فوُضعت، ونُصبت موائدُ الذهب وصِحاف الفضة، وقال لي:

(١) سحالة الذهب: ما سقط منه إذا بُرد.

كُلْ، فقبضت يدي. وقلت: إن رسول الله ﷺ نهى عن الأكل في آنية الذهب والفضة. فقال نعم ﷺ، ولكن نَقِّ قلبك وكُل فيما أحببت. قال: فأكل في الذهب والفضة وأكلتُ في الخَليج[1]؛ فلما رُفع الطعامُ جيء بطساس الفضة وأباريق الذهب، وأومأ إلى خادم بين يديه، فمرّ مُسرعا، فسمعت حِسّا، فالتفتُّ، فإذا خدم معهنّ الكراسي مُرصّعة بالجواهر، فوُضعت عشرة عن يمينه وعشرة عن يساره، ثم سمعت حِسّا، فإذا عشر جوار قد أقبلن مطمومات الشعر[2] متكسرات في الحَلي عليهن ثيابُ الديباج، فلم أر وجوها قط أحسنَ منهن، فأقعدهُنّ على الكراسيّ عن يمينه؛ ثم سمعتُ حِسّاً، فإذا عشر جوارٍ أخرى، فأجلسهن على الكراسيّ عن يساره؛ ثم سمعت حسّا، فإذا جارية كأنها الشمس حُسنا؛ وعلى رأسها تاج، على ذلك التاج طائر لم أرَ أحسنَ منه، وفي يدها اليمنى جام[3] فيها مسكٌ وعنبر، وفي يدها اليسرى جامة فيها ماء ورد، فأومأتْ إلى الطائر أو قال: فصَفَرتْ بالطائر، فوقع في جام ماء الورد فاضطرب فيه، ثم أومأتْ إليه أو قال: فصفرت به، فطار حتى نزل على صليب في تاج جَبلة؛ فلم يزل يرفرف حتى نفض ما في ريشه عليه. وضحك جبلة من شدّة السرور حتى بدت أنيابه؛ ثم التفت إلى الجواري اللواتي عن يمينه، فقال: بالله أطرِبنني؛ فاندفعن يتغنين يخفقن بعيدانهن ويُقلْن:

لله دَرُّ عصابةٍ نادَمْتُهم ... يوماً بجِلَّقَ في الزمانِ الأوّلِ
يَسقونَ مَنْ وَرَدَ البَريصَ عليهمُ ... بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرّحيقِ السَّلسَلِ[4]
أولادُ جَفْنةَ حولَ قبرِ أبيهِمْ ... قبرِ ابنِ ماريَةَ الكريمِ المُفضِلِ
يُغْشَونَ حتى ما تَهِرُّ كِلابُهُمْ ... لا يَسألونَ عن السَّوادِ المُقْبِلِ
بِيضُ الوجوهِ أعِفَّةٌ أحسابُهُمْ ... شُمُّ الأنوفِ من الطّرازِ الأوّلِ

قال: فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: أتدري من قائل هذا؟ قلتُ: لا. قال:

---

(١) الخليج: الجفنة. (٢) مطموحات الشعر: ذوات خصلٍ وأجزاء.

(٣) الجام: إناء من فضة.

(٤) البريص: نهر بدمشق، وكذلك بردى. والرحيق: الخمر، والسلسل: اللين.

قائله حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم التفت إلى الجواري اللاتي عن يساره، فقال: بالله أبكيننا. فـانـدفعـن يتغنين ويَخفقن بعيدانهن ويقُلْن:

لِمَـــنْ الدارُ أقفَـرَتْ بمَعـــانِ ‏ بين أعْلَـى اليَـرْمـوكِ فــالخمان[1]
ذاك مَغْنـىً لآلِ جَفْنَـــةَ في الدّهــــــرِ محلا لِحَـــادِثِ الأزمـــانِ
قـد أراني هنـاكَ دَهــراً مَكِينـاً ‏ عنـد ذي التـاج مَقعَـدي ومَكـاني
ودَنـا الفِصْـحُ فـالـولائـدُ ينَظِمْـــــنَ سِـرَاعــاً أكِلّـــةَ المَرْجــانِ
لم يُعَلّلْــنَ بــالمغــافــرِ والصَّمْـــــغِ ولا نَقْفِ حَنْظَلِ الشِّـريـانِ[2]

قال: فبكى حتى جعلتْ الدموع تسيل على لحيته؛ ثم قال: أتدري من قائل هذا؟ قلت: لا أدري. قال: حسان بن ثابت. ثم أنشأ يقول:

تَنصَّرَتِ الأشرافُ من عـارِ لَطْمَـةٍ ‏ وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَـرَرْ
تكَنّفَني منهـا لَجـاجٌ ونَخْـــوةٌ ‏ وبِعْتُ لها العينَ الصحيحةَ بـالعَـوَرْ
فيـا ليـت أُمـي لم تَلِـدْني وليتني ‏ رَجَعْتُ إلى الأمْرِ الذي قال لي عُمرْ
ويـا ليتني أرْعَـى المَخـاضَ بقَفْرةٍ ‏ وكنـتُ أسيراً في ربيعـةَ أو مُضَـرْ
ويا ليت لي بالشـامِ أدْنَـى معيشـةٍ ‏ أُجالِسُ قومي ذاهِبَ السَّمْعِ والبصَرْ

ثم سألني عن حسان: أحيٌّ هو؟ قلت: نعم، تركته حيّا. فأمر لي بكُسوة ومال ونُوق مُوقَرة بُراً. ثم قال لي: إن وجدتَه حيّا فادفع إليه الهدية واقرئه سلامي، وإن وجدتَه ميتاً فادفعها إلى أهله وآنحر الجمال على قبره.

فلما قدمتُ على عمر أخبرتُه خبر جبلة وما دعوتهُ إليه من الإسلام والشرطَ الذي شرطه وأني ضمنتُ له التزويج ولم أضمن له الإمرة، فقال: هلا ضمنت له الإمرة؛ فإذا أفاء الله به إلى الإسلام قضى عليه بحُكمه عز وجل.

---

(١) الخمّان: من نواحي دمشق.
(٢) المغافير: صمغ شبية بالناطف ينضحه العرفط والشريان: شجر من عضاه الجبال.

ثم ذكرتُ له الهدية التي أهداها إلى حسّان بن ثابت، فبعثَ إليه وقد كُفَّ بصرهُ، فأُتي به وقائدٌ يقوده، فلما دخل قال: يا أمير المؤمنين، إني لأجد رياحَ آلِ جفْنة عندك! قال: نعم. هذا رجل أقبل من عنده. قال: هات يا بن أخي إنه كريم من كرام مدحتهُم في الجاهلية فحلف ألاّ يلقى أحدا يعرفني إلا أهدى إليَّ معه شيئا. فدفعتُ إليه الهدية. المالَ والثياب، وأخبرتُه بما كان أمر به في الإبل إن وُجد ميتاً. فقال: وددت أني كنت مَيتاً فنُحِرَتْ على قبري.

قال الزبير: وانصرف حسان وهو يقول:

إنَّ ابن جفْنَةَ مِنْ بقيَّةِ مَعْشَرٍ لَمْ تَغْذُهُمْ آباؤُهُمْ باللُّومِ
لَمْ ينْسَني بالشَّامِ إذْ هُوَ رَبُّها مَلِكاً ولا مُتَنصراً بالرُّومِ
يُعطِي الجَزِيلَ ولا يَراهُ عندهُ إلا كبعْضِ عطِيَّةِ المذْمُومِ

فقال له رجل كان في مجلس عمر: أتذكر مُلوكا كفرة أبادهم الله وأفناهم؟ قال: ممن الرجل؟ قال: مُزَني. قال: أمَا والله لولا سوابق قومك مع رسول الله ﷺ لطوّقتك طوق الحمامة.

قال: ثم جهزني عمر إلى قيصر وأمرني أن أضمن لجبلة ما اشترط به.

فلما قدمت القسطنطينية وجدتُ الناس مُنصرفين من جنازته، فعلمت أن الشقاء غلب عليه في أمّ الكتاب.

وفود الأحنف على عمر بن الخطاب

رضي الله عنه

المدائني قال: قدم الأحنفُ بن قيس التميمي على عُمر بن الخطاب رضي الله عنه، في أهل البصرة وأهل الكوفة، فتكلموا عنده في أنفسهم وما ينوب كلَّ واحد منهم، وتكلم الأحنف فقال:

يا أمير المؤمنين، إن مفاتيح الخير بيد الله، وقد أتتك وفودُ أهل العراق، وإنّ

إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نَزلوا منازل الأمم الخالية، والملوك الجبابرة، ومنازل كسرى وقيصر وبني الأصفر[١]، فهم من المياه العَذبة والجِنان المخصبة في مثل حِوَلاء السَّلَى وحدقة البعير[٢]، تأتيهم ثمارهم غضّة لم تتغيّر؛ وإنا نزلنا أرضاً نشاشةً طَرَفٌ في فلاة وطرف في ملح أجاج، جانبٌ منها منابت القصب، وجانب سَبخة نشّاشة لا يَجف ترابها، ولا ينبت مرعاها، تأتينا منافعها في مثل مريء النعامة، يخرج الرجل الضعيف منّا يستعذب الماء من فرسخين، وتخرج المرأة بمثل ذلك تُرنِّق[٣] ولدها ترنيقَ العنز، تخافِ عليه العدوَّ والسبع، فإلا ترفع خَسيستنا. وتُنعشْ ركيستنا[٤]، وتجبُر فاقتنا، وتزيد في عيالنا عِيالاً، وفي رجالنا رجالاً، وتُصَغِّر درهمنا، وتكبِّر قفيزنا، وتأمر لنا بحَفر نهر نَستعذب به الماء هَلَكنا.

قال عمر: هذا والله السيد! هذا والله السيد!

قال الأحنف: فما زلت أسمعها بعدها.

فأراد زيد بن جبلة أن يضع منه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه ليس هناك، وأمّه باهليّة.

قال عمر: هو خير منك إن كان صادقاً. يريد: إن كانت له نيّة.

فقال الأحنف:

أنا ابنُ الباهِلَيّةِ أَرْضَعَتْنِي ... بِثَدْيٍ لا أجَدَّ ولا وخِيمِ[٥]
أغُضّ علَى القَذَى أَجْفانَ عيْنِي ... إذا شَرَّ السَّفيهُ إلى الحَليمِ[٦]

قال فرجع الوفد واحتبس الأحنفَ عنده حولا وأشهراً، ثم قال: إن رسول الله

(١) بني الأصفر: يعني الروم.
(٢) الحولاء: غلاف أخضر مملوءٌ ماءً، والسّلى: الجلدة الرقيقة التي يكون فيها الولد، ويكنّى بحولاء السّلى وحدقة البعير عن الخصب والخير.
(٣) الترنيق: إدامة النظر. (٤) الركس: قلب أول الشيء على آخره.
(٥) الأجدّ: اليابس القليل اللبن.
(٦) أغضّ: أصبر وأطبق أجفاني والقذى: ما يقع في العين من أذىً وشرَّ: من الشرّ.

ﷺ حذّرنا كُل منافق صَنَعِ اللسان، وإني خِفتك فاحتبستك، فلم يبلغني عنك إلا خير؛ رأيت لك جُولاً[1] ومعقولاً؛ فارجع إلى منزلك واتق الله ربك. وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن يحتفر لهم نهراً.

وفود الأحنف وعمرو بن الأهتم

على عمر بن الخطاب رضي الله عنه

العُتبي عن أبيه قال: وفَد الأحنف وعمرو بن الأهتم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأراد أن يُقرِع بينهما في الرياسة، فلما اجتمعت بنو تميم، قال الأحنف:

ثوَى قدَحٌ عنْ قوْمِه طالما ثوَى ... فلمَّا أتاهُمْ قالَ قُومُوا تنَاجَزُوا

فقال عمرو بن الأهتم: إنا كنّا وأنتم في دار جاهليّة فكان الفضل فيها لمن جَهِل، فسفكنا دماءكم، وسَبينا نساءكم، وإنّا اليوم في دار الإسلام والفضلُ فيها لمن حلِم؛ فغفر الله لنا ولك.

قال: فغلب يومئذ عمرو بن الأهتم على الأحنف ووقعت القرعة لآل الأهتم فقال عمرو بن الأهتم:

لَمّا دعَتْني للرِّياسَة مِنْقَرٌ ... لدَى مَجْلسٍ أَضْحَى به النَّجْمُ بادِيا
شدَدْتُ لها أزْري وقدْ كنْت قبْلها ... لأمْثالِها ممَّا أَشُدُّ إزَاريا

وعمرو بن الأهتم: هو الذي تكلم بين يدي رسول الله ﷺ، وسأله عن الزبرقان، فقال عمرو: مُطاع في أدْنيْه، شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره.

فقال الزبرقان: والله يا رسول الله إنه ليعلم مني أكثر مما قال، ولكن حسدني.

قال: أما والله يا رسول الله، إنه لزَمِرُ[2] المروءة، ضيّق العطَن[3]؛ أحمق الوالد

---

(١) الجول: الرأي.

(٢) زمر المروءة: قليلها.

(٣) العطن: مبرك الجمال ومربض الغنم حول الماء.

لئيم الخال؛ والله ما كذبتُ في الأولى ولقد صدقتُ في الأخرى؛ رضيتُ عن بن عمي فقلتُ أحسن ما علمتُ ولم أكذب، وسخِطتُ عليه فقلت أقبح ما علمت ولم أكذب.

فقال رسول الله ﷺ: إنّ من البيان لسحراً.

وفود عمرو بن معديكرب
على عمر بن الخطاب رضي الله عنه
إذ أوفده سعد

لما فتحت القادسيّة على يدي سعد بن أبي وقّاص، أبلى فيها عمرو بن معديكرب بلاءً حسناً، فأوفده سعدٌ على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكتب إليه معه بالفتح وأثنى في الكتاب على عمرو؛ فلما قَدِم على عمر بن الخطاب سأله عن سعد، فقال: أعرابي في نَمرته[١]، أسدٌ في تأْمورته[٢]، نبطي في جبايته، يقسم بالسويّة، ويعدل في القضية وينفَل[٣] في السريَّة؛ وينقل إلينا حقنا نقل الذَّرة. فقال عمر: لشدّ ما تقارضتُما الثناء. وكان عمر قد كتب إلى سعد يوم القادسيّة أن يُعطي الناس على قدر ما معهم من القرآن؛ فقال سعد لعمرو بن معديكرب ما معك من القرآن؟ قال: ما معي شيء. قال: إن أمير المؤمنين كتب إليّ أن أعطي الناس على قدر ما معهم من القرآن. فقال عمرو:

إذا قُتِلْنا ولا يبكي لنا أَحدٌ ... قالت قريشُ ألا تلك المقاديرُ
نُعطَى السَّويّة من طعنٍ له نَفذٌ ... ولا سويَّةَ إذ تعْطَى الدنانيرُ

قال: فكتب سعد بأبياته إلى عمر، فكتب إليه أن يُعْطَى على مقاماته في الحرب.

---

(١) النمرة: بردة من صوف تلبسها الأعراب.
(٢) التأمورة: عريسة الأسد.
(٣) في بعض الأصول: «وينقّر».

وفود أهل اليمامة على أبي بكر الصديق

رضي الله عنه

وفد أهل اليمامة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، بعد إيقاع خالد وقَتْله مُسليمة الكذاب، فقال لهم أبو بكر: ما كان يقول صاحبكم؟ قالوا: أعفنا يا خليفة رسول الله. قال: لا بد أن تقولوا. قالوا: كان يقول: يا ضِفدع كم تَنِقِّين. لا الشرابَ تَمنعين، ولا الماءَ تُكدِّرين، لنا نصفُ الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريش قوم لا يعدلون. فقال لهم أبو بكر: ويحكم! ما خرج هذا من إلٍّ ولا بَر، فأين ذهب بكم؟ قال أبو عبيد؛ الإل: الله تعالى. والبر الرجل الصالح.

وفود عمرو بن معديكرب

على مجاشع بن مسعود

وفد عمرو بن معديكرب الزُّبيدي على مُجاشع بن مسعود السُّلمي ـ وكانت بين عمرو وبين سُليم حروب في الجاهلية ـ فقدم عليه البصرة يسأله الصلة، فقال له: اذكُر حاجتك. فقال له: حاجتي صلةُ مثلي. فأعطاه عشرة آلاف دِرهم، وفرساً من بنات الغبْراء، وسيفاً جُرازاً[1]، ودِرْعاً حَصِينة، وغلاماً خبازاً؛ فلما خرج من عنده. قال له أهل المجلس: كيف وجدتَ صاحبك؟ قال لله بنو سُليم! ما أشد في الهيجاء لقاءها، وأكرم في اللّأواء[2] عطاءها، وأثبتَ في المكرمات بناءها. والله يا بني سُليم، لقد قاتلناكم في الجاهلية فما أجْبَنَّاكم، ولقد هاجيناكم فما أفحمناكم، ولقد سألناكم فما أبخلناكم:

فلِلّـــهِ مسئــولاً نَــوالاً ونــائلاً   وصاحِبَ هَيْجٍ يَوْمَ هَيْجٍ مُجاشِعُ

---

(١) جرازاً: ماضياً نافذاً.   (٢) اللؤاء: الشدّة والضيق.

وفود الحسن بن علي رضي الله عنهما
على معاوية رضي الله عنه

أبو بكر بن أبي شَيبة قال: وفد الحسن بن علي رضي الله عنهما على معاوية بعد عام الجماعة، فقال له معاوية: والله لاحبونّك بجائزة ما أجزتُ بها أحداً قبلك ولا أُجيز بها أحداً بعدك. فأمر له بمائة ألف.

وفي بعض الحديث إن النبي ﷺ دخل على ٱبنته فاطمة، فوجد الحسن طفلاً يلعب بين يديها، فقال لها: إن الله تعالى سيُصلح على يدي ابنك هذا بين فِئتين عظيمتين من المُسلمين.

وفود زيد بن منية على معاوية رحمه الله

العتبي قال: قدم زيد بن مُنْية على معاوية من البصرة ـ وهو أخو يَعْلى ابن مُنية صاحب جمل عائشة، ومتولي تلك الحروب، ورأس أهل البصرة. وكان عُتبة بن أبي سفيان قد تزوّج ٱبنة يعلي بن مُنية ـ فلما دخل على معاوية شكا إليه ديناً لَزِمه. فقال: يا كعب، أعطه ثلاثين ألفاً. فلما ولّى قال: وليوم الجمل ثلاثين ألفاً أخرى. ثم قال له الحق بصهرك ـ يعني عتبة ـ فقدم عليه مِصر، فقال: إنّي سرتُ إليك شهرين، أخوض فيهما المتالف، ألبس أردية الليل مَرَّة، وأخوض في لُجج السراب أخرى، مُوقراً من حسن الظن بك، وهارباً من دهر قَطم، ودَيْن لَزم، بعد غِنًى جَدعْنا به أنوف الحاسدين، فلم أجد إلا إليك مَهْرباً وعليك مُعَوَّلاً. فقال عُتبة: مرحباً بك وأهلاً؛ إن الدهر أعاركم غِنًى، وخَلطكم بنا، ثم استردّ ما أمكنه أخذُه، وقد أبقى لكم منّا ما لا ضيعة معه، وأنا واضعٌ يدي ويدك بيد الله فأعطاه ستين ألفاً، كما أعطاه معاويةُ رحمه الله.

وفود عبد العزيز بن زرارة

على معاوية رحمه الله

العُتبي عن أبيه قال: وفد عبد العزيز بن زُرارة على معاوية وهو سيّد أهل الكوفة. فلما أذن له وقف بين يديه، وقال: يا أمير المؤمنين، لم أزل أُهز ذوائب الرّحال إليك؛ إذ لم أجد معوّلاً إلا عليك، امتطى الليل بعد النهار، وأَسِم المجاهلَ بالآثار، يقودني إليك أمل، وتَسُوقني بَلْوى، والمجتهد يُعْذَر، وإذ بلغتك فقَطْني. فقال معاوية: احطُط عن راحلتك رحلَها.

وخرج عبد العزيز بن زُرارة مع يزيد بن معاوية إلى الصائفة، فهلك هناك؛ فكتب به يزيدُ بن معاوية إلى معاوية، فقال لزرارة: أتاني اليوم نَعيُ سيد شباب العرب. قال زرارة: يا أمير المؤمنين، هو ابني أو ابنك. قال: بل ابنك. قال: لِلموتِ ما تلد الوالدة.

أخذه سابق البربري فقال:

وللموتِ تغذو الوِلداتُ سِخَالَها ... كما لِخَرابِ الدهرِ تُبْنَى المساكِنُ

وقال آخر:

لِلموتِ يولَدُ مِنّا كُلُّ مولودِ ... لا شيءَ يبقَى ولا يَفْنَى بِمَوْجودِ

وفود عبد الله بن جعفر

على يزيد بن معاوية

المدائني قال: قَدم عبد الله بن جعفر على يزيد بن معاوية، فقال له: كم كان عَطاؤك؟ فقال له: ألف ألف. قال: قد أضعفناها لك. قال: فداك أبي وأُمي وما قلتُها لأحد قبلك! قال: أضعفناها لك ثانية. فقيل ليزيد: أتُعطي رجلاً واحداً أربعة آلاف ألف؟ فقال: ويحكم، إنما أعطيتُها أهلَ المدينة أجمعين، فما يده فيها إلاّ عارية.

فلما كان في السنة الثانية قَدم عبد الله بن جعفر، وقدم مولى له يقال له نافع،

كانت له منزلة من يزيد بن معاوية. قال نافع: فلما قدمنا عليه أمر لعبد الله بن جعفر بألف ألف، وقضى عنه ألفَ ألف، ثم نظر إليّ فتبسم، فقلت: هذه لتلك الليلة. وكنتُ سامرتُه ليلة في خلافة معاوية وأسمعتُه فيها، فذكرته بها وقَدِمتْ عليه هدايا من مصر كثيرة، فأمر بها لعبد الله بن جعفر؛ وكانت له مائة ناقة، فقلت لابن جعفر: لو سألته منها شيئاً نَحتلبه في طريقنا؟ ففعل، فأمر بصرفها كلها إليه. فلما أراد الوداع أرسل إليّ فدخلت عليه، فقال: ويلك! إنما أخّرْتُك لأتفرغ إليك، هات قولَ جميل.

خَليلَـــيّ فيما عِشْتُما هـــل رأيْتُما قتيلاً بَكَى مِن حُبِّ قـاتِلـهِ قَبْلِـي

قال؛ فأسمعتُه، فقال: أحسنت والله؛ هات حاجتك! فما سألته شيئاً إلا أعطانيه، فقال: إن يُصلح اللهُ هذا الأمرَ من قِبَل ابن الزبيرِ تَلْقَنا بالمدينة؛ فإن هذا لا يَحْسنُ إلا هناك. فمنع والله من ذلك شؤم ابن الزبير.

وفود عبد الله بن جعفر

على عبد الملك بن مروان

قال بُديح: وفد عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان، وكان زوّج ابنتَه أُم كلثوم من الحجاج على ألفي ألف في السر وخمسمائة ألف في العلانية، وحملها إليه إلى العراق، فمكثت عنده ثمانية أشهر. قال بُديح: فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان، خرجنا معه حتى دخلنا دمشقَ، فإنا لنُحطّ رحالنا إذ جاءنا الوليد بن عبد الملك على بغلة وَردَة ومعه الناس، فقلنا: جاء إلى ابن جعفر ليُحييه ويدعوه إلى منزله. فاستقبله ابنُ جعفر بالترحيب، فقال له: لكن أنت لا مرحباً بك ولا أهلاً! فقال: مهلاً يا بن أخي، فلستُ أهلاً لهذه المقالة منك. قال: بلى، ولِشرّ منها، قال: وفيم ذلك؟ قال: إنك عمدتَ إلى عقيلة نساء العرب، وسيدة بني عبد مناف، ففرشتها عبدَ ثقيف يتفخّذها. قال: وفي هذا عَتب عليّ يا بن أخي؟ قال: وما أكثرُ مِن هذا؟ قال: والله إنّ أحق الناس أن لا يلومني في هذا لأنت وأبوك؛ إنْ كان مَن

البلكم من الوُلاة ليصلون رَحمي، ويعرفون حقي، وإنك وأباك منعتماني ما عندكما حتى ركبني من الدَّين ما والله لو أن عبداً مُجدَّعاً حبشياً أعطاني بها ما أعطاني عبدُ ثقيف لزوّجتها؛ فإنما فديتُ بها رقبتي من النار. قال: فما راجعه كلمةً حتى عطف عنانه، ومضى حتى دخل على عبد الملك ـ وكان الوليدُ إذا غضب عُرف ذلك في وجهه ـ فلما رآه عبد الملك قال: مالك أبا العباس؟ قال: إنك سلّطت عبدَ ثقيف وملّكته ورفعته حتى تفخَّذ نساءَ عبد مناف، وأدركته الغيرة. فكتب عبدُ الملك إلى الحجّاج يعزم عليه ألاّ يضع كتابه من يده حتى يطلِّقها... فما قطع الحجّاج عنها رزقاً ولا كرامة يُجريها عليها حتى خرجت من الدنيا. قال: وما زال واصلاً لعبد الله بن جعفر حتى هلك. قال بُديح: فما كان يأتي علينا هلالٌ إلا وعندنا عِير مُقبلة من الحجاج، عليها لُطَفٌ وكُسوة وميرة، حتى لحق عبدُ الله بن جعفر بالله.

ثم استأذن ابنُ جعفر على عبد الملك، فلما دخل عليه استقبله عبد الملك بالترحيب، ثم أخذ بيده فأجلسه معه على سريره، ثم سأله فألطف المسألة، حتى سألة عن مطعمه ومشربه. فلما انقضت مسألته، قال له يحي بن الحكم: أمِن خِبْثة كان وَجْهك يا أبا جعفر؟ قال: وما خبثة؟ قال: أرضك التي جئت منها. قال: سبحان الله، رسول الله ﷺ يسميها طِيبة وتسميها خِبثة؟ لقد آختلفتما في الدنيا وأظنكما في الآخرة مختلفَيْن.

فلما خرج من عنده هيّأ له ابنُ جعفر هدايا وألطافاً. فقلت لبُديح: ما قيمة ذلك؟ قال: قيمته مائة ألف. من وُصَفَاء ووصائف وكسوة وحرير ولُطفَ من لطَف الحجاز. قال: فبعثني بها، فدخلتُ عليه وليس عنده أحد. فجعلت أعرض عليه شيئاً شيئاً. قال: فما رأيت مثل إعظامه لكل ما عرضتُ عليه من ذلك، وجعل يقول كلما أريتُه شيئاً: عافَى الله أبا جعفر! وما رأيت كاليوم، وما نريد أن يتكلف لنا شيئاً من هذا، وإن كُنا لمتذمِّمين محتشمين. قال: فخرجت من عنده وأذن لأصحابه.

فوالله لبينا أنا عند بن جعفر أحدِّثه عن تعجب عبد الملك وإعظامه لما أهدى

إليه، إذا بفارس قد أقبل علينا، فقال أبا جعفر، إن أمير المؤمنين يقرأ السلام عليك، ويقول لك: جمعت له وَخْش رقيق الحجاز وأُبّاقهم وحَبستَ عنا فلانة، فابعث بها إلينا ـ وذلك أنه حين دخل عليه أصحابُه جعل يحدّثهم عن هدايا ابن جعفر ويُعظمها عندهم، فقال له يحيى بن الحكم: وماذا أهدى إليك ابنُ جعفر؟ جمع لك وَخْش رقيق الحجاز وأُبّاقهم وحبس عنك فلانة. قال: ويلك، وما فلانة هذه؟ قال: ما لم يسمع واد أحدٌ بمثلها قطُّ جمالاً وكمالاً وخُلقاً وأدباً، لو أراد كرامتك بعث بها إليك. قال: وأين تُراها. وأين تكون؟ قال: هي والله معه، وهي نفسه التي بين جنبيه ـ فلما قال الرسول ما قال، وكان ابنُ جعفر في أذنه بعض الوقر، إذا سمع ما يكره تصامّ، فأقبل عليه فقال: ما يقول يابُديح؟ قال: قلت: فإنّ أمير المؤمنين يَقرأ السلام ويقول: إنه جاءني بريد من ثغر كذا يقول: إن الله نصر المسلمين وأعزهم. قال: آقرأ أمير المؤمنين السلام، وقل له: أعز اللهُ نصرك، وكَبت عدوك. فقال الرسول: يا أبا جعفر، إني لست أقول هذا. وأعاد مقالته الأولى. فسألني فصرفته إلى وجه آخر. فأقبل عليَّ الرسول، فقال: يا ماصَّ... أبرُسُل أمير المؤمنين تَهَكَّمُ، وعن أمير المؤمنين تُجيب هذا الجواب؟ أما والله لأطَلَّنَّ دمك. فانصرف، وأقبل عليّ بنُ جعفر فقال: مَن تُرى صاحبنا؟ قال: صاحبُك بالأمس. قال: أظنه! فما الرأي عندك؟ قلت: يا أبا جعفر، قد تكلّفت له ما تكلفت، فإن منعتَها إياه جعلتها سبباً لمنعك، ولو طلب أميرُ المؤمنين إحدى بناتك ما كنتُ أرى أن تمنعها إياه. قال: آدعها لي فلما أقبلتْ. رحَّب بها ثم أجلسها إلى جنبه، ثم قال: أما والله ما كنتُ أظن أن يفرق بيني وبينك إلا الموت. قالت: وما ذاك؟ قال: إنه حدث أمر، وليس والله كائناً فيه إلا ما أحببتِ، جاء الدهر فيه بما جاء. قالت: وما هو؟ قال: إن أمير المؤمنين بعث يطلبك. فإن تَهوَىْ فذاك، وإلا والله لم يكن أبداً. قالت: ما شيء لك فيه هوى ولا أظنّ فيه فرجاً عنك إلا فديته بنفسي، وأرسلتْ عينها بالبكاء. فقال لها: أما إذا فعلت فلا تَرَينّ مكروهاً: فمسحَتْ عينيها، وأشار إليّ فقال: ويحك يا بُديح استحثها قبل أن تتقدّم إليّ من القوم بادرة. قال: ودعا بأربع

وصائف ودعا من صاحب نفقته بخمسمائة دينار، ودعا مولاة له كانت تلي طيبَهُ، فَدَحست لها ربعة عظيمة مملوءة طيباً، ثم قال: عجِّلها ويلك. فخرجتُ أسوقها حتى انتهيت إلى الباب؛ وإذا الفارس قد بلّغ عني، فما تركني الحجّاب أن تَمس رجلاي الأرض حتى أُدخلت على عبد الملك وهو يتلظّى، فقال لي يا ماصَّ، وكذا أنت المُجيب عن أمير المؤمنين والمُتهكم برسله؟ قلت: يا أمير المؤمنين، إيذن لي أتكلم. قال: وما تقول يا كذا وكذا؟ قلت: إيذن لي جعلني الله فِداك أتكلم. قال: تكلم. قلت: يا أمير المؤمنين، أنا أصغر شأناً، وأقل خطراً من أن يَبلغ كلامي من أمير المؤمنين ما أرى، وهل أنا إلا عبدٌ من عبيد أمير المؤمنين، نعم، قد قلت ما بلغك، وقد يعلم أمير المؤمنين إنّما نعيش في كنف هذا الشيخ، وأنّ الله لم يزل إليه مُحسناً، فجاءه من قِبلك شيء ما أتاه قطُّ مثلُه، إنما طلبتَ نفسه التي بين جنبيه، فأجبتُ بما بلغك لأسهِّل الأمرَ عليه؛ ثم سألني فأخبرتُه واستشارني فأشرتُ عليه، وها هي ذه قد جئتُك بها. قال: أدخلها ويلك! قال: فأدخلتُها عليه وعنده مَسلمة ابنُه، غلام ما رأيت مثلَه ولا أجمل منه حين آخضرّ شاربه. فلما جلستْ وكلّمها أُعجب بكلامها، فقال: لله أبوكِ، أمسكك لنفسي أحبُّ إليك أم أهبك لهذا الغلام، فإنه ابنُ أمير المؤمنين، قالت: يا أمير المؤمنين، لستَ لك بحقيقة، وعسى أن يكون هذا الغلام لي وجهاً. قال: فقام من مكانه ما راجعها، فدخل، وأقبل عليها مَسلمة فقال: يا لَكاع[1]، أعَلَى أمير المؤمنين تختارين؟ قالت: يا عدوّ نفسه إنما تلومني أن آخترتُك؟ لعمر الله لقد قال رأيُ من آختارتك. قال: فضيَّقت والله مجلسه. واطّلع علينا عبد الملك قد ادهَن بدُهن وَارَى الشيب، وعليه حُلة تتلألأ كأنها الذهب، بيده مخْصرة[2] يخطِر بها، فجلس مجلَسه على سريره، ثم قال: إيها، لله أبوك، أُمسكك لنفسي أحبُّ لك أم أهبك لهذا الغلام؟ قالت: ومن أنت أصلحك الله؟ قال لها الخصيّ: هذا أمير المؤمنين! قالت: لست مختارة على أمير المؤمنين أحداً. قال: فأين

(١) لكاع: أحمق.

(٢) المخصرة: ما يتوكأ عليه كالعصا.

قولُك آنفاً؟ قالت: رأيتُ شيخاً كبيراً، وأرى أمير المؤمنين أشبَّ الناس وأجملهم، ولست مختارة عليه أحداً، قال: دونكها يا مسيلمة قال بُديح، فنشرتُ عليه الكُسوة والدنانير التي معي، وأريتُه الجواري والطّيب. قال: عافى الله ابنَ جعفر! أخَشِيَ ألا يكونَ لها عندنا نفقة وطيب وكُسوة؟ فقلت: بلى، ولكنه أحبَّ أن يكون معها ما تكتفي به حتى تستأنس. قال: فقَبضها مسلمة، فلم تلبث عنده إلا يسيراً حتى هَلكت. قال بُديح: فوالله الذي ذهب بنفس مَسلمة، ما جلست معه مجلساً ولا وقفتُ موقِفاً أنازعه فيه الحديث، إلا قال: ابْغِني مثل فلانة. فأقول: آبغني مثل ابن جعفر.

قال: فقلت لبديح: ويلك! فما أجازه به؟ قال: قال حين دفع إليه حاجته ودينه: لأجيزنك جائزة لو نُشر لي مروان من قبره ما زِدْته عليها. فأمر له بمائة ألف. وايمُ الله إني لا أحسبه أنفق في هديته ومسيره ذلك وجاريتِه التي كانت عدل نفسه مائتي ألف.

وفود الشعبي على عبد الملك بن مروان

كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف: أن آبعث إليَّ رجلاً يصلح للدين والدنيا، أتخذه سميراً وجَليساً وخليّاً. فقال الحجاج: ما ماله إلا عامرٌ الشَّعبي. وبعث به إليه؛ فلما دخل عليه وجده قد كَبا مُهتماً، فقال: ما بال أمير المؤمنين؟ قال ذكرتُ قول زهير[1]:

كأنّي وقدْ جاوزْتُ سَبعينَ حِجَّةً ... خَلَعتُ بها عني عِذارَ لِجامي
رَمتْني بَناتُ الدهْرِ من حيثُ لا أرى ... فكيف بمَن يُرْمى وليسَ برامي
فلو أنني أُرْمَى بِنَبْلٍ رأيتُها ... ولكنّني أُرْمَى بغيْرِ سِهامِ
على الراحَتَيْنِ تارةً وعلى العَصا ... أَنوءُ ثلاثاً بَعدهُنَّ قِيامِي[2]

قال له الشَّعبي: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كما قال لبيدُ بن ربيعة، وقد بلغ سبعين حجة:

(١) ينسب هذا الشعر لعمرو بن قميئة.
(٢) أنوء: أثقل.

كأني وقد جاوزتُ سَبعين حِجةً خَلَعتُ بها عن مَنْكِبيَّ ردائيا
خليفةَ اللهِ ماذا تأمُرَنّ بنَا لسْنا إليكُم ولا في دارِ مُنتظَرِ
ما زلْتُ بعْدَكَ في همٍّ يُؤرِّقُني قد طالَ في الحيِّ إصْعادِي ومُنْحَدَري
لا ينْفَعُ الحاضِرُ المجهُودُ بادِيَنا ولا يعُودُ لنا بادٍ على حضَرِ
إنّا لنَرْجُو إذا ما الغيثُ أخْلَفنا مِنَ الخليفَةِ ما نَرْجُو مِنَ المطَرِ
نال الخِلافةَ إذ كانتْ له قَدَراً كما أتى رَبَّهُ موسى على قدرِ
هٰذِي الأرامِلُ قد قضَّيْتَ حاجَتَها فمن لِحاجَةِ هذا الأرْمَلِ الذّكَرِ

فقال: يا جرير، والله لقد وَليت هذا الأمر وما أملك إلا ثلثمائة، فمائة أخذها عبد الله، ومائة أخذتها أُم عبد الله، يا غلام أعطه المائة الباقية.

فقال: والله يا أمير المؤمنين، إنها لأحبّ مال إليّ كسبته. ثم خرج، فقالوا له: ما وراءك؟ قال ما يسوءُكم! خرجتُ من عند أمير يعطِي الفقراءَ ويَمْنَعُ الشعراء، وإني عنه لراض. ثم أنشأ يقول:

رأيتُ رُقَى الشيطان لا تستَفِزُّهُ وقد كان شَيْطانِي من الجنِّ راقيا(١)

وفود الحجاج بابراهيم بن محمد بن طلحة

على عبد الملك بن مروان

عمران بن عبد العزيز قال: لما ولي الحجاجُ بن يوسف الحرمين بعد قتله ابن الزبير، استخلص إبراهيمَ بن محمد بن طلحة فقرّبه وعظّم منزلته. فلم تزل تلك حالهُ عنده حتى خرج إلى عبد الملك بن مروان، فخرج معه مُعادِلا، لا يُقصِّر له في برّ ولا إعظام، حتى حضر به عبدَ الملك. فلما دخل عليه لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن قال له: قدمت عليك أميرَ المؤمنين برجل الحجاز، لم أدَع له بها نظيراً في الفضل والأدب والمروءة وحُسن المذهب، مع قرابة الرحم، ووجوب الحق، وعِظَم قدْر الأبوّة، وما بلوتُ منه في الطاعة والنصيحة وحسن المُوازرة، وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة، وقد

أحضرتُه بابَك ليسهل عليه إذنُك، وتعرفَ له ما عرّفتُك. فقال: أذكرتَنا رحماً قريبة وحقا واجبا، يا غلام، إيذن لإبراهيم بن محمد بن طلحة. فلما دخل عليه أدناه عبد الملك حتى أجلسه على فراشه، ثم قال له: يا بن طلحة، إنّ أبا محمد ذكّرَنا ما لم نزل نعرفُك به في الفَضل والأدب والمُروءة وحُسنِ المذهب، مع قرابة الرحم ووجوب الحق وعِظم قدر الأبوة، وما بلاه منك في الطاعة والنصيحة وحُسن الموازرة، فلا تَدَعنّ حاجةً في خاصة نفسك وعامّتك إلا ذكرتها. فقال: يا أمير المؤمنين، إن أول الحوائج، وأحقَّ ما قُدِّمَ بين يدي الأمور، ما كان لله فيه رِضا، ولِحَق نبيه ﷺ أداء، ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة، وعندي نصيحةٌ لا أجد بُداً من ذكرها، ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خال، فأخْلني يا أمير المؤمنين تَردْ عليك نصيحتي. قال: دون أبي محمد؟ قال: نعم، دون أبي محمد؟ قال عبد الملك للحجاج: قم. فلما خَطْرَفَ[1] السّتْرُ أقبل عليَّ فقال: يا بن طلحة، قل نُصيحتك. فقال: تالله يا أمير المؤمنين، لقد عمدت إلى الحجاج في تغطرُسِه وتعجْرِفه وبُعدهِ من الحق وقُربه من الباطل، فوليَته الحرمين، وهما ما هما، وبهما ما بهما من المُهاجرين والأنصار، والموالي الأخيار، يطؤهم بطغام[2] أهل الشام، ورعاع لا روية لهم في إقامة حق ولا في إزاحة باطل، ويسومهم الخَسف، ويحكم فيهم بغير السّنة بعد الذي كان من سَفْك دمائهم، وما انْتُهك من حُرَمِهم؛ ثم ظنِنتَ أن ذلك فيما بينك وبين الله زاهق، وفيما بينك وبين نبيك غَداً إذا جاثاك[3] للخصومة بين يدي الله في أمته. أمَا والله لا تنجو هنالك إلا بحجة. فارْبَعْ[4] على نفسك أوْدَع. فقال له عبد الملك: كذبتَ ومِنْتَ[5] وظنّ بك الحجاجُ ما لم يجده فيك؛ وقد يُظَنُّ الخير بغير أهله؛ قُم فأنت الكاذب المائن. قال: فقمت وما أعرف طريقا. فلما خطرفت الستر لحقني لاحق فقال: احبسوا هذا، وقال للحجاج: ادخل. فدخل، فمكث مليّا من النهار لا أشُك أنهما في أمْري، ثم خرج

(١) خطرف الستر: انسدل.
(٢) الطّغام: أراذل الناس.
(٣) جاثاك: جالسك على ركبتيه.
(٤) اربع: ارفق وتمهّل.
(٥) المين: الكذب.

الآذِنُ فقال: ادخل يا بن طلحة. فلما كُشِف لي الستر لقيني الحجاج وهو خارج وأنا داخل؛ فآعتنقني وقبّل ما بين يعينيّ، وقال: أمّا إذا جزى الله المتواخيَيْن خيراً بفضل تواصلهما، فجزاك الله عني أفضلَ الجزاء؛ فوالله لئَن سَلِمْت لك لأرفعنّ ناظرَك، ولأعْلِيَنَّ كَعبكْ، ولأُتبعنَّ الرجالَ غبارَ قدميك. قال: فقلت: يهزأ بي وحقِّ الكعبة!.

فلما وصلت إلى عبد الملك، أدناني حتى أدناني عن مجلسي الأول؛ ثم قال: يا بن طلحة، لعلّ أحدا شاركك في نصيحتك هذه! قلت: والله يا أمير المؤمنين، ما أعلم أحداً أنصعَ عندي يدا ولا أعظمَ معروفاً من الحجّاج. ولو كنت مّحابيا أحدا لغرضِ دنيا لحابيتُه. ولكني آثرتُ الله ورسوله، وآثرتُك والمؤمنين عليه. قال: قد علمتُ أنك لم تُرِد الدنيا، ولو أردتَها لكانت لك في الحّجاج، ولكن أردتَ الله والدار الآخرة. وقد عزلتُه عن الحرمين لِمَا كرِهْتَ من ولايته عليهما، وأعلمتُه أنك استنزلتني له عِنهما آستقلالا لهما؛ ووليّتهُ العراقين وما هنالك من الأمور التي لا يَدْحضُها إلا مثلهُ، وأعلمته أنك آستدعيتني إلى ولايته عليهما استزادةً له، لألُزمه بذلك من حقّك ما يؤدِّي إليك عني اجرَ نصيحتك. فاخرج معه فإنك غير ذامّ لصحبته فخرجت مع الحجاج وأكرمني أضعاف إكرامه.

وفود رسول المهلب

على الحجاج بقتل الأزارقة

أبو الحسن المدائني قال: لما هَزم المُهَلبُ بن أبي صُفرة قطَرِيَّ بن الفجاءةِ صاحبَ الأزارقة، بعث إلى مالك بن بشير فقال له: إني مُوفِدُك إلى الحجاج فِسرْ فإنما هو رجل مِثلك. وبعث إليه بجائزة، فردّها وقال: إنما الجائزة بعد الاستحقاق. وتَوَجّه. فلما دخل على الحجّاج، قال له: ما آسمك؟ قال: مالك بن بشِير. قال: مُلْكٌ وبشارة. كيف تركتَ المهلّب؟ قال: أدركَ ما أمّل وأمَّن مَن خاف. قال: كيف هو بجُنده؟ قال: والدٌ رؤوف: قال: فكيف جُنْدُه له؟ قال: أولادٌ برَرَة. قال: كيف رضاهم

عنه؟ قال: وسعَهم بالفضل وأقنعهم بالعدل. قال: فكيف تصنعون إذا لقيتُم عدوّكم؟ قال: نلقاهم بجدنا فنطمع فيهم، ويلقونا بجدِّهم فيطمعون فينا. قال: كذلك الحدُّ إذا لقي الحدّ. قال: فما حال قطريّ؟ قال: كادَنا ببعض ما كدناه. قال: فما منَعكم من اتّباعه؟ قال: رأينا المُقامَ من ورَائه خيراً من اتّباعه. قال: فأخبرني عن ولد المهلب. قال: أعباء القتال بالليل، حُماة السَّرح بالنهار. قال: أيُّهم أفضل؟ قال: ذلك إلى أبيهم. قال: لتقُولن. قال: هم كحلقةٍ مضروبة لا يُعرَف طرفاها. قال: أقسمتُ عليك هل رَوّأت[1] في هذا الكلام؟ قال: ما أطلع اللهُ على غيبه أحداً. فقال الحجاج لجلسائه: هذا والله الكلام المطبوع لا الكلام المصنوع.

وفود جرير

على عبد الملك بن مروان

لما مدح جرير بن الخطفي الحجّاج بن يوسف بشعره الذي يقول فيه:

مـنْ سَـدّ مُطّلـعَ النِّفـاق عليكـمُ أمْ مَنْ يَصُولُ كصَـوْلـةِ الحَجّـاجِ

وبشعره الذي يقول فيه:

أمْ مَـنْ يغَـارُ على النّسـاءِ حفِيظَـةً إذ لا يَثِقْــنَ بغَيْــرَةِ الأزْواجِ[2]

وقوله:

دعـا الحَجّـاجُ مِثْـلَ دُعـاءِ نُـوحٍ فأسْمَـع ذا المعـارِجِ فـاسْتجـابَـا

قال له الحجاج: إن الطاقة تعجز عن المكافأة، ولكني مُوفِدُك على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فسِرْ إليه بكتابي هذا فسار إليه؛ ثم استأذنه في الإنشاد فأذن له، فقال:

أتَصْحُو أمْ فُؤادُكَ غَيْرُ صَاحِي

---

(١) روّأت: نظرت فيه وتأمّلت.

(٢) الحفيظة: من الحفاظ عليهن.

قال له عبد الملك: بل فؤادك. فلما انتهى إلى قوله:

تعَزَّتْ أُمُّ حَـزْرَةَ ثمَّ قـالـت: رأيـتَ الوارِديـنَ ذَوي امتِيـاج[1]
ثِقـي بـاللهِ لَيْسَ لـهُ شَـريـكٌ ومِـنْ عِنْـدِ الخَليفَـةِ بـالنَّجـاحِ
سـأشْكُـرُ إنْ رَدَدْتَ إليّ ريشي وأثبَـتَّ القـوادمَ في جَنَـاحِـي[2]
ألَسْتُمْ خيْـرَ مَـنْ ركـبَ المَطـايَـا وأنْـدَى العـالَمينَ بُطُـونَ راحِ

ارتاح عبد الملك، وكان متكئاً فاستوى جالساً، وقال: من مدَحنا منكم فلْيمدحْنا بمثل هذا أو ليسكتْ! ثم قال له: يا جرير، أترى أم حزرة تُرويها مائةُ ناقة من نعمَ كلب؟ قال: إذا لم تُرْوِها يا أمير المؤمنين فلا أرواها الله. فأمر له بمائة ناقة من نعم كلب. كلها سود الحدقة. فقال: يا أمير المؤمنين، إنها أبَّاق[3] ونحن مشايخ وليس بأحدنا فضل عن راحلته، فلو أمرتَ بالرِّعاء. فأمر له بثمانية من الرعاء، وكانت بين يدي عبد الملك صِحاف من فِضة يقرعها بقَضيب في يده، فقال له جرير: والمِحْلَبُ يا أمير المؤمنين، وأشار إلى صَحفة منها؛ فنبذها إليه بالقضيب، قال: خُذها لا نَفعتْكَ! ففي ذلك يقول جرير.

أعْطَـوْا هُنَيْـدَةَ يَحـدُوهـا ثمانيـةٌ ما في عَطائِهِـم مَـنٌّ ولا سَـرَفُ[4]

وفود جرير عن أهل الحجاز

على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

قدم جرير بن الخطفي على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، عن أهل الحجاز، فاستأذنه في الشعر، فقال: مالي وللشعر يا جرير؟ إني لفي شغل عنه! قال يا أمير المؤمنين، إنها رسالة عن أهل الحجاز. قال: فهاتها إذاً. فقال:

---

(١) الامتياج: العطاء والمنفعة.

(٢) القوادم: ريش مقدّمة الجناح التي تساعد الطائر على الطيران.

(٣) أبّاق: هاربة.

(٤) الهنيدة: اسم للمائة من الإبل، أو لما فوقها ودونها، وللمائتين.

كم من ضريرِ أميرَ المؤمنينَ لـدَى ... أهلِ الحجازِ دهاهُ البـؤسُ والضررُ
أصابتِ السَّنَةُ الشَّهْباءُ مـا مَلَكَـتْ ... يمينُـه فَحَنَـاه الجهـدُ والكِبَـرُ[1]
ومن قَطيعِ الحَشا عاشـتْ مُخَبَّـأةً ... ما كانت الشمسُ تلقاها ولا القمـرُ
لما اجتلتْها صُرُوفُ الدهرِ كارِهـةً ... قامت تُنادي بأعْلَى الصوتِ: يا عمرُ!

وفود دكين الراجز

على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

قال دُكين بن رجاء الفُقيمي الراجز: مدحتُ عمرَ بن عبد العزيز وهو والي المدينة، فأمر لي بخمس عشرة ناقة كرائمَ صعابا، فكرهت أن أرمي بها الفجاج فتنتشر عليّ، ولم تَطِبْ نفسي ببيعها، فقدمتْ علينا رُفقةٌ من مصر، فسألتُهم الصُّحبة، فقالوا: إن خرجت الليلة. فقلت: إني لم أودِّع الأمير ولا بدّ من وَداعِه. قالوا: فإن الأمير لا يُحجَبُ عن طارق ليل. فاستأذنت عليه، فأذن لي وعنده شيخان لا أعرفهما. فقال لي: يا دُكين، إن لي نفساً توّاقة، فإن أنا صرت إلى أكثر مما أنا فيه فبعْيِن ما أَرَينَّكَ. قلت له: أشهِدِ لي بذلك أيها الأمير. قال: إني أشهد الله. قلت: ومِن خَلْقِه! قال: هذين الشيخين. قلت لأحدهما: من أنت يرحمك الله أعرِفْك؟ قال: سالم بن عبد الله. فقلت: لقد استسمنتُ الشاهد. وقلت للآخر: من أنت يرحمك الله؟ قال: أبو يحيى مولى الأمير. وكان مُزاحم يُكنى أبا يحيى. قال دُكين: فخرجت بهن إلى بلدي، فرمى الله في أذنابهنّ بالبركة، حتى اتخذتُ منهنّ الضياع والرّباع والغلمان. فإني لبصحراءِ فَلْج[2]، إذا بَريد يركُض إلى الشام، فقلت له: هل من مُغَرِّبَةِ خَبَر؟ قال: مات سليمان بن عبد الملك. قلت: فمن القائم بعده؟ قال: عمر بن عبد العزيز. قال: فأنخت قَلوصي فألقيتُ عليها أداتي وتوجهت عنده؛ فلقيت جريراً في الطريق

---

(١) السنة الشهباء: المجدبة.

(٢) الفلج: النصف.

جائياً من عنده، فقلت: من أين أبا حَزَرة؟ قال: من عند أميرٍ يعطي الفقراء ويمنع الشعراء قلت: فما ترى فإني خرجت إليه؟ قال: عَوِّل عليه في مال ابن السبيل كما فعلت. فانطلقتُ فوجدتهُ قاعداً على كرسيّ في عَرْصة[1] داره، قد أحاط الناس به فلم أجد إليه سبيلا للوصول، فناديتُ بأعلى صوتي:

يـا عَمـرَ الخيراتِ والمكـارِمْ ... وعمـرَ الدَّسـائـعِ العظـائمْ[2]
إني امْـروٌ مـن قَطـنِ بنِ دارِم ... أطلبُ حاجي من أخي مَكـارم
إذ نَنتَجِـي والليـلُ غيرُ نـائم ... في ظلمـة الليـل وليلي عـاتم

عند أبي يحي وعند سالِم

فقام أبو يحي ففرَّج لي، وقال: يا أمير المؤمنين، إن لهذا البدويِّ عندي شهادة عليك. قال: أعرفها، آدْنُ مني يا دكين، أنا كما ذكرتُ لك أن لي نفساً توّاقة، وأن نفسي تاقت إلى أشرف منازل الدنيا، فلما أدركتُها وجدتُها تتوق إلى الآخرة؛ والله ما رزأتُ من أمور الناس شيئاً فأُعطيك منه، وما عِندي إلا ألفا درهم، أعطيك أحدَهما. فأمر لي بألف درهم. فوالله ما رأيت ألفاً كانت أعظمَ بركةً منها.

وفود كثير والأحوص ونصيب

على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

حماد الراوية قال: قال لي كُثير عَزّة: ألا أخبرك عما دعاني إلى ترك الشعر؟ قلت: نعم. قال: شخصتُ أنا والأحوص ونُصيب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وكل واحد منا يُدلُ عليه بسابقةٍ وإخاء قديم، ونحن لا نشك أنْ سيشركنا في خلافته، فلما رُفعت لنا أعلامُ خُناصرة[3]، لَقِينا مسلمة بن عبد الملك، وهو يومئذ

---

(١) عرصة داره: ساحتها.

(٢) الدّسائع: العطايا والأخلاق والمكارم.

(٣) خناصرة: بُليدة من أعمال حلب تحاذي قنصرين نحو البادية.

فتى العرب، فسلّمنا فردّ، ثم قال: أما بلغكم أن إمامكم لا يقبل الشعر؟ قلنا: ما تَوَضَّح إلينا خبر حتى انتهينا إليك. ووَجَمْنا وَجْمة عُرف ذلك فينا. فقال: إن يك ذو دِين بني مروان قد وَلِيّ وخَشِيتم حرمانَه، فإن ذا دُنيانا قد بقي، ولكم عندي ما تُحبون، وما ألبث حتى أرجع إليكم وأمنحكم ما أنتم أهلهُ.

فلما قدم كانت رحالُنا عنده بأكرامِ منزول عليه؛ فأقمنا عنده أربعة أشهر يطلب لنا الإذن هو وغيرهُ، فلا يؤذَن لنا؛ إلى أن قلت في جمعة من تلك الجمع لو أني دنوت من عمر فسمعتُ كلامه فحفظتُه، كان ذلك رأياً. ففعلت، فكان مما حفظتُ من كلامه: «لكل سفر زاد لا محالة، فتزوّدوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعدّ الله له من ثوابه أو عقابه، فترغبوا وترهبوا، ولا يطولَنَّ عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوِّكم في كلام كثير لا أحفظه، ثم قال: «أعوذ بالله أن آمركم بما أنْهَى عنه نفسي، فتخسر صفْقَتي، وتظهر عَيْلتي، وتبدو مَسكنتي، في يومٍ لا ينفع فيه إلا الحق والصدق»! ثم بكى حتى ظننتُ أنه قاضٍ نحبَه، وارتجّ المسجدُ وما حوله بالبكاء، وانصرفتُ إلى صاحبيّ فقلت لهما: خُذا في شَرْجٍ[1] من الشَّعر غير ما كُنا نقول لعُمَرَ وآبائه؛ فإن الرجل آخريٌّ وليس بدنيوي.

إلى أن استأذن لنا مسلمة في يوم جُمعة بعد ما أُذِن للعامة. فلما دخلتُ سلَّمت ثم قلت: يا أمير المؤمنين، طال الثَّواء وقلّت الفائدة، وتحدّث بجفائك إيانا وفودُ العرب. قال: يا كُثَيّر، (إنما الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ والمَساكِين والعَامِلِينَ عَلَيْهَا والمُؤلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وفي الرِّقَابِ والغَارِمِينَ وفي سَبِيل الله وابنِ السَّبِيلِ)[2] أفي وَاحدٍ من هؤلاء أنت؟ قلت: بلى، ابن سبيلٍ منقطَع به، وأنا صاحبك. قال: ألستَ صاحبَ أبي سعيد؟ قلت: بلى، قال: ما أرى ضيفَ أبي سعيد منقطَعا به. قلت: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في الإنشاد؟ قال: نعم، ولا تقل إلا حقا. فقلت:

ولِيـتَ فلم تَشْتُـمْ عليـاً ولم تُخِـفْ   بَـرِيـاً ولم تَقْبـل إشـارةَ مُجْـرِمِ

(١) الشرج: الضرب واللون.   (٢) سورة التوبة الآية ٦٠.

وصَدَّقَتَ بالفعلِ المقَال مع الذي أتيتَ فأمسى راضياً كلُّ مُسْلِمِ
ألا إنما يَكفي الفتى بعدَ زَيغهِ منَ الأوَدِ الباقي ثِقافُ المُقَوِّمِ[1]
وقد لبسَتْ لُبْسَ الهلوك ثيابَها تَراءَى لك الدنيا بكَفٍّ ومِعْصَمِ[2]
وتُومِضُ أحياناً بعْينٍ مريضةٍ وتَبسمُ عن مثْلِ الجُمَانِ المنظَّمِ
فأعرَضْتَ عنها مُشْمَئِزاً كأنّما سَقتْك مَدُوفاً من سَمامٍ وعَلْقَمِ[3]
وقد كُنتَ من أجْبالِها في مُمَنَّعٍ ومن بَحرِها في مُزْبِدِ الموج مُفْعَمِ
وما زلْتَ تَواقاً إلى كلِّ غايةٍ بَلَغْتَ بها أعْلى البناءِ المُقوّمِ
فلما أتاك المُلْكُ عفواً ولم يكن لطالبِ دُنيا بَعدَهُ من تقدُّمِ
تَركْتَ الذي يَفنى وإن كان مُونقاً وآثرْتَ ما يَبقى برأيٍ مُصمِّمِ
وأضْررْتَ بالفاني وشَمَّرْتَ للذي أمامَك في يومٍ من الشرِّ مُظْلمِ
ومالك إذا كنتَ الخليفةَ مانعٌ سوى اللهِ مِن مالٍ رَغيبٍ ولادِمِ
سَما لك هَمٌّ في الفؤادِ مُؤَرِّقٌ بَلَغْتَ به أعلى المعالي بُسلَّمِ
فما بين شرْق الأرضِ والغربِ كُلِّها مُنادٍ يُنادي من فصيحٍ وأعْجَمِ
يقولُ أميرَ المؤمنينَ ظَلَمْتَني بأخذٍ لدينارٍ ولا أخْذِ درهمِ
ولا بَسْطَ كَفٍّ لامرئٍ غيْرِ مُجرمٍ ولا السَّفْكِ منه ظالِماً ملءَ مِحْجَمِ
ولو يَستطيعُ المسلمونَ لقسَّموا لك الشَّطْرُ من أعمارِهِمْ غيْرَ نُدَّمِ
فأربحْ بها مِن صَفْقَةٍ لِمُبايعٍ وأعْظِمْ بها أعظِمْ بها ثم أعظِمِ

قال: فأقبل عليّ وقال: إنك مسئول عما قلت. ثم تقدّم الأحوص فاستأذنه في الإنشاد، فقال: قل، ولا تقل إلا حقّا. فقال:

وما الشِّعرُ إلا حكمةٌ من مُؤلِّفٍ بمنطِقِ حَقٍّ أو بمنطِقِ باطلِ
فلا تقبلَنْ إلاّ الذي وافقَ الرِّضا ولا ترْجعنّا كالنّساءِ الأراملِ
رأيناكَ لم تَعدِلْ عنِ الحقّ مَمنَةً ولا شَأمَةً فعلَ الظَّلومِ المخاتِلِ[4]

(١) الزيغ: الضلال، والأود: الاعوجاج. (٢) الهلوك: البغي.
(٣) مدوفاً: ممزوجاً. (٤) شأمة: يسرةً، والمخاتل، الغادر.

ولكن أَخَذْتَ الحقَّ جُهْدَكَ كلَّه تَقُدُّ مثال الصالحين الأوائلِ
فقلْنا ولم نُكذَبْ بما قد بدا لنا ومَن ذا يَرُدُّ الحقَّ مِن قول قائلِ
ومَن ذا يَرُدُّ السَّهْمَ بعدَ مَضائِه على فُوقِه إذ عارَ مِن نَزْعِ نابلِ (١)
ولولا الذي قد عَوَّدَتْنا خلائفٌ غَطاريفُ كانوا كاللُّيوثِ البواسلِ
لمَا وخَدَتْ شَهراً بِرَحْلي شِمِلَّةٌ تَقُدُّ مِتانَ البيدِ بينَ الرَّواحِلِ (٢)
ولكن رَجَوْنا منك مثلَ الذي به حُبينا زَماناً مِن ذَويك الأوائلِ
فإن لم يكن للشِّعْرِ عندَكَ موْضعٌ وإن كان مثلَ الدُّرِّ في نَظْمِ قائلِ
وكان مُصيباً صادقا لا يَعيبه سوى أنه يُبنَى بِناءَ المنازلِ
فإنّ لنا قُرْبى ومَحْضَ مَودَّةٍ وميراثَ آباءٍ مشَوْا بالمَناصِلِ
فذَادُوا عدوّ السلْمِ عنْ عُقْرِ دارهم وأرْسَوْا عمودَ الدينِ بعدَ التَّمايُلِ
وقبلَكَ ما أعطَى الهنيدة جلَّةً على الشعرِ كَعْباً مِن سَديس وبازِلِ (٣)
رسولُ الإلهِ المُسْتضاءُ بنورِهِ عليه سَلامٌ بالضُّحَى والأصائلِ

فقال: إنك مسئول عما قلت. ثم تقدم نصيب فاستأذنه في الإنشاد؛ فلم يأذن له، وأمره بالغزو إلى دابق. فخرج إليها وهو محموم. وأمر لي بثلثمائة، وللأحوص بمثلها، ولنُصيب بمائة وخمسين.

وفود الشعراء على عمر بن عبد العزيز

رضي الله عنه

ابن الكَلْبي: لما استُخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد إلى الخلفاء قبله؛ فأقاموا ببابه أياماً لا يأذن لهم بالدخول، حتى قدم عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود على عمر بن عبد العزيز، وعليه عمامة قد أرخى طرفيها، وكانت له منه مكانة، فقال جرير:

(١) عار السهم: لم يعرف راميه ومن أين أتى.
(٢) وخدت: أسرعت، وشمّلة: الناقة السريعة.
(٣) السديس: ما دخل في السنّة الثامنة والبازل: الذي فطر نابه وانشق وذلك في السنّة التاسعة.

يـأيها الرَّجُـلُ المُرْخـي عمامتـه   هذا زمـانُـكَ إنيّ قـد مَضى زَمَني
أَبْلِـغ خَلِيفتَنـا إن كنـتَ لاقِيَـهُ   أني لَدي الباب كالمَصفودِ في قَـرَنِ[1]
وحْش المكانةِ من أهلي ومن ولَـدي   نائي المحَلَّةِ عن داري وعـن وطني

قال: نعم أبا حَزْرة ونُعْمَى عين. فلما دخل على عمر قال: يا أمير المؤمنين، إن الشعراء ببابك؛ وأقوالهم باقية؛ وسنانهم مسنونة. قال: يا عون، مالي وللشعراء؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن النبي ﷺ قد مُدح وأعطى، وفيه أُسوة لكل مُسلم. قال: ومن مدَحه؟ قال: عباس بن مرداس؛ فكساه حُلَّة قَطَع بها لسانه. قال: وتَرْوي قوله؟ قلتُ: نعم:

رأيتُـك يـا خَيْـرَ البَـرِيَّـة كلِّهـا   نَشَرْتَ كتـابـاً جـاءَ بـالحقِّ مُعْلِما
ونَوَّرْت بالبرهانِ أمـراً مُـدَمَّسـاً   وأطفأتَ بالبرهانِ ناراً مُضَرَّمـا[2]
فَمَـنْ مُبلـغٌ عنيّ النبيَّ مُحمـداً   كلُّ امـرىءٍ يُجـزي بما قـد تَكلما
تعالَى عُلـواً فَـوْقَ عَـرشِ إلهُنـا   وكـان مكـانُ اللهِ أعْلى وأعْظَما

قال: صدقت؛ فمن بالباب منهم؟ قال: ابن عمك عمر بن أبي ربيعة. قال: لا قرَّب الله قرابته، ولا حيّا وجهه! أليس هو القائل؟

ألا ليت أنِّي يـومَ حـانـتْ منِيَّتي   شَمِمْتُ الذي ما بين عينيكِ والفَـم
وليت طَهوري كـان رِيقَـكِ كلّـه   وليت حَنوطي من مُشَاشِكِ والدم[3]
ويا ليت سَلْمى في القبـورِ ضَجيعتي   هنـالِـكَ أو في جنـةٍ أو جهنّـم

فليته والله تمنى لقاءها في الدنيا، ويعمل عملا صالحا. والله لا دخل عليّ أبداً فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: جميل بن معمر العذري. قال: هو الذي يقول:

ألا لَيْتنـا نَحْيـا جميعـاً وإنْ نَمُـتْ   يُوافي لدَى المَوْتَى ضريحي ضريحُهـا

(١) المصفود في قرن: المقيّد بالقيود.
(٢) مدمّساً: مظلماً ومضرَّماً: موقداً.
(٣) الحنوط: ما يحنّط به الميت والمشاشة: رأس العظم اللين الذي يمكن مضغُه.

فما أنا في طـول الحيـاةِ بـراغِـبٍ   إذا قيل قد سُوِّى عليها صفيحُهـا
أظَـلُّ نَهـارِي لا أراهـا ويَلْتَقـي   مع الليلِ رَوحي في المنامِ ورَوحَها

آعزُب به؛ فوالله لا دَخَل عليّ أبدا. فَمَنْ غير مَنْ ذكرْت؟ قلت: كُثير عزة.
قال: هو الذي يقول:

رُهبان مَـدْيَـن والذيـن عَهـدْتُهُـمْ   يبكون من حـذَرِ العـذابِ قُعـودَا
لو يسمعون كما سمعـتُ حـديثهـا   خَـرُّوا لِعَـزَّةَ .راكعين سُجُـودَا

آعزُبْ به. فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: الأحوص الأنصاري. قال: أبْعَده الله ومحقَه، أليس هو القائل وقد أفسد على رجلٍ من أهل المدينة جاريةً هرب بها منه:

اللهُ بيني وبين سيـدِهـا   يَفـرُّ عني بها وأتَّبِـعُ

آعزب به. فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: همام بن غالب الفرزدق. قال: أليس هو القائل يفخر بالزنا:

هُما دَلَّتـاني مـن ثمانينْ قـامـةً   كما انْقَضَّ بازٍ أقْتمُ الرِّيشِ كاسِـرُهْ
فلما استوتْ رِجلايَ في الارضِ قالَتا   أحَـيٌّ يُـرَجَّـى أم قتيـلٌ نُحَـاذِرُهْ
وأصبحْتُ في القوم الجلوسِ وأصبحت   مُغلَّقـةً دوني عليهـا دَسـاكـرُهْ(١)
فقلتُ ارْفعوا الأسبابَ لا يشعُروا بِنـا   ووَلَّيْتُ في أعقـابِ ليـلٍ أُبـادِرُهْ

اعزب به. فوالله لا دَخَلَ عليّ أبدا، فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: الأخطل التغلبي. قال: أليس هو القائل:

فلسـتُ بصـائمٍ عُمـري   ولسـتُ بـآكـلٍ لحمَ الأضاحـي
ولسـت بـزاجـر عَنْسـاً بُكـوراً   إلى بَطْحـاء مكّـة للنَّجـاحِ
ولسـتُ بقـائمٍ كـالعَيْـرِ يـدعـو   قُبَيْـلَ الصبـحِ جـيّ على الفلاحِ
ولكني سـأشربُهـا شَمـولاً   وأسجـدُ عنـد مُنبلَـجِ الصبـاحِ

---

(١) الدّساكر: القرى، أو أبنية يتخذها الملوك يكون فيها الشراب واللهو.

أعزب به. فوالله لا وَطِيء لي بِساطاً أبداً وهو كافر؛ فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: جرير بن الخَطفي. قال: أليس هو القائل:

لـولا مُـراقبـةُ اليعـونِ أرَيْنَنـا ... مُقَـلَ المَهَـا وسَـوالفَ الآرامِ[1]

هـل يَنهَيَنـكَ أنْ قَتَلـنَ مُـرقَّشـاً ... أوْ مـا فَعَلـنَ بِعُـرْوَةَ بن حـزامِ

ذُمَّ المَنـازلَ بَعـدَ منزلـةِ اللَّـوَى ... والعيشَ بعـدَ أُولٰئِـكَ الأقـوامِ

طرَقَتْك صائدةُ القلوبِ وليس ذا ... حينَ الزِّيـارةِ فـارجعِـي بسَلامِ

فإن كان ولا بد فهذا. فأذِن له؛ فخرجتُ إليه فقلت: ادخل أبا حزرة. فدخل وهو يقول:

إنّ الذي بعـــث النبيّ محمداً ... جعـل الخِلافـة في إمـامٍ عـادِلِ

وَسِـعِ الخلائـقَ عَـدْلُـهُ ووفـاؤهُ ... حتى ارْعَوى وأقـام ميـلَ المائـلِ

واللهُ أنـزل في القـرانِ فـريضـةً ... لابنِ السبيـلِ وللفقير العـائـلِ

إني لأرجـو منـكَ خيراً عـاجِلاً ... والنَّفْسُ مـولعَـةٌ بحبِّ العـاجِـلِ

فلما مثل بين يديه قال: اتق الله يا جرير ولا تقُل إلا حقا. فأنشأ يقول:

كم بـاليمامـةِ مـن شعثـاءَ أرمَلـةٍ ... ومن يتيمٍ ضعيفِ الصوتِ والنظرِ

ممن يَعُـدُّكَ تكفـي فَقْـدَ والِدِه ... كالفَرخ في العشِّ لم يَنْهَضْ ولم يَطِرِ

يدعوك دعـوةَ ملهـوفٍ كـأنّ بـه ... خَبْلاً من الجنِّ أو مَساً من النَّشَـرِ[2]

خليفَـةَ اللهِ مـاذا تـأمُـرَنّ بنَـا ... لسْنـا إليكـمُ ولا في دارِ مُنْتَظَـرِ

ما زِلْتُ بعْـدَكَ في هَـمٍ يُـؤرِّقُني ... قد طالَ في الحيِّ إصْعادِي ومُنْحَدري

لا يَنْفَعُ الحاضِرُ المجهُودُ بـادِينَـا ... ولا يعُـودُ لنـا بـادٍ على حضَـرِ

إنّا لنَرْجُو إذا مـا الغيـثُ أخْلَفنـا ... مِنَ الخليفةِ ما نَـرجُـو مِـنَ المطَـرِ

نال الخِلافةَ إذ كـانـتْ لـه قَـدَراً ... كما أتـى ربَّـهُ مـوسى على قـدَرِ

هٰذِي الأراملُ قد قضَّيْتَ حاجَتَهـا ... فمن لِحاجَةِ هذا الأرمَلِ الذَّكَـرِ

---

(١) الآرام: الغزلان.

(٢) الخبل: الفساد والجنون، والمسّ: الجنون.

فقال: يا جرير، والله لقد ولَيت هذا الأمر وما أملك إلا ثلثمائة، فمائة أخذها عبد الله، ومائة أخذتها أُم عبد الله، يا غلام أعطه المائة الباقية.

فقال: والله يا أمير المؤمنين، إنها لأحبّ مال إليّ كسبته. ثم خرج، فقالوا له: ما وراءك؟ قال ما يسوءُكم! خرجتُ من عند أمير يعطِي الفقراء ويَمْنَعُ الشعراء، وإني عنه لراض. ثم أنشأ يقول:

رأيتُ رُقَى الشيطان لا تْستَفِزُّهُ ... وقد كان شيْطانِي من الجنِّ راقيا[1]

وفود نابغة بني جعدة

على ابن الزبير رحمه الله تعالى

الزبير بن بكار قاضي الحرمين، قال: أقحمت السَّنَةُ نابغة بني جعدة، فوفد إلى ابن الزّبير، فدخل عليه في المسجد الحرام، ثم أنشده:

حكيْتَ لنا الصِّدِّيقَ لما وليتَنا ... وعُثمان والفاروقَ فارْتاحَ مُعْدِمُ
وسوّيْت بين الناس في الحقِّ فاسْتَوَوْا ... فعاد صباحاً حالِكُ اللَّوْن مُظْلِمُ
أتاكَ أبو ليْلَى يَجُوبُ به الدُّجَى ... دُجَى الليلِ جوَّابُ الفلاةِ عَثَمْثَمُ[2]
لتَجْبُر مِنْهُ جانِباً زعْزَعَتْ به ... صُرُوفُ الليالي والزّمانُ المُصَمِّمُ

فقال له ابن الزبير: هوِّن عليك أبا ليلى، فالشعر أدنى وسائلك عندنا؛ أما صفوة أموالنا فلآل الزبير، وأما عفْوتُه[3] فإن بني أسد وتيماً تشغلها عنك، ولكنْ لك في مال الله سهمان: سهم برُؤيتك رسولَ الله ﷺ، وسهم بشركتك المسلمين في فيئهم. ثم أخذ بيده ودخل به دار النَّعم، فأعطاه قلائص سبعاً، وجملاً رحيلاً، وأوقر[4] له

(١) الرّقي: كناية عن الشعر، أي كا ينظمه الشعراء من أجل حث الممدوح على العطاء، والرقي: جمع رقية.

(٢) العثمثم: الجمل الشديد.

(٣) عفوة المال: خياره وما صفا منه وكثر.

(٤) أوقر: حمّل وملأ.

الركاب بُرّاً وتمراً وثياباً. فجعل النابغة يستعجل فيأكل الحَبّ صِرْفاً. فقال ابن الزبير: ويح أبي ليلى! لقد بلغ به الجَهد. قال النابغة: أشهدُ لسَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: ما وُلِّيتْ قريش فعدلتْ، واستُرحمت فرحمت، وحدثت فصدقت، ووعدت خيراً فأنجزت، فأنا والنبيون فُرّاطُ القاصفين.

قال الزبير بن بكار: الفارط: الذي يتقدم إلى الماء يصلح الرِّشاء والدِّلاء والقاصف: الذي يتقدم لشراء الطعام.

وفود أهل الكوفة

على ابن الزبير رحمه الله تعالى

قال: لما قتَل مصعبُ بن الزبير المختارَ بن أبي عُبيد، خرج حاجّاً فقدم على أخيه عبد الله بن الزُّبير بمكة ومعه وجوه أهل العراق، فقال له: يا أمير المؤمنين جئتك بوجوه أهل العراق، لم أدع لهم بها نظيراً، لتُعطيهم من هذا المال. قال: جئتَني بعبيد أهل العراق لأعطيهم مال الله. والله لا فعلت. فلما دخلوا عليه وأخذوا مجالسهم، قال لهم: يا أهل الكوفة، ودِدْت والله أن لي بكم من أهل الشام صرْفَ الدينار والدرهم، بل لكل عشرة رجلاً. قال عُبيد الله بن ظبيان: أتدري يا أمير المؤمنين ما مَثلنا ومثلك فيما ذكرت؟ قال: وما ذلك؟ قال: فإن مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام كما قال أعشى بكر من وائل:

عُلِّقْتُها عرَضاً وعُلِّقتْ رجُلاً غيري وعُلِّقَ أُخْرى غيْرَها الرَّجُلُ[1]

أحببناك نحن، وأحببتَ أنت أهلَ الشام، وأحبَّ أهلُ الشام عبدَ الملك.

ثم انصرف القومُ من عنده خائبين. فكاتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا بمصعب بن الزبير.

---

(١) علّق: أحب، والعرض: الزائل الذي لا يدوم وغير الثابت.

وفود رؤبة على أبي مسلم

الأصمعي قال: حدّثنا رؤبة قال: قدمت على أبي مسلم صاحب الدعوة، فأنشدته، فناداني: يا رؤبة، فنوديتُ له من كل مكان: يا رؤبة! فأجبْتُ:

لَبَّيْــكَ إذ دعــوْتني لبَّيْكــا أَحْمَـدُ ربّاً ســاقَني إليْكــا
الحمْدُ والنِّعْمَةُ في يدَيْكا

قال: بل في يَدَي اللهِ عز وجل. قلت: وأنت لما أنعمتَ حُمِدت. ثم استأذنت في الإنشاد فأذن لي، فأنشدته:

ما زال يأتِـي المُلْـكَ مـن أقطـارِهِ وعــنْ يمينــهِ وعــنْ يســاره
مُشَمِّــراً لا يصْطلي بنـــارِهِ حتى أقــرَّ المُلْــكَ في قــرارِهِ

فقال: إنك أتيتنا وقد شفّ[1] المال وآستنفضه الإنفاق، وقد أمرنا لك بجائزة وهي تافهة يسيرة، ومنك العَوْد وعلينا المعوَّل، والدهر أطرقُ مُستتب[2]، فلا تُلق بجنبيك الأسدّة[3].

قال: فقلت: الذي أفادني الأمير من كلامه أحبُّ إليّ من الذي أفادني من ماله.

وفود العتابي على المأمون

الشَّيباني قال: كان كُلثوم العتابي أيام هارون الرشيد في ناحية المأمون، فلما خرج إلى خراسان شيّعه إلى قُومِس حتى وقف على سِنداد كسرى، فلما حاول وداعه قال له المأمون: لا تَدَع زيارتنا إن كان لنا من هذا الأمر شيء. فلما أفضتْ الخلافة إلى المأمون وفد إليه العتابي زائراً، فحُجِب عنه، فتعرَّض ليحيى بن أكثم فقال: أيها القاضي، إن رأيت أن تذكّر بي أمير المؤمنين. فقال له يحيى: ما أنا بالحاجب. قال

(١) شفّ المال: قلّ ونزر.
(٢) الأطرق: الضعيف، والمستتب: الذليل.
(٣) أي لا يضيقن صدرك فتسكت كمت به صمم وبكم.

له: قد علمتُ، ولكنك ذو فضل وذو الفضل مِعْوان. فدخل على المأمون فقال: يا أمير المؤمنين، أجِرْني من العتابي ولسانه فلم يأذن له وشُغِل عنه، فلما رأى العتابي جفاءه قد تمادى. كتب إليه:

ما علَى ذا كُنا افتَرقنا بسنْدا ... دَ ولا هكـذا رأينـا الإخـاءَ
لم أكـن أحْسـبُ الخِلافـةَ يَـزْدا ... دُ بها ذو الصفـاءِ إلا صَفـاءَ
تَضِربُ النـاسَ بـالمُثقَّفَـةِ السُّمْـ ... ـرِ على غَـدْرِهِـمْ وتَنْسى الوفـاءَ

فلما قرأ أبياته دعا به، فلما دنا منه سلَّم بالخلافة ووقف بين يديه، فقال: يا عتابي، بلغتْنا وفاتُك فغمّتْنا، ثم انتهت إلينا وفادتُك فسرَّتنا. فقال: يا أمير المؤمنين، لو قُسم هذا البرُّ على أهل منى وعرفات لوسِعَهم؛ فإنه لا دين إلا بك، ولا دُنيا إلا معك! قال: سل حاجتك. قال: يدُك بالعطية أطلق من لساني بالمسألة فأحسن جائزته. وانصرف.

وفود أبي عثمان المازني على الواثق

أبو عثمان بكر بن محمد قال: وفدت على الواثق، فلما دخلت وسلمت قال:

هل خلّيتَ وراءك أحداً يُهمك أمرُه؟ قلت أُخَيّة لي ربّيتُها فكأنها بنتي. قال: ليت شعري. ما قالت حين فارقتَها؟ قال: أنشدتْني قول الأعشى:

تقـول ابنتي يـوْمَ جَـدّ الرحيـلُ ... أرانـا سَـواءً ومَـن قـد يَتِـمْ
أبـانـا، فلا رِمْـتَ مـن عنـدِنـا ... فـإنـا نخافُ بـأن تُخْتَـرَمْ[1]
أرانـا إذا أَضْمَـرَتْـك البِلا ... دُ نُجْفَـى وتُقْطَـعُ مِنّـا الرَّحِـمْ[2]

قال: ليت شعري، ما قلتَ لها؟ قال: أنشدتها يا أمير المؤمنين قولَ جرير:

ثِقـي بـاللهِ ليس لـه شريـكٌ ... ومـن عنـدِ الخليفـةِ بـالنَّجـاحِ

---

(١) تخترم: تموت. (٢) أضمرتك: غيّبتك.

قال: أتاك النجاح. وأمر له بعشرة آلاف درهم. ثم قال: حدِّثني حديثاً تَرويه عن أبي مهديّة مُستظرَفاً. قلت: يا أمير المؤمنين، حدّثني الأصمعي قال: قال لي أبو مهدية: بلغني أن الأعراب والأعزاب سواءٌ في الهجاء. قلت: نعم. قال: فاقرأ: ﴿الأعرابُ أَشَدُ كُفْراً ونِفاقاً﴾ ولا تقرأ: الأعراب، ولا يغرَّنْكَ العَزَب وإن صام وصلى! فضحك الواثق حتى شغر برجله[1]، وقال: لقد لقي أبو مهدية من العزْبة شراً. وأمر لي بخمسمائة دينار.

الوافدات على معاوية

وفود سودة ابنة عمارة على معاوية

عامر الشعبي قال: وفدت سودةُ بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية على معاوية بن أبي سفيان، فاستأذنت عليه فأذِن لها، فلما دخلت عليه سلّمت عليه، فقال لها: كيف أنتِ يا بنةَ الأشتر؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين. قال لها: أنت القائلة لأخيك:

شَمِّرْ كفعْلِ أبيك يا بن عِمارةٍ ... يومَ الطِّعانِ ومُلتقى الأقرانِ
وانصُر عليّاً والحسيْن ورَهطَه ... واقصِدْ لِهندٍ وابنِها بهَوَانِ
إنّ الإمامَ أخا النبيِّ محمدٍ ... عَلَمُ الهدَى ومنارة الإيمانِ
فقُدِ الجيوشَ وسِرْ أمامَ لوائه ... قُدُماً بأبيَض صارم وسِنانِ

قالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وبُتِر الذنب؛ فدَعْ عنك تَذْكارَ ما قد نُسِي. قال: هيهات، ليس مثلُ مقامِ أخيكِ يُنْسى. قالت: صدقتَ والله يا أمير المؤمنين، ما كان أخي خفيَّ المَقام، ذليلَ المكان، ولكن كما قالت الخنساء:

وإنّ صخراً لَتأْتَمُّ الْهُداةُ بِهِ ... كأنَّه عَلَمٌ في رأسِه نارُ

وبالله أسألُ يا أميرَ المؤمنين إعفائي مما استعفيتُه. قال: قد فعلتُ، فقولي حاجتَك. قالت: يا أمير المؤمنين، إنك للناس سيد، ولأمورِهم مقلّد، والله سائلُك

(١) شغر برجله: رفعها وحرّكها.

عما افترض عليك من حقّنا، ولا تـزال تُقْـدِم علينـا مَـن ينهـض بعـزِّك، ويَبسـط سلطانَك، فيحصدنا حِصادَ السُّنْبل، ويدوسنا دِياس البقر، ويسومنا الخَسيسة، ويسألنا الجليلة؛ هذا ابنُ أرطاةَ قدم بلادي، وقتل رجالي، وأخذ مالي، ولولا الطاعةُ لكان فينا عِزٌّ ومَنَعة، فإما عزلتَه فشكرناك، وإما لا فَعَرَفناك!

فقال معاوية: إياي تُهَدِّدين بقومك؟ والله لقد هممتُ أن أردَّك إليه على قَتَب[1] أشرسَ فينفِّذَ حُكمَه فيك. فسكتت، ثم قالت:

صلّـى الإلـهُ على رُوحٍ تَضَمَّنَـهُ | قبرٌ فأصبحَ فيه العَدْلُ مـدْفـونـا
قد حالَفَ الحقّ لا يَبغِـي بـه ثمنـاً | فصـار بـالحقِّ والإيمانِ مقْـرُونـا

قال: ومَن ذلك؟ قالت: علّي بن أبي طالب رحمه الله تعالى. قال: ما أرى عليك منه أثراً! قالت: بلى، أتيتُه يوماً في رجُل ولاه صدقاتنا فكان بيننا وبينه ما بين الغثّ[2] والسمين، فوجدته قائماً يصلي، فانفتل من الصلاة ثم قال برأفة وتعطّف: ألكِ حاجة؟ فأخبرتُه خبرَ الرجل. فبكى، ثم رفع يديه إلى السماء فقال: اللهم إني لم آمرهم بظُلم خلْقك، ولا تَرْك حقّك. ثم أخرج من جيبه قطعةً من جراب فكتب فيه:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم. قد جاءتكم بينة من ربكم، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تَعْثَوْا في الأرض مفسدين، بقِيةُ اللهِ خَيْرٌ لكُمْ إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ﴾[3]. إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك حتى يأتي من يقبضه منك. والسلام.

فعزله يا أمير المؤمنين. ما خَزَمَه بخِزام[4]، ولا خَتَمه بِختام.

فقال معاوية: اكتبوا لها بالإنصاف لها والعدل عليها. فقالت: أَلِي خاصَّةً أم لقومي عامة؟ قال: وما أنتِ وغيرك؟ قالت: هي والله إذاً الفحشاءُ واللؤم، إن لم

---

(١) القتب: الرحل الصغير على قدر سنام البعير.

(٢) الغثّ: الرديء الفاسد. (٣) سورة هود الآية ٨٥.

(٤) خزمه: شكّه وثقبه، أي أقفله.

يكن عدلاً شاملاً، وإلا يَسَعني ما يَسعُ قومي. قال: هيهات! لَمَّظَكُم[١] ابن أبي طالب الجرأة على السلطان، فبطيئاً ما تُفْطمون، وغركم قوله:

فلو كنت بوّاباً على باب جَنَّةٍ ... لقُلْت لَهَمدانَ ادخُلوا بسَلامِ

وقوله:

ناديْت هَمْدانَ والأبواب مُغْلَقةٌ ... ومثْلُ هَمْدانَ سَنَّى فتحَةَ الباب[٢]
كالْهنْدُوانيّ لم تُفلَلْ مضارِبُه ... وجهٌ جميلٌ وقلْبٌ غيْرُ وجّابِ[٣]

اكتبوا لها بحاجتها.

وفود بكارة الهلالية على معاوية

محمد بن عبد الله الخُزاعي عن الشَّعبي قال: استأذنت بكارةُ الهِلاليةُ على معاوية بن أبي سفيان، فأذن لها، وهو يومئذ بالمدينة، فدخلت عليه، وكانت امرأة قد أسَنَّتْ وعَشي[٤] بصرُها وضعُفت قُوتها، تَرْعَش بين خادمين لها؛ فسلّمت وجلست. فردّ عليها معاوية السلام، وقال: كيف أنت يا خالة؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين. قال: غيّرك الدهر! قالت. كذلك هو ذو غِيَر، من عاش كبِر ومن مات قُبِر. قال عمرو ابن العاص: هي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

يا زيدُ دونكَ فاستشر[٥] مِنْ دارنا ... سيفاً حُساماً في التُّرابِ دفينا
قد كنتُ أذْخَرُهُ لِيَوْم كَريهةٍ ... فاليومَ أبرَزَهُ الزمان مَصونا

قال مروان: وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

أتُرى ابن هنْدٍ للخلافةِ مالِكاً ... هيهات ذاكَ وإنْ أرادَ بَعيدُ

---

(١) لمظكم: ذوّقكم، وعوّدكم وعلّمكم.
(٢) سنّى: سهّل.
(٣) الهندواني: السيف، ووجّاب: خائفٍ متهيّب.
(٤) عشى بصرها: ضعف.
(٥) في بعض الأصول: «فاحتفر».

مَنَّتْـكَ نفسُـكَ في الخلاءِ ضلالـةً   أغْـراك عمـرو للشَّقـا وسعيـدٌ

قال سعيد بن العاصي: هي والله القائلة:

قد كنتُ أَطْمَعُ أنْ أموتَ ولا أرَى   فوقَ المنـابـرِ مِـنْ أُمَيَّـة خـاطِبـا
فـاللهُ أخّـرَ مُـدّتي فتطـاولـتْ   حتى رأيتُ مِـنَ الزمـانِ عجـائبـا
في كلِّ يـومٍ للـزمـانِ خَطِيبُهُـمْ   بينَ الجميعِ لآلِ أحمدَ عـائبـا

ثم سكتوا. فقالت: يا معاوية، كلامك أعشى بصري وقصَّر حُجَّتي، أنا والله قائلة ما قالوا، وما خَفِي عليك مني أكثر. فضحك وقال: ليس يمنعنا ذلك من بِرِّك. اذكري حاجتك قالت: أمَّا الآن فلا.

وفود الزرقاء على معاوية

عبيد الله بن عمرو الغسّاني عن الشَّعبي قال: حدّثني جماعة من بني أُمية ممن كان يسْمُر مع معاوية قالوا: بينما معاوية ذات ليلة مع عمرٍو وسَعيد وعُتبة والوليد، إذ ذكروا الزرقاء ٱبنة عدي بن غالب بن قيس الهمدانية، وكانت شَهِدت مع قومها صِفِّين، فقال: أيُّكم يحفظ كلامَها؟ قال بعضهم: نحن نحفظه يا أمير المؤمنين. قال: فأشيروا عليّ في أمرها. فقال بعضهم: نشير عليك بقتلها. قال: بئس الرأي أشرْتُم به عَلَيّ؛ أيَحسُنُ بمثلي أن يُتحدَّثَ عنه أنه قَتل ٱمرأةً بعد ما ظَفِر بها.

فكتب إلى عامله بالكوفة أن يُوفدها إليه مع ثقة من ذوي محارمِها وعِدّةٍ من فُرسان قومها، وأن يُمهّد لها وطاءً لينا، ويسترَها بستر خَصِيف[1]، ويُوسِّع لها في النفقة؛ فأرسل إليها عامله فأقرأها الكتاب، فقالت: إن كان أمير المؤمنين جعل الخيارَ إليّ فإني لا آتيه، وإن كان حَتَم فالطاعة أوْلى. فحمَلها وأحسنَ جهازَها على ما أُمر به.

---

(١) الخصيف: الغليظ.

فلما دخلت على معاوية قال: مرحباً وأهلاً، قدمتِ خيرَ مَقْدَمٍ قَدِمَه وافد! كيف حالك؟

قالت: بخير يا أمير المؤمنين، أدام الله لك النعمة.

قال: كيف كنتِ في مَسيرِك؟ قالت: ربيبةَ بيت أو طفلاً مُمهداً.

قال: بذلك أمرناهم، أتدرين فيم بعثتُ إليك؟ قالت: أنى لي بعلم ما لم أعلم. قال: ألستِ الراكبةَ الجملَ الأحمر، والواقفة بين الصفَّين يوم صفين تَحُضِّين على القتال وتوقدين الحرب؟ فما حَمَلَك على ذلك؟

قالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وبُتِر الذنب، ولم يَعُدْ ما ذَهَب، والدهر ذو غِيَر، ومن تَفكر أبصر، والأمر يَحْدُث بعده الأمر.

قال لها معاوية: صدقت، أتحفظين كلامك يومئذ؟

قالت: لا والله لا أحفظه، ولقد أُنْسِيتُه.

قال: لكني أحفظه، لله أبوك حين تقولين: أيها الناس، ارْعَوُوا وارجعوا، إنكم قد أصبحتم في فتنة غَشَّتْكم[1] جلابيبَ الظُّلَم، وجارتْ بكم عن قصد المَحَجَّة، فيالها فتنةً عمياءَ، صمّاء بكماء، لا تَسمع لناعقِها، ولا تنساق لقائِدها، إن المصباح لا يُضيء في الشمس، ولا تُنير الكواكب مع القمر، ولا يقطع الحديدَ إلا الحديد، ألا مَن استرشدَنا أرشدناه، ومن سألَنا أخبرْناه. أيها الناس، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها، فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار على الغُصَص، فكأنْ قد اندملَ شَعْبُ الشّتات[2]، والتأمت كلمةُ العدل، ودمَغَ الحقُّ باطله؛ فلا يجهلنَّ أحدٌ فيقول: كيف العدل وأنّى؟ ليَقْضِ الله أمراً كان مفعولاً. ألاَ وإنّ خضابَ النساءِ الحِنّاء، وخضابَ الرجال الدماء، ولهذا اليوم ما بعده:

والصبرُ خيرٌ في الأمورِ عواقباً

---

(١) غشّتكم: ألبستكم. (٢) الشتات: الفرقة.

إيهاً في الحرب قُدُماً غير ناكصين[1] ولا متشاكسين.

ثم قال لها: والله يا زرقاء لقد شَركت عليا في كل دمٍ سَفكَهُ.

قالت: أَحسنَ اللهُ بشارتَك، وأدام سلامتَك؛ فمثلُك بَشَّر بخيرٍ وسَرَّ جليسَه.

قال أو يَسُرُّك ذلك؟ قالت: نعم والله، لقد سُررت بالخبر فأنّي لي بتصديق الفعل.

فضحك معاوية وقال: والله لَوَفاؤكم له بعد موته أعجبُ من حُبكم له في حياته. اذكري حاجتك.

قالت يا أمير المؤمنين، آليت على نفسي ألاّ أسألَ أميراً أعَنتُ عليه أبداً، ومثلُكَ أَعطى عن غير مسألة، وجاد عن غير طِلْبة.

قال: صدقت! وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكُسا.

وفود أم سنان بنت خيثمة

على معاوية رحمه الله

سعيد بن حُذافة قال: حبَس مروانُ بن الحكم هو والي المدينة غلاماً من بني ليث في جناية جناها، فأتته جدةُ الغلام أمّ أبيه، وهي أم سنان بنت خَيثمة بن خرشة المذحِجية، فكلّمته في الغلام فأغلظ لها مروان. فخرجت إلى معاوية، فدخلت عليه فانتسبت فعرفها، فقال لها: مَرْحبا يا بنة خيثمة، ما أقْدَمك أرضنا وقد عهدتُك تشتميننا وتَحُضّين علينا عدوّنا؟ قالت: إن لبنى عبد مناف أخلاقاً طاهرة وأعلاماً ظاهرة وأحلاماً وافرة، لا يجْهلون بعد علم، ولا يسْفَهون بعد حلم، ولا ينتقمون بعد عفو، وإن أولى الناس باتباع ما سنَّ آباؤه لأنت. قال: صدقت! نحن كذلك، فكيف قولك:

عـزبَ الرُّقـادُ فُمقْلتي لا تَـرقُـدُ ... والليْلُ يصْـدِرُ بـالهُمـومِ ويُـورِدُ

يا آلَ مَـذْحِـجَ لا مُقَـامَ فشَمِّـرُوا ... إنّ العـدُوَّ لآلِ أحْمـدَ يقْصِـد

---

(١) ناكصين: فارِّين هاربين.

هـذا عَلِيٌّ كـالهِلال تَحُفُّـهُ وسطَ السَّماءِ مِنَ الكواكِـبِ أسْعُـدُ
خيْـرُ الخَلائـقِ وابنُ عـمِّ مُحَمَّـدٍ إنْ يَهـدِكم بـالنُّـورِ منـه تهتَـدُوا
ما زالَ مُذْ شَهِـدَ الحُرُوبَ مُظَفَّـراً والنَّصْـرُ فـوْق لِـوَائِـه مـا يفْقَـدُ

قالت: كان ذلك يا أمير المؤمنين، وأرجو أن تكون لنا خلَفا بعده فقال رجل من جلسائه: كيف يا أمير المؤمنين وهي القائلة:

إمّا هَلكْت أبَـا الحُسَيْـن فلم تَـزلْ بـالحقِّ تُعْـرَفُ هـادِيـاً مهـدِيَّـاً
فاذْهبْ عليْك صلاةُ ربِّك ما دعـتْ فـوقَ الغُصُـونِ حمامـةٌ قُمـرِيَّـا
قد كُنْتَ بعْدَ مُحَمّدٍ خلفـاً كمَـا أوْصَـى إليـكَ بنَـا فكنْـتَ وفيّـا
فـاليـوْمَ لا خَلَـفٌ يُـؤَمَّـلُ بعْـدَهُ هيْهـات نـأمُـلُ بعْـدَهُ إنْسِيَّـا

قالت: يا أمير المؤمنين، لسان نطَق، وقول صدَق؛ ولئن تحقق فيك ما ظننَّا فحظك الأوفر. والله ورَّثك الشَّنَآن[1] في قلوب المسلمين إلاّ هؤلاء. فأدْحِضْ[2] مقالتَهُم، وأبعِد منزلتهم، فإنك إن فعلتَ ذلك تزددْ من الله قُرباً، ومن المؤمنين حُباً. قال: وإنك لتقولين ذلك؟ قالت سبحان الله! والله ما مِثْلُك مُدح بباطل. ولا اعتُذِر إليه بكذب؛ وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضميرِ قلوبنا. كان والله عليٌّ أحبَّ إلينا منك، وأنت أحبُّ إلينا من غيرك. قال: ممن؟ قالت: من مروان بن الحكم وسعيد ابن العاص. قال: وبِمَ استحققْتُ ذلك عندك؟ قالت: بسعَةِ حلمك وكريم عفوك. قال: فإنهما يطمعان في ذلك. قالت: هما والله من الرأي على ما كنتَ عليه لعثمان بن عفان رحمه الله. قال: والله لقد قاربْتِ، فما حاجتك؟

قالت: يا أمير المؤمنين، إن مروان تبنَّكَ[3] بالمدينة تبنُّكَ مَن لا يريد منها البَراح، لا يحكم بعدل، ولا يقضي بسُنّة، يتتبع عثراتِ المسلمين، ويكشف عورات المؤمنين، حبس ابنَ ابني، فأتيته، فقال كيت وكيت فألقَمْتُهُ أخْشَنَ من الحجر،

---

(١) الشنآن: البغض. (٢) أو حض: إدفع وأبعد وسفّه

(٣) تبنّك: أقام.

وألعقته أمرَّ من الصَّاب ثم رجعتُ إلى نفسي باللائمة، وقلت: لِمَ لا أصرف ذلك إلى من هو أولى بالعفو منه؟ فأتيتُك يا أميرَ المؤمنين، لتكون في أمري ناظراً، وعليه مُعْدِياً.

قال: صدقت! لا أسألِك عن ذنبه والقيام بحجته. اكتبوا لها باطلاقه.

قالت: يا أمير المؤمنين؛ وأنَّى لي بالرجعة وقد نفِد زادي، وكلَّت راحلتي؟ فأمر لها براحلة وخمسة آلاف درهم.

وفود عكرشة بنت الأطرش

على معاوية رحمه الله تعالى

أبو بكرُ الهذلي عن عِكرمة قال: دخلت عكرشة بنت الأطرش بن رواحة على معاوية متوكِّئة على عُكاز لها، فسلّمت عليه بالخلافة ثم جلست؛ فقال لها معاوية: الآن يا عكرشةُ صرتُ عندك أميرَ المؤمنين؟ قالت: نعم، إذ لا عليٌّ حيٌّ قال: ألست المقلّدة حمائل السيوف بصِفِّين، وأنت واقفة بين الصّفين تقولين: أيها الناس، عليْكُمْ أنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكم مَنْ ضَلّ إذا اهْتَدَيْتمْ إن الجنةَ لا يرحل عنها من أُوطنَها، ولا يَهرم من سَكنها، ولا يموت من دخلها؛ فابتاعوها بدارِ لا يدوم نعيمُها، ولا تنصرم همومها، وكونوا قوماً مستبصرين في دينهم مستظهرين بالصبر على طلب حقهم؛ إن معاوية دلفَ[1] إليكم بعُجم العرب غُلفِ[2] القلوب، لا يفقهون الإيمان ولا يَدْرُون ما الحِكمة؛ دعاهم بالدنيا فأجابوه، واستدعاهم إلى الباطل فلبّوه، فالله اللهَ عبادَ اللهِ في دين الله؛ إياكم والتواكلَ، فإن ذلك ينقض عُرَى الإسلام، ويطفيءُ نور الحق هذه بَدْرٌ الصغرى، والعقبةُ الأخرى. يا معشر المهاجرين والأنصار، امضوا على بصيرتكم، واصبروا على عزيمتكم، فكأني بكم غداً ولقد لقيتم أهل الشام كالحُمُرِ الناهقة تصْقَع[3] صَقَع البقر، وتَرُوث رَوْثَ العتاق.

(١) دلف إليكم: مشى.

(٢) غلف القلوب: أي على قلوبهم أكفّة لا يفقهون ولا يسمعون.

(٣) تصقع: تخلّف الرائحة الكريهة.

فكأني أراك على عصاك هذه وقد انكفأ عليك العسكران يقولون: هذه عكرشة بنت الأطرش بن رواحة. فإن كدتِ لتقتلين أهل الشام لولا قدَر الله، وكان أمرُ الله قدراً مقدوراً، فما حَمَلك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تسؤكم﴾ [1] وإن اللبيب إذا كره أمراً لا يحب إعادته، قال: صدقت، فاذكري حاجتك. قالت: إنه كانت صدقاتنا تُؤْخذ من أغنيائنا فتردُّ على فقرائنا؛ وإنّا قد فقدنا ذلك، فما يُجْبر لنا كسير؛ ولا يُنْعَش لنا فقير؛ فإن كان ذلك عن رأيك فمثلك تنبَّه من الغفلة وراجع التوبة، وإن كان عن غير رأيك فما مثلك استعان بالخونة ولا استعمل الظّلمة.

قال معاوية: يا هذه، إنه ينُوبُنا من أمور رعيّتنا أمور تنبثق، وبحور تنفهق [2]. قالت: يا سبحان الله. واللهِ ما فرض اللهُ لنا حقاً فجعلَ فيه ضرراً على غيرنا، وهو علام الغيوب.

قال معاوية: يا أهل العراق، نبَّهكم عليٌّ بن أبي طالب فلم تُطاقوا! ثم أمر بردِّ صدقاتهم فيهم وإنصافهم.

قصة دارمية الحَجونية

مع معاوية رحمه الله تعالى

سهل بن أبي سهل التميمي عن أبيه قال: حج معاوية، فسأله عن امرأة من بني كنانة كانت تنزل بالحَجُون، يقال له دارِمية الحجونية؛ وكانت سوداءَ كثيرة اللحم، فأُخبر بسلامتها؛ فبعث إليها فجيء بها؛ فقال: ما حالكِ يا بنةَ حام؟ فقالت: لست لِحَامٍ إن عِبتْني؛ أنا امرأة من بني كِنانة. قال: صدقت. أتدرين لِمَ بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيبَ إلا الله. قال: بعثت إليك لأسألك: علامَ أحببت عَلِياً وأبغضتنِي؛ وواليتهِ وعاديتني؟ قالت: أو تُعفني. قال: لا أعفيك. قالت: أما إذ أبيت، فإني أحببتُ عليّا على عدله في الرعية، وقَسْمه بالسويّة؛ وأبغضتُك على قتال

---

(١) سورة المائدة الآية ١٠١. (٢) تنفهق: تتدفّق وتتفجرّ.

مَن هو أولى منك بالأمر، وطلبتك ما ليس لك بحق. وواليت عليّا على ما عقد له رسولُ الله ﷺ من الولاء، وحبّه المساكين. وإعظامه لأهل الدين. وعاديتك على سفكك الدماء، وجوْرك في القضاء، وحكمك بالهوى.

قال: فلذلك انتفح بَطْنُك، وعظُم ثَدْياك، ورَبتْ عجيزتُك[١]، قالت: يا هذا، بهند واللهِ كان يُضرب المثلُ في ذلك لا بي. قال معاوية: يا هذه ارْبَعي[٢]، فإنا لم نقل إلا خيرا؛ إنه إذا انتفخ بطنُ المرأة تَمَّ خَلْقُ ولدِها، وإذا عظم ثدياها تَرَوَّى رَضيعُها. وإذا عظمت عجيزتها رَزُن مجلسها. فرجعتْ وسكنتْ. قال لها: ويا هذه، هل رأيتِ عليا؟ قالت: إي والله. قال: فيكيف رأيتهِ؟ قال: رأيته والله لم يفتنه الملكُ الذي فتنك، ولم تشغله النعمةُ التي شغلتك. قال: فهل سمعتِ كلامه؟ قالت: نعم والله، فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيتُ صدأ الطَّسْت. قال: صدقتِ! فهل لك من حاجة؟ قالت: أو تفعلُ إذا سألتُك؟ قال: نعم. قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلُها وراعيها. قال: تصنعين بها ماذا؟

قالت: أغذو بألبانها الصغّار، وأستحيي بها الكبار، وأكتسب بها المكارم، وأُصلح بها بين العشائر.

قال: فإن أعطيتك ذلك فهل أحُلُّ عندك محل علي بن أبي طالب؟

قالت: ماءٌ ولا كصَدّاء[٣]، ومرْعَى ولا كالسّعْدان[٤]، وفتًى ولا كمالِك، يا سبحان الله، أوَ دُونَه؟ فأنشأ معاوية يقول:

إذا لم أعُدْ بـالحِلْـمِ منّـي عليكـمُ ... فَمنْ ذا الذي بَعدي يُؤمَّلُ للحِلْـمِ
خُذيها هنيئاً واذكري فِعل ماجـدٍ ... جَزاكِ على حَرْبِ العداوةِ بالسلْمِ

ثم قال: أما والله لو كان عليٌّ حيا ما أعطاك منها شيئا.

قالت: لا والله، ولا وَبَرَةً واحدةً من مال المسلمين.

---

(١) ربت عجيزتك: عظمت وكبرت. (٢) اربعي: تمهّلي وانتظري.

(٣) صدّاء: عينٌ لم يكن عندهم أعذب من مائها.

(٤) السّعدان: نبتٌ ذو شوك، وهو أفضل مراعي الإبل.

وفود أم الخير بنت حريش على معاوية

عُبيد الله بن عمر الغَساني عن الشعبي، قال: كتب معاوية إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أمَّ الخير بنت الحُريش بن سُراقة البارقي برحْلها، وأعلمه أنه مُجازيه بالخير خيرا وبالشر شراً بقولها فيه، فلما ورد عليه كتابهُ ركب إليها فأقرأها كتابَه؛ فقالت: أما أنا فغيرُ زائغة عن طاعة، ولا معتّلة بكذب، ولقد كنت أُحبّ لقاءَ أمير المؤمنين لأمور تَختلج في صدري.

فلما شيّعها وأراد مفارقتها قال لها: يا أُم الخير، إن أمير المؤمنين كتب إليّ أنه مُجازيني بالخير خيراً وبالشر شراً؛ فمالي عندك؟ قالت: يا هذا لا يُطْمِعْنك برُّك بي أن أسُرك بباطل. ولا تُؤيسك معرفتي بك أن أقول فيك غير الحق.

فسارت خيرَ مَسير حتى قدمت على معاوية. فأنزلها مع الحرَم؛ ثم أدخلها في اليوم الرابع وعنده جلساؤه؛ فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال لها: وعليك السلام يا أم الخير، بحقّ ما دعوتِني بهذا الاسم. قالت: يا أمير المؤمنين، مَهْ، فإن بديهة السلطان مَدْحَضَةٌ لما يُحب عِلمه، ولكلٍّ أجل كتاب. قال: صدقتِ! فكيف حالُكِ يا خالة؟ وكيف كنتِ في مَسيرك؟ قالت: لم أزل يا أمير المؤمنين في خيرٍ وعافيةٍ حتى صرتُ إليك؛ فأنا في مجلس أنيق، عند ملك رفيق. قال معاوية: بحُسْن نيتي ظفِرتُ بكم. قالت: يا أمير المؤمنين، يُعيذك الله من دَحْض المقال وما تُرْدِي عاقبتهُ. قال: ليس هذا أردنا. أخبرينا كيف كان كلامُك إذ قُتل عمارُ بن ياسر؟ قالت: لم أكن زَوّرْتُهُ[1] قبل، ولا روّيتهُ بعد؛ وإنما كانت كلمات نَفَثها لساني عند الصدمة؛ فإن أحببتَ أن أُحدث لك مقالا غير ذلك فَعَلْت. فالتفت معاوية إلى جلسائه فقال: أيكم يحفظ كلامَها؟ فقال رجل منهم: أنا أحفظ بعضَ كلامها يا أمير المؤمنين. قال: هات. قال: كأني بها وعليها بُرد زَبيديّ كثيف بين النسيج، وهي على جَمل أرمَك[2] وقد أُحيط حولها، وبيدها سوط منتشر الضفيرة، وهي كالفحل يهدِر في شِقْشِقته[3]، تقول:

---

(١) زوّرته: حسّنته

(٢) الأرمك: رماديّ اللون. (٣) الشقشقة: صوت الجمل.

يا أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم، إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعةِ شَيءٌ عَظِيمٌ! إن الله قد أوضح لكم الحق، وأبانَ الدليل، وبين السبيل، ورفع العَلَمَ، ولم يَدَعْكم في عماء مُدْلَهِمة: فأين تريدون رحِمكم الله؟ أفِراراً عن أمير المؤمنين، أو فِراراً من الزحف، أم رغبة عن الإسلام، أم ارتداداً عن الحق؟ أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول: ﴿ولنَبْلُونَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ المُجاهِدِينَ مِنْكُمْ والصَّابِرِينَ ونَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[1].

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: اللهم قد عيلَ الصبر، وضَعفَ اليقين، وانتشرت الرعبة، وبيدك يا ربّ أزمَّة القلوب، فاجمع اللهم بها الكلمة على التقوى، وألف القلوبَ على الهدى، واردد الحق إلى أهله. هَلُمُّوا رحمكم الله إلى الإمام العادل والرضيّ التقيّ، والصديق الأكبر؛ إنها إحَنٌ بَدْرية، وأحقادٌ جاهلية، وضغائن أُحُدِية وثب بها واثب حين الغفلة، ليدرك ثاراتِ بني عبد شمس.

ثم قالت: ﴿فقاتِلوا أئِمَةَ الكُفْرِ إنَّهُمْ لا أيْمَانَ لَهُمْ لعَلَهُمْ يَنْتَهون﴾[2]. صبراً يا معشرَ المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم، وثبات من دينكم؛ فكأني بكم غداً ولقد لقيتم أهل الشام كحُمُر مستنفِرة، فرَّتْ من قَسْوَرة[3]، لا تَدري أين يُسْلك بها من فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتَروا الضلالة بالهدى وباعوا البصيرةَ بالعَمَى وعما قليلٍ ليُصْبِحُنَّ نادمين، حتى تَحُلَّ بهم الندامة فيطلبون الإقالة، ولات حين مناص. إنه من ضلّ والله عن الحق وَقَع في الباطل. ألا إن أولياء الله استصغروا عمرَ الدنيا فرفَضُوها، واستطابوا الآخرة فسَعوا لها فالله الله أيها الناس، قبل أن تبطلَ الحقوق، وتعطَّلَ الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمةُ الشيطان؛ فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله ﷺ وصهره وأبي سِبْطيه، خُلِق من طينته، وتفرّع من نبعته[4]، وخَصَّه بسرِّه، وجعله باب مدينته، وأعلم بحبه المسلمين، وأبان ببغضه المنافقين؛ ها هو ذا مُفَلق الهام، ومكسِّر الأصنام؛ صلى

(١) سورة محمد الآية ٣١.

(٢) سورة التوبة الآية ١٢.

(٣) القسورة: الأسود.

(٤) النبعة: الأصل والشجرة.

والناس مشركون، وأطاع والناس كارهون، فلم يزل في ذلك حتى قَتل مُبارِزي بدر، وأفنى أهلَ أُحد، وهَزم الأحزاب، وقَتل الله به أهلَ خيبر، وفرّق به جمع هوازن؛ فيالها من وقائع زرعت في قلوبِ نفاقا، ورِدّة وشقاقا، وزادت المؤمنين إيمانا، وقد اجتهدتُ في القول؛ وبالغت في النصيحة، وبالله التوفيق، والسلام عليكم ورحمة الله.

فقال معاوية: يا أم الخير، ما أردتِ بهذا الكلام الا قتلي، ولو قتلتُكِ ما حَرِجْتُ في ذلك.

قالت: والله ما يسوءُني أن يَجْرِيَ قتلي علي يدَيْ من يُسْعِدُني الله بشقائه.

قال: : هيهات يا كثيرةَ الفُضول. ما تقولين في عثمان بن عفان رحمه الله؟

قالت: وما عسيتُ أن أقول في عثمان، استخلفه الناس وهم به راضون، وقتلوه وهم له كارهون.

قال معاوية: يا أم الخير؛ هذا أصلك الذي تَبنين[1].

قالت: لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا؛ ما أردتُ بعثمان نقصا، ولكن كان سابقاً إلى الخير، وإنه لرفيع الدرجة غدا.

قال: فما تقولين في طلحة بن عبيد الله؟ قالت: وما عسى أن أقول في طلحة؟ آغتيلَ من مأمنِه، وأُتِي من حيث لم يحْذَر، وقد وعده رسول الله ﷺ الجنة.

قال: فما تقولين في الزبير؟ قالت: وما أقول في ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريّه، وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، وقد كان سبَّاقا إلى كلِّ مكرمة في الإسلام، وأنا أسألك بحق الله يا معاوية، فإنّ قريشاً تحدّثت أنك أحلمُها: أن تسعني بفضل حلمك، وأن تُعفيني من هذه المسائل، وتسألني عما شئت من غيرها.

قال نعَم ونِعمَة عَيْن، قد أعفيتُك منها. ثم أمر لها بجائزة رفيعة وردّها مكرمة.

(١) في بعض الأصول: هذا ثناؤك الذي تثنين، يريد أن سوء رأيها في عثمان هو الأصل الذي بنت عليه.

وفود أروى بنت عبد المطلب

على معاوية رحمه الله

العباس بن بكار قال: حدّثني عبدالله بن سليمان المَدني وأبو بكر الهُذلي، أن أَرْوَى بنتَ الحارث بن عبد المطلب دخلت على معاوية وهي عجوز كبيرة؛ فلما رآها معاوية قال: مرحباً بك وأهلا يا عمة، فكيف كنتِ بعدنا؟

فقالت: يا بن أخي، لقد كفرتَ يدَ النعمة، وأسأتَ لابن عمك الصحبة، وتسمَّيت بغير آسمك، وأخذتَ غيرَ حقك، مِن غير دين كان منك ولا من آبائك، ولا سابقةٍ في الإسلام، بعد أن كفرتُم برسول الله ﷺ، فأتعسَ اللهُ منكم الجدود[1]، وأضرَعَ[2] منكم الخدود، وردَّ الحقَّ إلى أهله ولو كره المشركون، وكانت كلمتنا هي العليا، ونبينا ﷺ هو المنصور، فوُلِّيتمُ علينا من بعده، تحتجون بقرابتكم من رسول الله ﷺ ونحن أقربُ إليه منكم وأولى بهذا الأمر؛ فكُنا فيكم بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون، وكان علي بن أبي طالب رحمه الله بعد نبينا بمنزلة هارون من موسى، فغايتُنا الجنة وغايتكم النار.

فقال لها عمرو بن العاص: كفَى أيتُها العجوز الضالة، وأقصري عن قولك مع ذهاب عقلك، إذ لا تجوز شهادتك وحدك.

فقالت له وأنت يا بن النباغة[3] تتكلم! وأمك كانت أشهر آمرأة تُغَنى بمكة، وآخَذَهن لأجرة! اربَعْ على ظَلْعِك، واعْنَ بشأن نفسك؛ فوالله ما أنت من قريش في اللباب من حسبها ولا كريم مَنْصِبها؛ ولقد ادعاك خمسةُ نفر من قريش، [كلهم يزعم أنه أبوك] فسئلت أمك عنهم، فقالت: كلهم أتاني، فانظروا أشبهَهُم به فألحِقوه به، فغلب عليك شَبَهُ العاص بن وائل فلحِقْتَ به.

---

(١) الجدود: الخطوط.   (٢) وأضرع: أذلّ.

(٣) النباغة: الزانية.

فقال مروان: كفَى أيتها العجوز، وأقصدي لما جئتِ له. فقالت: وأنت أيضاً يا بن الزرقاء تتكلم!

ثم التفتت إلى معاوية فقالت: والله ما جرّأ عليّ هؤلاء غيرُك، وإن أمك القائلةُ في قتل حمزة:

نحن جَزيْناكم بيوم بدرِ والحرب بعدَ الحربِ ذاتُ سُعْرِ
ما كان لي عن عُتْبةٍ مِن صَبْرِ فشُكرُ وحْشِيٍّ على دَهري
حتى تَرِمّ أعظُمْي في قبري[1]

فأجابتها بنتُ عمي وهي تقول:

خَزيتِ في بدرِ وبعدَ بدرِ يا بنةَ جبّارٍ عظيم الكفر

فقال: معاوية عفا الله عما سلف يا عمة! هاتِ حاجتَك.

قالت: مالي إليك حاجة، وخرجت عنه.

تم الجزء الأوّل بعون الله وتوفيقه
ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء الثاني
وأوّله: «كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك»

---

(١) ترم: تبلى.

فهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع
	للمخــزومــي ـ بين ابن الزبير والأشتر.
١٠٨	ـ جائزة عائشة لمن بشرها بنجـاة ابن الزبير.
١٠٩	ـ من عمر إلى ابن مقرن في الصائفة ـ لعمرو ابن معديكرب.
١١٠	ـ **المكيدة في الحرب.**
	للنبي ﷺ ـ للمهلب ـ لمسلمة ابن عبد الملك ـ بين المأمون والفضـل بن سهل في رأي فات الأمين.
١١١	ـ بين الاسكندر ومؤدبه في مـدينـة فتحها ـ سعيد ابن العاص وحصن فتحـه ـ عمـرو بن العـاص وعلم قيسارية.
١١٢	ـ عمر والهرمزان.
١١٣	ـ معن ونفر من الأسرى ـ ملك من ملوك العجم.
١١٤	ـ وقيعة ملك الهياطلة بيزدجرد.
١١٥	ـ للنبي ﷺ ـ مـالــك الخثعمــي وتسميته بالثعلب.
١١٥	ـ **وصايا أمراء الجيوش.**
	عمر بن عبد العزيز يوصي الجراح ـ لعمر ابن الخطاب.
١١٦	ـ أبـو بكـر يـوصي يـزيـد بن أبي سفيان.
	أبو بكر يوصي خالد بن الوليد ـ من خالد إلى مرازبة فارس.

الصفحة	الموضوع
١١٧	ـ من عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص.
١١٨	ـ عبد الملك يـوصي أميره إلى أرض الروم.
١١٩	ـ زياد يوصي قواده ـ بين الوليد بن عبد الملك وعباد في زياد ـ معاوية وقد أراد استعمال ابن خـالـد ثم الغامدي ـ دريد وابن عوف.
١٢٠	ـ لقتيبة ينصح أصحابه ـ لأبي مسلم ينصح قواده ـ لسعيـد بن زيـد ينصح بنيه ـ المنصور وعيسى ابن موسى.
١٢١	ـ **المحـامـاة عـن العشيرة ومنـع المستجير.**
	لجعيل يصف لعبد الملك قومه.
	لابن مطاع ـ للعرب في الدفاع عن الجار ـ لمروان في معن.
١٢٢	ـ معاوية وهانيء في مال اختانـه ابن شهاب.
١٢٣	ـ مقتل محمد بن أبي بكـر ـ المهـدي ومعن في رجل أهدر دمه.
١٢٤	ـ **الجبن والفرار.**
	لعمرو بن معديكرب في النزعات ـ للأحنف لخالد بن الوليد.
١٢٥	ـ للفــرار السلمــي في الفــرار ـ للحارث بن هشام في الفرار.
١٢٦	ـ لبعض الشعـراء لمحـمـود الوراق ـ

الصفحة الموضوع الصفحة الموضوع

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

العِقدُ الفريد

تأليف

الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي

المتوفى سنة ٣٢٨هـ

بتحقيق

دكتور

مُفيد محمد قميحة

الجزء الثاني

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك

فرش كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك

قال أبو عمر أحمدُ بن محمد بن عبد ربّه:

قد مضى قولُنا في الوفود والوافدات، ومقاماتهم بين يدي نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبين يدي الخلفاء والملوك. ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه وتأييده وتسديده في مُخاطبة الملوك، والتزلّف إليهم بسِحر البيان، الذي يُمازج الرُّوح لطافةً، ويجري مع النفس رقّة. والكلامُ الرقيق مصايدُ القلوب، وإن منه لَمَا يَستَعطف المُستشيطَ[1] غيظاً، والمُندَمِلَ حِقداً، حتى يُطفىءَ جمرةَ غيظهِ، ويَسُل[2] دفائنَ حقدِه. وإن منه لَمَا يستميل قلبَ اللئيم، ويأخذ بسمع الكريم وبصرِه. وقد جعله الله تعالى بينه وبين خلقه وسيلةً نافعة. وشافعاً مقبولاً؛ قال تبارك وتعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدمُ من ربِّه كلِمَاتٍ فتابَ عليهِ إنّهُ هُوَ التّوّابُ الرَّحِيم﴾[3].

وسنذكر في كتابنا هذا إن شاء الله تعالى من تَخلّص من أُنشوطةِ الهلاك، وتَفلّتَ من حبائل المنيّة، بحُسن التنصُّل، ولطيفِ التَّوصُّل، ولِينِ الجواب، ورقيق الاَستعتاب؛ حتى عادت سيئاتُه حسنات، وعِيضَ بالثواب بدلاً من العقاب وحِفظ هذا الباب أوْجَبُ على الإنسان من حِفظ عرضه، وألزمُ له من قوام بدنه.

---

(١) المستشيط غيظاً: الذي ازدادت حدّة غضبه.

(٢) يسُل: ينزع ويستل.   (٣) سورة البقرة الآية ٣٧.

البيان

كنه البيان:

كلُّ شيءٍ كشَف لك قناع المعنى الخفي حتى يتأدّى إلى الفهم ويتقبّله العقل، فذلك البيانُ الذي ذكره الله في كتابه، ومنّ به على عباده؛ فقال تعالى:

﴿الرَّحْمٰنُ عَلَّم القُرْآنَ. خلَقَ الإنسَانَ علَّمهُ البيَانَ﴾[1].

وسئل النبي ﷺ: فيم الجمال؟ فقال «في اللسان». يريد البيان.

وقال ﷺ: «إنّ من البيان لسحراً».

وقالت العرب: أنفذُ من الرَّمِيّةِ كلمة فصيحة.

وقال الراجز:

لقدْ خَشيتُ أَنْ تكونَ ساحِرًا راوِيَةً مَرّاً ومَرّاً شاعِرًا[2]

وقال سهل بن هارون: العقل رائد الروح؛ والعِلم رائد العقل، والبيان تَرجمان العلم.

وقالوا: البيان بصر والعِيُّ عَمَى، كما أنّ العِلم بصَر والجهل عَمى؛ والبيان من نِتاج العلم. والعِيّ من نتاج الجهل.

وقالوا: ليس لمنقوص البيان بهاء. ولو حَكَّ بيافوخِه[3] عَنانَ السماء.

وقال صاحب المنطق: حدُّ الإنسان: الحيُّ الناطقُ المُبين.

وقال: الروح عماد البدن، والعِلم عماد الروح، والبيان عماد العِلم.

تبجيل الملوك وتعظيمهم

قال النبيّ ﷺ: «إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه».

---

(١) سورة الرحمن الآية ١ ـ ٤.

(٢) مرّاً: يعني مرّة. (٣) اليافوخ: عظام أعلى الرأس.

وقالت العلماء: لا يُؤَمّ ذو سلطان في سلطانه، ولا يُجلس على تكرمته إلا بإذنه.

وقال زياد بن أبيه: لا يُسَلَّمُ على قادم بين يدي أمير المؤمنين.

وقال يحيي بنُ خالد بنِ برمك: مُساءلة الملوك عن حالها من سجيّة النَّوْكى[1]؛ فإذا أردت أن تقول: كيف أصبح الأمير؟ فقل: صَبَّحَ اللهُ الأمير بالنعمة والكرامة. وإذا كان عليلاً فأردتَ أن تسأله عن حاله، فقل: أنزل اللهُ على الأمير الشفاءَ والرحمة؛ فإن الملوك لا تُسْأَل ولا تشمّت ولا تكيّف. وأنشد:

إن الملـوكَ لا يُخـاطبُـونـا ولا إذا مَلُّـوا يعـاتبُـونـا
وفي المقَـالِ لا يُنـازَعُـونـا وفي العُطـاسِ لا يُشَمَّتُـونـا
وفي الخِطـابِ لا يُكيَّفُـونـا يُثْنـى عليْهـم ويُبَجَّلُـونـا
فافْهم وصاتِي لا تكُنْ مجْنونا

ابن صبيح والفضل بن يحى في علته:

اعتلّ الفضلُ بن يحيي، فكان إسماعيل بن صبيح الكاتب إذا أتاه عائداً لم يزد على السلام عليه والدّعاء له، ويخفّف في الجلوس، ثم يلْقَى حاجبَه فيسأله عن حاله ومأكله ومشربه ونومه. وكان غيره يُطيل الجلوس. فلما أفاق من علَّته قال: ما عادني في علّتي هذه إلا إسماعيل بن صبيح.

بين معاوية وأصحابه:

وقال أصحاب معاوية له: إنّا ربما جَلسنا عندك فوق مقدارِ شهوتك، فنريد أن تجعل لنا علامة نعرف بها ذلك فقال: علامةُ ذلك أن أقول: إذا شئتم

وقيل ذلك ليزيد، فقال: إذا قلت: على بركة الله.

وقيل ذلك لعبد الملك بن مروان، فقال: إذا وضعتُ الخيزرانة في يدي.

---

(١) النّوكى: الحمقى والجهلة.

في خدمة الملوك:

ومن تمام خدمة الملوك أن يُقرِّب الخادمُ إليه نَعْلَيْه ولا يدعه يمشي إليهما، ويجعل النعلَ اليمنى مُقابلة الرجل اليمنى، واليُسرى مقابلة اليسرى، وإذا رأى مُتّكأ يحتاج إلى إصلاح أصلحه قبل أن يُؤْمَر؛ فلا ينتظر في ذلك أمرَه؛ ويتفقّد الدواة قبل أن يأمره، وينفُض عنها الغُبار إذا قرّبها إليه. وإن رأى بين يديه قِرطاساً قد تباعد عنه قرّبه ووضعه بين يديه على كسْره.

الحجاج والشعبي:

ودخل الشعبي على الحجاج، فقال له: كم عطاءَك؟ قال: ألفين. قال: ويحك! كم عطاؤك؟ قال: ألفان. قال: فلِمَ لحنتَ فيما لا يَلحن فيه مثلُك؟ قال: لَحَنَ الأميرُ فلحنت، وأعربَ الأمير فأعرْبت؛ ولم أكن ليلحَنَ الأميرُ فأُعرِبَ أنا عليه، فأكون كالمُقرِّع[1] له بلحنِه، والمُستطيلِ عليه بفضل القول قبله! فأعجبه ذلك منه ووهبه مالاً.

قُبلة اليد

عبد الرحمن بن أبي ليلى عند عبد الله بن عمر، قال: كنا نقبِّل يد النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن حديث وكيع بن سفيان، قال: قبَّل أبو عبيدة يدَ عمر بن الخطاب.

ومن حديث الشَّعبي قال: لقي النبي عليه الصلاةُ والسلام جعفر بن أبي طالب فالتزمه وقبّل ما بين عينيه.

قال إياس بن دَغْفِل: رأيت أبا نضرة يقبِّل خدّ الحسين.

الشيباني عن أبي الحسن عن مُصعب قال: رأيتُ رجلاً دخل على عليِّ بن الحسين في المسجد فقبّل يدَه ووضعها على عينيه؛ فلم يَنْهَهُ.

---

(١) المقرِّع: المعنّف.

العتبي قال: دخل رجل على عبد الملك بن مروان فقبّل يده، وقال: يدُك يا أمير المؤمنين أحقُّ يدٍ بالتقبيل، لِعُلوِّها في المكارم، وطُهرِها من المآثم؛ وأنك تُقِلُّ التَّثريب(١)، وتصفح عن الذنوب؛ فمن أراد بك سوءاً جعله الله حَصِيدَ سيفِك، وطريد خوفِك.

بين المنصور وأبي بكر الهجري:

الأصمعي قال: دخل أبو بكر الهجريّ على المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين، نَغَض(٢) فمي، وأنتم أهل البيت بركة، فلو أذنت فقبلت رأسك، لعل الله يُمسك عليّ ما بقي من أسناني. قال: اختر بينها وبين الجائزة. فقال: يا أمير المؤمنين، أيسر عليّ من ذهاب الجائزة ألاّ تبقى في فمي حاكّة. فضحك المنصور وأمر له بجائزة.

بين سليمان وجعفر بن يحيي:

ودخل جعفر بن يحيي في زيّ العامة وكتمان النباهة على سُليمان صاحب بيت الحِكْمة، ومعه ثمامة بن أشرس، فقال ثمامة: هذا أبو الفضل. فنَهض إليه سليمان فقبّل يده وقال له: بأبي أنت، ما دَعَاك إلى أن تحَمِّل عبدك هذه المِنّة التي لا أقوم بشكرها، ولا أقدر أن أُكافِيء عليها.

عبد الله بن عباس وزيد بن ثابت:

الشَّعبي قال: ركب زيدُ بن ثابت، فأخذ عبدُ الله بن عبّاس بركابه، فقال له: لا تَفعل يا بن عمّ رسول الله ﷺ. قال: هكذا أُمِرْنا أن نَفعل بعُلمائنا. قال له زيد: أرِني يَدك. فأخرج إليه يده، فأخذها وقبّلها، وقال: هكذا أمَرَنا رسولُ الله ﷺ أن نفعل بأهل بيتِ نبيّنا.

---

(١) التثريب: اللوم. (٢) نغض فمي: تحرّكت أسنانه وقلقت.

أنواع القبل:

وقالوا قُبلة الإمام في اليد، وقُبلة الأب في الرأس، وقبلة الأخ في الخدّ، وقبلة الأخت في الصدر، وقبلة الزوجة في الفم.

من كره من الملوك تقبيل اليد

هشام ورجل قبل يده:

العُتبي قال: دخل رجل على هشام بن عبد الملك فقبّل يده، فقال أفٍّ له، إن العرب قبّلت الأيدي إلا هُلوعا[1]، ولا فعلته العجمُ إلا خُضوعاً.

واستأذن رجلٌ المأمونَ في تقبيل يده، فقال له: إنّ قبلة اليد من المسلم ذِلّة، ومن الذِّمّيِّ خَديعة؛ ولا حاجة بك أن تذِلّ، ولا بنا أن نُخْدَع.

بين المهدي وأبي دلامة في مثله:

واستأذن أبو دلامة الشاعرُ المهديَّ في تقبيل يده، فقال: أمّا هذه فدَعها قال: ما مَنَعْت عيالي شيئاً أيسرَ فقداً عليهم من هذه.

حسن التوقيع في مخاطبة الملوك

قال هارون الرشيد لمعن بن زائدة: كيف زمانك يا مَعْن؟ قال: يا أمير المؤمنين، أنت الزمان؛ فإن صَلُحْتَ صلُح الزمان، وإن فسدت فسدَ الزمان.

بين الرشيد وابن سلم في مثله:

وهذا نظيرِ قول سعيد بن سَلْم، وقد قال له أميرُ المؤمنين الرشيد: مَنْ بيتُ قيسٍ في الجاهلية؟ قال: يا أمير المؤمنين، بنو فَزارة. قال: فمَنْ بيتُهم في الإسلام؟ قال: يا أمير المؤمنين، الشريفُ من شرّفتموه. قال: صدقت! أنتَ وقومُك.

---

(١) الهلوع: الخوف.

ودخل معن بن زائدة على أبي جعفر، فقال له كَبرتَ يا معن. قال: في طاعتك يا أمير المؤمنين. قال: وإنك لجَلْد! قال: على أعدائك يا أمير المؤمنين. قال: وإنّ فيك لبقِيّة. قال هي لك يا أمير المؤمنين. قال: أي الدولتين أحبُ إليك أو أبغض، أدولتُنا أم دولة بني أمية؟ قال: ذلك إليك يا أمير المؤمنين، إن زاد برك على برهم كانت دولتك أحبَّ إليّ، وإن زاد برهم على برك كانت دولتُهم أحبَّ إليّ. قال: صدقت.

قال هارون الرشيد لعبد الملك بن صالح، أهذا منزلُك؟ قال: هو لأمير المؤمنين وَلِي به. قال: كيف ماؤه؟ قال: أطيبُ ماء. قال: فكيف هواؤه؟ قال: أصحّ هواء.

قال أبو جعفر المنصور لجرير بن يزيد: إني أردتُك لأمر. قال: يا أمير المؤمنين قد أعدّ الله لك مني قلباً معقوداً بطاعتك، ورأياً موصولاً بنصيحتك، وسيفاً مشهوراً على عدُوِّك؛ فإذا شئتَ فقل.

وقال المأمون لطاهر بن الحُسين: صِفْ لي آبنك عبد الله. قال: يا أمير المؤمنين إن مدحتُه عِبتُه، وإن ذممتُه آغتبتُه، ولكنه قِدْحٌ[1] في كفّ مُثقّف ليوم نِضال في خدمة أمير المؤمنين.

وأمر بعضُ الخلفاء رجلاً بأمر؛ فقال: أنا أطْوَعُ لك من الرِّداء، وأذلُّ لك من الحِذاء.

وقال آخر: أنا أطوع لك من يدك، وأذلُّ لك من نعلك.

وهذا قاله الحسن بن وهب لمحمد بن عبد الملك الزيات.

وقال المنصور لُمسلم بن قُتيبة: ما تَرى في قتل أبي مُسلم؟ قال: ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَة إلاّ الله لَفَسَدَتَا﴾[2]. قال: حَسْبُكَ أبا أُمية.

وقال المأمون ليزيد بن مَزيد: ما أكثر الخلفاءَ في ربيعة! قال: بلى، ولكنّ منابرهم الجذوع.

---

(١) قدحَ: زناد يوري النار.

(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٢.

وقال المنصور لإسحاق بن مُسلم: أفرطتَ في وفائك لبني أمية. قال: يا أمير المؤمنين، إنه مَن وَفَى لمن لا يُرْجَى كان لمن يُرجى أوْفَى.

الرشيد وابن صالح:

وقال هارون لعبد الملك بن صالح: صِفْ لي مَنبِج. قال: رقيقةُ الهواء، لينة الوطاء. قال: فصفف لي منزلَك بها. قال: دون منازلِ أهلي، وفوق منازل أهلها. قال: ولِمَ وقدْرك فوق أقدارهم؟ قال: ذلك خُلُق أمير المؤمنين أتأسَّى به، وأقفو أثَره، وأحذو مثالَه.

المأمون وغلام في الديوان:

ودخل المأمون يوماً بيت الديوان، فرأى غلاماً جميلاً على أذنه قلم، فقال: من أنت يا غلام؟ قال: أنا الناشيءُ في دولتك، والمتقلّبُ في نعمتك، والمؤمِّلُ لخدمتِك، الحسنُ بنُ رجاءٍ. قال المأمون: بالإحسان في البديهة تفاضَلت العقول؛ ارفعوا هذا الغلام فوق مرتبته.

المتوكل وابن الجهم في رأس إسحاق بن اسماعيل:

علي بن يحيي قال: إني عند المُتوكل حين دخل عليه الرسول برأس إسحاق بن إسماعيل، فقام علي بن الجهم يخطر[1] بين يدي المتوكل ويقول:

أهلاً وسَهلاً بِـك مِـن رسـول ... جئْتَ بما يَشفِـي مِـنَ الغليـلِ
برأسِ إسْحٰق بْن إسماعيل

فقال المتوكل: قوموا التقطوا هذا الجوهر لئلا يضيع.

ودخل عقّال بن شَبّة على أبي عُبيد الله كاتب المهدي، فقال: يا بن عقّال، لم أرك منذ اليوم! قال: والله إني لألقاك بشَوق، وأغيب عنك بتَوْق[2].

---

(١) يخطر: يتمشى بفخرٍ وزهو. (٢) التوق: حبّ اللقاء واشتياقه.

وقال عبدُ العزيز بن مروان لنُصيب بن ربَاح ـ وكان أسود ـ: يا نصيب هل لك فيما يُثمر المحادثة؟ يريد المُنادمة. فقال: أصلح الله الامير، اللون مُرمَّد، والشعر مُفَلْفَل، ولم أقعد إليك بكريمِ عُنْصر، ولا بحُسن مَنظر، وإنما هو عَقْلي ولساني؛ فإن رأيتَ ألاّ تفرقَ بينهما فافعل.

ولما ودّع المأمونُ الحسنَ بن سهل عند مخرجه من مدينة السلام، قال له: يا أبا محمد، ألك حاجةٌ تعهد إليّ فيها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أن تحفظ عليَّ من قلبك ما لا أستعين على حفظه إلا بك.

وقال سعيد بن مُسلم بن قُتيبة للمأمون: لو لم أشكر الله إلا على حُسن ما أبلاني في أمير المؤمنين من قَصْدِهِ إليّ بحديثه، وإشارتِه إليَّ بطرْفه، لكان ذلك من أعظم ما تُوجبه النِّعمة، وتَفْرِضه الصنيعة. قال المأمون: ذلك والله لأن الأمير يجد عندك من حُسن الإفهام إذا حَدَثت، وحُسْن الفهم إذا حُدِّثت، ما لا يجدُه عند غيرك.

مدح الملوك والتزلف إليهم

في سِيرِ العجم أن أَردشير بنَ يزْدجرد لما آستوثق له أمره، جمع الناس فخطبهم خُطبة حضّهم فيها على الألفة والطاعة، وحذّرهم المعصية ومفارقة الجماعة، وصنّف لهم الناس أربعة أصناف، فخروا له سُجّداً، وتكلم متكلّمُهم، فقال: لا زلتَ أيها الملك مَحْبُوّاً من الله بعز النصر، ودَرَكِ الأمل[1]، ودوام العافية، وتمام النِّعمة، وحُسن المزيد؛ ولا زلت تَتابع لديك المكرُمات، وتشفع إليك الذّمامات، حتى تبلغ الغاية التي يؤمَنُ زوالُها، ولا تَنقطع زهرتُها، في دار القَرار التي أعدّها الله لنُظرائك من أهل الزُّلفى عنده، والحُظْوَة لديه، ولا زال ملكك وسُلطانك باقيين بقاءَ الشمس والقمر، زائدين زيادة البُحور والأنهار، حتى تستوى أقطارُ الأرض كلها في عُلُوِّك عليها، ونَفاذ أمرِك فيها؛ فقد أشرق علينا من ضياء نُورك ما عَمّنا عُمومَ ضياءِ الصبح،

(١) درك الأمل: الحصول عليه، وبلوغه.

ووصل إلينا من عظيم رأفتك ما آتصل بأنفسنا آتصال النسيم: فأصبحتَ قد جمع الله بك الأيادي بعد آفتراقها، وألف بين القلوب بعد تباغُضها، وأذهبَ عنا الإحنَ والحسائك[1] بعد توقّد نيرانها، بفضلك الذي لا يُدْرَك بوصف، ولا يُحَدُّ بنعت.

فقال أردشير: طوبَى للممدوح إذا كان للمدح مُسْتَحِقّاً، وللداعي إذا كان للإجابة أهلاً.

دخل حسّان بن ثابت على الحارث الجفْنِيّ فقال: أنعم صباحاً أيها الملك، السماء غطاؤك، والأرض وطاؤك ووالدي ووالدتي فداؤك. أنَّى يُناوئك المنذر[2]؟ فوالله لَقَذَالُك أحسنُ من وجهه، ولأُمُّكَ أَحْسَنُ من أبيه، ولظِلّك خير من شَخْصِه، ولصمتُك أبلغ من كلامه، ولشِمالُك خيرٌ من يمينه. ثم أنشأ يقول:

ونُبّئتُ أنّ أبا مُنذرٍ ... يُساميك للحدث الأكبر
قذالك أحْسَنُ من وجهِهِ ... وأمُّكَ خيْرٌ من المُنْذِرِ
ويُسرَى يَديْكَ إذا أَعْسَرتْ ... كيُمْنى يديْهِ فلا تَمترِ[3]

ودخل خالد بن عبد الله القَسريّ على عُمر بن عبد العزيز لما وِلِيَ الخلافة، فقال: يا أمير المؤمنين، مَن تكون الخلافة قد زانته فأنتَ قد زنْتها، ومَن تكون شرَّفته فأنتَ قد شرفْتها، وأنت كما قال الشاعر:

وإذا الدُّرُّ زانَ حُسنَ وُجُوهٍ ... كان للدُّرِّ حُسنُ وَجْهِك زَيْنَا

فقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أُعْطِيَ صاحبُكم مَقُولاً ولم يُعْطَ مَعْقولاً.

المأمون ومادح له عند دخوله بغداد:

ذكر ابن أبي طاهر قال: دخل المأمون بغداد، فتلقاه وجوه أهلها، فقال له رجل

---

(١) في بعض الأصول: «الحسائف» وفي بعضها الحسائد. والإحن والحسائك: هي الحزازات والعداوات.
(٢) هو المنذر بن المنذر بن ماء السماء اللخمي.
(٣) تمتري: تشك.

منهم: يا أمير المؤمنين، بارك الله لك في مَقْدَمِك، وزاد في نعمتك، وشكرك عن رعيَّتِك، تَقَدَّمْتَ مَن قَبلك، وأتبعتَ مَن بَعدك، وآيستَ أن يُعايَنَ مِثلُك أما فيما مضى فلا نعرفه، وأما فيما بقي فلا نَرجوه؛ فنحن جميعاً ندعو لك، ونُثني عليك. خَصِبَ لنا جنابك، وعذُبَ شرابُك. وحسنتْ نظرتُك، وكَرُمَتْ مقدرتُك. جَبَرْتَ الفقير[1]، وفَكَكتَ الأسير، فأنت يا أمير المؤمنين كما قال الأول:

ما زلـتَ في البَـذْلِ للنـوال وإطْـ ـــلاقِ لِعـانٍ بِجُـرْمِـه عَلِـقِ[2]
حتى تَمنـــــى البِـــــراءُ أنهمُ عندَكَ أسْرَى في القيْـدِ والحلَـقِ

بين خالد القسري وبعضهم في مثله:

ودخل رجل على خالد بن عبد الله القَسري فقال: أيها الأمير، إنك لتبذلُ ما جَلّ، وتجبرُ ما اعتَلّ، وتُكثِرُ ما قل، ففضلك بديع، ورأيك جميع.

وقال رجل للحسن بن سهل: لقد صرتُ لا أستكثر كثيرك ولا أستقلّ قليلك! قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنك أكثرُ من كثيرك، وأنّ قليلك أكثر من قليل غيرك.

وقال خالد بن صفوان لوالٍ دخل عليه: قدمتَ فأعطيت كُلاًّ بِقِسْطه من نظرك ومجلسك، وصِلاتك وعِداتك، حتى كأنك من كل أحد، أو كأنك لستَ من أحد!

وقال الرشيد لبعض الشعراء: هل أحدثتَ فينا شيئاً؟ قال: يا أمير المؤمنين، المديحُ كلُه دونَ قدرك، والشعرُ فيك فوق قدري، ولكني أستحسن قول العتّابي:

ماذا عسى مادحٌ يُثْنِي عليكَ وقـد ناداكَ في الوحـي تقـديسٌ وتطهيرُ
فُـــــتَّ المَادحَ إلا أنّ ألسُنَنـــــا مُستَنطَقـــاتٌ بما تُخفِـــي الضَّمايرُ

لابن صفوان في مدح رجل:

مدح خالدُ بن صفوان رجلاً فقال: قريعَ المنطق، جَزْلَ الألفاظ، عربيَّ اللسان،

---

(١) جبرت الفقير: قوّيته وأعطيته.

(٢) العاني: الأسير، والجرم: الذنب وعلق: مأخوذ ومحاسب.

قليلَ الحركات، حَسَنَ الإشارات، حُلوَ الشمائل، كثير الطَّلاوة، صَمُوتاً قَئُولاً، يَهنأ الجَرَب، ويداوي الدَّبَر[١]، ويُقِلّ المحزّ، ويُطَبِّق المِفْصَل. لم يكن بالزَّمِر[٢] في مُروءته، ولا بالهَذِر[٣] في مَنْطِقِه، متبوعاً غيرَ تابع.

كأنه علم في رأسه نار[٤]

الرشيد وسهل بن هارون:

دخل سهل بن هارون على الرشيد، فوجده يُضاحك ابنه المأمون، فقال: اللهم زِده من الخيرات، وابْسُطْ له في البركات، حتى يكون كلُّ يوم من أيامه مُوفياً على أمسه، مُقَصِّراً عن غدِه. فقال له الرشيد: يا سهل، مَن روى من الشعر أحسَنه وأجوده، ومن الحديث أصحَّه وأبلغَه، ومن البيان أفصحَه وأوضَحه، إذا رام أن يقول لم يُعجزه؟ قال سهل: يا أمير المؤمنين، ما ظننتُ أحداً تقدَّمني سبقني إلى هذا المعنى. فقال: بل أعشى همدان حيث يقول:

وجدتُكَ أَمْسِ خيرَ بني لُـؤَيٍّ ... وأنتَ اليومَ خيرٌ منكَ أمسِ
وأنتَ غداً تَزيدُ الخيرَ ضِعْفاً ... كذاكَ تزيدُ سادة عبدِ شمسِ

المأمون وسهل ابن هارون:

وكان المأمون قد استثقل سهلَ بن هارون، فدخل عليه يوماً والناس عنده على منازلهم، فتكلم المأمونُ بكلامٍ ذَهَب فيه كل مذهب، فلما فرغ أقبل سهل بن هارون على ذلك الجمع فقال: مالكم تَسمعون ولا تَعُون، وتَفهمون ولا تعجَبون، وتَعجبون ولا تَصِفون؟ أما والله إنه ليقول ويفعل في اليوم القصير مثلَ ما قالت وفعلتْ بنو مروانَ في الدهر الطويل، عَرَبُكم كعَجَمهم، وعجَمُهم كعربِ بني تميم؛ ولكن كيف يَشعر بالدواء مَن لا يعرف الداء؟ قال: فرجع له المأمون إلى رأيه الأول.

---

(١) الدَّبَر: جمع دبرة وهي قرحة الدابة.

(٢) الزَّمر: قليل المروءة. (٣) الهذر: الثرثار الهاذي.

(٤) وصدره: «وإنّ صخراً لتأتمُّ الهداة به» والبيت للخنساء في رثاء أخيها صخر.

الحجاج وزياد العتكي:

وكان الحجاج بن يوسف يستثقل زياد بن عمرو العَتكيّ، فلما أثنى الوفدُ على الحجاج عند عبد الملك بن مروان، قال زياد: يا أمير المؤمنين، إنّ الحجاج سيفُك الذي لا يَنْبُو[1]، وسهمُك الذي لا يَطيش، وخادمُك الذي لا تأخذه فيك لومةُ لائمٍ. فلم يكن بعد ذلك عند الحجاج أحدٌ أخفَّ ولا أحَبَّ إليه منه.

لابن شيبة في صالح بن المنصور:

حدّث الشَّيباني قال: أقام المنصور صالحاً ابنَه فتكلم في أمرٍ فأحسن؛ فقال شبيب ابن شيبة: تالله ما رأيتُ كاليوم أبْيَنَ بياناً، ولا أعرب لساناً، ولا أَرْبَطَ جأشاً، ولا أبَلّ رِيقاً، ولا أحسنَ طريقاً. وحق لمن كان المنصورُ أباه، والمهدي أخاه، أن يكون كما قال زُهير:

هـو الجَوَادُ فـإن يَلْحَـقْ بِشَـأْوِهِما ... على تَكـالِيفِـهِ فَمِثْلُـهُ لَحِقَـا[2]
أوْ يَسْبِقاهُ على ما كان مـن مَهَـلٍ ... فَمِثْل ما قَدَّما مـن صـالـح سَبَقَـا

لابن شيبة في الخلافة:

وخرج شَبيب بن شَيبة من دار الخلافة يوماً، فقيل له: كيف رأيتَ الناس؟ قال: رأيت الداخل راجياً، والخارج راضياً.

لبعض الخلفاء في ابن شيبة:

وقيل لبعض الخلفاء: إن شبيب بن شيبة يستعمل الكلام ويستعدّ له، فلو أمرته يصعد المنبر فجأة لافتضح. قال: فأمر رسولاً فأخذ بيده فصعّده المِنبر: فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ثم قال: ألا إن لأمير المؤمنين أشباهاً أربعة: فمنها الأسد الخادر[3]، والبحر الزاخر، والقمر الباهر، والربيع الناضر؛ فأما الأسد الخادر

---

(١) ينبو: يخيب.

(٢) الشأو: السباق، والمدى. (٣) الخادر: المقيم في خدره أي مأواه.

فأشْبه منه صولته ومضاءه، وأما البحر الزاخر فأشبه منه جوده وعطاءه، وأما القمر الباهر فأشبه منه نوره وضياءه، وأما الربيع الناضر فأشبه منه حسنه وبهاءه. ثم نزل.

بين عبد الملك وذي حاجة:

قال عبد الملك بن مروان لرجل دخل عليه: تكلم بحاجتك. قال: يا أمير المؤمنين، بُهْرُ[1] الدرَجة وهَيبةُ الخِلافة يَمنعاني من ذلك. قال: فَعَلى رِسْلِك، فإنا لا نحبُّ مَدْح المُشاهدة، ولا تَزكية اللقاء. قال: يا أمير المؤمنين، لستُ أمدحُك، ولكن أحمد الله على النعمة فيك. قال: حَسْبُكَ فقد أَبْلَغْت.

ودخل رجل على المنصور، فقال له: تكلّم بحاجتك. فقال: يُبقيك الله يا أمير المؤمنين. قال: تكلّم بحاجتك، فإنك لا تقدر على هذا المقام كل حين. قال والله يا أمير المؤمنين، ما أستقصر أجلَك، ولا أخاف بُخلَك، ولا أغتنم مالَك؛ وإنّ عطاءك لشَرَف، وإن سُؤالك لزَيْن، وما لآمرِيءٍ بَذَل وجهه إليك نقْصٌ ولا شيْن. قال: فأحسن جائزته وأكرمه.

بين المأمون والعماني:

حدّث إبراهيم بن السِّندي قال: دخل العُمانيّ على المأمون، وعليه قَلَنْسوَة طويلة وخُف ساذَج، فقال له: إيّاك أن تُنشدني إلاّ وعليك عِمامة عظيمة الكَوْر[2] وخُفان رائقان. قال: فغدا عليه في زِي الأعراب فأنشده، ثم دنا فقبّل يده وقال: قد والله يا أمير المؤمنين أنشدتُ يزيدَ بن الوليد، وإبراهيمَ بن الوليد، ورأيتُ وجوهَهما، وقبّلت أيديهما، وأخذت جوائزَهما؛ وأنشدتُ مروان وقبَّلْتُ يده وأخذت جائزته، وأنشدت المنصورَ ورأيتُ وجهه وقبَّلت يده وأخذت جائزته، وأنشدت المهديّ ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته، إلى كثير من أشباه الخلفاء، وكبراء الأمراء والسادة الرؤساء، فلا والله يا أمير المؤمنين ما رأيتُ فيهم أبهى منظراً، ولا أحسنَ وجهاً، ولا

---

(١) البُهر: انقطاع النفس وتتابعه من شدّة التعب.

(٢) الكور: الالتفاف والاجتماع.

أنعَمَ كفاً، ولا أنْدَى راحةً [١] منك يا أمير المؤمنين. قال: فأعظم له الجائزة على شِعره، وأضْعَف له على كلامه وأقبل عليه بوجهه وبِشْرِه، فبسطه حتى تمنى جميعُ مَن حضره أنهم قاموا مقامه.

عمر بن عبد العزيز ووفد العراق ومحمد القرظي:

حدّث العتبي عن سُفيان بن عُيينة قال: قَدِم على عمر بن عبد العزيز ناسٌ من أهل العراق، فنظر إلى شاب منهم يتحوّش [٢] للكلام، فقال: أكبِرُوا أكبِرُوا. فقال: يا أمير المؤمنين، إنه ليس بالسنِّ، ولو كان الأمر كله بالسنّ لكان في المسلمين من هو أسَنُّ منك. فقال عمر: صدقتَ رحمك الله، تكلم. فقال: يا أمير المؤمنين، إنّا لم نأتك رغبة ولا رهبة؛ أما الرغبةُ فقد دخلتْ علينا منازلنا وقَدِمتْ علينا بلادَنا؛ وأما الرهبة فقد أمنَنا الله بِعَدْلك من جَوْرك. قال: فما أنتم؟ قال: وفدُ الشكر. قال: فنظر محمد بن كعب القُرظي إلى وجه عمر يتهلل، فقال: يا أمير المؤمنين؛ لا يغْلِبَنّ جهلُ القوم بك معرِفَتك بنفسك؛ فإن ناساً خدعهم الثناء وغرّهم شكرُ الناس فهلكوا، وأنا أُعيذك بالله أن تكون منهم. فألقى عمر رأسَه على صدره.

التنصل والاعتذار

قال النبي ﷺ: «من لم يقبل من مُتنصِّلٍ [٣] عذراً، صادقاً كان أو كاذباً، لم يَرِدْ عليّ الحوْض».

وقال: «المُعترف بالذنب كمَن لا ذنبَ له. وقال: الاعتراف يَهدم الاقتراف» [٤].

وقال الشاعر:

إذا ما امْرؤٌ مِنْ ذنبِهِ جاء تائِباً إليكَ فلمْ تغفِرْ لهُ فلكَ الذَّنبُ

---

(١) الراحة: الكف أو باطنها حيث يكون العطاء.

(٢) يتحوّش: يتأهب ويستعد.

(٣) المتنصّل: المتبريء المتخلّص.

(٤) الاقتراف: الاكتساب للذنوب.

واعتذر رجل إلى إبراهيم بن المهدي. فقال: عذَرتُك غير مُعْتَذِرٍ، إن المعاذير يشوبها الكذب.

واعتذر رجل إلى جعفر بن يحي، فقال: قد أغناك الله بالعذر عن الاعتذار، وأغنانا بحُسن النية عن سوء الظن.

وقال إبراهيم الموصلي: سمعتُ جعفر بن يحي يعتذر إلى رجل من تأخر حاجةٍ ضَمِنها له، وهو يقول: أحتجُّ إليك بغالبِ القضاء، وأعتذرُ إليكَ بصادِقِ النِّيَّة.

وقال رجل لبعض الملوك: أنا من لا يُحاجُّك عن نفسه، ولا يُغالِطك في جُرمه، ولا يلتمس رضاك إلا مِن جهة عفْوِك، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب، ولا يَستميلك إلا بالاعتراف بالزَّلَّة.

وقال الحسنُ بن وهب:

ما أحْسَنَ العفْوَ مِنَ القادِرِ ... لا سِيَّمَا عنْ غيرِ ذِي ناصِرِ
إنْ كان لي ذنْبٌ ولا ذَنْبَ لي ... فما لهُ غَيْرُكَ مِنْ غافِرِ
أَعُوذُ بالْوُدِ الذي بيْنَنا ... أن يُفْسُد الأوّلُ بالآخِرِ

وكتب الحسن بن وهب إلى محمد بن عبد الملك الزيات:

أبا جَعْفَرٍ، ما أحْسَنَ العفْوَ كُلَّهُ ... ولا سِيَّما عن قائلٍ ليْسَ لي عُذْرُ

وقال آخر:

اقْبلْ معاذِيرَ مَن يأْتيك مُعتذِراً ... إن بَرّ عندكَ فيما قال أوْ فَجَرَا
فقَدْ أطاعك مَنْ أَرْضاكَ ظاهِرُهُ ... وقد أجَلّكَ مَنْ يعْصِيكَ مُسْتَتِرَا
خيرُ الخليطين من أغضى لصاحبه ... ولو أراد انتصاراً منه لانتصرا[1]

وقالت الحكماء: ليس من العدل سرعةُ العذل[2].

وقال الأحنف بن قيس: رُبَّ ملوم لا ذنب له.

---

(١) الخليط: المخالط والمصاحب وأغض: تحمّل وعفا. (٢) العذل: اللوم.

وقال آخر:

لعلَّ لهُ عُذْراً وأنتَ تلومُ

وقال حبيب:

البِرُّ بي مِنْكَ وطَّي العُذرَ عِنـدَك لي فيما أتــاكَ فلمْ تقبَــلْ ولم تلُــمِ
وقامَ علِمُكَ بي فاحْتَـجَّ عِنـدَكَ لي مقـامَ شـاهِـدِ عـدْلٍ غير مُتَّهَـمِ

وقال آخر:

إذا اعْتَذَر الجانِي محا العُـذْرُ ذنْبَـهُ وكُلُّ امْرِيءٍ لا يقبَلُ العذرَ مُذنِـبُ

ومن قولنا في هذا المعنى:

عذيرِيَ مِنْ طُولِ البُكا لوعةُ الأسَى وليْسَ لِمَنْ لا يقبَلُ العذْر مِنْ عُـذْرِ

وقال آخر:

فهَبْني مُسِيئاً كالّـذِي قُلـتَ ظَـالِماً فعفْوٌ جميلٌ كيْ يكونَ لك الفضْـلُ
فإنْ لم أكُنْ للعَفوِ عِنْـدَكَ لِلّـذِي أتيـتُ بِهِ أهْلاً فـأنـتَ لـهُ أَهْـلُ

ومن الناس من لا يرى الاعتذار، ويقول: إياك وما يُعْتذَرُ منه.

وقالوا: ما اعتذر مذنبٌ إلا ازداد ذنباً.

وقال الشاعر محمود الوراق:

إذا كانَ وجْهُ العُـذْرِ ليْسَ ببَيِّـنٍ فإنّ اطِّراح العذْرِ خيْرٌ مِنَ العُـذْرِ

بين عبد الملك وابن شهاب الزهري:

قال ابن شِهاب الزهري: دخلتُ على عبد الملك بن مروان في رجال من أهل المدينة، فرآني أحدثَهم سناً؛ فقال لي: من أنت؟ فانتسبتُ له. فقال: لقد كان أبوك وعمك نعّاقَين[1] في فِتنة ابن الأشعث. فقلت: يا أمير المؤمنين، إنّ مثلك إذا عفا لم

(١) نعّاقين: أي مؤلّبين الناس ومحمّسينهم.

يعدِّد، وإذا صَفَحَ لم يُثَرِّبْ. فأعجبه ذلك، وقال: أين نشأت؟ قلت: بالمدينة. قال: عند مَنْ طَلَبْت؟ قلت: سعيدِ بنِ المسيَّب، وسليمانَ بنِ يسار، وقبيصةَ بن ذؤيب. قال: فأين أنت من عُروة بن الزبير، فإنه بحر لا تكدِّره الدِّلاء. فلما انصرفتُ من عندِه لم أبارحْ عُروةَ بن الزبير حتى مات.

بين محمد بن سليمان وابن السماك:

ودخل ابن السماك على محمد بن سليمان بن علي، فرآهُ مُعرضاً عنه، فقال: مالي أرى الأمير كالعاتب عليّ؟ قال: ذلك لشيءٍ بلغني عنك كرِهْتُه. قال: إذاً لا أُبالي. قال: ولِمَ؟ قال: لأنه إذا كان ذنباً غَفَرْتَه، وإن كان باطلاً لم تقْبَله.

بين المنصور وجرير بن عبد الله:

دخل جرير بن عبد الله على أبي جعفر المنصور، وكان واجداً عليه، فقال له: تكلم بحُجَّتِك. فقال: لو كان لي ذنب تكلّمتُ بعذري، ولكن عفوَ أميرِ المؤمنين أحبُّ إليّ من براءتي.

الهادي ومذنب:

وأُتي موسى الهادي برجل، فجعل يُقرِّعه بذنوبه. فقال: يا أمير المؤمنين، إن اعتذاري مما تُقرِّعني به ردٌّ عليك، وإقراري به يُلزمُني ذنباً لم أجْنِه، ولكن أقول:

فإن كنتَ تَرجو في العقوبةِ راحةً فلا تَزْهَدَنْ عند المُعافاةِ في الأجرِ

بين المأمون وابن الفارسي:

سُعِيَ بعبد الملك بن الفارسي إلى المأمون، فقال له المأمون: إن العدلَ مَنْ عدَّلَهُ أبو العباس، وقد كان وَصَفَكَ بما وَصف به، ثم أتتني الأخبارُ بخلاف ذلك. فقال: يا أمير المؤمنين، إن الذي بلغك عني تحميلٌ عليّ، ولو كان كذلك لقلتُ: نعم، كما بلغك. فأخذتُ بحظّي من الله في الصدق، وآتكلتُ على فضل أمير المؤمنين في سَعَةِ عَفْوِه. قال: صدقت.

المأمون وابن يوسف في حكاية ضده:

محمد بن القاسم الهاشمي أبو العيناء، قال: كان أحمد بن يوسف الكاتب قد تولى صدقات البصرة، فجار فيها وظلم، فكثر الشاكي له والداعي عليه، ووافى بابَ أمير المؤمنين زُهاءُ خمسين رجلاً من جِلة البصريين: فعزله المأمون، وجلس لهم مجلساً خاصاً وأقام أحمدَ بنَ يوسف لمناظرتهم، فكان مما حُفظ من كلامه أن قال:

يا أمير المؤمنين، لو أن أحداً ممن وَلِيَ الصدقاتِ سَلِمَ من الناس لسلِمَ رسول الله ﷺ، قال الله عز وجل: ﴿ومنهم منْ يَلْمِزكَ في الصّدَقَاتِ فإنْ أعطُوا منها رَضُوا وإنْ لم يُعْطَوْا منها إذا هُمْ يَسْخَطُون﴾ [١].

فأعجب المأمونَ جوابُه. واستجزل مقاله، وخلّى سبيله،

محمد بن القاسم الهاشمي أبو العيناء قال: قال لي أبو عبد الله أحمد بن أبي داود: دخلت على الواثق، فقال لي: ما زال قومٌ في ثلبك ونَقْصِك! فقلت: يا أمير المؤمنين، لكلِّ امريء منهم ما اكتَسَبَ من الإثمِ والذي تَولّى كِبْرَهُ منهم له عذابٌ عظيم، واللهُ وليُّ جزائه، وعقابُ أمير المؤمنين مِن ورائه، وما ذَلَّ مَن كنتَ ناصره، ولا ضاع مَن كنت حافظَه، فماذا قلت لهم يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت أبا عبد الله.

وسَعَى إليَّ بعيْبِ عَـزَّةَ مَعْشَـرٌ ... جَعل الإلـهُ خُـدُودَهُـنَّ نِعـالَهـا

قال أبو العيناء: قلت لأحمد بن أبي داود: إن قوماً تظافروا عليّ! قال: ﴿يدُ الله فوق أيديهم﴾ [٢] قلت: إنهم عَددٌ وأنا واحد! قال: ﴿كم مِن فِئة قليلةٍ غَلَبتْ فِئةً كثيرةً﴾ [٣] قلت: إن للقوم مَكراً! قال: ﴿ولا يحيقُ المكرُ السَّيء إلا بأهلِه﴾ [٤]. قال أبو العيناء: فحدّثتُ بهذا الحديث أحمدَ بن يوسف الكاتب، فقال: ما يرى ابن أبي داود إلا أنّ القرآنَ أُنزل عليه.

---

(١) سورة التوبة الآية ٥٨. (٢) سورة الفتح الآية ١٠.
(٣) سورة البقرة الآية ٢٤٩. (٤) سورة فاطر الآية ٤٣.

بين قتيبة بن مسلم ونهار بن توسعة:

قال: وهجا نهارُ بن توسعة قتيبةَ بن مُسلم، وكان وَلِيَ خُراسان بعد يزيد بن المهلّب، فقال:

كانت خُراسانُ أرْضاً إذ يَزيـدُ بها وكلُّ بـابٍ مـنَ الخيراتِ مفتـوحُ
فبُدِّلـتْ بعـدَه قِـرْداً نَطـوفُ بـه كـأنما وجهُـه بـالخلِّ مَنضـوحُ (١)

فطلبه فهرب منه، ثم دخل عليه بِكتاب أمِّه؛ فقال: ويحك! بأي وجهٍ تلقاني؟ قال: بالوجه الذي ألقَى به ربِّي، وذُنوبي إليه أكثرُ من ذنوبي إليك. فقرَّبه ووصلَه وأحسنَ إليه.

المنصور وابن فضالة:

وأقبل المنصور يوماً راكباً والفرجُ بن فَضالة جالس عند باب الذَّهب، فقام الناس إليه ولم يقم. فأستشاط المنصور غيظاً وغضباً، ودعا به فقال: ما مَنعَك من القيام مع الناس حين رأيتَني؟ قال: خفتُ أن يسألني الله تعالى: لِمَ فعلتَ؟ ويسألَك عنه: لِمَ رضِيتَ؟ وقد كرهه رسول الله ﷺ فسكن غضبُه وقرَّبه وقضى حوائجه.

المأمون وابن أكثم:

يحيى بن أكثم، قال: إني عند المأمون يوماً، حتى أُتِيَ برجل تُرْعَدُ فرائصُه (٢)، فلما مَثَل بين يديه قال له المأمون: كفرْتَ نعمتي ولم تشكر معروفي! قال: يا أمير المؤمنين، وأين يقع شُكري في جَنْبِ ما أنعم الله بك عليّ؟ فنظر إليّ وقال متمثِّلاً:

فلو كان يَستَغنِي عنِ الشكرِ ماجـدٌ لكَثرة مـالٍ أوْ علـوٍّ مكـانِ
لَمَا نَـدَب اللهُ العبـادَ لِشكـرِه فقـال اشكـروا لي أيها الثَّقلانِ (٣)

---

(١) منضوح: مبلول. (٢) الفرائص: الأعضاء.
(٣) الثقلان: الجنّ والانس.

ثم التفت إلى الرجل فقال له: هلاّ قلت كما قال أصرم بن حُميد:

رَشحْتَ حمدِيَ حتى إنّني رجلٌ   كلّي بكلِّ ثَناءٍ فيك مُشتغِلُ
خَوّلت شُكْرِيَ ما خَوّلتَ من نعمٍ   فَخُرُّ شُكري لما خَوّلتني خَوَلُ [١]

الاستعطاف والاعتراف

بين المهدي وابن داود:

لما سَخِط المهدي على يعقوب بن داود، قال له: يا يعقوب، قال: لبيك يا أمير المؤمنين تلبيةَ مكروبٍ لموجدَتِك. قال: ألم أرفع من قدرك إذ كنتَ وضيعاً، وأُبْعِدْ من ذِكرك إذ كنت خاملاً، وأُلْبِسْكَ من نعمتي ما لم أجد لك بها يدَين من الشكر؛ فكيف رأيت الله أظهر عليك وردَّ إليك منك؟ قال: إن كان ذلك بعلمك يا أمير المؤمنين فتصديقُ مُعترفٍ مُنيب، وإن كان مما استخرجتْه دفائن الباغين فعائذٌ بفضلك. فقال: والله لولا الحِنْثُ [٢] في دَمك بما تقدَّم لك، لألبستُك منه قميصاً لا تَشُدُّ عليه زِرّاً. ثم أمر به إلى الحَبس، فتولّى وهو يقول: الوفاء يا أمير المؤمنين كرم، والمودّة رَحِم، وأنت بهما جدير.

أخذت الشعراءُ معنى قوله «ألبستُك منه قميصاً لا يشدُّ عليه زرّاً» فقال مُعلّى الطائي:

طَوّقْته بِحُسامٍ طَوْقَ داهيَةٍ   ما يستطيعُ عليهِ شَدَّ أَزْرار

وقال حبيب:

طَوّقْته بالحُسامِ طَوْقَ ردَيً   أغْناه عنْ مَسِّ طَوْقِه بيدهْ

وقال:

طوّقْته بالحسام مُنْصَلِتاً   آخرَ طوقٍ يكون في عنقِهْ

---

(١) الخول: العبد. (٢) الحنث: عدم الوفاء بالقسم.

ليزيد بن مزيد أمام الرشيد:

ولما رضي الرشيد عن يزيد بن مَزيد أذِن له بالدخول عليه فلما مثل بين يديه قال: الحمدُ لله الذي سهّل لي سبيلَ الكرامة بلقائك، وردّ عليّ النعمةَ بوجه الرضا منك؛ وجزاك الله يا أمير المؤمنين في حال سُخْطك جزاءَ المحسنين المرغبين[1] وفي حال رضاك جزاءَ المنعِمين المُتطولّين؛ فقد جعلك الله وله الحمد تَثْبُت تحرُّجاً عند الغضب، وتَمْتَنُّ تطوُّلاً[2] بالنعم، وتَستبقي المعروف عند الصنائع تفضلاً بالعفو.

المأمون وإبراهيم بن المهدي:

لما ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدي، وهو الذي يقال له ابن شِكْلة، أمر بإدخاله عليه. فلما مثل بين يديه قال: ولِيُّ الثأر محكم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، [والقدرة تُذهب الحفيظة، ومَن مَدَّ له الاْعتذار في الأمل هجمت به الأناة على التلف][3]؛ وقد جعل الله كلَّ ذنب دُون عفوك، فإن صفحت فبكرمِك، وإن أخذتَ فبحقّك.

قال المأمون: إني شاورتُ أبا إسحاق والعبّاسَ في قتلك، فأشارا عليَّ به.

قال: أما أن يكونا قد نصحاك في عِظَم قدْر المُلك ولِمَا جرت عليه عادةُ السياسة، فقد فعلا؛ ولكنك أبيت أن تستجلبَ النصر إلا من حيث عَوَّدك الله. ثم استعبر باكياً.

قال له المأمون: ما يُبكيك.

قال: جَذَلاً، إذ كان ذنبي إلى مَن هذه صفتُه. ثم قال: يا أمير المؤمنين، إنه وإن كان جُرمي يبلغ سفكَ دمي، فحلمُ أمير المؤمنين وتفضُّله يُبلغاني عَفْوَه، ولي بعدهما شفاعة الإقرار بالذنب، وحُرمةُ الأبِ بعد الأب.

---

(١) المرغب: المعطي غيره ما يرغب فيه.

(٢) تطوّلاً: إكثاراً للإحسان. (٣) زيادة عن نهاية الأرب.

قال المأمون: لو لم يكن في حقِّ نسبك ما يُبلغ الصفح عن زَلّتك، لبلّغك إليه حُسنُ توَصلك ولطفُ تنَصُّلك.

فكان تصويبُ إبراهيم لرأي أبي إسحق والعباس ألطفَ في طلب الرضا ودْفع المكروه عن نفسه من تخطئتها.

المأمون وإسحاق بن العباس:

وقال المأمون لإسحاق بن العباس: لا تَحسبني أغفلتُ إجلابَك مع ابن المهلَّب وتأييدَك لرأيه وإيقادَك لناره.

قال: يا أمير المؤمنين، والله لإجرامُ قريشٍ إلى رسول الله ﷺ أعظمُ من جرُمي إليك، ولَرَحِمِي أمسُّ من أرحامهم، وقد قال كما قال يوسف لإخوته: ﴿لا تثْريبَ عليكُمُ اليَوْمَ يغْفِرُ اللهُ لكُمْ وهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحمين﴾ [1] وأنت يا أمير المؤمنين أحقُّ وارثٍ لهذه المِنة ومُمْتثلٍ بها.

قال: هيهات. تلك أجرامٌ جاهلية عفا عنها الإسلام، وجُرْمُك جُرمٌ في إسلامك وفي دار خلافتك.

قال: يا أمير المؤمنين، فوالله لَلمُسْلِم أحقُّ بإقالة العثرة وغُفْران الزَّلة مِنَ الكافر، هذا كتاب الله بيني وبينك. يقول الله تعالى: ﴿وسارِعُوا إلى مغْفِرَةٍ مِنْ ربِّكُمْ وجنَّةٍ عَرْضُها السَّمٰواتُ والأرضُ أُعِدَّتْ للمُتَّقِين، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ في السَّرَّاء والضَّرَّاءِ والكاظِمينَ الغَيْظَ والعافِينَ عَنِ النَّاسِ واللهُ يُحب المحْسِنينَ﴾ [2] فهي للناس يا أمير المؤمنين سُنَّةٌ دخَل فيها المسلمُ والكافر، والشريفُ والمشروف.

قال: صدقت. اجلس. ورِيَتْ بك زِنادي [3]، فلا قدَح ناري من الغابرين [4] من أهلِك أمثالُك.

---

(١) سورة يوسف الآية ٩٢.
(٢) سورة آل عمران الآية ١٣٣.
(٣) وريت بك زنادي: أي تقوّت وأورى النار: أوقدها.
(٤) الغابرين: الماضين.

العتبي عن أبيه قال: قبض مروانُ بن محمد بن معاوية بن عمر بن عتبة ماله بالفِرْسان[1] فقال: إني قد وجدت قطيعةَ عمك لأبيك «إني أقطعتُك بستاني». والبستانُ لا يكون إلا عامراً، وأنا مُسلمٌ إليك الغامرَ[2] وقابضٌ منك العامر. فقال: يا أمير المؤمنين، إن سلفك الصالح لو شهدوا مجلسنا هذا كانوا شهوداً على ما ادعيتُه، وشُفعاءَ فيما طلبته، يسألونك بإحسانك إليَّ مكافأةَ إحسان سلفي إليهم فشَفع فينا الأموات، وأحفظ منا القرابات، واجعل مجلسَك هذا مجلساً يلْزَمُ مَن بعدنا شُكرُه. قال: لا والله، إلا أن أجعلها طعمةً مني لك، لا قطيعة من عمك لأبيك.

قال: قد قبلتُ ذلك. ففَعل.

عبد الملك وابن عتبة وخالد بن يزيد:

العتبي قال: أمر عبدُ الملك بن مروان بقطع أرزاق آل أبي سفيان وجوائزهم لِموْجِدة وجَدها على خالد بن يزيد بن معاوية. فدخل عليه عمرو بن عتبة. فقال: يا أمير المؤمنين. إن أدنى حقِّك مُتعِب. وبعضه فادحٌ لنا، ولنا مع حقك علينا حقٌ عليك، بإكرام سلفنا لسلفك. فانظر إلينا بالعين التي نظروا بها إليهم، وضعْنا بحيث وضعَتْنَا الرَّحِمُ منك.

قال عبد الملك: إنما يستحق عطيتي من آستعطاها، فأما من ظن أنه يكتفي بنفسه فسَنَكِلهُ إلى نفسه. ثم أمر له بعطيّة.

وبلغ ذلك خالداً فقال: أبالحرمانِ يهدِّدني؟ يدُ الله فوق يده باسطة، وعطاء الله دونه مبذول. فأما عمروٌ فقد أعْطَى من نفسه أكثر مما أخذ لها.

سليمان بن علي وابن عتبة إمام المسودة:

العُتبي قال: حدثنا طارق بن المبارك، عن عمرو بن عُتبة، قال: جاءت دولةُ

---

(١) الفرسان قرية من قرى أصبهان. (٢) الغامر: الجدب المقفر.

المُسوِّدة وأنا حديث السنّ كثير العِيال متفرِّق المال، فجعلت لا أنزل قبيلةً من قبائل العرب إلا شُهرت فيها. فلما رأيت أمري لا يُكتتم، أتيت سليمانَ بن علي فاستأذنت عليه قُرب المغرب، فأذِن لي وهو لا يعرفني؛ فلما صرتُ إليه قلت: أصلحك اللهُ! لفظَتْني البلادُ إليك، ودلني فضلُك عليك؛ فإما قبلتَني غانماً، وإما رددتَني سالماً.

قال: ومن أنت؟ فانتسبت له؛ فعرَفَني. وقال: مرحبا، اقعُد فتكلم غانماً سالماً. قلت: أصلحك الله! إن الحُرَمَ التي أنت أقربُ الناس إليهن معنا، وأولى الناس بهن بعدنا، قد خِفْن بخَوْفِنا، ومن خاف خِيف عليه. قال: فاعتمدَ سليمان على يديه وسالت دموعه على خديه، ثم قال: يا ابن أخي، يحْقِنُ اللهُ دمَك، ويستر حرمك، ويسلّم مالك إن شاء الله؛ ولو أمكنني ذلك في جميع قومك لفعلت. فلم أزل في جوار سليمان آمنا.

وكتب سليمان إلى أبي العباس أمير المؤمنين: أما بعد. يا أمير المؤمنين، فإنا إنما حارَبْنا بني أمية على عقوقهم ولم نحاربهم على أرحامهم، وقد دفَتْ إليّ منهم دافَّة[1] لم يُشهروا سلاحاً، ولم يكثروا جمعاً، وقد أحسنَ اللهُ إليك فأحْسِن. فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب لهم أماناً ويأمرَ بإنفاذه إليّ فليفعل.

فكتب لهم كتاباً منشوراً وأنفذه إلى سليمان بن علي، في كل من لجأ إليه من بني أمية، فكان يسميه أبو مُسلِم: كهْفَ الأُبّاق[2].

الرشيد وعبد الملك بن صالح:

دخل عبد الملك بن صالح يوماً على الرشيد، فلم يلبث في مجلسه أن التفت الرشيد فقال متمثِّلاً:

أُريدُ حَياتَهُ ويُريدُ قتْلي   عذيرك مِنْ خَليلِكَ من مُرَاد

---

(١) الدافّة: الجماعة من الناس تقبل من بلدٍ إلى بلد.

(٢) الأبّاق: الهاربين.

ثم قال: أما والله لكأني أنظر إلى شؤبوبها قد همع [١]، وعارضِها قد لمع [٢]، وكأني بالوعيد قد وقع، فأقلعَ عن بَراجمَ [٣] بلا مَعاصم، وجماجمَ بلا غَلاصم [٤]، فمهلاً مهلاً؛ فَبِي والله يسهل لكم الوَعْر، ويصفو لكم الكدر، وألقتْ إليكم الأمورُ مقاليدَ أزمَّتها، فالتدارك التدارك قبل حلول داهية، خَبُوطٍ باليد لبوطٍ بالرِّجل.

قال عبد الملك: أفذّاً [٥] ما تكلمتَ أم تَوْءَماً يا أمير المؤمنين؟ قال: بل فَذّاً.

قال: اتق الله في ذي رحمك وفي رعيتِّك التي استرعاك الله، ولا تجعل الكفر مكان الشكر، ولا العقاب موضعَ الثواب؛ فقد محضتُ لك النصيحة وأديت لك الطاعة، وشددت أواخي مُلكك بأثقل من رُكنَيْ يَلمْلَم [٦]، وتركت عدوَّك سبيلاً تتعاوره [٧] الأقدام، فاللهَ اللهَ في ذي رحمك أن تقطعه بعد أن وصلتَه؛ إنّ الكتاب لنميمة واش وبَغْيُ باغ؛ يَنهش اللحم، ويلغ [٨] في الدم، فكم ليلٍ تمامٍ فيك كابدْتُه، ومَقام ضيق فرَّجْتُه، وكنتُ كما قال الشاعر أخو بني كلاب:

ومَقامٍ ضَيِّقٍ فرَّجْتُهُ ... بلساني ومَقامي وجَدَل
لو يقومُ الفيلُ أو فَيَّالُهُ ... زَلَّ عن مثْل مقامي وزَحَلْ

فرضي عنه ورحّب به، وقال وَرِيتْ بك زنادي.

الرشيد وعبد الملك بن صالح:

والتفت الرشيد يوماً إلى عبد الملك بن صالح فقال: أكفراً بالنعمة، وغدراً بالإمام؟

---

(١) الشؤبوب: الدفعة من المطر، وهمع: سقط.
(٢) العارض: السّحاب المصحوب بالبرق.
(٣) البراجم: مفاصل الأصابع.
(٤) الغلاصم: جمع غلصمة، وهي رأس الحلقوم وهي الموضع الناتيء في الحلق.
(٥) الفذّ: الفرد.
(٦) يلملم: جبلٌ من الطائف على ليلتين أو ثلاث.
(٧) تتعاوره: تدوسه.
(٨) يلغ: ولغ الكلب من الإناء، أي شرب منه.

قال: لقد بُؤت إذاً بأعباء الندم، وسعيتُ في استجلاب النّقَم؛ وما ذلك يا أمير المؤمنين، إلا بَغْيُ باغ نافسني فيك بقديمِ الولاية، وحقِّ القرابة، يا أمير المؤمنين، إنك خليفة الله ورسوله ﷺ في أُمته، وأمينُه على رعيته، لك عليها فرْضُ الطاعة وأداءُ النصيحة؛ ولها عليك التثبُّتُ في حادثها، والعدل في حكمها.

فقال له هارون: تَضَع لي من لسانك، وترفعُ عليَّ من جَنانك بحيث يحفَظ اللهُ لي عليكَ! هذا قمامة كاتبُك يخبرني بِفعْلك.

فقال عبد الملك: أحقاً يا قمامة؟

قال: نعم لقد أردتَ خَتْلَ[1] أمير المؤمنين والغدرَ به.

فقال عبد الملك: كيف لا يكذب عليَّ من خلفي مَن بَهتَني[2] في وجهي؟

قال الرشيد: هذا ابنك شاهد عليك.

قال: يا أمير المؤمنين، هو بين مأمور أو عاق؛ فإن كان مأموراً فمعذور، وإن كان عاقّاً فما أخاف من عقوقه أكثر.

وقال له الرشيد يوماً وكان مُعْتلاً عليه: أتُبقُّون بالرَّقَّة؟ قال: نعم، ونُبَرْغث!

قال: يا بن الفاعلة! ما حَمَلك على أن سألتُك عن مسألة فرددت عليّ في مسألتين؟ وأمر به إلى الحبس؛ فلم يزل في حبسه حتى أطلقه الأمين.

لعبد الملك بن صالح بعد خروجه من السجن:

إبراهيم بن السِّندي قال: سمعت عبد الملك بن صالح يقول بعد إخراج المخلوع له من الحبس، وذكر الرشيدَ وفعلَه به، فقال: والله إن المُلْكَ لشيءٌ ما نويتُه ولا تمنَّيتُه، ولا نَصبْتُ له ولا أردتُه، ولو أردتُه لكان إليّ أسرع من الماءِ إلى الحُدور[3]، ومن النار إلى يَبس العرفج[4]؛ وإني لمأخوذ بما لم أجْنِ، ومسئولٌ عما لم أعرف، ولكن حين رآني للمُلْكِ قَميناً[5]، وللخلافة خطيراً، ورأى لي يداً تنالها إذا مُدَّتْ،

(١) الختل: الغدر.

(٢) البهت: الافتراء والكذب. (٣) الحدور: التصبّب والسيلان.

(٤) العرفج: نبات سريع الاشتعال. (٥) القمين: الجدير الخليق.

وتبلغها إذا بُسِطت، ونَفساً تكمُل لخصالها، وتستحقها بفَعالها - وإن كنت لم أجْنِ تلك الخصال، ولم أصطنع تلك الفعال، ولم أترشَّحْ لها في السر، ولا أشرتُ إليها في الجهر - ورآها تحنُّ إليّ حنين الوالدة الواهلة، وتميل مَيْل الهَلوك؛ وخاف أن تَرْغَب إلى خيرِ مَرْغَب، وتنزِع إلى أخصب منزع، عاقبني عقابَ مَن سَهِر في طلبها، وجَهد في التماسها، فإن كان إنما حَسِبني أني أصلح لها وتصلح لي، وأليقُ بها وتليق بي، فليس ذلك بذنبٍ جنيتُه فأتوبَ منه، ولا تطاولتُ له فأحطَّ نفسي عنه؛ وإن زعم أنه لا صَرْفَ لعقابه، ولا نجاةَ من عذابه، إلا أن أخرُج له من حَدّ العلم والحِلم والحزم؛ فكما لا يستطيع المضِياعُ أن يكون مُصلحاً، كذلك لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلاً. وسواء عليه أعاقَبني على عِلمي وحلمي، أم عاقبني على نسبي وسِني، وسواء عليه عاقبني على جمالي أو عاقبني على محبة الناس لي. ولو أردتُها لأعجلتُه عن التفكير، وشغلتُه عن التدبير، ولما كان فيها من الخطب إلا اليسير.

ابن مسلم حين بلغه غضب الخليفة على رجاء:

إبراهيم بن السّندي قال: كنت أساير سعد بن سَلم، حتى قيل له: إن أمير المؤمنين قد غضب على رجاء بن أبي الضحّاك وأمر بأخذ ماله، فارتاع بذلك وجزع، فقيل له: ما يروعك منه؟ فواللهِ ما جعل اللهُ بينكما نسباً ولا سَبباً. فقال: بلى، النّعمةُ نَسَبٌ بين أهلها، والطاعة سببٌ مؤكَّد بين الأولياء.

وبعث بعض الملوك إلى رجل وَجَد عليه: فقال لما مَثَل بين يديه: أيها الأمير، إن الغضب شيطانٌ فاستعِذْ بالله منه؛ وإنما خُلق العفو للمذنب، والتجاوز للمُسيء، فلا تَضقْ عما وسع الرعيَّة من حلمك وعفوك. فعفا عنه وأطلق سبيله.

ولما اتهم قتيبة بن مُسلم أبا مجلز على بعض الأمر، قال: أصلح الله الأمير، وأستغفر الرب، أسأل العافية! قال: قد عفونا عنك.

وأرسل بعض الملوك في رجل أراد عقوبته، فلما مثل بين يديه قال: أسألك بالذي

أنت بين يديه أذلُّ مني بين يديك؛ وهو على عقابك أقدرُ منك على عقابي، إلا نظرتَ في أمري نظر مَن بُرئى أحبُّ إليه من سَقمي، وبراءتي أحبُّ إليه من جُرْمي.

وقال خالد بن عبد الله لسليمان بن عبد الملك حين وَجَد عليه: يا أمير المؤمنين، إن القُدرة تُذهب الحفيظة؛ وأنت تَجلُّ عن العقوبة ونحن مُقِرُّون بالذنب؛ فإن تعفُ عنّي فأهلُ ذلك أنت، وإن تُعاقبني فأهلُ ذلك أنا.

وأمر معاوية بن أبي سفيان بعقوبة روْح بن زِنْباع، فقال له: أنشدك الله يا أمير المؤمنين ألا تضع مني خسيسةً أنت رفعتَها، أو تنقُضَ منّي مَريرة أنت أبرَمْتَها[1]، أو تُشمتَ بي عدوّاً أنت وقَمْته[2]، إلاّ أتى حِلمُك وصفحُك على خطئي وجهلي. فقال معاوية: خَلِّيا عنه، إذا أراد الله أمراً يَسَّرَه.

وجد عبد الملك بن مروان على رجل فجفاه واطَّرحَه، ثم دعا به ليسأله عن شيء، فرآه شاحباً ناحلاً؛ فقال له: مُذْ متى آعتللت؟ فقال:

مــــا مسَّني سُقْــــمٌ ولكنَّني جفوْتُ نفْسي إذ جفـاني الأمير
وآليت ألا أرضى عنها حتى يرضى عني أمير المؤمنين. فأعاده إلى نفسه.

وقعد الحسنُ بن سهل لنُعيم بن حازم، فأقبل إليه حافياً حاسراً وهو يقول: ذنبي أعظم من السماء، ذنبي أعظم من الأرض. فقال له الحسن: على رِسْلك أيها الرجل، لا بأس عليك، قد تقدمتْ لك طاعة، وحَدَثت لك توبة، وليس للذنب بينهما موضع، ولئن وَجَد موضعاً فما ذنبُك في الذنوب بأعظمَ من عفو أمير المؤمنين في العفو.

المأمون وهاشمي أذنب:

أذنبَ رجلٌ من بني هاشم ذنباً إلى المأمون، فعاتبه فيه. فقال: يا أمير المؤمنين، من حَمل مثل دالّتي، ولبسَ ثوبَ حُرمتي، ومَتَّ[3] بمثل قرابتي، اغْتُفِر له فوق زَلّتي.

---

(١) ابرمتها: عقدتها وفتلتها، والمريرة: طاقة الحبل.

(٢) وقمته: قهرته وصرفته وأوقفته. (٣) متَّ اتصل.

قال: صدقت يا بن عمي. وصفح عنه.

واعتذر رجل إلى المأمون من ذنب فقال له: إني وإن كانت زلتي قد أحاطت بحرمتي فإن فضلك محيط بها. وكرمَك موقوفٌ عليها.

أخذه صريع الغواني فقال:

إن كـان ذنبي قـد أحـاطَ بحُرْمتي فـأَحِـط بـذَنبي عفْـوَك المأمُـولا.

المنصور ويزيد ابن هبيرة:

ودخل يزيد بن عمر بن هُبيرة على أبي جعف المنصور بعدما كتب أمانه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ إمارتكم بِكر ودولتكم جديدة، فأَذيقوا الناس حلاوتَها، وجَنِّبوهم مرارتَها، تَخِفَّ على قلوبهم طاعتُكم، وتُسرع إلى أنفسِهم محبَّتكم، وما زلتُ مستبطئا لهذه الدعوة. فلما قام قال أبو جعفر: عجباً من كل مَن يأمر بقتل هذا! ثم قتله بعد ذلك غدراً.

المنصور بعد هزيمة عبد الله بن علي:

الهيثم بن عدي قال: لما انهزم عبد الله بن علي من الشام، قدم على المنصور وفد منهم، فتكلموا عنده، ثم قام الحارث فقال: يا أمير المؤمنين، إنا لسنا وفدَ مُباهاة، وإنما نحن وفدُ تَوبة، اُبتلينا بفتنة آستخفّت كريمَنا، واستفزَّت حليمنا، ونحن بما قدّمنا معترفون، ومما سَلَف منا مُعتذِرون. فإن تعاقبْنا فقد أجرْمنا وإن تعفُ عنا فطالما أحسنتَ إلى من أساء منا.

فقال المنصور للحَرِسيّ: هذا خطيبهم! وأمر بردِّ ضياعهِ عليه بالغُوطة.

لتميم بن جميل بين يدي المعتصم:

قال أحمد بن أبي دُواد: ما رأينا رجلاً نزل به الموتُ فما شَغله ذلك ولا أذهله عما كان يجب أن يفعله، إلا تميمَ بن جميل؛ فإنه كان تغلّبَ على شاطيء الفرات؛ وأوفى

به الرسولُ بابَ أمير المؤمنين المُعتصم في يوم المَوكب حين يجلس للعامة، ودخل عليه، فلما مَثَل بين يديه، دعا بالنِّطْع والسيف، فأُحْضِرا، فجعل تميم بن جميل ينظر إليها ولا يقول شيئاً، وجعل المعتصم يُصَعِّد النظر فيه ويُصَوِّبه، وكان جسيما وسيما، ورأى أن يستنطقه لينظر أين جَنانه ولسانه من منظره. فقال: يا تميم، إن كان لك عذرٌ فأْتِ به، أو حجةٌ فأَدل بها.

فقال: أما إذ قد أذن لي أمير المؤمنين فإني أقول: الحمد لله الذي أحسن كلَّ شيءٍ خلقه، وبدأ خلقَ الإنسانِ من طين، ثم جعل نسلَه من سُلالة من ماءٍ مَهين. يا أمير المؤمنين، إن الذنوب تُخرِس الالسنة، وتَصْدَع الأفئدة، ولقد عَظُمت الجريرة وكَبُر الذنب، وساء الظنّ، ولم يبق إلا عفوُك أو آنتقامُك، وأرجو أن يكون أقربُهما منك وأسرعُهما إليك أولاهما بآمتنانك، وأشبهَهُما بخلائقك. ثم أنشأ يقول:

أرى المَوْتَ بين السَّيْف والنطْعِ كامِناً ... يُلاحِظني مِـــن حَيثما أتلفَّـــتُ
وأكبر ظنّـي أنّـك اليـــومَ قـــاتِلي ... وأيُّ امـريءٍ ممّا قَضى الله يُفْلِـتُ
ومَن ذا الذي يُدْلِي بعذرٍ وحُجـةٍ ... وسَيفُ المَنايا بين عينيه مَصْلَـتُ[1]
يعزّ على الأوْسِ بن تَغْلِبَ موْقـفٌ ... يُسَـلُّ عليَّ السيـفُ فيـه وأَسْكُـتُ
وما جَزَعي مـن أن أمـوتَ وإنّني ... لأَعْلَمُ أنّ الموتَ شيءٌ مُـوَقَّـــتُ
ولكنّ خَلفي صبيةً قـد تـركتُهُم ... وأكبـادُهُـمْ مـن حَسرةٍ تتفَتَّــتُ
كـأني أراهـم حِين أنْعَـى إليهـم ... وقد خمشواتلـك الوُجوهَ وصَوَّتـوا
فإن عِشْتُ عاشوا خافِضين بِغبْطَـةٍ ... أَذُودُ الرَّدى عنهم وإن مِتُّ مَوَّتـوا
فكم قـائـلٍ لا يُبعِـدُ الله رُوحَـهُ ... وآخَـرَ جَـذْلانٌ يُسَـرُّ ويَشمَـتُ

قال: فتبسم المعتصم وقال: كاد والله يا تميم أن يسبقَ السيف العَذَل، اذهب، فقد غفرتُ لك الصبوة[2]، وتركتك للصِّبية.

---

(١) مصلت: مسلول ومشهور.

(٢) الصبوة: الجهل والطيش.

المهدي وأبو عبيد الله بعد قتل ابنه:

وحُكي أن أمير المؤمنين المهدي قال لأبي عُبيد الله لما قَتل ابنه: إنه لو كان في صالح خدمتك وما تَعرَّفناه من طاعتك، وفاءٌ يجب به الصفحُ عن ولدك، ما تجاوز أمير المؤمنين ذلك به إلى غيره؛ ولكنه نكص[1] على عقبيه وكَفر بربِّه. قال أبو عبيد الله: رِضانا عن أنفسنا وسُخْطُنا عليها موصولٌ برضاك وسُخطك، ونحن خَدمُ نعمتك، تُثيبنا على الإحسان فنَشكر، وتُعاقبنا على الإساءة فنصبر.

المنصور وجعفر ابن محمد:

أبو الحسن المَدائني قال: لما حج المنصور مرّ بالمدينة، فقال للربيع الحاجب: عليّ بجعفر بن محمد، قتلني اللهُ إن لم أقتله. فَمُطِل[2] به، ثم ألحّ عليه فحضر، فلما كُشف الستر بينه وبينه ومَثَل بين يديه، هَمس جعفر بشَفتيه، ثم تقرّب وسلّم، فقال: لا سلّم الله عليك يا عدّو الله، تُعمل عليّ الغوائل في مُلكي؟ قَتلني الله إن لم أقتلك. قال: يا أمير المؤمنين، إنَّ سليمان صلى الله على محمدٍ وعليه، أُعْطِيَ فَشَكر، وإن أيوبَ ابْتُلِيَ فَصَبر، وإن يوسف ظُلِمَ فَغفَر؛ وأنت على إرث منهم، وأحقُّ مَن تأسَّى بهم. فنكَس أبو جعفر رأسه مليا. وجعفر واقف، ثم رفع رأسه فقال: إليّ أبا عبد الله، فأنت القريبُ القرابة، وذو الرَّحمِ الواشجة[3] السليمُ الناحية، القلِيل الغائلة[4]. ثم صافحه بيمينه، وعانقه بشماله، وأجلسه معه على فراشه وانحرف له عن بعضه، وأقبل عليه بوجهه يُحادثه ويسائله. ثم قال: يا ربيع، عجّل لأبي عبد الله كُسوتَه وجائزتَه وإذنَه.

قال الربيع: فلما حال الستر بيني وبينه أمسكتُ بثوبه، فقال: ما أرانا يا ربيعُ إلا وقد حُبِسْنا. فقلت: لا عَلَيك! هذه مِني لا مِنه. فقال: هذه أيسر، سلْ حاجتَك. فقلت له: إني منذ ثلاث أدفع عنك وأداري عليك، ورأيتك إذْ دخلتَ هَمَسْتَ

(١) نكص: فرّ.

(٢) مطل به: أي اختلفت الأسباب لتخلّفه عن الحضور.

(٣) الواشجة: القرابة المتصلة المشتبكة.

(٤) الغائلة: الشرّ والعناد والحقد.

بشفتيك، ثم رأيتُ الأمر انجلى عنك، وأنا خادمُ سلطان ولا غِنَى لي عنه، فأحبُّ منك أن تعلِّمَنيه. قال: نعم، قلت: « اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكْنُفْني بحفظك الذي لا يُرَام، ولا أَهْلِكُ وأنت رجائي، فكم من نعمةٍ أنعمتها عليّ قلّ لك عِندها شُكري فلم تَحْرِمني، وكم من بليّةٍ ابتليتُ بها قلّ عِندها صَبري فلم تخذلني، بك أدرأ[1] في نَحْرِه، وأستعيذُ بخيرِك من شَرِّه، فإنك على كل شيء قدير، وصلى اللهُ على سيدنا محمد وآله وسلّم ».

سليمان بن عبد الملك ويزيد بن راشد:

المدائني قال: لما قام يزيد بن راشد خطيباً، وكان فيمن دعا إلى خَلع سليمان بن عبد الملك والبيعةِ لعبد العزيز بن الوليد. فنذر سليمان قطع لسانه. فلما أفضت الخلافة إليه، دخل عليه يزيد بن راشد، فجلس على طرف البساط مُفكراً، ثم قال: يا أمير المؤمنين، كُن كنبيِّ الله ﷺ: ٱبْتُلي فَصَبَر، وأُعْطِي فشَكَرَ، وقدَر فغفر، قال: ومن أنت؟ قال: يزيد بن راشد. فعفا عنه.

الرشيد ورجل حبسه:

حبس الرشيد رجلا، فلما طال حبسهُ كتب إليه: إن كل يوم يمضي من نعيمك يمضي من بؤسِي مثلهُ، والأمد قريب والحكم لله، فأطلقه.

أسد القسري ودهقان يعذب:

ومر أسد بن عبد الله القَسريّ وهو والي خراسان، بدار من دور الاستخراج، ودِهقانٌ[2] يعذَّب في حبسه، وحول أسدٍ مَساكين يستجدونه. فأمر لهم بدراهم تُقسم فيهم. فقال الدهقان: يا أسد، إن كنت تُعطي من يُرْحَم فارحم من يُظْلَم فإن السموات تنفرج لدعوة المظلوم. يا أسد، أحذر مَن ليس له ناصر إلا الله، واتق من

(١) أدرأ: اتقي واحترز. (٢) الدهقان: التاجر، أو رئيس الاقليم.

لا جُنّة [1] له إلا الابتهال إلى الله. إن الظلم مَصرعه وخيم، فلا يغترّ بإبطاء الغياث مِن ناصر متى شاء أن يُجيب أجاب، وقد أمْلَى لقوم ليزدادوا إثماً. فأمر أسد بالكفّ عنه.

المأمون ورجل من خاصته:

عَتب المأمون على رجل من خاصّته، فقال: يا أمير المؤمنين، إن قديم الحُرمة، وحديث التَّوبة يَمْحُوان ما بينهما من الإساءة. فقال: صدقت. ورضي عنه.

ملك من ملوك فارس وصاحب مطبخه:

وكان ملك من ملوك فارس عظيمَ المملكة شديد النَّقمة، وكان له صاحبُ مطبخ، فلما قرَّب إليه طعامَه صاحب المطبخ سقطتْ نقطةٌ من الطعام على يديه، فزوى لها الملك وجهه؛ وعلم صاحب المطبخ أنه قاتلُه، فكفأ الصحفة على يديه. فقال الملك: عليّ به، فلما أتاه قال له: قد علمت أن سقوطَ النقطة أخطأتْ بها يدُك، فما عُذرك في الثانية؟ قال: استحييتُ للملك أن يَقتل مثلي في سني وقديم حُرمتي في نُقطة، فأردتُ أن أُعظِم ذنبي ليحْسن به قتلي، فقال له الملك: لئن كان لطفُ الاعتذار يُنجيك من القتل ما هو بمنجيك من العقوبة، اجلدوه مائة جلدة وخَلّوه.

المأمون ومحمد بن عبد الملك:

الشيباني قال: دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون حين قبض ضِياعهم، فقال: يا أمير المؤمنين، محمد بن عبد الملك بين يديك، ربيب دولتك، وسليل نعمتك؛ وغصن من أغصان دَوحتك؛ أتأذن في الكلام؟ قال: نعم قال: نستمنح الله حياطةَ ديننا ودنيانا، ورعايةَ أدنانا وأقصانا ببقائك؛ ونسأله أن يزيد في عُمرِك من أعمارِنا، وفي أثرك من آثارنا، ويقيَكَ الأذى بأسماعنا وأبصارنا. هذا مَقامُ العائذ بفضلك، الهاربِ إلى كنفك وظِلّك، الفقير إلى رحمتك وعَدلِك. ثم تكلم في حاجته، فقضاها.

---

(١) الجنّة: الدرع والحامي.

عبيد بن أيوب والحجاج:

وقال عُبيد بن أيوب، وكان يطلبه الحجاج لجناية جناها، فهرب منه وكتب إليه:

أَذِقْنِيَ طعمَ النومِ أو سَلْ حقيقةً عليّ فإنْ قامتْ ففصِّلْ بَنانِيَا(١)
خَلَعْتَ فؤادي فاستطارَ فأصبحتْ تَرامَى به البِيدُ القِفارُ تَرامِيَا(٢)

ولم يقل أحدٌ في هذا المعنى أحسنَ من قول النابغة الذبياني للنُّعمان بن المنذر:

أَتاني أبيت اللّعنَ أنكَ لُمْتَني وتلك التي تَسْتَكُّ منها المسامِعُ
فبِتُّ كأنّي ساوَرَتْني ضئيلةٌ من الرُّقْشِ من أنيابها السّمُّ ناقِعُ(٣)
أَكَلَّفْتَني ذَنْبَ امْرِئٍ وتركتَه كذِي العُرِّ يُكوَى غيرُهُ وهْو راتِعُ(٤)
فإنّك كالليل الذي هو مُدْرِكِي وإن خِلْتُ أنّ المُنْتأى عنكَ واسِعُ

وقال فيه أيضاً:

ولستَ بمستبْقٍ أخاً لا تَلُمُّهُ على شَعَثٍ أي الرجالِ المُهذَّبُ؟(٥)
فإنْ أكُ مظلوماً فعبدٌ ظَلَمْتَه وإن تَكُ ذا عَتْبٍ فمِثْلُكَ يُعتِبُ
حَلَفْتُ فلم أتْرُكْ لنفسِكَ ريبةً وليس وراءَ اللهِ للمرءِ مذهبُ
لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عَنّي جنايةً لَمبلِغُكَ الواشي أغشُّ وأكْذَبُ
ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أعطاك سورةً ترى كلَّ مَلْكٍ دونَها يتذبْذبُ(٦)
فإنّك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهنّ كوكبُ

وقال ابن الطَّثْرية:

فهنّي امْرءًا إمّا بريئاً عَلِمْتَهُ وإما مُسِيئاً تابَ منه وأَعْتَبا

---

(١) قامت: ثبتت.

(٢) استطار: هلع وانخلع من الخوف.

(٣) ساورتني: واثبتني، والضئيلة: الحيّة الدقيقة اللحم، الرقش: جمع رقشاء وهي المنقطة بنقط سود وبيض وناقع: مجتمع وكامن.

(٤) العرّ: الجرب.

(٥) لا تلمه على شعث: لا تستبقيه على ما فيه من عيوب.

(٦) السورة: المنزلة العالية، ويتذبذب: يضطرب.

وكنتَ كـذِي داءٍ تَبَغَّـى لـدائـهِ طبيباً فلمَّـا لَـمْ يَجِـدْه تَطَبَّبـا

وقال الممزَّق العبدي لعمرو بن هند:

تَرُوحُ وتغـدو مـا يُحَـلُّ وضِينُهـا إليك ابنَ ماءِ المُزْنِ وابـنَ محرَّق(١)

أَحَقاً أَبَيْتَ اللَّعْنَ إنّ ابـن مُـزْننـا على غيْرِ إجرامٍ بِرِيقـي مُشَـرَّقـي

فإن كنتُ مأكولاً فكن خيرَ آكـلٍ وإلاّ فـأَدْرِكْني ولَمّا أُمَـزَّقِ

فأنت عَمِيدُ الناسِ مهما تَقُلْ نَقُـلْ ومهما تَضَعْ من بـاطِـلٍ لا يُلَحَّـقِ

وتمثل بهذه الأبيات عثمان بن عفان في كتابه إلى علي بن أبي طالب يوم الدار.

لابن الزيات يستعطف المتوكل:

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات، لما أحسّ بالموت وهو في حبس المتوكل، برُقعة إلى المتوكل، فيها:

هي السبيـلُ فمِـن يـومٍ إلى يـومِ كأنَّهُ مـا تُـرِيـك العينُ في النَّـوْمِ

لا تَعْجَلَـنّ رُويـداً إنّما دُوَلٌ دُنيـا تَنقّـلُ مـن قـومٍ إلى قـومِ

إنّ المَنايا وإنّ أصبحـتَ ذا فَـرحٍ تَحُومُ حولَـكَ حَـوْمـاً أيّما حَـوْمِ

فلما وصلتْ إلى المتوكل وقرأها أمر بإطلاقه، فوجدوه ميتاً.

وقال عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة للمنصور، وقد أراد عقوبة رجل: يا أمير المؤمنين، إن الانتقام عدل، والتجاوز فضل، والمتفضِّل قد جاوز حدّ المنصف، ونحن نُعيذ أمير المؤمنين أن يرضي لنفسه أوكَس(٢) النصيبين دون أن يبلغ أرفعَ الدرجات.

أبو مسلم وبعض قواده:

جرى بين أبي مسلم صاحبِ الدعوة وقائدٍ من قواده يقال لهم شَهْرام، كلام، فقال

(١) الوضين للهودج: بمنزلة البطان للقتب. (٢) الأوكس: الأنقص.

له قائدهُ كلمةً فيها بعض الغلَظ، ثم ندم على ما كان منه، فجعل يتضرع ويتنصّل إليه. فقال له أبو مُسلم: لا عليك، لسانٌ سَبق، ووهم أخطأ، إنما الغَضب شيطان، وإنما جَرَّأتك عليّ لطول احتمالي عنك، فإن كنتَ للذنب متعمِّداً ففقد شاركتُك فيه، وإن كنت مغلوباً فإن العذر يسعك، وقد عفونا على كل حال. فقال: أصلح الله الأمير، إنّ عفو مثلك لا يكون غروراً. قال: أجل. قال: فإنّ عِظَم الذنبِ لا يَدَعُ قلبي يَسْكن. وألح في الآعتذار. فقال له أبو مسلم: عجباً لك! إنك أسأت فأحسنت، فلما أحسنتَ أُسيء.

المأمون وأبو دلف وقد رضي عنه:

دخل أبو دلف على المأمون، وقد كان عَتب عليه ثم أقاله، فقال له وقد خلا مجلسه؛ قل أبا دلف، وما عَسيت أن تقول وقد رضي عنك أمير المؤمنين وغَفر لك ما فعلت؟ فقال: يا أمير المؤمنين.

لياليَ تُدْني منك بالبِشْرِ مَجلسي ووجهُك مِن ماءَ البَشاشةِ يَقْطُرُ
فمنْ لِيَ بالعْينِ التي كنت مَرّةً إليّ بها في سالفِ الدهرِ تَنظرُ

قال المأمون: لك بها رجوعُك الى المُناصحة، وإقبالُك على الطاعة. ثم عاد له إلى ما كان عليه.

بين المأمون وأبي دلف:

وقال له المأمون يوماً: أنت الذي تقول:

إنّي امْرُؤ كِسروِيٌّ الفَعالِ أَصِيفُ الجبالَ وأشْتو العِراقا

ما أراك قَدَّمت لحقِّ طاعة، ولا قضيتَ واجبَ حُرمة! قال له يا أمير المؤمنين إنما هي نعمتك ونحن فيها خدمُك، وما هِراقةُ دمي في طاعتك إلا بعض ما يجب لك.

ودخل أبو دلف على المأمون. فقال: أنت الذي يقول فيك ابن جبلة:

إنّما الدّنيا أبو دُلَفٍ بين باديه ومُحْتَضرِهْ

فـإذا ولّـى أبـو دُلـفٍ ولّـتِ الدنيـا على أثـرهْ

فقال: يا أمير المؤمنين، شهادة زور، وكذب شاعر، وملَق مُستَجْدٍ[1]؛ ولكني الذي يقول فيه أبن أخيه:

ذَريني أجوبُ الأرضَ في طلب الغِنى فما الْكرْخُ بالدنيا ولا الناسُ قاسِمُ

الكرخ: منزل أبي دلف. وكان اسمه قاسم بن عبد الله.

المنصور ومعن بن زائدة:

وقال المنصور لمعن بن زائدة: ما أظنّ ما قيل عنك من ظُلْمك أهلَ اليمن واعتسافِك عليهم إلا حقا؟ قال: كيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: بلغني عنك أنك أعطيت شاعراً لبيت قاله ألف دينار. وأنشده البيت، وهو:

مَعْنُ بنُ زائِـدةَ الذي زِيـدتْ بـه فجـراً إلى فجـرٍ بنـو شَيبـانِ

قال: نعم يا أمير المؤمنين، قد أعطيتهُ ألف دينار، ولكن على قوله:

مـا زلـتَ يـومَ الهاشِمِيَّـةِ مُعْلِماً بالسيفِ دون خليفةِ الرْحمـنِ
فَمنَعْـتَ حَـوْزتَـه وكنـت وِقَـاءَهُ مِن وقْعِ كـلِّ مُهَنَّـدٍ وسِنـانِ

قال: فاستحيا المنصور وجعل ينكُت[2] بالمخصرة، ثم رفع رأسه وقال: اجلس أبا الوليد.

عبد الملك وأعرابي سرق:

أتي عبد الملك بن مروان بأعرابيّ سَرَق، فأمر بقطع يده، فأنشأ يقول:

يَدي يا أميرَ المؤمنينَ أُعيـذُهـا بعفوِك أن تلقى مكاناً يَشينُها
ولا خيْرَ في الدنيا وكانت حبيبةً إذا ما شِمالي فـارَقتْهـا يَمينُهـا

فأبى إلا قَطْعَه؛ فقالت أُمه: يا أمير المؤمنين، واحِدِي وكاسِبِي. قال: بئس

(١) الملق: الخداع والمكر. (٢) ينكش: يحفر.

الكاسبُ كان لك، وهذا حدّ من حدود الله. قالت: يا أمير المؤمنين، اجعله من بعض ذنوبك التي تستغفر الله منها! فعفا عنه.

تذكير الملوك بذمام متقدم

المأمون وابن أشرس:

قال ثُمامةٌ بن أشرس للمأمون لما صارت إليه الخلافة: كان لي أمَلان: أملٌ لك وأملٌ بك، فأمّا أَمَلي لك فقد بلغتهُ، وأما أملي بك فلا أدري ما يكون منك فيه.

قال: يكون أفضلَ ما رَجَوْتَ وأمَّلت. فجعله من سُمَّارِه وخاصّته.

يزيد بن عبد الملك والأبرش:

الأصمعي قال: لما مات يزيد بن عبد الملك وصارت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك، خرَّ أصحابه سجودا، إلا الأبرش الكلبي. فقال له: يا أبرش، ما منعك أن تسجد كما سجدوا؟ قال: يا أمير المؤمنين، لأنك ذهبت عنا وتركتَنا: قال: فإن ذهبت بك معي؟ قال: أو تفعل يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قال: فالآن طاب السجود، ثم سجد.

أبو جعفر ورجل من إخوانه يهنئه بالخلافة:

ولما صارت الخلافة إلى ابي جعفر كتب إليه رجل من إخوانه:

إنّا بِطانتُك الأُلى كنا نُكابِدُ ما تُكابِدْ
ونُرَى فنُعرفُ بالعَدا وة والبِعادِ لمن تُباعِدْ
ونَبيت من شَفَقٍ عليك رَبِيئةً والليلُ هاجِدْ[1]
هذا أوانُ وفاءِ ما سَبَقت به منك المواعِدْ

---

(١) الربيئة: طليعة الجيش الكشّافة التي ترقب العدو. وهاجد ساكن.

لحبيب:

فوقّع أبو جعفر على كل بيت منها: صدقت صدقت. ثم دعا به وألحقَه في خاصته. وقال حبيب الشاعر في هذا المعنى:

وإنَّ أَوْلى الموالي أنْ تُـــواسِيَـــهُ   عند السرور لمن واسـاكَ في الحَزَنِ
إنَّ الكِرام إذا ما أسْهَلـوا ذَكـروا   من كان يَألَفُهم في المَوْطِنِ الخَشِـنِ

حسن التخلص من السلطان

العباس بن سهل وعثمان بن حيان:

أبو الحسن المدائني قال: كان العباس بن سهل والي المدينة لعبد الله بن الزبير، فلما بايع الناسُ عبد الملك بن مروان، ولىّ عثمان بن حيّان المُرّي وأمره بالغلظة على أهل الظِنَّة [1]. فعرض يوما بذكر الفتنة وأهلها، فقال له قائل: هذا العباس بن سهل على ما فيه، كان مع الزبير وعَمِل له. فقال عثمان بن حيّان: ويلي! والله لأقتلنّه.

قال العبّاس: فبلغني ذلك، فتغيَّبْتُ حتى أضرَّ بيَ التغيُّب، فأتيتُ ناسا من جُلسائه فقلت لهم: مالي أخاف وقد أمَّنني عبد الملك بن مروان؟ فقالوا: والله ما يَذْكُرك إلا تغيَّظَ عليك، وقلّما كُلّم على طعامه في ذنبٍ إلا آنبسط، فلو تَنكَّرْتَ وحضرتَ عشاءه وكلمته.

قال: ففعلتُ، وقلتُ على طعامه، وقد أُتي بجفنةٍ ضخمة ذات ثريد ولحم: «والله لكأني أنظر إلى جِفنةِ حَيّان بن مَعبد، والناسُ يَتكاوَسون [2] عليها، وهو يطوف في حاشيته يتفقّد مصالحها، يسحب أردية الخزّ، حتى إن الحسك ليتعلق به فما يُميطُه [3]، ثم يُؤتَى بجفنة تَهادى بين أربعة ما يستقلّون بها إلا بمشقّةٍ وعناء، وهذا بعدما يفرغ الناس من الطعام ويتنَحّون عنه، فيأتي الحاضر من أهله، والطارِيءُ من أشراف

(١) الظنّة: التهمة.

(٢) يتكاوسون: يتراكمون ويتزاحمون. (٣) يميطه: يزيله ويبعده.

قومه، وما بأكثرهم من حاجة إلى الطعام، وما هو إلا الفخر بالدنوّ من مائدته والمشاركة ليده.

قال: هيه! أنت رأيت ذلك؟ قلت: أجل والله. قال لي: من أنت؟ قلت: وأنا آمِن؟ قال: نعم. قلت: العباس بن سهل بن سعد الأنصاري. قال: مرحَبًا وأهلا، أهل الشرف والحق. قال: فلقد رأيتُني بعد ذلك وما بالمدينة رجل أوجه مني عنده. فقيل له بعد ذلك: أنت رأيت حيّان بن معبد يسحب أردية الخز ويتكاوس الناس على مائدته؟ فقال: والله لقد رأيته ونزلنا ذلك الماءَ وغَشِينا وعليه عباءةٌ ذَكْوانيّة، فلقد جعلنا نذُوده عن رحْلنا مخافة أن يسرقه.

بين المختار وسراقة:

أبو حاتم قال: حدثنا أبو عبيدة قال: أُخِذ سُراقة بن مرداس البارقي أسيراً يوم جَبّالة السُّبَيْع، فقُدِّم في الأسرى إلى المختار؛ فقال سُراقة:

امْنُن عليَّ اليوْمَ يا خيْـر مَعَـدّ ... وخيْرَ من لَبّى وصلّى وسَجَـدْ

فعفا عنه المختار وخلّى سبيله.

ثم خرج مع إسحاق بن الأشعث فأُتي به المختارُ أسيرا. فقال له: ألم أعْفُ عنك

ثم خرج مع إسحاق بن الأشعث فأُتي به المختارُ أسيرا. فقال له: ألم أعْفُ عنك
وأمنّ عليك؟ أما والله لأقتلنَّك. قال: لا والله لا تفعل إن شاء الله. قال: ولِمَ؟ قال: لأنّ أبي أخبرني أنك تفتح الشام حتى تَهدِمَ مدينة دمشق حجراً حجرا وأنا معك، ثم أنشده:

ألا أبْلِـغْ أبـا إسْحـاقَ أنّـا ... حَملْنا حَملةً كـانـتْ علينْـا
خـرَجْنـا لا نَـرى الضُّعفـاء منّـا ... وكانَ خُـروجُنـا بطَـراً وحَيْنَـا[1]
تَـراهُـمْ في مَصفِّهـم قليلاً ... وهُـم مِثْـلُ الدَّبَـى لما التَقَيْنـا[2]

(١) البطر: التمرُّد على النعمة. والحين: الهلاك. (٢)الدَّبى: الجراد.

فأسْجِحْ إذْ قَدَرَتَ فلوْ قَدرْنا لَجرْنا في الحُكومَةِ واعتَدْينا[1]
تقبَّلْ تَوْبَةً مِنّي فإني سأشْكُرُ إنْ جَعلْتَ النَّقْدَ دَيْناً

قال: فخلىّ سبيله.

ثم خرج إسحاق بن الأشعث ومعه سراقة، فأُخذ أسيرا وأُتي به المختار، فقال: الحمد لله الذي أمكنني منك يا عدوّ الله. هذه ثالثة. فقال سراقة: أمّا والله ما هؤلاء الذين أخذوني! فأين هم... لا أراهم؟ إنا لما التقينا رأينا قوما عليهم ثياب بيض، وتحتهم خيْل بُلْقٌ[2] تطير بين السماء والأرض.

فقال المختار خلوا سبيله ليخبر الناس.

ثم دعا لقتاله فقال:

ألا مَنْ مُبْلِغ المُخْتَار عَنّي بِأنّ البُلْقَ دُهْمٌ مُصْمتات[3]
أُرِى عيْنَيَّ ما لمْ تَرَأَيَاهُ كِلانا عالِمٌ بِالتُّرَّهاتِ[4]
كفَرْتُ بِوَحْيِكُمْ وجَعَلْتُ نَذْراً عَلَيَّ قِتالَكُمْ حتى المَماتِ

معن بن زائدة وبعض الأسرى:

كان معن بن زائدة قد أمر بقتل جماعة من الأسرى، فقام إليه أصغرُ القوم فقال له: يا معن، أتقتل الأسرى عطاشاً؟ فأمِر لهم بالماء؛ فلما سُقُوا قال: يا معن: أتقتل ضِيفانك؟ فأمر مَعْن بإطلاقهم.

عمر بن الخطاب والهرمزان:

لما أُتي عمر بن الخطاب بالهُرمزان أسيراً، دعاه إلى الإسلام، فأبى عليه. فأمَر

---

(١) أسجح: أحسن العفو.
(٢) البلق: التي في لونها سواد وبياض.
(٣) في بعض الأصول «مضمرات» ومصمتات: أي لا يخالط لونها لون آخر.
(٤) الترّهات: الأقوال التي ليس وراءها طائل أو نفع، والباطل من القول.

بقتله، فلما عُرِض عليه السيف قال: لو أمرتَ لي يا أمير المؤمنين بشَربةٍ من ماء، فهو خير من قتلي على الظمأ. فأمر له بها؛ فلما صار الإناءُ بيده قال: أنا آمِنٌ حتى أشرب؟ قال: نعم. فألقى الإناء من يده وقال: الوفاءُ يا أمير المؤمنين نورٌ أبلج. قال: لك التوقُّفُ حتى أنظر في أمرك، آرفعا عنه السيف. فلما رُفع عنه قال: الآن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله. فقال له عمر: ويحك! أسلمتَ خير إسلام، فما أخَّرَك؟ قال: خشيتُ يا أمير المؤمنين أن يقال إن إسلامي إنما كان جَزَعاً من الموت. فقال عمر: إن لِفارِسَ حُلوماً بها استحقَّتْ ما كانت فيه من المُلْك. ثم كان عمر يُشاوره بعد ذلك في إخراج الجيوش إلى أرض فارس ويعملُ برأيه.

الحجاج وبعض من أسر مع ابن الأشعث:

لما أُتي الحجاج بالأسرى الذين خرجوا مع آبن الأشعث، أمَرَ بقتلهم؛ فقال رجل أصلح الله الأمير، إن لي حُرمة. قال: وما هي؟ قال: ذكِرْتَ في عسكر ابن الأشعث فشتمْتَ في أبويك، فعرَضْتُ دونها؛ فقلت: لا والله مافي نسبه مَطعن، فقولوا فيه ودَعُوا نسبَه. قال ومن يعلم ما ذكرت؟ [قال] فالتفتُّ إلى أقْرب الأسرى إليَّ فقلت: هذا يعلمه. قال له الحجاج: ما تقول فيما يقول؟ قال: صدق ـ أصلح الله الأمير ـ وبَرّ. قال: خليا عن هذا لنُصْرَته، وعن هذا لحفظ شهادته.

روح بن حاتم وبعض المتلصصين:

عمرو بن بحر الجاحظ قال: أُتي روحُ بن حاتم برجل كان متلصِّصا في طريق الرّقاق، فأمر بقتله؛ فقال: أصلح الله الأمير، لي عندك يد بيضاء. قال: وما هي؟ قال: إنك جئت يوماً إلى مجمع موالينا بني نَهشل والمجلس مُحتفل، فلم يتحفَّز لك أحد فقمتُ من مكاني حتى جلستَ فيه، ولولا مَحْضُ كرمك، وشرفُ قدرك، ونباهة أوّلِيَّتِك، ما ذكَّرْتُك هذه عند مثلِ هذا. قال ابن حاتم: صدق، وأمر بإطلاقه وولاه تلك الناحية وضَمَّنه إياها.

ولما ظفر المأمون بأبي دُلف، وكان يقطع في الجبال، أمر بضرْبِ عنقِه؛ فقال: يا أمير المؤمنين دعْني أركع ركعتين. قال: آفعل. فركع وحَبَّر أبياتاً، ثم وقف بين يديه فقال:

بِعْ بِيَ النَّاسَ فإنِّي خلَفٌ مِمَّنْ تبيعُ
واتَّخِذْني لَكَ دِرعاً قَلَصَتْ عنهُ الدُّرُوعُ[1]
وارْمِ بي كُلّ عدُوٍّ فأنا السَّهْمُ السَّرِيعُ

فأطلقه وولاّه تلك الناحية، فأصلحها.

معاوية وأسير من أهل العراق:

أُتي معاوية يومَ صِفِّين بأسير من أهل العراق، فقال: الحمد لله الذي أمْكنني منك! قال: لا تَقُل ذلك يا معاوية، فإنها مُصيبة! قال: وأي نعمة أعظم من أن أمكنني الله من رجل قتل جماعة من أصحابي في ساعة واحدة؟ آضربْ عنقَه يا غلام! فقال الأسير: اللهم اشهد أن معاوية لم يقتلْني فيك، ولا لأنك ترضى بقتلي: وإنما يقتلني في الغلبة على حُطَام هذه الدنيا؛ فإن فعل فافعلْ به ما هو أهله، وإن لم يفعل فافعلْ به ما أنت أهله.

قال له: ويحك! لقد سببتَ فأبلغت، ودعوت فأحسنت؛ خلِّيا عنه.

مصعب بن الزبير ورجل من أصحاب المختار:

أمَر مصعبُ بن الزبير برجل من أصحاب المختار أن تُضْرَبَ عنقهُ، فقال أيها الأمير، ما أقبحَ بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذي يُستضاءُ به، فأتعلقَ بأطرافك وأقول: أيْ ربّ، سَلْ هذا فيمَ قتلني؟ قال: أطلقوه. قال: اجعل ما وهبتَ لي من حياتي في خَفْض. قال: أعطوه مائة ألف. قال

(١) قلصت: تقلصت وابتعدت.

الأسير: بأبي أنت وأمي، أُشهِد أن لقيس الرُّقيات منها خمسين ألفاً. قال: ولِمَ؟ قال: لقوله فيك:

إنّما مُصْعَبٌ شهابٌ مِنَ اللهِ تَجلَّتْ عن وجْهِه الظَّلْماءُ
مُلكه مُلك رحمةٍ ليس فيه جبَرُوتٌ يُخشى ولا كِبْرياءُ
يتّقي اللهَ في الأمُورِ وقَدْ أفْلَحَ مَن همهُ الاتّقاءُ

فضحك مصعب وقال: أرى فيك موضعاً للصنيعة. وأمر بلزومه وأحسنَ إليه؛ فلم يزل معه حتى قُتِل.

عبد الملك ورجل أمر بقتله:

أمر عبد الملك بقتل رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، إنك أعزَّ ما تكون أحوَجُ ما تكون إلى الله. فعفا عنه.

الحجاج وأسرى من الخوارج:

أُتي الحجاج بأسرى من الخوارج، فأمر بضرب أعناقهم فقُدِمَ فيهم شابٌ فقال: والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب فما أحسنت في العفو. فقال: أفٍّ لهذه الجِيف. ما كان فيهم مَن يقول مثل هذا؟ وأمسك عن القتل.

وأُتي الحجاج بأسرى، فأمر بقتلهم، فقال له رجل منهم: لا جزاك الله يا حجاج عن السُّنَّة خيراً؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿فإذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفروا فضَرْبَ الرِّقابِ حتى إذا أثْخَنْتُموهم فَشُدُّوا الوَثاقَ فإمَّا مَنًّا بَعْدُ وإما فِدَاءً﴾ (١). فهذا قول الله في كتابه. وقد قال شاعركم فيما وَصَفَ به قومَه من مكارم الأخلاق:

وما نَقتُلُ الأسَرى ولكنْ نَفُكُّهُمْ إذا أثْقَلَ الأعناقَ حَمْلُ القَلائِد

فقال الحجاج: ويْحكم! أعجزتم أن تُخبروني بما أخبرني هذا المنافق؟ وأمسك عمن بقي.

---

(١) سورة محمد الآية ٤.

الحجاج وحرورية:

الهيثم بن عدي قال: أُتي الحجاج بحَرُورِيّة، فقال لأصحابه: ما تقولون في هذه؟ قالوا: اقتلها. أصلح الله الأمير، ونكِّل بها غيرَها! فتبسَّمَت الحرورية. فقال لها: لم تبسَّمْتِ؟ فقالت: لقد كان وزراءُ أخيك فرعون خيرٌ من وزرائك يا حجاج: استشارهم في قتل موسى فقالوا: أَرْجِه وأخاه، وهؤلاء يأمرونك بتعجيلِ قتلي، فضحك الحجاج وأمر بإطلاقها.

قال معاوية ليونس الثقفي: آتق الله؛ لأُطيرنَّك طِيرة بطيئاً وقوعُها، قال: أليس بي وبك المرجع إلى الله؟ قال: نعم. قال: فأستغفر الله.

ودخل رجل من بني مخزوم على عبد الملك بن مروان، وكان زُبيرياً، فقال له عبد الملك: أليس الله قد ردَّك على عقبيك؟ قال: ومَن رُدَّ إليك يا أمير المؤمنين فقد رُدَّ على عقبيه، فسكت عبد الملك وعلم أنه أخطأ.

دخل يزيد بن أبي مُسلم على سليمان بن عبد الملك؛ فقال له سليمان: على آمريءٍ أمَّرك وجرَّأك وسلَّطك على الأمة لعنةُ الله، أتظن الحجاج استقرّ في قعر جهنم أم هو يهوي فيها؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن الحجاج يأتي يوم القيامة بين أخيك وأبيك، فضَعْه من النار حيث شئت.

قال عبيد الله بن زياد لقيس بن عَباد: ما تقول فيّ وفي الحُسين؟ قال: أَعْفِني عافاك الله. قال: لا بدّ أن تقول. قال: يجيء أبوه يوم القيامة فيشفع له، ويجيء أبوك فيشفع لك.

قال: قد علمتُ غِشَّك وخُبثَك، لئن فارقتني يوماً لأضعنّ أكثرَك شَعراً بالأرض.

الحجاج وابن يعمر في الحسين:

الأصمعي قال: بعث الحجاج إلى يحيى بن يعمر، فقال له: أنت الذي تقول إنّ

الحسينَ بنَ علي ابن عمِّ رسول الله ﷺ ابنُ رسول الله؟ لتأتينّي بالمخرج مما قلتَ أو لأضربنَّ عُنقَكَ! فقال له ابنُ يعمر: وإن جئتُ بالمخرج فأنا آمن؟ قال: نعم. قال: اقرأ: ﴿وتِلْكَ حُجَّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ نَرْفعُ دَرجاتٍ مَن نَشاءُ إنّ ربَّكَ حكيمٌ عليمٌ ووَهَبْنا له إسحقَ ويعقوبَ كُلاًّ هَدَيْنا ونوحاً هَدينا من قبلُ ومن ذُرِّيَّتِه داودَ وسليمانَ وأيوبَ ويوسُفَ وموسى وهرُونَ وكذلك نَجْزي المُحسنينَ، وزَكريَّا ويَحْيىٰ وعيسى﴾ [١] فَمنْ أبعدُ [٢]: عيسى من إبراهيم، أو الحسينُ من محمدٍ ﷺ؟ وإنما هو ابنُ بنته، فقال له الحجاج: والله لكأني ما قرأتُ هذه الآية قط، وولاه قضاء بلده، فلم يزل بها قاضياً حتى مات.

الحجاج وابن أبي ليلى:

أبو بكر ابن شَيبة بإسناده قال: دخل عبد الرحمن بن أبي ليلى على الحجاج، فقال لجلسائه: إن أردتم أن تنظروا إلى رجل يَسُبُّ أمير المؤمنين عثمان بن عفان فهذا عندكم، يعني عبد الرحمن، فقال عبد الرحمن: معاذ الله أيها الأمير أن أكون أسُبُّ أمير المؤمنين، إنه ليَحْجزني عن ذلك ثلاثُ آياتٍ في كتاب الله: قال الله تعالى: ﴿لِلفُقراءِ المُهاجرينَ الذينَ أُخرجوا مِن دِيارِهِمْ وأموالِهمْ يَبتَغونَ فضلاً من اللهِ ورِضْواناً وينصُرونَ اللهَ ورسولهَ أُولئكَ هُمُ الصادِقون﴾ [٣] فكان عثمان منهم. ثم قال: ﴿والَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّار والإيمانَ من قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إليهم ولا يجِدُون في صُدورِهِمْ حاجةً مما أُوتوا ويُؤْثِرونَ على أنفُسِهم ولو كان بهم خصاصةٌ، ومَن يوقَ شُحَّ نفسِه فأولئك همَ المفلِحون﴾ [٤] فكان أبي منهم. ثم قال: ﴿والذين جاءُوا من بَعدِهم يقولون ربَّنا اغْفِر لنا ولإخواننا الذينَ سَبقونا بالإيمانِ ولا تجعَلْ في قُلوبِنا غِلا للذين آمنوا رَبَّنا إنك رءُوفٌ رحيمٌ﴾ [٥] فكنت أنا منهم. فقال: صدقت.

---

(١) سورة الأنعام الآية ٨٣. (٢) في بعض الأصول «أقرب».
(٣) سورة الحشر الآية ٨.
(٤) سورة الحشر الآية ٩. (٥) سورة الحشر الآية ١٠.

الحجاج وعاصم بن أبي وائل:

أبو عَوانة عن عاصم بن أبي وائل قال: بعث إليّ الحجاج فقال لي: ما اسمك؟ قلت: ما أرسل إليّ الأمير حتى عرف آسمي! قال: متى هَبطتَ هذا البلد؟ قلت: حين هبط أهلُه. قال: ما تقرأ من القرآن؟ قلت: أقرأ منه ما إذا تَبعتُه كَفاني. قال: إني أريد أن أستعين بك في عملي. قلت: إنْ تَسْتعِينْ بي تستعنْ بكبيرٍ أخرق [1]، ضعيفٍ يَخافُ أعوانَ السوء؛ وإن تَدَعْني فهو أحبُّ إليّ، وإن تقحمْني أتقحَّم. قال: إن لم أجد غيرَك أقحمتك، وإن وجدتُ غيرك لم أُقحمك. قلت؛ وأخرى أكرم اللهُ الأمير: إني ما علمتُ الناسَ هابوا أميراً قط هيبتَهم لك والله إني لأتعارُّ [2] من الليل فما يأتيني النوم من ذكرك حتى أُصبح؛ هذا ولست لك على عمل. قال: هيه! كيف قلتَ؟ فأعدت عليه؛ فقال: إني والله لا أعلم على وجه الأرض خَلْقاً هو أجرأ على دم مني، انصرِفْ. قال: فقمت فعدلت عن الطريق كأني لا أُبصر؛ فقال: أرشدوا الشيخ.

الحجاج وأسرى الجماجم:

لما أتي الحجاج بأسرى الجماجم، أُتي فيهم بعامرٍ الشَّعْبي، ومطرِّف بن عبد الله الشِّخِّير وسعيد بن جُبير، وكان الشعبي ومطرِّف يَريان التَّقيَّة، وكان سعيد بن جبير لا يراها، وكان قد تقدم كتابُ عبد الملك بن مروان إلى الحجاج في أسرى الجماجم، أن يَعْرِضَهُم على السيف. فمن أقرّ منهم بالكفر في خروجهم علينا فيُخَلّي سبيلَه، ومن زعم أنه مؤمن فيضْرِب عنقه. فقال الحجاج للشعبي: وأنت ممن ألَّبَ علينا مع ابن الأشعث؟ اشهَدْ على نفسك بالكفر. فقال: أصلح الله الأمير، نبَا [3] بنا المنزل، وأحْزَنَ بنا الجَناب، واستَحْلَسنا [4] الخَوْف، واكتَحَلْنا السهر، وخَبَطَتنا فتنةٌ لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فَجَرَةً أقوياء. قال: لله أبوك! لقد صدقت: ما بَرَرْتُم بخروجكم علينا ولا قَويتُم، خَلُّوا سبيلَ الشيخ.

(١) الأخرق: الأحمق الضعيف الرأي.
(٢) التعارّ: السهر والتقلّب على الفراش ليلاً.
(٣) نبا: بعد.
(٤) استحلسنا الخوف: لزمنا

ثم قال للمطرِّف: أتُقر على نفسك بالكفر؟ قال: أصلح الله الأمير، إن مَن شَق العصا، وسفك الدماء، ونكث البَيْعة، وفارق الجماعة، وأخاف المسلمين لجديرٌ بالكفر. فخَلَّى سبيلَه.

ثم قال لسعيد بن جُبير: أتقِرُّ على نفسك بالكفر؟ قال: ما كفرتُ منذ آمنتُ بالله. فضرب عنقه.

ثم استعرض الأسرى، فمن أقرّ بالكفر خلّى سبيلَه، ومن أبَى قَتله، حتى أُتي بشيخ وشاب، فقال للشاب: أكافرٌ أنت؟ قال: نعم، قال: لكن الشيخ لا يرضى بالكفر. فقال له الشيخ: أعَن نفسي تخادعني يا حجاج؟ والله لو علمت أعظم من الكفر لقلتُه. فضحك الحجاج وخلَّى سبيله.

فلما مات الحجاج وقام سليمان، قال الفرزدق:

لئِنْ نفّر الحجّاجَ آلُ مُعَتِّبٍ	لقُوا دولةً كانَ العدوُّ يدالُها
لقد أصبح الأحياءُ منْهُم أذِلّةً	وموْتاهُمُ في النّارِ كُلْحاً سِبالُها (١)
وكانوا يَرَوْنَ الدائرات بغيْرِهِمْ	فصارَ عليهِم بالعذاب انْفِتالُها
أَلِكْني إلى مَن كانَ بالصِّينِ أو رمى	به الهند ألواحٌ علَيْها جِلالُها (٢)
هلُمّ إلى الإسلامِ والعدل عِندنا	فقدْمات عنْ أهلِ العِراق خبالُها (٣)

سليمان بن عبد الملك وابن الرقاع:

لما ولي سليمان بن عبد الملك كتب إلى عامله بالأردن: اجمع يَديْ عدِيِّ بن الرقاع إلى عنقه، وابعث به إليّ على قَتب بلا وِطاء، ووكِّل به مَنْ ينخس به ففعل ذلك. فلما انتهى إلى سليمان بن عبد الملك أُلْقى بين يده إلقاءً لا روح فيه، فتركه حتى ارتدَّ إليه روحُه، ثم قال له: أنت أهل لما نَزلَ بك. ألست القائل في الوليد:

(١) السبال: الشارب.

(٢) ألكني: أرسلني. ويريد بالأمواج: السفن، والجلال: الشُّرع.

(٣) الخبال: الفساد في الرأي.

معاذ ربِّيَ أن نبْقَى ونفْقِدَهُ   وأن نكونَ لِرَاعٍ بعدَهُ تبعَاً

قال: لا والله يا أمير المؤمنين، ما هكذا قلت، وإنما قلت:

معاذ ربِّيَ أَنْ نبقَى ونفْقِدهُمْ   وأَنْ نكونَ لراعٍ بعدهُمْ تبعا

فنظر إليه سليمان وآستضحك، فأمر له بصلة وخلّى سبيله.

شريك والربيع بين يدي المهدي:

العتبي قال: كان بين شَريك القاضي والربيع حاجب المهدي، معارضة؛ فكان الربيع يحمل عليه المهديَّ فلا يلتفت إليه، حتى رأى المهديُّ في منامه شريكا القاضيَ مَصروفاً وجهُه عنه، فلما آستيقظ من نومه دعا الربيع وقصّ عليه رؤياه. فقال: يا أمير المؤمنين، إن شَريكاً مخالفٌ لك وإنه فاطميٌّ محض. قال المهدي: عليّ به؛ فلما دخل عليه قال له: يا شريك، بلغني أنك فاطميّ. قال له شريك: أُعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون غير فاطمي، إلا أنْ تَعْني فاطمةَ بنتَ كسري. قال: ولكني أعني فاطمة بنت محمد ﷺ. قال: أفتلْعنُها يا أمير المؤمنين؟ قال: معاذ الله! قال: فماذا تقول فيمَن يلعنُها؟ قال: عليه لعنة الله. قال: فالعنْ هذا ـ يعني الربيع ـ فإنه يلعنها، فعليه لعنة الله. قال الربيع: لا والله يا أمير المؤمنين، ما ألعنها. قال له شريك: يا ماجن، فما ذِكْرُك لسيدة نساءِ العالمين وابنةِ سيِّد المرسلين في مجالس الرجال؟ قال المهدي: دعْني من هذا، فإني رأيتك في منامي كأنّ وجهَك مصروفٌ عنّي وقفاك إليّ، وما ذلك إلا بخلافك عليّ، ورأيتُ في منامي كأني أقتل زِنديقاً. قال شريك: إن رؤياك يا أمير المؤمنين ليست برؤيا يوسفَ الصِّدِّيق صلوات الله على محمد وعليه، وإن الدماءَ لا تُستحَل بالأحلام، وإنّ علامة الزندقة بيِّنة. قال: وما هي؟ قال: شربُ الخمر، والرِّشا في الحكم، ومَهر البغِيّ. قال: صدقت والله أبا عبد الله! أنت والله خيرٌ من الذي حَملني عليك.

ودخل شريك القاضي على المهديّ، فقال له الربيع: خُنْتَ مالَ الله ومال أمير المؤمنين. قال: لو كان ذلك لأتاك سَهْمُك.

الحجاج وجامع المحاربي:

العتبي قال: دخل جامع المحاربي على الحجاج ـ وكان جامع شيخاً صالحاً خطيباً لبيباً جريئاً على السلطان وهو الذي قال للحجاج إذ بنى مدينة واسط بَنيْتها في غير بلدِك، وتورثُها غيرَ ولدك ـ فجعل الحجاج يشكو سوءَ طاعةِ أهل العراق وقُبح مذهبِهم. فقال له جامع: أمَا إنه لو أحبُّوك لأطاعوك، على أنهم ما شَنِئوك لنَسَبك، ولا لبلدِك، ولا لذات نفسك؛ فدع عنك ما يُبعدُهم منك إلى ما يُقرِّبُهم إليك، والتمس العافية ممن دونك، تُعطَها ممن فوقَك، وليكن إيقاعُك بَعد وعيدِك، ووعيدُك بعد وعْدِك. قال الحجاج: ما أرى أن أردّ بني اللَّكيعة[1] إلى طاعتي إلا بالسيف. قال: أيها الأمير، إنّ السيف إذا لاقى السيفَ ذَهَب الخِيار. قال الحجاج: الخيارُ يومئذ لله. قال: أجل، ولكنك لا تدري لمن يجعله الله. فغضب وقال: يا هناهُ[2]، إنك من مُحارب. فقال جامع:

وللحربِ سُمِّينا وكنّا مُحارباً ... إذا ما القَنا أمسى منَ الطَّعنِ أحمرا

فقال الحجاج: والله لقد هممتُ بأن أخلع لسانَك فأضرب به وجهك. قال جامع: إن صَدَقناك أغْضبناك، وإن غَشَشْناك أغضبنا الله فغضَبُ الأميرِ أهْون علينا من غضب الله. قال: أجل، وسكن. وشُغل الحجاج ببعض الأمر، فانسل جامع، فمرَّ بين الصفوف من أهل الشام حتى جاوزها إلى صفوف العراق، فأبصرَ كبكبةً[3] فيها جماعة من بَكر العراق، وقَيسِ العراق. وتَميم العراق، وأزْدِ العراق؛ فلما رأوه اشْرَأبّوا[4] إليه وقالوا له: ما عِندَك دفَع الله عنك؟ قال: ويْحكم! عُمّوه بالخَلع كما يَعُمكم بالعداوة، ودعُوا التعادي ما عاداكم؛ فإذا ظفِرتم تراجعتم وتعاديتم. أيها التميمي، هو أعدي لك من الأزْديّ، أيها القَيْسيّ هو أعْدَى لك من التَّغْلبيّ. وهل ظفر بمن ناوأه منكم إلا بمن بقي معه منكم.

وهرب جامع من فوْره ذلك إلى الشام، وآستجار بزُفَر بن الحارث فأجاره.

---

(١) اللكيعة: اللئيمة.

(٢) يا هناه: هن كلمة يكنّى بها عن اسم الانسان.

(٣) كبكبة: مجموعة من الناس.

(٤) اشرأبوا: تطلّعوا ومدّوا أعناقهم.

الرشيد ومسلم بن الوليد وابن أبي شيخ:

العتبي قال كان هارون الرشيد يقتل أولاد فاطمة وشِيعتَهم. وكان مُسلم بن الوليد، صريع الغواني، قد رُمِيَ عنده بالتَّشيُّع، فأمِر بطلبه، فهرب منه، ثم أمر بطلب أنس بن شيخٍ كاتب البرامكة فهرب منه، ثم وُجد هو ومسلم بن الوليد عند قَيْنَةٍ ببغداد فلما أُتي بهما قيل له: يا أمير المؤمنين، قد أُتي بالرجُلين. قال: أيّ الرجلين؟ قيل: أنس بن أبي شَيخ، ومُسلم بن الوليد. فقال: الحمدُ لله الذي أظفرني بهما! يا غلام. أحضرْهما. فلما دخلا عليه نظر إلى مُسلم وقد تغيّر لونه؛ فرَقّ له وقال: إيه يا مسلم، أنت القائل:

أنِسَ الهوى ببني عليٍّ والحشـــا ... وأراه يَطمَـحُ عـن بني العبـاسِ

قال: بل أنا الذي أقول يا أمير المؤمنين:

أنس الهوى ببني العُمُومِة في الحَشا ... مُسْتَوحِشـاً مـن سـائِـر الإينـاس
وإذا تكـاملَـتِ الفضـائـلُ كنتُـم ... أوْلى بـذلـك يـا بَني العبـاسِ

قال: فعجب هارون من سُرعة بديهته، وقال له بعضُ جلسائه: استَبْقِه يا أمير المؤمنين فإنه من أشعرِ الناس، وامتحِنْه فسترى منه عجباً. فقال له: قل شيئاً في أنَسٍ. فقال: يا أمير المؤمنين، أفْرِخْ روعْي[1]، أفرخ الله رَوعك يوم الحاجة إلى ذلك، فإني لم أدخُل على خليفة قط. ثم أنشأ يقول:

تلمَّظَ السيْفُ منْ شـوقٍ إلى أنَسٍ ... فالموتُ يَلحَظُ والأقدارُ تَنتظـرُ[2]
فليس يَبلُـغ منــه مـا يُـؤمِّلُـه ... حتى يُـؤَامِـرَ فيـه رأيـك القَـدَرَ
أمضَى منَ الموتِ يَعفو عند قُدرتـه ... وليس للمـوتِ عفـوٌ حين يقتـدرُ

قال: فأجلسه هارون وراء ظهره، لئلا يَرى ما همَّ به، حتى إذا فرغ من قَتل أنس قال له: أنشدني أشْعَر شِعر لك. فكلما فرغ من قصيدة قال له زدْ؛ حتى قال له

---

(١) أفرخ روعي: أزِلهُ. (٢) التلمُّظ: التذوق والتشوّق.

أنشدني التي تقول فيها «الوَحْلِ» فإني رويتُها وأنا صغير. فأنشده شعره الذي أوله:

أَدِيـرا عليَّ الرَّاحَ لا تَشْـربـا قَبْلي ولا تطلُبا من عندِ قـاتلتي ذحْلي[1]

حتى انهى إلى قوله:

إذا ما عَلَـت منـا ذُؤابـةَ شـارِبٍ تمشَّت به مشْي المُقيَّـدِ في الوحْـلِ

فضحك هارون وقال: ويحك يا مسلم! أما رضيت أن قيدته حتى يمشي في الوحلِ! ثم أمر له بجائزة وخلّى سبيله.

بين كسري ويوشت بعد مقتل الفلهذ:

قال كسري ليُوشت المُغني ـ وقد قتل الفلهذ تلميذَه ـ: كنتُ أستريح منك إليه ومنه إليك، فأذهب حسدُك ونَغلُ[2] صدرك شَطْرَ تمتُّعي، وأمر أن يُطرح تحت أرجلِ الفيَلة. فقال: أيها الملك، إذا كنت أنا قد أذهبت شطر تمتُّعِك وأذهبت أنت الشطر الآخر، أليس جنايتُك على نفسك مثلَ جنايتي عليك؟ قال كنسري: دعوه؛ فما دلَّه على هذا الكلام إلا ما جُعل له من طول المدة.

الرشيد ويعقوب ابن صالح:

يعقوب بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس، قال: دخلت يوماً على الرشيد أمير المؤمنين وهو متغيّظ مُتربِّد[3]، فندمت على دخولي عليه، وقد كنت أفهم غَضَبَه في وجهه، فسلّمت فلم يردّ؛ فقلت: داهيةٌ نآد[4]. ثم أومأ إليّ فجلست. فالتفت إليّ وقال: لله عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فلقد نطق بالحكمة حيث يقول:

يا أيُّها الزّاجري عن شيمَتي سَفَهـاً عمْداً عصيْتُ مقامَ الزاجرِ النَّاهـي

---

(١) الذحل: الثأر.

(٢) نغل الصدر: حقده. (٣) متربّد: متجهّم.

(٤) داهيةٌ نآد: أي شديده.

أقصِرْ فإنك من قومٍ أرُومتُهم ... في اللؤم فافخرْ بهم ما شئتَ أوْ باهي
يُزينُ الشِّعْرُ أفواهاً إذا نَطقَتْ ... بالشِّعْرِ يوماً وقد يُزْري بأفواهِ
قد يُرْزَقُ المرءُ لا مِن فضْلِ حيلتِه ... ويُصرَفُ الرِّزقُ عن ذي الحيلة الدّاهي
لقد عَجبتُ لقومٍ لا أُصول لهمْ ... أثْروْا وليسوا وإن أثْروْا بأشباه
ما نالني من غنًى يوماً ولا عدمٍ ... إلاّ وقولي عليه «الحمد لله»

فقلت: يا أمير المؤمنين، ومن ذا الذي بلغت عليه المقدرةُ أن يُسامي مثلك أو يدانيه؟ قال: لعله من بني أبيك وأمك.

توسط مسلمة بين هشام والكميت:

كان الكُميت بن زيد يمدح بني هاشم ويعرِّض ببني أُمية، فطلبه هشام فهرب منه عشرين سنة، لا يستقرّ به القرار من خوف هشام، وكان مَسلمة بن عبد الملك له على هِشام حاجةٌ في كلّ يوم يقضيها له ولا يردّه فيها. فلما خرج مسلمة بن عبد الملك يوماً إلى بعض صُيُوده، أتى الناسُ يسلّمون عليه، وأتاه الكميت بن زيد فيمَن أتى، فقال: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

قِفْ بالدِّيار وقوفَ زائِرْ ... وتأنَّ إنّك غيْرُ صاغِرْ

حتى انتهى إلى قوله:

يا مَسْلَم بنَ أبي الوليـ ... ـدِ لِمَيِّتٍ إن شئتَ ناشِرْ[1]
عَلِقَتْ حِبالي من حِبا ... لِكَ ذِمّةَ الجارِ المُجاوِرْ
فالآنَ صرْتُ إلى أُميّـ ... ـةَ والأمورُ إلى المَصايِرْ
والآنَ كنتُ بِه المُصيـ ... ـبَ كمُهْتَدٍ بالأمسِ حائِرْ

فقال مسلمة: سبحان الله! من هذا الهِنْدِكيُّ الجلْحاب[2]، الذي أقبل من

---

(١) ناشر: باعث.
(٢) الهندكيُّ الجلحاب: أي الهنديُّ الشيخ الكبير.

أخرَيات الناس فبدأ بالسلام، ثم أما بعدُ، ثم الشعر؟ قيل له: هذا الكُميت ابن زيد. فأُعجب به لفصاحته وبلاغته. فسأله مَسلمة عن خبره وما كان فيه طولُ عيبته. فذكر له سخطَ أمير المؤمنين عليه؛ فضَمِنَ له مسلمة أمانَهُ، وتوجه به حتى أدخله على هشام، وهشام لا يعرفه. فقال الكُميت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، الحمد لله ـ قال هشام: نعم، الحمد لله، يا هذا ـ قال الكميت: مبتديء الحمدِ ومُبتدِعِه، الذي خص بالحمد نفسَه، وأمَرَ به ملائكتَه، وجعله فاتحةَ كتابه، ومنتهَى شكرِه، وكلامَ أهل جنتِه؛ أحمده حمدَ مَن عَلِم يقيناً، وأبصر مستبيناً؛ وأشهد له بما شهد به لنفسه قائماً بالقسط، وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده العربيّ، ورسولُه الأميّ، أرسله والناس في هبَواتِ[1] حَيرة، ومُدْلَهِمَّاتِ ظُلْمة، عند آستمرار أُبهة الضلال، فبلّغ عن الله ما أمر به، ونصح لامته، وجاهد في سبيله، وعبَد ربَّه حتى أتاه اليقين، صلى الله عليه وسلم.

«ثم إني يا أمير المؤمنين تِهْتُ في حيرة، وحِرْتُ في سَكْرة، ادْلأَمَّ[2] بي خطرُها، وأهابَ بي داعيها، وأجابني غاويها؛ فاقطَوْطَيْتُ[3] إلى الضلالة، وتَسَكّعْتُ في الظُّلمةِ والجهالة، حائراً عن الحق، قائلاً بغير صِدق. فهذا مقام العائذ، ومنطق التائب، ومُبْصَر الهدى بعد قول العمى، ثم يا أمير المؤمنين، كم من عاثرٍ أقلتُم عَثْرَتَه، ومُجترِمٍ عفوتم عن جُرْمه.

فقال له هشام وأيقن أنه الكميت: ويحك! مَنْ سَنَّ لك الغَواية وأهاب بك في العماية؟

قال: «الذي أخرج أبي آدمَ من الجنة فنسِيَ ولم يجدْ له عزماً. وأُمير المؤمنين كريح رحمةٍ أثارت سحاباً متفرّقاً، فلَفقت بعضه إلى بعض حتى التحم فاستحكم، وهَدر

---

(١) الهبوات: الغبرات، وإذا سطعت في الجوّ وانتشرت عميت بها المسالك.

(٢) ادلأم: ادلهم.

(٣) اقطوى: قارب في مشيه مع سرعة.

رعدُه، وتلألأ بَرْقه؛ فنزل الأرض فرَويتْ وٱخضَلَّت وٱخضرت وأُسْقِيت، فرَوِيَ ظمآتُها، وامتلأ عطشانُها. فكذلك نَعُدُّك أنت يا أمير المؤمنين أضاء الله بك الظلمة الداجية بعد العُموسِ[1] فيها، وحَقَن بك دماءَ قومٍ أَشْعَرَ خوفك قلوبَهم، فهم يبكون لِمَا يعلمون من حزمك وبصيرتك، وقد عَلِموا أنك الحرب وابن الحرب، إذا احمرّت الحَدَق، وعضَّت المغافرُ بالهام[2]. عزَّ بأسُك، واستربط جأشُك، مِسعارٌ هَتّاف، وكافٌّ بصيرٌ بالأعداء، مُغْري الخيل بالنَّكراء، مُستغنٍ برأيه عن رأي ذوي الألباب، برأي أريب، وحِلمٍ مُصيب. فأطال الله لأمير المؤمنين البقاء، وتَمَّم عليه النعماء. ودفع به الأعداء.

فرضي عنه هشام وأمر له بجائزة.

خلاص ابن هبيرة من خالد القسري:

العتبي قال: لما أُتي بابن هُبيرة إلى خالد بن عبد الله القَسري وهو والي العراق، أُتي به مغلولاً مقيَّداً في مِدْرعة. فلما صار بين يدي خالد ألقتْه الرجالُ إلى الأرض، فقال: أيها الأمير، إن القوم الذين أنعموا عليك بهذه النعمة قد أنعموا بها على مَنْ قبلك، فأنشُدك الله أن تستنّ فيّ بسُنّة يستنُّ بها فيك مَن بعدك، فأمر به إلى الحبس. فأمر ابنُ هُبيرة غلمانَه فحفروا له تحت الأرض سرداباً حتى خرج الحفرُ تحت سريره، ثم خرج منه ليلاً وقد أُعِدَّتْ له أفراسٌ يُداوِلُها، حتى أَتى مسلمةَ بنَ عبد الملك، فاستجار به فأجاره، واستوهبه مسلمةُ من هشام بن عبد الملك، فوهبه إياه.

فلما قدم خالدُ بن عبد الله القسريّ على هشام، وجد عنده ابنَ هبيرة، فقال له: إباقَ العبد أَبقْت[3]. قال له: حين نمتَ نومةَ الأمَة. فقلل الفرزدق في ذلك:

لَمّا رأيتَ الأرضَ قد سُدَّ ظهـرُهـا ... فلم يبْق إلا بطْنُهـا لَـك مَخْـرَجـا

(١) العموس: اشتداد الظلام.

(٢) المغافر: ما يلبس على الرأس في الحرب وقايةً له.

(٣) أبِقتْ: هربت.

دعوْتَ الَّذي ناداهُ يونُسُ بعْـدَمـا ثَـوى في ثلاثٍ مُظْلِمات ففـرَّجَـا
فأصْبَحْتَ تحتَ الأرضِ قد سِرْتَ ليْلةً وما سارَ سارٍ مِثْلها حينَ أدْلَجـا (١)
خرَجْتَ ولم تمْنَـن عليـك شفـاعـةٌ سِوى حثِّك التَّقْريبَ مِنْ آلِ أعجوجَا

ودخل الناس على ابن هبيرة بعدما أمَّنَهُ هشامُ بن عبد الملك يهنئونه ويَحْمَدون له رأيه، فقال متمثلاً:

مَن يلْقَ خيراً يَحمَدِ النـاسُ أمْـرَهُ ومن يَغْوَ لا يعْـدَمْ على الغَـيِّ لائِما

ثم قال لهم: ما كان قولُكم لو عُرِض لي أو أدْركْتُ في طريقي؟

ومثل هذا قول القُطامي:

والنَّاسُ مَن يلْقَ خيْراً قائلـون لـهُ ما يَشْتَهي ولأمِّ المُخْطيء الهَبَـلُ (٢)

لخصي مسلمة عن خلاص ابن هبيرة:

عبد الله بن سوّار قال: قال لي الربيع الحاجب: أتحب أن تسمع حديث ابن هبيرة مع مَسلمة؟ قلت: نعم. قال: فأرسل لخصيٍ كان لَمسلمةَ يقوم على وَضوئه فجاءه. فقال: حدِّثنا حديث ابن هُبيرة مع مَسلمة. قال: كان مسلمة بن عبد الملك يقوم من الليل فيتوضّأ ويتنفّل حتى يُصبْح، فدخل على أمير المؤمنين؛ فإني لأصبُّ الماءَ على يديه من آخر الليل وهو يتوضأ؛ إذ صاح صائح من وراء الرّواق: أنا باللهِ وبالأمير. فقال مسلمة: صَوْتُ ابن هُبيرة! آخرج إليه. فخرجتُ إليه ورجعتُ فأخبرتُه. فقال: أدْخِلْه. فدخل فإذا رجل يَميد نعاساً، فقال: أنا بالله وبالأمير. قال: أنا بالله وأنت بالله. ثم قال: أنا بالله وبالأمير. قال: أنا بالله وأنت بالله. حتى قالها ثلاثاً ثم قال: أنا بالله. فسكت عنه ثم قال لي: انطلق به فوضِّئه ولْيُصَلِّ، ثم اعْرض عليه أحبَّ الطعام إليه فأْتِه به، وافْرش له في تلك الصُّفَّة ـ لِصُفَّةٍ بين يَديْ بيوتِ النساء ـ ولا تُوقظه حتى يقوم متى قام. فانطلقتُ به فتوضأ وصلّى، وعَرَضت عليه الطعام فقال: شَرْبة

(١) الإدلاج: الظلمة. (٢) الهبل: الثكل.

سوِيق[1]، فشرب. وفرشتُ له فنام. وجئت إلى مسلمة فأعْلَمْتهُ. فغدا إلى هشام فجلس عنده، حتى إذا حان قيامه قال: يا أمير المؤمنين، لي حاجة. قال: قُضِيَتْ، إلا أن تكون في ابن هُبيرة. قال: رضيتُ يا أمير المؤمنين. ثم قام منصرِفاً؛ حتى إذا كاد أن يخرج من الإيوان. رجَع فقال: يا أمير المؤمنين ما عوَّدْتَني أن تستثني في حاجة من حوائجي؛ وإني أكره أن يتحدّث الناس أنك أحْدَثْتَ عَليَّ الاستثناء. قال: لا أستثني عليك. قال: فهو ابن هُبيرة فعفا عنه.

فضيلة العفو الترغيب

المأمون وصاحب وضوئه:

كان للمأمون خادم، وهو صاحب وَضُوئه. فبينما هو يصب الماء على يديه إذ سقط الإناء من يده، فاغتاظ المأمون عليه. فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله يقول: ﴿والكاظِمِين الغَيْظ﴾[2]. قال: قد كظمت غيظي عنك. قال: ﴿والعافِينَ عن النَّاس﴾[3]. قال: قد عفوتُ عنك. قال: ﴿والله يُحِبُّ المُحْسنينَ﴾[4]. قال: اذهب فأنت حُر.

ابن حيوة وعمر ابن عبد العزيز في رجل عوقب:

أمر عمر بن عبد العزيز بعقوبة رجل، فقال له رجاء بن حَيْوة يا أمير المؤمنين، إن الله قد فعل ما تُحِبُّ من الظَّفَر؛ فافعل ما يُحِبّه من العفو.

عبد الله بن علي وعبد الله بن حسن في قتل بني أمية:

الأصمعي قال: عزم عبد الله بن عليّ على قتل بني أمية بالحجاز. فقال له عبد الله ابن حسن بن حسَن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم: إذا أسرعت بالقتل في أكفائك فَمن تُباهِي بسلطانك؟ فاعفُ يَعْفُ الله عنك.

(١) السويق: نوع من الشراب. (٢) سورة آل عمران الآية ١٣٤.
(٣) سورة آل عمران الآية ١٣٤. (٤) سورة آل عمران الآية ١٣٤.

ابن خريم والمهدي:

دخل ابن خُريم على المهدي، وقد عَتب على بعض أهل الشام وأراد أن يُغزيهم جيشاً، فقال يا أمير المؤمنين، عليك بالعفو عن الذنب، والتجاوزِ عن المسيء، فَلأَنْ تُطيعك العرب طاعةَ مَحَبَّة، خيرٌ لك من أن تُطيعك طاعة خوف.

المهدي وابن السماك في رجلٍ أمر بضرب عنقه:

أمر المهدي بضرب عُنق رجل، فقام إليه ابن السماك فقال: إن هذا الرجل لا يَجب عليه ضرْبَ العنق. قال: فما يجب عليه؟ قال: تعفو عنه، فإن كان من أجر كان لك دوني، وإن كان من وِزْر كان عليّ دونك. فخلّى سبيله.

الشعبي وابنُ هبيرة في محبوسين:

كلّم الشعبيُّ ابن هبيرة في قوم حبسهم فقال: إن كنت حبَسْتَهم بباطلٍ فالحقُّ يُطْلِقهم، وإن كنتَ حبستهم بحقّ فالعفو يَسَعُهم.

أبو سفيان وحيَّان من قريش بينهما دماء:

العتبي قال: وقعت دماءٌ بين حيَّيْن من قريش، فأقبل أبو سفيان؛ فما بقي أحدٌ واضعٌ رأيه إلا رفعه. فقال: يا معشر قريش، هل لكم في الحق أو فيما هو أفضلُ من الحق؟ قالوا: وهل شيءٌ أفضلُ من الحق؟ قال: نعم، العفو. فتهادَنَ القومُ واصطلحوا.

وقال هُزَيم بن أبي طحْمة ليزيد بن عاتكة بعد ظفره بيزيد بن المهلب: ما ظلم أحدٌ ظُلْمَك، ولا نصر نصْرَك؛ فهل لك في الثالثة نقُلْها؟ قال: وما هي؟ قال: ولا عفا عفْوَك.

أبو جعفر وابن فضالة في رجل معاقب:

وقال المُبارك بن فضالة: كنتُ عند أبي جعفر جالسا في السِّماط، إذ أمر برجلٍ أن يُقْتل؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، قال رسول الله ﷺ: إذا كان يومُ القيامةِ مُنادٍ بين يدَي الله: ألاَ مَن كانت له عند الله يدٌ فليَتقدَّم فلا يتقدمُ إلا من عفا عن مُذنب. فأمر بإطلاقه.

وقال الأحنف بن قيس: أحقُّ الناس بالعفو أقدرهمُ على العقوبة.

وقال النبي ﷺ: «أقربُ ما يكون العبد مِن غضبِ الله إذا غَضِب.

وتقول العربُ فيْ أمثالها: مَلَكْتَ فأسْجِح. وارْحَمَ تُرْحَم. وكما تَدين تُدان. ومن بر يوماً بُرَّ به.

بعد الهمة وشرف النفس

دخل نافع بن جُبير بن مُطْعِم على الوليد، وعليه كساء غليظ، وخُفّان جاسيان[1]، فسلَّم وجلس، فلم يعرفه الوليد؛ فقال لخادمٍ بين يديه: سلّ هذا الشيخَ من هُو. فسأله، فقال له: اعْزُبْ[2]. فعاد إلى الوليد فأخبره. فقال: عُدْ إليه وآسأله، فعاد اليه، فقال له مثل ذلك. فضحك الوليد وقال له: من أنت؟ قال: نافع بن جُبير ابن مُطعم.

وقال زياد بن ظبْيان لآبنه عُبيد الله: ألاَ أُوصِي بك الأمير زياداً؟ قال: يا أبتِ، إذا لم يكن للحيِّ إلا وصيةُ الميِّت فالحيُّ هو الميت.

وقال معاوية لعمرو بن سعيد: الى مَن أوْصَي بك أبوك؟ قال: إن أبي أوصَى إليّ ولم يوصِ بي! قال وبِمَ أوصى إليك؟ قال: ألاّ يفْقِد إخوانُه منه إلا وجهه.

وقال مالك بن مِسمع لعُبيد الله بن زياد بن ظبيان: ما في كِنانتي سهم أنا به أوثقُ مني بك. قال: وإني لفي كنانتك: أما والله لئن كنتُ فيها قائما لأطُولنَّها ولئن كنتُ فيها قاعدا لأخرِقنّها. قال: كثَّر الله مثلَك في العشيرة. قال: لقد سألتَ الله شططا.

---

(١) الجاسي: الغليظ الخشن. (٢) اعزب: ابتعد.

وقال يزيد بن المهلّب: ما رأيت أشرفَ نفساً من الفرزدق، هجاني مَلِكا ومدَحني سُوقة.

وقدم عبيد الله بن زياد بن ظبيان على عتّاب بن ورقاء الرّياحي وهو والي خُراسان، فأعطاه عشرين ألفا؛ فقال له: والله ما أحسنت فأحْمَدَك، ولا أسأتَ فألومَك؛ وإنك لأقربُ البعَداء، وأحبُّ البُغضاء.

وعبيد الله بن زياد بن ظبيان هذا هو القائل: واللهِ ما ندمت على شيءٍ قطَ ندمِي على عبد الملك بن مروان، إذ أتيتهُ برأس مصعب بن الزبير فخرّ لله ساجدا ألاّ أكون قد ضربتُ عُنقَه فأكون قد قتلتُ ملكين من ملوك العرب في يوم واحد.

من همة ابن علفة:

ومن أشرف الناس همةً عقيل بن عُلّفةَ المُرِّيُّ؛ وكان أعرابيا يسكن البادية وكان يُصْهِر إليه الخلفاء، وخَطب إليه عبدُ الملك بن مروان ابنته لأحد أولاده فقال له جَنِّبْني هُجَناءَ [1] ولدِك.

عمر بن عبد العزيز وعقيل بن علفة:

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل من بني أُمية كان له أخوال في بني مُرة. قبحَ الله شَبهاً غَلَب عليك من بني مُرة. فبلغ ذلك عقيل بن عُلَّفة، فأقبل إليه فقال له قبل أن يبتدئه بالسلام: بلغني يا أمير المؤمنين أنك غضبت على رجل من بني عمك له أخوال في بني مُرة، فقلت: قبح الله شبَها غَلَب عليك من بني مرة! وأنا أقول: قَبح الله ألأمَ الطَّرفين، ثم انصرف.

فقال عمر بن عبد العزيز: من رأى أعجبَ من هذا الشيخ الذي أقبل من البادية ليست له حاجة إلا شَتْمنا ثم انصرف؟ فقال له رجل من بني مُرة: والله يا أمير المؤمنين ما شتَمك، وما شَتم إلا نفسَه، نحن والله ألأمُ الطرفين.

---

(١) الهجناء: الذين أمّهم غير عربية.

من غيرة عقيل:

أبو حاتم السِّجستاني عن محمد بن العتبي بن عبد الله، قال: سمعتُ أبي يحدّث عن أبي عمرو المُرّي، قال: بنو عقيل بن علَّفة بن مُرة بن غَطفان يتنقَّلون ويَنتجعون الغَيث فسمع عَقيل بن عُلَّفة بنتاً له ضحكت فشَهَقت في آخر ضَحكها! فآخترط السيفَ وحمل عليها وهو يقول:

فَـرِقْـتُ إنّـي رجـلٌ فَـرُوقُ   لِضُحْكَـةٍ آخـرُهـا شَهِيـقُ

وقال عقيل:

إني وإن سِيـق إليَّ المهْـرُ   ألفٌ وعُبْـدانٌ وذَوْدٌ عَشْـرُ[1]

أَحبُّ أصهاري إليَّ القبرُ

وقال الأصمعي: كان عقيل بن علَّفة المُريّ رجلا غيورا؛ وكان يُصهر إليه الخلفاء، وإذا خرج يمتار[2] خرج بآبنته الجَرباء معه، قال: فنزلوا دَيْراً من دِيرة الشام، يقال له دَير سَعد، فلما ارتحلوا قال عقيل:

قضَتْ وطَراً من ديْرِ سَعْدٍ وطـالما   علَى عُرُضٍ نـاطَحْنَـهُ بـالجماجِـمِ

ثم قال لابنه: يا عَمَلس أجِزْ. فقال:

فأصبَحنَ بـالمَوْمـاةِ يَحمِلْـنَ فِتْيَـةً   نَشاوَى منَ الإدْلاجِ مِيلَ العَمائمِ[3]

ثم قال لآبنته: يا جَرْباء أجيزي. فقالت:

كأنّ الكرى أسْقَاهُم صَـرْخَـدِيـةً   عُقاراً تَمشَّى في المطا والقـوائِـمِ[4]

قال: وما يُدريكِ أنت ما نَعْتُ الخمر؟ فأخذ السيف وهوَى نحوها؛ فاستعانت بأخيها عَمَلس، فحال بينه وبينها، قال: فأراد أن يضربه، قال: فرماه [عملس]

(١) الذّود: ثلاثة أبعرة إلى العشرة أو خمس عشرة أو عشرين أو ثلاثين ولا يكون إلاّ من الإناث.

(٢) يمتار: يتاجر.   (٣) المومَاء: القفر.

(٤) الكرى: النعاس، وصرخدية: خمر تنسب إلى صرخدة بلدة بالشام. والمطا: الظهر.

بسهم فاختلّ[1] فخذيه فبرك، ومَضَوْا وتركوه، حتى إذا بلغوا أدْنى ماء للأعراب، قالوا لهم: إنا أسْقَطْنا جَزوراً فأدركوها وخذوا معكم الماء. ففعلوا، فإذا عقيل باركٌ وهو يقول:

إنّ بَنّـي زَمّلـوني بـالـدَّمِ　　شِنْشِنـة أعـرِفُهـا مـن أخـزَمِ

من يَلْقَ أبطالَ الرجال يُكلَمِ

والشنشنة الطبيعة. وأخْزَم فحل معروف. وهذا مثل للعرب.

الأوس والخزرج:

ومن أعزّ الناس نفسا وأشرفهم هماً: الأنصار، وهم الأوْس والخزرجُ ابنا قَيلة، لم يؤدّوا إتاوة قطّ في الجاهلية إلى أحد من الملوك، وكتب إليهم تُبَّع يدعوهم إلى طاعته ويتوعَّدهم إن لم يفعلوا؛ فكتبوا إليه:

العبدُ تُبَّعُ كَمْ يَرومُ قتـالنـا　　ومكـانـهُ بـالمنـزل المتـذلّـلِ

إنّـا أُنـاسٌ لا يُنـامُ بـأرضِنـا　　عَضَّ الرسـولُ بِبَظْـرِ أُمِّ المرْسِـلِ

فغزاهم تُبَّع أبو كَرِب، فكانوا يُقاتلونه نهاراً ويخرجون إليه القِرَى ليلا، فتذمَّم مِن قتالهم ورحَل عنهم.

ودخل الفرزدق على سُليمان بن عبد الملك، فقال له: من أنت؟ وتَجهَّم له كأنه لا يعرفه. فقال له الفرزدق: وما تَعرفني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا. قال: أنا من قوم منهم أوْفى العرب، وأسْودُ العرب، وأَجْود العرب، وأحلم العرب، وأفْرس العرب، وأَشْعر العرب. قال: والله لتُبيِنَنَّ ما قلت أو لأُوجِعَن ظهركَ ولأهْدِمَنّ داركَ.

قال: نعم يا أمير المؤمنين؛ أما أوفى العرب فحاجبُ بن زُرارةْ الذي رَهَن قوسَه عن جميع العرب فوَفَى بها، وأما أسود العرب فقيسُ بن عاصم الذي وَفَد على رسول

(١) اختل فخذيه: نفذ فيهما وانتظمهما.

الله ﷺ فبَسَط له رداءه وقال: هذا سيِّد الوبر. وأما أَحْلم العرب فعتّاب بن وَرقاء الرِّياحي. وأما أفْرَسُ العرب فالحَريش بن هلال السَّعديّ، وأما أَشعر العرب فهأنذا بين يديك يا أمير المؤمنين.

فاغتمّ سليمان مما سَمع من فخره ولم يُنكره، وقال آرجع على عَقِبيك، فما لك عندنا شيءٌ من خَير. فرجع الفرزدق وقال:

أتيْناكَ لا مِن حاجةٍ عرَضَـت لنـا إليك، ولا مِن قلَّـةٍ في مُجاشِـعِ

وقال الفرزدق في الفخر:

بنو دارمٍ قومي تَرى حُجُـزاتِهِـم عِتاقاً حَواشيها رِقـاقـاً نِعـالُهـا (١)
يجرّون هُـــدّاب اليَمان كــأنّهــم سُيوفٌ جَلا الأطباعَ عنها صِقالها (٢)

وقال الأحوص في الفخر، وهو أفخر بيت قالته العرب:

مـا مـن مُصيبـةِ نَكْبـةٍ أُرْمَـى بها إلا تُشَـرِّفُني وتَـرفـعُ شَـانِــي
وإذا سَألتَ عـن الكِـرام وجـدتني كالشمسِ لا تَخْفَى بكـلِّ مكـان

بردا محرق وعامر بن أحيمر:

وقال أبو عبيدة: آجتمعت وفود العرب عند النُّعمان بن المنذر، فأخرج إليهم بُرْدَيْ مُحرّق. وقال: ليقم أعزُّ العرب قبيلة فلْيَلْبَسها. فقام عامر بن أُحيمر السَّعدي فأتزر بأحدهما وارتدى بالآخر، فقال له النعمان: بِمَ أنت أعزُّ العرب؟ فقال: العز والعددُ من العرب في معدّ، ثم في نزار، ثم في تَميم، ثم في سَعد، ثم في كعب، ثم في عَوف، ثم في بَهدلة، فمن أنكر هذا من العرب فلينافِرْني. فسكت الناس.

ثم قال النعمان: هذه حالُك في قومك، فكيف أنت في نفسك وأهلِ بيتك؟ قال: أنا أبو عشرة، وخال عشرة، وعم عشرة، وأما أنا في نفسي فهذا شاهدي. ثم وضع

---

(١) الحجزات: جمع حجزة، وهي معقد السّروال والإزحار من الانسان. وعتاقاً: من العتق وهو الحسن.
(٢) الأطباع: جمع طبع، وهو الصدأ وصقالها: من صقل أي جلا.

قدمه في الأرض ثم قال: من أزالها عن مكانها فله مائةٌ من الإبل. فلم يقم إليه أحد. فذهب بالبُرْدَيْن. ففيه يقول الفرزدق:

فما ثَمّ في سَعْدٍ ولا آل مالِكٍ غُلامٌ إذا ما سِيل لم يَتبهدَلِ
لهم وَهَب النُّعمانُ بُردَيْ مُحَرِّقٍ بِمَجدِ مَعَدّ والعَديدِ المحَصَّلِ

بيت سعد مناة وشعر أوس فيهم:

وفي أهل هذا البيت من سعد بن زَيد مناة، كانت الإفاضة في الجاهلية. ومنهم بنو صفوان الذين يقول فيهم أوس بن مَغْراء السَّعديّ:

ولا يَريمون في التَّعْريفِ موْقفَهم حتى يقالَ أَجيزوا آلَ صَفْوانا
ما تطْلُع الشمسُ إلاّ عند أوّلنا ولا تَغَيّبُ إلاّ عند أُخْرانا

وقال الفرزدق في مثل هذا المعنى:

تَرى الناسَ ما سِرْنا يسيرونَ خَلفَنا وإنْ نحنُ أَوْمأْنا إلى الناسِ وقفوا

هنيدة في الفخر:

وكانت هُنيدة بنت صعصعة عمة الفرزدق تقول: مَن جاءت من نساء العرب بأربعةٍ كأرْبَعَتي يحِلُّ لها أن تضع خِمارَها عندهم، فصرمتي[1] لها: أبي صعصعة، وأخي غالب، وخالي الأقرع بن حابس، وزَوجي الزِّبْرقان بن بدر! فسُمِّيتْ ذاتَ الخمار.

وممن شرفت نفسه وبعدت همتهُ، طاهر بن الحُسين الخراساني، وذلك أنه لما قتل محمدَ بن زُبيدة، وخاف المأمون أن يَغدِر به، آمتنع عليه بخراسان ولم يُظهِر خَلْعَه.

وقال دعبل بن علي الخزاعي يفتخر بقتل طاهر بن الحسين محمدا، لأنه كان مولى خزاعة، ويقال إنه خزاعي:

---

(١) الصرمة: القطعة من الإبل ما بين العشرين إلى الثلاثين.

أيسومُني المأمونُ خُطَّةَ عاجِزٍ   أوَ ما رأى بالأمس رأسَ محمّدِ!
يُوفي على رأسِ الخلائق مثْلَ ما   توفِي الجبالُ على رءُوسِ الفَدْفَد (١)
إنّي مِنَ القَوم الذين هُمُ هُمُ   قَتلوا أخاك وشرَّفوك بمقعد
رفعوا محلَّك بعد طول خوله   واستنقذوك من الحضيض الأوهد (٢)

وقال طاهر بن الحسين:

غَضِبْتُ على الدُّنيا فأنْهبْتُ ما حوَتْ   وأعْتَبْتُها منّي بإحدى المَتالِفِ (٣)
قتلتُ أمير المؤمنين وإنّما   بَقيتُ عناءً بَعده للخلائِف
وأصبحت في دارٍ مقيماً كما ترى   كأنّيَ فيها من ملوك الطوائف
وقد بقيَتْ في أُمِّ رأسيَ فَتْكَةٌ   فإمّا لِرُشْدٍ أو لِرأيٍ مُخالِفِ

فأجابه محمد بن يزيد بن مسلمة:

عتبتَ على الدُّنيا فلا كنتَ راضياً   فلا أعتبتْ إلاّ بإحدى المتالف
فَمنْ أنت أو ما أنتَ يا فَقْعَ قَرْقَرٍ   إذا أنتَ مِنَّا لَمْ تَعَلَّقْ بكانِف (٤)
فنحن بأيدينا هرقنا دماءنا   كثَوْلٍ تهادى الموت عند التزاحف (٥)
ستلعمُ ما تَجْنِي عليك وما جَنَتْ   يداكَ فلا تفخَرْ بِقتْلِ الخلائف
وقد بقيت في أم رأسك فتكةٌ   سنُخرجها منه بأسمرَ راعف

وقال عبد الله بن طاهر:

مُدْمِنُ الإغضاءِ موصولُ   ومُديمُ العَتْبِ مملولُ
ومَدِينُ البِيضِ في تعَبٍ   وغَريمُ البِيضِ ممطولُ
وأخو الوجهينِ حيث رَمَى   بِهواه فهْوَ مدخولُ (٦)

(١) الفدفد: ما ارتفع من الأرض.
(٢) الحضيض الأوهد: المكان الكثير الانخفاض.
(٣) أعتبتها: أرضيتها، والمتالف: من إتلاف النفس والمخاطرة بها.
(٤) الفقع: ضرب من أردأ الكماة، والقرقر: أرضٌ مرتفعة إلى جنب وهدة.
(٥) الثول: جماعة النحل. (٦) مدخول: أي مثيرٌ للشك والحيطة.

أقْصِـري عما طَمَحْـتِ لـه ... ففَـراغـي عنـكِ مشغـولُ
سـائلي عمّـن تُسـائلُني ... قـد يَـرُدُّ الخيرَ مسئـول
أنـا مَـنْ تُعـرَفُ نِسْبَتـه ... سلَفي الغُـرُّ البَهـاليـلُ [1]
سَـلْ بِهِـمْ تُنْبِيك نَجْدتُهُمْ ... مشَرَفِيَّـاتٌ مصـاقيـل [2]
كـلُّ عَضْـبٍ مُشْرَبٌ عَلَقـاً ... وغِـرارُ الحدِّ مفلـولُ [3]
مُصعبٌ جـدِّي نقيـبُ بني ... هـاشِـمٍ والأمـرُ مجبـولُ
وحسيْـنٌ رأسُ دعـوتِهـم ... بَعـده، والحقُّ مقبـولُ
وأبي مَـن لا كِفـاءَ لـه ... مَـن يُسامـى مجدَه قـولـوا
صاحبُ الرأيِ الذي حَصَلتْ ... رأيُـه للقـومُ المَحـاصيـلُ
حَـلَّ منهـم بـالـذُّرا شَـرَفـاً ... دونَـه عــزٌّ وتبجيـلُ
تُفْصِـحُ الأنبـاءُ عنـه إذا ... أسْكَـتَ الأنبـاءَ مجهـولُ
سَـلْ بـه الجبارَ يـومَ غـدا ... حـولَـهُ الجُرْدُ الأبـابيـلُ [4]
إذ عَلَـتْ مَفْـرِقَـهُ يـدُهُ ... نوطهـا أبيضُ مصقـولُ [5]
أبْطَـنَ المخلـوعَ كلْكلَـه ... وحـواليْـهِ المَقـاويـلُ [6]
فَثَـوَى والتُّـرْبُ مصرعُـه ... غـالَ عنـه مُلكَـهُ غُـولُ
قـادَ جيشـاً نحوَ بـابلـه ... ضـاقَ عنه العَرْضُ والطُّولُ
وهبُـوا لله أنفسَهـمْ ... لا مَعـازيـلٌ ولا مِيـلُ [7]
مَلِـكٌ تجتـاح صـولَتُـه ... ونَـداهُ الدهـرَ مبـذولُ
نُـزِعـتْ منـه تَهائِمُـهُ ... وهْـوَ مـرهـوبٌ ومـأمـولُ [8]
وِتْـرُهُ يُسْعَـى إليـه بِـه ... ودَمٌ يَجنيـهِ مطلـولُ [9]

---

(١) البهاليل: السادة الكرام.
(٢) المشرفيات المصاقيل: السيوف المصقولة.
(٣) العضب: السيف، والعلق: الدم.
(٤) الجرد: الخيل، والأبابيل: جماعات وفرق.
(٥) نوطها: ما علّق بها.
(٦) الكلكل: الصدر.
(٧) المعازيل: الذين لا رماح لهم والميل: الجبناء.
(٨) التمائم: جمع تميمة، وهي العوذة.
(٩) الوتر: الثأر، ومطلول: مسفوك.

فأجابه محمد بن يزيد بن مسلمة، وكان من أصحابه وآثرهم عنده، ثم اعتذر إليه وزعم أنه لم يَدْعُه إلى إجابته إلا قوله:

من يسامي مجده قولوا

فأمر له بمائة ألف وزاده أثرة ومنزلة:

لا يَرُعْكِ القالُ والقيلُ ... كُلُّ ما بُلِّغتِ تَضليلُ
ما هَوىً لي كنتُ أَعْرِفُهُ ... بَهوَى غيركِ موصولُ
أَيَخونُ العهدَ ذو ثقةٍ ... لا يخونُ العهدَ متبولُ[1]
حَمَّلْتِني كُلَّ لائمَةٍ ... كُلَّ ما حَمَّلْتِ محمولُ
واحْكُمِي ماشئتِ واْحتَكِمي ... فحرَامي لكِ تحليلُ
أين لي عنكِ إلى بَدَلٍ ... لا بديلٌ منكِ مقبولُ
ما لِداري منكِ مقفرةٌ ... وضميري منكِ مأهولُ
وبدت يوم الوداع لنا ... غادةٌ كالشمس عطبولُ[2]
تتعاطى شَدّ مِئزَرِها ... ونطاقُ الخَصْرِ محلولُ
شَمْلنا إذ ذاكَ مجتمِعٌ ... وجَناحٌ البَيْنِ مشكولُ[3]
ثم ولَّت كي تودِّعنا ... كحلها بالدمع مغسول
أيّها البادي بطِيَّتِه ... ما لأغلاطك تحصيل
قد تأوَّلْتِ على جهةٍ ... ولنا وَيْحَكِ تأويلُ
إنّ دِلّيلاك يومَ غدًا ... بكِ في الحَين لِضلّيلُ
قاتلُ المخلوعِ مقتولُ ... ودَمُ القاتلِ مطلولُ
قد يخونُ الرُّمْحَ عاملُهُ ... وسِنانُ الرُّمْحِ مصقولُ
وينَالُ الوتْرَ طالِبُهُ ... بعدَ ما تَسْلُوا المَثاكيلُ[4]

---

(١) المتبول: الذي أسقمه الحبّ.

(٢) العطبول: المرأة الفتيّة الجميلة الممتلئة الطويلة العنق. (٣) مشكول: مقيَّد.

(٤) الوتر: الثأر، وتسلو المثاكيل: أي تكون قد هدأت وسكنت بمرور الزمن.

يـا أخـا المخلـوعِ طُلْـت يـداً لم يكـن في بـاعِهـا طُـولُ
وبِنُعْماهُ الذي كُفـرتْ جـالـت الخيْـلُ الأبـابِيـلُ
وبـراعٍ غيرِ ذي شَفـقٍ فُعِلـتْ تلـك الأفـاعيـلُ
يـا بـن بِنـتِ النـارِ مُـوقِـدْهـا مـا لِحَـاذَيـه سَـرَاويـلُ
مَـنْ حُسَيْنٌ مَـن أبـوهُ ومَـنْ مُصعَـبٌ غـالَتْهُـمُ غُـولُ
إنَّ خيْـرَ القـولِ أصْـدَقـهُ حين تَصْطَتـكُّ الأقـاويـلُ(١)

مراسلات الملوك

العُتبي عن أبيه، قال: أهدي ملك اليمن عشرَ جزائر إلى مكة، وأمر أن ينحرها أعزُّ قُرشيّ؛ فقدمتْ وأبو سفيان عَروسٌ بهند بنتِ عُتبة، فقالت له: أيها الرجل، لا يَشْغَلَنَّك النساءُ عن هذه المكرمة التي لعلها أن تفوتَك. فقال لها: يا هذه، دَعِي زوجَك وما يختارهُ لنفسه! والله ما نحرها غيري إلا نَحَرْتُه! فكانت في عُقُلِها حتى خرج أبو سفيان في اليوم السابع فنحَرها.

بين قيصر ومعاوية:

زهير عن أبي الجُويرية الجَرْميّ، قال: كتب قَيصر إلى معاوية: أخبرني عمن لا قِبْلة له، وعمّن لا أبَ له، وعمن لا عشيرة له، وعمن سار به قبرهُ، وعن ثلاثة أشياء لم تُخْلَقْ في رَحِم، وعن شيءٍ، ونصف شيءٍ، ولا شيءٍ؛ وآبعث إليّ في هذه القارورة ببَزْر كلِّ شيء.

فبعث معاوية بالكتاب والقارورة إلى ابن عباس، فقال: أمّا مَن لا قِبلة له فالكعبة. وأما مَن لا أب له فعيسى. وأما مَن لا عشيرة له فآدم. وأما من سار به قبرهُ فيونس. وأما ثلاثة أشياء لم تُخلق في رَحِم، فكبش إبراهيم، وناقةُ ثمود، وحيَّةُ موسى. وأما شيء، فالرجلُ له عقلٌ يعمل بعقله؛ وأما نصفُ شيء، فالرجل ليس له

(١) تصطك: تكثر وتحتدم وتتضارب.

عقل ويعمل برأي ذوي العقول، وأما لا شيء، فالذي ليس له عقل يعمل به ولا يستعين بعقل غيره. وملأ القارورة ماء وقال: هذا بزرُ كلِّ شيء.

فبعث به إلى معاوية، فبعث بـه معـاويـة إلى قيصر؛ فلما وصـل إليـه الكتـاب والقارورة، قال: ما خرج هذا إلا من أهل بيت النُّبُوّة.

من ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز:

نُعيم بن حماد قال: بعث ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً فيه:

مِن ملِكِ الأملاك الذي هو ابنُ ألف ملك، والذي تحته ابنةُ ألف ملك، والذي في مَربطه ألفُ فيل، والذي له نهران يُنْبتان العود والأَلُوَّة والجـوز والكـافـور، والذي يوجد ريحه على مَسيرة آثني عشر ميلا، إلى ملك العرب الذي لا يُشرك بالله شيئا.

أما بعد، فإني قد بعثتُ إليك بهدية، وما هي بهدية ولكنّها تحية؛ قد أحببتُ أن تبعثَ إليّ رجلا يعلِّمني ويُفهمني الإسلام. والسلام.

يعني بالهدية: الكتاب.

بين ملك الروم والوليد في هَدم كنيسة دمشق:

الرياشي قال: لما هدم الوليدُ كنيسة دِمشق، كتب إليه ملك الروم:

إنك هدمتَ الكنيسة التي رأى أبوك تَرْكها، فإن كان صواباً فقد أخطأ أبوك، وإن كان خطأ فما عُذْرُك.

فكتب إليه: ﴿وداوُدَ وسُليمانَ إذْ يَحكُمَان في الحرثِ إذْ نفَشَتْ فيهِ غنمُ القومِ وكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدينَ، ففهَّمْناها سُليْمَان وكُلاً آتيْنا حُكْماً وعِلْماً﴾ (١).

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٧٨.

وكتب ملك الروم إلى عبد الملك بن مروان: أكلت لحم الجمل الذي هرب عليه أبوك من المدينة. لأَغْزِيَنَّكَ جُنوداً مائة ألفٍ ومائة ألف.

فكتب عبدُ الملك إلى الحجاج أن يَبعث إلى عبد الله بن الحسن ويتوعده ويكتبَ إليه بما يقول. ففعل، فقال عبد الله بن الحسن: «إن لله عزَّ وجل لوحا محفوظاً يلحظه كل يوم ثلثمائةٍ لحظة، ليس منها لحظة إلا يُحيي فيها ويُميت ويُعِز ويُذِلّ ويفعل ما يشاء، وإني لأرجو أن يكفينيك منها بلحظة واحدة!»

فكتب به الحجاج إلى عبد الملك بن مروان، وكتب به عبد الملك إلى ملك الروم. فلما قرأه قال: ما خَرَج هذا إلا مِن كلام النبوة.

بعث ملك الهند إلى هارون الرشيد بسيوف قَلَعِيّة، وكلاب سُيورية، وثياب من ثياب الهند.

فلما أتته الرسلُ بالهدية أمر الأتراك فصُفّوا صفين ولبسوا الحديد حتى لا يُرى منهم إلا الحدقَ، وأذن للرُّسل فدخلوا عليه، فقال لهم: ما جئتم به؟ قالوا: هذه أشرفُ كُسوةِ بلدِنا. فأمر هارون القَطَّاع بأن يقطع منها جلالاً وبراقع كثيرةً لخيله فَصلَّبَ الرُّسلُ على وجوههم، وتذمّموا ونكسوا رءوسَهم. ثم قال لهم الحاجب: ما عندكم غير هذا؟ قالوا له: هذه سيوف قَلْعية لا نظير لها. فدعا هارون بالصّمصامة سيفِ عمرو بن معد يكرب، فقُطعت به السيوفُ بين يديه سيفاً سيفا كما يُقطّ الفُجل، من غير أن تَنثني له شَفْرة، ثم عَرَض عليهم حدَّ السيف فإذا لا فلَّ فيه؛ فصلَّب القوم على وجوههم.

ثم قال لهم: ما عندكم غير هذا؟ قالوا: هذه كلاب سُيورية لا يلقاها سبع إلا عقرتْه. فقال لهم هارون: فإن عندي سَبُعا، فإن عقرتْه فهي كما ذكرتم. ثم أمر بالأسد فأُخرج إليهم، فلما نظروا إليه هالهم، وقالوا: ليس عندنا مثل هذا السَّبع في بلدنا! قال لهم هارون: هذه سباع بلدنا. قالوا فنرسِلُها عليه. وكانت الأكلُبُ ثلاثة، فأُرسِلت عليه فمزّقتْه، فأُعجب بها هارون، وقال لهم، تمنَّوا في هذه الكلاب ما شئتم

من طرائف بلدنا. قالوا ما نتَمنى إلا السيف الذي قطعت به سيوفنا. قال لهم: هذا مما لا يجوز في ديننا أن نُهاديكم بالسلاح، ولولا ذلك ما بَخلْنا به عليكم، ولكن تمنوا غير ذلك ما شئتم. قالوا: ما نتمنى إلا به. قال: لا سبيل إليه. ثم أمر لهم بتُحف كثيرة، وأحسنَ جائزتَهم.

بين المأمون وطاهر بن الحسين:

أبو جعفر البغدادي قال: لما آنقبض طاهر بن الحسين بخراسان عن المأمون وأخذ حِذْرَه، أدّب له المأمون وصيفاً بأحسن الآداب، وعلّمه فنون العلم، ثم أهداه إليه مع ألطاف كثيرة من طرائف العراق وقد واطأه على أن يَسُمَّه، وأعطاه سمَّ ساعة، ووعده على ذلك بأموال كثيرة؛ فلما انتهى إلى خراسان وأوصل إلى طاهر الهدية، قَبِل الهدية وأمر بإنزال الوصيف في دار، وأجْرَى عليه ما يحتاج إليه من التوسعة في النّزالة، وتركه أشهراً. فلما بَرِمَ[1] الوصيفُ بمكانه، كتب إليه:

يا سيدي، إن كنتَ تقبلني فاقبلني، وإلا فرُدَّني إلى أمير المؤمنين.

فأرسل إليه وأوصله إلى نفسه. فلما انتهى إلى باب المجلس الذي كان فيه، أمره بالوقوف عند باب المجلس، وقد جلس على لِبدٍ أبيض وقَرّع رأسه وبين يديه مُصحف منشور، وسيفٌ مسلول. فقال: قد قَبلنا ما بَعث به أمير المؤمنين غيْرَك، فإنا لا نقبلك، وقد صرَفناك إلى أمير المؤمنين. وليس عندي جواب أكتبه إلا ما تَرى من حالي. فأبلغ أمير المؤمنين السلام وأعْلِمه بالحال التي رأيتَني فيها.

فلما قدم الوصيفُ على المأمون وكلمه بما كان من أمره ووصف له الحالة التي رآه فيها، شاور وزراءه في ذلك وسألهم عن معناه. فلم يَعْلَمْه واحدٌ منهم. فقال المأمون: لكني قد فهمت معناه: أما تقريعه رأسَه وجلوسُه على اللّبد الأبيض، فهو يخبرنا أنه عبد ذليل؛ وأما المُصحف المنشور، فإنه يذكّرنا بالعهود التي له علينا؛ وأما السيف

(١) برم: ملَّ.

المسلول، فإنه يقول: إن نُكِثَت تلك العهودُ فهذا يحكم بيني وبينك. أغِلقوا عنا بابَ ذِكرهِ ولا تَهيجوه في شيء مما هو فيه.

فلم يهجه المأمونُ حتى مات طاهرُ بن الحسين، وقام عبدُالله بن طاهر مكانَه: فكان أخفَّ الناس على المأمون.

وكتب طاهر بن الحسين إلى المأمون في إطلاق ابن السِّندي من حبسه، وكان عامله على مصر فعزله عنها وحَبَسه؛ فأطلقه له وكتب إليه:

أخـــي أنـــت ومَـــوْلايَ　　فما تَـــرْضـــاهُ أرضـــاهُ
ومـا تَهْـوى مـن الأمـرِ　　فـــإنّـــي أنـــا أهـــواه
لـــــك اللهُ على ذاكَ　　لـــك اللهُ لـــك اللهُ

★ ★ ★

كتاب الياقوتة في العلم والأدب

فرش كتاب الياقوتة في العلم والأدب

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في مخاطبة الملوك ومقاماتهم وما تفنّنوا فيه من بديع حِكمهم، والتزلف إليهم بحسن التوصّل ولطيف المعاني، وبارع مَنطقهم وآختلاف مذاهبهم.

ونحن قائلون بحمد الله وتوفيقه في العلم والأدب؛ فإنهما القُطبان اللذان عليهما مدارُ الدين والدنيا، وفرْقُ ما بين الإنسان وسائر الحيوان، وما بين الطبيعة الملَكية والطبيعة البهيمية؛ وهما مادّة العقل، وسراج البدن، ونور القلب، وعماد الروح؛ وقد جعل الله بلطيف قدرته وعظيم سلطانه بعض الأشياء عَمَداً لبعض ومُتولداً من بعض. فإجالة الوهم فيما تدركه الحواس تبعث خواطر الذِّكر، وخواطر الذكر تنبِّه رَويّةَ الفكر. ورويّة الفكر تُثير مكامنَ الإرادة، والإرادة تحكم أسبابَ العمل. فكل شيء يقوم في العقل ويُمثل في الوهم يكون ذكراً، ثم فكراً، ثم إرادة، ثم عملاً. والعقل مُتقبل للعلم، لا يعمل في غير ذلك شيئاً.

والعلم عِلمان: علمٌ حُمِلَ، وعلم استُعْمِل؛ فما حُمل منه ضَرّ، وما استعمل نفع. والدليل على أن العقل إنما يعمل في تقبُّل العلوم كالبَصر في تقبُّل الألوان والسمعِ في تقبل الأصوات: أنَّ العاقل إذا لم يُعلَّم شيئاً كان كمن لا عقل له. والطفل الصغير لو لم تعَرِّفه أدباً وتُلَقِّنْه كتاباً كان كأبْلَه البهائم وأضلِّ الدَّوابّ فإن زعم زاعم فقال: إنا نجد عاقلاً قليل العلم، فهو يستعمل عقله في قلة علمهَ فيكون أسَدَّ رأيا وأنبهَ فطنةً وأحسنَ مواردَ ومَصادِرَ من الكثير العلم مع قلة العقل. فإن حجتنا عليه ما قد ذكرناه

من حَمْل العلم واستعماله؛ فقليلُ العلم يَستعمله العقلُ خيرٌ من كثيره يحفظه القلب.

قيل للمهلب: بم أدركت ما أدركت؟ قال: بالعِلم. قيل له: فإنّ غيرَك قد علم أكثر مما عَلِمت ولم يُدرك ما أدركت. قال: ذلك عِلمٌ حُمل وهذا علمٌ استُعمل.

وقد قالت الحكماء: العلم قائد والعقل سائق والنفس ذَوْد؛ فإذا كان قائد بلا سائق هلكتْ، وإن كان سائق بلا قائد أخَذَت يميناً وشمالاً، وإذا اجتمعا أنابت[1] طوعاً أو كرهاً.

فنون العلم

قال سهل بن هارون وهو عند المأمون: من أصنافِ العلم ما لا ينبغي للمسلمين أن ينظروا فيه، وقد يُرْغب عن بعض العِلم كما يرغب عن بعض الحلال.

فقال المأمون: قد يُسمِّي بعضُ الناس الشيءَ علماً وليس بعلم، فإن كان هذا أردتَ فوجهُه الذي ذكرتُ.

ولو قلت أيضاً إن العلم لا يُدرَك غَوْرُه، ولا يُسْبَرُ قعْرُه، ولا تُبلَغ غايته، ولا تُسْتَقْصى أصولُه، ولا تَنضبط أجزاؤه، صدقتَ؛ فإن كان الأمر كذلك فابدأ بالأهمِّ فالأهم، والأوْكد فالأوْكد، وبالفرض قبل النَّفل[2]، يكن ذلك عدلاً قصداً ومذهباً جميلاً.

وقد قال بعض الحكماء: لستُ أطلب العلم طمعاً في غايته والوقوفِ على نهايته، ولكنِ التماسَ ما لا يَسَعُ جهلُه. فهذا وجهٌ لما ذكرت.

وقال آخرون: علم الملوكِ النسب والخبر، وعلم أصحاب الحروب درسُ كتب الأيام والسِّيَر، وعلم التجارِ الكتابُ والحساب. فأما أنْ يسمَّى الشيءُ علماً ويُنْهَى عنه

---

(١) أنابت: أذعنت وأجابت.

(٢) النّفل: ما زاد على الواجب في الصلاة.

من غير أن يُسْأل عما هو أنفعُ منه، فلا.

وقال محمد بن إدريس رضي الله عنه: العِلم عِلمان: علمُ الأبدان، وعلم الأديان.

وقال عبد الله بن مسلم بن قتيبة: مَن أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً، ومن أراد أن يكون أديباً فليتفنَّنْ في العلوم.

وقال أبو يوسف القاضي: ثلاثة لا يَسْلَمون من ثلاثة: مَن طلب الدِّين بالفلسفة لم يَسلم من الزَّنْدقة، ومَن طلب المال بالكيمياء لم يَسلم من الفقر، ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذِب.

وقال ابن سيرين رحمه الله تعالى: العلمُ أكثرُ من أن يُحاطَ به، فخذوا من كل شيء أحسنه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كفاك من علم الدين أن تَعرِفَ ما لا يَسَعُ جهلُه وكفاك من عِلم الأدب أن تَرْوي الشاهدَ والمثل.

وقال الشاعر:

وما مِن كاتِبٍ إلاّ ستبقَى ... كِتابتُه وإن فَنِيتْ يداهُ
فلا تكتُب بكفِّك غيرَ شيءٍ ... يَسُرُّكَ في القيامةِ أنْ تَراهُ

وقال الأصمعي: وَصلتُ بالمُلَحِ [1] ونِلتُ بالغريب.

وقالوا: من أكثرَ من النحو حَمَّقَه، ومن أكثر من الشعر بَذَّله [2]، ومن أكثرَ من الفقه شَرَّفه.

وقال أبو نواس الحسنُ بن هانيء:

كم من حديثٍ مُعْجِبٍ عندي لَكا ... لو قدْ نَبَذْتُ به إليك لسَرَّكا
مما تَخيَّرَهُ الرُّواةُ مهذَّبٍ ... كالدُّرِّ منتظِماً بنَحْرٍ فَلَّكا [3]
أَتتَبَّعُ العلماءَ أكتُبُ عنهمُ ... كيْما أُحَدِّثَ مَن لَقِيتُ فيضحَكا

---

(١) الملح: النوادر المحبّبة وجميل القول.

(٢) بذّله: جعله مبتذلاً رخيصاً. (٣) نظم العقد: سلكه، فتل: استدار.

الحضّ على طلب العلم

قال النبي ﷺ: «لا يزال الرجل عالماً ما طَلَبَ العلم، فإذا ظنّ أنه قد عَلِم فقد جَهِل».

وقال عليه الصلاة والسلام: «الناس عالِمٌ ومتعلِّم، وسائرُهم هَمج».

وعنه ﷺ: «إن الملائكة لتضع أجنحتَها لطالب العلم. رِضا بما يطلب. ولَمِدادٌ جرَتْ به أقلامُ العلماء خيرٌ من دماء الشهداء في سبيل الله».

وقال داود لابنه سليمان عليهما السلام: لُفَّ العِلمَ حول عنقك، واكتبه في ألواح قلبك.

وقال أيضاً: اجعل العلم مالك والأدبَ حليتَك.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: قيمةُ كل إنسان ما يُحْسِن.

وقيل لأبي عمرو بن العلاء: هل يحسن بالشيخ أن يتعلم؟ قال: إن كان يحسُن به أن يعيش فإنه يحسن به أن يتعلم.

وقال عُروة بن الزُّبير رحمه الله تعالى لبنيه: يا بَنيّ، اطلبوا العلم، فإن تكونوا صِغارَ قومٍ لا يُحتاج إليكم فعسى أن تكونوا كبارَ قومٍ آخرين لا يُستغْنَى عنكم.

وقال ملك الهند لولده، وكان له أربعون ولداً: يا بنيّ، أكثروا من النظر في الكتب، وازدادوا في كل يوم حرفاً؛ فإنّ ثلاثة لا يَستوحِشون في غُربة: الفقيه العالم، والبطل الشجاع، والحلو اللسان الكثير مخارج الرأي.

وقال المهلب لبنيه: إياكم أن تَجلسوا في الأسواق إلا عند زَرّادٍ أو وَرّاق. أراد الزَّرّادَ للحرب، والورّاقَ للعِلم.

وقال الشاعر:

نِعْمَ الأنيسُ إذا خلَوْتَ كتابُ ... تلهو به إن خانَكَ الأحبابُ

لا مُفْشِياً سِرّاً إذا استودَعْتَه ... وتُفادُ منه حِكمةٌ وصواب

وقال آخر:

وِلِكـل طـالـبِ لـذةٍ متنـزَّهٌ　　وألَـذُّ نُـزهـةِ عـالمٍ في كُتْبِـهِ

ومر رجل بعبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر، وهو جالس في المقبرة وبيده كتاب، فقال له: ما أجلَسك هٰهنا؟ قال: إنه لا أَوْعَظ مِن قبر، ولا أمتع من كتاب.

وقال رؤبة بن العجّاج: قال لي النّسّابة البكري: يا رؤبة، لعلك من قوم إن سكتُّ عنهم لم يسألوني، وإن حدّثتُهم لم يفهموني؟ قلت: إني أرجو ألا أكون كذلك. قال: فما آفة العلم ونَكَده وهَجنتُه؟ قلت: تخبرني! قال: آفته النسيان، ونكده الكذب، وهُجنته نشره عند غير أهله.

وقال عبد الله بن عباس رضوان الله عليهما: مَنهُومان لا يشبعان: طالبُ علم وطالبُ دنيا.

وقال: ذَلَلت طالباً فَعززْتُ مطلوباً.

وقال رجل لأبي هريرة: أريد أن أطلب العلم وأخاف أن أُضيعَه. قال: كفاك بترك طلب العلم إضاعةً له.

وقال عبد الله بن مسعود: إن الرجل لا يُولد عالماً، وإنما العلم بالتعلُّم. وأخذه الشاعر فقال:

تَعَلَّـم فليس المرءُ يُـولـدُ عـالِماً　　وليس أخو عِلمٍ كمن هُو جـاهـلُ

ولآخر:

تعلّـم فليس المرءُ يُخلَـقُ عـالِماً　　وما عالِمٌ أَمْراً كمن هـو جـاهلُـه

ولآخر:

ولم أرَ فـرْعـاً طـال إلا بـأصلـهِ　　ولم أرَ بـــدءَ العِلمِ إلاّ تعلُّما

وقال آخر:

العِلمُ يُحْيي قلـــــوبَ المَيِّتين كما ... تَحْيـا البلادُ إذا مـا مَسَّهـا المطَـرُ

والعلم يجلُو العَمَى عن قلبِ صاحبِـه ... كما يُجَلِّـي سـوادَ الظُّلْمـةِ القمـرُ

وقال بعض الحكماء: آقصِدْ من أصناف العلم إلى ما هو أشْهى لنفسك، وأخَفّ على قلبك؛ فإنّ نفاذك فيه، على حسب شهوتك له وسُهولتِه عليك.

فضيلة العلم

لعلي بن أبي طالب:

حدثنا أيوب بن سُليمان قال: حدثنا عامر بن معاوية عن أحمد بن عمران الأخنس عن الوليد بن صالح الهاشمي، عن عبد الله بن عبد الرحمن الكوفي، عن أبي مِخْنف، عن كُحَيْل النَّخعي، قال: أَخذ بيدي عليٌّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، فخرج بي إلى ناحية الجبَّانة، فلما أَصْحَرَ[1] تنفّس الصُّعداء، ثم قال: يا كُمَيْل، إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها فاحفظ عني ما أقول لك:

الناس ثلاثة: عالم ربّاني، ومتعلّم على سبيل نَجاة، وهَمَجٌ رَعاع، أتباعُ كلِّ ناعق، مع كلِّ ريح يَميلون، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يَلْجئوا إلى ركن وثيق.

يا كميل، العلم خير من المال: العلم يَحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقُصه النفقة، والعلم يَزْكو على الإنفاق، ومنفعة المال تزول بزواله.

يا كميل، محبة العلم دِينٌ يُدان به، به يَكسب الإنسان الطاعةَ في حياته، وجميلَ الأحْدُوثةِ بعد وفاته، والعلم حاكم والمال محكومٌ عليه.

يا كميل، مات خُزّانُ المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة ها إن ها هنا لعلماً جَمّاً ـ وأشار بيده إلى صدره ـ لو وَجدْتُ له حَمَلةً، بلى أجد لقناً[2] غير مأمون عليه، يَستعمله آلة الدين

---

(١) أصحر: بلغ الصحراء. (٢) لقناً: أي محتلاً ملقّناً من العلم.

للدنيا، ويَستْظهر بحجج الله على أوليائه، وبنعمه على عباده؛ أو منقاداً لحملة الحقِّ ولا بصيرة له في أحْنائه [1]، ينقدح الشك في قلبه لأولِ عارضٍ من شُبهة. لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، أو منهوماً باللذة، سَلسَ القياد للشهوة، أو مغرماً بالجمع والادخار ليسا من رعاة الدين في شيء أقربُ شبهاً بهما الأنعام السائمة. كذلك يَموت العلم بِمَوْت حامِليه. اللهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم بحجة الله إما ظاهراً مشهوراً، أو خائفاً مغموراً، لئلا تَبْطُلَ حُجَج الله وبيناته؛ وكم ذا، وأين؟ أولئك والله الأقلَّون عدداً؛ والأعظمون عند الله قدراً؛ بهم يحفظ الله حُجَجَه حتى يودعوها نُظَراءهم؛ ويزرعوها في قلوب أشباهِهم، هجم بهم العلم على حقيقة الإيمان حتى باشروا رُوح اليقين؛ فاستَلانوا ما استَخْشَن المترَفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصَحِبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها مُعلقة بالرفيق الأعلى.

يا كميل، أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، آه آه. شوقاً إليهم. انصرف إذا شئت.

قيل للخليل بن أحمد: أيهما أفضل: العِلم أو المال؟ قال العِلم. قيل له: فما بال العُلماء يَزدحمون على أبواب الملوك والملوك لا يزدحمون على أبواب العلماء؟ قال: ذلك لمعرفة العلماء بحقِّ الملوك وجهلِ الملوك بحق العلماء.

وقال النبي ﷺ: «فضلُ العلم خير من فضل العبادة».

وقال عليه الصلاة والسلام: «إنّ قليل العمَل مع العلم كثير، كما أنّ كثيره مع الجهل قليل».

وقال عليه الصلاة والسلام: «يحمل هذا العلمَ مِنْ كلِّ خلفٍ عُدولُه [2]، ينفون عنه تحريفَ القائلين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين».

وقال الأحنف بن قيس: كاد العلماء أن يكونوا أرباباً، وكلُّ عِز لم يؤكّد بعلم فإلى ذُلٍّ ما يصير.

---

(١) الأحناء: المتشابه، أو الأطراف والنواحي من الأمور.

(٢) عدوله: أي العلماء ذوي العدل.

وقال أبو الأسود الدؤلي: الملوك حُكام على الدنيا، والعلماء حُكام على الملوك.

وقال أبو قِلابة: مَثَل العلماء في الأرض مَثَلُ النجوم في السماء: من تَركها ضَلّ، ومن غابت عنه تحيّر.

وقال سفيان بن عُيينة: إنما العالِم مثل السراج: من جاءه اقتبس[1] من علمه، ولا ينقصه شيئاً، كما لا ينقص القابسُ من نور السراج شيئاً.

وفي بعض الأحاديث: إن الله لا يقتل نفس التقّي العالِم جوعاً.

وقيل للحسن بن أبي الحسن البَصري: بِمَ صارت الحِرفة مقرونة مع العِلم، والثروة مقرونة مع الجهل؟ فقال: ليس كما قلتم، ولكن طلبتُم قليلاً في قليل فأعجزكم؛ طلبتُم المالَ وهو قليل، في أهل العلم وهم قليل، ولو نظرتم إلى من احترف من أهل الجهل لوجدتموهم أكثر.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إنما يَخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾[2] و﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾[3].

وقيل: لا تمنعوا العلم أهله فتظلموهم، ولا تعطوه غير أهله فتظلموه. ولبعضهم:

من منع الحكمة أربابها   أصبح في الحكم لهم ظالما
وواضع الحكمة في غيرهم   يكون في الحكم لها غاشما
سمعت يوماً مثلاً سائراً   وكنت في الشعر له ناظما
لا خير في المرء إذا ما غدا   لا طالباً علماً ولا عالما

وقيل لبعض العلماء. كيف رأيت العلم؟ قال: إذا اغتممت سلوتي، وإذا سلوت لذتي.

وأنشد لسابق البربري:

العلم يزنٌ وتشريفٌ لصاحبه   والجهل والنَّوْكُ مقرونان في قَرَن[4]

---

(١) اقتبس: استضاء واستنار. (٢) سورة فاطر الآية ٢٨.
(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٣. (٤) النّوك: الحمق، مقرونان في قرن: أي مسلوكان في سَلكٍ واحد

ولغيره:

وإذا طلبت العلم فاعلم أنَّهُ حِملٌ فأبصرْ أيَّ شيءٍ تحملُ
وإذا علمتَ بأنّه متفاضلٌ فاشغل فؤادك بالذي هو أفضل

الأصمعي قال: أول العلم الصمت، والثاني الاستماع، والثالث الحفظ، والرابع العمل، والخامس نشره.

ويقال: العالم والمتعلم شريكان، والباقي همج.

وأُنشِد:

لا ينفع العلمُ قلباً قاسياً أبداً ولا يلين لفكّ الماضغ الحجرُ

وقال معاذ بن جبل: تعلموا العلم فإن تعلمه حسنة، وطلبه عبادة، وبذله لأهله قُربة. والعلم منار سبيل أهل الجنة، والأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدّث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والزَّين عند الأخلاء، والسلاح على الأعداء. يرفع الله به قوماً فيجعلهم قادة أئمة، تُقتفى آثارهم، ويُقْتَدى بفعالهم. والعلم حياة القلب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظُّلمة، وقوة الأبدان من الضعف؛ يبلغ بالعبد منازل الأخيار، والدرجات العلا في الدنيا والآخرة؛ الفكر فيه يعدل الصيام، ومذاكرته القيام، وبه تُوصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام.

ولابن طباطبا العلويّ:

حسودٌ مريضُ القلبِ يُخفي أنينهُ ويُضحي كئيبَ البال عندي حزينَهُ
يلوم على أن رحت في العلم طالباً أجمِّع من عند الرجال فنونهُ
فأملك أبكار الكلام وعُونَه وأحفظ مما أستفيد عيونه[1]
ويزعم أن العلم لا يجلب الغنى ويُحسن بالجهل الذميم ظنونه
فيا لائمي دعني أغالي بقيمتي فقيمة كلِّ الناس ما يحسنونه

(١) أبكار الكلام: أي المعاني التي لم يسبق إليها. والعون: الفتاة البكر.

ضبط العلم والتثبت فيه

قيل لمحمد بن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: ما هذا العِلْم الذي بِنْتَ [1] به عن العالَم؟ قال: كنتُ إذا أخذت كتاباً جعلتُه مِدْرعة.

وقيل لرقبة بن مصقلة: ما أكثرَ شكك! قال: محاماةً عن اليقين.

وسأل شُعبةُ أيوبَ السِّختياني عن حديث، فقال: أشُك فيه: فقال: شكُّك أحبُّ إليَّ من يقيني.

وقال أيوب: إنّ من أصحابي من أرتجي بَركةَ دعائه ولا أقبلُ حديثه.

وقالت الحكماء: عَلِّم عِلمَك مَن يجهل، وتعلَّم ممن يَعلم، فإذا فعلت ذلك حفظت ما علمتَ؛ وعلمتَ ما جهلت.

وسأل إبراهيم النَّخعيَ عامراً الشَّعبي عن مسألة؛ فقال: لا أدري. فقال: هذا والله العالم؛ سُئل عما لا يدري، فقال: لا أدري.

وقال مالك بن أنس: إذا تَرَكَ العالِمُ «لا أدري» أصيبت مقاتِلُه.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: من سُئل عما لا يدري، فقال: لا أدري، فقد أحرز نصفَ العلم.

وقالوا: العلم ثلاثة: حديثٌ مُسنَد، وآيةٌ مُحْكمة، ولا أدري؛ فجعلوا «لا أدري» من العلم، إذا كان صواباً من القول.

وقال الخليل بن أحمد: إنك لا تعرف خطأ مُعلِّمك حتى تجلس عند غيره..

وكان الخليل قد غلبتْ عليه الإباضِيَّة [2] حتى جالس أيوب.

وقالوا: عواقبُ المكاره محمودة.

وقالوا: الخيرُ كلُّه فيما أُكْرِهت النفوسُ عليه.

---

(١) بنت به: بعدت به وتفوقت فيه.

(٢) الأباضيّة: فرقه من الخوارج.

انتحال العلم

قال بعض الحكماء: لا ينبغي لأحد أن ينتحل العلم، فإن الله عز وجل يقول: ﴿وما أُوتِيتُمْ من العِلمِ إلا قليلاً﴾ [1] وقال عز وجل: ﴿وفوقَ كلِّ ذي عِلْمٍ عَليم﴾ [2].

وقد ذُكِر عن موسى بن عمران عليه السلام، أنه لما كلمه الله تعالى تكليماً، ودَرَس التوراةَ وحَفِظَها، حدثتْه نفسُه أن الله لم يَخلق خلقاً أعلمَ منه، فهوَّن اللهُ إليه نفسَه بالخضرِ عليه السلام.

وقال مقاتل بن سليمان وقد دخلتْه أُبَّهةُ العلم: سلوني عما تحت العرش إلى أسفلَ من الثرى. فقام إليه رجل من القوم فقال: ما نسألك عما تحت العرش ولا أسفل من الثرى، ولكن نسألك عما كان في الأرض وذَكَرَه اللهُ في كتابه: أخْبِرْني عنْ كلب أهل الكهف، ما كان لونه؟ فأفْحَمَه.

وقال قتادة: ما سمعت شيئاً قط ولا حفظتُ شيئاً قطُّ فنسِيتُه. ثم قال: يا غلام، هاتِ نَعلِي. فقال: هما في رجليك. ففضحه الله.

وأنشد أبو عمرو بن العلاء في هذا المعنى:

مَنْ تحلَّى بغير ما هو فيه ... فضحتْه شواهِدُ الإمتحان

وفي هذا المعنى:

من تحلّى بغير ما هو فيه ... شان ما في يديه ما يدّعيهِ
وإذا قلّ الدعاوى لما فيـ ... ـه أضافوا إليه ما ليس فيه
ومحلُّ الفتى سيظهر للنا ... س وإن كان دائباً يُخفيه
وبِحسْبِ الذي ادّعى ما عداه ... أنّه عالمٌ بما يفتريه

(١) سورة الإسراء الآية ٨٥.

(٢) سورة يوسف الآية ٧٦.

وقال شبيب بن شيبة لفتى من دوس: لا تُنازع مَن فوقك، ولا تقل إلا بعلم، ولا تتعاط ما لم تَبْلُ[1]، ولا يخالف لسانك ما في قلبك، ولا قولك فعلك، ولا تدع الأمر إذا أقبل، ولا تطلبه إذا أدبر.

وقال قتادة: حَفظتُ ما لم يحفظ أحد، وأُنْسِيتُ ما لم يَنْس أحد: حفظتُ القرآنَ في سبعة أشهر، وقبضتُ على لحيتي وأنا أريد قَطْعَ ما تحت يدي فقطعتُ ما فوقها.

ومر الشعبيُّ بالسُّدِّي وهو يفسِّر القرآن، فقال: لو كان هذا الساعةَ نشوانَ يَضرب على آسته بالطبل، أما كان أحسنَ له؟

وقال بعض المنتحلين:

يُجهِّلُني قومـي وفي عَقْـدِ مِئْـزَري ... تَمنَّـون أمثـالاً لهم مُحْكَـم العلمِ
وما عَنَّ لي من غامِضِ العلمِ غامِضٌ ... مَدَى الدهرِ إلا كنتُ منه على فهْمِ

وقال عديّ بن الرِّقاع:

وعَلِمـتُ حتى مـا أُسـائـلُ عـالمـاً ... عـن عِلم واحـدةٍ لكـيْ أَزدادَهـا

شرائط العلم وما يصلح له

وقالوا: لا يكون العالم عالماً حتى تكون فيه ثلاث خصال: لا يَحتقر مَن دونَه، ولا يَحسد مَن فوقه، ولا يأخذ على العلم ثمناً.

وقالوا: رأس العلم الخوف من الله تعالى.

وقيل للشعبي: أَفْتِني[2] أيُّها العالِم! فقال: إنما العالم مَن اتقى الله.

وقال الحسن: يكون الرجل عالماً ولا يكون عابداً، ويكون عابداً ولا يكون عاقلاً.

وكان مسلم بن يسار عالماً عابداً عاقلاً.

---

(١) لم تبلُ: لم تختبر وتجرّب.

(٢) أفتني: من الفتوى وهي العلم بأمور الشريعة.

وقالوا: ما قُرن شيءٌ إلى شيء، أفْضلَ من حِلم إلى عِلم. ومن عفو إلى قُدرة.

وقالوا: من تمام آلةِ العالِم أن يكون شديدَ الهيبة، رزينَ المجلس، وقوراً صَموتاً، بطيء الآلتفات، قليل الإشارات، ساكن الحركات، لا يَصْخَب ولا يغضب، ولا يُبْهر[1] في كلامه، ولا يَمسح عُثْنُونَه[2] عند كلامه في كل حين؛ فإن هذه كلّها من آفات العيّ.

وقال الشاعر:

مَليءٌ بِبُهْـر والْتِفـاتٍ وسُعْلـةٍ ... ومَسحةِ عُثْنُونٍ وفَتلِ الأصـابـعِ

ومدح خالد بن صفوان رجلاً، فقال: كان بديع المنطق، جزل الألفاظ، عربيّ اللسان، قليل الحركات، حَسَن الإشارات، حُلو الشمائل، كثير الطلاوة، صموتاً وقوراً، يهنأ الجرب، ويداوي الدّبر، ويُقِلُّ الحَزَّ، ويُطبِّق المَفْصِل؛ لم يكن بالزمِر المروءة، ولا الهَذِرِ المنطق، مَتبوعاً غيرَ تابع.

★ كأنَّه علمٌ في رأسه نار ★

وقال عبد الله بن المبارك في مالك بن أنس رضي الله عنه:

يأبَى الجوابَ فما يَراجَـعُ هيْبـةً ... فالسائلونَ نـواكِسُ الأذْقـانِ
هدْيُ الوَقار وعِزُّ سُلطانِ التُّقَـى ... فهو المَهيـبُ وليس ذا سُلطـان

وقال عبد الله بن المبارك فيه أيضاً:

صَمُوتٌ إذا ما الصمْتُ زَيَّنَ أَهلَـهَ ... وفتّـاقُ أبكـارِ الكلام المختّـمِ
وعَى ما وعى القرآنُ من كلِّ حِكمَةٍ ... وسِيطتْ له الآدابُ باللحم والدم[3]

---

(١) يُبهر: ينقطع نفسه ويتعب.
(٢) العثنون: اللحية، أو ما فضل منها بعد العارضين.
(٣) سيطت: خلطت.

بين عبد الملك ورجل:

ودخل رجل على عبد الملك بن مروان، وكان لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده منه عِلماً، فقال له: أنَّى لك هذا؟ فقال: لم أَمْنع قطّ يا أمير المؤمنين علماً أُفيدُه، ولم أحتقر علماً أستفيده، وكنت إذا لقيت الرجل أخذتُ منه وأعطيتُه.

وقالوا: لو أنّ أهل العلم صانوا علمهم لسادوا أهل الدنيا، لكن وضعوه غيرَ موضعه فقصّرَ في حقِّهم أهل الدنيا.

حفظ العلم واستعماله

قال عبد الله بن مسعود: تعلَّموا، فإذا عَلمتم فاعملوا.

وقال مالك بن دينار: العالِم إذا لم يعمل بعلمه زَلَّتْ موعظته عن القلب. كما يزل الماءُ عن الصَّفا[1].

وقالوا: لولا العمل لم يُطلب العلم، ولولا العِلم لم يُطلب العمل.

وقال الطائي:

ولم يَحمَدوا من عالِم غيرِ عـامِـلٍ ... ولم يَحمَدوا من عاملٍ غير عـالِـمِ

وقال عمرُ بن الخطاب رضوان الله عليه: أيها الناس، تعلموا كتاب الله تُعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله.

وقالوا: الكلمة إذا خرجت من القلبِ وقعتْ في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تُجاوِز الآذان.

ورَوى زياد عن مالك، قال: كن عالماً، أو متعلِّماً، أو مستمعاً؛ وإياك والرابعة فإنها مهلكة؛ ولا تكونُ عالماً حتى تكونَ عاملاً، ولا تكون مؤمناً حتى تكون تقيّاً.

وقال أبو الحسن: كان وكيع بن الجرّاح يتحفظ كل يوم ثلاثة أحاديث.

وكان الشعبي والزهري يقولان: ما سمعْنا حديثاً قط وسألنا إعادتَه.

---

(١) الصفواء الصخرة الملساء المنحدرة.

رفع العلم وقولهم فيه

قال عبد الله بن مسعود: تعلموا العلم قبل أن يُرْفع.

وقال النبي ﷺ: « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبضه بِقَبْضِ العلماء ».

وقال عبد الله بن عباس رضوان الله عليهما، لما وُورِي زيدُ بن ثابت في قبره: مَن سَرَّه أن يَرى كيف يُقْبَض العلم فهكذا يقبض.

تحامل الجاهل على العالم

قال النبي ﷺ: « ويل لعالِم أمرٍ مِن جاهِله ».

وقالوا: إذا أردتَ أن تفْحِم عالماً فأحْضِرْه جاهلاً.

وقالوا: لا تناظِر جاهلاً ولا لجوجاً: فإنه يجعل المناظرةَ ذَريعة إلى التعلّم بغير شكر.

قال النبي ﷺ: « ارحموا عزيزاً ذلّ، ارحموا غنياً افتقَر، ارحموا عالماً ضاع بين جُهّال ».

وجاء كيسان إلى الخليل بن أحمد يسأله عن شيء؛ ففكر فيه الخليل ليجيبه، فلما استفتح الكلام قال له: لا أدري ما تقول. فأنشأ الخليل يقول:

لو كنتَ تعلم ما أقول عَذَرْتَني ... أو كنتُ أجهل ما تقولُ عَذَلْتُكا
لكن جَهِلتَ مَقالتي فعَذَلتني ... وعلمتُ أنك جاهلٌ فعَذَرْتُكا

قال حبيب:

وعاذلٍ عَذَلْتُه في عَذْلِه ... فظنَّ أنّي جاهلٌ من جَهْلِه
ما غَبَن المغْبونَ مثلُ عقله ... من لك يوماً بأخيك كلِّه (١)

---

(١) المغبون: المنتقصة حقوقه.

تبجيل العلماء وتعظيمهم

زيد بن ثابت وابن عباس:

الشعبي قال: ركب زيد بن ثابت، فأخذ عبد الله بن عباس بركابه؛ فقال: لا تفعل يا بن عمِّ رسول الله ﷺ. فقال: هكذا أُمِرْنا أن نفعل بعلمائنا. قال زيد: أَرِني يَدَك. فلما أخرج يده قَبَّلها، وقال: هكذا أُمِرْنا أن نفعل بابن عمِّ نبيّنا.

وقالوا: خدمة العالِم عبادة.

وقال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه: من حقِّ العالِم عليك إذا أتيته أن تسلِّم عليه خاصة وعلى القوم عامَّة، وتجلس قُدَّامَه، ولا تشير بيدك، ولا تغمِزَ بعينك؛ ولا تقول: قال فلان خلافَ قولك، ولا تأخذ بثوبه، ولا تُلحّ عليه في السؤال؛ فإنما هو بمنزلة النخلة المُرطبة التي لا يزال يسقط عليك منها شيء.

وقالوا: إذا جلست إلى العالم فسَلْ تَفَقهاً ولا تَسل تَعَنُتا [1].

عويص المسائل

الأوزاعيّ عن عبد الله بن سعد عن الصُّنابحيّ عن معاوية بن أبي سفيان قال: نهى رسول الله ﷺ عن الأُغلوطات.

قال الأوزاعي: يعني صعابَ المسائل.

وكان ابن سيرين إذا سُئل عن مسألة فيها أغلوطة قال للسائل: أمسِكْها حتى تسأل عنها أخاك إبليس.

وسأل عمرو بن قيس مالكَ بن أنس عن مُحْرِمٍ نَزَع نابيْ ثعلب، فلم يردّ عليه شيئا.

---

(١) التعنّت: نوعٌ من المماحكة، يقصد السائل لها الإعجاز.

وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عليَّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه فقال: ما تقول في رجلٍ أُمه عند رجل آخر؟ فقال: يُمسك عنها. أراد عمر: أن الرجل يموت وأُمه عند رجل آخر، وقول علي «يمسك عنها» يريد: يُمسك عن أم الميت حتى تستبريء من طريق الميراث.

وسأل رجل عمر بن قيس عن الحصاة يجدها الإنسان في ثوبه أو في خُفه أو في جبهته من حصى المسجد، فقال: ارْمِ بها. قال الرجل: زعموا أنها تصيح حتى تُرَدَّ إلى المسجد. فقال: دعها تصيح حتى ينشقَّ حلقُها. فقال الرجل: سبحان الله! ولها حَلْق؟ قال: فمن أين تصيح.

وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى﴾ (١) كيف هذا الاستواء؟ قال: الاستواء معقول. والكيفُ مجهول؛ ولا أظنك إلا رَجُلَ سَوء.

وروى مالكُ بن أنس الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يُدخل يدَه في الإناء حتى يغسلَها؛ فإن أحدكم لا يدري أين باتت يدهُ، فقال له رجل: فكيف نصنعَ في المِهّراس أبا عبد الله؟ - والمهراس: حوضُ مكة الذي يتوضأ الناس فيه - فقال: مِن الله العلم، وعلى الرسولِ البلاغ، ومنا التسليم. أَمروا الحديث.

وقيل لابن عباس رضي الله عنهما: ما تقول في رجلٍ طلّق آمرأته عددَ نجوم السماء؟ قال: يكفيه منها كوكبُ الجوزاء.

وسئل عليٌّ بن أبي طالب رضوان الله عليه: أين كان ربنا قبل أن يخلْق السماء والأرض؟ فقال: أين توجبُ المكان، وكان الله عز وجل ولا مكان.

---

(١) سورة طه الآية ٥.

التصحيف

وذكر الأصمعي رجلا بالتصحيف، فقال: كان يسمع فيعي غير ما يسمع، ويكتب غير ما وَعَى، ويقرأ في الكتاب غير ما هو فيه.

وذكر آخرُ رجلا بالتصحيف فقال: كان إذا نَسخ الكتاب مرتين عاد سُريانيًا.

طلب العلم لغير الله

قال النبي ﷺ: «إذا أُعْطِيَ الناسُ العلمَ ومُنعوا العمل وتَحابُّوا بالألسن، وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا في الأرحام ـ لعنهم الله فأصَمَّهُمْ وأعمَى أبصارَهم».

وقال النبي ﷺ: «ألاَ أُخْبرِكم بشرِّ الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: العلماء إذا فَسدوا».

وقال الفضيل بن عياض: كان العلماء ربيع الناس، إذا رآهم المريض لم يسرّه أن يكون صحيحا، وإذا نظر إليهم الفقير لم يودّ أن يكون غنيا؛ وقد صاروا اليوم فتنة للناس.

وقال عيسى بن مريم عليه السلام: سيكون في آخر الزمان علماء يُزهِّدون في الدنيا ولا يزْهدون، ويُرغِّبون في الآخرة ولا يرغبون؛ يَنهونَ عن إتيان الولاة ولا ينتهون، يُقَرّبون الأغنياء، ويُبعدون الفقراء، ويتبّسطون للكبراء، وينقبضون عن الفقراء: أولئك إخوان الشياطين وأعداء الرحمن.

وقال محمد بن واسع: لأن تطلب الدنيا بأقبح مما تطلب به الآخرة، خير من أن تطلبها بأحسن مما تطلب به الآخرة.

وقال الحسن: العلم علمان: علم في القلب، فذاك العلم النافع، وعلم في اللسان، فذاك حجة الله على عباده.

وقال النبي ﷺ: «إن الزبانية (١) لا تخرج إلى فقيه ولا إلى حملة القرآن إلا قالوا لهم: إليكم عنا، دونكم عَبَدة الأوثان. فيشتكون إلى الله، فيقول: ليس من علم كمن لم يعلم.

وقال مالك بن دينار: من طلب العلم لنفسه فالقليل منه يكفيه، ومن طلبه للناس فحوائج الناس كثيرة.

وقال ابن شبرمة: ذهب العلم إلا غُبَّرات (٢) في أدعية سوء.

وقال النبي ﷺ: «من طلب العلم لأربع دخل النار: من طلبه ليباهي به العلماء، وليماري (٣) به السفهاء، وليستميل به وجوه الناس إليه، أو ليأخذ به من السلطان».

وتكلم مالك بن دينار فأبكى أصحابه، ثم افتقد مصحفه، فنظر إلى أصحابه وكلهم يبكي، فقال: ويحكم! كلكم يبكي. فمن أخذ المصحف!؟.

قال أحمد بن أبي الحَواريّ: قال لي أبو سليمان في طريق الحج: يا أحمد، إن الله قال لموسى بن عمران: مُرْ ظَلَمة بني اسرائيل ألا يذكروني، فإني لا أذكر من ذَكَرني منهم إلا بلعنةٍ حتى يسكت! ويحك يا أحمد! بلغني أنه من حجَّ بمالٍ من غير حلِّه ثم لبَّى قال الله تبارك وتعالى: لا لَبَّيْك ولا سَعْدَيْك حتى تؤدي ما بيديك، فما يؤمِّنُنا أن يقالَ لنا ذلك؟

باب من أخبار العلماء والأدباء

أملى أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الخشني، أنّ عبد الله بن عباس سئل عن أبي بكر رضي الله عنه، فقال: كان والله خيراً كله مع الحِدَّة التي كانت فيه. قالوا: فأخبِرْنا عن عمر رضوان الله عليه. قال: كان والله كالطير الحذِر الذي نصِبَ فَخٌّ له فهو يخاف أن يقع فيه. قالوا: فأخبِرْنا عن عثمان رضوان الله عليه. قال: كان والله

(١) الزبانية: الكفرة والشياطين.

(٢) الغبَّرات: البقايا الباقية. (٣) يماري: يجادل وينازع.

صوّاماً قوّاماً. قالوا: فأخبرنا عن علي بن أبي طالب رضوانُ الله عليه. قال: كان والله ممن حَوَى علماً وحِلما، حسبُك من رجلٍ أعزَّته سابقتهُ، وقدّمتْه قرابتهُ من رسول الله ﷺ، فقلّما أشرفَ على شيء إلا ناله. قالوا يقال: إنه كان محدودا. قال: أنتم تقولونه.

للحسن البصري وعلي بن أبي طالب:

وذكروا أن رجلا أتى الحسن فقال: أبا سعيد، إنهم يزعمون أنك تُبغض عليا! فبكى حتى اخضلّت لحيتُه، ثم قال: كان علي بن أبي طالب سهماً صائباً من مَرامي الله على عدوِّه، ورَبَّاني هذه الأمة، وذا سابقتها، وذا فضلها، وذا قرابةٍ قريبةٍ من رسول الله ﷺ؛ لم يكن بالنَّئُومة[1] عن أمر الله، ولا بالملولةِ في حق الله، ولا بالسَّرُوقة لمال الله؛ أعطَى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مُونِقة، وأعلام بيّنة. ذاك عليّ بن أبي طالب يا لُكَع.

وسُل خالد بن صفوان عن الحسن البصري، فقال: كان أشبهَ الناسِ علانيةً بسريرة، وسريرةً بعلانية وآخَذَ الناسِ لنفسهِ بما يأمر به غيرَه، يا له مِن رجل آستغنى عما في أيدي الناس من دنياهم. واحتاجوا إلى ما في يديه من دينهم.

ودخل عروة بن الزبير بستاناً لعبد الملك بن مروان، فقال عروة: ما أحسن هذا البستان! فقال له عبد الملك: أنت والله أحسن منه؛ إن هذا يؤتي أُكلَه كلَّ عام، وأنت تؤتي أُكلَك كلَّ يوم.

وقال محمد بن شهاب الزهري: دخلت على عبد الملك بن مروان في رجال من أهل المدينة، فرآني أحْدثَهم سنا، فقال لي: من أنت؟ فانتسبتُ إليه، فعرفني؛ فقال: لقد كان أبوك وعمك نَعاقَيْن في فتنة ابن الزبير! قلت: يا أمير المؤمنين، مثلُكَ إذا عَفَا لم يَعُد، وإذا صفح لم يُثَرِّب. قال لي: أين نشأت؟ قلت: بالمدينة، قال: عند مَن

(١) النئومة: أي الغافل المقصّر عن طاعة الله وأوامره.

طلبتَ؟ قلت: عند ابن يسار، وابن أبي ذُؤيب، وسعيد بن المُسيِّب. قال لي: وأين كنتَ من عروةَ بن الزبير، فإنه بحر لا تُكدِّره الدِّلاء.

وذُكر الصحابةُ عند الحسن البصري، فقال: رحمهم الله، شهدوا وغبْنا، وعَلِموا وجَهِلْنا؛ فما آجتمعوا عليه اتبعنا، وما آختلفوا فيه وقفْنا.

وقال جعفر بن سليمان: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: ما رأيت أحداً أقشفَ من شعبة، ولا أعْبَدَ من سفيان، ولا أَحْفَظَ من ابن المبارك.

وقال: ما رأيت مثل ثلاثة: عطاء بن أبي رباح بمكة، ومحمد بن سيرين بالعراق، ورجاء بن حَيْوة بالشام.

وقيل لأهل مكة: كيف كان عطاء بنُ أبي رباح فيكم؟ فقالوا: كان مثلَ العافية التي لا يُعرَفُ فضلُها حتى تُفْقَد.

وكان عطاء بن أبي رباح أسودَ أعور أفطس أشلّ أعرج، ثم عَمى. وأُمّه سوداءُ تسمَّى بركة.

وكان الأحنف بن قيس: أعور أعرج ولكنه إذا تكلم جلا عن نفسه.

وقال الشعبي: لولا أني زُوحِمْتُ في الرَّحم ما قامتْ لأحد معي قائمة. وكان توْأما.

وقيل لطاووس: هذا قتادة يريد أن يأتيك. قال ائن جاء لأقومَنّ. قيل: إنه فقيه. قال: إبليسُ أفقهُ منه؛ قال؛ ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ (١).

وقال الشعبي: القضاة أربعة: عمر، وعلي، وأبو موسى، وعبد الله.

وقال الحسن: ثلاثة صحبوا النبي ﷺ: الابن والأب والجد؛ عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي قحافة، ومعن بن يزيد بن الأخنس السُّلمي.

---

(١) سورة الحجر الآية ٣٩.

وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود فقيهاً شاعراً، وكان أحدَ السبعة من فقهاء المدينة.

وقال الزهري: كنت إذا لقيت عُبيد الله بن عبد الله، فكأنما أفْجرُ به بحرا.

وقال عمر بن عبد العزيز: وددت لو أن لي مجلساً من عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود لم يفُتنى.

ولقيه سَعيد بن المُسّيب فقال له: أنت الفقيه الشاعر؟ قال: لا بد للمصدور [1] أن يَنْفُث.

وكتب عبيد الله بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز وبلَغه عنه شيء يكرهه:

أبا حفصٍ أتاني عنك قولٌ ... قُطِعْتُ به وضاق به جوابي
أبا حفصٍ فلا أدري أرَغْمي ... تُريد بما تُحاولُ أمْ عتَابي [2]
فإن تكُ عاتباً نَعْتِبْ وإلاّ ... فما عُودِي إذاً بيَراعِ غابِ
وقد فارَقتُ أعظمَ منك رُزْءًا ... وواريْتُ الأحبَّةَ في التُّرابِ
وقد عَزُّوا عليَّ وأسلمُوني ... معاً فلبِستُ بَعدَهُمُ ثِيابي

وكان خالد بن يزيد بن معاوية أبو هاشم، عالما كثير الدراسة للكتب وربما قال الشعر، ومن قوله:

هل أنت مُنتفعٌ بعِلْمِك مَرَّةً ... والعِلْم نافعْ
ومِنَ المُشير عليك بالرأ ... يِ المسدَّدِ أنت سامعْ
الموتُ حوْضٌ لا مَجا ... لةَ فيه كلُّ الخَلْقِ شارِعْ
ومِنَ التُّقى فازرعْ فإنـ ... ـك حاصِدٌ ما أنت زارِعْ

وقال عمر بن عبد العزيز: ما وَلَدَت أميةُ مثل خالد بن يزيد، ما استثنى عثمان ولا غيره.

---

(١) المصدور: مريض الصدر، المسلول. (٢) أرغمه: أجبره.

وكان الحسن في جنازة فيها نوائح، ومعه سعيد بن جبير، فهمْ سعيدٌ بالانصراف، فقال له الحسن: إن كنت كلما رأيت قبيحاً تركت له حَسَناً أسْرَع ذلك في دينك.

وعن عيسى بن إسماعيل عن ابن عائشة عن ابن المبارك، قال: علمني سفيان الثوريُّ اختصار الحديث.

وقال الأصمعي: حدثنا شعبة قال: دخلت المدينة فإذا لِمَالكٍ حلْقة وإذا نافع قد مات قبل ذلك بسنة، وذلك سنة ثماني عشرة ومائة.

وقال أبو الحسن بن محمد: ما خلق الله أحداً كان أعْرَف بالحديث من يحي ابن مَعين؛ كان يؤتي بالأحاديث قد خُلطت وقُلِبَتْ فيقول: هذا الحديث لذا، وذا لهذا. فيكون كما قال.

وقال شريك: إني لأسمع الكلمة فيتغير لها لوني.

وقال ابن المُبارك: كل من ذُكِر لي عنه وجَدْتُه دون ما ذكِر، إلا حَيوة بن شُريح، وأبا عون.

وكان حَيوة بن شريح يقعد للناس، فتقول له أُمه: قم يا حَيوةُ ألقِ الشعير للدجاج. فيقوم.

وقال أبو الحسن: سَمع سليمان التَّيمي من سفيان الثوري ثلاثة آلاف حديث.

وكان يحي بن اليمان يذهب بابنه داود كل مذهب، فقال له يوما: كان رسول الله ﷺ، ثم كان عبد الله، ثم كان عَلقمة، ثم كان إبراهيم، ثم كان منصور، ثم كان سفيان، ثم كان وكيع؛ قم يا داود. يعني أنه أهل للإمامة ومات داود سنة أربع ومائتين.

وقال الحسن: حدثني أبي، قال: أمر الحَجاج أن لا يَؤُمَّ بالكوفة إلا عربيٌّ وكان يحي بن وثّاب يؤُمُّ قومه بني أسد، وهو مولًى لهم؛ فقالوا: اعْتَزِل. فقال: ليس عن

مِثْلي نَهى، أنا لاحقٌ بالعرب. فأبوا؛ فأتى الحجاج فقرأ، فقال: من هذا؟ فقالوا يحيى بن وثاب. قال: ماله؟ قالوا: أمَرْتَ أن لا يَؤمَّ إلا عربيٌ، فنَحّاه قومُه. فقال: ليس عن مِثْل هذا نهيْت، يُصلي بهم. قال: فصلّى بهم الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء. ثم قال: اطلبوا إماماً غيري: إنما أردت أن لا تَستَذِلّوني، فأمّا إذ صار الأمر إليّ فأنا أؤمكم؟ لا ولا كرامة.

وقال الحسن: كان يحيى بن اليمان يصلي بقومه، فتعصب عليه قومٌ منهم، فقالوا: لا تُصَلِّ بنا! لا نَرضاك، إن تقدَّمت نَحَّيْناك! فجاء بالسيف فسل منه أربع أصابع ثم وضع في المحراب، وقال: لا يَدْنو مني أحدٌ إلا ملأتُ السيف منه. فقالوا: بيننا وبينك شريك. فقدَّموه إلى شريك فقالوا: إن هذا كان يُصلي بنا وكَرِهْناه. فقال لهم شريك: مَن هو؟ فقالوا: يحيى بن اليمان. فقال: يا أعداء الله! وهل بالكوفة أحدٌ يشبه يَحيى! لا يُصلِّي بكم غيره. فلما حضرته الوفاة قال لابنه داود: يا بُنَيَّ كاد دِيني يذهب مع هؤلاء، فإن اضطرُّوا إليك بَعدي فلا تصلِّ بهم.

وقال يحيى بن اليمان: تزوجت أمَّ داود، وما كان عندي ليلة العرس إلا بطِّيخة، أكلت أنا نصفها وهي نصفَها، وولَدَتْ داود، فما كان عندنا شيء تَلفُه فيه، فاشتريت له كساءً بحبّتين فلففناه فيه.

وقال الحسن بن محمد: كان لعليٍّ ضفيرتان، ولابن مسعود ضفيرتان.

وذكر عبد الملك بن مروان رَوْحا فقال: ما أُعطيَ أحدٌ ما أُعطي أبو زُرعة: أعطي فِقْه الحجاز. ودَهاء أهل العراق، وطاعة أهل الشام.

وروي أن مالك بن أنس كان يذكر علياً وعثمان وطلحة والزبير، فيقول: والله ما اقتتلوا إلا على الثريد الأعفر[1].

ذَكَر هذا محمد بن يزيد في الكامل؛ قال: وأما أبو سعيد الحسن البصري فإنه كان

---

(١) الأعفر: الأبيض، يريد الثريد الممتلىء بالادام.

يُنكر الحكومة ولا يرى رأيهم، وكان إذا جلس فتمكن في مجلسه ذكر عثمان فترَّحمَ عليه ثلاثا، ولَعَن قَتَلَته ثلاثا، ثم يذكر علياً فيقول: لم يزل عليٌّ أمير المؤمنين صلوات الله عليه مُظَفَّراً مُؤَيَّداً بالنِّعم حتى حكم. ثم يقول: ولم تُحكّم والحق معك! ألا تمضي قُدُما لا أبالك؟

وهذ الكلمة وإن كان فيها جفاء فإن بعض العرب يأتي بها على معنى المدح فيقول: انظر في أمر رعيتك لا أبالك! وقال أعرابي:

رَبَّ العبادِ مالنا ومالكا قد كنتَ تَسْقِينا فقد بَدَالكا

أنزلْ علينا الغَيْثَ لا أبالكا!

وقال ابن أبي الحَواريّ: قلت لسفيان: بلغني في قول الله عز وجل: ﴿إلا مَنْ أَتَى اللهَ بقلبٍ سَلِيم﴾ (١) أنه الذي يلقَى الله وليس في قلبه أحدٌ غيره. قال: فبكى وقال: ما سمعت منذ ثلاثين سنةً أحسنَ من هذا.

وقال ابن المبارك: كنت مع محمد بن النضر الحارثي في سفينة، فقلت: بأي شيء أستخرج منه الكلام؟ فقلت: ما تقول في الصوم في السفر؟ قال: إنما هي المبادرة يا بن أخي. فجاءني والله بِفُتيا غير فُتْيا إبراهيم والشعبي.

وقال الفضيل بن عياض: اجتمع محمد بن واسع ومالك بن دينار في مجلس بالبصرة؛ فقال مالك بن دينار: ما هو إلا طاعة الله أو النار. فقال محمد بن واسع لمن كان عنده: كنا نقول: ما هو إلا طاعة الله أو النار. فقال محمد بن واسع لمن كان عنده: كنا نقول: ما هو إلا عفو الله أو النار. قال مالك بن دينار: إنه ليعجبني أن تكون للإنسان معيشةٌ قدر ما يَقُوتُه.

فقال محمد بن واسع: ما هو إلا كما تقول، ليس يُعجبني أن يصبح الرجل وليس له غداء، ويمسي وليس له عشاء، وهو مع ذلك راض عن الله عز وجل.

---

(١) سورة الشعراء الآية ٨٩.

فقال مالك: ما أحوجَني إلى أن يعظَني مثلُك.

وكان يجلس إلى سفيان فتىً كثيرُ الفكرة، طويل الإطراق، فأراد سفيان أن يُحَرِّكه ليسمع كلامه؛ فقال: يا فتى، إنّ مَن كان قبلَنا مرُّوا على خيل عِتاق[1] وبقينا على حمير دَبِرة. قال: يا أبا عبد الله، إن كنا على الطريق فما أسرعَ لحُوقَنا بالقوم.

وقال الأصمعي: عن شعبة قال: ما أحدِّثكم عن احد ممن تعرفون وممن لا تعرفون إلا وأيوبُ وينس وابن عون مسليمان خير منهم.

قال الأصمعي: وحدّثني سلام بن أبي مُطيع قال: أيوبُ أَفْقَهُهُم، وسليمان التيمي أعبَدُهم، ويونس أشدُّهم زهداً عند الدراهم، وابن عون أضبطُهم لنفسه في الكلام.

الأصمعي قال: حدثنا نافع بن أبي نَعيم عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال: ألف عن ألف خير من واحد عن واحد، فلان عن فلان ينتزع السنّة من أيديكم.

وكان إبراهيم النَّخعي في طريق، فلقيه الأعمش فانصرف معه، فقال له: يا إبراهيم إن الناس إذا رأونا قالوا: أعمش وأعور! قال: وما عليك أن يأثَمُوا ونُؤْجَر؟ قال: وما عليك أن يَسلَموا ونَسْلَم.

ابراهيم النخعي وابن جبير:

وروى سفيان الثوري عن واصل الأحدب، قال: قلت لإبراهيم: إن سعيد بن جُبير يقول: كلُّ امرأة أتزوّجها طالق، ليس بشيء. فقال له إبراهيم: قل له ينقع آسته في الماء البارد. قال: فقلت لسعيد ما أمرني به؛ فقال: قل له: إن مررتَ بوادي النَّوكي فاحْلُلْ به.

وقال محمد بن مناذر:

---

(١) العتاق: الكريمة الحسنة.

وَمَنْ يَبْغِ الوَصاةَ فإنّ عندي وَصاةً للكهولِ وللشَّبابِ
خُذوا عن مالِكٍ وعن ابنِ عَوْنٍ ولا تَرْوُوا أحاديثَ بنِ داب[1]

وقال آخر:

أيُّها الطالِبُ عِلْماً إيتِ حمّادَ بنَ زيْدِ
فاقتبِسْ حِلماً وعِلماً ثم قَيِّدْهُ بِقَيْدِ[2]

وقيل لأبي نواس: قد بعثوا في أبي عُبيدة والأصمعي ليجمعوا بينهما. قال أما أبو عُبيدة فإن مَكّنُوه من سِفْره قرأ عليهم أساطير الأولين، وأما الأصمعي فبُلبُلٌ في قفص يُطْرِبهم بِصفيره.

وذكروا عند المنصور محمدَ بنَ إسحاق وعيسى بن دأب، فقال: أما ابن إسحاق فأعلمُ الناس بالسيرة؛ وأما ابن دأب فإذا أخرجتَه عن داحس والغبراءِ لم يُحْسِنْ شيئا.

وقال المأمون رحمه الله تعالى: من أراد لهواً بلا حرج، فليسمع كلام الحسن الطالبي.

وسئل العتّابي عن الحسن الطالبي، فقال: إن جليسه لِطِيبِ عِشرتهِ لأَطْرَبُ من الإبل على الحُدَاء، ومن الثَّمِلِ على الغناء.

قولهم في حملة القرآن

وقال رجل لإبراهيم النَّخعي: إني أختم القرآن كل ثلاث. قال: ليتك تختمه كل ثلاثين وتدري أيّ شيء تقرأ.

للنبي صلى الله عليه وسلم:

وقال الحارث الأعور: حدّثني علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت

(١) ابن داب الذي يقصده الشاعر، هو عيسى بن يزيد وكان يضع الحديث بالمدينة.
(٢) قيّده بقيد: أي سجّله في كتاب أو صحيفة.

رسول الله ﷺ يقول: «كتابُ الله فيه خبرُ ما قَبلَكم، ونبأُ ما بَعدَكـم، وحُكـم ما بَينكـم؛ هو الفصل ليس بالهزل، هو الذي لا تُزيغ به الأهواء [١]، ولا يَشبع منه العلماء، ولا يخلقُ [٢] على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه؛ هو الذي مَن تَركه من جبّار قَصَمه الله، ومن ابتغى الْهُدَى في غيره أضلّه الله؛ هو حبْلُ الله المتين، والذِّكر العظيم، والصراط المستقيم». خذها إليك يا أعور.

وقيل للنبي ﷺ: عَجَّل عليك الشيب يا رسول الله. قال: شيبتني هودٌ وأخواتُها.

وقال عبدالله بن مسعود: الحواميم [٣] ديباج القرآن.

وقال: إذا رتعتُ رتعتُ في رياض دمِثاتٍ [٤] أتأنق فيهن.

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كانت تنزل علينا الآية في عهد رسول الله ﷺ، فنحفظ حلالَها وحرامَها وأمْرَها وزجْرَها، قبل أن نحفظها.

وقال ﷺ: سيكون في أمتي قوم يقرأون القرآن لا يجاوز تَرَاقِيَهُم [٥]، يَمْرُقون من الدين كما يَمْرقُ السهمُ من الرَّمِيَّة، هم شرُّ الخلق والخليقة.

وقال: إن الزبانية لأسرعُ إلى فُسّاقِ حملةِ القرآن منهم إلى عَبدةِ الأوثان، فيشكون إلى ربهم فيقول: ليس مَنْ عَلِم كمن لا يعلم.

وقال الحسن: حملة القرآن ثلاثة نفر: رجل اتخذه بضاعةً ينقلهُ من مِصرٍ إلى مِصر يطلب به ما عند الناس، ورجل حَفِظ حروفَه وضَيَّع حدوده، واستدرّ به الولاة، وآستطال به على أهل بلده. وقد كَثُر هذا الضربُ في حملة القرآن لا كَثَّرَهم اللهُ عز وجل. ورجل قرأ القرآن فوضع دواءه على داء قلبه، فسهِر ليلته، وهملت عيناه؛

---

(١) تزيغ به الأهواء: تميل وتحيد عن الصواب.

(٢) يخلقُ: يبلى.

(٣) الحواميم: مفاتيح السور القرآنية. (٤) الدمث: اللين السهل.

(٥) التراقي: جمع ترقوة، وهي العظمة التي بين ثغرة النحر والعاتق في أعلى الصدر.

تَسَرْبَلَ الخشوع، وارتدى الوقار، واستشعر الحُزن. ووالله لَهذا الضربُ من حَمَلة القرآن أقلُّ من الكِبريتِ الأحمر، بهم يَسْقِي الله الغيث، ويُنْزِل النَّصر، ويَدْفَع البلاء.

العقل

قال سَحبان وائل: العقل بالتجارب؛ لأن عقلَ الغريزةِ سُلَّمٌ إلى عقل التجربة.

ولذلك قال علي بن أبي طالب رضوانُ الله عليه: رأيُ الشيخ خيرٌ من مشهد الغلام.

وعلى العاقل أن يكون عالما بأهل زمانه، مالكا للسانه، مُقبلا على شانه.

وقال الحسن البصري: لسان العاقل من وراء قلبه؛ فإذا أراد الكلامَ تَفكَّر، فإن كان له قال وإن كان عليه سَكَت؛ وقلبُ الأحمق من وراءِ لسانه، فإذا أراد أن يقول قال، فإن كان له سكت، وإن كان عليه قال.

بين سليمان بن عبد الملك ورجل أعجب بكلامه:

وقال محمد بن الغاز: دخل رجل على سليمان بن عبد الملك، فتكلم عنده بكلام أعْجَبَ سليمان، فأراد أن يختبره لينظر أعَقْلُهُ على قَدْر كلامه أم لا. فوجده مضعوفا. فقال: فَضْلُ العقل على المنطق حِكمة، وفضل المنطق على العقل هُجْنة، وخيرُ الأمور ما صدَّق بعضُها بعضا؛ وأنشد:

وما المرءُ إلاّ الأصْغَران: لسانُهُ ... ومَعقولُهُ، والجسمُ خَلْقٌ مُصوّرُ
فإن تَر منه ما يَرُوق فربّما ... أُمِرَّ مَذاقُ العودِ والعودُ أخضرُ[1]

ومن أحسن ما قيل في هذا المعنى قول زهير:

وكائنْ تَرى مِن مُعْجِبٍ لك صامتٍ ... زيادتُه أو نَقصُه في التكلّمِ
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه ... فلم يبقَ إلا صورةُ اللحم والدَّمِ

(١) أمِرّ: من المراره.

وقال علي رضي الله عنه: العَقل في الدِّماغ، والضَّحك في الكبد، والرأفة في الطِّحال، والصوتُ في الرئة.

وسُئل المغيرة بن شُعبة عن عمر بن الخطّاب رضوان الله عليه، فقال: كان والله أفضلَ من أن يَخدع، وأعقلَ مِن أن يُخدع. وهو القائل: لستُ بِخَبّ[1]، والخَبُّ لا يَخدَعُني.

وقال زياد: ليس العاقل الذي إذا وقع في الأمر آحتال له، ولكن العاقل يحتال للأمر حتى لا يقع فيه.

وقيل لعمر بن العاص: ما العقل؟ فقال: الإصابة بالظن، ومعرفة ما يكون بما قد كان.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من لم يَنفعْه ظَنُّه لم ينفعه يقينه.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذَكَر آبن عباس رضي الله عنهما، فقال: لقد كان ينظر إلى الغَيب من سِتْر رقيق.

وقالوا: العاقل فطِنٌ مُتغافل.

وقال معاوية: العقلُ مِكيال ثُلثه فِطنة وثلثاه تغافل.

وقال المغيرة بن شُعبة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ عَزلَه عن كتابة أبي موسى، أعَنْ عَجز عَزَلْتني أم عن خيانة؟ فقال: لا عن واحدة منهما، ولكني كرهت أن أحمل على العامة فضل عقلِك.

وقال معاوية لعمرو بن العاص: ما بلغ من عقلك؟ قال: ما دخلتُ في شيء قطُّ إلا خرجتُ منه. فقال معاوية: لكني ما دخلت في شيء قط وأردتُ الخروج منه.

---

(١) الخَبّ: المخادع.

وقال الأصمعي: ما سمعت الحسنَ بن سهل مُذْ صار في مرتبة الوزارة يتمثل إلا بهذين البيتين:

وما بقيَت من اللَّذَّات إلا ... محادَثةُ الرِّجال ذوي العُقول
وقد كانوا إذا ذُكِروا قليلاً ... فقد صاروا أقلَّ مَن القليلِ

وقال محمد بن عبدالله بن طاهر - ويروي لمحمود الوراق -:

لعَمرُك ما بالعقل يُكتَسبُ الغِنَى ... ولا باكتِساب المالِ يُكتَسَبُ العقلُ
وكم مِن قليلِ المالِ يُحمَدُ فضلهُ ... وآخرُ ذو مالٍ وليس له فضلُ
وما سَبَقتْ من جاهلٍ قطُّ نعمةٌ ... إلى أحدٍ إلاّ أضرَّ بها الجهلُ
وذو اللُّبِّ إن لم يُعْطِ أَحْمَدْتَ عقلهُ ... وإن هو أعطى زانَه القوْلُ والفعلُ

وقال محمد بن مُناذر:

وتَرى الناس كثيراً فإذا ... عُدَّ أهلُ العقلِ قَلُّوا في العَدَدْ
لا يَقِلُّ المرءُ في القصدِ ولا ... يَعدَمُ القِلَّةَ مَن لم يَقتصِدْ
لا تعِدْ شراًّ وعِد خيْراً ولا ... تُخلِفِ الوعْد وعجِّل ما تعِدْ
لا تقلْ شِعراً ولا تَهمُمْ به ... وإذا ما قلت شِعراً فأَجِدْ

ولآخر:

يُعرَفُ عقلُ المرءِ في أربعٍ ... مِشْيتُه أولها والحرَكْ
ودوْرُ عيْنيهِ، وألفاظُهُ ... بعدُ عليهِنّ يدور الفَلَكْ
وربّما أَخْلفن إلاّ التي ... آخرها منهنّ سُمِّين لكْ
هذي دَليلاتٌ على عقلهِ ... والعقلُ في أركانهِ كالمِلكْ
إن صَحَّ صح المرءُ من بَعدِه ... ويَهلكُ المرءُ إذا ما هَلَكْ
فانظر إلى مَخرَجِ تدبيره ... وعقلهِ ليس إلى ما ملك
فربما خَلَّط أهلُ الحِجا ... وقد يكونُ النَّوْكُ في ذي النُّسُك (١)

(١) النّوك: الجهل والحماقة.

فإنْ إمامٌ سالَ عن فاضلٍ   فادْلُلْ على العاقلِ لا أُمَّ لكْ

هوذة وكسرى:

وكان هَوذة بن علي الحنفيّ يُجير لطيمة كسرى في كل عام ـ واللطيمة عِير تَحمل الطيب والبَزّ ـ فوفَد على كسرى، فسأله عن بَنيه، فسَمَّى له عدداً. فقال: أيهم أحبُّ إليك؟ قال: الصغير حتى يَكْبر، والغائبُ حتى يرجع، والمريض حتى يُفيق[1]. فقال له: ما غذاؤك في بلدك؟ قال: الخبز. فقال كسرى لجلسائه: هذا عقل الخبز. يفضّله على عُقول أهل البوادي الذين غذاؤهم اللبن والتمر.

وهَوذة بن علي الحنفيّ هو الذي يقول فيه أعشى بكر:

من يرَ هَوْذَة يَسجد غير مُتَّئب   إذا تعَصّب فوق التاجِ أو وَضَعا[2]
له أكاليلُ بالياقوتِ فَصّلَها   صَوّاغُها لا تَرى عْيباً ولا طبعا

وقال أبو عُبيدة عن أبي عمرو: لم يتتوَّج مَعَدِّيٌّ قط، وإنما كانت التيجانُ لليْمن. فسألتُه عن هوذة بن علي الحنفي، فقال: إنما كانت خَرَزاتٍ تُنْظم له.

وقد كتب النبي ﷺ إلى هوذة بن علي يدعوه إلى الإسلام كما كتب إلى الملوك.

وفي بعض الحديث: إن الله عز وجل لما خلق العقل قال: أقبِل! فأقبَل، ثم قال له: أدبِر! فأدبَر. فقال: وعزتي وجلالي، ما خلقتُ خلقاً أحبَّ إليّ منك، ولا وضعتَك إلا في أحبِّ الخلق إليّ. ولما خَلَق الحُمْق قال له: أقبِل. فأَدبَر. ثم قال له: أدبِر. فأقبل. فقال: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقاً أبغَضَ إليّ منك، ولا وضعتُك إلا في أبغضِ الخلق إليّ.

وبالعقل أدرَك الناسُ معرفة الله عز وجل؛ ولا يشكُّ فيه أحد من أهل العقول؛ يقول الله عز وجل في جميع الأمم: ﴿وَلَئِنْ سأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنّ اللهُ﴾[3].

---

(١) يفيق: يشفى ويتعافى.

(٢) متئب: مستحٍ، من الحياء. (٣) سورة الزّخرف الآية ٨٧.

وقال أهل التفسير في قول الله: ﴿قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾[1] قالوا: لذي عقل.

وقالوا: ظن العاقل كهانة.

وقال الحسن البصري: لو كان للناس كلّهم عقول خَرِبَت الدنيا.

وقال الشاعر:

يُعَدُّ رَفيع القوْم مـنْ كـان عـاقلاً ... وإن لم يكـن في قـومـهِ بحسيـبِ

وإن حَلَّ أرضاً عاش فيهـا بعقلِـهْ ... ومـا عـاقـلٌ في بلْـدَةٍ بغـريـب

وقالوا: العاقل بقي مالَه بسلطانه، ونفسَه بمالهِ، ودينَه بنفسِه.

وقال الأحنف بن قيس: أنا للعاقل المدْبَرِ أرْجَى مني للأحمق المقْبل.

قال: ولما أهبط الله عز وجل آدم عليه السلام إلى الأرض، أتاه جبريل عليه السلام، فقال له: يا آدم إن الله عز وجل قد حَبَاك بثلاث خصال لتختار منها واحدة وتتخلى عن آثنتين؛ قال: وما هن؛ قال: الحياء والدين والعقل قال آدم: اللهم إني اخترت العقل. فقال جبريل عليه السلام للحياء والدين: ارتفعا؛ قالا: لن نرتفع. قال جبريل عليه السلام: أعصيتما؟ قالا: لا، ولكنا أُمرنا ألاّ نفارق العقل حيث كان.

وقال ﷺ: لا تقتدوا بمن ليست له عُقدة.

قال: وما خلق الله خلقا أحب إليه من العقل.

وكان يقال: العقل ضربان: عقل الطبيعة وعقل التجربة، وكلاهما يُحتاج إليه ويؤدي إلى المنفعة.

وكان يقال: لا يكون أحد أحبَّ إليك من وزير صالح وافر العقل كامل الأدب

---

(١) سورة الفجر الآية ٥.

حَنيك السن[1] بصير بالأمور، فإذا ظفرت به فلا تباعده، فإن العاقل ليس بمانعك نصيحته وإن جَفَت.

وكان يقال: غريزة قعل لا يضيع معها عمل.

وكان يقال: أجل الأشياء أصلا وأحلاها ثمرة: صالح الأعمال، وحُسن الأدب، وعقل مستعمل.

وكان يقال: التجارب ليس لها غاية والعاقل منها في الزيادة. ومما يؤكد هذا قول الشاعر:

ألم تَـر أنّ العقـــل زيــنٌ لأهلــه   وأنّ كمال العقـل طُـول التجـاربِ

ومكتوب في الحكمة: إنّ العاقل لا يغترّ بمودّة الكذوب ولا يثق بنصيحته.

ويقال: من فاته العقل والفتوّة فرأس ماله الجهل.

ويقال: من عيّر الناسَ الشيءَ، ورضيه لنفسه فذاك الأحمق نفسه.

وكان يقال: العاقل دائم المودّة، والأحمق سريع القطيعة.

وكان يقال: صديق كل آمريء عقله، وعدّوه جهله.

وكان يقال: المعجب لحوح والعاقل منه في مؤونة. وأما العُجْب فإنه الجهل والكبر.

وقيل: أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلا من ظلم مَن هو دونه.

ويقال: ما شيء بأحسن من عقلٍ زانه حِلم، وحِلمٍ زانه علمٍ، وعلم زانه صِدق، وصِدق زانه عمل، وعملٍ زانه رفق.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ليس العاقل من عرف الخير من

---

(١) حنيك السنّ: أي جرّبته السنين وأحكمته التجارب.

الشر، بل العاقل من عرف خيرَ الشَّرَّين.

ويقال: عدوّ عاقل أحبُّ إليّ من صديق جاهل.

وكان يقال: الزم ذا العقل وذا الكرم واسترسل إليه[1]، وإياك وفراقه إذا كان كريما، ولا عليك أن تصحب العاقل وإن كان غيرَ محمود الكرم، لكن آحترس من شين أخلاقه وانتفع بعقله؛ ولا تدع مواصلة الكريم وإن لم تحمد عقله، وانتفع بكرمه وآنفعه بعقلك، وفرَّ الفرار كله من الأحمق اللئيم.

وكان يقال: قطيعة الأحمق مثل صلة العاقل.

وقال الحسن: ما أودع الله تعالى امرءًا عقلاً ما إلا استنقذه به يوما ما.

وأتى رجل من بني مجاشع إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ألست أفضل قومي؟ قال النبي ﷺ: إن كان لك عقل فلك فضل، وإن كان لك تُقى فلك دين، وإن كان لك مال فلك حسَب، وإن كان لك خلق فلك مروءة.

بين صفوان بن أمية وعمر:

قال: تفاخر صفوان بن أمية مع رجل، فقال صفوان: أنا صفوان بن أُمية، بخ بخ[2]. فبلغ ذلك عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: ويلك! إن كان لك دين فإنّ لك حَسبا، وإن كان لك عقل فإن لك أصلا، وإن كان لك خلق فلك مروءة، وإلا فأنت شرّ من حمار.

وقال النبي ﷺ: كرَم الرجل دينهُ، ومروءته عقله، وحَسبه خلقه.

وقال: وكَّل الله عز وجل الحرمان بالعقل، ووكَّل الرزق بالجهل؛ ليعتبر العاقل فيعلم أنّ ليس له في الرزق حيلة.

---

(١) استرسل إليه: تقرّب منه وتودّد له.

(٢) بخٍ بخٍ: إسم فعل للتعظيم والإعجاب والرضا والمدح والفخر.

وقال بُزُرجمهر: لا ينبغي للعاقل أن يزل بلداً ليس فيه خمسة: سلطان قاهر، وقاض عدل، وسوق قائمة، ونهر جار، وطبيب عالم.

وقال أيضاً: العاقل لا يرجو ما يُعنَّف برجائه، ولا يَسأل ما يخاف منعه، ولا يمتهن ما لا يستعين بالقدرة عليه.

سئل أعرابي: أي الأسباب أعون على تذكية العقل، وأيُّها أعون على صلاح السيرة؟ فقال: أعْوَنُها على تذكية العقل التعلّم، وأعونها على صلاح السيرة القناعة.

وسئل عن أجود المواطن أن يُختبر فيه العقل؛ فقال: عند التدبير.

وسئل: هل يعمل العاقل بغير الصواب؟ فقال: ما كل ما عُمل بإذن العقل فهو صواب.

وسئل: أيُّ الأشياء أدل على عقل العاقل؟ قال: حُسن التدبير. وسئل: أيُّ منافع العقل أعظم؟ قال: آجتناب الذنوب.

وقال بُزرجمهر: أَفْرَهُ[1] ما يكون من الدواب لا غنى بها عن السوط، وأعفّ من تكون من النساء لا غنى بها عن الزوج، وأعقل مَن يكون من الرجال لا غنى به عن مشورة ذوي الألباب.

سئل أعرابي عن العقل متى يُعرف؟ قال: إذا نهاك عقلك عما لا ينبغي فأنت عاقل.

وقال النبي ﷺ: العقل نُور في القلب نفرّق به بين الحق والباطل، وبالعقل عُرف الحلال والحرام، وعُرفت شرائع الإسلام ومواقع الأحكام، وجعله الله نوراً في قلوب عباده يهديهم إلى هدى، ويصدّهم عن ردى.

ومن جلالة قدر العقل أنّ الله تعالى لم يخاطب إلا ذوي العقول. فقال عز وجل:

---

(١) الفره: النشاط.

﴿إنما يتذكر أُولو الألباب﴾[1]. وقال: ﴿لينذر مَن كان حياًّ﴾[2]. أي عاقلا. وقال: ﴿إنّ في ذلك لذِكرى لمن كان له قلب﴾[3]. أي لمن كان له عقل.

وقال النبي ﷺ: العاقل يحلمُ عمن ظَلم، ويتواضع لمن هو دونه، ويُسابق إلى البرّ مَن فوقه. وإذا رأى باب برٍ انتهزه، وإذا عرضت له فِتنة اعتصم بالله وتنكّبها[4].

وقال ﷺ: قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له.

وإذا كان العقل أشرف أعلاق النفس، وكان بقَدْر تمكُّنه فيها يكون سمُوّها لطلب الفضائل وعلوها لابتغاء المنازل، كانت قيمة كل آمريء عقله، وحليته التي يحسن بها في أعين الناظرين فضله.

ولعبد الله بن محمد:

تأمّل بعَينيك هذا الأنام ... وكُن بعضَ من صانه نُبله
فحِلَية كلّ فتّى فضلُهُ ... وقيمة كلّ آمرءٍ عقلُه
ولا تتّكل في طِلاب العُلا ... على نَسبٍ ثابتٍ أصلهُ
فما من فتى زانه أهلهُ ... بشيءٍ وخالفه فعلهُ

ويقال: العقل إدراك الأشياء على حقائقها فمن أدرك شيئا على حقيقته فقد كَمُل عقله.

وقيل: العقل مرآة الرجل.

أخذه بعضُ الشعراء فقال:

عقْل هذا المرء مرآ ... ةٌ ترى فيها فِعالَه
فإذا كان عليها ... صدأٌ فهو جَهالُه

(١) سورة الرّعد الآية ١٩. (٢) سورة يسٓ الآية ٧٠.
(٣) سورة قٓ الآية ٣٧. (٤) تنكّبها: تجنّبها وابتعد عنها.

وإذا أخلصه الله صِقالاً[1] وصَفا له
فَهْي تُعطي كُلَّ حَيّ ناظرٍ فيها مثاله

ولآخر:

لا تراني أبداً أُكرمُ ذا المال لمالِهْ
لا ولا تُزرى بمن يَعقل عندي سُوءُ حاله
إنما أَقضي على ذاك وهذا بِفعاله
أنا كالمرآة ألقَى كلَّ وجهٍ بِمثاله
كيفما قلَّبني الدَّهر يجدْني من رجاله

ولبعضهم:

إذا لم يكن للمرء عَقلٌ فإنّه وإن كان ذا نُبلٍ على الناس هَيِّنُ
وإن كان ذا عقلٍ أُجِلَّ لعقله وأفضلُ عقلٍ عقلُ مَن يتديَّن

وقال آخر:

إذا كنت ذا عقلٍ ولم تك ذا غنًى فأنت كذي رَحْلٍ وليس له بَغْل
وإن كنت ذا مالٍ ولم تكُ عاقلاً فأنت كذي بَغلٍ وليس له رَحل

ويقال: إنّ العقل عَيْن القلب، فإذا لم يكن للمرء عقل كان قلبه أكمْه[2]. وقال صالح بن جَناح:

ألا إنّ عقل المرء عينَا فؤاده وإن لم يكن عقلٌ فلا يُبصر القلبُ

وقال بعض الفلاسفة: الهوى مَصَاد العقل.

ولعبد الله بن محمد: ثلاث من كُنّ فيه حوى الفضل وإن كان راغبا عن سواها: صحة العقل، والتمسك بالعدل، وتَنزيه نفسه عن هواها.

ولمحمد بن الحسين بن دُريد:

وآفةُ العَقْل الهوى فمن عَلاَ على هَواه عقلُه فقد نَجا

---

(١) صقالاً: تهذيباً. وصفا: من الصفاء. (٢) أكمه: أعمى.

وقال بعض الحكماء: ما عُبِدَ الله بشيء أحبَّ إليه من العقل، وما عُصي بشيء أحبَّ إليه من السَّتر.

وقال مَسلمة بن عبد الملك: ما قرأت كتابا قط لأحد إلا عرفت عقله منه.

وقال يحي بن خالد: ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها: الكتاب يدل على عقل كاتبه، والرسول يدل على عقل مُرسله، والهدِيَّة تدل على عقل مهديها.

بين عمر بن عبد العزيز ورجل من أعوانه:

واستعمل عمر بن عبد العزيز رجلا، فقيل له: إنه حديث السن ولا نراه يضبط عملك؛ فأخذ العهد منه وقال: ما أراك تضبط عملك لحداثتك؛ فقال الفتى:

وليس يزيد المرءَ جهْلاً ولا عَمًى ... إذا كان ذا عقلٍ، حداثةُ سنّهِ

فقال عمر: صدق، وردّ عليه عهده.

وقال جَثَّامة بن قيس يصف عاقلا:

بصيرٌ بأعقاب الأُمور كأنّما ... تخاطبه من كلِّ أمرٍ عواقبُه

ولغيره في المعنى:

بَصيرٌ بأعقاب الأمور كأنّما ... يرى بَصواب الرأي ما هو واقعْ

وقال شبيب بن شَيبة لخالد بن صفوان: إني لأعرف أمراً لا يتَلاقى فيه اثنان إلا وجب النُّجح بينهما؛ قال له خالد: ما هو؟ قال العقل، فإنّ العاقل لا يَسأل إلا ما يجوز، ولا يُردُّ عما يمكن. فقال له خالد: نَعيتَ اليَّ نفسي، إنّا أهل بيت لا يموت منا أحد حتى يرى خَلَفه.

وقال عبد الله بن الحسين لابنه محمد: يا بُني، آحذر الجاهل وإن كان لك ناصحاً كما تحذر العاقل إذا كان لك عدوّا؛ ويوشك الجاهل أن تُورِّطك مَشُورتُه في بعض

اغترارك[1] فيسبق إليك مكر العاقل؛ وإيّاك ومعاداة الرجال، فإنك لا تَعْدَمَنَّ منها مكرَ حَليم عاقل، أو معاندة جاهل.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه: لا مال أعْوَدُ من عقل، ولا فقر أضرُّ من جهل.

ويقال: لا مروءة لمن لا عقل له.

وقال بعض الحكماء: لو استغنى أحدٌ عن الأدب لاستغنى عنه العاقل، ولا ينتفع بالأدب مَن لا عقل له، كما لا ينتفع بالرياضة إلا النجيب.

وكان يقال: بالعقل تُنال لذة الدنيا، لأنّ العاقل لا يسعى إلا في ثلاث: مزيّة لمعاش، أو منفعة لمعاد، أو لذة في غير محرم.

ولبعضهم:

إذا أحببت أقواماً فلاصِقْ ... بأهل العقل منهمُ والحياءُ
فإنّ العقل ليس له إذا ما ... تفاضلتِ الفضائل من كِفاء[2]

لمحمد بن يزيد:

وأفضلُ قَسمِ الله للمرء عقلُهُ ... وليس من الخيرات شيءٌ يُقاربه
إذا أكمل الرحمَنُ للمرء عقله ... فقد كمَلَت أخلاقه ومآربه
يَعيش الفتى بالعقل في الناس إنَّه ... على العقل يَجري علمهُ وتجاربه
ومَن كان غلاّباً بعقلٍ ونَجدةٍ ... فذو الجدّ في أمر المعيشة غالِبه
فزَيْن الفتى في الناس صحة عقلهِ ... وإن كان مَحصوراً عليه مكاسبه
وشَين الفتى في الناس قلّةُ عقله ... وإن كَرُمت أعراقُه ومَناسبه[3]

ولبعضهم:

---

(١) الاغترار: الغفلة. (٢) كفاء: مثيل وكفء.
(٣) الشين: النقص والعيب، والأعراق: الأصول ومناسبه: أي نسبه.

العقل يأمر بالعفاف وبالتُّقي — وإليه يأوي الحلم حين يؤولُ[1]
فإن استطعت فخذ بفضلك فضلةُ — إن العقول يُرى لها تفضيلُ

ولبعضهم:

إذا جُمِّع الآفاتُ فالبخل شرُّها — وشرٌّ من البخل المواعيد والمَطْلُ[2]
ولا خير في عقلٍ إذا لم يكن غنىً — ولا خَير في غِمدٍ إذا لم يكن نَصْلُ
وإن كان للإنسان عقل فعقلهُ — هو النَّصل والإنسان من بعده فَضلُ

ولبعضهم:

يُمثل ذو العقل في نَفسه — مصائبَه قبل أن تَنْزلا
فإن نزلت بغتةً لم تَرُعْهُ[3] — لِمَا كان في نفسه مَثَّلا
رأى الهمَّ يُفْضِي إلى آخرٍ — فصيَّر آخرَه أوّلا
وذو الجهل يأمن أيّامه — ويَنسى مصارع من قد خلا[4]

الحكمة

قال النبي ﷺ: ما أخلَصَ عبدٌ العمل لله أربعين يوماً إلا ظهرتْ ينابيعُ الحكمة من قلبه على لسانه.

وقال عليه الصلاة والسلام: الحكمةُ ضالةُ[5] المؤمن، يأخذها ممن سِمعها ولا يبالي من أيِّ وِعاءٍ خرجتْ.

وقال عليه الصلاة والسلام: لا تَضعوا الحكمةَ عند غير اهلها فتظلموها، ولا تَمنعوها أهلَها فتظلموهم.

وقال الحكماء: لا يَطلبُ الرجل حكمةً إلا بحكمةٍ عنده.

---

(١) يؤول: يرجع. (٢) المطل: عدم الوفاء بالوعد.
(٣) بغتة: أمراً غير متوقّع، داهية أو مصيبة، وترعه: تخفه.
(٤) خلا: سبق وتقدّم. (٥) ضالة المؤمن.

وقالوا: إذا وجدتم الحكمة مطروحة على السكّك[1] فخذوها.

وفي الحديث: خذوا الحكمة ولو من ألسنةِ المشركين.

وقال زياد: أيها الناس، لا يمنْعكم سوءُ ما تعلَمون منا أن تنتفعوا بأحسنِ ما تسمعون منا؛ فإن الشاعر يقول:

اعَملْ بعِلْمِي وإنْ قَصَّـرْتُ في عملي ... يَنْفعْكَ قولي ولا يَضْرُرْكَ تقصِيري

نوادر من الحكمة

قيل لقسّ بن ساعدة: ما أفضل المعرفة؟ قال: معرفةُ الرجلِ نفسَه.

قيل له: فما أفضلُ العلم؟ قال: وُقوفُ المرء عند عِلمه. قيل له: فما أفضلُ المروءة؟ قال: استبقاء الرجل ماءَ وجهه.

وقال الحسن: التقديرُ نصفُ الكسْب، والتُّؤدة[2] نصفُ العقل، وحسنُ طلب الحاجةِ نصفُ العلم.

وقالوا: لا عقلَ كالتدبير، ولا وَرَعَ كالكف، ولا حسَبَ كحُسْنِ الخُلق، ولا غِنَى كرِضاً عن الله، وأحقُّ ما صُبِر عليه ما ليس إلى تغييره سبيل.

وقالوا: أفضل البِرّ الرحمة، ورأس المودةِ الاسترسال، ورأسُ العقوق مكاتَمة الأدْنيْن[3]، ورأسُ العقل الإصابةُ بالظن.

وقالوا: التفكُّر نور والغفلةُ ظُلمة، والجهالة ضلالة، والعلمُ حياة، والأول سابق، والآخرُ لاحق، والسعيد من وُعِظ بغيره.

ابن الظرب وحمة في مجلس ملك حمير:

حدّث أبو حاتم قال: حدثني أبو عُبيدة قال: حدّثني غير واحد من هوازن من أُولي العلم، وبعضُهم قد أدرك أبوه الجاهلية - قالوا: اجتمع عمرو بن الظَّرِب

(١) السكك: الطرُق. (٢) التؤدة: التمهل والتروي.

(٣) الأدنين: الأقربين.

العدواني، وحُمَمَةُ بن رافع الدَّوسي ـ ويزعم النُّسَّابُ أن ليلى بنت الظَّرب أم دوس، وزينب بنت الظرب أمُّ ثقيف ـ عند ملك من ملوك حِمير، فقال: تَسَاءَلاَ حتى أسمع ما تقولان. فقال عمرو لحممة: أين تحبُّ أن تكون أياديك؟ قال: عند ذي الرَّثْيَةِ العديم، وعند ذي الخَلَّة الكريم، والمُعْسِرِ الغريم، والمُسْتَضْعَفِ المضيم. قال: مَن أحقُّ الناس بالمقْت[1]؟ قال: الفقيرُ المختال، والضعيفُ الصَّوَّال، والعيُّ القَوَّال. قال: فمن أحقُّ الناس بالمنع؟ قال: الحريصُ الكائِد، والمستميدُ الحاسد، والمُلْحِف الواجد[2]. قال: مَن أجدرُ الناس بالصنيعة؟ قال: من إذا أُعْطِيَ شَكَر، وإذا مُنِعَ عَذَر، وإذا مُطِلَ صبَر، وإذا قَدُمَ العهدُ ذَكر. قال: مَن أكرمُ الناس عِشرة؟ قال: مَن إذا قَرُبَ مَنَح، وإذا بَعُدَ مَدَح وإذا ظُلِم صَفَح، وإذا ضُويقَ سَمَح. قال: مَن ألأَمُ الناس؟ قال: مَن إذا سأل خَضَع، وإذا سُئِل مَنَع، وإذا مَلَك كنَع، ظاهرهُ جَشَع، وباطنه طَبَع. قال: فَمنْ أحلم الناس؟ قال: مَنْ عَفَا إذا قَدَر، وأجمَلَ إذا انتصر، ولم تُطْغِهِ عزةُ الظَّفَر: قال: فمن أحزَمُ الناس؟ قال: من أخذ رقاب الامور بيديه، وجعل العواقبَ نصْب عينيه، ونَبَذَ التهيُّب دَبْرَ أذُنيه[3]. قال: فمن أخْرَقُ الناس؟ قال: من ركب الخِطار، واعتسف العِثار[4]، وأسرعَ في البِدار[5] قبل الاقتدار. قال: من أجْوَدُ الناس؟ قال: من بَذَل الموجود، ولم يَأْسَ على المعهود. قال: من أبلغُ الناس؟ قال: من جَلَّى المعنى المَزيزَ باللفظ الوجيز، وطَبَّق المِفصل قبل التحريز. قال: من أنْعَمُ الناسِ عيشاً؟ قال: من تَحَلَّى بالعفاف، ورضِيَ بالكَفاف، وتَجاوز ما يخاف إلى ما لا يخاف. قال: فمن أشْقَى الناس؟ قال: من حَسَد على النِّعَم، وسَخِطَ على القِسَم، واستَشْعَرَ النَّدم، على فوت ما لم يُحتم. قال: من أغنَى الناس، قال: من استشعر اليأس، وأظهرَ التجمُّلَ للناس، واستكثر قليلَ النعم، ولم يسْخَط على القِسَم. قال: فمن أحكم الناس؟ قال: من صَمَتَ فادَّكَر، ونظر فاعتبر، ووُعِظ فازدَجَر. قال: من أجهل الناس؟ قال: من رأى الخُرْقَ مَغْنَماً، والتجاوز مَغْرَماً.

---

(١) المقت: البغض. (٢) الواجد: الحاقد والغاضب.

(٣) دبر أذنيه: خلفها، أي لم يعِ النصيحة والرأي.

(٤) اعتسف العثار: ركب الزلل. (٥) البدار: المقابلة والشروع بالشيء.

لأبي عبيد في تفسير غريب ما سبق:

وقال أبو عبيدة: الخَلّة: الحاجة، والخلّة: الصداقة. والكاند: الذي يكفر النعمة، والكنود: الكَفور. والمستعيد: مثل المستمير، وهو المستعطي، ومنه اشتقاق المائدة لأنها تُمَادُ. وكنع: تقبَّض، يقال منه: تكنَّع جلدُه، إذا تَقَبَّض، يريد أنه مُمْسِكٌ بخيل. والجشع: أسوأ الحرص. والطَّبَع: الدَّنَس. والاعتساف: ركوب الطريق على غير هداية، ورُكوبُ الأمر على غير معرفة. والمزيز: من قولهم: هذا أمزّ من هذا، أي أفْضَل منه وأزْيَد. والمُطَبِّق من السيوف: الذي يُصيب المفاصل لا يجاوزها.

وقال عمرو بن العاص: ثلاث لا أناة[1] فيهن: المبادرة بالعمل الصالح، ودفن الميت، وتزويج الكُفء.

وقال: ثلاثة لا يُنْدَمُ على ما سَلَف إليهم: الله عز وجل فيما عُمل له، والمولى الشَّكور فيما أُسْدِيَ إليه[2]، والأرض الكريمة فيما بُذِر فيها.

وقالوا: ثلاثة لا بقاء لها: ظِلُّ الغمام، وصُحبةُ الأشرار، والثناء الكاذب.

وقالوا: ثلاثة لا تكون إلا في ثلاثة. الغِنَى في النفس، والشرف في التواضع، والكرم في التقوى.

وقالوا: ثلاثة لا تُعرف إلا في ثلاثة: ذو البأس لا يُعرفُ إلا عند اللّقاء، وذو الأمانة لا يُعرف إلا عند الأخذ والعطاء، والإخوان لا يُعرَفون إلا عند النوائب[3].

وقالوا: مَن طَلَب ثلاثةً لم يسلم من ثلاثة: من طلب المال بالكيمياء لم يسلم من الإفلاس؛ ومن طلب الدين بالفلسفة لم يَسلم من الزندقة، ومن طلب الفقه بغرائب الحديث لم يسلم من الكذب.

وقالوا: عليكم بثلاث: جالِسوا الكبراء، وخالِطوا الحكماء، وسائلوا العلماء.

وقالوا عمر بن الخطاب رضوان الله عليه: أَخْوَفُ ما أخاف عليكم: شُحٌّ مُطاع،

---

(١) الأناة: الرويّة.

(٢) أسدى إليه: قدّم له. (٣) النوائب: المصائب النازلة

وهَوًى مُتَّبَع، وإعجابُ المرء بنفسه.

وآجتمعت علماءُ العرب والعجم على أربع كلمات: لا تحمل على ظنّك ما لا تطيق: ولا تعمل عملاً لا ينفعك، ولا تغترّ بامرأة، ولا تَثق بمالٍ وإن كثُر.

وقال الرياحيّ في خُطبته بالمِرْبد: يا بَني رِياح، لا تَحقِروا صغيراً تأخذون عنه، فإني أخذتُ من الثعلب رَوَغانه[١]، ومن القِرد حكايته، ومن السِّنَّوْر ضَرَعَه[٢]، ومن الكلب نصرتَه، ومن ابن آوى حَذَره؛ ولقد تعلمتُ من القمر سيْر الليل، ومن الشمس ظهورَ الحين بعد الحْين.

وقالوا: ابن آدم هو العالَمُ الكبير الذي جَمع الله فيه العالَم كلَّه، فكان فيه بسالةُ الليث، وصبرُ الحمار، وحِرص الخنزير، وحذر الغرب، وروغان الثعلب، وضَرَع السِّنَّوْر، وحكاية القرد، وجبن الصِّفْرد[٣].

ولما قَتل كسري بُزُرجمهر وُجد في مِنطقته مكتوباً: إذا كان الغَدر في الناس طباعاً فالثقة بالناس عَجز، وإذا كان القدَر حقّاً فالحِرص باطل، وإذا كان الموت راصداً فالطمأنينة حمْق.

وقال أبو عمرو بن العَلاء: خذِ الخير من أهله. ودع الشر لأهله.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تنهكوا وجه الأرض فإن شَحمتها في وجهها.

وقال: بع الحيوان أحسَنَ ما يكون في عَينك.

وقال: فرِّقوا بين المنايا، وآجعلوا من الرأس رأسين، ولا تلْبثوا بدار مَعجزة.

وقالوا: إذا قَدُمت المصيبة تركت التَّعزية، وإذا قَدُم الإخاء سَمُجَ الثناء[٤].

---

(١) الروغان: المكر والاحتيال.

(٢) الضرع: الذلّة والخضوع.

(٣) الصّفرد: طائرٌ كالعصفور من خساس الطير، يضرب به المثل في الجبن.

(٤) سمج: استثقل.

وفي كتاب للهند: يَنبغي للعاقل أن يَدَع التماس ما لا سبيل إليه، وإلا عُدَّ جاهلاً، كرجل أراد أن يُجري السفن في البَرِّ والعَجَل في البحر، وذلك ما لا سبيل إليه.

وقالوا: إحسانُ المسيء أن يكفَّ عنك أذاه، وإساءةُ المحسن أن يَمنعَك جَدواه.

وقال الحسن البصري: اقْدَعوا[1] هذه النفوس فإنها طُلَعَة، وحادثوها بالذِّكر فإنها سريعة الدُّثور، فإنكم إلا تقدعوها تَنزعْ بكم إلى شر غاية.

يقول: حادثوها بالحكمة كما يُحادَث السيف بالصِّقال، فإنها سريعة الدُّثور: يريد الصدأ الذي يعرض للسيف. واقْدعوها: من قَدَعْت أنف الجمل، إذا دفعتَه، فإنها طُلَعة: يريد مُتطلّعة إلى الأشياء.

قال أردشير بن بابك: إنّ للآذان مَجّةً وللقلوب مَللا، ففرِّقوا بين الحكمتين يكنْ ذلك آستجماماً.

البلاغة وصفتها

قيل لعمرو بن عُبيد: ما البلاغة؟ قال: ما بلَّغك الجنَّة وعَدَل بك عن النار. قال السائل: ليس هذا أريد. قال: فما بَصَّرَك مواضع رشدك، وعواقبَ غيِّك. قال: ليس هذا أريد. قال: من لم يُحْسن أن يَسْكت لم يُحْسن أن يَسمع، ومن لم يُحْسن أن يسمع لم يُحسن أن يسأل، ومن لم يحسن أن يسأل لم يحسن أن يقول. قال: ليس هذا أريد. قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: إنا معشر النبيين بِكاء ـ أي قليلو الكلام، وهو جمع بَكِيء. وكانوا يكرهون أن يزيد منطِقُ الرجل على عقله ـ قال السائل: ليس هذا أريد. قال: فكأنك تريد تَخيُّرَ الألفاظ في حُسن إفهام؟ قال: نعم. قال: إنك إن أردت تقرير حُجَّةِ الله في عقول المكلَّفين وتَخفيف المئونة على المستمعين، وتَزيين المعاني في قلوب المستفهمين، بالألفاظ الحسنة، رغبةً في سُرعة آستجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم، بالموعظة الناطقة عن الكتاب والسنة، كنت قد أوتيتَ فصل الخطاب.

---

(١) اقدعوا: اروعوا.

وقيلْ لبعضهم: ما البلاغة؟ قال: معرفة الوصل من الفصل.

وقيل لآخر: ما البلاغة؟ قال: إيجاز الكلام، وحذْفُ الفضول، وتقريب البعيد.

وقيل لبعضهم: ما البلاغة؟ قال ألاَّ يُؤتَى القائل من سوء فهم السامع، ولا يؤتَى السامع من سوء بيان القائل.

وقال معاوية لصُحار العَبديّ: ما البلاغة؟ قال: أن تجيب فلا تبطيء، وتصيب فلا تُخطيء. ثم قال: أقِلْني[1] يا أمير المؤمنين. قال: قد أقلتك. قال: ألاّ تُبطيء ولا تُخطيء.

قال أبو حاتم: آستطال الكلامَ الأول فاستقال وتكلم بأوجز منه.

وسمع خالد بن صفوان رجلاً يتكلم ويُكثر، فقال: آعلم رحمك الله أن البلاغة ليست بخفة اللسان وكثرة الهذيان، ولكنها بإصابة المعنى والقَصد إلى الحُجة فقال له: أبا صفوان، ما مِن ذنب أعظم من آتفاق الصَّنعة.

وتكلم ربيعة الرأي يوماً فأكثر، وإلى جَنبه أعرابيّ، فآلتفت إليه فقال: ما تَعُدُّون البلاغة يا أعرابيّ؟ قال: قلة الكلام وإيجاز الصواب. قال: فما تَعُدُّون العِيَّ؟ قال: ما كنتَ فيه منذ اليوم، فكأنما ألْقَمَه حجراً.

ومن أمثالهم في البلاغة قولهم: يُقِل الحَزَّ ويُطبّق المِفْصل. وذلك أنهم شبهوا البليغ المُوجز الذي يُقل الكلام ويُصيب الفصول والمعاني، بالجزار الرفيق الذي يُقلّ حَزَّ اللحم ويصيب مفاصله.

ومثله قولهم:

يضع الهِناءَ مواضع النُّقْب

أي لا يتكلم إلا فيما يجب فيه الكلام، مثل الطالي الرفيق الذي يضع الهناء مواضع النُّقب. والهناء: القَطِران. والنُّقْب: الجَرَب.

---

(١) أقلني: أجرني واعفني.

وقولهم: قَرْطَس[1] فلان فأصاب الثغرة، وأصاب عيْنَ القرطاس. كل هذا مثل للمصيب في كلامه الموجزِ في لفظه.

قيل للعتابي: ما البلاغة؟ قال: إظهار ما غَمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق.

وقيل لأعرابيّ: من أبلغ الناس؟ قال: أسهلهم لفظاً وأحسنهم بديهة.

وقيل لآخر: ما البلاغة؟ قال: نَشر الكلام بمعانيه إذا قَصر، وحُسن التأليف له إذا طال.

وقيل لآخر ما البلاغة؟ فقال: قَرع الحجة ودنُوُّ الحاجة.

وقيل لآخر ما البلاغة؟ قال: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خَطَل[2].

قيل لغيره: ما البلاغة؟ قال: إقلال في إيجاز، وصواب مع سرعة جواب.

قيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام واختيار الكلام.

وقيل لبعضهم: من أبلغ الناس؟ قال: مَن ترك الفضول واقتصر على الإيجاز.

وكان يقال: رسول الرجل مكان رأيه، وكتابه مكان عقله.

وقال جعفر بن محمد عليه السلام: سُمِّي البليغ بليغاً لأنه يبلغ حاجته بأهون سعيه.

وسُئل بعض الحكماء عن البلاغة فقال: من أخذ معاني كثيرة فأدّاها بألفاظ قليلة، وأخذ معاني قليلة فولّد منها لفظاً كثيراً، فهو بليغ.

وقالوا: البلاغة ما حَسن من الشعر المنظوم نثره، ومن الكلام المنثور نظمه.

وقالوا: البلاغة ما كان من الكلام حَسناً عند استماعه، موجَزاً عند بديهته.

وقيل: البلاغة لمحة دالّة على ما في الضمير.

وقال بعضهم: إذا كفاك الايجاز فالإكثارُ عِيّ، وإنما يَحسن الإيجاز إذا كان هو البيان.

ولبعضهم:

---

(١) قرطس: أي رمى فأصاب القرطاس والقرطاس: كل أديم ينصب للنضال.

(٢) الخطل: الفساد في الرأي والعقل.

خير الكلام قليـــــلُ على كثيرٍ دليـــــلُ
والعـــيُّ معنـــىً قَصيرٌ يَحـويـه لفـظٌ طـويـل

وقال بعض الكتاب: البلاغة معرفة الفصل من الوصل. وأحسن الكلام القَصد وإصابة المعنى.

قال الشاعر:

وإذا نطقــت فلا تكــن أسِــراً وآقصد فخيرُ الناس مَن قَصـدا[1]

وقال آخر:

ومـا أحــدٌ يكــون لــه مَقــالٌ فيسلم مــن مُلامٍ أو أثـــام[2]

وقال:

الدهــر ينقــص تــارةً ويطــولُ والمرء يَصْمــت مــرَّةً ويقــولُ
والقــولُ مختلــف إذا حصّلتــه بعــضٌ يُــرَدّ وبعضُــه مقبــولُ

وقال:

إذا وضــح الصــواب فلا تــدعــه فـإنّـك كلّما ذُقـت الصـوابـا...
وجـدتَ لـه على اللّهـوات بَـــرْداً كبَـرْد الماء حين صَفـا وطـابـا[3]

وقال آخر:

ليس شـأن البليـغ إرسـالَـه القــو لَ بطُـول الإسهـاب والإكثـار
إنما شـــأنـــه التلطّـــفُ للمعـــ ـــنى بحُسن الإيـراد والإصـدار[4]

---

(١) الأشر: البطر.

(٢) أثامٍ: من الإثم.

(٣) اللهوات: جمع لهاة، وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفمّ.

(٤) الايراد والاصدار: كناية عن الاستماع والنطق.

وجوه البلاغة

البلاغة تكون على أربعة أوجه: تكون باللفظ والخط والإشارة والدلالة. وكل منها له حظ من البلاغة والبيان، وموضع لا يجوز فيه غيره.

ومنه قولهم: لكل مقام مقال؛ ولكل كلام جواب؛ ورب إشارةٍ أبلغُ من لفظ.

فأما الخط والإشارة فمفهومان عند الخاصة وأكثرِ العامة؛ وأما الدلالة فكل شيء دلّك على شيء فقد أخبرك به، كما قال الحكيم: أشهد أن السموات والأرض آياتٌ دالآتٌ، وشواهدُ قائمات، كلٌّ يؤدِّي عنك الحجة، ويشهد لك بالرُّبوبية.

وقال الآخر: سل الأرض: مَنْ غرَس أشجارَك، وشقَّ أنهارك، وجَنَى ثمارَك؟ فإن لم تُجبْك إخباراً أجابتك اعتباراً[1].

وقال الشاعر:

لقد جئتُ أبغِي مُجيراً ... فجئتُ الجبالَ وجئتُ البُحورا
فقال ليَ البحرُ إذْ جئتُه ... فكيف يُجيرُ ضريرٌ ضريرا

وقال آخر:

نطقتْ عينُه بما في الضمير

وقال نصيب بن رباح:

فعاجوا فأثْنَوا بالذي أنتَ أهلُهُ ... ولو سكتوا أثْنَتْ عليك الحقائب[2]

يريد: لو سكتوا لأثْنَت عليك حقائبُ الإبل التي يحتقبها الرَّكْبُ مِن هِباتك وهذا الثناء إنما هو بالدلالة باللفظ.

وقال حبيب:

(١) اعتباراً: أي يجد فيها الإنسان العبرة الواضحة له.

(٢) عاجوا: مالوا. والحقائب: جمع حقيبة، وهي ما توضع فيها العطايا وغيرُها.

الدارُ: نـاطقـةٌ وليســت تَنطِــقُ   بِدُثُورِهـا أنَّ الجديـدَ سيَخْلَـقُ[1]

وهذا في قديم الشعر وحديثه وطارف[2] الكلام وتليده أكثرُ من أن يُحيط به وصف أو يأتي من ورائه نَعْت.

وقال رجل للعتّابي: ما البلاغة؟ قال: كُل مَنْ بَلّغك حاجته، وأفْهَمَك معناه بلا إعادة ولا حُبْسة ولا آستعانة، فهو بليغ. قالوا: قد فهمنا الإعادة والحُبسة، فما معنى الآستعانة؟ قال: أن يقول عند مقاطع كلامه: آسمع منّي، وآفهم عني؛ أو يَمسح عُثنونه[3]، أو يَفتل أصابعه، أو يُكثر التفاتَه من غير مُوجِب، أو يتساعل من غير سُعْلة أو ينبهر[4] في كلامه.

وقال الشاعر:

مَلِـيءٌ بِبُهْـرٍ وآلتفــاتٍ وسُعْلَــةٍ   ومَسْحَةِ عُثنونٍ وفَتْلِ الأصـابِـعِ

وهذا كله من العِيّ.

وقال أبرويز لكاتبه: آعلمْ أن دعائم المقالات أربع، إن الْتُمِس لها خامسة لم توجد، فإن نقصت منها واحدة لم تَتمّ؛ وهي: سؤالك الشيءَ، وسؤالك عن الشيء، وأمرك بالشيء، وإخبارك عن الشيء؛ فإذا طلبت فأسجح[5]، وإذا سألتَ فأوْضِح، وإذا أمرت فأحكم، وإذا أخبرتَ فحقِّق، واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول. يريد الكلام الذي تقل حروفه وتكثر معانيه.

وقال ربيعة الرأي: إني لأسمع الحديث عُطلاً فأشَنِّفه[6] وأقرّطه فيحْسُن، وما

---

(١) يخلق: يبلي.

(٢) الطارف والتليد: المستحدث والقديم.

(٣) العثنون: اللحية أسفل العارضين.

(٤) ينبهر: يضيق نفسه ويظهر عليه التعب.

(٥) اسجح: أحسن.

(٦) العطل: الخالي من الحليّ. وأشنّفه: أزيّنه.

زدتُ فيه شيئاً ولا غيَّرتُ له معنى .

وقالوا : خير الكلام ما لم يَحْتَجْ بعده إلى كلام .

وقال يحيى : الكلام ذو فنون، وخيره ما وفق له القائل، وانتفع به السامع .

وللحسن بن جعفر :

عجبت لإدلال العييِّ بنفسه ... وصَمْت الذي قد كان بالحق أعلما
وفي الصمت سترُ العييِّ وإنّما ... صحيفة لُبِّ المرء أن يتكلما[1]

وصف أعرابي بليغاً فقال : كأن الألسن ريضت[2] فما تنعقد إلا على وُدّه، ولا تنطق إلا ببيانه .

وصف أبو الوجيه بلاغة رجل فقال : كان والله يَشُول[3] بلسانه شَوَلانَ البَروق ، ويتخلل به تخلل الحيّة .

وللعرب من مُوجَز اللفظ ولطيف المعنى فصول عجيبة، وبدائع غريبة . وسنأتي على صدر منها إن شاء الله .

فصول من البلاغة

قدم قُتيبة بن مُسلم خُراسان والياً عليها ، فقال : مَن كان في يده شيء من مال عبد الله بن خازم فَلينبِذْه، ومَن كان في فيهِ فليلفِظْه، ومَن كان في صدره فلينفُثْه . فعجب الناس من حُسْن ما فصّل .

وقيل لابن السَّمَّال الأسدي أيام معاوية : كيف تركتَ الناس؟ قال : تركتُهم بين مظلوم لا يَنتصف، وظالمٍ لا ينتهي .

وقيل لشَبيب بن شَيبة عند باب الرشيد رحمه الله تعالى : كيف رأيتَ الناس؟ قال : رأيتُ الداخِل راجياً والخارج راضياً .

---

(١) لب المرء : داخله، أو عقله، أو ما يحسنه .

(٢) ريضت : من الترويض الذي يجعل الحيوان الشرس أليفاً .

(٣) يشول : يرفع، والبروق : إذا الناقة طلبت الفحل فإنها حينئذٍ ترفع ذنبها .

وقال حسان بن ثابت في عبد الله بن عباس:

إذا قال لَـمْ يترُكْ مَقـالاً لِقـائـلٍ   بمُلْتَقَطـاتٍ لا تَـرَى بينَهـا فَصْلاَ
كَفَى وشَفَى ما في النفوسِ فلم يـدَعْ   لِذِي إرْبَةٍ في القولِ جِدّاً ولا هَزْلاَ

ولقي الحسين بنُ عليّ رضوان الله عليهما الفرزدقَ في مَسيره إلى العراق؛ فسأله عن الناس؛ فقال: القلوبُ معك، والسيوفُ عليك، والنصر في السماء.

وقال مجاشع النهشلي: الحق ثقيل؛ فمن بلغه اكتفى، ومن جاوزه اعتدى.

وقيل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: كـم بين المشرق والمغرب؟ فقال مَسيرةُ يومٍ الشمس: قيل له: فكـم بين السماء والأرض؟ قال: مَسيرة ساعةٍ لدعوة مُستجابة.

وقيل لأعرابي: كـم بين موضع كذا إلى موضع كذا؟ قال: بياضُ يوم وسواد ليلة.

وشكا قوم إلى المسيح عليه السلام ذُنوبهم، فقال: اتركوها تُغْفَرْ لكـم.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: قيمةُ كل إنسان ما يُحْسن.

وقيل لخالد بن يزيد بن معاوية: ما أقربُ شيء؟ قال: الأجل. قيل له: فما أبعدُ شيء؟ قال: الأمل. قيل له: فما أوْحَشُ شيء؟ قال: الميّت. قيل له: فما آنَسُ شيء؟ قال: الصاحب المُوَاتي.

مرّ عمروُ بن عُبيد بسارقٍ يُقطع، فقال: سارقُ السريرةِ[1] قَطع سارقَ العلانية.

وقيل للخليل بن أحمد: مالك تَرْوِي الشعرَ ولا تقوله؟ قال: لأني كالمِسنّ: أَشْحَذُ ولا أَقْطَع.

وقيل لعَقيل بن عُلَّفة: مالك لا تُطيل الهِجاء؟ قال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق.

ومر خالد بن صفوان برجل صلَبه الخليفة، فقال: أنبتتْه الطاعة وحَصَدَتْه المعصية.

---

(١) السريرة: الخفاء.

ومرّ أعرابيّ برجل صلبه السلطان، فقال: مَن طَلّق الدنيا فالآخرةُ صاحبتهُ، ومن فارق الحقّ فالجذْعُ راحِلَته [١].

النعمان وعدي بن زيد:

ومن النطق بالدلالة ما حدّث به العباس بن الفرج الريّاشي قال: نزل النعمان بن المنذر ومعه عديّ بن زيد العباديّ في ظل شجرة مُورقة ليلهوَ النعمان هناك، فقال له عدي: أبيتَ اللعن، أتدري ما تقول هذه الشجرة؟ قال: ما تقول: قال: تقول:

رُبَّ شَرْبٍ قد أناخوا حولنا ... يَمزُجون الخمرَ بالماء الزّلالْ
ثم أضْحوْا عَصَفَ الدهرُ بهم ... وكذاك الدهرُ حالٌ بعد حال

فتنغّص على النعمان ما هو فيه.

وقال ابن الأعرابي: قلت للفضل: ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد.

وقال رجل لخالد بن صفوان: إنك لتُكْثِر. قال: أُكْثِر لضربين: أحدهما فيما لا تغني فيه القِلة، والآخر لتمرُّسِ اللسان، فإن حبسه يورث العقْلة [٢].

وكان خالد بن صفوان يقول: لا تكون بليغاً حتى تُكلِّم أمتَك السوداءَ في الليلة الظلماء في الحاجة المُهِمّة بما تَكلم به في نادي قومك.

وإنما اللسان عُضو إذا مرَّنْته مَرَن، وإذا تركته لَكِنَ [٣] كاليد التي تخشنها بالممارسة، والبدنِ الذي تقويه برفع الحجر وما أشبَهه، والرِّجْل إذا عُوِّدت المشيَ مَشَت.

بين نوفل وامرأته:

وكان نَوفل بن مُساحق إذا دخل على امرأته صَمت، فإذا خرج عنها تكلم. فقالت له: إذا كنتَ عندي سكتَّ، وإذا كنتَ عند الناس تَنطِق! قال: إني أَجِلُّ عن دقيقِك وتَدِقّين عن جليلي.

---

(١) الجذع: كناية عن الصَّلب والراحلة: ما يركب عليها للإنتقال.
(٢) العقلة: الربط والعيّ. (٣) لكن: ثقل وعيّ.

وذكر شبيب بن شَيبة خالد بن صفوان فقال: ليس له صديقٌ في السر ولا عدو في العلانية.

وهذا كلام لا يَعرف قَدرَه إلا أهلُ صناعته.

ووصف رجل آخر فقال: أتيناه فأخرج لسانه كأنه مِخراق لاعب[1].

ودخل معنُ بن زائدة على المنصور يقارب خطوه، فقال المنصور: لقد كبرت سنك؛ قال: في طاعتك؛ قال: وإنك لجلد؛ قال: على أعدائك؛ قال: أرى فيك بقية؛ قال: هي لك.

وكان عبد الله بن العباس بليغاً، فقال فيه معاوية:

إذا قال لم يترك مقالاً ولم يقف ... لعِيٍّ ولم يَثْنِ اللسان على هُجْرِ[2]

يُصرِّف بالقول اللسانَ إذا انتحَى ... وينظر في أعطافه نظرَ الصَّقر

وتكلم صعصعة بن صوحان عند معاوية فعَرِق، فقال له معاوية: بهرك القول؟ قال: الجياد نَضاحة[3] بالعرق.

وكتب ابن سَيَابة إلى عمرو بن بانة: إنّ الدهر قد كَلَح[4] فجرح، وطَمح فجمح، وأفسد ما صلح، فإن لم تُعن عليه فَضَح.

ومدح رجل من طيء كلامَ رجل فقال: هذا الكلامُ يُكتفى بأولاه، ويُشتفى بأخراه.

ووصف أعرابيّ رجلاً فقال: إنّ رفدك لنَجيح، وإنّ خيرك لصريح، وإنّ منعك لمريح.

ودخل إياس بن معاوية الشام وهو غلام، فقدَّم خصماً له إلى قاض لعبد الملك، وكان خصمه شيخاً كبيراً. فقال له القاضي: أتقدِّم شيخاً كبيراً؟ فقال له إياس:

---

(١) المخراق: المنديل يلفّ ليضرب به.

(٢) الهجر: الهذيان، والقبيح من الكلام.

(٣) نضّاحة: أي يتصبّب منها العرق وقت العدو. (٤) كلح: تجهّم.

الحق أكبر منه؟ قال له: آسكت؛ قال: فمن ينطق بحجتي؟ قال: ما أظنك تقول حقاً حتى تقوم؛ قال: أشهد أن لا إله إلا الله. فقام القاضي فدخل على عبد الملك فأخبره بالخبر. فقال: آقض حاجته الساعة وأخرجه من الشأم حتى لا يُفسد عليَّ الناس.

ومن الأسجاع قول ابن القِرِّيَّة، وقد دُعي لكلام فاحتبس القول عليه، فقال: قد طال السَّمر، وسقط القمر، واشتدّ المطر فما انتظر. فأجابه فتًى من عبد القيس: قد طال الأرق، وسقط الشفق، فلينطق من نطق.

كتاب من عمرو بن مسعدة إلى المأمون:

قال أحمد بن يوسف الكاتب: دخلتُ على المأمون وبيده كتاب لعمرو بن مسعدة، وهو يُصَعِّد في ذُراه، ويقوم مرة ويقعد أخرى، ففعل ذلك مرارا، ثم التفت إليَّ فقال: أحسبك مفكرا فيما رأيت؟ قلت: نعم، وقَى الله عز وجل أمير المؤمنين المكاره، فقال: ليس بمكروه، ولكن قرأت كلاما نظير خبر خبّرني به الرشيد، سمعتُه يقول: إن البلاغة لَتقاربٌ من المعنى البعيد وتباعُدٌ من حشو الكلام، ودلالَة بالقليل على الكثير. فلم أتوهّم أن هذا الكلام يستتبّ على هذه الصفة حتى قرأت هذا الكتاب، فكان آستعطافا على الجند، وهو:

« كتابي إلى أمير المؤمنين أيده الله، ومن قِبلي من أجناده وقُوّاده في الطاعة والانقياد على أفضل ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم وآختلت أحوالهم ».

فأمر بإعطائهم ثمانية أشهر.

ووقّع جعفر البرمكي إلى كُتّابه: إن آستطعتم أن تكون كتبكم توقيعات فافعلوا.

وأمره هارون الرشيد أن يعزل أخاه الفضل عن الخاتم ويأخذه إليه عزلا لطيفا فكتب إليه: قد رأى أمير المؤمنين أن ينقل خاتَم خلافته من يمينك إلى شمالك.

فكتب إليه الفضل: ما آنتقلت عني نعمة صارت إليك ولا خصّتْك دوني.

ووقّع جعفر في رُقعة رجل تنَصَّل إليه من ذنب: تقدمت لك طاعة، وظهرت

منك نصيحة، كانت بينهما نَبوة[1]، ولن تغلب سيئة حسنتين.

قال الفضل بن يحي لأبيه: مالنا نُسدي إلى الناس المعروف فلا نَرى من السرور في وجوههم عند انصرافهم ببّرنا، ما نراه في وجوههم عند انصرافهم ببر غيرنا؟ فقال له يحي: إن آمال الناس فينا أطول منها في غيرنا، وإنما يُسَرُّ الإنسان بما بلّغه أملَه.

قيل ليحي: ما الكرم؟ قال مَلِك في زي مسكين؛ قيل: فما الفَرعنة؟ قال: مِسكين في بطش عِفريت. قيل: فما الجود؟ قال: عفو بعد قدرة.

من بلاغة المأمون:

أُتي المأمون برجل قد وجب عليه الحدّ، فقال وهو يُضرب: قتلتني يا أمير المؤمنين؛ قال الحقُّ قتلك: قال: ارحمني.؛ قال: لست أرحَمُ بك ممن أوجب عليك الحد.

وسأل المأمون عبد الله بن طاهر في شيء، فأسرع في ذلك؛ فقال له المأمون: فإنّ الله عز وجل قد قطع عذر العَجُول بما مكنه من التثبّت، وأوجب الحُجة على القَلِق بما بصّره من فضل الأناة. قال: أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أكتبه؟ قال: نعم، فكتبه.

بين المأمون وإبراهيم بن المهدي:

قال إبراهيم بن المهدي: قال لي المأمون: أنت الخليفة الأسود؟ قلت: يا أمير المؤمنين، أنت منَنت علي بالعفو، وقد قال عبد بني الحسحاس:

أشعار عبد بني الحَسحاس قُمن لـه ... عند الفَخَار مقـام الأصـل والورق
إن كنتُ عبداً فنفسي حُرَّةٌ كرمـاً ... أو أسودَ الجلد إني أبيـضُ الخُلـق

فقال المأمون: يا عم، خَرّجك الهزل إلى الجد، ثم أنشأ يقول:

---

(١) النبوة: الجفوة والبعد.

ليس يُزري السوادُ بالرجل الشَّهـم ولا بالفتى الأديب الأريب
إن يكن للسواد منك نَصيبٌ فبياضُ الأخلاق منك نصيبي

وقال المأمون: استُحسن من قول الحكماء: الجود بذل الموجود، والبخل بطر[1] بالمعبود عز وجل.

من بلاغة زبيدة:

قالت أم جعفر زبيدة بنت جعفر للمأمون حين دخلت عليه بعد قتل ابنها: الحمد لله الذي آدخرك لي لمّا أثكلني ولدي، ما ثكلت ولدا كنتَ لي عوضا منه. فلما خرجت قال المأمون لأحمد بن أبي خالد: ما ظننتُ أن نساءً جُبلن على مثل هذا الصبر.

وقال أبو جعفر لعمرو بن عُبيد: أَعنّي بأصحابك يا أبا عثمان. قال: ارفع عَلَم الحقِّ يتبعْك أهلهُ.

آفات البلاغة

لأبي داود الإيادي:

قال محمد بن منصور كاتب إبراهيم، وكان شاعراً راوياً، وطالباً للنحو علاّمة - قال: سمعت أبا دُواد الإيادي، وجرى شيءٌ من ذكر الخطب وتمييز الكلام، فقال: تلخيص المعاني رِفق، والآستعانة بالغريب عجز، والتشادق[2] في غير أهل البادية نَقص، والنظر في عيوب الناس عِيّ، ومَسُّ اللحية هُلْك، والخروج مما بُني عليه الكلام إسهاب.

قال: وسمعتُه يقول: رأس الخطابة الطَّبع، وعمودها الدرْبة [وجناحاها رواية

(١) البطر: الجحود للنعمة.
(٢) التشادق: فتح الفم واتساعه.

الكلام] [1]، وحَليها الإعراب، وبهاؤها تخيُّر اللفظ، والمحبة مقرونة بعلّة الاستكراه.

وأنشدني بيتاً في خطباء إياد:

يُومون باللفظِ الخفيِّ وتارةً وحْيُ الملاحِظِ خِيفَةَ الرُّقباء

للفضل في الإيجاز:

وقال ابن الأعرابي: قلت للفضل: ما الإيجاز عندك؟ قال حَذف الفضول، وتقريب البعيد.

وتكلم ابن السماك يوماً وجارية له تسمع؛ فلما دخل قال لها: كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسَنه لولا أنك تُكثِر تَرْدادَه! قال: أُردِّده حتى يفهمَه من لم يفهمْه. قالت: إلى أن يَفهمَه من لم يَفهمْه يكون قد مَلَّه مَن فهمَه.

باب الحلم ودفع السيئة بالحسنة

قال الله تعالى: ﴿ولا تَسْتَوي الحَسنَةُ ولا السَّيِّئَةُ، ادْفَعْ بالتي هي أَحْسَنُ فإذَا الَّذِي بَيْنَكَ وبَيْنَهُ عَداوَةٌ كأنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيم وما يُلَقَّاها إلاّ الَّذِينَ صَبَرُوا وما يُلقَّاها إلاّ ذُو حَظٍّ عَظِيم﴾ [2].

وقال رجل لعمرو بن العاص: والله لأتفرَّغَنَّ لك. قال: هنالك وقعْتَ في الشُّغل. قال: كأنك تهدّدني، والله لئن قلت لي كلمة لأقولنّ لك عشراً. قال: وأنت والله لئن قلتَ لي عشراً لم أقل لك واحدة.

وقال رجل لأبي بكر رضي الله عنه: والله لأسُبَّنَّك سبّاً يَدْخُل القبر معك. قال: معك يَدخل لا معي.

وقيل لعمرو بن عبيد: لقد وقع فيك اليوم أبو أيوب السختياني حتى رحمناك. قال: إياه فارحموا.

---

(١) زيادة عن البيان والتبيين. (٢) سورة فصّلت الآية ٣٤.

وشَتم رجل الشَّعبي، فقال له: إن كنتَ صادقا فغفَر الله لي، وإن كنت كاذبا فغفَر الله لك.

وشتم رجل أبا ذَرٍّ، فقال: يا هذا، لا تُغْرِق في شتْمنا ودَعْ للصُّلح موضعاً، فإنا لا نكافيء من عَصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه.

ومَرّ المسيح بن مَريم عليه الصلاة والسلام بقوم من اليهود فقالوا له شراً، فقال خيراً. فقيل له: إنهم يقولون شرّا وتقول لهم خيرا. فقال: كلٌّ واحدٍ يُنفِق مما عنده.

وقال الشاعر:

ثالَبَنِي عمروٌ وثالبْتُه ... فأُثِّم المثْلوبُ والثّالِبُ[(١)]
قلت له خيْراً وقال الخَنَى ... كلٌّ على صاحبه كاذِبُ[(٢)]

وقال آخر:

وذي رحِمٍ قَلَّمْتُ أظْفارَ ضِغنه ... بحلميَ عنه حين ليس له حِلمُ
إذا سمْتُه وصْلَ القَرابة سامَني ... قطيعتَها تلك السَّفاهة والإثم[(٣)]
فداريْتُه بالحِلم والمرءُ قادرٌ ... على سهمِه ما كان في كفِّه السهم

عن النبي ﷺ: ما تجرَّع عبد في الدنيا جرعة أحبَّ إلى الله من جرعة غيظ ردَّها بحلم، أو جرعة مصيبة ردّها بصبر.

وكتب رجل إلى صديق له وبلغه أنه وَقَع فيه:

لئن ساءَنِيَ أنْ نِلْتَنِي بِمَساءَة ... لقد سَرَّني أنِّي خَطَرْتُ بِبالكا

وأنشد طاهر بن عبد العزيز:

إذا ما خَليلِي أسا مَرَّةً ... وقد كان مِن قَبْلِ ذا مُجْمِلا[(٤)]
تَحَمَّلْتُ ما كان من ذَنْبِه ... فلم يُفسِدِ الآخرُ الأوّلا

---

(١) المثالبة: الذمّ والنقيصة.
(٢) الخنى: الفحش.
(٣) سمته: طلبت منه.
(٤) أسا: أي أساء، ومجمل: صاحب معروف.

صفة الحلم وما يصلح له

من حلم الأحنف:

قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم المِنقري؛ رأيته قاعداً بفناء داره، مُحْتَبِياً بحمائل سيفه يُحدث قومه، حتى أُتي برجلٍ مكتوفٍ ورجل مقتول؛ فقيل له: هذا ابنُ أخيك قَتَل ابنك. فوالله ما حَلَّ حَبْوَتَه [1] ولا قَطَع كلامه. ثم التفت إلى ابن أخيه وقال له: يا بن أخي، أثِمْت بربِّك، ورَميت نفسَك بسهمِك، وقتلتَ ابنَ عمِّك. ثم قال لابن له آخر: قم يا بُنيَّ فوَارِ أخاك، وحُلَّ كِتافَ ابن عمك، وسُقْ إلى أمِّه مائة ناقةٍ دية ٱبنها فإنها غريبة. ثم أنشأ يقول:

إني ٱمـرُؤٌ لا يَطَّبِـي حسَبي [2] ... دَنَسٌ يُهَجِّنُـهُ ولا أَفْـنُ [3]
مِـن مِنقَـرٍ في بيـتِ مَكْـرُمـةٍ ... والغُصنُ ينبُتُ حـولَـه الغُصْـنُ
خُطبـاءُ حين يقـولُ قـائلُهـمْ ... بيـضُ الوجـوهِ أَعِفَّـةٌ لُسْـنُ
لا يَفطنـونَ لِعيْـبِ جـارِهِـمُ ... وهُـمُ لِحفْـظِ جِـوارِهِ فطْـنُ

وقال رجل للأحنف بن قيس: علِّمني الحلم يا أبا بحر. قال: هو الذُّل يا بن أخي، أفتصبر عليه؟

وقال الأحنف: لستُ حليماً ولكنّي أتحالَم.

وقيل له: مَن أحلم: أنت أم معاوية؟ قال: تالله ما رأيت أجهلَ منكم؛ إنّ معاوية يَقْدِر فيَحْلم، وأنا أحلم ولا أقدر؛ فكيف أُقاسُ عليه أو أدانيه؟

وقال هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان: بِمَ بلغ فيكم الأحنف ما بلغ؟ قال: إن شئتَ أخبرتُك بخَلَّة [4]، وإن شئتَ بخلَّتين، وإن شئت بثلاث. قال: فما الخلَّة؟

---

(١) الحبوة: ما يشتمل من ثوبٍ أو نحوه.

(٢) في عيون الأخبار «إنّي امرؤ لا شائنٌ حسبي» ويطبي: يخالط.

(٣) الأفن: النقص والحمق. (٤) الخلّة: الصفة والمزيّة.

قال: كان أقوى الناس على نفسِه . قال: فما الخلّتان؟ قال: كان مُوَقّي الشر، مُلَقّى الخير . قال: فما الثلاث؟ قال: كان لا يجهل، ولا يَبغي، ولا يبخل .

وقيل لقيس بن عاصم: ما الحلم؟ قال: أن تَصِلَ مَنْ قطَعك، وتُعطي من حَرمك، وتعفوَ عمّن ظلمك .

وقالوا: ما قُرِن شيءٌ إلى شيء أزين من حِلم إلى علم، ومن عفو إلى قدرة .

وقال لقمان الحكيم: ثلاثة لا تعرفهم إلا في ثلاثة: لا تعرف الحليم إلا عند الغضب . ولا الشجاعُ إلا عند الحرب، ولا تعرف أخاك إلا إذا احتجتَ إليه . وقال الشاعر:

ليست الأحلامُ في حينِ الرضا ... إنما الأحلامُ في حينِ الغضبْ

وفي الحديث: « أقربُ ما يكون المرءُ مِن غضب اللهِ إذا غَضِب » .

وقال الحسن: المؤمن حليم لا يجهل وإن جُهِل عليه . وتلا قول الله عز وجل: ﴿وإذا خاطبَهُمُ الجاهلون قالوا سلاما﴾ [١] .

وقال معاوية: إني لأستحي من ربي أن يكون ذنبٌ أعظمَ من عفوي، أو جهل أكبرَ من حِلمي، أو عورةٌ لا أواريها بستري .

وقال مؤرّق العِجْلي: ما تكلمت في الغضب بكلمة ندمت عليها في الرضا .

وقال يزيد بن أبي حبيب: إنما غضبي في نَعْليّ، فإذا سمعتُ ما أكره أخذتُهما ومضيت .

وقالوا: إذا غضِبَ الرجل فليستلقِ على قفاه، وإذا عيَ [٢] فليراوح رجليه .

وقيل للأحنف: ما الحلم؟ فقال: قولٌ إن لم يكن فعل، وصمتٌ إن ضرَّ قوْل .

---

(١) سورة الفرقان الآية ٦٣ .

(٢) عِيَ: صعب عليه النطق.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من لانت كلمته وجَبَت محبتهُ.

وقال: حِلمك على السفيه يُكثِّر أنصارك عليه.

وقال الأحنف: من لم يَصبر على كلمة سمع كلمات.

وقال: رُب غَيظ تجرعتهُ مخافة ما هو أشدُّ منه. وأنشد:

رَضيتُ ببعض الذُّلِّ خوْف جميعِـهِ   كذلك بعض الشَّرِّ أهْوَنُ من بعضِ

وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز ما يكره، فقال: لا عليك، إنما أردتَ أن يستفزّني الشيطان بعزة السلطان، فأنال منك اليوم ما تنالهُ مني غداً. آنصرِف إذا شئت.

وقال الشاعر في هذا المعنى:

لن يُدرِك المجدَ أقوامٌ وإن كَرمُـوا   حتى يَـذِلـوا وإن عَـزُّوا لأقـوام
ويُشتَموا فترى الألـوانَ كـاسِفـةً   لا ذُلَّ عجزٍ ولكـن ذُلَّ أحلامِ (١)

ولآخر:

إذا قيلـتِ العـوْراءُ أغْضى كـأنـه   ذليلٌ بلا ذُلّ ولو شاءَ لا نْتَصَـرْ (٢)

ومن أحسن بيت في الحلم قول كعب بن زهير:

إذا أنت لم تُعْرِض عن الجهل والخنـا   أصَبْتَ حليما أو أصابـك جـاهـلُ

وقال الأحنف: آفة الحلم الذُّل.

وقال: لا حِلم لمن لا سفيه له.

وقال: ما قلَّ سفهاءُ قومٍ إلا ذَلوا. وأنشد:

لا بد لِلُسودِدِ مِـن رِمـاحِ   ومِن رجالٍ مُصلَتي السِّلاحِ

---

(١) كاسفة: متغيّرة.

(٢) أغضى: أطرق حياءً والعوراء: العيب.

يُدافِعون دونَه بالرَّاحِ ومِن سَفيهٍ دائمِ النُّباحِ

وقال النابغة الجعديّ:

ولا خيْرَ في حلمٍ إذا لم تكن له بوادِرُ تَحمي صَفْوهُ أن يُكدَّرا
ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له حليمٌ إذا ما أورد الأمر أصدرا[1]

ولما أنشد هذين البيتين للنبي ﷺ، قال: لا يَفْضض اللهُ فاك. فعاش مائة وسبعين سنة لم تَنقض له ثنيّة.

وقالوا: لا يَظهر الحلمُ إلا مع الانتصار، كما لا يظهر العفو إلا مع الاَقتدار.

وقال الأصمعي: سمعت أعرابيا يقول: كان سنان بن أبي حارثة أحلمَ من فرْخ الطائر. قلت: وما حلمُ فرخ الطائر؟ قال: إنه يخرج من بيضةٍ في رأس نِيق[2]، ولا يتحوّل حتى يتوفر ريشه ويَقْوى على الطيران.

وللأشْنَنْداني:

وفي اللين ضَعفٌ والشراسة هيبةٌ ومن لا يُهَبْ يُحْمَل على مَركبٍ وَعْرِ
ولَلْفَقرُ خيرٌ من غنىً في دناءةٍ ولَلْموتُ خيرٌ من حياةٍ على صُغْرِ[3]
وما كلَّ حينٍ ينفع الحلمُ أهلَهَ ولا كلّ حالٍ يقبح الجهل بالصبر
وما بي على من لان لي من فظاظةٍ ولكنني فظٌّ أبيٌّ على القسر[4]

وقال آخر في مدح الحلم:

إني أرى الحلم محموداً عواقبُهُ والجهل أفنى من الأقوام أقواما

ولسابق:

ألم تَرَ أن الحلم زَيْنٌ مُسوِّدٌ لصاحبه والجهلُ للمرء شائنُ

---

(١) أورد الأمر أصدرا: قرّر ونفذ.

(٢) النيق: أرفع موضع في الجبل. (٣) الصغر: الذلّ.

(٤) الفظاظة: الغلظة والقسر: الإرغام والإجبار.

فكن دافناً للجهل بالحلم تسترحْ　　من الجهل إنّ الحلم للجهل دافنُ

ولغيره:

ألا إنّ حلم المرء أكبر نسبةٍ　　يسامي بها عند الفخار كريمُ
فيا ربِّ هب لي منك حلماً فإنّني　　أرى الحلم لم يندم عليه حليمُ

وقال بعض الحكماء: ما حَلاَ عندي أفضل من غيظ أتجرَّعه.

وقال بعضهم:

وفي الحلم رَوْعٌ للسفيه عن الأذى　　وفي الخُرق إغراء فلا تَكُ أخرقا(١)
فتندَم إذ لا تَنْفعنْك ندامةٌ　　كما ندم المغبون لما تفرَّقا

وقال عليٌّ عليه السلام: أول عوض الحليم عن حلمه أنّ الناس أنصاره على الجاهل.

سئل كسرى أنو شروان: ما قَدْرُ الحلم؟ فقال: وكيف تعرف قدر ما لم ير كمالَه أحد.

وقال معاوية لخالد بن المُعمَّر: كيف حبُّك لعلي بن أبي طالب عليه السلام؟ قال: أحبه لثلاث خصال: على حِلمه إذا غضب، وعلى صِدقه إذا قال، وعلى وفائه إذا وعد.

وكان يقال: ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان: من إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق، ومن إذا رضي لم يخرجه رضاه إلى الظلم والباطل، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذا سمعت الكلمة تؤذيك فطأطيء لها حتى تتخطاك.

وقال الحسن: إنما يعرف الحلم عند الغضب. فإذا لم تغضب لم تكن حليما. وقال الشاعر:

(١) الخرق: الجهل.

وليس يتمُّ الحلم للمـــرء راضيـــاً إذا هـو عنـد السخـط لم يتحلَّـم

كما لا يتمُّ الجود للمـــرء مـوسراً إذا هـو عنـد العسر لم يَتجشَّـم[١]

وقال بعض الحكماء: إن أفضل وادٍ تُرَى به الحلم، فإذا لم تكن حليما فتحلَّم؛ فقلَّما تشبَّه رجل بقوم إلا كان منهم.

وقال بعضهم: الحلم عُدَّة على السفيه، لأنك لا تقابل سفيهاً بالإعراض[٢] عنه والاستخفاف بفعله إلا أذللته.

ويقال: ليس الحليم من ظُلم فحلم حتى إذا قدر انتقم، ولكن الحليم من ظُلم فحلم ثم قدر فعفا.

وللأحنف، أو غيره:

ولـربما ضحـك الحليم مـــن الأذى وفـــؤاده مـــن حَـــرِّه يتـــأوَّهُ

ولـــربما شَكَـــلَ الحليمُ لســـانَـــه حَـذَرَ الجواب وإنّــه لَمُفَــوَّهُ[٣]

وقيل: ما آستَسبَّ اثنان إلا غَلب ألأمهما.

وقال الأحنف: وجدت الحلم أنصر لي من الرجال.

وقال بعضهم: إياك وعزة الغضب، فإنها تُصيِّرك إلى ذلّ الاعتذار.

وقيل: من حلم ساد، ومن تفهَّم ازداد.

وقال الأحنف: ما نازعني أحدٌ قطُّ إلا أخذتُ أمري بإحدى ثلاث: إن كان فوقي عرفت قدره، وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه، وإن كان مثلي تفضَّلت عليه.

ولقد أحسن الذي أخذ هذا المعنى فنظمه فقال:

---

(١) يتجشّم: يتحمّل. (٢) أعرض عنه: ابتعد.

(٣) شكل: لجم وامتنع عن الكلام ومفوّه: بليغ.

إذا كـان دوني مـن بُلِيـتُ بجهلـه أبيت لنفسي أن تُقـارَعَ بـالجهـلِ
وإن كـان مثلي ثم جـاء بـزَلَّـةٍ هَوِيتُ لصفحي أن يضاف إلى العدلِ
وإن كنت أدنى منه قدراً ومنصباً عرفت لـه حـقَّ التقـدُّم والفضـل

وفي مثله قال بعض الشعراء:

سأُلزِم نفسي الصفحَ عن كلِّ مذنبٍ وإن كثرتْ منـه إليَّ الجرائمُ
وما النـاس إلاّ واحـدٌ مـن ثلاثـةٍ شريـفٌ ومشروفٌ ومثـلٌ مُقـاوم
فأما الذي فوقي فـأعـرف فضلـهُ وأتبـع فيـه الحقَّ والحقُّ قـائمُ
وأما الذي دوني فإن قال صنتُ عـن إجـابتـه نفسي وإن لام لائمُ
وأمـا الذي مثلي فـإن زَلَّ أو هَفَـا تفضَّلـتُ إن الفضـل للحـرِّ لازم

ولأصْرَمَ بن قيس، ويقال إنها لعلي عليه السلام:

أَصَـمُّ عـن الكَلِـمِ المُحْفِظـاتِ وأحلم والحلمُ بي أَشْبَـهُ[(١)]
وإنيّ لأتـرك جُـلَّ الكلام لئلا أُجـاب بما أكـرهُ
إذا مـا اجْتَـرَرْتُ سِفـاه السفيـه عليَّ فـإنيّ أنـا الأسفـه
فلا تَغْترر بِـرُوَاء الرجـال وما زَخـرَفـوا لـك أو مَـوَّهـوا[(٢)]
فكم مـن فتىً يُعجـب النـاظـريـن لـه أَلْسُـنٌ ولـه أَوْجُـهُ
ينـام إذا حضر المكـرمـاتِ وعنـد الدنـاءة يَسْتَنْبِـهُ

وللحسن بن رجاء:

أحـبُّ مكـارم الأخلاق جهـدي وأكـره أن أجيـب وأن أُجـابـا
وأصفـح عـن سِبـاب النـاس حلماً وشرُّ النـاس مـن يَهْـوَى السِّبـابـا
ومـن هـاب الرجـال تهيَّبُـوه ومـن حَقَـر الرجـالَ فلـن يُهـابـا
ومن قَضَـت الرجـال لـه حقـوقـاً ولم يقـض الحقـوقَ فما أصـابـا

---

(١) المحفظات: المثيرة للأحقاد.

(٢) الرواء: المظهر، وزخرفوا: زينوا وموّهوا: أخفوا ولبّسوا.

وقال محمد بن علي رضوان الله عنهما: من حَلُم وقَى عِرضه، ومن جادت كفُّه حَسُن ثناؤه، ومن أصلح ماله استغنى، ومن احتمل المكروه كثرت محاسنُه، ومن صبر حُمد أمره، ومن كظم فَشا[1] إحسانُه، ومن عفا عن الذنوب كثرت أياديه، ومن اتقى الله كفاه ما أهمه.

بين علي وكبير من الفرس:

وسأل أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام كبيراً من كبراء الفرس: أي شيء لملوككم كان أحمدَ عندكم؟ قال: كان لأردشير فضل السبق في المملكة، غير أن أحمدَهم سيرة أنوشروان. قال: فأي أخلاقه كان أغلب عليه؟ قال: الحلم والأناة. قال: هما توأمان ينتجهما علو الهمة.

ولمحمود بن الحسن الوراق:

إنّي وهبتُ لظالمي ظلمي ... وغفرت ذاك له على علم
ورأيته أَسْدَى إليَّ يداً ... لمّا أبان بجهله حلمي
رَجَعتْ إساءتهُ عليه وإحْساني إليَّ مُضاعَف الغُنْم
وغدوت ذا أجرٍ ومَحْمَدَةٍ ... وغدا بكسب الظلم والإثم
وكأنّما الإحسان كان له ... وأنا المسيءُ إليه في الحكم
وما زال يظلمني وأرحمه ... حتى رثيت له من الظلمِ

ولمحمد بن زياد يصف حلماء:

نَخالهم في الناس صُمّاً عن الخَنا ... وخُرْساً عن الفحشاء عند التهاجُرِ
ومَرْضَى إذا لُوقوا حياءً وعفّةً ... وعند الحِفاظ كاللّيوثِ الخوادر[2]
كأنّ لهم وصْماً يخافون عاره ... وما ذاك إلاّ لاتّقاء المعايرِ[3]

---

(١) فشا: انتشر وعمّ.

(٢) الخوادر: المقيمة في خدورها متأهبة. (٣) الوصم: العلامة.

وله أيضاً:

وأرفع نفسي عن نفوسٍ وربّما ... تذلّلت في إكرامها لنفوس
وإن رامني يوماً خسيسٌ بجهله ... أبى الله أن أرضى بِعرض خسيس

وقال وهب: مكتوب في الإنجيل: لا ينبغي لإمام أن يكون جائراً ومنه يُلتمس العدل، ولا سفيها ومنه يُقتبس الحلم.

ولبعضهم:

وإذا استشارك من تَوَدُّ فقل له ... أطع الحليم إذا الحليم نهاكا
واعلم بأنك لن تَسُود ولن ترى ... سُبل الرشاد إذا أطعت هواكا

وقال آخر:

وكن معدناً للحلم واصفح عن الأذى ... فإنّك راءٍ ما علمت وسامعُ
وأَحْبِبْ إذا أحببتَ حباً مقارباً ... فإنك لا تدري متى أنت نازعُ(١)
وأبغض إذا أبغضت غير مُباينٍ ... فإنك لا تدري متى أنت راجع

باب السودد

قيل لعدي بن حاتم: ما السُّودد؟ قال: السيدُ: الأحمق في ماله، الذليل في عِرْضه، المطَّرِحُ لحِقده.

وقيل لقيس بن عاصم: بِمَ سوَّدَك قومُك؟ قال: بكفِّ الأذى، وبَذْل النَّدى، ونصْر المولى.

وقال رجل للأحنف: بم سَوَّدك قومُك وما أنت بأشرفهم بيتاً، ولا أصبَحِهم وجهاً، ولا أحسنهم خُلقاً؟ قال: بخلاف ما فيك يا بن أخي. قال: وما ذاك؟ قال:

---

(١) نازع: مفارق.

بتركي من أمرك ما لا يَعنيني كما عناك من أمري ما لا يعنيك.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل: من سَيِّدُ قومِك؟ قال: أنا. قال: كذبت لو كنت كذلك لم تقُله.

أوس وحاتم بين يدي النعمان:

وقال ٱبن الكلبي: قدم أوس بن حارثة بن لأم الطائي، وحاتم بن عبد الله الطائي، على النعمان بن المنذر، فقال لإياس بن قبيصة الطائي أيهما أفضل؟ قال: أبيت اللعن أيها الملك! إني من أحدهما، ولكن سَلْهما عن أنفسهما فإنهما يُخبرانك. فدخل عليه أوس: فقال: أنت أفضل أم حاتم؟ فقال: أبيتَ اللعن! إنّ أدْنى ولدِ حاتم أفضل مني، ولو كنتُ أنا وولدي ومالي لحاتمٍ لأنهَبَنا في غداةٍ واحدة.

ثم دخل عليه حاتم، فقال له: أنت أفضل أم أوس؟ فقال: أبيتَ اللعن! إنّ أدنى ولدٍ لأوسٍ أفضل مني. فقال النعمان: هذا والله السودد. وأمر لكل منهما بمائة من الإبل.

وسأل عبد الملك بن مروان روح بن زِنباع عن مالك بن مِسمع، فقال: لو غَضِب مالك لغضب معه مائة ألف سيف لا يسأله واحدٌ منهم لم غضبت؟ فقال عبد الملك هذا والله السودد.

أبو سفيان وجزائر ملك اليمن:

وقال أبو حاتم عن العتبي: أهدى ملك اليمن سبعَ جزائر إلى مكة، وأوصى أن يَنحرها أعزُّ قرشيّها، فأتت وأبو سفيان عروس بهند. فقال له هِند: يا هذا، لا تَشغلك النساءُ عن هذه الأكْرُومة التي لعلك أن تسبَق إليها. فقال لها: يا هذه، ذَرِي زوجَك وما ٱختار لنفسه. فوالله لا نَحَرَها أحدٌ إلا نحرته! فكانت في عُقُلها[1] حتى خرج إليها بعد السابع فنحرها.

(١) عقلها: أزمّتها، وحيث ربطت.

لهند في ابنها معاوية:

ونظر رجل إلى معاوية وهو غلام صغير، فقال: إني أظن أن هذا الغلام سيسود قومَه. فسمعته أُمَّه هِند، فقالت: ثكلْتُه إذاً إن لم يَسُدْ إلا قومَه.

وقال الهيثم بن عَدِيّ: كانوا يقولون: إذا كان الصبي سائل الغرّة[1]، طويل العُزْلة[2]، مُلتاث الإزرة[3]، فذلك الذي لا يُشَك في سودده.

ودخل ضَمرة بن ضَمرة على النُّعمان بن المنذر، وكان به دَمامة شديدة، فٱلتفت النُّعمان إلى أصحابه وقال: تسمعُ بالمعيدِيِّ خيْرٌ من أن تراه. فقال: أيها الملك، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإن قال قال ببيان، وإن قاتل قاتل بِجَنان. قال: صدقت! وبحقٍّ سَوَّدَك قومُك.

وقيل لعَرابة الأوسيّ: بِمَ سَوَّدَك قومُك؟ قال: بأربع خلال: أَنخدع[4] لهم في مالي، وأَذِلُّ لهم في عِرْضي، ولا أحْقِر صغيرهم، ولا أحْسُد كبيرهم.

وفي عرابة الأوسيَّ يقول الشماخ بن ضِرار:

رأيتُ عَرابةَ الأوْسِيَّ يسْمو إلى الخيراتِ مُنقطِعِ القرينِ
إذا ما رايَةٌ رُفِعَت لمجدٍ تَلَقَّاها عَرابةُ باليمين

وقالوا: يسود الرجل بأربعة أشياء: بالعقل، والأدب، والعلم، والمال.

وكان سلم بن نَوفل سيدَ بني كنانة، فوثب رجل على ٱبنه وابن أخيه فجرحهما، فأُتي به. فقال له: ما أَمَّنَك من ٱنتقامي؟ قال: فلِمَ سَوَّدْناك إذاً، إلا أن تكظم الغيظ وتحلُم عن الجاهل. وتحتمل المكروه. فخلَّى سبيله. فقال فيه الشاعر:

يُسَوَّدُ أقوامٌ وليسوا بِسادةٍ بل السيِّدُ الصِّنْديدُ سَلْم بن نَوْفَل

---

(١) الغرّة: أول الشعر.
(٢) العزلة: جلدة عضو التناسل في الذكور.
(٣) الإزرة: هيئة الاتزار، أي ما يأتزر به من.
(٤) أنخدع لهم: أبسط لهم ولا أمنعهم.

وقال ابن الكلبي: قال لي خالد العنبري: ما تَعُدّون السُّودد؟ قلت: أمّا في الجاهلية فالرّياسة، وأما في الإسلام فالولاية، وخيرٌ من ذا وذلك التقوى. قال: صدقت. كان أبي يقول: لم يُدرِك الأوَّلُ الشرفَ إلا بالعقل، ولم يدرك الآخر إلا بما أدرك به الأول. قلت له: صدق أبوك، وإنما ساد الأحنف ابن قيس بحلمه، ومالك بن مِسمع بحبِّ العشيرة له، وقتيبة بن مُسلم بدهائه؛ وساد المهلَّبُ بهذه الخلال كلها.

الأصمعي قال: قيل لأعرابي يقال له مُنتجع بن نبهان: ما السَّميدع؟ قال: السيد الموطأ الأكناف.

وكان عمر بن الخطاب يُفرش له فراشٌ في بيته في وقت خلافته، فلا يَجلس عليه أحد إلا العباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن حَرب.

قال النبي ﷺ لأبي سفيان: كل الصَّيْد في جَوف الفَرا؛ والفرا: الحمار الوحشي، وهو مهموز، وجمعه فِراء. ومعناه أنه في الناس مثل الحمار الوحشي في الوحش.

رأي عمرو بن العاص في أخيه هشام:

ودخل عمرو بن العاص مكة، فرأى قوماً من قريش قد تحلَّقوا حلْقة، فلما رأوه رمَوا بأبصارهم إليه، فعدل إليهم فقال: أحسبكم كُنتم في شيء من ذِكري. قالوا: أجل، كنا نماثل بينك وبين أخيك هشام. أيكما أفضل. فقال عمرو. إن لهشامٍ عليّ أربعة: أُمه آبنة هشام بن المغيرة، وأمِّي من قد عرفتم. وكان أحبَّ الناس إلى أبيه مني، وقد عرفتم معرفة الوالد بالولد. وأسلم قبلي. واستُشهد وبقيت.

قال قيس بن عاصم لبنيه لما حضرتْه الوفاة: احفظوا عني، فلا أحد أنصحُ لكم مني؛ إذا أنا متُّ فسوِّدوا كباركم ولا تسوِّدوا صغاركم فيحقر الناس كباركم.

وقال الأحنف بن قيس: السودد مع السواد.

وهذا المعنى يحتمل وجهين من التفسير: أحدهما أن يكون أراد بالسوادِ سوادَ

الشعر، يقول: من لم يَسُدْ مع الحداثة لم يَسُدْ مع الشيخوخة؛ والوجه الآخر أن يكون أراد بالسواد سوادَ الناس ودَهماءَهم، يقول: من لم يَطِرْ له اسمٌ على ألسنة العامة بالسُّودد لم ينفعه ما طار له في الخاصة.

وقال أبان بن مسلمة[1]:

ولسنا كقومٍ مُحدَثين سيادةً ... يُرى مالُها ولا تحسُّ فعالها
مَساعيهُمُ مقصورةٌ في بيوتِهم ... ومسعاتُنا ذُبيانُ طُرّاً عِيالُها

لابن عيينة بعد موت نظرائه:

الهيثم بن عديّ قال: لما انفرد سفيان بن عُيينة ومات نظراؤه من العلماء، تكاثر الناس عليه، فأنشد يقول:

خَلَتِ الدِّيارُ فَسُدْتُ غيرَ مُسَوَّدِ ... ومن الشَّقاء تفَرُّدي بالسُّوددِ

سُودد الرجل بنفسه

قال النبي ﷺ: مَن أسرعَ به عملُهُ لم يُبطيء به حسَبُه، ومَن أبطأ به عملُه لم يُسْرِع به نَسَبُه.

وقال قُسُّ بن ساعدة: من فاته حسبُ نفسه لم يَنفعه حسبُ أبيه.

وقالوا: إنما الناس بأبدانهم.

وقال الشاعر:

نفْسُ عِصامٍ سَوَّدَتْ عِصامَا ... وعَلَّمَتْه الكَرَّ والإقداما

وقال عبد الله بن معاوية:

لَسْنا وإن كرُمتْ أوائلُنا ... يوماً على الأحساب نتكِلُ
نبْنِي كما كانت أوائلُنا ... تَبنِي ونَفعَلُ مِثْلَ ما فعلوا

---

(١) في عيون الأخبار: «زيان بن سيار».

وقال قُس بن ساعدة: لأقضِينْ بين العرب بقضية لم يَقض بها أحد قبلي ولا يردّها أحدٌ بعدي: أيُّما رجل رَمَى رجلاً بملامة دونها كرم فلا لوم عليه، وأيما رجل ادّعى كرماً دونه لؤم فلا كرم له.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كل كرم دونه لؤم فاللؤم أولى به، وكل لؤم دونه كرم فالكرم أولى به، تُريد أن أولى الأمور بالإنسان خِصالُ نفسه، وإن كان كريماً وآباؤه لئام لم يَضُره ذلك، وإن كان لئيماً وآباؤه كرام لم ينفعه ذلك.

وقال عامر بن الطفيل العامريّ:

وإنّي وإن كنتُ ابنَ سيِّدِ عـامِـرٍ وفارِسها المشهور في كلِّ موكِـبِ
فما سَـوّدَتْني عـامِـرٌ عـن وراثـةٍ أَبَـى اللهُ أن أَسْمُـو بجَدٍ ولا أب
ولكِنَّني أحْمِـي حِمَـاهـا وأَتَّقِـي أذاها وأرْمِي مَنْ رَماهـا بمَنكِبِي[1]

وتكلم رجل عند عبد الملك بن مروان بكلام ذَهَب فيه كلَّ مذهب. فأعجب عبدَ الملك ما سمع من كلامه، فقال له: ابنُ مَن أنت؟ قال: أنا ابنُ نفسي يا أمير المؤمنين، التي بها توصلت إليك. قال: صدقت.

فأخذ الشاعر هذا المعنى، فقال:

مـالِـيَ عقلِـي وهِمَّتي حَسَبي ما أنـا مَـوْلَـى ولا أنـا عـربي
إذا انْتَمَـى مُنْتَـمٍ إلى أحـدٍ فـإنّني مُنْتَـمٍ إلى أدَبي

وقال بعض المحدّثين:

رأيـتُ رجـالَ بني دالِقٍ مُلـوكـاً بفضـلِ تِجـاراتِهِـمْ
وبَـرْبَـرُنـا عنـدَ حِيطـانِهِـمْ يخوضـونَ في ذِكـرِ أمـواتِهِـمْ
ومـا النـاسُ إلا بـأبـدانِهِـمْ وأحسابُهم في حِرِّ أماتِهِـم[2]

---

(١) المنكب: مجتمع رأس الكتف والعضد.

(٢) أحسابهم: أنسابهم، أي أنّ الأمّهات أعرف بأنساب أولادهن.

قال النبي ﷺ: لا دينَ إلا بمروءة.

وقال ربيعة الرأي: المروءة ست خِصال: ثلاثة في الحضَر، وثلاثة في السفر. فأما التي في السفر: فبَذْلُ الزاد، وحُسن الخُلق، ومداعبةُ الرفيق، وأما التي في الحضر: فتلاوةُ القرآن، ولزومُ المساجد، وعفافَ الفَرج.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: المُروءة مروءتان: مروءة ظاهرة، ومُروءة باطنة. فالمُروءة الظاهرة الرياش[1]، والمروءة الباطنة العفاف.

وقدم وَفْد على معاوية، فقال لهم: ما تَعُدُّون المروءة؟ قالوا: العفاف وإصلاح المعيشة. قال آسمع يا يزيد.

وقيل لأبي هريرة: ما المروءة؟ قال: تقوى الله وتَفَقُّدُ الضَّيعة.

وقيل للأحنف: ما المروءة؟ قال: العفة والحرفة.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إنّا معشر قريش لا نعُدُّ الحلم والجُود سوددا، ونعُدُّ العفافَ وإصلاحَ المال مروءة.

وقال الأحنف: لا مُروءة لِكَذوب، ولا سُودد لبخيل، ولا ورَع لسيِّء الخُلق.

وقال النبي ﷺ: «تجاوزوا لذوِي المُروءات عن عثراتهم» فوالذي نفسي بيده، إنّ أحدهم ليَعْثُر وإن يَدَهُ لبيدِ الله.

وقال العُتبي عن أبيه لا تتمّ مروءةُ الرجل إلا بخَمس: أن يكون عالماً صادقاً عاقلاً ذا بيان مستغنياً عن الناس.

وقال الشاعر:

وما المَرْءُ إلا حيْثُ يَجْعَـل نفْسَـهُ ... ففي صالح الأخْلاَقِ نفْسَكَ فاجْعَل

وقيل لعبد الملك بن مروان: أكان مُصعب بن الزُّبير يشرب الطِّلاء[2]؟ فقال: لو علم مُصعب أن الماء يُفسد مروءتَه ما شربه.

---

(١) الرياش: الغنى والزينة. (٢) الطِّلاء: الخمر.

وقالوا: من أخذ من الديك ثلاثة أشياء، ومن الغراب ثلاثة أشياء، تَمّ بها أدبُه ومروءته: من أخذ من الديك سخاءه وشجاعته وغيرته. ومن الغراب بكورَه لطلب الرزق وشِدَّةِ حذرِه وسَتْرَ سِفادِه[1].

طبقات الرجال

قال خالد بن صفوان: الناس ثلاث طبقات: طبقة علماء، وطبقةٌ خطباء، وطبقة أدباء، ورِجْرِجة[2] بين ذلك، يُغلون الأسعار، ويُضيِّقون الأسواق، ويكدرون المياه.

وقال الحسن: الرجال ثلاثة: فرجل كالغِذاء لا يُسْتَغْنَى عنه، ورجل كالدواء لا يُحتاج إليه إلا حيناً بعد حين، ورجل كالدّاء لا يُحتاج إليه أبداً.

وقال مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير: الناس ثلاثة: ناس، ونَسناس، وناس غمسوا في ماء الناس.

وقال الخليل بن أحمد: الرجال أربعة: فرجل يَدْرِي ويَدْرِي أنه يدري، فذلك عالم فسلوه؛ ورجل يَدري ولا يدري أنه يدري، فذلك الناسي فذكِّروه، ورجل لا يَدري ويدري أنه لا يَدري، فذلك الجاهل فعلِّموه: ورجل لا يدري ولا يَدري أنه لا يدري، فذلك الأحمقُ فارْفضوه.

وقال الشاعر:

أليسَ مِنَ البَلْوَى بأنَّكَ جاهِلٌ ... وأنَّكَ لا تَدْرِي بأنك لا تَدْرِي

إذا كُنْتَ لا تَدْرِي ولسْتَ كَمَنْ دَرى ... فكَيْفَ إذنْ تَدْرِي بأنكَ لا تَدْرِي

ولآخر:

ومـا الدّاءُ إلاّ أنْ تُعَلِّم جاهِلاً ... ويَـزْعُم جَهْلاً أنَّهُ منْكَ أعْلَمُ

---

(١) السِّفاد: المجامعة.

(٢) الرَّجرجة: من لا عقول لهم.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الناس ثلاثة: عالم ربّاني؛ ومتعلّم على سبيل نجاة، ورَعاع هَمج يَميلون مع كل ريح.

وقالت الحكماء: الإخْوان ثلاثة: فأخٌ يُخلص لك وُدَّه، ويبذل لك رِفْدَه ويستفرغ في مُهِمِّك جُهْدَه؛ وأخ ذُو نِيَّةٍ، يقتصر بك على حسن نيته دون رِفْده ومَعونته؛ وأخ يتملَّق لك بلسانه ويتشاغل عنك بشأنه ويُوسعك من كذبه وأيمانه.

وقال الشَّعبي: مرّ رجلٌ بعبد الله بن مسعود، فقال لأصحابه: هذا لا يَعلَم، ولا يعْلَم أنه لا يعْلَم، ولا يتَعَلَّم ممن يعْلَم.

وقال النبي ﷺ: كُنْ عالماً أو مُتَعَلِّماً، ولا تكن الثالثة فتَهْلك.

الغوغاء

الغوغاء: الدَّبا. وهي صغار الجراد، وشُبِّه بها سوادُ الناس.

وذُكر الغوغاءُ عند عبد الله بن عباس، فقال: ما اجتمعوا قط إلا ضرُّوا، ولا افترقوا إلا نفعوا. قيل له: قد علِمْنا ما ضرُّ اجتماعِهم، فما نفعُ افتراقهم؟ قال: يذهب الحَجَّام إلى دُكانه، والحدَّادُ إلى أكياره[1]، وكلُ صانع إلى صناعته.

ونظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى قوم يتبعون رجلاً أُخِذ في ريبة؛ فقال: لا مَرْحَباً بهذه الوجوه التي لا تُرى إلا في شر.

وقال حبيب بن أوس الطائي:

إنْ شِئْتَ أن يَسْوَدَّ ظنُّكَ كلُّهُ فأجِلْهُ في هذَا السَّوادِ الأعْظَمِ[2]

وقال دعبل:

ما أكثرَ النَّاس لا بَلْ ما أقَلَّهُمُ اللهُ يعْلَمُ أنِّي لَمْ أقُلْ فَنَدَا

إنِّي لأفتح عَيْنِي حِينَ أفْتَحُها على كثيرٍ ولكنْ لا أرَى أحداً

(١) الكير: آلة ينفخ فيها الحداد النار حتى تظلّ مشتعلة.

(٢) أجله: أي اجعله ينظر هنا وهناك.

الثقلاء

قالت عائشة رضي الله عنها: نزلتْ آية في الثقلاء: ﴿فإذا طَعِمْتُم فانْتشِرُوا ولا مُسْتَأْنِسين لِحَدِيث﴾ [١].

وقال الشَّعبي: من فاتته ركعتا الفَجرِ فلْيَلْعَنْ الثُّقلاء.

وقيل لجالينوس: بِمَ صار الرجل الثّقيل أثقل من الحِملِ الثقيل، فقال: لأنّ الرجل الثقيل إنما ثِقله على القلبِ دُونَ الجوارح، والحِمل الثقيل يستعين فيه القلبُ بالجوارح.

وقال سهل بن هارون، منْ ثُقل عليك بنفسه، وغَمَّك بسُؤاله، فأعِرْهُ أذُناً صَمَّاء، وعيناً عمياء.

وكان أبو هريرة إذا آستثقل رجلاً قال: اللهم اغْفِرْ له وأرِحْنا منه.

وكان الأعمش إذا حَضر مجلسَه ثقيلٌ يقول:

فمَـا الفِيـلُ تحْمِلـهُ مَيِّتـاً ... بـأثْقَـلَ مِـنْ بعْـضِ جُلاَّسِنـا

وقال أبو حنيفة للأعمش وأتاه عائداً في مرضه: لولا أن أُثْقِلَ عليك أبا محمدٍ لعُدتُك واللهِ في كل يوم مرتين. فقال له الأعمش. والله يا بن أخي أنت ثقيل عليَّ وأنتَ في بيتك، فكيف لو جئتَني في كل يوم مرتين.

وذَكَر رجل ثقيلاً كان يجلس إليه، فقال: والله إنّي لأُبْغِض شِقِّي [٢] الذي يليه إذا جلس إليّ.

ونقَشَ رجل على خاتمه: أبْرمْتَ [٣] فقُمْ. فكان إذا جلس إليه ثقيل ناوله إياه وقال: اقرأ ما على هذا الخاتم.

وكان حماد بن سلمة إذا رأى من يستثقله قال: ﴿ربَّنا اكشِفْ عَنَّا العذاب إنَّا مؤمِنون﴾ [٤].

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٣.

(٢) شقيّ: جانبي. (٣) أبرمت: أمللت.

(٤) سورة الدخان الآية ١٢.

وقال بشّار العُقيلي في ثقيل يُكْنَى أبا عمران:

ربّما يَثقُلُ الجَليسُ وإن كا ... ن خفيفاً في كِفَّةِ الميزان
ولقد قلتُ إذْ أَظَلَّ على القوْ ... مِ ثقيلٌ يُربِي على ثَهْلانِ[1]
كيف لا تحمِلُ الأمانةَ أرْضٌ ... حَمَلَتْ فوقَها أبا عمرانِ

ولآخر:

أنتَ يا هذا ثقيلٌ ... وثقيلٌ وثقيلُ
أنتَ في المنظرِ إنسا ... نٌ وفي الميزانِ فِيلُ

وقال الحسن بن هانيء في رجل ثقيل:

ثقيلٌ يُطالِعُنا مِن أمَمْ ... إذا سَرَّهُ رغْمُ أنفي ألَمْ[2]
أقولُ له إذْ بَدَا لا بَدا ... ولا حَمَلَتْهُ إلينا قَدَمْ
فقَدْتُ خَيالَكَ لا مِن عَمًى ... وصوتَ كلامِك لا مِن صَمَمْ

وله فيه:

وما أظُنُّ القِلاَصَ مُنْجِيَتي ... منكَ ولا الفُلْكَ أيّها الرجلُ
ولو رَكِبْتُ البُراقَ أدْرَكَني ... مِنكَ على نَأيِ دارِكَ الثِّقَلُ[3]
هل لَكَ فِيما مَلَكْتُهُ هِبَةٌ ... تأخُذُهُ جملةً، وتَرتحِلُ

وله فيه:

يا مَن على الجُلاَّسِ كالفَتْقِ ... كلامُكَ التخديشُ في الحَلْقِ
هل لَكَ في مالي وما قد حَوَتْ ... يَدَايَ مِن جِلٍّ ومِنْ دِقِّ
تأخُذُه منِّي كذا فِدْيةً ... واذهَبْ ففي البُعدِ وفي السُّحْقِ

وله فيه:

---

(١) ثهلان: اسم جبل. (٢) أمم: قرب.
(٣) البُراق: دابة ركبها رسول الله ﷺ ليلة المعراج وكانت دون البغل وفوق الحمار.

ألاَ يــا جبَــلَ المَقْــتِ الَّــ ـــذى أرْسَـــــى فما يَبرَحْ
لقـــــد أكثرْتَ تفكيري فما أدْري لِمَــا تَصْلُــحْ
فما تَصْلُـــحُ أن تُهجَـــى ولا تصلُـــحُ أنْ تُمْـــدَحْ

أهدى رجل من الثقلاء إلى رجل من الظرفاء جملاً، ثم نزل عليه حتى أبْرَمَه، فقال فيه:

يــا مُبْرمـاً أهــدَى جَمَــلْ خــذْ وانصرفْ ألفْــي جملْ
قــال ومــا أوقــارُهــا؟ قلــتُ زَبيـــبٌ وعســـلْ(١)
قــال ومَـــن يقـــودُهـــا قلــتُ لــه ألفَــا رجــلْ
قــال ومَـــن يســـوقُهـــا قلــتُ لــه ألفــا بطــلْ
قـــال ومـــا لِبـــاسُهـــم قلـــت حُلِـــيٌّ وحُلَـــلْ
قـــال ومـــا سِلاحُهـــم قلـــت سُيـــوفٌ وأسَـــلْ(٢)
قـــال عبيـــدٌ لي إذنْ قلـــت نعـــم ثم خَـــوَلْ
قــال بِهـــذا فـــاكتُبـــوا إذن عليكـــم لِـــي سِجِـــلّ
قلـــت لـــه ألْفَـــي سِجِـــلّ فـــاضْمَـــنْ لنا أنْ تَـــرتَحِـــلْ
قــال وقــد أضْجَــرْتُكــم قلـــت أجَـــلْ ثم أجـــلْ
قــال وقــد أبْــرَمْتُكــم قلت لــه الأمْــرُ جَلَــلْ(٣)
قـــال وقـــد أثقلتُكـــم قلـــت لـــه فـــوق الثِّقَـــلْ
قـــال فـــإنّـــي راحِـــلٌ قلـــت العَجَـــلْ ثم العَجَـــلْ
يــا كَــوْكَــبَ الشُّــؤْمِ ومَــن أرْبَـــى على نَحْسِ زُحَـــلْ
يـــا جبلاً مِـــن جبـــلٍ في جبـــلٍ فـــوق جَبَـــلْ

وقال الحمدوني في رجل بغيض مَقيت.

أبــا بنَ البَغيضــة وابْــنَ البَغيــض ومَــنْ هُــو في البُغْــضِ لا يُلحَــقُ

---

(١) أوقارها: أحمالها. (٢) الأسل: الرماح.

(٣) ابرمتكم: أمللتكم، والجلل: العظيم.

سألتُكَ باللهِ إلاَّ صَدَقْتَ وعِلْمي بأنَّكَ لا تصْدُقُ
أتُبْغِضُ نَفسَكَ مِنْ بُغضِها وإلاَّ فأنْتَ إذَنْ أحْمَقُ

وله فيه:

في حَرِيمِ النَّاس إذ كُنْتَ مِنَ النَّاسِ تعَدُّ
ولقَدْ أُنبِئْتُ إبْليسُ إذَا رَاكَ يصُدُّ[1]

ولحبيب الطائي في مثله، أيْ في رجل مَقيت:

يا مَنْ تَبرَّمَتِ الدُّنيا بطَلْعَتِهِ كما تَبرَّمَتِ الأجْفانُ بالرَّمَدِ
يمشي على الأرضِ مُختالاً فأحسَبُه لِبُغْضِ طلعتِه يمشي على كَبِدي
لو أنّ في الأرضِ جزءًا من سماجتِه لم يَقدم الموتُ إشفاقاً على أحَدِ

وللحسن بن هانيء في الفضل الرقاشي:

رأيتُ الرّقاشيّ في موضِعٍ وكان إليّ بَغِيضاً مَقيتَا
فقال اقْتَرِحَ بعضَ ما تَشْتَهي فقلتُ اقترحتُ عليكَ السُّكوتا

وانشدني الشعبي:

إني بُلِيتُ بمَعشَرٍ نَوْكَى أخَفُّهُمُ ثقيلُ
بَلْهٍ إذا جالَسْتُهم صَدِئَتْ لِقُرْبِهِمُ العُقول
لا يُفْهِمُوني قولَهم ويدِقُّ عنهم ما أقول
فهُمُ كثيرٌ بي كما أنّي بِقُرْبِهِمُ قليل

وقال العتبي: كتب الكِسائيّ إلى الرقاشيّ:

شكَوْتَ إلينا مجانِينَكم وأشكو إليك مجانيننا
وأنشأتَ تَذْكُرُ قُذَّارَكم فأنتِنْ وأقْذِرْ بمَنْ عندنَا
فلولا السلامة كُنَّا كهُم ولولا البَلاءُ لكانوا كنَا[2]

---

(١) راك: يريد رآك. ويصد: يهجر ويفارق.

(٢) «كهم» «وكنا» الكاف حرف تشبيه و «هم ونا» من الضمائر.

وقال حبيب الطائي:

وصاحِبٍ لي مَلِلْتُ صُحْبَتَهُ أفقدني اللهُ شخصَه عَجلا
سَرَقتُ سِكِّينهُ وخاتَمهُ أقْطَع ما بيننا فما فَعلا

وقال حبيب:

يا مَن له في وجهِه إذ بدا كُنوزُ قارونَ منَ البُغضِ
لو فرَّ شيءٌ قَطُّ مِن شَكلِه فرَّ إذَنْ بعضُك من بعضِ
كونُك في صُلْبِ أبينا الذي أهْبطَنا جمعاً إلى الأرض

وقال أبو حاتم: وأنشدني أبو زيد الأنصاري النحوي صاحب النوادر:

وجهُ يَحيي يدعو إلى البَصْقِ فيه غيرَ أنّي أصونُ عنه بُصاقي

قال أبو حاتم: وأنشدني العتبي:

له وجهٌ يَحِلُّ البصقُ فيه ويَحْرُم أنْ يُلقّى بالتَّحيَّهْ

قال: وأنشدني:

قميصُ أبي أُميَّةَ، ما علمتُمْ وأوسخُ منه جلْدُ أبي أُميَّةْ

التفاؤل بالأسماء

سأل عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً أراد أن يستعين به على عمل، عن اسمه واسم أبيه؛ فقال: ظالم بن سُراقة. فقال؛ تَظلم أنت ويَسرق أبوك! ولم يستعن به في شيء.

وأقبل رجل إلى عمر بن الخطاب، فقال له عمر: ما آسمك؟ فقال: شهاب بن حُرْقة. قال: ممن؟ قال: من أهل حَرَّةِ النار. قال؛ وأين مسكنك؟ قال: بِذاتِ لظى. قال: آذهب فإن أهلك قد احترقوا. فكان كما قال عمر رضي الله عنه.

ولقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه مسروق بن الأجدع، فقال له من أنت؟

قال: مسروق بن الأجدع. قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: الأجدع شيطان.

للنبي ﷺ في البريد:

وروى سفيان عن هشام الدستُوائي عن يحيى بن أبي كَثير، قال: كتب رسول الله ﷺ إلى أُمرائه: لا تبْرِدوا بَريداً إلا حَسَن الوجه حَسَن الاسم.

الحجاج ورسول المهلب:

ولما فرغ المهلَّبُ بن أبي صُفرة من حرب الأزارقة. وجّه بالفتح إلى الحجاج رجلاً يقال له مالك بن بشير؛ فلما دخل على الحجاج قال له: ما اسمك؟ قال: مالك بن بشير. قال: مُلْكٌ وبشارة.

وقال الشاعر:

وإذا تكون كريهةٌ فَرَّجْتُها أدعو بأسلمَ مَرَّةً ورَبَاحِ

يريد التطيُّر بأسلم ورباح، للسلامة والرِّبح.

من تفاؤل الرسول ﷺ:

الرياشي عن الأصمعي قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، نزل على رجل من الأنصار، فصاح الرجل بغلامَيْه: يا سالم، ويا يسار! فقال رسول الله ﷺ: سَلِمَتْ لنا الدار في يُسْر.

الرسول ﷺ وحزن بن أبي وهب:

وقال سعيد بن المُسيِّب بن حَزن بن أبي وهب المخزومي: قدم جَدِّي حَزْن بن أبي وهب على النبي ﷺ؛ فقال له: كيف اسمُك؟ قال: حَزْن! قال له رسول الله ﷺ: بل سهْل. قال: ما كنت لأدَع اسما سَمتني به أمي. قال سعيد: فإنا لنجد تلك الحزُونة[1] في

---

(١) الحزونة: الوعورة والقسوة.

أخلاقنا إلى اليوم.

العرب والغراب:

وإنما تطَيَّرت العرب من الغراب للغرْبة، إذ كان اسّمه مشتقاً منها. وقال أبو الشيص:

أشاقك والليل مُلْقِي الجِران غرابٌ ينوحُ على غصنِ بانِ[1]
وفي نَعَباتِ الغرابِ اغْترابٌ وفي البان بين بعيد التَّداني

ولآخر في السَّفَرجل:

أهدي إليه سَفَرْجَلاً فتطيَّرا منه فظلَّ مفكِّراً مُسْتَعْبِرَا
خوْف الفِراق لأنّ شَطْر هجائه سَفرٌ وحقَّ له بأنْ يَتطيَّرَا

ولآخر في السَّوْسَن:

يا ذا الذي أهدَى لنا السَّوْسَنا ما كنتَ في إهدائِه مُحْسنا
شَطْرُ اسمِه سوْءٌ فقد سُؤْتَني يا ليت أنّي لم أر السَّوْسَنا

ولآخر في الأُتْرُجّ:

أهدَى إليه حبيبُه أُتْرُجَّةً فبكى وأشفَقَ من عِيافَةِ زاجرِ[2]
خاف التَّبدُّل والتَّلوُّن إنّها لوْنان باطِنها خلاف الظَّاهِرِ

وقال الطائي في الحمام:

هُنَّ الحَمامُ فإن كسَرْتَ عِيافةً من حائِهنَّ فإنهنّ حِمامُ

وكان أشعب يختلف إلى قَينة بالمدينة، فلما أراد الخروج سألها أن تعطيه خاتَمَ ذهبٍ في يدها ليذكُرَها به. قالت: إنه ذَهَب، وأخاف أن تَذْهَب؛ ولكن [خُذْ] هذا العود، فعلك أن تعود.

---

(١) الجران: مقدّم عنق الفرس من مذبحه إلى نحره وهنا يقصد به الظلمة والهمّ.

(٢) الأترجة: واحدة الأترج، وهو شجر ثمره من جنس الليمون تسمّيه العامة الكباد. والعيافة: زجر الطائر.

باب الطيرة

قال النبي ﷺ: ثلاثةٌ لا يكاد يَسلم منهن أحد: الطِّيَرة، والظنّ، والحسد. قيل: فما المخرج منهن يا رسول الله؟ قال: إذا تطيرت فلا تَرجع، وإذا ظننتَ فلا تُحقِّق، وإذا حَسَدْت فلا تَبْغ.

وقال أبو حاتم: السانح ما وَلاَّك ميَامنَه، والبارحُ ما ولاَّك مَياسِرَه، والجابه ما استقبلك من تجاهِك، والقعيد الذي يأتيك من خلفك.

وقال النبي ﷺ: لا عَدوى[1] ولا طيَرة.

وقال: ليس منا من تَطيّر.

وقال: إذا رأى أحدكم الطيرة فقال: اللهم لا طَيْرَ إلا طيرك، ولا خير إلا خيْرك، ولا إله غيرك، لم تَضُرَّه.

وقد كانت العرب تتطير، ويأتي ذلك في أشعارهم، وقال بعضهم:

وما صدَقَتْكَ الطَّيرَ يوم لقيتَنا ... وما كان مَن دلاّك فينا بخابِر

وقال حسان رضي الله تعالى عنه:

يا ليت شِعْري وليت الطَّيْرُ تُخْبِرُني ... ما كان بين عليٍّ وابن عَفَّانا
لَتَسْمَعَنّ وشيكاً في ديارهمُ ... الله أكبر يا ثارات عُثمانا

وقال الحسن بن هانيء:

قام الأمير بأمرِ الله في البشَر ... واستَقبَل المُلك في مُستقبل الثّمر
فالطير تخبِرُنا والطير صادقةٌ ... عن طِيب عيْشٍ وعن طول مِنَ العُمُر

قتيبة وشيء من تطيرّه:

وقال الشَّيباني: لما قَدِمَ قُتيبة بن مُسلم والياً على خراسان، قام خطيباً، فسقطت

---

(١) العدوى: انتقال المرض من مريضٍ إلى صحيح.

المخصرة من يده، فتطيّر به أهلُ خراسان؛ فقال: أيها الناس، ليس كما ظننتم، ولكنه كما قال الشاعر:

فألقت عَصاها واستقرَّت بها النَّوى ... كما قرَّ عيْناً بالإيابِ المسافرُ

اتخاذ الإخوان وما يجب لهم

روى الأوزاعي عن يحي بن أبي كثير أنّ داود قال لابنه سليمان ـ عليهما السلام: يا بُنيّ، لا تستقل عدُواً واحداً ولا تستكثر ألف صديق، ولا تستبدل بأخٍ قديم أخا مستحدثا ما أستقام لك.

وفي الحديث المرفوع: المرء كثير بأخيه.

وقال شبيب بن شيبة: إخوان الصفا خيرٌ من مكاسب الدنيا، هم زينةٌ في الرخاء، وعُدَّةٌ في البلاء، ومعونةٌ على الأعداء.

وأنشد ابن الأعرابي:

لعَمْرُكَ ما مالُ الفتى بذخيرةٍ ... ولكنّ إخوان الصَّفاءِ الذَّخائرُ

وقال الأحنف بن قَيس: خير الإخوان ما إن آستغنيت عنه لم يزدْك في المودّة، وإن آحتجت إليه لم ينَقُصك منها، وإن كُوثِرْت عَضَّدَك، وإن اسْترفدْت رَفَدَك. وأنشد:

أَخوك الذي إنْ تدْعهُ لِمُلمَّةٍ ... يُجِبْك وإن تَغضَب إلى السيْف يَغضَبِ

ولآخر:

أخاك أخاك إنّ من لا أخا له ... كساعٍ إلى الهيْجا بغيْرِ سلاحِ
وإنّ ابن عمِّ المرءِ فاعلم جناحُه ... وهل يَنهض البازي بغير جَناحِ

ومما يجب للصديق على الصديق النصيحةُ جهده؛ فقد قالوا: صديقُ الرجل مِرْآته، تُريه حسناتِه وسيآتِه.

وقالوا: الصديقُ من صَدقك ودَّه، وبذل لك رِفدَه.

وقالوا: خير الإخوان من أقبل عليك إذا أدبر الزمان عنك.

وقال الشاعر[1]:

فـإنَّ أَوْلي الموالي أن تـواليـه ... عند السُّرور لَمَنْ واسـاك في الحزَن
إنَّ الكرام إذا ما أسْهَلـوا ذَكـروا ... من كان يألفهم في المنزلِ الخشـنِ

ولآخر:

الصبر مـن كـرَم الطَّبيعـهْ ... والمَنُّ مفْسَـدة الصَّنِيعـهْ[2]
تَـرْكُ التَّعهُّـد للصَّـديـق ... يكـون داعيـةَ القَطيعـهْ

أنشد محمد بن يزيد المُبرد لعبد الصمد بن المُعذَّل في الحسن بن إبراهيم:

يا من فَدَتْ نفسَه نفسي ومن جُعِلَت ... لـه وِقـاءً لما يَخشى وأخشـاهُ
أَبلِـغْ أخـاك وإنْ شَـطَّ المَزارُ بـه ... أنيّ وإن كنـتُ لا ألقـاهُ ألقـاهُ[3]
وأنَّ طـرْفِـيَ مـوْصـولٌ بـرؤْيتـهِ ... وإنْ تبـاعَـدَ عـن مثْـوايَ مثـواهُ
الله يعلم أنيّ لسـت أذكـرهُ ... وكيف يـذكـرُهُ مـن ليس ينسـاهُ
عُدُّوا فهل حسنٌ لم يَحْـوِهِ حَسَـنٌ ... وهل فَتًى عَدَلتْ جـدواهُ جَـدواهُ
فالدهرُ يَفنى ولا تَفنَـى مكـارِمُـهُ ... والقَطرُ يُحصَى ولا تُحْصَى عَطايـاهُ

لبعض الولاة في الأصدقاء:

وقيل لبعض الوُلاة: كـم صديقاً لك؟ قال: لا أدري؛ الدنيا مُقبلة عليّ والناس كلهم أصدقائي، وإنما أعرف ذلك إذا أدبرتْ عني.

ولما صارت الخلافة إلى المنصور كتب إليه رجل من إخوانه كتاباً فيه هذه الأبيات:

---

(١) هو أبو تمام. (٢) الضيعة: الفضل والمعروف.

(٣) شط: بعد ونأى.

إنَّـا بِطـانتُـك الأُلى   كنا نُكـابِدُ مـا تُكـابِدْ
ونُـرَى فنُعـرَفُ بـالعَـدا   وةِ والبِعـادِ لِمَـن تُبـاعِـد
ونَبِيـتُ مِـن شَفَـقٍ عليـك رَبيئةً والليلُ هاجِـد [1]

فلما وصلت الأبيات إلى أبي جعفر وقع على كل بيت منها: صدقت. ودعا به فألحقه بإخوانه.

معاتبة الصديق واستبقاء مودّته

قالت الحكماء: مما يجب للصديق على الصديق، الإغضاءُ عن زلاته، والتجاوزُ عن سيآته، فإن رجع وأعتب وإلا عاتبتَه بلا إكثار؛ فإن كثرةَ العتاب مدرجة للقطيعة.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لا تَقطع أخاك على ارتياب، ولا تهجُره دون استعتاب.

وقال أبو الدرداء: مَن لك بأخيك كلِّه؟

وقالوا: أيُّ الرجالِ المهذَّب؟

وقال بشّار العُقيلي:

إذا أنتَ لم تَشرَبْ مراراً على القَذَى   ظَمِئْتَ، وأيُّ الناسِ تصفو مشارِبُهْ [2]

وقالوا: معاتبة الأخ خير من فقده.

وقال الشاعر:

إذا ذهـب العِتـابُ فليس وُدٌّ   ويبقـى الوُدُّ مـا بَقِـيَ العتـابُ

ولمحمد بن أبان:

---

(١) الربيئة: طليعة الجيش الكاشفة المراقبة للعدو.

(٢) القذى: المكروه.

إذا أنا لم أَصْبِرْ على الذَّنب مـن أَخٍ وكنتُ أُجازيـهِ فـأيـن التفـاضُـلُ
إذا مـا دهـاني مفصـلٌ فقطعتـه بقيتُ ومـالي للنهـوض مفـاصـل
ولكنْ أُداويهِ، فـإن صَـحَّ سَـرَّني وإنْ هـو أَعْيـا كـان فيـه تحامُـلُ

وقال الأحنف: مِن حقِّ الصديق أن يتحمل ثلاثا: ظلمَ الغضَب، وظلم الدَّالَّة (١)، وظلم الهفوة.

لعبد الله بن معاوية:
ولسـتُ ببـادي صـاحبي بطيعـةٍ ولستُ بِمُفْشٍ سِرَّهُ حين يغضَـبُ
عليـك بـإخـوانِ الثِّقـاتِ فـإنهمْ قليلٌ فَصِلْهُمْ دون مَن كنتَ تَصْحَبُ
وما الخِدْنُ إلا مَن صفـا لـك وُدُّهُ ومَن هو ذو نُصْحٍ وأنت مُغَيَّبُ (٢)

فضل الصداقة على القرابة

قيل لبزرجمهر: مَن أحب إليك: أخوك أم صديقك؟ فقال: ما أُحِب أخي إلا إذا كان لي صديقا.

وقال أكثم بن صيفي: القرابة تحتاج إلى مودّة، والمودّة لا تحتاج إلى قرابة.

وقال عبد الله بن عباس: القرابة تُقْطَع والمعروف يُكْفَر، وما رأيت كتقاربُ القلوب.

وقالوا: إياكم ومَن تكرهه قلوبُكم، فإن القلوب تُجازِي القلوب. وقال عبد الله بن طاهر الخراساني:
أَميلُ مـع الرِّفـاقِ على ابـنِ أُمِّـي وأحْمِـلُ للصَّـدِيـق على الشقيـقِ
وإن أَلْفَيْتَني مِلِكـا مُطـاعـاً فإنْـك واجِـدي عبْـدَ الصـدِيـقِ
أُفـرِّقُ بين معـروفي ومَنِّـي وأجْمَـعُ بين مـالي والحُقـوق

(١) الدّالّة: الحظوة. (٢) الخدن: الصديق.

وقال حبيب الطائي:

ولقد سَبَرْتُ الناسَ ثم خَبَرْتُهُمْ ... وبَلَوْتُ ما وَضعوا من الأسباب[1]
فإذا القرابةُ لا تُقَرِّبُ قاطِعاً ... وإذا المودّةُ أقربُ الأنسابِ

وللمبرِّد:

ما القُرْبُ إلا لمن صَحَّتْ مودَّتُهُ ... ولم يَخُنْكَ وليس القربُ للنسَبِ
كم من قريبٍ دويِّ الصدرِ مُضطغِنٍ ... ومن بعيدٍ سليمٍ غيرِ مقترِبِ

وقالت الحكماء: رُبَّ أخٍ لك لم تَلِدْه أمُّك.

وقالوا: القريب من قَرُبَ نفعهُ.

وقالوا: رُبَّ بعيدٍ أقربُ من قريب.

وقال آخر:

رُبَّ غريبٍ ناصِحُ الجيبِ ... وابنِ أبٍ مُتَّهَمُ الغيبِ
أخو ثقةٍ يُسَرُّ ببعضِ شأْني ... وإن لم تُدْنِهِ مِنّي قَرَابَهْ
أحَبُّ إليّ من ألفيْ قريبٍ ... تَبيتُ صدورُهم لي مُستَرابَهْ[2]

وقال آخر:

فصِلْ حِبالَ البعيدِ إنْ وَصَلَ الْـ ... ـحبلَ وأَقْصِ القريبَ إن قَطَعَهْ
قد يَجمعُ المالَ غيرُ آكِلِهِ ... ويأكُلُ المالَ غيرُ مَن جَمَعَهْ
فارضَ من الدهرِ ما أتاك به ... مَن قَرَّ عيناً بعيشِه نَفَعَهْ

وقال:

لكل ضيقٍ من الهمومِ سَعَهْ ... والليلُ والصبحُ لا بَقاءَ معَهْ
لا تَحْقِرَنَّ الفقيرَ عَلَّكَ أنْ ... تَرْكَعَ يوماً والدهرُ قد رَفَعَهْ

---

(١) سبرت: كشفت وتعمّقت فهمهم.

(٢) مسترابه: من الريب وهو الشك.

وقال ابن هرمة:

لله دَرُّكَ من فتًى فَجَعتْ به ... يومَ البَقيعِ حوادثُ الأيامِ
هَشٍّ إذا نزلَ الوفودُ ببابِهِ ... سَهْلِ الحِجابِ مؤدَّبِ الخُدَّامِ (١)
وإذا رأيتَ صديقَه وشقيقَه ... لْم تدْرِ أيُّهما أخو الأرحامِ

التحبب إلى الناس

في الحديث المرفوع: أَحَبُّ الناسِ إلى الله أكثرهم تَحَبُّباً إلى الناس.

وفيه أيضاً: إذا أحب اللهُ عبداً حبَّبه إلى الناس.

ومن قولنا في هذا المعنى:

وجهٌ عليه من الحياءِ سكينةٌ ... ومحبَّةٌ تجري مع الأنفاسِ
وإذا أحبَّ اللهُ يوماً عَبْدَهُ ... أَلْقَى عليه محبَّةً للناسِ

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص: إن الله إذا أحب عبداً حَبَّبه إلى خَلْقه. فاعتبِر منزلتَك من الله بمنزلتك من الناس. واعلم أنّ مالك عند الله مثلُ ما للناس عندك.

وقال أبو دُهمان لسعيد بن مسلم، ووقف إلى بابه فحجبه حيناً ثم أذن له، فمثل بين يديه وقال: إن هذا الأمر الذي صار إليك وفي يديك، قد كان في يَدَيْ غيرِك، فأمسى والله حديثا، إنْ خيراً فخير وإنْ شراً فشرّ. فتحبَّبْ إلى عباد الله بحُسْنِ البِشر، وتسهيل الحجاب، ولِينِ الجانب؛ فإنّ حُبَّ عبادِ الله موصولٌ بحبِّ الله، وبُغضَهم موصول ببغض الله؛ لأنهم شُهداء الله على خلقه، ورقباؤه على من اعْوَجَّ عن سبيله.

وقال الجارود: سوء الخلق يُفسد العمل كما يُفسد الخلُّ العسل.

---

(١) هشٍ: أي يبشّ للناس ويستقبلهم بوجهٍ عليه آمارات السرور.

وقيل لمعاوية: مَن أحب الناس إليك؟ قال: مَن كانت له عندي يد صالحة. قيل له: ثم من؟ قال: من كانت لي عنده يد صالحة.

وقال محمد بن يزيد النَّحويّ: أتيت الخليل، فوجدتُه جالساً على طُنفسة صغيرة، فوسَّعَ لي وكرهتُ أن أُضيّق عليه. فانقبضت، فأخذ بِعَضُدي وقرّبني إلى نفسه، وقال: إنه لا يضيق سَمُّ الخِياط[1] بمتحابّين، ولا تَسَعُ الدنيا متباغِضَيْن.

ومن قولنا في هذا المعنى:

صِلْ من هَوِيتَ وإنْ أبْدَى مُعاتَبـةً   فأطيبُ العيشِ وصْلٌ بين إلْفَيْـنِ
واقْطَعْ حبائـلَ خِـدْنٍ لا تُلائمُـهُ   فـرُبَّما ضـاقـتِ الدنيـا بـإثنيْـن

صفة المحبة

لابن طاهر يصف الحب للمأمون:

أبو بكر الورّاق قال: سأل المأمونُ عبدالله بن طاهر ذا الرياستين عن الحب، ما هو؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إذا تقادَحت[2] جواهرُ النفـوس المتقـاطعـة بـوصـل المشاكلة، انبعثتْ منها لمحةُ نورٍ تستضيءُ بها بواطنُ الأعضاء، فتتحرّك لإشراقها طبائعُ الحياة، فيتصوّر من ذلك خلق حاضر للنفس، متصل بخواطرها، يسمى الحب.

وسئل حمّاد الراوية عن الحب، ما هو؟ قال: الحب شجرةٌ أصلها الفكر، وعروقها الذكر، وأغصانها السهَر، وأوراقها الأسقام، وثمرتها المنّية.

وقال معاذ بن سهل: الحب أصعبُ ما رُكِب، وأسكَرُ ما شُرِب، وأفظع ما لُقِيَ، وأحلى ما اشْتُهِي، وأوجَعُ ما بَطَن، وأشْهَى ما عَلَن.

وهو كما قال الشاعر:

---

(١) سمّ الخياط: فتحة الإبرة التي يدخل فيها الخيط.

(٢) تقادحت: تلاقت واحتكّت.

وللحُبِّ آفاتٌ إذا هي صَـرَّحـتْ   تبَدَّتْ علاماتٌ لها غُـرَرٌ صُفْـرُ[1]
فبـاطِنُـهُ سُقْـمٌ وظـاهِـرُهُ جَـوًى   وأَوَّلُـهُ ذِكْـرٌ وآخِـرُهُ فِكْـرُ[2]

وقالوا: لا يكنْ حبُّك كَلفاً[3]، ولا بُغْضُك سرَفا[4].

وقال بشّار العُقيلي:

هـل تَعلَمينَ وراءَ الحبِّ منـزِلـةً   تُدْنِي إليكِ، فـإنّ الحبَّ أَقصـاني

وقال غيره:

أُحِبُّـكِ حُبـاً لـو تُحبِّين مثْلـه   أصابكِ مِن وجْـدٍ عليَّ جُنـونُ
لطيفاً مع الأحشاءِ أمّـا نَهـارُهُ   فـدْمـعٌ وأمـا ليلـهُ فـأَنينُ

مواصلتك لمن كان يواصل أباك

من حديث ابن أبي شيْبة عن النبي ﷺ: لا تَقطع من كان يُواصلُ أباك، تُطفيْ بذلك نورَه؛ فإن وُدَّك ودُّ أبيك.

وقال عبد الله بن مسعود: مِن بِرِّ الحيِّ بالميت ان يصل مَن كان يصل أباه.

وقال أبو بكر: الحب والبغض يُتوارثان.

ومن أمثالهم في هذا المعنى: لا تَقْتَنِ من كلب سوءٍ جَرْواً.

وقال الشاعر:

تَرجو الوليـدَ وقـد أعْيـاك والِدُه   ومـا رجـاؤك بعـد الوالِدِ الولَـدَ!

واجتمع عند ملك من ملوك العرب تميم بن مُرّ وبكر بن وائل؛ فوقعت بينهما منازعة ومفاخرة، فقالا: أيها الملك، أعطنا سَيفين نتجالد بهما بين يديك، حتى تعلم

(١) الغرر: أضواء.   (٢) الجوى: حرقة الحبّ ولوعته.
(٣) الكلف: العشق الشديد.
(٤) السّرف: الإكثار.

أيّنا أَجْلد. فأمر الملك فمنحت لهما سيفان من عودين، فأعطاهما إياهما، فجعلا يضطربان مليّا من النهار، فقال بكر بن وائل:

لو كان سَيْفانا حَديداً قطّعَا

قال تميم بن مُر:

أو نِحتَا من جَنْدَل تصدَّعا

وحال الملك بينهما، فقال تميم بن مر لبكر بن وائل:

أُساجِلُكَ العداوة ما بَقينا

فقال له بكر:

وإن مِتْنا نورِّثْها البَنينا

فيقال إن عداوة بكر وتميم من أجل ذلك إلى اليوم.

عداوة تميم وبكر وشعر ابن حلزة:

أبو زيد: قال أبو عبيدة. بُنِيَ دُكّانٌ بسجستان، بنَتْهُ بكر بن وائل، فهدمتْه تميم؛ ثم بنتْه تميم فهدمته بكر؛ فتواقعوا في ذلك أربعاً وعشرين وقعة، فقال ابن حِلِّزة اليَشْكري في ذلك:

قـرِّبي يـا خلِـيُّ ويحَكِ دِرْعِـي ... لَقِحَـت حَـرْبُنـا وحـربُ تميم (١)
إخـوةٌ قَـرَّشـوا الذُّنـوبَ علينـا ... في حديثٍ من دهرِهِمْ وقـديمِ (٢)
طلبـوا صُلحَنـا ولاَتَ أوانٍ ... إنَّ مـا يَطلبـون فـوْق النُّجـومِ

---

(١) لقحت: أحرقت من لفح النار.

(٢) قرّشوا: جمعوا القروش.

الحسد

قال علي رضي الله عنه: لا راحة لحسود، ولا إخاء لِمَلول. ولا مُحِبَّ لسِّيء الخُلُق.

وقال الحسن: ما رأيت ظالماً أشبهَ بمظلوم من حاسد: نفَسٌ دائم، وحُزْن لازم، وغمٌّ لا يَنْفذ.

وقال النبي ﷺ: كاد الحسد يغلب القدر.

وقال معاوية: كلُّ الناس أقدِر أُرْضيهم، إلا حاسدَ نعمة، فإنه لا يُرضيه إلا زوالها.

وقال الشاعر:

كلُّ العداوةِ قد تُرْجى إماتتُها إلاّ عداوة مَن عاداك من حسدِ

وقال عبد الله بن مسعود: لا تُعادوا نِعَم الله! قيل له ومن يُعادي نعمَ الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله. يقول الله في بعض الكتب: الحسود عدُوٌّ نعمتي، مُتسخِّط لقضائي، غير راضٍ بقسمتي.

ويقال: الحسد أول ذنبٍ عُصيَ الله به في السماء، وأول ذنب عصي الله به في الأرض؛ فأمّا في السماء فَحَسدُ إبليس لآدم، وأمّا في الأرض فَحَسدُ قابيل هابيل.

وقال بعض أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿ربَّنا أَرنا الَّلذيْن أضَلاَّنا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾[1]. إنه أراد بالذي من الجن إبليس، والذي من الإنس قابيل. وذلك أن إبليس أول من سَنّ الكفر، وقابيل أول من سَنّ القتل؛ وإنما كان أصل ذلك كله الحسد.

ولأبي العتاهية:

---

(١) سورة فصّلت الآية ٢٩.

يـا ربِّ إنّ النـاس لا يُنصِفـونني		وكيـف ولـو أنصفْتُهـم ظلمـوني
وإن كان لِي شيءٌ تصدَّوْا لأخـذهِ		وإن جئتُ أبغي سَيْبَهم منَعوني[1]
وإن نالهمْ بَذْلي فلا شكر عنـدَهـمْ		وإنْ أنـا لم أبـذُلْ لهم شتَمـوني
وإنْ طـرَقتْني نِقْمـةٌ فـرحـوا بها		وإنْ صَحبتْني نِعْمـةٌ حسـدوني
سـأمنـع قلبي أنْ يَحِـنَّ إليهـمُ		وأحجُبُ عنهم نـاظِـري وجُفـوني

قيس بن زهير وغطفان:

أبو عبيدة مَعمر بن المُثنَّى قال: مرّ قيس بن زهير ببلاد غطفان، فرأى ثروة وعددا، فكره ذلك، فقيل له: أيسوءك ما يُسرُّ الناس؟ قال: إنك لا تدري أنّ مع النعمة والثروة التحاسد والتخاذل، وأن مع القلة التحاشد والتناصر.

قال: وكان يقال: ما أثرى قومٌ قطُّ إلا تحاسدوا وتجادلوا.

وقال بعض الحكماء: ألزَمُ الناس كآبة أربعة: رجل حَديد، ورجل حسود، وخليط الأدباء وهو غير أديب، وحكيم محقَّر لدى الأقوام.

علي بن بِشر المرْوَزي قال: كتب إليّ ابن المبارك هذه الأبيات:
كلُّ العداوةِ قد تُـرْجـى إمـاتَتُهـا		إلا عداوةَ مَن عـاداك مِـن حسـدِ
فإنْ في القلبِ منها عُقدةً عُقِـدتْ		وليس يفتَحُهـا راقٍ إلى الأبـد[2]
إلاّ الإله فـإنْ يـرَحَـم تُحَـلَّ بـه		وإنْ أباهُ فلا تـرْجـوه مـن أحـدِ

سئل بعض الحكماء: أي أعدائك لا تحبّ أن يعود لك صديقا؟ قال: الحاسد الذي لا يرده إلى مودتي إلا زوال نعمتي.

وقال سليمان التَّيمي: الحسد يُضعف اليقين، ويُسهر العين، ويُكثر الهمّ.
الأحنف بن قيس، صلى على حارثة بن قُدامة السَّعدي، فقال: رحمك الله، كنت

---

(١) السَّيب: العطاء.
(٢) راقٍ: الذي يضع الرّقية.

لا تَحسُد غنيا، ولا تَحقِر فقيرا.

وكان يقال: لا يوجد الحر حريصا، ولا الكريم حسودا.

وقال بعض الحكماء: أجْهَدُ البلاء أن تَظْهر الخَلّة، وتطول المدة، وتعجزَ الحيلة، ثم لا تَعْدَم صديقاً مولّياً، وابن عم شامتاً، وجاراً حاسدا، ووليا قد تحوّل عدوا، وزوجة مُختلعة[1]، وجارية مستبيعة[2]، وعبدا يَحقرك وولدا ينتهرك؛ فانظر أين موضع جَهدك في الهرب.

لرجل من قريش:

حَسدوا النِّعمة لمّا ظَهَرت ... فرموْها بأباطيلِ الكَلِمْ
وإذا ما اللهُ أسْدى نِعمةً ... لم يَضِرْها قوْل أَعْداءِ النِّعم

وقيل: إذا سرّك أن تَسلم من الحاسد فعَمِّ عليه أمرَك.

وكانت عائشة رضي الله عنها تتمثّل بهذين البيتين:

إذا ما الدهرُ جَرَّ على أُناسٍ ... حوادِثَهُ أناخَ بآخرينا
فقل للشامِتين بنا أفيقوا ... سيَلقَى الشامِتُون كما لقينا

ولبعضهم:

إياك والحسدَ الذي هو آفةٌ ... فتوقَّهُ وتَوَقَّ غِرَّةَ مَنْ حسدْ[3]
إنّ الحسود إذا أراك مَودَّةً ... بالقولِ فهْو لك العدُوُّ المجتهِدْ

إبليس ونوح:

الليث بن سعد قال: بلغني أن إبليس لقى نوحاً ﷺ، فقال له إبليس: اتق الحسدَ والشحّ، فإني حسدتُ آدم فخرجت من الجنّة، وشَحّ آدم على شجرة واحدة

(١) مختلعة: تطلب الخلع والطلاق.

(٢) مستبيعة: تطلب أن تباع.

(٣) توقه: اجتنبه واحترس منه والغرّة: الغفلة.

مُنع منها حتى خرج من الجنة.

وقال الحسن: أصول الشر وفروعه ستة: فالأصول الثلاثة: الحسد، والحرص، وحُب الدنيا، والفروع كذلك: حُب الرياسة، وحُب الثناء، وحب الفخر.

وقال الحسن: يحسد أحدهم أخاه حتى يقع في سريرته وما يعرف علانيته، ويلومه على ما لا يعلمه منه، ويتعلم منه في الصداقة ما يعيِّره به إذا كانت العداوة؛ واللهِ ما أرى هذا بمُسلم.

ابن أبي الدُّنيا قال: بلغني عن عمر بن ذَرّ أنه قال: اللهم من أرادنا بشر فاكفِناه بأيِّ حُكْمَيك شئت، إما بتوبة وإما براحة.

قال بان عباس: ما حسدتُ أحداً ما حسدتُ على هاتيْن الكلمتين.

وقال ابن عباس: لا تحقرنّ كلمة الحكمة أن تسمعها من الفاجر؛ فإنما مثله كما قال الأوّل: رُبَّ رَميةٍ من غير رام.

وقال بعض الحكماء: ما أمحقَ[1] للإيمان ولا أهتكَ للستر من الحسد، وذلك أنّ الحاسد مُعاند لحكم الله، باغٍ على عباده، عاتٍ على ربه، يعتدّ نِعَم الله نِقَما، ومَزيدَهُ غِيَراً، وعدْل قضائه حَيْفا، للناس حال وله حال، ليس يهدأ لَيله، ولا ينام جشعهُ، ولا ينفعه عيشهُ، محتقر لنعم الله عليه، متسخِّط ما جرت به أقدارُه، لا يبرُد غليله، ولا تؤمَن غوائله[2]، إن سالَمْته وترَك[3]، وإن واصلتَه قَطَعك، وإن صرَمْته[4] سبقك.

ذُكر حاسد عند بعض الحكماء فقال: يا عجباً لرجل أسلكه الشيطان مهاوي الضلالة، وأورده قُحَم الهَلكة[5]، فصار لنعم الله تعالى بالمِرصاد، إن أنالها مَن أحبّ

(١) أمحق: أبلى.

(٢) الغوائل: دواهيه وأحداثه. (٣) وترك: أصابك بمكروه.

(٤) صرمت: جهرت وقطعت.

(٥) قحم الهلكة: أي أدخله فيها.

من عباده، أشْعرَ قَلبه الأسف على ما لم يُقْدَر له، وأغاره [1] الكلفُ بما لم يكن لينالَه.

أنشدني فتى بالرملة:

اصْبِرْ على حسدِ الحَسودِ ... فإنَّ صَبرَكَ قاتِلهْ
كالنارِ تأكُلُ بعضَها ... إن لم تجِدْ ما تأكُلُهْ

وقال عبد الملك بن مروان للحجاج: إنه ليس من أحد إلا وهو يعرف عيبَ نفسِه، فصِف لي عيوبك. قال: أعفِني يا أمير المؤمنين. قال: لستُ أفعل. قال: أنا لحوح، لَدود، حَقود، حسود. قال: ما في إبليس شَرٌّ من هذا.

وقال المنصور لسليمان بن معاوية المُهلَّبي: ما أسرع حسَدَ الناس إلى قومك! فقال: يا أمير المؤمنين:

إنّ العَرانِينَ تَلْقاها مُحسَّدَةً ... ولا تَرى لِلئامِ الناسِ حُسَّادَا [2]

وأنشد أبو موسى لنصر بن سيار:

إنيّ نشأْتُ وحُسَّادي ذَوُو عددٍ ... ياذا المعارج لا تنقُصْ لهم عددَا [3]
إنْ تَحسُدوني على حُسنِ البَلاءِ بهم ... فمِثلُ حُسنِ بَلائي جَرَّ لي حسَدَا

وقال آخر:

إنْ يَحسُدوني فإنيّ غيرُ لائمِهم ... قبلي من الناسِ أهلُ الفضلِ قد حُسِدُوا
فدامَ لِي ولهم ما بِي وما بهمُ ... ومات أكثرُنا غيظاً بما يَجِدُ

وقال آخر:

إنّ الغرابَ وكان يمشي مِشيةً ... فيما مضى من سالِفِ الأحوالِ
حسَد القَطاةَ فرامَ يمشي مَشْيَها ... فأصابه ضربٌ من العُقّالِ
فأضلَّ مشيته وأخطأ مَشْيَها ... فلذاك كنَّوه أبا مِرْقالِ

---

(١) أغارهُ: من الغيرة.

(٢) العرانين: السادة الأشراف.

(٣) ذو المعارج: الله سبحانه وتعالى حيث تعرج إليه الملائكة.

وقال حبيب الطائي:

وإذا أراد اللّهُ نشْـــرَ فضيلـــةٍ ... طُـوِيـتْ أتـاح لها لِسـانَ حَسـودِ
لـولا آشتعـالُ النـارِ فيما جـاورتْ ... ما كان يُعرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ (١)

وقال محمد بن مناذر:

يـا أيُّهـا العـائبي ومـا بِيَ مِـنْ ... عيـبٍ ألا تَـرْعَـوِي وتَـزْدجِـرُ
هـل لـك عنـدي وِتـرٌ فتطلُبَـهُ ... أم أنــت ممّا أتيــتَ مُعتــذِرُ (٢)
إن يـكُ قسْــمُ الإلٰــهِ فَضّلَني ... وأنـت صَلـدٌ مـا فيـكَ مُعتصَرُ
فـالحمدُ والشكـرُ والثنـاءُ لـهُ ... ولِلحســودِ الترابُ والحجَــرُ
فما الذي يَجتنِـــي جليُســـكَ أو ... يبــدو لــه منـكَ حين يَختبِـرُ
اقـرأْ لنـا ســورةً تُـذكِّـرُنـا ... فــإنّ خيرَ المواعِــظِ السُّــوَرُ
أَوْصِفْ لنـا الحكـمَ في فـرائضِنـا ... مـا تستحِـقُّ الانثـى أو الذّكَـرُ
أو آرْوِ فِقْهـاً تحيـا القلـوبُ بـهِ ... جـاءَ بـه عـن نبيِّنـا الأثَـرُ
أو مـن أحـاديـثِ جـاهِليّتِنـا ... فــإنها حكمــةٌ ومُخْتَبَـــرُ
أو آرْوِ عــن فـارسٍ لنـا مثلاً ... فـإنّ أمثـالَهـا لنــا عِبَــرُ
فـإن تكـن قـد جَهِلـتَ ذاك وذا ... ففيــك للنــاظـريــنَ معتبَــرُ
فغنِّ صـوتـاً تُشْجَـى القلـوبُ بـه ... وبعـضُ مـا قـد أتيـتَ يُغتفَـرُ (٣)

بصري يحسده قومه:

الأصمعي قال: كان رجل من أهل البصرة بَذِيّاً شِرِّيراً، يؤذي جيرانه ويشتُم أعراضهم؛ فأتاه رجل فوعظه فقال له: ما بال جيرانِك يشكونك؟ قال: إنهم يحسدونني! قال له: على أيِّ شيء يحسدونك؟ قال: على الصَّلْب! قال: وكيف ذاك؟ قال أقبِل معي. فأقبل معه إلى جيرانه، فقعد مُتحازِناً؛ فقالوا: مالَك! قال: طرق

(١) العرف: الرائحة. (٢) الوتر: الثأر.
(٣) تشجي: من الشجو وهو الحنين ورقته.

الليلةَ كتابُ معاوية أن أُصْلَبَ أنا ومالك بن المنذر، وفلان، وفلان. فذكر رجالاً من أشراف أهل البصرة؛ فوثبوا عليه وقالوا: يا عدوّ الله! أنت تُصْلَبُ مع هؤلاء ولا كرامة لك؟ فالتفت إلى الرجل فقال: أما تراهم قد حسدوني على الصَّلْب؟ فكيف لو كان خيراً.

وقيل لأبي عاصم النبيل: إن يحي بن سعيد يحسُدك وربما قَرَّضك[1]. فأنشأ يقول:

فلستَ بحَيٍّ ولا ميِّتٍ ... إذا لم تُعادَ ولم تُحسَدِ

محاسدة الأقارب

كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: مُرْ ذوي القَرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا.

وقال أكثم بن صيفي: تباعدوا في الديار تقاربوا في المودّة.

وقالوا: أزهدُ الناس في عالِمٍ أهلُه.

فرج بن سلام قال: وقف أُمية بن أبي الأسكر على ابن عم له فقال:

نشدتُكَ بالبيتِ الذي طاف حولَهُ ... رجالٌ بَنَوْهُ من لُؤيِّ بنِ غالبِ
فإنك قد جَرَّبْتَني فوجَدْتَني ... أُعينُكَ في الجلّى وأكفيكَ جانِبي[2]
وإن دَبَّ من قومٍ إليكَ عداوةً ... عقارِبُهم دَبَّت إليهم عقارِبي

قال: نعم، كذلك أنت. قال: فما بال مِئبرك[3] لا يزال إليّ دسيساً؟ قال: لا أعود! قال: قد رضيتُ وعفا الله عما سلف.

وقال يحي بن سعيد: من أراد أن يَبين عملهُ ويظهر عِلْمه، فليجلس في غير مجلس رهطه.

---

(١) قرّضك: ذمّك.

(٢) الجلّى: الأمر العظيم.

(٣) مئبرك: نميمتك وفسادك.

وقالوا: الأقارب هم العقارب.

وقيل لعطاء بن مُصعب: كيف غلبت على البرامكة وكان عندهم من هو آدب منك؟ قال: كنت بعيد الدار منهم، غريب الآسم، عظيم الكِبر، صغير الجِرم، كثير الالتواء، فقرّبني إليهم تباعُدي منهم، ورغّبهم فيّ رغبتي عنهم، وليس للقرباء ظرافة الغرباء.

وقال رجل لخالد بن صفوان: إني أُحبك. قال: وما يَمنعك من ذلك ولست لك بجارٍ ولا أخ ولا ابن عم؟ يريد أنّ الحسد موكّل بالأدنى فالأدنى.

الشيباني قال: خرج أبو العباس أمير المؤمنين متنزِّهاً بالأنبار، فأمعن في نزهته وانتبذ من أصحابه، فوافى خِباءً لأعرابي؛ فقال له الأعرابي: ممن الرجل؟ قال: من كنانة. قال: من أيِّ كنانة؟ قال: من أبغض كنانة إلى كنانة. قال: فأنت إذاً من قريش؟ قال: نعم. قال: فمِن أيّ قريش؟ قال: من أبغض قريشٍ إلى قريش. قال: فأنت إذاً من ولد عبد المطلب؟ قال: نعم. قال: فمن أي ولد عبد المطلب أنت؟ قال: من أبغض ولد عبد المطلب إلى ولد عبد المطلب. قال: فأنت إذاً أمير المؤمنين! السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فاستحسن ما رأى منه وأمر له بجائزة.

وقال ذو الإصبع العدْواني:

لِيَ ابن عمٍ على ما كان من خُلُقٍ ... مُحاسِدٌ لِيَ أَقلِيه ويَقليني (١)
أَزْرَى بنا أنّنا شالتْ نَعامتُنا ... فخالَني دونَه أو خِلْتُه دوني (٢)
يا عمرو إلا تَدع شتْمي ومَنقصتي ... أَضرِبْك حتى تقول الهامةُ اسْقوني (٣)
ماذا عليَّ وإن كنتم ذوي رَحِمي ... ألاَّ أُحِبَّكم إنْ لم تُحبوني
لا أسألُ الناس عما في ضمائرِهم ... ما في ضميري لهم مِن ذاك يَكفيني

(١) القلى: الكره. (٢) أزرى: أعاب. وشالت نعامتنا: كناية عن الفرقة.
(٣) الهامة: طائر يخرج من رأس القتيل كما تزعم العرب وينادي اسقوني اسقوني، اي يطالب بالثأر.

وقال آخر:

مَهلاً بني عمِّنا، مهلاً مَوالينا ... لا تَنبُشوا بينَنا ما كان مدفونا
لا تطمعوا أَنْ تُهينونا ونُكرِمَكم ... وأن نَكفَّ الأذى عنكم وتُؤْذونا
الله يَعلم أنَّا لا نُحبُّكُم ... ولا نلومُكُم إنْ لم تُحبُّونا

وقال آخر:

ولقد سَبَرْتُ الناس ثم خَبَرْتُهم ... ووصفت ما وصفوا من الأسباب
فإذا القرابة لا تُقرِّب قاطعاً ... وإذا المودة أقربُ الأنساب

المشاكلة ومعرفة الرجل لصاحبه

قالوا: أقرب القرابة المشاكلة. وقالوا: الصاحب المناسب.

وقال حبيب:

وقلت أخي، قالوا أخٌ من قرابةٍ؟ ... فقلت لهم إنّ الشكول أقارب [١]

وقال أيضاً:

ذو الودِّ مني وذو القُرْبى بمنزلة ... وإخوتي أُسوةٌ عندي وإخواني
عصابةٌ جاورتْ آدابُهم أدبي ... فهم وإن فُرِّقوا في الأرض جيراني

وقال أيضاً:

إن نَفتَرق نسباً يُؤَلِّفْ بيننا ... أدبٌ أقمناه مُقامَ الوالدِ
أو نختلف فالوصلُ منا ماؤُه ... عذْبٌ تَحدَّرَ من غَمام واحدِ

وقال آخر:

إنَّ النفوس لأجنادٌ مُجندةٌ ... بالإذْن من ربِّنا تجري وتختلف [٢]
فما تعارفَ منها فهْو مُؤْتلِفٌ ... وما تناكر منها فهْو مختلف

---

(١) الشكول: جمع شكل، وهو ما يوافقك ويصلح لك.
(٢) تختلف: تتردّد.

وقال رسول الله ﷺ: «الأنفس أجنادٌ مجندة، وإنها لتتشامُّ في الهوى كما تتشامُّ الخيل؛ فما تعارف منها آئتلف، وما تناكر منها آختلف».

وقال ﷺ: «الصاحب رقعةٌ في الثوب، فلينظر الإنسان بِمَ يرقع ثوبه.
وقال عليه الصلاة والسلام: آمتحنوا الناس بإخوانهم».

وقال الشاعر:

فاعتبروا الأرض بأشباهها ... واعتبروا الصاحِبَ بالصاحِب

وقالوا: كل إلف إلى إلفه ينزِع.

وقال الشاعر:

والإلْفُ يَنزِعُ نحو الآلفين كما ... طيْرُ السماءِ على أُلاَّفِها تَقَعُ

قال امرؤ القيس:

أجارتَنا إنا غريبان ها هنا ... وكلٌّ غريبٍ للغريبِ نَسِيبُ

وقال آخر:

إذا كنت في قوْمٍ فصاحبْ خيارَهم ... ولا تَصحبِ الأرْدَى فتَرْدى مع الرَّدِي
عن المرءِ لا تَسأَل وسل عن قرينه ... فكلُّ قرينٍ بالمُقارِن يَقتدي

وقال آخر:

اصحبْ ذوي الفضل وأهلَ الدين ... فالمرءُ منسوبٌ إلى القرين

سليمان عليه السلام وحديث النسر والقصر:

أيوب عن سُليمان قال: حدثنا أبان بن عيسى عن أبيه عن ابن القاسم، قال: بينما سليمان بن داود عليهما السلام تحمله الريح إذ مر بنَسر واقع على قصر، فقال له: كم لك مُذْ وقعت ها هنا؟ قال: سبعمائة سنة. قال: فمن بَنى هذا القصر؟ قال: لا

أدري، هكذا وجدته. ثم نظر فإذا فيه كتاب منقور بأبيات من شعر، وهي[١]:

خَرجنا من قرى اَصْطَخْر إلى القصر فقِلْناهُ
فلا تَصْحَب أخا السَّوء وإيَّاك وإيَّاهُ
فكم من جاهلٍ أَرْدى حَكيماً حين آخاهُ
يُقاسُ المرءُ بالمرءِ إذا ما المرءُ ما شاهُ
وفي الناس من الناس مقاييسٌ وأشباهُ
وفي العيْن غِنًى للعين أن تَنطِقَ أفواهُ

السعاية والبغي

قال الله تعالى ذكره: ﴿يأيها الناس إنما بَغْيُكُمْ على أنفسكم﴾[٢].
وقال عز وجل: ﴿... ثم بغِيَ عليه لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ﴾[٣].

وقال الشاعر:

فلا سبقٌ إلى أحدٍ ببغْيٍ فإنَّ البَغْيَ مَصرعُه وخيم

وقال العتَابي:

بَغيتَ فلمْ تَقع إلاّ صريعاً كذاك البغيُ يَصرَع كل باغِ

للمأمون يوصي بعض ولده:

وقال المأمون يوماً لبعض ولده: إياك أن تصغَى لاَستماع قول السُّعاة، فإنه ما سَعَى رجل برجل إلا آنحط من قدره عندي ما لا يتلافاه أبداً.

ووقّع في رُقعةِ ساعٍ: سننظرُ أصدَقْتَ أم كنتَ من الكاذبين.

---

(١) وردت بعض هذه الآبيات في ثلاثة مواضع من عيون الأخبار منسوبة، لأبي العتاهية، ولم نجدها في ديوانه.

(٢) سورة يونس الآية ٢٣.

(٣) سورة الحج الآية ٦٠.

ووقّع في رقعة رجل سعَى إليه ببعض عماله: قد سمعنا ما ذكره الله عز وجل في كتابه، فانصرِفْ رحِمك الله.

فكان إذا ذُكر عنده السعاة قال: ما ظَنُّكم بقوم يلعنهم الله على الصدق.

وسعى رجل إلى بلاد بن أبي بُردة، فقال له: انصرف حتى أكشف عما ذكرتَ. ثم كشف عن ذلك فإذا هو لغير رِشْدة؛ فقال: أنا أبو عمرو، ما كذَبْت ولا كُذِبت.

للنبي ﷺ:

حدّثني أبي عن جدي أنّ رسول الله ﷺ قال: «الساعي لغير رِشْدة»[1].

عبد الملك ورجل سعى إليه:

وسأل رجل عبد الملك الخَلوة، فقال لأصحابه: إذا شئتم فقوموا. فلما تهيَّأ الرجل للكلام قال له: إياك أن تمدحني؛ فأنا أَعْلَمُ بنفسي منك، أو تكذِبَني، فإنه لا رأيَ لكَذُوب؛ أو تسعى إليّ بأحد. وإن شئتَ أقلْتُك. قال: أقِلْني.

ودخل رجل على الوليد بن عبد الملك، وهو والي دمشق لأبيه، فقال: للأمير عندي نصيحة. فقال: إن كانت لنا فاذكرها، وإن كانت لغيرنا فلا حاجة لنا فيها. قال: جارٌ لي عصَى وفَرَّ من بَعْثِه[2]. قال: أما أنت فتُخْبِر أنك جارُ سُوء؛ فإن شئت أرسلْنا معك، فإن كنت صادقاً أقصيناك، وإن كنت كاذباً عاقبْناك، وإن شئت تاركناك، قال: تارِكْني.

من سير العجم:

وفي سِيَر العجم: أنّ رجلاً وَشَى برجل إلى الإسكندر، فقال: أتحب أن تقبل منه عليك ومنكَ عليه؟ قال: لا. قال: فكف عن الشرَّ يكفّ عنك الشر.

---

(١) لغير رشده: لغير أبيه الذي ينسب إليه.

(٢) بعثه: حيث أرسل.

وقال الشاعر:

إذا الواشي بَغَى يوماً صديقاً ... فلا تَدَعِ الصَّديقَ لقولِ واشِ

وقال ذو الرياستين: قبول النميمة شرٌّ من النميمة؛ لأن النميمة دلالة والقبول إجازة، وليس مَن دَلّ على شيء كَمنْ قَبِله وأجازه.

ذُكِر السُّعاة عند المأمون فقال: لو لم يكن في عيبهم إلا أنهم أصدقَ ما يكونون أبغَضُ ما يكونون إلى الله تعالى لكفاهم.

وعاتب مصعب بن الزبير الأحنف في شيء، فأنكره، فقال: أخبرَني الثقة. قال: كلا، إنّ الثقة لا يُبَلِّغ.

وقد جعل الله السامع شريك القائل فقال: ﴿سَمَّاعونَ للكذبِ أَكَّالونَ للسُّحْتِ﴾ (١).

وقيل: حَسْبُك من شَرّ سِمَاعُه.

وقال الشاعر:

لَعَمْرِكَ ما سَبَّ الأميرَ عدُوُّه ... ولكنّما سَبَّ الأميرَ المُبَلِّغُ

وقال آخر:

لا تَقبَلَنَّ نَميمةً بُلّغتَها ... وتَحَفَّظَنَّ من الذي أَنْباكَها

لا تنقُشَنَّ برِجلِ غيرِكَ شوْكةً ... فتَقِي برِجْلِكَ رِجْلَ مَنْ قد شاكَها (٢)

إنّ الذي أنْباك عنه نَميمةً ... سيدبُّ عنك بِمِثلِها قد حاكَها

وقال دِعبل:

وقد قطع الواشونَ ما كان بينَنا ... ونحن إلى أن يوصِلَ الحبلُ أحوجُ

رأَوْا عوْرةً فاستقبَلوها بأَلْبِهم ... فلم يَنهَهم حِلم ولم يتحرَّجوا (٣)

وكانوا أُناساً كنتُ آمَنُ غَيبَهم ... فراحوا على ما لا نُحِبُّ فأدْلَجُوا (٤)

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٢.

(٢) شاكها: أي شكّها وفعلها.

(٣) ألبهم جمعهم. ولم يتحرّجوا: أي لم يجدوا حرجاً في فعلهم. (٤) الإدلاج: سير الليل كلّه أو في آخره.

قال النبي ﷺ: إذا قلت في الرجل ما فيه فقد اغْتَبْتَهُ، وإذا قلتَ ما ليس فيه فقد بَهَتَّه[1].

ومرّ محمد بن سيرين بقوم، فقام إليه رجل منهم فقال: أبا بكر، إنا قد نلنا منك فحلِّلنا فقال: إني لا أُحِلُّ ما حَرَّم الله عليك، فأما ما كان إليّ فهو لك.

وكان رقبة بن مَصْقلة جالساً مع أصحابه، فذكروا رجلاً بشيء، فاطلع ذلك الرجل، فقال له بعض أصحابه: ألا أُخبره بما قلنا فيه لئلا تكون غيبة؟ قال: أخْبِره حتى تكون نميمة.

اغتاب رجل رجلاً عند قتيبة بن مُسلم، فقال له قتيبة: أمسِك عليك أيها الرجل، فوالله لقد تَلمَّظْت[2] بمضغةٍ طالما لفَظها الكِرام.

محمد بن مُسلم الطائفي قال: جاء رجل إلى آبن سيرين فقال له: بلغني أنك نِلتَ مني. قال: نفسي أعزُّ عليَّ من ذلك.

وقال رجلٌ لبكر بن محمد بن عِصْمة. بلغني أنك تقع فيّ! قال أنت إذاً عليَّ أكرمُ من نفسي.

ووقع رجل في طلحة والزبير عند سعد بن أبي وقّاص، فقال له: اسكت، فإنّ الذي بيننا لم يَبْلُغْ دينَنا.

وعاب رجل رجلاً عند بعض الأشراف، فقال له: قد استدللتُ على كثرة عُيوبك بما تُكثر من عيوب الناس؛ لأنّ طالب العيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها.. أما سمعتَ قول الشاعر:

لا تَهتِكَنْ مِنْ مَساوي النَّاسِ ما سَتَرُوا ... فَيَهْتِكَ اللهُ سِتْراً مِنْ مَساوِيكا
واذْكُر محاسنَ ما فيهِمْ إذا ذُكِرُوا ... ولا تعِبْ أحداً مِنْهُم بما فيكا

وقال آخر:

---

(١) بهته: رماه بالباطل. (٢) تلمّظت: تذوّقت.

لا تَنْهَ عن خُلقٍ وتأتِيَ مِثلهُ   عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظِيمُ
إبْدَأْ بنفسِكَ فانْهَهَا عن غَيِّها   فإذا انْتَهت عنْهُ فأنْتَ حكِيمُ

وقال محمد بن السماك: تَجنَّبْ القول في أخيك لخلَّتين: أمّا واحدة فلعلك تعيبه بشيء هو فيك، وأما الأخرى فإن يكن الله عافاك مما ابتلاه كان شُكرك الله فيه على العافية تعييراً لأخيك على البلاء.

وقيل لبعض الحكماء: فلان يَعيبك! قال: إنما يَقرض الدرهمَ الوازن.

وقيل لبزرجمهر: هل تعلم أحداً لا عيبَ فيه؟ قال: إن الذي لا عيب فيه لا يموت.

وقيل لعمرو بن عُبيد: لقد وقع فيك أيوبُ السّختياني حتى رحمناك. قال: إياه فارحموا.

وقال ابن عباس: اذكر أخاك إذا غاب عنك بما تُحب أن يَذكرك به، ودَعْ منه ما تحب أن يَدَعَ منك.

النبي ﷺ وابن الحضرمي:

وقدم العلاء بن الحضرميّ على النبي ﷺ، فقال له: هل تَروي من الشعر شيئاً؟ قال: نعم. قال: فأنشدْني. فأنشدَه:

تَحبَّبْ ذوي الأضغَانِ تسْبِ نفوسَهُمْ   تَحبُّبكَ القُرْبَى فقَدْ تُرقعُ النَّعلْ
وإن دحَسوا بالكُرْه فاعفُ تكَرُّماً   وإن غيّبُوا عنْكَ الحديثَ فلا تسَلْ[1]
فإنَّ الَّذي يُؤذيك مِنه سماعُهُ   وإن الَّذِي قالوا وراءَك لم يُقَلْ

فقال النبي عليه السلام: إن من الشعر لحكمة.

وقال الحسن البصريّ: لا غيبة في ثلاثة: فاسق مجاهر بالفسق، وإمامٍ جائر وصاحبِ بِدْعة لم يَدع بدعتَه.

---

(١) دحسوا: أفسدوا.

وكتب الكسائيّ إلى الرقاشيّ:

تـركـتَ المسْجـدَ الجامِـعَ والتَّـركُ لـهُ ريَبـهْ
فلا نـافِلَـة تقْضِـي ولا تقْضِـي لمكْتُـوبَـهْ
وأَخْبـارُكَ تـأْتينَـا على الأعلامِ مَنْصُـوبَـهْ
فـإن زِدْت مِـنَ الغيبـةِ زِدْنـاكَ مِـنَ الغِيبـهْ

مداراة أهل الشر

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «شرُّ الناس من اتَّقاه الناسُ لِشرِّه».

وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا لقيتَ اللئيم فخالفْه، وإذا لقيتَ الكريمَ فخالطه».

وقال أبو الدَّرداء: إنا لنكشِر[1] في وجوه قوم وإن قلوبَنا لتلْعَنُهُمْ.

وسئل شبيب بن شيبة عن خالد بن صفوان، فقال: ليس له صديق في السرّ ولا عدو في العلانية.

وقال الأحنف. رُبَّ رجُل لا تغيبُ فوائدُه وإن غاب، وآخرَ لا يَسلم منه جليسُه وإن احترس.

وقال كثير بن هَرَاسة: إن من الناس ناساً ينْقصُونك إذا زدْتَهم، وتهُون عندهم إذا خاصصتَهم، ليس لرضاهم موضع تعرفه، ولا لسخطهم موضع تحذره. فإذا عرفت أولئك بأعيانهم فابذُل لهم موضع المودّة، واَحرمهم موضعَ الخاصة، يكُن ما بذلتَ لهم من المودَّة حائلاً دون شرِّهم، وما حَرَمْتهم من الخاصة قاطعاً لحرمتهم.

وأنشد العتبي:

لي صدِيـقٌ يَـرى حُقـوقِـي عليْـهِ نافلاَتٍ وحقَّه الدَّهْـرَ فـرْضـا[2]
لـو قطعْـتُ البلاد طـولاً إليْـهِ ثمَّ مِنْ بعدِ طولِها سِرْتُ عـرْضَـا
لـرَأى مـا فعَلْـتُ غيْـرَ كثِيرٍ واشتَهى أَن يَزيدَ في الأرض أَرْضَـا

---

(١) نكشر: أي نبتسم لهم.

(٢) النافل: ما زاد عن الواجب والفرض.

وفي هذه الطبقة من الناس يقول دِعْبل الخُزاعي:

اسْقِهُم السّمَّ إن ظفِرْت بِهِمْ   وامْزُجْ لهم مِن لسانِك العسَلا

كتب سهل بن هارون إلى موسى بن عمران في أبي الهذيل العلاف.

إنّ الضمير إذا سألتُك حاجةً   لأبي الهُذَيْلِ خلاف ما أُبْدِي
فألِنْ له كنفاً ليحسُن ظنه   في غير منفعة ولا رفْد
حَتَّى إذا طالتْ شقاوةُ جدِّهِ   وعَناؤه فاَجْبَهْهُ بالرَّدِّ

وقال صالح بن عبد القُدوس:

تَجنبْ صديقَ السُّوءِ واصْرِمْ حِبالَه   وإن لم تجِدْ عنْهُ مَحيصاً فداره[1]
ومن يطلُبِ المعْروف مِن غيْرِ أهْلِه   يَجِدْهُ وراءَ البحرِ أو في قرارِهِ
ولله في عرْضِ السّمواتِ جنَّة   ولكنّها محفوفةٌ بالمَكارِه

وقال آخر:

بلاءٌ ليسَ يُشْبِهُهُ بلاءُ   عداوَةُ غيْر ذي حسَبٍ ودينِ
يُبيحُك منه عِرْضاً لم يصُنْهُ   ليَرْتع منْكَ في عِرْضٍ مصونِ

عُرض على أبي مُسلم صاحب الدعوة فرسٌ جواد، فقال لقُوّاده: لماذا يصلحُ مثل هذا الفرس؟ قالوا: إنا نغزو عليه العدو. قال: لا، ولكن يركبه الرجل فيهرب عليه من جار السَّوء.

ذمّ الزمان

قالت الحكماء: جُبِل الناس على ذمِّ زمانهم وقلة الرضا عن أهل عصرهم.

فمنه قولهم: رضا الناس غاية لا تدرك.

وقولهم: لا سبيل إلى السلام من ألسنة العامة.

وقولهم: الناس يُعيِّرون ولا يغفرون، واللهُ يغفر ولا يُعَيِّر.

---

(١) اصرم: اقطع.

وفي الحديث: «لو أن المؤمن كالقِدح لقال الناس ليس ولولا...!».

وقال الشاعر:

مَن لابَس الناسَ لم يَسْلَمْ من الناسِ　　وضَرَّسوه بأنيابٍ وأضراسِ (١)

لعائشة في لبيد:

هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت: رحم الله لَبيدا، كان يقول:

ذهب الذين يُعاشُ في أكنافِهم　　وبَقِيتُ خَلَفٍ كجِلْدِ الأجربِ

فكيف لو أبصر زماننا هذا؟

قال عروة: ونحن نقول: رحم الله عائشة، فكيف لو أدركتْ زمانَنا هذا.

وكان بعضهم يقول: ذهب الناس وبقي النسناس(٢)، فكيف لو أدرك زماننا هذا؟

دخل مسلم بن يزيد بن وهب على عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك: أيّ زمان أدركتَ أفْضَل، وأيّ الملوك أكمل؟ قال: أما الملوك فلم أر إلا حامداً أو ذامّاً، وأما الزمان فيرفع أقواماً ويضع أقواما، وكلهم يَذُمُّ زمانَه، لأنه يُبْلِي جديدَهم، ويُفرِّق عديدَهم، ويُهْرِمُ صغيرَهم، ويُهلك كبيرَهم.

وقال الشاعر:

أيا دهرُ إن كنتَ عادْيتَنا　　فما قد صنَعتَ بنا ما كَفاكا

جعلتَ الشِّرارَ علينا خِياراً　　ووَلَّيتنا بعدَ وجهٍ قَفاكا

وقال آخر:

إذا كان الزمانُ زمانَ تَيْمٍ　　وعُكْلٍ فالسلامُ على الزمانِ

زمانٌ صار فيه الصدرُ عَجْزاً　　وصار الزُّجُّ قُدّامَ السِّنانِ (٣)

(١) لابس الناس: خالطهم.　　(٢) النسناس: قردٌ صغير الجسم.

(٣) الزّج: الحديدة في أسفل الرمح.

لعل زمانَنا سيعودُ يوماً كما عاد الزمانُ على بطانِ [1]

أبو مياس وقوم يذكرون الزمان:

أبو جعفر الشيباني قال: أتانا يوماً أبو مَيّاس الشاعر ونحن في جماعة فقال: ما أنتم فيه وما تتذاكرون؟ قلنا: نذكر الزمان وفساده. قال: كلا، إنما الزمان وعاء، وما أُلقي فيه من خير أو شرّ كان على حاله. ثم أنشأ يقول:

أرى حُلَلاً تُصانُ على أُناسٍ وأخلاقاً تُداس فما تُصانُ
يقولون الزمانُ بهِ فسادٌ وهم فَسَدوا وما فسد الزمانُ

أنشد فرج بن سلام:

هذا الزمانُ الذي كنّا نُحَذَّرُه فيما يُحدِّثُ كعبٌ وابن مسعودِ
إنْ دام ذا الدهرُ لم نَحزَنْ على أحَدٍ يموتُ مِنَّا ولم نفرحْ بمولودِ

وقال حبيب الطائي:

لمْ أبْكِ في زمنٍ لم أَرْضَ خلّتَهُ إلا بكيتُ عليه حين ينصرمُ

وقال آخر في طاهر بن الحسين:

إذا كانت الدنيا تُنالُ بطاهِرٍ تجنَّبْتُ منها كلَّ ما فيه طاهِرُ
وأعرضتُ عنها عِفَّةً وتكرُّماً وأرجأْتُها حتى تَدورَ الدوائر

وقال مؤمن بن سعيد في معقل الضبيّ وابن أخيه عثمان:

لقد ذَلّت الدنيا وقد ذَلَّ أهلُها وقد مَلها أهلُ النَّدَى والتفضُّلِ
إذا كانت الدنيا تميل بخيرها إلى مثلِ عثمان ومثلِ المُحولِ
ففيآستِامِّ دُنيانا وفيآستِآمِّ خيرِها وفيآستِآمِّعثمانٍ وفيآستِآمِّمعْقِل

وقال محمد بن مُناذر:

---

(١) بطان: هو بطان بن بشر الضبّي.

يا طالبَ الأشعارِ والنحوِ هذا زمانٌ فاسدُ الحَشْوِ
نَهارُه أوْحَشُ من ليلِهِ ونَشْوُهُ من أخْبَثِ النَشْوِ
فدَعْ طِلابَ النحوِ لا تَبْغِهِ ولا تَقُلْ شِعراً ولا تَروِ
فما يجوزُ اليومَ إلاّ امْرُؤٌ مُستحِكمُ العزِف أو الشَّدْوِ
أوْ طِرْمِذانٌ قولُهُ كاذِبٌ لا يفعَلُ الخيرَ ولا ينوي[1]

ومن قولنا في هذا المعنى:

رجاءٌ دون أقْرَبِهِ السَّحابُ ووعدٌ مِثل ما لَمعَ السَّرَابُ
ودَهْرٌ سادتِ العُبْدانُ فيه وعاثَتْ في جوانِبِه الذِّئابُ
وأيامٌ خلَتْ من كلِّ خيْرٍ ودُنياً قد تَوزَّعَها الكلابُ
كلابٌ لو سألتَهُم تُراباً لقالوا: عندَنا انقطع التُّرابُ
تُعاقب من أساءَ القوْلَ فيهم وإن يُحسِن فليس له ثوابُ

للجاحظ في ذم الزمان:

كتب عمرو بن بحر الجاحظ إلى بعض إخوانه في ذم الزمان:

بسم الله الرحمن الرحيم. حَفظك الله حِفْظ من وفَّقَهُ للقناعة، وآستعمله بالطاعة كتبتُ إليك وحالي حال من كثُفَت غُمومُه، وأشكلت عليه أمورُه، وآشتبه عليه حالُ دهرِه، ومَخْرَج أمره، وقلّ عنده مَن يثق بوفائه، أو يحمد مَغَبّةَ إخائه، لاستحالة زمانِنا، وفسادِ أيامنا، ودولة أنذالنا، وقِدْماً كان مَن قَدَّم الحياء على نفسه، وحكَّم الصدق في قوله، وآثر الحقَّ في أموره، ونَبَذ المشتبهات عليه من شُئونه. تمت له السلامة، وفاز بوفور حظِّ العافية، وحَمد مَغَبّة مكروهِ العاقبة، فنظرْنا إذ حال عندنا حُكمُه، وتحولت دولته. فوجدنا الحياءَ متصلاً بالحرمان، والصدق آفةً على المال، والقَصْد في الطلب بترك آستعمال القِحَة[2] وإخلاقِ العِرض من طريق التوكل دليلاً

(١) الطّرمذان: المدّعي والمتمدّح بما ليس عنده، والصلف المفاخر النّفاخ.
(٢) القحة: الوقاحة.

على سَخافة الرأي؛ إذ صارت الحظوة الباسقة والنِّعمة السابغة[1] في لؤم النية، وتناول الرِّزق من جهة محاشاة الوقار، وملابسة مَعَرَّة العار.

ثم نظرنا في تعقُّب المتعقِّب لقولنا، والكاشِرِ لحجتنا، فأقمنا له عَلَماً واضحاً، وشاهداً قائماً، ومناراً بيِّناً؛ إذ وجدنا مَن فيه السّفوليَّة الواضحة، والمثالب الفاضحة، والكذب المبَرّح، والخُلف المصرّح، والجهالة المُفرطة، والركاكة المُستخَفَّة، وضعف اليقين والاستيثاب[2]، وسرعة الغضب والخفة قد استكمل سروره، واعتدلت أمورُه، وفاز بالسهم الأغلب، والحظِّ الأوفر، والقدر الرفيع، والجواب الطائع، والأمر النافذ. إن زَلّ قيل حَكُم، وإن أخطأ قيل أصاب، وإن هَذَى في كلامه وهو يقظان قيل رؤيا صادقة في سِنَة[3] مباركة.

فهذه حُجتنا ـ أبقاك الله ـ على من زَعَم أن الجهل يَخفِض، وأن الحمق يضع، وأن النَّوْك يُرْدِي وأن الكذب يَضُر، وأن الخلف يُزْرِي.

ثم نظرنا في الوفاء والأمانة، والنُّبل والبراعة وحُسن المذهب، وكمال المروءة، وسعة الصدر، وقلة الغضب، وكرم الطبيعة، والفائق في سعة علمه، والحاكم على نفسه، والغالب لهواه؛ فوجدنا فلان بن فلان، ثم وجدنا الزمان لم يُنْصِفْه من حقِّه، ولا قام له بوظائف فرضه؛ ووجدنا فضائله القائمة له قاعدة به. فهذا دليل على أن الطَّلَاح أجدى من الصَّلاح، وأن الفضل قد مضى زمانه، وعَفَت آثارُه[4]، وصارت الدائرة عليه كما كانت الدائرة على ضده؛ ووجدنا العقل يَشقى به قرينُه، كما أنّ الجهل والحُمْقَ يحظى به خدينُه ووجدنا الشعر ناطقاً على الزمان، ومُعْرِباً عن الأيام، حيث يقول:

تَحامَقْ مع الحَمْقى إذا ما لقِيتَهم ... ولاقِهِمُ بالجهلِ فِعْلَ أخي الجهلِ

(١) السابغة: الفائضة.

(٢) الاستيثاب: من الوثب.

(٣) السنة: الغفلة والنوم.

(٤) عفت آثاره: إمّحت.

وخَلِّطْ إذا لاقَيْتَ يَوماً مُخلِّطاً ... يُخلِّطُ في قولٍ صحيحٍ وفي هَزْلِ[1]
فإنّي رأيتُ المرءَ يَشقى بعقله ... كما كان قبل اليوْم يَسعَدُ بالعقلِ

فبقِيتُ أبقاك الله مثل من أصبح على أوْفاز[2]، ومن النُّقلة على جَهاز، لا تَسُوغُ له نَهْمَة ولا يُطعم عينيه غَمْضة، في أهاويل يُباكِره مكروهُها وتُراوحه عقابيلها[3] فلو أن الدعاء أُجيبَ والتضرُّع سُمع، لكانت الهَدّة العُظمى، والرجفَة الكبرى؛ فليت الذي يا أخي ما أَسْتَبْطِئُه من النفخة، ومِن فجأة الصيْحة، قُضيَ فحان، وأُذن به فكان؛ فوالله ما عُذِّبَت أُمةٌ برجفةٍ ولا ريح ولا سَخْطة، عذابَ عَيني برؤية المُغايظة المضنية، والأخبار المُهلكة، كأن الزمان توكل بعذابي، أو آنتصب لإيلامي؛ فما عيْشُ مَن لا يُسَرّ بأخ شقيق، ولا خِدن شفيق، ولا يَصْطبح في أول نهاره إلا برؤية من تُكره رؤيتُه، ونَغْمة من تَغُمُّه طلعته فبدَّل الله لي - أي أخي - بالمسكن مَسْكناً، وبالربع رَبْعاً! فقد طالت الغُمة، وواطنت الكربة، وادْلَهَمَّتْ الظُّلمة، وخمد السراج، وتباطأ الانفراج، السلام.

فساد الإخوان

قال أبو الدرداء: كان الناس وَرَقاً لا شوْكَ فيه، فصاروا شوكاً لا وَرَق فيه.

وقيل لعُروة بن الزُّبير: ألا تنتقل إلى المدينة؟ قال: ما بقي بالمدينة إلا حاسدٌ على نعمة، أو شامتٌ بمصيبة.

الخشني[4]، قال: أنشدني الرياشي:

إذا ذهَب التَّكرُّمُ والوَفاءُ ... وباد رجاله وبقي الغُثاءُ[5]
وأَسلَمني الزَّمان إلى رجالٍ ... كأمثالِ الذِّئابِ لها عُواءُ

(١) خلّط: كذّب وأدخل الحق بالخطأ.
(٢) أوفاز: عجلة. (٣) العقابيل: الشدائد.
(٤) الخشني: هو محمد بن عبد السلام.
(٥) الغثاء: رغوة القدر، أو ما يجرفه السيل من أوراق أو مما على وجه الأرض.

صديقٌ كلّما استغنيْتُ عنهمْ وأعداءٌ إذا جهدَ البلاءُ
إذا ما جئتُهُم يتدافعوني كأنّي أجْربٌ آذاه داءُ
أقول ولا أُلامُ على مَقالٍ على الإخْوان كلِّهم العَفاءُ (١)

وقالت الحكماء: لا شيء أضيَعُ من مودة مَن لا وفاء له، واصطناعِ مَن لا شُكر عنده. والكريم يَوَدُّ الكريم عن لُقْيَة واحدة، واللئيمُ لا يَصِل أحداً إلا عن رغبة أو رهبة.

وفي كتاب للهند: إن الرجل السَّوءَ لا يتغير عن طبعه، كما أن الشجرة المرّة لو طليتها بالعسل لم تُثمر إلا مُرّاً.

وسمع رجل أبا العتاهية يُنشد:

فارمِ بطَرْفِك حيث شئـ ـت فلا تَرى إلاّ بخيلا

وقال أيضاً في هذا المعنى:

للهِ درُّ أبيك أيّ زمانِ أصبْحت فيه وأيّ أهلِ زمانِ
كلٌّ يُوازنُك المودَّةَ جاهِداً يُعطِي ويأخُذ منك بالميزانِ
فإذا رأى رُجْحان حبَّةِ خَرْدلٍ مالت مودَّتُهُ إلى الرُّجْحان

وقال:

أرَى قوْماً وجُوهُهُم حِسانٌ إذا كانت حوائجُهُم إلينا
وإنْ كانت حوائجُنا إليهم يُقبِّح حُسْنُ أوْجُهِهِم علينا
فإن مَنَع الأشحَّةُ ما لديهم فإنّا سوف نمنع ما لدَيْنا

وقال:

مَوالِينا إذا احتاجوا إلينا وليس لنا احتِياجٌ للمَوالي

---

(١) العفاء الزّوال وامّحاء الأثر.

للبكري:

وخليلٍ لم أخُنْه ساعةً ... في دمي كَفَّيْه ظلماً قد غَمَسَ
كان في سرِّي وجَهْري ثِقَتي ... لستُ عنه في مُهِمّ أحْتَرِسْ
سَتَر البُغْض بألفاظ الهوى ... وادَّعى الوُدَّ بغشّ ودَلَس (١)
إن رآني قال لي خيْراً وإن ... غِبْت عنه قال شَرّاً ودَحَسْ (٢)
ثم لَمّا أمكنتْه فرْصَةٌ ... حَمَل السيْف على مَجْرى النَّفَس
وأراد الرُّوح لكنْ خانه ... قدَرٌ أيقَظ مَن كان نَعسْ

وأنشد العتبي:

إذا كنت تَغضَبُ من غيْر ذنبٍ ... وتَعْتِب مِن غيْر جُرْمٍ عَلَيَّا
طَلَبْت رضاك فإنْ عزَّني ... عدَدْتُك ميْتاً وإن كنت حيَّا
فلا تَعْجبْنَّ بما في يديْك ... فأكثر منه الذي في يَدَيَّا

وقال ابن أبي حازم:

وصاحِبٍ كان لي وكنتُ لهُ ... أشْفق مِنْ والدٍ علَى ولدِ
كنَّا كسَاقٍ تسْعَى بِها قدمٌ ... أوْ كذِراع نيطَتْ إلى عضدِ
حتَّى إذا دانتِ الحوادِثُ منْ ... عظمي وحلَّ الزَّمانُ مِنْ عُقَدي (٣)
ٱزْوَرَّ عنِّي وكان ينْظُرُ مِنْ ... طرْفي ويَرْمي بساعِدي ويَدِي (٤)

وقال:

وخِلٍّ كان يَخفِضُ لي جَناحاً ... أفاد غِنى فنابَذني جِماحَا (٥)
فقلتُ له ولي نفْسٌ عزُوفٌ ... إذا حَمِيَتْ تقحَّمَت الرِّماحا (٦)
سأُبْدلُ بالمطامِعِ فيك يأساً ... وباليأْسِ اسْتراح مَن اسْتراحَا

---

(١) الدّلس: الخديعة.
(٢) دحس: أفسد.
(٣) عقدي: قوّتي. (٤) ازورّ: ابتعد وأشاح بنظره.
(٥) الجماح: الشرود.
(٦) عزوف: ميل وابتعاد.

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر:

وأنتَ أخي ما لم تكُن لي حاجةٌ ... فإنْ عرضَتْ أيقَنْتُ أن لا أخاليا
فلا زادَ ما بيْني وبينَكَ بعْدَما ... بلَوْتكَ في الحاجاتِ إلاّ تَمادِيَا
كِلانا غنِيٌّ عن أخيه حياتَهُ ... ونحنُ إذا مِتْنا أشَدُّ تغَانيَا
وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيْبٍ كليلَةٌ ... كما أنّ عيْنَ السُّخْط تُبْدِي المساويا

وقال البحتري:

أُشَرِّقُ أم أُغرِّبُ يا سَعيدُ ... وأَنْقُصُ من ذِمامي أوْ أزيدُ
عدَتْني عن نصيبِينَ العوادِي ... فبَخْتِي أبْلَهٌ فيها بليدُ (١)
وخلَّفني الزَّمانُ على رجالٍ ... وجُوهُهُم وأيديهِمْ حديدُ
لَهُمْ حُلَلٌ حَسُنَّ فهُنَّ بيضٌ ... وأخْلاقٌ سَمُجْنَ فهُنَّ سُودُ
ألا ليْتَ المقادِرَ لم تُقَدَّرْ ... ولم تكُنِ العطايَا والجدُودُ (٢)

وقال ابن أبي حازم:

وقالوا: لو مَدَحتَ فتًى كريماً ... فقُلتُ وكيفَ لي بفتًى كريمِ!
بلَوْتُ ومَرَّ بي خمسُونَ حوْلاً ... وحسْبُكَ بالمُجَرِّب مِنْ عَليمِ
فلا أحدٌ يُعَدُّ ليوْمِ خيْرٍ ... ولا أحدٌ يعودُ على عديمِ (٣)

وقال:

قد بلوتُ الناسَ طُرّا ... لم أجد في الناسِ حُرّا
صار حلْوُ الناسِ في العيْـ ... ـنِ إذا ما ذِيقَ مُرّا

وقال:

من سَلاَ عنِّي أطلقـ ... ـتُ حِبالي مِن حِبالِهْ
أو أجَدَّ الوصلَ سارَعْتـ ... ـتُ بجهدي في فِصالِهْ

---

(١) العوادي: المصائب، والبخت: الحظ.
(٢) الجدود: الحظوظ. (٣) يعود: يتكرّم، والعديم: الفقير.

إنما أحـــــذُوا على فِعْــ ـــلِ صـــديقــي بِمِثـــالِــهْ
غيرَ مُستجـــدٍ إذا ازْوَرّ كـــ ـــأنيّ مـــن عِيـــالِـــهْ
لــــن يَـــراني أَبَـــداً أُعْـــ ـــظِـــمُ ذا مـــالٍ لمالِـــهْ
لا ولا أَزْرَى بِمَـــــنْ يَعـــ ـــقِلُ عنـدي سـوءُ حـالِـهْ[1]
إنَّما أقضي على ذا ك وهـــذا بفَعـــالِـــهْ
كيفما صرَّفني الدهـــ ـــرُ فـــإني مـــن رجـــالِـــهْ

ومن قولنا في هذا المعنى:

أبا صالح جاءَتْ على الناسِ غَفلةٌ على غفلةٍ مـاتـت بكـلِّ كـــريمِ
فليتَ الأُلَى بانوا يُفادَوْن بـالأُلـى أقاموا، فيُفـدَى ظـاعِـنٌ بمُقيمِ[2]
ويا ليتَهـا الكبرى فتُطْـوَى سماؤنـا لها وتُمَـدُّ الأرضُ مَـــدَّ أديمِ[3]
فما الموتُ إلا عيشُ كـلِّ مُبخَّـلٍ ومـا العيشُ إلا مـوتُ كـلِّ ذَميمِ
وأَعْذَرُ ما أدمَى الجفونَ من البُكـا كـــريمٌ رأى الدنيـا بكـفِّ لئيمِ

ومثله في هذا المعنى:

أبا صالح، أين الكـرامُ بـأسرهـمْ أفِـدني كـريماً فـالكـريمُ رضـاءُ
أحقّاً يقول الناسُ في جـودِ حـاتمٍ وإبن سِنانٍ كـان فيـه سَخـاءُ[4]
عَذيريَ مِـن خَلـقٍ تَخلّـقَ منهُـمُ غبـاءٌ ولـؤمٌ فـاضِـحٌ وجَفـاءُ
حِجـارةُ بُخْـلٍ مـا تَجـودُ وربّما تفَجَّـرَ مـن صُـمِّ الحجـارةِ مـاءُ
ولو أنّ موسى جاءَ يضربُ بالعصـا لَمَا انبَجستْ من ضربِـهِ البخلاءُ[5]
بَقاءُ لئـامِ النـاسِ مـوتٌ عليهـمُ كما أنّ مـوتَ الأكـرمين بَقـاءُ
عزيـزٌ عليهـم أن تَجـودَ أكُفُّهُـمْ عليهـم مـن اللهِ العزيـز عَفـاءُ

(١) أزرى: أعيب. (٢) الظاعن: الراحل.
(٣) الأديم: الجلد، وأديم الأرض وجهها.
(٤) إبن سنان: يعني به هرم بن سنان الذي مدحه زهير بن أبي سلمى.
(٥) انبجست: انفجرت.

ومثله قولنا في هذا المعنى:

ساقٌ تَرَنَّحَ يشدو فوقَه ساقُ كأنّه لِحَنينِ الصوتِ مُشتاقُ
يا ضيعةَ الشِّعرِ في بُلْهٍ جرامِقةٍ تشابَهتْ منهمُ في اللُّؤْمِ أخلاقُ (١)
غُلَّتْ بأعناقهم أيدٍ مقفَّعةٌ لا بُوركتْ منهمُ أيدٍ وأعناقُ (٢)
كأنّما بينهم في منع سائلهم وحبس نائلهم عهدٌ وميثاق
كم سُقتهم بأماديحي وقُدتُهمُ نحو المعالي فما انقادوا ولا انساقوا
وإن نَبابيَ في ساحاتهم وطنٌ فالأرض واسعةٌ والناس أفراق
ما كنتُ أولَ ظمآنٍ بمَهْمَهةٍ يغرُّه من سراب القفر رقراق
رزقٌ من الله أرضاهم وأسخطني واللهُ للأَنْوَك المعتوهِ رزّاق
يا قابض الكفّ لا زالت مُقبّضةً فما أناملها للناس أرزاق
وغِبْ إذا شئتَ حتى لا تُرى أبداً فما لفقدك في الأحشاء إقلاق
ولا إليك سبيلُ الجود شارعةٌ ولا عليك لنور المجد إشراق (٣)
لم يكتنفني رجاءٌ لا ولا أملٌ إلا تكنَّفَهُ ذُلٌّ وإملاقُ

وقال مؤمّل بن سعيد في هذا المعنى:

إنّما أزرَى بقدري أنّني لستُ من نابهِ أهل البلدِ
ليس منهم غير ذي مَقْلِيَةٍ لذوي الألباب أو ذي حسد (٤)
يتحامَوْن لقائي مثلَ ما يتحامَوْن لقاء الأسد
طلعتي أثقل في أعينهم وعلى أنفسهم من أُحُد
لو رأوني وَسْط بحرٍ لم يكن أحدُ يأخُذُ منهم بيدي

---

(١) الجرامقة: قومٌ من العجم، صاروا بالموصل في أوائل الاسلام.
(٢) اليد المقفّعة: المتشنّجة.
(٣) شارعة: مفتوحة مشرعة.
(٤) المقلية: البغضاء.

باب في الكبر

قال النبي ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما قصمته وأهنته».

وقال عليه السلام: «لا يدخل حضرة القدس متكبر».

وقال: «فضل الإزار في النار. معناه: من سحب ذيله في الخيلاء قاده ذلك إلى النار».

ونظر الحسن إلى عبد الله بن الأهتم يخطِر(١) في المسجد، فقال: انظروا إلى هذا؛ ليس منه عضوٌ إلا والله عليه نعمة وللشيطان فيه لعنة.

وقال سعد بن أبي وقّاص لآبنه: يا بُنَيّ، إياك والكِبْر، ولْيكنْ فيما تستعين به على تركه عِلمُك بالذي منه كنت، والذي إليه تَصير. وكيف الكِبْر مع النُطفة التي منها خُلقْت، والرَّحم التي منها قُذِفْت، والغِذاءِ الذي به غُذِيت.

وقال يحيى بن حيَّان: الشريفُ إذا تقوَّى تواضع، والوضيع إذا تقوّى تكبرَّ.

وقال بعض الحكماء: كيف يَستقر الكِبر فيمن خُلق من تراب، وطُوي على القَذَر، وجرَى مَجْرى البول!

وقال الحسن: عجباً لابن آدم، كيف يتكبَّر وفيه تِسْعُ سُموم كلها يُقْذَر.

وذَكر الحسنُ المتكبرين فقال: يُلْفَى أحدهم يَنُص(٢) رقبته نصاً، ينفُض مِذْرَوَيْه(٣)، ويضرب أصْدَرَيْه، يَملَخ في الباطن مَلْخا(٤)، يقول: ها أنا ذا فآعرفوني! قد عَرفناك يا أحمق! مقَتك اللهُ ومقَتك الصالحون.

ووقف عُيينة بن حِصْن بباب عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فقال: آستأذنوا لي

---

(١) يخطر: يتبختر في مشيته زهواً.

(٢) ينصّ: يرفع.

(٣) ينفض: يحرّك، والمذروان: فرعا الإليتين والمنكبين وطرفا كلّ شيء، والمراد بهما هنا فرعا المنكبين.

(٤) يملخ: يتردّد فيه ويكثر، وقيل: يمرّ فيه مرّاً سهلا.

على أمير المؤمنين وقولوا: هذا ابنُ الأخيار بالباب. فأذِن له؛ فلما دخل عليه قال له: أنتَ ابنُ الأخيار؟ قال: نعم. قال له: بل أنت آبن الأشرار، وأما آبن الأخيار فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

وقيل لعُبيد الله بن ظبيان: كثَّر اللهُ في العشيرة أمثالك. فقال: لقد سألتم اللهَ شططا[1].

وقيل لرجل من عبد الدَّار عظيم الكِبْر: ألا تأتي الخليفة. قال: أخشى ألا يحمل الجِسْرُ شرَفي.

وقيل له: ألا تَلْبَس؟ فإنّ البرد شديد. قال: حَسَبي يُدْفِئُني.

للحجاج في أربعة:

قيل للحجاج: كيف وجدتَ منزلَك بالعراق أيها الأمير؟ قال: خيرَ منزل، لو أدركتُ بها أربعةَ نفرٍ لتقرّبت إلى الله سبحانه وتعالى بدمائهم. قيل له: ومَن هم؟ قال مُقاتل بن مِسمع، ولي سجستان فأتاه الناس فأعطاهم الأموال، فلما قَدِم البصرةَ بسط له الناسُ أرديتَهم فمشى عليها. فقال: لمثل هذا فليعمل العاملون. وعُبيد الله بن ظَبيان، خطب خطبة أوْجَز فيها، فناداه الناسُ من أعراض المسجد: كثَّر اللهُ فينا أمثالك. قال: لقد كلَّفْتم ربَّكم شططا. ومَعبد بن زُرارة، كان ذات يوم جالساً على طريق؛ فمرّت به آمرأةٌ فقالت: يا عبد الله، أين الطريق لمكان كذا؟ فقال: لِمثلي يقالُ يا عبد الله؟ ويلك!. وأبو السَّمَّاك الحنفي، أَضلَّ ناقتَه فقال: والله لئن لم يَرْدُد عليَّ ناقتي لا صلَّيتُ أبداً.

وقال ناقل الحديث: ونسِيَ الحجاجُ نفسه وهو خامس هؤلاء الأربعة، بل هو أشدُّهم كِبراً، وأعظمهم إلحاداً، حين كتب إلى عبد الملك في عطسة عطسها فشمَّته[2] أصحابُه وردّ عليهم: بلغني ما كان من عطاس أمير المؤمنين وتشميت أصحابه له

---

(١) الشطط: مجاوزة الحدّ، والبعد عن الحقّ.

(٢) التشميت: أن يقال له، يرحمك الله.

وردِّه عليهم، فيا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما.

وكتابه إليه: إنّ خليفة الرجل في أهله أكرم عليه من رسوله إليهم، وكذلك الخلفاء يا أمير المؤمنين أعلى منزلةً من المرسلين.

العتُبي قال: رأيت مُحرزاً مولى باهلة يطوف على بغلة بين الصفا والمروة، ثم رأيته بعد ذلك على جسر بغداد راجلاً، فقلت له: أراجل أنت في مثل هذا الموضع؟ قال: نعم، إني ركبت في موضع يمشي الناس فيه، فكان حقيقاً على الله أن يُرْجِلَني في موضع يركب الناس فيه.

وقال بعض الحكماء لابنه: يا بني، عليك بالترحيب والبشر، وإياك والتقطيب والكبر؛ فإن الأحرار أحب إليهم أن يُلْقوا بما يحبون ويحرَموا من أن يُلقوْا بما يكرهون ويُعطوْا؛ فانظر إلى خصلة غطت على مثل اللؤوم فالزمها، وانظر إلى خصلة عفّت على مثل الكرم فاجتنبها. ألم تسمع إلى قول حاتم الطائي:

أُضاحك ضيفي قبل إنـزال رحلـه ... ويُخصب عندي والمحل جـديـب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القِرى ... ولكنَّما وجــه الكـريم خصيــب

وقال محمود الوراق:

التِّيـه مَفْسـدةٌ للـديـن منقصــةٌ ... للعقـل مجبلـةٌ للــذم والسَّخَــطِ
مَنْعُ العطاء وبَسْطُ الوجه أحسنُ مـن ... بـذل العطـاء بـوجـهٍ غير منبسط

وقال أيضاً:

بشْـرُ البخيـل يكـاد يُصلـح بخلـه ... والتِّيــه مفْســدةٌ لكـلِّ جــوادِ
ونقيصـــةٌ تبقــى على أيــامــه ... ومَسَبَّـــةٌ في الأهـــل والأولاد

وقال آخر في الكبر:

مع الأرض يا ابن الأرض في الطيران ... أتأمـل أن تـرقـى إلى الدَّبَـران[1]

---

(١) الدّبران: منزلة القمر.

فـوالله مـا أبصرتُ يـوماً محلّقاً ولو حلَّ بين الجَدْي والسرطـان[1]
حَماهُ مكانُ البُعـد مـن أن تنـالـهُ بسهم من البلـوى يـدُ الحَدَثـان[2]

التسامح مع النعمة والتذلل مع المصيبة

قالوا: من عزَّ بإقبال الدهر ذلّ بإدباره.

وقالوا: من أبطره الغنى أذلّه الفقر.

وقالوا: مَن ولِيَ ولاية يرى نفسَه أكبرَ منها لم يتغيَّر لها، ومن وليَ ولايةً يرى ولايتَه أكبر من نفسِه تغيَّر لها.

وقال يحيى بن حيَّان: الشريف إذا تقوَّى تواضع والوضيعُ إذا تقوَّى تكبر.

وقال كسرى: احذروا صولةَ الكريم إذا جاع، واللئيمِ إذا شبع.

وكتب علي بن الجهم إلى ابن الزيات:

أبـا جعفـرٍ عَـرِّجْ على خُلطـائِكـا وأَقصِرْ قليلاً من مَدَى غُلَـوائِكـا
فإن كنتَ قد أُوتيتَ في اليومِ رِفْعَةً فإنَّ رَجائِـي في غـدٍ كـرَجـائِكـا

وقال عبد العزيز بن زُرارة الكِلابيّ:

لقـد عجبـتْ منـه اللّيـالي لأنّـه صَبورٌ على عَضْلاء تلك البلابـلِ[3]
إذا نـالَ لم يفـرح وليس لِنَكْبَـةٍ أَلَمّت بـه بـالخاشـعِ المُتَضـائِـلِ

وقال الحسن بن هانيء:

ولقـد حـزنْـتُ فلم أَمُـتْ حَـزَنـاً ولقد فـرحْـتُ فلم أَمُـت فـرحـا

وكتب عَقيل بن أبي طالب إلى أخيه عليّ بن أبي طالب عليه السلام يسأله عن حاله، فكتب إليه عليّ رضي الله عنه:

---

(١) الجدي والسرطان: من الأبراج السماوية.

(٢) الحدثان: الليل والنّهار.

(٣) البلابل: الوساوس والهموم.

فإن تسـأَلَنِّـي كيـف أنـتَ فـإنَّني   جَلِيدٌ على عضٍّ الزَّمانِ صَليـبُ[1]
عـزيـزٌ عليَّ أن تُـرَى بِـي كـآبـةٌ   فيفـرحَ واشٍ أو يُســاءَ حبيــبُ

باب في التواضع

قال النبي ﷺ: « من تواضع لله رفعه الله ».

قالت الحكماء: كلُّ نعمة يُحسَد عليها إلا التواضع.

وقال عبد الملك بن مروان، رفعه إلى النبي ﷺ: « أفضلُ الرجال مَن تواضع عن رفعة، وزَهِد عن قُدرة، وأنصف عن قوّة ».

وقال ابن السماك لعيسى بن موسى: تواضُعُك في شرفك أكبر من شرفك.

من تواضع النجاشي:

وأصبح النّجاشي يوماً جالساً على الأرض والتاج عليه، فأعظمتْ بطارِقَتُهُ ذلك وسألوه عن السبب الذي أوجبه؛ فقال: وجدتُ فيما أنزل اللهُ على المسيح: إذا أنعمتُ على عبدي نعمةً فتواضع أتممتها عليه. وإنه وُلد لي هذه الليلة غلامٌ فتواضعتُ شكراً لله.

عمر وامرأة من قريش:

خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويده على المُعَلَّى بن الجارود العبدي، فلقيته آمرأةٌ من قريش فقالت له: يا عمر، فوقف لها. فقالت: كنا نعرفك مدّةً عُمَيْراً، ثم صرت من بعد عُمَيْرٍ عُمَرَ، ثم صرتَ من بعدٍ عمر أميرَ المؤمنين. فاتق الله يا بن الخطاب وانظر في أمور الناس، فإنه من خاف الوعيدَ قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خَشِي الفوْت. فقال المعلي: إيهاً يا أمة الله! لقد أبكيتِ أمير المؤمنين. فقال له عمر: اسكت. أتدري من هذه ويحك؟ هذه خَوْلة بنت حكيم التي سمع الله

---

(١) الصليب: القويّ الصّلب.

قولها من سمائه، فَعُمَر أحْرى أن يسمع قولها ويقتديَ به.

وقال أبو عبّاد: ما جلس إليَّ رجلٌ قط إلاّ خُيِّل إليّ أني سأجلس إليه.

وسئل الحسن عن التواضع فقال: هو أن تخرج من بيتك فلا تلْقَى أحداً إلا رأيت له الفضلَ عليك.

وقال رجل لبكر بن عبد الله: علِّمني التواضع. فقال: إذا رأيت من هو أكبرُ منك فقل: سبقني إلى الإسلام والعمل الصالح، فهو خير مني؛ وإن رأيت أصغر منك فقل: سبقتُه إلى الذنوب والعمل السيء، فأنا شرٌّ منه.

وقال أبو العتاهية:

يا مَنْ تشَرَّف بـالـدُّنْيـا وزينَتِهـا ... ليس التَّشَرُّفُ رفْعَ الطين بـالطِّينِ
إذا أردْتَ شريـفَ النَّـاسِ كُلّهِـمُ ... فـانظُـرْ إلى مَلِـكٍ في زيٍّ مِسكينِ
ذاك الذي عظُمت في الناس همتـه ... وذاك يصلـح للـدنيـا وللـدِّيـن

الرفق والأناة

قال النبي ﷺ: «من أُوتيَ حظَّه من الرفق فقد أُوتي حظَّه من خير الدنياوالآخرة».

وقالت الحكماء: يُدرك بالرفق ما لا يُدْرَك بالعُنف، ألا ترى أن الماء على لينه يقطع الحجر على شِدّته.

وقال أشجع بن عمرو السلمي لجعفر بن يحيي بن خالد:

مـا كـان يُـدْرَك بـالـرجـال ولا ... بـالمال مـا أدركـت بـالـرفـقِ

وقال النابغة:

الرِّفـقُ يُمـنٌ والأنـاةُ سعـادَةٌ ... فاستَـأنِ في رِفـقٍ تُلاقِ نَجـاحـا

وقالوا: العجَل بريد الزَّلل.

أخذ القطامي التغلبيّ هذا المعنى فقال:

قد يُدْرِكُ المُتأنّي بعْـض حـاجَتِـه ... وقد يكُونُ مع المُسْتعجِـلِ الزَّلـلُ

وقال عديّ بن زيد:

قد يُدْرِكُ المُبْطِيءُ من حظّه   والخيْنُ قدْ يسْبِقُ جُهْد الحرِيص[1]

استراحة الرجل بمكنون سره إلى صديقه

تقول العرب: أفضيتُ إليكَ بشقوري[2]، وأطلعْتُك على عُجَري وبُجرِي[3]، ولو كانَ في جسدي بَرَصٌ ما كتمتهُ.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿لِكُلِّ نبإٍ مُسْتَقر﴾[4].

وقالت الحكماء: لكل سِرٍّ مُسْتوْدَع.

وقالوا: مُكاتَمةُ الأدْنين صريحُ العُقوق.

وقال الشاعر:

وأَبْثَثْتُ عَمْراً بَعض ما في جَوانِحي   وجرّعْتُه من مُرٍّ ما أتَجرَّعُ

ولا بُدّ مِنْ شكوَى إلى ذي حفِيظةٍ   إذا جعَلتْ أَسْرارُ نفْسٍ تطَلّعُ[5]

وقال حبيب:

شكَوْتُ وما الشَّكوَى لِمْثلِيَ عادَةٌ   ولكِنْ تفيضُ النفسُ عِنْدَ امْتِلائِها

وأنشد أبو الحسن محمد البصريّ:

لَعِبَ الهوى بِمَعالِمِي ورُسومي   ودُفِنتُ حيّاً تحتَ رَدْمِ هُمومي

وشكوت همّي حين ضِقْتُ ومَن شَكا   همّاً يَضيقُ به فغيْرُ مَلومِ

وقال آخر:

إذا لم أُطِقْ صبراً رَجعتُ إلى الشكوى   وناديْتُ تحت الليلِ يأساً مع النجوَى

(١) الحين: الموت.

(٢) الشقور: الأمور اللاصقة بالقلب، المهمّة له.

(٣) عجري وبجري: أي عيوبي وأحزاني وما أبدي وما أخفي.

(٤) سورة الأنعام الآية ٦٧.

(٥) الحفيظة: اسم من المحافظة والحفاظ للذب عن المحارم.

وأمطرتُ صَحْنَ الخدِّ غيثاً من البُكا ... على كبِدٍ حَرَّى لتَرْوَى فما تَرْوَى[1]

الاستدلال باللحظ على الضمير

قالت الحكماء: العين باب القلب؛ فما كان في القلب ظهر في العين.

لعثمان بن إبراهيم:

أبو حاتم عن الأصمعي عن يونس بن مصعب عن عثمان بن إبراهيم بن محمد، قال:

إني لأعرف في العين إذا عرَفتْ، وأعرف فيها إذا أنكرتْ، وأعرف فيها إذا لم تَعرف ولم تُنكِر؛ أما إذا عرَفتْ فتَحْواصّ[2]، وأما إذا أنكرتْ فتَجْحَظ[3] وأما إذا لم تعرف ولم تنكر فتسجو[4].

وقال صريع الغواني:

جعلْنا علاماتِ المودّةِ بيننا ... مصايدَ لَحْظٍ هُنَّ أخفَى من السِّحْرِ
فأعرفُ فيها الوصلَ في لِينِ طرفِها ... وأعرِفُ فيها الهَجْرَ في النَّظَرِ الشَّزْرِ[5]

وقال محمود الوراق:

إنّ العيونَ على القلوبِ شواهِدٌ ... فبَغيضُها لكَ بَيِّنٌ وحَبيبُها
وإذا تَلاحظتِ العيون تفاوضتْ ... وتحدّثت عما تُجِنُّ قُلوبُها[6]
يَنطِقْن والأفواه صامتةٌ فما ... يَخفَى عليكَ بَريئُها ومُريبُها

---

(١) الحرّى: الملتهبة.

(٢) التحواص: من الحوص وهو ضيق العين.

(٣) تجحظ: من جحظت العين أي خرجت حدّقتها وعظمت.

(٤) تسجو: تسكن.

(٥) الشزر: النظر بطرف مؤخّرة العين. (٦) تجنّ: تخفي.

وقال ابن أبي حازم:

خُذْ مِن العيشِ ما كَفَي   ومِن الدّهرِ ما صَفا
عيْنُ مَن لا يُحِبُّ وَصْـ   ـلَكَ تُبْدي لكَ الجَفا

ومن قولنا في هذا المعنى:

صادقٌ في الحبِّ مكذوبُ   دَمْعُه للشوْقِ مسكوبُ
كلُّ ما تطوِي جوانِحُه   فهْو في العينينِ مكتوبُ[1]

وقال الحسن بن هانيء:

وإنّي لِطيْرِ العينِ بالعينِ زاجِرٌ   فقد كِدْتُ لا يَخفَى عليَّ ضميرُ

الاستدلال بالضمير على الضمير

كتب حكيم إلى حكيم: إذا أردتَ معرفةَ مالَكَ عندي فضع يدَك على صدرك، فكما تجدُني كذلك أجدُك.

وقالوا: إياكم ومن تُبغضه قلوبكم، فإن القلوب تُجازي القلوب. وقال ذو الإصبع:

لا أسألُ الناسَ عما في ضمائرِهم   ما في ضميري لهم مِن ذاكَ يكفيني

قال محمود الوراق:

لا تسألَنَّ المرءَ عمَّا عندَه   واسْتمْلِ ما في قلبِه من قلبِكا
إن كان بُغضاً كان عندك مثلُهُ   أو كان حُبّاً فاز منك بحِبِّكا

الإصابة بالظنّ

قيل لعمرو بن العاص: ما العقل؟ قال: الإصابةُ بالظنّ، ومعرفةُ ما يكون بما قد كان.

وقال عمر بن الخطاب: من لم ينفعه ظنه لم ينفعه يقينه.

---

(١) تطوي: تخفي.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لله درّ ابن عباس، إن كان لينظر إلى الغيب من سِتْرٍ رقيق.

وقال الشاعر:

وقلّما يَفْجَأُ المكرُوهُ صاحبه حتى يَرى لوجوهِ الشَّرِّ أسبابا

وإنما ركّب الله العقل في الإنسان دون سائر الحيوان ليستدلّ بالظاهر على الباطن ويفهم الكثير بالقليل.

ومن قولنا في هذا المعنى:

يا غافلاً ما يَرى إلاَّ محاسنَه ولو درَى ما رأى إلا مَساويه
آنظرْ إلى باطنِ الدُّنْيا فظاهِرُها كلُّ البهائِم يَجري طرُفها فيه

تقديم القرابة وتفضيل المعارف

قال الشّيباني: أولُ من آثر القرابةَ والأولياءَ عثمان بن عفان رضي الله عنه.
وقال: كان عمر يمنع أقاربه ابتغاء وجه الله. ولا يُرى أفْضل من عمر.
وقال لما آوى طريدَ النبي ﷺ: ما نقم الناس على أن وصَل رَحِماً وقرّب عمّاً.
وقيل لمعاوية بن أبي سفيان: إن آذِنَك يُقدِّم معارفه وأصدقاءه في الإذن على أشراف الناس ووجوههم. فقال ويلكم، إن المعرفة لتنفع في الكلب العقور والجمل الصّئول[1]؛ فكيف في رجلٍ حَسيب ذي كرم ودين.

وقال رجل لزياد: أصلح الله الأمير، إن هذا يُدِلّ[2] بمكانة يدّعيها منك. قال: نعم، وأخبرُك ما ينفعه من ذلك، إن كان الحقُّ له عليك أخذتك به أخذاً شديداً، وإن كان عليه قضيتُه عنه.

---

(١) الصئول: الذي يعضّ صاحبه، الثائر.

(٢) يدلّ: يفتخر ويتباهى.

وقال الشاعر:

أقول لجاري إذا أتـانـي مُخـاصِماً يُـدِلُّ بحقٍّ أو يُـدِلُّ بباطِـلِ
إذا لم يَصِلِ خيْري وأنت مُجاوِري إليك فما شَرِّي إليك بواصِلِ

لعبد الله القسري حين ولي قضاء البصرة:

العتبي قال: ولِيَ عبد الله بن خالد بن عبد الله القسري قضاء البصرة، فكان يحابي أهل مودّته، فقيل له: أيّ رجلٍ أنت لولا أنك تُحابي. قال: وما خير الصديق إذا لم يقطع لصديقه قطعة من دينه.

وولي ابن شُبْرُمة قضاءَ البصرة وهو كاره، فأحسن السيرة، فلما عُزل اجتمع إليه أهل خاصته ومودته، فقال لهم: والله لقد وَليت هذه الولايةَ وأنا كاره، وعُزلت عنها وأنا كاره، وما بي في ذلك إلا مخافةُ أن يليَ هذه الوجوه مَن لا يعرف حقها. ثم تمثّل بقول الشاعر:

فما السّجنُ أبكانِي ولا القيْدُ شَفَّني ولا أنني مِن خشْيةِ الموْتِ أجـزَعُ (1)
بلى إنّ أقـواماً أخـافُ عليهـمُ إذا مِتُّ أن يُعطو الذي كنتُ أمنـعُ

وتقول العامة: محبة السلطان أردُّ عليك من شهودك.

وقال الشاعر:

إذا كـان الأمير عليـك خَصْماً فليس بقابلٍ منـك الشُّهـودا

وقال زياد: أُحِبُّ الْوِلايةَ لثلاث، وأكرهها لثلاث: أُحبُّها لنفع الأولياء، وضرّ الأعداء، واسترخاص الأشياء. وأكرهها لروعة البريد، وخوف العزل، وشماتة العدو.

ويقول الحكماء: أحَقُّ من شاركك في النعمة شركاؤك في المصيبة.

أخذه الشاعر فقال:

---

(1) شفّني: أغلني.

وإنّ أوْلى الموالي أنْ تــواسِيَــه عند السُّرور لمنْ واسـاك في الحَزَن
إنّ الكِرام إذا ما أسهَلـوا ذَكـروا من كان يَألفُهُم في المنزلِ الخشِـنِ

وقال حبيب:
قَبَـح الإلـهُ عـداوةً لا تُتَّقـى ومـودَّةً يُـدْلَـى بها لا تنْفَـعُ

فضل العشيرة

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: عشيرة الرجُل خيرٌ للرجل من الرجل للعشيرة، إنْ كف عنهم يدا واحدة كَفُّوا عنه أيدياً كثيرة، مع مودتهم وحِفاظهم ونصرتهم، إن الرجل ليغضب للرجل لا يعرفه إلا بنسبه. وسأتلو عليكم في ذلك آيات من كتاب الله تعالى؛ قال الله عز وجل فيما حكاه عن لوط: ﴿لو أنّ لي بكم قُوَّةً أو آوِي إلى رُكْن شدِيد﴾ [١] يعني العشيرة، ولم يكن لِلُوط عشيرة، فوالذي نفسي بيده ما بَعَث الله نبياً من بعده إلا في ثروةٍ من قومه، ومَنَعةٍ من عشيرته. ثم ذَكر شُعيبا إذ قال له قومه: ﴿إنّا لنَراكَ فِينا ضَعِيفاً ولوْلا رَهْطُك لرَجَمْناكَ﴾ [٢] وكان مكفوفاً، والله ما هابوا إلا عشيرتَه.

وقيل لبزرجمهر: ما تقول في ابن العم؟ قال: هو عدُوُّك وعدُوّ عدوِّك.

الدَّين

من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: الدَّيْنُ يَنقص ذا الحسَب.

وقال عمر ألا إن الأسيفعَ [٣] أسيفعَ جهينة رضي من دِينه وأمانته أن يقال سبق الحاج. ألا وإنه قد آدّان معرضاً، وأصبح قد رِين [٤] به، فمن كان له عنده شيء

(١) سورة هود الآية ٨٠. (٢) سورة هود الآية ٩١.
(٣) الأسيفع: رجل من جهينة كان يشتري الرواحل فيغالي بها ثم يسرع فيسبق الحاج فأفلس، فرفع أمره إلى عمر.
(٤) رين به: أحاطت بماله الديون وعلّته أو وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ولا قبل له به.

فليأتنا بالغداة نقسم ماله بين غرمائه، ثم إياكم والدَّيْن، فإن أوله هَم وآخرَه حُزن.

وقال مولى قُضاعة:

فلو كنتَ مَولى قيْس عَيْلان لم تجدْ ... عليّ لإنسانٍ من النّاس درهما
ولكّنني مَوْلى قضاعَة كلِّها ... فلستُ أُبالِي أن أدِين وتَغْرَما

وقال آخر:

إذا ما قضَيْت الدْين بالدْين لم يكن ... قضاءً ولكن كان غُرْماً على غُرْمِ

وقال سفيان الثوري: الدَّيْنُ هَمٌّ بالليل وذُلٌّ بالنهار، فإذا أراد الله أن يُذل عبداً جعله قلادةً في عُنقه.

ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً متقنّعاً، فقال له: كان لقمان الحكيم يقول: القناع رِيبة بالليل ذلٌّ بالنهار. فقال الرجل لقمان الحكيم لم يكن عليه دين.

وقال المقَنّع الكندي:

يُعاتِبُني في الدّيْن قومي وإنّما ... تَدايَنْت في أشياءَ تُكسِبُهم حَمْدا
إذا أكلوا لحمي وفَرْتُ لحومَهُم ... وإن هَدَموا مَجدي بنَيْتُ لهمْ مجدا

مجانبة الخلف والكذب

قال النبي ﷺ: «الكذبُ مُجانِبُ الإيمان».

وقالت الحكماء: ليس لكذّاب مروءة.

وقالوا: من عُرف بالكذب لم يجُزْ صِدْقه.

وقال النبي ﷺ: «لا يجوز الكذب في جدّ ولا هزل».

وقال: لا يكون المؤمن كذاباً.

وقال عبد الله بن عمر: خُلف الوعد ثلثُ النفاق.

وقال حبيب الطائي في عياش:

يـا أكثرَ وعْـداً حَشْـوُهُ خُلْـفٌ   وأكثرَ الناس قوْلاً حَشْـوُهُ كـذِبُ

ومن قولنا في هذا المعنى:

صحيفةٌ أُفنِيَـت ليْـتٌ بها وعسَـى   عُنـوانها راحـةُ الرّاجـي إذا يَئِسا
وعْدٌ له هاجِسٌ في القلبِ قد بَرِمَت   أحشاءُ صَدْري به من طول ما انحَبَسا
مَواعِدٌ غَرّنـي منهـا وميـضُ سَنـاً   حتى مَددْتُ إليها الكَفَّ مُقْتَبسـا [1]
فصادمتْ حجراً لو كنتَ تضرِبُـهُ   من لؤْمِهِ بعَصا مـوسى لما انْبجَسـا
كأنّما صِيغَ من بُخْلٍ ومن كـذبٍ   فكـان ذاك لـه رُوحـاً وذا نفَسـا

التنزه عن استماع الخنا والقول به

اعلم أنّ السامع شريك القائل في الشر؛ قال الله: ﴿سمّاعون للكذِب﴾ [2].

وقال العتبي: حدّثني أبي عن سعد القصير قال: نظر إليّ عمرو بن عتبة ورجل يشتم رجلاً بين يدي؛ فقال لي: ويلك! ـ وما قال لي «ويلك» قبلها ـ نَزِّهْ سَمْعَكَ عن استماع الخنا كما تُنَزِّهْ لسانك عن الكلام به؛ فإن السامع شريك القائل، وإنه عمد إلى شرِّ ما في وعائه فأفرغه في وعائك؛ ولو رُدَّت كلمة جاهلٍ في فيه لَسَعِدَ رادُّها كما شقِي قائلُها.

باب في الغلوِّ في الدين

تُوُفِّي رجل في عهد عمر بن ذَرّ ممن أسرف على نفسه في الذنوب، وجاوز في الطُّغيان، فتجافى الناس عن جنازته، فحضرهاعمر بن ذرّ وصلّى عليه، فلما أُدْلي في قبره قال: يرحمك الله أبا فلان، صحبتَ عُمرك بالتوحيد، وعَفرت [3] وجهَك لله بالسجود، فإن قالوا مذنب وذو خطايا، فمن مِنا غيرُ مذنب وذي خطايا.

(١) السنا: الضوء، والوميض: اللمعان ومقتبساً: طالباً ضوْءها.

(٢) سورة المائدة الآية ٤٢.

(٣) عفرت: مرّغت وأكثرت السجود.

ومن حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسَلين، فقال: ﴿يأيُّها الرُّسُلُ كلوا من الطيباتِ واعملوا صالحاً﴾ [1] وقال: ﴿يأيُّها الذين آمنوا كلوا من طيباتِ ما رزقناكم﴾ [2] ثم ذَكَرَ الرجل يُرى أشعثَ أغبرَ يَمُد يديه إلى السماء يقول: يا ربِّ يا ربِّ، ومطعُمه حرام ومشربُه حرام وملبسه حرام؛ فأنَّى يُستجابُ له؟».

قال النبي ﷺ: «إنّ الله بعثني بالحنيفية السمحة ولم يبعثني بالرَّهبانية المبتدعة، سُنَّتي الصلاة والنوم، والإفطار والصوم؛ فمن رَغِب عن سُنَّتي فليس مني».

وقال ﷺ: «إنّ هذا الدينَ متينٌ فأوْغِلْ [3] فيه برفق؛ فإنّ المُنبتَّ [4] لا أرضاً قطَعَ ولا ظهراً أبْقى».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: خير هذه الأمة هنا النَّمط الأوسط، يَرْجع إليهم الغالي ويلحقُ بهم التالي.

وقال مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير لابنه، وكان قد تعبّد: يا بُنَّي، إنّ الحسنة بين السيئتين - يعني الدين: بين الإفراط والتقصير - وخيرُ الأمور أوسطها، وشر السَّيْر الحَقْحَقة [5].

وقال سلمان الفارسي: القَصد والدَّوام، وأنت الجوادُ السابق.

وقالوا: عامِلُ البِرِّ كآكِلِ الطعام: إن أكل منه قوتاً عصَمَه، وإن أسرف منه أبشَمَه [6].

وفي بعض الحديث: أنّ عيسى بن مريم عليه السلام لقي رجلاً، فقال له: ما

(١) سورة المؤمنون الآية ٥١.
(٢) سورة البقرة الآية ١٧٢.
(٣) أوغل: تعمَّق الدخول فيه.
(٤) المنبتّ، المنقطع.
(٥) الحقحقة: أرفع السير وأتعبه للظهر.
(٦) أبشمة: أتخمه وكظّه.

تصنع؟ قال: أتعبّد. قال: فمن يعود عليك؟ قال: أخي. قال: هو أعبدُ منك.

ونظير هذا أنّ رُفْقةً من الأشعريِّين كانوا في سَفر، فلما قدموا قالوا: ما رأينا يا رسول الله بَعدَك أفضل من فلان؛ كان يصوم النهار، فإذا نزلنا قام من الليل حتى نرتحل. قال: فمن كان يَمهَنُ له ويَكفُلُه؟ قالوا: كلنا. قال: كلكم أفضلُ منه.

وقيل للزهري: ما الزهد في الدنيا؟ قال: إنه ما هو بتشعيث اللِّمّة، ولا قَشَفِ الهيئة، ولكنه ظَلَفُ[1] النفس عن الشهوة.

عليّ بن عاصم عن أبي إسحاق عن الشيباني قال: رأيت محمد بن الحنفية واقفاً بعرفات على بِرْذَوْن وعليه مُطْرفُ خَزّ أصفر.

السُّدِّيّ عن ابن جُريج عن عثمان بن أبي سليمان أنّ ابن عباس كان يرتدي رداء بألْف.

إسماعيل بن عبد الله بن جعفر عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ عليه ثوبان مصبوغان بالزعفران: رداءٌ وعمامة.

وقال معمر: رأيت قميص أيوب السختياني يكاد يَمسُّ الأرض، فسألته عن ذلك، فقال: إن الشُّهرة كانت فيما مضى في تذييل القميص وإنها اليوم في تشميره.

أبو حاتم عن الأصمعي: أن ابن عون اشترى بُرْنُساً. فمرّ على مُعاذة العدَويّة، فقالت: مِثْلُكَ يلْبُس هذا؟ فذكرتُ ذلك لابن سيرين، فقال: أفلا أخبرتَها أن تميما الدّاريّ اشترى حُلّةً بألف يُصلّي فيها!

قدم حمّاد بن سلمة البصرة، فجاءه فرْقدٌ السَّبَخِيُّ وعليه ثيابُ صوف، فقال له حماد: دعْ عنك نصرانيّتَك هذه! فقال له: لقد رأيتُنا ننظر إبراهيمَ فيخرج إلينا وعليه مُعَصْفَرة[2]، ونحن نرى أن المَيْتَة قد حلّت له.

---

(١) ظلف النفس: كفّها ومنعها.

(٢) المعصفرة: ثوب مصبوغ بالعصفر وهو نبات يصبغ به.

أبو الحسن المدائني قال: دخل محمد بن واسع على قُتيبة بن مسلم والي خُراسان في مِدْرعَةِ صوف، فقال له: ما يَدْعُوك إلى لباس هذه؟ فسكت! فقال له قتيبة: أُكلِّمُك فلا تُجيبني؟ قال: أكرهُ أن أقول زُهْداً فأزكِّيَ نفس، أو أقول فقراً فأشكو ربي؛ فما جوابك إلا السكوت.

قال ابن السماك لأصحاب الصوف: والله لئن كان لباسكم وفْقاً لسرائركم لقد أحببتم أن يطَّلع الناس عليها، وإن كان مخالفاً لقد هلكتم.

وكان القاسم بن محمد يلبس الخزَّ وسالمٌ بن عبد الله يلبس الصوف ويقعدان في مسجد المدينة؛ فلا يُنكر هذا على هذا ولا ذا على هذا.

ودخل رجل على محمد بن المُنكدر فوجده قاعداً على حشايا مُضاعفة وجارية تغلّفه بالغالية [1]؛ فقال: رحمك الله! جئت أسألك عن شيء وجدتك فيه - يريد التَّزيُّن - قال: على هذا أدركتُ الناس.

وصلّى الأعمش في مسجد قوم فأطال بهم الإمام، فلما فرغ قال له: يا هذا، لا تُطِل صلاتك؛ فإنه يكون خلفك ذو الحاجة والكبير والضعيف. قال الإمام: وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين. فقال له الأعمش: أنا رسولُ الخاشعين إليك، إنهم لا يحتاجون إلى هذا منك.

الربيع بن زياد وعلي في عاصم:

العتبي قال: أصابت الربيع بن زياد نُشّابة [2] في جبينه، فكانت تنتقض عليه كل عام. فأتاه عليّ بن أبي طالب عائداً، فقال: كيف تَجِدُك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: أجِدني لو كان لا يَذْهَبُ ما بي إلا بذهاب بصري لتمنيت ذهابه. قال: وما قيمة بصرك عندك؟ قال: لو كانت لي الدنيا فديتُه بها. قال: لا جَرَم، يُعطيك الله على

---

(١) الغالية: الطيب.

(٢) النشّابة: واحدة النشاب، وهو النبل.

قدر الدنيا، لو كانت لكَ لأنفقتَها في سبيل الله. إن الله يُعطي على قدر الألم والمصيبة، وعنده بعدُ تضعيفُ كثير.

وقال له الربيع: يا أمير المؤمنين، إني لأشكو إليك عاصم بن زياد. قال: وماله؟ قال: لبس العَباء، وترك المُلاء، وغمّ أهله، وأحزن ولدَه. قال: عليّ عاصماً. فلما أتاه، عبّس في وجهه، وقال: ويلك يا عاصم! أترى الله أباح لك اللذاتِ وهو يكره منك أخْذك منها؟ أنت أهونُ على الله من ذلك. أو ما سَمِعتهُ يقول: ﴿مَرَجَ البَحْرَيْن يلتَقِيان. بيْنَهُما بَرْزَخ لا يبغِيان﴾ [1] حتى قال: ﴿يَخْرُجُ مِنهُما اللُّؤْلُؤُ والمَرْجانُ﴾ [2]. وتالله لا بْتِذالُ نعم الله بالفِعال أحبُّ إليَّ من ابتذالها بالمقال، وقد سمعتُه يقول: ﴿وأمَّا بنِعْمَةِ ربِّك فحَدِّثْ﴾ [3] وقولَه: ﴿قلْ مَنْ حَرَّمَ زينةَ ٱللهِ التي أخْرَجَ لِعبادِهِ والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [4].

قال عاصم: فعلامَ اقتصرتَ أنت يا أمير المؤمنين على لُبْسِ الخشِنِ وأكْلِ الحشف [5]؟

قال: إن الله افترض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بالعوام، لئلا يَشْنُعَ [6] بالفقير فقْره.

قال: فما خرج حتى لبس المُلاءَ وترك العَباء.

النبي ﷺ وعبد الله ابن عمرو وقد شكته زوجه:

محمد بن حاطب الجُمي قال: حدّثني من سمع عمرو بن شعيب، وكنتُ سمعتُه أنا وأبي جميعاً، قال: حدّثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن عبد الله بن مسعود، قال: أتى رسول الله ﷺ ذات يوم أم عبد الله بن عَمْرو ابن العاص،

(١) سورة الرحمن الآية ٢٠.
(٢) سورة الرحمن الآية ٢٢.
(٣) سورة الضّحى الآية ١١.
(٤) سورة الأعراف الآية ٣٢.
(٥) الحشف: الخبز اليابس أو أردأ التمر.
(٦) يشنع: يقبح ويعظم.

وكانت امرأته تَلْطِفُ برسول الله ﷺ، فقال: كيف أنتِ يا أم عبد الله؟ قالت: كيف أكون وعبدُ الله بن عمرو رجلٌ قد تخلَّى من الدنيا! قال لها. كيف ذلك؟ قالت: حرّم النوم فلا ينام، ولا يفطر، ولا يطعَم اللحم، ولا يؤدِّي إلى أهله حقَّهم. قال: فأين هو؟ قالت: خَرَج ويُوشك أن يَرْجع الساعة. قال: فإذا رجع فاحبسيه عليّ. فخرج رسول الله ﷺ، وجاء عبد الله وأوشك رسول الله ﷺ في الرَّجعة، فقال يا عبد الله بن عمرو، ما هذا الذي بلغني عنك أنك لا تنام. قال: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: بلغني أنك لا تنام ولا تفطر. قال: أردتُ بذلك الأمنَ من الفزَع الأكبر. قال: وبلَغني أنك لا تطعم اللحم. قال: أردت بذلك ما هو خيرٌ منه في الجنة؟ قال: وبلغني أنك لا تؤدِّي إلى أهلك حقَّهم. قال: أردتُ بذلك نساءً هُنّ خيرٌ منهن. فقال رسول الله ﷺ: يا عبد الله بن عمرو، إن لك في رسول الله أسوة حسنة؛ فرسول الله يصومُ ويُفطر، ويأكل اللحم، ويؤدِّي إلى أهله حقوقهم. يا عبد الله بن عمرو، إن لله عليك حقاً، وإن لبدنك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً. فقال: يا رسول الله، ما تأمرني أن أصوم؟ خمسة أيام وأفطر يوماً؟ قال: لا. قال: فأصوم أربعة وأفطر يوماً؟ قال: لا. قال: فأصوم ثلاثة وأفطر يوماً؟ قال: لا. قال: فيومين وأفطر يوماً؟ قال: لا. قال: فيوماً؟

قال: ذلك صيام أخي داود. يا عبد الله بن عمرو؛ كيف بك إذا بقيت في حُثالة من الناس قد مَرِجَتْ[1] عهودُهم ومواثيقهم فكانوا هكذا؟ وخالف بين أصابعه. قال: فما تأمرني به يا رسول الله؟ قال: تأخذ ما تعْرِفُ وتَدَع ما تنكر، وتعمل بخاصة نفسك، وتدع الناس وعوام أمرِهم. قال: ثم أخذ بيده وجعل يمشي به حتى وضع يده في يد أبيه، وقال له: أطِعْ أباك.

فلما كان يوم صِفِّين قال له أبوه عمرو بن العاص: يا عبد الله، اخرُجْ فقاتِل. فقال: يا أبتاه، أتأمرني أن أخرج فأقاتل وقد سمعتُ من رسول الله ﷺ ما سمعتُ

---

(١) مرجت: فسدت.

وعهدَ إليّ ما عهد؟ قال: أنشدك الله، ألم يكنْ آخر ما قال لك أن أَخذَ بيدك فوضعها في يدي وقال: أطع أباك؟ قال: اللهم بلى. قال: فإني أعزم عليك فلتخرج فتقاتل، قال: فخرج فقاتل متقلِّداً بسيفين.

القول في القدَر

لمحمد بن المنكدر:

أتى قوم من أهل القدر محمدَ بن المنكدر، فقالوا له: أنت الذي تقول إن الله يعذّب الخلق على ما قَدّرَ عليهم؟ فصرف وجهه عنهم ولم يُجبهم، فقالوا له: أصلحك الله! إن كنتَ لا تُجيبنا فلا تُخْلِنا من بركة دعائك؛ فقال: اللهم لا تُرِدْنا بعقوبتك، ولا تمكرْ بنا في حيلتك، ولا تؤاخذنا بتقصيرنا عن رضاك، قليل أعمالِنا تَقْبَل، وعظيمَ خطايانا تَغْفِر، أنت الله الذ لم يكن شيءٌ قبلك، ولا يكون شيء بَعدك، ولي الأشياء، ترفع بالهدى من تشاء، لا مَن أحسَنَ استَغنى عن عَوْنك، ولا مَن أساء غَلَبك، ولا استبدّ شيء عن حكومتك وقدرتك، لا ملجأ إلا إليك؛ فكيف لنا بالمغفرة وليست إلا في يديك؟ وكيف لنا بالرحمة وليست إلا عندك؟ حفيظ لا يَنسى، وقديمٌ لا يَبْلَى، حيٌّ لا يموت؛ بك عَرَفناك، وبك اهتدْينا إليك، ولولا أنت لم نَدْرِ ما أنت، سبحانك وتعاليت.

فقال القوم: قد والله أخبر وما قصّر.

وقال: ذُكر القَدرُ في مجلس الحسن البصري، فقال: إنّ الله خلق الخلق للابتلاء، لم يُطيعوه بإكراه، ولم يعصوه بغَلَبة، لم يهملهم من الملك، وهو القادر على ما أقدَرَهم عليه، والمالِكُ لما مَلّكَهم إياه، فإن يأتمر العبادُ بطاعة الله لم يكن مثبّطاً لهم(١). بل يزيدهم هُدى إلى هداهم، وتقوى إلى تقواهم؛ وإن يأتمروا بمَعصية الله كان الله قادراً على صَرفهم إن شاء، وإن خَلّى بينهم وبين المعصية فمن بعد إعذار وإنذار.

---

(١) مثبِّطاً: مقلّلا من عزيمتهم.

غيلان وربيعة:

مروان بن موسى قال: حدّثنا أبو ضَمْرة أنّ غَيلان قَدِم بكلمة قد صاغها حتى وقف على ربيعة، فقال له: أنت الذي تزعمُ أنّ الله أحبّ أن يُعصَى؟ فقال له ربيعة: أنت الذي تزعم أن الله يُعْصَى كَرْهاً؟ فكأنما أَلْقَمَه حَجَراً.

قيل لطاووس: هذا قتادة يُحب أن يأتيك. فقال: إن جاء لأقومنّ. قيل له: إنه فقيه. قال: إبليس أفقه منه. قال: ﴿ربِّ بما أغوَيتَني﴾ [١].

وقيل للشعبي: رأيت قتادة؟ قال: نعم. رأيت كُناسة بين حشَّيْن [٢].

القَدَر هو العلم والكتاب والكلمة والإذْن والمشيئة.

قال الأصمعي: سألت أعرابياً فقلت له: ما فضل بني فلان على بني غلان؟ قال: الكتاب، يعني القدَر.

وقال الله عز وجل: ﴿إنّا كلَّ شيءٍ خَلَقْناهُ بقَدَر﴾ [٣]. وقال: ﴿كلٌّ في كِتابٍ مُبين﴾ [٤]. وقال: ﴿ولقدْ سَبَقَتْ كلِمَتُنا لعبادِنا المُرْسَلين﴾ [٥]. يعني القدر، وقال: ﴿ولوْلا كلمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبّك لكانَ لِزاماً﴾ [٦].

للخشني في الأعشى ولبيد:

قال الخُشني أبو عبد الله محمد بن عبد السلام: شاعران من فحول الجاهلية ذهب أحدهما في بيته مذهب العَدْلِيَّةِ والآخر ذَهَب مذهب الجَبْريّة، فالذي ذهب مذهب العدلية فأعشى بكر حيث يقول:

---

(١) سورة الحجر الآية ٣٩.
(٢) الحشّ: موضع قضاء الحاجة.
(٣) سورة القمر الآية ٤٩.
(٤) سورة هود الآية ٦.
(٥) سورة الصافات الآية ١٧١.
(٦) سورة طه الآية ١٢٩.

استأثَرَ اللهُ بالوفاءِ وبالعـدْلِ وولّى المَلامَةَ الرجُلا

والذي ذهب مذهب الجَبرية فلبيد بن ربيعة حيث يقول:

إنَّ تقوى ربِّنا خيْرُ نَفَلْ وبإذْنِ اللهِ رَيْثٌ وعَجَلْ
مَن هَداه سُبل الخيْرِ آهتدى ناعِمَ البالِ ومَن شاءَ أضلّ

لإياس بن معاوية:

وقال إياس بن معاوية: كلمت الفِرَق كلّها ببعض عقلي، وكلمت القَدَرِيَّ بعقلي كلِّه، فقلت له: دُخولَك فيما ليس لك ظلم منك؟ قال: نعم. قلت: فإن الأمر كله لله.

ومن قول الله عز وجل في القدر: ﴿قُلْ فلِلهِ الحُجَّةُ البالِغَةُ فلَوْ شاءَ لهدَاكُمْ أجْمَعِين﴾ [1]. وقال: ﴿يَمُنُّونَ عليك أن أسْلَموا قُلْ لا تَمُنُّوا علَيَّ إسْلامَكُمْ بلِ اللهُ يَمُنُّ عليكم أنْ هَداكُمْ للإيمانِ إن كنتُمْ صادقِين﴾ [2].

ابن شِهاب قال: أنزل الله على نبيه آيةً في القَدَرية: ﴿الَّذينَ قالوا لإخوانِهِم وقَعَدُوا لو أطاعونا ما قُتِلوا قلْ فادْرَءُوا عن أنْفِسكُمُ المَوْتَ إنْ كنْتُمْ صادقين﴾ [3] وقال: ﴿قُلْ لو كنْتم في بُيوتِكُمْ لبَرَزَ الَّذين كُتِب عليهمُ القَتْلُ إلى مَضاجعِهِم﴾ [4].

وقال محمد بن سيرين: ما يُنكر القدرية أن يكون الله عَلِمَ من خلْقه عِلماً فكتبه عليهم.

وقال رجل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما تقول في القَدَر؟ قال: ويحك! أخبرني عن رحمة الله، أكانت قبل طاعة العباد؟ قال: نعم قال عليٌّ: أسلم صاحبُكم وقد كان كافراً. فقال الرجل له: أليس بالمشيئة الأولى التي أنشأني بها أَقوم وأَقعد،

(١) سورة الأنعام الآية ١٤٩.
(٢) سورة الحجرات الآية ١٧.
(٣) سورة آل عمران الآية ١٦٨. (٤) سورة آل عمران الآية ١٥٤.

وأَقبض وأبسط؟ قال له علي: إنك بَعد في المشيئة أما إني أسألك عن ثلاث، فإن قلت في واحدة منهن: لا، كَفرْت؛ وإن قلت: نعم، فأنت أنت. فمدّ القوم أعناقهم ليسمعوا ما يقول؛ فقال له علي: أخبِرْني عنك، أخلَقَك الله كما شئت أو كما شاء؟ قال: بل كما شاء. قال: فخلقك الله لِمَا شئت أو لما شاء؟ قال: بل لما شاء. قال فيَوْم القيامة تأتيه بما شئت أو بما شاء؟ قال: بل بما شاء، قال: قم فلا مشيئة لك.

هشام وغيلان والأوزاعي:

قال هشام بن محمد السائب الكلْبي: كان هشام بن عبد الله قد أَنكر على غيلان التكلم في القدَر، وتقدّم إليه في ذلك أشدَّ التقدم، وقال له في بعض ما تَوعَّده به من الكلام: ما أحسبك تنتهي حتى تنزل بك دعوة عمر بن عبد العزيز إذ احتجَّ عليك في المشيئة بقول الله عز وجل: ﴿وما تَشاؤُونَ إلا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾[1] فزعمت أنك لم تُلْق لها بالاً. فقال عمر: اللهم إن كان كاذباً فاقطع يده ورجله ولسانَه، واضربْ عُنُقه. فانتَهِ أوْلى لك، ودع عنك ما ضرُّه إليك أقرَبُ من نفعه. فقال له غَيلان، لحيْنِه وشِقْوتِه: ٱبعث إليّ يا أمير المؤمنين مَن يُكلمني ويحتجُّ عليَّ، فإن أخذته حُجتي أمسكت عني فلا سبيل لك إليّ، وإن أخذتْني حجتُه فسألتك بالذي أكرمك بالخلافة إلا نَفَّذْت فيَّ ما دعا به عمر عليّ. فغاظ قوله هشاماً. فبعث إلى الأوزاعي فحكى له ما قال لغيلان وما رَدَّ غيلان عليه؛ فالتفت إليه الأوزاعي فقال له: أسألك عن خمس أو ثلاث؟ فقال غَيلان؛ عن ثلاث. قال الأوزاعي: هل علمت أن الله أعان على ما حَرَّم؟ قال غيلان: ما علمت وعظُمَتْ عنده. قال: فهل علمت أن الله قَضى على ما نَهى؟ قال غيلان: هذه أعظم، مالي بهذا من علم. قال: فهل علمت أن الله حال دون ما أَمَر؟ قال غيلان: حال دون ما أَمَر؟ ما علمت. قال الأوزاعي: هذا مرتاب من أهل الزَّيغ. فأمر هشام بقطع يده ورجله، ثم ألقى به في الكُناسة. فاحتَوَشَه[2] الناس يعجبون من عظيم ما أنزل الله به من نِقْمته. ثم أقبل رجلٌ كان كثيراً ما يُنكر عليه

(١) سورة الإنسان الآية ٣٠.

(٢) احتوشه الناس: أي جعلوه وسطهم.

المتكلم في القدر، فتخلل الناس حتى وصل إليه، فقال: يـا غيلان، اذكر دُعاء عمر. فقال غيلان: أفلح إذاً هشام، إن كان الذي نزل بي دعاء عمر أو بقضاءٍ سابق فإنه لا حَرج على هشام فيما أمر به فبلَغتْ كلمتُه هشاماً، فأمر بقطع لسانه وضرْب عُنقه، لتمام دعوة عمر. ثم التفت هشام إلى الأوزاعي وقال له قد قلت يا أبا عمرو ففسِّر، فقال: نعم؛ قَضى على ما نَهى عنه: نهى آدم عن أكل الشجرة، وقَضى عليه بأكلها. وحال دون ما أَمر، أمر إبليس بالسجود لآدم وحال بينه وبين ذلك. وأعان على ما حرَّم، حرّم الميتة وأعان المضطر على أكلها.

ابن أبي عروبة وقتادة:

الرياشيّ عن سعيد بن عامر عن جُويرية عن سعيد بن أبي عَروبة قال: لما سألت قتادة عن القدر قال: رَأْيَ العرب تريد أم رأي العجم؟ فقلت: بل رأي العرب. قال: فإنه لم يكن أحدٌ من العرب إلا وهو يُثبت القدر، وأنشد:

ما كان قَطْعِي هـوْلَ كـلِّ تَنـوفـةٍ ... إلاّ كِتـابـاً قـد خلا مسْطـورَا[1]

وقال أعرابيّ: الناظر في قدر الله كالناظر في عين الشمس، يعرف ضَوْءها ولا يختم على حدودها.

وقال: كعب بن زُهير:

لو كنتُ أَعجبُ من شيءٍ لأعجبَني ... سعْيُ الفتى وهْـو مخبوءٌ لـه القـدَرُ
يسعى الفتى لأُمورٍ ليس يُـدركهـا ... فـالنفس واحــدةٌ والهمُ مُنتشِــرُ
والمرءُ مـا عـاش ممدودٌ لـه أمــلٌ ... لا تنتهي العيْنُ حتى ينتهي الأثـرُ

وقال آخر:

والجِدُّ أنْهـض بـالفتى مـن عقلــهِ ... فـانهَضْ بجـدٍّ في الحوادثِ أوْ ذَرِ
ما أَقـربَ الأشيـاءَ حين يسـوقُهـا ... قَـدَرٌ وأبعــدَهــا إذا لم تُقْــدر

---

(١) التنوفة: الأرض الواسعة التي لا ماء فيها ولا إنسان.

بين النبي ﷺ وقدري:

عبد الرحمن القصير قال: حدّثنا يونس بن بلال عن يزيد بن أبي حبيب أنّ رجلاً قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، أيُقدِّر الله عليَّ الشرَّ ثم يعذّبني عليه؟ قال: «نعم. وأنت أظلم».

وحدّثني أبو عبد الرحمن المقري، يرفعه إلى أبي هريرة، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «لا تجالسوا أهل القدَر ولا تُفاتحوهم».

ومن حديث عبد الله بن مسعود، قال: ما كان كفرٌ بعد نُبُوَّةٍ قط إلا كان مفتاحَه التكذيب بالقدر.

أبو العتاهية وابن أشرس بين يدي المأمون:

ثمامة بن أشرس قال: دخل أبو العتاهية على المأمون لما قدم العراق، فأمر له بمال وجعل يُحادثه، فقال له يوماً: ما في الناس أجهلُ من القدَرِيَّة. فقال له المأمون: أنت بصناعتك أبْصَر، فلا تتخطاها إلى غيرها. قال له: يا أمير المؤمنين، اَجمع وبين من شئت منهم. فأرسل إليّ، فدخلت عليه، فقال لي: هذا يزعُم أنك وأصحابَك لا حُجَّةَ عندكم. قلت: فليسأل عما بدا له. فحرّك أبو العتاهية يدَه وقال: من حرَّك هذه؟ قلت: مَن ناك أُمَّه! فقال: يا أمير المؤمنين، شتمني. قلت له: نَقضْتَ أصلَك يا ماص بَظْر أُمِّه! فضحك المأمون. فقلت له: يا جاهل! تحرِّك يدك ثم تقول: من حرّكها؟ فإن كان الله حرّكها فلم أشتمك؛ وإن كنت أنت المحرِّكَ لها فهو قولي. قال له المأمون: عندك زيادة في المسألة.

قال الكِندي في الفن التاسع من التوحيد: اعلم أنّ العالم كله مَسُوسٌ بالقضاء والقدر ـ أعْني بالقضاء ـ ما قُسِم لكل معلول مما هو أصلح وأحكم، وأتقَنُ في بنية الكل، لأنه جَلّ ثناؤه خلق وأبدع مضطراً ومختاراً بتمام القدرة، فلما كان المختار غير تام الحكمة؛ لأنّ تمام الحكمة لِمُبدع الكل، كان لو أُطلق واختيارَه لآختار كثيراً مما

فيه فسادُ الكل، فقدّرَ جل ثناؤه بِنيةً للكل تقديراً مُحكماً، فصيّر بعضَه سوانح لبعض[1]، يختار بإرادته ومشيئته غيرَ مقهور مما هو أصلح وأحكم في بنية الكل؛ فتقدير هذه السوانح هو القدر. فبالقضاء والقدَر ساسَ جلّ ثناؤه جميعَ ما أبدع، فهذه السياسة المحكمة المُتْقَنَةُ التي لا يدخلها زلل ولا نقص. فاتضح أنّ كل معلول فيما قسَم له ربُّه من الأحوال لا خارجٌ عنها، وأنّ بعضَ ذلك بٱضطرار وبعضَه بٱختيار، وأن المختار عن سوانحِ قدَرِه اختار، وبإرادته لا بالكُرْهِ منه فعَل.

سئل أعرابيّ عن القدر فقال: ذاك علم اختصمتْ فيه الظنون، وكثر فيه المختلفون، والواجب علينا أن نردَّ ما أشكَلَ من حُكمه إلى ما سبق من علمه.

واصطحب مجوسيٌّ وقدَري في سفر، فقال القدَري للمجوسي: مالك لا تُسلم قال: إن أذِنَ اللهُ في ذلك كان. قال: إنّ الله قد أذن، إلا أن الشيطانَ لا يَدَعُك. قال: فأنا مع أقواهما.

وقال رجل لهشام بن الحكم: أنت تزعم أنّ الله في فضله وكرمه وعدله كلّفنا ما لا نُطِيقه ثم يعذّبنا عليه؟ قال هشام: قد واللهِ فعَلَ، ولكن لا نستطيع أن نتكلم.

عمر بن عبيد وابن مسكين:

اجتمع عمرو بن عُبيد مع الحارث بن مِسكين بمنًى، فقال له: إنّ مِثلي ومثلك لا يجتمعان في مثل هذا الموضع فيفترقان من غير فائدة؛ فإن شئتَ فقل، وإن شئت فأنا أقول. قال له: قل. قال: هل تعلم أحداً أقْبَلَ للعذر من الله عز وجل؟ قال: لا. قال: فهل تعلم عُذراً أبْيَنَ من عُذر مَن قال «لا أقدِر» فيما تعلم أنت أنه لا يقدِر عليه؟ قال: فلِمَ لا يَقبل؟ من لا أقبل للعذر منه، عُذر مَن لا أبْيَنُ من عُذره؟ فانقطع الحارث بن مسكين فلم يردّ شيئاً.

---

(١) السوانح: الفرص.

ردّ المأمون على الملحدين وأهل الأهواء

قال المأمون للثَّنوي الذي تكلم عنده: أسألك عن حرفين لا أزيد عليهما: هل نَدم مُسيءقط على إساءته؟ قال: بلى. قال: فالندم على الإساءة إساءة أم إحسان؟ قال: بل إحسان. قال: فالذي نَدِم هو الذي أساءَ أم هو غيرُه؟ قال: بل هو الذي أساء. قال: فأرى صاحب الخير هو صاحب الشرّ قال: فإني أقول: الذي نَدِمَ غيرُ الذي أساء. قال: فنَدِم على شيء كان منه أم على شيء كان من غيره. فسكت.

وقال له أيضاً: أخبرني عن قولك باثنين، هل يستطيع أحدهما أن يخلق خلقاً لا يستعين فيه بصاحبه؟ قال: نعم. قال: فما تصنع باثنين؟ واحدٌ يَخلق كل شيء خير لك وأصحّ.

وقال المأمون للمرتدّ الخراساني الذي أسلم على يديه وحملَه معه إلى العراق فارتدّ عن الإسلام، أخبرْني: ما الذي أوحشك مما كنت به آنِساً مِن ديننا؟ فوالله لأن أَستحْييك بحق أحبُّ إليّ من أن أقتلَك بحق، وقد صرتَ مُسلماً بعد أن كنتَ كافراً، ثم عدت كافراً بعد أن صرت مُسلماً. فإن وجدتَ عندنا دواء لدائك تداويتَ به، وإن أخطأك الشفاء ونبا عليك الدواء، كنت قد أبْليْت العُذر في نفسك ولم تُقصِّر في الاجتهاد لها، فإن قتلناك قتلناكَ في الشريعة، وترجع أنت في نفسك إلى الاستبصار واليقين ولم تُفَرِّط في الدخول من باب الحزم. قال المرتد: أوْحَشَني منكم ما رأيتُ من الاختلاف في دينكم. قال المأمون: لنا اختلافان: أحدهما كاختلافنا في الأذان، والتكبير في الجنائز، وصلاة العيدين والتشهد، والتسليم من الصلاة، ووجوه القراءات، واختلاف وجوه الفُتْيا، وما أشبه ذلك؛ وهذا ليس باختلاف، وإنما هو تخيير وتوْسِعَة وتخفيف من السُنَّة؛ فمن أذن مثْنَى وأقام مثْنَى لم يأثمْ، ومن ربَّع لم يأثم. والاختلاف الآخر كنحو آختلافِنا في تأويل الآية من كتاب الله، وتأويل الحديث عن نبينا، مع اجتماعنا على أصل التنزيل، وآتفاقنا على عيْن الخبر؛ فإن كان إنما أوحشك هذا فينبغي أن يكون اللفظُ بجميع التوراة والإنجيل مُتَّفَقاً على تأويله كما

يكون مُتَّفَقاً على تنزيله، ولا يكون بين اليهود والنصارى اختلافٌ في شيء من التأويلات ولو شاء اللهُ أن يُنْزل كتبَه مُفسرة، ويجعل كلام أنبيائه ورسله لا يُخْتَلفُ في تأويله لفَعلَ؛ ولكنّا لم نجد شيئاً من أمور الدين والدُّنيا وقع إلينا على الكفاية إلا مع طول البحث والتَّحصيل والنظر، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمِحَن، وذهب التفاضل والتبايُن، ولما عُرِف الحازمُ من العاجز، ولا الجاهلُ من العالم، وليس على هذا بُنيت الدنيا. قال المرتد: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن المسيح عبدُ الله، وأن محمداً صادق، وأنك أمير المؤمنين.

بينه وبين علي ابن موسى:

وقال المأمون لعليٍّ بن موسى الرِّضا: بِمَ تدَّعون هذا الأمر. قال: بقرابة عليّ من رسول الله ﷺ وبقرابة فاطمة منه. فقال له المأمون: إن لم يكن ها هنا إلا القرابة فقد خلَف رسول الله ﷺ مِن أهل بيته، من كان أقربَ إليه من علي أو مَن في مثل قُعْدده[1]، وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله ﷺ، فإن الحق بعد فاطمة للحَسَن والحُسين، وليس لِعليّ في هذا الأمر حقّ وهما حَيَّان، فإذا كان الأمر كذلك فإن عليا قد ابتزَّهما حقَّهما وهما صحيحان، واستولى على ما لا يَجبُ له.

فما أجابه عليّ بن موسى بشيء.

من واصل إلى ابن عبيد:

كتب واصل بن عطاء الغزّال إلى عمرو بن عُبيد:

أما بعد، فإن استلاب نعمة العبد بيد الله، وتعجيل المعاقبة بيد الله، ومهما يكن ذلك فباستكمال الآثام، والمجاورة للجدال الذي يحول بين المرء وقلبه، وقد عرفتَ ما كان يُطْعَنُ به عليك ويُنْسب إليك ونحن بين ظهراني الحَسن بن أبي الحسن رحمه الله، لاستِبشاع قُبْحِ مذْهَبِك، نحن ومن قد عرفتَهُ من جميع أصحابنا، ولَمَّة[2] إخواننا

---

(١) القعدد: قرب النسب. (٢) لمة: جماعة.

الحاملين الواعين عن الحسن؛ فـلله تلكـم لُمَّةٍ وأوعياء وحفَظة، ما أدْمَتَ الطبائع [1]، وأرْزَنَ المجالس، وأبْين الزُّهد وأصدَق الألسنة، اقْتَدوْا واللهِ بمن مضى شهابهم، وأخذوا بهديهم؟ عهدي والله بالحسن وعهدُهـم أمسِ في مسجـد رسـول الله ﷺ بشرقي الأجنحة، وآخِرُ حديث حدّثنا إذْ ذكر الموت وهَولَ المطلع، فأسِف على نفسه واعترف بذنبه، ثم التفت والله يَمنة ويسرة معتبراً باكياً؛ فكأني أنظر إليه يمسح مُرْفضَّ العَرقِ عن جبينه، ثم قال: اللهم إني قد شددتُ وضينَ[2] راحلتي، وأخذتُ في أهْبَةِ سفري إلى محل القبر وفرْش العَفْر [3]، فلا تؤاخذْني بما يَنْسُبُون إليَّ من بعْدي. اللهم إني قد بلَّغت ما بلَغني عن رسولك، وفسَّرت من محكم تأويلك ما قد صدَّقه حديثُ نبيك؛ ألا وإني خائف عمْراً! ألا وإني خائف عَمراً! شكايةً لك إلى ربِّه جهراً، وأنت عن يمين أبي حذيفة أقرَبُنا إليه؛ وقد بلغني كبيرُ ما حَمَّلتهُ نفْسك، وقلَّدْتهُ عُنقك، من تفسير التنزيل، وعبارة التأويل؛ ثم نظرتُ في كتبك، وما أدّته إلينا روايتك من تنقيص المعاني، وتفريق المباني، فدلَّت شكايةُ الحسن عليك بالتحقيق بظهور ما ابتدعت، وعظيمِ ما تحمَّلت؛ فلا يغررْك أي أخي تدبيرُ مَن حوْلك، وتعظيمُهم طَوْلَك [4]، وخفضُهم أعيُنَهم عنك إجلالاً لك، غداً والله تمضي الخُيلاءُ والتفاخُر، وتُجْزَى كلُّ نفس بما تسعى. ولم يكن كتابي إليك، وتَجليبي عليك، إلا ليُذكِّرَك بحديث الحسن رحمه الله، وهو آخِرُ حديث حدّثناه. فأدِّ المسموع وآنطق بالمفروض، ودع تأويلَك الأحاديث على غير وجهها، وكن من الله وجِلاً [5] فكأن قد.

ما جاء في ذم الحمق والجهل

قال النبي ﷺ «الجاهل يظلم من خالطَه، ويَعتدي على من هو دونه، ويتطاول على مَن هو فوقه، ويتكلّم بغير تمييز، وإن رأى كريمة أعرض عنها، وإنْ عَرَضَتْ فتْنَةٌ أرْدَتْهُ وتهوَّر فيها».

---

(١) أدمت الطبائع: ألينها وأسهلها.

(٢) الوضين: ما يوضع على ظهر الدابة تحت السرج وغيره.

(٣) العفر: وجه الأرض، التراب.

(٤) الطول: القوة والبسطة.

(٥) الوجل: الخوف.

وقال أبو الدَّرداء: علامة الجاهل ثلاث: العُجْب، وكثرةُ المنطق، وأن ينهى عن شيء ويأتيه.

وقال أرْدشير: حسبكم دلالةً على عيب الجاهل أنّ كل الناس تنفر منه وتغضب من أن تُنسب إليه.

وكان يقال: لا تغررك من الجاهل قرابةٌ ولا أُخوَّةٌ ولا إلف؛ فإنّ أحقّ الناس بتحريق النار أقربُهم منها.

وقيل: خَصلتان تُقرِّبانك من الأحمق: كثرة الالتفات، وسُرعة الجواب.

وقيل: لا تصطحب الجاهل، فإنه يريد أن ينفعك فيضرّك.

ولبعضهم:

لكـلِّ داءٍ دواءٌ يُسْتطَـبُّ بِـه ... إلاّ الحماقَـةَ أعْيتْ مَن يُـدَاويها

ولأبي العتاهية:

آحـذَرِ الأحْمَقَ أن تصحَبَـهُ ... إنّما الأحْمَـقُ كـالثَّـوْبِ الخلَـقْ

كلّما رقَّعْتَـهُ مـن جـانِـبٍ ... زعْـزَعتْـهُ الرِّيـحُ يـوماً فـانخَرَقْ

أو كصَـدْعٍ في زُجـاج فـاحِشٍ ... هل تَرى صَـدْعَ زُجـاجٍ يلْتَصِـقْ

فـإذا عـاتبْتَـهُ كـي يَـرْعَـوي ... زاد شرّاً وتَمادَى في الحُمُـق

أصناف الإخوان

قال العتابي: الإخوان ثلاثة أصناف: فرْع بائن من أصله، وأصل متَّصل بفرعه، وفَرع ليس له أصل. فأما الفرع البائن من أصله، فإخاء بُنِي على مودّة ثم آنقطعت فُحفظ على ذمام الصُّحبة. وأما الأصل المتصل بفَرعه، فإخاء أصله الكرم وأغصانه التقوى. وأما الفرع الذي لا أصل له، فالمُمَوَّهُ الظاهر الذي ليس له باطن.

وقال النبي ﷺ: «الصاحبُ رُقْعة في قميصك فانظر بِمَ تَرْقعُه».

وقالوا: من علامة الصديق أن يكون لصديق صدِيقه صديقاً، ولعَدُوِّه عدَوّاً.

وفد دِحية الكلبي على عليّ رضي الله عنه، فما زال يذكر معاوية ويُطريه في مجلسه؛ فقال عليّ عليه السلام:

صديقُ عدُوِّي داخِلٌ في عداوَتي   وإنّي لِمَنْ ودَّ الصديقَ ودُودُ
فلا تقْرَبَنْ مِنّي وأَنتَ صديقُه   فإنَّ الّذي بيْنَ القُلوب بعيدُ

وفي هذا المعنى قول العتّابي:

تَوَدُّ عدوّي ثم تَزْعُمُ أنّني   صديقُكَ إنّ الرأيَ عنك لعازِبُ
وليس أخي مَن ودَّني رأْيَ عينِه   ولكنْ أخي مَن ودَّني وهْو غائبُ

وقال آخر:

ليس الصديقُ الذي إنْ زَلَّ صاحِبُهُ   يوماً رأى الذنْبَ منه غيرَ مغفورِ
وإن أضاع له حَقّاً فعاتَبَهُ   فيه أتاه بتَزويق المعاذيرِ
إنّ الصديق الذي ألقاه يَعْذِرُ لي   ما ليس صاحبُهُ فيه بمعذور

وقال آخر:

كم من أخٍ لك لم يلِدْه أبوكا   وأخٍ أبوه أبوك قد يجفوكا
صافِ الكرامَ إذا أردتَ إخاءَهم   واعلَمْ بأنّ أخا الحِفاظِ أخوكا
والناسُ ما استغنيْتَ كنت أخاهُمُ   وإذا افتقرتَ إليهمُ رفَضُوكا

وقال بعضهم:

أخوك الذي إن قمتَ بالسيفِ عامِداً   لِتضربَه لم يستغِشَّك في الوُدِّ
ولوْ جئتَ تبغي كفَّهُ لِتُبينَها   لَبادَرَ إشفاقاً عليك من الردِّ
يَرى أنه في الوُدِّ كان مقصِّراً   على أنّه قد زادَ فيه على الجهدِ

وقال آخر:

إن كنتَ متَّخذاً خليلاً   فتنَقَّ وانتقد الخليلا (١)

---

(١) الخليل: الصاحب، وتنقّ: اختر.

مَــن لم يكــن لــك مُنصِفــاً في الوُدِّ فــابْــغِ بــه بَــديلاَ
ولَقلَّما تَلْقَـــى الليئـ ـــمَ عليـــك إلاّ مُستطيلا[1]

وللعَطَويّ:

صُنِ الوُدَّ إلاّ عــن الأكــرمِين ومَــن بمؤاخــاتِــهِ تشْــرُفُ
ولا تَغْتَــرِرْ مـــن ذوي خَلَّــةٍ بما مَوَّهــوا لــك أو زَخــرَفــوا
فكــم مِــن أخٍ ظــاهــرٍ وُدُّه ضميرُ مَــودَّتِــه أَجْيَــف[2]
إذا أنــت عــاتبْتَــه في الإخــا ءِ تُنكِــرُ منــه الذي تَعــرفُ

وكتب العباس بن جرير إلى الحسن بن مخلد:

إرْعَ الإخــاء أبــا مُحمَّـ ـدَ للــذي يَصفـو وَصُنْـهُ
وإذا رأيــت مُنــافســاً في نَيْـل مَكْـرُمَـةٍ فكُنــه
إنَ الصَّــديــق هــوَ الذي يَرعاك حيث تَغيــب عنه
فــإذا كَشَفْــت إخــاءهُ أحدْثَ مـا كشَّفـتَ عنـه
مثـل الحُسـام إذا انْتضـا هُ أخو الحفيظة لم يَخُنه[3]
يسعـى لِمَـا تَسعــى لــه كَــرَمــاً وإن لم تستعنــه

ولآخر:

خيْــرُ إخــوانِــك المشــارِكُ في المُــ ــرِ وأيــن الشريــكُ في المُرِّ أينــا
الذي إن شَهِـــدْت زادك في السِـ ــرّ وإن غِبْــت كــان أُذْنــاً وعَيْنــاً

ولآخر:

ومـــن البلاء أخٌ جِنـــايتُــــه عَلَــقٌ بنــا ولغيْــرِنــا سَلَبُــه[4]

وقال آخر:

---

(١) مستطيلاً: متطاولاً.

(٢) أجيف: منتن. (٣) انتضاه: شهره.

(٤) علق بنا: نتحمّل إصرها.

إذا رأيتُ انحرافاً من أخي ثقةٍ ضاقت عليَّ برحْب الأرض أوطاني
فإن صَددْتُ بوجهي كي أُكافئهُ فالعيْنُ غَضْبى وقلْبي غيْرُ غضبانِ

وكتب بعضهم إلى محمد بن بشار:

من لم يُردِك فلا تُرِدْ هُ وكن كمن لم تستفِدْهُ
باعد أخاك لبُعْدِه وإذا دنا شبْراً فزدْهُ
كم من أخٍ لك يا بن بَشَّارٍ وأُمُّك لم تَلِدْه
وأخي مُناسَبةٍ يسو ءُك عيْبُه لم تفتقِدْه

فأجابه محمد بن بشار:

غَلِط الفتَى في قوله من لم يُرِدْك فلا تُرِدْه
مَن نافسَ الإخوانَ لم يُبْدِ العِتابَ ولم يُعِدْهُ
عاتبْ أخاك إذا هَفا واعطِفْ بوُدِّك واستعِدْهُ[1]
وإذا أتاك بعيْبِه واشٍ فقل لمْ تَعْتمِدْهُ

ومما يستجلب الإخاء والمودة ولين الكلمة

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: من لانَتْ كلمتُه وجبت محبتُه.

ويُنشَد:

«كيف أَصبحْتَ كيف أمسيْت» ممّا يُنْبِتُ الوُدَّ في فُؤادِ الكريمِ

وعلى الصديق ألاّ يلقَى صديقه إلا بما يُحب، ولا يؤذي جليسَه فيما هو عنه بمعزل، ولا يأتيَ بما يَعيب مثله، ولا يَعيب ما يأتي شكلَه.

وقد قال المتوكل اللّيثي:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأْتيَ مثلَهُ عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ

---

(١) هفا: زلّ وأخطأ.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ثلاثٌ يثبتن لك الوُدَّ في صدر أخيك: أن تبدأه بالسلام، وتوسع له في المجلس، وتدعوَه بأحبِّ الأسماء إليه.

وقال: ليس شيء أَبْلغَ في خير ولا شرّ من صاحب.

وقال الشاعر:

إن كنتَ تَبغي المرءَ أو أصلَه ... وشاهداً يُخبِرُ عن غائبِ
فاعتبر الأرض بأشباهها ... واعتَبرِ الصاحبَ بالصاحبِ

لعدي بن زيد:

عن المرءِ لا تَسأَلْ وأبصِرْ قرينَه ... فكل قرين بالمُقارن يَقتدي [1]

ولعمرو بن جَميل التَّغلبي:

سأَصبرُ من صديقي إنْ جَفاني ... على كلّ الأذى إلاّ الهوانا [2]
فإنّ الحُرَّ يأنَف في خَلاءٍ ... وإنْ حَضَر الجماعةَ أن يُهانا

بين مطيع وخاطب مودة:

قال رجل لمُطيع بن إياس: جئتك خاطباً مودتك. فقال له: قد زوجتُك، على شرط أن تجعل صَداقَها ألاّ تسمع فيّ مقالة الناس.

ويقال في المثل: من لم يَزْدَردِ الريقَ [3] لم يَستكثر من الصديق.

وما أحسن ما قال إبراهيم بن عباس:

يا صديقي الذي بَذَلت لَهُ الوُ ... دَّ وأنزلتُه على أحشائي
إنَّ عيْناً أقْذيتَها لتراعيـ ... ـك على ما بها من الأقْذاءِ [4]
ما بها حاجةٌ إليك ولكنْ ... هيَ مَعقودَةٌ بحبْلِ الوفاءِ

---

(١) القرين: الصاحب. (٢) الهوان: المذلة والاحتقار.

(٣) يزدرد الرّيق: كناية عن الصبر والتحمل.

(٤) القذى: ما يقع في العين من أذىً.

ولابن أبي حازم:

ارْضَ مِـن المرءِ في مـودَّتِـه ... بما يُـؤدِّي إليـك ظـاهـرُهُ
مـن يكشِفِ النـاس لم يجد أحـداً ... تَصـحُّ منـه لـه سَـرائِـرُهُ
يُـوشِـكُ ألاّ تُتمَّ وَصْـلَ أخٍ ... في كـلِّ زلاّتِـه تُنـافِـرُه
إنْ ساءَني صاحبي احتمَلْت وإنْ ... سَـرَّ فـإني أخـوهُ شـاكـرُهُ
أَصفح عـن ذنبِـه وإن طَلَـب الـ ... ـعـذر فـإني عليـه عـاذِرُهُ

ولغيره:

إنّـي إذا أبطـأتُ عنـك فلمْ أزل ... لأحـداثِ دهْـرٍ لا يـزال يعـوقُ
لقد أَصبحَتْ نفْسي عليك شفيقةً ... ومِثلي على أهـلِ الوفـاءِ شفيـقُ
أُسَـرُّ بما فيـه سُـرورُك إنّني ... جدير بمكْنونِ الإخـاءِ حقيـقُ[1]
عدوٌّ لِمَـنْ عـاديْـتَ سَلْمٌ مُسـالمٌ ... لكلِّ امريءٍ يَهوى هَواك صديـقُ

ولأبي عبد الله بن عُرْفة:

هُمـومُ رجـالٍ في أُمـورٍ كثيرةٍ ... وهَمِّي منَ الدُّنيا صديقٌ مُساعـدُ
يكون كروحٍ بين جسميْنِ فُـرِّقـا ... فجسـاهُما جسمان والرُّوحُ واحـدُ

وقال بعض الحكماء: الإخاء جوهرة رقيقة، وهي ما لم تُوقِّها وتَحرسها معرَّضةٌ للآفات. فَرُضِ الإخاء بالحدّ له[2] حتى تصلِ إلى قُرْبه، وبالكظم[3] حتى يَعتذر إليك مَن ظلمك، وبالرِّضى حتى لا تستكثر من نفسك الفضل ولا من أخيك التقصير.

ولمحمود الوراق:

لا بِـرَّ أعظـمُ مـن مُسـاعـدةٍ ... فـاشكـرْ أخـاك على مُساعـدتِـهْ

---

(١) مكنون الإخاء: مصونه ومستوره.
(٢) فُرضِ الإخاء بالحدّله: اي لا تتجاوز حدود الإخاء.
(٣) الكظم: الصبر.

وإذا هَفَا فَأَقِلْهُ هَفْوتَه حتى يعود أخاً كعادته
فالصفحُ عنْ زللِ الصَّديقِ وإنْ أعْياك خيْرٌ من مُعاندتِهْ

ولعبد الصمد بن المُعذَّل:

من لم يُرِدْكَ ولم تُرِدْه لم يَستفيدْكَ ولم تُفِدْهُ
قرِّبْ صديقَك ما نأى وَزِدِ التَّقاربَ واستَزِدْهُ
وإذا وَهَتْ أركان من أخي ثقةٍ فشِدْهُ[(١)]

باب من أخبار الخوارج

الخوارج وعلي بن أبي طالب:

لما خرجت الخوارج على عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وكانوا من أصحابه، وكان من أمر الحكمين ما كان واختداع عمرو لأبي موسى الأشعري، قالوا: لا حُكم إلا لله. فلما سمع عليٌّ رضي الله عنه نداءهم. قال: كلمةُ حق يُرادُ بها باطل، وإنما مذهبهم ألاّ يكون أميرٌ، ولا بد من أمير بَرّاً كان أو فاجراً. وقالوا لعليٍّ: شككتَ في أمرك، وحكَّمت عدوَّك في نفسك. وخرجوا إلى حَرُوراء، وخرج إليهم عليّ رضي الله عنه، فخطبهم متوكّئاً على قوسه، وقال:

هذا مقامٌ من فَلجَ فيه فلج يوم القيامة[(٢)]، أنشدكم الله، هل علمتم أن أحداً كان أكرهَ للحكومة مني؟ قالوا: اللهم لا. قال: أفعلمتم أنكم أكرهتُموني عليها حتى قبلتُها؟ قالوا اللهم نعم. قال: فعَلاَمَ خالفتُموني ونابذْتموني؟ قالوا: إنا أتينا ذنباً عظيماً فتُبنا إلى الله منه، فتُب إلى الله منه. واستغفرْه نَعُدْ إليك. فقال علي: إني أستغفر الله من كل ذنب. فرجعوا معه وهم في ستة آلاف. فلما استقرّوا بالكوفة أشاعوا أنّ علياً رجع عن التحكيم وتاب منه ورآه ضلالاً. فأتى الأشعثُ بن قيس عليّا رضي الله عنه،

(١) وهت: ضعفت. وشده: أي شُدَّه وأثبته.
(٢) في بعض النسخ: من أفلح فيه أفلح يوم القيامة، والفلج: النصر.

فقال: يا أمير المؤمنين، إن الناس قد تحدّثوا أنك رأيت الحكومة ضلالاً والإقامة عليها كفراً وتُبت. فخطب عليٌّ الناس فقال: من زعم أنّي رجعت عن الحكومة فقد كذَب، ومن رآها ضلالاً فهو أضلّ منها. فخرجت الخوارج من المسجد فحكمت، فقيل لعليّ: إنهم خارجون عليك. فقال: لا أقاتلهم حتى يقاتلوني، وسيفعلون.

فوجَّه إليهم عبد الله بن العباس، فلما صار إليهم رحَّبوا به وأكرموه، فرأى منهم جباهاً قَرِحَتْ[1] لطول السجود، وأيديا كثَفِناتِ[2] الإبل، وعليهم قُمص مَرْحَضة[3]، وهم مشمِّرون. قالوا: ما جاء بك يا بن عباس؟ قال: جئتكم من عند صهرِ رسول الله ﷺ وابن عمه، وأعلَمِنا بربِّه وسنة نبيِّه، ومن عند المهاجرين والأنصار: فقالوا: إنا أتينا عظيما حين حكَّمنا الرجال في دين الله؛ فإن تاب كما تُبنا ونَهض لمجاهدة عدوِّنا رجعنا. فقال ابن عباس: نشدتكم الله إلا ما صدَقتم أنفسَكم، أما علمتم أن الله أمر بتحكيم الرجال في أرنب تساوي رُبع درهم تُصاد في الحرم، وفي شقاق رجل وامرأته؟ فقالوا: اللهم نعم. قال: فأنشُدكم الله هل علمتم أن رسول الله ﷺ أمسك عن القتال للهدنة بينه وبين أهل الحُديبية؟ قالوا: نعم، ولكن علياً محا نفسه من خِلافة المسلمين. قال ابن عباس: ليس ذلك يُزيلها عنه وقد محا رسول الله ﷺ اسمه من النبوة، وقال سُهيل بن عمرو: لو علمت أنك رسولُ الله ما حاربتُك فقال للكاتب: اكتب «محمد بن عبد الله». وقد أخذ عليٌّ على الحكمين ألا يجورا، وإن يجورا فعليٌّ أولى من معاوية وغيره. قالوا: إنّ معاوية يدّعي مثل دعوى عليّ، قال: فأيهما رأيتموه أوْلى فولّوه. قالوا: صدقت. قال ابن عباس: ومتى جار الحكمان فلا طاعة لهما ولا قبول لقولهما. فاتبعه منهم ألفان وبقي أربعة آلاف.

فصلى بهم صلواتِهم ابن الكواء وقال: متى كانت حرب فرئيسكم شبث بن رِبْعيّ الرِّياحي. فلم يزالوا على ذلك حتى اجتمعوا على البيعة لعبد الله بن وهب الرّاسبي،

(١) قرحت: ظهرت فيها قرحة السجود، وهي علامة في الجبين.

(٢) الثفنات: جمع ثفنة، وهي من البعير الركبة وما مسّ الأرض من كركرته وسعداناته وأصول أفخاذه.

(٣) مرحضة: مغسولة.

فخرج بهم إلى النَّهروان، فأوقع بهم عليّ، فقتل منهم ألفين وثمانمائة، وكانَ عددهم ستة آلاف. وكان منهم بالكوفة زُهاء ألفين ممن يُسِرُّ أمرَه؛ فخرج منهم رجل بعد أن قال علي رضي الله عنه: ارجعوا وآدفعوا إلينا قاتل عبد الله ابن خبّاب. قالوا: كلنا قتَله وشرَك في دمه.

وذلك أنهم لما خرجوا إلى النهروان لَقُوا مسلماً ونصرانياً، فقتلوا المسلم وأوصوا بالنَّصراني خيراً، وقالوا: احفظوا ذِمّة نبيكم. ولقوا عبد الله ابن خَبّاب، وفي عنقه المصحف ومعه آمرأته وهي حامل، فقالوا: إن هذا الذي في عُنقك يأمرنا بقتلك. فقال لهم: أحْيُوا ما أحيا القرآنُ، وأميتوا ما أمام القرآن. قالوا: حدِّثنا عن أبيك. قال: حدثني أبي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تكون فتنةٌ يموت فيها قلبُ الرجل كما يموتُ بدنُه، يُمسي مؤمناً ويُصبح كافراً، فكن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل. قالوا: فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى خيراً، قالوا: فما تقول في الحكومة والتحكيم؟ قال: أقول إن عليا أعلمُ بالله منكم وأشدُّ توقّياً على دينه وأبعد بصيرة. قالوا: إنك لست تتبع الهدى، بل الرجالَ على أسمائها. ثم قرّبوه إلى شاطيء البحر فذبحوه، فامذقَرَّ دمه - أي جرى مستقيماً على دفة - وساموا [1] رجلاً نصرانياً بنخلة - فقال: هي لكم هِبَة. قالوا: ما كنا نأخذها إلا بثمن. فقال: ما أعجب هذا! أتقتلون مثلَ عبد الله بن خبّاب ولا تقبلون منا جَنَى نخلة إلا بثمن.

فرقهم:

ثم افترقت الخوارج على أربعة أضرب: الإباضية، أصحاب عبد الله بن إباض والصُّفرية واختلفوا في تسميتهم. فقال قوم: سُمُّوا بابن الصفَّار. وقال قوم: نُهكتهم العبادة فاصفرّت وجوههم. ومنهم البَيْهسية: وهم أصحاب ابن بيهس. ومنهم الأزارقة، أصحاب نافع بن الأزرق الحنفي، وكانوا قبلُ على رأي واحد لا يختلفون إلاّ في الشيء الشاذ.

---

(١) ساموا: فاصلوا من أجل الشراء.

هم وابن الزبير:

فبلغهم خروجُ مسلم بن عُقبة إلى المدينة وقتْلُه أهل حَرّة، وأنه مُقبل إلى مكة، فقالوا: يجب علينا أن نمنع حَرَمَ الله منهم ونمتحن ابنَ الزبير، فإن كان على رأينا تابعناه. فلما صاروا إلى ابن الزبير عَرَّفوه أنفسهم وما قدِمُوا له، فأظهر لهم أنه على رأيهم، حتى أتاهم مسلم بن عُقبة وأهل الشام، فدافعوه إلى أن يأتي رأيُ يزيد بن معاوية، ولم يتابعوا ابن الزبير؛ ثم تناظروا فيما بينهم، فقالوا: ندخل إلى هذا الرجل فننظر ما عنده، فإن قدّم أبا بكر وعمر وبَرىء من عثمان وعليّ وكفّر أباه وطلحة بايعناه؛ وإن تكن الأخرى ظهَر لنا ما عنده فتشاغلنا بما يُجْدِي علينا. فدخلوا على ابن الزبير وهو مُتبذِّل[1] وأصحابه متفرّقون عنه، فقالوا له: إنا جئناك لتُخبرنا رأيك، فإن كنت على صواب بايعناك، وإن كنت على خلافٍ دعوناك إلى الحق؛ ما تقول في الشيخين؟ قال: خيراً، قالوا: فما تقول في عثمان الذي حَمَى الحِمَى[2]، وآوى الطريد، وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتَبَ بخلافِه، وأوطأ آل بني مُعيط رقابَ الناس وآثرهُم بفيء المسلمين؛ وفي الذي بعده الذي حكّم الرجالَ في دين الله وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم؛ وفي أبيك وصاحبِه وقد بايعا عليّاً، وهو إمام عادل مرضي لم يظْهَر منه كفر، ثم نكثا بيعته وأخرجا عائشة تقاتل، وقد أمرها الله وصواحبَها أن يَقَرْن[3] في بُيوتهن، وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة؛ فإن أنت قبلت كلَّ ما نقول لك الزُّلفى عند الله، والنصرُ على أيدينا إن شاء الله، ونسأل الله لك التوفيق، وإن أبيتَ خذَلَكَ اللهُ وانتصر منك بأيدينا.

فقال ابن الزبير: إن الله أمر وله العزّة والقدرة في مخاطبة أكْفَر الكافرين وأعْتَى العاتين بأرقَّ من هذا القول؛ قال لموسى وأخيه صلى الله عليهما: ﴿إذهَبا إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طغَى، فقولاَ لهُ قوْلاً ليِّناً لعَلّهُ يتذَكَّرُ أوْ يَخشَى﴾[4]. وقال رسول الله ﷺ: لا

---

(١) متبذّل: غير محتاط ومصون.

(٢) حمى الحمى: يريدون أنّه خالف رسول الله ﷺ في قوله «لا حمى إلاّ لله ورسوله» أي لا يحمي للخيل التي ترصد للجهاد والإبل التي يحمل عليها في سبيل الله.

(٣) يقرن: يجلسن ويقعدن. (٤) سورة طَه الآية ٤٤.

تُؤذوا الأحياءَ بسَبِّ الموتى. فنهى عن سَبِّ أبي جهل من أجل عكرمة ابنه، وأبو جهل عدوٌّ الله ورسوله، والمقيمُ على الشرك، والجادُّ في محاربة رسول الله ﷺ قبل الهجرة والمحاربُ له بعدها، وكفى بالشرك ذنباً؛ وقد كان يُغنيكم عن هذا القول الذي سَمَّيتم فيه طلحة وأبى أن تقولوا: أتَبرأُ من الظالمين؟ فإن كانا منهم دخلا في غُمار الناس[1]، وان لم يكونا منهم لم تُحفِظُوني بسبِّ أبي وصاحبِه، وأنتم تعلمون أن الله جلَّ وعزَّ قال للمؤمن في أبويه: ﴿وإنْ جاهَدَاكَ على أنْ تُشْرِكَ بي ما ليسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فلا تُطِعْهُما وصاحِبْهُما في الدُّنيا مَعْروفاً﴾[2] وقال: ﴿وقولوا لِلنَّاسِ حُسناً﴾[3]. وهذا الذي دعوتم إليه أمرٌ له ما بعدَه، وليس يُقنعكم إلا التوقيف والتَّصريح، ولعمري إنّ ذلك أحرَى بقطع الحُجج، وأوْضحُ لمنهاج الحق، وأوْلَى بأن يعرف كُلٌّ صاحبه من عدوِّه. فرُوحوا إليَّ من عشيِّتكم هذه أكشفْ لكم ما أنا عليه إن شاء الله تعالى.

خطبة ابن الزبير فيهم:

فلما كان العشي راحوا إليه، فخرج إليهم وقد لبس سلاحه، فلما رأى ذلك نَجْدةُ[4]، قال: هذا خُروج منابذٍ[5] لكم. فجلس على رفع من الأرض فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيّه، ثم ذكر أبا بكر وعمر أحسنَ ذكر، ثم ذكر عثمان في السنين الأوائل من خلافته؛ ثم وصلهن بالسِّنين التي أنكروا سيرتَه فيها فجعلها كالماضية، وأخبر أنه آوى الحكم بن أبي العاصي بإذن رسول الله ﷺ، وذكر الحِمَى وما كان فيه من الصلاح، وأنّ القوم استعتبوه من أمورٍ ما كان له أن يفعلها أولاً مصيباً ثم أعتبهم بعد ذلك محسناً. وأن أهل مصر لما أتوه بكتاب ذكروا أنه منه بعد أن ضمِن لهم العُتبى ثم كُتب ذلك الكتاب بقتلهم. فدَفعوا الكتاب إليه، فحلف بالله

---

(١) غمار الناس: جهلتهم.

(٢) سورة لقمان الآية ١٥.

(٣) سورة البقرة الآية ٨٣.

(٤) نجدة: ابن عاصم الحنفي الخارجي. (٥) منابذٍ: مناجز ومعارض.

أنه لم يكتبه ولم يأمر به؛ وقد أمر الله عزّ وجلّ بقبول اليمين ممن ليس له مثل سابقته، مع ما اجتمع له من صِهر رسول الله ﷺ، ومكانه من الإمامة، وأن بيعة الرضوان تحت الشجرة إنما كانت بسببه، وعثمانُ الرجل الذي لزمتْه يمينٌ لو حلف عليها حلف على حق، فافتداها بمائة ألف ولم يحلف، وقد قال رسول الله ﷺ: مَنْ حَلَف بالله فلْيَصْدق، ومن حلف بالله فليُقْبَل. وعثمان أمير المؤمنين كصاحبيه. وأنا وليّ وليّه وعدوّ عدوّه، وأبي وصاحبه صاحبا رسول الله ﷺ ورسولُ الله يقول عن الله عز وجل أُحُد لما قُطعت أصبعُ طلحة: سبقَته إلى الجنة. وقال: أوْجَبَ طلحة. وكان الصّديق إذا ذكر يوم أحد قال: ذلك يوم كله أو جُلّه لطلحة. والزبيرُ حواريُّ رسول الله ﷺ وصفوتُه، وقد ذكر أنه في الجنة. وقال عز وجل: ﴿لقد رضِيَ ٱللهُ عَنِ المُؤْمِنينَ إذْ يُبايعُونَك تحْتَ الشَّجَرة﴾ [1]. وما أخبَرَنا بعدُ أنه سخط عليهم؛ فإن يكن ما صنعوا حقّاً فأهلُ ذلك هُمْ، وإن يكن زلّةً ففي عفو الله تمحيصُها [2]، وفيما وفّقهم له من السابقة مع نبيهم ﷺ، ومهما ذكرتموهما به فقد بدأتكم بأمّكم عائشة، فإن أبَى آبٍ أن تكون له أمّاً، نبَذ اسمَ الإيمان عنه؛ وقد قال جلّ ذكره: ﴿النبيُّ أوْلَى بالمُؤمِنينَ من أنفُسِهِمْ وأزواجُهُ أُمّهاتُهُمْ﴾ [3]. فنظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا عنه.

كتاب ابن الأزرق إلى ابن الزبير:

وكتب بعد ذلك نافعُ بن الأزرق إلى عبد الله بن الزُّبير يدعوه إلى أمره: أما بعد، فإني أحذّرك من الله: يوم تَجدُ كلُّ نفسٍ ما عَمِلَتْ من خَيْر مُحضراً وما عَمِلَتْ من سُوءٍ تَوَدّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً، ويُحذِّرُكم الله نفسَه، فاتق الله ربّك ولا تتَوَلَّ الظالمين، فإن الله يقول: ﴿ومنْ يتولّهُمْ فإنه منْهُمْ﴾ [4] وقال: ﴿لا يَتخِذِ المؤْمِنونَ الكافرينَ أولياءَ مِنْ دونِ المؤمِنين ومَن يفعَل ذلك فليسَ مِنَ ٱللهِ في شيءٍ﴾ [5]، وقد حضرت عثمان يوم قُتل. فلعَمْري لئن كان قُتل مظلوماً لقد كفَر

(1) سورة الفتح الآية ١٨. (2) تمحيصها: علمُها.
(3) سورة الأحزاب الآية ٦. (4) سورة المائدة الآية ٥١.
(5) سورة آل عمران الآية ٢٨.

قاتِلوه وخاذِلوه، ولئن كان قاتِلوه مهتدين، وإنهم لمهتدون، لقد كفَر من تَوَلاَّه ونصره ولقد علمت أنّ أباك وطلحة وعلياًّ كانوا أشدّ الناس عليه، وكانوا في أمره بين قاتل وخاذِل، وأنت تتولى أباك وطلحة وعثمان، فكيف ولايةُ قاتلٍ متعمّد ومقتولٍ في دين واحد؟ ولقد ولِيَ علي بعده فنفَى الشُّبهات، وأقام الحدود، وأجرى الأحكام مجاريها، وأعطى الأمور حقَّها فيما عليه وله، فبايعه أبوك وطلحة، ثم خلعا بيعته ظالمين له، وإن القول فيك وفيهما لكما قال آبن عباس رحمه الله: إن يكن عليٌّ في وقت معصيتكم ومحاربتكم له كان مؤمناً لقد كفرتم بقتال المؤمنين وأئمة العدل، ولئن كان كافراً كما زعمتم وفي الحكم جائراً لقد بُؤتم[1] بغضب من الله لفِراركم من الزحف، ولقد كنتَ له عدوّاً، ولسيرته عائباً، فكيف توليته بعد موته.

بين نجدة وابن الأزرق:

وكتب نجدة. وكان من الصُّفرية القَعَدية، إلى نافع بن الأزرق لما بلغَه عنا استعراضه للناس وقتلُه الأطفال، واستحلالُه الأمانة:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإن عهدي بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم، وللضعيف كالأخ البَرّ، لا تأخذك في الله لومةُ لائم، ولا ترى معونةَ ظالم؛ كذلك كنت أنت وأصحابك. أما تذكر قولك: لولا أني أعلم أن للإمام العادل مثلَ أجر جميع رعيته ما توليت أمر رجلين من المسلمين، فلما شَرَيتَ نفسك في طاعة ربك ابتغاءَ رضوانه، وأصبتَ من الحق فصَّه[2] وركبتَ مُرَّه، تَجرَّد لك الشيطان فلم يكن أحدٌ أثقلَ وطأةً عليه منك ومن أصحابك، فاستمالك واستغواك، فغويتَ وأكفرْتَ الذين عَذَرهم اللهُ في كتابه من قَعَدِ المسلمين وضعَفَتِهم، فقال جل ثناؤه، وقوله الحق ووعده الصدق: ﴿ليس على الضعفاءِ ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما يُنفِقون حرجٌ إذا نصحوا للهِ ورسولهِ﴾[3] ثم سمّاهم أحسنَ الأسماء فقال: ﴿ما على

---

(١) بؤتم: رجعتم.

(٢) فصّه: قلبه. (٣) سورة التوبة الآية ٩١.

المحسنينَ من سبيل﴾[1] استحللتَ قتل الأطفال، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم، وقال جل ثناؤه: ﴿ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخرى﴾[2] وقال في القَعَد خيراً، وفَضَّل اللهُ مَن جاهد عليهم، ولا يدفع منزلةُ أكثرِ الناس عملا منزلة من هو دونه. إلا إذا اشتركا في أصل. أوَ ما سمعت قوله تبارك وتعالى: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غيرُ أُولِي الضرَرِ والمجاهدون في سبيل الله﴾[3] فجعلهم الله من المؤمنين، وفَضَّل عليهم المجاهدين بأعمالهم. ورأيتَ من رأيك أن لا تؤدِّي الأمانة إلى من يُخالفك، والله يأمرك أن تؤدِّي الأماناتِ إلى أهلها. فاتق الله وانظر لنفسك، واتق ﴿يوماً لا يَجزي والدٌ عن ولدِه ولا مولودٌ هو جازٍ عز والده شيئاً﴾[4] فإن الله بالمرصاد، وحُكمه العدْل. وقوله الفصل. والسلام.

فكتب إليه نافع بن الأزرق:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فقد أتاني كتابك تَعِظُني فيه وتذكرني، وتنصَحُ لي وتزجرني، وتصف ما كنت عليه من الحق، وما كنت أُوثِره من الصواب؛ وأنا أسأل الله أن يجعلني من الذين يستمعون القولَ فيتَّبِعون أحسنَه، وعِبْتَ عليَّ ما دِنْتُ به من إكفار القَعَد، وقَتْل الأطفال، وآستحلال الأمانة. وسأفسّر لك لِمَ ذلك إن شاء الله: أما هؤلاء القَعد فليسوا كمن ذكرتَ ممن كان بِعَهد رسول الله ﷺ، لأنهم كانوا بمكة مَقهورين محصورين، لا يجدون إلى الهرب سبيلاً، ولا إلى الآتصال بالمسلمين طريقاً؛ وهؤلاء قد فقهوا في الدين، وقرءوا القرآن، والطريقُ لهم نَهج واضح. وقد عرفت ما يقول الله فيمن كان مثلهم، إذ قال: ﴿إنّ الذين توَفّاهُمُ الملائكَةُ ظالِمي أنفُسِهِمْ قالوا فيمَ كنْتُمْ قالوا كنا مُسْتَضْعَفين في الأرض قالوا ألم تكُنْ أَرضُ اللهِ واسِعَةً فتُهاجِروا فيها﴾[5]. وقال: ﴿فَرِحَ المخلَّفون بمَقْعَدِهم خِلافَ رسول الله﴾[6]. وقال: ﴿وجاءَ المُعَذِّرونَ من الأعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ. وقعد الذينَ

---

(١) سورة التوبة الآية ٩١. (٢) سورة فاطر الآية ١٨.

(٣) سورة النساء الآية ٩٥. (٤) سورة لقمان الآية ٣٣.

(٥) سورة النساء الآية ٩٧. (٦) سورة التوبة الآية ٨١.

كذَبوا اللهَ ورسولَه . سَيُصِيبُ الذينَ كفَرُوا مِنهْم عذابٌ أليمٌ﴾[1] . فانظر إلى أسمائهم وسِماتهم .

وأما أمْر الأطفال فإن نبي الله نوحا عليه السلام كان أعرفَ بالله يا نجدةُ مني ومنك ، فقال : ﴿رَبِّ لا تَذَرْ على الأرضِ منَ الكافرين دَيَّاراً إنَّك إنْ تَذَرْهُم يُضِلُّوا عبادَكَ ولا يَلِدُوا إلا فاجِراً كَفَّاراً﴾[2] فسماهم بالكفر وهم أطفال وقبل أن يُولدوا ؛ فكيف جاز لك في قوم نوح ولا يجوز في قومنا والله يقول : ﴿أكفَّارُكُمْ خيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أمْ لكُمْ براءَةٌ في الزُّبُرِ﴾[3] وهؤلاء كمشركي العرب ، لا تُقبل منهم جِزْية ، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام .

وأما استحلالُ الأمانات ممن خالفَنا فإن الله عز وجل أحل لنا أموالهم ، كما أحل لنا دماءهم ، فدماؤهم حلال طِلْق ، وأموالهم فَيءٌ للمسلمين ، فاتق الله وراجع نفسَك ، فإنه لا عذر لك إلاّ بالتوبة ، ولا يسَعُك خذْلانُنا والقُعود دوننا ، وترك ما نهجناه لك من طريقتنا ومقالتنا . والسلام على من أقرّ بالحق وعمل به .

مرداس وابن زياد :

وكان مرداس أبو بلال من الخوارج ، وكان مستتراً ، فلما رأى جِدَّ ابن زياد في قتل الخوارج وحبسِهم ، قال لأصحابه : إنه والله لا يسُعنا المقام بين هؤلاء الظالمين ، تجري علينا أحكامُهم مُجانبين للعدل ، مفارقين للعقل ؛ والله إنّ الصبر على هذا لعظيم ، وإن تجريد السيف وإخافة السبيل لعظيم ، ولكننا لا نَبتدئهم ، ولا نجرّد سيفا ، ولا نقاتل إلا من قاتَلَنا . فاجتمع أصحابه وهم ثلاثون رجلاً ، فأرادوا أن يُولُّوا أمرهم حُرَيْثَ بن حَجْل ، فأبى . فولُّوا أمرهم مرداساً أبا بلال . فلما مضى بأصحابه لقيه عبد الله بن رَبَاح الأنصاريّ ، وكان له صديقاً ، فقال له : يا أخي ، قال نعم؟ قال : أريد أن أهرُب بديني ودين أصحابي هؤلاء من أحكام الجَوَرَة والظلمة . فقال

(١) سورة التوبة الآية ٩٠ .

(٢) سورة نوح الآية ٢٧ . (٣) سورة القمر الآية ٤٣ .

له: أعلِمَ بكـم أحد؟ قال: لا. قال: فارجع. قال: أو تخاف عليَّ مكروهاً؟ قال: نعم وأن يُؤتَى بك. قال: فلا تَخفْ؛ فإني لا أُجَرِّدُ سيفاً، ولا أُخيف أحداً، ولا أُقاتل إلا من قاتلني.

ثم مضى حتى نزل آسَكَ وهو موضع دون خُراسان، فمر به مال يُحمَل لابن زياد، وقد بلغ أصحابه أربعين رجلاً، فحط ذلك المال، وأخذ منه عطاءه وأعطِيات أصحابه، وردّ الباقي على المرسل، وقال: قولوا لصاحبكم إنما قَبضنا أعطياتنا. فقال بعضُ أصحابه، فعَلامَ نَدَع الباقي؟ فقال: إنهم يقسمون هذا الفيء كما يُقيمون الصلاة، فلا نقاتلهم.

ولأبي بلال مرداس هذا أشعار في الخروج؛ منها قوله:

أبَعدَ ابن وهْب ذي النَّزاهة والتُّقـى ... ومَن ماض في تلك الحروب المالكـا
أُحِـبُّ بقـاءً أو أُرَجِّـي سَلامـةً ... وقد قَتلوا زيْدَ بن حِصْنٍ ومالِكـا
فيـاربِّ سلِّـمْ نيّتي وبصيرتي ... وهبْ لي البقا حتى أُلاقـي أُولئكـا

وقالوا إن رجلاً من أصحاب زياد، قال: خرجنا من جيش نريد خراسان، فمررنا بآسَك، فإذا نحن بمرداس وأصحابه وهم أربعون رجلاً، فقال: أقاصدون لقتالنا أنتم؟ قلنا: لا، إنما نريد خراسان. قال: فأبلغوا مَن لقيتم أنا لم نخرج لنُفسد في الأرض ولا لنروِّع أحداً، ولكن هربنا من الضرر، ولسنا نُقاتل إلا مَن يقاتلنا؛ ولا نأخذ من الفيء إلا أَعْطياتنا. ثم قال: أَنُدِب لنا أحد؟ فقلنا: نعم، أسلم بن زُرعة الكلابي. قال: فمتى تَرَوْنه يصل إلينا؟ قلنا له: يوم كذا وكذا. فقال أبو بلال حسْبُنا الله ونعم الوكيل.

ونَدب عُبيد الله بن زياد أسلم بن زُرعة الكِلابي، ووجّهه إليهم في ألفين، فلما صار إليهم صاح به أبو بلال: اتّق الله يا أسلم فإنا لا نريد قتالاً ولا نحتجز مالاً، فما الذي تريد؟ قال: أريد أن أردّكـم إلى آبن زياد. قال: إذاً يقتلنا. قال: وإن قتلَكـم. قال: أفتَشْرَكه في دمائنا؟ قال: نعم، إنه مُحق وأنتم مُبطِلون. قال: أبو بلال: وكيف هو

مُحِق وهو فاجر يطيع الظَّلَمة؟

ثم حملوا عليه حملة رجل واحد، فانهزم هو وأصحابه. فلما ورد على آبن زياد غضب عليه غضباً شديداً، وقال: انهزمت وأنت في ألفين عن أربعين رجلاً! قال له أسلم: والله لأنْ تَذُمَّني حيّاً أحبُّ إليّ مِن أن تحمدني ميتاً. وكان إذا خرج إلى السوق ومر بالصبيان صاحوا به: أبو بلال: وراءك! حتى شكا إلى آبن زياد، فأمر الشرط أن يكفُّوا الناس عنه.

ردّ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه
على شوذب الخارجي

الهيثم بن عديّ قال: أخبرني عَوانة بن الحكم عن محمد بن الزُّبير قال: بَعثني عمر ابن عبد العزيز مع عَون بن عبد الله بن مَسعود إلى شوذب الخارجي وأصحابه، إذ خرجوا بالجزيرة، وكتب معنا كتاباً إليهم. فقدمْنا عليهم ودفعْنا كتابه إليهم. فبعثوا معنا رجلاً من بني شَيبان ورجلاً فيه حبشية يقال له شَوذب، فقدما معنا على عمر وهو بخُناصِرة[1]، فصعدنا إليه، وكان في غرفة ومعه آبنه عبد الملك وحاجبه مزاحم، فأخبرناه بمكان الخارجِيَّيْن. فقال عمر: فتِّشوهما لا يكن معهما حديد، وأدخلوهما. فلما دخلا قالا: السلام عليكم. ثم جلسا. فقال لهما عمر: أخبراني: ما الذي أخرجكم عن حكمي هذا وما نقَمْتم؟ فتكلم الأسود منهما، فقال: إنا والله ما نقمنا عليك في سيرتك وتحرِّيك العدل والإحسان إلى من وُلِّيت ولكنْ بيننا وبينك أمر إن أعطيْتَناه فنحن منك وأنت منا، وإن مَنَعْتناه فلست منا ولسنا منك. قال عمر: ما هو؟ قال: رأيناك خالفت أهل بيتك وسميتَها مظالم، وسلكت غير طريقهم، فإن زعمت أنك على هدى وهم على ضلال فالعنْهُم وابْرَأ منهم، فهذا الذي يجمع بيننا وبينك أو يفرّق.

فتكلم عمر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إني قد علمت أو ظننت أنكم لم

---

(١) خناصرة: بلدة من أعمال حلب.

تخرجوا مَخْرجَكم هذا لطلب الدنيا ومتاعِها، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلَها، وإني سائلكما عن أمر، فبالله اَصْدُقاني فيه مبلغَ علمِكما. قالا: نعم. قال: أخبراني عن أبي بكر وعمر، أليسا من اسلافكما ومن تتوليان وتشهدان لهما بالنجاة؟ قالا: اللهم نعم. قال: فهل علمتما أن أبا بكر حين قُبض رسول الله ﷺ فارتدت العرب قاتلهم، فسفك الدماء، وأخذ الأموال، وسبى الذراري؟ قالا: نعم. قال: فهل علمتم أن عمر قام بعد أبي بكر فردّ تلك السبايا إلى عشائرها؟ قالا: نعم. قال: فهل بريء عمر من أبي بكر أو تبْرَءُون أنتم من واحد منهما؟ قالا: لا. قال: فأخبراني عن أهل النَّهروان، أليسوا من صالحي أسلافكم وممن تشهدون لهم بالنجاة؟ قالا: نعم. قال: فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفّوا أيديهم، فلم يسفكوا دماً، ولم يُخيفوا آمناً، ولم يأخذوا مالاً؟ قالا: نعم. قال: فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مِسْعر بن فُديك استعرضوا الناس يقتلونهم، ولقوا عبد الله ابن خبّاب بن الأرتّ صاحب رسول الله ﷺ فقتلوه وقتلوا جاريته، ثم قتلوا النساء والأطفال، حتى جعلوا يلقونهم في قدور الأقْط[1] وهي تفور؟ قالا: قد كان ذلك. قال: فهل بريء أهل الكوفة من أهل البصرة؟ قالا: لا. قال: فهل تبرءُون من إحدى الفئتين؟ قالا: لا. قال: أفرأيتم الدين، أليس هو واحداً أم الدين اثنان؟ قالا: بل واحد. قال: فهل يسعكم منه شيءٌ يُعجزُني؟ قالا: لا. قال: فكيف وَسِعَكم أن تولَّيتم أبا بكر وعمر، وتولى كلٌّ واحد منهما صاحبَه، وتوليتم أهلَ الكوفة والبصرة، وتولى بعضُهم بعضاً؛ وقد اختلفوا في أعظم الأشياء: في الدماء والفروج والأموال، ولا يسعني إلا لعنُ أهل بيتي والتبرؤ منهم أوَ رأيت لَعْن أهل الذنوب فريضةً مفروضة لا بد منها؛ فإن كان ذلك فمتى عهدُك بلعنِ فرعون وقد قال: أنا ربكم الأعلى؟ قال: ما أذكر أني لعنتُه. قال: ويحك! أيسعك ألاّ تلعنَ فرعون وهو أخبثُ الخلق، ولا يسعني إلا أن ألعن أهل بيتي والبراءة منهم؟ ويحكم! إنكم قوم جهال، أردتم أمراً فأخطأتموه، فأنتم تَردُّون على الناس ما قَبِلَ منهم رسول الله ﷺ. بعثه الله إليهم وهم عَبَدة

(١) الأقط: طعام يتخذ من اللبن المخيض، يطبخ ثم يترك حتى يمصل.

أوثان، فدعاهم إلى أن يخلعوا الأوثان، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله، فمن قال ذلك حقَن بذلك دمه، وأحرز ماله (١)، ووَجبتْ حُرمتُه، وأمِن به عند رسول الله ﷺ، وكان أسوة المسلمين، وكان حسابُه على الله. أفَلستم تَلقوْن مَن خلَع الأوثان، ورفَض الأديان، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، تستحِلون دمَه وماله، ويُلعَن عندكم، ومَن تَرك ذلك وأباه، من اليهود والنصارى وأهل الأديان فتحرّموه دمَه ومالَه ويأمن عندكم؟ فقال الأسود: ما سمعتُ كاليوم أحداً أبْيَنَ حجة، ولا أقربَ مأخذاً، أما أنا فأشهد أنك على الحق، وأني بريء ممن بريء منك! فقال عمر لصاحبه: يا أخا بني شيبان، ما تقول أنت؟ قال: ما أحسنَ ما قلت ووصفت! غير أني لا أفتات (٢) على الناس بأمر حتى ألقاهم بما ذكرتَ وأنظرَ ما حُجَّتُهم. قال: أنت وذاك! فأقام الحبشي مع عمر وأَمر له بالعطاء، فلم يلبث أن مات، ولحق الشيبانيّ بأصحابه فقُتِل معهم بعد وفاة عمر.

القول في أصحاب الأهواء

وذكر رجل عند النبي ﷺ، فذكروا فضلَه وشدةَ اجتهاده في العبادة، فبينما هم في ذكره حتى طلع عليهم الرجل؛ فقالوا: يا رسول الله، هو هذا. فقال رسول الله ﷺ: أما إني أرى بين عينيه سفعة (٣) من الشيطان! فأقبل الرجل حتى وقف فسلّم عليهم، فقال هل حدثتْك نفسُك إذ طلعتَ علينا أنه ليس في القوم أحسنُ منك؟ قال: نعم. ثم ذهب إلى المسجد يصفّ (٤) بين قدميه يصلي، فقال النبي ﷺ: أيكم يقوم إليه فيقتله؟ فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله. فقام إليه فوجده يصلّي، فهابه فانصرف. قال: ما صنعتَ؟ قال: وجدتُه يصلي يا رسول فهِبْتُه. فقال النبي ﷺ: أيكم يقوم إليه فيقتله؟ قال عمر: أنا يا رسول الله. فقام إليه فوجده يصلي، فهابه

(١) أحرز ماله: منعه وحفظه.

(٢) لا أفتات: لا أقطع ولا أبرم أمراً حتى أسمع حجّتهم.

(٣) السفعة: النظرة والإصابة بالعين جعل ما به من العجب مسّاً من الجنون.

(٤) يصفّ: أي يأخذ مكانه بين المسلمين للصلاة.

فانصرف. فقال: يا رسول الله، وجدتُه يصلي فهِبْتُه، فقال رسول الله ﷺ: أيكم يقوم إليه فيقتله؟ فقال عليّ: أنا يا رسول الله. قال: أنت له إن أدركتَه. فقام إليه فوجده قد انصرف؛ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: هذا أولُ قرْن [١] يطلع في أمتي، لو قتلتموه ما اختلف بعده اثنان؛ إنّ بني إسرائيل افترقت على اثنتين وسبعين فرقة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة واحدة، وهي الجماعة.

الرافضة

وإنما قيل لهم رافضة لأنهم رفضوا أبا بكر وعمر، ولم يرفضهما أحدٌ من أهل الأهواء غيرهم، والشيعة دونهم، وهم الذين يفضلون علياً على عثمان ويتولّون أبا بكر وعمر، فأما الرافضة فلها غلّو شديد في عليّ، ذهب بعضهم مذهبَ النصارى في المسيح، وهم السَّبئية أصحاب عبد الله بن سبأ، عليهم لعنة الله. وفيهم يقول السيد الحِمْيَرِي:

قــوم غلَــوْا في عليٍّ لا أبــا لهمُ ... وأجشَموا أنفُساً في حُبِّه تَعَبا [٢]
قالـوا هـو الله جـلَّ الله خـالقُنـا ... من أنْ يكونَ له ابنٌ أو يكونَ أبـا

وقد أحرقهم علي رضي الله عنه بالنار.

المغيرة بن سعد والأعمش

ومن الروافض المُغيرة بن سعد مولى بجيلة، قال الأعمش: دخلت على المغيرة بن سعد فسألته عن فضائل علي، فقال: إنك لا تحتملها! قلت: بلى. فذكر آدم صلوات الله عليه، فقال: عليٌّ خيرٌ منه! ثم ذكر من دونه من الأنبياء، فقال: عليٌّ خيرٌ منهم!

(١) القرن: البدعة.

(٢) أجشموا: حمّلوا.

حتى انتهى إلى محمد ﷺ، فقال: عليٌّ مثله. فقلت: كذبتَ عليك لعنة الله. قال: قد أعلمتك أنك لا تحتملها.

ومن الروافض مَن يزعم أن علياً رضي الله عنه في السحاب، فإذا أظلَّتْ عليهم سحابة قالوا: السلام عليك يا أبا الحسن! وقد ذكرهم الشاعر فقال:

بَرِئتُ من الخوارجِ لستُ منهم ... من الغَزَّالِ منهم وابنِ باب[1]
ومِن قومٍ إذا ذَكروا عليّاً ... يَرُدُّون السلامَ على السحاب
ولكنّي أُحِبُّ بكلِّ قلبي ... وأعلم أنَّ ذاكَ من الصواب
... رسولَ اللهِ والصِّدِّيقَ حقّاً ... به أرجو غداً حُسْنَ الثوابِ

وهؤلاء من الرافضة يقال لهم المنصورية، وهم أصحاب أبي منصور الكِسف وإنما سمي الكِسف لأنه كان يتأوّل في قول الله عز وجل: ﴿وإن يَرَوْا كِسفاً من السماءِ ساقطاً يقولوا سحابٌ مركوم﴾[2] فالكِسف عليّ، وهو السحاب.

وكان المغيرة بن سعد من السبئية الذين أحرقهم عليّ رضي الله تعالى عنه بالنار، وكان يقول: لو شاء عليّ لأحيي عاداً وثموداً وقروناً بعد ذلك كثيراً، وخرج لخالد ابن عبد الله، فقتله خالد وصلبه بواسط عند قنطرة العاشر.

ومن الروافض كُثيّر عزّة الشاعر، ولما حضرته الوفاةُ، دعا ابنة أخ له فقال: يابنة أخي، إن عمك كان يُحب هذا الرجل فأَحِبِّيه - يعني عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه - فقالت: نصيحتُك يا عمِّ مردودةٌ عليك، أُحبه والله خلاف الحبِّ الذي أحببتَه أنت. فقال لها: برئت منك. وأنشد يقول:

برئتُ إلى الإلهِ منَ ابنِ أروى ... ومِن قَوْلِ الخوارجِ أجمعِينا
ومن عُمَر برئتُ ومن عَتِيق ... غَداةَ دُعِي أمير المؤمنينا

ابن أروى: عثمان.

---

(١) في بعض الأصول «وابن داب» والتصويب من الكامل.

(٢) سورة الطور الآية ٤٤.

والروافض كلها تُؤمن بالرَّجعة، وتقول: لا تقوم الساعة حتى يخرج المهدي وهو محمد بن علي، فيملؤها عدلاً كما مُلئت جَوراً، ويحيي لهم موتاهم فيرجعون إلى الدنيا، ويكون الناس أُمة واحدة، وفي ذلك يقول الشاعر:

ألا إنَّ الأئمةَ من قُريْشٍ ... وَلاة العدْل أربعةٌ سواءُ
علي والثلاثة من بنيه ... همُ الأسباطُ ليس بهم خَفاءُ
فسِبْطٌ سِبْطُ إيمانٍ وبرٍّ ... وسبط غيَّبْتهُ كَرْبلاءُ

أراد بالأسباط الثلاثة: الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية، وهو المهدي الذي يخرج في آخر الزمان.

ومن الروافض السيد الحميري، وكان يُلقى له وسائد في مجلس الكوفة يجلس عليها، وكان يؤمن بالرَّجعة، وفي ذلك يقول:

إذا ما المرءُ شابَ له قَذالٌ ... وعلّله المواشط بالخِضاب(١)
فقد ذهبت بَشاشتُه وأوْدى ... فقمْ بأبيك وابْك على الشبابِ
فليس بعائدٍ ما فات منه ... إلى أحدٍ إلى يومِ المآبِ
إلى يومٍ يؤوب الناسُ فيه ... إلى دنياهُمُ قبل الحسابِ
أَدِينُ بأن ذاك كذاك حقاً ... وما أنا في النُّشور بِذِي ارتيابِ
لأنَّ الله خَبَّر عن رجالٍ ... حَيُوا من بَعد دَسٍ في الترابِ

وقال يرثي أخاه:

يا بن أُمي فَدتْك نفْسي ومالي ... كنت رُكني ومَفْزعي وجمالي
ولَعَمري لئن تركتُك مَيْتاً ... رهْن رَمْسٍ ضَنْكٍ عليك مُهالِ(٢)
لَوَ شيكاً ألقاك حيّاً صحيحاً ... سامعاً مُبْصراً على خيْر حالِ
قد بُعِثْم من القبور فأُبْتم ... بَعد ما رَمَّتِ العظامُ البوالي(٣)

(١) القذال: شعر مؤخّرة الرأس والخضاب: صبغ الشعر وتغيير لونه
(٢) الرمس: القبر، والصنك :والضنك :ومهال: أي أهيل عليه التراب.
(٣) رمّت: بليت.

أو كسبعِين وافــداً مَــعَ مــوسى   عــايَنــوا هــائلاً مــن الأهــوالِ
حين راموا مــن خُبْثِهــم رؤيــةَ الله   وأنّــــى بــــرؤيـــةِ المُتعـــالي
فـرمـاهُـمْ بصَعْقـةٍ أحــرَقتْهــم   ثم أحيـاهُـمُ شـديـدُ المِحــالِ [1]

المأمون ورجل من الحسبانية:

دخل رجل من الحِسْبانية على المأمون، فقال: لثُمامة بن أشرس: كلِّمه، فقال له: ما تقول؟ وما مذهبك؟ فقال: أقول إن الأشياء كلها على التوهُّم والحِسْبان، وإنما يُدرِك منها الناسُ على قَدْر عقولهم، ولا حقَّ في الحقيقة. فقام إليه ثمامة فلطَمه لطمةً سَوّدت وجهَه. فقال: يا أمير المؤمنين، يَفعل بي مثل هذا في مجلسك؟ فقال له ثُمامة: وما فعلت بك؟ قال: لطمتَني، قال: ولعل إنما دهنتك بالبان. ثم أنشأ يقول:

ولعــلَّ آدم أُمُّنـــــــا   والأبَّ حَـوَّا في الحســابْ
ولعـلَّ مـا أبْصَـرْت مــن   بيضِ الطُّبور هو الغـرابْ
وعساك حين قعَـدْت قُمْـــــتَ وحين جئتَ هوَ الذَّهـابْ
وعسى البنفسَــجُ زَنْبقـــاً   وعسى البَهار هوَ السَّذابْ [2]
وعساك تأكـلُ مــن خـرَا   ك وأنـت تَحسَبُـه كبـابْ

ابن عباس ورافضي:

ومن حديث ابن أبي شيبة أن عبد الله بن شدّاد قال: قال لي عبد الله بن عباس: لأخبرنك بأعجب شيءٍ: قَرَع اليوم عليّ الباب رجلٌ لَمّا وضعت ثيابي للظهيرة، فقلت: ما أتى به في مثل هذا الحين إلا أمرٌ مُهم، أَدْخِلوه. فلما دخل قال: متى يُبْعث ذلك الرجل؟ قلت: أي رجل؟ قال: عليّ بن أبي طالب. قلت: لا يُبْعَث حتى يَبعث الله من في القبور. قال: وإنك لتقول بقول هذه الجهلة! قلت: أخْرِجوه عنّي لعنه الله.

---

(١) شديد المحال: الله سبحانه وتعالى.
(٢) السّذاب: من البقول، وهو معروف.

ومن الروافض: الكيسانية، قلت: وهم أصحاب المختار بن أبي عبيد، ويقولون إن اسمه كيسان.

ومن الرافضة الحُسينية، وهم أصحاب إبراهيم بن الأشتر، وكانوا يطوفون بالليل في أزقّة الكوفة وينادون: يا ثارات الحسين. فقيل لهم الحسينية.

ومن الرافضة الغُرابية، سميت بذلك لقولهم: عليٌّ أشبه بالنبي من الغراب بالغراب.

ومن الرافضة الزيدية، وهم أصحاب زيد بن عليّ المقتول بخراسان، وهم أقلُّ الرافضة غُلُوّا، غير أنهم يرون الخروج مع كل من خرج.

الرافضة والشعبي:

مالك بن معاوية قال: قال لي الشّعبي وذَكَرْنا الرافضة: يا مالك، لو أردت أن يُعطوني رقابَهم عبيداً وأن يلمئوا بيتي ذهباً على أن أكْذِبَهم على عليٍّ كِذبةً واحدة لفعلوا، ولكني والله لا أكذب عليه أبداً، يا مالك، إني درست الأهواء كلها، فلم أرَ قوماً أحمقَ من الرافضة؛ فلو كانوا من الدواب لكانوا حميراً، أو كانوا من الطير لكانوا رخَماً[1]: ثم قال: أحذرك الأهواء المُضِلّة، شرُّها الرافضة، فإنها يهود هذه الأمة، يُبغِضون الإسلام كما يُبغض اليهود النصرانية، ولم يدخلوا في الإسلام رغبةً ولا رهبة من الله، ولكن مقتاً لأهل الإسلام وبَغْياً عليهم، وقد حرّقهم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بالنار، ونفاهم إلى البلدان، منهم عبد الله بن سبأ، نفاه إلى ساباط، وعبد الله بن سباب، نفاه إلى الجازر[2] وأبو الكروّس؛ وذلك أن محنة الرافضة محنة اليهود، قالت اليهود: لا يكون المُلْك إلا في آل داود، وقالت الرافضة: لا يكون الملك إلا في آل علي بن أبي طالب. وقالت اليهود: لا يكون جهاد في سبيل الله حتى يخرج المَسيح المنتظر. وينادِي منادٍ من السماء. وقالت الرافضة: لا جهاد في

---

(١) الرخم: نوعٌ من الطير.

(٢) الجازر: قربة من نواحي النهروان وفي بعض الأصول «الحازر».

سبيل الله حتى يخرج المهدي وينزل سببٌ من السماء. واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم، وكذلك الرافضة. واليهود لا ترى الطلاق الثلاث شيئاً، وكذا الرافضة. واليهود لا ترى على النساء عِدَّة، وكذلك الرافضة: واليهود تستحل دَمَ كلِّ مسلم، وكذلك الرافضة، واليهود حرَّفوا التوراة، وكذلك الرافضة حرَّفت القرآن واليهود تُبغض جبريل وتقول: هو عدوّنا من الملائكة، وكذلك الرافضة تقول: غلط جبريل في الوحي إلى محمد بترك علي بن أبي طالب. واليهود لا تأكل لحم الجَزور، وكذلك الرافضة. ولليهود والنصارى فضيلةٌ على الرافضة في خصلتين: سئل اليهود: مَنْ خيرُ أهل مِلَّتِكم؟ فقالوا: أصحاب موسى: وسئلت النصارى، فقالوا: أصحاب عيسى. وسئلت الرافضة: من شر أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب مُحمد: أمَرَهم بالاستغفار لهم فشتموهم، فالسيف مسلولٌ عليهم إلى يوم القيامة، لا تثبُت لهم قدم، ولا تقوم لهم راية، ولا تجتمع لهم كلمة، دعْوتهم مدحورة، وكلمتهم مختلفة، وجمعُهم مفرَّق. كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله.

وذُكِرَت الرافضة يوماً عند الشعبي فقال: لقد بَغَّضوا إلينا حِديث عليٍّ ابن أبي طالب.

وقال الشعبي: ما شبَّهت تأويل الروافض في القرآن إلا بتأويل رجل مضعوف من بني مخزوم من أهل مكة، وجدته قاعداً بفناء الكعبة. فقال: يا شعبي ما عندك في تأويل هذا البيت؟ فإن بني تميم يغلطون فيه، يزعمون أنه مما قيل في رجل منهم، وهو قول الشاعر:

بيْتــاً زُرارةُ مُحْتَــبٍ بفنــائـــه ... ومُجاشِعٌ وأبو الفـوارس نَهشـل[1]

فقلت له: وما عندك أنت فيه؟ قال: البيت هو هذا البيت ـ وأشار بيده إلى الكعبة ـ وزرارة الحجر، زرّر حول البيت. فقلت: فمجاشع؟ قال: زمزم جشِعَتْ بالماء. قلت: فأبو الفوارس؟ قال: هو أبو قُبيْس جبل مكة. قلت: فنهشل؟ ففكر فيه طويلاً، ثم قال: أصَبْتُه، هو مصباح الكعبة، طويلٌ أسوَدُ وهو النهشل.

(١) احتبى بفنائه: تربّى ونشأ.

قولهم في الشيعة

قال أبو عثمان بن بحر الجاحظ، أخبرَني رجل من رؤساء التجار قال: كان معنا في السفينة شيخ شَرِس الأخلاق، طويل الإطراق، وكان إذا ذُكِر له الشيعة غضب وآربدّ وجهه وزَوَى[1] من حاجبيه، فقلت له يوماً: يرحمك الله، ما الذي تكرهه من الشيعة، فإني رأيتك إذا ذُكروا غضبت وقبضت؟ قال: ما أكره منهم إلا هذه الشِّين في أول آسمهم، فإني لم أجدها قطُّ إلا في كل شرٍّ وشؤم وشيطان وشغَب وشقاء وشَنار[2] وشرَر وشَيْن وشَوك وشكوى وشهوة وشَتم وشُح. قال أبو عثمان: فما ثَبت لشيعيّ بعدها قائمة.

باب من كلام المتكلمين

دخل المُوبَذُ على هشام بن الحكم، والموبذ هو عالم الفرس، فقال له: يا هشام، حول الدنيا شيء؟ قال: لا. قال: فإن أخرجت يدي فثَمّ شيء يردُّها؟ قال هشام: ليس ثَمَّ شيء يردّها ولا شيء تُخرج يدك فيه. قال: فكيف أعلم هذا؟ قال له: ياموبذ، أنا وأنت على طرف الدنيا، فقلت لك: يا موبذ، إني لا أرى شيئاً. فقلت لي: ولم لا ترى؟ فقلت ليس ها هنا ظلام يمنعني. فقلت لي أنت: يا هشام، إني لا أرى شيئاً. فقلت لك: ولم لا ترى؟ قلت: ليس ضياء أنظر به. فهل تكافأت المِلّتان في التناقض؟ قال: نعم. قال: فإذا تكافأتا في التناقض لم تتكافآ في الإبطال أنْ ليس شيء؟ فأشار الموبذ بيده أن أصبت.

قال رجل لبعض ولاة بني العباس: أنا أجعل هشام بن الحكم أن يقول في علي رضي الله عنه إنه ظالم؛ فقال: إن فعلت ذلك فلك كذا وكذا. ثم أُحضر هشام، فقال له: نشدتك الله أبا محمد، أما تعلم أن علياً نازع العباس عند أبي بكر؟ قال: نعم.

---

(١) أربد: تجهم، وزوى: حرّكها تحريك الغضب.

(٢) الشنار: العار والعيب.

قال: فمن الظالمُ منهما؟ فكرِه أن يقول العباس، فيُواقع [1] سخط الخليفة، أو يقول عليّ؛ فينقص أصلَه، فقال: ما منهما ظالم؟ قال: فكيف يتنازع اثنان في شيء لا يكون أحدهما ظالماً؟ قال: قد تنازع الملَكان عند داود عليه السلام وما فيهما ظالم، ولكن لينبِّها داود على الخطيئة، وكذلك هذان أرادا تنبيه أبي بكر من خطيئته، فأسكت الرجل، وأمر الخليفة لهشام بصِلة عظيمة.

دخل إبراهيم النَّظَّام على أبي الهذيل العلاّف، وقد أسنّ وبعُد عهده بالمناظرة، وإبراهيم حدَث السنّ. فقال: أخبرني عن قراركم: أن يكون جوهراً مخافة أن يكون جسماً؛ فهل قررتم ألا يكون جوهراً مخافة أن يكون عَرَضاً، والعرض أضعف من الجوهر؟ فبصق أبو الهذيل في وجهه. فقال له إبراهيم: قبّحك الله من شيخ، ما أضعف صحتك وأسفه حلمك.

قال: لقي جَهْمٌ رجلاً من اليونانيين؛ فقال له: هل لك أن تكلمني وأكلمك عن معبودك هذا، أرأيته قط؟ قال: لا؛ قال: فلسمتَه؟ قال: لا؛ قال: فذُقته؟ قال: لا؛ قال: فمن أين عرفته وأنت لم تدركه بحسّ من حواسِّك الخمس وإنما عقلُك معبِّر عنها فلا يدرك إلا ما أوصلتْ إليه من جميع المعلومات؟ قال: فتلجلج جهم ساعة، ثم استدرك فعكس المسألة عليه فقال له: ما تُقرّ أن لك روحاً؟ قال: نعم؛ قال: فهل رأيته أو ذقته أو سمعته أو شممته أو لمسته؟ قال: لا؛ قال: فكيف علمت أن لك روحاً؟ فأقرّ له اليوناني.

باب في الحياء

قال النبي ﷺ: الحياء خير كله. الحياء شعبة من الإيمان. وقال عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى يحب الحيي الحليم المتعفف، ويكره البذيءَ السَّئَّال الملحف [2].

وقال عَون بن عبد الله: الحياء والحِلم والصمت من الإيمان.

---

(١) يواقع: يتلقّى ويواجه. (٢) الملحف: الكثير الإلحاح.

وقال ابن عمر: الحياء والإيمان مقرونان جميعاً. فإذا رفع أحدهما ارتفع الآخر معه.

وقال: مكتوب في التوراة: إذا لم تستح فاصنع ما تشاء. وقال: أحيوا الحياء بمجالسة من يُسْتَحْيا منه.

وذكر أعرابي رجلاً حيّاً فقال: لا تراه الدهرَ إلا كأنه لا غني به عنك، وإن كنت إليه أحوج، وإن أذنبتَ غفر وكأنه المذنب، وإن أسأتَ إليه أحسن وكأنه المسيء.

لليلى الأخيلية:

فتًى هو أحيا من فتاةٍ حَيِيّةٍ   وأشجع من لَيث بخِفَّان خادِرِ[1]

ولابن قيس أيضاً:

تخالهُمُ للحلم صُمّاً عن الخَنَا   وخُرْساً عن الفحشاء عند التهاجرِ
ومرضى إذا لُوقُوا حياءً وعِفَّة   وعند الحِفاظ كاللُّيوث الخوادرِ[2]

وقال الشعبي: تعاشر الناسُ فيما بينهم زماناً بالدين والتقوى، ثم رُفع ذلك فتعاشروا بالحياء والتذمّم، ثم رُفع ذلك، فما يتعاشر الناس إلا بالرغبة والرهبة. وسيجيء ما هو شرٌّ من ذلك.

وقيل: الحياء يزيد في النُّبل.

ولبعضهم:

فلا وأبيك ما في العيش خيرٌ   ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ

وقال آخر:

إذا رُزق الفتى وجهاً وَقاحاً   تقلّب في الأمور كما يشاءُ[3]

---

(١) بخفّان خادر: في غيلٍ من الشجر مقيم.

(٢) الحفاظ: المحافظة على الحرمات.

(٣) وقاحاً: متلوّناً كثير الوقاحة وعديم الحياء.

ولم يـــك للـــدواء ولا لشيء تُعـــالجه بـــه فيـــه غَنـــاء
ورُبَّ قبيحـــةٍ مـــا حـــال بيني وبين رُكـــوبها إلاّ الحيـــاء

وقال عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه: قُرنت الهيبة بالخيبة، والحياء بالحرمان.

وقد قيل:

ارفـع حيـاءك فيما جئـتَ طـالبَـه إنّ الحيـاء مـع الحرمـان مقــرون

وفي المثل: كثرة الحياء من التخنُّث[1].

قال الحسن: من استتر بالحياء لبس الجهل سربالَه، فقطّعوا سرابيل الحياء، فإنه من رقّ وجهه رق علمه.

وصف رجلٌ الحياء عند الأحنف فقال: إنّ الحياء ليتم لمقدار من المقادير، فما زاد على ذلك فسمه بما أحببت.

وقال بعضهم:

إنّ الحيـاء مـع الحِرمــانِ مقترنٌ كــذاك قــال أمير المؤمنين علي
واعلم بـأن مــن التخنيــث أكثره فارفعه في طلب الحاجات والأمـل

وللشمّاخ:

أُجامل أقـوامـاً حيـاءً وقـد أرى صـدورهـم بـادٍ عليَّ مــراضُهــا

ولابن أبي حازم:

وإني ليثنيني عـن الجهــل والخَنــا وعن شتم ذي القربي خلائق أربـعُ:
حيـاءٌ، وإسلام، وتقــوى، وأنّني كــريم ومثلي قــد يَضر ويَنفــعُ

وقال آخر:

إذا حُــرم المرء الحيــاء فــإنّــه بكـل قبيـحٍ كـان منـه جـديــرُ
لـه قِحــةٌ في كــلِّ أمــرٍ وسرُّه مُبـاحٌ وجـدواه جفـاً وغـرورُ[2]

---

(١) التخنّث: فقدان الرجولة.
(٢) القحة: إدخال النفس في كلّ أمر.

يرى الشَّتمَ مَدحاً والدناءة رِفعةً ... وللسمع منه في العِظات نُفور
فرجِّ الفتى ما دام حيّاً فإنّه ... إلى خير حالات المُنيب يصير

باب جامع الآداب

آداب الله لنبيّه صلى الله عليه وسلم

لابن عبد ربه:

قال أبو عمر أحمد بن محمد: أوّل ما نبدأ به: أدبُ النبي ﷺ، ثم أدبه ﷺ لأمّته، ثم الحكماء والعلماء.

وقد أدّب الله نبيّه بأحسن الآداب كلها، فقال له: ﴿ولا تجعل يَدَكَ مغْلولة إلى عُنُقِك ولا تبْسُطْها كلَّ البْسطِ فتقعد ملوماً محْسُوراً﴾ (١) فنهاه عن التقتير كما نهاه عن التبذير، وأمر بتوسّط الحالتين؛ كما قال عز وجل: ﴿والذين إذا أنْفَقوا لَمْ يُسْرِفوا ولَمْ يقْتُروا وكان بيْنَ ذلك قَواماً﴾ (٢).

وقد جمع الله تبارك وتعالى لنبيّه ﷺ جوامعَ الكلم في كتابه المُحْكم، ونظمَ له مكارم الأخلاق كلها في ثلاث كلمات، فقال: ﴿خُذِ العفوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأَعْرِض عنِ الجاهِلين﴾ (٣) ففي أخذِهِ العفوَ صلةُ من قطَعه، والصفحُ عمّن ظلمه؛ وفي الأمر بالمعروف تقوى الله، وغضُّ الطَّرْف عن المحارم، وصوْنُ اللسان عن الكذب، وفي الإعراض عن الجاهلين تنزيهُ النفس عن مُماراة السفيه ومنازعةِ اللجوج.

ثم أمره تبارك وتعالى فيما أدبه، باللين في عريكته، والرّفق بأُمته، فقال: ﴿واخْفِضْ جَناحَك لِمَن اتَّبعكَ منَ المُؤْمنين﴾ (٤) وقال: ﴿ولو كنْتَ فظاًّ غليظ القلْبِ لا نْفَضُّوا منْ حوْلِكَ﴾ (٥) وقال تبارك وتعالى ﴿ولا تَسْتوي الحَسنةُ ولا

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢٩.
(٢) سورة الفرقان الآية ٦٧.
(٣) سورة الأعراف الآية ١٩٩.
(٤) سورة الشعراء الآية ٢١٥.
(٥) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

السَّيِّئَةُ ٱدْفع بالَّتي هيَ أحسنُ فإذا الذي بيْنك وبينهُ عداوَةٌ كأنَّهُ وليٌّ حَميمٌ، وما يُلقَّاها إلا الذين صبَرُوا وما يُلقَّاها إلاّ ذُو حظٍّعظيمٍ﴾ [1].

فلما وعَى عن الله عز وجل وكملتْ فيه هذه الآداب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لقد جاءَكم رسولٌ منْ أنْفُسِكم عزيزٌ عليهِ ما عنِتُّم حريصٌ عليْكُمْ بالمؤمنين رءُوفٌ رحيمٌ. فإنْ تَوَلَّوْا فقُلْ حسْبيَ اللهُ لا إلهَ إلاّ هوَ عليه توكّلْتُ وهو ربُّ العرشِ العظيم﴾ [2].

باب آداب النبي صلى الله عليه وسلم لأمّته

قال النبي ﷺ فيما أدّب به أمتَه وحضّها عليه من مكارم الأخلاق وجميل المعاشرة وإصلاح ذات البين وصلة الأرحام: أوْصاني ربّي بتسْعٍ وأنا أوصيكم بها، أوصاني بالإخلاص في السرّ والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصْد في الغنى والفقر، وأن أعفوَ عمَّنْ ظلَمني، وأُعْطيَ مَنْ حرَمني، وأصِل مَن قطَعني، وأن يكون صَمْتي فكراً، ونُطقي ذكرا، ونَظَري عِبَرا.

وقد قال ﷺ: نهيتُكم عن قِيل وقالَ وإضاعة المالِ وكثرةِ السؤال.

وقد قال ﷺ: لا تقعدوا على ظهور الطرق، فإن أبيْتُم فغُضُّوا الأبصار، وأفْشُوا السلام، وآهْدوا الضال، وأعينوا الضعيف.

وقال ﷺ: أوْكُوا [3] السِّقاء، وأكفِئُوا [4] الإناء، وأغلِقُوا الأبواب، وأطفِئُوا المصباح؛ فإن الشيطان لا يفتح غلقا ولا يَحُلُّ وِكاء ولا يكشف الإناء.

---

(١) سورة فصّلت الآية ٣٤.

(٢) سورة التوبة الآية ١٢٨.

(٣) أوكوا السقاء: أي شدّوا رأسه بالوكاء لئلا يدخله حيوان أو يسقط فيه شيء، والوكاء: كل سير أو خيط يشدّ به فم السقاء أو الوعاء.

(٤) كفأ الإناء: قلبه وكبّه.

وقال ﷺ: ألا أنبئُكم بشرِّ الناس؟ قالوا: بَلَى يا رسول الله قال: منْ أكل وحدهُ، ومنَعَ رِفْدَهُ، وجلَدَ عبدَهُ.

ثم قال: ألا أنبئكم بشّرٍ من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: مَن يُبْغِضُ الناسَ ويُبغضونه.

وقال حصِّنوا أموالكم بالزكاة، وداوُوا مرضاكم بالصَّدقة، واستقبلوا البلاء بالدعاء.

وقال: ما قلَّ وكفَى خيرٌ مما كثُر وألْهَى.

وقال: المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعَى بذمّتهم أدناهم، وهم يدٌ على مَن سواهُم.

وقال: اليَدُ العُليا خيْرٌ من اليد السفلى وابدأ بمن تعُول.

وقال: لا تَجْن يمينُك على شمالك. ولا يُلْدَغُ المؤمن من جُحر مرتين.

وقال: المرء كثيرٌ بأخيه.

وقال آفْصلوا بينِ حديثكم بالاستغفار، وآستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان.

وقال: أفضل الأصحابِ من إذا ذَكْرت أعانك، وإذا نسِيت ذكرك.

وقال: لا يُؤَمُّ ذو سلطان في سلطانه ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه.

وقال ﷺ: يقول ابن آدم: مالي مالي! وإنما لهُ من ماله ما أكل فأفنى، أو لبس فأبْلَى، أو وهَبَ فأمضَى.

وقال: ستحرصون على الإمارة، فنِعْمَتِ المُرْضِعة وبِئست الفاطمة.

وقال: لا يحكم الحاكم بين اثنين وهو غضبان.

وقال: لو تكاشفتم ما تدافنتم، وما هَلك امروٌ عرف قدْره.

وقال: الناس كإبلٍ مائةٍ لا تكاد تجد فيها راحلة. والناس كلّهم سواءٌ كأسنان المشْط.

وقال: رحِمَ الله عبداً قال خيراً فغَنِمَ، أو سكتَ فسَلِمَ.

وقال: خير المال سِكَّةٌ مأبورة[1]، ومُهْرة مأمورة . وخير المال عينٌ ساهرة لعين نائمة.

وقال في إناث الخيل: بطونها كنز، وظهورها حِرز.

وقال: ما أمْلقَ[2] تاجرٌ صَدوق، وما أقْفَرَ بيت فيه خلّ.

وقال: قيِّدوا العلم بالكتابة.

وقال: زُرْ غِباً[3] تَزْددْ حُباً.

وقال: علِّقْ سوْطَك حيثُ يَراه أهلُك.

باب في آداب الحكماء والعلماء

منه في فضيلة الأدب

أوصَى بعض الحكماء بنبيه فقال: الأدب أكرم الجواهر طبيعة، وأنفَسُها قيمة، يَرفع الأحسابَ الوضيعة، ويُفيدُ الرَّغائب الجليلة، ويُعِزُّ بلا عشيرة، ويُكثر الأنصار بغير رزية؛ فالبسوه حُلّة، وتزيَّنُوه حِلية؛ يؤنسكم في الوْحشة ويجمع لكم القلوب المختلفة.

ومن كلام عليّ عليه السلام، فيما يروي عنه أنه قال: من حَلُم ساد، ومن ساد استفاد، ومن استحيا حُرِم، ومن هاب خاب، ومن طلب الرياسة صبَر على السياسة،

(١) المأبورة: الملقحة، والمأمورة: الكثيرة النتاج والنسل، أراد خير المال زرع أو نتاج.

(٢) أملق: افتقر.

(٣) الغبّ أن يجعل بين الزّيارة والزّيارة وقتاً.

ومن أبصر عيبَ نفسه عَمِي عن عيب غيره، ومن سلّ سيف البغْي قُتِل به، ومن آحتفر لأخيه بئرا وقع فيها، ومن نَسِي زلتَهُ آستعظم زلّة غيره، ومن هَتَك حجاب غيره آنهتكتْ عوراتُ بينه، ومن كابر في الأُمور عطِب، ومن آقتحم الُّلججَ غرق، ومن أعجب برأيه ضلّ، ومن آستغنى بعقله زلّ، ومن تجبّر على الناس ذلّ، ومن تعمّق في العمل ملّ، ومن صاحب الأنذال حُقِّرَ، ومن جالس العلماءَ وقِّر، ومن دخل مداخل السوء اتُّهِم، ومَن حَسُن خلُقُهُ سهُلت له طُرُقُه. ومن حسُن كلامهُ كانت الهيبة أمامه، ومن خَشي الله فاز؛ ومن استقاد الجهل تَرك طريق العدل، ومن عرَف أجله قصر أمله، ثم أنشأ يقول:

إلبَسْ أَخـاكَ علَـى عُيـوبِـهْ   واسْتُـر وغـطِّ على ذُنــوبِــهْ
واصْبِــر على بَهـــتِ السَّفيـــــهِ وللزّمَانِ على خُطـوبِـه[1]
ودعِ الجوابَ تفَضُّلاً   وَكِـلِ الظلــومَإلى حسيبِـــهْ[2]

وقال شَبيب بن شَيبة: اطلبوا الأدب فإنه مادةُ العقل، ودليلٌ على المروءة، وصاحبٌ في الغُربة، ومؤنسٌ في الوحشة، وحلية في المجلس، ويجمع لكم القلوب المختلفة.

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: عليكم بطلب الأدب؛ فإنّكم إن احتجْتم إليه كان لكم مالا، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا.

وقال بعض الحكماء: اعلم أنّ جاها بالمال إنما يصْحَبُك ما صَحِبَك المال، وجاهاً بالأدب غيرُ زائل عنك.

وقال ابن المُقفّع: إذا أكرمك الناسُ لمالٍ أو لسلطانٍ فلا يُعْجِبْك ذلك: فإن الكرامة تزول بزوالها، ولكن ليُعْجِبْك إذا أكرموك لِدينٍ أو أدب.

---

(١) البهت: الكذب والباطل.

(٢) كِلِ الظلوم: دعه إلى من يحاسبه.

وقال الأحنف بن قيس: رأس الأدب المنطق، ولا خير في قول إلا بفعل ولا في مالٍ إلا بجود، ولا في صديق إلا بوفاء، ولا في فقهٍ إلا بوَرَع؛ ولا في صِدق إلا بنيّة.

وقال مصقلةِ الزُّبيري: لا يستغنى الأديبُ عن ثلاثة وآثنين: فأمّا الثلاثة: فالبلاغة والفصاحة وحسن العبارة. وأما الاثنان فالعلم بالأثر والحفظُ للخير.

وقالوا: الحَسبُ محتاجٌ إلى الأدب، والمعرفة محتاجةٌ إلى التجربة.

وقال بُزُرْجمهر: ما ورَّث الآباءُ الأبناء شيئا خيراً من الأدب لأنّ بالأدب يَكسِبون المال وبالجهل يُتْلِفونه.

وقال الفُضيل بن عِياض: رأسُ الأدب معرفة الرجل قَدْرَه.

وقالوا: حُسن الخلق خير قرين، والأدب خير ميراث، والتوفيق خير قائد.

وقال سُفيان الثَّوري: من عرف نفسه لم يَضِرْه ما قال الناس فيه.

وقال أنو شروان للموبَذ، وهو العالم بالفارسية: ما كان أفضل الأشياء؟ قال الطبيعة النقية تكتفي من الأدب بالرائحة، ومن العِلم بالإشارة؛ وكما يموت البَذر في السّباخ[1]، كذلك تموت الحكمة بموت الطبيعة. قال له: صدقت، ونحن لهذا قَلَّدْناك ما قَلدناك.

وقيل لأردشير: الأدب أغْلَبُ أم الطبيعة؟ فقال: الأدب زيادةٌ في العقل ومنْبَهةٌ للرأي، ومكْسَبة للصواب؛ والطبيعة أمْلَك، لأن بها الآعتقاد ونماء الفراسة وتمام الغذاء.

وقيل لبعض الحكماء: أيُّ شيء أعَون للعقل بعد الطبيعة المولودة؟ قال: أدبٌ مكتَسَب.

---

(١) السّباخ: أرض ذات نزّ وملح لا تصلح للنّبات.

وقالوا: الأدب أدَبان: أدبُ الغريزة، وهو الأصل؛ وأدب الرواية، وهو الفرع. ولا يتفرع شيءٌ إلا عن أصله، ولا يَنْمى الأصل إلا باتصال المادة.

وقال الشاعر:

ولم أرَ فرعاً طال إلا بأصله ... ولم أر بدء العلم إلاَّ تعلُّما

وقال حبيب:

وما السيْفُ إلا زُبْرةٌ لو تركتَهُ ... على الحالة الأولى لَمَا كان يَقطع [1]

وقال آخر:

ما وَهَبَ الله لامْرِيءٍ هِبَةً ... أَفْضلَ من عقلهِ ومن أدبِهْ

هما حياةُ الفتىَ فإنْ فُقِدا ... فإن فَقْدَ الحياةِ أحسنُ بهْ

وقال ابن عباس: كَفاك من عِلم الدين أن تَعرف ما لا يَسعُك جهلُه، وكفاك من علم الأدب أن تَرويَ الشاهد والمثال.

قال ابن قتيبة: إذا أردت أن تكون أديبا فتفننْ في العلوم.

وقالت الحكماء: إذا كان الرجل طاهر الأثواب، كثير الآداب، حَسَن المذهب؛ تأدَّب بأدبه وصلُح لصلاحه جميعُ أهلهِ وولده.

وقال الشاعر:

رأيتُ صلاحَ المرءِ يُصلِح أهلهُ ... ويُفسِدُهُم ربُّ الفسادِ إذا فَسَد

يُعظَّم في الدنيا لفضل صَلاحِه ... ويُحفظ بعد الموتِ في الأهل والولَد

وسئل ديُو جانس: أي الخصال أحْمَدُ عاقبة؟ قال: الإيمان بالله عز وجل، وبرَّ الوالدين، ومحبةُ العلماء، وقَبول الأدب.

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال من لا أدب له لا عقل له.

وقالوا: الأدب يَزيد العاقل فضلا ونباهة، ويُفيده رقة وظرفا.

---

(١) الزبرة: القطعة من الحديد أي أنّ السيف لا يكون سيفاً إلاّ إذا صقل وهذّب.

وفي رقة الأدب

قال أبو بكر بن أبي شيبة: قيل للعباس بن عبد المطلب، أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ قال: هو أكبر مني وأنا أسَنُّ منه.

وقيل لأبي وائل: أيكما أكبر، أنت أم الربيع بن خُثيم؟ قال أنا أكبر منه سنا وهو أكبر مني عقلا.

وقال أبان بن عُثمان لطُوَيْس المُغني: أنا أكبر أم أنت؟ قال: جُعِلتُ فِداك! لقد شهدت زِفاف أمّك المباركة.

وقيل لعمر بن ذر: كيف بِرُّ ابنِك بك؟ قال: ما مشيْت نهاراً قطُّ إلا مشى خلفي، ولا ليلا إلا مشى أمامي ولا رَقِيَ عِلّيَّةً وأنا تحته.

ومن حديث عائشة، قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ يُبجّل أحداً تبجيلَه لعمّه العباس.

وكان عمر وعثمان إذا لقيا العباس نَزَلا إعظاماً له إذا كان راكبين.

الرياشي عن الأصمعي قال: قال هارون الرشيد لعبد الملك بن صالح: أهذا منزلك.

وقد تقدم هذا الخبر في الخبر الذي فيه مخاطبة الملوك، وكذلك قول الحجاج للشعبي: كم عطاءك.

ومن قولنا في رقة الأدب:

أدبٌ كمثْل الماءِ لو أَفرغْتَه   يوماً لسالَ كما يسيل الماءُ

من أدب علي ابن يحي:

أحمد بن أبي طاهر قال: قلت لعلي بن يحي: ما رأيت أكمل أدبا منك! قال:

كيف لو رأيت إسحاق بن إبراهيم! فقلت ذلك لإسحاق بن إبراهيم، فقال: كيف لو رأيت إبراهيم بن المهدي! فقلت ذلك لإبراهيم، فقال: كيف لو رأيت جعفر بن يحيى.

وقال عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: قال لي رجاء بن حَيْوَةَ: ما رأيت أكرم أدبا، ولا أكرم عِشْرَة من أبيك؛ سَمَرْت عنده ليلة، فبينا نحن كذلك إذ عَشى[1] المصباح ونام الغلام. فقلت: يا أمير المؤمنين، قد عَشى المصباح ونام الغلام، فلو أذِنْت لي أصلحتُه! فقال: إنه ليس من مروءة الرجل أن يَستخدم ضيْفَه، ثم حط رداءه عن منكبيه، وقام إلى الدبَّة[2] فصبّ من الزيت في المصباح، وأشخص الفَتيلة، ثم رجع. وأخذ رداءه وقال: قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر.

عمر بن الخطاب ورجل أحدث صوتاً في المسجد:

العتبي عن أبيه قال: صوَّت رجل عند عمر بن الخطاب في المسجد. فلما كانت الصلاة قال عمر: عزمت على صاحب الصوت إلا قام فتوضأ. فلم يقم أحد. فقال جرير بن عبد الله: يا أمير المؤمنين، اعزم علينا كلّنا أن نقوم فنتوضأ قال: صدقت! ولا علمتُك إلا سَيِّدا في الجاهلية، فقيهاً في الإسلام، قوموا فتوضئوا.

الشحام والحسن:

الرياشي عن الأصمعي قال: حدّثني عثمان الشحّام، قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد. قال: لبيك. قلت: أتقول لي لبيك؟ قال: إني أقولها لخادمي.

وقال الشاعر:

يا حبَّـذا حين تمسي الرِّيـح بـاردةً وادِي أُشَيٍّ وفتيـانٌ بـه هُضُـمُ[3]

---

(١) عشى: ناص وغار ضوؤه.

(٢) الدبّة: ظرفٌ للزيت.

(٣) وادي أشيّ: موضع بالوشم باليمامة. وهُضُم: جمع هضيم، وهو الضامر اللطيف الكشح.

مُخَـدَّمـون، كـرامٌ في مجالسهـمْ وفي الرِّحـال إذا رافقْتَهـم خـدَمُ
وما أُصاحِبُ من قوْمٍ فأذكُـرهُـمْ إلا يـزيـدُهُـمُ حُبـا إليَّ هُـمُ

الأدب في الحديث والاستماع

وقالت الحكماء: رأس الأدب كلّه حُسنُ الفهم والتفهُّم، والإصغاءُ للمتكلِّم.

وذَكر الشعبي قوماً فقال: ما رأيت مثلهم أسدَّ[1] تناوبا في مجلس، ولا أحسن فهماً من محدِّث.

وقال الشعبي فيما يصف به عبد الملك بن مروان: والله ما علمتُه إلا آخِذاً بثلاث، تاركا لثلاث: آخذا بحسن الحديث إذا حدَّث، وبحسن الآستماع إذا حُدِّث، وبأيسر المؤونة إذا خُولف؛ تاركا لمجاوبة اللئيم، ومماراة[2] السفيه، ومنازعة اللجوج.

وقال بعض الحكماء لابنه: يا بنيّ، تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الحديث؛ وليعلم الناس أنك أحرص على أن تسمع منك على أن تقول؛ فآحذر أن تُسرع في القول فيما يجب عنه الرجوع بالفعل، حتى يعلم الناس أنك على فعل ما لم تقل أقرب منك إلى قول ما لم تفعل.

قالوا: من حُسن الأدب ألاّ تغالب أحداً على كلامه، وإذا سئل غيرُك فلا تجب عنه، وإذا حدَّث بحديث فلا تُنازعه إياه، ولا تقتحم عليه فيه، ولا تُرِه أنك تعلمه، وإذا كلّمت صاحبك فأخذتْه حجتُك فحسِّن مخرج ذلك عليه ولا تُظهر الظفَر به، وتعلم حُسن الآستماع، كما تعلَّم حسن الكلام.

وقال الحسن البصري: حدِّثوا الناس ما أقبلوا عليكم بوجوهكم.

وقال أبو عبّاد الكاتب: إذا أنكر المتكلم عين السامع فليسأله عن مقاطع حديثه،

---

(١) أسدّ تناوبا: يريد أنهم يتناوبون الحديث ويجيدون.

(٢) مماراة السفيه: مجادلته.

والسببِ الذي أجرى ذلكَ له؛ فإن وجده يقف على الحق أتمَّ له الحديث، وإلا قطعه عنه وحَرمه مؤانسته، وعرَّفه ما في سوء الاستماع من الفُسولة [1] والحِرمان للفائدة.

الأدب في المجالسة

للنبي صلى الله عليه وسلم:

ومن حديث أبي بكر بن أبي شيبة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يقم الرجل للرجل عن مجلسه ولكن ليوسِّع له.

وكان عبدالله بن عمر إذا قام له الرجل عن مجلسه لم يجلس فيه. وقال: لا يقم أحد عن مجلسه؛ ولكن آفسحوا يَفْسَحِ اللهُ لكم.

أبو أمامة قال: خرج إلينا النبي ﷺ فقمنا إليه؛ فقال: لا تقوموا كما يقوم العجم لعظمائها. فما قام إليه أحد منا بعد ذلك.

ومن حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: إن خرجتُ عليكم وأنتم جلوس فلا يقومنّ أحدٌ منكم في وجهي؛ وإن قمت فكما أنتم، وإن جلست فكما أنتم. فإن ذلك خُلق من أخلاق المشركين.

وقال ﷺ: الرجل أحق بصدر دابّته وصدر مجلسه وصدر فراشه. ومن قام عن مجلسه ورجع إليه فهو أحق به.

وقال ﷺ: إذا جلس إليك أحدٌ فلا تقم حتى تستأذنه.

وجلس رجل إلى الحسن بن عليّ ـ عليهما الرضوان ـ فقال له: إنك جلست إلينا ونحن نريد القيام، أفتأذن؟

وقال سعيد بن العاص: ما مددتُ رجلي قطُّ بين يدي جليس، ولا قمتُ عن مجلسي حتى يقوم.

---

(١) الفسولة: عدم المروءة.

وقال إبراهيم النَّخعي: إذا دخل أحدكم بيتاً فليجلس حيث أجلسه أهلُه.

وطرح أبو قِلابة لرجل جلس إليه وسادة فردَّها، فقال: أما سمعتَ الحديث: لا تردَّ على أخيك كرامتَه.

وقال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه: لا يأبى الكرامة إلا حمار.

وقال سعيد بن العاص: لجليسي عليَّ ثلاث: إذا دنا رحَّبت به، وإذا جلس وسَّعت له، وإذا حدّث أقبلت عليه.

وقال: إني لأكره أن يَمر الذباب بجليسي مخافة أن يؤذيه.

معاوية والأحنف:

الهيثم بن عدي عن عامر الشعبي قال: دخل الأحنف بن قيس على معاوية؛ فأشار إليه إلى وسادة، فلم يجلس عليها؛ فقال له: ما منعك يا أحنف أن تجلس على الوسادة؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن فيما أوصى به قيس بن عاصم ولدَه أن قال: لا تسْعَ للسلطان حتى يَملَّك ولا تقطعه حتى يَنساك، ولا تجلس له على فراش ولا وسادة، وآجعل بينك وبينه مجلس رجل أو رجلين.

وقال الحسن: مجالسة الرجل من غير أن يُسأل عن آسمه وآسم أبيه، مجالسةُ النوكي.

ولذلك قال شبيب بن شيبة لأبي جعفر، ولقيه في الطواف وهو لا يعرفه، فأعجبه حسن هيئته وسمته: أصلحك الله، إني أحب المعرفة، وأجلُّك عن المسألة. فقال: أنا فلان بن فلان.

قال زياد: ما أتيت مجلساً قط إلا تركت منه ما لو جلست فيه لكان لي، وتَرْكُ ما لي أحبُّ إليّ من أخذ ما ليس لي.

وقال: إياك وصدور المجالس وإن صدّرك صاحبُها؛ فإنها مجالس قُلَعة[1].

وقال الشعبي: لأن أُدْعَى من بُعْدٍ إلى قُربٍ أحبُّ إليّ من أن أُقْصَى من قُربٍ إلى بُعد.

ابن طاهر وابو السمراء:

وذكروا أنه كان يوما أبو السَّمراء عند عبد الله بن طاهر، وعنده إسحاق بن إبراهيم، فاستدنى عبد الله إسحاق فناجاه بشيء، وطالت النجوى بينهما... قال: فاعترتني حيرة فيما بين القعود على ما هما عليه والقيام، حتى انقطع ما بينهما وتنحى إسحاق إلى موقفه، ونظر عبد الله إليّ. فقال: يا أبا السمراء:

إذا النجيّان سرًّا عَنْك أمـرَهُما ... فانزحْ بسمعِك تجهَل ما يقولان[2]
ولا تُحمِّلْهما ثقلاً لخوْفِهما ... على تَنـاجيهِما بـالمجلِس الدّاني

فما رأيت أكرم منه ولا أرفقَ أدبا، تَرك مطالبتي في هفوتي بحق الأمراء، وأدّبني أدب النظراء.

وقال النبي ﷺ: إنما أحدكم مرآة أخيه، فإذا رأى عليه أذى فلْيُمِطْه[3] عنه، وإذا أخذ أحدكم عن أخيه شيئا فليقل: لا بِكَ السوء، وصَرَف الله عنك السوء.

وقالوا: إذا آجتمعت حُرمتان أسقطت الصغرى الكبرى.

وقال المهلب بن أبي صفرة: العيش كله في الجليس المُمْتع.

الأدب في المماشاة

وجه هشام بن عبد الملك ابنَه على الصائفة، ووجه معه آبن أخيه، وأوصى كلّ واحد منهما بصاحبه، فلما قدِم عليه قال لآبن أخيه: كيف رأيت آبن عمِّك؟ فقال:

---

(١) مجالس قلعة: أي لا يستقرّ الجالس فيها.

(٢) النجيّان: المتسارّان، وانزح: أبعد.

(٣) أماطه: أزاله.

إن شئت أجملت وإن شئت فسَّرت. قال: بل أجْمِلْ. قال: عرضت بيننا جادَّة[1] فتركها كلٌّ واحد منا لصاحبه، فما ركبناها حتى رجعنا إليك.

وقال يحي بن أكثم: ماشيت المأمون يوماً من الأيام في بستان مؤنسة بنت المهدي، فكنت من الجانب الذي يستره من الشمس فلما انتهى إلى آخره وأراد الرجوع. أردت أن أدور إلى الجانب الذي يستره من الشمس، فقال: لا تفعل، ولكن كن بحالك حتى أسترك كما سترتَني! فقلت: يا أمير المؤمنين، لو قدرتُ أن أقيَك حرَّ النار لفعلت، فكيف الشمس؟ فقال: ليس هذا من كرم الصُّحبة. ومشى ساتراً لي من الشمس كما سترتُه.

وقيل لعمر بن ذَرّ: كيف برُّ ابنك بك؟ قال: ما مشيت نهاراً قط إلا مشى خلفي، ولا ليلا إلا مشى أمامي، ولا رقي سطحا وأنا تحته.

وقيل لزياد: إنك تستخلص حارثة بن زيد وهو يواقع الشارب. فقال: وكيف لا أستخلصه وما سألته عن شيء قطُّ إلا وجدتُ عنده منه علماً، ولا آستودعته سرّا قط فَضيَّعَه، ولا راكبني قط فمَسّت ركبتي ركبتُه.

بين الهادي وابن يزيد في سفر:

محمد بن يزيد بن عمر بن عبد العزيز قال: خرجتُ مع موسى الهادي أمير المؤمنين من جُرجان، فقال لي: إمّا أن تحملني وإمّا أن أحملك، فعلمت ما أراد، فأنشدته أبيات ابن صِرْمة:

أوصيكـمُ بـالله أوّلَ وَهْلـةٍ ... وأحسـابِكـم والبِـرّ بـالله أوّلُ
وإن قوْمُكم سادوا فلا تَحسدوهمُ ... وإن كنتمُ أهلَ السِّيادة فاعدلـوا
وإن أنتمُ أعْـوَزْتمُ فتعفَّفـوا ... وإن كان فضل المال فيكم فأفْضِلوا
وإن نزلتْ إحدى الدَّواهي بقومِكم ... فأنفسكم دون العشيرة فاجعلـوا
وإن طلبوا عُرفاً فلا تَحرِموهـمُ ... وما حّملوكم في المُلِمّات فاحملـوا

---

(١) الجادّة: جمع جواد.

قال: فأمر لي بعشرين ألف درهم.

بين الهادي وابن سلم وعبد الله ابن مالك:

وقيل إن سعيد بن سَلْم راكب موسى الهادي والحربةُ بيد عبد الله بن مالك، وكانت الريحُ تَسفى[1] التراب، وعبد الله يلحظ موضع مسير موسى فيتكلف أن يسير على مُحاذاته، وإذا حاذاه ناله ذلك التراب، فلما طال ذلك عليه أقبل على سعيد ابن سلم فقال: أما ترى ما نَلْقَى من هذا الخائن؟ قال: والله يا أمير المؤمنين ما قصَّر في الاجتهاد، ولكن حُرم التوفيق.

باب السلام والإذن

قال النبي ﷺ: أطيبوا الكلام، وأفشوا السلام[2]، وأطعموا الأيتام، وصلُّوا بالليل والناس نِيام.

وقال ﷺ: إنّ أبخل الناس الذي يبخل بالسلام.

وأتى رجلٌ النبي ﷺ، فقال: عليك السلام يا رسول الله. فقال: لا تقل: عليك السلام؛ فإنها تحية الموتى، وقل: السلام عليك.

عمر بن عبد العزيز وجماعة سلموا عليه:

وقال صاحب حرس عمر بن عبد العزيز: خرج عمر في يوم عيد وعليه قميص كتّان وعمامة على قلنسوة لاطئة[3]، فقمتُ إليه وسلّمت عليه، فقال: مه، أنا واحد وأنتم جماعة؛ السلام عليّ والردُّ عليكم. ثم سلّم ورَدَدْنا عليه، ومشى فمشينا معه إلى المسجد.

---

(١) تسفي الرياح: تذروه.

(٢) افشوا السلام: انشروه. (٣) لاطئة: محيطة.

وقال النبي ﷺ : يُسلِّم الماشي على القاعد ، والراكبُ على الراجل ، والكبير على الصغير .

ودخل رجل على النبي ﷺ ، فقال له : أبي يُقرئك السلام . فقال : عليك وعلى أبيك السلام .

ابن مسعود وابن الخطاب والأسود:

إبراهيم عن الأسود قال: قال عبدالله بن مسعود : إذا لقيتَ عمر فاقرأ عليه السلام . قال: فلقيته فأقرأتُه السلام ، فقال: عليك وعليه السلام .

سليمان بن هشام وابن مهران

دخل ميمون بن مِهْران على سليمان بن هشام وهو والي الجزيرة، فقال: السلام عليكم. فقال له سليمان: ما منعك أن تسلِّم بالإمرة؟ فقال: إنما يُسلَّمُ على الوالي بالإمرة إذا كان عنده الناس.

الحسن وإبراهيم وابن مهران:

أبو بكر بن أبي شَيبة قال: كان الحسن وإبراهيم وميمون بن مهران يكرهون أن يقول الرجل، حياك الله. حتى يقول السلام.

وسئل عبدالله بن عمر عن الرجل يدخل المسجد أو البيت ليس فيه أحد ، قال: يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

ومر رجل بالنبي ﷺ وهو يبول، فسلّم علي، فلم يردّ عليه السلام.

وقال رجل لعائشة: كيف أصبحتِ؟ قالت: بنعمة من الله.

وقال رجل لشُريح: كيف أصبحتَ؟ قال: أصبحت طويلا أملي، قصيراً أجلي، سيِّئاً عملي.

وقيل لسفيان الثوري: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت في دارٍ حارَتْ فيها الأدِلاّء.

واستأذن رجل من بني عامر على النبي ﷺ وهو في بيت، فقال: ألِجُ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: اخرج إلى هذا فعلِّمه الاستئذان، وقل له يقول: السلام عليكم، أدْخُل؟

جابر بن عبد الله قال: استأذنت على النبي ﷺ، فقال: من أنت؟ فقلت: أنا. قال: أنا أنا!

وقال النبي ﷺ: الاستئذان ثلاثة، فإن أُذِن لك وإلا فارجعْ.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الأُولى إذْن، والثانية مؤامرة، والثالثة عزيمةٌ؛ إما أن يأذنوا، وإما أن يَرُدُّوا.

باب في تأديب الصغير

قالت الحكماء: من أدّب ولدَه صغيراً سُرَّ به كبيراً.

وقالوا: أَطْبَعُ الطين ما كان رطبا، وأَعْمَرُ العودِ ما كان لَدْناً.

وقالوا: من أَدَّب ولده غَمَّ حاسدَه.

وقال ابن عباس: من لم يجلس في الصغر حيث يكره، لم يجلس في الكبر حيث يُحبّ.

قال الشاعر:

إذا المرءُ أَعْيَتْه المُروءَةُ ناشِئاً   فمطلبُها كهلاً عليه شديدُ

وقالوا: ما أشدّ فطامَ الكبير، وأَعْسَرَ رياضة[1] الهرم.

(١) رياضة الهرم: تقويمه وإصلاحه.

قال الشاعر:

وترُوضُ عِرْسَك بعد ما هَـرِمَـت ... ومــن العَنــاءِ رِيــاضــةُ الهرِمِ

كتب شريح إلى معلم ولده:

تـرَكَ الصَّلاةَ لأكلُـبٍ يسعى بها ... يَبغِي الهِراش مـع الغُـواة الرُّجَّسِ

فليـأتينَّـك غــدوةً بصحيفــةٍ ... كُتبـت لـه كصحيفـة المتلمّس [١]

فــإذا أتــاك فعضَّــه بملامــةٍ ... أوْعِظْه مـوْعظـة الأديـب الكيِّس

فـإذا هَمْمــتَ بضربــهِ فبــدِرَّةٍ ... وإذا بلَغْـت ثلاثـةً لـك فـاحبِسِ

واعلم بـأنَّـك مـا أتيْــتَ فنفْسُــه ... مـع مـا يُجَـرِّعُني أعــزُّ الأنفُس

لابن عبد القدوس:

وقال صالح بن عبد القدّوس:

وإنَّ مَــن أدَّبتَــه في الصِّبــا ... كـالعُـود يُسقَـى الماءَ في غَـرْسِـه

حتى تَــراه مُــورقــاً نــاضراً ... بعـد الذي أبصرْت مــن يُبسِـه

والشيْــخُ لا يَتركُ أخلاقَــه ... حتى يــوارَى في ثَــرى رَمْسِــه

إذا ارْعــوَى عــادَ لــه جهلــه ... كذِي الضَّنَـى عـاد إلى نُكسِـه [٢]

مـا تَبلُـغ الأعـداءُ مـن جـاهِـلٍ ... مـا يَبلُـغ الجاهــل مــن نفسِــه

وقال عمرو بن عُتبة لمعلّم ولده: ليكن أولَ إصلاحك لولدي إصلاحُك لنفسك، فإنّ عيونهم معقودةٌ بعينك، فالحَسنُ عندهم ما صَنَعْت، والقبيح عندهم ما تركت؛ علِّمهم كتاب الله ولا تُكرههم عليه فيملُّوه، ولا تتركهم منه فيهجروه. روِّهم من الحديث أشْرَفَه، ومن الشعر أعفَّه، ولا تَنْقلهم من علم إلى علم حتى يُحكموه، فإنّ

---

(١) صحيفة المتلمّس: تضرب لمن يحمل كتاباً فيه حتفه، وذلك أن عمرو بن المنذر حمّل المتلمّس وطرفة بن العبد كتابين إلى أحد عمّاله يأمره فيهما بقتلهما فأمّا المتلمّس فقد عرف المكيدة ولم يذهب فنجا وأمّا طرفة فقد أصرّ على الذهاب رجاء العطية، فهلك.

(٢) الضّنى: المرض والألم، والنكس: أي الانتكاس.

آزدحام الكلام في القَلب مَشْغَلَةٌ للفهم. وعلِّمهم سُنَن الحكماء، وجنِّبْهم محادثة النساء، ولا تَتْكل على عُذر مني لك، فقد آتكلت على كفايةِ منك.

باب في حب الولد

أرسل معاوية إلى الأحنف بن قيس، فقال: يا أبا بَحر، ما تقول في الولد؟ قال: ثِمار قلوبنا، وعماد ظُهورنا، ونحن له أرضٌ ذليلة، وسماء ظليلة، فإن طلبوا فأعطِهم، وإن غَضبوا فأَرْضِهم، يَمنحوك ودَّهم، ويُحبوك جهدَهم؛ ولا تكن عليهم ثقيلا فيملوا حياتك، ويُحبُّوا وفاتك. فقال: لله أنت يا أحنف. لقد دخلت عليّ وإني لمملوءٌ غضباً على يزيد، فسللته من قلبي.

فلما خرج الأحنف من عنده بعث معاوية إلى يزيد بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب. فبعث يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب، شاطهره إياها.

وكان عبد الله بن عمر يذهب بولده سالم كل مذهب، حتى لامه الناس فيه، فقال:

يَلومونني في سالِمٍ وأَلومُهم وجِلدةُ بين العيْن والأنفِ سالِمُ

وقال: إنّ ابني سالماً ليُحب الله حُبّا لو لم يَخَفْه لم يعصه.

وكان يحي بن اليمان يذهب بولده داود كل مذهب؛ حتى قال يوما: أئمة الحديث أربعة: كان عبد الله، ثم كان علقمة، ثم كان إبراهيم، ثم أنت يا داود.

وقال: تزوّجت أم داود، فما كان عندنا شيء ألفّه فيه، حتى اشتريت له كُسوة بدانِق (١).

وقال زيد بن علي لآبنه: يا بنيّ، إن الله لم يَرْضَكَ لي فأوصاك بي، ورضيني لك فحذَّرَنيك. واعلم أن خير الآباء للأبناء من لم يدعه الحبُّ إلى التفريط، وخير الأبناء

(١) الدانق: سدس الدرهم.

للآباء من لم يدعه التقصير إلى العقوق.

وفي الحديث المرفوع: ريح الولد من ريح الجنة.

وفي أيضاً: الأولاد من ريحان الله.

وقال النبي ﷺ لما بُشِّر بفاطمة: ريحانةٌ أَشُمُّها ورزقها على الله.

ودخل عمرو بن العاص على معاوية وبين يديه بنته عائشة، فقال: من هذه؟ فقال: هذه تُفاحة القلب! فقال له: انبُذها عنك، فوالله إنهن ليَلِدْن الأعداء، ويقرّبْنَ البُعداء، ويورثْن الضغائن. قال: لا تقل ذاك يا عمرو، فوالله ما مَرّض المرضى، ولا نَدَب الموتى، ولا أعانَ على الأحزان مثلُهن. ورُبّ ابنِ أُختٍ قد نَفَعَ خالَه.

لحطان:

وقال حطّان بن المعلي الطائي:

لولا بُنَيّـاتٌ كـزَغْـبِ القَطَـا حُطِطْنَ من بعضٍ إلى بعضِ (١)
لكـانَ لي مُضطَـرَبٌ واسِـعٌ في الأرضِ ذاتِ الطُّولِ والعَرْضِ
وإنّما أولادُنـــا بيننـــا أكْبـادُنـا تَمشي على الأرضِ

وقال عبيد الله بن أبي بكرة: موتُ الولد صَدْعٌ في الكبد، لا ينجبر آخِرَ الأبد.

ونظر عمر بن الخطاب إلى رجل يحمل طفلا على عنقه، فقال: ما هذا منك؟ قال: ابني يا أمير المؤمنين! قال أما إنه إن عاش فتَنَك، وإن مات حَزَنَك.

وكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تُرَقِّص الحسين بن علي رضي الله عنهما وتقول:

وَا بــأَبِــي شبْــهُ النَّبي ليس شَبيهــاً بِعَلِــي

(١) زغب القطا: فراخهن اللائي لا يقدر على الطيران.

وكان الزبير يرقص عروة ويقول:

أَبْيضُ من آلِ أبي عتِيقِ مُبارَكٌ مِن وَلَدِ الصِّدِّيقِ
أَلَذُّهَ كما أَلَذُّ رِيقي

وقال أعرابيٌّ وهو يُرقِّص ولَده:

أُحِبُّهُ حُبَّ الشَّحيحِ مالَهْ قد كان ذاقَ الفقر ثم نالَهْ
إذا يُريدُ بَذْلَهُ بَدَا لَهْ

وقال آخر وهو يرقِّص ولده:

أعرِف منه قلَّة النُّعاس وخفَّةً من رأسِه في راسي

وكان رجل من طيء يقطع الطريق، فمات وترك بُنَياًّ رضيعا، فجعلت أمُّه ترقِّصه وتقول:

يا ليته قد قَطَع الطريقا ولم يرِدْ في أمره رَفيقَا
وقد أخافَ الفَجَّ والمَضيقا فقلّ أن كان به شفيقا

وقال عبد الملك: أضرَّ بنا في الوليد حبُّنا له فلم نؤدِّبه، وكأن الوليد أدَّبَنا.

وقال هارون الرشيد لابنه المعتصم: ما فعل وصيفُك فلان؟ قال: مات فاستراح من الكُتّاب. قال: وبلَغ منك الكتّاب هذا المبلغ. والله لاحَضَرْتَه أبداً. ووجهه إلى البادية فتعلم الفصاحة، وكان أُمِّيا، وهو المعروف بابن ماردة.

إبراهيم عليه السلام وملك الموت:

وفي بعض الحديث أن إبراهيم خليل الرحمن كان من أغْيَرِ الناس، فلما حضرتْه الوفاة دخل عليه ملَكُ الموت في صورة رجلٍ أنكره، فقال له: من أدخلك داري؟ قال: الذي أسكنك فيها منذ كذا وكذا سنة. قال: ومن أنت؟ قال: أنا ملَك الموت، جئت لقَبْض روحك. قال: أتاركي أنت حتى أودِّع ابني إسحاق؟ قال: نعم. فأرسل

إلى إسحاق. فلما أتاه أخبره، فتعلّق إسحاق بأبيه وجعل يتقطع عليه بكاء، فخرج عنهما ملك الموت. وقال: يا رب، ذبيحُكَ إسحاق متعلق بخليلك! فقال له الله: قل له إني قد أمهلتُك. ففعل، وانحل إسحاق عن أبيه، ودخل إبراهيم بيتاً ينام فيه؛ فقبض ملك الموت روحه وهو نائم.

باب الاعتضاد بالولد

قال الله تبارك وتعالى فيما حكاه عن عبده زكريا ودعائه إليه في الولد: ﴿وزكريّا إذْ نادى رَبّهُ ربِّ لا تَذَرْني فَرْداً وأَنْتَ خيْرُ الْوَارِثين﴾ (١).

وقال: ﴿وإنّي خِفْتُ المَوَالِيَ مِنْ ورائِي وكانتِ آمْرَأَتِي عاقِراً فهَبْ لي مِنْ لدُنكَ وليّاً يَرِثُني ويَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ واجْعَلْهُ رَبِّ رَضِياً﴾ (٢).

والموالي ها هنا: بنو العم.

وقال الشاعر:

من كان ذا عضَدٍ يُـدْرِكْ ظلامتَـه ... إنّ الذليل الذي ليْسَت لـه عضُـدُ
تَنْبُـو يَـداه إذا مـا قـل نـاصِـرُهُ ... ويأنفُ الضَّيْمَ إن أثْرَى له عَـدَدُ (٣)

العتبي قال: لما أسنّ أبو براء عامر بن مالك وضعّفه بنو أخيه وخرّفوه ولم يكن له ولد يحميه، أنشأ يقول:

دفعتُكـم عنّـي ِ ومـا دْفـعُ راحـةٍ ... بشيءٍ إذا لم تَسْتِعـنْ بـالأنـامِـل
يُضَعّفُني حلمـي وكثرةُ جهلِكـم ... عليّ وأني لا أصـولُ بجاهِـلِ

وقال آخر:

تعْدو الذِّئابُ على مَن لا كلاب لـه ... وتَتّقي سَـورة المستنفِـر الحامـي (٤)

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٨٩.
(٢) سورة مريم الآية ٥.
(٣) الضيم: الظلم، وأثرى: كثر.
(٤) السورة: السطوة والبطش والمستنفر: المستعدّ.

باب في التجارب والتأدّب بالزمان

قالت الحكماء: كفى بالتجارب تأديبا، وبتقلب الأيام عِظة.

وقالوا: كفى بالدهر مؤدِّبا وبالعقل مُرْشِدا.

وقال حبيب:

أحاوَلْتَ إِرْشادي فعقْلِيَ مُرْشِـدي أمِ اسْتَمْت تأديبِي فدهْري مُؤَدِّبِي[1]

وقال إبراهيم بن شَكْلة:

مـن لم يـُؤدِّبْــه والداهُ أَدَّبَــه الليْــل والنهــارُ
كم قـد أذَلاّ كـريمَ قـوْمٍ ليس لـه منهما انتصــارُ
من ذا يـدُ الدهـر لم تنلـه أو اطمأنّـت بـه الدّيـارَ
كلٌّ عن الحادِثاتِ مُغْضٍ وعنـده للـزمـانِ ثـارُ

وقال آخر:

وما أبْقَت لـك الأيـام عُـذْراً وبـالأيـام يَتّعِـظُ اللبيـبُ

وقالوا: كفى بالدهر مُخْبِرا بما مضى عما بقي.

وقالوا: كفي مُخبراً لذوي الألباب ما جرَّبوا.

وقالوا لعيسى ابن مريم عليهما السلام: مَن أدَّبك؟ قال: ما أدّبني أحد؛ رأيت الجهل قبيحاً فاجتنبته.

باب في صحبة الأيام بالموادعة

قالت الحكماء: اصحب الأيام بالموادعة، ولا تسابق الدهر فتكبو[2].

وقال الشاعر:

---

(١) استمت: أردت. (٢) تكبو: تتعثّر وتسقط.

مَن سابِق الدهر كبا كَبْوَةً | لم يَسْتَقِلْها من خُطا الدهر
فاخطُ مع الدهر إذا ما خَطا | واجْرِ مع الدهر كما يَجري

وقال بشار العقيلي:

أعاذِلُ إنّ العُسر سوْف يُفيقُ | وإنَّ يَساراً من غَدٍ لخليقُ[1]
وما كنتُ إلاّ كالزمانِ إذا صحا | صحوْتُ وإنْ ماقَ الزمانُ أموقُ[2]

وقال آخر:

تَحامَقْ مع الحَمْقى إذا ما لِقيتَهم | ولاقِهِم بالجهل فعل ذوِي الجهلِ
وخلِّطْ إذا لاقيْتَ يوْماً مُخَلِّطاً | يُخَلِّطُ في قول صحيحٍ وفي هَزْلِ
فإني رأيت المرءَ يَشقى بعقلِهِ | كما كان قبل اليوم يَسعَد بالعقل

وقال الآخر:

إن المقاديرَ إذا ساعَدتْ | أَلحقَتِ العاجِزَ بالحازِمِ

وقال الآخر:

والسببُ المانعُ حظَّ العاقِلِ | هو الذي سَبَّب حظَّ الجاهِلِ

ومن أمثالهم في ذلك قولهم: تَطامَنْ لها تَخطُك[3].

ومن قولنا في هذا المعنى:

تَطامنْ للزمانِ يَجُزْك عفواً | وإن قالوا ذليلٌ قُل ذليلُ

وقال حبيب:

وكانت لوْعةً ثم اطمأنَّتْ | كذاك لكلِّ سائلةٍ قرارُ

وقال حبيب:

---

(١) يفيق: ينتهي، واليسار: السَّعة.

(٢) ماق: حمق. (٣) تطامن: انخفض وذلّ.

ماذا يُـريـك الدهـرُ مـن هـوانِـه   اِزْفِن لقـرْد السَّـوءِ في زمـانِـه[1]

ولآخر:

الدهـرُ لا يبقـى على حـالـةٍ   لا بـدّ أن يُقْبِـل أو يُـدْبِـرْ
فـإن تَلَقَّـاك بمكـروهـه   فاصبِـر فـإن الدهـرَ لا يَصبرْ
اصبر لـدهـرٍ نـال منـك   فهكـذا مضـتِ الدُّهـورُ
فـرَحـاً وحُـزمـا مـرةً   لا الحُزْنُ دام ولا السُّرور

ولآخر:

عفـا الله عمّـن صيَّـرَ الهمَّ واحـداً   وأيقـن أنَّ الدائـراتِ تَـدورُ
تروح لنا الدُّنيـا بغير الذي غَـدت   وتَحْدُثُ من بَعـد الأمـور أُمـورُ
وتَجري الليـالي بـاجتماعٍ وفُـرْقـةٍ   وتطلُـع فيهـا أنجُمٌ وتَغـورُ
وتطمـع أن يبقـى السُّرورُ لأهلـهِ   وهـذا مُحـالٌ أن يَـدومَ سُـرورُ

ولآخر:

سـأنتظـر الأيـامَ فيـك لعلَّهـا   تعودُ إلى الوصْلِ الذي هـو أجملُ

باب التحفظ من المقالة القبيحة

وإن كانت باطلا

قالت الحكماء: إياك وما يُعْتذَر منه.

وقالوا: من عَرَّض نفسه للتهم فلا يأمن من إساءة الظن.

وقالوا: حَسْبُك من شرٍّ سماعُه.

وقالوا: كفى بالقول عاراً وإن كان باطلا.

---

(١) إزفن: ارقص.

وقال الشاعر:

وَمَنْ دعا الناسَ إلى ذَمِّهِ ذَمُّوهُ بالحقِّ وبالباطِلِ
مَقالَةُ السُّوءِ إلى أهْلِها أَسْرَعُ مِن مُنْحدرٍ سائلِ

وقال آخر:

قد قيل ذلك إنْ حَقاً وإنْ كَذِباً فما اعتِذارُكَ من قولٍ إذا قيلا

وقال أَرسطاطاليس للإسكندر: إن الناس إذا قدروا أن يقولوا قدروا أن يفعلوا، فاحترس من أن يقولوا تسلمْ من أن يفعلوا.

وقال امرؤ القيس:

وجرْحُ اللّسانِ كجرْحِ اليَدِ

وقال الأخطل:

والقولُ يَنْفذُ ما لا تَنْفُذُ الإبر

وقال يعقوب الحمدوني:

وقد يُرْجَى لِجَرْحِ السيفِ بُرْءٌ ولا بُرْءٌ لِمَا جَرَحَ اللِّسانُ

ولآخر:

قالوا ولو صَحَّ ما قالوا لفُزْتُ به مَنْ لي بتصديق ما قالوا وتكذِيبي

باب الأدب في تشميت العطاس

للنبي صلى الله عليه وسلم:

ومن حديث أبي بكر بن أبي شَيبة قال: قال النبي ﷺ: لا تشمِّت العاطس حتى يحمد الله، فإن لم يحمده فلا تشمِّته.

وقال: إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمّتوه، وإن لم يحمد الله فلا تُشمِّتوه.

وقال عليّ رضي الله عنه: يشمَّت العاطس إلى ثلاث، فإن زاد فهو داءٌ يخرج من رأسه.

عطس ابن عمر، فقالوا له: يرحمك الله. فقال: يهديكم الله ويُصلح بالكم.

وعطس عليّ بن أبي طالب فحمد الله، فقيل له: يرحمك الله. فقال: يغفر الله لنا ولكم.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذا عطس أحدكم فشمِّتوه ثلاثا، فإن زاد فقولوا: إنك مَضْنوك[1].

وقال بعضهم: التشميت مرة واحدة.

باب الإذن في القبلة

عبد الرحمن بن أبي ليلى عن عبد الله بن عمر، قال: كنا نقبِّل يدَ النبي ﷺ.

وكيع عن سفيان قال: قبَّل أبو عبيدة يدَ عمرَ بن الخطاب.

ومن حديث الشَّعبي قال: لقي النبي ﷺ جعفر بن أبي طالب، فالتزمه وقبَّل بين عينيه.

وقال إياس بن دَغْفل: رأيت أبا نَضرة يقبّل خدّ الحسن.

الشَّيباني عن أبي الحسن عن مصعب قال: رأيت رجلاً دخل على عليّ بن الحسين رضي الله عنهما في المسجد فقبّل يده ووضعها على عينيه، ولم يَنْهه.

العُتبي قال: دخل رجلٌ على هشام بن عبد الملك فقبَّل يده، فقال: أُفٍّ له. إنّ العرب ما قبّلت الأيدي إلا هلوعاً ولا قبلتها العجم إلا خضوعاً.

واستأذن رجل المأمون في تقبيل يده، فقال: إنّ القبلةَ من المؤمن ذِلّة، ومن الذِّميّ خديعة؛ ولا حاجة بك أن تَذِلّ، ولا حاجة بنا أن نُخْدَع.

واستأذن أبو دلامة المهديّ في تقبيل يده فمنعه، فقال: ما منعتَني شيئاً أيسرَ على عيالي فقداً من هذه.

---

(١) مضنوك: من الضنك، وهو الشدّة والضيق.

الهجري والمنصور:

الأصمعي قال: دخل أبو بكر الهجري على المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين، نغَضَ فمي، وأنتم أهل بيتٍ بركة، فلو أذنت لي فقبّلتُ رأسك لعلّ الله كان يُمسك على ما بقي من أسناني. قال: اختر بينها وبين الجائزة. فقال: يا أمير المؤمنين، إن أهْوَن عَليَّ من ذهاب دِرهم من الجائزة ألاّ تبقى في فمي حاكّةٌ. فضحك المنصور وأمر له بجائزة.

وقالوا: قبلة الإمام في اليد، وقبلة الأب في الرأس، وقبلة الأخ في الخد، وقبلة الأخت في الصدر، وقبلة الزوجة في الفم.

باب الأدب في العيادة

مرض أبو عمرو بن العلاء، فدخل عليه رجل من أصحابه، فقال له: أريد أن أساهرك الليلة. قال له: أنت معافًى وأنا مُبْتَلي، فالعافية لا تَدَعُك أن تسْهَر، والبلاء لا يَدَعُني أن أنام. وأسأل الله أن يَهبَ لأهل العافية الشكر، ولأهل البلاء الصبر.

ودخل كُثيّر عزّة على عبد العزيز بن مروان وهو مريض، فقال: لو أن سرورك لا يتمّ إلا بأن تسلم وأسقم لدعوتُ ربي أن يصرف ما بك إليَّ، ولكن أسأل الله لك أيها الأمير العافية، ولي في كَنفك النعمة. فضحك وأمر له بجائزة. فخرج وهو يقول:

ونعودُ سيِّدَنا وسيِّدَ غيْرِنا ... ليْتَ التَّشكِّي كان بالعُوَّادِ
لو كان يقبلُ فِدْيةً لفَديْتُه ... بالمُصطفى مِن طارِفِي وتِلادِي(١)

وكتب رجل من أهل الأدب إلى عليل:

نُبِّئْتُ أنَّكَ مُعْتلٌّ فقلْتُ لَهُمْ ... نفْسِي الفداء له مِنْ كُلِّ محذُور

---

(١) الطارف والتليد: المال المحدث والموروث.

يـا ليْـتَ عِلّتَـهُ بِـي ثُمَّ كـان لـهُ   أجْرُ العليـلِ وأنِّـي غيرُ مـأجُـورِ

وكتب آخر إلى عليل:

وقَيْناك لو يُعطَى الهوَى فيكَ والمُنى   لكانَ بنا الشكْوى وكان لك الأجرُ

بين يحيي بن خالد وشاعر اعتل:

وكان شاعر يختلف إلى يحيي بن خالد بن برمك ويمتدحه، فغاب عنه أياماً لعلةٍ عرضت له، فلم يفتقدْه يحيي ولم يسأل عنه؛ فلما أفاق الرجلُ من علَّته كتب إليه:

أيّهـذا الأميرُ أكـرَمـك اللـــه   وأبْقـاك لي بقـاءً طـويلاَ

أَجَمِيلاً تَـراهُ أَصلحـكَ اللـــه   لِكَيْما أراهُ أيضـاً جَمِيلاَ

أنَّني قد أَقمْـتُ عنـكَ طـويلاً   لا تُـرى مُنْفِـذاً إليَّ رسُـولاَ

أَلِذَنْبٍ فما علِمْتُ سـوَى الشُّكـ   ـرِ لِمَـا قـد أوْلَيْتَنِيـه جـزيلاَ

أمْ مَلالاً فما عَلِمتُـكَ لِلْحـا   فِـظِ مِثْلي على الزَّمـان ملُـولاَ

قد أَتى اللهُ بـالصَّلاحِ فما أنْـ   ـكرْت مِمَّا عهِـدْت إلاَّ قليلاَ

وأكلـتُ الدُّرَّاجَ وهْـوَ غـذاءٌ   أفَلـتْ عِلَّتي عليـهِ أُفُـولاَ[1]

وكـأنِّـي قـدِمْـتُ قُبْلَـك آتِيـ   ـكَ غداً إنْ أجِد إليْـك سبيلاَ

فكتب إليه الوزير يعتذر:

دفـع اللهُ عنـك نـائبـةَ الدهـ   ـرِ وحاشَـاكَ أن تكـون عليلا

أُشْهِـدُ الله مـا عَلمـتُ ومـاذا   كَ مِنَ العُذْرِ جـائـزاً مقبـولاَ

ولَعلّي لو قـدْ علِمْـتُ لعـاوَدْ   تُـكَ شهْـراً وكـان ذاكَ قليلا

فاجْعلنّ لي إلى التَّعلُّقِ بـالعُـذْ   رِ سبيلا إن لْم أَجِـدْ لي سبيلاَ

فقدِيماً ما جاءَ ذو الفضْلِ بالفَضْـ   ـلِ وما سامَـحَ الخليـلُ خليلاَ

وكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر:

---

(١) الدرّاج: طائرٌ كالحجل.

أعـزِزْ علَـيَّ بـأَنْ أراكَ عليلاَ | أو أنْ يكونَ بك السّقامُ نـزيلاَ
فوَددْت أنّـي مـالِـكٌ لِسلامَتي | فأُعيرَهـا لـك بُكْـرَةً وأَصِيلا
فتكـونَ تبْقَـى سـالماً بسلامَتي | وأكونَ مِمَّا قد عـراكَ بـدِيلا
هذا أَخٌ لك يشتَكي ما تشْتَكـي | وكذا الخليلُ إذا أحـبَّ خليلاَ

ومرض يحيي بن خالد، فكان إسماعيل بن صبيح الكاتب إذا دخل عليه يعوده وقف عند رأسه ودعا له، ثم يخرج فيسأل الحاجبَ عن منامه وشرابه وطعامه؛ فلما أفاق قال يحيي بن خالد: ما عادَني في مرضي هذا إلا إسماعيل بن صبيح.

وقال الشاعر:

عِيـادةُ المرءِ يَـومٌ بين يَـوْمَيْـن | وجلسَةٌ لك مِثْل اللَّحظِ بـالعَيْـنِ
لا تُبْـرِمـنّ مـريضـاً في مُسـاءَلـةٍ | يكْفِيك مِنْ ذاك تسآلُ بحرْفَيْـنِ (١)

وقال بكر بن عبد الله لقوم عاوده في مرضه فأطالوا الجلوس عنده: المريض يُعادُ والصحيح يُزار.

وقال سُفيان الثوري: حُمْقُ القرّاء أشدُّ على المرضى من أمراضهم: يجيئون في غير وقت ويُطيلون الجلوس.

ودخل رجل على عمر بن العزيز يعوده في مرضه، فسأله عن علّته، فلما أخبره قال: مِن هذه العلة مات فلان، ومات فلان. فقال له عمر: إذا عُدْتَ المرضى فلا تنْعَ إليهم الموتى، وإذا خرجتَ عنا فلا تعُدْ إلينا.

وقال ابن عباس: إذا دخلتم على الرجل وهو في الموت فبشّروه ليلقى ربّه وهو حَسَنُ الظن، ولقّنوه الشهادة، ولا تُضْجِروه.

ومرض الأعمش فأبرمه الناسُ بالسؤال عن حاله، فكتب قصتَه في كتاب وجعله عند رأسه، فإذا سأله أحد قال: عندك القصة في الكتاب فاقرأها.

---

(١) تبرم: تملّ.

ولبعضهم:

مرض الحبيب فعدتُه فمرضتُ من حذري عليهِ
وأتى إليَّ يعودني فبرئتُ من نظري إليهِ

ومرض محمد بن عبد الله بن طاهر، فكتب إلى أخيه عبيد الله بن عبد الله:

إنّي وجَدْتُ على جَفا ئك من فَعالكَ شاهدا
إنّي اعتلَلْتُ فما فقَدْ تُ سِوَى رسولِكَ عائدا
ولَوِ اعْتَللت فلم أجِد سبباً إليْك مُساعِدا
لاسْتشعَرتْ عيْني الكرَى حتَّى أعُودك راقِدًا

فأجابه:

كُحِلَتْ مُقْلتي بشوْكِ القتاد لم أذُق حرقةً لطعم الرُّقادِ(١)
يا أخي الباذِلَ المَوَدَّةِ والنَّا زِلَ من مُقْلتي مكان السَّوادِ
منعَتْني عليكَ رِقَّةُ قلبي من دخولي إليْك في العُوَّاد
لو بأُذْني سَمِعْتُ منْكَ أنيناً لتفَرَّى مع الأنينِ فُؤادي(٢)

ولمحمد بن يزيد:

يا عَليلاً أفْديكَ من ألَمِ العِـلَّـةِ هل لي إلى اللِّقاء سبيلُ
إنْ يَحُلْ دونَك الحِجابُ فما يُحْـجَبُ عنّي بِكَ الضَّنى والعَويل

وأنشد محمد بن يزيد، قال: أنشدني أبو دُهمان لنفسه وقد دخل على بعض الأمراء يعوده:

بأنفُسِنا لا بالطَّوارِفِ والتُّلْد نَقيكَ الذي تُخفي من السُّقْمِ أو تُبْدي
بِنا معشرَ العُوَّادِ ما بكَ من أذًى فإنْ أشفقوا ممّا أقولُ فبي وَحْدي

وكتب أبو تمام الطائي إلى مالك بن طوق في شَكاةٍ له:

---

(١) القتاد: الشوك. (٢) تفرّ: تقطع.

كم لَوْعَةٍ للنَّدَى وكم قلقٍ … للحمدِ والمكرُمَاتِ من قَلَقِكْ
أَلْبَسَكَ اللهُ منه عافيةً … في نَوْمِكَ المُعتَرِي وفي أَرَقِكْ
تُخرِجُ من جسمِكَ السَّقَامَ كما … أَخْرَجَ ذَمَّ الفَعَالِ مِن خُلُقِكْ

ودخل محمد بن عبد الله على المتوكل في شكاة له يعوده، فقال:

اللهُ يدفع عن نفسِ الإمامِ لَنا … وكُلّنا للمَنايا دونَهُ غَرَضُ
فليتَ أنّ الذي يَعرُوهُ مِنْ مرضٍ … بالعائدين جميعاً لا به المرضُ
فبالإمامِ لنا من غيرنا عِوضٌ … وليس في غيرِه منه لنا عِوَضُ
فما أُبالي إذا ما نفسُه سَلِمَتْ … لو بادَ كلُّ عِبادِ اللهِ وانقَرَضوا

وقال آخر في بعض الأمراء:

واعتَلَّ فاعتَلَّتْ الدنيا لِعِلَّتِه … واعتَلَّ فاعتَلَّ فيه البأْسُ والكرم
لَمّا استَقلَّ أَنارَ المجدُ وانقشَعتْ … عنه الضبابة والأحزانُ والسَّقَمُ(١)

وبلغ قيساً مجنونَ بني عامر أن ليلى بالعراق مريضة: فقال:

يقولون ليلَى بالعراقِ مريضةٌ … فما لك تَجفوها وأنت صديقُ
شفَى اللهُ مرْضَى بالعراقِ فإنّني … على كلِّ شاكٍ بالعراقِ شفيقُ

ولمحمد بن عبد الله بن طاهر:

أَلْبَسَكَ اللهُ منه عافيةً … تُغنِيكَ عن دعوتِي وعن جَلَدِكْ
سُقْمُكَ ذا لا لِعِلَّةٍ عَرَضتْ … بل سُقْمُ عينيكَ رُدَّ في جسدِكْ
فيا مريض الجفون أَحْيِ فتًى … قتلتَهُ بالجفون لا بيدك

وقال غيره:

يا أملي، كيف أنت من أَلَمِكْ … وكيف ما تشتكيه من سَقَمِكْ
هذانِ يومانِ لي أَعُدُّهما … مُذْ لم تلُحْ لي بُروقُ مُبْتَسَمِكَ

---

(١) انقشعت: زالت وتكشّفت.

حَسدْتُ حُمَّاكَ حين قيل لها ... بأنها قبَّلَتْكَ فوق فمِكْ

ولسُحيم عبد بني الحَسحاس:

تَجمَّعْنَ شتَّى من ثلاثٍ وأربعٍ ... وواحدةٍ حتى كَمُلْنَ ثمانيا
وأَقبَلنَ من أَقْصى الخِيامِ يَعُدْنَني ... ألاَ إنما بعضُ العوائدِ دائيَا

وللعباس بن الأحنف:

قالت مَرِضْتُ فعُدْتُها فتبَرَّمتْ ... وهي الصحيحة والمريضُ العائدُ
واللهِ لو قَستِ القلوبُ كقلبها ... ما رَقَّ للولدِ الضعيفِ الوالِدُ

وقال الواثق:

لا بكَ السُّقْمُ ولكنْ كان بي ... وبنفسي وبأُمّي وأبي
قيل لي إنّك صُدِّعْتَ فما ... خالَطَتْ سمعِيَ حتى دِيرَ بي (١)

وأنشد محمد بن يزيد المبرّد لعلية بنت المهدي:

تمارَضْتِ كي أَشْجَى وما بكِ عِلَّةٌ ... تُريدين قتلي قد ظَفِرْتِ بذلكِ
وقولكِ للعُوَّاد كيف تروْنه ... فقالوا قتيلاً قلت أهْونُ هالكِ
لئن ساءَني أن نِلْتِني بمساءةٍ ... لقد سرَّني أنّي خَطَرْتُ ببالِكِ

ومن قولنا في هذا المعنى:

رُوحُ الندى بين أثوابِ العُلا وصِبٌ ... يَعْتَنُّ في جسَدٍ للمجدِ مَوْصوبِ (٢)
ما أنت وحدَك مكسوٌّ شُحُوبَ ضَنى ... بل كلّنا بك مِن مُضْنًى ومَشْحوبِ
يا من عليه حِجابٌ من جلالتِه ... وإن بدا لك يوماً غير محجوبِ
ألقَى عليك يداً للضُّرِّ كاشفةً ... كشَّافُ ضُرِّ نَبيِّ اللهِ أيّوبِ

ومثله من قولنا:

---

(١) دير بي: مرضت، ودار رأسي من الأذى.

(٢) يعتنّ: يعترض، والوصب: المرض.

لا غَرْوَ إن نال منك السُّقْمُ والضررُ قد تُكسَفُ الشمسُ لا بل يُخسَفُ القمرُ
يا غُـرَّةَ القمـر الذاوي غَضـارتَهـا فِدًى لنورك منّـي السمـعُ والبصرُ
إن يُمْسِ جسمُك مدْهوكاً بصاليةٍ فهكذا يُوعَكُ الضِّرْغامـةُ الهَصرُ[(١)]
أن الحُسـامُ فـإن تُفْلَـل مَضـاربُـه فَقبلَه ما يُفَـلُّ الصـارمُ الذَّكَـرُ[(٢)]
روحٌ من المجدِ في جُثمان مَكرُمَـةٍ كأنما الصبحُ مـن خَـدَّيْـه يَنفجـرُ
لو غال مَجْلودَه شيءٌ سوى قـدَرٍ أكبَرْتُ ذاك ولكن غـالـه القـدَرُ

ومن قولنا في هذا المعنى:

لا غَرْوَ إن نال منك السُّقْمُ ما سَـأَلا قد يُكسَفُ البدرُ أحيانـاً إذا كملا
ما تشتكي علةً في الدهـر واحـدةً إلا اشتكى الجودُ من وَجدٍ بها عللا

الأدب في الاعتناق

سفيان بن عيينة ومالك:

أبو بكر بن محمد قال: حدثنا سعيد بن إسحاق عن ابن يونس المديني قال: كنت جالساً عند مالك بن أنس، فإذا سفيان بن عيينة يستأذن بالباب، فقال مالك: رجل صالح صاحب سُنَّة، أدْخِلوه. فدخلِ فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فردّ السلام، فقال: سلامٌ خاص وعام عليك يا أبا عبد الله ورحمة الله. فقال مالك: وعليك السلام يا أبا محمد ورحمة الله. فصافحه مالك وقال: يا أبا محمد، لولا أنها بدعة لعانقناك. فقال سفيان: قد عانق من هو خيرٌ منا، رسول الله ﷺ. فقال مالك: جعفراً؟ قال: نعم. فقال مالك: ذاك حديث خاص يا أبا محمد ليس بعام. فقال سفيان: ما عمَّ جعفراً يعُمّنا وما خصه يخصنا إذا كنا صالحين؛ أفتأذن لي أن أحدِّث في مجلسك؟ قال: نعم يا أبا محمد. فقال: حدَّثني عبد الله بن طاوس عن أبيه

(١) الصالية: الحمّى، لما فيها من حرارةٍ وسخونة. والضرغامة: الأسد، والهصر: الفاتك.

(٢) تفلل: تقطع، والصارم الذكر: السيف القاطع.

عن عبد الله بن عباس: أنه لما قدم جعفر من أرض الحبشة اعتنقه النبي ﷺ، وقبل بين عينيه وقال: جعفر أشبه الناس بي خَلْقاً وخُلُقاً.

باب الأدب في إصلاح المعيشة

قالوا: من أشبع أرضه عملاً أشبعت بيته خُبزاً.

وقالوا: يقول الثوب لصاحبه: أكرمْني داخلاً أُكرمْك خارجاً.

وقالت عائشة: المَغزل بيد المرأة أحسن من الرمح بيد المجاهد في سبيل الله.

وقال عمر بن الخطاب: لا تنهكوا وجه الأرض فإن شحمها في وجهها.

وقال: فرِّقوا بين المنايا واجعلوا الرأس رأسين.

وقال: أَملِكوا العجين فإنه أحد الرِّيعين.

وقال أبو بكر لغلام له كان يتجر بالثياب: إذا كان الثوب سابغاً[1] فانشره وأنت قائم، وإذا كان قصيراً فانشره وأنت جالس، وإنما البيع مِكاس[2].

وقال عبد الملك بن مروان: مَن كان في يده شيء فلْيُصْلحْه، فإنه في زمان إن احتاج فيه فأول ما يبدل دينَه.

باب الأدب في المؤاكلة

قال النبي ﷺ: إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله.

بلال والجارود:

محمد بن سلام الجمحي قال: قال بلاد بن أبي بُردة. وهو أمير على البصرة، للجارود بن أبي سَبرة الهذلي: أتحضر طعام هذا الشيخ؟ يعني عبد الأعلى بن عبد الله

(١) سابغاً: فضفاضاً.

(٢) المكاس: المفاصلة بين البائع والمشتري.

ابن عامر؛ قال: نعم. قال: فصِفْه لي. قال: نأتيه فنجده مُنبطحاً، يعني نائماً، فنجلس حتى يستيقظ، فيأذن فنساقطه الحديث، فإن حدّثناه أحسن الاستماع؛ وإن حدّثنا أحسن الحديث، ثم يدعو بمائدته، وقد تقدّم إلى جواريه وأمهات أولاده ألاّ تلفظ واحدة منهن إذا وضعت مائدة، ثم يُقبل خَبّازه فيمثُل بين يديه قائماً، فيقول له: ما عندك؟ فيقول: عندي كذا وكذا. فيعدّد ما عنده. يريد بذلك أن يحسن كلٌّ رجل نفسه وشهوته على ما يريد من الطعام. وتُقبل الألوان من ها هنا ومن ها هنا فتوضع على المائدة، ثم يؤتى بثريدة شبهاء[1] من الفلفل رقطاء[2] من الحِمّص، ذات حفافين من العُراق[3]، فيأكل مُعْذِرا، حتى إذا ظن أن القوم قد كادوا يمتلئون، جثَا على ركبتيه؛ ثم آستأنف الأكل معهم.

قال ابن أبي بُردة: لله دَرّ عبد الأعلى، ما أربط جأشه على وقع الأضراس.

وحضر أعرابي سُفرة هشام بن عبد الملك؛ فبيناه يأكل معه إذ تعلقت شعرة في لقمة الأعرابي، فقال له هشام: عندك شعرة في لقمتك يا أعرابي. فقال: وإنك لتلاحظني ملاحظة من يرى الشعرة في لقمتي! والله لا أكلت عندك أبداً، ثم خرج وهو يقول:

وللموْتُ خيْرٌ من زيـارةِ بـاخـلٍ   يُلاحِظُ أطراف الأكِيلِ على عَمْـدِ

بين المنصور وأعرابي:

محمد بن زيد قال: أكل قائد لأبي جعفر المنصور معه يوماً، وكان على المائدة محمد المهديُّ وصالحٌ ابناه، فبينا الرجل يأكل من ثريدة بين أيديهم، إذ سقط بعض الطعام من فيه في الغَضّارة[4]، فكأن المهدي وأخاه عافا الأكل معه، فأخذ أبو جعفر الطعام

---

(١) الثريدة: طعامٌ من خبزٍ ومرق. والشهباء.

(٢) الرقطاء: المرقّشة.

(٣) الحفافان: الجانبان، والعراق: العظم بلحمه.

(٤) الغضارة: الصحفة والاناء.

الذي سقط من فم الرجل فأكله، فالتفت إليه الرجل فقال: يا أمير المؤمنين، أما الدنيا فهي أقلُّ وأيسر من أن أتركها لك، والله لأترُكَن في مرضاتك الدنيا والآخرة.

المنصور وهاشمي والربيع حاجبه:

وحدّث إبراهيم بن السندي قال: كان فتى من بني هاشم يدخل على المنصور كثيراً، يسلم من بعيد وينصرف، فأتاه يوماً فأدناه، ثم دعاه إلى الغذاء. فقال: قد تغدّيت! فأمهله الرَّبيع حاجب المنصور حتى ظن أنه لم يفهم الخطيئة، فلما انصرف وصار وراء الستر دفعه في قفاه، فلما رأى من الحاجب دَفْعَه في قفاه، شكا الفتى حالته وما ناله إلى عُمومته، فأقبلوا من غدٍ إلى أبي جعفر، وقالوا: إن الربيع نال من هذا الفتى كذا وكذا. فقال لهم أبو جعفر: إن الربيع لا يُقْدم على مثل هذا إلا وفي يده حُجة، فإن شئتم أمسكنا عن ذلك وأغضيْنا، وإن شئتم سألتُه وأسمعْتُكم. قالوا: بل يَسأله أمير المؤمنين ونسمع. فدعاه فسأله، فقال: إن هذا الفتى كان يأتي فيسلِّم وينصرف من بعيد؛ فلما كان أمس أدناه أمير المؤمنين حتى سلَّم من قُرب؛ وتبذّل بين يديه ودعاه إلى غدائه؛ فبلغ من جهله بحق المرتبة التي أحلّه فيها أن قال: قد تغديت. وإذا هو ليس عنده لِمَنْ أكل مع أمير المؤمنين وشاركه في يده إلا سَدُّ خَلَّةِ الجوع، ومثل هذا لا يُقَوِّمه القول دون الفعل. فسكت القوم وانصرفوا.

وقال بكر بن عبد الله: أحق الناس بلطمة مَن أتى طعاماً لم يُدْع إليه، وأحق الناس بلطمتين من يقول له صاحب البيت: اجلس ها هنا. فيقول: لا، ها هنا، وأحق الناس بثلاث لطمات من دُعِي إلى طعام فقال لصاحب المنزل: ادْعُ ربة البيت تأكل معنا.

وقال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: لا ينبغي للفتى أن يكون مُكحلاً، ولا مُقبّباً، ولا مكوكباً، ولا شُكامداً، ولا حُرامداً، ولا تُقامداً. ثم فسره فقال: أما المكحل، فالذي يتعرق العظم حتى يدعه كأنه مكحلة عاج، والمقبّب، فالذي يركّب

اللحم بين يديه حتى يجعله كأنه قبة؛ والمكوكب، الذي يبصق في الطست وينخم فيها حتى يصير بصاقه كأنه الكواكب في الطست: والحرامد، الذي يأتي في وقت الغداء والعشاء فيقول: ما تأكلون؟ فيقولون من بغضه: سمّاً! فيدخل يده ويقول: في حِرِ آمٍّ العيش بعدكم؛ والشُّكامد. الذي يتبع اللقمة بأخرى قبل أن يُسيغها فيخنق، كأنه ديك قد ابتلع فأرة، والنقامد، الذي يضع الطعام بين يديه ويأكل من بين يدي غيره.

ومن الأدب: أن يبدأ صاحب الطعام بغسل يده قبل الطعام، ثم يقول لجلسائه: من شاء منكم فليغسلْ. فإذا غسل بعد الطعام: فليقدِّمهم ويتأخر.

أدب الملوك

قال العلماء: لا يُؤَمُّ ذو سلطان في سلطانه ولا يُجلس على تكرمته إلا بإذنه.
وقال زياد: لا يُسَلَّم على قادم بين يدي أمير المؤمنين.

ودخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده زياد، فرحَّب به معاوية ووسع له إلى جنبه، وأقبل عليه يسائله ويحادثه وزياد ساكت، فقال له ابن عباس: كيف حالك أبا المغيرة، كأنك أردت أن تُحدِث بيننا وبينك هِجرة؟ فقال: لا، ولكنه لا يُسَلّم على قادم بين يدي أمير المؤمنين. قال ابن عباس: ما أدكرتُ الناس إلا وهم يُسلمون على إخوانهم بين يدي أمرائهم. فقال له معاوية: كُفّ عنه يا بن عباس، فإنك لا تشاء أن تغْلِب إلا غلبْتَ.

الشيباني قال: بصق ابن مروان فقصّر في بصقته، فوقعتْ في طرف البساط فقام رجل من المجلس فمسحه بكمه، فقال عبد الملك بن مروان: أربعة لا يُسْتَحَى من خدمتهم: الإمام، والعالم، والوالد، والضعيف.

وقال يحي بن خالد: مُساءَلةُ الملوك عن حالها من تحية النَّوْكى، فإذا أردت أن تقول: كيف أصبح الأمير، فقل: صَبَّحَ اللهُ الأمير بالنعمة والكرامة. وإن كان عليلاً فأردت أن تسأله عن حاله، فقل: أنزل اللهُ على الأمير الشفاء والرحمة.

وقالوا: إذا زادك الملك إكراماً فزده إعظاماً، وإذا جعلك عبداً فاجعله ربّاً ولا تُديمن النظر إليه، ولا تُكثر من الدعاء له في كلّ كلمة ولا تتغيَّر له إذا سَخط ولا تغترّ به إذا رضي، ولا تُلحِف في مسألته.

وقالوا: الملوك لا تُسْأل ولا تشمّت، ولا تُكيَّف.

وقال الشاعر:

إن المُلُوك لا يُخاطَبُونا ولا إذا ملُّوا يُعاتَبُونا
وفي المقالِ لا تُنازَعُونا وفي العُطاسِ لا يُشمَّتُونا
وفي الخطاب لا يُكيَّفُونا يُثْنَى عليْهِمْ ويُبَجَّلُونا
فافْهَمْ وصاتِي لا تكن مَجْنونا

وقالوا: مِن تمام خدمة الملوك أن يُقرِّب الخادم إليه نعليه، ولا يدعه يمشي إليهما، ويجعل النعل اليمنى قُبالة الرجل اليمنى، واليُسرى قُبالة الرجل اليسرى؛ وإذا رأى متكأ يحتاج إلى إصلاح أصلحه، ولا ينتظر فيه أمره، ويتفقد الدواة قبل أن يأمره، وينفُض عنها الغبار إذا قرّبها إليه، وإن رأى بين يديه قِرطاسا قد تباعد عنه قرّبه إليه ووضعه بين يديه على كِسَره.

وقال أصحابُ معاوية لمعاوية: إنا ربما جلسنا عندك فوق مقدار شهوتك، فأنت تكره أن تستخفَّنا فتأمرنا بالقيام، ونحن نكره أن نُثْقِلَ عليك في الجلوس، فلو جَعلت لنا علامة نعرف بها ذلك؟ فقال: علامة ذلك أن أقول: إذا شئتم.

وقيل مثل ذلك ليزيد بن معاوية، فقال: إذا قلت: على بركة الله.
وقيل مثل ذلك لعبد الملك بن مروان، فقال: إذا وضعت الخيزرانة.

وما سمعتُ بألطف معنى، ولا أكمل أدباً، ولا أحسن مذهباً في مساءلة الملوك من شبيب بن شيبة وقوله لأبي جعفر: أصلحك الله، إني أحب المعرفة وأُجلك عن السؤال. فقال له: فلان بن فلان.

باب الكناية والتعريض

ومن أحسن الكناية اللطيفة عن المعنى الذي يقبح ظاهره: قيل لعمر بن عبد العزيز، وقد نبت له حِبْنٌ[1] تحت أُنثييه[2]: أين نبت بك هذا الحبن؟ قال: بين الرانفة[3] والصَّفن[4].

وقال آخر، ونبت به حِبَن في أبْطه، أين نبت بك هذا الحِبن؟ قال: تحت مَنكبي.

وقد كنى الله تعالى في كتابه عن الجماع بالملامَسة، وعن الحدث بالغائط فقال: ﴿أو جاءَ أحد مِنكـم مِنَ الغائِطِ أو لامَسْتُمُ النِّساء﴾[5] ـ والغائط: الفحص، وجمعه غيطان ـ ﴿وقالُوا مال هٰذا الرَّسُولِ يأْكلُ الطَّعام﴾[6] وإنما كَنَى به عن الحدَث. وقال تعالى: ﴿واضْمُمْ يَدكَ إلى جَناحِك تَخْرُجْ بيضاءَ مِنْ غيْرِ سُوء﴾[7] فكنى عن البرص.

ودخل الربيع بن زياد على النعمان بن المنذر وبه وضَحٌ، فقال: ما هذا البياضُ بك؟ فقال: سيف الله جلاه.

ودخل حارثة بن بدر على زياد وفي وجهه أثر، فقال زياد: ما هذا الأثر الذي في وجهك؟ قال: ركبت فرسي الأشقر فجمح بي. فقال: أما إنك لو ركبت الأشهب لما فعل ذلك. فكنى حارثة بالأشقر عن النبيذ، وكنى زياد بالأشهب عن اللبن.

وقال معاوية للأحنف بن قيس: أخبرني عن قول الشاعر:

---

(١) الحبن: الدمّل. (٢) الأنثيان: الخصيتان.
(٣) الرانفة: أسفل الإلية إذا كنت قائما.
(٤) والصّفن: وعاء الخصية.
(٥) سورة المائدة الآية ٦.
(٦) سورة الفرقان الآية ٧.
(٧) سورة طه الآية ٢٢.

إذا ما مات مَيْتٌ مِنْ تَميمٍ | وسَرَّك أن يعِيشَ فجىءْ بزادِ
بخُبْزٍ أوْ بتَمْرٍ أو بِسَمْنٍ | أو الشَّيءِ المُلفّفِ في البجادِ[1]
تراهُ يطوف في الآفاقِ حِرْصاً | ليأكُلَ رأسَ لُقْمَانَ بن عادِ

ما هذا الشيء الملفف في البجاد؟ قال الأحنف: السخينة[2] يا أمير المؤمنين. قال معاوية: واحدة بأخرى والبادي أظلم.

السخينة: طعام كانت تعمله قريش من دقيق، وهو الحريرة، فكانت تُسَبُّ به؛ وفيه يقول حسان بن ثابت:

زعَمَت سخينَةُ أَنْ ستَغْلِبُ ربَّها | وليُغلَبَنَّ مُغالِبُ الغُلاَّبِ

وقال آخر:

تعشوا مِنْ حريرَتِهِم فنامُوا

ولما عزل عثمانُ بن عفان عمرَو بن العاص عن مصر وولاّها ابن أبي سرح دخل عمرو على عثمان وعليه جبة مَحْشُوَّة، فقال له عثمان: ما حشو جُبتك يا عمرو؟ قال: أنا. قال: قد علمتُ أنك فيها. ثم قال له: يا عمرو، أشعرْت أن اللّقاح[3] درَّت بعدَك ألبانُها؟ فقال: لأنكم أعجفتم[4] أولادها.

فكنّى عثمان عن خراج مصر باللّقاح، وكنّى عمرو عن جور الوالي بعده وأنه حرم الرزق أهل العطاء ووفّره على السلطان، بالإعجاف.

وكان في المدينة رجل يسمى جعدة، يرجِّل شعره ويتعرّض للنساء المِعْزبات، فكتب رجل من الأنصار كان في الغزو إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

ألاَ أَبْلِغْ أبا حَفْصٍ رسولاً | فِدًى لك من أخي ثِقَةٍ إزاري
قَلائصَنا هَداكَ اللهُ إنَّا | شَغَلْنا عنكُم زمَنَ الحِصار

---

(١) البجاد: الثوب المخطط. (٢) السخينة: طعام حارّ.
(٣) اللقاح: المنتجة من الإبل وغيرها (٤) أعجفتم: أجعتم.

يُعقِّلُهُــنَّ جعْــدٌ شِيظَمِــيٌّ وبئسَ مُعَقِّــلُ الذَّوْدِ الظُّــؤَارِ[1]

فكنى بالقلائص عن النساء، وعرّض برجل يقال له جعدة. فسأل عنه عمرُ فدُلَّ عليه، فجزَّ شَعْرَه ونفاه عن المدينة.

وسمع عمر بن الخطاب امرأةً في الطواف تقول:

فمنهُنَّ مَـن تُسْقَـى بعَـذْب مُبـرَّدٍ نُقاخ فتِلْكمْ عند ذلـك قَـرَّتِ[2]

ومنهنَّ مَنْ تُسْقَـى بـأخضرَ آجـنٍ أُجـاجٍ ولـولا خَشيـةُ اللهِ فَـرَّتِ

ففهم شكواها، فبعث إلى زوجها فوجده متغيِّرَ الفم، فخيّره بين خمسمائة درهم وطلاقها. فاختار الدراهم، فأعطاه وطلَّقها.

ودخل على زيادٍ رجلٌ من أشراف البصرة، فقال. أين مسكنك من البصرة؟ قال: في وسطها قال له: كـم لك من الولد؟ قال: تسعة. فلما خرج من عنده قيل له: إنه ليس كذلك في كل ما سألته، وليس له من الولد إلا واحد، وهو ساكن في طرف البصرة. فلما عاد إليه سأله زياد عن ذلك، فقال له: ما كذَبْتُك. لي تسعة من الولد، قدَّمْتُ منهم ثمانية فهُم لي، وبقي معي واحد، فلا أدري ألِي يكونُ أم عليّ؛ ومنزلي بين المدينة والجبّانة؛ فأنا بين الأحياء والأموات، فمنزلي في وسط البصرة. قال: صدقت.

الكناية يورّى بها عن الكذب والكفر

لما هزم الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث وقَتل أصحابَه وأسَر بعضهم، كتب إليه عبد الملك بن مروان أن يَعرِض الأسرى على السيف، فمن أقرّ منهم بالكفر خلّى سبيله، ومن أبي يَقتله. فأُتي منهم بعامر الشَّعبي، ومُطرّف بن عبد الله بن الشِّخّير،

---

(١) الشيظمي: الفتيّ من الإبل. والذود: من ثلاثة إلى عشرة وقيل غير ذلك والظؤار: جمع ظئر، وهي الموضعة العاطفة على غير ولدها.

(٢) النقاخ: الماء البارد العذب الصافي.

وسعيد بن جُبير. فأما الشعبي ومُطرّف فذهبا إلى التعريض والكناية ولم يصرّحا بالكفر، فقبل كلامَهما وعفا عنهما؛ وأما سعيد بن جبير فأبى ذلك فقُتل.

وكان مما عَرّض به الشعبي فقال: أصلح الله الأمير، نبا المنزل، وأحزن بنا الجَناب، واستحلَسْنا[١] الخوف، واكتحلنا السهر، وخبطتنا فتنةٌ لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء. قال: صدَق. والله ما برّوا بخروجهم علينا ولا قَوُوا، خليّاً عنه. ثم قُدم إليه مطرّف بن عبد الله، فقال له الحجاج: أتقرّ على نفسك بالكفر؟ قال: إنّ من شق العصا، وسفك الدماء، ونكث البيعة، وأخاف المسلمين، لجدير بالكفر. قال: خلّيا عنه. ثم قُدّم إليه سعيد بن جبير؛ فقال له: أتُقرّ على نفسك بالكفر؟ قال: ما كفرتُ بالله مذ آمنتُ به. قال: اضربوا عنقه.

ولما وَلِيَ الواثقُ وأقعد للناس أحمد بن أبي دوَاد للمحنة في القرآن ودعا إليه الفقهاء، أُتي فيهم بالحارث بن مسكين، فقيل له: آشهدْ أن القرآن مخلوق! قال: أشهد أن التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، هذه الأربعة مخلوقة. ومدّ أصابعه الأربع؛ فعرّض بها وكنّى عن خلق القرآن وخلّص مهجتَه من القتل. وعجز أحمد بن نصر فقيه بغداد عن الكناية فأباها، فقُتل وصُلب.

ودخل بعض النُّساك على بعض الخلفاء فدعاه إلى طعامه، فقال: الصائمُ لا يأكل يا أمير المؤمنين، وما أُزكّي نفسي، بل الله يُزَكّي من يشاء. وإنما كره طعامَه.

ابن عرباض والخوارج:

الأصمعي عن عيسى بن عمر قال: بينما ابن عِرباض يمشي مقدِّماً بطنه، إذ استقبلته الخوارج يحزّون الناس بسيوفهم؛ فقال لهم: هل خرج إليكم في اليهود شيء؟ قالوا: لا. قال: فامضوا راشدين. فمضوا وتركوه.

ولقي شيطان الطاق رجلاً من الخوارج وبيده سيف؛ فقال له الخارجي: والله

(١) استحلسنا الخوف: فارقناه.

لأقتلنّك أو تبرأ من عليّ. فقال: أنا من عليٍّ ومن عثمان بريء يريد أنه من عليّ، وبريءٌ من عثمان.

أبو بكر بن أبي شيبة قال: قال الوليد بن عقبة على المنبر بالكوفة: أُقسم على مَنْ سمّاني أشْعَرَ بَرْكاً[1] إلا قام. فقام إليه رجل من أهل الكوفة فقال له: ومَنْ هذا الذي يقوم إليك فيقول: أنا الذي سميتُك أشعر بركاً؟ وكان هو الذي سمّاه بذلك.

وقال معاوية لصعصعة بن صوحان: اصعد المنبر فآلعن علياً. فامتنع من ذلك وقال: أو تعفيني؟ قال: لا. فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: معاشرَ الناس، إن معاوية أمرني أن ألعن عليّاً، فالعنوه لعنه الله.

الكناية عن الكذب في طريق المدح

ابن الهيثم وغلام سكران:

المدائنيّ قال: أُتِيَ العُريان بن الهيثم بغلام سكران، فقال له: من أنت؟ فقال:

أنا ابنُ الذي لا ينزلُ الدهرَ قِدْرُهُ ... وإن نزلَتْ يوماً فسوفَ تعودُ
تَرى الناسَ أفواجاً إلى ضوْءِ نارِهِ ... فمنهم قِيامٌ عندها وقُعودُ

فظنه ولداً لبعض الأشراف، فأمر بتخليته، فلما كُشف عنه قيل له: إنه ابن باقِلاَّئي.

عيسى بن موسى وابن شبرمة في متهم:

ودخل رجل على عيسى بن موسى وعنده ابن شبرمة القاضي، فقال له: أتعرف هذا الرجل؟ وكان رُمِيَ عنده بريبة: فقال: إن له بيتاً وقَدَماً وشرفاً. فخلّى سبيله. فلما انصرف ابنُ شُبرمة قال له أصحابُه: أكنت تعرف هذا الرجل؟ قال: لا، ولكني عرفتُ أن له بيتاً يأوي إليه، وقَدَماً يمشي عليها، وشرفه أُذناه ومَنكباه.

---

(١) أشعر بركاً: أي كثير شعر الصدر.

خاطب لبائع سنانير:

وخطب رجل لرجل إلى قوم، فسألوه: ما حرفته؟ فقال: نخاس الدواب. فزوّجوه، فلما كشف عنه وجدوه يبيع السنانير؛ فلما عنّفوه في ذلك قال: أَوَ السَّنانير دوابّ؟ ما كذبتكم في شيء.

ودخل معلّى الطائي على ابن السَّريّ يعوده في مرضه. فأنشده شعراً يقول فيه:

فأُقْسِم إن مَنَّ الإلٰهُ بصِحَّةٍ ونالَ السَّرِيِّ بنُ السَّرِيَّ شِفاءَ[1]
لأرتَحِلَنَّ العيسَ شهراً بحَجَّةٍ وأُعتق شكراً سالماً وصَفاءَ[2]

فلما خرج من عنده قال له أصحابه: والله ما نعلم عبدك سالماً، ولا عبدك صفاء، فمن أردت أن تُعتِق؟ قال: هما هِرَّتان عندي، والحجَّ فريضة واجبة، فما عليَّ في قولي شيء إن شاء الله تعالى.

باب في الكناية والتعريض في طريق الدعابة

سئل ابن سيرين عن رجل، فقال: تُوفيّ البارحة. فلما رأى جَزَع السائل قال: ﴿اللهُ يتوفَّى الأنفُس حِينَ مَوْتِها والتِي لم تَمُتْ في منامِها﴾[3] وإنما أردتُ بالوفاة النوم.

ومرض زياد، فدخل عليه شُريح القاضي يعوده، فلما خرج بعث إليه مسروقُ بن الأجدع يسأله: كيف تركت الأمير؟ قال: تركته يأمر وينهي. فقال مسروق: إن شريحاً صاحب تعريض، فاسألوه. فسألوه. قال: تركته يأمر بالوصية، وينهي عن البكاء.

وكان سنان بن مكمِّل النُّميري يساير عمر بن هبيرة الفزاري يوماً على بغلة فقال له ابن هبيرة: غُضَّ من عِنان بغلتك. فقال: إنها مكتوبة، أصلح الله الأمير. أراد

---

(١) السريّ: السيد. (٢) العيس: النوق، وأعتق: أحرِّر.

(٣) سورة الزمر الآية ٤٢.

ابن هبيرة قول جرير:

فغُضَّ الطرْفَ إنك مِن نُميْرٍ ... فلا كعباً بلغْت ولا كلابا

وأراد سنان قول الشاعر:

لا تأمنَنَّ فزاريّاً خلوْتَ به ... على قَلُوصِك واكتُبْها بأسيارِ[1]

ومر رجل من بني نُمير برجل من بني تميم على يده باز، فقال التميمي للنُّميري: هذا البازي؟ قال له النّميري: نعم، وهو يصيد القطا. أراد التميميُّ قول جرير:

أنا البازي المُطلُ على نُميْرٍ ... أُتِحْتُ له من الجوِّ انصِبابا[2]

وأراد النميري قول الطِّرمّاح:

تَميمٌ بطُرْقِ اللُّؤْم أهدَى منَ القَطا ... ولو سَلَكَت سُبلَ المكارمِ ضَلَّتِ

ابن يزيد الهلالي ومحاربي:

ودخل رجل من محارب على عبد الله بن يزيد الهلالي وهو والي أرمينية، وقريبٌ منه غدير فيه ضَفادع، فقال عبد الله بن يزيد: ما تركتْنا شيوخ محارب ننام الليلة! فقال له المحاربي: أصلح الله الأمير، أو تدري لِمَ ذلك؟ قال: ولِمَ؟ قال: لأنها أضلت بُرْقُعاً لها. قال قبّحك الله، وقبّح ما جئت به، أراد ابن يزيد الهلالي قول الأخطل:

تَنِقُّ بلا شيءٍ شُيوخُ مُحارِبٍ ... وما خِلْتُها كانت تَريشُ ولا تَبري

ضَفادعُ في ظَلْماءِ ليْلٍ تَجاوبَتْ ... فدلَّ عليها صوْتُها حَيّةَ البحرِ

وأراد المحاربي قول الشاعر:

لكلِّ هِلاليٍّ مِن اللُّؤْمِ بُرْقُعٌ ... ولابن هلال بُرْقُعٌ وقميص

وقال معاوية لعبد الرحمن بن الحكم: آستعرض لي هذين الفَرسين فقال: أحدهما

(١) يشير إلى ما كانت تعيّر به بنو فزاره من إتيانها الابل.

(٢) انصباباً: انحداراً كما ينصبّ البازيُّ على فريسته.

أجش[1] والآخر هَزِيم[2]. يعني قول النّجاشي:

ونَجّى ابن هندٍ سابِحٌ ذو عُلالةٍ   أجَشُّ هزِيمٌ والرِّماحُ دَواني[3]

فقال معاوية: أما إنّ صاحبها على ما فيه لا يشبِّب بكنائنه. وكان عبد الرحمن يُرْمَى بكنَّته.

وشاور زياد رجلاً من ثِقاته في امرأة يتزوجها، فقال: لا خير لك فيها؛ إني رأيت رجلاً يُقبلها، فتركه وخالفه إليها وتزوجها، فلما بلغ زياداً خبره أرسل إليه وقال له: أما قلت لي إنك رأيت رجلاً يقبلها؟ قال: نعم، رأيت أباها يقبلها.

وقال أعرابي لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، آحملني وسُحيا على جمل. فقال: نشدتك الله يا أعرابي، أسُحيم هذا زِق؟ قال: نعم. ثم قال: من لم ينفعه ظَنُّه لم ينفعه يقينُه.

وودّع رجلٌ رجلاً كان يُبغضه، فقال: آمض في سرّ من حفظ الله، وحجابٍ من كلاءته[4]. ففطن له الرجل، فقال: رفع الله مكانك، وشدّ ظهرك، وجعلك منظوراً إليك.

الشيباني قال: كان ابن أبي عتيق صاحب هزل ولهو، واسمه عبد الله بن محمد بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم وكانت له امرأة من أشراف قريش، وكان لها فتيات يُغنِّين في الأعراس والمآتم، فأمرت جارية منهن أن تغني بشعر لها قالته في زوجها، فتغنت الجارية وهو يسمع:

ذَهَبَ الإلهُ بما تعيش بهِ   وقَمِرْتَ لُبّك أيّما قَمْرِ[5]
أنفَقْتَ مالَكَ غيْرَ مُحْتَشِمٍ   في كلِّ زانِيَةٍ وفي الخَمْرِ

---

(١) الأجش: الغليظ الصهيل.

(٢) الهزيم: الشديد الصوت، المرعد.

(٣) العلالة: بقيّة جرس الفرس.

(٤) الكلاءة: الحفظ والحراسة. (٥) قمرت: غلبت.

فقال للجارية: لمن هذا الشعر؟ قالت: لمولاتي. فأخذ قرطاساً فكتبه وخرج به، فإذا هو بعبد الله بن عمر بن الخطاب، فقال: يا أبا عبد الرحمن، قِف قليلاً أكلِّمْك. فوقف عبد الله بن عمر، قال: ما ترى فيمن هجاني بهذا الشعر؟ وأنشد البيتين. قال: أرى أن تعفو وتصفح. قال: أما والله لئن لقيتُه لأنيكنَّه! فأخذ ابن عمر ينكلُه ويزجره، وقال: قبّحك الله! ثم لقيه بعد ذلك بأيام، فلما أبصره ابن عمر أعرض عنه بوجهه، فاستقبله ابن أبي عتيق فقال له: سألتُك بالقبر ومن فيه إلا سمعت مني حرفين. فولاه قفاه وأنصت له، قال: علمت أبا عبد الرحمن أني لقيت قائل ذلك الشعر ونِكْتُه. فصُعق عبد الله ولُبِط[1] به فلما رأى ما نزل به دنا من أذنه وقال: أصلحك الله، إنها امرأتي. فقام ابن عمر وقبل ما بين عينيه.

باب في الصمت

كان لقمان الحكيم يجلس إلى داود صلى الله عليه وسلم مقتبساً، وكان عبداً أسود، فوجده وهو يعمل درعاً من حديد، فعجب منه، ولم ير دِرْعاً قبل ذلك، فلم يسأله لقمان عما يعمل، ولم يخبره داود، حتى تمت الدرع بعد سنة، فقاسها داود على نفسه، وقال: زرْد طافا ليوم قِرافا. تفسيره: درع حصينة ليوم قتال؛ فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله.

وقال أبو عبيد الله كاتب المهديّ: كن على ٱلتماس الحظ بالسكوت أحرص منك على ٱلتماسه بالكلام؛ إن البلاء موكّل بالمنطق.

وقال أبو الدَّرداء: أنصِف أُذنيك من فيك، فإنما جُعل لك أُذنان ٱثنتان وفمّ واحد لتسمع أكثر مما تقول.

ابن عَوْف عن الحسن، قال: جلسوا عند مُعاوية فتكلموا وسكت الأحنف فقال معاوية: مالك لا تتكلم أبا بَحر، قال: أخافك إن صَدَقتُ وأخاف الله إن كذبت.

---

(١) لُبط: به: صرع.

وقال المهلَّب بن أبي صُفرة: لأنْ أرى لعقل الرجل فضلاً على لسانه أحبُّ إليّ من أن أرى للسانه فضلاً على عقله.

وقال سالم بن عبد الملك: فضل العقل على اللسان مروءة، وفضل اللسان على العقل هُجْنة[1].

وقالوا: من ضاق صدره آتسع لسانه، ومن كثُر كلامه كثر سَقَطه ومن ساء خلقُه قل صديقُه.

وقال هَرِم بن حيّان: صاحب الكلام بين منزلتين: إن قصّر فيه خُصم[2]، وإن أغرق فيه أثم[3].

وقال شَبيب بن شَيبة: من سمع الكلمة يكرهها فسكت عنها آنقطع ضَرُّها عنه.

وقال أكثم بن صَيفي: مَقتل الرجل بين فكَّيْه.

وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم:

يموتُ الفتى من عَثرةٍ بلسانِه ... وليس يَموت المرءُ من عَثرةِ الرِّجْلِ
فعَثرتُهُ مِن فيه تَرمِي برأسه ... وعَثرتُه بالرِّجْلِ تَبْرا على مَهْلِ

وقال الشاعر:

الحلْمُ زَيْنٌ والسُّكوتُ سَلامةٌ ... فإذا نَطقْت فلا تكن مِكثارَا
ما إنْ نَدِمْت على سُكوتي مَرَّة ... إلا نَدِمْت على الكلام مِرارَا

وقال الحسن بن هانيء:

خَلِّ جَنْبَيْك لِرَامي ... وامض عنّي بسلامِ
مُتْ بداءِ الصَّمْتِ خيْرٌ ... لك من داءِ الكلامِ
رُبَّ لفظٍ ساق آجا ... لَ فِئام وفئام[4]
إنما السالمُ من أَلْجَـ ... ـمَ فاهُ بلجامِ

---

(١) الهجنة: البدعة. (٢) خصم: غلب.
(٣) أغرق فيه: تمادى. (٤) الفئام: الجماعات.

وقال بعض الحكماء: حظّي من الصمت لي، ونفعُه مقصورٌ عليّ وحظي من الكلام لغيره، ووباله راجع عليّ.

وقالوا: إذا أعجبك الكلام فاصمُت.

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: متى أتكلم؟ قال: إذا اشتهيت أن تَصْمُت. قال: فمتى أصمُت؟ قال: إذا اشتهيت أن تتكلم.

وقال النبي ﷺ: ما أعطِيَ العبد شرّاً من طلاقةِ اللسان.

وسمع عبد الله بن الأهتم رجلاً يتكلم فيُخطيء، فقال: بكلامك رُزِقَ الصمتُ المحبة.

باب في المنطق

قال الذين فضّلوا المنطق: إنما بُعِثَت الأنبياءُ بالكلام ولم يُبْعَثوا بالسكوت؛ وبالكلام وُصِف فضلُ الصمت ولم يوصف القولُ بالصمت؛ وبالكلام يؤمَرُ بالمعروف ويُنْهَى عن المنكر ويعظَّم الله ويُسبَّح بحمده. والبيان من الكلام هو الذي منَّ اللهُ به على عباده فقال: ﴿خَلَقَ الإنسانَ عَلَّمَهُ البَيانَ﴾ [1]. والعلم كله لا يؤدِّيه إلى أوعية القلوب إلا اللسان؛ فنفعْ المنطقِ عامٌّ لقائله وسامعه، ونفعْ الصمتِ خاصٌّ لفاعله.

وأعْدَلُ شيء قيل في الصمت والمنطق، قولُهم: الكلام في الخير كلّه أفضل من الصمت، والصمتُ في الشر كلُّه أفضل من الكلام.

وقال عبد الله بن المبارك صاحب الرّقائق يرثي مالك بن أنس المدني:

صَمُوتٌ إذا ما الصَّمْتُ زَيَّنَ أهلَـهُ ... وفَتَّاقُ أبكـارِ الكلامِ المُخَتَّـمِ [2]

وَعَي ما وَعَى القرآنُ من كلِّ حِكمةٍ ... ونِيطَتْ له الآداب باللحـمِ والدَّمِ [3]

وقال عمر بن الخطاب: ترك الحركة غَفَلة.

---

(١) سورة الرحمن الآية ٢ ـ ٣.

(٢) وفتاق ابكار الكلام المختّم: كناية عن قدرته وبلاغته.

(٣) أنيطت: خلطت أو أوكلت.

وقال بكر بن عبد الله المزني: الصمت حُبْسة.

وقالوا: الصمت نوم، والكلام يقظة.

وقالوا: ما شيء ثنى إلا قصُر، إلا الكلام فإنه كلما ثُني طال.

وقال الشاعر:

الصمــت شيمتــه فــإن أبــدى مقــالاً كــان فَصلا
أبدى السكوتَ فـإن تكلّــ ــم لم يدع في القـول فضلا

باب في الفصاحة

محمد بن سيرين قال: ما رأيت على آمرأة أجمل من شحم، ولا رأيت على رجل أجملَ من فصاحة.

وقال الله تبارك وتعالى فيما حكاه عن نبيه موسى ﷺ وآستيحاشه لعدم الفصاحة: ﴿وأخي هٰرون هُوَ أفصحُ منّي لِساناً فأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقني﴾ [1].

آفات المنطق

تكلم ابن السماك يوماً وجارية له تسمع كلامه، فلما دخل قال لها: كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسنه لولا أنك تردّده. قال: أردّده ليفهمه من لم يفهمه. قالت: إلى أن يفهمه من لم يفهمه يملّه من فهمه.

الأصمعي قال: قال معاوية يوماً لجلسائه: أيّ الناس أفصح؟ فقال رجل من السماط: يا أمير المؤمنين، قَوم قد آرتفعوا عن رُتّة العراق، وتياسروا عن كشكشة بكر، وتيامنوا عن شِنْشنة تَغْلب، ليس فيهم غمغمة قضاعة، ولا طُمْطمانية حِمْير. قال: من هم؟ قال: قومك يا أمير المؤمنين، قريش. قال: صدقت! فمن أنت؟ قال: من جَرْم. قال الأصمعي: جَرم فُصحاء الناس.

(١) سورة القصص الآية ٣٤.

وهذا الحديث قد وقع في فضائل قريش؛ وهذا كان موضعه فذكرناه.

قال أبو العباس محمد بن يزيد النَّحوي: التمتمة في المنطق: التردّد في التاء. والعُقلة: هي التواء اللسان عند إرادة الكلام. والحُبْسه: تعذر الكلام عند إرادته. والَّلففُ: إدخال حرف في حرف. والطمطمة: أن يكون الكلام مُشْبِهاً لكلام العجم. والُّلكنة: أن تعترض عند الكلام اللغة الأعجمية ـ وسنفسر هذا حرفاً حرفاً وما قيل فيه إن شاء الله ـ والَّلثغة أن يُعْدَل بحرف إلى حرف. والغنّة: أن يُشْرَب الحرفُ صوتَ الخيشوم؛ والخُنة، أشد منها. والترخيم: حذف الكلام. والفأفأة: التردّد في الفاء؛ يقال: رجل فأفاء، تقديره فاعال: ونظيره من الكلام، ساباط، وخاتام، وقال الراجز:

يـــامَـــيُّ ذاتَ الجورَبِ المُنْشَـــقِّ أَخـذْتِ خـاتـامِـي بغير حــقِّ

وقال آخر:

ليس بفــــأفــــاءٍ ولا تَمامِ ولا مُحِــبٍّ سقَـــطَ الكلامِ

والرُّتة، كالرَّتَج: تمنُّع أول الكلام، فإذا جاء منه شيء اتصل بـه. والغمغمـة: أن تسمع الصوت ولا تبين لك تقطيعُ الحروف.

وأما الرُّتة فإنها تكون غريزية. وقال الراجز:

يا أيُّها المخلِّطُ الأرَتُّ

ويقال إنها تكثر في الأشراف. وأما الغمغمة. فإنها قد تكون مـن الكلام وغيره، لأنها صوت من لا يفهَم تقطيع حروفه. قال عنترة:

وصـاحــبٍ نـاديتــه فغمغما يــريــد لبّيــك ومــا تكلّما

قد صار من خوف الكلام أعجما

وأما كشكشة تميم: فإن بني عمرو بن تميم إذا ذَكَرَتْ كافَ المؤنث فوقفـتْ عليهـا أبدلت منها شِينا، لقُرب الشين من الكاف في المخرج، وقال راجزهم:

هلْ لَـكِ أن تنتفِعـي وأَنْفعَشْ وتُدْخِلِي الذي معي في اللـذْ مَعَشْ

وأما كسكسة بكر فقوم منهم يُبدلون من الكاف سيناً كما فعل التميميون في الشين. وأما طُمطمانية حمير ففيها يقول عنترة:

تأوِي له قُلُص النَّعامِ كما أَوَتْ حِزَقٌ يمانِيَـةٌ لأعجَـم طِمطِـمِ

وكان صُهيب أبو يَحيي رحمه الله يَرتضخ لكنة رومية.

وقال رسول الله ﷺ: صُهيب سابقُ الروم.

وكان عبيد الله بن زياد يرتضخ لُكنة فارسية من قِبَلِ زوج أمه شِيرَوَيْه الأسواريّ.

وكان زياد الأعجم، وهو رجل من عبد القيس، يرتضخ لكنة أعجمية، وأنشد المهلَّب في مدحه إياه:

فَتىً زادَهُ السُّلْتانُ في الحمـد رَغْبَـةً إذا غَيَّـرَ السُّلْتـانُ كـلَّ خليـلِ

يريد: السلطان؛ وذلك أن بين التاء والطاء نسباً، لأن التاء من مخرج الطاء. وأما الغُنة فتُستحسن من الجارية الحديثة السن. قال ابن الرقاع في الظبية:

تُـزْجِـي أغـنَّ كـأنَّ إبـرَةَ رَوْقـهِ قلَمٌ أصابَ من الدَّواةِ مِـدَادَهـا[1]

وقال ابن المُقفع: إذا كثُر تقليب اللسان رقّت حواشيه ولانت عَذَبته.

وقال العتّابي: إذا حُبس اللسان من الآستعمال آشتدّت عليه مخارج الحروف. وقال الراجز:

كـأنّ فيـه لَغَفـاً إذا نطَـقْ من طُـولِ تَحبيسٍ وهَـمٍّ وأرَقْ

باب في الإعراب واللحن

أبو عبيدة قال: مر الشعبي بقوم من الموالي يتذاكرون النحو، فقال لهم: لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده.

قال أبو عبيدة: ليته سمع لحن صفوان وخالد بن صفوان وخاقان والفتح بن

(١) تزجي: تسوق وتحثّ. والأغن من الظباء: ما في صوته غنّة والروق: القرن.

خاقان والوليد بن عبد الملك.

وقال عبد الملك بن مروان: اللحن في الكلام أقبح من التَّفتيق في الثوب، والجدريِّ في الوجه.

وقيل له لقد عَجِل عليك الشيب يا أمير المؤمنين، قال: شيَّبني ارتقاء المنابر وتوقُّع اللحن.

وقال الحجاج لابن يَعْمَر: أتسمعني أَلْحَنُ؟ قال: ألاَ ربما سبقك لسانُك ببعضه في آن وآن. قال: فإذا كان ذلك فعرِّفني.

وقال المأمون لأبي علي المعروف بأبي يعلي المِنقريّ: بلغني أنك أمِّيٌّ، وأنك لا تُقيم الشِعر، وأنك تلحن في كلامك. فقال: يا أمير المؤمنين، أمّا اللحن فربما سبقني لساني بالشيء منه، وأما الأمِّية وكسر الشعر فقد كان النبي ﷺ أُميا وكان لا يُنشد الشعر. قال المأمون: سألتك عن ثلاث عيوب فيك فزدتَني عيبا رابعا، وهو الجهل. يا جاهل، إن ذلك في النبي ﷺ فضيلة، وفيك وفي أمثالك نقيصة؛ وإنما مُنع ذلك النبي ﷺ لنفي الظِّنَّة عنه، لا لعيب في الشعر والكتاب، وقد قال تبارك وتعالى: ﴿وما كنت تَتْلُوا مِنْ قبْلِه مِنْ كِتَاب ولا تَخُطهُ بيَمِينِكَ إذاً لارْتابَ المُبْطِلون﴾[(١)].

وقال عبد الملك بن مروان: الإعراب جمال للوضيع، واللحن هُجنة على الشريف.

وقال: تعلموا النحو كما تتعلمون السنن والفرائض.

وقال رجل للحسن: إن لنا إماماً يلحن. قال: أمِيطوه[(٢)].

وقال الشاعر:

النحوُ يَبسُط من لسان الألكَنِ ... والمرءُ تُكرمهُ إذا لم يَلحَنِ[(٣)]

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٨.

(٢) أميطوه: ابعدوه.

(٣) الألكن: الأعجمي.

فـإذا طَلَبْـت مـن العلـوم أجَلَّهـا فــأجَلُّهــا منهــا مُقيمُ الألسُــنِ

وقال آخر:

الشّعـرُ صعـبٌ وطـويـل سُلَّمُــهْ إذا ارْتَقـى فيــه الذي لا يعلمــهْ
زلّـتْ بـه إلى الحَضِيـضِ قَـدمُـهْ يُـريــد أن يُعْــربَــه فيُعْجِمُــهْ

وقال رجل للحسن: يا أبو سعيد، فقال: أحسب أن الدوانيق[1] شغلتْك عن أن تقول يا أبا سعيد.

وكان عمر بن عبد العزيز جالسا عند الوليد بن عبد الملك، وكان الوليد لَحَّانا، فقال: يا غلام، ادع لي صالح. فقال الغلام: يا صالحا. قال له الوليد: انقص ألِفا. فقال عمر: وأنت يا أمير المؤمنين فزِدْ ألِفا.

ودخل على الوليد بن عبد الملك رجلٌ من أشراف قريش، فقال له الوليد: من خَتَنَك[2]؟ قال له: فلان اليهودي. فقال: ما تقول؟ ويحك! قال: لعلك إنما تسأل عن خَتَني يا أمير المؤمنين، هو فلان بن فلان.

وقال عبد الملك بن مروان: أضرَّ بنا في الوليد حبُّنا له فلم نلْزِمْهُ البادية.

وقد يستثقل الإعراب في بعض المواضع كما يُستخف اللحن في بعضها.

وقال مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري:

مَنطِـقٌ بـارعٌ ويَلحَـنُ أحْيـا نـاً وخيْـرُ الكلام مـا كـان لحنـا

وذلك أنه من حكى نادرة مُضحكة، وأراد أن يوفي حروفَها حظّها من الإعراب، طَمس حُسنَها وأخرجها عن مقدارها؛ ألا ترى أن مُزِّيدا المديني أكل طعاماً فكَظَّه[3] وقيل له: ألا تقيء؟ فقال: وما أقيء، خبزٌ نقي ولحمٌ طري! مرتي

(١) الدوانيق: يقصد بها الدراهم والدانق: سدس الدرهم.
(٢) الختن: الصهر، أو كلّ من كان من قبل المرأة كالأب والأخ. والختان: التطهر عند المسلمين.
(٣) الكظّة: التخمة.

طالق، لو وجدت هذا قيئاً لأكلتُه.

قال: وكذلك يُستقبح الإعراب في غير موضعه، كما استُقْبح من عيسى بن عمر إذ قال وابن هُبيرة يضربه بالسياط، والله إن كانت إلا أُثَيَّاباً في أُسَيْفاط[1] قبضها عشّاروك[2].

وحكي عن بعض المُعرِبين للحن أنّ جارية له غنّتْه:

إذا ما سمعْتُ اللوْمَ فيهـا رفْضتُـه   فيَدخُلُ من أُذْنٍ ويَخرُج من أُخرى

فقال لها: مِن أُخرَى يا فاعلة، أمَا علَّمتُك أنّ (مِنْ) تَخفض؟

وقال رجل لشريح: ما تقول في رجل تُوفِّي وترك أبا وأخيه؟ فقال له: أباه وأخاه. فقال: كم لأباه وأخاه؟ قال: لأبيه وأخيه. قال: أنت علّمتني، فما أصنع؟

وقال بعض الشعراء. وأدرك عليه رجل من المتفصّحين، يقال له حفص، لحناً في شعره، وكان حفص به آختلاف في عينه وتشويه في وجهه، فقال فيه.

لقد كان في عيْنيْك يا حفصُ شاغلٌ   وأنْفٍ كمثـل الطَّـود عما تَتبَّـعُ[3]
تَتبَّـعُ لحنـاً مـن كلامٍ مُـرَقَّش   وخَلْقُـك مَبنيٌّ مـن اللحــنِ أجمعُ
فعينُـك إقـواءٌ وأنفــك مُكفـأٌ   ووجهُك إيطاءٌ فما فيك مَرْقـعُ[4]

باب في اللحن والتصحيف

أبو حنيفة:

وكان أبو حنيفة لحانا، على أنه كان في الفُتْيَا ولُطفِ النظر واحد زمانِه.

---

(١) أسيفاط: تصغير أسفاط، والسفط هو الذي يعبّى فيه الطيب وما أشبه من أدوات النساء.

(٢) عشّاروك: جمع عشّار، وهو الذي يقبض عشر الأموال ويجبيها.

(٣) الطود: الجبل.

(٤) الاقواء: اختلاف حركة الرويّ في الشعر والإكفاء: المخالفة بين إعراب القوافي أو بين هجائها والايطاء: تكرير القافية لفظاً ومعنىً.

وسأله رجل يوما فقال له: ما تقول في رجل تناول صخرة فضرب بها رأس رجل فقتله، أتُقيده به؟ قال: لا، ولو ضربه بأبا قُبَيْس.

وكان بشر المَرِيسيّ يقول لجلسائه: قَضى الله لكم الحوائج على أحسن الوجوه وأهَنؤُها. فسمع قاسم التَّمّار قوماً يضحكون، فقال: هذا كما قال الشاعر:

إنّ سُلَيْمَى واللهُ يَكْلَؤُها ضَنَّتْ بشيءٍ ما كان يَرْزَؤُها

وبِشرُ المَريسي رأسٌ في الرأي، وقاسم التمار متقدم في أصحاب الكلام؛ واحتجاجه لبشر أعجب من لحن بشر.

ودخل شَبيب بن شَيبة على إسحاق بن عيسى يُعزيه عن طفل أُصيب به؛ فقال في بعض كلامه: أصلح الله الأمير، إنّ الطفل لا يزال مُحْبَنْطيا على باب الجنة يقول: لا أدخل حتى يدخل أبواي. قال إسحاق بن عيسى: سبحان الله! ماذا جئت به؟ إنما هو محبنطي؛ أما سمعت قول الراجز:

إنيّ إذا أنشَدْت لا أَحْبَنْطِي ولا أُحِب كَثْرة التمَطِّي

قال شبيب: أَلِي يُقال مثل هذا وما بين لا بَتَيهْا أعلَمُ مني بها! فقال له إسحاق: وهذه أيضا، أللبصرة لابتان يالُكَع! فأبان بتقريعه عوارَه فأخجله، فسكت.

قوله: المحبنطي: الممتنع امتناع طلب لا امتناع إباء، وهو بالطاء غير معجمة، ورواه شبيب بالظاء المعجمة. وقوله «ما بين لا بَتَيْها» خطأ؛ إذ ليس للبصرة لابتان، وإنما اللابة للمدينة والكوفة. واللابة: الحَرَّة، وهي الأرض ذات الحجارة السود.

نوادر الكلام

يقال ماء نُقاخ، للماء العذب. وماء فُرات، وهو أعذب العذب. وماء قُعاع وهو شديد الملوحة. وماء حُراق، وهو الذي يحرق من ملوحته. وماء شروب، وهو دون

العذب قليلا وماء مُسوس، وهو دون الشروب. وماء شَريب، وهو دون العذب.

اجتمع المفضَّل الضّبي وعبد الملك بن قُريب الأصمعي، فأنشد المفضل:

تُصْمِتْ بالماء تَوْلَباً جَذَعا[1]

فقال الأصمعي: تولبا جَدِعا. والجدِع السيء الغذاء. فضجّ المفضل وأكثر. فقال له الأصمعي: لو نفخت في الشَّبُّور[2] ما نفعك. تكلم بكلام النَّمل وأصِب.

وقال مروان بن أبي حفصة في قوم من رُواة الشعر لا يعلمون ما هو، على كثرة استكثارهم من روايته:

زَوامِلُ للأشعارِ لا عِلْمَ عندهم بجَيِّدِها إلاّ كعِلْمِ الأباعِرِ[3]
لَعَمْرُكَ ما يَدري البعيرُ إذا غدا بأَوْساقِهِ أوْراحَ ما في الغَرائِرِ[4]

باب نوادر من النحو

للخليل:

قال الخليل بن أحمد: أنشدني أعرابي:

وإنّ كِلاباً هذه عَشْرُ أبْطُنٍ وأنتَ بريءٌ من قَبائِلِها العَشْرِ

قال: فجعلت أعجب من قوله «عشر أبطن» فلما رأى عجبي قال: أليس هكذا قول الآخر:

وكان مِجَنِّي دون مَن كنتُ أتَّقي ثلاثَ شُخوصٍ كاعِبانِ ومُعْصِرُ[5]

وقال أبو زيد: قلت للخليل: لِمَ قالوا في تصغير واصِل: أُوَيْصِل، ولم يقولوا

---

(١) التولب: الجحش. (٢) الشبور: البوق.
(٣) الزوامل: جمع زاملة وهي ما يحمل عليها من الإبل، والأباعر: جمع بعير.
(٤) الأوساق: الأحمال. والغرائر: جمع غريرة وهي فقدان التجربة وجهل الأمور.
(٥) مجنّي: درعي، والكاعب: الناهد والمعصر: التي أدركت سن الشباب.

وُوَيْصل؟ قال: كرهوا أن يشبّه كلامهم بنبيح الكلاب.

وقال أبو الأسود الدؤلي: مِن العرب من يقول: لولاي لكان كذا وكذا.

وقال الشاعر:

وكم مَوْطِنٍ لولايَ طِحْتَ كما هَوَى　　بأَجْرامِهِ مِن قُنَّةِ النِّيقِ مُنْهَوِي[1]

وكذلك «لولا أنتم، ولولاكم»: ابتداءٌ وخبرُه محذوف.

وقال أبو زيد: وراء وقُدّام لا يُصْرَفان لأنهما مؤنثان؛ وتصغير قُدّام قُدَيْدِمَة، وتصغير وراء وُرَيْئة؛ وقُدّام خمسة أحرف، لأن الدال مشدّدة، فأسقطوا الألف لأنها زائدة، ولئلا يُصغر إسمٌ على خمسة أحرف.

أبو حاتم قال: يقال أُمٌّ بيّنةُ الأمومة، وعمٌّ بيِّنُ العمومة. ويقال: مأموم، إذا شُجَّ أُمّ رأسه. ورجل مَمُوم. إذا أصابه المُوم[2].

يقول المازني: يقال في حسب الرجل أُرْفة[3] ووَصْمة وأُبنة؛ وكذلك يقال للعصا إذا كان فيها عيب.

ويقال: قَذِيتْ عينهُ، إذا أصابها الرمد.

وقد يقال في التقديم والتأخير مثلُ قول الشاعر.

شَـرَّ يَـوْمَيْهـا وأَخْـزاهُ لها　　رَكِبتْ هِندٌ بِحـدْجٍ جَملا[4]

يريد: ركبت هند بحِدج جملا في شرّ يوميها، نُصب لأنه ظرف.

وقد يسمّى الشيءُ باسم الشيء إذا جاوره: قال الفرزدق:

---

(١) القنة: القمة، والنبق: أعلى الجبل.

(٢) الموم: الحمّى، وقيل الجدري.

(٣) الأرفة: العقدة.

(٤) الحدج: مركب من مراكب النساء مثل الهودج.

أَخـذْنـا بـآفـاق السماء عليكُـمُ لنـا قَمَـراهـا والنجـومُ الطـوالِعُ

قوله: لنا قمراها، يريد الشمس والقمر.

وكذلك قول الناس العمرين: أبي بكر وعمر.

الرياشي: يقال: أخذ قِضَّتَها وكُعْبَتَها، إذا أخذ عذرتها.

قال أبو عبيدة: المَعيون: الذي له منظر ولا مَخْبَر. والمعين: الذي قد أصيب بالعين. والمعين: الماء الظاهر.

أبو عبيدة قال: سمعت رؤبة يقول: أنا رَيِّق، يريد على الرِيق.

الأصمعي قال: لقي أبو عمرو بن العلاء عيسى بن عمر؛ فقال له: كيف رَحْلُكْ؟ قال: ما تزداد إلا مَثالة[1]. قال: فما هذه المَعْيوراء التي تركض؟ يريد: ما هذه الحمير التي تَركب؟

يقال: معيوراء، ومشيوخاء، ومعّوداء.

قال الأصمعي: إنما يقال: آقرأ عليه السلام؛ وأنشد:

آقـرأ على عَصْـرِ الشبـابِ تحيَّـةً وإذا لَقِيـتَ دَداً فقَطْني مِـنْ دَدِ[2]

وقال الفرزدق:

وما شَبِقَ القَيْسِيُّ مِن ضَعْفِ عقلـهِ ولكن طَفَتْ عَلماءِ قُلْفَةُ خـالِـدِ[3]

أراد: على الماء، فحذف. وهذا آخر كتاب سيبويه.

وقال بعض الوراقين:

رأيـتُ يـا حَمّـادُ في الصيْـدِ أرانِبـاً تـؤخـذُ بـالأيـدي

(١) المثالة: الفضل وحسن الحال.

(٢) دداً: لعباً.

(٣) القلفة: الغرلة، وهي جلدة عضو التناسل عند الذكر.

إنّ ذَوِي النَّحْـــوِ لهم أنفَسٌ   معـروفـةٌ بـالمكــرِ والكيْــدِ
يَضرِبُ عبدُ الله زيـداً ومــا   يُـريـدُ عبــد الله مـــن زيــدِ

وأنشد أبو زيد الأنصاري:

يا قُرْطُ قُـرْطَ حُيَـيٍ لا أبـالكُـمُ   يا قُرْطُ إنيّ عليكم خائـف حَـذِرُ
قُلتم لـه آهْـجُ تَميماً لا أبـاً لكُـمُ   في فَمٍّ قائل هذا التُّـرْبُ والحَجَـرُ
فـإنّ بيْـتَ تميمٍ ذو سَمِعْــت بــه   بيتٌ به رأسَـتْ في عِـزِّهـا مُضَـرُ

« ذو » هنا في مكان « الذي » لا يتغير عن حاله في جميع الإعراب؛ وهذه لغة طيء، تجعل « ذو » في مكان « الذي ».

وقال الحسن بن هانيء:

حُـبُّ المدامـةِ ذُو سمْعـتَ بـه   لم يُبْـقِ فِـيّ لغيْـرهــا فَضْلاَ

وبعض العرب يقول: « لا أباك » في مكان « لا أبا لك » مضافا؛ ولذلك ثبتت الألف، ولو كانت غيرَ مُعربة لقلت « لا أبَ لك » بغير ألف. وليس في الإضافة شيء يشبه هذا، لأنه حال بين المضاف والمضاف إليه.

لبعض الشعراء:

وقال الشاعر:

أبِـالموْتِ الَّذِي لا بُـــدَّ أنّـــي   مُلاقٍ لا أبـــاكِ تُخَـــوِّفيني!

وقال آخر:

وقد مـات شمّـاخٌ ومـات مُـزَرّدٌ   وأيُّ كــريمٍ لا أبَــاك مُخلّـــدُ

وأنشد الفراء لابن مالك العُقيلي:

إذا أنا لمْ أُومـنْ عليـك ولمْ يَكُـنْ   لِقـــاؤُك إلاّ مِـــن ورَاءُ وراءُ

هذا مثل قولهم: بَيْن بيْن.

وقال محمود الوراق:

مَـــزَجَ الصَّـــدُودُ وصـــالهـ ـنّ فكـان أَمْـراً بيْـــنَ بَيْـــن

وقال الفرزدق:

وإذا الرّجالُ رأَوْا يَـزِيـد رأيتَهُـمْ خُضُعَ الرّقابِ نـواكِسَ الأبصـار

قال أبو العباس محمد بن يزيد النحوي: في هذا البيت شيء مُستظرف عند أهل النحو. وذلك أنه جَمَع «فاعِل» على «فواعل» وإذا كان هذا، لم يكن بين المذكر والمؤنث فرق؛ لأنك تقول: ضاربةٌ وضوارب، ولا يقال في المذكر فواعل إلا في موضعين، وذلك قولُهم فوارس وهوالك، ولكنه اضطُر في الشعر فأخرجَه عن الأصل، ولولا الضرورة ما جاز له.

وقال أبو غسان رفيع بن سَلمة تلميذ أبي عُبيدة المعروف بدَماذ، يخاطب أبا عثمان النحوي المازنّي:

تفَكَّـرْتُ في النَّحْـوِ حَتَّـى مَلِلْـــتُ وأَتعَبْـتُ نفْسي لـهُ والبـدنْ
وأَتعبـــتُ بكـــراً وأصْحَـــابَـــهُ بطـول المسـائِلِ في كُـلِّ فـــنْ
سِـوى أنَّ بـابــاً عليــهِ العفَـا لِلْفـــاءِ يَـــا ليْتَـــهُ لمْ يَكُـــنْ
فكنْـــتُ بظَـــاهِـــرِهِ عـــالِمـاً وكنـــتُ بِبـاطِنِـــه ذا فطْـــن
ولِلـــواو بـــابٌ إلى جنْبِـــهِ مِـنَ المَقْـتِ أحْسَنُـهُ قـد لُعِـنْ
إذا قُلْـت هـاتـوا لماذا يُقـا لُ لَسْـتُ بـآتيـكَ أو تـأتِيَـنّ
أَجيبُـوا: لِمَـا قيـلَ هـذا كـذا على النَّصْـبِ قـالـوا لإضمار أنْ
ومـا إن رأيـت لها مـوضعـاً فـأعـرف مـا قيـل إلاّ بـأن
فقد خفت يا بكر من طول ما أفكـر في أمـر «أنْ» أن أجَـنّ

باب في الغريب والتقعيب

دخل أبو علْقمة على أعْينَ الطبيب، فقال: أصلحك الله، أكلتُ من لحوم هذه

الجوازل، فَطَسِئْتُ طَسْأَةً[١]، فأصابني وجع بين الوابلة[٢] ودأية العُنق[٣]، فلم يزل ينمو ويربو حتى خالط الخِلْب[٤] والشراسيف[٥]؛ فهل عندك دواء؟ قال نعم: خُذ خَرْبقا[٦] وسَلْفقاً وشِبْرِقا فزهْزقه وزقزقه[٧] واغسله بماء ذوب واشربه. فقال له أبو علقمة: لم أفهمْك. فقال: ما أفهمتُك إلا كما أفهمتَني!.

وقال له مرة أخرى: إني أجد معمعة وقرقرة. فقال: أما المعمعة فلا أعرفها، وأما القرقرة فضُراط لم ينْضَج.

وقال أبو الأسود الدؤلي لأبي علْقمة: ما حالُ ابنِك؟ قال: أخذَتْهُ الحُمَّى فطبختْه طبخا، ورضختْه رضخا[٨]، وفتختْه فتخا[٩]، فتركته فرْخاً. قال: فما فعلت زوجتُه التي كانت تُشارُّهُ[١٠] وتُهارُّهُ[١١] وتُمارُّهُ[١٢] وتُزارُّه[١٣]؟ قال: طلَّقها فتزوجت بعده فَحَظِيتْ وبظِيَت[١٤]. قال: فما بظيت؟ فقال له: حرفٌ من الغريب لم يبلغك.

فقال: يا بن أخي، كل حرف لا يعرفه عمّك فاستُره كما تستر السِّنَّوْرُ خُرْأَها.

أبو علقمة وحجام:

ودعا أبو علقمة بحجام يَحجِمه، فقال له: أنْقِ غسلَ المحاجم، واشدد قضُب الملازم، وأَرهف ظُبات المَشارط، وأسرع الوضع، وعجل النزع؛ وليكن شرطك وخزا، ومصّك نهزا، ولا تَرُدّن آتيا، ولا تُكرهن آبيا.

---

(١) طسيء: تخم. (٢) الوابلة: طرف العضد في الكتف.
(٣) الدأية، فقرة العنق. (٤) الخلب: حجاب بين القلب وسواد البطن.
(٥) الشراسيف: جمع شرسوف، وهو رأس الضلع مما يلي البطن.
(٦) الخربق: ضربٌ من الأدوية.
(٧) الزهزقة والزقزقة: ترقيص الأم للصبي.
(٨) الرضخ: الكسر.
(٩) فتخه: أوهنه
(١٠) تشاره: تخاصمه. (١١) تهاره: تهرّ في وجهه كما يهرّ الكلب.
(١٢) تماره: تجادله. (١٣) تزاره: تعضه.
(١٤) بظيت: إتباع حظيت مثل حسنٌ بسن.

فوضع الحجّام محاجمه في جونته[١] ومضى عنه.

أبو المكنون وأعرابي:

وسمع أعرابي أبا المكنون النحويّ في حلقته وهو يقول في دعاء الآستسقاء: اللهم ربّنا وإلهنا ومولانا، فصلّ على محمد نبينا، اللهم ومن أراد بنا سوءًا فأحِط ذلك السوءَ به كإحاطة القلائد بأعناق الولائد، ثم أرسخه على هامْته كرسوخ السِّجِّيل[٢] على أصحاب الفيل؛ اللهم آسقنا غَيثاً مُغيثاً مَرِيثاً مَرِيعا مَجلجلا مُسحنفرا[٣] هَزِجاً، سحاً[٤] سفوحا، طبَقاً غَدَقاً مثعنجرا[٥] نافعاً لعامّتنا وغير ضار لخاصتنا. فقال الأعرابي: يا خليفةَ نوح، هذا الطوفانُ وربِّ الكعبة، دعْني حتى آويَ إلى جبل يعصمني من الماء.

وسمعه مرة أخرى يقول في يوم برد: إن هذا يوم بلّة عَصبصب[٦]، بارد هِلّوف[٧]. فارتعد الأعرابي وقال: والله هذا مما يزيدني بردا.

وخطب أبو بكر المنكور فأغرب في خُطبته وتقعّر في كلامه؛ وعند أصل المنبر رجل من أهل الكوفة يقال له حَنَش؛ فقال لرجل إلى جنبه: إني لأبغض الخطيبَ يكون فصيحا بليغاً متقعِّرا. وسمعه أبو بكر المنكور الخطيب. فقال له: ما أحوجك يا حنَش إلى مُدَحْرَج مفتول لين الجلاد لَدن المَهزّة عظيم الثمرة[٨]، تؤخذ به من مَغْرِز العنق إلى عَجْب الذَنب[٩]، فتعلى فتكثُر له رقصاتك من غير جذل.

---

(١) الجونه: سلة مغشّاة أدماً تكون مع العطارين.

(٢) السّجيل: حجارة كالمدر. (٣) المسحنفر: الكثير الصبّ الواسع.

(٤) السحّ: الهطول.

(٥) طبقاً: عاماً واسعا، والغدق: الكثير والمثعنجر: السحاب الممتلىء.

(٦) البلّة، الندوة: والعصبصب: الشديد.

(٧) الهلّوف: الثقيل البطيء الذي لا غناء عنده.

(٨) ثمرة السوط: طرفه.

(٩) مغرز العنق إلى عجب الذنب: أصلاها.

وقال حبيب الطائي:

فما لـكَ بـالغـريـبِ يَـدٌ ولكِـنْ تعاطِيكَ الغـريـبَ مِـنَ الغـرِيـبِ
أَمَـا لـو أَنَّ جهْلَـكَ عـادَ عِلْماً إذاً لـرَسَخْـتَ في عِلْـمِ الغُيُـوبِ

ومن قولنا نمدح رجلا باستسهال اللفظ وحسن الكلام:

قـولٌ كـأنَّ فـريـده سِحْـرٌ على ذِهْـنِ اللَّبيـبْ
لا يشْمَئِـزُّ على اللِّسَـانِ ولا يَشِـذُّ عـن القُلُـوب
لَمْ يغْـلُ في شَنَـعِ اللُّغـاتِ ولا تَـوَحَّشَ بـالغـريـبْ
سيْـفٌ تَقَلَّـدَ مِثْلَـه عطْفَ القضِيـبِ على القضيـبْ
هٰـذا تُجَـذُّ بِـهِ الرِّقـابُ وذا تُجَذُّ بِـهِ الخُطُـوبْ[١]

باب في تكليف الرجل ما ليس من طبعه

قالوا ليس الفِقه بالتفقُّه، ولا الفصاحة بالتفصُّح؛ لأنه لا يزيد متزيِّد في كلامه إلا لنقص يجده في نفسه، ومما آتفقت عليه العربُ والعجم قولهم: الطبعُ أملك.

وقال حَفْص بن النُّعمان: المرء يَصنع نفسَه، فمتى ما تبْلُهُ[٢] ينزِع إلى العِرْق. وقال العَرْجِيّ:

يـا أَيُّهـا المُتَحلِّـي غير شِيمَتِـهِ ومِنْ شَمائِلِـهِ التَّبْـديـلُ والمَلَـقُ[٣]
آرجعْ إلى خُلْقِك المعروفِ دَيدَنُـهُ إنّ التخلُّـقَ يـأتي دُونَـهُ الخُلُـقُ

وقال آخر:

ومن يبتدِع ما ليْسَ مِنْ خيم نفسـه يَدَعهُ ويغْلِبْهُ على النَّفْسِ خيمُهـا[٤]

وقال آخر:

كُل امْريءٍ راجِعٌ يَومـاً لِشِيمَتِـهِ وإنْ تَخلَّـقَ أَخْلا قـاً إلى حينِ

---

(١) تجذّ: تقطع. (٢) تبله: تختبره.
(٣) الملق: التودّد والتملّق. (٤) الخيم: الطبع.

وقال الخُريمي:

يُلامُ أبـــو الفَضْـــلِ في جُـــودِهِ ... وهـل يَملِـكُ البحـرُ ألاّ يفِيضـــا

وقال آخر:

ولائِمةٍ لامتكَ يا فيْـضُ في النَّـدى ... فقلتُ لها هل يقْدَحُ اللومُ في البحـرِ

أرادت لتَثنِي الفيضَ عن عادة الندى ... ومن ذا الذي يثني السحابَ عن القطـرِ

وقال حبيب:

تعوَّدَ بسـطَ الكـفِّ حتى لَـوَ انَّـه ... ثنـاهـا لقبْـضٍ لم تجبْـه أنـاملُـهُ

وقال آخر:

وقفَّـع أطـــرافَهُـــمْ قبضُهـــا ... فإن طلبوا بسطهـا تنكسِـر[1]

وقالوا: إن ملكا من ملوك فارس كان له وزير حازم مجرّب، فكان يُصدر عن رأيه ويتعرّف اليُمْنَ في مشورته، ثم إنه هلك ذلك الملك وقام بعده ولد له، مُعجب بنفسه مُستبد برأيه فلم يَنزل ذلك الوزير منزلته ولا اهتبل[2] رأيه ومشورته؛ فقيل له: إن أباك كان لا يقطع أمرا دونه. فقال: كان يغلط فيه، وسأمتحنه بنفسي. فأرسل إليه فقال له: أيُّهما أغلبُ على الرجل: الأدبُ أو الطبيعة؟ فقال له الوزير: الطبيعة أغلبُ، لأنها أصلٌ والأدبُ فرع، وكلُّ فرع يرجع إلى أصله. فدعا الملك بسُفرته، فلما وضعت أقبلت سنانيرُ بأيديها الشمع فـوقفـت حـول السفـرة، فقـال للوزير: اعتبر خطأك وضَعْفَ مذهبك؛ متى كان أبو هذه السنانير شَمَّاعا؟ فسكت عنه الوزير وقال: أمهِلني في الجواب إلى الليلة المقبلة. فقال: ذلك لك. فخرج الوزير فدعا بغلام له، فقال: التمس لي فأرا واربِطه في خيط وجِئني به. فأتاه به الغلام، فعقده في سَبَنيَّة[3] وطرحه في كُمِّه، ثم راح من الغد إلى الملك، فلما حضرت سُفرته أقبلت السنانير بالشمع حتى حَفَّت بها، فحل الوزير الفأرَ من سبنيَّته ثم ألقاه إليها؛

(١) قفَّع: قبض. (٢) اهتبل: اغتنم.

(٣) السبنيّة: ضرب من الثياب تتخذ من مشاقة الكتّان.

فاستبقت السنانير إليه ورمت بالشمع، حتى كاد البيت يضطرم عليهم نارا فقال الوزير: كيف رأيت غَلَبةَ الطبع على الأدب ورجوعَ الفرع إلى أصلهِ؟ قال: صدقت، ورجع إلى ما كان أبوه عليه معه.

فإنما مدار كل شيء على طبعه، والتكلف مذمومٌ من كل وجه. قال الله لنبيه ﷺ: قل يا محمد: «وما أنا من المتكلفين».

وقالوا: من تطبّع بغير طبعه نزعته العادة حتى تردّه إلى طبعه، كما أن الماء إذا أسخنته وتركتَه ساعة عاد إلى طبعه من البرودة، والشجرة المرة لو طلبتَها بالعسل لا تثمر إلا مُراً.

باب في ترك المشاراة والمماراة[1]

دخل السائب بن صيفي على النبي ﷺ، فقال: أتعرفني يا رسول الله؟ قال: وكيف لا أعرف شريكي في الجاهلية الذي كان لا يشاري ولا يماري؟

وقال ابن المقفع: المشاراة والمماراة يفسدان الصداقة القديمة ويَحُلان العقدةَ الوثيقة؛ وأيسر ما فيهما أنهما ذريعة إلى المنافسة والمغالبة.

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: لا تمار أخاك، فإما أن تُغضبه وإما أن تكذبه.

وقال الشاعر:

فـإيـاكَ إيـاك المِراءَ فـإنـه إلى السَّبِّ دَّعاءٌ وللصرْم جالـبُ[2]

وقال عبد الله بن عباس: لا تُمار فقيهاً ولا سفيهاً، فإنّ الفقيه يغلبك والسفيه يؤذيك.

وقال النبي ﷺ: «سِبابُ المؤمن فسوق، وقتاله كفر».

---

(١) المشاراة: عنف الجدال. والمماراة: المجادلة. (٢) الصرم: القطيعة.

باب في سوء الأدب

دخل عُروة بن مسعود الثَّقفي على النبي ﷺ: فجعل يحدِّثه ويشير بيده إليه حتى تمس لحيته، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ بيده السيف، فقال له: اقبضْ يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل أن لا ترجعَ إليك! فقبض يده عُروة.

وعروة هذا عظيمُ القريتين الذي قالت فيه قريش: ﴿لوْلا نُزِّل هذا القُرْآنُ على رجُلٍ منَ القَرْيتَيْنِ عظيم﴾ [1] ويقال: إنه الوليد بن المغيرة المخزومي.

النبي ﷺ ووفد تميم:

ولما قدم وفد تميم على النبي ﷺ ناداه رجل منهم من وراء الجدار: يا محمد، آخرج إلينا. فأنزل الله تعالى: ﴿إنّ الذينَ يُنادُونكَ من وراءِ الحُجرَاتِ أكْثَرُهم لا يعْقِلونَ﴾ [2] وفي قراءة ابن مسعود: ﴿بنو تميم أكثرهم لا يعقلون﴾ وأنزل الله في ذلك: ﴿لا تَجْعلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بيْنَكُمْ كدُعاءِ بعْضكُمْ بعْضاً﴾ [3].

أبو بكر وبائع ثوب:

ونظر أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى رجل يبيع ثوباً، فقال له: أتبيع الثوب؟ قال: لا عافاك الله! قال. لقد علمتم لو تتعلمون: قل: لا، وعافاك الله.

وخطب الحسن في دم، فأجابه صاحب الدم فقال: قد وضعت ذلك الدمَ لله ولِوجوهكم. قال له الحسن: ألا قلت: قد وضعت ذلك الدمَ لله خالصاً؟

وذكر أعرابي رجلاً بسوء الأدب فقال: إن حدثتَه سابقَك إلى ذلك الحديث وإن تركته أخذ في التُّرَّهات [4].

(١) سورة الزخرف الآية ٣١.

(٢) سورة الحجرات الآية ٤.

(٣) سورة النور الآية ٦٣.

(٤) الترّهات: الأباطيل.

ودخل بعضُ الرواة على المهدي، فقال له: أنشدْني قولَ زهير:

لِمنِ الديارُ بقِنَّةِ الحجرِ

فأنشدها حتى أتى على آخرها. فقال له المهدي: ذهب والله من كان يقول هذا. فقال له: كما ذهب والله من كان يقال فيه، فاسْتَجْهلَهُ واستَحْمَقه.

المأمون وقطرب:

ولما رفع قُطربُ النحويّ كتابه في القرآن إلى المأمون، أمر له بجائزة وأذن له، فلما دخل عليه قال: قد كانت عِدَةُ أمير المؤمنين أرفع من جائزته، فغضب المأمون وهمَّ به، فقال له سهل بن هارون: يا أمير المؤمنين، إنه لم يقل بذات نفسه، وإنما غلب عليه الحصَر[1]: ألا تراه كيفَ يرشح جبينُه ويكسِر أصابعه! فسكن غضبُ المأمون واستجهله واستحمقه.

وكان الحسن اللؤلؤي ليلة عند المأمون بالرِّقَّة وهو يسامره، إذ نعس المأمون والحسن يحدِّثه، فقال له: نعستَ يا أمير المؤمنين فانتبهْ! فقال: سُوقي وربِّ الكعبة! يا غلام، خذ بيده.

ودخل أبو النجم على هشام بن عبد الملك بأُرجوزته التي أوَّلها:

الحمدُ للهِ الوَهُوب المُجزِلِ

وهي من أجود شعره! فلما أتى على قوله:

والشمسُ في الجوِّ كعينِ الأحْولِ

غضب هشام، وكان أَحول، فأمر بصفْعِ قفاه وإخراجه.

ودخل كُثيِّر عزّةَ على يزيد بن عبد الملك، فبينا هو يحدّثه إذ قال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قول الشمَّاخ:

---

(١) الحصر: العيّ.

إذا الأرْطَى تَوسَّدَ أَبْرَدَيْهِ خُدودُ جوازيءٍ بالرَّملِ عِينِ[(١)]

فقال يزيد: وماذا على أمير المؤمنين ألاَّ يعرف ما قال هذا الأعرابي الجلفُ مثلُك؟

وآستحمقه وأمر بإخراجه.

ودخل كثير عزة على عبد العزيز بن مروان فأنشده مدحته التي يقول فيها:

وأنتَ فلا تُفقَدْ ولا زال منكُمُ إمامٌ يُحَيَّا في حجابٍ مُسَدَّنِ[(٢)]
أشَمُّ من الغادينَ في كلِّ حُلَّةٍ يَميسُونَ في صِبْغٍ من العَصْبِ مُتْقَنِ
لهم أُزُرٌ حُمرُ الحواشي يُطُونُها بأقدامِهم في الحَضْرميِّ المُلَسَّنِ[(٣)]

فاستحسنها وقال له: سل حاجتك! فقال: تُوليني مكان ابن رُمَّانة كاتِبك. فقال له: ويلك! ذا كاتب وأنت شاعر! فكيف تقوم مقامه وتسدّ مَسَدَّه؟ فلما خرج من عنده نَدِم وقال:

عجبتُ لأخذِي خُطَّةَ العجْزِ بعدما تبيَّن من عبد العزيز قَبولُها
لئِن عاد لي عبدُ العزيزِ بمثلِها وأمكنني منها إذاً لا أَقولها
[فهل أنتَ إن راجعْتُك القول مرَّةً بأَحْسن منها عائِدٌ فمُنيلُها؟]

ووقف الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث بباب معاوية، فأذن للأحنف ثم لمحمد ابن الأشعث، فأسرع محمد في مشيته حتى دخل قبل الأحنف، فلما رآه معاوية قال له: والله إني ما أذنتُ له قبلَك وأنا أريد أن تدخل قبله، وإنَّا كما نلي أموركم كذلك نلي أدبَكم، ولا تَزيّد مُتَزيِّد في أمره إلا لنقص يجده في نفسه.

---

(١) الأرطَى: شجر ينبت بالرمل، وهو شبيه بالغض زهره طيب الرائحة. والأبردان: الظلّ والفيء. والجوازيء: البقر والظباء التي جزأت بالرطب عن الماء والعين: جمع عيناء، وهي الواسعة العين.

(٢) العصب: ضربٌ من برود اليمن.

(٣) الحضرمي: نعل تنسب إلى حضر موت، والملسّن: ما فيه طولٌ ولطافه على هيئة اللسان.

وقال عبد الملك بن مروان: ثلاثة لا ينبغي للعاقل أن يَستخفَّ بهم: العلماء، والسلطان، والإخوان؛ فمن آستخف بالعلماء أفسد دينَه، ومن آستخف بالسلطان أفسد دُنياه، ومن آستخف بالإخوان أفسد مُروءته.

بين عمر بن عبد العزيز وأبي الزناد كاتبه:

وقال أبو الزناد: كنتُ كاتباً لعمر بن عبد العزيز، فكان يكتب إلى عبد الحميد عامِله على المدينة في المظالم، فيراجعُه فيها؛ فكتب إليه: إنه يُخيل إليَّ أني لو كتبتُ إليك أن تُعطي رجلاً شاة، لكتبتَ إليَّ: أضأناً أم معزاً؟ ولو كتبتُ إليك بأحدهما لكتبتَ إليَّ: أذكراً أم أنثى؟ ولو كتبتُ إليك بأحدهما لكتبتَ: أصغيراً أم كبيراً؟ فإذا كتبتُ إليك في مظلمة فلا تراجعْني فيها.

أبو جعفر وابن قتيبة:

وكتب أبو جعفر إلى سالم بن قتيبة، يأمره بهدم دُورِ مَن خرج مع إبراهيم بن عبد الله وعقْر نخلهم. فكتب إليه: بأي نبدأ، بالدُّور أو بالنخل؟ فكتب إليه أبو جعفر: إني لو أمرتك بإفساد تمرهم، لكتبت [إليَّ]: بأي ذلك نبدأ، بالصَّيْحانيّ أم بالبَرْنيّ. وعَزله وولى محمد بن سليمان.

ولمحمود الورّاق:

كم قد رأيت مساءةً من حيث تطمع أو تُسَرَّا
ولربما طلب الفتى لأخيه منفعة فضَرَّا

ودخل عدي بن أرطاة على شريح القاضي: فقال له: أين أنت أصلحك الله؟ قال: بينك وبين الحائط، قال: اسمع مني، قال: قل نسمع، قال: إني رجل من أهل الشام، قال: مكان سحيق، قال: وتزوَّجت عندكم، قال: بالرفاه والبنين، قال: ووُلد لي غلام، قال: ليَهْنِك الفارس، قال: وأردت أن أرحلها، قال: الرجل أحق بأهله، قال: وشرطت لها دارها، قال الشرط أملك، قال: فاحكم الآن بيننا، قال: قد

فعلت، قال: فعلى من حكمت؟ قال: علي ابن أمك، قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك.

أراد شريح إقراره على نفسه بالشرط؛ فكان شُريح صاحب تعريض عويص.

ودخل شريك بن عبد الله على اسماعيل وهو يتبخر بعود؛ فقال للخادم: جئنا بعود لأبي عبد الله. فجاء بَبربط[1]، فقال اسماعيل: اكسره. وقال لشريك: أخذوا البارحة في الحرس رجلاً ومعه هذا البربط.

وقال بعض الشعراء في عِيِّ الخادم:

ومتَى أدْعهـا بكـأسٍ مـن المـا ء بصَحفـــةٍ وزَبيـــبِ

وقال حبيب في بني تغلب من أهل الجزيرة يَصفهم بالجفاء وقلَّة الأدب مع كرم النفوس:

لارقَّـةُ الحَضَـرِ اللَّطيـف غَـذتْهـمُ وتَبـاعَـدوا عـن فِطنـة الأعـراب
فـإذا كشَفتَهـمُ وجـدتَ لـديهِمُ كـرم النُّفـوس وقلّـة الآداب

وكان فتى يُجالس الشعبي، وكان كثير الصمت، فالتفت إلى الشعبي، فقال له: إني لأجد في قفاي حِكَّة، أفتأمرني بالحجامة؟ فقال الشعبي: الحمد لله الذي حوّلنا من الفقه إلى الحجامة.

قال: وأتى أحمد بن الخصيب بعض المتظلمين يوماً، فأخرج رجله من الركاب فركله بها. فقال فيه الشاعر:

قل للخليفـة: يـا بن عـم محمد آشكُل وزيرك إنّـه ركّـال[2]

وبعث رجل من التجار وكيلاً له إلى رجل من الأشراف يقتضيه مالاً عليه، فرجع إليه مضروباً؛ فقال له: ويلك! مالك؟ قال: سَبَّك، فسببتُه، فضربني - قال: وما قال لك؟ قال: قال أدِخل أيْرَ الحمار في حرِ آمِّ مَن أرسلَك! قال: دعني من

---

(١) البربط: آلة موسيقية تشبه العود.

(٢) اشكل: قيّد.

آفترائه عليَّ وسبَه لي، وأخبرني كيف جعلتَ أنت لأير الحمار من الحرمة ما لم تجعله لحر أمّ من أرسلك؟ هلا قلتَ: أير الحمار في هن أمّ من أرسلك.

باب في تحنك الفتى

قيل لعمر بن الخطاب: إن فلاناً لا يعرف الشرَّ. قال: ذلك أحْرى أن يَقع فيه.

وقال سفيان الثوري: مَن لم يحسن أن يتغنَّى لم يُحسن أن يَتقرَّا.

وقال عمرو بن العاص: ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، وإنما العاقل الذي يعرف خيْرَ الشَّرَّين.

ومثل ذلك قول الشاعر:

رضيت ببعض الذُّلِّ خوف جميعـهِ ... كذلك بعضُ الشرِّ أهون من بعضِ

وسئل المغيرة بن شعبة عن عمر بن الخطاب، قال: كان والله له فضل يمنعه من أن يَخدع، وعقل يمنعه من أن يَنخدع.

وقال إياس: لستُ بخبٍ[1] لا يَخدعني.

وتجادل ابن سيرين والحسن، وكان الحسن يرى كلَّ مسلم جائز الشهادة حتى يَظهر عليه سَقْطة أو يجرّحه المشهود عليه، وكان إياس لا يرى ذلك؛ فأقبل رجل إلى الحسن فقال: يا أبا سعيد! إنّ إياساً ردّ شهادتي. فقام معه الحسن إليه فقال: يا أبا واثلة، لِم رددتَ شهادةَ هذا المسلم، وقد قال رسول الله ﷺ: مَن صلَّى صلاتنا واستقبل قبلتنا فهو المسلم، له ما لَنا وعليه ما علينا. فقال له إياس: يا أبا سعيد يقول الله تعالى: ﴿ممَّنْ تَرْضَوْنَ من الشهداءِ﴾[2] وهذا ما لا نَرضاه.

عامر بن عبد الله وسرقة عطائه:

وكان عامر بن عبد الله بن الزبير في غاية الفضل والدين، وكان لا يعرف الشر، فبينا هو جالس في المسجد إذ أُتي بعطائه، فقام إلى منزله فنَسِيه، فلما صار إلى بيته ذكره، فقال لخادمه: آذهب إلى المسجد فأْتني بعطائي. فقال له: وأين نجده؟ قال: سبحان الله! أو بقي أحدٌ يأخذ ما ليس له.

---

(١) الخبّ: المخادع. (٢) سورة البقرة الآية ٢٨٢.

وقال أبو أيوب: من أصحابي مَن أرتجي بركة دعائه ولا أقبلُ شهادتَه.

وذكرت فاطمة بنتُ الحسين عليهما السلام عند عمر بن عبد العزيز، وكان لها معظماً، فقيل: إنها لا تعرف الشر. فقال عمر: عَدمُ معرفتها بالشر جَنَّبَها الشر.

وكانوا يستحسنون الحُنْكة للفتى والصَّبْوةَ[1] للحديث، ويكرهون الشيب قبل أوانه، ويشبّهون ذلك بيبوس الثمرة قبل نُضجها، وإنّ ذلك لا يكون إلا من ضرر فيها.

فأنفع الإخوان مجلساً، وأكرمُهم عِشرة، وأشدهم حِذقاً، وأنبههُم نفساً، من لم يكن بالشاطر المتفتّك، ولا الزاهد المتنسّك، ولا الماجن المتطرِّف، ولا العابد المتقشِّف. ولكن كما قال الشاعر:

يا هندُ هل لكِ في شيخٍ فتًى أبداً ... وقد يكونُ شبابٌ غير فِتيانِ

وقال آخر:

وفتًى وهْوَ قد أنافَ على الخمـ ... ـسينَ يَلقاك في ثِيابِ غلام

وقال آخر:

فللنسْكِ مِنِّي جانِبٌ لا أُضيعه ... ولِلَّهْوِ مِنّي والبَطالةِ جانِبُ

وقال حبيب:

كَهْلُ الأناةِ فتى الشَّذاة إذا غَدا ... للرَّوْعِ كان القَشعَمَ الغطريفا[2]

ومن قولنا في هذا المعنى:

إذا جالَسَ الفِتيانَ أُلْفيْتَه فتًى ... وجالَسَ كَهْلَ الناسِ أُلْفيتَه كَهْلاَ

ونظيره قول ابن حِطّان:

يوماً يَمانٍ إذا لاقيْتُ ذايَمنٍ ... وإنْ لَقِيت مَعَدِّيّاً فعَدْنان

(١) الصبوة: نشاط الفتوة وطيشها.

(٢) الشذاة: الحدّة، والقشعم: الأسد والغطريف: السيد الشريف.

وقول عِمران بن حطان هذا يحتمل غير هذا المعنى، إلا أن هذا أقرب إليه وأشبه به، لأنه أراد أنه مع اليماني يماني، ومع العدناني عدناني، فيحتمل أن ذلك لخوف منه أو مساعدة؛ وكل ذكل داخل في باب الحُنكة والحِذق والتجربة.

وقالوا: اصحب البَرَّ لتتأسّى به، والفاجرَ لتتحنّك به.

وقالوا: من لم يصحب البَرَّ والفاجر ولم يؤدبه الرخاء والشدة، ولم يخرج من الظل إلى الشمس مرة، فلا تَرْجُه.

ومن هذا قولهم: حَلَب فلانٌ الدهر أشْطرَه، وشرب أفاويقَه. إذا فهِم خيرَه وشرَّه، فإذا نزل به الغنِى عرفه ولم يُبطره، وإذا نزل به البلاءُ صبر له ولم يُنكره.

وقال هدبة العُذريّ:

ولستُ بمفْـراحٍ إذا الدهـرُ سَـرَّني ... ولا جـازعٍ مـن صرفِـه المُتَقلـب
ولا أتمنـى الشرَّ والشرُّ تـاركـي ... ولكن متى أُحمَلْ على الشرِّ أركـبِ

وقال عبد العزيز بن زرارة في هذا المعنى:

قد عشت في الدهرِ أطواراً على طُرُقٍ ... شتّى فصادفتُ منـهُ اللين والفظَعـا
كُلاًّ عرفـتُ فلا النّعماءُ تُبْطِرُنـي ... ولا تخشّعتُ من لأوائِه جـزعـا[1]
لا يَملأُ الأمر صدري قبلَ وقعتِـه ... ولا أضيـقُ بـه ذرعـاً إذا وقعـا

وقال آخر:

فإن تهدموا بالغـدر داري فـإنّها ... تُـراثُ كـريمٍ لا يخافُ العـواقبـا
إذا هَـمَّ ألقـي بينَ عينيـهِ عـزمَـهُ ... وأضرب عن ذِكرِ العواقب جانبًـا
ولم يستشِـر في أمـرِه غير نفســه ... ولم يرض إلاّ قائم السيفِ صاحبا[2]
سأغْسلُ عنّي العار بالسيف جـالبـاً ... عليَّ قضـاءُ الله مـا كـان جـالبـا

وسئلت هند عن معاوية، فقالت: والله لو جُمعت قريش من أقطارها ثم رُمِي به

---

(١) اللأواء: الشدّة. (٢) قائم السيف: مقبضه.

في وسطها لخرج من أيِّ أعراضها شاء.

وهذا نظير قول الشاعر:

بَرئتُ إلى الرحمٰنِ من كلِّ صاحبٍ ... أُصاحبهُ إلاّ عراكَ بن نائِل
وعلمي به بيْن السِّماطين أنَّهُ ... سينْجو بِحَقٍ أو سينجو بباطِل

وقال آخر:

لئِن كنتُ محتاجاً إلى الحلمِ إنّني ... إلى الجهلِ في بعضِ الأحايينِ أحوجُ
وما كنتُ أرضى الجهلَ خِدْنا وصاحباً ... ولكِنَّني أرضى به حين أُحْرَج
فإن قال قومٌ إنّ فيه سماجةً ... فقد صدَقُوا، والذُّلُّ بالحرّ أسمجُ
ولي فرسٌ للحلم بالحلمِ ملجمٌ ... ولي فرسٌ للجهلِ بالجهلِ مُسْرَجُ
فَمنْ شاء تقويمي فإني مُقوَّمٌ ... ومَن شاء تعويجي فإني مُعوَّجُ[1]

وقال معاوية بن سفيان بن عوف الغامدي: هذا الذي لا يُكَفْكَفُ من عَجَلة، ولا يُدْفَع في ظهره من بطء، ولا يُضرب على الأمور ضرب الجمل الثَّفَال[2].

وقال الحسن بن هانيء:

مَنْ للجِذَاعِ إذا الميْدانُ ما طَلَها ... بشأو مُطَّلِع الغايات قد قَرَحا[3]
مَن لا يُفصفص منه البؤسُ أُنْمُلَه ... ولا يُصعّد أطراف الرُّبى فرَحا

وقال جرير:

وابن اللَّبونِ إذا مالُزَّ في قَرَنٍ ... لم يَستطعْ صَوْلة البُزْلِ القَناعِيس[4]

---

(١) التقويم: الصلاح والاستقامة. (٢) الثفال: البطيء.

(٣) الجذاع: جمع جَذَع، وهو الفرس إذا استتم سنتين ودخل في الثالثة وماطلها: طال عليها، والشأو: السبق والقارح: الفرس إذا تمت أسنانه، وإنّما تتم في خمس سنين.

(٤) لزّ في قرنٍ: شدّ به وضيّق عليه. والبازل: الذي استكمل السنة الثامنة ودخل في التاسعة، وفطر نابه. والقناعيس: جمع قنعاس، وهو العظيم من الإبل.

باب في الرجل النفاع الضرار

يقال: إنه لَخَرّاج ولاّج، وأنه لَحُوّلٌ قُلَّب؛ وإذا كان متصرفاً في أموره نَفاعاً لأوليائه، ضرّاراً لأعدائه. وإذا كان على غير ذلك قيل: ما يُحْلي ولا يُمِرّ ولا يُعَدّ في العير ولا في النَّفير، وما فيه خيرٌ يُرجَى ولا شرٌّ يُتَّقى.

وقال بعضهم: لا يَرضى العاقل أن يكون إلا إماماً في الخير أو الشر. وقال الشاعر:

إذا أنت لم تنفعْ فضُرَّ فإنّما ... يُرَجَّى الفتي كَيْما يَضُرَّ ويَنفعا

وقال حبيب:

ولْم أرَ نفعاً عند من ليس ضائراً ... ولم أرَ ضرّاً عند من ليس يَنفعُ

وسمع أعرابي رجلاً يقول: ما أتى فلان بيوم خير قط. فقال: إن لا يكن أتى بيوم خيرٍ فقد أتى بيوم شر.

وقال الشاعر:

وما فَعلت بنو ذبْيان خيْراً ... ولا فعلت بنو ذُبْيان شَرّا

وقال آخر:

قبَحَ الإله عداوةً لا تُتَّقى ... وقَرابةً يُدلَى بها لا تَنفع

وفخر رجل فقال: أبي الذي قتَل الملوك وغَصب المنابر، وفعل وفعل! فقال له رجل: لكنه أُسر وقُتل وصُلب. فقال دَعْني من أَسْره وقتْله وصلْبه؛ أبوك [هل] حَدَّث نفسه بشيءٍ من هذا قط.

وقال رجل[1] يذم قومه، وأغارت بنو شيبان على إبله فاستنجدهم فلم ينجدوه، وكان فيهم ضعف، فقال فيهم:

---

(١) هو قريط بن أنيف أحد شعراء بلعنبر.

لو كنتُ من مـازِنٍ لم تستبـحْ إبِلي   بنو اللقيطة مِـن ذُهْـل بن شَيْبـانـا
إذاً لقـام بنصْـري مَعشرٌ خُشُـنٌ   عند الحفيظةِ إنْ ذو لُوثـةٍ لانـا [1]
لا يَسألون أخـاهـم حين يَنـدُبُهُـم   في النّائبات على ما قـال بُـرهـانـاً
قومٌ إذا الشَرُّ أبْدى نـاجِـذيْـه لهم   طاروا إليه زَرافات ووِحْـدانـا [2]
لكنّ قومي وإن كانوا ذوِي عَـددٍ   ليسوا من الشَرِّ في شيءٍ وإن هانـا
يَجْزون من ظلم أهـلِ الظلم مغفـرةً   ومن إساءة أهـل السـوء إحسـانـاً
كـأن ربَّـك لم يَخلُـق لخشْيَتِـه   سواهمُ من جميـع النـاس إنسـانـا
فليـت لي بهمُ قـومـاً إذا ركبـوا   شنّوا الإغارة فُرسـانـا وركبـانـا

ولم يرد بهذا أنه وصْفهم بالحلم ولا بالخشية لله؛ وإنما أراد به الذلَّ والعجز؛ كما قال النجاشي في رهط تميم بن مقبل:

قَبيلتـه لا يَخفِـرُون بِـذمـةٍ   ولا يَظلِمون الناسَ حبَّةَ خـردلِ
ولا يـرِدون الماء إلا عشيَّـةً   إذا صَدَر الوُرّادُ عن كلِّ مَنهل [3]

وكل من نفع في شيء فقد ضرّ في شيء.

وكذلك قول أشجع بن عمرو:

يُصـادُ أعنـاقـاً بِمُنصُلِـه   ويفـكُّ أعنـاقـاً مـن الرقِّ [4]

وقال الحسن بن هانيء:

يـرجـو ويخشى حـالتَيْـك الوَرى   كـأنّـك الجنَّـة والنَّـارُ

ومن قولنا في هذا المعنى:

مـن يُـرتَجـى غيـرُك أو يَتّقـى   وفي يـديْـك الجودُ والبـاسُ

---

(١) ذو لوثة: أي الذي به مسٌّ من الجنون، أو من الحدّة.
(٢) النواجذ: الأضراس.
(٣) المنهل: المشرب.
(٤) المنصل: السيف، والرقّ: العبوديّة.

ما عشْتَ عـاش النـاسُ في نِعمـةٍ   وإن تَمُـتْ مــات بــك النــاسُ

وقال آخر:

وليس فتى الفِتيانِ من راح واَغتدَى   لشُرْب صَبوح أو لشربِ غبوقِ [1]

ولكن فتى الفِتيانِ من راح واغتدى   لضَـرِّ عـدوّ أو لنفـعِ صـديــق

باب في طلب الرغائب

واحتمال المغارم

في كتاب للهند: من لم يركب الأهوال لم يَنل الرغائب، ومن تَرك الأمر الذي لعله أن ينال منه حاجته، مخافةَ ما لعله يُوَقّاه، فليس ببالغ جسيما؛ وإنَ الرجل ذا المروءة ليكون خامل الذّكر خافض المنزلة، فتأبى مروءتُه إلا أن يستعلي ويرتفع كالشّعلة من النار التي يصونها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعاً، وذو الفضل لا يخفى فضلُه وإن أخفاه، كالمسك الذي يُختم عليه ثم لا يَمنع ذلك ريحَه من التّذكّي والظهور.

ومن قولنا في هذا المعنى:

خُتِمَــت فــارةُ مِسْــكِ   فــأَبـت إلاّ التــذكــي [2]

ليس يَخفَى فضل ذي الفضــــلِ بِــزْورٍ أو بــإفــكِ

والذي بَـــرّز في الفضـــــلِ غنيٌّ عــن مُـزَكـي

ربما غُـــــمَّ هلالُ الـــفِطـرِ في ليْلـةِ شــكٍّ

ثم جَلّـى وجهَــه النُّـــو   رُ فجلّـى كـلّ حَلْـكِ [3]

إنّ ظَهْـــر اليمِّ لا تَـــرْ   كَبُــه مـــن غيرِ فُلْــكِ

ونظـــــامَ الدرِّ لا تَعــــقِـدُه مـن غيْـرِ سِلْـكِ

ليس يصفو الذهـبُ الا بْـــــريــزُ إلاّ بعـد سَبْـكِ

---

(١) الصبوح والغبوق: شرب الخمرة صباحاً ومساءً.

(٢) فارة المسك: وعاؤه. والتذكيّ: الانتشار.

(٣) جلّى: أزال وأضاء والحلك: السواد.

هـذه جملـة أمثـا ل فمَنْ شـاءَ فيَحْكـي
أبطلَـت كـلّ يمـانيَّ وشـامـيَّ ومكّـي
ليس ذا مِـن صَـوْغِ عيْـنيٍّ ولا مِن نسْجِ عكـي

وقالوا لا ينبغي للعاقل أن يكون إلا في إحدى منزلتين: إما في الغاية من طلب الدنيا، وإما في الغاية من تركها. ولا ينبغي له أن يُرى إلا في مكانين: إما مع الملوك مُكرَماً، وإما مع العُبّاد مُتبَتِّلاً[1]. ولا يُعَدُّ الغُرْمُ غُرْماً إذا ما ساق غُنْما، ولا الغُنْمُ غُنما إذا ما ساق غُرْما.

معاوية وعسكر علي يوم صفين:

ونظر معاوية إلى عسكر عليّ رضي الله عنه يوم صِفين، فقال: من طلب عظيما خاطر بعظيمتِه. وأشار إلى رأسه.

وقال حبيب الطائي:

أعاذِلَتِي ما أخشَنَ الليْلَ مـركَبـاً ... وأخشـنُ منـه في المُلمات راكبُـهُ
ذَريني وأهـوالَ الزمـانِ أُقـاسِهـا ... فأهـواله العُظمـى تليهـا رَغـائبُـهْ

وقال كعب بن زهير:

وليس لمن لم يَـركـبِ الهوْلَ بُغْيَـةٌ ... وليس لرحْـلٍ حَطَّـهُ الله حـامـلُ
إذا أنت لم تُعْرِض عن الجهل والخَنا ... أَصَبت حليما أو أصابـك جـاهـلُ

وقال الشمّاخ:

فتىً ليس بالرّاضي بـأدنـى معيشـةٍ ... ولا في بيـوتِ الحيِّ بـالمُتـولِّـجِ
فتى يَمْلأُ الشِّيزَى ويُـروِي سنـانَـه ... ويَضرب في رأس الكَمِيِّ المُدَّججِ[2]

(١) التبتّل: الزهد والعبادة.
(٢) الشيزى: جفان تسوّى من خشب الجوز أو الابنوس، والكمي: الشجاع المتكميّ في سلاحه.

وقال آمرؤ القيس:

فلوْ أنَّ ما أَسْعَى لأدْنَى معيشةٍ ... كفاني ولم أَطْلُبْ قليلٌ من المالَ
ولكنَّما أَسْعَى لِمَجْدٍ مؤثَّلٍ ... وقد يُدرِكُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالي (١)

وقال آخر:

لولا شَماتةُ أعداءٍ ذَوي حسَدٍ ... أو أنْ أنالَ بنَفْعي مَن يُرجِّيني
لَمَا خطَبْتُ من الدنيا مطالبها ... ولا بَذلتُ لها عِرْضي ولا دِيني
لكنْ منافسةُ الأعداءِ تحمِلني ... على أُمورٍ أراها سوفَ تُرْديني (٢)
وكيف لا كيف أنْ أرضَى بمنزلةٍ ... لا دِين عندي ولا دُنيا تُواتيني

وقال الحطيئة في هجائه الزِّبرقانَ بن بدر:

دَعِ المكارمَ لا ترحَل لبُغْيَتِها ... واقعُد فإنك أنت الطاعِمُ الكاسي

فاستعدى عليه عمَر بن الخطاب وأسمعه الشعر، فقال: ما أرى بما قال بأسا. قال: والله يا أمير المؤمنين ما هُجيت ببيت قَطّ أشدَّ منه. فأرسل إلى حسان فسأله: هل هجاه؟ فقال: ما هجاه، ولكنه سَلَح عليه.

لشاعر محدث:

وقد أخذ هذا المعنى من الحطيئة بعض المحدثين. فقال:

إني وَجدتُ من المكارمِ حَسْبَكم ... أنْ تَلبَسوا خَزَّ الثياب وتَشبَعوا
فإذا تُذُوكِرتِ المكارمُ مرّةً ... في مجلسٍ أنتم به فتقنَّعوا

وقالوا: مَن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب، ومَن طلب العظائم خاطر بعظيمته.

وقال يزيد بن عبد الملك، لما أُتي برأس يزيد بن المهلب، فنال منه بعضُ جلسائه، فقال: إن يزيد ركب عظيما، وطلب جسيما، ومات كريما.

---

(١) المؤثّل: العريق. (٢) تردي: تقتل.

وقال بعض الشعراء:

لا تَقنَعَنَّ ومطلبٌ لكَ مُمكِنٌ ... فإذا تضايقتِ المطالِبُ فاقنعِ

ومما جُبل عليه الحرُّ الكريم ألاّ يقنع من شرف الدنيا والآخرة بشيء مما انبسط له، أملاً فيما هو أسْنَى منه درجة وأرفعُ منزلة؛ ولذلك قال عمر بن عبد العزيز لدُكين الراجز: إنّ لي نفساً توّاقة؛ فإذا بلغك أني صرتُ إلى أشرف من منزلتي هذه؛ فبعينٍ ما أرينَّك. قال له ذلك وهو عامل المدينة لسليمان بن عبد الملك. فلما صارت إليه الخلافة قدم عليه دُكين. فقال له: أنا كما أعلمتك أنّ لي نفساً توّاقة؛ وأنّ نفسي تاقت إلى أشرفْ منازل الدنيا فلما بلغتَها وجدتُها تتوق إلى أشرف منازل الآخرة.

ومن الشاهد لهذا المعنى، أنّ موسى صلوات الله عليه لما كلمه اللهُ تكليما، سأله النظرَ إليه. إذ كان ذلك لو وصل إليه أشرفَ من المنزلة التي نالها، فانبسط أمله إلى ما لا سبيل إليه. ليُستدل بذلك أنّ الحرّ الكريم لا يقنع بمنزلة إذا رأى ما هو أشرف منها.

ومن قولنا في هذا المعنى:

والحُرُّ لا يَكتفي من نيْلِ مكرمُةٍ ... حتى يَرومَ التي من دونِها العطبُ(١)
يَسعَى به أملٌ من دونِه أجلٌ ... إنْ كفَّهُ رَهَبٌ يستدْعِه رَغَبُ
لِذاكَ ما سالَ موسى ربَّه أرِني ... أنظُرْ إليك وفي تسآله عَجَبُ
يَبغي التزيُّدَ فيما نالَ من كرمٍ ... وهو النجيُّ لديْه الوحيُ والكتبُ

وقال تأبَّط شَرّاً في ابن عم له يصفه بركوب الأهوال وبذل الأموال:

وإني لَمُهْدٍ من ثَنائي فقاصِدٌ ... به لابنِ عمِّ الصِّدْقِ شُمس بن مالِكِ
أهُزُّ به في نَدْوةِ الحيِّ عِطْفَه ... كما هَزَّ عِطْفي بالهِجَانِ الأوارِكِ(٢)

(١) العطب: الهلاك.

(٢) الهجان من الإبل: البيض الكرام والأوارك: آكلة الأراك.

قليل التشكّي للمُهمِّ يُصيبُه	كثيرُ النَّوَى شتّى الهوى والمسالك
يظل بمَوْماةٍ ويُمسي بغيرها	وحيداً ويَعرَوْري ظهورَ المهالك[1]
ويَسْبقُ وَفْدَ الريحِ مَن حيث ينتحي	بمُنخرِق من شدِّه المُتدارك[2]
إذا خاط عينيه كَرَى النومِ لم يزل	له كالِيٌ من قلبِ شيْحانَ فاتِكِ[3]
ويجعلُ عينيه رَبيئةَ قلبِه	إلى سَلّةٍ من جفن أَخْلَقَ بانك[4]
إذا هزَّه في عَظْمِ قِرْنٍ تهلّلت	نَواجِذُ أفواهِ المنايا الضَّواحك

وقال غيره من الشعراء [بل هي له أيضا]:

إذا المرءُ لم يَحْتَلْ وقد جَدَّ جِدُّه	أضاع وقاسَى أَمْرَهُ وهْوَ مُدْبِرُ
ولكنْ أخو الحَزْمِ الذي ليس نازلا	به الأَمْرُ إلا وهْوَ للقصدِ مُبْصِرُ
فذاك قَريعُ الدهرِ ما عاش حُوَّل	إذا سُدَّ منه مِنْخرٌ جاش مِنْخرُ[5]

باب الحركة والسكون

قال وهب بن منبه: مكتوب في التوراة: ابنَ آدم؛ خُلِقْتَ من الحركة للحركة، فتحرّكْ وأنا معك.

وفي بعض الكتب: ابنَ آدم؛ آمدد يدك إلى باب من العملِ أفتَحْ لك باباً من الرزق.

وشاور عُتبة بن ربيعة أخاه شيبة بن ربيعة في النُّجْعة[6]؛ وقال: إني قد أجدبتُ، ومن أجدبَ انتجع. فذهبت مثلا. قال له شيبة: ليس من العز أن تتعرض للذل

(١) الموماة: المفازة، ويعروري: يركب.
(٢) وفد الريّح: أولها، والمنخرق: السريع والشدّ: العدو، والمتدارك: المتلاحق.
(٣) الشيحان: الحازم.
(٤) ربيئة: أي رقيباً، والأخلق: السيف الأملس والباتك: القاطع.
(٥) قريع الدهر: المجرب للأمور، والحوّل: البصير بتحويل الأمور.
(٦) النجعة: طلب الكلأ.

فذهبت مثلا. فقال عتبة: لن يفرس الليث الطُّلا [1] وهو رابض. فذهبت مثلا.

أخذه حبيب فقال:

أرادَ بأن يَحْوِي الغِنى وهْـوَ وادعٌ ... ولَنْ يفرِسَ الليث الطّلا وهْوَ رابِضُ

وقيل لأعشى بكر: إلى كم هذه النُّجعة والاغتراب؟ أما ترضى بالخفض والدعة؟ فقال: لو دامت الشمس عليكم لمللتُموها: أخذه حبيب فقال:

وطولُ مُقام المرءِ في الحيِّ مْخلِـقٌ ... لـدِيبـاجَتَيْـهِ فـاغتَـرِبْ تتجـدَّدِ

فإنّي رأيتُ الشَّمسَ زيدتْ مَحبَـة ... إلى الناسِ أن ليَست عليْهِمْ بسرمدِ [2]

قال أبو سعيد أحمد بن عبد الله المكيّ: سمعتْ الشافعي يقول: قلت بيتين من الشعر. وأنشدنا:

إني أرى نفْسِـي تتُـوقُ إلى مِصْـرِ ... ومن دونِها خوْضُ المهامِـهِ والقفْـرِ

فواللهِ ما أدري إلى الخفضِ والغنَى ... أُقادُ إليهـا أم أقـادُ إلى قبْـري [3]

فدخل مصر فمات.

وقال موسى بن عمران عليه السلام: لا تذموا السفر، فإني أدركت فيه ما لم يدركه أحد. يريد أن الله عز وجل كلّمه فيه تكليما.

وقال المأمون: لا شيء ألذُّ من سفر في كفاية، لأنك في كل يوم تحلّ محلة لم تحلها، وتعاشر قوما لم تعاشرهم.

وقال الشاعر:

لا يَمنعنَّك خَفْضُ العيشِ في دعـةٍ ... مِن أن تبـدَّل أوطـانـاً بـأوطـانِ

تلقَـى بكـلِّ بلادٍ إن حَلَلْــت بها ... أهلاً بأهلٍ وإخـوانـاً بـإخـوانِ

---

(١) الطلا: الأعناق، ويفرس: يدقّ.

(٢) السّرمد: الأبدي.

(٣) الخفض: السعة في العيش.

مع أن المُقام بالمَقام الواحد يُورث الملالة .

وقال النبي ﷺ « زُرْ غبّاً » تَزْدَدْ حُباً [1] .

وقالت الحكماء : لا تنال الراحة إلا بالتَّعب ، ولا تُدْرك الدّعةُ إلا بالنَّصب .

وقال حبيب :

بصُرْتَ بالرَّاحةِ العُظمَى فلم تَرها ... تَنالُ إلاّ على جَسْرٍ مِن التَّعب

وقال أيضاً :

على أنّني لَمْ أَحْوِ وفْراً مُجَمَّعاً ... ففُزْتُ به إلا بشَمْلٍ مُبدَّدِ
ولَمْ تُعطِنِي الأيام نوْماً مُسكَّناً ... ألذُّ بِهِ إلا بنومٍ مُشَرَّدِ

وقال أيضا :

وركْبٍ كأطرافِ الأسِنَّةِ عرَّسُوا ... على مِثلها والليلُ تسْطُو غياهِبُهْ [2]
لأمْرٍ عليهِمْ أن تتَمَّ صُدورُه ... وليس عليهِمْ أن تتَمَّ عواقبُهْ

وبعد فهل يجوز في وهم أو يتمثل في عقل أو يصحّ في قياس ، أن يُحْصَد زرع بغير بذر ، أو تجنى ثمرة بغير غرس ، أو يُورِي زَندٌ بغير قدْح ، أو يُثْمر مالٌ بغير طلب ؟ .

ولهذا قال الخليل بن أحمد : لا تصلُ إلى ما تحتاج إليه إلا بالوقوف على ما لا تحتاج إليه ، فقال له أبو شمر المتكلّم : فقد آحتجت إذاً إلى ما لا تحتاج إليه ، إذ كنت لا تصل إلى ما تحتاج إليه إلا به . قال الخليل : ويحك ! وهل يقطع السيفُ الحسامُ إلا بالضرب ، أو يَجري الجواد إلا بالرَّكضِ ، أو هل تُنال نهايةٌ إلا بالسعي إليها والإيضاعِ نحوها . وقد يكون الإكداء [3] مع الكد ، والخيبة مع الهيبة .

---

(١) الغبّ : الزيارة حيناً بعد حين.

(٢) التعريس : النزول ليلاً . الغياهب : الظلمات .

(٣) الإكداء : الفقر.

وقال الشاعر:

وما زلتُ أقطعُ عرضَ البلادِ ... مِن المشرِقين إلى المغربَيْنِ
وأدَّرِعُ الخوفَ تحت الرَّجاء ... وأستصْحِبُ الجدْيَ والفرْقدَيْنِ [١]
وأطوي وأنشُرُ ثوبَ الهُموم ... إلى أن رجعْتُ بخُفَّيْ حُنَيْنِ [٢]
إلى أن أكونَ على حالةٍ ... مُقِلاً من المالِ صِفْرَ اليديْنِ
فقيرَ الصَّديق غنِيَّ العدُوِّ ... قليلَ الجداءِ عن الوالدَيْنِ

ومثل هذا قليل في كثير، وإنما يحكم بالأعمّ والأغلب، والنُّجْعُ مع الطلب والحرمانُ للعجز أصْحَب.

لحبيب:

وقد شرح حبيب هذا المعنى فقال:

همُّ الفتَى في الأرضِ أغصانُ الغِنى ... غُرِست وليست كُلَّ حينٍ تورقُ

للحمدوني:

وقال إسماعيل بن إبراهيم الحمدوني في المطالب:

لكِ ألْحاظٌ مِراضٌ ودلٌّ ... غيرَ أنَّ الطَّرف عنها أكَلٌّ [٣]
وأرَى خدَّيكِ ورداً نضيراً ... قد جاءه من دمع عينيّ طلٌّ
عذبَةُ الألفاظِ لو لم يَشِنْها ... كرُّ تفنيدٍ بسمْعي يُضِلّ [٤]
إنَّ عزَّى التي أنفت بي ... عن سِواها كُثْرُها ليَ قُلٌّ
ظَلْتُ في أفْياءِ ظِلْكِ حتى ... ظلَّ فوقي للمتالف ظلٌّ [٥]

(١) الجدي والفرقدين: نجوم في السماء يهتدى بها.

(٢) خفّي حنين: مثل يضرب لمن أراد شيئاً وفشل في تحقيقه.

(٣) الكليل: الضعيف.

(٤) يشنها: يعبها، والتفنيد: الكذب.

(٥) المتالف: المهالك.

إن أولى منـــــــكِ بي لَمرامٌ لا يَجُـــلُّ الهولُ حيـــثُ يحلُّ
مـا مُقـامـي وحُسَامِـي قـاطِـعٌ وسِنـــاني صـــارِمٌ مـــا يُفَـــلُّ
وسنـاني مِثـلُ روْضـةِ حــزنٍ أضْحَكَتْهـــا ديمَةٌ تسْتَهـــلُّ
ودليلي بينَ فكَّــــيَّ يعلـــوُ كُـلَّ صعْـبٍ ريِّـضٍ فيــذِلُّ[1]
ثملاً مــن خمْرَةِ العجــز أُسْقـى نَهلاً مـــن بعـــدِهِ ليَ عــلُّ[2]
إن يكُـنْ قُـربُـك عنـدي جليْلا فــأقـــلُّ الحزمِ منـــهُ أجـــلُّ
أقعيـــداً للقِعيـــدَةِ إلفـــاً كُـلُّ إلـفٍ بي لعُـدْمِـي مُخِـلُّ
ويْكِ ليس اللّيـثُ للّيـث يُضْحِـي مُخرجاً مِـن غِيله وهْـوَ كُـلُّ[3]
فـاتـرُكـي عتْبـاً ولـوْمـاً ودَعِـي وعلى الإقتـــارِ عينُـــكِ سَجْـــلُ
هــو سيــفٌ غِمْــدُهُ بُــردتـــاهُ ينْتضيـــهِ الحزمُ حينَ يُســـلُّ
لا يشُــكُّ السِّمــعُ حين يَــراه أنّـــه بـــالبيـــد سِمْـــعٌ أزلُّ[4]
بين ثــوبيْــهِ أخــو عــزمـــاتٍ يتَّقيهـــا الحادثُ المصْمَئِـــلُّ[5]
ليس تنبُـو بِــي رجــالٌ وبيــدٌ إنّ لبـــابي منـــزِلٌ ومَحـــل
فـــأقِلي بعـض عــذْلِ مُقِــلٍ لا يَــرى صرف الزمـــانِ يقـــلُّ
إنَّ وخْـــد العيشِ إثمارُ رِزْقٍ يجْتَنيهـــا المسهَـــبُ المشْمعِـــلُّ[6]
لا تَفُلِّ حــدَّ عــزمـي بِلــوْمٍ إنّـي للعـــــزمِ والدْرِ خِـــلُّ
فـالفتَـى مَـن ليس يـرعَـى حماه طمعـــاً يـــومـــاً لـــهُ مستـــزِلُّ
مَــن إذا خطْــبٌ أظـلَّ عليــهِ فلـــه صبْـــرٌ عليـــه مُظِـــلُّ

(١) ريّض: ضدّ الذليل.
(٢) العلّ: ضرب من الشرب.
(٣) أي أنه لا يقوى الشجاع على قرنه وهو كل لا أهبة له.
(٤) سمعٌ أزل: ذئب أرسح يتولّد بين الضبع والذئب.
(٥) المصمئل: الشديد.
(٦) المشمعل: السريع من الإبل والناس.

يصحبُ الليلَ الوليدَ إلى أن ... يهرَمَ الليلُ وما إن يملّ
ويرى السير قد يُلجلجُ منه ... مُضغةً لكنّها لا تَصِلّ[1]
شُمِّرت أثوابُه تحت ليلٍ ... ثوبُه ضافٍ عليه رِفلّ[2]
سأضيعُ النَّومَ كيما تَريْني ... ومَضيعي مُعظِمٌ لي مُجِلّ
فابتِناءُ العزِّ هدمُ المَهاري ... وانحلالُ العُدم سيْرٌ وحِلّ[3]

باب التماس الرزق وما يعود

على الأهل والولد

قال النبي ﷺ: «العائدعلى أهله وولده كالمجاهد المرابط في سبيل الله».

وقال ﷺ: «اليدُ العليا خير من اليدِ السفلى، وآبدأْ بمن تعُول».

وقال عمر بن الخطاب: لا يقعدُ أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تُمطر ذهبا ولا فضة، وإن الله تعالى إنما يرزق الناسَ بعضهم من بعض. وتلا قول الله جل وعلا ﴿فإذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فانتشِرُوا في الأرضِ وابتغُوا مِن فضلِ اللهِ واذكُروا اللهَ كثِيرا لعلْكُم تفلحون﴾[4].

وقال محمد بن إدريس الشافعي: آحرصْ على ما ينفعُك، ودع كلامَ الناس، فإنه لا سبيلَ إلى السلامة من ألسنة العامة.

ومثله قول مالك بن دينار: مَن عرف نفسه لم يَضره ما قال الناس فيه.

طاهر بن عبد العزيز: أخبرنا علي بن عبد العزيز قال: أنشدنا أبو عبيد القاسم بن سلام:

---

(١) لجلج: ردّد، وصلّ اللحم: فسُد ونتن.

(٢) الرفلّ: الواسع.

(٣) العدم: الفقر، أي بالحلّ والترحال يقضي الانسان على الفقر، ففي الحركة بركة.

(٤) سورة الجمعة الآية ١٠.

لا يَنقص الكامل من كماله ... ما ساق من خيرٍ إلى عِياله

وقال عمر بن الخطاب: يا معشر القُرَّاء، التمسوا الرزق ولا تكونوا عالةً على الناس.

وقال أكثم بن صيفي: من ضيَّع زاده اتكل على زاد غيره.

وقال النبيّ ﷺ: «خيركم من لم يَدَع آخرتَه لدنياه ولا دُنياه لآخرته».

وقال عمرو بن العاص: اعمل لدنياك عمَل من يعيش أبدا، واعمل لآخرتك عمل من يموت غدا.

للنبي ﷺ في متعبد:

وذُكر رجل عند النبي ﷺ بالاجتهاد في العبادة والقوّة على العمل، وقالوا: صحبناه في سفر، فما رأينا بَعدك يا رسول الله أَعبد منه، كان لا ينفتل من صلاة، ولا يُفطر من صيام. قال النبي ﷺ: فمن كان يَمُونُه ويقوم به؟ قالوا: كُلنا. قال كلُّكم أعبدُ منه.

ومر المسيح برجل من بني إسرائيل يتعبَّد، فقال: ما تصنع؟ قال: أتعبَّد. قال: ومن يقوم بك؟ قال: أخي. قال: أخوك أعبد منك.

وقد جعل الله طلب الرزق مفروضا على الخلق كله: من الإنس، والجنّ، والطير، والهوام، منهم بتعليم، ومنهم بإلهام؛ وأهل التحصيل والنظر من الناس يطلبونه بأحسن وجوهه من التصرف والتحرّز، وأهل العجز والكسل يطلبونه بأقبح وجوهه، من السؤال والاتكال والخلابة[1] والاحتيال.

(١) الخلابة: الخداع.

باب فضل المال

قال الله تعالى ﴿المالُ والبَنونَ زينة الحياةِ الدنيا والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربِّك ثواباً وخيرٌ أَمَلا﴾ [1].

وقال النبيّ ﷺ للمُجاشعي: «إن كان لك مال فلك حسب، وإن كان لك خُلق فلك مروءة، وإن كان لك دِين فلك كرم».

وقال عمر بن الخطاب: حسَب الرجل مالُه، وكرَمه دِينه، ومروءته خُلقه.

وفي كتاب الأدب للجاحظ: اعلم أن تَثمير المال آلةٌ للمكارم، وعونٌ على الدِّين، وتأليف للإخوان؛ وأن من فقَد المال قلَّت الرغبة إليه والرهبة منه، ومن لم يكن بموضع رغبة ولا رهبة آستهان الناس به؛ فآجهد جهدك كله في أن تكون القلوب معلَّقة منك برغبة أو رهبة في دينٍ أو دنيا.

وقال حكيم لابنه: يا بنيّ، عليك بطلب المال؛ فلو لم يكن فيه إلا أنه عزٌّ في قلبك وذل في قلب عدوّك لكفى.

وقال عبد الله بن عبَّاس: الدنيا العافية. والشباب الصحة، والمروءة الصبر، والكرم التقوى، والحسب المال.

وكان سعد بن عُبادة يقول: اللهم آرزقني جدا ومجداً، فإنه لا مَجْد إلا بفعال، ولا فِعالَ إلا بمال.

وقالت الحكماء: لا خير فيمن لا يجمع المال يصون به عِرضه، ويحمي به مروءته، ويصل به رحِمَه.

وقال عبد الرحمن بن عوف: يا حبذا المال أصون به عرضي وأتقرَّب به إلى ربي.

وقال سفيان الثوري: المال سلاح المؤمن في هذا الزمان.

(١) سورة الكهف الآية ٤٦.

وقال النبي ﷺ: «نعم العونُ على طاعة الله الغِنى. ونعم السُّلَّم إلى طاعة الله الغنى».
وتلا ﴿ولو أنهمْ أقامُوا التَّوراةَ والإنجيل وما أُنزلَ إليهِم من ربِّهم لأكلوا مِن فوقِهم ومن تحتِ أرجلِهم﴾[1] وقوله ﴿استغفروا ربَّكم إنه كان غفَّاراً، يُرسِلِ السماء عليكم مِدْراراً ويُمدِدْكم بأموالٍ وبنينَ﴾[2].

وقال خالد بن صفوان لابنه: يا بني، أوصيك باثنين لن تزال بخير ما تمسكت بهما: درهمَك لمعاشك، ودِينك لمعادك.

وقال عروة بن الورد:

ذريني للغِنَى أسعى فإنيّ ... رأيتُ الناسَ شرُّهُمُ الفقيرُ
وأحقرُهُم وأهونُهمْ عليهم ... وإن أمسى له كرَمٌ وخِيرُ[3]
يُباعده القريبُ وتَزدريهِ ... حليلتُه وينهرُه الصغير
وتَلقى ذا الغنَى وله جلالٌ ... يكاد فؤادُ صاحبه يطير
قليلٌ ذنبُه والذنبُ جمٌّ ... ولكنْ للغني ربٌّ غفورُ

لبعض الشعراء:

وقال آخر:

سأكسِبُ مالاً أو أموتُ ببلدةٍ ... يَقِلُّ بها قَطْرُ الدُّموعِ على قبري

وقال آخر:

سأعملُ نَصَّ العِيس حتى يَكُفَّني ... غِنَى المالِ يوما أو غنَى الحدَثان[4]
فَللموتُ خيرٌ من حياةٍ يُرى لها ... على المرء بالإقْلال وَسْمُ هَوَان[5]

---

(١) سورة المائدة الآية ٦٦.
(٢) سورة نوح الآية ١١.
(٣) الخير: الشرف والأصل والكرم.
(٤) نص العيس: أقصى ما عندها من سير.
(٥) وسمُ هوان: علامة ذلّة.

إذا قال لم يُسمَع لِحُسْن مقالـهِ وإن لم يقـلْ قـالـوا عـديمُ بيـان
كأنَّ الغنَى في أهله بُورك الغنَـى بغير لسـانٍ نـاطـقٌ بلسـان

الرياشي قال: أنشدنا أبو بكر بن عيَّاش:

حيْـرانَ يعلمُ أن المالَ سـاقَ لـه ما لم يَسقْـهُ لـه دِيـنٌ ولا خُلُـقُ
لولا ثلاثـون ألفـاً سُقْتُهـا بـِدَراً إلى ثلاثين ألفاً ضاقـتِ الطُّـرُق (١)
فَمن يكن عن كرام الناس يسـألُني فأكرمُ الناس من كانـت لـه وَرِق

وقال آخر:

أجَلَّكَ قومٌ حين صرتَ إلى الغنَـى وكـلُّ غنِـى في العُيـون جليـلُ
ولو كنتَ ذا فقرٍ ولم تُـؤتَ ثـروةً ذَلَلْـتَ لـديهم والفقيرُ ذليـلُ

وقال محمود الورّاق:

أرى كـلَّ ذي مـالٍ يُبَـرُّ لمالـهِ وإن كان لا أصلٌ هُناك ولا فضـلُ
فشرِّفْ ذَوي الأموال حيثُ لقِيتَهـم فقـولُهـمُ قـولٌ وفعلُهـم فعـل

وأنشد أبو مُحلِّم لرجل من وَلد طَلِبة بن قيس بن عاصم:

وكنتُ إذا خاصمتُ خَصْماً كَبَبْتُـه على الوجه حتى خاصمتْني الدراهـمُ
فلما تنـازعْنـا الخُصـومـةَ غُلِّبـتْ عليَّ وقـالـوا قـمْ فـإنّـك ظـالمُ

وأنشدني الرياشي:

لم يبـقَ مـن طلـبِ الغنَـى إلاّ التعـرُّض للحُتـوفْ (٢)
فلأَقْـذفـنَّ بمُهجتي بين الأسنَّـة والسُّيـوف
ولأَطلبَـنَّ ولـو رأيـتُ الموتَ يلمعُ في الصَّفـوف

وكان لأحيحة بن الجلاح بالزَّوراء ثلثمائة ناضح (٣).. فدخل بستانا له، فمرَّ

(١) البدرة: الصرّة من الدراهم.
(٢) الحتوف: المنايا.
(٣) الناضح: البعير أو الثور أو الحمار الذي يستقى عليه الماء.

بتمرة فلقطها فعُوتب في ذلك، فقال: تمرةٌ إلى تمرةٍ تمراتٌ، وجمل إلى جمل ذَوْد[1].

ثم أنشأ يقول:

إنّيَ مقيمٌ على الزَّوْراءِ أعمُـرهـا ... إنّ الكريمَ على الإخـوان ذو المالِ

فلا يغُرَّنْك ذو قـربَـى وذو نسـبٍ ... من ابن عمٍ ومن عـمٍ ومـن خـال

كلُّ النـداءِ إذا نـاديـتُ يَخـذُلُني ... إلاّ نـدائِـي إذا نـاديـتُ يـا مـالي

لابن عبد ربه:

ومن قولنا في هذا المعنى:

دعني أصُن حُرَّ وجهي عـن إذالتـهِ ... وإن تغرَّبتُ عن أهلي وعن ولدي[2]

قالوا نأيتَ عن الإخوان قلـتُ لهم ... ما لي أخٌ غيرُ ما تطوى عليه يـدي

كان الرماحس بن حفصة بن قيس وابن عم له يُدعى ربيعة بن الورد يسكنان الأرْدن. وكان ربيعة بن الورد موسرا، والرُّماحس معسراً كثيراً ما يشكو إليه الحاجة، ويعطف عليه ربيعة بعض العطف، فلما أكثر عليه كتب إليه:

إذا المرء لم يطلُـب معـاشـاً لنفسـه ... شكا الفقرَ أو لام الصديقَ فـأكثرا

وصار على الأَدنيْنَ كَلاًّ وأوشكـت ... صِلات ذوي القُربى له أن تنكرا[3]

فسِـرْ في بِلاد الله وَالتمس الغِنـى ... تَعِش ذا يَسـارٍ أو تموت فتُعـذرا

فما طالبُ الحاجات من حيث تُبتغـى ... من المال إلاّ مَن أجـدّ وشَمّـرا[4]

ولا تَرْض من عيش بدونٍ ولا تَنَـم ... وكيف ينام الليلَ من كـان مُعسرا

وقال بعض الحكماء: المال يوقِّر الدَّنِيّ، والفقر يُذل السَّنِي. وأنشد:

أرى ذا الغنى في الناس يَسعون حوله ... فإن قال قولاً تـابعـوه وصـدّقـوا

---

(١) الذود: القطعة من الإبل من ثلاث إلى تسع.

(٢) إذالته: إهانته.

(٣) الأدنين: الأقربين. والكلّ: العبء.

(٤) شمّر: سعى.

فذلك دأبُ الناس ما كان ذا غنىً ... فإن زال عنه المال يوماً تفرّقوا

وأنشد:

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها ... فحيثما انقلبت يوماً به انقلبوا
يعظِّمون أخا الدنيا فإن وثبت ... يوما عليه بما لا يشتهي وثبوا

صنوف المال

قال معاوية لصعصعة بن صُوحان: إنما أنت هاتف بلسانك، لا تنظر في أَوَدِ[1] الكلام ولا في استقامته: فإن كنتَ تنظر في ذلك فأخبرني عن أفضل المال.

فقال: والله يا أمير المؤمنين، إني لأَدَعُ الكلام حتى يختمرَ في صدري، فما أُرْهِفُ[2] بهِ ولا أتلهّق[3] فيه حتى أُقيمَ أَوَدَه، وأحرِّر مَتْنَه، وإن أفضلَ المال لَبُرَّةٌ سمراء في تربة غَبراء؛ أو نعجةٌ صفراءُ في روضة خضراء؛ أو عينٌ خَرّارة في أرضٍ خوّارة. قال معاوية: لله أنت، فأين الذهب والفضة. قال: حجران يصطكّان، إن أقبلت عليهما نفدا، وإن تركتهما لم يزيدا.

وقيل لأعرابية: ما تقولين في مائة من المعز؟ قالت: قُنًى. قيل لها: فمائة من الضأن؟ قالت غِنى. قيل لها: فمائة من الإبل؟ قالت: مُنًى.

وقال عبد الله بن الحسن: غَلَّةُ الدور مسألة، وغلة النَّخل كفاف، وغلة الحبِّ مِلك.

للنبي ﷺ:

وفي الحديث: «أفضلُ أموالكم: فرسٌ في بطنها فرس يَتْبعها فرس، وعينٌ ساهرة لعينٍ نائمة».

---

(١) الأود: الإعوجاج.

(٢) أرهف به: أي لا أركب البديهة ولا أقطع بشيء دون التأمّل والتروّي.

(٣) أتلهق: أتقعّر.

وأنشد فرج بن سلام لبعض العراقيين:

ولقد أقولُ لحاجبٍ نُصْحاً له خَلِّ العُروضَ وبِعْ أَرْضا[1]
إني رأيتُ الأرضَ يَبقَى نفْعُها والمالَ يأكُلُ بعضُه بعضا
واحذَرْ أُناساً يُظهِرون محبَّةً وعُيونُهم وقلوبُهم مَرْضَى
حتى إذا أمكنْتَهمْ من فُرصةٍ تَركوا الخِداعَ وأظهَروا البَغْضا

تدبير المال

قالوا: لا مال لأخرق[2]، ولا عَيْلة على مُصلح، وخير المال ما أطعمك لا ما أطعمتَه.

وقال صاحب كليلة ودمنة: لينفق ذو المال ماله في ثلاثة مواضع: في الصدقة إن أراد الآخرة: وفي مُصانعة السلطان إن أراد الذكر؛ وفي النساء إن أراد نعيم العيش.

وقال: إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة ولا يدركها إلا بأربعة؛ فأما الثلاثة التي يطلب: فالسَّعة في المعيشة، والمنزلة في الناس، والزاد إلى الآخرة، وأما الرابعة التي تُدرَك بها هذه الثلاثة: فاكتساب المال من أحسن وجوهه، وحسن القيام عليه، ثم التَّثْمير له، ثم إنفاقه فيما يصلح المعيشة ويُرضي الأهل والإخوان ويعود في الآخرة نفعه. فإن أضاع شيئاً من هذه الأربعة لم يدرك شيئاً من هذه الثلاثة. إن لم يكتسب لم يكن له مال يعيش به؛ وإن كان ذا مال واكتساب ولم يحسن القيام عليه يوشك أن يفنى ويبقى بلا مال، وإن هو أنفقه ولم يُثمِّرْه لم تمنعه قلة الإنفاق من سرعة النفاد. كالكحل الذي إنما يؤخذ منه على المِيل مثل الغبار، ثم هو مع ذلك سريعٌ نفاده. وإن هو اكتسب وأصلح وثَمَّر ولم ينفق الأموال في أبوابها؛ كان بمنزلة الفقير الذي لا مال له، ثم لا يمنع ذلك ماله من أن يفارقه ويذهب حيث لا منفعة فيه؛ كحابس الماء

(١) العُروض: الزائل الذي لا يدوم.
(٢) الأخرق: الأحمق.

في الموضع الذي تنصبّ فيه المياه، إن لم يخرج منه بقَدر ما يدخل فيه؛مصَلَ[1] وسال من نواحيه، فيذهب الماء ضياعاً.

وهذا نظير قول الله تعالى: ﴿والذين إذا أنْفقوا لم يُسْرِفوا ولَمْ يَقْتُرُوا وكان بيْنَ ذلك قَواماً﴾[2]. وقوله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿ولا تَجعَل يَدَك مَغْلولةً إلى عُنُقِك ولا تَبسُطْها كلَّ البسْطِ فتقْعُد ملوماً محسوراً﴾[3].

ونظر عبد الله بن عباس إلى درهم بيد رجل، فقال له: إنه ليس لك حتى يخرج من يدك. يريد أنه لا ينتفع به حتى يُنفقه ويستفيد غيره مكانه.

قال الحطيئة:

مُفيدٌ ومِتْلافٌ إذا ما سألتَه ... تهلَّل واَهتزَّ اهتِزازَ المُهنَّدِ

وقال مسلم بن الوليد:

لا يَعرِف المال إلاّ ريث يُنفِقُهُ ... أو يوم يَجمعُه للنَّهْبِ والبَدَدِ

وقال آخر:

مُهْلكُ مالٍ ومُفيد مالِ

وقال سُفيان الثوري: من كان في يده شيء فليُصلِحه؛ فإنه في زمان إن آحتاج فيه، فأول ما يبذله دينه.

وقال المتلمِّس:

وحبْسُ المالِ أيسرُ من بُغاه ... وضَرْبٍ في البلاد بغير زادِ

وإصلاحُ القليلِ يزيدُ فيه ... ولا يبقى الكثيرُ مع الفسادِ

---

(١) مصل: فسد.

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٧.

(٣) سورة الإسراء الآية ٢٩.

سعد القصير قال: ولآّني عُتبة أمواله بالحجاز، فلما ودّعته قال لي: يا سعد، تَعاهَدْ صغيرَ مالي فيكثر، ولا تُضيِّع كثيره فيصغر، فإنه ليس يَشغَلني كثير مالي عن إصلاح قليله، ولا يمنعُني قليل ما في يدي عن الصبر على كثير ما ينوبُني. قال: فقدمت المدينة، فحدّثت بها رجالات قريش ففرّقوا بها الكتب على الوكلاء.

الإقلال

قال أرسطاطاليس: الغِنَى في الغربةِ وطنٌ والمُقِل في أهله غريبٌ.

أخذه الشاعر فقال:

لعَمْرُك ما الغريبُ بِذي التَّنائي ... ولكنّ المُقِلَّ هو الغريبُ
إذا ما المرءُ أعْوز ضاق ذرْعاً ... بحاجتِه وأبعدَه القريبُ

وقال إبراهيم الشيباني: رأيت في جدار من جُدر بيت المقدس بيتين مكتوبين بالذهب:

فكلُّ مُقِلّ حين يغدو لحاجةٍ ... إلى كلِّ من يَلقى من الناس مُذنِبُ
وكان بنو عمي يقولون مرحباً ... فلما رأوْني مُقْتِراً مات مَرْحبُ

ومن قولنا في هذا المعنى:

أَعاذل قد آلَمْتِ وَيْك فَلُومي ... وما بلغ الإشراك ذنبُ عديمِ
لقد أسقَطت حقِّي عليك صبابتي ... كما أسقَط الإفلاسُ حقَّ غريمِ (١)
وأعذَرُ ما أَدْمَى الجُفون من البكا ... كريمٌ رأى الدُّنيا بكفِّ لئيمِ
أرى كلَّ فدمٍ قد تَبجَّح في الغنى ... وذو الطرْف لا تَلْقاه غير عديمِ (٢)

وقال الحسن بن هانيء:

الحمد لله ليس لي نشَبٌ ... فخفّ ظهري وملّني ولَدِي (٣)

---

(١) الصبابة: العشق.

(٢) الفدم: العيُّ الأحمق. (٣) النشب: المال المتنوّع.

مــن نَظَــرَت عيْنُــه إليَّ فقــد أحــاط علماً بما حــوَتْــه يــدي

وكان أبو الشَّمقمق الشاعر أديباً طريفاً محارَفاً[1] صُعلوكاً متبرِّماً، قد لزم بيته في أطمار مسحوقة، وكان إذا استفتح عليه أحد بابه خرج، فنظر من فُرج الباب، فإن أعجبه الواقف فتح له، وإلاّ سكت عنه، فأقبل إليه بعض إخوانه فدخل عليه، فلما رأى سوء حاله، قال له: أبشر أبا الشمقمق، فإنا روينا في بعض الحديث أن العارين في الدنيا هم الكاسون يوم القيامة. قال: إن كان والله ما تقول حقاً لأكونن بزّازاً يوم القيامة، ثم أنشأ يقول.

أنــا في حــالٍ تعــالى لله ربي أيَّ حـــــــالِ
ولقــد أهْــزلْــتُ حتى مَحَــتِ الشمسُ خيــالي
مـن رأى شيئــاً مُحــالاً فــأنــا عيْــنُ المُحــالِ
ليس لي شيءٌ إذ قيــــل لِمَــنْ ذا قلــتذا لي
ولقــد أفلســتُ حتى حــلَّ أكْلي لعيــالي
في حِـرِاَمّ النـاس طُـرّاً مــن نســاءٍ ورجــالِ
لــو أرى في النـاس حُـرّاً لم أكــن في ذا المثــالِ

وقال أيضاً:

أتـراني أرى مـن الدهـرِ يـوْمــاً لِــيَ فيــه مَطيَّــةٌ غيرُ رِجْلي
كلما كنـت في جَميـعٍ فقـالــوا قـرِّبـوا للـرَّحيـلِ قـرَّبْـتُ نعلي
حيثُما لا أُخلَّـــــفُ رَحْلاً مَــن رآني فقــد رآني ورَحْلي

وقال أيضاً:

لو قد رأيت سريري كنتَ تَـرحمني الله يعلم مــالي فيــه تلبيس[2]
وآللهُ يعلم مــالي فيــه شــابكــةٌ إلاَّ الحصيرةُ والأطمار والدِّيسُ[3]

---

(١) المحارف: المحدود المحروم، أو الذي لا يصيب خيراً أنّي توجّه.

(٢) التلبيس: أي ليس عنده شيء مما يكسو به السّرير ويلبسه إيّاه.

(٣) الشابكة: أي شيءٌ مضمومٌ بعضه إلى بعض، والدّيس: هو المعروف في مصر «بالسمار».

وقال أيضاً:

بَـرَزْتُ مـن المنــازلِ والقِبــابِ ... فلم يَعسُــر على أحــدٍ حِجــابي
فمنْــزلِيَ الفضــاءُ وسقــفُ بيْتي ... سماءُ الله أو قِطَــعُ السَّحـــابِ
فـأنــت إذا أردْتَ دخلــتَ بيْتي ... عليَّ مُسلِّماً مـــن غير بـــابِ
لأني لم أجــد مِصْــراعَ بــابٍ ... يكون مـن السَّحـاب إلى التُّـرابِ
ولا انشقَّ الثرَى عـن عُـودِ تَخْـتٍ ... أُؤَمِّــلُ أن أشُــدَّ بــه ثيــابي
ولا خِفْـتُ الإبـاقَ على عبيـدِي ... ولا خِفْـت الهلاك على دوابِـي (١)
ولا حـاسَبْـتُ يـومـاً قَهْـرَمـانـاً ... مُحاسبـةً فـأغْلـطَ في حسـابِي (٢)
وفي ذا راحـــةٌ وفَـــراغُ بـــالٍ ... فـــدأْبُ الدهــرِ ذا أبــداً ودابِي

وفي كتاب للهند: ما التّبع والإخوان والأهل والأصدقاء والأعوان والحشم إلا مع المال، وما أرى المروءة يظهرها إلا المال، ولا الرأي والقوة إلا المال، ووجدت من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمراً قعد به العُدم، فيبقى مقصِّراً عما أراد، كالماء الذي يبقى في الأودية من مطر الصيف، فلا يجري إلى بحر ولا نهر، بل يبقى مكانه حتى تَنْشفه الأرض؛ ووجدت من لا إخوان له لا أهل له. ومن لا ولد له لا ذِكْر له، ومن لا عقل له لا دنيا له ولا آخرة له، ومن لا مال له لا شيء له؛ لأن الرجل إذا آفتقر رَفضه إخوانُه وقطعه ذو رحمه، وربما اضطرته الحاجة لنفسه وعياله إلى التماس الرزق بما يُغرّر فيه بدينه ودنياه، فإذا هو قد خَسِر الدنيا والآخرة، فلا شيء أشدّ من الفقر، والشجرة النابتة على الطريق المأكولة من كل جانب أمثل حالاً من الفقير المحتاج إلى ما في أيدي الناس. والفقر داعٍ صاحبه إلى مَقت الناس، ومُتلف للعقل والمروءة، ومُذهب للعلم والأدب، ومعدن للتهمة، ومجمع للبلايا؛ ووجدت الرجل إذا آفتقر أساء به الظنّ من كان له مؤتمناً، وليس من خَصلة هي للغنّى مدح وزين إلا وهي للفقير ذمّ وشَين؛ فإن كان شجاعاً قيل أهوج، وإن كان جواداً قيل

---

(١) الاباق: الهرب.

(٢) القهرمان: المسئول عن العبيد وغير ذلك.

مُفسد، وإن كان حليماً قيل ضعيف، وإن كان وقوراً قيل بليد، وإن كان صَموتاً قيل عَييّ، وإن كان بليغاً قيل مِهذار[1]؛ فالموتُ أهونُ من الفقر الذي يضطرّ صاحبه إلى المسألة، ولا سيما مسألة اللئام؛ فإنّ الكريم لو كُلِّف أن يدخل يده في فم تنّين ويُخرج منه سمّاً فيبتلعه، كان أخفَّ عليه من مسألة البخيل اللئيم.

السؤال

قال النبي ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم أحْبُله فيحتطب بها على ظهره أهونُ عليه من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله. أعطاه أو منعه».

وقالوا: من فتح على نفسه باباً من السؤال، فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر.

وقال أكثمُ بن صيْفي: كل سؤال وإن قل أكثر من كل نوال وإن جلّ.

ورأى علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه رجلاً يسأل بعرفات فقنَّعه بالسوط، وقال: ويلك! في مثل هذا اليوم تسأل أحداً غير الله.

وقال عبد الله بن عباس: المساكين لا يعودون مريضاً، ولا يشهدون جِنازة، ولا يحضُرون جمعة، وإذا آجتمع الناس في أعيادهم ومساجدهم يسألون الله من فضله، آجتمعوا يسألون الناس ما في أيديهم.

وقال النعمان بن المنذر: من سأل فوق حقه استحق الحرمان، ومن ألحف في مسألته استحق المطل. والرفقُ يُمْنٌ، والخُرْقُ شُؤْمٌ، وخير السخاء ما وافق الحاجة، وخير العفو مع القدرة.

وقال شريح: من سأل حاجة فقد عَرّض نفسه على الرق، فإن قضاها المسئول منه آستعبده بها، وإن ردّه عنها رجع كلاهما ذليلاً، هذا بذلّ البخل، وذاك بذلّ الردّ.

---

(١) المهذار: الثرثار الذي يهذي في كلامه.

وقال حبيب:

ذل السؤال شَجى في الحلْقِ معترِضٌ   مِن دونِه شرَق من خلْفِه جـرَضُ[1]
ما ماءُ كفِّكَ إن جادْت وإن بَخِلتْ   من ماءِ وجهـيَ إن أفتيتـه عِـوَضُ

الخشني قال: قال أبو غسّان: أخبرني أبو زيد قال: سأل سائل بمسجد الكوفة وقت الظهر فلم يُعْطَ شيئاً، فقال: اللهم إنك بحاجتي عالمٌ لا تُعَلَّم، أنت الذي لا يُعْوِزك نائل، ولا يُحفِيك سائل[2]، ولا يبلغ مدحَك قائل؛ أسألك صبراً جميلاً، وفرجاً قريباً، وبصراً بالهدى، وقوة فيما تُحب وتَرضى. فتبادروا إليه يعطونه. فقال: والله لا رَزَأْتُكـم[3] الليلة شيئاً وقد رفعت حاجتي إلى الله. ثم خرج وهو يقول:

مـا نـالَ بـاذِلُ وجهِـه بسـؤالِه   عِوَضاً ولـو نـالَ الغِنَـى بسـؤالِ
وإذا النَّـوَالُ مـع السـؤالِ وزَنْتَـه   رجَحَ السؤالُ وشال كـلُّ نَـوالِ[4]

وقال مسلم بن الوليد:

سل الناسَ إني سـائـلُ اللهِ وحـدَهُ   وصائنُ عِرضي عن فلانٍ وعـن فُلا

وقال عبيد بن الأبرص:

مَـن سـأل النـاسَ يَحـرِمـوه   وسـائـلُ اللهِ لا يَخيـب

وقال ابن أبي حازم:

لَطَـيٌّ يـومٍ وليلتينِ   ولبْسُ ثـوبينِ بـاليبْـنِ[5]
أهْـونُ مـن مِنَّـةٍ لقـومٍ   أَغُـضُّ منها جفـونَ عينِـي
إني وإن كنـت ذا عِيـالٍ   قليـلَ مـالٍ كثيرَ ديْـن
لأحْمَـدُ اللهَ حين صـارتْ   حـوائجـي بينَـه وبيني

ومن قولنا في هذا المعنى:

---

(١) الجرض: ابتلاع الريق بجهد.

(٢) يحفيك: يقال: أحفى فلان فلاناً، إذا برّح به في الالحاف عليه واجهده.

(٣) الرزء: المصاب.   (٤) شال: خفّ.

(٥) اللطيّ: اللصوق بالأرض، والاختفاء.

سؤالُ الناسِ مِفتاحٌ عتيدٌ لبابِ الفقرِ فاتلف بالسؤالِ

وروي أشعب الطماع عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: يحشر الله عز وجل يوم القيامة قوماً عارية وجوههم قد أذهب حياءها كثرة السؤال.

سؤال السائل من السائل

مدح أبو الشمقمق مروان بن أبي حفصة. فقال له أبو الشمقمق: أنت شاعر وأنا شاعر، وغايتنا كلنا السؤال.

وذكر أعرابي رجلاً بالسؤال، فقال: إنه أسألُ من ذي عَصَوَيْن.

وقال حبيب:

لم يخلُقِ الرحمٰنُ أحْمَقَ لِحْيَةٍ من سائلٍ يَرجو الغِنى من سائِلِ

الأصمعي عن عيسى بن عمر النحوي قال: قدمتُ من سفر فدخل عليّ ذو الرمّة الشاعر، فعرضت لأن أُعطِيهُ شيئاً، فقال: كلا، أنا وأنت نأخذ ولا نعطي.

الشيب

قال قيس بن عاصم: الشيبُ خطام المنية[1].

وقال غيره: الشيب نذيرُ الموت.

وقال النميري: الشيب عنوانُ الكِبَر.

وقال المُعتمر بن سليمان: الشيبُ موتُ الشَّعَر، وموت الشّعر علّةٌ لِمَوت البشر.

وقال أعرابي: كنت أنِكر البيضاءَ فصرت أُنكِر السوداء، فيا خيرَ مبدولٍ ويا شرَّ بَدلٍ.

وقيل للنبي ﷺ: عَجِل عليك الشيبُ يا رسول الله! قال: شيَّبتْني هُودٌ وأخواتُها.

---

(١) الخطام: مقدم الأنف.

وقيل لعبد الملك بن مروان: عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين! قال: شيَّبتني ارتقاءُ المنابر وتَوقُّع اللَّحْن.

وقيل لرجل من الشعراء: عجل عليك الشيب. فقال: وكيف لا يعجل وأنا أعصُر قلبي في عملٍ لا يُرجى ثوابه، ولا يؤمن عقابه.

وقال حبيب الطائي:

غدا الشيبُ مُخْتطّاً بفـوْديَّ خُطَّـةً ... طريقُ الرَّدى منها إلى النفس مهْيَعُ [1]
هو الزَّوْرُ يُجفى والمُعاشرُ يُجتـوَى ... وذو الإلْفِ يُقلي والجديدُ يُرقَّـعُ [2]
له منظر في العيْن أبيـضُ نـاصعٌ ... ولكنَّه في القلب أسـودُ أسفـعُ [3]

وقال محمود الوراق:

بكيْـتُ لقُـربِ الأجـلْ ... وبُعـدِ فـوات الأمـلْ
ووافِـد شيْـبٍ طـرا ... بعُقـبِ شبـابٍ رحـلْ
شبـابٌ كـأنْ لم يكـنْ ... وشيْـبٌ كـأنْ لم يَـزلْ
طـواكَ بشيرُ البَقـا ... وجـاءَ بشيرُ الأجـلْ

وقال أيضاً:

لا تطلُبَـنَّ أثـراً بعيْـنْ ... فـالشَّيب إحـدى الميتتيْـنْ
أبـدَى مقـابِـح كـلِّ شيْـنْ ... ومحا محاسِـنَ كـلِّ زيْـنْ
فـإذا رأيـتَ الغـانِيـا ... تِ رأيـنَ منك غُراب بيْنْ
ولَـرُبما نـافسْـنَ فيـ ... ـك وكُـنّ طوعاً لليـدَيْـنْ
أيـامَ عمَّمَـك الشَّبـا ... بُ وأنت سهلُ العـارِضيْـنْ [4]

---

(١) الفودين: ما يحاذي الأذن من شعر الرأس ومهيع: بيّن وواضح.

(٢) الزّور: الزائر، ويجتوى: من الجوى: أي حرقة الحبّ، والقلى: الكره.

(٣) الأسفع: الشديد السواد.

(٤) العارضين: الخدّين.

حتى إذا نــــــزلَ المشيـ ـبُ وصِــــرت بين عِمامتيْنْ
ســوْداءَ حــالِكَــةٍ وبيْـ ـضاءَ المناشِرِ كالُّلجيْــنْ
مَــزَج الصُّــدودُ وِصــا لَهُــنّ فكُــنَّ أمراً بيْـنَ بيْـنْ
وصبَـرْن مــا صبَـرَ السَّـوا دُ على مُصــانعــةٍ وديْــنْ
حتى إذا شَمِـــلَ المشيـ ـبُ فحازَ قَطْـرَ الحاجبيْـنْ
قفَّيْـــنَ شَــرَّ قَفِيَّـــةٍ وأخــذْنَ منــكَ الأطيبيْــنْ
فــاقْــنَ الحيــاءَ وســلِّ نفْـ ـسك أو فنادِ الفرْقَـديْـنْ[1]
ولِئِــنْ أصــابتْــك الخُطــو بُ بكُــلِّ مكــروهٍ وشَيْــنْ
فلقــد أمِنْــتَ بــأن يُصِيـ ـبكَ نــاظــر أبــداً بعيْــنْ

وقال حبيب الطائي:

نظـرَتْ إليّ بعينِ مـن لم يعـدِلِ لمَّا تمكَّـن حُبُّهــا مــن مقتَلِـي
لمَّا رأت وضــح المشيــبِ بلِمَّتي صدَّتْ صُدودَ مُجانـبٍ مُتحمِّـلِ
فجعلـتُ أطلـبُ وصْلها بتلطـفٍ والشيْـبُ يغمِـزُهـا بـألاّ تفعلِـي

وقال آخر:

صدّت أُمامـةُ لمَّا جئـتُ زائِـرهـا عنّي بمطروفةٍ إنسـانُهـا غـرِقُ[2]
وراعها الشيْبُ في رأسي فقلـتُ لها كذاكَ يصْفرُّ بعد الخُضْـرَةِ الورقُ

وقال محمد بن أمية:

رأينَ الغواني الشَّيْبَ لاح بعارِضي فأعرَضْنَ عنّي بـالخدودِ النَّـواضِـر
وكُنَّ إذا أبصرْنَنـي أو سمِعْـن بي دنَوْنَ فرقَّعنَ الكُوَى بـالمحاجـر[3]

وقال العلوي:

---

(١) فاقن الحياء: الزمه.
(٢) المطروفة: العين، وإنسانها: يؤيؤها.
(٣) الكوى: الفتحات والمنافذ. والمحاجر: العيون.

عيَّــرتْني بِشيْــبِ رأْسي نــوارُ | يا بْنة العمِّ ليس في الشيْـبِ عـارُ
إنما العـارُ في الفِـرار مــنَ الزّحْـ | ـفِ إذا قيـل أيْـن أيْـنَ الفِـرارُ

ومن قولنا في الشيب:

بـدا وضـحُ الشيـبِ على عِـذاري | وهــل ليــلٌ يكــونُ بلا نَهــارِ
شريْـتُ سـواد ذاببيـاض هٰـذا | فبــدَّلــتُ العِمامــة بــالخِمارِ
وألبسَني النُّهـى ثـوبـاً جـديـداً | وجـرّدنِـي مِـنَ الثَّـوب المعـارِ
ومــا بِعْـتُ الهوى بيْعـاً بشرطٍ | ولا آستثنيْــتُ فيــهِ بــالخِيــارِ

ومن قولنا فيه:

قالوا شبابُك قـد ولّـى فقلـتُ لهم | هل من جديدٍ على كرِّ الجديدَيْـنِ
صِلْ مَنْ هويْتَ وإن أبدى مُعاتبـةً | فأطيبُ العيْشِ وصْـلٌ بين إلْفيْـن
واقطعْ حبائـلَ خِـدْنٍ لا تُلائِمُـهُ | فرُبما ضـاقـتِ الدُّنيـا على آثنيْـنِ

ومن قولنا فيه:

جـار المشيـبُ على رأْسي فغيـرَّه | لما رأى عندنا الحُكامَ قـد جـاروا
كـأنّما جُـنَّ ليــلٌ في مفــارِقــهِ | فاعتاقهُ من بياضِ الصُّبحِ إسفارُ (١)

ومن قولنا فيه:

ســوادُ المرءِ تُنفــدُه الليــالي | وإن كــانــت تصيرُ إلى نَفــادِ
فــأسـوَدُهُ يعــودُ إلى بيــاضٍ | وأبيضُــهُ يعــودُ إلى ســوادِ

ومن قولنا أيضاً:

أطلالُ لهْوك قد أقْـوَت مغـانيهـا | لم يبْق من عهدِهـا إلا أثـافيهـا (٢)
هٰذِي المفارقُ قد قامت شواهِدُهـا | على فنـائـكَ والدُّنيـا تُـزكِّيهـا
الشَّيْـبُ سُفْتِجـةٌ فيهـا مُعنْـونـةٌ | لم يبق لِلمَـوتِ إلاّ أن يُسَجِّيهـا (٣)

---

(١) اعتاقه: عاقه.

(٢) أقوت: خلت وأقفرت. والأثافي: المواقد للقدور.

(٣) السفتجة: إعطاء المال لقاء وثيقة تستردّ بها المال من عميلٍ في بلدٍ آخر. ويسجّيها يغطّيها.

ومن قولنا أيضاً:

نجومٌ في المفـارِقِ مـا تغـورُ ... ولا يجري بِهـا فلـكٌ يـدورُ
كـأنَّ سـواد لِمَّتِـه ظلامٌ ... أغـار مِنَ المشيـبِ عليـه نـورُ
ألا إنَّ القتيرَ وعيـدُ صـدق ... لنا لـو كـان يـزجـرنـا القتيرُ [1]
نـذيـرُ الموتِ أرسلَـهُ إلينـا ... فكـذَّبنـا بَما جـاءَ النَّـذيـر
وقلنـا للنُّفـوسِ لعـلَّ عُمْـراً ... يطـولُ بنـا وأطـوَلُـه قصيرُ
متى كذَبتْ مـواعـدُها وخـانـتْ ... فـأوَّلُهـا وآخِـرُهـا غُـرورُ
لقد كـاد السُّلـو يُميـتُ شـوقـي ... ولكِـن قلَّما فُطِـم الكبيرُ
كـأني لم أرُق بـل لمْ يَـرقْني ... شُمـوسٌ في الأكلّـة أو بُـدورُ
ولم ألـقَ المُنـى في ظِـلِّ لهوٍ ... بِـأقمارٍ سحـائبُهـا السُّتـورُ

ولآخر:

والشيـب تَنْغيـص الصِّبـا ... فاقض اللبـانـة في الشبـاب [2]

وقال ابن عباس: الدنيا الصحة والشباب.

ولبعضهم:

في كلِّ يوم أرى بيضاء قد طلعت ... كـأنّها طلعـت في نـاظـر البصر
لئن قصصتك بالمقراض عن نَظـري ... لما قصصتك عن همّي ولا فكـري

ولابن المعتز:

جـاء المشيـب فما تعسـت بـه ... ومضى الشبـاب فما بكـاي عليـهِ

وقال أيضاً:

ماذا تريدين من جهلي وقـد غبرت ... سِنُوُّ شبابي وهذا الشيب قد وَخطـا [3]

(١) القتير: رؤوس مسامير حلق الدروع.
(٢) اللبانة: الحاجة.
(٣) غبرت: مضت، وخط الشيب: ظهر وبان وخالط شعر الرأس الأسود.

أُرقع الشعرة البيضاء ملتقطاً فيصبح الشيب للسوداء ملتقطا
وسوف لا شك يُعييني فأتركه فطالما أَعمِل المقراض والمُشْطا

الشباب والصحة

قال أبو عمرو بن العلاء: ما بكتِ العربُ شيئاً ما بكت على الشباب وما بلغتْ به ما يستحقُّه.

وقل الأصمعي: أحسن أنماط الشعر المراثي والبكاء على الشباب:

وقيل لكثيّر عزة: مالك لا تقول الشعر؟ قال: ذهب الشباب فما أطرب، ومات عبد العزيز فما أرغب.

وقال عبد الله بن عباس: الدنيا العافية، والشباب الصحة.

وقال محمود الوراق:

أليس عجيباً بأن الفتى يُصاب ببعض الذي في يديه
فمِن بينِ باكٍ له مُوجَعٍ وبين مُغتَرٍ مُغِذٍّ إليه[1]
ويسلبُه الشيب شرخَ الشباب فليس يُعزِّيه خلق عليه

وقال ابن أبي حازم:

ولَّى الشَّباب فخلِّ الدمعَ ينهملُ فقْدُ الشباب بفقد الروحِ متصلُ
لا تُكذَبَنَّ فما الدنيا بأجمعها من الشباب بيومٍ واحدٍ بَدلُ

وقال جرير:

ولَّى الشباب حميدةً أيامُه لو كان ذلك يُشتَرى أو يرجع

وقال صريع الغواني:

واهاً لأيَّام الصِّبا وزمانِه لو كان أسعفَ بالمُقام قليلا
سَل عيش دهرٍ قد مضت أيامُه هل يستطيع إلى الرجوعِ سبيلا

(١) المغذّ: المسرع.

وقال الحسن بن هانيء:

وأراني إذ ذاك في طاعة الجهل وفوقي من الصبّا إمْراءُ[1]
تِرْبَ عيشٍ لرَيْطِي فضْل ذيلٍ ولرأسي ذُؤابَةٌ فَرْعاءُ[2]
بقناعٍ من الشباب جديدٍ لم ترقّعهُ بالخضاب النساءُ
قبل أن يلبَس المشيب عِذاريَّ وتَبلى عمامتِي السوداءُ

وقال أعرابي:

لله أيام الشباب وعصرُه لا يُستعار جديدُه فيُعارُ
ما كان أقصر ليله ونهاره وكذلك أيام السرورِ قِصار

ومن قولنا في الشباب:

ولّى الشباب وكنتَ تسكُن ظلّه فانظر لنفسك أيَّ ظلٍ تسكُن
ونَهى المشيب عن الصِّبا لو أنه يُدلِي بحجته إلى مَن يَلقَن

ومن قولنا فيه:

قالوا شبابُك قد مضتْ أيامُه بالعيش قلتُ وقد مضت أيامي
لله أيَّةُ نعمةٍ كان الصبا لو أنها وُصلتْ بطول دوامِ
حَسَرَ المشيب قناعه عن وجهه وصحا العواذل بعد طول مَلام[3]
فكأنّ ذاك العيش ظلٌّ غَمامَةٍ وكأنّ ذاك اللهو طيفُ مَنام

ومن قولنا فيه:

ولو شئت راهنت الصبابة والهوى وأجريت في اللذات من مئتين
وأسلبت من ثوب الشباب، وللصبا عليَّ رداء مُعْلَّم الطرفين[4]

وقال آخر:

---

(١) إمراء: من الأمر. (٢) الريطة: الملاءة.
(٣) حسر: كشف. (٤) معلم: مزيّن ومرقم.

إنّ شرخ الشباب والشَّعَر الأسودَ ما لم يُعاصَ كان جُنونَا[١]

وقال آخر:

قالت عهدْتُك مجنوناً فقلت لها ... إن الشباب جُنون بُرؤه الكِبَرُ

ومن قولنا في الشباب:

كنتُ إلف الصبا فودَّعني ... وَداعَ مَن بانَ غير مُنصرِف

أيامَ لهوي كظلِّ إسْحِلة ... وإذ شبابي كروضة أُنُف[٢]

ومن قولنا في الشباب:

شبابي كيف صرتُ إلى نَفاد ... وبُدِّلتُ البياضَ من السوادِ

وما أبقى الحوادث منك إلاّ ... كما أبقت من القمر الدّآدي[٣]

فراقُك عرَّف الأحزان قلبِي ... وفرَّق بين جَفْنِي والرُّقاد

فيا لِنعيمِ عيشٍ قد تَولّى ... ويا لِغليل حُزن مُستفاد

كأنِّي منك لم أرْبَع بِرَبْع ... ولم أرْتَدْ به أحلى مَراد

سَقى ذاك الثَّرَى وبْلُ الثُّريّا ... وغادَى نَبْته صوْب الغوادي[٤]

فكم لي من غليلٍ فيه خافٍ ... وكم لي من عويلٍ فيه بادي

زمانٌ كان فيه الرُّشد غَيّاً ... وكان الغَيُّ فيه من الرَّشاد

يُقبِّلني بدَلٌّ من قَبول ... ويُسعدني بوصْلٍ من سُعاد

وأَجْنُبُه فيُعطيني قِياداً ... ويَجْنُبُني فأُعطيه قِيادي

الخضاب

قال النبي ﷺ: «غيِّروا هذا الشَّيبَ. وجنبوالسواد».

وكان أبو بكر يخضب بالحناء والكتم[٥].

(١) شرخ الشباب: نشاطه وحدّته في أوّله.

(٢) الإسحلة: واحدة الإسحل، وهو شجر يستاك به وروضة أنف: لم ترعَ.

(٣) الترآدي: ثلاث ليالٍ من آخر الشهر قبل المحاق.

(٤) الغوادي: جمع غادية وهي السحابة تنشأ غدوة أو هي مطر الغداة.

(٥) الكتم: نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر فيبقى لونه.

وقال مالك بن أسماء بن خارجة لجاريته: قومي آخضِبي رأسي ولحيتي. فقالت: دعني، قد عييتُ مما أرقِّعك. فقال مالك بن أسماء.

عيَّرْتِنِي خَلَقاً أبْليتِ جِدتَهُ ... وهل رأيتِ جديداً لم يَعُدْ خَلَقا

ودخل أبو الأسود الدؤلي على معاوية وقد خَضب؛ فقال: لقد أصبحت يا أبا الأسود جميلاً؛ فلو علّقت تميمة[1]. فأنشأ أبو الأسود يقول:

أفني الشباب الذي فارقتُ بهجتَه ... مَرُّ الجَديدينِ من آتٍ ومُنطَلِقِ
لم يُبقيا ليَ من طولِ اختلافِهما ... شيئاً يُخاف عليه لذْعةُ الحَدَق

وذكر عن الأصمعي قال: بلغني عن بعض العرب فصاحة، فأتيته فوجدته يخضب، فقال: يا بن أخي، ما الذي أقصدك إليَّ؟ قلت: الاستئناس بك والاستماع من حديثك. قال: يا بن أخي، قصدتني وأنا أخضب، والخضاب من مقدّمات الضعف، ولطالما فزَّعت الوحوش، وقدت الجيوش، ورويت السيف، وقريت الضيف، وحميت الجار، وأبيت العار، وشربت الراح، وجالست الملاح، وعاديت القروم، وعلوت الخصوم؛ واليوم يا بن أخي الكبر وضعف البصر تركا من بعد الصَّفو الكدر. وأنشأ يقول:

شيبٌ نُعلّله كيما نُسَرُّ به ... كهيئة الثوب مطويّاً على خِرقِ
فكنت كالغصن يرتاح الفؤاد به ... فصرت عوداً بلا ماء ولا ورق
صبراً على الدهر إن الدهر ذو غِيَرٍ ... وأهله منه بين الصفو والرَّنق[2]

ودخل معاوية على ابن جعفر يعوده؛ فوجده مُفيقاً وعنده جارية في حجرها عود؛ فقال: ما هذا يا بن جعفر؟ فقال: هذه جارية أروّيها رقيق الشِّعر فتزيده حُسناً بحُسن نغمتها. قال: فلتقل. فحركت عودها وغنت! وكان معاوية قد خضب.

---

(١) التميمة: العوذة من العين.

(٢) ذوغير: ذو تقلّبات، والرّنق: الكدر.

أليس عنـدَك شرٌ للتي جَعلـتْ ... ما آبيضَّ من قادِمات الرِّيش كالحمم [1]
وجدَّدتْ منك ما قد كـان أخْلَقَـهُ ... ريْبُ الزمان وصرف الدهر والقِـدم

فحرّك معاوية رجله؛ فقال له ابن جعفر: لِم حرّكت رجلك يا أمير المؤمنين؟ قال: كل كريم طروب.

وقال محمود الوراق في الخضاب:

للضيفِ أن يُقرَى ويُعـرَفَ حقُّـهُ ... والشيْبُ ضيفُك فـآقـرِهِ بخِضـابِ
وافَـى بـأكـذَبِ شـاهـدٍ ولـربَّما ... وافَـى المَشيـبُ بشـاهِـدٍ كـذَّاب
فـافسـخ شهـادتَـه عليـكَ بخَضْبِـه ... تَنفـي الظنـونَ بـه عـن المُرتـاب
فـإذا دَنـا وقـتُ المشيـبِ فخلِّـهِ ... والشيبَ يذهـبُ فيـه كـلَّ ذَهـاب

وقال آخر:

وقـائلـةٍ تقـول: وقـد رأتْـي ... أُرَقِّـعُ عـارِضَـيَّ مـن القَتيرِ
عليـك الخِطْـرِ علَّـك أن تُـدنَّـى ... إلى بيـضٍ تـرائبُهـن حُـور [2]
فقلت لها المشيـبُ نـذيـرُ عمـري ... ولسـتُ مسـوِّداً وجـةَ النـذيـر

وقال غيره:

إنّ شيئـاً صلاحُـه بخِضـاب ... لَعَـذابٌ مـوكّـلٌ بعـذاب
فوَحقِّ الشبـابِ لـولا هـوى البيـ ... ـضِ وأن تَشْمئِزّ نفسُ الكَعـاب [3]
لأرَحْتُ الخدَين مِـن وَضَـرِ الخِطْـ ... ـرِ وآذنـتُ بـانقِضـاء الشبـاب [4]

وقال غيره:

بَكَرتْ تُحسِّـنُ لي سَـوَادَ خِضـابي ... لكـأنّ يُعيـدُني لشبـابي [5]

---

(١) قادمات الريش: ريش مقدّمة الجانح والحمم: جمع حُمة، وهي لون بين الدهمة والكمتة.
(٢) الخطر: نباتٌ يختضب. والترائب: الصدور. (٣) الكعاب: النواهد.
(٤) الوضر: القذارة والوسخ والأثر والخطر: نبات يختضب به.
(٥) بكرت: جاءت باكراً.

وإذا أُديمُ الوجــه أَخْلقَـه البِلى لم يُنتفَعْ فيـهِ بحُسْـنِ خضـاب
ماذا ترى يُجـدِي عليـك سـوادُه وخِلافُ ما يُـرضيـكَ تحت ثيـابي
ما الشيْبُ عندي والخِضابُ لِواصِفٍ إلاّ كشمسٍ جُلِّلـتْ بسَحـاب
تَخفَـي قليلاً ثم يَقشعُهـا الصَّبـا فيصيرُ مـا سُتِـرتْ بـه لِـذَهـاب

ومن قولنا في هذا المعنى:

أصَمَّـمَ في الغَـوايـةِ أَمْ أنـابـا وشيْبُ الرأسِ قد أنضَى الشَّبابا (١)
إذا نَصَـلَ الخضـابُ بكـى عليـه ويضحكُ كلما وصل الخِضـابا (٢)
كـأنّ حمامـةً بيضـاءَ ظَلّـتْ تُقـاتِـلُ في مَفـارِقِـه غُـرابـا

فضيلة الشيب

قال النبي ﷺ: «مَنشاب شيْبةً في الإسلامِ كان له نوراً يومَ القيامة».
وقال ابن أبي شيبة: نهى رسولُ الله ﷺ عن نَتْفِ الشيْبِ وقال: «هونورُ المؤمِن».
وقالوا: أول من رأى الشيبَ إبراهيمُ خليلُ الرحمن، فقال: يا ربِّ، ما هذا؟ قال له: هذا الوَقارُ. قال: رَبِّ زِدْني وَقاراً.

وقال أبو نُوَاس:

يقولون في الشَّيْـب الوَقـارُ لأهلِـه وشَيْبِي بحمْـدِ الله غيرُ وَقـارِ

وقال غيره:

يقولون هـل بَعـد الثَّلاثين مَلْعـبُ فقلتُ وهـل قبـل الثلاثين ملعـبُ
لقد جَلَّ قدرُ الشَّيْب إن كـان كلّما بَدت شَيْبةٌ يَعْرَى من اللَّهْو مركبُ

أبو دلف والمأمون:

دخل أبو.دُلَف على المأمون، وعنده جارية [له]، وقد ترك الخضاب أبو دلف،

---

(١) أنضى الشباب: خلعه.
(٢) نصل الخضاب: تغيّر لونه وفسد.

فغمز المأمون الجارية، فقالت له: شِبْت أبا دلف، إنا لله وإنا إليه راجعون لا عليك! فسكت أبو دلف، فقال له المأمون: أجبها أبا دلف. فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه. فقال:

تَهـزَّأتْ أن رأت شيْبي فقلـت لها ... لا تهزئي مَن يَطُل عُمْرٌ بـه يَشِبِ
شَيْبُ الرِّجال لهم زيْـنٌ ومكـرُمـةٌ ... وشيْبُكُـنَّ لكُـنَّ الويْـلُ فـاكتئبي
فينـا لكُـنَّ وإن شيْـبٌ بـدا أَربٌ ... وليس فيكنَّ بعد الشَّيْب مـن أَرَبِ

وقال محمود الوراق:

وعـائـبٍ عـابني بشَيْـبٍ ... لم يَعْـدُ لمّا أَلَمَّ وقتَـهْ[1]
فقلـت للعَـائبي بشَيْبي ... يا عائبَ الشَّيْبِ لا بَلَغْتَـهْ

أنشدني أبو عبد الله الإسكندراني، معلم الإخوة:

ومما زاد في طـول اكتئـابي ... طلائـع شيبتين أَلمَّـا بِـي
فـأمّـا شيبـةٌ ففـزعـت منهـا ... إلى المقراض مـن حـبِّ التصابي
وأمـا شيبـةٌ فعفـوت عنهـا ... لتشهـد بـالبراء مـن الخضـاب!

وقال محمود بن مناذر:

لا سلامٌ على الشَّبـاب ولا حيَّـا ... الإلـهُ الشَّبـابَ مـن معهـودِ
قد لبست الجديـد مـن كـلِّ شيءٍ ... فـوَجـدْتُ الشَّبـاب شرَّ جـديـدِ
صاحبٌ ما يـزال يـدعـو إلى العيْـب ... ومـا مَـن دعـا لـه بـرشيـدِ
ولنعْـم المنيـبُ والوازِعُ الشَّيْـبُ ... ونعـم المفـادُ للمستفيـدِ[2]

كبرة السنّ

قيل لأعرابي قد أخذته كَبرة السن: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت تُقَيِّدني

(١) لم يعد: لم يتجاوز، وألمّ: حضر.
(٢) المنيب: الذي يجعل الإنسان يتوب ويعود إلى رشده.

الشعرة وأعْثُر بالبعرة؛ قد أقام الدهر صَعَري بعد أن أقمت صَعَرَه[1].

وقال آخر: لقد كنت أُنكِر البيضاء، فصرت أنكر السوداء، فيا خير مبدول ويا شرَّ بدَلٍ.

معاوية والمستوغر:

ودخل المستوغر بن ربيعة على معاوية بن أبي سفيان وهو ابن ثلثمائة سنة؛ فقال: كيف تجدك يا مستوغر؟ فقال: أجدني يا أمير المؤمنين قد لان مني ما كنت أحب أن يشتد، واشتد مني ما كنت أحب أن يلين، وابيض مني ما كنت أحب أن يسودّ، واسودّ مني ما كنت أحب أن يبيض، ثم أنشأ يقول:

سَلْني أُنَبِّئْك بآياتِ الكِبَرْ نَوْمُ العشاء وسُعالٌ بالسَّحرْ
وقلّةُ النَّوم إذا الليل اعتَكرْ وقلة الطُّعْم إذا الزّادُ حضرْ
وسرعةُ الطرْف وتَحْميجُ النظرْ وتَركُكَ الحسناءَ في قُبْل الطهُرْ[2]
والناسُ يَبْلوْن كما يَبْلى الشَّجرْ

وقال أعرابي:

أشكو إليك وجَعاً بركْبتي وهَدَجاناً لم يكن في مِشيتي[3]
كهدجانِ الرَّألِ خَلْف الهيْقَت[4]

وقال آخر:

وللكبير رثياتٌ أربعُ الرُّكبتانِ والنَّسا والأخدَعُ[5]

وقال جرير:

---

(١) الصعر: إمالة الخدّ تكبراً.

(٢) التحميج: تصغير العين لتمكينها من النظر وقبل الطهر: أوّله.

(٣) الهدجان: مشيٌ في تؤدة.

(٤) الرأل: ولد النعام، والهيقت: أنثى النعام.

(٥) الرثيات: جمع رثية، وهي ضعف وقيل: داء يعرض في المفاصل، والنسا: عرق من الورك إلى الكعب والأخدع: أحد عرقين في جانبي العنق قد خفيا.

تحنُّ العِظـامُ الرَّاجفـاتُ مـن البِلى وليس لـداء الركْبتيْـن طبيـب

وقال أعرابي في امرأة:

يـا بِكْـر حـوّاء مـن الأولاد وأقـدم العـالَـمِ في البلاد

عُمْـرُك ممدودٌ إلى التّنـادِ فحـدِّثينـا بحديـث عـادِ[1]

ومُبْتدا فِـرعـوْن ذي الأوتـادِ وكيـف جـاء السيْـلُ بـالأطـوادِ

وقال آخر:

إذا عـاش الفتَـى سبعِين عـامـاً فقـد ذَهَـب المَسَـرّة والفتـاءُ

كان في غطفان نصر بن دُهمان، قاد غطفان وسادها حتى خَرِف وعُمِّر تسعين ومائة سنة، حتى اسود شعره ونبتت أضراسه وعاد شاباً، فلا يعرف في العرب أعجوبة مثله.

وقال محمد بن مُناذر في رجل من المُعمَّرين:

إنّ مُعـاذَ بن مُسلِـمٍ رجُـلٌ قد ضَجّ من طـولِ عُمْـرِه الأبـدُ

قد شاب رأسُ الزمان واكتَهل الدهـــر وأثـوابُ عُمْـرِه جُـدُدُ

يـا نَسَـر لقمانَ كم تعيش وكم تَسْحـب ذيْـلَ الحيـاةِ يـا لبـدُ[2]

قـد أصبحَـت دار آدمٍ خَـرِبـت وأنـت فيهـا كـأنّـك الوتـدُ

تَسْـألُ غِـربـانَهـا إذا حَجَلَـتْ كيـف يكـون الصُّداع والرمَـدُ

عبد الملك والشعبي:

ودخل الشعبي على عبد الملك بن مروان، فوجده قد كبا مُهتماً، فقال: ما بال أمير المؤمنين؟ قال: يا شعبي؛ ذكرتُ قول زهير:

كأنّي وقد جـاوزْتُ سبعين حِجّـةً خَلعْـت بها عني عِـذار لجامـي

رمَتْني بنات الدهرِ من حيث لا أرى فكيـف بمَنْ يُـرمَـى وليس بـرامِ

(١) التنادي: القيامة. (٢) لبد: أخر نسور لقمان.

فلـو أنني أُرمَـى بنَبْــلٍ رأيتُهــا　　ولكنّني أُرمَــى بغيْــرِ سِهــامِ
على الراحتَين تــارةً وعلى العَصــا　　أَنُــوءُ ثلاثــاً بَعـدهــنّ قيــامــي

قال له الشعبي: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كما قال لبيد بن ربيعة، وقد بلغ سبعين سنة:

كأني وقد جـاوزتُ سبعين حِجّـةً　　خَلَعْـت بها عـن مَنكِبَـيَّ رِدائيــا

فلما بلغ سبعاً وسبعين سنة قال:

باتتْ تَشكّــي إليّ النفْسُ مُجْهِشـةً　　وقــد حملْتُـك سبعـاً بعـد سبعِينـا
فـإنْ تُـزادِي ثلاثــاً تَبْلُغــي أَمَلاً　　وفي الثلاثِ وفــــاءٌ للثمانينــــا

فلما بلغ مائة سنة قال:

ولقد سئمْتُ من الحيـاة وطـولِهـا　　وسؤالِ هـذا الخلـق كيْـف لبِيـدَ

فلما بلغ مائة سنة وعشراً قال:

أليس في مائة قـد عـاشَهـا رجُـلٌ　　وفي تكـامُـل عشرٍ بعـدهـا عُمُـرُ

فلما بلغ ثلاثين ومائة وقد حضرته الوفاة قال:

تَمنــى ابنتايَ أن يعيش أبــوهما　　وهل أنا إلاّ مـن ربيعـةَ أو مُضَـرْ
فقــومـا فقــولا بـالـذي تَعلَمانِــه　　ولا تَخْمِشا وجهاً ولا تَحْلِقا شعَـرْ
وقولا هو المرءُ الذي لا صـديقَـهُ　　أضاع ولا خـان الخليـلَ ولا غَـدَرْ
إلى الحوْلِ ثم اسمُ السلامِ عليكما　　ومن يَبْك حوْلاً كاملاً فقد اعتـذرْ

قال الشعبي: فلقد رأيت السرور في وجه عبد الملك طمعاً أن يعيشها.

وقال لبيد أيضاً:

أليس ورائـي إن تـراخـت مَنِيَّتي　　لُزوم العَصا تُحْنَى عليها الأصابـعُ
أُخَبِّرُ أخبار القـرونِ التي مضـت　　أدُبُّ كـأنّـي كلّما قمـتُ راكــعُ

فأصبحتُ مثل السيْف أخْلق جَفنَـه تَقادُمُ عهد القين والنَّصل قاطـعُ[١]

ويقال: مكتوب في الزبور: من بلغ السبعين اشتكى من غير علة.

وقال محمد بن حسان النبطي: لا تسأل نفسك العام ما أعطتْك في العام الماضي.

وقال معاوية لما أسنّ: ما مرّ شيء كنت أستلذه وأنا شاب فأجدُه اليوم كما أجده، إلا اللَّبن والحديث الحسَنَ.

عاش ضرار بن عمر حتى وُلدَ له ثلاثة عشر ذكراً، فقال: من سرّه بنوه ساءته نفسه.

وقال ابن أبي فَنَنٍ:

مَن عاشَ أخْلقـتِ الأيـامُ جِـدَّتَـهُ وخـانَـه ثِقَتـاه السمـعُ والبصر
قالت عَهِدْتُـكَ مجنـونـاً فقلـتُ لها إنّ الشبـابَ جنـون بُـرْؤه الكِبَـر

قال أبو عبيدة: قيل لشيخ: ما بقي منك؟ قال: يَسبقني مَن أمامي، ويَدركني مَن خلفي، وأَذْكُرُ القديم، وأنْسى الحديث، وأنعس في الملا، وأسهَر في الخلا، وإذا قمتُ قرُبَتِ الأرض مني، وإذا قعدتُ تباعدتْ عني.

وقال حُميد بن ثور الهلالي:

أرى بصري قد رابني بعد صِحَّـةٍ وحسبُـك داءً أنْ تَصـحَّ وتَسْلَما

وقال آخر:

كـانـت قَنـاتِـي لا تَلينُ لغـامـزٍ فـألانَهـا الإصبـاحُ والإمسـاءُ[٢]
ودعوتُ ربي بـالسلامـةِ جـاهِـداً لِيُصِحّني فـإذا السلامـة داءُ

وقال أبو العتاهية، ويروى للقطامي:

أَسْرع في نقْصِ آمرِيٍّ تمامُه

وقالت الحكماء: ما زاد شيءٌ إلا نقَصَ، ولا قام إلا شَخَص.

---

(١) القين: الحدّاد.

(٢) القناة: يعني بها نفسه وقوته.

وقال بعض المحدثين:

ألست ترى أن الزمان طواني ... وبدّل عقلي كلّه وبراني[1]
تَحَيَّفَني عضواً فعضواً فلم يدعْ ... سوى اسمي صحيحاً وحدهُ ولساني[2]
ولو كانت الأسماء يدخُلُها البلَى ... إذاً بَلِيَ اسمي لامتدادِ زماني
وما لِيَ لا أبْلَى لسبعين حِجَّةً ... وسبعٍ أتتْ من دونِها سَنَتان
إذا عنَّ لي شيءٌ تخيَّلَ دونَه ... شبيهُ ضَبابٍ أوْ شبيهُ دُخان

وقال الغزّال:

أصبحت واللهِ محموداً على أمَدٍ ... من الحياةِ قصيرٍ غيرِ ممتدِّ
حتى بقِيتُ بحمدِ الله في خلَفٍ ... كأنّني بينهم من وحشةٍ وحدي
وما أُفارِقُ يوماً مَن أفارِقُه ... إلاّ حَسِبْتُ فِراقي آخِرَ العهد

وقال آخر:

يا مَن لشيخٍ قد تخدَّدَ لَحْمُه ... أفنى ثلاثَ عمائِمٍ ألْوانا[3]
سوداءَ حالِكةً وسَحْقَ مُفَوَّفٍ ... وأجَدَّ لوناً بعد ذاك هِجانا[4]
قصَرَ الليالي خطوَهُ فتدانى ... وحَنَيْنَ قائمَ صُلْبِه فتَحانى
صَحِبَ الزمانَ على اختلافِ فنونِه ... فأراه منه شِدَّةً ولَيانا
والموتُ يأتِي بعدَ ذلك كلِّه ... وكأنّما يعنِي بذاك سِوانا

وقال سفيان الثوري في مدح كبره:

إنّي وإن كان مسَّني كِبرٌ ... على ما قد ترين من كِبَري
أعرف من قبل أن تفارقني ... موقعَ سهمي والسهم في الوتر

من صحب من ليس من نظرائه لخصال فيه

كان حارثة بن بدر الغُداني فارسَ بني تميم، وكان شاعراً أديباً ظريفاً، وكان

---

(١) براه: أنحله. (٢) تحيّف: أنقص.
(٣) تخدّد: هزل ونقص. (٤) السحق: الثوب البالي، والمفوّف: الموشّى.

يُعاقر الشراب ويَصْحَب زياداً، فقيل لزياد: إنك تَصْحَب هذا الرجل وليس من شاكلتك. إنه يُعاقر الشراب. فقال: كيف لا أصحبه ولم أسأله عن شيء قط إلا وجدتُ عنده منه علماً، ولا مَشَى أمامي فاضطرني أن أُنادِيَهُ، ولا مشى خلفي فاضطرني أن التفتَ إليه، ولا راكبني فمسَّت ركبتي ركبتُه. فلما هلك زياد قال فيه حارثة بن بدر:

أبـا المُغيرةِ والدّنيـا مغـرِّرةٌ　　وإنّ مـن غـرَّتِ الدنيـا لمغـرورُ
قد كان عندك للمعروفِ معـرفـةٌ　　وكـان عنـدك للتنكير تنكيرُ
لو خلَّـدَ الخيرُ والإسلامُ ذا قـدمٍ　　إذاً لخلَّـدَك الإسلامُ والخِيرُ[1]

وتمام هذه الأبيات قد وقعت في الكتاب الذي أفردناه للمراثي.

وكان زياد لا يداعَب أحدٌ في مجلسه ولا يُضحَك، فاختصم إليه بنو راسب وبنو الطفاوة في غلام أثبته هؤلاء وهؤلاء، فتحيّر زياد في الحكم، فقال له حارثة، بن بدر: عندي أكرم الله الأمير في هذا الغلام أمر، إن أذن لي الأمير تكلمت به فيه. قال: وما عندك فيه؟ قال: أرى أن يُلقى في دجلة، فإن رسب فهو لبني راسب، وإن طفا فهو لبني الطفاوة! فتبسم زياد وأخذ نعليه ودخل، ثم خرج فقال لحارثة: ما حملك على الدعابة في مجلسي؟ قال: طيبةٌ حضرتني، أصلح الله الأمير خِفت أن تفوتني، قال: لا تَعُد إلى مثلها.

ابن زياد وحارثة وأبو الأسود:

ولما ولي عبيد الله بن زياد بعد موت أبيه، اّطّرح حارثةَ بن بدر وجفاه، فقال له حارثة: مالك لا تنزلني التي كان ينزلني أبوك؟ أتدَّعي أنك أفضل منه أو أعقل؟ قال له: إنّ أبي كان برَع في الفضل بروعاً لا تضره صحبةُ مثلك. وأنا حَدَث أخشى أن تُحْرِقَني بنارك؛ فإن شئت فاترك الشراب وتكون أولَ داخلٍ وآخرَ خارجٍ. قال: والله ما تركته لله فكيف أتركه لك؟ قال: فتخير بلداً أُوَلِّيكَهُ. فاختار سُرَّقَ

(١) الخير: الكرم والشرف.

من أرض العراق، فولاه إياها. فكتب إليه أبو الأسود الدؤلي وكان صديقاً له:

أَحارِ بن بـدرٍ قـد ولِيـت ولايَـةً فكـن جُـرَذاً فيهـا تخونُ وتسرقُ
وبـاهِ تميماً بـالغِنـى، إنَّ للغِنَـى لساناً بـه المرءُ الهيـوبـةُ ينطِـقُ[1]
وما الناسُ إلاّ اثنان إمّـا مُكـذِّبٌ يقـولُ بما يَهـوَى وإمّـا مُصـدّقُ
يقـولـون أقـوالاً ولا يُحْكِمـونها فإن قيل يوماً حقِّقُـوا لم يُحقِّقُـوا
فدعْ عنك ما قالـوا ولا تكترث بهم فحظُّك من مالِ العراقيْـنِ سُـرَّقُ

فوقَّع في أسفل كتابه: لا بعُدَ عليك الرشد.

ابن الوليد البجلي وابن بيض:

وكان ابن الوليد البجلي، وهو ابن أخت خالد بن عبد الله القسري، ولي أصبهان، وكان رجلاً متسمِّتاً[2] متصلّحاً، فقدم عليه حمزة بن بيض وبن عوف في صحبته، فقيل له: إن حمزة لا يصحب مثلك؛ لأنه صاحب كلاب ولهو. فبعث إليه ثلاثة آلاف درهم وأمره بالانصراف. فقال فيه:

يــا بن الوليــد المُرتجَى سيْبُــه ومــن يُجلِّــي الحدثَ الحالِكــا
سبيــلُ معــروفِـكَ منِّــي على بــالٍ فما بــالي على بــالِكــا
حَشْوُ قميصي شـاعِـرٌ مُفْلـقٌ والجودُ أمسى حشـوَ سِـرْبـالِكـا
يلـومـك النّـاسُ على صُحْبتِــي والمِسْكُ قد يستصْحِبُ الرَّامِكـا[3]
إن كنـتَ لا تصحَــبُ إلاّ فتًــى مثلَـكَ لـن تُـؤتـى بـأمثـالِكـا
هبْنِـي امرءًا اجئتُ أُريـدُ الهُدى فجُـدْ على جهلي بـإسلامِكـا

قال له: صدقت! وقرّبه وحسُنت عنده منزلتُه.

وكان عبد الرحمن بن الحكم الأمير قد عتب على ندمائه، فأمر نصراً الفتى

---

(١) الهيوبة: الكثير الخوف.
(٢) متسمّتاً: متعبّداً. (٣) الرامك: شيءٌ أسود يخلط به.

بإسقاطهم من ديوان عطائه ولم يستبدل بهم؛ فلما كان بعد أيام استوحش لهم، فقال لنصر: قد استوحشنا لأصحابنا أولئك! فقال له نصر: قد نالهم من سخط الأمير ما فيه أدبٌ لهم؛ فإن رأى أن يرسلَ فيهم أرسلتُ. قال: أَرْسِلْ. فأقبل القوم وعليهم كآبة السخط، فأخذوا مجالسهم ولم ينشرحوا ولا خاضوا فيما كانوا يخوضون فيه، فقال الأمير لنصر: ما يمنع هؤلاء من الانشراح؟ قال: عليهم أبقى الله الأمير وجْمة[1] السخط الذي نالهم، قال: قل لهم: قد عفونا فلينشرحوا. قال: فقام عبد الرحمن بن الشمر الشاعر المتنجم، فجثا بين يديه، ثم أنشده شعراً له أقذع فيه على بعض أصحابه إلا أنه ختمه ببيتين بديعين، وهما:

فيـا رحمةَ اللهِ في خَلقِـهِ … ومَـن جـودُهُ أبـداً يَسكـبُ
لئِن عِفتَ صُحْبَـةَ أَهـلِ الذُّنـوبِ … لقـلَّ مَـن النـاسِ مَـنْ تصحـبُ

وأحسن ما قيل في هذا المعنى قول النابغة:

ولسـتُ بِمُستَبْـق أخـاً لا تلُمُّـهُ … على شعَثٍ أيُّ الرِّجال المُهـذَّبُ؟[2]

قولهم في القرآن

كتب المريسيّ إلى أبي يحيى منصور بن محمد: آكتب: القرآن خالق أو مخلوق؟ فكتب إليه: عافانا الله وإياك من كل فتنة، وجعلنا وإياك من أهل السنة، وممن لا يرغب بنفسه عن الجماعة، فإنه إن تفعل فأعظِمْ بها مِنَّة، وإن لا تفعل فهي الهلكة، ونحن نقول: إن الكلام في القرآن بدعة، يتكلف المُجيب ما ليس عليه، ويتعاطى السائل ما ليس له، وما نعلم خالقاً إلا الله، وما سوى الله فمخلوق؛ والقرآن كلام الله، فانته بنفسك إلى أسمائه التي سماه الله بها فتكون من المهتدين، ولا تُسَمِّ القرآن باسمٍ من عندِك فتكون من الضالِّين. جعلَنا الله وإياك من الذين يَخْشَوْن ربهم بالغيب وهم من الساعة مُشْفِقونَ.

---

(١) الوجمة: الكآبة. (٢) لا تلمُّه: تضمُّه وتجمعه.

تم الجزء الثاني

من العقد الفريد

ويليه الجزء الثالث

فهرس

الصفحة الموضوع الصفحة الموضوع

الصفحة الموضوع | الصفحة الموضوع

الصفحة	الموضوع
	الشعبي وقوم من الموالي .
٣٠٨	لعبد الملك بن مروان ، المأمون والمنقري .
	الحسن ورجل يلحن .
٣٠٩	من لحن الوليد بن عبد الملك .
	لابن أسماء ، بعض الشعراء ومستدرك عليه .
٣١٠	**باب في اللحن والتصحيف .**
	أبو حنيفة ، لبشر المريسي .
٣١١	ابن شيبة وإسحق بن عيسى .
٣١١	**نوادر الكلام .**
	الضبي والأصمعي ، لابن أبي حفصة في رواة للشعر .
٣١٢	**باب نوادر من النحو .**
	للخليل ، أبو زيد والخليل ، لأبي الأسود .
٣١٣	لأبي زيد ، لأبي حاتم ، للمازني ، للرياسي ، لأبي عبيدة .
	أبو عمرو وعيسى بن عمر .
٣١٤	للأصمعي ، للفرزدق .
٣١٥	لبعض الوراقين ، لأبي زيد الأنصاري ، للحسن بن هانيء .
	لابن مالك العقيلي ، للوراق ، للفرزدق للمبرد .
٣١٦	**باب في الغريب والتقعيب .**
٣١٧	أبو علقمة واعين الطبيب ، أبو الأسود وأبو علقمة .
	أبو علقمة وحجام .
٣١٨	أبو المكنون وأعرابي ، أبو بكر المنكور وحنش .
٣١٩	لحبيب الطائي لابن عبد ربه ، لحفص بن النعمان .
٣٢٠	للخريمي . لحبيب ، لبعضهم .
٣٢١	**باب في ترك المشاراة والمماراة .**
	رسول الله ﷺ والسائب ، لابن المقفع ، لابن أبي ليلى ، لابن عباس .
٣٢٢	**باب في سوء الأدب .**
	النبي ﷺ ووفد تميم ، أبو بكر وبائع ثوب ، المهدي وبعض الرواة .
٣٢٣	المأمون وقطرب المأمون واللؤلؤي وهشام وأبو النجم .
٣٢٤	يزيد ابن عبد الملك وكثير .
٣٢٥	بين عمر بن عبد العزيز وأبي الزناد كاتبه ، عديّ وشريح القاضي .
٣٢٦	لحبيب في بني تغلب ، للشعبي مع جليس ، ابن الخصيب ومتظلم ، شريف مع وكيل تاجر .
٣٢٧	**باب في تحنك الفتى .**
	لعمر بن الخطاب . لسفيان الثوري ، لعمرو بن العاص ، للمغيرة في عمر ابن الخطاب ، عامر بن عبد الله وسرقة عطائه .
٣٢٨	لعمر بن عبد العزيز في فاطمة مما يستحسن ويكره ، لابن عبد ربه .

الصفحة الموضوع

العقد الفريد

تأليف

الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي

المتوفى سنة ٣٢٨هـ

بتحقيق

دكتور

عبد المجيد الترحيني

الجزء الثالث

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ ـ١٩٨٣م

يطلب من: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
صندوق بريد ٩٤٢٤ - ١١ . هاتف ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤
الرملة البيضاء - بناية ملكارت سنتر

كتاب الجوهرة
في الأمثال

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه:

قد مضى قولُنا في العلم والأدب وما يتولَّدُ منها ويُنسبُ إليهما من الحِكمِ النادرة، والفِطنِ البارعة.

ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الأمثال، التي هي وشيُ الكلام وجوْهَرُ اللفظِ، وحَلْي المعاني، والتي تخيَّرَتها العرب، وقدَّمتها العجم، ونطَقَ بها كُلُّ زمان وعلى كل لسان. فهي أبقى من الشِّعر، وأشرفُ من الخطابة، لم يِسْرِ شيء مسيرها، ولا عمَّ عُمُومَها، حتى قيل: أسْيَرُ من مَثَل.

وقال الشاعر:

ما أنت إلا مَثلٌ سائِرُ يعرِفُه الجاهِلُ والخابرُ[1]

وقد ضرب الله عز وجل الأمثال في كتابه، وضربها رسول الله ﷺ في كلامه. قال الله عز وجل: ﴿يا أَيُّها الناسُ ضُرِب مثلٌ فاستمِعُوا لهُ﴾[2] وقال: ﴿وضَرَبَ اللهُ مثلاً رجُلين﴾[3]. ومثل هذا كثير في آي القرآن.

فأول ما نبدأ به: أمثالُ رسول الله ﷺ، ثم أمثال العلماء، ثم أمثال أكثم بن صيفي

---

(١) الخابر: رجل خابر أي عالم بالخبر.

(٢) سورة المؤمنون الآية ٥١.

(٣) سُورة النحل الآية ٧٦.

وبُزُرْجمهر الفارسي؛ وهي التي كان يستعملها جعفر بن يحيى في كلامه؛ ثم أمثالُ العرب التي رواها أبو عُبيد، وما أشبهها من أمثال العامة: ثم الأمثال التي استعملها الشعراء في أشعارهم في الجاهلية والإسلام.

أمثال رسول الله ﷺ

قال النبي ﷺ: ضربَ اللهُ مثلاً صِراطاً مُستقيماً، وعلى جَنبي الصراط أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مَرخيّة، وعلى رأس الصراط داع يقول: ادخلوا الصراط ولا تعوجّوا. فالصراط الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، والداعي القرآن.

وقال ﷺ: مثل المؤمِن كالخامة[1] من الزرع: يقلبها الريح مرة كذا ومرة كذا. ومثل الكافر مثل الأرْزَة[2] المُجْذِية على الأرض، يكون انجعافها بمرّة.

وسأله حذيفة: أبعد هذا الشر خير يا رسول الله؟ فقال: جماعة على أقذاء، وهُدنة على دَخَن.

وقوله حين ذكر الدنيا وزينتها، فقال: إن ممّا يُنبت الربيعُ ما يَقتل حَبَطاً أو يُلّم[3].

وقال لأبي سفيان: أنت أبا سفيان كما قالوا: كلُّ الصيد في جوف الفرا[4].
وقال حين ذكر الغلو في العبادة: إن المُنْبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.
وقال ﷺ: إياكم وخضراءَ الدِّمَن. قالوا: وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء.

---

(١) الخامة: القصبة الرطبة من الزرع.
(٢) الأرزة: كشجر الصنوبر.
(٣) أو يلم: أو يقرب من ذلك.
(٤) الفرا: الحمار الوحشي.

وذكر الرّبا في آخر الزمان، وافتتان الناس به، فقال: من لم يأكلهُ أصابه غُبارُه.

وقال: الإيمانُ قيدَ الفَتْكَ.

وقال ﷺ: الولد للفراشِ وللعاهر الحجر.

وقال في فرس: وجَدْتُه بَحْراً.

وقال: إن مِن البيان لَسِحْراً.

وقال: لا ترفع عصاك عن أهلك.

وقال ﷺ: لا يُلدغ المؤمن من جُحر[1] مرتين.

وقال: الحرب خدعة.

وله ﷺ: أمثال كثيرة غير هذه، ولكنّا لم نذهب في كل باب إلى آستقصائه، وإنما ذهبنا إلى أن نَكتفي بالبعض، ونستدل بالقليل على الكثير، ليكون أسهلَ مأخذاً للحِفظ، وأبرأ[2] من الملالة والهرب. وتفسيرها:

أما المثل الأوّل، فقد فسَّره النبي ﷺ.

وأما قوله: «المؤمن كالخامة والكافر كالأرزة، فإنه شبَّه المؤمن في تصرف الأيام به وما يناله من بلائها، بالخامة من الزرع يقلبها الرِّيح مرة كذا ومرة كذا - والخامة في قول أبي عُبيد: القَصبة الرطبة في الزرع؛ والأرزة: واحدة الأَرز، وهو شجر له ثمر يقال له الصنوبر. والمجذية: الثابتة، وفيها لغتان: جذا يجذو، وأجذى يُجذى. والانجعاف: الانقلاع، يقال جَعفت الرجل، إذا قلعْته وصرعْته وضربت به الأرض.

وقوله لحذيفة: هُدنة على دَخن وجماعة على أقذاء[3]. أراد ما تنطوي عليه القلوب من الضغائن والأحقاد، فشبَّه ذلك بإغضاء الجفون على الأقذاء. والدخَن: مأخوذ من الدخان، جُعلا مثله لما في الصدور من الغل.

وقوله: إنّ مما ينبت الربيع ما يقتل حَبَطاً أو يُلم. فالحبط - كما ذكر أبو عبيَدة عن

---

(١) جحر: مكان تحفره السباع والهوام لأنفسها.

(٢) أبرأ: أشفى.

(٣) أقذاء: جمع قذى، وهو التراب المدمق.

الأصمعي: أن تأكل الدابة حتى ينتفخ بطنها وتمرض منه، يقال: حبطت الدابة تحبط حبطاً. وقوله: أو يلم. معناه: أو يقرب من ذلك. ومنه قوله: إذ ذكر أهل الجنة فقال: إن أحدهم إذا نظر إلى ما أعدَّ الله له في الجنة فلو لا أنه شيء قضاه الله له لألَمَّ أن يذهب بصرهُ، يعني لما يرى فيها. يقول: لَقرُب أن يذهب بصره.

وقوله لأبي سفيان: كل الصيد في جوف الفرا. فمعناه أنك في الرجال كالفرا في الصيد، وهو الحمار الوحشي، وقال له ذلك يتألّفه على الإسلام.

وقوله حين ذكر الغلو في العبادة: إن المنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى. يقول: إن المُغذّ[1] في السير إذا أفرط الإغذاذ عَطِبت راحلته من قبل أن يبلُغ حاجته أو يقضيَ سفره، فشبَّه بذلك مَن أفرط في العبادة حتى يبقى حسيراً.

وقوله في الربا: من لم يأكله أصابه غباره. إنما هو مثل لما ينال الناسَ من حرمته، وليس هناك غبار.

وقوله: الإيمان قيَّدَ الفَتْك. أي منع منه كأنه قَيد له. وفي حديث آخر: لا يَفتك مؤمن.

وقوله في فرس: وجدته بحراً. وإن من البيان لسحراً؛ إنما هو تمثيل لا على التحقيق.

وكذلك قوله: الولد للفراش وللعاهر الحجر. معناه أنه لا حق له في نسب الولد.

وقوله ﷺ: لا ترفع عصاك عن أهلك. إنما هو الأدب بالقول، ولم يرد ألا ترفع عنها العصا.

وقوله: لا يُلدغ المؤمن من جُحر مرتين. معناه أن لدْغ مرة يحفظ من أخرى.

وقوله: الحرب خدعة. يريد أنها بالمكر والخديعة.

---

(١) المغذ في السير: المسرع.

أمثال روتها العلماء

ابن بشير على منبر الكوفة :

خطب النعمان بن بُشير على منبر بالكوفة فقال: يأهل الكوفة، إني وجدتُ مَثلي ومَثلكم كالضَّبُع والثعلب أتَيا الضبَّ في جُحره، فقالا: أبا حِسْل[1]. قال: أجبتكما قالا: جئناك نختصم. قال: في بيته يُؤتَى الحَكم. قالت الضبع: فتحتُ عيْبتي، قال: فعل النساءِ فعلتِ. قالت: فلقطتُ تمرة. قال: حُلواً جنيتِ. قالت: فاختطفها ثُعالة. قال: نفسه بَغَى - ثعالة اسم الثعلب، الذكر والأنثى - قالت: فلطمته لطمة. قال: حقاً قضيت. قالت: فلطمني أُخرى. قال: كان حُرّاً فانتصر. قالت: فاحكم الآن بيننا. قال: حدِّث امرأة حديثين فإن لم تَفهم فأربعة.

ابن الزبير وأهل العراق :

وقال عبد الله بن الزبير لأهل العراق: ودِدْت والله لو أن لي بكم من أهل الشام صَرْف الدينار بالدرهم. قال له رجل منهم: أتدري يا أمير المؤمنين ما مثَلُنا ومثلكم ومثل أهل الشام؟ قال: وما ذلك؟ قال: ما قاله أعشى بكر حيث يقول:

عُلِّقتُها[2] عَرَضاً وعُلقتْ رجُلا غيري وعُلِّق أُخرى غيرها الرجُلُ.

أحببناك نحن، وأحببت أنت أهل الشام، وأحب أهل الشام عبد الملك بن مروان.

مثل في الرياء[3]

فخ الإسرائيلي والعصفورة :

يحيى بن عبد العزيز: قال: حدّثني نُعَيم عن إسماعيل عن رجل من ولد أبي بكر الصدّيق رضوان الله عليه، عن وهب بن مُنبه قال: نَصب رجل من بني إسرائيل

---

(١) أبا حسل: ولد الضب.

(٢) علقتها: أحببتها.

(٣) الرياء: إظهار عكس ما يبطن.

فَخاً، فجاءت عصفورة فنزلت عليه، فقالت: مالي أراكَ مُنْحنياً؟ قال: لكثرة صلاتي انحنيتُ. قالت: فمالي أراك بادية[1] عظامُك؟ قال: لكثرة صيامي بدَت عظامي. قالت: فمالي أرى هذا الصُّوف عليك؟ قال: لزهادتي في الدنيا لبِست الصوف. قالت: فما هذه العصا عندك؟ قال: أتوكّأ عليها وأقضي بها حوائِجي. قالت: فما هذه الحبّة في يدك؟ قال: قُرْبان إنْ مرَّ بي مسكينٌ ناولته إياه. قالت: فإني مسكينة! قال: فخذيها. فدنت فقبضت على الحبة، فإذا الفخ في عنقها. فجعلت تقول: قَعِي قَعِي. تفسيره: لا غرَّني ناسك مُراءٍ بعدك أبداً.

اسرائيلي وقبرة :

داود بن أبي هند عن الشَّعبي: أن رجلاً من بني إسرائيل صاد قُبَّرَة، فقالت: ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أذبحكِ فآكلك! قالت: والله ما أَشْفي من قَرَمٍ[2] ولا أُغْني من جُوع، ولكني أعَلمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلي: أما الواحدة فأعلمكها وأنا في يَدِكَ، والثانية إذا صرتُ على هذه الشجرة، والثالثة إذا صرت على الجبل. فقال: هاتِ الأولى، قالت: لا تتلهفن على ما فاتك. فخلّى عنها؛ فلما صارت فوق الشجرة قال: هات الثانية. قالت: لا تُصَدِّقَن بما لا يكونُ أنه يكونُ. ثم طارت فصارت على الجبل، فقالت: يا شقيُّ! لو ذبحتني لأخرجتَ من حَوْصَلَتي دُرّة فيها زنة عشرين مثقالاً. قال: فعضّ على شفتيه وتلهّف ثم قال: هات الثالثة. قالت له: أنت قد نسيت الاثنتين، فكيف أعلّمك الثالثة؟ ألم أقل لك لا تتلهفنّ على ما فاتك؟ فقد تلهفت عليّ إذ فُتُّك، وقلت لك. لا تصدقن بما لا يكون، أنه يكون! فصدقت! أنا وعظمي وريشي لا أزن عشرين مثقالاً، فكيف يكون في حوصلتي ما يزنها؟

من أمثال الهند :

وفي كتاب للهند: مثَل الدنيا وآفاتِها ومخاوفها والموت والمعاد الذي إليه مصير الإنسان:

---

(١) بادية: واضحة.

(٢) قرم: شدة شهوة اللحم.

قال الحكيم: وجدت مثَل الدنيا والمغرور بالدنيا المملوءة آفات، مثَل رجل ألجأه خوف إلى بئر تدلّى فيها وتعلق بغصنين نابتين على شفير البئر، ووقعت رجلاه على شيء فمدّهما. فنظر فإذا بحيَّات أربع قد أطْلَعْنَ رءوسهنّ من جُحُورهنّ، ونَظر إلى أسفل البئر فإذا بثعبان فاغر فاه نحوه، فرفع بصره إلى الغصن الذي يتعلق به فإذا في أصله جُرذان أبيض وأسود يقرضان الغصن دائبين لا يَفتران؛ فبينما هو مغتم بنفسه وابتغاء الحيلة في نجاته، إذ نظر فإذا بجانب منه جُحر نحل قد صنعن شيئاً من عسل، فتطاعم منه فوجد حلاوته، فشغلته عن الفِكر في أمره وآلتماس النجاة لنفسه، ولم يذكر أن رجليه فوق أربع حيات لا يدري مَن تُساوره منهنّ، وأن الجرذين دائبان في قرض الغصن الذي يتعلق بهِ، وأنهما إذا قطعاه وقع في لَهوة[1] التنين. ولم يزل لاهياً غافلاً حتى هلك.

قال الحكيم: فشبهت الدنيا المملوءة آفات وشروراً ومخاوف بالبئر؛ وشبهت الأخلاط التي بني جسد الإنسان عليها، من المِرّتين والبلغم والدم بالحيات الأربع وشبهت الحياة بالغصنين اللذين تعلق بهما وشبهت الليل والنهار ودورانهما في إفناء الأيام والأجيال بالجرذين الأبيض والأسود اللذين يقرضان الغصن دائبين لا يفتران؛ وشبهت الموت الذي لا بد منه بالتنين الفاغِر[2] فاه؛ وشبهت الذي يرى الإنسان ويسمع ويطعم ويلبس فيلهيه ذلك عن عاقبة أمره وما إليه مصيره بالعسيلة التي تطاعمها.

من ضرب به المثل من الناس

قالت العرب: أسخى مِن حاتِمٍ، وأشجعُ مِن ربيعةَ بن مُكدَّم، وأدهى من قيْس ابن زُهيْر. وأعزُّ من كُلَيبِ بن وائلٍ. وأوْفى من السَّموأل. وأذكى من إياس بن معاوية. وأسوَدُ مِن قيْس بن عاصمٍ. وأَمنعُ من الحارث بن ظالمٍ. وأبلغُ من سُحبان ابن وائلٍ. وأحلمُ من الأحف بن قيْس وأصدقُ من أبي ذرّالغِفاريّ. وأكذَبُ من

(١) لهوة: جع لهى، وهي ما يلقيه الطاحن من الحب في فم الرحى بيده
(٢) الفاغر: الفاتح.

مُسَيْلِمة الحنفي. وأعْيا من باقِل[١]. وأمضى من سُلَيْك[٢] المقانب. وأنعمُ من خُرَيمٍ الناعم. وأحمَقُ من هَبَنَّقَة. وأفتكُ من البَرَّاض[٣].

من يضرب به المثل من النساء

يقال: أشأمُ من البَسوس. وأحمق من دُغة. وأمنع من أُمِّ قِرفة وأقود من ظُلْمة، وأبصر من زَرقاءِ اليمامة.

البسوس: جارة جسّاس بن مُرة بن ذُهل بن شَيبان، ولها كانت الناقة التي قتل من أجلها كليب بن وائل، وبها ثارت الحرب بين بكر بن وائل وتغلب، التي يقال لها حربِ البسوس.

وأم قِرْفة: آمرأة مالك بن حُذيفة بن بَدر الفزاري، وكان يُعلَّق في بيتها خمسون سيفاً كل سيف منها لذي مَحْرم لها.

ودُغَة: آمرأة من عجل بن لُجيم: تزوجت في بني العنبر بن عمرو بن تميم.

وزَرقاء بني نُمير: آمرأة كانت باليمامة تَبصر الشَّعرة البيضاء في اللبن، وتنظر الراكب على مَسيرة ثلاثة أيام، وكانت تُنذر قومَها الجيوش إذا غزتهمْ، فلا يأتيهم جيش إلا وقد آستعدوا له، حتى آحتال لها بعض من غزاهم، فأمر أصحابه فقطعوا شجراً أمسكوه أمامهم بأيديهم، ونظرت الزرقاء فقالت: إني أرى الشجر قد أقبل إليكم. قالوا لها: قد خَرِفت ورق عقلك وذهب بصرك. فكذبوها، وصبّحتهم الخيل وأغارت عليهم وقُتلت الزرقاء. قال: فقوّروا عينيها فوجدوا عروق عينيها قد غرقت في الإثمد من كثرة ما كانت تكتحل به.

وظُلمة: آمرأة من هُذيل زَنت أربعين عاماً، فلما عجزت عن الزنا والقَوْد آتخذت

---

(١) باقل: رجل من ربيعة.

(٢) هو سليك بن سلكة.

(٣) هو البراض بن قيس الكناني.

تَيساً وعنزاً، فكانت تُنزي[1] التيس على العنز، فقيل لها، لم تفعلين ذلك؟ قالت: حتى أسمع أنفاس الجماع.

ما تمثلوا به من البهائم

قالوا: أشجع من أسد. وأجبن من الصَّافِر. وأمضى من ليْثِ عِفِرِّين[2]. وأحذر من غرابٍ. وأبصر من عُقابٍ. وأزهى من ذُباب. وأذلُّ من قُرادٍ بِمنسِمٍ[3]. وأسمع من فرَسٍ. وأنْوَمُ من فهدٍ. وأعْمَرُ من ضبٍّ. وأجبن من صِفْرِدٍ[4]. وأحقد من جمل. وأضرعُ من سِنَّوْرٍ. وأسرق من زَبابةٍ. وأصبر من عَوْدٍ وأظلم من حَيَّةٍ. وأحَنُّ من ناب[5]. وأكْذب من فاختَة. وأعزّ من بيْض الأنُوق. وأجوَع من كلبة حَوْمَل[6]. وأعزُّ من الأبْلَق[7] العَقوق[8].

الصفار: ذو الصفير من الطير. العود: المُسن من الجمال. الأنوق: طير يقال إنه يبيض في الهواء، والزَّبابة: الفأرة تسرق دود الحرير، وفاختة: طير يطير بالرطب في غير أيامه.

ما يضرب به المثل من غير الحيوان

قالوا: أهدَى من النَّجمِ. وأجودُ من الدِّيمِ. وأصبحُ من الصُّبحِ. وأسمحُ من البحرِ. وأنورُ من النهارِ. وأسوَدُ من الَّليل. وأمضى من السَّيْلِ. وأحْمقُ من رجلة[9]. وأحسَنُ من دُمْية. وأنزَهُ من روْضَة. وأوسعُ من الدَّهناء[10]. وآنسُ من جدوَلٍ.

---

(١) النزو: الشهوة.
(٢) عفرين: موضع.
(٣) منسم: خف البعير.
(٤) صفرد: طائر يألف البيوت.
(٥) الناب: الناقة المسنة.
(٦) امرأة من العرب.
(٧) من صفات الذكور.
(٨) الحامل من النوق.
(٩) رجلة: بقلة تسميها العامة الحمقاء
(١٠) الدهناء: من ديار بني تميم، وهي سبعة أجبل من الرمال.

وأضيَقُ من قرارِ حافرٍ. وأوحَشُ من مفازةٍ. وأثقلُ من جبلٍ . وأبقى من الوحْي[١] في صُمِّ الصّلابِ. وأخفُّ من ريشِ الحَواصِلِ .

ومما ضربوا به المثل

قولهم: قوسُ حاجِب. وقُرْطُ مارية. وحجّامُ[٢] ساباط. وشقائِقُ النُعمان. وندامَة الكُسَعِيِّ. وحديثُ خُرافةَ. وكنْزُ النَّطِفِ. وخُفَّا حُنَيْنٍ . وعِطْرُ مَنْشِم.

أما قوس حاجب. فقد فسرنا خبره في كتاب الوفود.

وأما قُرط مارية فإنها مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية الكندي وأختها هند الهنود امرأة حُجر آكل المرار. وابنها الحارث الأعرج الذي ذكره النابغة بقوله:

والحارِثُ الأعرَجُ خيرِ الأنام

وإيّاها يعني حسان بن ثابت بقوله:

أولاد جَفْنَةَ حولَ قبْرِ أبيهِمُ قبْرِ ابنِ مارِيَةَ الكريمِ المُفْضِلِ

وأما حجّام ساباط، فإنه كان يحجُم الجيوش بنسيئة إلى انصرافهم، من شدة كساده؛ وكان فارسيّاً. وساباط. هو ساباط كسرى.

ونُسب شقائق النعمان إليه، لأن النعمان بن المُنذر أمر بأن تُحمى وتضرب قبته فيها آستحساناً لها، فنُسبت إليه، والعرب تسميها الشَّقِر.

وأما خُرافة؛ فإنّ أنس بن مالك يروي عن النبي ﷺ أنه قال لعائشة رضي الله عنها: إنّ من أصدق الأحاديث حديث خُرافة، وكان رجلاً من بني عُذرة سَبَته الجِن، وكان معهم، فإذا استرقوا السمع أخبروه، فيُخبر به أهلَ الأرض فيجدونه كما قال.

---

(١) الوحي: الكتابة. (٢) حجام: محترف الحجامة.

وأما كنز النَّطف، فهو رجل من بني يربوع كان فقيراً يحمل الماء على ظهره فينطفُ، أي يقطُر؛ وكان أغار على مالٍ بعث به باذانُ من اليمن إلى كسرى، فأعطى منه يوماً حتى غربت الشمس، فضربت به العرب المثل في كثرة المال.

وأما خُفَّا[١] حنين، فإنه كان إسكافاً من أهل الحيرة، ساومه أعرابيّ بخُفين فاختلفا حتى أغضبه، فأراد أن يغيظ الأعرابيّ، فلما ارتحل أخذ أحد الخفين فألقاه في طريق الأعرابي، ثم ألقى الآخر بموضع آخر على طريقه. فلما مر الأعرابي، بالخف الأول، قال ما أشبه هذا بخف حنين! لو كان معه صاحبهُ لأخذته. فلما مرَّ بالآخر ندم على ترك الأول فأناخ راحلته، وانصرف إلى الأول وقد كمن له حُنين، فوثب على راحلته وذهب بها؛ وأقبل الأعرابيّ ليس معه غير خُفي حُنين. فذهبت مثلاً.

وأما عِطْرمنشم، فإنها كانت امرأة تبيع الحنوط[٢] في الجاهلية، فقيل للقوم إذا تحاربوا: دقُّوا عطر مَنْشم. يُراد بذلك طيب الموتى.

وأما ندامة الكُسعي، فإنه رجل رَمى فأصاب، فظن أنه أخطأ فكسر قوسه، فلما علم ندم على كسر قوسه. فضُرب به المثل.

أمثال أكثم بن صيفي وبزرجمهر الفارسي

العقلُ بالتَّجارِبِ. الصاحِبُ مُناسِبٌ. الصديقُ مَن صدّق عيْنيْه. الغريبُ من لم يكن له حبيبٌ، رُبَّ بعدٍ أقربُ من قريبٍ. القريبُ من قَرُبَ نفْعُهُ. لو تكاشفتُمْ ما تدَافنْتُم[٣]. خيرُ أهلِكَ من كفاكَ. وخيْرُ سلاحِك ما وقاك. خيْرُ إخوانِكَ من لم تَخْبُرْهُ. رُبَّ غريبٍ ناصِحُ الجيْبِ[٤]؛ وابنُ أبٍ متهَمُ الغيب. أخوكَ من صدَقَك. الأخُ مِرآة أخيه. إذا عزَّ أخوك فهُن. مُكرَهٌ أخوك لا بطَل. تباعدوا في الديارِ

(١) الخف: ما يلبس في الرجل من جلد رقيق.

(٢) الحنوط: كل ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة.

(٣) تدافنتم: تكاتمتم. (٤) الجيب: القميص والدرع.

وتقاربوا في المحبة. أيُّ الرجال المهذَّب. مَن لك بأخيك كلّه. إنك إن فرَّجتَ لاق فرَجاً. أَحسِنْ يُحسَنْ إليك. اَرحم تُرحَم. كما تَدينُ تُدان. مَن يَرَ يوماً يُرَ به، والدهرُ لا يُغتَرُّ به. عينٌ عَرفتْ فذَرفتْ. في كلِّ خِبرة عِبرة. مِن مأْمَنه يؤتَى الحذِر. لا يعدو المرءُ رزقه وإن حرَص. إذا نَزل القدَرُ عَمِيَ البصر: وإذا نَزلَ الحيْن نَزل بين الأُذُنِ والعين. الخمرُ مِفتاحُ كلِّ شرّ. الغِناءُ رُقْيَةُ الزِّناء. القناعة مالٌ لا يَنفَد. خيْرُ الغِنى غِنَى النفس. مُنساقٌ إلى ما أنتَ لاقٍ. خذ من العافيةِ ما أُعطِيت، ليس الإنسانُ إلا القلبَ واللسان. إنما لك ما أمْضيْت. لا تتكلّف ما كُفِيت. القلمُ أَحدُ اللسانَين. قِلّةُ العيالِ أحدُ اليسارين. ربما ضاقتِ الدنيا باثنيْن. لن تَعدَمَ الحسناءُ ذامّا. لمْ يعدِمِ الغاوي لائماً. لا تكُ في أهلك كالجنازة. لا تَسْخَرْ من شيءٍ فيحورَ بك. أَخِّرِ الشرَّ فإن شئتَ تعجَّلتَه. صغيرُ الشرِّ يوشِكُ أن يَكبَر. يُبصِرُ القلبُ ما يَعمى عنه البصر. الحُرُّ حرٌّ وإن مَسَّه الضُّر[1]. العبدُ عبدٌ وإن ساعدَه جَد. مَن عرَفَ قدْرَه استَبان أَمْرَه. مَن سَرَّه بنوهُ ساءَتْه نفسُه. من تعظَّم على الزمانِ أهانَه. من تعرّضَ للسلطان أَذْراه ومن تطامنَ[2] له تَخطَّاه. من خطا يخطو. كلُّ مبذولٍ مملول. كلُّ ممنوعٍ مرغوبٌ فيه. كل عزيزٍ تحت القدرةِ ذليل. لكلِّ مَقامٍ مقال. لكلِّ زمانٍ رجال. لكل أجلٍ كتاب. لكل عملٍ ثواب. لكل نبإٍ مُستقَر. لكل سرٍّمستوْدَع. قيمةُ كلِّ إنسانٍ ما يُحسِن. اطْلبْ لكل غلقٍ مِفتاحاً. أكثِرْ في الباطلِ يكن حقاً. عند القَنَط[3] يأتي الفرَج. عند الصباحِ يُحمَدُ السُّرَى. الصدقُ مَنجاة والكذِبُ مَهواة. الاَعتِرافُ يَهْدِمُ الاَقتراف. رُبَّ قولٍ أَنفذُ من صوْل. رُبَّ ساعةٍ ليس بها طاعة. رُبَّ عَجلةٍ تُعقِبُ رِيْثا. بعضُ الكلامِ أَقطعُ من الحُسام. بعضُ الجهلِ أبلغُ من الحِلْم. ربيعُ القلبِ ما اَشتَهى. الهوى شديدُ العمى. الهوى الإلٰهُ المعبود. الرأيُ نائمٌ والهوى يَقظان، غلَبَ عليك من دعا إليك. لا راحةَ لحسود، ولا وفاءَ لملول. لا سرورَ كطِيبِ النفس. العمرُ أقصرُ من أن يحتمل الهجر. أحق الناس بالعفو أقدرُهم

---

(١) الضر: الضرر.

(٢) تطامن: سكن وانخفض. (٣) القنط: اليأس الشديد.

على العقوبة. خيرُ العِلمِ ما نَفع. خيرُ القولِ ما اتُّبع. البِطنةُ[1] تُذهِب الفِطنة. شرُّ العمى عمى القلب. أَوْثقُ العُرى كلمةُ التقوى. النساءُ حَبائلُ الشيطان. الشبابُ شُعبةٌ من الجنون، الشقيُّ مَن شَقِيَ في بطنِ أُمِّه. السعيدُ من وُعِظ بغيرِه. لكل امرىء في بَدنِه شَغْلٌ. من يَعرِف البلاءَ يصبرْ عليه. المقادير تُريكَ ما لا يخطُر ببالِك. أفضلُ الزَّادِ ما تُزُوِّدَ للمَعاد. الفحْلُ أَحْمىٰ للشوْل[2]. صاحب الحظوة غدا مَن بلغَ المَدى. عواقِبُ الصبرِ محمودة. لا تُبْلَغ الغاياتُ بالأماني. الصريمةُ على قدْرِ العزيمة. الضعيفُ يُثنِي أو يَذُمُّ. من تفكر اعتبَر. كم شاهدٍ لك لا ينطِق، ليس منك من غشَّك. ما نظَر لآمرىءٍ مثلُ نفسِه. ما سَدَّ فقرَكَ إلا مِلْكُ يمينِك. ما على عاقلٍ ضَيْعة. الغنى في الغُرْبةِ وطن. والمُقِلُّ في أهلِه غريب. أولُ المعرفةِ الآختبار. يدُك منك وإن كانت شَلاَّء. أنفُك منك وإن كان أجدَع. من عُرِف بالكذبِ لم يَحُز صِدْقُه، ومن عُرف بالصدق جاز كذبه. الصحة داعية السَّقَم. الشبابُ داعيةُ الهرَم. كثرةُ الصياحِ من الفشَل. إذا قدُمَتِ المصيبةُ تُركتِ التعزية. إذا قدُم الإخاءُ سُمجَ الثناء. العادة أملَكُ من الأدب. الرفقُ يُمْنٌ والخُرَقُ شؤمٌ. المرأةُ ريْحانة وليست بقَهرمانة[3]. الدَّالُّ على الخيرِ كفاعلِه. المُحاجزةُ قبلَ المُناجزة. قبلَ الرمايةِ تُملأُ الكَنائن. لكل ساقطةٍ لاقِطة. مقتلُ الرجلِ بين فكَّيه. تَرْكُ الحركةِ غَفْلة. الصَّمْتُ حُبْسة. مِن خيْرِ خبرٍ أَنْ يُسمعَ بمطر. كفى بالمرءِ خِيانةً أن يكون أميناً للخوَنة. قيِّدوا النِّعَمَ بالشكر. مَن يَزْرع المعروفَ يحصُد الشكر. لا تغترّ بمَودَّة الأميرِ إذا غشَّك الوزير. أعظمُ من المصيبةِ سوءُ الخلَفِ منها. من أراد البقاءَ فليوطِّنْ نفسَه على المصائب. لِقاءُ الأحبَّةِ مَسلاة للَهم. قطيعةُ الجاهل كصلة العاقل. مَن رضيَ على نفسه كثُر الساخط عليه. قَتلتْ أرضٌ جاهلَها، وقَتل أرضاً عارفها .أدوأُ الداء الخُلق الدَّنيّ واللسان البذيّ. إذا جعلك السلطان أخاً فاجعله ربّاً. آحذر الأمين ولا تأمن الخائن. عند الغاية يُعرف السبْق. عند الرِّهان يُحمَد المِضمار. السؤال وإن قلَّ أكثر من النوال وإن جل. كافىء المعروف

---

(١) البطنة: الامتلاء الشديد من الطعام.
(٢) الشول: النوق التي جفّ لبنها. (٣) قهرمانة: مدبرة البيت ومتولية شؤونه.

بمثله أو انْشره. لا خَلة[١] مع عَيْلة[٢]. لا مروءة مع ضر. ولا صبر مع شكوى. ليس من العدل سرعة العذْل. عبد غيرك حر مثلك. لا يعدَم الخيار من استشار. الوضيع مَن وضع نفسه. المهين من نزل وحده. مَن أكثر أهجَر[٣]. كفى بالمرءِ كذباً أن يُحدّث بكل ما سَمع. كل إناء ينضح بما فيه. العادة طبع ثان.

ومن أمثال العرب

مما روى أبو عبيد

جرّدناها من الآداب التي أدخل فيها أبو عبيد إذ كنا قد أفردنا للأدب والمواعظ كتباً غير هذا، وضَممنا إلى أمثلة العرب القديمة ما جرى على ألسنة العامة من الأمثال المستعملة، وفسرنا من ذلك ما احتاج إلى التفسير. فمن ذلك قولهم:

في حفظ اللسان

لعمر بن عبد العزيز: التقيُّ مُلْجَم.
لأبي بكر الصدّيق: إن البلاءَ مُوَكَّل بالمنطِق.
لابن مسعود: ما شيءٌ أولى بطول سجن من لسان.

لأنس بن مالك: لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يحترز من لسانه ولسان غيره. احذر لسانك لا يَضرب عنقك. جُرْح اللسان كجرح اليد. رُب كلام أقطع من حُسام. القول يَنفذ ما لا تَنفذ الإبَر.

قال الشاعر:

وقد يُرجى لجَرح السيف بُرءٌ[٤] ... ولا بُرءٌ لِما جَرح اللسان

اجتلبنا هذا البيت لأنه قد صار مثلاً سائراً للعامة. وجعلنا لأمثال الشعراء في آخر كتابنا هذا بابا.

---

(١) الخلة: الصداقة.
(٢) العيلة: الفقر.
(٣) أهجر: أفحش في كلامه.
(٤) برء: شفاء.

وقال أكثم بن صيفي: مَقتل الرجل بين فكّيه.

وقال: ربما أعلم فأذَر. يريد أنه يدع ذكر الشيء وهو به عالم؛ لما يحذر من عاقبته.

إكثار الكلام وما يتقى منه

قالوا: مَن ضاق صدره اتَّسع لسانه. مَن أكثَر أهجَر ـ أي خرج إلى الهجر، وهو القبيح من القول.

وقالوا: المِكثار كحاطِب ليل، وحاطب الليل ربما نَهشتْه الحية أو لسعتْه العقرب في احتطابه ليلاً.

وقالو: أوَّل العِيِّ الاختلاط[1]، وأسوأ القول الإفراط.

في الصمت

قالوا: الصَّمت حُكمٌ[2] وقليل فاعِله.

وقالوا: عِيٌّ صامت خير من عيّ ناطق، والصمت يُكسب أهلَه المحبَّة.

وقالوا: آستكثَر من الهيبة الصَّمُوت؛ والندم على السُّكوت خير من الندم على الكلام.

وقالوا: السُّكوت سلامَة.

القصد في المدح

منه قولهم: مَن حفَّنا[3] أو رَفَّنا[4] فليقتصد. يقولون: من مدحنا فلا يغلُون في ذلك.

وقولهم: لا تَهرف بما لا تعرف والهرف: الإطناب في المدح والثناء.

ومنه قولهم: شاكِهْ أبا يسار من دون ذا يَنْفُقُ الحمار.

أخبرنا أبو محمد الأعرابي عن رجل من بني عامر بن صعصعة قال: لقي أبو يسار رجلاً بالمِرْبد يبيع حماراً ورجل يساومه، فجعل أبو يسار يُطرى الحمار؛ فقال المشتري:

---

(١) الاختلاط: الغضب. (٢) حكم: حكمة

(٣) الحفّ: إزالة شعر الوجه. (٤) الرفّ: التناول.

أعرَفْت الحمار؟ قال: نعم. قال: كيف سيره؟ قال: يُصطادُ به النَّعَام معقولاً. قال له البائع: شاكِهْ أبا يسار، من دون ذا ينفُق الحمار. والمشاكهة: المقاربة والقصد.

صدق الحديث

منه قولهم: من صدَقَ الله نجا.

ومنه قولهم: سُبَّنِي وآصدُقْ.

وقالوا: الكذِبُ داءٌ والصِّدقُ شفاءٌ.

وقولهم: لا يكْذِبُ الرائد أهله معناه أن الذي يرتاد لأهله منزلاً لا يكذبهم فيه.

وقولهم: صدَقني سِنَّ بَكرِه. أصله أنّ رجلاً ابتاع من رجل بعيراً، فسأله عن سنّه. فقال له: إنه بازل[1]. فقال له: أنِخْهُ. فلما أناخه قال: هِدَعْ هِدَعْ. وهذه لفظة تسكَّن بها الصغار من الإبل. فلما سمع المشتري هذه الكلمة قال: صدَقني سنَّ بكْره.

ومنه قولهم: القوْل ما قالت حَذَامِ. وهي آمرأة لُجيْم بن صَعب، والد حَنيفة وعِجْل، ابنَي لجيم، وفيها قال:

إذا قالت حَذام فصدِّقوها ... فإنّ القوْل ما قالت حذام

من أصاب مرة وأخطأ مرة

منه قولهم: شُخْبٌ في الإناء. وشخْبٌ[2] في الأرض. شُبّه بالحالب الجاهل الذي يحلب شخباً في الإناء وشخباً في الأرض.

وقولهم: يُشجُ[3] مرةً ويأسو[4] أُخرى.

وقولهم: سهْمٌ لك وسهْمٌ عليْك.

(١) بازل: البعير في سن الثامنة أو التاسعة.

(٢) شخب: ما خرج من اللبن من الضرع إذا احتلب.

(٣) يشج: يشق جلد الرأس أو الوجه.

(٤) يأسو: يصلح.

وقولهم: اَطرُقي ومِيشِي. والميش أن يخلط الشعر بالصوف. والمطراقة: العود الذي يُضرب به بين ما خُلط.

سوء المسألة وسوء الاجابة

قالوا: أساءَ سمعاً فأساءَ جابَةً. هكذا تحكى هذه الكلمة، «جابة» بغير ألف، وذلك أنه آسم موضوع يقال: أجابني فلان جابة حسنة، فإذا أرادوا المصدر قالوا: إجابة، بالألف.

وقالوا: حدِّثِ آمرأةً حديثين فإن لم تفهَم فأربعةً. كذا في الأصل؛ والذي أحفظ: فارْبع، أي أمسك.

وقولهم: إليك يُساق الحديثُ.

من صمت ثم نطق بالفهاهة

قالوا: سَكت ألفاً ونطَق خَلْفاً. الخلف من كل شيء: الرديء.

المعروف بالكذب يصدق مرة

قولهم: من الخواطِيء سهْمٌ صائبٌ. ورُبَّ رَمْيَةٍ منْ غير رام ٍ.
وقولهم: قد يَصْدُق الكذُوبُ.

المعروف بالصدق يكذب مرة

قالوا: لكلِّ جَوَادٍ كَبْوَةٌ[١]، ولكلِّ صارم ٍ نَبْوَةٌ[٢]، ولكلِّ عالم ٍ هفوة[٣]، وقد يَعثُر الجوادُ، ومن لك بأخيك كلِّهِ، وأيُّ الرجالِ المُهذبُ.

---

(١) كبوة: عثرة.

(٢) نبوة: تجاف عن الضريبة.

(٣) هفوة: زلة.

كتمان السر

قالوا: صدْرُك أوْسع لسِرِّك.

وقالوا: لا تُفْش سِرَّك إلى أَمَةٍ، ولا تَبُلْ على أكَمَةٍ. يقول لا نُفْش سرك إلى امرأة فتبديه، ولا تَبُل على مكان مرتفع فتبدو عورتك.

ويقولون إذا أسروا إلى الرجل: اجعل هذا في وعاءٍ غيْر سَرَبٍ[1].
وقولهم سِرُّك من دمِك.
وقيل لأعرابي: كيف كتمانك السر؟ فقال: ما صَدْري إلا قبرٌ.

انكشاف الأمر بعد اكتتامه

قولهم: حَصْحَصَ[2] الحقُّ.

وقولهم: أبدَى الصريح عن الرَّغْوة. وفي الرغوة ثلاث لغات: فتح الراء، وضمها، وكسرها.

وقولهم: صرح[3] المَحْضُ[4] عن الزَّبَدِ.
وقالوا: أفْرَخَ القوْم بيضتَهُم. أي أخرجوا فرختها، يريدون أظهَروا سرهم.
وقولهم: بَرِح[5] الخَفاءُ وكُشِف الغِطاءُ.

إبداء السر

قالوا: أفضيْتُ إليك بشُقوري. أي أخبرتك بأمري، وأطلعتك على سري.

وقولهم: أخبرتُك بعُجَري وبُجَري. أي أطلعتك على معايبي، والعَجر: العروق المتعقدة، وأما البُجَر فهي في البطن خاصة.

وتقول العامة: لو كان في جسَدي بَرص ما كتمتُه.

---

(١) أي غير سرب ماؤه.
(٢) حصحص: ظهر بعد خفاء.
(٣) صرح: بين.
(٤) المخض: اللبن الخالص.
(٥) برح: زال.

الحديث يتذكر به غيره

قالوا: الحديث ذو شُجون: وهذا المثل لضبّة بن أدّ وكان له آبنان: سعد وسُعيد، فخرجا في طلب إبل لهما، فرجع سعد ولم يرجع سعيد، فكان ضبه كلما رأى رجلاً مقبلاً قال: أسعدٌ أم سعيد، فذهبت مثلاً. ثم إن ضبة بينما هو يسير يوماً ومعه الحارث بن كعب في الشهر الحرام إذ أتى على مكان، فقال له الحارث: أترى هذا الموضع! فإني لقيت فتى هيئته كذا وكذا، فقتلتُه وأخذت منه هذا السيف. فإذا بصفة سعيد، فقال له ضبة: أرني السيف أنظر إليه. فناوله إياه فعرفه فقال له: إن الحديث ذو شجون. ثم ضربه به حتى قتله. فلامه الناس في ذلك، وقالوا: أقتلت في الشهر الحرام؟ قال: سَبَق السيْف العذَل. فذهبت مثلاً.

ومنه: ذكَّرْتني الطَّعْن وكنت ناسياً. وأصل هذا أن رجلاً حمل ليقتل رجلاً، وكان بيد المحمول عليه رمح، فأنساه الدهش والجزع ما في يده، فقال له الحامل: ألق الرمح. قال الآخر: فإن رمحي لَمعِي، ذكَّرتَني الطعن وكنتُ ناسياً. ثم كز[1] على صاحبه فهزمه أو قتله. ويقال: إن الحامل: صَخر بن مُعاوية السلمي أخو الخنساء والمحمول عليه: يزيد بن الصَّعق.

العذر يكون للرجل ولا يمكن أن يبديه

منه قولهم: رُبَّ سامع خبَري لم يسمع عذري. ورُبَّ ملومٍ لا ذنب له. ولعلَّ له عُذْراً وأنت تلومُ.

وقولهم: المرءُ أعلم بشأنِه.

الاعتذار في غير موضعه

منه قولهم: ترْك الذنبِ أيسر من التِماس العذر، وتَرْك الذنب أيسر من طلب التوْبة.

---

(١) كزّ: ضيّق.

التعريض بالكناية

ومنه قولهم: أعَنْ صبُوح[1] ترقق[2].

ومنه قولهم: إياك أعني وآسْمَعِي يا جارة.

المنُّ بالمعروف

قالوا: شوَا أخوك حتى إذا أنَضج رَمَّد.

وقولهم: فضل القوْل على الفعل دناءَةٌ، وفضل الفعل على القول مَكْرُمَة.

الحمد قبل الاختبار

لا تَحمَدَن أمَةً عام آشِترائِها ولا حُرَّةً عام بنائِها[3].

وقولهم: لا تَهِرف قبل أن تعرف. يقول: لا تمدح قبل أن تختبر.

وقولهم: أول المعرفة الاختبار.

إنجاز الوعد

قالوا: أنجزَ حُرٌّ ما وعَدَ.

وقولهم: العِدَةُ عطِيَّةٌ.

وقولهم: من أخَّرَ حاجةً فقد ضمِنَها.

وقالوا: وعْدُ الحُرِّ فِعلٌ، ووعْدُ اللَّئِيمِ تسوِيف.

وقالت العامة: الوعْدُ مِن العهدِ.

التحفظ من المقالة القبيحة وإن كانت باطلاً

حسْبُكَ من شرّسماعُهُ. وما اعتذارُكَ من شيءٍ قِيلَ.

---

(١) الصبوح: شراب الصباح.

(٢) ترفق: تزين الكلام وتحسنه. (٣) بنائها: تزويجها.

الدعاء بالخير

منه قولهم للقادم من سفره: خيرُ ما رُدَّ في أهلٍ ومالٍ ؛ أي جعلك الله كذلك.

وقولهم: بلغَ اللهُ بك أكلأَ العُمُرِ. أي أقصاه.

وقولهم: نَعِمَ عوْفك. أي نعِم بالك.

وقولهم في النكاح: على بَدْءِ الخيْرِ واليُمْنِ.

وقولهم: بالرِّفاءِ والبنينَ. يريد بالرفاء: الكثرة، يقال منه: رفأته، إذا دعوت له بالكثرة.

وقولهم: هُنِّئت ولا تُنْكهْ. أي أصابك خير ولا أصابك ضر.

وقولهم: هَوت[1] أُمُّهُ، وهبَلَتْهُ[2] أُمُّهُ. يدعون عليه وهم يريدون الحمد له. ونحوه قاتله الله، وأخزاه الله، إذا أحسن. ومنه قول امرىء القيس:

مالهُ لا عُدَّ من نفَره

تعيير الإنسان صاحبه بعيبه

قالوا: رمَتْني بدائِها وانسلَّتْ.

وقولهم: عيَّرَ بُجَيْرٌ بُجَرَه،[3] نسِيَ بُجَيْرٌ خَبَره.

وقولهم: مُحْتَرِسٌ من مثْلِهِ وهو حارِسٌ.

وقولهم: تُبصِرُ القذَى في عيْنِ أخيك ولا تُبْصِرُ الجذعَ في عيْنِك.

الدعاء على الإنسان

منه قولهم: فاهَا لِفيكَ. يريد: الأرض لفيك.

وقولهم: بِفِيكَ الحَجرُ، وبفيك الأثْلبُ[4].

وقولهم: لِليدَيْنِ ولِلفمِ.

---

(١) هوت: سقطت.

(٢) هبلته: شكلته.

(٣) بجير وبجرة: كانا أخوين في الزمن القديم.

(٤) الأثلب: التراب والحجارة أو فتاتها.

ولما أُتي علي بن أبي طالب رضي الله عنه بسكران في رمضان، وقال له: لليدين وللفم؛ أولْداننا صِيامٌ وأنت مُفْطِر. وضربه مائة سوط.

ومنه قولهم: لِجَنْبِهِ فليَكُنِ الوجْهُ. يريد الصرعة.

ومنه قولهم: مِنْ كِلاَ جانبيْك لا لَبَّيْك، أي لا كانت لك تلبية ولا سلامة من كلا جانبيك. والتلبية: الإقامة بالمكان.

وقولهم: بِكَ لا بظَبْيٍ. وقال الفرزدق:

أقــولُ لــهُ لَمّا أتــانِــي نِعيـــهُ ... بـه لا بظَبْـي بـالصَّـريمة أعْفَــرا[1]

ومنه قولهم: جدَعَ اللهُ مسامِعَهُ.

وقولهم: عقْراً حلْقاً، يريد عقره الله وحلقه.

ومنه قولهم: لا لعاً لهُ[2]: أي لا أقامه الله.

قال الأخطل:

ولا لعاً لِبَنِي ذكْوانَ إذ عثَرُوا

ولحبيب:

صفْراءُ صُفْرةَ صِحَّةٍ قـد ركَّبَـت ... جُثمانَـهُ في ثـوْبِ سُقـمٍ أصفــرِ

قتلَتْـهُ سِـرّاً ثُمَّ قــالــت جهْـرَةً ... قـوْلَ الفـرَزْدَقِ لا بظَبْـي أعفـر

رمي الرجل غيره بالمعضلات

منه قولهم: رماهُ بأقْحافِ[3] رأسِهِ، ورماهُ بثالثةِ الأثافي، يريد قطعة من الجبل يجعل إلى جنبها أُثفِيَّتان وتكون هي الثالثة.

ومنه: يا للعضيهة[4] والأفيكة[5]، إذا رماه بالبهتان.

وقولهم: كأنما أفرغَ عليْهِ ذَنُوباً[6]، إذا كلمه كلمة يُسكته بها.

---

(١) الأعفر: الذي يعلو بياضه حمرة.
(٢) لا لعاً: يدعو عليهم بالتعس.
(٣) الأقحاف: جمع قحف، وهو ما يعلو الدماغ من الرأس.
(٤) العضيهة: البهتان.
(٥) الأفيكه: الإفك: الكذب والافتراء.
(٦) الذنوب: الدلو.

المكر والخلابة

منه قولهم: فتلَ في ذِرْوتِه، أي خادَعه حتى أزاله عن رأيه.

قال أبو عُبيد: ويروى عن الزبير حين سأل عائشة الخروج إلى البصرة فأبت عليه: فما زال يفتل في الذِّروة والغارب حتى أجابته.

وقولهم: ضربَ[١] أخْماساً لأسداس، يريدون المناكرة.

وقال آخر:

إذا أراد امْـرُؤٌ مكـراً جنَـى عِللاً   وظـلَّ يضرِبُ أخْماسـاً لأسـداسِ

ومنه قولهم: الذِّئبُ يأدُو للغزالِ، أي يختِلُه ليوقعه.

اللهو والباطل

منه قولهم: جاءَ فلانٌ بالتَّرهِ[٢]. وجَرْيُ فلان السُّمَّه[٣]، وهما من أسماء الباطل.

وقال ﷺ: ما أنا من دَدٍ ولا ددُ منِّي، وفيه ثلاث لغات: ددٌ، ودَدًا: مثل قفًا. ودَدَن: مثل حزن.

خُلف الوعد

منه قولهم: ما وعْدُهُ إلا بَرقٌ خُلَّبٌ، وهو الذي لا مطر معه.

ومنه ما وعْدُهُ إلا وعدُ عُرْقوب. وهو رجل من العماليق أتاه أخوه يسأله فقال: إذا أطلعتْ هذه النخلة فلك طلْعُها، فأتاه للعدة، فقال: دعها حتى تصير بلحاً. فلما أبلحت قال: دعها حتى تصير رطباً. فلما أرطبت قال: دعها حتى تصير تمراً. فلما أتمرت عمد إليها عرقوب فجزها ولم يعط أخاه شيئاً، فصارت مثلاً سائراً في الخلف.

قال الأعشى:

---

(١) ضرب: بين وأظهر.   (٢) التره: الطريق الصغيرة.

(٣) السمة: جمع سامة، والسامة: الفرس يجري جرياً لا يعرف الإعياء.

وعدْتَ وكان الخُلْفُ منك سَجِيَّـةً   مواعيدَ عُـرْقـوبٍ أخـاهُ بيثْـربِ

اليمين الغموس

منه قولهم: جذَّها جذَّ العيْرِ الصِّلْيانةَ[1]. وذلك أن العير ربما اقتلع الصِّليانة إذا ارتعاها.

ومنه الحديث المرفوع: اليمينُ الغمُوس تدعُ الدِّيار بلاقِعَ. قال أبو عبيد: اليمين الغموس هي المصبورة[2] التي يوقف عليها الرجل فيحلف بها؛ وسُميت غموساً لغمسها حالفها في المأثم.

ومنه قولهم: اليمينُ حِنثٌ أو منْدَمةٌ.
وقال النبي ﷺ: من كان حالِفاً فليْحلِفْ باللهِ.

أمثال الرجال واختلاف نعوتهم

في الرجل المبرِّز في الفضل

قولهم: ما يُشَقُّ غُبارُه، وأصله السابق من الخيل.
وقولهم: جرْيُ المُذكي حَسَرتْ[3] عنه الحُمُر، أي كما يسبق الفرس القارح الحمر.
وقولهم: جرْيُ المُذَكِّياتِ غلاءٌ[4] أو غِلابُ[5].
وقولهم: ليست لهُ هِمَّةٌ دون الغايَة القُصوَى.

الرجل النبيه الذكر

قولهم: ما يُحجَرُ فلان في العِكْمِ: الجوالق، يريد أنه لا يخفي مكانه.
وقولهم: ما يومُ حليمَةَ بِسروكانت فيه وقعة مشهورة قتل فيها المنذر بن ماء السماء، فضربت مثلاً لكل أمر مشهور.

---

(١) الصليان: البقل. (٢) المصبورة: التي تصبر. (٣) حسرت: أعيت.
(٤) غلاء: جمع غلوة، أي بعيداً. (٥) غلاب: المغالبة.

وقولهم: أشهر من أبْلَق[1].

وقولهم: وهل يَخفى على الناس النهار.

ومثله: وهل يَخفى على الناظر الصبح.

وقولهم: وهل يَجهل فلاناً إلا من يَجهل القمر.

الرجل العزيز يعز به الذليل

منه قولهم: إنَّ البُغاث بأرضنا تَسْتَنْسِرُ. البغاث؛ صغار الطير، تستنسر: تصير نسوراً.

وقولهم: لا حُر بِوادي عوْف. يريدون عوف بن مُحلِّم الشيباني، وكان منيعاً.

وقولهم: تَمرَّد مارد وعزَّ الأبلق. مارد: حصن بدُومة الجندل، والأبلق: حصن السموأل.

وقولهم: من عزَّ بَزَّ[2]، ومن قلَّ ذلَّ. ومن أَمِر فلَّ[3]. أمِر: كثر.

الرجل الصعب

منه قولهم: فلان ألْوَى بعيد المُسْتَمَرّ.

وقولهم: ما بَلِلتُ منه بأفوق ناصل. وأصله السهم المكسور الفوق الساقط النصل، يقول: فهذا ليس كذلك.

وقولهم: ما يُقعْقَع[4] لي بالشنان[5].

وقولهم: ما يُصطلى بناره.

وقولهم ما تُقرَن به الصَّعْبة[6].

---

(١) الأبلق: الذي فيه سواد وبياض. (٢) بزّ: غلب.

(٣) فل: ذهب عقله.

(٤) يقعقع: القعقعة تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت.

(٥) الشنان: جمع شن، وهي القربة البالية.

(٦) الصعبة: الناقة الصعبة.

النجد يلقى قِرنه

منه قولهم:

إن كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً

والحديد بالحديد يُفلح. والفلح: الشق. ولا يفُل الحديدَ إلا الحديد. والنَّبْعُ يَقرَع بعضُه بعضاً. ورُمِيَ فلان بحجره، أي قرن بمثله.

الأريب الداهي

هو هِتْر[1] أَهْتار، وصِلٌّ أصلال. أصله من الحيات، شبه الرجل بها.

ومثله: حية ذكر، وحية واد.

وقولهم: هو عُضْلة[2] من العُضَل. وهو باقِعَة[3] من البَواقع. وحُوّلٌ قُلّب. ومُؤدَم مُبْشَر. يقول: فيه لين الأدمة، وخشونة البشرة.

وفلان يعلم من حيث تُؤكل الكتِف.

التنبيه بلا منظر ولا سابقة

قال أبو عبيد: هو الذي تسميه العرب الخارِجِيّ، يريدون: خَرَج من غير أولية كانت له، قال الشاعر:

ألا يــامــروَ لســتَ بخارجــيّ وليس قــديمُ مجدكَ بــانتحــالِ

وقولهم: تسمَع بالمُعَيْدي خير من أن تراه. وهو تصغير رجل منسوب إلى معد.

وقالوا:

نفسُ عصامٍ سوَّدتْ عِصاما

---

(١) هتر: داهية.

(٢) عضلة: داهية.

(٣) باقعة: داهية.

قالوا: إنه لَنَقَّاب. وهو الفَطِن الذكيّ.

وقالوا: إنه لَعِضٌّ. وهو العالم النِّحرير.

وقولهم: أنا جُذَيْلُها المحَكك، وعُذَيقُها المُرَجَّب.

قال الأصمعي: الجذيل: تصغير الجِذل، وهو عود ينصب للإبل الجرباء، لتحتك به من الجرب، فأراد أن يُشفى برأيه. والعُذيق: تصغير عَذَق، والعَذق - بالفتح - النخلة نفسها، فإذا مالت النخلة الكريمة بنوا من جانبها المائل بناء مرتفعاً يدعمها لكيلا تسقط، فذلك الترجيب، وصغرها للمدح.

ومثله قولهم: إنه لِجَذل حِكَاك.

ومنه قولهم: عَنِيَّته تَشفى الجرَب. والعنية: شيء تعالج به الإبل إذا جَربت.

وقولهم: لِذي الحلم قبل اليوم ما تُقرع العصا.

وأول من قُرعت له العصا سعد بن مالك الكِناني، ثم قرعت لعامر بن الظرب العدواني، وكان حكم في الجاهلية فكبر حتى أنكر عقله، فقال لبنيه: إذا أنا زُغت[1] فقوموني. كان إذا زاغ قُرعت له العصا، فينزع عن ذلك.

ومنه قولهم: إنه لألمعيّ. وهو الذي يُصيب بالظن.

وقولهم: ما حككْت قَرْحة إلا أدميْتها.

وقولهم: الأمُور تَشابَهُ مُقْبِلة وتَظهَر مُدبِرةً. ولا يَعرفُها مُقبِلة إلا العالم النِّحرير[2]، فإذا أَدبرتْ عرَفها الجاهل والعالم.

الرجل المجرب

منه قولهم: إنه لَشراب بأَنْقُع[3]. أي مُعاود للخير والشر.

---

(١) زغتُ: ملت عن المقصد. (٢) النحرير: العالم الحاذق في علمه.

(٣) أنقع: جمع نقع، وهو الماء الفاقع أو الأرض التي يجتمع فيها الماء.

وقولهم: إنه لخَرّاج ولاّج.

وقولهم: حَلَبَ الدّهر أشطُرَه. وشرب أفاويقَه. أي اختبر من الدهر خيره وشره. فالشطر هو شطر الحلبة. والفيقة: ما بين الحلبتين.

وقولهم: رجل مُنَجَّذ. وهو المجرب، وأصله من النواجذ؛ يقال: قد عضّ على ناجذه، إذا استحكم.

وقولهم: أوّل الغَزو أخرَق.

وقولهم: لا تَعْدو إلا بغلام وقد غَذا.

وقولهم: زاحِم بعود أو دَع.

وقولهم: العوَان[1] لا تعلَّم الخِمرة.

وقالت العامة: الشارف[2] لا يُصفَّر له.

الذب[3] عن الحرم

قالوا: الفحل يَحمي شوْله. والخيل تَجري على مساويها. يقول: إن الخيل وإن كانت لها عيوب فإن كرمها يحملها على الجرى.

وقولهم: النساء لحم على وضم[4] إلا ما ذُبَّ عنه.

وقولهم: النساءُ حبائل الشيطان.

وقولهم: كلُّ ذات صِدار[5] خالة. يريد أنه يحميها كما يحمي خالته.

الصلة والقطيعة

منه قولهم: لا خيرَ لك فيمن لا يرى لك ما يَرى لنفسه.

وقولهم: إنما يُضَنُّ بالضَّنين.

وقولهم: خلِّ سبيل مَن وَهَي سِقاؤُه.

(١) العوان: المتوسطة في العمر بين الصغر والكبر من النساء والبهائم.

(٢) الشارف: المسن الهرم. (٣) الذب: الدفاع عن.

(٤) وضم: ما وقي به اللحم من الأرض. (٥) الصدار: قميص تلبسه المرأة.

وقولهم: ألْقِ حبله على غاربه.
وقولهم: لو كرهْتني يدي قطعتها.

الرجل يأخذ حقه قسراً

منه قولهم: يَركب الصَّعْب مَن لا ذَلُول له.

وقولهم: مُجاهرةً إذا لم أجد مَخْتلا. يقول: آخذ حقي قسراً علانية إذا لم أصل إليه بالستر والعافية.

وقولهم: حَلَبْتها بالسَّاعِد الأشدّ. يقول: أخذتها بالقوّة والشدّة إذا لم أقدر عليها بالرفق.

وقولهم: التجلُّد خير من التبلُّد، والمَنيَّة خيرٌ من الدَّنيَّة، ومَن عزَّ بَزَّ.

الإطراق حتى تصاب الفرصة

منه قولهم: مُخرَنْبِق لِيَنباع. مخرنبق: مطرق. لينباع: لينبعث. يقول: سكت حتى يصيب فرصته فيثب عليها.

وقولهم: تَحسبُها حمقاءَ وهي باخِس.

وقولهم: خيْرُه في صدرِه.

وقولهم: أَحمقُ بِلْغ. يقول: مع حمقه يدرك حاجته

الرجل الجلد المصحح

أطِرِّي فإنك ناعِلة. أصله أن رجلاً قال لراعية له كانت ترعى في السهولة وتترك الحزونة، فقال لها: أطِرِّي. أي: خذي طرر الوادي. وهي نواحيه. فإنك ناعلة. يريد: فإن عليك نعلين.

وقولهم: به داءُ ظبي. معناه أنه ليس بالظبي داء

وقالوا: الشجاعُ مُوَقًّى.

الذل بعد العز

منه قولهم: كان جملاً فاستَنوَق. أي صار ناقة.

وقولهم: كان حِماراً فاستأتَنْ. أي صار أتاناً.

وقولهم: الحوْر[1] بعد الكوْر[2].

وقولهم: ذُلّ لو أَجِدُ ناصِراً. أصله أن الحارث بن أبي شمر الغساني، سأل أنس بن أبي الحُجير عن بعض الأمر، فأخبره؛ فلطمه الحارث، فقال أنس: ذل لو أجد ناصراً. فلطمه ثانية، فقال: لو نَهيْتُ الأولى لم تَلطِمِ الثانية. فذهبتا مثلين.

الانتقال من ذل إلى عز

منه قولهم: كنتُ كُرَاعاً فصِرْتُ ذِراعاً.

وقولهم: كنت عَنزاً فاستتيَسْتُ.

وقولهم: كنت بُغاثاً[3] فاستنْسَرْت. أي صرت نسراً.

تأديب الكبير

قالوا: ما أشدَّ فِطامَ الكبير.

وقولهم: عوْدٌ يُقلَّح. أي جمل مُسنّ تُنقى أسنانه.

وقالوا: من العَناءِ رِياضةُ الهرِم.

قال الشاعر:

وتَروضُ عِرسَكَ بعدَ ما هَـرِمـتْ ومـن العَنـاءِ ريـاضـةُ الهرِم

وقولهم: أَعْيَيْتِني بأشرٍ[4]، فكيف بِدُرْدُرٍ. يقول أعييتني وأنت شابة، فكيف إذا بدت درادرك، وهي مغارز الأسنان.

---

(١) الحور: النقصان.

(٢) الكور: الزيادة.

(٣) بغاث: طائر بطيء الطيران.

(٤) أشر: حدة ورقة في أطراف الأسنان.

الذليل المستضعف

منه قولهم: فلان لا يَعوِي، ولا ينَبحُ من ضَعْفِه. يقول: لا يتكلم بخير ولا شر.
وقولهم: أهْون مظلومٍ سِقاءٌ مُروَّب. وهو السقاء الذي يُلفّ حتى يبلغ أوانَ المخض.

وقالوا: أهْونُ مظلوم عجوز معقومة.

وقولهم: لقد ذَلَّ مَن بالَتْ عليه الثعالِب.

الذليل يستعين بأذل منه

قالوا: عبدٌ صريخُه أمةٌ.
وقولهم: مُثقَلٌ آستعانَ بذَقنه. وأصله: البعير يحمل عليه الحمل الثقيل فلا يقدر على النهوض به، فيعتمد على الأرض بذقنه.
وقولهم: العبدُ من لا عبدَ له.

الأحمق المائق

قالوا: عدوُّ الرجلِ حُمْقه، وصديقُه عقْلُه.
وقولهم: خرقاءُ عَيَّابة. وهو الأحمق الذي يعيب الناس.
وقالوا في الرجل إذا اشتدّ حمقه جداً: ثأطة مُدَّت بماءٍ. الثأطة الحمأة، فإذا أصابها الماء ازدادت فساداً ورطوبة.

الذي تعرض له الكرامة فيختار الهوان

منه قولهم: تجنَّبَ روضةً وأحالَ يعدُو. يقول: ترك الخصب واختار الشقاء.
وقولهم: لا يخلو مَسْكُ السوءِ مِن عَرْفِ السوء. يقول: لا يكن جلد رذل إلا والريح المُنتنة موجودة فيه.
ومنه قول العامة: قيل للشقيِّ هلُمَّ إلى السعادة. قال: حسْبي ما أنا فيه. ومنه قول العامة:

إن الشقيَّ بكلِّ حبْلٍ يختنِق

وقولهم: لا يَعدَمُ الشقيُّ مُهَيْرا. أي لا يعدم الشقي رياضة مهر.

الرجل تريد إصلاحه وقد أعياك أبوه قبله

منه قولهم: لا تَقْتَن مِن كلب سُوءٍ جِرْوا.

وقال الشاعر:

ترجو الوليدَ وقد أعياك والِدُه　　وما رجاؤك بعدَ الوالدِ الولَدا

الواهن العزم الضعيف الرأي

منه قولهم: مالَهُ أُكْلٌ ولا صَيُّورٌ. أي ليس له رأي ولا قوّة.

قال الأصمعي: طلب أعرابي ثوباً من تاجر، فقال: أعطني ثوباً له أُكل. يعني قوة وحصافة[1].

ومنه قولهم: هو إمَّعة. وهو إمَّرة. قال أبو عبيد: هو الرجل الذي لا رأي له ولا عزم، فهو يتابع كل أحد على رأيه، ولا يثبت على شيء، وكذلك الإمَّرة، الذي يتابع كل أحد على أمره.

ومنه قولهم: بنت الجبَل. ومعناه الصدى يجيبك من الجبل، أي هو مع كل متكلم يجيبه بمثل كلامه.

الذي يكون ضاراً ولا نفع عنده

منه قولهم: المِغْزى تُبْهى ولا تُبْني. قال أبو عُبيد: معناه أن المعزى لا تكون منها الأبنية، وهي بيوت الأعراب، وإنما تكون من وبر الإبل، وصوف الضأن، ولا تكون من الشعر، وربما صعَدت المعزى إلى الخباء فخرقته، فذلك قولهم تُبْهى، يقال: أبهيت البيت، إذا خرقته، فإذا انخرق قيل بيت باهٍ.

الرجل يكون ذا منظر ولا خير فيه

ومنه قولهم: تَرى الفِتيان كالنخل، وما يُدريك ما الدخْل.

وقال الحجاج لعبد الرحمن بن الأشعث: إنك لَمَنْظرانِيٌّ. قال: نعم ومَخْبَرانِيٌّ.

---

(١) حصافة: محكم لا خلل فيه.

أمثال الجماعات وحالاتهم من اجتماع الناس وافتراقهم

قال الأصمعي: ويقال: لن يزالَ الناس بخيْرٍ ما تباينوا، فإذا تساووْا هَلَكوا قال أبو عبيد: معناه أن الغالب على الناس الشر، والخير في القليل من الناس فإذا كان التساوي فإنما هو من الشر.

ومن أشد العجائب قول القائل: سَواسِيَةٌ كأسنان الحمار.

ومنه قولهم: الناسُ سواءٌ كأسنان المُشْطِ.

وقولهم: الناس أشباهٌ وشتى في الشيَم[1].

وقولهم: الناس أَخْيافٌ. أي مفترقون في أخلاقهم، وكلُّهم يجمعه بيت الأدَم.

والأخيف من الخيل: الذي إحدى عينيه زرقاء، والأخرى كحلاء.

ومنه قولهم: بيْتُ الإسكافِ فيه من كلِّ جلدٍ رُقعةٌ.

المتساويان في الخير والشر

هما كَفَرَسَيْ رهانٍ. وكَرُكْبَتَيْ بعير. وهما زَنْدان[2] في وعاءٍ. وهذا في الخير وأما في الشر؛ فيقال: هما كحمارَي العِباديّ. حين قال له: أيُّ حماريك شر؟ قال: هذا ثم هذا.

الفاضلان وأحدهما أفضل

منه قولهم: مَرْعًى ولا كالسَّعْدان[3].

وقولهم: ماءٌ ولا كصَدَّاء: ركية ذات ماء عذب.

وقولهم: فتًى ولا كمالِكٍ[4].

وقولهم: في كلِّ الشجر نارٌ وآستَمجد[5] المَرْخَ والعَفار[6]. وهما أكثر الشجر ناراً.

---

(١) الشيم: الصفات.
(٢) زندان: الأعلى والأسفل من عمودي الاقتداح.
(٣) السعدان: نبت أختر العشب لبنا.
(٤) أي مالك بن نويرة.
(٥) استمجد: استكثر من النار.
(٦) المرخ والعفار: شجر يقدح بهما.

الرجل يرى لنفسه فضلاً على غيره

منه قولهم: كلُّ مُجْر بالخلاء يُسَرُّ. وأصله: الذي يُجري فَرَسَه في المكان الخالي فهو يُسَر بما يرى منه.

المكافأة

منه قولهم: سَنَةٌ بتلْكَ.

وقولهم: أضِىء لي، أَقدحْ لك. أي كن لي أكن لك.

وقولهم: آسقِ رَقَاشِ[1] سَقاية. يقول: أحسنوا لها إنها مُحسنة.

الأمثال في القربى

التعاطف بين ذوي الأرحام

قال الكلبي: منه قولهم: يا بعْضِي دع بعضاً. وأصل هذا أن زُرارة بن عُدس زوَّج آبنته من سويد بن ربيعة، فكان له منها تسعة بنين. وأن سُويداً قَتل أخاً صغيراً لعمرو بن هند الملك وهَرب ولم يقدر عليه ابن هند؛ فأرسل إلى زُرارة أن ائتني بولده من آبنتك؛ فجاء بهم، فأمر عمرو بقتلهم، فتعلقوا بجدهم زُرارة؛ فقال: يا بعضي دع بعضاً. فذهبت مثلاً.

ومن أمثالهم في التحنن على الأقارب

قولهم: لكن على بَلْدَحَ[2] قوْمٌ عجفي.

وقولهم: لكنّ بالاثلاث لحمٌ لا يُظلّل.

وأصل هذا أن بيهسا الذي يُلقّب بنعامة كان بين أهل بيته وبين قوم حرب، فقتلوا سبعة إخوة لبيهس وأسروا بيهساً، فلم يقتلوه وارتحلوا به، فنزلوا منزلاً في سفرهم ونحروا جزوراً في يوم شديد الحر، فقال بعضهم: ظللوا لحم جزوركم لئلا يفسد. فقال بيهس: لكن بالأثلاث لحم لا يظلل. يعني لحم إخوته القتلى. ثم ذكروا

---

(١) رقاش: اسم امرأة. (٢) بلدح: موضع.

كثرة ما غَنموا، فقال بيهس: لكن على بَلْدح قوم عجفي. ثم إنه أفلت، أو خلوا سبيله، فرجع إلى أمه، فقالت: أنجوت من بينهم؟ وكانت لا تحبه؛ فقال لها: لو خُيِّرْت لاَخْتَرْتُ فلما لم يكن لها ولد غيره رقت له وتعطفت عليه. فقال بيهس: الثُّكْلُ أَرْأَمَها[1].

فذهبت كلماته هذه الأربع كلها أمثالاً.

ومنه قولهم: لا يَعدَمُ الحُوار[2] من أُمِّهِ حَنَّةً.

وقولهم: لا يَضُرُّ الحُوارَ ما وطِئَتْهُ أُمُّهُ.

وقولهم: بأَبِي أوْجُه اليتامى.

حماية القريب وإن كان مبغضاً

من ذلك قولهم: آكل لحمي ولا أَدَعُه يُؤكل.

ومنه: لا تَعْدَم منَ ابن عمِّك نصراً.

وقولهم: الحفائظُ[3] تُحَلِّل الأحقادَ..

وقولهم في ابن العم: عدُوُّك وعدُوُّ عدُوِّك.

وقولهم: كفُّك منك وإن كانت شَلاءَ.

وقولهم: اُنصُرْ أخاك ظالماً أو مظلوماً.

إعجاب الرجل بأهله

منه قولهم: كلُّ فتاةٍ بأبيها مُعْجَبَةٌ.

وقولهم: القَرْنَبَي[4] في عين أمها حَسنَةٌ.

وقولهم: زُيِّن في عينِ والدٍ ولدُه.

وقولهم: حَسنٌ في كلِّ عينٍ منْ تَوَدُّ.

وقولهم: من يَمدحِ العرُوس إلاَّ أهلها.

---

(١) أرأمها: عطّفها. (٢) الحوار: ولد الناقة من وقت ولادته إلى أن يفطم ويفصل.

(٣) الحفائظ: جمع حفيظه، وهي الغضب. (٤) القرنبـى: دويبة مثل الخنفس طويلة القوائم.

تشبيه الرجل بأبيه

منه قولهم: من أَشْبَه أباه فما ظلم.

وقولهم: العُصَيَّةُ منَ العصا.

وقولهم: ما أشبه حَجَل الجبالِ بألوانِ صخرِها.

وقولهم: ما أشبه الحوَل[1] بالقبَل[2]. وما أشبه الليْلة بالبارحة.

وقولهم: شِنشِنة[3] أعرِفها من أخزَم. يقال هذا في الولد إذا كان فيه طبيعة من أبيه.

قال زُهير:

وهل يُنبت الخطِّيَّ[4] إلا وشيجُـهُ[5] ... وتُغـرسَ إلاّ في مَنـابتهـا النخــلُ

ومنه قول العامة: لا تلد الذئبةُ إلاَّ ذِئباً.

وقولهم: حَذو النعل بالنعل. وحذوُ القُذَّة بالقُذَّة، والقذة: الريشة من ريش السهم تُحذى على صاحبتها.

تحاسد الأقارب

من ذلك قولهم: الأقاربُ هم العقاربُ.

وقال عمر: تزاوَروا ولا تجاوروا.

وقال أكثم: تباعدوا في الدِّيار تقاربوا في المحبة.

قال رسول الله ﷺ لأبي هريرة: زُرْ غبّاً[6] تزْدَدْ حُباً.

ومنه قولهم: فرِّقْ بينَ مَعَدٍ تَحابّ. يريد أن ذوي القربى إذا تدانوا تحاسدوا وتباغضوا.

---

(١) الحول: إقبال الحدقة على الأنف.

(٢) القبل: مثل الحول.

(٣) الشنشنة: الطبيعة.

(٤) الحظي: مرفأ السفن بالبحرين.

(٥) لوشيج: شجر الرماح.

(٦) الغب: ان تزور يوماً وتدع يوماً.

قولهم في الأولاد

قالوا: مَن سرّهُ بنوهُ ساءَتْهُ نفسُهُ. أي من يرى فيهم ما يسره يرى في نفسه ما يسوءه.

وقولهم:

إنَّ بَنِـــيَّ صِبْيَـــة صَيْفِيُـــونْ   أفلحَ مَـن كـان لـه رِبْعيُّـونْ

الولد الصيفي: الذي يولد للرجل وقد أسن. والربعي: الذي يولد له في عنفوان شبابه؛ أخذ من ولد البقرة الربعي والصيفي.

ويقال للمرأة إذا تبنّت غير ولدها: آبنُكِ مَنْ دَمي عقبيكِ.

الرجل يؤتى من حيث أمن

قالوا: من مأمَنِه يُؤتى الحَذِر.

وقال عدّي بن زيد العِبادي:

لــو بغَيْـــرِ الماءِ حلقِـــي شرِق   كنتُ كالغصّانِ بالماءِ اعتِصـاري[1]

قال الأصمعي: هذا من أشرف أمثال العرب. يقول: إن كل من شرق بالماء لا مستغاث له.

وقال الآخر:

كنتُ مـن كُـرْبتي[2] أفـرُّ إليهـم   فهُـمُ كُـرْبتي فـأيـن الفـرارُ

ومثله قول عباس بن الأحنف:

قلبي إلى مـــــا ضرَّني داعِ   يَهِيـج أحـزاني وأوجـاعِـي
كيفَ احتِـراسي مـن عـدُوِّي إذا   كـان عـــدُوي بين أضلاعـــي

وقال آخر:

---

(١) يعتصر بالماء: أي يشربه قليلا قليلا. (٢) الكربة: الحزن والغم يأخذ بالنفس.

من غصَّ داوَى بشرب الماء غُصتَّه فكيف يصنع من قد غص بالماء

الأمثال في مكارم الأخلاق

الحلم

قال أبو عُبيد: من أمثالهم في الحلم: إذا نَزا[1] بك الشَّرُّ فاقْعُدْ. أي فاحلم ولا تسارع إليه.

ومنه قول الآخر: الحليمُ مَطِيَّةُ الجهولِ.

وقولهم: لا ينتَصِفُ حليمٌ من جاهِلٍ.

وقولهم: أَخِّرِ الشَّرَّ فإنْ شئْتَ تعَجَّلْتَهُ.

وقولهم في الحليم: إنه لواقِعُ الطَّيْرِ، ولساكن الرِّيحِ.

وقولهم في الحلماء: كأنما على رؤوسِهِمُ الطَّيْرُ.

ومنه قولهم: رُبما أسمعُ فأذرُ.

وقولهم: حِلْمي أصمُّ وأُذُنِي غيرُ صَمَّاءَ.

العفو عند المقدرة

منه قولهم: ملَكتَ فأسجِح. وقد قالته عائشة رضوان الله عليها لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه يوم الجمل حين ظهر على الناس فدنا من هودجها وكلّمها فأجابته ملكت فأسجح. أي ظفرت فأحسن. فجهزها بأحسن الجهاز. وبعث معها أربعين امرأة - وقال بعضهم: سبعين - حتى قدمت المدينة.

ومنه قولهم: إن المقْدِرةَ تذْهبُ الحفيظة.

وقولهم: إذا آرجَحنَّ شاصِياً فارفَعْ يداً. يقول: إذا رأيته قد خضع واستكان فاكفف عنه. والشاصي: الرافع رجله.

---

(١) نزا: أغرى.

المساعدة وترك الخلاف

من ذلك قولهم إذا عز أخوكَ فهُنْ.

وقولهم: لولا الوِئامُ هَلَكَ اللِّئامُ. الوئام: المباهاة. يقول: لولا المباهاة لم يفعل الناس خيراً.

مداراة الناس

قالوا: إذا لم تغلبْ فاخلبْ. يقول: إذا لم تغلب فاخدع ودار وألطف.

وقولهم: إلاَّ حِظيَّة فلا أَلِيَّة. معناه: إن لم يكن حظوة فلا تقصير. وألا يألوا، ويأتلي: أي يقصّر. ومنه قول الله عز وجل: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة﴾[1].

وقولهم: سُوءُ الاستِمْساكِ خيرٌ من حُسْنِ الصِّرعةِ.

ومنه قول أبي الدرداء: إنَّا لَنَبشُّ في وجوهِ قومٍ وإنَّ قُلوبَنا لتلعنُهُمْ.

ومنه قول رسول الله ﷺ: «شِرارُ النَّاسِ من دارَاه الناسُ لشَرِّه».

ومنه قول شبيب بن شيبَة في خالد بن صفوان: ليسَ لهُ صديقٌ في السِّرِّ ولا عدُوٌّ في العلانية. يريد أن الناس يدارونه لشرّه، وقلوب الناس تبغضه.

مفاكهة[2] الرجل أهله

منه قولهم: كلُّ امْرِيءٍ في بيتِه صبي. يريد حسن الخلق والمفاكهة.

ومنه قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: إنّا إذا خلَوْنا قُلنا.

ومنه قول النبي ﷺ: «خِياركم خيْرُكم لأهلِه».

ومنه قول معاوية: انهُنَّ يغْلِبْن الكِرام ويغْلِبُهُنَّ اللئامُ.

---

(١) سورة النور الآية ٢٢.

(٢) مفاكهة: ممازحة.

اكتساب الحمد واجتناب الذم

قالوا: الحمدُ مغنَمٌ والذّمُّ مغرَم.

وقولهم: إن قليلَ الذَّمِّ غيرُ قليل.

وقولهم: إنّ خيراً مِن الخيرِ فاعِلهُ، وإنّ شَرّاً من الشرِّ فاعِلُه.

وقولهم:

الخيْرُ يبقَى وإن طالَ الزَّمانُ بِهِ   والشرُّ أخبَثُ ما أوعيْتَ مِن زادِ[1]

الصبر على المصائب

من ذلك قولهم:

هوِّنْ عليك ولا تُولَعْ بإشفاقِ

وقولهم: مَن أراد طولَ البقاءِ فليُوَطِّنْ[2] نفسهُ على المصائب.

وقولهم: المصيبةُ للصّابِر واحِدَةٌ وللجازِعِ اثنتان.

وقال أكثم بن صيفي: حِيلةُ من لا حيلةَ له الصّبْرُ.

وذكروا عن بعض الحكماء أنه أُصيب بابنٍ له، فبكى حولا ثم سلا، فقيل له: مالك لا تبكي؟ قال: كان جُرْحاً فَبرِيءَ.

قال أبو خراش الهذلي:

بلَى إنها تعفُو الكُلُومُ[3] وإنّما   تُوَكّلُ بالأدنىٰ وإن جَلَّ ما يَمضي

ومنه قولهم: لا تلَهّفْ على ما فات.

الحض على الكرم

منه قولهم: اصطناع المعروف يقِي مصارعَ السوء.

وقولهم: الجودُ مَحبّةٌ والبُخْلُ مبْغَضةٌ.

---

(١) أوعيت: ادخرت.

(٢) فليوطن: فليحمل نفسه على المصائب. (٣) الكلوم: الجروح.

وقول الحطيئة:

مَن يفعل الخير لا يعْدَم جوازِيَهُ   لا يذهَبُ العُرْفُ بين الله والنـاس

الكريم لا يجد

منه قولهم: بيتي يَبخل لا أنا.
وقولهم: بالساعِد تَبطش الكفُّ.

وقولهم:

ما كلَّف اللهُ نفساً فـوق طـاقتِهـا   ولا تَجــود يــدٌ إلا بما تَجِــد

وقال آخر:

يَرى المرءُ أحيانـاً إذا قـلَّ مـالُـه   مـن الخير تـاراتٍ ولا يستطيعُهـا
متَى ما يَرُمْهـا قَصَّـر الفقـر كفَّـه   فيضعُـف عنهـا والغنيُّ يضيعهـا

القناعة والدعة

منه قولهم:

وحسْبك من غنًى شِبَعٌ وريُّ

وقولهم: يَكفيك ما بلَّغك المَحَلَّ.

وقال الشاعر:

مــن شــاءَ أن يُكثِــر أو يُقِلاَّ   يكفيـــه مـــا بلَّغـــه المحلاَّ

الصبر على المكاره تحمده العواقب

قالوا: عواقب المكاره محمودة.
وقالوا: عند الصباح يَحمَد القوم السُّرى[1].

---

(١) السُّرى: سير عامة الليل.

وقولهم: لا تُدرَك الراحة إلا بالتعب.

أخذه حبيب فقال:

على أنني لم أَحْوِ مالاً مُجمَّعاً ففزْت به إلا بشمل مُبدَّدِ
ولم تُعطني الأيام نوماً مُسكَّناً أَلَذُّ به إلا بنومٍ مُشرَّد

وأحسن منه قوله أيضاً:

بَصُرْتَ بالراحة العليا فلم تَرَها تُنال إلا على جسر من التعب

الانتفاع بالمال

قالوا: خير مالِك ما نفَعك، ولم يضِع من مالك ما وعظك.

ونظر ابن عباس إلى درهم بيد رجل، فقال: إنه ليس لك حتى يخرج من يدك.

وقولهم: تقتير المرء على نفسه تَوفير منه على غيره.

قال الشاعر:

أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقته فالمال لكْ

المتصافيان

منه قولهم: هما كندْمانَيْ جذيمة.

قال الكلبي: هو جذيمة الأبرش الملك، ونديماه رجلان من بلقيْن يقال لهما: مالك، وعقيل. بلقين: يريد من بني القين.

وقولهم:

وكلُّ أخٍ مُفارقه أخوه لَعَمر أبيك إلا الفَرقَدانِ

ومنه قولهم: هما أطول صحبة من ابنَيْ شمَامٍ. وهما جبلان.

خاصة الرجل

منه قولهم: عيبة الرجل. يريدون خاصته وموضع سره.

ومنه الحديث في خزاعة: كانوا عيبة رسول الله ﷺ. مؤمنُهم وكافرُهم.

من يكسب له غيره

منه قولهم: ليس عليك غزله فاسحب وجُر.
وقولهم: رُبَّ ساعٍ لقاعد.
وقولهم: خير المال عين ساهرة لعين نائِمة.

المروءة مع الحاجة

منه قولهم: تَجوع الحرة ولا تأكل بثديْيها.
وقولهم: شرُّ الفقر الخضوع، وخير الغنَى القناعة.
ومنه الحديث المرفوع: «أجمِلوا في الطَّلَب».

قال الشاعر:

فـــإذا افتقـــرت فلا تكـــنْ مُتخشِّعـــــاً وتجمَّــــــل[1]

ومنه قول هُدبة العذري:

ولستُ بمفـراحٍ إذا الدهـر سرَّني ولا جـازعٍ مـن صرفـه المُتقلِّـبِ
ولا أتمنـى الشر والشرُّ تـاركـي ولكن متَى أُحَمل على الشرِّ أركـب

المال عند من لا يستحقه

منه قولهم: خَرقاءُ وجدتْ صوفا. عبدٌ ملَك عبداً فأولاه تبّاً[2].
وقولهم: مَن يَطُل ذيلُه يتمنْطَق به. ومرعىً ولا أكولة[3]. وعُشْب ولا بعير. يعني مال ولا منفق.

الحض على الكسب

منه قولهم: اْطلب تظفر.
وقولهم: مَن عجز عن زاده اتَّكل على زاد غيره.

---

(١) تجمل: اتأد واعتدل. (٢) التبّ: الخسار والهلاك. (٣) أكولة: شاة تعزل للأكل فتسمن.

وقولهم: من العجز نُتجت الفاقة.

وقولهم: لا يَفترس الليثُ الظبيَ وهو رابض.

وقول العامة: كلب طواف خير من أسد رابض.

وقولهم:

أورْدها سعد وسعد مُشتمل ... يا سعد لا تَروَى على ذاك الإبل[1]

الخبير بالأمر البصير به

منه قولهم: على الخبير سقطتَ.

وقولهم: كفى قوماً بصاحِبهم خبيراً.

وقولهم: لكل أُناس في جَمَلهم خُبْر.

وقولهم: على يَديَّ دار الحديث.

وقولهم: تعلِّمُني بضبّ أنا حرشْته[2]. يقول: أتخبرني بأمر أنا وليته.

وقولهم: ولّ القوس باريها.

وقولهم: الخيل أعلم بفرسانِها.

وقولهم: كل قوم أعلم بصناعتِهم.

وقولهم: قتل أرضاً عالمها، وقتلت أرض جاهلها.

الاستخبار عن علم الشيء وتيقنه

من ذلك قولهم: ما وراءَك يا عصام. أول من تكلم به النابغة الذبياني لعصام صاحب النعمان، وكان النعماني مريضاً فكان إذا لقيه النابغة قال له: ما وراءك يا عصام؟

وقولهم:

سيأتيك بالاخبار مَن لم تُزوِّدِ

(١) مشتمل: مديراً ثوبه على جسده كله. (٢) حرشته: صدته.

وقولهم: إليك يُساق الحديث.

انتحال العلم بغير آلته

منه قولهم: لكالحادي وليس له بعير.

وقال الحطيئة:

لكالماشي وليس له حِذاءُ

وقولهم: إنباضَ[1] بغير توتير[2]. وكقابِضٍ على الماء.

أخذه الشاعر فقال:

ومَن يأْمَنِ الدنيا يكن مثلَ قابِضٍ ... على الماءِ خانتهُ فروج الأصابِعِ

وخَرْقاءُ ذاتُ نِيقةٍ[3]. يضرب للرجل الجاهلِ بأمرٍ يَدّعي معرفَته.

من يوصي غيره وينسى نفسه

يا طبيبُ طِبَّ لنفسِك.

ومنه: لا تعِظِيني وتَعَظعَظي[4]. أي: لا توصيني وأوصي نفسك.

الأخذ في الأمور بالاحتياط

منه قولهم: أنْ تَرِدَ الماءَ بماءٍ أَكْيَسُ.

وقول العامة: لا تُصبَّ ماءً حتى تجدَ ماءً.

وقولهم: عَش ولا تغْتَرّ. يقول: عش إبلك، ولا تغتر بما تقدم عليه.

ويُروى عن ابن عباس وابن عمر وابن الزبير أن رجلاً أتاهم، فقال: كما لا ينفع مع الشرك عمل، كذلك لا يضُر مع الإيمان تقصير. فكلهم قال: عَش ولا تغترّ.

---

(١) الإنباض: تحريك وتر القوس لترن. (٢) التوتير: شد الوتر.

(٣) نيقة: التأنق في الأمر. (٤) تعظعظي: كفي وارتدي عن وعظك إياي.

وقولهم: ليس بأوَّلِ مَن غرَّهُ السَّرابُ.

وقولهم: اشتَرِ لنفسِك وللسُّوق.

ومنه الحديث المرفوع عن الرجل الذي قال: أُرْسِلُ ناقتي وأتوكلُ. قال: «آعقِلْها وتوكَّلْ».

الاستعداد للأمر قبل نزوله

منه قولهم: قبلَ الرمي يُراشُ السهم.

وقولهم: قبلَ الرِّمايةِ تُمْلأُ الكَنائن[1].

وقولهم: خُذِ الأمرَ بقوابِلِه. أي: باستقباله قبلَ أن يُدْبِر.

وقولهم: شَرُّ الرَّأي الدبَريُّ[2].

وقولهم: المُحاجَزة قبل المُناجزة.

وقولهم: التقدمُ قبلَ التندُّم.

وقولهم: يا عاقِدُ اذكُرْ حَلاًّ.

وقولهم: خيرُ الأمورِ أحمدُها مَغَبَّةً.

وقولهم: ليس للدهرِ بصاحب. من لم ينظرْ في العواقِب.

طلب العافية بمسالمة الناس

قولهم: مَن سَلَكَ الجدَدَ[3] أمن العِثار. واحذَرْ تَسْلَمْ.

ومنه قولهم: جُرَّ له الخطيرَ ما انجَرَّ لك. الخطير: زمام الناقة.

ومنه قولهم: لا تكن أدْنَى العيْرَينِ إلى السهم. يقول: لا تكن أدنى أصحابك إلى موضع التلف، وكن ناحية أو وسطاً.

قال كعب: إنّ لكل قومٍ كلباً فلا تكن كلبَ أصحابِك.

وتقول العامة: لا تكن لسانَ قومٍ.

---

(١) الكنائن: جمع كنانة: وهي جعبة صغيرة للنبل.

(٢) الدبري: الذي يأتي بعد فوات الأمر. (٣) الجدد: الأرض المستوية.

توسط الأمور

من ذلك قولهم: لا تكن حُلواً فتُستَرَطَ، ولا مُراً فتُعْقَى. أي تلفظ. يقال: أعقي الشيء، إذا اشتدّت مرارته. قال الشاعر

ولا تـك آنيـاً حُلْـواً فتُحْسَـى ولا مُـراً فتنشـب في الحِلاَق

وتقول العامة: لا تكن حُلواً فتؤكل، ولا مُراً فتُلفَظ. وتوسُّط الأمورِ أدنَى إلى السلامةِ.

ومنه قول مطرِّف بن عبد الله بن الشخِّير: الحسنة بين السيئتَيْن. وخير الأمور أوساطها، وشرُّ السير الحَقْحَقة[1]. قوله: بين السيئتين؛ يريد بين المجاوزة والتقصير.

ومنه قولهم: بين المُمخَّةِ[2] والعجفاء، يريد بين السمين والمهزول.

ومنه قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: خيرُ الناسِ هذا النَّمَطُ الأوسط، يَلحَقُ بهمُ التالي ويَرجعُ إليهِمْ الغالي.

الإنابة بعد الإجرام

منه قولهم: أقصرَ لمّا أبْصَر.

ومنه: أَتْبعْ السيئةَ الحسنةَ، والتائبُ من الذنبِ كمن لا ذنبَ له، والندَمُ تَوبْة، والاعتِرافُ يَهدِمُ الاَقتراف.

مدافعة الرجل عن نفسه

جاحَسَ فلانٌ عن خَيْطِ رقبتِه. وخيط الرقبة: النخاع، يقول: دافع عن دمه ومُهجته.

وقالت العامة:

وأيّة نفسٍ بعدَ نفسِك تَنفَع

(١) الحقحقه: أرفع للسير واتعبه للظهر. (٢) الممخّة: الشاة بدا في عظامها المخ.

ومنه: أدفعُ عن نفسي إذا لم يكن عنها دافع.

قولهم في الانفراد

الذئبُ خالياً أسدٌ، يقول: إذا وجدك خالياً اجترأ عليك.

ومنه الحديث المأثور: الوحيد شيطان.

وفي الحديث الآخر: عليكم بالجماعة: فإن الذئبَ إنما يُصيبُ من الغنمِ الشاردة.

من ابتلى بشيء مرة مخافة أخرى

منه الحديث المرفوع: لا يُلْسعُ المؤمنُ من جُحْرٍ مرتين. يريد أنه إذا لسع مرة تَحفظ أخرى.

وقولهم: مَن لدغتْهُ الحية يَفْرَق من الرّسن[1].

وقولهم:

مَن يشتري سيفي وهذا أَثَرُهْ

يضرب هذا المثل للذي قد اختُبر وجُرّب.

وقولهم:

كُلَّ الحِذاءِ يَحتذي الحافي الوَقِع

الوقع: الذي يمشي في الوَقَع، وهي الحجارة. قال أعرابي:

يا ليْتَ لي نَعْلَيْنِ من جِلْدِ الضبُعْ ... كلَّ الحِذاءِ يَحتذي الحافي الوَقِعْ

اتباع الهوى

قال ابن عباس: ما ذكر اللهُ الهوى في شيءٍ إلا ذَمه.

قال الشَّعبي: قيل له هَوىً؛ لأنه يُهوى به.

---

(١) الرسن: الحبل.

ومن أمثالهم فيه: حُبُّكَ الشيء يُعمِي ويُصِم.
وقالوا: الهوى إلهٌ معبود.

الحذر من العطب

قالوا: إنَّ السلامةَ منها تَرْكُ ما فيها.
وقولهم: أَعْوَرَ عيْنَك والحَجَر.
وقولهم: الليلَ وأهضامَ الوادي. وأصله أن يسير الرجلُ ليلاً في بطون الأودية. حذَّره ذلك.
وقولهم: دَعْ خيْرَها لشرِّها.
وقولهم: لا تراهن على الصَّعْبة.
وقولهم: أَعْذَرَ مَنْ أَنْذر.

حسن التدبير والنهي عن الخرق

الرِّفق يُمْنٌ والخرق شُؤمٌ. ورُبَّ أكْلةٍ تحرم أكَلات.
وقولهم: قلبَ الأمر ظَهراً لبطنٍ.
وقولهم: ضرَب وجهَ الأمر وعيْنَه، وأجر الأمور على أذلالها. أي على وجوهها.
وقولهم: وجِّه الحَجَر وِجْهة ما له.
وقولهم: ولِّ حارَّها مَن ولِيَ قارَّها[1].

المشورة

قالوا: أوّلُ الحزْم المشورةُ.
ومنه لا يَهلِك امرؤ عن مَشورةٍ.
قال ابن المسيّب: ما استَشَرت في أمرٍ واستَخرْتُ وأُبالي على أيِّ جنبيَّ سقَطْت.

---

(١) قارها: بردها.

الجد في طلب الحاجة

أَبْلِ عذْراً وخَلاك ذَمّ. يقول: إنما عليك أن تجتهد في الطلب وتُعذِر، لكيلا تُذم فيها وإن لم تكن تُقضى الحاجة.

ومنه:

هذا أوان الشَّدِّ فاشتَدِّي زِيَم[1]

وقولهم: دَرِّبْ عليه جِرْوتَك. أي وطِّن عليه نفسك.

ومنه اجمع عليه جَراميزَك[2]، واشدُد له حيازِيمَك[3].

وقولهم: شمِّر ذَيْلاً، وادَّرِعْ لَيْلاً.

ومنه: ايتِ به مِن حَسِّك وبَسِّك[4].

ومنه قول العامة: جيء به من حيْث أيْسَ وليْس. والأيس: الموجود. والليس: المعدوم.

التأني في الأمر

من ذلك قولهم: رُبَّ عَجلةٍ تُعقِب ريثاً.

وقولهم: المنبَتُّ[5] لا أرضاً قَطَع ولا ظهْراً[6] أَبْقى.

وقال القُطامي:

قد يُدرِك المُتأني بعض حاجتِه وقد يكون مع المستعجل الزَّلل

ومنه: ضحِّ رُوَيداً. أي لا تعجل. والرَّشْف أنْقع. أي أروَى يقال: شرب حتى نقع.

ومنه: لا يُرسِل السّاق إلا مُمسِكاً ساقاً.

---

(١) زيم: اسم فرس.

(٢) جراميز: الجسد والأعضاء.

(٣) حيازم: مفردها حيزوم وهو الصدر.

(٤) بسّ: رفق بالناقة عند الحلب.

(٥) المنبت: المنقطع به.

(٦) الظهر: الدابة.

سوء الجوار

ومنه قولهم: لا يَنفعك من جار سُوءٍ تَوقٍّ، والجارُ السوء قطعةٌ من نارٍ.

ومنه: هذا أحقُّ منزلٍ بتَركٍ.

ومنه قولهم: الجارَ قبل الدار، الرفيق قبل الطريق.

ومنه قولهم: بعت جاري ولم أبع داري. يقول: كنت راغباً في الدار، إلا أني بعتها بسبب الجار السوء.

سوء المرافقة

أنت تَئِقٌ وأنا مَئِقٌ فمتى نتَّفِق. التئق: السريع الشر. والمئق: السريع البكاء؛ وقال: الممتلىء من الغضب. والتئق والمئق مهموزان.

وقولهم: ما يُجمع بين الأرْوَى[١] والنَّعَام. يريد أن مسكن الأروى الجبل ومسكن النعام الرمل. والأروى، جمع أرويَّة.

ومنه: لا يَجتمع السَّيْفان في غِمد.

ومنه: لا يَلْطاط هذا بصَفَري. أي لا يلصق بقلبي.

العادة

قالوا: العادَةُ أمْلَك من الأدب.

وقالوا: عادة السُّوءِ شرٌّ من المَغْرم.

وقالوا: أعط العبدَ ذراعاً يَطلبْ باعاً.

ترك العادة والرجوع إليها

منه قولهم: عاد فلانٌ في حافِرَتِه. أي في طريقته. ومنه قوله تعالى: ﴿أئنَّا لَمَرْدُودُونَ في الحافِرَةِ﴾[٢]. ومنه: رجَع فلانٌ على قَرْوائه[٣]. ومنه الحديث: «لا تَرجعُ هذه الأمَّةُ عن قَرْوائها».

---

(١) الأروى: مفردها أروية، تقع على الذكر والأنثى من الوعل.

(٢) سورة النازعات الآية ١٠. (٣) قروائه: أي حاله وطريقته الأولى.

اشتغال الرجل بما يعنيه

منه: كلُّ امريءٍ في شأنه ساعٍ.

وقولهم: هَمُّك ما أهَمَّك. همُّك ما أدْأنك.

وقولهم: ولِيَ حارَّها من تولَّى قارَّها.

قلة الاكتراث

منه قولهم: ما أُباليه بالةً، اَسمَحْ يُسمَحْ لك.

وسئل ابن عباس عن الوضوء من اللبن؟ فقال: ما أباليه بالةً.

وقولهم: الكلابَ على البقَر. يقول: خلِّ الكلاب وبقر الوحش.

قلة اهتمام الرجل بصاحبه

هانَ على الأملَسِ[1] ما لاقى الدَّبِرْ[2].

وقولهم: ما يَلقى الشَّجِيّ من الخليِّ. قال أبو زيد: الشجي مخفف، والخلي: مشدد.

ومنه قول العامة: هان على الصَّحيحِ أن يقول للمريض: لا بأس عليك.

الجشع والطمع

منه قولهم: تُقطِّع أعناق الرِّجال المَطامعُ.

ومنه قولهم: غَثُّك خيرٌ لك من سَمِينِ غيْرِك.

وقولهم: المسألةُ. خُموش[3] في وجه صاحبِها.

وقال أبو الأسود في رجل دنيء: إذا سُئل أرزَ[4] وإذا دُعِيَ انتهز.

ومنه قول عون بن عبد الله: إذا سَأل ألحفَ، وإذا سُئل سَوَّف.

---

(١) الأملس: السليم الظهر من الإبل. (٢) الدَّبر: ضد الأملس.

(٣) خموش: جمع خمش، وهي اسم لجرح البشرة. (٤) أرز: تقبض وتجمع.

الشره للطعام

منه قولهم: وحْمَى ولا حَبَل. أي لا يَذكر شيء إلا آشتهاه، كشهوة الحُبلى وهي الوحمى.

ومنه: المرءُ توّاقٌ إلى ما لم يَنَل.

وقولهم: يَبعثُ الكلابَ على مَرابضِها. أي يطردها طمعاً أن يجد شيئاً يأكله من تحتها.

ومنه قولهم: أراد أن يأكلَ بيدين.

ومنه الحديث المرفوع: «الرَّغْبةُ شُؤمٌ».

الغلط في القياس

مثل قولهم: ليس قَطاً مثل قُطَيّ.[1]

وقال ابن الأسلت:

ليس قَطاً مثل قُطَيّ ولا المَرْعِيُّ في الأقوام كالراعِي

ومنه قولهم: مُذكِّيةٌ تُقاسُ بالجِذاعِ. يُضرب لمن يقيس الكبير بالصغير والمذكية هي المُسنة من الخيل.

وضع الشيء في غير موضعه

منه: كمُسْتَبْضِعِ[2] التَّمرِ إلى هَجَرْ، وهجر: معدن التمر.

قال الشاعر:

فإنا ومن يُهدِي القصائِدَ نحونا كمُسْتَبْضِعٍ تمراً إلى أهلِ خيْبَرَ

ومنه قولهم: كمُعَلِّمةٍ أمها الرَّضاعا.

ومنه الحديث المرفوع: «رُبَّ حامِلِ فِقْهٍ إلى من هو أفْقهُ منه».

---

(١) أي ليس النبيل كالدنيء. (٢) مستبضع: استبضع الشيء: جعله بضاعة.

وفيمن وضع الشيء في غير موضعه: ظَلم مَنِ ٱستَرْعى الذِّئبَ الغَنَم.

وقال ابن هرمة:

كتــارِكــةٍ بيْضَهــا بــالعَــراءِ ومُلْحِفـةٍ بيْـضَ أخـرى جَنـاحـا

يصف النعامة التي تحضُن بيض غيرها وتضيع بيضها.

كفران النعمة

منه: سَمِّن كلبكَ يأكُلك. أَحُشُّكَ وتَروثُني. قال في مخاطبة فرسه: أأعْلِفُكِ الحشيش وتروثي عليّ.

ومنه قول الآخر:

أُعلّمــهُ الرِّمــايــة كــلَّ يَــوْمٍ فلما اشتـدَّ سـاعِـدُهُ رمـاني.

التبذير

منه قولهم: لا ماءَكِ أبقيْتِ، ولا دَرَنَكِ أنْقَيتِ[1].

وقولهم: لا أبوكَ نُشر ولا التُّرابُ نَفِذ. أصل هذا المثل لرجل قال: ليتني أعرف قبر أبي حتى آخذ من ترابه على رأسي.

التهمة

منه قولهم: عسَى الغَوَيْرُ أبؤُساً. والأبؤس جمع بأس، قال ابن الكلبي: الغوير؛ ماء معروف لكلب. وهذا مثَل تكلمت به الزباء، وذلك أنها وجهت قصيراً للخمي بالعير ليجلب لها من بزّ العراق، وكان يطلبها بدم جذيمة الأبرش، فجعل الأحمال صناديق، وجعل في كل صندوق رجلاً معه السلاح، ثم تنكب بهم الطريق وأخذ على الغُوير فسألت عن خبره، فأخبرت بذلك، فقالت: عسى الغُوير أبؤساً. تقول عسى أن يأتي الغوير بشر، وٱستنكرت أخذه على غير الطريق

ومنه: سقَطَتْ به النَّصيحَةُ على الظِّنَّةِ، أي نصحته فاتهمك.

ومنه: لا تنْقُش[2] الشَّوْكة بمِثْلِها، فإن ضلعها معها. يقول: لا تستعن في حاجتك

---

(١) أنقيت: نظّفت. (٢) تنقش: تستخرج الشوكة.

بمن هو للمطلوب منه الحاجة أنصح منه لك.

تأخير الشيء وقت الحاجة إليه

منه: لا عِطْرَ بعدَ عروسٍ، وأصل هذا أن عروساً أُهديت فوجدها الرجل نفلة[١]، فقال لها: أين الطيب؟ قالت: آدخرته. قال: لا عطر بعد عروس.

وقولهم: لا بقاء لِلْحَمِيَّةِ بعد الحُرمةِ؛ يقول: إنما يحمي الإنسان حريمه، فإذا ذهب فلا حمية له.

الإساءة قبل الإحسان

منه: يسْبِقُ دِرَّتَهُ غِرارُهُ؛ الغرار: قلة اللبن. والدرة: كثرته. ويسْبِقُ سيْلهُ مطَرَهُ.

البخل

ما عِندَهُ خيْرٌ ولا ميْرٌ[٢]. سواء هو والعدَم. والعَدَم والعُدْم، لغتان.

ما بضَّ حجَرُهُ. والبض أقل السيلان.

ما تَبُل إحدَى يديْهِ الأُخرى.

الجبن

إنّ الجبانَ حتفُهُ من فوْقِه، ومثله في القرآن: ﴿يَحْسَبونَ كُلَّ صيْحَةٍ علَيْهِمْ﴾[٣].

ومنه: كلَّ أزَب[٤] نفور. وقفَّ شعْرُهُ. واقْشَعَرّتْ ذُؤابتُهُ. معناه: قام شعره من الفرع.

وشِرقَ بريقِهِ.

الجبان يواعد بما لا يفعل

الصِّدقُ يُنْبي عنكَ لا الوعيدُ. ينبي: يدفع عنك من ينبو.

ومنه: أوْسعْتُهُمْ شتماً وأوْدَوْا بالإبِلْ.

---

(١) نفلة: رائحتها متغيرة.

(٢) المير: ما جلب من الميرة، وهي الطعام.

(٣) سورة المنافقون الآية ٤.

(٤) أزب: البعير يكثر شعر حاجبيه.

وقيل لأعرابي خاصم امرأته إلى السلطان: كبَّها اللهُ لِوَجْهِها. فقال: ولو أُمِر بي إلى السِّجْنِ.

الاستغناء بالحاضر عن الغائب

قولهم: إن ذهَبَ عيْرٌ[1] فعَيْرٌ في الرِّباطِ[2].

ومنه:

إذا غابَ منْها كوكَبٌ لاحَ كوْكَبُ

وقولهم: رأسٌ برأسٍ وزيادةِ خَمْسِمائةٍ، قالها الفرزدق في رجل كان في جيش، فقال: من جاء برأس فله خمسمائة درهم: فبرز رجل وقتل رجلاً من العدو، فأعطاه خمسمائة درهم؛ ثم برز ثانية، فقتِل، فبكى عليه أهله، فقال لهم الفرزدق: أما ترضون رأساً برأس وزيادة خمسمائة؟

المقادير

منه قولهم: المقاديرُ تُريكَ ما لا يخْطُر ببالِكَ.

وقولهم: إذا نَزلَ القَدَرُ غشَّى البصَر. وإذا نَزلَ الحَيْنُ غَطَّى العيْنَ. ولا يُغْني حذَر منْ قدَرٍ. من مأْمَنِهِ يُؤْتَى الحَذِرُ.

وقولهم: وكيفَ تَوَقَّى ظهْرَ ما أَنتَ راكِبُه.

الرجل يأتي إلى حتفه

منه قولهم: أتتْكَ بحائنٍ رجْلاهُ. لا تكُنْ كالباحِثِ عنِ المُدْيَة.

وقولهم: حتْفَها تحمِلُ ضأنٌ بأظلافِها.

---

(١) عير: حمار.

(٢) الرباط: حبل الصيد.

ما يقال للجاني على نفسه

يداكَ أوكتَا وفوكَ نفَخَ. وأصله أن رجلاً نفخ زقّاً وركبه في النهر، فانحل الوكاء وخرجت الريح وغرق الرجل. فاستغاث بأعرابي على ضفة النهر، فقال: يداك أوكتا وفوك نفخ.

جالب الشر إلى أهله

منه قولهم: دلَّتْ على أَهْلِها بَراقِشُ. وبراقشُ كلبة لحي من العرب مرَّ بهم جيش ليلاً ولم ينتبهوا لهم، فنبحت براقش فدلت عليهم.

وقالوا: كانت علَيْهِمْ كراغَيةِ البَكْرِ. يعنون ناقة ثمود.

وقال الأخطل:

ضفـادعُ في ظلْماءِ ليْـلٍ تجاوَبــت   فدَل عليْها صـوْتُها حيَّـةَ البَحْـرِ

تصرف الدهر

منه قولهم: مرةً عيْشٌ ومرَّةً جيْشٌ.

ومنه: اليوْم خمْرٌ وغداً أمْرٌ: قاله امرؤ القيس، أو مهلهل أخو كليب، لما أتاه موت أخيه وهو يشرب.

وقالوا: عِشْ رجباً تَر عجَباً.

وقالوا: أتى الأبدُ على لُبَد[1].

وقال الشاعر:

فيـــومٌ علينـــا ويـــومٌ لنـــا   ويـــومٌ نُســـاءُ ويـــومٌ نُسَـــرُّ

وقولهم: مَنْ يجتمعْ تتقَعقَعْ عُمُده. وأنشد:

أَجـارَتَنـا مَـن يجتمِـعْ يتفــرقِ   ومَن يَكُ رَهْنـاً للحـوادث يَغْلَـق

(١) لبد: آخر نسور لقمان.

الأمر الشديد المعضل

منه قولهم: أَظْلَمَ عليه يومُه، وأين يَضَعُ المخنوقُ يدَه.

ومنه قولهم: لو كان ذا حِيلةٍ لتحوّل.

ومنه قولهم: رأى الكوكبَ ظُهراً. قال طرفة:

وتُريه النَّجْمَ يَهوِي بالظُّهُر

هلاك القوم

منه قولهم: طارت بهمُ العَنقاءُ. وطارت بهمْ عُقابٌ مَلاَعٌ. يقال ذلك في الواحد والجمع. وأحسبُها معدولةً عن مليع[1].

والمَنايا على الحَوَايا. قال أبو عبيد: يقال إن الحوايا في هذا الموضع مَركب من مراكب النساء، واحدتها حَوِيَّة، وأحسب أصلها أنّ قوماً قتلوا، فحُملوا على الحوايا، فظنّ الراءون أنّ فيها نساء، فلما كشفوا عنها أبصروا القتلى، فقالوا ذلك؛ فصارت مثلاً.

ومنه: أتتْهُمُ الدُّهَيم تَرْمي بالرَّضْف[2]. معناه الداهية العظيمة.

وهذا أمْرٌ لا يُنادَى وَلِيدُه. معناه أن الأمر آشتد حتى ذَهِلت المرأة أن تدعو وليدها.

ومنه: التَقتْ حَلْقتا البطان[3]. وبَلَغ السيْلُ الزُّبىٰ. وجاوزَ الحِزامُ الطبْيَيْن. وتقول العامة: بلغ السِّكِّينُ العظْم.

إصلاح ما لا صلاح له

منه قولهم:

كدابغةٍ وقد حَلِمَ الأديمُ

(١) مليع: الدابة السريعة. (٢) الرضف: الحجارة المحماة.

(٣) البطان: الحزام الذي يجعل تحت بطن البعير.

حلم: فسد. وكتب الوليد بن عُقبة إلى معاوية بهذا البيت:

فـإنــك والكتــابَ إلى علِــيٍّ   كــدابغــةٍ وقــد حَلِــمَ الأديمُ

في شعر له.

صفة العدوّ

يقال في العدوّ: هو أزْرقُ العين. وإن لم يكن أزرق. وهو أسودُ الكبد. وأصْهَبُ السِّبَال[1].

البخيل يعتل بالعسر

منه قولهم: قبلَ البُكاءِ كان وجهُكَ عابِساً.

ومنه: قبلَ النفاسِ كنتِ مصفَرَّة.

اغتنام ما يعطي البخيل وإن قل

منه: خُذْ من الرَّضْفةِ[2] ما عليها. وخذ مِن جَذع ما أعطاك.

قال ابن الكلبي: وأصل هذا المثل أنّ غسان كانت تؤدِّي إلى ملوك سَلِيح دينارين كل سنة عن كل رجل، وكان الذي يلي ذلك سبطة بن المنذر السَّليحي. فجاء سبطة إلى جَذَع بن عمرو الغَسّاني يسأله الدينارين. فدخل جَذع منزلَه واشتمل على سيفه، ثم خرج فضرب به سَبَطة حتى سكت، ثم قال له: خُذ من جذع ما أعطاك! فامتنعت غسّان من الدينارين بعد ذلك، وصار الملك لها حتى أتى الإسلام.

البخيل يمنع غيره ويجود على نفسه

منه قولهم: سَمْنُكم هُرِيقَ في أَدِيمكم.

ومنه: يا مُهدِيَ المالِ كُلْ ما أَهْدَيْتَ.

---

(١) السبال: جمع سبلة، وهي ما على الشارب من الشعر.

(٢) الرضفة: واحدة الرضف، وهي حجارة تحمى وتطرح في اللبن ليسخن أو يجمد.

ومنه قول العامة: الحِمار جَلَبَه والجمار أَكَلَه.

موت البخيل وماله وافر

منه: مات فلانٌ عريضَ البطان[1]. ومات ببِطنتِه لم يتغضغض منها شيءٌ. والتغضغض: النقصان.

البخيل يعطي مرة

منه قولهم: ما كانت عطيَّتُه إلا بيْضةَ العُقْر. وهي بيضة الديك.

قال الزبيري: الدِّيكُ ربما باضَ بيْضة.

وأنشد لبشار:

قد زُرتِني زَوْرةً في الدهر واحدة ... ثَنّي ولا تجعَليها بيْضةَ الدِّيكِ

ومنه قول الشاعر:

لا تعجبنّ لخيرٍ زل من يده ... فالكوكبُ النحسُ يسقي الأرض أحياناً

ومنه قولهم: من الخواطىء سهم صائب.

والليلُ طويلٌ وأنتَ مُقْمِرٌ. وأصل هذا أنّ سُليك بن سلكة، كان نائماً مشتملاً، فجثم رجل على صدره. وقال له: آستأسرْ. فقال له: الليل طويل وأنت مقمر. ثم قال له: آستأسر يا خبيث. فضمه ضمة ضرط منها، فقال له: أَضَرِطاً وأنتَ الأعلى. فذهبت أيضاً مثلاً.

طلب الحاجة المتعذّرة

منه قولهم: تَسْأَلني بِرامَتين[2] سَلْجَماً. وأصله أن امرأة تشَهَّتْ على زوجها سَلجماً وهو ببلد قفر، فقال هذه المقالة؛ والسلجم: اللفت.

---

(١) عريض البطان: كناية عن انتفاخ البطن.

(٢) برامتين: يريد رامة، وهي منزل في طريق البصرة.

ومنه: شر ما نال امرؤ ما لم يَنل.

ومنه: السائلُ فوقَ حقِّه مستحقّ الحرمان.

ومنه قولهم:

إنــكِ إنْ كلّفْتني مــا لم أُطِــقْ ساءَكِ مـا سَـرَّك مني مِـن خُلـقْ

الرضا بالبعض دون الكل

منه: قد يَركَب الصَّعْب مَن لا ذلول له.

وقولهم: خُذْ من جِذْعٍ ما أعطاك.

وقولهم: خُذ ما طَفَّ لك. أي آرض بما أمكنك.

ومنه قولهم: زوْجٌ من عودٍ خيْرٌ من قُعودٍ.

وقولهم: ليس الرِّيُّ [عن] التَّشَافِّ. أي ليس يروي الشارب بشرب الشفافة كلها، وهي بقية الماء في الإناء، ولكنه يَروي قبل بلوغ ذلك.

وقولهم: لْم يُحرَم مَن فُصِد له. ومعناه أنهم كانوا إذا لم يقدروا على قِرَى الضيف فَصدوا له بعيراً وعالجوا دمه بشيء حتى يمكن أن يأكله.

ومنه قول العامة: إذا لم يكن شحمٌ فنفَسٌ. أصل هذا أن آمرأةً لبست ثياباً، ثم مشت وأظهرت البَهر في مشيتها بارتفاع نفَسها، فلقيها رجل، فقال لها: إني أعرفك مهزولة، فمن أين هذا النفس؟ قالت: إن لم يكن شحم فنفس، وقال ابن هانىء:

قال لي: تَـرضَـى بِـوعْـدٍ كـاذبٍ قلـت إن لم يــكُ شحــمٌ فنفَسٌ

التنوّق في الحاجة

منه قولهم: فعلْتُ فيها فعل من طَبَّ لمن حَبَّ.

ومنه قولهم: جاء تَضِبُّ لِثاتُه على الحاجة. معناه لشدة حرصه عليها.

وقال بشر بن أبي حازم:

خَيْلٌ تَضِبُّ لِثاتُها للمغنم[1]

استتام الحاجة

أَتْبع الفَرَس لجامَها. يريد أنك قد جُدت بالفرس واللجامُ أيسَرُ خَطْباً. فأتمّ الحاجة.

ومنه: تمامُ الرَّبيع الصَّيْفُ. وأصله في المطر؛ فالربيع أوله، والصيف آخره.

المصانعة في الحاجة

من يَطلب الحسناءَ يُعْط مَهْرها.

وقولهم: المصانعة تُيَسِّر الحاجة، ومَنِ آشترى فقد آشتَوى. يقول: من اشترى لحماً فقد أكل شواء.

تعجيل الحاجة

قولهم: السَّراجُ من النَّجاحِ، والنَّفْس مُولعة بِحُبِّ العاجلِ.

الحاجة تمكن من وجهين

منه قولهم: كِلاَ جانِبَيْ هَرْشى لهنّ طريق. هرشى: عقبة.

ومنه: هو على حَبْل ذِراعِك. أي لا يُخالفك.

من منع حاجة فطلب أخرى

منه قولهم: إلأَدَهِ فَلاَدَهِ. قال ابن الكلبي: معناه أنّ كاهناً تقاضى إليه رجلان من العرب. فقالا: أخبرنا في أي شيء جئناك؟ قال: في كذا وكذا. قالا: إلآده. أي انظر غير هذا النظر. قال: إلآده فلاده. ثم أخبرهما بها. قال الأصمعي: معناه إن لم يكن هذا الآن فلا يكون بعد الآن.

---

(١) تضب لثاتها: انحلب ريقها.

الحاجة يحول دونها حائل

منه قولهم: قد عَلِقَت دلْوَك دلْوٌ أُخرى.

وقولهم: الأمر يَحدُث دونه الأمر.

وقولهم: أَخْلَف رُوَيْعياً[1] مَظنَّه[2]. وأصله أن راعياً اعتاد مكاناً، فجاء يرعاه، فوجده قد تغير وحال عن عهده.

ومنه قولهم: سَدَّ آبن بيضٍ الطريق سَدّاً. وابن بيض: رجل عقر ناقة في رأس ثنية فسدَّ بها الطريق.

اليأس والخيبة

منه قولهم: منْ لي بالسانحِ بعد البارِحِ. أي من لي باليُمن بعد الشؤم.

وقولهم: جاءَ بِخُفَّيْ حُنيْن. وقد فسرناه في الكتاب الذي قبل هذا.

ومنه: أطال الغَيْبَةَ وجاءَ بالخَيْبة.

ونظير هذا قولهم: سكَتَ أَلْفاً ونطَق خلفاً. أي أطال السكوت وتكلم بالقبيح، وهذا المثل يقع في باب العيّ، وله ها هنا وجه أيضاً.

وقال الشاعر:

وما زِلتُ أقطع عرْض البلادِ ... منَ المشرقَيْن إلى المغربيْن
وأدَّرِعُ الخوْف تحت الدُّجى ... وأستَصحِبُ النَّسْر والفَرْقَديْن[3]
وأطوي وأنشُرُ ثوبَ الهموم ... إلى أن رجَعْتُ بخُفَّيْ حُنَيْن

طلب الحاجة في غير موضعها

قالوا: لم أجد لشفرتي محزاً[4].

وقولهم: كَدَمْتُ غير مَكْدَم[5].

---

(١) رويعيا: تصغير أروع وهو الذكي الفؤاد.

(٢) مظنة: مظن الشيء: ما يظن وجود الشيء فيه.

(٣) ادرع: ألبس. (٤) محزا: موضع الحز. (٥) مكدم: موضع العض.

وقولهم: نفختَ لو تنفخ في فحم.
وقالت العامة: يضرب في حديد بارد.

طلب الحاجة بعد فوتها

منه قولهم: لا تَطلُب أثراً بعد عيْن.
وقولهم: الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَن. معناه أن الرجل إذا لم يُطرِق ماشيته في الصيف كان مضيِّعاً لألبانها عند الحاجة.

الرضا من الحاجة بتركها

منه قولهم: من نَجا برأْسِهِ فقد رَبح.

وقولهم: رضِيت منَ الغَنيمةِ بالإيابِ[1]

وقول العامة: الهزيمة مع السَّلامة غنيمةٌ.

وقال امرؤ القيس:

وقد طَوَّفْت في الآفاق حتى رضيت من الغَنيمة بالإياب

وقال آخر:
الليْل داجٍ والكباشُ تَنتَطِح فمن نجا برأْسِه فقد رَبحْ

من طلب الزيادة فانتقص

منه: كطالب القَرْن [جَدِعَتْ] أُذُنُه.
وقولهم: كطالب الصَّيْد في عِرِّيسة[2] الأسَد.
وقولهم: سَقَط العَشاءُ بها على سِرْحان. يريد دابة خرجت تطلب العشاء فصادفت ذئباً.

---

(١) الإياب: العودة. (٢) عريسة: الشجر الملتف يكون مأوى للأسد.

ونظير هذا من قولنا:

طَلَبت بـك التّكثيرَ فـازْددْتَ قلّـة وقد يَخسرُ الإنسان في طلب الرِّبح

الخلاء بالحاجة

منه قولهم:

خَلا لك الجوُّ فبيضي وآصفري

ومنه: رُميَ بريشِك على غاربِك. وهذا المثل قالته عائشة لابن أخت ميمونة زوج النبي ﷺ: ذهبت والله ميمونة ورُمي بريشك على غارك.

إرسالك في الحاجة من تثق به

أرْسِل حكيماً ولا تُوصِهِ

وقولهم: الحريصُ يصيدُ لك لا الجوادُ. يقول: إن الذي يحرُص بحاجتك هو الذي يقوم بها، لا القويّ عليها ولا هوى له فيها.

ومنه: لا يُرَحِّلَنَّ رحْلَكَ مَن ليس معَك.

ومنه في هذا المعنى: الحاجة يجعلها نُصْبَ عيْنَيْهِ، ويَحْملها بين أُذْنِه وعاتِقهِ ولم يَجعلْها بظَهْرٍ.

قضاء الحاجة قبل السؤال

منه قولهم: لا تسألِ الصّارِخَ وانظُرْ مالهُ. يريد: لم يأتك مستصرخاً إلا مِن ذعر أصابه، فأغثه قبل أن يسألك.

ومنه: كفَى برُغائِها مُنادِياً.

ومنه يُخْبِرُ عن مَجهولِه معلومُه.

وقولهم: في عيْنِه فرارُهُ[1]. يعنون في نظرك إلى الفرس ما يُغنيك عن أن تَفرّه.

---

(١) فراره: الفرار أي النظر إلى أسنان الدابة لتعرف سنها.

الانصراف بحاجة تامة مقضية

جاءَ فُلانٌ ثانياً من عِنانِه. فإن جاء بغير قضاء حاجة، قالوا: جاءَ يضرِبُ أصدريْهِ، أي عِطفيه.

وجاءَ وقد لفظ لِجامَه. وجاءَ سَبَهْلَلاً[1].

فإن جاء بعد شدة قيل: جاءَ بعدَ اللتيَّا والتي. وجاءَ بعدَ الهِياطِ المِياطِ[2].

تجديد الحزن بعد أن يبكي منه

منه قولك: حرِّكْ لها حُوَارها تَحِنّ. وهذا المثل يُروى عن عمرو بن العاص أنه قال لمعاوية حين أراد أن يستنصر أهل الشام: أخرج إليهم قميصَ عثمان رضوان الله عليه الذي قُتل فيه. ففعل ذلك معاوية. فأقبلوا يبكون. فعندها قال عمرو: حَرِّكْ لها حُوارها[3] تحنّ.

جامع أمثال الظلم

منه قولهم: الظُّلْمُ مَرْتعُهُ وخيمٌ.

وفي الحديث: «الظُّلم ظُلُماتٌ يومَ القيامةِ».

ومنه: إنَّك لا تَجْني مِنَ الشَّوْكِ العنَبَ.

وقولهم: الحرْبُ غشُومٌ.

الظلم من نوعين

منه: أحشَفاً وسوءُ كيلَة.

ومنه: أغُدَّة كغُدَّةِ البعيرِ، وموْتٌ في بيْتِ سلُوليَّة.

وهذا المثل لعامر بن الطفيل حين أصابه الطاعون في انصرافه عن النبي ﷺ، فلجأ إلى امرأة من سلول فهلك عندها.

---

(١) سبهللا: فارغاً. (٢) الهياط والحياط: الضجيج والشر والجلبة.

(٣) الحوار: ولد الناقة من وقت ولادته إلى أن يفطم ويفصل.

ومنه: أَغَيْرةً وجُبْناً. قالته امرأة من العرب لزوجها تعيّره حين تخلّف عن عدوّه في منزله، ورآها تنظر إلى القتال فضربها. فقالت: أغيرة وجُبناً؟

وقولهم: أَكَسْفاً وإمساكاً. أصله الرجل يلقاك بعبوس وكلوح مع بخل ومنع.

وقولهم: يا عبْرَى[1] مُقبِلةً وسَهْرَى[2] مُدْبِرةً. يضرب للأمر الذي يُكره من وجهين.

ومنه قول العامة:

كالمُسْتغيثِ مِنَ الرَّمْضاءِ بالنارِ

وقولهم: لِلموْتِ يفْزَعُ ولِلموْتِ بَدَرَ.

وقولهم: كالأشقرِ[3]: إن تقدَّمَ نحرَ، وإن تأخَّرَ عُقر.

وقولهم: كالأرقمِ[4] إن يُقْتَلْ يَنْقم، وإن يُتْرَكْ يلْقم. يقول: إن قتلته كان له من ينتقم له منك، وإن تركته قتلك.

ومنه: هو بين حاذِفٍ وقاذِفٍ. الحاذف: الضارب بالعصا، والقاذف: الرامي بالحجر.

من يزاد غماً على غمه

منه قولهم: ضِغْثٌ على إبَّالةٍ. الضغث: الحزمة الصغيرة من الحطب، والإبالة: الكبيرة.

ومنه قولهم: كِفْتٌ إلى وئيَّة. الكفت القدر الصغيرة، والوئيَّة: القدر الكبيرة. يُضرب للرجل يحمل البلية الكبيرة ثم يزيد إليها أخرى صغيرة.

ومنه قولهم: وقَعوا في أُمِّ جُنْدُب، إذا ظلَموا.

المغبون في تجارته

منه قولهم: صفْقَةٌ لم يشْهَدْها حاطبٌ. وأصله أن بعض أهل حاطب باع بيعة غَبن بها.

---

(١) عبرى: باكية.
(٢) سهرى: ساهرة.
(٣) الأشقر: أي كالفرس الأشقر.
(٤) الأرقم: نوع من الحيات فيه بياض وسواد.

ومنه قولهم: أعطاهُ اللّفاءَ[1] غيْرَ الوفاء.

سرعة الملامة

منه: ليس مِنَ العدْلِ سُرْعةُ العذْلِ.
ومنه: رُبَّ ملُومٍ لا ذنبَ له.
وقولهم: الشَّعيرُ يُؤكلُ ويُذَمُّ.
وقول العامة: أَكْلاً وذمّاً.
وقول الحجاج: قُبِّح والله منَّا الحَسنُ.

الكريم يهتضمه اللئيم

لو ذاتُ سِوارٍ[2] لطمَتْنِي.
ومنه: ذُلٌّ لو أَجِدُ ناصِراً.

الانتصار من الظلم

هذهِ بتِلْك، والبادي أظْلَمُ.
ومنه: مَنْ لم يَذُدْ عن حوْضِهِ يُهدَّمِ.

الظلم ترجع عاقبته على صاحبه

قالوا: من حفَرَ مُغوَّاةً وقعَ فيها. والمغواة: البئر تحفر للذئاب، ويجعل فيها جدي ليسقط الذئب فيها ليصيده، فيُصطاد.
ومنه: يعْدُو على كُلِّ امْرِيءٍ ما يأْتَمِر.
ومنه: عادَ الرَّمْيُ على النَّزَعَةِ. وهم الرماة يرجع عليهم رميهم.
وتقول العامة: كالباحِثِ عن المُدْيَةِ.
ومنه قولهم: رُمِيَ بِحَجرِهِ، وقُتِلَ بسِلاحِه.

---

(١) اللفاء: القليل وما دون الحق. (٢) ذات سوار: أي الحرة.

المضطر إلى القتال

مُكْرَهٌ أخوكَ لا بطَلٌ.

قد يَحْمِلُ العيْرُ مِنْ ذَعْرٍ على الأسَدِ

المأخوذ بذنب غيره

جانِيكَ مَنْ يَجْني عليْكَ.

ومنه: كذِي[1] العرِّ يُكْوَى غيْرُهُ وهو راتِعُ

ومنه: كالثَّوْرِ يُضْرَبُ لَمّا عافَت البقَرُ.

يعني: عافت الماءَ.

وقال أنس بن مُدْرك:

إني وقتْلي سُلَيْكـاً ثم أعْقِلُـه كالثْورِ يُضرَبُ لما عافتِ البقَـرُ[2]

يعني ثور الماء. وهو ثورانه، يقال: ثار الماء ثَوراً وثوراناً.

ومنه قولهم: كلُّ شاةٍ برِجلِها تُناطُ[3]. يريد: لا يؤخذ رجل بغير ذنبه.

المتبرىء من الشيء

ما هو مِن ليلهِ ولا سَمَرِه. ما هو من بَزِّي ولا من عِطْري. مالي فيه ناقةٌ ولا جملٌ.

ومنه قولهم: بَرِئتُ منه إلى الله.

ومنه: لستُ منكَ ولستَ مِني. وما أنا من دَدٍ ولا الدَّدُ[4] مِنِّي.

---

(١) العر: نوع من القروح يخرج بالأبل في المشافر والقوائم.

(٢) أعقله: أأديه ديته بالعقل في فناء ورثته.

(٣) تناط: تعلق.

(٤) الدد: اللعب واللهو.

سوء معاشرة الناس

قالوا: الناسُ شجرةُ بَغْي. لا سبيلَ إلى السلامةِ من أَلْسِنة العامة. ورضا الناسِ غايةٌ لا تُدْرَك.

ومنه الحديث المرفوع: «الناسُ كإبلٍ مائةٍ لا تكادُ تجدُ فيها راحلة».

ومنه قولهم: الناسُ يُعيِّرون ولا يُغفِرون، واللهُ يَغفِرُ ولا يعيِّر.

وقال مالك بن دينار: من عرف نفسه لم يضره قولُ الناس فيه.

وقول أبي الدرداء: إن قارضتَ الناس قارضوك، وإن تركتهم لم يتركوك.

الجبان وما يذم من أخلاقه

منه قولهم: إنّ الجبانَ حَتْفُه مِن فوقِه. وهو قول عمر بن مامة:

لقد وجَدْتُ الموتَ قبلَ ذوْقِه إنّ الجبانَ حتْفُه مِن فوقِه

قال أبو عبيد: أحسبه أراد أن حذره وتوقّيه ليس بدافع عنه المنيّة. وهذا غلط من أبي عبيد عندي، والمعنى فيه أنه وصف نفسه بالجبن، وأنه وجد الموت قبل يذوقه، وهذا من الجبن، ثم قال: إنّ الجبان حتفه من فوقه يريد أنه نظر إلى منيته كأنما تحوم على رأسه.

كما قال تبارك وتعالى في المنافقين إذ وصفهم بالجبن: ﴿يَحسَبونَ كلَّ صيحةٍ عليهِم هُمُ العدوّ﴾(١).

وقال جرير للأخطل يُعيِّره إيقاع قيس بهم:

حلتْ عليك رِجال قيس خيْلُها شُعْثاً عوابِسَ تَحمِلُ الأبطالا

ما زِلتَ تحسب كلَّ شيءٍ بَعدَهم خيلاً تكُرُ عليكمُ ورجالاً

ولو كان الأمر كما ذهب إليه أبو عبيد ماكان معناه يدخل في هذا الباب؛ لأنه باب الجبان وما يذم من أخلاقه، وليس الأخذ في الحذر من الجبن في شيء، لأن أخذ

---

(١) سورة المنافقون الآية ٤.

الحذر محمود وقد أمر الله به، والجبن مذموم من كل وجه.

ومنه الشعر الذي تمثّل به سعد بن معاذ يوم الخندق:

لَبِّثْ قليلاً يُـدرِكِ الهيْجـا جَمَـلْ ما أحسنَ الموتَ إذا حـان الأجـل

ومنه قولهم: كلُّ أزَبَّ نَفور. وإنما يقال في الأزبِّ من الإبل لكثرة شعره، ويكون ذلك في عينيه، فكلما رآه ظنّ أنه شخص يطلبه فينفر من أجله.

ومنه قولهم: بَصْبَصْنَ[1] إذ حُدِينَ بالأذناب.

ومنه قولهم:

دَرْدَبَ[2] لمّا عَضَّه الثقافُ[3]

وقولهم: حالَ الجَريض[4] دون القريض. وهذا المثل لعَبيد بن الأبرص، قاله للنعمان بن المنذر بن ماء السماء حين أراد قتله فقال له: أنشدني شعرك.

أقْفرَ من أهلِه مَلحوبُ[5]

فقال عبيد: حالَ الجريض دون القريض.

ومنه: قَفَّ شَعْرُه، واقشعرَّتْ ذُؤابَتُه. معناه قام شعره من الفزع.

إفلات الجبان بعد إشفائه

منه قولهم: أفْلَتَ وانحَصَّ[6] الذَّنَب.

ومنه: أفلت وله حُصاص[7].

ويروى في الحديث: «إن الشيطان إذا سَمع الأذان أدبَر وله حُصاص».

ومنه أفلتني جُرَيْعة الذَّقن. إذا كان منه قريباً كقرب الجرعة من الذقن، ثم أفلته.

---

(١) بصبص: حرك ذنبه.

(٢) دردب بالشيء: اعتاده.

(٣) الثقاف: خشبة تسوى بها الرماح.

(٤) الجريض: الغصة.

(٥) ملحوب: اسم ماء لبني أسد.

(٦) انحصّ الذنب: تناثر شعره.

(٧) حصاص: ضراط.

ومنه قول العامة: إن يُفلّت الطير فقد ذَرَق[1].

وقولهم: أفلت وقد بلَّ النَّيْفَق[2]. الذي تسميه العامة: النِّيفَق.

الجبان يتهدد غيره

منه قولهم: جاء فلان ينفُض مِذْرَويه. أي يتوعد ويتهدّد. والمذروان: فرعاً الأليتين. ولا يكاد يقال هذا إلا لمن يتهدد بلا حقيقة.

ومنه: أبْرِق لمن لا يعرفُك. وآقصد بذَرْعك. ولا تُبْقِ إلا على نفسك.

تصرف الدهر

منه: من يَجتمع تتقَعْقَع[3] عُمُدُه. أي أن الاجتماع داعية الافتراق.

ومنه: كل ذات بعْل ستَئِيم[4].

ومنه البيت السائر:

وكل أخٍ مُفارِقُه أخوه ... لعَمْر أبيك إلا الفَرقدانِ

ومنه: لم يفُت من لم يَمت.

الاستدلال بالنظر عن الضمير

منه قولهم: شاهِد البُغض اللحظ. وجَلّى مُحبٌّ نظَره.

قال زهير:

فإن تكُ في صديق أو عدوٍّ ... تُخبِّرْك العيون عن الضمير

وقال ابن أبي حازم:

خُذ من العيش ما كفى ... ومن الدهر ما صَفا

---

(١) ذرق: رمى بسلحه. (٢) النيفق: الموضع المتسع من السروال.

(٣) التقعقع: صوت العمد وهي تجمع للرحيل. (٤) ستئيم: ستصبح أيماً، أي بلا زوج.

عينُ مَــــن لا يُحِـــبُّ وصْـ ـلَـكَ تُبْــدِي لــك الجفـــا

نفي المال عن الرجل

منه قولهم: ماله سَعْنَة[١] ولامَعْنة[٢]. معناه لا شيء له.

ومنه: ماله هِلع ولا هِلّعة. وهما الجدي والعَناق[٣].

ومنه: ماله هارب ولا قارِب، معناه ليس له أحد يهرب منه، ولا أحد يقرب إليه؛ فليس له شيء.

وقولهم: ماله عافِطة ولا نافِطة؛ وهما الضائنة والماعزة. وما به نبض ولا حَبَض.

قال الأصمعي: النبض: المتحرك، ولا أعرف الحبض.

وقال غيره: النبض والحبض في الوتر، والنبض: تحرك الوتر، والحبض: صوته. قال:

والنبْل يَهوى نَبضاً وحَبضاً

ومنه قولهم: ماله سَبَد ولا لَبَد. هما الشعر والصوف.

ولم يعرف الأصمعي السَّعْنة والمعْنة.

إذا لم يكن في الدار أحد

منه قولهم: ما بالدار شَفْر[٤]؛ ولا بها دُعْوِي؛ ولا بها دُبِّي. معناه ما بها من يدعو ومن يدب، وما بها من غريب. ولا بها دُوري ولا طوري؛ وما بها وابِر، وما بها صافِر، ولا بها ديَّار، وما بها نافخ ضرمة[٥]، وما بها أَرَم. معنى هذا كله ما بها أحد، ولا يقال منها شيء في الإثبات والإيجاب، وإنما يقولونها في النفي والجحد.

---

(١) سعنة: الكثرة من الطعام.

(٢) معنة: القلة من الطعام. (٣) العناق: الأنثى من أولاد المعزى.

(٤) شفر: أحد. (٥) الضرمة: ما أضرمت فيه النار.

ومنه: لَقِيتُ فلاناً أوّل عين. يعني أوّل شيء.

وقال أبو زيد: لقيتُه أوّل عائِنة. ولقيته أوّل وهْلة. ولقيتُه أوّل ذات يَدين. ولقيته أوّل صَوْك وأول بَوك[1]. فإن لقيته فجأة من غير أن تريده، قلت: لقيته نِقاباً؛ ولقيتُه التِقاطاً، إذا لقيته من غير طلب. وقال الراجز:

ومَنْهل ورَدْتُه التِقاطاً

وإن لقيته مواجهة قلت: لَقِيتُه صِفاحاً. ولقيتُه كفاحاً. ولقيته كفَّةَ كفَّةَ.

قال أبو زيد: فإن عرض لك من غير أن تذكره قلت: رُفِع رفْعاً؛ وأُشِبَّ لي إشباباً. فإن لقيته وليس بينك وبينه أحد، قلت: لقيته صَحْرة بَحْرة. وهي غير مجراة. فإن لقيته في مكان قفر لا أنيس به قلت: لقيته صحرة بَحرة أَصْمَت، غير مجرًى أيضاً. ولقيته بين سمْعِ الأرض وبصرها. فإن لقيته قبل الفجر قلت: لقيته قبل [كلِّ] صَبْح ونَفْر. النفر: التفرق. وإن لقيته بالهاجرة قلت: لقيته صَكة عُمَيّ، وصكة[2] أعمى.

قال رؤبة يصف الفلاة إذا لمعت بالسراب في الهاجرة:

شبيهةً بسهم قوسٍ لَمعا صَكَّ عُمي زاجراً قد بَرَعا[3]

فإن لقيته في اليومين والثلاثة قلت: لقيته في الفَرَط. ولا يكون الفرط في أكثر من خمس عشرة ليلة. فإن لقيته بعد شهر ونحوه، قلت: لقيته في عَفَر. فإن لقيته بعد الحول ونحوه قلت: لقيته عن هَجْر. فإن لقيته بعد أعوام قلت: لقيته ذاتَ العُوَيْم. فإن لقيته في الزمان قلت: لقيته ذات الزَّمَيْن. والغب في الزيارة، وهو الإبطاء فيها. والاعتمار في الزيارة. وهو التردّد فيها.

---

(١) أول صوك وأول بوك: أول شيء وأول مرة.

(٢) الصكة: شدة الهاجرة (٣) صك عمي: أشد الهاجرة أي حين كاد الحر يعمي.

في ترك الزيارة

منه قولهم: لا آتيك ما حَنت النِّيب. وما أطت[1] الإبل. وما اختَلف الدَّرة والجرَّة. وما ٱختلف المَلوان. وما ٱختلف الجديدان. ولا آتيك السَّمَر والقمر وأبَد الأبَد.

ويقال: أبَد الآبِدين. ودهر الداهِرين. وحتى يَرجع السَّهْم إلى فُوقِه[2]. وحتى يَرجع اللَبن في الضَّرْع. ولا آتيك سِنَّ الحِسْل.

تفسيره: النيب: جمع ناب، وهي المُسنة من الإبل. والدرة: الحلبة من اللبن. والجرة: من اجترار البعير. والملوان والجديدان: الليل والنهار. والحسل: هو ولد الضب. يقول: حتى تسقط أسنانه، ولا تسقط أبداً حتى يموت.

استجهال الرجل ونفي العلم عنه

منه قولهم: ما يَعرفُ الحوَّ من اللوِّ. وما يَعرف الحيَّ[3] من اللَّيِّ[4]. ولا هَريراً[5] من غَرير[6]. ولا قَبيلا من دبير. وما يَعرف أيُّ طَرَفيه أطول وأكبر. وما يعرف هرّاً من بَرّ، أي ما يعرف من يَهُرُّه ممن يَبُّره. والقبيل: ما أقبلت به من فَتْل الحبل، والدبير: ما أدبرت به منه، وأي طرفه أطول: أنسب أبيه أم نسب أمه.

أمثال مستعملة في الشعر

قال الأصمعي: لم أجد في شعر شاعر بيتاً أوّله مثل وآخره مثل إلا ثلاثة ابيات: منها بيت الحطيئة:

مَن يَفعل الخيرَ لا يَعْدَم جَـوازِيَـهُ ... لا يَذهبُ العُرْفُ بين الله والنـاسِ

وبيتان لامرىء القيس:

---

(١) أطت: أنت حنيناً وتعبا.
(٢) فوقه: الفوق: موضع الوتر من السهم.
(٣) الحي: الحق.
(٤) اللى: الباطل.
(٥) الهرير: سوء الخلق.
(٦) الغرير: حسن الخلق.

وأفلتَهـنَّ عِلْبـاءٌ جـريضـاً[١]   ولـو أدركنَـه صَفِـرَ الوِطـاب
وقـاهـمْ جـدُّهـم ببني أبيهِـم   وبـالأشْقَيْـنَ مـا كـان العقـاب

ومثل هذا كثير في القديم والحديث، ولا أدري كيف أغفل القديمَ منه الأصمعي.

فمنه قول طرفة:

ستُبدي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلاً   ويأتيك بالأخبارِ من لم تُزوِّدِ

وفي هذا مثلان من أشرف الأمثال. ويقال إن رسول الله ﷺ سمع هذا البيت، فقال: «إن معناه من كلام النبوّة»؛

ومن ذلك قولُ الآخر:

ما كلّفَ اللهُ نفساً فوق طاقتِها   ولا تجودُ يـدٌ إلا بما تَجـدُ

ومن ذلك قولُ الحسن بن هانيء:

أيها المُنتـابُ عـن عُقُـرِهِ   لسـتَ مـن ليلِـي ولا سَمَـرهْ
لا أذودُ الطيرَ عـن شجـرٍ   قـد بلـوْتُ المُرَّ مـن ثمرهْ

إن العرب تقول: انتاب فلان عن عقره: أي تباعد عن أصله. لستَ من ليلي ولا سمره: مثل ثان، وليس في البيت الثاني إلا مثلٌ واحد.

ومن قولنا في بيت أوّله مثل وآخره مثل:

قـد صرّحَ الأعـداءُ بـالبيْـنِ   وأشرقَ الصبـحُ لـذي العين

وبعده أبيات في كل بيت منها مثل، وذلك قولنا:

وعـاد مَـن أهـواهُ بعد القِلَى   شقيـقَ رُوحٍ بين جسمينِ[٢]
وأصبـح الداخـلُ في بينِنـا   كسـاقـطٍ بين فِـراشين
قـد ألبِسَ البغضـاءَ مِـن ذا وذا   لا يَصلُـحُ الغِمْـدُ لِسيفين

(١) جريض: بعد جهد ومشقة. (٢) القلى: الهجر.

مـا بـالُ مَـن ليسـت لـه حـاجـةٌ يكـــــونُ أنفـــــاً بين عينين

ومن قولنا الذي هو أمثال سائرة:

قالوا شبابَكَ قـد ولّـى فقلـتُ لهم هل من جديدٍ على كرِّ الجديديـنِ
صِل مَن هَوِيتَ وإن أبْدى معاتَبـةً فأطيـبُ العيشِ وصْـلٌ بين إلْفين
واقطَـعْ حبـائـلَ خِـلٍّ لا تُلائمُـه فربما ضـاقـتِ الدنيـا على اثنين[1]

وقلت بعد هذا في المدح:

فكَّرْتُ فيكَ أَبَحْرٌ أنـتَ أمْ قمـرٌ فقـد تَحيَّـرَ فكْـري بين هـٰذيْـنِ
إنْ قلتُ بحراً وجدتُ البحرَ مُنحسِـراً وبَحْـرُ جـودِكَ ممتـدُّ العبَـابيْــن
أَوْ قلتُ بدراً رأيتُ البدرَ مُنتقصـاً فقلتُ شتَّـانَ مـا بينَ البُـدَيْـريْـن

ومن الأمثال التي لم تأت إلا في الشعر أو في قليل من الكلام، من ذلك قول الشاعر:

ترجو النجاةَ ولم تسلُكْ مسـالِكَهـا إنّ السفينـةَ لا تَجـري على اليبَسِ

وقال آخر:

متى تنقضي حاجات من ليس صابراً على حاجة حتى تكون لـه أخـرى

قيل ولما بلغ حاتماً قولُ المتلمِّس:

وأعلم علم صـــدق غيرَ ظـــنٍّ لتَقْـــوَى الله مـــن خير العَتـــاد
وحفـظ المال أيسر مـــن بُغـــاهُ وسير في البلاد بغير زاد[2]
وإصلاح القليـــل يـــزيـــد فيـــه ولا يبقـــى الكثير مـــع الفســـاد

قال: قطع الله لسانَه! يحمل الناس على البخل؛ ألا قال:

لا الجود يُفنـي المال قبـل فنـائـــه ولا البخل في مال الشحيح يـزيـد
فلا تلتمس مـــالاً بعيش مُقَتّـــر لكل غـد رزق يعـود جـديـد[3]

---

(١) خل: الصديق المختص (يستوي فيه الذكر والمؤنث).

(٢) بغاه: ابتغاؤه. (٣) مقتّر: ضيق.

وقال غيره:

إذا كنت لا أعفو عن الذنب من أخٍ وقلت أكافيه فأين التفاضل
فإن أقطع الإخوان في كل عُسرة بقيت وحيداً ليس لي من أواصل
ولكنني أغضي الجفون على القذى وأصفح عما رابني وأجامل
متى ما يَرِبْني مَفْصل فقطعتُه بقيتُ ومالي للنهوض مفاصل
ولكن أداويه فإن صحّ سرّني وإن هو أعيا كان فيه التجامل

وقال:

يُديفون لي سمّاً وأسقيهم الحَيا ويَقْرونني شراً وشري مؤخَّر[1]
كأني سلبت القوم نور عيونهم فلا العذر مقبول ولا الذنب يُغفر
وقد كان إحساني لهم غير مرة ولكن إحسان البغيض مكفَّر[2]

ولغيره:

لم يبق من طلب الغِنى إلا التعرّضُ للحتوف
فلأقبلنّ وإن رأيت الموت يلمع في الصفوف
إني امرؤ لم أُوتَ من أدب ولا حظّ سخيف
لكنه قَدَر يزو ل من القويّ إلى الضعيف

---

(١) يديفون: يخلطون. الحيا: المطر.

(٢) مكفّر: مستور.

كتاب الزمردة
في المواعظ والزهد

لابن عبد ربه:

قال أحمد بن عبد ربه: قد مضى قولُنا في الأمثال، وما تفننوا فيها على كل لسان، ومع كل زمان؛ ونحن نبدأ بعون الله وتوفيقه بالقول في الزهد ورجاله المشهورين به، ونذكر المُنتخل من كلامهم، والمواعظ التي وعظت بها الأنبياء، واستخلصتها الآباء للأبناء، وجرت بين الحكماء والأدباء؛ ومقامات العُبّاد بين أيدي الخلفاء.

فأبلغ المواعظ كلها كلام الله تعالى الأعز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱدْعُ إلى سبيل ربِّك بالحِكْمَةِ والمَوْعِظةِ الحَسَنةِ وجادِلْهُم بالتي هيَ أَحسَنُ إنّ ربَّك هو أعلمُ بمَنْ ضَلَّ عن سبيلِهِ وهو أعلمُ بالمُهْتدين وإنْ عاقَبتمْ فعاقِبوا بِمثْل ما عوقِبتمْ به ولئِنْ صَبَرْتم لَهُوَ خيْرٌ للصَّابِرين واصْبِرِ وما صبْرُك إلاَّ باللهِ ولا تَحزَنْ عليهم ولا تَكُ في ضِيْق ممّا يَمكُرونَ إنّ الله مع الذين اتَّقوْا والذين همْ مُحْسِنون﴾[1].

وقال جل ثناؤه: ﴿كيف تَكفرونَ باللهِ وكنتم أمْواتاً فأحْياكُمْ ثم يُميتُكم ثم يُحْيِيكُم ثم إليه تُرجَعونَ﴾[2].

وقال: ﴿أوَ لَمْ يَر الإنسانُ أنا خَلقناهُ من نُطْفةٍ فإذا هو خصيمٌ مُبين وضَرَب لنا مثلاً ونَسِيَ خَلقَه قال من يُحيي العِظام وهي رميمٌ قلْ يُحيِيها الذي أنشأها أوّل مرّةٍ

(١) سورة النحل الآية ١٢٥. (٢) سورة البقرة الآية ٢٨.

وهو بكُلِّ خَلقٍ عليمٌ﴾[1].

فهذه أبلغ الحجج وأحكم المواعظ.

ثم مواعظ الأنبياء صلوات الله عليهم، ثم مواعظ الآباء للأبناء، ثم مواعظ الحكماء والأدباء، ثم مقامات العُبّاد بين أيدي الخلفاء، ثم قولهم في الزهد ورجاله المعروفين به، ثم المشهورين من المنتسبين إليه.

والموعظة ثقيلة على السمع مُحرِّجة[2] على النفس، بعيدة من القبول، لاعتراضها الشهوة، ومُضادّتها الهوى، الذي هو ربيع القلب، ومراد الروح، ومربع اللهو، ومسرح الأماني؛ إلا من وعظه علمُه، وأرشده قلبُه؛ وأحكمتْه تجربتُه قال الشاعر:

لـن تَـرجِـعَ الأنْفُس عـن غَيِّهـا حتى يُـرى منهـا لها واعـظ

وقالت الحكماء: السعيد من وُعظَ بغيره. لا يَعنون من وعظه غيره، ولكن من رأى العِبَر في غيره فاتعظ بها في نفسه. ولذلك كان يقول الحسن: اقدَعُوا هذه النفوس فإنها طلَعة[3]، وحادثوها بالذِّكْر[4] فإنها سريعة الدثور، واعصوها فإنها إن أُطيعت نَزَعت إلى شَرِّ غاية.

وكان يقول عند انقضاء مجلسه وخَتم موعظته: يا لها من موعظة لو صادفتْ من القلوب حياة.

لابن السماك:

وكان ابن السماك يقول إذا فرغ من كلامه: ألسُنٌ تَصِف، وقلوبٌ تَعرِف، وأعمال تخالَف.

وقال يونس بن عُبيد: لو أُمِرْنا بالجزَعِ لصَبَرنا. يريد ثقل الموعظة على السمع،

---

(١) سورة يس الآية ٧٧ - ٧٩.

(٢) محرجة على النفس: مضيقة عليها.

(٣) طلعة: كثيرة التطلع.

(٤) حادثوها بالذكر: اجلوها بذكر الله.

وجنوح النفس إلى مخالفتها. ومنه قولهم:

أحَبُّ شيءٍ إلى الإنسانِ ما مُنِعا

وقولهم:

والشيءُ يُرْغَبُ فيه حين يَمتنعُ

والموعظة مانعة لك مما تشتهي، حاملة لك على ما تكره، إلا أن تلقاها بسمعٍ قد فتقته العِبرة، وقلب قدحت فيه الفِكرة، ونفس لها من عِلمها زاجر، ومن عقلها رادع؛ فيفتح لك باب التوبة، ويُوضح لك سبيل الإنابة.

للنبي ﷺ:

قال النبي ﷺ: حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات. يريد أن الطريق إلى الجنة احتمالُ المكروه في الدنيا، والطريق إلى النار ركوب الشهوات.

وخير الموعظة ما كانت من قائل مخلص، إلى سامع مُنصف.

لبعضهم:

وقال بعضهم: الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان.

وقالوا: ما أحسن التاجَ! وهو على رأس الملك أحسَن. وما أحسنَ الدرّ، وهو على نَحْر الفتاة أحسنُ. وما أحسنَ الموعظةَ! وهي منَ الفاضل التقِيِّ أحسن.

لزياد:

وقال زياد: أيها الناس، لا يمنعْكم سوءُ ما تعلمون منا، أن تنتفعوا بأحسن ما تسمعون منا. قال الشاعر:

اعْمل بقوْلي وإن قَصَّـرْتُ في عملي ... ينفعْك قولي ولا يَضْـرُرْك تقصيري

لابن عباس في كلام لعلي:

وقال عبد الله بن عباس: ما انتفعت بكلام أحد بعد رسول الله ﷺ ما انتفعت بكلامٍ كَتبه إليّ عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، كتب إليّ:

أما بعد: فإن المرءَ يَسُرُّه إدراك ما لم يكن ليفوتَه، ويسوءُه فوتُ ما لم يكن ليدركه. فليكن سرورُك بما نلت من أمرِ آخرتك، وليكن أسفُك على ما فاتك منها، وما نلت من أمر دنياك فلا تكن به فرحاً. وما فاتك فلا تأس عليه جزعاً. وليكن همك ما بعد الموت.

حكيم بباب بعض الملوك:

وقف حكيم بباب بعض الملوك فحجب، فتلطّف برقعة وأوصلها إليه، وكتب فيها هذا البيت:

أَلْم تَر أنّ الفقْر يُرجَى لـه الغِنـى وأنّ الغِنى يُخشى عليه مـن الفَقْـر

فلما قرأ البيت لم يلبث أن انتعل وجعل لاطئةً[1] على رأسه، وخرج في ثوب فِضَال[2]، فقال له: والله ما اتعظت بشيء بعد القرآن اتّعاظى ببيتك هذا! ثم قضى حوائجه.

مواعظ الأنبياء
عليهم السلام

للنبي ﷺ:

قال أبو بكر بن أبي شَيبة يرفعه إلى النبي ﷺ «يَكْفِي أحدَكم من الدنيا قدْرُ زاد الراكِبِ».

---

(١) لاطئة: قلنسوة.

(٢) ثوب فضال: الذي يلبس في البيت ويبتذل للنوم.

وقال ﷺ: « ابنَ آدمَ. اغتنمْ خَمساً قبل خَمسٍ: شبابَك قبْل هرَمِك، وصِحَّتَك قبل سقمِك، وغناك قبل فقْرِك، وفراغَك قبل شُغلك، وحياتَك قبل موْتك ».

عبد الله بن سلام قال: لما قَدِم علينا رسول الله ﷺ المدينة أتيتُه، فلما رأيت وجهه علمت أنه ليس بوجهِ كذّاب؛ فسمعتُه يقول: « أيها الناسُ، أطعِموا الطّعام، وأفْشُوا السلام، وصلُّوا والناس نيام ».

لعيسى عليه السلام:

وقال عيسى بن مريم عليه السلام: ألا أُخبركم بخيركم مجالسة؟ قالوا: بلى يا روح الله. قال: من تُذكِّركم بالله رؤيته، ويَزيد في عملكم مَنطِقُه، ويُشوِّقُكم إلى الجنة عملُه.

وقال عيسى بن مريم عليه السلام للحواريين: ويْلَكم يا عَبيد الدنيا! كيف تُخالف فروعُكم أصولَكم، وأهواؤكم عقولَكم. قولكم شِفاءٌ يُبرىءُ الدّاء، وفعلُكم داءٌ لا يقبل الدّواء. لستم كالكَرمة التي حسُن ورقُها، وطاب ثمرُها، وسهُل مرتقاها. ولكنكم كالسمُرة[1] التي قلّ ورقها، وكثر شوكها، وصعُب مرتقاها. ويلكم يا عبيد الدنيا! جعلتم العمل تحت أقدامكم من شاء أخذه، وجعلتم الدنيا فوق رؤوسكم لا يُمكن تناولها؛ فلا أنتم عبيدٌ نُصحاء، ولا أحرار كِرام. ويلكم يا أُجَرَاء السوء! الأجر تأخذون، والعملَ تُفسدون، سوف تلْقَوْن ما تحْذرون، إذا نظر ربُّ العمل في عمله الذي أفْسَدْتم، وأجرِه الذي أخذتم.

وقال عليه السلام للحواريين: اتخذوا المساجد بيوتاً، والبيوت منازل، وكلوا بَقل البرية، واشربوا الماء القَراحَ، وانجوا من الدنيا سالمين.

وقال عليه السلام للحواريّين: لا تنظُروا في أعمال الناس كأنكم أرباب، وانظُروا في أعمالكم كأنكم عبيد؛ فإنما الناس رجلان: مبتلىً ومعافىً؛ فارحموا أهل البلاء،

(١) السَّمرة: ضرب من شجر الطلح واحدته سَمُرة.

واحَمدُوا الله على العافية.

وقال عليه السلام لهم أيضاً: عجباً لكم، تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل؛ ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بعمل.

وقال يحي بن زكريا عليه السلام للمكذّبين من بني إسرائيل: يا نَسْل الأفاعي، من دلّكم على الدخول في المساخط المُوبقة بكم؟ ويلكم! تقرّبوا بعمل صالح، ولا تغرَّنكم قرابتُكم من إبراهيم عليه السلام. فإن الله قادر على أن يستخرج من هذه الجنادل[1] نسلاً لإبراهيم. إن الفأس قد وُضعت في أصول الشجر، فأَخْلِقْ بكلِّ شجرة مُرَّة الطعم أن تُقطَعَ وتُلْقَى في النار.

وقال شَعياء لبني إسرائيل: إذ أطلق الله لسانه بالوحي: إن الدابة تزداد على كثرة الرياضة لِيناً، وقلوبَكم لا تزداد على كثرة الموعظة إلا قسوةً. إنّ الجسد إذا صلَح كفاه القليل من الطعام، وإن القلب إذا صحّ كفاه القليل من الحكمة. كم من سراج قد أطفأته الريح، وكم عابد قد أفسده العُجْب. يا بني إسرائيل، اسمعوا قولي، فإن قائلَ الحكمة وسامعَها شريكان، وأولاهما بها من حقّقها بعمله.

وقال المسيح ﷺ: إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذ نظر الناس إلى ظاهرها، وإلى آجلها إذ نظروا إلى عاجلها، فأماتوا منها ما خَشُوا أن يُميتهم، وتركوا ما علموا أن سيتركهم؛ هم أعداءُ لما سالم الناس، وسِلْم لما عادى الناس، لهم خيرٌ، وعندهم الخبر العجيب، بهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وبهم عُلِم الهدى وبه عَمِلوا، لا يرون أماناً دون ما يرجون، ولا خوفاً دون ما يحذرون.

داود عليه السلام:

وَهب بن منبه قال: قال داود عليه السلام: يا رب، ابنُ آدم ليس منه شعرة إلا

(١) الجنادل: الأشداء العظام.

وتحتها لك نعمة وفوقها لك نعمة، فمن أين يكافئك بما أعطيته؟ فأوحى الله إليه: يا داودُ، إنِّي أُعطِي الكثيرَ، وأَرضى من عبادي بالقليل، وأرضَى من شُكْر نعمتي بأن يعلم العبدُ أن ما به من نعمة فمِنْ عِندي لا من عندِ نفسه.

إبراهيم عليه السلام:

ولما أمر الله عز وجل إبراهيمَ ﷺ بذبح ولده وأن يجعله قرباناً، أسرَّ ذلك إلى خليل له يقال له العازر، وكان له صديقاً؛ فقال له الصديق إن الله لا يَبتلي بمثل هذا مثلَك، ولكنه يُريد أن يَختبرك أو يختبر بك؛ وقد علمتُ أنه لا يبتليك بمثل هذا ليفتنك، ولا ليُضلك ولا ليُعنتك، ولا لينقُص به بصيرتك وإيمانك ويَقينك؛ فلا يَرُوعنّك هذا، ولا يسوأن بالله ظنُّك؛ وإنما رفع اللهُ اسمَك في البلاء عنده على جميع أهل البلايا، حتى كنت أعظمَهم محنة في نفسك وولدك. ليرفعك بقدر ذلك في المنازل والدرجات والفضائل: فليس لأهل الصبر في فضيلة الصبر إلا فضلُ صبرك، وليس لأهل الثواب في فضيلة الثواب إلا فضلُ ثوابكَ. وليس هذا من وجوه البلاء الذي يَبْتَلي اللهُ به أولياءه؛ لأن الله أكرم في نفسه، وأعدل في حكمه وأرحم بعباده من أن يجعل ذبح الولد الطّيب بيد الوالد النبي المصطَفى. وأنا أعوذُ بالله أن يكون هذا مِني حتماً على الله أو ردّاً لأمره، أو سُخطاً لحُكمه، ولكن هذا الرجاءُ فيه والظنُّ به؛ فإن عَزم ربُّك على ذلك فكن عند أحسن علمه بك؛ فإني أعلم أنه لم يُعرِّضك لهذا البلاء الجسيم، والخطْب العظيم، إلا لحُسن علمه بك، وصِدقك وتصبُّرك؛ ليجعلك إماماً؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن وحي الله تعالى إلى أنبيائه

أوحى الله عز وجل إلى نبيٍ من أنبيائه: إني أنا الله مالكُ الملوك؛ قلوبُ الملوك بيدي؛ فمن أطاعني جعلتُ الملوك عليه رحمةً، ومن عصاني جعلتُ الملوكَ عليه نِقْمَةً[1].

---

(١) النِقْمة: العقوبة.

المسيح عليه السلام:

ومما أنزل الله على المسيح في الإنجيل: شَوّقْناكم فلم تشتاقوا، ونُحْنا لكُمْ فلم تَبْكُوا؛ يا صاحبَ الخمسين، ما قدّمت وما أخّرت؟ يا صاحبَ الستين، قد دنَا حَصَادُك! يا صاحبَ السبعين، هَلُمَّ إلى الحساب.

وفي بعض الكتب القديمة المنزلة: يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا عبادي طالما ظمِئْتُم، وتَقلَّصَتْ في الدنيا شفاهُكم، وغارت أعينُكم عطشاً وجوعاً: فكُلُوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية.

وأوحى الله تعالى إلى نبيٍّ من أنبيائه: هَب لي من قلبك الخشوع، ومن نفسك الخُضوع، ومن عينيك الدُّموع؛ وسلْني فأنا القريب المُجيب.

وفي بعض الكتب: عبدي، كم أتحبّبُ إليك بالنعم وتتبَغَّض إليَّ بالمعاصي؛ خيري إليك نازل، وشرُّك إليَّ صاعد.

وأوحى الله إلى نبيٍّ من أنبيائه: إن أردت أن تسكن غداً حظيرةَ القُدْس، فكن في الدنيا فريداً، وحيداً، طريداً، مهموماً، حزيناً؛ كالطير الوُحداني: يظل بأرض الفلاة، ويَرِدُ ماء العيون، ويأكل من أطراف الشجر؛ فاذا جنّ عليه الليل أوى وحده، واستيحاشا من الطير واستئناساً بربه.

ومما أوحى الله إلى موسى في التوراة: يا موسى بن عمران، يا صاحب جبل لبنان، أنت عبدي وأنا إلٰهُكَ الدَّيَّان، لا تْستَذِلَّ الفقير، ولا تغْبطِ الغني بشيء يسير، وكن عند ذِكري خاشعاً، وعند تلاوةِ وحْي طائعاً؛ أسْمِعني لذاذة التوراة بصوت حزين.

موسى عليه السلام:

وقال وهب بن مُنبِّه: أوحى الله إلى موسى عند الشجرة: لا تُعْجِبنَّك زينةُ فرعونَ ولا مامُتِّعَ به، ولا تَمْدَّنَّ إلى ذلك عينَك؛ فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينةُ المترفين؛ ولو شئتُ أن أوتيَكَ زينةً يعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجِز عنها فعلتُ؛

ولكني أرغبتك عن ذلك وأزْوَيْته عنك؛ فكذلك أفعلُ بأوليائي؛ إني لأذودهم عن نعيمها.ولذاذتها كما يذود الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة؛ وإني لأحميهم عيشها وحلوتها، كما يحمي الراعي ذوده عن مَبارك العُرّ[1].

يوسف عليه السلام:

وذُكر عن وهب بن مُنبه أن يوسف لما لبث في السجن بضع سنين، أرسل الله جبريل إليه بالبشارة بخروجه، فقال: أما تعرفني أيها الصِّدِّيق؟ قال يوسف: أرى صورة طاهرة وروحاً طيباً لا يشبه أرواح الخاطئين. قال جبريل: أنا الروح الأمين، رسول رب العالمين. قال يوسف: فما أدخلك مداخل المُذنبين، وأنت سيد المُرسلين، ورأس المقرَّبين؟ قال: ألم تعلم أيها الصديق أن الله يطهر البيوت بطُهر النبيين. وأن البُقعة التي تكون فيها هي أطهر الأرَضين، وأنّ الله قد طهَّر بك السجن وما حوله يا ابن الطاهرين. قال يوسف: كيف تُشبهني بالصالحين، وتُسميني بأسماء الصادقين، وتعدُّني مع آبائي المخلصين، وأنا أسير بين هؤلاء المجرمين؟ قال جبريل: لم يَكْلِم قلبك الجَزَعُ، ولم يُغَيِّر خُلُقكَ البلاءُ، ولم يتعاظَمك السجنُ، ولم تطأ فراش سيِّدِك، ولم يُنسِك بلاءُ الدنيا بلاءَ الآخرة، ولم تُنْسِك نفسُك أباك، ولا أبوك ربَّك، وهذا الزمان الذي يفكُّ الله فيه عُنقك، ويعتق فيه رقبتك، ويُبَيِّنُ للناس فيه حِكْمتَك، ويُصدِّقُ رؤياك، ويُنصِفُك ممن ظلمك، ويجمع لك أحبتَك ويَهَبُ لك مُلْكَ مصر تَملِكُ ملوكها، وتُذل جبابرتَها، وتُصغِّر عظماءَها، ويُذِلُّ لك أعزتها. ويُخدمُك سوقتَها[2]، يُخوّلك خوَلَها، ويَرحم بك مساكينَها، ويُلقي لك المودةَ والهيبةَ في قلوبهم، ويَجعل لك اليدَ العليا عليهم، والأثر الصالح فيهم، ويُرى فِرعونَ حلماً يفزَع منه حتى يسهرَ ليلَه، ويذهبَ نومُه، ويُعمَّى عليه، تفسيره وعلى السحرةِ والكهنةِ، ويُعلِّمكَ تأويلَه.

---

(١) مبارك العر: مبارك الجمال الجرب.

(٢) سوقتها: رعيتها.

مواعظ الحكماء

لعلي:

قال علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: أُوصيكم بخمس لو ضُرِبتْ عليها آباطُ[1] الإبل لكان قليلاً: لا يرجُوَنَّ أحدكم إلا ربَّه، ولا يخافنّ إلا ذنْبَه، ولا يْستَحِي إذا سُئِل عما لا يعلم أن يقولَ لا أَعْلَم، وإذا لم يعلم الشيءَ أن يتعلّمه. وآعلموا أنّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطع الرأس ذهب الجسد.

وقال أيضاً: من أراد الغنى بغير مال، والكثرة بلا عشيرة، فليتحوّلْ من ذُل المعصية إلى عزّ الطاعة؛ أبَى الله إلا أن يذِل من عصاه.

للحسن:

وقال الحسن: من خاف الله أخاف اللهُ منه كل شيء، ومن خاف الناسَ أخافه اللهُ من كل شيء.

لبعضهم:

وقال بعضهم: من عمل لآخرته كفاه الله أمْرَ دنياه، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أخلص سريرته أصلح الله علانيته.

كلمات أربع للعرب والعجم:

قال العُتبي: اجتمعت العرب والعجم على أربع كلمات، قالوا: لا تحملن على قلبك ما لا تُطيق، ولا تَعملن عملاً ليس لك فيه منفعة، ولا تثق بامرأة، ولا تغتر بمال وإن كثر.

لأبي بكر في موته يوصي عمر:

وقال أبو بكر الصدّيق لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما عند موته حين استخلفه:

---

(١) آباط الإبل: جمع إبط، وهو باطن المنكب.

أُوصيك بتقوى الله؛ فإنّ لله عَملاً بالليل لا يَقبلُه بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبلُه بالليل؛ وإنه لا يقبل نافلة[1] حتى تؤدّى الفرائض. وإنما ثقلتْ موازين من ثقُلَت موازينه يوم القيامة باتّباعهم الحق وثِقَله عليهم؛ وحُقَّ لميزان لا يُوضَع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً. وإنما خَفت موازين من خَفَّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفّته عليهم؛ وحق لميزان لا يوضَع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً. وإن الله ذكر أهل الجنة فَذكرهم بأحسن أعمالهم، وتَجاوز عن سيئاتهم، فإذا سمعْتَ بهم قلت: إني أخاف ألاَّ أكون من هؤلاء. وذكر أهل النار بأقبح أعمالهم، وأمسك عن حسناتهم؛ فإذا سمعت بهم قلت: أنا خير من هؤلاء وذَكر آيةَ الرحمة مع آية العذاب: ليكون العبد راغباً راهباً، لا يتمنى على الله غير الحق. فإذا حفظت وصيتي فلا يكونن غائبٌ أَحبَّ إليك من الموت، وهو آتيك؛ وإن ضيعت وصيتي فلا يكونن غائبٌ أكرهَ إليك من الموت، ولن تُعجزه.

الحسن وابن الأهتم:

ودخل الحسن بن أبي الحسن على عبد الله بن الأهتم يعوده في مرضه؛ فرآه يصوِّب بصره في صُندوق في بيته ويُصعِّده، ثم قال: أبا سعيد، ما تقول في مائة ألف في هذا الصندوق لم أؤدِّ منها زكاة ولم أَصِل منها رحماً؟ قال: ثكلتك أمك! ولمن كنت تجمعُها؟ قال: لروعة الزمان؛ وجفوة السلطان؛ ومُكاثرة العشيرة. قال: ثم مات، فشهده الحسن. فلما فرغ من دفنه قال: انظروا إلى هذا المسكين! أتاه شيطانه فحذّره روعة زمانه، وجَفوة سلطانه، ومُكاثرة عشيرته، عما رزقه الله إياه وغمره فيه؛ انظروا كيف خرج منها مسلوباً محْزوناً، ثم التفت إلى الوارث فقال: أيها الوارث، لا تَخدَعَنّ كما خُدع صُوَيْحِبُك بالأمس، أتاك هذا المال حلالاً فلا يكونَنّ عليك وبالاً. أتاك عفواً صفْواً، ممن كان له جَمُوعاً مَنُوعاً؛ من باطل جَمَعه، ومن حقٍ منَعه؛ قَطع فيه لُجَج[2] البحار، ومفاوز القِفار، لم تكدح فيه بيمين، ولم يعرق لك فيه جبين. إن يوم

---

(١) النافلة: ما زاد على الفرض. (٢) لجج البحار: معظم البحر وتردد أمواجه.

القيامة يومٌ ذو حسرات، وإن من أعظم الحسرات غداً أن تَرى مالَك في ميزان غيرك. فيالها عثرةً لا تقالُ. وتوبة لا تُنال.

لحكيم يعظ قوماً:

ووعظ حكيمٌ قوماً فقال: يا قوم، استبدلوا العوارىَ[1] بالهبات تَحمدوا العقبى، واستقبلوا المصائب بالصبر تستحقوا النُّعمى، واستديموا الكرامة بالشكر تستوجبوا الزيادة. واعرِفوا فضل البقاء في النعمة والغنى في السلامة قبل الفتنة الفاحشة، والمُثلة[2] البينة، وانتقال العمل، وحلول الأجل؛ فإنما أنتم في الدنيا أغراضُ المنايا، وأوطان البلايا، ولن تنالوا نعمةً إلا بفراق أخرى، ولا يَستقبل منكم مُعمَّرٌ يوماً من عُمُره إلا بآنتقاص آخر من أجله، ولا يحيا له أثر إلا مات له أثر، فأنتم أعوان الحُتوف على أنفسكم، وفي معاشكم أسبابُ مناياكم، لا يَمنعكم شيء منها، ولا يَشغلكم شيء عنها، فأنتم الأخلاف بعد الأسلاف، وستكونون أسلافاً بعد الأخلاف، بكل سبيل منكر صريع مُنعفر، وقائم ينتظر، فمن أي وجه تطلبون البَقاء، وهذان الليل والنهار لم يرفعا شيئاً قط إلا أسرعا الكرة في هَدمه، ولا عقدا أمراً إلا رجعا في نقضه.

لأبي الدرداء:

وقال أبو الدَّرداء: يا أهل دمشق، مالكم تَبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تُدركون، وتجمعون ما لا تأكلون؟ هذه عاد وثمود قد ملئوا ما بين بُصرى وعدن أموالاً وأولاداً، فمن يشتري مني ما تركوا بدرهمين.

لابن شبرمة:

وقال ابن شُبرمة: إذا كان البدن سقيماً لم ينجع في الطعام ولا الشراب، وإذا كان

---

(١) العوارى: مفردها العارة، وهي ما تعطيع غيرك على أن يعيده إليك.

(٢) المُثلة: أي العقاب والعذاب.

القلب مغرماً بحُب الدنيا لم تنجع فيه الموعظة.

لابن خثيم:

وقال الربيع بن خُثيم: أقْلِل الكلام إلا من تِسع: تكبير، وتهليل، وتسبيح، وتحميد، وسؤالك الخير، وتعوُّذِك من الشر، وأمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر، وقراءتك القرآن.

لحكيم يعظ:

قال رجل لبعض الحكماء: عِظني! قال: لا يراك الله بحيث نهاك، ولا يَفقدُك من حيث أمَرَك.

وقيل لحكيم: عظني! قال: جميع المواعظ كلّها منتظمة في حرف واحد. قال: وما هو؟ قال: تُجمِع على طاعة الله فإذا أنت قد حويت المواعظ كلها.

أبو جعفر وسفيان:

وقال أبو جعفر لسفيان: عِظني! قال: وما عَمِلْتَ فيا علِمتَ فأعظك فيما جَهِلْت؟

الرشيد وابن السماك:

قال هارون لابن السمّاك: عظني! قال: كفى بالقرآن واعظاً. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلم تَرَ كيف فعَل ربُّك بعادٍ، إرَمَ ذاتِ العِمادِ التي لم يُخلَق مثْلُها في البلادِ، وثَمودَ الذين جابُوا الصَّخْر بالوادِ، وفرعونَ ذي الأوتَادِ، الذين طَغَوْا في البلاد، فأَكثَروا فيها الفسادَ، فصَبَّ عليهِم ربُّك سوْطَ عذابٍ، إنَّ ربَّك لبِالمرصادِ﴾[1].

مكاتبة جرت بين الحكماء

بين حكيمين:

عتب حكيم على حكيم، فكتب المعتوب عليه إلى العاتب: يا أخي، إن أيام العُمر أقصَر من أن تحتمل الهجر. فرجع إليه.

---

(١) سورة الفجر الآية ٦ ـ ١٤.

الحسن وعمر بن عبد العزيز:

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد؛ فكأنك بالدنيا لم تكن، وبالآخرة لم تَزل. والسلام.

وكتبِ إليه عمر: أما بعد فكأن آخر من كِتب عليه الموتُ قد مات، والسلام.

بين سلمان وأبي الدرداء:

ابن المبارك قال: كتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء: أما بعد؛ فإنك لن تَنال ما تُريد إلا بترك ما تشتهي، ولن تنالَ ما تأمُل إلا بالصبر على ما تكره. فليكن كلامُك ذِكراً، وصمتُك فِكراً، ونظرُك عِبَراً؛ فإن الدنيا تتقلب وبهجتُها تتغير فلا تغترَّ بها، وليكن بيتُك المسجد. والسلام.

فأجابه أبو الدرداء: سلام عليك، أما بعد؛ فإني أُوصيك بتقوى الله، وأن تأخذ من صحتك لسَقمِك، ومن شبابك لهرَمِك، ومن فراغِك لشُغُلك، ومن حياتِك لموتِك؛ ومن جفائك لمودّتك، واذكر حياةً لا موتَ فيها في إحدى المنزلتين. إما في الجنة، وإما في النار؛ فإنك لا تدري إلى أيهما تصير.

أبو موسى وعامر ابن عبد القيس:

وكتب أبو موسى الأشعري إلى عامر بن عبد القيس: أما بعد؛ فإني عاهدتك على أمر وبلغني أنك تغيّرت، فإن كنت على ما عهدتُك فاتق الله ودُمْ[1]، وإن كنت على ما بلغني فاتق الله وعُدْ[2].

ابن النضر وأخ له:

وكتب محمد بن النضر إلى أخ: أما بعد؛ فإنك على مَنهج وأمامك منزلان لا بد لك من نزول أحدهما، ولم يأتك أمان فتطمئن، ولا براءة فتتكل.

---

(١) أي دم على العهد بك. (٢) أي عد عن تغيّرك.

بين حكيمين:

وكتب حكيم إلى آخر: آعلم حفظك الله أن النفوس جُبلت على أخذ ما أُعطيَتْ ومنع ما سئلت؛ فاحملها على مطيّة، لا تُبطىء. إذا رُكبت. ولا تسبق إذا قُدِّمَتْ؛ فإنما تحفظ النفوس على قدر الخوف، وتطلب على قدر الطمع، وتطمع على قدر السبب. فإذا استطعت أن يكون معك خوف المُشفق وقناعة الراضي فافعل.

من عمر بن عبد العزيز إلى ابن حيوة:

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجاء بن حَيْوة: أما بعد، فإنه من أكثر من ذكر الموت اكتفى باليسير، ومَن عَلِمَ أن الكلامَ عملٌ قَل كلامُه إلا فيما يَنفعه.

من عمر بن الخطاب إلى ابن غزوان:

وكتب عمر بن الخطاب إلى عُتبة بن غَزْوان عامِله على البصرة: أما بعد؛ فقد أصبحت أميراً تقولُ فيسمعُ لك، وتأمر فينفذُ أمرُك؛ فيالها نعمةً إن لم ترفعْك فوق قدرك، وتُطغيك على من دونك[1]؛ فاحترس من النعمة أشدَّ من احتراسك من المصيبة؛ وإياك أن تَسقط سقطة لا لعاً لها - أي لا إقالة لها - وتعثر عثرة لا تُقالها. والسلام.

من الحسن إلى عمر:

وكتب الحسن إلى عمر: إنّ فيما أمرك اللهُ به شُغُلا عما نهاك عنه، والسلام.

بين عمر بن عبد العزيز والحسن:

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن: آجمعْ لي أمْرَ الدنيا، وصِفْ لي أمْرَ الآخرة.

---

(١) تطغيك: أي تجعلك ترفّع عليهم.

فكتب إليه: إنما الدنيا حُلم، والآخرةُ يقظة، والموتُ متوسط؛ ونحن في أضغاث أحلام. من حاسبَ نفسه رَبِحَ، ومن غفَل عنها خَسِر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضلَّ، ومن حلُمَ غَنِم، ومن خاف سلم؛ ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهِم، ومن فهم علم، ومن علم عمل، فإذا زللتَ فارجع، وإذا ندمت فأقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فأمسك. وآعلم أنّ أفضل الأعمال ما أُكرِهَت النفوسُ عليه.

مواعظ الآباء للأبناء

للقمان يوصي ابنه:

قال لقمان لابنه: إذا أَتَيت مجلس قوم فارمهم بسهم السلام ثم اجلس، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجِل(١) سهمك مع سهامهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتخلَّ عنهم وانهض.

وقال: يا بُنَيَّ؛ استعذ بالله من شرار الناس، وكن من خيارهم على حذر.

لأكثم:

ومثل هذا قول أكثم بن صيفي: احذر الأمين ولا تأتمن الخائن، فإن القلوب بيد غيرك.

للقمان يعظ ابنه:

وقال لقمان لآبنه: لا تركنْ إلى الدنيا، ولا تَشغل قلبك بها، فإنك لم تخلق لها، وما خلق اللهُ خلقاً أهون عليه منها، فإنه لم يجعل نعيمها ثواباً للمطيعين، ولا بلاءها عُقوبة للعاصين. يا بُني، لا تضحك من غير عجب، ولا تُمْشِ في غير أرب(٢)، ولا تسأل عما لا يَعنيك. يا بني، لا تضيِّعْ مالك وتصلح مال غيرك؛ فإنما لك ما قدمت،

(١) أجل: أي اجعله مع سهامهم يخوض ويجول. (٢) الأرب: الحاجة الشديدة.

ولغيرك ما تركت. يا بني؛ إنه من يرحم يُرحم، ومن يَصْمُتْ يسلم، ومن يَقُل الخير يغنم، ومن يقل الباطل يأثم، ومن لا يملكْ لسانه يندم. يا بني، زاحم العلماء بركبتيك، وأنصت إليهم بأذنيك، فإن القلب يحيا بنور العلماء كما تحيا الأرض الميتة بمطر السماء.

ابن صفوان ينصح ابنه:

وقال خالد بن صفوان لابنه: كن أحسنَ ما تكون في الظاهر حالاً، أقلَّ ما تكون في الباطن مآلا. ودع من أعمال السر ما لا يصلح لك في العلانية.

لأعرابي يوصي ابنه:

وقال أعرابي لآبنه: يا بني، إنه قد أسمعك الداعي، وأعذر إليك الطالب، وانتهى الأمر فيك إلى حدِّه؛ ولا أعرف أعظمَ رزية[1] ممن ضيَّع اليقين وأخطأه الأمل.

لعلي بن الحسين يوصي ابنه:

وقال علي بن الحسين لابنه: وكان من أفضل بني هاشم: يا بني، آصبر على النوائب، ولا تَعَرَّضْ للحتوف، ولا تُجب أخاك من الأمر إلى ما مضرَّته عليك أكثر من منفعته لك.

لحكيم في مثله:

وقال حكيم لبنيه: يا بُنيّ؛ إياكم والجزَع عند المصائب؛ فإنه مَجلَبَةٌ للهمّ، وسوءُ ظنّ بالرب، وشماتةٌ للعدوّ. وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين، ولها آمين، فإني والله ما سَخِرْتُ من شيء إلا نزل بي مثلُه؛ فاحذروها وتوقّعوها. فإنما الإنسان في الدنيا غرض تتعاوره السهام، فمجاوزٌ ومقصرٌ عنه، وواقع عن يمينه وشماله، حتى يصيبَه بعضها. واعلموا أنّ لكل شيء جزاءً، ولكل عمل ثواباً. وقد قالوا: كما تدين تُدان؛ ومن بَرَّ يوماً بُرَّ به.

---

(١) الرزيّة: المصيبة.

لبعض الشعراء:

وقال الشاعر:

إذا ما الدهرُ جَرَّ على أُناسٍ حوادثَهُ أناخ[1] بآخَرينا
فقُلْ للشامِتين بنا: أَفيقوا سيَلقى الشامِتون كما لَقِينا

لحكيم يعظ ابنه:

وقال حكيم لابنه: يا بني إني مُوصيك بوصية؛ فإن لم تحفظ وصيتي عني لم تحفظها عن غيري. اتق الله ما استطعت. وإن قدرت أن تكون اليوم خيراً منك أمس، وغداً خيراً منك اليوم فافعل. وإياك والطمع، فإنه فقرٌ حاضر. وعليك باليأس فإنك لن تيأس من شيء قط إلا أغناك الله عنه. وإياك وما يُعْتذَر منه، فإنك لن تعتذر من خير أبداً، وإذا عثر عاثر[2] فاحمد الله ألاّ تكون هو يا بني، خذ الخير من أهله، ودع الشر لأهله، وإذا قمت إلى صلاتك فصلِّ صلاة مُوَدِّعٍ وأنت ترى ألاّ تصلي بعدها.

لعلي بن الحسين في مثله:

وقال علي بن الحسين عليهما السلام لابنه: يا بني، إن الله لم يرضك لي فأوصاك بي، ورضيني لك فحذّرني منك. واعلم أنّ خير الآباء للأبناء من لم تَدْعُه المودَّة إلى التفريط[3] فيه، وخير الأبناء للآباء من لم يَدْعُه التقصير إلى العقوق له[4].

لحكيم في مثله:

وقال حكيم لابنه: يا بني، إن أشدّ الناس حسرة يوم القيامة: رجلٌ كسَب مالا من غير حِلّه فأدخله النار، وأورثه مَن عمل فيه بطاعة الله فأدخله الجنة.

---

(١) أناخ بآخرينا: حلّ بهم ولزمهم.

(٢) عثر عاثر: أي زلّ عن الصواب والحق.

(٣) التفريط: التهاون. (٤) العقوق: نكران الحقوق والمعروف.

ابن عتبة وأبوه:

عمرو بن عُتبة قال: لما بلغتُ خمس عشرة سنة قال لي أبي: يا بني؛ قد تقطعت عنك شرائع الصِّبا فالزم الحياء تكن من أهله، ولا تُزايله[1] فتبين منه؛ ولا يغرّنك من آغتر بالله فيك فمدحك بما تعلم خلافه من نفسك؛ فإنه مَن قال فيك من الخير ما لم يعلم إذا رَضي، قال فيك من الشر مثله إذا سَخِط. فاستأنِسْ بالوُحدة من جلساء السوء تسلَمْ من غبّ عواقبهم.

لعبد الملك يوصي بنيه:

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: كفُّوا الأذى، وآبذلوا المعروف، واعفوا إذا قدرتم، ولا تبخلوا إذا سُئلتم، ولا تُلْحِفوا[2] إذا سَألتم؛ فإنه من ضَيَّق ضُيِّق عليه، ومن أعطى أخلَف الله عليه.

للأشعث في مثله:

وقال الأشعث بن قيس لبنيه: يا بنيَّ، لا تَذِلُّوا في أعراضكم، وانخدعوا في أموالكم؛ ولتخفَّ بطونكم من أموال الناس، وظهوركم من دمائهم، فإنّ لكل آمرىء تبعة[3]؛ وإياكم وما يُعتذر منه أو يستحى؛ فإنما يُعتذر من ذنب، ويستحي من عيب؛ واصلحوا المال لجفوة السلطان وتغير الزمان، وكفوا عند الحاجة عن المسألة؛ فإنه كفى بالردّ مَنعاً؛ وأجملوا في الطلب حتى يوافق الرزق قدَراً؛ وامنعوا النساء من غير الأكفاء؛ فإنكم أهل بيت يتأسّى[4] بكم الكريم، ويتشرف بكم اللئيم، وكونوا في عوام الناس ما لم يضطرب الحبل[5]، فإذا اضطرب الحبل فالْحَقُوا بعشائركم.

من عمر بن الخطاب إلى ابنه عبد الله:

وكتب عمر بن الخطاب إلى ابنه عبد الله في غيبة غابها: أما بعد فإن من اتقى الله وقاه، ومن اتكل عليه كفاه، ومن شكر له زاده، ومن اقترضه جزاه. فاجعل التقوى

---

(١) تزايله: تفارقه.

(٢) تلحفوا: تكثروا من السؤال. (٣) تبعة: ظلامة.

(٤) يتأسى: يتمثّل. (٥) يضطرب الحبل: أي حبل الأمن.

عمارة قلبك، وجلاء بصرك. فإنه لا عمل لمن لا نيّة له، ولا خير لمن لا خَشية له، ولا جديد لمن لا خَلَق له.

من علي إلى ابنه حسن:

وكتب علي بن أبي طالب إلى ولده الحسن عليهما السلام: من عليّ أمير المؤمنين الوالدِ الفان، المقرّ للزمان، المستسلم للحدثان[١]، المُدبر العُمر، المؤمل ما لا يدرك السالك سبيل من قد هَلك، غرَض الأسقام[٢]، ورهينة الأيام، وعبد الدنيا، وتاجر الغرور، وأسير المنايا، وقرين الرزايا، وصريع الشهوات، ونُصب الآفات، وخليفة الأموات. أما بعد؛ يا بني، فإن فيما تفكرت فيه من إدبار الدنيا عني، وإقبال الآخرة عليّ. وجُموح الدهر عليّ ما يرغّبني عن ذكر سوائي، والاهتمام بما ورائي، غير أنه حيث تفرد بي همُّ نفسي دون همّ الناس، فصدَقني رأيي، وصرَفني عن هواي، وصرح بي محض أمري، فأفضى بي إلى جِدّ لا يُزْرى به لعب، وصِدْقٍ لا يَشوبه كذب[٣]، ووجدتُك يا بني بعضي، بل وجدتك كُلّي، حتى كأن شيئاً لو أصابك لأصابني، وحتى كأن الموت لو أتاك أتاني. فعند ذلك عناني من أمركَ ما عناني من أمر نفسي. كتبت إليك كتابي هذا يا بني مستظهراً به إن أنا بقيت لك أو فنيْت، فإني مُوصيك بتقوى الله، وعمارة قلبك بذكره، والاعتصام بحبله فإن الله تعالى يقول: ﴿وٱعْتصِمُوا بِحبْلِ اللهِ جَميعاً ولا تَفرَّقوا وٱذْكُروا نِعمةَ اللهِ عليكُمْ إذ كنتم أَعْداءً فأَلَّفَ بين قلوبكُمْ فأَصبحتم بنِعْمَتِه إخواناً﴾[٤]. وأي سبب يا بني أوثق من سبب بينك وبين الله تعالى إن أنت أخذت به، أحيِ قلبك بالموعظة، ونَوِّرْه بالحكمة وأَمِتْه بالزهد، وذلِّله بالموت وقَوِّه بالغنى عن الناس، وحَذِّره صولة الدهر؛ وتقلُّب الأيام والليالي، وآعرض عليه أخبار الماضين وسِرْ في ديارهم وآثارهم فانظر ما فعلوا، وأين حلوا، فإنك تجدهم قد انتقلوا من دار الغرور ونزلوا دار الغربة. وكأنك عن

---

(١) الحدثان: الليل والنهار.
(٢) غرض الاسقام: هدفها.
(٣) لا يشوبه: يخالطه.
(٤) سورة آل عمران الآية ١٠٣.

قليل يا بني قد صرت كأحدهم، فبع دنياك بآخرتك، ولا تبع آخرتك بدنياك. ودع القول فيما لا تعرف، والأمر فيما لا تُكلّف، وأمُرْ بالمعروف بيدك ولسانك، وآنْهَ عن المنكر بيدك ولسانك، وباينْ مَن[1] فعَله، وخُضِ الغمرات إلى الحق، ولا يأخذك في الله لومةُ لائم، واحفظْ وصيَّتي ولا تذهب عنك صَفحاً، فلا خير في علم لا ينفع. واعلم أنه لا غنى لك عن حُسن الآرتياد[2] مع بلاغك من الزاد، فإن أصبت من أهل الفاقة من يحمل عنك زادك فيوافيك به في معادك فاغتنمه، فإن أمامك عقبة كئوداً[3] لا يجاوزها إلا أخف الناس حملاً فأَجْمِلْ في الطلب، وأحسن المكتَسب. فرُب طلبٍ قد جَرَّ إلى حرَب[4]. وإنما المحروب من حُرب دينه، والمسلوب من سُلب يقينَه. وآعلم أنه لا غني يَعدِل الجنة؛ ولا فَقر يعدل النار. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

منه إلى ولده ابن الحنفية:

وكتب إلى آبنه محمد بن الحنفية: أنْ تَفقَّهْ في الدين، وعوِّدْ نفسك الصبر على المكروه، وكِلْ نفسك في أمورك كلّها إلى الله عز وجل، فإنك تكلها إلى كهف حريز، ومانع عزيز، وأخلص المسألة لربك فإن بيده العطاء والحرمان وأكثر الاستخارة له، وآعلم أن من كان مطيته الليل والنهار فإنه يُسارُ به وإن كان لا يسير، فإن الله تعالى قد أبى إلا خراب الدنيا وعِمارة الآخرة، فإن قدرت أن تزهد فيها زُهْدَك كله فافعل ذلك، وإن كنت غير قابل نصيحتي إياك فاعلم علماً يقيناً أنك لن تبلغ أملك، ولا تعدُوَ أجلَك، فإنك في سبيل من كان قبلك، فأكرم نفسك عن كل دَنِيَّة وإن ساقتك إلى الرغائب، فإنك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً، وإياك أن توجِفَ[5] بك مطايا الطمع وتقول: متى ما أُخِّرت نَزَعت، فإن هذا أهْلك من هَلك قبلك، وأَمسِك عليك لسانَك، فإن تلافيك ما فرط من صمتك، أيسر عليك

(١) باين: فارق وهاجر. (٢) الارتياد: الطلب.
(٣) كنودا: يقال: أرض كنود: أي لا تنبت شيئاً.
(٤) حرب: سلب المال السابق. (٥) توجف: تسرع.

من إدراك ما فات من منطقك، وآحفظ ما في الوعاء بشَدِّ الوكاء، فحُسْن التدبير مع الآقتصاد أبقَى لك من الكثير مع الفساد والحرُفة[1] مع العفة خير من الغنى مع الفجور، والمرء أحفظ لسره، ولربما سعى فيما يضره، وإياك والاتكال على الأماني، فإنها بضائع النَّوْكَى[2]، وتُثَبِّط عن الآخرة والأولىٰ، ومن خير حظ الدنيا القرين الصالح، فقارن أهل الخير تكن منهم، وبايِنْ أهل الشر تَبِنْ عنهم، ولا يَغلِبَنَّ عليك سوءُ الظن، فإنه لن يدعَ بينك وبين خليلٍ صُلْحاً. أَذْك قلبَك بالأدب كما تُذْكى النارَ بالحطب، واعلم أن كُفر النعمة لؤمٌ، وصُحبة الأحمق شُؤْمٌ، ومن الكرم مَنْعُ الحرم، ومن حَلُم ساد، ومن تفهم ازداد. آمَحض أخاك النصيحة[3]، حسنةً كانت أو قبيحة. لا تَصرم أخاك على ارتياب، ولا تَقطعه دون استعتاب، وليس جزاءُ من سرك أن تسوءه. الرزق رزقان: رزقٌ تطلبه ورزق يطلبك، فإن لم تأته أتاك، واعلم يا بني أنه مالك من دنياك إلا ما أَصلحت به في مثواك، فأنفق من خيرك. ولا تكن خازناً لغيرك، وإن جزعت على ما يُفلت من يديك، فاجزع على ما لم يصل إليك ربما أخطأ البصيرُ قَصْدَه، وأبصر الأعمى رشده، ولم يَهلك آمرؤ آقتصد، ولم يَفتقر من زَهد. من ائتمن الزمان خانه ومن تعظم عليه أهانه. رأس الدين اليقين، وتمام الإخلاص آجتناب المعاصي، وخير المقال ما صدّقه الفعال. سل عن الرفيق قبل الطريق، وعن الجار قبل الدار، واحمل لصديقك عليك، واقبل عذرَ من اعتذر إليك، وأخرِّ الشر ما آستطعت، فإنك إذا شئت تعجَلته. لا يكن أخوك على قَطيعتك أقوى منك على صِلته، وعلى الإساءة أقوى منك على الإحسان. لا تُملِّكَنَّ المرأة من الأمر ما يجاوز نفسها، فإن المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة، فإنّ ذلك أدوم لحالها، وأرخى لبالها، واغضُض بصرها بسترك، واكفُفها بحجابك، وأكرِم الذين بهم تصول، فإذا تطاولت[4] تطول. أسأل الله أن يُلْهِمك الشكر والرشد: ويُقويِّك على العمل بكل خير، ويصرف عنك كل محذور برحمته. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

(١) الحُرفة: الضيق والاقلال. (٢) النوكى: مفردها نوك وهو الأحمق.
(٣) المحض النصيحة: أخلص له وخصّه بها. (٤) تطاولت: تكبّرت وترفعت.

مقامات العباد عند الخلفاء

مقام صالح بن عبد الجليل

قام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي فقال له: إنه لما سَهُل علينا ما توعّر على غيرنا من الوصول إليك، قُمنا مقام الأداء عنهم وعن رسول الله ﷺ، بإظهار ما في أعناقنا من فريضة الأمر والنهي [عند] انقطاع عذر الكِتمان، ولا سيما حين اتسمتَ بِمِيْسم التواضع، ووعدتَ الله وحَمَلَة كتابه إيثارَ الحقِّ على ما سواه، فجمعَنا وإياك مشهدٌ من مشاهد التمحيص[1]. وقد جاء في الأثر: مَن حَجب الله عنه العلم عذّبه على الجهل؛ وأشد منه عذاباً مَنْ أقبلَ إليه العلمُ فأدبرَ عنه. فاقبل يا أمير المؤمنين ما أهدَى إليك من ألسنتنا قَبُولَ تحقيق وعمل، لا قَبولَ سُمْعةٍ ورياء؛ فإنما هو تنبيه من غفلة، وتذكير من سهو وقد وطّن الله عز وجل نبيه على نزولها، فقال تعالى: ﴿وإمّا يَنْزَغنَّكَ من الشَّيطانِ نَزْغ فآستَعِذْ بالله إنّهُ سميعٌ عليم﴾[2].

مقام رجل من العبّاد عند المنصور

بينما المنصور في الطواف ليلاً إذ سمع قائلاً يقول اللهم إني أشكو إليك ظهورَ البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع، فخرج المنصور، فجلس ناحية من المسجد، وأرسل إلى الرجل يدعوه فصلى الرجلُ ركعتين، واستلم الركن، وأقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة.

فقال المنصور: ما الذي سمعتُك تذكر من ظهور الفساد والبغي في الأرض، وما الذي يحول بين الحق وأهله من الطمع؟ فوالله لقد حشوتَ مسامعي ما أرمضني[3].

فقال: إن أمّنتني يا أمير المؤمنين أعلمتُك بالأمور من أصولها، وإلا آحتجرتُ منك واقتصرت على نفسي فلي فيها شاغل.

---

(١) التمحيص: التطهير أو الاختيار.

(٢) سورة فصلت الآية ٣٦.

(٣) أرمضني: أوجعني وآلمني.

قال: فأنت آمن على نفسك فقل. فقال: يا أمير المؤمنين، إن الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين ما ظهر في الأرض من الفساد والبغي لأنتَ. فقال: فكيف ذلك ويحك! يَدْخُلُني الطمع والصفراءُ والبيضاءُ في قبضتي، والحلو والحامض عندي؟ قال: وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك؟ إن الله استرعاك أمر عباده وأموالهم، فأغفلت أمورَهم، واَهتمت بِجَمْعِ أموالهم، وجعلتَ بينك وبينهم حجاباً من الجصِّ والآجُرّ، وأبواباً من الحديد، وحُرَّاساً معهم السلاح، ثم سجنتَ نفسك عنهم فيها، وبعثتَ عُمَّالك في جباية الأموال وجمعها وقوّيتهم بالرجال والسلاح والكراع[1]، وأمرت ألا يدخل عليك أحدٌ من الرجال إلاّ فلان وفلان، نفراً سَمَّيْتَهم، ولم تأمُرْ بإيصال المظلوم، ولا الملهوف، ولا الجائع العاري، ولا الضعيف الفقير إليك، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتَهم على رعيتك وأمرتَ أن لا يُحْجبوا دونك، تَجْبي الأموال وتَجْمَعُها. قالوا: هذا قد خان الله فما لنا لا نَخونُه. فائتمروا ألاّ يصل إليك من علم أخبار الناس شيءٌ إلا ما أرادوا، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلا خوَّنوه عندك ونفَوْه، حتى تسقطَ منزلتُه، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم، أعظمهم الناسُ وهابوهم وصانعوهم، فكان أولَ من صانعهم عمالُك بالهدايا والأموال، ليَقْوَوْا بها على ظُلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذَوُو المقدِرة والثروة من رعيتك، لينالوا ظلم مَن دونهم، فامتلأت بلادُ الله بالطمع ظُلماً وبغياً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل، فإن جاء متظلّم حيل بينك وبينه، فإن أراد رَفْعَ قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك، وأوقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك المتظلم فبلغ بطانتك[2] خبره، سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته إليك، فلا يزال المظلومُ يختلف إليه ويلوذ به[3]، ويشكو ويستغيث، وهو يدفعه، فإذا أُجْهِدَ وأُخْرِجَ ثم ظهرتَ صرخ بين يديك، فيضرب ضرباً مبرحاً يكون نكالاً[4] لغيره، وأنت تنظر فما

---

(١) الكراع: الخيل. (٢) بطانتك: المقرّبين إليك.

(٣) يلوذ: يحتمي. (٤) نكالا: عقابا.

تنكر! فما بقاءُ الإسلام على هذا؟ وقد كنتُ يا أميرَ المؤمنين أسافر إلى الصين فقدمتُها مرة وقد أصيب مَلِكُهم بسمعه، فبكى بكاء شديداً، فحثه جلساؤه على الصبر فقال: أما إني لست أبكي للبلية النازلة، ولكني أبكي لمظلوم يصرُخ بالباب فلا أسمع صوته، ثم قال: أما إذ قد ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب، نادوا في الناس أن لا يلبس ثوباً أحمرَ إلاّ مُتَظلّم. ثم كان يركب الفيل طرفي النهار وينظر هل يرى مظلوماً، فهذا يا أمير المؤمنن مُشركٌ بالله، بلغتْ رأفتُه بالمشركين هذا المبلغ، وأنت مؤمنٌ بالله من أهل بيت نبيّه لا تغلبك رأفتُك بالمسلمين على شُحِّ نفسك! فإن كنت إنما تَجمع المال لولدك، فقد أراك الله عِبَراً في الطفل يسقط من بطن أمه ما له على الأرض مالٌ، وما من مال إلا ودونه يدٌ شحيحة تحويه، فما يزال الله يلطُف بذلك الطفل، حتى تعظم رغبةُ الناس إليه. ولستَ الذي تعطي، بل اللهُ تعالى يُعطي من يشاءُ ما يشاءُ. فإن قلت إنما تجمع المال لتشديد السلطان، فقد أراك الله عِبَراً في بني أمية، ما أغنى عنهم جمعُهمْ من الذهب وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع حين أراد الله بهم ما أراد. وإن قلت إنما تجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها. فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلةٌ ما تُدرَك إلا بخلاف ما أنت عليه يا أمير المؤمنين. هل تُعاقِبُ من عصاك بأشد من القتل. فقال المنصور: لا. فقال: فكيف تصنع بالملك الذي خوَّلك مُلك الدنيا، وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن بالخلود في العذاب الأليم. قد رأى ما عُقِدَ[1] عليه قلْبُك، وعملتْه جوارحُك[2]، ونظر إليه بصرك، واجترحته يداك، ومشت إليه رجلاك. هل يغني عنك ما شححتَ عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يدك ودعاك إلى الحساب؟ قال: فبكى المنصور، ثم قال: ليتني لم أُخْلَق! ويحك كيف أحتال لنفسي؟ فقال يا أمير المؤمنين، إن للناس أعلاماً يفزعون[3] إليهم في دينهم، ويرضون بهم في دنياهم، فاْجعلهم بطانتك يرشُدوك، وشاورْهُم في أمرك يُسَدّدوك. قال: قد بعثت إليهم فهربوا مني. قال: خافوك أن

---

(١) عقد: عزم وأضمر.

(٢) الجوارح: اليدين وأعضاء الجسم. (٣) يفزعون: يلجأون.

تحملَهم على طريقتك، ولكن افتح بابك، وسَهِّل حجابك، وانصر المظلوم، واقمع الظالم، وخُذ الفيء والصدقات على حلها، واقسمها بالحق والعدل على أهلها، وأنا ضامن عنهم أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة.

وجاء المؤذّنون فآذنوه بالصلاة، فصلى وعاد إلى مجلسه، وطُلب الرجل فلم يوجد.

مقام الأوزاعي
بين يدي المنصور

قال الأوزاعي: دخلت عليه فقال لي: ما الذي بطأ بك عني؟
قلت: وما تريد مني يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الاقتباس منك.

فقلت: يا أمير المؤمنين، آنظر ما تقول، فإن مكحولاً حدثني عن عطية بن بُسْر، أن رسول الله ﷺ قال «مَنْ بلغته عن الله نصيحة في دينه فهي رحمة من الله سيقَتْ إليه، فإن قبلها من الله بِشُكر وإلا فهي حجةٌ من الله عليه ليزدادَ إثماً ويزدادَ الله عليه غضباً وإن بلغه شيء من الحق فرضي فله الرضا، وإن سخط فله السخط ومن كرهه فقد كره الله عز وجل لأن الله هو الحق المبين».

ثم قلت: يا أمير المؤمنين، إنك تحمّلت أمانة هذه الأمة وقد عُرِضتْ على السموات والأرض فأبيْن أن يَحْمِلنها وأشفقن منها. وقد جاء عن جدك عبد الله ابن عباس في تفسير قول الله عز وجل: ﴿لا يُغادِرُ صغيرَةً ولا كبيرَةً إلاَّ أَحْصاها﴾[1] قال: الصغيرة: التبسم، والكبيرة: الضحك. فما ظنك بالقول والعمل؟ فأُعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن ترى أن قرابتك من رسول الله ﷺ تنفعك مع المخالفة لأمره، فقد قال ﷺ: «يا صفيَّةُ عمَّةَ محمد، ويا فاطمةُ بنتَ محمد، آسْتَوْهِبا أنْفُسَكما من الله، فإني لا أُغني عنكما من الله شيئاً». وكذلك جدُّك العباس، سأل إمارةً من النبي ﷺ، فقال: «أي عَمِّ نفْسٌ تحييها خيرٌ لك من إمارة لا تحصيها؛ نظراً لعمه وشفقة عليه من أن يَليَ فيَحيدَ عن سنَّته جناح بعوضة، فلا يستطيعُ له نفعاً ولا عنه دفعاً».

(١) سورة الكهف الآية ٤٩.

وقال ﷺ: «ما من راعٍ يبيتُ غاشّاً لرعيته إلا حرّم الله عليه رائحةَ الجنة. وحقيق على الوالي أن يكون لرعيته ناظراً، ولِمَا استطاع من عوراتهم ساترا، وبالحق فيهم قائما، فلا يتخوّف محسنُهم رَهَقاً، ولا مسيئُهم عدواناً. فقد كانت بيد رسول الله ﷺ جريدة يستاك[1] بها ويردع عنه المشركين بها، فأتاه جبريل فقال: يا محمد، ما هذه الجريدة التي معك! اتركها لا تملأ قلوبهم رعباً! فما ظنك بمن سفك دماءهم، وقطع أستارهم، ونهب أموالهم!» يا أمير المؤمنين، إنّ المغفور له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القِصاص من نفسه بخَدش خَدَشه أعرابياً لم يتعمده؛ فقال جبريل: يا محمد، إنّ الله لم يبعثك جباراً تَكْسِرُ قرون أمتك. واعلم يا أمير المؤمنين أن كل ما في يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة، ولا ثمرة من ثمارها؛ ولو أن ثوباً من ثياب أهل الناس عُلق بين السماء والأرض لأهْلَكَ الناسَ رائحتُه، فكيف بمن يتقمَّصُه! ولو أن ذَنوباً[2] من صديد أهل النار صُبَّ على ماء الدنيا لأحَمَّه[3]، فكيف بمن يتجرّعه! ولو أن حلْقةً من سلاسل جهنم وُضِعتْ على جبل لأذابته؛ فكيف بمن يُسْلَك فيها؛ ويُرَدُّ فَضْلُها على عاتقه.

كلام أبي حازم

لسليمان بن عبد الملك

حج سليمان بن عبد الملك؛ فلما قدم المدينة للزيارة بعث إلى أبي حازم الأعرج وعنده ابن شهاب. فلما دخل قال: تكلم يا أبا حازم. قال: فِيمَ أتكلمُ يا أمير المؤمنين؟ قال: في المخرج من هذا الأمر. قال: يسيرٌ إن أنت فعلته. قال: وما ذاك؟ قال: لا تأخذ الأشياءَ إلا مِن حِلِّها، ولا تضعْها إلا في أهلها. قال: ومن يَقْوَى على ذلك؟

---

(١) يستاك: ينظف أسنانه بالسواك. (٢) ذنوباً: دلواً.

(٣) أحمه: سخّنه.

قال: من قلّده الله من أمر الرعية ما قلّدك. قال: عظني أبا حازم! قال: اعلم أن هذا الأمر لم يَصِرْ إليك إلا بموت من كان قبلك، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك. قال: يا أبا حازم أَشِرْ عليّ. قال: إنما أنت سوق، فما نفق عندك حُمِلَ إليك من خير أو شر فاختر أيهما شئت. قال: مالك لا تأتينا؟ قال: وما أصنع بإتيانك يا أمير المؤمنين؟ إن أدنيتَني فتنتَني، وإن أقصيتني أخزيتَني؛ وليس عندك ما أرجوك له، ولا عندي ما أخافُك عليه! قال: فارفع إلينا حاجتك. قال: وقد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها، فما أعطاني منها قبلت، وما منعني منها رضيت.

مقام ابن السماك

عند الرشيد

دخل عليه، فلما وقف بين يديه قال له: عظني يا ابن السماك وأوجز.

قال: كفى بالقرآن واعظاً يا أمير المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿بسم الله الرحْمٰنِ الرحيم ويلٌ للمطفِّفين الذين إذا اكتالوا على الناسِ يَسْتَوْفون وإذا كالوهُمْ أو وزَنوهم يُخسِرون ألا يَظُنُّ أُولٰئك أنَّهم مبعوثون لِيومٍ عظيم يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالَمين﴾[1]. هذا يا أمير المؤمنين وعيد لمن طفف في الكيل، فما ظنك بمن أخذه كله! وقال له مرة: عظني. وأُتي بماء ليشربه. فقال: يا أمير المؤمنين، لو حُبستْ عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم. قال: فلو حبس عنك خروجُها أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم! قال: فما خيرٌ في ملك لا يساوي شربة ولا بَوْلة! قال: يا ابن السماك، ما أحسن ما بلغني عنك؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن لي عيوباً لو اطلع الناس منها على عيب واحد ما ثبتت لي في قلب أحد مودة؛ وإني لخائف في الكلام الفتنة وفي السر الغرة وإني لخائف على نفسي من قلة خوفي عليها.

---

(١) سورة المطففين الآية ١ ـ ٦.

كلام عمرو بن عبيد
عند المنصور

دخل عمرو بن عبيد على المنصور وعنده ابنه المهدي، فقال له أبو جعفر: هذا ابن أمير المؤمنين، وولي عهد المسلمين؛ ورجائي أن تدعو له. فقال: يا أمير المؤمنين، أراك قد رضيت له أموراً يصير إليها وأنت عنه مشغول فاستعبر أبو جعفر وقال له عِظني أبا عثمان! قال يا أمير المؤمنين! إنّ الله أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك منه ببعضها. هذا الذي أصبح في يديك لو بقي في يد من كان قبلك لم يصل إليك! قال: أبا عثمان أعِنّي بأصحابك، قال: آرفع علم الحق يَتبعْك أهلُه؛ ثم خرج، فأتْبَعه أبو جعفر بصُرَّة، فلم يقبلها؛ وجعل [المنصور] يقول:

كلكم يَمشي رُوَيْدْ كلُّكم خاتِل صيْدْ[1]
غيرَ عمرو بن عُبَيْدْ

خبر سفيان الثوري
مع أبي جعفر

لقي أبو جعفر سفيان الثوري في الطواف، وسفيان لا يعرفه، فضرب بيده على عاتقه وقال: أتعرفني؟ قال: لا، ولكنك قبضت عليَّ قَبْضةَ جبَّار، قال: عظني أبا عبد الله. قال: وما عملتَ فيم علمتَ فأعظَك فيما جهلت؟ قال: فما يمنعك أن تأتينا؟ قال: إن الله نهى عنكم فقال تعالى: ﴿ولا تَرْكَنوا إلى الذين ظلَموا فتمسَّكمُ النارُ﴾[2] فمسح أبو جعفر يده به ثم التفت إلى أصحابه فقال: ألقيْنا الحَب إلى العلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا فِراراً.

---

(١) خاتل: ختل الصيد أي تخفى، فهو خاتل.
(٢) سورة هود الآية ١١٣.

كلام شبيب بن شيبة
للمهدي

قال العتبي: سألت بعض آل شبيب بن شيبة: أتحفظون شيئاً من كلامه؟ قالوا: نعم، قال للمهدي: يا أمير المؤمنين، إن الله إذا قسم الأقسام في الدنيا جعل لك أسناها وأعلاها، فلا تَرض لنفسك في الآخرة إلا مثل ما رضي لك به من الدنيا، فأوصيك بتقوى الله فعليكم نزلت؛ ومنكم أُخذت، وإليكم تردّ.

من كره الموعظة
لبعض ما فيها من الغلظ أو الخرق

بين الرشيد وواعظ:

قال رجل للرشيد: يا أمير المؤمنين، إني أريد أن أعظك بعظة فيها بعض الغلظة فآحتملها، قال: كلا، إنّ الله أَمَرَ من هو خير منك بالإلانة القول لمن هو شر مني: قال لنبيّه موسى إذ أرسله إلى فرعون ﴿فُقولا له قوْلاً ليِّناً لعلَّه يتذكَّر أو يَخشى﴾[1].

سليمان بن عبد الملك وأعرابي:

دخل أعرابيّ على سليمان بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، إني مكلّمك بكلام، فآحتملْه إن كرهته، وراءه ما تُحب إن قبلته، قال: هام يا أعرابي، قال: إني سأطلق لساني بما خرستْ عنه الألسن من عظتك. تأديه لحق الله تعالى وحق إمامتك: إنه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم، فابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، فهم حرب الآخرة سِلْم للدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنهم لا يألونك خبالاً[2]، والأمانةَ تضييعاً، والأمة عسفاً وخسفاً[3]، وأنت مسئول عما اجترحوا[4] وليسوا مسئولين عما اجترحت، فلا

---

(١) سورة طه الآية ٤٤.
(٢) يألو: يقصر والخبال: الفساد.
(٣) العسف: الظلم، والخسف: الانتقاص والاذلال.
(٤) جرحوا: عملوا.

تُصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أخسر الناس صفقة يوم القيامة وأعظمَهم غبناً، من باع آخرته بدنيا غيره. قال سليمان: أما أنت يا أعرابي فقد سللتَ لسانك وهو أحد سيفيك. قال: أجل يا أمير المؤمنين، لك لا عليك.

المأمون وواعظ:

ووعظ رجل المأمون فأصغى إليه منصتاً، فلما فرغ قال: قد سمعت موعظتك، فأسأل الله أن ينفعنا بها، وربما عملنا، غير أنا أحوج إلى المعاونة بالفعال منا إلى المعاونة بالمقال، فقد كثر القائلون وقلَّ الفاعلون.

العتبي قال: دخل رجل من عبد القيس على أبي فوعظه، فلما فرغ قال أبي له: لو آتعظنا بما عَلمنا لآنتفعنا بما عملنا، ولكنا علمنا علماً لزمتنا فيه الحجة، وغَفلنا غفلة من وجبت عليه النقمة، فوُعظنا في أنفسنا بالتنقل من حال إلى حال، ومن صِغر إلى كَبر، ومن صحة إلى سَقم، فأبينا إلا المُقام على الغفلة، إثاراً لعاجل لا بقاء لأهله، وإعراضاً عن آجلٍ إليه المصير.

عتبان بن أبي سفيان وبعض القراء:

سعد القصير قال: دخل أناس من القراء على عُتبة بن أبي سفيان فقالوا: إنك سلطت السيف على الحق ولم تسلط الحق على السيف، وجئت بها عشوة[1] خفيّة. قال: كذبتم! بل سلطت الحق وبه سُلطت، فاعرفوا الحق تعرفوا السيف، فإنكم الحاملون له حيث وضْعُه أفضل، والواضعون له حيث عمله أعْدل، ونحن في أوّل زمان لم يأت آخره، وآخر دهر قد فات أوله. فصار المعروف عندكم مُنكراً، والمنكر معروفاً. وإني أقول لكم مهلاً، قبل أن أقول لنفسي هلا! قالوا: فنخرج آمنين؟ قال غير راشدين ولا مهذبين.

---

(١) العشوة من الأمر: الملتبس.

راهب وضالون في سفرهم:

حاد قوم سَفْر عن الطريق، فدفعوا إلى راهب منفرد في صومعته، فنادوْه، فأشرف عليهم، فسألوه عن الطريق، فقال: ههنا. وأومأ بيده إلى السماء، فعلموا ما أراد، فقالوا: إنا سائلوك. قال: سلوا ولا تكثروا: فإن النهار لا يرجع والعمر لا يعود، والطالب حثيث! قالوا: علام الناس يوم القيامة؟ قال: على نياتهم وأعمالهم. قالوا: إلى أين الموئل؟ قال: إلى ما قدمتم. قالوا: أوصنا. قال: تزوَّدوا على قدر سفركم، فخير الزاد ما بلَّغ المحل. ثم أرشدهم الجادّة وانقمع[1].

وقال بعضهم: أتيت الشامَ فمررت بدير حرملة، فإذا فيه راهب كأن عينيه مزادتان[2]، فقلت له: ما أشدّ ما يبكيك! قال: يا مسلم، أبكي على ما فرطت فيه من عمري، وعلى يوم يمضي من أجلي لم يحسن فيه عملي! قال: ثم مررت بعد ذلك، فسألت عنه، فقيل لي إنه أسلم وغزا الروم وقُتل!

الحيري وثوبان في لبس الرهبان:

قال أبو زيد الحِيري: قلت لثوبان الراهب: ما معنى لُبس الرهبان هذا السواد؟ قال: هو أشبه بلباس أهل المصائب! قلت: وكلكم معشرَ الرهبان قد أصيب بمصيبة؟ قال: يرحمك الله، وهل مُصيبة أعظم من مصائب الذنوب على أهلها. قال أبو زيد: فما أذكر قوله إلا أبكاني.

آزادمرد:

حبيبٌ العدَوى عن موسى الأسواري قال: لما وقعت الفتنة أردتُ أن أُحرز ديني[3]، فخرجت إلى الأهواز، فبلغ آزادمَرْدَ قُدومي، فبعث إليّ متاعاً، فلما أردت الانصراف بلغني أنه ثقيل، فدخلت عليه، فإذا هو كالخُفّاش، لم يبق منه إلا رأسه،

---

(١) انقمع: تغيب ودخل وراء ستر.

(٢) المزادة: وعاء من جلد يوضع فيه الماء. (٣) أحرز: أحفظ.

فقلت: ما حالك؟ قال: وما حال من يريد سفراً بعيداً بغير زاد، ويدخل قبراً موحشاً بلا مؤنس، وينطلق إلى ملك عدل بلا حجة؟ ثم خرجت نفسه.

بين العتبي وبعض الرهبان:

العتبي قال: مررت براهب باك، فقلت: ما يُبكيك؟ قال: أمرٌ عرفته وقَصرت عن طلبه، ويوم مضى من عمري نَقص له أجلي ولم ينقص له أملي.

باب
من كلام الزهاد وأخبار العباد

لبعض العباد:

قيل لقوم من العبّاد: ما أقامكم في الشمس؟ قالوا: طلب الظل.

لعلقمة الأسود:

قيل لعلقمة الأسود بن يزيد: كم تعذّب هذا الجسد الضعيف؟ قال: لا تُنال الراحةُ إلا بالتعب.

لآخر:

وقيل لآخر: لو رفقت بنفسك! قال: الخير كلُّه فيما أُكْرِهَت النفوس عليه، قال النبي ﷺ: «حُفَّت الجنَّة بالمكاره».

مسروق الأجدع:

وقيل لمسروق بن الأجدع: لقد أضررت ببدنك. قال: كرامتَه أُريد. وقالت له امرأته فيروز لما رأته لا يُفطر من صيام ولا يفتر من صلاة[1]: ويلك يا مسروق! أما يعبدُ الله غيرُك، أما خُلقت النارُ إلا لك؟ قال لها: ويْحَكِ يا فيروز! إن طالب الجنة

(١) يفتر: يضعف.

لا يسأم، وهارب النار لا ينام.

أبو الدرداء وزوجه:

وشكت أم الدرداء إلى أبي الدرداء الحاجة، فقال لها: تصبَّري، فإن أمامنا عقبة كئودا[1] لا يجاوزها إلا أخف الناس حِملاً.

أبو حازم:

ومر أبو حازم بسوق الفاكهة، فقال: موعدُكِ الجنةُ.

ومر بالجزارين، فقالوا له: يا أبا حازم، هذا لحم سمين فاشتر. قال: ليس عندي ثمنُه. قالوا نؤخرك. قال: أنا أؤخر نفسي.

وكان رجل من العُبَّاد يأكل الرُّمَّانَ بِقشره، فقيل له: لِم تفعلُ هذا؟ فقال إنما هو عدوٌّ فأثخن[2] فيه ما أمكنك.

علي بن الحسين:

وكان عليٌّ بن الحسين عليهما السلام إذا قام إلى الصلاة أخذته رعْدَة، فسئل عن ذلك، فقال: ويحكم! أتدرون إلى مَن أقوم ومن أريد أن أناجي؟

يونس بن عبيد:

وقال رجل ليونس بن عُبيد: هل تعلم أحداً يعمل بعمل الحسن[3]؟ قال: لا والله ولا أحداً يقول بقوله.

لمحمد بن علي:

وقيل لمحمد بن علي بن الحسين أو لعليّ بن الحسين عليهم السلام: ما أقلَّ ولدَ

---

(١) كئودا: كأداء: أي صعبة المرتقى. (٢) أثخن: بالغ في قتاله.
(٣) هو الحسن البصري.

أبيك؟ قال: العجبُ كيف ولِدتُ له وكان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، فمتى كان يتفرغ للنساء؟ وحج خمساً وعشرين حجة راجلاً.

ابن المسيب وامرأة:

ولما ضُرب سعيد بن المسيب وأقيم للناس قالت له امرأة: لقد أُقمتَ مقام خزية! فقال: من مقام الخزية فرَرْتُ.

لابن دينار في قحط:

وشكا الناس إلى مالك بن دينار القحط. فقال: أنتم تستبطئون المطر وأنا أستبطىء الحجارة!

لابن عياض في مثله:

وشكا أهل الكوفة إلى الفُضيل بن عِياض القحط. فقال: أمُدبِّراً غيرَ اللهِ تريدون؟

لأبي حنيفة في السختياني:

وذكر أبو حنيفة أيوب السِّختياني. فقال: رحمه الله تعالى ـ ثلاثاً ـ لقد قدم المدينة مرة وأنا بها فقلت: لأقعدن إليه لعلّي أتعلق منه بسقطة. فقام بين يدي القبر مقاماً ما ذكرته إلا اقشعرّ له جِلدي.

ابن أبي رباح:

وقيل لأهل مكة: كيف كان عطاء بن أبي رباح فيكم؟ قالوا: كان مثل العافية التي لا يُعرف فضلها حتى تفقد. وكان عطاء أفطس[1] أسود أشل أعرج ثم عمي وأمه سوداء تسمى بركة.

---

(١) الأفطس: من انخفضت قصبة أنفه.

الأوقص المخزومي:

وكان الأوقص المخزومي قاضياً بمكة، فما رؤى مثلُه في عفافه وزهده؛ فقال يوماً لجلسائه: قالت لي أمي: يا بُني، إنك خُلقت خلقة لا تصلح معها لمجامعة الفِتيانِ عند القيان؛ فعليك بالدين؛ فإن الله يرفع به الخسيسة، ويتم به النقيصة، فنفعني الله تعالى بكلامها وأطعتها فوليت القضاء.

بين ابن واسع وابن دينار:

الفضيل بن عياض قال: اجتمع محمد بن واسع ومالك بن دينار في مجلس بالبصرة، فقال مالك بن دينار: ما هو إلا طاعة الله أو النار. فقال محمد بن واسع ما هو كما تقول، ليس إلا عفو الله أو النار. قال مالك: صدقت. ثم قال مالك: إنه يعجبني أن يكون للرجل معيشة قدر ما يقوته. قال محمد بن واسع: ما هو إلا كما تقول، ولكن يعجبني أن يصبح الرجل وليس له غداء، ويمسي وليس له عشاء، وهو مع ذلك راض عن الله عز وجل. قال مالك: ما أحوجني إلى أن يُعلمني مثلك.

لابن مهدي في بعض العباد:

جعفر بن سليمان قال: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: ما رأيت أحداً أقشف[1] من شعبة، ولا أعبد من سفيان الثوري، ولا أحفظ من ابن المبارك. وما أحب أن ألقى الله بصحيفة أحد إلا بصحيفة بشر بن منصور، مات ولم يدع قليلاً ولا كثيراً.

بشر بن منصور على فراش الموت:

عبد الأعلى بن حماد قال: دخلت على بشر بن منصور وهو في الموت، فإذا به من السرور في أمر عظيم؛ فقلت له: ما هذا السرور؟ قال: سبحان الله! أخرج من بين الظالمين والباغين والحاسدين والمغتابين، وأقدم على أرحم الراحمين ولا أسر.

(١) أقشف: من التقشّف.

الرشيد وعابد بمكة:

حج هارون الرشيد، فبلغه عن عابد بمكة مجاب الدعوة معتزل في جبال تهامة فأتاه هارون الرشيد فسأله عن حاله ثم قال له: أوصني ومُرني بما شئت، فواد لا عصَيتك! فسكت عنه ولم يرد عليه جواباً؛ فخرج عنه هارون، فقال له أصحابه ما منعك إذا سألك أن تأمره بما شئت وحلف ألاّ يعصيك أن تأمره بتقوى الله والإحسان إلى رعيته؟ فخط لهم في الرمل: إني أعظمت الله أن يكون يأمره فيعصيه، وآمره أنا فيطيعني.

سفيان الثوري:

علي بن حمزة ابن أخت سفيان الثوري قال: لما مرض سفيان مرضه الذي مات فيه ذهبت ببوله إلى ديراني، فأريته إياه فقال: ما هذا ببول حنيفي. قلت: بلى والله من خيارهم. قال: فأنا أذهب معك إليه، قال: فدخل عليه وجس عِرقه، فقال: هذا رجل قطع الحزن كبده.

ابن سيرين:

مؤرّق العِجلي قال: ما رأيت أحداً أفقهَ في ورعه ولا أورع في فقهه من محمد بن سِيرين، ولقد قال يوماً: ما غشيتُ امرأة قط في نوم ولا يقظة، إلا امرأتي أم عبد الله فإني أرى المرأة في النوم؛ فأعلم أنها لا تحلُّ لي فأصرف[1] بصري عنها.

بعض العباد:

الأصمعي عن ابنَ عون قال: رأيت ثلاثة لم أر مثلهم: محمد بن سيرين بالعراق، والقاسم بن محمد بالحجاز، ورجاء بن حيوة بالشام.

العتبي قال: سمعت أشياخنا يقولون، انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين: عامر بن

---

(١) أصرف: أشيح.

عبد القيس، والحسن بن أبي الحسن البصري، وهرم بن حبان، وأبي مُسلم الخولاني، وأُويس القُرني، والربيع بن خُثيم ومَسروق بن الأجدع، والأسود بن يزيد.

كيف يكون الزهد

للنبي ﷺ

العتبي يرفعه قال: قيل لرسول الله ﷺ: ما الزهد في الدنيا؟ قال: «أما إنه ما هو بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهدَ في الدنيا أن تكون بما في يد الله أغنى منك عما في يدك».

للزهري:

وقيل للزهري: ما الزهد؟ قال: أما إنه ليس تشعيث اللّمّة[١]، ولا قَشَفَ الهيئة؛ ولكنه صرف النفس عن الشهوة.

لبعضهم:

وقيل لآخر: ما الزهد في الدنيا؟ قال: أن لا يغلب الحرامُ صبرَك، ولا الحلالُ شكرَك.

للنبي ﷺ:

وقيل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، من أزهد الناس في الدنيا؟ قال: «من لم ينس المقابر والبِلى، وآثَرَ ما يَبقَى على ما يفنى، وعَدَّ نفسَه مع الموتى».

وقيل لمحمد بن واسع: من أزهد الناس في الدنيا؟ قال: من لا يبالي بِيد مَن كانت الدنيا.

وقيل للخليل بن أحمد: من أزهد الناس في الدنيا؟ قال من لم يطلبِ المفقود حتى يفقد الموجود.

---

(١) تشعيث اللّمة: عدم تسريحها والاهتمام بها، واللّمة شعر الرأس.

وقال النبي ﷺ: «الزُّهْدُ في الدنيا مِفتاحُ الرَّغبةِ في الآخرة، والرغبة في الدنيا مفتاح الزهد في الآخرة».

قالوا: مثَلُ الدنيا والآخرة كمثل رجل له امرأتان ضرّتان، إن أرضى إحداهما أسخط الأخرى.

وقال النبي ﷺ: «من جعل الدنيا أكبرَ همِّه نزَعَ اللهُ خوفَ الأخرى من قلبه، وجعل الفقرَ بين عينيه، وشغَله فيما عليه لا له».

وقال ابن السماك: الزاهدُ الذي إن أصاب الدنيا لم يَفرَحْ، وإن أصابتْهُ الدنيا لم يَحْزَن، يضحكُ في الملاَ[1]، ويَبْكي في الخلا.

وقال الفضيل: أصل الزهد في الدنيا الرضا عن الله تعالى.

صفة الدنيا

قال رجل لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: يا أمير المؤمنين، صف لنا الدنيا. قال: ما أصف من دار أوّلُها عَناء، وآخرُها فَناء، حَلالُها حساب، وحرامُها عقاب، من استغنى فيها فُتِن، ومن افتقر فيها حَزِن.

قيل لأرسطا طاليس: صف لنا الدنيا. فقال: ما أصف من دار أولها فوْت، وآخرُها موْت.

وقيل لحكيم: صف لنا الدنيا. قال: أمْرٌ بين يديك، وأجل مُطِل عليك، وشيطان فتان، وأماني جرّارة العنان[2]، تدعوك فتستجيب، وترجوها فتَخيب.

وقيل لعامر بن عبد القيس: صف لنا الدنيا. قال: الدنيا والدة للموت، ناقضةٌ للمُبْرَم[3]، مرتجعة العطية وكل من فيها يجري إلى ما لا يدري.

---

(١) الملا: أي الملأ، وهم الجماعة.

(٢) جرّارة العنان: كناية عن عزوبتها بحيث تشدّ إليها الناس.

(٣) المبرم: المتفق عليه والمتعاهد.

وقيل لبكر بن عبد الله المزني: صف لنا الدنيا. فقال: ما مضى منها فحُلْم؛ وما بقي فأماني.

وقيل لعبد الله بن ثعلبة: صف لنا الدنيا. قال: أَمْسُكَ مذموم فيك، ويومك غيرُ محمودٍ لك، وعِزُّك غير مأمون عليك.

وقال النبي ﷺ: «الدنيا سِجْنُ المؤمنِ وجنةُ الكافر».

وقال: «الدنيا عَرَضٌ حاضر يأكل منه البَر والفاجر. والآخرة وَعْدٌ صدْقٌ يحكم فيها مَلِكٌ قادر، يَفْصِلُ الحق من الباطل».

وقال: «الدنيا خِضرةٌ حُلوة، فمن أخذها بحقها بُورِك له فيها، ومن أخذها بغير حقها كان كالآكل الذي لا يَشْبَع».

وقال ابن مسعود: ليس من الناس أحدٌ إلا وهو ضيف على الدنيا ومالُهُ عاريةٌ: فالضيف مرتحل، والعارية مردودة.

وقال المسيح عليه السلام: الدنيا لإبليسَ مزرعة وأهلها حرّاثون.

وقال إبليس: ما أبالي إذا أحب الناس الدنيا أن لا يعبدوا صنماً ولا وثناً، الدنيا أَفْتَنُ لهم من ذلك.

وكان النبي ﷺ «يسمي الدنيا أُمّ دفر. الدفر: النتن».

وقال النبي ﷺ للضحاك بن سُفيان: «ماطعامُك؟» قال: اللحم واللبن. قال: «ثم إلى ماذا يصير؟» قال يصير إلى ما قد علمت. قال: «فإن الله عز وجل ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا».

وقال المسيح عليه السلام لأصحابه: اتخذوا الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها.

من الأثر:

وفي بعض الكتب: أوحى الله إلى الدنيا: من خدَمَني فاخدُمِيه، ومن خدَمك فاستَخْدِميه.

وقيل لنوح عليه السلام: يا أبا البشَر ويا طويل العُمر، كيف وجدت الدنيا؟ قال:

كبيْتٍ له بابان، دخلت من أحدِهما وخرجت من الآخر.

وقال لقمان لابنه: إن الدنيا بحرٌ عريض، قد هلك فيه الأولون والآخِرون، فإن آستطعت أن تجعل سفينتك تقوى الله، وعُدَّتَك التوكل على الله، وزادك العمل الصالح. فإن نجوت فبِرحْمة الله، وإن هلكت فبذنوبك.

وقال ابن الحنفية: من كرُمَت عليه نفسه هانت عليه الدنيا.

وقال: إن الملوك خلَّوْا لكم الحكمة فخَلَّوا لهم الدنيا.

وقيل لمحمد بن واسع: إنك لترْضى بالدّون[1]. قال: إنما رضي بالدون مَن رضِيَ بالدنيا.

وقال المسيح عليه الصلاة والسلام للحواريين: أنا الذي كفأت[2] الدنيا على وجهها، فليس لي زوجةٌ تموت، ولا بيتٌ يخرب.

لابن عبيد:

شكا رجل إلى يونس بن عبيد وجعاً يجده، فقال له: يا عبد الله، هذه دار لا توافقك فالتمس لك داراً توافقك.

الراهب:

لقي رجل راهباً فقال: يا راهب، صف لنا الدنيا. فقال: الدنيا تُخلِقُ الأبدان، وتُجدد الآمال، وتُباعد الأمْنِيّة، وتقرِّب المَنِية. قال: فما حال أهلها؟ قال: من ظفِر بها تعِب، ومن فاتتْه نَصِب[3]. قال. فما الغنى عنها؟ قال: قطع الرجاءِ منها. قال: فأين المخرج؟ قال: في سلوك المنهج. قال: وما ذاك؟ قال: بذل المجهود، والرضا بالموجود.

---

(١) الدّون: القليل.

(٢) كفأت: يقال كفأ الإناء أي ماله وقلبه ليصب ما فيه.

(٣) نصب: أعيا وتعب.

لبعض الشعراء:

قال الشاعر:

ما الناسُ إلاّ مع الدنيا وصاحِبِها فحيثُما انقلَبَتْ يوْماً به انقلَبوا
يُعَظِّمون أخا الدنيا وإن وثَبَتْ يوماً عليه بما لا يَشتَهي وثَبوا

وقال آخر:

يا خاطِبَ الدُّنيا إلى نفْسِها تَنَحَّ عن خطبتها تسْلَمِ
إنّ التي تخطُبُ غرّارة قريبةُ العُرْس من المأتَمِ [1]

عبد الواحد بن الخطاب:

داود بن المُحبَّر قال: أخبرنا عبد الواحد بن الخطاب قال: أقبلنا قافلين من بلاد الروم، حتى إذا كنا بين الرُّصافة وحِمص سمعنا صوتاً من تلك الجبال، تسمعه آذاننا ولم تبصره أبصارنا، يقول: يا مستورُ يا محفوظ، انظر في سِتْر من أنت؛ إنما الدنيا شوك، فانتظر أين تضع قدميك منها!

وقال أبو العتاهية:

رضيتَ بِذي الدُّنيا ككلِّ مُكاثِرٍ مُلِحٍّ على الدُّنيا وكلِّ مُفاخِرِ
ألَمْ تَرَها تسقيه حتى إذا صبا فَرَتْ حلْقَه منها بِشَفْرةِ جازِرِ [2]
ولا تَعدِلُ الدُّنيا جناح بعوضةٍ لدَى اللهِ أو معْشار نَغْبة طائرِ [3]
فلم يَرْض بالدنيا ثواباً لمؤمنٍ ولم يَرض بالدنيا عِقاباً لكافرِ

وقال أيضاً:

هيَ الدنيا؛ إذا كَملتْ وتَمَّ سرورُها خَذَلتْ
وتَفعلُ في الذين بقُوا كما فيمن مَضى فعَلَتْ

---

(١) ورد صدر هذا البيت في بعض الأصول: «إنّ التي تخطب غرّارةٌ» والغرارة: الخداعة.

(٢) صبا: أخذته جهالة الفتوة وعزّة الغنى. (٣) النغبة: الحسوة يحسوها الطائر من الماء.

قال بعض الشعراء يصف الدنيا:

لقد غرّتِ الدنيا رجالاً فأصبحوا بمنزلةٍ ما بعدها مُتحوّلُ
فساخطُ أمْرٍ لا يُبدَّلُ غيره وراضٍ بأمرٍ غيره سيُبدَّلُ
وبالغ أمْرٍ كان يَأمُلُ دونَه ومخترمٌ من دون ما كان يأمُلُ[1]

وقال هارون الرشيد: لو قيل للدنيا صِفي لنا نفْسَك، وكانت ممن ينطق، ما وصفت نفسها بأكثر من قول أبي نواس:

إذا آمتحَن الدُّنيا لبيبٌ تكَشَّفَت له عن عدُوّ في ثياب صديقِ
وما الناسُ إلاَّ هالكٌ وآبن هالكٍ وذو نَسَبٍ في الهالكين عريقِ

لبعض الشعراء:

وقال آخر في صفة الدنيا:

فرُحْنا وراح الشَّامتون عشيَّةً كأنّ على أكتافِنا فِلَقَ الصَّخْرِ
لحَا اللهُ دُنيا تُدخِلُ السِّتْرَ أهلَها وتَهتِك ما بين الأقارِبِ من سِتْرِ

ولأبي العتاهية:

كُلنا نُكثِر الملامةَ للدنيا وكل بحبِّها مفتونُ
والمقاديرُ لا تناولها الأو هامُ لطفاً ولا تَراها العيونُ
ولركب الفناء في كلِّ يوم حركاتٌ كأنهُنَّ سَكونُ

لابن عبد ربه:

ومن قولنا في وصف الدنيا:

ألاَ إنما الدُّنيا نضَارةُ أيْكةٍ إذا آخضَرَّ منها جانبٌ جَفَّ جانبُ[2]
هيَ الدار ما الآمال إلاَّ فجَائعٌ عليها ولا اللَّذَّاتُ إلا مصائبُ
فكم سَخِنَت بالأمس عيْنٌ قريرةٌ وقَرَّتْ عيون دمعُها اليومَ ساكبُ

(١) المخترم: أي الذي اخترمته المنيّة فقضت عليه. (٢) الأيكة: الشجر الملتف.

فلا تَكتحـل عيْنـاك فيهـا بِعَبْـرةٍ   على ذاهِبٍ منهـا فـإنـك ذاهـبُ

وقال أبو العتاهية:

أصبَحَـت الدنيـا لنـا فِتْنَـةً   والحمـــدُ للهِ على ذلِكـــا
قـد أجْمَـع النـاسُ على ذَمّهـا   ما إنْ تـرى منهـم لها تـاركـاً

وقال إبراهيم بن أدهم:

نُـرقِّـع دُنيـانـا بتمـزيـقِ ديننـا   فلا دِينُنـا يبقـى ولا مـا نُـرقـعُ

وما سمعت في صفة الدنيا والسبب الذي يُحبها الناس لأجله بأبلغ من قول القائل.

نُراعُ بذكـرِ الموْت في حين ذِكْـرِه   وتَعتَـرض الدُّنيـا فنلْهـو ونلعـبُ
ونحن بنـو الدُّنيـا خُلِقْنـا لغيرهـا   وما كنتَ منـه فهـو شيءٌ مُحبَّـبُ

فذكر أن الناس بنو الدنيا وما كان الإنسان منه فهو محبب إليه.

واعلم أن الإنسان لا يحب شيئاً إلا أن يجانسْه في بعض طبائعه، وأن الدنيا جانست الإنسان في طبائعه كلها فأحبها بكل أطرافه.

ابن شبرمة وولده:

وقال بعض ولد ابن شبرمة: كنت مع أبي جالساً قبل أن يلي القضاء فمرّ به طارق ابن أبي زياد في موكب نبيل، فلما رآه أبي تنفّس الصُّعداء وقال:

أُراهـا وإنْ كـانـت تحَبُّ كـأنها   سَحابة صَيْفٍ عن قليـلٍ تَقشَّـعُ(١)

ثم قال: اللهم لي ديني ولهم دنياهم. فلما ابتلى بالقضاء، قلت: يا أبت، أتذكر يوم طارق؟ فقال: يا بني إنهم يجدون خلفاً من أبيك وإن أباك لا يجد خلفاً منهم إن أباك خطب في أهوائهم وأكل من حلوائهم.

---

(١) تقشّع: تزول.

وقال الشعبي ما رأيت مَثَلَنا ومَثَل الدنيا إلا كما قال كُثّير عزة:

أسيئـي بنـا أو أَحْسِنِي لا ملـومـةً   لـديْنـا ولا مَقْلِيَّـةً إنْ تَقَلَّـت[1]

وأحكم بيت قيل في تمثيل الدنيا قول الشاعر:

ومَن يأمَن الدُّنيا يكن مثل قابـضٍ   على الماءِ خانتْه فُروجُ الأصابِـع[2]

الأصعمي في بيت يستحسنه:

وحدّث العبّاس بن الفرج الرياشي، قال: رأيـت الأصمعـي يُنشـد هـذا البيـت ويستحسنه في صفة الدنيا:

مـا عُـذْرُ مُـرْضِعَـةٍ بكـا   سِ الموْتِ تَفطِـم مَـن غَـذَتْ

ولقطري بن الفُجاءة في وصف الدنيا خطبةٌ مجردة تقع في جملة الخُطب في كتاب الواسطة.

قولهم في الخوف

لابن عباس:

سئل ابن عباس عن الخائفين لله، فقال: هم الذين صدَقوا الله في مخافة وعيده، قلوبُهم بالخوف قرِحة، وأعينُهم على أنفسهم باكية، ودموعُهم على خدودهم جارية، يقولون كيف نفرح والموتُ مِنْ ورائنا. والقبورُ من أمامِنا، والقيامةُ موعِدنا، وعلى جهنم طريقُنا، وبين يدي ربنا موقفُنا!

وقال عليّ كرم الله وجهه: ألا إن لله عباداً مخلصين، كمن رأى أهل الجنة في الجنة فاكهين، وأهل النار في النار معذبين، شرورُهم مأمونة وقلوبُهم محزونة. وأنفسهم عفيفة، وحوائجهُم خفيفة، صبروا أياماً قليلة العقبى راحة طويلة، أما بالليل فصَفُّوا

---

(١) تقلّت: تبغّضت.   (٢) فروج الأصابع: فتحاتها.

أقدامَهُم في صلاتهم؛ تجري دموعهم على خدودهم، يَجْأرُون[1] إلى ربهم: ربَّنا ربَّنا! يطلبون فَكاك قلوبهم؛ وأما بالنهار فعُلَماء حُلَماء بررة أتقياء؛ كأنهم القِداح. القداح: السهام، يريد في ضمرتها - ينظر إليهم الناظر فيقول مَرْضى، وما بالقوم من مرض؛ ويقول: خولِطوا؛ ولقد خالط القومَ أمر عظيم.

لابن عمار في الزهد:

وقال منصور بن عمار في مجلس الزهد: إن لله عباداً جعلوا ما كتب عليهم من الموت مثالاً بين أعينهم، وقطعوا الأسباب المتصلة بقلوبهم من علائق الدنيا؛ فهم أنضاء عبادته، حلفاء طاعته، قد نضحوا[2] خدودَهم بوابل دموعهم[3]، وافترشوا جباههم في محاريبهم، يناجون ذا الكبرياء والعظمة في فكاك رقابهم[4].

عمر بن عبد العزيز في مرضه:

ودخل قوم على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه وفيهم شاب ذابل ناحل؛ فقال له عمر: يا فتى، ما بلغ بك ما أرى؟ قال: يا أمير المؤمنين، أمراض وأسقامٌ! قال له عمر: لتَصْدُقَنِّي. قال: بلى يا أمير المؤمنين، ذقت يوماً حلاوة الدنيا فوجدتها مرة عواقبُها؛ فاستوى عندي حجرها وذهبها؛ وكأني أنظر إلى عرش ربنا بارزاً؛ وإلى الناس يساقون إلى الجنة والنار؛ فأظمأت نهاري وأسهرت ليلي؛ وقليلٌ كلُّ ما أنا فيه في جنب ثواب الله وخوف عقابه.

وقال ابن أبي الحواري: قلت لسفيان: بلغني في قول الله تبارك وتعالى: ﴿إلاّ مَنْ أتى اللهَ بقلْبٍ سليمٍ﴾[5]: الذي يلقي ربه وليس فيه أحد غيره. فبكى وقال: ما سمعتُ منذ ثلاثين سنة أحسن من هذا التفسير.

---

(١) يجأرون: يغصون في صدورهم. (٢) نضحوا: رشوا.
(٣) الوابل: المطر. (٤) فكاك رقابهم: عتقها من النار.
(٥) سورة الشعراء الآية ٨٩.

وقال الحسن: إن خوفك حتى تلقي الأَمْنَ خيرٌ من أَمْنِك حتى تلقى الخوف.

وقال: ينبغي أن يكون الخوف أغلبَ على الرجاء. فإن الرجاء إذا غلب الخوفَ فَسَدَ القلب.

وقال: عجباً لمن خاف العقاب ولم يكُفّ، ولمن رجا الثواب ولم يعْمَل.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لرجل: ما تصنع؟ فقال: أرجو وأخاف. قال: من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه.

وقال الفضيل بن عياض: إني لأستحي من الله أن أقول: توكّلت على الله. ولو توكلت عليه حقَّ التوكل ما خفت ولا رجوت غيره.

وقالوا: من خاف اللهَ أخاف اللهُ منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء.

وقال: وعدٌ من الله لمن خافه أن يدخله الله الجنة. وتلا قوله عز وجل: ﴿ولِمَنْ خافَ مقامَ ربِّهِ جنَّتانِ﴾[1].

وقال عمر بن ذرّ: عباد الله؛ لا تغتروا بطول حِلْمِ الله واحذروا أَسفَهُ؛ فإنه قال عز وجل: ﴿فلَمَّا آسفُونا انْتقمنا مِنْهُمْ فأغْرَقْناهُمْ أجْمَعِين. فجَعلْناهُم سلَفاً ومثلاً للآخِرينَ﴾[2].

وقال محمد بن سلاّم: سمعتُ يونس بن حبيب يقول: لا تأمن من قطع في خمسة دراهم أشرفَ عُضْوٍ فيك أن تكون عقوبَتُه في الآخرة أضعاف ذلك.

وقال الربيع بن خُثيم: لو أن لي نفسين إذا علقتْ إحداهما سعت الأخرى في فكاكها، ولكنها نفس واحدة، فإن أنا أوثقتُها. من يفكُّها؟.

وفي الحديث: «من كانت الدنيا هَمَّهُ، طال في الآخرة غَمُّه. ومن خاف الوعيد لها عَمَّا يُريد، ومن خاف ما بين يَدَيه ضاقَ ذرعاً بما في يَدِه».

---

(١) سورة الرحمٰن الآية ٤٦. (٢) سورة الزخرف الآية ٥٥ و ٥٦.

وقال محمود الوراق:

يـا غـافِلاً تَـرْنـو بعَيْنَـيْ راقِـدِ ... ومُشاهِداً للأمْـرِ غيرَ مُشـاهِـدِ[1]
تصِلُ الذُّنوبَ إلى الذُّنوبِ وتَرْتَجي ... دَرْكَ الجِنانِ بها وفوْزَ العـابِـدِ[2]
ونَسِيـتَ أنَّ اللهَ أخْـرَجَ آدَمـاً ... منهـا إلى الدُّنيـا بِـذَنْـبٍ واحِـدِ

وقال نابغة بني شيبان:

إنَّ مَنْ يَـرْكَـبُ الفـواحِشَ سِـرّاً ... حينَ يَخْلـو بسِـرِّهِ غيْـرُ خـالِ
كيـف يَخْلـو وعِنـدهُ كـاتِبـاهُ ... شـاهِـداهُ وربُّـهُ ذو الجلالِ

قولهم في الرجاء

قال العلماء: لا تشهَدْ على أحدٍ من أهل القبلة بجنة ولا نار؛ يُرجَى للمحسن ويُخاف عليه، ويُخافُ على المسيء ويُرجَى له.

في الأثر:

وفي الحديث المرفوع. «إن الله يغفر ولا يعيِّر، والناس يعيِّرون ولا يغفرون».
وفي حديث آخر: «لا تكفِّروا أهل الذنوب».

فتى توفي في عهد الرسول ﷺ:

وتوفي رجل في عهد رسول الله ﷺ، وكان مسرفاً على نفسه فرفع رأسه، وهو يجود بنفسه، فإذا أبواه يبكيان عند رأسه، فقال: ما يبكيكما؟ قال: نبكي لإسرافك على نفسك[3]! قال: لا تبكيا: فوالله ما يسرني أن الذي بيد الله من أمري بأيديكما. ثم مات. فأتى جبريلُ عليه الصلاة والسلام النبي ﷺ، فأخبره أن فتى توفى اليوم فاشهده فإنه من أهل الجنة، فسأل رسول الله ﷺ أبويه عن عمله، فقالا: ما عملنا

---

(١) ترنو: تنظر.
(٢) درك الجنان: وصولها وإدراكها.
(٣) إسرافك: تجاوزك الحدّ.

عنده شيئاً من خير، إلا أنه قال لنا عند الموت كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «مِن هاهنا أُوتيَ؛ إن حسن الظن بالله من أفضل العمل عنده».

عمر بن ذر ورجل توفي:

وتوفي رجل بجوار ابن ذر، وكان مُسرفاً على نفسه، فتحامى الناس جنازته وبلغ ذلك عمر بن ذر، فأوصى أهله: إذا جهزتموه فآذِنوني. ففعلوا؛ فشهده والناس معه، فلما أدلى وقف على قبره فقال: رحمك الله أبا فلان، فلقد صحبت عمرك بالتوحيد، وعفرت وجهك لله بالسجود، فإن قالوا مذنب وذو خطايا، فمن منا غير مذنب وذي خطايا؟

وتمثل معاوية عند الموت بهذا البيت:

هو الموت لا مَنْجَى من الموت والذي ... نحاذر بعد الموت أنكى وأفظعُ

ثم قال: اللهم فأقل العثرة، واعفُ عن الزَّلَّة، وعُد بحلمك على جهل من لم يَرْجُ غيرك، ولم يثق إلا بك فإنك واسع المغفرة. يا رب أين لذي الخطأ مهرب إلا إليك.

قال داود بن أبي هند: فبلغني أن سعيد بن المسيَّب قال حين بلغه ذلك: لقد رغب إلى من لا مَرْغَبَ إلا إليه كرهاً، وإني أرجو من الله له الرحمة.

لأعرابي في عائشة:

الأصمعي قال: سمعت أعرابياً يقول في دعائه وابتهاله: إلٰهي، ما توهمت سعة رحمتك إلا وكأن نعمة عفوك تقرع مسامعي: أن قد غفرتُ لك؛ فصدِّق ظني بك، وحقق رجائي فيك يا إلٰهي.

لبعض الشعراء:

ومن أحسن ما قيل في الرجاء هذا البيت:

وإني لأرجُو الله حتى كأنَّني ... أرَى بجمِيل الظَّنِّ ما اللهُ صانعُ

قولهم في التوبة

للمسيح عليه السلام:

مر المسيح بن مريم عليه السلام بقوم من بني إسرائيل يبكون، فقال لهم: ما يبكيكم؟ قالوا: نبكي لذنوبنا! قال: آتركوها تُغفر لكم.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: عجباً لمن يهلك ومعه النجاة؛ قيل له: وما هي؟ قال: التوبة والاستغفار.

فتى من بني إسرائيل:

وقالوا: كان شاب من بني إسرائيل قد عبد الله عشرين حِجة، ثم عصاه عشرين حِجَّة؛ فبينما هو في بيته يتراءى في مرآته، نظر إلى الشيب في لحيته، فساءه ذلك؛ فقال: إلهي، أطعتك عشرين سنة وعصيتك عشرين سنة؛ فإن رجعتُ إليك تقبلني؟ فسمع صوتاً من زاوية البيت، ولم ير شخصاً: أحببتنا فأحببناك، وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قبلناك.

ابن العلاء في عابد:

عبد الله بن العلاء قال: خرجنا حُجّاجاً من المدينة، فلما كنا بالحليفة نزلنا، فوقف علينا رجل عليه أثواب رثَّة له منظر وهيئة، فقال: من يبغي خادماً؟ من يبغي ساقياً؟ من يملأ قربة أو إداوة؟ فقلنا: دونَكَ هذه القِربَ فاملأها. فأخذها وانطلق، فلم يلبث إلا يسيراً حتى أقبل امتلأت أثوابه طيناً، فوضعها وهو كالمسرور الضاحك، ثم قال: لكم غير هذا؟ قلنا: لا. وأطعمناه قارصاً حاذراً[1]، فأخذه وحمد الله وشكره، ثم اعتزل وقعد يأكل أكْلَ جائع ،فادركتني عليه الرقة، فقمت إليه بطعام طيب كثير؛ وقلت: قد علمتُ أنه لم يقع منك القرصُ موقعاً، فدونك هذا الطعام فكُلْه. فنظر في

---

(١) القارص الحاذر: اللبن الحامض.

وجهي وتبسم؛ وقال: يا عبد الله، إنما هي فَورة، هذه النار قد أطفأتُها ـ وضرب بيده على بطنه ـ فرجعتُ وقد انكسف بالي لِمَا رأيت في هيبته؛ فقال إلى رجل كان إلى جانبي: أتعرفه؟ قلت: ما أعرفه. قال: هذا رجل من بني هاشم، من ولد العباس ابن عبد المطلب؛ كان يسكن البصرة؛ فتاب وخرج منها، ففُقد وما يُعرف له أثر. فأعجبني قوله؛ ثم لحقت به وناشدته الله؛ وقلت له: هل لك أن تعادلني فإن معي فضلاً من راحلتي وأنا رجل من بعض أخوالك؟ فجزاني خيراً، وقال: لو أردت شيئاً من هذا لكان لي مُعَدّاً. ثم أَنِسَ إليّ وجعل يحدثني؛ وقال: أنا رجل من ولد العباس، كنت أسكن البصرة، وكنت ذا كِبْرٍ شديد وجبروت وبذخ؛ وإني أمرت خادماً لي أن تَحْشُو لي فراشاً من حرير بورد نثير، ومخدّة؛ ففعلتْ؛ فإني لنائم إذ أيقظني قمعُ[1] وردةٍ أغفلته الخادم؛ فقمت إليها فأوجعتها ضرباً، ثم عدت إلى مضجعي بعد أن خرج ذلك القِمع من المخدّة؛ فأتاني آت من منامي في صورة فظيعة، فنهرني وزَبرني[2]، وقال: أفِقْ مِن غشيتك وأبْصِر من حيرتك. ثم أنشأ يقول:

يا خدُّ إنك إن تُوسَّد لَيِّناً ... وُسِّدْتَ بعدَ الموتِ صُمَّ الجَنْدَلِ[3]
فامْهَدْ لنفسك صالحاً تنجو به ... فَلَتَنْدَمَنَّ غداً إذا لم تَفْعَلِ

فانتبهت فزعاً، وخرجت من ساعتي هارباً بدِيني إلى ربي.

في التوبة:

وقالوا: علامة التوبة الخروجُ من الجهل، والندم على الذنب، والتجافي عن الشهوة، وترك الكذب، والانتهاء عن الخلق السوء.

وقالوا: التائب من الذنب كمن لا ذنب له. وأول التوبة الندم.

لابن عبد ربه:

ومن قولنا في هذا المعنى:

يا وَيْلَتا من مَوقِفٍ ما بِهِ ... أَخْوَفُ من أن يَعدِل الحاكمُ

---

(١) قمع: الأصل الذي يبقى على الغصن بعد ذهاب الأوراق فيحمر.

(٢) زبرني: نهرني. (٣) الجندل: الحجر.

أُبـــارِزُ اللهَ بعِصْيـــانِـــهِ وليس لِـي مِـن دونِـه راحِـمُ
يـا ربِّ غُفـرانَـكَ عـن مُـذْنِـب أَسْـــرَفَ إلا أنـــه نـــادِمُ

وقال بعض أهل التفسير في قول الله تبارك وتعالى: ﴿يأَيُّها الذين آمنوا تُوبوا إلى اللهِ توبةً نَصُوحاً﴾[1]. إن التوبة النصوح: أن يتوب العبد عن الذنب ولا ينوي العود إليه.

وقال ابن عباس في قول الله عز وجل: ﴿إنما التوبة على اللهِ للذين يعملون السُّوءَ بجَهالة ثم يتوبونَ من قريبٍ﴾[2]. إن الرجل لا يركب ذنباً ولا يأتي فاحشةً إلا وهو جاهل. وقوله: ثم يتوبون من قريب. قال: كل من كان دون المعاينة فهو قريب، والمعاينة: أن يؤخذ بكَظَمِ الإنسان، فذلك قوله: ﴿إذا حضَرَ أحدَهم الموتُ قال إنِّي تُبْتُ الآن﴾[3] قال أهل التفسير: هو إذا أُخذ بكَظْمه[4].

وقال ابن شبرمة: إني لأعجب ممن يحتمي مخافة الضرر، ولا يدع الذنوب مخافة النار.

المبادرة بالعمل الصالح

قال الله عز وجل: ﴿وسارِعوا إلى مغفرةٍ من ربِّكم وجنة﴾[5].

وقال تعالى: ﴿والسابقون السابقونَ أُولئك المُقرَّبون﴾[6].

وقال الحسن: بادروا بالعمل الصالح قبل حلول الأجل، فإن لكم ما أمضيتم، لا ما أبقيتم.

وقالوا: ثلاثة لا أناة فيهنّ. المبادرة بالعمل الصالح، ودفن الميت، وإنكاح الكفء.

---

(١) سورة التحريم الآية ٨.
(٢) سورة آل عمران الآية ١٧.
(٣) سورة النساء الآية ١٨.
(٤) الكظم: مخرج النفس.
(٥) سورة آل عمران الآية ٣.
(٦) سورة الواقعة الآية ١٠ و ١١.

وقال النبي ﷺ: «ابن آدم: اغتنِم خمساً قبلَ خمس: شبابَك قبل هَرَمِك، وصحّتَك قبل سقمِك، وفراغك قبل شُغلِك، وحياتَك قبل موتِك، وغِناك قبل فقرِك».

وقال الحسن: صمْ قبل أن لا تقدرَ على يوم تصومه، كأنك إذا ظمئت لم تكن رويت، وكأنك إذا روِيت لم تكن طمئت.

وكان يزيد الرَّقاشي يقول: يا يزيد، من يصوم عنك أو يصلِّي لك أو يترضى لك ربك إذا مِت.

وكان خالد بن معدان يقول:

إذا أنتَ لم تَزرعْ وأبْصرتَ حاصـداً ... نَدمتَ على التَّفْريطِ في زمنِ البـذْرِ

وقال ابن المُبارك: كنت مع محمد بن النَّضر في سفينة، فقلت: بأي شيء استخرج منه الكلام؟ فقلت له: ما تقول في الصوم في السفر؟ فقال: إنما هي المُبادرة يابن أخي. فجاءني والله بفتيا غير فتيا إبراهيم والشعبي.

ومن قولنا في هذا المعنى:

بادِرْ إلى التوبةِ الخَلْصاءِ مُبتدئاً ... والموتُ ويْحَكَ لم يَمدُدْ إليك يـدا

وآرقُب من الله وعداً ليس يُخلفُه ... لا بُـدّ لله مـنِ إنجازِ مـا وعَـدا

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأصحابه: فيم أنتم؟ قالوا: نرجو ونخاف. قال: من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه.

وقال الشاعر(١):

تَرجو النجاةَ ولم تَسلُك مَسالِكَها ... إنّ السفينـةَ لا تَجـري على اليَبِس

وقال آخر:

اعْمَل وأنتَ من الدنيـا على حـذَرِ ... وآعلم بـأنـك بعـد الموتِ مبعـوثُ

وآعلم بأنك ما قدَّمـتَ مـن عمـلٍ ... يُحصَى عليك، وما خلَّفت موروث

---

(١) هو ابو نواس.

النبي ﷺ وعائشة:

وقدَّمت عائشة رضي الله عنها إلى النبي ﷺ صَحْفَة[1] فيها خبزُ شعير وقطعة من كَرِش، وقالت: يا رسول الله، ذبحنا اليوم شاة فما أمسكنا منها غير هذا. فقال: «بل كلَّها أمسكْتم غير هذا».

العجز عن العمل

مؤرق وشاك:

قال رجل لمؤرّق العجلي: أشكو إليك نفسي؛ إنها لا تريد الصلاة، ولا تستطيع الصبر على الصيام. قال: بئس الثناءُ [ما] أثنيتَ على نفسك، فإذا ضعفت عن الخير، فاضعف عن الشر؛ فإن الشاعر قال:

آحــزنْ على أنـــك لا تَحـــزنُ ... ولا تُسيءُ إنْ كنـتَ لا تُحِســـنُ
وأضعُـف عـن الشرِّ كما تـدّعِـــي ... ضَعفاً عـن الخير وقـد يُمْكـــنُ

وقال بكر بن عبد الله: اجتهدوا في العمل، فإن قصّر بكم ضعفٌ فأمسكوا عن المعاصي.

وقال الحسن رحمه الله: من كان قوياً فليعتمد على قوّته في طاعة الله؛ وإن كان ضعيفاً فليكّف عن معاصي الله.

وقال عليّ: لا تكن كمن يعجز عن شكر ما أوتي، فيبتغي الزيادة فيما بقي؛ وينهى الناس ولا ينتهي.

وكان الحسن إذا وَعظ يقول: يا لها موعظة لو صادفت من القلوب حياة! أسْمع حسيساً[2] ولا أرى أنيساً، ما لهم تفاقدوا عقولهم؟ فراش نار وذباب طمع.

وكان ابن السماك إذا فرغ من موعظته يقول: أَلْسنة تصِف، وقلوب تعرف، وأعمال تخالف.

---

(١) صحفة: إناء من آنية الطعام. (٢) حسّ الشيء حسيساً: أدركه باحدى حواسه.

وقال: الحسنة نور في القلب، وقوّة في العمل؛ والسيئة ظلمة في القلب، وضعف في العمل.

وقال بعض الحكماء: يا أيها المشيخة الذين لم يتركوا الذنوب حتى تركتهم الذنوب، ثم ظنوا أنّ تركها لهم توبة؛ وليتهم إذا ذهبتْ عنهم لم يَتَمنَّوْا عَودها إليهم

وكان مالك بن دينار يقول: ما أشدّ فطام الكبير. وينشد:

وتَروضُ عِرْسَكَ بعدما هرمتْ ومن العَناءِ رياضةُ الهرِمِ[١]

ومن حديث محمد بن وضّاح قال: إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتُب، مسح إبليس بيده على وجهه وقال: بأبي وجهٌ لا أفلحَ أبداً.

قال الشاعر:

فإذا أي إبليسُ غرَّةَ وجْهِهِ حيًّا وقال فديْتُ مَن لا يُفلِحُ

وقال رجل للحسن: أبا سعيد، أردت البارحة أن أصلي فلم أستطع، قال: قيَّدتْك ذنوبُك.

قولهم في الموت

بين النبي ﷺ وابن الخطاب:

قال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب رضوان الله عليه: «ما عندَك من ذكر الموت أبا حَفْصٍ؟» قال: أُمْسِي فما أرى أنّي أُصبِح، وأُصبح فما أرى أني أُمسي! قال: «الأمر أوشكُ من ذلك أبا حفص، أما إنه يَخرج عني نفسي فما أرى أنه يعود إليَّ!»

وقال عبد الله بن شدّاد: أرى داعيَ الموت لا يُقْلع، ومن مضى لا يَرجع، ومن بقيَ فإليه يَنزع[٢].

وقال الحسن: ابنَ آدم، إنما أنت عدد، فإذا مضى يومك فقد مضى بعضُك.

(١) تروض عرسك: تروي عرسك: والعرس الزوج؛ يقال هو عرسها وهي عرسه.

(٢) ينزع: يحن ويشتاق.

وقال أبو العتاهية:

النـــــاسُ في غفَلاتِهـــــم ورحَـــى المنيَّـــةِ تَطْحَـــنُ

وقال عمر بن عبد العزيز: مَن أكثر من ذكر الموت اكتفى باليسير، ومَن علم أن الكلام عملٌ: قلَّ كلامُه إلا فيما ينفع.

وكان أبو الدرداء إذا رأى جنازة قال: آغدِي[1] فإنا رائحون، أو رُوحي[2] فإنا غادون.

وقال رجل للحسن: مات فلان فجأة. فقال: لو لم يمت فجأة لمرض فجأة ثم مات.

وقال يعقوب صلوات الله عليه للبشير الذي أتاه بقميص يوسف: ما أدري ما أثيبك به، ولكن هوَّن اللهُ عليك سكرات الموت.

ابن العلاء وجرير:

وقال أبو عمرو بن العلاء: لقد جلستُ إلى جرير وهو يملي على كاتبه:

ودِّعْ أُمامةَ حانَ منك رحيلُ

ثم طلعت جنازة فأمسك وقال: شيَّبتْني هذه الجنازة. قلت: فلم تسابَ الناس؟ قال: يبدءونني ثم لا أعفو، وأعتدي ولا أبتدي. ثم أنشأ يقول:

تُــروِّعُنــا الجنــائــزُ مُقبلاتٍ فنَلهـو حين تَـذهَـبُ مُـدْبِـراتِ

كـروْعــةِ ثُلَّـــةٍ لِمُغــارِ سَبْــعٍ فلما غــابَ عــادتْ راتِعــاتِ[3]

وقالوا: من جعل الموت بين عينيه، لَهَا عما في يديه.

وقالوا: اتخذ نوح بيتاً من جصّ، فقيل: لو بنيتَ ما هو أحسن من هذا! قال: هذا كثير لمن يموت.

---

(١) اغدي: اذهبي غدوة، والغدوة ما بين الفجر وطلوع الشمس.

(٢) روحي: سيري في العشيّ. (٣) الروع: الحرب؛ والثلة: الجماعة من الناس.

لأمية:

وأحكم بيت قالته العرب في وصف الموت، بيت أمية بن أبي الصلت حيث يقول:

يـوشِـكُ مَـن فَـرَّ مـن منيَّتِـه ... في بعـض غِـرَّاتِـهِ يُـوافِقُهـا
من لم يَمُتْ عَبْطـةً يَمـتْ هَـرَمـاً ... للمـوتِ كـاسٌ والمرْءُ ذائقُهـا[1]

لأصبغ في عابد:

وقال أصبغ بن الفرَج، كان بنجُران عابد يصيح في كل يوم صيحتين بهذين البيتين:

منعَ البقـاءَ مَطـالِـعُ الشمسِ ... وغُـدُوُّهـا مـن حيـث لا تُمْسِـي
وطُلـوعُهـا حمراءَ قـانِيـةً ... وغُـروبُهـا صفـراءَ كـالْـورْس[2]
اليـومَ يُخبِـرُ مـا يَجـيءُ بـهِ ... ومضى بفصْـلِ قضـائـه أمْس

وقال آخر:

زَيَّنْـتَ بيْتَـكَ جـاهِلاً وعمَـرْتَـهُ ... ولعـلَّ صِهْـرُكَ صـاحـبَ البيْـتِ
مـن كـانـتِ الأيـامُ سـائـرةً بـه ... فكـأنـه قـد حَـلَّ بـالموت!
والمرءُ مُـرْتَهَـنٌ بسـوفَ وليْتَني ... وهلاكُـهُ في السَّـوْفِ واللَّيْـت
للهِ دَرُّ فتىً تَـدَبَّـرَ أمْـرَهُ ... فغَـدا وراح مُبـادِرَ الموت

وقال صريع الغواني:

كم رأينـا مـن أُنـاسٍ هلَكـوا ... قـد بَكـوْا أحبـابَهـم ثم بُكُـوا
تَـركـوا الدُّنيـا لمنْ بعـدهُـم ... وُدُّهُـم لـو قَـدَّمـوا مـا تَـركـوا
كم رأينـا مـن ملـوكٍ سُـوقـة ... ورأينـا سُـوقـةً قـد مَلَكـوا

وقال الصَّلَتان العبديّ:

---

(١) مات عبطة: مات شابا سليما لم تصبه علة.

(٢) الورس: نبت يستعمل لتلوين الملابس الحريرية، لاحتوائه على مادة حمراء.

أشــابَ الصَّغيرَ وأَفنَــى الكبيرَ   كَـرُّ الغَــداة ومَــرُّ العِشي[1]
إذا ليْلــةٌ هَــرَمَــتْ يــومَهَــا   أتـى بَعـد ذلـك يــومٌ فتِــي
نــرُوح ونغــدُو لحاجــاتِنــا   وحـاجـةُ مَـنْ عـاش لا تَنْقضي
تموت مــع المرءِ حــاجــاتــه   وتبْقى لـه حـاجـة مـا بقِــي

وكان سفيان بن عيينة يستحسن قول عدي بن زيد:

أين أهلُ الدِّيـار من قـوْم نـوحٍ   ثم عــادٌ مــن بعــدِهــا وثمودُ
بينما هُــمْ على الأسِــرَّة والأنْماط   أَفْضَــــت إلى التراب الخدودُ
وصحيـحٌ أَمسى يعـود مـريضـاً   وهـو أدْنـى للمـوْتِ ممنْ يعـودُ
ثم لم يَنقَـضِ الحديـث ولكـن   بعـد ذا كلِّـه وذاك الوعيـدُ

وقال أبو العتاهية في وصف الموت:

كـأنّ الأرض قـد طُويَـت عليَّـا   وقـد أُخـرجْـتُ مما في يَـديَّـا
كـأني صرت مُنفـرداً وحيـدا   ومُـرْتهنـاً لـديْـك بما علَيَّـا
كـأنّ البـاكِيـاتِ عليَّ يـوْمـا   ولا يُغنـى البُكـاءُ عليّ شَيَّـا
ذَكَــرْن مَنيّتي فنعَيْــتُ نفْسي   ألا أَسْعِـد أُخيَّـك يـا أُخيَّـا

وقال:

ستَخْلــق جِــدَّةٌ وتحُولُ حــالُ   وعنــد الحقِّ تُخْتبَــر الرِّجــالُ
وللــدُّنيـا ودائــعُ في قلــوبٍ   بها جــرَتِ القَطيعــةُ والوصــالُ
تَخــوَّفُ مــا لعلَّــك لا تــراهُ   وتَـرجـوا مــا لعلَّـك لا تنـالُ
وقـد طَلَـع الهلالُ لهدم عُمْــري   وأفــرَحُ كلما طلَــع الهلالُ!

وله أيضاً:

من يعِشْ يكبَـرْ ومـن يكْبَـرْ يمتْ   والمنـايــا لا تُبـالي مــن أتــتْ
نحنُ في دارِ بلاءٍ وأذًى   وشَقــاءٍ وعَنــاءٍ وعَنــتْ[2]

---

(١) الغداة: الغدوة.

(٢) عنت: الخطأ والزنى.

منــزلٌ مــا يَثبُــت المرءُ بــه ... ســالماً إلاّ قليلاً إن ثَبــتْ
أيها المغــرورُ مــا هــذا الصَّبــا ... لــو نَهيْــتَ النفْسَ عنــه لانتهــتْ
رَحِــم الله امــرأً أنصَــفَ مــن ... نفْسِــه إذ قــال خيْراً أو سكــتْ

لابن عبد ربه:

ومن قولنا فيْ ذكرت الموت:

من لي إذا جُدْتُ بين الأهْل والولِد ... وكان مِنِّيَ نحو الموْت قيْس يَدي[2]
والدَّمع يَهمل والأنفاسُ صـاعـدةٌ ... فالدَّمع في صببٍ والنَّفْس في صَعَدِ
ذاك القضاءُ الذي لا شيءَ يَصرِفُـه ... حتى يُفــرِّقَ بين الرُّوحِ والجســدِ

ومن قولنا فيه:

أتلهــو بين بــاطيَــةٍ[2] وزيــر ... وأنــت مــن الهلاك على شفيرِ؟
فيــامــن غــرَّه أمــلٌ طــويــلٌ ... يُــؤدِّيــه إلى أجــلٍ قصيرِ
أتفْــرحُ والمنيَّــةُ كــلَّ يــومٍ ... تُــريـك مكــان قبرِك في القبورِ؟
هــي الدُّنيــا فــإن سرَّتْــك يــوْمــاً ... فــإنّ الحُزنَ عــاقبــةُ السرورِ
سَتُسْلَــب كـل مـا جَمَّعْت منهـا ... كعــاريــةٍ تُــردُّ المعيرِ
وتَعْتــاض اليقين مــن التَّظنِّــي ... ودارَ الحقِّ مــن دارِ الغُــرورِ

ولأبي العتاهية:

وليس من منزلٍ يأويـهِ مُـرْتَحِـلٌ ... إلاّ وللمـوْت سيْـفٌ فيـه مسلـولُ

وله أيضاً:

مــا أقــرَب الموتَ منــا ... تجاوز اللهُ عنــــا
كــأنــه قــد سَقــانــا ... بكــاسِــه حيــث كنــا

وله أيضاً:

(١) جدتَ: جدت بروحي ونفسي.

(٢) الباطية: من أواني الخمر، والزير: الدن.

أؤَمِّلُ أنْ أُخلَّد والمنايا | يَثِبن عليَّ من كلِّ النواحي
وما أدري أمسَيْتُ حيّاً | لَعلِّي لا أعيش إلى الصباحِ

وقال الغزّال:

أصبْحتُ واللهِ مجهوداً على أمل | من الحياة قصيرٍ غير مُمتدِّ
وما أُفارقُ يوْماً مَن أُفارقُه | إلاّ حسِبْت فِراقي آخر العهدِ
انظرْ إليّ إذا أُدْرجْت في كفني | وانظرْ إليّ إذا أُدْرجْتُ في لَحْدِي
واقعُدْ قليلاً وعاين مَن يُقيم معي | ممنْ يُشيِّع نعْشِي من ذوي وُدِّي
هيهات! كلُّهُمُ في شأنِه لعبٌ | يَرمي التراب ويَحثوه على خدِّي

وقال أبو العتاهية:

نَعى لك ظِلَّ الشَّبابِ المشيبُ | ونادتْك باسم سواك الخُطوبُ
فكن مُستعدّاً لريْب المنونِ | فإنّ الذي هو آتٍ قريبُ
وقبلَك داوَى الطَّبيبُ المريض | فعاش المريض ومات الطَّبيبُ
يَخاف على نفسِه من يتوبُ | فكيف تَرى حال من لا يتوبُ؟

وله أيضاً:

أخي ٱدَّخِرْ مهما استطعت | ليوم بُؤْسِك وافتقارِكْ
فلَتَنْزلَنَّ بمنزلٍ | تحتاجُ فيه إلى ادِّخارِكْ

وقال أبو الأسود الدؤلي:

أيها الآملُ ما ليس له | ربما غرَّ سفيهاً أملُهْ
ربَّ من مات يُمنِّي نفْسَه | حال من دونِ مُناهُ أجلُهْ
والفتَى المُخْتالُ فيما نابه | رُبما ضاقتْ عليه حيَلُهْ
قل لمن مثَّل في أشعاره | يَهلِك المرءُ ويبقى مَثْلُه(١)
نافِس المحْسِنَ في إحسانه | فسيكفيك سناءً عملُهْ

---

(١) مثّل: أورد مثلاً.

وقال عدي بن زيد العبادي:

أين كسْرى كسْرى الملوك أنوشِرْ وان أم أيــن قبْلــهُ ســابــورُ
وبنو الأصفَـر الكـرامُ مُلـوك الرُّ وم لم يَبــق منهــمُ مَــذكــور
أخــو الحَضْـرا إذ بنـاه وإذا دِجْــــلــةُ تَجبَـى إليــه والخابــورو[1]
شـــادَه مَــرْمَــرا وجلّلَــه كلْــــســـاً فلِلطّير في ذُراه وُكــورُ
لم يَهَبْـه رَيـبُ المَنــون فبــادَ الـــمُلْـك عنــه فبــابُـه مهجــورُ
وتفكَّـرْ ربّ الخوَرْنَـق إذ أصْـــبــح يــومــاً ولِلهُــدى تفكيرُ[2]
سَــرَّهُ حــالُــه وكثرةُ مــا يَمـــلِــكُ والبحر مُعْرِضاً والسَّـديـر[3]
فــارْعَـوَى قلبـه فقــال: ومـا غِبْـــطـــةُ حـــيٍّ إلى المَمات يصيرُ؟
ثم بعـــد الفلاَح والمُلْـــكِ والنِّعـــــمـــةِ وارتْهُــمُ هنــاك القُبــورُ
ثم صـــاروا كـــأنهم ورقٌ جَــــفَّ فألْـوَت بـه الصَّبـا والدُّبـور

وقال حريث بن جَبلة العذري:

يا قلبُ إنـك في الأحيـاءِ مغْـرورُ فاذكرْ وهل ينفعَنْك اليوم تـذكيرُ
حتى متى أنت فيها مُـدْنـفٌ ولـه لا يستفِزّنْـك منهـا البـدرُ والحورُ
قد بُحْت بالجهل لا تخفيه عن أحـد حتى جرَتْ بك أطلاقٌ مَحـاضيرُ[4]
تـريـد أمـراً فما تـدري أعـاجلـه خيرٌ لنفسِـك أم مـا فيـه تــأْخيرُ
فـاستقْـدرِ الله خيراً وارضَيَـنّ بـه فبينما العُسر إذا دارتْ ميــاسيرُ
وبينما المرءُ في الأحيـــاءِ مغْتبطـــاً والدهرُ في الرّمس تعفوه الأعـاصيرُ
حتى كـأنْ لم يكـن إلاّ تـوهُّمُـه والدهرُ في كلِّ حاليْه دَهـاريـرُ
يبكي الغريبُ عليـه ليس يعـرِفُـه وذو قـــرابتـــه في الحَيِّ مسرورُ

---

(١) الحضر: حصن على شاطيء الفرات، والخابور نهر كبير.
(٢) الخورنق: قصر بناه النعمان بظهر الحيرة.
(٣) السدير: قصر بظهر الحيرة.
(٤) أطلاق: أشواط؛ والمحاضير من الخيل: الشديدة العدو.

فذاك آخِرُ عهدٍ من أخيكَ إذا ما ضُمِّنَتْ شِلْوَهُ اللحْدُ المحافيرُ

قولهم في الطاعون

عمر بن الخطاب وابن الجراح في الطاعون:

قال أبو عبيدة بن الجرّاح لعمر بن الخطاب رضوان الله عليه لما بلغه أن الطاعون وقع في الشام فانصرف بالناس: أفِراراً من قَدرِ اللهِ يا أمير المؤمنين؟ قال: لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة! نعم نَفِرٌّ من قدَرِ الله إلى قدر الله؛ أرأيتَ لو أن لك إبلاً هبطت بها وادياً له جهتان إحداهما خصيبة والأخرى جديبة، أليس لو رعيت في الخصيبة رعيتَها بقدَر الله، ولو رعيت الجديبة رعيتها بقدر الله؟ وكان عبد الرحمن بن عوف غائباً فأقبل، فقال: عندي في هذا علمٌ سمعتُه من رسول الله ﷺ، قال: «إذا سمِعْتُمْ به في أرضٍ فلا تقْدَموا عليها، وإذا وقَعَ في أرضٍ وأنتم بها فلا تَخرُجوا فِراراً منه». فحمد اللهَ عمرُ، ثم انصرف بالناس.

للوليد بن عبد الملك في مثله:

وقيل للوليد بن عبد الملك حين فرّ من الطاعون: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى يقول: ﴿قُل لَنْ ينفعَكمُ الفِرارُ إنْ فرَرْتُمْ من الموت أوِ القتل وإذاً لا تُمتَّعونَ إلا قليلاً﴾[1]. قال: ذلك القليلَ نطلُب.

من شريح إلى صديق له فر من الطاعون:

العتبي قال: وقع الطاعون بالكوفة، فخرج صديق لشُريح إلى النَّجف، فكتب إليه شريح: أما بعد؛ فإن الموضع الذي هربتَ منه لم يَسُقْ إلى أجلك تمامَه، ولم يسلبه أيامَه؛ وإن الموضع الذي صرتَ إليه لبِعين من لا يعجزه طلب، ولا يفوته هرب؛ وإنا وإياك على بساط ملك، والنجف من ذي قدرة لَقريب.

(١) سورة الأحزاب الآية ١٦.

الحسين في الطاعون الجارف:

لما وقع الطاعون الجارف أطاف الناس بالحسين، فقال: ما أحسن ما صنع بكم ربُّكم؛ أقْلعَ مُذْنِب وأنفَق مُمْسك.

لأعرابي هرب من الطاعون:

وخرج أعرابي هارباً من الطاعون فلدغته أفعى في طريقه فمات. فقال أخوه يرثيه:

طـــافَ يَبغِـــي نَجـــوةً	مِـــن هلاك فهَلَـــكْ
ليْـــتَ شِعْـــري ضَلّـــةً	أيُّ شيءٍ قتَلـــــكْ
أَجُحـــاف ســـائـــل	مـــن جِبـــالٍ حَمَلـــك
والمَنـــايـــا رَصَـــدٌ	للفتَـــى حيـــث سَلـــك
كـــلُّ شيءٍ قـــاتِـــلٌ	حين تَلْقَـــى أجَلـــك

ابن وهب وابن الزيات:

حكى أن ماء المطر اتصل في وقت من الأوقات، فقطع الحسنَ بنَ وهب عن لقاء محمد بن عبد الملك الزيات، فكتب إليه الحسن:

يُوضحُ العُـذْرَ في تَـراخِـي اللِّقـاءِ	مـا تَـوالَى مـــن هـــذه الأنْـــواءِ
فسلامُ الإلٰـــهِ أُهْـديـــهِ منِّـــي	كـــلَّ يـــومٍ لسيـــدِ الوزراءِ
لستُ أدري مـاذا أذُمُّ وأشكـــو	مـــن سماءٍ تعُـــوقُني عـــن سماءِ
غيرَ أني أدعـــو لهاتِيـــكَ بـــالثّكْـــــلِ	وأدعـــو لهذه بـــالبَقـــاءِ

ابن الزيات وابن أبي داود:

اتصل بأحمد بن أبي دُواد أن محمد بن عبد الملك هجاه بقصيدة فيها تسعون بيتاً، فقال:

أَحســنُ مِــن تسعينَ بيتــاً سُــدًى	جمْعُــكَ معنــاهُــن في بيْـــتِ

مـا أَحــوجَ النــاسَ إلى مَطْــرةٍ تُـزيـلُ عنهـم وَضَــر الزْيــتِ[1]

فبلغ قوله محمداً فقال:

يــأيها المأفــونَ رأيــاً لقــد عـرَّضـتَ بي نفسَكَ للمــوتِ[2]

قَيَّــرْتُــمُ المُلْــكَ فلَــم نُنِقــهِ حتى غسَلْنـا القـارَ بـالـزْيــتِ[3]

الزيــتُ لا يُـزْرِي بــأحســابِنــا أحســابُنــا معــروفــةُ البيْــت

وقيل لابن أبي داود: لم لا تسأل حوائجك الخليفة بحضرة محمد بن عبد الملك؟ فقال: لا أحب أن أعلمه شأني.

مقتل زيد ابن حسين:

وقد حدث أبو القاسم جعفر، أن محمد الحسني قال: أخبرنا محمد بن زكريا الغَلاَبيُّ، قال: حدثنا محمد بن نجيع النَّوبختي، قال: حدثنا يحي أنّ سليمان قال: حدثني أبي، وكان ممن لحق الصحابة، قال: دخلت الكوفة، فإذا أنا برجل يحدث الناس، فقلت: من هذا؟ قالوا: بكر بن الطرماح؛ فسمعته يقول: سمعت زيد بن حسين يقول: لما قُتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أَتَى بنعيه إلى المدينة كلثومُ بن عمرو، فكانت تلك الساعة التي أتى فيها أشبَهَ بالساعة التي قُبض فيها رسولُ الله ﷺ، من باك وباكية، وصارخ وصارخة، حتى إذا هدأتْ عَبرة البكاء عن الناس، قال أصحاب رسول الله ﷺ: تعالوْا حتى نذهب إلى عائشة زوج النبي ﷺ، فننظر حزنها على ابن عم رسول الله ﷺ، فقام الناس جميعاً حتى أتوا منزل عائشة رضي الله عنها، فاستأذنوا عليها، فوجدوا الخبر قد سبق إليها، وإذا هي في غمرة الأحزان وعَبرة الأشجان، ما تفتر عن البكاء والنحيب منذ وقتِ سمعت بخبره، فلما نظر الناس إلى ذلك منها انصرفوا؛ فلما كان من غد قيل إنها غدت إلى قبر رسول الله ﷺ، فلم يبق في المسجد أحد من المهاجرين إلا استقبلها يسلم عليها،

---

(١) الوضر: الوسخ من الدسم أو غيره.

(٢) المأفون: الذي يتخلق بما ليس فيه ويدعي. (٣) قيرتم: طليتم بالقار، والقار: الزفت.

وهي لا تسلم ولا تردُّ ولا تطيق الكلام؛ من غزرة الدمعة، وغمرة العبرة، تختنق بعبرتها، وتتعثر في أثوابها، والناس من خلفها، حتى أتت إلى الحجرة، فأخذت بعضادَتَي[1] الباب، ثم قالت: السلام عليك يا نبي الهدى، السلام عليك يا أبا القاسم، السلام عليك يا رسول الله وعلى صاحبيك، يا رسول الله؛ أنا ناعية إليك أحظى أحبابك، وذاكرة لك أكرم أودّائك[2] عليك، قُتل والله حبيبُك المجتبى، وصفيُّك المرتضى، قتل والله من زوجتُه خيرُ النساء، قتل والله من آمن ووفى، وإني لنادبةٌ ثَكْلَى، وعليه باكيةٌ حَرَّى، فلو كشف عنك الثرى لقلت إنه قتل أكرمهم عليك، وأحظاهم لديك؛ ولو أمرت أن يجيب النداء لك مني ما تعرضتُ له منذ اليوم، والله يُجري الأمور على السداد.

قال المبرد: عزى أحمد بن يوسف الكاتب ولد الربيع، فقال: عُظِّم أجركم، ورحم الله فقيدكم؛ وجعل لكم من وراء مصيبتكم حالاً يجمع شملكم، ويلم شعثكم، ولا يفرق ملأكم.

وقيل لأعرابية مات لها بنون عدّة: ما فعل بنوك؟ قالت: أكلهم دهرٌ لا يشبع.

وعزى رجلٌ الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين، كان لك الأجر لا بك، وكان العزاء لك لا عنك.

لابن عباس:

ومما روي أنّ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما نُعِيَ إليه ابنُه وهو في السفر، فاسترجع ثم قال: عورةٌ سترها الله، ومؤنَةٌ كفاها الله، وأَجرٌ ساقه الله.

للنبي ﷺ في ابنته:

وقال أسامة بن زيد رضي الله عنهما لما عُزِّي رسولُ الله ﷺ بابنته رقية. قال:

---

(١) عضاد الباب: خشبتان منصوبتان مثبتتان في الحائط على جانبيه.

(٢) اودائك: جمع أود، وهو الأشد وداً.

« الحمدلله. دفْنُ البنات من المكْرُمات». وفي رواية: « من المكرمات دفن البنات».

ملك كندة وأعرابي عزاه في ابنته:

وقال الغزّال: ماتت ابنة لبعض ملوك كندة، فوضع بين يديه بدرة[1] من الذهب، وقال: من أبلغ في التعزية فهي له! فدخل عليه أعرابي فقال: أعظم الله أجرَ الملِك! كُفِيت المؤنة! وسترت العورة! ونعم الصهرُ القبر! فقال له الملك: أبلغتَ وأوجزتَ. وأعطاه البدرة.

من أحب الموت ومن كرهه

في بعض الأحاديث: « لايتمنى أحدُكم الموتَ؛ فعسى أن يكون مُحْسِناً فيزدادَ في إحسانه، أو يكون مسيئاً فَينْزِعَ عن إساءته».

وقد جاء في الحديث: « يقول الله تبارك وتعالى: إذا أحَبَّ عبدي لِقائي أَحْبَبْتُ لِقاءه، وإذا كَرِهَ لقائي كَرِهْتُ لِقاءه».

وليس معنى هذا الحديث حبَّ الموت وكراهتَه، ولكن معناه من أحب الله أحبه الله، ومن كره الله كرهه الله.

وقال أبو هريرة: كَرِه الناسُ ثلاثاً وأحببْتُهنّ: كرهوا المرض وأحببته، وكرهوا الفقر وأحببته، وكرهوا الموت وأحببته!

بشر بن منصور:

عبد الأعلى بن حماد قال: دخلنا على بشر بن منصور وهو في الموت، وإذا هو من السرور في أمر عظيم؛ فقلنا له: ما هذا السرور؟ قال: سبحان الله! أخْرُج من بين الظالمين والحاسدين والمغتابين والباغين وأقدم على أرحم الراحمين ولا أُسرُّ.

---

(١) بدرة: كيس فيه مقدار من المال يتعامل به، ويقدم في العطايا.

الوليد بن عبد الملك وشيخ:

ودخل الوليد بن عبد الملك المسجد، فخرج كل من كان فيه، إلا شيخاً قد حناه الكبر؛ فأرادوا أن يُخرجوه، فأشار إليهم [الوليدُ] أن دعوا الشيخ. ثم مضى حتى وقف عليه، فقال له: يا شيخ، تحب الموت؟ قال: لا يا أمير المؤمنين؛ ذهب الشباب وشره، وأتى الكبرُ وخيرُه؛ فإذا قمت حمدت الله، وإذا قعدتُ ذكرته؛ فأنا أحب أن تدوم لي هاتان الخلتان.

النبي ﷺ وعبد الله بن عمر:

قال عبد الله بن عمر: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، مالي لا أحب الموت؟ قال: «هل لك مال»؟ قال: نعم. قال: «فقدِّمه بين يديك». قال: لا أطيق ذلك! فقال النبي عليه السلام: «المرءُ مع ماله؛ إن قدّمه أحب أن يلحقه، وإن أخره أحب أن يتخلف معه!»

وقال الشاعر في كراهية الموت:

قـامـت تشجِّعني هنـدٌ فقلـتُ لها ... إنّ الشجاعـةَ مقـرونٌ بها العَطَـبُ

لا والذي مَنـعَ الأبصـارَ رؤيتَـه ... ما يشتَهي الموتَ عندي مَن لـه أرَب

وقالت الحكماء: الموت كريه.

وقالوا: أشدّ من الموت ما إذا نزل بك أحببتَ له الموت؛ وأطيبَ من العيش ما إذا فارقتَه أبغضت له العيش.

التهجد(١)

للنبي ﷺ:

المُغيرة بن شُعبة قال: قام النبيّ ﷺ حتى ورِمتْ قدماه.

وقيل للحسن: ما بال المُتهجدين أحسن الناس وجوهاً؟ قال: إنهم خلوا بالرحمن

---

(١) الهجود: السهر.

فأسفر نورهم من نوره.

وكان بعضهم يصلي الليل حتى إذا نظر إلى الفجر، قال: عند الصباح يَحمد القوم السُّرى.

وقالوا: الشتاء ربيع المؤمنين؛ يطول ليلُهم للقيام، ويقصُر نهارُهم للصيام.

وقال ﷺ: «أطعِموا الطعام، وأفشوا السلام، وصلُّوا بالليل والناسُ نيام.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وبالأسْحارِ هم يَستغفرون﴾[1].

وهذا يوافق الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يَنزل إلى سماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل فيقول: هل من سائل فأُعطيه، هل من داعٍ فأستجيبَ له، هل من مُستغفر فأغفر له، هل من مستغيث فأُغيثه».

المغيرة والنخعي:

أبو عَوانة عن المُغيرة قال: قلتُ لإبراهيم النَّخَعي: ما تقول في الرجل يرى الضوءَ بالليل؟ قال: هو من الشيطان، لو كان خيراً لأُريه أهل بدر.

البكاء من خشية الله عز وجل

قال النبي ﷺ: «حرّم الله على النار كلَّ عين تبكي من خشية الله، وعينٍ غضت عن محارم الله».

وكان يزيد الرقاشي قد بكى حتى سقطت أشفار[2] عينيه.

وقيل لغالب بن عبد الله: أما تخاف على عينيك من العَمَى من طول البكاء؟ فقال: شِفاءَها أريد.

وقيل ليزيد بن مزيد: ما بال عينك لا تجف؟ قال: أي أخي، إن الله أوعدني إن عصيتُه أن يحبسني في النار: ولو أوعدني أن يحبسني في الحمّام لكنتُ حَرِيّاً أن لا تجف عيني.

---

(١) سورة الذاريات الآية ١٨. (٢) أشفار العين: الحرف الذي ينبت عليه الهدب.

قال عمر بن ذرّ لأبيه: مالك إذا تكلمت أبكيت الناس، فإذا تكلم غيرُك لم يُبكهم؟ قال: يا بني، ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجَرة.

وقال الله لنبي من أنبيائه: هب لي من قلبك الخشوع، ومن عينيك الدموع؛ ثم آدعني أستجب لك.

ومن قولنا في البكاء:

مدامعٌ قد خدَّدتْ في الخُدود ... وأعين مكحولةٌ بالهُجود

ومعْشر أوْعدَهم ربُّهم ... فبادَروا خشيةَ ذاك الوعيد

فهُم عُكوفٌ في محاريبهم ... يبكون من خوفِ عقابِ المجيد

قد كاد أن يُعْشِبَ من دمعِهم ... ما قابلتْ أعينُهم في السُّجود

وقال قيس بن الأصمّ في هذا المعنى:

صلّي الإلـه على قومٍ شهدْتُهم ... كانوا إذا ذَكروا أو ذُكِّروا شهِقوا

كانوا إذا ذَكروا نار الجحيم بكوْا ... وإن تَلا بعضُهم مُخوِّفاً صَعِقوا

مِن غير همزٍ من الشيطان يأْخذهم ... عند التِّلاوة إلا الخوفُ والشَّفَق[1]

صَرْعى من الحُزن قد سجَّوْا ثيابهم ... بقيَّة الرُّوحِ في أوْداجهم رمَق[2]

حتى تَخالَهمُ لو كنتَ شاهدَهم ... من شدّة الخوف والإشفاقِ قد زَهِقوا

النهي عن كثرة الضحك

في الحديث المرفوع: «كثرة الضحك تُميت القلبَ وتُذهبُ بهاءَ المؤمن».

وفيه: «لو علمتم ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً».

وفيه: «إن الله يكره لكم العبثَ في الصلاة: والرفث[3] في الصيام، والضحك في الجنائز».

---

(١) همز الشيطان: الجنون. (٢) أوداج: مفرده الوداج وهو عرق في العنق.

(٣) الرفث: كلمة جامعة لما يريد الرجل من المرأة في سبيل الاستمتاع بها من غير كناية.

الحسن وقوم يضحكون:

ومر الحسن بقوم يضحكون في شهر رمضان، فقال: يا قوم، إنّ الله جعل رمضانَ مِضْماراً لخلقه يتسابقون فيه إلى رحمته؛ فسبق أقوام ففازوا، وتخلف أقوام فخابوا؛ فالعجب من الضاحك اللاهي في اليوم الذي فاز فيه السابقون، وخاب فيه المتخلفون! أما والله لو كُشف الغطاءُ لشغل محسناً إحسانُه ومُسيئاً إساءتُه.

عبد الله وضاحك:

ونظر عبد الله بن ثعلبة إلى رجل يضحك مستغرقاً، فقال له: أتضحك ولعل أكفانك قد أُخذت من عند القصّار[1]؟

وقال الشاعر:

وكم من فتًى يُمْسي ويُصْبِح آمِناً وقد نُسِجتْ أكفانُهُ وهو لا يدري

النهي عن خدمة السلطان وإتيان الملوك

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من دخل على الملوك خرج وهو ساخط على الله.

أبو جعفر وسفيان:

أرسل أبو جعفر إلى سفيان، فلما دخل عليه قال: سلني حاجتك أبا عبد الله! قال: وتقضيها يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قال: فإن حاجتي إليك أن لا ترسل إليّ حتى آتِيَك، ولا تعطيني شيئاً حتى أسألك! ثم خرج؛ فقال أبو جعفر: ألقينا الحَبَّ إلى العلماء فلقطوا، إلا ما كان من سفيان الثوري، فإنه أعيانا فراراً.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الدخولُ على الأغنياء فتنةٌ للفقراء.

---

(١) القصّار: المبيض للثياب.

وقال زياد لأصحابه: مَن أغبط الناس عيشاً؟ قالوا: الأمير وأصحابه. قال: كلا؛ إنّ لأعواد المنبر لهيبة، ولقرع لجام البريد لفَزْعة. ولكن أغبط الناس عيشاً رجل له دار يسكنها، وزوجة صالحة يأوي إليها، في كفاف من عيش، لا يعرفنا ولا نعرفه؛ فإن عرفَنا وعرفْناه أفسدنا عليه آخرته ودنياه.

وقال الشاعر:

إنّ الملــــوك بلاءٌ حيثُما حَلُّـــــوا ... فلا يكنْ لـك في أكنـافِهـم ظِـلّ
ماذا تريد بقـوْم إن هُـمُ غضِبـوا ... جاروا عليك وإن أرضيتَهـم مَلّـوا
فاستَغْن بـاللهِ عـن إتيـانِهـم أبـداً ... إنّ الوقـــوف على أبـــوابِهــم ذُلّ

وقال آخر:

لا تَصْحَبَنّ ذوي السُّلطانِ في عملٍ ... تُصْبحْ على وجَل تُمسي على وجَـلٍ[1]
كلِ التُّـرابَ ولا تَعمَـل لهم عملاً ... فـالشَّـرُّ أجمعُـه في ذلـك العمـــل

وفي كتاب كليلة ودمنة: صاحب السلطان مثل راكب الأسد: لا يدري متى يهيج به فيقتله.

مالك بن دينار وسجين:

ودخل مالك بن دينار على رجل في السجن يزوره، فنظر إلى رجل جنديّ قد اتكأ في رجليه كُبول[2] قد قَرنتْ بين ساقيه، وقد أُتي بسفرة كثيرة الألوان؛ فدعا مالك بن دينار إلى طعامه؛ فقال له: أخشى إن أكلت من طعامك هذا أن يُطرح في رجلي مثل كُبولك هذه.

وفي كتاب الهند: السلطان مثل النار: إن تباعدتَ عنها احتجت إليها، وإن دنوت منها أحرقتْك.

---

(١) الوجل: الخوف والفزع.
(٢) الكبول: القيود.

أيوب وأبو قلابة في القضاء:

أيوب السختياني قال: طُلِب أبو قِلابة لقضاء البصرة، فهرب منها إلى الشام، فأقام حيناً ثم رجع، قال أيوب فقلت له: لو وَلِيت القضاء وعدلت كان لك أجران. قال: يا أيوب، إذا وقع السابح في البحر فكم عسى أن يسبح!

إبراهيم يعظ بقية:

وقال بقية: قال لي إبراهيم: يا بقية، كن ذَنَباً ولا تكن رأساً، فإن الرأس يهلِك والذنب ينجو.

ومن قولنا في خدمة السلطان وصحبته:

تَجنَّب لباسَ الخزِّ إن كنت عاقلاً ... ولا تَختتم[1] يوماً بفصِّ زَبَرجدِ
ولا تتغلَّلْ بالغوالي تعطُّراً ... وتَسحَب أذيالَ الملاءِ المُعضَّد[2]
ولا تتبخْتَر صيِّت النَّعل زاهياً ... ولا تتصدَّرْ في الفِراش المُمهَّد
وكن هملاً في الناسِ أغبَرَ شاعثاً ... تَروح وتغدو في إزارٍ وبُرجُدِ[3]
ترى جلدَ كَبْشٍ تحته كلُّ ما استوى ... عليه سَريرٌ فوق صرْحٍ مُمرَّدِ
ولا تَطمَحِ العيْنانِ منك إلى امرىءٍ ... له سَطواتٌ باللِّسان وباليدِ
تَراءتْ له الدُّنيا بِزبْرِجِ عيْشِها ... وقادتْ له الأطماعُ غير مُقوَّدِ
فأسْمَن كَشْحَيْه وأهزَل دينَه ... ولم يَرتقِبْ في اليوم عاقبةَ الغدِ[4]
فيوْماً تراه تحت سوْطٍ مُجرَّداً ... ويوْماً تراه فوق سَرْجٍ منضَّدِ[5]
فيُرْحم تاراتٍ ويُحسَدُ تارةً ... فذا شر مرحومٍ وذا شرُّ مُحسَدِ

القول في الملوك

الأصمعي قال: بلغني أن الحسن قال: يا بن آدم، أنت أسير الجوع، صريع الشبع؛

---

(١) تختتم: تلبس الخاتم.
(٢) المعضد: الذي له علم في موضع العضد.
(٣) البرجد: كساء غليظ.
(٤) الكشح: ما بين الخاصرة والضلوع.
(٥) منضد: منسق.

إن قوماً لبسوا هذه المطارف[1] العتاق. والعمائم الرقاق، ووسعوا دورهم، وضيقوا قبورهم، وأسمنوا دوابهم، وأهزلوا دينهم، يتكىء أحدهم على شماله، ويأكل من غير ماله فإذا أدركته الكظّة قال: يا جارية، هاتي هاضومَكِ! ويلَك! وهل تهضم إلا دينَك؟

لمالك:

يحي بن يحي قال: جلس مالك يوماً فأطرق ملياً، ثم رفع رأسه فقال: يا حسرة على الملوك! لا هم تُركوا في نعيم دنياهم، وماتوا قبل أن يموتوا حزناً على ما خلّفوا، وجزعاً مما استقبلوا!

وقال الحسن، وذُكر عنده الملوك: أما إنهم وإن هُمْلِجَتْ[2] لهم البغال، وأطافت بهم الرجال، وتعاقبت لهم الأموال، إن ذل المعصية في قلوبهم؛ أبى الله إلا أن يُذِلَّ من عصاه!

لعبد الله بن الحسن:

الأصمعي قال: خطب عبد الله بن الحسن على مِنْبر البصرة فأنشد على المنبر:

أين الملوكُ التي عن حظِّها غَفَلَتْ ... حتى سقاها بكأس الموْتِ ساقيها

بلاء المؤمن في الدنيا

قال النبي ﷺ: «المؤمن كالخامة من الزرع: تميل بها الريح مرة كذا ومرة كذا؛ والكافر كالأرزة المجدثة على الأرض يكون انجعافها مرة».

ومعنى هذا الحديث: تَردُّد الرزايا على المؤمن، وتجافيها عن الكافر ليزداد إثماً.

وقال وهب بن منبه: قرأت في بعض الكتب: إني لأذود عبادي المخلصين عن نعيم

---

(١) المطارف: جمع المطرف، وهو رداء أو ثوب من خز مربع ذو أعلام.

(٢) هملجت: سيرت سيراً حسناً في سرعة.

الدنيا، كما يذود الراعي الشفيق إبله عن موارد الهلكة.

قال الفضيل بن عياض: ألا ترون كيف يزوي الله الدنيا عمن يحب من خلقه: يمررها عليه مرة بالجوع، ومرة بالعري، ومرة بالحاجة؛ كما تصنع الأم الشفيقة بولدها: تفطمه بالصبر مرة، ومرة بالحُضَض[1]؛ وإنما يريد بذلك ما هو خير له.

وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال: «أخبرني جبريل عن الله تبارك وتعالى أنه قال: ما ابتليت عبدي ببلية في نفسه أو ماله أو ولده فتلقاها بصبر جميل إلا استحييت يوم القيامة أن أرفع له ميزاناً أو أنشر له ديواناً».

كتمان البلاء إذا نزل

قال النبي ﷺ: «من ٱبتُلِيَ ببلاء فكتمه ثلاثة أيام صبراً واحتساباً، كان له أجر شهيد».

وسَمع الفضيل بن عياض رجلاً يشكو بلاءً نزل به، فقال: يا هذا، تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك.

وقال: من شكا مصيبةً نزلتْ به فكأنما شكا ربَّه.

وقال دُريد بن الصمة يرثي أخاه عبد الله بن الصمة:

قليل التَشكّي للمصائبِ ذاكراً ... من اليوم أعقابَ الأحاديثِ في غدِ

وقال تأبط شراً:

قليل التَشكّي للمُلِمِّ يُصيبُه ... كثير النَّوى شتى الهوى والمسالِكِ[2]

لشريح:

الشيباني قال: أخبرني صديق لي قال: سمعني شُريح وأنا أشتكي بعض ما غمّني إلى صديق، فأخذ بيدي وقال: يا بن أخي. إياك والشكوى إلى غير الله؛ فإنه لا يخلو

---

(١) الحضض: عصارة نبات مر. (٢) الملم: الزائر.

مَن تشكو إليه أن يكون صديقاً أو عدواً؛ فأما الصديق فتحزنه ولا ينفعك، وأما العدو فيشمت بك. انظر إلى عيني هذه ـ وأشار إلى إحدى عينيه ـ فوالله ما أبصرت بها شخصاً ولا طريقاً منذ خمس عشرة سنة، وما أخبرت بها أحداً إلى هذه الغاية. أما سمعت قول العبد الصالح: إنما أشكو بَثّي وحُزني إلى الله! فاجعله مشكاك ومحزنك عند كل نائبة تنوبك؛ فإنه أكرم مسئول؛ وأقرب مدعو.

بين عقيل بن أبي طالب وأخيه علي:

كتب عقيل إلى أخيه عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليهما، يسأله عن حاله فكتب إليه:

فأن تسألني كيف أنت فإنني ... جليدٌ على ريْب الزمان صليبُ
عزيزٌ عليّ أن ترى بي كآبةٌ ... فَيفْرحَ واشٍ أو يُساءَ حبيبُ[1]

وكان ابن شبرمة إذا نزلت به نازلة قال: سحابة صيفٍ عن قليلٍ تَقشَّع.
وكان يقال: أربع من كنوز الجنة: كتمان المصيبة، وكتمان الصدقة، وكتمان الفاقة، وكتمان الوجع.

القناعة

قال النبي ﷺ: «من أصبح وأمسى آمناً في سربه معافى في بدنه، عنده قوت يومه؛ كان كمن حِيزت له الدنيا بحذافيرها».

السِّرب: المسلك؛ يقال: فلان واسع السرب: يعني المسلك والمذهب.

وقال قيس بن عاصم: يا بَني، عليكم بحفظ المال، فإنه مَنْبَهة الكريم، ويُستغنى به عن اللئيم؛ وإياكم والمسألة فإنها آخر كسب الرجل.

وقال سعد بن أبي وقاص لابنه: يا بُني: إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة، فإنها مال لا ينفد؛ وإياك والطمع فإنه فقرٌ حاضر؛ وعليك باليأس، فإنك لم تيأس من

(١) الواشي: النمام.

شيء قط إلا أغناك الله عنه.

وقالوا: الغَنِيّ من استغنى بالله، والفقيرُ من افتقر إلى الناس.

وقالوا: لا غنى إلا غنى النفس.

وقيل لأبي حازم: ما مالكَ؟ قال: مالانِ: الغنى بما في يدي عن الناس، واليأسُ عما في أيدي الناس!

وقيل لآخر: ما مالك؟ فقال: التجمل في الظاهر، والقصد في الباطن.

وقال آخر:

لا بُدَّ مِمَّا ليس منه بُدُّ اليأسُ حُرٌّ والرجاءُ عبْدُ

وليس يُغنِي الكدَّ إلاَّ الجِدُّ

وقالوا: ثمرة القناعة الراحة، وثمرة الحرص التعب.

وقال البحتري:

إذا ما كانَ عندي قوتُ يوْمٍ طرحْتُ الهمَّ عنِّي يا سعيدُ

ولم تخطُرْ هُمومُ غدٍ ببالي لأنَّ غداً لهُ رزقٌ جديدُ

وقال عروة بن أُذَينة:

لقد علمْتُ وخيرُ القوْلِ أصدقهُ بأنّ رزقي وإن لم يأت يأتينِي

أسعَى لهُ فيُعَنِّيني تطَلُّبُهُ ولو قعَدْتُ أتانِي لا يُعَنِّيني[1]

وفد عروة بن أذينة على عبد الملك بن مروان في رجال من أهل المدينة، فقال له عبد الملك: ألست القائل يا عروة:

أسعَى لهُ فيُعَنِّيني تطلبُهُ

فما أراك إلا قد سعيت له. فخرج عنه عروة وشخص من فوره ذلك إلى المدينة. فافتقده عبد الملك، فقيل له: توجَّهَ إلى المدينة. فبعث إليه بألف دينار فلما أتاه

(١) يعنيني: يكلفني ما يشق عليّ.

الرسول قال: قل لأمير المؤمنين: الأمر على ما قلتُ؛ قد سعيتُ له فعنّاني تطَلُّبُهُ، وقعدتُ عنه فأتاني لا يُعنِّيني.

قال النبي ﷺ: «إن روحَ القدُس نفث في روعِي أنّ نفساً لن تموت حتى تَسْتَوْفِيَ رزقَها. فاتقوا الله وأجملوا في الطلب».

وقال تعالى فيما حكَى عن لقمان الحكيم: ﴿يا بُنيّ إنَّها إنْ تَكُ مثقالَ حبّةٍ مِنْ خَرْدَل فتكن في صخْرَة أو في السَّمٰواتِ أو في الأرضِ يأْتِ بها اللهُ، إنّ الله لطيفٌ خبيرٌ﴾[1].

وقال الحسن: ابن آدم، لستَ بسابِقٍ أجلَك، ولا ببالغٍ أملك، ولا مغلوبٍ على رزق، ولا بمرزوق ما ليس لك؛ فعلامَ تقتل نفسك؟.

قال ابنُ عبد ربّه: قد أخذت هذا المعنى فنظمتُه في شعري فقلت:

لسْـتُ بقـاضٍ أَمَلِـي ... ولا بعـادٍ أَجَلِـي
ولا بمغلـوبٍ على الرّ ... زقِ الذي قُـدِّرَ لي
ولا بمُعْطَـى رِزْقَ غيـ ... ـري بـالشَّقـا والعمَـلِ
فليْـتَ شِعْـري مـا الّذي ... أدخَلني في شُغُلِـي

وقال آخر:

سيكُـونُ الذي قُضِـي ... غضِـبَ المرءُ أم رضِـي

وقال محمود الوراق:

أما عجَبٌ أن يكْفل النَّاسَ بعضهُـمْ ... ببعضٍ فيَرْضى بالكفيلِ المطالِـبُ
وقـد كفـلَ اللهُ المَلِـيَّ بنفسِـه ... فلم يرْض والإنسانُ فيـه عجـائـبُ
عليمٌ بـأن الله مُـوفٍ بـوعـدِهِ ... وفي قلبه شـكٌ على القلـبِ دائـبُ
أَبَـى الجهـلُ إلاّ أن يصيرَ بعِلْمِـهِ ... فلم يُغْـنِ عنـه علْمـهُ والتَّجـاربُ

---

(١) سورة لقمان الآية ١٦.

وله أيضاً:

أتطلُبُ رزقَ اللهِ مـن عنـدِ غيْـرِه ... وتصبِحُ من خوْفِ العواقِـبِ آمِنـاً

وترضَى بصرَّافٍ وإن كان مُشْرِكـاً ... ضميناً[1]، ولا ترضَى بِربِّك ضامِنـاً!

وقال أيضاً:

غِنَى النفسِ يُغنيها إذا كنتَ قانِعـاً ... وليسَ بمُغْنيك الكثيرُ مـنَ الحِرْصِ

وإنّ اعتِقـادَ الهمِّ لِلْخَيْـرِ جـامِعـاً ... وقِلَّة همِّ المرءِ يـدعـو إلى النَّقْـص

وله أيضاً:

مَـن كـان ذا مـالٍ كثيرٍ ولم ... يقنَـعْ، فـذاكَ الموسِـرُ المعْسِـرُ

وكـلُّ مَـنْ كـان قنـوعـاً وإنْ ... كـان مُقِلا، فهـو المُكْثِـرُ

الفقـرُ في النفسِ وفيهـا الغِنَـى ... وفي غِنـى النفسِ الغِنَـى الأكبَـرُ

وقال بكر بن حماد:

تبارَكَ مَنْ ساسَ الأمـورَ بِعلْمِـهِ ... وذلَّ له أهـلُ السَّمٰـواتِ والأرْضِ

ومَـن قسَـمَ الأرزاقَ بين عبـادِه ... وفضَّل بعضَ الناسِ فيها على بعضِ

فمن ظنّ أنّ الحِرصَ فيها يـزيـدُهُ ... فقولُوا له يَزْداد في الطُّول والعَـرْضِ!

وقال ابن أبي حازم:

ومُنتظرٍ لِلمـوْتِ في كـلِّ سـاعـةٍ ... يشيـدُ ويبْنِـي دائبـاً ويُحصِّـنُ

لـه حينَ تبلُـوهُ حقيقـةُ مُـوقِـنٍ ... وأفعالـهُ أفعـال مَـن ليس يـوقِـنُ

عِيانٌ كإنكارٍ، وكـالجهـلِ عِلْمـهُ ... يشُـكُّ بـه في كـلِّ مـا يُتيَقَّـنُ

وقال أيضاً:

آضرعْ إلى اللهِ لا تضْرعْ إلى النـاسِ ... وآقنَعْ بيأسٍ فإنّ العِـزَّ في اليـاسِ

وآستغْنِ عن كلِّ ذي قُرْبَى وذي رحِمٍ ... إنَّ الغَنيَّ مَن استَغْنَى عـنِ النَّـاسِ

---

(١) ضميناً: كفيلاً.

وله أيضاً:

فلا تَحرِصنّ فإنّ الأمورَ ... بكفِّ الإلهِ مقاديرُها
فليس بآتيكَ مَنْهيُّها ... ولا قاصِرٍ عنكَ مأمورُها

وله أيضاً:

كم إلى كم أنتَ لِلْحِرْ ... صِ وللآمالِ عبْدُ؟
ليس يُجدِي الحِرْصُ والسَّعْـ ... ـيُ إذا لم يَكُ جِدُّ
ما لِمَا قد قُدِّرَ الله ... مِنَ الأمْرِ مَرَدُّ
قد جرَى بالشرِّ نحْس ... وجرى بالخيْرِ سعْدُ
وجرى الناسُ على جَرْ ... يِهما قبلُ وبعدُ
أمِنوا الدّهْرَ وما ... للدهر والأيامِ عهدُ
غالهمْ فاصْطَلَمَ الجَمْـ ... ـعُ وأفنَى ما أعدُّوا[1]
إنها الدُّنيا - فلا تحفَلْ بها - جزْرٌ ومدُّ

وقال الأضبط بن قريع:

ارضَ منَ الدهرِ ما أتاكَ به ... مَنْ يَرْضَ يوماً بعيْشِهِ نفَعهْ
قد يجمعُ المالَ غيْرُ آكِلِه ... ويأكُلُ المالَ غيْرُ مَن جمعَهْ

وقال مسلم بن الوليد:

لن يُبْطيء الأمْرُ ما أمّلْتَ أوبَتَه ... إذا أعانكَ فيه رِفْقُ مُتّئِدِ[2]
والدهرُ آخِذُ ما أعطى، مُكدِّرُ ما ... أصفى، ومُفْسِدُ ما أهوَى له بيَدِ
فلا يغرُنكَ من دهرٍ عطِيّتُهُ ... فليْسَ يترُك ما أعطَى على أحدِ

وقال كلثوم العتابي:

تلومُ على تَرْكِ الغِنى باهِليّةٌ ... لَوَى الدهرُ عنها كل طِرْفٍ وتالد[3]

(١) غالهم: أهلكهم؛ واصطلم: أبيد. (٢) متئد: متمهل.
(٣) الطرف: الطارف والحديث.

رأتْ حولها النِّسوانَ يَرْفُلْن في الكُسا | مُقلَّدةً أجيادُها بالقلائدِ
يسرُّكِ أنّي نِلْتُ ما نال جعْفَرٌ | وما نالَ يَحْيي - في الحياةِ - بنُ خالدِ
وأنّ أميرَ المؤمنين أعضَّني | معضَّهُما بالمُرْهفاتِ الحدائدِ[1]
ذريني تَجِئْني مُنْيَتي مُطْمَئِنَّةً | ولم أتجشّمْ هوْلَ تِلك الموارِدِ
فإن الذي يسمُو إلى الرتَب العُلَى | سيُرمَى بألوان الفِرى والمكايدِ[2]
وجدتُ لذاذاتِ الحياة مَشوبَةً | بمُستودَعاتٍ في بُطون الأساودِ

وقال:

حتى متَى أنا في حلّ وتَرحال | وطُول شُغل بإدبار وإقبالِ
ونازِح الدار ما أنفك مُغترباً | عن الأحبّة ما يَدرون ما حالي
بمشرقِ الأرض طوْراً ثم مغربِها | لا يَخطر الموتُ من حرصٍ على بالي
ولو قنِعتُ أتاني الرزق في دَعَةٍ | إن القُنوع الغنَى، لا كثرةُ المال

وقال عبد الله بن عباس: القناعة مال لا نفاد له.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الرزق رزقان: فرزق تطْلبه، ورزق يطلبك فإن لم تأته أتاك.

وقال حبيب:

فالرِّزق لا تَكمدْ عليه فإنه | يأتي ولم تَبعث إليه رسولاً[3]

وفي كتاب للهند: لا ينبغي للملتمس أن يلتمس من العيش إلا الكفاف الذي به يدفع الحاجة عن نفسه، وما سوى ذلك إنما هو زيادة في تعبه وغمه.

ومن هذا قالت الحكماء: أقل الدنيا يكفي وأكثرها لا يكفي!

وقال أبو ذؤيب:

---

(١) أعضه بالسيف: إذا ضربه به.

(٢) مكايد: مفردها مكيدة، وهي الخبث والمكر.

(٣) تكمد: الكمد: هم وحزن لا يستطاع إمضاؤه.

والنفسُ راغبــةٌ إذا رغَّبتَهــا وإذا تُــردُّ إلى قليــلٍ تَقنــعُ

وقال المسيح عليه السلام: عجباً منكم! إنكم تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بلا عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل.

وقال الحسن: عيَّرَت اليهود عيسى عليه السلام بالفقر؛ فقال: من الغنى أُتِيتم.

أخذ هذا المعنى محمود الورّاق فقال:

يـا عـائـبَ الفقـر ألا تَـزدجـرْ عيـبُ الغنَـى أكثرُ لـو تَعتبرْ
مـن شرَف الفقـر ومـن فضلـه على الغنَـى إن صـحّ منـك النظرْ:
... أنَّك تَعصى كـي تَنـال الغنَـى ولسـتَ تَعصى اللهَ كـي تَفتقـر

لإبراهيم:

سفيان عن مُغيرة عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون الطلب في أطارف الأرض.

وقال الأعمش: أعطاني البُنانيّ مضاربه[1] أخرج بها إلى ماءٍ، فسألت إبراهيم، فقال لي: ما كانوا يطلبون الدنيا هذ الطلب وبين ماء وبين الكوفة عشرة أيام.

ليونس بن حبيب:

الأصمعي عن يونس بن حبيب قال: ليس دون الإيمان غنى ولا بعده فقر.

قِيل لخالد بن صفوان: ما أصبرك على هذا الثوب الخلق! قال: رُبَّ مملول لا يُستطاع فراقه.

بين حكيمين:

وكتب حكيم إلى حكيم يشكو إليه دهره: إنه ليس من أحد أنصفه زمانُهْ فتصرَّفت به الحال حسب استحقاقه، وإنك لا ترى الناس إلا أحد رجلين: إما مُقدَّم أخَّره حظُّه، أو متأخر قدَّمه جَدُّه؛ فارضَ بالحال التي أنت عليها. وإن كانت دون أملك واستحقاقك اختياراً، وإلا رضيت بها اضطراراً.

---

(١) المضارب: جمع المضرب، وهو الفسطاط.

وقيل للأحنف بن قيس: ما أصبرك على هذا الثوب؟ فقال: أحق ما صُبِرَ عليه ما ليس إلى مفارقته سبيل.

بين الأصمعي وأعرابية:

قال الأصمعي: رأيت أعرابية ذات جمال تسأل بِمنى: فقلت لها: يا أمة الله، تسألين ولك هذا الجمال؟ قالت: قدّر الله فما أصنع؟ قلت: فمن أين معاشكم؟ قالت: هذا الحاج، نسقيهم ونغسل ثيابهم. قلت: فإذا ذهب الحاجُّ فمن أين؟ فنظرتْ إليَّ وقالت: يا صَلْتَ[1] الجبين، لو كنا نعيش من حيث نعلم ما عشنا!

وقيل لرجل من أهل المدينة: ما أصبرك على الخبز والتمر! قال: ليتهما صَبَرا عليَّ.

الرضا بقضاء الله

قالت الحكماء: أصل الزهد الرضا عن الله.

وقال الفضيل بن عياض: استخيروا الله ولا تتخيروا عليه؛ فربما اختار العبد أمراً هلاكُه فيه.

وقالت الحكماء: رب محسود على رخاء هو شقاؤه، ومرحوم من سقم هو شفاؤه، ومغبوط بنعمة هي بلاؤه.

وقال الشاعر:

قد يُنعِم الله بالبلوَى وإن عظُمتْ ... ويَبتلي اللهُ بعضَ القومِ بالنِّعمِ

وقالوا: من طلب فوق الكفاية، رجع من الدهر إلى أبعد غاية.

(١) الصلت: الواضح.

من قتر على نفسه
وترك المال لوارثه

مالك:

زياد عن مالك قال: من لم يكن فيه خير لنفسه لم يكن فيه خير لغيره؛ لأن نفسه أولى الأنفس كلها؛ فإذا ضيَّعها فهو لما سواها أضيع؛ ومن أحب نفسه حاطها وأبقى عليها وتجنب كل ما يعيبها أو ينقصها؛ فجنبها السرقة مخافة القطع، والزنا مخافة الحدّ، والقتل خوف القصاص.

الرشيد وبطريق هرقلة:

داود بن علي الكاتب قال: لما افتتح هارون الرشيد هِرقَلة وأباحها ثلاثة أيام، وكان بطريقها الخارج عليه «فسيل» الرومي؛ فنظر إليه الرشيد مقبلاً على جدار فيه كتاب باليونانية وهو يطيل النظر فيه. فدعا به وقال له: لِمَ تركت النظر إلى الانتهاب والغنيمة وأقبلت على هذا الجدار تنظر فيه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قرأت في هذا الجدار كتاباً هو أحب إليّ من هرقلة[1] وما فيها. قال له الرشيد: ما هو؟ قال «بسم الله الملك الحق المبين. ابنَ آدم، غافِص[2] الفرصةَ عند إمكانها، وكل الأمور إلى وليها. ولا تحمل على قلبك همَّ يوم ولم يأت بعدُ؛ إن يكن من أجلكَ يأتك الله برزقك فيه؛ ولا تجعل سعيك في طلب المال أسوة المغرورين، فربّ جامع لبَعْل حليلته، واعلم أن تقتير المرء على نفسه هو توفير منه على غيره، فالسعيد من اتعظ بهذه الكلمات ولم يضيعها» قال له الرشيد: أعِدها عليّ يا فسيل. فأعادها عليه حتى حفظها.

وقال الحسن: ابنَ آدم، أنت أسير في الدنيا، رضيت من لذتها بما ينقضي، ومن نعيمها بما يمضي، ومن ملكها بما ينفد، فلا تجمع الأوزارَ لنفسك، ولأهلك الأموالَ، فإذا متّ حملت الأوزار إلى قبرك وتركت أموالك لأهلك.

(١) هرقلة: مدينة بلاد الروم. (٢) المغافصة: المفاجأة والأخذ على غرة.

أخذ أبو العتاهية هذ المعنى فقال:

أبقيْتَ مالكَ ميراثاً لوارثِه   فليتَ شِعريَ ما أبقى لك المالُ؟
القومُ بعدَك في حالٍ تَسوءُهم   فكيف بعدَهم دارتْ بك الحالُ؟
مَلوا البكاءَ فما يَبكيك من أحدٍ   وآستَحكمَ القيلُ في الميراث والقالُ!

وفي الحديث المرفوع: «أشدُّ الناس حسرة يوم القيامة رجلٌ كسَبَ مالاً من غير حلِّه فدخل به النار، وورِثه مَن عمِل فيه بطاعة الله فدخل به الجنة».

لابن عمر في وفاة ابن حارثة:

وقيل لعبد الله بن عمر: توفى زيد بن حارثة وترك مائة ألف. قال: لكنها لا تتركه.

الحسن وابن الأهتم في مرضه:

ودخل الحسن علَى عبد الله بن الأهتم يعوده في مرضه، فرآه يُصعِّدُ بصره في صندوق في بيته ويصوِّبه، ثم التفت إلى الحسن فقال: أبا سعيد، ما تقول في مائة ألف في هذا الصندوق لم أؤدّ منها زكاة ولم أصِل منها رَحِماً؟ فقال له: ثكلتْك أمُّك! ولمن كنتَ تَجمعُها؟ قال: لروْعة الزمان، وجفوة السلطان، ومُكاثرة العشيرة. ثم مات، فشهد الحسن جنازته، فلما فرغ من دفنه ضرب بيده على القبر ثم قال:

انظروا إلى هذا، أتاه شيطانه فحذره روعة زمانه، وجفوة سلطانه، ومكاثرة عشيرته، عما استودعه الله إياه، وغمره فيه، انظروا إليه يَخرج منها مذْموماً مدْحوراً[1].

ثم قال: أيها الوارث، لا تُخدعنّ كما خُدِعَ صُوَيْحِبُك بالأمس، أتاك هذا المالُ حلالاً فلا يكونَنَّ عليك وبالاً، أتاك عفواً صفواً، ممن كان له جَموعاً مَنوعاً؛ من باطل جمعه، ومن حق منعه؛ قطع فيه لججَ البحار، ومفاوز القِفار؛ لم تكدح فيه

(١) مدحورا: مهزوما.

بيمين، ولم يعرق لك فيه جَبِين؛ إن يوم القيامة يومُ حسرة وندامة، وإن مِنْ أعظم الحسرات غداً أن ترى مالك في ميزان غيرك؛ فيالها حسرة لا تقال، وتوبةً لا تُنال.

هشام بن عبد الملك حين حضرته الوفاة:

لما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة، نظر إلى أهله يبكون عليه، فقال: جاد لكم هشام بالدنيا وجُدتم له بالبكاء، وترك لكم ما جمَع، وتركتم عليه ما حَمل؛ ما أعظم منقلَب هشام إن لم يغفر الله له.

نقصان الخير وزيادة الشر

عاصم بن حميد عن معاذ بن جبل قال: إنكم لن تروا من الدنيا إلا بلاءً، وفتنةً، ولا يزيد الأمر إلا شدّة، ولا الأئمة إلا غِلظاً، وما يأتيكم أمرٌ يهولكم إلا حقّره ما بعده.

قال الشاعر:

الخير والشر مُــزْدادٌ ومُنتقَــصٌ   فـالخيرُ مُنتقَـصٌ والشر مُــزدادُ
وما أُسائـلُ عـن قـومٍ عـرَفْتُهُـمُ   ذوي فضائلَ إلا قبلَ قد بـادوا[1]

العزلة عن الناس

قال النبي ﷺ: «آستأْنِسوا بالوحدة عن جُلساء السوء».

وقال: إن الإسلامَ بدأ غريباً ولا تقومُ الساعة حتى يعودَ غريباً كما بدأ.

وقال العتابي: ما رأيتُ الراحة إلا مع الخلوة، ولا الأنس إلا مع الوحشة.

وقال النبي ﷺ: «خيركم الأتقياء الأصفياء الذين إذا حضروا لم يُعرفوا وإذا غابوا لم يُفتَقدوا».

وقال: «لا تدَعوا حظكم من العزلة، فإن العزلة لكم عبادة».

---

(١) بادوا: هلكوا وانقرضوا.

للقمان يعظ ابنه:

وقال لقمان لابنه: آستعذ بالله من شرار الناس، وكن من خيارهم على حذر.

وقال إبراهيم بن أدهم: فِرَّ من الناس فرارَك من الأسد.

وقيل لإبراهيم بن أدهم: لِمَ تجتنب الناس؟ فأنشأ يقول:

آرَض بـــالله صـــاحبَـــاً وذَرِ النـــاسَ جـــانِبـــاً
قَلِّـــب النـــاس كيـــف شئـــتَ تجدهـــم عقـــاربـــا

لابن الزيات:

وكان محمد بن عبد الملك الزيات يأنس بأهل البلادة ويستوحش من أهل الذكاء؛ فسئل عن ذلك فقال: مؤنة التحفظ شديدة!

وقال ابن مُحيريز: إن استطعتَ أن تَعرف ولا تُعرَف، وتَسأل ولا تُسأل، وتمشي ولا يُمشى إليك، فافعل.

وقال أيوب السختياني: ما أحب اللهُ عبداً إلا أحب أن لا يُشعَر به.

وقيل للعتابي: من تجالس اليوم؟ قال: من أبصُق في وجهه ولا يغضب! قيل له: ومن هو؟ قال: الحائط.

وقيل لدعبل الشاعر: ما الوحشة عندك؟ قال: النظر إلى الناس! ثم أنشأ يقول:

ما أكثرَ النـاسَ لا بـل مـا أَقلَّهـمُ اللهُ يعلمُ أنِّـي لم أَقُـلْ فنَـدا(١)
إني لأفتَـحُ عينِـي حين أَفْتحُهـا على كثيرٍ ولكـنْ لا أرى أحـداً

وقال ابن أبي حازم:

طِـبْ عـن الإمْـرةِ نفسَـا وآرضَ بـالـوَحشـةِ أُنْسـا
مـا عليهـا أحـدٌ يَسْـوَى على الخِبْـرةِ فَلْسـا

وقال آخر:

---

(١) فندا: كذبا.

قـــد بَلَـــوْتُ النـــاسَ طُـــرّاً   لم أجِـــدْ في النـــاسِ حُـــرّا
صـــارَ أحْلَـــى النـــاس في العَـــــيْـــنِ إذا مـــا ذِيـــقَ مُـــرّا

إعجاب الرجل بعمله

قال عمر بن الخطاب: ثلاث مهلكات، شُحٌّ مُطاع، وهوًى متَّبَع، وإعجاب المرء بنفسه.

وفي الحديث: «خير من العُجب بالطاعة، أن لا تأتي طاعة».

وقالوا: ضاحِك معترفٌ بذنبه، خيرٌ من باكٍ مُدِلٍّ على ربه.

وقالوا: سيِّئة تسيئك، خير من حسنة تعجبك.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ يُزَكُّونَ أَنفسَهُم بلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يشاء﴾[1].

وقال الحسن: ذمّ الرجل لنفسه في العلانية مدح لها في السريرة.

وقالوا: من أظهر عيب نفسه فقد زكاها.

وقيل: أوحى الله إلى عبده داود: يا داود، خالِق[2] الناسَ بأخلاقهم واحتجز الإيمان بيني وبينك.

وقال ثابت البُناني: دخلت على داود، فقال لي: ما جاء بك؟ قلت، أزورك. قال: ومَن أنا حتى تزورَني؟ أمِنَ العُباد أنا؟ لا والله! أم مِن الزهاد؟ لا والله! ثم أقبل على نفسه يوبِّخها. فقال: كنت في الشبيبة فاسقاً، ثم شِبْتُ فصرت مرائيا؛ والله إن المُرائي شر من الفاسق.

بين عابدين:

لقي عابد عابدا، فقال أحدهما لصاحبه: والله إني أحبك في الله. قال: والله لو اطلعت على سريرتي لأبغضتني في الله.

---

(١) سورة النساء الآية ٤٩.

(٢) خالق الناس: عاشرهم على أخلاقهم.

معاوية وبعض الرجال:

وقال معاوية بن أبي سفيان لرجل: مَن سيد قومك؟ قال: أنا! قال: لو كنت كذلك لم تقله.

وقال محمود الوراق:

تَعصِي الإلـهَ وأنـت تُظهِـرُ حُبَّـه	هـذا مُحـالٌ في القيـاس بـديـعُ
لـو كنـت تُضمِـر حُبَّـه لأطعتَـه	إن المُحـبَّ لمن أحـبَّ مُطيـعُ
في كـل يـوم يبتليـك بنعمـة	منـه وأنـت بشكـر ذاك مُضيـعُ

تواضع ابن سيرين:

وقال أبو الأشعث: دخلنا على ابن سيرين فوجدناه يصلي، فظن أنَّا عجبنا بصلاته، فلما انفتل منها التفت لنا فقال: الرياءَ أخاف.

للنبي ﷺ:

زياد عن مالك قال: قال النبي ﷺ: « إياكم والشِّرْك الأصغر. قالوا: وما الشِّرْك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء ».

وقال عبد الله بن مسعود: سمعت النبي ﷺ يقول: « لا رياء ولا سمعة[1]، مَنْ سَمَّع الله به.

وقال ﷺ: « ما أسرَّ امرُؤ سريرةً إلاّ ألبسه الله رداءها: إنْ خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

للقمان يعظ ابنه:

وقال لقمان الحكيم لابنه: احذر واحدة هي أهل للحذر. قال: وما هي؟ قال: إياك أن تُري الناس أنك تخشى الله وقلبك فاجر.

---

(١) يقال فعل ذلك رياء وسمعة: ليراه الناس ويسمعوه.

وفي الحديث. «من أصلح سريرتَه أصلح الله علانيتَه».

وقال الشاعر:

وإذا أظهـرْتَ شيئـاً حسنـاً فليكنْ أحسـنَ منـه مـا تسِرّ
فمُسِـرُّ الخيْـرِ مـوْسـومٌ بـه ومُسِـرُّ الشَّـرِّ مـوْسـوم بشَرّ

للأشعث في تخفيف الصلاة:

صلى أشعث فخفف الصلاة، فقيل له: ما أخف صلاتك! قال: إنه لم يخالطها رياء.

وصلى رجل من المُرائين، فقيل له: ما أحسن صلاتك! فقال: ومع ذلك إني صائم!

بين طاهر والمروزي:

وقال طاهر بن الحسين لأبي عبد الله المروزي: كم لك منذ نزلت بالعراق؟ قال: منذ عشرين سنة، وأنا أصوم الدهر منذ ثلاثين سنة. قال: أبا عبد الله، سألناك عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين.

ابن الخطاب:

الأصمعي قال: أخبرني إبراهيم بن القعقاع بن حكيم قال: أمر عمر بن الخطاب لرجل بكيس، فقال الرجل: آخذ الخيط؟ قال عمر: ضع الكيس!

بين الحسن وبعضهم:

قال رجل للحسن وكتب عنا. كتاباً: أتجعلني في حِلّ من تراب حائطك؟ قال: يا ابن أخي، بلى، ورَعُك لا يُنكر.

وقال محمود الوراق:

أظهَـروا للنـاس دِينـاً وعلى الدِّينـارِ داروا

وله صاموا وصَلّوا ... وله حَجُّوا وزاروا
لو بدَا فوْق الثُّريَّا ... ولهم ريشٌ لطاروا!

وقال مساور الوراق:

شَمِّرْ ثيابَك وآستعدَّ لقائلٍ ... وآحكُك جبينَك للقضاءِ بثُومِ
وعليك بالغنوى فاجِلس عنده ... حتى تُصيبَ وديعةً ليتيم
وإذا دخلت على الرَّبيع مُسَلّماً ... فاخصُصْ سبابةَ منك بالتَّسْليم

وقال:

تصوَّف كي يقال له أمينٌ ... وما معنى التَّصوُّف والأمانهْ
ولم يُرِدِ الإله به ولكن ... أراد به الطريق إلى الخِيانهْ

وقال الغزال:

يقول ليَ القاضي مُعاذٌ مُشاوراً ... وولّى آمرأً فيما يَرى من ذوي العدْل
قعيدك ماذا تحسبُ المرءَ فاعلاً ... فقلتُ وماذا يفعل الدَّبْر في النحلِ (١)
يدُقُّ خلاياها ويَأْكلُ شُهْدَها ... ويَتركُ للذّبّان ما كان من فضلِ

وقال أبو عثمان المازني لبعض من راءى فهتك الله عز وجل ستره:

بيْنَا أنا في توبتي مُستعبراً ... قد شبّهوني بأبي دُواد
وقد حملتُ العلم مُستظهراً ... وحدَّثوا عني بإسناد
إذ خطر الشيطانُ لي خَطْرةً ... نُكِسْتُ منها في أبي جاد (٢)

أبو العتاهية ومتصوف:

وقال ابن أبي العتاهية: أرسلني أبي إلى صوفيّ قد قَيَّرَ(٣) إحدى عينيه أسأله عن المعنى في ذلك؛ فقال: النظر إلى الدنيا بكلتا عينَيَّ إسراف. قال: ثم بدا له في ذلك، فاتصل الخبر بأبي فكتب إليه:

---

(١) قعيدك: نشدتك الله، والدبر: الزنابير.

(٢) أبو جاد: ما يعلم للصبي من الكتابة. (٣) قيّر: طلا بالقار.

مُقَيّرٍعينِـــــــه ورَعـــــاً أردتَ بــذلــك البِـدعـــا
خَلَعْـــت وأخبــث الثقليــــــن صــــوفيٌّ إذا خَلَعـــــا[1]

فخ الإسرائيلي والعصفورة:

يحي بن عبد العزيز قال: حدثني نعيم عن إسماعيل، رجل من ولد أبي بكر الصديق، عن وهب بن منبه، قال: نصب رجل من بني إسرائيل فخآً فجاءت عصفورة فوقعت عليه، فقالت: مالي أراك منحنياً؟ قال: لكثرة صلاتي انحنيت قالت: فمالي أراك باديةً عظامُك؟ قال: لكثرة صيامي بدت عظامي! قالت: فمالي أرى هذا الصوف عليك؟ قال: لزهادتي في الدنيا لبست الصوف! قالت: فما هذه العصا عندك؟ قال: أتوكأ عليها وأقضي بها حوائجي. قالت: فما هذه الحبة في يديك؟ قال: قربان إن مرَّ بي مسكين ناولته إياه! قالت: فإني مسكينة! قال: فخذيها. فقبضت على الحبة فإذا الفخ في عنقها! فجعلت تقول: قعِي قعِي! قال: الخُشني: تفسيره: لا غرني ناسك مُرَاءٍ بعدك أبداً.

الدعاء

قال النبي ﷺ: «الدعاءُ سلاحُ المؤمن».
وقال: «الدعاء يَرُدُّ القدر والبِرُّ يزيد في العُمُر».
وقال: «الدعاءُ بين الأذان والإقامة لا يُرَدُّ».
وقال النبي ﷺ: «استقبلوا البلاءَ بالدعاء».
وقال الله تعالى: ﴿آدعوني أستجبْ لكم﴾[2].
وقال تعالى: ﴿فلَوْلا إذ جاءَهُم بَأسُنا تضَرَّعوا ولكن قَسَتْ قلوبهُمْ﴾[3].
وقال عبد الله بن عباس: إذا دعوتَ الله فاجعل في دعائك الصلاةَ على النبي

---

(١) الثقلان: الأنس والجان.

(٢) سورة غافر الآية ٦٠. (٣) سورة الأنعام الآية ٤٣.

ﷺ؛ فإن الصلاة عليه مقبولة، والله أكرم من أن يقبل بعض دعائك ويردّ بعضاً.

وقال سعيد بن المسيب: كنت جالساً بين القبر والمنبر، فسمعتُ قائلاً يقول: اللهم إني أسألك عملاً باراً، ورزقاً داراً، وعيشا قاراً. فالتفتُّ فلم أر أحداً.

لعائشة في النبي ﷺ:

هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: كنت نائمة مع رسول الله ﷺ ليلة النصف من شعبان، فلما لصق جلدي بجلده أغفيت؛ ثم انتبهت، فإذا رسول الله ﷺ ليس عندي؛ فأدركني ما يدرك النساء من الغيرة، فلففت مرطي[1] - أما والله ما كان خزاً ولا قزاً، ولا ديباجاً، ولا قطناً ولا كتاناً، قيل: فما كان يا أُمَّ المؤمنين؟ قالت: كان سداه من شعر، ولحمته من أوبار الإبل - قالت: فحنوت عليه أطلبه حتى ألفيته كالثوب الساقط على وجهه في الأرض وهو ساجد يقول في سجوده:

«سجد لك خيالي وسَوادي، وآمن بك فؤادي؛ هذه يدي وما جنيت بها على نفس. تُرْجَى لكلِّ عظيمٍ، فاغفر لي الذنب العظيمَ» فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إنك لفي شأن وإني لفي شأن. فرفع رأسه ثم عاد ساجداً فقال: «أعوذُ بوجهك الذي أضاءتْ له السمواتُ السبعُ والأرضون السبع، من فَجْأة نِقمتك، وتحوُّلِ عافيتك؛ ومن شر كتاب قد سبق؛ وأعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

فلما انصرف من صلاته تقدمت أمامه حتى دخلتُ البيت ولي نفَسٌ عال، فقال: مالك يا عائشة؟ فأخبرته الخبر، فقال: ويح هاتين الركبتين ما لقيتا في هذه الليلة! ومسح عليهما؛ ثم قال: أتدرين أي ليلة هذه يا عائشة؟ فقلت: الله ورسوله أعلمُ. فقال ﷺ: «هذه الليلة ليلةُ النِّصفِ من شعبان، فيها تؤقت الآجال وتثبت الأعمال».

---

(١) المرط: كساء من خز أو صوف أو كتان يؤتزر به.

ابن ذر ودعاء له:

العتبي عن أبيه قال: خرجت مع عمر بن ذَرّ إلى مكة، فكان إذا لبّى لم يُلبِّ أحدٌ من حُسْن صوته؛ فلما جاء الحرَمَ قال يا رب، ما زلنا نَهبِط وهْدة ونصعد أكمة، ونعلو نشراً، ويبدو لنا علَمٌ، حتى جئناك بها نقبةً[1] أخفافها، دبِرة[2] ظهورُها، ذابلةً أسنمتُها؛ وليس أعظم المؤنة علينا إتعاب أبداننا، ولكن أعظم المؤنة علينا أن تُرجعنا خائبين من رحمتك، يا خيرَ من نزل به النازلون.

وكان آخرُ يدعو بعرفات: يا ربِّ، لم أعصك إذ عصيتك جهلاً مني بحقك، ولا استخفافاً بعقوبتك؛ ولكن الثقة بعفوك، والاغترار بسترك المُرْخَى عليّ، مع الشِّقوة[3] الغالبة والقَدَرِ السابق؛ فالآن من عذابكَ من يستنقذني؟ وبحبل من أعتصم إن قطعتَ حبلك عني؟ فيا أسفي على الوقوف بين يديك، إذا قيل للمُخِفِّين جوزوا، وللمذنبين حطوا.

لعروة بن الزبير في مناجاته:

أبو الحسن قال: كان عُروة بن الزبير يقول في مناجاته بعد أن قطعت رجلُه ومات ابنه: كانوا أربعةً - يعني بنيه - فأخذْتَ واحداً وأَبقيْتَ ثلاثةً؛ وكنّ أربعاً - يعني يديه ورجليه - فأخذتَ واحدةً وأبقيت ثلاثاً؛ فلئن ابتليتَ لطالما عافيْت، ولئن عاقبْت لطالما أنعمتَ.

وكان داود إذا دعا في جوف الليل يقول: نامت العيون، وغارت النجوم وأنت حيٌّ قيوم: اغفر لي ذنبي العظيم، فإنه لا يغفر الذنب العظيمَ إلا العظيمُ؛ إليك رفعتُ رأسي، نظر العبدِ الذليل إلى سيده الجليل.

وكان من دعاء يوسف: يا عُدَّتي عند كُربتي، ويا صاحبي في غُربتي، ويا غِياثي

---

(١) نقبة: رقيقة.

(٢) دبرة: كثيرة الجروح. (٣) الشِّقوة: الشقاء.

عند شدتي، ويا رجائي إذا انقطعت حيلتي، اجعل لي فرجاً ومَخْرجاً.

وكان عبد الله بن ثعلبة البصري يقول: اللهم أنت من حلمك تُعصَى فكأنك لا ترى، وأنت من جودك وفضلك تُعطى فكأنك لا تعْصَى، وأيٌّ زمان لم تَعصِك فيه سكان أرضك فكنت عليهم بالعفو عوَّادا، وبالغضل جواداً.

وكان من دعاء عليّ بن الحسين رضي الله عنهما: اللهم إني أعوذ بك أن تَحْسن في مرأى العيون علانيتي، وتقْبُحَ في خفيّات القلوب سريرتي؛ اللهم كما أسأتُ فأحسنتَ إليّ... فإذا عدتُ فعُدْ عليّ، وارزقني مواساةَ من قتَّرتَ عليه ما وسَّعْتَ عليّ.

دعاء لبعضهم:

الشيباني قال: أصاب الناس ببغداد ريحٌ مظلمة، فانتهيتُ إلى رجل في المسجد وهو ساجد يقول في سجوده: اللهم احفظ محمداً في أمته، ولا تشمت بنا أعداءنا من الأمم؛ فإن كنت أخذت العوام بذنبي، فهذه ناصيتي بين يديك!

وكان الفضيل بن عياض يقول: إلهي، لو عذبتني بالنار لم يخرُج حُبُّك من قلبي، ولم أنس أياديك عندي في دار الدنيا!

وقال عبد الله بن مسعود: اللهم وسع عليّ في الدنيا وزهِّدني فيها، ولا تُزْوِها[1] عني وترغِّبني فيها.

أبو الدرداء ورجل في سجوده:

مرَّ أبو الدرداء برجل يقول في سجوده: اللهم إني سائلٌ فقيرٌ فأغنني من سعة فضلك، خائفٌ مستجيرٌ فأجِرني من عذابك.

الأصمعي قال: كان عطاء بن أبي رباح يقول في دعائه: اللهم ارحم في الدنيا غربتي، وعند الموت صرْعتي، وفي القبور وحْدتي، ومقامي غداً بين يديك.

---

(١) تزوها: تبعدها.

ابن زياد وأبو بكر بن عبد الله:

العتبي قال: حدّثني عبد الرحمن بن زياد قال: اشتكى أبي فكتب إلى أبي بكر بن عبد الله يسأله أن يدعو له، فكتب إليه: حقّ لمن عمل ذنباً لا عذر له فيه، وخاف موتاً لا بد له منه، أن يكون [وجِلاً] مُشفقاً؛ سأدعو لك ولستَ أرجو أن يُستجاب لي بقوة في عمل، ولا براءةٍ من ذنب.

من دعاء عبد الملك ابن مروان:

العتبي قال: كان عبد الملك بن مروان يدعو على المنبر: يا رب؛ إن ذنوبي قد كثُرت وجلّت عن أن توصف، وهي صغيرة في جنب عفوك، فاعف عني.

كيف يكون الدعاء

لابن عباس:

سفيان بن عيينة عن أبي معبد عن عكرمة عن ابن عباس قال: الإخلاص هكذا ـ وبسط يده اليسرى وأشار بأصبعه من يده اليمنى ـ والدعاء هكذا ـ وأشار براحته إلى السماء ـ والابتهال هكذا، ورفع يديه فوق رأسه وظهورهما إلى وجهه.

بين جعفر بن محمد وسفيان الثوري:

سفيان الثوري قال: دخلتُ على جعفر بن محمد رضي الله عنهما فقال لي: يا سفيان، إذا كثرت همومُك فأكثر مِن «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» وإذا تداركتْ عليك النعم فأكثر من «الحمد لله» وإذا أبطأ عنك الرزق فأكثر من الاستغفار.

وقال عبد الله بن عباس: لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: عجباً ممن يهلِك والنجاةُ معه! قيل له: وما هي؟ قال: الاستغفار.

دعاء النبي ﷺ
وأبي بكر، الصديق وعمر رضوان الله عليهما

دعاء النبي ﷺ:

أم سلمة قالت: كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ: «يامقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك».

المغيرة بن شعبة قال: كان رسول الله ﷺ إذا سلم من الصلاة يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

دعاء أبي بكر:

وكان آخر دعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته: اللهم اجعل خيرَ زماني آخرَه، وخير عملي خواتِمهُ، وخيْرَ أيامي يوم لقائك.

دعاء عمر:

وكان آخر دعاء عمر رضي الله عنه في خطبته اللهم لا تدَعْني في غمرة، ولا تأْخذْني في غرة، ولا تجعلني مع الغافلين.

الدعاء عند الكرب

للنبي ﷺ:

عبد الله بن مسعود قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «مامن عبدٍ أصابه هم فقال: اللهم إني عبدُك. وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤُك؛ أسألَك بكل اسم سميتَ به نفسك، أو ذكرته في كتابك، أو علَّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن ضياءَ صدري، وربيعَ قلبي، وجلاء حزني، وذهاب همي. إلا أذهب الله همه وبدّله مكان حزنه فرحاً».

وقالوا: كلمات الفرج من كل كرب «لا إله إلا اللهُ الكريم الحليمُ، سُبحانَ اللهِ ربّ العرشِ العظيمِ، والحمد لله رب العالمين.

الكلمات التي تلقى آدم من ربه

اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عَمِلْتُ سوءًا وظلمت نفسي، فتُبْ عليَّ إنك أنت التوابُ الرحيم.

اسم الله الأعظم

عبد الله بن يزيد عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأنك أنت اللهُ الأحدُ الصمدُ الذي لم يَلِدْ ولم يولد ولم يكن له كُفُواً أحدٌ. فقال النبي ﷺ: لقد سألتَ اللهَ باسمه الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب وإذا سئل به أعطى.

أسماء بنت يزيد عن النبي ﷺ أنه قال: اسمُ الله الاعظم فيما بين الآيتين: ﴿وإلٰهكُم إلهٌ واحدٌ لا إلهَ إلاّ هو الرَّحمٰنُ الرَّحيمُ﴾(١)، وفاتحةِ آل عمران ﴿الٓمٓ. الله لا إله إلاّ هو الحَيُّ القيُّومُ﴾(٢).

الاستغفار

للنبي ﷺ:

شدّاد بن أوس عن النبي ﷺ قال: سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خَلَقْتني وأنا عبْدُك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ، أعوذ بك من شرِّ ما صنعت، أبوءُ(١) لك بنعمتك عليَّ، وأبوءُ بذنبي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٣.

(٢) سورة آل عمران الآية ٢. (١) أبوء لك بنعمتك: أعترف بها.

لابن مسعود:

الأسود وعلقمة قالا: قال عبد الله بن مسعود: إن في كتاب الله آيتين ما أصاب عبدٌ ذنباً فقرأهما ثم استغفر الله إلا غفَر له: ﴿والذين إذا فعَلوا فاحشة أو ظلموا أنفسَهم ذَكروا اللهَ فاستغفَروا لذُنوبِهِمْ ومَن يَغفِرُ الذنوبَ إلا اللهُ ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾[1]، ﴿ومَن يَعمَلْ سوءًا يَظلِمْ نفسَه ثم يستغفِرِ اللهَ يجد اللهَ غفوراً رحيماً﴾[2].

أبو سعيد الخدري قال: من قال: أستغفرُ اللهَ الذي لا إله إلا هو الحيَّ القيومَ وأتوب إليه. خمس مرات ـ غُفِر له ولو فرّ من الزحف.

دعاء المسافر

للنبي ﷺ:

عكرمةُ عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً قال: «اللهمأنت الصاحبُ في السفر، والخليفةُ في الحضر؛ اللهم إني أعوذ بك من وَعْثاءِ[3] السفر وكآبة المنقلب والحَوْرِ بعد الكوْر، ومن سوء المنظر في الأهل والمال».

لأم سلمة:

الشعبي عن أم سلمة قالت: كان النبي ﷺ إذا خرج في سفر يقول: «اللهمإني أعوذ بك أن أَزِل أو أُزِل، أو أَضِلَّ أو أُضِلَّ، أو أظلم أو أُظْلَم أو أَجْهَلَ أو يُجْهَلَ عليّ».

وقالت: من خرج في طاعة الله، فقال: اللهم إني لم أخرج أشراً[4] أو بَطَراً[5]، ولا

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٥.   (٢) سورة النساء الآية ١١٠.

(٣) وعثاء السفر: شدته ومشقته.   (٤) أشراً: مستكبرا.

(٥) بطر: غلا في المرح والزهو.

رياء ولا سمعة، ولكني خرجتُ ابتغاءَ مرضاتك واتقاءَ سخطك؛ فأسألك بحقك على جميع خلقك أن ترزقني من الخير أكثرَ مما أرجو، وتصرفَ عني من الشر أكثر مما أخاف. استجيب له بإذن الله.

الدعاء عند الدخول على السلطان

لابن عباس:

سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إذا دخلت على السلطان المهيب تخاف أن يسطو عليك فقل: اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ وأعزُّ مما أخاف وأحذر، اللهم ربَّ السموات السبع وربَّ العرش العظيم، كن لي جاراً من عبدك فلان وجنودِه وأشياعه وأتباعه، تبارك اسمُك، وجل ثناؤك، وعزّ جارك، ولا إلهَ غيرُك.

المنصور وجعفر ابن محمد:

أبو الحسن المدائني قال: لما حج أبو جعفر المنصور مرَّ بالمدينة، فقال للربيع: عليّ بجعفر بن محمد، قتلني الله إن لم أقتله؛ فَمَطِلَ[1] به، ثم ألح فيه فحضر؛ فلما كشف الستر بينه وبينه ومثل بين يديه، همس جعفر بشفتيه، ثم تقرب وسلّم، فقال: لا سلّم الله عليك يا عدوّ الله! تعمل على الغوائل في مُلكي؟ قتلني الله إن لم أقتلك! فقال له جعفر: يا أمير المؤمنين، إن سليمان ﷺ أَعْطِي فشكر، وإن أيوب ابتُلي فصبر، وإن يوسف ظُلم فغفر؛ وأنت على إرث منهم، وأحقُّ من تأسَّى بهم. فنكس أبو جعفر رأسه ملياً، ثم رفع إليه رأسه فقال له: [إليَّ] يا أبا عبد الله فأنت القريب القرابة، وأنت ذو الرحم الواشجة[2]، السليمُ الناحية، القليلُ الغائلة. ثم صافحه بيمينه، وعانقه بيساره، وأجلسه معه على فراشه وانحرف له عن بعضه، وأقبل عليه بوجهه يسائله ويحادثه؛ ثم قال: عجِّلوا لأبي عبد الله إذنَه وكسوته وجائزتَه. قال الربيع: فلما خرج

---

(١) مُطل به: المطل: التسويف والمدافعة بالعدة والديْن.

(٢) الواشجة: المشتبكة المتصلة.

وخطرف[1] الستر أمسكت بثوبه. فارتاع وقال: ما أُرانا يا ربيعُ إلا وقد حُبِسنا! قلت: هذه مِني لا مِنه. قال: فذلك أيسر؛ قل حاجتك. قلت: إني منذ ثلاث أدافع عنك وأداري عليك؛ ورأيتك إذ دخلتَ هَمَسْت بشفتيك، ثم رأيت الأمر انجلى عنك؛ وأنا خادم سلطان ولا غنى بي عنه؛ فأحب منك أن تعلمنيه... قال: نعم، قل: اللهم احرسني بعينك التي لاتنام، واكنفني بكنفك الذي لا يُرام، ولا أهلِك وأنت رجائي؛ فكم من نعمة أنعمتَها عليّ قَلَّ عندها شكري فلم تحرمني، وكم من بلية ابتليتني بها قلَّ عندها صبري فلم تَخْذُلْني، اللهم بك أدرأ في نحره، وأعوذ بخيرك من شره.

الدعاء على الطعام

من قال على طعامه: «بسم الله خيرِ الأسماء، في الأرض وفي السماء، ولا يضر مع اسمه داء؛ اللهم اجعل فيه الدواء والشفاء» لم يضُرَّه ذلك الطعام كائناً ما كان.

وكان النبي ﷺ إذا فرَغ من طعامه قال:«الحمد لله الذي مَنَّ علينا وهدانا، وأطعمنا وأروانا، وكل بلاء حَسن أبلانا».

الدعاء عند الأذان

من قال إذا سمع الأذان: رضيتُ بالله ربّاً. وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً. غُفرت له ذنوبه

وقال النبي ﷺ: إذا سمعتم الأذان فقولوا مثلَ ما يقول المؤذن.

الدعاء عند الطيرة[2]

قال النبي ﷺ:«من رأى من الطير شيئاً يكرهه فقال: اللهم لا طيرَ إلا طيرُك، ولا خيرَ إلا خيرُك، ولا إله غيرُك. لم يضرّه».

---

(١) خطرف: استرخى، ويقال خطرف البعير في مشيه: أي أسرع ووسع.

(٢) الطيرة: ما يتفاءل به أو يتشاءم منه.

الساعة التي يستجاب فيها الدعاء

الفُضيل عن أبي حازم عن أبي سَلمة بن عبد الرحمن عن ناس أصحاب رسول الله ﷺ ، أنهم أجمعوا أن الساعة التي يُستجاب فيها الدعاء آخرُ ساعة من يوم الجمعة.

التعويذ

أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع، وقلبٍ لا يخشع، وعينٍ لا تدمع، ودعاء لا يُسمع، ونفسٍ لا تَشبع، اللهم إني أعوذ بك من هذه الأربع».

وقال ﷺ: «من قال إذا أمسى وأصبح: أعوذ بكلمات الله التامَّات المباركات التي لا يُجاوزهنّ برٌّ ولا فاجر، من شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرُج فيها، ومن شر ما ذرأ[1] في الأرض وما يخرج منها. لم يضره شيء من الشياطين والهوامّ».

ما كان يعوذ به النبي ﷺ الحسن والحسين:

مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يعوّذ الحسن والحسين رضي الله عنهما بهذه الكلمات: أُعيذُكما بكلمات الله التامة، من كل عينٍ لامَّة[2]، ومن كل شيطان وهامَّة.

وكان إبراهيم ﷺ يعوّذ بها إسماعيل وإسحق.

وقال أعرابي يصف دعوة:

وساريةٍ لم تَسْـر في الأرض تبتَغـي ... محلاً ولم يَقطـعْ بها البِيـدَ قـاطـعُ
سرَتْ حيث لم تسْر الركابُ ولم تُنَخْ ... لوِردٍ ولم يقْصُرْ لها القيدَ مـانـع[3]
تَظَل وراءَ الليـل والليـلُ سـاقـطٌ ... بـأرْواقِـه فيـه سميرٌ وهـاجـع[4]

---

(١) ذرأ: بذر. (٢) العين اللامة: المصيبة بسوء

(٣) الورد: الإشراف على الماء. (٤) أرواق الليل: ظلمته.

تَفتَّحُ أبوابُ السماءِ لِوَفْدِها   إذا قَرَعَ الأبوابَ منهنّ قارع
إذا سألتْ لم يَردُد الله سُؤْلَها   على أهلها واللهُ راءٍ وسامع
وإني لأرجو اللهَ حتى كأنما   أرى بجميلِ الظنّ ما اللهُ صانع

ومن قولنا في هذا المعنى:

بُنَيَّ لِئن أعيا الطبيبَ ابنَ مُسلمٍ   ضَناكَ وأعْيا ذا البيانِ المُوشَّعِ[1]
لأبْتَلهنْ تَحت الظلام بدعوةٍ   متى يَدْعُها داعٍ إلى الله يسمعِ
تغلغَلَ من بين الضُّلوعِ نَشيجُها   لها شافعٌ من عَبْرةٍ وتضرُّعِ
إلى فارجِ الكرْب المجيب لمن دعا   فزِعتُ بكرْبي، إنه خيرُ مَفزَعِ
فيا خيرَ مدْعوٍّ دعوْتُك فاستمِع   ومالي شفيعٌ غيرُ فضلِك فاشفعِ

---

(١) الموشّع: أي المزيّن.

كتاب الدُّرَّة في النوادي والتعازي والمراثي

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في الزهد ورجاله المشهورين: ونحن قائلون بعون الله في النوادب والمراثي، والتهاني والتعازي، بأبلغ ما وجدناه من الفطن الذكية، والألفاظ الشجية، التي تُرق القلوبَ القاسية، وتُذيب الدموع الجامدة، مع اختلاف النوادب عند نزول المصائب؛ فنادبة تثير الحزن من ربضته، وتبعث الوجد من رقدته، بصوت كترجيع الطير، وتقطع أنفاس المآتم[1]، وتترك صدعاً في القلوب الجلامد؛ ونادبة تخفض من نشيجها، وتقصد في نحيبها، وتذهب مذهب الصبر والاستسلام، والثقة بجزيل الثواب.

قال عمر بن ذرّ: سألت أبي: ما بال الناس إذا وعظتَهم بكوْا، وإذا وعظهم غيرك لم يبكوا؟ قال: يا بُنيّ، ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة.

وقال الأصمعي: قلت لأعرابي: ما بال المراثي أشرف أشعاركم؟ قال: لأنا نقولها وقلوبُنا محترقة.

وقال الحكماء: أعظم المصائب كلها انقطاع الرجاء.

وقالوا: كلُّ شيء يبدو صغيراً ثم يعظُم؛ إلا المصيبة؛ فإنها تبدو عظيمة ثم تصغر.

(١) المآتم: اجتماع النساء للموت.

القول عند الموت

الأصمعي عن مُعْتَمر عن أبيه؛ قال: لقِّنوا موتاكم الشهادة، فإذا قالوها فدعوهم ولا تُضْجروهم.

وقال الحسن: إذا دخلتم على الرجل في الموت فبشِّروه؛ ليلقى ربه وهو حسن الظنّ به؛ وإذا كان حياً فخوفوه.

بين أبي بكر وطلحة:

ولقي أبو بكر طلحة بن عُبيد الله، فرآه كاسفاً مُتغيِّراً لونه، فقال: مالي أراك متغيراً لونك؟ قال: كلمة سمعتُها من رسول الله ﷺ ولم أسأله عنها. قال: وما ذاك؟ قال: سمعته يقول: «إني أعلم كلمة مَن قالها عند الموت مَحَصتْ ذنوبه، ولو كانت مثل زبد البحر». فأنسيت أن أسأله عنها. قال أبو بكر: وأعلِّمُكَها؟ هي: لا إله إلا الله.

لمعاذ في احتضاره:

أبو الحُباب قال: لما آحتُضِر مُعاذ قال لخادمته: ويحك! هل أصبحنا؟ قالت: لا. ثم تركها ساعة، ثم قال لها: انظري. فقالت: نعم. قال أعوذ بالله من صباح إلى النار! ثم قال: مرحباً بالموت! مرحباً بزائر جاء على فاقة! لا أفلح من ندم: اللهم إنك تعلم أني لم [أكن] أحبُّ في الدنيا لكرْي الأنهار، وغرس الأشجار؛ ولكن لمكابدة الليل الطويل، وظمإِ الهواجر في الحرّ الشديد، ومزاحمة العلماء بالرُّكب في مجالس الذكر.

لعمر بن عتبة في مثله:

ولما حضرت الوفاة عمر بن عُتبة قال لرفيقه: نزل بي الموت ولم أتأهب له! اللهم إنك تعلم أنه ما سَنح لي أمران لك في أحدهما رضاً ولي في الآخر هوىً إلا آثرتُ رضاك على هواي.

لابن الخطاب في مثله:

ولما حضرت الوفاة عمرَ بن الخطاب قال لولده عبد الله بن عمر: ضع خدّي على الأرض عَلَّ ربي أن يتعطف عليّ ويرحمني.

للرقاشي في مثله:

ابن السمَّاك قال: دخلت على يزيد الرقاشي وهو في الموت. فقال لي: سبقني العابدون وقُطع بي؛ والَهْفاه.

الأسواري وآزادمرد في احتضاره:

موسى الأسواري قال: دخلت على آزادمَرْد وهو ثقيل، فإذا هو كالخفاش لم يبق إلا رأسه؛ فقلت له: يا هذا ما حالك؟ قال: وما حال من يريد سفراً بعيداً بغير زاد، وينطلق إلى ملِك عدْل بغير حجة، ويدخل قبراً مُوحشاً بغير مُؤنس!.

عمر بن عبد العزيز وأبو قلابة:

قال عمر بن عبد العزيز لأبي قِلابة وولي غسل ابنه عبد الملك: إذا غسلته وكفنته فآذِنّي قبل أن تغطي وجهه. ففعل، فنظر إليه وقال: يرحمك الله يا بني ويغفر لك.

الحجاج وموت ابنه محمد:

ولما مات محمد بن الحجاج جزع عليه جَزعاً شديداً، وقال: إذا غسلتموه وكفنتموه فآذِنوني. ففعلوا، فنظر إليه وقال متمثلاً:

الآنَ لما كنتَ أكْمَلَ مَن مشى ... وافْتَر نابُكَ عن شَباةِ القارِحِ[1]
وتكاملتْ فيكَ المروءَةُ كلُّها ... وأعنتَ ذلك بالفَعالِ الصالحِ

فقيل له: اتق الله واسترجع. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) شباة الشيء: حد طرفه، والقارح من الفرس: نابه.

عمر بن عبد العزيز وابنه عبد الملك:

وقال عمر بن عبد العزيز لابنه عبد الملك: كيف تجدك يا بنيّ؟ قال: أجدني في الموت فاحتسبني؛ فإن ثواب الله خير لك مني. قال: والله يا بُني لأن تكون في ميزاني أحبُّ إليّ من أن أكون في ميزانك قال: وأنا والله، لأن يكون ما تحب أحبّ إليّ من أن يكون ما أحِب.

مسلمة بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز في احتضاره:

لما احتضر عمر بن عبد العزيز رحمه الله إستأذن عليه مسلمة بن عبد الملك، فأذن له وأمره أن يخفف الوقفة؛ فلما دخل وقف عند رأسه فقال: جزاك الله يا أمير المؤمنين عنا خيراً؛ فلقد ألنت لنا قلوباً كانت علينا قاسية، وجعلت لنا في الصالحين ذكراً.

الرسول ﷺ في قبضه:

حماد بن سلمة، عن ثابت عن أنس بن مالك، قال: كانت فاطمة جالسة عند رسول الله ﷺ؛ فتواكدت[1] عليه كُرَبُ الموت؛ فرفع رأسه وقال، واكرباه! فبكت فاطمة وقالت: واكرباه لكربك يا أبتاه! قال، لاكرب على أبيك بعد اليوم!.

الرياشي عن عثمان بن عمر عن إسرائيل عن ميسرة بن حبيب، عن المنهال بن عمرو، عن عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: ما رأيت أحداً من خلق الله أشبهَ حديثاً وكلاماً برسول الله ﷺ من فاطمة، وكانت إذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ورحَّبَ بها وأجلسها في مجلسه؛ وكان إذا دخل عليها قامت إليه ورحبت به وأخذت بيده فقبلتها. فدخلتْ عليه في مرضه الذي توفي فيه، فأسّر إليها فبكت، ثم أسّر إليها فضحكت، فقلت: كنت أحسب لهذه المرأة فضلاً على النساء، فإذا هي واحدة منهنَّ؛ بينما هي تبكي إذ هي تضحك! فلما توفي رسول الله

---

(١) تواكدت عليه، أي قصدته.

ﷺ سألتها؛ فقالت: أسّر إليّ فأخبرني أنه ميت فبكيْت؛ ثم أسّر إليّ أني أول أهل بيته لحوقاً به فضحكْت.

عائشة مع أبيها في احتضاره:

القاسم بن محمد عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها دخلت على أبيها في مرضه الذي مات فيه، فقالت له: يا أبت، اعهد إلي خاصتك، وأنفذ رأيك في عامتك، وانقل من دار جهازك إلى دار مقامك؛ وإنك محضور ومتصل بقلبي لوعتُك، وأرى تخاذُل أطرافك، وانتقاع لونك؛ فإلى الله تعزيتي عنك، ولديه ثوابُ حزني عليك، أرقأ فلا أَرْقأ وأشكو فلا أُشكَى.

فرفع رأسه فقال: يا بُنية، هذا يوم يُحَلُّ فيه عن غِطائي؛ وأعاين جزائي، إن فرحاً فدائم، وإن نوحاً فمقيم؛ إني اضطلعت بإمامة هؤلاء القوم، حين كان النكوص إضاعة، والحذر تفريطاً؛ فشهيدي الله ما كان بقلبي إلا إياه؛ فتبلّغتُ بصَحْفتهم، وتعللت بدرّة لِقحتهم، وأقمت صَلاي[1] معهم، لا مُختالا أشِراً، ولا مُكابراً بَطِراً، لم أعْد سدّاً لجوعة، وتورية لعورة، طوّى مُمغص تهفو له الأحشاء وتَجب له الأمعاء؛ واضطررت إلى ذلك اضطرار الجَرِض[2] إلى المَعِيف[3] الآجن، فإذا أنا متّ فرُدّي إليهم صحفتهم ولقحتهم وعبدهم ورحاهم، ودثارة ما فوقي اتّقيتُ بها أذى البرد، ودثارة ما تحتي اتقيت بها أذى الأرض، كان حشوهما قطع السّعف.

عمر مع أبي بكر في احتضاره:

ودخل عليه عمر فقال: يا خليفة رسول الله ﷺ، لقد كلفت القوم بعدك تَعباً، ووليتَهم نصباً. فهيهات من شقّ غبارك! وكيف باللحاق بك.

وقالت عائشة وأبوها يُغمَّض:

---

(١) الصلا: وسط الظهر.

(٢) الجرض: الذي يبتلع ريقه بجهد. (٣) المعيف: المكروه.

وأبيَض يُستسْقى الغمام بوجهِه ربيعُ اليتامى عِصمةٌ للأرامِل

فنظر إليها وقال: ذلك رسول الله ﷺ. ثم أغمي عليه فقالت:

لعَمْرُك ما يُغْنِي الثراءُ عن الفتى إذا حَشْرجَت يوماً وضاق بها الصَّدْر

قالت: فنظر إليّ كالغضبان وقال لي: ﴿وجاءَتْ سكْرةُ الموْتِ بالحقِّ ذلك ما كنت منه تَحيد﴾[1]. ثم قال: انظروا ملاءتَيّ فاغسلوهما وكفِّنوني فيهما؛ فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت.

وقال معاوية حين حضرته الوفاة:

ألاَ ليْتني لم أغن في المُلك ساعةً ولم أكُ في اللّذّات أعْشى النّواظِر[2]

وكنتُ كذِي طِمْرين عاش ببُلْغةٍ ليالِيَ حتى زار ضَنْك المقابِرِ[3]

لما ثقل معاوية ويزيد غائب، أقبل يزيد فوجد عثمان بن محمد بن سفيان جالساً، فأخذ بيده ودخل على معاوية وهو يجود بنفْسه، فكلمه يزيد فلم يكلمه، فبكى يزيد، وتضوّر[4] معاوية ساعة، ثم قال: أي بني، إن أعظمَ ما أخاف اللهَ فيه ما كنت أصنع بك يا بُنيّ. إني خرجت مع رسول الله ﷺ، فكان إذا مضى لحاجته وتوضأ أصب الماء على يديه، فنظر إلى قميص لي قد انخرق من عاتقي، فقال لي: يا معاوية، ألا أكسوك قميصاً؟ قلت: بلى. فكساني قميصاً لم ألبسه إلا لبسة واحدة، وهو عندي. واجتزّ ذات يوم فأخذت جُزازة شعره، وقلامة أظفاره، فجعلت ذلك في قارورة، فإذا مت يا بني فاغسلني ثم اجعل ذلك الشعر والأظفار في عيني ومنخري وفمي، ثم اجعل قميص رسول الله ﷺ شعاراً من تحت كفني. إن نَفع شي نَفع هذا.

لما احتضر عمرو بن العاص، جمع بنيه فقال: يا بَنيَّ، ما تُغنون عني من أمر الله شيئاً! قالوا: يا أبت، إنه الموت، ولو كان غيره لوقيناك بأنفسنا. فقال: أسندوني.

---

(١) سورة ق الآية ١٩. (٢) الأعشى: الذي يسوء بصره ليلا.

(٣) البلغة: ما يكفي لسد الحاجات ولا يفضل عنها. (٤) التضور: التلوي من وجع.

فأسندوه، ثم قال: اللهم إنك أمرتني فلم أأتمر، وزجرتني فلم أزدجر، اللهم لا قويٌّ فأنتصر، ولا بريٌّ فأعتذر، ولا مستكبر بل مستغفر! أستغفرك وأتوب إليك، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين! فلم يزل يكررها حتى مات.

قال: وأخبرنا رجال من أهل المدينة أن عمرو بن العاص قال لبنيه عند موته: إني لست في الشِّرك الذي لو مت عليه أُدخلت النار، ولا في الإسلام الذي لو متُّ عليه أُدْخلْت الجنة؛ فمهما قصرت فيه فإني مستمسك بلا إله إلا الله. وقبض عليها بيده، وقُبض لوقته؛ فكانت يده تُفتح ثم تترك، فتنقبض.

وقال لبنيه: إن أنا مت فلا تبكوا عليَّ، ولا يتبعني مادح ولا نائح، وشنُّوا[1] عليَّ التراب شناً، فليس جنبي الأيمن أولى بالتراب من الأيسر؛ ولا تجعلوا في قبري خشبة ولا حجَراً، وإذا واريتموني فاقعدوا عند قبري قدرَ نَحْر جزور[2]. وتفصيلها أستأنس بكم.

الجزع من الموت

الفضيل بن عياض قال: ما جزع أحدٌ من أصحابنا عند الموت ما جزع سفيان الثوري، فقلنا: يا أبا عبد الله، ما هذا الجزع، ألستَ تذهب إلى من عبدته وفررت ببدنك إليه؟ فقال: ويحكم! إني أسلك طريقاً لم أعرفه، وأقدم على ربّ لم أره.

حزن سعيد بن أبي الحسن على أخيه:

ولما توفي سعيد بن أبي الحسن وجد عليه أخوه الحسن وجداً شديداً، فكُلِّم في ذلك، فقال: ما رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب!

(١) شنوا: يقال: شن عليه الماء، أي رشه عليه رشاً متفرقاً.
(٢) جزور: ما يصلح لأن يذبح من الإبل.

الحسن في احتضاره:

وقال صالح المُرِّي: دخلت على الحسن وهو في الموت، وهو يكثر الاسترجاع؛ فقال له ابنه: أمثلك يسترجع على الدنيا؟ قال: يا بني، ما أسترجع إلا على نفسي التي لم أصَبْ بمثلها قط.

حجر بن الأدبر في موته:

ولما أمر معاوية بقتل حُجْر بن الأدبر وأصحابه، بعث إليهم أكفانهم وأمر بأن تُفتح قبورهم ويُقتلوا عليها. فلما قدِّم حُجْر بن الأدبر إلى السيف جزع جزعاً شديداً، فقيل له: أمثلك يجزع من الموت؟ فقال: وكيف لا أجزع وأرى سيفاً مشهوراً وكفناً منشوراً وقبراً محفوراً.

البكاء على الميت

لإبراهيم:

الشعبي عن إبراهيم قال: لا يكون البكاء إلا من فضل، فإذا اشتد الحزن ذهب البكاء. وأنشد:

فَلَئِنْ بَكَيْنَاهُ لحقَّ لنَا ... ولئِنْ تَركْنا ذَاكَ لِلصَّبْرِ
فلِمِثلِه جَرَتِ العُيونُ دَماً ... ولِمِثلِه جَمَدَتْ فلمْ تَجْرِ

الأحنف وباكية:

مر الأحنف بامرأة تبكي ميتاً ورجل ينهاها، فقال له: دعها فإنها تندب عهداً قريباً وسفراً بعيداً.

للنبي ﷺ في وفاة ابنه إبراهيم:

قالوا: لما توفى إبراهيم بن محمد ﷺ بكى عليه؛ فسئل عن ذلك فقال: تَدْمَعُ العينان ويَحْزَنُ القلبُ، ولا نقولُ ما يُسخِطُ الربَّ.

النبي ﷺ وباكيات من الأنصار:

ومر النبي ﷺ بنسوة من الأنصار يبكين ميتاً فزجرهنّ عمر، فقال لـه النبي ﷺ: «دعهنّ يا عمر، فإن النفسَ مصابة، والعينَ دامعة والعهدَ قريب».

النبي ﷺ وباكيات قتلى أحد:

ولما بكت نساءُ أهل المدينة على قتلى أُحُد قال النبي ﷺ: «لكن حمزة لا باكيةَ له ذلك اليوم!» فسمع ذلك أهل المدينة، فلم يقم لهم مأتم إلى اليوم إلا ابتدأن فيه البكاء على حمزة.

وقال النبي ﷺ: «لولا أن يشُقَّ على صفِية، ما دفنته حتى يُحْشَرَ من حواصل الطير وبُطُون السباع.

ابن الخطاب حين نعى إليه ابن مقرن:

ولما نعى النعمان بن مُقَرِّن إلى عمر بن الخطاب وضع يده على رأسه وصاح: يا أسَفا على النعمان.

ابن الخطاب حين نعى إليه زيد:

ولما استشهد زيد بن الخطاب باليمامة، وكان صحبه رجل من بني عدي بن كعب؛ فرجع إلى المدينة، فلما رآه عمر دمعت عيناه وقال:

وخلَّفْتَ زَيداً ثاوياً وأتيْتَني![1]

وقال عمر بن الخطاب: ما هبت الصَّبا إلا وجدتُ نسيمَ زيد.

وكان إذا أصابته مصيبة قال: قد فقدت زيداً فصبرتُ.

---

(١) ثوى: أقام واستقر.

عمر ووفاة خالد:

ولما تُوفي خالد بن الوليد أيام عمر بن الخطاب ـ وكان بينهما هِجرة ـ امتنع النساءُ من البكاء عليه، فلما انتهى ذلك إلى عمر، قال: وما على نساء بني المغيرة أن يُرِقْنَ من دمعهن على أبي سليمان ما لم يكن نقْعٌ[1] ولا لقلقة[2].

لمعاوية في النساء:

وقال معاوية وذُكِر عنده النساء: ما مَرَّضَ المرضى ولا نَدَبَ الموتى مثلُهن

لابن عياش:

وقال أبو بكر بن عياش: نزلت بي مصيبة أوجعتْني فذكرتُ قول ذي الرمة:

لعلَّ انحِدَارَ الدَّمـعِ يُعقِـبُ راحَـةً ... منَ الوَجْدِ أو يشْفِي شَجِيّ البلابِـلِ

فخلوت، فبكيت، فسلوت.

وقال الفرزدق في هذا المعنى:

ألم تَـريـانِـي يـومَ جَـوِّ سُـويقَـةٍ ... بكيْـتُ فنَـادَتْني هُنَيْـدَةُ مـاليَـا

فقُلـتُ لها إنَّ البُكـاءَ لـرَاحَـةٌ ... بِهِ يشْتَفِي مَـن ظَـنّ أن لا تَلاقِيـا

قعِيـدَكما اللهَ الذِي أنتما لَـهُ ... ألم تَسمَعـا بـالبَيْضَتَينِ المنادِيـا[3]

حبيـبٌ دعـا والرَّمْـلُ بيْني وبينَـهُ ... فـأَسْمَعَني سُقْيـاً لـذلـك داعِيـا

يقال: قعيدك الله، وقِعْدَك الله، معناه: سألتك الله.

القول عند المقابر

قال بعضهم: خرجنا مع زيد بن علي نريد الحج، فلما بلغنا النّباج وصرنا إلى مقابرها، التفت إلينا فقال:

(١) النقع: شق الجيوب.

(٢) اللقلقة: الصوت في حركة واضطراب. (٣) البيضتين: ما حول البحرين من البرية.

لِكــلِّ أُنــاسٍ مَقْبر بِفنَــائِهـــمْ فهُمْ ينْقُصونَ والقبُورُ تَـزيـدُ[1]
فما إن تَزالُ دَارُ حَيٍّ قد آخربـتْ وقبرٌ بـأَفْنـاءِ البُيـوتِ جَـديـدُ
هُمُ جيرة الأحيـاءِ أمّـا مَـزَارُهُـمْ فـدَانٍ وأمّـا المُلْتقَـى فبعِيـدُ

للرقاشي:

وقال مررت بيزيد الرقاشي وهو جالس بين المدينة والمقبرة، فقلت له: ما أجلسك ههنا؟ قال: أنظُرُ إلى هذين العسكرين، فعسكرٌ يقْذِفُ الأحياء، وعسكر يلتقم الموتي! ثم نادى بأعلى صوته: يا أهل القبور الموحشة التي قد نطَقَ بالخراب فناؤُها، ومُهِّدَ بالتراب بناؤُها، فمحلها مقترب، وساكنها مغترب؛ لا يتواصلون تواصل الإخوان، ولا يتزاورون تزاور الجيران؛ قد طحنهم بكلكله[2] البِلى، وأكلهم الجنادلُ والثرى.

وكان علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إذا دخل المقبرة قال: أما المنازلُ فقد سُكنت، وأما الأموال فقد قُسمت، وأما الأزواج فقد نُكحت؛ فهذا خبر ما عندنا، فليت شعري ما عندكم؟ ثم قال: والذي نفسي بيده، لو أذن لهم في الكلام لقالوا: إن خير الزاد التقوى.

وكان علي بن أبي طالب إذا دخل المقبرة قال: السلام عليكم يأهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، من المؤمنين والمؤمنات؛ اللهم آغفِرْ لنا ولهُم، وتجاوَزْ بعفوك عنا وعنهم. ثم يقول: الحمد لله الذي جعل لنا الأرض كِفاتاً[3] أحياءً وأمواتاً، والحمد لله الذي منها خُلقنا، وإليها مَعادُنا، وعليها محشرنا؛ طوبى لمن ذكر المعاد، وعمل الحسنات، وقنع بالكفاف، ورضي عن الله عز وجل.

وكان النبي ﷺ إذا دخل المقبرة قال: «السلامُ عليك دارَ قومٍ مؤمنين، وإنا إن

---

(١) مقبر: موضع القبور.
(٢) كلكله: الكلكل: الصدر من كل شيء، وقيل هو ما بين الترقوتين.
(٣) كفاتا: يقال تكفتنا الأرض أي تحفظنا احياء على ظهرها وتحرزنا أمواتا في بطنها.

شاء الله بكم لاحقون».

وكان الحسن البصري إذا دخل المقبرة قال: اللهم ربَّ هذه الأجساد البالية، والعظامِ النَّخِرة، التي خرجت من الدنيا وهي بك مؤمنة، أَدْخِلْ عليها روحاً منك وسلاماً منا.

وكان علي بن الفضل إذا دخل المقبرة يقول: اللهم اجعل وفاتهم نجاةً لهم مما يكرهون، واجعل حسابهم زيادةً لهم مما يحبون.

الوقوف على القبور وما بين الموتى

لأعرابي على قبر الرسول ﷺ:

وقف أعرابي على قبر رسول الله ﷺ، فقال: قلتَ فقبلنا وأمرت فحفظنا، وبلّغت عن ربك فسمعنا: ﴿ولو أنهم إذا ظلَموا أنفُسَهُم جاءوك فاستَغْفَروا الله واستغْفَرَ لهمُ الرسولُ لوَجدُوا الله توّاباً رحيماً﴾[1]، وقد ظلمنا أنفسنا وجئناك فاستغفر لنا. فما بقيت عين إلا سالت.

لفاطمة على قبر أبيها ﷺ:

وقفت فاطمة عليها السلام على قبر أبيها ﷺ فقالت:

إنا فقدْنَاكَ فقْدَ الأرضِ وابِلهَا ... وغاب مُذغِبت عنَّا الوحيُ والكُتبُ[2]
فلْيتَ قبْلَك كانَ الموتُ صادَفنا ... لمّا نُعيتَ وحالت دونك الكُثُبُ

حمّاد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك قال: لما فرغنا من دفن رسول الله ﷺ أقبلت عليَّ فاطمة، فقالت: يا أنس، كيف طابت أنفسكم أن تحْثُوا على وجه رسول الله ﷺ التراب؟ ثم بكت ونادت: يا أبتاه! أجاب ربّاً دعاه؛ يا أبتاه! منْ ربِّه ما أدنَاه؛ يا أبتاه! مَنْ ربُّه ناداه، يا أبتاه! إلى جبريل ننْعاه؛ يا أبتاه! جنَّةُ الفِردوْسِ

(١) سورة النساء الآية ٦٤.
(٢) الوابل: المطر الشديد الضخم المقطر.

مأواه. قال: ثم سكتت فما زادت شيئاً.

ابن مسعود على قبر عمر بن الخطاب:

ولما دُفِنَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه، أقبل عبدُ الله بن مسعود وقد فاتته الصلاة عليه؛ فوقف على قبره يبكي ويطرح رداءه؛ ثم قال: والله لئن فاتتني الصلاةُ عليك لا فاتني حِسنُ الثناء؛ أما والله لقد كنت سخيّاً بالحق، بخيلاً عن الباطل، ترضى حين الرضا، وتسخط حين السَّخَط، ما كنت عيَّاباً ولا مدَّاحاً؛ فجزاك الله عن الإسلام خيراً.

علي بن أبي طالب على قبر خباب:

ووقف عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه على قبر خبَّاب فقال: رحم الله خبَّابا! لقد أسلم راغباً، وجاهد طائعاً، وعاش زاهداً، وآبتُلِي في جسمه فصبر؛ ولن يُضيعَ الله أجرَ من أحسن عملاً.

الحسن على قبر علي:

ولما توفى علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، قام الحسن بن علي رضي الله عنهما فقال: أيها الناس، إنه قُبض فيكم الليلة رجلٌ لم يسبقه الأوّلون ولم يدركه الآخرون، قد كان رسول الله ﷺ يبعثه فيكتنفه جبريلُ عن يمينه وميكائيل عن شماله، لا ينثني حتى يفتح الله له؛ ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم أعدَّها لخادمٍ له.

ابن السماء في رثاء الطائي:

عبد الرحمن بن الحسين عن محمد بن مصعب قال: لما مات داودُ الطائي تكلم ابن السمّاك فقال: إن داود نظر إلى ما بين يديه من آخرته، فأغشى بصرُ القلب بصرَ العين، فكأن لم ينظر ما إليه تنظرون، وكأنكم لم تنظروا إلى ما إليه ينظر، فأنتم منه تَعْجبون وهو منكم يَعجب، فلما رآكم مفتونين مغرورين، قد أذهلت الدنيا عقولكم،

وأماتت بحبها قلوبكم، استوحش منكم، فكنت إذا نظرتُ إليه حسبته حياً وسطَ أموات؛ يا داود، ما أعجب شأنكَ بين أهل زمانك، أَهَنْتَ نفسك وإنما تريد إكرامها، وأتْعبْتها وإنما تريد راحتَها وأخشنْتَ المطعم وإنما تريد طِيبهُ، وأخشنت الملبس وإنما تريد لِينهُ، ثم أمتّ نفسك قبل أن تموت، وقبرتَها قبل أن تُقبر، وعذَّبتَها قبل أن تعذب؛ سجنتَ نفسك في بيتك فلا محدِّث لك، ولا جليس معك، ولا فراش تحتك، ولا سِتْر على بابك، ولا قُلّة يُبَرَّدُ فيها ماؤك، ولا صَحْفَة يكون فيها غداؤك وعشاؤك؛ يا داود، ما تشتهي من الماء باردَه، ولا من الطعام طيِّبه، ولا من اللباس لينه؛ بلى، ولكن زهدت فيه لما بين يديك؛ فما أصغر ما بذلت وما أحقر ما تركت في جنب ما رغبت وأمَّلت، فلما مت شَهَرك ربُّك بفضلك؛ وألبسك رداءَ عملك، فلو رأيت من حضرك علمتَ أن ربك قد أكرمك وشرَّفك.

للاحنف على قبر أخيه:

وقف الأحنف بن قيس على قبر أخيه فأنشد:

فـــوآللهِ لا أنسَـــى قتيلاً رُزئتـــهُ   بجانب قوْسَى ما مشيْتُ على الأرض[1]
بلَـــى إنها تعفـــو الكُلـــومُ وإنما   نُوَكَّلُ بالأدنَى وإن جلَّ مـا يَمضي

ووقف محمد بن الحنفية على قبر الحسين بن علي رضي الله عنهما فخنقته العبرة ثم نطق فقال: يرحمك الله أبا محمد، فلئن عزَّت حياتك فلقد هدَّت وفاتُك، ولنِعْمَ الروحُ روحٌ ضمه بدنُك، ولنعم البدنُ بدنٌ ضمه كفنك، وكيف لا يكون كذلك وأنت بقيةُ ولد الأنبياء، وسليلُ الهدى، وخامسُ أصحاب الكساء[2]، غذتْك أكف الحق، وربيت في حِجر الإسلام، فطبتَ حيّاً وطبت ميتاً، وإن كانت أنفسنا غير طيِّبةٍ بفراقك، ولا شاكَّةً في الخيار لك.

---

(١) قوسى: بلد بالسراة.

(٢) اصحاب الكساء هم رسول الله ﷺ وفاطمة وعلي والحسن والحسين عليهم السلام.

عائشة على قبر أبي بكر:

ووقفت عائشة على قبر أبي بكر فقالت: نضَّر الله وجهك، وشكر لك صالح سعيك، فقد كنت للدنيا مُذلاً بإدبارك عنها، وكنت للآخرة مُعزاً بإقبالك عليها ولئن كان أجلَّ الحوادث بعد رسول الله ﷺ رُزْؤك، وأعظمَ المصائب بعده فقْدُك - إن كتاب الله ليعِدُ بحُسن الصبر فيك، وحسنِ العِوَضِ منك؛ فأنا أتنجزُ موعودَ الله بحسن العزاءِ عليك، وأستعيضُه منك بالاستغفار لك؛ فعليك السلام ورحمة الله، توديعَ غيرِ قالية[1] لحياتك، ولا زارية على القضاء فيك! ثم انصرفت.

رثاء علي لأبي بكر:

لما قُبض أبو بكر سُجِّيَ بثوب فارتجت المدينة بالبكاء عليه، ودهش القوم كيوم قُبض رسول الله ﷺ، وجاء علي بن أبي طالب باكياً مسرعاً مسترجعاً حتى وقف بالباب وهو يقول: رحمك الله أبا بكر، كنتَ والله أوّل القومِ إسلاماً، وأخلصهم إيماناً. وأشدَّهم يقيناً، وأعظَمَهم غناء، وأحفظهم على رسول الله ﷺ، وأحدبهم[2] على الإسلام، وأحناهم على أهله، وأشبههم برسول الله ﷺ خُلقاً وفضلاً وهدْياً وسمتاً، فجزاء الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيراً، صدَّقْتَ رسول الله حين كذَّبه الناس، وواسيتَه حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، سماك الله في كتابه صدِّيقاً، فقال: «والَّذي جاءَ بالصِّدق وصدَّق به» يريد محمداً ويريدك، كنت والله للإسلام حصناً، وعلى الكافرين عذاباً، لم تُفْلل حجتُك، ولم تضعُف بصيرتك، ولم تجبُن نفسُك، كنت الجبل لا تحركه العواصف، ولا تزيله القواصف، كنت كما قال رسول الله ضعيفاً في بدنك، قوياً في أمر الله، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله، جليلاً في الأرض، كثيراً عند المؤمنين، لم يكن لأحد عندك مطمع، ولا لأحد عندك هَوادة، فالقويُّ عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه، والضعيف عندك قوي

---

(١) قالية: مبغضة.

(٢) أحدبهم: يقال حدبت المرأة على ولدها أي امتنعت عن الزواج بعد أبيه رأفة به.

حتى تأخذ الحق له، فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدَك.

عبد الملك على قبر معاوية:

وقف عبد الملك بن مروان على قبر معاوية فقال: تالله إن كنت ما علمت ليُنْطقك العلم، ويُسْكِنك الحلم. ثم أنشأ يقول:

وما الدهـرُ والأيـامُ إلاَّ كما تَـرى   رَزيئـة مـالٍ أو فِـراقُ حبيـبِ

للضحاك في زياد:

الهيثم بن عدي قال: لما هلك زياد استعمل معاوية الضحاك على الكوفة؛ فلما دخلها سأل عن قبر زياد فدُلَّ عليه؛ فأتاه حتى وقف به ثم قال:

أبَـا المُغيرة والدُّنيـا مُفجِّعـةٌ   وإنّ مَـن غـرَّت الدنيـا لَمغـرورُ
قد كان عندَك للمعروفِ معْـرفـة   وكـان عنـدَك للنكـراء تنكيرُ
لو خَلَّـد الخيرُ والإسلامُ ذا قـدَمٍ   إذاً لَخلَّـدَك الإسلامُ والخِيرُ

والأبيات لحارثة بن بدر يرثي زياداً.

لعلي في فاطمة:

المدائني قال: لما دَفن عليٌّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه فاطمةَ عليها السلام، تمثل عند قبرها فقال:

لكلِّ اجتماعٍ مـن خليلَيْـن فُـرْقـة   وكـل الذي دُون المَمات قليـلُ
وإنّ افتقادي واحداً بعـد واحـدٍ   دليـلٌ على أنْ لا يَـدومُ خليـل

امرأة الحسن على قبره:

لما مات الحسن بن عليّ عليهما السلام ضربت امرأته فسطاطاً على قبره وأقامت حولاً ثم انصرفت إلى بيتها؛ فسمعت قائلاً يقول: أدركوا ما طلبوا، فأجابه مجيب: بل ملّوا فانصرفوا.

نائلة على قبر عثمان:

ابن الكلبي قال: وقفت نائلة بنت الفرافصة الكلبية على قبر عثمان فترحمت عليه ثم قالت:

ومالِيَ لا أبْكـي وتبكِـي صحـابتي وقد ذهَبَت عنا فُضول أبي عمـرو

ثم انصرفت إلى منزلها، فقالت: إني رأيت الحُزن يَبلي كما يَبلى الثوب، وقد خفت أن يلى حزن عثمان في قلبي! فدعت بفهر[1] فهمشت فاها وقالت: والله لا قَعَد مني رجل مقعد عثمان أبداً!

الراثون على قبر الإسكندر:

لما هلك الإسكندر: قامت الخطباء على رأسه، فكان من قولهم: الإسكندر كان أمس أنطقَ منه اليوم، وهو اليوم أوعظُ منه أمس!

لأبي العتاهية في ابن له:

أخذ هذا المعنى أبو العتاهية. فقال عند دفنه ولداً له:

كفـى حَـزَنـاً بـدفنِـك ثم إني نفضْت تراب قبرك من يَـديَّـا
وكنتَ وفي حياتك لي عظـاتٌ فأنت اليومَ أوعظُ منـك حيَّـا

لأبي ذر في مثله:

وقف أبو ذرّ الهمداني على قبر ابنه ذرّ، فقال: يا ذرّ، شغلني الحُزن لك عن الحزن عليك، فليت شعري ما قلت وما قيل لك! ثم قال: اللهم إني قد وهبت لك إساءته إليّ، فهب له إساءته إليك! فلما انصرف عنه التفت إلى قبره فقال: يا ذرّ، قد انصرفنا وتركناك، ولو أقمنا ما نفعناك!

---

(١) الفهر: حجر ناعم صلب يسحق به الصيدلي الأدوية.

لابن سليمان في مثله:

وقف محمد بن سليمان على قبر ابنه فقال: اللهم إني أرجوك له وأخافك عليه؛ فحقق رجائي وآمن خوفي.

لأعرابية في أبيها:

وقفت أعرابية على قبر أبيها فقالت: يا أبت، إنّ في الله تبارك وتعالى مِن فقدك عوضاً، وفي رسول الله ﷺ من مصيبتك أسوة. ثم قالت: اللهم نزل بك عبدك مُقفراً من الزاد، مُخشوْشِن المهاد، غنيا عما في أيدي العباد، فقيراً إلى ما في يديك يا جواد، وأنت أيْ ربٍّ خيرُ مَن نزل به المؤمِّلون، واستغنى بفضله المُقلّون، وولج في سعة رحمته المذنبون؛ اللهم فليكن قِرَى عبدك منك رحمتَك، ومهادُه جنتك. ثم انصرفت.

لأعرابية في رثاء ابنتها:

قال عبد الرحمن بن عمر: دخلت على امرأة من نجد بأعلى الأرض في خباء لها، وبين يديها بُنَيٌّ لها قد نزل به الموت، فقامت إليه فأغمضتْه وعصبتْه وسجّته، وقالت: يا بن أخي. قلت: ما تشائين؟ قالت: ما أحق من ألبس النعمة، وأطيلت به النظرة، أن لا يدع التوثق من نفسه قبل حل عقدته، والحلول بعفو ربه، والمحالة بينه وبين نفسه! قال: وما يقطر من عينها دمعة، صبراً واحتساباً. ثم نظرت إليه فقالت: والله ما كان مالُه لبطنه، ولا أمرُه لعِرسه. ثم أنشدت.

رَحيبُ الذراعِ بالتي لا تَشينُه وإن كانت الفحشاءُ بها ذَرْعاً

عمر بن عبد العزيز على قبر ابنه:

وقف عمر بن عبد العزيز على قبر ابنه عبد الملك فقال: رحمك الله يا بُنيّ، فلقد كنت سارّاً مولوداً، بارّاً ناشئاً، وما أُحب أني دعوتك فأجبتني!

ابن ذر جنازة جار له:

توفيَ رجل كان مُسرفاً على نفسه بالذنوب، فتجافى الناس جنازته؛ فبلغ عمر بن ذرّ خبره؛ فأوصى إلى أهله أنْ خذوا في جهازه فإذا فرغتم فآذِنوني. ففعلوا، وشهده عمر بن ذرّ وشهده الناس معه، فلما فرغ من دفنه وقف عمر ابن ذرّ على قبره فقال: يرحمك الله أبا فلان! فلقد صحبت عُمرك بالتوحيد، وعفَّرْتَ لله وجهك بالسجود، فإن قالوا: مذنب وذو خطايا! فمن منا غير مذنب وغير ذي خطايا!

لجارية على قبر أبيها:

سمع الحسن من جارية واقفة على قبر أبيها وهي تقول: يا أبت مثلَ يومك لم أرَه! قال: الذي - والله - لم يَرَ مثلَ يومه أبُوك!

خصي للوليد على قبره:

وسمع عمر بن عبد العزيز خصيّاً للوليد بن عبد الملك واقفاً على قبر الوليد وهو يقول: يا مولاي، ماذا لقينا بعدك! فقال له عمر: أما والله لو أُذن له في الكلام لأخبَر أنه لقي بعدكم أكثر مما لقيتم بعده.

معاوية على قبر أخيه:

وقف معاوية على قبر أخيه عتبة فدعا له وترحم عليه، ثم التفت إلى من معه فقال: لو أن الدنيا بُنيت على نسيان الأحبة ما نسيت عتبة أبداً.

المراثي

من رثى نفسه ووصف قبره وما يكتب على القبر

لابن خذاق:

قال ابن قتيبة بلغني أنّ أوّل من بكى على نفسه وذكر الموت في شعره: يزيد بن خَذّاق فقال:

هل للفتى من بنات الدهر مِن راقِي | أم هل له من حِمام الموت مِن واقي
قد رجَّلوني وما بالشَّعر من شعَثٍ | وألْبَسوني ثياباً غير أخلاق(١)
وطيَّبوني وقالوا أيُّما رجلٍ ! | وأدرجوني كأني طيُّ مِخراق(٢)
وأرسَلوا فِتيةً من خيْرهم حسَباً | ليُسنِدوا في ضريح القبر أطْباقي(٣)
وقسَّموا المالَ وآرفضَّت عوائِدهم | وقال قائلُهم ماتَ ابنُ خذَّاق!
هوِّن عليك ولا تُولَع بإشفاق | فإنما مالُنا للوارث الباقي

وقال ابن ذؤيب الهذلي يصفه حفرته:

مطأْطَأةٌ لم يَنْبِطوها وإنما | ليرْضَى بها فَرّاطُها، أمَّ واحدِ(٤)
قضوْا ما قضوْا من رمِّها ثم أقبَلوا | إليَ بطاءَ المشْي غُبْرَ السَّواعد
فكنتُ ذَنوب البئر لمّا تلحَّبتْ | وأُدرِجتُ أكفاني ووسِّدتُ ساعدي

وقال عروة بن حِزام لما نزل به الموت:

مَن كان من أخواتي باكياً أبداً | فاليومَ، إني أُراني اليومَ مقبوضا
يُسْمِعُنيه فإني غيرُ سامِعِه | إذا علوْت رقابَ القوم معْروضا

وقال الطرمَاح بن حكيم:

فيا ربِّ لا تَجعل وفاتِيَ إن أتتْ | على شَرْجَعٍ يُعلَى بدُكْنِ المَطارِف
ولكنْ شهيداً ثاوياً في عصابة | يُصابُون في فجٍّ من الأرض خائف
إذا فارقوا دنياهم فارَقوا الأذَى | وصاروا إلى موعودِ ما في الصحائف
فأُقتَلُ قعْصاً ثم يُرمَى بأعظُمي | مُفرَّقةً أوصالُها في التَّنائف
ويُصْبح لحمي بطنَ طيرٍ مَقيلُهُ | بجوِّ السماء في نُسور عَواكف

وقال مالك بن الرَّيب: يرثي نفسه ويصف قبره - وكان خرج مع سعيد بن عثمان بن عفان. لما ولي خراسان، فلما كان ببعض الطريق أراد أن يلبس خفه، فإذا

(١) غير أخلاق: غير بالية.
(٢) مخراق: ثوب أو منديل يلف ثم يضرب به.
(٣) الأطباق: فقار الظهر.
(٤) مطأطأة: الحفرة، والفراط الذين يحفرونها.

بأفعى في داخلها، فلسعته، فلما أحس بالموت استلقى على قفاه. ثم أنشأ يقول

دعاني الهوَى من أهل أُودَ وصُحبتي ... بذي الطِّبَسَيْن فالتفتُّ ورائيا[١]
فما راعَني إلا سوابقُ عَبْرةٍ ... تقنَّعْتُ منها أن أُلامَ ردائيا
ألم تَرَني بِعتُ الضَّلالةَ بالهدى ... وأصبحْتُ في جيْشِ ابن عفَّان غازيا
فللهِ دَرِّي حين أترُكُ طائعاً ... بَنِيَّ بأعْلى الرَّقْمتين وماليا
ودَرُّ الكبيرَيْنِ اللذَيْنِ كلاهُما ... عليَّ شفيقٌ ناصحٌ قد نهانِيا
ودَرُّ الظِّباءِ السَّانِحاتِ عشيَّةً ... يُخبِّرْن أني هالكٌ من أماميا
تقول ابنتي لمَّا رأت وشْكَ رحْلتي ... سِفَارُك هذا تاركي لا أباليا
ألا ليْت شِعْري هل بكَتْ أُمُّ مالِكٍ ... كما كنتُ لو عالَوْا نعيَّك باكيا
إذا مِتُّ فاعتادِي القُبورَ وسلِّمي ... عليهِنَّ أُسقِين السَّحابَ الغَواديا
تَريْ جدَثاً قد جَرَّت الريح فوقَه ... تُراباً كسَحق المَرْنبانيِّ هابيا[٢]
فيا صاحبَي رَحْلي دنا الموْتُ فاحفِرا ... بِرابِيَةٍ إني مُقيمٌ لياليا
وخُطَّا بأطراف الأسِنَّة مَضْجعي ... ورُدَّا على عَيْنَيَّ فضلَ رِدائيا
ولا تَحسُداني بارك الله فيكما ... من الأرضِ ذاتِ العَرْضِ أنْ تُوسِعاليا
خذاني فجُرَّاني ببرْدي إليكما ... فقد كنتُ قبل اليوم صَعْباً قِياديا
تفقَّدْتُ من يَبكي عليَّ فلم أجد ... سوى السَّيفِ والرُّمح الرُدَيْني باكيا
وأدهَم غِرْبيبٍ يَجرُّ لجامَه ... إلى الماءِ لم يَترك له الموْت ساقيا[٣]
وبالرَّمْل لو يَعلمْنَ عِلْميَ نسْوةٌ ... بكيْنَ وفدَّيْن الطبيب المُداويا
عجوزي وأُختايَ اللّتان أُصيبتا ... بموْتي وبنتٌ لي تَهيج البواكيا
لعَمْري لئن غالت خُراسانُ هامَتي ... لقد كنت عن بابَيْ خُراسانَ نائيا
تَحمَّل أصحابي عِشاءً وغادروا ... أخا ثقةٍ في عَرْصَةِ الدَّار ثاويا[٤]

---

(١) أود: موضع في ديار بني تميم، والطبسان بابا خراسان.

(٢) المرنباني: كساء من خز؛ وهابيا: منتشرا.

(٣) غربيب: حالك. (٤) عرصة الدار: ساحته.

يقولون لا تَبْعَدوهُمْ يَدْفِنونني وأيـن مكـان البُعْـد إلا مكـانيـا

لأفنون في بكاء نفسه:

وقال رجل من بني تغلب يقال له أُفنون، وهو لقبه، واسمه صُرَيم بن مَعشَر بن ذهل بن تيم بن عمرو بن مالك بن حبيب بن عمر بن غنْم بن تغلب، ولقي كاهناً في الجاهلية، فقال له: إنك تموت بمكان يقال له الاهة. فمكث ما شاء الله، ثم سافر في ركب من قومه إلى الشام فأتوها، ثم انصرفوا فضلوا الطريق، فقالوا لرجل: كيف نأخذ؟ فقال: سيروا حتى إذا كنتم بمكان كذا وكذا ظهر لكم الطريق ورأيتم الإهة ـ وإلاهة قارَة بالسماوة ـ فلما أتوها نزل أصحابه وأبى أن ينزل؛ فبينما ناقته ترتعي وهو راكبها إذ أخذت بمشفر ناقته حية، فاحتكت الناقة بمشفرها فلدغت ساقَه، فقال لأخيه وكان معه، واسمه معاوية: احفر لي فإني ميتٌ ثم تغنَّى قبل أن يموت يبكي نفسه:

لستُ على شيءٍ، فرُوحَنْ مُعـاويـا ولا المشْفِقاتُ إذْ تبعْنَ الحَوازِيـا[1]
ولا خيْـرَ فيما كـذَّبَ المرْءُ نفسـهُ وتقـوالِه لِلشيءِ يـا ليـتَ ذا لِيـا
وإنْ أعجبتْكَ الدَّهْرَ حالٌ منَ آمـريءٍ فدعْـهُ وواكِـل حـالـهُ والليـاليـا
يـرحْـنَ عليـه أو يُغيِّـرْنَ مـا بـه وإن لم يكُنْ في خوْفِه العَيْث وانِيـا
فتطأ مُعرِضـاً إنّ الحُتُـوفَ كَثيرَةٌ وإنـك لا تُبقِـي بنفسِـكَ بـاقيـا
لَعْمرُكَ ما يَدري آمرؤٌ كيف يتّقِـي إذا هـو لم يَجْعـل لـهُ اللهُ واقيـا
كفى حَزَناً أن يَرحلَ الرَّكبُ غَدوةً وأنـزل في أعلى إلاهَــة ثـاويـا

قال: فمات فدفنوه بها.

وقال هدبة العذري لما أيقن بالموت:

ألا عَلِّلاني قبـلَ نـوحِ النَّـوائِـحِ وقبل اطلاعِ النفْسِ بين الجوانـحِ
وقبل غـدٍ يـا لهفَ نفسي على غـدٍ إذا راحَ أصحابي ولسـت بِـرائـحِ

(١) المشفقات: النساء ذوات الشفقة؛ والحوزي: الكواهن.

إذا راحَ أصحابي بِفيضِ دُمُوعِهِم   وغودِرْتُ في لحدٍ عليَّ صفائِحي
يقولون هل أصلَحتُم لأخيكمُ   وما الرَّمْسُ في الأرض القِواء بصالح

وقال محمد بن بشير:

ويلٌ لمن لم يرحمِ اللهُ   ومنْ تكُونُ النارُ مثواهُ
والويل لي مِن كُلِّ يومٍ أتى   يُذْكرني الموتَ وأنساهُ
كأنه قد قيل في مجلِسٍ   قد كنت آتِيه وأغْشاه:
صار البشيريُّ إلى ربِّهِ   يرحَمُنا الله وإياه

لأبي العتاهية في أبيات أوصى أن تكتب على قبره:

ولما حضرت أبا العتاهية الوفاةُ، واسمه إسماعيل بن القاسم، أوصى بأن يكتب على قبره هذه الأبيات الأربعة:

أُذْنَ حَيٍّ تَسَمَّعي   آسَمعي ثم عِي وعِي
أنا رهْنٌ بمضْجعِي   فاحْذَري مثلَ مصرعِي
عشتُ تسعينَ حِجَّةً   ثم وافيتُ مَضجعي
ليسَ شيٌ سوى التَّقي   فَخُذي منه أو دَعِي

وعارضه بعض الشعراء في هذه الأبيات، وأوصى بأن يكتب على قبره أيضاً فكُتبت وهي:

أصبَح القَبرُ مَضجعي   ومَحلِّي وموضِعي
صرعَتْني الحتُوفُ في الـ   ـتُّرْبِ ياذُلَّ مَصرعي
أينَ إخواني الذيـ   ـنَ إليهمْ تَطلُّعي
متُّ وحْدي فلم يَمت   واحِد منهم مَعي

(١) الرمس: القبر مستوياً مع وجه الأرض، والقواء: القفر.

(٢) الحتوف: مفرده الحتف، وهو الهلاك.

أبيات قيل إنها لأبي نواس:

وجُد على قبر جارية إلى جنب قبر أبي نواس ثلاثة أبيات؛ فقيل إنها من قول أبي نواس، وهي:

أقـــولُ لِقبرٍ زُرتــــهُ مُتلَثِّماً ... سقى الله برد العفْوِ صاحبـةَ القبر[1]
لقد غَيَّبوا تحت الثرى قَمَرَ الدُّجـى ... وشمسَ الضُحى بين الصَّفائح والعفْر[2]
عجبتُ لعينٍ بعْدهـا ملَّـتِ البَكـا ... وقلبٍ عليها يَرتَجي راحـةَ الصبْـر

لابن نواس:

الرياشي قال: وجدتُ تحت الفراش الذي مات عليه أبو نواس رقعة مكتوب فيها هذه الأبيات:

يـا ربِّ إنْ عظَمـتْ ذُنُـوبي كثْرَةً ... فلقَد علِمـتُ بـأنّ عَفْـوكَ أعْظـمُ
إنْ كان لا يَرْجُـوك إلا مُحسِـنٌ ... فبِمـن يلُـوذُ ويْستجِيرُ المجـرمُ
أدعوكَ ربِّ كما أمـرتَ تضَـرُّعـا ... فإذا رَدَدْت يدي فَمن ذا يـرحَـم
مـالي إليـكَ وسيلـةٌ إلا الرجـا ... وجَميـلُ عفـوِكَ ثم أنِّـي مُسلِـم

أبيات على قبر الإيادي:

الخشني قال: أخبرنا بعض أصحابنا ممن كان يغشى مجلس الرياشي قال: رأيت على قبر أبي هاشم الإيادي بواسط:

الموْتُ أخـرجَني مـــن دار مملكتي ... والموتُ أَضْرعَني من بعد تشريفـي
لله عبـــدٌ رأى قبري فـــأَعبَـــرهُ ... وخاف من دهْرِه ريْب التَّضاريـف

الأصمعي قال: أخذ بيدي يحي بن خالد بن برمك فأوقفني على قبر بالحيرة، فإذا عليه مكتوب:

إنَ بَني المنـــذِر لما انْقضـــوْا ... بحيـث شـاد البِيعـةَ الراهِـبُ

---

(١) متلثما: أي باغياً لثمه. (٢) العفر: التراب.

تَنْفَـح بـالمسـك محاريبهـم   وعنْبَـرٍ يَقْطبـة قـاطـب[1]
والخبـزُ واللحـمُ لهم راهـنٌ   وقهـوةٌ راوُوقُهـا سـاكـبُ[2]
والقطـنُ والكتّـانُ أثـوابُهـم   لم يَجلِـب الصُّوف لهم جالـبُ
فـأصبحـوا قـوتـاً لـدود الثّـرى   والدهـرُ لا يقـي لـه صـاحـبُ
كـأنما حيـاتهم لُعبـة   سَـرَى إلى بيْـنٍ بها راكـبُ

وقال أبو حاتم: بين: موضع من الحيرة على ثلاث ليال.

الشيباني قال: وُجد مكتوباً على بعض القبور:

مَـلَّ الأحبّـة زَوْرتي فجُفِيـت   وسكَنْـت في دار البِلَـى فنسيـت
الحيُّ يكـذِب لا صـديـق لّمِيـت   لو كان يَصْـدُق مـات حين يموتُ
يـا مُـؤنِسـاً سَكَـن الثرى وبقيـتُ   لو كنتُ أصدُقُ إذ بليتَ بليـتُ
أو كـان يَعمـى للبكـاءِ مُفجَّـعٌ   من طول ما أبكى عليك عَميـتُ[3]

وقال محمد بن عبد الله:

وعما قليـلٍ أن تـرى بـاكيـاً لنـا   سيَضحك من يبكي ويُعْرِض عن ذكري
ترى صاحبي يبكـي قليلاً لِفُـرقتي   ويَضحك من طول اللّيالي على قبري
ويُحدِث إخوانـاً ويَنسَـى مـوَدَّتي   وتَشْغلُه الأحبابُ عني وعن ذِكْـري

من رثى ولده

فمن قولي في ولدي:

بَلِيَـت عظـامـي والأسى يتجـدَّدُ   والصبر يَنْفَـد والبكـا لا يَنْفَـدُ
يـا غـائبـاً لا يُـرْتَجى لإيـابـه   ولقـائِـه دون القيـامـةِ مـوْعِـدُ
ما كـان أحسَـن مُلْحَـداً ضُمِّنْتـه   لو كان ضَـمَّ أبـاك ذاك المُلْحِـدُ
باليأس أسْلـو عنـك لا بتجلُّـدِي   هيهـاتَ أيـن مِـنَ الحَزيـن تَجلـدُ

(١) يقطبه: يمزجه.   (٢) الراووق: ناجود الشراب الذي يروق به فيصفى.
(٣) مفجع: متألم للمصيبة.

ومن قولي فيه أيضاً:

واكبِداً قد قُطِّعتْ كبِدي ... وحرَّقَتْها لواعِجُ الكمَدِ
ما مات حيٌّ لَمِتٍ أسفاً ... أعذرُ مِن والدٍ على ولدِ
يا رحمةَ الله جاوري جدَثاً ... دَفنْتُ فيه حُشاشتي بيدي
ونوِّرى ظلمة القبور على ... من لم يصِلْ ظُلْمُهُ إلى أحدِ
من كان خِلْواً من كلِّ بائقةٍ ... وطيِّبَ الرُّوحِ طاهر الجسدِ
يا موْتُ، يَحيى لقد ذَهبْت به ... ليس بِزُمَّيْلةٍ ولا نَكدِ[1]
يا موْتَه لو أقلْتَ عَثْرتَه ... يا يوْمَه لو تَركْته لغَدِ
يا موْتُ لو لم تكن تُعاجِله ... لكان لا شكَّ بيْضة البلدِ[2]
أو كنت راخيْت في العِنان له ... حاز العُلا وآحتوى على الأمدِ[3]
أيّ حُسامٍ سَلَبت رونْقَه ... وأيَّ روحٍ سَلَلت من جسدِ
وأيَّ ساقٍ قَطعْت من قدمٍ ... وأيَّ كفّ أزلْت من عضُدِ
يا قمراً أجحَف الخُسوفُ به ... قبل بلوغِ السواءِ في العَددِ[4]
أيُّ حشًى لم يَذبْ له أسَفاً ... وأيُّ عيْنٍ عليه لم تَجُدِ[5]
لا صبر لي بعده ولا جلَدٌ ... فُجعْت بالصبر فيه والجلَدِ
لو لم أمت عند موْتِه كمَداً ... لحقَّ لي أن أمُوت من كمَدي
يا لوْعةً لا يزال لاعِجُها ... يقْدحُ نار الأسى على كبِدي[6]

وقلت فيه أيضاً:

قَصد المنونُ له فمات فقيدا ... ومضى على صَرْف الخطوبِ حميدا
بأبي وأُمي هالِكا أفردْتُه ... قد كان في كلِّ العلوم فريدا
سُودُ المقابر أصبحت بِيضا به ... وغدتْ له بيضُ الضمائر سُودا

---

(١) الزميل: الجبان الضعيف. (٢) بيضة البلد: السيد.
(٣) الأمد: الغاية. (٤) السواء: أي أنه لم يكتمل.
(٥) لم تجد: لم تذرف الدمع. (٦) لاعجها: لهبها وحرّها.

لم نُرْزَه لما رُزينا وحده ... وإن استَقلَّ به المنونُ وحيدا[1]
لكن رُزينا القاسم بن مُحمدٍ ... في فضلِه والأسودَ بن يزيدا
وابن المُبارَك في الرَّقائق مُخبِرا ... وابن المُسيَّب في الحديث سعيدا
والأخفَشيْن فَصاحةً وبلاغةً ... والأعْشييْن روايةً ونشيدا
كان الوصيَّ إذا أردْتُ وصيَّةً ... والمُستفادَ إذا طلبْت مُفيدا
ولّى حفيظاً في الأذِمَّة حافظاً ... ومضى ودوداً في الورى مَوْدودا[2]
ما كان مِثْلي في الرَّزيَّة والدٌ ... ظفرَتْ يَداه بمِثْلِه مَولودا
حتى إذا بذَّ السَّوابق في العلا ... والعِلْم ضمَّن شِلوه مَلْحودا
يا من يُفنِّد في البكاءِ مُولَّها ... ما كان يَسمع في البكا تَفْنيدا[3]
تأبى القلوبُ المستكينةُ للأسَى ... من أن تكون حجارةً وحديدا
إنّ الذي باد السُّرورُ بموْتِه ... ما كان حُزْني بعده لِيبيدا
ألآن لما أن حوَيْت مآثِراً ... أعْيت عَدوّاً في الورى وحسودا
ورأيت فيك من الصَّلاحِ شمائلا ... ومن السَّماحِ دلائلاً وشُهودا
أبكي عليك إذا الحمامةُ طَرَّبتْ ... وجه الصَّباحِ وغَرَّدتْ تغريدا
لولا الحياءُ وأنْ أُزَنَّ ببدعةٍ ... مما يُعدِّدُهُ الورى تعْديدا[4]
لجعلت يومَك في المنائح مأْتماً ... وجعلت يومَك في الموالد عِيدا

وقلت فيه أيضاً:

لابيْت يُسكَن إلاّ فارَق السَّكَنا ... ولا امْتلا فرحاً إلاّ امْتلا حَزنا
لهْفي على ميِّت مات السرورُ به ... لو كان حيّاً لأحيا الدينَ والسُّنَنا
واهاً عليكَ أبا بكْر مُرَدَّدَةً ... لو سكَنَت ولهاً أو فتّرتْ شَجَنا
إذا ذكرْتُك يوماً قُلتُ واحَزنا ... وما يَرُدُّ عليك القولُ وَاحزنا
يا سيِّدِي ومراحَ الروحِ في جَسدي ... هلاَّ دنا الموتُ مِنِّي حين منك دنا!

(١) رزأه: أصابه برزء، والرزء: المصيبة. (٢) الأذمة: جمع ذمام، وهو العهد والأمان والكفالة.
(٣) يفند في البكاء: يعكف عليه. (٤) أزن: أتهم.

حتى يعود بنا في قعْرِ مُظلِمة لحْدٌ ويُلْبسنا في واحِدٍ كفَنا
يا أطيبَ الناس روحاً ضمَّهُ بدنٌ أستودعُ اللهَ ذاك الروحَ والبَدنا
لو كنتُ أُعطَى به الدُّنيا مُعاوَضة منه لَمَا كانتِ الدنيا له ثمَنا

وقال أبو ذؤيب الهذلي، وكان له أولاد سبعة فماتوا كلهم الا طفلاً، فقال يرثيهم:

أمِنَ المنونِ وريْبِهِ تتوجَّعُ والدهرُ ليس بمُعْتِبٍ مَنْ يَجزَعُ[1]
قالت أُمامةُ ما لِجسْمِك شاحِباً مُنْذُ ابتُذلتَ ومثلُ مالِكَ ينفَعُ
أم ما لِجسْمكَ لا يُلائِم مَضجعاً إلاَّ أقضَّ عليك ذاك المضجَعُ[2]
فأجبْتُها أنْ ما لجِسْمِيَ إنهُ أودَى بنِيَّ من البلادِ فودَّعُوا
أودَى بنِيَّ وأعقبُوني حسْرَةً بعدَ الرُّقادِ وعَبْرَةً ما تُقْلِعُ
سبقوا هوَيَّ وأعنَقوا لِهَواهُمُ فتُخُرِّموا ولِكلِّ جنبٍ مصْرَعُ[3]
فبقِيتُ بعدهُمُ بعيْشٍ ناصِبٍ وإخالُ أني لاحِقٌ مُستتْبِعُ
ولقد حرِصْتُ بأن أُدافِعَ عنهُمُ وإذا المنِيَّةُ أقبلتْ لا تُدفعُ
وإذا المنيَّةُ أنشبتْ أظفارَها ألفيْتَ كلَّ تميمَةٍ لا تنْفَعُ
فالعينُ بعدَهُم كأن حِداقَها سُمِلتْ بشوْكٍ فهيَ عوْرا تدمَعُ[4]
حتى كأني للحوادِثِ مَرْوَةٌ بصَفا المُشَرَّقِ كلَّ يوم تَقْرَعُ[5]
وتَجلُّدِي للشَّامِتين أُريهِمُ أني لِريْبِ الدهرِ لا أتضعْضَعُ

وقال في الطفل الذي بقي له:

والنفسُ راغِبةٌ إذا رغَّبْتَها وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تقْنعُ

وقال الأصمعي: هذا أبدع بيت قالته العرب.

وقال أعرابيّ يرثي بنيه:

---

(١) المنون: الدهر.
(٢) أقضَّ عليك: صار تحت جنبك على مضجعك.
(٣) أعنقوا: تبع بعضهم بعضا.
(٤) سملت: فقئت.
(٥) المروة: الحجارة البيض؛ والمشرق: سوق بالطائف.

أسُكَّان بطن الأرضِ لو يُقبلُ الفِدَا ... فدَيْنا وأعطينا بكُمْ ساكِني الظَّهْرِ[1]
فياليْتَ مَن فيها عليها وليتَ مَنْ ... عليها ثوَى فيها مُقِيماً إلى الحشْرِ
وقاسَمَني دهري بَنِيَّ بشطره ... فلما تقضَّى شطْرُهُ مال في شطري
فصاروا ديُوناً لِلْمنايا ولم يكُن ... عليهِم لها ديْنٌ قضوْهُ على عُسرِ
كأنهُمُ لم يعرِفِ الموتُ غيرهُم ... فثُكلٌ على ثُكلٍ وقبرٌ إلى قبرِ
وقد كنتُ حيَّ الخوفِ قبل وفاتهم ... فلمَّاتُوفُّوا مات خوْفي من الدهرِ
فللّه ما أعطَى ولله ما حوَى ... وليس لأيَّامِ الرَّزيَّةِ كالصَّبْرِ

وقيل لأعْرابية مات ابنها. ما أحسنَ عزاءَك؟ قالت: إن فقدى إياه آمنني كل فقد سواه، وإن مصيبتي به هونت عليّ المصائب بعده! ثم أنشأت تقول:

مَن شاءَ بعدك فليُمتْ ... فعليك كنتُ أُحاذِرُ
كنتَ السَّواد لناظِري ... فعمِي عليك النَّاظرُ
ليت المنازلَ والدِّيا ... رَ حفائرٌ ومقابرُ
إني وغيري لا مَحا ... لةَ حيثُ صِرتَ لصائرُ

أخذ الحسن بن هانيء معنى هذا البيت الأول، فقال في الأمين:

طوَى الموتُ ما بيني وبين مُحمَّدٍ ... وليس لِمَا تطوي المنيَّةُ ناشِرُ
وكنتُ عليه أحذرُ الموتَ وحدهُ ... فلم يبقَ لي شي عليهِ أُحاذرُ
لئِن عمرَتْ دورٌ بمن لا أُحِبُّه ... لقد عمرَتْ مِمن أُحِبُّ المقابِرُ

وقال عبد الله بن الأهتم يرثي ابناً له:

دعوْتُك يا بُنيَّ فلم تُجبني ... فرُدّت دعوَتي يأساً عليَّا
بموتك ماتتِ اللَّذَّاتُ مِني ... وكانت حيَّةً ما دمتَ حيَّا
فيا أسفا عليكَ وطولَ شوقي ... إليك لوَ آنَّ ذلك ردّ شيَّا

---

(١) ساكني الظهر: الأحياء.

لأبي العتاهية في رثاء ابنٍ له:

وأصيب أبو العتاهية بابن له فلما دفنه وقف على قبره وقال:

كفى حُزْناً بِدَفنك ثم إني ... نفضت تُراب قبرِك من يَدَيا
وكنتَ في حياتِك لي عِظات ... فأنت اليومَ أوعظُ منك حيَّا

لأعرابي في رثاء ابن له:

ومات ابْنٌ لأعرابيّ فاشتد حزنه عليه، وكان الأعرابيّ يكنى به، فقيل له: لو صبرت لكان أعظمَ لثوابك! فقال:

بأبي وأُمّي من عبأتُ حَنوطهُ ... بيَدي وفارقني بماء شبابِهِ
كيفَ السُّلوُّ وكيف أنسَى ذكرَهُ ... وإذا دُعيتُ فإنما أُدعَى بِه

عمر بن الخطاب وأعرابي فقد ابناً له:

خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً إلى بقيع الغرقد(١)، فإذا أعرابي بين يديه، فقال: يا أعرابي، ما أدخلك دار الحق؟ قال: وديعة لي ها هنا منذ ثلاث سنين. قال: وما وديعتك؟ قال: ابن لي حين ترعرع فقدته فأنا أندبه! قال عمر: أسمعني ما قلت فيه: فقال:

يا غائباً ما يثوبُ من سفَرهْ ... عاجَلهُ موتُهُ على صِغَرِهْ
يا قُرَّةَ العيْنِ كنتَ لي سكناً ... في طولِ ليلي نعَمْ وفي قِصَرِه
شرِبْتَ كأساً أبوك شاربُها ... لا بُدَّ يوماً له على كِبَره
أشَربُها والأنامُ كُلهُمُ ... مَن كان في بدْوِه وفي حضَره(٢)
فالحْمدُ لله لا شريك له ... الموتُ في حُكْمِهِ وفي قدَره
قد قسمَ الموتَ في الأنامِ فما ... يقدِرُ خلْقٌ يزيد في عُمُرِه

قال عمر: صدقت يا أعرابي، غير أن الله خيرٌ لك منه!

---

(١) بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة. (٢) الحضر: المدن والقرى والريف.

المنصور وشعر لمطيع حين مات ولده:

الشيباني قال: لما مات جعفر بن أبي جعفر المنصور، آشتدّ عليه حزنه. فلما فرغ من دفنه التفت إلى الربيع فقال: يا ربيع، كيف قال مُطيع بن إياس في يحي بن زياد؟ فأنشد:

يـا هـل دواء لِقلبي القـرِحِ … ولِلـدُّمـوعِ الذَّوارِفِ السُّفـحِ
راحـوا بِيَحْيي ولـو تطـاوعُني الـ … أقـدارُ لم تبتكِـر ولم يَـرُحِ
يا خير من يَحْسُـنُ البكـاءُ بـه الـ … يـوْمَ ومـن كـان أمس لِلمِـدَحِ
قـد ظفِـر الحزْنُ بـالسُّرُور وقـدْ … ألَمّ مكـروهُـهُ مـنَ الفـرحِ

وقالت أعرابية تندب ابناً لها:

أبُنيَّ غيّبـك المحـلُّ المُلْحـدُ … إمّا بعُـدْت فـأيـن مـن لا يبعـدُ
أنـت الذي في كـلِّ مُمْسى ليلةٍ … تبلى وحُـزنـك في الحشـا يتجَـدَّدُ

وقالت فيه:

لئِـن كنـت لي لهْواً لعيْـنٍ وقـرَّةً … لقد صِرْت سُقماً للقلوبِ الصَّحائـح
وهوّنَ حُزني أنَّ يومك مُـدْركـي … وأني غداً من أهلِ تلك الضَّرائـحِ

وقال أبو الخطّار يرثي ابنه الخطار:

ألا خبراني بـــارك الله فيكما … متى العهـدُ بـالخطـار يـا فَتيـانِ
فتًى لا يـرى نـومَ العشـاءِ غنيمـةً … ولا ينثني مـن صـوْلـة الحدثـانِ

وقال جرير يرثي ولده سوادة:

قالوا نصيبَك من أجـرٍ فقلـتُ لهم … كيف العزاءُ وقد فارقْـتُ أشبـالي
ذاكُم سـوادَةُ يجلـو مُقْلتَـيْ لَحِـم … بازٍ يُصرْصِرُ فوق المرقَبِ العـالي(١)
فارقْتُه حينَ غضَّ الدهرُ من بصري … وحينَ صِرتُ كعظمِ الرِّمّةِ البـالي(٢)

---

(١) لَحِم: يأكل اللحم. (٢) الرمة: العظام البالية.

وقال أبو الشغب يرثي ابنه شغبا:

قد كان شَغْبٌ لوَ آنَّ اللهَ عمَّرَهُ ... عِزّاً تُزادُ به في عِزِّها مُضَرُ
ليت الجبالَ تداعت قبلَ مصرَعِه ... دكًّا فلم يبقَ من أَحْجَارِها حجَرٌ
فارقْتُ شغْباً وقد قوَّسْتُ من كِبرٍ ... بِئسَ الخليطانِ طولُ الحزنِ والكِبَرُ(١)

لابن عبد الأعلى في رثاء أيوب بن سليمان:

ولما توفي أيوب بن سليمان بن عبد الملك في حياة سليمان، وكان وليَّ عهده وأكبرَ ولده؛ رثاه ابن عبد الأعلى وكان من خاصته، فقال فيه:

ولقد أقولُ لذِي الشَّماتةِ إذ رأى ... جزعِي ومن يذُقِ الحوادِثَ يَجْزَعِ
أَبْشِرْ فقد قرَعَ الحوادثُ مَرْوَتِي ... وٱفرَحْ بمَرْوَتِكَ التي لم تُقْرَعِ(٢)
إن عِشْتَ تُفجَعْ بالأحِبَّةِ كلِّهم ... أَوْ يَفْجَعوا بك إن بهِمْ لم تُفْجعِ
أيوبُ! مَنْ يشمَتْ بموتِكَ لم يُطِقْ ... عن نفسِه دَفْعاً وهل من مَدْفَعِ؟

لأب في رثاء ابنه:

الأصمعي عن رجل من الأعراب قال: كنا عشرة إخوة، وكان لنا أخ يقال له حسن. فنُعي إلى أبينا، فبقي سنتين يبكي عليه حتى كُفَّ بصره؛ وقال فيه:

أَفْلَحتُ إن كان لم يَمُتْ حسنُ ... وكفَّ عني البكاءُ والحزَنُ
بل أَكْذَبَ اللهُ مَن نَعَى حسناً ... ليس لتكذيب قولِه ثمنُ
أجولُ في الدارِ لا أراك وفي الـ ... ـدارِ أُناسٌ جوارُهم غَبَنُ(٣)
بُدِّلْتُهم منكَ ليتَ أنهم ... كانوا وبيني وبينهُمْ مُدُن
قد علِموا عند ما أنافِرُهم ... ما في قتالي صَدْعٌ ولا أبن
قد جرَّبوني فما أُلاوِمُهم ... ما زال بيني وبينهم إحَنُ(٤)

---

(١) الخليطان: المزيجان. (٢) المروة: حجارة الصوان.
(٣) الغبن: الموضع الذي يخفي فيه الشيء. (٤) إحن: أحقاد وضغائن.

فقد برى الجسم مُذْ نُعيتَ لنا كما بَرَى فرعَ نَبْعةٍ سَفَن[١]
فإن تَعِشْ فالمُنَى حياتُك والـخُلْدُ وأنتَ الحديث والوَسَن[٢]
إنْ تَحى تحيَ بخيرِ عيشٍ وإنْ تَمْضِ فتلك السبيلُ والسَّنَن
بَريدُك الحمدُ والسلامُ معاً فكلُّ حيٍّ بالموتِ مُرتَهن
ياويْحَ نفسي إن كنتَ في جَدَثٍ دونَك فيه الترابُ والكفَن
علَيَّ للهِ إنْ لقيتُك مِن قبْلِ المماتِ الصيامُ والبُدُن
أسُوقُها حافِياً مُجَلَّلةً أدْما هِجاناً قد كظَّها السِّمَن[٣]
فلا نُبالي إذا بَقِيتَ لنا من ماتَ أو منْ أوْدى به الزمن
كنتَ جليلِي وكنتَ خالِصَتِي لكلِّ حيٍّ من أهلِه سَكَن
لا خيرَ لي في الحياة بعدَكَ إنْ أصبحتَ تحتَ الترابِ يا حسنُ

وقال أعرابي يرثي ابنه:

ولما دعوْتُ الصبرَ بعدكَ والأسى أجاب الأسى طوْعاً ولم يُجِبِ الصبرُ
فإن ينقطِعْ منكَ الرجاءُ فإنه سيَبْقَى عليك الحُزْنُ ما بَقِيَ الدهر

وقال أعرابي يرثي ابنه:

بنَيَّ لئن ضَنَّتْ جُفونٌ بمائها لقد قرِحتْ مني عليكَ جُفونُ[٤]
دَفنْتُ بكفِّي بعضَ نفسي فأصبحتْ وللنفيس منها دافِن ودَفين

لابن عبد ربه في طفل له:

وهذا نظير قولي في طفل أُصبت به:

على مِثلِها من فَجْعةٍ خانكَ الصبرُ فِراق حبيبٍ دون أَوْبَتِه الحَشْرُ
ولِي كبدٌ مشطورةٌ في يَدِ الأسى فَتحتَ الثَّرى شَطْرٌ وفوقَ الثرى شَطرُ
يقولون لي صبِّرْ فؤادَكَ بعدَه فقلت لهم مالي فؤاد ولا صبْر

---

(١) سفن: ما ينحت به الشيء كالقدوم ونحوه. (٢) الوسن: الحاجة.

(٣) كظها: أثقلها واشتدّ عليها. (٤) ضنّت بخلت.

فُرَيخٌ من الحُمرِ الحواصلِ ما اكتسَى   من الريشِ حتى ضمَّـه الموتُ والقبر
إذا قلت أسْلو عنه هاجَـت بَلابِـل   يُجـدِّدُهـا فكـرٌ يُجـدِّدُه ذِكْـر
وأنظـرُ حـولي لا أرى غيرَ قبْـرِه   كأنّ جميعَ الأرضِ عندي له قبْـر
أفَرْخَ جِنانِ الخُلْدِ طِـرْت بمُهْجَتي   وليس سوى قعْرِ الضريح لها وَكْـر

وقالت أعرابية ترثي ولدها:

يا قرحةَ القلبِ والأحشاءِ والكبِـدِ   يا ليـت أمَّـكَ لم تَحْبَـلْ ولم تلِـدِ
لما رأيتُكَ قـد أُدْرجْـت في كفـنٍ   مطيَّبـاً للمنـايـا آخِـرِ الأبَـد
أيْقنْـتُ بَعـدَك أنّـي غيرُ بـاقيـةٍ   وكيفَ يبقى ذِراعٌ زال عن عضُدِ[1]

لأعرابي في ابنين له:

توفى ابنٌ لأعرابي فبكى عليه حيناً، فلما همّ أن يسلو عنه توفى له ابن آخر، فقال في ذلك:

إنْ أُفِقْ مـن حـزَنٍ هـاج حَـزَنْ   ففـؤادي مـالـه اليـوم سَكَـنْ
وكما تَبْلَـى وجـوهٌ في الثَّـرى   فكـذا يَبْلَـى عليهـنّ الحَزن[2]

وقال في ذلك:

عيـون قـد بكيْنـك مُـوجَعـات   أضرَّ بها البكـاءُ ومـا يَنينـا[3]
إذا أنْفـدْنَ دمعـاً بعـد دمـعٍ   يُـراجِعْـن الشئـون فيَستقينـا

أبو عبيد البجَلي قال: وقفت أعرابية على قبر ابن لها يقال له عامر، فقالت:

أقمْـتُ أبكيـه على قبره   مَن ليَ مِـن بعـدك يـا عـامـرُ
تَـركتني في الدار لي وحْشَـةٌ   قـد ذلَّ مَـن ليس لـه نـاصر

وقالت فيه:

هـو الصبْـر والتسليمُ لله والرضـا   إذا نَـزلـتْ بي خطـة لا أشـاؤُهـا

---

(١) العضد: ما بين المرفق إلى الكتف.

(٢) الحزن: الغم.   (٣) يني: يفتر ويضعف.

إذا نَحن أُبْنا سالمين بأنفسٍ كرامٍ رَجعت أمراً فخاب رجاؤها
فأنفُسُنا خير الغنيمة إنها تئُوب ويبقى ماؤها وحياؤها
ولا بِرَّ إلا دون ما بَرَّ عامر ولكنّ نفْساً لا يَدوم بقاؤها
هو ابْنيَ أمسَى أجرُه لي وعزَّني على نفسه رب إليه ولاؤها
فإن أحتسبْ أُوجرْ وإن أبكِه أكن كباكيةٍ لم يُحْيِ ميْتاً بُكاؤها(١)

لهذيلية في رثاء إخوة وابن:

الشيباني قال: كانت امرأة من هذيل، وكان لها عشرة إخوة وعشرة أعمام؛ فهلكوا جميعاً في الطاعون، وكانت بكراً لم تتزوج؛ فخطبها ابن عم له فتزوّجها. فلم تلبث أن اشتملت على غلام فولدته، فنبت نباتاً كأنما يُمدّ بناصيته وبلغ، فزوّجتْه وأخذتْ في جهازه، حتى إذا لم يبق إلا البناء(٢) أتاه أجله، فلم تشقّ لها جيبا، ولم تدمع لها عين؛ فلما فرغوا من جهازه دُعيت لتوديعه، فأكبّت عليه ساعة، ثم رفعت رأسها ونظرت إليه وقالت:

ألا تلك المسرَّة لا تدومُ ولا يبقى على الدهر النعيمُ
ولا يبقى على الحدَثان غُفْر بشاهقةٍ له أمٌّ رَءُوم(٣)

ثم أكبت عليه أخرى، فلم تقطع نحيبها حتى فاضت نفسها، فدفنا جميعاً.

لشيبانية في حزنها على أهلها:

خليفة بن خيّاط قال: ما رأيت أشدّ كمداً من امرأة من بني شيبان، قُتل ابنها وأبوها وزوجها وأمها وعمتها وخالتها مع الضحاك الحروريّ؛ فما رأيتها قطُّ ضاحكة ولا متبسمة حتى فارقت الدنيا، وقالت ترثيهم:

مَن لقلبٍ شفَّه الحزَنُ ولنفسٍ مالها سكنُ

---

(١) أوجر: أشفق وأخاف.

(٢) البناء: يقال بنى بزوجته وعليها أي دخل بها. (٣) غفر: ولد الأروية

ظعَنَ الأبرارُ فانقلَبوا ... خيرُهم من معشرٍ ظعنوا[1]
معْشرٌ قضَّوْا نُحُوبَهم ... كلُّ ما قد قدّموا حسَن
صبَروا عند السُّيوف فلم ... ينكِلوا عنها ولا جبُنوا
فِتْيةٌ باعوا نفوسَهُم ... لا، وربِّ البيت ما غُبِنوا
فأصاب القومُ ما طلبوا ... مِنّة ما بعدها منَن

وقال عبد الله بن ثعلبة يرثي والدا له:

أأخضِبُ رأسي أم أُطيِّب مَفْرِقي ... ورأسك مرْمُوسٌ وأنت سَليبُ
نَسيبُكَ مَن أمسَى يُناجيك طرْفه ... وليس لمن تَحت التراب نسيب
غريبٌ وأطراف البيوت تُكنُّه ... ألا كلُّ مَن تحت التراب غريب

قال العتبي محمد بن عبيد الله يرثي ابناً له:

أضْحت بخدِّي للدموعِ رسُومُ ... أسَفاً عليك وفي الفؤاد كُلُومُ[2]
والصبرُ يُحمد في المواطن كلِّها ... إلا عليك فإنه مذْموم

لأب في رثاء ابنه:

خرج أعرابيّ هارباً من الطاعون، فبينما هو سائر إذ لدغته أفعى فمات، فقال أبوه يرثيه:

طاف يَبغي نَجوة ... مِن هلاكٍ فهلَكْ
والمَنايا رَصد ... للفتى حيث سَلَكْ
ليت شعْري ضَلّةً ... أيُّ شيءٍ قتلك
كلُّ شيءٍ قاتلٌ ... حين تلقى أجَلك

---

(١) ظعنوا: ارتحلوا.

(٢) رسوم: مفرده رسم، وهو الأثر الباقي من الدار بعد أن عفت.

لأبي العتاهية في رثاء الأمين:

لما قتل عبد الله المأمون أخاه محمد بن زُبيدة، أرسلت أمه زبيدة ابنة جعفر إلى أبي العتاهية يقول أبياتاً على لسانها للمأمون، فقال:

ألا إنّ ريب الدهر يُدْنِي ويُبعِدُ ... وللدهر أيامٌ تُذَمّ وتُحْمَدُ[1]
أقولُ لرْيب الدهر إنْ ذهبتْ يد ... فقدْ بقيت والحمد لله لي يد
إذا بقي المأمونُ لي فالرشيد لي ... ولي جعفرٌ، لم يَهلِكا، ومحمد

وكتبتْ إليه من قوله:

لخيرِ إمامٍ قام من خير معْشر ... وأكْرِم بسَّامٍ على عود منْبَرِ
كتبتُ وعيني تستَهِلُّ دموعها ... إليك ابن يعْلى من دموعي ومَحجري[2]
فجِعنا بأدنَى الناس منك قرابةً ... ومَن زلَّ عن كَبِدي فقلَّ تَصبُّري
أتى طاهرٌ لا طهَّر اللهُ طاهراً ... وما طاهرٌ في فعْله بمُطهَّر
فأبرَزني مكشوفةَ الوجه حاسراً ... وأنْهبَ أموالي وخرّب أدْوُري
وعزَّ على هارون ما قد لقيتُه ... وما نابَني من ناقص الخلْق أعور

فلما نظر المأمون إلى كتابها وجه إليها بحباء جزيل، وكتب إليها يسألها القدوم عليه، فلم تأته في ذلك الوقت وقبلت منه ما وجّه به إليها؛ فلما صارت إليه بعد ذلك قال لها: مَن قائل الأبيات؟ قالت: أبو العتاهية. قال: وكم أمرت له؟ قالت: عشرين ألف درهم. قال المأمون: وقد أمَرنا له بمثل ذلك. واعتذر إليها من قتل أخيه محمد، وقال لها: لست صاحبَه ولا قاتله. فقالت: يا أمير المؤمنين، إن لكما يوماً تجتمعان فيه، وأرجو أن يغفر اللهُ لكما إن شاء الله.

أبو شأس يرثي ابنه شأسا:

وربّيتُ شأساً لرَيب الزمان ... فلله تربيتي والنصَبْ
فليتك يا شأس فيمن بقِي ... وكنتُ مكانك فيمن ذهبْ!

---

(١) الرّيب: صرف الدهر. (٢) المحجر في العين: ما أحاط بها.

من رثى إخوته

لمتمم بن نويرة:

الرياشيّ قال: صلى مُتمّم بن نُويرة الصبح مع أبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه، ثم أنشد:

نعم بالله إذا الرِّياح تَناوحتْ ... بين البيوت قتَلت يابنَ الأزْوَرِ
أدعوْتَه بالله ثم قتلتَه ... لو هو دعاك بذمَّةٍ لم يغْدرِ
لا يُضمِر الفحشاءَ تحت ردائِه ... حُلْوٌ شمائلُه عفيف المِئْزرِ

قال: ثم بكى حتى سالت عينه العوراء. قال أبو بكر: ما دعوته ولا قتلته. وقال متمم:

ومُستضحكٍ مني ادّعى كمصيبتي ... وليس أخو الشجْو الحزينُ بضاحكِ
يقولُ أتبكي من قبورٍ رأيتَها ... لقبرٍ بأطراف اللِّوى فالدَّكادك[1]
فقلتُ له إن الأسى يبعثُ الأسى ... فدعْني فهذي كلُّها قبر مالك[2]

وقال متمم يرثي أخاه مالكا، وهي التي تسمَّى أمّ المراثي:

لعَمري وما دهري بتأبين هالكٍ ... ولا جزعٍ مما ألَمّ فأوجَعا[3]
لقد غيَّب المنهال تحت ردائِه ... فتًى غير مِبْطان العشيّات أرْوعا[4]
ولا بَرما تُهدِي النساءُ لِعرسْه ... إذا القشْع من برد الشتاءِ تقعْقعا[5]
تَراه كنصْل السيف يَهتَزُّ للنَّدى ... إذا لم تَجد عند آمريء السُّوءِ مطْعما
فعينَيّ هلاّ تبكيان لمالكٍ ... إذا هَزْت الرِّيح الكَنيف المُرفَّعا
وأرملةٍ تدعو بأشْعث مُحْثَلٍ ... كفرْخِ الحُبارَى ريشُه قد تَمزَّعا[6]

---

(١) الدكادك: الرمل ما تكبس واستوى.
(٢) الأسى: الحزن.
(٣) ومادهري: ما همي وغايتي.
(٤) المبطان: الضخم البطن؛ والأروع: الذي يعجبك بحسنه وجماله.
(٥) البرم: الذي لا يدخل مع القوم في الميسر؛ والقشع: البيت من جلد؛ والتقعقع: صوت الجلد إذا يبس.
(٦) المحثل: السيء الغذاء.

وما كان وقّافا إذا الخيْل أحْجمت ... ولا طالباً من خشيةِ الموت مفْزعا
ولا بكهامٍ سيفُه عن عدوّه ... إذا هو لاقى حاسِراً أو مقنّعا[1]
أبَى الصبرُ آياتٍ أراها وإنني ... أرى كلَّ حبلٍ بعدَ حبلِك أقْطَعا
وإني متى ما أدْعُ باسمِكَ لم تجِبْ ... وكنتَ حريًّا أن تُجيبَ وتُسْمِعا
تحيتُه مني وإن كان نائياً ... وأمْسَى تُراباً فوقهُ الأرضُ بَلْقَعا
فإن تكنِ الأيامُ فرّقْنَ بيْنَنا ... فقد بان محموداً أخي حين ودَّعا
وعِشْنا بخير في الحياةِ وقبلَنا ... أصاب المنايا رهْطَ كسرى وتُبَّعا
وكنا كنَدْمانَيْ جَذيمةَ حِقْبةً ... من الدهرِ حتى قيل لن يتصدَّعا
فلما تفرقْنا كأنّي ومالِكاً ... لطول اجتماعٍ لم نبِتْ ليلةً معا
فما شارف حَنّت حنيناً ورَجّعتْ ... أنيناً فأبكَى شَجْوُها البَرْكَ أجْمَعا[2]
ولا وجْدُ أظآرٍ ثلاثٍ روائمٍ ... وأيْنَ مَجَرّاً من حُوَارٍ ومَصرَعا[3]
بأوْجدَ مني يومَ قام بمالكٍ ... منادٍ فصيحٍ بالفِراقِ فأسْمعا
سقى اللهُ أرضاً حلَّها قبرُ مالكٍ ... ذهابَ الغَوادي المُدْجِناتِ فأمْرَعا[4]

قيل لعمرو بن بحر الجاحظ: إن الأصمعي كان يسمي هذا الشعر أم المراثي. فقال: لم يسمع الأصمعي:

أيُّ القلوبِ عليكم ليس ينصدعُ ... وأيُّ نوم عليكم ليس يمتنِعُ

وقال الأصمعي: لم يبتدىء أحدٌ بمرثية بأحسن من ابتداء أوس بن حجر:

أيتها النفُس أجْمِلي جزَعا ... إنّ الذي تَحذرينَ قد وقَعا

وبعدها قول زُميْل:

أجارتَنا مَن يجتمعْ يتفرّقِ ... ومَن يَكُ رَهْناً للحوادثِ يَغلَقِ

(١) الكهام: الكليل.
(٢) الشارف: المسنة من الإبل؛ والبرك: الألف من الجمال.
(٣) الأظآر: النوق تعطف على حوار واحد؛ والروائم: النوق تعطف على ولدها.
(٤) المدجنات: السحب الكثيفة.

رثاء أخت النضر له:

قال ابن إسحاق صاحب المغازي: لما نزل رسولُ الله ﷺ الصفراء ـ وقال ابن هشام الأُثيْل ـ أمر عليَّ بن أبي طالب بضرب عنق النضر بن الحارث بن كَلَدة بن علقمة بن عبد مناف صبراً بين يدي رسول الله ﷺ ؛ فقالت أخته قُتيلة بنت الحارث ترثيه:

يــا راكبــا إنّ الاثيــلَ مَظِنــة ... من صبح خامسةٍ وأنـت مـوفَّـقُ
أبلِـغْ بها ميْتــاً بــأنَّ تحيــةً ... ما إنْ تَزالُ بها النجائـبُ تخفِـق[1]
منِّـي إليــك وعبرةً مسفــوحــةً ... جادت بِواكفِها وأخـرى تخنُـق[2]
هــل يَسمعنّـي النضرُ إنْ نـادْيتُـه ... أم كيـف يسمـعُ ميـت لا ينطِـق
أَمُحمـد يـا خيرَ ضِـنءٍ كـريمةٍ ... من قومِه والفحلُ فحـلٌ مُعْـرِق[3]
مـا كـان ضرَّكَ لـو مننْـت وربما ... مَـنَّ الفتى وهـو المَغيـظُ المُحْنَــق
فالنضرُ أقربُ مَن أسَـرْتَ قَـرابـةً ... وأحَقُّهـم إن كـان عِتْقـا يُعتَــق
ظلّـت سيـوفُ بني أبيـه تَنُـوشُـه ... للهِ أرحــامٌ هنــاك تشقَّــق[4]
صبراً يُقــادُ إلى المنيَّــةِ مُتعَبــاً ... رَسْفَ المقيَّدِ وهو عانٍ مُـوثَـق[5]

قال ابن هشام: قال النبي ﷺ لما بلغه هذا الشعر: لو بلغني قبل قتله ما قتلتُه.

عمر بن الخطاب والخنساء في أخويها:

الأصمعي قال: نظر عمر بن الخطاب إلى خنساء وبها ندوب في وجهها، فقال: ما هذه الندوب يا خنساء؟ قالت: من طول البكاء على أخويّ! قال لها: أخواك في النار! قالت: ذلك أطول لحزني عليهما؛ إني كنت أُشفق عليهما من القتل، وأنا اليوم أبكي لهما من النار، وأنشدت:

---

(١) النجائب تخفق: الإبل الكريمة تسرع. (٢) الواكف: السائل.
(٣) الضنء: النسل. (٤) تنوشه: تتناوله.
(٥) رسف المقيد: مشيه.

وقائلةٍ والنعشُ قد فات خَطْوَها ... لتُدْرِكَهُ يا لَهْفَ نفسي على صخْرِ
ألاَ ثَكِلَتْ أُمُّ الذين غدوْا به ... إلى القبرِ ماذا يَحمِلون إلى القبر

عائشة والخنساء في صدار كانت تلبسه:

دخلت خنساء على عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها وعليها صِدار من شعر قد استشعرته إلى جلدها؛ فقال لها: ما هذا يا خنساء؟ فوالله لقد توفي رسول الله ﷺ فما لبسته! قالت: إنّ له معنىً دعاني إلى لباسه؛ وذلك أنّ أبي زوّجني سيدّ قومه، وكان رجلاً متلافاً، فأسرف في ماله حتى أنفده، ثم رجع في مالي فأنفده أيضاً، ثم التفت إليّ فقال: إلى أين يا خنساء؟ قلت: إلى أخي صخر. قالت: فأتيناه فقسم ماله شطرين، ثم خيّرنا في أحسن الشطرين، فرجعنا من عنده، فلم يزل زوجي حتى أذهب جيعه، ثم التفت إليّ فقال لي: إلى أين يا خنساء؟ قلت: إلى أخي صخر! قالت: فرحلنا إليه، ثم قسم ماله شطرين وخيَّرنا في أفضل الشطرين، فقالت له زوجته: أما ترضى أن تشاطرهم مالك حتى تخيِّرهم بين الشطرين؟ فقال:

وَٱللّه لا أمنحُها شِرارَها ... فلو هلَكْت قدَّدتْ خِمارَها
واتخذَتْ من شَعَرٍ صِدارَها ... وهْي حَصانٌ قد كفَتْني عارَها

فآليت ألاّ يفارق الصدار جسدي ما بقيت.

الخنساء في أخويها:

قيل للخنساء: صِفي لنا أخويك صخراً ومعاوية. فقالت: كان صخر والله جنة الزمان الأغبر، وذعاف الخميس الأحمر. وكان والله معاوية القائل والفاعل. قيل لها: فأيها كان أسنى وأفخر، قالت: أما صخر فحرّ الشتاء، وأما معاوية فبرد الهواء. قيل لها: فأيها أوجع وأفجع. قالت: أما صخر فجمرُ الكبد، وأما معاوية فسقام الجسد! وأنشأت:

أسدان مُحْمَرَّا المخالبِ نَجدةً ... بَحران في الزَّمنِ الغضوبِ الأنمر

قمران في النادي، رفيعَا مَحْتِـدٍ في المجدِ فرْعـا سُـوددٍ مُتخيَّـرِ[1]

وقالت الخنساء ترثي أخاها صخر بن الشريد:

أقذًى بعيْنِـك أم بـالعيْـن عُـوَّارُ أم أقفرت إذ خلَت من أهلها الدَّار
كأنّ دمعي لـذكـراه إذا خطَـرتْ فيْضٌ يسيـل على الخدَّيْـن مـدْرارُ
فالعيْنُ تبكي على صخرٍ وحُـقَّ لها ودونَه من جـديـد الأرض أستـارُ
بُكـاءَ والهة ضَلَّـت أليفتَهـا لها حَنينـان إصغـارٌ وإكبـارُ[2]
تَرعى إذا نسيتْ حتى إذا آدّكـرتْ فـإنما هـي إقبـالٌ وإدْبـارُ
وإنّ صخـراً لتـأْتَمُّ الهُداةُ بـه كـأنـه علَـمٌ في رأسـه نـارُ[3]
حامي الحقيقةِ، محمودُ الخليقـةِ، مَهـديُّ الطـريقـةِ، نفّـاعٌ وضرَّارُ

وقالت أيضاً:

ألاَ مـا لعيْني، ألاَ مـالها لقد أخضَلَ الدَّمعُ سِـرْبـالَهـا
أمنْ بعد صخرٍ مـنَ آلِ الشريـد حَلَّت به الأرض أثقـالَهـا
فـآليْـتُ آسَـى على هـالـكٍ وأسـأل بـاكيـةً مـالَهـا
وهَمَّـتْ بنفسيَ كـلُّ الهمـوم فـأوْلى لنفْسي أوْلى لها
سـأحملُ نفْسي على خطـة فـإمّـا عليهـا وإمّـا لها

وقالت أيضاً:

أعيْنيَّ جـودَا ولا تَجمُـدا ألا تَبكيـان لصخْـر النَّـدى؟
ألا تَبكيـان الجرِيءَ الجوّاد ألا تبكيـان الفتى السَّيِّـدا؟
طـويـلَ النِّجَـاد رفيـع العِما د، سـادَ عشيرتَـه أمْـرَدا
يُحمِّلُـه القـوم مـا غـالَهـم وإن كان أصغـرَهُـمْ مـوْلِـدا
جَمـوعُ الضِّيـوف إلى بـابـه يَرى أفضل الكسْبِ أن يُحمَـدا

---

(١) المحتد: الأصل أو الطبع.

(٢) إصغار وإكبار: حنين إذا خفض وإذا رفع. (٣) علم: جبل.

وقالت أيضاً:

فما أدركْت كفُّ امرىء مُتناول — من المجدِ إلاَّ والذي نِلتَ أطولُ
وما بلَغ المُهْدون للمدْحِ غايةً — ولا جهَدوا إلاَّ الذي فيك أفضلُ
وما الغيْث في جعْدِ الثرى دَمثِ الربا — تَبعَّق فيها الوابِلُ المُتهلّل(١)
فأفضلَ سيْبا من يديْك ونعمةً — تجودُ بها، بل سَيْبُ كفَّيْك أجزلُ
من القوْم مغْشِيَّ الرواق كأنه — إذا سِيم ضيْما خادرٌ مُتبسِّلُ(٢)
شَرنْبث أطرافِ البَنانِ ضُبارم — له في عرين الغيل عِرْسٌ وأشبُلُ(٣)

لأخت الوليد بن طريف في رثائه:

وقالت أخت الوليد بن طريف ترثي أخاها الوليد بن طريف:

أيا شجر الخابورِ مالكَ مُورقاً — كأنك لم تَجزعْ على ابن طريف
فتى لا يُريد العزَّ إلاَّ مِنَ التقى — ولا المالَ إلاَّ مِنْ قَناً وسيوفِ(٤)
ولا الذُّخر إلا كلَّ جرداءَ صِلْدِم — وكلَّ رقيق الشَّفرتين حليف(٥)
فقدْناه فِقْدان الرَّبيعِ فليتَنا — فديْناه من ساداتِنا بألوف
خفيفٌ على ظهر الجواد إذا عدا — وليس على أعدائِه بخفيفِ
عليك سلامُ الله وقْفاً فإنني — أرى الموْتَ وقاعاً بكلِّ شريف

وقال آخر يرثي آخاه:

أخٌ طالما سرني ذكرُه — فقد صرْتُ أشجى إلى ذِكرِهِ
وقد كنت أغْدو إلى قَصرِهِ — فقد صرتُ أَغدو إلى قبرِه
وكنت أرانِي غنيّاً به — عن الناس لو مُدَّ في عُمرِه
وكنت إذا جئتُه زائراً — فأمري يَجوز على أمره

---

(١) جعد الثرى: لين؛ ودمث الربى: سهل؛ والتبعق: التصبب بشدة.

(٢) المتبسِّل: العابس شجاعة. (٣) الشرنبث: الغليظ الكف وعروق اليد.

(٤) القنا: الرماح. (٥) جرداء: قصيرة الشعر؛ والصلدم: الشديدة الحافر.

وقالت الخنساء ترثي أخاها صخراً:

بكتْ عيني وعاوَدَها قَذاها ... بعُوّار فما تَقضى كراها[1]
على صخر وأيُّ فتى كصَخر ... إذا ما الغابُ لم تَرأم طَلاها[2]
حلفتُ بربّ صُهْبٍ مُعْمَلات ... إلى البيت المحرّم مُنتهاها
لئن جَزعت بنو عمرو عليه ... لقد رُزئت بنو عمرو فتاها
له كف يشُدُّ بها وكف ... تجود فما يَجفّ ثرى نداها
ترى الشُّمَّ الغطارف من سُليم ... وقد بلّت مدامعها لِحَاها
أحامَيكم ومُطعمَكم تركتم ... لدى غبراءَ مُنهدم رَجاها
فمن للضيف إن هبَّت شمالٌ ... مُزعزعة تُناوئها صَباها
وألجأ بَرْدَها الأشوال حُدْباً ... إلى الحُجرات باديةً كُلاها[3]
هنالك لو نزلتَ بباب صخر ... قَرَى الأضياف شحما من ذُراها
وخيْل قد دَلفْتَ لها بِخيْلٍ ... فدارت بين كبشيها رحاها[4]
تكفكف فضل سابغة دِلاصٍ ... على خَيْفانة خَفِقٍ حَشاها[5]

وقال كعب يرثي أخاه أبا المغوار:

تقول سُليَّمى: ما لجسمِك شاحباً ... كأنك يَحميك الطعام طبيبُ
فقلت: شجونٌ من خُطوبٍ تتابعتْ ... عليَّ كِبارٍ والزمانُ يُريبُ
لعَمْري لئنْ كانت أصابت مَنيَّةٌ ... أخي، فالمنايا للرِّجال شَعوبُ[6]
فإني لباكِيهِ، وإني لصادقٌ ... عليه، وبعض القائلين كذُوبُ
أخي ما أخي! لا فاحشٌ عند بيْته ... ولا ورعٌ عند اللّقاءِ هَيوبُ
أخٌ كان يكفيني وكان يُعينُني ... على نائباتِ الدَّهر حين تنوبُ

---

(١) العوّار: الرمد. (٢) ترأم طلاها: تعطف على صغيرها وتلزمه.

(٣) الأشوال: النوق التي جفّ لبنها وارتفع ضرعها. (٤) الكبش: الرئيس والقائد.

(٥) سابغة دلاص: درع واسعة. (٦) شعوب: مفرقة.

هـو العسـلُ الماذِيُّ لِينـا وشِيمـةً ... وليثٌ إذا لاقى الرجالَ قَطـوبُ[1]
هوتْ أُمُّه ما يَبعثُ الصبحُ غـاديـاً ... وماذا يؤدِّي الليـلُ حين يـؤوب[2]
كعاليـةِ الرُّمـحِ الرُّدَيْنِـيِّ لم يكـن ... إذا ابتـدَرَ الخيرَ الرجـالُ يَخيـب
وداعٍ دعا يا من يُجيبُ إلى النـدى ... فلم يستجبْه عنـد ذاك مُجيـب
فقلتُ ادْعُ أخرى وارفعِ الصوتَ ثانياً ... لعـلَّ أبـا المِغوارِ منـك قـريـب
يُجبْـكَ كما قـد كـانَ يفعـلُ إنـه ... بـأمثـالـهِ رحْبُ الذِّراعِ أَريـب
وحـدَّثْتُماني أنما الموتُ في القُـرى ... فكيـف وهـذِي هَضبةٌ وكَثيـب
فلو كانـت الموْتـى تُبـاعُ آشتريْتُـه ... بما لم تكـن عنـه النفـوسُ تَطِيـب
بعينَـيَّ أو يُمْنَـى يـديَّ وخِلْتُني ... أنـا الغـانِـمَ الجَذْلانَ حين يـؤوب
لقد أفْسدَ الموتُ الحياةَ وقـد أتَـى ... على يـومِـه علْـقٌ إليَّ حبيـب[3]
أتى دون حُلْوِ العيشِ حتى أمَـرَّهُ ... خُطـوبٌ على آثـارِهـنّ نُكـوب
فـواللهِ لا أنسـاهْ مـاذَرَّ شـارقٌ ... وما اهتزَّ بي فـرْعُ الأراك قضيـب
فـإن تكـن الأيـامُ أحسـنَّ مـرةً ... إليَّ لقـد عـادت لهنّ ذُنـوب

وقال امرؤ القيس يرثي إخوته:

ألا يـا عينُ جـودي لي شنِينـا ... وبكِّـي للملـوكِ الذاهِبينـا
ملوكٌ من بني صخـر بـن عمـرو ... يُقـادونَ العشيَّـة يُقتلـونـا
فلم تَغسَـلْ رؤوسُهـم بِسـدْرٍ ... ولكـنْ في الدمـاءِ مُـزَمَّلينـا
فلـو في يـومِ معـرَكـةٍ أُصِيبـوا ... ولكـنْ في دِيـارِ بني مَـرِينـا

وقال الأُبَيرِدُ بن المعذَّر الرِّياحي يرثي أخاه بُرَيْداً:

تَطـاولَ ليلى لم أنمه تقلُّبـا ... كأن فِراشي حال من دونه الجمرُ
أراقـب مـن ليـل التمام نجومَـه ... لَدُنْ غاب قَرْنُ الشمس حتى بدا الفجر
تـذكُّرَ عِلـقٍ بـان منّـا بنصرِه ... ونـائلـه يـا حبَّـذا ذلـك الذِّكـر

---

(١) الماذي: الأبيض؛ والقطوب: العابس.

(٢) هوت أمه: دعاء عليه. (٣) العلق: النفيس من كل شيء.

فإن تكن الأيام فرّقن بيننا … فقد عذرتنا في صحابته العُذر
وكنت أرى هجراً فراقك ساعةً … ألاَ لا بل الموتُ التفرُّقُ والهجر
أحقاً عبادَ الله أنْ لستُ لاقياً … بُريْداً طَوال الدهر مالألأ العُفر[1]
فتىً ليس كالفتيان إلا خيارهم … من القوم جَزْلٌ لا ذليلٌ ولا غُمر[2]
فتى إن هو استغنى تخرّق في الغنى … وإن كان فقرٌ لم يَؤدْ مَتْنَه الفقر[3]
وسامي جسيمات الأمور فنالها … على العسر حتى يُدرك العسرة اليُسر
ترى القوم في العزاء ينتظرونه … إذا شتّ رأي القوم أو حَزَبَ الأمر[4]
فليتك كنت الحيَّ في الناس باقياً … وكنتُ أنا الميتَ الذي ضمَّه القبر
فتى يشتري حُسْنَ الثناء بماله … إذا السَّنَةُ الشهباء قلَّ بها القطر[5]
كأنْ لم يُصاحبْنا بُريدٌ بغبطة … ولم تأتنا يوماً بأخباره البُشر
لعمري لنعم المرءُ عاليَ نعيَّه … لنا ابنُ عَرين بعد ما جَنَح العصر
تمضّت به الأخبار حتى تغلغلت … ولم تَثْنِه الأطباعُ عنا ولا الجُدْر[6]
فلما نعى الناعي بُريداً تغوّلت … بي الأرضُ فرطَ الحُزن وانقطع الظهر[7]
عساكرُ تَغْشَى النفسَ حتى كأنني … أخو نشوة دارت بهامته الخمر
إلى الله أشكو في بُريد مُصيبتي … وبَثّي وأحزاناً يجيش بها الصدر
وقد كنتُ أستعفي الإله إذا اشتكى … من الأجر لي فيه وإن سرَّني الأجر
وما زال في عينيّ بعدُ غِشاوةٌ … وسَمعيَ عما كنت أسمعه وَقْر
على أنني أقني الحياءَ وأتّقي … شماتة أقدام عُيونُهُم خُزْر[8]
فحيّاك عني الليلُ والصبحُ إذ بدا … وهُوجٌ من الأرواح غُدْوتها شهر
سقى جَدثاً لو أستطيع سقيْتُه … بأُودَ فروّاه الرواعد والقطر[9]

(١) لألأ العفر: حركت الظباء أذنابها.
(٢) الجزل: القوي؛ والغمر: الذي لم يجرب الأمور.
(٣) تخرق: توسع؛ ولم يؤد: لم يثقل.
(٤) شت: تفرق.
(٥) الشهباء: السنة التي يكثر فيها الجليد.
(٦) تغلغلت: دخلت؛ والأطباع: الخواتم.
(٧) تغولت به الأرض: ذهبت به
(٨) أقني الحياء: ألزمه.
(٩) أود: موضع.

ولا زالَ يُسْقَى مِن بلادٍ ثوى بها ... ثباتٌ إذا صابَ الربيعُ بها نضر
حلفتُ بربِّ الرافعين أكفَّهم ... وربِّ الهدايا حيث حلّ بها النجر[1]
ومُجتمع الحُجاج حيث تواقفت ... رفاقٌ من الآفاق تكبيرها جأر
يمين امريء آلى وليس بكاذب ... وما في يَمين بَتَّها صادقٌ وِزْر
لئن كان أمْسَى ابنُ المعذّر قد ثوَى ... بُريدٌ لنِعْمَ المرءُ غيَّبهُ القبر
هو المرءُ للمعروفِ والدين والنَّدي ... ومِسعَرُ حرب لا كهامٌ ولا غُمر[2]
أقام ونادى أهلَهُ فتحمّلوا ... وصُرِّمت الأسبابُ واختلفَ النَّجْر
فأيَّ امريءٍ غادرتُمُ في بُيوتِكم ... إذا هي أمستْ لونُ آفاقِها حُمْر
إذا الشولُ أمست وهي حُدْبٌ ظُهورها ... عِجافا ولم يُسمَعْ لفحلٍ لها هَدْر
كثيرُ رَمادِ القِدْرِ يغشى فِناؤه ... إذا نودِيَ الأيسارُ واحتُضِر الجُزْر
فتى كان يَغلِي اللحمَ نيئاً ولحمهُ ... رخيصٌ بكفَّيْه إذا تنزِلُ القِدْرُ
يُقسِّمُه حتى يَشيعَ ولم يكن ... كآخرَ يُضْحِي من غَبيبتِه ذُخْر[3]
فتى الحيِّ والأضيافَ إن رَوَّحْتُهم ... بليلٍ وزادُ السَّفرِ إنْ أرْمَلَ السَّفْر[4]
إذا أجهَدَ القومُ المطِيَّ وأدرجتْ ... من الضُّمْرِ حتى يبلُغ الحَقَبَ الضَّفْر[5]
وخَفتْ بقايا زادِهمْ وتواكَلُوا ... وأكْسفَ بالَ القومِ مجهولةٌ قَفْر
رأيت له فضلاً عليهم بقوّةٍ ... وبالعَقْرِ لما كان زادَهم العَقْر
إذا القومُ أسْروْا ليلُهمْ ثم أصبحوا ... غدًا وهو ما فيه سِقاط ولا فَترُ[6]
وإن خشَعت أبصارُهم وتضاءلت ... مِن الأينِ جلّى مثل ما ينظرُ الصّقْرُ
وإن جارةٌ حلّت إليه وفَى لها ... فباتت ولم يُهتَك لِجارتِه سِتْرُ
عفيفٌ عنِ السَّوْءاتِ ما التبَست به ... صليبٌ فما يُلَفى بعُودٍ له كسْرُ
سلَكْتَ سبيلَ العالمينَ فما لهم ... وراءَ الذي لاقيْتَ معْدًى ولا قصْرُ

(١) النجر: الطبع والأصل. (٢) كهام: ضعيف.
(٣) غبيبته: اللحم المتغير الريح. (٤) بليل: الريح الباردة التي معها بلل.
(٥) الضفر: جبل مضفور يجعل في أعلى الحمل والحقب في أسفله.
(٦) السقاط: التراخي في السير.

وكلُّ آمرىءٍ يـومـاً مُلاقٍ حِمامـهُ وإن باتت الدَّعوَى وطال به العُمْـرُ
وأبليْــــت خيراً في الحيــــاةِ وإنَّما ثوابُكَ عِندي اليومَ أن يَنطِق الشّعرُ
ليفْـدِك مـوْلىً أو أخ ذو ذِمـامـةٍ قليـل الغنـاءِ لا عطـاءٌ ولا نصرُ[1]

لشبل بن معبد البجلي:

أتى دونَ حُلْـوِ العيشِ حتى أمَـرَّهُ نُكـوبٌ على آثـارِهِـــنَّ نُكــوبُ
تتابعْنَ في الأحبابِ حتى أبَـدْنَهُـم فلم يبـقَ منهـم في الدِّيـار قـريـبُ
بَرتْني صروفُ الدهرِ من كلِّ جانبٍ كما ينبري دون اللِّحـاءِ عسيـبُ[2]
فـأصبحـتُ إلا رحمةَ اللهِ مُفــرداً لَدَى الناسِ صبراً والفؤادُ كئيـبُ
إذا ذَرّ قرنُ الشمسِ عُلِّلتُ بالأسى ويـأْوي إليَّ الحزنُ حين يــؤوبُ
ونـامَ خلِـيُّ البـالِ عنِّـي ولم أنَـمْ كما لم يَنمْ عـاري الفِنـاءِ غـريــبُ
تضُـرُّ بـه الأيــامُ حتى كـأنَّــهُ بطولِ الذي أعقَبْن وهـو رقـوبُ
فقلتُ لأصحابي وقد قذَفـت بنـا نَوى غُربةٍ عمَّنْ نُحبُّ شَطـوبُ[3]
متى العهدُ بالأهلِ الذين تَـركتُهُـم لهم في فـؤادي بـالعِراقِ نصيـبُ
فما تَرك الطاعونُ مـن ذي قـرابَـة إليـه إذا حـانَ الإيـابُ نــؤوبُ
فقد أصبَحوا لا دارُهُم منك غُربـة بعيدٌ، ولا هُـم في الحيـاةِ قـريـبُ
وكنت تُـرجَّـى أن تئـوب إليهـمُ فعـالتْهُـمُ مـن دون ذاك شَعـوبُ
مقاديرُ لا يُغْفِلْن مَن حـان يـومـهُ لُهـنَّ على كـلِّ النُّفـوسِ رقيــبُ
سقَيْنَ بكأْسِ الموتِ من حان حيْنُـه وفي الحيّ مِن أنفاسِهـنَّ ذنـوبُ[4]
وإنـا وإيَّـاهـم كـوارِدِ منْهــلٍ على حـوْضِـه بـالبـاليـاتِ نهيـبُ
إليـه تنـاهَيْنـا ولـو حـال دونـهُ ميــاه وراء كُلِّهــن شَــروبُ
فهـوَّن عنيِّ بعـض وجْــدِيَ أنّني رأيـت المنـايـا تغْتـدِي وتـؤوبُ
ولسنـا بـأحيـا منهُــمُ غير أنَّنــا إلى أجـلٍ نُـدعـى لـه فنُجيـبُ

---

(١) الذمامة: العهد. (٢) العسيب: جريد النخل إذا نحى عنه خوصه.
(٣) شطوب: مبعدة. (٤) الذنوب: الحظ والنصيب.

وإني إذا ما شئْت لاقيْت أُسوةً   تكـادُ لها نفسُ الحزيـن تطيـبُ
فتًى كان ذا أهلٍ ومـالٍ فلم يَـزلْ   به الدهرُ حتى صار وهو حريـبُ(١)
وكيف عزاءُ المرءِ عن أهـلِ بيتـه   وليس لـه في الغابـريـنَ حبيـبُ
متى يُذكَروا يفرحْ فؤادي لِذكْرِهم   وتْسجُمْ دمـوع بينهـنّ نَحيـبُ
دموعٌ مراهـا الشَّجْـو حتى كـأنها   جـداولُ تجري بينهُـنَّ غُـروبُ(٢)
إذا ما أَردتُ الصبْرَ هاج لي البكـا   فـؤادٌ إلى أهـلِ القبـورِ طَـروبُ
بكى شجْوَه ثم ارْعوَى بعد عـوْلـه   كما واتَـرتْ بين الحنينِ سلُـوبُ(٣)
دعاها الهوى من سَبْقِهـا فهْـيَ والِهِ   ورُدَّت إليَّ الآن فهْـي تَحـوبُ(٤)
فوجْدي بأهلي وجـدُهـا غيرَ أنهم   شبابٌ يـزينـون النَّـدى ومشِيـبُ

من رثت زوجها

قال أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين رضي الله عنها ترثي زوجها الزبير بن العوام، وكان قتله عمرو بن جُرموز المجاشعي بوادي السِّباع وهو مُنصرف من وقعة الجمل وتروي هذه الأبيات لزوجته عاتكة التي تزوجها بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

غدَر آبن جُرمـوزٍ بفـارِس بُهْمـة   يوم الهيـاجِ وكـان غير مُعـرِّدِ(٥)
يـا عمـروُ لـو نبَّهْتَـه لـوجَـدتَـه   لا طائِشاً رعِش الجنـانِ ولا اليـدِ
ثكِلَتْـك أُمُّـك إن قتلْـت لمسلِماً   حلَّـت عليـك عقـوبـةُ المُتعمَّـدِ

لبانة زوجة الأمين ترثيه:

الهلالي قال: تزوّج محمد بن هارون الرشيد لُبانة بنت عليّ بن ريطة، وكانت من أجمل النساء، فقُتل محمد عنها ولم يبن بها، فقالت ترثيه:

---

(١) الحريب: المسلوب المال.   (٢) مراها: استخرجها واستدرها.
(٣) السلوب: الناقة مات ولدها.   (٤) تحوب: ترق له وتتوجع.
(٥) عرّد الرجل عن قرنه، إذا أحجم ونكل.

أبكيــــــك لا للنَّعيم والأُنسِ بــل لِلمعـالي والرُّمـح والفــرس
يــا فـارِسـاً بــالعـراءِ مُطَّـرحــاً خــانتْــه قُــوّادُه مــع الحرسِ
أبكـي على سيّــدٍ فُجِعـت بــه أرمَلَني قبــل ليلــةِ العُــرسِ
أم مَــن لِبرّ أم مَــن لعــائِـدةٍ أم مَن لِذكـرِ الإلـه في الغَلَسِ[1]
مَــن للحُــروبِ التي تكــون لها إن أُضْـرِمـت نـارهـا بلا قَبَسِ

وقال أعرابية ترثي زوجها:

كنَّــا كغصنينِ في جُرثومةٍ بسقا حيناً على خيرِ ما يَنْمى بـه الشجـر
حتى إذا قيل قد طالـت فـروعهُما وطاب قِنْواهما وآستَنظِـر الثَّمَـر[2]
أَخنَى على واحِدٍ رَيْبُ الزَّمانِ ومـا يُبقي الزَّمان على شيءٍ ولا يَـذَرِ[3]
كنَّـا كـأنجمِ ليـلٍ بينهـا قَمـرٌ يَجْلو الدُّجى فهَوىَ من بيْنِنا القمـر

الأصمعي وجارية على قبر زوجها:

الأصمعيّ قال: دخلتُ بعض مقابر الأعراب ومعي صاحب لي، فإذا جارية على قبر كأنها تمثال، وعليها من الحلي والحلل ما لم أر مثله، وهي تبكي بعين غزيرة وصوت شجي؛ فالتفت إلى صاحبي فقلت: هل رأيت أعجب من هذا؟ قال: لا والله ولا أحسبني أراه! ثم قلت لها: يا هذه إني أراك حزينة وما عليك زي الحزن. فأنشأت تقول:

فـإن تسـألاني فيمَ حُـزني فـإنني رهينــةُ هــذا القبر يــا فَتيــانِ
وإني لأستحييـه والتُّـربُ بيننــا كما كنـت أستْحييـه حين يـراني
أهابُك إجلالا وإن كنـت في الثرى مخافـةَ يـومٍ أن يســوءَك شــاني

ثم اندفعت في البكاء وجعلت تقول:

يا صاحب القبر يا مَن كان ينعمُ بي بــالا ويُكثِـر في الدُّنيـا مُـواسـاتي

---

(١) الغلس: ظلمة آخر الليل اذا اختلطت بضوء الصباح.
(٢) القنو: الغدق. (٣) أخنى عليه الدهر: أهلكه وأتى عليه.

قد زُرْت قبرك في حَلْي وفي حُلَلٍ   كأنني لستُ مِن أهلِ المُصيباتِ
أردتُ آتيك فيما كنتُ أعرفُه   أن قد تسرُّ به من بعضِ هيْآتي
فَمنْ رآني رأى عبْرى مولَّهةً   عجيبةَ الزيِّ تبكي بين أمواتِ

وقال: رأيت بصحراء جارية قد ألصقت خدها بقبر وهي تبكي وتقول:

خدِّي يقيك خُشونةَ اللَّحدِ   وقليلةٌ لك سيِّدي خدِّي
يا ساكنَ القبرِ الذي بوفاته   عميتْ عليَّ مسالِكُ الرُّشْدِ
اَسمعْ أبُثُّك عِلّتي ولعلّني   أُطفي بذلكَ حُرقةَ الوجدِ

من رثي جاريته

كان لمعلى الطائي جارية يقال لها وصف، وكانت أديبة شاعرة، فأخبرني محمد بن وضّاح، قال: أدركتُ معلّى الطائي بمصر وأُعطي بجاريته وصف أربعة آلاف دينار، فباعها؛ فلما دخل عليها قالت له: بعتني يا معلّى! قال: نعمْ. قالت: والله لو ملكتُ منك مثل ما تملك مني ما بعتك بالدنيا وما فيها! فردّ الدنانير واستقال صاحبه، فأصيب بها إلى ثمانية أيام؛ فقال يرثيها:

يا موت كيف سلبْتني وصفا   قدَّمْتها وتركتني خلفا
هلاَّ ذهبْتَ بنا معاً فلقد   ظفِرَتْ يداكَ فسُمْتني خسْفا
وأخذت شِقَّ النفسِ من بَدني   فقبَرْتَه وتركْتَ لي النَّصْفا
فعليْك بالباقي بلا أجلٍ   فالموْتُ بعد وفاتِها أعْفَى
يا موتُ ما أبقيْتَ لي أحداً   لمّا رفعتَ إلي البِلَى وصْفا
هلاّ رحِمْت شبابَ غانيةٍ   رياَّ العِظامِ وشعرَها الوحْفا(١)
ورحِمْت عيْنَيْ ظبيةٍ جعلتْ   بين الرِّياض تُناظِر الخِشْفا(٢)
تُغفي إذا انتصَبتْ فرائصه   وتظَلّ تَرعاهُ إذا أغْفَى(٣)

---

(١) الوحف: الأسود.   (٢) الخِشف: ولد الظبي.
(٣) الفرائص: مفرده فريصة، وهي لحمة بين الكتف والصدر ترتعد عند الفزع.

فإذا مشَى اختلَفت قوائِمه | وقت الرضاعِ فينطوي ضعْفّا
مُتحيراً في المشْي مُرتعِشاً | يَخطو فيضرِبُ ظِلْفُه الظّلفا
فكأنها وصفٌ إذا جعلتْ | نحوي تحيرُ محاجراً وُطْفا[1]
يا موت أنت كذا لكلِّ أخي | إلفٍ يصون ببِرِّه الإلْفا
خلَّيتني فرداً وبنتَ بها | ما كنتُ قبْلَك حاملاً وكْفا[2]
فتَركْتها بالرغم في جدَثٍ | للرِّيح تنسف تُربَه نَسفا
دون المُقطَّم لا أُلبِّسها | من زينةٍ قُرْطا ولا شنْفا[3]
أسْكنتها في قعْر مُظلمةٍ | بيتاً يُصافِح تُرْبُه السَّقْفا
بيتاً إذا ما زاره أحدٌ | عصفتْ به أيْدي البلِي عصْفا
لا نلتقي أبدا مُعاينةً | حتى نقوم لربِّنا صفّا
لبستْ ثياب الحتْف جاريةً | قد كنتُ ألبسُ دونَها الحتْفا
فكأنها والنفسُ زاهقةٌ | غصنٌ من الرَّيْحان قد جفَّا
يا قبرُ أبق على محاسِنها | فلقد حويْتَ البِر والظَّرفا

مروان بن محمد وجارية له خلفها بالرملة:

لما هُزم مروان بن محمد وخرج نحو مصر، كتب إلى جارية له خلفها بالرملة:

وما زال يدعوني إلى الصدَّ ما أرى | فآبيٰ ويثنيني الذي لكِ في صدري
وكان عزيزا أن تبيني وبيننا | حجابٌ فقد أمْسيْت منكِ على عشْر
وأنْكاهما للقلب والله فآعلمي | إذا آزددتُ مثليْها فصرْتُ على شهر
وأعظم من هذين والله أنني | أخاف بألاّ نلتقي آخر الدهر
سأبكيك لا مُستبقياً فيْض عبْرةٍ | ولا طالباً بالصبر عاقبةَ الصبر

(١) وُطفا: فاضلة الشفر مسترخية النظر.
(٢) الوكف: الجور والميل.
(٣) الشنف: القرط.

لأبي نواس يرثي جارية:

وجدوا على قبر جارية إلى جنب قبر أبي نواس أبياتا، ذكروا أن أبا نواس قالها، وهي:

أقـــولُ لِقبر زرتُـــــه مُتلثِّماً   سقى الله برد العفْوِ صاحبة القبرِ
لقد غَيَّبوا تحت الثرى قَمَرَ الدجى   وشمسَ الضُّحى بين الصَّفائح والقفْر
عجبتُ لعينٍ بعْدهـا ملَّـتِ البُكـا   وقلبٍ عليها يَرتَجِي راحـة الصبْـر

وقال حبيب الطائي يرثي جارية أصيب بها:

جُفوف البِلى أسرَعتْ في الغُصُن الرطْب   وخطْب الرَّدى والموت أبْرحْتَ من خطْب
لقد شرِقتْ في الشرق بالموت غـادةٌ   تبدَّلْتُ منها غُرْبَةَ الدار في القـرب
وألْبسَني ثـوبـاً مـن الحُزن والأسى   هلالٌ عليه نسْج ثوبٍ مـن التُّـرب
وكنتُ أُرجِّي القرْب وهْي بعيـدة   فقد نُقلتْ بعدي عن البعد والقرب
أقول وقد قالوا آستراحـت لموتِهـا   من الكرب روح الموت شرٌّ من الكرْب
لها منـزلٌ تحت الثَّـرى وعهـدْتها   لها منـزلٌ بين الجوانـح والقلـب(١)

وقال يرثيها:

ألم تَـرَني خلَّيْـتُ نفسي وشانَهـا   ولم أحفـل الدنيـا ولا حـدثـانَهـا
لقد خـوّفتْني النـائبـات صروفَهـا   ولـو أمَّنتْني مـا قبلْـت أمـانها
وكيـف على نـار الليـالي معرِّس   إذا كان شيْب العارضيْـن دُخـانها
أُصبْت بخوْدٍ سـوْف أغْبر بعـدهـا   حليف أسًى أبكي زمانـاً زمـانها(٢)
عِنان من اللّذات قد كان في يـدي   فلما قضى الالـف آستردّت عنـانها
منحْت المَها هَجري فلا مُحسِناتها   أُريد ولا يَهـوَى فـؤادي حسـانها
يقولون هل يبكـي الفتـى لخريـدةٍ   إذا ما أراد آعتاضَ عشْراً مكانها(٣)

---

(١) الجوانح: مفردها الجانحة، وهي الضلع القصيرة مما يلي الصدر.

(٢) الخود: الشابة الناعمة الحسنة الخلق. (٣) الخريدة: اللؤلؤة لم تثقب.

وهل يستعيضُ المرءُ من خَمْسِ كفِّه ... ولو صاغ من حُرِّ اللّجيْن بَنانها[1]

وقال أعرابي يرثي امرأته:

فوالله ما أدري إذا الليل جنَّني ... وذكرنيها أيُّنا هو أوجع
أمُنْفصل عنه ثرى أم كريمة ... أم العاشقُ النابِي به كلُّ مضجَع

وقال محمود الورّاق يرثي جاريته نشو:

ومُنتصَح يُردِّد ذكر نشوٍ ... على عمْدٍ لَيبعث لي آكتئابا
أقول ـ وعَدَّ ـ ما كانت تساوي ... سيَحسب ذاك مَن خلَق الحسابا
عطيَّتُه إذا أعطى سرورٌ ... وإن أخذ الذي أعطى أثابا
فأيُّ النِّعمتين أعم نفْعاً ... وأحسنُ في عواقبها إيابا
أنعْمته التي أهدت سروراً ... أم الأخرى التي أهدتْ ثوابا
بل الأخرى وإن نَزلتْ بحزْنٍ ... أحقُّ بشكر مَن صبَر آحتسابا

محب وجارية له ماتت:

أبو جعفر البغدادي قال: كان لنا جار، وكانت له جارية جميلة، وكان شديد المحبة لها؛ فماتت، فوجد عليها وجداً شديداً، فبينما هو ذات ليلة نائم، إذ أتته الجارية في نومه فأنشدته هذه الأبيات:

جاءَت تَزور وسادي بعدما دُفنت ... في النوم ألثِم خدا زانَه الجيد
فقلت قُرّة عيني قد نُعيت لنا ... فكيف ذا وطريق القبر مسْدود
قالت هناك عظامي فيه مُلحَدةٌ ... تنهَش منها هوام الأرض والدود[2]
وهذه النفسُ قد جاءَتْك زائِرةً ... فآقبل زيارَةَ مَن في القبر ملْحود

فانتبه وقد حفظها، وكان يحدّث الناس بذلك وينشدهم. فما بقي بعدها إلا أياما يسيرة حتى لحق بها.

---

(١) اللجين: الفضة.

(٢) الهوام: طيور صغيرة من طيور الليل تألف المقابر.

من رثي ابنة

قال البحتري في ابنة لأحد بني حميد:

ظَلَم الدهـــرُ فيكـــمُ وأســـاءَ فعـــزاءً بني حُمَيْـــدٍ عـــزاءَ
أنْفسٌ ما تَـــزال تفقــدُ فقــداً وصُـــدورٌ مـــا تبرح البُـــرَحـــاءَ
أصْبح السيـــف داءكم وهـــو الدا ءُ الذي مـــا يَـــزال يُعني الدواءَ
وانتحى القتْـــلُ فيكـــم فبكيْنـــا بـدمـاءِ الدموعِ تلـك الدّمـاءَ
يـا أبـا القـاسم المقسَّـمَ في النَّجْـــدةِ والجُود والنَّـــدي أجْـــزاءَ
والهِزبْـــر الذي دارت الحرْ ب به صَرَّف الرَّدى كيف شاء[1]
الأسْـــى واجـبٌ على الحُرِّ إمـا نيـــةً حُـــرّة وإمـــا ريـــاءَ
وسَفـــاهٌ أن يَجـــزَع الحُرّ مما كـــان حتْماً على العبـاد قَضـــاءَ
أنبكِّـي مَـــن لا يُنـــازِل بـــالسيـــف مُشِيحاً ولا يَهـزُّ اللِّـــواءَ[2]
والفتَـى مـن رأى القبـورَ لمن طـا ف بـه مـن بنـاتِـه الأكْفـاءَ
ليس مـــن زينـة الحيـاة كعـدّ الله منهـا الأمـــوالَ والابنـــاءَ
قد وَلدْن الأعـداءَ قِـدْمـاً وورّثــــنَ التِّلاد الأقــاصيَ البُعــداءَ
لم يئـــدْتِـــرْ بهنّ قيسُ تَميمٍ علّـــةً بـــل حَمّيـــةً وإبـــاءَ
وتغشَّـــي مُهلهـــلَ الذلُّ فيـــهـنّ وقـد أُعطيَ الأديمَ حبـاءَ
وشقيـقُ بـن فـاتـكٍ حـذَر العـا ر عليهـــنّ فـــارَق الدَّهنـــاءَ
وعلى غيرهـــنّ أحْـــزنَ يعقـــو بَ وقـــد جـاءَه بنُـوه عِشـاءَ
وشُعيـبٌ مـن أجلهـنّ رأى الوحْـــدةَ ضَعْفـاً فـاَستـأجـر الأنبيـاءَ
وتلفَّـت إلى القبـائـــل فـــاَنظـر أُمّهـــاتٍ ينسبْـــن أمْ آبـــاءَ
واَستـــزلَّ الشيطـــانُ آدمَ في الجـــنَّـــة لمّا أغْـرَى بـــه حـــوّاءَ
ولَعَمـري مـا العجـزُ عنـديَ إلا أن تَبيـت الرجـال تبكي النسـاءَ

---

(١) الهزبر: الأسد الكاسر.

(٢) المشيح: المانع لما وراء ظهره.

لحسان يرثي الرسول ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان:

قال حسّان بن ثابت يرثي رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر، رضوان الله عليهم:

ثلاثـــة بـــرزوا بسبْقهُـــم نضَّـرهُـــم ربُّهـــم إذا نشرُوا
عــاشـوا بلا فُـرقـةٍ حيـاتَهُـم وآجتمعـوا في المماتِ إذ قبِـروا
فليس مـن مسلِـم لـه بَصَـرٌ يُنكِـرُهـم فضْلَهـم إذا ذُكـروا

وقال حسان يرثي أبا بكر رضي الله عنه:

إذا تذكَّرْتُ شجْواً من أخـي ثقـة فاذكُـر أخـاكَ أبـا بكـر بما فعلا
خيرَ البريَّـةِ أتقـاهـا وأعـدَلها بعْـدَ النبيَّ وأوفـاهـا بما حَمَلا
الثـاني آثنينِ والمحمـودَ مشهَـدُه وأوّلَ الناسِ طُـراً صـدّقَ الرُّسُلا
وكان حِبَّ رسول اللهِ قد عَلمـوا مـن البريـةِ لم يَعـدِلْ بـه رجُلا

وقال يرثي عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

عليـك سلامٌ مـن أميرٍ وبـاركَـت يـدُ اللهِ في ذاكَ الأديمِ المُمـزَّقِ
فمن يَجْرِ أو يركبْ جَناحَيْ نعامـةٍ لِيدركَ ما قدّمْتَ بالأمسِ يُسبَـقِ
قضيْتَ أُموراً ثم غـادرْتَ بعـدهـا نـوافِـجَ في أكمامِهـا لم تفتّـقِ
وما كنتُ أخشى أن تكون وفاتُـه بكفَّيْ سَبَنْتَي أزْرقِ العينِ مُطْرقِ(١)

وقال يرثي عثمان بن عفان رضي الله عنه:

مَن سرَّه الموْتُ صِرفاً لا مِزاج لـه فلْيـأتِ مـا سَـرَّه في دار عثمانـا
إني لمنهم وإن غابـوا وإن شهِـدوا ما دمتُ حياً وما سُمِّيـت حَسّـانـا
يا ليّت شِعْري وليْت الطيرَ تُخْبِرني ما كـان شـأْن عليٍّ وابـن عفّـانـا
لتَسمعَـنَ وشيكـا في ديـارِهـم آللهِ أكبرُ يــاثــاراتِ عثمانـا
ضحَوْا بأشْمط عُنوان السُّجود بـه يُقطّـع الليْـل تسبيحـاً وقُـرآنـا(٢)

(١) السبنتي: الجريء (٢) الأشمط: الأشيب.

وقال الفرزدق في قتل عثمان رضي الله تعالي عنه:

إنّ الخلافـة لما أظعنـتْ ظَعَنـتْ … من أهل يَثرب إذ غيرَ الهدى سَلَكوا [١]
صارتْ إلى أهلها منهم ووارثها … لَمّا رأى الله في عُثمان ما انتَهكوا
السافِكي دمَه ظلما ومعصيَةً … أيَّ دمٍ لا هُدُوْا مِن غيِّهم سفَكوا

وقال السيد الحميري يرثي علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ويذكر يوم صفّين:

إني أدِين بما دان الوصي به … وشاركتْ كفه كفّي بصِفّينا
في سفك ما سَفَكتْ منها إذا احتُضِروا … وأبرزَ الله للقسط الموازينا
تلك الدِّماءُ معاً يا ربِّ في عُنقي … ثم اسقني مثْلَها آمين آمينا
آمين مَن مثلهُم في مثْل حالِهمُ … في فِتْية هاجروا لله سارينا
ليسوا يريدون غير الله ربِّهمُ … نعْم المراد تَوخّاه المريدونا

أنشد الرياشي لرجل من أهل الشام يرثي عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه:

قد غيّبَ الدّافنون اللحْدَ إذ دَفَنوا … بدِيْر سَمْعان قِسْطاسَ الموازينِ [٢]
ولم يكن همُّه عيْنا يُفَجِّرُها … ولا النخيل ولا رَكْض البَراذين [٣]
أقول لَمّا أتاني نعْيُ مهلِكه … لا تُبعَدنَّ قِوام المُلك والدِّين

وقال الفرزدق يرثي عبد العزيز بن مروان:

ظلّوا على قبره يستغفرون له … وقد يقولون تاراتٍ لنا العَبرُ [٤]
يُقبِّلون تراباً فوق أعظُمِه … كما يقبل في المَحجوجة الحجر [٥]
لله أرضٌ أجَنَّته ضريحَتُها … وكيف يُدفن في المَلْحودة القمرُ [٦]
إنّ المنابر لا تَعْتاض عن ملِكٍ … إليه يَشْخص فوْق المِنبر البصرُ

---

(١) ظعنت: سارت وارتحلت (٢) القسطاس: أضبط الموازين وأقومها.
(٣) البراذين: جمع برذون، ويطلق على غير العربي من الخيل والبغال.
(٤) العبر: الاعتبار. (٥) المحجوجة، أي مكة.
(٦) الضريحة: ما كان في وسط اللحد.

وقال جرير يرثي عمر بن عبد العزيز:

يَنعـــي النُّعـــاةُ أمير المؤمنين لنـــا ... يا خير من حجّ بيْت الله وآعتمـرا
حُمِّلْت أمراً عظيما فـاصطبرْت لـه ... وسِرْت فيـه بحكـم الله يـا عُمَـرا
فالشمس طالعـةٌ ليسـت بكـاسفـةٍ ... تبكي عليـك نجوم الليـل والقمـرا

قال جرير يرثي الوليد بن عبد الملك:

إنّ الخليفـــة قـــد وارتْ شمائلَـــه ... غَبْراءُ ملحـودةٌ في جُـولها زَوَرُ(١)
أمسى بنوه وقـد جلّـت مصيبتهـم ... مثلَ النجوم هَوى من بينِها القمـر
كـانـوا جميعـاً فلم يَـدفـع منيتَـه ... عبـد العـزيـز ولا روْحٌ ولا عُمَـر

وقال غيره يرثي قيس بن عاصم المنقريّ:

عليك سلام الله قيس بـن عـاصمٍ ... ورحمتُـه مـــا شـــاء أن يترحَّما
تحيـة مَـن ألبْستَـه منـك نعمـةً ... إذا زار عن شَحْـط بلادك سلَّما(٢)
وما كان قيسٌ هُلْكه هُلْكَ واحـدٍ ... ولكنــه بُنْيـان قـــوم تهدّمـــا

وقال أبو عطاء السندي يرثي يزيد بن عمر بن هُبيرة لما قُتل بواسط:

ألا إنّ عينـاً لم تجُدْ يـوم واسـطٍ ... عليـك بجاري دمعِهـا لجمـودُ
عشيّـة راح الدّافِنـون وشُقِّقـت ... جيـوبٌ بـأيـدي مـأتم(٣) وخُـدودُ
فـإن تـك مهجـورَ الفِنـاء فـربَّما ... أقـام بـه بعـد الوُفـود وُفـودْ
وإنــك لم تَبعـــد على مُتعهِّـــد ... بلى إنّ مَـــن تحت الترابِ بعيـــد

وقال منصور النمري يرثي يزيد بن مزيد:

متى يَبرُدِ الحُزنُ الذي في فـؤادنـا ... أبا خالـد مِـن بعـد أن لا تَلاقيـا
أبا خالد مـا كـان أدْهـى مُصيبـة ... أصابت معَداً يوم أصبحت ثـاويـا
لعَمْري لئن سُرَّ الأعادي وأظهـروا ... شماتا لقد سرُّوا بـربْعِـك خـاليـاً

(١) الجول: الناحية، والزور: الميل والانحراف.

(٢) الشحط: البعد. (٣) المأتم: جماعة النساء.

وأوْتـارُ أقـوام لـديْـك لـويْتَهـا وزُرتَ بها الأجداث وهْيَ كما هيـا
تُعـــزِّي أمير المؤمنين ورهْطَـــه بسيف لهم ما كان في الحرب نابيـا
على مثلِ ما لاقي يزيد بن مـزيـدٍ عليه المنايا فالْـقَ إن كنـت لاقيـا
وإن تك أفْنَتْـه الليـالي وأوْشكـت فـإنّ لـه ذِكْـراً سيُفْني الليـاليـا

وقال:

سأبكيك ما فاضت دُموعي فإنْ تغِضْ فحسبُك مني ما تُجِـنُّ الجوانـحُ[1]
كأنْ لم يمت حـيٌّ سواك ولم تقـم على أحـد إلاَّ عليـك النَّـوائـح
لئن حسنت فيك المراثي وذِكْرُهـا لقد حسنتْ من قبل فيك المدائـحُ
فما أنا مـن رُزْءٍ وإن جـلَّ جـازعٌ ولا بسُرورٍ بعد مـوْتـك فـارح[2]

وقال زياد الأعجم يرثي المغيرة بن المهلّب:

إنّ الشجـاعـة والسَّماحـة ضُمِّنـا قبراً بمرْوَ على الطـريـق الواضـحِ
فـإذا مـررت بقبره فـاعْقِـرْ بـه كومَ الهجان وكلَّ طِرْفٍ سابـح[3]
وانضح جـوانـب قبره بـدمـائهـا ولقـد يكـون أخـا دمٍ وذبـائـح
والآن لمّا كنـت أكمـل مَـن مشى وافترَّ نـابُـك عـن شَبـاةِ القـارحِ
وتكـامَلـت فيـك المُروءةُ كلُّهـا وأعنْت ذلك بـالفعـالِ الصـالـح

للمهلبي من مرثيته للمتوكل:

لا حُـزن إلا أراه دون مـا أجـدُ وهل كمنْ فقدتْ عينـاي مُفْتقَـدُ
لا يَبعدَنْ هـالـك كـانـت منيتُـه كما هوى مِن عطاء الزُّبية الأسـدُ[4]
لا يدفع النـاسُ ضيما بعـد ليلتهِـم إذ لا تُمـدُّ على الجاني عليـك يَـدُ
لو أنّ سيْفي وعقْلي حـاضران لـه أبليتُـه الجهْـد إذ لم يبلـه أحـد

---

(١) جنّ: ستر. (٢) جلّ: عظم.

(٣) الهجان: أجود الإبل واكرمها أصلاً؛ والطرف من الخيل: الكريم العتيق.

(٤) الزُّبية: حفرة تحفر للأسد ثم تغطى فيمر بها الأسد فيهوي فيها فيصاد.

هلا أتتْه أعاديه مُجاهَرةً | والحرب تُسعَر والأبطال تَجتلد
فخرَّ فوق سرير الملك مُنْجدلا | لم يَحْمه مُلكه لمَّا آنقضى الأمد
قد كان أنصارُه يَحمون حوْزتَه | وللرَّدى دون أرصاد الفتي رصَد
وأصبح الناس فوضى يَعجبون له | ليثاً صريعاً تنَزّى[1] حوله النقد[2]
علَتْك أسيافُ من لا دونَه أحدٌ | وليس فوْقك إلاَّ الواحدُ الصَّمد
جاءوا لدنيا عظيمٍ يَسْعَدون بها | فقد شَقوا بالذي جاؤا وما سَعِدوا
ضجت نساؤك بعد العز حين رأت | خداً كريماً عليه قارتٌ جَسِد[3]
أضحى شهيدُ بني العباس موعظةً | لكلِّ ذي عِزَّة في رأسه صيد[4]
خليفة لم يَنَلْ ما ناله أحدٌ | ولم يُصِغْ مثلَهُ رُوحٌ ولا جسد
كم في أديمك من فوْهاء هادرةٍ | من الجوائفِ يَغلِي فوقها الزَّبَد[5]
إذا بكيت فإنّ الدمعَ مُنهَمِل | وإن ونيْت فإنّ القولَ مطَّرِد
قد كنتُ أُسرفُ في مالي ويُخلِفُ لي | فعلَّمتْني الليالي كيف أقتصِد
لما آعتقدتم أُناساً لا حُلومَ لهم | ضعتم وضيَّعتُمُ من كان يُعتقَد
فلو جعلتم على الأحرار نِعمتَكم | حَمتكُمُ السادةُ المركوزةُ الحُشُد
قومٌ هم الجذم والأنسابُ تجمَعُكم | والمجدُ والدينُ والأرحامُ والبلد
قد وَتَّر الناسَ طراًّ ثم قد صمتوا | كأنما كان ما يتلونه رَشَد
إذا قريشٌ أرادوا شدَّ مُلكِهم | بغير قحطانَ لم يبرحْ به أَوَد
مَنِ الأُلَى وهبوا للمجدِ أنفسَهم | فما ينَالون ما نالوا إذا حمِدوا

وقال آخر:

وفتى كأنّ جبينَه بدرُ الدُّجا | قامت عليه نوادِبُ وروامِس

---

(١) التنزي: الوثوب. (٢) النقد: جنس من الغنم.
(٣) قارت جسد، أي دم قد يبس. (٤) الصيد: إمالة الرأس كبرا.
(٥) فوهاء هادرة، يريد طعنة واسعة تقذف بالدم؛ والجوائف جمع جائفة، وهي الطعنة تبلغ الجوف.

غـرَسَ الفسيـلَ مـؤمِّلا لبقـايـة فنما الفسيـلُ ومـات عنـه الغـارِس

وقال الأسود بن يعفر:

مــاذا أُؤمِّــلُ بَعـــد آلِ محرِّقٍ تـركـوا منــازلهم وبعــد إيــادِ
أهل الخورْنَقِ والسـديـرِ وبـارق والقصرِ ذي الشُرفاتِ من سِنداد [1]
نـزلـوا بـأنقِـرةٍ يسيـلُ عليهـمُ مـاءُ الفـراتِ يجيءُ مـن أطـواد
جـرت الريـاحُ على محلِّ ديـارهـم فكــأنما كــانــوا على ميعـــاد
ولقـد غنـوْا فيهـا بـأنَعـمِ عيشـةٍ في ظـلِّ مُلْـكٍ ثـابـتِ الأوتـاد
فـإذا النعيمُ وكـل مـا يُلْهـى بـه يـــومـــاً يصيرُ إلى بِلى ونَفـــاد

وقال عَبيد بن الأبرص:

يا حارِ ما راح من قومٍ ولا ابتكروا إلا وللمـوتِ في آثـارهـم حـادي
يا حار ما طلعتْ شمسٌ ولا غرَبتْ إلا تقــرِّبُ آجـــالا لِميعـــادِ
هـل نحن إلا كــأرواح يُمَــرُّ بها تحتَ الترابِ وأجسـادٌ كـأجســاد

للحجاج في ابن خارجة:

لما مات أسماء بن خارجة الفَزّاري قال الحجاج: ذلك رجل عاش ما شاء، ومات حين شاء.

وقال فيه الشاعر:

إذا مات ابنُ خـارجـةَ بـنِ زيـدٍ فلا مَطَـــرت على الأرضِ السماءُ
ولا جــاء البريـــدُ بغُنْــمِ جيشٍ ولا حملــتْ على الطُّهْــر النســاء
فيـومُ منــك خيرٌ مـــن رجــالٍ كثيرٍ عنـدَهـم نَعـمٌ وشــاء

وقال مسلم بن الوليد الأنصاري:

أمسعودُ هل غاداك يـومٌ بفـرحـة وأمسيتَ لم تَعـرِض لها التَّرَحـاتُ

---

(١) بارق: موضع بالكوفة.

وهـل نحن إلا أنفسٌ مستعـارةٌ ... تَمُـرُّ بها الرَّوحـاتُ والغـدَوات
بكيـتَ وأعطتْـك البكـاءَ مصيبـةٌ ... مضتْ وهي فـردٌ مـا لها أخـوات
كأنك فيها لم تكـن تعـرِف العَـزا ... ولم تتعمـــدْ غيرَك النَّكبـــات
سقى الضاحكُ الوسميُّ أعظمَ حفرةٍ ... طواها الردي في اللَّحدِ وهْي رُفات
أرى بهجـةَ الدنيـا رجيـعَ دوائـر ... لهنَّ اجتماعٌ مـــرة وشَتـــات(١)
طوى أيدِيَ المعروفِ مصرعُ مالـك ... فهـنَّ عـن الآمـالِ منقبِضـات

وقال أيضاً:

أمـــا القبـــورُ فـــإنهن أوانسٌ ... بجوارِ قبركِ والديـــار قبـــورُ
عمَّـت فـواضلـه وعـمَّ مُصـابُـه ... فـالنـاسُ فيـه كلهـم مـأجـور
ردّتْ صنـائعُـه إليــه حيــاتَــه ... فكـأنـه مــن نشرهــا منشــورُ

وقال أشجع بن عمرو السُّلمي يرثي منصور بن زياد:

يـا حُفـرةَ الملـك المؤمَّـل رفـدُه ... ما في ثراك مـن النَّـدى والخيـر؟
لا زلـت في ظِلْينِ ظـلَّ سحـابَـةٍ ... وطْفـاءَ دانيـةٍ وظِـلِّ حُبـور(٢)
وسقىَ الوليُّ على العِهادِ عِراص مـا ... والاَك مِـن قبرٍ ومــن مقْــور(٣)
يا يومَ منصور أبَحْتَ حِمَى النَّـدى ... وفجعتَــه بــوليِّــهِ المذكــور
يا يومَـهُ مـاذا صنعـتَ بِمُـرمْـلٍ ... يـرجـو الغنى ومُكبَّـل مــأسـورِ
يا يومه لو كنـتَ جئـت بنُصحـهِ ... فجَمعـــت بين الحيِّ والمقبـــورِ!
لله أوصــــال تقسَّمَهــــا البلى ... في الَّلحدِ بين صَفـائـحٍ وصُخـورِ
عجبـا لخمَسنـةِ أذرُعٍ في خمَسَـةٍ ... غطَّـــت على جَبَـــل أشمَّ كبيرِ
مَن كان يَملأُ عرضَ كـلِّ تَنـوفـةٍ ... واراهُ جـولاً ملْحَـد محفـور(٤)
ذلَّـت بمصرعـهِ المكـارمُ والنَّـدى ... وذُبـابُ كـلِّ مُهنَّـدٍ مــأثـورِ
أفَلـت نجومُ بني زِيـادٍ بعـدمـا ... طلَعـت بنـورِ أهلَـةٍ وبُـدور

(١) الشتات: الافتراق.
(٢) وطفاء: المسترخية الجوانب.
(٣) العهاد: المطر الأول.
(٤) الجول: ناحية القبر.

لــولا بقــاءُ محمد لتصــدَّعــت ... أكبــادُنــا أسفــاً على منصــورِ
أبقـى مكـارمَ لا تبيـدُ صفـاتُهـا ... ومضَـى لِـوقـتِ حِمامِـه المقـدور
أصبحْت مهجـورا بحُفـرتِـك التي ... بُـدِّلتَهـا مــن قصرِك المعمــور
بليتْ عِظامُك والصفـاحُ جـديـدةٌ ... ليس البِلى لِفعـالِـك المشهـورِ
إن كنت ساكنَ حُفرةٍ فلقد تـرى ... سكَنـاً لعُـودَيْ مِنبَـر وسريــرِ

وقال يرثي محمد بن منصور:

أنعَــي فتَــى الجودِ إلى الجودِ ... مـا مِثـلُ مــن أنعَــى بموجــودِ
أنعــي فتى مــصّ الثرى بعــده ... بقيــةَ الماءِ مــن العــودِ
فــانثلم المجــدُ بــه ثلمــةً ... جــانِبُهــا ليس بمســدودِ
أنعـي ابــن منصــور إلى سيّــدٍ ... وأيِّــدٍ ليس بــرعــديــدِ[1]
وأشعــثٍ يسعــى على صِبيــة ... مثــلِ فــراخِ الطير مجهــودِ
وطــارق أعيــا عليــه القِـرى ... ومسلم في القيــدِ مصْفــود
اليــومَ تُخْشَــى عثراتُ النَّـدى ... وعــدوَةَ البُخــلِ على الجود
أورَدَهُ حــوضــاً عظيم الشــأى ... في المجــدِ يــومٌ غيرُ محمُودِ
كــلُّ امــرىءٍ يجري إلى مُــدَّةٍ ... وأجــلٍ قــد خُــطَّ معْــدُود
سيَنطِــقُ الشعــرُ بــأيــامــه ... على لســانٍ غير معقــودِ
فكــلُّ مفقــود إلى جَنبــه ... وإن تعــالى غيرُ مفقــودِ
يــا وافِــدَيْ قــومِها إنَّ مَــنْ ... طلبْتُما تحت الجلاميــــدِ
طلبتُما الجودَ وقــد ضَمَّــهُ ... محمدٌ في بطــن ملحــودِ
فــاتَكُما الموتُ بمعــروفِــه ... وليس مــا فــاتَ بمردُودِ
يـا عضُـداً للمجــدِ مفتــوقـة ... وســاعــداً ليس بمعضــودِ
أوْهَــن زَنــديْهــا وأكبــاهُما ... قــرعُ المنــايــا في العنــاديــدِ[2]

(١) الرعديد: الجبان يرتعد ويضطرب عند القتال جبنا.
(٢) يقال أكبى الرجل، أي لم تخرج نار زنده.

وهـدّتِ الركـنَ الذي كـان بـالـ ـأمْسِ عماداً غيرَ مَهـــــدودِ

وقال حبيب الطائي يرثي خالد بن يزيد بن مزيد:

أشيبـانُ لا ذاك الهلالُ بطـالِـع علينـا، ولا ذاك الغمامُ بعـائـدِ
أشيبانُ عمَّت نـارُهـا مـن رزيئـة فما تشتكي وجـداً إلى غير واجـدِ
فما جانبُ الدنيا بسهل ولا الضُّحـى بطلـقٍ ولا مـاءُ الحيـاة ببـارِدِ
فيا وحْشة الدنيـا وكـانـت أنيسـةً ووَحدةً مـن فيهـا بمصرعِ واحـدِ

وأنشد أبو محمد التَّيميّ في يزيد بن مزيد:

أحقـا أنـه أودَى يـزيـدُ فبيِّـنْ أيها النـاعـي المُشيـدُ[1]
أتدري من نَعيْتَ وكيف فـاهَـتْ بـه شفتـاك وارك الصعيـدُ[2]
أحـامـي الملـكِ والإسلام أوْدَى فما للأرض ويْحَكَ لا تَميـدُ
تأمَّل هـل تـرى الإسلام مـالـت دعـائمُـه وهـل شـاب الوليـد
وهـل شِيمَـتْ سيـوف بني نِـزارٍ وهل وُضِعت عن الخيـل اللُّبـود[3]
وهل تَسْقِي البلاد عِشارُ مُـزْنٍ بـدِرّتِهـاوهـل يخضرُّ عـودُ
أمـا هُـدَّتْ لمصرَعِـه نِـزارٌ بلَـى، وتقـوَّض المجـدُ المشيـدُ
وحـلَّ ضريحَهُ إذ حـلَّ فيـه طـريـفُ المجدِ والمجدُ التليـدُ
وهُـدَّ العـزُّ والإسلامُ لَمّا ثـوى وخليفـةُ اللهِ الرشيـدُ
لقـد أوفَـى ربيعـةَ كـلّ نحس لِمَهْلكـه وغُيِّبـت السُّعـودُ
وأُنصِلـتِ الأسنَّـة مـن قنـاهـا وأشرِعَـتِ الرِّمـاحُ لمن يكيـدُ
نعِـيُّ يـزيـدَ إن لم يبـقَ بـأسٌ غـداةَ مضى وإن لم يبـقَ جـود
نعِـيُّ أبي الزُّبير لكـلِّ يـومٍ عبوسِ الوجـهِ زينتُـه الحديـدُ
أأودى عِصمـةُ البـادي يـزيـدُ وسيـفُ اللهِ والغيـثُ الحميـدُ[4]
فمن يَحمي حِمَى الإسلام أم مَـن يَـذُبُّ عـن المكـارهِ أو يـذودُ

(١) أودى: هلك. (٢) الصعيد: المرتفع من الأرض.
(٣) شيحت السيوف: سلت. (٤) البادي: الذي يخرج إلى البادية طلبا للقرب من الكلأ.

وَمَن يَدعو الأنامَ لِكلِّ خطْبٍ يُخافُ وكلِّ مُعضلةٍ تؤود[1]
ومَن تُجْلَى به الغمراتُ أم مَن يقومُ بها إذا اعوَجَّ العَتودُ
ومن يَحمي الخميسَ إذا تعايَا بحيلةِ نفسهِ البطَلُ النَّجيد[2]
وأيْنَ يؤُمُّ مُنتجِعٌ ولاجٍ وأين تَحُطُّ أرحُلَها الوفودُ
لقد رُزِئتْ نِزارٌ يومَ أوْدى عميداً ما يُقاسُ به عميد
فلو قَبِلَ الفداءُ فداه منَّا بمهجته المسوَّدُ والمسود
أبعْدَ يزيدَ تختزِنَ البواكي دُموعاً أو تُصان لها خُدود
أمَا باللهِ لا تنفَكُّ عيني عليهِ بدمعِها أبداً تَجودُ
وإنْ تَجمُد دُموع لئيم قومٍ فليس لدمعِ ذي حسَب جُمودُ
وإنْ يكُ غالَهَ حسَب فأودَى لقد أودى وليس له نَديد
وإن يعْثرْ به دهرٌ لما قدْ يُفادِي من مَخافته الأسُود
وإن يَهلِكْ يَزيدُ فكلُّ حيّ فريسٌ للمنيَّة أو طريد
فإن يك عن خلودٍ قد دعته مآثِرُه فكان لها الخُلود
فما أودى امرؤ أودَى وأبقى لوارثهِ مكارم لا تَبيد
ألم تعلم أخي أنّ المنايا غدَرْنَ به وهُنَّ له جنود
قصَدنَ له وكنّ يَحدْن عنه إذا ما الحرب شبَّ لها الوَقود
فهلا يوم يقدَمُها يزيد إلى الأبطال والخيلان حِيد
ولو لاقَى الحُتوفَ على سواءٍ لَلاقاها به حتْف عنيد
أضرَّابَ الفوارس كلَّ يومٍ ترى فيه الحُتوفُ لها وَعيد
فمن يرْضي القواطعَ والعوالي إذا ما هزها فرعٌ شديد
لتَبكِك قُبة الإسلام لمَّا وَهتْ أطنابُها ووهَى العمود
ليبْكِك مُرهَق يتْلوه خيْل إبالَة وهْو مجْدول وحيد[3]

(١) تؤدد: تشق. (٢) تعايا: عي وعجز.
(٣) إبالة: كثيرة.

ويبْكِك خامِل ناداك لمّا … تواكلَه الأقارب والبعيد
ويبكِك شاعر لم يُبق دهر … له نَشأً وقد كَسَد القصيد
تَركْتَ المشْرفَية والعَوالي … مُحلأَّة وقد حان الوُرود[1]
وغادرْتَ الجِيادَ بكلِّ لُغزٍ … عواطِلَ بعد زينتِها تَرود[2]
فإن تُصبح مُسلَّمة فمّا … تُفيد بها الجَزيل وتستفيد
ألم تكُ تكشِف الغمَرات عنها … عوابَس والوجُوه البيضُ سُود
أُصيبَ المجدُ والإسلام لما … أصابك بالردى سهمٌ شديد
لقد عزّى ربيعةَ أنّ يوما … عليها مثل يومِك لا يعود
ومثلُك مَن قصدْن له المنايَا … بأسهمها وهُنّ له جنُود
فيا للدهر ما صنَعتْ يداه … كأنَّ الدهر منها مُستفيد
سَقى جدَثاً أقام به يَزيد … من الوسْميَّ بسّامٌ رَعود
فإنْ أجزعْ لَمهلِكه فإني … على النّكبات إذ أوْدى جَليد
ليذْهبْ مَن أراد فلسْتُ آسَى … على مَن مات بعدك يا يَزيد

وقال مروان بن أبي حفصة يرثي معن بن زائدة:

زار ابنُ زائِدة المقابَر بعدما … ألقتْ إليه عُرى الأمُور نزارُ
إن القبائل من نِزارٍ أصبحتْ … وقلوبُها أسفاً عليه حِرار
ودّت ربيعة أنها قُسمتْ له … منها فعاش بشطْرها الأعمار
فلأَبكيَنّ فتَى ربيعة ما دَجا … ليلٌ بظلْمته ولاح نَهار
لا زال قبرُ أبي الوليد تَجودهُ … بعِهادها وبوَبلها الأمطار
قبرٌ يضمُ مع الشجاعة والنّدى … حِلْما يُخالطهُ تُقًى ووقار
إن الرزيَّة من ربيعة هالكٌ … تَرك العيونَ دموعهنّ غِزار
رحْبُ السُّرادقِ والضِّياء جبينهُ … كالبدرِ شقَّ ضياءَهُ الإسفار

---

(١) محلأة: محبوسة.
(٢) اللغز: ما التوى واشكل على سالكه.

لهفاً عليك إذا الطّعان بمارقٍ | تَرك القَنا وطِوالُهنّ قِصار[1]
خَلّى الأعِنّة يوم ماتَ مُشَيَّعٌ | بطلُ اللقاءِ مُجرّب مِغوارُ[2]
يُمسي ويصبحُ مُعلماً تذْكى به | نارٌ بمُعترك وتَخمدُ نار
مهما يُمِرُّ فليس يَرجو نقضَهُ | أحدٌ وليس لنقْضِه إمرارُ[3]
لو كان خلْفك أو أمامَك هائِباً | أحداً سِواك لهابَك المقدار

وقال يرثيه:

بكى الشامُ معْناً يوم خلَّى مكانهُ | فكادت له أرضُ العِراقين ترجُفُ
ثوى القائِدُ الميمونُ والذّائدُ الذي | به كان يُرمَى الجانبُ المُتخوّف
أتى الموتُ مَعْناً وهْوَ للعِرْضِ صائنٌ | وللمجدِ مُبْتاعٌ وللمالِ مُتلِفُ
وما مات حتى قلّدتْه أمورَها | ربيعة والحيَّانِ قيس وخِنْدِفُ
وحتى فشا في كلّ شرقٍ ومغربِ | أيَاد له بالضُّرِّ والنفْعِ تُعرَف
وكم من يَدٍ عندي لِمَعْنٍ كريمةٍ | سأشكرُها ما دامتِ العينُ تطرِف
بكتْه الجِيادُ الأعوجيَّةُ إذ ثَوَى | وحَنَّ مع النَّبْعِ الوشيج المثقَّف[4]
وقد غَنِيتْ ريح الصَّبا في حياتِهِ | قَبولاً فأمْستْ وهي نكْباءُ حَرجَف[5]

وقال أبو الشيص يرثي هارون الرشيد ويمدح ابنه محمد بن زبيدة الأمين:

جرتْ جَوَارٍ بالسعدِ والنحسِ | فنحن في وحشةٍ وفي أُنْس
العين تبكي والسِّنُّ ضاحكة | فنحن في مأتَمٍ وفي عُرسْ
يُضحِكُنا القائم الأمينُ ويُبـ | ـكينا وفاةُ الإمام بالأمس
بَدرانِ بدر أضحى ببَغدادَ في الـ | ـخُلْدِ وبدر بِطُوسَ في الرَّمْس[6]

وأنشد العتبي:

---

(١) المارق: النافذ في كل شيء. (٢) المشيع: الشجاع.
(٣) يمر: يحكم ويعقد. (٤) الأعوجية: نسبة إلى أعوج.
(٥) الحرجف: الريح الباردة. (٦) الخلد: قصر الخلافة ببغداد.

والمرءُ يَجمَعُ مـالـه مستهتِـراً   فـرِحـاً وليس بـآكِـلِ مـا يجمـعُ
ولَيـأتِيَـنَّ عليـك يـومـاً مـرة   يُبكـي عليـك مُقنَّعـاً لا تَسْمَـع

وقال حارثة بن بدر الغُداني يرثي زياد بن ظَبيان:

صلى الإلٰـهُ على قبرٍ وطهَّـره   عند الثَّويَّـةِ يُسفَـي فـوقَـه المُورُ[1]
زَفَّتْ إليـه قـريش نعْشَ سيـدِهـا   فثَـمَّ كـلُّ التُّقَـى والبِـرِّ مقبـور
أبـا المُغيرة والدُّنيـا مغيِّـرةٌ   وإنَّ مَـن غـرَّت الدنيـا لَمَغـرور
قد كان عندَك للمعروفِ معـرفـة   وكـان عنـدَك للتنكيرُ تنكير
لو خَلَّـدَ الخيرُ والإسلامُ ذا قـدَمٍ   إذاً لخلَّـدَك الإسلامُ والخِير
قد كنتَ تَخشى وتُعطِي المالَ من سعـةٍ   إن كان بيتُك أضحى وهْو مهجور

وقال نهار بن تَوْسِعة يرثي المهلَّب:

ألاَ ذهـبَ الغـزْوُ المقـرِّبُ للغِنَـى   ومات الندَى والحزْمُ بعـد المهلَّـبِ
أقـام بِمَـرْوِ الرُّوذِ رَهْـن ضريحه   وقد غُيِّبا عن كلِّ شرقٍ ومغـرب

وقال المهلهل بن ربيعة: يرثي أخاه كليب بن وائل؛ وكان كليب إذا جلس لم يرفع أحد بحضرته صوته:

ذهب الخِيارُ مـن المعـاشِـرِ كلهِـم   وآستَبَّ بعدَك يـا كليْـبُ المجلِسُ
وتناولـوا مـن كـل أمـر عظيمـة   لو كنتَ حاضرَ أمرِهـم لم يَنبِسـوا

وقال عبد الصمد بن المُعذَّل يرثي سعيد بن سَلْم:

كم يتيمٍ جبَـرْتَـهُ بعـدَ يُتْـمِ   وعـديمٍ نعَشْتَـه بعـدَ عُـدْمِ
كـلُّ مـا عُـضّ بـالحوادث نـادى   رضي اللهُ عـن سعيـدِ بـنِ سَلْـم

وقال ابن أخت تأبط شراً يرثي خاله تأبط شراً الفهميّ؛ وكانت هُذيل قتلته:

إنَّ بـالشِّعْـب الذي دون سَلْـعٍ   لَقتيلاً دمُـهُ مـا يُطـلُّ[2]

---

(١) الثوية: موضع بالكوفة.   (٢) الشعب: الطريق بالجبل.

قـــذَفَ العِـــبْءَ عليَّ وولّـــى   أنـا بـالعِـبْءِ لـه مستقِـلٌّ (١)
ووراءَ الثـأرِ مني ابـنُ أُخْـــتٍ   مَصِـعٌ عُقْـدتُـه مـا تُحَـلُّ (٢)
مُطْرقٌ يَـرْشح مـوْتـاً كما أطْـــرَق أفْعـى يَنفُـث السُّمَّ صِلُّ (٣)
خبَـرٌ مـا نـابَنـا مُصْمئـلٌّ   جـلَّ حتى دقَّ فيـه الأجـلُّ (٤)
بـزّني الدهـر وكـان غَشـومـا   بـأبـيّ جـارُه مـا يَـذلُّ (٥)
شـامسٌ في القمـرِّ حتى إذا مـا   ذكَـتِ الشِّعْـرى فبردٌ وظـلُّ (٦)
يـابسُ الجنبيْـن مـن غير بـؤسٍ   ونـدِيُّ الكفين شهْـمٌ مُـدِلُّ (٧)
ظـاعـنٌ بـالحزْم حتى إذا مـا   حَـلَّ حـلَّ الحزْمُ حيـث يحُلُّ
ولـــه طعْمان أرْيٌ وشَـــرْيٌ   وكِلاَ الطَّعْميْـن قـد ذاق كـلٌّ (٨)
رائـحٌ بـالمجـد غـادٍ عليـه   من ثياب الحمد ثـوْبٌ رِفَـلٌّ
أفتـحُ الراحـةِ بـالجود جَـوَاداً   عـاش في جـدْوَى يَـديْـه المُقِـلُّ
مُسْبِـلٌ في الحيِّ أحْـوى رِفَـل   وإذا يَغـــزو فَسِمْـعٌ أزلُّ (٩)
يـركَـب الهوْلَ وحيـداً ولا يَصـــحبــه إلاَّ اليماني الأفَـــلُّ (١٠)
فــاحتسـوْا أنفـاسَ يـومٍ فلما   هَـوَّمـوا رُعْتَهـم فـاشمعَلُّـوا (١١)
كـلُّ مـاضٍ قـد تـردّى بماضٍ   كَسَنَـا البرق إذا مـا يُسـلُّ
فلئـن فَلَّـتْ هُـذيْـلٌ شِبـاهُ   لبما كـان هُـذيْلا يَفُـلُّ (١٢)
وبِما أبْـرَكهـا في مُنـاخ   جَعْجعٍ يَنقَب منـه الأظـلُّ (١٣)

---

(١) مستقل: محتمل.
(٢) مصع: الشديد المقاتلة الثابت لها.
(٣) الصل: الخبيث من الحيات.
(٤) المصمئل: الشديد.
(٥) بزني: سلبني.
(٦) القر: البرد.
(٧) يابس الجنبين: هزيل.
(٨) الأري: العسل؛ والشرى: الحنظل.
(٩) السمع: ولد الذئب.
(١٠) الأفل: المتثلم.
(١١) اشمعلوا: اسرعوا في السير.
(١٢) الشبا: الحد.
(١٣) الجعجع: الأرض الغليظة؛ والأظل: باطن خف الناقة.

صليتْ منه هُذيلٌ بِخرْقٍ　　لا يَمَلُّ الشَّرَّ حتى يَمَلّوا[1]
يُنْهِلُ الصَّعْدَةَ حتى إذا ما　　نَهِلَت كان لها منه عَلُّ
تَضحك الضَّبع لقتْلي هُذيل　　وترى الذّئب لها يستهلُّ
عِتاق الطْير تَهفو بطانا　　تتخطَّاهم فما تستقلُّ
وفُتُوٌّ هَجَّروا ثم اسْروا　　ليلهم حتى إذا آنجاب حَلُّوا[2]
فاسقنيها يا سَوَاد بن عمْرٍو　　إنّ جسمي بعد خالي لخلُّ[3]

وقال أمية بن أبي الصلت يرثي قتلى بدر من قريش:

ألاَّ بكْيتَ على الكرا　　م بني الكرام أُولي الممادحْ
كبُكا الحمَام على فُرو　　عِ الأيْك في الغصن الجوانحْ
يبكين حَرَّى مستكينات　　يُرحْن مع الروائحْ
أمثالهن الباكيات　　تُ المُعْولات من النَّوائحْ
من يبكهِم يبكِ على　　حُزْنٍ ويَصْدُق كل مادحْ
من ذا ببدرٍ فالعقَنْقَلِ　　من مَرازبة جَحاجحْ[4]
شُمْطٍ وشُبَّان بها　　ليلٍ مَغاويرٍ وحاوِحْ[5]
ألا ترونْ لَمَا أرى　　ولقد أبان لكلٍّ لامحْ
أن قد تغيَّر بطنُ مكَّة　　فهْيَ مُوحشةُ الأباطْحُ
مِن كلِّ بطْريقٍ لبِطْريقٍ　　نَقِيَّ اللوْن واضح
رُعْموص أبواب الملو　　ك وجائب للخرْق فاتحْ
ومن السراطِمة الحلا　　جة الملازِبة المَناجِحْ[6]

---

(١) الخرق: الشجاع الكريم.　　(٢) هجروا: ساروا وقت الهاجرة.
(٣) الخل: المهزول.
(٤) العقنقل: الكثيب من الرمل المنعقد؛ والجحاجح: السادة.
(٥) الشمط: الذين خالطهم الشيب؛ والبهاليل: السادة.
(٦) السراطمة: واسعي الخلق؛ والحلاجة: الطوال الضخام.

القائلين الفاعليـن الآمرين بكل صالح

المُطْعمين الشَّحم فوْ   ق الخبز شحما كالأنافِحْ[1]

نُقَلُ الجِفان مع الجِفا   ن إلى جِفانٍ كالمناضِحْ[2]

ليست بأصفار لمن   يعفو ولا رَحْرَحارِح[3]

للضيف ثم الضيف بعد الضيف والبُسْط السلاطح[4]

وُهُب المِئين من المِئين إلى المِئين من اللَّواقحْ

سَوق المُؤبَّل للمُؤ   بّل صادراتٍ عن بلادح[5]

لكرامِهم فوْق الكِرا   م مَزِيّةٌ وزْن الرَّواجح

كتَثاقل الأرطال بالقسطاس في الأيدي الموائحْ[6]

لله درُّ بني عليٍّ   أيِّمٍ منهم وناكح

إن لم يُغِيروا غارةً   شَعْواء تُحْجِر كلَّ نابحْ

بالمُقربات المُبْعِدا   ت الطَّامحاتِ مع الطَّوامحْ[7]

مُرْداً على جُرْدٍ إلى   أُسْدٍ مُكالبةٍ كوالح[8]

ويُلاق قِرْن قِرْنَه   مشيَ المُصافحِ للمصافحْ

بِزُهاءِ ألْفٍ ثم ألْفٍ بين ذي بدنٍ ورامحْ[9]

الضَّاربين التَّقْدُمية بالمُهنَّدة الصفائح

روى الاخفش لسهل بن هارون:

ما للحوادث عنك منصرَفُ   إلا بنفسٍ مالها خلفُ

فكأنها رامٍ على حَنَقٍ   وكأنني لسِهامِها هدَف

---

(١) الأنافح: شيء يخرج من بطن ذي الكرش. (٢) المناضح: الحياض.

(٣) رحارح: واسعة من غير عمق. (٤) السلاطح: الطوال والعراض.

(٥) المؤبل: الإبل الكثيرة؛ وبلادح: موضع. (٦) الموائح: التي تمايل لثقل ما ترفعه.

(٧) المبعدات: التي تبعد في جريها؛ والمقربات التي تقرب البيوت.

(٨) الكوالح: العوابس. (٩) البدن: الدرع.

دهـرٌ سُـررتُ بـه فـأعقبني … حُـزنـاً بـه مـا عشـت ألتحـفُ
فـابْـك الذي ولّـى لمهْلكـهِ … عنـك السُّـرور خُلّـف الأسـفُ
إذ لا يـردُّ عليـك مـا أخـذَتْ … منـك الحوادثُ دمْعـةٌ تَكِـفُ
قبرٌ بمختلَـف الرِّيـاحِ بـه … مـنْ لسـن أبلُغُـه بما أصـف
أنسَـى الثَّـرى بمحلِّـه ولـه … قـد أوحش المُستأْنس الألِـفُ(١)
فالصَّبر أحسنُ مـا آعتصَمْـت بـه … إذ ليس منـه لـديَّ مُنتصِـف

لفروة الحروري في رثاء الخوارج:

وقال فروة بن نوفل الحروريّ، وكان بعض أهل الكوفة يقاتلون الخوارج ويقولون: والله لنحرقنّهم ولنفعلن ولنفعلن. فقال في ذلك فروة بن نوفل، وكان من الخوارج:

ما إنْ نُبـالي إذا أرواحُنـا قبِضـتْ … مـاذا فعلْتُم بـأجسـادٍ وأبشـارِ(٢)
تجري المَجـرّةُ والنَّسران بينهما … والشَّمس والقمرُ السَّاري بمقْدار
لقـد علمـت وخيرُ العلم أنفعـهُ … أنّ السعيدَ الذي ينجـو مـن النـار

وقال يرثي قومه:

هُمُ نصبوا الأجساد للنَّبْـل والقنـا … فلم يَبـق منهـا اليـوم إلا رميمهـا
تظَـل عِتـاقُ الطير تحجِـل نحوهـم … يُعلِّلْـنَ أجسـاداً قليلا نعيمُهـا(٣)
لِطاف بَراهـا الصـوْم حتى كـأنها … سُيوف إذا ما الخيْل تَدْمى كلومُها

التعازي

لابن أبي بكر يعزي سليمان في ابنه:

قال عبد الرحمن بن أبي بكر لسليمان بن عبد الملك يعزيه في ابنه أيوب، وكان وليَّ

---

(١) الألف: المألوف. (٢) الأبشار: مفرده البَشَر.
(٣) يعللن، أي يستخرجن ما فيها من بقية لحم.

عهده وأكبر ولده: يا أمير المؤمنين، إنه من طال عمره فقَدَ أحِبَّته، ومن قصر عمره كانت مصيبته في نفسه؛ فلو لم يكن في ميزانك لكنت في ميزانه!

وكتب الحسن بن أبي الحسن إلى عمر بن عبد العزيز يعزّيه في ابنه عبد الملك:

وعُوِّضتَ أجراً من فقيدٍ، فلا يكن فقيدُك لا يأتي وأجرُك يَذهبُ

لابن جريج يعزي ابن الأهتم:

العتبي قال: قال عبد الله بن الأهتم: مات لي ابن وأنا بمكة، فجزعت عليه جزعا شديداً؛ فدخل عليَّ ابنُ جُريح يعزيني، فقال لي: يا أبا محمد، آسلُ صبراً واحتساباً، قبل أن تسلو غفلة ونسيانا كما تسلو البهائم.

وهذا الكلام لعليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه يُعزي الأشعث بن قيس في ابن له، ومنه أخذ ابن جريح؛ وقد ذكره حبيب في شعره فقال:

وقال عليٌّ في التَّعازي لأشْعَث وخافَ عليه بعضَ تلكَ المآثِمِ
أَتَصْبرُ لِلبلْوَى عَزاءً وحِسْبَةً فتُؤْجَرَ أَمْ تَسْلو سُلُوَّ البهائِمِ

علي والأشعث في وفاة ابنه:

أتى عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه لأشعث يعزيه عن آبنه، فقال: إن تَحزن فقد استحقت ذلك منك آلرحم، وإن تَصبر فإن في الله خَلَفا من كل هالك، مع أنك إن صبرتَ عليك القدر وأنت مأجور، وإن جَزِعْتَ جرى عليك القدر وأنت آثم.

وعزّى ابن السماك رجلاً فقال: عليك بالصبر، فبه يعمل من آحتسب، وإليه يصير من جزع، واعلم أنه ليست مصيبةٌ إلا ومعها أعظمُ منها، من طاعة الله فيها أو معصيته بها.

لصالح المري في مثله:

الأصمعي قال: عزى صالحٌ المُزى رجلا بابنه، فقال له: إن كانت مصيبتُك لم تُحدث لك موعظة، فمصيبتك بنفسك أعظم من مصيبتك بابنك؛ واعلم أن التهنئة على آجِلِ الثواب أولى من التعزية على عاجل المصيبة.

لوالد العتبي في مثله:

العتبي قال: عزى أبي رجلا فقال: إنما يستوجب على الله وعده مَن صبر لِحقِّه، فلا تجمع إلى ما فجعت به الفجيعةَ بالأجر، فإنها أعظم المصيبتين عليك، ولكل اجتماع فرقة إلى دار الحلول.

عزّى عبدُالله بن عباس عمرَ بنّ الخطاب رضي الله تعالى عنه في بُنَيّ له صغير؛ فقال: عوضك الله منه ما عوّضه الله منك.

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا عزىّ قوماً قال: عليكم بالصبر فإن به يأخذ الحازم، وإليه يرجع الجازع.

وكان الحسن يقول في المصيبة: الحمد لله الذي آجَرنا على ما لو كلفنا غيرَه لعجَزْنا عنه.

كتاب تعزية

أما بعد: فإن أحق من تعزى، وأولي من تأسَّي وسلَّم لأمر الله، وقبِل تأديبَه في الصبر على نكبات الدنيا وتجرُّع غُصَص البلوى ـ من تنجز من الله وعده، وفهم عن كتابه أمرَه، وأخلص له نفسه، وآعترف له بما هو أهله، وفي كتاب الله سلوةٌ من فقدِ كل حبيب وإن لم تطب النفس عنه، وأنسٌ من كل فقيد وإن عظمت اللوعة به؛ إذ يقول الله عز وجل: ﴿كلُّ شَيْءٍ هالكٌ إلاَّ وجْهَهُ لهُ الحكْمُ وإليْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1] وحيث يقول: ﴿الذين إذا أصابْتهُمْ مُصيبة قالوا إنَّا لله وإنَّا إليْه راجعُونَ أُولئِكَ

(١) سورة القصص الآية ٨٨.

عليهمْ صلوات من رَبِّهِمْ ورحمةٌ وأُولئك هُمُ المُهْتَدُون﴾[1] والموت سبيل الماضين والغابرين،[2] ومورد الخلائق أجمعين، وفي أنبياء الله وسالف أوليائه أفضل العبرة، وأحسن الأسوة، فهل أحدٌ منهم إلا وقد أخذ من فجائع الدنيا بأجزل الإعطاء، ومن الصبر عليها بآحتساب الأجر فيها بأوفر الأنصباء.

فُجع نبيُّنا عليه الصلاة والسلام بابنه إبراهيم، وكان ذخَر الإيمان، وقرة عين الإسلام، وعقب الطهارة، وسليل الوحي، ونتيج الرحمة، وحضين الملائكة، وبقية آل إبراهيم واسمعيل صلوات الله عليهم أجمعين، وعلى عامة الأنبياء والمرسلين فعمت الثقلين مصيبته، وخصت الملائكة رزيَّته. ورضي ﷺ من فراقه بثواب الله بدلا، ومن فقدانه بموعوده عوضاً؛ فشكر قضاه واتبع رضاه؛ فقال: «يحزن القلب، وتدمع العين، ولا نقول ما يُسخِطُ الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون!».

وإذا تأمل ذو النظر ما هو مشفٍ عليه من غير الدنيا، وانتصح نفسه وفكره في غيرها بتنقل الأحوال، وتقارب الآجال، وانقطاع يسير هذه المدة ذلت الدنيا عنده، وهانت المصائب عليه، وتسهلت الفجائع لديه، فأخذ للأمر أهبته، واستعد للموت عدته؛ ومن صحب الدنيا بحسن الروية، ولاحظها بعين الحقيقة، كان على بصيرة من وشك زوالها.

قال النبي ﷺ: «آذكروا الموتَ فإنه هادمُ اللذاتِ ومُنَغِّصُ الشهوات. وليس شيء مما آقتصصت إلا وقد جعلك الله مقدماً في العلم به؛ ولعمري إن الخطب فيما أُصبت به لعظيم، غير أن معوَّضه من الأجر والمثوبة عليه بحسن الصبر، يهوّنان الرزية وإن ثقلت، ويسهلان الخطب وإن عظم؛ فوهب الله لك من عصمة الصبر ما يكمل لك به زلفى[3] الفائزين، وقربة الشاكرين، وجعلك من المَرضِيين قولا وفعلا، الذين أعطاهم الحسنى، ووفقهم للصبر والتقوى».

---

(١) سورة البقرة الآية ١٥٧.   (٢) الغابرين: الباقين.

(٣) الزلفى: القربى والمنزلة.

في عزاء عقبة بابنه:

محمد بن الفضل عن أبي حازم قال: مات عُقبة بن عِياض بن غَنْم الفهري، فعزّي رجل أباه فقال: لا تجزع عليه فقد قُتِل شهيداً، فقال: وكيف أجزع على من كان في حياته زينةَ الدنيا، وهو اليومَ من الباقيات الصالحات.

عزاء الأصمعي لجعفر بن سليمان في أخيه:

ابن الغار قال: حدثنا عيسى بن إسمعيل، قال: سمعت الأصمعي يقول: دخلت على جعفر بن سليمان وقد ترك الطعام جزعاً على أخيه محمد بن سليمان، فأنشدته بيتين، فما برحت حتى دعا بالمائدة، فقلت للأصمعي: ما هما؟ فسكت، فسألتُه؛ فقال: أتدري ما قال الأحوص؟ قلت: لا أدري. قال: قال الأحوص:

قدْ زادهُ كَلَفاً بـالحُبِّ إذا مَنَعَـتْ   أحبُّ شيءٍ إلى الإنسان مـا مُنِعـا

قال أبو موسى: والأبيات لأراكة الثقفي يرثي بها عمرو بن أراكة ويُعزّي نفسه، حيث يقول:

لعَمْري لئنْ أَتْبعْتَ عَيْنَكَ مـا مضى   به الدَّهْـرُ أو سـاقَ الحِمامُ إلى القبر
لتَسْتنفدَنْ مـاءَ الشئـون بـأَسْرِه   وإن كنت تمريهِنَّ مِن ثَبَجِ البحرِ[1]
تَبيّنْ فإن كـان البكـا رَدَّ هـالِكـا   على أحدٍ فاجهَدْ بُكاكَ على عمـرِو
فلا تَبْكِ ميتـاً بعـدَ مـوتِ أحِبَّـةٍ   علي وعبـــاسٍ وآل أبي بكـــر

لمالك بن دينار في أخيه:

أبو عمر بن يزيد قال: لما مات أخو مالك بن دينار، بكى مالك، وقال: يا أخي، لا تقرّ عيني بعدك حتى أعلم أفي الجنة أنت أم في النار؛ ولا أعلم ذلك حتى ألحق بك!

وقالت أعرابية ورأت ميتاً يدفن: جافى الله عن جنبيه الثَّري، وأعانه على طول البِلَي.

---

(١) مرى الشيء: استخرجه؛ وثبج كل شيء: معظمه.

وعَزى أعرابيٌّ رجلا فقال: أوصيك بالرضا من الله بقضائه، والتنجُّز لما وعد به من ثوابه؛ فإن الدنيا دار زوال ولا بد من لقاء الله.

وعزى أيضاً رجلا فقال: إن من كان لك في الآخرة أجرا، خيرٌ لك ممن كان لك في الدنيا سروراً.

الحسن وجازع على ابنه:

وجزع رجل على ابنٍ له، فشكا ذلك إلى الحسن، فقال له: هل كان ابنك يغيب عنك؟ قال: نعم؛ كان مَغيبه عني أكثر من حضوره. قال: فاتركه غائبا، فإنه لم يَغب عنك غيبةً الأجرُ لك فيها أعظم من هذه الغيبة.

وعزّي رجلٌ نصرانيٌّ مسلما، فقال له: إنّ مثلي لا يعزِّي مثلك، ولكن انظر ما زَهِد فيه الجاهلُ فارغب فيه.

لعلي بن الحسين في ناعية:

وكان علي بن الحسين رضي الله عنه في مجلسه وعنده جماعة؛ إذ سمع ناعية في بيته؛ فنهض إلى منزله فأسكتَهُم، ثم رجع إلى مجلسه، فقالوا له: أمِنْ حدثٍ كانت الناعية؟ قال: نعم! فعزوه وعجبوا من صبره، فقال: إنا أهل بيت نطيع الله فيما نحب، ونحمده على ما نكره.

تعزية: التمسْ ما وعد اللهُ من ثوابه بالتسليم لقضائه، والانتهاء إلى أمْره؛ فإن ما فات غير مستدَرك.

وعزي موسى المهدي إبراهيم بن سلم على ابن له مات، فجزع عليه جزعا شديدا، فقال له: أيسرُّك وهو بليّة وفتنة، ويحزنك وهو صلوات ورحمة.

لابن جبير:

سفيان الثوري، عن سعيد بن جُبير قال. ما أُعطيت أمةٌ عند المصيبة ما أُعطيت

هذه الأمة من قولها: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾[1] ولو أُعطيها أحد لأعطيها يعقوب حيث يقول: ﴿يا أسفا على يوسُفَ! وابيضَّتْ عيناهُ من الحُزْنِ فهو كَظيم﴾[2].

وعزى رجلٌ رجلا بابنٍ له فقال له: لو ذهب أبوك وهو أصلك، وذهب ابنك وهو فرعك؛ فما بقاء مَن ذهب أصله وفرعه.

تعازي الملوك

لأكثم يعزي ابن هند:

العتبي قال: عزى أكثمُ بن صيفي عمروَ بن هند ملك العرب على أخيه، فقال له: أيها الملك، إن أهل هذه الدار سَفرٌ لا يحُلون عُقَد الرِّحال إلا في غيرها، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك، وارتحَل عنك ما ليس براجع إليك، وأقام معك من سيظعن عنك ويدعك؛ واعلم أنّ الدنيا ثلاثة أيام: فأمس عظة وشاهد عدل، فجعك بنفسه، وأبقى لك وعليك حكمته. واليوم: غنيمة وصديق، أتاك ولم تأته، طالت عليك غيبته، وستسرع عنك رحلته. وغد: لا تدري من أهله، وسيأتيك إن وجدك! فما أحسن الشكر للمنعم، والتسليم للقادر! وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد أصولها؟ واعلم أن أعظم من المصيبة سوءُ الخلفِ منها، وخير من الخير معطيه، وشر من الشر فاعله.

في مهلك المنصور:

لما هلك أمير المؤمنين المنصور، قدمتْ وفود الأمصار على أمير المؤمنين المهدي، وقدِم فيهم أبو العيناء المحدِّث؛ فتقدم إلى التعزية فقال: آجَر اللهُ أميرَ المؤمنين على أميرِ المؤمنين قبله، وبارك لأمير المؤمنين فيما خلفه له؛ فلا مصيبة أعظم من مصيبة إمام والد، ولا عقبى أفضل من خلافة الله على أوليائه؛ فاقبل من الله أفضلَ العطية،

---

(١) سورة البقرة الآية ١٥٦. (٢) سورة يوسف الآية ٨٤.

واصبر له على أعظم الرزيّة.

ولما مات معاوية بن أبي سفيان، ويزيد غائب؛ صلى عليه الضحاك بن قيس الفهري، ثم قدم يزيد من يومه ذلك؛ فلم يقدم أحد على تعزيته حتى دخل عليه عبد الله بن همام السلولي، فقال:

اصبِر يزيدُ فقد فارقْت ذا مِقَةٍ ... واشكُر حِباءَ الذي بالمُلْكِ حاباكا
لا رَزْءَ أعظمُ في الأقوامِ قد عَلِموا ... ممَّا رزِئتَ ولا عُقبى كعُقْباكا
أصبحتَ راعِيَ أهلِ الأرض كُلِّهم ... فأنت ترعاهُمُ واللهُ يرعاكا
وفي مُعاوية الباقي لنَا خلَفٌ ... إذا نُعيتَ ولا نسمَعْ بمَنْعاكا

فافتتح الخطباءُ الكلام.

عزى شبيب بن شبة المنصور على أخيه أبي العباس فقال: جعل الله ثوابَ ما رُزئت به لك أجراً، وأعقبك عليه صبراً، وختم ذلك لك بعافية تامة، ونعمة عامة؛ فثواب الله خيرٌ لك منه، وما عند الله خير له منك، وأحق ما صُبر عليه ما ليس إلى تغييره سبيل.

وكتب إبراهيم بن إسحاق إلى بعض الخلفاء يعزّيه: إن أحق مَن عرف حقَّ الله فيما أخذ منه، من عرف نعمته فيما أبقَى عليه. يا أمير المؤمنين، إن الماضي قبلك هو الباقي لك، والباقي بعدك هو المأجور فيك، وإن النعمة على الصابرين فيما ابتلُوا به أعظم منها فيما يُعافَون منه.

الرشيد وعبد الملك بن صالح:

ودخل عبدُ الملك بن صالح دارَ الرشيد، فقال له الحاجب: إن أمير المؤمنين قد أصيب الليلة بابنٍ له ووُلِد له آخر! فلما دخل عليه قال سرك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرك، وجعل هذه بهذه، مثوبةً على الصبر، وجزاءً على الشكر.

ودخل المأمون على أم الفضل بن سهل يعزيها بابنها الفضل بن سهل فقال: يا أُمَّهْ، إنك لم تفقدي إلا رؤيته، وأنا ولدك مكانه! فقالت: يا أمير المؤمنين، إن رجلا أفادني ولدا مثلك لجديرٌ أن أجزع عليه.

من عمر بن عبد العزيز إلى عماله بعد موت ولده:

لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عماله: إن عبد الملك كان عبدا من عبيد الله، أحسن الله إليه والَيَّ فيه؛ أعاشه ما شاء وقبضه حين شاء وكان ـ ما علمت ـ من صالحي شباب أهل بيته قراءةً للقرآن وتحرّيا للخير، وأعوذ بالله أن يكون لي محبة أخالف فيها محبة الله، فإن ذلك لا يحسن في إحسانه إليّ، وتتابعِ نعمه عليّ، ولأعلمن ما بكت عليه باكية ولا ناحت عليه نائحة؛ قد نهينا أهله الذين هم أحق بالبكاء عليه.

عزاء زياد لسليان بن عبد الملك في ابنه:

دخل زياد بن عثمان بن زياد على سليمان بن عبد الملك وقد توفي ابنه أيوب فقال: يا أمير المؤمنين إن عبد الرحمن بن أبي بكر كان يقول: من أحب البقاءَ ـ ولا بقاء ـ فليوطِّن نفسه على المصائب.

لعطاء يعزي يزيد في معاوية:

لما مات معاوية دخل عطاء بن أبي صَيفيّ على يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين أصبحْتَ رُزئت خليفة الله، وأُعطيت خلافةَ الله؛ فاحتسب على الله أعظم الرزية وآشكره على أحسن العطية.

لابن الوليد يعزي عمر بن عبد العزيز في ابنه:

عزى محمد بن الوليد بن عُتبة عمر بن عبد العزيز على ابنه عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين، أعِدّ لما ترى عدّة تكن لك جُنَّةً من الحزن وسِترا من النار! فقال عمر:

هل رأيت حزنا يُحتج به، أو غفلة ينبِّه عليها؟ قال: يا أمير المؤمنين، لو أن رجلا ترك تعزية رجل لعلمه وانتباهه لكُنْتَه، ولكن الله قضى أن الذكرى تنفع المؤمنين.

عمر بن عبد العزيز في وفاة أخته:

وتوفيت أخت لعمر بن عبد العزيز، فلما فرغ من دفنها دنا إليه رجل فعزاه، فلم يردّ عليه شيئا؛ ثم دنا إليه آخر فعزاه فلم يرد عليه شيئا، فلما رأى الناسُ ذلك أمسكوا عنه ومشوا معه؛ فلما بلغ الباب أقبل على الناس بوجهه وقال: أدركت الناس وهم لا يُعزون بامرأة إلا أن تكون أماً، انقلبوا رحمكم الله.

لبعض الشعراء في التعزية:

وُجد في حائط من حيطان تبّع مكتوباً:

اَصْبِرْ لدَهر نال مِنْـ ـكَ فهكذا مَضَت الدُّهورُ
فَرَحٌ وحُزنٌ مَرَّةً لا الُحزْن دام ولا السُّرورُ

وهذا نظير قول العتابي:

وقائلةٍ لَمّا رأتني مُسَهَّدا كأنّ الحشَا مني تلذعُهُ الجمْرُ
أباطِنُ داءٍ أم جَوًى بك قاتلٌ فقلتُ الذي بي ما يقومُ له صبرُ
تفرُقُ أُلاّفٍ وموتُ أحِبّةٍ وفقْدُ ذَوِي الأفضالِ قالت كذا الدهرُ

كتب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى المتوكل يعزيه بابن له:

إني أُعزِّيك لا أني على ثِقةٍ مِنَ الحياةِ ولكِنْ سُنّةُ الدِّين
ليس الُمعزَّى بباقٍ بعدَ مَيِّته ولا المُعزِّي وإن عاشَا إلى حينِ

وقال أبو عيينة:

فإن أشْكُ من ليْلي بِجُرجان طولَه فقد كنت أشكو منه بالبَصْرَة القِصَرْ
وقائلةٍ ماذ نأى بِك عنهُمُ فقلت لها: لا عِلْم لي فَسلِي القدَرْ

لحكيم يعزي سليمان بن عبد الملك في ابنه.

وقال بعض الحكماء لسليمان بن عبد الملك لما أُصيب بابنه أيوب: يا أمير المؤمنين إن مثلك لا يوعظ إلا بدون علمه؛ فإن رأيت أن تقدِّم ما أخرَت العجزة فترضي ربك وتُريح بدنك من حسن العزاء والصبر على المصيبة، فافعل.

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز يعزّيه في ابنه عبد الملك ببيت شعر: وهو:

وعُوِّضْت أجراً من فقيد فلم يكُـن فقيدُك لا يأتي وأجْـرك يـذهَـبُ

للاسكندر يعزي أمه عن فقده.

ولما حضرت الإسكندرَ الوفاةُ كتب إلى أمه أن آصنعي طعاما يحضره الناس ثم تقدمي إليهم أن لا يأكل منه محزون. ففعلت: فلم يبسط أحد إليه يده؛ فقالت: ما لكم لا تأكلون؟ فقالوا: إنك تقدمت إلينا أن لا يأكل منه محزون، وليس منا إلا من قد أُصيب بحميم أو قريب! فقالت: مات والله ابني! وما أوصى إليّ بهذا إلا ليعزيني به!.

وكان سهل بن هارون يقول في تعزيته: إن أجر التهنئة بآجل الثواب! أوجَب من التعزية على عاجل المصيبة.

كتاب اليتيمة
في النسب وفضائل العرب

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في النوادب والمراثي، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في النسب الذي هو سبب التعارف، وسُلَّم إلى التواصل؛ به تتعاطف الأرحام الواشجة، وعليه تحافظ الأواصر القريبة. قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يأَيها الناسُ إنَّا خلقناكم من ذكَر وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لِتَعارَفوا﴾.[1] فمن لم يعرف النسب لم يعرف الناس، ومن لم يعرف الناس لم يُعَدَّ من الناس.

وفي الحديث: «تعلموا من النسب ما تَعرِفون به أحسابَكم وتَصِلون به أرحامَكم».

وقال عمر بن الخطاب: تعلموا النسب ولا تكونوا كنبيط[2] السواد: إذا سئل أحدهم عن أصله قال: من قرية كذا وكذا.

أصل النسب

أولاد نوح

قال معاوية بن صالح، عن يحيي بن سعيد بن المسيّب، قال: وَلد نوح ثلاثة أولاد: سام وحام ويافث؛ فولَد سامُ العرب وفارس والروم، وولد حام السودان والبربر والنَّبط، وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج.

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٢) النبيط: الأنباط، وسموا كذلك لاستنباطهم ما يخرج من الأرضين.

أصل قريش

كانت قريش تُدعى النضر بن كنانة، وكانوا متفرقين في بني كنانة، فجمعهم قصَيُ بنُ كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك، من كل أوْب إلى البيت؛ فسُمُّوا قريشا. والتقريش: التجميع. وسُمِّيَ قصيّ بن كلاب مُجمّعا، فقال فيه الشاعر:

قُصَي أبوكم مَن يُسَمَّى مُجمِّعاً   به جَمعَ اللهُ القبائلَ مِن فِهْرِ

وقال حبيب:

غدوْا في نواحي نَعْشِه وكأنما   قريشٌ قريشٌ يومَ ماتَ مجمِّعُ

يريد بمجمِّع قصيَّ بن كلاب، وهو الذي بنى المشعر الحرام،[1] وكان يقوم عليه أيامَ الحج؛ فسماه الله مشعرا، وأمره بالوقوف عنده. وإنما جمع قُصيّ إلى مكة بني فهر ابن مالك، فجدْمُ قريش كلِّها فهرُ بن مالك؛ فما دونه قريش وما فوقه عرب مثل كنانة وأسد وغيرهما من قبائل مضر؛ وأما قبائل قريش فإنها تنتهي إلى فهر بن مالك لا تجاوزه، وكانت قريش تسمَّى آلَ الله، وجيران الله، وسكان الله.

وفي ذلك يقول عبد المطلب بن هاشم:

نحنُ آل اللهِ في ذِمَّتِه   لم نَزَلْ فيها على عهدٍ قَدُمْ
إنْ للبيتِ لربًّا مانِعاً   مَن يُرِدْ فيه بإثمٍ يُختَرَم[2]
لم تَزَلْ للهِ فينا حُرْمةٌ   يَدْفعُ اللهُ بها عنَّا النِّقَم

وقال الحسن بن هانيء في بعض بني شيبة بن عثمان الذين بأيديهم مفتاح الكعبة:

إذا آشتعَبَ الناس البيوت فأنتمُ   أُولو اللهِ والبيتِ العتيقِ المحرَّمِ

---

(١) المشعر الحرام: بناء بالمزدلفة.

(٢) يخترم، يقال اخترمته المنية، أي أخذته.

نسب قريش

قال أبو المذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي: تسمية من انتهى إليه الشرف من قريش في الجاهلية فوصله بالإسلام، عشرة رهط من عشرة أبطن، وهم: هاشم، وأمية، ونوفل، وعبد الدار، وأسد، وتَيْم، ومخزوم، وعدي، وجُمح، وسهم.

فكان من هاشم: العباس بن عبد المطلب، يسقي الحجيج في الجاهلية، وبقي له ذلك في الإسلام.

ومن بني أمية: أبو سفيان بن حرب، كانت عنده العقاب راية قريش، وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب، فإذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب، وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدّموه.

ومن بني نوفل: الحرث بن عامر، وكانت إليه الرفادة، وهي ما كانت تُخرجه من أموالها وترفد به مُنْقطع الحاج.

ومن بني عبد الدار: عثمان بن طلحة، وكان إليه اللواء والسدانة مع الحجابة، ويقال والندوة أيضاً في بني عبد الدار.

ومن بني أسد: يزيد بن زَمْعة بن الأسود، وكانت إليه المشورة: وذلك أن رؤساء قريش لم يكونوا يجتمعون على أمر حتى يَعرضوه عليه، فإن وافقه ولاَّهم عليه، وإلا تخير وكانوا له أعواناً؛ واستشهد مع رسول الله ﷺ بالطائف.

ومن بني تيم: أبو بكر الصديق، وكانت إليه في الجاهلية الأشناق، وهي الديات والمغرم، فكان إذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه، وإن احتملها غيره خذلوه.

ومن بني مخزوم: خالد بن الوليد، وكانت إليه القبة والأعنة؛ فأما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش؛ وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش في الحرب.

ومن بني عديّ: عمر بن الخطاب، وكانت إليه السفارة في الجاهلية؛ وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب، بعثوه سفيراً، وإن نافرهم حيٌّ لمفاخرة جعلوه منافرا ورضوا به.

ومن بني جُمَح: صفوان بن أمية، وكانت إليه الأيسار، وهي الأزلام؛ فكان لا يُسبَّق بأمر عامّ حتى يكون هو الذي يتَّسِرون على يديه.

ومن بني سهم: الحرث بن قيس، وكانت إليه الحكومة والأموال المحجرة التي سمَّوها لآلهتهم.

فهذه مكارم قريش التي كانت في الجاهلية، وهي؛ السقاية، والعمارة، والعُقاب، والرفادة، والسِّدانة، والحجابة، والندوة، واللواء، والمشورة، والأشناق، والقبة، والأعنة، والسفارة، والأيسار، والحكومة، والأموال المحجرة - إلى هؤلاء العشرة من هذه البطون العشرة على حال ما كانت في أوّليتهم، يتوارثون ذلك كابراً عن كابر؛ وجاء الإسلام فوصل ذلك لهم؛ وكان كل شرف من شرف الجاهلية أدركه الإسلام فوصله، فكانت سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحُلوان النفر في بني هاشم.

فأما السقاية فمعروفة، وأما العمارة فهو ألاَّ يتكلم أحد في المسجد الحرام بِهجُر ولا رفث ولا يرفع فيه صوته، وكان العباس ينهاهم عن ذلك.

وأما حُلوان النفر، فإن العرب لم تكن تُملِّكُ عليها في الجاهلية أحداً، فإن كان حرب أقرعوا بين أهل الرياسة، فمن خرجت عليه القرعة أحضروه، صغيراً كان أو كبيراً. فلما كان يوم الفجار أقرعوا بين بني هاشم فخرج سهم العبّاس وهو صغير فأجلسوه على المجن.

بين المأمون وأبي الطاهر

أبو الطاهر أحمد بن كثير بن عبد الوهاب قال: حدثني أبو ذكوان عن أحمد بن يزيد الأنطاكي أنه سمع المأمون يقول لأبي الطاهر الذي كان على البحرين: من أي قريش أنت؟ قال: من بني أسامة بن لؤي، فقال المأمون: ما سمعنا لأسامة ابن لؤي

نسباً في بطوننا العشرة، لو عَلِمنا به على بُعده منا لكنا به بَررة.

فضل بني هاشم وبني أمية

قيل لعليَ بن أبي طالب: أخبِرنْا عنكم وعن بني أمية. فقال: بنو أمية أغْدرُ وأمكر وأفْجَر، ونحن أصبحَ وأفصح وأسمح.

وسأل رجل الشعبيَّ عن بني هاشم وبني أمية، فقال: إن شئت أخبرتك ما قال عليٌّ ابن أبي طالب فيهم. قال: أخبرني. قال: أما بنو هاشم فأطعمُها للطعام، وأضربها للّهام؛ وأما بنو أمية فأبعدها حِلما وأطلبها للأمر الذي لا يُنال فينالونَه.

قيل لمعاوية: أخبرنا عنكم وعن بني هاشم. قال: بنو هاشم أشرف واحداً، ونحْن أشرف عدداً، فما كان إلا كَلاَ ولا، حتى جاؤا بواحدة بذّت الأولين والآخرين. يريد النبي ﷺ. وبقوله: أشرف واحداً: عبد المطلب بن هاشم.

الرشيد وأموي

الرياشي عن الأصمعي قال: تصدى رجل من بني أمية لهارون الرشيد فأنشده:

يـــا أمين ٱلله إني قـــائـــلٌ   قـــوْلَ ذي فهـــمٍ وعِلمٍ وأدبْ
عبـدُ شمسٍ كـان يتلـو هـاشماً   وهُما بعـــــــدُ لأمٍّ ولأبْ
فـاحفـظ الأرحـام فينـا إنما   عبـدْ شمسٍ عـمُّ عبـدِ المطلـب
لكـم الفضـل علينـا، ولنـا   بكـمُ الفضـل على كـلِّ العـربْ

فأحسن جائزته ووصله.

للنبي ﷺ.

سفيان الثورى يرفعه إلى النبي ﷺ قال:« إن الله خَلَق الخلْق فجعلني في خيْرِ خَلقه، وجعلهم أفراقاً فجعلني في خير فرْقة، وجعلهم قبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خير بيت. فأنا خيْركم بيتاً وخيركم نسبا».

وقال ﷺ: «كلُّ سببٍ ونسبٍ مُنقطع يوْم القيامة إلاَّ سببي ونسبي».

جماعة بني هاشم بن عبد مناف
وجماعة قريش

عبد المطلب بن هاشم ولده عشرة بنين، منهم: عبد الله أبو محمد ﷺ، وأبو طالب، والزبير، أمهم فاطمة بنت عمرو المخزومية. والعباس، وضرار، أمهما نتيلة النمرية. وحمزة، والمقوم، أمهْا هالة بنت وهيب. وأبو لهب، أمه لبنى خزاعية. والحارث، أمه صفية من بني عامر بن صعصعة. والغيداق، أمه خزاعية.

جماعة بني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف

وهو أمية الأكبر: حرب بن أمية، وأبو حرب، وسفيان، وأبو سفيان؛ وعمرو، وأبو عمرو، وهؤلاء يقال لهم العَنابِس، والعاص، وأبو العاص، والعيص، وأبو العيص؛ وهؤلاء يقال لهم الأعياص، ومنهم معاوية بن أبي سفيان، وعثمان بن عفان ابن أبي العاص بن أمية، ومنهم سعيد بن العاص بن أمية، ومروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية.

جماعة بني نوفل

الحارث بن عامر صاحب الرفادة، ومعطعم بن نوفل، ومنهم عدي بن الخيار بن نوفل؛ ومنهم شافع بن ظرب بن عمرو بن نوفل؛ وهو كاتب المصاحف لعمر بن الخطاب؛ ومسلم بن قرطة، قتل يوم الجمل.

جماعة بني عبد الدار

عثمان بن طلحة، صاحب الحجابة؛ وشيبة بن عثمان بن أبي طلحة؛ والحرث بن علقمة بن كلدة، كان رهينة قريش عند أبي يكسوم؛ والنضر بن الحرث بن علقمة

ابن كلدة، بن عبد مناف بن عبد الدار، قتله النبي ﷺ صبراً، أمر عليَّ بن أبي طالب فقتله يوم الأُثيل.[1]

جماعة بني أسد بن عبد العزى

منهم الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد، وأمه صفية ابنة عبد المطلب، ويزيد ابن زمعة بن الأسود صاحب المشورة؛ وأبو البختري، واسمه العاص بن هاشم ابن الحرث بن أسد؛ وورقة بن نوفل بن أسد، هو الذي أدرك الإيمان بعقله وبشّر خديجة بالنبي ﷺ.

جماهير بني تيم بن مرة

منهم أبو بكر الصديق، وطلحة بن عبيد الله، وعمرو بن عبد الله بن معمر، وعبد الله بن جدعان، وعلي بن زيد بن عبد الله بن أبي مليكة، والمهاجر بن فهد بن عمر بن جدعان، ومحمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير.

جماهير مخزوم بن مرة

منهم المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وخالد بن الوليد بن المغيرة، وعبد الرحمن بن الحرث، وعمرو بن حُرَيْثٍ، وأبو جهل بن هاشم بن المغيرة، وعياش بن أبي ربيعة، وعمر بن عبد الله بن أبي ربيعة الشاعر، وعبد الله بن المهاجر، وعمارة بن الوليد بن المغيرة، وإسماعيل بن هشام بن المغيرة ـ ولي المغيرة المدينة وضربْ سعيد بن المسيب ـ ومنهم سعيد بن المسيب بن أبي وهب الفقيه.

جماهير عدي بن كعب

منهم: عمر بن الخطاب، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وهو من أصحاب

(١) الأثيل: موضع قرب المدينة.

حراء، وعبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، ولي الكوفة لعمر بن عبد العزيز، وسراقة بن المعتمر، والنحام بن عبد الله بن أسيد، والنعمان بن عدي بن النضلة، استعمله عمر على مَيْسان[1] وعبد الله بن مطيع، وأبو جهم بن حذيفة، وخارجة بن حذافة، وكان قاضيا لعمرو بن العاص بمصر: فقتله الخارجي وهو يظنه عمرو بن العاص، وقال فيه: أردت عمراً وأراد الله خارجة!.

جماهير جمح

منهم: صفوان بن أمية، من المؤلفة قلوبهم، وأمية بن خلف، قتل يوم بدر؛ وأُبيّ ابن خلف؛ ومحمد بن حاطب؛ وجميل بن معمر بن حذافة؛ وأبو عزة وهو عمرو بن عبد الله؛ وأبو محذورة، مؤذن النبي ﷺ.

جماهير بني سهم

الحرث بن قيس، صاحب حكومة قريش؛ وعمرو بن العاص؛ وقيس بن عدي؛ وخُنيس بن حُذافة، ومنبه؛ ونبيه، ابنا الحجاج؛ ومنهم العاص بن منبه، قُتل مع أبيه، قتله عليّ وأخذ سيفه ذا الفقار، فصار إلى النبي عليه الصلاة والسلام.

جماهير عامر بن لؤي

منهم: سُهيل بن عمرو، من المؤلفة قلوبهم؛ ومنهم ابن أبي ذئب الفقيه، واسمه محمد بن عبد الرحمن؛ وحويطب بن عبد العزى، من المؤلفة قلوبهم؛ وعبد الله بن مخرمة، بدري؛ ونوفل بن مساحق؛ وأبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة، الفقيه؛ وعبد الله بن أبي سرح، بدري؛ ومنهم ابن أم مكتوم، مؤذن النبي عليه الصلاة والسلام.

---

(١) ميسان: كورة واسعة بين البصرة وواسط.

جماهير بني محارب بن فهر بن مالك

منهم: الضحاك بن قيس الفهري، وحبيب بن مسلمة.

جماهير بني الحارث بن فهر بن مالك

منهم: أبو عبيدة بن الجراح، أمين هذه الأمة؛ وسهيل؛ وصفوان، ابنا وهب؛ وعياض بن غنْم بن زهير؛ وأبو جهم بن خالد؛ وبنو الحرث. هؤلاء من المطيَّبين الذين تحالفوا وغمسوا أيديهم في حفنة فيها طيب.

قريش الظواهر وغيرها من بطون قريش

بنو الحارث وبنو محارب ابنا فهر بن مالك، وهم قريش الظواهر لأنهم نزلوا حول مكة وما والاها.

فمن بني الحارث بن فِهْر: أبو عبيدة بن الجراح، واسمه عامر بن عبد الله بن الجراح، من المهاجرين الأولين.

ومن بني مُحارب بن فهر: الضحاك بن قيس الفهري، صاحب مرج راهط.

وما سوى هؤلاء من بطون قريش يقال لهم قريش البطاح؛ لأنهم سكنوا بطحاء مكة، وهم البطون العشرة التي ذكرناها قبل هذا الباب.

ومن بطون قريش

بنو زُهرة بن كلاب بن كعب بن لؤيّ. منهم وهَب بن عبد مناف بن زُهرة، أبو آمنة أُم رسول الله ﷺ. ومنهم عبد الرحمن بن عوف، خال النبي عليه الصلاة والسلام، ومنهم بنو حبيب بن عبد شمس؛ ومنهم عبد الله بن عامر بن كريز بن حبيب بن عبد شمس، صاحب العراق؛ ومنهم بنو أمية الأصغر ابن عبد شمس بن عبد مناف، وأمهْ عبلة، فيقال لهم العبلات؛ وبنو عبد العزى بن عبد شمس، منهم

أبو العاص بن الربيع، صهر رسول الله ﷺ، تزوج ابنته التي قال النبي ﷺ فيه: «ولكِنَّ أبا العاص لم يُذْمَمْ صِهْرُه»؛ ومنهم بنو المطلب بن عبد مناف؛ ومنهم محمد بن إدريس الشافعي.

ومن بني نوفل بن عبد مناف: المطعم بن عدي.

ولعبد شمس بن عبد مناف ونوفل بن عبد مناف يقول أبو طالب:

فيا أخوَيْنا عبدَ شمسٍ ونوفلاً أُعيذُكما أن تَبعثا بيننا حرْبا

وولد أمية الأكبر: العاص، وأبا العاص، والعيص، وأبا العيص، فهؤلاء يقال لهم الأعياص، وحربا وأبا حرب، وهذه البطون التي ذكرنا كلها من قريش ليست من البطون العشرة التي ذكرناها أولا وذكرنا جماهيرها.

فضل قريش

قال النبي عليه السلام: «الأئِمَّة من قريشٍ». وقال: «قدموا قريشا ولا تقْدُموها»: ولما قُتل النضر بن الحارث بن كلدة بن عبد مناف، قال: «لا يُقتل قرشيّ صبراً بعد اليوم»، يريد أنه لا يكفر قرشي فيقتل صبراً بعد هذا اليوم.

معاوية وأصحابه:

الأصمعي قال: قال معاوية: أي الناس أفصح؟ فقال رجل من السماط: يا أمير المؤمنين، قوم ارتفعوا عن رُتَّة العراق، وتياسروا عن كشكشة[1] بكر، وتيامنوا عن شَنْشنة[2] تغلب، ليست فيهم غمغمة[3] قُضاعة، ولا طُمْطمانية[4] حمير. قال: من هم؟ قال: قومك يا أمير المؤمنين، [قريش]. قال: صدقت! فمن أنت؟ قال: من جَرم.

(١) كشكشة: إبدال الشين من كاف الخطاب للمؤنث.

(٢) شنشنة: جعل الكاف شيئاً مطلقاً.

(٣) غمغمة: أن تسمع الصوت ولا يبين لك تقطع الحروف.

(٤) الطمطمة: ان يكون الكلام مشبها لكلام العجم.

قال الأصمعي: جرم فصحاء العرب.

ابن عتبة وابن عمير:

قدم محمد بن عُمير بن عطارد في نيف وسبعين راكباً، فاستزارهم عمرو بن عتبة، قال: فسمعته يقول: يا أبا سفيان، ما بال العرب تطيل كلامها وأنتم تقصرونه معاشر قريش؟ فقال عمرو بن عتبة: بالجندل يُرمَى الجندل، وإن كلامنا كلام يقل لفظه ويكثر معناه، ويُكتفي بأولاه ويُستشفى بأخراه، يتحدر تحدر الزلال على الكبد الحرّى، ولقد نقصوا وأطال غيرهم فما أخلُّوا، ولله أقوام أدركتُهم كأنما خُلقوا لتحسين ما قبَّحت الدنيا، سهُلت ألفاظُهم كما سهلت عليهم أنفاسهم، فابتذلوا أموالهم، وصانوا أعراضهم، حتى ما يجد الطاعن فيهم مطعنا، ولا المادح مزيدا، ولقد كان آل أبي سفيان مع قلتهم كثيرا منه نصيبُهم، ولله در مولاهم حيث يقول:

وضـعَ الدهْـرُ فيهـمُ شفْـرَتيْـهِ   فمضىَ سـالِما وأمسَـوْا شُعـوبـا

شفرتان والله أفنتا أبدانهم، وأبقتا أخبارهم، فتركناهم حديثا حسناً في الدنيا، ثوابهُ في الآخرة أحسنُ، وحديثا سيئا في الدنيا، ثوابُه في الآخرة أسوَأُ، فيا موْعُوظا بمن قبله موعوظاً به من بعده، اربح نفسَك إذا خَسِرها غيرك.

قال: فظننت أنه إن أراد أن يعلمه أن قريشاً إذا شاءت أن تتكلم تكلمت.

ابن عتبة وقرشيون تشاحوا:

العتبي قال: شهدتُ مجلس عمرو بن عتبة وفيه ناس من القرشيين، فتشاحُّوا في مواريث وتجاحدوا، فلما قاموا من عنده أقبلْ علينا فقال: إنّ لقريش درجا تزلق عنها أقدام الرجال، وأفعالا تخضع لها رقاب الأقوال، وغايات تقصر عنها الجياد المنسوبة، وألسنة تكلّ عنها الشفار المشحوذة؛ ولو احتفلت الدنيا ما تزيَّنتْ إلا بهم، ولو كانت لهم ضاقت عن سعة أخلاقهم؛ وإنّ قوما منهم تخلقوا بأخلاق العوام فصار لهم رفق باللؤم، وخُرق في الحرص ولو أمكنهم لقاسموا الطير في أرزاقها؛ إن خافوا مكروهاً

تعجَّلوا له الفقر، وإن عُجِّلت لهم النعم أخروا عنها الشكر، أولئك أنضاء فكرة الفقر، وعجزة حملة الشكر.

محمد بن الفضل وقوم:

قال أبو العيناء الهاشمي: جرى بين محمد بن الفضل وبين قوم من أهل الأهواز كلام، فلما أصبح رجع عنه؛ فقالوا له: ألم تقل أمس كذا وكذا؟ قال: تختلف الأقوال إذا اختلفت الأحوال.

بينه وبين والى الأهواز:

ودخل محمد بن الفضل على والي الأهواز فسمعه يقول: إذا كان الحق استوى عندي الهاشمي والنَبطي. فقال محمد بن الفضل: لئن استوت حالاتهما عندك فما ذلك بزائدٍ النبطي زينةً ليست له، ولا ناقصٍ الهاشمي قدراً هو له، وإنما يلحق النقص المسوي بينهما!.

لابن عتبة ينصح قرشيين:

العتبي قال: قال عمرو بن عتبة: اختصم قوم من قريش عند معاوية فمنعوا الحق، فقال معاوية: يا معشر قريش، ما بال القوم لأمّ يصلون بينهم ما انقطع، وأنتم لعلاَّت[1] تقطعون بينكم ما وصل الله، وتباعدون ما قرب؟ بل كيف ترجون لغيركم وقد عجزتم عن أنفسكم؟ تقولون كفانا الشرف مَن قبلنا؛ فعندها لزمتكم الحجة؛ فاكفوه مَن بعدكم كما كفاكم مَن قبلكم، أو تعلمون أنكم كنتم رقاعا في جنوب العرب، وقد أُخرجتم من حَرَم ربّكم، ومُنعتم ميراثَ أبيكم وبلدكم، وأخذ لكم ما أخذ منكم؛ وسماكم باجتماعكم اسماً به أبانكم من جميع العرب، وردّ به كيدّ العجم، فقال جل ثناؤه: ﴿لإيلافِ قريشٍ إيلافِهم﴾[2] فارغبوا في الائتلاف أكرمكم الله به، فقد حذرتْكم الفُرقةُ نفسها، وكفى بالتجربة واعظا.

(١) أخوة لعلات: من كانت أمهاتهم شتى وابوهم واحد. (٢) سورة قريش الآية ١.

مكان العرب من قريش

للنبي ﷺ:

يحي بن عبد العزيز، عن أبي الحجاج رياح بن ثابت، عن بكر بن خنيس، عن أبي الأحوص، عن أبي الحُصَين، عن عبد الله بن مسعود أنّ النبي ﷺ قال: قريش الجؤجؤ[١] والعرب الجناحان، والجؤجؤ لا ينهض إلا بالجناحين.

لمعاوية:

قال عمرو بن عتبة: ما استدرّ لعمي كلامٌ قط فقطعه، حتى يُذكر العربُ بفضل أو يُوصَى فيهم بخير. ولقد أنشده مروان ذات يوم للنابغة حيث يقول:

فهم دِرْعِي التي استلأْمتُ فيها إلى يومِ النَّسار وهمْ مِجَنّى[٢]

فقال معاوية: ألا إنّ دروع هذا الحي من قريش إخوانهم من العرب، المتشابكة أرحامهم تشابُك حَلق الدرع، التي إن ذهبت حَلْقة منه فرقت بين أربع؛ ولا تزال السيوف تكره مذاقةَ لحوم قريش ما بقيت دروعُها معها، وشدت نطُقَها عليها، ولم تفك حلَقها منها؛ فإذا خلعتها من رقابها كانت للسيوف جَزَرا.

لابن عتبة في معاوية:

العتبي عن أبيه عن عمرو بن عتبة قال: عقمت النساء أن يلدْن مثل عمي: شهدْته يوما وقد قدمتْ عليه وفود العرب، فقضى حوائجهم وأحسن جوائزهم؛ فلما دخلوا عليه ليشكروا سبقهم إلى الشكر، فقال لهم: جزاكم الله يا معشر العرب عن قريش أفضل الجزاء؛ بتقدّمكم إياهم في الحرب، وتقديمكم لهم في السلم، وحقنكم دماءهم بسفْكِها منكم؛ أما والله لا يؤثِر عليكم غيرَكم منهم إلا حازم كريم، ولا يرغب عنكم منهم إلا عاجز لئيم؛ شجرة قامت على ساق، فتفرع أعلاها واجتمع أصلها، عضد الله

---

(١) الجؤجؤ: صدر السفينة. (٢) استلأم: لبس ما عنده من عدة؛ والمجن: الترس.

من عضدها، فيا لها كلمةً لو اجتمعت، وأيدياً لو ائتلفت! ولكن كيف بإصلاح ما يريد الله إفساده؟

فضل العرب

يحيى بن عبد العزيز قال: حدثنا أبو الحجاج رياح بن ثابت، قال: حدثنا بكر بن خُنيس، عن أبي الأحوص، عن أبي الحُصين، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سألتم الحوائج فاسألوا العرب؛ فإنها تعطى لثلاث خصال: كرم أحسابها، واستحياء بعضها من بعض، والمواساة لله».

ثم قال: «من أبغض العربَ أبغضه الله».

ابن الكلبي قال: كانت في العرب خاصة عشر خصال لم تكن في أمة من الأمم: خمس منها في الرأس، وخمس في الجسد؛ فأما التي في الرأس: فالفرق، والسواك، والمضمضة، والاستنثار،[1] وقص الشارب؛ وأما التي في الجسد: فتقليم الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة، والختان، والاستنجاء؛[2] وكان في العرب خاصةً، القيافة؛ لم يكن في جميع الأمم أحد ينظر إلى رجُلين أحدهما قصير والآخر طويل، أو أحدهما أسود والآخر أبيض، فيقول: هذا القصير ابن هذا الطويل، وهذا الأسود ابن هذا الأبيض، إلا في العرب.

لابن المقفع:

أبو العيناء الهاشمي عن القحذمي عن شبيب بن شيبة قال: كنا وقوفاً بالمربد، وكان المربد مألف الأشراف، إذ أقبل ابن المقفع، فبششنا به وبدأناه بالسلام، فردّ علينا السلام، ثم قال: لو ملتم إلى دار نَيْروز وظلها الظليل، وسورها المديد، ونسيمها العجيب؛ فعودتم أبدانكم تمهيد الأرض، وأرحتم دوابّكم من جهد الثقل؛ فإن الذي تطلبونه لم تُفاتوه، ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه! فقبلنا وملنا؛ فلما استقرّ بنا

(١) استنثر: أدخل الماء في أنفه ثم دفعه ليخرج مافيه. (٢) الاستنجاء: التطهر بالماء أو غيره.

المكان قال لنا: أيّ الأمم أعقل؟ فنظر بعضنا إلى بعض؛ فقلنا: لعله أراد أصله من فارس. فقلنا: فارس. فقال: ليسوا بذلك؛ إنهم ملكوا كثيراً من الأرض، ووجدوا عظيما من الملك، وغلبوا على كثير من الخلق، ولبث فيهم عقد الأمر؛ فما استنبطوا شيئاً بعقولهم، ولا ابتدعوا باقي حكم بنفوسهم. قلنا: فالروم. قال: أصحاب صنعة. قلنا: فالصين. قال: أصحاب طُرفة. قلنا: الهند. قال: أصحاب فلسفة. قلنا: السودان. قال: شر خلق الله. قلنا: الترك. قال: كلاب ضالة. قلنا: الخزر. قال: بقر سائمة. قلنا: فقل. قال: العرب. قال: فضحكنا.

قال: أما إني ما أردت موافقتكم، ولكن إذا فاتني حظي من النسبة، فلا يفوتني حظي من المعرفة؛ إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها، ولا آثار أثرتْ؛ أصحاب إبل وغنم، وسكان شعر وأدم؛ يجود أحدهم بقوته، ويتفضل بمجهوده، ويشارك في ميسوره ومعسوره، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة، ويفعله فيصير حجة، ويحسِّن ما شاء فيحسنُ، ويقبّح ما شاء فيقبح؛ أدَّبتهم أنفسهم، ورفعتهم هممهم، وأعْلتهم قلوبهم وألسنتهم؛ فلم يزل حباء الله فيهم وحباؤهُمْ في أنفسهم، حتى رفع لهم الفخر، وبلغ بهم أشرف الذكر، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر، وافتتح دينَه وخلافته بهم إلى الحشر على الخير فيهم ولهم؛ فقال تعالى: ﴿إنَّ الأرضَ لله يُورِثُها مَنْ يشاءُ منْ عِباده والعاقبةُ للمُتَّقينَ﴾(١) فمن وضع حقهم خسر، ومن أنكر فضلهم خصم؛ ودفعُ الحق باللسان أكبت للجنان.

ذو الرمة وعبد أسود:

ذكر الأصمعي عن ذي الرمة قال: رأيت عبداً أسود لبني أسَدٍ قدم علينا من شق اليمامة، وكان وحشيا؛ لطول تغرُّبه في الإبل، وربما كان لقي الأكرة(٢) فلا يفهم عنهم ولا يستطيع إفهامهم، فلما رآني سكن إليّ، ثم قال لي: يا غيلان، لعن اللهُ بلادا ليس فيها عربيّ، وقاتل اللهُ الشاعر حيث يقول:

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٢٨. (٢) الأكرة: الفلاحين.

حُرُّ الثَرى مُسْتَغْرِبُ التُرابِ

وما رأيت هذه العرب في جميع الناس إلا مقدار القُرحة في جلد الفرس؛ ولولا أن الله رقّ عليهم فجعلهم في حشاه: لطمست هذه العجمانُ آثارَهم، واللهِ ما أمر اللهُ نبيَّه بقتلهم إلا لضنه بهم، ولا ترك قبولَ الجزية منهم إلا لِتركها لهم.

الأكرة: جمع أكار، وهم الحُرَّاثُ. وقوله: جعلهم في حشاه، أي: آستبطنهم. يقول الرجل للعربي إذا آستبطنه: خبأتك في حشاي وقال الراجز:

وصاحِبٍ كالدُّمَّلِ المُمِدِّ   جعلْتُهُ في رُقعَةٍ مِنْ جِلْدِي

وقال آخر:

لقد كنتَ في قوم عليك أَشِحَّةٍ   بِحُبِّكَ إلاَ أنّ ما طاح طائحُ

يَوَدُّونَ لو خاطوا عليك جُلُودَهُمْ   ولا يَدْفعُ الموتَ النُّفوسُ الشَّحائحُ

علماء النسب

أبو بكر وابن المسيب:

كان أبو بكر رضي الله عنه نسابة، وكان سعيد بن المسيّب نسابة، وقال له رجل: أريد أن تعلمني النسب، قال: إنما تريد أن تساب الناس.

أبو بكر وبعض القبائل:

عكرمة عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب قال: لما أمر رسول الله ﷺ أن يعرض نفسه على القبائل، خرج مرة وأنا معه وأبو بكر، حتى رُفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبو بكر فسلم. قال عليّ: وكان أبو بكر مقدَّما في كل خير، وكان رجلا نسابة. فقال: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة. قال: وأي ربيعة أنتم، أمِن هامتها [أم منْ لهازِمِها]؟ قالوا: مِن هامَتها العظمى. قال: وأيّ هامتها العظمى أنتم؟ قالوا: ذُهْل الأكبر. قال أبو بكر: فمنكم عوف بن محلم الذي يقال فيه: لا حُرَّ

بوادي عوف؟ قالوا: لا؛ قال: فمنكم جساس بن مُرة الحامي الذمار، والمانع الجار؟ قالوا: لا. قال: فمنكم أخوال الملوك من كِندة؟ قالوا: لا. قال: فمنكم أصهار الملوك من لخم؟ قالوا: لا. قال أبو بكر: فلستم ذُهْلاً الأكبر، أنتم ذهل الأصغر. فقام إليه غلام من شيبان حين بَقل[1] وجهه، يقال له دَغَفل، فقال:

إنَّ على سـائِلِنـا أنْ نسـألَـهْ   والعِـبْءُ لا تَعـرفُـهُ أو تَحملَـه

يا هذا، إنك قد سألتنا فأخبرناك ولم نكتمك شيئا، فممن الرجل؟ قال أبو بكر: من قريش؟ قال: بخٍ بخٍ! أهل الشرف والرياسة؛ فمن أي قريش أنت؟ قال: من ولد تيم بن مُرة. قال: أمكنْتَ والله الرامي من سواء الثَّغْرة.[2] أفمِنكم قُصّي بن كلاب الذي جمع القبائل فسمي مجمّعا؟ قال: لا. قال: أفمنكم هاشم الذي هشم الثريد لقومه ورجالُ مكة مُسنتون[3] عجاف؟ قال: لا. قال: فمنكم شيبة الحمد، عبد المطلب، مطعمُ طير السماء، الذي وجهه كالقمر في الليلة الظلماء؟ قال: لا. قال: فمِن أهل الإفاضة بالناس أنت؟ قال: لا. قال: فمن أهل السقاية أنت؟ قال: لا. فاجتذب أبو بكر زمامَ الناقة، ورجع إلى رسول الله ﷺ: فقال الغلام:

صـادفَ دَرُّ السيـلِ دَراً يَـدفعُـهْ   يَهِيضُـهُ حينـاً وحينـاً يَصْدَعُـهْ

قال: فتبسم النبي عليه السلام؛ قال عليّ: فقلت له: وقعتَ يا أبا بكر من الأعرابي على بائقة.[4] قال: أجل: قال: ما من طامة إلا وفوقها أخرى، والبلاء موكل بالمنطق والحديث ذو شجون.

دغفل وقومٍ من الأنصار:

قال ابن الأعرابي: بلغني أن جماعة من الأنصار وقفوا على دَغْفَل النسابة بعد ما كفَّ، فسلموا عليه، فقال: مَنِ القوم؟ قالوا: سادة اليمن. فقال: من أهل مجدها

---

(١) بقل وجهه: خرج شعره.   (٢) سواء الثغرة: وسط النحر.

(٣) مسنتون: أصابتهم سنة قحط.   (٤) البائقة: الداهية.

القديم، وشرفها العميم، كندة؟ قالوا: لا. قال: فأنتم الطوال قصبا الممحّضون نسبا، بنو عبد المدان؟ قالوا: لا. قال: فأنتم أقوَدُها للزحوف، وأخرَقها للصفوف، وأضربُها بالسيوف، رهط عمرو بن معد يكرب؟ قالوا: لا. قال: فأنتم أحضَرُها قراءً، وأطيبها فِناء، وأشدها لِقاءً رهط حاتم بن عبد الله [الطائي] ؟ قالوا: لا. قال: فأنتم الغارسون للنخل، والمطعمون في المَحل، والقائلون بالعدل، الأنصار؟ قالوا: نعم.

ابن شيبان وقوم من العرب:

مسلمة بن شبيب، عن المِنقرى، قال: ذكروا أن يزيد بن شيبان بن علقمة بن زرارة بن عدس قال: خرجتُ حاجاً، حتى إذا كنت بالمحصب من مِنًى إذا رجل على راحلة معه عشرة من الشباب، مع كل رجل منهم مِحْجَن، يُنَحُّون الناس عنه ويوسِّعون له؛ فلما رأيته دنَوْت منه؛ فقلت: مَّمن الرجل؟ قال: رجل من مَهْرة، ممن يسكُن الشَّحر.[1] قال: فكرهته ووليت عنه، فناداني من ورائي: مالَكَ؟ فقلت: لستَ من قومي ولستَ تعرفني ولا أعرفك. قال: إن كنتَ من كرام العرب فسأعرفك. قال: فكررت عليه راحلتي، فقلت: إني من كرام العرب. قال: فممن أنت؟ قلت: من مضر. قال: فمِنَ الفرسان أنت أم من الأرحاء؟ فعلمت أنه أراد بالفرسان قيسا، وبالأرحاءِ خندفا؛ فقلت: بل من الأرحاء. قال: أنت امرؤ من خندف؟ قلت: نعم. قال: من الأرنبة أنت أم من الجماجم؟ فعلمت أنه أراد بالأرنبة خزيمة، وبالجمجمة بني أد بن طابخة؛ قلت: بل من الجمجمة. قال: فأنت امرؤ من بني أد بن طابخة؟ قلت: أجل: قال: فمنَ الدواني أنت أم من الصميم؟ قال: فعلمت أنه أراد بالدواني الرباب ومزينة، وبالصميم بني تميم؛ قلت: من الصميم. قال: فأنت إذاً من بني تميم. قلت: أجل. قال: فمن الأكثرين أنت أم من الأقلين، أو من إخوانهم الآخرين؟ فعلمت أنه أراد بالأكثرين ولد زيد مناة، وبالأقلين ولد الحارث، وبإخوانهم الآخرين بني عمرو بن تميم؛ قلت: من الأكثرين، قال: فأنت إذاً

(١) الشحر: بطن الوداي.

من ولد زيد، قلت: أجل؛ قال: فمِن البحور أنت أم من الجُدود[1] أم من الثماد؟[2] فعلمت أنه أراد بالبحور بني سعد، وبالجدود بني مالك بن حنظلة، وبالثماد بني امريء القيس بن زيد؛ قلت: بل من الذرى. قال: فأنت من مالك بن حنظلة. قلت: أجل. قال: فمن اللهاب[3] أنت أم من الشعاب أم من اللصاب؟[4] فعلمت أنه أراد باللِّهاب مجاشعا، وبالشعاب نهشلا، وباللصاب بني عبد الله بن دارم؛ فقلت له: من اللصباب. قال: فأنت من بني عبد الله بن دارم؟ قلت: أجل. قال: فمِن البيوت أنت أم من الزَّوافِر؟ فعلمت أنه أراد بالبيوت ولد زرارة، وبالزوافر الأحلاف؛ قلت: من البيوت. قال: فأنت يزيد بن شيبان بن علقمة بن زرارة بن عدس، وقد كان لأبيك امرأتان، فأيها أُمّك؟.

قول دغفل في قبائل العرب

دغفل وزياد:

الهيثم بن عدي عن عوانة قال: سأل زياد دغفلا عن العرب، فقال: الجاهلية لِيَمَن، والإسلام لمضر، والفينة بينهما لربيعة. قال: أخبرني عن مضر؛ قال: فاخِرْ بكنانة، وكاثِر بتميم، وحارب بقيس؛ ففيها الفرسان والأنجاد؛ وأما أسد ففيها دَل وكبر.

دغفل ومعاوية:

وسأل معاوية بن أبي سفيان دغفلا فقال له: ما تقول في بني عامر بن صعصعة؟ قال: أعناق ظباء، وأعجاز نساء! قال: فما تقول في بني أسد؟ قال: عافة قافة،[5] فصحاء كافة. قال: فما تقول في بني تميم؟ قال: حجر أخشن، إن صادقته آذاك، وإن

---

(١) الجدود: شواطيء البحار. (٢) الثماد: الحفر يكون فيها الماء القليل.

(٣) اللهاب: الشعب الصغيرة في الجبل.

(٤) اللصاب: جمع لصب وهو شق في الجبل أضيق من اللهب وأوسع من الشعب.

(٥) العافة: جمع عائف، وهو الذي يزجر الطير ويتفاءل بأسمائها وأصواتها وممرها.

تركته أعفاك. قال: فما تقول في خزاعة؟ قال: جوع وأحاديث! قال: فما تقول في اليمن؟ قال: شدة وإباء.

قال نصر بن سيّار:

إنـا وهـذا الحيَّ مِـن يَمَـنٍ لنـا ... عنـد الفَخـار أعـزَّة أكفـاءُ
قـومٌ لهم فينـا دمـاءٌ جَمَّةٌ ... ولنـا لـديهم أجْنـةٌ ودمـاءُ
وربيعـةُ الأذنـاب فيما بيننـا ... لاهُـم لنـا سِلْـمٌ ولا أعـداءُ
إن يَنصرونـا لا نِعـز بنصرهـم ... أو يَخـذُلـونـا فـالسماءُ سماءُ

مفاخرة يمن ومضر

الأبرش يفاخر ابن صفوان:

قال الأبرش الكلبي لخالد بن صفوان: هل أفاخرك ـ وهما عند هشام بن عبد الملك ـ فقال له خالد: قل. فقال الأبرش: لنا ربع البيت ـ يريد الركن اليماني ـ ومنا حاتم طيء، ومنا المهلب بن أبي صفرة.

قال خالد بن صفوان: منا النبي المرسل، وفينا الكتاب المنزَّل، ولنا الخليفة المؤمَّل. قال الأبرش: لا فاخرتُ مُضَرِيا بعدك!

أبو العباس وقوم من اليمن:

ونزل بأبي العباس قوم من اليمن من أخواله من كعب، ففخروا عنده بقديمهم وحديثهم؛ فقال أبو العباس لخالد بن صفوان: أجب القوم. فقال: أخوال أمير المؤمنين [وأهله]! قال: لا بد أن تقول. قال: وما [عَسَى أن] أقول لقوم يا أمير المؤمنين هم بين حائك برد، وسائس قرد، ودابغ جلد؛ دل عليهم هدهد، وملكتهم امرأة، وغرقتهم فأرة؟ فلم يثبت لهم بعدها قائمة.

مفاخرة الأوس والخزرج

الخشني يرفعه إلى أنس، قال: تفاخرت الأوس والخزرج؛ فقالت الأوس: منا غسيل الملائكة حنظلة الراهب، ومنا عاصم بن ثابت بن الأفلح الذي حمت لحمه الدَّبر،[1] ومنا ذو الشهادتين جزيمة بن ثابت، ومنا الذي اهتز لموته العرش سعد بن معاذ. قالت الخزرج: منا أربعة قرءوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ لم يقرأه غيرهم: زيد بن ثابت، وأبو زيد، ومعاذ بن جبل، وأُبيّ بن كعب سيد القرّاء؛ ومنا الذي أيده الله بروح القدس في شعره، حسان بن ثابت.

البيوتات

علماء النسب في حضرة عبد الملك:

قال أبو عبيدة في كتاب التاج: اجتمع عند عبد الملك بن مروان في سمره علماء كثيرون من العرب، فذكروا بيوتات العرب، فاتفقوا على خمسة أبيات: بيت بني معاوية الأكرمين في كِندة، وبيت بني جشم بن بكر في تغلب، وبيت ابن ذي الجدين في بكر، وبيت زُرارة بن عدس في تميم، وبيت بني بدر في قيس ـ وفيهم الأحرز بن مجاهد التغلبي، وكان أعلم القوم، فجعل لا يخوض معهم فيما يخوضون فيه؛ فقال له عبد الملك: مالك يا أحيرز ساكتا منذ الليلة؟ فوالله ما أنت بدون القوم علما. قال: وما أقول؟ سبق أهل الفضل في فضلهم أهل النقص في نقصانهم، والله لو أن للناس كلهم فرسا سابقاً لكانت غرتَه بنو شيبان ففيم الإكثار. وقد قال المسيَّب بن عَلَس:

تَبيـت الملـوكُ على عَتْبِهـا ... وشيبْـان إن عَتَبـتْ تَعْتِـبُ
فكـالشُّهْـد بـالـرَّاحِ أخلاقُهـم ... وأحلامُهُـم منها أعـذَبُ
وكـالمسك تُـرْبُ تِقـامـاتُهـم ... وتُـرْبُ قُبـورِهـم أطيَـبُ

---

(١) الدَّبر: الزنابير والنحل.

بيوتات مضر وفضائلها

قال النبي ﷺ، وسئل عن مضر. فقال: «كِنانة جُمْجُمَتُها وفيها العينان، وأسدٌ لسانها، وتميم كاهلها».

وقالوا: بيت تميم، بنو عبد الله بن دارم، ومركزه بنو زُرارة، وبيت قيس، فزارة ومركزه بنو بدر؛ وبيت بكر بن وائل شيبان، ومركزه بيت بني ذي الجدين.

معاوية والكلبي:

وقال معاوية للكلبي حين سأله عن أخبار العرب. قال: أخبرني عن أعز العرب فقال: رجل رأيته بباب قبته فقسم الفيء بين الحليفين أسد وغطفان معا. قال: ومن هو؟ قال. حصن بن حذيفة بن بدر. قال: فأخبرني عن أشرف بيت في العرب. قال: والله إني لأعرفه وإني لأُبغضه! قال: ومن هو؟ قال بيت زرارة بن عدس. قال: فأخبرني عن أفصح العرب. قال: بنو أسد.

والمجتمع عليه عند أهل النسب. وفيما ذكره أبو عبيدة في التاج، أن أشرف بيت في مضر غير مدافع في الجاهلية، بيت بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة ابن تميم.

النعمان والأحيمر:

وقال النعمان بن المنذر ذات يوم، وعنده وجوه العرب ووفود القبائل، ودعا ببردَيْ محرِّق. فقال: لَيَلْبَسْ هذين البردين أكرمُ العرب وأشرفهم حسبا وأعزُّهم قبيلة. فأحجم الناس؛ فقام الأحيمر بن خلف بن بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة، فقال: أنا لها! فأتزر بأحدهما وارتدى بالآخر؛ فقال له المنذر: ما حجتك فيما ادعيت؟ قال: الشرف من نزار كلها في مضر. ثم في تميم، ثم في سعد، ثم في كعب، ثم في بهدلة. قال: هذا أنت في اصلك؛ فكيف أنت في عشيرتك؟ قال: أنا أبو عشرة، وعم عشرة، وأخو عشرة، وخال عشرة! قال: فهذا أنت في عشيرتك؛ فكيف أنت في نفسك؟ فقال: شاهدُ العين شاهدي. ثم قام فوضع قدمه في الأرض.

وقال: من أزالها فله من الإبل مائة! فلم يقم إليه أحد ولا تعاطى ذلك. ففيه يقول الفرزدق:

فما تم في سعدٍ ولا آلِ مالك غلامٌ إذا ما سيل لم يَتَبهدل
لهمْ وهَبَ النُّعمان بُرْدَيْ مُحرَّقٍ بمجدِ مَعدّ والعديد المحصَّل

ومن بيت بهدلة بن عوف كان الزبرقان بن بدر، وكان يسمى سعد بن زيد مناة ابن تميم أسعد الأكرمين. وفيهم كانت الإفاضة في الجاهلية في عطارد بن عوف بن كعب بن سعد، ثم في آل كرب بن صفوان بن عطارد. وكان إذا اجتمع الناس أيام الحج بمنىً لم يبرح أحد حتى يجوز آل صفوان ومَن ورث ذلك عنهم، ثم يمر الناس أرسالا. وفي ذلك يقول أوس بن مغراء السعدي.

ولاَ يريمونَ في التَّعريفِ موقِفهُمْ حتى يُقال أجيزُوا آلَ صفْوانا
ما تطْلُعُ الشَّمْسُ إلاَّ عندَ أوَّلنا ولا تَغيَّبُ إلا عند أخرانا

قال الفرزدق:

تَرى الناسَ ما سِرنْا يسيرون خلْفنا وإن نحنُ أومأنا إلى الناسِ وقَّفوا

بيوتات اليمن وفضائلها

قال النبي ﷺ: «إني لأجدُ نفَسَ ربكم من قبلِ اليمن»، معناه والله أعلم: أن الله ينفس عن المسلمين بأهل اليمن: يريد الأنصار. ولذلك تقول العرب: نفَّسني فلان في حاجتي، إذا روّح بعض ما كان يغُمُّه من أمر حاجته.

وقال عبد الله بن عباس لبعض اليمانية: لكم من السماء نجمُها ومن الكعبة ركنُها ومن الشرف صميمها.

وقال عمر بن الخطاب: مَن أجودُ العربِ؟ قالوا: حاتم طيء، قال: فمن فارسُها؟ قالوا: عمرو بن معد يكرب. قال: فمن شاعرُها؟ قالوا: امرؤ القيس بن حجر. قال: فأي سيوفها أقطعُ؟ قالوا: الصمصامة. قال: كفى بهذا فخراً لليمن.

وقال أبو عبيدة: ملوك العرب حِمير، ومقاولها غسان ولخم، وعددها وفرسانها الأزد، ولسانها مذحج، وريحانتها كندة، وقريشها الأنصار.

وقال ابن الكلبي: حِمْير مُلوك وأرادف الملوك، والأزد أُسد، ومذحج الطعّان وهمدان أحلاس الخيل، وغسان أرباب الملوك.

ومن الأزد الأنصار، وهم الأوس والخزرج ابنا حارثة بن عمرو بن عامر، وهم أعز الناس أنفسا، وأشرفهم همما؛ لم يؤدوا إتاوة قط إلى أحد من الملوك. وكتب إليهم أبو كرب تُبّع الآخِر يستدعيهم إلى طاعته ويتوعدهم إن لم يفعلوا أن يغزوهم؛ فكتبوا إليه:

العبدُ تُبّعُكُمْ يُريدُ قِتالَنا ... ومكانُهُ بالمنزِلِ المُتذلّلِ
إنا أُناسٌ لا تنامُ بِأرضِنا ... عضَّ الرسولُ بِبظرِ أُمِّ المُرسِلِ

قال: فغزاهم أبو كرب، فكانوا يحاربونه بالنهار، ويُقْرونه بالليل، فقال أبو كرب: ما رأيتُ قوماً أكرمَ من هؤلاء؛ يحاربوننا بالنهار، ويُخرِجون لنا العَشاء بالليل! ارتحِلوا عنهم. فارتحَلوا.

للنبي ﷺ:

ابن لهيعة عن ابن هُبيرة عن علقمة بن وعْلة عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ سُئل عن سبإ ما هو: أبلد أم رجل أم امرأة؟ فقال: «بل رجل وُلد له عشرة، فسكن اليمنَ منهم ستة، والشام أربعة. أما اليمانيون، فكندة ومذحج والأزد وأنمار وحمير والأشعريون. وأما الشاميون فلخم وجذام وغسان وعاملة».

ابن لهيعة قال: كان أبو هريرة إذا جاء الرسولُ سأله ممن هو؟ فإذا قال من جذام، قال: مرحباً بأصهار موسى وقوم شعيب.

ابن لهيعة عن بكر بن سوادة، قال: أتى رجل من مهرة إلى علي بن أبي طالب، قال: ممن أنت؟ قال: من مهرة. قال: ﴿وآذكُرْ أخَا عادٍ إذْ أنْذَرَ قومَهُ بالأحقافِ﴾.[1]

(١) سورة الأحقاف الآية ٢١.

وقال ابن لهيعة: قبر هود في مَهْرة.

تفسير القبائل والعمائر والشعوب

قال ابن الكلبي؛ الشعب أكبر من القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ ثم العشيرة، ثم الفصيلة.

وقال غيره: الشعوبُ العجم، والقبائلُ العرب، وإنما قيل للقبيلة قبيلة، لتقابلها وتناظرها، وأن بعضها يكافىء بعضاً، وقيل للشعب شعب لأنه انشعب منه أكثر مما انشعب من القبيلة؛ وقيل لها عمائر، من الاعتمار والاجتماع، وقيل لها بطون، لأنها دون القبائل، وقيل لها أفخاذ، لأنها دون البطون، ثم العشيرة: وهي رهط الرجل، ثم الفصيلة وهي أهل بيت الرجل خاصة. قال الله تعالى: ﴿وفصيلتِهِ التي تُؤْوِيه﴾(١) وقال تعالى: ﴿وأَنْذِرْ عشِيرتكَ الأقربِينَ﴾.(٢)

تفسير الأرحاء والجماجم

وقال أبو عبيدة في التاج: كانت أرحاء العرب ستا، وجماجمها ثمانيا، فالأرحاء الست، بمضر منها اثنتان، ولربيعة اثنتان، ولليمن اثنتان، واللتان في مضر: تيم بن مرة، وأسد بن خزيمة، واللتان في اليمن: كلب بن وبرة، وطيء بن أدد.

وإنما سُميت هذه أرحاء، لأنها أحرزت دُوراً ومياها لم يكن للعرب مثلها، ولم تبرح من أوطانها، ودارت في دورها كالأرحاء على أقطابها، إلا أن ينتجع بعضها في البرحاء وعام الجدب، وذلك قليل منهم.

وقيل للجماجم جماجم، لأنها يتفرع من كل واحدة منها قبائل اكتفت بأسمائها دون الانتساب إليها، فصارت كأنها جسد قائم وكل عضو منها مكتف باسمه معروف بموضعه.

والجماجم ثمان: فاثنتان منها في اليمن، واثنتان في ربيعة، وأربع في مضر فالأربع

---

(١) سورة المعارج الآية ١٣. (٢) سورة الفرقان الآية ٢١٤

التي في مضر: اثنتان في قيس، واثنتان في خندف، ففي قيس: غطفان وهوازن، وفي خندف: كنانة وتميم، والتي في ربيعة: بكر بن وائل وعبد القيس بن أفصى، والتي في اليمن: مذحج - وهو مالك بن أدد بن زيد بن كهلان بن سبأ - وقضاعة بن مالك ابن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ.

ألا ترى أن بكرا وتغلب ابني وائل قبيلتان متكافئتان في العد والعدد؟ فلم يكن في تغلبَ رجالٌ شُهرت أسماؤهم حتى انتسب إليهم واجتُزِىء[1] بهم عن تغلب، فإذا سألت الرجل من بني تغلب لم يجتزىء حتى يقول تغلبي. ولبكر رجال قد اشتهرت أسماؤهم حتى كانت مثل بكر، فمنها شيبان وعجل ويشكر وقيس وحنيفة وذهل.

ومثل ذلك عبد القيس، ألا ترى أن عنزة فوقها في النسب ليس بينها وبين ربيعة إلا أب واحد، عنزة بن أسد بن ربيعة، فلا يجتزىء الرجل منهم إذا سئل أن يقول: عنزي؟.

والرجلُ من عبد القيس ينسب شيبانيا وجرميا وبكريا.

ومثل ذلك أن ضبة بن أدعم تميم لا يجتزىء الرجل منهم أن يقول: ضبيّ.

والتميمي قد ينسب فيقول: منقري، وهجيمي، وطهويّ، ويربوعيّ ودارميّ، وكلبيّ.

وكذلك الكناني ينسب فيقول: لبثيّ، ودؤليّ، وضمري، وفِراسي، وكل ذلك مشهور معروف.

وكذلك الغطفاني ينسب فيقول: عبسي، وذبياني، وفزاري، ومري، وأشجعي، وبغيضي.

وكذلك هوازن منها: ثقيف، والأعجاز، وعامر بن صعصعة، وقشير، وعقيل، وجعدة.

وكذلك القبائل من يمن التي ذكرنا.

فهذا فرق ما بين الجماجم وغيرها من القبائل، والمعنى الذي به سمّيت جماجم.

---

(١) اجتزأ به: اكتفى.

وجمرات العرب أربعة، وهم: بنو نُمير بن عامر بن صعصعة، وبنو الحرث بن كعب، وبنو ضبة، وبنو عبس بن بغيض، وإنما قيل لها الجمرات لاجتماعهم، والجمرة: الجماعة، والتجمير: التجميع.

أسماء ولد نزار

سطيح وتقسيم ميراث نزار:

قال أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الخشني: لما احتضر نزار بن معد بن عدنان، ترك أربعة بنين: مضر وربيعة، وأنمار، وأياد، وأوصى أن يَقسم ميراثَهم بينهم سطيحُ الكاهن؛ فلما مات نزار، صفهم سطيح بين يديه، ثم أعطاهم على الفراسة؛ فأعطى ربيعة الخيل، ويقال له ربيعة الفرس. وأعطى مضر الناقة الحمراء، فيقال له مضر الحمراء. وأعطى أنماراً الحمار. وأعطى إياداً أثاث البيت. قال: فقيل لسطيح: من أين علمت هذا العلم؟ قال: سمعته من أخي حين سمعه من موسى يوم طور سَيناء.

الأصمعي قال: أخبرني شيخ من تغلب، قال أردفني أبي، فلما أصحر رفع عقيرته فقال:

رأتْ سِدْرةً من سِدْرِ حوْمَلَ فابتنَت ... بـه بيتَهـا أنْ لا تُحـاذِرِ رامِيـا[1]
إذا هي قامت فيه قـامـت ظليلـةً ... وأدْرَكَ روْقاها الغصـونَ الدَّوانِيـا
تطلّـعُ منـه بـالعشِـيَّ وبـالضُّحـى ... تطلُّعَ ذاتِ الخِدْرِ تدعـو الجَوارِيـا

ثم قال: أتدري مَن قائل هذه الأبيات يا بني؟ قلت: لا أدري. قال: قالها ربيعة ابن نزار. فقلت: وما يصف؟ قال: البقرة الوحشية.

أنساب مضر

وَلد مضرُ بن نزار: اليأس، والناسّ، وهو عيلان. أمهما الرباب بنت حَيْدة بن

(١) السدرة: شجرة النبق.

معد، فولد الناسُّ - الذي هو عيلان بن مضر - قيس بن عيلان بن مضر.

وولد اليأسُ بن مضر: عَمرا. وهو مدركة، وعامرا، وهو طابخة. وعميرا، وهو القمعة، ويقال إن القمعة هو أبو خزاعة.

وأمهم خندف، وهي ليلى بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة؛ فجميع ولد اليأس بن مضر بن نزار من خندف. ولذلك يقال لهم خندف لأنها أمهم وإليها ينسبون، فجميع ولد مضر بن نزار؛ قيس، وخندف.

ومن بطون خندف: بنو مدركة بن اليأس بن مضر، وهم: هذيل بن مدركة، وكنانة بن خزيمة بن مدركة، وأسد بن خزيمة بن مدركة، والهون بن خزيمة بن مدركة. [ومن أسد بن خزيمة أربع عشائر: بنو كاهل وصعب وعمرو ودودان؛ فمن دودان: بنو عمرو بن دودان، قبيلة]؛ وهم وجوه بني أسد.

ومن بني طابخة بن اليأس بن مضر: ضبة بن أدّ بن طابخة، ومزينة؛ وهم بنو عمرو بن أد بن طابخة، نسبوا إلى أمهم مزينة ابنة كلب بن وبرة؛ والرباب بنو أدّ بن طابخة، وهم عدىّ، وتيم، وثـور، وعكـل، وإنما سميـت الربـاب لأنها اجتمعـت وتحالفت فكانت مثل الربابة؛[1] ويقال إنهم إذا تحالفوا وضعوا أيديهم في جفنة فيها رُب، وصوفة؛ وهو الربيط بن الغوث بن أدّ بن طابخة؛ وكانوا أصحاب الإجازة، ثم انتقلت في بني عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم؛ وتميم بن مرة بن أدّ بن طابخة.

فجميع قبائل مضر يجمعها قيس وخندف؛ وقد تنسب ربيعة في مضر؛ وإنما هم إخوة مضر؛ لأن ربيعة بن نزار، ومضر بن نزار.

بطون هذيل وجماهيرها

منهم لحيان بن هذيل، بطن؛ وخُناعة بن سعد بن هذيل، بطن؛ وحريث بن

---

(١) الربابة: خرقة تجمع فيها القداح.

سعد بن هذيل، بطن؛ وكاهل بن سعد بن هذيل، بطن؛ وصاهلة بن كاهل بن الحارث بن سعد بن هذيل، بطن؛ وصبح بن كاهل، بطن؛ وكعب بن كاهل، بطن.

فمن بني صاهلة: عبد الله بن مسعود، صاحب رسول الله ﷺ، شهد بدرا. ومن بني صبح بن كاهل: أبو بكر الهذلي الفقيه، ومنهم صخر بن حبيب الشاعر، الذي يقال فيه صخر الغي، وأبو بكر الشاعر، واسمه ثابت بن عبد شمس. ومنهم: أبو ذؤيب الشاعر، وهو خويلد بن خالد. وبطون هذيل كلها لا يُنتسب إلى شيء منها، وإنما يُنتسب إلى هذيل؛ لأنها ليست جمجمة.

بطون كنانة وجماهيرها

كنانة بن خزيمة بن مدركة، منهم قريش، وهم بنو النضر بن كنانة؛ ومنهم بكر ابن عبد مناة، بطن؛ وحدج بن ليث بن بكر بن عبد مناة، بطن؛ وغفار بن مُليل ابن ضمرة بن بكر، بطن - منهم أبو ذرّ الغفاري صاحب النبي عليه الصلاة والسلام - ومدلج بن مرة بن عبد مناة، بطن - منهم سراقة بن [مالك بن] جعشم المدلجي الذي تصوّر إبليسُ في صورته يوم بدر وقال لقريش: إني جارٌ لكم - وبنو مالك بن كنانة، بطن - منهم جِذْل الطعان، وهو علقمة بن أوس بن عمرو بن ثعلبة بن مالك ابن كنانة. ومن ولد جِذل الطعان، وربيعة بن مكدم، وهو أشجع بيت في العرب، وفيهم يقول علي بن أبي طالب لأهل الكوفة: وَدِدت واللهِ لو أنّ لي بمائةِ الف منكم ثلثمائة من بني فِراس بن غنم بن ثعلبة. ومن بني الحارث بن مالك بن كنانة، منهم العملس، وهو أبو ثمامة الذي كان ينسيء الشهور حتى أنزل الله فيه ﴿إنما النّسِيءُ زِيادَةٌ في الكُفْرِ﴾،(1) وبنو مخدَج بن عامر بن ثعلبة، بطن؛ وبنو ضمرة في كنانة الأحابيش، منهم البرّاض بن قيس الذي يقال فيه «أفتك من البراض» ومن بني كنانة الأحابيش، منهم مبذول وعوف وأحمر وعون؛ ومن بني الحرث بن عبد مناة: الحليس بن عمرو بن الحارث، وهو رئيس الأحابيش يوم أُحد؛ ومن بني سعد ليث: أبو

---

(1) سورة التوبة الآية ٣٧.

الطفيل عامر بن واثلة، وواثلة بن الأسقع، كانت له صحبة مع النبي عليه الصلاة والسلام؛ ومن بني حدج بن ليث: نصر بن سيار صاحب خراسان؛ ومن بني ضمرة بن بكر: عمارة بن مخشي ـ الذي عاقد النبي عليه الصلاة والسلام على بني ضمرة.

بطون أسد وجماهيرها

أسد بن خزيمة بن مدركة بن اليأس بن مضر؛ منهم دودان الذي يقول فيه امرؤ القيس:

قُولاَ لِدُودان عَبيدِ العصا ما غَرَّكُمْ بالأسدِ الباسل!

ومنهم: كاهل بن عمرو بن صعب، وحلمة؛ فأما بنو حلمة فأفناهم امرؤ القيس ابن حجر بأبيه؛ ومنهم غنم بن دودان، وثعلبة بن دودان؛ ومنهم قُعيس بن الحارث ابن ثعلبة بنُ دودان بن أسد؛ ومنهم بنو الصيداء بن عمرو بن قعَيْس؛ ومنهم فقعس ابن طريف بن عمرو بن قعيس؛ ومنهم جَحوان بن فقعس، ودثار، ونوفل، ومنقذ، وهو حذلم، بنو فقعس؛ فمن بني جحوان طليحة بن خويلد الأسدي؛ ومن بني الصيداء شيخ من عميرة القائد، والصامت بن الأفقم الذي قتل ربيعة بن مالك أبا لبيد بن ربيعة الشاعر يوم ذي علق. وفي بني الصيداء يقول الشاعر:

يا بنِي الصَّيْداءِ ردُّوا فَرسي إنما يُفْعلُ هذا بالذَّليلِ

ومن بني قُعيس: العلاءُ بن محمد بن منظور، ولي شرطة الكوفة؛ ومنهم ذؤاب بن رُبيِّعة الذي قتل عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي، ومنهم: قبيصة بن برمة، ومنهم بشر بن أبي خازم الشاعر؛ ومن بني سعد بن ثعلبة بن دودان: سويد بن ربيعة، وعبيد بن الأبرص، وعمرو بن شاس أبو عرار، والكميت بن زيد؛ ومنهم: ضرار بن الأزور صاحب المختار؛ ومنهم بنو غاضرة بن مالك بن ثعلبة بن دودان؛ ومن بني غاضرة زر بن حبيش الفقيه، ومنهم الحسحاس بن هند الذي ينسب إليه عبد بني الحسحاس؛ ومن أسد بنو غنم بن دودان؛ ومنهم زينب بنت جحش زوج

النبي ﷺ، ومنهم أيمن بن خريم الشاعر، والأقيشر الشاعر؛ ومن بني كاهل بن أسد علباء بن الحرث الذي يقول فيه امرؤ القيس:

وأَفْلَتَهُـــنَّ عِلبـــاء جـــريضـــا   ولـو أَدْرَكْنَـهُ صَفِـرَ الوِطـابُ[1]

الهون بن خزيمة بن مدركة

منهم القارة، وهم عائذة وبَيْثع، بنو الهون بن خزيمة بن مدركة؛ والقارة أرمَى حي في العرب، ولهم يقال:

قد أنصف القارَةَ مَنْ راماها

فهذه قبائل بني مدركة بن اليأس، وهي: هذيل بن مدركة، وكنانة بن خزيمة بن مدركة، وأسد بن خزيمة بن مدركة، والهُون بن خزيمة بن مدركة.

ومن قبائل طابخة بن اليأس

بطون ضبة وجماهيرها

ضبة بن أدّ بن طابخة بن اليأس: ولد ضبةُ بن أدّ سعدا وسُعيداً وباسلا، وله المثل الذي يقال فيه: «أسعد أم سُعيد» فقتل سُعيد ولم يعقب؛ ولحق باسل بأرض الديلم؛ فتزوج امرأة من أرض العجم، فولدت له الديلم. فيقال إن باسل بن ضبة أبو الديلم. وفي ذلك يقول أبو بَجير يَعيب به العرب:

زعَمْتم بـأنّ الهِنـدَ أولادُ خِنْـدِفٍ   وبينكُـمُ قُـرْبَـى وبين البَـرابِـرِ
ودَيْلَمَ منْ نَسْلِ ابنِ ضَبَّةَ بـاسـلٍ   وبُرْجانَ من أولادِ عمرو بنِ عامـرِ
فقد صار كلُّ الناسِ أولادَ واحـدٍ   وصاروا سواءً في أُصولِ العناصِـرِ
بنو الأصفر الأملاكُ أكرمُ مِنكُـمُ   وأولى بقُرْبانـا مُلـوكُ الأكـاسِـرِ

فمن بني سعد بن ضبة: بنو السيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة، بطن.

---

(١) علباء: اسم رجل؛ صفر الوطاب أي مات.

وبنو كوز بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة، بطن. وبنو زيد بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك بن بكر، بطن. وبنو عائذة بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة، بطن.

ومنهم: عبد مناة بن بكر بن سعد بن ضبة، وبنو ثعلبة بن سعد بن ضبة. فمن بني كوز: المسيب بن زهير بن عمرو، ومن بني زهير: عمرو بن مالك بن زيد بن كعب، وكان سيداً مطاعاً، وولد له عبد الحارث، وحصين، وعمرو، وأدهم، وذبحة، وعامر، وقبيصة، وحنظلة، وخيار، وحارث، وقيس، وشيبة، ومنذر، كل هؤلاء شريف قد رأس وربَعَ ـ يعني قد أخذ المرباع ـ وكان الرئيس إذا غنم الجيش معه أخذ الرُّبع.

ومن ولد الحصين بن ضرار: زيد الفوارس، وله يقول الفرزدق:

زَيدُ الفوارِسِ وابنُ زَيْدٍ منهمُ ... وأبو قبيْصَةَ والرَّئيسُ الأوَّلُ

الرئيس الأول: محلِّم بن سُوَيط ربع ضبة وتميم والرباب.

ومن بني زيد الفوارس: ابن شُبرمة القاضي. ومن بني عائذة بن مالك. شِرْحاف ابن المثلم ـ الذي قتل عمارة بن زياد العبسي. ومن بني السيد بن مالك: زيد بن حصين، ولي أصبهان. وعبد الله بن علقمة الشاعر الجاهلي. ومنهم عميرة بن اليثربيّ قاضي البصرة، وهو الذي قتل علباء وهند الجملي. وقال في قتلها يوم الجمل:

إني أنا عُمَيْرةُ بن اليَثْربيّ ... قَتَلت عِلْباءَ وهِند الجملَيّ

ومن بني ثعلبة بن سعد بن ضبة: عاصم بن خليفة بن يعقل، الذي قتل بسطام بن قيس.

مزينة

مزينة: بنو عمرو بن أدّ بن طابخة بن اليأس، نسبوا إلى أمهم مزينة بنة كلب بن وبرة. منهم: النعمان بن مقرِّن، ومنهم معقل بن سنان بن نَبيشة صاحب النبي عليه

الصلاة والسلام، وزهير بن أبي سلمى الشاعر، ومعن بن أوس الشاعر. ومنهم إياس ابن معاوية القاضي. وإنما مزينة كلها بنو عثمان وأوس بن عمرو بن أدّ بن طابخة، وفي ذلك يقول كعب بن زهير:

مَتى أَدْعُ في أَوْسٍ وعُثمان تـأْتني مساعِيرُ قَوْمٍ كلُّهُم سادة دِعَـمْ[1]

هُمُ الأُسْدُ عند البأس والحشْدُ في القِرَى وهُمْ عند عَقْدِ الجارِ يوفون بالذِّمَـمْ

الرباب

وهم: عديّ، وتيم، وثور، وعُكل؛ وإنما سميت هذه القبائل الرباب، لأنهم تحالفوا فوضعوا أيديهم في جفنة فيها رُب؛ وقال بعضهم: إنما سموا الرباب لأنهم إذا تحالفوا جمعوا أقداحا، من كل قبيلة منهم قدح، وجعلوها في قطعة أدم، وتسمى تلك القطعة الربة، فسموا بذلك الرباب.

فمن بني عدي بن عبد مناة بن أدّ بن طابخة: ذو الرمّة الشاعر، وهو غيلان بن عقبة. ومن بني تيم بن عبد مناة: عمر بن لجأ الشاعر الذي كان يهاجي جريرا؛ ومن بني عكل بن عبد مناة: النمر بن تولب الشاعر؛ ومن بني ثور بن عبد مناة: سفيان الثوري الفقيه. فهذه الرباب، وهم بنو عبد مناة.

صوفة

هم بنو الغوث بن مر بن أدّ بن طابخة، وفيهم كانت الإجازة في الجاهلية: هم كانوا يدفعون بالناس من عرفات، ثم انتقلت الإجازة في بني عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم؛ فمن الغوث شرحبيل بن عبد العزى الذي يقال له شُرحبيل بن حسنة.

بطون تميم وجماهيرها

تميم بن مُر بن أدّ بن طابخة بن اليأس بن مضر. كان لتميم ثلاثة أولاد: زيد مناة،

---

(١) دعم: مفردها دعمة، ودعمة القوم سيدهم.

وعمرو، والحارث بن تميم.

فمن الحارث بن تميم: شَقِرة، واسمه معاوية بن الحارث بن تميم؛ وإنما قيل له شقرة لبيت قاله، وهو:

وقد أَحْمِلُ الرُّمحَ الأصَمَّ كُعوبَه ... به من دماءِ القومِ كالشَّقِرات

والشقرات: هي شقائق النعمان، شبه الدماء بها في حمرتها.

ومن بني شَقِرة: المسيِّب بن شريك الفقيه، ونصر بن حرب بن مخرمة.

ومن عمرو بن تميم: أُسيِّد بن عمرو بن تميم، ومنهم أكثم بن صيفي حكيم العرب، وأبو هالة زوجُ خديجةَ زوج النبي ﷺ، وأوس بن حجر الأُسيدي الشاعر، وحنظلة ابن الربيع صاحب النبي عليه الصلاة والسلام الذي يقال له حنظلة الكاتب.

بنو العنبر بن عمرو بن تميم

منهم سَوّار بن عبد الله القاضي، وعبيد الله بن الحسن القاضي، وعامر بن قيس الزاهر. ومنهم: بنو دُغَة بنت مِغْنج التي يقال فيها: «أحمق من دغة»؛ وهي من إياد ابن نزار تزوجها عمرو بن جندب بن العنبر، فولدت له بني الْهُجَيْم بن عمرو بن تميم، ويقال لهم الحبال.

بنو مازن بن عمرو بن تميم، منهم: عباد بن أخضر، وحاجب بن ذبيان الذي يعرف بحاجب الفيل، ومالك بن الرَّيب الشاعر؛ ومنهم: قَطري بن الفُجاءة صاحب الأزارقة، وسَلْم وأخوه هلال بن أحوز.

الحبطات

وهم بنو الحارث بن عمرو بن تميم، وذلك أنّ أباهم الحارث أكل طعاما فحبط منه، أي ورم بطنه. منهم: عباد بن الحصين من فرسان العرب، كان على شرطة مصعب بن الزبير.

غيلان وأسلم وحرماز

بنو مالك بن عمرو بن تميم

فمن بني غيلان. أبو الجَرْباء، شهد يوم الجمل مع عائشة، وقتل يومئذ. ومن بني حرماز: سَمُرة بن يزيد. كان من رجال البصرة في أول ما نزلها الناس.

بنو سعد بن زيد مناة بن تميم

الأبناء، وهم ستة من ولد سعد بن زيد مناة، يقال لهم: عبد شمس، ومالك وعوف، وعُوافة، وجشم، وكعب.

فبنو سعد بن زيد مناة، وأولاد كعب بن سعد، يسمَّون مُقاعس والأجارب إلا عمراً وعوفاً ابني كعب.

فمن بني عبد شمس بن سعد: تُمَيْلة بن مُرة صاحب شرطة إبراهيم بن عبد الله ابن الحسن. وإياس بن قتادة، حامل الديات في حرب الأزد لتميم ـ وهو ابن أخت الأحنف بن قيس ـ وعَبدة بن الطبيب الشاعر. وحِمَّان، وهو عبد العزيء بن كعب ابن سعد.

الأجارب

هم بطنان في سعد، وهم: ربيعة بن كعب بن سعد، وبنو الأعرج كعب بن سعد. وفيهم يقول أحمر بن جندل:

ذُودا قليلا تلحق الحلائب   يَلحَقُنا حِمَّانُ والأجارب[1]

فمن بني الأجارب: حارثة بن قُدامة، صاحب شرطة علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وعمرو بن جُرموز، قاتل الزبير بن العوام.

مقاعس: هو الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد. ومن أفخاذ مقاعس: منقر بن

---

(١) الأجارب: وسموا كذلك لأنهم نحروا جملاً أجرب ونحسوا أيديهم في دمه وتحالفوا.

عبيد بن مقاعس؛ منهم قيس بن عاصم سيد الوبر، وعمرو بن الأهتم، وخالد بن صفوان بن عمرو بن الأهتم، وشبيب بن شيبة بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم. ومن بني عُبيد بن مقاعس، وهم إخوة منقر: الأحنف بن قيس؛ وسلامة بن جندل، والسَّليك بن سُلكة رجَلِيُّ العرب، ويقال له الرئبال، كان يُغير وحده. ومنهم عبد الله بن صَفّار الذي تُنسب إليه الصُّفرية. وعبد الله بن إباض الذي تُنسب إليه الإباضية. فهذه مُقاعس وجماهيرها.

بنو عطارد بن عوف
ابن كعب بن سعد

منهم: كرب بن صفوان بن حُباب. صاحب الإفاضة، إفاضة الحاج يدفع بهم من عرفات، وله يقول أوس بن مغراء:

ولاَ يريمون في التَّعْريف موْقِفهم حتى يقال أجيزوا آل صَفْوانا

قريع بن عوف
ابن كعب بن سعد

منهم الأضبط بن قريع رئيس تميم يوم ميط، وبنو لأي بن أنف الناقة الذين مدحهم الحطيئة، فقال فيهم.

قوْمٌ هُمُ الأنف والأذناب غيرُهُم ومَن يسوّي بأنف النَّاقة الذَّنبا

ومنهم أوس بن مَغْراء الشاعر. وهذا أشرف بطن في تميم.

بهدلة بن عوف
ابن كعب بن سعد

منهم الزبرقان بن بدر، واسمه حصين. ومنهم الأحيمر بن خلف بن بهدلة، صاحب برُدَيْ محرِّق، والذي يقول فيه الفرزدق:

فيـا آبنـة عبـد الله وآبنـة مـالـكِ ويا بنت ذي البُردَيْن والفرَس النهْد

جشم بن عوف بن كعب بن سعد

يقال لبنى جشم وعطارد وبهدلة: الجِذاع.

حنظلة بن مالك الأحمق
بن زيد مناة

البراجم خمسة من بني حنظلة بن مالك بن زيد مناة وهم: غالب، وعمرو، وقيس، وكُلفة، وظُلَيْم، بنو حنظلة بن مالك الأحمق بن زيد مناة بن تميم. منهم عُميرة بن ضابيء الذي قتله الحجاج.

يربوع بن حنظلة
ابن مالك بن زيد مناة بن تميم

من ولده رِياح بن يربوع بن حنظلة. منهم: عُتّاب بن ورقاء الرياحي والى أصبهان وأحد أجواد الإسلام، ومطر بن ناجية الذي غلب على الكوفة أيام ابن الأشعث. وسُحيم بن وثيل الشاعر. والحارث بن يزيد، صاحب الحسن بن علي. وأبو الهِنديّ الشاعر، واسمه أزهر بن عبد العزيز؛ ومعقل بن قيس صاحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والأبيرد بن قُرة.

غُدانة بن يربوع، منهم: وكيع بن أبي سُود، وحارثة بن بدر وكان فارساً شاعراً.

ثعلبة بن يربوع، منهم مالك ومتّمم ابنا نويرة، وعتيبة بن الحارث بن شهاب الذي يقال صيّاد الفوارس.

وبنو سَليط بن يربوع، منهم: المساور بن رئاب.

كليب بن يربوع، منهم: جرير بن الخطفي الشاعر.

العنبر بن يربوع، منهم: سجاع بنت أوس التي تنبأت في تميم.

زيد بن مالك، وكعب الضرّاء بن مالك، ويربوع بن مالك بن حنظلة بن مالك ابن زيد مناة: أمهم العدوية، وبها يعرفون. يقال لهم بنو العدوية.

طهية، وهم بنو أبي سُود بن مالك، وعوف بن مالك. أمهم طهية بها يعرفون، ويقال لبني طهية وبني العدوية: الجمار.

ومن بني طهية بنو شيطان. ومنهم دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم؛ فولد دارم بن مالك: عبد الله، ومجاشع، وسدوس، وخيبري، ونهشل، وجرير وأبان ومناف.

فمن ولد عبد الله بن دارم: حاجب بن زرارة بن عُدُس بن عبد الله بن دارم. وهلال بن وكيع بن بشر، وهو بيت بني تميم وصاحب القوس. ومحمد بن جُبير بن عطارد.

مجاشع بن دارم. منهم: الفرزدق الشاعر، والأقرع بن حابس، وأعين بن ضبيعة ابن عقال، والحُتات بن يزيد، والحارث بن شُريح بن زيد صاحب خراسان، والبعيث الشاعر - واسمه خِدَاش بن بِشر - والأصبغ بن نباتة، صاحب علي.

نهشل بن دارم. منهم: خازم بن خزيمة قائد الرشيد، وعباس بن مسعود الذي مدحه الحطيئة، وكثيّر عزة الشاعر، والأسود بن يعفر الشاعر.

أبان بن دارم. منهم: سَورة بن بَحر - كان فارساً - صاحب خراسان، وذو الخِزَق بن شُريح الشاعر.

سدوس بن دارم، وهؤلاء قد بادوا.

وربيعة بن مالك بن زيد مناة، وربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة، وربيعة ابن مالك بن حنظلة: يقال لهم: الربائع.

فمن ربيعة بن حنظلة: أبو بلال الخارجي، واسمه مرداس بن جُدير.

ومن ربيعة بن مالك بن زيد مناة: علقمة بن عَبدة الشاعر، وأخوه شأس.

ومن ربيعة بن مالك بن حنظلة: الحُنيف بن السَّجْف.

جُشيش بن مالك ـ وأمه حُطَّى، على مثال حبلى، وبها يُعرفون ـ منهم: حصين ابن تميم الذي كان على شرطة عبيد الله بن زياد. ويقال لجشيش وربيعة ودارم وكعب بني مالك بن حنظلة بن مالك: الخِشاب. انقضى نسب الرباب وضبة ومزينة وتميم.

بطون قيس وجماهيرها

نسب قيس بن عيلان بن مضر، قيس بن الناس، وهو عَيلان بن مضر.

فمن بطون قيس: عَدوان وفَهْم ابنا عمرو بن قيس بن عيلان، وأمهما جدِيلة. بنت مُدركة بن اليأس بن مضر، نسبوا إليها.

فمن عدوان: عامر بن الظرب حَكَم العرب بعكاظ، ومنهم أبو سيارة، وهو عُمَيلة بن الأعزل. ومنهم تأبط شراً، وهو ثابت بن عَمَيثل.

غطفان بن قيس عيلان ـ وأعصُر بن سعد بن قيس بن عيلان.

فمن بطون غطفان: أشجع بن ريث بن غطفان، وأشجع بن ريث بن غطفان؛ منهم: نصر بن دُهمان. وكان من المعمَّرين، عاش مائتي سنة، ومنهم فروة بن نوفل.

عَبْس بن بغيض بن ريث بن غطفان، وهي إحدى جمرات العرب، منهم: زهير ابن جذيمة، كان سيد عبس كلها حتى قتله خالد بن جعفر الكلابي؛ وابنه قيس بن زهير فارس داحس؛ وعنترة الفوارس؛ والحُطيئة؛ وعروة بن الورد؛ والربيع بن زياد، وإخوته الذين يقال لهم الكملة؛ ومروان بن زِنباع الذي يقال له مروان القرظ، وخالد بن سنان الذي ضيّعه قومه.

ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان. منهم: فزارة بن ذبيان بن بغيض، وفيهم الشرف؛ ومنهم حذيفة بن بدر؛ ومنهم منظور بن زَبَّان بن سيار، وعمر ابن هُبيرة، وعديّ بن أرطاة.

مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان؛ منهم هَرم بن سنان المُرِّي الجواد الذي كان

يمدحه زُهير؛ ومنهم زياد النابغة الشاعر؛ ومنهم الحارث بن ظالم الذي يقال فيه «أمنع من الحارث»؛ ومنهم: شَبيب بن البرصاء، وأرطاة بن سُهَيَّة، وعقيل بن عُلَّفة المُرِّي، وابن ميّادة الشاعر، ومسلم بن عقبة صاحب الحرة، وعثمان بن حيان، وهاشم بن حَرملة. الذي يقول فيه الشاعر:

أحْيـا أبـاهُ هـاشم بـن حَـرْمَلَـهْ   يَقْتُلُ ذا الذَّنْبِ ومَنْ لا ذنـب لـه

والشماخ الشاعر، وأخوه مُزرّد. ابنا ضرار.

ومن بطون أعصُر: غني بن أعصر بن سعد بن قيس بن الناس بن مُضر. منهم طفيل الخيل. وقد رَبَعَ غنياً ومنهم: مرثد بن أبي مرثد، شهد بدرا.

باهلة

هم بنو معن بن أعصر، نسبوا إلى أمهم باهلة، وهم: قتيبة ووائل وأود وجأوة، أمهم باهلة، وبها يعرفون، منهم: حاتم بن النعمان. وقتيبة بن مسلم، وأبو أمامة صاحب رسول الله ﷺ، وسلمان بن ربيعة، ولاّه أبو بكر الصديق، وزيد بن الحُباب.

بنو الطفاوة بن أعصر

وهم: ثعلبة وعامر ومعاوية: أمهم الطفاوة وإليها ينسبون، وهم إخوة غنيٍّ ابن أعصر: فهذه غطفان.

بنو خصفة بن قيس بن عيلان

محارب بن زياد بن خصفة بن قيس بن عيلان، منهم الحكم بن منَيع الشاعر، وبَقيع بن صفّار الشاعر الذي كان يهاجي الأخطل. وولدَ مُحارب: ذُهل وغَنم؛ وهم الأبناء؛ والخضِر، وهم بنو مالك بن محارب.

سُليم بن منصور بن عِكرمة بن خصفة. منهم: العباس بن مرداس، كان فارسا

شاعراً، وهو من المؤلّفة قلوبهم؛ والفُجاءة الذي أحرقه أبو بكر في الردة. ومنهم: صخر ومعاوية. ابنا عمرو بن الحارث بن الشَّريد، وهما أخوا خنساء؛ وخفاف بن عُمير الشاعر، ونُبَيْشَة بن حبيب قاتل ربيعة بن مكدم، ومُجاشع بن مسعود من أهل البصرة، وعبد الله بن خازم صاحب خراسان.

بنو ذكوان وبَهْز وبُهثة بنو سليم

منهم: أبو الأعور السَّلمي صاحب معاوية، وعُمير بن الحُباب قائد قيس، والجَحّاف بن حكيم. فهذه بطون سُليم ومُحارب.

قبائل هوازن

هم هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان.

منهم سعد بن بكر بن هوازن، وفيهم آسْتُرْضِعَ النبي ﷺ ومنهم نصر بن معاوية ابن بكر بن هوازن ـ منهم مالك بن عوف النَّصري قائد المشركين يوم حُنين.

جُشَم بن معاوية بن بكر، منهم: دُريد بن الصِّمَّة فارس العرب.

ثقيف، وهو قَسِيٌّ بن مُنبِّه بن بكر بن هَوازن. منهم: مسعود بن مُعتب، والمختار ابن أبي عُبيد. ومنهم: عُروة بن مسعود عظيم القريتين، والمُغيرة بن شُعبة، وعبد الرحمن بن أم الحكم.

عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن

فمن بطون عامر: بنو هلال بن عامر بن صعصعة، منهم: مَيمونة زوج النبي عليه الصلاة والسلام، ومنهم عاصم بن عبد الله صاحب خراسان، وحُميد بن ثَور الشاعر، وعمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر فارس الضَّحياء؛ ومن ولده خالد وحرملة ابنا هَوْذة، صَحِبا النبي ﷺ؛ وخِداش بن زهير.

نمير بن عامر بن صعصعة. منهم: الراعي الشاعر، وهو عُبيد بن حصين، وهمام بن

قبيصة، وشريك بن خُباشة الذي دخل الجنة في الدنيا في أيام عمر بن الخطاب.

بنو كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة

وهم ستة بطون، منهم عَقيل بن كعب، رهط توبة بن الحُمَيْر صاحب ليلى الأخيلية. منهم: بنو المنتفق.

بنو الحريش بن كعب، رهط سعيد بن عمر، ولي خراسان، وهو صاحب رأس خاقان.

بنو العجلان بن كعب

رهط تميم بن مقبل الشاعر.

ومنهم بنو قُشير بن كعب، رهط مالك بن سلمة الذي أسر حاجب بن زرارة.

ومنهم: بنو جعدة بن كعب، رهط النابغة الجعدي، وهو أبو ليلى؛ فهذه بطون كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.

ومن أفخاذ ربيعة بن عامر بن صعصعة: كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة؛ منهم المحلَّق بن حَنْتم بن شدّاد. ومنهم زُفر بن الحارث الكلابي، ويزيد بن الصَّعِق، ووكيع بن الجرّاح الفقيه.

جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، منهم الطُّفيل. فارس قَرزَل، وعامر بن الطُّفيل، وعَلقمة بن علاثة، وأبو بَرَاء عامر بن مالك ملاعب الأسنّة.

الضِّباب بن كِلاَب، منهم: شَمِر بن ذي الجوشن.

هؤلاء بنو عامر بن صعصعة.

بنو سلول

هم بنو مرة بن صعصعة، نسبوا إلى أمهم سلول.

غاضرة، وهم غالب بن صعصعة، ومالك، وربيعة، وغُويضرة، وحارث،

وعبد الله، ـ وهما عادية ـ وعوف، وقيس، ومُساور، وسيّار، وهو غَزِيّة.

لَوذان، وجَحْوش، وجَحّاش، وعوف؛ وهم الوقَعة، بنو معاوية بن بكر بن هوازن.

بنو صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن، يقال لهم: الأبناء.

هذا آخر نسب مضر بن نزار.

نسب ربيعة بن نزار

ولد ربيعة بن نزار: أسد، وضُبيعة، وعائشة، وهم باليمن في مراد، وعمرو، وعامر، وأكلب؛ وهم رهط أنس بن مدرك.

فمن قبائل ربيعة: نزار.

ضبيعة بن ربيعة بن نزار ـ وفيهم كان بيت ربيعة وشرفها. ومنهم الحارث الأضجم، حكم ربيعة في زُهرة، وفيه يقول الشاعر:

قلــوصُ الظلامــةِ مــن وائــلٍ ... تــردّ إلى الحارثِ الأَضْجَــمِ (١)
فمهما يشـأْ يـأْتِ منـه السَّـدَادُ ... ومهما يشـأْ منهــمُ يَهضِــمِ (٢)

ومنهم المتلمّس، وهو جرير بن عبد المسيح الشاعر، صاحب طَرفة بن العبد. الذي يقول فيه:

أَوْدَى الذي عَلِـقَ الصحيفـةَ منهما ... ونَجَا حِـذارَ حمـامِـه المُتلّمسُ(٣)

ومنهم المسيِّب بن عَلَس الشاعر. ومنهم المرقِّش الأكبر والمرقِّش الأصغر. وكان المرقش الأكبر عمَّ المرقش الأصغر، والمرقش الأصغر عم طرفة بن العبد بن سفيان ابن سعد بن مالك بن ضبيعة.

---

(١) القلوص: الفتية من الابل، والأضجم: جمع ضجم وهو المعوج المائل.

(٢) السداد: الصواب، ويهضم: ينتقص الحق.

(٣) أودى: هلك، والحمام: الموت.

فمن يذكر: بنو جِلاّن بن عتيك بن أسلم بن يَذْكر، وبنو هِزَّان بن صُباح بن عتيك ابن أسلم بن يذكر، وبنو الدُّول بن صُباح بن عتيك بن أسلم بن يذكر، وهم الذين أسروا حاتم طيء وكعب بن مامة والحارث بن ظالم؛ وفي ذلك يقول الحارث بن ظالم:

أبلْـغ سَـرَاة بني غيْـظٍ مُغَلْغلـةً أني أُقسم في هِـزَّان أربـاعـا[1]

ومنهم كِدام بن حيان من بني هُميم، وكان من خيار التابعين، وكان من خيار أصحاب عليّ، ولهما يقول عبدالله بن خليقة:

يـا أَخَـويَّ مـن هَمِيمٍ هُـدِيتما ويُسِّـرْتما للصـالحات فـأبشِـرا

ومن بني يقْدم عَنَزة، سيد بني بغيض الشاعر، وعِمْران بن عِصان الذي قتله الحجاج بدير الجماجم.

عبد القيس بن أفصى بن دُعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة. وُلد لعبد القيس: أفصى واللَّبُؤ. وولد لأفصى: عبدُ القيس وشَنّ ولُكَيز.

اللَّبُؤ بن عبد القيس: منهم رئاب بن زيد بن عمرو بن جابر بن ضُبيب، كان ممن وحّد الله في الجاهلية، وسأل عنه النبيْ ﷺ وفْدَ عبد القيس، وكان يسقي قبر كل مَن مات من ولده. وفي ذلك يقول الحُجين بن عبدالله:

ومِنَّا الذي بالبعـثِ يُعـرَفُ نسلُـهُ إذا مات مِنهُمْ ميّتٌ جِيدَ بالقَطْـرِ
رئـابٌ وأنى للبَـريَّـةِ كُلِّهـا بِمِثْلِ رِئابٍ حينَ يْخطر بالسُّمْـرِ[2]

لُكيز بن عبد القيس، منهم بنو نُكرة بن لُكيز بن عبد القيس. منهم المُمزَّق الشاعر، وهو شأس بن نهار بن أَسْرج الذي يقول:

فإن كنتُ مأْكولا فكُنْ خيرَ آكِـلٍ وإلاَّ فـأدرِكْني ولمّا أُمَـزَّقِ

وصُباح بن لكيز. منهم: كعب بن عامر بن مالك، وكان ممن وفد على النبي عليه الصلاة والسلام.

---

(١) سراة: سادة. والمغلغلة: الرسالة المحمولة من بلد إلى بلد.

(٢) رأب بين القوم: أصلح بينهم ورأب الصدع: أصلحه. والسمر: الرماح.

وبنو غَنم بن وديعة بن لُكيز، منهم حكيم بن جَبلة صاحب عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه. وفيه يقول:

دعــا حكيم دعــوة سَمِيعــهْ نــالَ بِهــا المنْـزلَـة الرَّفيعــهْ

وبنو جَذيمة بن عوف بن بكر بن أنمار بن وديعة بن لُكيز، منهم الجارود العبْدي، وهو بِشْر بن عمرو.

وعصَر بن عوف بن بكر بن عوف بن أنمار بن وديعة بن لكيز، منهم: عمرو بن مَرْجوم الذي يمدحه المتلمّس.

وبنو حُطَمَة بن محارب بن عمرو بن أنمار بن وديعة بن لُكيز، إليهم تنسب الدروع الحُطمية.

وعامر بن الحارث بن أنمار بن عمرو بن أنمار بن وديعة بن لكيز، منهم مِهْزَم بن الفِزْر، الذي يقول فيه الحِرمازي:

يحْمِلْـنَ بـالموْمـاةِ بَحـراً يَجـرِي العامِـر بـن المِهْـزَم بـن الفِـزْر[1]

العُمُور من عبد قيس: الدِّيل وعجل ومحارب، بنو عمرو بن وديعة بن لكيز.
فمن بني الدِّيل: سُحيم بن عبد الله بن الحارث، كان أحد السبعة الذين عبروا الدجلة مع سعد بن أبي وقاص.

ومن بني محارب: عبد الله بن همّامِ بن آمريء القيس بن ربيعة، وفد على النبي ﷺ.

ومن بني عجل: صعصعة بن صُوحان، وزيد بن صُوحان؛ من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فهذه عبد القيس وبطونها وجماهيرها.

النمر بن قاسط

النمر بن قاسط بن هنّب بن أفصى بن دُعمي بن جَديلة بن أسد بن ربيعة بن

(١) الموماة: الصحراء والقفر.

نزار. فمن ولد النمر بن قاسط: تيم الله، وأوس مناة، وعبدُ مناة، وقاسط، ومُنبِّه، بنو النمر بن قاسط.

أوس مناة بن النمر، منهم صُهيب بن سنان بن مالك، صاحب النبي عليه الصلاة والسلام. كان أصابه سِباء في الروم ثم وافوا به الموسم فاشتراه عبد الله بن جُدعان فأعتقه؛ وقد كان النعمان بن المنذر استعمل أباه سناناً على الأُبُلّة. ومنهم: حُمران بن أبان، الذي يقال له مولى عثمان بن عفان.

ومن تيم الله: الضَّحْيان بن النمر، وهو رئيس ربيعة قبل بني شيبان، وإنما سمي الضَّحيان لأنه كان يجلس لهم وقت الضحى فيقضي بينهم، وقد ربَعَ ربيعةَ أربعين سنة. وأخوه عوف بن سعد، ومن ولده ابن القرِّية البليغ، واسمه أيوب بن زيد، وكان خرج مع ابن الأشعث فقتله الحجّاج. ومنهم ابن الكيِّس النّسابة، وهو عُبيد بن مالك بن شراحيل بن الكيّس. فهذا النمر بن القاسط.

تغلب بن وائل

تغلب بن وائل بن قاسط بن هِنب بن أفصى بن دُعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار. فمن بطون تغلب: الأراقم، وهم: جُشَم، وعمرو، وثعلبة ومعاوية، والحارث، بنو بكر بن حبيب بن غَنم بن تغلب؛ وإنما سموا الأراقم لأن عيونهم كعيون الأراقم.

ومن بطون تغلب: كليب وائل الذي يقال فيه: «أعز من كليب وائل» وهو كليب بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم؛ وأخوه مهلهل بن ربيعة.

ومن بني كنانة بن تيم بن أسامة: إياسُ بن عَيْنان بن عمرو بن معاوية، قاتل عُمَير ابن الحُباب، وله يقول زفر بن الحارث:

ألا يا كلْبُ غيرك أرجفُوني وقد ألصَقْت خدَّك بالتُّرابِ[1]

(١) الإرجاف: الخوض في الأخبار السيئة وذكر الفتن.

ألاَ يا كلبُ فانتَشِري وسُحِّي   فقد أودَى عُمَيْرُ بن الحباب[١]
رماحُ بني كِنانةَ أقصدَتْني   رِماحٌ في أعاليها آضطِرابُ[٢]

ومن بني حارثة بن ثعلبة بن بكر بن حبيب: الهُذيل بن هُبيرة، وهو الذي تقول فيه نَهيشة بنت الجراح البَهْراني تُعيِّرُ قضاعة:

إذا ما معْشَرٌ شربوا مُداماً   فلا شربت قُضاعةُ غير بَوْلِ
فإمَّا أن تقُودُوا الخيْلَ شُعْثاً   وإمَّا أن تدينوا لِلهُذَيْلِ[٣]
وتتَّخِذوه كالنُّعمانِ ربّاً   وتُعطوهُ خراجَ بني الدُّمَيْلِ

الدُّميل: ابن لخم.

ومن عدي بن معاوية بن غَنم بن تغلب: فارس العصا، وهو الأخنس ابن شهاب.

ومن بني الفَدَوْكس بن عمرو بن الحارث بن جُشم: الأخطل الشاعر النصراني ومنهم: قبيصة بن والق، له هجرة، قتله شبيب الحَروريّ، وكان جواداً كريماً، فقال شبيب حين قتله: هذا أعظمُ أهل الكوفةَ جفنةً! قال له أصحابه: أتُطري المنافقين؟ فقال: إن كان منافقاً في دينه فقد كان شريفاً في دنياه.

ومن الأوس بن تغلب: كعب بن جُعيل. الذي يقول فيه جرير:

وسُمِّيت كعباً بِشَرِّ العِظامِ   وكان أبوكَ يُسمَّى الجُعَلْ[٤]
وكان محلّكَ مِنْ وائلٍ   مَحلَّ القُرادِ منَ آسْتِ الجمَلْ[٥]

فهذه تغلب، ليس لها بطون يُنسب إليها كما يُنسب إلى بطون بكر بن وائل، لأن بكراً جمجمة، وتغلب غير جمجمة.

---

(١) سحي: من السحّ وهو هطول المطر ويعني به هنا «البكاء والدموع». وأودى: هلك.
(٢) كذا في الاصول وفي البيت إقواء.
(٣) الشعث: عدم تسريح الشعر.
(٤) الجعل: نوع من الخنافس.
(٥) القراد: حشرة تتعلّق بالحيوانات.

بكر بن وائل

القبائل من بكر بن وائل: يشكر بن بكر بن وائل، وعجل، وحنيفة ـ ابنا لُجيم ابن صعب بن عليّ بن بكر بن وائل ـ، وشيبان وذهل وقيس بن ثعلبة بن عُكابة بن صعب بن عليّ بن بكر بن وائل وأمهمْ البرْشاء من تغلب.

يشكر بن بكر

منهم الحارث بن حِلِّزة الشاعر، ومنهم شهاب بن مَذْعور بن حِلّزة، وكان من علماء الأنساب؛ ومنهم سُويد بن أبي كاهل الشاعر.

عجل بن لجيم

منهم حنظلة بن ثعلبة بن سيّار، كان سيّد بني عجل يوم ذي قار؛ ومنهم الفرات ابن حيّان، له صُحبة مع النبي ﷺ؛ ومنهم إدريس بن مَعقل جدّ أبي دُلف؛ ومنهم شبابة بن المعتمر بن لقِيط، صاحب الدِّيوان؛ ومنهم الأغلب الراجز؛ ومنهم أبجر بن جابر بن شريك، وفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

حنيفة بن لجيم

ولد له الدِّيل، وعدي وعامر. فمن بني الدِّيل بن حنيفة: قتادة بن مسلمة، كان سيداً شريفا؛ ومنهم ثمامة بن أُثال بن النعمان بن مسلمة، ومنهم: هَوذَة بن علي بن ثمامة، الذي يقول فيه أعشى بكر:

مَن يَـرَ هـوْذَةَ يسجُـدْ غيرَ مُتَّئِـدِ[1] إذا تعصّب فوقَ التاجِ أو وضعـا[2]

ومن بني الديل بن حنيفة: شمر بن عمرو، الذي قتل المنذر بن ماء السماء يوم عين أباغ؛ ومنهم بنو هِفَّان بن الحارث بن ذهل بن الديل، وبنو عُبيد بن ثعلبة، ويربوع

---

(١) متئد: متمهل. (٢) تعصّب: جعل كالعصابة.

ابن ثعلبة بن الديل. وبنو أبي ربيعة في شيبان، سيدهم هانيء بن قبيصة.

شيبان بن ثعلبة بن عكابة

منهم جَسَّاس بن مرة بن ذهل بن شيبان، قاتل كليب بن وائل: وهمام بن مرة بن ذهل بن شيبان؛ وقيس بن مسعود بن قيس بن خالد، وهو ذو الجدّين، وابنه بِسطام ابن قيس، فارس بني شيبان في الجاهلية، وقد ربَع الذُّهْلين واللهازم اثني عشر مِرباعا ومنهم: هانيء بن قبيصة بن هانيء بن مسعود بن المُزدلِف عمرو بن أبي ربيعة بن ذُهْل ابن شيبان، الذي أجار عيال النعمان بن المنذر وماله عن كسرى، وبسببه كانت وقعة ذي قار، ومنهم مَصقلة بن هُبيرة، كان سيداً شريفا، وفيه يقول الفرزدق:

وبيت أبي قـابـوسَ مَصقَلـةَ الذي   بنَـى بيـتَ مجدٍ اسمُـهُ غيرُ زائـلِ

وفيه يقول الأخطل:

دعِ المغمَّـرَ لا تُقْتَـلْ بمصرعـهِ   وسَـلْ بمُصْقُلَـةَ البكـريَّ مـا فَعَلاَ
بمُتلِـفٍ ومُفيـدٍ لا يَمُـنُّ ولا   يُعنِّـفُ النفسَ فيما فـاتَـهُ عَـذَلا
إنَّ ربيعـةَ لا تَنْفـكُّ صـالحةً   ما دافَعَ اللهُ عن حوْبائـكَ الأَجَلاَ(١)

ومن ذهل بن شيبان: عوف بن محلّم الذي يقال فيه: «لا حُرَّ بوادي عوْف» والضحاك بن قيس الخارجي، والمثنَّى بن حارثة، ويزيد بن رُزَيم؛ ومنهم الغضبان بن القَبَعْثَري، ويزيد بن مِسهر أبو ثابت، الذي ذكره الأعشى؛ والحوفزان، وهو الحارث بن شَريك، ومَطَر بن شريك؛ ومن ولده: معن بن زائدة؛ وشبيب الحروري.

ذهل بن ثعلبة بن عكابة

منهم: الحارث بن وعلة، وكان سيداً شريفا، ومن ولده: الحُضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة صاحب راية ربيعة بصفّين مع علي بن أبي طالب رضي الله تعالى

---

(١) الحوباء: النفس.

عنه، وله يقول علي:

لِمَنْ رايةٌ سوداءُ يَخفقُ ظِلُّها إذا قيل قدِّمْها حُضَيْنُ تقدَّما

ومنهم القعقاع بن شَوْر بن النعمان، كان شَريفا؛ ومنهم دَغفل بن حَنظلة العلاَّمة، كان أعلمَ أهل زمانه. وهؤلاء من بني ذُهل بن ثعلبة بن عُكابة، أمهم رَقاشِ، وإليها يُنسبون، ومنها يقال: الحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة الرَّقاشي.

قيس بن ثعلبة بن عكابة

منهم الحارث بن عَباد بن ضبيعة بن ثعلبة بن حارثة؛ كان على جماعة بكر ابن وائل يوم قِضّة، فأسر مهلهل بن ربيعة وهو لا يعرفه فخلَّى سبيله. ومنهم: مالك بن مِسمع بن شَيبان بن ثعلبة، يُكنى أبا غَسان. ومنهم الأعشى، أعشى بكر، وهو من بني تيم اللاَّت من قيس بن ثعلبة بن عُكابة؛ ومن بني تيم اللات أيضا: مَطر بن فِضّه، وهو الجَعد بن قيس، كان شريفاً سيدا، وهو الذي أسر خاقان الفارسي بالقادسية، ومن ولده عُبيد الله بن زياد بن ظَبيان.

سدوس

من شيبان بن ذُهل بن ثعلبة بن عكابة، منهم: خالد بن المعمَّر ومَجْزأة بن ثَوْر، وأخوه شقيق بن ثور، وابن أخيه سُوَيد بن منجوف بن ثور، وعمران بن حطّان.

اللهازم

وهم: عنزة بن أسد بن ربيعة؛ وعجِل بن لُجيم. وتيم الله. وقيس بنا ثعلبة بن عكابة بن صعب بن بكر بن وائل، وهم حلفاء.

والذهلان: شَيبان وذهل، ابنا ثعلبة بن عكابة. وأم عجل بن لجيم يقال لها حَذام، وفيها يقول لُجيم:

أَلاَ أَبْلِـغْ بني الطَّمَّـاحِ عنـا ودُعْمِياً فكيف وجَدتُمُونا

وولد زُهر بن إياد حُذافة، رهط أبي دُواد الشاعر.

وأما أنمار بن نزار بن معد، فلا عقب له إلا ما يقال في بَجيلة وخَثعم، فإنه يقال إنهما آبنا أنمار بن نزار، وتأبى ذلك بَجيلة وخَثعم ويقولون: إنما تزوّج إراش بن عمرو بن الغَوثِ ابن أخي الأزد بن الغوث، سلامةَ بنت أنمار، فولدت له أنمار بن إراش، فنحن ولده. وقال حسان بن ثابت؛

وَلَدْنا بني العَنْقاء وابن مُحرِّقٍ

أراد بالعنقاء: ثعلبة بن عمرو مُزَيقِياء، سُمِّيَ بالعنقاء لطول عنقه؛ ومحرِّق هو الحارث بن عمرو مزيقياء، وكان أول الملوك أحرق الناس بالنار؛ والولادة التي ذكرها حسان، أن هنداً بنت الخزرج بن حارثة كانت عند العنقاء، فولدت له ولده كلهم؛ وكانت أختها عند الحارث بن عمرو. فولدت له أيضا.

انقضى نسب بني نزار بن معد.

القبائل المشتبهة

الدُّئل في كنانة؛ والدئل بن حنيفة في بكر بن وائل، منهم: قتادة بن سلمة، وهَوذة بن علي، صاحب التاج الذي يمدحه أعشى بكر بن وائل.

سُدوس؛ في ربيعة، وهو سدوس بن شيبان بن بكر بن وائل، منهم: سويد بن منَجوف؛ وسدوس، مرفوعة السين، في تميم، وهو سدوس بن دارم.

مُحارب بن فهر بن مالك في قريش؛ ومحارب بن خَفصة في قيس؛ ومحارب بن عمرو بن وديعة في عبد القيس.

غاضرة في بني صعصعة بن معاوية؛ وغاضرة في ثقيف.

تَيم بن مُرة في قريش رهط أبي بكر، تَيم بن غالب بن فهر في قريش أيضاً، وهم

بنو الأدرم؛ وتيم بن عبد مناة بن أُد بن طابخة في مضر؛ وتيم بن ذُهل في ضبة؛ وتيم في قيس بن ثعلبة؛ وتيم في شيبان.

تيم الله بن ثعلبة بن عُكابة؛ وفي النمر بن قاسط، وتيم الله في ضبة.

كلاب بن مرة في قريش، وكلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة في قيس.

عدي بن كعب من قريش، رهط عمر بن الخطاب؛ وعدي بن عبد مَناة من الرّباب، رهط ذي الرُّمة؛ وعدي في فزارة؛ وعدي في بني حنيفة.

ذهل بن ثعلبة بن عُكابة؛ وذهل بن شيبان؛ وذهل بن مالك في ضَبّة.

ضُبيعة في ضَبة؛ وضُبيعة في عجل؛ وضبيعة في قيس بن ثعلبة، وهم رهط الأعشى.

مازن في تيم؛ ومازن في قيس عيلان، وهم رهط عُتبة بن غَزْوان؛ ومازن في صعصعة بن معاوية؛ ومازن في شيبان.

سهم في قريش؛ وسهم في باهلة.

سعد بن ذبيان؛ وسعد في بكر في هوازن، أظْآر[1] رسول الله ﷺ؛ وسعد في عجل؛ وسعد بن زيد مناة في تميم.

جُشم في معاوية بن بكر، وجشم في ثقيف، وجشم في الأراقم.

بنو ضمرة في كنانة، وبنو ضمرة في قشير.

دُودان في بني أسد، ودُودان في بني كلاب.

سُليم في قيس عيلان، وسُليم في جُذام من اليمن.

جَديلة في ربيعة، وجديلة في طيء، وجديلة في قيس عيلان.

الخزرج في الأنصار، والخزرج في النمر بن قاسط.

وأسد بن خُزيمة بن مدركة، وأسد بن ربيعة بن نزار.

شَقِرة في ضبة، وشقرة في تميم.

---

(١) أظآر: مفردها ظئر، وهي المرضعة لغير ولدها.

ربيعة: ربيعة الكبرى، وهو ربيعة بن مالك بن زيد مناة، ويلقب ربيعة الجوع، وربيعة الوسطى، وهو ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة؛ وربيعة الصغرى، وهو ربيعة بن مالك بن حنظلة. وكل واحد منهم عم الآخر.

مفاخرة ربيعة

قال عبد الملك بن مروان يوما لجلسائه؛ خبِّروُني عن حيّ من أحياء العرب فيهم أشد الناس، وأسخى الناس، وأخطب الناس، وأطوعَ الناس في قومه، وأحلم الناس، وأحضرهم جوابا. قالوا: يا أمير المؤمنين، ما نعرف هذه القبيلة، ولكن ينبغي لها أن تكون في قريش. قال: لا. قالوا: ففي حمير وملوكها. قال: لا. قالوا: ففي مضر. قال: لا. قال مصقلة بن رُقيّة العبدي: فهي إذاً في ربيعة ونحن هم. قال: نعم. قال جلساؤه: ما نعرف هذا في عبد القيس إلا أن تخبرنا به يا أمير المؤمنين. قال: نعم؛ أما أشد الناس فحكيم بن جَبل، كان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقُطعت ساقه فضَمَّها إليه حتى مر به الذي قطعها فرماه بها فجدله عن دابته، ثم جثا إليه فقتله واتكأ عليه، فمر به الناس فقالوا له: يا حكيم، من قطع ساقك؟ قال: وسادي هذا. وأنشأ يقول:

يا ساقُ لا تُراعي إنْ معي ذراعي أحمي بها كُراعي[1]

وأما أسخى الناس، فعبد الله بن سوّار، استعمله معاوية على السند، فسار إليها في أربعة آلاف من الجند، وكانت توقد معه نار حيثما سار، فيطعم الناس؛ فبينما هو ذات يوم إذ أبصر نارا، فقال: ما هذه؟ قالوا: أصلح الله الأمير، اعتل بعض أصحابنا فاشتهى خبيصاً فعملنا له. فأمر خبازَه أن لا يطعم الناس إلا الخبيص، حتى صاحوا وقالوا: أصلح الله الأمير، ردّنا إلى الخبز واللحم! فسمي مُطعِم الخبيص.

وأما أطوع الناس في قومه، فالجارود بِشْر بن العلاء؛ إنه لما قبض رسول الله ﷺ وارتدت العرب، خطب قومه فقال: أيها الناس، إن كان محمد قد مات فإن الله حيّ

(١) تراعي: تخافي. الكراع: من البقر والغنم مستدقّ الساق.

لا يموت؛ فاستمسكوا بدينكم، فمن ذهب له في هذه الرِّدّة دينارٌ أو درهم أو بعير أو شاة فله عليَّ مثلاه! فما خالفه منهم رجل.

أما أحضر الناس جوابا فصعصعة بن صُوحان، دخل على معاوية في وفد أهل العراق، فقال معاوية: مرحباً بكم يأهل العراق! قدِمْتم أرض الله المقدسة؛ منها المنشر وإليها المحشر، قدمتم على خير أمير، يبرّ كبيركم ويرحم صغيركم؛ ولو أن الناس كلها ولد أبي سفيان لكانوا حلماء عقلاء! فأشار الناس إلى صعصعة، فقام فحمد الله وصلى على النبي ﷺ، ثم قال: أما قولك يا معاوية إنا قدمنا الأرض المقدّسة: فلعمري ما الأرض تقدس الناس، ولا يقدِّس الناس إلا أعمالهم؛ وأما قولك منها المنشر وإليها المحشر، فلعمري ما ينفع قربها ولا يضر بُعدها مؤمنا؛ وأما قولُك لو أن الناس كلهم ولد أبي سفيان لكانوا حلماء عقلاء، فقد ولدهم خيرٌ من أبي سفيان: آدمُ صلوات الله عليه؛ فمنهم الحليم والسفيه، والجاهل والعالم.

وأما أحلم الناس [فالأشَجُّ العبديّ]، فإن وفد عبد القيس قدموا على النبي ﷺ بصدقاتهم وفيهم الأشج، ففرّقه رسول الله ﷺ، وهو أول عطاء فرقه في أصحابه؛ ثم قال: يا أشج، آدنُ مني. فدنا منه، فقال: إن فيك خلتين يحبهما الله: الأناة، والحلم! وكفى برسول الله ﷺ شاهدا؛ ويقال: إنّ الأشج لم يغضب قط.

جمرات العرب

وهم بنو نُمير بن عامر بن صعصعة؛ وبنو الحارث بن كعب بن عُلة بن جَلْد؛ وبنو ضبة بن أدّ بن طابخة؛ وبنو عبس بن بَغيض. وإنما قيل لهذه القبائل جَمرات لأنها تجمعت في أنفسها ولم يدخلوا معهم غيرهم. والتجمير: التجميع؛ ومنه قيل: جمرة العقبة، لاجتماع الحصى فيها؛ ومنه قيل: لا تجمِّروا المسلمين فتفتنوهم وتفتنوا نساءهم. يعني: لا تجمعوهم في المغازي.

وأبو عُبيدة قال في كتاب التاج أُطفئت جمرتان من جمرات العرب: بنو ضَبة لأنها

صارت إلى الرّباب فحالفتها؛ وبنو الحارث؛ لأنها صارت إلى مذحج فحالفتها؛ وبقيت بنو نمير إلى الساعة لم تُحالف ولم يدخل بينها أحد.

وقال شاعرهم يرد على جرير:

نُميْـرٌ جَمْـرةُ العـرب التي لم ... تَـزلْ في الحرب تَلتهب التِهـابـا
وإني إذ أَسُـبُّ بها كُلَيْبـاً ... فتَحْت عليهمُ للخَسْف بـابـا
فلـولا أن يقـال هجـا نمُيْـراً ... ولم نسمع لشاعـرهـا جـوابـا
رغِبنـا عـن هِجـاءِ بني كلَيْـبٍ ... وكيـف يُشاتِـم النـاسُ الكِلابـا

أنساب اليمن

قحطان بن عابَر - وعابَر. هو هود النبي ﷺ - ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام ابن نوح عليه السلام بن لَمْك بن مَتُّوشَلَخ بن أخنوخ - وهو إدريس النبي عليه السلام - ابن يَرْد بن مهلاييل بن قَينان بن أَنُوش بن شِيث - وهو هبة الله - ابن آدم أبي البشر ﷺ.

فولد قحطان: يعرب - وهو المرعف - وسبأ، والمسلف، والمِرْداد، وودِقْلي، وتَكلا، وأَبِيال، وعُوبال، وأزال، وهدورام، وهو جرهم، وأوفير، وهُوَيلا، وروح، وإرم، ونُوبت؛ فهؤلاء ولد قحطان فيما ذكر عبد الله بن ملاذ.

وقال الكلبي محمد بن السائب: ولدُ قحطان: المرعف - وهو يَعرُب -، ولأي، وجابر، والمتلمِّس، والعاصي، والمتغشم، وعاصِب، ومعوذ، وشِيم، والقطامي، وظالم، والحارث، ونُباتة. فهلك هؤلاء إلا ظالما، فإنه كان يغزو بالجيوش.

وقال الكلبي: ولد قحطان أيضاً: جُرْهما، وحضر موت. فمن أشراف حضر موت بن قحطان: الأسود بن كبير، وله يقول الأعشى قصيدته التي أولها؛

ما بُكاءُ الكبيرِ بالأطلال

ومنهم مسروق بن وائل، وفيه يقول الأعشى:

قالت قتيلة: مَن مدَحْتَ فقلتُ: مسروقَ بن وائلْ

فولد يعربُ بن قَحطانَ يشجب؛ وولد يشجب سبأ. وولد سبأ حِميرا، وكهلان، وصَيفيًا، وبشرا، ونصرا، وأفلح، وزَيدان، والعوْد، ورُهْما، وعبد الله، ونعمان، ويَشجب، وشدّادا، وربيعة، ومالكا، وزيدا. فيقال لبني سبإ كلهم: السَّبئيون، إلا حِميرا وكهلان. فإن القبائل قد تفرّقت منهما. فإذا سألت الرجل: ممن أنت؟ فقال: سبئي. فليس بحميري ولا كهلاني.

حمير

حِمير بن سبأ بن يشجُب بن يَعرب بن قحطان. فولد حمير بن سبأ: مالكا والهَميسع، وزيدا، وأوسا، وعـرِيبا، ووائلا، ودِرْميّا، وكهلان، وعميكرب، ومسروحا، ومُرة. رهط معد يكرب بن النعمان القيل الذي كان بحضر موت.

فمن بطون حمير: معدان بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قَطن بن عَريب. ومِلْحان بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشم بن عبد شمس بن وائل، رهط عامر الشعبي الفقيه. وعِدَاد بن ملحان: وشيبان في همدان. فمن كان منهم باليمن فهو حِميري، ويقال له شيباني.

ومن بطون حمير: شَرْعب بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس. وإليه تُنسب الرماح الشرعبية.

ومن بطون حمير: الدرون، وقد يقال لهم الأذواء. وأيضا. رَمْدد، فمنهم: بنو فهد، وعبد كلال، وذو كَلاع ـ وهو يزيد بن النعمان، وهو ذو كلاع الأكبر. يقال: تكلّع الشيء. إذا تجمّع ـ وذو رُعَين، وهو شَراحيل بن عمرو القائل:

فإن تكُ حِمْيَرَ غَـدَرتْ وخـانـتْ فمعـذِرة الإلــه لِــذي رُعيْــنِ

ذو أصبح: واسمه الحارث بن مالك بن زيد بن الغوث. وهو أول من عُملت له

السياط الأصبحية. ومن ولده: أبرهة بن الصبّاح كان ملك تِهامة، وأمه رَيحانة بنت أبرهة الأشرم ملك الحبشة. وابنه أبو شَمِر، قُتل مع عليّ بن أبي طالب يوم صفّين. وأبو رُشْد بن كُرب بن أبرهة، كان سيد حمير بالشام زمن معاوية. ومنهم يزيد بن مفرّغ الشاعر.

ذو يزن، واسمه عامر بن أسلم بن زيد بن الغوث بن قَطن بن عريب ومنهم: النعمان بن قيس بن سيف بن ذي يزن الذي نَفى الحبشة عن اليمن - وجاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه اشترى حلّة ببضع وعشرين قلوصا فأعطاها إلى ذي يزن - وإلى ذي يزن تنسب الرماح اليزنية.

ذو جدن: وهو عَلَس بن الحارث بن زيد بن الغَوث، ومن ولده علقمة بن شراحيل. ذو قيْفان الذي كانت له صَمصامة عمرو بن معد يكرب، وقد ذكره عمرو في شعره حيث يقول:

وسَيْفٌ لابِنِ ذي قَيْفانَ عندي   تَخَيَّرَ نَصْلَهُ من عهدِ عاد

حَضُور بن عدي بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية. وهم في همدان.

فمن حَضور: شُعيب بن ذي مِهْزَم، النبيُّ الذي قتله قومه. فسلّط الله عليهم بُختنصر فقتلهم، فلم يبق منهم أحد فاصطلت حَضور؛ ويقال: فيهم نزلت: ﴿فلما أحسُّوا بأسَنا إذا هم منها يَركُضُونَ. لا تَركُضُوا وآرْجِعُوا إلى ما أُتْرِفْتُمْ فيه ومساكِنِكْم لعلّكم تُسْأَلونَ. قالوا يا ويلَنا إنّا كنّا ظالمين، فما زالت تلك دعواهُمْ حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾[1] فيقال إن قبر شُعيب هذا النبي في جبل باليمن في حَضور يقال له ضين، ليس باليمن جبل فيه ملح غيره، وفيه فاكهة الشام، ولا تمرُّ به هامّة من الهام.

---

(١) سورة الانبياء الآية ١٥.

الأوزاع

وهم: مرثد بن زيد بن زُرعة بن سبأ بن كعب، وهم في همدان إلاّ جُرش بن أسلم بن زيد بن الغوث، الأصغر بن أسعد بن عوف.

شجيج بن عديّ بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو.

وصيفي بن سبأ، الأصغر بن كعب بن زيد بن سهل بن تُبّع، وهو أسعد أبو كرب.

التبابعة

تُبّع الأصغر أسعد أبو كرب، واسمه تِبان بن مَلْكِيكرب، وهو تبع الأكبر ابن قيس بن زيد بن عمرو، ذي الأذعار بن أبرهة ذي المنار.

وتُبع بن الرائش بن قيس بن صَيفي. ومَلكيكرب تبع الأكبر، يكنى أبا مالك، وله يقول الاعشي:

وخــان الزمــانُ أبــا مــالــكٍ وأيّ آمــرىءٍ لم يَخُنْــهُ الزَّمَــنْ

ومن بني صيفي بن سبأ: بلقيس، وهي بلقمة بنت آل شَرْخ بن ذي جدن بن الحارث بن قيس بن سبأ الأصغر.

ومنهم: حِمير التبابعة. وهم تسعة، منهم تبع الأصغر، وتبع الأكبر؛ ومنهم المثامنة، وهم ثمانية رهط ولاة العهود بعد الملوك؛ وهم الثمامنة، أربعة آلاف؛ والقَيل الذي يكلم الملك فيسمع كلامه ولا يكلم غيره؛ ومنهم أبو فُرَيْقيش بن قيس بن صيفي الذي افتتح إفريقية فسُميت به، ويومئذ سُميت البرابرة؛ وذلك أنهم قالوا إنه قال لهم: ما أكثر بربرتكم.

قضاعة

هو قضاعة بن مالك بن عمرو بن مُرة بن زيد بن مالك بن حِمْير، وآسم قضاعة: عمرو.

فمن قبائل قضاعة وبطونها وجماهيرها: كلب بن وبرة بن تغلب بن حُلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة؛ وذلك أن وبرة ولد له: كلب، وأسد، ونمر، وذئب، وثعلب، وفهد، وضبع، ودُب، وسِيد، وسَرحان. فمن أشراف كلب: الفُرافصة بن الأحوص بن عمرو بن ثعلبة، وهو الذي تزوّج عثمان بن عفان ابنته نائلة بنت الفرافصة؛ ومنهم زهير بن جَناب بن هُبل بن عبد الله بن كِنانة.

ومن أسلافهم في الإسلام دحية بن خليفة الكلبي، وهو الذي كان جبريل عليه السلام ينزل في صورته.

ومنهم حسان بن مالك بن جذيمة.

ومن قضاعة: القين بن جَسَر بن شَيْع اللات بن أسد بن وبرة؛ فمن أشراف القين: دَعج بن كُثيف، وهو الذي أسر سِنان بن حارثة المرِّي؛ ومنهم نَديما جذَيمة، وهما مالك وعقيل ابنا فارج، ولهما يقول المُنخَّل:

ألم تعلمي أنْ قد تفرّق قبلَنا خليلا صَفاءٍ مالِك وعَقيلُ

ومنهم سعد بن أبي عمر وكان سيد بني القَين ورئيسَهم.

ومن قضاعة: تَنوخ، وهم ثلاثة أبطن: منهم بنو تيم الله بن أسد بن وبرة، ومنهم مالك بن زهير بن عمرو بن فهم بن تيم الله بن ثعلبة بن مالك بن فهم، ومنهم أُذينة الذي يقول فيه الأعشي:

أزالَ أُذَيْنَةَ عن مُلْكِه وأخرج من قصرِه ذا يَزَنْ

ومن بني قضاعة: جَرم وهو عمرو بن عِلاّف بن حُلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، وإلى علاف تنسب الرحال العلافية، وقال الشاعر:

مَجُوف عِلافيّ ونِطْعٌ ونُمْرُق[1]

ومن جَرْم: الرَّعْل بن عُروة وكان شريفاً، ومنهم عصام بن شَهْبر بن الحارث

(١) المجوف: الضخم الجوف؛ والظلع بساط من جلد، كثيراً ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل؛ والنمرق الوسادة الصغيرة يتكأ عليها.

وكان شاعراً شجاعاً، وله يقول النابغة:

فـإنّـي لا ألـومُـك في دخـولٍ ... ولٰكـنْ مـا وراءَك يـا عِصـامُ

وله قيل:

نفسُ عصامٍ سـوَّدَتْ عصـامَـا ... وعَلَّمتْـهُ الكَـرَّ والإقـدامـا

وجعَلته مَلِكاً هماما

ولجرم أربعة من الولد: قدامة، وجُدة، ومِلْكان، وناجية؛ فمن بني قدامة: كِنانة ابن صَرِم الذي كان يُهاجي عمرو بن معد يكرب، ووَعْلة بن عبد الله بن الحارث الذي قتل الحارث بن عبد المدان.

ومنهم بنو شنّ، وهم باليمامة مع بني هِزّان بن عَنزة؛ ومنهم أبو قُلابة الفقيه عبدُ الله بن زيد؛ والمساور بن سَوار، ولي شرطة الكوفة لمحمد بن سليمان.

ومن بني جُدة بن جَرم: بنو راسب، وهم بنو الخزرج بن جدة بن جرم.

ومن قضاعة: سَليح، وهو عمرو بن حُلوان، بن عمران.

ومن بني سعد بن سَليح: الضَّجاعمة الذين كانوا ملوك الشام قبل غسّان.

ومن بني النمر بن وبَرة خُشَين، منهم أبو ثعلبة الخشني صاحب النبي ﷺ.

ومن بني النمر بن وبَرة: غاضرة وعاتية ابنا سُلَيم بن منصور.

ومن بني أكثم بن النمر: مَشْجعة بن الغوث: منهم معاوية بن حِجار، الذي يقال له ابن قارب، وهو الذي قتل داود بن هَبولة السَّليحي، وكان ملكا.

بَهراء بن عمرو بن الحاف بن قُضاعة؛ فولد بهراءُ: أَهْودَ، وقاسطا، وعَبدة وقسراً، وعدياًّ، بطون كلها.

ومنهم قيس وشَبيب، بطنان عظيمان، ومنهم المقداد بن عمرو صاحبُ النبي ﷺ، وهو الذي يقال له المقداد بن الأسود؛ لأن الأسود بن عبد يغوث كان تبنَّاه، وقد انتسب المقداد إلى كندة؛ وذلك أن كندة سبتْه في الجاهلية فأقام فيهم وانتسب إليهم.

ومن قضاعة: بَلِيٌّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة؛ منهم المجدَّر بن ذياد قاتل أبي البختري العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى في يوم بدر وهو يقول:

بَشِّـرْ بِيُتْـمِ مَـنْ أبيـهِ البخْتَـرِي ... أو بشِّـرَنْ بِمِثْلِهـا مِنّـي أَبِي

أنا الَّذي أَزْعُـمُ أُصْلِـي مَـنْ بَلِـي ... أضرِبُ بـالْهِنْـدِيِّ حتى ينْثَنِي

وفيهم بنو إراشة بن عامر؛ منهم كعب بن عُجْرة الأنصاري صاحب النبي عليه الصلاة والسلام، وسهل بن رافع صاحب الصاع.

وفيهم بنو العجلان بن الحارث: منهم ثابت بن أرقم شهد بدراً وهو الذي قتل طليحة في الردّة.

ومنهم بنو واثلة بن حارثة أخي بني عِجْلان: منهم النعمان بن أعصر، شهد بدراً.

ومن قُضاعة: مَهرةبن حيدانبن عمرو بن الحاف بن قضاعة، وهو الذي تُنسب إليه الإبل المهرية.

ومنهم: كرز بن رُوعان، من بني المَنْسم الذي صار إلى معد يكرب بن جَبلة الكندي، وهو الذي يقول:

تقـولُ بُنيَّتِي لما رأتْني ... أكُـرُّ عليهِـمُ وأذُبُّ وحـدي[1]

لعَمـرُكَ إنْ ونيْـتَ اليـومَ عنهـم ... لَتَنْقَلِبَـنَّ مصروعـاً بِخَدِّ[2]

ومنهم ذَهْبَن بن قِرضِم بن العُجيل، وهو الذي كان وفد إلى النبي ﷺ وكتب له كتاباً وردَّه إلى قومه.

جُهينة بن ليث بن سُود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة. منهم: سُويد بن عمرو بن جذيمة بن سبِرة بن خُديج بن مالك بن عمرو بن ثعلبة بن رفاعة بن مُضر بن مالك ابن غَطفان بن قيس بن جهينة، وكان شريفا.

ومن قضاعة: نَهد بن زيد بن سُود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة. منهم الصَّعق،

---

(١) أكرُّ: أهجم. وأذب: أدفع و أحمي. (٢) ونيت: ضعفت.

وهو جُشم بن عمرو بن سعد، وكان سيد نهد في زمانه، وكان قصيراً أسود دميا، وكان النعمان قد سمع شرفه فأتاه؛ فلما نظر إليه نَبتْ عنه عينُه، فقال: «تسمع بالمُعَيْدِي خيرٌ من أن تراه!» فقال: أبيت اللعن! إن الرجال ليست بمُسُوك يُستقَي فيها الماء، وإنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، إذا نطق نطق ببيان، وإن صال صال بجنان. قال: صدقت! ثم قال له: كيف عِلمك بالأمور؟ قال: أُبغض منها المقبول، وأُبرم المسحول،[1] وأحيلها حتى تحول، وليس لها بصاحب، من لم ينظر في العواقب.

ومنهم: ودعة بن عمرو صاحب بَسْبَس، طليعة رسول الله ﷺ.

عُذرة بن سعد هُذيم بن زيد بن ليث: منهم خالد بن عَرفطة، ولاه سعد بن أبي وقاص ميمنة الناس يوم القادسية. ومنهم عُروة بن حِزام صاحب عفراء ومنهم رَزَاح ابن ربيعة أخو قُصيّ لأمه، وهو الذي أعان قُصياً حتى غلب على البيت. ومنهم جميل ابن عبد الله بن معَمر بن نَهيك صاحب بثينة.

وبنو الحارث بن سعد. إخوة عُذرة.

فهؤلاء بطون قُضاعة بن مالك بن عمرو بن مرة. وهؤلاء أولاد حِمير بن سبأ.

كهلان بن سبأ

الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان.

فمن قبائل الأزد: الأنصار، والأوس، والخزرج: ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو ابن عامر، وأمهما قيلة.

هؤلاء الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة ـ وهو العنقاء ـ ابن عمرو بن ثعلبة ـ وهو المزيقيا ـ ابن عامر، وهو ماء السماء.

فمن بطون الأوس والخزرج وجماهيرها: عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس وهم بنو السَّمِيعة، بها يعرفون ـ وهم عوف [وحبيب] وثعلبة ولوذان، بنو عمرو ابن عوف بن مالك بن الأوس.

---

(١) المسحول: الحبل المبرم على طاقته.

ضبيعة بن زيد بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس. منهم: سويد بن الصامت قتله المجذَّر بن ذِياد في الجاهلية، فوثب ابنه علي المجذَّر فقتله في الإسلام، فقتله النبي عليه الصلاة والسلام.

عبد الأشهل بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس. منهم: سعد بن معاذ الذي اهتز لموته العرش، بدري، حكم في بني قريظة والنضير، وعمرو أخو سعد بن معاذ، شهد بدراً وقتل يوم أحد. والحارث بن أنس، شهد بدراً وقتل يوم أحد، وعمار بن زياد قتل يوم بدر، وأُسيد بن الحضير بن سماك، شهد العقبة وبدراً؛ وربيعة بن زيد شهد العقبة وبدراً.

ربيعة بن عبد الأشهل بن جشم بن الحارث بن خزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس. منهم: رفاعة بن قيس، قتل يوم أحد. وسلمة بن سلامة بن وَقْش، شهد بدراً وقتل يوم أحد. وأخوه عمرو بن سلامة، قتل يوم أحد، ورافع بن يزيد، بدري.

زَعُورا بن جشم بن الحارث بن خزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس. منهم: مالك بن التَّيِّهان أبو الهيثم، نقيب بدري عقبي؛ وأخوه عتبة بن التيهان، بدري قتل يوم أحد.

خطمة هو عبد الله بن جشم بن مالك بن الأوس. منهم: عدي بن خرشة، وعمرو بن خرشة، وأوس بن خالد، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وعبد الله بن يزيد الأنصاري، ولي الكوفة لابن الزبير.

واقف: هو مالك بن امريء القيس بن مالك بن الأوس. منهم: هلال بن أمية، وعائشة بن نمير الذي ينسب إليه بئر عائشة بالمدينة، وهرم بن عبد الله السلمي بن امريء القيس بن مالك بن الأوس. ومنهم: سعد بن خيثمة بن الحرث، بدري عقبي نقيب، قتل يوم أحد.

عامرة: هم أهل رابخ بن مرة بن مالك بن الأوس. منهم: وائل بن زيد بن قيس بن عمارة، وأبو القيس بن الأسلت.

الخزرج

فمن بطون الخزرج: النجار بن ثعلبة بن عمرو بن خزرج: غنم بن مالك بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج. منهم: أبو أيوب خالد بن زيد، بدري. وثابت ابن النعمان؛ وسراقة بن كعب؛ وعمارة بن حزم؛ وعمرو بن حزم؛ بدري عقبي؛ وزيد بن ثابت صاحب القرآن والفرائض؛ بدري؛ ومعاذ ومعوّذ وعوف بنو الحارث ابن رفاعة. وأمهم عفراء، بها يعرفون، شهدوا بدراً؛ وأبو أمامة أسعد بن زرارة؛ نقيب عقبي بدري؛ وحارثة بن النعمان، بدري.

مبذول: اسمه عامر بن مالك بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن خزرج. منهم: حبيب بن عمرو، قتل يوم اليمامة، وأبو عمرة، وهو بشير بن عمرو، قتل مع علي بن أبي طالب بصفين. والحرث بن الصمة، بدري. وسهل بن عتيك، بدري.

حُديْلَة: هو معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج. أمه حديلة وبها يعرفون. منهم: أُبي بن كعب بن قيس بن عُبيد بن معاوية. وأبو حبيب بن زيد، بدري.

مَغَالة: هو عدي بن عمرو بن مالك بن النجار. منهم: حسان بن ثابت بن المنذر ابن حرام شاعر النبي عليه الصلاة والسلام، وأبو طلحة وهو زيد بن سهل بن الأسود ابن حرام.

ملحان بن عدي بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن خزرج. منهم: سُلَيم بن ملحان، وحرام بن ملحان، بدريان، قتلا يوم بئر معونة.

غَنم بن عدي بن النجار. منهم: صِرمة بن أنس بن صرمة صاحب النبي ﷺ. ومحرز بن عامر، بدري. وعامر بن أُمية، بدري، قتل يوم أحد. وأبو حكيم وهو

عمرو بن ثعلبة، بدري. وأبو خارجة وهو عمرو بن قيس، بدري. وابنه سبرة أبو سليط، بدري. وثابت بن خنساء، بدري. قتل يوم أحد، وأبو الأعور وهو كعب بن الحرث، بدري. وأبو زيد أحدُ الستة الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ؛ وبنو الحسحاس الذين ذكرهم حسان في قوله:

ديارٌ من بني الحَسحاسِ قفْرُ

مازن بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن خزرج. منهم: حبيب بن زيد، قطع مسليمة جسدَه، وكان رسول الله ﷺ بعثه إليه؛ وعبد الرحمن بن كعب من الذين تولَّواوأعيُنهم تفيض من الدمع، بدري، وقيس بن أبي صعصعة، بدري، وغزيّة بن عمرو، عقبي.

بنو الحارث بن الخزرج. منهم: عبد الله بن رواحة الشاعر، بدري عقبي نقيب. وخلاد بن سُويد، بدري، قتل يوم قريظة. وسعد بن الربيع، بدري عقبي نقيب، قتل يوم أحد. وخارجة بن زيد، بدري عقبي نقيب قتل يوم أحد. وابنه زيد بن خارجة الذي تكلم بعد موته. وثابت بن قيس بن شماس، خطيب النبي ﷺ، قتل يوم اليمامة وهو على الأنصار؛ وبشير بن سعد، بدري عقبي. وأبو النعمان بن بشير. وزيد بن أرقم. وابن الأطنابة الشعر. ويزيد بن الحارث الشاعر، بدري. وأبو الدرداء وهو عُويمر بن زيد. وعبد الله بن زيد الذي أُرِيَ الأذان. وسبيع بن قيس، بدري. وعامر بن كعب الشاعر.

بنو خُدْرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج. منهم: أبو مسعود عقبة بن عمرو، بدري عقبي، وعبد الله بن الربيع، بدري. وأبو سعيد الخدري وهو سعد بن مالك.

بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج. منهم سعد بن عبادة بن دُليم، كان من النقباء، وهو الذي دعا إلى نفسه يوم سقيفة بني ساعدة. والمنذر بن عمرو، بدري عقبي نقيب، قتل يوم بئر معونة. وأبو دجانة وهو سِمَاك بن أوس بن خرشة. وقيس بن سعد. وأبو أسيد وهو مالك بن ربيعة قتل يوم اليمامة. ومسلمة بن مخلد.

سالم بن عوف بن الخزرج. منهم: الرَّمَق بن زيد الشاعر، جاهلي. ومالك بن العجلان بن زيد بن سالم سيد الأنصار الذي قتل الفِطْيَوْن.

القَوقل: هو غَنم بن عمرو بن عوف بن الخزرج. منهم: عُبادة بن الصامت، بدري نقيب. ومالك بن الدُّخْشُم، بدري. والحارث بن خزيمة، بدري.

بنو بياضة بن عامر بن زُريق. منهم: زياد بن لبيد، بدري. وفروة بن عمرو، بدري عقبي. وخالد بن قيس، بدري. وعمرو بن النعمان رأس الخزرج يوم بعاث. وابنه النعمان صاحب راية المسلمين بأُحُد.

العجلان بن زيد بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج؛ ومن بني العجلان: عبد الله بن نضلة بن مالك بن العجلان البدري، قتل يوم أحد. وعياش بن عبادة بن نضلة. ومُليل بن وبَرة، بدري. وعصمة بن الحصين بن وبرة بدري. وأبو خيثمة، وهو مالك بن قيس.

الحُبلي: وهو سالم بن غَنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج؛ سمي الحبلي لعظم بطنه. منهم عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين؛ وابنه عبد الله بن عبد الله، شهد بدرا وقتل يوم اليمامة. وأوس بن خولي، بدري.

بنو زريق بن عامر بن زريق بن حارثة بن مالك بن عضب بن جشم بن الخزرج. منهم: ذكوان بن عبد قيس، بدري عقبي قتل يوم أحد. وأبو عبادة سعد بن عثمان، بدري. وعُتبة بن عثمان بدري. والحرث بن قيس، بدري. وأبو عياش بن معاوية فارس جُلْوة، بدري. ومسعود بن خَلَدة، بدري. ورفاعة بن رافع، بدري. وأبو رافع بن مالك، أول من أسلم من الأنصار.

بنو سَلمة بن سعد بن علي بن أسد بن شاردة بن جشم بن الخزرج. منهم: جابر ابن عبد الله صاحب النبي عليه الصلاة والسلام. ومعاذ بن الصِّمَّة، بدري. وخراش بن الصمة، شهد بدرا بفرسين. وعتبة بن أبي عامر، بدري. ومعاذ بن عمرو بن

الجموح، بدري، وهو الذي قطع رجل أبي لهب. وأخوه معوذ بن عمرو، قتلا يوم بدر. وأبو قتادة واسمه النعمان بن ربعي. وكعب بن مالك الشاعر وأبو مالك بن أبي كعب الذي يقول:

لَعْمر أبيها ما تقول حَليلتي   إذا فرّ عنها مالك بن أبي كعب

وبشر بن عبد الرحمن؛ والزبير بن حارثة؛ وأبو الخطاب وهو عبد الرحمن بن عبد الله؛ ومعن بن وهب ـ هؤلاء الخمسة شعراء ـ وعبد الله بن عتيك، قاتل ابن أبي الحقيق. هذا نسب الأنصار.

خزاعة

هو عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر؛ وإنما قيل لهم خزاعة؛ لأنهم انخزعوا[1] من ولد عمرو بن عامر في إقبالهم من اليمن؛ وذلك أن بني مازن من الأزد لما تفرّقت الأزد من اليمن في البلاد ـ نزل بنو مازن على ماء بين زَبيد ورمَع يقال له غسان؛ فمن شرب منه فهو غساني؛ وأقبل بنو عمرو فانخزعوا من قومهم فنزلوا مكة؛ ثم أقبل أسلم ومالك وملكان بنو أفصى بن حارثة فانخزعوا، فسموا خزاعة، وافترق سائر الأزد، فالأنصار وخزاعة وبارق والهُجُن وغسان: كلها من الأزد، فجميعهم من عمرو بن عامر، وذلك أن عمرو بن عامر ولد له حفنة والحارث وهو محرِّق، لأنه أول من عذَّب بالنار، وثعلبة العنقاء، وهو أبو الأنصار، وحارثة، وهو أبو خزاعة، وأبو حارثة، ومالك، وكعب، ووداعة، وهو في همدان، وعوف، وذهل، وهو وائل، وعمران. فلم يشرب أبو حارثة ولا عمران ولا وائل من ماء غسان، فليس يقال لهم غسان.

بطون من خزاعة

حليل بن حُبْشِيَّة بن سلول بن كعب بن ربيعة بن خزاعة. وهو كان صاحب البيت قبل قريش، منهم المحترش بن حُليل بن حبشية ـ الذي باع مفتاح الكعبة من

---

(١) انخزعوا، يقال انخزع الحبل: انقطع من نصفه.

قصي بن كلاب ـ، وهلال بن حليل، وكرز بن علقمة ـ الذي قفا أثر النبي ﷺ حتى دخل الغار، وهو الذي أعاد معالم الحرم في زمن معاوية فهي إلى اليوم ـ، وطارق ابن باهية الشاعر.

قمير بن حُبشية بن سلول بن كعب بن ربيعة بن خزاعة. فمن بني قمير: بُسْر بن سفيان الذي كتب إليه النبي ﷺ، وجلجلة بن عمرو الذي ذكره أبو الكنود في شعره، ومن ولده قبيصة بن ذؤيب بن جَلجلة، ومالك بن الهيثم بن عوف.

كليب بن حُبشية بن سلول بن كعب بن ربيعة بن خزاعة؛ منهم: السفَّاح ابن عبد مناة الشاعر، وخِراش بن أبي أُمية حليف بني مخزوم، وهو الذي حجم النبي عليه الصلاة والسلام.

ضاطر بن حُبشية بن سلول بن كعب بن ربيعة بن خزاعة. منهم: حفص بن هاجر الشاعر، وقُرة بن إياس الشاعر. وكان ابنه يحي بن قرة سيد قومه ـ وطلحة بن عُبيد الله بن كُريز بن الحدادية الشاعر، واسمه قيس بن عمرو.

حَرام بن عمر بن حبشية بن سلول بن كعب بن ربيعة بن خزاعة. منهم أكثم ابن أبي الجون، وسلمان بن صرد بن الجون، ومعتب بن الأكوع الشاعر. وأم معبد: وهي عاتكة بنت خُليف التي نزل بها النبي ﷺ في مهاجرته إلى المدينة.

غاضرة بن عمرو بن حُبشية بن سلول بن كعب بن ربيعة بن خزاعة. منهم: عمران بن حصين صاحب النبي عليه الصلاة والسلام؛ وسعيد بن سارية، ولي شرطة علي بن أبي طالب. وأبو جمعة جدّ كثيِّر عزة. وجعدة وأبو الكنود ابنا عبد العزى.

مليح بن خزاعة، منهم: عبد الله بن خلف، قتل مع عائشة يوم الجمل. وأخوه سلمان بن خلف، كان مع عليّ يوم الجمل، وابنه طلحة بن عبد الله بن خلف يقال له طلحة الطلحات، وهو أجود العرب في الإسلام، وعمرو بن سالم الذي يقول:

لا هُــمَّ إنّــي نــاشــدٌ محمدا حِلْـفَ أبينـا وأبيــهِ الأتْلَـدا[1]

(١) الأتلد: الموروث.

ومنهم كثيِّر عزة الشاعر، كنيته أبو عبد الرحمن.

عدي بن خزاعة. منهم: بديل بن ورقاء الذي كتب إليه النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام، وابنه عبد الله بن بديلْ، ونافع بن بديل، قتل يوم بئر معونة، ومحمد بن ضمرة كان شريفا، والحَيسمان بن عمرو الذي جاء بقتلى أهل بدر إلى مكة وأسلم بعد ذلك.

سعد بن كعب بن خزاعة؛ منهم: مطرود بن كعب الذي رثى بني عبد مناف، وعمرو بن الحَمِق صاحب النبي عليه الصلاة والسلام؛ وأبو مالك القائد وهو أسد بن عبد الله؛ والحصين بن نضلة، كان سيد أهل تهامة، مات قبل الإسلام؛ والحرث بن أسد، صاحب النبي ﷺ.

المُصطلق بن سعد بن خزاعة؛ منهم جُويرية بنت الخزرج زوج النبي عليه الصلاة والسلام.

وإخوة خزاعة وهم ينسبون في خزاعة: أسلم بن أفصي بن حارثة بن عمرو بن عامر؛ منهم: بريدة بن الحُصيْب صاحب النبيّ عليه الصلاة والسلام. وسَلَمة بن الأكوع صاحب النبي عليه الصلاة والسلام.

ومَلكان بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر. ومنهم ذو الشمالين، وهو عمير ابن عبد عمرو، شهد بدراً مع النبي ﷺ؛ ومالك بن الطُّلاطلة، كان من المستهزئين من النبي ﷺ؛ ونافع بن الحارث ولي مكة لعمر بن الخطاب.

مالك بن أفصى بن عمرو بن عامر؛ منهم: عويمر بن حارثة؛ وسليمان بن كُثير، من نُقباء بني العباس، قتله أبو مسلم بخراسان.

سلامان بن أسلم بن أفصي بن حارثة بن عمرو بن عامر، منهم: جَرْهد بن رِزاح كان شريفاً، وأبو بردة صاحب النبي عليه الصلاة والسلام.

فرغت خزاعة

بارق والهجن

ولد عدي بن حارثة بن عامر: سعدا ـ وهو بارق ـ، وعمراً ـ وهم الهجن ـ فخزاعة وبارق والهجن: من بني حارثة بن عمرو بن عامر.

فمن بارق: سراقة بن مرداس الشاعر وجعفر بن أوس الشاعر، ومنهم النعمان بن خَميصة، جاهلي شريف. وبارق والهجن لا يقال لهما غَسان؛ وغسان ماء بالمشلّل، فمن شرب منه من الأزد فهو غساني، ومن لم يشرب منه فليس بغساني؛ وقال حسان:

إما سألتِ فإنّا مْعشرٌ نَجُبٌ ... الأزْدُ نِسبتنا والماءُ غسّان

ومن الهُجن: عَرفجة بن هَرْثمة الذي جنَّد الموصل، وعداده في بارق؛ ومنهم ربعة وملادس وثعلبة وشبيب وألمع، بنو الهجن.

حُجر بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امريء القيس بن مازن بن الأزد؛ ومنهم: أبو شُجرة بن حُجنة، هاجر مع النبي ﷺ؛ ومنهم: صيفي بن خالد ابن سلمة بن هُرَيْم.

والعتيك: هو ابن الأزد بن عمران بن عمرو؛ منهم: المهلَّب بن أبي صُفرة، واسم أبي صُفرة ظالم بن سراقة: وجُديع بن سعيد بن قبيصة. ومن العتيك: عمرو بن الأشرف، قتل مع عائشة يوم الجمل؛ وابنه زياد بن عمرو، وكان شريفا؛ وثابت قُطنة الشاعر. ويقال إن العتيك: ابنُ عمران بن عمرو بن أسد بن خُزيمة. فهؤلاء بنو عمران بن عمرو بن عامر؛ وهم: الحُجر، والأزْد، والعتيك.

ومن بطون الأزد:

بنو ماسخة بن عبد الله بن مالك بن النصر بن الأزد، إليهم تنسب القسي الماسخية، كان أول من رمي بها بنو زَهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر من الأزد. ومنهم: حُممة بن رافع: وفيهم: بنو النمر بن عثمان بن النصر بن هوازن؛ ومنهم: أبو الكَنود صاحب ابن مسعود، قتل يوم

الفِجار؛ وأبو الجهم بن حبيب، كان والياً لأبي جعفر: وأبو مريم، وهو حذيفة بن عبد الله، صاحب رايتهم يوم رستم، والحارث بن حَصيرة الذي يحدَّث عنه، ومخلد بن الحسن، كان فارساً بخراسان.

وفَهم بن زهران بطن وحُدّان بطن، وزيادة بطن. ومَعْولة، بنو شمس بن عمرو ابن غنم بن غالب بن عثمان بن نصر بن هوازن.

فمن بني حُدّان: صبرة بن شيبان، كان رأس الأزد يوم الجمل، وقتل يومئذ.

ومن بني مَعْولة بن شمس: الجُلَنْدي بن المُستكين صاحب عثمان، وابنه جيْفَر. وكتب النبي عليه الصلاة والسلام إلى جيفر وعُبيد ابني الجلندي، ومنهم الغطريف الأصغر والغطريف الأكبر من بني دَهمان بن نصر بن زهران، ومنهم سبالة، وحدروج، ورسْن بنو عمرو بن كعب بن الغطريف، بطون كلهم، وبنو جِعْثِمة بن يشكر بن مَيسر بن صعب بن دُهمان.

بنو راسب بن مالك بن مِيْدعان بن مالك بن نصر بن الأزد، منهم: عبد الله بن وهب ذو الثفِنات، رئيس الخوارج، قتله علي بن أبي طالب يوم النَّهروان. ومن الناس من يَنسب بني راسب في قُضاعة.

ثُمالة، وهو عوف بن أسلم بن أبْجر بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نضر بن الأزد. وثمالة منزلهم قريب من الطائف، وهم أهل روية وعقول، ومنهم: محمد بن يزيد النّحوي المعروف بالمبّرد صاحب الروضة، وقال فيه بعض الشعراء:

سألنا عن ثمالةَ كلَّ حيٍ ... فقال القائلون ومَن ثمالهْ

فقلتُ: محمدُ بن يَزيد منهمْ ... فقالوا الآن زدت بهم جَهالهْ

بنو لِهْب بن أبجر بن كعب بن الحارث بن كعب، وهم أعْيَف كل حيّ في العرب ـ العائف: الذي يزجر الطير ـ ولهم يقول كثيّر عزة:

تيَمّمتُ لِهباً أبتغي العلمَ عندهم ... وقد رُدَّ علمُ العائفين إلى لِهْبِ

دوس بن عُدثان بن عبد الله بن زَهران، ومنهم حُممة بن الحارث بن رافع، كان سيد دوس في الجاهلية، وكان أسخى العرب، وهو مُطعِم الحاج بمكة، ومنهم أبو هُريرة صاحب النبيّ عليه الصلاة والسلام، واسمه عُمير بن عامر. ومنهم جَذيمة الأبرش بن مالك بن فَهم بن غَنم بن دوس، وجَهضم بن عوف بن مالك بن فَهم بن غَنم بن دوس، ومنهم الجراميز، جمع جُرموز، والقراديس، جمع قردوس، والقسامل، جمع قَسملة، والأشاقر، جمع أشقر، وهم بنو عائذ بن دَوس، وفيهم يقول الأعجم:

قالوا الأشاقِر تَهجوكم فقلتُ لهم ما كنت أحسبُهم كانوا ولا خُلقوا
وهم من الحسَب الزاكي بمنزلةٍ كطُحْلُبِ الماءِ لا أصلٌ ولا ورق
لا يكبرون وإن طالتْ حياتُهمُ ولو يَبولُ عليهم ثعلبٌ غَرقوا

علكّ بن عُدثان بن عبد الله بن زهران. وعكّ أخو دوس بن عُدثان بن عبد الله ابن زهران عند من نسبهم إلى الأزد، ومن قال غير ذلك، فهو عكّ بن عُدثان أخو معد بن عدثان. وفي عكّ: قرن، وهو بطن كبير، منهم مقاتل بن حكيم، كان من نقباء بني هاشم بخراسان.

غسان، وهم بنو عمرو بن مازن، وفيهم: صُريم، وبنو نفيل، وهم الصبّر، سُموا بذلك لصبرهم في الحرب، وفي بني صُريم شقْران ونَمران ابنا عمرو بن صُريم، وهما بطنان في غسان.

وبنو عَنَزة بن عمرو بن عوف بن عمرو بن عدي بن عمرو بن مازن بن الأزد. منهم: الحارث بن أبي شَمر الأعرج، ملك غسان الذي يقال فيه الجفني، وليس بجَفني ولكن أمّه من بني جفنة. ومن بني عمرو بن مازن: عبدُ المسيح بن عمرو بن ثعلبة صاحب خالد بن الوليد، ومنهم عبد المسيح الجِهْبذ، ومنهم سطيح الكاهن، وهو ربيعة بن ربيعة.

ومن بني غسَّان: بنو جَفنة بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امريء القيس بن مازن بن الأزد؛ ومنهم: مُلوك غسان بالشام، وهم سبعة وثلاثون

ملكا، ملكوا ستمائة سنة وست عشرة سنة إلى أن جاء الإسلام.

بجيلة، وهم عبقر والغوث وصهيب، ووداعة وأشهل؛ نُسبوا إلى أمّهم بجَيلة بنت صعب بن سعد العشيرة؛ وهم بنو أنمار بن إراس بن عمرو بن الغوث، أخو الازد بن الغوث. منهم: جَرير بن عبد الله صاحب النبي عليه الصلاة والسلام، وكان يُقال لجرير: يوسف هذه الأمّة؛ لُحسنه. وفيهم يقول الشاعر:

لـولا جـريـرٌ هلكـتْ بَجيلـهْ نِعْـمَ الفتَـى وبئْسـتِ القَبيلـهْ

ومنهم: الضَّبين بن مُضر الذي وقع ببني كنانة، ومنهم القاسم بن عُقيل أحد بني عائذة بن عامر بن قُداد. كان شريفا. وهو الذي ابتدأ منافرة بجيلة وقضاعة.

وفي بجيلة قسِر بن عبقر منهم: خالد بن عبد الله القسري صاحب العراق.

ومنهم بنو أحمس، وهم بنو عَلَقَة بن عبقر بن أنمار بن إراش بن عمرو بن الغوث؛ وبنو زيد بن الغوث بن أنمار؛ وبنو دَهن بن معاوية بن أسلم بن أحمس رهط عمار الدَّهني.

ومن قبائل بَجلة: هُدم، وهدِيم، وأحمس، وعادية، وعديَّة، وقينان، وعُرينة بن زيد.

خثعم - هو: خثعم بن أنمار بن إراش بن عمرو بن الغوث، أخي الأزد بن الغوث. ففي خثعم: عِفْرس، وناهس، وشَهران، فيها الشرف والعدد.

فمن بني شَهران: بنو قُحافة بني عامر بن ربيعة؛ منهم: أسماء بنت عُميس، ومالك بن عبد الله الذي قاد خيل خثعم إلى النبي ﷺ.

ومن ربيعة بن عِفرس: نُفيل بن حبيب دليل الحبشة على الكعبة، وهو القائل:

وكلهُـمُ يُسـائـل عـن نُفيْـلٍ كـأنَّ عليّ للحُبْشـان ديْنـا
ومـا كـانَـتْ دِلالتُهُـمْ بزَيْـنٍ ولكـنْ كـان ذاك عليَّ شَيْنَـا[1]
فـإنَّـكِ لـو رأيـتِ ولم تَـرَيْـهِ لدَى جَنْب المُحَصَّبِ مـا رأينـا

(١) الشين: العيب والنقص.

إذاً لم تفْـرَحــي أبــداً بشيءٍ ولم تـأسيْ على مـا فـات عَيْنـا[1]
حَمـدْت اللهَ إذ أبصرْت طيْـراً وحُصْـبَ حجـارةٍ تُـرْمَـى علينـا

ومن خثعم: عَثعث بن قُحامة، وهو الذي هزم هَمدان ومَذحج. وله يقول الشاعر:

وجُرْثُومة لم يَدخُـلِ الذلُّ وسْطَهـا قريبةَ أنسـابٍ كثيرٍ عِـديـدُهـا[2]
مُلَمْلِمـة فيهـا فـوارسُ عَثْعَـثٍ بَنُـوهُ وأبنـاءُ الأُقيْصِـرِ جِيـدُهـا

ومنهم حُمران الذي يقول:

أقسَمْـتُ لا أمـوتُ إلاّ حُـراً وإن وجـدتُ الموْتَ طعْماً مُـراً
أخافُ أن أُخْدَعَ أوْ أُغرَّا

ويقال إن خَثعم اسمه أفتل، وإنما خثعم جَمل كان لهم نُسبوا إليه.

همدان

وهو همدان بن مالك بن زيد بن أوسَلة بن ربيعة بن الخِيار بن مالك بن زيد بن كهلان؛ فولدت همدان: حاشداً وبكيلا؛ ومنهما تفرقت همدان.

فمن بطون همدان شِبام، وهو عبدالله بن أسعد بن حاشد.

ومنهم ناعط وهو ربيعة بن مرثد بن حاشد بن جُشم بن حاشد. ومنهم وداعة بن عمرو بن عامر، رهط مسروق بن الأجدع؛ ومن الناس من يزعم أنه وداعة بن عمرو بن عامر بن الأزد، ولكنهم انتسبوا إلى همدان

ومن همدان: بنو السُّبيع بن الصعب بن معاوية بن كبير بن مالك بن جُشم بن حاشد؛ منهم: سَعيد بن قيس بن زيد بن حرب بن معد يكرب بن سَيف بن عمرو السبيعيّ؛ ومن بني ناعط: الحارث بن عُميرة الذي يمدحه أعشى همدان بقوله:

---

(١) تأسي: تحزني وتتأسفي. (٢) الجرثومة: الأصل.

إلى ابــن عُمْيرَةَ تُخْـدِي بنـــا على أنها القُلُــص الضُّمَّـــرُ[1]

ومن بني بَكيل بن جُشم بن خَوان بن نوف بن همدان: بنو جَوْب ـ وهم الجوبيون ـ ابن شهاب بن مالك بن معاوية بن صعب بن دَوْمان بن بكيل. وبنو أرحب بن دُعام بن مالك بن معاوية بن صعب. وبنو شاكر، وهم أبو ربيعة بن مالك بن معاوية بن صعب، وهم الذين قال فيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم الجمل: لو تمت عدّتهم ألفاً لعُبد اللهُ حق عبادته. وكان إذا رآهم تمثل بقول الشاعر:

ناديتُ هَمْدانَ والأبـوابُ مُغْلَقـةٌ ومثلُ همدانَ سَنَّي فتحةَ البـابِ[2]

كـالهُنْـدُوانِـيّ لم تُفْلَـلْ مَضـارِبُـهُ وجهٌ جميلٌ وقلبٌ غيْـرُ وجَّـابِ[3]

وقال فيهم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

لِهَمْـدانَ أخلاق وديـنٌ يـزَيِّنُهـم وبـأسٌ إذا لاقـوْا وحُسْـنُ كلامِ

فلو كنتُ بَـوّابـاً على بـابِ جَنَّـةٍ لقلـتُ لَهمـدانَ ٱدخلــوا بسلامِ

ومن أشراف همدان: مالك بن حُرِيم الدَّالانيّ، وكان فارساً شاعراً؛ ومنهم محمد بن مالك الخَيْواني، وكان يُجير قريشاً في الجاهلية على اليمن؛ وفي همدان: جُشَم، وهم رهط أعشى همدان؛ وفيهم خَيوان، وهو مالك بن زيد بن جشم بن حاشد؛ وفيهم دَألان بن سابقة بن ناشج بن دافع؛ منهم مالك بن حُرِيم الذي يقول:

وكنتُ إذا قوْمٌ غزَوْنِي غـزوْتُهُـم فهل أنـا في ذا يـا لَهَمـدانَ ظـالمُ

متى تجمعِ القلبَ الذَّكِيَّ وصارِمـاً وأنفـاً حَمِيّـا تجتنِبْــكَ المظــالمُ

ومنهم: أرحب بن دُعام بن مالك بن معاوية بن صعب بن دَوْمان بن بكيل. منهم: أبو رُهم بن مُطعم الشاعر، هاجر إلى النبي ﷺ وهو ابن خمسين ومائة سنة.

وفي همدان: إلهان بن مالك، وهو أخو همدان بن مالك، ومنهم: حَوشب. قتل بصفين مع معاوية.

---

(١) تُخدي: تسرع، والقلوص الضمَّر: النوق الهزيلة التي تكون أكثر قدرة على الإسراء.

(٢) سنّى فتحة الباب: لاين الفتحة وفتح الباب.

(٣) مضارب: مفرده مضرب، وهو الفسطاط العظيم.

كندة بن عُفير بن عديّ بن الحارث بن مُرة بن أُدد بن زيد بن يَشْجب بن عريب بن زيد بن كهلان.

فمن بطون كندة: الرائش بن الحارث بن معاوية بن كندة؛ منهم: شُريح بن الحارث القاضي؛ ومنهم معاوية الأكرمين الذي مدحهم الأعشى؛ ومنهم الأشعث بن قيس بن معد يكرب؛ والصبّاح بن قيس وشُرحبيل بن السِّمط، ولي حِمص؛ وحُجر ابن عديّ الأدبر صاحب علي، وهو الذي قتله معاوية صبراً.

ومنهم: بنو مرة بن حجر، لهم مسجد بالكوفة؛ ومنهم: الأسود بن الأرقم؛ ويزيد بن فروة الذي أجار خالد بن الوليد يوم قطع نخل بني وليعة؛ وفي كِندة معاوية الولاّدة. سُمي بذلك لكثرة ولده؛ ومنهم حُجر الفرد، سمي بذلك لجوده، وأهل اليمن يُسمون الجواد: الفرد، ومنهم معاوية مقطِّع النُّجد، كان لا يتقلد أحد معه سيفاً إلا قطع نجاده.

فمن بني حُجر الفرد الملوك الأربعة: مخوس، ومِشرح، وجَمْد، وأبضعة؛ وأختهم العمرّدة، بنو معد يكرب بن وليعة بن شُرحبيل بن حجر الفرد؛ وهم الذي يقول فيهم الشاعر:

نحنُ قتلنـا بـالنُّجَيْـرِ أَربعـهْ   مخوس مِشْـرَحـاً وجَمْداً أَبْضعـه

ومن بني امريء القيس بن معاوية: رجاءُ بن حيوة الفقيه، وامرؤ القيس بن السَّمط. ومن أشراف بني الحرث بن معاوية بن ثور: امرؤ القيس الشاعر ابن حُجر ابن عمرو بن حجر آكل المُرار بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن ثور؛ وهم ملوك كندة؛ ومنهم: حجر بن الحارث بن عمرو، وهو ابن أم قَطام بنت عوف ابن محلم الشيباني.

ومن بطون كندة: السَّكاسك والسكون. ابنا أشرس بن كندة؛ ومنهم معاوية

ابن حُديج؛ قاتل محمد بن أبي بكر؛ ومنهم الجَون بن يزيد، وهو أول من عقد الحِلف بين كندة وبين بكر بن وائل؛ ومنهم حُصَين بن نمير السّكوني، صاحب الجيش بعد مُسلم بن عُقبة صاحب الحَرّة.

ومن السّكون: تجيب؛ وهما عدي وسعد ابنا أشرس بن شبيب بن السكون وأمهما تجيب بنت ثوبان بن مذحج، إليها ينسبون.

فمن أشراف تَجيب: ابنُ غزالة الشاعر، جاهلي، وهو ربيعة بن عبد الله؛ وحارثة بن سلمة، كان على السكون يوم مُحيَّاة، وهو يوم اقتتلت معاوية بن كندة وكنانة بن بشر الذي ضرب عثمان يوم الدار.

والسَّكاسك بن أشرس بن كِندة، منهم الضّحاك بن رَمَل بن عبد الرحمن؛ وحُوَيّ بن مانع الذي زعم أهلُ الشام أنه قتل عمّار بن ياسر؛ ويزيد بن أبي كبشة صاحب الحجاج. انقضى نسب كندة.

مذحج

ومن بني أُدد بن زيد بن يشجُب بن عريب بن زَيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان: مالك بن أدد، وهو مَذحج وطّيء بن أدد والأشعر ابن أدد.

وقال ابن الكلبي: إن مذحج بن أدد هو ذو الأنعام، وله ثلاثة نفر: مالك بن مذحج وطيء بن مذحج والأشعر بن مذحج.

فمن قبائل مذحج: سعد العشيرة بن مالك بن أدد؛ وولده الحكم بن سعد العشيرة، وهو قبيل كبير؛ منهم الجراح بن عبد الله الحكمي، قتله الترك أيام عمر ابن عبد العزيز، وهم موالي أبي نواس. وفي بعضهم يقول:

يـا شقيـقَ النَّفسِ مِــنْ حكَـمٍ   نِمْــتَ عَــنْ ليْلَــى ولم أَنَــمِ

وإنما سمي سعد العشيرة؛ لأنه لم يمت حتى ركب معه من ولده وولد ولده ثلثمائة رجل؛ ومنهم عَمير بن بشر، ومنهم بُندقة بن مَظّة.

ومن بطون سعد العشيرة: جُعْف بن سعد العشيرة بن مالك بن أدد؛ وصعب ابن سعد العشيرة، دخل في جُعف وجزء بن سعد العشيرة فمن ولد جزء بن سعد العدل، والجمد؛ وكان العدل على شُرطة تبع، وكان إذا أراد قتل رجل قال: يُجعل على يدي عدل. وهو قولُ الناس: فلان على يدي عدل، إذا كان مشرفاً على الهلاك.

ومن أشراف جُعْفَ: أبو سَبرة، وهو يزيد بن مالك: كان وفَد إلى النبي ﷺ فدعا له: ومنهم شراحيل بن الأصهب، كان أبعدَ العربِ غارة كان يغزو من حضر موت إلى البلقاء في مائة فارس من بني أبيه؛ فقتله بنو جَعدة ففيه يقول نابغة بني جعدة.

أَرَحْنا معَداً من شراحيل بعدَما أراها مَعَ الصُّبحِ الكواكِبِ مظْهَرا
وعلْقَمَة الحرَّابِ أَدْرَكَ ركْضُنا بِذِي الرِّمْثِ إذ صامَ النَّهار وهجَّرَا[1]

وعلقمة الحزاب كان رأس بني جعف بعد شراحيل. ومن بني جُعف: زَحْر ابن قيس صاحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومنهم الأشعر بن أبي حُمران الذي يقول فيه:

أُريدُ دُعاءَ بني مازِنٍ وراق المُعَلّى بياضُ اللّبَن[2]
خليلاَنِ مُخْتَلِفٌ بينَنا أُريدُ العلاءَ ويَبغي السِّمَن

ومنهم: عُبيد الله بن مالك الفاتك الجُعفي.

ومن بني سعد العشيرة: أود؛ وزُبيد، واسمه منبّه؛ وهما ابنا صعب بن سعد العشيرة وزُبيد الأصغر، وهو منبه الأصغر بن ربيعة بن سلمة بن مازن بن ربيعة بن زُبيد بن صعب بن سعد العشيرة. ومنهم: أبو المغراء الشاعر، ومنهم الزعافر وهو

(١) الرمث: وادٍ لبني أسد. (٢) المعلّى: سابع سهام القمار.

عامر بن حَرب بن سعد بن مُنبه بن أود: ومنهم عبد الله بن إدريس الفقيه، ومنهم الأفوه الشاعر، واسمه صَلاءة بن عمرو، ومنهم: بنو رَمّان بن كعب بن أود، من ولده عافية بن يزيد القاضي، وبنو قرن لهم مسجد بالكوفة.

زُبيد بن صعب بن سعد العشيرة. واسمه مُنبّه وهو زبيد الأكبر. من ولده زُبيد الأصغر، وهو زبيد بن ربيعة بن سلمة بن مازن بن ربيعة بن زبيد بن صعب.

ومن بني زبيد الأصغر: عمرو بن معد يكرب، وعاصر ابن الأصقع الشاعر، ومعاوية بن قيس بن سَلمة، وهو الأفكل، وكان شريفاً، وإنما سمي الأفكل لأنه كان إذا غَضب أرعد؛ ويقال: الافكل من بني زبيد الأكبر. ومنهم: الحارث بن عمرو بن عبد الله بن قيس بن أبي عمرو بن ربيعة بن عاصم بن عمرو بن زبيد الأصغر. فهذه سعد العشيرة.

ومن مذَحج: جنب، وصُدَاء، ورُهاء؛ فمن بني جَنب: مُنبه، والحارث، والغَليّ وشَيْحان، وشِمْران، وهِفَّان. فهؤلاء الستة ـ وهم جَنْب ـ بنو يزيد بن حرب بن عُلَة ابن خالد بن مالك بن أدد؛ وإنما قيل لهم جَنب؛ لأنهم جانبوا أخاهم صُداء وحالفوا سعد العشيرة؛ وحالفت صُداء بني الحارث بن كعب. فمن جَنب أبو طبيان الجنبيّ الفقيه. ومنهم: معاوية الخير بن عمرو بن معاوية صاحب لواء مَذحج. وهو الذي أجار مهلهل بن ربيعة التغلبي على بكر بن وائل، فتزوج ابنة مهلهل. وفي ذلك يقول مهلهل بن ربيعة أخو كليب وائل:

هـان على تَغْلـبٍ بما لقيَـتْ   أُختُ بني الأكرمْين من جُشَم
أنكَحَها فقْدُها الأراقم في   جنبٍ وكان الحِباء من أدمِ [1]
لو بأبانَيْن جاء يخطبُها   رُمِّل ما أنْف خاطبٍ بدمِ [2]

وقوله: وكان الحِباء من أدم، أي انه ساق إليها في مَهرها قبة من أدم.

---

(١) الأراقم: حي من تغلب.   (٢) بأبانان: جبلان؛ ورمّل: خُضّب بالدم.

صُداء بن يزيد بن حرب بن عُلة بن جَلْد بن مالك بن أدد، وهم حلفاء بني الحارث بن كعب بن مذحج.

رهاء بن مُنبّه بن عُلة بن جلْد بن مالك. ومنهم: هِزّان بن سعد بن قيس بن سرمح، كان من أشراف أهل الشام.

بنو الحارث بن كعب بن حرب بن عُلة بن جَلْد بن مالك بن أدد، وهو بيت مذحج. منهم: زَعْبل، بطن في بني الحارث، وهو الذي يقال فيه: لا يكلم زَعْبل. وكان شريفا. ومنهم المُحجّل بن حَزْن. ومنهم بنو حماس بن ربيعة. منهم النجاشي واسمه قيس بن عمرو. وفيهم بنو المَعْقل بن كعب بن ربيعة. ومنهم مَرثد ومُريثد ابنا سلمة بن المعقل، قيل لهم المراثد. ومنهم المأمون بن معاوية اجتمعت عليه مذحج ومُزاحم بن كعب. ومنهم اللجلاج، وأخوه مُسهر الذي فقأ عين عامر بن الطُّفيل يوم فَيف فَيْف الريح، وعبد يَغوث بن الحارث الشاعر قتيل التَّيم يوم الكُلاب، وهو القائل:

أقول وقد شَدُّوا لساني بنِسْعَةٍ ... ألا يال تيْمٍ أطلقوا منْ لسانيا(١)
وتَضحك مني شيْخةٌ عَبْشِميَّةٌ ... كأنْ لم تر قبلي أسيراً يمانيا(٢)

ومُنهم بنو قُنان بن سَلمة. منهم: الحُصين ذو الغُصَّة بن مَرْثد بن شدّاد بن قُنان، وهو رأس بني الحارث، عاش مائة سنة، وكان يقال لبنيه: فوارس الأرباع، قتلته همدان؛ من ولده: كثير بن شهاب بن الحُصين.

ومنهم: محمد بن زُهرة بن الحارث.

وفي بني الحارث بن كعب: الضِّباب؛ منهم هند بن أسماء الذي قَتل المُنتشر البلهلي.

وفيهم: بنو الدَّيَّان. فيهم زياد بن النضر صاحب علي. والربيع بن زياد، ولي

---

(١) النسعة: القطعة من النسع، والنسع المفصل بين الكف والساعد.
(٢) عبشمية: من بني عبد شمس.

خراسان أيام معاوية. والنابغة الشاعر، واسمه يزيد بن أبان. هؤلاء بنو الحارث بن كعب.

الضّباب في بني الحارث بن كعب: مفتوحة الضاد، وفي عامر بن صعصعة: مكسورة الضاد.

ومن بطون مذحج: مُسْلية بن عامر بن عمرو بن عُلة بن جَلْد بن مالك. فولد مُسلية، كنانة وأسداً: منهما تفرقت مسلية.

كنانة وأسد ابنا مُسلية. فمن بني كنانة بن مسلية: بنو صُبح وثعلبة ابنا ناشرة، وأمهما حُبابة بها يعرفون. منهم أُبيّ بن ربيعة بن صُبح الذي يقول له عمرو بن معد يكرب:

تَمنَّـــــانِـــــي ليقتلني أُبيٌّ وددتُ وأينما مني ودادي

ومن بني حبابة: عامر بن إسماعيل القائد، وابن الحبابة الشاعر، جاهلي ومن مذحج النَّخع بن عمرو بن عُلَة بن جَلد بن مالك بن أدد.

فمن بطون النخع: عمرو، بطن؛ وصُهبان، بطن؛ ووَهْبيل، بطن؛ وعامر، بطن؛ وجَذيمة، بطن؛ وحارثة، بطن؛ وكعب، بطن.

فمن بني جَذيمة سعد بن مالك بن جلد بن النخع: الأشتر، واسمه مالك بن الحارث؛ وثابت بن قيس بن أبي المُنقّع.

ومن بني حارثة بن سعد بن مالك بن النخع: إبراهيم بن يزيد الفقيه، والحجاج ابن أرطاة.

ومن بني وهْبيل بن سعد بن مالك بن النخع: سِنان بن أنس الذي قتل الحسين ابن علي؛ وشريك بن عبد الله القاضي.

ومن بني صُهبان بن سعد بن مالك بن النخع: كُميل بن زياد صاحب علي بن أبي طالب، قتله الحجاج.

وفي النخع: جُشم، وبكر. فمن بني جشم: العُريان بن الهيثم بن الأسود.

ومن بني بكر بن عوف بن النَّخع: يزيد بن المكفف. وعلقمة بن قيس. وأخوه أُبيّ بن قيس، قُتل مع عليّ بصفين. وأخوهما يزيد بن قيْس. وابنه الأسود بن يزيد العابد.

ومن مَذحج: عَنس بن مالك بن أُدد. فولد عَنس: سعداً الأكبر، وسعداً الأصغر، ومالكا، وعمرا، ومخامرا، ومعاوية، وعَريبا، وعَتيكا، وشهابا، والقِرّية، ويأما.

فمن بني مالك بن عَنس: الأسود بن كعب الذي تنبأ باليمن.

ومن بني يام بن عَنس: عمّار بن ياسر صاحب النبي عليه الصلاة والسلام.

ومن بني سعد الأكبر: الأسود بن كعب: تبناه سعد الأكبر، وكان كاهنا.

ومن أشراف عنس: عامر بن ربيعة، شهد بدراً مع النبي ﷺ وهو حليف لقريش.

ومن بطون مذحج: مراد بن مالك بن مذحج بن أدد، ويسمى يُحَابِر.

فمن بطون مراد: ناجية وزاهر وأنعم. فمن بني ناجية بن مراد: فروة بن مُسيك، كان والياً لرسول الله ﷺ على نَجران.

ومن بني زاهر بن مراد: قيس بن هُبيرة بن عبد يغوث. ومنهم أُويس القَرني بن عمرو بن مالك بن عمرو بن سعد بن عمرو بن عُصْوان بن قَرن بن ردْمان بن ناجية بن مراد، وهو الذي يقال أن النبي ﷺ قال فيه: يدخل بشفاعته الجنة مثل ربيعة ومضر. وكان من التابعين، وقد أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وفي ناجية بن مراد: بنو غُطيف بن عبد الله بن ناجية، ويقال إنهم من الأزد. وهانيء بن عُروة المقتول مع مُسلم بن عقيل.

وفي ناجية بن مراد: بنو جمل بن كنانة بن ناجية، منهم: هند بن عمرو، قتله عمرو بن اليثربيّ يوم الجمل، وقال فيّ ذلك:

لَمــنْ يَجهلُني ابــن اليثْـربي قتَلــت عِلبــاءَ وهنــد الجمليّ
وابناً لصَوحان على دين علي

ومن بني زاهر بن مراد: قيس بن هُبيرة بن عبد يغوث، وهو قيس بن مكشوح.

طيء

هو طيء بن أدد بن زيد بن يشجب بن عَريب بن زيد بن كهلان أخو مذحج، ويقال ابن مذحج في رواية ابن الكلبي؛ فولد طيء الغوث وفُطرة والحارث.

فمن بطون طيء: جديلة وهم بنو جندب وبنو حُور، وأمهما جديلة وبها يعرفون، وهي جديلة طيء. فأما بنو حور بن جديلة فسهليون وليسوا من الجبليين، وأما بنو جُندب بن جديلة فهم من الجَبليين، وفيهم الشّرف والعدد، وفيهم الثعالب، وهم بنو ثعلبة بن جدعاء بن ذُهل بن رُومان بن جُندب.

فمن بني ثعلبة بن جَدعاء: المعلي بن تيم بن ثعلبة بن جدعاء، عليه نزل امرؤ القيس بن حُجر الشاعر؛ إذ قُتل أبوه حجر بن الحارث، وقال في المعلى:

كأنّي إذ نَزلتُ على المعَلَّ نَزْلت على البواذخِ من شَمَامِ[1]
فما مَلِكُ العِراقِ على المعلى بمقْتدِرٍ ولا مُلْكُ الشَّآم
أقرَّحشا امْريء القَيسِ بن حُجْرٍ بنو تَيمٍ مصَابيحُ الظَّلام

فسمِّي بنو تيم بن ثعلبة: مصابيحَ الظلام.

فمن ثعلبة بن جدعاء: الحر بن مَشجعة بن النعمان، كان رئيس جديلة يوم مُسيلمة الكذاب؛ ومنهم أوس بن حارثة بن لأم سيد طيء؛ ومنهم حاتم بن عبد الله الجواد؛ وابنه عدي بن حاتم، وفد على النبي ﷺ فألقى له وسادة وأجلسه عليها وجلس هو على الأرض. قال عدي: فما رِمت حتى هداني الله للإسلام، وسرَّني ما رأيت من إكرام رسول الله ﷺ.

وفي بني عمرو بن الغَوث بن طيء: ثعل، بطن؛ ونبْهان، بطن؛ وبَولان، بطن؛

(١) البواذخ من شمام: علية القوم.

وسلامان، بطن؛ وهَنِيّ، بطن.

فمن هنيّ: إياس بن قبيصة: وأبو زَبيد الشاعر، واسمه حَرملة بن المنذر. ومن بني سلامان: بنو بُحتر، بطن طيء، ومن بني بُحتر معترض بن صالح، اجتمعت عليه جديلة والغوث.

ومن بني ثُعل: عمرو بن عبد المسبِّح. كان أرمى العرب، وإياه يعني امرؤ القيس بقوله:

رُبَّ رامٍ مـــن بنِـــي ثعـــلِ   مخرِجٌ كفَّيْـــه مـــن قُتَـــرِهْ[1]

وأدرك النبي عليه الصلاة والسلام وهو ابن خمس ومائة سنة، فأسلم.

ومن بني ثعل: أبو حنبل الذي يعد في الأوفياء نزل به امرؤ القيس ومدحه ومنهم زيد الخيل، وفد على النبي ﷺ فسماه زيد الخير، وقال: «ما بلغني عن أحدٍ إلا رأيتُه دون ما بلغني، إلا زيد الخيل».

وفي طيء: سُدوس. وهي مضمومة السين، والتي في ربيعة مفتوحة السين.

الأشعر

هو الأشعر بن أدد أخو مذحج ـ ويقال: ابن مذحج، في رواية ابن الكلبي ـ فولد الأشعر: الجماهر، والأرغم، والأدغم، والأنعم، وجُدَّة، وعبد شمس، وعبد الثُّريا.

فمن بطون الأشعريين: مُراطة، وصُنامة، وأسد، وسهلة، وعُكابة، والشراعبة، وعُسامة، والدعالج.

ومن أشراف الأشعريين: أبو موسى الأشعري عبدالله بن قيس، صاحب النبي عليه الصلاة والسلام، ومنهم مالك بن عامر بن هانيء بن خِفَاف، وفد على النبي ﷺ وشهد القادسية، وهو أول من عبر دجلة يوم المدائن، وقال في ذلك:

(١) الفتر: جمع فترة، وهي بيت الصائد الذي يكمن فيه للوحش.

امْضُوا فإنّ البَحْـرَ بَحْـرٌ مـأمُـور والأوّلُ القـاطِـع منْكـم مـأجُـورْ
قد خابَ كِسْرى وأبُـوهُ سـابـورْ مـا تصْنعُـون والحديـثُ مـأثــورْ

وابنه سعد بن مالك، كان من أشراف أهل العراق، ومنهم: السائب بن مالك، كان على شرطة المختار وهو الذي قَويَ أمره؛ ومنهم: أبو مالك الأشعري، زوَّجه النبي عليه الصلاة والسلام إحدى نساء بني هاشم وقال لها: « ما رضيتِ أن زوجتُك رجلا هو وقومُه خيرٌ مما طلعت عليه الشمس! » وقال النبي عليه الصلاة والسلام: « يا بني هاشم، زوِّجوا الأشعريين وتزوجـوا إليهـم؛ فـإنهم في النـاس كصُـرة المسك وكالأترج الذي إن شممته ظاهراً وجدته طيبا، وإن آختبرت باطنه وجدته طيبا ».

فهؤلاء بنو أدد، وهم مذحج وطيء والأشعر، بنو أُدد بن زيد بن يَشجب بن يعرب بن قحطان.

لخم

هو مالك بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد. فولدت لخم: جَزيلة، ونُمارة؛ ومنهما تفرقت بطون لخم.

فمن بني نمارة: بنو الداري، وهو هانيء بن حبيب بن نمارة. منهم تميم الداري صاحب النبي عليه الصلاة والسلام.

وفي نمارة الأجْوَد، وهم بنو مازن بن عمرو بن زياد بن نمارة رهط الطرِمّاح بن حكيم الشاعر؛ ويقال إن الطرماح من طيء - ومنهم: قصير بن سعد صاحب جَذيمة الأبرش.

ومن بني نمارة: ملوك الحيرة اللَّخميون. رهط النعمان بن المنذر بن امريء القيس ابن النعمان.

وفي جزيلة بن لخم بطون كثيرة، منهم: إراش، وحُجر، ويشكر وأدب، وخالفة - وهو راشدة - وغَنم، وجديس، بطن عظيم.

وفي جزيلة بن لخم أيضاً العَمَرَّط، وفيهم عِباد الحِيري منهم رهط عدي بن زيد العِبادي. وفيهم بنو منارة، وفيهم جَدس بن إدريس بن جَزيلة بن لخم منهم مالك بن ذُعر بن حُجر بن جَزيلة بن لخم؛ يقال إنه الذي آستخرج يوسف بن يعقوب - صلوات الله وسلامه عليه - من الجب.

جذام

هو جُذام بن عدي بن الحارث بن مُرة بن أدد. فولد جُذام حَراما وحِشم؛ ومنهما تفرقت جُذام.

فمن بني حِشم بن جُذام: بنو عتيب بن أسلم بن خالد بن شَنوءة بن تَدِيل ابن حشم بن جذام، وهم الذين يُنْسبون في بني شيبان.

وفي حرام بن جُذام بنو غَطفان، وأفصى، ابنا سعد بن إياس بن حرام؛ وفيهما عدد جذام وشرفُها؛ ويقال إن غطفان بن سعد بن قيس بن عَيلان هو هذا.

فمن بني أفصى بن سعد: رَوْح بن زِنباع، وزير عبد الملك بن مروان؛ وقيس بن زيد، وفد علي النبي ﷺ.

ومن بني غطفان بن سعد: عَنبس، ونضرة، وأُبامة، وعبدة، وحرْب، ورَيْث، وعبد الله، بطون كلهم؛ فانتسب ريث وعبد الله في غطفان بن قيس، وغيرهم في جذام.

عاملة

هم بنو الحارث بن عدي بن الحارث بن مُرة بن أدد بن زيد بن يشجُب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، ولد الحارث الزهدَ ومعاوية وأمهما عاملة بنت مالك بن ربيعة بن قضاعة، فنسبا إلى أمهما؛ ويقال عاملة هو الحارث نفسه.

فمن بني مُعاوية بن عاملة: شَعْل، وسَلبة، وعجل، بطون كلهم.

فمن أشراف عاملة قوّال بن عمر؛ وشهاب بن برهم، وكان سيداً؛ وهمام بن

معقل، وكان شريفاً مع مسلمة بن عبد الملك؛ ومنهم عَدِي بن الرقاع الشاعر؛ ومنهم قُعيسيس الذي أسر عدي بن حاتم الطائي فأخذه منه شُعيب بن الربيع الكلبي فأطلقه بغير فداء.

فهؤلاء بنو عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يَشجُب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ؛ وهم لخم وجذام وعاملة، بنو عدي بن الحارث؛ وكندة بن عُفَيْر بن عدي بن الحارث.

خولان

هو خولان بن عمرو بن يَعْفُر بن مالك بن الحارث بن مُرة بن أُدد. فولد خولان، حَبيبا، وعمراً، والأصهب، وقيسا، ونبتا، وبكراً، وسعدا؛ منهم أبو مسلم عبد الرحمن بن مِشْكم الفقيه.

جرهم

هو من القبائل القديمة، وهو جُرهم بن يَقطُنَ بن عابر. وعند عابر تجتمع يمن ومضر؛ لأن مُضر كلها بنو فالغ بن عابر، واليمن كلها بنو قحطان بن عابر.

حضر موت

هو ابن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيدان بن قُصيّ بن عَريب بن زُهير بن أيمن بن الهَمَيْسع بن حمير.

منهم: ذو مَرحب، وذو نَحْو؛ ومنهم الأعدل؛ ومنهم: بنو مَرْثد، وبنو ضجْع، وبنو حُجر، وبنو رَحَب، وبنو أَقْرن، وبنو قَلْيان.

قول الشعوبية وهم أهل التسوية

ومن حجة الشعوبية على العرب أن قالت: إنا ذهبنا إلى العدل والتسوية، وأن الناس كلهم من طينة واحدة وسلالة رجل واحد.

واحتججنا بقول النبي عليه الصلاة والسلام: المؤمنون إخوةٌ، تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يدٌ على مَنْ سِواهم. وقوله في حجة الوداع، وهي خطبته التي ودع فيها أُمّته وختم نبوّته: «أيها الناسُ، إنّ الله أذهبَ عنكم نَخْوةَ الجاهلية وفخرَها بالآباء. كلُّكم لآدمَ وآدمُ من تراب، ليس لعربيٍ على عَجميّ فضلٌ إلا بالتقوى».

وهذا القول من النبي عليه الصلاة والسلام موافقٌ لقول الله تعالى: ﴿إنَّ أكرمكم عند اللهِ أتقاكم﴾[1] فأبيتم إلا فخراً وقلتم لا تُساوينا العَجَمُ وإنْ تقدّمَتْنا إلى الإسلام، ثم صلت حتى تصير كالحني، وصامت حتى تصير كأوتار، ونحن نسامحكم ونجيبكم إلى الفخر بالآباء الذي نهاكم عنه نبيكم ﷺ، إذ أبيتم إلا خِلافَه، وإنما نجيبكم إلى ذلك لاتباع حديثه وما أمر به ﷺ، فنرد عليكم حجتكم في المفاخرة، ونقول: أخبرونا إن قالت لكم العجم هل تعدون الفخر كله أن يكون مُلكا أو نبوّة؟ فإن زعمتم أنه ملك قالت لكم: وإن لنا ملوك الأرض كلها من الفراعنة والنماردة والعمالقة والأكاسرة والقياصرة، وهل ينبغي لأحد أن يكون له مثل ملك سليمان الذي سُخِّرت له الإنسُ والجن والطير والريح، وإنما هو رجل منا؟ أم هل كان لأحد مثل ملكِ الإسكندر الذي ملكَ الأرض كلها وبلغ مطلع الشمس ومغربها وبنى رِدما من حديد ساوى به بين الصَّدَفَين،[2] وسجن وراءه خلقا من الناس تربى على خلق الأرض كلها كثرة؛ يقول الله عز وجل: ﴿حتى إذا فُتِحَتْ يأْجُوجَ ومأْجوج وهم مِنْ كلِّ حدَبٍ يَنْسِلونَ﴾[3] فليس شيء أدل على كثرة عددهم من هذا، وليس لأحد من ولد آدم مثلُ آثاره في الأرض؛ ولو لم يكن له إلا منارة الإسكندرية الذي أسسها في قعر البحر وجعل في رأسها مرآة يَظهر البحرُ كله في زجاجتها. وكيف ومنا ملوك الهند الذين كتب أحدهم إلى عمر بن عبد العزيز: مِن ملك الأملاك الذي هو ابن ألف

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.
(٢) الصدف: كل شيء مرتفع عظيم، وصدفا الجبل: جانباه المتحاذيان.
(٣) سورة الأنبياء الآية ٩٦.

ملك، والذي تحته بنت ألف ملك، والذي في مربطه ألف فيل، والذي له نهران ينبتان العود والفُوه[١] والجوز والكافور، الذي يوجد ريحه على اثني عشر ميلا - إلى ملك العرب الذي لا يشرك بالله شيئا. أما بعد، فإني أردت أن تبعث إليّ رجلا يعلمني الإسلام ويوقفني على حدوده والسلام.

وإن زعمتم أنه لا يكون الفخر إلا بنبوّة فإن منا الأنبياء والمرسلين قاطبة من لدن آدم ما خلا أربعة: هوداً وصالحاً وإسماعيل ومحمداً؛ ومنا المصطفَون من العالمين: آدم ونوح، وهما العنصران اللذان تفرع منهما البشر: فنحن الأصل وأنتم الفرع، وإنما أنتم غصن من أغصاننا، فقولوا بعد هذا ما شئتم وادّعوا. ولم تزل الأمم كلها من الأعاجم في كل شق من الأرض [لها] ملوك تجمعها، ومدائن تضمها، وأحكام تَدين بها، وفلسفة تنتجها، وبدائع تفتقها في الأدوات والصناعات: مثل صنعة الديباج، وهي أبدع صنعة؛ ولعب الشطرنج، وهي أشرف لعبة، ورمانة القبان التي يوزن بها رطل واحد ومائة رطل؛ ومثل فلسفة الروم في ذات الخلق والقانون، والأسطرلاب الذي يعدل به النجوم ويدرك به علم الأبعاد ودوران الأفلاك، وعلم الكسوف [وغير ذلك من الآثار المتقنة] ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها، ويضم قواصيها، ويقمع ظالمها، وينهى سفيهها؛ ولا كان لها قط نتيجة في صناعة، ولا أثر في فلسفة، إلا ما كان من الشعر وقد شاركتها فيه العجم، وذلك أن للروم أشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض؛ فما الذي تفخر به العرب على العجم؟ فإنما هي كالذئاب العادية، والوحوش النافرة، يأكل بعضها بعضاً، ويغير بعضها على بعض، فرجالُها مُوثَقُون في حلق الأسر، ونساؤها سبايا مُرْدَفات على حقائب الإبل، فإذا أدركهن الصريخ استنقذن بالعشي وقد وطئن كما توطأ الطريق المَهْيَع، فخر بذلك شاعر فقال:

وأَلحَقُ رَكْبَ المُرْدفاتِ عَشِيَّةً

فقيل له: ويحك! وأي فخر لك أن تلحق بالعشي وقد نُكحن وامتُهِنَّ؟

(١) الفوه: هي ما يعالج به الطيب.

وقال جرير يعيّر بني دارم بغلبة قيس عليهم يوم رحرحان:

وبرَحْرَحانِ غَداةَ كُبِّلَ مَعْبَدٌ نُكِحَتْ نِساؤُكُمُ بغيْرِ مُهُورِ

وقال عنترة لامرأته:

إنَّ الرِّجالَ لهمْ إليْكِ وسيلةٌ إنْ يأخُذُوكِ تكَحَّلي وتَخَضَّبي
وأنا امْرُؤٌ إنْ يأخُذُونيَ عَنوَةً أُقْرنْ إلى سَيْرِ الرِّكابِ وأُجْنَبِ
ويكونُ مَرْكَبُكِ القَعُود ورَحْلَه وآبن النَّعامَةِ عند ذلك مَرْكَبي[1]

أراد بابن النعامة: باطن القدم.

وسبي ابنُ هَبولة الغسّاني امرأة الحارث بن عمرو الكندي. فلحقه الحارث فقتله ارتجع المرأة وقد كان نال منها، فقال لها: هل كان أصابك؟ قالت: نعم والله، فما شتملت النساء على مثله! فأوثقها بين فرسين ثم استحضرهما[2] حتى قطعاها؛ وقال في ذلك:

كلُّ أُنثى وإن بَدا لك منها آية الودّ عهدُها خيْتَعورُ[3]
إنّ مَن غرّه النساءُ بودٍّ بعد هندٍ لَجاهلٌ مغرور

وسبت بنو سُليم ريحانة أخت عمرو بن معد يكرب فارس العرب، فقال فيها عمرو:

أمِنْ ريْحانة الداعي السميعُ يُؤرّقُني وأصحابي هجوع

وفيها يقول:

إذا لم تستطعْ أمراً فدعْه وجاوزْه إلى ما تستطيعُ

وأغار الحوفزان على بني سعد بن زيد مناة، فاحتمل الزرقاء من بني ربيع بن لحارث، فأعجبته وأعجبها؛ فوقع بها، ثم لحقه قيس بن عاصم، فاستنقذها وردّها إلى هلها بعد أن وقع بها.

---

(١) القعود من الإبل: ما أمكن أن يركب.
(٢) استحضرهما: أعداهما. (٣) امرأة خيتعور: لا يدوم ودّها.

فهذا كان شأن العرب والعجم في جاهليتها. فلما أتى الله بالإسلام كان للعجم شطر الإسلام؛ وذلك أن النبي ﷺ بُعث إلى الأحمر والأسود من بني آدم، وكان أوّل من تبعه حرّ وعبد واختلف الناس فيهما، فقال قوم: أبو بكر وبلال، وقال قوم: عليٌّ وصُهيب.

ولما طُعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدم صهيباً على المهاجرين والأنصار فصلى بالناس وقيل له: آستخلف. فقال: ما أجد من أستخلف. فذكر له الستة من أهل حراء، فكلهم طَعن[1] عليه، ثم قال: لو أدرك سالما مولى أبي حذيفة حيا لما شككت فيه. فقال في ذلك شاعر العرب:

هـذا صُهيْـب أمَّ كـلّ مُهـاجـرٍ ... وعَلا جميـعَ قبـائـلِ الأنصـارِ
لم يُـرضَ منهـم واحـدٌ لصَلاتنـا ... وهـمُ الهداةُ وقـادة الأخْيـارِ
هــذا ولــو كــان المُترَّم ســالمٌ ... حيـاً لَنـال خلافـةَ الأمَصـار
ما بالُ هٰذي العُجْـم تَحيـا دوننـا ... إنْ الغويَّ لفـي عمًـى وخَسـار[2]

وقال بُجير يعيِّر العرب باختلافها في النسب واستلحاقها للأدعياء:

زَعمتم بـأن الهنـدَ أولادُ خنـدفٍ ... وبينَكـمُ قـربى وبين البَـرابِـر
ودَيْلَمُ من نسَل ابـن ضَبَّـة بـاسـلٍ ... وبُرْجان من أولاد عمرو بن عامـر
فقد صار كلُّ الناس أولادَ واحـدٍ ... وصاروا سواءً في أُصـول العنـاصر
بنو الأصفرِ الأملاكُ أكرم منكـمُ ... وأوْلى بقربْانا مُلـوك الأكـاسر[3]
أَتطمع في صِهْري دعيـاً مُجـاهـراً ... ولم تَـر سِتراً مـن دعـيٍّمُجـاهـرِ
وتَشتُـم لـؤمْـاً رهْطَـه وقبِيلـه ... وتَمدح جهْلا طاهراً وآبن طـاهـر

وقد ذكرت هذا الشعر تامّا في كتاب النساء والأدعياء والنجباء.
وقال الحسن بن هانيء على مذهب الشعوبية:

---

(١) طعن عليه: ثلبه وعابه.
(٢) الغويّ: الضال. (٣) بنو الأصفر: أي الروم.

وجاورْتُ قوماً ليس بيني وبينَهم أواصِرُ إلا دعوةٌ وبُطونُ[1]
إذا ما دعا بآسمي العَريف أجبْته إلى دعوةٍ مما عليّ يَهونُ
لأزدِعمانٍ بالمُهلَّب نزوةٌ إذا آفتخر الأقوام ثم تَلينُ[2]
وبكْرٌ يَرى أن النُّبوةَ أُنزلتْ على مَسمعٍ في البطن وهو جَنينْ
وقالت تَميم لا نَرى أنّ واحداً كأحْنفنا حتىّ المَمات يكون
فلا لُمتُ قيساً بعدها في قتيْبةٍ إذا آفتخروا إنّ الفخار فنونُ

ردّ ابن قتيبة على الشعوبية

قال ابن قتيبة في كتاب تفضيل العرب:

وأمّا أهل التسوية فإن منهم قوما أخذوا ظاهر بعض الكتاب والحديث، فقضوا به ولم يفتشوا عن معناه، فذهبوا إلى قوله عز وجل: ﴿يأَيُّها الناسُ إنّا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارَفوا إن أكرمكم عِند الله أتقاكم﴾[3] وقوله: ﴿إنما المؤمنونَ إخوةٌ فأصلِحوا بينَ أخَوَيْكم﴾[4] وإلى قول النبي عليه الصلاة والسلام في خطبته في حجة الوداع: أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم نَخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء. ليس لعربي على عجمي فخر إلا بالتقوى، كلكم لآدم وآدم من تراب. وقوله: المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يَد على من سواهم. وإنما المعنى في هذا أن الناس كلهم من المؤمنين سواءٌ في طريق الأحكام والمنزلة عند الله عز وجل والدار الآخرة.

لو كان الناس كلهم سواءً في أمور الدنيا ليس لأحد فضل إلا بأمر الآخرة، لم يكن في الدنيا شريف ولا مشروف ولا فاضل ولا مفضول؛ فما معنى قوله ﷺ «إذا أتاكم كريم قومٍ فأكرموه». وقوله ﷺ: «اقيلوا ذوي الهيئات عثراتِهم». وقوله ﷺ في قيس بن عاصم: «هذا سيد الوبر».[5] وكانت العرب تقول: لا يزال الناسُ بخير ما

(١) الأواصر: الروابط. (٢) النزوة: الوثبة
(٣) سورة الحجرات الآية ١٣. (٤) سورة الحجرات الآية ١٠. (٥) أهل الوبر: أهل البادية.

تباينوا فإذا تساووا هلكوا. تقول: لا يزالون بخير ما كان فيهم أشراف وأخيار، فإذا جملوا كلهم جملةً واحدة هلكوا.

وإذا ذمّت العرب قوما قالوا: سواسية كأسنان الحمار. وكيف يستوي الناس في فضائلهم والرجل الواحد لا تستوي في نفسه أعضاؤه ولا تتكافأ مفاصله، ولكن لبعضها الفضل على بعض، وللرأس الفضل على جميع البدن بالعقل والحواس الخمس. وقالوا: القلب أمير الجسد. ومن الأعضاء خادمة، ومنها مخدومة.

قال ابن قتيبة: ومن أعظم ما ادعت الشعوبية فخرهم على العرب بآدم عليه السلام وبقول النبي عليه الصلاة والسلام: «لا تُفَضِّلوني عليه، فإنما أنا حسنة من حسناته». ثم فخرُهم بالأنبياء أجمعين وأنهم من العجم غير أربعة: هود وصالح وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام؛ واحتجوا بقول الله عز وجل: ﴿إنّ الله آصطفى آدمَ ونوحاً وآل إبراهيم وآل عِمْران على العالَمين ذُرِّيَّة بعضُها من بعضٍ والله سميعٌ عليمٌ﴾[1] ثم فخروا بإسحاق بن إبراهيم، وأنه لِسارة، وأنّ إسماعيل لأمَةٍ تسمى هاجَر. وقال شاعرهم:

في بلْـدةٍ لم تصـل عُكْـلٌ بها طنبـاً ... ولا خِباءً، ولا عَـكٌ وهَمْـدانُ[2]
ولا لجرْمٍ ولا بهراء مـن وطـنٍ ... لكنهـا لبني الأحـرار أوطـانُ
أرض يُبنِّـي بها كسرى مسـاكنَـه ... فما بها مـن بني اللَّخْنـاءِ إنسـانُ

فبنو الأحرار عندهم: العجم؛ وبنو اللخناء عندهم: العرب؛ لأنهم من ولد هاجر وهي أمَة، وقد غلطوا في هذا التأويل، وليس كل أمة يقال لها اللخناء إنما اللخناء من الإماء الممتهنة في رعي الإبل وسقيها وجمعِ الحطب، وإنما أُخذ من اللخن، وهو نتن الريح؛ يقال: لَخِنَ السقاءُ، إذا تغير ريحه؛ فأما مثل هاجَر التي طهرها الله من كل دنس وارتضاها للخليل فراشاً، وللطَّيِّبَيْن إسماعيل ومحمدٍ أُمًّا، وجعلها سلالة ـ فهل يجوز لِمُلْحِدٍ فضلا عن مسلم أن يسميها لخناء!

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٣. (٢) الطنب: حبل يشد به الخباء.

رد الشعوبية على ابن قتيبة

قال بعض من يرى رأي الشعوبية فيما يردّ به على ابن قتيبة في تباين الناس وتفاضُلِهم، والسيد منهم والمسّود.

إننا نحن لا ننكر تباينُ الناس ولا تفاضُلهم، ولا السيد منهم والمسود، والشريف والمشروف؛ ولكنا نزعم أنّ تفاضُل الناس فيما بينهم ليس بآبائهم ولا بأحسابهم، ولكنه بأفعالهم وأخلاقهم وشرف أنفسهم وبُعْد هممهم؛ ألا ترى أنه من كان دنيء الهمة، ساقط المروءة، لم يشرف وإن كان من بني هاشم في ذؤابتها، ومن أمية في أرومتها، ومن قيس في أشرف بطن منها؛ إنما الكريم من كُرمت أفعاله، والشريف من شرُفت همتُه؛ وهو معنى حديث النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه». وقوله في قيس بن عاصم: «هذا سيدُ أهل الوبَر». إنما قال فيه لسؤدده في قومه بالذب عن حريمهم، وبذله رفدَه لهم: ألا ترى أن عامر بن الطفيل كان في أشرف بطن في قيس يقول:

وإني وإن كنت ابن سيِّدِ عامرٍ ... وفارسها المشهور في كلِّ موكبِ
فما سوَّدَتني عامرٌ عن وراثةٍ ... أبى اللهُ أن أسْمو بأُمّ ولا أبِ
ولكنَّني أحْمي حِمَاها وأتَّقي ... أذاها وأرمِي من رماها بمنكبِ[1]

وقال آخر:

إنّا وإن كرمَت أوائلنا ... لسنا على الأحساب نتَّكِلُ
نَبني كما كانت أوائلنا ... تَبنى ونَفعل مثل ما فعلوا

وقال قس بن ساعدة: لأقْضِيَنَّ بين العرب بقضية لم يقض بها أحد قبلي ولا يردّها أحد بعدي: أيما رجلٍ رمى رجلا بملامة دونها كرم، فلا لؤم عليه، وأيما رجل ادّعى كرماً دونه لؤم فلا كرم له.

ومثله قول عائشة أم المؤمنين: كل كرم دونه لؤمٌ فاللؤم أولى به، وكل لؤم دونه

---

(١) المنكب: مجتمع رأس الكتف والعضد.

كرمٌ فالكرم أولى به. تعني بقولها، أن أولى الأشياء بالإنسان طبائع نفسه وخصالها، فإذا كرمت فلا يضره لؤم أوّليته، وإن لؤمت فلا ينفعه كرم أوّليته.

وقال الشاعر:

نفس عصامٍ سَوَّدتْ عصاما ... وعلَّمتْه الكر والإقداما

وصَيَّرتْه ملِكاً هُمَاما

وقال آخر:

مالِيَ عقلي وهِمَّتي حسبي ... ما أنا مولَىً ولا أنا عرَبي

إنِ انتمى مُنتَمٍ إلى أحدٍ ... فإنّني مُنتَمٍ إلى أدبي[1]

وتكلم رجل عند عبد الملك بن مروان بكلام ذهب فيه كل مذهب، فأعجب عبد الملك ما سمع منه، فقال: ابن من أنت يا غلام؟ قال: ابن نفسي يا أمير المؤمنين التي نلت بها هذا المقعد منك! قال: صدقت!.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «حَسَبُ الرجل مالهُ، وكرمُهُ دينه».

وقال عمر بن الخطاب: إن كان لك مال فلك حَسَب، وإن كان لك دين فلك كَرَم.

وما رأيت أعجب من ابن قتيبة في كتاب تفضيل العرب؛ إنه ذهب فيه كل مذهب من فضائل العرب، ثم ختم كتابه بمذهب الشعوبية، فنقض في آخره كل ما بنى في أوله؛ فقال في آخر كلامه؛ وأعدل القول عندي أن الناس كلهم لأب وأمّ، خلقوا من تراب، وأعيدوا إلى التراب، وجروْا في مجرى البول، وطرأ عليهم الأقذار؛ فهذا نسبهم الأعلى الذي يرتدع به أهل العقول عن التَّعظُّم والكبرياء، والفخر بالآباء، ثم إلى الله مرجعهم فتنقطع الأنساب، وتبطل الأحساب، إلا من كان حسبه التقوى، أو كانت ماتَّتُه[2] طاعة الله.

---

(١) انتمي: انتسب. (٢) الماتّة: الحرمة والوسيلة.

قول الشعوبية في مناكح العرب

قالت الشعوبية: إنما كانت العرب في الجاهلية ينكح بعضهم نساء بعض في غاراتهم بلا عقد نكاح ولا استبراء من طمث، فكيف يدري أحدهم من أبوه.

وقد فخر الفرزدق ببني ضبة حين يبتزّون العيال في حروبهم في سبيّة سبَوها من بني عامر بن صعصعة فقال:

فظلّت وظلّوا يَركبون هَبيرَها ... وليس لهم إلا عواليهمُ سِتْر

والهبير: المطمئن من الأرض؛ وإنما أراد ها هنا فرْجها.

وهو القائل في بعض ما يفخر به:

ومنا التَّميميُّ الذي قام أَيْرهُ ... ثلاثين يوما ثم قد زادها عَشْرا

باب المتعصبين للعرب

قال أصحاب العصبية من العرب: لو لم يكن منا على المولى عَتاقة ولا إحسان إلا استنقاذُنا له من الكفر وإخراجنا له من دار الشرك إلى دار الإيمان كما في الأثر: إن قوماً يقادون إلى حظوظهم بالسواجير.(1) كما قال: عجبَ ربنا من قوم يُقادون إلى الجنة في السلاسل.

على أنّا تعرّضنا للقتل فيهم: فَمنْ أعظم عليك نعمة ممن قتل نفسه لحياتك؟ فالله أمرنا بقتالكم، وفرض علينا جهادَكم ورغبنا في مكاتبتكم.

وقدّم نافع بن جبير بن مطعم رجلا من أهل الموالي يصلي به، فقالوا: له في ذلك؛ فقال: إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه.

وكان نافع بن جبير هذا إذا مرّت به جنازة قال: من هذا؟ فإذا قالوا قرشي؛ قال: واقوماه! وإذا قالوا: عربي؛ قال: وابلدتاه! وإذا قالوا: مولى؛ قال: هو مال

(1) السواجير: جمع ساجور، وهي القلادة توضع في عنق الكلب.

الله، يأخذ ما شاء ويدع ما شاء.

قال: وكانوا يقولون لا يَقطع الصلاة إلا ثلاثة: حمار، أو كلب أو مولى.

وكانوا لا يكنونهم بالكنى، ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب، ولا يمشون في الصف معهم، ولا يتقدمونهم في الموكب، وإن حضروا طعاماً قاموا على رؤسهم، وإن أطعموا المولى لِسنِّه وفضله وعلمه أجلسوه في طرف الخِوان؛ لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب، ولا يدعونهم يصلون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب، وإن كان الذي يحضر غريرا؛ وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها، وإنما يخطبها إلى مواليها؛ فإن رضي زُوِّج وإلا رُدّ، فإن زَوّج الأب والأخ بغير رأي مواليه فُسخ النكاح، وإن كان قد دخل بها كان سفاح غير نكاح.

وقال زياد: دعا معاوية الأحنف بن قيس وسَمُرَة بن جُندب فقال إني رأيت هذه الحمراء قد كُثرت، وأراها قد طعنت على السلف، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان؛ فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق؛ فما ترون؟

فقال الأحنف: أرى أن نفسي لا تطيب؛ أخي لأمي وخالي ومولاي، وقد شاركناهم وشاركونا في النسب. فظننت أني قد قتلت عنهم؛ وأطرق.

فقال سمرة بن جندب: اجعلها إليّ أيها الأمير، فأنا أتولى ذلك منهم وأبلغ منه.

فقال: قوموا حتى أنظر في هذا الأمر.

قال الأحنف: فقمنا عنه وأنا خائف، وأتيت أهلي حزينا؛ فلما كان بالغداة أرسل إليَّ، فعلمت أنه أخذ برأيي وترك رأي سمرة.

وروي أن عامر بن عبد القيس في نسكه وزهده وتقشفه وإخباته وعبادته كلّمه حمران مولى عثمان بن عفان عند عبد الله بن عامر صاحب العراق في تشنيع عامر على عثمان وطعنه عليه، فأنكر ذلك، فقال له حمران: لا كثَّر الله فينا مثلك! فقال له عامر: بل كثَّر الله فينا مثلك! فقيل له: أيدعُو وتَدعو له؟ قال: نعم، يَكَسحون

طرقنا، ويَخْرزون خِفافَنا، ويحَركُون ثيابنا. فاستوى ابن عامر جالساً، وكان متكئاً، فقال: ما كنت أظنك تعرف هذا الباب، لفضلك وزهادتك. فقال: ليس كل ما ظننتَ أني لا أعرفه، لا أعرفه.

وقالوا: إن خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد لما وجّه أخاه عبد العزيز إلى قتال الأزارقة، هزموه وقتلوا صاحبه مقاتل بن مسمع، وسبَوا امرأته أم حفص بنت المنذر ابن الجارود العبدي، فأقاموها في السوق حاسرة بادية المحاسن، وغالَوْا فيها وكانت من أكمل الناس كمالا وحسنا، فتزايدت فيها العرب والموالي وكانت العرب تزيد فيها على العصبية، والموالي تزيد فيها على الولاء، حتى بلّغتها العرب عشرين ألفا، ثم تزايدوا فيها حتى بلّغوها تسعين ألف، فأقبل رجل من الخوارج من عبد القيس من خلفها بالسيف فضرب عنقها، فأخذوه ورفعوه إلى قطري بن الفجاءة، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن هذا استهلك تسعين ألفا من بيت المال وقتل أمة من إماء المؤمنين. فقال له: ما تقول؟ قال: يا أمير المؤمنين، إني رأيت هؤلاء الإسماعيلية والإسحاقية قد تنازعوا عليها حتى ارتفعت الأصوات واحمرت الحدق، فلم يبق إلا الخبط بالسيوف، فرأيت أن تسعين ألفا في جنب ما خشيت من الفتنة بين المسلمين هينة. فقال قطري: خَلّوا عنه، عين من عيون الله أصابتها. قالوا: فأقِدْ منه. قال: لا أُقيد من وزَعه[1] الله. ثم قدم هذا العبدي بعد ذلك البصرة، فإذا النعمان بن الجارود يستجديه بذلك السبب، فوصله وأحسن إليه.

قال: أبو عبيدة: مر عبد الله بن الأهتم بقوم من الموالي وهم يتذاكرون النحو، فقال: لئن أصلحتموه إنكم لأولُ من أفسده. قال أبو عبيدة: ليته سمع لحن صفوان وخاقان ومؤمل بن خاقان.

الأصمعي قال: قدم أبو مهدية الأعرابي من البادية فقال له رجل: أبا مهدية أتتوضئون بالبادية؟ قال: والله يا ابن أخي لقد كنا نتوضأ فتكفينا التوضئة الواحدة

---

(١) وزعه: يريد أنه لا يقيد من الذين يكفون الناس عن الشر.

ثلاثة الأيام والأربعة، حتى دخلت علينا هذه الحمراء - يعني الموالي - فجعلت تليق آستاهها بالماء كما تلاق[1] الدواة.

ونظر رجل من الأعراب إلى رجل من الموالي يستنجي بماء كثير، فقال له: إلى كم تغسلها ويلك! أتريد أن تشرب بها سويقا!

وكان عقيل بن علقمة المُرّي أشدَّ الناس حِميَّة في العرب، وكان ساكنا في البادية، وكان يُصهر إليه الخلفاء؛ وقال لعبد الملك بن مروان وخطب إليه ابنته الجرباء: جنِّبني هجناء ولدك. وهو القائل:

كنَّا بَنُو غَيظ رجالا فأصبَحت بَنُو مالِك غَيْظا وصِرنْا لِمالِكِ

لحى اللهُ دهْراً ذعْذَعَ المالَ كُلَّهُ وسوَّد أشباه الإماءِ العوارِكِ[2]

وقال ابن أبي ليلى: قال لي عيسى بن موسى وكان جائراً شديد العصبية: من كان فقيه البصرة؟ قلت: الحسن بن أبي الحسن. قال: ثم من؟ قلت: محمد بن سيرين. قال: فما هما؟ قلت: موليان.

قال: فمن كان فقيه مكة؟ قلت: عطاء بن أبي رباح، ومجاهد بن جبر، وسعيد ابن جبير، وسليمان بن يسار. قال: فما هؤلاء؟ قلت موالي.

فتغير لونه، ثم قال: فمن أفقه أهل قباء؟ قلت ربيعة الرأي، وابن أبي الزناد، قال: فما كانا؟ قلت من الموالي.

فاربدّ وجهُه، ثم قال: فمن كان فقيهَ اليمن؟ قلت: طاوس، وابنه وهمام بن منبه. قال: فما هؤلاء؟ قلت: من الموالي.

فانتفخت أوداجه فانتصب قاعداً، [ثم] قال: فمن كان فقيه خراسان؟ قلت: عطاء بن عبد الله الخراساني. قال: فما كان عطاء هذا؟ قلت: مولى.

---

(١) تلاق الدواة: يجعل لها ليقة، والليقة صونة الدواة.

(٢) دغدغ: فرق وبدد؛ والعوارك: حيّض.

فازداد وجهه تربُّدا واسودّ اسوداداً حتى خفتُه، ثم قال: فمن كان فقيه الشام؟ قلت: مكحول. قال: فما كان مكحول هذا؟ قلت: مولى.

فازداد تغيُّظا وحَنقا، ثم قال: فمن كان فقيه الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مِهران. قال: فما كان؟ قلت: مولى.

قال: فتنفس الصعداء، ثم قال: فمن كان فقيه الكوفة؟ قلت: فوالله لولا خوفه لقلت: الحكم بن عُيينة، وعمار بن أبي سليمان، ولكن رأيت فيه الشر، فقلت: إبراهيم، والشعبي. قال: فما كانا؟ قلت: عربيان. قال: الله أكبر! وسكن جأشه.

وذكر عمرو بن بحر الجاحظ، في كتاب الموالي والعرب: أن الحجاج لما خرج عليه ابن الأشعث وعبد الله بن الجارود، ولقي ما لقي من قراء أهل العراق وكان أكثرَ من قاتله وخلعه وخرج عليه، الفقهاءُ والمقاتلة والموالي من أهل البصرة؛ فلما علم أنهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم، أحب أن يسقط ديوانهم ويفرق جماعتهم حتى لا يتألفوا ولا يتعاقدوا، فأقبل على الموالي وقال: أنتم علوج[1] وعجم، وقُراكم أولى بكم. ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب وصيَّرهم كيف شاء، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجَّهه إليها؛ وكان الذي تولى ذلك منهم رجل من بني سعد بن عجل ابن لجيم، يقال له خراش بن جابر؛

وقال شاعرهم:

وأنتَ مَـن نقشَ العِجْلِـيُّ راحتَـهُ   وفرَّ شيْخُـكَ حتى عـاذَ بـالحَكَـمِ

يريد: الحكم بن أيوب الثقفي عامل الحجاج على البصرة.

وقال آخر، وهو يعني أهل الكوفة، وقد كان قاضيهم رجلا من الموالي يقال له: نوح بن درّاج:

إنّ القِيـامـةَ فيما أحسَـبُ اقتربـتْ   إذْ كانَ قاضيكُم نـوح بـن درّاجِ

---

(١) علوج: مفرده علج، وهو كل جاف شديد من الرجال.

لو كانَ حياً له الحجَّاجُ ما بقِيَتْ   صَحِيحةٌ كفُّهُ مِنْ نقشِ حجَّاجِ

وقال آخر:

جاريَةٌ لم تَدْرِ ما سوقُ الإبِلْ   أخْرجها الحجاجُ مِنْ كِنّ وظِلّ[1]
لو كان عْمروٌ شاهِداً وابن جُبَلْ   ما نُقِشَتْ كفاك من غيْر جَدَلْ

ويروى أن أعرابياً من بني العَنبر دخل على سوّار القاضي فقال: إن أبي مات وتركني وأخاً لي ـ وخط خطّين ـ ثم قال: وهجيناً ـ ثم خط خطا ناحية ـ فكيف يقسم المال؟ فقال له سوار: ها هنا وارث غيركم؟ قال: لا. قال: فالمال بينكم أثلاثاً. قال: ما أحسبك فهمت عني، إنه تركني وأخي وهَجينا، فكيف يأخذ الهجين كما آخذ أنا وكما يأخذ أخي؟ قال: أجل. فغضب الأعرابي ثم أقبل على سوّار فقال: ما علمت والله، إنك قليل الخالات بالدهناء.[2] قال سوار: لا يضرُّني ذلك عند الله تعالى شيئاً.

تم الجزء الثالث من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه؛ ويليه ـ إن شاء الله تعالى الجزء الرابع. وأوله: كتاب العسجدة: في كلام الأعراب.

---

(١) الكنّ: الستر والبيت.

(٢) الدهناء: الفلاة والصحراء.

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

كتاب اليتيمة

صفحة

صفحة

صفحة

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٢٧٧١٨٤ - ٢٧٦٥٣٨ - بيروت - لبنان

العقد الفريد

تأليف

الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
المتوفى سنة ٣٢٨هـ

بتحقيق

دكتور
عبد المجيد الترحيني

الجزء الرابع

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م

يطلب من: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان
صندوق بريد ٩٤٢٤ ـ ١١ . هاتف ٨٠١٣٣٢ ـ ٨٠٥٦٠٤
الرملة البيضاء ـ بناية ملكارت سنتر

كتاب العسجدة في كلام الأعراب

فرش كتاب العسجدة

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في النسب الذي هو سبب التعارف، وسُلم إلى التواصل، وفي تفضيل العرب، وفي كلام بعض الشعوبية؛ ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في كلام الأعراب خاصة؛ إذ كان أشرفَ الكلام حسباً، وأكثرَه رونقاً، وأحسنه ديباجاً، وأقله كلفة، وأوضحه طريقة؛ وإذ كان مدار الكلام كله عليه، ومُنتسَبُه إليه.

خالد بن صفوان وأعرابي:

قال رجل من مِنْقر: تكلم خالد بن صفوان بكلام في صلح لم يسمع الناس كلاماً قبله مثله، وإذا بأعرابيّ في بَتْ[1]، ما في رجليه حذاء، فأجابه بكلام وددت أني متّ قبل أن أسمعه، فلما رأى خالد ما نزل بي قال لي: ويحك! كيف نجاريهم وإنما نحاكيهم؟ أم كيف نسابقهم وإنما نجري بما سبق إلينا من أعراقهم؟ قلت له: أبا صفوان، والله ما ألومك في الأولى، ولا أدع حمدك على الأخرى.

بين أعرابي وربيعة في مثله:

وتكلم ربيعة الرأي يوماً بكلام في العلم فأكثر، فكأن العُجْب داخَله، فالتفت إلى أعرابي إلى جنبه فقال: ما تعدّون البلاغة يا أعرابيّ؟ قال: قلة الكلام وإيجاز الصواب. قال: فما تعدّون العيّ؟ قال: ما كنتَ فيه منذ اليوم. فكأنما ألقمه حجراً[2].

(١) البتّ: كساء غليظ. (٢) ألقمه حجراً: أسكته عند المخاصمة.

قول الأعراب في الدعاء

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: ما قوم أشبهَ بالسلف من الأعراب، لولا جفا فيهم.

وقال غيلان: إذا أردت أن تسمع الدعاء فاسمع دعاء الأعراب.

قال أبو حاتم: أملى علينا أعرابي يقال له مرثد: اللهم اغفر لي والجلد بارد، والنفس رطبة، واللسان منطلق، والصحف منشورة، والأقلام جارية، والتوبة مقبولة، والأنفس مريحة، والتضرع مرجوّ، قبل أزّ[1] العروق، وحَشَك[2] النفس، وعَلَز[3] الصدر، وتزيُّل الأوصال، ونصول الشعر، وتحيُّف[4] التراب؛ وقبل أن لا أقدر على استغفارك حتى يفنى الأجل، وينقطع العمل. أَعِنّي على الموت وكربته، وعلى القبر وغمَّته، وعلى الميزان وخفَّته، وعلى الصراط وزَلّته، وعلى يوم القيامة وروعته؛ آغفر لي مغفرةً واسعة لا تغادر ذنباً، ولا تدع كرباً؛ آغفر لي جميع ما افترضتَ عليّ ولم أؤدّه إليك؛ آغفر لي جميع ما تبتُ إليك منه ثم عدت فيه يا رب تظاهرتْ عليّ منك النعم، وتداركتْ عندك مني الذنوب؛ فلك الحمد على النعم التي تظاهرتْ، وأستغفرك الذنوب التي تداركتْ. أمسيت عن عذابي غنياً، وأصبحتُ إلى رحمتك فقيراً؛ اللهم إني أسألك نجاح الأمل عند انقطاع الأجل، اللهم أجعل خير عملي ما وليَ أجلي؛ اللهم اجعلني من الذين إذا أعطيتَهم شكروا، وإذا آبتليتَهم صبروا، وإذا أذكرتهم ذَكروا، واجعل لي قلباً توّاباً أوّاباً، لا فاجراً ولا مرتاباً. اجعلني من الذين إذا أحسنوا ازدادوا، وإذا أساءُوا استغفروا، اللهم لا تحقق عليّ العذاب، ولا تقطع بي الأسباب، وآحفظني في كل ما تحيط به شَفقتي، ويأتي من ورائه سُبْحتي[5]، وتعجز عنه قوّتي، أدعوك دعاءَ ضعيف عمله، متظاهرة ذنوبه، ضنينٍ على نفسه ـ دعاءَ مَن

---

(١) أزّ العروق: ضرباتها.
(٢) حشك النفس: اجتهادها في النزع.
(٣) العلز: القلق والكرب عند الموت.
(٤) التحيّف: التنقص.
(٥) السبحة: الدعاء.

بَدنه ضعيف، ومُنّته عاجزة؛ قد انتهت عدّته، وخلقتْ جِدته، وتم ظِمؤه؛ لا تخيبْني وأنا أرجوك، ولا تعذبني وأنا أدعوك، والحمد لله على طول النسيئة، وحسن التباعة، وتشنج العروق، وإساغة الريق، وتأخر الشدائد؛ والحمد لله على حلمه بعد علمه، وعلى عفوه بعد قدرته؛ والحمد لله الذي لا يُودَى قتيلُه، ولا يخيب سُوله، ولا يُرَدّ رسوله. اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك، ومن الذل إلا لك؛ وأعوذ بك أن أقول زورا، أو أغشى فجوراً، أو أكون بك مغروراً؛ وأعوذ بك من شماتة الأعداء، وعُضال[1] الداء، وخيبة الرجاء، وزوال النعمة، وفُجاءة النقمة.

دعا أعرابي وهو يطوف بالكعبة فقال: إلٰهي، مَن أولى بالتقصير والزلل مني وأنت خلقْتني، ومَن أولى بالعفو منك عني وعِلمك بي ماضٍ، وقضاؤك بي مُحيط؛ أطعتك بقوتك والمِنة لك، وعصيتك بعلْمك، فأسألك يا إلهي بوجوب رحمتك، وانقطاع حجتي، وافتقاري إليك، وغناك عني - أن تغفر لي وترحمني؛ إلهي لم أُحسن حتى أعطيتني. فتجاوز عن الذنوب التي كتبتَ عليّ، اللهم إنا أطعناك في أحب الأشياء إليك: شهادةِ أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، ولم نعْصك في أبغض الأشياء إليك: الشرك بك؛ فاغفر لي ما بين ذلك؛ اللهم إنك آنسُ المُؤنسين لأوليائك، وأحضرهم للمتوكلين عليك. إلهي أنت شاهدهم وغائبهم، والمطلع على ضمائرهم، وسرِّي لك مكشوف، وأنا إليك ملهوف؛ إذا أوحشتْني الغربة، آنسني ذكرك؛ وإذا أكبتْ عليّ الغموم، لجأتُ إلى الاستجارة بك؛ علماً بأن أزمة[2] الأمور كلها بيدك، ومصدرَها عن قضائك، فأقلْني إليك مغفوراً لي، معصوماً بطاعتك باقي عمري، يا أرحم الراحمين.

الأصمعي قال: حَجَجْتُ فرأيت أعرابياً يطوف بالكعبة ويقول: يا خير موفودٍ سعى إليه الوفْد، قد ضعُفت قوّتي، وذهبتْ مُنتي، وأتيت إليك بذنوب لا تغسلها الأنهار ولا تحملها البحار؛ أستجير برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، ثم

(١) عضال: شديد. (٢) أزمة: مفردها زمام، وزمام الأمر ملاكُه.

التفت فقال: أيها المُشفقون، ارحموا من شمِلتْه الخطايا، وغمرته البلايا، ارحموا من قطع البلاد، وخلف ما ملك من التلاد[1]؛ ارحموا من وبختة الذنوب، وظهرت منه العيوب؛ ارحموا أسير ضُرّ، وطريد فقر. أسألكم بالذي أعملتْكم الرغبة إليه، إلا ما سألتم الله أن يَهب لي عظيم جُرمي. ثم وضع في حلقة الباب خدّه وقال: ضَرَعَ خدّي لك، وذل مقامي بين يديك، ثم أنشأ يقول:

عظيمُ الذنب مكروبُ   من الخيرات مسْلوبُ
وقد أصبحتُ ذا فقرٍ   وما عندك مطلوب

العتبي قال: سمعت أعرابياً بعرفات عشية عرفة وهو يقول: اللهم إن هذه عشية من عشايا محبتك، وأحد أيام زلفتك، يأمل فيها مَن لجأ إليك من خلقك، أن لا يشرك بك شيئاً بكل لسان فيها يدعى، ولكل خير فيها يرجى؛ أتتك العصاة من البلد السحيق، ودعتك العناة من شعب المَضِيق؛ رجاءَ ما لا خلف له من وعدك، ولا انقطاع له من جزيل عطائك؛ أبْدتْ لك وجوهها المصونة، صابرة على وهج السمائم[2]، وبرد الليالي، ترجو بذلك رضوانك؛ يا غفار، يا مُستَزاداً من نعمه، ومُستعاذاً من نقمه، ارحم صوت حزين دعاك بزفير وشهيق. ثم بسط كلتا يديه إلى السماء، وقال: اللهم إن كنتُ بسطتُ يدي إليك راغباً، فطالما كفيْتنيه؛ ساهياً بنعمتك التي تظاهرت عليّ عند الغفلة، فلا أيأس منها عند التوبة: ولا تقطعْ رجائي منك لما قدمت من اَقتراف، وهب لي الإصلاح في الولد، والأمن في البلد، والعافية في الجسد، إنك سميع مجيب.

ودعا أعرابي فقال: يا عمادَ مَن لا عماد له، ويا ركنَ من لا ركن له، ويا مجير الضعفاء، ويا مُنقذ الهلكى، ويا عظيم الرجاء، أنت الذي سبح لك سواد الليل وبياضُ النهار، وضوءُ القمر وشعاع الشمس، وحفيف الشجر ودوي الماء؛ يا محسن، يا مجمل، يا مُفضل، لا أسألك الخير بخير هو عندك، ولكني أسألك برحمتك، فاجعل العافية لي

(١) التلاد: المال الأصلي القديم.   (٢) السمائم: جمع سموم، وهي الريح الحارة.

شعاراً ودثاراً[1]، وجُنَّة دون كل بلاء.

الأصمعي قال: خرجت أعرابية إلى مِنى فقطع بها الطريق، فقالت: يا رب، أخذتَ وأعطيت وأنعمتَ وسلبت، وكل ذلك منك عدلٌ وفضلٌ، والذي عظَّم على الخلائق أمرك؛ لابسطتُ لساني بمسألة أحد غيرك، ولا بذلتُ رغبتي إلا إليك يا قرةَ أعيُن السائلين، أغنني بجود منك أتبحبح في فراديس نعمته، وأتقلب في رواق نضرته، آحملني من الرُجلة[2]، وأغنني من العيلة، وأسدل عليَّ سِتْرك الذي لا تَخرقه الرماح، ولا تزيله الرياح، إنك سميع الدعاء.

قال: وسمعت أعرابياً في فلاة من الأرض وهو يقول في دعائه: اللهم إن استغاري إياك مع كثرة ذنوبي لَلُؤم، وإن تركي الاستغفار مع معرفتي بسعة رحمتك لعجْز! إلهي كم تحببت إليّ بنعمتك وأنت غنيٌّ عني، وكم أتبغّض إليك بذنوبي وأنا فقير إليك! سبحان من إذا توعد عفا، وإذا وعد وفى.

قال: وسمعت أعرابياً يقول في دعائه: اللهم إن ذنوبي إليك لا تضرّك، وإن رحمتك إياي لا تنقصُك؛ فاغفر لي مالا يضرك، وهب لي مالا ينقصك.

قال: وسمعت أعرابياً وهو يقول في دعائه: اللهم إني أسألك عمل الخائفين، وخوف العاملين، حتى أتنعمَ بترك النعم طمعاً فيما وعدت، وخوفاً مما أوعدت اللهم أعِذْني من سطواتك؛ وأجِرني من نقماتك؛ سبقت لي ذنوبٌ وأنت تغفر لمن يتوب؛ إليك بك أتوسل، ومنك إليك أفرُّ.

قال: وسمعت أعرابياً يقول: اللهم إن أقواماً آمنوا بك بألسنتهم ليحقِنوا دماءهم فأدركوا ما أمّلوا، وقد آمنا بك بقلوبنا لتجيرنا من عذابك فأدرك منا ما أمّلناه.

قال: ورأيت أعرابياً متعلقاً بأستار الكعبة رافعاً يديه إلى السماء وهو يقول رب،

---

(١) الدثار: الثوب الذي يكون فوق الشّعار، والشعار ما ولي جسد الانسان دون ما سواه من الثياب

(٢) الرُّجلة: المشي راجلاً.

أتُراك مُعذبنا وتوحيدك في قلوبنا ، وما إخالك تفعل! ولئن فعلت لتَجْمَعَنَّا مع قوم طالما أبغضناهم لك.

الأصمعي قال: سمعت أعرابياً يقول في صلاته: الحمد لله حمداً لا يبلى جديدُه ولا يُحصى عديده، ولا يبلغ حدوده؛ اللهم اجعل الموت خير غائب ننتظره، واجعل القبر خير بيت نعمره، واجعل ما بعده خيراً لنا منه؛ اللهم إن عينيّ قد آغرورقتا دموعاً من خشيتك؛ فاغفر الزلة، وعُدْ بحلمك على جهل من لم يَرْجُ غيرك.

الأصمعي قال: وقف أعرابي في بعض المواسم فقال: اللهم إن لك عليّ حقوقاً فتصدّق بها عليّ، وللناس قبلي تباعاتٌ فتحملها عني؛ وقد وجب لكل ضيف قِرى[1]، وأنا ضيفك الليلة، فاجعل قِراي فيها الجنة.

قال: ورأيت أعرابياً أخذ بحلقتي باب الكعبة وهو يقول: سائلك عَبْد بابك ذهبتْ أيامُه، وبقيت آثامه، وانقطعت شهوته، وبقيت تباعتُه فارض عنه، وإن لم ترض عنه فاعفُ عنه غير راض.

قال: ودعا أعرابي عند الكعبة، فقال: اللهم إنه لا شرف إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال؛ فأعطني ما أستعين به على شرف الدنيا والآخرة.

قال زيد بن عمر: سمعت طاوسا يقول: بينا أنا بمكة إذا دفعتُ إلى الحجاج بن يوسف، فثني لي وساداً فجلست؛ فبينا نحن نتحدث إذ سمعت صوت أعرابي في الوادي رافعاً صوته بالتلبية، فقال الحجاج: عليَّ بالملَبّي. فأُتي به، فقال: مَن الرجل؟ قال: من أفناء[2] الناس. قال: ليس عن هذا سألتُك. قال: فعمَّ سألتني؟ قال: من أي البلدان أنت؟ قال: من أهل اليمن. قال له الحجاج: فكيف خلفت محمد بن يوسف؟ يعني أخاه، وكان عامله على اليمن؛ قال: خلفتُه عظيماً جسيماً خَرّاجاً ولاّجاً. قال: ليس عن هذا سألتك. قال: فعَمَّ سألتني؟ قال: كيف خلّفت سيرته في الناس؟ قال:

(١) القرى: ما يقدم إلى الضيف. (٢) أفناء الناس: أخلاطهم.

خلفته ظلوماً غشوماً عاصياً للخالق مطيعاً للمخلوق! فازْوَرَّ[1] من ذلك الحجاج، وقال: ما أقدمك على هذا وقد تعلم مكانته مني؟ فقال له الأعرابي أفتراه بمكانته منك أعَزَّ مني بمكانتي من الله تبارك وتعالى، وأنا وافد بيته، وقاضي دينه، ومصدّق نبيه ﷺ! قال: فوجم لها الحجاج ولم يُجر له جواباً، حتى خرج الرجل بلا إذن. قال طاوس: فتبعته حتى أتى الملتزم فتعلق بأستار الكعبة، فقال: بك أعوذ، وإليك ألوذ، فاجعل لي في اللهف إلى جوارك والرضا بضمانك مندوحة عن منع الباخلين، وغنى عما في أيد المستأثرين؛ اللهم عُد بفرجك القريب، ومعروفك القديم، وعادتك الحسنة.

قال طاوس: ثم اختفى في الناس فألفيته بعرفات قائماً على قدميه وهو يقول: اللهم إن كنت لم تقبل حَجّي ونصبي وتعبي فلا تَحرمني أجر المصاب على مصيبته فلا أعلم مصيبةً أعظم ممن ورد حوضك وانصرف محروماً من وجه رحمتك.

الأصمعي قال: رأيت أعرابياً يطوف بالكعبة وهو يقول: إلهي عَجّت[2] إليك الأصواتُ بضروب من اللغات يسألونك الحاجات، وحاجتي إليك إلهي أن تذكْرَني على طول البلاء إذا نسيني أهل الدنيا. اللهم هَب لي حقك، وأرْض عني خلْقك، اللهم لا تعْيِنِي بطلب ما لم تقدّره لي، وما قدرته لي فيَسِّره لي.

قال: ودعت أعرابية لابن لها وجهته إلى حاجة، فقالت: كان الله صاحبَك في أمرِك، وخليفتَكَ في أهلك، ووَلِيَّ نُجحِ[3] طَلِبَتِكَ. امض مُصاحَبا مكلوءا، لا أشمت الله بك عَدُوّاً، ولا أرى محبيك فيك سُوءا.

قال: ومات ابن لأعرابي فقال: اللهم إني وهبتُ له ما قصر فيه من بري، فهب له ما قصَّر فيه من طاعتك، فانك فإنك أجودُ وأكرَم.

---

(١) ازور: مال وانحرف.

(٢) عجّت إليك الأصوات أي رفعت إليك.

(٣) النُّجح: النجاح.

قولهم في الرقائق

العتبي قال: ذكر أعرابي مصيبة فقال: والله تركت سُودَ الرؤوس بِيضا، وبِيض الوجوه سُوداً، وهوّنَت المصائبَ بعدها.

أخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال يرثي آل أبي سفيان:

رمى الحِدثانُ نسوةَ آل حرب ... بمقدار سَمَدن له سُمُودا[1]
فردّ شعورهن السود بيضا ... وردّ وجوههن البيض سودا
فإنك إذ سمعت بكاء هند ... ورملة إذ يلطمن الخدودا
بكيت بكاء موجَعة بحزن ... أصاب الدهر واحدها الفريدا

قال: قيل لأعرابية أصيبت بابنها: ما أحسن عَزاءَكِ قالت: إنّ فقدي إياه أمّنني كل فقد سواه، وإن مصيبتي به هوّنت علي المصائب بعده؛ ثم أنشأت تقول:

من شاءَ بعدَكَ فليَمتْ ... فعلَيكَ كنتُ أُحاذرُ
كنت السوادَ لمقلتي ... فعليك يبكي الناظر
ليت المنازِلَ والديّا ... رَ حفَائِرٌ ومقابِرُ

وقيل لأعرابي: كيف حزنك على ولدك؟ قال: ما ترك همُّ الغَداءِ والعشاء لي حزناً!

وقيل لأعرابي: ما أذهبَ شبابك؟ قال: مَن طال أمده، وكثر ولده، وذهب جلده: ذهب شبابه.

وقيل لأعرابي: ما أنحل جسمَكَ؟ قال: سوء الغِذَاء، وجُدوبة المرعى، واختلاجُ الهموم في صدري. ثم أنشأ يقول:

الهمُّ مالم تُمْضِهِ لسبيله ... داء تضمَّنَهُ الضُّلوعُ عظيمُ
ولرَّبما آستيأستُ ثم أقولُ لا ... إنّ الذي ضمِنَ النجاح كريمُ

---

(١) السمود: الحزن.

وقيل لأعرابي قد أخذته السن: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت تقَيّدني الشعرة، وأعْثر في البَعرة[1]، قد أقام الدهر صَعَري بعد أن أقمت صَعَره.

وقال أعرابي: لقد كنتُ أُنكِر البيضاء فصرت أنكر السوداء، فيا خير مبدول ويا شرَّ بدل!

وقال أعرابي:

إذا الرجـال وَلَـدتْ أولادُهـا   وجعَلـت أسقـامُهـا تعتـادُهـا
واضطْربتْ من كِبَرٍ أعضادُهـا   فهْيَ زُروعٌ قد دنا حَصـادُهـا

وذكر أعرابي قطيعة بعض إخوانه، فقال: صَفِرت[2] عيابُ الودِّ بعد امتلائها واكفهرت وجوهٌ كانت بمائها؛ فأدبر ما كان مقبلاً، وأقبل ما كان مدبراً.

وذكر أعرابي منزلاً باد أهله، فقال: منزل والله رحلتْ عنه ربات الخدور وأقامت فيه أثافيُّ[3] القدور، وقد اكتسى بالنبات كأنما أُلبس الحُلل؛ وكان أهله يُعَفُّون فيه آثار الرياح، وأصبحت الريح تُعَفِّي آثارهم فالعهد قريب والملتقى بعيد.

ذكر أعرابي قـومـاً تغيرت أحـوالهم، فقـال: أعينٌ والله كحلـت بـالعبرة بعـد الحَبْرَة[4]، وأنفسٌ لبسَت الحزن بعد السرور.

وذكر أعرابي قوماً تغيرت حالهم، فقال: كانوا والله في عيش رقيق الحواشي فطواه الدهر بعد سعة، حتى يبست أبدانهم من القُر، ولم أر صاحباً أغرَّ من الدنيا، ولا ظالماً أغشم من الموت؛ ومن عصف به الليل والنهار أردياه، ومن وُكل به الموت أفناه.

وقف أعرابي على دار قد باد أهلها، فقال: دارٌ والله معتصرة للدموع، حطت بها

---

(١) البَعَرَة: جمعها البعر: رجيع ذوات الخف وذوات الظلف إلا البقر الأهلي.

(٢) صفرت: خلت.   (٣) الأثافي: أحجار ثلاثة توضع عليها القدر.

(٤) الحبرة: الابتهاج.

السحاب أثقالها، وجرَّت بها الرياح أذيالها.

وذكر أعرابي رجلاً تغيرت حاله، فقال: طُوِيت صحيفته وذهب رزقه، فالبلاء مُسْرِع إليه، والعيش عنه قابض كفَّيه.

وذكر أعرابي رجلاً ضاق عيشه بعد سعة، فقال: كان والله في ظل عيش ممدود، فقدحت عليه من الدهر زَند عين كابية الزند.

الأصمعي قال: أنشدني العُقيل لأعرابية ترثي ابنها:

ختلَته المنونُ بعد آختيال ... بين صفَّيْن من قَناً ونِصالِ

في رداء من الصفيحِ صقيل ... وقميص من الحديد مُذال[1]

كنتُ أخباك لاعْتداءِ يدِ الدهـرِ ولم تخطرِ المنونُ ببالي

وقال أعرابي يرثي ابنه:

دَفنْت بكفي بعض نفْسي فأصبحَت ... وللنَّفس منها دافِنٌ ودفين

وقال أعرابي: إن الدنيا تنطق بغير لسان فتُخبر عما يكون بما قد كان.

خرج أعرابي: هارباً من الطاعون؛ فبينا هو سائر إذ لدغته أفعى فمات، فقال فيه أبوه:

طاف يَبغي نجوة ... من هلاكٍ فهلكْ

ليت شِعْري ضَلَّة ... أيُّ شيء قتلكْ

والمَنايا رَصدٌ ... للفتى حيث سَلكْ

كلُّ شيء قاتلٌ ... حين تلقَى أجلكْ

وذكر أعرابي بلداً فقال: بلد كالتُّرس[2]، ما تمشي فيه الرياح إلا عابرات سبيلٍ، ولا يمر فيها السَّفر إلا بأدلَّ دليل.

---

(١) القميص: الدرع؛ والمذال الذي له ذيل.

(٢) بلد كالترس أي ملساء جرداء لا نبات فيها.

قولهم في الاستطعام

معن بن زائدة وأعرابي:

قدم أعرابي من بني كنانة على معن بن زائدة وهو باليمن، فقال: إني والله ما أعرف سبباً بعد الإسلام والرحم أقوى من رحلة مثلي من أهل السن والحسب إليك من بلاده، بلا سبب ولا وسيلة إلا دعاءك إلى المكارم، ورغبتك في المعروف؛ فإن رأيت أن تضعني من نفسك بحيث وضعت نفسي من رجائك فافعل. فوصله وأحسن إليه.

لأعرابي:

الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول: وقف أعرابي على قوم فقال: إنا - رحمكم الله - أبناءُ سبيل، وأنضاءُ طريق وفُلاَّل[1] سنة؛ رحم الله امرأً أعطى عن سعة، وواسى من كفاف. فأعطاه رجل درهماً، فقال: آجرك الله من غير أن يبتليك.

لآخر:

ووقف أعرابي بقوم فقال: يا قوم، تتابعت علينا سنون جماد شداد، لم يكن للسماء فيها رجْع، ولا للأرض فيها صدْع، فنضب العِدّ، ونشف الوشل، وأمحل الخصب، وكلح الجدب، وشف المال، وكسف البال، وشظف المعاش، وذهب الرياش؛ وطرحتني الأيام إليكم غريب الدار، نائي المحل، ليس لي مال أرجع إليه، ولا عشيرة ألحق بها؛ فرحم الله امْرَأً رحم اغترابي، وجعل المعروف جوابي.

المهدي في الطواف:

خرج المهدي يطوف بعد هدأة من الليل، فسمع أعرابية من جانب المسجد وهي تقول: قوم معوزون، نبتْ عنهم العيون، وفدحتهم الديون، وعضتهم السنون؛ باد

---

(١) فلال: جمع فل أي المنهزم؛ والسنة: الجدب والقحط.

رخالهم[1]، وذهبت أموالهم، أبناء سبيل، وأنضاء طريق، وصية الله ووصية رسوله ﷺ؛ فهل من آمرٍ بخير، كلأه الله في سفره، وخلفه في أهله؟ فأمر نصيراً الخادم، فدفع إليها خمسمائة درهم.

خزيمة في إبل أغير عليها:

الأصمعي قال: أُغِير على إبل خزيمة، فركب بَحِيرة[2]، فقيل له: أتركب حراماً؟ قال: يركب الحرام من لا حلال له.

وقال أعرابي:

بين عتبة بن أبي سفيان وأعرابي:

يا ليت لي نعليْن من جِلْدِ الضَّبُع كلَّ الحذاءِ يَحتذِي الحافي الوَقِعْ[3]

أبو الحسن قال: اعترض أعرابي لعتبة بن أبي سفيان وهو على مكة فقال: أيها الخليفة. قال: لستُ به ولم تُبعد. قال: فيا أخاه! قال: اسْمعت فقل. قال: شيخ من بني عامر يتقرب إليك بالعمومة ويختص بالخُئُولة، ويشكو إليك كثرة العيال، ووطأة الزمان، وشدةَ فقر، وترادُف ضُر، وعندك ما يسعُه ويصرف عنه بؤسَه فقال عتبة أستغفر الله منك، وأستعينه عليك، قد أمرت لك بغناك، فليت إسراعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك.

وسأل أعرابي فقال: رحم الله مسلماً لم تمجَّ أذناه كلامي، وقدم لنفسه معاذا من مقامي، فإن البلاد مجدية، والدارَ مضيعة، والحياء زاجز يمنع من كلامكم، والعُدم عاذر يدعو إلى إخباركم؛ والدعاء إحدى الصدقتين، فرحم الله آمرأً يمير وداعيا يجير. فقال له بعض القوم: ممن الرجل؟ فقال: ممن لا تنفعكم معرفته، ولا تضركم جهالتُه. ذلَّ الاكتساب، يمنع من عز الانتساب.

---

(١) الرخال: أولاد الضأن.

(٢) بحيرة: الناقة شقت أذنها بعد أن ولدت خمسة أبطن وكان آخرها ذكراً.

(٣) الوقع: الذي أصابت الحجارة قدمه فأوهنتها.

أعرابي أغير على إبله:

العتبي قال: قدم علينا أعرابي في فِشَّاش[1]، قد أطردت[2] اللِّصاصُ إبله، فجمعت له شيئاً من أهل المسجد، فلما دفعت إليه الدراهم أنشأ يقول:

لا والذي أنا عبدٌ في عبادتِه ... لولا شماتةُ أعداءٍ ذوي إِحَنِ
ما سرَّني أنّ إبْلي في مباركِها ... وأنّ أمرا قضاهُ الله لم يكن

أخذ هذا المعنى بعض المحدثين فقال:

لولا شماتةُ أعداءٍ ذوي حسدٍ ... وأنْ أنال بنفعي من يُرجّيني
لمَا خطَبْت إلى الدُّنيا مطالبَها ... ولا بَذلتُ لها عرِضي ولا ديني
لكن مُنافسة الأكفاءِ تَحملُني ... على أُمورٍ أراها سوف ترْديني
وقد خشيت بأنْ أبقى بمنزلةٍ ... لا دين عندي ولا دُنيا تُواتيني

بين خالد القسري وأعرابي:

العتبي قال: دخل أعرابي على خالد بن عبد الله القسري، فلما مثل بين يديه أنشأ يقول:

أصلحَك الله قَلَّ ما بيدي ... فما أُطيق العيال إذ كثُروا
أناخ دهرٌ ألقَى بكلْكَلِه ... فأرْسَلوني إليك وانتظروا

قال: أرسلوك وانتظروا؟ والله لا تجلس حتى تعود إليهم بما يسرهم! فأمر له بأربعة أبعرة موقورة[3] بُرّاً وتمرا وخلع عليه.

ابن طوق وأعرابي:

الشيباني قال: أقبل أعرابي إلى مالك بن طوق، فأقام بالرحبة حيناً، وكان الأعرابي من بني أسد صعلوكاً في عباءة صوف وشملة شعر، فكلما أراد الدخول

---

(١) الفشاش: الكساء الغليظ. (٢) أطردت إبله: أي أغارت عليها فسرقتها.

(٣) موقورة: محملة حملاً ثقيلاً.

منعه الحجاب، وشتمه العبيد، وضربه الأشراط؛ فلما كان في بعض الأيام خرج مالك بن طوق يريد التنزه حول الرحبة، فعارضه الأعرابي، فضربوه ومنعوه، فلم يثنه ذلك حتى أخذ بعنان فرسه، ثم قال: أيها الأمير، إني عائذ بالله من أشراطك هؤلاء! فقال مالك: دعوا الأعرابي؛ هل من حاجة يا أعرابي؟ قال: نعم أصلح الله الأمير؛ أن تُصغى إليّ بسمعك، وتنظر إليّ بطرفك، وتُقبل إليّ بوجهك. قال: نعم. فأنشأ الأعرابي يقول:

ببابكَ دون الناس أنزلْتُ حاجتي ... وأقبلْتُ أسعَى حولهُ وأطوف
ويَمنَعُني الحُجَّابُ والسِّتْرُ مُسْبَلٌ ... وأنت بعيد والشروطُ صفوفُ[1]
يدورون حوْلي في الجلوس كأنهُمْ ... ذِئاب جياع بينَهُنَّ خروفُ
فأمَّا وقد أبصَرْتُ وجهَكَ مُقْبلاً ... فأُصْرَف عنه إنني لضَعِيفُ
ومالِي مِنَ الدُّنيا سِواكَ ولا لِمَنْ ... تَرَكتُ ورائِي مَرْبعٌ ومَصيفُ
وقد عَلِمَ الحيَّان قيْسٌ وخنْدفٌ ... ومَنْ هُو فيها نازِلٌ وحليفُ
تَخَطَّيْتُ أعناقَ المُلوكِ ورحْلَتِي ... إليكَ وقد حنَّتْ إليكَ صُروفُ
فجئْتُكَ أبغِي اليُسْرَ مِنكَ فمرّ بي ... ببابك مِنْ ضرب العبيد صُنوفُ
فلا تَجْعلنْ لي نحوَ بابك عوْدَةً ... فقلْبِي من ضرْبِ الشُّروطِ مَخوفُ

فاستضحك مالك حتى كاد أن يسقط عن فرسه؛ ثم قال لمن حوله: من يعطيه درهماً بدرهمين وثوباً بثوبين؟ فوقعت عليه الثياب والدراهم من كل جانب حتى تحير الأعرابي؛ ثم قال له: هل بقيتْ لك حاجة يا أعرابي؟ قال: أما إليك فلا! قال: فإلى من؟ قال: إلى الله أن يبقيك للعرب؛ فإنها لا تزال بخير ما بقيت لها.

دخل أعرابي إلى هشام بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، أتت علينا ثلاثة أعوام: فعام أذابَ الشحم، وعام أكلَ اللحم، وعام انتقى العظم[2]؛ وعندكم أموال، فإن تكن لله فبثوها في عباد الله، وإن تكن للناس فلِمَ تُحْجَبُ عنهم، وإن تكن لكم

---

(١) الشروط: رجال الشرطة.

(٢) انتقى العظم: استخرج نقيه، وهو مخه.

فتصدقوا؛ إن الله يجزي المتصدقين! قال هشام: هل من حاجة غير هذه يا أعرابي؟ قال: ما ضربتُ إليك أكباد الإبل أدّرع الهجير، وأخوض الدجا لخاصِّ دون عام، ولا خير في خير لا يعم. فأمر له هشام بأموال فُرِّقتْ في الناس؛ وأمر للأعرابي بمال فرَّقَه في قومه.

لبعض الأعراب:

طلب أعرابي من رجل حاجة فوعده قضاءها؛ فقال الأعرابي: إن مَن وعَدَ قضى الحاجةَ وإن كثُرتْ؛ والمطْل من غير عسر آفةُ الجود.

وقال أعرابي، وأتى رجلاً لم تكن بينهما حرمة في حاجة له، فقال: إني امتطيت إليك الرجاء، وسرت على الأمل، ووفدت بالشكر، وتوسلت بحسن الظن: فحقق الأمل، وأحسن المثوبة، وأكرم القصد، وأتم الود، وعجل المراد.

وقف أعرابي على حلقة يونس النحوي، فقال: الحمد لله، وأعوذ بالله أن أُذَكر به وأنساه، إنا أُناس قدمنا هذه المدينة ثلاثون رجلاً؛ لا ندفن ميتاً؛ ولا نتحول من منزل وإن كرهناه؛ فرحم الله عبداً تصدّق على ابن سبيل، ونضو(1) طريق، ورسل سَنَة؛ فإنه لا قليل من الأجر؛ ولا غني عن الله، ولا عملَ بعد الموت؛ يقول الله عز وجل: ﴿مَنْ ذا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حسَناً﴾(2) إن الله لا يستقرض من عَوز؛ ولكن ليبلو خيارَ عباده.

وقف أعرابي في شهر رمضان على قوم؛ فقال: يا قوم لقد ختمت هذه الفريضةُ على أفواهنا من صُبح أمس، ومعي بنتان لي، والله ما عَلِمْتُهما تَخَلالاً بخلال؛ فهل رجل كريمٌ يرحم اليوم مقامنا، ويرد حشاشتنا؛ منعه الله أن يقوم مقامي فإنه مقام ذل وعار وصَغار! فافترق القوم ولم يعطوه شيئاً! فالتفت إليهم حتى تأملهم جميعاً، ثم

---

(1) نضا نضواً المكان: جاوزه وخلّفه.

(2) سورة البقرة الآية ٢٤٥.

قال: أشدُّ واللهِ عليّ من سوء حالي وفاقتي، توهُّمي فيكم المواساة! انتعِلوا الطريق لاصحبكم الله.

الأصمعي قال: وقف أعرابيّ علينا فقال: يا قوم، تتابعت علينا سنون بتغير وانتفاص، فما تركت لنا هُبَعاً ولا رُبعاً[1]، ولا عافطة ولا نافطة[2]، ولا ثاغية ولا راغية[3]؛ فأماتت الزرع، وقتلت الضرع، وعندكم من مال الله فضلُ نعمة؛ فأعينوني من فضلِ ما آتاكم الله، وارحموا أبا أيتام، ونضو زمان[4]؛ فلقد خلفت أقواماً يمرضون مريضهم ولا يكفنون ميتهم، ولا ينتقلون من منزل إلى منزل وإن كرهوه؛ ولقد مشيت حتى انتعلتُ الدماء، وجُعتُ حتى أكلتُ النوى.

لأعرابية مع عبد الرحمن ابن أبي بكر:

الأصمعي قال: وقفت أعرابية من هوازن على عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق فقالت: إني أتيتُ من أرض شاسعة، تهيضني هائضة[5] وترفعني رافعة في بوادٍ بَرَيْن لحمي، وهِضن عظمي: وتركنَني والهة، قد ضاق بي البلد، بعد الأهل والولد، وكثرة من العدد؛ لا قرابة تُؤويني، ولا عشيرة تحميني؛ فسألت أحياء العرب: مَن المرتجَى سَيْبُه، المأمونُ عيبه، الكثير نائلُه، المكفيُّ سائله؟ فدُللتُ عليك؛ وأنا امرأة من هوازن، فقدت الولد والوالد، فاصنع في أمري واحدة من ثلاث: إما أن تُحْسِن صَفَدي، وإما أن تُقيم أوَدي، وإما أن تَرُدَّني إلى بلدي. قال: بل أجمعهن لك! ففعل ذلك بها أجمع.

وقال أعرابي:

يـا عـامِـلَ الخيْـرِ رُزِقْـت الجنَّـة   أكْسُ بُنيَّـاتِـي وأُمَّهُنَّـهْ
وكُـنْ لنـا مِـنَ الزمـانِ جُنَّـهْ   وأرْدُدْ علينـا إنّ إنّ إنَّـهْ
أقسَمْتُ بالله لتَفْعلَنَّهْ

(١) الهبع: الفصيل ينتج في أول الصيف. والربع ما ينتج في أول الربيع.
(٢) العافطة: النعجة، والنافطة: العنز. (٣) الثاغية: الشاة، والراغية: الناقة.
(٤) نضو الزمان أي الفقير المعدم. (٥) الهائضة، أي الشدة والكرب.

لبعض الأعراب:

الأصمعي قال: وقفت أعرابية فقالت: يا قوم، سَنة جردتْ وأيد جمدت، وحال أجهدت؛ فهل من فاعل لخير، وآمر بِميْر؟ رحم الله من رَحم، وأقرض من يقرض.

الأصمعي قال: أصابت الأعراب أعوامٌ جدبة وشدة وجَهْد، فدخلت طائفة منهم البصرة وبين أيديهم أعرابي وهو يقول: أيها الناس، إخوانكم في الدين،وشركاؤكم في الإسلام، عابرو سبيل، وفُلال[1] بؤس، وصرعى جدب، تتابعت علينا سنون ثلاثة، غيرت النِّعم وأهلكت النَّعم، فأكلنا ما بقي من جلودها فوق عظامها فلم نزل نعلل بذلك أنفسنا، ونمنِّي بالغيث قلوبنا، حتى عاد مخناً عظاماً، وعاد إشراقنا ظلاماً، وأقبلنا إليك يصرعنا الوعر، ويكننا السهل، وهذه آثار مصائبنا، لائحة في سِماتنا، فرحم الله متصدقاً من كثير، ومواسيا من قليل، فلقد عظمت الحاجة، وكسف البال وبلغ المجهود، والله يجزي المتصدقين.

الأصمعي قال: كنتُ في حلقة بالبصرة إذ وقف علينا أعرابي سائلاً، فقال: أيها الناس، إن الفقر يهتك الحجاب، ويُبرز الكَعاب؛ وقد حملتنا سِنو المصائب، ونكبات الدهور، على مركبها الوعر، فواسوا أبا أيتام، ونضو زمان، وطريد فاقة، وطريح هلكة، رحمكم الله.

أتى أعرابي عمر بن عبد العزيز فقال: رجل من أهل البادية، ساقته إليك الحاجة، وبلغت به الغاية، واللهُ سائلك عن مقامي هذا. فقال عمر: ما سمعتُ أبلغَ من قائل ولا أوعظ لِمَقول له من كلامك هذا.

سمع عدي بن حاتم رجلاً من الأعراب وهو يقول: يا قوم، تصدقوا على شيخ مَعِيل، وعابر سبيل، شهد له ظاهرُه، وسَمِع شكواه خالقه، بدنه مطلوب وثوبهُ

---

(١) فلال بؤس، أي منهزمون أمام البؤس.

مسلوب! فقال له: من أنت؟ قال: رجل من بني سعد في ديةٍ لزمتني، قال: فكم هي؟ قال: مائة بعير. قال: دُونكَها في بطن الوادي!

سأل أعرابي رجلاً فأعطاه، فقال: جعل الله للمعروف إليك سبيلاً، وللخير عليك دليلاً، ولا جعل حظَّ السائل منك عذرة صادقة.

وقف أعرابي بقوم فقال: أشكو إليكم أيها الملأ زماناً كلح[1] فيّ وجهه، وأناخ عليّ كلكَلَه، بعد نعمة من البال، وثروة من المال، وغبطة من الحال؛ اعتورتني شدائده، بنَبل مصائبه، عن قِسِيِّ نوائبه، فما تَرك لي ثاغية أجتدي ضرعَها، ولا راغية أرتجي نفعها، فهل فيكم من معين على صرْفه، أو مُعدٍ على حتفه؟ فردّ القوم عليه ولم يُنيلوه شيئاً؛ فأنشأ يقول:

قد ضاع مَن يأْمُل من أمثالِكم ... جُوداً وليس الجُود من فعالِكْم
لا بارك الله لكم في مالِكم ... ولا أَزاح السوءَ عن عيالِكم
فالفقر خير من صَلاحِ حالِكم

الأصمعي قال: سأل أعرابي فلم يُعطَ شيئاً، فرفع يديه إلى السماء وقال:

يا ربِّ ثقتي وذخْري ... لِصبيةٍ مثل صِغار الذَّرِّ
جاءَهم البَرد وهم بشرِّ ... بغير لُحْفٍ وبغير أُزْر
كأنهم خنافسٌ في جُحر ... تَراهم بعد صلاة العصْر
وكلّهم مُلتصِقٌ بصدري ... فاسمعْ دعائي وتَولَّ أمري

سأل أعرابي ومعه ابنتان له، فلم يُعطَ شيئاً؛ فأنشأ يقول:

أيا ابنتيَّ صابِراً أباكما ... إنكما بعين مَن يَراكما
اللهُ مولايَ وهو مولاكما ... فأخلِصا لله في نَجواكما
تضرَّعا لا تَذْخَرا بُكاكما ... لعله يَرحم مَن آواكما
إنْ تَبكيا فالدهرُ قد أبكاكما

---

(١) كلح: عبس.

هشام وأعرابي:

العتبي قال: كانت الأعراب تنتجع هشام بن عبد الملك بالخطب كل عام، فتقدّم إليهم الحاجب يأمرهم بالإيجاز، فقام أعرابي فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إنّ الله تبارك وتعالى جعل العطاء محبة؛ والمنه مبغضة؛ فَلأنْ نحبك خير من أن نبغضك! فأعطاه وأجزل له.

الأصمعي قال: وقف أعرابي غَنويٌّ على قوم؛ فقال بعد التسليم: أيها الناس، ذهب النّيْل؛ وعجف الخيْل[1]؛ وبُخس الكيل؛ فمن يرحم نضو سفر، وقل سنة، ويُقرض الله قرضاً حسناً. لا يستقرض اللهُ من عُدم، ولكن ليبلوَكم فيما آتاكم. ثم أنشأ يقول:

هـل مـن فتًـى مقتـدِرٍ معينِ ... علـى فقيـرٍ بائــس مسكيــنِ
أَبــــي بنـــــاتٍ وأبي بنينِ ... جزاه ربِّـي بـالـذي يُعطينِـي
أفْضلَ ما يُجزَى به ذو الدِّين

لبعض الأعراب:

الأصمعي قال: سمعت أعرابياً يقول لرجل: أطعمك الله الذي أطعمتني له؛ فقد أحييتني بقتل جوعي، ودفعت عني سوء ظني بيومي؛ فحفظك الله على كل جنب، وفرج عنك كل كرب، وغفر لك كل ذنب.

وسأل أعرابيّ رجلاً فاعتلّ عليه، فقال: إن كنتَ كاذباً فجعلك الله صادقاً!

وقال أعرابي للمأمون:

قلْ للإمام الذي تُرْجـى فضـائلـه ... رأسِ الأنام وما الأذنابُ كالراسِ
إني أعــوذ بهرون وخُفــرتـــه ... وبآبن عـمِّ رسـول الله عبَّـاس:[2]
من أن تُشدَّ رحـال العِيس راجعـةً ... إلى اليَمامـة بـالحرْمـان واليـاس[3]

---

(١) عجف الخيل: هزل.
(٢) الخفرة: الذمام والعهد.
(٣) العيس: الإبل التي يخالط بياضها شقرة.

أعرابي وزوجه في مجاعة:

الأصمعي قال: أصابت الأعرابَ مجاعةٌ، فمررت برجل منهم قاعد مع زوجته بقارعة الطريق وهو يقول:

يا ربِّ إني قاعدٌ كما تَرى ... وزوجتي قاعدة كما تَرى
والبطْن منِّي جائع كما ترى ... فما ترى يا ربَّنا فيما ترى!

أعرابي في مجاعة:

الأصمعي قال: حدّثني بعض الأعراب قال: أصابتنا سَنَة وعندنا رجل غني وله كلب، فجعل كلبه يعوي جوعاً، فأنشأ يقول:

تشكَّى إليّ الكلب شدّة جُوعه ... وبِي مثلُ ما بالكلب أو بيَ أكثرُ
فقلتُ: لعلّ الله يأتي بغيْثه ... فيُضْحي كلانَا قاعداً يتكبَّر
كأني أمير المؤمنين من الغنَى ... وأنت من النعمى كأنك جعفر

أعرابي اسمه عمرو:

الأصمعي قال: سأل أعرابيّ رجلاً يقال له عمرو، فأعطاه درهمين؛ فردهما عليه وقال:

تركتُ لعمرو درْهميْه ولم يكن ... ليُغنِيَ عنِّي فاقتِي درهما عمرِو
وقلتُ لعمرو خذهما فاصطرفهما ... سريعيْن في نقْض المودة والأجْر

لبعض الأعراب:

أبو الحسن قال: وقف علينا أعرابي، فقال: أخ في كتاب الله، وجار في بلاد الله، وطالب خير من رزق الله؛ فهل فيكم من مُواس في الله؟.

الأصمعي قال: ضجر أعرابي بكثرة العيال والولد، وبلغه أنّ الوباء بخيبر شديد؛ فخرج إليها يعرّضهم للموت، وأنشأ يقول:

قلتُ لحُمّى خيبر آستعدّي هاكِ عيالي فاجهدي وجِدّي
وباكري بصالِب وَوِرْدِ أعانك الله على ذي الجُند[1]

فأخذته الحمى، فمات هو وبقي عياله.

مروان وأعرابي:

سأل أعرابيٌّ شيخاً من بني مروان وحوله قوم جلوس، فقال: أصابتنا سنة. ولي بضعَ عشرة بنتاً، فقال الشيخ: أمّا السنة فوددت والله أن بينكم وبين السماء صفائح من حديد، ويكون مسيلها مما يليني فلا تقطر عليكم قطرة؛ وأمّا البنات فليت الله أضعفهنّ لك أضعافاً كثيرة، وجعلك بينهنّ مقطوع اليدين والرجلين ليس لهنّ كاسب غيرك! قال: فنظر إليه الأعرابي ثم قال: والله ما أدري ما أقول لك، ولكن أراك قبيح المنظر، سيء الخلق، فأعضّك الله ببظر أمّهات هؤلاء الجلوس حولك!

طائفي وأعرابي:

وقف أعرابيٌّ على رجل شيخ من أهل الطائف، فذكر له سنة وسأله. فقالت: وددت والله أنّ الأرض خطة لا تنبت شيئاً! قال: ذلك أيبس لجفير أمّك في آستها.

قولهم في المواعظ والزهد

هشام وأعرابي:

أبو حاتم عن الأصمعي قال: دخل أعرابي على هشام بن عبد الملك فقال له: عظني يا أعرابي. فقال: كفى بالقرآن واعظاً، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ويْلٌ للمطفِّفين الذين إذا اكتالوا علىٰ الناس يستوْفون وإذا كالوهمْ أو وزَنوهم يُخسِرون ألا يظُنُّ أُولئك أنهم مَبعوثون ليومٍ عظيمٍ يومَ يقومُ

---

(١) الصالب من الحمى: التي معها حرارة شديدة والورد من أسماء الحمى.

الناسُ لربِّ العالمين﴾[1] ثم قال: يا أمير المؤمنين، هذا جزاء من يطفِّف في الكيل والميزان، فما ظنَّك بمن أخذه كله؟!

لأعرابي يعظ أخاه:

وقال أعرابي لأخيه: يا أخي، أنت طالب ومطلوب، يطلبك مالا تفوته، وتطلب ما قد كُفيتَه، فكأنّ ما غاب عنك قد كُشف لك، وما أنت فيه قد نُقلت عنه، فامهد لنفسك، وأعدّ لغدك، وخذ في جهازك.

ووعظ أعرابي أخاً له أفسد ماله في الشراب، فقال: لا الدهر يعظك، ولا الأيام تُنذرك، ولا الشيب يزجرك، والساعات تُحصى عليك، والأنفاس تُعَدّ منك، والمنايا تُقاد إليك؛ أحب الأمور إليك أعْودها بالمضرة عليك.

لبعض الأعراب:

وقيل لأعرابي: مالك لا تشرب النبيذ؟ قال: لثلاث خلال فيه: لأنه متلف للمال، مذهب للعقل، مُسقط للمروءة.

وقال أعرابي لرجل: أي أخي، إن يسار النفس أفضل من يسار المال، فإن لم ترزق غنى» فلا تحرم تقوى، فرب شبعان من النعم، غرثان[2] من الكرم؛ وآعلم أن المؤمن على خير، ترحّب به الأرض، وتستبشر به السماء؛ ولن يُساء إليه في بطنها، وقد أحسن على ظهرها.

وقال أعرابي: الدراهمُ مياسم[3] تسِمُ حمداً وذماً؛ فمن حبسها كان لها، ومن أنفقها كانت له؛ وما كلُّ من أُعْطي مالاً أُعْطِيَ حمداً ولا كلُّ عديمٍ ذميمٌ.

أخذ هذا المعنى الشاعر فقال:

أنـــتَ للمالِ إذا أمْسكْتَـــهُ فــإذا أنْفَقْتَــه فــالمالُ لـــكْ

---

(١) سورة المطففين الآية ١ ـ ٦ . (٢) غرثان: جائع.

(٣) مياسم: مفرده ميسم، وهو الآلة يوسم بها كالمكواة.

لابن عباس:

وهذا نظير قول آبن عباس ـ ونظر إلى درهم في يد رجل ـ فقال: إنه ليس لك حتى يخرج من يدك.

لبعض الأعراب:

وقال أعرابي لأخٍ له: يا أخي، إن مالك إن لم يكن لك، كنت له؛ وإن لم تُفنه أفناك، فكُلْه قبل أن يأكلك.

وقال أعرابي: مضى لنا سلفٌ أهل تواصُل اعتقدوا مننا، واتخذوا الأيادي ذخيرة لمن بعدهم، يرون اصطناع المعروف عليهم فرضاً لازماً، وإظهار البرِّ واجباً ثم جاء الزمان ببنين اتخذوا مِنَنهم بصناعة، وبرَّهم مرابحة، وأياديهم تجارة، واصطناع المعروف مقارضة[1] كنقد [السوق]: خذ مني وهات.

وقال أعرابي لولده: يا بني، لا تكن رأساً ولا ذَنَباً، فإن كنت رأساً فتهيأ للنطاح، وإن كنت ذَنَباً فتهيأ للنكاح.

قال: وسمعت أعرابياً يقول لابن عمه: سأتخطى ذنبك إلى عُذْرك، وإن كنتُ من أحدهما على شك ومن الآخر على يقين؛ ولكن لِيتِمَّ المعروف مني إليك، ولتقوم الحجة لي عليك.

قال: وسمعت أعرابياً يقول: إن الموفَّق من ترك أرفق الحالات به لأصلحِها لدينه، نظراً لنفسه إذا لم تنظر نفسه لها.

قال: وسمعت أعرابْياً يقول: الله مُخْلِفُ ما أتلف الناس، والدهر مُتلِف ما أخلفوا، وكم من ميتة عليها طلب الحياة، وكم من حياة سببها التعرض للموت.

وقال أعرابي: إن الآمال قَطَعت أعناق الرجال، كالسراب: غرَّ من رآه، وأخلف من رجاه.

---

(١) يقال قارضه مقارضة: أعطاه قرضا.

وقال أعرابي لصاحب له: أصحب من يتناسى معروفهُ عندك، ويتذكر حقوقَك عليه.

وقال أعرابي: لا تسأل عمن يفرّ من أن تسأله، ولكن سل مَن أمَرَك أن تسأله، وهو الله تعالى.

وقيل لأعرابي في مرضه: ما تشتكي؟ قال: تمامَ العِدَّةِ، وانقضاءَ المدّةِ.

ونظر أعرابي إلى رجل يشكو ما هو فيه من الضيق والضر، فقال: يا هذا، أتشكو مَنْ يرحَمُك إلى من لا يرحَمْكَ.

وقالت أعرابية لابنها: يا بنيّ، إن سؤالك الناسَ ما في أيديهم أشد من الافتقار إليهم، ومن افتقَرْت إليه هُنْت عليه، ولا تزال تحفظ وتكرم حتى تَسأل وتَرغب فإذا ألحتْ عليك الحاجة ولزمك سوءُ الحال، فاجعل سؤالك إلى من إليه حاجة السائل والمسئول، فإنه يعطي السائل.

وقالت أعرابية تُوصي ابناً لها أراد سفراً: يا بُنيَّ، عليك بتقوى الله فإنه أجدى عليك من كثير غيرك؛ وإياك والنمائم، فإنها تورث الضغائن وتفرق بين المحبين، ومثِّل لنفسك مثالاً تستحسنه من غيرك فاحذر عليه واتخذه إماماً، واعلم أنه من جمع بين السخاء والحياء، فقد أجاد الحلةَ إزارَها ورداءها.

قال الأصمعي: لا تكون الحلة إلا ثوبين: ازاراً ورداء.

أنشد الحسن لأعرابي كان يطوف بأمه على عانقه حول الكعبة:

إنْ تَركي على قـذَالي[1] فـاركَبي   فطـالما حَملْتني وسِـرْتِ بي
في بطنِـكِ المطهَّـر المطيَّـبِ   كم بين هـذاك وهـذا المرْكَـب

وأنشد لآخر كان يطوف بأمه:

مـا حـجَّ عبـدٌ حَجَّـةً بـأمِّـه   فكان فيهـا مُنْفقـاً مـن كـدّهِ

(١) القذال: جماع مؤخر الرأس من الانسان والفرس فوق القفا.

إلا ٱستَتَمَّ الأجرَ عِند ربِّهِ

قال وسمعت أعرابياً يقول: ما بقاءُ عمرٍ تقطعه الساعات، وسلامة بَدَنٍ مُعرّض للآفات! ولقد عَجبتُ من المؤمن كيف يكره الموت وهو ينقله إلى الثواب الذي أحيا له ليلَه وأظمأ له نهاره.

وذكر أهل السلطان عند أعرابي فقال: أما والله لئن عزُّوا في الدنيا بالجوْر لقد ذلُّوا في الآخرة بالعدل، ولقد رضوا بقليل فان عِوضاً عن كثير باق، وإنما تزل القدم حيث لا ينفع الندم.

ووصف أعرابي الدنيا فقال: هي رنقةُ[1] المشارب، جمة المصائب لا تمتعك الدهر بصاحب.

وقال أعرابي: من كان مطيته الليل والنهار سارا به وإن لم يَسِر، وبلغا به وإن لم يبلغ.

قال: وسمعت أعرابياً يقول: الزهادة في الدنيا مفتاحُ الرغبة في الآخرة والزهادة في الآخرة مفتاحُ الرغبة في الدنيا.

وقيل لأعرابي وقد مرض: إنك تموت! قال: وإذا متُّ فإلى أين يُذهَب بي؟ قالوا: إلى الله! قال: فما كراهتي أن يذهب بي إلى من لم أر الخير إلا منه؟

وقال أعرابي: من خاف الموت بادره الموت، ومن لم يُنَحِّ النفس عن الشهوات أسرعت به إلى الهلكات، والجنة والنار أمامك.

وقال أعرابي لصاحب له: والله لئن هملجت[2] إلى الباطل إنك لعطوف عن الحق، وإن أبطأت ليُسْرِعَنَّ إليك، وقد خسر أقوام وهم يظنون أنهم رابحون؛ فلا تعرَّنَّك الدنيا، فإن الآخرة من ورائك.

وقال أعرابي: خير لك من الحياة ما إذا فقدته أبغضت له الحياة، وشر من الموت

---

(١) رنقة: كدرة.
(٢) هملج: سار سيراً حسناً في سرعة.

ما إذا نزل بك أحببت له الموت .

وقال أعرابيٌّ: حسبك من فساد الدنيا أنك ترى أسنمة توضع؛ وأخفافاً ترقع. والخيرَ يُطلب عند غير أهله، والفقيرَ قد حل غير محله.

وقدم أعرابي إلى السلطان فقال له: قُلِ الحقَّ وإلا أَوْجَعْتُكَ ضَرباً! قال له: وأنت فاعمل به، فوالله ما أوعدك الله على تركه أعظمُ مما توعَّدُني به.

وقيل لأعرابي: من أحقُّ الناس بالرحمةِ؟ قال الكريم يسلَّط عليه اللئيم، والعاقل يسلط عليه الجاهل.

وقيل له: أي الداعين أحق بالإجابة؟ قال المظلوم.

وقيل له: فأي الناس أغنى عن الناس؟ قال: من أفرد الله بحاجته.

ونظر عثمان إلى أعرابي في شَملة غائر العينين مُشرف الحاجبين ناتىء الجبهة، فقال له: يا أعرابي، أين ربُّك؟ قال: بالمرصاد.

الأصمعي قال: سمعت أعرابياً يقول: إذا أشكل عليك أمران فانظر أيهما أقرب من هواك فخالفه، فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى.

قال: وسمعت أعرابياً يقول: من نتَج الخير أنتج له فِراخاً تطير بأجنحة السرور؛ ومن غرس الشر أنبت له نباتاً مرّاً مذاقه، وقضبانه الغيظ، وثمرته الندم.

وقال أعرابي: الهوى عاجله لذيذ، وآجله وخيم.

وقيل لأعرابي: إنك لحسَن الشارة. قال: ذلك عنوان نعمة الله عندي.

قال الأصمعي: ورأيت أعرابياً أمامه شاءٌ فقلت له: لمن هذه الشاء؟ قال: هي لله عندي.

وقيل لأعرابي: كيف أنت في دينك؟ قال: أخرقه بالمعاصي وأرقعه بالاستغفار.

وقال أعرابي: من كساه الحياءُ ثوبَه خَفَي على الناس عيبه.

وقال: بئس الزاد التعدي على العباد.

وقال: التلطف بالحيلة أنفع من الوسيلة.

وقال: من ثقل على صديقه خفَّ على عدوّه، ومن أسرع إلى الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون.

قال وسمعت أعرابياً يقول لابنه وهو يعاتبه: لا تتوهمن ـ على من يستدل على غائب الأمور بشاهدها ـ الغفلة عن أمور يعاينها، فتكون بنفسك أخطأت، وحظّك أخطأت.

ونظر أعرابي إلى رجل حسن الوجه بَضّهِ[1] فقال. إني أرى وجهاً ما عَلِقَه بَرْدُ وُضُوء السَّحَر، ولا هو بالذي قال فيه االشاعر:

من كلِّ مجتهدٍ برَى أوصالَه صوْم النهار وسجدة الأسحار

الأصمعي قال: سمعت أعرابياً ينشد:

وإذا أظهرْتَ أمراً حسَناً فليكن أحسن منه ما تُسِرّ
فمُسرُّ الخير مَوسومٌ به ومُسِرُّ الشرِّ مَوسومٌ بِشَرّ

وقول الأعرابي هذا على ما جاء في حديث رسول الله ﷺ: « ما اسر امروٌ سريرة إلا ألبسه الله رداءها، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر ».

قال: وأنشدني أعرابي:

وما هذه الأيام إلاَّ مُعارةٌ فما اسطعْت من معروفها فتزوَّدِ
فإنك لا تدري بأيَّة بلدةٍ تموت ولا ما يُحدِث الله في غدِ
يقولون لا تَبعَدْ ومَن يك مُسدَلاً على وجهِه سِترٌ من الأرض يَبعَدِ

وقال أعرابي: أعجز الناس من قصَّر في طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيَّع من ظفر به منهم.

وقال أعرابي لابنه: لا يسرك أن تغلب بالشر؛ فإن الغالب بالشر هو المغلوب.
وقال أعرابي لأخ له: قد نهيتك أن تريق ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه. فإن حظك من عطيته السؤال.
قال: وسمعت أعرابياً يقول: إن حب الخير خير وإن عجزت عنه المقدرة،

---

(١) البضّ: النّضر.

وبغض الشر خير وإن فعلت أكثره .

وشهد أعرابي عند سوار القاضي بشهادة، فقال له: يا أعرابي، إن ميداننا لا يجري من العتاق فيه إلا الجياد. قال: لئن كشفت لتجدنّي عثوراً! فسأل عنه سوار فأُخبر بفضل وصلاح، فقال له: يا أعرابي، أنت ممن يجري في ميداننا. قال: ذلك بستر الله .

وقال أعرابي: والله لولا أن المروءة ثقيل محملها، شديدة مؤنتها[1]، ما ترك اللئام للكرام شيئاً .

احتُضر أعرابي، فقال له بنوه: عظنا يا أبت. فقال: عاشروا الناس معاشرة إن غبتم حنوا إليكم، وإن متم بكوا عليكم .

ودخل أعرابي على بعض الملوك في شملة شعر، فلما رآه أعرض عنه، فقال له: إن الشملة لا تكلمك وإنما يكلمك من هو فيها .

مرّ أعرابي بقوم يدفنون جارية، فقال نعم الصهر ما صهرتم! وأنشد:

وفي الأعيـــاص أكفـــاءٌ لليْلى　　　وفي لحدٍ لها كُـــفءٌ كـــريمُ

وقال أعرابي: رب رجل سِره منشور على لسانه، وآخر قد التحف عليه قلبه التحاف الجناح على الخوافي .

ومرّ أعرابيان برجل صَلّبه بعض الخلفاء، فقال أحدهما: أنبتته الطاعة وحصدته المعصية! وقال الآخر: من طلق الدنيا فالآخرة صاحبته، ومن فارق الحق فالجِذْع راحلته .

العتبي عن زيد بن عُمارة، قال: سمعت أعرابياً يقول لأخيه وهو يبني منزلاً: يا أخي:

أنـــت في دار شَتَـــاتِ　　　فتـــأهَّـــبْ لِشتـــاتِـــكْ

---

(١) المؤنة: القوت .

واجعل الدُّنيا كيومٍ صُمْتَه عن شهواتِكْ
واجعل الفِطْر إذا ما نِلْتَه يوم مماتك
واطلبِ الفوْز بعيش الز هد من طول حياتك

ثم أطرق حيناً ورفع رأسه وهو يقول:

قائدُ الغَفْلة الأمل والهوى قائدُ الزَّلل
قتَلَ الجهلُ أهله ونجا كلٌّ من عقلْ
فاغتنِم دوْلة السَّلا مة واستأْنف العملْ
أيها المُبتني القصو رَ وقد شاب واكتَهلْ
أخبرَ الشَّيْب عنك أنك في آخر الأجل
فعلامَ الوقوفُ في عَرْصة العجو والكسل
أنت في منزلٍ إذا حَلَّه نازلٌ رَحلْ
منزل لم يَزل يَضيقُ ويَنبو بمن نزل
فتأهَب لرحلة ليس يسعى بها جَمل
رِحلةٍ لم تزل على الدهر مكروهة القَفَلْ

وقيل لأعرابي: كيف كتمانك للسر؟ قال: ما جوفي له إلا قبر.

لآخر في الوفاء:

وقال أعرابي: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل. ودوام عهده، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه، وشوقه إلى إخوانه، وبكائه على ما مضى من زمانه.

لآخر فيما يضيع الأمور:

وقال أعرابي: إذا كان الرأي عند من لا يُقبل منه، والسلاح عند من لا يستعمله، والمال عند من لا ينفقه ـ ضاعت الأمور.

لآخر في القدر:

وسئل أعرابي عن القدر فقال: الناظر في قدَر الله كالناظر في عين الشمس: يعرف ضوءها ولا يقف على حدودها.

وسئل آخر عن القدر فقال: علمٌ اختصمتْ فيه العقول، وتقاول فيه المختلفون، وحق علينا أن نرد ما التبس علينا من حكمه إلى ما سبق من علمه.

وقال أعرابي تكوير[١] الليل والنهار، لا يُبْقِي على الأعمار، ولا لأحد فيه الخيار.

الحجاج وأعرابي:

أبو حاتم عن الأصمعي قال: خرج الحَجاج ذات يوم فأصحر[٢]، وحضر غداؤه فقال: اطلبوا من يتغدّى معنا. فطلبوا، فلم يجدوا إلا أعرابياً في شملة، فأتوه به، قال له: هلم. قال له: قد دعاني من هو أكرم منك فأجبتُه! قال: ومن هو؟ قال: الله تبارك وتعالى، دعاني إلى الصيام، فأنا صائم. قال: صوم في مثل هذا اليوم على حَر؟ قال صمت ليوم هو أحرُّ منه! قال فأفطر اليوم وتصوم غداً. قال: ويضمن لي الأمير أن أعيش إلى غدّ! قال: ليس ذلك إلي قال: فكيف تسألني عاجلاً بآجلٍ ليس إليه سبيل! قال: إنه طعام طيب. قال: والله ما طيَّبه خبازك ولا طباخك، ولكن طيبتْه العافية! قال الحجاج: تالله ما رأيت كاليوم، أخرجوه عني.

لأعرابي:

أبو الفضل الرياشي قال: أنشدنا أعرابي:

أباكِيةٌ رزيْنَةٌ إن أتاها نعِيٌّ أمْ يكونُ لها اصْطِبارُ
إذا ما أهلُ وُدِّي ودَّعوني وراحوا والأكُفُ بها غُبارُ
وغُودِرَ أعْظُمِي في لحدِ قبْرٍ تعاوَرُهُ الجنائِبُ والقِطارُ[٣]

---

(١) تكوير الليل والنهار: أن يلحق أحدهما بالآخر. (٢) أصحر: خرج إلى الصحراء.

(٣) الجنائب: جمع جنوب، وهي الرياح الحارة؛ والقطار: جمع قطر، وهو المطر.

تظَلّ الرِّيحُ عاصفةً عليهِ ... ويَرعَى حولَهُ اللّهق النَّوارُ[1]
فذاكَ النَّأيُ لا الهِجرانُ حوْلا ... وحَوْلا ثم تجمَعُنا الدِّيارُ

وهذا نظير قول ليلى الأخيلية:

لعَمْرُك ما الهِجرانُ أن تَشْحَط النَّوَى ... ولكِنما الهجرانُ ما غيَّبَ القبرُ[2]

ونظيره قول خنساء:

نأْيُ الخَليلَيْنِ كوْنُ الأرضِ بينهما ... هذا عليها وهذا تحتَها رِمَما[3]

وأنشد الآخر:

إذا ما المنايا أخْطأتْك وصادفتْ ... حبيبكَ فاعْلَمْ أنها ستَعودُ

عمر وأعرابي بالجبانة:

الرياشي قال: مَرَّ عمر بن الخطاب بالجبّانة فإذا هو بأعرابيّ، فقال: ما تَصنع هنا يا أعرابي في هذه الديار الموحشة؟ قال: وديعة لي ها هنا يا أمير المؤمنين. قال: وما وديعتك؟ قال: بُنَيٌّ لي دفنته، فأنا أخرج إليه كل يوم أندبه. قال: فاندبه حتى أسمع. فأنشأ يقول:

يا غائباً ما يؤُوبُ من سَفَرهْ ... عاجَله موته على صِغَرهْ
يا قرّةَ العيْن كنتَ لي سكَنا ... في طول ليْلِي نعمْ وفي قِصَرِهْ
شرِبْت كأساً أبوكَ شارِبُها ... لا بُدَّ يوماً له على كِبَرِهْ
يشرَبُها والأنامُ كلُّهُم ... مَنْ كان في بَدوِهِ وفي حَضَرِهْ
فالحمدُ للهِ لا شَريكَ لهُ ... الموتُ في حُكمِهِ وفي قدرِهْ
قد قُسِّم العمر في العِبادِ فما ... يقدِرُ خلْقٌ يزيدُ في عُمُرِهْ

---

(١) اللهق: الثور الوحشي؛ والنوار: النفور.

(٢) تشحط: تبعد.

(٣) الرِّمم: البالي من كل شيء.

قولهم في المدح

لبعضهم في المدح:

ذكر أعرابي قوماً عُباداً، فقال: تركوا والله النعيم ليتنعموا؛ لهم عبرات متدافعة، وزفرات متتابعة، لا تراهم إلا في وجه وجيه عند الله.

وذكر أعرابيّ قوماً فقال: أدّبتهم الحكمة وأحكمتهم التجارب؛ فلم تغُرَّهم السلامة المنطوية على الهلكة، ورحل عنهم التسويف الذي به قطع الناس مسافة آجالهم: فدلّت ألسنتهم بالوعد، وانبسطت أيديهم بالوجْد[1] فأحسنوا المقال، وشَفعوه بالفعال.

وسئل أعرابي عن قوم فقال: كانوا إذا اصطفوا سفرت[2] بينهم السهام؛ وإذا تصافحوا بالسيوف فغرت المنايا أفواهها؛ فرب يوم عارم[3] قد أحسنوا أدبه، وحرب عبوس قد ضاحكتها أسنتهم؛ إنما قومي البحر. ما ألقمتَه التقَم.

وذكر أعرابي قوماً فقال: ما رأيت أسرع [منهم] إلى داع بليل على فرس حسيب[4] وجمل نجيب. ثم لا ينتظر الأولُ السابق الآخرَ اللاحن.

وذكر أعرابي قوماً فقال: جعلوا أموالهم مناديل أعراضهم. فالخير بهم زائد، والمعروف لهم شاهد؛ فيعطونها بطيبة أنفسهم إذا طلبت إليهم. ويباشرون المعروف بإشراق الوجوه إذا بُغي لديهم.

وذكر أعرابي قوماً فقال: والله ما أنالوا شيئاً بأطراف أناملهم إلا وطئناه بأخماص أقدامنا؛ وإن أقصى هممهم لأدنى فعالنا.

وذكر أعرابي أميراً فقال: إذا ولى يطابق بين جفونه، وأرسل العيونَ على عيونه؛ فهو غائب عنهم شاهد معهم، فالمحسن راج والمسيء خائف.

---

(١) الوجد: اليسار والسعة.

(٢) أي كانت السهام بينهم سفراء.

(٣) عارم: شديد.

(٤) الحسيب: ذو الحسب.

ودخل أعرابي على رجل من الولاة فقال: أصلح الله الأمير، اجعلني زماماً من أزمتك تجرّبه الأعداء، فإني مِسْعَر حرْب، ورَكَّاب نُجب، شديد على الأعداء لين على الأصدقاء؛ منطوي الحصيلة، قليل الثميلة[1]، نومي غِرار[2]، قد غَذَتْني الحرب بأفاويقها، وحلبت الدهر أشطره؛ ولا تمنعك مني الدمامة؛ فإن من تحتها شهامة.

وذكر أعرابي رجلاً ببراعة المنطق فقال: كان والله بارع المنطق، جزل الألفاظ، عربيّ اللسان، فصيح البيان، رقيق حواشي الكلام، بليل الريق، قليل الحركات، ساكن الإشارات.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: رأيت له حلماً وأناة، يحدثك الحديث على مقاطعه، ينشدك الشعر على مدارجه، فلا تسمع له لحناً ولا إحالة[3].

العتبي قال: ذكر أعرابي قوماً، فقال: آلت سيوفهم ألاّ تقضي ديناً عليهم، ولا تضَيِّع حقا لهم، فما أُخذَ منهم مردود إليهم، وما أَخَذُوا متروكٌ لهم.

ومدح أعرابي رجلاً، فقال: ما رأيت عيناً قط أخرق لظلمة الليل من عينه ولحظةً أشبه بلهيب النار من لحظته؛ له هزة كهزة السيف إذا طرب، وجرأة كجرأة الليث إذا غضب.

ومدح أعرابي رجلاً فقال: كان الفهمُ منه ذا أذنين، والجواب ذا لسانين؛ لم أر أحداً أَرْتقَ لخلل الرأي منه، بعيد مسافة العقل ومَراد الطرف، إنما يرمي بهمته حيث أشار الكرم.

ومدح أعرابيّ رجلاً فقال: ذاك والله فسيح النسب، مستحكم الأدب، من أي أقطاره أتيته انتهى إليك بكرم فعال، وحسن مقال.

ومدح أعرابي رجلاً فقال: كانت ظلمة ليله كضوء نهاره، آمراً بإرشاد، وناهياً

(١) الثميلة: البقية من الشيء. (٢) غرار: قليل.
(٣) أحال الكلام: أفسده.

عن فساد، لحديث السوءِ غيرَ منقاد.

وقال أعرابي: إن فلاناً «نعم» للسانه قبل أن يخلق لسانه لها: فما تراه الدهر إلا وكأنه لا غنى له عنك وإن كنت إليه أحوج؛ إذا أذنبت إليه غفر وكأنه المذنب، وإذا أسأت إليه أحسن وكأنه المسيء.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: اشترى والله عِرْضَه من الأذى؛ فلو كانت الدنيا له فأنفقها لرأى بعدها عليه حقوقاً، وكان منهاجاً للأمور المشكلة إذا تناجز الناس باللائمة.

ومدح أعرابيّ رجلاً فقال: كان والله يغسل من العار وجوهاً مسودة، ويفتح من الرأي عيوناً منسدة.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: ذاك والله ينفع سلمه ولا يستمر ظلمه؛ إن قال فعل، وإن ولي عدل.

ومدح أعرابي رجلاً فقال: ذاك والله يعني في طلب المكارم، غير ضال في مسالك طرقها، ولا مُشتغل عنها بغيرها.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: يفوِّق الكلمة على المعنى فتمرق مروق السهم من الرمِيَّة، فما أصاب قتل، وما أخطأ أشوى(١)، وما عظعظ(٢) له سهم منذ تحرك لسانه في فيه.

وذكر أعرابي أخاه فقال: كان والله رَكوباً للأهوال، غير ألوف لربَّات الحَجال؛ إذا أرعد القوم من غير كرّ، يهين نفساً كريمة على قومها، غير مبقية لغد ما في يومها.

ومدح رجل رجلاً فقال: كأن الألسن ريضت(٣) فما تنعقد إلا على ودِّه، ولا تنطق إلا بثنائه.

(١) أشوى: أصاب الشوى؛ والشوى كل ما ليس مقتلاً كاليدين والرجلين.

(٢) عظعظ: مر مضطرباً ولم يقصد. (٣) ريضت: ذللت.

ومدح أعرابي رجلاً فقال: كان والله للإخاء وَصولاً، وللمال بَذولاً، وكان الوفاء بهما عليه كفيلاً، فمن فاضله كان مفضولاً.

وقيل لأعرابي: ما البلاغة؟ قال: التباعد من حشو الكلام، والدلالة بالقليل على الكثير.

ومدح أعرابي رجلاً فقال: كان والله من شجر لا يخلف ثمره، ومن بحر لا يخاف كدره.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: ذاك والله فتى زانه الله بالخير ناشئاً، فأحسن لبسه، وزين به نفسه.

ومدح أعرابي رجلاً فقال: يصم أذنيه عن استماع الخَنا[1]، ويخرس لسانه عن التكلم به؛ فهو الماء الشَّريب[2]، والمصقع الخطيب.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: ذاك رجل سبق إليّ معروفه قبل طلبي إليه، فالعرض وافر، والوجه بمائه، وما أستقل بنعمة إلا أثقلني بأخرى.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: ذاك رضيع الجود والمفطوم به، عَيٌّ عن الفحشاء، معتصم بالتقوى؛ إذا خَرِست الألسن عن الرأي حذف[3] بالصواب كما يَحذف الأرنب، فإن طالت الغاية ولم يكن من دونها نهاية تمهل أمام القوم سابقاً.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: إن جليسه لطِيب عشرته أطربُ من الإبل على الحداء، والثمل على الغناء.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: كان له علم لا يخالطه جهل، وصدق لا يشوبه كذب، كأنه الوبْل عند المحْل.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: ما رأيت أعشق للمعروف منه، وما رأيت المنكر أبغض لأحد منه.

---

(١) الخنا: الفحش في الكلام.

(٢) الشريب: العذب. (٣) حذف: رمى.

وقدم أعرابي البادية وقد نال من بني برمك، فقيل له: كيف رأيتَهم؟ قال: رأيتهم قد أنِست بهم النعمة كأنها من بناتهم.

قال: وذكر أعرابي رجلاً فقال: ما زال يبني المجد، ويشتري الحمد، حتى بلغ منه الجهد.

ودخل أعرابي على بعض الملوك فقال: إن جهلاً أن يقول المادح بخلاف ما يعرف من الممدوح، وإني والله ما رأيت أعشق للمكارم في زمان اللؤم منك. ثم أنشد:

مـالي أرى أبـوابَهــم مهجــورةً ... وكأن بـابـك مَجمـع الأسـواقِ
حابَوكَ أم هابُوك أم شاموا النَّـدَى ... بيديْـك فـاجتمعـوا مـن الآفـاق
إني رأيتـك للمكـارم عـاشقـاً ... والمكـرُمـات قليلـة العشّـاق

وأنشد أعرابي في مثل هذا المعنى:

بَنَت المكـارمُ وسْـط بيتـك بيتَهـا ... فتِلادُهـا بـكَ للصـديـق مُبـاحُ
وإذا المكـارم أغلقـتْ أبـوابَهـا ... يـومـاً فـأنـت لقُفْلهـا مِفتـاح

وأنشد أعرابي في بني المهلّب:

قدِمـتُ على آل المهلّـب شـاتيـاً[1] ... قصيّاً بعيد الدار في زمـن المَحْـلِ
فما زال بي إلْطـافُهـم وافتقـادُهـم ... وبِـرهــم حتى حسبْتهـــم أهلي

وأنشد أعرابي:

كـأنـكَ في الكتـاب وجـدْت لاءً ... مُحــرمــةً عليــك فما تَحــلُّ
ومـا تَـدري إذا أعْطيــتَ مــالاً ... أتُكثِـر مــن سماحــك أم تُقـل
إذا دخـل الشتـاءُ فـأنــت شمس ... وإن دخـل المَصيـف فـأنـت ظـل

وقال أعرابي في مدح عمر بن عبد العزيز:

مُقابل الأعْراق في الطـاب الطـاب ... بين أبي العـاص وآل الخطـابْ[2]

---

(١) شاتياً: مقيماً عندهم شتاء. (٢) مقابل الأعراف أي شريف من قبل أبيه وأمه. والطاب: الطيب.

وأنشد أعرابي:

لنا جَوَادٌ أعارَ النِّيلَ نائله — والنِّيْل يَشكر منه كثرةَ النيْلِ
ان بارز الشمسَ ألقى الشمس مُظلمةً — أو زاحمَ الصُّم ألجاها إلى الميْل
أهْدَى من النَّجْم إن تأْتيه مشكِلةٌ — وعند إمضائِه أمضى من السيل
والموتُ يَرهب أن يلقى منيَّته — في شدّه عند لفِّ الخيْل بالخيل

قولهم في الذمّ

الأصمعي قال: ذكر أعرابي قوماً فقال: أولئك سُلخت أقفاؤهم بالهجاء، ودُبغت وجوههم باللؤم؛ لباسهم في الدنيا الملامة، وزادهم إلى الآخرة الندامة.

قال: وذكر أعرابي قوماً فقال: لهم بيوت تُدخَل حبْواً إلى غير نمارق[1] ولا وسائد، فُصْحُ الألسن برَدّ السائل؛ جُعْد الأكف عن النائل.

قال: وسمعت أعرابياً يقول: لقد صغَّر فلاناً في عيني عظم الدنيا في عينه، وكأنما يرى السائلَ إذا أتاه، ملَك الموت إذا رآه.

وسئل أعرابي عن رجل، فقال: ما ظنكم بسكِّير لا يفيق، يتهم الصديق، ويعصى الشفيق، لا يكون في موضع إلا حرمت فيه الصلاة، ولو أفلتت كلمة سوء لم تصر إلا إليه، ولو نزلت لعنة من السماء لم تقع إلا عليه.

وذكر أعرابي قوماً فقال: أقل الناس ذنوباً إلى أعدائهم، وأكثرهم تجرّماً على أصدقائهم؛ يصومون عن المعروف، ويفطرون على الفحشاء.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: إن فلاناً ليُعدِي بإثمه من تسمّى باسمه، ولئن خيبني فلرب باقية قد ضاعت في طلب رجل كريم.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: تغدو إليه مراكب الضلالة فترجع من عنده ببُدور[2]

(١) النمارق مفردها نمرقة وهي الوسادة الصغيرة يتكأ عليها.

(٢) البدور: جمع بدرة وهي كيس فيه ألف أو عشرة آلاف.

الآثام، مُعدِم ما تُحب، مُثْر مما تكره. وصاحب السوء قطعة من النار.

وقال أعرابي لرجل: أنت والله ممن إذا سأل ألحف، وإذا سئل سوّف، وإذا حدّث حلف، وإذا وعد أخلف؛ تنظر نظر حسود، وتُعرض إعراض حَقود.

وسافر أعرابي إلى رجل فحرّمه، فقال لما سئل عن سفره: ما ربحنا في سفرنا إلا ما قصَرْنا من صلاتنا؛ فأمّا الذي لقينا من الهواجر، ولقيتْ منا الأباعر، فعقوبة لنا فيما أفسدنا من حسن ظننا. ثم أنشأ يقول:

رجَعنا سالمين كما خرجْنا ... وما خابتْ سريَّة سالِمينا

لشاعر في الهجاء:

وقال أعرابي:

لَمّا رأيتُك لا فاجراً ... قويّاً ولا أنت بالزاهد
ولا أنت بالرجل المتّقي ... ولا أنت بالرجل العابد
عرضتْك في السُّوق سوقِ الرقيق ... وناديتُ هل فيك من زائد
على رجلٍ خان وُدّ الصديق ... كُفورٍ بأنعُمه جاحد
فما جاءَني رجل واحد ... يَزيد على درهم واحد
سِوى رجلٍ زادني دانقاً ... ولم يك في ذاك بالجاهد[1]
فبعتك منه بلا شاهدٍ ... مخافةَ ردّك بالشاهد
وأُبت إلي منزلي غانماً ... وحلَّ البلاءُ على الناقد

لبعض الأعراب:

قال: وذكر أعرابي رجلاً، قال: كان إذا رآني قرّب من حاجب حاجباً، فأقول له: لا تُقبِّح وجهك إلى قُبحه، فوالله ما أتيتك لطمعٍ راغباً، ولا لخوف راهباً.

---

(١) الدانق: سدس الدرهم.

وذم أعرابي رجلاً فقال: عبد الفعال، حر المقال؛ عظيم الرواق، دنيء الأخلاق؛ الدهر يرفعه، ونفسه تضعه.

وذمَّ أعرابي رجلاً فقال: ضيق الصدر، صغير القدر، عظيم الكبر، قصير الشبر، لئيم النَّجر[1]، كثير الفخر.

وقال أعرابي: دخلت البصرة فرأيت ثياب أحرار على أجساد عبيد؛ إقبالُ حظهم إدبارُ حظ الكرام، شجرٌ أصوله عند فروعه، شغلهم عن المعروف رغبتُهم في المنكر.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: ذاك يتيم، أعْيا ما يكون عند جلسائه أبلَغُ ما يكون عند نفسه.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: ذلك إلى من يداوي عقلَه من الجهل، أحوجُ منه إلى من يداوي بدنَه من المرض؛ إنه لا مرض أوْجع من قلة عقل.

وذكر أعرابي رجلاً لم يدرك بثأره، فقال: كيف يدرك بثأره من في صدره من اللؤم حشو مرفقته؛ ولو دُقَّت بوجهه الحجارة لرضّها[2]، ولو خلا بالكعبة لسرقها.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: تسهر والله زوجته جوعاً إذا سهر الناس شبعاً؛ ثم لا يخاف مع ذلك عاجل عار، ولا آجل نار؛ كالبهيمة أكلت ما جمعت، ونكحت ما وجدت.

وسمع أعرابي رجلاً يزعق، فقال: ويحك! إنما يستجاب لمؤمن أو مظلوم، ولست بواحد منهما؛ وأراك يخف عليك ثقلُ الذنوب فيحسِّن عندك مقابحَ العيوب.

وذكر أعرابي رجلاً بضعف فقال: سيء الروية، قليل التقية[3]، كثير السعاية، ضعيف النكاية.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: عليه كل يوم من فعله شاهد بفسقه؛ وشهادات الأفعال أعدل من شهادات الرجال.

---

(١) النجر: الأصل. (٢) الرض: الدق.

(٣) التقية: الحذر.

وذكر أعرابي رجلاً بذِلة فقال: عاش خاملاً ومات موتوراً.

وذكر قوماً فقال: أُلبسوا نعمة ثم عُرُّوا منها فقال: ما كانت النعمة إلا طيفاً لما انتبهوا لها ذهبت عنهم.

وذم أعرابي رجلاً فقال: هو كعبد القِنّ[1] يسرك شاهدا ويسوءك غائبا.

ودعت أعرابية على رجل فقالت: أمكن اللهُ منك عدوّاً حسوداً، وفجع بك صديقاً ودُوداً؛ وسلط عليك هَمّاً يضنيك، وجاراً يؤذيك.

وقال أعرابي لرجل شريف البيت دنيء الهمة: ما أحوجك أن يكون عِرضك لمن يصونه، فتكون فوق ما أنت دونه.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: إن حدّثته يسابقك إلى ذلك الحديث، وإن سكتّ عنه أخذ في الترّهات.

وذكر أعرابي أميراً فقال: يصل النشوة، ويقضي بالعَشْوة[2]، ويقبل الرشوة.

وذكر أعرابي رجلاً راكباً هواه، فقال: والله لهو أسرع إلى ما يهواه، من الأسن[3] إلى راكد المياه، أفقره ذلك أو أغناه.

وقال أعرابي: ليتَ فلاناً أقالني من حسن ظني به، فأختمَ بصواب إذ بدأت بخطأ؛ ولكن من لم تحكمه التجارب أسرع بالمدح إلى من يستوجب الذم، وبالذم إلى من يستوجب المدح.

وقال أعرابي لرجل: هل أنت إلا أنت لم تغير! ولو كنتَ من حديد وُضعت على أتون محمىّ لم تذب.

وسمعت أعرابياً يقول لأخيه: قد كنت نهيتك أن تدنس عِرضك بعِرض فلان، وأعلمتُك أنه سمين المال، مهزول المعروف، من المرزوقين فجأة، قصير عمر الغنى، طويل عمر الفقر.

---

(١) العبد القن: الذي كان أبوه مملوكاً لمواليه. (٢) العشوة: ركوب الأمر على غير بيان.

(٣) الأسن من المياه: المتغير الذي لا يُشرب.

أقبل أعرابي إلى سوّار فلم يصادف عنده ما أحب، فقال فيه:

رأيـتُ لي رُؤيـا وعبّـرْتُهـا ... وكنْـت لِلأحلام عبّـارَا
بـأنني أخْبِـطُ في ليْلَتي ... كلباً فكـانَ الكلـبُ سـوّارَا

وقال أعرابي في ابن عم له يسمى زياداً:

مـن يُبـادِلني قـريبـاً ... ببعيـد مـنْ إيـادِ؟
من يُقـادِرْ، مـن يُطـافِس ... مـن يُنـاذِل بـزيـادِ[1]

في هجاء ابن سلم:

وقال سعيد بن سلم الباهلي: مدحنِي أعرابيّ، فاستبطأ الثواب فقال:

لكـلِّ أخـي مـدْحٍ ثـوابٌ يُعِـدُّه ... وليْس لِمـدْحِ البـاهلِيِّ ثـوابُ
مَـدَحـت سَعيـدا والمديـح مَهَـزَّةٌ ... فكان كصفْوانٍ، عليـهِ تُـراب[2]

وقال أيضاً:

وإنَّ مـن غـايـةِ حـرْصِ الفتَـى ... طِلاَبـه المعـروفَ في بـاهلَـه
كبيرُهُـم وغْـدٌ ومـولـودهـم ... تلْعنُـه في قُبحِـه القـابِلَـهْ

وقال أيضاً:

سبَكنـاهُ ونحسَبَـهُ لُجَينـاً ... فأبْدَى الكِيرُ عـن خَبـثِ الحديـدِ

وقال فيه:

لَمّا رآنـا فـرّ بَـوّابـه ... وانْسَـدَّ في غيرِ يـدٍ بـابُـه
وعِنْـدهُ مـن مَقْتِـه حـاجِـبٌ ... يحجبه إنْ غـابَ حُجَّـابـه

---

(١) المقادرة: من القدر، وهو القصر؛ والمطافسة: من الطفس، وهو قذر الانسان اذا لم يتعهد نفسه؛ والمناذلة من النذالة.

(٢) الصفوان: الحجر الصلد الأملس لا ينبت شيئا.

في هجاء مساور:

دخل أعرابي على المساور بن هند وهو على الريّ، فلم يعطه شيئاً؛ فخرج وهو يقول:

أتيتُ المساورَ في حاجَةٍ ... فمَا زال يَسْعُلُ حتى ضَرِطْ
وحكَّ قفَاهُ بكُرْسوعِهِ ... ومسَّحَ عُثْنونَه وامْتَخط[1]
فأمْسكْت عن حاجتِي خِيفةً ... لأخرى تُقطِّع شَرْجَ السَّفَط[2]
فأُقسمُ لو عُدْتُ في حاجتي ... للطَّخ بالسَّلحِ وجْه النَّمط[3]
وقال غَلطنا حِسابَ الخرَاجِ ... فقلْت مِنَ الضَّرْطِ جاءَ الغَلطْ

وكان كلما ركب صاح الصبيان: من الضرط جاء الغلط. حتى هرب من غير عزل إلى بلاد أصبهان.

في رجل قصير:

أبو حاتم عن أبي زيد، قال: أنشدنا أعرابي في رجل قصير:

يكادُ خليلِي من تَقاربِ شخصِهِ ... يَعضُّ القرادُ اسْتَهُ وهو قائِمُ

في امرأة قبيحة:

وذكر أعرابي امرأة قبيحة، فقال: ترخي ذيلها على عرقوبَيْ نعامة، وتسدل خمارها على وجه كالجعالة[4].

---

(١) الكرسوع: حرف الزند الذي يلي الخنصر وهو الناتيء عند الرسغ؛ والعثنون: اللحية وما فضل منها بعد العارضين.

(٢) السّفط: ما يعبى فيه الطيب وما أشبه من أدوات النساء، وشرج السفط: شده وإدخال بعض عراه في بعض.

(٣) النمط: الفراش.

(٤) الجعالة: الخرقة التي تنزل بها القدر عن النار.

لبعض الأعراب:

العتبي قال: سمعت أعرابياً يقول: لا ترك الله مُخّاً في سُلامَى[(١)] ناقة حملتني إليك وللدّاعي عليها أحق بالدعاء عليه؛ إذ كلفها المسير إليك.

وقال أعرابي لآبن الزبير لا بُوركت ناقةٌ حملتْني إليك. قال: إنَّ وصاحبها. قوله: إنّ، يريد «نعم». قال قيس الرقيات:

وتقُـولُ شَيْــبٌ قــد عَلا ... كَ وقـد كَبِـرْتَ فقلْـتُ إنَّـه

يريد: نعم.

وذكر أعرابي، رجلاً، فقال: لا يؤنس جاراً، ولا يؤهل داراً، ولا يُثْقِب[(٢)] ناراً.

وسأل أعرابي رجلاً فحرمه، فقال له أخوه؛ نزلت والله بواد غيرِ ممطور، وبرجل غير مبرور؛ فارتحل بندم، أو أقم بعدم.

ودخلت أعرابية على حمدونة بنت المهدي؛ فلما خرجت سئلت عنها، فقالت: والله لقد رأيتها فما رأيت طائلاً؛ كأن بطنها قربة، وكأن ثديها دَبّة[(٣)]، وكأن استها رُقعة، وكأن وجهها وجه ديك قد نفش عِفريتَه[(٤)] يقاتل ديكاً.

وصاحب أعرابي امرأة فقال لها: والله إنكِ لمشرِفة الأذنين، جاحظة العينين، ذات خلق متضائل، يعجبك الباطل، إن شبعت بطرت، وإن جعتِ صخبتِ، وإن رأيتِ حسناً دفنتيه، وإن رأيتِ سيئاً أذعتيه؛ تكرمين من حقرك، وتحقرين من أكرمك.

وهجا أعرابي امرأته فقال:

يــا بِكْــر حــوَّاء مــن الأولاد ... وأُمَّ آلافٍ مـــن العبـــادِ
عُمــرُك ممدودٌ إلى التَّنــادي ... فحــدِّثينــا بحديــثِ عــادِ

---

(١) سلامي: عظام الفِرسن (الفرسن من البعير بمنزلة الحافر من الخيل).

(٢) يثقب: يوقد.   (٣) الدبّة: واحدة الدب، وهو الفرع.

(٤) عفرية الديك: ريش عنقه.

والعهدِ مـن فـرعـوْن ذي الأوتـاد   يـا أقـدم العـالم في الميلاد
إني من شخصك في جهاد

في عجوز:

وقال أعرابي في امرأة تزوجها، وقد خطَبها شابة طرية ودسّوا إليه عجوزاً:

عجـوزٌ تُـرَجِّـي أن تكـون فتيَّـةً   وقد نَحل الجنْبان واْحدَوْدَب الظَّهْر
تَـدسُّ إلى العطَّـار سلعـة أهلِهـا   وهل يُصلح العطار ما أفسد الدهـرُ[1]
تـزوجتُهـا قبـل المِحـاق بليْلـةٍ   فكان مُحـاقـاً كلـه ذلـك الشهـر
ومـا غـرّني إلا خِضـابٌ بكفِّهـا   وكحلٌ بعيْنيْها وأثـوابُهـا الصُّفـر

وقال فيها:

ولا تستطيع الكحلَ من ضيق عيْنِها   فإن عالجتْه صار فـوْق المحـاجـر
وفي حـاجبيْهـا حَـزَّةٌ كغـرارة   فإن حُلِقا كـانـا ثلاث غـرائِـر[2]
وثَديـان أمّـا واحِـدٌ فهـو مِـزْودٌ   وآخَـرُ فيـه قـرْبـةٌ للمسـافـر[3]

وقال فيها:

لها جسم بُرغوث وساقًـا بعـوضـةٍ   ووجهٌ كوجهِ القرد بل هـو أقبـح
وتَبرُق عيْنـاهـا إذا مـا رأيتَهـا   وتَعْبِسُ في وجه الضَّجيعِ وتكلـحُ
لها مَضحكٌ كـالحَشِّ تَحسَـب أنها   إذا ضحكتْ في أوْجُه القوْم تَسْلـح[4]
وتَفْتح ـ لا كانت ـ فماً لـو رأيتَـه   تـوهَّمتَـه بـابـاً مـن النـار يُفْتـح
إذا عاين الشيْطان صـورة وجههـا   تعـوّذ منهـا حين يُمسي ويُصبـح

وقال أعرابي في سوداء:

كـأنها والكحـلُ في مِـرْودِهـا   تَكحَل عيْنيْها ببعض جلـدهـا

---

(١) يريد بالسلعة: الدقيق وما اشبه ذلك.   (٢) الغرارة: الجوالق.

(٣) المزود: وعاء يحمل فيه الزاد.   (٤) الحشُ: الدبر والمخرج.

وقال فيها:

أشبَهكِ المِسك وأشبهته قائمةً في لونِه قاعدهْ
لا شكَّ إذ لونُكما واحدٌ أنكما من طينةٍ واحدهْ

وقال كُثيِّر في نصيب بن رباح، وكان أسود:

رأيت أبا الحَجْناء في الناس حائراً ولون أبي الحجناء لون البهائم
تراه على مالاحَه من سَوادِه وإن كان مظلوماً له وجهُ ظالمِ[1]

أعرابي وعامل:

وقال رجل من العمال لأعرابي: ما أحسبك تعرف كم تصلي في كل يوم وليلة! فقال له: فإن عرفتَ أتجعل لي على نفسك مسألة؟ قال: نعم. قال:

إنّ الصلاةَ أربعٌ وأربعُ ثم ثلاثٌ بعدهُنّ أربعُ
ثم صلاةُ الفجر لا تُضيَّع

قال: صدقت، هات مسألتك؟ قاله له: كم فقار ظهرِك؟ قال: لا أدري. قال: فتحكم بين الناس وتجهل هذا من نفسك؟

قولهم في الغَزَل

لبعض الأعراب:

ذكر أعرابي امرأة فقال: لها جلد من لؤلؤ مع رائحة المسك، وفي كل عضو منها شمس طالعة.

وذكر أعرابي امرأة، فقال: كاد الغزال أن يكونَها لولا ما تم منها وما نقص منه.

وقال أعرابي في امرأة ودّعها للمسير: والله ما رأيت دمعة ترقرق من عين بإثمد[2] على ديباجة خدّ، أحسن من عبرة أمطرتها عينُها فأعشب لها قلبي.

---

(١) لاحه: غيره.
(٢) الإثمد: عنصر معدني يكتحل به.

قال: سمعت أعرابياً يقول: إن لي قلباً مَروعاً، وعيناً دموعاً؛ فماذا يصنع كل واحد منهما بصاحبه، مع أن داءهما، دواؤهما، وسقمَهما شفاؤهما؟

وقال أعرابي: دخلت البصرة، فرأيت أعيناً دُعجا، وحواجب زُجّا[1]، يسحبن الثياب، ويسلبن الألباب.

وذكر أعرابي امرأة فقال: خلوت بها ليلة يزينها القمر، فلما غاب أرَتْنِيه قلت له: فما جرى بينكما؟ فقال: أقرب ما أحل الله مما حرّم الإشارة بغير باس، والتقرب من غير مساس.

وذكر أعرابي امرأة فقال: هي أحسن من السماء، وأطيب من الماء.

قال: وسمعت أعرابياً يقول: ما أشد جولة الرأي عند الهوى، وفطام النفس عن الصبا؛ ولقد تقطعت كبدي للعاشقين. لوم العاذلين قِرَطة[2] في آذانهم، ولوعات الحب جَبِرات على أبدانهم، مع دموع على المغاني، كغروب السواني[3].

وذكر أعرابي امرأة فقال: لقد نعمتْ عينٌ نظرت إليها، وشفي قلب تفجع عليها؛ ولقد كنت أزورها عند أهلها؛ فيرحب بي طرْفها، ويتجهَّمني لسانها. قيل له: فما بلغ من حبك لها؟ قال: إني ذاكرٌ لها وبيني وبينها عَدْوَةُ الطائر، فأجد لِذِكرِها ريح المسك.

وذكر أعرابي نِسْوة خرجن متنزهات، فقال: وجوه كالدنانير، وأعناق كأعناق اليعافير[4]، وأوساط كأوساط الزنابير، أقبلن إلينا بحجول تخفق، وأوشحة تعلق، وكم أسير لهنّ وكـم مطلق.

قال: وسمعت أعرابياً يقول اتبعت فلانة إلى طرابلس الشام؛ والحريص جاحد،

---

(١) الزج: الدقيقة. (٢) قرطة: جمع قرط.

(٣) الغروب: جمع غرب، وهو الدلو؛ والسواني: جمع سانية، وهي ما سقي عليه من بعير وغيره.

(٤) اليعافير: جمع يعفور، وهو ولد البقرة الوحشية.

والمُضِل ناشد؛ ولو خضت إليها النار ما ألمتها.

قال: وسمعت أعرابياً يقول: الهوى هوان ولكن غلط باسمه، وإنما يعرف من يقول، من أبكته المنازل والطلول.

وقال أعرابي: كنت في شباب أعضّ على الملام، عضّ الجواد على اللجام، حتى أخذ الشيب بعنان شبابي.

وذكر أعرابي امرأة فقال: إن لساني لِذِكرها لَذلول، وإن حبّها لقلبي لَقتول، وإن قصير الليل بها ليطول.

وصف أعرابي نساء ببلاغة وجمال، فقال: كلامهنّ أقتل من النبل، وأوقع بالقلب من الوبْل بالمِحل؛ فروعهنّ أحسن من فروع النخل.

ونظر أعرابي إلى امرأة حسناء جميلة تسمى ذَلْفاء، ومعها صبي يبكي؛ فكلما بكى قبلته؛ فأنشأ يقول:

يا ليْتنِي كنت صبيّاً مُـرْضَعَـا تَحملني الذَّلفاءُ حوْلا أكْتَعَـا[1]
إذا بكيْـــتُ قبّلتني أربعـــاً فلا أزالُ الدهر أبكى أجْمعـا

وأنشد أبو الحسن علي بن عبد العزيز بمكة لأعرابي:

جـاريـةٌ في سَفَــوان دارُهـــا تمشي الهوينا مـائلاً خِمارهـا[2]
قد أعصَرتْ أو قدْ دنَا إعصارها يَطير مـن غُلْمتِهـا إزارهـا[3]

العتبي قال: وصف أعرابي امرأة حسناء، فقال: تَبْسم عن خُمش اللثات[4]، كأفاحي النبات، فالسعيد من ذاقه، والشقي من راقه.

وقال العتبي: خرجتُ ليلة حين انحدرت النجوم وشالت أرجلها؛ فما زلت أصدع الليل حتى انصدع الفجر، فإذا بجارية كأنها عَلم، فجعلت أغازلها، فقالت: يا هذا، أمالك ناهٍ من كرم، إن لم يكن لك زاجر من عقل! قلت: والله ما يراني إلا

(١) حولاً أكتع، أي تاماً.
(٢) سفوان: ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة.
(٣) المعصر: التي قد بلغت عصر شبابها وأدركت.
(٤) لثة خمشة: حسنة دقيقة.

الكواكب. قالت: فأين مُكوكِبها.

ذكر أعرابي امرأة فقال: هي السقيم الذي لا بُرء معه، والبُرء الذي لا سقم معه؛ وهي أقرب من الحَشا، وأبعد من السما.

وقال أعرابي وقد نظر إلى جارية بالبصرة في مأتم:

بَصْـرِيَـةٌ لم تُبصر العينُ مثلَهـا ... غـدتْ ببيـاضٍ في ثيـاب سـوادِ
غَدَوتِ إلى الصحراءِ تبكينَ هالكـاً ... فأهْلكْتِ حيا، كنتِ أشـأمَ عـادِ!
فيا ربِّ خُذ لي رحْمةً من فُؤادِهـا ... وحُـلْ بين عينَيهـا وبين فـؤادي

وقال في جارية ودَّعها:

مـالـت تُـودِّعُني والدمْـعُ يَغلبُهـا ... كما يَميلُ نسيمُ الريـحِ بـالغُصـنِ
ثم آستمَرَّتْ وقالت وهـي بـاكيـةٌ ... يـاليـتَ مَعْـرفتي إيَّـاك لم تكُـنِ

العتبي قال: أنشد أعرابي:

يا زَيْنَ من ولَدتْ حواءُ مِـن ولـد ... لولاكِ لم تَحْسُن الدنيـا ولم تطِـبِ
أنتِ التي مـن أراهُ اللهُ صُـورتَهـا ... نـال الخلـودَ فلم يَهـرَمْ ولم يَشِـبِ

وأنشد الرياشي لأعرابي:

من دمْنةٍ خُلقت عينـاك في دتَـنٍ ... فما يُردُّ البُكا جهلاً مـن الدِّمـنِ[1]
ما كنتِ لِلقلبِ إلا فتْنةً عَـرضَـت ... يا حبّذا أنتِ من مَعروضـةِ الفِتَـن
تسيءُ سَلْمى وأجْـزيها بـه حسَنـاً ... فمن سِواي يُجازي السُّوءَ بالحسَـنِ

قـال وسمعت أعرابياً يصف امرأة؛ فقال: بيضاءُ جعْدَة[2]، لا يمس الثوبُ منها إلا مُشَاشةَ[3] كتفيها، وحَلَمتَي ثديَيْها، ورضْفَتَي[4] ركْبتيها، ورانِفتَي[5] أَلْيتيها: وأنشد:

---

(١) المتن: الانصباب.

(٢) جعدة، أي غير مسترخية ولا مضطربة.

(٣) المشاشة: رأس العظم الممكن المضغ.

(٤) الرضفة: واحدة الرضف، وهي عظام في الركبة.

(٥) رانفة الإلية: اسفلها اذا كانت قائمة.

أبـتِ الرَّوادِفُ والثُّـدِيُّ لِقُمصهـا   مَسَّ البطـونِ وأنْ تَمسَّ ظهـورا
وإذا الرِّياحُ مع العشِـيِّ تنـاوحـت   نبَّهْـن حـاسـدَة وهِجْـن غَيــورا

وقال أعرابي: ليت فلانة حظي من أملي، ولَرُب يوم سِرتُه إليها حتى قبض الليل بصري دونها؛ وإن من كلام النساء ما يقوم مقام الماء فيشفي من الظمأ.

وذكر أعرابي آمرأة فقال: تلك شمسٌ باهت الأرض شمس سمائها، وليس لي شفيع في اقتضائها، وإن نفسي لكتومٌ لدائها، ولكنها تفيض عند امتلائها.

أخذ هذا المعنى حبيب فقال:

ويا شمسَ أرضيها التي تَم نورُهـا   فباهت بها الأرضونَ شمسَ سمائِهـا
شكوْتُ وما الشَّكوى لِمثْلِيَ عـادة   ولكنْ تَفيضُ النَّفس عنـد امتلائها

وقيل لأعرابي: ما بال الحب اليوم على غير ما كان عليه قبل اليوم؟ قال: نعم، كان الحب في القلب فانتقل إلى المعدة؛ إن أطعمتْه شيئاً أحبها، وإلا فلا: كان الرجل يحب المرأة، يطيف بدارها حَولا، ويفرح إن رأى مَن رآها، وإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار؛ وإنه اليوم يشير إليها وتشير إليه، ويعدها وتعده فإذا اجتمعا لم يشكوَا حباً، ولم ينشدا شعراً، ولكن يرفع رجليها ويطلب الولد.

وقال أعرابي:

شكوتُ! فقالت: كلَّ هذا تبَرُّماً   بِحُبي! أراح الله قلبَكَ مـن حُبِّـي
فلمَّا كتمْتُ الحبَّ قالت: لَشدَّ مـا   صبَرَتْ! وما هذا بِفعلِ شجِي القلْبِ!
وأدْنـو فتقْصِيني، فـأَبعـدُ طـالِبـا   رِضاها، فتعْتدُّ التَّبـاعُـدَ مـن ذَنْبي
فشكْواي تؤذِيها، وصبرِي يَسوءُهـا   وتَجْزعُ من بُعدي، وتنْفِرُ من قُـرْبي
فيا قوْم هل من حيلـةٍ تعلَمـونَهـا   أشِيروا بها واسْتوجِبوا الشُّكر من ربي

قولهم في الخيل

الأصمعي قال: سمعتُ أعرابياً يقول: خرجت علينا خيلٌ مستطيرة النقع[١]، كأنّ هواديَها[٢] أعلام. وآذانَها أطرافُ أقلام؛ وفرسانُها أسودُ آجام.

أخذ هذا المعنى عدي بن الرقاع فقال:

يخرُجْن من فُرجاتِ النقْعِ داميةً   كأنّ آذانَها أطْرافُ أقلامِ

وقال أعرابي: خرجنا حفاةً حين انتعل كلُّ شيء بظلِّه، وما زادُنا إلا التوكل ولا مطايانا إلا الأرجل؛ حتى لحقنا القوم.

وذكر أعرابي فرساً وسرعته؛ فقال: لما خرجت الخيل أقبل شيطاناً في أشطان، فلما أُرْسِلَتْ لمع لمعَ البرق؛ فكان أقربها[٣] إليه الذي تقع عينُه [من بُعدٍ] عليه.

وقال أعرابي في فرس الأعور السلمي:

مرَّ كلمْعِ البرقِ سام ناظِرُه   يسبَحُ أُولاه ويطفُو آخرُهْ

فما يَمسُّ الأرض مِنه حافرُه

سئل أعرابي عن سوابق الخيل، فقال: الذي إذا مشى رَدَى[٤]، وإذا عدا دحا[٥]؛ وإذا استُقبل أقعى، وإذا استدبر جبَّى[٦]، وإذا اعترض استوى.

وذكر أعرابي خيلاً؛ فقال: والله ما انحدرتْ في وادٍ إلا ملأت بطنَه، ولا ركبت بطنَ جبل إلا أسهلت حَزنه.

وقال أعرابي: خرجت على فرس يختال اختيال النَّشوان، نسوفٍ للحزام؛ مُهارش للجام؛ فما مَتع[٧] النهار حتى أمتعنا برف ورفاهة.

---

(١) النقع: الغبار الساطع. (٢) هواديها: أعناقها. (٣) أقربها، أي أقرب الخيل.

(٤) الرديان: أن يرجم الأرض رجما، بين المشي الشديد والعدو.

(٥) دحا دحواً، أي رمى الفرس في سيره بيديه لا يرفع سنبكه عن الأرض.

(٦) جبي: انكب على وجهه. (٧) متع النهار: ارتفع وبلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال.

قولهم في الغيث

لامرىء القيس وعبيد بن الأبرص:

الأصمعي قال: قلت لأعرابي: أي الناس أوصفُ للغيث؟ قال: الذي يقول ـ يعني امرأ القيس ـ:

دِيمةٌ هَطلاءُ فيهـا وطَـفٌ   طَبـق الأرضِ تحرّي وتـدرّ[1]

قلت: فبعده مَن؟ قال: الذي يقول ـ يعني عبيد بن الأبرص ـ:

يا من لِبَـرْقٍ أبيـت الليْـلَ أرقُبـه   في عارضٍ مكْفهـرِّ المزن دَلَّاحِ[2]

دانٍ مُسفٍّ فُوَيقَ الأرض هَيْـدبـه   يكاد يـدفعـه مـنْ قـام بـالـراحِ

سليمان وأعرابي:

ودخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك، فقال: أصابتك سماء في وجهك يا أعرابي؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، غير أنها سحاء طَخياءُ[3] وطْفاءُ؛ كأن هواديها الدِّلاء، مرجَحنَّة النواحي، موصولة بالآكام، تكاد تمس هام الرجال؛ كثير زَجَلها، قاصفٌ رعدها، خاطف برقُها، حثيثٌ ودْقها، بطيءٌ سيرها؛ مثْعنْجِرٌ قَطرها، مظلم نوْؤها؛ قد لجأت الوحش إلى أوطانها، تبحث عن أصوله بأظلافها، متجمعة بعد شتاتها؛ فلولا اعتصامُنا يا أمير المؤمنين بعضاةِ الشجر، وتعلقنا بقنن الجبال، لكنا جُفاء[4] في بعض الأودية ولقَم[5] الطريق، فأطال الله للأمة بقاءَك، ونسألها في أجلك، فهذا ببركتك وعادةِ الله بك على رعيتك، وصلى الله على سيدنا محمد. فقال سليمان: لعمر أبيك، لئن كانت بديهة لقد أحسنت وإن كانت محبرة لقد أجدت. قال: بل محبرة مزوّرة يا أمير المؤمنين. قال: يا غلام أعطه؛ فوالله لصدقُه أعجب إلينا من صفنه.

---

(١) الوطف: استرخاء الجوانب من كثرة الماء؛ وطبق الأرض غَشاها؛ وتتمرى: تتوخى وتعمد.

(٢) دلاّح: مثقل بمائه.   (٣) طخياء: مظلمة.

(٤) الجفاء: ما يقذفه السيل من الزبد والوسخ.   (٥) لقم الطريق: وسطه ومنفرجه.

قيل لأعرابي: أي الألوان أحسن؟ قال: قصور بيض في حدائق خضر.

وقيل لآخر: أي الألوان أحسن؟ قال: بيضة[١] في روضة غِبَّ سارية والشمس مُكبِّدة[٢].

وقال أعرابي: لقد رأيت بالبصرة بُروداً كأنها صُبغت بأنوار الربيع، فهي تروع واللابس لها أروع.

العتبي قال: سمعت أعرابياً يقول: مررت ببلد ألقى بها الصيِّفُ[٣] بعاعَه، فأظهر غديراً يقصر الطرف عن أرجائه، وقد نفت الريح القذى عن مائه؛ فكأنه سلاسل درع ذات فضول.

وأنشد أبو عثمان الجاحظ لأعرابي:

أيـن إخـوانُنـا على السَّـرَّاء ... أين أهل القِبابِ والدهنـاء[٤]

جاورنـا والأرض مُلبَسـة نـو ... ر إقـاحٍ يُجـاد بـالأنـواء

كلَّ يومٍ بـأقحُـوانٍ جـديـدٍ ... تضحكُ الأرضُ من بكاء السماء

لابن مطير:

ابن عمران المخزومي قال: أتيت مع أبي والياً على المدينة من قريش، وعنده أعرابي يقال له ابن مطير، وإذا مطر جَود؛ فقال له الوالي: صفه؛ فقال: دعني أشرف وأنظر. فأشرف ونظر، ثم قال:

كثُرتْ لكثرةِ ودْقـه أطْبـاؤُهُ ... فإذا تُحلِّب فـاضـت الأطبـاءُ[٥]

ولـه ربـابٌ هَيْـدَبٌ لـرقيقـه ... قبـلَ التَّبَعُّـق ديمَة وطْفـاءُ[٦]

وكـأنّ بـارقـهُ حـريـقٌ تلتَقِـي ... ريـحٌ عليـه وعـرْفَـجٌ وألاءُ[٧]

---

(١) يريد بياض النهار. (٢) مكبدة، أي قد توسطت السماء.

(٣) الصيف: مطر الصيف؛ وبعاعه أي ما يحمله من الماء.

(٤) القباب والدهناء: موضعان. (٥) الودق: المطر كله، شديده وهينه؛ والأطباء: الضروع.

(٦) الرباب: السحاب الذي فوقه سحاب؛ وهيدب أي متدل قريب من الأرض لثقل ما يحمل.

(٧) العرفج: نبت سهلي سريع الانقياد؛ والألاء: شجر حسن المنظر مر الطعم.

وكـــأنّ ريِّقــــهُ ولمّا يَحتفِـــلْ وَدْق السماء عجاجَـةٌ طخْيـاءُ[1]
مُسْتضْحِـكٌ بلـوامـع مُسْتعْبِـرٌ بمدامـع لم تُمْـرِهـا الأقـــذاءُ
فلــــهُ بِلا حـــزن ولا بِمسرَّةٍ ضحِـك يُـؤَلِّـفُ بينـه وبُكـاءُ
حيْـران مُتَّبـعٌ صبـاهُ تقـودُهُ وجنـوبـهُ كـف لـه ورِهـاءُ[2]
ثقُلـتْ كُلاهُ فبَهَّـرَتْ أصلابـهُ وتبَعَّجَتْ عـن مـائِـه الأحشـاءُ[3]
غدَقٌ تبَعَّجَ بـالأبـاطِـح مُـزِّقـتْ تلـك السُّيـولُ ومـالَهـا أشلاءُ
غُـرٌّ مُحجَّلَـةٌ دوالجُ ضُمِّنـت حَمْـلَ اللِّقـاحِ وكلُّهـا عـذراءُ[4]
سحْـمٌ فهُـنّ إذا عبَسْـنَ فـواحِـمٌ سودٌ، وهُـنَّ إذا ضَحِكْـنَ وِضـاءُ
لو كان من لُجَجِ السواحلِ مـاؤُهُ لم يبْقَ في لُجـجِ السـواحِـلِ مـاءُ

هشام وأعرابي يصف له السحاب:

قال هشام بن عبد الملك لأعرابي: آخرج فانظر كيف ترى السحاب. فخرج فنظر، ثم انصرف فقال: سفائن، وإن اجتمعت فعَين.

قولهم في البلاغة والإيجاز

قيل لأعرابي: من أبلغ الناس؟ قال: أحسنهم لفظاً وأسرعهم بديهة.

الأصمعي قال: خطب رجل في نكاح فأكثر وطوّل، فقيل: من يجيبه؟ قال أعرابي: أنا. قيل له: أنت وذاك؟ فالتفت إلى الخاطب فقال: إني والله ما أنا من تخطيطك وتمطيطك[5] في شيء؛ قد مَتَتَّ بحرمة، وذكرت حقاً، وعظّمت مرجوّاً، فحبلك موصول، وفرضك مقبول، وأنت لها كفءٌ كريم، وقد أنكحناك وسلّمنا.

---

(١) الريق: أول المطر؛ والعجاجة: القطعة من الغبار تثيرها الرياح؛ وطخياء: معتمة مظلمة.

(٢) ريح ورهاء: في هبوبها عجرفة.

(٣) كلية السحابة: أسفلها؛ وبهرت أي غلبت؛ وتبعجت: انفرجت.

(٤) دوالج: مثقلة بالماء.

(٥) تمطيط الكلام: إطالته.

ربيعة الرأي وأعرابي:

وتكلم ربيعةُ الرأي يوماً فأكثر، فكأن العُجب داخله، وأعرابي إلى جنبه، فأقبل على الأعرابي فقال: ما تعدّون البلاغة يا أعرابي؟ قال: قلة الكلام وإيجاز الصواب. قال: فما تعدون العيّ؟ قال: ما كنتَ فيه منذ اليوم! فكأنما ألقمه حجراً.

شبيب وأعرابي:

شبيب بن شيبة قال: لقيت أعرابياً في طريق مكة، فقال لي: تكتب؟ قلت: نعم. قال: ومعك دواة؟ قلت: نعم. فأخرج قطعة جراب من كمه، ثم قال: اكتب ولا تزد حرفاً ولا تنقص: هذا كتاب كتبه عبد الله بن عُقيل الطائي لأمَتِه لؤلؤة: إني أعتقتُكِ لوجه الله واقتحامِ العقبة، فلا سبيل لي ولا لأحد عليك إلا سبيل الولاء، والمنةُ عليّ وعليك من الله وحده، ونحن في الحق سواء ثم قال: آكتب شهادتك.

روي أن أعرابياً حضر مجلس ابن عباس، فسمع عنده قارئاً يقرأ: ﴿وكُنْتُم على شفَا حُفرَةٍ من النارِ فأنقذَكم منها﴾[1]؛ فقال الأعرابي: والله ما أنقذكم منها وهو يرجعكم إليها. فقال ابن عباس: خذوها من غير فقيه.

قولهم في حسن التوقيع وحسن التشبيه

قيل لأعرابي: مالك لا تطيل الهجاء؟ قال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق.

وقيل لأعرابي: كم بين كذا وبلد كذا؟ قال: عُمْرُ ليلةٍ وأديمُ يوم.

وقال آخر: سوادُ ليلة وبياضُ يوم.

وقيل لأعرابي: كيف كتمانُك للسر؟ قال: ما صدري له إلا قبرٌ.

معاوية وأعرابية:

قال معاوية لأعرابية: هل من قِرى؟ قالت: نعم. قال: وما هو؟ قالت: خُبز خَمير، ولبن فطير، وماء نمير.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٣.

وقيل لأعرابي: فيم كنتم؟ قال: كُنا بين قِدْر تفور، وكأس تدور، وحديث لا يحور[1].

وقيل لأعرابي: ما أعددتَ للبرد؟ قال: شدةَ الرعدة، وقرفصاءَ القِعدة، وذَرَبَ المعدة[2].

وقيل لأعرابي: مالك من الولد؟ قال: قليل خبيث. قيل له: ما معناه؟ قال: إنه لا أقل من واحد، ولا أخبث من أنثى!

وقال: أضل أعرابي الطريق ليلاً، فلما طلع القمر اهتدى؛ فرفع رأسه إليه متشكراً فقال: ما أدري ما أقول لك وما أقول فيك؛ أأقول رفعك الله! فقد رفعك: أم أقول: نوّرك الله! فقد نوّرك! أم أقول: حسّنك الله! فقد حسّنك؛ أم أقول: عمرك الله! فقد عمرك؛ ولكني أقول: جعلني اللهُ فِداك!

وقيل لأعرابي: ما تقول في ابن العم؟ قال: عدوُّك وعدوُّ عدوِّك.

وقيل لأعرابي وقد أدخل ناقته في السوق ليبيعها: صف لنا ناقتك. قال: ما طلَبْتُ عليها قط إلا أدركْتُ، وما طُلبْتُ إلا فتُّ. قيل له: فلم تبيعها؟ قال: لقول الشاعر:

وقد تخرجُ الحاجاتُ يا أُمَّ عامِرٍ كرائِمَ من ربٍّ بِهنَّ ضنينِ

وقيل لأعرابي: كيف ابنك؟ وكان به عاقاً، قال: عذابٌ لا يقاومه الصبر، وفائدة لا يجب فيها الشكر، فليتني قد استودعتُه القبر.

قيل لشريح القاضي: هل كلمك أحد قط فلم تطق له جواباً؟ قال ما أعلمه إلا أن يكون أعرابياً خاصم عندي ويشير بيديه، فقلت له: أمسك، فإن لسانك أطولُ من يدك! قال:

أسامريٌّ أنت لا تُمَسْ

---

(١) يحور: يعود. (٢) ذرب المعدة: فسادها.

وقيل لأعرابي: ماعندكم في البادية طبيب؟ قال: حُمُرُ الوحش لا تحتاج إلى بيطار.

وقال أعرابي يصف خاتماً ـ فقال: سُيِّف[1] تدوير حَلْقته، ودُوِّر كُرْسِيُّ قضته[2]، وأُحكِم تركيبُه، وأُتقِنَ تدبيرُه، فبِهِ يتمُّ الملك، وينفُذُ الأمر، ويكْرُمُ الكتاب ويشرُف المكتوب إليه.

وقال آخر يصف خاتماً:

وأبيضُ أمّا جِسْمُهُ فمُنوّرٌ نقِيٌّ وأمّا رأسُه فمُعارُ
ولم يُكْتسبْ إلا لتسْكُنَ وسْطَهُ بزيعة رأسٍ ما عليه خِمَارُ[3]
لها أخواتٌ أربعٌ هُنَّ مِثلُها ولكِنها الصُّغرى وهُنَّ كِبارُ[4]

قولهم في المناكح

بين جاريتين:

يحيى بن عبد العزيز عن محمد بن الحكم عن الشافعي قال: تزوج رجل من الأعراب امرأة جديدة على امرأة قديمة، وكانت جارية الجديدة تمر على باب القديمة فتقول:

وما يستوي الرِّجلانِ رِجْلٌ صحيحةٌ ورِجْلٌ رمَى فيها الزمانُ فشلَّتِ

ثم مرت بعد أيام فقالت:

.. وما يستوي الثوْبانِ ثوبٌ به البِلَى وثوبٌ بأيدي البائعين جديد

فخرجت إليها جارية القديمة فقالت:

نقِّلْ فؤادَكَ حيثُ شِئْتَ مِنَ الهوى ما القلْبُ إلاَّ للحَبيبِ الأوّلِ

---

(١) التسييف: تنقية الجوانب من النقش.
(٢) القضّة: الحصاء الصغيرة، ويريد بها القطعة الصغيرة من الحجارة الكريمة.
(٣) أي إصبع بزيعة الرأس، أي مليحته. (٤) الضمير في لها يعود إلى الإصبع.

كم منزلٍ في الأرضِ يألفُه الفتَى وحنينُه أبداً لأوّلِ منزلِ

أعرابي وولي امرأة:

الأصمعي قال: أخبرني أعرابي قال: خطب منا رجل مغموز امرأة مغموزة[1] فزوّجوه؛ فقال رجل لوليِّ المرأة: تعَمَّم لكم فلان فزوجتموه! فقالوا: ما تعمم لنا حتى تبرقعنا له.

لأعرابية تنصح بنات عمها:

أبو حاتم عن الأصمعي قال: قالت أعرابية لبنات عم لها: السعيدة منكم من يتزوجها ابن عمها، فيمهرها بتيسين وكلبين وعَيرين ورحَيين، فينِبّ[2] التيسان، وينهق العَيران، وينبح الكلبان، وتدور الرحيان، فيعج الوادي؛ والشقية منكن من يتزوجها الحضري، فيكسوها الحرير، ويطعمها الخمير، ويحملها ليلة الزفاف على عود - تعني: سرجاً.

الأصمعي قال: سمعت أعرابياً يُشارّ امرأته، فقالت لها أخته. أما والله أيامَ شرخه[3] إذ كان ينكُتكِ كما ينكت العظم عن مخه، لقد كنتِ له تَبوعاً، ومنه سَموعاً؛ فلما لان منه ما كان شديداً، وأخلَق منه ما كان جديداً، تغيرت له! وايمُ الله لئن كان تغير منه البعضُ لقد تغير منك الكل.

لأعرابي في زوجته:

وقيل لأعرابي: كيف حبك لزوجتك؟ قال: ربما كنت معها على الفراش فمدّت يدها إلى صدري، فوددت والله أن آجُرَّةً خرّت من السقف فقدّت يدها وضلعين من أضلاع صدري! ثم أنشأ يقول:

لقد كنتُ محتاجاً إلى موت زوجتي ولكنْ قرينُ السُّوء باقٍ معمَّرُ

---

(١) المغموزة: المتهمة بعيب. (٢) نبّ التيس: صاح.
(٣) شرخ الشباب: أوله ونضارته.

فياليْتها صـارت إلى القبر عـاجلاً | وعــذّبهــا فيــه نكيرٌ ومنكَــر

لآخر في مثله:

وتزوّج أعرابي امرأة، فطالت صحبتها له، فتغير لها وقد طعنت في السنّ، فقالت له: ألم تكن تُرضي إذا غضبتُ، وتُعتبِ إذا عتبت، وتُشفق إذا أبَيت؛ فما بالك الآن؟ قال: ذهب الذي كان يُصلح بيننا.

الأصمعي وأعرابي طلق زوجته:

الأصمعي قال: كنت أختلف إلى أعرابي أقتبس منه الغريب، فكنت إذا استأذنت عليه يقول: يا أُمامة، إيذني له. فتقول: ادخل. فاستأذنت عليه مراراً فلم أسمعه يذكر أمامة؛ فقلت له: يرحمك الله، ما أسمعك تذكر أمامة منذ حين! قال: فوجم وجمة ندِمتُ على ما كان مني؛ ثم قال:

ظعَنَــتْ أُمــامـةُ بـالطلاقِ | ونَجوتُ من غُـلِّ الوَثـاقِ
بــانـــتْ فلم يــألَـــم لها | قلبي ولم تَـدمـع مـآقــي
ودواءُ مـــــا لا تشتهيــ | ـه النفسُ تَعجيـل الفِـراق
والعيشُ ليس يطِيــب بيْــ | ـن اثنين في غير اتّفــاق
لــو لم أُرَحْ بفِــراقهـــا | لأرحْتُ نفسي بـالإبـاق[1]

لأعرابي طلق امرأته:

الأصمعي قال: تزوج أعرابي امرأة فآذتْه وافتدى منها بحمار وجُبة، فقدم عليه ابن عمّ لها من البادية فسأله عنها؛ فقال:

خطَتْ إلى الشيطان للحيْن بنْتَـه | فأدخلها من شِقْوتي في حِبالِيـا
فـأنقـذَني منهـا حماري وجُبَّتي | جَزى الله خيراً جُبتي وحماريَـا

(١) الإباق: الهروب.

لأعرابي بين يدي زياد:

الأصمعي قال: خاصم أعرابي امرأته إلى زياد، فشدّد على الأعرابي؛ فقال: أصلح الله الأمير؛ إن خيرَ عُمر الرجل آخره؛ يذهب جهله ويثوب حلمه، ويجتمع رأْيه؛ وإن شر عُمُر المرأة آخره؛ يسوء خلقها، ويحدّ لسانها، وتَعقم رحمها! قال له: صدقت، اسفع[1] بيدها.

لبعض الأعراب في مثله:

قال: وذكرتْ أعرابية زوجها وكان شيخاً! فقالت: ذهب ذَفَرُه[2]، وبقَى بَخَره، وفتَر ذَكَره.

الأصمعي قال: كان أعرابي قبيح طويل خطَب امرأة؛ فقيل له: أيَّ ضرب تريدها؟ قال: أريدها قصيرة جميلة، فيأتي ولدها في جمالها وطولي. فتزوجها على تلك الصفة، فجاء ولدها في قصرها وقبحه!

قدم أعرابي من طيء فاحتلب لبنا ثم قعد مع زوجته ينتجعان، فقالت له: مَن أنعم عيشاً، أنحن أم بنو مروان؟ قال لها: بنو مروان أطيب منا طعاماً، إلا أنَّا أردأ منهم كسوة؛ وهم أظهر منا نهاراً إلا أنا نحن أظهر منهم ليلاً.

الأصمعي قال: خاصم أعرابي امرأته إلى السلطان، فقيل له: ما صنعت؟ قال: خيراً، كبها الله لوجهها ولو أُمر بي إلى السجن!

الأصمعي قال: استشارت أعرابية في رجل تتزوجه، فقيل لها: لا تفعلي فإنه وُكَلَةٌ تُكَلَة، يأكل خِلله أي يأكل ما يخرج من بين أسنانه إذا تخلل. قال أبو حاتم: هو الخُلالة. ووكلة تكلة: إذا كان يكل أمره إلى الناس ويتكل عليهم.

العتبي قال: خَطب إلى أعرابي رجل موسر إحدى آبنتيه. وكان للخاطب امرأة،

---

(١) أسفع: خذ. (٢) الذفر: شدة ذكاء الريح من طيب أو نتن.

فقالت الكبرى: لا أُريده! قال أبوها: ولِمَ؟ قالت: يومٌ عتاب، ويوم اكتئاب، يبلَى فيما بين ذلك الشباب! قالت الصغرى: زوِّجْنيه! قال لها: على ما سمعْت من أُختك؟ قالت: نعم، يوم تَزيُّن، ويوم تسمُّن، وقد تقر فيما بين ذلك الأعيُن.

لأعرابية ترقص طفلاً:

الأصمعي قال: رأيت امرأة تُرقِّص طفلاً لها، وتقول:

أُحبّه حُبّ الشحِيح مالَهْ قد كان ذاقَ الفقرَ ثمّ نالَهْ
إذا أراد بَذلَه بَدا لهْ

أعرابية فقدت زوجها:

الأصمعي قال: هلك أعرابي، فأدمنت امرأته البكاءَ عليه. فقال بعض بنيها:

أتفقِدين من أبينا غيرَهْ أتفقِدين نفعه وخيْرهْ
أراكِ ما تبْكين إلا أيْرهْ

فأمسكتْ عن البكاء.

أعرابية وأعرابي ينظر إلى ابنتها:

جلس أعرابي إلى أعرابية، فعلمت أنه ما جلس إلا لينظر إلى ابنتها، فأنشأت تقول:

وما نلتَ منها غيرَ أنكَ نائِك بعينيْك عينيها وأيْرك خائبُ

الرياشي قال: أنشدني العتبي لأعرابي:

ماذا تظن بسلْمى إن ألَمّ بها مُرجَّل الرأس ذو بُرديْن مَزَّاحُ
حلوٌ فكاهَته خزٌّ عمامَته في كفّه من رُقَى إبليسَ مِفتاح!

أعرابي وامرأة خطبها:

أبو حاتم عن الأصمعي قال: خطب أعرابي امرأة، فقالت: سل عني بني فلان

وبني فلان. قال لها: وما عِلمهم بذلك؟ قالت: في كلهم نكحت وكنت، قال: أراك جَلَنْفَعَةً[1] قد خزمتك الخزائم، قالت: لا، ولكنْ جوّالة بالرجل عَنتريس[2].

تزوج رجل من الأعراب امرأة منهم عجوزاً ذات مال، فكان يصبر عليها لمالها، ثم ملّها وتركها، وكتبتْ إليه تستردّه، فكتب إليها يقول:

ليس بيني وبين قيسٍ عِتـــاب غيرَ طعْـن الكُلا وضرْب الرِّقـاب

فكتبت إليه: إنه والله ما يريد قيسٌ غير طعن الكلا!

أعرابي خاطب:

المفضل الضبي قال: خطب أعرابي آمرأة، فجعل يخطُبها ويُنعظ، فضرب ذكره بيده وقال: مَه! إليك يساق الحديث. فأرسلَها مثلاً.

أبو البيداء:

علي بن عبد العزيز قال: كان أبو البيداء عِنِّينا، وكان يتجلد ويقول لقومه: زوِّجوني امرأتين! فيقال له: إن في واحدة كفاية. فيقول: أمّا لي فلا! فقالوا: نزوِّجك واحدة، فإن كفتك وإلا زوّجناك أخرى. فزوّجوه أعرابية، فلما دخل بها أقام معها أسبوعاً، فلما كان في اليوم السابع أتوه، فقالوا له: يا أبا البيداء، ما كان أمرك في اليوم الأول؟ قال: عظيم جداً! قالوا: ففي الثاني؟ قال: أجلّ وأعظم! قالوا: ففي الثالث؟ قال: لا تسألوا! فأجابت المرأة من وراء الستر، فقالت:

كان أبو البيْـداء يَنـزو في الوهَـقْ حتى إذا أُدخـل في بيْـتٍ أبَـقْ[3]
فيـه غـزالٌ حسَـنُ الدَّلِّ خـرق مارَسهُ حتى إذا آرفـضَّ العـرق[4]
آنكسَرَ المِفتاح وآنسدّ الغلَقْ

---

(١) جلنفعة: مسنة.
(٢) عنتريس: قوية صلبة.
(٣) الوهق: حبل تشد به الابل والخيل.
(٤) خرق: أي فيه خجل وحياء.

لأعرابي في امرأته:

كانت لأعرابي آمرأة لا تَرُدّ يَد لامس؛ فقيل له؛ مالك لا تفارقها؟ قال: إنها حسناءُ فلا تُفرك، وأم بنين فلا تُترك.

قال الشيخ من الأعراب:

أنـا شيْـخٌ ولي امـرأةٌ عجـوز تُـــراوِدُني على مـــا لا يجوز
تـريـد أنيكُهـا في كـلِّ يـومٍ وذلـك عنـد أمثـالي عـزيــزُ
وقالت دَقَّ أيْـرُكَ مُـذْ كبرنـا فقلـت لها بـل اتَّسَـع القفيــز

الأصمعي قال: قال أعرابي في امرأة تزوّجها، وقد تزوّجت قبله خمسة، وتزوّج هو قبلها أربعاً، فلاحتْه يوماً، فقال فيها:

لو لابس الشيطـانُ مـا أُلابِس أو مارَس الغـولُ التي أُمـارسُ
لأصبح الشيطان وهـو عـابس زوّجهـــا أربعـــةٌ عمارس[1]
فانفلتوا منهـا ومـات الخامس وساقني الحين فهـانـا السـادس

وقال فيها:

بُـوَيْـزل أعـوام أذاعـت بخمســـة وتَعْتَدُّني - إن لم يَقِ الله - ساديـا[2]
ومن قبلها غيّبـتُ في الترب أربعـاً وأعتدُّها مُـذ جئتُهـا في رجـائيـا
كلانـــا مُطـــلٌّ مشرف لغنيمـــة يراها ويقضي اللهُ ما كان قـاضيـا

وقال أعرابي:

أشكـو إلى الله عيـالاً دَرْدَقـا مُقَرْقَمِين وعجـوزاً شَمْلَقـا[3]

الدردق: الصغار. والمقرقم: البطيء الشباب. والشملق السيئة الخلق.

---

(١) العمروس: الجمل إذا بلغ النزو.

(٢) بويزيل أعوام، أي أنها جاوزت البزول بأعوام، فهي مسنة؛ وساديا، أي سادساً، أبدل من السين ياء.

(٣) العجوز الشملق: التي لا خير عندها.

قولهم في الإعراب

لبعض الأعراب في معنى هذا العنوان:

الأصمعي قال: قلت لأعرابي: أتهمز إسرائيل؟ قال: إني إذاً لرجل سوء! قلت له: أفتجرّ فلسطين؟ قال: إني إذاً لقَوِي.

وسمع أعرابي إماماً يقرأ: ولا تَنْكِحوا المُشرِكينَ حتى يُؤمِنوا، قال. ولا إن آمنوا أيضاً، لا ننكحهم. فقيل له: إنه يلحن، وليس هذا يُقرأ. فقال: أخِّروه قبحه الله! ولا تجعلوه إماماً؛ فإنه يُحلّ ما حرّم الله.

وسمع أعرابي أبا المكنون النحوي وهو يقول في دعائه يستسقي: اللهم ربَّنا وإلهنا وسيدَنا ومولانا، صلِّ على محمد نبينا؛ [اللهم] ومن أراد بنا سوءا فأحط ذلك السوء به كإحاطة القلائد بأعناق الولائد، ثم أرسخْه على هامسته كرُسوخ السِّجِّيل[1] على هام أصحاب الفيل، اللهم اسقنا غيثاً مريئاً مريعاً[2] مُجلجلاً[3] مُسحنفِراً[4] هزجاً[5] سحّاً سَفوحاً طبقاً[6] غدَقاً مُثْعَنجراً[7] صَخِباً نافعاً لعامّتنا وغيرضارٍ بخاصّتنا. فقال الأعرابي: يا خليفة نوح، [هذا] الطوفان وربِّ الكعبة، دعني حتى آوي إلى جبل يعصمني من الماء.

الأصمعي قال: أصابت الأرض مجاعة؛ فلقيت رجلاً منهم خارجاً من الصحراء كأنه جذعٌ محترق فقلت: أتقرأ في كتاب الله شيئاً؟ قال: لا. قلت: فأعلمك؟ قال: ما شئت. قلت: اقرأ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ [8]. قال: كل يا أيها الكافرون. قلت: [قُلْ] ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ كما أقول لك. قال: ما أجد لساني ينطق بذلك.

---

(١) السجّيل: حجارة كالمدر. (٢) المريع: الذي يمرع أي يخصب. (٣) المجلجل: الذي فيه صوت الرعد.
(٤) المسحنفر: الكثير الصب الواسع. (٥) الهزج: الذي به صوت.
(٦) طبقاً: عاماً واسعاً. (٧) المثعنجر: الجاري الذي يملأ الأرض.
(٨) سورة الكافرون الآية ١٠٩.

قال: ورأيت أعرابياً ومعه بُنَيّ له صغير ممسك بفم قربة، وقد خاف أن تغلبه القربة؛ فصاح: يا أبت، أدرِك فاهاً، غلبني فوها، لا طاقة لي بفيها!

قولهم في الدين

قال أعرابي: الدَّيْن ذُل بالنهار وهمٌّ بالليل.

وقال أعرابي في غرماء له يطلبونه بدَين:

جاءُوا إليَّ غِضاباً يلْغطون معاً ... فقلت موعدكم دار آبن هَبَّار
وما أُواعدُهم إلاَّ لأَدْرأهُمْ ... عني فيُحرِجُني نقضي وإمراري[1]
وما جلَبْت إليهم غيْر راحلةٍ ... تَخْدِي برحْلي وسيْفٍ جَفْنُه عاري[2]
إنّ القضاءَ سيأتي دونَه زمنٌ ... فاطْوِ الصحيفةَ واحفظْها من النار

الأصمعي قال: كان لرجل من يحصُبَ على رجل من باهلة دين؛ فلما حل دينه هرب الأعرابي وأنشأ يقول:

إذا حلَّ ديْنُ اليْحُصبيِّ فقل له ... تَزوّدْ بزادٍ واستعن بدليلِ
سيُصبح فوْقي أقتَم الريش واقعاً ... بقالي قَلاَ أو من وراء دبيل[3]

قال الأصمعي: آختصم أعرابيان إلى بعض الولاة في دَين لأحدهما على صاحبه؛ فجعل المدَّعَى عليه يحلف بالطلاق والعتاق، فقال له المدعِي: دعني من هذه الأيمان وآحْلِفْ بما أقوله لك: لا ترك الله لك خفاً يتبع خفاً ولا ظلفاً يتبع ظلفاً؛ وحتَّك من أهلك ومالك حتّ[4] الورق من الشجر، إن لم يكن لي هذا الحق قبلك! فأعطاه حقه ولم يحلف له.

الهيثم بن عدي قال: يمين لا يحلف بها أعرابي أبداً: لا أورد الله لك صادرة، ولا أصدر لك واردة، ولا حططت رحلك، ولا خلعت نعلك.

---

(١) امراري ونقضي، أي عقدي وحلّي.
(٢) الجفن: غمد السيف ونحوه.
(٣) قالي قلا ودبيل: مدينتان بأرمينية.
(٤) حتّ: سقط.

قولهم في النوادر والملح

أبو العباس وأعرابي:

الشيباني قال: خرج أبو العباس أمير المؤمنين متنزهاً بالأنبار، فأمعن في نزهته وانتبذ من أصحابه؛ فوافى خباء لأعرابي، فقال له الأعرابي: ممن الرجل؟ قال: من كنانة. قال: من أي كنانة؟ قال: من أبغض كنانة إلى كنانة. قال: فأنت إذاً من قريش! قال: نعم. قال: فمن أي قريش! قال: من أبغض قريش إلى قريش، قال: فأنت إذاً من ولد عبد المطلب! قال: نعم. قال: فمن أي ولد عبد المطلب؟ قال: من أبغض ولد عبد المطلب إلى ولد عبد المطلب. قال: فأنت إذاً أمير المؤمنين، السلام عليك يا أمير المؤمنين! ووثب إليه، فاستحسن ما رأى منه وأمر له بجائزة.

الشيباني قال: خرج الحجاج متصيداً بالمدينة، فوقف على أعرابي يرعى إبلا له، فقال له: يا أعرابي، كيف رأيت سيرة أميركم الحجاج؟ قال له الأعرابي: غشوم ظلوم! لا حيّاه الله! فقال: فلم لا شكوتموه إلى أمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: فأظلم وأغشم! فبينا هو كذلك إذ أحاطت به الخيل، فأومأ الحجاج إلى الأعرابي، فأُخذ وحُمل؛ فلما صار معه قال: من هذا؟ قالوا له: الحجاج! فحرك دابته حتى صار بالقرب منه، ثم ناداه: يا حجاج! قال: ما تشاء يا أعرابي؟ قال: السر الذي بيني وبينك أحب أن يكون مكتوماً! قال: فضحك الحجاج وأمر بتخلية سبيله.

يوسف بن عمر ووال:

الأصمعي قال: ولّى يوسف بن عمر صاحب العراق أعرابياً على عمل له؛ فأصاب عليه خيانة فعزله، فلما قدم عليه قال له: يا عدوّ الله! أكلت مال الله! قال الأعرابي: فمالَ مَن آكل إذا لم آكل مال الله؟ لقد راودت إبليس أن يعطيني فلْساً واحداً فما فعل. فضحك منه وخلى سبيله.

ابن جعفر وأعرابية:

الشيباني قال: نزل عبد الله بن جعفر إلى خيمة أعرابية ولها دجاجة وقد دجنت عندها، فذبحتها وجاءت بها إليه فقالت: يا أبا جعفر، هذه دجاجة لي كنت أدجنها وأعلفها من قوتي! وألمسها في آناء الليل فكأنما ألمس بنتي زلَّت عن كبدي، فنذرت لله أن أدفنها في أكرم بقعة تكون، فلم أجد تلك البقعة المباركة إلا بطنك، فأردت أن أدفنها فيه. فضحك عبد الله بن جعفر وأمر لها بخمسمائة درهم.

بين أعرابي وقوم في الهلال:

ونظر أعرابي إلى قوم يلتمسون هلال شهر رمضان، فقال: والله لئن أُرِيتُمُوه لتُمْسِكُنّ منه بذِناب[1] عيش أغبر.

بين الأصمعي وأعرابي في ماء:

الأصمعي قال: رأيت أعرابياً واقفاً على ركيّة[2] مِلْحة، فقلت: كيف هذا الماء يا أعرابي؟ قال: يخطىء القلب ويصيب الاست.

بينه وبين أعرابي سمين:

ونظر أعرابي إلى رجل سمين فقال: أرى عليك قطيفة[3] من نسج أضراسك. [4]

قال: وسمعت أعرابياً يقول: اللهم إني أسألك ميتة كميتة أبي خارجة أكل بَذَجاً، وشرب مُعسَّلاً، ونام في الشمس، فمات دَفآن شَبْعان رَيان.

النبي ﷺ وبعض الأعراب:

محمد بن وضاح يرفعه إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: دخل أعرابي المسجد والنبيُّ ﷺ جالس، فقام يصلي؛ فلما فرغ قال: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا

(١) ذناب كل شيء: عقبه ومؤخره. (٢) ركيّة: البئر لم تطو.

(٣) القطيفة: كساء له أهداب. (٤) البذج: الحمل.

أحداً. فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «لقدحَجَّرْتَ واسعاً يا أعرابي».

لبعض الأعراب:

قال: وسمعت أعرابياً وهو يقول في الطواف: اللهم اغفر لأمي. فقلت له: مالك لا تذكر أباك؟ فقال: أبي رجل يحتال لنفسه، وأما أمي فبائسة ضعيفة.

أبو حاتم عن أبي زيد قال: رأيت أعرابياً كأنّ أنفه كوز[1] من عظَمه؛ فرآنا نضحك منه؛ فقال: ما يُضحككم؟ فوالله لقد كنت في قوم ما كنت فيهم إلا أفْطس.

قال: وجيء بأعرابي إلى السلطان ومعه كتاب قد كتب فيه قصته وهو يقول: هاؤم آقرءوا كتابِيَهْ. فقيل له: يقال هذا يوم القيامة. قال: هذا والله شر من يوم القيامة؛ إن يوم القيامة يؤتَى بحسناتي وسيئاتي، وأنتم جئتم بسيئاتي وتركتم حسناتي.

وقيل لأبي المِخَش الأعرابي: أيسرك أنك خليفة وأن أمَتك حرّة؟ قال: لا والله ما يسرني! قيل له: ولم؟ قال: لأنها كانت تذهب الأمة وتضيع الأمّة.

اشترى أعرابي غلاماً، فقيل للبائع: هل فيه من عيب؟ قال: لا، إلا أنه يبول في الفراش. قال: هذا ليس بعيب، إن وجد فراشاً فلْيبُلْ فيه.

الحجاج وأعرابي لص:

أخذ الحجّاج أعرابياً لصاً بالمدينة فأمر بضربه؛ فلما قرعه بسوط قال: يا رب شكراً! حتى ضربه سبعمائة سوط، فلقيه أشعب، فقال له: أتدري لِمَ ضربك الحجاج سبعمائة سوط؟ قال: لماذا؟ قال: لكثرة شكرك؛ إن الله تعالى يقول: ﴿لَئِن شَكَرتمْ لأزيدنَّكم﴾[2] قال: وهذا في القرآن؟ قال: نعم. فقال الأعرابي:

يـا ربِّ لا شُكْـر فلا تَـزِدْني أَسأتُ في شكْري فـآعـف عني

---

(١) يقال كاثر الشيء: جمعه.   (٢) سورة ابراهيم الآية ٧.

باعدْ ثوابَ الشاكرين مني

أعرابي ينشد غلاماً:

مرّ أعرابي بقوم وهو يَنشد ابناً له، فقالوا له: صفه. قال: كأنه دُنينير! قالوا: لم نره. ثم لم يلبث القوم أن أقبل الأعرابي وعلى عنقه جُعل، فقالوا: هذا الذي قلت فيه كأنه دنينير؟ فقال: القَرَنبى في عين أمّها حسناء.

والقرنبى: دويبة من خشاش الأرض إذا مسّها أحدٌ تقبّضتْ فصارت مثل الكرة.

لبعض الأعراب في الغزو:

قيل لأعرابي: ما يمنعك أن تغزو؟ قال: والله إني لأبغض الموت على فراشي، فكيف أن أمضي إليه ركضاً.

وغزا أعرابي مع النبي ﷺ، فقيل له: ما رأيتَ مع رسول الله في غزاتك هذه؟ قال: وضع عنا نصفَ الصلاة، وأرجو في الغزاة الأخرى أن يضع النصف الباقي!

السختياني وبعض الأعراب:

جلس أعرابي إلى مجلس أيوب السِّختياني، فقيل له: يا أعرابي، لعلك قَدَريّ؟ قال: وما القَدَري؟ فذُكر له محاسن قولهم؛ قال: أنا ذاك. ثم ذكر له ما يعيب الناس من قولهم؛ فقال: لست بذاك. قال: فلعلك مثبت؟ قال: وما المثبت؟ فذكر محاسنهم؛ فقال: أنا ذاك. ثم ذكر له ما يعيب الناس منهم؛ فقال: لست بذاك. قال أيوب: هكذا يفعل العاقل؛ يأخذ من كل شيء أحسنه.

جرير وأعرابي:

الأصمعي قال: سمع أعرابي جريراً ينشد:

كاد الهوَى يومَ سلْمانين يقْتلني   وكاد يقْتلني يوماً بنَعْمان (١)

(١) سلمانان: من قرى مرو؛ ونعمان: حصن من حصون زبيد من ناحية اليمن.

وكاد يقْتلني يـومـاً بـذي خُشُـب   وكـاد يقتلني يـومـاً بسَلْمان

فقال: هذا رجل أفلت من الموت أربع مرات! لا يموت هذا أبداً.

الشيباني قال: بلغني أن أعرابيين ظريفين من شياطين العرب حطمتهما سنة، فانحدار إلى العراق؛ فبينما هما يتماشيان في السوق ـ واسم أحدهما خندان ـ إذا فارسٌ قد أوطأ دابته رِجلَ خندان، فقطع إصبعاً من أصابعه، فتعلقا به حتى أخذا أرْش[1] الإصبع، وكانا جائعين مقرورين، فلما صار المال بأيديهما قصدا إلى بعض الكرايج[2]، فابتاعا من الطعام ما اشتهيا، فلما شبع صاحب خندان أنشأ يقول:

فلا غَرثة ما دام في الناس كُـرْبـجٌ   وما بقيتْ في رِجْل خُنْدانَ إصبَعُ[3]

أعرابية وابنها:

وهذا شبيه قول أعرابية في ابنها، وكان لها ابن شديد العرام[4]، كثير القتال للناس، مع ضعف أسر ورقة عظم، فواثب مرة فتى من الأعراب، فقطع الفتى أنفه، فأخذت أمّه دية أنفه؛ فحسن حالها بعد فقر مدقع؛ ثم واثب آخر، فقطع أذنه؛ ثم أخذت دية أذنه فزادت في المال وحُسن الحال؛ ثم واثب آخر فقطع شفته؛ ثم أخذت دية شفته؛ فلما رأت ما صار عندها من الإبل والبقر والغنم والمتاع بجوارح ابنها، ذكرته في أرجوزة لها تقول فيها:

أَحلِفُ بـالمَرْوةِ حقّـاً والصّفـا   أنكَ خيرٌ من تَفـاريـق العصـا

فقلت لأعرابي: ما تفاريق العصا؟ قال: العصا تُقطع ساجورا، ثم يقطع الساجور أوتاداً، ثم تقطع الأوتاد أشظّة.

لبعض الأعراب في الحج:

الأصمعي قال: خرج أعرابي إلى الحج مع أصحاب له، فلما كان ببعض الطريق

---

(١) الأرش: الدية.   (٢) الكرابج: الحوانيت.

(٣) غرثه: جوّعه؛ والغرثة: الجوع.   (٤) العرام: الشراسة.

راجعاً يريد أهله، لقيه ابن عم له، فسأله عن أهله ومنزله، فقال: آعلم أنك لما خرجت وكانت لك ثلاثة أيام، وقع في بيتك الحريق. فرفع الأعرابي يديه إلى السماء، وقال: ما أحسن هذا يا رب! تأمرنا بعمارة بيتك أنت وتُخرب بيوتنا.

وخرجت أعرابية إلى الحج، فلما كانت ببعض الطريق عَطِبَت راحلتها، فرفعت يديها إلى السماء وقالت: يا رب، أخرجتني من بيتي إلى بيتك، فلا بيتي ولا بيتك!

الأصمعي قال: عُرضت السجون بعد هلاك الحجاج، فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً لم يَجب على واحد منهم قتل ولا صلب؛ وفيهم أعرابي أُخذ يبول في أصل سور مدينة واسط؛ فكان فيمن أُطلق؛ فأنشأ يقول:

إذا ما خرجْنا من مدينة واسِطٍ ... خَرِينا وبُلْنا لا نَخاف عِقابَا

لأعرابي في الأولاد:

ذُكر عند أعرابي الأولاد والانتفاع بهم؛ فقال: زوِّجوني امرأة أولدها ولداً أعلمه الفروسية حتى يُجري الرهان؛ والنزعَ عن القوس حتى يصيب الحدَق، وروايةَ الشعر حتى يُفحم الفحول. فزوَّجوه امرأة فولدت له ابنة، فقال فيها:

قد كنتُ أرجو أن تكون ذكَراً ... فشقَّها الرَّحمٰن شقّاً منكَرا
شقّاً أبَى الله له أن يُجبَرا ... مِثل الذي لأمّها أو أكْبرا

ثم حملت حملاً آخر، فدخل عليها وهي في الطلق ـ وكانت تسمى ربابا ـ فقال:

أيَا رَبابي طرِّقي بخيرِ ... وطرِّقي بخُصيْةٍ وأيْرِ [1]
ولا تُرينا طرَف البُظيْر

ثم ولدت له أخرى، فهجر فراشها وكان يأتي جارة لها، فقالت فيه ـ وكان يكنى أبا حمزة ـ:

ما لأبي حمزةَ لا يأتينا ... يظلُّ في البيت الذي يَلينا

---

(١) طرّقي، أي ألقي.

غضبـانَ أن لا نلـدَ البَنينـا   وإنما نـأخـذ مـا أعطينـا!

فألانه قولها ورجع إليها.

لأعرابي يدعو:

وقال سعيد بن أبي الفَرَج: سمعت أعرابياً يطوف بالبيت وهو يقول:

لا هُـمَّ ربَّ النـاس حين لبَّبـوا   وحين راحوا من منًى وحصَّبـوا[1]

لا سُقيـتْ عَنْبَثَـب وغُلْـبُ   والمُستَـزار لا سَقـاه الكوكـبُ

فقلت: يا أعرابي، ما لهذه المواضع تدعو عليها في هذا الموضع؟ فنظر إليّ كالغضبان فقال:

من أجل حماهن ماتت زينب

قولهم في التلصص

أبو حاتم قال: أنشدنا أبو زيد الأعرابي، وكان لصاً:

ثلاث خِلال لستُ عنهـنّ تـائبـاً   وإن لا مَنـى فيهـن كـلُّ خليـلِ

فمنهـن أني لا أزال مُعـانِقـاً   حَمائل مـاضي الشَّفـرتيْـن صَقيـل

به كنت أستعدِي وأَعْدي صحـابتي   إذا صرَخ الزحْفـان بـاسم قتيـل

ومنهنّ سُوق النهْبِ في ليلة الدّجـى   يَحـار بها في الليـل كـل دليـل

ومنهن تَجـريـد الكَعـاب ثيـابَهـا   وقد مال جُنح الليـل كـلَّ مَميـل

وهذا المعنى سبقه إليه الأول:

فلولا ثلاثٌ هـنّ مـن عِيشـة الفتى   وجَدِّك لم أحفِل متى قـام رامِسُ[2]

فمنهـن سبْـق العـاذِلات بشَـرْبـةٍ   كأنّ أخاها مطلَعَ الشمسِ نـاعس

---

(١) لببّوا، أي لبوا.   (٢) متى قام رامس، أي حين أدفن.

ومنهــن تقْـريــط الجَواد عِنــانَــه ... إذا ابتدَر الشخصَ الصفي الفوارس(١)
ومنهنّ تَجريد الكواعب كالـدُّمَـى ... إذا ابتُزّ عـن أكفـالِهنّ الملابس(٢)

وأول من قال هذا المعنى طَرَفة حيث يقول:

فلولا ثلاثٌ هـنّ مـن عِيشـة الفتى ... وجَدِّكَ لم أحفِل متى قـام عُـوَّدِي
فمنهن سَبْقـي العـاذِلات بشَـرْبَـةٍ ... كُميتٍ متى ما تُعْـلَ بـالماءِ تُـزبِـد
وكَرِّي إذا نادَى المُضـافُ مُحَنَّبـا ... كسيـدِ الغَضـا نبَّهْتَـهُ المُتــوردِ(٣)
وتقصيرُ يُوم الدجن والدّجْنُ مُعجِـبٌ ... ببَهْكَنَـةٍ تحت الخِبــاء المُعَمَّــدِ(٤)

قولهم في الطعام

شيخ وحدث:

الأصمعي قال: اصطحب شيخٌ وحدَث في سفر، وكان لهما قرص في كل يوم، وكان الشيخ منخلع الأضراس بطيء الأكل، وكان الحدث يطيش(٥) بالقرص ثم يجلس يشتكي العشق، ويتضوّر الشيخ جوعاً، وكان يسمى الحدثُ جعْفَراً، فقال الشيخ:

لقد رابني مِـن جعفَـر أنْ جعْفَـراً ... يطيشُ بقُرْصِي ثم يبكِي على جُمْل
فقلتُ له لو مَسَّـكَ الحبُّ لم تبـتْ ... بَطيناً ونسَّاك الهوَى شَـرَهَ الأكْـل

الأصمعي قال: أنشدني أعرابي لنفسه:

ألا ليتَ لِي خُبْـزاً تسربَـل رائِبـاً ... وخيْلاً مِنَ البَرْنِيِّ فُرْسانها الزُّبـدُ(٦)
فـأَطلُــب فيما بيْنَهُــنَّ شهـــادةً ... بموْتِ كـريم لا يُعـدُّ لــه لَحْــد

---

(١) تقريط الجواد عنانه، أي جعل العنان له كالقرط.

(٢) الكواعب: مفردها كاعب، وهي الفتاة وقد نهد ثديها.

(٣) المحنب من الخيل: المعطف العظام.

(٤) البهكنة: الجارية الخفيفة الروح الطيبة الرائحة.

(٥) بطيش: شديد البطش. (٦) البرني: ضرب من التمر.

لأعرابي في ثريدة:

الشيباني عن أبيه قال: قال أعرابي: كنت أشتهي ثريدة دكناء من الفلفل، رقطاء من الحمص، ذات حِفافين من اللحم، لها جناحان من العُراق[1]، أضرب فيها كما يضرب وليُّ السوءِ في مال اليتيم!

بين أعرابيين:

وقال رجل لأعرابي: ما يسرني لو بتَّ ضيفاً لك! فقال له الأعرابي: لو بتَّ ضيفاً لي لأصبحت أبطنَ من أمك قبل أن تلدَك بساعة.

أعرابي على مائدة سليمان:

حضر أعرابي سفرة سليمان بن عبد الملك، فجعل يمرّ إلى ما بين يديه، فقال له الحاجب: مما يليك فكُلْ يا أعرابي. فقال: مَن أجدبَ انتجع. فشق ذلك على سليمان، وقال للحاجب: إذا خرج عنا فلا يعُد إلينا. وشهد بعد هذا سُفْرَتَه أعرابي آخر، فمر إلى ما بين يديه أيضاً، فقال له الحاجب: مما يليك فكُل يا أعرابي. قال: مَن أخصب تخيّر. فأعجب ذلك سليمان، فقرّبه وأكرمه وقضى حوائجه.

أعرابي وقوم من الكتبة:

مر أعرابي بقوم من الكتبة في متنزه لهم وهم يأكلون، فسلم ثم وضع يده يأكل معهم، فقالوا: أعَرَفت فينا أحداً؟ قال: بلى، عرفت هذا! وأشار إلى الطعام، فقال بعض الكتاب يصف أكله:

لم أرَ مِثْـل ثـرْطِـه ومطِّـهِ[2]

قال الثاني: وأكْلـهُ دجـاجَـهُ ببطِّـهِ

قال الثالث: ولفِّـهِ رُقـاقـهُ بـإقْطِـهِ[3]

---

(١) العراق: العظام اذا لم يكن عليها شيء من اللحم.

(٢) ثرط: سلح سلحاً رقيقاً، واكثر ما يقال للإبل والبقر والفيلة.

(٣) الإقط: شيء يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى تمصل.

قال الرابع: كأنّ جالينوسَ تحت إبطِهِ

فقالوا للرابع: أما الذي وصفنا من فعله فمفهوم؛ فما يصنع جالينوس من تحت إبطه؟ قال: يلقمه الجوارش كلما خاف عليه التخمة، يهضم بها طعامه!

مديني وأعرابي:

وقال رجل من أهل المدينة لأعرابي: ما تأكلون وما تعافون؟ قال له الأعرابي: نأكل كل ما دب وهب، إلا أم حُبيْن[1]. قال المدني: ليَهْنِيءْ أمَّ حُبين العافية.

أعرابي وولده:

قال رجل من الأعراب لولده: اشتروا لي لحماً. فاشتروا وطبخوا له حتى تهرَّأ، فأكل منه حتى انتهى، ولم يبق إلا عظمه؛ وشرعتْ إليه عيون ولده، فقال: ما أنا مطعِمه أحداً منكم إلا من أحسنَ أكله. فقال له الأكبر: ألُوكه يا أبت حتى لا أدع فيه للذرّة مقيلا. قال: لست بصاحبه. قال الآخر: ألوكه حتى لا يدري ألعامه هو أو لعام أوّل؟ قال: لست بصاحبه. قال له الأصغر: أدقُّه يا أبت وأجعل إدامه المخ. قال: أنت صاحبه، هو لك.

لعذري في حضر المسلمين:

بلغني عن محمد بن يزيد بن معاوية، أنه كان نازلاً بحلب على الهيثم بن عدي، فبعث إلى ضيف له من عذرة أعرابيّ، فقال له: حدِّث أبا عبد الله بما رأيت في حضر المسلمين من الأعاجيب. قال: نعم، رأيت أُموراً معجبة. منها أنني دخلت قرية بكر بن عاصم الهلالي، وإذا أنا بِدور متباينة، وإذا خِصاص[2] بيضٌ بعضها إلى بعض، وإذا بها ناس كثير مقبلون ومدبرون، وعليهم ثياب حَكَوْا بها أنواع الزهر؛

---

(١) أم حبين: دويبة على خلقة الحرباء عريضة الصدر عظيمة البطن.

(٢) الخصاص: جمع خُص، وهو بيت من شجر وقصب.

فقلت لنفسي: هذا أحد العيدين: الفطر أو الأضحى. ثم رجع إليَّ ما عزب من عقلي، فقلت: خرجت من أهلي في عقب صفَر وقد مضى العيدان قبل ذلك! فبينا أنا واقف أتعجب إذا أتاني رجل فأخذ بيدي فأدخلني بيتاً قد نُجِّدَ، وفي وجهه فُرُشٌ ممهدة، وعليها شاب ينال فرعُ شعره كتفيه، والناس حوله سماطين[1]، فقلت في نفسي: هذا الأمير الذي يُحكي لنا جلوسُه وجلوس الناس حوله. فقلت وأنا ماثل بين يديه: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله! قال: فجذب رجل بيدي وقال: ليس بالأمير، آجلس. قلت فمن هو؟ قال: عروس. قلت: واثكل أمَّاه! لرُبَّ عروسٍ بالبادية قد رأيته أهون على أصحابه من هَنِ أمه! فلم ألبث أن أُدخلت الرجالُ عليها هَناتُ مدوّرات من خشب، أما ما خف منها فيُحمل حملاً، وأما ما ثقل فيُدحرج؛ فوضعت أما منا وتَحلَّقَ القوم عليها حلَقاً، ثم أُتينا بخِرق بيض فألقيت عليها؛ فهممت واللهِ أن أسأل القوم خِرقة منها أرقع بها قميصي، وذلك أني رأيت لها نسجاً متلاحماً لايتبين له سدى ولا لُحمة؛ فلما بسط القوم أيديهم، إذا هو يتمزق سريعاً، وإذا صنف من الخبز لا أعرفه؛ ثم أُتينا بطعام كثير من حُلْو وحامض، وحارٍّ وبارد، فأكثرت منه وأنا لا أعلم ما في عقبه من التخم والبَشَم[2]؛ ثم أتينا بشراب أحمر في عِساس[3] بيض؛ فلما نظرت إليه قلت: لا حاجة لي به؛ لأني أخاف أن يقتلني! وكان إلى جانبي رجل ناصحٌ لي ـ أحسن الله عني جزاءه!ـ كان ينصحني بين أهل المجلس؛ فقال لي: يا أعرابي، إنك قد أكثرت من الطعام فإن شربت الماء هَمَى[4] بطنك. فلما ذكر البطن، ذكرت شيئاً أوصاني به الأشياخ، قالوا: لا تزال حياً ما دام بطنك شديداً، فإذا اختلفت فأوص. فلم أزل أتداوى بذلك الشراب ولا أملّه، حتى داخلني به صلف لا أعرفه من نفسي ولا عهد لي به، واقتدار على أمري؛ وكان إلى جانبي الرجل الناصح لي؛ فجعلت نفسي تحدثني بهتْم أسنانه مرة، وهشم أنفه أخرى؛ وأهم أحياناً أن أقول له: يا ابن الزانية! فبينا نحن كذلك، إذ هجم علينا شياطين أربعة:

---

(١) سماطين: مثنى سماط، وهو الصفّ. (٢) بشم: أتخم حتى سئم.

(٣) العساس: جمع عس، وهو القدح الضخم. (٤) همى: سال.

أحدهم قد علق جعبة فارسية منتفخة الطرفين قد شبكت بالخيوط، وقد ألبست قطعة فرو، كأنهم يخافون عليها القر؛ ثم بدا الثاني فاستخرج من كمه هنة كفيشلة الحمار، فوضع طرفها في فيه فضرط فيها، ثم حَسَب على جِحَرة فاستخرج منها صوتاً مُشاكلاً بعضه بعضاً؛ ثم بدا الثالث وعليه قميص وسخ، وقد غرق رأسه بالدهن معه مِرْآتان، فجعل يَمري إحداهما على الأخرى؛ ثم بدأ الرابع عليه قميص قصير وسراويل قصيرة، فجعل يقفز صلبه، ويهز كتفيه، ثم التبط بالأرض، فقلت: معتوهٌ وربِّ الكعبة. ثم ما برح مكانه حتى كان أغبط القوم عندي. ثم أرسلت إلينا النساء أن أمتِعونا من لهوكم. فبعثوا بهم إليهن، وبقيت الأصوات تدور في آذاننا؛ وكان معنا في البيت شاب لا آبَه له، فعلَتِ الأصوات له بالدعاء، فخرج فجاء بخشبة في يده، عينها في صدرها، فيها خيوط أربعة، فاستخرج من جوانبها عوداً فوضعه على أذنه، ثم زمّ الخيوط الظاهرة، فلما أحكمها عرك أذنها فنطق فوها، فإذا هي أحسنُ قينة رأيتها قط [وغنّى عليها] فاستخفَّني حتى قمت من مجلسي فجلست إليه فقلت: بأبي أنت وأمي، ما هذه الدابة؟ قال: يا أعرابي، هذا البَرْبط[1]. قلت: فما هذه الخيوط؟ قال: أما الأسفل فزير، والذي يليه مثْنى، والذي يليه مَثلث. والذي يليه بَمّ. فقلت: آمنت بالله.

لأعرابي في تمر:

وقال أعرابي. تمرنا خُنسٌ فطْس، يغيب فيهن الضرس، كأن فاها ألسن الطير، تقع التمرة منها في فيك، فتجد حلاوتها في كعبك.

أعرابي على سفرة سليمان:

وحضر أعرابي سفرة سليمان بن عبد الملك، فلما أُتي بالفالوذج[2] جعل يسرع فيه، فقال سليمان: أتدري ما تأكل يا أعرابي؟ فقال: بلى يا أمير المؤمنين، إني لأجد ريقاً

---

(١) البربط: العود. (٢) الفالوذج: حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل.

هنيئاً، ومزدَرَداً ليناً، وأظنه الصراط المستقيم الذي ذكره الله في كتابه! قال: فضحك سليمان وقال: أزيدك منه يا أعرابي، فإنهم يذكرون أنه يزيد في الدماغ، قال: كذبوك يا أمير المؤمنين لو كان كذلك لكان رأسك مثل رأس البغل.

لأعرابي غير صائم:

قال: ومررت بأعرابي يأكل في رمضان، فقلت له: ألا تصوم يا أعرابي؟ فقال:

وصائمٍ هبَّ يلْحاني فقلتُ له   اَعمِدْ لِصَومكَ واَترُكني وإفطاري
واَظمَا فإني سأرْوى ثم سوف تَرى   من ذا يَصيرُ إذا مِتنا إلى النَّار

لأعرابي على سفرة سليمان أيضاً:

وحضر سفرةَ سليمان أعرابي، فنظر إلى شعرة في لقمة الأعرابي؛ فقال: أرى شعرة في لقمتك يا أعرابي! قال: وإنك لتُراعيني مراعاةَ من يُبصر الشعرة في لقمتي؟ والله لا واكلتك أبداً! فقال: استرها يا أعرابي، فإنها زلة ولا أعود إلى مثلها.

أخبار أبي مهدية الأعرابي

أبو عثمان المازني قال: قال أبو مَهدية: بلغني أن الأعراب والأعزاب هجاهما واحد. قلت: نعم. قال: فاقرأْ: «الأعْزابُ أشدُّ كفْراً ونفاقاً» ولا تقرأْ: الأعراب. ولا يغرّك العَزَبُ وإن صام وصلى.

وتوفي بُنَيٌّ لأبي مهدية صغير، فقيل له: أبشر أبا مهدية؛ فإنا نرجو أن يكون شفيع صدق يوم القيامة! قال: لا وكُلَنا الله إلى شفاعته، إذاً والله يكون أعياناً لساناً وأضعَفَنا حجة؛ ليته المسكين كفانا نفسه!

وقيل لأبي مهدية: أكنتم تتوضؤن بالبادية؟ قال: نعم والله؛ لقد كنا نتوضأ فتكفي التوضئة الواحدة الرجل منا الثلاثة الأيام والأربعة، حتى دخلت علينا هذه

الحمر ـ يعني الموالي ـ فجعلت تليق أستاهَها كما تلاق الدواة[١] .

وقيل لأبي مهدية: أتقرأ من كتاب الله شيئاً؟ قال: نعم. ثم افتتح يقرأ: ﴿والضُّحَى واللَّيْلِ إذا سَجَى﴾[٢] حتى انتهى إلى ﴿ووجَدَكَ ضالاً فَهَدى﴾[٣] فالتفت إلى صاحب له فقال: إن هؤلاء العلوج[٤] يقولون: ووجدك ضالاً فهدى. والله لا أقولها أبداً.

ولما سن أبو مهدية ولِيَ جانباً من اليمامة، وكان به قوم من اليهود أهل عطاء وجدة، فأرسل إليهم فقال: ما عندكم من المسيح؟ قالوا: قتلناه وصلبناه! قال: فهل غرمتم دِيته؟ قالوا: لا. قال: إذاً والله لا تبرحوا حتى تغرموا ديته! فأَرْضَوه حتى كف عنهم.

وقيل لأبي مهدية: ما أصبركم معشر الأعراب على البدو؛ قال: كيف لا يصبر على البدو مَن طعامُه الشمس وشرابه الريح!؟

ونظر أبو مهدية إلى رجل يستنجي ويكثر من الماء، فقال له: إلى كم تغسلها ويحك! أتريد أن تشرب فيها سويقا!

ومات طفل لأبي مهدية، فقيل له: اصبر يا أبا مهدية؛ فإنه فرط افترطتَه[٥]، وخير قدمته، وذخر أحرزته. فقال: بل ولدٌ دفَنْتُه، وثكلٌ تعجلته؛ والله لئن لم أجزع للنقص، لا أفرحُ للمزيد.

قال أبو عبيدة: سمع أبو مهدية رجلاً يقول بالفارسية: زود زود. فقال: ما يقول هذا؟ فقيل له يقول: عجل عجل. فقال: أفلا يقول: حيهلا.

---

(١) ألاق الدواة: أصلح مدادها (٢) سورة الضحى الآية ١ و ٢.
(٣) سورة الضحى الآية ٧. (٤) العلوج: جمع علج، وهو كل جاف شديد من الرجال.
(٥) الفرط: الولد لم يبلغ الحلم؛ وافتراطه: فقده.

خبر أبي الزهراء

المعلي بن المثني الشيباني قال: حدثنا سويد بن منجوف قال: أقبل أعرابي من بني تميم حتى دخل الكوفة من ناحية جبانة السبيع، تحته أتان[١] له تخب، وعليها ذلاذل[٢] وأطمار من سَحْق صوف، قد اعتم بما يشبه ذلك؛ من أشْوه الناس منظراً وأقبحهم شكلاً؛ وهو يهدر كما يهدر البعير وهو يقول ألاسَبَد، ألا لَبَد[٣] ألا مُؤْو ألا مُقْرٍ، ألا سعديّ ألا يَربُوعيّ، ألا دَارميّ! هيهات هيهات! وما يُغني أصل حوض الماء صاديا مُعَنى! قال سويد: فدخل علينا في درب الكناسة فلم يجد منفذاً وقد تبعه صبيان كثير وسواد من سواد الحي، قال: فسمعت سوادياً يقول له: يا عماه، يا إبليس! متى أُذِنَ لك بالظهور؟ فالتفت إليهم، فقال منذ سروا آباءكم وفشّوا أمهاتِكم! قال: وكان معنا أبو حماد الخياط، وكان من أطلب الناس لكلام الأعراب وأصبرهم على الإنفاق على أعرابي، فدخل علينا وكان مع ذلك مولى بني تميم. فأتيته فأخبرته؛ فخرج مبادراً كأني قد أفدته فائدة عظيمة؛ وقد نزل الأعرابي عن الأتان واستند إلى بعض الحيطان وأخذ قوسه بيده؛ فتارة يشير بها إلى الصبيان، وتارة يذبّ الشذا عن الأتان ـ وهو يقول لأتانه:

قد كنتِ بالأمْعَز في خِصبٍ خصِبْ ... ما شئتِ من حَمْضٍ وماءٍ مُنْسِكبْ:[٤]
فـربُّكِ اليـومَ ذليـلٌ قـد نُصـب ... يَرى وجوهاً حولـه مـا تـرتقـب
ولا عليهـا نُـور إشرافِ الحسَـبْ ... كـأنها الزّنْـجُ وعُبـدَانُ العـرب
إلى عجيـل كـالـرعيـل والسربْ ... ولو أمِنْتُ اليوم من هذا اللّجَبْ[٥]
رميتُ أفـواقـاً قـويمَات النُّصُـبْ ... الرِّيش أولاها وأُخْـراهـا العقـب

قال: فلم يزل أبو حماد يلطفه ويتلطف به ويبجله، إلى أن أدخله منزله؛ فمهد له

---

(١) الأتان: أنثى الحمار.
(٢) ذلاذل: أسافل القميص الطويل إذا أخلق.
(٣) السبد: من الشعر؛ واللبد: من الصوف.
(٤) الأمعز: الأرض الحزنة الغليظة.
(٥) الرّعل: البهمة. والسرب: الذاهب في الأرض على وجهه.

وحطه عن أتانه، ودعا بالعلف؛ فجعل الأعرابي يقول: أين الليف والنَّثيف[1] والوساد والنجاد؟ يعني بالليبف: الحصير؛ وبالنثيف عشبة عندهم يقال لها البُهْمَى[2] والوساد: جلد عنز يسلخ ولا يشق ويحشى وبراً وشعراً ويُتَّكأ عليه؛ والنجاد: مسح شعر يستظل تحته. قال: فلما نزع القتب عن الأتان إذا ظهْرها قد دَبر حتى أضرَّت بنا رائحته: فجعل الأعرابي يتنهد ويقول:

إنْ تُنْحَضِي أو تُدبَري أو تُزجَري   فذاك من دُءُوبِ ليلٍ مسهرِ[3]
أنا أبو الزهراءِ من آلِ السَّري   مُشَمِّخ الأنفِ كريمِ العُنْصِرِ
إذا أتيْت خُطَّةً لم أُقسَرِ[4]

وكان يسمى الأعرابي صلتان بن عوسجة من بني سعد بن دارم، ويكنى بأبي الزهراء، وما رأيت أعرابياً أعجب منه؛ كان أكثر كلامه شعراً؛ وأمثل أعرابي سمعته كلاماً؛ إلا أنه ربما جاء باللفظة بعد الأخرى لانفهمها؛ وكان من أضجر الناس وأسوئهم خُلقاً، وإذا نحن سألناه عن الشيء قال: ردّوا عليَّ القوس والأتان! يظن أنا نتلاعب به، وكنا نجتمع معه في مجلس أبي حماد، وما منا إلا من يأتيه بما يشتهيه، فلا يعجبه ذلك؛ حتى أتيناه يوماً بخرْبز[5]، وكانت أمامه، فلما أبصرها تأملها طويلاً وجعل يقول:

بُدِّلْت والدهرُ قديماً بَدَّلا   من قيْضِ بيضِ القَفْر فقْعاً حَنظَلا[6]
أخبثُ ما تُنبت أرض مأْكلاً

فكنا نقول له: يا أبا الزهراء، إنه ليس بحنظل، ولكنه طعام هنيء مريء، ونحن نبدؤك فيه إن شئت. قال: فخذوا منه حتى أرى! فبدأنا نأكل وهو ينظر لا

---

(١) النثيف: المأكول.

(٢) البهمى: نبت تجد به الغنم وجداً شديداً ما دام أخضر فاذا يبس هر شوكه.

(٣) النحض: ذهاب اللحم. والزحر إخراج الصوت أو التنفس بأنين عند عمل أو شدة.

(٤) أقسر: أغلب وأقهر. (٥) الخربز: البطيخ.

(٦) القيض: قشرة البيضة العليا. والفقع الرخو من الكمأة.

يطرف، فلما رأى ذلك بسط يده فأخذ واحدة، فنزع أعلاها وقوّر أسفلها، فقلنا له: ما تريد أن تصنع يا أبا الزهراء؟ فقال: إن كان السم يا ابن أخي ففيما ترون! فلما طَعِمَه استخفَّه واستعذَبه واستحلاه، فلم يكن يؤثر عليه شيئاً، وما كنا نأتيه بعد بغيره، وجعل في خلال ذلك يقول:

هــذا طعــامٌ طيِّــبٌ يلينُ   في الجوفِ والحلْقِ له سُكـونُ

الشَّهْدُ والزبد بِه مَعْجون

فلما كان إلى أيام، قلت له: يا أبا الزهراء، هل لك في الحمام؟ قال: وما الحمام يا ابن أخي؟ قلنا له: دار فيها أبيات: حارّ، وفاتر، وبارد؛ تكون في أيها شئت يذهب عنك قشف السفر ويسقط عنك هذا الشعر. قال: فلم نزل به حتى أجابنا، فأتينا به الحمام، وأمرنا صاحب الحمام أن لا يُدخل علينا أحداً، فدخل وهو خائف مترقب، لا ينزع يده من يد أحدنا، حتى صار في داخل الحمام، فأمرنا من طلاه بالنُّورة[1]، وكان جلده أشعر كجلد عنز، فقلق ونازع للخروج، وبدأ شعره يسقط؛ فقلنا أحين طاب الحمام وبدأ شعرك يسقط تخرج؟ قال: يا بن أخي، وهل بقي إلا أن أنسلخ كما ينسلخ الأديم في احتدام القيظ! وجعل يقول:

وهـل يطيـبُ الموتُ يـا إخواني   هـل لكـم في القـوس والأتــان

خــذوهما مِنِّــي بلا أثمان   وخلّصـوا المُهجـةَ يـا صبيـان

فـاليـوم لـو أبصرَنـي جيراني   عُرْيان بـل أعـرى مـن العـرْيـان

قـد سَقَـط الشَّعـرُ مـن الجثمان   حُسبْـت في المنظَـرِ كـالشَّيطـان!

قال: ثم خرج مبادراً، واتبعه أحداثٌ لنا، لولاهم لخرج بحاله تلك ما يستره شيء؛ ولحقناه في وسط البيوت، فأتيناه بماء بارد، فشرب وصب على رأسه، فارتاح واستراح، وأنشأ يقول:

الحمـد لِلمُستحمـدِ القهّـار   أنقَـذَني مـن حـرّ بيـتِ النـارِ

---

(١) النورة: حجر يحرق ويسوى منه الكلس ويحلق به الشعر.

إلى ظليلٍ ساكنِ الأوار[1]   من بعد ما أيقنتُ بالدَّمار

قال: فدعونا له بكسوة غير كسوته فألبسناه، وأتينا به مجلس أبي حماد؛ وكان أبو حماد يبيع الحنطة والتمر وجميع الحبوب؛ وكان يجاوره قوم يبيعون أنبذة التمر وكان أبو الحسن التمَّار ماهراً؛ فإذا خضنا في النحو وذكرنا الرؤاسي والكسائي وأبا زيد، جعل ينظر، يفقه الكلام ولا يفهم التأويل؛ فقلنا له: ما تقول يا أبا الزهراء؟ فقال: يا ابن أخي، إن كلامكم هذا لا يسد عوزاً مما تتعلمونه له. فقال أبو الحسن: إن بهذا تعرف العرب صوابَها من خطئها. فقال له: ثَكِلْتَ وأثْكَلت! وهل تخطيء العرب؟ قال: بلى. قال: على أولئك لعنة الله وعلى الذين أعتقوا مثلك! قال سويد: وكنت أحدثَهُم سناً (قال) فقلت: جُعِلْتُ فداك، وأنا رجل من بني شيبان وربيعة؛ ما تعلم أنّا على مثل الذي أنت عليه من الإنكار عليهم؛ فقال فيهم:

يُسائلُني بيَّاعُ تَمرٍ وجرْدَقٍ   ومازجُ أبوالٍ له في إنائهِ[2]
عن الرَّفعِ بعد الخفْض، لا زال خافضاً   ونصبٌ وجزْمٌ صِيغ من سُوءِ رائه
فقلت له هذا كلامٌ جهلْته   وذو الجهلِ يَروي الجهلَ عن نظرائه
فقال بهذا يُعرف النحوُ كلُّه   يرى أنني في العُجْم من نُظرائه
فأمّا تَميمٌ أو سُلَيمٌ وعامر   ومَن حلَّ غمْرَ الضَّالِّ أو في إزائه
ففيهم وعنهم يُؤثر العِلم كلُّه   ودَع عنك من لا يهتدي لِخَطائه
فَمنْ ذا الرُّؤَاسِيُّ الذي تذكُرونه   ومن ذا الكِسائي سالحٌ في كِسائه
ومن ثالثٌ لم أسمعِ الدهرَ باسْمِه   يُسمُّونه من لؤمه سِيبوائه
فكيف يُخلِّ القوْل من كان أهله   ويُهدَى له من ليس من أوليائه
فلستُ لبيَّاعِ التَّميْرات مُغْضِياً   على الضَّيْم إن واقفت بعد عشائه

ولقد قلنا له: يا أبا الزهراء، هل قرأت من كتاب الله شيئاً؟ قال: إي وأبيك آيات مفصلات أُردِّدهن في الصلوات، آباء وأمهات، وعمات وخالات ثم أنشأ يقول:

---

(١) الأوار: الحرّ.   (٢) الجردق: الرغيف.

قـرأت قـول الله في الكتـاب ... ما أنزَل الرَّحمنُ في الأحـزابِ
لعُظْـم مـا فيهـا مـن الثّـواب ... الكفـرُ والغلْظَـة في الأعـرابِ
وأنا فـآعلمْ مـن ذوي الألبـاب ... أومـــنُ بـــالله بلا آرتيـــاب
في عرْشِهِ المستـور بـالحجـاب ... والموْت والبعْـث وبـالحســاب
وجنَّـــةٍ فيهـــا مـــن الثيـــاب ... ما ليس بـالبَصْـرة في حسـاب
وجـاحِـمٍ يلْفـحُ بـــالتِهـــاب ... أوْجُهَ أهلِ الكفرِ والسِّبـاب[1]
ودفْعِ رحْلِ الطارقِ المُنتـاب ... في ليْلـــةٍ ســـاكتـــةِ الكلاب

ولما أحضرناه ذات يوم جنازة، فقلنا له: يا أبا الزهراء، كيف رأيت الكوفة؟ قال: يا ابن أخي، حضرا حاضرا؛ ومحلاً آهلاً؛ أنكرتُ من أفعالكم الأكيال والأوزان، وشكل النسوان. ثم نظر إلى الجبانة فقال: ما هذا التلال يا ابن أخي؟ قلت له: أجداث الموتي، فقال: أماتوا أم قتلوا؟ فقلت: قد ماتوا بآجالهم ميتات مختلفات. قال: فماذا ننتظر نحن يا ابن أخي؟ قلت: مثل الذي صاروا إليه: فاستعبر وبكى؛ وجعل يقول:

يا لَهْفَ نفْسي أن أموت في بلـدْ ... قد غاب عني الآهْل فيه والولـدْ
وكلِّ ذي رحْمٍ شفيقٍ مُعْتقَـدْ ... يكون ما كنتُ سقيما كالـرمِـدْ
يا ربِّ يا ذا العرش وفِّقْ للرّشَدْ ... ويسِّر الخيْر لشيْخٍ مُخْتضـدْ[2]

ثم لم يلبث إلا يسيرا حتى أخذته الحمى والبرسام[3]؛ فكنا لا نبارحه عائدين متفقدين؛ فبينا نحن عنده ذات يوم وقد اشتد كربه وأيقن بالموت، جعل يقول:

أبلـغْ بنـاتي اليـوْم بـالصّـوى ... قد كنّ يأمُلْن إيابي بـالغِنـى[4]
وقـد تمنَّيْـن ومـا يُغْني المُنـــى ... بأنّ نفْسي وردت حوْض الرَّدى
يا ربِّ يا ذا العـرش في أعلا السَّما ... إليك قَدّمت صيـامـي في الظَّما

---

(١) الجاحم: الجمر الشديد الاشتعال. (٢) مختضد: عاجز.
(٣) البرسام: التهاب في الغشاء المحيط بالرئة.
(٤) الصُّوى: مفردها: الصُّوة: وهي ما غلظ وارتفع من الأرض. وقد تكون موضعاً.

ومن صلاتي في صباحٍ ومَسا فعُدْ على شيخٍ كبيرٍ ذي آنحنا
يكفيه ما لاقاهُ في الدُّنيا كفى

قلنا له: يا أبا الزهراء، ما تأمرنا في القوس والأتان، وفيما قسم الله لك عندنا من رزق؟ فقال: يا ابن أخي، أما ما قسم الله لي عندكم فمردودٌ إليكم، وأما القوس والأتان فبيعوهما وتصدقوا بثمنهما في فقراء صَلِبة[(١)] بني تميم، وما بقي في مواليهم. ثم جعل يقول: اللهم اسمع دعاء عبدك إليك، وتضرعه بين يديك، واعرف له حق إيمانه بك، وتصديقه برسلك، صليت عليهم وسلمت؛ اللهم إني جان مقترف وهائب معترف، لا أدعي براءة، ولا أرجو نجاة إلا برحمتك إياي، وتجاوُزك عني؛ اللهم إنك كتبت على الدنيا التعب والنصب، وكان في قضائك، وسابق علمك قبْضُ روحي في غير أهلي وولدي، اللهم فبدل لي التعب والنصب رَوحاً وريحاناً وجنة نعيم؛ إنك مفضل كريم. ثم صار يتكلم بما لا نفقهه ولا نفهمه حتى مات، رحمه الله؛ فما سمعت دعاءً أبلغ من دعائه، ولا شهدت جنازة أكثر باكياً وداعياً من جنازته؛ رحمه الله.

وقال أعرابي يصف كساء:

مـن كـان ذا بـتّ فهـذا بَتّـي مُقيِّـظٌ مُصيِّـفٌ مُشَتّـي[(٢)]
نسَجْتُه من نَعجاتٍ سِت

وقال أعرابي:

قالـت سُلْيمـى: ليْـت لي بَعْلاً بَمَنْ يَغســل رأْسي ويُسَلِّيني الحزن[(٣)]
وحــاجــةٍ ليس لها عنــدي ثمنْ مشهـورةٍ قضـاؤُهـا منه وهَـنْ[(٤)]
قلن جواري الحيِّ: يا سَلْمـى وإن كان فقيراً مُعْدِماً؟ قـالـت وإنْ!

وقال أعرابي:

جـاريتـان حلفـتْ أُمّـاهُما أنْ ليس مَغْبوناً مـن اشتراهُما

---

(١) أي من أصلابهم.
(٢) البتّ: كساء غليظ من صوف أو وبر.
(٣) المنّ: كيل أو ميزان.
(٤) الوهن: قريب من منتصف الليل.

والله لا أُخبرُكم إسماهُما إلا بقوْلي هكـذا هُما هُما
هُما اللتـان صـادَنـي سهماهُما حيّـا وحيّـا الله مـن حيّـاهُما
أمـات ربّـي عـاجلاً أبـاهُما حتى تُلاقـي مُنْيتي مُنـاهُما
إنّ لنـا لكَنّـةْ معَنّـةً مِفَنّـةْ[1]
سِمعنّـةً نظْـرنّـةْ إلا تَـرَهْ تَظُنّـةْ

السمعنة النظرنة: المرأة التي إذا سمعت أو نظرت فلم تر شيئاً تظنّت تظنيا. وأنشد أبو عبد الله بن لبانة الأعرابي:

كـريمةً يُحِبها أبـوهـا مليحةَ العيْنيْن عذباً فُـوهـا

لا تُحْسِنُ السَّبَّ وإنْ سبُّوها

الرشيد والأصمعي:

الأصمعي قال: دخلت على هارون الرشيد وبين يديه بَدرة، فقال: يا أصمعي، إن حدثتني بحديث في العْجز فأضحكتني وهبتك هذه البدرة. قلت: نعم يا أمير المؤمنين بينا أنا في صحارى الأعراب، إذ أنا بأعرابي قاعد على أجمة،[2] قد احتملت الريح كساءه فألقته على الأجمة، وهو عريان؛ فقلت له: يا أعرابي، ما أجلسك ههنا على هذه الحالة؟ فقال: جارية واعدتُها يقال لها سلمى، أنا منتظر لها. فقلت: وما يمنعك من أخذ كسائك؟ قال: العْجز يوقفني عن أخذه. فقلت له: فهل قلت في سلمى شيئاً؟ قال: نعم. قلت له: أسمعني لله أبوك! قال لا أُسمعك حتى تأخذ كسائي تلقيه عليّ! قال: فأخذته فألقيته عليه، فأنشأ يقول:

لعـلَّ الله أنْ يـأتي بسلْمـى فيَبْطُحهـا ويُلْقيني عليهـا
ويـأتي بعـد ذاك سَحـابُ مُـزْن تُطهِّـرنـا ولا نسعـى إليهـا[3]

---

(١) الكنة: امرأة الابن وامرأة الاخ. والمعنة: المعترضة. والمفنة: التي تأتي بفنون من العجائب.
(٢) الأجمة: الشجر الكثير الملتف. (٣) المزن: السحاب يحمل الماء.

فاستضحك هارون حتى استلقى على ظهره، وقال. خذ البدرة لا بُورك لك فيها.

ذكروا أن أعرابيا أتى عينا من ماء صاف في شهر رمضان، فشرب حتى روى، ثم أومأ بيده إلى السماء فقال.

إن كنتَ قدّرت الصيام فأعفنا من شهر آبْ
أوْ لا فإنَّا مُفْطِرونَ وصابرون على العذابْ

خلا أعرابي بامرأة ليفسق بها فلم ينتشر له؛ فقالت له. قُم خائبا! فقال. الخائب من فتح فم الجراب ولم يُكَلْ له دقيق. فخجلت ولم تردّ جوابا.

كتاب المجنبة في الأجوبة

فرش الكتاب

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في كلام الأعراب خاصة، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الجوابات التي هي أصعب الكلام كلّه مركباً، وأعزه مطلبا، وأغمضهُ مذهبا، وأضيقه مسلكا؛ لأن صاحبه يعجل مناجاة الفكرة، واستعمال القريحة، يروم في بديهته نقض ما أبرم القائل في روّيته، فهو كمن أُخذتْ عليه الفجاج، وسُدَّت عليه المخارج، قد اعترض الأسِنة، واستهدف للمرامي، لا يدري ما يقرع له فيتأهب له، ولا ما يفجأه من خصمه فيقرعه بمثله، ولا سيما إذا كان القائل قد أخذ بمجامع الكلام فقاده بذمامه بعد أن روَّى فيه واحتفل، وجمع خواطره واجتهد، وترك الرأي يغبّ حتى يختمر؛ فقد كرهوا الرأي الفطير[1]، كما كرهوا الجواب الدَّبَريّ[2]، فلا يزال في نسج الكلام واستئناسه، حتى إذا اطمأن شارده، وسكن نافره، صك به خصمَه جملة واحدة ثم إذا قيل له: أجب ولا تخطيء، وأسرع ولا تبطيء، تراه يجاوب من غير أناة ولا استعداد، يطبِّق المفاصل، وينفذ إلى المقاتل، كما يرمي الجندل بالجندل، ويقرع الحديد بالحديد، فيحل به عُراه، وينقض به مرائره، ويكون جوابه على كلامه كسحابة لبّدت عجاجة[3]؛ فلا شيء أعضل من الجواب الحاضر، ولا أعز من الخصم الألد الذي يقرع صاحبه، ويصرع منازعه بقولٍ كمثل النار في الحطب الجزل.

---

(١) الفطير: كل ما أعجل به قبل نضحه. (٢) الرأي الدبري: هو الذي يسنح أخيراً بعد فوات الحاجة.

(٣) لبدت عجاجته: كفّ عما كان فيه.

قال أبو الحسن: أسرع الناس جواباً عند البديهة قريش، ثم بقية العرب.

وأحسن الجواب كله ما كان حاضرا، مع إصابة معنى وإيجاز لفظ.

وكان يقال: اتقوا جواب عثمان بن عفان.

للنبي ﷺ في الزبرقان:

وقال النبي عليه الصلاة والسلام لعمرو بن الأهتم: «أخبرني عن الزّبْرقان»، قال: مطاع في أدانيه، شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره، قال الزبرقان: والله يا رسول الله، لقد علم مني أكثر من هذا، ولكن حسدني. قال عمرو ابن الأهتم: أما والله يا رسول الله، إنه لزمر المروءة،[1] ضيق العطن،[2] أحمق الوالد، لئيم الخال؛ والله يا رسول الله، ما كذبتُ في الأولى، ولقد صدقت في الأخرى؛ رضيت عن ابن عمي فقلت فيه أحسن ما فيه ولم أكذب، وسخطت عليه فقلت أقبح ما فيه ولم أكذب! فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «إنّ من البيان لَسِحرا».

جواب عقيل بن أبي طالب لمعاوية وأصحابه

لما قدم عَقيل بن أبي طالب على معاوية، أكرمه وقرّبه وقضى حوائجه وقضى عنه دَينه، ثم قال له في بعض الأيام، والله إن عليا غير حافظ لك، قطع قرابتك وما وصلك ولا اصطنعك، قال له عقيل: والله لقد أجزل العطية وأعظمَها، ووصل القرابة وحفظها، وحسُن ظنّه بالله، إذ ساء به ظنّك، وحفظ أمانته، وأصلح رعيته، إذ خُنتم وأفسدتم وجُرتم، فاكفف لا أبالك، فإنه عما تقول بمعزل.

وقال له معاوية يوما: أبا يزيد، أنا لك خيرٌ من أخيك علي. قال: صدقت، إن أخي آثر دينَه على دنياه، وأنت آثرت دنياك على دينك؛ فأنت خير لي من أخي، وأخي خير لنفسه منك.

---

(١) زمر المروءة قليلها. (٢) ضيق العطن: ضيق الصبر والحيلة عند الشدائد.

وقال له ليلة الهدير: أبا يزيد، أنت الليلة معنا، قال: نعم؛ ويوم بدر كنت معكم.

وقال رجل لعقيل: إنك لخائن حيث تركت أخاك وترغب إلى معاوية، قال: أخْونُ مني والله مَن سفك دمه بين أخي وابن عمي، أن يكون أحدهما أميرا!

ودخل عقيل على معاوية وقد كف بصره، فأجلسه معاوية على سريره ثم قال له: أنتم معشر بني هاشم تصابون في أبصاركم! قال: وأنتم معشر بني أمية تصابون في بصائركم!.

ودخل عتبة بن أبي سفيان، فوسع له معاوية بينه وبين عقيل فجلس بينهما، فقال عقيل: مَن هذا الذي أجلس أميرُ المؤمنين بيني وبينه؟ قال: أخوك وابن عمك عتبة. قال: أما إنه إن كان أقرب إليك مني، إني لأقرب لرسول الله ﷺ منك ومنه، وأنتما مع رسول الله ﷺ أرضٌ ونحن سماء. قال عتبة: أبا يزيد، أنت كما وصفت، ورسول الله ﷺ فوق ما ذكرت، وأمير المؤمنين عالم بحقك، ولك عندنا مما تحب أكثر مما لنا عندك مما تكره.

ودخل عقيل على معاوية، فقال لأصحابه: هذا عقيل عمه أبو لهب! قال له عقيل، وهذا معاوية عمته حمَّالة الحطب! ثم قال: يا معاوية، إذا دخلت النار فاعدل ذات اليسار، فإنك ستجد عمي أبا لهب مفترشاً عمتَك حمالة الحطب؛ فانظر أيهما خير، الفاعل أو المفعول به.

وقال له يوما: ما أبْين الشَّبَق[1] في رجالكم يا بني هاشم! قال: لكنه في نسائكم أبين يا بني أمية!

وقال له معاوية يوما: والله إنّ فيكم لخصلةً ما تعجبني يا بني هاشم. قال: وما هي؟ قال: لِين فيكم. قال: لين ماذا؟ قال: هو ذاك[2]. قال: إيانا تعيِّر يا معاوية؟

---

(١) الشبق: اشتداد الشهوة. (٢) أي لين الحديث والكلام.

أجل، والله إن فينا لليناً من غير ضعف، وعزا من غير جبروت؛ وأما أنتم يا بني أمية فإن لينكم غدر، وعزكم كفر. قال معاوية: ما كلَّ هذا أردْنا يا أبا يزيد. قال عقيل:

لِذي اللّبِّ[1] قبل اليوم ما تُقرَع العصا   ومــا عُلِّــم الإنســـان إلا ليعْلما

قال معاوية:

وإنَّ سَفَـاهَ الشيـخِ لا حِلم بعــدَه   وإن الفتى بعـدَ السَّفـاهــة يَحلـمُ

وقال معاوية لعقيل بن أبي طالب: لم جفوتَنا يا أبا يزيد؟ فأنشأ يقول:

إني آمــروٌ مني التكــرّم شِيمــةٌ   إذا صاحبي يوما على الهُون أضمِـرا

ثم قال: وآيمُ الله يا معاوية، لئـن كـانـت الدنيـا مهّـدتـك مهـادَهـا، وأظلتـك بجذافيرها[2] ومدت عليك أطناب سلطانها - ما ذاك بالذي يزيدك مني رغبة، ولا تخشّعاً لرهبة. قال معاوية نعتَّها أبا يزيد نعتاً هَشَّ لها قلبي؛ وإني لأرجو أن يكون الله تبارك وتعالى ما ردّاني برداء ملكها، وحباني بفضيلة عيشها، إلا لكرامة ادّخرها لي؛ وقد كان داود خليفة، وسليمان ملكا؛ وإنما هو المثال يُحتذى عليه، والأمور أشباه؛ وآيم الله يا أبا يزيد، لقد أصبحت علينا كريما، وإلينا حبيبا، وما أصبحتُ أضمر لك إساءة.

بين عقيل وامرأة:

ويقال إن امرأة عقيل وهي بنت عتبة بن ربيعة خالة معاوية قالت لعقيل: يا بني هاشم، لا يحبكم قلبي أبداً؛ أين أبي؟ أين أخي؟ أين عمي؟ كأن أعناقهم أباريق فضة. قال عقيل: إذا دخلتِ جهنم فخذي على شمالك.

جواب ابن عباس رضي الله عنهما

لمعاوية وأصحابه

اجتمعت قريش الشام والحجاز عند معاوية وفيهم عبد الله بن عباس؛ وكان جريئاً

(١) اللب: العقل.   (٢) الحذافير: الأعالي والنواحي.

على معاوية حقّاراً له، فبلغه عنه بعض ما غمّه؛ فقال معاوية: رحم الله أبا سفيان والعباس، كانا صفيّين دون الناس، فحفظت الميتَ في الحي والحيَّ في الميت؛ استعملكَ عليٌّ يا ابن عباس على البصرة، واستعمل أخاك عبيدَ الله على اليمن، واستعمل أخاك تماما على المدينة؛ فلما كان من الأمر ما كان، هنأتُكم ما في أيديكم، ولم أكشفكم عما وعتْ غرائركم، وقلت: آخذ اليوم وأعطي غداً مثله. وعلمت أن بدء اللؤم يضر بعاقبة الكرم، ولو شئت لأخذت بحلاقيمكم وقيَّأتكم ما أكلتم. ولا يزال يبلغني عنكم ما تبرك له الإبل، وذنوبُكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم: خذلتم عثمانَ بالمدينة، وقتلتم أنصاره يوم الجمل، وحاربتموني بصِفين، ولعمري لبنو تيمٍ وعديأعظم ذنوبا منا إليكم؛ إذ صرفوا عنكم هذا الأمر، وسنوا فيكم هذه السنة؛ فحتى متى أُغضِي الجفون على القذى، وأسحب الذيول على الأذى، وأقول: لعل الله وعسى... ما تقول يا ابن عباس؟!.

قال: فتكلم ابن عباس فقال: رحم الله أبانا وأباك، كانا صفيين متفاوضين(١)؛ لم يكن لأبي من مال إلا ما فضل أباك، وكان أبوك كذلك لأبي؛ ولكن من هنَّأ أباك بإخاء أبي أكثر ممن هنأ أبي بإخاء أبيك؛ نصَر أبي أباك في الجاهلية، وحقن دمه في الإسلام؛ وأما استعمال عليَّ إيانا فلنفسه دون هواه وقد استعملت أنت رجالا لهواك لا لنفسك، منهم ابن الحضرميّ على البصرة فقُتل، وابن بشر بن أرطاة على اليمن فخان، وحبيب بن مُرة على الحجاز فرُدّ، والضحاك بن قيس الفهري على الكوفة فَحُصِب؛ ولو طلبت ما عندنا وقينا أعراضنا، وليس الذي يبلغك عنا بأعظم من الذي يبلغنا عنك، ولو وضِع أصغرُ ذنوبكم إلينا على مائة حسنة لمحقها، ولو وضع أدنى عذرنا إليكم على مائة سيئة لحسَّنها. وأما خذلُنا عثمان فلو لزمنا نصره لنصرناه، وأما قتلُنا أنصاره يوم الجمل فعلى خروجهم مما دخلوا فيه وأما حربُنا إياك بصِفين فعلى تركك الحقَّ وادعائك الباطل، وأما إغراؤك إيانا بتيم وعدي فلو أردناها ما غلبونا عليها.

---

(١) المفاوضة: المشاركة.

وسكت، فقال في ذلك ابن أبي لهب:

كان ابنُ حرْبِ عظيمَ القدْر في النـاسِ حتى رمـاه بما فيـه ٱبنُ عبـاسِ
مـا زال يُهبطُـهُ طـوراً ويُصعِـدُه حتى استقاد وما بـالحقَّ مـن بـاس
لم يتركَـنْ خُطـةً مما يُـذلِّلُـه إلا كـواه بها في فـروةِ الراس

لابن أبي مليكة في ابن عباس:

وقال ابن أبي مليكة: ما رأيت مثل ابن عباس، إذا رأيتَه رأيت أفصحَ الناس، وإذا تكلم فأعرَبُ الناس[١]، وإذا أفتى فأفقه الناس ما رأيت أكثرَ صوابا ولا أحضر جوابا من ابن عباس.

بين ابن عباس ومعاوية:

ابن الكلبي قال: أقبل معاوية يوما على ابن عباس فقال: لو ولِيتُمُونا ما أتيتم إلينا ما أتينا إليكم، من الترحيب والتقريب، وإعطائكم الجزيل، وإكرامكم على القليل، وصبري على ما صبرتُ عليه منكم، إني لا أرِدُ أمراً إلا أظمأتم صدره[٢] ولا آتي معروفا إلا صغَّرتم خطره وأعطيكم العطية فيها قضاء حقوقكم فتأخذونها متكارهين عليها؛ تقولون: قد نقص الحق دون الأمل! فأي أمل بعد ألف ألف أعطيها الرجل منكم، ثم أكون أسرَّ بإعطائها منه بأخذها؟ والله لئن انخدعت لكم في مالي وذللت لكم في عرضي، أرى انخداعي كرما وذلي حلما. ولو ولِيتمونا رضينا منكم بالانتصاف، ولا نسألكم أموالكم، لعلمنا بحالكم وحالنا؛ ويكون أبغضَها إلينا أحبها إليكم أن نُعفيكم.

فقال ابن عباس: لو ولينا أحسنّا المواساة، وما ابتلينا بالاثرة؛[٣] ثم لم نغشِم الحي، ولم نشتم الميت؛ فلستم بأجود منا أكفاً، ولا أكرم أنفساً، ولا أصون لأعراض

---

(١) أعرب الناس: أبينهم وأفصحهم.
(٢) أظمأتم صدره: جعلتموه حقيراً.
(٣) الأثرة: تفضيل الإنسان نفسه على غيره.

المروءة؛ ونحن والله أعطى للآخرة منكم للدنيا، وأعطى في الحق منكم في الباطل، وأعطى على التقوى منكم على الهوى؛ والقسم بالسوية والعدل في الرعية يأتيان على المنى والأمل، ما أرضاكم منا بالكفاف، فلو رضيتم منا لم ترض أنفسُنا به لكم؛ والكفاف رضا من لا حق له؛ فلا تُبخلونا حتى تسألونا، ولا تلفظونا حتى تذوقونا.

أبو عثمان الحزامي قال: اجتمعت بنو هاشم عند معاوية، فأقبل عليهم فقال: يا بني هاشم، والله إن خيري لكم لممنوح، وإن بابي لكم لمفتوح؛ فلا يقطع خيري عنكم عِلة ولا يوصِد بابي دونكم مسألة؛ ولما نظرت في أمري وأمركم رأيت أمرا مختلفا: إنكم لترون أنكم أحق بما في يدي مني، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقكم قلتم أعطانا دون حقنا، وقصّر بنا عن قدْرنا؛ فصرت كالمسلوب، والمسلوب لا حمد له؛ وهذا مع إنصاف قائلكم، وإسعاف سائلكم.

قال: فأقبل عليه ابن عباس فقال: والله ما منحتنا شيئاً حتى سألناه، ولا فتحت لنا بابا حتى قرعْناه؛ ولئن قطعتَ عنا خيرك للهُ أوسعُ منك ولئن أغلقت دوننا بابك لنَكُفَّنَّ أنفسنا عنك، وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما لرجل من المسلمين، ولنا في كتاب الله حقان: حق في الغنيمة،[1] وحق في الفيء؛[2] فالغنيمة ما غَلبنا عليه، والفيء ما اجتبيناه، ولولا حقنا في هذا المال لم يأتك منا زائر يحمله خف ولا حافر. كفاك أم أزيدك؟ قال: كفاني، فإنك تُهرّ ولا تُنبح.

وقال معاوية يوماً وعنده ابن عباس: إذا جاءت بنو هاشم بقديمها وحديثها، وجاءت بنو أمية بأحلامها وسياستها، وبنو أسد بن عبد العزى برفادتها ودياتها، وبنو عبد الدار بحجابتها ولوائها، وبنو مخزوم بأموالها وأفعالها، وبنو تيم بصدّيقها[3] وجَوادها، وبنو عدي بفاروقها[4] ومتفكّرها، وبنو سهم بآرائها ودهائها، وبنو جمح

---

(١) الغنيمة: ما أوجف عليه المسلمون بخيلهم وركابهم من المشركين.

(٢) الفيء: ما أفاء الله من أموال المشركين على المسلمين بلا حرب.

(٣) الصديق: ابي بكر الصديق. (٤) الفاروق: عمر بن الخطاب.

بشرفها وأنوفها، وبنو عامر بن لؤي بفارسها وقَريعها،[1] فمن ذا يُجلى في مضمارها ويجري إلى غايتها؟ ما تقول يا بن عباس؟

قال: أقول: ليس حي يفخرون بأمر إلا وإلى جنبهم من يشرَكهم، إلا قريشا فإنهم يفخرون بالنبوّة التي لا يشاركون فيها ولا يُساوَوْن بها ولا يُدفعون عنها، وأشهد أن الله لم يجعل محمدا من قريش إلا وقريش خير البرية، ولم يجعله في بني عبد المطلب إلا وهم خير بني هاشم، يريد أن يفخر عليكم إلا بما تفخرون به؛ إن بنا فتح الأمر وبنا يُختم، ولك ملك معجَّل ولنا ملك مؤجل، فإن يكن ملككم قبل ملكنا فليس بعد مُلكنا مُلك، لأنا أهل العاقبة، والعاقبة للمتقين.

ابن عباس وابن العاص:

أبو مخنف قال: حج عمرو بن العاص فمرّ بعبد الله بن عباس، فحسده مكانه وما رأى من هيبة الناس له وموقعه من قلوبهم، فقال له: يا ابن عباس، مالك إذا رأيتني ولَّيتني القَصَرة،[2] وكان بين عينيك دَبَرة، وإذا كنت في ملأ من الناس كنت الهوْهاةَ[3] الهُمزَة.

فقال ابن عباس: لأنك من اللئام الفجرة! وقريش الكرام البررة لا ينطقون بباطل جهِلوه، ولا يكتمون حقا علِموه، وهم أعظم الناس أحلاما، وأرفع الناسْ أعلاما، دخلتَ في قريشٍ ولستَ منها، فأنت الساقط بين فراشين، لا في بني هاشم رحْلك، ولا في بني عبد شمس راحلتك، فأنت الأثيم الزنيم،[4] الضال المضلّ، حملك معاوية على رقاب الناس، فأنت تسطو بحلمه، وتسمو بكرمه.

فقال عمرو: أما والله إني لمسرور بك، فهل ينفعني عندك؟

قال ابن عباس: حيث مال الحق مِلنا، وحيث سلك قصدنا.

---

(١) القريع: السيد والرئيس. (٢) القصرة: أصل العنق والرقبة.

(٣) الهوهاة: الأحمق. (٤) الزنيم: الدعي.

المدائني قال: قام عمرو بن العاص في موسم من مواسم العرب، فأطرى معاوية بن أبي سفيان وبني أمية، وتناول بني هاشم، وذكر مشاهدَه بصفِّين، واجتمعت قريش، فأقبل عبد الله بن عباس على عمرو، فقال.

يا عمرو، إنك بعت دينك من معاوية، وأعطيته ما بيدك، ومَنَّاكَ ما بيد غيره فكان الذي أخذ منك أكثر من الذي أعطاك، والذي أخذتْ منه دون الذي أعطيته، وكلٌّ راضٍ بما أخذ وأعطى، فلما صارت مصر في يدك كدَّرها عليك بالعدل والتَنْقص، وذكرت مشاهدك بصفِّين، فوالله ما ثقلتْ علينا يومئذ وطأتُك ولقد كشفت فيها عورتك، وإن كنت فيها لطويل اللسان، قصير السنان آخر الخيل إذا أقبلت، وأولها إذا أدبرت، لك يدان، يد لا تبسطها إلى خير، وأخرى لا تقبضها عن شر، ولسانٌ غادر ذو وجهين، ووجهان وجه موحِش ووجه مؤنِس، ولعمري إن من باع دينه بدنيا غيره لَحَرِيّ أن يطول عليها ندمه، لك بيان وفيك خَطَل،[1] ولك رأي وفيك نكَد، ولك قدرٌ وفيك حَسَد، وأصغرُ عيب فيك أعظم عيب في غيرك.

فأجابه عمرو بن العاص: والله ما في قريش أثقل عليّ مسألةً، ولا أمّر جواباً منك، ولو استطعت أن لا أجيبَك لفعلت، غير أني لم أبع ديني من معاوية، ولكن بعتُ الله نفسي ولم أنس نصيبي من الدنيا، وأما ما أخذت من معاوية وأعطيته، فإنه لا تُعلَّمُ العوانُ[2] الخِمْرَةَ، وأما ما اتى إلى معاوية في مصر فإن ذلك لم يغيِّرني له، وأما خفة وطأتي عليكم بصفين فلما استثقلتم حياتي، واستبطأتم وفاتي، وأما الجبن، فقد علمت قريش أنـي أولُ من يبارز، وآخر من ينازل وأما طول لساني فإني كما قال هشام بن الوليد لعثمانْ بن عفان رضي الله عنه:

لساني طويلٌ فاحْتَرِس من شَـذَاتِـه   عليكَ وسيْفي من لِسانيَ أطـوَلُ[3]

---

(١) الخطل: الكلام الفاسد الكثير المضطرب.

(٢) العوان من النساء: التي كان لها زوج. والمثل يضرب للمجرب العارف بأمره.

(٣) الشذاة: الحدة.

وأما وجهاي ولساناي، فإني ألقي كلَّ ذي قدْر بقدْره، وأرمي كلَّ نابح بحجَرِه، فمن عرف قدره كفاني نفسه، ومن جهل قدره كفيته نفسي، ولعمري ما لأحد من قريش مثل قدرك ما خلا معاوية، فما ينفعني ذلك عندك. وأنشأ عمرو يقول:

بني هـاشمٍ مـالي أراكُمْ كـأنكـمْ بيَ اليوم جُهْالٌ وليس بكـم جَهْـلُ
ألم تعْلموا أني جَسـورٌ على الوغَـى سريعٌ إلى الدَّاعي إذا كثُـر القَتْـلُ
وأوّلُ مـن يـدعـو نـزالِ طبيعـةً جُبِلْت عليها والطِّباعُ هو الجبْـلُ(١)
وأني فَصَلْت الأمر بعـد آشتبـاهِـه بدوْمةَ إذ أعيْا على الحكَم الفصـلُ(٢)
وأنـي لا أعْيـا بـأمْـرِ أُريـدُه وأني إذا عَجَّتْ بكـارُكم فحْـلُ

محمد بن سعيد عن إبراهيم بن حويطب قال: قال عمرو بن العاص لعبد الله بن عباس بعد قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن هذا الأمر الذي نحن فيه وأنتم، ليس بأول أمر قاده البلاء، وقد بلغ الأمر بنا وبكم إلى ما ترى، أبقت لنا هذه الحرب حياء ولا صبرا، ولسنا نقول: ليت الحرب عادت! ولكنّا نقول: ليتها لم تكن كانت! فانظر فيما بقي بعين ما مضى؛ فإنك رأس هذا الأمر بعد عليّ، فإنك أمير مطاع، ومأمور مطيع، ومشاور مأمون، وأنت هو.

مجاوبة بني هاشم وبني عبد شمس لابن الزبير

الشعبي قال: قال ابن الزبير لعبد الله بن عباس: قاتلت أُمّ المؤمنين، وحواريَّ رسول الله ﷺ؛ وأفتيت بتزويج المُتعة.

فقال: أمّا أُم المؤمنين فأنت أخرجتها وأبوك وخالاك، وبنا سُمِّيَتْ أم المؤمنين وكنا لها خير بنين؛ فتجاوز الله عنها؛ وقاتلت أنت أبوك عليا، فإن كان عليا مؤمنا فقد ضللتم بقتالكم المؤمنين، وإن كان عليّ كافرا فقد بُؤْتُم بسخط من الله بفراركم من الزحف؛ وأما المتعة فإن عليا رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ رَخَّص

(١) الطباع: الطبع. والجبل: الخلقة. (٢) دومة: يريد دومة الجندل.

فيها، فأفتيت بها: ثم سمعته ينهى [عنها] فنهيت عنها؛ وأول مِجْمَرٍ[1] سطع في المتعة مِجْمَرُ آل الزبير.

مناظرة في مجلس معاوية:

دخل الحسن بن عليّ على معاوية وعنده ابن الزبير وأبي سعيد بن عقيل بن أبي طالب؛ فلما جلس الحسن قال معاوية: يا أبا محمد، أيهما كان أكبر، عليّ أم الزبير؟ قال: فقال: ما أقرب ما بينهما، عليّ كان أسنّ من الزبير؛ رحم الله عليا فقال ابن الزبير: رحم الله الزبير، فتبسم الحسن؛ فقال أبو سعيد بن عقيل بن أبي طالب: دع عنك عليا والزبير؛ إن عليا دعا إلى أمر فاتَّبع وكان فيه رأساً، ودعا الزبير إلى أمر كان فيه الرأس امرأة؛ فلما تراءت الفئتان والتقى الجمعان نكص الزبير على عقبيه وأدبر منهزماً قبل أن يظهر الحق فيأخذه، أو يدحض الباطل فيتركه، فأدركه رجل لو قِيس ببعض أعضائه لكان أصغر، فضرب عنقه وأخذ سلبه وجاء برأسه، ومضى عليٌّ قُدُماً كعادته مع ابن عمه ونبيه ﷺ؛ فرحم الله عليا ولا رحم الزبير! فقال ابن الزبير: أما والله لو أنّ غيرك تكلم بهذا يا أبا سعيد لعلِم... قال: إنّ الذي تعرّض به يرغب عنك. وأُخبرت عائشة بمقالتهما، فالتفت أبو سعيد فلم ير شيئاً؛ فقال: إن الشيطان ليراك من حيث لا تراه! فضحكت عائشة وقالت: لله أبوك! ما أخبث لسانك.

الحسين ومعاوية:

الشعبي قال: دخل الحسين بن عليّ يوماً على معاوية ومعه مولى له يقال له ذكوان، وعند معاوية جماعة من قريش فيهم ابن الزبير، فرحب معاوية بالحسين وأجلسه على سريره، وقال: ترى هذا القاعد - يعني ابن الزبير - فإنه ليدركه الحسد لبني عبد مناف.

---

(١) المجمر: ما يوضع فيه الجمر مع البخور.

فقال ابن الزبير لمعاوية: قد عرفنا فضل الحسين وقرابته من رسول الله ﷺ؛ لكن إن شئت أُعْلِمك فضل الزبير على أبيك أبي سفيان فعلت، فتكلم ذكوان مولى الحسين بن علي فقال:

يا ابن الزبير، إن مولاي ما يمنعه من الكلام أنْ لا يكون طلق اللسان رابط الجنان؛ فإن نطق نطق بعلم؛ وإن صمت صمت بحلم؛ غير أنه كفّ[1] الكلام، وسبق إلى السنان، فأقرت بفضله الكرام؛ وأنا الذي أقول:

فيمَ الكلام لِسابـق في غـايـةٍ ... والنـاس بين مُقصِّـر ومُبلِّـدِ[2]
إنّ الذي يجري لِيُـدركَ شَـأوَهُ ... يُنْمـي بغير مُسـوَّدٍ ومُسـدَّدِ
بل كيف يُدرَك نورُ بدرِ ساطـعٍ ... خيْـرِ الأنـام وفـرعِ آل محمدِ

فقال معاوية: صدق قولك يا ذكوان؛ أكثر الله في موالي الكرام مثلك.

فقال ابن الزبير: إن أبا عبد الله سكت وتكلم مولاه، ولو تكلم لأجبناه، أو لكففنا عن جوابه إجلالاً له؛ ولا جواب لهذا العبد.

قال ذكوان: هذا العبد خير منك؛ قال رسول الله ﷺ: «مولى القوْم منهم»؛ فأنا مولى رسول الله ﷺ، وأنت ابن العوام ابن خويلد؛ فنحن أكرم ولاءً وأحسن فعلاً.

قال ابن الزبير: إني لست أجيب هذا! فهات ما عندك.

فقال معاوية: قاتلك الله يابن الزبير. ما أعياك وأبغاك. أتفخر بين يدي أمير المؤمنين وأبي عبد الله؟ إنك أنت المتعدي لطَوْرك[3]، الذي لا تعرف قدرك؛ فقس شِبرك بفترك؛ ثم تعرَّفْ كيف تقع بين عرانين[4] بني عبد مناف؛ وأما والله لئن دفعت في بحور بني هاشم وبني عبد شمس لقطّعتك بأمواجها، ثم لترمينّ بك في

(١) كفّ الكلام: امتنع عنه.
(٢) المبلد: الذي فتر في العمل وقصّر.
(٣) المتعدي لطوره: الذي جاوز حدّه وقدره.
(٤) عرانين القوم: ساداتهم وأشرافهم.

لُججها؛ فما بقاءك في البحور إذا غمرتك، وفي الأمواج إذا بَهزَتك[1]؟ هنالك تعرف نفسك؛ وتندم على ما كان من جرأتك، وتُمسِّي ما أصبحت فيه من أمان وقد حِيل بين العير والنَّزوان.

فأطرق ابن الزبير ملياً ثم رفع رأسه فالتفت إلى من حوله، ثم قال أسألكم بالله: أتعلمون أن أبي حواريُّ رسول الله ﷺ، وأن أباه أبا سفيان حارب رسول الله ﷺ؟ وأن أمي أسماءُ بنت أبي بكر الصديق، وأمه هند آكلة الأكباد؟ وجدي الصدِّيق، وجده المشدوخ ببدر ورأس الكفر؟ وعمتي خديجة ذات الخطر والحسب، وعمته أم جميل حمالة الحطب؟ وجدتي صفية، وجدته حمامة؟ وزوج عمتي خير ولد آدم محمد ﷺ، وزوج عمته شر ولد آدم أبو لهب سيصلي ناراً ذات لهب؟ وخالتي عائشة أم المؤمنين، وخالته أشقى الأشقين؟ وأنا عبد الله، وهو معاوية؟

وقال له معاوية: ويحك يا بن الزبير كيف تصف نفسك بما وصفتها؟ والله مالك في القديم من رياسة، ولا في الحديث سياسة، ولقد قدناك وسُدْناك قديماً وحديثاً، لا تستطيع لذلك إنكاراً، ولا عنه فِراراً، وإن هؤلاء الحضور ليَعْلمون أن قريشاً قد اجتمعت يوم الفخار على رياسة حرب بن أمية وأن أباك وأسرتك تحت رايته راضُون بإمارته غير مُنكرين لفضله ولا طامعين في عَزْله، إن أمر أطاعوا، وإن قال أَنصتوا، فلم تزل فينا القيادة وعزُّ الولاية؛ حتى بعث الله عز وجل محمداً ﷺ، فانتخبه من خير خلقه، من أُسرتي لا أُسرتك، وبني أبي لابني أبيك، فجحدته قريشٌ أشدّ الجحود؛ وأنكرته أشدّ الإنكار وجاهدتْه أشدّ الجهاد، إلا من عصم الله من قريش؛ فما ساد قريشاً وقادهم إلا أبو سفيان بن حرب، فكانت الفئتان تلتقيان ورئيس الهدى منا ورئيس الضلالة منا؛ فمهديُّكم تحت راية مهديِّنا، وضالُّكم تحت راية ضالِّنا؛ فنحن الأرباب، وأنتم الأذناب؛ حتى خلّص الله أبا سفيان بن حرب بفضله من عظيم شركه؛ وعَصمَه بالإسلام من عبادة الأصنام؛ فكان ما لم يُعْطَ في

(١) البهز: الدفع الشديد.

الجاهلية عظيماً شأنه، وفي الإسلام معروفاً مكانه؛ ولقد أُعْطِيَ يوم الفتح ما لم يُعْطَ أحدٌ من آبائك، وإن مناديَ رسول الله ﷺ نادى: من دخل المسجد فهو آمِن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمِن؛ وكانت داره حَرماً، لا دارُك ولا دار أبيك؛ وأما هند فكانت امرأة من قريش في الجاهلية عظيمة الخطر؛ وفي الإسلام كريمة الخبر، وأما جدك الصِّديق فبتصديق عبد مناف سُمي صديقاً لا بتصديق عبد العُزَّى، وأما ما ذكرت من جدي المشدوخ ببدر، فلعمري لقد دعا إلى البراز هو وأخوه وابنه فلو برزْت إليه أنت وأبوك ما بارزوكم ولا رأوكم لهم أكفاء، كما قد طلب ذلك غيركم فلم يقبلوهم، حتى برز إليهم أكفاؤهم من بني أبيهم، فقضى الله مناياهم بأيديهم فنحن قتلنا ونحن قُتلنا. وما أنت وذاك؟ وأما عمتك أم المؤمنين فبنا شرُفت وسُميت أمّ المؤمنين، وخالتك عائشة مثل ذلك، وأما صفية فهي أَدْنتْك من الظل، ولولا هي لكنت ضاحياً؛ وأمّا ما ذكرت من عمك وخال أبيك سيد الشهداء، فكذلك كانوا رحمهم الله، وفخرُهم وإرْثهم لي دونك، ولا فخر لك فيهم ولا إرث بينك وبينهم؛ وأمّا قولك: أنا عبد الله وهو معاوية، فقد علمتْ قريش أيُّنا أجْود في الإزَم[1]، وأحْزم في القُدُم، وأمنع للحُرَم؛ لا والله ما أراك منتهياً حتى تروم من بني عبد مناف ما رام أبوك، فقد طالبهم بالذَّحول[2] وقدّم إليهم الخيول، وخدعتم أمّ المؤمنين ولم تراقبوا رسول الله ﷺ إذ مددتم على نسائكم السُّجوف[3] وأبرزتم زوجته للحتوف ومقارعة السيوف، فلما التقى الجمعان نكص أبوك هارباً فلم يُنْجه ذلك أن طحنه أبو الحسين بكلكله طحْن الحصِيد بأيدي العبيد، وأمّا أنت فأفلتَّ بعد أن خمشتْك براثينُه ونالتْك مخاليبه، وآيم الله ليقومِّنَّك بنو عبد مناف بثقافها، أو لَتُصبحَنّ منها صباحَ أبيك بوادي السِّباع، وما كان أبوك المرهوبَ جانبه، ولكنه كما قال الشاعر:

أكِيلة سِرحانِ فَريسة ضيْغـمٍ ... فقَضْقَضَه بالكفِّ منـه وحطَّما[4]

---

(١) الإزم: الشدائد.
(٢) الذحول: جمع ذحل، وهو الثأر.
(٣) سجوف: جمع سجف، وهو أحد السترين المقرونين.
(٤) أكيلة: فريسة. وقضقضه: كسره.

ابن الزبير ومعاوية:

نازع مروان بن الحكيم يوماً ابنَ الزبير عند معاوية، فكان هوى معاوية مع مروان؛ فقال ابن الزبير: يا معاوية، إنّ لك حقاً وطاعة، وإن لك صلة وحرمة؛ فأطِع الله نطعْك؛ فإنه لا طاعة لك علينا إن لم تطع الله؛ ولا تُطرق إطراق الأفعوان في أصول السَّخْبر[١] .

وقال معاوية يوماً وعنده ابن الزبير وذُكر له مروان ـ فقال: إن يطلب هذا الأمر فقد يطمع فيه من هو دونه، وإن يتركه يتركه لمن هو فوقه؛ وما أراكم بمُنْتَهِينَ حتى يبعث الله عليكم من لا تعطفه قرابة، ولا ترده مودّة، يسومكم خسفاً ويُوردكم تلفاً.

قال ابن الزبير: إذاً والله نُطلق عقال الحرب بكتائبَ تمور كرجْل[٢] الجراد، حافاتها الأسَل[٣]، لها دويٌّ كدوي الريح، تتبع غِطريفاً من قريش لم تكن أمّه براعيةِ ثَلَّة[٤] .

قال معاوية: أنا ابن هند، أطلقت عقال الحرب، وأكلتُ ذِروة السنام، وشربت عنفوان المَكْرَع[٥]، وليس للآكل بعدي إلا الفلذة، ولا للشارب إلا الرَّنْق[٦] .

مجاوبة الحسن بن علي لمعاوية وأصحابه

ابن العاص والحسن:

وفد الحسن بن عليّ على معاوية، فقال عمرو لمعاوية، يا أمير المؤمنين، إن الحسن لفَةٌ[٧]، فلو حملتَه على المنبر فتكلم وسمع الناس كلامه عابوه وسقط من عيونهم. ففعل، فصعد المنبر وتكلم وأحسن؛ ثم قال: أيها الناس، لو طلبتم ابناً لنبيِّكم ما بين لابتَيها لم تجدوه غيري وغير أخي. وإنْ أدري لعله فتنةٌ لكم ومتاع إلى حين. فساء ذلك

---

(١) السخبر: شجر تألفه الحيات فتسكن أصوله. (٢) الرجل: القطعة العظيمة من الجراد.
(٣) الأسل: النّبل. (٤) الثلة: جماعة الغنم. (٥) المكرع: أي أول الماء.
(٦) الرَّنْق: تراب في الماء من القذى ونحوه. (٧) الفةّ: الكليل اللسان العي عن حاجته.

عَمْراً وأراد أن يقطع كلامه، فقال له: أبا محمد، أتصف الرُّطب؟ فقال: أجل، تلقحه الشمال وتخرِّجه الجنوب، وتُنضجه الشمس، ويصبغه القمر. قال: أبا محمد، هل تنعت الخَرَاءة؟ قال: نعم، تُبعد المْشيَ في الأرض الصَّحْصح[1] حتى تتوارى من القوم، ولا تَستقبل القبلة ولا تستدبرها، ولا تستنجِ بالقُمّة والرِّمة ـ يريد الروث والعظم ـ ولا تبُل في الماء الراكد.

مروان والحسن:

بينما معاوية بن أبي سفيان جالس في أصحابه إذ قيل له: الحسن بالباب. فقال معاوية: إن دخل أفسد علينا ما نحن فيه! فقال له مروان بن الحكم: ائذن له؛ فإني أسأله ما ليس عنده فيه جواب. قال معاوية: لا تفعل فإنهم قوم قد أُلهموا الكلام وأذِن له؛ فلما دخل وجلس قال له مروان: أسرع الشيبُ إلى شاربك يا حسن، ويقال إنّ ذلك من الخُرْق!

فقال الحسن: ليس كما بلغك، ولكنا معشر بني هاشم أفواهُنا عذبة شِفاهها فنساؤنا يُقْبلن علينا بأنفاسهنّ وقبَلهنّ؛ وأنتم معشر بني أُمية فيكم بَخَر شديد، فنساؤكم يصرفن أفواههنّ وأنفاسَهنّ عنكم إلى أصداغكم؛ فإنما يشيب منكم موضعُ العِذار من أجل ذلك. قال مروان: إن فيكم يا بني هاشم خصلةَ سوء. قال: وما هي؟ قال: الغُلْمة[2]. قال: أجل، نُزعت الغلمة من نسائنا ووضعت في رجالنا، ونزعت الغلمة من رجالكم ووضعت في نسائكم، فما قام لأمويةٍ إلا هاشمي! فغضب معاوية وقال: قد كنت أخبرتكم فأَبيتم حتى سمعتم ما أظلم عليكم بيتكم وأفسد عليكم مجلسكم.

فخرج الحسن وهو يقول:

ومارَسْتُ هذا الدهر خمسين حِجَّـةً وخمساً أُزجِّي قائلاً بعـد قـائـل[3]

(١) الصحصح: ما استوى من الأرض.

(٢) الغُلمة: شدة الشهوة للجماع. (٣) أزجي: أدفع.

فلا أنا في الدنيـا بلغـتُ جَسيمَهـا ... ولا في الذي أهوى كدَحْت بطائـل

وقد أشرعـتْ فيَّ المَنـايـا أكفَّهـا ... وأيقنتُ أني رهْن مـوتٍ بعـاجـل

الحسن وحبيب الفهري:

قال الحسن بن علي لحبيب بن مسلمة الفِهري: ربَّ مسير لك في غير طاعة الله! قال: أما مسيري إلى أبيك فلا! قال: بلى، ولكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة، فلئن كان قام بك في دنياك لقد قعد بك في آخرتك، ولو كنتَ إذ فعلتَ شراً قلتَ خيراً كنت كما قال الله عز وجل: ﴿خَلطوا عملاً صالحاً وآخر سيِّئاً﴾[1]، ولكنك كما قال الله: ﴿بل رانَ على قلوبهم ما كانوا يكسِبون﴾[2].

ابن جعفر وابن الحكم في مجلس عبد الملك:

قدم عبد الله بن جعفر على عبد الله بن مروان، فقال له يحي بن الحكم: ما فعلتْ خبيثة؟ فقال: سبحان الله! يسميها رسول الله ﷺ طيْبة وتسميها خبيثة؟ لقد اختلفتما في الدنيا وستختلفان في الآخرة! قال يحي: لأن أموت بالشام أحب إليّ من أن أموت بها! قال: اخترت جوارَ النصارى على جوار رسول الله ﷺ! قال يحي: ما تقول في عليّ وعثمان؟ قال: أقول ما قاله من هو خير مني فيمن هو شر منهما: ﴿إن تعذبْهم فإنهم عبادُك وإن تغفر له فإنك أنت العزيز الحكيم﴾[3].

مجاوبة بين معاوية وأصحابه

معاوية والضحاك وابن العاص:

قال معاوية يوماً وعنده الضحاك بن قيس، وسعيد بن العاص، وعمرو بن العاص: ما أعجب الأشياء؟

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٢. (٢) سورة المطففين الآية ١٤.

(٣) سورة المائدة الآية ١١٨.

قال الضحاك بن قيس: إكداءُ العاقل وإجداء الجاهل. وقال سعيد بن العاص: أعجب الأشياء ما لم يُرَ مثله. وقال عمرو بن العاص: أعجب الأشياء غلبة من لا حقَّ له ذا الحقِّ على حقه. وقال معاوية: أعجب من هذا أن تعطي من لا حق له ما ليس له بحق من غير غلَبة.

معاوية وقوم من قريش:

حضر قوم من قريش مجلس معاوية، فيهم عمرو بن العاص، وعبد الله بن صفوان بن أمية، وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام؛ فقال عمرو: أحْمد الله يا معشر قريش إذ جعل أمركم إلى من يغضي على القذى، ويتصام عن العوراء، ويجرّ ذيله على الخدائع. قال عبد الله: لو لم يكن كذلك لمسَّنا إليه الضر أو دببنا إليه الخَمر، ورجونا أن يقوم بأمرنا من لا يطعمك مالَ مصر. قال معاوية: يا معشر قريش، حتى متى لا تُنصفون من أنفسكم؟ قال عبد الرحمن بن الحارث: إن عمراً أفسدك علينا وأفسدنا عليك. لو أغضبتَ عن هذه. قال: إن عمراً لي ناصح. قال عبد الرحمن: فأطعِمنا مثل ما أطعمتَه، وخذنا بمثل نصيحته؛ إنا رأيناك يا معاوية تضرب عوامّ قريش بأيديك في خواصها، كأنك ترى أن بكرامها جاروك دون لئامها، وإنا والله لنفرغ من إناء فعم في إناء ضخم، وكأنك بالحرب قد حَل عقالها عليك من لا ينظر لك. قال معاوية: يا بن أخي، ما أحوج أهلك إليك! فلا تفجعهم بنفسك! ثم أنشد:

أعَزَّ رجالاً من قريْش تتابَعوا على سَفه، مِني الحيا والتكرمُ[1]

معاوية وابن الزبير:

وقال معاوية لابن الزبير: تُنازعني هذا الأمر كأنك أحق به مني! قال: لم لا أكون أحق به منك يا معاوية، وقد اتبع أبي رسول الله ﷺ على الإيمان واتبع الناسُ أباك على الكفر؟ قال له معاوية: غلطت يا ابن الزبير بعث الله ابنَ عمي نبياً فدعا أباك فأجابه؛ فما أنت إلا تابعٌ لي، ضالاً كنتُ أو مَهْديّاً.

---

(١) تتابعوا: أسرعوا إلى الشر.

معاوية ومروان وابن العاص في الحسين:

العتبي قال: دعا معاوية مروان بن الحكم فقال له: أشِر عليَّ في الحسين. قال: تخرجه معك إلى الشام، فتقطعه عن أهل العراق وتقطعهم عنه. قال: أردتَ والله أن تستريح منه وتبتليني به، فإن صبرتُ عليه صبرتُ على ما أكره، وإن أسأت إليه كنت قد قطعت رحِمه! فأقامه وبعث إلى سعيد بن العاص، فقال له: يا أبا عثمان، أشر عليّ في الحسين. فقال: والله إنك ما تخاف الحسين إلا على من بَعْدك، وإنك لتُخلف له قِرنا إن صارعه ليصرعنه، وإن سابقه ليسبقنَّه؛ فذر الحسين منبت النخلة، يشرب من الماء، ويصعد في الهواء، ولا يبلغ إلى السماء! قال: فما غيَّبك عني يوم صفِّين؟ قال: تحملت الحُرم، وكُفيت الحزم، وكنت قريباً لو دعوتنا لأجبناك، ولو ثُلمت لرقعناك! قال معاوية: يا أهل الشام؛ هؤلاء قومي وهذا كلامُهم.

مجاوبة بين بني أمية

ابن سعيد وابن عتبة في حضرة معاوية:

قال: لما أخرج أهل المدينة عمرو بن سعيد الأشدق، وكان ولِيهُم بعد الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، قال عمر بن سعيد لمعاوية: إن الوليد بن عتبة هو الذي أمر أهلَ المدينة باخراجي؛ فأَرْسلْ إليه وتوثَّقه. فأرسل إليه معاوية، فلما دخل عليه قال له عمرو: أوليد، أنت أمرت بإخراجي؟ قال لا ورحِمك أبا أمية، ولا أمرت أهلَ الكوفة بإخراج أبيك؛ بل كيف أطاعني أهل المدينة فيك، إلا أن تكون عَصَيت الله فيهم؟ إنك لتحل عُرى ملك شديدةً عقدتُها، وتمتري[1] أخلاف فيقَةٍ[2] سريعةٍ درتُها؛ وما جعل الله صالحاً مصلِحاً كفاسدٍ مفسِد!

معاوية وخالد بن عبد الله في أموال العراق:

جلس يوماً عبد الملك بن مروان وعند رأسه عبد الله بن خالد بن أسيد، وعند

(١) تمري: تمسح. (٢) الفيقة: اللبن يجتمع في الضرع ما بين الحلبتين.

رجليه أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وأُدخلت عليه الأموال التي جاءت من قِبل الحجاج حتى وُضعت بين يديه، فقال: هذا والله التوفير، وهذه الأمانة؛ لا ما فعل هذا ـ وأشار إلى خالد ـ آستعملته على العراق فاستعمل كل مُلِطٍ[1] فاسق فأدّوا إليه العشرة واحداً، وأدّى إليّ من العشرة واحداً! واستعملت هذا على خراسان ـ وأشار إلى أمية ـ فأهدى إليّ برذونين حَطِمَيْن[2]، فإن استعملتكم ضيعتم وإن عزلتكم قلتم استخف بنا وقطع أرحامَنا! فقال خالد بن عبد الله: استعملتَني على العراق وأهلُه رجلان: سامع مطيع مناصح، وعدو مبغض مكاشح؛ فأما السامع المطيع المناصح فإنا جزيناه ليزداد وُدّاً إلى ودّه، وأما المبغض المكاشح، فإنا داريناه ضغنه وسللنا حقده، وكثرنا لك المودةَ في صدور رعيتك؛ وإن هذا جَبى الأموال وزرع لك البغضاءَ في قلوب الرجال؛ فيوشك أن تَنبت البغضاءُ فلا أموال ولا رجال! فلما خرج ابن الأشعث قال عبد الملك: هو والله ما قال خالد.

خالد بن يزيد ومحمد بن عمرو:

قدم محمد بن عمرو بن سعيد بن العاص الشام، فأتى عمتَه آمنة بنت سعيد بن العاص، وكانت عند خالد بن يزيد بن معاوية، فدخل عليه فرآه فقال له: ما يَقدم علينا أحدٌ من أهل الحجاز إلا اختار المقام عندنا على المدينة. فظن محمد أنه يعرّض به، فقال: وما يمنعهم وقد قدم من المدينة قوم على النواضح[3]، فنكحوا أمّك، وسلبوك ملكك، وفرّغوك لطلب الحديث وقراءة الكتب ومعالجةِ ما لا تَقدر عليه. يعني الكيميا، وكان يعملها.

عثمان وابن العاص بعد عزله عن مصر:

لما عزل عثمان بن العاص عن مصر وولاها عبد الله بن أبي سرح، دخل عليه عمرو وعليه جبة، فقال له: ما حشوُ جُبّتك يا عمرو؟ قال: أنا! قال: قد علمت أنك فيها. ثم قال: أشعرت يا عمرو أن اللّقاحَ درّت بعدك ألبانها بمصر؟ قال: لأنكم أعجفتم[4] أولادَها.

(١) الملط: الذي يمنع الحق. (٢) حطمين: هزيلين.
(٣) النواضح: الإبل يستقي عليها الماء. (٤) أعجفتم: أهزلتم.

ابن لعمر بن عبد العزيز وابن لسليمان:

وقع بين ابن لعمر بن عبد العزيز وابنٍ لسليمان بن عبد الملك كلام. فجعل ابن عمر يذكر فضل أبيه، قال له ابن سليمان؛ إن شئت فأقلل وإن شئت فأكثر؛ ما كان أبوك إلا حسنةً من حسنات أبي! لأن سليمان هو ولي عمرَ ابن عبد العزيز.

العباس بن الوليد والوليد بن يزيد:

ذكروا أن العباس بن الوليد وجماعة من بني مروان كانوا عند هشام، فذكروا الوليد بن يزيد، فحمَّقوه وعابوه، وكان هشام يبغضه؛ ودخل الوليد، فقال له العباس بن الوليد: كيف حبُّك للروميات؟ قال: إن أباك كان مشغوفاً بهنّ. قال: إني لا أحبهن. [قال]: وكيف لا يُحببن وهن يلدن مثلك؟ قال: آسكت، فلستَ بالفحل يأتي عسْبه[١] بمثلي. قال له هشام: يا وليد، ما شرابك؟ قال: شرابُك يا أمير المؤمنين. وقام فخرج، فقال هشام: هذا الذي تزعمون أنه أحمق.

الوليد بن يزيد وولد لهشام:

وقرّب إلى الوليد بن يزيد فرسُه، فجمع جراميزه[٢] ووثب على سرجه، ثم التفت إلى ولدٍ لهشام بن عبد الملك، فقال: يحسن أبوك أن يصنع مثلَ هذا؟ قال: لأبي مائة عبد يصنعون مثل هذا! فقال الناس: لم يُنصفه في الجواب.

عبد الملك ويحي بن الحكم وبنت لعبد الرحمن بن هشام:

خطب عبد الملك بن مروان بنت عبد الرحمن بن الحرث بن هشام، فقالت: والله لا تَزوجني أبو الذباب! فتزوجها يحي بن الحكم؛ فقال عبد الله ليحي: أما والله لقد تزوجت أسودَ أفوَه[٣]! قال يحي: أما إنها أحبَّت مني ما كرهت منك! وكان عبد الملك رديء الفم، يدمي فيقع عليه الذباب، فسمي أبا الذباب.

---

(١) العسب: ماء الفحل. (٢) جراميزه: جسده وأعضاؤه.

(٣) الأفوه: الواسع الفم.

الجواب القاطع

ثابت بن عبد الله وسعيد بن عثمان:

نظر ثابت بن عبد الله بن الزبير إلى أهل الشام، فقال: إني لأبغض هذه الوجوه. قال له سعيد بن عثمان: تبغضهم لأنهم قتلوا أباك! قال: صدقت، ولكِن الأنصار والمهاجرون قتلوا أباك!

الحجاج وخارجي:

وقال الحجاج لرجل من الخوارج: والله إنك من قوم أبغضهم! قال له: أدخل اللهُ أشدّنا بغضاً لصاحبه الجنة.

عمرو بن معديكرب وباهلي:

وقال ابن الباهلي لعمرو بن معديكرب: إن مُهرك لمقرف[1]. قال: هجينٌ عرف هجيناً[2] مثله.

الحجاج وخارجية:

وقال الحجاج لامرأة من الخوارج: والله لأعُدَنّكم عَدّاً ولأحصُدَنّكم حَصداً! قالت له: الله يزرع وأنت تحصد، فأين قدرة المخلوق من الخالق.

وأُتِيَ الحجاج بامرأة من الخوارج، فقال لأصحابها: ما تقولون فيها؟ قالوا: عاجلها القتل أيها الأمير، قالت الخارجية: لقد كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك يا حجاج! قال لها: ومن صاحبي؟ قالت: فرعون؛ استشارهم في موسى فقالوا: أرْجِهْ[3] وأخاه!

---

(١) المقرف من الخيل: الذي أمه عربية وأبوه غير عربي.

(٢) الهجين: الذي أبوه عربي وأمه غير عربية.

(٣) أرجه وأخاه: أخره وأخاه ولا تعجل لهما بشر (سورة الأعراف الآية ١١١).

زياد وخارجي:

وأُتِيَ زيادٌ برجل من الخوارج، فقال له: ما تقول فيّ وفي أمير المؤمنين؟ قال أما الذي تسميه أميرَ المؤمنين فهو أميرُ المشركين، وأما أنت فما أقول في رجل أوله لزنية وآخره لدعوة! فأمر به فقتل وصلب.

الأشعث وشريح:

قال الأشعث بن قيس لشريح القاضي: لشدّ ما ارتفعت! قال: فهل رأيت ذلك ضرك؟ قال: لا. قال: فأراك تعرف نعمة الله عليك وتجهلها على غيرك.

ابن الفضل وبعض قرابته:

نازع محمد بن الفضل بعض قرابته في ميراث، فقال له: يا بن الزنديق! قال له: إن كان أبي كما تقول وأنا مثله، فلا يحل لك أن تنازعني في هذا الميراث؛ إذ كان لا يرث دِينٌ ديناً.

الحجاج وخارجية:

وأُتي الحجاج بامرأة من الخوارج، فجعل يكلمها وهي لا تنظر إليه، فقيل لها الأمير يكلمك وأنت لا تنظرين إليه! قالت: إني لأستحي أن أنظر من لا ينظر الله إليه! فأمر بها فقتلت.

عثمان وعلي:

لقي عثمان بن عفان عليَّ بن أبي طالب، فعاتبه في شيء بلغه عنه، فسكت عنه علي؛ فقال له عثمان: مالك لا تقول؟ قال: له علي: ليس لك عندي إلا ما تحب وليس جوابك إلا ما تكره.

وتكلم الناس عند معاوية في يزيد ابنه إذ أخذ له البيعة، وسكت الأحنف؛ فقال له: مالك لا تقول أبا بحر؟ قال: أخافك إن صَدقْتُ وأخاف الله إن كذَبْتُ!

قال معاوية يوماً: أيها الناس، إن الله فضّل قريشاً بثلاث: فقال لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وأنذرْ عشيرَتكَ الأقربين﴾(١)، فنحن عشيرته؛ وقال: ﴿وإنهُ لذِكْرٌ لكَ ولقَوْمِك﴾(٢)، فنحنُ قومُهُ؛ وقال: ﴿لإيلافِ قُرَيْشٍ إيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ والصَّيْفِ فلْيَعْبُدوا رَبَّ هذا البيْتِ الذي أَطْعَمَهُم من جوعٍ وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾(٣)، ونحن قريش! فأجابه رجل من الأنصار فقال: على رسلك يا معاوية، فإن الله يقول: ﴿وكذَّبَ بِهِ قومكَ﴾(٤)، وأنتم قومه؛ وقال: ﴿ولمّا ضُرِبَ ابن مريَمَ مثَلاً إذا قومُكَ مِنه يَصِدُّونَ﴾(٥)، وأنتم قومه، وقال الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿يا رَبِّ إنّ قومي اتَّخَذُوا هٰذا القرآنَ مهجوراً﴾(٦)، وأنتم قومه؛ ثلاثة بثلاثة، ولو زدتَنا لزدناك! فأفحَمه.

وقال معاوية لرجل من اليمن: ما كان أجهلَ قومَك حين ملّكوا عليهم امرأة! فقال: أجهلُ من قومي قومُك الذين قالوا حين دعاهم رسولُ الله ﷺ: ﴿اللهُمَّ إن كانَ هذا هو الحقَّ من عِندِك فأَمْطِر علينا حِجارةً مِنَ السماءِ أوِ آئتِنا بعذابٍ أليمٍ﴾(٧)، ولم يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه.

مجاوبة الأمراء والردّ عليهم

قال معاوية لجارية بن قدامة: ما كان أهونَك على أهلك إذ سموك جارية. قال: ما كان أهونَك على أهلك إذ سموك معاوية، وهي الأنثى من الكلاب. قال: لا أمّ لك! قال: أمي ولدتني للسيوف التي لقيناك بها في أيدينا. قال: إنك لتهدِّدني! قال: إنك لم تفْتَتِحْنا قسرا ولم تَملِكنا عَنوة، ولكنك أعطيتَنا عهدا وميثاقاً وأعطيناك سمعا وطاعة، فإن وفَيْتَ لنا وفيْنا لك، وإن فزعت إلى غير ذلك، فإنا تركنا وراءنا رجالا شدادا وألسنة حداداً.

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٤. (٢) سورة الزخرف الآية ٤٤.
(٣) سورة قريش الآية ١ - ٣. (٤) سورة الأنعام الآية ٦٦.
(٥) سورة الزخرف الآية ٥٧. (٦) سورة الفرقان الآية ٣٠. (٧) سورة الأنفال الآية ٣٢.

قال له معاوية: لا كثّر الله في الناس أمثالَك. قال جارية: قَلْ معروفاً وراعنا؛ فإن شر الدعاء المحتطَب.

معاوية والأحنف:

عدّد معاوية بن أبي سفيان على الأحنف ذنوباً، فقال: يا أمير المؤمنين، لم تردّ الأمور على أعقابها؛ أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبيْنَ جوانحنا، والسيوف التي قاتلناك بها على عواتقنا؛ ولئن مددتَ فِتْراً من غَدْر لنَمُدَّن باعاً من ختْر؛[1] ولئن شئت لنستصفينَّ كدرَ قلوبنا بصفو حلمك. قال: فإني أفعل!.

معاوية وعدي:

قال معاوية لعدي بن حاتم: ما فعلت الطرفات يا أبا طريف؟ يعني أولاده؛ قال: قُتلوا! قال: ما أنصفك ابن أبي طالب إذ قُتِل بنوك معه وبَقِيَ له بنوه! قال: لئن كان ذلك لقد قُتل هو وبقيتُ أنا بعده! قال له معاوية: ألم تزعم أنه لا يُخْنَق في قتل عثمان عنز؟ قال: قد والله خُنق فيه التيس الأكبر. قال معاوية: أما إنه قد بقيت من دمه قطرة ولا بد أن أتبعها! قال عدي: لا أبا لك! شِم[2] السيف، فإنّ سلَّ السيف يَسُلُّ السيف. فالتفت معاوية إلى حبيب بن مسلمة فقال: أجعلها في كتابك فإنها حكمة.

الأحنف وشامي لعن عليا:

الشيباني عن أبي الجناب الكِندي عن أبيه، أن معاوية بن أبي سفيان بينا هو جالس وعنده وجوه الناس، إذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيبا، فكان آخر كلامه أن لعن عليا؛ فأطرق الناس وتكلم الأحنف فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا القائل ما قال آنفا لو يعلم أن رضاك في لعْن المرسلين لعنهم، فاتق الله ودع عنك عليا، فقد لقي

---

(١) الختر: غدر أقبح من الغدر. (٢) شام السيف: سله وأغمده، فهي من الأضداد.

ربَّه، وأُفرد في قبره، وخلا بعمله؛ وكان والله - ما علمنا - المبّرز بسبقه، الطاهرَ خلقه، الميمونَ نقيبتُه،[1] العظيمَ مصيبتُه فقال له معاوية: يا أحنف، لقد أغضيت العين على القذى، وقلت ما ترى! وآيم الله لتصعدنّ المنبر فتلعننّه طوعا أو كرها، فقال له الأحنف يا أمير المؤمنين، إن تعفني فهو خيرٌ لك، وإن تجبُرْني على ذلك فوالله لا تجري فيه شفتاي أبداً! قال: قم فاصعد المنبر. قال الأحنف: أما والله مع ذلك لأنصفنك في القول والفعل. قال: وما أنت قائل يا أحنف إن أنصفتَني؟ قال: أصعدُ المنبر فأحمد الله بما هو أهله، وأصلَّ على نبيه ﷺ، ثم أقول: أيها الناس، إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن عليا، وإن عليا ومعاوية اختلفا فاقتتلا، وادّعى كلّ واحد منهما أنه بُغي عليه وعلى فئته؛ فإذا دعوتُ فأمّنوا رحمكم الله. ثم أقول: اللهم العن أنت وملائكتُك وأنبياؤك وجميعُ خلقك الباغيّ منهما على صاحبه؛ وآلعَنِ الفئة الباغية؛ اللهم العنهم لعنا كبيراً! أمّنوا رحِمكم الله. يا معاوية، لا أزيد على هذا ولا أنقص منه حرفاً ولو كان فيه ذهاب نفسي؛ فقال معاوية: إذاً نُعْفيك يا أبا بحر.

معاوية وعقيل في أمر علي:

وقال معاوية لعقيل بن أبي طالب: إن عليا قد قطعك ووصلتُك؛ ولا يرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر! قال: أفعل، فأَصعد، فصعد، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس، إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن عليَّ بن أبي طالب فالعنوه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ثم نزل، فقال له معاوية إنك لم تبين أبا يزيد من لعنتَ بيني وبينه. قال: والله لازدتُ حرفاً ولا نقَصتُ آخر، والكلام إلى نية المتكلم.

الهيثم بن عدي قال: قال معاوية لأبي الطفيل: كيف وجْدُك على عليّ؟ قال: وجدُ ثمانين مثكلا! قال: فكيف حبُّك له؟ قال: حب أم موسى، وإلى الله أشكو التقصير!

---

(١) ميمون النقيبة: مبارك النفس مظفر فيما يحاول.

وقال مرة أخرى: أبا الطفيل! قال: نعم. قال: أنت مِنْ قتلة عثمان؟ قال: لا، ولكني ممن حضره ولم ينصره. قال: وما منعك من نصره؟ قال: لم ينصره المهاجرون والأنصار، فلم أنصره. قال: لقد كان حقُّه واجبا وكان عليهم أن ينصروه. قال: فما منعَك من نصرته يا أمير المؤمنين وأنت ابن عمه؟ قال: أو ما طلبي بدمه نصرة له؟ فضحك أبو الطفيل وقال: مثلك ومثل عثمان كما قال الشاعر:

لأعرفنَّك بعد الموْتِ تَندُبُني وفي حياتي ما زوّدْتَني زادا

معاوية وابن الخطل:

العتبي قال: صعد معاوية المنبر فوجد من نفسه رقة، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس، إن عمر ولاني أمراً من أمره، فوالله ما غششتُه ولا خنتُه ثم ولاني الأمر مَن بعده ولم يجعل بيني وبينه أحداً؛ فأحسنت والله وأسأت، وأصبت وأخطأت؛ فمن كان يجهلني فإني أُعَرِّفه بنفسي. فقام إليه سلمة بن الخَطِل العرجيّ؛ فقال: أنصفت يا معاوية وما كنت منصفا. قال فغضب معاوية وقال: ما أنت وذاك يا أحدب؟ والله لكأني أنظر إلى بيتك بمهْيعة،[1] وبطنب[2] تَيْس، وبطنب بهمة، بفنائه أعنز عشر، يحتلبن في مثل قوارة حافر العَير،[3] تهفو الريح منه بجانب، كأنه جناح نسر. قال: رأيت والله ذاك في شر زماننا إلينا، ووالله إن حَشْوه يومئذ لحسبٌ غير دنس؛ فهل رأيتني يا معاوية أكلت مالا حراما أو قتلت امرأً مسلما؟ قال: وأين كنت أراك وأنت لا تدبُّ إلا في خمر؟ وأي مسلم يعجز عنك فتقتله؟ أم أي مال تقوى عليه فتأكله؟ اجلس لا جلست. قال: بل أذهب حتى لا تراني. قال إلى أبعد الأرض لا إلى أقربها فمضى، ثم قال معاوية: رُدّوه عليّ، فقال الناس: يعاقبه! فقال له: أستغفر الله منك يا أحدب، والله لقد بررتَ في قرابتك، وأسلمت فحُسن إسلامك، وإن أباك لسيّدُ قومه؛ ولا أبرح أقول بما تحب فاقعد.

---

(١) المهيعة: الجحفة بين الحرين.

(٢) الطنب: عرق الشجر وعصب الجسد.

(٣) قوارة حافر العير: يريد ما يقور من باطن حافره.

معاوية وخريم الناعم:

الأوزاعي قال: دخل خريم الناعم على معاوية، فنظر إلى ساقيه فقال:أيُّ ساقين. لو أنهما على جارية. قال في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين. قال معاوية: واحد بأخرى والبادي أظلم.

عبد الملك وعطاء:

دخل عطاء المُضحك على عبد الملك بن مروان، فقال له: أمَا وجَدَتْ لك أمك آسما إلا عطاء؟ قال: لقد استكثرت من ذلك ما استكثرتَه يا أمير المؤمنين، ألاَ سمْتني باسم المباركة، صلوات الله عليها، مريم.

معاوية وصحار:

قال معاوية لصُحار بن العباس العبدي: يا أزرق. قال: البازي أزرق. قال: يا أحمر. قال: الذهب أحمر. قال: ما هذه البلاغة فيكم عبد القيس؟ قال: شيءٌ يختلج في صدورنا فتقذفه ألسنتُنا كما يقذف البحر الزَّبَد. قال: فما البلاغة عندكم؟ قال: أن نقول فلا نخطىء، ونجيب فلا نُبطىء.

ابن عامر وابن حازم:

وقال عبد الله بن عامر بن كريز لعبد الله بن حازم يا بن عَجْلَى. قال: ذاك اسمها. قال: يا بن السوداء. قال: ذاك لونها. قال: يا بن الأمة. قال: كل أنثى أمة فاقصد بذرعك لا يرجع سهمك عليك؛ إن الإماء قد ولدْنَك.

عبد الملك وابن ظبيان:

دخل عبيد الله بن زياد بن ظبيان على عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك: ما هذا الذي يقول الناس؟ قال: وما يقولون؟ قال: يقولون إنك لا تشبه أباك قال: والله لأنا أشبه به من الماء بالماء، والغراب بالغراب؛ ولكن أدلك على من لم يشبه أباه.

قال: من هو؟ قال: من لم تُنضجه الأرحام، ولم يولد لتمام، ولم يشبه الأخوال والأعمام. قال: ومن هو؟ قال: ابن عمي سويد بن منجوف. وإنما أراد عبد الملك ابن مروان، وذلك لأنه وُلد لستة أشهر.

هشام وزيد ابن علي:

دخل زيد بن عليّ على هشام بن عبد الملك، فلم يجد موضعا يقعد فيه: فعلم أن ذلك فُعل به على عمد؛ فقال: يا أمير المؤمنين، اتق الله. قال: أو مثلك يا زيد يأمر مثلي بتقوى الله؟ قال زيد: إنه لا يكبر أحدٌ فوق تقوى الله، ولا يصغر دون تقوى الله. قال له هشام: بلغني أنك تحدّث نفسك بالخلافة ولا تصلح لها؛ إنك ابن أمة. قال: زيد: أما قولك إني أحدِّث نفسي بالخلافة، فلا يعلم الغيب إلا الله؛ وأما قولك إني ابن أمة، فهذا إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن ابن أمة من صُلبه خير البشر محمدٌ ﷺ، وإسحاق ابن حرة. أُخرج من صلبه القردة والخنازير وعبدة الطاغوّت. قال له: قم. قال: إذن لا تراني إلا حيث تكره. فلما خرج من عنده قال: ما أحب أحد قط الحياة إلا ذَل. قال له حاجبه: لا يسمع هذا الكلام منك أحد.

وقال زيد بن علي:

سرَّدَه الخوْف وازْرى بـــــه ... كذاك مـن يَكـره حَـرَّ الجِلادْ[1]
مُحْتفِـي الرِّجْلَيْـن يشكـو الوجـا ... تقْـرعُـه أطـرافُ مَـرْوٍ حِـدَادْ[2]
قـد كـان في المَوْتِ لـه راحـة ... والموتُ حَتْـمٌ في رقــاب العِبــادْ

ثم خرج بخراسان، فقتل وصلب في كناسة. وفيه يقول سُديف بن ميمون في دولة بني العباس:

واذكـروا مَقْـل الحسيْـنِ وزيْـداً ... وقتيلاً بجانـــب المِهْـــراس[3]

---

(١) الجلاد: يريد موضع الجلاد، وهو الضرب بالسيف في القتال.

(٢) المرو: حجارة بيض رقاق. (٣) المهراس: ماء بأحد.

يريد حمزة بن عبد المطلب المقتول بأحد .

عبد الملك ورجل من قيس:

دخل رجل من قيس على عبد الملك بن مروان؛ فقال: زُبيري . والله لا يحبك قلبي أبداً . قال: يا أمير المؤمنين، إنما يجزع مِن الحب النساء، ولكن عدل وإنصاف .

عمر بن الخطاب وأبو مريم:

وقال عمر بن الخطاب لأبي مريم الحنفي قاتل زيد بن الخطاب: والله لا يحبك قلبي أبداً حتى تحب الأرض الدم . قال: يا أمير المؤمنين، فهل تمنعني لذلك حقا ؟ قال: لا . قال: فحسبي .

سليمان ويزيد ابن أبي مسلم:

دخل يزيد بن أبي مسلم على سليمان بن عبد الملك، فقال: على امريء أوطأك رسَنَه وسلَّطك على الأمة لعنة الله . فقال: يا أمير المؤمنين، إنك رأيتني والأمر مدبر عني ولو رأيتني والأمر مقبل عليَّ لعظم في عينك ما استصغرت مني . قال: أتظن الحجاج استقر في قعر جهنم أم هو يهوي فيها ؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن الحجاج يأتي يوم القيامة بين أبيك، وأخيك فضعه من النار حيث شئت .

مروان وزفر:

وقال مروان بن الحكم لزفر بن الحارث: بلغني أن كندة تدَّعيك . قال: لا خير فيمن لا يتَّقي رهبة ولا يدَّعي رغبة .

مروان وابن ولجة:

قال مروان بن الحكم للحسن بن دُلْجة: إني أظنك أحمق . قال: [أحمق] ما يكون الشيخ إذا عمل بظنِّه .

مروان وحويطب:

وقال مروان لحويطب بن عبد العُزَّى، وكان كبيراً مُسناً. أيها الشيخ، تأخر إسلامك حتى سبقَك الأحداث. فقال: الله المستعان، والله لقد هممت بالإسلام غير مرة، وكل ذلك يعوقني عنه أبوك وينهاني، ويقول: يضع من قدرك أن تترك دين آبائك لدينٍ محدَث، وتصير تابعاً فسكت مروان.

عبد الملك وثابت بن عبد الله:

قال عبد الملك بن مروان لثابت بن عبد الله بن الزبير: أبوك ما كان أعلم بك حيث كان يشتمك. قال: يا أمير المؤمنين، إنما كان يشتمني أني كنت أنهاه أن يقاتل بأهل المدينة وأهل مكة؛ فإن الله لا ينصر بهما؛ أما أهل مكة فأخرجوا النبي ﷺ وأخافوه، ثم جاءوا إلى المدينة فآذوه حتى سيرهم - يعرِّض بالحكم بن أبي العاص طريد النبي ﷺ -؛ وأما أهل المدينة فخذلوا عثمان حتى قُتل بين أظهرهم ولم يدفعوا عنه. قال له: عليك لعنة الله.

معاوية والبراءة من علي:

جلس معاوية يبايع الناس على البراءة من عليّ؛ فقال له رجل من بني تميم: يا أمير المؤمنين، نطيع أحياءكم ولا نبرأ من موتاكم. فالتفت معاوية إلى زياد فقال: هذا رجل فاستَوْص به.

معاوية والأنصار:

قال معاوية يوما: يا معشر الأنصار، بِمَ تطلبون ما عندي؟ فوالله لقد كنتم قليلا معي كثيراً معي عليَّ، ولقد فَلَلتم حدَّي يوم صِفين حتى رأيت المنايا تتلظى من أسنتكم، ولقد هجوتموني [في أسلافي] بأشدَّ من وخز الأسل،[1] حتى إذا أقام الله

---

(١) الأسل: الشوك الطويل، والرماح، والنبل.

مِنَّا ما حاولتم ميْله، قلتم آرْع فينا وصية رسول الله ﷺ . هيهات. يأبى الحَقِينُ العِذْرةَ[1] .

فأجابه قيس بن سعد، قال أما قولك جئناك نطلب ما عندك، فبالإسلام الكافي به الله ما سواه، لا بما نمتّ إليك به من الأحزاب؛ وأما استقامة الأمر، فعلى كره منا كان؛ وأما فَلّنا حدَّك يوم صِفين، فأَمْرٌ لا نعتذر منه؛ وأما عداوتنا لك، فلو شئت كففتَها عنك؛ وأما هِجَاؤنا إياك، فقولٌ يَثبت حقُّه ويزول باطله؛ وأما وصية رسول الله ﷺ ، فمن يؤمنْ بها يحفظْها مِن بعده؛ وأما قولك يأبى الحقين العِذْرة، فليس دون الله يدٌ تحجزك منا؛ فدونك أمرك يا معاوية؛ فإنما مثلك كما قال الشاعر:

يــا لــك مــن قُبَّــرَةٍ بَمعْمَــرِ ... خلاَلَك الجوُّ فبيضي واصْفِـري[2]

سليمان وابن المهلب:

وقال سليمان بن عبد الملك ليزيد بن المهلب: فيمن العزُّ بالبصرة؟ قال: فينا وفي حلفائنا من ربيعة. قال سليمان: الذي تحالفتما عليه أعزُّ منكما.

عمر بن الخطاب وعبدالله بن الزبير:

مرّ عمر بن الخطاب بالصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير، ففرّوا وثبت ابن الزبير؛ قال له عمر: كيف لم تفرَّ مع أصحابك؟ قال: لم أجترم[3] فأخافك، ولم يكن بالطريق من ضيق فأوسِّع لك!

عبدالله بن الزبير وعدي بن حاتم:

وقال عبد الله بن الزبير لعدي بن حاتم: متى فقئتْ عينك؟ قال: يوم قتِل أبوك، وهربتَ عن خالتك، وأنا للحقّ ناصر، وأنت له خاذل. وكان فقئت عينه يوم الجمل.

---

(١) يضرب مثلاً للرجل يعتذر ولا عذر له.

(٢) صفر الطائر: أي مكا. (٣) أجترم: أقترف جرماً.

الرشيد وابن مزيد:

وقال هارون الرشيد ليزيد بن مزيد: ما أكثر الخلفاءَ في ربيعة؟ قال: نعم، ولكن منابرهم الجذوع.

يزيد بن معاوية والمسود:

كان المِسْور بن مخرمة جليلا نبيلا، وكان يقول في يزيد بن معاوية إنه يشرب الخمر؛ فبلغه ذلك؛ فكتب إلى عامله بالمدينة أن يجلده الحدّ، ففعل، فقال المسور في ذلك:

أَيشرَبُها صِرْفا يفُضّ ختامَها ... أبو خالدٍ ويُجلَد الحد مِسْوَرُ

المأمون وابن أكثم:

قال المأمون ليحي بن أكثم القاضي: أخبرني من الذي يقول:

قاضٍ يَرى الحدّ في الزِّناء ولا ... يرى على مَن يَلوط من بَاس

قال: يقوله يا أمير المؤمنين الذي يقول:

لا أَحسبُ الجوْرَ ينقضي وعلى الْـ ... ـأمّة والٍ من آل عبّاسِ

قال: ومن يقوله؟ قال: أحمد بن نعيم. قال: يُنفى إلى السند. وإنما مزْحنا معك.

سليمان وابن الرقاع:

قال سليمان بن عبد الملك لعدي بن الرقاع: أنشدني قولك في الخمر:

كُميْت إذا شُجّت، وفي الكأس ورْدة ... لها في عِظام الشاربين دَبيبُ
تُريك القذَى مِن دونِها وهي دونَه ... لوجه أخيها في الإناء قطوب[1]

فأنشده؛ فقال له سليمان: شربتَها ورب الكعبة! قال عدي: والله يا أمير المؤمنين، لئن رابك وصْفي لها قد رابني معرفتك بها! فتضاحكا وأخذا في الحديث.

---

(١) القطوب: القابض ما بين عينيه من جلد عابساً.

بلال وخالد بن صفوان:

الأصمعي قال: لما ولي بلال بن أبي بردة البصرة بلغ ذلك خالد بن صفوان، فقال:

سحابة صيفٍ عن قليل تقشَّعُ

فبلغ ذلك بلالا فدعا به، فقال؛ أنت القائل؟

سحابة صيفٍ عن قليل تقشع؟

أما والله لا تقشع حتى يصيبك منها شؤبوب[١] برد! فضربه مائة سوط.

وكان خالد يأتي بلالا في ولايته، ويغشاه في سلطانه، ويغتابه إذا غاب عنه. ويقول ما في قلب بلال من الإيمان إلا ما في بيت أبي الزرد الحنفي من الجوهر. وأبو الزرد رجل مفلس.

عتبة وخالد القسري:

دخل عتبة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام على خالد بن عبد الله القسري بعد حجاب شديد، وكان عتبة رجلا سخيا، فقال له خالد يعرّض به: إن ها هنا رجالا يُداينون في أموالهم، فإذا فنَبت يداينون في أعراضهم! فعلم القرشي أنه يعرّض به؛ فقال: أصلح الله الأمير، إن رجالا تكون أموالهم أكثر من مروءاتهم، فأولئك تبقى أموالهم؛ ورجالا تكون مروءاتهم أكثر من أموالهم، فإذا نفدت ادانوا على سعة ما عند الله! فخجل خالد وقال: أما إنك منهم ما علمت.

شريك والربيع:

كان شريك القاضي يشاحن الربيع صاحبَ شرطة المهدي فحمل الربيعُ المهديَّ عليه، فدخل شريك يوما على المهدي، فقال له المهدي: بلغني أنك وُلدت في

---

(١) الشؤبوب: الدفعة من المطر. والشدة من كل شيء.

قوصرة.[1] فقال: ولدت يا أمير المؤمنين بخراسان، والقواصر هناك عزيزة، قال: إني لأراك فاطميا خبيثا! قال: والله لإني لأحب فاطمة وأبا فاطمة. ﷺ؛ قال: وأنا والله أحبها؛ ولكني رأيتك في منامي مصروفا وجهك عني، وما ذاك إلا لبغضك لنا؛ وما أراني إلا قاتلك لأنك زنديق! قال: يا أمير المؤمنين؛ إن الدماء لا تسفك بالأحلام؛ وليست رؤياك رؤيا يوسف النبي ﷺ؛ وأمّا قولك بأني زنديق، فإنّ للزنادقة علامة يُعرفون بها. قال: وما هي؟ قال: بشرب الخمر والضرب بالطنبور، قال: صدقت أبا عبد الله، وأنت خير من الذي حملني عليك.

عمر بن الخطاب وابن العاص:

قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص لما قدم عليه من مصر: لقد سرت سيرة عاشق. قال: والله ما تأبطتْني الإماء ولا حملتني البغايا في غُبْرات المآلي![2] قال عمر: والله ما هذا جواب كلامي الذي سألتك عنه، وإن الدجاجة لتفحص في الرماد فتضع لغير الفحل، والبيضة منسوبة إلى طَرْقها.[3] وقام عمر فدخل، فقال عمرو: لقد فحش علينا أمير المؤمنين!

بين عبدالله بن مسلم والحضين بن المنذر:

وتزعم الرواة أنّ قتيبة بن مسلم لما افتتح سمرقند أفضى إلى أثاث لم يُرَ مثله، وإلى آلات لم ير مثلها، وأراد أن يُري الناس عظيم ما فتح الله عليهم، ويعرّفهم أقدار القوم الذين ظهروا عليهم، فأمر بدارٍ ففرشت وفي صحنها قدور أشتات تُرتَقى بالسلالم؛ فإذا الحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة الرقاشي قد أقبل والناس جلوس على مراتبهم، والحضين شيخ كبير؛ فلما رآه عبدالله بن مسلم قال لقتيبة: ائذن لي في كلامه. فقال: لا تردّه فإنه خبيث الجواب. فأبي عبدالله إلا أن يأذن له. وكان

---

(١) القوصرة؛ وعاء من قصب. (٢) المآلي: خرق الحيض.

(٣) كانت أم عمرو مغنية، وكان يأتيها غير واحد، وقد ألحق عمرو بالعاص لشبهة به.

عبد الله يضَعَّف،[1] وكان قد تسوّر حائطا إلى امرأة قبل ذلك؛ فأقبل على الحضين فقال: أمِن الباب دخلت يا أبا ساسان؟ قال: أجل، ضعف عمُّك عن تسوّر الحيطان! قال: أرأيت هذه القدور؟ قال: هي أعظم من أن لا تُرى. قال: ما أحسب بكر بن وائل رأى مثلها. قال: أجل، ولا عيلان؛ ولو كان رآها سُمِّي شعبان، ولم يسمَّ عيلان! قال له عبد الله: أتعرف الذي يقول:

عزلْنا وأمَّـرْنـا، وبكـر بن وائـلٍ ... تَجرّ خُصاها تبتغي مَـن تُحـالـفُ

قال: أعرفه وأعرف الذي يقول:

وخَيبـة مـن يخيـب على غنيٍّ ... وبـاهلـة بن يَعْصر والرِّبـاب

يريد: يا خيبة من يخيب.

قال: أتعرف الذي يقول:

كأنّ فِقاح الأزْد حوْل ابن مِسمـعٍ ... إذا عَرِقتْ أفواه بكر بن وائـلِ[2]

قال: نعم، وأعرف الذي يقول:

قـوْم قتيبـة أُمّهـم وأبـوهـم ... لولا قتْيبـة أصبحـوا في مَجهـلِ

قال: أمّا الشعر فأراك ترويه، فهل تقرأ من القرآن شيئاً؟ قال: نعم، أقرأ منه الأكثر: ﴿هل أتى على الإنسان حِينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾.[3] قال: فأغضبه، فقال: والله لقد بلغني أنّ امرأة الحضين حُملت إليه وهي حبلى من غيره! قال: فما تحرّك الشيخ عن هيئته الأولى؛ ثم قال على رِسله: وما يكون؟ تلد غلاما على فراشي فيقال فلان بن الحضين، كما يقال عبد الله بن مسلم! فأقبل قتيبة على عبد الله فقال: لا يبعد الله غيرك!

والحضين هذا هو الحضين بن منذر الرقاشي، ورقاش أمّهم، وهو من بني شيبان

---

(١) يضعّف: يوصف بالضعف في عقله ورأيه.

(٢) الفقاح: جمع فقحة وهي الدبر. (٣) سورة الإنسان الآية ٧٦.

ابن بكر بن وائل، وهو صاحب لواء علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه بصفين على ربيعة كلها. وله يقول علي بن أبي طالب:

لِمَن رايةٌ سوداءُ يَخفِقُ ظلُّها ... إذا قيل قدِّمها حضيْنُ تقدَّما
يقدّمها في الصفِّ حتى يُزيرَها ... حِياضَ المنايا تَقطر السُّمَّ والدَّما
جزى الله عني والجزاءُ بفضلِهِ ... رَبيعةَ خيراً ما أعَفَّ وأكرَما

ابن الجارود وابن العاص:

وقال المنذر بن الجارود العبدي لعمرو بن العاص: أيُّ رجل أنت لو لم تكن أمّك! ممن هي؟ قال: أحمد الله إليك؛ لقد فكرت فيها البارحة، فجعلت أنقلها في قبائل العرب فما خطرت لي عبد القيس ببال.

ابن صفوان وداري:

قال خالد بن صفوان لرجل من بني عبد الدار وسمعه يفخر بموضعه من قريش - فقال له خالد: لقد هشمتك هاشم، وأمَّتْك[1] أميّة، وخزمتْك مخزوم، وجمحتْك جُمَح، وسهمتك[2] سِهم؛ فأنت ابنُ عبد دارها، تفتح الأبواب إذا أُغلقت، وتغلقها إذا فتِحت.

جواب في هزل

المغيرة وأعرابي يؤكله:

كان للمغيرة بن عبد الله الثقفي وهو والي الكوفة، جَدْيٌ يوضع على مائدته، فحضره أعرابي، فمد يده إلى الجدي وجعل يسرع فيه؛ فقال له المغيرة: إنك لتأكله بحرْدٍ[3] كأن أمه نطحتك! قال: وإنك لمشْفق عليه كأنّ أمه أرضعتك.

---

(١) أمه: أصاب أم رأسه. (٢) سهمتك: قرعتك وغلبتك.
(٣) حرد الرجل: إذا اغتاظ فتحرش بالذي غاظه وهم به.

ابن عنبسة وإبراهيم في حضرة هشام:

كان إبراهيم بن عبد الله بن مطيع جالسا عند هشام، إذ أقبل عبد الرحمن بن عنبسة بن سعيد بن العاص، أحمرَ الجبة والمطرف والعمامة؛ فقال إبراهيم؛ هذا ابن عنبسة قد أقبل في زينة قارون! قال: فضحك هشام؛ قال له عبد الرحمن: ما أضحكك يا أمير المؤمنين؟ فأخبره بقول إبراهيم؛ قال له عبد الرحمن: لولا ما أخاف من غضبه عليك وعليّ وعلى المسلمين لأجبتُه! قال: وما تخاف من غضبه؟ قال: بلغني أن الدجال يخرج من غضبةيغضبها. وكان إبرهيم أعور! قال إبراهيم لولا أن له عندي يداً عظيمة لأجبتُه! قال: وما يده عندك؟ قال: ضربه غلام له بمدية فأصابه، فلما رأى الدم فزع، فجعل لا يدخل عليه مملوك إلا قال له: أنت حُر! فدخلت عليه عائدا له، فقلت له: كيف تجدك؟ قال لي: أنت حر! قلت له: أنا إبراهيم! قال لي: أنت حُر، فضحك هشام حتى استلقى.

ابن حسان وعطاء:

قال عبد الرحمن بن حسان لعطاء بن أبي صيفي بن ثابت: لو أصبت ركوة مملوءة خمرا بالبقيع ما كنت صانعاً؟ قال: كنت أعرّفها بين التجار، فإن لم تكن لهم فهي لك! لكن أخبرني عن الفريعة أهي أكبر أم ثابت، وقد تزوجها قبله أربعة، كلهم يلقاها بمثل ذراع البَكر ثم يطلقها عن قلِي، (١) فقيل لها: يا فريعة، لم تطلقين وأنت جميلة حلوة؟ قالت: يريدون الضيق ضيَّق الله عليهم...!

جارية وقرشي:

ولقي رجل من قريش كان به وضح (٢) جارية من بدر وكان مغرماً بالشراب؛ فقال لها: أشعرتِ أنه بُعث نبيٌّ لهذه الأمة يُحل الخمر للناس؟ قالت: إذاً لا نصدّق به حتى يبرىء الأكمه والأبرص!.

---

(١) القلى: البغض والهجر. (٢) الوضح: البرص والغرة.

الزبرقان وزياد:

ودخل الزبرقان بن بدر على زياد، فسلَّم تسليماً جافياً، فأدناه زياد وأجلسه معه؛ ثم قال له: يا أبا عباس الناس يضحكون من جفائك! قال: ولم ضحكوا؟ فوالله إنْ منهم رجل إلا ودَّ أنّي أبوه دون أبيه، لغيَّة كان أو لرِشدة!

دخل الفرزدق على بلال بن أبي بردة وعنده ناس من اليمامة يضحكون، فقال: يا أبا فراس، أتدري ممَّ يضحكون؟ قال: لا أدري. قال: من جفائك. قال: أصلح الله الأمير. حججتُ فإذا رجل على عاتقه الأيمن صبي، وامرأةٌ آخذة بمئزره وهو يقول:

أَنْتَ وهَبْتَ زائِداً ومِزْيَداً وكهْلةً أُولِج فيها الأجْرَدَا!

وهي تقول: إذا شئت. فسألت: ممن الرجل؟ قال: من الأشعريين. فأنا أجفي من ذلك الرجل؟ قال: لا حياك الله! فقد علمت أنا لا نُفلت منك.

كوسج ومسبل:

اجتمع كوسج[(١)] مع رجل مُسبِل، فقال المسبل[(٢)]: ﴿والبلَدُ الطيِّبُ يَخْرُجُ نباتُه بإذنِ ربه، والذي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلا نَكِدا﴾[(٣)]! قال الكوسج: ﴿قُل لا يَستَوي الخبيثُ والطَّيِّبُ ولو أعجبَك كثْرَةُ الخبيث﴾[(٤)].

مسلمة وموسوس:

مر مسلمة بن عبد الملك، وكان من أجمل الناس، بموسوس على مزبلة؛ فقال الموسوس: لو رآك أبوك آدم لقرّت عينُه بك. قال له مسلمة: لو رآك أبوك آدم لأذهب سخنةُ عينه بك قرةَ عينه بي. وكان مسلمة من أحضر الناس جواباً.

---

(١) الكوسج: الذي لا شعر على عارضيه. (٢) المسبل: الذي قد أسبل لحيته.

(٣) سورة الأعراف الآية ٥٨. (٤) سورة المائدة الآية ١٠٠.

النخعي والأعمش:

خرج إبراهم النخعي، وقام سليمان الأعمش يمشي معه؛ فقال إبراهيم: إن الناس إذا رأونا قالوا: أعور وأعمش! قال: وما غلبك أن يأثموا ونُؤجَر؟ قال: وما عليك أن يَسلموا ونَسلم؟

شداد وأسود:

وقال شداد الحارثي: لقيت أسود بالبادية فقلت: لمن أنت يا أسود؟ قال: لسيد الحي يا أصلع! قلت: ما أغضبك من الحق؟ قال لي: الحق أغضبك. قلت: أولست بأسود؟ قال: أَولست بأصلع.

ابن أسماء في سجن الكوفة:

أُدخل مالك بن أسماء السجن، سجن الكوفة؛ فجلس إليه رجل من بني مرة فاتكأ عليه المري يحدثه؛ ثم قال: أندري كم قتلنا منكم في الجاهلية؟ قال: أما في الجاهلية فلا، ولكن أعرف من قتلتم منا في الإسلام! قال: ومن قتلنا منكم في الإسلام! قال: أنا، قد قتلتَني بنتن إبْطيك!

نميرية في يوم ريح:

مرت امرأة من بني نمير على مجلس لهم في يوم ريح، فقال رجل منهم: إنها لرسحاء(١)! قالت: والله يا بني نمير ما أطعتم الله ولا أطعتم الشاعر؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُل لِلمؤْمنينَ يَغُضّوا من أبصارهِمْ﴾(٢). وقال الشاعر:

فغُضَّ الطَّرف إنَّك من نُمَيْرٍ

---

(١) الرسحاء: قليلة لحم العجز والفخذين.

(٢) سورة النور الآية ٣٠.

لشريح:

قيل لشريح: أيها أطيبُ: الجوْزنيق أم اللَّوزنيق[1] ؟ قال: لست أحكم على غائب.

هشام والفرزدق:

هشام بن القاسم قال: جمعني والفرزدق مجلس، فتجاهلت عليه فقلت: مَن الكهل؟ قال: وما تعرفني؟ قلت: لا! قال: أبو فراس. قلت: ومن أبو فراس قال: الفرزدق. قلت: ومن الفرزدق؟ قال: وما تعرف الفرزدق؟ قلت: لا أعرف الفرزدق إلا شيئاً يفعله النساء عندنا يتشهَّون به كهيئة السويق. قال: الحمد لله الذي جعلني في بطون نسائكم يتشهون بي!

هشام والأبرش الكلبي:

قال هشام بن عبد الملك للأبرش الكلبي: زوّجني امرأةً من كلب. فزوّجه؛ فقال له ذات يوم: لقد وجدنا في نساء كلب سَعة! قال: يا أمير المؤمنين، نساء كلب خُلقن لرجال كلب.

وقال له يوماً وهو يتغذى معه: يا أبرش، إن أكلك أكلّ معدِّي قال: هيهات، تأبى ذلك قضاعة.

عمارة وشيطان الطاق:

عمارة عن محمد بنْ أبي بكر البصري قال: لما مات جعفر بن محمد قال أبو حنيفة لشيطان الطاق: مات إمامُك. وذلك عند المهدي؛ فقال شيطان الطاق: لكن إمامك من المُنْظَرين إلى يوم الوقت المعلوم! فضحك المهدي من قوله، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

---

(١) الجوزنيق واللوزنيق: نوعان من الحلواء، يعمل أولها من الجوز وثانيهما بدهن اللوز.

نساء كندة:

العتبي قال: حدثني أبي لما افتتح النجير، وهي مدينة باليمن: سمع رجلٌ من كندة رجلاً وهو يقول: وجدنا في نساء كندة سَعة! فقال له: إن نساء كندة مكاحل فَقدت مَراودَها[1].

بن صفوان والفرزدق:

لقي خالد بن صفوان الفرزدق، وكان كثيراً ما يداعبه، وكان الفرزدق دميما؛ فقال له. يا أبا فراس، ما أنت بالذي ﴿لما رأيْنَهُ أكبْرنه وقطعْنَ أيديَهُنّ﴾[2] قال له: ولا أنت أبا صفوان بالذي قالت فيه الفتاة لأبيها: ﴿يا أبتِ آستأجِرْهُ إنّ خيْرَ من آستأجَرْتَ القويُّ الأمينُ﴾[3].

بين رجلين:

باع رجل ضيعة من رجل، فلما انتقد المال قال للمشتري: أما والله لقد أخذتها كثيرةَ المئونة قليلة المعونة. قال له المشتري: وأنت والله أخذتها بطيئة الاجتماع سريعة الافتراق!

واشترى رجل من رجل دارا، فقال لصاحبها: لو صبرت لاشتريت منك الذراع بعشرة دنانير! قال له البائع: وأنت لو صبرت لاشتريت منك الذراع بدرهم!

بقرة بني إسرائيل:

وكان بالرقة رجل يحدّث بأخبار بني إسرائيل، فقال له الحجاج بن حَنْتمة: كيف كان اسم بقرة بني إسرائيل؟ قال حنتمة! فقال له رجل من ولد أبي موسى الأشعري: أين وجدت هذا؟ قال: في كتاب عمرو بن العاص.

---

(١) المراود: جمع مرود، وهو الميل من الزجاج أو المعدن يكتحل به.

(٢) سورة يوسف الآية ٣١.

(٣) سورة القصص الآية ٢٦.

للشعبي:

وقال رجل للشعبي: ما كان اسمُ امرأةِ إبليس؟ قال: إن ذلك نكاحٌ ما شهدْناه!

ودخل رجل على الشعبي، فوجده قاعداً مع امرأة؛ فقال: أيكما الشعبي؟ قال الشعبي: هذه! وأشار إلى المرأة.

معن بن زائدة:

كان معن بن زائدة ظنيناً في دينه، فبعث إلى ابن عياش المنتوف بألف دينار وكتب إليه: قد بعثنا إليك بألف دينار، اشتريتُ بها منك دِينَك؛ فاقبض المال واكتب إليّ بالتسليم. فكتب إليه: قد قبضت المال وبعتك به دِيني خلا التوحيد لما علمت من زهدك فيه!

ابن أبي بردة والممرور:

بعث بلال بن أبي بردة إلى ابن أبي علقمة الممرور، فلما أتى قال: أتدري لم بعثت إليك؟ قال لا أدري. قال: بعثت إليك لأضحك بك! قيل: لقد ضحك أحد الحَكمين من صاحبه ـ يعرّض له بجده أبي موسى ـ فغضب بلال وأمر به إلى الحبس، فكلّمه الناس وقالوا: إن المجنون لا يعاقَب ولا يحاسب. فأمر بإطلاقه وأن يؤتى به إليه، فأُتي به في يوم سبت وفي كمه طرائف أُتحف بها في الحبس؛ فقال له بلال: ما هذا الذي في كمك؟ قال: من طرائف الحبس. قال: ناولني منها. قال: هو يوم سبت، ليس يُعطَى فيه ولا يؤخذ! يعرّض بعمة كانت له من اليهود.

حسان وعائشة:

دخل حسان بن ثابت على عائشة رضي الله عنها فأنشدها:

حَصـانٌ رَزَانٌ مـا تُـزنُّ بـريبَـةٍ   وتُصْبِحُ غرْثى مِنْ لُحومِ الغوافِـلِ (١)

---

(١) حصان رزان: اي عفيفة عاقلة، وما تزن بريبة أي ليست موضع شك. غرثى: جائعة.

قالت له: لكنك لست كذلك! وكان حسان من الذين جاءوا بالإفك.

ابن الأحوز وأزدي:

نظر رجل من الأزد إلى هلال بن الأحوز حين قدم من قندابيل وقد أطافت به بنو تميم، فقال: انظروا إليهم وقد أطافوا به إطافة الحواريين بعيسى. فقال له محمد بن عبد الملك المازني: هذا ضدٌّ: عيسى كان يحيي الموتى، وذا يميت الأحياء.

ربيعة وبعض النساء:

لما حُلقت لحية ربيعة بن أبي عبد الرحمن كانت امرأة من المسجد تقف عليه كل يوم في حلقته، وتقول: الله لك يا أبا عبد الرحمن! من حلق لحيتك؟ فلما أبرمتْه قال لها: يا هذه، إن ذلك حلقها في جزَّة واحدة، وأنت تحلقينها في كل يوم.

سعيد بن هشام وبعض الرجال:

خرج سعيد بن هشام بن عبد الملك يوماً بحمص في يوم مطر، عليه طيلسان وقد كاد يمس الأرض، فقال له رجل وهو لا يعرفه: أفسدتَ ثوبك أبا عبد الله! قال: وما يضرك؟ قال: وددتُ أنك وهو في النار! قال: وما ينفعك؟

الحجاج وابن ظبيان:

قال: لما قدم الحجاج العراق والياً عليها خرج عبيد الله بن زياد بن ظبيان متوكئاً على مولى له وقد ضربه الفالج، فقال قدم العراق رجل على دِيني. فقال له حصين بن المنذر الرقاشي: فهو إذاً منافق! قال عبيد الله: إنه يقتل المنافقين! قال له حصين: إذاً يقتلك.

خالد بن يزيد والحجاج:

ولما قدم عبد الملك بن مروان المدينة نزل دار مروان، فمر الحجاج بخالد بن يزيد بن معاوية وهو جالس في المسجد، وعلى الحجاج سيف محلى وهو يخطر متبختراً

في المسجد، فقال له رجل من قريش: من هذا التّخطارة؟ فقال خالد: بخ بخ! هذا عمرو بن العاص! فسمعه الحجاج، فمال إليه فقال: قلتَ: هذا عمرو بن العاص، والله ما سرني أن العاص ولدني ولا ولدته، ولكن إن شئت أخبرتك من أنا! أنا ابن الأشياخ من ثقيف، والعقائل من قريش، والذي ضرب مائة ألف بسيفه هذا كلهم يشهد على أبيك بالكفر وشرب الخمر، حتى أقروا أنه خليفة! ثم ولى وهو يقول: هذا عمرو بن العاص.

وهب بن منبه ولهبي:

قال رجل من بني أبي لهب لوهب بن مُنّبه: ممن الرجل؟ قال: رجل من اليمن. قال: فما فعلتْ أمكم بلقيس؟ قال: هاجرت مع سليمان لله رب العالمين، وأمكم حمالة الحطب في جيدها حبل من مسَد(١)!

وقال رجل لابن شُبرمة: مِنْ عِندنا خرج العلم إليكم. قال: نعم، ثم لم يرجع إليكم.

يزيد بن منصور وابن مزيد:

نظر يزيد بن منصور خال المهدي إلى يزيد بن مزيد وعليه رداء يمان وهو يسحبه، فقال: ليس عليك عزلُه، فاسحبْ وجُرَّ! قال له: على آبائك عزلُه وعليّ سحبه! فشكاه إلى المهدي، فقال: لم تجد أحداً تتعرض له إلا يزيد بن مزيد!

أبو يقظان وابن حاتم:

دخل أبو يقظان القيسي على يزيد بن حاتم وهو والي مصر وعنده هاشم بن حُديج، فقال له يزيد: حرِّكه! وعلي أبي اليقظان حلّة وشي وكساء خز، فقال له هشام: الحمد لله أبا اليقظان، لبستم الوشى بعد العباء! قال: أجل، تحوكون ونلبس، فلا عدمتم هذا منا، ولا عدمنا هذا منكم.

---

(١) المسد: الحبل المحكم الفتل.

الفرزدق وعبد الجبار:

كتب الفرزدق إلى عبد الجبار بن سَلمى المَجاشعي يستهديه جارية وهو بعمان فكتب إليه:

كتبْـــتَ إليّ تسْتَهـــدِي الجواري   لقــد أنعظْـتَ مـن بلَـدٍ بعِيـد[1] !

وقال رجل من العرب: رأيتُ البارحةَ الجنة في منامي، فرأيت جميع ما فيها من القصور، فقلت: لمن هذه؟ فقيل لي: للعرب! قال له رجل من الموالي: أصَعِدتَ الغُرف؟ قال: لا. قال: تلك لنا.

ابن صفوان وابن جعفر:

قال عبد الله بن صفوان - وكان أمِّياً - لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب أبا جعفر، لقد صرتَ حجةً لفتياننا علينا؛ إذا نهيناهم عن الملاهي قالوا: هذا ابن جعفر سيد بني هاشم يحضرها ويتخذها! قال له: وأنت أبا صفوان صرتَ حجة لصبياننا علينا؛ إذا لُمناهم في ترك المكتب قالوا: هذا أبو صفوان سيد بني جمح لا يقرأ آية ولا يخطّها.

معاوية وابن عامر:

قال معاوية لعبد الله بن عامر. إن لي إليك حاجة! قال بحاجةٍ أقضيها يا أمير المؤمنين؛ فسل حاجتك. قال: أريد أن تهب لي دورك وضياعك بالطائف. قال: قد فعلت! قال: وصَلَتْكَ رحِم! فسَلْ حاجتك. قال: حاجتي إليك أن تردّها عليّ يا أمير المؤمنين! قال: قد فعلت!

ثمامة وبعض الرجال:

وقال رجل لثمامة بن أشرس: إن لي إليك حاجة! قال: وأنا لي إليك حاجة. قال:

---

(١) أنعظتَ: اشتهيت ان تجامع.

وما حاجتك؟ قال: فتقضيها؟ قال: نعم. فلما توثق منه قال: فإن حاجتي إليك أن لا تسألني حاجة.

جواب في فخر

عمرو بن سعيد وخالد بن يزيد في حضرة عبد الملك:

سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: تفاخر عمرو بن سعيد بن العاص وخالد بن يزيد بن معاوية، عند عبد الملك بن مروان؛ فقال عبد الملك لشيخ من موالي قريش: آقض بينهما. فقال الشيخ: كان سعيد بن العاص لا يعتمُّ أحد في البلد الحرام بلون عمامته؛ وكان حرب بن أمية لا يُبكى على أحد من بني أمية ما كان في البلد شاهداً؛ فلما مات سعيدٌ وحربٌ شاهد لم يُبْكَ عليه.

الأبرش وخالد ابن صفوان:

قال الأبرش الكلبي لخالد بن صفوان: هلم أفاخرك - وهما عند هشام بن عبد الملك - قال له خالد: قل. فقال له الأبرش: لنا رُبع البيت - يريد الركن اليماني - ومنا حاتم طيء، ومنا المهلب بن أبي صفرة! فقال خالد بن صفوان: منا النبي المرسَل، وفينا الكتاب المُنْزَل، ولنا الخليفة المؤمَّل! قال الأبرش: لا فاخرتُ مُضَرِيّاً بعدك.

هشام وقوم من اليمن:

ونزل بأبي العباس قوم من اليمن من أخواله من كعب، ففخروا عنده بقديمهم وحديثهم؛ فقال أبو العباس لخالد بن صفوان: أجب القوم. فقال: أخوال أمير المؤمنين. قال لا بد أن تقول. قال: وما أقول يا أمير المؤمنين، وما أقول لقوم هم بين حائك بُرْد، ودابغ جلد، وسائس قرد؛ ملكتهم امرأة، ودل عليهم هدهد، وغرقتهم فأرة؟

فلم يقم بعدها ليمانيٍّ قائمة.

الحجاج وعبد الملك:

قال عبد الملك بن الحجاج: لو كان رجل من ذهب لكنته. قال له رجل من قريش وكيف ذلك؟ قال: لم تلدني أمة بيني وبين آدم ما خلا هاجَر. فقال له: لولا هاجر لكنت كلباً من الكلاب.

دخل عمر بن عُبيد الله بن مَعْمر على عبد الملك بن مروان، وعليه حِبَرة[1] صَدْآء عليها أثر الحمائل، فقال له أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد: يا أبا حفص، أيُّ رجلٍ أنت لو كنت من غير من أنت منه من قريش! قال: ما أحب أني مِن غير مَن أنا منه! إن منا لسيدَ الناس في الجاهلية، عبد الله بن جدعان؛ وسيد الناس في الإسلام، أبا بكر الصديق؛ وما كانت هذه يدي عندك. إني استنقذت أمهات أولادك من عدوك ابن فديك بالبحرين وهن حبالى، فولدن في حجابك.

عبد الرحمن بن خالد ومعاوية:

قال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بن المغيرة لمعاوية: أما والله لو كنا بمكة على السواء لعلمت. قال معاوية: إذاً كنت أكون معاوية بن أبي سفيان، منزلي الأبطح[2] ينشق عني سَيْلُه؛ وكنت عبد الرحمن بن خالد، منزلك أجياد[3] أعلاه مَدَرة[4]، وأسفله عذرة .

لزبير وعثمان:

تنازع الزُّبير بن العوام وعثمان بن عفان في بعض الأمر؛ فقال الزبير: أنا ابن صفية. قال عثمان: هي أدْنتك من الظل، ولولا ذاك لكنت ضاحياً .

حمد بن يوسف وابن الفضل:

قال أحمد بن يوسف الكاتب لمحمد بن الفضل: يا هذا، إنك تتطاول بهاشم كأنك

(١) حِبَرَة: ثوب من قطن أو كتان مخطط كان يصنع باليمن. (٢) الأبطح: كل مسيل فيه دقاق الحصا.
(٣) أجياد: موضع بمكة يلي الصفا. (٤) مدرة: القرية المبنية بالطين واللبن.

جمعتَها، وهي تعتدّ في أكثر من خمسة آلاف. قال له: محمد بن الفضل: إن كثرة عددها ليس يُخرج من عنقك فضْل واحدها.

زياد ومعاوية:

فخر مولى زياد بزياد عند معاوية؛ فقال له معاوية: اسكت، فوالله ما أدرك صاحبُك شيئاً بسيفه إلا أدركت أكثر منه بلساني.

الأحوص ومخزومي:

وقال رجل من مخزوم للأحوص بن عبد الله الأنصاري: أتعرف الذي يقول:

ذهَبَت قريشٌ بالمكارِم كلِّها　　والذلُّ تحت عمائمِ الأنصارِ؟

قال: لا، ولكني أعرف الذي يقول:

الناسُ كنَّوْهُ أباحكَمٍ　　واللهُ كنَّاهُ أبا جهْلِ

أبقَتْ رياستُه لأسْرتِه　　لَؤْمَ الفروعِ ورِقَّة الأصلِ

قريش وقيس:

سأل رجل من قريش رجلاً من بني قيس بن ثعلبة: ممن أنت؟ قال: من ربيعة. قال له القرشي: لا أثر لكم ببطحاء مكة. قال القيسي: آثارنا في أكناف الجزيرة مشهورة، ومواقفنا في يوم ذي قار معروفة؛ فأما مكة فسواءٌ العاكفُ فيه والباد كما قال الله تبارك وتعالى. فأفحمه.

الأشعث وشريح:

قال الأشعث بن قيس لشريح القاضي: لَشَدّ ما ارتفعت. قال: فهل ضرّك؟ قال: لا. قال: فأراك تعرف نعمة الله على غيرك وتجهلها على نفسك.

سليمان ويزيد ابن المهلب:

قال سليمان بن عبد الملك ليزيد بن المهلب: فيمن العزُّ بالبصرة؟ قال: فينا وفي

أحلافنا من ربيعة. قال له سليمان بن عبد الملك: الذي تحالفتما عليه أعز منكما.

عتبة وأعرابي:

قدم أعرابي البصرة فدخل المسجد الجامع وعليه خُلْقانٌ وعمامة قد كوّرها على رأسه، فرمي بطرْفه يمنة ويسرة، فلم ير فتية أحسن وجوهاً ولا أظهر زياً من فتية حضروا حلقة عتبة المخزومي فدنا منهم وفي الحلقة فرجة فطبقها[1]؛ فقال له عتبة: ممن أنت يا أعرابي؟ قال: من مذحج. قال: من زيدها الأكرمين، أو من مرادها الأطيبين؟ قال لست من زيدها ولا من مرادها. قال: فمن أيها؟ قال: فإني من حماة أعراضها، وزهرة رياضها، بني زبيد. قال: فأفحم عتبة حتى وضع قلنسوته عن رأسه، وكان أصلع؛ فقال له الأعرابي: فأنت يا أصلع، ممن أنت؟ قال: أنا رجل من قريش. قال: فمن بيت نُبُوَّتها، أو من بيت مملكتها؟ قال: إني من ريحانتها بني مخزوم. قال: والله لو تدري لِمَ سُمِّيَت بنو مخزوم ريحانة قريش، ما فخرْت بها أبداً؛ إنما سمَيت ريحانة قريش لِخَور[2] رجالها ولين نسائها! قال عتبة: والله لا نازعت أعرابياً بعدك أبداً.

فيروز ونميلة:

وضع فيروز بن حُصين يده على رأس نميلة بن مالك بن أبي عكابة عند زياد، فقال: من هذا العبد؟ قال: أنت والله العبد؛ ضربناك فما انتصرت، ومننّا عليك فما شَكَرْت.

مالك بن مسمع وابن ظبيان:

اجتمعت بكر بن وائل إلى مالك بن مسمع لأمر أراده مالك؛ فأرسل إلى بكر بن وائل، وأرسل إلى عبيد الله زياد بن ظبيان؛ فأتى عبيد الله فقال: يا أبا مِسْمع، ما

---

(١) طبقها: أي سدها وغطاها. (٢) الخور: الضعف.

منعك أن ترسل إليّ؟ قال: يا أبا مطر، ما في كنانتي سهم أنا أوثق به مني بك. قال: وإني لفي كنانتك؟ أما والله لئن كنت فيها قائماً لأطُولنَّها، ولئن كنت فيها قاعداً لأخرقنّها.

ابن مسمع وشقيق:

نازع مالك بن مِسْمع شقيق بن ثور، فقال له مالك: إنما شَرَّفَك قبرٌ بِتُسْتَر. قال شقيق: لكن وضعك قبر بالمُشَقر. وذلك أن مسمعا أبا مالك جاء إلى قوم بالمشقر، فنبحه كلبهم، فقتله، فقتلوه به؛ فكان يقال له: قتيل الكلاب، وأراد مالك قبر مجزءة بن ثور أخي شقيق، وكان استشهد بتُستر مع أبي موسى الأشعري.

قتيبة بن مسلم وهبيرة:

قال قتيبة بن مسلم لهبيرة بن مسروح: أيُّ رجل أنت لو كانت أخوالك من غير سلول. فبادلْ بهم. قال: أصلح الله الأمير، بادلْ بهم من شئت وجنِّبني باهلة. وكان قتيبة من باهلة.

جواب ابن أبي دؤاد

ابن أبي دؤاد وابن الزيات:

قال أحمد بن أبي دؤاد لمحمد بن عبد الملك الزيات عند الواثق: أضوى، أي اسكت، بالنبطية؛ فقال له: لماذا؟ والله ما أنا بنبطي، ولا بدعي. قال له: ليس فوقك أحد يفْضُلك، ولا دونك أحد تنزل إليه؛ فأنت مطَّرَح في الحالتين جميعاً.

هو وأشناس:

دخل أحمد بن أبي دواد على أشناس، فقال له: بلغني أنك فاسدت هذا الرجل يعني محمد بن عبد الملك، وهو لنا صديق؛ فأحب أن لا يأتينا. قال له ابن أبي داود أنت رجل صنعتك هذه الدولة، فإن أتيناك فلها، وإن تركناك فلنفسك.

هو والواثق:

قال أحمد بن أبي داود: دخلت على الواثق؛ فقال: ما زال قوم اليوم في ثَلْبك ونقصك. فقلت: يا أمير المؤمنين ﴿لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾(١)؛ فالله ولي جزائه، وعقاب أمير المؤمنين من ورائه؛ وما ضاع امرؤ أنت حائطه، ولا ذلَّ من كنت ناصره؛ فماذا قلت لهم يا أمير المؤمنين؟ قال أبا عبد الله:

وسعى إليَّ بعيْب عَزَّةَ نسْوة جعل المليكُ خُدودهُنّ نعالَها

هو وأبو العيناء:

وقال أبو العيناء الهاشمي: قلت لابن أبي دواد: إن قوماً تضافروا عليّ. قال: ﴿يدُ الله فوْق أيديهم﴾(٢) قلت إنهم جماعة. قال: ﴿كَمْ منْ فئَة قَليلة غلَبتْ فئةً كثيرة بإذْن اللهِ، واللهُ مع الصَّابرين﴾(٣) قلت: إن لهم مكراً. قال: ﴿ولا يَحيقُ المكْرُ السَّيِّءُ إلاَّ بأهْلِه﴾(٤) قال أبو العيناء: فحدثت به أحمد بن يوسف الكاتب، فقال: ما يرى ابن أبي دواد إلا أن القرآن إنما أُنْزِل عليه.

جواب في تفحش

خالد القسري وبدوي:

خطب خالد بن عبد الله القسري فقال: يا أهل البادية، ما أخشن بلدكم، وأغلظ معاشكم، وأجفى أخلاقكم؛ لا تشهدون جُمُعة، ولا تجالسون عالماً. فقام إليه رجل منهم دميم، فقال: أمّا ما ذكرت من خشونة بلدنا وغِلَظ طعامنا فهو كذلك، ولكنكم معشر أهل الحضر فيكم ثلاث خصال هي شر من كل ما ذكرت. قال له خالد: وما هي؟ قال: تنْقُبُون الدُّور، وتنْبشُون القبور، وتنكحون الذُّكور! قال: قبحك الله

---

(١) سورة النور الآية ١١. (٢) سورة الفتح الآية ١٠.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٤٩. (٤) سورة فاطر الآية ٤٣.

وقبح ما جئت به!

موسى بن مصعب وامرأة:

أبو الحسن قال: أتى موسى بن مصعب منزل امرأة مدنية لها قينة تعرضها؛ فإذا امرأة جميلة لها هيئة؛ فنظر إلى رجل دميم يجيء ويذهب ويأمر وينهى في الدار؛ فقال لها: من هذا الرجل؟ قالت: هو زوجي! قال: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾[1] أما وجَدْتِ من الرجال غير هذا وبك من الجمال ما أرى؟ قالت: والله يا أبا عبد الله، لو استدبرك بمثل ما يستقبلني به لعظُمَ في عينك.

بنت الملاءة ورائض خيل:

أبو الحسن قال: قالت عاتكة بنت المُلاءة لرائض دواب زوجها في طريق مكة: ما وجدت عملاً شرّاً من عملك؛ إنما كسْبك باستك! فقال لها! جعلتُ فداك! ما بين ما أكتسب به وما تكتسبين به أنت إلا إصبعان! قالت: ويلي عليك! خذوا الخبيث. فطلبه حشمها؛ ففاتهم ركضاً.

يونس النحوي وأزدي:

أبو الحسن قال: قال رجل من الأزد في مجلس يونس النحوي؛ وددت والله أن بني تميم جميعاً في جوفي؛ على أن يُضرب وسطي بالسيف! قال له شيخ في ناحية المجلس، حِرمازي[2] من بني تميم: ما هذا، يكفيك من ذاك كمرة[3] حمارية تملأ بها استك إلى لهاتك!

بين أعرابيين:

وسأل أعرابي شيخاً من بني مروان وحوله قوم جلوس فقال: أصابتنا سَنَة ولي

---

(١) سورة البقرة الآية ١٥٦. (٢) الحرماز: حي من تميم، وهو من الحرمزة، وهي الذكاء.
(٣) الكمرة: راس الذكر.

بضعَ عشرةَ بنتاً! فقال الشيخ: أما السنة فوددت والله أن بينكم وبين السماء صفيحة من حديد؛ وأما البنات فليت الله أضعفهن لك أضعافاً كثيرة، وجعلك بينهن مقطوع اليدين والرجلين ليس لهن كاسب غيرك! قال: فنظر الأعرابي ملياً ثم قال: ما أدرى ما أقول لك، ولكني أراك قبيح المنظر، لئيم المخبر؛ فأعضَّك الله ببظور أمهات هؤلاء الجلوس حولك.

وسأل أعرابيٌّ شيخاً من الطائف وشكا إليه سنة أصابته، فقال: وددت والله أن الأرض حصّاء لا تنبت شيئاً! قال: ذلك أيبس لِجَعْر أمك في استِها.

قال: عبيد الله بن زياد بن ظبيان لزُرعة بن ضمرة الضمري: إني لو أدركتك يوم الأهواز لقطعت منك طابقاً[1] شحماً، قال: أفلا أدلك على طابق شحيم هو أولى بالقطع؟ قال: بلى! قال: البظر الذي بين إسْكَتَيْ أمك!

قال عبد الله بن الزبير لعدي بن حاتم: متى فقئت عينك؟ قال يوم طعنتُك في استك وأنت مُوَلٍّ.

وقال الفرزدق: ما عييتُ بجواب أحدٍ قطّ ما عييت بجواب امرأة وصبي ونبطي؛ فأما المرأة فإني ذهبت ببغلتي أسقيها في النهر، فإذا معشر نسوة، فلما همزْت البغلة حبَقت[2]؛ فاستضحك النسوة، فقلت لهن: ما أضحككن؟ فوالله ما حملتني أنثى قط إلا فعلتْ مثلها! فقالت امرأة منهن: فكيف كان ضراط أمك مقبرة، فقد حملتك في بطنها تسعة أشهر! فما وجدتُ لها جواباً. وأما الصبي، فإني كنت أنشد بجامع البصرة، وفي حلقتي الكميت بن زيد وهو صبي، فأعجبني حسن استماعه، فقلت له: كيف سمعت يا بُنَيَّ؟ قال لي: حسن! قلت: فسرَّك أني أبوك؟ قال: أما أبي فلا أريد به بديلاً، ولكن وددت أن تكون أمي! قلت: استرها عليّ يا ابن أخي، فما لقيت مثلها وأما النبطي، فإني لقيت نبطياً بيثرب، فقال لي: أنت الفرزدق؟ قلت:

---

(١) الطابق: العضو.
(٢) حبقت: أخرجت ريح الحدث.

نعم. قال أنت الذي يخاف الناس لسانك؟ قلت: نعم. قال: فأنت الذي إذا هجوتني يموت فرسي هذا؟ قلت: لا. قال: فيموت ولدي؟ قلت: لا. قال: فأموت أنا؟ قلت: لا. قال: فأدخلني الله في حِرِ آم الفرزدق، من رجلي إلى عنقي! قلت: ويلك! ولم تركت رأسك؟ قال: حتى أرى ما تصنع الزانية!

بين جرير والفرزدق:

ولقي جرير الفرزدق بالكوفة، فقال أبا فراس: تحتمل عني مسألة؟ قال: أحتملُها بمسألة. قال: نعم. قال: فسل عما بدا لك. قال: أي شيء أحب إليك يتقدمُك الخيرُ أو تتقدمُه؟ قال: لا يتقدمني ولا أتقدمه، ولكن أكون معه في قران. قال: هات مسألتك. قال له الفرزدق: أي شيء أحبُّ إليك إذا دخلت على امرأتك: أن تجد يدها على أير رجل أو يدَ رجل على حِرِها قال: قاتلك الله! ما أقبح كلامك وأرذل لسانك.

الفرزدق ومسجد الأحامرة:

أبو الحسن قال: مر الفرزدق يوماً بمسجد الأحامرة وفيه جماعة فيهم أبو المزرد الحنفي، فقال له الفرزدق: يا أخا بني حنيفة، ما شيء لم يكن، ولا يكون ولو كان لا يستقيم؟ قال: لا أدري! قال: يا أبا المزرد، إنه سفيه؛ فإن لم تغضب أخبرتُك. قال: فإني لا أغضب. فقال: حِرِ آمك: لم تكن له أسنان، ولا تكون، ولو كان لم يستقم!

الفرزدق وابن عفراء:

أبو الحسن قال: لقي الفرزدق عمرو بن عفراء، فعاتبه في شيء بلغه عنه؛ فقال له ابن عفراء وهو بالمربد: ما شيءٌ أحبُّ إليَّ من أن آتي كلَّ شيء تكرهه! قال له الفرزدق: بالله إنك تأتي كل شيء أكرهه؟ قال: نعم! قال: فإني أكره أن تأتي أمك فأْتها.

بين الجماز وضيف:

ضاف[1] رجلٌ قبيح الوجه دنيّ الحسب، أبا عبد الله الجمّاز؛ فجعل يفخر ببيته؛ فقال له الجماز: اسكت، فقباحةُ وجهك، ودناءةُ لفظك، يمنعاننا من سبّك! فأبى إلا التمادي في اللجاج؛ فقال له الجماز:

لو كنتَ ذا عِـرْضٍ هَجَـوْنـاكـا   أو حَسَـنَ الوجـهِ لنِكْنـاكـا
جَمَعْـت مـع قُبحِـكَ لـؤمـا فِلْلـ   ـقُبْـحِ أو اللُّـؤمِ تـركْنـاك!

---

(١) ضافه: نزل به ضيفاً .

كتاب الواسطة في الخطب

فرش الكتاب

قال أبو عُمر أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في الأجوبة وتباين الناس فيها بقدر عقولهم، ومبلغ فطنهم، وحضور أذهانهم؛ ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الخطب التي يتخير لها الكلام، وتفاخرت بها العرب في مشاهدهم، ونطقت بها الأئمة على منابرهم، وشهرت بها في مواسمهم، وقامت بها على رءوس خلفائهم؛ وتباهت بها في أعيادهم ومساجدهم. ووصلتها بصلواتهم، وخوطب بها العوام، واستجزلت لها الألفاظ، وتخيرت لها المعاني.

اعلم أن جميع الخطب على ضربين: منها الطوال، ومنها القصار؛ ولكل ذلك موضع يليق به، ومكان يحسن فيه؛ فأول ما نبدأ به من ذلك خطب النبي ﷺ، ثم السلف المتقدمين، ثم الجلة من التابعين والجلة من الخلفاء الماضين والفصحاء المتكلمين، على ما سقط إلينا ووقع عليه اختيارنا؛ ثم نذكر بعض خطب الخوارج؛ لجزالة ألفاظهم، وبلاغة منطقهم، كخطبة قطري بن الفجاءة في ذم الدنيا؛ فإنها معدومة النظير، منقطعة القرين؛ وخطبةِ أبي حمزة التي سمعها مالك بن أنس فقال: خطبنا أبو حمزة بالمدينة خطبة شكك فيها المستبصر، وردّد فيها المرتاب، ثم نسمح بصدر من خطب البادية وقول الأعراب خاصة؛ لمعرفتهم بداء الكلام ودوائه، وموارده ومصادره.

عبد الملك وابن سلمة:

قال عبد الملك بن مروان لخالد بن سلمة القرشي المخزومي: من أخطب الناس؟

قال: أنا! قال: ثم من؟ قال: شيخ جذام. يعني روح بن زنباع، قال: ثم من؟ قال: أُخَيِّفِش ثقيف. يعني الحجاج، قال: ثم من؟ قال: أمير المؤمنين!

لمعاوية في زياد:

وقال معاوية لما خطب الناس عنده فأكثروا: والله لأرْمينَّكم بالخطيب المِصْقع. قم يا زياد!

لأبي دواد:

وقال محمد كاتب المهدي ـ وكان شاعراً راوية، وطالباً للنحو علامة ـ قال: سمعت أبا دواد يقول ـ وجرى شيء من ذكر الخطب وتحبير الكلام ـ فقال: تلخيص المعاني رفق، والاستعانة بالغريب عجز، والتشادق في غير أهل البادية نقص، والنظر في عيوب الناس عِيّ، ومسح اللحية هُلْك، والخروج عما بُني عليه الكلام إسهاب.

قال: وسمعته يقول: رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدرْبة، وحَليها الإعراب. وبهاؤها تخيُّر اللفظ. والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه.

وأنشدني بيتاً له في خطباء إياد.

يَرمون بالخُطب الطوال وتارةً ... وحْيَ الملاحِظ خِيفة الرُّقباء

وأنشدني في عيّ الخطيب واستعانته بمسح العثنون وفتل الأصابع:

ملِيء ببُهْر والْتفاتٍ وسُعْلةٍ ... ومسْحةِ عُثْنونٍ وفتْل الأصابعِ[1]

بشر بن المعتمر وابن جبلة:

مرّ بشر بن المعتمر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني الخطيب، وهو يعلم فتيانهم الخطابة؛ فوقف بشر يستمع، فظنّ إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد، أو يكون رجلا من النظارة؛ فقال بشر: اَضربوا عما قال صفحا، واَطووا عنه كشحا. ثم دفع إليهم صحيفة من تنميقه وتحبيره، فيها:

---

(١) العثنون: ما نبت على الذقن وتحته سفلاً.

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتِها إياك، فإنّ قليل تلك الساعة أكرم جوهرا، وأشرف حسبا، وأحسن في الاستماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عينٍ من لفظ شريف، ومعنى بديع؛ واعلم أنّ ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومُك الأطول بالكدّ والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصداً، وخفيفا على اللسان سهلا، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه؛ وإياك والتوعُّر، فإنّ التوعر يُسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك. ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإنّ حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما، وترهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما؛ فكن في ثلاثة منازل: فأوّل ذلك أن يكون لفظك رشيقاً عذبا، أو فخما سهلا؛ ويكون معناك ظاهراً مكشوفا، وقريباً معروفا، إمّا عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإمّا عند العامّة إن كنت للعامّة أردت؛ والمعنى ليس يَشرفُ بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتَّضع بأن يكون من معاني العامّة؛ وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال؛ وكذلك اللفظ العامي والخاصي؛ فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة لفظك، ولطف مداخلك، وقدرتك في نفسك ـ أن تُفهم العامّة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ المتوسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام.

فقال له إبراهيم بن جبلة: جُعلتُ فداك، أنا أحوج إلى تعلمي هذا الكلام من هؤلاء الغلْمة.

خطبة رسول الله ﷺ
في حجة الوداع

إنّ الحمد لله، نَحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهدِ الله فلا مضلَّ له، ومن يضللّ فلا هاديَ له،

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، و[أشهد] أن محمداً عبده ورسوله.

أُوصيكم عباد الله، بتقوى الله، وأَحُثْكم على طاعة الله، وأَستفتح بالذي هو خير.

أمّا بعد: أيها الناس، اسمعوا مني أُبيِّن لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا! أيها الناس: إن دماءَكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوْا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلغت، اللهم آشهد!

فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى الذي آئتمنه عليها؛ وإن ربا الجاهلية موضوع[1]، وإنّ أوّل ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب؛ وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السّدانة والسّقاية، والعمد قَوَد[2]، وشِبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس، إنّ الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضِي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تَحقِرون من أعمالكم.

أيها الناس، إنما النَّسيءُ[3] زيادة في الكفر يُضلُّ به الذين كفروا يُحلّونَه عاماً ويحرّمونه عاما ليُواطِئوا عِدّةَ ما حرّم الله. وإنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعةٌ حُرُم، ثلاثة متواليات، وواحد فرد: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت، اللهم آشهد!

---

(١) موضوع: يقال: وضع عنه الدين أي أسقطه عنه.

(٢) القود: القصاص، أي من قتل عمداً يقتل. (٣) النسيء: تأخير حرمة المحرم إلى صفر أيام الجاهلية.

أيها الناس، إنّ لنسائِكم عليكم حقا، وإنّ لكم عليهنّ حقا: لكم عليهنّ أن لا يُوطِئنَ فرُشكم غيركم، ولا يُدخلْن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة؛ فإن فعلن فإنّ الله قد أذن لكم أن تعضُلوهن[1] وتهجروهنّ في المضاجع وتضربوهنّ ضرباً غير مبرِّح؛ فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهنّ وكسوتهن بالمعروف؛ وإنما النساء عندكم عَوَانٍ لا يملكن لأنفسهنّ شيئا، أخذتموهنّ بأمانة الله، وآستحللتم فروجهنّ بكلمة الله؛ فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهنّ خيرا [ألا هل بلّغت، اللهم اشهد!].

أيها الناس؛ إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لآمريءٍ مال أخيه إلا عن طيب نفسه. ألا هل بلغت، اللهم اشهد! فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض؛ فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلّوا [بعده] كتاب الله وأهل بيتي، ألا هل بلغت اللهم آشهد.

أيها الناس، إنّ ربّكم واحد، وإنّ أباكم واحد؛ كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم؛ ليس لعربيّ على عجمي فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إنّ الله قسَم لكل وارث نصيبه من الميراث؛ ولا يجوز لوارث وصية في أكثر من الثّلث؛ والولد للفراش وللعاهر الحجر[2]؛ من دُعيَ إلى غير أبيه، أو تولّى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صَرفا ولا عدلا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

خطب أبي بكر

وخطب أبو بكر يوم السقيفة: أراد عمرُ الكلام، فقال له أبو بكر: على رِسْلِك.

---

(١) تعضلوهن: يقال: عضل المرأة أي منع التزوج ظلماً.

(٢) الحجر: أي الخيبة؛ يعني أن الولد لصاحب الفراش من السيد أو الزوج، وللزاني الخيبة والحرمان.

ثم حِمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أيها الناس، نحن المهاجرون، أول الناس إسلاما، وأكرمهم أحسابا، وأوسطهم دارا، وأحسنهم وجوها، وأكثر الناس ولادةً في العرب، وأمسّهم رحِما برسول الله ﷺ؛ أسلْمنا قبلكم، وقدِّمْنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: ﴿والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار والذين آتّبعوهم بإحسانٍ﴾[1]؛ فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الفيء، وأنصارنا على العدوّ؛ آويتم ووا سيتم،فجزاكم الله خيرا، فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء، لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش، فلا تنْفَسُوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله.

وخطب أيضاً .حمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أيها الناس، إني قد وُلّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حقٍّفأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني؛ أطيعوني ما أطعتُ الله فيكم، فإذا عصيتُه فلا طاعة لي عليكم. ألا إنّ أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفَكم عندي القويُّ حتى آخذَ الحق منه! أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

وخطب أخرى. فلما حمد الله بما هو أهله، وصلى على نبيه عليه الصلاة والسلام، قال:

إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك!

فرفع الناسُ رُءوسَهم، فقال:

ما لكم أيها الناس؟ إنكم لطعانون عَجلون، إن من الملوك من إذا مَلك زَهّده الله فيما بيده، ورَغّبه فيما بيد غيره، وانتقصه شطرَ أجله، وأشربَ قلبه الإشفاق، فهو يحسد على القليل، ويسخط على الكثير، ويسأم الرخاء وتنقطع عنده لذة البهاء، لا

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٠.

يستعمل العبرة، ولا يسكن إلى الثقة، فهو كالدرهم القَسِيِّ[١] والسراب الخادع، جذِل الظاهر، حزين الباطن، فإذا وجبت نفسهُ، ونصب عُمرُه، وضحا ظله، حاسبه الله، فأشدّ حسابَه، وأقلّ عفوَه. ألا وإن الفقراء هم المرحومون! ألا إن من آمن بالله حكم بكتابه وسُنَّة نبيه ﷺ وإنكم اليوم على خلافة نبوة، ومفرق محجة، وسترون بعدي مُلكا عضوضا،[٢] ومَلكا عَنودا، وأمة شعاعا، ودما مباحا؛ فإن كانت للباطل نزوة، ولأهل الحق جولة، يعفو لها الأثر، ويموت لها الخبر، فالزموا المساجد، واستشيروا القرآن واعتصموا بالطاعة، وليكن الإبرام بعد التشاور، والصفقة بعد طول التناظر، أي بلاد خَرْشَنَة[٣] إن الله سيفتح لكم أقصاها كما فتح عليكم أدناها.

وخطب أيضا فقال:

الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأستغفره وأومن به، وأتوكل عليه وأستهدي الله بالهدى، وأعوذ به من الضلالة والردى، ومن الشك والعمى؛ من يهد الله فهو المهتدي، ومن يُضلل فلن تجد له وليا مرشداً؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، يعزّ من يشاء ويُذِلّ من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق لِيُظهره على الدين كله ولو كره المشركون - إلى الناس كافة، رحمةً لهم وحجة عليهم، والناس حينئذ على شر حال في ظلمات الجاهلية، دينُهم بِدعة، ودعوتُهم فرية، فأعز الله الدين بمحمد ﷺ، وألف بين قلوبكم أيها المؤمنون، فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم عى شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون؛ فأطيعوا الله ورسوله، فإنه قال عز وجل: ﴿من يُطع الرسول فقد أطاع الله، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا﴾[٤].

أما بعد أيها الناس: إني أوصيكم بتقوى الله العظيم في كل أمر وعلى كل حال

---

(١) القسي: الرديء الزائف.

(٢) عضوض: فيه استبداد وعسف.

(٣) خرشنة: يريد بلاد الروم.

(٤) سورة النساء الآية ٨٠.

ولزومِ الحق فيما أحببتم وكرهتم؛ فإنه ليس فيما دون الصدق من الحديث خير، من يكْذِب يفْجُر، ومن يفْجُر يهلِك، وإياكم والفخرَ؛ وما فَخْرُ مَن خُلِقَ من تراب وإلى التراب يعود، هو اليومَ حي وغداً مَيِّتٌ! فاعلموا وعُدُّوا أنفسكم في الموتى، وما أشْكَلَ عليكم فرُدُّوا عِلْمَهُ إلى الله، وقدّموا لأنفسكم خيراً تجدوه مُحضَراً، فإنه قال عز وجل: ﴿يومَ تَجدُ كل نفسٍ ما عمِلَتْ من خَيْرٍ مُحضَراً وما عَمِلتْ من سُوءٍ تَوَدُّ لو أنّ بيْنَها وبيْنَهُ أَمَداً بعيدا، ويُحذِّرُكم الله نفسَهْ، والله رءُوفٌ بالعبادِ﴾ (١) فاتقوا الله عبادَ الله وراقبوه، واعتبروا بمن مضى قبلكم، واعلموا أنه لا بدّ من لقاء ربكم والجزاءِ بأعمالكم، صغيرِها وكبيرِها، إلا ما غفر الله، إنه غفورٌ رحيم، فأنفسَكم أنفسَكم والمستعانُ الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله ﴿إنّ الله وملائِكتَه يُصَلونَ على النبيِّ، يا أيُّها الذينَ آمنوا صَلُّوا عليهِ وسَلِّمُوا تسْليما﴾ (٢) اللهم صل على محمد عبدك ورسولك، أفضل ما صليتَ على أحدٍ من خلقك؛ وزكّنا بالصلاة عليه، وألحقنا به، واحشرنا في زمرته، وأوردْنا حَوضه اللهم أعِنَّا على طاعتك، وانصرنا على عدوّك.

وخطب أيضا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أُوصيكم بتقوى الله، وأن تُثنوا عليه بما هو أهله، وأن تَخْلطُوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة؛ فإن الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته، فقال: ﴿إنَّهم كانوا يُسارعُونَ في الخيْرَاتِ ويدعُوننا رَغباً ورهَباً وكانوا لنا خاشِعين﴾ (٣) ثم اعلموا عباد الله أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم، وأخذ على ذلك مواثيقَكم، وعوّضكم بالقليل الفاني الكثيرَ الباقي، وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبُه، ولا يُطفأ نورهُ، فثِقُوا بقوله، وانتَصِحوا كتابه واستبصروا فيه ليوم الظلمة، فإنه خلقكم لعبادته، ووَكل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون. ثم اعلموا عباد الله أنكم

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠ . (٢) سورة الأحزاب الآية ٥٦ .

(٣) سورة الانبياء الآية ٩٠ .

تغدون وتروحون في أجلٍ قد غُيِّب عنكم علمُه، فإن استطعتم أن [لا] تنقضي الآجالُ [إلا] وأنتم في عمل لله [فافعلوا] ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله ـ فسابقوا في مَهَل بأعمالكم، قبل أن تنقضيَ آجالكم فتردّكم إلى سوء أعمالكم، فإن أقواما جعلوا آجالهم لغيرهم [ونسوا أنفسهَم]، فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم؛ فالوحَي الوحي والنجاءالنجاء[1]، فإن وراءكم طالبا حثيثا مَرُّه، سريعا سيرُه.

خطب عمر بن الخطاب

رضي الله عنه

وخطب عمر؛ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس، من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أُبيَّ بنَ كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت مُعاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني؛ فإن الله جعلني له خازنا وقاسما: إني باديء بأزواج رسول الله ﷺ فمعطيهن، ثم المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، أنا وأصحابي ثم بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم، ثم من أَسْرَعَ إلى الهجرة أسرع إليه العطاء، ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء، فلا يلومن رجلٌ إلا مُناخ راحلته. إني قد بقيتُ فيكم بعد صاحبي، فابتُليتُ بكم وآبتليتُم بي، وإني لن يحضُرَني من أموركم شيءٌ فأكله إلى غير أهل الجزاء والأمانة، فلئن أحسنوا لأُحْسنَنَّ إليهم، ولئن أساءوا لأُنكلَنَّ بهم.

وخطب أيضا فقال:

الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام، وأكرمنا بالإيمان، ورحِمَنا بنبيه ﷺ، فهدانا به من الضلالة، وجمعنا به من الشتات، وألف بين قلوبنا، ونصرنا على عدونا، ومَكن لنا في البلاد، وجعلنا به إخواناً متحابين؛ فاحمدوا الله على هذه النعمة، واسألوه المزيد

(١) النجاء والنجاة: الخلاص من الشيء.

فيها والشكر عليها، فإن الله قد صَدقكم الوعد بالنصر على من خالفكم؛ وإياكم والعمل بالمعاصي وكفرَ النعمة، فقلما كفر قوم بنعمة ولم ينزعوا إلى التوبة إلا سُلبوا عزَّهم وسُلِّط عليهم عدوُّهم.

أيها الناس: إن الله قد أعز دعوة هذه الأمة وجمع كلمتها وأظهر فلحها ونصرها وشرفها، فاحمدوه عباد الله على نعمه، واشكروه على آلائه؛ جعلنا الله وإياكم من الشاكرين.

وخطب فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

أيها الناس: تعلموا القرآن [تعرفوا به]، واعملوا به تكونوا من أهله؛ واعلموا أنه لم يبلغ من حق مخلوق أن يطاع في معصية الخالق [ألا وإني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة والي اليتيم، وإن استغنيتُ عففْت، وإن افتقرتُ أكلت بالمعروف، تقرُّم[1] البَهْمةِ الأعرابية]، القضم[2] دون الخضم[3].

وخطبة له أيضا:

أيها الناس: إنه قد أتى عليّ زمان وأنا أرى أن قراءة القرآن [إنما] تريدون به الله عز وجل وما عنده: [ألا وإنه قد] خُيِّل إليّ أن قوما قرءُوه إذ يتنزل الوحي وإذ رسول الله بين أظهرنا ينبئنا من أخباركم؛ فقد انقطع الوحي وذهب النبي، فإنما نعرفكم بما أقول لكم؛ ألا من رأينا منه خيراً ظننا به خيرا وأحببناه عليه، ومن رأينا منه شرا ظننا به شرا وأبغضناه عليه؛ سرائركم بينكم وبين ربكم؛ ألا وإني إنما أبعث عمالي ليُعَلِّموكم دينَكم وسُنَّتَكم، ولا أبعثهم ليضْرِبوا ظهوركم ويأخذوا أموالكم؛ ألا من رابه شيء من ذلك فليرفعه اليّ، فوالذي نفسي بيده لأقِصَّنّكم منه.

فقام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيت أن بعثتَ عاملا من عُمالك

---

(١) التقرم: الاكل اكلاً ضعيفاً. (٢) القضم: الأكل بأطراف الاسنان.

(٣) الخضم: الأكل بأقصى الأضراس.

فأدب رجلا من رعيتك فضربه، أتقَّصه منه؟

قال: نعم، والذي نفس عمر بيده لأقصنه منه؛ فقد رأيت رسول الله ﷺ يقصّ من نفسه.

وخطب أيضاً فقال: أيها الناس اتقوا الله في سريرتكم وعلانيتكم، وأْمُروا بالمعروف وٱنْهوا عن المنكر، ولا تكونوا مثل قوم كانوا في سفينة فأقبل أحدهم على موضعه يخرقه، فنظر إليه أصحابه فمنعوه، فقال: هو موضعي ولي أن أحكم فيه، فإن أخذوا على يده سَلِم وسَلِموا، وإن تركوه هَلَكَ وهَلَكوا معه! وهذا مثلٌ ضربتهُ لكم. رحمنا الله وإياكـم.

وخطب عام الرَّمادة بالعباس رحمه الله:

حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه، ثم قال:

أيها الناس، استغفروا ربكم إنه كان غفارا، اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك اللهم إنا نتقرب إليك بعمِّ نبيك وبقية آبائه وكبار رجال، فإنك تقول وقولك الحق ﴿وأمّا الجدارُ فكانَ لغلامَيْن يَتيمَيْنِ في المدينةِ وكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لهما وكان أبوُهما صالحاً﴾[1]؛ فحفظتهما لصلاح أبيهما؛ فاحفظ اللهم نَبيَّك في عمه؛ اللهم آغفر لنا إنك كنت غفارا، اللهم أنت الراعي لا تُهمل الضالّة، ولا تدع الكسيرة بمَضْيعَة، اللهم قد ضرِع الصغير ورق الكبير وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السرّ وأخفى؛اللهمأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا، فإنه لا ييْأس من روْحِ اللهِ إلا القومُ الكافرون.

فما برحوا حتى علّقوا الحذاء، وقلصوا المآزر، وطفق الناس بالعباس يقولون: هنيئا لك يا ساقي الحرمين.

وخطب إذ ولي الخلافة:

---

(١) سورة الكهف الآية ٨٢.

صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

يا أيها الناس، إني داعٍ فأمِّنوا: اللهم إني غليظُ فَلَيِّنِّي لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاءَ وجهك والدار الآخرة، وارزقني الغِلْظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق، من غير ظلمٍ مني لهم، ولا اعتداءٍ عليهم؛ اللهم إني شحيح فسخِّني في نوائب المعروف، قصدا من غير سَرَف ولا تبذير، ولا رياء ولا سمعة، واجعلني أبتغي بذلك وجهك والدار الآخرة؛ اللهم ارزقني خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين، اللهم إني كثير الغفلة والنسيان، فألهمني ذكرك على كل حال، وذكر الموت في كل حين؛ اللهم إني ضعيف عن العمل بطاعتك، فارزقني النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التي لا تكون إلا بعوْنك وتوفيقك؛ اللهم ثبِّتني باليقين والبرِّ والتقوى، وذِكر المقام بين يديك والحياء منك، وارزقني الخشوع فيما يرضيك عني؟ والمحاسبة لنفسي، وإصلاح الساعات، والحذر من الشبهات؛ اللهم ارزقني التفكر والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك، والفهم له، والمعرفة بمعانيه، والنظر في عجائبه، والعمل بذلك ما بقيت؛ إنك على كل شيء قدير.

وكان آخر كلام أبي بكر الذي إذا تكلم به عُرف أنه قد فرغ من خطبته:

اللهم اجعل خير زماني آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك.

وكان آخر كلام عمر الذي إذا تكلم به عرف أنه فرغ من خطبته:

اللهم لا تدعْني في غمرة، ولا تأخذني على غِرَّة، ولا تجعلني من الغافلين.

خطبة عثمان بن عفان
رضي الله عنه

ولما ولي عثمان بن عفان قام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وتشهد، ثم أُرتجَ عليه[١]؛ فقال:

---

(١) أُرتج عليه: استغلق عليه الكلام.

أيها الناس، إن أول كل مركب صعب، وإنْ أَعِشْ فستأتيكم الخُطَب على وجهها، وسيجعل الله بعد عسر يسرا.

خطب علي بن أبي طالب

كرم الله وجهه

خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه أول خطبة خطبها بالمدينة، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه عليه الصلاة والسلام ثم قال:

أيها الناس: كتابَ الله وسُنَّة نبيكم ﷺ، أما بعد: فلا يَدَّعِيَن مُدَّعٍ إلا على نفسه، شُغِل مَن الجنةُ والنار أمامَه. ساع نَجا، وطالبٌ يرجو، ومقصِّر في النار: [ثلاثة؛ واثنان]: ملَك طار بجناحيه، ونبي أخذ الله بيده، لا سادس. هلك من ادَّعى، ورَدِي من اقتحم. اليمين والشمال مَضلة، والوسطى والجادَّة: منهج عليه أم الكتاب والسنة وآثار النبوة؛ إن الله داوى هذه الأمة بدواءين: السوط والسيف، فلا هوادة عند الإمام فيهما، استتروا ببيوتكم، وأصلحوا ذات بينكم؛ فالموت من ورائكم. من أبدى صفحته للحق هلك. قد كانت أمور لم تكونوا فيها محمودين. أما إني لو أشاء أن أقول لقلت. عفا الله عما سلف. سبق الرجلان وقام الثالث كالغراب، همته بطنه، ويله! لو قص جناحاه وقطع رأسه لكان خيراً له! انظروا، فإن أنكرتم فأنكروا، وإن عرفتم فآرُوُوا. حق وباطل، ولكُلٍّ أهل؛ ولئن أمِرَ الباطل لقديما فعل، ولئن قل الحق لربما ولعل؛ ولقلما أدبر شيء فأقبل، ولئن رجعت إليكم أموركم إنكم لسعداء، وإني لأخشى أن تكونوا في فترة، وما علينا إلا الاجتهاد.

وروى فيها جعفر بن محمد رضوان الله عليه:

ألا إن الأبرار عترتي، وأطايب أرومتي، أحلم الناس صغاراً، وأعلم الناس كباراً؛ ألا وإنا أهل البيت مِن عِلْم اللهِ علِمنا وبحكْم الله حَكمنا، ومن قوْلِ صادقٍ سمعنا؛ فإن تتبعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا، [وإن لم تفعلوا يهلككم الله بأيدينا﴾ معنا راية الحق، من تبعها لحق، ومن تأخر عنها غرق. ألا وبنا تدرك ترة كل مؤمن وبنا تخلع

ربقة الذل من أعناقكم، وبنا فُتح وبنا يختم .

وخطبة له أيضاً :

حمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أوصِيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله ولزوم طاعته وتقديم العمل، وترك الأمل؛ فإنه من فَرَّط في عمله لم ينتفع بشيء من أمله، أين التَّعِب بالليل والنهار، المقتحم لِلجَج البحار ومفاوز القفار، يسير من وراء الجبال وعالج الرمال[1]، يصل الغدو بالرواح، والمساء بالصباح، في طلب محقرات الأرباح؛ هجمت عليه منيتُه ، فعظمَت بنفسه رزيتُه؛ فصار ما جمع بُورا ، وما اكتسب غروراً ، ووافى القيامة محسوراً :

أيها اللاهي الغارّ بنفسه، كأني بك وقد أتاك رسول ربك، لا يقرع لك باباً، ولا يهاب لك حجاباً، ولا يقبل منك بديلاً، ولا يأخذ منك كفيلاً، ولا يرجم لك صغيراً، ولا يوقر فيك كبيراً، حتى يؤديَك إلى قعر مظلمة، أرجاؤها موحشة، كفعله بالأمم الخالية والقرون الماضية! أين من سعى واجتهد؛ وجمع وعدّد، وبنى وشيَّد؛ وزخرف ونَجَّد، وبالقليل لم يقنع، وبالكثير لم يمتع؟ أين من قاد الجنود، ونشر البنود؟ أضحوا رفاتاً! تحت الثرى أمواتاً، وأنتم بكأسهم شاربون، ولسبيلهم سالكون .

عباد الله! فاتقوا الله وراقبوه، واعملوا لليوم الذي تسير فيه الجبال، وتشقَّق السماء بالغمام، وتطاير الكتب عن الأيمان والشمائل؛ فأي رجل يومئذ تراك؟ أقائل هاؤم اقرءوا كتابيه! أم: يا ليتني لم أوت كتابيه! نسأل من وعدنا بإقامة الشرائع جنته أن يقينا سخطه؛ إنّ أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

وخطبة له أيضاً :

---

(١) عالج الرمال: ما تراكم منها ودخل بعضه في بعض .

الحمد لله الذي استخلص الحمدَ لنفسه، واستوجبه على جميع خلقه، الذي ناصية كلِّ شيء بيده، ومصير كل شيء إليه، القويِّ في سلطانه، اللطيف في جبروته، لا مانع لما أَعطى، ولا معطى لما منع، خالق الخلائق بقدرته، ومسخِّرهم بمشيئته، وفيِّ العهد، صادق الوعد، شديد العقاب، جزيل الثواب؛ أحمده وأستعينه على ما أنعم به مما لا يَعرف كنهه غيره؛ وأتوكل عليه توكُّل المتسلم لقدرته، المتبري من الحول والقوّة إليه؛ وأشهد شهادةً لا يشوبها شك أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، إلٰهاً واحداً صَمَداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له وليٌّ من الذل وكبّره تكبيرا، وهو على كل شيء قدير، قطَع ادعاءَ المدّعي بقوله عز وجل: ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلا ليعبدون﴾[1] . وأشهد أنّ محمداً ﷺ صفوتُه من خلقه، وأمينه على وحْيه، أرسله بالمعروف آمراً . وعن المنكر ناهياً، وإلى الحق داعياً؛ على حين فترة من الرسل، وضلالةٍ من الناس، واختلافٍ من الأمور، وتنازع من الألسن، حتى تمم به الوحي، وأنذر به أهل الأرض.

أُوصيكم عباد الله بتقوى الله؛ فإنها العصمة من كل ضلالة، والسبيل إلى كل نجاة؛ فكأنكم بالجثث قد زايلتها أرواحُها، وتضمنها أجداثها، فلن يستقبل معمّر منكم يوماً من عمره إلا بانتقاص آخرَ من أجله، وإنما دنياكم كفْيء الظل أو زاد الراكب؛ وأحذركم دعاءَ العزيز الجبار عبدَه، يوم تعفي آثاره، وتُوحش منه دياره، وييْتَم صغاره، ثم يصير إلى حفير من الأرض، متعفراً على خدّه، غير موسد ولا ممهد: أسأل الذي وعدنا على طاعته جنته، أن يقينا سخطه، ويجنِّبنا نقمته، ويهب لنا رحمته. إنّ أبلغ الحديث كتاب الله.

وخطبة له رضي الله عنه:

أمّا بعد؛ فإنّ الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإنّ الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطِّلاع، وإنّ المضمار اليوم والسباق غداً، ألا وإنكم في أيام أمل من ورائِه أجل؛

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦ .

فَمن أخلص في أيام أمله حضور أجله، نفَعه عمله ولم يضره أمله؛ ومَن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله، فقد خسر عمله وضره أمله؛ ألا فاعملوا لله في الرغبة كما تعملون له في الرهبة، ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها، ولم أر كالنار نام هاربها؛ [ألا وإنه من لا ينفعْه الحقّ يضرُرْه الباطل، ومن لم يستقم به الهدى يَجُرّ به الضلال إلى الردى]؛ ألا وإنكم قد أُمرتم بالظعن، ودُللتم على الزاد، وإن أخْوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل.

وخطبة له: قالوا ولما أغار سفيان بن عوف الأزْدي على الأنبار في خلافة علي رضي الله عنه، وعليها [ابن] حسان البكري، فقتله وأزال تلك الخيل عن مسالحها(١)، فخرج علي رضي الله عنه حتى جلس على باب السُّدَّة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أمّا بعد؛ فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه ألبسه الله ثوب الذل وشَمْلَة البلاء، وألزمه الصغار، وسامه الخسف، ومنعه النَّصف(٢)؛ ألا وإني دعوْتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم قط في عُقر دارهم إلا ذلّوا. فتواكلتم وتخاذلتم، وثقل عليك قولي فاتخذتموه وراءكم ظهرياً؛ حتى شُنَّت عليكم الغارات؛ وهذا أخو غامد قد بلغت خيله الأنبار، وقتل ابن حسان البكري؛ وأزال خيلكم عن مسالحها؛ وقتل منكم رجالاً صالحين، وقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهِدة، فينزع حِجلها وقلبها(٣) ورعاثها(٤)، ثم انصرفوا وافرين ما كُلِم رجل منهم؛ فلو أنّ رجلاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان عندي ملوماً، بل كان به عندي جديراً؛ فواعجباً من جدّ هؤلاء في باطلهم وفشلِكم عن حقكم؛ فقبحاً لكم وترحاً حين صرتم غرضاً يُرمَى؛ يُغار عليكم ولا تُغيرون، وتُغزوْن ولا تَغزون، ويُعصى الله وترضوْن؛ فإذا أمرتكم بالمسير إليهم في أيام الحرّ، قلتم: حَمارّة

---

(١) المسالح: الثغور. (٢) النصف: الانتصاف.

(٣) القلب: السوار. (٤) الرعاث: القرط.

القيظ؛ أملهنا حتى ينسلخ عنا الحرّ! وإذا أمرتكم بالمسير إليهم ضحى في الشتاء، قلتم: [صَبارّة القُرّ][1] أمهلنا حتى ينسلخ عنا هذا القرّ! كل هذا فراراً من الحرّ والقرّ؛ فأنتم والله من السيف أفرّ! يا أشباه الرجال ولا رجال! ويا أحلام[2] أطفال وعقول ربات الحجال! وددت أنّ الله أخرجني من بين أظهركم، وقبضني إلى رحمته من بينكم، وأني لم أركم ولم أعرفكم! معرفةٌ والله جرّت وهنا! [لقد ملأتم قلبي قيحاً] وورّيْتم والله صدري غيظاً، وجرعتموني الموت أنفاساً، وأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى قالت قريش: إنّ ابن أبي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب! لله أبوهم! وهل منهم أحد أشدّ لها مراساً وأطولُ تجربة مني؟ لقد مارستها وأنا ابن عشرين، فها أنا ذا الآن قد نيّفت على الستين، ولكن لا رأي لمن لا يُطاع!

وخطبة له رضي الله عنه، قام فيهم فقال:

أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم! كلامكم يوهِي الصم الصّلاب. وفعلكم يُطمع فيكم عدوّكم؛ تقولون في المجالس كيت وكيت؛ فإذا جاء القتال قلتم: [حِيدي][3] حياد ما عزت دعوة من دعاكم؛ ولا استراح قلب من قاساكم؛ أعاليل بأباطيل؛ وسألتموني التأخير؛ دفاعَ ذي الدَّين الممطول؛ ألا [لا] يدفع الضيمَ الذليل، ولا يُدرَك الحقُّ إلا بالجدّ. أيَّ دار بعد داركم تمنعون؟ أم مع أي إمام بعدي تقاتلون؟ المغرورُ والله من غررتموه؛ ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيَب! أصبحت والله لا أصدّق قولكم؛ ولا أطمع في نُصْرتكم؛ فرّق الله بيني وبينكم، وأعقبني بكم من هو خير لي منكم! وددت والله أن لي بكل عشرة منكم رجلاً من بني فراس بن غنم، صرْف الدينار بالدرهم!

وخطب إذا استنفر أهل الكوفة لحرب الجمل، فأقبلوا إليه مع ابنه الحسن رضي الله عنهم، فقام فيهم خطيباً فقال:

---

(١) القرّ: البرد. (٢) أحلام: عقول.

(٣) حيدي: ميلي، يريد تنحي عني أيتها الحرب.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وآخر المرسلين، أمّا بعد؛ فإنّ الله بعث محمداً عليه الصلاة والسلام إلى الثقلين كافة، والناسَ في اختلاف، والعرب بشرِّ المنازل، مستضيئون للثاءات[1] بعضهم على بعض، فرأب الله به الثَّأي، ولأم به الصدع، ورتق به الفتق، وأمّن به السبل، وحقن به الدماء، وقطع به العداوة الواغرة للقلوب، والضغائن المخشنة للصدور؛ ثم قبضه الله عز وجل مشكوراً سعيه، مرضيّاً عمله، مغفوراً ذنبه، كريماً عند ربه نُزُله؛ فيا لها مصيبة عمَّت المسلمين، وخصَّت الأقربين؛ وولي أبو بكر، فسار بسيرة رضيها المسلمون؛ ثم ولي عمر، فسار بسيرة أبي بكر رضي الله عنهما؛ ثم ولي عثمان، فنال منكم ونلتم منه، حتى إذا كان من أمره ما كان أتيتموه فقتلتموه، ثم أتيتموني فقلتم لي: بايعنا! فقلت لكم: لا أفعل! وقبضت يدي فبسطتموها، ونازعتم كفي فجذبتموها، وقلتم: لا نرضى إلا بك، ولا نجتمع إلا عليك! وتداككتم[2] عليّ تداكُكَ الإبل الهيم[3] على حياضها يوم ورودها، حتى ظننت أنكم قاتلي، وأن بعضكم قاتل بعض؛ فبايعتموني، وبايعني طلحة والزبير، ثم ما لبثا أن استأذناني للعمرة فسارا إلى البصرة فقتلا بها المسلمين وفعلا الأفاعيل، وهما يعلمان والله أني لست بدون واحدٍ ممن مضى، ولو أشاء أن أقول لقلت؛ اللهم إنهما قطعاً قرابتي، ونكثا بيعتي، وألبا عليَّ عدوّي؛ اللهم فلا تُحكم لهما ما أبرما، وأرهما المساءة فيما عملا وأملا!

ومما حفظ عنه بالكوفة على المنبر: قال نافع بن كليب: دخلت الكوفة للتسليم على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، فإني لجالس تحت منبره، وعليه عمامة سوداء، وهو يقول: انظروا هذه الحكومة، فمن دعا إليها فاقتلوه وإن كان تحت عمامتي هذه! فقال له عدي بن حاتم: قلت لنا أمس: من أبى عنها فاقتلوه. وتقول لنا اليوم: من دعا إليها فاقتلوه! والله ما ندري ما نصع بك؟ وقام إليه رجل أحدب من أهل العراق فقال: أمرت بها أمس وتنهى عنها اليوم، فأنت كما قال الأول: آكلك وأنا أعلم ما أنت. فقال علي: إلي يقال هذا.

---

(١) الثأي: الإفساد. (٢) تداككتم: تزاحتم. (٣) الهيم: العطاش.

أصبَحْتُ أذْكرُ أرْحـامـاً وآصِـرةً بُدلتُ منها هَوِيّ الرِّيح بالقَصَبِ[١]

أما والله لو أني حين أمرتكم بما أمرتكم به، ونهيتكم عما نهيتكم عنه، حملتكم على المكروه الذي جعل الله عاقبتَه خيراً إذا كان فيه، لكانت الوثقى التي لا تقلع، ولكن بمَنْ؟ وإلى مَن؟ [أريد أن] أُداوي بكم [وأنتم دائي]؛ إني والله بكم كناقِش[٢] الشَّوكة بالشوكة، يا ليت لي بعض قومي وليت لي من بعد خير قومي، اللهم إن دجلة والفرات نهران أعجمان أصمان أبكمان، اللهم سلط عليهما بحرك، وانزع منهما بصرك؛ ويل للنَّزَعة[٣] يا أشطان الرَّكيِّ[٤]! [أين الذين] دُعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرءوا القرآن فأحسنوه، ونطقوا بالشعر فأحكموه وهيجوا إلى الجهاد فولِهُوا [وَلَهَ] اللقاح [إلى] أولادها، وسلبـوا السيـوف أغمادهـا ضربـاً ضربـاً، [وأخذوا بأطراف الأرض] زحفاً زحفاً، لا يتباشرون بالأحياء، ولا يُعزَّون على القتلى ولا يغيرون على العلي.

أولئِكَ إخـوانِـي آلـذاهبُـونَ فحـقَّ البُكـاءِ لَهُمْ أنْ يَطيبـا
رُزقـتُ حبيبـاً على فـاقــةٍ وفارقْتُ بعـدَ حبيـبٍ حبيبـا!

ثم نزل تدمع عيناه؛ فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون على ما صرت إليه! فقال: نعم، إنا لله وإنا إليه راجعون! أقوِّمهم والله غدوة ويرجعون إلى عشية مثل ظهر الحية، حتى متي؟ وإلى متى؟ حسبي الله ونعم الوكيل!

وهذه خطبته الغراء، رضي الله عنه:

الحمد لله الأحد الصمد، الواحد المنفرد، الذي لا مِن شيء كان ولا من شيء خُلق إلا وهو خاضع له؛ قدرةٌ بان بها من الأشياء وبانت الأشياء منه، فليست له صفة تنال، ولا حدٌّ يضرب له فيه الأمثال، كلَّ دون صفته تحبيرُ اللغات، وضلت هناك تصاريفُ الصفات وحارت دون ملكوته مذاهب التفكير، وانقطعت دون علمه

(١) هويّ الريح: هبوبها. (٢) نقش الشوكة: أخرجها.
(٣) النزعة: الذين ينزعون الدلاء. (٤) الأشطان: حبال الدلاء. والركيّ: البئر.

جوامعُ التفسير، وحالت دون غيبه حُجُبٌ تاهت في أدنى دنوِّها طامحاتُ العقول؛ فتبارك الله الذي لا يبلغه بُعدُ الهمم، ولا يناله غوص الفطن؛ وتعالى الذي ليس له نعت موجود، ولا وقت محدود، وسبحان الذي ليس له أول مُبتدأ، ولا غاية منتهى، ولا آخر يفنى؛ وهو سبحانه كما وصف نفسه، والواصفون لا يبلغون نعته؛ أحاط بالأشياء كلها علمه وأتقنها صنعهُ، وذللها أمره، وأحصاها حفظُه؛ فلا يعزب عنه غيوب الهوى، ولا مكنونُ صلم الدجى، ولا ما في السموات العلى إلى الأرض السابعة السفلى؛ فهو لكل شيء منها حافظ ورقيب، أحاط بها الأحدُ الصمد الذي لم تغيِّره صروف الأزمان، ولا يتكاءده[1] صنعُ شيء منها كان؛ قال لما شاء أن يكون: كن! فكان؛ آبتدع ما خلق بلا مثال سبق، ولا تعب ولا نصب؛ وكل عالم من بعد جهلٍ يعلم، والله لم يجهل ولم يتعلم؛ أحاط بالأشياء كلها علماً، ولم يزدد بتجربتها خُبراً؛ علمه بها قبل كونها كعمله بها بعد تكوينها؛ لم يكوِّنها لتسديد سلطان، ولا خوف زوال ولا نقصان، ولا استعانة على ضد مناويء، ولا ند مكاثر، ولكن خلائق مربوبون، وعباد آخرون، فسبحان الذي لا يئُودُه[2] خلق ما ابتدأ، ولا تدبير ما برأ، خلق ما عَلِم، وعلِم ما أراد، ولا يتفكر على حادث أصاب، ولا شبهة دخلت عليه فيما أراد، لكن قضاءٌ مُتْقَن، وعلمٌ محكم، وأمرٌ مُبرَم، توحَّد بالربوبية، وخص نفسه بالوحدانية، فلبس العز والكبرياء، واستخلص المجد والسناء، واستكمل الحمد والثناء؛ فانفرد بالتوحيد، وتوحد بالتمجيد؛ فجل سبحانه وتعالى عن الأبناء وتطهر وتقدس عنْ ملامسة النساء؛ فليس له فيما خلق نِدّ، ولا فيما ملك ضدّ، هو الله الواحد الصمد، الوارث للأبد الذي لا يبيد ولا ينفد، مَلَك السموات العلى، والأرَضِين السفلى، ثم دنا فعلا. وعلا فدنا، له المثل الأعلى، والأسماء الحسنى، والحمد لله رب العالمين؛ ثم إن الله تبارك وتعالى ـ سبحانه وبحمده ـ خلق الخلق بعلمه ثم اختار منهم صفوته، واختار من كل خيار صفوته أمناءَ على وحيه، وخزنةً له على أمره، إليهم ينتهي رسله، وعليهم ينزل وحيه، جعلهم أصفياء، مصطفين

---

(١) تكاءده الأمر: شق عليه. (٢) آد الشيء حامله: أثقله وأجهده.

أنبياء، مهديين نجباء؛ آستودعهم وأقرهم في خير مستقَر، تناسختهم أكارم الأصلاب، إلى مطهّرات الأمهات، كلما مضى منهم سلف انبعث لأمره منهم خلف، حتى انتهت نبوّة الله وأفضت كرامتُه إلى محمد ﷺ؛ فأخرجه من أفضل المعادن محتداً، وأكرم المغارس منبتاً، وأمنعها ذروة، وأعزها أرومة، وأوصلها مكرمة من الشجرة التي صاغ منها أمناء، وانتخب منها أنبياء، شجرة طيبة العود، معتدلة العمود، باسقة الفروع، مخضرة الأصول والغصون، يانِعةَ الثمار، كريمة المجتَنى، في كرمٍ نبتتْ، وفيه بسقت وأثمرت، وعزت فامتنعت، حتى أكرمه الله بالروح الأمين، والنور المبين، فختم به النبيين، وأتم به عدة المرسلين، [وجعله] خليفته على عباده، وأمينه في بلاده؛ زينه بالتقوى وآثار الذكرى؛ وهو إمام من اتقى، ونصرُ مَن اهتدى، سراجٌ لمعَ ضوءُه، وزَند برقَ لمعه، وشهابٌ سطع نوره؛ فاستضاءت به العباد، وآستنارت به البلاد؛ وطوى به الأحساب فأزجى به السحاب، وسخر له البراق حتى صافحته الملائكة، وأذعنت له الألسنة، وهدم به أصنام الآلهة، سِيرته القَصد، وسُنته الرشد؛ وكلامُه فصل، وحكمه عدل؛ فصدع ﷺ بما أمره به، حتى أفصح بالتوحيد دعوته؛ وأظهر في خلقه لا إله إلا الله، حتى أذعن له [الخلقُ] بالربوبية، وأقرّ له بالعبودية والواحدانية؛ اللهم فخصَّ محمداً بالذكر المحمود. والحوضِ المورود. اللهم آت محمداً الوسيلة والرفعة والفضيلة، واجعل في المصطَفَيْنِ محلته، وفي الأعلين درجته، وشرِّف بنيانه وعظِّم برهانه، واسقنا بكأسه، وأوردنا حوضه، واحشرنا في زمرته، غير خزايا ولا ناكثين ولا شاكين ولا مرتابين ولا ضالين ولا مفتونين ولا مُبدلين ولا حائدين ولا مضلين؛ اللهم أعط محمداً من كل كرامة أفضلها، ومن كل نعيم أكمله، ومن كل عطاء أجزله، ومن كل قسم أتمه؛ حتى لا يكون أحد من خلقك أقربَ منك مكاناً، ولا أحظى عندك منزلة ولا أقرب إليك وسيلة، ولا أعظم عليك حقاً ـ ولا شفاعة، من محمد؛ واجمع بيننا وبينه في ظل العيش، وبرد الرَّوْح[1]، وقرة الأعين، ونضرة السرور، وبهجة النعيم؛ فإنا نشهد أنه قد بلغ

---

(١) الروح: نسيم الريح.

الرسالة، وأدى الأمانة والنصيحة، واجتهد للأمة. وجاهد في سبيلك. وأوذي في جنبك ولم يَخَف لومة لائم في دينك. وعَبدَك حتى أتاه اليقين، إمام المتقين، وسيد المرسلين، وتمام النبين، وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين؛ اللهم رب البيت الحرام، ورب البلد الحرام، ورب الركن والمقام، ورب المشعر الحرام؛ بلِّغْ محمداً منا السلام؛ اللهم صل على ملائكتك المقربين، وعلى أنبيائك المرسلين، وعلى الحفظة الكرام الكاتبين، وصلى الله على أهل السموات وأهل الأرضين من المؤمنين.

وخطبته الزهراء:

الحمد لله الذي هو أول كل شيء ووليه، وكل شيء خاشع له، وكل شيء قائم به، وكل شيء ضارعٌ إليه، وكل شيء مستكين له؛ خشعت له الأصوات، وكلَّت دونه الصفات، وضلت دونه الأوهام، وحارت دونه الأحلام، وانحسرت دونه الأبصار لا يقضي في الأمور غيره، ولا يتم شيء دونه، سبحانه ما أجل شأنه، وأعظم سلطانه! تُسبح له السموات العلى، ومن في الأرض السفلى، له التسبيح والعظمة والملك والقدرة، والحولُ والقوة، يقضي بعلم ويعفو بحلم؛ قوةُ كلِّ ضعيف، ومفزع كل ملهوف وعِزِّ كلِّ ذليل، ووليُّ كل نِعمة، وصاحب كلِّ حسنة، وكاشفُ كل كربة المُطَّلع على كل خفِيَّة، المحصِي كلَّ سريرة، يعلم ما تُكِنُّ الصدور، وما تُرْخَى عليه الستور؛ الرحيم بخلقه، الرؤوف بعباده؛ من تكلم منهم سمع كلامه، ومن سكت منهم عَلم ما في نفسه، ومن عاش منهم فعليه رِزْقُه، ومن مات منهم فإليه مصيره؛ أحاط بكل شيء علمُه وأحصى كل شيء حفظُه، اللهم لك الحمد عدد ما تحيي وتُميت، وعدد أنفاس خلقك ولفظِهم ولحظِ أبصارهم، وعدد ما تجري به الريح وتحمله السحاب، ويختلف به الليل والنهار، ويسير به الشمس والقمر والنجوم ـ حمداً لا ينقضي عدده، ولا يفنى أمده: اللهم أنت قبل كل شيء، وإليك مصير كل شيء، وتكون بعد هلاك كل شيء وتبقى ويفنى كلُّ شيء، وأنت وارثُ كلَّ شيء، أحاط علمُك بكلِّ شيء، وليس يُعجزُك شيء، ولا يتوارى عنك شيء، ولا يقدر أحد قدرتَك، ولا يشكرك أحد حقَّ شكرك، ولا تهتدي العقول لصفتك، ولا تبلغ

الأوهام حدّك؛ حارت الأبصار دون النظر إليك، فلم ترك عينٌ فتخبر عنك كيف أنت وكيف كنت. لا نعلم اللهم كيف عظمتُك، غير أ:ا نعلم أنك حيٌّ قيوم، لا تأخذك سِنَةٌ ولا نوم، لم ينته إليك نظر، ولم يُدْرِكْكَ بصر، ولا يقدر قدرتَك ملَكٌ ولا بشَر؛ أدركت الأبصار، وكتمت الآجال، وأحصيت الأعمال، وأخذت بالنواصي والأقدام، لم تخلق الخلق لحاجة ولا لوحشة ملأت كلَّ شيء عظمة، فلا يُردُّ ما أردت، ولا يعطَى ما منعت، ولا ينقص سلطانك من عصاك، ولا يزيد في ملكك من أطاعك؛ كلُّ سرٍّعندك علمُه، وكل غيب عندك شاهده؛ فلم يستتر عنك شيء، ولم يشغلك شيء عن شيء، وقدرتُك على ما تقضي، كقدرتِك على ما قضيت، وقدرتك على القوي كقدرتك على الضعيف وقدرتك على الأحياء كقدرتك على الأموات؛ فإليك المنتهى وأنت الموعد، لا منجى إلا إليك؛ بيدك ناصيةُ كل دابة، وبإذْنك تسقط كلُّ ورقة؛ لا يعزب[1] عنك مثقال ذرة؛ أنت الحيُّ القيوم؛ سبحانك! ما أعظم ما يُرى من خلقك! وما أعظم ما يُرى من ملكوتك! وما أقلها فيما غاب عنا منه! وما أسبغ نعمتَك في الدنيا وأحقرها في نعيم الآخرة! وما أشدّ عقوبتك في الدنيا وما أيسرها في عقوبة الآخرة! وما الذي نرى من خلقك، ونعتبر من قدرتك. ونصف من سلطانك فيما يغيب عنا منه مما قصُرَت أبصارُنا عنه وكانت عقولنا دونه، وحالت الغيوب بيننا وبينه، فمن قرع سنه وأعمل فكره كيف أقمت عرشك، وكيف ذرأت خلقك، وكيف علقت في الهواء سمواتك، وكيف مددت أرضك - يرجعْ طرْفُهُ حاسراً، وعقلُه مبهوراً، وسمعه والها، وفكرُه متحيراً؛ فكيف يُطلب علم ما قبل ذلك من شأنك إذ أنت وحدك في الغيوب التي لم يكن فيها غيرُك، ولم يكن لها سواك؟ لا أحد شهدك حين فطَرْتَ[2] الخلق، ولا أحد حضرك حين ذرأتَ[3] النفوس، فكيف لا يعظم شأنُك عند من عرفك، وهو يرى منْ خلقك ما ترتاع به عقولهم، ويملأ قلوبهم، من رعدٍ تفزَعُ له القلوب، وبرقٍ يخطف الأبصار، وملائكةٍ خلقتَهم وأسكنتَهم سمواتك، وليست فيهم فترة، ولا عندهم غفلة، ولا بهم معصية؛

---

(١) يعزب: يغيب. (٢) يقال فطر الله العالم: أوجده ابتداء. (٣) يقال: ذرأ الله الخلق: أي خلقهم.

هم أعلمُ خلقك بك، وأخوفهم لك، وأقومُهم بطاعتك، ليس يغشاهم نومُ العيون، ولا سهوُ العقول؛ لم يسكنوا الأصلاب، ولم تضمَّهم الأرحام؛ أنشأتهم إنشاءً، وأسكنتهم سَمٰواتك، وأكرمتَهم بجوارك، وائتمنتهم على وحيك، وجنبتَهم الآفات، ووقيتهم السيئات، وطهرتَهم من الذنوب؛ فلولا تقويتك لم يقْوُوا، ولولا تثبيتك لم يثبتوا، ولولا رهبتك لم يطيعوا، ولولاك لم يكونوا؛ أما إنهم على مكانتهم منك، ومنزلتهم عندك، وطولِ طاعتهم إياك - لو يعانون ما يخفي عليهم لاحتقروا أعمالهم، ولعلموا أنهم لم يعبدوك حقَّ عبادتك؛ فسبحانك خالقاً ومعبوداً ومحموداً، بحسن بلائك عند خلقك! أنت خلقت ما دبرته مطعماً ومشرباً، ثم أرسلت داعياً إلينا، فلا الداعِيَ أجَبنا، ولا فيما رغَّبتَنا فيه رغِبْنا، ولا إلى ما شوَّقتنا إليه اشتقنا؛ أقبلنا كلنا على جيفة نأكل منها ولا نشبع وقد زاد بعضُنا على بعض حرصاً لما يرى بعضُنا من بعض، فافتضحنا بأكلها واصطلحنا على حبها، فأعمت أبصار صالحينا وفقهائنا، فهم ينظرون بأعين غير صحيحة، ويسمعون بآذان غير سميعة، فحيثما زالت زالوا معها، وحيثما مالت أقبلوا إليها، وقد عاينوا المأخوذين على الغِرّة كيف فجأتهُمُ الأمور، ونزل بهم المحذور، وجاءهم من فراق الأحبة ما كانوا يتوقعون، وقدِموا من الآخرة ما كانوا يوعدون: فارقوا الدنيا وصاروا إلى القبور، وعَرفوا ما كانوا فيه من الغرور، فاجتمعت عليهم حسرتان: حسرةُ الفَوت[1] وحسرةُ الموت، فاغبرت لها وجوههم وتغيرت بها ألوانهم، وعرقت بها جباهُهم، وشَخصَتْ أبصارُهم، وبردت أطرافهم، وحيل بينهم وبين المنطق، وإن أحدهم لبيْنَ أهله، ينظر ببصره، ويسمعُ بأذنه؛ ثم زاد الموت في جده حتى خالط بصره، فذهبت من الدنيا معرفته، وهلكت عند ذلك حجته، وعاين هول أمرٍ كان مغطى عليه فأحدّ لذلك بصرَه؛ ثم زاد الموتُ في جده حتى بلغت نفسه الحلقوم، ثم خرج من جسده فصار جسداً ملقى لا يجيب داعياً، ولا يسمع باكياً؛ فنزعوا ثيابه وخاتمه، ثم وضَّئوه وضوء الصلاة، ثم غسلوه وكفنوه إدراجاً في أكفانه وحنطوه، ثم حملوه إلى قبره، فدلوه في حفرته، وتركوه

(١) الفوت: يقال: جعل الله رزقه فوت يده: أي حيث يراه ولا يصل إليه.

مخلى بمفظعات من الأمور، وتحت مسألة منكر ونكير، مع ظلمة وضيق ووحشة قبر، فذاك مثواه حتى يبلى جسدُه ويصير تراباً؛ حتى إذا بلغ الأمر إلى مقداره، وألحق آخر الخلق بأوله، وجاءه أمر من خالقه، أراد به تجديد خلقه ـ أمر بصوت من سمواته فمارت السموات موراً[1]، وفزع من فيها، وبقي ملائكتها على أرجائها، ثم وصل الأمر إلى الأرض، والخلقُ رفاتٌ لا يشعرون فأرج أرضُهم وأرجَفَها وزلزَلها، وقلع جبالَها ونسفَها وسيَّرَها، ودكَّ بعضُها بعضاً من هيبته وجلاله، وأخرج من فيها فجدّدهُمْ بعد بلائهم، وجمعهم بعد تفرُّقهم، يريد أن يُحصيَهم ويميزهم، فريقاً في ثوابه، وفريقاً في عقابه، فخلد الأمر لأبده، دائماً خيره وشره، ثم لم ينس الطاعة من المطيعين، ولا المعصية من العاصين، فأراد عز وجل أن يجازي هؤلاء، وينتقم من هؤلاء، فأثاب أهل الطاعة بجواره، وحلولِ داره، وعيشٍ رغد، وخلود أبد، ومجاورةٍ للرب، وموافقة محمد ﷺ، حيث لا ظعن ولا تغيُّر؛ وحيث لا تصيبهم الأحزان، ولا تعترضهم الأخطار؛ ولا تُشْخِصُهم[2] الأسفار؛ وأما أهل المعصية فخلدهم في النار، وأوثق منهم الأقدام وغلَّ منهم الأيدي إلى الأعناق؛ في لهب قد اشتد حره، ونارٍ مطبقة على أهلها لا يدخل عليها بها روْح، همُّهم شديد، وعذابُهم يزيد، ولا مدة للدار تنقضي، ولا أجل للقوم ينتهي.

اللهم إني أسألك بأن لك الفضل والرحمة بيدك، فأنت وليهما لا يليهما أحد غيرك، وأسألك باسمك لمخزون المكنون، الذي قام به عرشُك وكرسيُّك وسمواتُك وأرضُك، وبه ابتدعتَ خلقَك ـ الصلاةَ على محمد، والنجاةَ من النار برحمتك، آمين؛ إنك وليٌّ كريم.

وخطب أيضا فقال: أيها الناس احفظوا عني خمساً فلو شدَدْتُم إليها المطايا حتى تُنضوها لم تظفروا بمثلها: ألاَ لا يرجُوَنَّ أحدُكم إلا ربَّه، ولا يخافنّ إلا ذنبه ولا يستحْيي أحدكم إذا لم يعلم أن يتعلم، وإذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم، ألا وإن

---

(١) المور: الاضطراب. (٢) يقال شخص من بلده: أي خرج. وشخص اليه: رجع.

الخامسة الصبر، فإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد؛ من لا صبر له لا إيمان له، ومن لا رأس له لا جسد له: ولا خير في قراءة إلا بتدبُّر ولا في عبادة إلا بتفكُّر، ولا في حلم إلا بعلم؛ ألا أنبئكم بالعالِم كل العالم؟ من لم يزين لعباد الله معاصيَ الله، ولم يُؤمِّنْهم مكرَه، ولم يُؤيْسهم من روْحه. لا تُنزلوا المطيعين الجنة ولا المذنبين الموحدين النار حتى يضيَ الله فيهم بأمره؛ ولا تأمنوا على خير هذه الأمة عذابَ الله، فإنه يقول: ﴿فلا يَأْمنُ مكْرَ اللهِ إلاّ القوْمُ الخاسِرون﴾[1] ولا تقنطوا شر هذه الأمة من رحمة الله، ﴿فإنه لا ييأس من رَوح الله إلا القوم الكافرون﴾[2].

ومن كلامه رضوان الله عليه: قال ابن عبّاس: لما فرغ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه من وقعة الجمل، دعا بآجرَّتين فعلاهما، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

يا أنصار المرأة وأصحاب البهيمة! رغا فأجبتم وعُقِرَ فهربتم؛ دخلت شرَّ بلاد [أقربها من الماء، و] أبعدها من السماء. بها يغيض كل ماء، ولها شرُّ أسماء: هي البصرة، والبُصيرة، والمُؤتفكة، وتَدمر. أين ابن عبَّاس؟ فدُعِيت. فقال لي: مُرْ هذه المرأة فلْتَرْجع إلى بيتها الذي أُمِرَت أن تَقَرَّ فيه.

وتمثل علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد الحكمين:

زَلَلتُ فيكم زَلَّةً فأعتذِرْ سوف أكِيس بعدَها وأشتَمِرْ[3]

وأجمعُ الأمر الشَّتِيت المُنْتشر

خطب معاوية

قال القحذمي: لما قَدم معاويةُ المدينة عام الجماعة تلقّاه رجال قريش فقالوا: الحمد لله الذي أعز نصرك، وأعلى كعبك. قال: فوالله ما ردّ عليهم شيئاً حتى صعد المنبر؛ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

---

(١) سورة الأعراف الآية ٩٩. (٢) سورة يوسف الآية ٨٧.

(٣) الكيْس: العقل.

أما بعد فإني والله ما وليتُها بمحبة علمتُها منكم ولا مسرَّة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رُضْتُ لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة، وأردتها على عمل عمر، فنفرتْ من ذلك نفارا شديداً؛ وأردتها مثل ثَنِيَّات[1] عثمان، فأبت عليّ؛ فسلكت بها طريقا لي ولكم فيه منفعة: مؤاكلة حسنة، ومُشاربة جميلة؛ فإن لم تجدوني خيرَكم فإني خيرٌ لكم ولاية؛ والله لا أحمل السيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه، فقد جعلت ذلك له دَبْرَ أذني وتحت قدمي؛ وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه، فإن أتاكم مني خيرٌ فاقبلوه، فإن السيل إذا زاد عَنّى، وإذا قلَّ أغنى[2]؛ وإياكم والفتنة، فإنها تفسد المعيشة، وتكدّر النعمة. ثم نزل.

خطبة أيضا لمعاوية

حمد الله وأثنى عليه، ثم صلى على النبي ﷺ، ثم قال:

أما بعد، أيها الناس، إنا قدِمنا عليكم، وإنما قدمنا على صديق مستبشر، أو على عدو مستتر، وناسٍ بين ذلك ينظرون وينتظرون ﴿فإنْ أُعْطُوا منها رَضُوا وإنْ لم يُعطَوْا منها إذا هُمْ يَسْخَطون﴾[3] ولست واسعاً كلَّ الناس؛ فإن كانت محمدةٌ فلا بدّ مِن مذَمَة، فلَوناً هَوْناً إذا ذُكر غُفِر؛ وإياكم والتي إن أُخفيت أو بقت، وإن ذُكرت أوثقت. ثم نزل.

وخطبة أيضا لمعاوية

صعد مِنبر المدينة، فحمد الله وأثنى، عليه ثم قال:

يا أهل المدينة، إني لست أحب أن تكونوا خلقا كخلق العراق؛ يعيبون الشيء وهم فيه، كل امرىء منهم شيعةُ نفسه، فاقبلونا بما فينا فإن ما وراءنا شرٌّ لكم، وإن

---

(١) الثنيات: جمع ثنية: الطريق العالي في الجبل.

(٢) أغنى: كفى. (٣) سورة التوبة الآية ٥٨.

معروف زماننا هذا منكَرُ زمان قد مضى، ومنكَر زماننا معروف زمان لم يأت، ولو قد أتى فالرَّتق خير من الفتق، وفي كلّ بلاغ، ولا مقام على الرزية.

وخطبة لمعاوية أيضا

قال العتبي: خطب معاوية الجمعة في يوم صائف شديد الحر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله ﷺ، ثم قال:

إن الله عز وجل خلقكم فلم يَنسكُم، ووعظكم فلم يهملكم، فقال: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا اتَّقوا اللهَ حقَّ تُقاتِه ولا تَموتُنَّ إلاَّ وأنتمْ مُسْلِمون﴾[١]. قوموا إلى صلاتكم.

ومما ذكر لعبيد الله بن زياد عند معاوية

قال ابن دأب: لما قدم عبيد الله بن زياد على معاوية بعد هلاك زياد فوجده لاهياً عنه أنكره، فجعل يتصدّى له بخلوة ليسبُر من رأيه ما كَرِهَ أن يُشرك به عمله، فاستأذن عليه بعد انصداع الطُّلاب وإشغال[٢] الخاصة وافتراق العامة، وهو يوم معاوية الذي كان يخلو فيه بنفسه، ففطن معاوية لما أراد، فبعث إلى ابنه يزيد، وإلى مروان بن الحكم، وإلى سعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحكم، وعمرو بن العاص، فلما أخذوا مجالسهم أذِن له، فسلم ووقف واجما يتصفح وجوه القوم، ثم قال:

صريح العقوق مُكاتمةُ الأدْنين، لا خير في اختصاص وإن وفَرَ[٣]، أحمد الله إليكم على الآلاء[٤]، وأستعينه على اللأواء[٥]، وأستهديه من عمى مُجهِد، وأستعينه على عدو مرصِد، وأشهد أن لا إله إلا الله المنقذ بالأمين الصادق من شقاء هاوٍ، ومن غواية غاوٍ، وصلوات الله على الزكي، نبيّ الرحمة، ونذير الأمّة، وقائد الهدى؛ أمّا بعد يا أمير المؤمنين، فقد عسف بنا ظنٌّ فَرَّع[٦]، وفَزَع صدّع، حتى طمع السحيق،

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٢.
(٢) الإشغال: التفرق.
(٣) وفز: عمّ وشاع.
(٤) الآلاء: النعم.
(٥) اللأواء: الشدة.
(٦) فرع: فرق.

وبئس الرفيق، ودب الوشاة بموت زياد، فكلهم متحفّز للعداوة، وقد قلّص الإزْرة[١]، وشمّر عن عِطافه[٢]، ليقول؛ مضى زياد بما استُلحق به، وولّى على الدنية من مُستلِحقه. فليت أمير المؤمنين سَلِم في دَعته، وأسلم زياداً في ضَعته، فكان ترِب عامّته، وواحد رعيّته، فلا تشخص إليه عين ناظر ولا أصبع مشير، ولا تذلَق[٣] عليه ألسن كَلَمتْه حيا ونبشته ميتا، فإن تكن يا أمير المؤمنين حاببت زياداً بولاء رفات، ودعوة أموات، فقد حاباك زياد بجدّ هصور وعزم جسور، حتى لانت شكائمُ الشّرس، وذلت صعبة الأشوس، وبذل لك يا أمير المؤمنين يمينه ويساره، تأخذ بهما المنيع، وتقهر بهما البزيع[٤]، حتى مضى والله يَغفر له؛ فإن يكن زياد أخذ بحقٍّ فأنزلنا منازل الأقربين يا أمير المؤمنين نمشي الضَّرَّاء[٥] وندبّ الخفاء[٦]، ولنا من خيرك أكمله، وعليك من حوبنا[٧] أثقله، وقد شهد القوم، وما ساءني قربهم ليُقرّوا حقا، ويردّوا باطلا؛ فإنّ للحقِّ مناراً واضحاً، وسبيلا قصْدا؛ فقل يا أمير المؤمنين بأي أمريْك شئت، فما نأرز[٨] إلى غير جُحرتا، ولا نستكثر بغير حقنا، وأستغفر الله لي ولكم.

قال: فنظر معاوية في وجوه القوم كالمتعجب، فتصفَّحهم بلحْظه رجلا رجلا وهو متبسم، ثم اتجه تلقاءه وعقد حبوته وحسر عن يده وجعل يومئ بها نحوه، ثم قال معاوية:

الحمد لله على ما نحن فيه؛ فكل خير منه، وأشهد أن لا إله إلا الله؛ فكل شيء خاضع له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، دلّ على نفسه بما بان عن عجز الخلق أن يأتوا بمثله، فهو خاتم النبيين، ومصدّق المرسلين، وحجة رب العالمين، صلوات الله عليه وسلامه وبركاته، أمّا بعد، فرب خيرٍ مستور، وشر مذكور، وما هو إلا السهم الأخْيب لمن طار به، والحظ المرغِب لمن فاز به، فيهما التفاضل، وفيهما التغابن، وقد

---

(١) الإزرة: الاتزار.
(٢) العطاف: الرداء.
(٣) ذلق اللسان: ذرب وحد.
(٤) البزيع: السيد.
(٥) الضراء: الشجر الملتف.
(٦) دبّ الخفاء: المكر والخديعة.
(٧) الحوب: الإثم.
(٨) يقال: أرزت الحية إلى جحرها، إذا لاذت به ورجعت إليه.

صَفقتْ يداي في أبيك صفقة[١] ذي الخَلة من ضوارع[٢] الفُصْلان، عامَلَ اصطناعي له بالكفر لما أوليته، فما رميتُ به إلا انتصل[٣]، ولا انتضيته إلا غلّقَ جفنه، وزلّت شفرته، ولا قلتُ إلا عانَد، ولا قمتُ إلا قعد، حتى اخترمه الموت، وقد أوقع بخَتَره[٤]، ودل على حقده، وقد كنت رأيت في أبيك رأيا حضَرَه الخطل، والتبس به الزلل، فأخذ مني بحظ الغفلة، وما أُبريء نفسي، إنّ النفس لأمّارة بالسوء؛ فما برحت هَناة أبيك تحطب في جبل القطيعة حتى انتكث المبرم. وانحل عقد الوداد. فيا لها توبةً تُؤتَنف من حَوبة[٥] أورثت ندما أسمعَ بها الهاتف وشاعت للشامت؛ فليهنأ الواصم[٦] ما به احتقر؛ وأراك تحمد من أبيك جِدا وجُسورا: هما أوفيا به على شرف التقحم. وغمط النعمة؛ فدعْهما فقد أذكرتَنا منه ما زهَّدَنا فيك من بعده، وبهما مشيتَ الضرّاء ودببت الخفاء؛ فاذهب إليك، فأنت نَجْل الدَّغَل[٧]، وعِترة النَّغَل؛ والأخَر شرّ.

فقال يزيد: يا أمير المؤمنين، إنّ للشاهد غيرَ حكم الغائب، وقد حضرك زياد، وله مواطن معدودة بخير، لا يفسدها التظنّي، ولا تغّيرها التهم، وأهلوه أهلوك التحقوا بك، وتوسطوا شأنك، فسافرتْ به الرُّكبان، وسمعت به أهل البلدان، حتى اعتقده الجاهل، وشك فيه العالم، فلا يتحجَّر يا أمير المؤمنين ما قد اتسع، وكثرت فيه الشهادات، وأعانك عليه قوم آخرون.

فانحرف معاوية إلى من معه فقال: هذا، وقد نَفِس عليه[٨] ببيعته، وطعن في إمرته، يعلم ذلك كما أعلمه؛ يا لَلرجال من آل أبي سفيان! لقد حكموا وبذَّهم يزيدُ وحده.

ثم نظر إلى عبيد الله فقال: يا ابن أخي، إني لأعْرَف بك من أبيك، وكأني بك

---

(١) صفقت: صادفت.
(٢) ضوارع الفصلان: صغار الفصلان الضعيفة الضاوية.
(٣) انتصل: خرج نصله.
(٤) الختر: العذر.
(٥) الحوبة: الإثم والذنب..
(٦) الواصم: العياب المحقر.
(٧) الدغل والنغل: الفساد.
(٨) نفس عليه: حسده.

في غمرة لا يخطوها السابح؛ فالزم ابنَ عمك، فإنّ لما قال حقا.

فخرجوا، ولزم عبيد الله يزيد يرِد مجلسه ويطأ عِقَبه أياما، حتى رَمَى به معاوية إلى البصرة واليا عليها. ثم لم تزل توكسه أفعاله حتى قتله الله بالخازر[1].

وخطبة لمعاوية أيضا

قال الهيثم بن عدي: لما حضرت معاويةَ الوفاة ويزيد غائب، دعا بمسلم بن عقبة المرِّي، والضحاك بن قيس الفهري، وقال لهما: أبلغا عني يزيد وقولا له: انظر أهل الحجاز فهم عصابتك وعترتك فمن أتاك منهم فأكرمه ومن قعد عنك فتعاهدْه؛ وانظر أهل العراق، فإن سألوك عزْلَ عامل في كل يوم فاعزله عنهم، فإن عزلَ عامل واحد أهونُ عليك من سلِّ مائة ألف سيف، ثم لا ندري علامَ أنت عليه منهم؛ ثم انظر أهل الشام، فاجعلهم الشعار دون الدّثار، فإن رابك من عدوٍّ ريبٌ فارمِهِ بهم فإن أظفرك الله فاردد أهل الشام إلى بلادهم، لا يقيموا في غير بلادهم فيتأدبوا بغير آدابهم؛ ولست أخاف عليك غير عبدالله بـن عمر، وعبد الله بن الزبير. والحسين بن علي؛ فأما عبد الله بن عمر فرجلٌ قدوقذه[2] الورع، وأما الحسين فأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه وأما ابن الزبير فإنه خَب ضَب[3]، فإن ظفرت به فقطعه إربا إربا.

ومات معاوية؛ فقام الضحاك بن قيس خطيبا فقال:

إن أمير المؤمنين كان أنف العرب، وهذه أكفانه ونحن مُدْرِجُوه فيها ومخَلُّون بينه وبين ربه: فمن أراد حضوره بعد الظهر فليحضر.

وصلى عليه الضحاك. ثم قدم يزيد؛ فلم يقدِم أحد على تعزيته حتى دخل عليه عبد الله بن همام فأنشأ يقول:

---

(١) الخازر: نهر بين إربل والموصل. (٢) وقذه: غلبه.

(٣) يقال رجل خب ضب أي مراوغ خداع.

آصبر يزيدُ فقد فـارَقْـتَ ذا مِقـةٍ   وآشْكُرْ حِبَاءَ الذي بالْمُلكِ حاباكـا
لارَزْءَ أعْظَمُ في الأقوامِ قد عَلِموا   مِمَّا رُزِئْـتَ ولا عُقْبى كعُقْبـاكـا
أصْبَحْتَ راعيِ أهْلِ الدينِ كُلِّهِمُ   فأنت تَـرعـاهُـمُ واللهُ يَـرْعـاكـا
وفي مُعـاويـة البـاقـي لنـا خلَـفٌ   أمّـا نُعِيـت فلا يُسمَـع بمنعـاكـا

قال فانفتح الخطباء بالكلام.

وخطبة أيضا لمعاوية

ولما مرض معاوية مرض وفاته قال لمولى له: من بالباب؟ قال: نفر من قريش يتباشرون بموتك! قال: ويحك! لم؟ فوالله ما لهم بعدي إلا الذي يسوءهم وأذن للناس فدخلوا، فحمد الله وأثنى عليه وأوجز، ثم قال:.

أيها الناس، إنا قد أصبحنا في دهر عنود، وزمن شديد، يُعَدُّ فيه المحسن مسيئاً، ويزداد الظالم فيه عُتُواً، لا ننتفع بما علِمنا، ولا نسأل عما جهلْنا، ولا نتخوّف قارعة حتى تُحل بنا، فالناس على أربعة أصناف: منهم من لا يمنعه من الفساد في الأرض إلا مَهانةُ نفسه، وكلال حده، ونضيض وفره؛ ومنهم المصلت لسيفه، المجلِب برجله، المعلن بشرّه؛ قد أشرط[1] نفسَه، وأوبق دينه[2]: لحُطام ينتهزه، أو مِقْنبٍ[3] يقوده، أو مِنبر يَفرعه[4]؛ ولبئس المتجرُ أن تراهما لنفسك ثمنا، ومما لَكَ عند الله عوضاً ـ ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا؛ قد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمر عن ثوبه، وزخرف نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية؛ ومنهم من أقعده عن طلب الملك ضُئُولة نفسه، وانقطاع سببه، فقصرت به الحال عن أمله؛ فتحلى باسم القناعة، وتزيَّا بلباس الزهادة؛ وليس مِن ذلك في مَراح ولا مَغدى؛ وبقي رجال غض أبصارَهم ذكرُ المرجع، وأراق دموعهم

(١) أشرط: أعلم.   (٢) أوبق: أهلك.
(٣) المقنب: الجماعة من الخيل.   (٤) يفرعه: يعلوه.

خوف المضج؛ فهم بين شريد باد، وبين خائف منقمع وساكتٍ مكعوم[1]، وداع مخلص، وموجَع ثكلان؛ قد أخملتهم التَّقِيَّة، وشملتهم الذلة؛ فهم في بحر أجاج؛ أفواههم ضامرة، وقلوبهم قرِحة؛ قد وُعِظوا حتى ملوا، وقُهِروا حتى ذلوا؛ وقُتِلوا حتى قَلُّوا؛ فلْتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حُثالة القَرَظ[2]، وقُراضة الجلمين؛ واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم مَن بعدكم، وآرفضوها ذميمة، فقد رفضت من كان أشغَفَ بها منكم.

وليزيد بن معاوية بعد موت أبيه

الحمد لله الذي ما شاء صنع، من شاء أعطى ومن شاء منع، ومن شاء خفض ومن شاء رفع. إن أمير المؤمنين كان حبْلا من حبال الله، مدّه ما شاء أن يمده، ثم قطعه حين أراد أن يقطعه؛ وكان دون مَن قبله، وخيراً مما يأتي بعد، ولا أُزَكِّيه عند ربه وقد صار إليه؛ فإن يعْف عنه فبرحمته، وإن يعاقبْه فبذنبه؛ وقد وليت بعده الأمر، ولست أعتذر من جهل، ولا أنِي على طلب علمٍ؛ وعلى رسْلِكُمْ[3] إذا كَرِه الله شيئا غيره؛ وإذا أحب شيئا يسَّره.

وخطبة ليزيد أيضا

الحمد لله أحمده وأستعينه، وأُومن به وأتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا؛ من يهد الله فلا مضلَّ له، ومن يُضْلل فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، اصطفاه لوحيه، واختاره لرسالته، بكتاب فصّله وفضَّله، وأعزّه وأكْرمه، ونصره وحفظه؛ ضرب فيه الأمثال، وحلَّل فيه الحلال وحرَّم فيه الحرام وشرع فيه الدين إعذاراً وإنذارا: لئلا يكون للناس على الله حُجَّة بعد الرُسل، ويكون بلاغا لقومٍ عابدين. أوصيكم عباد الله بتقوى الله العظيم الذي ابتدأ الأمور بعلمه وإليه يصير معادها،

(١) المكعوم من الإبل: الذي يشد لئلا يعض أو يأكل.
(٢) القرظ: ورق السلم. (٣) على رسلكم: لا تعجلوا.

وانقطاع مدتها، وتصرم دارها. ثم إني أحذِّركم الدنيا. فإنها حلوة خضِرة، حُفَّت بالشهوات، وراقت بالقليل، وأينعت بالفاني، وتحببت بالعاجل. لا يدوم نعيمُها، ولا تُؤمن فجيعتُها، أكَّالةٌ عَوّالةٌ غَرّارة. لا تُبْقي على حال. ولا يَبْقى لها حال. لن تعدو الدنيا ـ إذا تناهت إلى أمنَّية أهل الرغبة فيها. والرضا بها ـ أن تكون كما قال الله عز وجل: ﴿واَضرِبْ لهم مثَل الحياةِ الدُّنْيا كماءٍ أنْزلناهُ مِن السَّماءِ فاختَلَط به نباتُ الأرض فأصْبَح هَشيما تذْرُوه الرِّياحُ وكان اللهُ على كلِّ شيءٍ مُقْتدِرا﴾ [1]. نسأل الله ربَّنا وإلٰهنا وخالقنا ومولانا أن يجعلنا وإياكم من فزَع يومئذٍ آمنين.

إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله، يقول الله: ﴿وإذا قرِىء القرآنُ فاسْتَمعوا له وأنْصِتُوا لعلَّكُم تُرحمونَ﴾ [2]. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿لقدْ جاءَكم رسولٌ من أنفِسكُمْ عزيزٌ عليهِ ما عنِتُّمْ حريصٌ عليكمْ بالمؤْمنينَ رءُوفٌ رحيمٌ فإنْ توَلَّوْا فقلْ حسْبيَ اللهُ لا إله إلا هو عليه توَكَّلْتُ وهوَ ربُّ العرْش العظِيمِ﴾ [3].

خطب بني مروان

خطبة عبد الملك بن مروان

وكان عبد الملك بن مروان يقول في آخر خطبته: اللهم إن ذنوبي قد عظمت وجلَّت أن تحصى، وهي صغيرة في جنب عفوك فاعف عني.

وخطب بمكة شرفها الله تعالى فقال في خطبته:

إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف ـ يعني عثمان ـ ولا بالخليفة المداهن يعني معاوية ـ ولا بالخليفة المأفون ـ يعني يزيد.

قال أبو إسحاق النظام: أما والله لولا نسبك من هذا المستضعف، وسببك من

---

(١) سورة الكهف الآية ٤٥.

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٠٤. (٣) سورة التوبة الآية ١٢٨.

هذا المداهِن؛ لكنتَ منها أبعد من العَيُّوق[1] . والله ما أخذْتَها بوراثة، ولا سابقة ولا قرابة، ولا بدعوى شورى، ولا بوصية .

خطبة الوليد بن عبد الملك

لما مات عبد الملك بن مروان، رجع الوليد من دفن عبد الملك لم يدخل منزله حتى دخل المسجد، ونادى في الناس: الصلاة جامعة! فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، لا مؤخّر لِمَا قدّم الله، ولا مقدِّم لِمَا أخّر الله، وقد كان من قضاء الله وسابقِ علمه وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه من الموت، موتُ وَلِيِّ هذه الأمة، ونحن نرجو أن يصير إلى منازل الأبرار، للذي كان عليه من الشدة على المريب، واللين على أهل الفضل والدين، مع ما أقام من مَنار الإسلام وأعلامه، وحجّ هذا البيت، وغزو هذه الثغور، وشنَّ الغارات على أعداء الله؛ فلم يكن فيها عاجزا، ولا وانيا، ولا مفرطا؛ فعليكم أيها الناس بالطاعة ولزوم الجماعة؛ فإن الشيطان مع الفذ[2]، وهو من الجماعة أبعد واعلموا أنه من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه . ثم نزل .

وخطب سليمان بن عبد الملك

فقال: الحمد لله، ألا إنّ الدنيا دار غرور، ومنزل باطل، تُضحِك باكيا، وتُبكي ضاحكا، وتُخيف آمنا، وتُؤمِّن خائفا، وتُفقر مثريا، وتثري مقترا ميّالة، غرارة، لعّابة بأهلها . عباد الله، فاتخذوا كتاب الله إماما، وارتضوا به حَكَماً . واجعلوه لكم قائدا . فإنه ناسخ لما كان قبله، ولم ينسخه كتاب [بعده] واعلموا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان كما يجلو ضوءُ الصبح إذا تنفس ظلام الليل إذا عَسْعَسْ[3] .

وخطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله ورضي عنه

قال العتبي: أول خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز رحمه الله قوله: أيها الناس

---

(١) العيّوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن .

(٢) الفذّ: الفرد . (٣) عسعس الليل: أقبل بظلامه .

أصلحوا سرائركم تَصْلُح لكم علانيتُكم، وأصلحوا آخرتكم تَصلح دنياكم، وإن امرأً ليس بينه وبين آدم أبٌ حي لَمُعْرِقٌ في الموت.

وخطبة له رحمه الله

وإن لكل سفر زادا لا محالة. فتزودوا [لسفركم] من دنياكم لآخرتكم التقوى، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه، فرهِبوا ورغِبوا. ولا يطولن عليكم الأمد، فتقسوَ قلوبكم وتنقادوا لعدوّكم. فإنه ما بُسط أمل مَن لا يدري لعله لا يصبح بعد إمسائه أو يمسي بعد إصباحه. وربما كانت بين ذلك خطرات المنايا، وإنما يطمئن إلى الدنيا من أَمِنَ عواقبها. فإنّ من يُداوي من الدنيا كلْماً أصابته جراحة من ناحية أخرى، فكيف يطمئن إليها؟ أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي؛ فنخسر صفقتي، وتظهر عَيْلتي، وتبدو مسكنتي، في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق.

ثم بكى وبكى الناس معه.

خطبة لعمر بن عبد العزيز أيضا

شبيب بن شيبة عن أبي عبد الملك قال كنت من حرس الخلفاء قبل عمر، فكنا نقوم لهم ونبدؤهم بالسلام؛ فخرج علينا عمر رضي الله عنه في يوم عيد وعليه قميص كتان وعمامة على قلنسوة لاطئة[١]، فمثلنا بين يديه وسلمنا عليه، فقال: مَهْ! أنتم جماعة وأنا واحد؛ السلام عليَّ والردُّ عليكم، وسلم، فرددنا، وقرّبت له دابته، فأعرض عنها، ومشى ومشينا حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ثم قال: وددت أنّ أغنياء الناس اجتمعوا فردّوا على فقرائهم، حتى نستوي نحن بهم، وأكون أنا أولهم. ثم قال: مالي وللدنيا؟ أم مالي ولها وتكلم فأرقَّ حتى بكى الناسُ جميعاً يميناً وشمالا، ثم قطع كلامه ونزل؛ فدنا منه رجاء بن حيوة

---

(١) قلنسوة لاطئة: هي ما تسمى بالطاقية.

فقال له: يا أمير المؤمنين، كلمت الناس بما أرقّ قلوبهم وأبكاهم، ثم قطعته أحوج ما كانوا إليه؛ فقال: يا رجاء، اني أكره المباهاة.

خطبة عبدالله بن الأهتم بين يدي عمر بن عبد العزيز

ودخل عبدالله بن الأهتم على عمر بن عبد العزيز مع العامة، فلم يفجأ إلا وهو قائم بين يديه يتكلم؛ فحمد الله وأثنى عليه وقال:

أما بعد، فإن الله خلق الخلق غنياً عن طاعتهم، آمِناً من معصيتهم؛ والناس يومئذ في المنازل والرأي مختلفون، والعرب بشَر تلك المنازل؛ أهل الوبر وأهل المدر، تُحْتازُ دونهم طيباتُ الدنيا ورفاهة عيشها؛ ميِّتهم في النار وحيهم أعمى، مع ما لا يحصى من المرغوب عنه والمزهود فيه؛ فلما أراد الله أن ينشر فيهم رحمتَه، بعثَ إليهم رسولا منهم عزيزاً عليه ما عَنِتُوا حَريصا عليهم، بالمؤمنين رؤوف رحيم؛ فلم يمنعهم ذلك أن جرحوه في جسمه، ولقبوه في اسمه، ومعه كتاب من الله ناطق، لا يرحل إلا بأمره، ولا ينزل إلا بإذنه، واضطروه إلى بطن غار؛ فلما أُمر بالعزيمة أسفر لأمر الله لونُه، فأفلج اللهُ حجتَه، وأعلى كلمتَه، وأظهر دعوته. وفارق الدنيا تقيا ﷺ.

ثم قام من بعده أبو بكر رضي الله عنه، فسلك سُنَّتَه وأخذ سبيله؛ وارتدَّت العرب فلم يقبل منهم إلا الذي كان رسولُ الله ﷺ يقبله؛ فانتضى السيوف من أغمادها، وأوقد النيران في شُعلها، ثم ركب بأهلِ الحق أهلَ الباطل، فلم يبرح يفصل أوصالهم ويسقي الأرض دماءهم، حتى أدخلهم في الباب الذي خرجوا منه، وقرّرهم بالأمر الذي نفروا منه؛ وقد كان أصاب من مال الله بكرا(١) يرتوي عليه. وحبشية ترضع ولدا له؛ فرأى ذلك غُصَّة في حلقه عند موته، وثقلا على كاهله، فأدّاه إلى الخليفة من بعده وبريء إليهم منه، وفارق الدنيا تقِيا نقِيا على منهاج صاحبه.

ثم قام من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فمصر الأمصار، وخلط الشدة

---

(١) البكر: الفتى من الإبل.

باللين، وحسر عن ذراعيه، وشمر عن ساقيه، واعد للأمور أقرانها وللحرب آلتها، فلما أصابه قِنٌّ[1] المغيرة بن شعبة، أمر ابن العباس أن يسأل الناس هل يُثبتون قاتله؟ فلما قيل له قِنّ المغيرة استهل[2] بحمد الله أن لا يكون أصابه من له حق في الفيء، فيستحل دمه بما استحل من حقه؛ وقد كان أصاب من مال الله بضعة وثمانين ألفا فكسر بها رباعه[3]، وكره بها كفالة أهله وولده، فأدّى ذلك إلى الخليفة من بعده، وفارق الدنيا تقيا نقيا على منهاج صاحبه.

ثم إنَّا والله ما اجتمعنا بعدهما إلا على ضلع أعوج، ثم إنك يا عمر ابن الدنيا ولدتك ملوكها، وألقمتك ثديها، فلما وليتَها ألقيتها وأحببتَ لقاء الله وما عنده؛ فالحمد لله الذي جلا بك حوبتَنا، وكشف بك كُرْبتنا. امضِ ولا تلتفت، فإنه لا يُغني عن الحق شيءٌ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين وللمؤمنات.

ولما قال: ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدهما إلا على ضلع أعوع. سكت الناس كلهم غير هشام، فإنه قال: كذبت!

وخطبة أيضاً لعمر بن عبد العزيز

قال أبو الحسن: خطب عمر بن عبد العزيز بخناصِرَة[4] خطبة لم يخطب بعدها حتى مات، رحمه الله. حمد الله وأثني عليه، ثم قال:

أيها الناس، إنكم لم تُخْلقوا عبثاً، ولم تُتْرَكوا سدى؛ وإن لكم معاداً يحكم الله بينكم فيه، فخاب وخَسِرَ من خرج من رحمة الله التي وسِعَتْ كل شيء، وحُرِم جنةً عرضُها السموات والأرض، واعلموا أن الأمان غدا لمن خاف اليوم وباع قليلاً بكثير، وفانيا بباق، ألا تَروْن أنكم في أسلاب الهالكين، وسيخلِّفها من بعدكم الباقون [كذلك] حتى تُردوا إلى خير الوارثين؛ ثم إنكم في كل يوم تُشَيِّعون غاديا ورائحا

---

(١) القن: العبد. (٢) استهل: صاح.

(٣) الرباع: الدور. (٤) خناصرة: بلد بالشام من أعمال حلب.

إلى الله، قد قضى نحبَه، وبلغ أجله، ثم تغيّبونه في صدع من الأرض، ثم تدعونه غير مُوَسَّد ولا مُمهَّد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب وواجه الحساب، [مرتهناً بعمله]، غنياً عما ترك، فقيراً إلى ما قدّم؛ وآيم الله إني لا أقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم [من الذنوب] أكثر مما عندي، فأستغفر الله لي ولكم، وما تَبلغنا [عن أحد منكم] حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سدَدناها، ولا أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي ولحمتي الذين يلونني، حتى يستوي عيشنا وعيشكم؛ وآيم الله إني لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة لكان اللسان به ناطقاً ذلولاً، عالماً بأسبابه؛ ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة، دل فيها على طاعته، ونهى عن معصيته.

ثم بكى، فتلقى دموعَ عينيه بردائه؛ فلم يُرَ بعدها على تلك الأعواد حتى قبضه الله تعالى.

خطبة يزيد بن الوليد

حين قَتل الوليدَ بن يزيد

بقِيّ بن مخلد قال: حدّثني خليفة بن خياط، قال: حدّثنا إسماعيل بن إبراهيم قال: حدّثني إبراهيم بن إسحق أن يزيد بن الوليد لما قتَلَ الوليد بن يزيد قام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، إني ما خرجت أشراً ولا بطراً، ولا حرصاً على الدنيا، ولا رغبة في الملك؛ وما بي إطراء نفسي ولا تزكية عملي، وإني لظلوم لنفسي إن لم يرحمني ربي، ولكني خرجت غضباً لله ودينِه، وداعياً إلى كتابه وسنة نبيه، حين دَرست[1] معالم الهدى، وطَفِيء نور أهل التقوى، وظهر الجبار العنيد المستحيل الحرمة، والراكب البدعة والمغيِّر السنة؛ فلما رأيت ذلك أشفقت إذ غشيتكم ظلمة لا تقتلع، على كثير من ذنوبكم وقسوة من قلوبكم. وأشفقت أن يدعو كثيراً من الناس إلى ماهو عليه، فيجيبه من أجابه منكم؛ فاستخرت الله في

(١) درست: امحت وزالت.

أمري، وسألته أن لا يكلني إلى نفسي؛ وهو ابن عمي في نسبي، وكفئي في حسبي؛ فأراح الله منه العباد، وطهر منه البلاد، ولايةً من الله وعَوناً بلا حول منا ولا قوة، ولكن بحول الله وقوته وولايته وعونه.

أيها الناس. إن لكم عليَّ إن وليتُ أموركم أن لا أضع لبِنة على لِبنة ولا حجراً على حجر، ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد حتى أسد فقره [وخَصاصة أهله]، وأقيم مصالحه، بما يحتاجون إليه ويقوون به؛ فإن فضَل شيء ردَدْته إلى البلد الذي يليه وهو من أحوج البلدان إليه، حتى تستقيمَ المعيشةُ بين المسلمين وتكونوا فيه سواء، ولا أجَمِّركم[1] في بعوثكم فتفتقدوا وتفتتن أهاليكم؛ فإن أردتم بيعتي على الذي بذلت لكم فأنا لكم به، وإن مِلْتُ فلا بيعة لي عليكم؛ وإن رأيتم أحداً أقوى عليها مني فأردتم بيعته، فأنا أول من يبايعه ويدخل في طاعته؛ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

خطب بني العباس

العتبي قال: قيل لمسلمة بن هلال العبدي: خطبنَا جعفر بن سليمان الهاشمي خطبة لم يُسمَعْ أحسنُ منها، وما دَرَيْنا أوَجْهُه كان أحسن أم كلامه! قال: أولئك قوم بنور الخلافة يشرقون، وبلسان النُّبوة ينطقون.

خطبة أبي العباس السفاح بالشام

خطب أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي، لما قُتل مروان بن محمد قال: ﴿ألم تر إلى الذين بَدَّلوا نعمة الله كفراً وأحلُّوا قومَهم دار البوار، جهنمَ يصلونها وبئس القرار﴾[2] نَكص بكم يا أهل الشام آلُ حرب وآلُ مروان، يتسكعون بكم الظلم، ويتهوَّرون بكم مداحِض الزلق، يطئون بكم حَرَمَ اللهِ وحرمَ رسوله. ماذا يقول

---

(١) يقال جمر الجيش: أي حبسه في أرض العدو ولم يقفله.

(٢) سورة ابراهيم الآية ٢٨.

زعماؤكم غداً؟ يقولون: ﴿ربَّنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضِعفاً من النار﴾ [1] إذاً يقول الله عز وجل: ﴿لِكلٍّ ضِعْفٌ ولكنْ لا تعلَمونَ﴾ [2] أما أمير المؤمنين فقد ائتنف [3] بكم التوبة، واغتفر لكم الزَّلة، وبسط لكم الإقامة، وعاد بفضله على نقصكم وبحلمه على جهلكم، فلتفرخ روعكم ولتطمئن به داركم، وليُقطع مصارع أوائلكم فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا.

خطب المنصور

خطب أبو جعفر المنصور، واسمه عبد الله بن محمد بن علي. لما قَتل الأمويين، فقال:

أحرز لسان رأسه. انتبه امرؤ لحظه. نظر امرؤ في يومه لغده؛ فمشى القصد وقال الفصل، وجانب الـهُجْرَ.

ثم أخذ بقائم سيفه، فقال: أيها الناس، إن بكم داء هذا دواؤه، وأنا زعيم لكم بشفائه؛ فليعتبر عبدٌ قبل أن يُعتبر به: فإنما بعد الوعيد الإيقاع وإنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله.

خطبة المنصور حين خروجه إلى الشام

من يَلْقَ أبطالَ الرجالِ يُكْلَمِ   شِنْشِنَةٌ أعْرفها من أخْزَمِ [4]

مهلاً مهلاً زوايا الإرجاف [5] وكهوف النفاق عن الخوض فيما كُفيتم، والتخطي إلى ما حُذِّرتم، قبل أن تتلف نفوس، ويقلَّ عدد، ويدول عز؛ وما أنتم وذاك؟ ألم تجدوا ما وعد ربُّكم من إيراث المستضعفين من مشارق الأرض ومغاربها حقاً؟ والجَحْدَ [6]

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٨.

(٢) سورة الأعراف الآية ٣٨.

(٣) إئتنف: ابتدأ واستقبل.

(٤) الشنسنة: العادة الغالبة. وفي المثل: «شنشنة أعرفها من أخزم». يضرب في قرب الشبه في الخلق.

(٥) الإرجاف: الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب.

(٦) الجحد: كفران النعم.

الجَحد، ولكن خِب كامن، وحسد مُكْمِد، فبُعداً للقوم الظالمين.

وخطب أيضاً

قال يعقوب بن السكيت: خطب أبو جعفر المنصور يوم جمعة، فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس اتقوا الله...

فقام إليه رجل فقال: أُذَكِّرُك من ذكرتنا به يا أمير المؤمنين.

قال أبو جعفر: سمعاً سمعاً لمن فهم عن الله وذكَّر به، وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه فتأخذني العزة بالإثم؛ لقد ضللتُ إذاً وما أنا من المهتدين. وأما أنت - والتفت إلى الرجل فقال - واللهِ ما اللهَ أردتَ بها، ولكن ليقال: قام فقال فعوقب فصبر! وأهْونْ بها! [ويْلكَ] لو كانت العقوبة [فاهْتبلها إذ عَفَرْتُ]؛ وأنا أنذركم أيها الناس أختَها؛ فإن الموعظة علينا نزلت، وفينا انبثت.

ثم رجع إلى موضعه من الخطبة.

وخطبة أيضاً للمنصور بمكة

وخطب بمكة فقال أيها الناس، إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده؛ وحارسُه على ماله، أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه؛ فقد جعلني الله عليه قفلاً، إن شاء أن يفتحني فتحَني لإعطائكم وقسْم أرزاقكم؛ فإن شاء أن يُقفلني عليها أقفلني؛ فارغبوا إلى الله وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم من فضله ما أعلمكم به في كتابه إذ يقول: ﴿اليَومَ أكملْتُ لكمْ دِينَكم وأتممْتُ علَيْكُم نعمَتِي ورَضيتُ لكم الإسلامَ ديناً﴾[1] أن يوفقني للرساد وللصواب، وأن يلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم؛ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

---

(١) سورة المائدة الآية ٣.

وخطبة لسليمان بن علي

﴿ولقد كَتَبْنَا في الزَّبورِ من بَعدِ الذّكْرِ أنَّ الأرضَ يرثُها عِباديَ الصَّالحونَ . إنّ في هذا لبَلاغاً لقَوْمٍ عابِدينَ﴾[1] قضاءٌ مبرم، وقولٌ فصل، ما هو بالهزل؛ الحمد لله الذي صدَق عبده، وأنجز وعده، وبُعداً للقوم الظالمين، الذين اتخذوا الكعبة غرضاً، والفيءَ إرثاً، والدين هزوا، وجعلوا القرآن عِضِين، لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون، فكائنْ ترى من بئرٍ مُعطَّلة وقصرْ مَشيد؛ ذلك بما قدمتْ أيديهم وأن الله ليس بِظلامٍ للعبيد؛ أُمهِلوا والله حتى نبذوا الكتاب، واضطهدوا العِترة، ونبذوا السُّنة، [وعَنَدوا] واعتدوا، واستكبروا، وخاب كل جبار عنيد ثم أخذهم، فهل تحِسُّ منهم من أحدٍ أو تَسْمَعُ لهم ركزاً ؟

خطبة عبد الملك بن صالح بن علي

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم: ﴿أفلا يَتَدبرونَ القرآنَ أم على قُلوبٍ أَقْفالُها﴾[2] يا أهل الشام: إن الله وصف إخوانكم في الدين وأشباهكم في الأجسام، فحذرهم نبيه محمداً ﷺ فقال: ﴿وإذا رَأَيْتَهمْ تُعجِبكَ أجسامُهم وإن يَقولوا تسْمَعْ لِقَولهم كأنهم خُشُبٌ مُسنّدةٌ يَحْسَبونَ كلَّ صَيْحةٍ عليهم، هُمُ العَدُوُّ فاحْذَرُهمْ، قاتلَهُم الله أنى يُؤْفكُون﴾[3]. فقاتلكم الله أني تُصرفون! جثث مائلة، وقلوب طائرة، تشبُّون الفتن وتولون الدُّبر إلا عن حرم الله فإنه دريئتكم، وحرم رسوله فإنه مغزاكم؛ أما وحرمة النبوة والخلافة، لتنفِرن خفافا وثقالا، أو لأوسِعنَّكم إرغاماً ونكالاً .

وخطب صالح بن علي

يا أعضاد النفاق وعبُد الضلالة، أغركم لين إبساسي وطولُ إيناسي[4]؛ حتى ظن جاهلكم أن ذلك لفُلول حدّ، وفتور جدّ، وخور قناة! كذبت الظنون؛ إنها العِترة

(١) سورة الانبياء الآية ١٠٥ .

(٢) سورةمحمد (ص) الآية ٢٤ . (٣) سورة المنافقون الآية ٤ .

(٤) الإبساس: الطلب والجهد . ومنه المثل « الإيناس قبل الإبساس » يضرب في المداراة عند الطلب .

بعضها من بعض، فإذا قد استوليتم العافية فعندي فصال وفطام وسيف يقدّ الهام، وإني أقول:

أغَرّكُم أنّي بأكرَم شيمةٍ رفيقٌ وأنّي بالفواحِشِ أخرَقُ
ومثْلي إذا لم يُجزَ أَحْسنَ سعيهِ تكلمُ نُعمَاه بِديها فتنْطِق
لعمْري! لقد فاحشتني فغَلبتني هنيئاً مريئاً أنْتَ بالفُحْشِ أرْفق

وخطب داود بن علي بالمدينة

فقال: أيها الناس. حتّام يهتف بكم صريخُكم؟ أما آن لراقدكم أن يهب من نومه؟ ﴿كلا بلْ رانَ على قلوبهم ما كانُوا يَكْسِبُون﴾[1] ! أغركم الإمهالُ حتى حسبتموه الإهمال؟ هيهات منكم وكيف بكم والسوط في كفي والسيف مُشهر:

حتى يُبيد قبيلة فقبيلةً ويَعضَّ كلَّ مُثَقَّفٍ بالهام[2]
ويُقِمْنَ رباتِ الخدُور حواسِراً يَمسحْنَ عُرْضَ ذَوائِب الأيْتام[3]

خطبة داود بن علي بمكة

وخطب داود بن علي بمكة: شكراً شكراً! والله ما خرجنا لنحفر فيكم نهراً ولا لنبتني فيكم قصراً، أظَنّ عدوّ الله أن لن يُظفَر به، إذ مُدّ له في عنانه، حتى عثر في فضل زمامه! فالآن عاد الأمر في نصابه، وطلَعت الشمس من مَشْرقها، والآن تولّى القوس باريها، وعادت النبل إلى النَّزعة، ورجع الأمر إلى مُسْتقرّه، في أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة، فاتقوا الله واسمعوا وأطِيعوا، ولا تجعلوا النِّعم التي أنعم الله عليكم سبباً إلى أن تُتيح هلكتكم، وتزيل النِّعم عنكم.

خطبة المهدي

الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه، ورضيَ به من خلقه، أحمدَه على آلائه،

---

(١) سورة المطففين الآية ١٤ . (٢) المثقف: الرمح.
(٣) عُرض الشيء: جانبه وناحيته.

وأمجِّده لبلائه، وأستعينه وأومن به، وأتوكل عليه توكُّل راضٍ بقضائه، وصابر لبلائه؛ وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده المصطفى، ونبيه المجتبى، ورسولُه إلى خلقه، وأمينه على وحيه؛ أرسله بعد انقطاع الرجاء، وطموس العلم، واقتراب من الساعة، إلى أمّة جاهلية، مختلفة أمية، أهل عداوة وتضاغن، وفُرقة وتَباين، قد استهوتهم شياطينهم، وغلب عليهم قرَناؤهم، فاستشعروا الرَّدى، وسلكوا العَمى، يبشّر من أطاعه بالجنة وكريم ثوابها، ويُنذر من عصاه بالنار وأليم عقابها ﴿ليَهلِك مَن هَلك عن بيِّنة ويَحيَ من حيَّ عن بيِّنة وأنّ الله لَسميع عليم﴾[1].

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإن الاقتصار عليها سلامة، والترك لها ندامة؛ وأحُثُّكم على إجلال عظمته، وتوقير كبريائه وقدرته، والانتهاء إلى ما يقرّب من رحمته ويُنْجي من سخطه، ويُنال به ما لديه من كريم الثواب؛ وجزيل المآب؛ فاجتنبوا ما خوّفكم الله من شديد العقاب، وأليم العذاب، ووعيد الحساب؛ يوم توقفون بين يدي الجبار، وتعرَضون فيه على النار ﴿يومَ لا تَكلَّم نفسٌ إلا بإذنِه. فمنهم شقيٌّ وسعيد﴾[2]؛ ﴿يومَ يفرُّ المرءُ من أخيه، وأمّه وأبيه، وصاحبته وبنيه. لكلِّ آمريء منهم يَومئذٍ شأن يُغنيه﴾[3]؛ ﴿يومَ لا تَجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يُقبل منها عدْلٌ ولا تنفعُها شفاعة ولا هم يُنصَرون﴾[4]؛ ﴿يومَ لا يَجزي والدٌ عن ولدِه ولا مولودٌ هو جازٍ عن والدِهِ شيئاً؛ إنَّ وعْد الله حقٌّ فلا تغُرَّنَّكمُ الحياة الدنيا ولا يغرَنَّكم بالله الغُرورُ﴾[5]؛ فإن الدنيا دارَ غُرور، وبلاءٍ وشُرور، واضمحلالٍ وزوال، وتقلُّبٍ وآنتقال؛ قد أفنت من كان قبلكم، وهي عائدة عليكم وعلى من بعدكم؛ من ركض إليها صرَعَتْه، ومن وثِق بها خانته؛ ومن أملها كذَبته، ومن رجاها خذلته؛ عزُّها وغِناها فقر؛ والسعيدُ من تركها، والشقيُّ فيها من آثرها،

(١) سورة الأنفال الآية ٤٢. (٢) سورة هود الآية ١٠٥.
(٣) سورة عبس الآية ٣٤. (٤) سورة البقرة الآية ١٢٣.
(٥) سورة لقمان الآية ٣٣.

والمغبون فيها مَن باع حظَّهُ من دارِ آخرته بها؛ فاللهَ عبادَ الله والتوبةُ مقبولة، والرحمة مبسوطة؛ وبادِروا بالأعمال الزكية في هذه الأيام الخالية قبل أن يؤخذ بالكَظم[1]، وتندموا فلا تُقالون بالندم، في يوم حسرةٍ وتـأسُّف وكـآبـة وتلهُّـف؛ يـومٌ ليس كالأيام، وموقف ضنك المُقام، إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتابُ الله؛ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وإذا قرِيءَ القرآن فآستمعوا له وأَنصِتوا لعلَّكم تُرحمون﴾[2].

أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم! بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلْهاكُمُ التَّكاثر حتى زُرتمُ المقابِر. كلاَّ سوف تعْلمون. ثم كلاَّ سوف تعلمون. كلاَّ لو تعلمون عِلم اليقين لتَرَوُنَّ الجحيم. ثم لَترونَّها عيْنَ اليقين. ثم لتُسأَلُنَّ يومئذٍ عن النَّعيمِ﴾[3].

أوصيكم عباد الله بما أوصاكم الله به، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه، وأرضى لكم طاعة الله، وأستغفر اللهَ لي ولكم.

خطبة هارون الرشيد

الحمد لله؛ نَحمَده على نِعمه، ونستعينه على طاعته، ونستنصره على أعدائه، ونؤمن به حقاً، ونتوكل عليه مفوّضين إليه؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. بعثه الله على فَترةٍ من الرسل، ودروسٍ من العلم، وإدبارٍ من الدنيا، وإقبال من الآخرة؛ بشيراً بالنعيم المقيم؛ ونذيراً بين يَديْ عذابٍ أليم، فبلّغ الرسالة، ونَصح الأمّة، وجاهد في الله، فأدّى عن الله وعدَه ووعيدَه حتى أتاه اليقين؛ فعلى النبّي من الله صلاةٌ ورحمة وسلام.

أوصيكم عبـاد الله بتقـوى الله؛ فـإن في التقـوى تكفير السيئـات، وتضعيـف الحسنات، وفوزاً بالجنة، ونجاة من النار؛ وأحذركم يوماً تَشخص فيه الأبصار، وتُبلى فيه الأسرار، يومَ البعث ويومَ التغابن، ويوم التلاقي ويوم التنادي، يوم لا يُستعتَب من سيئة ولا يُزداد من حسنة؛ ﴿يومَ الآزفة، إذ القلوبُ لدَى الحناجر كاظمين ما

(١) الكظم: الحلق أو الفم أو مخرج النفس.

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٠٤. (٣) سورة التكاثر الآية ١ ـ ٨.

للظالمين من حميمٍ ولا شفيعٍ يُطاع، يعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تَخفي الصُّدور؛ واتقوا يوماً تُرجَعون فيه إلى الله، ثم تُوفَّى كلُّ نفسٍ ما كسَبتْ وهم لا يُظلمون﴾(١).

عباد الله؛ إنكم لم تُخلقوا عبَثاً، ولن تُتركوا سُدًى؛ حصِّنوا إيمانكم بالأمانة، ودينكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة؛ فقد جاء في الخبر أن النبي ﷺ قال: «لا إيمانَ لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له، ولا صلاة لمن لا زكاةَ له». إنكم سَفْرٌ مجتازون وأنتم عن قريبٍ تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء؛ فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة، وإلى الرحمة بالتقوى، وإلى الهدى بالأمانة، فإن الله تعالى ذِكره أوجب رحمتَه للمتقين، ومغفرتَه للتائبين، وهُداه للمنيبين؛ قال الله عز وجل وقوله الحق: ﴿ورحمتِي وسِعتْ كلَّ شيءٍ، فسأكتُبها للذين يتَّقون ويُؤتون الزكاةَ﴾(٢). وقال: ﴿وإني لغفَّارٌ لمن تاب وآمن وعمِل صالحاً ثم آهتدى﴾. وإياكم والأماني، فقد غرّت وأوردتْ وأبقت كثيراً حتى أكذبتْهم مناياهم، فتناوَشوا(٣) التوبةَ من مكان بعيد، وحيلَ بينهم وبين ما يشتهون؛ فأخبَركم ربُّكم عن المَثلات فيهم، وصرّف الآيات، وضرب الأمثال، فرغّب بالوعد وقدّم إليكم الوعيد، وقد رأيتم وقائعه بالقرون الخوالي جيلاً فجيلاً، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر باختطاف الموت إياهم من بيوتكم، ومن بين أظهركم، لا تدفعون عنهم، ولا تَحُولون دونهم، فزالت عنهم الدنيا، وانقطعت بهم الأسباب، فأسلمتْهم إلى أعمالهم عند الموقف والحساب والعقاب ﴿ليَجزيَ الذين أساءُوا بما عملوا ويَجزيَ الذين أحسنوا بالحُسنى﴾(٤).

إنَّ أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتابُ الله؛ يقول الله عز وجل: ﴿وإذا قريءَ القرآن فاستمِعوا له وأنصِتوا لعلَّكم تُرحمون﴾(٥). أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إنه هو السميع العليم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قل هو الله أحدٌ، اللهُ الصَّمدُ، لم يَلِدْ ولم يُولدْ ولم يكن له كُفُواً أحدٌ﴾(٦). آمرُكم بما أمركم الله به، وأنهاكم عما نهاكم

---

(١) سورة غافر الآية ١٨.
(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٦.
(٣) تناوشوا: تناولوا.
(٤) سورة النجم الآية ٣١.
(٥) سورة الأعراف الآية ٢٠٤.
(٦) سورة الاخلاص الآية ١ - ٦.

الله عنه، وأستغفر اللهَ لي ولكم.

خطبة المأمون في يوم الجمعة

الحمد لله مستخلِص الحمدِ لنفسه، ومستوجِبه على خلقه؛ أحمدُه وأستعينُه؛ وأُومن به وأتوكل عليه؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون. أُوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله وحده، والعمل لما عنده، والتنجُّز لوعده، والخوف لوعيده؛ فإنه لا يسلَم إلا من اتقاه ورجاه، وعمل له وأرضاه. فاتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم بأعمالكم؛ وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ويفنى، وترحلوا عن الدنيا، فقد جُدّ بكم، واستعدّوا للموت فقد أظلّكم، وكونوا كقوم صِيح بهم فانتبهوا، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدارٍ فاستبدلوا؛ فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثاً، ولم يترككم سدى، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الواحدة لجديرة بقصر المدّة، وإن غائباً يحدوه الجديدان الليل والنهار لجدير بسرعة الأوْبة، وإن قادماً يحل بالفوز أو الشقوة لَمْستحِقٌ لأفضل العدّة، فاتقى عبدٌ ربه ونصح نفسه وقدّم توبته وغلب شهوته، فإن أجلَه مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان موكّل به يزيِّن له المعصية ليركبها، ويُمنِّيه التوبةَ ليسوِّفها، حتى تهجم عليه منيته أغفلَ ما يكون عنها، فيا لها حسرةً على كل ذي غفلة أن يكون عمرُه عليه حَجة، أو تؤدّيه أيامه إلى شِقوة؛ نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تُبطره نعمة، ولا تُقصِّر به عن طاعة ربه غفلة، ولا يَحِل به بعد الموت فَزْعة، إنه سميع الدعاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، فعّال لما يريد.

خطبة المأمون يوم الأضحى

قال بعد التكبير والتحميد: إن يومكم هذا يومٌ أبان الله فضله، وأوجب تشريفه، وعظَّم حُرمته، ووفّق له من خلقه صفوتَه، وابْتلى فيه خَليله، وفَدَى فيه من الذبح

العظيم نبيَّه، وجعله خاتَم الأيام المعلومات من العشر، ومُقدَّم الأيام المعدودات من النفْر[1]، يومٌ حرامٌ من أيام عظام في شهر حرام، يوم الحج الأكبر، يومٌ دعا الله إلى مشهده، ونزل القرآن العظيم بتعظيمه، قال الله عز وجل: ﴿وأذِّنْ في النّاس بالحجِّ يأْتُوكَ رجالاً وعلى كلِّ ضامِرٍ يأْتينَ من كل فجٍّ عميقٍ﴾[2] فتقرّبوا إلى الله في هذا اليوم بذبائحكم، وعظِّموا شعائر الله، واجعلوها من طيِّب أموالكم، وبصحة التقوى من قلوبكم، فإنه يقول: ﴿لنْ يَنالَ اللهَ لُحومُها ولا دِماؤُها ولكنْ ينالُهُ التّقوى منْكم﴾[3].

ثم التكبير والتحميد، والصلاة على النبي ﷺ والوصية بالتقوى ثم ذكر الموت، ثم قال:

وما من بعده إلا الجنة أو النار، عظم قدر الدارين، وارتفع جزاءُ العمَلين وطالت مدة الفريقين؛ الله الله، فوالله إنه الجِدُّ لا اللّعِب، والحقُّ لا الكذِب. وما هو إلا الموتُ والبعثُ والميزان والحساب والصراط والقصاص والثواب والعقاب. فمن نجا يومئذ فقد فاز، ومن هوَى يومئذ فقد خاب، الخير كلُّه في الجنة، والشرُّ كله في النار.

وخطبة المأمون في الفطر

قال بعد التكبير والتحميد: ألا وإن يومكم هذا يومُ عيدٍ وسُنّة، وابتهال ورغْبة، يومٌ ختَم الله به صيام شهر رمضان، وافتتح به حج بيتِه الحرام، فجعله [خاتمة الشهر، و] أول أيام شهور الحج، وجعله مُعقِّبا لمفروض صيامكم، ومُتنفَّل قيامكم، أحلّ الله لكم في الطعام، وحرم عليكم فيه الصيام، فاطلبوا إلى الله حوائجكم، واستغفروه بتفريطكم. فإنه يقال: لا كبير مع ندم واستغفارٍ، ولا صغير مع تمادٍ وإصرار.

---

(١) يوم النفر: يوم ينفر الناس من منى. (٢) سورة الحج الآية ٢٧.

(٣) سورة الحج الآية ٣٧.

ثم كبّر وحمد وذكر النبي ﷺ، وأوصى بالبر والتقوى، ثم قال:

اتقوا الله عباد الله، وبادروا الأمر الذي اعتدل فيه يقينُكم ولم يحضر الشك فيه أحداً منكم، وهو الموت المكتوب عليكم، فإنه لا تُستقال بعده عثرة، ولا تُحْظَر قبله توبة؛ واعلموا أنه لا شيء [قبله إلا دونه، ولا شيء] بعده إلا فوقه: ولا يعين على جزعه وعَلَزِه[1] وكُرَبه، وعلى القبر وظلمته ووحشته وضيقه وهول مطلعه ومسألة ملكيه - إلا العمل الصالح الذي أمر الله به، فمن زلت عند الموت قدمُه، فقد ظهرت ندامتُه، وفاتته استقالتُه، ودعا من الرجعة إلى ما لا يجاب إليه، وبذل من الفدية ما لا يقبل منه؛ فالله الله عباد الله، كونوا قوماً سألوا الرجعة فأُعطوها إذ مُنِعَها الذين طلبوها، فإنه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم، إلا هذا الأجل المبسوط لكم؛ فاحذروا ما حذركم الله فيه، واتقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم، ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم، فلينظر عبد ما يضع في ميزانه مما يثقل به وما يملي في صحيفته الحافظة لما عليه وله؛ فقد حكى الله لكم ما قال المفرّطون عندما طال إعراضهم عنها؛ قال جل ذكره: ﴿ووُضِعَ الكِتابُ فتَرَى المُجْرِمين مُشفَقين مِمَّا فيه ويقولونَ: يا ويْلتَنا ما لهذا الكتاب لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها؟ ووَجدُوا ما عَلِموا حاضِراً ولا يَظْلِمُ ربُّك أحداً﴾[2]. وقال: ﴿ونضعُ الموازينَ القِسْطَ ليوْم القيامةِ فلا تظْلم نفسٌ شيئاً وإن كان مِثْقالَ حبّةٍ من خرْدل أتيْنا بها وكفى بنا حاسِبين﴾[3]! ولست أنهاكم عن الدنيا بأكثر مما نهتكم به الدنيا عن نفسها، فإن كل ما بها يحذِّر منها وينهى عنها، وكل ما فيها يدعو إلى غيرها، وأعظم مما رأته أعينكم من فجائعها وزوالها، ذمُّ كتاب الله لها والنهي عنها؛ فإنه يقول تبارك وتعالى: ﴿فلا يغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدُّنيا ولا يَغُرَّنَّكُمْ باللهِ الغَرورُ﴾[4]. وقال: ﴿إنما الحياة الدنيا لعِبٌ ولهْوٌ وزينةٌ وتفاخُرٌ بينكُمْ وتكاثُرٌ في الأمْوال والأوْلادِ﴾[5]. فانتفعوا

---

(١) العلز: ما يصيب المريض عند حشرجة الموت من رعدة واضطراب.

(٢) سورة الكهف الآية ٤٩ . (٣) سورة الانبياء الآية ٤٧ .

(٤) سورة فاطر الآية ٥ . وسورة لقمان الآية ٣٣ . (٥) سورة الحديد الآية ٢٠ .

بمعرفتكم بها وبإخبار الله عنها، واعلموا أن قوماً من عباد الله أدركتهم عصمة الله فحذِروا مصارعها وجانبوا خدائعها، وآثروا طاعة الله فيها وأدركوا الجنة بما يتركون منها.

خطبة عبدالله بن الزبير حين قدم بفتح أفريقية

قدم عبد الله بن الزبير على عثمان بن عفان بفتح إفريقية، فأخبره مشافهة وقص عليه كيف كانت الوقعة، فأعجب عثمان ما سمع منه، فقال له: يا بنيّ، أتقوم بمثل هذا الكلام على الناس؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أنا أهْيَبُ لك مني لهم! فقام عثمان في الناس خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إن الله قد فتح عليكم إفريقية، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله، وكان عبد الله بن الزبير إلى جانب المنبر، فقام خطيبا، وكان أول من خطب إلى جانب المنبر، فقال:

الحمد لله الذي ألفَّ بين قلوبنا وجعلنا متحابين بعد البِغضة، الذي لا تُجْحَد نعماؤه، ولا يزول مُلكه؛ له الحمد كما حَمَد نفْسَه، وكما هو أهله، انتخب محمدا ﷺ فاختاره بعلمه، وائتمنه على وحيه، واختار له من الناس أعوانا قَذَف في قلوبهم تصديقه ومحبّته، فآمنوا به وعزّزوه ووقّروه وجاهدوا في الله حق جهاده، فاستشهد في الله منهم من استشهد على المنهاج الواضح، والبيع الرابح، وبقي منهم من بقي، لا تأخذهم في الله لومةُ لائم.

أيها الناس، رحمكم الله! إنا خرجنا للوجه الذي علمتم، فكنا مع والٍ حافظ، حَفِظَ وصية أمير المؤمنين، كان يسير بنا الأبْرَدَيْن(١)، ويخفض(٢) بنا في الظهائر، ويتخذ الليل جملا، يعجل الرَّحلة من المنزل الجدب، ويطيل اللبث في المنزل الخصب، فلم نزل على أحسن حالة نعرفُها من ربنا، حتى انتهينا إلى إفريقية، فنزلنا منها حيث يسمعون صهيل الخيل، ورغاء الإبل، وقعقعة السلاحْ فأقمنا أياما نجِمُّ كُرَاعنا(٣)!

(١) الأبردين: الغداة والعشي.

(٢) خفض بالمكان: أقام. (٣) الكراع: جماعة الخيل.

ونُصْلح سلاحنا؛ ثم دعوناهم إلى الإسلام والدخول فيه، فأبَعدوا منه، فسألناهم الجزية عن صَغار أو الصلح، فكانت هذه أبعد؛ فأقمنا عليهم ثلاث عشرة ليلة، نتأنَّاهم وتختلف رسلنا إليهم، فلما يئس منهم، قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه، وذكر فضل الجهاد وما لصاحبه إذا صبر واحتسب، ثم نهضنا إلى عدونا وقاتلناهم أشدّ القتال يومنا ذلك، وصبر فيه الفريقان، فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة، واستشهد الله فيهم رجالا من المسلمين، فبتنا وباتوا وللمسلمين دَوِيٌّ بالقرآن كدويّ النحل، وبات المشركون في خمورهم وملاعبهم؛ فلما أصبْحنا أخذنا مصافنا التي كنا عليها بالأمس، فزحف بعضُنا على بعض، فأفرغ الله علينا صبره وأنزل علينا نصره، ففتحناها من آخر النهار، فأصبْنا غنائم كثيرة، وفَيْئاً واسعا، بلغ فيه الخُمسُ خَمْسَمائة ألف؛ فصَفَق[1] عليها مروان بن الحكم، فتركت المسلمين قد قرت أعينهم وأغناهم النفَلُ، وأنا رسولهم إلى أمير المؤمنين أُبشّره وإياكم بما فتح الله من البلاد، وأذلّ من الشّرك؛ فاحمدوا الله عباد الله على آلائه وما أحل بأعدائه من بأسه الذي يُردُّ عن القوم المجرمين.

ثم سكت فنهض إليه أبوه الزبير فقبل بين عينيه وقال: ذرية بعضها من بعض والله سميعٌ عليمٌ. يا بُنَّي: ما زلت تنطق بلسان أبي بكر حتى صَمتَّ.

خطبة للامام علي كرم الله وجهه

جاء رجل إلى عليّ كرم الله وجهه فقال: يا أمير المؤمنين، صف لنا ربنا، لنزداد له محبة، وبه معرفة. فغضب عليٌّ كرّم الله وجهه، ثم نادى: الصلاة جامعة.

فاجتمع الناس إليه حتى غص المسجد بأهله؛ ثم صعد المنبر وهو مُغْضَبٌ متغيرُ اللون، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم صلى على النبي محمد ﷺ، ثم قال:

والحمد لله الذي لا يفِرهُ المنع، ولا يُكْديه الإعطاء، بل كل مُعطٍ ينقص سواه؛

(١) أي حفظها في خزانته.

هو المنان بفرائد النعم، وعوائد المزيد؛ وبجوده ضُمنت عياله[1] الخلق، ونهج سبيل الطلب للراغبين إليه، وليس بما يُسأل أجود منه بما لا يُسأل، وما اختلف عليه دهر فتختلف فيه حال، ولو وهَب ما آنشقت عنه معادنُ الجبال، وضحكت عنه أصدافُ البحار، من فِلزّ اللجين[2]، وسبائك العقيان، وشَذْر الدر[3]، وحصيد المرجان ـ لبعض عباده ـ ما أثر ذلك في ملكه ولا في جوده ولا أنفذ ذلك سَعَة ما عنده، فعنده من الأفضال ما لا يُنِفده مطلبُ وسؤال، ولا يخطر لكم على بال؛ لأنه الجواد الذي لا ينقصه المواهب، ولا يُبرمه إلحاح الملحين بالحوائج وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون، فما ظنُّكم بمن هو كذا ولا هكذا غيره، سبحانه وبحمده.

أيها السائل، أعقل ما سألتني عنه[4]، ولا تسأل أحداً بعدي؛ فإني أكفيك مئونة الطلب، وشدة التعمق في المذهب؛ وكيف يوصف الذي سألتَني عنه، وهو الذي عجزت الملائكة على قربهم من كرسي كرامته، وطول ولهِهم إليه، وتعظيمِهم جلالَ عزته، وقربهم من غيب ملكوته ـ أن يعلموا من علمه إلاَّ ما علمهم، وهو من ملكوت العرش بحيث هم من معرفته على ما فطرهم عليه، فقالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. فمدح الله اعترافهم بالعجز عما لم يحيطوا به علما، وسمَّي تركَهم التعمق فيما لم يكلفهم البحثَ عنه رسوخا؛ فاقتصِرْ على هذا ولا تقدِّر عظمة الله على قدر عقلك فتكون من الهالكين؛ واعلم أن الله الذي لم يحدُث فيمكن فيه التغير والانتقال، ولم يتغير في ذاته بمرور الأحوال. ولم يختلف على تعاقب الأيام والليالي ـ هو الذي خلق الخلق على غير مثال آمتثله ولا مقدار احتذى عليه من خالق كان قبله. بل أرانا من ملكوت قدرته، وعجائب ربوبيته مما نطقت به آثار حكمته، واضطرار الحاجة من الخلق إلى أن يُفهمهم مبلغ قوّته ـ ما دلنا بقيام الحجة له بذلك علينا على معرفته.

---

(١) عيالة الخلق: كفايتهم ومؤونتهم وقوتهم. (٢) فلزّ اللجين: معدن الفضّة.

(٣) شذر الدرّ: نظمة. (٤) أعقل: افهم

ولم تحط به الصفات بإدراكها إياه بالحدود متناهيا، وما زال إذ هو الله الذي ليس كمثله شيء عن صفة المخلوقين متعاليا، انحسرت العيون عن أن تناله فيكون بالعيان موصوفا، وبالذات التي لا يعلمها إلا هو عند خلقه معروفا؛ وفات لعلوّه عن الأشياء مواقعَ وهم المتوهمين؛ وليس له مِثل فيكون بالخلق مشبها، وما زال عند أهل المعرفة به عن الأشباه والأنداد منزَّها، وكيف يكون من لا يُقدر قدرهُ مقدراً في رويَّات الأوهام، وقد ضل في إدراك كيفيته حواسُّ الأنام: لأنه أجَل من أن تحدّه ألبابُ البشر بنظير، فسبحانه وتعالى عن جهل المخلوقين وسبحانه وتعالى عن إفك الجاهلين[1].

ألا وإن لله ملائكةً ﷺ. لو أن مَلَكا هبط منهم إلى الأرض لما وسعته لعظم خلقه وكثرة أجنحته؛ ومن ملائكته مَن سد الآفاق بجناح من أجنحته دون سائر بدنه؛ ومن ملائكته مَنِ السموات إلى حجزته[2] وسائرُ بدنه في جرم الهوام الأسفل، والأَرَضون إلى ركبته ومِن ملائكته مَنْ لو اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يصفوه ما وصفوه، لبعد ما بين مفاصله، ولحسن تركيب صورته؛ وكيف يوصف مَن سبعُمائة عام مقدارُ ما بين مَنْكبيه إلى شحمة أذنيه؟ ومن ملائكته مَن لو أُلقِيَتِ السُّفُنُ في دموع عينيه لجرتْ دهرَ الداهرين؛ فأين أين بأحدكم؟ وأين أين أن يُدرك ما لا يدرَك؟

خطبة عبد الله بن الزبير لما بلغه قتل المصعب

صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم سكت؛ فجعل لونه يحمرّ مرة ويصفر مرة؛ فقال رجل من قريش لرجل إلى جانبه: ماله لا يتكلم؟ فوالله إنه للبيب الخطباء! قال: لعله يريد أن يذكر مقتل سيد العرب، فيشتد ذلك عليه، وغير ملوم! ثم تكلم فقال:

الحمد لله، له الخلق والأمر والدنيا والآخرة؛ يُؤتي المُلْكَ من يشاءُ، وينزعُ المُلك

(١) الإفك: التخرُّص والكذب. (٢) الحجزة: موضع شدّ الإزار من الوسط.

مَّمنْ يشاءُ، ويُعزِ من يشاءُ، ويُذلَّ من يشاءُ. أما بعد: فإنه لم يُعِزَّ الله من كان الباطلُ معه، وإنْ كان معه الأنامُ طُراًّ؛ ولم يُذِل من كان الحقّ معه، وإن كان فرداً. ألا وإنْ خبَراً من العراق أتانا فأحزننا وأفرحنا، فأما الذي أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه، ثم يرعوي ذوو الألباب إلى الصبر وكريم العزاء؛ وأما الذي أفرحنا فإن قتل المصْعب له شهادة ولنا ذخيرة، أسلمه النّعام المصلم[1] الآذان؛ ألاَ وإنّ أهل العراق باعوه بأقل من الثمن الذي كانوا يأخذون منه؛ فإن يُقتل فقد قُتِل أخوه وأبوه وابن عمه، وكانوا الخيارَ الصالحين. وإنا والله لا نموت حتفا، ولكن قَعْصاً[2] بالرماح، وموتا تحت ظلال السيوف؛ ليس كما يموت بنو مروان! ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذي لا يبيد ذكره. ولا يزول سلطانه؛ فإن تُقْبل الدنيا علي لم آخذها أخْذَ الأشِرِ البطر؛ وإن تُدبر عني لم أبكِ عليها بكاء الخرِق المهين ثم نزل.

خطبة زياد البتراء

قال أبو الحسن المدائني عن مسلمة بن محارب عن أبي بكر الهذلي قال: قدم زياد البصرة والياً لمعاوية بن أبي سفيان وضم إليه خراسان وسجستان؛ والفِسق بالبصرة ظاهر فاشٍ. فخطب خطبة بتراء، لم يحمد الله فيها؛ وقال غيره بل قال: الحمد لله على إفضاله وإحسانه، ونسأله المزيد من نعمه وإكرامه. اللهم كما زدتَنا نعماً فألهمنا شكراً.

أما بعد، فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والعَمَى الموفي بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير؛ كأنكم لم تقرءوا كتاب الله، ولم تسمعوا بما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب العظيم لأهل معصيته، في الزمن السرمدي الذي لا يزول.

---

(١) المصلّم: المقطوع. (٢) قعصه قعصاً: طعنه بالرمح طعناً سريعاً.

أتكونون كمن طرفت[١] عينيه الدنيا، وسدّت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه، من تركتكم هذه المواخير[٢] المنصوبة، والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر، والعددُ غير قليل. ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلَجِ[٣] الليل وغارة النهار؟ قرّبتم القرابة، وباعدتم الدّين؛ تعتذرون بغير العذر؛ وتغضون على المختلس؛ كلُّ آمريء منكم يذبُّ عن سفيهه، صنيعُ من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معادا؛ ما أنتم بالحلماء، ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم، حتى انتهكوا حُرمَ الإسلام، ثم أطرقوا[٤] وراءكم، كنوساً في مكانس[٥] الرِّيب؛ حرامٌ عليَّ الطعام والشراب حتى أسَويها بالأرض هَدْما وإحراقا.

إني رأيت آخرَ هذا الأمر لا يصلُح إلا بما صَلَح به أوله،: لينٌ في غير ضَعْف، وشدة في غير عُنْف، وإني أُقْسمُ بالله لآخُذَنّ الوليَّ بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقْبِلَ بالمدبر، والصحيح بالسقيم؛ حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول انجُ سعْد فقد هلكَ سُعَيد! أو تستقيمَ لي قناتُكم. إنّ كذْبَةَ الأمير بلْقاءُ مشهورة فإذا تعلقتم عليَّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتي. مَن نُقِبَ منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب له؛ فإياي ودلَجَ الليل، فإني لا أُوتِي بمدْلج إلا سفكتُ دمه، وقد أجّلْتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفةَ ويرجع إليكم؛ وإياي ودعْوى الجاهلية، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعتُ لسانه. وقد أحدثتم أحداثا لم تكم وقد أحدثنا لكل ذَنْبٍ عقوبة، فمن غرَّق قوما غرَّقناه، ومن أحرق قوما أحرقناه، ومن نَقب بيتا نقَبْنا عن قلبه، ومن نبش قبرا دفنَّاه فيه حيا. فكفُوا عني ألسنتكم وأيديكم، أكفَّ يدي ولساني؛ ولا يظهـرنّ من أحدٍ منكم ريبةٌ بخلاف ما عليه عامّتكم إلا ضربت عُنُقه. وقد كانت بيني وبين قوم إحَن[٦] فجعلت ذلك دَبَر أُذني وتحت قدمي؛ فمن كان محسنا فليزدَد في

---

(١) طرفت عينيه الدنيا: أي مالت ببصره إلى زخرفها.
(٢) المواخير: مجامع أهل الفسق والفساد.
(٣) دلج الليل: سار من أوله.
(٤) أطرقوا وراءكم: اقتدوا بكم.
(٥) المكانس: جمع مكنس، وهو الموضع يؤوي إليه ويختبأ فيه.
(٦) إحن: أحقاد.

إحسانه، ومن كان مسيئا فلينزع عن إساءته؛ إني لو علمت أن أحدَكم قد قتله السلُّ من بُغْضِي لم أكشف له قناعاً ولم أهتكِ له سِتراً حتى يُبْـدِيَ لي صفُحتـه. فـإن فعـل ذلـك لم أنظره؛ فاستأنفوا أموركم، واستعينوا على أنفسكم؛ فرب مبتئس بقدومنا سيَسرّ؛ ومسرورٍ بقدومنا سَيَبتئس.

أيها الناس: إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة؛ نسوسُكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خَوّلنا؛ فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا؛ ولكم علينا العدل فيما ولِينا؛ فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصَحَتِكم لنا؛ وآعلموا أني مهما أُقصِّرُ عنه فلن أقصر عن ثلاث: لست محتجبا عن طالب حاجة ولو أتاني طارقا بليل، ولا حابساً عطاءً ولا رزقا عن إبّانه، ولا مُجمِّراً لكم بعثا؛ فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم؛ فإنهم ساستكم المؤدّبون لكم، وكهفكم الذي إليه تأوون؛ ومتى يصلحوا تصلحوا؛ ولا تُشربوا قلوبكم بغضَهم؛ فيشتد لذلك أسفُكم، ويطول له حزنكم، ولا تدركوا له حاجتكم؛ مع أنه لو آستجيب لكم فيهم لكان شرا لكم. أسأل الله أن يُعين كلا على كل. وإذا رأيتموني أُنفذ فيكم أمراً فأنفذوه على أذلاله[١]، وآيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امريء منكم أن يكون من صَرْعاي. ثم نزل.

فقام إليه عبد الله بن الأهتم، فقال: أشهد أيها الأمير، لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب! قال له: كذبت! ذاك داود ﷺ.

فقام الأحنف بن قيس فقال: إنما الثناء بعد البلاء، والحمد بعد العطاء، وإنا لن نثنيَ حتى نبتلي. قال له زياد: صدقت!

فقام أبو بلال [مِرداس بن أُديَّة] وهو يهمس ويقول: أنبأنا الله تعالى بخلاف ما قلت؛ قال الله تعالى: ﴿وإبراهيمَ الذي وفّى، أن لا تَزِرُ وازرَة وِزْرَ أُخرَى، وأنْ ليسَ للإنسانِ إلا ما سَعى﴾[٢]. فسمعها زياد، فقال: إنا لا نبلغ من أصحابك ما

---

(١) على إذلاله، أي على وجوهه وطرقه.   (٢) سورة الحجم الآية ٣٧ ـ ٣٩.

تريد حتى نخوض إليهم الباطلَ خوضا.

وخطبة لزياد

استوصوا بثلاثٍ منكم خيراً: الشريفِ، والعالم، والشيخِ، فوالله لا يأتيني شيخٌ بحدَثٍ ٱسْتخفَّ به إلا أوجعتهُ، ولا يأتيني عالم بجاهل استخفَّ به إلا أثكلتُ به ولا يأتيني شريفٌ بوضيع استخفَّ به إلا ضربته.

وخطبة لزياد

خطب زياد على المنبر فقال:

أيها الناس لا يمنعْكم سوءُ ما تعلمون منا أن تنتفعوا بأحسن ما تستمعون منا، فإن الشاعر يقول:

ٱعمَلْ بِقولي وإنْ قصَّرتُ في عملي   ينفعْكَ قولي ولا يضْررْكَ تقْصيري

وخطبة لزياد

العتبي قال: لما شهدت الشهود لزياد قام في أعقابهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

هذا أمر لم أشْهدْ أوله، ولا عِلْم لي بآخره، وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم، وشهدَتِ الشهودُ بما سمعتم، فالحمدُ لله الذي رفع منا ما وضع الناس، وحفظ منا ما ضيّعوا، فأما عُبيْدٌ فإنما هو والد مبرور، أو كافل مشكور.

خطبة لجامع المحاربي

وكان شيخا صالحا خطيبا لَسناً، وهو الذي قال للحجاج حين بنى مدينة واسط: بنيتها في غير بلدك، وأورثتَها غير ولدك!

وشكا الحجاج سوء طاعة أهل العراق ونقمَ[1] مذهبَهم وتسخّط طريقتهم، فقال له

---

(١) نقم: كره.

جامع: أما إنهم لو أحَبُّوك لأطاعوك، على أنهم ما شنئوك[1] لنسبك، ولا لبلدك ولا لذات نفسك، فدع عنك ما يُبْعِدْهُم منك إلى ما يقرِّبُهم إليك، والتمس العافية ممن دونك، تعطها ممن فوقك، وليكن إيقاعك بعد وعيدك، ووعيدك بعد وعدك.

قال الحجاج: إني والله ما أرى أن أرد بني اللكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف! قال له: أيها الأمير، إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار قال الحجاج: الخيار يومئذ لله. قال: أجل، ولكن لا تدري لمن يجعله الله. وغضب الحجاج فقال: يا هَناه، إنك من محارب. فقال جامع:

وللحرْبِ سُمِّينا وكنَّا مُحاربـاً إذا ما القَنا أمْسى من الطَّعْنِ أحْمَرا

والبيت للخضري. قال الحجاج: والله لقد هممت أن أقطع لسانك فأضرب به وجهك!

قال جامع: إن صدَقناك أغضبناك، وإن غَشَشناك أغضبنا الله، فغضبُ الأمير أهون علينا من غضبِ الله! قال: أجل.

وشُغِل الحجاج ببعض الأمر، فانسل جامع[2]، فمر بين صفوف خيل الشام حتى جاوز إلى خيل أهل العراق - وكان الحجاج لا يخلطهم - فأبصر كبكبة فيها جماعة من بكر العراق، وقيس العراق، وتميم العراق، وأزد العراق؛ فلما رأوه آشرأبُّوا[3] إليه وبلغهم خروجُه، فقالوا له: ما عندك؟ دافع الله لنا عن نفسك! فقال: ويحكم! عُمُّوه بالخلع كما يعمكم بالعداوة، ودعوا التّعادِيَ ما عاداكم، فإذا ظفرتم [به] تراجعتم وتعاقبتم. أيها التميمي، هو أعدى لك من الأزدي؛ وأيها القيسي، هو أعدى لك من التَّغْلِبيّ؛ وليس يظفر بمن ناوأه منك إلا بمن بقي معه.

وهرب جامع من فوره ذلك إلى الشام، فاستجار بزفر بن الحارث.

---

(١) شنئوك: أبغضوك. (٢) انسلّ: خرج خفيةً.

(٣) اشرأبّوا إليه: مدّوا أعناقهم ينظرون إليه.

خطبة للحجاج بن يوسف

خطب الحجاج فقال: اللهم أرني الغيَّ غياً فأجتنبَه، وأرني الهدى هُدًى فأتبَعه، ولا تَكلُني إلى نفسي فاضِلَّ ضلالا بعيداً! والله ما أُحب أن ما مضى من الدنيا لي بعمامتي هذه، ولَمَا بقي منها أشبهُ بما مضى من الماء بالماء.

وخطبة للحجاج

قال الهيثم بن عدي: خرج الحجاج بن يوسف يوما من القصر بالكوفة، فسمع تكبيرا في السوق، فراعه ذلك، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

يأهل العراق، يأهلَ الشقاق والنفاق ومساويء الأخلاق، وبني اللكيعة[1]، وعبيد العصا، وأولاد الإماء، والفقع[2] بالقرقر[3] إني سمعت تكبيرا لا يُراد به الله وإنما يراد به الشيطان؛ وإنما مثلي ومثلكم ما قال ابن براقة الهمداني:

وكنتُ إذا قومٌ غزَوْني غـزوتُهْـم فهل أنا في ذا يا لَهمْدانَ ظـاْلِـمُ؟
متَى تجمَعِ القلبَ الذَّكيَّ وصارِمـاً وأنفاً حِمياً تَجْتنِبْـكَ المظـالِـمُ![4]

أما والله لا تقرع عصاً بعصا إلا جعلتها كأمس الدابر.[5]

خطبة الحجاج بعد دير الجماجم

خطب أهلَ العراق فقال:

يأهل العراق، إن الشيطان استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف[6]: ثم أفضى إلى المِخانخ[7] والصمائخ[8]، ثم ارتفع فعشش؛ ثم باض وفرخ، فحشاكم شقاقاً ونفاقاً، أشعركم خلافاً اتخذتموه دليلاً تتبعونه، وقائداً تطيعونـه،

---

(١) اللكيعة: اللئيمة.
(٢) الفقع: الكمأة البيضاء الرخوة.
(٣) القرقر: الأرض المنخفضة.
(٤) آنفاً حمياً: آي فيه شممٌ وكبرياء.
(٥) الدابر: الماضي الذي انتهى.
(٦) الشغاف: غلاف القلب.
(٧) المخاخ: جمع مخ.
(٨) الصمائخ: جمع صماخ، وهو من الأذن.

ومؤامراً تستشيرونه، فكيف تنفعكم تجربة، أو تعظكم وقعة، أو يحجزكم إسلام، أو يردكم إيمان؟ ألستم أصحابي بالأهواز حيث رمتم المكر؛ وسعيتم بالغدر، واستجمعتم للكفر، وظننتم أن الله تعالى يخذل دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لواذا؛ وتنهزمون سراعاً؛ ثم يوم الزاوية[1]؛ وما يوم الزاوية؟ بها كان فشلُكم وتنازُعُكم وتخاذُلكم وبراءةُ الله منكم ونكوصُ وليِّكم عنكم؛ إذ ولَّيتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النوازع إلى أعطانها؛ لا يسأل المرءُ منكم عن أخيه، ولا يلوي الشيخ على بنيه، حتى عضكم السلاح، وقصمتكم الرماح، ثم يوم دير الجماجم: وما دير الجماجم؟ بها كانت المعارك والملاحم، بضربٍ يُزيل الهام عن مقيله[2]، ويذهل الخليل عن خليله.

يأهل العراق والكفرات بعد الفجرات؛ والغدرات بعد الختَرات، والنَّزوة بعد النزوات، إن بعثْتكم إلى ثغوركم غُللتم وخُنتم، وإن أمنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم؛ لا تذكرون حسنة، ولا تشكرون نعمة!

يأهل العراق: هل استخفَّكم ناكث، أو استغواكم غاوٍ، أو استفزكم عاص أو استنصركم ظالم، أو استعضدكم خالع - إلا وثقتموه وآويتموه وعزَّرتموه ونصرتموه ورضيتموه.

يأهل العراق؛ هل شغَب شاغب، أو نَعب ناعب، أو نعق ناعق، أو زفر زافر، إلا كنتم أتباعه وأنصاره. يأهل العراق، ألم تنهكم المواعظ؟ ألم تزجركم الوقائع؟

ثم التفت إلى أهل الشام فقال: يأهل الشام، إنما أنا لكم كالظليم[3] الذابّ عن فراخه؛ ينفي عنها المدر، ويباعد عنها الحجر ويكنُّها من المطر، ويحميها من الضباب؛ ويحرُسها من الذئاب؛ يأهل الشام، أنتم الجُنَّةُ والرداء، وأنتم العدة والحذاء.

---

(١) الزاوية: موضع بالبصرة. (٢) مقيله: موضعه.

(٣) الظليم: ذكر النعام.

وخطبة للحجاج

قال مالك بن دينار: غدوت للجمعة، فجلست قريباً من المنبر، فصعد الحجاج ثم قال:

امرؤٌ حاسَبَ نفسه؛ امرؤٌ راقب ربه؛ امرؤٌ زوّرَ[1] عمله امرؤ فكر فيما يقرؤه غداً في صحيفته ويراه في ميزانه: امرؤ كان عند همه آمراً، وعند هواه زاجراً؛ امرؤ أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخطام[2] جمله، فإن قاده إلى حق تبعه، وإن قاده إلى معصية الله كفَّه. إننا والله ما خُلقنا للفناء، وإنما خُلقنا للبقاء، وإنما ننتقل من دار إلى دار.

خطبة الحجاج بالبصرة

اتقوا الله ما استطعتم. فهذه لله وفيها مثوبة. ثم قال: «واسمعوا وأطيعوا». فهذه لعبد الله وخليفة الله وحبيبِ الله عبدِ الملك بن مروان، والله لو أمرتُ الناسَ أن يأخذوا في باب واحد وأَخَذُوا في بابٍ غيرِه، لكانت دماؤهم لي حلالاً من الله، ولو قتل ربيعة ومضر لكان لي حلالاً. عذيري[3] من هذه الحمراء[4]، يَرمِي أحدُهم بالحجر إلى السماء ويقول: يكون إلى أن يقع هذا خيرٌ. والله لأجعلَنَّهم كأمس الدابر؛ عذيري من عبْدِ هُذيل، إنه زعم أنه آمن عند الله، يقرأ القرآنَ كأنه رَجَزُ الأعراب؛ والله لو أدركتُه لقتلتُه.

خطبة للحجاج بالبصرة

حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله كفانا مئُونَة الدنيا وأمرنا بطلب الآخرة فليتَه كفانا مئونةَ الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا. مالي أرى علماءَكم يذهبون، وجُهَّالكم لا يتعلمون، وشِرارَكم لا يتوبون؟ مالي أراكم تَحرصون على ما كُفيتم، وتُضَيِّعُون ما به

(١) زوّر عمله: حسّنه.
(٢) الحطام: الزمام.
(٣) العذير: النصير.
(٤) الحمراء: العجم لبياضهم.

أمِرْتم، إن العلمَ يوشِك أن يُرفع، ورَفعُه ذهابُ العلماء. ألا وإني أعلم بشراركم من البيطار بالفرس: الذيـن لا يقـرؤن القـرآنَ إلا هُجْـرا[1]، ولا يـأتـون الصلاة إلا دُبُراً[2]؛ ألا وإن الدنيا عرَض حاضر يأكل منها البَرُّ والفاجر؛ ألا وإن الآخرة أجلٌ مستأخر يحكم فيه مَلِكٌ قادر؛ ألا فاعملوا وأنتم من الله على حذر، واعلموا أنكم ملاقوه ﴿ليَجْزِيَ الذين أساءوا بما عَمِلُوا ويَجزي الذينَ أحسَنوا بالحُسنَى﴾[3] ألا وإن الخيرَ كلَّه بحذافيره في الجنة؛ ألا وإن الشرَّ كلَّه بحذافيره في النار؛ ألا وإنّ من يعمل مثقالَ ذرّة خيراً يَرَه، ومن يعمل مثقال ذرّةٍ شراً يره وأستغفر الله لي ولكم.

وخطبة للحجاج

خطب الحجاجُ أهل العراق فقال: يأهل العراق إني لم أجد لكم دواءً أدوَى[4] لدائكم من هذه المغازي والبعوث، لولا طيب ليلة الإياب وفرحة القفَل، فإنها تعقب راحة وإني لا أريد أن أرَى الفرحَ عندكم ولا الرَّاحةَ بكم؛ وما أُراكم إلا كارهين لمقالتي، أنا والله لرؤيتكم أكرهُ، ولولا ما أريد من تنفيذ طاعة أمير المؤمنين فيكم ما حَمَّلْتُ نفسي مُقاساتكم والصبرَ على النظر إليكم؛ والله أسأل حُسْنَ العون عليكم! ثم نزل.

خطبة الحجاج حين أراد الحج

يأهل العراق، إني أردتُ الحج، وقد استخلفتُ عليك آبنِي محمداً، وما كنتم له بأهل. وأوصيتُه فيكم بخلاف ما أوصى به رسولُ الله ﷺ في الأنصار؛ فإنه أوصى أن يُقبل من محسنهم ويُتجاوز عن مسيئهم، وأنا. أوصيته أن لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم! ألا وإنكم قائلون بعدي مقالة لا يمنعكم من إظهارها إلا خوفي، تقولون: لا أحسن الله له الصحابة! وإني أعجِّل لكم الجواب: فلا أحسن الله عليكم الخلافة! ثم نزل.

---

(١) الهجر: الترك والإغفال. (٢) دبراً: أي في آخر وقتها.

(٣) سورة النجم الآية ٣١. (٤) أدوى: أهلك وأقطع.

خطبة للحجاج

خرج الحجاج يريد العراق والياً عليها في اثنى عشر راكباً على النجائب[1]، حتى دخل الكوفة [فجأةً] حين انتشر النهار، وقد كان بشر بن مروان بعث المهلب إلى الحرورية، فبدأ الحجاج بالمسجد فدخله، ثم صعد المنبر وهو ملثَّم بعمامة خزّ، فقال: عليّ بالناس، فحسبوه وأصحابه خوارج، فهمُّوا به، حتى إذا اجتمع الناس في المسجد، قام، ثم كشف عن وجهه، ثم قال:

أنـا ابـنُ جَلا وطلاعُ الثَّـنايـا ... متى أَضعِ العِمامـةَ تعـرفـونـي[2]
صَليـبُ العـودِ من سَلَفـي ريـاح ... كنصْـل السيـفِ وضّـاح الجبين
ومـاذا يبتغـي الشُّعـراءُ مني ... وقـد جـاوزتُ حـدّ الأربعين
أخـو خمسينَ مجتمِـعٌ أشُـدِّي ... ونَجَّـذَني مُـداوَرة الشُّئـون[3]
وإني لا يعـودُ إليَّ قِـرْني ... غَـداةَ العَـبْء إلا في قَـريـن

أما والله إني لأحمل الشر بحمله، وأحذوه بنعله، وأجْزيه بمثله؛ وإني لأرى رءُوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لَصاحبُها؛ وإني لأنظر الدِّماء بين العمائم واللِّحى تترقرق.

قد شمَّرتْ عن ساقها فشمِّر[4]

ثم قال:

هـذا أوان الشدّ فـاشتـدّي زِيَـمْ ... قد لفَّهـا الليـل بسـوّاق حُطَـمْ[5]
ليس بِـراعِـي إبـلٍ ولا غنمْ ... ولا بجزّارٍ على ظهْـرِ وضَـم[6]

ثم قال:

---

(١) نجائب الابل: خيارها.
(٢) ابن جلا: الصبح.
(٣) المنجد من الرجال: الذي جرب الأمور وعرفها.
(٤) الشد: العدو.
(٥) زيم: اسم فرس أو ناقة. والحطم: الراعي الظلوم للماشية.
(٦) الوضم: كل ما قطع عليه اللحم.

قــد لَفهـــا الليـــل بعَصْلبيٍّ أروعَ خَـــرّاج مـــن الدويّ[1]
مهاجرٍ ليس بأعرابيِّ

ثم قال:

قد شمَّرت عـن سـاقهـا فشَـدّوا مـــا علّتي وأنـــا شيـــخٌ إد[2]
والقـــوسُ فيهـــا وَتَـــرٌ عُـــرُدُّ مثْـل ذراعِ البِكــر أو أشــدٌّ[3]

إني والله يأهل العراق، ومعدنَ الشقاق والنفاق، ومساوىَ الأخلاق، لا يُغمز جانبي كتَغْماز التّين، ولا يُقعقَع[4] لي بالشنان[5]؛ ولقد فُررتُ عن ذكاء. وفتّشتُ عن تجربة، وأُجريت إلى الغاية القصوى؛ وإنّ أمير المؤمنين نثرَ كنانته بين يديه ثم عجم عيدانَها، فوجدني أمرَّها عوداً وأشدّها مكسراً، فوجهني إليكم، ورماكم بي، فإنكم قد طالما أوضعتم[6] في الفتن وسننتم سنن الغيّ؛ وآيم الله لألُحونَّكم لحْوَ العصا، ولأقرعنكم قرع المرْوة[7]، ولأعصبنكم عصب السَّلمة[8]، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، أما والله لا أَعِد إلا وفيت؛ ولا أَخلُق إلا فَريت[9]؛ فإياي وهذه الشفعاء، والزرافات والجماعات، وقالاً وقيلاً. وما يقولون؛ وفيم أنتم وذاك؟ والله لتستقيمُنّ على طريق الحق، أو لأَدَعنّ لكلِّ رجل منكم شُغلاً في جسده! من وجدته بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه وانتهبت ماله وهدمت منزله.

فشمَّر الناس بالخروج إلى المهلب؛ فلما رأى المهلب ذلك قال: لقد وليَ العراقَ خيرُ ذكر.

خطبة الحجاج لما مات عبد الملك

قا خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

(١) العصلبي: الشديد القوي. والأروع الذكي. والدوي: الفلاة الواسعة.

(٢) إد: داهية.

(٣) عرد: شديد.

(٤) القعقعة: تحريك الشيء اليابس مع صوت، كالسرح وغيره.

(٥) الشنان: القرب البالية.

(٦) أوضعتم: أسرعتم.

(٧) المروة: حجارة بيض براقة تورى النار.

(٨) السلمة: شجر كثير الشوك.

(٩) أخلق: أقدر. وفريت: قطعت.

أيها الناس، إن الله تبارك وتعالى نَعى نبيَّكم ﷺ إلى نفسه فقال: ﴿إنك ميِّت وإنهم ميِّتون﴾[1]؛ وقال: ﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرسلُ أَفإِن مات أو قتِل ٱنقلبتمْ على أعقابكم﴾[2]؟ فمات رسول الله ﷺ، ومات الخلفاء الراشدون المهتدون المهديون، منهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان الشهيد المظلوم، ثم تبعهم معاوية؛ ثم وليكم البازل الذكر الذي جرَّبْته الأمور، وأحكمتْه التجارب مع الفقه وقراءة القرآن، والمروءة الظاهرة، واللين لأهل الحق، والوطء لأهل الزيغ؛ فكان رابعاً من الولاة المهديين الراشدين؛ فاختار الله له ما عنده، وألحقه بهم، وعهد إلى شِبْهه في العقل والمروءة والحزم والجلد والقيام بأمر الله وخلافته؛ فاسمعوا له وأطيعوه.

أيها الناس؛ إياكم والزَّيْغ[3]؛ فإن الزيغ لا يَحيق إلا بأهله، ورأيتم سيرتي فيكم، وعرفت خلافكم، وقَبلتكم على معرفتي بكم؛ ولو علمتُ أنّ أحداً أقوى عليكم مني، أو أعرف بكم، ما ولِيتُكم؛ فإياي وإياكم؛ من تكلم قتلناه؛ ومن سكت مات بدائه غماً! ثم نزل.

خطبة الحجاج

لما أصيب بولده محمد وأخيه محمد:

أيها الناس، محمَّدان في يومٍ واحد! أما والله لقد كنتُ أحبّ أنهما معي في الدنيا مع ما أرجو لهما من ثواب الله في الآخرة؛ وآيم الله ليوشكن الباقي مني ومنكم أن يفنى، والجديد مني ومنكم أن يلي، والحيّ مني ومنكم أن يموت؛ وأن تُدال الأرض منا كما أُدِلنا منها؛ فتأكل من لحومنا؛ وتشرب من دمائنا؛ كما مشينا على ظهرها، وأكلنا من ثمارها، وشربنا من مائها؛ ثم يكون كما قال الله: ﴿ونُفخ في الصُّور فإذا هم من الأجْداث إلى ربِّهم ينْسِلونَ﴾[4]. ثم تمثل بهذين البيتين:

(١) سورة الزمر الآية ٣٠.
(٢) سورة آل عمران الآية ١٤٤.
(٣) الزيغ: الميل عن الحق.
(٤) سورة يس الآية ٥١.

عَزائـي نبيُّ الله مــن كــلِّ ميِّــتٍ وحسْبي ثوابُ الله من كلِّ هـالـكِ
إذا مــا لَقيــتُ اللهَ عني راضيــاً فــإنّ سُـرورَ النفِس فيما هُنـالــك

خطب الحجاج في يوم جمعة فأطال الخطبة؛ فقام إليه رجل فقال: إن الوقت لا ينتظرك، والرب لا يعذِرك! فأمر به إلى الحبس! فأتاه آل الرجل وقالوا: إنه مجنون! فقال: إن أقرّ على نفسه بما ذكرتم خليتُ سبيْله. فقال الرجل: لا والله لا أزعم أنه ٱبتلاني وقد عافاني.

خطبة للحجاج

ذكروا أن الحجاج مرض ففرح أهل العراق؛ وقالوا: مات الحجاج! فلما بلغه تحامل حتى صعد المنبر فقال:

يا أهل الشقاق والنفاق! نفخ إبليس في مناخركم فقلتم: مات الحجاج، ومات الحجاج فمَهْ؟ والله ما أحب أن لا أموت! وما أرجو الخيرَ كلَّه إلا بعد الموت، وما رأيت الله عز وجل رضي الخلودَ لأحدٍ من خلقه، إلا لأهونهم عليه: إبليس؛ ولقد رأيتُ العبد الصالح سأل ربَّه فقال: ﴿ربِّ ٱغفْر لي وهَبْ لي مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بَعدي إنكَ أنت الوهَّابُ﴾(١). ففعل؛ ثم اضمحل كأن لم يكن.

خطبة للحجاج

خطب فقال في خطبته:

سوْطي سيفي، ونِجادُه في عنُقي، وقائمه في يدي؛ وذبابُه(٢) قلادة لمن اغترني! فقال الحسن: بؤساً لهذا! ما أغرّه بالله.

وحلف رجل بالطلاق أن الحجاج في النار، ثم أتى زوجته، فمنعتْه نفسَها فأتى ابنَ شُبرمة يستفتيه؛ فقال: يا بن أخي ٱمض فكن مع أهلك، فإن الحجاج إن لم يكن من

---

(١) سورة ص الآية ٣٥. (٢) ذباب السيف: حد طرفيه.

أهل النار، فلا يضرُّك أن تزني.

هذا ما ذكرناه في كتابنا من الخطب للحجاج، وما بقي منها فهي مستقصاة في كتاب اليتيمة الثانية، حيث ذكرت أخبار زياد والحجاج، وإنما مذهبنا في كتابنا هذا أن نأخذ من كل شيء أحسنه ونحذف الكثير الذي يُجتزَأ منه بالقليل.

خطبة طاهر بن الحسين

لما افتتح مدينة السلام صعد المنبر وأحضر جماعة من بني هاشم والقواد وغيرهم فقال:

الحمد لله مالك الملك، يُؤتي الملك من يشاء، وينزعُ الملك ممن يشاء، ويُعِز من يشاء، ويُذِلّ من يشاء؛ ولا يُصْلح عمل المفْسدين، ولا يَهدِي كيْد الخائنين؛ إنّ ظهور غَلَبَتِنا لم يكن من أيدنا ولا كيدنا، بل اختار الله لخلافته - إذ جعلها عموداً لدينه، وقِوَاماً لعباده - من يستقل بأعبائها، ويضطلع بحملها.

خطبة عبد الله بن طاهر

خطب الناس وقد تيسر لقتال الخوارج؛ فقال: إنكم فئة الله المجاهدون عن حقه، الذابُّون عن دينه، الذائدون عن محارمه، الداعون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله، والطاعة لِوُلاةِ أمره، الذين جعلهم رعاةَ الدين، ونظام المسلمين فاستنْجزوا موعود الله ونصره بمجاهدة عدوّه وأهل معصيته، الذين أشِرُوا[1] وتمردوا وشقوا العصا، وفارقوا الجماعة، ومَرَقوا من الدين، وسعَوْا في الأرض فساداً، فإنه يقول تبارك وتعالى: ﴿إن تنْصُروا اللهَ يَنْصُرْكم ويُثَبِّتْ أقدامكم﴾[2] فليكن الصبر معقِلكم الذي إليه تلجئون، وعُدتكم التي تستظهرون؛ فإنه الوزَر المنيع الذي دلكم الله عليه، والجُنة الحصينة التي أمركم الله بلباسها؛ غضوا أبصاركم، وأخفِتوا أصواتكم في مصافِّكم، وامضوا قُدُماً على بصائركم، فارغين إلى ذكر الله والاستعانة به كما أمركم الله؛ فإنه

(١) أشروا: بطروا واستكبروا. (٢) سورة محمد (ص) الآية ٧.

يقول: ﴿إذا لقِيتُمْ فئةً فاثْبُتوا واذكُروا الله كثيراً لعلّكُمْ تُفْلِحون﴾[1]. أيدكم الله بعز الصبر، ووليَكم بالحياطة والنصر.

خطبة قتيبة بن مسلم

قام بخراسان حين خلع سليمان بن عبد الملك، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أتدرون من تبايعون؟ إنما تبايعون يزيد بن ثَروان - يعني هَبنَّقة القيسي - كأني بأميرٍ مزْجاءٍ وحَكَم قد أتاكم يحكم في أموالكم ودمائكم وفروجكم وأبشاركم.

ثم قال: الأعراب! وما الأعراب؟ لعن الله الأعراب! جمعتُهم كما يُجمع فَرْخُ الخرْبَق[2] من منابت الشيح والقَيصوم[3] ومنابت الفلفل، يركبون البقر، ويأكلون الهَبيد[4]. فحملتهم على الخيل، وألبستهم السلاح حتى منع الله بهم البلاد، وجبى بهم الفيء. قالوا: مُرْنا بأمرك. قال: غُرُّوا غيري.

وخطبة لقتيبة بن مسلم

يأهل العراق، ألستُ أعلم الناس بكم؟ أما هذا الحي من أهل العالية فنَعَمُ الصدقة، وأما هذا الحي من بكر بن وائل فعِلْجة[5] بَظْراء لا تَمنع رجليها، وأما هذا الحيّ من عبد القيس فما ضرب العير[6] بذنبه، وأما هذا الحي من الأزد فعلوجُ خلق الله وأنباطه؛ وآيم الله لو ملكت أمر الناس لنقشت أيديهم، وأما هذا الحي من تميم فإنهم كانوا يسمون الغدر في الجاهلية كيسان.

وقال الشاعر:

إذا كنتَ مِن سعدٍ وخالُـكَ منهـم بعيداً فلا يَغرُرْك خالكَ من سعـدِ

(١) سورة الأنفال الآية ٤١.
(٢) الخربق: نبت كالسم يغشى على صاحبه.
(٣) الشيح والقيصوم: من نبات السهل.
(٤) الهبيد: حب الحنظل.
(٥) العلجة: أنثى العلج: وهو الرجل من كفار العجم.
(٦) العير: الحمار.

إذا ما دُعوا كَيْسانَ كانت كُهولُهُمْ   إلى الغدر أدنـى مِـن شبـابهم المُرد

وخطبة لقتيبة بن مسلم

يأهل خراسان، قد جرّبتم الولاة قبلي؛ أتاكم أُمية فكان كاسمه أمية الرأي، وأمية الدين فكتب إلى خليفته: إن خراج خراسان لو كان في مطبخه لم يكفه؛ ثم أتاكم بعده أبو سعيد ثلاثاً، لا تدرون أفي طاعة الله أنتم أم في معصيته؟ ثم لم يجب فَيْئاً، ولم يَبلُ عدواً؛ ثم أتاكم بنوه بعده مثل أطْباء[1] الكَلبة؛ منهم ابن رَحْمة، حِصان يضرب في عانة؛ لقد كان أبوه يخافه على أمهات أولاده! ثم أصبحتم وقد فتح الله عليكم البلاد [وأمَّن لكم السُّبل] حتى إنّ الظعينة لتخرج من مرو إلى سمرقند في غير جوار.

قوله أبو سعيد، يريد المهلب بن أبي صفرة. وقوله: ابن رحمة: يريد يزيد بـن المهلب.

خطبة ليزيد بن المهلب

حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ثم قال:

أيها الناس، إني أسمع قول الرعاع، قد جاء العباس، قد جاء مسلمة، قد جاء أهل الشام. وما أهل الشام إلا تسعة أسياف: منها سبعة معي، وآثنان عليّ، وما مسلمة إلا جرادةٌ صفراء وأما العباس فبسطوس بن بسطوس، أتاكم في برابرة وصقالبة وجرامقة وأقباط وأنباط وأخلاط؛ أقبل إليكم الفلاحون والأوباش كأشلاء اللحم، والله ما لقوا قط حدّاً كحدكم، ولا حديداً كحديدكم، أعيروني سواعدكم ساعة تصفقوا[2] بها خراطيمهم[3]؛ فإنما هي غدوة أو روحة حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

خطبة قس بن ساعدة الإيادي

ابن عباس قال: قدم وفدُ إياد على رسول الله ﷺ، فقال: أيكم يعرف قسَّ بن

---

(١) الأطباء: جمع طبي: وهو لذات الخف والظلف كالثدي للمرأة.

(٢) صفقه بالسيف: ضربه. (٣) خراطيم: جمع خرطوم، وهو الأنف.

ساعدة الإيادي ؟ قالوا : كلنا يعرفه قال : فما فعل ؟ قالوا : هلك ! قال : ما أنساه بسوق عكاظ في الشهر الحرام على جمل له أحمر وهو يخطب الناس ويقول:

آسمعوا وعُوا : من عاش مات ، ومن مات فات ، وكلُّ ما هو آتٍ آتٍ؛ إنّ في السماء لخَبراً ، وإنّ في الأرض لعِبراً ، سحائبٌ تمور ، ونجومٌ تغور ، في فلكٍ يدور. يُقْسِم قسٌّ قَسَماً : إن لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا .

ثم قال : مالي أرى الناس يذهبون ولا يَرجعون؟ أرَضوا بالإقامة فأقاموا؟ أم تركوا فناموا .

أيكم يروي من شعره؟ فأنشد بعضهم:

في الذَّاهبين الأوَّلـــين منَ القرون لنا بصائرْ
لَمَّا رأيـــت مـــوارداً للمـوْتِ ليس لها مصـادرْ
ورأيـتُ قـوْمـي نحوهـا تمضي: الأكابر والأصاغـر
لا يَـرجـعُ الماضي ولا يبقـى مـن البـاقين غـابِرْ
أيقَنْـــتُ أني لامحا لة حيثُ صار القوْمُ صائـرْ

خطبة عائشة أم المؤمنين
رحمها الله يوم الجمل

قالت : أيها الناس صَه صَه ؛ إنّ لي عليكم حق الأمومة ، وحقَّ الموعظة ؛ لا يتهمني إلا من عصى ربّه ؛ مات رسول الله ﷺ بين سَحْري[١] ونَحْري ؛ فأنا إحدى نسائه في الجنة ، له ادّخرني ربي وخلّصني من كلِّ بُضع[٢] ؛ وبي ميّز مُؤمنكم من منافقكم ، وبي أرْخصَ اللهُ لكم في صعيد الأبواء[٣] ؛ ثم أبي ثانِي اثنيْن اللهُ ثالثهما ؛ وأول من سُمّي صدّيقاً ، مضى رسول الله ﷺ راضياً عنه ؛ وطوّقه أعباءَ الإمامة ، ثم اضطرب حبل الدين بعده ؛ فمسك أبي بطرفيه ، ورتق لكم فتق النفاق ، وأغاض[٤] نبع الردة ،

(١) السحر : الرئة . (٢) البضع : النكاح .
(٣) صعيد الأبواء : تراب المفازة . (٤) أغاض : نقص .

وأطفأ ما حشّت[1] يهود؛ وأنتم يومئذ جُحْظُ العيون، تنظرون العدْوَة[2]، وتسمعون الصيحة؛ فرأب الثأي، وأوّد[3] من الغِلظة، وامتاح[4] من الهُوّة؛ حتى اجْتَحى دفين الداء؛ وحتى أعطن الوارد، وأورد الصادر، وعل الناهل؛ فقبضه الله إليه واطئاً على هامات النفاق، مذكياً نار الحرب للمشركين؛ فانتظمت طاعتكم بحبله؛ فولى أمركم رجلاً مُرْعِياً إذا رُكِن إليه، بعيداً ما بين اللابتين إذا ضُلّ، عُرَكة للأذاة بجنبه صفوحاً عن أذاة الجاهلين، يقظان الليل في نُصرة الإسلام؛ فسلك مسلك السابقيه؛ ففرق شمل الفِتنة، وجمّع أعضاد ما جمّع القرآن، وأنا نُصْب المسألة عن مسيري هذا؛ لم ألتمس إثماً، ولم أُوَرِّث فتنة أوطِئكُمُوها: أقول قولي هذا صدقاً وعدلاً، وإعذاراً وإنذاراً؛ وأسأل اللهَ أن يصلي على محمد، وأن يخلفه فيكم بأفضل خلافة المرسلين.

خطبة عبد الله بن مسعود

أصدق الحديث كتابُ الله. وأوثقُ العُرى كلمةُ التقوى، خير زاد؛ وأكرم الملل ملة إبراهيم ﷺ، وخير السنن سُنَّةُ محمد ﷺ، وشرُّ الأمور محدثاتُها، وخير الأمور أوساطها، وما قل وكفى خيرٌ مما كثُرَ وألهى، لنَفْسٌ تحييها خير من إمارة لا تُحْصيها. خير الغنى غنى النفس. خيرُ ما أُلقي في القلب اليقين. الخمر جماع الآثام. النساءُ حبائل الشيطان. الشبابُ شعبة من الجنون. حبُّ الكفاية مفتاحُ المَعْجزَة. شرُّ من الناس من لا يأتي الجماعة إلا دُبُراً[5]، ولا يذكر الله إلا هُجْراً[6]. سِبابُ المؤمن فُسوق، وقتالهُ كُفر، وأكلُ لحمه معصية؛ من يتألَّ[7] على الله يُكذبه، ومن يغفِر يُغْفر له. مكتوب في ديوان المحسنين: من عفا عُفِيَ عنه. الشقيُّ شقي في بطن أمه. السعيدُ من وُعِظ بغيره. الأمور بعواقبها. مِلاكُ الأمر خواتيُمه. أحسنُ الهدْي هَدْيُ الأنبياء. أقبحُ الضلالةِ الضلالة بعد الهدى. أشرفُ الموت الشهادةُ. من يعرف البلاء يَصْبِر عليه، ومن لا يَعرِف البلاء يُنْكِرْه.

(١) حشّ النار: أوقدها. (٢) العدوة: الوثبة. (٣) أود: عطف وألان.
(٤) امتاح: انتزع. (٥) دبراً: في آخر الوقت.
(٦) الهجر: الترك والإغفال. (٧) يتأل: يقسم.

خطبة لعتبة بن مروان
بعد فتح الأبلة

حمد الله وأثنى عليه، ثم صلى على النبي ﷺ؛ وقال:

إن الدنيا قد تولّتْ [حذّاء مدبرة]، وقد آذنتْ أهلَها منها بصرم، وإنما بقي منها صُبابَةٌ كصُبابة الإناء يصْطَبُّها صاحبُها؛ ألا وإنكم مفارقوها لا مَحالة، ففارقوها بأحسنِ ما يحضرُكم؛ ألا إنّ من العَجب أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحجرَ الضخمَ يُرمَى به في شفير جهنم فيَهوِي في النار سبعين خريفاً، ولِجَهنَّم سبعةُ أبواب، بين كل بابين منها مسيرةُ خمسمائةِ عامٍ، وليأتين عليها ساعةٌ وهي كظيظ [1] بالزحام»؛ ولقد كنتُ مع رسول الله ﷺ سابعَ سبعة مالنا طعام إلا ورقَ البَشام. حتى قَرحت أشداقُنا؛ فوجدت أنا وسعد بنُ مالك تمرة فشققتها بيني وبينه نصفين، وما منا أحدٌ اليوم إلا وهو أميرٌ على مصرٍ وإنه لم يكن نبوةٌ قطُّ إلا تناسخت [2]؛ وأنا أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وفي أعين الناس صغيراً.

خطب عمرو بن سعيد الأشدق

لما عقد معاوية ليزيد البيعة، قام الناس يخطبون؛ فقال [معاوية] لعمرو بن سعيد: قم يا أبا أمية. فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد فإن يزيد بن معاوية أملٌ تأملونه، وأجل تأمنونه؛ إن استضفتم إلى حلمه وَسِعكمْ، وإن احتجتم إلى رأيه أرشدَكم، وإن افتقرتم إلى ذات يده أغناكم؛ جذَع [3] قارح [4]، سوبِقَ فسبق، ومُوجِدَ فمجد، وقورع فقرع؛ فهو خلف أمير المؤمنين ولا خلف منه.

فقال له معاوية: أوسعت أبا أمية فاجلس.

---

(١) الكظيظ: الإمتلاء.
(٢) تناسخت: تداولت.
(٣) الجذع: الفرس في سنته الثانية.
(٤) القارح: الذي كملت أسنانه.

وخطبة لعمرو بن سعيد بالمدينة

قال أبو العباس بن الفرج الرياشي: حدّثنا ابن عائشة قال: قدم عمرو بن سعيد ابن العاص الأشدق المدينة أميراً، فخرج إلى منبر رسول الله ﷺ، فقعد عليه وغمْض عينيه وعليه جبةُ خَزٍّ قرمز، ومُطرف خز قرمز، وعمامة خز قرمز؛ فجعل أهل المدينة ينظرون إلى ثيابه إعجاباً بها، ففتح عينيه فإذا الناس ينظرون إليه؛ فقال:

ما بالكم يا أهل المدينة ترفعون إليّ أبصارَكم، كأنكم تريدون أن تضربونا بسيوفكم؟ أغرَّكم أنكم فعلتم ما فعلتم فعفونا عنكم؟ أما إنه لو أُثِبْتم بالأولى ما كانت الثانية؛ أغرّكم أنكم قتلتم عثمان فوافقتم[1] ثائرنا منا رفيقاً، قد فنى غضبُه وبقي حلمه؟ اغتنموا أنفسكم، فقد والله ملَكناكم بالشباب المقتبل، البعيد الأمل الطويل الأجل، حين فرغ من الصغر، ودخل في الكبر، حليم حديد، ليِّن شديد رقيق كثيف، رفيق عنيف، حين اشتد عظمه. واعتدل جسمه، ورمى الدهر ببصره، واستقبله بأَشره، فهو إن عض نهس[2]، وإن سطا فرس[3]، لا يُقَلْقِل له الحصى، ولا تُقرع له العصا، ولا يمشي السُّهَّمَى[4].

قال: فما بقي بعد ذلك إلا ثلاث سنين وثمانية أشهر، حتى قصمه الله.

خطبة لعمرو بمكة

العتبي قال: استعمل سعيدُ بن العاص وهو وال على المدينة ابنَه عمرو بن سعيد والياً على مكة، فلما قدم لم يلقَهُ قرشي ولا أموي إلا أن يكون الحرث بن نوفل، فلما لقيه قال له: يا حارِ، ما الذي منع قومَك أن يلقَوني كما لقيتَني؟ قال: ما منعهم من ذلك إلا ما استقبلتني به؛ والله ما كنيتَني، ولا أتممتَ اسمي، وإنما أنهاك عن التكبّر على أكفائك، فإن ذلك لا يرفعك عليهم ولا يضعهم لك. قال: والله ما أسأتَ الموعظة، ولا أتهمك على النصيحة، وإن الذي رأيت مني لَخُلق. فلما دخل مكة قام على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

---

(١) وافقتم: وجدتم؛ والثائر: الآخذ بالثأر.

(٢) نهس اللحم: أخذه بمقدم اسنانه ونتفه.

(٣) فرس الفريسة: دق عنقها.

(٤) السمهى: الباطل والكذب.

أما بعد، معشرَ أهل مكة، فإنا سكناها حِقْبة، وخرجنا عنها رغبة، ولذلك كنا إذا رُفعت لنا لُهوة بعد لُهوة[1] أخذنا أسناها، ونزلنا أعلاها؛ ثم شَدخ[2] أمرٌ بين أمرين، فقَتلنا وقُتلنا؛ فوالله ما نزعنا ولا نُزع عنا، حتى شرب الدمُ دماً، وأكل اللحم لحماً، وقرع العظم عظماً؛ فولِيَ رسولُ الله ﷺ برسالة الله إياه، واختياره له؛ ثم ولي أبو بكر لسابقته وفضله؛ ثم ولي عمر؛ ثم أُجيلت قِداحٌ نُزعن من شُعب[3] حول نبعة، ففاز بحظِّها أصلبُها وأعتقها، فكنا بعض قِداحها؛ ثم شدخ أمر بين أمرين، فقَتلنا وقُتلنا، فوالله ما نَزعنا ولا نُزع عنا حتى شرب الدم دماً، وأكل اللحم لحماً، وقرع العظم عظماً، وعاد الحرام حلالاً، وأُسكت كل ذي حسن عن ضرب مهنَّد، عركاً عركاً، وعسفاً عسفاً، وخزاً ونهْساً، حتى طابوا عن حقنا نفساً، والله ما أعطوه عن هوادة، ولا رضوا فيه بالقضاء؛ أصبحوا يقولون: حقُّنا غُلبنا عليه، فجزيناه هذا بهذا، وهذا في هذا.

يا أهل مكة، أنفسَكم أنفسَكم! وسفهاءَكم سفهاءَكم! فإن معي سوطاً نكالا، وسيفاً وبالا، وكلٌّ منصوبٌ على أهله. ثم نزل.

خطبة للأحنف بن قيس

قال بعد حمد الله والثناء عليه: يا معشر الأزد وربيعة، أنتم إخواننا في الدين وشركاؤنا في الصِّهر[4]، وأشِقَّاؤُنا في النسب، وجيرانُنا في الدار، ويدُنا على العدو، والله لأزدُ البصرة أحبُّ إلينا من تميم الكوفة، ولأزدُ الكوفة أحب إلينا من تميم الشام؛ فإن استشرف شنَآنُكم وأبَى حسدُ صدورِكم، ففي أحلامنا وأموالنا سَعة لنا ولكم.

خطبة ليوسف بن عمر

قام خطيباً فقال: اتقوا الله عباد الله: فكم مؤمِّلٍ أملاً لا يبلغه، وجامع مالاً لا

(١) اللهوة: العطية. (٢) شدخ: فرق وباعد.
(٣) الشعب: الأغصان. (٤) الصِّهر: القريب بالزواج.

يأكلُه، ومانعٍ عما سوف يتركه؛ ولعله من باطلٍ جَمَعَهُ، ومن حقٍّمنَعَهُ أصابه حراماً، وأورثه عدوّاً حلالاً، فاحتمل إصْرَه [1]، وباء بوِزْرِهِ، وورد على ربه أسِفاً لهِفاً، خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

خطبة لشداد بن أوس الطائي

حمد الله وأثنى عليه وقال: ألا إن الدنيا عرَضٌ حاضر، يأكل منها البَرُّ والفاجر؛ ألا إن الآخرة وعدٌ صادق، يحكم فيها مَلِكٌ قادر؛ ألا إن الخيرَ كلّه بحذافيره في الجنة؛ ألا إن الشرَّ كله بحذافيره في النار، فاعملوا ما عملتم وأنتم في يقين من الله، واعلموا أنكم معروضة أعمالُكُمْ على الله، ﴿فَمنْ يعمَلْ مِثقالَ ذرّةٍ خيْراً يَره، ومَنْ يعْمَلْ مِثقالَ ذَرّةٍ شرّاً يَره﴾ [2] وغفر الله لنا ولكم.

خطبة لخالد بن عبد الله القسري

صَعِد المنبر يوم جمعة وهو والي مكة، فذكر الحجاج فأحمد طاعته وأثنى عليه خيراً؛ فلما كان في الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك يأمره فيه بشتم الحجاج وذِكرِ عيوبه وإظهارِ البراءةِ منه: فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

إن إبليس كان ملكاً من الملائكة، وكان يُظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له به فضلاً، وكان قد علم الله من غِشه وخبثه ما خفى على ملائكته فلما أراد فضيحتَه ابتلاه بالسجود لآدم، فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم، فلعنوه؛ وإن الحجاج كان يُظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلاً، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غشه وخبثه على ما خفي عنا؛ فلما أراد [الله] فضيحتَه أجرى ذلك على يد أمير المؤمنين، [فَلعَنه]، فالعنوه لعنه الله!

خطبة لمصعب بن الزبير

قدم العراق فصعد المنبر ثم قال:

---

(١) الإصر: الذنب. (٢) سورة الزلزلة الآية ٧ و ٨.

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿طسم تِلْكَ آياتُ الكِتَابِ المُبِينِ ، نَتْلو عَلَيْكَ مِنْ نَبإِ مُوسَى وفِرْعَونَ بالحقِّ لقَوْمٍ يُؤمِنُونَ، إنَّ فِرْعَوْنَ عَلا في الأَرْضِ وجَعلَ أَهْلَهَا شِيعاً يَسْتَضْعِفُ طَائفَةً مِنهُم يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ويَسْتَحْيي نِسَاءَهُمْ، إنَّه كانَ منَ المُفْسِدِينَ﴾[1] وأشار بيده نحو الشام ﴿ونُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ على الذِينَ اسْتُضْعِفوا في الأَرْضِ ونَجْعَلَهُمْ أَئِمةً ونَجْعَلَهُمُ الوارِثِينَ﴾[2] وأشار بيده نحو الحجاز ﴿ونُمكِّنَ لَهُمْ في الأَرْضِ ونُرِيَ فِرْعَوْنَ وهامَانَ وجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانوا يَحْذَرُونَ﴾[3] وأشار بيده نحو العراق.

خطبة للنعمان بن بشير بالكوفة

قال: إني والله ما وجدت مَثلي ومَثَلكم إلا الضبع والثعلب: أتيا الضبَّ في جحره فقالا: أباحِسْل. قال: أجبتكما. قالا: جئناك نختصم. قال: في بيته يُؤْتى الحكم. قالت الضبع: فتحتُ عيني. قال: فعلَ النساءِ فعلْتِ. قالت: فلقطتُ تمرةً. قال: حلواً اجْتَنيتِ. قالت: فاختطفها ثُعالةُ! قال: لنفسه بَغى [الخير]. قالت. فلطمتُه لطمة! قال: حقّاً قضيتِ. قالت: فلطمني أخرى. قال: كان حُرّاً فانتصر. قالت: فاقض الآن بيننا. قال: حدث امْرَأَةً حديثين، فإنْ أبتْ فاربَع، أي: اسكت.

خطبة شبيب بن شيبة

قيل لبعض الخلفاء: إن شبيب بن شيبة يستعمل الكلام ويستعد له، فلو أمرته أن يصعد المنبر لرجوتَ أن يفتضح، قال: فأمر رسولاً فأخذ بيده إلى المسجد، فلم يفارقه حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ حق الصلاة عليه؛ ثم قال: ألا إن لأمير المؤمنين أشباهاً أربعة: الأسد الخادر، والبحر الزاخر، والقمر الباهر، والربيع الناضر؛ فأما الأسد الخادر فأشبهَ منه صولتَه ومضاءَه، وأما البحر الزاخر فأشبه منه جودَه وعطاءَه، وأما القمر الباهر فأشبه منه نورَه وضياءَه، وأما الربيع الناضر فأشبه منه حُسنَه وبهاءَه. ثم نزل عن المنبر وأنشأ يقول:

---

(١) سورة القصص الآية ١ ـ ٤ . (٢) سورة القصص الآية ٥ .

(٣) سورة القصص الآية ٦ .

وموْقفٍ مِثلِ حدِّ السَّيف قمتُ بِـه أحْمِي الذِّمارَ وتَرمِينِي بـهِ الحَدَقُ[1]
فَما زَلِقـتُ ومـا أَلْقَيْـتُ كـاذبـةً إذا الرِّجالُ على أمْثـالـه زَلِقُـوا[2]

خطب لعتبة بن أبي سفيان

بلغه عن أهل مصر شي فأغضبه، فقام فيهم، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

يا أهل مصر، إياكم أن تكونوا للسيف حصيداً، فإن لله فيكم ذبيحاً لعثمان أرجو أن يولَيني نسْكه[3]؛ إن الله جمعكم بأمير المؤمنين بعد الفُرقة، فأعطى كلَّ ذي حقّ حقه وكان الله فيكم، ومنّة منه عليكم؛ وقد بلغَنا عنكم نجْمُ قول، أظهره تقدُّمُ عفو منا، فلا تصيروا إلى وحْشة الباطل بعد أُنس الحق، بإحياء الفتنة وإماتة السُّنن؛ فأطأكم وطأة لا رمق معها؛ حتى تنكروا مني ما كنتم تعرفون، وتستخشنوا ما كنتم تستلينون؛ وأنا أُشْهِد عليكم الذي يعلم خائنةَ الأعين وما تخفي الصدور.

وخطبة لعتبة بن أبي سفيان

يا حاملي الأمِ أنوف ركبت بين أعين، إنما قلَّمت أظفاري عنكم ليلين مَسِّي إياكم، وسألتكم صلاحَكم؛ إذ كان فسادكم راجعاً عليكم، فأما إذ أبيتم إلا الطعن على الولاة، والتنقُّص للسلف، فوالله لأقطعن على ظهوركم بطونَ السِّياط، فإن حسمت داءكم وإلا فالسيف من ورائكم؛ ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذا جُدتم لنا بالمعصية، ولا أُؤيسكم من مراجعة الحسنى إن صرتم إلى التي هي أبرُّ وأتقى.

وخطبة لعتبة بن أبي سفيان

لما اشتكى شَكاته التي مات فيها، تحامل إلى المنبر فقال:

يا أهل مصر، لا غنَى عن الرب، ولا مهربَ من ذنب؛ إنه قد تقدَّمت مني

(١) الذّمار: المال والعرض والشرف وغير ذلك.
(٢) زلقت: ضللت وزلّيت. (٣) نسكه: دمه.

إليكم عقوباتٌ كنت ارجو يومئذ الأجر فيها، وأنا أخاف اليوم الوِزْرَ منها، فليتني لا أكون آخترت دنياي على معادي، فأصلحتكم بفسادي؛ وأنا أستغفر الله منكم، وأتوب إليه فيكم؛ فقد خِفت ما كنتُ أرجو نفعاً عليه، ورجوتُ ما كنت أخاف آغتيالاً به، وقد شَقِي من هَلكَ بين رحمةِ الله وعفوهِ؛ والسلام عليكم، سلامَ من لا ترونه عائداً إليكم. قال: فلم يَعدْ.

وخطبة لعتبة

العتبي: قال سعد القصر: احتبست عنا كتب معاوية بن أبي سفيان حين أرجفَ أهل مصر بموته، ثم قدم علينا كتابه بسلامته؛ فصعد عتبة المنبر والكتاب في يده، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

يا أهل مصر، قد طالت معاتبتنا إياكم بأطراف الرماح وظُباتِ[1] السيوف، حتى صرنا شجى في لهواتكم ما تُسيغه حلوقكم، وأقذاءً في أعينكم ما تطرف عليها جفونكم، أفحين اشتدّت عرى الحق عليكم عقْداً واسترخت عقَدُ الباطل منكم حَلا، أرجفتم بالخليفة، وأردتم تهوين الخلافة، وخضتم الحق إلى الباطل، وأقدم عهدِكم به حديث، فآربحوا أنفسكم إذا خسرتم دينكم؛ فهذا كتاب أمير المؤمنين بالخبر السارِّ عنه والعهدِ القريب منه؛ واعلموا أن سلطاننا على أبدانكم دون قلوبكم؛ فأصلحوا لنا ما ظهر، نكلْكم إلى الله فيما بَطن؛ وأظهروا خيراً وإن أضمرتم شراً، فإنكم حاصدون ما أنتم زارعون؛ وعلى الله أتوكل وبه أستعين. ثم نزل.

خطبة عتبة في الموسم

سعد القصر قال: قال مولى عتبة بن أبي سفيان: دفع عتبة بن أبي سفيان بالموسم سنة إحدى وأربعين، والناس حديثٌ عهدهم بالفتنة، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

---

(١) ظبات: جمع الظّبة: وهو حد السيف والسنان والخنجر وما شابهها.

إنا قد ولينا هذا المقام الذي يُضعف الله فيه للمحسنين الأجر، وللمسيئين الوزر، ونحن على طريق ما قصدْنا له، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا، فإنها تنقطع من دوننا؛ ورب متمنّ حتفه في أمنيته، اقبلوا ما قبلنا العافية فيكم وقبلناها منكم، وإياكم ولوّاً[1] فإن لوّاً قد أتعبت مَن قبلكم، ولن تُريحَ مَن بعدكم؛ فأسأل الله أن يعين كلاًّ على كل.

فناداه أعرابي من ناحية المسجد: أيها الخليفة. قال: لست به ولم تُبْعِدْ فقال: يا أخاه! فقال: أسْمَعْت فقُل.

فقال: والله لأنْ تحسنوا وقد أسأنا خيرٌ لكم من أن تسيئوا وقد أحسنَّا فإن كان الإحسان لكم فما أحقَّكم باستتمامه، وإن كان لنا فما أحقكم بمكافأتنا. رجل من بني عامر بن صعصعة يلقاكم بالعمومة، ويختص إليكم بالخئولة، وقد كثر عياله، ووطئه زمانه، وبه فقر، وفيه أجر، وعنده شكر.

فقال عتبة: أستغفر الله منكم؛ وأسأله العون عليكم، وقد أمرت لك بغناك؛ فليت إسراعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك.

خطبة لعتبة بن أبي سفيان

سعد القصر قال:

وجّه عتبة بن أبي سفيان ابن أخي أبي الأعور السلمي إلى مصر فمنعوه الخراج، فقدم عليهم عتبة فقام خطيباً فقال:

يأهل مصر، قد كنتم تعتذرون لبعض المنع منكم ببعض الجور عليكم؛ فقد وليكم من يقول ويفعل، ويفعل ويقول؛ فإن رددتم ردّكم بيده، وإن استعصيتم ردّكم بسيفه، ثم رجا في الآخِر ما أمّل في الأوّل؛ إن البيعة مُشايَعة[2]، فلنا عليكم السمع والطاعة،

---

(١) يقال: «إياك واللوّ فان اللو من الشيطان» يريد النهي عن قول المتندم.

(٢) مشايعة: متابعة

ولكم علينا العدل؛ فأيُّنا غدر فلا ذمّة له عند صاحبه، والله ما انطلقتْ بها ألسنتنا حتى عُقدتْ عليها قولبنا، ولا طلبناها منكم حتى بذلناها لكم، ناجزاً بناجز، ومَن حذَّر كمن بشَّر. قال فنادوه: سمعاً سمعاً، فناداهم: عدْلاً عدْلاً.

وخطبة لعتبة

قدم كتاب معاوية إلى عتبة بمصر: إنّ قِبَلك قوماً يطعنون على الولاة ويعيبون السلف. فخطبهم فقال:

يأهل مصر، خفَّ على ألسنتكم مَدْحُ الحق ولا تفعلونه، وذمّ الباطل وأنتم تأتونه، كالحمار يحمل أسفاراً أثقله حملها ولم ينفعه ثقلها، وآيم الله لا أداويكم بالسيف ما صلحتم على السوط، ولا أبلغ السوط ما كفتْني الدِّرة، ولا أبطيء عن الأولى ما لم تسرعوا إلى الأخرى؛ فالزموا ما أمركم الله به، تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا؛ وإياكم وقال ويقول، قبل أن يقال فعل ويفعل؛ وكونوا خير قوس سهماً. فهذا اليوم الذي ليس قبله عقاب، ولا بعده عتاب.

خطب الخوارج

خطبة لقطري بن الفجاءة في ذمّ الدنيا

صعد قطري بن الفجاءة مِنبر الأزارقة ـ وهو أحد بني مازن بن عمرو بـن تميم ـ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أمّا بعد، فإني أحذركم الدنيا، فإنها حُلوة خضِرة، حُفَّت بالشهوات، وراقت بالقليل، وتحببت بالعاجلة، وغمرت بالآمال، وتحلَّت بالأماني وزيِّنت بالغرور؛ لا تدوم حسرتها، ولا تؤمن فجعتها؛ غدّارة ضرارة، وحائلة زائلة، ونافدة بائدة؛ لا تعدو ـ إذا [هي] تناهت إلى أمنيَّة أهل الرغبة فيها والرضا عنها ـ أن تكون كما قال الله عز وجل: ﴿كماءٍ أنزلْناه من السَّماءِ فاختلَط به نباتُ الأرضِ فأَصبَح هَشِيماً

تَذْرُوه الرِّياحُ وكان اللهُ على كلِّ شيءٍ مُقتدِراً﴾[1]. مع أن امرءًا لم يكن منها في حَبْرة، إلا أعقبته بعدها عَبرة؛ ولم يَلْق من سرائها بطناً، إلا منحته من ضرائها ظهراً؛ ولم تطُلَّه منها ديمةُ رخاء، إلا هطلتْ عليه مُزْنة[2] بلاء؛ وحريٌّ إذا أصبحتْ له منتصرة أنْ تمسي له خاذلةً متنكرة؛ وإنْ جانبٌ منها اعذوذب واحلولى، أمر عليه منها جانب فأوبا؛ وإن لَبس امرؤٌ من غضارتها ورفاهيتها نعَماً، أرهقتْه من نوائبها غمّاً؛ ولم يُمْس امرُؤ منها في جَناح أمن، إلا أصبح منها في قوادم خوف؛ غرّارة، غرورٌ ما فيها؛ باقية، فانٍ ما عليها؛ لا خير في شيء من زادها إلا التقوى، من أقلّ منها استكثر مما يؤمِّنه، ومن استكثر منها استكثر مما يُوبقه[3]، وزال عما قليل عنه، استكثر مما يوبقه؛ كم واثق بها قد فجعتْه، وذي طمأنينة إليها قد صرعتْه، وكم من ذي اختيال فيها قد خدعته؛ وكم من ذي أبّهة فيها قد صيَّرته حقيراً وذي نخوة فيها قد ردّته ذليلاً، وذي تاج قد كبَّته[4] لليدين والفم؛ سلطانها دوَل[5]، وعيشها رنْق، وعذبُها أُجاج، وحُلوها مرّ، وغذاؤها سِمام، وأسبابها رمام[6] وقطافها سَلَع[7]؛ حيها بَعرَض موت، وصحيحها بعرض سقم، ومنيعها بعرَض اهتضام؛ مليكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وصحيحها وسليمها منكـوب؛ وحـائـزهـا وجـامعهـا محروب؛ مع أنّ من وراء ذلك سكرات الموت وزفراتِه، وهولَ المُطَّلع، والوقوف بين يدي الحَكَم العدل؛ ليجزيَ الذين أساءُوا بما عملوا ويجزيَ الذين أحسنوا بالحسنى.

ألستم في مساكن من كان أطول أعماراً، وأوضح آثاراً، وأعدّ عديداً، وأكثف جنوداً، وأعْتدَ عَتاداً، وأطول عماداً؟ تعبّدوا للدنيا أيَّ تعبّد، وآثروها أي إيثار، وظعنوا عنها بالكُرْه والصَّغار؛ فهل بلغكم أنّ الدنيا سمحت لهم نفساً بفدية، وأغنت عنهم فيما أمّلتْهم به بخطب! بل أثْقلتهم بالفوادح، وضعضعتهم بالنوائب، وعفّرتهم

---

(١) سورة الكهف الآية ٤٥.
(٢) المزن: السحاب يحمل الماء.
(٣) يوبقه: يهلكه.
(٤) كبّته: صرعته، وكبّ إناء: مَكبّهُ.
(٥) دول: أي لا يستقرّ لأحد بل يتداوله البعض لمن البعض.
(٦) رمام: بالية.
(٧) سلع: شجر مر.

للمناخر، وأعانت عليهم ريبَ المَنون، وعَقَرتهم بالمصائب؛ وقد رأيتم تنكُّرَها لمن دان لها وآثرها وأخلد إليها، حتى ظعنوا عنها لفراق الأبد إلى آخر الأمد. هل زوّدتهم إلا الشقاء، وأحلّتهم إلا الضنك، أو نوّرت لهم إلا الظلمة، وأعقبتهم إلا الندامة؟ أفهذه تُؤثِرون، أم عليها تَحرصون، أم إليها تطمئنون؟ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَن كان يُريد الحياةَ الدنيا وزينتَها نُوَفِّ إليهم أعمالَهم فيها وهم فيها لا يبخَسون أُولئك الذين ليس لهم في الآخرةِ إلا النارُ وحَبط ما صنعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعْملون﴾ (١)؛ فبئست الدار لمن لم يتّهمها، ولم يكن فيها على وجل منها؛ اعمَلوا وأنتم تعلمون أنكم تاركوها لا بدَّ؛ فإنما هي كما نعت الله عز وجل: ﴿لَعِب ولهوٌ وزينة وتفاخُرٌ بينكم وتكاثُر في الأموال والأولاد﴾ (٢). فاتَّعظوا فيها بالذين يبنون بكل ريع آية يعبثون، ويتخذون مصانع لعلهم يخلدون، وبالذين قالوا: ﴿مَن أَشدُّ منّا قوةً﴾ (٣)؛ واتعِظوا بمن رأيتم من إخوانكم كيف حُملوا إلى قبورهم فلا يُدْعون ركباناً، وأُنزلوا [الأجداث] فلا يدعَون ضِيفاناً، وجُعل لهم من الضريح أكنان، ومن التراب أكْفان، ومن الرُّفات جيران؛ فهم جيرة لا يُجيبون داعياً، ولا يمنعون ضيْماً، إن أخصبوا لم يفرحوا، وإن قحِطوا لم يقنطوا، جمعٌ وهم آحاد، جيرة وهم أبعاد، متناءون وهم يُزارون ولا يزورون، حلماء قد ذهبتْ أضغانهم، وجهلاء قد ماتت أحقادهم، لا يخشى فجْعُهم، ولا يُرجى دفْعهم، وهم كمن لم يكن، قال الله تعالى: ﴿فتلِك مساكنُهم لم تُسْكن مِم بعدِهم إلا قليلاً وكنَّا نحن الوارِثينَ﴾ (٤) استبدَلوا بظهر الأرض بطناً، وبالسعة ضيقاً، وبالآل غربة، وبالنور ظلمة، فجاءوها حفاةً عُراةً فرادى، غير أنْ ظعنوا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة إلى خلود الأبد يقول الله تبارك وتعالى: ﴿كما بَدأْنا أوّلَ خلق نُعِيدُه، وعْداً علينا إنّا كنّا فاعلينَ﴾ (٥)، فاحذروا ما حذركم الله، وانتفعوا بمواعظه، واعتصموا بحبله، عصَمَنا الله وإياكم

(١) سورة هود الآية ١٥ و ١٦.

(٢) سورة الحديد الآية ٢٠. (٣) سورة فصلت الآية ١٥.

(٤) سورة القصص الآية ٥٨. (٥) سورة الانبياء الآية ١٠٤.

بطاعته، ورزقنا وإياكم أداء حقه. ثم نزل.

خطب لأبي حمزة بمكة

خطبهم أبو حمزة الشاري بمكة، فصعد المنبر متوكئاً على قوس عربية، فخطب خطبة طويلة، ثم قال:

يأهل مكة، تعيِّرونني بأصحابي، تزعمون أنهم شباب، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شباباً؟ نعم الشباب مكتهلين، عَمِيَةٌ عن الشر أعينهم، بطيئة عن الباطل أرجلهم، قد نظرَ الله إليهم في آناء الليل مُنثنيةٌ أصلابُهم بمثاني القرآن، إذا مرّ أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً إليها، وإذا مر بآية فيها ذكرُ النار شهق شهقة كأن زفير جهنم في أذنيه، قد وصلوا كلالَ ليلهم بكلال نهارهم، أنضاءُ عِبادة، قد أكلت الأرض جباهَهم وأيديَهم وركَبَهم، مصفرة ألوانهم، ناحلة أجسامهم من كثرة الصيام وطول القيام، مستقلون لذلك في جنب الله، موفون بعهد الله، منجزون لوعد الله، [حتى] إذا رأوا سهام العدوّ قد فوِّقت[1]، ورماحهم قد أُشرعَت، وسيوفهم قد انتضيت، وبرقت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت ـ استهانوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، فمضى لشاب منهم قدُماً حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه، قد رُمِّلت[2] محاسن وجهه الدماء، وعفّر جبينه بالثرى، وأسرع إليه سباع الأرض، وانحطت عليه طير سماء؛ فكم من مُقْلة في منقار طائر، طالما بكى صاحبها من خشية الله، وكم من كفٍ بانت رقيق، قد فُلق بعمَد الحديد! رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحها الجنان.

ثم قال: الناس منا ونحن منهم، إلا عابدَ وثن، أو كفَرَة أهل الكتاب، وإماماً جائراً، أو شادّاً على عضده.

وخطبة أبي حمزة بالمدينة

قال مالك بن أنس رحمه الله: خطَبنا أبو حمزة خطبة شك فيها المستبصر وردّت المرتاب، قال:

---

(١) فوّق السهم: عمل له فوقاً، والفوق أي باحدى طرفي السهم ميل وانكسار. (٢) رمّلت: لُطّخت.

أوصيكم بتقوى الله وطاعته، والعمل بكتابه وسنة نبيه ﷺ، وصِلة الرحم، وتعظيم ما صَغرَت الجبابرة من حق الله، وتصغير ما عَظَّمَت من الباطل، وإماتة ما أحيَوا من الجور، وإحياء ما أماتوا من الحقوق، وأن يطاع الله ويعصى العباد في طاعته؛ فالطاعة لله ولأهل طاعة الله، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ ندعو إلى كتاب الله وسنة نبيه، والقسْم بالسوية، والعدل في الرعية، ووضع الأخماس في مواضعها التي أمر الله بها؛ إنا والله ما خرْجنا أشَراً[١] ولا بَطَراً[٢] ولا لهواً ولا لعِباً؛ ولا لدولة مُلكٍ نريد أن نخوض فيها ولا لثأرٍ قد نيل منّا ؛ ولكننا لما رأينا الأرض قد أظلمت، ومعالم الجوْر قد ظَهَرت، وكثر الادِّعاء في الدين، وعُمِل بالهوى، وعُطِّلت الأحكام، وقُتِل القائم بالقسط[٣]، وعنِّف القائل بالحق ـ سمعْنا منادياً ينادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فأجبنا داعيَ الله، فأقبلنا من قبائل شتى، قليلين مستضعفين في الأرض، فآوانا الله وأيدنا بنصره، فأصبحنا بنعمته إخواناً، وعلى الدين أعواناً.

يأهل المدينة، أوّلكم خير أوّل، وآخركم شرٌّ آخر؛ إنكم أطعتم قراءكم وفقهاءكم فاختانوكم عن كتاب غير ذي عوج، بتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين؛ فأصبحتم عن الحق ناكبين[٤]، أمواتاً غير أحياء وما تشعرون.

يأهل المدينة، يا أبناء المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، ما أصح أصلكم، وأسقَمَ فرعَكم! كان آباؤكم أهلَ اليقين، وأهل المعرفة بالدين، والبصائر النافذة، والقلوب الواعية؛ وأنتم أهل الضلالة والجهالة؛ استعبدتكم الدنيا فأذلتكم والأمانيّ فأضلتكم؛ فتح الله لكم باب الدِّين فسددتموه، وأغلق عنكم باب الدنيا ففتحتموه؛ سراعٌ إلى الفتنة، بطاءٌ عن السُّنّة[٥]؛ عُمْي عن البرهان، صُمٌّ عن العِرفان؛

---

(١) أشراً: بطراً.

(٢) بطراً: أي أبطرته النعمة اختال وتكبّر.

(٣) القسط: العدل.

(٤) ناكبين: مبتعدين.

(٥) السنة: الشريعة الاسلامية.

عبيد الطمع، حلفاء الجزع؛ نِعْم ما ورّثكم آباؤكم لو حفظتموه، وبئس ما تورِّثون أبناءكم إن تمسكوا به! نصر الله آباءكم على الحق، وخذلكم على الباطل؛ كان عدد آبائكم قليلاً طيِّباً وعددكم كثير خبيث؛ اتبعتم الهوى فأرْداكم واللهو فأسهاكم، ومواعظ القرآن تزجركم فلا تزدَجرون، وتعبِّركم فلا تعتبرون، سألناكم عن ولاتكم هؤلاء فقلتم: والله ما فيهم الذي يعدل؛ أخذوا المال من غير حلّه، فوضعوه في غير حقه؛ وجاروا في الحكم، فحكموا بغير ما أنزل الله؛ واستأثروا بفيئنا؛ فجعلوه دولة بين الأغنياء منهم، وجعلوا مقاسمنا وحقوقنا في مهور النساء وفروج الإماء. وقلنا لكم: تعالوْا إلى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم، وجاروا في الحكم فحكموا بغير ما أنزل الله. فقلتم: لا نَقْوَى على ذلك، ووددْنا أنا أصبنا من يكفينا، فقلنا: نحن نكفيكم. ثم الله راعٍ علينا وعليكم، إن ظفرنا لنُعطينَّ كلَّ ذي حق حقه؛ فجئنا فاتقينا الرماح بصدورنا، والسيوف بوجوهنا، فعرضتم لنا دونهم، فقاتلتمونا، فأبعدكم الله؛ فوالله لو قلتم لا نعرف الذي تقول ولا نعلمه لكان أعذر؛ مع أنه لا عُذْر للجاهل، ولكن أبى الله إلا أن يَنطق بالحق على ألسنتكم ويأخذكم به في الآخرة.

ثم قال: الناس منا ونحن منهم، إلا ثلاثة: حاكماً جاء بغير ما أنزل الله، أو متبِعاً له، أو راضياً بعمله.

أسقطنا في هذه الخطبة ما كان من طعنه على الخلفاء، فإنه طعن فيها على عثمان وعلي بن أبي طالب رضوان الله عليهما، وعمر بن عبد العزيز، ولم يترك من جميع الخلفاء إلا أبا بكر وعمر، وكفَّر مَن بعدهما، فلعنة الله عليه؛ إلا أنه ذكر من الخلفاء رجلاً أصغى إلى الملاهي والمعازف وأضاع أمر الرعية فقال: كان فلان ابن فلان من عدد الخلفاء عندكم، وهو مضيِّع للدين والدنيا، اشتُري له بردان بألف دينار ائتزر بأحدهما والتحف بالآخر، وأقعد حبَّابة عن يمينه، وسلامة عن يساره، فقال: يا حبابة غنيني، ويا سلامة اسقيني؛ فإذا امتلأ سكراً وازدهى طرباً شق ثوبيه وقال: ألا أطير؟ فَطِرْ إلى النار وبئس المصير! فهذه صفة خلفاء الله تعالى.

وخطبة لأبي حمزة

أما بعد، فإنك في ناشيء فتنة، وقائم ضلالة قد طال جثومها، واشتدّ عليك غمومُها، وتلوّتْ مصايد عدوّ الله، وما نصب من الشرك لأهل الغفلة عما في عواقبها، فلن يَهُدّ عمودَها، ولن يَنزع أوتادَها، إلا الذي بيده مُلْك الأشياء وهو الله الرحمن الرحيم: ألا وإن لله بقايا من عباده لم يتحيروا في ظلمها، ولم يشايعوا أهلها على شبهها؛ مصابيح النور في أفواههم تزهو، وألسنتُهم بحجج الكتاب تَنْطِق؛ ركبوا مَنْهج السبيل، وقاموا على العلَم الأعظم، هم خصماء الشيطان الرجيم، بهم يُصلح الله البلاد، ويدفع عن العباد؛ طوبى لهم وللمستصبحين بنورهم، وأسأل الله أن يجعلنا منهم.

من أرتج[1] عليه في خطبته

أول خطبة خطبها عثمان بن عفان أرتج عليه؛ فقال: أيها الناس، إن أول كلِّ مركب صعب؛ وإن أعِش تأتكم الخطب على وجهها؛ وسيجعل الله بعد عسر يُسراً إن شاء الله.

ولما قدم يزيد بن أبي سفيان الشام والياً عليها لأبي بكر، خطب الناس فأرتج عليه؛ فعاد إلى الحمد لله، ثم أرتج عليه فعاد إلى الحمد ثم أرتج عليه فقال: يأهل الشام عسى الله أن يجعل بعد عُسر يسراً، وبعدعيٍّ بياناً؛ وأنتم إلى إمام فاعل أحوج منكم إلى إمام قائل. ثم نزل، فبلغ ذلك عمرو بن العاص فاستحسنه.

صعد ثابت قطنة منبر سجستان، فقال: الحمد لله. ثم أرتج عليه؛ فنزل وهو يقول:

فإنْ لا أكـنْ فيهـم خطيبـاً فـإنني بسيْفـي إذا جَـدّ الوغَـى لخطيـبُ

فقيل له: لو قلتها فوق المنبر لكنت أخطب الناس.

---

(١) أرتج عليه: استغلق عليه الكلام.

وخطب معاوية بن أبي سفيان لما ولي، فَحَصِر[1]، فقال: أيها الناس، إني كنت أعددت مقالاً أقوم به فيكم فحُجِبْت عنه؛ فإن الله يحول بين المرء وقلبه؛ كما قال في كتابه؛ وأنتم إلى إمام عدلٍ، أحوج منكم إلى إمام خطيب؛ وإني آمركم بما أمر الله به ورسوله، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه ورسوله؛ وأستغفر الله لي ولكم.

وصعد خالد بن عبد الله القسري المنبر فأرتج عليه، فمكث ملياً لا يتكلم؛ ثم تهيأ له الكلام فتكلم، فقال: أما بعد، فإن هذا الكلام يجيء أحياناً ويعزب[2] أحياناً، فيسح عند مجيئه سَيْبه[3]، ويعزّ عند عزوبه طلبه؛ ولربما كوبِر فأبى، وعولج فنأى؛ فالتأني لمجيِّه، خير من التعاطي لأبيِّه، وتركُهُ عند تنكره، أفضل من طلبه عند تعذره؛ وقد يُرْتَج على البليغ لسانه، ويُخلَج من الجريِّ جنانه؛ وسأعود فأقول إن شاء الله.

وصعد أبو العنبس منبراً من منابر الطائف، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد... فأُرتج عليه، فقال: أتدرون ما أريد أن أقول لكم؟ قالوا: لا. قال: فما ينفعني ما أريد أن أقول لكم؟ ثم نزل.

فلما كان في الجمعة الثانية صعد المنبر وقال: أما بعد؛ فأُرتج عليه؛ فقال: أتدرون ما أريد أن أقول لكم؟ قالوا: نعم. قال: فما حاجتكم إلى أن أقول لكم ما علمتم؟ ثم نزل.

فلما كانت الجمعة الثالثة قال: أما بعد؛ فأرتج عليه، قال: أتدرون ما أريد أن أقول لكم؟ قالوا: بعضنا يدري، وبعضنا لا يدري. قال: فليخبر الذي يدري منكم الذي لا يدري! ثم نزل.

وأتى رجل من بني هاشم اليمامة، فلما صعد المنبر أُرتج عليه؛ فقال: حيّا الله هذه الوجوه وجعلني فِداءَها: قد أمرتُ طائفي بالليل ألا يرى أحداً إلا أتاني به؛ وإن

---

(١) الحصر: العيُّ في الكلام.

(٢) يعزب: يغيب. (٣) يسحّ سيبه: أي يهطل مطره.

كنت أنا هو! ثم نزل.

وكان خالد بن عبد الله إذ تكلم يظنّ الناس أنه يصنع الكلام، لعذوبة لفظه وبلاغة منطقه؛ فبينا هو يخطب يوماً إذ وقعت جرادة على ثوبه، فقال: سبحان مَن الجرادة مِن خلقه، أدمج قوائمها وطرفها وجناحيها، وسلطها على ما هو أعظم منها.

خطب عبد الله بن عامر بالبصرة في يوم أضحى، فأُرتج عليه، فمكث ساعة ثم قال: والله لا أجمع عليكم عِيّاً ولؤماً. من أخذ شاة من السوق فهي له وثمنُها عليَّ.

قيل لعبد الملك بن مروان: عَجِل عليك المشيب يا أمير المؤمنين. فقال: كيف لا يعجَل وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين.

خطب النكاح

خطب عثمان بن عَنبسة بن أبي سفيان إلى عُتبة بن أبي سفيان ابنته، فأقعده على فخذه، وكان حدثاً، فقال:

أقرب قريب، خَطب أحبَّ حبيب، لا أستطيع له ردّاً، ولا أجد من إسعافه بُدّاً؛ وقد زوّجتكها وأنت أعز عليَّ منها، وهي ألصق بقلبي منك؛ فأكرِمْها يعْذُب على لساني ذكرك، ولا تُهنْها فيصغُر عندي قدرك؛ وقد قرّبتُك مع قرْبك. فلا تُبعدْ قلبي من قلبك.

وخطبة نكاح

سوار القاضي:

العتبي قال: زوَّج شبيب بن شيبة ابنه بنتَ سوار القاضي، فقلنا: اليوم يعبُّ عُبابه! فلما اجتمعوا تكلم فقال:

الحمد لله، وصلى الله على رسول الله، أمّا بعد، فإن المعرفة منا ومنكم بنا وبكم، تمنعنا من الإكثار، وإن فلاناً ذَكر فلانة.

وخطبة نكاح

العتبي قال: كان الحسن البصري يقول في خطبة النكاُح، بعد الحمد لله والثناء عليه:

أمّا بعد، فإن الله جمع بهذا النكاح الأرحام المنقطعة، والأنساب المتفرقة، وجعل ذلك في سُنَّة من دينه ومنهاج [واضحٍ] من أمره؛ وقد خَطب إليكم فلان، وعليه من الله نعمة، وهو يبذل من الصداق كذا فاستخيروا الله وردّوا خيراً يرحمكم الله.

وخطبة نكاح

العتبي قال: حضرتُ ابنَ الفُقيْر خَطب على نفسه امرأة من باهلة، فقال:

وما حسَنٌ أن يَمدح المرءُ نفسهُ   ولكنّ أخْلاقاً تُذمّ وتُمدحُ

وإن فلانة ذكرت لي.

وخطبة نكاح

عمر بن عبد العزيز:

العتبي قال: يستحب للخطاب إطالة الكلام، وللمخطوب إليه تقصيره؛ فخطب محمد بن الوليد [بن عتبة بن أبي سفيان] إلى عمر بن عبد العزيز أخته، فتكلم محمد بكلام طويل، فأجابه عمر:

الحمد لله ذي الكبرياء، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء، أمّا بعد، فإن الرغبة منك دعتْك إلينا، والرغبة فيك أجابتك منا، وقد أحسنَ بك ظنّاً مَن أودعك كريمته، واختارك ولم يختر عليك، وقد زوّجتها على كتاب الله: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

وخطبة نكاح

خطب بلال إلى قوم من خثعم لنفسه ولأخيه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أنا بلال وهذا أخي، كنا ضالَّيْن فهدانا الله، عبدين فأعتَقَنا الله، فقيرين فأغنانا الله؛ فإن تزوِّجونا فالحمد لله، وإن تردّونا فالمستعان الله.

وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز:

قد زوّجك أمير المؤمنين ابنته فاطمة. قال: جزاك الله يا أمير المؤمنين خيراً، فقد أجزلتَ العطية، وكفَيت المسألة.

نكاح العبد

الأصمعي قال: زوّج خالد بن صفوان عبده من أمته، فقال له العبد: لو دعوتَ الناس وخطبتَ! قال: آدعُهم أنت. فدعاهم العبد، فلما اجتمعوا تكلم خالد بن صفوان فقال:

إن اللهَ أعظمُ وأجلُّ من أن يُذكر في نكاح هذين الكلبين! وأنا أُشهدكم أني زوّجتُ هذه الزانية، من هذا ابنِ الزانية.

خطب الأعراب

الأصمعي قال: خطب أعرابي فقال: أمّا بعد، فإن الدنيا دار ممرّ، والآخرةَ دار مقرّ؛ فخذوا من ممرّكم لمقرّكم، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم، وأخرجوا الدنيا من قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها حَييتم، ولغيرها خُلقتم، اليوم عمل بلا حساب، وغداً حساب بلا عمل، إنّ الرجل إذا هلك قال الناس: ما ترك؟ وقالت الملائكة: ما قدَّم؟ فقدِّموا بعضاً يكون لكم قرضاً، ولا تتركوا كُلا فيكون عليكم كَلاًّ، أقول قولي هذا والمحمودُ الله والمصلَّى عليه محمد، والمدعوُّ له الخليفة، ثم إمامكم جعفر. قوموا إلى صلاتكم.

وخطبة لأعرابي

الحمد لله الحميد المستحمد، وصلى الله على النبي محمد، أمّا بعد، فإنّ التعمق في

ارتجال الخطب لممكن، والكلام لا يَثني حتى يُنثنَى عنه، والله تبارك وتعالى لا يُدرِك واصف كُنْه صفته، ولا يبلغ خطيب منتهَى مدْحته، له الحمد كما مدح نفسه، فانهضوا إلى صلاتكم. ثم نزل فصلى.

خطبة أعرابي لقومه

الحمد لله، وصلى الله على النبي المصطفى، وعلى جميع الأنبياء، ما أقبح بمثلي أن ينهى عن أمر ويرتكبه، ويأمر بشيء ويجتنبه، وقد قال الأوّل:

ودعْ ما لُمت صاحبَه عليه ... فذمٌّ أنْ يَلومك مَن تلومُ

ألهمنا الله وإياكم تقواه، والعملَ برضاه.

كتاب المجنّبة الثانية
في التوقيعات والفصول والصدور واخبار الكتبة

فرش الكتاب

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في الخطَب وفضائلها وذكر طِوالِها وقِصارها، ومقامات أهلها؛ ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في التوقيعات، والفصول، والصدور، وأدوات الكتابة، وأخبار الكتاب، وفضل الإيجاز؛ إذ كان أشرفُ الكلام كلِّه حُسناً وأرفعُه قدْراً، وأعظَمُه من القلوب مَوْقِعاً، وأقلّه على اللسان عَمَلاً: ما دل بعضُه على كله، وكفى قليله عن كثيره، وشهد ظاهره على باطنه، وذلك أن تقلّ حروفه وتكْثُرَ معانيه؛ ومنه قولهم: رُبَّ إشارةٍ أبْلَغُ مِنْ لفْظٍ. أليس أن الإشارة تبين ما لا يبينه الكلام، وتبلغ ما يقصر عنه اللسان؟ ولكنها إذا قامت مقام اللفظ وسدت مسدَّ الكلام، كانت أبلغ؛ لخفة مؤنتها، وقلة محملها.

قال ابرويز لكاتبه: اَجْمَعِ الكثيرَ مما تريد من المعنى، في القليل مما تقول. يحضّهَ على الإيجاز. وينهاه عن الإكثار في كتبه، ألا تراهم كيف طعنوا على الإسهاب والإكثار، حتى كان بعضُ الصحابة يقول: أعوذ بالله من الإسهاب؛ قيل له: وما الإسهاب؟ قال: المُسْهب الذي يتخلل بلسانه تخلُّلَ الباقر[1]، ويشول به شولان الرَوق[2].

وقال النبي ﷺ: «أبغضُكم إليَّ الثرثارُون المُتشَدقون» يريد: أهل الإكثار والتقعير في الكلام.

---

(١) الباقر: جماعة البقر.
(٢) الروق: القرن والرمح.

العرب والإيجاز:

ولم أجد أحداً من السلف يذمُّ الإيجاز ويقدح فيه، ولا يعيبه ويطعن عليه وتحب العرب التخفيف والحذف، ولهربها من التثقيل والتطويل، كان قصُر الممدود أحب إليها من مدِّ المقصور، وتسكينُ المتحرك أخفَّ عليها من تحريك الساكن لأن الحركةَ عمل والسكونَ راحة.

ومن كلام العرب الاختصار والإطناب، والاختصارُ عندهم أحدُ في الجملة، وإن كان للإطناب موضع لا يصلحُ إلا له، وقد تومىءُ إلى الشيء فتستغني عن التفسير بالإيماء، كما قالوا: لمحَةٌ دالَّة.

جعفر وكتابه لابن مسعدة:

كتب عمرو بن مسعدة إلى ضمرة الحروري كتاباً، فنظر فيه جعفر بن يحي فوقع في ظهره؛ إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيراً، وإذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار عِيّاً.

مروان وكتاب لقائد:

وبعث إلى مروان بن محمد قائد من قواده بغلام أسود، فأمر عبد الحميد الكاتبَ أن يكتب إليه يلحاه[1] ويعنفه، فكتب وأكثر، فاستثقل ذلك مروان، وأخذ الكتاب فوقع في أسفله: أما إنك لو علمت عدداً أقل من واحد، ولوناً شَرّاً من أسود، لبعثت به.

ربيعة الرأي وأعرابي:

وتكلم ربيعة الرأي فأكثر، وأعجبه إكثاره، فالتفت إلى أعرابيّ إلى جنبه فقال له: ما تعدون البلاغة عندكم يا أعرابي؟ قال له: حذف الكلام، وإيجاز الصواب. قال: فما

(١) يلحاه: يلومه ويعذله.

تعدُّون العيّ؟ قال: ما كنت فيه منذُ اليوم! فكأنما ألقمه حجراً.

أول من وضع الكتابة

آدم عليه السلام:

أول من وضع الخط العربي والسرياني وسائر الكتب، آدم ﷺ، قبل موته بثلثمائة سنة؛ كتبه في الطين ثم طبخه؛ فلما انقضى ما كان أصاب الأرضَ من الغرق، وجَدَ كلُّ قوم كتابَهم فكتبوا به، فكان إسماعيلُ عليه الصلاة والسلام وجد كتابَ العرب.

وروي عن أبي ذَر عن النبي ﷺ أن إدريس أول من خط بالقلم بعد ادم ﷺ.

إسماعيل عليه السلام:

وعن ابن عباس أن أول من وضع الكتابة العربية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وكان أول من نطق بها، فوضعت على لفظه ومنطقه.

قوم من القدماء:

وعن عمرو بن شبة بأسانيده، أن أول من وضع الخط العربي، أبجدُ وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت؛ وهم قوم من الجبلّة[1] الآخرة، وكانوا نزولاً مع عدنان ابن أدد، وهم من طسم وجديس.

وحكى أنهم وضعوا الكتب على أسمائهم، فلما وجدوا حروفاً في الألفاظ ليست في أسمائهم ألحقوها بهم وسموها الروادف، وهي: الثاء والخاء والذال والضاد والظاء والغين، على حسب ما يلحن في حروف الجُمَّل.

---

(١) الجبلّة: الأمة.

بنو إسماعيل:

وعنه أن أول من وضع الخط: نفيس، ونصر، وأتيما، وبنو إسماعيل بن إبراهيم، ووضعوه متصل الحروف بعضها ببعض حتى فرقه نبت وهميسع وقيذر.

طيء:

وحكوا أيضاً أن ثلاثة نفر من طيء اجتمعوا ببقعة، وهم مرامر بن مرة، وأسلم ابن سِدرة، وعامر بن جَدَرة؛ فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلمه قومٌ من الأنبار.

في الإسلام:

وجاء الإسلام وليس أحد يكتب بالعربية غير سبعة عشر إنساناً، وهم: علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وعمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، وعثمان، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبان بن سعيد بن العاص، وخالد بن سعيد أخوه، وأبو حذيفة ابن عتبة، ويزيد بن أبي سفيان، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، والعلاء بن الحضرمي وأبو سلمة بن عبد الأسد، وعبد الله بن سعد بن أبي سَرح وحُويطب بن عبد العزى، وأبو سفيان بن حرب، ومعاوية ولده، وجُهيم بن الصلت بن مَخرمة.

استفتاح الكتب

إبراهيم بن محمد الشيباني قال: لم تزل الكتب تستفتح: باسمك اللهم، حتى أنزلت سورة هود وفيها: ﴿بسمِ اللهِ مَجْراها ومُرْساها﴾[1] فكُتب بسم الله؛ ثم نزلت بسورة بني إسرائيل: ﴿قُلِ ٱدْعوا الله أوِ ٱدعوا الرَّحمن﴾[2]، فكُتِبَ بسم الله الرحمن؛ ثم نزلت بسورة النمل: ﴿إنَّه مِن سُليمانَ وإنه بسْمِ الله الرَّحْمن الرحيم﴾[3] فاستفتح بها رسول الله ﷺ وصارت سنَّة.

---

(١) سورة هود الآية ٤١ .   (٢) سورة الاسراء الآية ١١٠ .   (٣) سورة النمل الآية ٣٠ .

وكان رسول الله ﷺ يكتب إلى أصحابه وأمراء جنوده: من محمد رسول الله إلى فلان.

وكذلك كانوا يكتبون إليه: يبدءون بأنفسهم، فممن كتب إليه وبدأ بنفسه أبو بكر، والعلاء بن الحضرمي، وغيرهما؛ وكذلك كُتب الصحابة والتابعين؛ ثم لم تزل حتى ولى الوليد بن عبد الملك، فعظم الكتاب وأمر أن لا يكاتبه الناس بمثل ما يكاتب به بعضهم بعضاً، فجرت به سنة الوليد إلى يومنا هذا، إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز ويزيد الكامل، فإنهما عملا بسنة رسول الله ﷺ، ثم رجع الأمر إلى رأي الوليد، والقوم عليه إلى اليوم.

ختم الكتاب وعنوانه

سبب ذلك:

وأما ختم الكتاب وعنوانه فإن الكتب لم تزل مشهورة غير مُعَنْوَنَة ولا مختومة حتى كُتبت صحيفة المتلمس، فلما قرأها ختمت الكتب وعنونت؛ وكانت يؤتى بالكتاب فيقال: مَن عُنيَ به؟ فسمى عنواناً.

وقال حسان بن ثابت في قتل عثمان:

ضحَّوْا بأشْمطَ عنوانُ السُّجُود بـه ... يُقطِّـعُ الليْـل تَسْبيحـاً وقُـرآنـا [1]

وقال آخر:

وحاجةٌ دون أُخْرى قد سَمَحْتَ بها ... جَعَلتهـا للذي أحببـتَ عُنْـوانـا

وقال أهل التفسير في قول الله تعالى: ﴿إنِّي ألقـــي إليَّ كتابٌ كريمٌ﴾[2]: أي مختوم؛ إذ كانت كرامة الكتاب خَتْمُه.

---

(١) الأشمط: المختلط سواد شعره ببياض.

(٢) سورة النمل الآية ٢٩.

تأريخ الكتاب

سبب ذلك:

لا بد من تأريخ الكتاب؛ لأنه لا يدل على تحقيق الأخبار وقربِ عهد الكتاب وبُعْدِهِ إلا بالتأريخ، فإذا أردت أن تؤرِّخ كتابك فانظر إلى ما مضى من الشهر وما بقي منه، فإن كان ما بقي أكثر من نصف الشهر، كتبت: لكذا وكذا ليلة مضتْ من شهر كذا؛ وإن كان الباقي أقل من النصف جعلت مكان مضت: بَقِيَتْ.

وقد قال بعض الكتاب: لا تكتب إذا أرَّخت إلا بما مضى من الشهر؛ لأنه معروف وما بقي منه مجهول؛ لأنك لا تدري أيتم الشهر أم لا.

سحاءة الكتاب وطريقة لابن طاهر:

ولا تجعل سِحاءة[1] كتابك غليظةً، إلا في كتب العهود والسجلات التي يُحتاج إلى بقاء خواتمها وطوابعها؛ فإن عبد الله بن طاهر كتب إليه بعض عمّاله على العراق كتاباً، وجعل سحاءته غليظة، فأمر بإشخاص الكاتب إليه، فلما ورد عليه قال له عبد الله بن طاهر: إن كانت معك فأس فاقطع ختم كتابك ثم ارجع إلى عملك، وإن عدت إلى مثلها عدنا إلى إشخاصك لقطعها؛ ولا تعظم الطينة[2] جداً، وطِنْ كتبَك بعد كتْبكَ عناوينَها، فإن ذلك من أدب الكاتب، فإن طِينَتْ قبل العنوان فأدب منتحل.

تفسير الأمي

فأما الأمِّيّ فمجازه على ثلاثة وجوه: قولهم أمي؛ منسوب إلى أمة رسول الله ﷺ. ويقال: رجل أُمِّي؛ إذا كان من أمّ القرى، قال الله تعالى: ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرى وَمَنْ

---

(١) سحاءة القرطاس: ما سحي، أي قشر وأخذ.

(٢) يقال طان فلان الكتاب: ختمه بالطين كما يختم بالشمع.

حَوْلَها﴾[١]، وأما قوله تعالى: ﴿النبيّ الأمّيّ﴾[٢]، فإنما أراد به الذي لا يقرأ ولا يكتب، والأمّيّة في النبي ﷺ فضيلة: لأنها أدلُّ على صدق ما جاء به أنه من عند الله لا من عنده، وكيف يكون من عنده وهو لا يكتب ولا يقرأ ولا يقول الشعر ولا ينشده؟

المأمون والمنقرى:

قال المأمون لأبي العلاء المنقرى: بلغني أنك أُمّيٌّ، وأنك لا تقيم الشعر. وأنك تلحن في كلامك! فقال: يا أمير المؤمنين، أما اللحن فربما سبقني لساني بالشيء منه، وأما الأمّيّة وكسر الشعر فقد كان النبي ﷺ أُمّياً، وكان لا يُنْشدُ الشعر. فقال المأمون: سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني رابعاً، وهو الجهل، أما علمت يا جاهل أن ذلك في النبي ﷺ فضيلة وفيك وفي أمثالك نقيصة.

شرف الكتاب وفضلهم

فمن فضلهم قول الله تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿علم بِالقَلم، علَّم الإنسانَ ما لم يَعْلَمْ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿كِراماً كاتبينَ﴾[٤]، وقوله: ﴿بِأيدي سَفَرَةٍ كِرام بَرَرَةٍ﴾[٥].

وللكتَّاب أحكام بَيِّنَة كأحكام القضاة يُعرفون بها ويَنْسبون إليها ويتقلدون التدبير وسياسة الملك دون غيرهم، وبهم يقام أَوَدُ الدين وأُمور العالمين.

كتاب النبي ﷺ:

فمن أهل هذه الصناعة: علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكان مع شرفه ونبله وقرابته من رسول الله ﷺ يكتب الوحي، ثم أفضت عليه الخلافة بعد الكتابة،

---

(١) سورة الأنعام الآية ٩٢.
(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٦.
(٣) سورة العلق الآية ٥.
(٤) سورة الانفطار الآية ١١.
(٥) سورة عبس الآية ١٥ و ١٦.

وعثمان بن عفان ـ كانا يكتبان الوحي، فإن غابا كتب أُبيُّ بن كعب وزيد بن ثابت، فإن لم يشهد واحد منهما، كتب غيرهما.

وكان خالد بن سعيد بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، يكتبان بين يديه في حوائجه.

وكان المغيرةُ بن شعبة، والحصين بن نمير، يكتبان ما بين الناس، وكانا ينوبان عن خالد ومعاوية إذا لم يحضرا.

وكان عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث، والعلاء بن عقبة، يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياههم، وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء.

وكان ربما كتب عبد الله بن الأرقم إلى الملوك عن النبي ﷺ وعلى آله.

وكان حذيفة بن اليمان يكتب خرص[1] ثمار الحجاز.

وكان زيد بن ثابت يكتب إلى الملوك مع ما كان يكتبه من الوحي؛ وقيل إنه تعلم بالفارسية من رسول كسرى، وبالرومية من حاجب النبي ﷺ، وبالحبشية من خادم النبي ﷺ، وبالقبطية من خادمه عليه الصلاة والسلام.

وروي عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب بين يدي رسول الله ﷺ يوماً، فقام لحاجة، فقال لي: ضع القلم على أذنك، فإنه أذكر للمملي وأفضى للحاجة.

وكان معيقيب بن أبي فاطمة يكتب مغانم النبي ﷺ.

وكان حنظلة بن الربيع بن المرقع بن صيفي، ابن أخي أكثم بن صيفي الأسَيِّدي، خليفة كل كاتب من كتاب النبي ﷺ إذا غاب عن عمله؛ فغلب عليه اسم الكاتب، وكان يضع عنده خاتمه، فقال له: الزمني وأذكرني بكل شيء أنا فيه؛ وكان لا يأتي على مال ولا طعام ثلاثة أيام إلا أذكره؛ فلا يبيت ﷺ وعنده منه شيء.

---

(١) الخرص: حزر ما على النخل من الرطب وما على الكرم من العنب زبيبا.

ومرّ رسول الله ﷺ يوماً بامرأة مقتولة يوم فتح مكة، فقال لحنظلة: آلحق خالداً وقل له، لا تقتلنّ ذرية ولا عَسيفاً[1]. ومات حنظلة بمدينة الرُّها، فقالت فيه امرأة؛ وحُكي أنه من قول الجن وهذا محال:

يـا عجبَ الدهـرِ لمحـزونـة   تَبكي على ذي شَيْبـةٍ شـاحِـب
إن تَسـأليني اليـوْم مـا شفَّني   أُخبِرك قيلاً ليس بـالكـاذب
إن سَـوادَ العيْــن أوْدى بــه   وجْدي على حنظلـةَ الكـاتـب

لما وجَّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه سعداً إلى العراق وكتب إليه أن يسبِّع القبائل أسباعاً، ويجعل على كل سُبُع رجلاً، فعل سعد ذلك، وجعل السُّبُع الثالث تميماً وأسداً وغطفان وهوازن، وأميرهم حنظلة بن الربيع الكاتب. وكان أحد من سُيِّر إلى يزدجرد يدعوه إلى الإسلام.

وكان الحصين بن نمير من بني عبد مناة شهد بيعة الرضوان، ودعاه رسول الله ﷺ ليكتب صلح الحديبية فأبى ذلك سُهيل بن عمرو، وقال: لا يكتب إلا رجل منا. فكتب علي بن أبي طالب.

وروي عنه عليه السلام أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله ﷺ بالحديبية، حين صالح قريشاً، كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب له، ثم ارتد ولحق بالمشركين، وقال: إن محمداً يكتب بما شئت! فسمع ذلك رجل من الأنصار، فحلف بالله إن أمكنه الله منه ليضربنّه ضرباً بالسيف؛ فلما كان يوم فتح مكة جاء به عثمان ـ وكان بينهما رَضَاع ـ فقال: يا رسول الله هذا عبد الله قد أقبل تائباً. فأعرض عنه، والأنصاري مُطيف به ومعه سيفه، فمدّ رسول الله ﷺ يده وبايعه، وقال للأنصاري: لقد تلَوَّمْتُك[2] أن توفِيَ بنذرك! فقال: هلا أوْمَضْت إليّ! فقال ﷺ: لا ينبغي لي أن أُومِض[3].

(١) العسيف: الأجير.
(٢) التلوم: الانتظار والتلبث.
(٣) يقال: أو مض فلان: أي اشار اشارة خفية رمزاً أو غمزا.

أيام أبي بكر رضي الله عنه

كان يكتب لأبي بكر عثمان بن عفان، وزيد بن ثابت.
وروي أن عبد الله بن الأرقم كتب له، وأن حنظلة بن الربيع كتب له أيضاً.

ولما تقلد الخلافة دعا يزيد بن ثابت، وقال له: أنت شاب عاقل لا نتهمك على رسول الله ﷺ، وكنت تكتب الوحي: فتتَبع القرآن فاجمعه وفيه يقول حسان بن ثابت:

فَمنْ للقوافِي بعد حَسّان وابنِه ... ومَن للمثاني بعد زيدِ بن ثابت

أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

كتب لعمر بن الخطاب: زيد بن ثابت، وعبد الله بن أرقم، وعبد الله بن خلف الخزاعي - أبو طلحة الطلحات - على ديوان البصرة.

وكتب له على ديوان الكوفة أبو جَبيرة بن الضحاك، فلم يزل عليه إلى أن ولى عُبيد الله بن زياد، فعزله وولى مكانه حبيب بن سعد القيسي.

أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه

كان يكتب لعثمان مروان بن الحكم، وكان عبد الملك بن مروان يكتب له على ديوان المدينة، وأبو حبترة على ديوان الكوفة، وعبد الله بن الأرقم على بيت المال، وكان أبو غطفان بن عوف بن سعد بن دينار من بني همدان، من قيس بن عيلان - يكتب له أيضاً، وكان يكتب له أهيب مولاه، وحُمران مولاه.

أيام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

كان يكتب له سعيد بن نمران الهمداني، ثم ولي قضاء الكوفة لابن الزبير؛ وكان عبد الله بن جعفر يكتب له؛ وروي أن عبد الله بن حسن كتب له؛ وكان عبد الله ابن أبي رافع يكتب له، وسماك بن حرب.

[أيام بني أمية]

كتاب بني أمية:

وكان يكتب لمعاوية بن أبي سفيان: سعيد بن أنس الغساني.
وكاتب يزيد بن معاوية: سرجون بن منصور.
وكاتب مروان بن الحكم: حميد بن عبد الرحمن بن عوف.
وكانت عبد الملك بن مروان: سالم مولاه، ثم كتب له عبد الحميد بن يحيى، وهو عبد الحميد الأكبر.
وكاتب الوليد بن عبد الملك: جناح مولاه.
وكاتب سليمان بن عبد الملك: عبد الحميد الأصغر.

وكاتب عمر بن عبد العزيز: الليث بن أبي رقية مولى أم الحكم؛ وكتب له رجاء ابن حيوة وخص به؛ وإسماعيل بن أبي حكم مولى الزبير؛ وسليمان بن سعد الحسني على ديوان الخراج. وكان عمر يكتب كثيراً بيده.

وكاتب يزيد بن عبد الملك: عبد الحميد أيضاً، ثم لم يزل كاتباً لبني أمية إلى أيام مروان بن محمد وانقضاء دولة بني أمية؛ وكان عبد الحميد أول من فتق أكمام البلاغة، وسهّل طرقها، وفكّ رقاب الشعر.

ثم جاءت الدولة العباسية

كتاب بني العباس:

فكان كاتب أبي العباس وأبي جعفر: أبا أيوب المورياني الأهوازي.
وكاتب محمد المهدي بن المنصور: معاوية بن عبيد الله، ثم يعقوب بن داود.
وكاتب موسى الهادي بن محمد المهدي: إبراهيم بن ذكوان الحراني.

وكاتب هارون الرشيد محمد المهدي: يحيى بن خالد البرمكي، ثم الفضل بن الربيع، ثم إبراهيم بن صبيح.

وكاتب محمد ـ بن زبيدة ـ الأمين: الفضل بن الربيع.

وكاتب عبد الله المأمون بن هارون الرشيد: الفضل بن سهل، ثم الحسن بن سهل، ثم عمرو بن مسعدة، ثم أحمد بن يوسف.

وكاتب أبي إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد، وهو المعروف بابن ماردة: الفضل بن مروان، ومحمد بن عبد الملك الزيات.

وكاتب الواثق هارون بن محمد المعتصم: محمد بن الملك الزيات أيضاً.

وكاتب المتوكل جعفر بن محمد المعتصم: إبراهيم بن العباس بن صول، مولى لبني العباس.

وكاتب المنتصر محمد، ويكنى أبا جعفر، ابن المتوكل: أحمد بن الخصيب.

ثم كتب للمستعين: أحمد بن محمد المعتصم، فظهر من عجزه وعِيِّه ما أسخطه عليه، ثم جعل وزارته إلى أوتامش، وقام بخدمته شجاع بن القاسم كاتبه، ثم سخط عليهما فقتلهما واستوزر أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد، ثم صرفه وقلد وزارته محمد بن الفضل الجُرجاني، ثم كانت الفتنة بين المستعين والمعتز، فقلد المعتز وزارتَه جعفر بن محمود الجرجاني، فلما استقام الأمر رد وزارته إلى أحمد بن إسرائيل.

وكاتب المهتدي محمد بن الواثق: جعفر بن محمود الجرجاني، ثم استوزر بعده أبا أيوب سليمان بن وهب.

واستوزر المعتمد أحمد بن المتوكل: عبيد الله بن يحيي بن خافان، فلما توفى استوزر بعده الحسن بن مخلد؛ وكان سبب موته أنه صدمه غلام له في الميدان يقال له رشيق، فحُمل إلى منزله فمات بعد ثلاث ساعات.

وتقلد الوزارة للمعتضد: أحمد بن طلحة.

وللموفق بن جعفر المتوكل: عبيد الله بن سليمان بن وهب.

وتقلد الوزارة للمكتفي بالله أبي محمد علي بن المعتضد بالله: القاسم بن عبيد الله ابن سليمان.

وتقلد الوزارة لجعفر المقتدر بالله بن المعتضد بالله: علي بن محمد بن الفرات، ثم محمد بن عبيد الله بن يحيي بن خاقان، ثم علي بن عيسى ثم حامد بن العباس، ثم محمد ابن علي بن مقلة، الذي يوصف خطه بالجودة؛ ثم سليمان بن الحسن بن مخلد، ثم عبد الله بن أحمد الكلوذاني، ثم الحسين بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب، ولقِّب بعميد الدولة، وكان يكتب على كتبه: «من عميد الدولة أبي علي بن ولي الدولة» وذُكر لقبُه على الدنانير والدراهم؛ ثم الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات.

وتقلد الوزارة للقاهر بالله منصور محمد بن المعتضد: محمد بن علي بن مقلة ثم محمد ابن القاسم بن عبيد الله، ثم القاسم بن عبيد الله الحصيني.

وتقلد الوزارة للراضي بالله أبي العباس محمد بن جعفر المقتدر: محمد بن علي بن مقلة، ثم عبد الرحمن بن عيسى، أخو الوزير علي بن عيسى، ثم محمد بن القاسم الكرخي؛ ثم الفضل بن جعفر بن الفرات، ثم محمد بن يحيي بن شيرزاد.

وتقلد الوزارة للمتَّقي بالله إبراهيم بن جعفر بن المقتدر؛ كاتبُه أحمد بن محمد بن الأفطس، ثم أبو إسحق القراريطي، ثم علي بن محمد بن مقلة.

وتقلد الوزارة للمستكفي بالله أبي القاسم عبد الله بن علي المكتفي بالله: الحسين بن محمد بن أبي سليمان، ثم محمد بن علي السامري المكنى أبا الفرج؛ ثم ولي للمطيع بالله الفضل بن المقتدر، فوزر له الحسن بن هارون.

أسماء من كتب لغير الخليفة

كان المغيرة بن شعبة كاتباً لأبي موسى الأشعري.

وكان سعيد بن جبير كاتباً لعبد الله بن عتبة بن مسعود، وكان قاضياً بعد ذلك.

وكان الحسن بن أبي الحسن البصري - مع نبله وفقهه وورعه وزهده - كاتباً للربيع بن زياد الحارثي بخراسان، ثم ولي قضاء البصرة لعمر بن عبد العزيز فقيل له: مَن ولَّيت القضاء بالبصرة؟ فقال: وليت سيدَ التابعين الحسنَ بن أبي الحسن البصري.

وكان محمد بن سيرين ـ مع علمه وورعه ـ كاتباً لأنس بن مالك بفارس.

وكان زياد بن أبيه ـ مع رأيه ودهائه، وما كان من معاوية في ادعائه ـ يكتب للمغيرة بن شعبة، ثم لعبد الله بن عامر بن كُريز، ثم لعبد الله بن عباس، ثم لأبي موسى الأشعري؛ فوجَّهه أبو موسى من البصرة لعمر بن الخطاب ليرفع إليه حسابه، فأمر له عمر بألف درهم، لما رأى فيه من الذكاء، وقال له: لا ترجع لأبي موسى. فقال: يا أمير المؤمنين، أعَن خيانةٍ صرفتَني أم عن تقصير؟ قال: لا عن واحدة منهما، ولكني أكره أن أحمل فضلَ عقلِك على الرعية! قم ولِيَ بعد الكتابة العراقَ.

وكان عامر الشعبي ـ مع فقهه وعلمه ونبله ـ كاتباً لعبد الله بن مطيع، ثم لعبد الله ابن يزيد عامل عبد الله بن الزبير على الكوفة، ثم ولي قضاء الكوفة بعد الكتابة.

وكان قبيصة بن ذؤيب كاتباً لعبد الملك على ديوان الخاتم.

وكان عبد الرحمن كاتب نافع بن الحارث، وهو عامل أبي بكر وعمر على مكة.

وكان عبد الله بن خلف الخزاعي، أبو طلحة الطلحات، كاتباً على ديوان البصرة لعمرو بن عثمان، ثم قُتل يوم الجمل مع عائشة رضي الله عنهما.

وكان خارجة بن زيد بن ثابت على ديوان المدينة، ثم طلب الخلافة فقتل دونها.

وكان يزيد بن عبد الله بن زَمْعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى كاتباً على ديوان المدينة زمن يزيد بن معاوية، وكان بعده حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري.

أشراف الكتاب

كتاب النبي ﷺ

كتاب النبي ﷺ:

كتب له عشرة كتَّاب: علي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وخالد بن سعيد بن العاص، وأبان بن سعيد بن العاص، ولَدَا سعيد بن العاص؛

وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، وزيد بن ثابت، والعلاء بن الحضرمي، ومعاوية بن أبي سفيان، ولم يزل يكتب له حتى مات عليه الصلاة والسلام.

من أشراف الكتاب:

وكان عثمان بن عفان كاتباً لأبي بكر، ثم صار خليفة.

وكان مروان بن الحكم كاتباً لعثمان بن عفان، ثم صار خليفة.

وكان عمرو بن سعيد بن العاص كاتباً على ديوان المدينة، ثم طلب الخلافة فقُتل دونها.

وكان المغيرة بن شعبة كاتباً لأبي موسى الأشعري.

وكان الحسن بن أبي الحسن البصري كاتباً للربيع بن زياد الحارثي بخراسان.

وكان سعيد بن جبير كاتباً لعبد الله بن عتبة بن مسعود، وكان فاضلاً.

وكان زياد كاتباً للمغيرة بن شعبة، ثم لأبي موسى الأشعري، ثم لعبد الله بن عامر ابن كريز، ثم لعبد الله بن عباس.

وكان عامر الشعبي كاتباً لعبد الله بن مطيع، وهو والي الكوفة لعبد الله ابن الزبير.

وكان محمد بن سيرين كاتباً لأنس بن مالك بفارس.

وكان قبيصة بن ذؤيب كاتباً لعبد الملك على ديوان الخاتم.

وكان عبد الرحمن بن أبزي كاتِبَ نافع بن الحارث الخزاعي، وهو عامل أبي بكر وعمر على مكة.

وكان عبيد الله بن أوس الغساني سيدُ أهل الشام كاتِب معاوية.

وكان سعيد بن نِمران الهمداني سيدُ همدان كاتبَ علي بن أبي طالب، ثم ولي بعد ذلك قضاء الكوفة لابن الزبير.

وكان عبد الله بن خلف الخزاعي أبو طلحة الطلحات كاتباً على ديوان البصرة لعمر وعثمان، وقتل يوم الجمل مع عائشة.

وكان خارجة بن زيد بن ثابت على ديوان المدينة من قبل عبد الملك.

وكان يزيد بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى على ديوان المدينة زمان يزيد بن معاوية؛ وكان بعد حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري صاحب النبي ﷺ.

من نبل بالكتابة وكان قبل خاملا

سرجون بن منصور الرومي: كتب لمعاوية، ويزيد ابنه، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان؛ إلى أن أمره عبد الملك بأمر فتوانى فيه، ورأى منه عبد الملك بعض التفريط، فقال لسليمان بن سعد كاتبه على الرسائل: إن سرجون يُدلُّ علينا بصناعته، وأظن أنه رأى ضرورتنا إليه في حسابه، فما عندك فيه حيلة؟ فقال: بلى، لو شئت لحوّلتُ الحساب من الرومية إلى العربية. قال: افعل، قال: أَنظِرْني أعاني ذلك. قال: لك نظرةٌ ما شئت. فحوَّل الديوان، فولاه عبد الملك جميع ذلك.

وحسان النَّبطي كاتب الحجاج، وسالم مولى هشام بن عبد الملك، وعبد الحميد الأكبر، وعبد الصمد، وجبلة بن عبد الرحمن، وقَحذم، جدّ الوليد بن هشام القحذمي؛ وهو الذي قلب الدواوين من الفارسية إلى العربية.

ومنهم الفراء، كاتب خالد بن عبد الله القسري.

ومنهم: الربيع، والفضل بن الربيع، ويعقوب بن داود، ويحيى بن خالد، وجعفر ابن يحيى، وأبو محمد عبد الله بن المقفع، والفضل بن سهل، والحسن بن سهل، وجعفر ابن محمد بن الأشعث، وأحمد بن يوسف، وأبو عبد السلام الجُنْدَ يسابوري، وأبو جعفر محمد بن عبد الملك الزيات، والحسن بن وهب، وإبراهيم بن العباس الصولي، ونجاح بن سلمة، وأحمد بن محمد بن المدبر؛ فهؤلاء نَبُلوا بالكتابة واستحقوا اسمها.

من أدخل نفسه في الكتابة ولم يستحقها

صالح بن شيرزاد، وجعفر بن سابور كاتب الأفشين، والفضل بن مروان، وداود

ابن الجراح، وأبو صالح عبد الله بن محمد بن يزداد، وأحمد بن الخصيب؛ فهؤلاء لطخوا أنفسهم بالكتابة وما دانوها.

وقال بعض الشعراء في صالح بن شيرزاد:

حِمارٌ في الكتابةِ يدّعيها ... كدعْوى آل حرْبٍ في زيادِ
فدعْ عنك الكتابةَ لستَ منها ... ولو غرّقتَ ثوبك في المِداد

ومنهم أبو أيوب ابن أخت أبي الوزير. وهو القائل يرثي أمّ سليمان بن وهب الكاتب:

لأمِّ سليمان علينا مُصيبةٌ ... مُفلِّقةٌ مثْلُ الحُسام البَواتِرِ
وكنتِ سراجَ البيت يا أمَّ سالِمٍ ... فأضحى سراجُ البيت وسْط المقابرِ

فقال سليمان بن وهب: ما نزل بأحد من خلق الله ما نزل بي: ماتت أمي فرثيت بمثل هذا الشعر، ونُقل اسمي من سليمان إلى سالم.

صفة الكتاب

قال إبراهيم بن محمد الشّيباني: من صفة الكاتب: اعتدال القامة، وصِغر الهامة، وخفّة اللهازم(١)، وكثاثة اللحية، صدق الحسّ، ولطف المذهب، وحلاوة الشمائل، وحُسن الإشارة، وملاحة الزّيّ؛ حتى قال بعض المهالبة لولده: تَزّيوا بِزيِّ الكتّاب؛ فإنّ فيهم أدب الملوك وتواضع السُّوقة.

وقال إبراهيم بن محمد الكاتب: من كمال آل الكتابة، أن يكون الكاتب نقيّ الملبس، نظيف المجلس، ظاهر المروءة، عطِر الرائحة، دقيق الذهن، صادق الحس، حسن البيان، رقيق حواشي اللسان، حلوَ الإشارة، مليحَ الاستعارة، لطيف المسالك،

(١) اللهازم: مضغتان في أصل الحنك.

مستقرّ التركيب، ولا يكون مع ذلك فَضْفاض الجُثّة، متفاوت الأجزاء، طويل اللحية، عظيم الهامة؛ فإنهم زعموا أنّ هذه الصورة لا يليق بصاحبها الذكاءُ والفطنة.

وأنشد سعيد بن حميد في إبراهيم بن العباس.

رأيتُ لَهـازمَ الكتّـاب خفـت ... ولِهْزِمَتاك شـانَهُما الفَـدامَـهْ[1]
وكتّـــاب الملـــوك لهم بيـــانٌ ... كمِثْل الدُّرِّ قد رَصفوا نِظامـهْ
وأنت إذا نطقـتَ كـأنّ عيْـراً ... يَلـوك بما يَفـوه بـه لِجـامــه

وقال آخر:

عليكَ بكـاتـبٍ لبـقٍ رشيـق ... زكيّ في شمائِلــه جَـــدارهْ
تُنـاجيـه بطـرْفـك مـن بعيـدٍ ... فَيفهم رجْع لحظِك بـالإشـاره

ونظر أحمد بن الخَصيب إلى رجل من الكتاب فَدْمَ المنظر[2]، مضطرب الخَلق، طويل العُثنون؛ فقال: لأن يكون هذا فنطاس[3] مركب، أشبه من أن يكون كاتبا.

فإذا اجتمعت للكاتب هذه الخلال، وانتظمت فيه هذه الخصال، فهو الكاتب البليغ، والأديب النِّحرير؛ وإن قصرت به آلة من هذه الآلات، وقعدت به أداة من هذه الأدوات، فهو منقوص الجمال، مُنكسف الحس، منحوس النصيب.

ما ينبغي للكاتب أن يأخذ به نفسه

قال إبراهيم الشيباني: أوّل ذلك حسن الخط، الذي هو لسان اليد، وبهجة الضمير، وسفير العقول، ووحي الفكرة، وسلاح المعرفة، وأُنس الإخوان عند الفرقة، ومحادثتهم على بعد المسافة، ومستودع السر، وديوان الأمور.

---

(١) الفدامة: العي عند الكلام. (٢) فدم المنظر: أي غليظ سمين.

(٣) فنطاس مركب: حوض لا دخار الماء العذب.

ولست أجد لحسن الخط حدّا أقف عليه، أكثر من قول علي بن رَبّن النصراني الكاتب في الكاتب، فإني سألته واستوصفته الخط، فقال. أعلمك الخط في كلمة واحدة؟ فقلت له: تفضل بذلك. فقال: لا تكتب حرفا حتى تستفرغ مجهودك في كتابة الحرف، وتجعل في نفسك أنك لا تكتب غيره حتى تعجز عنه ثم تنتقل إلى ما بعده.

وإياك والنقط والشكل في كتابك، إلا أن تمرّ بالحرف المعضل الذي تعلم أن المكتوب إليه يعْجز عن استخراجه؛ فإني سمعت سعيد بن حميد بن عبد الحميد الكاتب يقول: لأن يُشكِل الحرف على القارىء أحب إليَّ من أن يعاب الكتاب بالشكل.

وكان المأمون يقول: إياكم والشّونيز[1] في كتبكم. يعني النقط والإعجام.

ومن ذلك: أن يُصلح الكاتب آلته التي لا بدّ منها، وأداتَه التي لا تتم صناعته إلا بها، مثل دواته، فليُنْعِمْ ربَّها[2] وإصلاحها، وليتخيَّر من أنابيب القصب أقله عقدا، وأكثفه لحما، وأصلبه قشرا، وأعدله استواء؛ ويجعل لقرطاسه سكيناً حادّا؛ لتكون عوناً له على بَرْي أقلامه، ويبريها من ناحية نبات القصبة؛ واعلم أنّ محل القلم من الكاتب كمحل الرمح من الفارس.

قال العتابي: سألني الأصمعي يوما في دار الرشيد: أي الأنابيب للكتابة أصلح، وعليها أصبر؟ فقلت له: ما نَشِف بالهجير ماؤه، وستره عن تلويحه غشاؤه، من التَّبْرِيَّة القشور، الدُّرِّيَّة الظهور؛ الفضيّة الكسور. قال: فأيُّ نوعٍ من البري أصوب وأكتَب؟ فقلت: البرية المستوية القطة، التي عن يمين سنها قرْنة[3] تؤمَن معها المجة عند المذة والمطة، للهواء في شقها فتيق، والريح في جوفها خَريق[4]، والمداد في

---

(١) الشونيز: الحبة السوداء. (٢) ربها: إصلاحها.

(٣) القرنة: زاوية الشيء أو ما نتأ منه. (٤) ريح خريق: اللينة السهلة.

خرطومها رقيق. قال العتابي: فبقي الأصمعي باهتاً إليَّ ضاحكا لا يحير مسألة ولا جوابا.

من صفات الكاتب:

ولا يكون الكاتب كاتبا حتى لا يستطيع أحد تأخير أوّل كتابه وتقديم آخره.

وأفضل الكتاب ما كان في أول كتابه دليل على حاجته، كما أن أفضل الأبيات ما دل أول البيت على قافيته؛ فلا تُطيلنّ صدر كتابك إطالة تخرجه عن حدّه، ولا تقصر به دون حدّه؛ فإنهم قد كرهوا في الجملة أن تزيد صدور كتب الملوك على سطرين أو ثلاثة أو ما قارب ذلك.

وقيل للشعبي: أي شيء تعرف به عقل الرجل؟ قال: إذا كتب فأجاد.

وقال الحسن بن وهب: الكاتب نفس واحدة، تجزأت في أبدان متفرقة.

فأمّا الكاتب المستحقّ آسم الكتابة، والبليغ المحكوم له بالبلاغة، من إذا حاول صيغة كتاب، سالت عن قلمه عيون الكلام من ينابيعها، وظهرت معادنها وندرت من مواطنها من غير استكراه ولا اغتصاب.

بين العتابي وصديق له:

بلغني أن صديقا لكلثوم العتابي أتاه يوما فقال له: اصنع لي رسالة. فاستمد مَدة ثم علق القلم؛ فقال له صاحبه: ما أرى بلاغتك إلا شاردة عنك. فقال له العتابي: إني لما تناولت القلم تداعت عليّ المعاني من كل جهة، فأحببت أن أترك كل معنى حتى يرجع إلى موضعه؛ ثم أجتني لك أحسنّها.

بين يزيد وكاتب له:

قال أحمد بن محمد: كنت عند يزيد بن عبد الله أخي ذبيان، وهو يملي على كاتب له؛ فأعجل الكاتبَ ودارَكَ في الإملاء عليه، فتلجلج لسان قلم الكاتب عن تقييد

إملائه؛ فقال له: اكتب يا حمار! فقال له الكاتب: أصلح الله الأمير، إنه لما هطلت شآبيب الكلام، وتدافعت سيوله على حرف القلم، كلَّ القلم عن إدراك ما وجب عليه تقييده. فكان حضورُ جواب الكاتب أبلغ من بلاغة يزيد.

وقال له يوما وقد مَط حرفا في غير موضعه: ما هذا؟ قال: طغيان في القلم.

ما يحتاج إليه الكاتبُ:

فإن كان لا بد لك من طلب أدوات الكتابة، فتصفح من رسائل المتقدمين ما يعتمد عليه، ومن رسائل المتأخرين ما يرجع إليه، ومن نوادر الكلام ما تستعين به، ومن الأشعار والأخبار والسير والأسمار ما يتسع به منطقك، ويطول به قلمك؛ وآنظر في كتب المقامات والخطب، ومجاوبة العرب، ومعالى العجم، وحدود المنطق وأمثال الفرس ورسائلهم وعهودهم، وسيرهم، ووقائعهم، ومكايدهم في حروبهم بعد أن تكون متوسطا علم النحو والغريب، والوثائق والسور، وكتب السجلات والأمانات؛ لتكون ماهرا، تنتزع آي القرآن في مواضعها؛ واختلاف الأمثال في أماكنها؛ وقرض الشعر الجيد وعلم العروض؛ فإن تضمين المثل السائر، والبيت الغابر البارع، مما يزين كتابك، ما لم تخاطب خليفة أو ملكا جليل القدر فإن اجتلاب الشعر في كتب الخلفاء عيب، إلا أن يكون الكاتب هو القارضَ للشعر والصانع له، فإن ذلك يزيد في أُبَّهتِه.

خبر حائك الكلام

أبو جعفر البغدادي قال: حدثنا عثمان بن سعيد قال: لما رجع المعتصم من الثغر وصار بناحية الرقة، قال لعمرو بن مسعدة: ما زلتَ تسألني في الرُّخَّجِي[1] حتى وليته

(١) الرخجي: نسبة إلى رخج.

الأهواز، فقعد في سرة الدنيا يأكلها خضما وقضما، ولم يوجه إلينا بدرهم واحد؛ آخرج إليه من ساعتك. فقلت في نفسي: أبَعْدَ الوزارة أصبر مستحثا على عامل خراج؟ ولكن لم أجد بدّا من طاعة أمير المؤمنين، فقلت: أخرج إليه يا أمير المؤمنين. فقال: آحلف لي أنك لا تقيم ببغداد إلا يوما واحدا. فحلفت له، ثم انحدرت إلى بغداد، فأمرت ففرش لي زورق بالطبري وغُشِّيَ بالسَّلْخ[1]، وطرح عليه الكز[2]، ثم خرجت، فلما صرت بين دير هِزْقل ودير العاقول، إذا رجل يصيح: يا ملاح، رجل منقطع! فقلت للملاح: قرّب إلى الشطّ. فقال: يا سيدي، هذا شحاذ، فإن قعد معك آذاك. فلم ألتفت إلى قوله، وأمرت الغلمان فأدخلوه، فقعد في كوثل[3] الزورق، فلما حضر وقت الغذاء عزمت أن أدعوه إلى طعامي، فدعوته، فجعل يأكل أكل جائع بنهامة، إلا أنه نظيف الأكل؛ فلما رفع الطعام، أردت أن يستعمل معي ما يستعمل العوام مع الخواص: أن يقوم فيغسل يده في ناحية؛ فلم يفعل، فغمزه الغلمان، فلم يقم فتشاغلت عنه ثم قلت: يا هذا ما صناعتك؟ قال: حائك! فقلت في نفسي: هذه شر من الأولى. فقال لي: جُعِلْت فدَاك، قد سألتني عن صناعتي فأخبرتك، فما صناعتُك أنت؟ قال: فقلت في نفسي: هذه أعظم من الأولى، وكرهت أن أذكر له الوزارة فقلت: أقتصر له على الكتابة؛ فقلت: كاتبٌ.

قال: جُعِلْت فداك، الكتَّاب على خمسة أصناف: فكاتب رسائل يحتاج إلى أن يعرف الفصل من الوصل والصدرر والتهاني والتعازي والترغيب والترهيب والمقصور والممدود وجملا من العربية؛ وكاتب خراج، يحتاج أن يعرف الزرع والمساحة والأشوال والطَّسوق[4] والتقسيط والحساب؛ وكاتب جند، يحتاج أن يعرف مع الحساب الأطماع[5] وشيات الدواب وحُلي الناس؛ وكاتب قاض، يحتاج أن يكون عالما بالشروط والأحكام والفروع والناسخ والمنسوخ والحلال والحرام والمواريث؛ وكاتب

---

(١) السلخ: الجلد. (٢) الكز: الكساء. (٣) الكوثل: مؤخر السفينة.
(٤) الطسوق: جمع طسق وهو ما يوضع من الوظيفة على الجريان من الخراج المقرر على الأرض.
(٥) الأطماع: الرواتب الجارية على الجند.

شرطة، يحتاج أن يكون عالما بالجروح والقصاص والعقول[1] والديات؛ فأيهم أنت أعزك الله؟

قال: قلت: كاتب رسائل. قال: فأخبرني، إذا كان لك صديق تكتب إليه في المحبوب والمكروه وجميع الأسباب، فتزوّجت أُمَّه، فكيف تكتب له: أتهنيه أم تعزيه؟

قلت: والله ما أقف على ما تقول.

قال: فلست بكاتب رسائل، فأيُّهم أنت؟ قلت: كاتب خراج.

قال: فما تقول ـ أصلحك الله ـ وقد ولاك السلطان عملا فبثثت عمالك فيه فجاءك قومٌ يتظلمون من بعض عمالك؛ فأردت أن تنظر في أمورهم وتنصفهم؛ إذ كنت تحب العدل والبر، وتُؤْثِرُ حسن الأحدوثة وطيب الذكر، وكان لأحدهم قراح[2] كيف كنت تمسحه؟ قال: كنت أضرب العطوف في العمود وأنظر كم مقدار ذلك.

قال: إذاً تظلم الرجل. قلت: فأمسح العمود على حدة.

قال: إذاً تظلم السلطان. قلت: والله ما أدري. قال: فلست بكاتب خراج، فأيهم أنت؟

قلت: كاتب جند. قال: فما تقول في رجلين، اسم كل واحد منهما أحمد، أحدهما مقطوع الشفة العليا، والآخر مقطوع الشفة السفلى، كيف كنت تكتب حليتهما؟

قال: كنت أكتب: أحمد الأعلم، وأحمد الأعلم. قال: كيف يكون هذا ورزق هذا مائتا درهم ورزق هذا ألف درهم، فيقبض هذا على دعوة هذا، فتظلم صاحب الألف. قلت: والله ما أدري. قال: فلست بكاتب جند؛ فأيهم أنت؟

---

(١) العقول: مفردها عقل، وهي الدّية. (٢) القراح: المزرعة التي ليس عليها بناء ولا فيها شجر.

قلت: كاتب قاض. فقال: فما تقول ـ أصلحك الله ـ في رجل توفي وخلف زوجة وسَرِيَّة[١]. وكان للزوجة بنت وللسرية ابن، فلما كان في تلك الليلة أخذت الحرة ابن السَّرية فادّعتْه وجعلت ابنتها مكانه، فتنازعتا فيه، فقالت هذه: هذا ابني. وقالت هذه: هذا ابني. كيف تحكم بينهما وأنت خليفة القاضي؟

قلت: والله لست أدري! قال: فلست بكاتب قاض، فأيهم أنت؟

قلت: كاتب شرطة. قال فما تقول ـ أصلحك الله ـ في رجل وثب على رجل فشجه شجة مُوضحة[٢]، فوثب عليه المشجوج فشجَّه شجة مأمومة[٣]؟ قلت ما أعلم. ثم قلت: أصلحك الله، ففسَّر لي ما ذكرت. قال: أما الذي تزوجت أُمه، فتكتب إليه: أما بعد، فإن أحكام الله تجري بغير محابِّ المخلوقين، والله يختار للعباد، فخار الله لك في قبضها إليه، فإن القبر أكرمُ لها! والسلام.

وأما القَراح، فتضرب واحدا في مساحة العطوف، فمِنْ ثَمَّ بابه.

وأما أحمد وأحمد، فتكتب حلية المقطوع الشفة العليا: أحمد الأعلم؛ والمقطوع الشفة السفلى: أحمد الأشرم.

وأما المرأتان، فيوزن لبن هذه ولبن هذه، فأيهما كان [لبنُها] أخفَّ فهي صاحبة البنت.

وأما الشجة، فإن في الموضحة خمسا من الإبل، وفي المأمومة ثلاثا وثلاثين وثلثا، فيرد صاحب المأمومة ثمانية وعشرين وثلثا.

قلت: أصلحك الله، فما نزع بك إلى هنا؟ قال: ابن عم لي كان عاملا على ناحية، فخرجت إليه فألفيته معزولا، فقُطع بي، فأنا خارج أضطرب في المعاش. قلت: ألست ذكرت أنك حائك؟ قال: أنا أحوك الكلام، ولست بحائك الثياب.

---

(١) السرية: المملوكة يتسراها صاحبها. (٢) الموضحة: التي بلغت العظم.

(٣) المأمومة: التي بلغت أم الرأس.

قال: فدعوت المزين فأخذ من شعره. وأُدخل الحمام فطرحت عليه شيئا من ثيابي، فلما صرت إلى الأهواز، كلمت الرُّخَّجِيَّ، فأعطاه خمسة آلاف درهم. ورجع معي، فلما صرت إلى أمير المؤمنين، قال: ما كان من خبرك في طريقك؟ فأخبرته خبري، حتى حدثته حديث الرجل، فقال لي: هذا لا يُستغنى عنه، فلأي شيء يصلح؟ قلت: هذا أعلم الناس بالمساحة والهندسة. قال: فولاه أمير المؤمنين البناء والمرمَّة[1]: فكنت والله ألقاه في الموكب النبيل، فينحطّ عن دابته، فأحلف عليه فيقول: سبحان الله! إنما هذه نعمتك وبك أفنيتها.

فضائل الكتابة

قال أبو عثمان الجاحظ: ما رأيت قوماً أنفذ طريقة في الأدب من هؤلاء الكتاب؛ فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا، ولا ساقطا سوقيا.

وقال بعض المهالبة لبنيه، تزيَّوْا بزي الكتاب فإنهم جمعوا أدَبَ الملوك وتواضُعَ السُّوقة.

المنصور وقوم من الكتاب:

وعتب أبو جعفر المنصور على قوم من الكُتاب فأمر بحبسهم؛ فرفعوا إليه رقعة ليس فيها إلا هذا البيت:

ونحن الكاتبونَ وقد أسأنا ... فهبْنا للكرام الكاتِبينا

فعفا عنهم وأمر بتخلية سبيلهم.

وقال المؤيد: كتّاب الملوك عيونهم الناظرة، وآذانهم الواعية، وألسنتهم الناطقة؛

---

(١) المرمّة: متاع البيت.

والكتابة أشرف مراتب الدنيا بعد الخلافة، وهي صناعة جليلة تحتاج إلى آلات كثيرة.

وقال سهل بن هارون: الكتابة أول زينة الدنيا، التي إليها يتناهى الفضل، وعندها تقف الرغبة.

ما يجوز في الكتابة وما لا يجوز فيها

قال إبراهيم بن محمد الشيباني: إذا احتجت إلى مخاطبة الملوك، والوزراء، والعلماء، والكتّاب. والخطباء، والأدباء، والشعراء، وأوساط الناس وسُوقتهم؛ فخاطب كلا على قدر أُبَّهتِه وجلالته، وعلوِّه وارتفاعه، وفطنتِه؛ واجعل طبقات الكلام على ثمانية أقسام: منها الطبقات العلية أربع، والطبقات الأُخَر وهي دونها أربع. ولكل طبقة منها درجة، ولكلِّ قسمة لا ينبغي للكاتب البليغ أن يقصر بأهلها عنها ويقلب معناها إلى غيرها.

فالحدّ الأول الطبقات العليا، وغايتها القصوى الخلافة، التي أجلَّ الله قدرها، وأعلى شأنها عن مساواتها بأحد من أبناء الدنيا في التعظيم والتوقير.

والطبقة الثانية لوزرائها وكتابها، الذين يخاطبون الخلفاء بعقولهم وألسنتهم، ويرتُقون الفتوق بآرائهم.

الطبقة الثالثة أمراء ثغورهم وقُواد جنودهم؛ فإنه يجب مخاطبة كل أحد منهم على قدره وموضعه وحظه، وغنائه وجزائه، واضطلاعه بما حمل من أعباء أمورهم، وجلائل أعمالهم.

والرابعة القضاة؛ فإنهم وإن كان لهم تواضع العلماء، وجلية الفضلاء، فمعهم أُبهة السلطنة وهيبة الأمراء.

وأما الطبقات الأربع الأُخر، فهم الملوك الذين أوجبت نعمُهم تعظيمَهم في الكتب إليهم، وأفضالهم تفضيلهم فيها.

والثانية وزراؤهم وكتّابهم وأتباعهم، الذين تقرع أبوابهم، وبعناياتهم تستباح أموالهم.

والثالثة هم العلماء، الذين يجب توقيرهم في الكتب بشرف العلم، وعلوّ درجة أهله.

والطبقة الرابعة لأهل القدْر والجلالة، والحلاوة والطلاوة، والظرف والأدب، فإنهم يضطرونك بحدة أذهانهم، وشدّة تمييزهم وانتقادهم، وأدبهم وتصفحهم، إلى الاستقصاء على نفسك في مكاتبتهم.

واستغنينا عن الترتيب للسوقة والعوام والتجار، باستغنائهم بمهناتهم عن هذه الآلات، واشتغالهم بمهنَتِهم عن هذه الأدوات.

ولكل طبقة من هذه الطبقات معان ومذاهب يجب عليك أن ترعاها في مراسلتك إياهم في كتُبك، وتَزن كلامك في مخاطبتهم بميزانه، وتعطيه قسمته، وتوفيه نصيبه؛ فإنك متى أهملت ذلك وأضعْتَه، لم آمن عليك أن تعدل بهم عن طريقهم، وتَسلك بهم غير مسلكهم، وتُجري شعاع بلاغتك في غير مُجراه، وتنظم جوهر كلامك في غير سِلكه؛ فلا تعتدّ بالمعنى الجزل ما لم تُلْبِسْه لفظا لائقا بمن كاتبتَه، ومُلامساً لمن راسلْتَه، فإن إلباسَك المعنى - وإن صحَّ وشَرُف - لفظا متخلفا عن قدر المكتوب إليه، لم تجر به عادته، تهجين للمعنى وإخلال بقدره. وظلم بحق المكتوب إليه، ونقص ما يجب له؛ كما أن في اتباع تعارُفِهم، وما انتشرت به عاداتهم، وجرت به سنّتهم، قطعا لعُذرهم، وخروجا من حقوقهم، وبلوغا إلى غاية مرادهم، وإسقاطا لحجة أدبهم.

فمن الألفاظ المرغوب عنها، والصدور المستوْحش منها في كتب السادات والملوك والأمراء، على اتفاق المعاني، مثل: أبقاك الله طويلا، وعمَّرك مَلِياً. وإن كنا نعلم أنه لا فرق بين قولهم: أطال الله بقاك، وبين قولهم: أبقاك الله طويلا؛ ولكنهم جعلوا هذا أرجح وزنا، وأنبه قدراً في المخاطبة؛ كما أنهم جعلوا: أكرمك الله وأبقاك، أحسن منزلا في كتب الفضلاء والأدباء، من: جُعِلْت فداك، على اشتراك معناه واحتمال أن يكون فداه من الخير، كما يحتمل أن يكون فداه من الشر؛ ولولا أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص: آرم فداك أبي وأمي، لكرهنا أن يكتب بها أحد؛ على أن كتّاب العسكر وعوامهم قد ولعوا بهذه اللفظة، حتى استعملوها في جميع محاوراتهم، وجعلوها هُجِّيراهم[1] في مخاطبة الشريف والوضيع، والكبير والصغير. ولذلك قام محمود الوراق:

كلُّ مَن حلَّ سرَّ مَن رامِن النا ... س ومَن قد يُداخل الأمْلاكا
لو رأى الكلبَ مائلاً بطريق ... قال للكلب: يا جُعِلْتُ فداكا!

وكذلك لم يجيزوا أن يكتبوا بمثل: أبقاك الله، وأمتع بك؛ إلا في الابن والخادم المنقطع إليك، وأما في كتب الإخوان فغير جائز، بل مذموم مرغوب عنه؛ ولذلك كتب عبد الله بن طاهر إلى محمد بن عبد الملك الزيات:

أَحُلْتَ عما عهِدْتَ من أدبِكْ ... أم نلت مُلكا فتِهْت في كتُبِكْ
أم قد تَرى أنَّ في مُلاطفَة الإخـ ... ـوان نقصاً عليك في أدبكْ
أكان حقاً كِتاب ذي مِقَةٍ ... يكون في صدرِه: وأَمتَعَ بكْ!؟
أتعبْتَ كفَّيك في مُكاتبتي ... حسبُك مَّا لقيت في تعَبكْ

فكتب إليه محمد بن عبد الملك الزيات:

كيف أخُون الإخاء يا أمَلي ... وكل شيءٍ أنال من سَبَبكْ

---

(١) الهجّيري: الدأب والعادة.

أنكـرْت شيئـاً فلسـت فـاعلـهُ ولـن تَـراه يُخَـطُّ في كتُبـكْ
إنْ يـكُ جهـلٌ أتـاك مـن قِبَلي فعُـدْ بفضـلٍ عليّ مـن حسَبـكْ
فاْعفُ فَدَتْك النُّفوسُ عـن رجـل يعيش حتى الممات في أدبـك

ولكل مكتوب إليه قدرٌ ووزن، ينبغي للكاتب أن لا يجاوزه عنه ولا يقصر به دونه، وقد رأيتهم عابوا الأحوص حين خاطب الملوك خطاب العوام في قوله:

وأراك تَفعل مـا تقـول وبعضهـم مَذِقٌ[1] الحديث يقول ما لا يَفعـلُ

وهذا معنى صحيح في المدح، ولكنهم أجَلّوا قدر الملوك أن يُمدَحو بما تُمدَح به العوام؛ لأنّ صدق الحديث وإنجاز الوعد وإن كان من المدح، فهو واجبٌ على العامة، والملوك لا يُمدحون بالفرائض الواجبة، إنما يحسن مدحُهم بالنوافل لأن المادح لو قال لبعض الملوك: إنك لا تَزْني بحليلة جارك، وإنك لا تخون ما استودعت، وإنك لتصدُق في وعدك وتفي بعهدك؛ فكأنه قد أثنى بما يجب؛ ولو قصد بثنائه إلى مقصده كان أشبه في الملوك.

ونحن نعلم أن كل أمير يتولى من أمير المؤمنين شيئاً فهو أمير المؤمنين؛ غير أنهم لم يطلقوا هذه اللفظة إلا في الخلفاء خاصة.

ونحن نعلم أن الكَيْس هو العقل، ولكن لو وصفت رجلاً فقلت: إنه لعاقل كنتَ مدحتَه عند الناس، وإن قلت: إنه لكيّس كنت قد قصَّرت به عن وصفه، وصغَّرتَ من قدره، إلا عند أهل العلم باللغة؛ لأن العامة لا تلتفت إلى معنى الكلمة. ولكن إلى ما جرت به العادة من استعْمالها في الظاهر؛ إذ كان استعمال العامة لهذه الكلمة مع الحداثة والغرة وخساسة القدر وصِغَر السن.

وقد روينا عن علي كرم الله وجهه أنه تسمى بالكيّس حين بنى سجن الكوفة، فقال في ذلك:

---

(١) المذق: الملول.

أمَا تَرانِي كَيِّساً مُكَيِّساً بنَيْتُ بعدَ نافعٍ مُخَيِّسَا[1]

حِصْناً حصِيناً وأميراً كَيِّسَا

وقال الشاعر:

ما يَصنَعُ الأحمقُ المرْزُوقُ بالكَيْسِ

وكذلك تعلم أن الصلاة رحمة، غير أنهم كرهوا الصلاة إلا على الأنبياء. كذلك روينا عن ابن عباس.

وسمع سعدُ بن أبي وقاص ابن أخ له يُلَبِّي ويقول في تلبيته: لبَّيك ياذا المعارج. فقال: نحن نعلم أنه ذو المعارج، ولكن ليس كذا كنا نلبي على عهد رسول الله ﷺ، إنما كنا نقول: لَبَّيك اللهم لبيك.

وكان أبو إبراهيم المُزني يقول في بعض ما خطب به داود بن خلف الأصبهاني: «فإن قال كذا فقد خرج عن الملة والحمد لله» فنقض ذلك عليه داود، وقال فيما ردَّ عليه: نحمَدُ الله على أن يُخْرِجَ آمْرَأً مُسْلِماً من الإسلام؟ وهذا موضع استرجاع، وللحمد مكانٌ يليق به، وإنما يقال في المصيبة: ﴿إنَّا لله وإنَّا إليهِ راجعون﴾[2].

فامتثل هذه المذاهب، وآجْرِ على هذه القواعد، وتَحَفظْ في صدور كتبك وفصولها [وافتتاحها] وخواتمها وضَعْ كلَّ معنى في موضع يليق به، وتَخَيَّر لكل لفظة معنًى يشاكلها، وليكن ما تختم به فصولَك في موضع ذكر البلوى بمثل: نسأل الله دفع المحذور، وصَرْف المكروه؛ وأشباهِ هذا؛ وفي موضع ذكر المصيبة: إنا لله وإنا إليه راجعون وفي موضع ذكر النعمة: الحمدُ لله خالصاً، والشكرُ لله واجباً، [وما يُشاكل ذلك]؛ فإن هذه المواضع يجب على الكاتب أن يتفقدها ويتَحفظَّ فيها؛ فإنّ الكاتب إنما يصير كاتباً بأن يضع كل معنى في موضعه، ويعلِّق كل لفظة على طبقتها من المعنى.

---

(١) المخيس: سجن بالكوفة.

(٢) سورة البقرة الآية ١٥٦.

واعلم أنه لا يجوز في الرسائل استعمال ما أتت به آي القرآن من الاختصار والحذف، ومخاطبةِ الخاص بالعام والعام بالخاص؛ لأن الله جل ثناؤه [إنما] خاطب بالقرآن قوماً فصحاء فهموا عنه ـ جل ثناؤه ـ أمرَه ونهيَه ومرادَه؛ والرسائلُ إنما يخاطَب بها أقوامٌ دخلاءُ على اللغة، لا علم لهم بلسان العرب.

وكذلك ينبغي للكاتب أن يجتنب اللفظ المشترك، والمعنى الملتبس؛ فإنه إن ذهب يكاتب على مثل معنى قول الله تعالى: ﴿وآسأَلِ القرية التي كُنَّا فيها والعير التي أَقْبلنا فيها﴾[1]، وكقوله تعالى: ﴿بل مكرُ اللَّيلِ والنهارِ﴾[2]، احتاج الكاتب أن يبيّن معناه: اسألْ أهل القرية وأهل العير، وبل مكركم بالليل والنهار، ومثل هذا كثير لا يتسع الكتاب لذكره.

وكذلك لا يجوز أيضاً في الرسائل والبلاغات المنثورة ما يجوز في الأشعار الموزونة؛ لأن الشاعر مضطر، والشعر مقصور مقيَّد بالوزن والقوافي؛ فلذلك أجازوا لهم صرْفَ ما لا ينصرف من الأسماء، وحذْفَ ما لا يحذف منها؛ واغتفروا فيه سوء النظم، وأجازوا فيه التقديم والتأخير، والإضمار في موضع الإظهار؛ وذلك كله غير سائغ في الرسائل، ولا جائز في الملاغات، فممّا أُجيزَ في الشعر من الحذف مثل قولُ الشاعر:

قواطِنا مكَّةَ مِن ورْقِ الحَمَا

يعني الحمام؛ وقول الآخر:

صِفْر الوِشاحَيْنِ صَمُوت الخلْخَلِ

يريد الخلخال؛ وكقول الآخر:

دارٌ لِسَلْمَى إذْهِ مِنْ هواكا

---

(١) سورة يوسف الآية ٨٢.　　(٢) سورة سبأ الآية ٣٣.

يريد إذهي؛ وكقول الحطيئة:

فبها الرِّمـاحُ وفيهـا كـلُّ سـابِغَـةٍ جَدلاءَ مسرودةٍ مـن نَسْـجِ سلَّام

يريد سليمان؛ وقول الآخر:

وسـائلـةٍ بثعلَبَـةَ بنِ سيْـرِ وقد عَلِقَتْ بثعلَبـةَ العَلـوقُ[1]

وأراد ثعلبة بن سَيَّار؛ وكما قال الآخر:

ولسـتُ بـآتيـه ولا أسْتَطِيعُـهُ ولاك آسْقِنِي إن كانَ ماؤكَ ذا فضـلِ

أراد ولكن.

وكذلك لا ينبغي في الرسائل أن يُصَغر الاسمُ في موضع التعظيم، وإن كان ذلك جائزاً، مثل قولهم: «دويهية» تصغير داهية، «وجُذيل» تصغير جِذل، «وعذيق» تصغير عَذق. وقال الشاعر، وهو لبيد:

وكلُّ أُناسٍ سَوْفَ تدْخُـلُ بينهُـمْ دُوَيْهيَـة تَصْفَـرُّ منهـا الأنـامِـلُ

وقال الحُباب بن المنذر يـوم سقيفـة بني سـاعـدة: أنـا عُـذَيْقُهـا[2] المُرَجَّـبُ، وجُذيْلُها[3] المُحَكَّكُ، وقد شرحه أبو عبيد.

ومما لا يجوز في الرسائل وكرهوه في الكلام أيضاً، مثل قولهم: كلمت إياك، وأعني إياك، وهو جائز في الشعر:

وأحسِـنْ وأَجْمِـل في أسيرِكَ إنَّـهُ ضعيفٌ ولم يـأْسِـرْ كـإيَّـاكَ آسِـرُ

وقال الراجز:

إيَّاكَ حتى بلغت إيَّاك

---

(١) العلوق: المنية. (٢) العذق: اللبق الحاذق.

(٣) يقال: «وهو جذيلها المحكك». أي من يستشعى برأيه.

فتخيّرْ من الألفاظ أرجحَها لفظاً وأجزلها مَعنى، وأشرفها جوهراً وأكرمَها حسباً، وأليَقها في مكانها، وأشكَلها في موضعها؛ فإن حاولت صنعة رسالة فزن اللفظة قبل أن تخرجها بميزان التصريف إذا عرَضَت، وعايرِ الكلمة بمعيارها إذا سنَحَت؛ فإنه ربما مر بك موضعٌ يكون مخرج الكلام إذا كتبتَ: أنا فاعل، أحسن من أن تكتب: أنا أفعل، وموضع آخر، يكون فيه: استفعلت، أحلى من: فعلت؛ فأدِر الكلام على أماكِنِه، وقلِّبه على جميع وجوهه؛ فأيّ لفظة رأيتَها أخفَّ في المكان الذي ندبتها إليه، وأنزعَ إلى الموضع الذي راودتَها عليه فأوقِعها فيه؛ ولا تجعل اللفظة قَلِقَةً في موضعها، نافرة عن مكانها؛ فإنك متى فعلت [ذلك] هجَّنت الموضع الذي حاولت تحسينه، وأفسدت المكان الذي أردت إصلاحه؛ فإن وضع الألفاظ في غير أماكنها، وقصْدَك بها إلى غير مُصابها، إنما هو كترقيع الثوب الذي لم تتشابهْ رقاعه، ولم تتقارب أجزاؤه، خرج عن حد الجدّة وتغيّر حسنه، كما قال الشاعر:

إنْ الجديدَ إذا ما زيدَ في خَلَقٍ ... تبيَّن الناسُ أنّ الثَّوْبَ مَرْقُوعُ[١]

كذلك كلما آحلولى الكلام وعذُب وراق وسهلت مخارجه، كان أسهلَ وُلوجاً في الأسماع، وأشدّ اتصالاً بالقلوب، وأخفَّ على الأفواه؛ لا سيما إن كان المعنى البديع مترجماً بلفظ مُونق شريف ومُعايَراً بكلام عذب لم يَسِمْه التكلف بميسَمِه ولم يفسده التعقيد باستغلاقه.

وكتب عيسى بن لهيعة إلى أخيه أبي الحسن، وزوّر كلامه وجاوز المقدار في التنطع[٢]؛ فوقّع في أسفل كتابه:

أنَّى يكون بليغاً ... مَن اسمُه كان عِيّا
وثالث الحرف منه ... أذْ كُفيتَ مُسِيَّا

قال: وبلغني أن بعض الكتاب عاد بعض الملوك فوجده يئن من علة، فخرج عنه بباب الطاق، فإذا بطير يدعى الشفانين، فاشتراه وبعث به إليه، وكتب كتاباً يتنطع

---

(١) خلق: ثوب بالٍ. (٢) تنطّع في كلامه: أي تفصّح فيه وتعمّق.

في بلاغته، وذكر: إنه يقال له شفانين، أرجو أن يكون شفاءً من أنين! فوقع في أسفل الكتاب: والله لو عطستَ ضبّا ما كنتَ عندنا إلا نبطيا، فأقصر عن تنطّعك وسهِّل كلامك.

قوله: لو عطست ضبّا، يريد: أن الضِّباب من طعام الأعراب وفي بلدهم يقال: لو عطست فنثرت ضبّاً من عُطاسك، لم يُلحق بالأعراب ولم تكن إلا نبطيا.. وقد جاء في بعض الحديث: أن القط من نَثْرة عَطْسَة الأسد، وأن الفأر من نثرة عطسة الخنزير؛ فقال هذا: لو أن الضب من نثرتك لم تكن إلا نبطياً.

وفي هذا المعنى قال مخلد الموصلي يهجو حبيبا:

أنـت عنـدي عـرَبي ... ليس في ذاك كلامْ
شعـرُ سـاقيْـكَ وفخْـذيْـك خُـزامَـى وثُـمام[١]
وقَـذَى عينيـك صَمـغٌ ... ونَـواصيـك ثغـام[٢]
وضلـوعُ الصَّـدر مـن شِلْـوك نبْـع وبَشـام[٣]
لـو تَحـرّكـتَ كـذا لانْـجَفَلَـتْ منـك نَعـام
وظِبـاءٌ راتِعـات ... ويَـرابيـعٌ عِظـام[٤]
وحَمـام يتغنَّـى ... حبّـذا ذاك الحمـام
أنـا مـا ذنْبي لأنْ كـذَّبَني فيـك الأنـام؟
وفتًـى يَحلـف مـا إن ... عـرَّقـتْ فيـه الكـرام[٥]
ثم قـالـوا جـاسمـي ... مـن بنِـي الأنْبـاط حـام
كـذَبـوا مـا أنـت إلا ... عـربيٌّ والسَّـلام!

(١) الخزامى والثمام: نبتان.
(٢) الثغام: نبت.
(٣) شجر عطر الرائحة يساك بقصبه.
(٤) اليربوع: دويبة فوق الجرد.
(٥) يقال: عرق فيه أعمامه: أي تخلق بأخلاقهم.

وقد رأيتهم شبَهوا المعنى الخفّي بالروح الخفي، واللفظَ الظاهر بالجثمان الظاهر؛ وإذا لم ينهض بالمعنى الشريف الجزل لفظ شريف جزل، لم تكن العبارة واضحة، ولا النظام متسقاً، وتضاءَل المعنى الحسن تحت المعنى القبيح، كتضاؤل الحسناء في الأطمار الرثة.

وإنما يدل على المعنى أربعة أصناف: لفظ، وإشارة، وعقد، وخط؛ وقد ذكر له أرسطاطاليس صنفاً خامساً في كتاب المنطق، وهو الذي يسمى النَّصيبة[1]، والنَّصيبة الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف الأربعة، وهي الناطقة بغير لفظ، والمشيرة إليك بغير يد؛ وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض وكل صامت وناطق. وجميع هذه الأصناف الخمسة كاشفة عن أعيان المعاني وسافرة عن وجوهها.

وأوضح هذه الدلائل وأفصح هذه الأصناف صنفان: هما القلم واللسان، وكلاهما للقلب تَرْجُمان! فأمّا اللسان فهو الآلة التي يخرج الإنسان بها عن حدّ الاستبهام، إلى حدّ الإنسانية بالكلام؛ ولذلك قال صاحب المنطق: حدّ الإنسان، الحيُّ الناطق.

وقال هشام بن عبد الملك: إن الله رفع درجةَ اللسان فأنطقه بين الجوارح.

وقال علي بن عبيدة: إنما يبين عن الإنسان، اللسان وعن المودّة العينان.

وقال آخر: الرجل مخبوء تحت لسانه.

وقالوا: المرء بأصغريه: قلبه ولسانه.

وقال الشاعر:

وما المرءُ إلا الأصغَران: لسانُه ... ومعْقوله، والجسمُ خَلق مصوّرُ[2]

فإنْ طُرّةٌ راقتْكَ يوماً فربَّما ... يَمرّ مَذاقُ العودِ والعودُ أخضر

وللخط صورة معروفة، وحلية موصوفة، وفضيلة بارعة. ليست لهذه الأصناف؛ لأنه يقوم مقامه في الإيضاح عند المشهد ويفضُله عند المغيب؛ لأنّ الكتب تقرأ في

(١) النصيبة: كل ما نصب فجعل علما. (٢) الطرة: الهيئة الحسنة.

الأماكن المتباينة، والبلدان المتفرّقة، وتدرس في كل عصر وزمان، وبكلّ لسان؛ واللسان وإن كان ذلقاً فصيحاً لا يعْدو سامعَه ولا يُجاوزه إلى غيره.

البلاغة

قال سهل بن هارون: سياسة البلاغة أشدُّ من البلاغة.

وقيل لجعفر بن يحيي بن خالد: ما البلاغة؟ قال: التقرّب من المعنى البعيد، والدلالة بالقليل على الكثير.

وقيل لابن المقفع: ما البلاغة؟ قال: قلة الحَصَر، والجراءة على البشر. قيل له: فما العِيّ؟ قال: الإطراق من غير فكرة، والتنحنح من غير علة.

وقيل لآخر: ما البلاغة؟ قال: تطويل القصير، وتقصير الطويل.

وقيل لأعرابي: ما البلاغة؟ فقال: حذف الفضول، وتقريب البعيد.

وقيل لأرسطاطاليس: ما البلاغة؟ فقال: حسن الاستعارة.

وقيل لجالينوس: ما البلاغة؟ فقال: إيضاح المعضل، وفك المشكل.

وقيل للخليل بن أحمد: ما البلاغة؟ فقال: ما قرب طرفاه، وبعُد منتهاه.

وقيل لخالد بن صفوان: ما البلاغة؟ قال: إصابة المعنى، والقصد للحجة.

وقيل لآخر: ما البلاغة؟ قال: تصوير الحق في صورة الباطل، وتصوير الباطل في صورة الحق.

وقيل لإبراهيم الإمام: ما البلاغة؟ فقال: الجزالة والإصابة.

تضمين الأسرار في الكتب

وأمّا تضمين الأسرار في الكتب حتى لا يقرؤها غير المكتوب إليه، ففيه أدب يجب معرفته، وقد تعلقت العامّة بكتاب القُمِّيّ والأصبهانيّ.

الأصبهاني: وكان أبو حاتم سهل بن محمد قد وصف لي منه أشياء جليلة من تبديل

الحروف، وذلك ممكن لكل إنسان، غير أنّ اللطيف من ذلك أن تأخذ لبناً حليباً فتكتب به في القِرْطاس، فيذرّ المكتوب له عليه رماداً سخناً من رماد القراطيس، فيظهر ما كتبت به إن شاء الله؛ وإن شئت كتبت بماء الزاج الأبيض، فإذا وصل إلى المكتوب إليه أمرَّ عليه شيئاً من غبار الزاج. وإن أحببت أن لا يُقرأ الكتاب بالنهار ويقرأ بالليل، فاكتبه بمرارة السُّلحفاة.

قولهم في الأقلام

قالوا: القلم أحدُ اللسانين، وهو المخاطب للعيون بسرائر القلوب على لغات مختلفة، من معان معقودة بحروف معلومة مؤلَّفة، متباينات الصور، مختلفات الجهات، لقاحها التفكر، ونتاجها التدبر، تَخْرَس منفردات، وتَنطق مزدوجات، بلا أصوات مسموعة، ولا ألسُنٍ محدودة، ولا حركات ظاهرة، خلا قلم حرَّف باريه قَطَّته ليتعلق المداد به، وأرهف جانبيه ليردّ ما انتشر عنه إليه، وشق رأسه ليحتبس المدادُ عليه، فهنالك استمدّ القلم بشقه، ونثر في القرطاس بخطه حروفاً أحكمها التفكر، وجرى على أسَلَتِه الكلام الذي سَداه العقل، وألحمه اللسان، ونهسته اللهوات، وقطعته الأسنان، ولفظته الشفاه، ووعته الأسماع، عن أنحاء شتى من صفات وأسماء.

وقال الشاعر وهو أبو الحسن محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي:

وأَسْمَرَ طاوي الكَشْحِ أَخْرس ناطقٍ ... لـه ذمَلانٌ في بطـون المَهـارق[1]
إذا آستعجلتْه الكـفَّ أَمْطَـر وبْلـه ... بلا صوْت إرعادٍ ولا ضوءِ بـارق
إذا ما حَـدا غُـرَّ القَـوافي رأيتَهـا ... مُجلَّلـة تَمضي أمـام السَّـوابـق
كأنّ عليه مــن دُجَـى الليـل حُلَّـة ... إذا ما استَهلَّت مُزْنُه بـالصَّـواعـق
كـأن اللآلي والزبَـرجَــد نُطقَــه ... ونَوم الخُزامى في عيون الحدائـق[2]

---

(١) الذملان: ضرب من السير.

(٢) الخزامى: جنس نبات من الفصيلة الشفوية، أنواعه عطره.

وقال العلوي في صفة القلم:

وعُريانَ من خِلْعَةٍ مُكْتَسٍ ... يَميس من الوشْي في يَلْمَقِ[1]
تَحدَّرُ من رأسه ريقة ... تَسيل على ذِرْوة المَفرق
فكم من أسيرٍ له مُطْلَقٍ ... وكم من طَليق له مُوثِق
يُقيمُ ويُوطِن غرب البلادِ ... ويَنهى ويأمر بالمشرق
قليل كثير ضروب الخُطو ... ط وأخرس مُستمَعُ المنْطق
يسير بركْبٍ تلالٍ عجال ... إذا ما حدا الفكر في مهرقِ

وقال آخر في القلم:

لك القلمُ المطيعُك غير أنّا ... وجدنا وسمهُ غير المطاع
له ذَوقان من أرْيٍ هنيءٍ ... ومن شرْي وبيٍّ ذي آمتناع[2]
أحدُّ اللفظِ ينطق عن سِواه ... فيسمِع وهْو ليس بِذي استماع
إذا آستسقى بلاغتكَ آستهلَّت ... عليه سماءُ فكرِكَ بآندفاع

وقال:

وبيتٍ بعلياءِ الفلاةِ بنيتُه ... بأسمر مشقوقِ الخياشيم يُرْعِف
كأنّ عليه مُلْبساً جلْدَ حيةٍ ... مقيم فما يَمضي ولا يتخلَّفُ
جليل شُئونِ الخطْبِ، ما كان راكباً ... يسير، وإن أرْجلْتهُ فمضَعَّف

وقال حبيب بن أوس، وهو من أحسن ما قيل فيه:

لكَ القلمُ الأعلى الذي بِشباتِه ... يُصابُ من الأمرِ الكلى والمفاصِلُ
لعابُ الأفاعي القاتلاتِ لعابه ... وأرْيُ الجني آشتارتْه أيدٍ عواسِل
له ريقةٌ طلٌّ ولكنّ وقْعها ... بآثارهِ في الشرق والغربِ وابل[3]
فصيحٌ إذا اسْتَنطَقْته وهو راكبٌ ... وأعجمُ إن خاطبتَه وهو راجل

---

(١) اليلمق: القباء.

(٢) الأرى: العسل. والشرى الحنظل. (٣) الريقة: رضاب الفم.

إذا ما آمتطى الخمس اللِّطافَ وأُفرِغت   عليه شعابُ الفكر وهْي حوافل
أطاعتْه أطرافُ القَنا وتقوّضت   لِنجواه تقْويضَ الخيامِ الجحافِل
إذا استَغزَر الذِّهْنَ الجليَّ وأقبلت   أعاليه في القِرطاس وهْي أسافل
وقد رفدَته الخنصران وسدّدت   ثلاثَ نواحيهِ الثلاث الأنامل
رأيت جليلاً شأنُه وهو مرَهفٌ   ضَنًى، وسميناً خطبه وهو ناحل

ولما قال حبيب هذا الشعر حسده الخثعمي، فقال لابن الزيات:

ما خُطْبةُ القلم التي أُنبِيتُها   وردت عليك لشاعر مجدود

وأنشد البحتري لنفسه يصف قلم الحسن بن وهب:

وإذا تألق في النَّدِيِّ كلامه الـ   ـمصقول خِلْت لسانَه من عضبه
وإذا دجت أقلامُه ثم آنتحت   برقت مصابيحُ الدُّجى في كتبه
باللفظِ يقرُبُ فهمه في بُعْدِهِ   منًّا، ويبعُدُ نيله في قربه
حِكم فسائحها خلالَ بنانِه   متدفِّقٌ وقليبُها في قلبه
وكأنها والسمْع معقودٌ بها   شخصُ الحبيبِ بدا لعيْنِ مُحبِّه

وأنشد أحمد بن أبي طاهر في بعض الكُتَّاب ويصف القلم:

قلمُ الكتابةِ في يمينِك آمنٌ   مما يعود عليه فيما يكتُبُ
قلم به ظُفْر العدوّ مقلَّم   وهو الأمانُ لما يُخاف ويُرهَب
يُبدي السرائِرَ وهو عنها محجبٌ   ولسانُ حُجَّتِه بصمتٍ يعرِب

ومن قولنا في القلم:

بكفِّه ساحر البيان إذا   أداره في صحيفةٍ سحرا
ينطِقُ في عجمةٍ بلفظته   نصَمُّ عنه ويُسمِع البصرا
نوادر تُقرع القلوب بها   إن تستبنْها وجدتها صورا
نِظام دُرِّ الكلام ضمَّنه   سِلكا لخطِّ الكتاب مُستطرا(١)

(١) مستطرا: مكتوباً.

إذا امتطى الخِنْصران أذْكر من ... سحبانَ فيما أطال واختَصرا
يخاطِبُ الغائبَ البعيدَ بما ... يخاطب الشاهدَ الذي حضرا
ترى المقاديرَ تستدفّ له ... وتنفذُ الحادثاتُ ما أمرا[1]
شخبٌ ضئيلٌ لفعلِه خطرٌ ... أعظِم به في مُلِمَّةٍ خطرا
تمجُّ فكاهُ ريقةً صغرت ... وخطبها في القلوبِ قد كبرا
يواقع النفْسَ منه ما حذرتْ ... وربما جنِّبت به الحذرا
مهفهفٌ تزدهي به صُحفٌ ... كأنما حُلِّيت به دُرَرا[2]
كأنها تُرفع العيون بها ... خلالَ روْضٍ مكللٍ زهرا
إن قُرّبت مرِّطت طوابعها ... ما فُضّ طينٌ لها ولا كسِرا
يكاد عنوانُها لروعته ... ينْبيكَ عن سرِّها الذي استَترا

ومن أحسن ما شبهت به الأقلام وشبه بها، قول ذي الرُّمَّة:

كأنّ أنوفَ الطير في عرَصاتِها ... خراطيمُ أقلام تَخط وتعجم

ومثله قول عدي بن الرقاع:

يخرُجن من فُرُجات النقِع داميةً ... كأنّ آذانها أطرافُ أقلام

ومن قوله في ولد البقرة:

تزجي أغَنّ كأنّ إبرة روقه ... قلمٌ أصاب من الدواةِ مِدادها

ومنه قول المأمون:

كأنما قابل القِرْطاس إذ مشقت ... منها ثلاثةُ أقلامٍ على قلم[3]

ومثله قولنا فيه:

إذا أدارت بنانُه قلماً ... لم تدر للشِّبه أيُّها القلمُ

ومن قولنا في الأقلام:

---

(١) نستدف: تسهل وتستقيم. (٢) المهفهف: الضامر البطن.
(٣) مشقت: استدقت.

ومعشرٍ تنطـــق أقلامُهـــم   بحكمـــةٍ تلقنهـــا الأعيُـــنَ
تلفظهـا في الصكّ أقلامُهـم   كـــأنما أقلامهـــم ألســـنٌ

ومن قولنا في الأقلام:

يـا كـاتبـاً نقشَـت أنـامـل كفِّـه   سحـرَ البيـان بلا لسـانٍ ينطـقُ
إلا صقيـل المتنِ ملمـوم القـوى   حُزَّت لهازمــه وشــق المفْــرق
فـــإذا تكلم رغبــةً أو رهبــةً   في مغـربٍ أصغـى إليــه المشرق
يـدلـي بـريقـةِ أريـهِ أو شريــهِ   يبكي ويضحكُ من نَداه المهـرق[1]

ولعبد الله بن المعتز كلام يصف القلم. القلمُ يخدمُ الإرادة؛ ولا يمل الاستزادة؛ يسكت واقفاً، وينطق ساكتاً؛ على أرض بياضها مظلم، وسوادها مضيء.

وقال سليمان بن وهب وزير المهدي: كل قلم تطيل جِلفته؛ فإن الخط يخرج به أوقص[2].

وكتب جعفر بن يحيى إلى محمد بن الليث يستوصفه الخط، فكتب إليه:

أما بعد، فليكن قلمك بحريا لا سمينا ولا رقيقا، ما بين الرقة والغلظ، ضيق النقب، فأبره بريا مستويا كمنقار الحمامة: أعطف قطته، ورقق شَفرته؛ وليكن مدادك صافيا خفيفا، إذا استمددت منه ليلة ثم صفه في الدواة؛ وليكن قرطاسُك رقيقا مستويَ النسج، تخرج السحاة مستوية من أحد الطرفين إلى آخره؛ فليست تستقيم السطور إلا فيما كان كذلك، وليكن أكثر تمطيطك في طرف القرطاس الذي في يسارك، وأقله في الوسط ولا تمطّ في الطرف الآخر، ولا تمط كلمة ثلاثة أحرف ولا أربعة، ولا تترك الأخرى بغير مط، فإنك إذا فرّقت القليل كان قبيحا، وإذا جمعت الكثير كان سمجا؛ ثم ابتدىء الألف برأس القلم كله، واخططه بعرضه، واختمه بأسفله؛ واكتب الباء والتاء والسين والشين، والمطة العليا من الصاد والضاد

(١) الأري: العسل. والشري: الحنظل.

(٢) الوقص: قصر في العنق مع ميل.

والطاء والظاء والكاف والعين والغين، ورأس كل مرسل برأس القلم؛ واكتب الجيم والحاء والخاء والدال والذال والراء، والمطة السفلى من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين، بالسن السفلى من القلم وامطط بعرض القلم، والمط نصف الخط، ولا يقوى عليه إلا العاقل، ولا أحسب العاقل يقوى عليه أيضا إلا بالنظر إلى اليد في استعمالها الحركة. والسلام.

وقال ابن طاهر لكاتبه: ألق دواتك، وأطِل سنّ قلمك، وفرّج بين السطور، وقرمط[1] بين الحروف.

وقال إبراهيم بن جبلة: مر بي عبد الحميد وأنا أخط خطاً رديئا، فقال لي: أ [لا] تحب أن يجود خطّك؟ قلت: بلى. قال: أطل جلفة القلم وأسمنها؛ وحرّف قطّتك وأيمِنها. ففعلت فجاد خطي.

وقال العتابي: ببكاء القلم تبتسم الكتب.

وقال بعض الحكماء: أمر الدين والدنيا تحت سنان السيف والقلم.

وقال حبيب الطائي:

لولا مُناشدةُ القُربى لغادرَكم حصائدَ المرهِفَيْنَ: السيْف والقلمِ

وقال أرسطا طاليس: عقول الرجال تحت سِنِّ أقلامهم.

وقال أبو حكيمة: كنت أكتب المصاحف، فمر بي عليٌّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، فقال: أجللْ قلمك. فقصمت من قلمي قصمة، فقال: هكذا نوره كما نوره الله.

وكان ابن سيرين يكره أن يُكتب القرآن مشقا[2]، وقال: أجود الخط أبيَنُه.

وقال سليمان بن وهب: زيِّنوا خطوطكم بإسبال ذوائبها.

---

(١) قرمط الكاتب في الكتابة: جعلها دقيقة متقاربة الحروف والسطور. (٢) المشق في الكتابة: مد حروفها.

وقال عمرو بن مسعدة: الخط صورة ضئيلة، لها معان جليلة، وربما ضاق عن العيون، وقد ملأ أقطار الظنون.

وذكر علي بن عُبيدة القلم فقال: أصمٌّ يسمع النَّجوى؛ أعْيا من باقل، وأبلغ من سحبان وائل؛ يجهل الشاهد، ويخبر الغائب؛ ويجعل الكتب بين الإخوان ألسُناً ناطقة، وأعينا لاحِظة، وربما ضمنها من ودائع القلوب ما لا تبوح به الألسن عند المشاهدة.

وقال أحمد بن يوسف الكاتب: ما عبرات الغواني في خدودهن بأحسن من عبرات الأقلام في خدود الكتب.

وقال العتابي: الأقلام مطايا الفِطَن.

وتخاير[1] غلامان في بعض الدواوين، فقاما إلى أستاذهما يعرضان عليه خطوطهما، فكره أن يفضِّل أحدهما على الآخر؛ فقال لأحدهما: أما خطُّك أنت فوَشْيٌ محُوك. وقال للآخر: وأما خطك أنت فذهبٌ مسْبُوك؛ تكافأتما في غاية، وتوافيتما في نهاية.

وقال آخر: دخلت الديوان، فنظرت إلى غلام بيده قلم كأنه قضيب عِقيان، وعليه مكتوب:

وا بـــأبي! وا بـــأبي   مِـن كـفٍّ مـن يكتـب بي

وقال أبو هِفان يصف القلم:

وإذا أَمَـرَّ على المهـارق كفَّـه   بأناملٍ يَحمِلْن شَخْتاً مُرْهَفـا[2]
ومُقصِّـراً ومُطـوِّلا ومُقطِّعـاً   ومُـوَصِّلا ومُشتِّتـاً ومُـؤلِّفـا
كـالحيـة الرّقشـاءِ إلا أنـه   يَستنزلُ الأروى إليه تَلطُّفـا[3]
يهفـو بـه قلم يَمُـجُّ لَعـابَـه   فيعود سيْفـاً صـارمـاً ومثقَّفـا

وقال آخر في وصف الدواة:

(١) تخاير: تفاخر.

(٢) الشخت: الدقيق الضامر. (٣) الأروى: أنثى الوعول.

ومُسْودّة الأرجاءِ قد خُضْتُ جالها ... ورَوَّيتَ مِن قعْرٍ لها غير مُنْبَط
خَمِيصَ الحشا يَروَى على كلِّ مَشْرب ... أميناً على سرِّ الأمين المسلَّط

وقال بعض الكتَّاب:

وما روْضُ الربيعِ وقد زهاهُ ... ندى الأسحارِ يَأْرَجُ بالغَداةِ
بأضْوَعَ أو بأَسْطَعَ من نسيمٍ ... تُؤَدِّيه الألاقةُ مِن دَواة

وقال آخر في وصف محبرة:

ولُجَّةِ بحرٍ أجمِّ العُبا ... بِ بادٍ وأمواجَهُ تَزخرُ
إذا غاص فيه أخو غوْصةٍ ... سريعُ السِّباحةِ ما يَفْتُرُ
فأنفِسْ بذلك مِن غائص ... بديع الكلام له جوْهرُ
وأكرِمْ ببحرٍ له لُجَّةٌ ... جواهرُها حكَمٌ تنثر

وقال ثمامة بن أشرس: ما أثرتْه الأقلام، لم تطمع في درسِهِ الأيام. ونظر المأمون إلى جارية من جواريه تَخُطُّ خطاً حسنا، فقال فيها:

وزادت لدينا حُظْوةً حين أطرقت ... وفي إصبعيها أسمرُ اللون أهْيَف
أصمُّ سميع، ساكنٌ مُتحرِّكٌ ... ينال جَسِيماتِ المنى وهو أعجف[1]

وقال بعض الكتاب:

إذا ما التقَيْنا وآنتضَيْنا صوارماً ... يكاد يُصِم السامعين صريرُها
تساقَط في القِرْطاس منها بدائعٌ ... كمثْلِ اللآلي نظمُها ونثيرُها

قال بشر بن المعتمر: القلب معدِن، والحلم[2] جوهر، واللسان مستنبط، والقلم صائغ، والخط صيغة.

وقال سهل بن هارون: القلم لسان الضمير، إذا رعف[3] أعلن أسراره وأبان آثاره.

---

(١) أعجف: رقيق.
(٢) الحلم: العقل.
(٣) رعف: خرج من أنفه الدم.

وقالوا: حُسْن الخط يناضل عن صاحبه، ويوضح الحجة، ويمكِّن له درْك البغية.

وقال آخر: الخط الرديء زمانة[1] الأديب.

وقال الحسن بن وهب: يحتاج الكاتب إلى خلال: منها جُودة بَرْيِ القلم، وإطالة جلْفَتِه، وتحريف قَطَّته، وحُسْن التأني لآمتطاء الأنامل، وإرسال المدّة بقدر اتساع الحروف، والتحرز عند فراغها من الكسوف، وترك الشكل على الخطأ والإعجام على التصحيف، واستواءُ الرسوم، وحلاوة المقاطع.

وقال سعيد بن حميد: من أدب الكاتب أن يأخذ قلمه في أحسن أجزائه، وأبعد ما يتمكن المداد فيه، ويعطيه من القرطاس حقه.

وقال عبد الله بن عباس: كلّ كتاب غير مختوم فهو غُفل.

وفي تفسير قول الله تعالى: ﴿إني أُلقِيَ إليَّ كتابٌ كريمٌ﴾[2] قال: مختوم.

ورفع إلى عبد الله بن طاهر قصة قد أكثر صاحبها إعجامها، فقال: ما أحسن ما كتبت إلا أنك أكثرت شُونِيزَها[3].

وقال أبو عبيدة: لا يقال كأس إلا إذا كان فيها شراب، وإلا فهي زجاجة، ولا مائدة إلا إذا كان عليها طعام، وإلا فهي خِوَان؛ ولا قلم إلا إذا بُري، وإلا فهي قصبة.

وقال آخر: جلوس الأدباء عند الوراقين، وجلوس المخِّمنين عند النخاسين، وجلوس الطفيليين عند الطباْخين.

وكتب علي بن الأزهر إلى صديق له يسأله أقلاماً يبعث بها إليه:

أما بعد، فإنا على طول الممارسة لهذه الكتابة التي غلبت على الاسم، ولزمت لزوم

---

(١) الزمانة: العاهة.
(٢) سورة النمل الآية ٢٩.
(٣) الشونيز: الحبة السوداء.

الوسم؛ فحلت محل الأنساب، وجرت مجرى الألقاب، وجدنا الأقلام الصُّحْرِيَّة أسرع في الكواغد، وأمَرَّ في الجلود، كما أن البحرية منها أساس في القراطيس، وألين في المعاطف، وأشدُّ لتصريف الخط فيها؛ ونحن في بلد قليل القصب رديئه، وقد أحببت أن تتقدم في اختيار أقلام بَحْرية، وتتأنق في انتقائها قَبلك، وتطلبها في مظانِّها ومنابتها، من شطوط الأنهار، وأرجاء الكروم، وأن تتيمم في اختيارك منها الشديد المُحْص[1]، الصلبة المقصّ، النقية الجلود، القليلة الشحوم، المكتنزة اللحوم، الضيقة الأجواف، الرزينة المحمل؛ فإنها أبقى على الكتابة، وأبعد من الجفاء، وأن تقصد بانتقائك الرِّقاق القُضْبان، المقومات المُتون، المُلْس المعاقد، الصافية القشور، الطويلة الأنابيب، البعيدة ما بين الكعوب، الكريمة الجواهر، المعتدلة القوام، المستحكمة يبساً وهي قائمة على أصولها، لم تُعَجل عن إبَّان ينعها، ولم يؤخَّرْ إلى الأوقات المخوفة عليها من خصَرالشتاء[2]؛وعفن الأنداء؛ فإذا استجمعت عندك أمرت بقطعها ذراعا، قطعا رقيقا؛ ثم عبأت منها حزما فيما يصونها من الأوعية، ووجهتها مع من يؤدي الأمانة في حراستها وحفظِها وإيصالها، وكتبت معه رقعة بعِدَّتها وأصنافها بغير تأخير ولا توان، إن شاء الله تعالى.

قولهم في الحبر

قال بعض الكُتَّاب: عَطِّروْا دفاتر آدابكم بجيِّد الحبر، فإن الأدب غواني والحبر غوالي.

ونظر جعفر بن محمد إلى فتى على ثيابه أثر المداد وهو يستره، فقال له:

لا تَجزَعَنَّ مِنَ المداد فإنه ... عِطْرُ الرجال وحِلْيةُ الكتَّاب

(١) المحص: قوة الخلق مع ضمور.

(٢) خصر الشتاء: برده

وكيع وقريب له:

وأتى وكيع بن الجراح رجلٌ يمت إليه بحرمة، فقال له: وما حُرْمَتُك؟ قال له: كنتَ تكتب من محبرتي عند الأعمش. فوثب وكيع ودخل منزله، ثم أخرج له بضعة دنانير، وقال له: آعذُرْ فما أملك غيرها.

وفي الأقلام

أهدى ابنُ الحرون إلى رجل من إخوانه من الكتَّاب أقلاما؛ فكتب إليه:

إنه لما كانت الكتابة ـ أبقاك الله ـ أعظمَ الأمور، وقِوامَ الخلافة، وعمودَ المملكة؛ خصصتُك من آلتها بما يخِفُّ محمله، وتثقل قيمته، ويعظُم نفعهُ ويجلّ خطرُه؛ وهي أقلام من القَصب النابت في الصُّحر[1] الذي نَشِف في حر الهجير ماؤه، وسَتَرَهُ من تلويحه غِشاؤه؛ فهي كاللآلِيء المكنونة في الصَّدَف، والأنوار المحجوبة في السَّدف: تبرية القشور دريّة الظهور، فِضية الكسور؛ قد كَستْها الطبيعة جوهراً كالوشي المحبر، وفرند[2] الديباج المنيَّر.

قولهم في الصحف

نعَم الأنيسُ إذا خلَوْتَ كِتابُ تلْهو بـه إنْ ملّكَ الأحبابُ
لا مُفْشياً سِراً إذا استَوْدعْته وتُفادُ منه حكْمة وصوابُ

وقال آخر:

ولِكلِّ صاحب لذَّةٍ مُتَنَزَّه أبداً، ونُزهةُ عالِمٍ كُتُبُهْ

وقال حبيب:

مِدادٌ مثلُ خافِيةِ الغُراب وقِرْطاسٌ كرَقراقِ السَّرابِ

---

(١) الصحر: جمع صحرة: وهي جوبة تنجاب وسط الحرة وتكون أرضاً لينة تطيف بها حجارة.

(٢) الفرند: الثوب.

وألفــاظٌ كــألفــاظِ المثــــاني   وخـطٌّ مثْلُ وشْمِ يَـد الكَعـابِ
كتبْتُ ولو قدرْتُ هوىً وشوْقـاً   إليك لكنـتُ سطْـراً في الكتـابِ

وقال في صحيفة جاءته من عند الحسن بن وهب:

لقـد جَلّـى كِتـابُـك كـلَّ بَـثّ   جِـوٍ وأصـاب شـاكِلَـةَ الرَّمـيِّ[1]
فضَضْـتُ خِتـامَــه فتبلَّجَــت لي   غــرائبُــه عــنِ الخَبرِ الجَلِـــيِّ
وكــان أغــضّ في عيْني وأَنْــدَى   على كبِـدِي مِـنَ الزهــرِ الجنِـــيِّ
وأحسَـنَ مـوْقعـاً عِنـدي ومنِّـــى   مِـــنَ البُشْــرَى أتــتْ بعـدَ النَّعِـــيِّ
وضُمِّـن صَـدْرُه مــا لم تضَمَّــنْ   صــدورُ الغـانِيـات مــنَ الحُلِـــيِّ
فكـائِـنْ فيـه مـن مَعنًـى خطيرٍ   وكــائـــن فيــه مـــن لفــظٍ بهيِّ
فيـا ثلْـجَ الفـؤادِ وكـان رضْفـاً   ويــا شِبَعِـي بِــرَوْنِقــه وريِّــي
فكـم أفصحـت عـن بـرِ جليـلٍ   بــه ووأيــت مــن وأيٍ سنِـــيِّ
كتْبـتَ بــه بلا لفــظٍ كــريــهٍ   على أُذُنٍ ولا خَـــطٍ قمِـــيِّ[2]
رسـالَـةَ مـن تَمتَّــعَ مُنْــذ حينٍ   ومتَّعَنـــا مـــنَ الأدب الرَّضِـــيِّ
لئِـن غــربْتَهــا في أرض بكْــرٍ   لقـــد زُفَّــت إلى قلــبٍ وفِـــيِّ
وإن يكُ مـن هـدايـاكَ الصَّفـايـا   فـرُبَّ هـدِيَّـةٍ لـك كـالهدِيِّ[3]

وقال ابن أبي طاهر في آبن ثوابة:

في كلِّ يومٍ صدورُ الكتْبِ صـادِرةُ   من رأْيِهِ ونَدَى كفَّيْـهِ عـن منَـلِ
مِن خطِّ أقلامِه خطّ القضاءُ على الـ   ـأعداءِ والموْتُ بين البيض والأسَلِ
لعـابُهـا عِلـل في الصدرِ تنفثُـه   وربُما كـان فيـــه النَّقْــعُ لِلغُلَـــلِ
كأنّ أسطارَها في بطْـنِ مُهْـرَقِهـا   نَوْرُ يُضاحِكُ دمْعَ الواكِفِ الخضلِ[4]

وقال البحتري في محمد بن عبد الملك الزيات:

---

(١) جوٍ: شديد.
(٢) الوأي: الوعد. وقميء: الصغير الذليل.
(٣) الهديّ: العروس.
(٤) الواكف: المطر المنهمل.

قـد تصرّفـتَ في الكِتــابــة حتى ... عطّـل النـاسُ فـنَّ عبـدِ الحميـدِ
في نظـامٍ مِـن البلاغــةِ مــا شَـ ... ـكّ امْـرُؤٌ أنّـه نظـامُ فـريـد
وبـديـعٌ كـأنــه الزهــرُ الضّـا ... حِـكُ في رونْـقِ الربيـعِ الجديـد
ما اغْتَدتْ منه في بُطونِ القـراطيـ ... ـس وما حُمِّلَت ظهـورُ البَـريـد
حُجَـجٌ تُخْـرسُ الألـدّ بـألفـا ... ظٍ فُـرادَى كـالجوْهَـرِ المعــدود
حُـزْنَ مُستعمَـلَ الكلامِ اختيـاراً ... وتَجنَّبْــن ظُلمــةَ التَّعْقيــد
كالعذارى غدوْن في الحُلـلِ البيـ ... ـض إذا رُحْنَ في الخطوبِ السُّود

وقال عليّ بن الجهم في رقعة جاءته بخط جيِّد:

مــا رُقعـةٌ جـاءَتْـكَ مَثْنيــةٌ ... كــأنها خـــدٌّ على خـــدِّ
ســاهِمــةُ الأسطُـر مصروفــةٌ ... عــنْ جِهـــةِ الهزلِ إلى الجدِّ
يـا كـاتبـاً أسْلَمنـــي عتبُــهُ ... إليك، حسبي مِنك ما عنـدي!

وقال محمد بن إبراهيم بن محمد الشيباني: رفع أبان بن عبد الحميد اللاحقي إلى الفضل بن يحيى بن خالد، رقعةً بأبياتٍ له يصِفُ فيها قامتَه، وكثافة لحيتِه، وحلاوةَ شمائله، وبراعة أدبه، وبلاغَة قلمه؛ فقال:

أنــا مِــن بُغْيَــةِ الأمير وكَنــزٌ ... مِــن كُنــوز الأميرِ ذو أربــاحِ
كـاتـبٌ حـاسِـبٌ أديـب لبيــبٌ ... نــاصــحٌ زائــدٌ على النُّصّــاحِ
شـاعـر مُفْلِـق أخـف مِــن الرِّيـ ... ـشَـةِ ممّا يكـونُ تحت الجنـاحِ
لي في النّحــو فِطنــةٌ ونفــاذ ... أنــا فيــه قِلادة بـوشـاحِ (١)
لـو رمَـى بيَ الأميرُ أصلَحَــه اللهُ ... رِمـاحـاً صـدَمْـتُ حـدّ الرِّمـاحِ
ثم أروى من ابنِ سيريـنَ في الفِقْـ ... ـهِ بقــوْلٍ مُنــوِّر الإفصــاحِ
لستُ بالضّخمِ في رُوائي ولا الفـدْ ... مِ ولا بــالمجعَّــد الدَّحــداحِ (٢)
لِحْيَــةٌ كثّــة وأنــف طــويــلٌ ... واتّقــادٌ كشعلــةِ المِصبــاحِ

---

(١) الوشاح: كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر.

(٢) الدحداح: القصير.

وكثيرُ الحديثِ مِنْ مُلَحِ النا ... سِ بصيرٌ بخافياتٍ مِلاحِ
كم وكم قد خَبأتُ عِندي حديثاً ... هُو عند الأميرِ كالتُّفاحِ
أيْمَنُ الناسِ طائراً يومَ صيْدٍ ... في غُدُوٍّ أو بُكرةٍ أو رواحِ
أعلمُ الناسِ بالجوارحِ والصّيْـ ... ـدِ وبالخُرْدِ الحِسانِ الملاحِ
كلَّ هذا جَمعْتُ والحمـ ... ـدُ للهِ على أنني ظريفُ المُزاحِ
لستُ بالنّاسكِ المُشَمِّرِ ثوْبيْـ ... ـهِ ولا الْفاتِكِ الخليعِ الوقاحِ
لو دعاني الأميرُ عايَنَ منِّي ... شمَّرياً كالبلبلِ الصدّاحِ (١)

قال: فدعاه فلما دخل عليه أتاه كتاب من أرمينية، فرمى به إليه، وقال له: أجب. فأجاب بما في غرضه وأحسن، فأمر له بألف ألف درهم؛ وكنا نَراه أولَ داخل وآخر خارج؛ وكان إذا ركب فركابُه مع ركابه.

قال محمد بن يزيد: فبلغ هذا الشعرُ أبا نُوَاس، فقال:

أنتَ أوْلى بقِلّةِ الحظِّ منِّي ... يا مُسَمَّى بالبلبلِ الصدّاحِ
قد رأوْا منهُ حين غَنَّى لديهِم ... أخرَسَ القوْلِ غيْرَ ذي إفصاحِ
ثم بالرِّيشِ شبَّه النَّفس في الخِـ ... ـفّةِ ممّا يكونُ تحتَ الجناحِ
فإذا الشَّم من شماريخِ رضْوى ... خِفّة عِنْدَهُ نوى المِسْباحِ (٢)
لم يكُن فيكَ غيرُ شيْئَيْنِ مِمَّا ... قلتَ في نعْتِ خَلْقِكَ الدَّحداحِ
لحيةٌ جعْدةٌ وأنفٌ طويلٌ ... وسِوى ذاك ذاهِبٌ في الرياحِ
فيك ما يَحملُ الملوكَ على السُّخْـ ... ـفِ ويُزري بالماجِدِ الجحْجاحِ (٣)
باردُ الطرْفِ، مُظْلِمُ اللُّبِّ، تيا ... هٌ، مُعيدُ الحديثِ، سَمْجُ المُزاحِ

قال: فبعث إليه أبان بأن لا تذيعها وخذ الألف ألف درهم! فبعث إليه أبو نواس: لو أعطيتني مائة ألف ألف درهم لم أجد بُداً من إذاعتها. فيقال: إن الفضل

---

(١) الشمري: الماضي في الأمور، المجرب. (٢) الشمراخ: العنقود عليه عنب. والمسباح: يريد به المسبحة.
(٣) الجحجاح: السيد السمح الكريم.

ابن يحيى لما سمع شعر أبي نواس قال: لا حاجة لي في أبان، لقد رُمِيَ بخمس في بيت لا يقبَلهُ على واحدة منهن إلا جاهل. فقيل له: كذَب عليه. فقال: قد قيل ذاك. فأقصاه؛ وإنما أغرى أبا نواس بهذا الكاتب: أبانِ بن عبد الحميد اللاحقي، أن الفضل بن يحيى أعطاه مالاً يفرِّقه في الشعراء، ويعطي كل واحد على قدره؛ فبعث إلى أبي نواس بدرهم زائف ناقص، وقال: إني أعطيت كل شاعر على مقدار شعره، وكان هذا أوفرَ نصيبك عندي. فهجاه لذلك.

توقيعات الخلفاء

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

كتب إليه سعد بن أبي وقاص في بنيان يبنيه، فوقَّع في أسفل كتابه: آبنِ ما يُكنّك[1] من الهواجر وأذى المطر.

ووقع إلى عمرو بن العاص: كن لرعيتك كما تحبُّ أن يكون لك أميرك.

عثمان بن عفان رضي الله عنه

وقع في قصة قوم تظلموا من مروان بن الحكم وذكروا أنه أمر بِوَجْءِ[2] أعناقهم: ﴿فإن عصوْك فقل إني بريءٌ مما تعملون﴾[3].

ووقع في قصة رجل شكا عيلة عليه: قد أمَرْنا لك بما يُقيمك، وليس في مال الله فضل للمسرف.

علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

وقع إلى طلحة بن عبيد الله: في بيته يؤتى الحكم.

---

(١) يقال كنّ الشيء: أي استتر.

(٢) يقال وجأه باليد والسكين: أي ضربه.

(٣) سورة الشعراء الآية ٢١٦.

ووقع في كتاب جاءه من الحسن بن علي رضي الله عنه: رأيُ الشيخ خير من مشهد الغلام.

ووقع في كتاب سلمان الفارسي - وسأله كيف يحاسَب الناس يوم القيامة؟ -: يُحاسَبون كما يُرزَقون..

ووقع في كتاب الحصين بن المنذر إليه يذكر أنّ السيف قد أكثر في ربيعة: بقية السيف أنْمَى عددا.

وفي كتاب جاءه من الأشتر النخعي فيه بعض ما يكره: مَن لك بأخيك كلّه؟

وفي كتاب صعصعة بن صُوحان يسأله في شيء: قيمة كلِّ امرىءٍ ما يُحسن.

معاوية بن أبي سفيان

كتب إليه عبد الله بن عامر في أمر عاتبه فيه، فوقع في أسفل كتابه: بيت أمية في الجاهلية أشرف من بين حبيبٍ في الإسلام، فأنت تراه.

وفي كتاب عبد الله بن عامر يسأله أن يُقْطِعَه مالا بالطائف: عشْ رَجباً[1] تَرَ عَجَباً.

وفي كتاب زياد يخبره بطعن عبد الله بن عباس في خلافته: إن أبا سفيان وأبا الفضل كانا في الجاهلية في مِسلاخ[2] واحد، وذلك حلْفٌ لا يَحُله سوء أدبك.

وكتب إليه ربيعة بن عِسل اليربوعي يسأله أن يعينه في بناء داره بالبصرة باثنى عشر ألف جذع: أدارُك في البصرة، أم البصرة في دارك؟

يزيد بن معاوية

وقع في كتاب عبد الله بن جعفر إليه يستميحه لرجال من خاصته: آحكُم لهم

(١) يريد عش رجباً بعد رجب.

(٢) المسلاخ: الجلد.

بآمالهم إلى منتهى آجالهم. فحكم [لهم] بتسعمائة ألف؛ فأجازها.

وكتب إليه مسلم بن عقبة المري بالذي صنع أهلُ الحرّة، فوقع في أسفل كتابه: ﴿فلا تأسَ على القوم الفاسقين﴾ (١).

وفي كتاب مسلم بن زياد عامله على خراسان وقد استبطأه في الخراج: قليلُ العتاب يُحْكم مرائر الأسباب، وكثيرُه يَقطع أواخيَ الانتساب.

ووقع إلى عبد الرحمن بن زياد وهو عامله على خراسان: القرابة واشجة، والأفعال متباينة؛ فخذْ لرَحِمك من فعلك.

وإلى عبيد الله بن زياد: أنت أحد أعضاء ابن عمك، فاحرص أن تكون كلّها.

عبد الملك بن مروان

وقع في كتاب أتاه من الحجاج [يشكو إليه نفراً من بني هاشم ويُغريه بهم] جنِّبْني دماءَ بني عبد المطلب، فليس فيها شفاءٌ من الطلب.

وكتب إليه الحجاج يخبره بسوء طاعة أهل العراق وما يقاسي منهم، ويستأذنه في قتل أشرافهم، فوقع له: إنّ من يُمن السائس أن يأتلف به المختلفون، ومن شُؤمه أن يختلف به المؤتلفون.

وفي كتاب الحجاج يخبره بقوّة ابن الأشعث: بضَعْفك قويَ، وبخُرقك طلع.

ووُقع في كتاب ابن الأشعث:

فما بالُ مَن أسعى لأجْبُرَ عظْمَه حِفاظاً، وينْوي من سَفاهته كَسْري؟

ووقع أيضاً في كتاب:

كيف يَرجون سِقاطي بعدَما شمِل الرأسَ مشيبٌ وصَلعْ

---

(١) سورة المائدة الآية ٢٦٠.

الوليد بن عبد الملك

كتب إليه الحجاج لما بلغه أنه خَرق فيما خلّف له عبد الملك، ينكر ذلك عليه ويعرّفه أنه على غير صواب، فوقع في كتابه: لأَجْمَعَنّ المال جمعَ من يعيش. أبدا، ولا فرِّقنَّه تفريق من يموت غدا.

ووقع إلى عمر بن عبد العزيز، قد رأب الله بك الداء، وأوذم[1] بك السِّقاء.

سليمان بن عبد الملك

كتب قتيبة بن مسلم إلى سليمان يتهدّده بالخلع، فوقع في كتابه:

زعَم الفَرزدَق أنْ سيقتُلَ مِربَعاً أَبْشر بطُول سلامةٍ يا مِربَعُ

ووقع في كتابه أيضا: العاقبة للمتقين.

وإلى قتيبة أيضاً جواب وعيده: ﴿وإن تصبِروا وتتَّقوا لا يضُركم كيدُهم شيئا﴾[2].

عمر بن عبد العزيز

كتب بعض العمال إليه يستأذنه في مَرَمَّة مدينته، فوقع أسفل كتابه: آبنِها بالعدل، ونقِّ طُرُقها من الظلم.

وإلى بعض عماله في مثل ذلك: حصِّنْها ونفْسَك بتقوى الله.

وإلى رجل ولاه الصدقات، وكان دمياً فعدل وأحسن: ﴿ولا أقولُ للذين تَزدري أعيُنُكم لن يُؤتيَهمُ اللهُ خيرا﴾[3].

وكتب إليه صاحب العراق يخبره عن سوء طاعة أهلها، فوقع له: آرضَ لهم ما تَرضى لنفسك، وخذْ بجرائمهم بعد ذلك.

وإلى عدي بن أرطاة في أمر عاتبه عليه: إنّ آخِرَ آيةٍ أُنزلتْ ﴿واتّقوا يوماً تُرجَعون فيه إلى الله﴾[4].

---

(١) أوذم: شدّ.
(٢) سورة هود الآية ٣١.
(٣) سورة آل عمران الآية ١٢٠.
(٤) سورة البقرة الآية ٢٨١.

وإلى عامله على الكوفة ـ وكتب إليه أنه فعل في أمرٍ كما فعل عمر بن الخطاب ـ: ﴿أُولٰئك الذين هَدى اللهُ فبهداهمُ ٱقتَدِهْ﴾[1].

وإلى الوليد بن عبد الملك ـ وعمرُ عامله على المدينة ـ فوقع في كتابه: اللهُ أعلم أنك لست أوّل خليفة تموت.

وأتاه كتاب عديّ يخبره بسوء طاعة أهل الكوفة، فوقع في كتابه: لا تَطلب طاعةَ من خذل عليّاً، وكان إماماً مرضياً.

وإلى عامله بالمدينة وسأله أن يُعطيَه موضعاً يبنيه، فوقع: كن من الموت على حذر.

وفي قصة متظلم: العدل أمامك.

وفي رقعة محبوس: تُبْ تُطلَق.

وفي رقعة رجل قَتل: كتاب الله بيني وبينك.

وفي رقعة متنصِّح: لو ذكرت الموت شغلك عن نصيحتك.

وفي رقعة رجل شكا أهل بيته: أنتما في الحق سيَّان.

وفي رقعة امرأة حُبس زوجُها: الحقُّ حَبسه.

وفي رقعة رجل تظلم من ابنه: إن لم أُنْصِفْك منه فأنا ظلمتُك.

يزيد بن عبد الملك

وقع إلى صاحب خراسان: لا يغرنَّك حسنُ رأي، فإنما تفسِده عثرة. وإلى صاحب المدينة: عثرت فاستقِل.

وفي قصة متظلم: ﴿سيَعْلَمُ الذِين ظَلَموا أيَّ مُنقلَبٍ ينْقلِبون﴾[2].

وفي قصة متظلم شكا بعض أهل بيته: ما كان عليك لو صَفَحْتَ عنه واستوصَلْتني.

---

(١) سورة الأنعام الآية ٩٠.

(٢) سورة الشعراء الآية ٢٢٧.

هشام بن عبد الملك

في قصة متظلم: أتاك الغوث إن كنت صادقاً، وحلَّ بك النكال إن كنت كاذباً؛ فتقدّم أو تأخر.

وفي قصة قوم شكوا أميرهم: إن صح ما آدّعيْتم عليه عزلناه وعاقبناه.

وإلى صاحب خراسان حين أمره بمحاربة الترك: احذر لياليَ البَيات[1].

وإلى صاحب المدينة وكتب يخبره بوثوب أبناء الأنصار: آحفظ فيهم رسول الله ﷺ، وهَبْهم له.

وقع في رقعة محبوس لزمه الحدّ: نزل بحدِّك الكتابُ.

ووقع في قصة رجل شكا إليه الحاجة وكثرةَ العيال، وذكر أن له حرمة: لعيالِك في بيت مال المسلمين سهم، ولك بحرمتك منّا مثْلاه.

وإلى عامله على العراق في أمر الخوارج: ضَعْ سيفك في كلاب النار، وتقرب إلى الله بقتل الكفار.

وإلى جماعة يشكون تعدي عاملهم عليهم: لنُفوِّضنّكم في خصمكم دونكم.

وفي كتاب عامله يخبره فيه بقلة الأمطار في بلده: مُرْهُم بالاستغفار.

وإلى سهل بن سيار: خَفِ الله وإمامَك، فإنه يأخذك عند أول زَلة.

يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان

وقع إلى مروان [بن محمد]: أراك تُقدّم رجلاً وتؤخِّر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيِّهما شئت.

وإلى صاحب خراسان في المسوِّدة: نَجم أمرٌ أنت عنه نائم، وما أراك منه أو منِّي بسالم.

مروان بن محمد

كتب إلى نصر بن سيار في أمر أبي مسلم: تحوُّل الظاهر يدل على ضعف الباطن، والله المستعان.

(١) يقال: أتاهم الأمر بياتاً: أي فجأة في جوف الليل.

ووقع إلى ابن هبيرة أمير خراسان: الأمر مضطرب، وأنت نائم، وأنا ساهر.

وإلى حوثَرَة بن سُهيل حين وجهه إلى قحطبة: كن من بيات المارقة على حذَر.

ووقع حين أتاه غَرَقُ قحطبة وانهزام ابن هبيرة: هذا والله الإدبار، وإلا فمن رأى ميّتاً هزم حيّاً؟

وفي جواب أبيات نصر بن سيار إذ كتب إليه.

أرى خَلَل الرَّمادِ وميض جمرٍ ويوشك أن يكون له ضِرام[1]

الحاضر يرى ما لا يرى الغائب، فآحسم الثؤلول[2].

فكتب نصر: الثُّؤلول قد امتدت أغصانه، وعظمت نكايته.

فوقع إليه: يداك أوكتَا وفُوكَ نفخ.

توقيعات بني العباس

السفاح

كتب إليه جماعة من أهل الأنبار يذكرون أن منازلهم أُخِذَت منهم وأُدخلت في البناء الذي أمر به ولم يعطوا أثمانها، فوقع: هذا بناءٌ أُسِّس على غير تقوى ثم أمر بدفع قِيَم منازلهم إليهم.

ووقع في كتاب أبي جعفر وهو يحارب ابن هبيرة بواسط: إن حلْمَك أفسد علْمَك، وتراخيك أثر في طاعتك، فخذلي منك، ولك من نفسك.

ووقع إليه في ابن هبيرة بعد أن راجعه فيه غير مرة: لست منك ولستَ مِنِّي إن لم تقتله.

وجاءه كتاب من أبي مسلم يستأذنه في الحجِّ وفي زيارته، فوقع إليه: لا أحول بينك وبين زيارة بيت الله الحرام أو خليفته، وإذنُك لك.

ووقع في كتاب جماعة من بطانته يشكون احتباس أرزاقهم: من صبر في الشدة شارك في النعمة. ثم أمر بأرزاقهم.

---

(١) الضرام: الإشتعال.

(٢) الثؤلول: بثر صغير صلب مستدير، يظهر على الجلد كالحمّصة أو دونها وهنا بمعنى الخراج.

وإلى عامل تُظُلِّم منه: ﴿وما كنْتُ متَّخِذَ المضِلِّينَ عَضُدا﴾[1] .

وفي قوم شكوا غرق ضياعهم في ناحية الكوفة: ﴿وقيل بُعْداً للقَومِ الظَّالمين﴾[2] .

أبو جعفر

وقع في كتابه إلى عبد الله بن علي عمه: لا تجعل للأيام فيَّ وفيك نصيباً من حوادثها .

ووقع إليه أيضاً: ﴿آدْفع بالتي هيَ أحْسَنُ فإذا الذي بينكَ وبيْنَه عداوة كأنه وليٌّ حميم، وما يلقَّاها إلا الذين صبرُوا وما يلقَّاها إلا ذو حظّ عظِيم﴾[3] فاجعل الحظ لك دوني يكن لك .

ووقع إلى عبد الحميد صاحب خراسان: شكوتَ فأشكيناك، وعتَبْت فأعتبناك، ثم خرجت عن العامّة فتأهب لفراق السلامة .

وإلى أهل الكوفة وشكوا عاملهم: كما تكونون يُؤَمَّر عليكم .

وإلى قوم تظلموا من عاملهم: ﴿لا ينالُ عهْدِي الظالمين﴾[4] .

وفي قصة رجل شكا عيلة: سل الله من رزقه .

وفي قصة رجل سأله أن يبني بقُربه مسجداً فإن مُصلاه على بعد: ذلك أعظم لثوابك .

وفي قصة رجل قُطعت عنه أرزاقه: ﴿وما يفتح اللهُ للناسِ من رحْمة فلا مُمْسِكَ لها وما يُمسكْ فلا مرسِلَ له من بعدِهِ وهو العزيزُ الحكيم﴾[5]

وفي قصة رجل شكا الدْين: إن كان دينُك في مرضاة الله قضاه .

وإلى صارورةٍ سأله أن يحج: ﴿ولله على الناس حجُّ البيت مِن استطاع إليه سبيلاً﴾[6] .

---

(١) سورة الكهف الآية ٥١ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٢٤ .
(٣) سورة هود الآية ٤٤ .
(٤) سورة فاطر الآية ٢ و ٣ .
(٥) سورة المؤمنون الآية ٩٦ . سورة فصلت الآية ٣٤ .
(٦) سورة آل عمران الآية ٩٧ .

وإلى صاحب مصر حين كتب يذكر نقصان النيل: طهِّر عسكرك من الفساد يعطك النيل القياد.

وإلى عامله على حمص، وجاء منه كتاب فيه خطأ: استبدل بكاتبك وإلا استُبدل بك.

وإلى صاحب أرمينية: إن لي في قفاك عيناً، وبين عينيك عيناً؛ ولهما أربع آذان.

وإلى رجل استوصله: لا مانع لما أعطاه الله.

وفي كتاب أتاه من صاحب الهند يخبره أن جنداً شغبوا عليه، وكسروا أقفال بيت المال فأخذوا أرزاقهم منه: لو عدَلتَ لم يَشغبُوا ولو وفيت لم ينتهبوا.

المهدي

وقّع في قصة متظلمين شكوا بعض عماله: لو كان عيسى عاملَكم قدناه إلى الحق كما يقاد الجمل المخشوش. يريد عيسى ولده.

ووقع إلى صاحب أرمينية وكتب إليه يشكو سوء طاعة رعاياه: ﴿خُذِ العفْو وأْمُرْ بالعُرْف وأَعْرِض عن الجاهلين﴾[1].

وإلى صاحب خراسان في أمر جاءه: أنا ساهر وأنت نائم.

وفي قصة قوم أصابهم قحط: يقدّر لهم قوت سَنة القحط، والسنة التي تليها.

وإلى شاعر ـ أظنه مروان بن أبي حفصة ـ: أسرفت في مديحك فقصَّرنا في حِبائك.

وفي قصة رجل من الغارمين، خذ من بيت مال المسلمين ما تقضي به دَينك وتقر به عينك.

وفي قصة رجل شكا الحاجة: أتاك الغوْث.

وإلى رجل من بطانته استوصل: ليت إسراعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك.

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٩٩.

وفي قصة قوم تظلموا من عاملهم وسألوا إشخاصه إلى بابه: قد أنصف القارَةَ[1] من راماها.

وفي قصة رجل حُبس في دم: ﴿ولكُمْ في القِصاص حياةٌ يا أُولي الألباب﴾[2].

وإلى صاحب خراسان وكتب إليه يخبره بغلاء الأسعار: خذهم بالعدل في المكيال والميزان.

وإلى يوسف البَرَم حين خرج بخراسان: لك أماني ومؤكَّد أيماني.

موسى الهادي

كتب إلى الحسن بن قحطبة في أمر راجعه فيه: قد أنكرناك منذ لزمت أبا حنيفة؛ كفاناه الله.

وإلى صاحب أفريقية في أمر فَرَط منه: يا بن اللخناء أني تتمرَس[3].

هارون الرشيد

وقع إلى صاحب خراسان: داو جُرْحَك لا يتسع.

وإلى عامله على مصر: احذر أن تُخْرب خِزانتي وخزانة أخي يوسف فيأتيك مني ما لا قِبَلَ لك به، ومنَ الله أكثر منه.

ووقع في قصة رجل من البرامكة: أنبتته الطاعة وحصدته المعصية.

وإلى عامله على فارس: كن مني على مثل ليلة البيات.

وإلى عامل خراسان: إن الملوك يؤثر عنهم الحزْم.

وإلى خُزيمة بن خازم إذ كتب إليه أنه وضع السيف حين دخل أرض أرمينية: لا أمّ لك! تَقتل بالذنب من لا ذنب له؟

وفي قصة محبوس: من لجأ إلى الله نجا.

وفي قصة متظلم: لا يجاوَز بك العدل، ولا يقصَر بك دون الإنصاف.

---

(١) القارة: قبيلة عربية عرفت بالجاهلية بالحذق في الرماية.

(٢) سورة البقرة الآية ١٧٩.

(٣) يقال تمرّس الرجل: إذا مارس الفتن وخرج على إمامه.

وإلى صاحب السِّند إذ ظهرت العصبية: كل من دعا إلى الجاهلية تَعَجَّلَ إلى المنية.

وإلى عامله على خراسان: كل من رفع رأسه فأزله عن بدنه.

وفي رقعة متظلم من عامله على الأهواز، وكان بالمتظلم عارفاً: قد ولَّيْناك موضعه، فتنكبْ سيرته.

وفي كتاب بكار الزُّبيري إليه؛ يخبره بسرِّمن أسرار الطالبيِّين: جزى الله الفضل خيْرَ الجزاء في اختياره إياك وقد أثابك أمير المؤمنين مائة ألف بحسن نيتك.

وإلى محفوظ صاحب خراج مصر: يا محفوظ، اجعل خرج مصر خَرجاً واحداً، وأنت أنت.

وإلى صاحب المدينة: ضع رجليك على رقاب أهل هذا البطن فإنهم قد أطالوا ليلي بالسهاد، ونفَوْا عن عيني لذيذ الرقاد.

ووقع إلى السندي بن شاهك: خَفِ الله وإمامك، فهما نجاتُك.

وإلى سليمان بن أبي جعفر في كتاب ورد عليه منه يذكر فيه وثوب أهل دمشق استحَيْت بشيخ ولده المنصور، أن يهرب عمن ولَدَهُ كندة وطيء؛ فهلا قابلتَهم بوجهك، وأبديت لهم صفحتك، وبذلت لهم نصيحتك، وكنت كمروان ابن عمك أذ خرج مصلتاً سيفه متمثلاً ببيت الجحاف بن حكيم:

مُتقلِّدين صَفائحاً هنديَّةً يَترُكْنَ من ضربوا كمن لم يولَدِ

فجالد به حتى قُتل؛ لله أمٌّ ولدتْه؛ وأبٌ أنهضه.

وكتب متملك الروم إلى هارون الرشيد: إني متوجه نحوك بكل صليب في مملكتي، وكلِّ بطلٍ في جندي. فوقع في كتابه: ﴿وسيَعْلَمُ الكافرُ لِمَنْ عُقْبى الدار﴾[١].

وكتب إليه يحي بن خالد من الحبس حين أحس بالموت: قد تقدم الخصم إلى موقف الفصل، وأنت بالأثر، والله الحكم العدْل، وستَقْدُمُ فتعلم. فوقع فيه الرشيد:

---

(١) سورة الرعد الآية ٤٢.

الحكم الذي رضيته في الآخرة لك، هو أعْدى الخصم في الدنيا عليك، وهو من لا يُردُّ حكمه، ولا يُصرفُ قضاؤه.

المأمون

وقع إلى علي بن هشام في أمر تظلم: من علامة الشريف أن يَظلم من فوقه، ويظلمه من دونه؛ فأي الرجلين أنت؟

وإلى هشام: لا أُدنيك ولك ببابي خصم.

وإلى الرستمي في قصة مَن تظلم منه: ليس من المروءة أن تكون آنِيَتُك من ذهب وفضة، وغريمك خاوٍ وجارُك طاو[1].

وفي قصة متظلم من عمرو بن مسعدة: يا عمرو، عَمِّر نعمتك بالعدل؛ فإن الجوْر يهدمها.

وفي قصة متظلم من أبي عباد: يا ثابت، ليس بين الحق والباطل قرابة.

وفي قصة متظلم من أبي عيسى أخيه: ﴿فإذا نفخ في الصُّور فلا أنسابَ بينهم يوْمئذٍ ولا يتساءلونَ﴾[2].

وفي قصة لمتظلم من حميد الطوسي: يا أبا غانم، لا تغتَّر بموضعك من إمامك، فإنك وأخسَّ عبيده في الحق سِيَّان.

وإلى طاهر صاحب خراسان: أحمدْ أبا الطيب، إذ أحلك الخليفة محل نفسه فمالك موضعٌ تسمو إليه نفسُك إلا وأنت فوقه عنده.

وفي كتاب بشر بن داود: هذا أمانٌ عاقدت الله في مناجاتي إياه.

وفي كتاب إبراهيم بن جعفر في فَدَك[3] حين أمره بردّها؛ قد أرضيت خليفة الله في فدك، كما أرضى الله رسوله فيها.

وفي قصة متظلم من محمد بن الفضل الطوسي: قد احتملنا بَذاءك وشكاسَةَ خلُقك، فأما ظلمك للرعية فإنا لا نحتمله.

---

(١) طاو: أي جائع.

(٢) سورة المؤمنون الآية ١٠١.   (٣) فدك: قرية بالحجاز.

ووقع إلى بعض عماله: طالع كلَّ ناحية من نواحيك وقاصية من أقاصيك بما فيه استصلاحها.

وكتب إليه إبراهيم بن المهدي في كلام له: إن غفَرْت فبفضلك، وإن أخذْت فبحقك. فوقع في كتابه: القدرة تُذْهب الحفيظة، والندم جزءٌ من التوبة وبينهما عفو الله.

ووقع في رقعة مولى طلب كسوة: لو أردت الكُسوة لَلزمْت الخدمة، ولكنك آثرْت الرُّقاد فحظُّك الرؤيا.

ووقع في يوم عاشوراء لبعض أصحابه وقد وافتْه الأموال: يؤمر له بخمسمائة ألف لطول همته، ولثمامة بن أشرس بثلثمائة ألف لتركه ما لا يعنيه، ولأبي محمد اليزيدي يؤمر له بخمسمائة ألف لكبره، وللمعلي بخمسمائة ألف لصحيح سنَته، ولإسحاق بن إبراهيم بخمسمائة ألف لصدق لهجته، وللعباس بخمسمائة ألف لفصاحة منطقه، ولأحمد ابن أبي خالد بألف ألف لمخالفة شهوته، ولإبراهيم بن بويه كذلك لسرعة دمعته، وللمرْيسي بثلثمائة ألف لإسباغ وضوئه، ولعبد الله بن بشر بمثلها لحسن وجهه.

توقيعات الأمراء والكبراء

زياد

وقّع إلى بعض عماله: قد كنت على الذّعّار وإخالك ذاعرا.

وكتبت إليه عائشة في وَصاة برجل، فوقع في كتابها: هو بَيْنَ أبويه.

وإلى صاحب خراسان في أمر خالفه فيه: استر بعض دِينِك ببعض، وإلا ذهب كله.

وإلى عامله بالكوفة أمِطِ الحدودَ عن ذوي المروءات.

وفي قصة متظلم: أنا معك.

وفي قصة قومٍ رفعوا على عامل رفيعة(١): من أماله الباطلُ قوَّمَه الحق.

(١) الرفيعة: ما رفع به على الرجل.

وفي قصة مستمنح: لك المُواساة.
وإلى عامله في خوارج خرجوا بالبصرة: النساءُ تُحارِبُهم دونك.
وفي قصة سارق: القطع جزاؤك.
وفي قصة امرأة حُبس زوجها: حُكْمهُ إلى الله.
وفي قصة قوم نَقبوا: تُنقَبُ ظُهورُهم.
وفي قصة نبّاش: يُدْفَنُ حيّاً في قبره.
وفي قصة متظلم: الحقُّ يَسعُك.
وفي قصة متنصح: مهلاً فقد أبلغت إسماعي.
وفي قصة متظلم: كُفِيتَ.
وفي قصة رجل شكا إليع عقوقَ ابنه: ربما كان عقوقُ الولد من سوء تأديبِ الوالد!
وفي قصة رجل شكا الحاجة: لك في مال الله نصيبٌ أنت آخِذُه.
وفي قصة رجل جارح: الجروح قصاص.
وفي قصة محبوس: التائبُ من الذَّنْبِ كمن لا ذنب له.
وفي قصة قوم شكوا غرق ضياعهم: لا تعرَّضَ فيما تفرّد الله به.
وفي قصة قوم اشتكوا اجتياح الجراد لزروعهم: لا حكم فيما استأثر الله به.

الحجاج بن يوسف

وقع في كتاب أتاه من قتيبة بن مسلم يشكو كثرة الجراد، وذهاب الغلات، وما حل بالناس من القحط: إذا أزِفَ خراجُك فانظر لرعيتك في مصالحها، فبيتُ المال أشدُّ اطلاعاً لذلك من الأرمَلة واليتيم وذي العَيلة.

وفي كتاب قتيبة إليه أنه على عبور النهر ومحاربة الترك: لا تخاطِرْ بالمسلمين حتى تعْرفَ موضِعَ قدمك، ومرمى سهامك.

وفي كتاب صاحب الكوفة يخبره بسوء طاعتهم وما يقاسي من مداراتهم: ما ظنُّك

بقوم قَتلوا من كانوا يعبدونه ؟

وفي قصة محبوس ذكروا أنه تاب: ﴿ما على المُحْسنين من سبيلٍ﴾[1] .

وإلى قتيبة: خُذْ عسكرك بتلاوة القرآن، فإنه أمْنَعُ من حُصُونك .

وفي كتابه إلى بعض عماله: إياك والملاهي حتى تستنظف[2] خراجَك .

وفي كتاب إلى ابن أخيه: ما ركب يهوديٌّ قبلك مِنْبَراً .

وفي كتابه إلى يزيد بن أبي مسلم: أنت أبو عبيدة هذا القَرْنُ .

أبو مسلم

وقع في كتاب سليمان بن كثير الخزاعي: ﴿لكل نبإٍ مستَقر وسوف تعلمون﴾[3] .

وإلى أبي العباس في يزيد بن عمر بن هبيرة: قَلَّ طريقٌ سهل تُلْقَى فيه الحجارةُ إلا عاد وعْراً؛ واللهِ لا يَصلُحُ طريقٌ فيه ابنُ هبيرة أبداً .

وإلى ابن قحطبة: لا تنسَ نصيبك من الدنيا .

وإليه: ﴿ادعُ إلى سبيل ربِّكَ بالحِكمةِ والموْعِظَةِ الحَسنَةِ﴾[4] .

وإليه: ﴿ولا تَركنوا إلى الذينَ ظلَموا فَتمَسَّكُم النارُ﴾[5] .

وإلى محمد بن صول وكتب إليه بسلامة أطرافه: ﴿وأمّا بِنِعْمة ربكَ فحدِّث﴾[6] .

وكتب إليه قحطبة: إن بعض قُوّاده خرج إلى عسكر بن ضُبارة راغباً فوقّع في كتابه: ﴿ألم تَرَ إلى الذينَ بدَّلوا نعمَةَ اللهِ كُفراً وأحلّوا قوْمَهُم دارَ البوارِ جَهنَّم يَصلْونَها وبئْسَ القرارُ﴾[7] .

وإلى عامله ببلخ: لا تؤخر عمل اليوم لغد .

وإلى أبي سلمة الخلال حين أنكر نيته: ﴿وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنَّا وإذا خَلْوا إلى شياطِينِهم قالوا إنّا معكُم﴾[8] .

---

(١) سورة التوبة الآية ٩١ .

(٢) يقال: استنظف الوالي ما عليه من الخراج: أي استوفاه .

(٣) سورة الأنعام الآية ٦٧ .

(٤) سورة النحل الآية ١٢٥ .

(٥) سورة هود الآية ١١٣ .

(٦) سورة الضحى الآية ١١ .

(٧) سورة ابراهيم الآية ٢٨ .

(٨) سورة البقرة الآية ١٤ .

وقع في قصة محبوس: ﴿لِكلِّ أجلٍ كِتابٌ﴾[1].

وفي مثله: العدل يُوبقه، والتوبة تطْلِقه.

وفي قصة متنصح: بعضُ الصدق قبيح.

وفي رجل شكا بعضَ عُمَّاله: قد كثر شاكوك، وقل شاكروك؛ فإما عدلت، وما اعتزلت.

وفي قصة رجلٍ شكا بعض خدمه: خذ بأذُنه ورأسه فهو مالك.

وإلى عامل فارس في رجل كتب إليه بالوصاة: كن له كأبيه لو كان مكانك.

وإلى عامل مصر في رجل من بطانته يوصيه: إنه رغب إلى شعبك فارغب في اصطناعه.

وفي قصة متظلم من بعض عماله: إني ظلمتك دونه.

وفي قصة محبوس: الجناية حبسته والتوبةُ تطْلِقه.

وإلى قوم: عيْنُ الخليفة تكلؤكم ونظرُه يَعُمُّكم.

وفي رقعة صرورة استأذنه في الحج: من سافر إلى الله أنجح.

وفي قصة رجل شكا عزوبة: الصومُ لك وجاءٌ[2].

وفي رقعة رجل سأل ولاية: لا أُوَلي بعض الظالمين بعضا.

وفي قصة رجل سأل أن يُقفل ابنه فقد طالت غيبته عنه: غيبةُ يوسف ﷺ كانت أطْوَل.

وفي قصة رجل تظلم من عماله: إنَّا لَمِثْلُه حتى نُنصفك.

وفي قصة مستمنح قد كان وصله مراراً: دعِ الضرع يَدِرُّ لغيرك كما درَ لك.

وإلى الفضل بن الربيع وجاءه منه كتابٌ غَمَّه وكربه: كثرة ملاحاة الأوِدّاء، رُبما أراقت الدماء.

وإلى منصور بن زياد في أمر عاتبه فيه: لم نزرعك لنحصدَك.

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٨.

(٢) الوجاء: شبيه بالخصاء.

وإلى بعض عماله: اجعل وسيلتك إلينا ما يَزيدك عندنا.

وإلى بعض ندمائه: لا تبعد من ضمَّك.

ووقع إلى متنصل من ذنب: حكم الفلتات خلاف حكم الاصرار.

الفضل بن سهل

كتب إلى أخيه الحسن: آحمد الله يا أخي، فما يبيت خليفة الله إلا على ذكرك

وإلى طاهر: لخيرٍ ما آتضعْت.

وإليْه: لشرّما سَمَوْتَ.

وإلى هرثمة وأشار عليه برأي: لا يُحَلّ ما عقدت.

وفي قصة متظلم: كفى بالله للمظلوم ناصرا.

وفي قصة نقب بيت المال: يُدْرَأ عنه الحد إن كان له فيه سهم.

ووقع إلى حاجبه: تمهَّل وتسهَّل.

وإلى صاحب الشرطة: تَرفَّق تُوفَّق.

وإلى رجل شكا غلبة الدَّيْن: قد أَمرنا لك بثلاثين ألفاً وسَنَشفعُها بمثلها، ليرغب المستمنحون.

وفي قصة متظلم: طِبْ نفْساً فإنّ الله مع المظلوم.

وإلى رجل شكا إليه الدَّيْن: الدَّين سوء يهيض الأعناق، وقد أمرنا بقضائه.

وفي قصة قوم قطعوا الطريق: ﴿إنما جزاءُ الذين يُحارِبون اللهَ ورسولَه ويَسعوْن في الأرض فساداً أن يُقتَّلوا أو يُصلَّبوا أو تُقطَّعَ أيديهم وأرجلَهم من خلافٍ أو يُنْفوْا من الأرض، ذلك لهم خزيٌ في الدنيا ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيمٌ﴾[1].

(١) سورة المائدة الآية ٣٣.

وفي أمريءٍ قاتل شهد عليه العدول فشُفع فيه: كتاب الله أحقٌّ أن يُتْبع.

وفي قصة رجل شُهد عليه أنه شتم أبا بكر وعمر: يُضرَب دون الحدّ ويُشهر ضربهُ.

الحسن بن سهل ذو الرياستين

وقَّع في قصة متظلم: يُنْظَر فيما رَفع، وإنَّ الحق منيع، وإلاّ فشفاء السقيم دواءُ السقم.

وفي قصة قوم تظلموا من والِيهِم: الحقُّ أولى بنا، والعدل بُغْيَتنا، وإن صح ما ادّعيتم عليه صرفناه وعاقبناه.

وفي قصة آمرأة حُبس زوجُها: الحق يَحبسه والإنصاف يُطلقه.

وفي رقعة رائد: قد أمرنا لك بشيء هو دون قدرك في الاستحقاق، وفوق الكفاية مع الاقتصاد.

وكتب إليه رجل من الشعراء يقول له:

رأيتُ في النوم أني راكبٌ فرساً ... ولي وصِيفٌ وفي كفّي دنـانيرُ
فقـال قـومٌ لهم فهْـمٌ ومعـرفـة ... رأيـتَ خيراً وللأحلامِ تعبيرُ
روٌياك فسِّر غداً عند الأمير تَجـدْ ... تعبيرَ ذاك وفي النـوم التَّبـاشير

فوقع في أسفل كتابه ﴿أضغاثُ أحلامٍ وما نحن بتأويلِ الأحلامِ بعالِميْن﴾[(١)] وأطلق له ما التمسه.

ودخل بعض الشعراء على عبد الملك بن بشر بن مروان فأنشده:

أغْفيْتُ عند الصبح نومَ مسهَّدٍ ... في ساعةٍ ما كنتُ قبلُ أنامُها
فـرأيـتُ أنـك رُعْتني بـولِيـدةٍ ... رُعْبوبَةٍ حسَنٍ عليَّ قيامُها[(٢)]

---

(١) سورة يوسف الآية ٤٤.

(٢) رعبوبة: بيضاء حسنة رطبة حلوة.

وبَـدرةٍ حُمِلَتْ إليَّ وبغلـةٍ دَهماءَ مُشرِفةٍ يَصِلُّ لجامها
فدعوْتَ ربي أن يُثيبك جنةً عِوضاً يَصيبك بَردُها وسلامها
تلك المنابرُ يا بنَ مروان النَّدى أضحتْ وأنت خَطيبها وإمامها

فقال له: أبشر في كل شيء أصبت إلا البغلة، فإني لا أملك إلا شُهبا، فقال له: امرأتي طالق إن كنت رأيتُها إلا شهبا، إلا أني غَلِطت.

طاهر بن الحسين

وقَّع في كتاب رجل تظلم من أصحاب نصر بن شَبيب: طلبَ الحق في دار الباطل.

وفي قصة رجل طلب قبالةً[1] بعض أعماله: القبالة مفتاح الفساد، ولو كانت صلاحا ما كنتَ لها موضعا.

وإلى السِّندي بن شاهك وجاءه منه كتاب يستعطفه فيه: عِشْ ما لم أرَاك.

والى خُزيمة بن خازم: الأعمال بخواتيمها، والصنيعة باستدامتها وإلى الغاية ما جرى الجواد، فحُمد السابق وذُم الساقط.

وإلى العباس بن موسى الهادي واستبطأه في خراج ناحيته:

وليس أخو الحاجات مَن بات نـائماً ولكن أخوها مَن يَبيت على رَحْلِ

وفي رقعة متنصح ﴿سننظر أصدَقتَ أم كنت من الكاذِبين﴾[2].

وفي قصة محبوس: يُطلَق ويعتق.

وفي رقعة مستوصل: يُقام أوَدُه.

وكتب أبو جعفر إلى عمرو بن عبيد: أبا عثمان، أعِنّي بأصحابك، فإنهم أهل

(١) القبالة: الكفالة. (٢) سورة النحل الآية ٢٧.

العدل وأصحاب الصدق والمؤثرون له. فوقع في كتابه: آرفع علمَ الحق يتْبعْك أهله.

توقيعات العجم

وقَّع أردشير في أزمة عمت المملكة: من العدل أن لا يفرح الملِك ورعيَّته محزونون. ثم أمر ففُرِّق في الكور جميع ما في بيوت الأموال.

ورفع رجل إلى كسرى بن قباذ رقعة يخبره فيها أنّ جماعة من بطانته قد فسدتْ نيَّاتهم وخبُثت ضمائرهم، منهم فلان وفلان؛ فوقع في أسفل كتابه: إنما أَمْلك ظاهر الأجسام لا النيات، وأحكم بالعدل لا بالهوى، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر.

ووقع كسرى في رقعة مدح: طوبي للممدوح إذا كان للمدح مستحِقا، وللداعي إذا كان للإجابة أهلا.

وكتب إليه متنصح أنّ قوما من بطانته اجتمعوا للمنادمة، فعابوه وثلموه، فوقَّع: لئن كانوا نطقوا بألسنة شتى لقد اجتمعت مساويها على لسانك فجُرحُك أرغَب[١]، ولسانك أكذب.

ورفع إليه جماعة من بطانته رقعة يشكون فيها سوء حالهم، فوقع: ما أنصفكم مَن إلى الشَّكِيَّة أحوجكم. ثم فرّق بينهم ما وسعهم وأغناهم.

ووقع أنو شروان إلى صاحب خراجه: ما آستُغْزر الخراج بمثل العدل، ولا آستُنزر بمثل الجوْر.

ووقع في قصة رجل تَظلم منه: لا ينبغي للملِك الظُّلم ومن عنده يُلتمس العدل، ولا يبخل ومن عنده يُتوقع الجود. ثم أمر بإحضار الرجل وقعد معه بين يدي المُوبذ[٢].

ووقع في قصة محبوس: من رَكِبَ مَا نُهِيَ عنه حيل بينه وبين ما يشتهي.

---

(١) أرغب: أوسع. (٢) الموبذ: فقيه الفُرس.

ودفع إليه بعض خدمه رقعة يخبره فيها بكثرة عياله، وسوء حاله، فعرف كذبه، فوقع: إن الله خفف ظهرك فثَقَّلْتَه، وأحسن إليك فكَفَرْتَه فتب إلى الله يَتُبْ عليك.

ووقع في قصة رجل سعى إليه بباطل: باللسان آحفظ رأسك.

ووقع في قصة رجل ذكر أن بعض قرابة الملك ظلمه وأخذ ماله: لا تصلح العامة إلا ببعض الحيف على الخاصة؛ فإن كنت صادقاً أبَحْتُكَ جميع ما يملكه. فلم يتظلم بعدها أحد من قرابته.

فصول في المودّة

كتب عبد الرحمن بن أحمد الحراني إلى محمد بن سهل:

أعزك الله، إن كل مجازاة قاصرة عن حق السابق إلى افتتاح الود، وقد علمت أني استقبلتك من الإقبال عليك بما لم تَسْتدعه، واعتمدتك من الرغبة فيك بما لم توله.

وفصل لأبي علي البصير: قد أكد الله بيننا من الودِّ ما نأمن الدهر على حل عقده ونقض مِراره، وما يستوي منه ثقتنا بأنفسنا لك وثقتُنا بما عندك.

وفصل له: الحال فيما بيننا يحتمل الدالة، ويوجب الأنس والثقة، وبسط اللسان بالاستزادة؛ وأنا أمت إليك بالحرمة المتقدمة، والأسباب المؤكدة، التي تحل صاحبها محل خاصة الأهل والقرابة.

وفصل لإبراهيم بن العباس: المودّة يجمعنا حبلها، والصناعة تؤلفنا أسبابها، وما بين ذلك من تراخ في لقاء، أو تخلف في مكاتبة، موضوع بيننا، يوجب العذر فيه.

وفصل لسعيد بن عبد الملك: أنا صَبٌّ[1] إليك، سامي الطرف نحوك، وذكرك ملصقٌ بلساني، وآسمك حُلْو على لهواتي، وشخصك ماثلٌ بين عينيّ، وأنت أقرب الناس من قلبي، وآخذُهم بمجامع هواي.

---

(١) صبّ: مشتاق.

وفصل له : لنحن أحقّ بابتدائك بما ابتدأتنا به من الصلة ، إلا أنك أحق بالفضل الذي سبقتَ إليه .

وفصل لسعيد بن حميد : إني أهديت مودّتي رغبة إليك ، ورضيت بالقبول منك مثوبة ، فصرتَ بقبولها قاضيا لحق ، ومالكا لرق ، وصرت بالتسرع إلى الهدية ، والتنظّر للمثوبة ، مرتهن اللسان بالجزاء ، واليدين بالوفاء .

وفصل له : إني صادفت منك جوهرَ نفسي ، فأنا غير محمود على الانقياد لك بغير زمام ، لأن النفس يقودها بعضُها بعضا .

وقال أبو العتاهية :

وللقلب على القلب دليل حين يلقاهُ
وللناس من الناسِ مقاييسٌ وأشباه

وفصل له : لساني رطْبٌ بذكرك ، و[مكانك من قلبي] معمورٌ بمحبتك ، حضرتَ أو غِبت ، سرْتَ أو أقْمتَ . كقول أخي أبي دلف :

لعمري لئِن قرّت بقربكَ أعيُنٌ لقد سخنَتْ بالبيْنِ منكَ عيونٌ
فسِرْ أو فقِف ، وقفٌ عليك مودّتي مكانُك من قلبي عليكَ مَصون

وفصل لإبراهيم بن المهدي : كتابي إليك كتاب مخبر وسائل ، فأما الإخبار فعن تصرُّف الخطوب بما يوجب العذرَ عند صديقي العزيز علي في إبطائي بالتعد له ، وأما السؤال فعن إمساك هذا الأخ الودود المودود عن مثل ذلك وإن العذر كاشف ما سلف ، مصلح لما استأنف .

فصول في الزيارة

كتب الحسين بن الحسن بن سهل إلى صديق له :

نحن في مأدُبة لنا تشرف على روضة تُضاحك الشمس حسنا ، قد باتت السماءُ

تكلّها، فهي شرقة بمائها، حالية بنُوّارها[1]، فبادر إلينا لنكون على سواء من استمتاع بعضنا ببعض؛ فكتب إليه:

هذه صفة لو كانت في أقاصي الأطراف لوجب انتجاعها[2]، وحثّ المطِيّ في ابتغائها؛ فكيف في موضع أنت تسكنه، وتجمعُ إلى أنيق منظرِه، حُسْن وجهك وطيب شمائلك! وأنا الجواب!

وفصل: كتب إسحاق بن إبراهيم الموصلي إلى أحمد بن يوسف في المصير إليه وعند أحمد بن يوسف إبراهيم بن المهدي؛ فكتب:

عندي من أنا عنده، وحُجّتنا عليك إعلامُنا إياك.

وفصل: إنه من ظَميء شوقه من رؤيتك، استوجب الرِّيَّ من زيارتك. ثم كتب تحت هذا:

سر إلينا تَفديك نفسي مـن السُّو ء فقـد طـال عهـدُنـا بـالتلاقـي
واجعلَنْ ذاك ـ إن رأيْتَ ـ جـوابي فلقـد خِفـتُ سطـوةَ الإشتيـاق

وفصل: إلى الله أشكو شدة الوحشة لغيبتك، وفرْطَ الحزن من فراقك، وظلم الأيام بعدك؛ وأقول كما قال بعض المحدثين:

غضـارة دنيـا أظلم العيْشُ بعـدهـا وعند غروب الشمس يُعرف فقدُها

وفصل: الشوق إليك وإلى عهد أيامنا التي حسنت بك كأنها أعياد، وقصرَت كأنها ساعات ـ يُفَوّت الصفاء؛ ومما يجدّده ويكثر دواعيه، تصاقُبُ الديار، وقربُ الجوار، تمم الله لنا النعمة المجددة فيك، بالنظر إلى الغرة المباركة التي لا وحشة معها، ولا أنس بعدها.

وفصل: مثلُنا أعزك الله في قرب تجاورنا وبُعد تزاورنا، ما قيل في أهل القبور:

هُم جيرة الأحياءِ، أمـا مـزارُهـم فـدانٍ، وأمّـا الملتقـى فبعيـدُ!

---

(١) النوّار: الزهر. (٢) انتجاعها: أي قصدها لطلب المعروف.

وكل علة معك محتملة، وكل جفوة مغفورة، للشغف بك، والثقةِ بحسن نيتك؛ وسنأخذ بقول أبي قيس بن الأسلت:

ويُكرمُها جاراتُها فيزرْنَها ... وتعتلُّ عن إتيانِهنَّ فتُعْذَرُ

وفصل: كتب حكيم إلى حكيم: يا أخي، إن أيام العُمُرِ أقلُّ من أن تحتمل الهجر! والسلام.

فصل: كتب أحمد بن يوسف: لا تجوز قطيعةُ الصديق؛ لأنها لا تخلو من أحد وجهين إما ضعف في نفس الاختيار، وإما ملل؛ وكلاهما حجة فيه.

وفصل: طال العهد بالاجتماع حتى كدنا نتناكر عند الالتقاء؛ وقد جعلك الله للسرور نظاما، وللأنس تَماما، وجعل المشاهِدَ موحِشةً إذا خلتْ منك.

وكتب الحسن بن وهب إلى محمد بن عبد الملك الزيات:

أوجبَ العذْرَ في تراخي اللقاءِ ... ما تَوالي من هذهِ الأنواءِ[1]

فسلامُ الإلهِ أهديه منيّ ... كلَّ يومٍ لسيِّد الوزَراءِ

لست أدري ماذا أقولُ وأشكو ... من سماءٍ تعوقُني عن سماءِ

غير أني أدعو على تلك بالثُّكـ ... ـلِ وأدعو لهذهِ بالبقاءِ

وقال آخر:

أزُور محَمَّداً فإذا التقيْنا ... تكلمَتِ الضمائِرُ في الصدورِ

فأرجعُ لم أُلمه ولم يَلُمني ... وقد رضِيَ الضمير عنِ الضَّمير

فصول في وصاة

كتب الحسن بن وهب إلى مالك بن طوق في ابن أبي الشيص:

كتابي إليك خططتُه بيميني، وفرّغت له ذهني، فما ظنك بحاجة هذا موقعها مني،

(١) الأنواء: جمع النوى: وهو البعد.

أتُراني أقبل العذر فيها، وأُقصِّر في الشكر عليها؟ وابن أبي الشيص قد عرفته ونسبَه وصفاتِه، ولو كانت أيدينا تنبسط ببرِّه ما عدانا إلى غيرنا، فاكتف بهذا منا.

وفصل: كتابي إليك كتاب معْنِيٍّ بمن كَتَب له، واثقٍ بمن كُتِب إليه، ولن يَضيع بين الثقة والعناية حاملُه.

وفصل: كتب العتابي فكاد أن يختل بالمعنى من شدة الاختصار، فكتب:

حامل كتابي إليك أنا، فكن له أنا! والسلام.

وفصل للحسن بن سهل: فلان قد استغنى باصطناعك إياه عن تحريكي إياك في أمره، فإن الصنيعة حرمة للمصنوع إليه ووسيلة إلى مصطنعِه، فبسط الله يدك بالخيرات، وجعلك من أهلها، ووصل بك أسبابها.

وفصل له: موصِّل كتابي إليك أنا، فكن له أنا، وتأملْه بعين مشاهدتي وخُلَّتي، فبلسانه أشكرُ ما أتيت إليه، وأذم ما قصرت فيه.

فصول في عتاب

كتب أحمد بن يوسف:

لولا حسنُ الظن بك ـ أعزَّك الله ـ لكان في إغضائك عني ما يَقْبضني عن الطَّلْبة إليك، ولكن أمسكَ برمقٍ من الرجاء علمي برأيك في رعاية الحق، وبسْط يدك إلى الذي لو قبضتها عنه، لم يكن له إلا كرمُك مذكِّراً، وسودَدك شافعا فصل: أما بعدَ البرء من مريض داؤه في دوائه، وعلَّته في حميَتِه! أنا منك كالغاصِّ بالماء لا مساغ له.

وكما قال الشاعر:

كنت مِن كُربتي أفرُّ إليهم وهُمُ كُرْبتي، فأين الفرارُ؟

فصل: أنا منتظر واحدة من اثنتين: عُتْبي تكون منك، أو عقبي تغني عنك!

فصل: أما بعد، فقد كنت لنا كلَّك، فاجعل لنا بعضك، ولا نرضى إلا بالكل لك منا.

فصل: أنا أُبقي على وُدِّك من عارض يغيِّره، أو عتاب يقدح فيه، وآمل عائدا من حسن رأيك، يغني عن اقتضائك.

فصل: ألهمك الله من الرشد بحسب ما منحك من الفضل. لو أن كل من نازع إلى الصرْم قلَّدناه عِنان الهجر، لكُنَّا أولى بالذنب منه ولكن نَرُدُّ عليك من نفسك ونأخذ لها منك.

فصل: لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ذي الجناحين.

أما بعد، فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك؛ ابتدَأْتني بلطف عن غير خبرة، وأعقبْته جفاءً من غير ذنب؛ فأطمعني أوّلك في إخائك، وآيسني آخرك من وفائك؛ فسبحان من لو شاءَ لكشف من أمرك عن عزيمة الرأي فيك؛ فأقمنا على ائتلاف أو افترقنا على اختلاف!

فصل: إذا جعلت الظنَّ شاهدا تعدل شهادته بعد أن جعلته حكما يحيف في حكومته، فأين الموئل من جَوْرك؟ ولست أسلك طريقا من العتب عليك إلا شدّة ما أنطوى عليه من مودتك، ولا سبيل إلى شكايتك إلا إليك، ولا استعانة إلا بك، وما أحقَّ من جعلك على أمر عونا أن تكون له إلى النجاح سبباً!

وقال الشاعر:

عجبْتُ لقلبك كيف انقلبْ ... ومن طول وُدَّك، أنى ذهَبْ
وأعجبُ من ذا وذا أنني ... أراك بعيْن الرّضا في الغضب!

وفصل: إن مسألتي إليك حوائجي مع عتبك عليَّ من اللؤم وإن إمساكي! عنها في حال ضرورة إليها مع علمي بكرمك في السخط والرضا، لعجزٌ؛ غير أني أعلم أن أقرب الوسائل في طلب رضاك، مساءلتُك ما سنح من الحاجة؛ إذ كنت لا تجعل

عتبك سبباً لمنع معروفك.

وفصل: لو كانت الشكوك تختلجني في صحة مودّتك وكريم إخائك ودوام عهدك، لطال عتبي عليك، في تواتر كتبي وآحتباس جواباتها عني؛ ولكن الثقة بما تقدم عندي، تعذرك وتُحسن ما يُقبِّحه جفاؤك، والله يديم نعمته لك ولنا بك.

وفصل لابن المدبر: وصل كتابك المفتتح بالعتاب الجميل، والتقريع اللطيف؛ فلولا ما غلب عليَّ من السرور بسلامتك، لتقطعت غماً بعتابك، الذي لطف حتى كاد يخفى عن أهل الرقة والفطنة، وغلظ حتى كاد يفهمه أهل الجهل والبله؛ فلا أعدَمَني الله رضاك مجازيا به على ما آستحقَّه عتبُك، فأنت ظالم فيه، فهو وليُّ المخرج منه.

وقال أبو الدرداء: إعتاب الأخ خيرٌ من فقده.

وقال الشاعر:

إذا ذهـــب العِتـــابُ فليس وُدٌّ ويبقـى الوُدُّ مـــا بقـــي العِتـــابُ

وقال آخر في غير هذا المعنى:

إذا كنــت تغضــب مــن غير ذنــبِ وتعتِــب في كـــلِّ يـــومٍ عليَّـــا
طلبْــتُ رضـــاك، فـــإنْ عـــزَّني عـــددْتُـك مَيتــاً وإن كنــت حيَّـــا
ولا تُعجَبَـــنَّ بما في يـــديْـــك فـــأكثر منـــه الذي في يـــدَيَّـــا!

وفصل في عتاب: العتاب قبل العقاب؛ فليكن إيقاعك بعد وعيدك، ووعيدك بعد وعدك.

وفصل: قد حميت جانب الأمل فيك، وقطعت أسباب الرجاء منك وقد أسلمني اليأس منك إلى العَزاء عنك؛ فإن ترغب من الآن فصفحٌ لا تثريب معه، وإن تماديت فهجْرٌ لا وصل بعده.

فصول في التنصل

كتب ابن مُكرم: لاوَ عظيمِ أملي فيك ما أتيت فيما بيني وبينك ذنباً مخطئاً ولا متعمِّدا، ولعل فلتة لم أُلق بالا، فأوطيء لها اعتذارا، وإلا تكن فنَفْثة حاسد زخرفها على لسان واشٍ، نبذها إليك في بعض غِرّاتك، أصابت مني مقتلا وشفَتْ منه غليلا.

وفصل: ليس يُزيلُني عن حُسن الظنَّ بك فعلٌ حَملك الأعداءُ عليه، ولا يقطعني عن رجائك عَتْب حَدَثَ عليَّ منك؛ بل أرجو أن تتقاضى كرمَك إنجاز وعدك، إذ كان أبلغ الشفعاء إليك، وأوجب الوسائل لديك.

وفصل: أنت ـ أعزك الله ـ أعلم بالعفو والعقوبة من أن تجازيني بالسوء على ذنب لم أَجْنِه بيد ولا لسان، بل جناه علي لسان واش، فأما قولك: إنك لا تُسهِّل سبيل العذر؛ فأنت أعلم بالكرم وأرعى لحقوقه وأعرف بالشرف وأحفظ لذماماته[1] من أن تردّ يدَ مؤمِّلك صِفْراً من عفوك إذا التمسه، ومن عذرك إذا جعل فضلك شافعاً فيه وذريعة له.

وفصل لإبراهيم بن العباس: الكريم أوسع ما تكون مغفرته إذا ضاقت بالمذنب معذرته.

وفصل: يا أخي، أشكو إلى الله وإليك تحامل الأيام عليّ، وسوء أثر الدهر عندي، وأني معلق في حبائل مَن لا يَعرِف موضعي، ولا يحلُو عنده موقعي، أطلب منه الخلاص فيزيدني كلفا، وأرتجي منه الحق فيزداد به ضناً، فالثواءُ ثواءُ مقيم، والنية نية ظاعن والزّماع[2] زَماع مرتحل؛ ما أذهَب إلى ناحية من الحيلة إلا وجَدْت من دونها مانعاً من العوائق؛ فأحمل الذنب على الدهر وأرجع إلى الله بالشكوى، وأسأله جميل العقبى وحسن الصبر.

---

(١) الذمامات: جمع ذمامة، وهي العهد.

(٢) الزماع: المضاء في الأمر والعزم عليه.

فصول في حسن التواصل

للمفْضِّل أن يخص بفضله من شاء، وله الحمد فيما أعطى، ولا حجة عليه فيما منع، وكن كيف شئت، فإني قد أوليتك خالصة سريرتي، أرى ببقائك بقاء سروري، وبدوام النعمة عندك دوامها عندي.

وفصل: قد أغنى الله بكرمك عن الذريعة إليك والاستعانة عليك؛ لأن حسن الظن بالله فيك، وتأميل نجح الرغبة إليك فوق الشفعاء عندك.

وفصل: قد أفردتك برجائي بعد الله، وتعجلت راحة اليأس ممن يجود بالوعد ويضن بالإنجاز، ويحب أن يفضَّل ويزهد في أن يُفْضِل، ويعيب الكذب ولا يصدق.

وفصل: ضَعْني - أكرمك الله - من نفسك حيث وضعت نفسي من رجائك. أصاب الله بمعروفك مواضعه، وبسط بكل خير يدك.

وفصل: لا أزال - أبقاك الله - أسأل الكتاب إليك، فمرة أتوقف توقف المخفف عنك من المئونة، ومرة أكتب كتاب الراجع منك إلى الثقة والمعتمد منك على المِقَة(١)؛ لا أعدمَنا الله دوام عِزِّك، ولا سلَب الدنيا بهجتَها بك ولا أخلانا من الصنع لك؛ فإنا لا نعرف إلا نعمتك، ولا نجد للحياة طعماً إلا في ظلك؛ ولئن كانت الرغبة إلى بَشَر من الناس خساسة وذلاً، لقد جعل الله الرغبة إليك كرامة وعزّاً؛ لأنك لا تعرف حُرّاً قعد به دهرُه، إلا سَبقْت مسألته بالعطية وصُنْت وجهه عن الطلب والذِّلة.

وفصل: لي عليك حق التأميل والشكر، بما ابتدأت من المعروف، ولك عليّ حق الاصطناع والفضل، والتنويه بالاسم والشكر؛ وليس يمنعني علمك بزيادة حقك على ما أبلغه من شكرك، من مساءلتك المزيد؛ إذ كنت قد انتهيت إلى ما بلغه المجهود، وخرجت من منزلة الإضاعة والتقصير، وإذ كنت تسمح بالحق عليك، وتطيب نفساً

---

(١) المقة: المحبة.

عن حقك اليسير، ولا تكلف أحداً شكرك على الكثير.

فصل: لك - أصلحك الله - عندي أيادٍ تشفع لي إلى محبتك، ومعروفٌ يوجب عليك الرَّبّ[1] والإتمام.

فصل: أنا أسأل الله أن يُنْجِزَ لي ما لم تزل الفِراسةُ[2] تعِدُنيه فيك.

فصل: قد أجلَّ اللهُ قدْرَكَ عن الاعتذار، وأغناك في القول عن الاعتلال، وأوجب علينا أن نقنع بما فعلت، ونرضى بما أتيت، وصَلت أو قطعت.

فصول في الشكر

كتب محمد بن عبد الملك الزيات كتاباً عن المعتصم إلى عبد الله بن طاهر الخراساني، فكان في فصل منه.

لو لم يكن من فضل الشكر إلا أنك لا تراه إلا بين نعمة مقصورة عليك، أو زيادة منتظرة له، لكفى.

ثم قال لمحمد بن إبراهيم بن زياد: كيف ترى؟ قال: كأنهما قُرطان بينهما وجهٌ حسن.

وفصل للحسن بن وهب: منْ شَكَرك على درجة رفعْتَه إليها أو ثروةٍ أقْدَرْتَهُ إياها؛ فإن شكري لك على مهجة أحييْتَها، وحُشاشةٍ أبقيْتَها، ورمق أمسكْت به وقُمْتَ بين التلف وبينه؛ فلكل نعمة من نعم الدنيا حد يُنْتهى إليه، ومدًى يُوقفُ عنده، وغايةٌ من الشكر يسمو إليها الطَّرْف، خلا هذه النعمة التي قد فاقت الوصف، وطالت الشكرَ وتجاوزت قدره. وأنت من وراء كل غاية، رددت عنا كيد العدو، وأرغمت أن الحسود؛ فنحن نلجأ منك إلى ظل ظليل، وكنف كريم؛ فكيف يشكر الشاكر، وأين يبلغ جهدُ المجتهد؟

---

(١) الرّبّ: الزيادة. (٢) الفراسة: المهارة في تعرف بواطن الأمور من ظواهرها.

وقال إبراهيم بن المهدي يشكر المأمون:

رَدَدْتَ مـالي ولم تَمنُـنْ علَـيّ بِـه … وقبلَ ردِّكَ مالي قـد حقَنْـتَ دمِـي
فـأيـنَ مِنـك وقـد جلَّلْتني نعَماً … هي الحيَاتَان من موْتٍ ومن عُـدُم
فلو بَذَلتُ دمي أبْغِـي رضـاكَ بـه … والمالَ حتى أَسُلَّ النَّعْلَ من قـدَمِـي
ما كان ذاك سِوَى عاريَّةٍ رجعَـتْ … إليكَ لوْ لم تُعِرْها كنتَ لم تُلَـمِ[1]
البِرُّ بي منك وطَّي العُذْر عِنـدك لي … فيما أتيْـتُ فلم تعْتِـبْ ولم تَلمِ
وقامَ عِلْمك بي يَحْتَـجُّ عِنْـدَك لي … مقامَ شـاهِـدِ عـدْلٍ غيْـرِ مُتَّهَـمِ

فصول في البلاغة

كتب الحسن بن وهب إلى إبراهيم بن العباس: وصل كتابك، فما رأيت كتاباً أسهل فنوناً، ولا أملسَ متوناً، ولا أكثر عيوناً، ولا أحسنَ مقاطعَ ومطالعَ منه: أنجزْتَ فيه عِدَةَ الرأي، وبشرى الفِراسة، وعاد الظنُّ يقيناً، والأمل مبلوغاً، والحمد لله الذي بنعمته تتِمُّ الصالحات.

فصل: الكلام كثيرة فنونه، قليلةٌ عيـونُـه؛ فمنـه مـا يُفَكِّـهُ الأسماع، ويُـؤْنس القلوب، ومنه ما يُحمِّل الآذان ثقلاً، ويملأ الأذهان وحْشة.

فصول من المدح

كتب ابن مكرم إلى أحمد بن المدبر:

إنَّ جميع أكفائك ونظرائك يتنازعون الفضل، فـإذا انتهـوا إليـك أقـروا لـك ويتنافسون في المنازل، فإذا بلغوك وقفوا دونك؛ فزادك الله وزادنا بك وفيك وجعلنا ممن يقبَلُه رأيُك ويُقدِّمُه اختيارُك، ويقع من الأمور بموقع موافقتك، ويجري فيها على سبيل طاعتك.

---

(١) العارية: الأمانة، أو الشيء العار.

وفصل له: إن من النعمة على المثنِي عليك، أن لا يخاف الإفراط، ولا يأمن التقصير، ويأمن أن تلحقه نقيصة الكذب، ولا ينتهي به المدح إلى غاية إلا وجد فضلَك تجاوزها، ومن سعادةِ جَدِّك أن الداعيَ لا يعْدَمُ كثرة المشايعين[1] له والمؤمِّنين معه.

وفصل: إن مما يُطمعني في بقاء النعمة عندك، ويزيدني بصيرة في العلم بدوامها لديك، أنك أخذتَها بحقها، واستوجبتها بما فيك من أسبابها؛ ومن شأن الأجناس أن تتآلف وشأن الأشكال أن تتعارف، وكل شيء يتقلقل[2] إلى معدنه، ويحنّ إلى عُنصُره، فإذا صادف منبته ونزل في مغرِسِه، ضرب بعرقه، وسمّق بفرعه، وتمكن تمكن الإقامة. وتفتَّك تفتُّك الطبيعة.

وفصل: إني فيما أتعاطى من مدحك، كالمخبر عن ضوء النهار الزاهر، والقمر الباهر، الذي لا يخفى على كل ناظر؛ وأيقنت أني حيث انتهى بي القول، منسوب إلى العجز، مقصر عن الغاية، فانصرفت من الثناء عليك إلى الدعاء لك؛ ووكلت الإخبار عنك إلى علم الناس بك.

وفصل لمحمد بن الجهم: إنك لزمت من الوفاء طريقة محمودة، وعرفت مناقبها وشهرت بمحاسنها؛ فتنافس الإخوان فيك، يبتدرون ودك، ويتمسكون بحبلك؛ فمن أثبت الله له عندك ودّاً فقد وُضعتْ خُلتُهُ موضع حِرزها.

وفصل لابن مكرم: السيف العتيق إذا أصابه الصدأ استغنى بالقليل من الجلاء، حتى تعود جدّته ويظهر فِرندُه[3]، للين طبيعته، وكرم جوهره؛ ولم أضف نفسي لك عجباً، بل شكراً.

وفصل له: زاد معروفَك عندي عظماً أنه عندك مستور حقير، وعند الناس مشهور كبير.

---

(١) المشايع: المتبع.

(٢) يتقلقل: يتحرّك يوذهب. (٣) الفرند: السيف.

أخذه الشاعر فقال:

زادَ معروفَكَ عِندي عِظَمَا ... أنَّهُ عندَكَ مسْتورٌ حقيرُ
تتَناساهُ كأن لم تأتِه ... وهْوَ عِندَ الناسِ مشهورٌ كبيرُ

وفصل للعتابي: أنت أيها الأمير وارث سلفك، وبقية أعلام أهل بيتك، المسدود به ثلمهم[1]، المجدد به قديم شرفهم، والمُحْيا به أيامُ سعيهم. وإنه لم يَخْمل[2] من كنتَ وراثه، ولا درست آثار من كنت سالكَ سبيله، ولا آمَّحَتْ أعلام من خلفتَه في رتبته.

فصول في الذمّ

كتب أحمد بن يوسف:

أما بعد، فإني لا أعرف للمعروف طريقاً أوْعَرَ من طريقه إليك، فالمعروف لديك ضائع، والشكر عندك مهجور، وإنما غايتُك في المعروف أن تَحْقِرَه، وفي وليِّه أن تكفره.

وكتب أبو العتاهية إلى الفضل بن معن بن زائدة:

أما بعد، فإني توسلت إليك في طلب نائلك بأسباب الأمل، وذرائع الحمد، فراراً من الفقر، ورجاءً للغنى، فازددت بهما بُعْداً مما فيك تقرَّبْتُ، وقرباً مما فيه تبعَّدت، وقد قسمتُ اللائمةَ بيني وبينك؛ لأني أخطأتُ في سؤالك، وأخطأتَ في منعي؛ أُمِرْتُ باليأس من أهل البخل فسألتُهم، ونُهيتَ عن منع أهل الرغبة فمنعتَهُمْ؛ وفي ذلك أقول:

فررْتُ مِنَ الفقر الذي هو مُدْركي ... إلى بُخلِ محظورِ النَّوالِ مَنوعِ
فأعطَبني الحِرمانَ غِبَّ مَطامِعي ... كذلِكَ من يلقاهُ غيرَ قنوعِ

---

(١) الثلم: النقص والتفلّل. (٢) يخمل: ينحط ويخفى.

وغيرُ بديعٍ منْعُ ذي البُخلِ مالَـهُ ... كما بذْلُ أهلِ الفضلِ غير بديـعِ
إذا أنتَ كشّفْت الرِّجال وجدْتَهـم ... لأعراضِهم مـن حـافِـظٍ ومُضيـعِ

وفصل لإبراهيم بن المهدي: أما بعد، فإنك لو عرفت فضل الحسن لتجنبت شَين القبيح، ورأيتك آثرُ القولِ عندك ما يضرك فكنت فيما كان منك ومنا، كما قال زهير بن أبي سلمى:

وذِي خطَلٍ في القوْلِ يحْسب أنَّـهُ ... مُصيب فما يُلْمِم به فهْوَ قـائلـهْ(١)
عبأت لـه حِلْماً وأكـرمْـتُ غيْـرَهُ ... وأعرَضْت عنه وهـو بـادٍ مقـاتلـهْ

فصل: إن مودة الأشرار متصلة بالذلة والصغار، تميل معهما وتصرَّف في آثارهما؛ وقد كنت أُحِلَّ مودّتك بالمحل النفيس، وأُنزلُها بالمنزل الرفيع، حتى رأيت ذلتك عند القِلّة، وضرعتك عند الحاجة، وتغيُّرَك عند الاستغناء، واطِّراحك لإخوان الصفاء؛ فكان ذلك أقوى أسباب عذري في قطيعتك، عند من يتصفح أمري وأمرك بعين عدل لا تميل إلى هوى، ولا ترى القبيح حسناً.

فصل للعتابي: تأَتَّيْنا إفاقتك من سكرتك، وترقَّبْنا انتباهك من رقْدتك، وصبَرنا على تجوُّع الغيظ فيك، حتى بان لنا الياسُ من خيرك، وكشف لنا الصبرُ عن وجه الغلط فيك؛ فها أنا قد عرفتك حق معرفتك في تعدّيك لطَورك، وآطراحك حقَّ من غَلِط في اختيارك.

فصول في الأدب

كتب سعيد بن حميد:

إنّ من أمارات الحزم صحة الرأي في الرجل: يترك التماس ما لا سبيل إليه، إذا كان ذلك داعيةً لغنى لا عزة له، وشقاءً لا دَرَك فيه؛ وقد سمحتَ في أمر تُخبِرُك

(١) الخطل: الكلام الفاسد الكثير المضطرب.

أوائله عن أواخره، ويُنْبيك بدؤه عن عواقبه، لو كان لهذا المخبِرَ الصادق مستمعٌ حازم. ورأيتُ رائد الهوى قد مال بك إلى هذا الأمر ميلاً أيأس من رغب فيك، ودل عدوَّك على معايبك، وكشف له عن مَقاتلك، ولولا علمي بأنّ غلظ الناصح يؤدّي إلى نفع في اعتقاد صواب الرأي، لكان غير هذا القول أولى بك، والله يوفقك لما يحب، ويوفق لك ما تحب.

وفصل: أنت رجلٌ لسانك فوق عقلك، وذكاؤك فوق عزمك؛ فقدِّم على نفسك من قدَّمك على نفسه.

وفصل: من أخطأ في ظاهر دنياه وفيما يؤخَذ بالعين، كان أحرى أن يُخطىء في أمر دينه وفيما يؤخذ بالعقل.

وفصل: قد حسدك من لا ينام دون الشفاء، وطلبك من لا ينام دون الظَفر، فاشدد حيازيمك[1] وكن على حذر.

وفصل: قد آن أن تدع ما تسمع لما تعلم، ولا يكن غيرُك فيما يبلِّغه أوثق من نفسك فيما تعرفه.

وفصل: لست بحال يرضى بها حرّ، أو يقيم عليها كريم وليس يرضى لك بهذا إلا من لا ينبغي لك أن ترضى به.

وفصل: أنت طالب مَغْنَم، وأنا دافع مغرم[2]، فإن كنت شاكراً لما مضى، فاعذر فيما بقى.

وفصل للعتابي: أما بعدُ، فإن قريبك من قرب منك خَيْرُه، وابن عمك من عمَّك نفعه، وعشيرك من أحسَنَ عِشرتك، وأهدى الناس إلى مودّتك مَن أهدى برَّه إليك.

فصول إلى عليل

ليست حالي ـ أكرمك الله ـ في الاغتمام بعلتك حالَ المشارك فيها بأن ينالني

---

(١) يقال: اشدد للأمر حيازيمك: أي وطن نفسك عليه.
(٢) المغرم: أسير الدين.

نصيب منها وأسلم من أكثرها، بل اجتمع على منها أني مخصوصٌ بها دونك، مُؤْلَم منها بما يؤلمك؛ فأنا عليل مصروف العناية إلى عليل كأني سليم؛ فأنا أسأل الله الذي جعل عافيتي في عافيتك، أن يخصَّني بما فيك، فإنها شاملة لي ولك.

وفصل: إنّ الذي يعلم حاجتي إلى بقائك، قادرٌ على المدافعة عن حوبائك[1]؛ فلو قلتُ إنّ الحق قد سقط عني في عيادتك لأني عليل بعلتك، لقام بذلك شاهد عدلٍ في ضميرك، وأثرٌ بادٍ في حالي لغيبتك؛ وأصدق الخبر ما حققه الأثر، وأفضل القول ما كان عليه دليل من العقل.

وفصل: لئن تخلفتُ عن عيادتك بالعـذر الواضـح مـن العلـة، لَمَـا أغفـلَ قلبي ذكرَك، ولا لساني فحصاً عن خبرك فحْصَ مَن تقسَّم جوارحه وصَبُك[2]، وزاد في ألمها ألمك؛ ومن تتصل به أحوالك في السراء والضراء، ولما بلغتني إقامتك كتبت مهنئاً بالعافية، مُعفياً من الجواب إلا بخبر السلامة إن شاء الله.

ولأحمد بن يوسف: قد أذهب الله وصَبَ العلة ونصَبَها، ووفَّر أجرَها وثوابها، وجعل فيها من إرغام العدوّ بعُقباها، أضعاف ما كان عنده من السرور يقبح أولاها.

فصول إلى خليفة وأمير

منها: كتب الحجاج بن يوسف إلى عبد الملك بن مروان:

يا أمير المؤمنين، إن كل من عنَّيت به فكرتك فما هو إلا سعيد يوثر أو شقي يوتر.

كتب الحسن بن سهل يصف عقل المأمون: وقد أصبح أميرُ المؤمنين محمودَ السيرة، عفيف الطعمة، كريمَ الشيمة، مبارَك الضريبة[3]، محمودَ النقيبة، مُوفِّياً بما أخذ اللهُ عليه، مضطلعاً بما حمَّله منه، مؤدّياً إلى الله حقَّه، مقرّاً له بنعمته، شاكراً لآلائه، لا

(١) الحوباء النفس. (٢) وصبك: مرضك.

(٣) الضريبة: الطبيعة.

يأمر إلا عدلاً؛ ولا ينطق إلا فصلاً عِبْئاً لدينه وأمانته؛ كافّاً ليده ولسانه.

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات: إنّ حقَّ الأولياء على السلطان: تنفيذ أمورهم، وتقويم أَوَدهم[1]، ورياضة أخلاقهم، وأن يميز بينهم، فيقدّم محسنَهم، ويؤخر مسيئهم؛ ليزدادَ هؤلاء في إحسانهم، ويزدجرَ هؤلاء عن إساءتهم.

وفصل له: إن من أعظم الحقِّ حقَّ الدين، وأوجب الحُرمة حُرمةَ المسلمين؛ فحقيق لمن راعى ذلك الحق وحفظ تلك الحرمة، أن يُراعى له حسب ما راعاه الله، ويحفظ له حسب ما حفظ الله على يديه.

وفصل له: إن الله أوجب لخلفائه على عباده حقَّ الطاعة والنصيحة، ولعبيده على خلفائه بسطَ العدل والرأفة، وإحياءَ السُّنَن الصالحة؛ فإذا أدّى كلٌّ إلى كلٍّ حقَّه، كان ذلك سبباً لتمام النعمة، واتصال الزيادة، واتساق الكلمة، ودوام الألفة.

وفصل: ليس من نعمة يجدّدها الله لأمير المؤمنين في نفسه خاصة، إلا اتصلت برعيته عامّة، وشملت المسلمين كافة، وعظم بلاء الله عندهم فيها، ووجب عليهم شكره عليها: لأن الله جعل بنعمته تمام نعمتهم، وبتدبيره وذَبِّه[2] عن دينه حِفْظ حريمهم، وبحياطته حقْن دمائهم وأمْن سبيلهم؛ فأطال الله بقاءَ أمير المؤمنين، مؤيّداً بالنصر، معزَّزاً بالتمكين، موصول البقاء للنعيم المقيم.

فصل: الحمد لله الذي جعل أمير المؤمنين معقودَ النية بطاعته، منطويَ القلب على مناصحتهم، مشحوذَ السيف على عدوّه؛ ثم وهب له الظفَر، ودوَّخ له البلاد، وشرَّد به العدو، وخصه بشرف الفتوح شرقاً وغرباً، وبراً وبحراً.

وفصل: أفعال الأمير عندنا معسولة[3] كالأماني، متصلة كالأيام؛ ونحن نواتر الشكر لكريم فعله، ونواصل الدعاء له مواصلة بره؛ إنه الناهض بكلنا، والحامل

---

(١) أودهم: اعوجاجهم. (٢) الذب: الدفاع.

(٣) معسولة: صادقة.

لأعبائنا، والقائم بما ناب من حقوقنا.

وفصل: أما بعد، فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره، ولا يخلو من إحدى منزلتين، ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة ولا يزيل لائمة: إما تقصير في عملك دعاك للإخلال بالحزم والتفريط في الواجب، وإما مظاهرة لأهل الفساد ومداهنة لأهل الريب؛ وأية هاتين كانت منك لمحلة النكر[1] بك، وموجبة العقوبة عليك، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة، والأخذ بالحجة، والتقدم في الإعذار والإنذار؛ وفي حسن ما أقلت من عظيم العثرة، ما يوجب اجتهادك في تلافي التقصير والإضاعة، والسلام.

وكتب طاهر بن الحسين حين أخذ بغداد إلى إبراهيم بن المهدي:

أما بعد، فإنه عزيز عليّ أن أكتب إلى أحد من بيت الخلافة بغير كلام الإمرة وسلامها؛ غير أنه بلغني عنك أنك مائل الهوى والرأي للناكث المخلوع، فإن كان كما بلغني فقليلٌ ما كتبت به كثير لك، وإن يكن غير ذلك فالسلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته؛ وقد كتبت في أسفل كتابي أبياتاً فتدبرها:

رُكوبُكَ الهوْلَ مالم تلقَ فرصَتهُ ... جهلٌ رمَى بك بالإقحام تغريرُ[2]
أهْون بدنيا يصيبُ المخطِئونَ بها ... حظَّ المصيبينَ، والمغْرُورُ مَغْرورُ
فازرَع صواباً وخذْ بالحزْمِ حيطتهُ ... فلن يُذمَّ لأهلِ الحزْمِ تَدبيرُ
فإن ظفِرْت مصيباً أو هلكتَ به ... فأنت عندَ ذوِي الألبابِ معذُور
وإن ظفِرت على جهلٍ ففزتَ بِه ... قالوا جهُولٌ أعانته المقادِير!

فصل للحسن بن وهب: أما بعد، فالحمد لله مُتمم النِّعم برحمته، الهادي إلى شكره بفضله؛ وصلى الله على سيدنا محمدٍ عبده ورسوله، الذي جمع له من الفضائل ما فرّقه في الرُّسل قبله، وجعل تُراثَه راجعاً إلى من خصه بخلافته، وسلم تسليما.

---

(١) النكر: الأمر الشديد.

(٢) يقال: استجهله، إذا حمله على شيء ليس من خلقه فيغضبه.

فصول لعمرو بن بحر الجاحظ

منها فصول في عتاب .

أما بعد ، فإن المكافأة بالإحسان فريضة ، والتفضل على غير ذوي الإحسان نافلة .

أما بعد فليكن السكوت على لسانك إن كانت العافية من شأنك .

أما بعد ، فلا تزهد فيما رَغِب إليك ، فتكون لحظِّك معانداً ، وللنعمة جاحداً .

أما بعد ، فإن العقل والهوى ضدان ، فقرينُ العقل التوفيق ، وقرينُ الهوى الخذْلان ، والنفس طالبة ، فبأيهما ظفرتْ كانت في حزبه .

أما بعد ، فإن الأشخاص كالأشجار ، والحركات كالأغصان ، والألفاظ كالثمار .

أما بعد ، فإن القلوب أوعية والعقول معادن ، فما في الوعاء ينفد إذا لم يمدّه المعدن .

أما بعد ، فكفى بالتجارب تأديبا ، وبتقلب الأيام عظة ، وبأخلاق من عاشَرت معرفة ، وبذكرك الموت زاجراً .

أما بعد ، فإن احتمال الصبر على لذع الغضب ، أهون من إطفائه بالشتم والقذَع .

أما بعد ، فإن أهل النظر في العواقب أُولو الاستعدادِ للنوائب ؛ وما عظمت نعمةُ امريءٍ إلا استغرقت الدنيا هِمّته ، ومن فرّغ لطلب الآخرة شغله جعل الأيام مطايا عمله والآخرة مقيلَ مُرْتَحِله .

أما بعد ، فإن الاهتمام بالدنيا غيرُ زائد في الرزق والأجل ، والاستغناء غير ناقص للمقادير .

أما بعد ، فإنه ليس كل من حلُم أمسك ، وقد يستجهل[1] الحليم حتى يستخفه الهُجر .

أما بعد ، فإن أحببت أن تتم لك المقة[2] في قلوب إخوانك فاستقل كثيراً مما توليهم .

---

(١) يقال : استجهله ، إذا حمله على شيء ليس من خلقه فيغضبه . (٢) المقة : المحبة .

أما بعد، فإن أنظر الناس في العاقبة، مَن لطف حتى كف حرب عدوه بالصفح والتجاوز، واستلّ حقدَه بالرفق والتحبب.

وكتب إلى أبي حاتم السجستاني وبلغه عنه أنه نال منه:

أما بعد، فلو كففت عنا من غربك لكنا أهلاً لذلك منك، والسلام.

فلم يعد أبو حاتم إلى ذكره بقبيح.

وله فصول في وصاة:

أما بعد، فإن أحق من أسعفته في حاجته، وأجبته إلى طلبَته، من توسل إليك بالأمل، ونزع نحوك بالرجاء.

أما بعد، فما أقبح الأحدوثةَ من مستمنح حَرمته، وطالب حاجة رددْته، ومثابرِ حجبتَه، ومنبسط إليك قبضتَه، ومقبِل إليك بعنانه لويتَ عنه، فتثَّبت في ذلك ولا تُطع كل حلافٍ مَهين، همَّاز[1] مشاءٍ بنميم.

أما بعد، فإن فلانا أسبابه متصلة بنا، يلزمنا ذمامه وبلوغ موافقته من أياديك عندنا، وأنت لنا موضع الثقة من مكافأته، فأولنا فيه ما نعرف موقعنا من حسن رأيك، ويكون مكافأةً لحقِّه علينا.

أما بعد، فقد أتانا كتابك في فلان، وله لدينا من الذمام ما يُلزمنا مكافأته ورعاية حقه، ونحن من العناية بأمره على ما يُكافىء حرمته ويؤدّي شكره.

وله فصول في استنجاز وعد:

أما بعد، فقد رسَفنا[2] في قيود مواعيدك، وطال مقامنا في سجون مَطْلك[3]، فأطلقنا ـ أبقاك الله ـ من ضيقها وشديدِ غمِّها بنَعَم منك مثمرةٍ أو [لا] مريحة.

أما بعد، فإن شجرَ مواعيدك قد أورقت، فليكن ثمرُها سالماً من جوائح المطل.

---

(١) يقال: همزات الشيطان: خطراته ووساوسه.

(٢) رسفنا: غُللنا. (٣) المطل: التسويف وعدم الوفاء بالوعد.

أما بعد، فإن سحائب وعدك قد بَرقت، فليكن وبلُها [1] سالماً من صواعق المطل والاعتلال.

وله فصول في الاعتذار.

أما بعد، فنعم البديلُ من الزَّلة الاعتذار، وبئس العوَضُ من التوبة الإصرار.

أما بعد، فإن أحق ما عطَفْت عليه بحلمك من لم يتشفَّع إليك بغيرك.

أما بعد، فإنه لا عوض من إخائك، ولا خلَفَ من حُسن رأيك، وقد انتقمت مني في زلتي بجفائك، فأطلق أسير تشوقي إلى لقائك.

أما بعد، فإنني بمعرفتي بمبلغ حلمك وغاية عفوك، ضمنت لنفسي العفو من زلتها عندك.

أما بعد، فإن من جحد إحسانك بسوء مقالته فيك، مكذِّب نفسَه بما يبدو للناس منه.

أما بعد، فقد مسني من الألم ما لم يشفِه غيرُ مواصلِتك، مع حبسك الاعتذار من هفوتك؛ ولكن ذنبك تغتفره مودّتُك، فامنن علينا بصلتك، تكن بدلاً من مَساءتك، وعوضاً من هفوتك.

أما بعد، فلا خير فيمن استغرقت موجدته [2] عليك قدرك عنده ولم يتسع لهنات [3] الإخوان.

أما بعد، فإن أولى الناس عندي بالصفح، مَن أسلمه إلى ملكك التماسُ رضاك من غير مقدرة منك عليه.

أما بعد، فإن كنت ذممتني على الإساءة، فلم رضيت لنفسك المكافأة!

وله فصول التعازي:

أما بعد، فإن الماضِيَ قبلك الباقي لك، والباقي بعدك المأجور فيك: ﴿وإنّما يوفى الصَّابرون أَجْرهُم بغَيْر حسابِ﴾ [4].

---

(١) الوبل: المطر. (٢) الموجدة: الغضب.

(٣) الهنة: خصلات الشرّ. (٤) سورة الزمر الآية ١٠.

أما بعد، فإن في الله العزاءَ من كل هالك، والخَلَف من كل مصاب، وإنه مَن لم يتعز بعزاء الله تنقطع نفسه من الدنيا حسرة.

أما بعد، فإن الصبر يعقبه الأجر، والجزعَ يعقبه الهلع؛ فتمسك بحظك من الصبر، تنل به الذي تطلب، وتدرك به الذي تأمُل.

أما بعد، فقد كفى بكتاب الله واعظاً، ولذوي الألباب زاجراً؛ فعليك بالتلاوة تنجُ مما أوعد الله به أهل المعصية.

صدور إلى خليفة

وفق الله أمير المؤمنين بالظفر فيما قلَّده، وأيده وأصلح به، وعلى يديه.

أكرم الله أمير المؤمنين بالظفر، وأيده بالنصر في دوام نعمته، وحاط الرعية بطول مدّته.

صدور إلى ولي عهد

متَّع الله أمير المؤمنين بطول مدّة الأمير، وأجرى على يديه فعلَ الجميل، وآنس بولايته المؤمنين.

مدّ الله للأمير النعمة، وأسعد بطول عمره الأمّة، وجعله غِياثاً ورحمة.

أكمل الله له الكرامة، وحاطه بالنعمة والسلامة، ومتَّع به الخاصة والعامة.

متع الله بسلامتك أهل الحرمة، وجمع لك شمل الأمّة، واستعملك بالرأفة والرحمة.

صدور إلى والي شرطة

أنصف الله بك المظلوم، وأغاث بك الملهوف، وأيّدك بالتثبت، ووفّقك للصواب.

أرشدك الله بالتوفيق، وأنطقك بالصواب، وجعلك عصمة للدين، وحصناً للمسلمين.

أعانك الله على ما قلدك، وحفظك لما استعملك بما يرضى من فعلك.

سدّدك الله وأرشدك، وأدام لك فضل ما عوّدك.

رادك الله شرفاً في المنزلة، وقدراً في قلوب الأمّة، وزلفة(١) عند الخليفة.

نصر الله بعدْلِكَ المظلوم، وكشف بك كربة الملهوف، وأعانك على أداء الحقوق.

صدور إلى قاض

ألهمك الله الحجة، وأيّدك بالتثبت وردّ بك الحقوق.

ألهمك الله الاعتصام بحبله بالعلم، والتثبت في الحكم.

ألهمك الله الحكمة وفصل الخطاب، وجعلك إماماً لذوي الألباب.

زيَّن الله بفضلك الزمان، وأنطق بشكرك اللسان، وبسط يدك في اصطناع المعروف.

أدام الله لك الإفضال، وحقق فيك الآمال.

صدور إلى عالم

جعل الله لك العلم نوراً في الطاعة، وسبباً إلى النجاة، وزلفة عند الله.

نفع الله بعلمك المستفيدين، وقضى بك حوائج المتحرِّمين(٢)، وأوضح بك سنن الدين، وشرائع المسلمين.

أدام الله لك التطول بإسعاف الراغب، وأنجح بك حاجة الطالب، وأمّنك مكروه العواقب.

---

(١) الزلفة: المنزلة القريبة.

(٢) المتحرّمين: يقال: تحرّم منه بحرمة أي تمنع وتحمّى بذمة.

صدور إلى إخوان

متّع الله أبصارَنا برؤيتك، وقلوبَنا بدوام أُلفتك، ولا أخلانا من جميل عشرتك، ووهب لك من كريم نفسك، بحسب ما تنطوي عليه مودتك، وأبهج الله إخوانك بقربك وجمع أُلفتهم بالأنس بك، وصرف الله عن أُلفتنا عواقب القدَر، وأعاذ صفْوَ إخائنا من المكدر، وجعلنا ممن أنعم الله عليه فشكَر.

مَنَّ الله علينا بطول مدّتك، وآنس أيامَنا بمواصلتك، وهنأنا النعمة بسلامتك.

قرّب الله منا ما كنا نأمل منك، وجمع شمل السرور بك.

نزّه الله بقربك القلوب، وبرؤيتك الأبصار، وبحديثك الأسماع.

أقبل الله بك على أودّائك. ولا ابتلاهم بطول جفائك.

أزال الله حَردَنا من فتورك عنا، ورغبتَنا عنك من تقصيرك في أمورنا.

حفظ الله لنا منك ما أوحشنا فقده، وردّ إلينا ما كنا نألفه ونعهده.

رحم الله فاقة الحنين إليك، وما بي من تباريح الحزن عليك، وجعل حرمتنا منك الشفيع لديك.

يسّر الله لنا من صفحك ما يسع تقصيرنا، ومن حلمك ما يردُّ سخطك عنا.

زين الله أُلفتنا بمعاودة صِلتك، واجتماعَنا بزيارتك.

أعاد الله علينا من إخائك وجميل رأيك ما يكون معهوداً منك بالوفاء لك.

صدور في عتاب

أنصف الله شوقنا إليك من جفائك لنا، وأخذ لبِرِّنا بك من تقصيرك عنا.

وكتب معاوية إلى عمرو بن العاص وبلغه عنه أمر: وفّقك الله لرشدك؛ بلغني كلامك، فإذا أوّله بَطَر[1]، وآخره خَوَر[2]؛ ومن أبطره الغنى أذلّه الفقر، وهما

(١) البطر: المغالاة في المرح والزهو عند حلول النعمة.

(٢) الخور: الضعف.

ضدان مخادعان للمرء من عقله، وأولى الناس بمعرفة الدواء من يَبِين له الداء، والسلام.

فأجابه: طاولتك النعم وطاولت بك؛ علو إنصافك يؤمن سطوة جورك؛ ذكرتَ أني نطقت بما تكره وأنا مخدوع، وقد علمت أني ملت إلى محبتك ولم أُخدَع، ومثلك شَكَر مَسْعى مُعْتذر، وعفا زلَّة معترف.

تم الجزء الرابع من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه،

ويليه إن شاء الله الجزء الخامس وأوله:

كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأيامهم.

فهرس

الصفحة | الموضوع

الصفحة | الموضوع

كتاب الواسطة في الخطب

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٢٧٧١٨٤ - ٢٧٦٥٣٨ - بيروت - لبنان

العقد الفريد

تأليف

الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي

المتوفى سنة ٣٢٨هـ

بتحقيق

دكتور

عبد المجيد الترحيني

الجزء الخامس

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م

يطلب من: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
صندوق بريد ٩٤٢٤ - ١١ . هاتف ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤
الرملة البيضاء - بناية ملكارت سنتر

كتاب العسجدة الثانية
في الخلفاء وتواريخهم وأيامهم

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه رحمه الله: قد مضى قولنا في التوقيعات والفصول والصدور والكتابة؛ وهذا كتاب ألفناه في أخبار الخلفاء وتواريخهم وأيامهم وأسماء كُتّابهم وحُجّابهم.

نسب المصطفى صلى الله عليه وسلم

روى أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف عن أشياخه: هو محمدٌ رسول الله ﷺ ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصيّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مُدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وأُمُّه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب.

مولد النبي صلى الله عليه وسلم

قالوا: وُلِد رسول الله ﷺ عام الفيل لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول؛ وقال بعضهم: لليلتين خلتا منه؛ وقال بعضهم: بعد الفيل بثلاثين يوماً؛ فهذا جمع ما اختلفوا في مولده.

وأوحى الله إليه وهو ابن أربعين عاماً، وأقام بمكة عشراً وبالمدينة عشراً؛ وقال ابن عباس: أقام بمكة خمس عشرة، وبالمدينة عشرا؛ والمجمَع عليه أنه أقام بمكة ثلاث عشرة وبالمدينة عشرا.

اليوم والشهر الذي هاجر فيه صلى الله عليه وسلم

هاجر إلى المدينة يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول.

مات يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول، اليوم والشهر الذي هاجر فيه، ﷺ، وجعلنا ممن يرد حوضه، وينال مرافقته في أعلى عليين من درجات الفردوس، وأسأل الله الذي جعلنا من أمّته ولم نره أن يتوفانا على ملته، ولا يحرمنا رؤيته في الدنيا والآخرة.

صفة النبي صلى الله عليه وسلم

ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ أبيض مشرباً حُمرة، ضخم الرأس، أزج[1] الحاجبين، عظيم العينين، أدعج[2]، أهْدَب، شَثْن[3] الكفين والقدمين، إذا مشى تكفأ كأنما ينْحطُّ في صبَبٍ ويمشي في صَعَد كأنما يتقلَّع من صخر، إذا التفت التفت جميعاً، ليس بالجعْد[4] القَطط ولا السَّبْط؛ ذا وفْرة إلى شحمة أذنيه، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتطامن، عَرْفُه أطيب من ريح المسك الأذفر، لم تلد النساءُ قبله ولا بعده مثله، بين كتفيه خاتم النُّبوَّة كبيض الحمام، لا يضحك إلا تبسُّماً، في عنفقته شعَراتٌ بيضٌ لا تكاد تَبين.

وقال أنس بن مالك: لم يبلغ الشيب الذي كان برسول الله ﷺ عشرين شعرة؛ وقيل له: يا رسول الله، عَجِل عليك الشيب! قال: «شيبتي هودٌ وأخواتها».

هيئة النبي صلى الله عليه وسلم

كان ﷺ يأكل على الأرض، ويجلس على الأرض، ويمشي في الأسواق، ويلبس

---

(١) أزج: يقال زجّ الحاجب، أي دقّ في طول وتقوس.
(٢) أدعج، أسود العين واسعها. (٣) شثن: غليظ.
(٤) الجعد: القصير.

العباءة، ويجالس المساكين، ويقعد القُرفصاء ويتوسَّد يده، ويَلْعق أصابعه ويقضي من نفسه، ولا يأكل متكئاً، ولم يُر قط ضاحكاً ملء فيه وكان يقول: «إنما أنا عبدٌ، آكلُ كما يأكل العبد، وأشربُ كما يشرب العبد، ولو دعيتُ إلى ذراعٍ [١] لأجبت، ولو أُهْدِيَ إليّ كراعٌ [٢] لقبلْت».

شرف بيت النبي صلى الله عليه وسلم

قال النبي ﷺ: «أنا سيِّدُ البشر ولا فخر، وأنا أفصحُ العرب، وأنا أوّلُ من يقْرَعُ بابَ الجنة، وأنا أوّلُ من ينْشَقُّ عنه التراب؛ دعا لي إبراهيم، وبشّرَ بي عيسى، ورأت أمّي حين وضَعتني نوراً أضاء لها ما بين المشرق والمغرب».

وقال ﷺ: «إن الله خَلَقَ الخلْق فجعلني في خيرِ خلقه، وجعلهم أفراقاً فجعلني في خيرِهِمْ فِرْقة، وجعلهم قبائل فجعلني في خيْرِ قبيلة، وجعلهم بُيوتاً فجعلني في خير بيتٍ؛ فأنا خيرُكـم بيتاً وخيرُكـم نسباً».

وقال ﷺ: «أنا ابنُ الفواطم والعواتِك من سُلَيْم، واستُرضِعْت في بني سعد بن بكر».

وقال: «نزل القرآنُ بأعربِ اللغات، فلكل العربِ فيه لغة ولبني سعد بن بكر سبعُ لغات».

وبنو سعد بن بكر بن هوازن أفصح العرب، فهم من الأعجاز، وهي قبائل من مضر متفرّقة، وكانت ظئرُ [٣] النبي ﷺ التي أرضعته حليمة بنت أبي ذؤيب من بني ناصرة بن سعد بن بكر بن هوازن.

وإخوته من الرضاعة: عبد الله بن الحارث، وأُنيسة بنت الحارث، وخِذامة بنت

---

(١) الذراع: ما فوق الكراع.

(٢) الكراع: من البقر والغنم: مستدق الساق العاري من اللحم.

(٣) الظئر: المرضعة لغير ولدها.

الحارث، وهي التي أُتِيَ بها النبيُّ ﷺ في أسرى حُنين فبَسط لها رداءه ووهب لها أسرى قومِها.

والعواتك من سُليم ثلاث: عاتكة بنت مرة بن هلال ولدت هاشماً وعبد شمس ونفلاً؛ وعاتكة بنت الأوقص بن هلال، ولدت وهب بن عبد مناف بن زهرة؛ وعاتكة بنت هلال بن فالج.

وقال عليّ للأشعث إذ خطب إليه: أغرك ابنُ أبي قحافة إذ زوّجك أمّ فروة؟ وإنها لم تكن من الفواطم من قريش ولا العواتك من سليم.

أبو النبي صلى الله عليه وسلم

عبد الله بن عبد المطلب، ولم يكن له ولد غيره ﷺ، وتوفى وهو في بطن أُمه، فلما وُلِدَ كفَلَهُ جدّه عبد المطلب إلى أن توفى فكفله عمُّه أبو طالب، وكان أخا عبد الله لأمه وأبيه، فمن ذلك كان أشفقَ أعمامِ النبيِّ ﷺ وأولاهم به.

أعمامه وعماته

وأما أعمام النبي ﷺ وعماته، فإن عبد المطلب بن هاشم كان له من الولد لصلبه عشرة من الذكور وستٌّ من الإناث، وأسماء بنيه: عبد الله، والد النبي عليه الصلاة والسلام؛ والزبير؛ وأبو طالب، واسمه عبد مناف؛ والعباس؛ وضِرار؛ وحمزة؛ والمقوِّم؛ وأبو لهب، واسمه عبد العُزى؛ والحارث والغَيداق، واسمه حَجْل، ويقال نوفل.

أسماء بناته عماتِ النبي ﷺ: عاتكة، والبيضاء، وهي أم حكيم وبَرَّة؛ وأُميمة؛ وأروَى؛ وصفية.

ولدُ النبي صلى الله عليه وسلم

وُلد له من خديجة : القاسم ، والطيب ، وفاطمة ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم .

وولد له من مارية القبطية : إبراهيم ، فجميع ولده من خديجة ، غير إبراهيم .

أزواجه صلى الله عليه وسلم

وأزواجه ﷺ : أوّلهن خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت؛ ثم تزوّج سَودة بنت زَمْعة ، وكانت تحت السكران بن عمرو ، وهو من مهاجرة الحبشة ، فمات ولم يُعقب فتزوّجها النبي ﷺ بعده ، ثم تزوج عائشة بنت أبي بكر بكْرا ، ولم يتزوج بكرا غيرها ، وهي ابنة ست ، وابتنى عليها وهي ابنةُ تسع ، وتوفى عنها وهي ابنة ثمان عشرة سنة ، وعاشت بعده إلى أيام معاوية ، وماتت سنة ثمان وخمسين وقد قاربت السبعين ، ودفنت ليلاً بالبقيع وأوصت إلى عبد الله بن الزبير ، وتزوج حفصةَ بنت عمر بن الخطاب ، وكانت تحت خُنيس بن حُذافة السهمي وكان رسول الله ﷺ أرسله إلى كسرى ، ولا عقب له ، ثم تزوج زينب بنت خُزيمة ، من بني عامر بن صعصعة ، وكانت تحت عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، أول شهيد كان ببدر ، ثم تزوّج زينب بنت جحش الأسدية ، وهي بنت عمة النبي ﷺ ، وهي أول من مات من أزواجه في خلافة عمر ، ثم تزوّج أم حبيبة - واسمها رملة - ابنة أبي سفيان ، وهي أُخت معاوية وكانت تحت عُبيد الله بن جحش الأسدي ، فتنصر ومات بأرض الحبشة ، وتزوّج أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومي ، وكانت تحت أبي سلمة ، فتوفى عنها وله منها أولاد ، وبقيت إلى سنة تسع وخمسين وتزوّج ميمونة بنت الحارث من بني عامر بن صعصعة ، وكانت تحت أبي سبرة بن أبي رَهم العامري ، وتزوّج صفيّة بنت حُيَيّ بن أخطب النَّضْرية ، وكانت تحت رجل من يهود خيبر ، يقال له كنانة فضرب رسول الله ﷺ عنقه وسبى أهله ، وتزوّج جُويرية بنت الحارث ، وكانت من سبى بني المصطلق ، وتزوّج خولة بنت حكيم ، وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ ، وتزوّج امرأة يقال لها عمرة ، فطلقها ولم يَبْنِ بها ، وذلك

أن أباها قال له: وأزيدك أنها لم تَمْرَض قط! فقال: ما لهذه عند الله من خير! فطلقها، وتزوّج امرأة يقال لها: أميمة بنت النعمان، فطلقها قبل أن يطأها، وخطب امرأة من بني مرة بن عوف، فرده أبوها وقال: إن بها برصاً! فلما رجع إليها وجدها برصاء!

كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وخدّامه

كُتاب الوحي لرسول الله ﷺ: زيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، وحنظلة بن ربيعة الأسدي، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، ارتد ولحق بمكة مشركاً.

وحاجبه: أبو أَنَسَة مولاه.

وخادمه: أنس بن مالك الأنصاري، ويكنى أبا حمزة.

وخازنه على خاتمه: معيقيب بن أبي فاطمة.

ومؤذّناه: بلال، وابن أم مكتوم.

وحراسه: سعد بن زيد الأنصاري، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص.

وخاتمة فضة، وفصه حبشي، مكتوب عليه: محمدٌ رسول الله، في ثلاثة أسطر: محمدٌ، سطر؛ ورسولٌ؛ سطر؛ وآلله، سطر.

وفي حديث أنس بن مالك خادِمِ النبي ﷺ: وبه تَخَتَّمَ أبو بكر وعمرُ، وتختم به عثمان ستة أشهر، ثم سقط منه في بئر ذي أَرْوان (١)، فطُلِبَ فلم يُوجدْ.

وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وسنه

توفي ﷺ يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، وحُفِرَ له تحت فراشه في بيت عائشة، وصلى عليه المسلمون جميعاً بلا إمام الرجال ثم النساء ثم الصبيانُ، ودُفِنَ ليلة الأربعاء في جوف الليل، ودخل القبر عليٌّ، والفضلُ وقُثم آبنا

---

(١) ذوأروان: بئر بالمدينة.

العباس، وشُقران مولاه، ويقال: أسامة بن زيد: وهم تولوا غسلَه وتكفينه وأمرَه كلَّه، وكُفِّن في ثلاثة أثواب بيض سَحُولية[١] ليس فيها قميصٌ ولا عمامة؛ واختُلِف في سِنِّه. فقال عبد الله بن عباس وعائشة، وجرير بن عبد الله، ومعاوية: توفي وهو ابن ستين سنة. وقال عروة ابن الزبير وقتادة: اثنتين وستين سنة.

نسب أبي بكر الصدّيق وصفته

رضي الله عنه

هو عبد الله بن أبي قحافة، واسم أبي قحافة: عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم بن مرة.

وأمّه أمّ الخير ابنة صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة.

وكاتبه عثمان بن عفان؛ وحاجبه: رشيد مولاه، وقيل كتب له زيد بن ثابت أيضاً؛ وعلى أمره كله وعلى القضاء عمر بن الخطاب، وعلى بيت المال أبو عبيدة بن الجراح ثم وجهه إلى الشام؛ ومؤذنه سعد القَرَظ مولى عمار بن ياسر.

قيل لعائشة: صفي لنا أباك. قالت: كان أبيض، نحيف الجسم، خفيف العارضين، أَجْنَأ[٢]، لا يستمسك إزاره، معروق الوجه، غائر العينين، ناتيء الجبهة، عاري الأشاجع، أفرع.

وكان عمر بن الخطاب أصلع، وكان أبو بكر يَخْضِبُ بالحناء والكتم.

وقال أبو جعفر الأنصاري: رأيت أبا بكر كأن لحيته ورأسه جر الغضى.

وقال أنس بن مالك: قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس في أصحابه أشمط[٣] غير أبي بكر، فغلفها بالحناء والكتم[٤].

---

(١) سحولية: نسبة الى سحول، وهي قرية باليمن.

(٢) الأجنأ: الأحدب، والذي في كاهله انحناء على صدره.

(٣) الأشمط: الذي يخالط بياض رأسه سواد.

(٤) الكتم: نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر فيبقى لونه.

وتوفي مساء ليلة الثلاثاء لثمان ليال بقين من جمادي الآخرة سنة ثلاث عشرة من التاريخ، فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال، وكان نقش خاتم أبي بكر: نِعْم القادرُ اللهُ.

خلافة أبي بكر رضي الله عنه

شعبة بن سعد بن إبراهيم عن عروة عن عائشة، أن النبي ﷺ قال في مرضه: «مروا أبا بكر فليصل بالناس فقلت: يا رسول الله، إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل بالناس. قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، قالت عائشة: فقلت لحفصة: قولي له إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يُسمع الناس من البكاء، فمُرْ عمر. ففعلت حفصة، فقال رسول الله ﷺ: مه! إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس».

أبو جعدة عن الزبير قال: قالت حفصة يا رسول الله، إنك مرضت فقدمت أبا بكر. قال: لست الذي قَدَّمَه، ولكن الله قدمه.

أبو سلمة عن إسماعيل بن مسلم عن أنس قال: صلى أبو بكر بالناس ورسول الله ﷺ مريض ستة أيام.

النضر بن إسحاق عن الحسن قال: قيل لعلي: علام بايعت أبا بكر؟ فقال: إن رسول الله ﷺ لم يمت فجأة، كان يأتيه بلال في كل يوم في مرضه يُؤْذنه بالصلاة، فيأمر أبا بكر فيصلي الناس، وقد تركني وهو يرى مكاني؛ فلما قَبِض رسول الله ﷺ رضيَ المسلمون لدنياهم من رضيَه رسول الله ﷺ لدينهم، فبايَعوه وبايعته.

ومن حديث الشعبي قال: أوّل من قدِم مكة بوفاة رسول الله ﷺ وخلافة أبي بكر: عبد ربِّه بن قيس بن السائب المخزومي؛ فقال له أبو قحافة: مَن ولِيَ الأمرَ بعده؟ قال: أبو بكر ابنُك. قال: فرضي بذلك بنو عبد مناف؟ قال: نعم. قال: لا مانع لما أَعطى الله، ولا معطيَ لما منع الله!

جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال: توفي رسول الله ﷺ وأبو سفيان غائب في مسعاة أخرجه فيها رسول الله ﷺ، فلما انصرف لقي رجلاً في بعض طريقه مقبلاً من المدينة، فقال له: مات محمد؟ قال: نعم، قال: فمن قام مقامه؟ قال: أبو بكر. قال أبو سفيان: فما فعل المستضعفان: عليّ والعباس؟ قال: جالسين. قال: أما والله لئن بقيتُ لهما لأرفعنّ من أعقابهما؛ ثم قال إني أرى غبرَة لا يطفئها إلا دم! فلما قدم المدينة جعل يطوف في أزقَّتها ويقول:

بني هاشمٍ لا تَطمعِ النـاسُ فيكُـم ولا سيَّما تَيْـم بن مُـرَّة أو عــديّ
فما الأمــرُ إلا فيكُــم وإليكــمُ وليس لها إلا أبــو حسَــــنٍ عليّ

فقال عمر لأبي بكر: إن هذا قد قدِم، وهو فاعلٌ شراً، وقد كان النبي ﷺ يتألَّفه على الإسلام، فدع له ما بيده من الصدقة! ففعل، فرضي أبو سفيان وبايعه.

سقيفة بني ساعدة

أحمد بن الحارث عن أبي الحسن عن أبي معشر عن المقبري: أن المهاجرين بينما هم في حجرة رسول الله ﷺ وقد قبضه الله إليه، إذ جاء معن بن عديّ وعويم بن ساعدة، فقالا لأبي بكر: باب فتنةٍ إن يُغْلِقْه الله بك؛ هذا سعد بن عبادة والأنصار يريدون أن يبايعوه. فمضى أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، حتى جاءوا سقيفة بني ساعدة، وسعد على طنفسة[١] متكئاً على وسادة، وبه الحُمَّى، فقال له أبو بكر: ماذا ترى أبا ثابت؟ قال: أنا رجلٌ منكـم. فقال حباب بن المنذر: منا أميرٌ ومنكـم أمير، فإن عمل المهاجريُّ في الأنصاري شيئاً رد عليه، وإن عمِل الأنصاري في المهاجري شيئاً ردّ عليه، وإن لم تفعلوا، فأنا جُذيْلُها[٢] المحكَّك وعُذيْقُها[٣] المرجّب، لنُعيدنَّها جَذَعة[٤]! قال عمر: فأردت أن أتكلم، وكنتُ زوّرتُ كلاماً في

---

(١) الطنفسة: البساط.

(٢) الجذيل: يقال جذيلها المحكك: لمن يستشفى برأيه.

(٣) العذيق: اللبق الحاذق بما عمل. (٤) الجذعة: الصغيرة.

نفسي، فقال أبو بكر: على رسْلك يا عمر. فما ترك كلمة كنت زوّرْتها في نفسي إلا تكلم بها، وقال:

نحن المهاجرون؛ أوّل الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأمسُّهم رسول الله ﷺ رحماً؛ وأنتم إخواننا في الإسلام، وشركاؤنا في الدين، نصَرتم وواسيتم، فجزاكم الله خيراً؛ فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تدين العرب إلا لهذا الحيّ من قريش، فلا تَنفَسوا على إخوانكم المهاجرين ما فضَّلهم الله به؛ فقد قال رسول الله ﷺ: الأئمة من قريش. وقد رضيتُ لكم أحد هذين الرجلين. يعني عمرَ بن الخطاب، وأبا عبيدة بن الجراح.

فقال عمر: يكون هذا وأنت حي؟ ما كان أحدٌ ليؤخِّرَك عن مقامك الذي أقامك فيه رسول الله ﷺ.

ثم ضرب على يده فبايعه، وبايعه الناس وازدحموا على أبي بكر، فقال الأنصار: قتلتم سعدا! فقال عمر: اقتلوه قتله الله فإنه صاحب فتنة!

فبايع الناس أبا بكر، وأتوْا به المسجد يبايعونه، فسمع العباس وعلي التكبير في المسجد ولم يفرغوا من غسل رسول الله ﷺ، فقال علي: ما هذا؟ قال العباس: ما رؤي مثل هذا قط ما قلت لك.

ومن حديث النعمان بن بشير الأنصاري: لما ثقل رسول الله ﷺ تكلم الناس فيمن يقوم بالأمر بعده، فقال قوم: أبو بكر، وقال قوم: أُبي بن كعب. قال النعمان بن بشير: فأتيت أبيا فقلت: يا أبيّ، الناس قد ذكروا أن رسول الله ﷺ يستخلف أبا بكر أو إياك، فانطلق حتى تنظر في هذا الأمر، فقال: إن عندي في هذا أمر من رسول الله ﷺ شيئاً ما أنا بذاكره حتى يقبضه الله إليه. ثم انطلق وخرجت معه حتى دخلنا على النبي ﷺ بعد الصبح، وهو يحسو حسواً في قطعة مشعوبة[1]، فلما فرغ

(١) المشعوبة: التي أصلحت.

أقبل على أبيّ فقال: هذا ما قلت لك قال: فأوص بنا . فخرج يخط برجليه حتى صار على المنبر ثم قال:

يا معشر المهاجرين إنكـم أصبحتم تزيدون، وأصبحت الأنصار كما هي لا تزيد، ألا وإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام فمن ولي من أمرهم شيئاً فليقبل من محسنِهم ويعف عن مسيئهم.

ثم دخل، فلما توفي، قيل لي: هاتيك الأنصار مع سعد بن عبادة يقولون: نحن أولى بالأمر. والمهاجرون يقولون: لنا الأمر دونكـم! فأتيت أُبيا فقرعت بابه، فخرج إليّ ملتحفاً، فقلت: ألا أراك قاعداً ببيتك مُغلِقاً عليك بابك، وهؤلاء قومُك في بني ساعدة ينازعون المهاجرين، فاْخرج إلى قومك فخرج، فقال:

إنكـم والله ما أنتم من هذا الأمر في شيء، وإنه لهم دونكـم؛ يليها من المهاجرين رجلان، ثم يقتل الثالث، وينزع الأمر فيكون ههنا ـ وأشار إلى الشام ـ وإن هذا الكلام لمبلول بريق رسول الله ﷺ . ثم أغلق بابه ودخل.

ومن حديث حذيفة قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ ، فقال: « إني لا أدري ما بقائي فيكـم؛ فاقتدوا باللذَين من بعدي ـ وأشار إلى أبي بكر وعمر ـ واهتدُوا بهدى عمّار، وما حدثكـم ابنُ مسعود فصدّقوه.

الذين تخلفوا عن بيعة أبي بكر

عليٌّ، والعباس، والزبير، وسعد بن عبادة، فأما علي والعباس والزبير فقعدوا في بيت فاطمة حتى بعث إليهم أبو بكر عمرَ بن الخطاب ليخرجوا من بيت فاطمة، وقال له: إنْ أبوْا فقاتلهم. فأقبل بقبَسٍ من نار على أن يضرم عليهم الدار، فلقيته فاطمة فقالت: يا ابن الخطاب، أجئت لتُحرق دارَنا؟ قال: نعم، أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة! فخرج علي حتى دخل على أبي بكر فبايعه، فقال له أبو بكر: أكرهت إمارتي؟ فقال: لا، ولكني آليت أن لا أرتدي بعد موت رسولِ الله ﷺ

حتى أحفظ القرآن، فعليه حبست نفسي.

ومن حديث الزهري عن عروة عن عائشة قالت: لم يبايع عليٌّ أبا بكر حتى ماتت فاطمة، وذلك لستة أشهر من موت أبيها ﷺ، فأرسل علي إلى أبي بكر، فأتاه في منزله فبايعه، وقال: والله ما نفسْنا عليك ما ساق الله إليك من فضل وخير، ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر شيئاً فاستبددت به دوننا، وما نُنكر فضلك.

وأما سعد بن عبادة فإنه رحل إلى الشام.

أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي قال: «بعث عمر رجلاً إلى الشام، فقال: اُدعه إلى البيعه واحمل له بكل ما قدرت عليه، فإن أبى فاستعن الله عليه، فقدم الرجل الشام، فلقيه بحوران في حائط، فدعاه إلى البيعة، فقال: لا أبايع قرشياً أبداً! قال فإني أقاتلك! قال وإن قاتلتني! قال: أفخارج أنت مما دخلت فيه الأمة؟ قال: أما من البيعة فأنا خارج. فرماه بسهم فقتله.

ميمون بن مهران عن أبيه قال: رُمي سعد بن عبادة في حَمَّام بالشام فقتل. سعيد ابن أبي عروبة عن ابن سيرين قال: رمي سعد بن عبادة بسهم فوجد دفيناً في جسده فمات، فبكته الجن، فقالت:

وقتلنا سيِّدَ الخزْ رج سعدَ بن عُبادَة
ورميْناهُ بسهمين فلم نخْطيء فؤادَه

فضائل أبي بكر رضي الله عنه

محمد بن المنكدر قال: نازع عمر أبا بكر، فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركون لي صاحبي؟ إن الله بعثني بالهدى ودينِ الحقِّ إلى الناس كافة فقالوا: جميعاً كذبت. وقال أبو بكر صدقتَ!».

وهو صاحبُ رسول الله ﷺ، وجليسُه في الغار، وأول من صلى معه وآمن به واتبعه.

وقال عمر بن الخطاب: أبو بكر سيدُنا. وأعتقَ سيدنا، يريد بلالاً، وكان بلال عبداً لأمية بن خلف، فاشتراه أبو بكر وأعتقه، وكان من مولدي مكة، أبوه رباح، وأمه حمامة.

وقيل للنبي ﷺ. من أول من قام معك في هذا الأمر؟ قال: حرٌّ وعبد؛ يريد بالحرِّ أبا بكر، وبالعبد بلالاً. وقال بعضهم: عليٌّ وخبَّاب.

أبو الحسن المدائني قال: دخل هارون الرشيد مسجد رسول الله ﷺ، فبعث إلى مالك بن أنس فقيه المدينة، فأتاه وهو واقف بين قبر رسول الله ﷺ والمنبر؛ فلما قام بين يديه وسلم عليه بالخلافة، قال: يا مالك، صف لي مكان أبي بكر وعمر من رسول الله ﷺ في الحياة الدنيا. فقال: مكانُهما منه يا أمير المؤمنين كمكان قبريهما من قبره. فقال: شفيتَني يا مالك.

الشعبي عن محمد أبي سلمة، أن علياً سئل عن أبي بكر وعمر، فقال: على الخبير سقَطْتَ. كانا والله إمامين صالحين مصلحين، خرجا من الدنيا خميصين[1].

وقال علي بن أبي طالب: سبق رسول الله ﷺ، وثنَّى أبو بكر وثلَّث عمر؛ ثم خبطتنا فتنة عمياءُ [يعفو الله فيها] عمن يشاء.

وقالت عائشة. تُوُفِّي رسول الله ﷺ بين سَحري ونحري، فلو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبي لهدّها، اَشرأبَّ النفاق، وارتدت العرب؛ فوالله ما طاروا في نقطة إلا طار أبي بحظها وغَنائها في الإسلام.

عمرو بن عثمان عن أبيه عن عائشة أنه بلغها أن أناساً ينالون من أبيها. فأرسلت إليهم، فلما حضروا قالت:

إن أبي والله لا تَعْطُوه الأيدي، ذاكَ طود منيف وظل ممدود، أنجحَ[2] إذْ

(١) خميصين: مثنى خميص، وهو الذي ضعف ودخل بطنه في جوفه.

(٢) أنجح: أعطى ويسر.

أكْدَيتم[١]، وسبق إذ ونيتم، سبْق الجوادِ إذا استولى على الأمدِ، فتى قريش ناشئا، وكهفها[٢] كهلاً، يفك عانيها، ويريش مُملقها، ويرأب صَدْعَها ويلُمُّ شعثها، فما برحت شكيمته في ذات الله تشتد، حتى اتخذ بفنائه مسجداً يحيي فيه ما أمات المبطلون، وكان وقيد الجوانح غزير الدمعة، شجيَّ النشيج، وأَصْفَقَتْ[٣] إليه نسوان مكة وولدانُها يسخرون منه ويستهزؤن به، والله يستهزيء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون، فأكبرت ذلك رجالات قريش فما فلوا له صفاة، ولا قصفوا قناة؛ حتى ضَرب الحقّ بجرانِه، وألقى بَرْكه[٤]، ورست أوتادُه. فلما قبض الله نبيَّه ضرب الشيطان رواقه، ومدّ طُنبه؛ ونصب حبائله، وأجلب بخيله ورجله؛ فقام الصِّديق حاسراً مشمِّراً، فردّ نشر الإسلام على غرِّه وأقام أودَه بثقافه، فابذعرَّ[٥] النفاق بوطئه، وانتاش[٦] الناسَ بعدله، حتى أراح الحقَّ على أهله، وحقن الدماء في أُهُبِها؛ ثم أتته منيته؛ فسدّ ثلمته نظيره في المرحمة، وشقيقه في المعْدَلة؛ ذلك ابن الخطاب، لله درُّ أم حَفَلت له ودرَّت عليه! ففتح الفتوح، وشرَّد الشرك، وبعج[٧] الأرض فقاءت أُكلها، ولفظت جناها، ترأمه ويأباها، وتريده ويصدِف عنها، ثم تركها كما صحبها؛ فأروني ما ترتابون؟ وأي يومَيْ أبِي تنقمون؟ أيومَ إقامته إذ عدل فيكم، أم يوم ظعنِهِ إذ نظر لكم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

الليث بن سعد عن الزهري قال: أُهْدِيَ لأبي بكر طعام وعنده الحرث بن كلدة، فأكلا منه؛ فقال الحرث: أكلنا سمَّ سنة، وإني وإياك لميتان عند رأس الحول! فماتا جميعاً في يوم واحد عند انقضاء السنة، وإنما سمَّته يهود كما سمت النبي ﷺ بخيبر في ذراع الشاة؛ فلما حضرت النبي ﷺ الوفاةُ قال: «ما زالت أكلة خيبر تعاودني حتى

---

(١) أكدى: أمنع.
(٢) كهفها: ملجأها.
(٣) أصفقت: اجتمعت.
(٤) البرك: الصدر.
(٥) ابذعرّ: تفرق.
(٦) انتاش: أنهض.
(٧) بعج الأرض: شقها وأذلها.

قطعت أبهري»! وهذا مثل ما قال الله تعالى: ﴿... ثم لقطعنا منْه الوتينَ﴾ [(١)] والأبهر والوتين: عرقان في القلب إذا انقطع أحدهما مات صاحبه.

الزهري عن عروة عن عائشة قالت: اغتسل أبو بكر يوم الاثنين لسبع خلون من جمادي الآخرة، وكان يوماً بارداً، فحُمَّ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى صلاة، وكان يأمر عمر أن يصلي بالناس؛ وتوفي ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادي الآخرة سنة ثلاث عشرة من التاريخ؛ وغسلته امرأته أسماء بنت عميس وصلى عليه عمر بن الخطاب بين القبر والمنبر، وكبَّر أربعاً .

الزهري عن سعيد بن المسيب قال: لما توفي أبو بكر أقامت عليه عائشة النوح فبلغ ذلك عمر فنهاهنّ، فأبين فقال لهشام بن الوليد: أخرج إليّ بنت أبي قحافة. فأخرج إليه أمّ فروة؛ فعلاها بالدِّرَّة[(٢)] ضرباً، فتفرّق النوائح.

وقالت عائشة وأبوها يغمض، رضي الله عنه:

وأبْيـض يُسْتسْقَـى الغمام بـوجهِـه ربيـعُ اليتـامَـى عِصمـةٌ للأرامـل

قالت عائشة: فنظر إليّ وقال: ذاك رسول الله ﷺ. ثم أُغمي عليه، فقالت:

لعَمْرُك ما يُغْنِي الثراءُ عـن الفتَـى إذا حَشْرجَت يوماً وضاق بها الصَّـدْرُ

فنظر إليّ كالغضبان وقال: قولي: ﴿وجاءَتْ سكْرةُ الموْتِ بالحقِّ ذلك ما كنت منه تَحيدُ﴾ [(٣)]. ثم قال: انظروا مُلاءتين خلَقين فاغسلوهما وكفِّنوني فيهما؛ فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت.

عروة بن الزبير والقاسم بن محمد، قالا: أوصى أبو بكر عائشة أن يدفن إلى جنب رسول الله ﷺ؛ فلما توفى حُفِر له وجُعل رأسه بين كتفي رسول الله ﷺ، ورأس عمر عند حِقوَيْ أبي بكر، وبقي في البيت موضع قبر؛ فلما حضرت الوفاة الحسن بن

---

(١) سورة الحاقة الآية ٤٦.

(٢) الدرة: السوط يضرب به. (٣) سورة ق الآية ١٩.

علي، أوصى بأن يدفن مع جده في ذلك الموضع؛ فلما أراد بنو هاشم أن يحفروا له منعهم مروان ـ وهو والي المدينة في أيام معاوية ـ فقال أبو هريرة: علاَم تمنعه أن يُدفن مع جده؟ فأشهد لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » قال له مروان: لقد ضيَّع الله حديث رسول الله ﷺ إذا لم يروِه غيرك. قال: أنا والله لقد قلت ذلك؛ لقد صحبته حتى عرفت من أحبَّ ومن أبغض، ومن نفى ومن أقرّ، ومن دعا له ومن دعا عليه.

قال: وسطح قبر أبي بكر كما سطّح قبر النبي ﷺ، ورُشَّ بالماء.

هشام بن عروة عن أبيه: أن أبا بكر صُلِّيَ عليه ليلاً ودفن ليلاً.

ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة، ولها مات النبيّ ﷺ.

وعاش أبو قحافة بعد أبي بكر أشهراً وأياماً، ووهب نصيبه في ميراثه لولد أبي بكر

وكان نقش خاتم أبي بكر: نِعم القادر الله.

ولما قُبض أبو بكر سُجِّيَ بثوب، فارتجّت المدينة من البكاء، ودَهِش القوم كيوم قُبض رسول الله ﷺ. وجاء علي بن أبي طالب باكياً مسرعاً مسترجعاً حتى وقف بالباب وهو يقول:

« رحمك الله أبا بكر! كنت والله أول القوم إسلاماً، وأصدقهم إيماناً، وأشدهم يقيناً وأعظمهم غنى، وأحفظهم على رسول الله ﷺ، وأحدبَهم على الإسلام، وأحماهم عن أهله، وأنسبهم برسول الله خُلُقاً وفضلاً وهَدْياً وسمتاً؛ فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيراً؛ صدّقت رسول الله حين كذّبه الناس وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا وسمَّاك الله في كتابه صدِّيقاً فقال: ﴿والذي جاءَ بالصِّدْق وصدّق به﴾ [1]، يريد محمداً ويريدك؛ كنت والله للإسلام حصناً، وللكافرين ناكباً، لم تَفْلُلْ [2] حجتُك، ولم تضعف بصيرتُك، ولم تجبُنْ

(١) سورة الزمر الآية ٣٣. (٢) لم تفلل: لم تهزم.

نفسُك؛ كنت كالجبل لا تحرِّكه العواصف، ولا تُزيله القواصف؛ كنت كما قال رسول الله ﷺ: ضعيفاً في بدنك؛ قوياً في دينك، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله، جليلاً في الأرض، كبيراً عند المؤمنين، لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى، فالضعيف عندك قوي، والقويُّ عندك ضعيف، حتى تأخذ الحق من القوي وتردّه للضعيف، فلا حَرَمك الله أجرك، ولا أضلّنا بعدك.

القاسم بن محمد عن عائشة أم المؤمنين أنها دخلت على أبيها في مرضه الذي تُوفي فيه، فقالت:

يا أبت، آعهد إليّ خاصّتك، وأنفذ رأيك في عامتك، وانقل من دار جهازك إلى دار مُقامك؛ إنك محضور ومنصلّ بي لوعتك، وأرى تخاذل أطرافك، وانتقاع لونك؛ فإلى الله تعزيتي عنك، ولديه ثواب حزني عليك؛ أرقأ فلا أرقأ[١] وأشكو فلا أُشكَى.

قال: فرفع رأسه وقال:

يا أُمه، هذا يوم يُخلَّى لي عن غطائي، وأشاهد جزائي، إنْ فرحاً فدائم، وإن ترحا فمقيم، إني اضطلعت بإمامة هؤلاء القوم، حين كان النكوص إضاعة، والخزَل[٢] تفريطاً، فشهيدي الله ما كان بقلبي إلا إياه؛ فتعلقت بصحفتهم وتعللت بدرَّة لقحتهم، وأقمت صلايَ معهم، لا مختالاً أشراً، ولا مكاثراً بطِراً، ولم أعْدُ سدّ الجوعة، ووَرْيَ العورة[٣]، وقواته القوام؛ من طوًى مُمعِض[٤] تهفو منه الأحشاء، وتجف له الأمعاء، واضطررت إلى ذلك اضطرار الجَرِض[٥] إلى الماء المعيف الآجن؛ فإذا أنا متّ فردّي إليهم صحفتهم وعبدهم ولقحتهم ورحاهم، ودثارة ما فوقي اتقيت بها البرد، ودثارة ما تحتي اتقيت بها أذى الأرض، كان حشوها قطع السعف.

---

(١) أي أسكن نفسي فلا تسكن.

(٢) الخزل: الترجع. (٣) وري العورة: سترها.

(٤) ممعض: موجع. (٥) الجرض: الذي يبتلع ريقه بجهد.

قال: ودخل عليه عمر فقال: يا خليفة رسول الله لقد كلفت القوم بعدك تعباً، ووليتهم نَصباً، فهيهات من شق غبارك فكيف اللحاق بك.

استخلاف أبي بكر لعمر

عبد الله بن محمد التيمي عن محمد بن العزيز، أن أبا بكر الصديق حين حضرته الوفاة كتب عهده وبعث به مع عثمان بن عفان ورجل من الأنصار ليقرآه على الناس فلما اجتمع الناس قاما فقالا: «هذا عهد أبي بكر فإن تُقِرُّوا به نقرأه، وإن تنكروه نرجعْه» فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا عهد أبي بكر بن أبي قحافة عند آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويتقي الفاجر، ويصدق الكاذب، أَمَّرْت عليكم عمر بن الخطاب، فإن عَدَل واتقى فذاك ظني به ورجائي فيه، وإن بدَّل وغيَّر، فالخير أردت، ولا يعلم الغيب إلا الله.

قال أبو صالح: أخبر محمد بن وضاح، قال: حدثني محمد بن رُمْح بن مهاجر التُّجيبي، قال: حدثني الليث بن سعد عن علوان عن صالح بن كيسان عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه، أنه دخل على أبي بكر رضي الله عنه في مرضه الذي توفي فيه، فأصابه مفيقاً، فقال: أصبحت بحمد الله بارئاً.

قال أبو بكر: أتراه؟

قال: نعم.

قال: أما إني على ذلك لشديد الوجع، ولمّا لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشدُّ عليَّ من وجَعي؛ إني ولَّيت أمركم خيْركم في نفسي، فكلكم ورم من ذلك أنفُه، يريد أن يكون له الأمر من دونه، ورأيتم الدنيا مقبلة ولن تُقبل، وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج، وتألمنّ الاضطجاع على الصوف الأذْرَبِيّ(١)،

(١) نسبة إلى أذربيجان.

كما يألم أحدكم الاضطجاع على شوك السعدان، والله لأنْ يقدَّم أحدكم فيُضرب عنقُه في غير حدّ، خير له من أن يخوض في غمرة الدنيا، ألا وإنكم أول ضال بالناس غداً فتصدونهم عن الطريق يميناً وشمالاً، يا هادي الطريق جُرْت، إنما هو الفجر أو البحر.

قال: فقلت له: خفِّض عليك يرحمك الله، فإن هذا يهيضك[1] على ما بك؛ إنما الناس في أمرك بين رجلين: إما رجل رأى ما رأيت فهو معك، وإما رجل خالفك فهو يُشير عليك برأيه، وصاحبُك كما تحب، ولا نعلمك أردت إلا الخير، ولم تزل صالحاً مصلحاً، مع أنك لا تأسى على شيء من الدنيا.

فقال: أجل، إني لا آسي على شيء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتهن، ووددت أني تركتهن، وثلاث تركتهن وودت أني فعلتهن، وثلاث وددت أني سألت رسول الله ﷺ عنهن:

فأما الثلاث التي فعلتهن ووددت أني تركتهن: فوددت أني لم أكشف بيت فاطمة عن شيء؛ وإن كانوا أغلقوه على الحرب، ووددت أني لم أكن حرّقت الفُجاءَةَ السلمي، وأني قتلته سَريحاً أو خليته نجيحاً[2]، ووددت أني يوم سقيفة بني ساعدة قدفتُ الأمر في عنق أحدِ الرجلين، فكان أحدهما أميراً وكنتُ له وزيراً. يعني بالرجلين: عمر بن الخطاب، وأبا عبيدة بن الجراح.

وأما الثلاثُ التي تركتهن ووددت أني فعلتهن: فوددت أني يوم أُتيت بالأشعث بن قيس أسيراً ضربت عنقه، فإنه يخيل إليّ أنه لا يرى شراً إلا أعان عليه؛ ووددتُ أني يوم سَيَّرْتُ خالد بن الوليد إلى أهل الردة أقمتُ بذي القَصّة[3]؛ فإن ظفِرَ المسلمون ظَفِروا، وإن انهزموا كنت بصدد لقاءٍ أو مدد؛ ووددت أني وجهت خالدَ بن الوليد

---

(١) يهيضك: يهيجك.

(٢) نجيحاً: وشيكا.

(٣) ذي القصة: اسم موضع.

إلى الشام، ووجّهت عمر بن الخطاب إلى العراق، فأكون قد بسطت يديَّ كلتيهما في سبيل الله.

وأما الثلاث التي وددت أني سألتُ رسول الله ﷺ عنهن: فإني وددت أني سألتُه: لمن هذا الأمرُ من بعده؟ فلا ينازعه أحد؛ وأني سألتُه: هل للأنصار في هذا الأمر نصيب؟ فلا يُظْلَموا نصيبَهم منه؛ ووددت أني سألته عن بنت الأخ والعمة، فإن في نفسي منهما شيئاً.

نسب عمر بن الخطاب وصفته

أبو الحسن علي بن محمد قال: هو عمرُ بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى ابن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك، وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهاشم هو ذو الرمحين.

قال أبو الحسن: كان عمر رجلاً آدمَ مشرباً حمرة طويلاً أصلع، له حِفافان حسنَ الخدين والأنف والعينين، غليظ القدمين والكفين، مجدول اللحم، حسَنَ الخَلْق، ضَخم الكراديس[١]، أعسر يَسَر[٢]، إذا مشى كأنه راكب.

ولي الخلافة يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادي الآخرة سنة ثلاث عشرة من التاريخ.

وطعن لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من التاريخ، فعاش ثلاثة أيام، ويقال سبعةَ أيام.

معدان بن أبي حفصة، قال: قُتِل عمرُ يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، وهو ابن ثلاث وستين سنة في رواية الشعبي؛ ولها مات أبو بكر، ولها مات النبي ﷺ.

---

(١) الكراديس: جمع كردوس: رأس العظم. (٢) أي يعمله بيديه جميعاً.

فضائل عمر بن الخطاب

أبو الأشهب عن الحسن، قال: عاتب عيينة عثمان، فقال له: كان عمر خيراً لنا منك، أعطانا فأغنانا وأخشانا فأتقانا.

وقيل لعثمان: مالك لا تكون مثل عمر؟ قال: لا أستطيع أن أكون مثل لقمان الحكيم.

القاسم بن عمر قال: كان إسلام عمر فتحا، وهجرته نصراً، وإمارته رحمة.

وقيل إن عمر خطب امرأة من ثقيف، وخطبها المغيرة؛ فزوجوها المغيرة، فقال النبي ﷺ: «ألا زوَّجْتُمْ عُمرَ، فإنه خيرُ قريش أوّلِها وآخِرَها، إلا ما جعل الله لرسوله؟».

الحسن بن دينار عن الحسن، قال: ما فضلَ عمرُ أصحاب رسول الله ﷺ أنه كان أطولَهم صلاة وأكثرهُمْ صياماً، ولكنه كان أزهدَهُمْ في الدنيا وأشدّهُم في أمْرِ الله.

وتظلم رجل من بعض عمال عمر وادعى أنه ضربه وتعدّى عليه، فقال: اللهم إني لا أُحل لهم أشعارهم ولا أبشارهم[1]؛ كل من ظلمه أميرُه فلا أمير عليه دوني. ثم أقاده[2] منه.

عَوانة عن الشعبي قال: كان عمر يطوف في الأسواق، ويقرأ القرآن، ويقضي بين الناس حيث أدركه الخصوم.

وقال المغيرة بن شعبة وذكر عمر، فقال: كان والله له فضلٌ يمنعه من أن يَخْدَع، وعقلٌ يمنعه من أن ينخدع.

وقال عمر: لست بخبٍّ ولا الخب[3] يخدعني.

---

(١) أبشارهم: يريد دفوفهم.

(٢) أقاده: يقال أقاد القاتل بالقتيل: قتله به قوداً، والقود: القضاء.

(٣) الخبّ: الخادع والغشاش.

عكرمة عن ابن عباس، قال: بينما أنا أمشي مع عمر بن الخطاب في خلافته وهو عامد لحاجة له وفي يده الدِّرّة [1] وأنا أمشي خلفه وهو يحدث نفسه ويضرب وحشي [2] قدميه بدرّته، إذ التفت إليّ فقال: يا ابن عباس، أتدري ما حملني على مقالتي التي قلتُ يوم توفى رسول الله ﷺ؟ قلت: لا. قال: الذي حملني على ذلك أني كنت أقرأ هذه الآية: ﴿وكذٰلِك جعَلْنَاكم أُمّةً وسَطاً لِتكونوا شُهداءَ على الناس ويَكونَ الرّسُولُ عليْكُمْ شهيداً﴾ [3]؛ فوالله إن كنت لأظن أن رسول الله ﷺ سيبقى في أمته حتى يشهد علينا بأحنف أعمالنا؛ فهو الذي دعاني إلى ما قلت.

ابن دأب قال: قال ابن عباس: خرجت أريد عمر في خلافته، فألفيته راكباً على حمار قد أرسنه بحبل أسود، وفي رجليه نعلان مخصوفتان. وعليه إزار قصير، وقميص قصير قد انكشفت منه ساقاه؛ فمشيت إلى جنبه وجعلت أجبذ الإزار عليه، فجعل يضحك ويقول: إنه لا يطيعك. حتى أتى العالية، فصنع له قومٌ طعاماً من خبز ولحم فدعوه إليه، وكان عمر طائماً، فجعل ينبذ [4] إليّ الطعام ويقول: كُلْ لي ولك!

ومن حديث ابن وهب عن الليث بن سعد، أن أبا بكر لم يكن يأخذ من بيت المال شيئاً ولا يُجري عليه من الفيء درهماً، إلا أنه استلف منه مالاً، فلما حضرته الوفاة أمر عائشة بردِّه. وأما عمر بن الخطاب فكان يُجري على نفسه درهمين كل يوم. فلما ولي عمر بن عبد العزيز قيل له: لو أخذت ما كان يأخذ عمر بن الخطاب! قال: كان عمر لا مال له، وأنا مالي يغنيني. فلم يأخذ منه شيئاً.

أبو حاتم عن الأصمعي قال: قال عمر وقام على الرَّدم [5]: أين حقُّكَ يا أبا سفيان مما هنا؟ قال: ما تحت قدميك إليّ. قال: طالما كنتَ قديمَ الظلْمِ! ليس لأحد فيما وراء قدمي حق، وإنما هي منازل الحاج.

---

(١) الدّرة: السوط يضرب به.

(٢) الوحشيّ الجانب الأيمن من كل شيء.

(٣) سورة البقرة الآية ١٤٣.

(٤) ينبذ: أي يدفع. (٥) الردم: موضع بمكة.

قال الأصمعي: وكان رجلٌ من قريش قد تقدم صدر من داره عن قدمَي عمر، فهدمه وأراد أن يغوِّر البئر، فقيل له: البئر للناس منفعة. فتركها.

قال الأصمعي: إذا ودع الحاج ثم بات خلف قدمَيْ عمر، لم أر عليه أن يرجع يقول: قد خرج من مكة.

مقتل عمر

أبو الحسن: كان للمغيرة بن شعبة غلام نصراني يقال له فيروز أبو لؤلؤة، وكان نجاراً لطيفاً، وكان خراجه ثقيلاً، فشكا إلى عمر ثقل الخراج وسأله أن يكلم مولاه أن يخفف عنه من خراجه، فقال له: وكم خراجك؟ قال: ثلاثة دراهم في كل شهر. قال: وما صناعتك؟ قال نجار. قال: ما أرى هذا ثقيلاً في مثل صناعتك. فخرج مغضباً فاستلّ خنجراً محدود الطرفين، وكان عمر قد رأى في المنام ديكاً أحمر ينقره ثلاث نقرات؛ فتأوّلَهُ رجلٌ من العجم يطعنه ثلاث طعنات، فطعنه أبو لؤلؤة بخنجره ذلك في صلاة الصبح ثلاث طعنات، إحداها بين سرته وعانته، فخرقت الصفاق[1]، وهي التي قتلته؛ وطُعن في المسجد معه ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة، فأقبل رجل من بني تميم يقال له حطان، فألقى كساء عليه ثم احتضنه فلما علم العلج[2] أنه مأخوذ طعن نفسه وقدّم عمر صهيباً يصلي بالناس، فقرأ بهم في صلاة الصبح: قل هو الله أحد، في الركعة الأولى؛ وقل يا أيها الكافرون، في الركعة الثانية؛ واحتُمِلَ عمر إلى بيته، فعاش ثلاثة أيام ثم مات، وقد كان استأذن عائشة أن يّدفن في بيتها مع صاحبيه، فأجابته وقالت: والله لقد كنتُ أردتُ ذلك المضجع لنفسي، ولأوثرنَّ به اليوم على نفسي!

فكانت ولاية عمر عشرَ سنين.

صلى عليه صهيب بين القبر والمنبر، ودُفِنَ عند غروب الشمس.

---

(١) الصفاق: غشاء ما بين الجلد والأمعاء.

(٢) العلج: كل شديد من الرجال، والحمار وحمار الوحش السمين القوي.

كاتبُه: زيد بن ثابت وكتب له معيقيب أيضاً.

وحاجبه: يرفأ مولاه.

وخازنه: يسار.

وعلى بيت ماله: عبد الله بن أرقم.

وقال الليث بن سعد: كان عمر أوّل من جنَّد الأجناد، ودوَّن الدواوين، وجعل الخلافة شورى بين ستة من المسلمين، وهم: علي، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد ابن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف؛ ليختاروا منهم رجلاً يولونه أمر المسلمين، وأوصى أن يحضر عبد الله بن عمر معهم، وليس له من أمر الشورى شيء.

أمر الشورى في خلافة عثمان بن عفان

صالح بن كيسان قال: قال ابن عباس: دخلت على عمر في أيام طعنته وهو مضطجع على وسادة من أدَم[1]، وعنده جماعة من أصحاب النبي ﷺ؛ فقال له رجل: ليس عليك بأسٌ! قال:

لئن لم يكن عليَّ اليومَ ليكونن بعد اليوم. وإن للحياة لنصيباً من القلب، وإن للموت لكُرْبة، وقد كنتُ أُحبُّ أن أُنجِّيَ نفسي وأنجو منكم، وما كنتُ من أمركم إلا كالغريق يرى الحياة فيرجوها ويخشى أن يموت دونها، فهو يركض بيديه ورجليه، وأشدّ من الغريق الذي يرى الجنة والنار وهو مشغول. ولقد تركت زهرتكم كما هي ما لبستها فأخلقتها، وثمرتكم يانعة في أكمامها ما أكلتها، وما جنيت ما جنيت إلا لكم، وما تركت ورائي درهماً ما عدا ثلاثين أو أربعين درهماً.

ثم بكى وبكى الناس معه، فقلت: يا أمير المؤمنين، أبشر، فوالله لقد مات رسول الله ﷺ وهو عنك راض، ومات أبو بكر وهو عنك راض، وإن المسلمين رضوان عنك.

---

(١) الأدم: الخبز والجلد.

قال: المغرور والله من غررتموه؛ أما والله لو أن لي ما بين المشرق والمغرب لافتديت به من هول المُطَّلع.

داود بن أبي هند عن قتادة قال: لما ثقُل عمر قال لولده عبد الله: ضع خدّي على الأرض. فكره أن يفعل ذلك، فوضع عمر خدَّه على الأرض وقال: ويل لعمر، ولأمّ عمر، إن لم يعف الله عنه!

أبو أمية بن يعلى عن نافع قال: قيل لعبد الله بن عمر: تغسَّل الشهداء؟ قال: كان عمر أفضل الشهداء، فغسِّل وكفن وصُلِّيَ عليه.

يونس عن الحسن وهشام بن عروة عن أبيه قالا: لما طُعِن عمر بن الخطاب قيل له: يا أمير المؤمنين، لو استخلفت! قال:

إن تركتكم فقد ترككم مَن هو خير مني، وإن استخلفت فقد استخلف عليكم من هو خير مني؛ ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول: إنه أمين هذه الأمة. ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيّاً لاَستخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيَّك يقول: إن سالماً ليحبُّ الله حبّاً لو لم يَخَفْه ما عصاه.

قيل له: فلو أنك عهدت إلى عبد الله، فإنه لها أهلٌ في دينه وفضله وقديم إسلامه؟

قال: بحسْب آل الخطاب أن يحاسَب منهم رجل واحد عن أُمّة محمد —[ولودِدْت أني نجوت من هذا الأمر كَفافاً لا ليَ ولا عليَّ.

ثم راحوا فقالوا: يا أمير المؤمنين، لو عَهِدْتَ!

فقال: قد كنتُ أجمعت بعد مقالتي لكم أن أُوَلِّيَ رجلاً أمْركم أرجو أن يحملكم على الحق ـ وأشار إلى عليّ ـ ثم رأيت أن لا أتحمَّلَها حيّاً وميّتاً؛ فعليكم بهؤلاء الرهط الذين قال فيهم النبي ﷺ: إنهم من أهل الجنة. منهم: سعيد بن زيد بن

عمرو بن نفيل، ولست مدخِله فيهم؛ ولكن الستة: علي، وعثمان ابنا عبد مناف؛ وسعد، وعبد الرحمن بن عوف خال رسول الله ﷺ؛ والزبير حواريّ رسول الله ﷺ وابن عمته، وطلحة الخير؛ فليختاروا منهم رجلاً، فإذا ولوكم والياً فأحسنوا مؤازرته.

فقال العباس لعليّ: لا تدخل معهم. قال: أكره الخلاف. قال: إذن ترى ما تكره!

فلما أصبح عمر دعا علياً وعثمان وسعداً والزبير وعبد الرحمن، ثم قال: إني نظرت فوجدتكم رؤساءَ الناس وقادتَهم، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وإني لا أخاف الناس عليكم، ولكني أخافكم على الناس؛ وقد قُبِض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض، فاجتمِعوا إلى حجرة عائشة بإذنها، فتشاوروا واختاروا منكم رجلاً، وليصلِّ بالناس صهيب ثلاثة أيام، ولا يأتِ اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم، ويحضركم عبد الله مشيراً ولا شيء له من الأمر، وطلحة شريككم في الأمر فإن قدم في الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فأمضوا أمركم. ومن لي بطلحة؟ فقال سعد: أنا لك به إن شاء الله.

ثم قال لأبي طلحة الأنصاري: يا أبا طلحة، إن الله قدأعزَّ بكم الإسلام، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار وكونوا مع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم.

وقال للمقداد بن الأسود الكندي: إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم.

وقال لصهيب: صلِّ بالناس ثلاثة أيام، وأدخل علياً وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن وطلحة إن حضر، بيتَ عائشة، واحضِرْ عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء، وقم على رءوسهم؛ فإن اجتمع خمسة على رأي واحد وأبى واحدٌ فاشدخ[1]

---

(١) شدخ: شجَ.

رأسه بالسيف، وإن اجتمع أربعة فرضوا وأبي اثنان فاضرب رأسيهما، فإن رضي ثلاثة رجلا وثلاثةٌ رجلا فحكِّموا عبد الله بن عمر؛ فإن لم يرضَوْا بعبد الله فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين، إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس. وخرجوا.

فقال عليّ لقومٍ معه من بني هاشم: إن أُطِيعَ فيكم قومُكم فلن يؤمِّركم أبداً. وتلقاه العباس فقال له: عدلت عنا؟ قال له وما أعلمك؟ قال: قرن بي عثمان ثم قال ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً إن رضي فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف؛ فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان، لا يختلفون فلو كان الآخران معي ما نفعاني.

فقال العباس: لم أدفعك في شيء إلا رجعت إلي مستاخراً بما أكره: أشرت عليك عند وفاة رسول الله ﷺ أن تسأله: فيمن هذا الأمر؟ فأبيت؛ وأشرت عليك بعد وفاة رسول الله ﷺ أن تعاجل الأمر، فأبيت، وأشرت عليك حين سماك عمر في الشورى أن لا تدخل معهم، فأبيت؛ فاحفظ عني واحدة: كل ما عرض عليك القوم فأمسك، إلى أن يولوك؛ وآحذر هذا الرهط؛ فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن الأمر حتى يقوم لنا به غيرنا.

فلما مات عمر واخرجت جنازته، تصدى علي وعثمان، أيهما يصلي عليه؛ فقال عبد الرحمن: كلاكمـــا يحب الإمرة!، لستما من هذا في شيء؛ هذا صهيب استخلفه عمر يصلي بالناس ثلاثاً حتى يجتمع الناس على إمام. فصلى عليه صهيب.

فلما دفن عمر جمع المقداد بن الأسود أهل الشورى في بيت عائشة بإذنها، وهم خمسة معهم ابن عمر، وطلحة غائب، وأمروا أبا طلحة فحجبهم؛ وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب، فحصبهما[1] سعد وأقامهما، وقال: تريدان أن تقولا: حضرنا وكنا من أهل الشورى!

---

(١) حصب: رمى بالحصباء.

فتنافس القوم في الأمر، وكثر بينهم الكلام، كل يرى أنه أحق بالأمر؛ فقال أبو طلحة: أنا كنتُ لأن تدفعوها أخوف مني لأن تَنافسوها! لا والذي ذهب بنفس عمر، لا أزيدكـم على الأيام الثلاثة التي أمر بها عمرو أو أجلس في بيتي.

فقال عبد الرحمن: أيكـم يخرج منها نفسه، ويتقلدها على أن يوليها أفضلكـم فلم يجبه أحد؛ فقال. فأنا أنخلع منها. قال عثمان. أنا أول من رضي؟ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول. عبد الرحمن أمين في الأرض، أمين في السماء. فقال القوم: رضينا. وعليٌّ ساكت، فقال: ما تقول يا أبا الحسن: قال. أعطِني موثقاً لتؤثرنّ الحق، ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رحم، ولا تألو الأمة نُصْحاً. قال: أعطوني مواثيقَكـم على أن تكونوا معي على من نكل، وأن ترضوا بما أخذتُ لكـم فتوثق بعضهم من بعض وجعلوها إلى عبد الرحمن، فخلا بعلي فقال: إنك أحقُّ بالأمر لقرابتك وسابقتك وحُسْنِ أثرك، ولم تَبعد؛ فمن أحق بها بعدك من هؤلاء؟ قال: عثمان. ثم خلا بعثمان فسأله عن مثل ذلك؛ فقال: علي. ثم خلا بسعد فقال: عثمان. ثم خلا بالزبير فقال: عثمان، فقال عمار بن ياسر لعبد الرحمن: إن أردتَ.

أبو الحسن قال: لما خاف عليٌّ بن أبي طالب عبد الرحمن بن عوف والزبير وسعدا أن يكونوا مع عثمان، لقي سعداً ومعه الحسن والحسين، فقال له: أسألك برحم ابنيَّ هذين من رسولِ الله ﷺ، وبرحم عمي حمزة منك ألاَّ تكون مع عبد الرحمن ظهيراً عليَّ لعثمان؛ فإني أُولي إليك بما لا يُدلي به عثمان.

ثم دار عبد الرحمن لياليَه تلك على مشايخ قريش يُشارهم، فكلهم يشير بعثمان؛ حتى إذا كان في الليلة التي استكمل في صبيحتها الأجل، أتى منزل المِسْوَرِ بن مَخرمة بعد هجعة من الليل، فأيقظه فقال: ألا أراك إلا نائماً ولم أذق في هذه الليالي نوماً! فانطلِق فادع لي الزبير وسعداً. فدعا بهما؛ فبدأ بالزبير في مؤخرة المسجد، فقال له: خلِّ ابنَي عبد مناف لهذا الأمر. فقال: نصيبي لعليّ. فقال لسعد: أنا وأنت كلالة[1]، فاجعل نصيبك لي فأختار. قال: أما إن اخترت نفسك فنعم، وأما إن

---

(١) الكلالة: أن يموت المرء وليس له والد أو ولد يرثه.

اخترت عثمان فعليٌّ أحبُّ إليَّ منه . قال: يا أبا إسحق، إني قد خلعت نفسي منها على أن أختار، ولو لم أفعل وجعل إليّ الخيار ما أردتها؛ إني رأيت كأني في روضة خضراء كثيرة العُشْب؛ فدخل فحل لم أر قَطّ فحلاً أكرم منه، فمرَّ كأنه سهم لا يلتفت إلى شيء مما في الروضة حتى قطعها؛ ودخل بعير يتلوه فاتبع أثره حتى خرج من الروضة؛ ثم دخل فحل عبقري يجر خطامه [1] يلتفت يميناً وشمالاً ويمضي قصد الأولين، حتى خرج من الروضة؛ ثم دخل بعير رابع فرتع في الروضة؛ ولا والله لا أكون البعير الرابع؛ ولا يقوم بعد أبي بكر وعمر أحد فيرضى الناس عنه!

ثم أرسل المسورَ إلى عليّ فناجاه طويلاً، وهو لا يشك أنه صاحب الأمر، ثم أرسل المسور إلى عثمان فناجاه طويلاً حتى فرق بينهما أذان الصبح.

فلما صلوا الصبح جمع إليه الرهط وبعث إلى من حضره من المهاجرين والأنصار، وإلى أمراء الأجناد، حتى ٱرتج المسجد بأهله؛ فقال: أيها الناس إن الناس قد أحبوا أن تلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا مَن أميرهم. فقال عمار بن ياسر: إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع علياً. فقال المقداد بن الأسود: صدق عمار، إن بايعت علياً، قلنا: سمعنا وأطعنا! قال ابن أبي سرح إن أردت أن لا تختلف قريشٌ فبايع عثمان. فقال عبد الله بن أبي ربيعة صدق؛ إن بايعت عثمان سمعنا وأطعنا! فشتم عمارٌ ابن أبي سرح، وقال: متى كنت تنصح المسلمين! فتكلم بنو هاشم وبنو أمية.

فقال عمار: أيها الناس، إن الله أكرمنا بنبيه، وأعزنا بدينه فأنّى تصرفون هذا الأمر عن بيت نبيكم؟

فقال له رجل من بني مخزوم: لقد عدوتَ طورك يا بن سمية، وما أنت وتأميرَ قريش لأنفسها!

فقال سعد بن أبي وقاص: يا عبد الرحمن، ٱفْرُغْ قبل أن يفتتن الناس.

---

(١) الخطام: الزمام.

فقال عبد الرحمن: إني قد نظرت وشاورت؛ فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً.

ودعا علياً فقال: عليك عهدُ الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخليفتين من بعده؟ قال أعمل بمبلغ علمي وطاقتي.

ثم دعا عثمان فقال: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة نبيه، وسيرة الخليفتين من بعده؟ فقال: نعم! فبايعه؛ فقال علي: حبوته محاباة، ليس ذا بأول يوم تظاهرتم فيه علينا؛ أما والله ما ولّيْتَ عثمان إلا ليردّ الأمر إليك، والله كلَّ يوم هو في شأن.

فقال عبد الرحمن: يا عليّ لا تجعل على نفسك سبيلاً، فإني قد نظرت وشاورت الناس، فإذا هم لا يعدلون بعثمان أحداً. فخرج علي وهو يقول: سيَبْلُغُ الكتابُ أَجَلَه.

فقال المقداد: أما والله لقد تركتَه من الذين يقضون بالحق وبه يَعدِلون! فقال: يا مقداد، والله لقد اجتهدت للمسلمين. قال: لئن كنت أردت بذلك الله فأثابك الله ثواب المحسنين.

ثم قال المقداد: ما رأيت مثل ما أُوتي أهلُ هذا البيت بعد نبيهم؛ إني لأعجب من قريش أنهم تركوا رجلاً ما أقول إن أحداً أعلمُ منه، ولا أقْضَى بالعدل، ولا أَعْرَفَ بالحق؛ أما والله لو أجد أعواناً! فقال له عبد الرحمن: يا مقداد، اتق الله فإني أخشى عليك الفتنة!

قال: وقدم طلحة في اليوم الذي بويع فيه عثمان، فقيل له: إن الناس قد بايعوا عثمان. فقال: أكل قريش رضوا به؟ قالوا: نعم. فأتى عثمانَ فقال له عثمان: أنت على رأس أمرك. قال طلحة: فإن أبيتُ أتردُّها؟ قال: نعم. قال: أكل الناس بايعوك؟ قال: نعم. قال: قد رضيت؛ لا أرغب عما اجتمعت الناس عليه. وبايَعه.

وقال المغيرة بن شعبة لعبد الرحمن: يا أبا محمد، قد أصبت إذا بايعتَ عثمان، ولو

بايعت غيره ما رضيناه. قال: كذبت يا أعور! لو بايعتُ غيره لبايعتَه وقلتَ هذه المقالة.

وقال عبد الله بن عباس: ماشيت عمر بنَ الخطاب يوماً، فقال لي: يا بن عباس، ما يمنع قومَكم منكم وأنتم أهل البيت خاصة؟ قلت: لا أدري! قال: لكني أدري؛ إنكم فضَلْتُموهم بالنبوة، فقالوا: إن فضَلوا بالخلافة مع النبوة لم يُبْقوا لنا شيئاً، وإنّ أفضل النصيبين بأيدكم، بل ما إخالها إلا مجتمعة لكم وإن نزلت على رغم قريش.

فلما أحدث عثمان ما أحدث من تأمير الأحداث من أهل بيته على الجلة[1] من أصحاب محمد، قيل لعبد الرحمن: هذا عملك! قال: ما ظننت هذا! ثم مضى، ودخل عليه وعاتبه، وقال: إنما قدَّمتك على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر، فخلفتَها وحابيت أهل بيتك وأوطأتهم رقابَ المسلمين. فقال: إن عمر كان يَقطع قرابتَه في الله، وأنا أصل قرابتي في الله. قال عبد الرحمن: لله عليّ ألا أكلِّمك أبداً! فلم يكلمه أبداً حتى مات. ودخل عليه عثمان عائداً[2] له في مرضه، فتحوّل عنه إلى الحائط ولم يكلمه.

ذكروا أن زياداً أوفد ابن حُصين على معاوية، فأقام عنده ما أقام، ثم إن معاوية بعث إليه ليلاً فخلا به، فقال له: يا ابن حصين، قد بلغني أن عندك ذهناً وعقلاً؛ فأخبرني عن شيء أسألك عنه قال: سلني عما بدا لك. أخبرني ما الذي شتَّتَ أمرَ المسلمين وفرّق أهواءهم وخالف بينهم؟ قال: نعم، قتلُ النَّاس عثمان قال: ما صنعتَ شيئاً. قال: فمَسير عليّ إليك وقتاله إياك. قال: ما صنعت شيئاً قال: فمسيرُ طلحة والزبير وعائشة وقتالُ عليّ إياهم قال ما صنعت شيئاً. قال: ما عندي غير هذا يا أمير المؤمنين. قال: فأنا أخبرك، إنه لم يشتت بين المسلمين ولا فرّق أهواءهم ولا خالف بينهم إلا الشورى التي جعلها عمر إلى ستة نفر؛ وذلك أن الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، فعمل بما أمره الله به ثم قبضه

(١) الجلة من أصحابه: اكثرهم. (٢) عائداً: زائراً.

الله إليه، وقدَّم أبا بكر للصلاة فرضوه لأمر دنياهم إذ رضيه رسول الله ﷺ لأمر دينهم، فعمل بسنة رسول الله ﷺ، وسار بسيره حتى قبضه الله، واستخلف عمر فعَمل بمثل سيرته، ثم جعلها شورى بين ستة نفر، فلم يكن رجلٌ منهم إلا رجاها لنفسه، ورجاها له قومه، وتطلعتْ إلى ذلك نفسه: ولو أن عمرَ استَخلَف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك اختلاف. وقال المغيرة بن شعبة: إني لعند عمر بن الخطاب ليس عنده أحد غيري، إذ أتاه آت فقال: هل لك يا أمير المؤمنين في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يزعمون أن الذي فعل أبو بكر في نفسه وفيك لم يكن له، وأنه كان بغير مشورة ولا مؤامرة؟ وقالوا تعالوا نتعاهد ألا نعود إلى مثلها. قال عمر: وأين هم؟ قال: في دار طلحة. فخرج نحوهم وخرجت معه وما أعلمه يبصرني من شدّة الغضب، فلما رأوه كرهوه وظنوا الذي جاء له، فوقف عليهم وقال: أنتم القائلون ما قلتم؟ والله لن تتحابوا حتى يتحابَّ الأربعة: الإنسان والشيطان، يُغْويه وهو يلعنه؛ والنار والماء يُطفئها وهي تحرِقه؛ ولم يأن لكم بعد وقد آن ميعادكم ميعاد المسيح متى هو خارج. قال: فتفرقوا فسلك كل واحد منهم طريقاً؛ قال المغيرة: ثم قال لي: أدرك ابن أبي طالب فاحبِسْه عليَّ. فقلت: لا يفعل أمير المؤمنين وهو مُغِدّ[1]، فقال: أدركه وإلا قلت لك يا بن الدباغة. قال: فأدركته فقلت له: قف مكانك لإمامك وآحلم، فإنه سلطان وسيندم وتندم. قال: فأقبل عمر فقال: والله ما خرج هذا الامر إلا من تحت يدك. قال عليّ: اتق أن لا تكون الذي نُعطيك فنفتنك. قال: وتحب أن تكون هو؟ قال: لا، ولكننا نذكرك الذي نسيت. فالتفت إليّ عمر فقال: انصرف فقد سمعت منا عند الغضب ما كفاك. فتنحيت قريباً، وما وقفت إلا خشية أن يكون بينهما شيء فأكون قريباً، فتكلما كلاماً غير غضبانين ولا راضين ثم رأيتهما يضحكان وتفرّقا؛ وجاءني عمر، فمشيت معه وقلت: يغفر الله لك، أغضِبْتَ؟ قال: فأشار إلى عليّ وقال: أما والله لولا دُعابة فيه ما شككت في ولايته وإن نزلت على رغم أنف قريش.

---

(١) مغدّ: غضبان.

العتبي عن أبيه: أن عتبة بن أبي سفيان قال: كنت مع معاوية في دار كندة، إذ أقبل الحسن والحسين ومحمد، بنو علي بن أبي طالب، فقلت: يا أمير المؤمنين إن لهؤلاء القوم أشعاراً وأبشاراً، وليس مثلهم كذب، وهم يزعمون أن أباهم كان يعلم. فقال: إليك من صوتك فقد قرب القوم، فإذا قاموا فذكرني بالحديث، فلما قاموا قلت: يا أمير المؤمنين ما سألتك عنه من الحديث؟ قال: كل القوم كان يعلم وكان أبوهم من أعلمهم. ثم قال: قدمت على عمر بن الخطاب، فإني عنده إذ جاءه عليٌّ وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف فاستأذنوا، فأذن لهم، فدخلوا وهم يتدافعون ويضحكون، فلما رآهم عمر نكس[1]، فعلموا أنه على حاجة، فقاموا كما دخلوا؛ فلما قاموا أتبعهم بصره فقال: فتنة أعوذ بالله من شرِّهم، وقد كفاني الله شرهم! قال: ولم يكن عمر بالرجل يُسأل عما لا يفسِّر؛ فلما خرجت جعلت طريقي على عثمان؛ فحدثته الحديث وسألته الستر، قال: نعم، على شريطة. قلت: هي لك. قال: تسمع ما أُخبرك به وتسكت إذا سكتُّ. قلت: نعم. قال: ستة يُقدح بينهم زناد الفتنة، يجري الدم منهم على أربعة. قال: ثم سكت، وخرجت إلى الشام، فلما قدمت على عمر فحدث من أمره ما حدث - فلما مضت الشورى- ذكرت الحديث؛ فأتيت بيت عثمان وهو جالس وبيده قضيب فقلت: يا أبا عبد الله، تذكر الحديث الذي حدثتني؟ قال: فأَزَمَ[2] على القضيب عضّاً؛ ثم أقلع عنه وقد أثر فيه، فقال: ويحك يا معاوية! أي شيء ذكرتني! لولا أن يقول الناس: خاف أن يؤخذ عليه، لخرجت إلى الناس منها! قال: فأبى قضاءُ الله إلا ما ترى.

ومما نقم الناس على عثمان: أنه آوى طريد رسول الله ﷺ الحكم بن أبي العاص - ولم يُؤْوِه أبو بكر ولا عمر - وأعطاه مائة ألف؛ وسيَّر أبا ذرٍّ إلى الرَّبَذة، وسيَّر عامر ابن عبد قيس من البصرة إلى الشام؛ وطلب منه عبد الله بن خالد بن أَسيد صلة فأعطاه أربعمائة ألف؛ وتصدّق رسول الله ﷺ بمهزون - موضع سوق المدينة - على

---

(١) نكس: عبس وبسر.
(٢) أزم: عضّ بالفم كلّه عضاً شديداً.

المسلمين، فأقطعها الحرث بن الحكم أخا مروان؛ وأقطع فَدَك مروان، وهي صدقة لرسول الله ﷺ؛ وافتتح أفريقية؛ فأخذ خُمس الفيء فوهبه لمروان؛ فقال عبد الرحمن بن حسل الجُمَحِي:

فأحلِف بالله ربِّ الأنا ... م ما تَرك آلله شيئاً سُدَى
ولكن خُلقْت لنا فتْنةً ... لكي نُبْتلى بك أو تُبتلى
فإنَّ الأمينيْن قد بيَّنا ... مَناراً لحقٍّ عليه الهدى
فما أخَذا درهماً غِيلةً ... وما تَركا درهماً في هوى
وأعطيْتَ مَرْوان خُمْس العبا ... د هيهات شأوكَ ممَّنْ شَأَى

نسب عثمان وصفته

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس: وأمها [أمُّ حكيم] البيضاء آبنة عبد المطلب بن هاشم عمة النبي ﷺ.

وكان عثمان أبيض مشرباً صفرة، كأنه فضة وذهب؛ حسن القامة، حسن الساعدين، سبط[1] الشعر، أصلع الرأس، أجمل الناس إذا اعتمّ، مشرف الأنف، عظيم الأرنبة، كثير شعر الساقين والذراعين، ضخم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين. ولما أسنّ شدّ أسنانه بالذهب، وسلس بوله فكان يتوضأ لكل صلاة.

ولي الخلافة منسلخ ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين.

وقتل يوم الجمعة صبيحة عيد الأضحى سنة خمس وثلاثين.

وفي ذلك يقول حسان:

ضَحَّوْا بأَشمط عُنوانُ السُّجود به ... يُقطِّع الليل تسبيحاً وقُرآنا[2]
لتُسمَعنّ وشيكاً في ديارهم ... الله أكبر يا ثارات عثمانا

(١) السبط من الشعر: المسترسل غير الجعد. (٢) الأشمط: المختلط سواد شعره ببياض.

فكانت ولايته آثنتي عشرة سنة وستة عشر يوماً ، [ومات] وهو ابن أربع وثمانين سنة .

وكان على شرطته ـ وهو أول من آتخذ صاحب شرطة ـ عبيد الله بن قُنفذ ، وعلى بيت المال ، عبد الله بن أرقم ، ثم استعفاه ؛ وكاتبه مروان ، وحاجبه حمران مولاه .

فضائل عثمان

سالم بن عبد الله بن عبد الله بن عمر قال : أصاب الناس مجاعةٌ في غزوة تبوك ، فاشترى عثمان طعاماً على ما يصلح العسكر ، وجهز به عِيراً [١] ؛ فنظر النبي ﷺ إلى سواد مقبل . فقال : هذا جمل أشقر قد جاءكم بميرة . فأنيخت الركائب [٢] ، فرفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء وقال : اللهم إني قد رضيت عن عثمان فآرض عنه !

وكان عثمان حليماً سخياً محبَّباً إلى قريش ، حتى كان يقال :

أحبُّـــــــــك والرحمن حـــبَّ قـــريش لعثمان

وزوّجه النبي ﷺ رقية آبنته ، فماتت عنده ؛ فزوّجه أم كلثوم آبنته أيضاً .

الزهري عن سعيد بن المسيِّب ، قال : لما ماتت رقية جزِع عثمان عليها ، وقال : يا رسول الله ، آنقطع صهري منك ! قال : إن صهرك مني لا ينقطع ، وقد أمرني جبريل أن أُزوِّجك أختها بأمر الله .

عبد الله بن عباس قال : سمعت عثمان بن عفان يقول : دخل علي رسول الله ﷺ في هذا البيت ، فرآني ضجيعاً لأم كلثوم ، فاستعبر ، فقلت : والذي بعثك بالحق ما أضجعت عليه أنثى بعدها ! فقال : ليس لهذا استعبرت ؛ فإن الثياب للحي وللميت الحجر ؛ ولو كن يا عثمان عشراً لزوّجتكهن واحدة بعد واحدة .

---

(١) العير : ما جلب عليه الطعام من قوافل الإبل والبغال والحمير .

(٢) الركائب : جمع الركاب وهو ما توضع فيه الرجل .

وعرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على عثمان، فأبى منها؛ فشكاه عمر إلى النبي ﷺ، فقال: «سيزوِّج الله ابنتك خيراً من عثمان، ويزوِّج عثمان خيراً من ابنتك»! فتزوج رسول الله ﷺ حفصة، وزوّج ابنته عثمان بن عفان.

ومن حديث الشعبي أن النبي عليه السلام دخل عليه عثمان فسوّى ثوبه عليه، وقال: «كيف لا أستحي ممن تستحي منه الملائكة».

مقتل عثمان بن عفان

الرياشي عن الأصمعي قال: كان القواد الذين ساروا إلى المدينة في أمر عثمان أربعة: عبد الرحمن بن عديس البلَوِيّ، وحكيم بن جبلة العبدي، والأشتر النخعي، وعبد الله بن بديل الخزاعي، فقدموا المدينة فحاصروه، وحاصره معهم قوم من المهاجرين والأنصار حتى دخلوا عليه فقتلوه والمصحف بين يديه، وهو يقرأ يوم الجمعة صبيحة النحر، وأرادوا أن يقطعوا رأسه ويذهبوا به، فرمت نفسها عليه امرأتاه: نائلةُ بنت الفرافصة، و[رملةُ] ابنة شيبة بن ربيعة، فتركوه وخرجوا.

فلما كان ليلة السبت انتدب لدفنه رجال، منهم جبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وأبو الجهم بن حُذيفة، وعبد الله بن الزبير، فوضعوه على باب صغير، وخرجوا به إلى البقيع، ومعهم نائلة بنت الفرافصة بيدها السراج، فلما بلغوا به البقيع منعهم من دفنه فيه رجال من بني ساعدة، فردّوه إلى حشِّ كوكب، فدفنوه فيه. وصلى عليه جبير بن مطعم؛ ويقال: حكيم بن حزام؛ ودخلت القبر نائلة بنت الفرافصة، وأُم البنين بنت عُيينة، زوجتاه، وهما دلَّتاهُ في القبر.

والحش: البستان. وكان حش كوكب اشتراه عثمان، فجعله أولاده مقبرة للمسلمين.

يعقوب بن عبد الرحمن، عن محمد بن عيسى الدمشقي، عن محمد بن عبد الرحمن ابن أبي ذئب، عن محمد بن شهاب الزهري، قال: قلتُ لسعيد بن المسيب: هل

أنت مُخبِري كيف قُتِل عثمان: ما كان شأن الناس وشأنه، ولِمَ خذله أصحابُ محمد ﷺ؟

فقال: قُتِل عثمان مظلوماً، ومن قتله كان ظالماً، ومن خذَلَه كان معذوراً.

قلت: وكيف ذاك؟

قال: إن عثمان لما ولِيَ كره ولايتَه نفر من أصحاب رسول الله ﷺ؛ لأن عثمان كان يحب قومه، فوَلِيَ الناس اثنتي عشرة سنة، وكان كثيراً ما يولِّي بني أمية، ممن لم يكن له من رسول الله ﷺ صحبة، وكان يجيء من أمرائه ما ينكره أصحابُ محمد، فكان يُسْتَعْتَبُ فيهم فلا يَعْزِلُهم؛ فلما كان في الحِجج الآخرة استأمر بني عمه فخرجوا، فولاهم وأمرهم بتقوى الله وولى عبد الله بن أبي سرح مصر،فمكث عليها سنين، فجاء أهل مصر يشكونه ويتظلمون منه. ومن قِبَلِ ذلك كانت من عثمان هناة إلى عبد الله بن مسعود، وأبي ذر، وعمار بن ياسر، فكانت هذيل وبنو زهرة في قلوبهم ما فيها لابن مسعود، وكانت بنو غفار وأحلافها ومَنْ غَضِب لأبي ذر في قلوبهم ما فيها، وكانت بنو مخزوم قد حنقت على عثمان بما نال عمار بن ياسر؛ وجاء أهل مصر يشكون من ابن سرح، فكتب إليه عثمان كتاباً يتهدد، فأبى ابن سرح أن يقبل ما نهاه عثمان عنه، وضرب رجلاً ممن أتى عثمانَ فقتله، فخرج من أهل مصر سبعمائة رجل إلى المدينة، فنزلوا المسجد، وشكوا إلى أصحاب رسول الله ﷺ في مواقيت الصلاة ما صنع ابن أبي سرح؛ فقام طلحة بن عبيد الله فكلم عثمان بكلام شديد، وأرسلت إليه عائشة: قد تقدم إليك أصحاب رسول الله ﷺ وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت أن تعزله، فهذا قد قتل منهم رجلاً؛ فأنصِفْهم من عاملك. ودخل عليه عليّ وكان متكلِّمَ القوم. فقال: إنما سألوك رجلاً مكان رجل، وقد ادّعَوْا قِبَلَه دماً؛ فاعزله عنهم، واقض بينهم، وإن وجب عليه حق فأنصفهم منه. فقال لهم: اختاروا رجلاً أُوَلِّه عليكم مكانه. فأشار الناس عليه بمحمد بن أبي بكر فقالوا: استعمِل علينا محمد بن أبي بكر. فكتب عهده وولاّه، وأخرج معهم عدة من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين أهل مصر وابن أبي سرح، فخرج محمد ومن معه؛ فلما كان

على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة، إذا هم بغلام أسود على بعير يخبط الأرض خبطاً كأنه رجل يطلُب أو يُطْلب، فقال له أصحاب محمد: ما قصتك وما شأنك؟ كأنك هارب أو طالب! فقال: أنا غلام أمير المؤمنين، وجَّهني إلى عامل مصر. فقالوا: هذا عامل مصر معنا. قال: ليس هذا أريد. وأُخْبِرَ بأمره محمدُ بن أبي بكر، فبعث في طلبه فأُتِيَ به؛ فقال له: غُلامُ مَن أنت؟ قال: فأقبل مرة يقول: غلام أمير المؤمنين، ومرة: غلام مروان؛ حتى عرفه رجل منهم أنه لعثمان، فقال له محمد: إلى مَنْ أُرْسِلتَ؟ قال: إلى عامل مصر. قال: بماذا؟ قال: برسالة. قال: معك كتاب؟ قال: لا. ففتشوه فلم يوجد مع شيء إلا إداوة[1] قد يبست فيها شيء يتقلقل، فحركوه ليخرج فلم يخرج، فشقُّوا الإداوة، فإذا فيها كتاب من عثمان إلى ابن أبي سرح، فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار وغيرهم، ثم فك الكتاب بمحضر منهم، فإذا فيه:

إذا جاءك محمد وفلان فاحْتَل لقتلهم، وأبْطِلْ كتابهم، وقرّ على عملك حتى يأتيَك رأيي، واحتبِس من جاء يتظلم منك، ليأتيَك في ذلك رأيي إن شاء الله.

فلما قرءوا الكتاب فزعوا وعزموا على الرجوع إلى المدينة، وختم محمد الكتاب بخواتم القوم الذين أرسلوا معه، ودفعوا الكتاب إلى رجل منهم، وقدموا المدينة، فجمعوا علياً وطلحة والزبير وسعداً ومَن كان من أصحاب رسول الله ﷺ؛ ثم فكوا الكتاب بمحضر منهم وأخبروهم بقصة الغلام، وأقرءوهم الكتاب فلم يبق أحدٌ في المدينة إلا حنِق على عثمان، وازداد من كان منهم غاضباً لابن مسعود وأبي ذر وعمار بن ياسر، غضباً وحنقاً؛ وقام أصحابُ النبي عليه السلام فلحقوا منازلهم، ما منهم أحد إلا وهو مغتمٌ بما قرءوا في الكتاب، وحاصر الناسُ عثمان، وأجلب عليه محمد بن أبي بكر بني تيم وغيرَهم وأعانه طلحة بن عبيد الله على ذلك، وكانت عائشة تحرِّضه كثيراً، فلما رأى ذلك عليّ بعث إلى طلحة والزبير وسعد وعمار، ونفرٍ من

---

(١) الإداوة: إناء صغير يحمل فيه الماء.

أصحاب رسول الله ﷺ، كلُّهم بَدْرِيٌّ؛ ثم دخل على عثمان ومعه الكتاب والغلام والبعير، وقال له عليّ: هذا الغلام غلامك؟ قال: نعم. والبعير بعيرك؟ قال: نعم والخاتم خاتمك؟ قال: نعم. قال: فأنت كتبت الكتاب؟ قال: لا! وحلف بالله: ما كتبتُ الكتاب، ولا أَمَرْتُ به، ولا وجهت الغلام إلى مِصْرَ قطٌّ. وأما الخط فعرفوا أنه خط مروان، فشكُّوا في أمر عثمان، وسألوه أن يدفع إليهم مروان؛ فأبى؛ وكان مروان عنده في الدار؛ فخرج أصحاب محمد من عنده غضاباً، وشكوا في أمر عثمان وعلموا أنه لا يحلف باطلاً، إلا أن قوماً قالوا: لا نبريء عثمان، إلا أن يدفع إلينا مروان، حتى نمتحنه ونعرف أمر هذا الكتاب، وكيف يأمر بقتل رجال من أصحاب محمد ﷺ بغير حق! فإن يك عثمان كتبه عزلناه، وإن يك مروان كتبه على لسانه نظرنا في أمره. ولزموا بيوتهم، وأبَى عثمان أن يُخرج إليهم مروان وخشي عليه القتل، وحاصر الناس عثمان ومنعوه الماء؛ فأشرف عليهم؛ فقال: أفيكم عليّ؟ قالوا: لا. قال: فيكم سعد؟ قالوا: لا. فسكت ثم قال: ألا أحد يُبْلغ علياً فيسقينا ماء؟ فبلغ ذلك علياً، فبعث إليه ثلاث قرب مملوءة ماء، فما كادت تصل إليه، وجرح من سببها عدة من موالي بن هاشم وبني أمية حتى وصل إليه الماء؛ فبلغ علياً أن عثمان يراد قتله، فقال: إنما أردنا منه مروان، فأما قتلُ عثمان فلا. وقال للحسن والحسين: اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان، فلا تدعا أحداً يصل إليه بمكروه. وبعث الزبيرُ ولده، وبعث طلحة ولده على كُرْه منه، وبعث عدةٌ من أصحاب رسول الله ﷺ أبناءهم ليمنعوا الناس أن يدخلوا على عثمان، وسألوه إخراج مروان. ورمى الناس عثمان بالسهام حتى خُضب الحسن بن علي بالدماء على بابه، وأصاب مروان سهمٌ في الدار، وخُضب محمد بن طلحة، وشُجَّ قنبر مولى عليّ، وخشي محمد بن أبي بكر أن تغضب بنو هاشم لحال الحسن والحسين فيثيرونها فأخذ بِيدَيْ رجلين فقال لهما: إذا جاءت بنو هاشم فرأوا الدماء على وجه الحسن والحسين كشف الناس عن عثمان وبطل ما نريد، ولكن مروا بنا حتى نتسوّر[1] عليه الدار فنقتله من غير أن يعلم أحد.

---

(١) تسوّر الحائط: أي علاه وتسلقه.

فتسوّر محمد بن أبي بكر وصاحباه من دار رجل من الأنصار. ويقال: من دار عمرو ابن حزم الأنصاري، ومما يدل على ذلك قول الأحوص:

لا تَـرْثِيَـنَّ لحزْمـيٍّ ظَفِـرتَ بـه طرّاً ولو طُـرِح الحزْمـي في النـارِ
الباخِسِينَ[1] بمرْوانٍ بذي خُشُـبٍ والمدْخِلين على عثمانَ في الدار

فدخلوا عليه وليس معه إلا امرأته نائلة بنت الفرافصة، والمصحف في حجره، ولا يَعلم أحد ممن كان معه، لأنهم كانوا على البيوت، فتقدّم إليه محمد [ابن أبي بكر] وأخذ بلحيته. فقال له عثمان: أرسل لحيتي يا بن أخي، فلو رآك أبوك لساءه مكانك! فتراخت يده عن لحيته، وغمز الرجلين فوجآه بمشاقص[2] معهما حتى قتلاه، وخرجوا هاربين من حيث دخلوا؛ وخرجت امرأته فقالت: إن أمير المؤمنين قد قُتل! فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما فوجدوا عثمان مذبوحاً؛ فأكبُّوا عليه يبكون. وبلغ الخبرُ علياً وطلحة والزبير وسعداً ومن كان بالمدينة: فخرجوا وقد ذهبت عقولهم حتى دخلوا على عثمان فوجدوه مقتولاً؛ فاسترجعوا؛ وقال علي لابنيه: كيف قُتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟ ورفع يده فلطم الحسين وضرب صدر الحسن، وشتم محمدَ ابن طلحة، ولعن عبدَ الله بن الزبير؛ ثم خرج عليّ وهو غضبان، يرى أن طلحة أعان عليه، فلقيه طلحة فقال: مالك يا أبا الحسن ضربتَ الحسن والحسين؟ فقال عليك وعليهما لعنة الله! يُقتل أمير المؤمنين ورجل من أصحاب النبي ﷺ بَدْريٌّ ولم تُقَم بينة ولا حجة؟ فقال طلحة: لو دَفع مروان لم يُقتل. فقال: لو دَفع مروان قتل قبل أن تثبت عليه حجة! وخرج عليّ فأتى منزله؛ وجاءه القوم كلهم يُهرَعون إليه: أصحاب محمد وغيرهم، يقولون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. فقال: ليس ذلك إلا لأهل بدر، فمن رضي به أهل بدر فهو خليفة. فلم يبق أحد من أهل بدر إلا أتى علياً، فقالوا: ما نرى أحداً أولى بها منك، فمُدّ يدك نبايعك. فقال: أين طلحة والزبير؟ فكانا أول من بايعه، طلحة بلسانه، وسعد بيده.

---

(١) يقال: نخس به: هيّجه وأزعجه أو طرده.

(٢) المشاقص: جمع مشقص، وهو السهم ذو النصل العريض.

فلما رأى ذلك عليّ خرج إلى المسجد فصعد المنبر؛ فكان أول من صعد طلحة فبايعه بيده، وكانت أُصبعه شلاّء، فتطير منها عليّ، وقال: ما أخلَقه أن ينكث! ثم بايعه الزبير وسعد وأصحاب النبي جميعاً؛ ثم نزل، ودعا الناس، وطلب مروان فهرب منه.

وخرجت عائشة باكية تقول: قتل عثمان مظلوماً! فقال لها عمار: أنت بالأمس تُحرضين عليه، واليوم تبكين عليه! وجاء عليّ إلى امرأة عثمان فقال لها: مَن قتل عثمان؟ قالت: لا أدري، دخل رجلان لا أعرفهما إلا أن أرى وجوههما، وكان معهما محمد بن أبي بكر. وأخبرتْه بما صنع محمد بن أبي بكر؛ فدعا عليٌّ بمحمد، فسأله عما ذكرت امرأة عثمان، فقال محمد: لم تكذبْ؛ وقد والله دخلتُ عليه وأنا أريد قتله، فذكر لي أبي، فقمت وأنا تائب، والله ما قتلتُه ولا أمسكته! فقالت امرأة عثمان: صدق، ولكنه أدخلهما.

المعتمر عن أبيه عن الحسن، أن محمد بن أبي بكر أخذ بلحية عثمان، فقال له: يا ابن أخي؛ لقد قعدتَ مني مقعداً ما كان أبوك ليقعده!

وفي حديث آخر أنه قال: يا بن أخي، لو رآك أبوك لساءه مكانك! فاسترخت يده. وخرج محمد فدخل عليه رجل والمصحف في حجره، فقال له: بيني وبينك كتاب الله! فخرج وتركه، ثم دخل عليه آخر، فقال: بيني وبينك كتاب الله! فأهوى إليه بالسيف، فاتقاه بيده، فقطعها؛ فقال: أما إنها أولُ يدٍ خَطَّت المفصَّل[1].

القوّاد الذين أقبلوا إلى عثمان

الأصمعي عن أبي عوانة قال: كان القواد الذين أقبلوا إلى عثمان: علقمة بن عثمان، وكنانة بن بشر، وحكيم بن جبلة، والأشتر النخعي، وعبد الله بن بديل.

وقال أبو الحسن: لما قدم القواد قالوا لعليّ: قم معنا إلى هذا الرجل. قال: لا

(١) المفصل: القرآن.

والله لا أقوم معكـم. قالوا: فلِمَ كتبتَ إلينا؟ قال: والله ما كتبتُ إليكـم كتاباً قط. قال: فنظر القوم بعضُهم إلى بعض، وخرج عليٌّ من المدينة.

الأعمش عن عيينة عن مسروق قال: قالت عائشة: مُصْتُمُوه موْصَ[1] الإناء حتى تركتموه كالثوب الرخيض[2]، نقيّاً من الدنس؛ ثم عدوتم فقتلتموه! قال مروان: فقلت لها: هذا عملك، كتبتِ إلى الناس تأمرينهم بالخروج عليه! فقالت: والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون، ما كتبتُ إليهم بسوادٍ في بياض، حتى جلستُ في مجلسي هذا.

فكانوا يرون أنه كُتب على لسان عليّ، وعلى لسانها، كما كُتب أيضاً على لسان عثمان مع الأسْود إلى عامل مصر؛ فكان اختلاق هذه الكتب كلها سبباً للفتنة.

وقال أبو الحسن: أقبل أهل مصر عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي، وأهل البصرة عليهم حكيم بن جبلة العبدي، وأهل الكوفة عليهم الأشتر ـ واسمه مالك بن الحارث النخعي ـ في أمر عثمان، حتى قدموا المدينة.

قال أبو الحسن: لما قدم وفد أهل مصر، دخلوا على عثمان فقالوا: كتبت فينا بكذا وكذا؟ قال: إنما هما اثنتان: أن تقيموا رجلين من المسلمين، أو يميني بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبتُ ولا أمليتُ ولا علمتُ؛ وقد يُكتب الكتاب على لسان الرجل، ويُنقش الخاتم على الخاتم. قالوا: قد أحل الله دمك! وحصروه في الدار، فأرسل عثمان إلى الأشتر فقال: ما يريد الناس مني؟ قال: واحدة من ثلاث ليس عنها بُدٌّ. قال: ما هي؟ قال: يخيِّرونك بين أن تخلع لهم أمرهم، فتقول: هذا أمركـم فقلِّدوه من شئتم؛ وإما أن تقتص من نفسك؛ فإن أبيت [هاتين] فالقوم قاتلوك. قال: أما أن أخلع لهم أمرهم فما كنت لأخلع سربالاً سربلنيه الله فتكون سنة من بعدي، كلما كره القوم إمامهم خلعوه: وأما أن أقتص من نفسي فوالله لقد علمت أن صاحبي بين

(١) الموص: غسل لين، والدلك باليد.

(٢) الرخيض: المغسول.

يدي قد كانا يعاقبان، وما يقوى بدني على القصاص؛ وأما أن تقتلوني، فلئن قتلتموني لا تتحابون بعدي أبداً، ولا تصلون بعدي جميعاً أبداً.

وقال أبو الحسن: فوالله لن يزالوا على النوى(١) جميعاً وإن قلوبهم مختلفة.

وقال أبو الحسن: أشرف عليهم عثمان وقال: إنه لا يحل سفك دم امرىء مسلم إلا في إحدى ثلاث: كفرٌ بعد إيمان، أو زنا بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس؛ فهل أنا في واحدة منهن؟ فما وجد القوم له جواباً. ثم قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ كان على أحُد ومعه تسعة من أصحابه أنا أحدهم فتزلزل الجبل حتى همت أحجاره أن تتساقط، فقال: اسكن أحد فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد؟ قالوا: اللهم نعم. قال: شهدوا لي ورب الكعبة.

قال أبو الحسن: أشرف عليهم عثمان فقال: السلام عليكم. فما ردّ أحد عليه السلام، فقال: أيها الناس، إن وجدتم في الحق أن تضعوا رجلي في القبر فضعوها فما وجد القوم له جواباً؛ ثم قال: أستغفر الله إن كنت ظَلمتُ وقد غفرتُ إن كنتُ ظلمت!

يحيى بن سعيد عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: كنت مع عثمان في الدار، فقال: أعزم على كل من رأى أن لي عليه سمعاً وطاعة أن يكفَّ يده ويُلْقِي سلاحه. فألقى القوم أسلحتهم.

ابن أبي عروبة عن قتادة، أن زيد بن ثابت دخل على عثمان يوم الدار، فقال: إن هذه الأنصار بالباب وتقول: إن شئت كنا أنصارَ الله مرتين! قال: لا حاجة لي في ذلك؛ كفروا.

ابن أبي عروبة عن يعلى بن حكيم عن نافع، أن عبد الله بن عمر لبس درعه وتقلد سيفه يوم الدار، فعزم عليه عثمان أن يخرج ويضع سلاحه ويكف يده، ففعل.

---

(١) النوى: البعد.

محمد بن سيرين قال: قال سليط: نهانا عثمان عنهم، ولو أذن لنا عثمان فيهم لضربناهم حتى نخرجهم من أقطارنا.

ما قالوا في قتلة عثمان

العتبي: قال رجل من بني ليث: لقيت الزبير قادماً، فقلت: أبا عبد الله، ما بالك؟ قال: مطلوب مغلوب، يغلبني ابني ويطلبني ذنبي! قال: فقدمت المدينة فلقيت سعد بن أبي وقاص، فقلت: أبا إسحق، من قتل عثمان؟ قال: قتله سيفٌ سلَّتْه عائشة، وشحذَه طلحة، وسمَّه علي! قلت: فما حال الزبير؟ قال: أشار بيده، وصمت بلسانه.

وقالت عائشة: قتل الله مُذَمَّماً بسعيه على عثمان ـ تريد محمداً أخاها ـ وأهرق دم ابن بديل على ضلالته، وساق إلى أعْيَن بني تميم هوانا في بيته، ورمى الأشتر بسهم من سهامه لا يشوى: قال: ما منهم أحد إلا أدركتْه دعوة عائشة.

سفيان الثوري قال: لقي الأشتر مسروقاً فقال له: أبا عائشة، مالي أراك عضبانَ على ربك من يوم قتل عثمان بن عفان؟ لو رأيتَنا يوم الدار ونحن كأصحاب عجل بني إسرائيل.

وقال سعد بن أبي وقاص لعمار بن ياسر: لقد كنتَ عندنا من أفاضل أصحاب محمد، حتى [إذا] لم يبق من عمرك إلا ظِمء[1] الحِمار فعلت وفعلت! يعرض له بقتل عثمان، قال عمار: أي شيء أحب إليك: مودة على دَخَل أو هَجْرٌ جميل قال: هجرٌ جميل! قال: فـلله عليَّ أن لا أكلِّمَك أبداً!

دخل المغيرة بن شعبة على عائشة فقالت: يا أبا عبد الله لو رأيتني يوم الجمل قد نفذت النصال هَوْدَجي حتى وصل بعضها إلى جلدي! قال لها المغيرة: وددت والله أن بعضها كان قتلك! قالت يرحمك الله! ولم تقول هذا؟ قال: لعلها تكون كفَّارة في سعيك على عثمان! قالت: أما والله لئن قلت ذلك لما علم الله أني أردت قتله، ولكن

(١) الظمء: ما بين الشربتين، طويلا كان او قصيرا.

علم الله أني أردت أن يقاتل فقوتلت، وأردت أن يُرمى فرميت، وأردت أن يُعْصى فعصيت؛ ولو علم مني أني أردت قتله لقُتلت.

وقال حسان بن ثابت لعلي: إنك تقول: ما قتلتُ عثمان ولكن خذلته، ولم آمر به ولكن لم أَنْهَ عنه. فالخاذل شريكُ القاتل، والساكت شريكُ القائل.

أخذ هذا المعنى كعب بن جُعيل التغلبي وكان مع معاوية يوم صِفين، فقال في علي بن أبي طالب:

وما في عليّ لِمسْتحدثٍ ... مقال سوى عِصْمةِ المحدِثينا
وإيثاره لأهالي الذنوبِ ... ورفْعِ القِصاصِ عنِ القاتِلينا
إذا سِيل عنه زَوَى وجهه ... وعَمَّى الجوابَ على السائلينا[1]
فليس بِراضٍ ولا ساخطٍ ... ولا في النهاةِ ولا الآمرينا
ولا هُوَ ساه ولا سَرَّه ... ولا آمن بعضَ ذا أن يكونا

وقال رجل من أهل الشام في قتلة عثمان رضي الله تعالى عنه:

خذلَتْهُ الأنصارُ إذ حضر المو ... تُ وكانت ثِقاتَه الأنصارُ
ضربوا بالبلاء فيه مع النَّا ... سِ وفي ذاكَ للبريةِ عار
حُرْمَةٌ بالبلاء من حرمةِ اللـ ... ـهِ ووالٍ من الوُلاةِ وجار
أين أهلُ الحياء إذ منِعَ الما ... ءَ فدتهُ الأسماعُ والأبصار
من عذِيري من الزبيْرِ ومنْ طَلْـ ... ـحةَ هاجا أمراً له إعصار[2]
تَركوا الناس دونَهم عَبْرةُ العجـ ... ـلِ فشبت وسْطَ المدينةِ نار
هكذا زاغتِ اليَهودُ عنِ الحـ ... ـقّ بما زَخْرفت لها الأحبار
ثم وافى محمدُ بن أبي بكـ ... ـرٍ جِهاراً وخلفهُ عَمَّار
وعليٌّ في بيتهِ يسألُ النا ... سَ ابتداءً وعنْدَه الأخبار!

---

(١) زوى وجهه: صرفه ونحاه. (٢) من عذيري: من يعذرني.

باسطاً للتي يريدُ يديهِ وعليه سكنةٌ ووقار
يرقُبُ الأمرَ أن يزفَّ إليه بالذي سبَّبت له الأقدار
قد أرى كثرةَ الكلامِ قبيحاً كل قولٍ يَشينُه إكْثار

وقال حسان يرثي عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه:

من سره الموتُ صِرفاً لا مِزاح له فليأتِ مأسدةً في دار عثمانا [1]
صبراً فِدًى لكُمُ أُمِّي وما ولدت قد ينفعُ الصبرُ في المكروهِ أحيانا
لعلكم أن تَروْا يوماً بمغيظة خليفةَ اللهِ فيكم كالذي كانا
إني لِمنهم وإن غلبوا وإن شَهِدُوا ما دُمتُ حيّاً وما سمِّيت حَسَّانا [2]
يا ليت شِعري وليت الطَّير تخبِرُني ما كان شأنُ عليٍّ وابنِ عفَّانا
لتُسمَعَنَّ وشيكا في ديارِهِمُ الله أكبر يا ثاراتِ عُثمانا
ضحَّوْا بأشمطَ عُنْوانُ السُّجودِ به يُقطِّع الليْلَ تسبيحاً وقُرآنا

في مقتل عثمان بن عفان

أبو الحسن عن مسلمة عن ابن عون قال: كان ممن نَصر عثمان سبعمائة، فيهم الحسن بن علي، وعبد الله بن الزبير؛ ولو تركهم عثمان لضربوهم حتى يخرجوهم من أقطارها.

أبو الحسن عن جبير بن سيرين قال: دخل ابن بديل على عثمان وبيده سيف، وكانت بينهما شحناء [3]، فضربه بالسيف، فاتقاه بيده، فقطعها، فقال: أما إنها أول كف خطّت المفصّل.

أبو الحسن قال: يوم قتل عثمان يقال له يوم الدار. وأغلق على ثلاث من القتل: غلام أسود كان لعثمان، وكنانة بن بشر، وعثمان.

---

(١) المأسدة: المكان تكثر فيه الأسود وتألفه.

(٢) أي إني لمنهم بريء. (٣) الشحناء: الحقد والعداوة والبغضاء.

أبو الحسن قال: قال سلامة بن روح الخزاعي لعمرو بن العاص: كان بينكم وبين الفتنة باب فكسرتموه، فما حملكم على ذلك؟ قال: أردنا أن نخرج الحق من حَفيرة الباطل، وأن يكون الناس في الحق سواء.

مجالد عن الشعبي قال: كتب عثمان إلى معاوية: أن امددني. فأمدّه بأربعة آلاف مع يزيد بن أسد بن كرز البجلي. فتلقاه الناس بقتل عثمان، فانصرف، فقال: لو دخلت المدينة وعثمان حي ما تركت بها مختلفاً إلا قتلته؛ لأن الخاذل والقاتل سواء.

قيس بن رافع قال: قال زيد بن ثابت: رأيت علياً مضطجعاً في المسجد، فقلت. أبا الحسن، إن الناس يرون أنك لو شئت رددت الناس عن عثمان. فجلس ثم قال: والله ما أمرتهم بشيء ولا دخلت في شيء من شأنهم. قال: فأتيت عثمان فأخبرته، فقال:

وحـــرّق قيْـــسٌ علـــيَّ البِـــلا ... دَ حتى إذا آضْطَرمـت أجْـذَمـا[1]

الفضل عن كثير عن سعيد المقبري قال. لما حصروا عثمان ومنعوه الماء، قال الزبير: ﴿وحيلَ بينَهم وبينَ ما يشتَهونَ كما فُعِلَ بأَشْيَاعِهِمْ من قبْلُ﴾[2]!

ومن حديث الزهري قال: لما قتل مسلم بن عقبة أهل المدينة يوم الحرّة، قال عبد الله بن عمر: بفعلهم في عثمان وربِّ الكعبة!

ابن سيرين عن ابن عباس قال: لو أمطرت السماء دماً لِقَتلِ عثمان لكان قليلاً له!

أبو سعيد مولى أبي حُذيفة قال: بعث عثمان إلى أهل الكوفة: من كان يطالبني بدينار أو درهم أو لطمة فيأت يأخذ حقه أو يتصدق، فإن الله يجزي المتصدقين. قال: فبكى بعض القوم، وقالوا: تصدّقنا!

ابن عون عن ابن سيرين قال: لم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ أشدّ على عثمان من طلحة!

---

(١) الإجذام: الإسراع. (٢) سورة سبأ الآية ٥٤.

أبو الحسن قال: كان عبد الله بن عباس يقول: ليَغلبنَّ معاويةُ وأصحابُه علياً وأصحابه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ومَنْ قُتِلَ مَظلوماً فقَدْ جَعلْنا لِوليِّهِ سُلْطَاناً﴾ (١).

أبو الحسن قال: كان ثمامة الأنصاري عاملاً لعثمان، فلما أتاه قتْلُه بكى وقال: اليوم انتزعت خلافةُ النُّبوَّةِ من أُمّة محمد، وصار الملك بالسيف، فمن غلَب على شيء أكله.

أبو الحسن: عن أبي مخنف عن نمير بن وعلة عن الشعبي، أن نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان بن عفان كتبت إلى معاوية كتاباً مع النعمان بن بشير، وبعثت إليه بقميص عثمان مخضوباً بالدماء، وكان في كتابها:

« من نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية بن أبي سفيان؛ أما بعد، فإني أدعوكم إلى الله الذي أنعم عليكم، وعلمكم الإسلام، وهداكم من الضلالة، وأنقذكم من الكفر ونصركم على العدوّ، وأسبغ عليكم نِعَمَه ظاهرةً وباطنة؛ وأنشدكم الله، وأذكّركم حقَّه وحق خليفته أن تنصروه بعزم الله عليكم؛ فإنه قال: ﴿وإنْ طائفتانِ من المؤمنينَ آقتتَلوا فأَصْلِحوا بينهما فإنْ بغَتْ إحداهُما على الأُخرى فقاتِلوا التي تَبْغِي حتى تفيءَ إلى أمْرِ الله﴾ (٢). وإن أمير المؤمنين بُغيَ عليه، ولو لم يكن لعثمان عليكم إلا حقُّ الولاة، [ثم أُتِيَ إليه ما أُتِيَ] لحقَّ على كل مسلم يرجو إمامته أن ينصره فكيف وقد علمتم قدَمه في الإسلام، وحُسْن بلائه، وأنه أجاب [داعيَ] الله وصدّق كتابه واتّبع رسوله، والله علم به إذ انتخبه فأعطاه شرف الدنيا وشرف الآخرة.

وإني أقص عليكم خبره؛ إني شاهدةٌ أمرَه كلَّه. إن أهل المدينة حصروه في داره، ويحرسونه ليلهم ونهارهم قياماً على أبوابه بالسلاح، يمنعونه كل شيء قدروا عليه، حتى منعوه الماء؛ فمكث هو ومن معه خمسين ليلة، وأهل مصر قد أسندوا

(١) سورة الاسراء الآية ٣٣.

(٢) سورة الحجرات الآية ٩.

أمرهم إلى علي، ومحمد بن أبي بكر، وعمار بن ياسر، وطلحة والزبير، فأمروهم بقتله؛ وكان معهم من القبائل: خزاعة، وسعد بن بكر، وهذيل، وطوائف من جهينة ومزينة وأنباط يثرب؛ فهؤلاء كانوا أشدّ الناس عليه.

ثم إنه حُصِر فرُشِق بالنَّبل والحجارة، فجرح ممن كان في الدار ثلاثة نفر معه، فأتاه الناس يصرخون إليه ليأذن لهم في القتال، فنهاهم وأمرهم أن يردوا إليهم نبلهم، فردّوها عليهم، فما زادهم ذلك في القتل إلا جرأة، وفي الأمر إلا إغراقاً؛ فحرَّقوا باب الدار؛ ثم جاء [ثلاثة] نفر من أصحابه فقالوا: إن [في المسجد] ناساً يريدون أن يأخذوا أمر الناس بالعدل، فاخرج إلى المسجد يأتوك. فانطلق فجلس فيه ساعة وأسلحة القوم مظلة عليه من كل ناحية، فقال: ما أرى اليوم أحداً يعدل! فدخل الدار، وكان معه نفر ليس على عامتهم سلاح فلبس درعه وقال لأصحابه: لولا أنتم ما لبست اليوم درعي. فوثب عليه القوم فكلمهم آبن الزبير، وأخذ عليهم ميثاقاً في صحيفة وبعث بها إلى عثمان: عليكم عهد الله وميثاقه أن لا تقربوه بسوء حتى تكلموه وتخرجوا. فوضع السلاح، ولم يكن إلا وضعه ودخل عليه القوم يقدمُهم محمد ابن أبي بكر، فأخذوا بلحيته ودعوه باللقب؛ فقال: أبا عبد الله وخليفته عثمان. فضربوه على رأسه ثلاث ضربات، وطعنوه في صدره ثلاث طعنات، وضربوه على مقدم الجبين فوق الأنف ضربة أسرعت في العظم؛ فسقطتُ عليه وقد أثخنوه وبه حياة، وهم يريدون أن يقطعوا رأسه فيذهبوا به، فأتتني ابنة شيبة بن ربيعة فألقت بنفسها معي [عليه]، فوُطئنا وطأ شديداً، وعُرِّينا من حلينا، وحرمة أمير المؤمنين أعظم؛ فقتلوا أمير المؤمنين في بيته مقهوراً على فراشه، وقد أَرسلتُ إليكم بثوبه عليه دمُه، وإنه والله إن كان أثِمَ مَن قتله لَمَا سلم مَن خذله، فانظروا أين أنتم من الله، وأنا أشتكي على ما مسنا إلى الله عز وجل، وأستصرخ بصالحي عباده؛ فرحم الله عثمان ولعن قتلته وصرعهم في الدنيا مصارع الخزي والمذلة، وشفى منهم الصدور».

فحلف رجال من أهل الشام ألا يمسوا غسلاً حتى يقتلوا علياً أو تفنى أرواحهم

وقال الفرزدق في قتل عثمان:

إنّ الخلافـةَ لمّا أُظْعِنـتْ ظَعَنـتْ ... عن أهل يثْرب إذ غيْر الهدى سلكوا [١]
صارت إلى أهلِهـا منهـم ووارثِهـا ... لما رأى الله في عُثمان مـا آنتهكـوا
السّافكِـي دمَـهُ ظُلماً ومعصيـةً ... أيَّ دمٍ لا هُدُوا من غيّهم سفكـوا

وقال حسان:

إنْ تُمْسِ دار بني عُثمان خـاويـةً ... بابٌ صريعٌ وبيْتٌ مُحْرَق خَربُ [٢]
فقد يُصادف باغي الخَيْرِ حـاجتَـه ... فيها ويأوِي إليها المجـدُ والحسـبُ
يا معشَر الناس أبدوا ذات أنفُسِكم ... لا يستوي الحقُّ عند الله والكـذب

تبرؤ عليّ من دم عثمان

قال علي بن أبي طالب على المنبر: والله لئن لم يدخل الجنة إلا مَن قتل عثمان لا دخلْتُها أبداً، ولئن لم يدخل النار إلا من قتل عثمان لا دخلتها أبداً.

وأشرف عليٌّ من قصرٍ له بالكوفة، فنظر إلى سفينة في دجلة فقال: والذي أرسلها في بحره مسخرةً بأمره، ما بدأت في أمر عثمان بشيء، ولئن شاءت بنو أمية لأباهلنَّهُم [٣] عند الكعبة خمسين يميناً ما بدأت في حق عثمان بشيء. فبلغ هذا الحديث عبد الملك بن مروان، فقال: إني لأحسبه صادقاً.

وقال معبد الخزاعي: لقيت علياً بعد الجمل، فقلت له إني سائلك عن مسألة كانت منك ومن عثمان، فإن نجوت اليوم نجوت غداً إن شاء الله. قال: سل عما بدا لك. قلت: أخبرني، أي منزلة وسعتك إذ قُتل عثمان ولم تنصره؟ قال: إنّ عثمان كان إماماً، وإنه نهى عن القتال وقال: من سلَّ سيفه فليس مني! فلو قاتلْنا دونه عصَيْنا. قال: فأي منزلة وسعت عثمان إذ آستسلم حتى قُتل؟ قال: المنزلة التي وسعت ابن آدم،

---

(١) ظعنت: رحلت. (٢) محرق: محروق.
(٣) المباهلة: أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنة الله على الظالم منا.

إذ قال لأخيه: ﴿لئنْ بَسطْتَ إليّ يَدَك لِتقْتُلني ما أنا بِباسطٍ يَديَ إليك لأقْتُلَكَ إني أخاف الله ربَّ العالمين﴾ [1] . قلت: فهلا وسعتْك هذه المنزلة يوم الجمل؟ قال: إنا قاتلنا يوم الجمل من ظَلَمنا، قال الله: ﴿وَلَمنِ ٱنتصرَ بعد ظُلْمهِ فأُولئك ما عَليهم مِن سبيلٍ إنما السبيلُ على الذين يَظلِمون الناس ويبْغون في الأرض بغيْرِ الحقِّ أُولئك لهم عذابٌ أليم وَلَمنْ صَبَر وغَفَر إنّ ذلك لِمنْ عزم الأُمور﴾ [2] . فقاتلْنا نحن من ظلَمنا، وصبر عثمان؛ وذلك من عزم الأمور.

ومن حديث بكر بن حماد: أنّ عبد الله بن الكواء سأل عليّ بن أبي طالب يوم صفّين، فقال له: أخبرْني عن مخرجك هذا تضرب الناس بعضهم ببعض، أعَهْدٌ عهده إليك رسول الله ﷺ، أم رأيٌ ارتأيته؟

قال عليّ: اللهم إني كنت أول من آمن به، فلا أكون أول من كذب عليه؛ لم يكن عندي فيه عهد من رسول الله ﷺ، ولو كان عندي فيه عهد من رسول الله ﷺ لما تركت أخا تَيْمٍ وعديّ على منابرها، ولكن نبينا ﷺ كان نبيَّ رحمة، مرض أياماً وليالِيَ، فقدّم أبا بكر على الصلاة، وهو يراني ويرى مكاني، فلما توفي رسول الله ﷺ، رضيناه لأمر دنيانا إذ رضيه رسول الله لأمر ديننا، فسلمتُ له وبايعت، وسمعت وأطعت؛ فكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأقيم الحدود بين يديه؛ ثم أتته منيته، فرأى أن عمر أطوق [3] لهذا الأمر من غيره، ووالله ما أراد به المحاباة ولو أرادها لجعلها في أحد ولديه، فسلمت له وبايعت، وأطعت وسمعت؛ فكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأقيم الحدود بين يديه: ثم أتته منيتُه، فرأى أنه من استخلف رجلاً فعمل بغير طاعة الله عذبه الله به في قبره، فجعلها شورى بين ستة نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، وكنت أحدَهم، فأخذ عبد الرحمن مواثيقَنا وعهودنا على أن يخلع نفسه وينظر لعامّة المسلمين؛ فبسط يده إلى

---

(١) سورة المائدة الآية ٢٨ .
(٢) سورة الشورى الآية ٤١ و ٤٢ .
(٣) أطوق: أقدر .

عثمان فبايعه؛ اللهم إن قلت إني لم أجدْ في نفسي فقد كذبت، ولكنني نظرت في أمري فوجدت طاعتي قد تقدمتْ معصيتي، ووجدت الأمر الذي كان بيدي قد صار بيد غيري، فسلمتُ وبايعت، وأطعت وسمعت: فكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزوا إذا أغزاني، وأقيم الحدود بين يديه، ثم نقَم الناس عليه أموراً فقتلوه، ثم بقيت اليوم أنا ومعاوية، فأرى نفسي أحقَّ بها من معاوية؛ لأني مهاجري وهو أعرابي، وأنا ابن عمِّ رسول الله وصهرُه، وهو طليق ابن طليق[1].

قال له عبد الله بن الكواء: صدقت، ولكن طلحة والزبير، أما كان لهما في هذا الأمر مثل الذي لك؟

قال: إن طلحة والزبير بايعاني في المدينة، ونكثا بيعتي بالعراق؛ فقاتلتهما على نكثهما ولو نكثا بيعة أبي بكر وعمر لقاتلاهما على نكثهما كما قاتلتُهما. قال: صدقت. ورجع إليه.

واستعمل عبد الملك بن مروان نافع بن علقمة بن صفوان على مكة، فخطب ذات يوم وأبانُ بن عثمان قاعد عند أصل المنبر، فنال من طلحة والزبير، فلما نزل قال لأبان: أرضيتك من المُدْهِنين[2] في أمر أمير المؤمنين؟ قال: لا، ولكنك سؤتني؛ حسبي أن يكونا بريئين من أمره.

وعلى هذا المعنى قال إسحاق بن عيسى: أعيذ علياً بالله أن يكون قَتل عثمان وأعيذ عثمانَ أن يكون قلته عليّ!

وهذا الكلام على مذهب قول النبي ﷺ: إن أشد الناسِ عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبيّاً أو قتله نبيٌّ.

سعيد بن جُبير عن أبي الصهباء، أن رجالاً ذكروا عثمان، فقال رجل من القوم:

---

(١) الطليق: الذي خليّ عنه يوم فتح مكة وأطلق ولم يسترق.

(٢) المدهن: الغشّاش والخدّاع.

إني أعرفُ لكـم رأيَ عليّ فيه فدخل الرجل على عليّ فنال من عثمان، فقال علي: دع عنك عثمان، فوالله ما كان بأشرِّنا، ولكنه ولي فاستأثر، فحرمنا فأساء الحرمان.

وقال عثمان بن حُنيف: إني شهدت مشهداً اجتمع فيه علي وعمار ومالك الأشتر وصعصعة، فذكروا عثمان، فوقع فيه عمار، ثم أخذ مالك فحذا حذوه، ووجهُ عليّ يتمعَّر[1]، ثم تكلم صعصعة. فقال: ما على رجل يقول: كان والله أول من وليَ فاستأثر، وأول من تفرقت عنه هذه الأمة! فقال علي: إليّ أبا اليقظان. لقد سبقتْ عثمان سوابق لا يعذِّبه الله بها أبداً.

محمد بن حاطب قال: قال لي عليّ يوم الجمل، آنطلق إلى قومك فأبلغهم كتبي وقولي. فقلت إن قومي إذا أتيتُهم يقولون: ما قولُ صاحبك في عثمان؟ فقال: أخبرهم أن قولي في عثمان أحسنُ القول؛ إن عثمان كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم ٱتقَوْا وآمنوا، ثم ٱتَّقَوْا وأحسنوا، والله يُحِبَّ المحسنين.

جرير بن حازم عن محمد بن سيرين قال: ما علمتُ أنّ علياً آتَّهم في دم عثمان حتى بويع، فلما بويع اتهمه الناس.

محمد بن الحنفية قال: إني عن يمين علي يوم الجمل، وابنُ عباس عن يساره، إذ سمع صوتاً، فقال: ما هذا؟ قالوا: عائشة تلعن قتلة عثمان. فقال عليٌّ: لعن الله قتلةَ عثمان في السهل والجبل والبحر والبر.

ما نقم الناس على عثمان

ابن دأب قال: لما أنكر الناس على عثمان ما أنكروا، من تأمير الأحداث من أهل بيته على الجلَّة الأكابر من أصحاب محمد ﷺ، قالوا لعبد الرحمن بن عوف: هذا عملُك واختيارك لأمة محمد! قال: لم أظن هذا به! ودخل على عثمان فقال له: إني إنما قدَّمْتُك على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر، وقد خالفتهما. فقال: عمر كان

---

(١) يتعمر: يتغير غيظاً.

يقطع قرابته في الله، وأنا أصل قرابتي في الله، فقال له: لله عَليَّ أن لا أُكَلِّمَكَ أبداً! فمات عبد الرحمن وهو لا يكلِّم عثمان.

ولما رد عثمانُ الحكـم بن أبي العاص طريد النبي ﷺ وطريدَ أبي بكر وعمر إلى المدينة، تكلم الناس في ذلك، فقال عثمان: ما ينقم الناس مني؟ إني وصلت رحماً وقرّبتُ قرابة.

حُصين بن زيد بن وَهب قال: مَررنا بأبي ذرٍّ بالرَّبذة، فسألناه عن منزله، فقال: كنت بالشام، فقرأت هذه الآية ﴿والذين يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنفِقونَها في سبيلِ اللهِ فبشِّرْهُمْ بعذابٍ أليمٍ﴾ (١) فقال معاوية: إنما هي في أهل الكتاب. فقلت: إنها لَفينا وفيهم فكتب إليَّ عثمان: أقبِل. فلما قدمت ركبتني الناس كأنهم لم يروني قط، فشكوت ذلك إلى عثمان، فقال: لو اعتزلتَ فكنتَ قريباً! فنزلتُ هذا المنزل، فلا أدع قولي، ولو أمَّروا عليَّ عبداً حبشياً لأطعت.

الحسن بن أبي الحسن عن الزبير بن العوام في هذه الآية: ﴿واتَّقوا فِتْنَةً لا تصِيبَنَّ الذينَ ظلمُوا مِنْكُـم خاصَّةً﴾ (٢). قال: لقد نزلتْ وما ندري من يختلف لها. فقال بعضهم: يا أبا عبد الله، فلم جئتَ إلى البصرة؟ قال: ويحك إننا ننظر ولا نبصر!

أبو نضرة عن أبي سعيد الخُدري قال: إن ناساً كانوا عند فسطاط (٣) عائشة وأنا معهم بمكة، فمرّ بنا عثمان، فما بقي أحد من القوم إلا لعنه غيري؛ فكان فيهم رجلٌ من أهل الكوفة، فكان عثمان على الكوفي أجرأ منه على غيره، فقال: يا كوفي، أتشتمني؟ فلما قدم المدينة كان يتهدده؛ قال: فقيل له: عليك بطلحة. قال: فانطلق معه حتى دخل على عثمان، فقال عثمان: والله لأجلدنه مائة سوط! قال طلحة: والله لا تجلده مائة إلا أن يكون زانياً. قال: والله لأحْرِمَنَّه عطاءه! قال: اللهُ يرزقه.

ومَن حديث ابن أبي قُتيبة عن الأعمش عن عبد الله بن سنان قال: خرج علينا ابنُ

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٤.
(٢) سورة الأنفال الآية ٢٥.
(٣) الفسطاطا: بيت يتخذ من الشعر.

مسعود ونحن في المسجد وكان على بيت مال الكوفة، و[أمير] الكوفة الوليد بن عقبة ابن أبي معيط، فقال: يا أهل الكوفة، فقدت من بيت مالكم الليلة مائة ألف لم يأتني بها كتاب من أمير المؤمنين ولم يكتب لي بها براءة. قال: فكتب الوليد بن عقبة إلى عثمان في ذلك، فنزعه عن بيت المال.

ومن حديث الأعمش يرويه أبو بكر بن أبي شيبة قال: كتب أصحاب عثمان عيبَه وما ينقم الناس عليه في صحيفة، فقالوا: من يذهب بها إليه؟ قال عمار: أنا. فذهب بها إليه، فلما قرأها قال: أرغم الله أنفك، قال: وبأنف أبي بكر وعمر. قال: فقام إليه فوطئه حتى غشي عليه، ثم ندم عثمان، وبعث إليه طلحة والزبير يقولان له: اختر إحدى ثلاث: إما أن تعفو، وإما أن تأخذ الأَرْش[1]، وإما أن تقتص. فقال: والله لا قبلت واحدة منها حتى ألقى الله! قال أبو بكر: فذكرت هذا الحديث للحسن بن صالح، فقال: ما كان على عثمان أكثرُ مما صنع.

ومن حديث الليث بن سعد قال: مرَّ عبدُ الله بن عمر بحذيفة، فقال: لقد اختلف الناس بعد نبيهم، فما منهم أحد إلا أعطى من دينه، ما عدا هذا الرجل.

وسئل سعد بن أبي وقاص عن عثمان، فقال: أما والله لقد كان أحسنَنا وضوءاً وأطوَلَنا صلاة، وأتلانا لكتاب الله، وأعظَمَنا نفقةً في سبيل الله ثم ولِيَ فأنكروا عليه شيئاً، فأتوا إليه أعظم مما أنكروا.

وكتب عثمان إلى أهل الكوفة حين ولاهم سعيد بن العاص: أما بعد، فإني كنتُ وليتكم الوليد بن عقبة غلاماً حين ذهب شرهه وثاب حلمه، وأوصيتُه بكم ولم أوصكم به، فلما أعيتكم علانيتُه طعنتم في سريرته؛ وقد وليتكم سعيد بن العاص وهو خير عشيرته، وأوصيكم به خيراً، فاستوصوا به خيراً.

وكان الوليدُ بن عقبة أخا عثمان لأمه، وكان عامله على الكوفة، فصلى بهم الصبح

---

(١) الأرش: الدِّية.

ثلاث ركعات وهو سكران، ثم التفت إليهم فقال: وان شئتم زدتكم! فقامت عليه البينة بذلك عند عثمان، فقال لطلحة: قم فاجلدْه. قال لم أكن من الجالدين. فقام إليه عليٌّ فجلده.

وفيه يقول الحطيئة:

شهِدَ الحطيئَةُ يومَ يلْقى ربَّهُ ... أنّ الوليدَ أحَقُّ بالعُذْرِ
ليَزيدهُمْ خيْراً ولو قبِلَوا ... لجَمَعْتَ بينَ الشَّفْعِ والوتْرِ (١)
مَسَكوا عِنانك إذ جَرَيْتَ ولو ... تَركوا عِنانك لم تزَلْ تجْري

ابن دأب قال: لما أنكر الناس على عثمان ما أنكروا، اجتمعوا إلى علي وسألوه أن يلقى لهم عثمان، فأقبل حتى دخل عليه فقال: إن الناس ورائي قد كلموني أن أكلمك؛ والله ما أدري ما أقول لك؛ ما أعرفُ شيئاً تُنْكِره، ولا أُعْلِمُك شيئاً تجهله، وما ابنُ أبي قحافة بأولَى بعمل الحق منك، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك؛ وما نُبَصِّرُك من عَمًى، وما نُعلِّمُك من جَهْل، وإن الطريقَ لبيِّنٌ واضح، تعلم يا عثمان أن أفضل الناس عند الله إمام عدل هُدِيَ وهَدَى، فأحيا سُنة معلومة، وأمات بدعة مجهولة؛ وأن شر الناس عند الله إمامُ ضلالة ضلَّ وأَضَلَّ، فأحيا بدعة مجهولة، وأمات سُنة معلومة؛ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يؤتى بالإمام الجائر يوم القيامة ليس معه ناصرٌ ولا له عاذر، فيلقى في جهنم فيدور دوْرَ الرحى (٢)، يرتطم في غمرة النار إلى آخر الأبد. وأنا أحذرك أن تكون إمامَ هذه الأمّة المقتولَ، [فإنه يقال: يُقْتَل في هذه الأمة إمام] يُفتَح به باب القتل والقتال إلى يوم القيامة يمرج بهم أمرهم ويمرجون. فخرج عثمان، ثم خطب خطبته التي أظهر فيها التوبة.

وكان عليّ كلما اشتكى الناسُ إليه أمْر عثمان، أرسل ابنَه الحسن إليه، فلما أكثر

---

(١) الشفع: المزدوج، والوتر: المفرد.
(٢) الرحى: حجر الطحن.

عليه قال له: إن أباك يرى أن أحداً لا يَعلم ما يعلْم، ونحن أعلم بما نفعل، فكُف عنا! فلم يبعث عليٌّ ابنَه في شيء بعد ذلك.

وذكروا أن عثمان صلى العصر ثم خرج إلى عليّ يعوده في مرضه ومروان معه، فرآه ثقيلاً؛ فقال: أما والله لولا ما أرى منك ما كنت أتكلم بما أريد أن أتكلم به، والله ما أدري أي يوميك أحبّ إليّ أو أبغض، أيوم حياتك أو يوم موتك! أما والله لئن بقيت لا أعدم شامتاً يَعدُّك كَنَفاً[١]، ويتخذك عضداً[٢]؛ ولئن مت لأفجعن بك؛ فحظي منك حظ الوالد المشفق من الولد العاق: إن عاش عقه، وإن مات فجعه! فليتك جعلت لنا من أمرك علماً نقف عليه ونعرفه، إمّا صديق مسالم، وإمّا عدوّ مُعانٍ، ولم تجعلني كالمختنق بين السماء والأرض، لا يرقى بيد، ولا يهبط برجل! أما والله لئن قتلتك لا أصيب منك خلَفاً، ولئن قتلتني لا تصيب مني خلفاً: وما أحب أن أبقى بعدك!. قال مروان: إي والله، وأخرى، إنه لا ينال ما وراء ظهورنا حتى تكسر رماحنا وتقطع سيوفنا؛ فما خير العيش بعد هذا؟ فضرب عثمان في صدره وقال: ما يُدخلك في كلامنا؟ فقال عليّ: إني والله في شغل عن جوابكما، ولكني أقول كما قال أبو يوسف ﴿فصبرٌ جميل واللهُ المُستعانُ على ما تصِفونَ﴾[٣].

وقال عبد الله بن العباس: أرسل إليّ عثمان فقال لي: اكفِني ابنَ عمّك! فقلت: إن ابن عمي ليس بالرجل يُرَى له ولكنه يَرى لنفسه، فأرسلْني إليه بما أحببت. قال: قل له فليخرج إلى ماله بينبُع، فلا أَغتم به ولا يغتم بي فأتيت علياً فأخبرته، فقال: ما اتخذني عثمان إلا ناصحاً. ثم أنشد يقول:

فكيـف بـه أنِّـي أُداوي جِـراحـه فيـدْوَى فلا مـل الدواءَ ولا الداءَ

أما والله إنه ليختبر القوم، فأتيت عثمان، فحدّثته الحديث كله إلا البيت الذي أنشده وقوله إنه ليختبر القوم؛ فأنشد عثمان:

---

(١) الكَنف: الجناح والظل، وكنفا الرجل حصناه عن يمينه وشماله.
(٢) العضد: المعين. (٣) سورة يوسف الآية ١٨.

فكيـف بـه أَنّـي أُداوي جِـراحـه　　فيـدْوَى فلا مـلَّ الدواءَ ولا الداءَ

وجعل يقول: يا رحيم انصرني! يا رحيم انصرني! يا رحيم انصرني! قال: فخرج عليّ إلى ينبع، فكتب إليه عثمان حين اشتدّ الأمر:

أمّا بعد، فقد بلغ السيل الزُّبَى[1] وجاوز الحزام الطُّبيين، وطَمِع فيَّ من كان يضعف عن نفسه:

وإنـكَ لم يفخَـر عليـكَ كفـاخِـرٍ　　ضعيـفٍ ولم يَغْلبْـك مثْـل مُغلَّـبِ

فأقبل إليّ على أيِّ أمريك أحببتَ، وكن لي أو عليَّ، صديقاً كنتَ أو عدوّا.

فإنْ كنتُ مأكولاً فكنْ خيرَ آكِـل　　وإلا فأَدْرِكْنــي ولمّا أمـــزَّق

خلافة علي بن أبي طالب

رضي الله عنه

قال: لما قُتل عثمان بن عفان، أقبل الناس يهرعون إلى علي بن أبي طالب، فتراكمت عليه الجماعة في البيعة، فقال: ليس ذلك إليكم، إنما ذلك لأهل بدر ليبايعوا. فقال: أين طلحة والزبير وسعد؟ فأقبلوا فبايعوا، ثم بايعه المهاجرون والأنصار، ثم بايعه الناس، وذلك يومَ الجمعة لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، وكان أول من بايعه طلحة، وكانت أصبعه شلاَّء[2]، فتطير منها عليّ وقال: ما أخلقَه أن ينكث! فكان كما قال عليّ رضي الله عنه.

نسب علي بن أبي طالب

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف؛ وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف.

---

(١) الزُّبى: جمع زبية، وهي الرابية لا يعلوها الماء. ويضرب هذا المثل.. بلغ السيل الزبى، للأمر إذا اشتد حتى جاوز الحد.

(٢) أصبع شلاء: يبست وبطلت حركتها أو ضعفت.

صفته

كان أصلع بطيناً حمش الساقين(١) .

صاحب شرطته : معقل بن قيس الرياحي ، ومالك بن حبيب اليربوعي .

وكاتبه سعيد بن نِمْران، وحاجبه: قنبر مولاه .

وقتل يوم الجمعة بالكوفة ، وهو خارج إلى المسجد لصلاة الصبح ، لسبع بقين من شهر رمضان، فكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر، وصلى عليه ولده الحسن، ودفن برحبة الكوفة ، ويقال: في لحف(٢) الحيرة، وعمى قبره .

واختلف في سنه ، وقال الشعبي: قتل عليّ رحمه الله وهو ابن ثمان وخمسين سنة . وولد عليّ بمكة في شعب بني هاشم .

فضائل علي بن أبي طالب

كرّم الله وجهه

أبو الحسن قال: أسلم عليّ وهو ابن خمس عشرة سنة ، وهو أول من شهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه . وقال له النبي ﷺ : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبيّ بعدي .

وبهذا الحديث سمت الشيعة علي بن أبي طالب الوصيَّ؛ وتأولوا فيه أنه استخلفه على أمته؛ إذ جعله منه بمنزلة هارون من موسى؛ لأنّ هارون كان خليفة موسى على قومه إذا غاب عنهم .

وقال السيد الحميري رحمه الله تعالى :

---

(١) حمش الساقين: دقيقهما .   (٢) اللحف: الصقع .

إني أديـــن بما دانَ الوصيُّ بـــه وشـاركـتْ كفَّـه كفِّـي بصِفِّينـا

وجمع النبي ﷺ فاطمة وعليا والحسن والحسين، فألقى عليهم كساءه وضمهم إلى نفسه؛ ثم تلا هـذه الآيـة ﴿إنما يُـريـدُ الله ليُـذهـبَ عنكـم الرِّجْسَ أهـلَ البيـت ويطهِّرَكـم تطهيراً﴾[١]. فتأولـت الشيعـة الرجس هنـا بـالخوض في غمـرة الدنيـا وكدورتها.

وقال النبي ﷺ يوم خيبر: لأُعطيَنَّ الراية غداً رجلاً يحبُّ اللهَ ورسولَه؛ ويحبه اللهُ ورسولُه، لا يمسي حتى يفتحَ الله له. فدعا علياً، وكان أرمدَ، فتفل[٢] في عينيه وقال: اللهم قِهِ داء الحرّ والبرد. فكان يلبس كُسوةَ الصيف في الشتاء، وكسوةَ الشتاء في الصيف، ولا يضرُّه.

أبو الحسن قال: ذُكِر عليٌّ عند عائشة فقالت: ما رأيت رجلاً أحبَّ إلى رسول الله ﷺ منه، ولا رأيتُ امرأة كانت أحبَّ إليه من امرأته.

وقال عليُّ بن أبي طالب: أنا أخو رسول الله ﷺ وابن عمِّه، لا يقولها بعدي إلا كذاب.

الشعبي قال: كان عليُّ بن أبي طالب في هذه الأمة مثل المسيح بن مريم في بني إسرائيل: أحبَّه قومٌ فكفروا في حبه، وأبغضه قوم فكفروا في بغضه!

وقال النبي ﷺ: الحسنُ والحسين سيِّدا شباب أهل الجنة، وأبوهما خيرٌ منهما.

أبو الحسن قال: كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يَقْسِم بيتَ المال في كل جمعة حتى لا يُبقي منه شيئاً؛ ثم يُفرَش له ويقيل[٣] فيه، ويتمثل بهذا البيت:

هــذا جَنـايَ وخِيـارُه فِيـــهْ إذ كـلُّ جـانٍ يَـدُه إلى فيـــهْ

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٣.

(٢) تفل: بصق.

(٣) يقيل: ينام وسط النهار.

كان علي بن أبي طالب إذا دخل بيت المال ونظر إلى ما فيه من الذهب والفضة قال:

آبيضّي وآصفـرّي وغُـرّي غيْـري   إني مـــن اللهِ بكــــلٍّ خيرِ

ودخل رجل على الحسن بن أبي الحسن البصري فقال: يا أبا سعيد، أنهم يزعمون أنك تُبغض علياً؟ قال: فبكى الحسن حتى آخضلَّت لحيتُه، ثم قال: كان علي بن أبي طالب سهماً صائباً من مرامي الله على عدوه، وربانيَّ هذه الأمة وذا فضلها وسابقتِها، وذا قرابة قريبةٍ من رسول الله ﷺ، لم يكن النُّومَةِ[١] عن رسول الله، ولا الملولة في ذات الله، ولا السَّروقة[٢] لمال الله؛ أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مونقة، وأعلام بينة، ذلك عليُّ بن أبي طالب يا لُكع.

يوم الجمل

أبو اليقظان قال: قدم طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعائشة أُم المؤمنين البصرة؛ فتلقاهم الناس بأعلى المِربد، حتى لو رموا بحجر ما وقع إلا على رأس إنسان؛ فتكلم طلحة، وتكلمت عائشة، وكثر اللغط؛ فجعل طلحة يقول: أيها الناس، أنصتوا! وجعلوا يُرهِجُون ولا ينصتون، فقال: أف! أف! فراشُ نار وذُبابُ طمع!

وكان عثمان بن حنيف الأنصاري عامل عليّ بن أبي طالب على البصرة، فخرج إليهم في رجاله ومن معه؛ فتواقفوا حتى زالت الشمس، ثم اصطلحوا وكتبوا بينهم كتاباً: أن يكفوا عن القتال حتى يقدم عليُّ بن أبي طالب، ولعثمان بن حنيف دار الإمارة، والمسجد الجامع، وبيت المال؛ فكفُّوا.

ووجه علي بن أبي طالب الحسن ابنَه، وعمار بن ياسر، إلى أهل الكوفة يستنفرانهم، فنفر معهما سبعة آلاف من أهل الكوفة؛ فقال عمار: أما والله إني لأعلم أنها زوجتُه في الدنيا والآخرة؛ ولكن الله ابتلاكم بها لتتبعوه أو تتبعوها.

---

(١) النوّمة: الكثير النوم.   (٢) السروقة: الذي يسرق كثيراً.

وخرج علي في أربعة آلاف من أهل المدينة، فيهم ثمانمائة من الأنصار، وأربعمائة ممن شهد بيعة الرضوان مع النبي ﷺ. وراية عليّ مع ابنه محمد بن الحنفية، وعلى ميمنته الحسن، وعلى ميسرته الحسين، وعلى الخيلَ عمار بن ياسر، وعلى الرَّجالة محمد ابن أبي بكر، وعلى المقدمة عبد الله بن عباس؛ ولواء طلحة والزبير مع عبد الله بن حكيم بن حزام، وعلى الخيل طلحة بن عبيد الله وعلى الرجالة عبد الله بن الزبير؛ فالتقوا بموضع قصر عبيد الله بن زياد في النصف من جمادي الآخرة يوم الخميس، وكانت الوقعة يوم الجمعة.

وقالوا: لمَّا قدم علي بن أبي طالب البصرة، قال لابن عباس: آئت الزبير ولا تأت طلحة؛ فإن الزبير ألين، وأنت تجد طلحة كالثور عاقصاً[1] بقرنه يركب الصعوبة[2] ويقول هي أسهل؛ فأقرئه السلام وقل له: يقول لك ابن خالك: عرفتَني بالحجاز، وأنكرتني بالعراق! فما عدا ما بدا؟.

قال ابن عباس: فأتيته فأبلغته، فقال: قل له: بيننا وبينك عهد خليفة ودمُ خليفة، واجتماع ثلاثة وانفراد واحد، وأُمٌّ مبرورة، ومشاورة العشيرة، ونشر المصاحف، نُحِلُّ ما أَحَلّتْ، ونُحرِّم ما حَرَّمَتْ.

وقال علي بن أبي طالب: ما زال الزبيرُ رجلاً منا أهلَ البيت حتى أدركه ابنُه عبد الله فلفته عنا.

وقال طلحة لأهل البصرة وسألوه عن بيعة علي، فقال: أَدْخَلونِي في حَشٍّ ثم وضعوا اللجَّ على قَفَيَّ فقالوا بايع وإلا قتلناك. قوله اللج: يريد السيف، وقوله قفي: لغة طي، وكانت أمه طائية.

وخطبت عائشة أهل البصرة يوم الجمل فقالت: أيها الناس، صه صه!

---

(١) عقص بقرنه: التوى قرناه على أذنيه الى الخلف. وعقص الرجل: ساء خلقه.
(٢) الصعوبة: الناقة الصعبة.

الموعظة؛ لا يتَّهمني إلا من عصى ربَّه؛ ومات رسول الله ﷺ بين سَحْري ونحري؛ فأنا إحدى نسائه في الجنة، [له] ادّخرني ربي وسلّمني من كل بُضع [١]، وبي ميز بين منافقكم ومؤمنكم، وبي أرخص لكم في صعيد الأبواء؛ ثم أبي ثالثُ ثلاثة من المؤمنين، وثاني اثنين في الغار، وأول من سُمِّي صِدِّيقاً؛ مضى رسول الله ﷺ راضياً عنه، وطوّقه طوْقَ الإمامة؛ ثم اضطرب حبل الدين فمسك أبي بطرفيه، ورَتَق [٢] لكم أثناءه، فوقم [٣] النفاق، وأغاض نبعَ الردة، وأطفأ ما حشّت [٤] يهود؛ وأنتم يومئذ جحظُ العيون، تنظرون، وتسمعون الصيحة، فرأب الثَّأي [٥]، وأَوْذَم [٦] العَطلة، وانتاش [٧] من الهوّة، واجتحى [٨] دفينَ الداء، حتى أعطن [٩] الوارد، وأورد الصادر، وعلَّ الناهل، فقبضه الله واطئاً على هامات النفاق مذكياً نار الحرب للمشركين، فانتظمت طاعتكم بحبله؛ ثم ولّى أمركم رجلاً مُرعياً إذا رُكن إليه، بعيد ما بين اللابتين [١٠]، عُرَكة [١١] للأذاة بجنبه، يقظان الليل في نصرة الإسلام؛ فسلك مسلك السابقة، ففرق شمل الفتنة وجمع أعضاد ما جمع القرآن، وأنا نُصْب المسئلة عن مسيري هذا، لم ألتمس إثماً، ولم أُوَرِّثْ [١٢] فتنة أُوطئكموها. أقول قولي هذا صدقاً وعدلاً وإعذاراً وإنذاراً، وأسأل الله أن يُصلي على محمد، وأنه يخلفه فيكم بأفضل خلافة المرسلين.

وكتبت أُمُّ سلمة زوج النبي ﷺ إلى عائشة أم المؤمنين إذ عزمتْ على الخروج إلى الجمل:

---

(١) بضع: أي من كل نكاح.
(٢) الرتق: ضد الفتق وأثناء الشيء: قوّاه.
(٣) وقم: قهر وأذلّ.
(٤) حشّ النار: أوقدها. (٥) الثأي: الإفساد.
(٦) العطلة من الدلاء: التي انقطع وذمها.
(٧) انتاش: أخرج. (٨) اجتحى: استأصل.
(٩) أعطن الوارد: حبس إبله عن الماء.
(١٠) مشى اللابة: الحرة. (١١) العرك: الدلك.
(١٢) أوّرث: أشعل وأوقد.

من أم سلمة زوج النبي ﷺ، إلى عائشة أم المؤمنين: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو؛ أما بعد، إنك سُدّةٌ بين رسول الله ﷺ وأمته، وحجاب مضروب على حرمته، قد جمع القرآن ذَيْلك فلا تنْدَحيه [1] وسكِّر خفارتك فلا تبتذليها. فالله من وراء هذه الأمة، ولو علم رسول الله ﷺ أن النساء يحتملن الجهاد عهد إليك، أما علمت أنه قد نهاك عن الفَراطة [2] في البلاد فإن عمود الدين لا يثبتُ بالنساء إن مال، ولا يُرأب بهن إن انصدع؟ جهاد النساء؛ غضن الأطراف، وضم الذيول، وقِصر الوَهازة. ما كنتِ قائلة لرسول الله ﷺ لو عارضك ببعض هذه الفلوات ناصَّة [3] قعوداً من منهل إلى منهل؟ وغداً تَردين على رسول الله ﷺ؛ وأقسم لو قيل لي: يا أُمَّ سلمة آدخلي الجنة لاستحييت أن ألقى رسول الله ﷺ هاتكةً حجاباً ضربه عليّ فاجعليه سِترك، ووقاعةَ البيت حِصنَك؛ فإنك أنصحُ ما تكونين لهذه الأمة ما قعدْتِ عن نصرتهم؛ ولو أني حدثتك بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لنهشْتني نهش الرقشاء [4] المطرقة والسلام.

فأجابتها عائشة:

من عائشة أم المؤمنين إلى أم سلمة، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو؛ أما بعد، فما أقْبَلَنِي لوعْظِك، وأعْرَفني لحق نصيحتك، وما أنا بمعتمرة [5] بعد تعريج، ولنعم المطلعُ مطلعٌ فرقت فيه بين فئتين متشاجرتين من المسلمين، فإن أقْعُدْ ففي غير حرج، وإن أمض فإلى ما لا غنى بي عن الازدياد منه، والسلام.

وكتبت عائشة إلى زيد بن صُوحان إذا قدمت البصرة:

من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان: سلام عليك؛ أما بعد، فإن أباك كان رأساً في الجاهلية، وسيداً في الإسلام وإنك من أبيك بمنزلة المصلِّي

---

(١) فلا تندحيه: أي لا توسعيه بخروجك إلى البصرة.

(٢) الفراطة: التقدم.

(٣) أي أن تستخرج من الناقة أقصى سيرها.

(٤) الرقشاء: الحية لرقشة جلدها. (٥) الاعتمار: الزيارة.

من السابق، يقال: كاد أو لحق؛ وقد بلغك الذي كان في الإسلام من مصاب عثمان ابن عفان؛ ونحن قادمون عليك، والعيان أشفى لك من الخبر. فإذا أتاك كتابي هذا فثبِّط [1] الناس عن علي بن أبي طالب، وكن مكانك حتى يأتيك أمري، والسلام.

فكتب إليها:

من زيد بن صوحان إلى عائشة أم المؤمنين؛ سلام عليك؛ أما بعد، فإنك أُمرتِ بأمر وأمرْنا بغيره: أُمرت أن تقرّي في بيتك، وأمرنا أن نقاتل الناس حتى لا تكونَ فتنة؛ فتركت ما أُمرتِ به؛ وكتبت تنهيننا عما أُمرنا به، والسلام.

وخطب علي رضي الله عنه بأهل الكوفة يوم الجمل إذا أقبلوا إليه مع الحسن بن علي، فقام فيهم خطيباً فقال:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم النبيين وآخر المرسلين؛ أما بعد؛ فإن الله بعث محمداً ﷺ إلى الثقلين كافة، والناسُ في اختلاف، والعرب بشرِّ المنازل، مستضعَفون لما بهم، فرأب الله به الثأي، ولأم به الصدع، ورتق به الفتق، وأمّن به السبيل، وحقن به الدماء، وقطع به العداوة المُوغرة للقلوب، والضغائن المُشحنة [2] للصدور؛ ثم قبضه الله تعالى مشكوراً سعيُه. مرضياً عمله، مغفوراً ذنبُه، كريماً عند الله نُزُله؛ فيا لها مصيبة عمت المسلمين، وخصت الأقربين، ووليَ أبو بكر، فسار فينا بسيرة رِضا، رضيَ بها المسلمون؛ ثم وليَ عمر، فسار بسيرة أبي بكر رضي الله عنهما؛ ثم ولي عثمان، فنال منكم ونلتم منه؛ ثم كان من أمره ما كان، فأتيتموه فقتلتموه، ثم أتيتموني فقلتم: لو بايعتَنا! فقلت: لا أفعل، وقبضت يدي فبسطتموها، ونازعتكم كفي فجذبتموها، وقلتم: لا نرضى إلا بك، ولا نجتمع إلا عليك، وتداككتم عليَّ تداكُك [3] الإبل الهيم [4] على حياضها يوم ورودها، حتى

(١) ثبّط: عوّق وبطّأ.

(٢) المشحنة: الموغرة.

(٣) التداكك: الازدحام. (٤) الهيم: جمع الأهيم، وهو العطشان.

ظننت أنكم قاتليّ وأن بعضكم قاتلٌ بعضاً فبايعتموني، وبايعني طلحة والزبير، ثم ما لبثا أن استأذناني إلى العمرة، فسارا إلى البصرة فقاتلا بها المسلمين، وفعلا بها الأفاعيل وهما يعلمان والله أني لست بدون مَن مضى، ولو أشاء أن أقول لقلت؛ اللهم إنهما قطعا قرابتي، ونكثا بيعتي وألّبا عليَّ عدوّي؛ اللهم فلا تُحْكِم لهما ما أبرما، وأرهِما المساءة فيما عملا وأمّلا!

وأملى علي بن محمد عن مَسلمة بن محارب، عن داود بن أبي هند، عن أبي حرب، عن أبي الأسود عن أبيه، قال: خرجت مع عمران بن حصين وعثمان بن حنيف إلى عائشة فقلنا: يا أُمّ المؤمنين، أخبرينا عن مسيرك هذا: عهدٌ عَهِدَه إليك رسول الله ﷺ، أم رأى رأيتيه؟ قالت: بل رأيٌ رأيتُه حين قُتل عثمان بن عفان، إنا نقمنا عليه ضربه بالسوط، ومواضع من الحِمى حماها، وإمرة سعيد الوليد، فعدوتم عليه فاستحللتم منه الثلاث الحُرَم: حرمة البلد، وحرمة الخلافة، وحرمة الشهر الحرام؛ بعد أن مُصتموه كما يُماص[1] الإناء فغضبنا لكم من سوط عثمان؛ ولا نغضب لعثمان من سيفكم؟! قلنا: ما أنت وسيفنا وسوط عثمان، وأنت حبيسُ رسول الله ﷺ؟ أمرك أن تَقَرّي في بيتك، فجئت تضربين الناس بعضهم ببعض! قالت: وهل أحد يقاتلني أو يقول غير هذا؟ قلنا: نعم. قالت: ومن يفعل ذلك؟ هل أنت مبلغ عني يا عمران؟ قال: لست مبلغاً عنك حرفاً واحداً. قلت: لكني مُبلِّغ عنك، فهات ما شئت قالت: اللهم اقتل مذمّماً قِصاصاً بعثمان، وارم الأشتر بسهم من سهامك لا يشوى، وأدرك عماراً بخَفَره[2] بعثمان.

أبو بكر بن أبي شيبة قال: حدثنا عبد الله بن إدريس عن حصين عن الأحنف بن قيس، قال: قدمنا المدينة ونحن نريد الحج، فانطلقت فأتيت طلحة والزبير، فقلت: إني لا أرى هذا إلا مقتولاً، فمن تأمراني به كما ترضيانه لي؟ قالا: نأمرك بعليّ. قلت: فتأمراني به وترضيانه لي؟ قالا: نعم. قال: ثم انطلقت حتى أتيت مكة، فبينما

(١) الموص: غسل ليّن، والدلك باليد.
(٢) يقال: خفربه، إذا نقض عهده وغدره.

نحن بها إذ أتانا قتل عثمان، وبها عائشة أم المؤمنين فانطلقت إليها فقلت: من تأمريني أن أبايع، قالت: علي بن أبي طالب. قلت: أتأمريني به وترضَيْنه لي؟ قالت: نعم. قال: فمررت على عليّ بالمدينة فبايعته، ثم رجعت إلى البصرة وأنا أرى أن الأمر قد استقام، فما راعنا إلا قدوم عائشة أمِّ المؤمنين، وطلحة والزبير، قد نزلوا جانب الخريبة[1]، قال: فقلت: ما جاء بهم؟ [قالوا]: قد أرسلوا إليك يستنصرونك على دم عثمان؛ إنه قتل مظلوماً. قال: فأتاني أفظع أمر لم يأتني قط؛ قلت: إن خذلان هؤلاء ومعهم أم المؤمنين وحواريّ رسول الله ﷺ لشديد! وإن قتال ابن عم رسول الله ﷺ بعد أن أمروني ببيعته لشديد، قال: فلما أتيتهم قالوا: جئناك نستصرخك على دم عثمان، قتل مظلوماً! قال: فقلت: يا أم المؤمنين، أَنشُدُك الله أقلت لك: من تأمريني به وترضَيْنه لي؟ فقلت: عليّ! قالت بلى، ولكنه بدل. قلت: يا زبير، يا حواريّ رسول الله، ويا طلحة، نشدْتكما بالله، أقلت لكما من تأمراني به وتَرضيانه لي؟ فقلتما: عليّ! قالا: بلى، ولكنه بدَّل. قال: والله لا أقاتلكم ومعكم أُمُّ المؤمنين، ولا أقاتل علياً ابن عم رسول الله ﷺ ولكن اختاروا مني إحدى ثلاث خصال: إما أن تفتحوا لي باب الجسر فألحق بأرض الأعاجم حتى يقضيَ الله من أمره ما يقضي، وإما أن ألحق بمكة فأكون بها، أو أعتزل فأكون قريباً. قالوا: نأتمر ثم نرسل إليك قال: فائتمَروا. وقالوا: نفتح له باب الجسر فيلحق به المفارق والخاذل! أو يلحق بمكة فيفحشكم في قريش ويخبرهم بأخباركم! اجعلوه ههنا قريباً حيث تنظرون إليه. فاعتزل بالجلحاء من البصرة على فرسخين، واعتزل معه زهاء ستة آلاف من بني تميم.

مقتل طلحة

أبو الحسن قال: كانت وقعة الجمل يوم الجمعة في النصف من جمادي الآخرة، التقوا فكان أول مصروع فينا طلحة بن عبيد الله، أتاه سهم غَرْب[2] فأصاب ركبته

---

(١) الخريبة: موضع بالبصرة. (٢) سهم غرب: أي لا يدري راميه.

فكان إذا أمسكوه فتر الدم، وإذا تركوه انفجر؛ فقال لهم: اتركوه، فإنما هو سهم أرسله الله!

حماد بن زيد عن يحيى بن سعيد قال: قال طلحة يوم الجمل:

نـدِمْـتُ نـدامَـة الكُسَعِـيِّ لَمّا طلبت رضا بني حَزْمٍ بـرغمِـي [1]

اللهم خذ مني لعثمان حتى يرضى!

ومن حديث أبي بكر بن أبي شيبة قال: لما رأى مروان بن الحكم يوم الجمل طلحة بن عبيد الله، قال: لا أنتظر بعد اليوم بثأري في عثمان! فانتزع [2] له سهما فقتله.

ومن حديث سفيان الثوري قال: لما انقضى يوم الجمل خرج عليٌّ بن أبي طالب في ليلة ذلك اليوم ومعه مولاه وبيده شمعة يتصفح وجوه القتلى، حتى وقف على طلحة ابن عبيد الله في بطن واد متعفرا، فجعل يمسح الغبار عن وجهه ويقول: أعْزِزْ عليَّ يا أبا محمد أن أراك متعفراً تحت نجوم السماء وفي بطون الأودية، إنا لله وإنا إليه راجعون! أشقيت نفسي، وقتلت معشري! إلى الله أشكو عُجَري وبُجَري [3]! ثم قال: والله إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم: ﴿ونَزَعْنا ما في صُدورِهِمْ مِن غلٍّ إخواناً على سُرُرٍ مُتقابلينَ﴾ [4]. وإذا لم نكن نحن فمن هم؟

أبو إدريس عن ليث بن طلحة عن مطرف أن علي بن أبي طالب أجلس طلحة يوم الجمل ومسح الغبار عن وجهه وبكى عليه!

ومن حديث سفيان، أن عائشة ابنة طلحة كانت ترى في نومها طلحة، وذلك بعد موته بعشرين يوما؛ فكان يقول لها: يا بُنَيّة، أخرجيني من هذا الماء الذي يؤذيني! فلما

(١) الكسعي: يضرب به المثل في الندامة.
(٢) انتزع له سهماً: رماه به.
(٣) العجر والبجر: العيوب والأحزان.
(٤) سورة الحجر الآية ٤٧.

آنتبهت من نومها جمعت أعوانها ثم نهضت فنبشته، فوجدته صحيحاً كما دفن لم تنحسر له شعرة، وقد اخضر جنبه كالسلق من الماء الذي كان يسيل عليه، فلفته في الملاحف واشترت له عرصة بالبصرة فدفنته فيها وبنَت حوله مسجدا. قال: فلقد رأيت المرأة من أهل البصرة تُقْبِل بالقارورة من البان فتصبها على قبره حتى تفرغها، فلم يزلن يفعلن ذلك حتى صار تراب قبره مسكا أذفر.

ومن حديث الخُشنى قال: لما قتل طلحة بن عبيد الله يوم الجمل، وجدوا في تركته ثلثمائة بهار[1] من ذهب وفضة ـ والبهار مزود من جلد عجل.

وقع قوم في طلحة عند عليّ بن أبي طالب، فقال: أما والله لئن قلتم فيه إنه لكما قال الشاعر:

فتىً كان يُدْنيه الغنىَ مِن صديقه ... إذا ما هو آستغنَى، ويُبعِدُهُ الفقْرُ
كأنَّ الثُّريَّا عُلِّقتْ في يَمينِه ... وفي خدِّه الشِّعْرَى وفي الآخرِ البدرُ[2]

مقتل الزبير بن العوّام

شريك عن الأسود بن قيس قال: حدثني من رأى الزبير يوم الجمل يقعص الخيل بالرمح قعصا، فنوّه به عليٌّ: أبا عبد الله، أتذكر يوماً أتانا النبي ﷺ وأنا أناجيك فقال: أتناجيه، والله ليقاتلنَّك وهو ظالم لك! قال: فصرف الزبير وجه دابته وانصرف.

قال أبو الحسين: لما انحاز الزبير يوم الجمل، مرّ بماء لبنى تميم؛ فقيل للأحنف بن قيس: هذا الزبير قد أقبل. قال: وما أصنع به أن جَمَع بين هذين الغَزِيَّيْن[3] وترك الناس وأقبل؟ ـ يريد بالغزيّين: المعسكرين ـ، وفي مجلسه عمرو بن جُرْموز المجاشعي؛ فلما سمع كلامه قام من مجلسه واتبعه حتى وجده بوادي السباع نائماً

(١) البهار: شيء يوزن به.
(٢) الشعرى: كوكب نيّر يطلع عند شدة الحر. (٣) الغزيّ: جمع غاز.

فقتله، وأقبل برأسه إلى علي بن طالب، فقال عليّ: أبشِرْ بالنار! سمعت رسول الله ﷺ يقول: بشروا قاتل الزبير بالنار! فخرج عمرو بن جرموز وهو يقول:

أتيْتُ عليّا بِرأسِ الزُّبيْرِ ... وكنتُ أَحْسِبُها زُلْفَهْ
فبشَّرَ بالنَّار قبلَ العِيان ... فبِئْسَ بِشارَةُ ذي التحْفَهْ

ومن حديث ابن أبي شيبة قال: أقبل رجل بسيف الزبير إلى الحسن بن علي فقال: لا حاجة لي به، أدخلْه إلى أمير المؤمنين. فدخل به إلى عليّ فناوله إياهَ وقال: هذا سيف الزبير. فأخذه عليّ، فنظر إليه مليا، ثم قال: رحم الله الزبير! لطالمافرّجَ الله به الكَرْبَ عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقالت امرأة الزبير ترثيه:

غدرَ ابنُ جُرْموزٍ بفارس بُهْمةٍ ... يومَ الهَياجِ وكان غيرَ مُعَرَّدِ[1]
يا عمروُ لو نبَّهْتَهُ لوجَدْتَهُ ... لا طائِشاً رعِشَ الجنانِ ولا الْيَدِ
ثكِلَتْكَ أُمُّك إن قتلْتَ لمسلِماً ... حلَّتْ عليك عقوبةُ المُعتَمِّدِ

وقال جرير ينعي علي بن مُجاشع قتل الزبير رضي الله تعالى عنه:

إني تُذَكِّرُني الزبْيرَ حمامَةٌ ... تدْعُو بِبَطْنِ الوادِيَيْنِ هديلاَ[2]
قالت قريشٌ ما أذلَّ مُجاشِعاً ... جاراً وأكْرَم ذا القتيلَ قتيلاَ
لو كنت حُرّا يا ابنَ قَين مُجاشِعٍ ... شيَّعْت ضيْفَك فرْسخاً أو ميلاَ
أفبعْدَ قتْلِكم خليلَ مُحمَّدٍ ... ترْجو القُيون مَع الرسولِ سبيلاَ[3]

هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال: دعاني أبي يوم الجمل فقمت عن يمينه، فقال: إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم، وما أراني إلا سأُقتل مظلوما، وإن أكبر همي ديْني، فبعْ مالي ثم اقضِ ديني؛ فإن فضل شيء فثلثه لولدك، وإن

(١) فارس بهمة: لا ينثني عن شيء أراده.
(٢) الهديل: فرخ تزعم الأعراب أنه كان في عهد نوح عليه السلام مات عطشاً فلا زالت الحمائم يندبنه.
(٣) سبيلا: أي سببا ووصلة.

عجزتَ عن شيء يا بُني فاستعن مولاي. قلت: ومن مولاك يا أبت؟ قال: الله!

قال عبدُ الله بن الزبير: فوالله ما بقيتُ بعد ذلك في كربة من دينه أو عسرة إلا قلت: يا مولى الزبير، آقض عنه دينه! فيقضيه، قال: فقتل الزبير ونظرت في دَيْنه، فإذا هو ألف ألف ومائة ألف. قال: فبعث ضيعة له بالغابة[1] بألف ألف وستمائة ألف، ثم ناديت: من كان له قِبَلَ الزبير شيء فليأتنا نقضِه. فلما قضيت دينه أتاني إخوتي فقالوا: آقسِمْ بيننا ميراثنا. قلت: والله لا أقسم حتى أُناديَ أربع سنين بالمواسم: من كان له على الزبير شيءٌ فليأتنا نقْضِه. فلما مضت الأربعُ سنين أخذت الثلث لولدي؛ ثم قسمت الباقي، فصار لكل امرأة من نسائه ـ وكان له أربع نسوة ـ في ربع الثمن ألف ألف ومائة ألف، فجميع ما ترك مائة ألف ألف وسبعمائة ألف ألف.

ومن حديث ابن أبي شيبة قال: كان عليٌّ يخرج مناديه يوم الجمل يقول: لا يُسْلَبَنَّ قتيل، ولا يُتَّبعُ مُدّبر، ولا يُجهَزُ على جريح.

قال: وخرج كعب بن ثور من البصرة قد تقلد المصحف في عنقه؛ فجعل ينشره بين الصفين ويناشد الناس في دمائهم، إذ أتاه سهمٌ فقتله وهو في تلك الحال، لا يدرَى من قتله.

وقال علي بن أبي طالب يوم الجمل للأشتر ـ وهو مالك بن الحرث ـ وكان على الميمنة: آحمل. فحمل فكشف مَن بإزائه، وقال لهاشم بن عقبة أحد بني زهرة بن كلاب، وكان على الميسرة، آحْمِل. فحمل فكشف من بإزائه؛ فقال علي لأصحابه: كيف رأيتم ميسرتي وميمنتي.

ومن حديث الجمل

الخشني عن أبي خاتم السجستاني قال: أنشدني الأصمعي عن رجل شهد الجمل يقول:

(١) الغابة: موضع قرب المدينة من ناحية الشام.

شهِدْتُ الحروبُ وشيّبْنَنِـي فلم تَرَ عيْني كَيوْمِ الجمَـلْ

أضرّ على مُـؤمـنٍ فِتْنَـــة وأفْتك منهُ لخرْقِ بطَـلْ[1]

فليْـت الظعينـةَ في بيْتِهــا وليْتَـك عسْكَـرُ لم تـرتحِلْ

وكان جملها يُدْعَى عسكرا، حملها عليه يَعْلَى بن مُنْية، وهبه لعائشة وجعل له هودجا من حديد، وجهز من ماله خمسمائة فارس بأسلحتهم وأزودتهم وكان أكثر أهل البصرة مالا . وكان بن أبي طالب يقول: بُليت بأنضّ[2] الناس، وأنطق الناس وأطوع الناس في الناس، يريد بأنضّ الناس: يعلي بن مُنية، وكان أكثر الناس ناضاً، ويريد بأنطق الناس: طلحة بن عبيد الله، وأطوع الناس في الناس: عائشة أم المؤمنين .

أبو بكر بن أبي شيبة عن مخلد بن عبيد عن التميمي قال: كانت راية عليّ يومَ الجمل سوداء، وراية أهل البصرة كالجمل .

الأعمش عن رجل سماه قال: كنت أرى عليا يوم الجمل يحمل فيضرب بسيفه حتى ينثني، ثم يرجع فيقول: لا تلوموني ولوموا هذا! ثم يعود ويقوِّمه .

ومن حديث أبي بكر بن أبي شيبة قال: قال عبد الله بن الزبير؛ التقيتُ مع الأشتر يوم الجمل، فما ضربته ضربة حتى ضربني خمسة أو ستة، ثم جر برجلي فألقاني في الخندق، وقال: والله لولا قُرْبُك من رسول الله ﷺ ما اجتمع فيك عضوٌ إلى آخر.

أبو بكر بن أبي شيبة قال: أعطت عائشة الذي بشَّرها بحياة ابن الزبير إذ التقى مع الأشتر يوم الجمل، أربعة آلاف .

سعيد عن قتادة قال: قتل يوم الجمل مع عائشة عشرون ألفاً، منهم ثمانمائة من بني ضبة .

وقالت عائشة: ما أنكرت رأس جملي حتى فقدت أصوات بني عديّ .

(١) الخرق: السخيّ، والفتى الحسن الكريم الخليقة .

(٢) أنض الناس: أي أكثرهم نضاً . والنضّ: ما تحول ورقاً أو عينا .

وقتل من أصحاب عليّ خمسمائة رجل، لم يرعف منهم إلا عِلْباء بن الهيثم وهند الجملي، قتلهما ابن اليثربي، وأنشأ يقول:

إني لَمِـنْ يَجْهلُني ٱبنُ اليَثْـرِبِـيّ   قتلْـتُ علبـاءَ وهِنـدَ الجَمَلي

عبد الله بن عون عن أبي رجاء قال: لقد رأيت الجمل حينئذ وهو كظهر القنفذ من النبل، ورجل من بني ضبة آخذ بخُطامه[1] وهو يقول:

نَحْنُ بَنُو ضبَّـةَ أصحـابُ الجمَـلْ   الموْتُ أحْلَى عِنـدنـا مِـنَ العسَـلْ

ننْعي ٱبن عفَّان بأَطرافِ الأسَلْ

غُنْدَر قال: حدثنا شعبة بن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن سلمة ـ وكان مع علي بن أبي طالب يوم الجمل ـ والحارث بن سويد ـ وكان مع طلحة والزبير ـ وتذاكرا وقعة الجمل؛ فقال الحارث بن سويد: والله ما رأيت مثل يوم الجمل لقد أشرعوا رماحهم في صدورنا، وأشرعنا رماحنا في صدورهم، ولو شاءت الرجال أن تمشي عليها لمشت؛ يقول هؤلاء: لا إله إلا الله والله أكبر ويقول هؤلاء: لا إله إلا الله والله أكبر، فوالله لوددت أني لم أشهد ذلك اليوم وأني أعمى مقطوعُ اليدين والرجلين.

وقال عبد الله بن سلمة: والله ما يسرني أني غبت عن ذلك اليوم، ولا عن مشهدِ شهده عليُّ بن أبي طالب، بحُمْر النَّعم.

علي بن عاصم عن حصين قال: حدثني أبو جُميلة البكاء قال: إنَي في الصف مع عليّ بن أبي طالب. إذ عُقر بأم المؤمنين جملُها؛ فرأيت محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر يشتدان بين الصفين أيهما يسبقُ إليها، فقطعا عارضة الرحل واحتملاها في هودجها.

ومن حديث الشعبي قال: من زعم أنه شهد الجمل من أهل بدر إلا أربعةٌ فكذِّبْه:

---

(١) الخطام: الزمام.

كان عليٌّ وعمار في ناحية، وطلحة والزبير في ناحية.

أبو بكر بن أبي شيبة قال: حدثني خالد بن مخلد عن يعقوب عن جعفر بن أبي المغيرة عن ابن أبْزَى قال: انتهى عبد الله بن بديل إلى عائشة وهي في الهودج، فقال؛ يا أم المؤمنين، أنشدك بالله، أتعلمين أني أتيتك يوم قتل عثمان، فقلت لك: إن عثمان قد قتل فما تأمرينني؟ فقلتِ لي آلزَمْ عليا! فوالله ما غير ولا بدل، فسكتت، ثم أعاد عليها فسكتت، ثلاث مرات؛ فقال: اعقروا الجمل! فعقروه، فنزلتُ أنا وأخوها محمد بن أبي بكر فاحتملنا الهودج حتى وضعناه بين يدي عليّ فسُرّ به، فأدخل في منزل عبد الله بن بديل.

وقالوا: لما كان يومَ الجمل ما كان وظفر علي بن أبي طالب حتى دنا من هودج عائشة، كلمها بكلام، فأجابته: مَلَكْتَ فأَسْجِحْ[1]! فجهزها عليّ بأحسن الجهاز، وبعث معها أربعين امرأة؛ وقال بعضهم: سبعين امرأة، حتى قدمت المدينة.

عكرمة عن ابن عباس قال: لما انقضى أمرُ الجمل، دعا علي بن أبي طالب بآجُرَّتين فعلاهما، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

يا أنصار المرأة، وأصحاب البهيمة، رغا فجئتم، وعُقِر فهربتم، نزلتم شرَّ بلاد، [أقربها من الماء] وأبعدَها من السماء، بها مغيض[2] كل ماء، ولها شر أسماء، هي البصرة، والبصيرة، والمؤتفكة، وتدمر. أين ابن عباس؟ قال: فدعيتُ له من كل ناحية، فأقبلتُ إليه، فقال: إيتِ هذه المرأة فلترجع إلى بيتها التي أمرها الله أن تقرّ فيه. قال: فجئت فاستأذنت عليها، فلم تأذن لي، فدخلت بلا إذن، ومددتُ يدي إلى وسادة في البيت فجلست عليها، فقالت: تالله يا بن عباس ما رأيتُ مثلك، تدخل بيتنا بلا إذننا، وتجلس على وسادتنا بغير أمرنا! فقلتُ: والله ما هو بيتُكِ، وما بيتُكِ إلا الذي أمَرك الله أن تقَرّي فيه فلم تفعلي! إنّ أمير المؤمنين يأمُرك أن ترجعي إلى

---

(١) سجح: يقال: إذا ملكت فاسجح: أي أحسن العفو.

(٢) المغيض: المكان الذي يغيض فيه الماء.

بلدك الذي خرجتِ منه. قالت: رحم الله أمير المؤمنين ذاك: عمرَ بن الخطاب! قلت: نعم، وهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. قالت: أبيتُ أبيت! قلت: ما كان إباؤك إلا فواقَ[1] ناقة بكيئة[2]، ثم صرتِ ما تُحلين ولا تُمرِّين، ولا تأمرين ولا تنهين! قال: فبكت حتى علا نشيجها، ثم قالت: نعم أرجع، فإنّ أبغض البلدان إليّ بلدٌ أنتم فيه! فقلت: أما والله ما كان ذلك جزاؤنا منك إذ جعلناك للمؤمنين أماً، وجعلنا أباك لهم صدّيقا. قالت: أتمنّ علي برسول الله يا بن عباس؟ قلت: نعم نمنّ عليك بمن لو كان منك بمنزلته منا لمننتِ به علينا!

قال ابن عباس: فأتيت عليا فأخبرته، فقبَّل بين عيني وقال: بأبِي ذُرِّيَّة بعضُها من بعض والله سميع عليم.

ومن حديث ابن أبي شيبة عن ابن فُضيل عن عطاء بن السائب: أنّ قاضيا من قضاة أهل الشام أتى عمرَ بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، رأيت رؤيا أفظعتني. قال: وما رأيت؟ قال: رأيت الشمس والقمر يقتتلان والنجوم معهما نصفين. قال: فمَعَ أيهما كنت؟ قال: مع القمر على الشمس. قال عمر بن الخطاب ﴿وجعلْنا الليلَ والنَّهار آيتْينِ فمحَوْنا آيةَ الليلِ وجعلنا آيةَ النهارَ مُبْصرةً﴾[3]. فانطلِق، فوالله لا تعمل لي عملا أبدا. قال: فبلغني أنه قُتِل مع معاوية بصِفِّين.

أبو بكر بن أبي شيبة قال: أقبل سليمان بن صُرَد، وكانت له صحبة مع النبي ﷺ، إلى عليّ بن أبي طالب بعد وقْعة الجمل؛ فقال ل: تَنأنأتَ[4] وتزحزت وتربصت، فكيف رأيت الله صنع؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنّ الشَّوْط بَطِين[5]، وقد بقي من الأمور ما تعرف به عدوَّك من صديقك.

---

(١) الفواق: ما بين الحلبتين من الوقت.

(٢) البكيئة من النوق: التي قلّ لبنها.

(٣) سورة الاسراء الآية ١٢.

(٤) تنأنأت: قصرت وعجزت.

(٥) بطين: بعيد.

وكتب عليٌّ بن أبي طالب إلى الأشعث بن قيس بعد الجمل، وكان والياً لعثمان على أذربيجان:

سلام عليك؛ أما بعد، فلولا هنات كنّ منك لكنت أنت المقدّم في هذا الأمر قبْل الناس، ولعل أمرك يحمل بعضُه بعضا إن اتقيت الله، وقد كان من بيعة الناس إياي ما قد بلغك، وقد كان طلحة والزبير أول من بايعني ثم نكثا بيعتي من غير حدث ولا سبب، وأخرجا أُمّ المؤمنين فساروا إلى البصرة وسرْتُ إليهم فيمن بايعني من المهاجرين والأنصار، فالتقينا فدعوتهم إلى أن يرجعوا إلى ما خرجوا منه فأبوا، فأبلغت في الدعاء وأحسنت في البُقْيا، وأمرت أن لا يُذَفَّ[1] على جريح، ولا يُتّبَع منهزم، ولا يُسْلَب قتيل، ومن ألقى سلاحه وأغلق بابه فهو آمن، واعلم أنّ عملك ليس لك بطعْمة، إنما هو أمانة في عنقك، وهو مال من مال الله وأنت من خُزّاني عليه حتى تؤدّيه إليَّ إن شاء الله، ولا قوّة إلا بالله.

فلما بلغ الأشعث كتاب عليّ قام فقال:

أيها الناس؛ إنّ عثمان بنَ عفان ولاّني أذربيجان، فهلك وقد بقَيتْ في يدي؛ وقد بايع الناسُ عليّا، وطاعتُنا له واجبة، وقد كان من أمره وأمر عدوه ما كان، وهو المأمون على ما غاب عن ذلك المجلس، ثم جلس.

قولهم في أصحاب الجمل

أبو بكر بن أبي شيبة قال: سئل عليّ عن أصحاب الجمل: أمشركون هم؟ قال: مِن الشرك فرّوا. قال: فمنافقون هم؟ قال: إنّ المنافقين لا يذكرونَ اللهَ إلا قليلا. قال: فما هم؟ قال: إخوانُنا بغَوْا علينا!

ومرّ علي بقتلى الجمل فقال: اللهم اغفر لنا ولهم. ومعه محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر؛ فقال أحدهما لصاحبه: أما تسمع ما يقول؟ قال: أسكت لا يزيدك.

(١) ذفّ على الجريح: أجهز عليه.

وكيع عن مِسْعد عن عبد الله بن رباح عن عمار قال: لا تقولوا: كفَر أهلُ الشام؛ ولكن قولوا: فسَقوا وظلَموا.

وسئل عمار بن ياسر عن عائشة يوم الجمل، فقال: أما والله إنا لنعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم بها ليعلم أتتبعونه أم تتبعونها!.

وقال عليّ بن أبي طالب يوم الجمل: إن قوما زعموا أن البغي كان منا علْيهم، وزعمنا أنه منهم علينا؛ وإنما اقتتلنا على البغي ولم نقتتل على التكفير.

أبو بكر بن أبي شيبة قال: أول ما تكلمتْ به الخوارج يوم الجمل قالوا: ما أحلَّ لنا دماءهم وحرَّم علينا أموالهم! فقال عليّ: هي السَّنة في أهل القبلة. قالوا: ما ندري ما هذا؟ قال: فهذه عائشة رأسُ القوم، أتتساهمون عليها؟ قالوا: سبحان الله! أُمنا. قال: فهي حرام؟ قالوا: نعم. قال: فإنه يحرم من أبنائها ما يحرم منها.

قال: ودخلت أمّ أوفى العبادية على عائشة بعد وقعة الجمل فقالت لها: يا أم المؤمنين، ما تقولين في امرأة قتلتْ ابناً لها صغيراً؟ قالت: وجبتْ لها النار! قالت: فما تقولين في امرأة قتلت من أولادها الاكابر عشرين ألفاً في صعيد واحد؟ قالت: خذوا بيد عدوَّة الله!

وماتت عائشة في أيام معاوية وقد قاربت السبعين؛ وقيل لها: تُدْفَنين مع رسول الله ﷺ؟ قالت: لا، إني أحدثت بعده حدثا، فادفنوني مع إخوتي بالبقيع.

وقد كان النبي ﷺ قال لها: يا حُميراء، كأني بك ينبحك كلاب الحوأب، تقاتلين عليا وأنت له ظالمة.

والحوأب: قرية في طريق المدينة إلى البصرة، وبعض الناس يسمونها الحُوَّب، بضم الحاء وتثقيل الواو؛ وقد زعموا أنّ الحوأب: ماء في طريق البصرة، قال في ذلك بعض الشيعة:

إنـي بحـبِّ آلِ محمدٍ وبنِي الوصيِّ شهودِهمْ والغُيَّبِ
وأنا البَريءُ من الزبيْر وطلْحةٍ ومِن التي نَبحتْ كلابِ الحوْأب

أخبار عليّ ومعاوية

كتب علي بن أبي طالب إلى جرير بن عبد الله، وكان وجَّهه إلى معاوية في أخذ بيْعته؛ فأقام عنده ثلاثة أشهر يماطله بالبيعة، فكتب إليه عليّ:

سلامٌ عليك؛ فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل معاوية على الفصل، وخيِّره بين حرب مُجْلِية أو سلم مُخزية، فإن اختار الحرب فانبذ إليهم على سواء إنّ اللهَ لا يُحبُّ الخائنين، وإن اختار السِّلْمَ فخذ بيْعتَه وأقبل إليّ.

وكتب عليّ إلى معاوية بعد وقعة الجمل:

سلامٌ عليك؛ أمّا بعد، فإنّ بيْعتي بالمدينة لزِمتْك وأنت بالشام؛ لأنه بايعني [القومُ] الذين بايعوا أبا بكر، وعمر، وعثمانَ، على ما بويعوا عليه؛ فلم يكن للشاهد أن يختارَ ولا للغائب أن يَرُدّ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجُلٍ وسمَّوهُ إماماً كان ذلك لله رضا، وإن خرج عن أمرهم خارجٌ رَدُّوهُ إلى ما خرج عنه، فإنْ أَبى قاتلوه على اتِّباعه غيرَ سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولَّى، وأصلاهُ جهنّمَ وساءَتْ مَصيرا.

وإن طلحة والزبير بايَعاني ثم نقَضَا بيعتهما، وكان نقضهما كردّتهما فجاهدتهما بعد ماأعذرتَ إليهما، حتى جاء الحقُّ وظهر أمرُ الله وهم كارهون؛ فادْخُل فيما دخل فيه المسلمون؛ فإن أحب الأمور إليّ قبولُك العافية. وقد أكثرت في قتَلة عثمان، فإن أنت رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكمت القومَ إليّ، حملتُك وإياهم على كتاب الله؛ وأما تلك التي تريدها فهي خِدعةُ الصبي عن اللبن. ولعمري لئن نظرتَ بعقلك دون هواك، لتجدنَّني أبْرَأَ قريشٍ من دم عثمان. واعلم أنك من الطلقاء[1] الذين لا تحل لهم الخلافة، ولا يدخلون في الشورى؛ وقد بعثت إليك والي من قَبلك جرير بن عبد الله، وهو من أهل الإيمان والهجرة؛ فبايعه، ولا قوة إلا بالله.

(١) الطلقاء: الذين خلي عنهم يوم فتح مكة واطلقوا ولم يسترقوا.

فكتب إليه معاوية:

سلام عليك: أما بعد، فلعمري لو بايعك الذين ذكرتَ وأنت بريءٌ من دم عثمان، لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان، ولكنك أغريتَ بدم عثمان [المهاجرين] وخذَّلت [عنه] الأنصار، فأطاعك الجاهلُ وقوِيَ بك الضعيف، وقد أبىٰ أهلُ الشام إلا قتالَك حتى تدفع إليهم قتلةَ عثمان، فإن فعلتَ كانت شورى بين المسلمين، وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحقُّ فيهم، فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام، ولعمري ما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة، [لأن أهل البصرة أطاعوك ولم يطعْك أهلُ الشام]؛ ولا حجتك عليّ كحجتك على طلحة والزبير، لأنهما بايعاك ولم أبايعك أنا، فأما فضلُك في الإسلام، وقرابتك من رسول الله ﷺ، فلستُ أدفعه!

فكتب إليه عليّ:

أما بعد، فقد أتانا كتابُك، كتاب امرئٍ ليس له بصرٌ يهديه، ولا قائد يُرشده، دعاه الهوى فأجابه، وقاده فاتبعه؛ زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتي خُفُوري[١] لعثمان ولعمري ما كنتُ إلا رجلا من المهاجرين، أوردتُ كما أوردوا وأصدرتُ كما أصدروا؛ وما كان الله ليجمعهم على ضلالة، ولا ليضربهم بالعمى وماأمرت فلزمتني خطيئة الأمر، ولا قتلت فأخاف على نفسي قصاص القاتل.

وأما قولك إن أهل الشام هم حكامُ أهل الحجاز، فهات رجلا من أهل الشام يُقبل في الشورى أو تحل له الخلافة، فإن سمَّيت كذّبك المهاجرون والأنصار، ونحن نأتيك به من قريش الحجاز.

وأما قولك ادفع إليَّ قتلة عثمان، فما أنت وذاك؟ وههنا بنو عثمان، وهم أولى بذلك منك، فإن زعمت أنك أقوى على طلب دم عثمان منهم فارجع إلى البيعة التي لزمتْك وحاكم القومَ إليّ.

---

(١) يقال: أخفر الذمة، إذا لم يف بها.

وأما تمييزك بين أهل الشام والبصرة، وبينك وبين طلحة والزبير، فلعمري فما الأمر هناك إلا واحد، لأنها بيعة عامة، لا يتأنى فيها النظر، ولا يُستأْنف فيها الخيار. وأما قرابتي من رسولِ الله ﷺ وقِدَمي في الإسلام؛ فلو استطعت دفعه لدفعتَهُ!

وكتب معاوية إلى علي:

أما بعد: فإنك قتلت ناصرَك، واستنصرتَ واترِك[1]، وايم الله لأرمينَّك بشهاب تذكيه الريح ولا يطفئه الماء؛ فإذا وقع وقَب[2]، وإذا مَسَّ ثقب، فلا تحسبَنّي كسحيم، أو عبد القيس، أو حلوان الكاهن.

فأجابه علي:

أما بعد، فوالله ما قتل ابنَ عمك غيرُك، وإني أرجو أن أُلحقَك به على مثل ذنبه وأعظَم من خطيئته؛ وإن السيف الذي ضربتُ به أهْلَكَ لَمعِي دائم؛ والله ما استحدثتُ دِينا، ولا استبدلت نبياً، وإني على المنهاج الذي تركتموه طائعين، وأُدْخِلتم فيه كارهين.

وكتب معاوية [مع أبي مسلم الخولاني] إلى علي بن أبي طالب [قبل مسيره إلى صفين].

أما بعد، فإن الله اصطفى محمداً وجعله الأمين على وحيه، والرسول إلى خلقه، واختار له من المسلمين أعواناً أيده بهم وكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام، فكان أفضلهم في الإسلام وأنصحهم لله ولرسوله، الخليفة، وخليفة الخليفة، والخليفة الثالث؛ فكلَّهم حسدت، وعلى كلهم بغَيْتَ؛ عرفنا ذلك في نظرك الشَّزْر، وتنفسك الصعداء، وإبطائك عن الخلفاء؛ وأنت في كل ذلك تقاد كما يقاد

(١) يقال: وتر فلاناً: أي قتل حميمه، وأدركه بمكروه، وأفزعه.
(٢) وقب: دخل ونفذ.

البعير المَخْشوش[1] حتى تبايع وأنت كاره؛ ولم تكن لأحد منهم أشدّ حسداً منك لابن عمك عثمان، وكان أحقهم أن لا تفعل ذلك به، في قرابته؛ وصِهْرِه فقطَعتَ رحِمه وقبّحْت محاسنه، وألَّبْتَ عليه الناس، حتى ضرِبَت إليه آباط[2] الإبل، وشهِرَ عليه السلاح في حرم الرسول، فقُتيل معك في المحلة وأنت تسمع في داره الهائعة[3]؛ لا تؤدِّي عن نفسك في أمره بقول، ولا فِعْل برّ، وأُقسم قسما صادقا: لو قمت في أمره مقاما واحداً تنهنه الناس عنه، ما عَدل بك من قبلنا من الناس أحدا، ولمحا ذلك عنك ما كانوا يعرفونك به، من المجانبة لعثمان والبغي عليه؛ وأُخرى أنت بها عند أولياء ابن عفان ظنين: إيواؤك قتلة عثمان، فهم بطانتك وعضدك وأنصارك؛ وقد بلغني أنك تنتفي من دمه، فإن كنت صادقا فادفع إلينا قتَلته نقتُلْهم به، ثم نحن أسرعُ الناس إليك، وإلا فليس لك ولا لأصحابك عندنا إلا السيف، والذي نفس معاوية بيده، لأطلُبَنَّ قتلة عثمان في الجبال والرمال والبر والبحر، حتى تقتلهم أو تَلحق أرواحُنا بالله!.

فأجابه علي:

أما بعد، فإن أخا خَولان قدم عليّ بكتاب منك تذكر فيه محمداً ﷺ، وما أنعم الله به عليه من الهدى والوحي؛ فالحمد لله الذي صدقه الوعد وتمم له النصر، ومكنه في البلاد، وأظهره على الأعادي من قومه الذين أظهروا له التكذيب، ونابذوه بالعداوة، وظاهروا على إخراجه وإخراج أصحابه، وألَّبوا عليه العرب، وحزَّبوا الأحزاب، حتى جاء الحق وظهر أمرُ الله وهم كارهون.

وذكرتَ أن الله اختار [له] من المسلمين أعواناً أيده بهم، فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام، فكان أفضلهم في الإسلام، وأنصحهم لله ولرسوله، الخليفة، وخليفة الخليفة من بعده.

---

(١) البعير المخشوش: الذي جعل في أنفه خشاشاً، وهو ما يدخل في عظم أنف البعير من خشب.
(٢) آباط: جمع إبط: وهو باطن المنكب والجناح.
(٣) الهائعة: الصوت الشديد تفزع منه.

ولعمري إن كان مكانُهما في الإسلام لعظيما، وإن كان المصاب بهما لجرحاً في الإسلام شديداً، فرحمهما الله وغفر لهما. وذكرت أن عثمان كان في الفضل تاليا؛ فإن كان محسنا فسيلقي رباً شكوراً يضاعف له الحسنات، ويجزيه الثواب العظيم؛ وإن يك مسيئا فسيلقى ربا غفوراً لا يتعاظمه ذنب [أن] يغفره.

ولعمري إني لأرجو إذا الله أعطى [الناس على قدر فضائلهم في] الإسلام [ونصيحتهم لله ولرسوله] أن يكون سهمُنا أهل البيت أوفرَ نصيبٍ: وآيم الله ما رأيت ولا سمعتُ بأحد كان أنصح لله في طاعة الله ورسوله، ولا أنصح لرسول الله في طاعة الله، ولا أصبر على البلاء والأذى في مواطن الخوف ـ من هؤلاء النفر من أهل بيته؛ الذين قتلوا في طاعة الله: عبيدة بن الحرث يوم بدر، وحمزة بن عبد المطلب يوم أُحد، وجعفر وزيد يوم مؤتة؛ وفي المهاجرين خير كثير، جزاهم الله بأحسن أعمالهم.

وذكرت إبطائي عن الخلفاء وحسدي إياهم والبغْي عليهم؛ فأما البغي فمعاذ الله أن يكون، وأما الكراهة لهم فوالله ما أعتذر للناس من ذلك؛ وذكرتَ بغيي على عثمان وقطْعي رحمه، فقد عمل عثمان بما قد علمتَ وعمل به الناسُ ما قد بلَغك، وقد علمت أني كنتُ من أمره في عُزلةٍ إلا أن تَجَنِّي فتجَنَّ ما شِئت؛ وأما ذكرُك قتلة عثمان وما سألت من دفعهم إليك، فإني نظرتُ في هذا الأمر وضربتُ أنفه وعينه، فلم يسعني دفعهم إليك ولا إلى غيرك.

وإن لم تنزعْ عن غيِّك لتعرفنَّهم عما قليل يطلبونك ولا يكلِّفونك أن تطلُبَهُمْ في سهل ولا جبل، ولا برّ ولا بحر؛ وقد كان أبوك أبو سفيان أتاني حين قُبِض رسول الله ﷺ، فقال: ٱبْسُطْ يدك أُبايعْك، فأنت أحقُّ الناس بهذا الأمر. فكنت أنا الذي أبَيْتُ عليه، مخافة الفُرقة بين المسلمين لقرب عهد الناس بالكفر؛ فأبوك كان أعلم بحقِّي منك؛ فإن تعرفْ من حقي ما كان أبوك يعرفه تُصِبْ رُشدَك وإلا فنستعينُ اللهَ عليك.

وكتب عبد الرحمن بن الحكم إلى معاوية:

ألاَ أبلِغْ مُعاويةَ بن حرْبٍ   كِتاباً مِن أخي ثقة يلومُ
فإنك والكِتاب إلى عليّ   كدابغةٍ وقد حلِم الأديمُ[1]

يوم صفين

أبو بكر بن أبي شيبة قال: خرج عليٌّ بن أبي طالب من الكوفة إلى معاوية في خمسة وتسعين ألفاً، وخرج معاوية من الشام في بضعة وثمانين ألفاً، فالتقوا بصِفين؛ وكان عسكر علي يسمى الزحزحة، لشدّة حركته؛ وعسكر معاوية يسمى الخضرية، لاسوداده بالسلاح والدروع.

أبو الحسن قال: كانت أيام صفين كلها موافقة ولم تكن هزيمة بين الفريقين إلا على حامية ثم يكرّون.

أبو الحسنّ قال: كان منادي عليّ يخرج كل يوم وينادي: أيها الناس، لا تُجْهِزُنّ علي جريح، ولا تَتّبِعُنّ مُوَلّياً[2]، ولا تَسْلُبُنّ قتيلا، ومن ألقى سلاحه فهو آمن.

أبو الحسن قال: خرج معاوية إلى عليّ يوم صفين، ولم يبايعه أهل الشام بالخلافة، وإنما بايعوه على نصرة عثمان والطلب بدمه؛ فلما كان من أمر الحكَمين ما كان، بايعوه بالخلافة؛ فكتب معاوية إلى سعد بن أبي وقاص يدعوه إلى القيام معه في دم عثمان:

سلام عليك؛ أما بعد، فإن أحق الناس بنصرة عثمان أهلُ الشورى من قريش الذين أثبتوا حقه، واختاروه على غيره؛ و [قد] نصره طلحة والزبير، وهما شريكاك في الأمر [والشورى]، ونظيراك في الإسلام؛ وخفَّت لذلك أُمُّ المؤمنين، فلا تكره ما رضوا، ولا تردّ ما قَبِلوا، وإنما نريد أن نردها شورى بين المسلمين والسلام.

---

(١) حلم الأديم: أن يقع فيه دود فينثقب.   (٢) مولياً: هارباً.

فأجابه سعد :

أما بعد ، فإن عمر رضي الله عنه لم يُدخل في الشورى إلا من تحل له الخلافة ، فلم يكن أحد أولى بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه ، غير أن عليا كان فيه ما فينا ، ولم يكن فينا ما فيه ، ولو لم يطلبها ولزم بيته لطلَبتْه العرب ولو بأقصى اليمن؛ وهذا الأمر قد كرهنا أوله ، وكرهنا آخره؛ وأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما لكان خيراً لهما ، والله يغفر لأم المؤمنين ما أتت .

وكتب معاوية إلى قيس بن سعد بن عبادة:

أما بعد ، فإنما أنت يهودي بن يهودي ، إن ظفر أحبُّ الفريقين إليك عَزَلك واستبدل بك؛ وإن ظفر أبغض الفريقين إليك قَتَلَك ونكّل بك؛ وقد كان أبوك أوتر[1] قوْسَه ورمى غرضه ، فأكثر الحز وأخطأ المفصل ، فخذله قومه ، وأدركه يومه ، ثم مات طريداً بحَوْران .

فأجابه قيس:

أما بعد ، فأنت وثني ، ابن وثني دخلت في الإسلام كرها ، وخرجت منه طوعا ، لم يقدم إيمانك ، ولم تحذر نفاقك؛ ونحن أنصار الدين الذي خرجتَ منه وأعداء الدين الذي دخلت فيه! والسلام .

وخطب عليٌّ بن أبي طالب أصحابه يوم صفين ، فقال:

أيها الناس ، إن الموت طالبٌ لا يُعْجزه هارب ، ولا يفوته مقيم؛ أقدموا ولا تنكلوا[2] ، فليس عن الموت محيص[3] ، والذي نفس ابن أبي طالب بيده: إن ضربة سيف أهون من موت الفراش .

---

(١) أوتر القوس: جعل لها وتراً ، وشدّ وترها .
(٢) نكل عن الأمر: جبن ونكص .
(٣) محيص: مهرب .

أيها الناس، اتقوا السيوف بوجوهكم، والرماح بصدوركم، وموعدي وإياكم الراية الحمراء[1].

فقال رجل من أهل العراق: ما رأيت كاليوم خطيباً يخطبنا، يأمرنا أن نتقي السيوف بوجوهنا، والرماح بصدورنا، ويعدنا راية بيننا وبينها مائة ألف سيف.

قال أبو عُبيدة في التاج: جمع علي بن أبي طالب رياسة بكر كلها يوم صفين لحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة، وجعل ألويتها تحت لوائه، وكانت له راية سوداء يخفق ظلّها إذا أقبل، فلم يُغْن أحد في صفين غناءه؛ فقال فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

لِمَنْ رايةٌ سوْداءُ يَخفِقُ ظلُّها ... إذا قيل قدِّمْها حُضَيْنُ تقدَّما
يُقدِّمُها في الصفِّ حتى يُزيرها ... حِياضَ المَنايا تَقطُر السُّمَّ والدَّما
جزى آللهُ عني والجزاءُ بكفِّه ... ربيعةَ خيْراً، ما أعَفَّ وأكرما

وكان من همدان في صِفين [بلاءٌ] حسَنٌ، فقال فيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

لِهَمْدانَ أخلاقٌ ودينٌ يَزينُهُم ... وبأْسٌ إذا لاقوْا وحُسْنُ كلام
فلو كنت بوّاباً على باب جَنَّةٍ ... لقلت لهمْدانَ آدخلوا بسلام

أبو الحسن قال: كان عليٌّ بن أبي طالب يخرج كل غداة لصفين في سَرَعان الخيل[2]، فيقف بين الصفين ثم ينادي: يا معاوية، علام يقتتل الناس؟ آبرُزْ اليّ أو أبرز إليك، فيكون الأمر لمن غلب. فقال له عمرو بن العاص: أنْصَفَك الرجل! فقال له معاوية: أردْتَها يا عمرو! والله لا رضيت عنك حتى تبارز عليًّا. فبرز إليه متنكراً؛ فلما غشيه عليٌّ بالسيف رمى بنفسه إلى الأرض وأبدى له سوءته فضرب عليٌّ وجه فرسه وانصرف عنه؛ فجلس معه معاوية يوماً فنظر إليه يضحك؛ فقال عمرو:

---

(١) يريد راية معاوية. (٢) سرعان الخيل: أوائلها.

أضحك الله سنك؛ ما الذي أضحكك؟ قال: من حضور ذهنك يوم بارزت علياً إذ اتَّقيته بعورتك؛ أما والله لقد صادفت منَّاناً كريماً؛ ولولا ذلك لخرم رَفَغيك[١] بالرمح. قال عمرو بن العاص: أما والله إني عن يمينك إذ دعاك إلى البراز، فاحْوَلَّت عيناك، وربا سَحْرُك[٢] وبدا منك ما أكره ذكره لك.

وذكر عمرو بن العاص عند علي بن أبي طالب؛ فقال فيه علي: عجباً لابن النابغة يزعم أني بلقائه أُعافِس[٣] وأُمارس ، أما وشرُّ القول أكذبه، إنه يَسأل فيلحف ويُسأل فيبخل؛ فإذا احمر البأس وحمي الوطيس وأخذت السيوف مأخذها من هام الرجال، لم يكن له هم إلا نَزْعَه ثيابه ويمنح الناس آستّه أغَصه الله وترّحه.

مقتل عمار بن ياسر

العتبي قال: لما التقى الناس بصفين، نظر معاوية إلى هاشم بن عُتبة، الذي يقال له المرقال لقول النبي ﷺ أرقل ليمون، وكان أعور، والراية بيده وهو يقول:

أعْورُ يَبغي نفسَه محلاَّ قد عالج الحياة حتى مَلاَّ

لا بُدّ أنْ يَفُلَّ أو يُفَلاَّ

فقال معاوية لعمرو بن العاص: يا عمرو، هذا المرقال؛ والله لئن زحف بالراية زحفاً إنه ليوم أهل الشام الأطول، ولكني أرى ابن السوداء إلى جنبه - يعني عمَّارا - وفيه عجلة في الحرب، وأرجو أن تقدمه إلى الهلكة.

وجعل عمار يقول: أبا عتبة تقدّم، فيقول: يا أبا اليقظان، أنا أعلم بالحرب منك، دعني أزحف بالراية زحفاً. فلما أضجره وتقدم، أرسل معاوية خيلا فاختطفوا عماراً، فكان يسمى أهل الشام قتل عمار فتح الفتوح.

---

(١) الرفغ: أصل الفخذ.

(٢) السحر: الرئة.

(٣) المعانسة: المعالجة. والممارسة: المداعبة.

أبو بكر بن أبي شيبة عن يزيد بن هارون عن العوّام بن حوشب عن أسود بن مسعود عن حنظلة بن خويلد قال: إني لجالس عند معاوية إذ أتاه رجلان يختصمان في رأْس عمار، كل واحد منهما يقول: أنا قتلتُه! فقال لهما عبد الله بن عمرو بن العاص: لِيَطِبْ به أحدُكما نفساً لصاحبه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول له: «تَقْتُلُكَ الفئة الباغيَة»!.

أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن علية عن ابن عون عن الحسن عن أم سلمة قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تقْتُلُ عمَّاراً الفئةُ الباغية».

أبو بكر قال: حدثنا علي بن حَفص عن أبي معشر عن محمد بن عُمارة قال: ما زال جدِّي خزيمةُ بن ثابت كافًا سلاحه يوم صفين، حتى قتِل عمار، فلما قُتِل سلَّ سيفَه وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقْتُلُ عمَّاراً الفئةُ الباغية». فما زال يقاتل حتى قتل.

أبو بكر عن غُندر عن شعبة عن عمرو بن مُرة عن عبد الله بن سلمة قال: رأيت عماراً يوم صفين شيخاً آدم[1] طوالا، أخذ الحربة بيده ويده ترعد، وهو يقول: والذي نفسي بيده، لقد قاتلت بهذه الحربة مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات، وهذه الرابعة؛ والذي نفسي بيده لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات[2] هجر، لعرفتُ أنَّا على حق وأنهم على باطل. ثم جعل يقول: صبراً عبادَ الله، الجنةُ تحت ظِلال السيوف.

أبو بكر بن أبي شيبة عن وكيع عن سفيان عن حبيب عن أبي البختريّ قال: لما كان يوم صفين واشتدّت الحرب، دعا عمار بشربة لبن وشربها، وقال: إن رسول الله ﷺ قال لي: إنَ آخرَ شربة تشربُها من الدنيا شربة لبن.

أبو ذرّ عن محمد بن يحيى عن محمد بن عبد الرحمن عن أبيه عن جدته أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: لما بنى رسول الله ﷺ مسجده بالمدينة أمر باللبن يُضرب وما

---

(١) آدم: شديد السمرة.
(٢) سعفات هجر: اسم موضع.

يُحتاج إليه؛ ثم قام رسول الله ﷺ، فوضع رداءه؛ فلما رأى ذلك المهاجرون والأنصار وضعوا أردِيَتَهم وأكسِيَتَهم يعملون ويرتجزون ويقولون:

لئِـن قعــدْنــا والنَّبيُّ يعْمَــلُ ذاك إذاً لعمَــلٌ مُضَلَّــلُ

قالت: وكان عثمان بن عفان رجلا نظيفاً متنظفاً، فكان يحمل اللبنة ويجافي بها عن ثوبه، فإذا وضعها نفض كفيه ونظر إلى ثوبه، فإذا أصابه شيء من التراب نفضه؛ فنظر إليه عليّ رضي الله عنه فأنشده:

لا يستَوي مَـن يعْمُـرُ المسـاجـدا يَدأَبُ فيهـا راكِعـاً وسـاجـدا[1]

وقـائماً طـوْراً وطـوْراً قـاعِـدَا ومـن يُـرى عـنِ الترابِ حـائِـدا

فسمعها عمار بن ياسر، فجعل يرتجزها وهو لا يدري من يعني؛ فسمعه عثمان فقال: يا بن سمية، ما أعرفني بمن تعرِّض. ومعه جريدة، فقال: لتَكُفَّنَّ أو لأعتَرِضَنَّ بها وجهك! فسمعه النبي ﷺ وهو جالس في ظل حائط، فقال: عمّارُ جلدةُ ما بين عينيّ وأنفي، فمن بلغ ذلك منه؟ وأشار بيده فوضعها بين عينيه، فكف الناس عن ذلك، وقالوا لعمار: إن رسول الله ﷺ قد غضب فيك، ونخاف أن ينزل فينا قرآن. فقال أنا أُرضِيـهِ كما غضِـب. فـأقبـل عليـه فقـال يـا رسـول الله، مـالي ولأصحابك؟ قال: ومالك ولهم؟ قال: يريدون قتلي،. يحملون لبنة [لبنة] ويحملون عليّ لبنتين. فأخذ به وطاف به في المسجد وجعل يمسح وجهه من التراب ويقول: يا ابن سمية، لا يقتلك أصحابي؛ ولكن تقتلك الفئةُ الباغية.

فلما قُتل بصفين وروى هذا الحديث عبدُ الله بن عمرو بن العاص، قال معاوية: هم قتلوه؛ لأنهم أخرجوه إلى القتل! فلما بلغ ذلك عليا قال: ونحن قتلنا أيضا حمزة، لأنّا أخرجناه.

من حرب صفين

أبو الحسن قال: كانت أيام صفين كلها موافقة، ولم تكن هزيمة في أحد الفريقين إلا على حامية ثم يكرُّون.

---

(١) دأب الشيء: لازمه واعتاده من غير فتور.

أبو بكر بن أبي شيبة قال: انقضت وقعة صفين عن سبعين ألف قتيل: خمسين ألفاً من أهل الشام، وعشرين ألفا من أهل العراق.

ولما انصرف الناس من صفين قال عمرو بن العاص:

شبَّتِ الحربُ فأَعْددتُ لها ... مُشرِّفَ الحارك محبوكَ الثَّبَجْ[1]

يصِلُ الشرَّ بشّرِ فإذا ... وثبَ الخيْلُ مِنَ الشرِّ معَجْ[2]

جُرْشُع أعظُمُهُ جُفْرتُه ... فإذا ابتلَّ مِنَ الماءِ خرَجْ[3]

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص:

فإن شهِدت جُمْلٌ مقامي ومشهَدي ... بصِفِّين يوماً شابَ منها الذَّوائبُ

عشيَّة جا أهلُ العِراقِ كأنهُمْ ... سحابُ خريف صفَّعته الجنائبُ[4]

وجئْناهُمُ تْرَى كأنَ صُفوفنا ... مِنَ البحرِ مدٌّ موْجُهُ مُتراكِب

إذا قلتُ قد ولّوْا سِراعاً بدتْ لنا ... كتائبُ منهم فارْجَحَنَّتْ كتائبُ

فدارت رحانا واستدارَتْ رحاهُمُ ... سَراةَ النهارِ ما تُوَلّى المناكب

وقالوا لنا: إنْا نرى أن تُبايعوا ... علياً فقلنا: بل نَرى أن نُضارِبُ

وقال السيد الحميري وهو رأس الشيعة، وكانت الشيعة من تعظيمها له تلقى له وساداً بمسجد الكوفة:

إني أدينُ بما دانَ الوصيُّ به ... وشاركتْ كفَّهُ كفّي بصِفِّينا

في سَفْكِ ما سفكَتْ منها إذا احتُضِروا ... وأبْرزَ اللهُ للقِسْطِ الموازينا

تلك الدِّماء معاً يا ربِّ في عُنقي ... ثم اسقِني مِثلها آمين آمينا

آمينَ! مَن مثلُهم في مِثْلِ حالِهم ... في فِتْيةٍ هاجَروا في اللهِ شارينا

ليْسوا يُريدونَ غيرَ اللهِ ربِّهمُ ... نِعْمَ المُرادُ توخَّاه المُريدونا

---

(١) الثبج: الوسط.

(٢) المعج: سرعة السير.

(٣) جرشع: عظيم الصدر. والجفرة. وسط الفرس.

(٤) الجنائب: جمع جنوب، وهي الريح الحارة.

وقال النجاشي يوم صفين، وكتب بها إلى معاوية:

يـأيها المِلـكُ المُبْدي عـداوتَـه آنظرُ لِنفسِكَ أيَّ الأمـرِ تـأتَمِـرُ
فإن نفستَ على الأقوامِ مَجْدَهُـم فآبسُطْ يديْك فـإنّ الخيْـرَ مُبتَـدِرُ
واعلمَ بـأنّ علِـيَّ الخيْـرِ مـن نفـرٍ شُمِّ العرانينِ لا يعلُوهُـمُ بشَـرُ [1]
نِعْـمَ الفتَـى أنــت إلاَّ أن بينكُما كما تفاضَل ضوْءُ الشمْسِ والقمـرُ
ومـا إخـالـكَ إلاّ لسـتَ مُنتهيـاً حتى ينالَـك مـن أظفـارهِ ظفَـرُ

خبر عمرو بن العاص

سفيان بن عيينة قال: أخبرني أبو موسى الأشعري قال: أخبرني الحسن قال: علم معاوية والله، إن لم يبايعه عمروٌ لم يتم له أمر، فقال له ياعمرو، اتبعني. قال لماذا؟ للآخرة؟ فوالله ما معك آخرة؛ أم للدنيا؟ فوالله لا كان حتى أكون شريكَكَ فيها! قال: فأنت شريكي فيها. قال: فاكتب لي مصرَ وكورها [2]. فكتب له مصر وكورها وكتب في آخر الكتاب: وعلى عمروٍ السمعُ والطاعة. قال عمرو: واكتب: إن السمعَ والطاعة لا ينْقُصَان من شرْطه شيئاً. قال معاوية: لا ينظرُ الناس إلى هذا. قال عمرو: حتى تكتب. قال: فكتب، والله ما يجد بداً من كتابتها!

ودخل عتبة بن أبي سفيان على معاوية وهو يكلم عَمْراً في مصر، وعمرو يقول له: إنما أُبايعك بها ديني! فقال عتبة: ائتمِن الرجُلَ بدينه، فإنه صاحب من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

وكتب عمرو إلى معاوية:

مُعـاويَ لا أُعطيـك ديني ولم أنـلْ به منكَ دُنيا، فانْظرن كيف تصنعُ؟
ومـا الديـنُ والدُّنيـا سـواءٌ وإنَّني لآخُـذ مـا تُعطـى ورأسي مُقنَّـعُ
فإن تعطني مِصْراً فـأربـحُ صفْقَـةٍ أخـذْتَ بها شيْخـاً يضُـرُّ وينفـعُ

(١) شم العرانين: أعزة أباة.

(٢) الكورة: الصقع. والبقعة التي يجتمع فيها قرى ومحال.

وقالوا : لما قدم عمرو بن العاص على معاوية وقام معه في شأن علي بعد أن جعل له مصر طعمة . قال له : إن بأرضك رجلا له شرف وآسم ، والله إن قام معك استهويت به قلوبَ الرجال ؛ وهو عبادة بن الصامت . فأرسل إليه معاوية ، فلما أتاه وسَّع له بينه وبين عمرو بن العاص ، فجلس بينهما ، فحمد الله معاوية وأثنى عليه ، وذكر فضل عبادة وسابقته ، وذكر فضل عثمان وما ناله ، وحضَّه على القيام معه ؛ فقال عبادة : قد سمعتُ ما قلتَ ، أتدريان لم جلست بينكما في مكانكما ؟ قالا : نعم ، لفضلك وسابقتك وشرفك . قال : لا والله ، ما جلست بينكما لذلك ، وما كنت لأجلس بينكما في مكانكما ؛ ولكن بيْنا نحن نسير مع رسول الله ﷺ في غزاة تبوك ، إذ نظر إليكما تسيران وأنتما تتحدّثان ، فالتفت إلينا فقال : إذا رأيتموهما اجتمعا ففرّقوا بينهما ؛ فإنما لا يجتمعان على خير أبداً ! وأنا أنهاكما عن اجتماعكما ؛ فأمّا ما دعوتماني إليه من القيام معكما ، فإنّ لكما عدوّا هو أغلظ أعدائكما عليكما ، وأنا كامنٌ من ورائكم في ذلك العدو ، إن اجتمعتم على شيء دخلتُ فيه .

أمر الحكمين

أبو الحسن قال : لما كان يوم الهرير ، وهو أعظم يوم بصفين ، زحف أهل العراق على أهل الشام فأزالوهم عن مراكزهم ، حتى انتهوا إلى سرادق(١) معاوية ، فدعا بالفَرَس وهمَّ بالهزيمة ، ثم التفت إلى عمرو بن العاص وقال له : ما عندك ؟ قال : تأمر بالمصاحف فترفع في أطراف الرماح ، ويقال : هذا كتاب الله يحكم بيننا وبينكم . . .

فلما نظر أهل العراق إلى المصاحف ، ارتدعوا واختلفوا : قال بعضهم : نحاكمهم إلى كتاب الله ، وقال بعضهم : لا نحاكمهم ، لأنا على يقين من أمرنا ولسنا على شك .

ثم أجمع رأيهم على التحكيم ، فهمَّ عليٌّ أن يقدّم أبا الأسود الدؤلي ، فأبى الناس عليه ؛ فقال له ابن عباس : اجعلني أحد الحكمين ، فوالله لأفتلنّ لك حبلا لا ينقطع

(١) السرادق : كل ما أحاط بشيء من حائط أو مِضْرَبْ . والفسطاط يجتمع فيه الناس لعرس أو مأتم وغيرهما .

وسطه، ولا ينشر طرفاه، فقال علي: لستُ من كيدك ولا من كيد معاوية في شيء؛ لا أعطيه إلا السيف حتى يغلبه الحق. قال: وهو والله لا يعطيك إلا السيف حتى يغلبك الباطل. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنك تطاع اليوم وتعْصى غدا، وإنه يطاع ولا يعصَى!.

فلما انتشر عن علي أصحابه قال: لله بلاءُ ابن عباس، إنه لينظر إلى الغيب بستر رقيق.

قال: ثم اجتمع أصحاب البرانس[1] ـ وهم وجوه أصحاب علي ـ على أن يقدّموا أبا موسى الأشعري ـ وكان مبرنَسا ـ وقالوا: لا نرضى بغيره. فقدّمه عليّ، وقدّم معاوية عمرو بن العاص، فقال معاوية لعمرو: إنك قد رُمِيت برجل طويل اللسان قصير الرأي، فلا تَرْمِه بعقلك كله.

فأخليَ لهما مكان يجتمعان فيه. فأمهله عمرو بن العاص ثلاثة أيام، ثم أقبل إليه بأنواع من الطعام يُشهِّيه بها، حتى إذا استبطن أبو موسى ناجاه عمرو فقال له: يا أبا موسى، إنك شيخ أصحاب محمد ﷺ، وذو فضلها وذو سابقتها؛ وقد ترى ما وقعت فيه هذه الأمّة من الفتنة العمياء التي لا بقاء معها؛ فهل لك أن تكون ميمونَ هذه الأمّة فيحقن الله بك دماءها، فإنه يقول في نفْس واحدة ﴿ومَن أَحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعا﴾[2]. فكيف بمن أحيا أنفُس هذا الخلق كله؟

قال له: وكيف ذلك؟

قال: تخلع أنت عليَّ بن أبي طالب، وأخلع أنا معاوية بن أبي سفيان؛ ونختار لهذه الأمّة رجلا لم يحضر في شيء من الفتنة ولم يغمس يده فيها.

قال له: ومن يكون ذلك؟

---

(١) البرانس: جمع برنس، وهو قلنسوة طويلة، كان النساك يلبسونها في صدر الاسلام.
(٢) سورة المائدة الآية ٣٢.

وكان عمرو بن العاص قد فهم رأي أبي موسى في عبد الله بن عمر؛ فقال له: عبد الله بن عمر.

فقال: إنه لكما ذكرتَ، ولكن كيف لي بالوثيقة منك؟

فقال له: يا أبا موسى، ﴿ألا بذكر اللهِ تطْمئِنُّ القلوبُ﴾ [1]؛ خذ من العهود والمواثيق حتى ترضى.

ثم لم يُبْق عمروُ بن العاص عهداً ولا موثقاً ولا يميناً مؤكدة حتى حلف بها، حتى بقي الشيخ مبهوتا، وقال له: قد أَجبْتُ!

فنودى في الناس بالاجتماع إليهما فاجتمعوا.

فقال له عمرو: قم فاخطُب الناس يا أبا موسى، فقال: قم أنت اخطبهم. فقال: سبحان الله! أنا أتقدّمك وأنت شيخ أصحاب محمد! والله لا فعلتُ أبدا. قال: أو عسى في نفسك امر! ـ فزاده أيمانا وتوكيدا، حتى قام الشيخ فخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أيها الناس، إني قد اجتمعت أنا وصاحبي على أن أخلع أنا عليَّ بن أبي طالب، ويعزل هو معاوية بن أبي سفيان؛ ونجعل هذا الأمر لعبد الله بن عمر؛ فإنه لم يحضر في فتنة، ولم يغمس يده في دم امريء مسلم. ألا وإني قد خلعتُ عليَّ بن أبي طالب كما أختلع سيفي هذا!

ثم خلع سيفه من عاتقه وجلس، وقال لعمرو: قم. فقام عمرو بن العاص، فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

أيها الناس، إنه قد كان من رأي صاحبي ما قد سمعتم، وإنه قد أشهدكم أنه خلع عليَّ بن أبي طالب كما يخلع سيفه؛ وأنا أشهِدُكم أني قد أثبتُّ معاويةَ بن أبي سفيان كما أثبت سيفي هذا!

(١) سورة الرعد الآية ٢٨.

وكان قد خلع سيفه قبل أن يقومَ إلى الخطبة، فأعاده على نفسه؛ فاضطرب الناس وخرجت الخوارج.

وقال أبو موسى لعمروْ: لعنك الله! فإنّ مثَلَك كمثَل الكلب: إن تحمل عليه يلهثْ وإن تتركْه يلهث! فقال عمرو: لعنك الله! فإن مثَلك كمثل الحمار يحمل أسفارا.

وخرج أبو موسى من فوره ذلك إلى مكة مستعيذاً بها من عليّ، وحلف أن لا يكلمه أبدا؛ فأقام بمكة حينا حتى كتب إليه معاوية:

سلام عليك؛ أما بعد، فلو كانت النية تدفع الخطأ، لنجا المجتهد وأعذر الطالب؛ والحق لمن نَصب[1] له فأصابه، وليس لمن عرض له فأخطأه؛ وقد كان الحكمان إذا حكما على عليّ لم يكن له الخيار عليهما، وقد اختاره القوم عليك، فاكره منهم ما كرهوا منك، وأقبل إلى الشام، فإني خير لك من علي؛ ولا قوّة إلا بالله.

فكتب إليه أبو موسى:

سلام عليك؛ أما بعد، فإني لم يكن مني في علي، إلا ما كان من عمرو فيك، غير أني أردت بما صنعت ما عند الله، وأراد به عمرو ما عندك؛ وقد كان بيني وبينه شروط وشورى عن تراض، فلما رجع عمرو رجعت؛ أما قولك إن الحكمين إذا حكما على رجل لم يكن له الخيار عليهما؛ فإنما ذلك في الشاة والبعير والدينار والدرهم، فأما أمر هذه الأمة فليس لأحد فيما تكره حُكم، ولن يُذهِب الحقَّ عجز عاجز ولا خدعة فاجر، وأما دعاؤك إياي إلى الشام فليس لي رغبة عن حَرَم إبراهيم.

فبلغ عليا كتاب معاوية إلى أبي موسى الأشعري، فكتب إليه:

سلام عليك؛ أما بعد، فإنك امرؤ ضلّلك الهوى، واستدرجك الغرور، [فإنه من استقال اللهَ أقاله]، حقق بك حسنَ الظنّ لزومُك بيتَ الله الحرام غير حاج ولا

(١) نصب له شيئاً: أظهره وقصده به.

قاطن، فاستَلِ اللهُ يُقلْك [عثرتَك] فإن الله يغفِر ولا يغْفُل، وأحب عباده إليه التوابون. وكتبه سماك بن حرب.

فكتب إليه أبو موسى:

سلام عليك؛ فإنه والله لولا أني خشيت أن يرفعك مني منع الجواب إلى أعظم مما في نفسك، لم أجبك؛ لأنه ليس لي عندك عذر ينفعني ولا قوّة تمنعني، وأما قولك ولزومي بيت الله الحرام غير حاج ولا قاطن، فإني اعتزلت أهل الشام وانقطعت عن أهل العراق، وأصبت أقواما صغَّروا من ذنبي ما عظَّمتم، وعظَّموا من حقي ما صغَّرتم؛ إذ لم يكن لي منكم وليٌّ ولا نصير.

وكان عليّ بن أبي طالب إذ وجه الحكمين قال لهما: إنما حكمناكما بكتاب الله فتُحييا ما أحيا القرآن، وتميتا ما أمات. فلما كاد عمرو بن العاص على أبي موسى، اضطرب الناس علي عليّ واختلفوا، وخرجت الخوارج، وقالوا لا حُكْمَ إلا لله! فجعل علي يتمثل بهذه الأبيات:

لي زَلةٌ إليكمُ فأعْتَذِر سوفَ أكيسُ بعدَها وأنْشَمِرْ[1]

وأجمَعُ الأمرَ الشْتيتَ المنتَشِرْ

أبو الحسن قال: لما قدم أبو الأسود الدؤلي على معاوية عام الجماعة، قال له معاوية: بلغني يا أبا الأسود أن علي بن أبي طالب أراد أن يجعلك أحد الحكمين؛ فما كنت تحكم به؟ قال: لو جعلني أحدَهما لجمعت ألفا من المهاجرين وأبناء المهاجرين وألفا من الأنصار وأبناء الأنصار ثم ناشدتهم الله: آلمهاجرون وأبناء المهاجرين أولى بهذا الأمر أو الطلقاء؟ قال له معاوية: لله أبوك! أيّ حكمٍ كنت تكونُ لو حُكِّمت!

---

(١) يقال: كاس كيساً: عقل، وظرف وفطن

احتجاج علي وأهل بيته في الحكمين

أبو الحسن قال: لما انقضى أمر الحكمين واختلف أصحاب علي، قال بعض الناس: ما منع أميرَ المؤمنين أن يأمر بعض أهل بيته فيتكلم؟ فإنه لم يبق أحد من رؤساء العرب إلا وقد تكلم. قال: فبينما عليٌّ يوما على المنبر إذ التفت إلى الحسنِ ابنِه فقال: قم يا حسنُ فقل في هذين الرجلين: عبد الله بن قيس وعمرو ابن العاص. فقام الحسن، فقال:

« أيها الناس، إنكم قد أكثرتم في هذين الرجلين، وإنما بُعثا ليَحكما بالكتاب دون الهوى، فحكما بالهوى دون الكتاب؛ ومن كان هكذا لم يُسم حكَماً، ولكنه محكوم عليه؛ وقد أخطأ عبد الله بن قيس إذ جعلها لعبد الله بن عمر، فأخطأ في ثلاث خصال: واحدة، أنه خالف أباه، إذ لم يرضه لها ولا جعله من أهل الشورى؛ وأخرى، أنه لم يستأمر في نفسه؛ وثالثة، أنه لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار الذين يعقدون الإمارة ويحكمون بها على الناس. وأما الحكومة فقد حكَّم النبي عليه الصلاة والسلام سعد بن معاذ في بني قريظة، فحكم بما يرضي الله به ولا شك، ولو خالف لم يرضَه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم جلس، فقال لعبد الله بن عباس: قم. فقام عبد الله بن عباس، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

أيها الناس، إن للحق أهلا أصابوه بالتوفيق، والناس بين راض به وراغب عنه، فإنه بُعث عبد الله بن قيس يهدي إلى ضلالة، وبعث عمرو بضلالة إلى هدى فلما التقيا رجع عبد اللهُ بن قيس عن هداه، وثبت عمرو على ضلالة؛ وآيم الله لئن كانا حكما بما سارا به لقد سار عبد الله وعلي إمامه، وسار عمرو ومعاوية إمامه، فما بعد هذا من غيب ينتظر.

فقال عليّ لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب: قم. فقام فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

أيها الناس، إن هذا الأمر كان النظر فيه إلى علي والرضا إلى غيره، فجئتم إلى عبد الله بن قيس مبرنساً فقلتم، لا نرضى إلا به. وآيم الله ما آستفدنا به علماً، ولا انتظرنا منه غائبا، وما نعرفه صاحبا، وما أفسدا بما فعلا أهل العراق، وما أصلحا أهلَ الشام، ولا رفعا حقَّ علي، ولا وضعا باطلَ معاوية، ولا يُذهِب الحقَّ رُقْيَةُ[1] راق، ولا نفخَةُ شيْطان، ونحن اليوم على ما كنا عليه أمس.

احتجاج عليّ على أهل النهروان

قالوا: إن عليا لما اختلف عليه أهل النهروان والقرى وأصحاب البرانس، ونزلوا قرية يقال لها حروراء، وذلك بعد وقعة الجمل، فرجع إليهم علي بن أبي طالب فقال لهم: يا هؤلاء، من زعيمُكم؟ قالوا: ابن الكواء. قال: فليبرز إلي. فخرج إليه ابن الكواء، فقال له عليّ: يا بن الكواء، ما أخرجكم علينا بعد رضاكم بالحكمين، ومقامِكم بالكوفة؟ قال: قاتلتَ بنا عدُواً لا نشك في جهاده، فزعمتَ أن قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار، فبينما نحن كذلك، إذ أرسلت منافقا، وحكَّمتَ كافراً، وكان مما شكك في أمر الله أن قلتَ للقوم حين دعوتَهم: كتابُ الله بيني وبينكم، فإن قضى عليَّ بايعتكم، وإن قضى عليكمْ بايعتموني. فلولا شكُّك لم تفعل هذا والحقُّ في يدك. فقال عليّ: يا بن الكواء، إنما الجواب بعد الفراغ؛ أفرغتَ فأجيبَك؟ قال: نعم. قال علي: أما قتالك معي عدّوا لا تشُك في جهاده فصدقت، ولو شككتُ فيهم لم أقاتلهم؛ وأما قتلانا وقتلاهم، فقد قال الله في ذلك ما يُستغنى به عن قولي؛ وأما إرسالي المنافق وتحكيمي الكافر، فأنت أرسلت أبا موسى مبرنسا، ومعاوية حكَّم عمرا، أتيت بأبي موسى مبرنسا، فقلت: لا نرضى إلا أبا موسى! فهلا قام إلي رجلٌ منكم فقال: يا علي، لا تعطِ هذه الدنية فإنها ضلالة؟ وأما قولي لمعاوية: إن جرّني إليك كتاب الله تبعتُك، وإن جرك إليّ تبعْتَني؛ زعمتَ أني لم أُعطِ ذلك إلا مِن شك، فقد علمت أن أوثق ما في يديك هذا الأمر، فحدّثني ويحك عن

(١) الرقية: العوذة التي يرقى بها المريض ونحوه

اليهودي والنصراني ومشركي العرب، أهم أقرب إلى كتاب الله أم معاوية وأهل الشام؟

قال: بل معاوية وأهل الشام أقرب.

قال علي: أفرسول الله ﷺ كان أوثقَ بما في يديه من كتاب الله أو أنا؟

قال: بل رسول الله.

قال: أفرأيت الله تبارك وتعالى حين يقول: ﴿قل فأْتوا بِكتابٍ من عِنْدِ اللهِ هُو أَهْدَى منهُما أتَّبعْهُ إن كنْتم صادقين﴾[1]، أما كان رسول الله يعلم أنه لا يؤتَى بكتاب هو أهدى مما في يديه؟ قال: بلى. قال: فلم أعطى رسول الله القومَ ما أعطاهم؟ قال: إنصافا وحجة. قال: فإني أعطيت القومَ ما أعطاهم رسول الله. قال ابن الكواء: فإني أخطأت، هذه واحدة، زدني.

قال علي: فما أعظم ما نقمتم عليّ؟ قال تحكيمُ الحكمين؛ نظرنا في أمرنا فوجدنا تحكيَمهما شكا وتبذيراً.

قال علي: فمتى سُمِّيَ أبو موسى حَكما: حين أُرْسل، أو حين حَكم؟ قال: حين أرسل قال: أليس قد سار وهو مسلم، وأنت ترجو أن يحكم بما أنزل الله؟ قال: نعم.

قال عليّ: فلا أرى الضلالَ في إرساله. فقال ابن الكواء: سُمِّي حكما حين حَكم قال: نعم، إذاً فإرساله كان عدْلا، أرأيت يابن الكواء لو أن رسولَ الله بعث مؤمنا إلى قوم مشركين يدعوهم إلى كتاب الله فارتدّ على عقبه كافرا، كان يضرُّ نبيَّ اللهِ شيئا؟ قال: لا. قال علي: فما كان ذنبي إن كان أبو موسى ضلَّ، هل رضيت حكومتَه حين حكم، أو قولَه إذ قال؟

قال ابن الكواء: لا، ولكنك جعلت مسلما وكافراً يحكمان في كتاب الله.

---

(١) سورة القصص الآية ٤٩.

قال عليّ: ويلك يا ابن الكوّاء! هل بعث عمْراً غيرُ معاوية؟ وكيف أحكِّمه وحكمه على ضرب عنقي؟ إنما رضي به صاحبُه كما رضيت أنت بصاحبك، وقد يجتمع المؤمنُ والكافرُ يحكمان في أمر الله؛ أرأيت لو أن رجلا مؤمنا تزوج يهودية أو نصرانية فخافا شقاقَ بينهما، ففزع الناس إلى كتاب الله وفي كتابه: ﴿فابعثُوا حَكَما مِنْ أَهْلِهِ وحَكَما مِنْ أَهْلِها﴾ (١)، فجاء رجل من اليهود ورجل من النصارى ورجل من المسلمين الذين يجوز لهما أن يحكما في كتاب الله، فحكما.

قال ابن الكواء: وهذه أيضا، أمهلنا حتى ننظر. فانصرف عنهم علي، فقال له صعصعة بن صوحان: يا أمير المؤمنين، ائذن لي في كلام القوم. قال: نعم ما لم تبسط يداً. قال: فنادى صعصعةُ ابنَ الكواء؛ فخرج إليه فقال: أنشدكم بالله يا معشر الخارجين، أن لا تكونوا عاراً على من يغزو لغيره، وأن لا تخرجوا بأرض تُسَمَّوْا بها بعد اليوم، ولا تستعجلوا ضلال العامِ خشية ضلال عام قابل. فقال ابن الكواء: إنّ صاحبك لقَينَا بأمرٍ قولك فيه صغير، فأمسك.

قالوا: إن عليا خرج بعد ذلك إليهم فخرج إليه ابن الكواء، فقال له علي: يا ابن الكواء إنه من أذنب في هذا الدين ذنبا يكون في الإسلام حدثاً استَتبناه من ذلك الذنب بعينه، وإن توبتك أن تعرف هدى ما خرجت منه، وضلالَ ما دخلت فيه. قال ابن الكواء: إننا لا ننكر أنا قد فتِنَّا. فقال له عبدالله بن عمرو بن جرْموز: أدركنا والله هذه الآية ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولَوا آمَنَّا وهُمْ لا يُفْتنون﴾ (٢). وكان عبدالله من قراء أهل حروراء، فرجعوا فصلوا خلف عليّ الظهر، وانصرفوا معه إلى الكوفة، ثم اختلفوا بعد ذلك في رجعتهم ولام بعضهم بعضا، فقال زيد بن عبدالله الراسي، وكان من أهل حروراء، يشككهم:

شككتم ومَـن أرْسى ثَبيراً مكـانـه ... ولو لم تَشُكُّوا ما آنثنيْتم عـن الحرب
وتَحكيمكُمْ عَمْراً على غيْر تـوْبـة ... وكان لعبدالله خَطْبٌ من الخطْـبِ

---

(١) سورة النساء الآية ٣٥.
(٢) سورة العنكبوت الآية ١ و ٢.

فـأنكَصَــه للعقْــب لمّا خلا بــه فأصبح يهوي من ذُرَى حالق صَعْب[1]

وقال الرياحي:

ألم تـر أنّ الله أنـزل حُكمـه وعمـروٌ وعبـد الله مُختلفـانِ

وقال مسلم بن يزيد الثقفي، وكان من عُباد حروراء:

وإنْ كان ما عِبْنـاه عيْبـاً فحَسْبُنـا خَطايا بأخذ النُّصحِ من غيْرِ ناصحِ
وإنْ كان عيْباً فـأعظِمَـنّ بتركنـا عليّـا على أمـرٍ مـن الحقّ واضـحِ
ونحن أُنـاسٌ بَيْــنَ بَيْــنَ وعَلنـا سُررنا بـأمـرٍ غِبُّـهُ غيْـرُ صـالـح

ثم خرجوا على عليّ فقتلهم بالنهروان.

خروج عبد الله بن عباس على عليّ

قال أبو بكر بن أبي شيبة: كان عبد الله بن عباس من أحبِّ الناس إلى عمر بن الخطاب، وكان يقدِّمه على الأكابر من أصحاب محمد ﷺ، ولم يستعمله قط، فقال له يوماً: كدت أستعملك، ولكن أخشى أن تستحل الفيء[2] على التأويل!

فلما صار الأمر إلى عليّ استعمله على البصرة، فاستحل الفيء على تأويل قول الله تعالى: ﴿وٱعلَموا أنما غنِمْتُم من شيءٍ فأنّ لله خُمُسَه وللرّسولِ ولذي القُرْبَى﴾ واستحله من قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وروى أبو مخنف عن سليمان بن أبي راشد عن عبد الرحمن بن عبيد قال: مرّ ابن عباس على أبي الأسود الدؤلي، فقال له: لو كنت من البهائم لكنت جملا ولو كنت راعياً ما بلغت المرعى فكتب أبو الأسود الدؤلي إلى عليّ:

أما بعد، فإنّ الله جعلك والياً مؤتمنا، وراعياً مسئولا، وقد بلوناك رحمك الله

---

(١) أنكصه العقب: أرجعه عما كان قد اعتزمه وأحجم عنه.

(٢) الفيء: الخراج، والغنيمة تنال بلا قتال.

فوجدناك عظيم الأمانة، ناصحاً للأمة؛ توفِّر لهم فيئهم، وتكف نفسك عن دنياهم فلا تأكل أموالهم، ولا ترتشي بشيء في أحكامهم. وابن عمك قد أكل ما تحت يديه من غير علمك، فلم يسعني كتمانك ذلك، فانظر رحمك الله فيما هنالك، واكتب إليّ برأيك، فما أحببت أتَّبعه إن شاء الله، والسلام.

فكتب إليه عليّ:

أما بعد، فمثلك نصح الإمام والأمة، [وادّى الأمانة] ووالى على الحق، وفارق الجوْر؛ وقد كتبت لصاحبك بما كتبت إليّ فيه [مِن أمره]، ولم أُعْلِمه بكتابك إليَّ، فلا تدَعْ إعلامي ما يكون بحضرتك، مما النظر فيه للأمة صلاح، فإنك بذلك جدير، وهو حق واجب لله عليك، والسلام.

وكتب عليّ إلى ابن عباس:

أما بعد، فإنه قد بلغني عنك أمرٌ، إن كنت فعلته فقد أسخطت الله، وأخْزيت أمانتك، وعَصيْت إمامك، وخُنْت المسلمين. بلغني أنك جَرَدْت[1] الأرض وأكلت ما تحت يدك، فارفع إليَّ حسابك، واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس والسلام.

فكتب إليه ابن عباس: أما بعد، فإن كل الذي بلغك باطل، وأنا لما تحت يدي ضابط، وعليه حافظ، فلا تصدق عليّ الظَنين، والسلام.

فكتب إليه عليّ: أما بعد، فإنه لا يسعني تركُك حتى تعلمني ما أخذت من الجزية: من أين أخذتَه؟ وما وضعت منها: أين وضعته؟ فاتق الله فيما ائتمنتك عليه واسترعيتُك إياه، فإن المتاع بما أنت رازمُه[2] قليل، وتِباعته وبيلة لا تبيد، والسلام.

فلما رأى أن عليا غير مقْلع عنه كتب إليه: أما بعد، فإنه بلغني تعظيمك عليَّ

---

(١) جرد الأرض: عراها، واكل نباتها،.

(٢) رازمه: جامعه.

مرزئة مال بلغك أني رزأته[1] أهل هذه البلاد، وآيم الله لأن ألْقى الله بما في بطن هذه الأرض من عقيانها[2] ومخبئها، وبما على ظهرها من طِلاعها[3] ذهبا، أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله وقد سفكت دماء هذه الأمة لأنال بذلك المُلك والإمرة. ابعث إلى عملك من أحببت، فإني ظاعن، والسلام.

فلما أراد عبد الله المسير من البصرة دعا أخواله بني هلال بن عامر بن صعصعة ليمنعوه، فجاء الضحاك بن عبد الله الهلالي فأجاره، ومعه رجلٌ منهم يقال له عبد الله بن رزين، وكان شجاعا بئيسا[4]؛ فقالت بنو هلال: لا غنى بنا عن هوازن فقالت هوازن: لا غنى بنا عن سُلَيْم. ثم أتتهم قيس، فلما رأى اجتماعهم له حمل ما كان في بيت مال البصرة، وكان فيما زعموا ستة آلاف ألف، فجعله في الغرائر.

قال: فحدثني الأزرق اليشكري، قال: سمعت أشياخنا من أهل البصرة قالوا: لما وضع المال في الغرائر ثم مضى به، تبعته الأخماس كلها بالطفّ[5]، على أربعة فراسخ من البصرة، فواقفوه، فقالت لهم قيس: والله لا تصلون إليه ومنا عينٌ تطرف. فقال صبرة [بن شيمان]، وكان رأس الأزد: والله إن قيسا لإخوتنا في الإسلام، وجيرانُنا في الدار، وأعواننا على العدوّ وإن الذي تذهبون به من المال لو رُدّ عليكم لكان نصيبُكم منه الأقلَّ، وهو [غداً] خيرٌ لكم من المال. قالوا: فما ترى؟ قال: انصرفوا عنهم.

فقال بكر بن وائل وعبد القيس: نِعم الرأي رأي صبرة واعتزلوهم.

فقالت بنو تميم: والله لا نفارقهم حتى نقاتلهم عليه. فقال الأحنف بن قيس: أنتم والله أحق أن لا تقاتلوهم عليه، وقد ترك قتالهم من هو أبعد منكم رحِماً! قالوا: والله لنقاتلنهم! فقال: والله لا أساعدكم على قتالهم. وانصرف عنهم.

---

(١) رزأ المال: أي أصاب منه شيئاً.

(٢) العقيان: الذهب. (٣) طلاع الشيء: ملؤه.

(٤) البئيس: الذي اشتدت حاجته.

(٥) الطفّ: ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق.

فقدموا عليهم ابن مجاعة فقاتلهم، فحمل عليه الضحاك بن عبد الله فطعنه في كتفه فصرعه، فسقط إلى الأرض بغير قتل. وحمل سلمة بن ذؤيب السعدي على الضحاك فصرعه أيضا، وكثرت بينهم الجراح من غير قتل.

فقال الأخماس الذين اعتزلوا: والله ما صنعتم شيئا، اعتزلتم قتالهم وتركتموهم يتشاجرون. فجاؤا حتى صرفوا وجوه بعضهم عن بعض، وقالوا لبني تميم: والله إن هذا للؤمٌ قبيح، لنحن أسخى أنفسا منكم حين تركنا أموالنا لبني عمكم وأنتم تقاتلونهم عليها، خلوا عنهم وأرواحهم، فإن القوم فدحوا[1]. فانصرفوا عنهم.

ومضى معه ناس من قيس، فيهم الضحاك بن عبد الله، وعبد الله بن رزين، حتى قدموا الحجاز فنزل مكة، فجعل راجز لعبد الله بن عباس يسوق له في الطريق ويقول:

صبَّحْت مِن كاظِمَـة القصر الخرِبْ ... مع ابن عباسِ بن عبدِ المطلـبْ[2]

وجعل ابن عباس يرتجز ويقول:

آوي إلى أهلِـكِ يـا رَبـابُ ... آوِي فقد حـان لـكِ الإيـاب

وجعل أيضاً يرتجز ويقول:

وهُــنَّ يَمْشين بنـا هَمِيسـا ... إنْ يَصْدُق الطَيْرُ نَنِكْ لميسا[3]

فقال له: يا أبا العباس، أمثلك يرفث[4] في هذا الموضع؟ قال: إنما الرفث ما يقال عند النساء.

قال أبو محمد: فلما نزل مكة اشترى من عطاء بن جبير مولى بني كعب من جواريه ثلاث مولدات حجازيات يقال لهن: شادن، وحوراء، وفتون، بثلاثة آلاف دينار.

---

(١) يقال: فدحه الحمل: أثقله.
(٢) كاظمة: اسم موضع.
(٣) الهميس: صوت نقل أخفاف الإبل.
(٤) رفث: صرّح بكلام قبيح.

وقال سليمان بن أبي راشد عن عبدالله بن عبيد عن أبي الكنود، قال: كنت من أعوان عبدالله بالبصرة، فلما كان من أمره ما كان أتيت عليا فأخبرته فقال: ﴿واتْلُ عليهم نبأَ الذي آتيْناه آياتِنا فانْسَلَخَ منها فأَتبَعه الشيْطانُ فكانَ من الغاوين﴾[1].

ثم كتب علي إليه:

أما بعد، فإني كنت أشركتُك في أمانتي، [وجعلتك شعاري وبطانتي]، ولم يكن من أهل بيتي رجلٌ أوثقَ عندي منك، لمواساتي وموازرتي، وأداء الأمانة [إليَّ]؛ فلما رأيت الزمان قد كَلِبَ على ابن عمك، والعدوَّ قد حرب، وأمانة الناس قد خَزِيَت، وهذه الأمة قد فنكت [وشغَرَتْ]، قلبتَ لابنِ عمِّك ظهر المجن[2]، ففارقته مع القوم المفارقين، وخذلته أسوأ خذلان وخنته مع من خان، فلا ابن عمك آسيْت، ولا الأمانة إليه أدَّيْت، كأنك لم تكن على بينة من ربِّك، و[كأنك] إنما كنتَ [تكيد] أمة محمد عن دنياهم، و[تنوي] غِرَّتهم عن فيتهم، فلما أمكنتْك الفرصة في خيانة الأمة، أسرعتَ الغدرة، وعاجلت الوثبة، فاختطفت ما قدرت عليه من أموالهم، وانقلبت بها إلى الحجاز، كأنك إنما حزت على أهلك ميراثك من أبيك وأمك؛ سبحان الله! أما تؤمن بالمعاد؟ أما تخاف الحساب؟ أما تعلم أنك تأكل حراما، وتشرب حراما، وتشتري الإماء وتنكحهم بأموال اليتامى والأرامل والمجاهدين في سبيل الله التي أفاء الله عليهم؟

فاتق الله وأدِّ إلى القوم أموالهم: فإنك والله لئن لم تفعل وأمكنني الله منك لأعذِرن إلى الله فيك: فوالله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت، ما كانت لهما عندي هوادة، ولما تركتهما حتى آخذ الحق منهما، والسلام.

فكتب إليه ابن عباس:

أما بعد، فقد بلغني كتابك تُعظِّمُ عليّ أمانة المال الذي أصبتُ من بيت مال

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٥.

(٢) يقال: قلب له ظهر المجن: عاداه بعد مودة.

البصرة، ولعمري إنّ حقي في بيت مال الله أكثرُ من الذي أخذتُ! والسلام.

فكتب إليه عليّ:

أما بعد، فإن العجب كل العجب منك إذ ترى لنفسك في بيت مال الله أكثر مما لرجل من المسلمين؛ قد أفلحت إن كان تمنّيك الباطلَ وادعاءك ما لا يكون، يُنجيك من الإثم ويحلُّ لك ما حرم الله عليك؛ عَمْرَكَ اللهَ! إنك لأنت البعيد، وقد بلغني أنك اتخذت مكة وطنا، وضربت بها عطنا[1]، تشتري المولدات من المدينة والطائف، وتختارهن على عينك، وتعطي بهن مال غيرك؛ وإني أقسم بالله وربك ربِّ العزة ما أحب أن ما أخذت من أموالهم حلالٌ لي أدعه ميراثاً لعقِبي، فما بال اغتباطك به تأكله حراما. ضَحِّ رويدا، فكأنك قد بلغت المدى، وعُرِضَتْ عليك أعمالك بالمحل الذي ينادي فيه المغتر بالحسرة، ويتمنى المضيِّع التوبة والظالم الرجعة!

فكتب إليه ابن عبّاس:

والله لئن لم تدعني من أساطيرك لأحملَّته إلى معاوية يقاتلك به.

فكفّ عنه عليّ.

مقتل علي بن أبي طالب
رضي الله عنه

سفيان بن عيينة قال: كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يخرج بالليل إلى المسجد، فقال أناس من أصحابه: نخشى أن يصيبه بعضُ عدوِّه، ولكن تعالوا نحرسه. فخرج ذات ليلة فإذا هو بنا، فقال: ما شأنكم؟ فكتمناه، فعزم علينا، فأخبرناه، فقال: تحرسوني من أهل السماء أو من أهل الأرض؟ قلنا: من أهل الأرض. قال: إنه ليس يُقْضَى في الأرض حتى يُقْضى في السماء!

التميمي بإسناد له قال: لما تواعد ابن ملجم وصاحباه بقتل عليّ ومعاوية وعمرو

(١) يقال: ضرب فلان بعطن: روّى إبله ثم أقام على الماء.

ابن العاص، دخل ابن ملجم المسجد في بزوغ الفجر الأول، فدخل في الصلاة تطوّعاً، ثم افتتح في القراءة وجعل يكرر هذه الآية: ﴿ومِنَ الناسِ من يشْرِي نفسَه ابتغاءَ مَرْضاةِ اللهِ﴾[1] فأقبل ابن أبي طالب بيده مِخفقة[2] وهو يوقظ الناس للصلاة ويقول: أيها الناس، الصلاةَ الصلاة. فمرّ بابن مُلْجِم وهو يردِّد هذه الآية، فظن عليٌّ أنه ينسى فيها، ففتح عليه فقال.. ﴿واللهُ رؤفٌ بالعبادِ﴾[3] ثم انصرف علي وهو يريد أن يدخل الدار، فاتبعه فضربه على قرنه[4]، ووقع السيف في الجدار فأطار فِدرة[5] من آخره، فابتدره الناس فأخذوه، ووقع السيف منه، فجعل يقول: أيها الناس، احذروا السيف فإنه مسموم! قال: فأُتي به علي، فقال: احبسوه ثلاثاً وأطعموه واسقوه، فإن أعش أر فيه رأيي، وإن أمُت فاقتلوه ولا تمثّلوا به، فمات من تلك الضربة، فأخذه عبد الله بن جعفر فقطع يديه ورجليه، فلم يفزع، ثم أراد قطع لسانه ففزع؛ فقيل له: لِمَ لم تفزع لقطع يديك ورجليك وفزعت لقطع لسانك؟ قال: إني أكره أن تمرّ بي ساعة لا أذكر الله فيها! ثم قطعوا لسانه وضربوا عنقه.

وتوجه الخارجي الآخر إلى معاوية فلم يجد إليه سبيلاً.

وتوجه الثالث إلى عمرو فوجده قد أغفل تلك الليلة فلم يخرج إلى الصلاة، وقدّم مكانه رجلاً يقال له خارجة فضربه الخارجي بالسيف وهو يظنه عمرو بن العاص، فقتله؛ فأخذه الناس فقالوا: قتلتَ خارجة! قال: أو ليس عَمْراً؟ قالوا له: لا! قال: أردتُ عمْراً وأراد الله خارجة!

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال لعلي: ألا أخبرك بأشد الناس عذاباً يوم القيامة؟ قال: أخبرني يا رسول الله. قال: فإن أشد الناس عذاباً يوم القيامة: عاقرُ ناقة ثمود، وخاضب لحيتِك بدم رأسك!

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٧.

(٢) المخفقة: الدرة أو سوط من خشب.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٠٧.

(٤) القرن من رأس الإنسان: جانبه وموضع القرن منه.

(٥) الفدرة: القطعة.

وقال كُثَيِّر عزة.

أَلا إنّ الأئمة من قريشٍ ... وُلاة العهدِ أربعةٌ سواءُ
عليٌّ والثلاثة من بنيهِ ... هُمَ الأسباطُ ليس بهم خفاءُ [1]
فسِبْطٌ سِبْطُ إيمانٍ وبرٍّ ... وسبطٌ غيَّبَتْه كربلاءُ
وسِبط لا يَذوق الموتَ حتى ... يقودَ الخيل يَقدمُها اللواءُ
تَغيَّب لا يُرى عنهم زماناً ... بِرضْوَى عنده عسلٌ وماءُ

قال الحسن بن علي صبيحة الليلة التي قتل فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حدثني أبي البارحة في هذا المسجد، فقال: يا بني، إني صليت البارحة مارزق الله، ثم نمت نومة فرأيت رسول الله ﷺ، فشكوت إليه ما أنا فيه من مخالفة أصحابي وقلة رغبتهم في الجهاد، فقال لي: ادع الله أن يريحك منهم. فدعوت الله!

قال الحسن صبيحة تلك الليلة: أيها الناس، إنه قُتِل فيكم الليلة رجلٌ كان رسول الله ﷺ يبعثه فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فلا ينثني حتى يفتحَ الله له، ما ترك إلا ثلثمائة درهم.

خلافة الحسن بن علي

ثم بويع للحسن بن علي ـ أمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ ـ في شهر رمضان سنة أربعين من التاريخ، فكتب إليه ابن عباس:

إن الناس قد ولَّوْك أمرهم بعد علي؛ فاشدد عن يمينك وجاهد عدوك، واستر من الظَّنين ذنبه بما لا يثلم دينك، واستعمل أهل البيوتات، تستصلح بهم عشائرهم...

ثم اجتمع الحسن بن علي ومعاوية بمسكن من أرض السواد من ناحية الأنبار، واصطلحا، وسلم الحسن الأمر إلى معاوية، وذلك في شهر جمادي الأولى سنة إحدى وأربعين، ويسمى عامَ الجماعة.

---

(١) السبط: ولد الابن والابنة.

فكانت ولاية الحسن سبعة أشهر وسبعة أيام.

ومات الحسن في المدينة سنة تسع وأربعين، وهو ابن ست وأربعين سنة؛ وصلى عليه سعيد بن العاص وهو والي المدينة، وأوصى أن يدفن مع جده في بيت عائشة، فمنعه مروان بن الحكم، فردوه إلى البقيع.

وقال هريرة لمروان: علام تمنع أن يُدفن مع جده؟ فلقد أشهد أني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الحسَنُ والحُسَيْنُ سيِّدا شباب أهلِ الجنة» فقال له مروان: لقد ضيَّع حديث نبيه إذ لم يروه غيرُك. قال: أما إنك إذ قلت ذلك: لقد صحبتُه حتى عرفت من أحبَّ ومن أبغض، ومن نفى ومن أقرّ، ومن دعا له ومن دعا عليه!

ولما بلغ معاوية موتُ الحسن بن عليّ خرّ ساجداً لله، ثم أرسل إلى ابن عباس وكان معه في الشام، فعزاه وهو مستبشر، وقال له. ابنُ كم سنة مات أبو محمد؟ فقال له: سنه كان يُسمع في قريش، فالعجب من أن يجهله مثلُك.

قال: بلغني أنه ترك أطفالاً صغاراً.

قال: كل ما كان صغيراً يكبر، وإن طفلنا لكهل، وإنّ صغيرنا لكبير! ثم قال: مالي أراك يا معاوية مستبشراً بموت الحسن بن علي؟ فوالله لا يَنْسَأ في أجلك، ولا يسُدُّ حفرتك؛ وما أقلَّ بقاءَنا بعده!

ثم خرج ابن عباس؛ فبعث إليه معاوية ابنه يزيد، فقعد بين يديه فعزّاه واستعبر لموت الحسن، فلما ذهب أتبعه ابنُ عباس بصرَه وقال: إذا ذهب آل حرب ذهب الحلمُ من الناس.

خلافة معاوية

ثم اجتمع الناس على معاوية سنة إحدى وأربعين، وهو عام الجماعة؛ فبايعه أهل الأمصار كلها، وكتب بينه وبين الحسن كتاباً وشروطاً، ووصله بأربعين ألفاً.

وفي رواية أبي بكر بن أبي شيبة، أنه قال له: والله لأجيزنّك بجائزة ما أجزتُ بها أحداً قبلك، ولا أُجيز بها أحداً بعدَك! فأمر له بأربعمائة ألف.

هو: معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف.
وكنيته أبو عبد الرحمن.

وأمه هند ابنة عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف.

ومات معاوية بدمشق يوم الخميس لثمان بقين من رجب سنة ستين - وصلى عليه الضحاك بن قيس - وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، ويقال: ابن ثمانين سنة.

كانت ولايته تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وسبعة وعشرين يوماً.

صاحب شرطته: يزيد بن الحارث العبسي، وعلى حرسه - وهو أوّل من اتخذ حرساً - رجلٌ من الموالي يقال له المختار، وحاجبه سعد مولاه، وعلى القضاء أبو إدريس الخولاني.

ووُلد له عبد الرحمن وعبد الله، من فاختة بنت قرظة؛ أما عبد الرحمن فمات صغيراً، وأما عبد الله فمات كبيراً، وكان ضعيفاً، ولا عقب له من الذكور؛ وكان له بنت يقال لها عاتكة، تزوّجها يزيد بن عبد الملك، وفيها يقول الشاعر:

يـا بيـتَ عـاتِكـةَ الذي أتغـزَّلُ حذَرَ العِـدا وبـه الفـؤادُ مُـوَكَّـلُ

ويزيد بن معاوية، وأمّه ابنة بحدل، كلبية.

فضائل معاوية

ذكر عمرُو بن العاص معاويةَ، فقال: آحذروا قَرْم قريش وابن كريمها من يضحك عند الغضب، ولا ينام إلا على الرضا، ويتناول ما فوقه من تحته.

سئل عبد الله بن عباس عن معاوية، فقال: سَمَا بشيءٍ أَسَرَّه، واستظهرَ بشيء أعلَنَه، فحاول ما أسر بما أعْلن فناله، وكان حلمه قاهراً لغضبه، وجودُه غالباً على منعه، يصلُ ولا يَقْطع، ويَجْمع ولا يُفرِّق، فاستقام له أمره وجرى إلى مدته.

قيل: فأخبرنا عن ابنه. قال: كان في خير سبيله، وكان أبوه قد أحكمه؛ وأمره ونهاه، فتعلق بذلك وسلك طريقاً مطلّلاً له.

وقال معاوية: لم يكن في الشباب شيء إلا كان مني فيه مستمتع، غير أني لم أكن صُرَعَةً (١) ولا نُكَحَةً (٢) ولا سِبّاً.

قال الأصمعي: السِّب: كثير السباب.

ميمون بن مِهَران قال: كان أول من جلس بين الخطبتين معاوية، وأول من وضع شرف العطاء ألفين معاوية.

وقال معاوية: لا زلت أطمع في الخلافة منذ قال لي رسول الله ﷺ: يا معاوية، إذا ملَكْتَ فأحْسِنَ.

العتبي عن أبيه قال: قال معاوية لقريش: ألا أُخبركم عني وعنكم؟ قالوا: بلى. قال: فأنا أطير إذا وقعتم، وأقع إذا طرتم، ولو وافق طيراني طيرانكم سقطْنا جميعاً.

وقال معاوية: لو أنّ بيني وبين الناس عشرة ما انقطعت أبداً. قيل له: وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا مدّوها أرخيتُها، وإذا أرخَوها مددْتها.

وقال زياد: ما غلبني أمير المؤمنين معاوية قطٌّ إلا في أمرٍ واحد: طلبتُ رجلاً من عمالي كسر عليّ الخراج فلجأ إليه، فكتبت إليه: إنّ هذا فساد عملي وعملك.

فكتب إليّ:

إنه لا ينبغي لنا أن نسوس الناس سياسة واحدة؛ لا نلينُ جميعاً فيمرحَ الناس في المعصية، ولا نشتدُّ جميعاً فنحملَ الناس على المهالك، ولكن تكون أنت للشدّة والفظاظة والغلظة، وأكون أنا للرأفة والرحمة.

---

(١) صرعة: من يصرع الناس.
(٢) نكحة: كثير النكاح.

أخبار معاوية

قدم معاوية المدينة بعد عام الجماعة، فدخل دار عثمان بن عفان، فصاحت عائشة ابنة عثمان وبكت ونادت أباها؛ فقال معاوية: يا ابنة أخي، إن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أماناً،وأظهرنا لهم حلماً تحته غضب، وأظهروا لنا ذُلاًّ تحته حِقد، ومع كل إنسان سيفه ويرى موضع أصحابه، فإن نكثناهم نكثوا بنا، ولا ندري أَعلينا تكون أم لنا، ولأن تكونِي ابنةَ عمِّ أمير المؤمنين، خيرٌ من أن تكوني امرأة من عرض الناس!

القَحذمي قال: لما قدم معاوية المدينة قال:

أيها الناس، إنّ أبا بكر رضي الله عنه لم يُرِد الدنيا ولم تُرِدْه، وأما عمر فأرادتْه الدنيا ولم يُرِدْها، وأما عثمان فنال منها ونالت منها، وأما أنا فمالت بي ومِلْتُ بها، وأنا ألينها فهي أُمِّي وأنا ابنُها، فإن لم تجدوني خيرَكم فأنا خيرٌ لكم. ثم نزل.

قال جويرية بن أسماء: نال بسرُ بن أرطأة من علي بن أبي طالب عند معاوية، وزيد بن عمر بن الخطاب جالس، فعَلاَ بسراً ضرباً حتى شجه؛ فقال معاوية: يا زيد، عمدت إلى شيخ [مِن] قريش سيدِ أهل الشام فضربته! وأقبل على بسر وقال: تشتم علياً وهو جدُّه، وأبوه الفاروق، على رءوس الناس! أفكنت تراه يصبر على شتم عليّ؟

وكانت أُمّ زيد: أُمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب.

ولما قدم معاوية مكة، وكان عمر قد استعمله عليها دخل على أمه هند، فقالت له: يا بني إنه قلّما ولَدَت حرّةٌ مثلَك، وقد استعملك هذا الرجل فاعمل بما وافقه، أحببت ذلك أم كَرِهْتَه؟

ثم دخل على أبيه أبي سفيان، فقال له: يا بني، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخَّرْنا، فرفعهم سَبْقُهم، وقصّر بنا تأخُّرنا، فصرنا أتباعاً وصاروا قادة؛

وقد قلدوك جسيماً من أمرهم، فلا تخالِفَنّ رأيهم، فإنك تجري إلى أمدٍ لم تبلغه، ولو قد بلغته لتنفست فيه!

قال معاية: فعجبت من اتفاقهما في المعنى على اختلافهما في اللفظ.

العتبي عن أبيه، أن عمر بن الخطاب قدم الشام على حمار ومعه عبد الرحمن بن عوف على حمار، فتلقاهما معاوية في موكب نبيل، فجاوز عمرَ حتى أُخبر، فرجع إليه، فلما قرب منه نزل [إليه] فأعرض عنه عمر، فجعل يمشي إلى جنبه راجلاً، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبتَ الرجل! فأقبل عليه عمر، فقال: يا معاوية، أنت صاحبُ الموكب آنفاً مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ولم ذلك؟

قال: لأنا في بلاد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو، فلا بد لهم مما يرهبهم من هيبهة السلطان، فإن أمرتني بذلك أقمت عليه، وإن نهيتني عنه انتهيت.

قال: لئن كان الذي قلت حقاً فإنه رأيُ أريب [١]، ولئن كان باطلاً فإنها خدعة أديب، وما آمرك به ولا أنهاك عنه.

فقال عبد الرحمن بن عوف: لَحسَنٌ ما صَدَرَ هذا الفتى عما أورَدْته فيه.

قال: لِحُسْنِ مصادِرِهِ وموارِدِهِ جشَّمْناه ما جشمناه.

وقال معاوية لابن الكواء. يا ابن الكواء، أنشدك الله ما علْمُكَ فيَّ؟ قال: أنشدني الله، ما أعلمك إلا واسعَ الدنيا ضيِّق الآخرة!

ولما مات الحسن بن علي، حج معاوية فدخل المدينة وأراد أن يلعن علياً على منبر رسول الله ﷺ، فقيل له: إن ههنا سعد بن أبي وقاص ولا نراه يرضى بهذا، فأبعث إليه وخذ رأيَه. فأرسل إليه وذكر له ذلك، فقال: إن فعلت لأخْرُجَنَّ من المسجد ثم لا أعودُ إليه! فأمسك معاوية عن لعنه حتى مات سعد، فلما مات لعنه على المنبر

---

(١) الأريب: من كان ذا دهاء وفطنة.

وكتَب إلى عماله أن يلعنوه على المنابر، ففعلوا. فكتبت أم سلمة زوج النبي ﷺ إلى معاوية:

إنكـم تلعنون الله ورسولَهُ على منابركـم، وذلك أنكـم تلعنون عليَّ بن أبي طالب ومن أحبه، وأنا أَشهدُ أنَّ الله أحَبَّهُ ورسوله.

فلم يلتفت إلى كلامها.

وقال بعض العلماء لولده: يا بُنيَّ، إن الدنيا لم تَبْنِ شيئاً إلا هدمه الدين، وإن الدّين لم يبن شيئاً فهدمته الدنيا، ألا ترى أن قوماً لعنوا علياً ليخفضوا منه فكأنما أخذوا بناصيته جرّاً إلى السماء!

ودخل صعصعة بن صوحان على معاوية ومعه عمرو بن العاص جالس على سريره، فقال: وسِّع له على ترابيَّة فيه! فقال صعصعة: إني والله لتُرابي، منه خُلِقت، وإليه أعود، ومنه أُبْعَث؛ وإنك لمارجٌ[1] من مارج من نار!

العتبي عن أبيه: قال معاوية يوماً لعمرو بن العاص: ما أعجب الأشياء؟ قال: غلبة من لا حَقَّ له ذا الحق على حقه. قال معاوية: أعجب من ذلك أن يُعْطَى من لا حقَّ له ما ليس له بحقّ من غير غَلَبة!

وقال معاوية: أُعِنْتُ عَلى عَلِيٍّ بأربعة، كنتُ أكتُمُ سِرِّي، وكان رجلاً يُظهره؛ وكنتُ في أصْلحِ جُنْدٍ وأطوَعِه، وكان في أخبث جندٍ وأعصاه؛ وتركتُه وأصحابَ الجمل وقلت: إن ظفروا به كانوا أهونَ عليَّ منه، وإن ظَفِرَ بهم اغتر بها في دينه! وكنت أحبَّ إلى قريش منه؛ فيالك من جامعٍ إليّ ومُفَرِّقٍ عنه!

العتبي قال: أراد معاوية أن يقدم ابنه يزيد على الصائفة[2]، فكره ذلك يزيدُ، فأبى معاوية إلا أن يفعل، فكتب إليه يزيد يقول:

---

(١) المارج: الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد، أو هو اللهب المختلط بسواد النار.

(٢) الصائفة: الجيش يغزو صيفاً.

نَجِيٌّ لا يَــزَالُ يعــد ذَنْبـــاً لتَقْطَعَ وصْلَ حبْلِكَ مِن حبالي[1]
فيوشِكُ أن يـريحك مِـن أذاتي نُـزُولِـي في المهالِكِ وآرتحـالي

وتجهز للخروج، فلم يتخلف عنه أحد، حتى كان فيمن خرج أبو أيوب الأنصاري صاحب النبي ﷺ.

قال العتبي: وحدثني أبو إبراهيم قال: أرسل معاوية إلى ابن عباس، قال: يا أبا العباس، إن أحببت خرجت مع ابن أخيك فيأنس بك ويقرِّبك، وتشير عليه برأيك؛ ولا يدخل الناس بينك وبينه فيشغلوا كل واحد منكما عن صاحبه؛ وأقِلَّ من ذكر حقك، فإنه إن كان لك فقد تركتَه لمن هو أبعدُ منا حباً، وإن لم يكن لك فلا حاجة بك إلى ذكره، مع أنه صائر إليك، وكل آت قريب، ولتَجِدَنَّا إذا كان ذلك خيراً لكم منا.

فقال ابن عباس: والله لئن عظُمَتْ عليك النعمة في نفسك لقد عظمت عليك في يزيد، وأما ما سألتني من الكف عن ذكر حقي، فإني لم أُغمد سيفي وأنا أريد أن أنتصر بلساني. ولئن صار هذا الأمر إلينا ثم وليكم من قومي مثلي كما ولِيَنا من قومك مثلك، لا يرى أهلك إلا ما يحبون.

قال: فخرج يزيد، فلما صار على الخليج[2] ثقل أبو أيوب الأنصاري فأتاه يزيد عائداً، فقال: ما حاجتك أبا أيوب؟ فقال: أما دنياكم فلا حاجة لي فيها، ولكن قدِّمني ما آستطعتَ في بلاد العدو، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُدْفَنُ عِنْدَ سُورِ القسطنطينية رجلٌ صالح؛ أرجو أن أكونَ هُوَ!...».

فلما مات أمر يزيد بتكفينه، وحُمل على سريره، ثم أخرج الكتائب، فجعل قيصر يرى سريراً يُحمل والناس يقتتلون فأرسل إلى يزيد: ما هذا الذي أرى؟

(١) النجي: المناجي، والسِّر.
(٢) الخليج: يريد بحراً دون القسطنطينية.

قال: صاحب نبينا، وقد سألنا أن نقدمه في بلادك، ونحن منفذون وصيته أو تلحق أرواحُنا بالله.

فأرسل إليه: العجب كل العجب! كيف يُدَهِّي[1] الناسُ أباك وهو يرسلك فتعمد إلى صاحب نبيك فتدفنه في بلادنا، فإذا ولَّيت أخرجناه إلى الكلاب؟

فقال يزيد: إني والله ما أردت أن أودعه بلادكم حتى أودع كلامي آذانكم، فإنك كافر بالذي أكرمتُ هذا له، ولئن بلغني أنه نُبش من قبره أو مثِّل به لا تركتُ بأرض العرب نصرانياً إلا قتلتُه، ولا كنيسةً إلا هدمتها!

فبعث إليه قيصرُ: أبوك كان أَعلمَ بك، فوحقِّ المسيح لأحفظنَّهُ بيدي سنة فلقد بلغني أنه بَنَى على قبره قُبَّةً يُسرَجُ فيها إلى اليوم.

طلب معاوية البيعة ليزيد

أبو الحسن المدائني قال: لما مات زياد، وذلك سنة ثلاث وخمسين، أظهر معاوية عهداً مُفتعلاً فقرأه على الناس فيه عقد الولاية ليزيد بعده، وإنما أراد أن يسهل بذلك بيعة يزيد، فلم يزل يروض الناس لبيعته سبع سنين، ويشاور، ويعطي الأقارب ويداني الأباعد، حتى استوثق له من أكثر الناس فقال؛ لعبد الله بن الزبير: ما ترى في بيعة يزيد؟

قال: يا أمير المؤمنين إني أناديك ولا أناجيك، إن أخاك من صدقك، فانظر قبل أن تتقدم، وتَفَكَّر قبل أن تَنَدَّم، فإن النظر قبل التقدُّم، والتفكر قبل التندم.

فضحك معاوية وقال: ثعلبٌ رواغ! تعلمت السجع عن الكِبَر، في دون ما سجعت به على ابن أخيك ما يكفيك.

ثم التفت إلى الأحنف فقال: ما ترى في بيعة يزيد؟

---

(١) الدهّاء: الذي نسب إلى الدهاء.

قال: نخافكـم إن صدّقناكـم، ونخاف الله إن كذبنا.

فلما كانت سنة خمس وخمسين كتب معاوية إلى سائر الأمصار أن يَفِدُوا عليه، فوفد عليه من كل مصر قوم، وكان فيمن وفَدَ عليه من المدينة محمد بن عمرو بن حزم، فخلا به معاوية وقال له: ما ترى في بيعة يزيد؟

فقال: يا أمير المؤمنين، ما أصبح اليوم على الأرض أحدٌ هو أحب إليَّ رشداً من نفسك سوى نفسي، وإن يزيد أصبح غنياً في المال، وسطاً في الحسب، وإن الله سائل كلِّ راع عن رعيته، فاتق الله وآنظر من تُوَلِّي أُمة محمد.

فأخذ معاوية بهرٌ[1] حتى تنفس الصعداء وذلك في يوم شاتٍ، ثم قال: يا محمد، إنك امرؤ ناصح قلت برأيك، ولم يكن عليك إلا ذاك. قال معاوية: إنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم، فابني أحبُّ إليَّ من أبنائهم؛ آخرج عني!

ثم جلس معاوية في أصحابه وأذن للوفود فدخلوا عليه وقد تقدّم إلى أصحابـه أن يقولوا في يزيد، فكان أول من تكلم الضحاك بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين، إنـه لا بد للناس من وال بعدَك، والأنفُس يُغْدَى عليها ويُراح، وإن الله قال: ﴿كل يوم هو في شأن﴾[2]، ولا ندري ما يختلف به العصران؛ ويـزيـد ابن أمير المؤمنين في حسـن مَعْدِنِه وقصدِ[3] سيرته، من أفضلنا حلماً وأحكَمِنا علماً، فولِّه عهدكَ، واجعله لنا عَلَماً بعدك، فإنا قد بلَوْنا الجماعة والأُلفة، فوجدناها أحقَنَ للدماء، وآمنَ للسبـل، وخيراً في العاقبة والآجلة.

ثم تكلم عمرو بن سعيد فقال:

أيها الناس، إن يزيد أملٌ تأمُلونه، وأجل تأمنونه، طويل الباع، رحب الذراع إذا صرتم إلى عدله وسِعَكـم، وإن طلبتم رفدَه أغناكم؛ جذَع قارح[4]، سوبق فسبق، وموجد فمجد، وقورع فقرع، فهو خلف أمير المؤمنين ولا خلف منه.

فقال: اجلس أبا أمية، فلقد أوسعت وأحسنت.

---

(١) البهر: الكرب والعجب.
(٢) سورة الرحمن الآية ٢٩.
(٣) قصد سيرته: أي استقامتها.
(٤) الجذع من الرجال: الشاب الحدث.

ثم قام يزيد بن المقنَّع فقال:

أمير المؤمنين هذا ـ وأشار إلى معاوية ـ فإن هلك فهذا ـ وأشار إلى يزيد ـ فمن أبى فهذا ـ وأشار إلى سيفه:

فقال معاوية: آجلس فإنك سيد الخطباء.

ثم تكلم الأحنف بن قيس فقال:

يا أمير المؤمنين، أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره، وسرِّه وعلانيته، ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه لله رضا، ولهذه الأمة، فلا تشاور الناس فيه؛ وإن كنت تعلم منه غير ذلك فلا تُزَوِّدْه الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة.

قال: فتفرق الناس ولم يذكروا إلا كلام الأحنف.

قال: ثم بايع الناس ليزيد بن معاوية، فقال رجل وقد دعي إلى البيعة: اللهم إني أعوذ بك من شرِّ معاوية.

فقال له معاوية: تعوَّذْ من شرِّ نفْسِك، فإنه أشدُّ عليك، وبايعَ.

قال: إني أبايع وأنا كاره للبيعة.

قال له معاوية: بايع أيها الرجل، فإن الله يقول: ﴿فعَسَى أَنْ تَكْرَهوا شيْئاً ويَجعَلَ اللهُ فيه خيْراً كثيراً﴾[1].

ثم كتب إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة أن آدْعُ أهل المدينة إلى بيعة يزيد؛ فإن أهل الشام والعراق قد بايعوا.

فخطبهم مروان فحضَّهم على الطاعة وحذَّرهم الفتنة، ودعاهم إلى بيعة يزيد، وقال: سنة أبي بكر الهادية المهدية.

فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر: كذبت، إن أبا بكر ترك الأهل والعشيرة وبايع لرجلٍ من بني عدي رضِيَ دينَه وأمانتَه، واختاره لأمة محمد صلى الله عليه وسلم.

فقال مروان: أيها الناس، إن هذا المتكلم هو الذي أنزل الله فيه: ﴿والذي قال

(١) سورة النساء الآية ١٩.

لِوَالِدَيْه أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدانني أنْ أُخرَجَ وقد خَلَتِ القُرُونُ مِن قَبْلِي﴾[1].

فقال له عبد الرحمن: يا بن الزرقاء، أفينا تتأوّل القرآن؟

وتكلم الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر وأنكروا بيعة يزيد، وتفرق الناس.

فكتب مروان إلى معاوية بذلك، فخرج معاوية إلى المدينة في ألف، فلما قرب منها تلقاه الناس، فلما نظر إلى الحسين قال: مرحباً بسيد شباب المسلمين، قَرِّبوا دابةً لأبي عبد الله.

وقال لعبد الرحمن بن أبي بكر: مرحباً بشيخ قريش وسيِّدها وابن الصدِّيق.

وقال لابن عمر: مرحباً بصاحب رسول الله وابن الفاروق.

وقال لابن الزبير: مرحباً بآبن حوارِيِّ رسول الله ﷺ وابن عمته، ودعا لهم بدوابّ فحملهم عليها، وخرج حتى أتى مكة فقضى حَجَّه.

ولما أراد الشخوص أمر بأثقاله[2] فقُدِّمت، وأمر بالمنبر فقرّب من الكعبة، وأرسل إلى الحسين وعبد الرحمن بن أبي بكر وابن عمر وابن الزبير، فاجتمعوا وقالوا لابن الزبير: اكفنا كلامه. فقال: علي أن لا تخالفوني. قالوا: لك ذلك. ثم أتوا معاوية، فرحب بهم وقال لهم قد علمتم نظري لكم، وتعطفي عليكم، وصلتي أرحامكم؛ ويزيد أخوكم وابن عمّكم، وإنما أردت أن أُقدِّمه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تأمرون وتنهون: فسكتوا، وتكلم ابن الزبير، فقال:

نخيِّرك بين إحدى ثلاث، أيّها أخذت فهي لك رغبة وفيها خيار: إن شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله ﷺ، قبضه الله ولم يستخلف [أحداً، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر]؛ فدع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم؛ وإن شئت فما صنع أبو بكر، عَهِد إلى رجل من قاصية قريش وترك مِن ولده ومِن رهطه

(١) سورة الأحقاف الآية ١٧.

(٢) الأثقال: جمع ثقل: وهو الحمل الثقيل.

الأدْنيْنَ، مَن كان لها أهلاً؛ وإن شئت فما صنع عمر، صيَّرَها إلى ستة نفر من قريش يختارون رجلاً منهم، وترك ولده وأهل بيته، وفيهم من لو ولَيها لكان لها أهلاً.

قال معاوية: هل غير هذا؟

قال :لا.

ثم قال للآخرين: ما عندكم؟

قالوا: نحن على ما قال ابن الزبير.

فقال معاوية: إني أتقدم إليكم وقد أعذر من أنذر إني قائل مقالة، فأُقسم بالله لئن ردّ عليَّ رجلٌ منكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمته حتى يُضْرَبَ رأسُهُ، فلا ينظر امرؤٌ منكم إلا إلى نفسه، ولا يُبقِي إلا عليها.

وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفيهما، فإن تكلم بكلمة يرد بها عليه قوله قتلاه، وخرج وأخرجهم معه حتى رقي المنبر، وحف به أهل الشام واجتمع الناس، فقال بعد حمد الله والثناء عليه:

إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوارٍ، قالوا: إن حُسينا وابن أبي بكر وابن عمر وابن الزبير لم يبايعوا ليزيد، وهؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارُهم: لا نُبرم أمراً دونهم، ولا نقضي أمراً إلا عن مشورتهم؛ وإني دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين، فبايَعوا وسلَّموا وأطاعوا. فقال أهل الشام: وما يعظم من أمر هؤلاء؟ ائذن لنا فنضرب أعناقهم، لا نرضى حتى يبايعوا علانية: فقال معاوية: سبحان الله ما أسرع الناس إلى قريش بالشرِّ، وأحلى دماءهم عندهم! أنصتوا، فلا أسمع هذه المقالة من أحد. ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا، ثم قُرِّبت رواحله فركب ومضى.

فقال الناس للحسين وأصحابه: قلتم لا نبايع، فلما دُعِيتم وأُرضِيتُم بايعتم!

قالوا: لم نفعل.

قالوا: بلى، قد فعلتم وبايعتم، أفلا أنكرتم؟

قالوا: خفنا القتل، وكادكم بنا وكادنا بكم[١].

وفاة معاوية

عن الهيثم بن عدي قال: لما حضرت معاويةَ الوفاة ويزيد غائب، دعا الضحاك بن قيس الفهري، ومسلم بن عقبة المري، فقال:

أبلغا عني يزيد وقولا له: انظر إلى أهل الحجاز، فهم أصلك وعترتك؛ فمن أتاك منهم فأكرمْه، ومن قعد عنك فتعاهَدْه، وانظر أهل العراق، فإن سألوك عزل عامل في كل يوم فاعزله، فإنّ عزْلَ عامل واحد أهونُ من سلِّ مائة ألف سيف، [ثم] لا تدري على من تكون الدائرة؛ ثم انظر إلى أهل الشام، فاجعلهم الشعار دون الدثار[٢]؛ فإن رابك من عدوِّك ريْبٌ فآرمه بهم، ثم آردد أهل الشام إلى بلدهم ولا يقيموا في غيره فيتأدّبوا بغير أدبهم؛ لست أخاف عليك إلا ثلاثة: الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر. فأما الحسين ابن علي فأرجو أن يكفيكه الله بمنْ قتَل أباه وخذل أخاه؛ وأما ابن الزبير فإنه خِبٌّ ضب[٣]، فإن ظفرت به فقطِّعْهُ إرْباً إرباً؛ وأما ابن عمر فإنه رجل قد وقذَه[٤] الورع، فخلِّ بينه وبين آخرته يُخلِّ بينك وبين دنياك.

ثم أخرج إلى يزيد بريداً بكتاب يستقدمه ويستحثه، فخرج مسرعا، فتلقاه يزيد فأخبره بموت معاوية، فقال يزيد:

جاءَ البريدُ بقِرْطاسٍ يَخُبُّ بهِ ... فأوجَس القلبُ من قِرطاسِهِ فزعا
قُلنا لك الوَيلُ ماذا في صحيفَتِكُمْ ... قالوا الخليفَةُ أمْسَى مُثْبتاً وجعا
فمادَتِ الأرضُ أو كادتْ تَميدُ بنا ... كأنّ أغبَرَ من أركانِها انقلَعا
ثمّ انبعَثْنا إلى خوصٍ مُزَمَّمةٍ ... نَرْمِي الفِجاجَ بها ما نأْتِلي سَرَعا[٥]

---

(١) كاد القوم: حاربهم، وخدعهم ومكر بهم.
(٢) الدثار: الثوب الذي يكون فوق الشعار، والغطاء.
(٣) الخب: ضد الخداع. والضب: المراوغ.
(٤) وقذه الورع: تركه عليلاً. (٥) الخوص: النوق الغائرة العيون من كثرة الأسفار.

فما نُبَـالي إذا بلّغْـن أرحُلَنـا ما ماتَ مِنْهُـنَّ بـالمَوْمـاةِ أو ظلَعـا
أوْدَى ابن هِنْدٍ وأودَى المجدُ يتبعُهُ كـذاك كنَّـا جميعـاً قـاطنين معـا
أغـرُّ أبلـجُ يُسْتسقـى الغمامُ بـه لو قارَع الناسَ عن أحلامهم قرَعـا
لا يرقعُ الناسُ ما أوْهَى ولو جهَدوا أن يرقعوهُ، ولا يُوهونَ مـا رقعـا

قال محمد بن عبد الحكم: قال الشافعي: سرق هذين البيتين من الأعشى.

ابن دأب قال: لما هلك معاوية خرج الضحاك بن قيس الفهري وعلى عاتقه ثياب حتى وقف إلى جانب المنبر، ثم قال:

أيها الناس، إن معاوية كان إلْف العرب وملكها؛ فأطفأ الله به الفتنة وأحيا به السنة، وهذه أكفانه، ونحن مُدْرِجُوه فيها ومُخلُّون بينه وبين ربه؛ فمن أراد حضوره صلاةَ الظهر فليحضره.

وصلى عليه الضحاك بن قيس الفهري، ثم قدم يزيد من يومه ذلك، فلم يُقدم أحدٌ على تعزيته حتى دخل عليه عبدالله بن همام السلولي فقال:

آصْبِر يزيد فقـد فـارقْـتَ ذامِقـةٍ واشكُرْ حِباءَ الذي بالمُلْكِ حاباكـا (١)
لارُزْءَ أعظمُ في الأقوام قد علِمـوا ممّا رُزِئْتَ ولا عُقْبَى كعُقبـاكـا (٢)
أصبحتَ راعِيَ أهلِ الأرضِ كلِّهِمُ فأنـت تـرعـاهُـمُ والله يَـرعـاكـا
وفي مُعـاويـةَ البـاقـي لنـا خلـفٌ إذا نُعيـت ولا نسمَـعْ بِمنْعـاكـا

فافتتح الخطباء الكلام.

ثم دخل يزيد فأقام ثلاثة أيام لا يخرج للناس، ثم خرج وعليه أثر الحزن، فصعد المنبر، وأقبل الضحاك فجلس إلى جانب المنبر، وخاف عليه الحَصر، فقال له يزيد: يا ضحاك، أجئت تُعَلِّم بني عبد شمس الكلام؟ ثم قام خطيبا فقال:

---

(١) المقة: المحبة. (٢) الرزء: المصيبة.

الحمد لله الذي ما شاء صنع، من شاء أعطى ومن شاء منع، ومن شاء خفض ومن شاء رفع. إن معاوية بن أبي سفيان كان حبلا من حبال الله، مدّه ما شاء أن يمُدَّه، ثم قطعه حين شاء أن يقطعه، وكان دون مَن قَبْله، وخيرا ممن يأتي بعدَه، ولا أُزكِّيه وقد صار إلى ربه، فإن يعْفُ عنه فبرحمته، وإن يعذبه فبذنبه؛ وقد وليتُ بعده الأمر، ولست أعتذر من جهل، ولا أني عن طلب؛ وعلى رِسْلِكم، إذا كره الله شيئاً غيَّرَه وإذا أراد شيئاً يسّرَه.

خلافة يزيد بن معاوية وسنه وصفته

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبدِ شمس بن عبد مناف؛ وأمّه ميسون بنت بجدل بن أُنيف بن دلجة بن قُنافة أحد بني حارثة بن جناب، وكنيته أبو خالد.

وكان آدم جعداً مهضوما، أحور العين، بوجهه آثار جدري، حسن اللحية خفيفها. ولي الخلافة في رجب سنة ستين. ومات في النصف من شهر ربيع الأوّل سنة أربع وستين، ودفن بحُوَّارين خارجا من المدينة. وكانت ولايته أربع سنين وأياما.

وكان على شرطته: حميد بن حريث بن بجدل. وكاتبه وصاحب أمره: سرجون بن منصور. وعلى القضاء: أبو إدريس الخولاني. وعلى الخراج: مسلمة بن حديدة الأزدي.

أولاد يزيد (١)

معاوية، وخالد، وأبو سفيان، أمّهم فاختة بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة؛ وعبد الله، وعمر، وأمها أمّ كلثوم ابنة عبد الله بن عباس.

وكان عبد الله ولدُه ناسكا، وولده خالد عالما، لم يكن في بني أمية أزهد من هذا ولا أعلم من هذا.

(١) أرباؤها: جمع ربيب: أولادها.

الأصمعي عن أبي عمرو قال: أعرقُ الناس في الخلافة عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان: أبوها خليفة، وجدُّها معاوية خليفة، وأخوها معاوية بن يزيد خليفة، وزوجها عبد الملك بن مروان خليفة، وأَرِبَّاؤُها: الوليد وسليمان وهشام، خلفاء.

مقتل الحسين بن علي

عليٌّ بن عبد العزيز قال: قرأ عليَّ أبو عبيد القاسم بن سلام وأنا أسمع، فسألته: نروي عنك كما قريء عليك؟ قال: نعم، قال أبو عبيد: لما مات معاوية بن أبي سفيان وجاءت وفاته إلى المدينة، وعليها يومئذ الوليد بن عتبة، فأرسل إلى الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير، فدعاهما إلى البيعة ليزيد، فقالا: بالغد إن شاء الله على رؤوس الناس. وخرجا من عنده، فدعا الحسين برواحله فركبها وتوجه نحو مكة على المنهج الأكبر، وركب ابن الزبير بِرْذَوْنا[1] له وأخذ طريق العَرْج حتى قدم مكة؛ ومر حسين حتى أتى على عبدالله بن مطيع وهو على بئر له، فنزل عليه، فقال للحسين: يا أبا عبد الله، لا سقانا اللهُ بعدك ماء طيبا، أين تريد؟ قال: العراق! قال: سبحان الله! لِمَ؟ قال: مات معاوية، وجاءني أكثرُ من حِمْل صحف. قال لا تفعل أبا عبدالله، فوالله ما حفظوا أباك وكان خيراً منك، فكيف يحفظونك؟ ووالله لئن قُتلت لا بقيت حرمة بعدك إلا استُحِلَّتْ! فخرج حسينٌ حتى قدم مكة، فأقام بها هو وابن الزبير.

قال: فقدم عمرو بن سعيد في رمضان أميراً على المدينة والموسم، وعزل الوليد بن عتبة؛ فلما استوى على المنبر رُعِفَ[2]، فقال أعرابيٌّ: مه! جاءنا والله بالدم! قال: فتلقاه رجل بعمامته، فقال: مه! عم الناس والله! ثم قام فخطب، فناولوه عصا لها شعبتان، فقال: تشعب الناسُ والله! ثم خرج إلى مكة، فقدمها قبل التروية[3] بيوم.

---

(١) البرذون: يطلق على غير العربي من الخيل والبغال.

(٢) رعف: خرج من أنفه الدم.

(٣) يوم التروية: يوم قبل يوم عرفة.

ووفدت الناس للحسين يقولون: يا أبا عبد الله، لو تقدّمت فصليت بالناس فأنزلتهم بدارك! إذ جاء المؤذن فأقام الصلاة، فتقدّم عمرو بن سعيد فكبر، فقيل للحسين: اخرج أبا عبد الله إذ أبيت أن تتقدّم. فقال: الصلاة في الجماعة أفضل. قال: فصلى، ثم خرج، فلما انصرف عمرو بن سعيد بلغه أنّ حسيناً قد خرج، فقال: اطلبوه، اركبوا كل بعير بين السماء والأرض فاطلبوه! قال: فعجب الناس من قوله هذا، فطلبوه، فلم يدركوه.

وأرسل عبد الله بن جعفر ابنيه عوناً ومحمداً ليردّا حسينا، فأبى حسين أن يرجع وخرج بابنَي عبد الله بن جعفر معه.

ورجع عمرو بن سعد إلى المدينة، وأرسل إلى ابن الزبير ليأتيه، فأبى أن يأتيه، وامتنع ابن الزبير برجال من قريش وغيرهم من أهل مكة، قال: فأرسل عمرو بن سعد لهم جيشاً من المدينة، وامّر عليهم عمرو بن الزبير أخا عبد الله بن الزبير، وضرب على أهل الديوان البعث الى أهل مكة وهم كارهون للخروج، فقال: إما أن تأتوني بأدلاّء وإما أن تخرجوا. قال: فبعثهم إلى مكة، فقاتلوا ابن الزبير، فانهزم عمرو بن الزبير وأسره أخوه عبد الله فحبسه في السجن.

وقد كان بعَثَ الحسينُ بن علي مُسْلِمَ بنَ عقيل بن أبي طالب إلى أهل الكوفة ليأخذ بيعتهم، وكان على الكوفة حين مات معاوية، فقال:

يأهل الكوفة، ابن بنت رسول الله ﷺ أحبُّ إلينا من ابن بنت بحدل.

قال: فبلغ ذلك يزيد؛ فقال: يأهل الشام، أشيروا عليّ، مَن أَستعمِلُ على الكوفة؟ فقالوا: ترضى من رضي به معاوية؟ قال: نعم. قيل له: فإنّ الصك بإمارة عبيد الله بن زياد على العراقين قد كتب في الديوان. فاستعمله على الكوفة، فقدمها قبل أن يقدَمَ حسين.

وبايع مسلمَ بن عقيل أكثرُ من ثلاثين ألفاً من أهل الكوفة، وخرجوا معه يريدون

عبيد الله بن زياد، فجعلوا كلما انتهوا إلى زقاق انسل منهم ناس، حتى بقي في شرذمة قليلة. قال: فجعل الناس يرمونه بالآجُرّ من فوق البيوت؛ فلما رأى ذلك دخل دار هانيء بن عروة المرادي، وكان له شرف ورأي؛ فقال له هانيء: إن لي من ابن زياد مكانا، وإني سوف أتمارض، فإذا جاء يعودني فاضرب عنقه. قال: فبلغ ابنَ زياد أنّ هانيء بن عروة مريض يقيء الدم، وكان شرب المَغَرَةَ[1] فجعل يقيئها، فجاء ابن زياد يعوده وقال هانيء: إذا قلت لكم اسقوني، فاخرج إليه فاضرب عنقه - يقولها لمسلم بن عقيل - فلما دخل ابن زياد وجلس، قال هانيء: اسقوني! فتثبّطوا عليه، فقال: ويحكم! اسقوني ولو كان فيه نفسي! قال: فخرجَ ابن زياد ولم يصنع الآخر شيئا. قال: وكان أشجعَ الناس ولكن أُخذ بقلبه.

وقيل لابن زياد ما أراده هانيء، فأرسل إليه، فقال: إني شاكٍ لا أستطيع. فقال: ائتوني به وإن كا شاكيا. فأسرجت له دابة فركب ومعه عصا. وكان أعرج، فجعل يسير قليلا قليلا، ثم يقف ويقول: ما أذهب إلى ابن زياد، حتى دخل على ابن زياد فقال له: يا هانيء، أما كانت يد زياد عندك بيضاء؟ قال بلى: قال: ويدي؟ قال: بلى. ثم قال له هانيء: قد كانت له عندي ولأبيك وقد آمنتك في نفسك ومالك. قال: اخرج. فخرج، فتناول العصا من يده وضرب بها وجهه حتى كسرها، ثم قدّمه فضرب عنقه.

وأرسل إلى مسلم بن عقيل، فخرج إليهم بسيفه؛ فما زال يقاتلهم حتى أثخنوه بالجراح، فأسروه.

وأُتي به ابن زياد فقدمه ليضرب عنقه. فقال له: دعني حتى أُوصي. فقال له: أوصِ. فنظر في وجوه الناس، فقال لعُمر بن سعد: ما أرى قريشاً هنا غيرك فادن مني حتى أُكلمك. فدنا منه، فقال له هل لك أن تكون سيدَ قريش ما كانت قريش؟ إن حسينا ومن معه - وهم تسعون إنسانا ما بين رجل وامرأة - في الطريق؛

---

(١) المغرة: طين أحمر يصبغ به.

فارددهم واكتب لهم بما أصابني. ثم ضُرِب عنقه، فقال عمر لابن زياد: أتدري ما قال لي؟ قال اكتم على ابن عمك! قال: هو أعظمُ من ذلك قال: وما هو؟ قال: قال لي: إن حسينا أقبل [ومن معه] وهم تسعون إنسانا ما بين رجل وامرأة؛ فارددهم واكتب إليه بما أصابني.

فقال له ابن زياد: أما والله - إذ دللت عليه - لا يقاتله أحدٌ غيرك!

قال: فبعث معه جيشا وقد جاء حسينا الخبرُ وهم بشراف[1]، فهمَّ بأن يرجع ومعه خمسة من بني عقيل، فقالوا: ترجع وقد قُتل أخونا وقد جاءك من الكتب ما تثق به؟ فقال الحسين لبعض أصحابه: والله مالي على هؤلاء من صبر.

قال: فلقيه الجيش على خيولهم وقد نزلوا بكربلاء؛ فقال حسين: أي أرض هذه؟ قالوا: كربلاء. قال: أرض كرب وبلاء!.

وأحاطت بهم الخيل، فقال الحسين لعمر بن سعد: يا عمر، اختر مني إحدى ثلاث خصال: إما أن تتركني أرجع كما جئت، وإما أن تسيِّرني إلى يزيد فأضع يدي في يده، وإما أن تسيِّرَني إلى الترك أقاتلهم حتى أموت!.

فأرسل إلى ابن زياد بذلك، فهمَّ أن يسيِّره إلى يزيد، فقال له شمر بن ذي الجوشن: أمكنك الله من عدوِّك فتُسيِّره! لا، إلا أن ينزل على حكمك فأَرسل إليه بذلك؛ فقال الحسين: أنا أنزل على حكم ابن مرجانة؟ والله لا أفعل ذلك أبدا!

قال: وأبطأ عمر عن قتاله، فأرسل ابن زياد إلى شمر بن ذي الجوشن، وقال له: إن تقدم عمرُ وقاتلَ، وإلا فاتركه وكن مكانه.

قال: وكان مع عمر بن سعد ثلاثون رجلا من أهل الكوفة؛ فقالوا: يَعرض عليكم ابنُ بنتِ رسول الله ﷺ ثلاث خصال، فلا تقبلوا منها شيئا؟ فتحولوا مع الحسين فقاتلوا [معه].

---

(١) شراف: ماء بنجد.

ورأى رجلٌ من أهل الشام عبد الله بن حسن بن علي وكان من أجمل الناس فقال: لأقتلن هذا الفتى! فقال له رجل: ويحك! ما تصنع به؟ دعه. فأبى، وحمل عليه فضربه بالسيف فقتله، فلما أصابته الضربة قال: يا عماه! قال: لبيك صوتاً قل ناصرُه، وكثُرَ واتره [١]! وحمل الحسين على قاتله فقطع يده، ثم ضربه ضربة أخرى فقتله، ثم اقتتلوا.

علي بن عبد العزيز قال: حدثني الزبير قال: حدثني محمد بن الحسن قال: لما نزل عمر بن سعد بالحسين وأيقن أنهم قاتلوه، قام في أصحابه خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: قد نزل بي ما ترون من الأمر، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها وآشمعلّت [٢]، فلم يبق منها إلا صبابة كصُبابة الإناء الأخنس [٣] عيش كالمرعى الوبيل؛ ألا ترون الحق لا يُعمل به، والباطل لا يُنهى عنه؟ ليرغب المؤمنُ في لقاء الله فإني لا أرى الموت إلا سعادة، و[لا] الحياة مع الظالمين إلا ذلا وبَرَما [٤]!

وقُتل الحسين رضي الله عنه يوم الجمعة يوم عاشوراء سنة إحدى وستين بالطَّف من شاطيء الفرات بموضع يدعى كربلاء.

ووُلد لخمس ليال من شعبان سنة أربع من الهجرة.

وقتل وهو ابن ست وخمسين سنة، وهو صابغ بالسواد، قتله سنان بن أبي أنس، وأجهز عليه خولة بن يزيد الأصبحي من حمير، وحزَّ رأسَه وأتى به عبيدَ الله وهو يقول:

أوْقِـر رِكـابي فِضَّـةً وذَهَبـا   أنـا قَتَلْـتُ المَلِـكَ المحَجَّبـا
خيْرَ عبادِ آلله أُمًّا وأبا

---

(١) الواتر: المبغض.
(٢) اشمعلت: تفرقت.
(٣) الإناء الأخنس: القصير.
(٤) البرم: العيّ والسأم والضجر.

فقال له عبيد الله بن زياد: إذا كان خيرَ الناس أُماً وأباً وخيرَ عباد الله، فلم قتَلته؟ قدّموه فاْضربوا عنقَه! فضربت عنقه.

روح بن زنباع عن أبيه عن الغاز بن ربيعة الجرشي قال: إني لعند يزيد بن معاوية إذ أقبل زحر بن قيس الجعفي حتى وقف بين يدي يزيد، فقال: ما وراءك يا زحر؟ فقال:

أبشرك يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره، قدم علينا الحسين في سبعة عشر رجلا من أهل بيته، وستين رجلا من شيعته، فبرزنا إليهم وسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير أو القتال، فأبوا إلا القتال، فغدونا عليهم مع شروق الشمس، فأحطناهم من كل ناحية، حتى أخذت السيوف مأخذها من هام الرجال فجعلوا يلوذون منا بالآكام والحفر كما يلوذ الحمام من الصقر، فلم يكن إلا نحر جزور أو قوْمَ[1] قائم، حتى أتينا على آخرهم: فهاتيك أجسامهم مجزّرة[2]، وهامُهم مُرمّلة[3]، وخدودهم معفّرة، تصهرهم الشمس، وتسفي عليهم الريح بقاع سبسب، زوّارهم العقبان والرخم[4]!

قال: فدمعت عينا يزيد، وقال: لقد كنت أقنع من طاعتكم بدون قتل الحسين. لعن الله ابن سُمَية! أما والله لو كنتُ صاحبَه لتركتُه، رحم الله أبا عبد الله وغَفَر له.

علي بن عبد العزيز عن محمد بن الضحاك بن عثمان الخزاعي عن أبيه، قال: خرج الحسين إلى الكوفة ساخطا لولاية يزيد بن معاوية، فكتب يزيد إلى عبيد الله ابن زياد وهو واليه بالعراق:

إنه بلغني أن حسينا سار إلى الكوفة، وقد ابتُلي به زمانُك بين الأزمان، وبلدك بين البلدان، وابتُليت به من بين العمال، وعنده تعتق أو تعود عبدا.

---

(١) قوم قائم: نهوض ناهض. (٢) مجزرة: مقطعة.

(٣) مرملة: يريد أن الرمل قد ملأ فتحات الرأس ومنافذه ومداخله.

(٤) الرخم: طائر غزير الريش.

فقتله عبيد الله وبعث برأسه وثَقَله [١] إلى يزيد، فلما وضع الرأس بين يديه تمثل بقول حصين بن الحمام المري:

يُفلِّقْنَ هاماً من رجالٍ أعِزَّةٍ ... علينَا وهم كانوا أعَقَّ وأظلَما

فقال له علي بن الحسين، وكان في السبي: كتابُ الله أولى بك من الشعر، يقول الله: ﴿ما أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ في الأرْضِ ولا في أَنْفُسِكُمْ إلا في كِتَابٍ من قبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إنَّ ذلِكَ على آللهِ يَسِيرٌ، لِكَيْ لا تأْسَوْا على ما فاتَكمْ ولا تَفْرَحُوا بما آتاكم واللهُ لا يُحِبُّ كلَّ مُختَالٍ فَخُورٍ﴾ [٢].

فغضب يزيد وجعل يعبث بلحيته، ثم قال: غير هذا من كتاب الله أولى بك وبأبيك، قال الله. ﴿وما أصَابَكُمْ من مُصيبَةٍ فبِما كسَبتْ أَيْديكمْ ويَعْفُو عنْ كثيرٍ﴾ [٣] ما ترون يا أهل الشام في هؤلاء.

فقال له رجل: لا تتخذ من كلب سوء جروا.

قال النعمان بن بشير الأنصاري: انظر ما كان يصنعه رسولُ الله ﷺ بهم لو رآهم في هذه الحالة فاصنعْه بهم.

قال: صدقت، خلوا عنهم واضربوا عليهم القباب وأمال عليهم المطبخ وكساهم وأخرج إليهم جوائز كثيرة، وقال: لو كان بين ابن مرجانة وبينهم نسبٌ ما قتلهم: ثم ردّهم إلى المدينة.

الرياشي قال: أخبرني محمد بن أبي رجاء قال: أخبرني أبو معشر عن يزيد بن زياد عن محمد بن الحسين بن علي بن أبي طالب، قال: أُتي بنا يزيد بن معاوية بعد ما قتل الحسين ونحن اثنا عشر غلاما. وكان أكبرنا يومئذ علي بن الحسين، فأدخلنا عليه، وكان كل واحد منا مغلولةً يدُه إلى عنقه، فقال لنا: أحرزت [٤] أنفسكم عبيد أهل

---

(١) الثقل: متاع المسافر وحشمه. (٢) سورة الحديد الآية ٢٢ و ٢٣.
(٣) سورة الشورى الآية ٣٠. (٤) أحرز: حرز: صان.

العراق، وما علمتُ بخروج أبي عبد الله ولا بقتله.

أبو الحسن المدائني عن إسحاق عن إسماعيل بن سفيان عن أبي موسى عن الحسن البصري، قال: قتل مع الحسين ستة عشر من أهل بيته، والله ما كان على الأرض يومئذ أهل بيت يشبَّهون بهم. وحَمل أهل الشام بنات رسول الله ﷺ سبايا على أحقاب[١] الإبل. فلما أُدخلن على يزيد، قالت فاطمة ابنة الحسين: يا يزيد، أبنات رسول الله ﷺ سبايا؟ قال: بل حرائر كرام، ادخلي على بنات عمك تجديهن قد فعلن ما فعلن، قالت فاطمة: فدخلت إليهن، فما وجدت فيهن سفيانية إلا متلدِّمة[٢] تبكي، وقالت بنت عقيل بن أبي طالب ترثي الحسين ومن أُصيب معه:

عيْنيَ ٱبكي بَعْبرةٍ وعويلِ ... وٱندُبي إنْ نَدْبتِ آل الرسولِ
ستةٌ كلُهم لصُلْب عليّ ... قد أُصيبوا وخَمسة لعقيلِ

ومن حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ، قالت: كان عندي النبي ﷺ ومعي الحسين، فدنا من النبي ﷺ، فأخذته، فبكى فتركته، فدنا منه، فأخذته، فبكى فتركته؛ فقال له جبريل: أتحبه يا محمد؟ قال: نعم! قال: أما إنّ أمتك ستقتله، وإن شئت أريتُك من تربة الأرض التي يقتل بها! فبسط جناحه، فأراه منها، فبكى النبي صلى الله عليه وسلم.

محمد بن خالد قال: قال إبراهيم النخعي: لو كنت فيمن قَتل الحسين ودخلت الجنة لاستحييت أن أنظر إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ابن لهيعة عن أبي الأسود قال: لقيت رأس الجالوت[٣]، فقال: إن بيني وبين داود سبعين أبا، وإن اليهود إذا رأوني عظموني وعرفوا حقي وأوجبوا حفظي؛ وإنه ليس بينكم وبين نبيكم إلا أب واحد قتلتم ابنه!

(١) الأحقاب: جمع حَقَب: وهو الحزام الذي يلي حقو البعير.
(٢) المتلدمة: التي تضرب صدرها في النياحة.
(٣) الجالوث: الجالية من اليهود. والرأس: الرئيس.

ابن عبد الوهاب عن يسار بن عبد الحكم قال: انتُهب عسكر الحسين فوجد فيه طيب، فما تطيبت به امرأة إلا برصت[1].

جعفر بن محمد عن أبيه قال: بايع رسولَ الله ﷺ الحسنُ والحسين وعبد الله بن جعفر وهم صغار، ولم يبايعْ قطّ صغيرٌ إلاّ هم.

عليّ بن عبد العزيز عن الزبير عن مصعب بن عبد الله قال: حجّ الحسينُ خمسة وعشرين حجة ملبياً ماشيا.

وقيل لعليّ بن الحسين: ما كان أقلَّ ولد أبيك، قال العجب كيف وُلِدْتُ له! كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، فمتى كان يتفرغ للنساء؟

يحي بن إسماعيل عن الشعبي أن سالما قال: قيل لأبي عبد الله بن عمر: إن الحسين توجه إلى العراق. فلحقه على ثلاث مراحل من المدينة ـ وكان غائباً عند خروجه ـ فقال: أين تريد؟ فقال: أريد العراق. وأخرج إليه كُتُب القوم، ثم قال: هذه بيعتُهم وكتُبُهم. فناشده الله أن يرجع، فأبى، فقال: أحدِّثك بحديث ما حَدّثت به أحداً قبلك: إن جبريل أتى النبي ﷺ يخيره بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة، وإنكم بضعة[2] منه، فوالله لا يليها أحد من أهل بيته أبدا؛ وما صرفها الله عنكم إلا لما هو خير لكم؛ فارجع، فأنت تعرف غَدْر أهل العراق وما كان يلقي أبوك منهم. فأبى، فاعتنقه وقال: استودعتُك الله من قتيل.

وقال الفرزدق: خرجت أريد مكة، فإذا بقباب مضروبة وفساطيط، فقلت: لمن هذه؟ قالوا: للحسين. فعدلت إليه فسلمت عليه، فقال: من أين أقبلت؟ قلت: من العراق. قال كيف تركت الناس؟ قلت: القلوب معك، والسيوف عليك، والنصر من السماء!

---

(١) برصت: ظهر في جسمها البرص.
(٢) البضعة: القطعة. وانكم بضعة منه: أي انكم في قرابتكم كالجزء منه.

تسمية من قتل مع الحسين بن عليّ

رضي الله عنهما من أهل بيته ومن أُسر منهم

قال أبو عبيد: حدثنا حجاج عن أبي معشر قال: قتل الحسين بن علي، وقُتل معه عثمان بن علي، وأبو بكر بن علي، وجعفر بن علي، والعباس بن علي. وكانت أمهم أم البنين بنت حَرام الكلابية، وإبراهيم بن علي، لأم ولد له، وعبد الله بن حسن، وخمسة من بني عقيل بن أبي طالب، وعون ومحمد ابنا عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب، وثلاثة من بني هاشم؛ فجميعهم سبعة عشر رجلا.

وأسر اثنا عشر غلاما من بني هاشم: فيهم محمد بن الحسين، وعلي بن الحسين وفاطمة بنت الحسين؛ فلم تقم لبنى حرب قائمة حتى سلبهم الله ملكهم.

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف: جنِّبني دماء أهل هذا البيت، فإني رأيت بني حرب سُلبوا ملكَهم لما قَتلوا الحسين.

حديث الزهريّ في قتل الحسين

رضي الله عنه

حدثنا أبو محمد عبد الله بن ميسرة قال: حدثنا محمد بن موسى الحرشي قال: حدثنا حماد بن عيسى الجهني عن عمر بن قيس، قال: سمعت ابن شهاب الزهري يحدث عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم...

قال حماد بن عيسى: وحدثني به عباد بن بشر عن عقيل عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: «لا يُلْدغ المؤمنُ مِن جُحْر مرتَين».

وقالا: قال الزهري: خرجت مع قتيبة أريد المصيصة (١)، فقدمنا على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وإذا هو قاعد في إيوان له، وإذا سماطان (٢) من الناس على

(١) المصيصة: مدينة على شاطيء جيحان من ثغور الشام. (٢) السماط: الصفّ.

باب الإيوان فإذا أراد حاجة قالها للذي يليه، حتى تبلغ المسألة باب الإيوان، ولا يمشي أحد بين السماطين؛ قال الزهري: فجئنا فقمنا على باب الإيوان؛ فقال عبد الملك للذي عن يمينه: هل بلغكم أي شيء أصبح في بيت المقدس ليلةَ قتل الحسين بن علي؟ قال: فسأل كلٌّ واحد منهما صاحبه حتى بلغت المسألة الباب، فلم يرد أحدٌ فيها شيئا. قال الزهري: فقلت: عندي في هذا علم. قال: فرجعت المسألة رجلا عن رجل حتى انتهت إلى عبد الملك. قال: فدعيت، فمشيت بين السماطين، فلما انتهيت إلى عبد الملك سلمتً عليه: فقال لي: من أنت؟ قلت: أنا محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري، قال: فعرفني بالنسب، وكان عبد الملك طَلاَّبة للحديث، فعرّفته، فقال: ما أصبح ببيت المقدس يوم قتل الحسين بن علي بن أبي طالب؟ - وفيه رواية علي بن عبد العزيز عن إبراهيم بن عبد الله عن أبي معشر عن محمد بن عبد الله بن سعيد بن العاص عن الزهري، أنه قال: الليلة التي قتل في صبيحتها الحسينُ بن علي؟ - قال الزهري: نعم، حدّثني فلان - لم يسمّه لنا - أنه لم يُرفع تلك الليلة التي صبيحتَها قُتِل الحسين بن علي بن أبي طالب، حجرٌ في بيت المقدس إلا وُجد تحته دم عبيط[1].

قال عبد الملك: صدقت، حدّثني الذي حدّثك، وإني وإياك في هذا الحديث لغريبان. ثم قال لي: ما جاء بك؟ قلت: جئت مرابطا. قال: الزم الباب. فأقمت عنده، فأعطاني مالا كثيراً. قال: فاستأذنته في الخروج إلى المدينة، فأذن لي ومعي غلام لي، ومعي مال كثير في عيبة[2]، ففقدت العيبة، فاتهمت الغلام، فوعدته وتوعَّدته، فلم يقرّ لي بشيء. قال: فصرعته وقعدت على صدره، ووضعت مرفقي على صدره، وغمزته[3] غمزة وأنا لا أريد قتله، فمات تحتي.

وسُقط في يدي، فقدمت المدينة فسألت سعيد بن المسيب، وأبا عبد الرحمن، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، فكلهم قال: لا نعلم لك توبة!

---

(١) دم عبيط: طريّ.
(٢) العيبة: وعاء من أدم ونحوه يكون فيه المتاع.
(٣) غمز: طعن.

فبلغ ذلك عليّ بن الحسين، فقال: عليَّ به. فأتيته فقصصتُ عليه القصة، فقال: إنّ لذنبك توبة: ضم شهرين متتابعين، وأعتق رقبة مؤمنة، وأطعم ستين مسكينا. ففعلت.

ثم خرجت أريد عبد الملك وقد بلغه أني أتلفت المال، فأقمت ببابه أياما لا يؤذَن لي بالدخول، فجلست إلى معلم لولده، وقد حذَقَ ابنٌ لعبد الملك عنده، وهو يعلِّمه ما يتكلم به بين يدي أمير المؤمنين إذا دخل عليه، فقلت لمؤدِّبه: ما تأمل من أمير المؤمنين أن يصلك به؛ فلَكَ عندي ذلك على أن تُكَلِّمَ الصبيَّ إذا دخل على أمير المؤمنين، فإذا قال له: سل حاجتك، يقول له: حاجتي أن ترضى عن الزهري. ففعل، فضحك عبد الملك وقال: أين هو؟ قال: بالباب. فأذن لي فدخلت، حتى إذا صرتُ بين يديه، قلت: يا أمير المؤمنين، حدّثني سعيدُ بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يُلْدغُ المُؤْمنُ مِن جحرٍ مَرّتيْنِ».

وقعة الحَرّة

أبو اليقظان قال: لما حضرت معاوية الوفاةُ دعا يزيد، فقال: إن لك من أهل المدينة يوماً، فإذا فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة، فإنه رجل قد عرَفْنا نصيحته.

فلما كان سنة ثلاث وستين، قدم عثمان بن محمد بن أبي سفيان المدينة عاملا عليها ليزيد بن معاوية، وأوفد على يزيد وفدا من رجال المدينة، فيهم عبد الله بنُ حنظلة غسيل الملائكة، ومعه ثمانية بنين، فأعطاه مائة ألف، وأعطى بنيه كلَّ رجل منهم عشرة آلاف، سوى كسوتهم وحُملانهم(١)؛ فلما قدم عبد الله بن حنظلة المدينة، أتاه الناس فقالوا: ما وراءك؟

قال: أتيتكم من عند رجل والله لو لم أجد إلا بنيَّ هؤلاء لجاهدته بهم!

قالوا: فإنه قد بلغنا أنه أكرمك وأجازك وأعطاك!

---

(١) الحملان: ما يحمل عليه من الدواب، في الهبة خاصة.

قال: قد فعل، وما قبلت ذلك منه إلا أن أتقوى به عليه. أي على قتال يزيد.

وحضّ الناس على يزيد، فأجابوه، فكتب عثمان بن محمد إلى يزيد بما أجمع عليه أهل المدينة من الخلاف، فكتب إليهم يزيد بن معاوية.

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد؛ فـ﴿إنّ الله لا يُغيِّرُ ما بقوْمٍ حتى يُغيِّروا ما بأنفسِهم، وإذا أرادَ الله بقوْمٍ سوءًا فلا مَرَدّ له وما لهُمْ من دونِه من والٍ﴾ [1] وإني قد لبستكم فأخلقتكم ورفعتكم على رأسي، ثم على عيني، ثم على فمي، ثم علي بطني؛ والله لئن وضعتكم تحت قدمي لأطأنكم وطأةً أُقِلّ بها عددَكم، وأتركَكم بها أحاديث، تُنْتَسَخُ أخبارُكم مع أخبار عاد وثمود!

فلما أتاهم كتابه حَمِيَ القوم، فقدّمت الأنصارُ عبد الله بن حنظلة على أنفسهم وقدّمت قريش عبدَ الله بن مطيع؛ ثم أخرجوا عثمان بن محمد بن أبي سفيان من المدينة، ومروان بنَ الحكم، وكلَّ من كان بها من بني أمية؛ وكان عبد الله بن عباس بالطائف، فسأل عنهم فقيل له: استعمَلوا عبد الله بن مطيع على قريش، وعبد الله بن حنظلة على الأنصار. فقال: أميران! هلك القوم!

ولما بلغ يزيدَ ما فعلوا، أمر بقبةٍ فضُربت له خارجا عن قصره، وقطع [2] البعوث على أهل الشام، فلم تمض ثالثة حتى توافت [3] الحشود، فقدّم عليهم مسلمَ بن عقبة المري، فتوجه إليهم ـ وقد عمد أهل المدينة فأخرجوا إلى كل ماء لهم بينهم وبين الشام فصبُّوا فيه زقاً من قطران وغوّروه [4]؛ فأرسل الله عليهم المطر، فلم يستقوا شيئاً حتى وردوا المدينة.

قال أبو اليقظان وغيره: إن يزيد بن معاوية ولى مسلم بن عقبة وهو قد اشتكى، فقال له: إن حدث بك حدث فاستعمل حصين بن نمير.

---

(١) سورة الرعد الآية ١١.

(٢) قطع: فرض. (٣) توافت: توافدت.

(٤) غوّر الشيء في الشيء: دخل فيه.

فخرج حتى قدم المدينة، فخرج إليه أهلها في عدة وهيئة وجموع كثيرة لم يُر مثلها؛ فلما رآهم أهل الشام هابوهم وكرهوا قتالهم؛ فأمر مسلم بن عقبة بسريره فوضع بين الصفين وهو عليه مريض وأمر مناديا ينادي: قاتِلوا عن أميركم أو دعوه فجدّ الناس في القتال، فسمعوا التكبير من خلفهم في جوف المدينة، فإذا قد اقتحم عليهم بنو حارثة أهل الشام وهم على الجدِّ، فانهزم الناس، وعبدالله بن حنظلة متساند إلى بعض بنيه يغط نوما، فلما فتح عينيه فرأى ما صنعوا أمَرَ أكبرَ بنيه! فتقدم حتى قُتِل، فلم يزل يقدم واحداً واحداً حتى أُتي على آخرهم، ثم كسر غمد سيفه، وقاتل حتى قتل!

ودخل مسلم بن عقبة المدينة، وتغلب على أهلها، ثم دعاهم إلى البيعة على أنهم خوَلٌ[١] ليزيد بن معاوية يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم؛ فبايعوا حتى أُتي بعبدالله بن زمعة، فقال له: بايع على أنك خوَل لأمير المؤمنين يحكم في مالك ودمك وأهلك! قال: لن أبايع على أني بَزعْمِ أمير المؤمنين يحكم في دمي ومالي وأهلي. فقال مسلم بن عقبة: اضربوا عنقَه. فوثب مروان بن الحكم فضمّه إليه وقال: نبايعك على ما أحببت. فقال: لا والله لا أقيلها إياه أبدا؛ إن تنّحي وإلاّ فاقتلوهما جميعاً، فتركه مروان، وضُرب عنقه.

وهرب عبدالله بن مطيع حتى لحق بمكة، فكان بها حتى قتل مع عبدالله بن الزبير في أيام عبد الملك بن مروان، وجعل يقاتل أهل الشام وهو يقول:

أنـا الذي فـررْتُ يـومَ الحرّهْ   والشَّيْـخ لا يفـرُّ إلاّ مَـرَّهْ
فـاليـومَ أَجـزي كـرّةً بِفـرّهْ   لا بأس بـالكـرّةِ بعـد الفـرَّهْ

أبو عقيل الدَّوْرقي قال: سمعت أبا نضرة يحدث، قال: دخل أبو سعيد الخدري يوم الحرّة في غار، فدخل عليه رجل من أهل الشام، وفي عنق أبي سعيد السيف،

(١) خول: عبيدٌ وإماء.

فوضع أبو سعيد السيف وقال: بؤْ[1] بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين! فقال: أبو سعيد الخدريّ أنت؟ قال: نعم. قال: فاستغفر لي! قال: غفر الله لك.

وأمر مسلم بن عقبة بقتل معقل بن سنان الأشجعي صبراً، ومحمد بن أبي الجهم العدويّ صبراً.

وكان جميع من قتل يوم الحرة من قريش والأنصار ثلثمائة رجل وستة رجال، ومن الموالي وغيرهم أضعاف هؤلاء.

وبعث مسلم بن عقبة برءوس أهل المدينة إلى يزيد، فلما أُلقيت بين يديه جعل يتمثل بقول ابن الزبعرى يوم أُحد:

ليتَ أَشياخِي ببدْرٍ شِهدُوا ... جَزَعَ الخَزْرَجِ مِنْ وْقعِ الأَسَلْ
لأَهَلُّوا وآستَهلّوا فَرَحاً ... ولَقالوا لِيَزيد لا فشل

فقال له رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: ارتددت عن الإسلام يا أمير المؤمنين! قال: بلى نستغفر الله. قال: والله لا ساكنتك أرضا أبداً. وخرج عنه.

ولما انقضى أمرُ الحرّة توجه مسلم بن عقبة بمن معه من أهل الشام إلى مكة يريد ابن الزبير وهو ثقيل، فلما كان بالأبواء[2] حضره أجله. فدعا حصين بن نمير، فقال له: إني أرسلت إليك، فلا أدري أُقدّمك على هذا الجيش، أو أُقدمك فأضرب عنقك! قال: أصلحك الله، أنا سهمك، فآرم بي حيث شئت. قال: إنك اعرابي جلف[3] جاف، وإنّ هذا الحي من قريش لم يمكنهم أحد قط من أذنه إلا غلبوه على رأيه، فسر بهذا الجيش، فإذا لقيت القوم، فإياك أن تمكنهم من أُذنك، لا يكن إلا على الوِقاف[4]، ثم الثقاف[5]، ثم الانصراف.

(١) بؤ: ارجع. (٢) الأبواء: اسم موضع. (٣) الجلف: الأحمق.
(٤) الوقاف: ان تقف معه ويقف معك في حرب أو خصَومة.
(٥) الثقات: الجلاد.

ومات مسلم بن عقبة لا رحمه الله، ومضى حصين بن نمير بجيشه ذلك، فلم يزل محاصراً لأهل مكة حتى مات يزيد، لا رحمه الله؛ وذلك خمسون يوما ونصب المجانيق على الكعبة وأحرقها يوم الثلاثاء لخمس خلون من ربيع الأوّل سنة أربع وستين، وفيها مات يزيد بن معاوية بحوّارين.

وفاة يزيد بن معاوية

مات يزيد بن معاوية بحوّارين من بلاد حمص، وصلى عليه ابنه معاوية بن يزيد ابن معاوية ليلة البدر في شهر ربيع الأول. وأم يزيد: ميسون بنت بجدل الكلبي. ومات وهو ابن ثمان وثلاثين سنة. وكانت ولايته ثلاث سنين وتسعة أشهر واثنين وعشرين يوما.

خلافة معاوية بن يزيد بن معاوية

واستخلف معاوية بن يزيد بن معاوية في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين، وهو ابن إحدى وعشرّين سنة، ومات بعد أبيه بأربعين يوما، ولم يزل مريضاً طول ولايته، لا يخرج من بيته، فلما حضرته الوفاة قيل له: لو عهدتَ إلى رجل من أهل بيتك واستخلفت خليفة! قال: لم أنتفع بها حيّا فلا أقلّدها ميتا؛ لا يذهب بنو أمية بحلاوتها وأتجرَّع مرارتها؛ ولكن إذا مِتُّ فليصلّ عليَّ الوليد بن عتبة، وليصل بالناس الضحاك بن قيس، حتى يختار الناس لأنفسهم. فلما مات صلى عليه الوليد بن عتبة، وصلى بالناس الضحاك بن قيس بدمشق، حتى قامت دولة بني مروان.

فتنة ابن الزبير

قال عليّ بن عبد العزيز: حدّثنا أبو عبيد عن حجاج عن أبي معشر، قال: لما مات مسلم بن عقبة سار حصين بن نمير، حتى أتى مكة وابن الزبير بها، فدعاهم إلى الطاعة فلم يجيبوه، فقاتلهم، وقاتله ابن الزبير؛ فقُتل المنذر بن الزبير يومئذ ورجلان من

إخوته، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف، والمسور بن مخرمة؛ وكان حصين بن نمير قد نصب المجانيق [١] على أبي قُبيس وعلى قعيقعان [٢]، فلم يكن أحد يقدر أن يطوف بالبيت؛ فأسند ابن الزبير ألواحا من ساج على البيت، وألقى عليها الفرش والقطائف [٣]، فكان إذا وقع عليها الحجر [٤] نبا عن البيت، فكانوا يطوفون تحت تلك الألواح، فإذا سمعوا أصوات الحجر حين يقع على الفرش والقطائف كبَّروا؛ وكان ابن الزبير قد ضرب فسطاطا [٥] في ناحية، فكلما جرح رجل من أصحابه أدخله ذلك الفسطاط، فجاء رجل من أهل الشام بنار في طرف سنانه، فأشعلها في الفسطاط، وكان يوماً شديد الحرِّ، فتمزق الفسطاط، فوقعت النار على الكعبة فاحترق الخشب والسقف، وانصدع الركن واحترقت الأستار وتساقطت إلى الأرض. قال: ثم اقتتلوا مع أهل الشام أياما بعد حريق الكعبة.

قال أبو عبيد: احترقت الكعبة يوم السبت لستٍ خلون من ربيع الأول سنة أربع وستين، فجلس أهل مكة في جانب الحِجْر ومعهم ابن الزبير، وأهل الشام يرمونهم بالنبل والحجارة، فوقعت نبلة بين يدي ابن الزبير، فقال: في هذه خير! فأخذها فوجد فيها مكتوبا: مات يزيد بن معاوية يوم الخميس لأربع عشرة خلت من ربيع الأول. فلما قرأ ذلك قال: يا أهل الشام، يا أعداء الله، ومحرقي بيت الله، علام تقاتلون وقد مات طاغيتكم!

فقال حصين بن نمير: موعدك البطحاء [٦] الليلة أبا بكر.

فلما كان الليل، خرج ابن الزبير بأصحابه، وخرج حصين بأصحابه إلى البطحاء،

---

(١) المجانيق: جمع منجنيق: وهي آلة قديمة من آلات الحصار، كانت ترمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها.

(٢) أبو قبيس: اسم الجبل المشرف على مكة. وجهه قعيقعان ومكة بينهما.

(٣) القطائف: جمع قطيفة، وهي دثار مخمل.

(٤) الحجر: أي حجر الكعبة.

(٥) الفسطاط: بيت يتخذ من الشعر. (٦) البطحاء: يريد بطحاء مكة.

ثم ترك كلٌّ واحد منهما أصحابه، وانفردا فنزلا؛ فقال حصين: يا أبا بكر، أنا سيد أهل الشام لا أدافَع، وأرى أهل الحجاز قد رضوا بك؛ فتعال أبايعك الساعة ويُهدر كل شيء أصبناه يوم الحرّة، وتخرج معي إلى الشام، فإني لا أحب أن يكون المُلْك بالحجاز. فقال: لا والله لا أفعل، ولا آمن مَن أخافَ الناسَ وأحرق بيت الله وانتهك حرمته! قال: بل فافعل على أن لا يختلف عليك اثنان. فأبى ابن الزبير؛ فقال له حصين: لعنك الله ولعن من زعم أنك سيد، والله لا تفلح أبدا! اركبوا يا أهل الشام. فركبوا وانصرفوا.

أبو عبيد عن الحجّاج عن أبي معشر قال: حدّثنا بعض المشيخة الذين حضروا قتال ابن الزبير، قال: غلب حصين بن نمير على مكة كلها إلا الحِجر، قال: فوالله إني لجالس عنده ومعه نفر من القرشيين: عبد الله بن مطيع، والمختار بن أبي عبيد، والمسور بن مخرمة، والمنذر بن الزبير، إذ هَبَّتْ رويحة[1]؛ فقال المختار: والله إني لأرى في هذه الرويحة النصر، فاحملوا عليهم. فحملوا عليهم حتى أخرجوهم من مكة، وقتل المختار رجلا، وقتل ابن مطيع رجلا. ثم جاءنا على أثر ذلك موت يزيد بعد حريق الكعبة بإحدى عشرة ليلة.

وانصرف حصين بن نمير وأصحابه إلى الشام، فوجدوا معاوية بن يزيد قد مات ولم يتسخلف، وقال: لا أتحملها حيا وميتا.

فلما مات معاوية بن يزيد، بايع أهل الشام كلهم ابنَ الزبير، إلا أهل الأُردن؛ وبايع أهلُ مصر أيضاً ابنَ الزبير، واستخلف ابن الزبير الضحاك بن قيس الفهري على أهل الشام. فلما رأى ذلك رجالُ بني أمية وناس من أشراف أهل الشام ووجوههم، منهم روح بن زنباع وغيره، قال بعضهم لبعض: إنّ المُلْك كان فينا أهلَ الشام، فانتقل عنا إلى الحجاز؛ لا نرضى بذلك؛ هل لكم أن تأخذوا رجلا منا فينظر في هذا الأمر. فقال [روح بن زنباع]: استخيروا الله. قال: فرأى القوم أنه غلام

(١) رويحة: تصغير الرّوح: النسيم.

حدث السنّ فخرجوا من عنده وقالوا: هذا حَدَثٌ. فأتوا عمرو بن سعيد بن العاص، فقالوا له: ارفع رأسك لهذا الأمر. فرأوه حَدَثا، فجاءوا إلى خالد بن يزيد ابن معاوية، فقالوا له: ارفع رأسك لهذا الأمر. فرأوه حدثا حريصاً على هذا الأمر؛ فلما خرجوا من عنده قالوا: هذا حدثٌ. فأتوا مروان بن الحكم، فإذا عنده مصباح، وإذا هم يسمعون صوته بالقرآن، فاستأذنوا ودخلوا عليه، فقالوا: يا أبا عبد الملك، ارفع رأسك لهذا الأمر. فقال: استخيروا الله، واسألوا أن يختار لأمّة محمد ﷺ خيرَها وأعْدَلَها. فقال له روح بن زنباع: إن معي أربعمائة من جُذام، فأنا آمرهم أن يتقدّموا في المسجد غدا، ومر أنت ابنك عبد العزيز أن يخطب الناس ويدعوهم إليه؛ فإذ فعل ذلك تنادوا من جانب المسجد: صدقت، صدقت! فيظنّ الناس أنّ أمْرَهم واحد...

فلما اجتمع الناس، قام عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ما أحدٌ أولى بهذا الأمر من مروان كبير قريش وسيدها، والذي نفسي بيده، لقد شابت ذراعاه من الكبر. فقال الجذاميون: صدقت صدقت! فقال خالد بن يزيد: أمر دُبِّرَ بليل.

فبايعوا مروان بن الحكم، ثم كان من أمره مع الضحاك بن قيس بمرج راهط ما سيأتي ذكره بعد هذا في دولة بني مروان.

دولة بني مروان

ووقعة مرج راهط

أبو الحسن قال: لما مات معاوية بن يزيد، اختلف الناس بالشام، فكان أول من خالف من أمراء الأجناد النعمان بن بشير الأنصاري، وكان على حمص فدعا لابن الزبير، فبلغ خبره زفر بن الحرث الكلابي وهو بقنّسرين، فدعا إلى ابن الزبير أيضا بدمشق سرا، ولم يُظهر ذلك لمن بها من بني أمية وكلب؛ وبلغ ذلك حسان بن مالك ابن بحدل الكلبي وهو بفلسطين؛ فقال لروح بن زنباع: إني أرى أمراء الأجناد يبايعون

لابن الزبير، وأبناءُ قيس بالأردن كثير، وهم قومي، فأنا خارج إليها وأقم أنت بفلسطين، فإنّ جل أهلها قومك من لخم وجذام، فإن خالفك أحد فقاتله بهم.

فأقام روح بفلسطين، وخرج حسان إلى الأردن، فقام ناتل بن قيس الجُذامي فدعا إلى ابن الزبير، وأخرج روح بن زنباع من فلسطين، ولحق بحسان بالأردن فقال حسان: يا أهل الأردن، قد علمتم أن ابن الزبير في شقاق ونفاق وعصيان لخلفاء الله. ومفارقةٍ لجماعة المسلمين؛ فانظروا رجلا من بني حرب فبايعوه فقالوا: اختر لنا من شئت من بني حرب، وجنّبنا هذين الرجلين الغلامين: عبد الله وخالداً ابني يزيد بن معاوية؛ فإنا نكره أن يدعو الناس إلى شيخ، ونحن ندعو إلى صبيّ. وكان هوى حسان في خالد بن يزيد، وكان ابنَ أخته؛ فلما رموه بهذا الكلام أمسك، وكتب إلى الضحاك بن قيس كتابا يعظم فيه بني أمية وبلاءهم عنده، ويذم ابن الزبير ويذكر خلافه للجماعة، وقال لرسوله: اقرأ الكتاب على الضحاك بمحضر بني أمية وجماعة الناس. فلما قرأ كتاب حسان، تكلم الناس فصاروا فرقتين، فصارت اليمانية مع بني أمية، والقيسية زبيرية، ثم اجتلدوا [1] بالنعال، ومشى بعضهم إلى بعض بالسيوف، حتى حجر بينهم خالد بن يزيد، ودخل الضحاك دار الإمارة فلم يخرج ثلاثة أيام.

وقدم عبيد الله بن زياد فكان مع بني أمية بدمشق، فخرج الضحاك بن قيس إلى المرج ـ مرج راهط ـ فسعكر فيه، وأرسل إلى أمراء الأجناد فأتوه، إلا ما كان من كلب؛ ودعا مروان إلى نفسه، فبايعته بنو أمية، وكلب، وغسان، والسكاسك وطيّ؛ فعسكر في خمسة آلاف، وأقبل عباد بن يزيد من حوران في ألفين من مواليه وغيرهم من بني كلب، فلحق بمروان وغلب يزيد بن أبي نمس على دمشق فأخرج منها عامل الضحاك، وأمر مروان برجال وسلاح كثير.

وكتب الضحاك إلى أمراء الأجناد، فقدم عليه زفر بن الحرث من قنسرين وأمده النعمان بن بشير بشرحبيل بن ذي الكلاع في أهل حمص، فتوافوا عند الضحاك بمرج

(١) تجالدوا بالنعال: أي تضاربوا بها.

راهط، فكان الضحاك في ستين ألفا، ومروان في ثلاثة عشر ألفا، أكثرهم رجالة، وأكثر أصحاب الضحاك ركبان؛ فاقتتلوا بالمرج عشرين يوما، وصبر الفريقان، وكان على ميمنة الضحاك زياد بن عمرو بن معاوية العقيلي، وعلى ميسرته بكر بن أبي بشير الهلالي: فقال عبيد الله بن زياد لمروان: إنك على حق، وابن الزبير ومن دعا إليه على الباطل، وهم أكثر منا عَدداً وعُددا، ومع الضحاك فرسان قيس؛ واعلم أنك لا تنال منهم ما تريد إلا بمكيدة، وإنما الحرب خدعَة، فادعهم إلى الموادعة، فإذا أمنوا وكفُّوا عن القتال فكُرَّ عليهم. فأرسل مروان السُّفراء إلى الضحاك يدعوه إلى الموادعة ووضع الحرب حتى ننظر. فأصبح الضحاك والقيسية قد أمسكوا عن القتال، وهم يطمعون أن يبايع مروان لابن الزبير، وقد أعد مروان أصحابه، فلم يشعر الضحاك وأصحابه إلا والخيل قد شدت عليهم، ففزع الناس إلى راياتهم من غير استعداد وقد غشيتهم الخيل، فنادى الناس: أبا أنيس، أعَجْز بعد كَيْس[1]، وكنية الضحاك: أبو أنيس، فاقتتل الناس، ولزم الناس راياتهم، فترجَّل مروان وقال: قبح الله من ولاهم اليومَ ظهرَه حتى يكونَ الأمرُ لإحدى الطائفتين. فقُتل الضحاك بن قيس، وصبرت قيس عند راياتها يقاتلون، فنظر رجل من بني عقيل إلى ما تلقى قيس عند راياتها من القتل، فقال: اللهم العنها من رايات! واعْتَرضَها بسيفه، فجعل يقطعها، فإذا سقطت الراية تفرق أهلها، ثم انهزم الناس فنادى منادي مروان: لا تتبعوا من ولاّكم اليوم ظهره.

فزعموا أن رجالا من قيس لم يضحكوا بعد يوم المرج، حتى ماتوا جزعا على من أصيب من فرسان قيس يومئذ، فقتل من قيس يومئذ ممن كان يأخذ شرف العطاء، ثمانون رجلا، وقتل من بني سليم ستمائة، وقتل لمروان ابنٌ يقال له عبد العزيز، وشهد مع الضحاك يوم مرج راهط عبد الله بن معاوية بن أبي سفيان، فلما انهزم الناس، قال له عبيد الله بن زياد: ارتدف[2] خلفي. فارتدف، فأراد عمرو بن سعيد أن يقتله،

---

(١) الكيْس: العقل، والجود والظرف.

(٢) ارتدف: اركب خلفي.

فقال له عبيد الله بن زياد: ألا تكف ياللطيم الشيطان؟

وقال زفر بن الحارث وقد قُتل ابناه يوم المرج:

لعَمري لقَدْ أبْقتْ وقيعَة راهِطٍ ... لِمرْوانَ صدْعاً بيِّنا مُتنائيا[1]
فلمْ تُرَمِني زَلة قبْلَ هذهِ ... فِراري وتَرْكِي صاحِبَيَّ ورَائيا
أيذْهَبُ يومٌ واحِدٌ إن أسأتُهُ ... بِصالح أيامِي وحُسْنِ بلائيا
أنتْركُ كلباً لم تَنلْها رماحُنا ... وتَذْهبُ قتْلَى راهِطٍ وهْيَ ماهِيا
وقدْ تَنْبُتُ الخضْراءُ في دِمَنِ الثَّرى ... وتبْقى حَزازاتُ النُّفوسِ كما هيا
فلا صُلحَ حتى تُدْعَسَ الخيلُ بالقَنا ... وتَثْأرَ من أبناءِ كلبٍ نِسائيا[2]

فلما قتل الضحاك وانهزم الناس: نادى مروان أن لا يُتَّبَع أحد، ثم أقبل إلى دمشق فدخلها، ونزل دارَ معاوية بن أبي سفيان دار الإمارة؛ ثم جاءته بيعة الأجناد فقال له أصحابه: إنا لا نتخوف عليك إلا خالدَ بن يزيد، فتزوّج أُمَّه؛ فإنك تكسره بذلك - وأمه ابنة أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة - فتزوجها مروان، فلما أراد الخروج إلى مصر قال لخالد: أعِرْني سلاحا إن كان عندك. فأعاره سلاحا.

وخرج إلى مصر، فقاتل أهلها وسبى بها ناساً كثيرا، فافْتَدَوْا منه ثم قدم الشام. فقال له خالد بن يزيد: ردّ عليّ سلاحي. فأبى عليه، فألح عليه خالد، فقال له مروان، وكان فحاشا: يا بن رَطبة الاست! قال: فدخل إلى أمه فبكى عندها وشكا إليها ما قاله مروان على رءوس أهل الشام، فقالت له: لا عليك، فإنه لا يعود إليك بمثلها.

فلبث مروان بعد ما قال لخالد ما قال أياما، ثم جاء إلى أم خالد فرقد عندها فأمرت جواريها فطرحن عليه الوسائد ثم غطته حتى قتلته، ثم خرجن فصحن وشققن ثيابهن: يا أمير المؤمنين! يا أمير المؤمنين!

---

(١) البين: الواضح. (٢) الدعس: الطعن.

ثم قام عبد الملك بالأمر بعده، فقال لفاخته أم خالد: والله لولا أن يقول الناس إني قتلت بأبي امرأة لقتلتك بأمير المؤمنين.

وولد مروان بن الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بمكة.

ومات بالشام لثلاث خلون من رمضان سنة خمس وستين، وهو ابن ثلاث وستين سنة، وصلى عليه ابنه عبد الملك بن مروان. وكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية عشر يوما. وكان على شرطته يحيي بن قيس الشيباني. وكاتبه سرجون بن منصور الرومي. وحاجبه أبو سهل الأسود مولاه.

ولاية عبد الملك بن مروان

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن العاص بن أمية، ويكنى؛ أبا الوليد ويقال له أبو الأملاك؛ وذلك أنه ولي الخلافة أربع من ولده: الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام. وكان تدمى لثته فيقع عليها الذباب، فكان يلقب: أبا الذباب.

أمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية.

وله يقول ابن قيس الرقيات:

أنت ٱبن عائشة التي فضَلَتْ أرُوم نسائها[1]
لمْ نَلْتفِت لِلِداتِها ومضت على غلَوائها
ولَدتْ أغَرّ مُباركا كالشمس وسْط سمائها

وبويع عبد الملك بدمشق لثلاث خلون من رمضان سنة خمس وستين.

ومات بدمشق للنصف من شوال سنة ست وثمانين؛ وهو ابن ثلاث وستين سنة، فصلى عليه الوليد بن عبد الملك.

---

(١) الأرومة: الأصل.

وولد عبد الملك بالمدينة سنة ثلاث وعشرين، ويقال سنة ست وعشرين، ويقال ولد لسبعة أشهر.

وكان على شرطته: ابن أبي كبيشة السكسكي، ثم أبو نائل بن رباح بن عبيدة الغساني ثم عبد يزيد الحكمي، وعلى حرسه: الريان.

وكاتبه على الخراج والجند: سرجون بن منصور الرومي، وكاتبه على الرسائل: أبو زرعة مولاه، وعلى الخاتم: قبيصة بن ذؤيب، وعلى بيوت الأموال والخزائن: رجاء بن حيوة.

وحاجبه أبو يوسف مولاه.

ومات عبد الملك سنة ست وثمانين، وهو ابن ثلاث وستين سنة، وصلى عليه الوليد ابنه.

وكانت ولايته منذ اجتُمع عليه ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر.

ودفن خارج باب المدينة.

وفي أيام عبد الملك حُوِّلت الدواوين إلى العربية عن الرومية والفارسية حوّلها من الرومية سليمان بن عسد مولى خُشين، وحوّلها عن الفارسية صالح بن عبد الرحمن مولى عتبة، امرأة من بني مرة، ويقال حُوّلت في زمن الوليد.

ابن وهب عن ابن لهيعة قال: كان معاوية فرض للموالي خمسة عشر، فبلغهم عبد الملك عشرين، ثم بلغهم خمسة وعشرين، ثم قام هشام فأتم للأبناء منهم ثلاثين.

وكتب عبد الله بن عمر إلى عبد الملك بن مروان ببيعته لما قتل ابن الزبير، وكان كتابه إليه يقول:

لعبد الملك بن مروان من عبد الله بن عمر، سلام عليك؛ فاني أقررت لك بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله ﷺ. وبيعة نافع مولاي على مثل ما بايعتك عليه.

وكتب محمد بن الحنفية ببيعته لما قتل ابن الزبير، وكان في كتابه:

إني اعتزلت الأمة عند اختلافها، فقعدت في البلد الحرام الذي من دخله كان آمنا، لأُحْرز ديني، وأمنع دمي، وتركت الناس ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شاكِلَتِهِ فربُّكُمْ أعلَمُ بمَنْ هو أهْدَى سَبيلا﴾ [1]. وقد رأيت الناس قد اجتمعوا عليك، ونحن عصابة من أمتنا لا نفارق الجماعة؛ وقد بعثت إليك منا رسولا ليأخذ لنا منك ميثاقا، ونحن أحق بذلك منك، فإن أبيت فأرض الله واسعة، والعاقبة للمتقين.

فكتب إليه عبد الملك: قد بلغني كتابك بما سألته من الميثاق لك وللعصابة التي معك، فلك عهد الله وميثاقهُ أن لا تُهاج في سلطاننا، غائباً ولا شاهدا ولا أحد من أصحابك ما وَفَوْا ببيعتهم، فإن أحببت المقام بالحجاز فأقم، فلن ندع صلتك وبرّك؛ وإن أحببت المقام عندنا فاشْخَص إلينا، فلن نَدَع مواساتك؛ ولعمري لئن ألجأناك إلى الذهاب في الأرض خائفاً لقد ظلمناك وقطعنا رحِمَك؛ فاخرج إلى الحجاج فبايع، فإنك أنت المحمود عندنا ديناً ورأيا، وخير من ابن الزبيروأرضي وأتقى.

وكتب إلى الحجاج بن يوسف:

لا تعْرض لمحمد ولا لأحدٍ من أصحابه.

وكان في كتابه:

جنِّبني دماء بني عبد المطلب؛ فليس فيها شفاءٌ من الحَرَب [2]؛ وإني رأيت بني حرب سُلِبوا مُلكَهم لما قَتلوا الحسين بن علي.

فلم يتعرض الحجاج لأحد من الطالبيين في أيامه.

أبو الحسن المدائني قال: كان يقال: معاوية أحلم، وعبدالملك أحزم.

---

(١) سورة الإسراء ٨٤.

(٢) الحرب: الغضب.

وخطب الناس عبد الملك فقال: أيها الناس إني والله ما أنا بالخليفة المستَضْعَف - يريد عثمان بن عفان - ولا بالخليفة المداهن - يريد معاوية بن أبي سفيان - ولا بالخليفة المأفون[١] - يريد يزيد بن معاوية - فمن قال برأسه كذا، قلنا بسيفنا كذا! ثم نزل.

وخطب عبد الملك على المنبر فقال: أيها الناس، إن الله حَد حُدوداً، وفرضَ فروضا؛ فما زلتم تزدادون في الذنب ونزداد في العقوبة، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف!

أبو الحسن المدائني قال: قدم عمر بن علي بن أبي طالب على عبد الملك، فسأله أن يصيِّر إليه صدقة علي، فقال عبد الملك متمثلا بأبيات ابن أبي الحُقيق:

إني إذا مالتْ دَواعِي الهوى ... وأنْصَتَ السَّامْعُ للقائل
واعتَلَج الناس بآرائهم ... نَقْضِي بِحكْمٍ عادلٍ فاصِلِ[٢]
لا نَجعلُ الباطلَ حقاً ولا ... نَرْضى بدونِ الحقِّ للباطلِ

لا، لعمري لا نخرجها من ولد الحسين إليك. وأمر له بصلة، ورجع.

وقال عبد الملك بن مروان لأيمن بن خُريم: إن أباك وعمك كانت لهما صحبة؛ فخذ هذا المال فقاتل ابن الزبير. فأبى، فشتمه عبد الملك، فخرج وهو يقول:

فلستُ بقاتلٍ رجُلاً يُصلِّي ... علَى سُلطانِ آخر من قرَيْشِ
له سلطانُهُ وعليَّ إثمي ... مَعاذ الله عن سَفَهٍ وطَيْش

وقال أيمن بن خريم أيضاً:

إنَّ للفِتْنةِ هَيْطاً بيِّنا ... فرُوَيْدَ المَيْلَ منها يَعتدلْ[٣]
فإذا كان عطاءٌ فانتهزْ ... وإذا كان قتالٌ فاعتَزلْ
إنما يوقِدها فُرسانُها ... حَطَب النار فدَعها تَشْتعِل

---

(١) المأفون: الناقص العقل. (٢) اعتلجوا: التحموا صراعاً وقتالا.
(٣) الهيط: الضجيج والجلبة.

وقال زفر بن الحارث لعبد الملك بن مروان: الحمد لله الذي نصرك على كُرْهٍ من المؤمنين. فقال أبو زعيزعة: ما كَرِهَ ذلك إلا كافر. فقال زفر: كذبت، قال الله لنبيه: ﴿كما أخرجَك ربُّك مِن بَيْتِك بالحقِّ وإنَّ فريقاً منَ المُؤمنين لكارهونَ﴾[1].

وبعث عبد الملك بن مروان إلى المدينة حبيش بن دلجة القيني في سبعة آلاف فدخل المدينة وجلس على منبر رسول الله ﷺ، فدعا بخبز ولحم فأكل، ثم دعا بماء فتوضأ على المنبر، ثم دعا جابر بن عبد الله صاحب النبي ﷺ، فقال: تبايع لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين بعهد الله عليك وميثاقه، وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه في الوفاء، فإن خنتَنا فَهَرَاق[2] الله دمَك على ضلاله. قال: أنت أَطْوَقُ لذلك مني، ولكن أبايعه على ما بايعت عليه رسول الله ﷺ يوم الحديبية، على السمع والطاعة.

ثم خرج ابن دُلجة من يومه ذلك إلى الربذة، وقدم على أثره من الشام رجلان مع كل واحد منهما جيش، ثم اجتمعوا جميعاً في الرَّبذة، وذلك في رمضان سنة خمس وستين وأميرهم ابن دلجة.

وكتب ابن الزبير إلى العباس بن سهل الساعدي بالمدينة أن يَسير إلى حبيش بن دلجة، فصار حتى لقيه بالربذة.

وبعث الحراث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وهو عامل ابن الزبير على البصرة، مدداً إلى العباس بن سهل: حُنيفَ بن السِّجف في تسعمائة من أهل البصرة، فساروا حتى انتهوا إلى الربذة.

فبات أهل البصرة وأهل المدينة يقرءون القرآن ويصلُّون، وبات أهل الشام في المعازف والخمور؛ فلما أصبحوا غدَوْا على القتال، فقُتل حبيش بن دلجة ومن معه، فتحصن منهم خمسمائة رجل من أهل الشام على عمود الربذة، وهو الجبل الذي عليها،

---

(١) سورة الأنفال الآية ٥.   (٢) هراق دمُ عدوه: سفكه وقتله.

وفيهم يوسف أبو الحجاج، فأحاط بهم عياش بن سهل، فطلبوا الأمان، فقال [لهم عياش] انزلوا على حكمي. فنزلوا على حكمه، فضرب أعناقهم أجمعين. ثم رجع عياش بن سهل إلى المدينة.

وبعث عبد الله بن الزبير ابنه حمزة عاملا على البصرة، فاستضعفه القوم فبعث أخاه مصعبَ بن الزبير، فقدم عليهم فقال: يا أهل البصرة، بلغني أنه لا يقدم عليكم أمير إلا لقّبتموه، وإني ألقب لكم نفسي: أنا القصاب.

خبر المختار بن أبي عبيد

ثم أرسل عبد الله بن الزبير إبراهيم بن محمد بن طلحة أميراً على الكوفة؛ ثم عزله وأرسل المختار بن أبي عبيد؛ وأرسل عبد الملك عبيد الله بن زياد إلى الكوفة؛ فبلغ المختارَ إقبال عبيد الله بن زياد، فوجه إليهم إبراهيم بن الاشتر في جيش، فالتقوا بالجازر، وقُتِل عبيد الله بن زياد، وحصين بن نمير، وذو الكلاع، وعامة من كان معهم، وبُعِث برءوسهم إلى عبد الله بن الزبير.

أبو بكر بن أبي شيبة قال حدّثنا شريك بن عبد الله عن أبي الجويرية الحرمى قال: كنت فيمن سار إلى أهل الشام يوم الجازر مع إبراهيم بن الأشتر فلقيناهم بالزاب، فهبت الريح لنا عليهم فأدبروا، فقتلناهم عشيتنا وليلتنا حتى أصبحوا؛ فقال إبراهيم إني قتلت البارحة رجلا فوجدت عليه ريح طيب، فالتمسوه، فما أراه إلا ابن مرجانة. فانطلقنا، فإذا هو والله معكوس في بطن الوادي.

ولما التقى عبيد الله بن زياد وإبراهيم بن الأشتر بالزاب، قال: من هذا الذي يقاتلني؟ قيل له: إبراهيم بن الأشتر. قال: لقد تركته أمس صبيا يلعب بالحمام!

قال: ولما قتل ابن زياد بعث المختار برأسه إلى علي بن الحسين بالمدينة، قال الرسول: فقدمت به عليه انتصاف النهار وهو يتغدّى، قال: فلما رآه قال: سبحان الله! ما اغتر بالدنيا إلا مَن ليس لله في عنقه نعمة؛ لقد أُدخل رأسُ أبي عبد الله على

ابن زياد وهو يتغدى، وقال يزيد بن مفرِّغ:

إنّ الذي عاش ختّاراً بذمّتِه ... ومات عبداً: قتيلُ اللهِ بالزّابِ(١)

ثم إن المختار كتب كتاباً إلى ابن الزبير، وقال لرسوله: إذا جئت مكة فدفعت كتابي إلى ابن الزبير، فأت المهدي - يعني محمد بن الحنفية - فاقرأ عليه السلام، وقل له: يقول لك أبو إسحق: إني أُحِبك وأُحِب أهل بيتك! قال: فأتاه، فقال له ذلك، فقال: كذبتَ وكذب أبو إسحق، وكيف يحبني ويحب أهل بيتي، وهو يُجلِس عمرَ ابن سعد على وسائده وقد قتَل الحسين؟ فلما قدم عليه رسوله وأخبره، قال المختار لأبي عمرو صاحب حرسه: استأجر لي نوائح يبكين الحسين على باب عمر بن سعد. ففعل، فلما بكين قال عمر لابنه حفص: يا بني، ائت الأمير فقل له: ما بال النوائح يبكين الحسين على بابي؟ فأتاه فقال له ذلك، فقال: إنه أهل أن يبْكى عليه! فقال: أصلحك الله، اَنههُنّ عن ذلك! قال: نعم. ثم دعا أبا عمرو صاحب حرسه، فقال له: اذهب إلى عمر بن سعد فأْتِني برأسه! فأتاه فقال له: قم إليّ أبا حفص. فقام إليه وهو ملتحف بملحفة، فجلله بالسيف فقتله، وجاء برأسه إلى المختار ثم قال: ائتوني بابن عمر. فلما حضره قال: أتعرف هذا؟ قال: نعم، رحمه الله! قال: أتحب أن نلْحِقك به؟ قال: لا خَيْرَ في العيش بعْده! فأمر به فضُرب عنقه.

ثم إن المختار لما قتل ابن مرجانة وعمر بن سعد، جعل يتبع قتلة الحسين بن علي ومن خذله فقتلهم أجمعين، وأمر الحسينية وهم الشيعة أن يطوفوا في أزقة المدينة بالليل ويقولوا: يا ثارات الحسين! فلما أفناهم ودانت له العراق - ولم يكن صادق النية ولا صحيح المذهب، وإنما أراد أن يستأصل الناس - فلما أدرك بُغيته أظهر للناس قبح نيته، فادّعى أن جبريل ينزل عليه ويأتيه بالوحي من الله؛ وكتب إلى أهل البصرة:

---

(١) الختّار: الذي يغدر أقبح الغدر.

بلغني أنكم تكذبونني وتكذبون رسلي، وقد كُذبت الأنبياء من قبلي ولست بخيرٍ من كثير منهم!

فلما انتشر ذلك عنه، كتب أهل الكوفة إلى ابن الزبير وهو بالبصرة فخرج إليه، وبرز إليه المختار، فأسلمه إبراهيم بن الأشتر ووجوهُ أهل الكوفة، فقتله مصعبٌ وقتل أصحابَه.

أبو بكر بن أبي شيبة قال: قيل لعبد الله بن عمر: إن المختار ليزعم أنه يوحَى إليه! قال: صدق، الشياطينُ يوحون إلى أوليائهم!.

وقَتل مصعب من أصحاب المختار ثلاثة آلاف، ثم حج في سنة إحدى وسبعين فقدم على أخيه عبد الله بن الزبير ومعه وجوه أهل العراق، فقال: يا أمير المؤمنين قد جئتك بوجوه أهل العراق، ولم أَدَعْ لهم نظيرا؛ فأعطِهم من المال. قال: جئتَني بعبيد أهل العراق لأعطَيهم من مال الله! وددت أن لي بكل عشرة منهم رجلا من أهل الشام صرْفَ الدينار بالدرهم! فلما انصرف مصعب ومعه الوفد من أهل العراق، وقد حرمهم عبد الله بن الزبير ما عنده، فَسَدتْ قلوبُهم؛ فراسلوا عبد الملك بن مروان حتى خرج إلى مصعب فقتله.

علي بن عبد العزيز عن حجّاج عن أبي معشر، قال: لما بعث مصعب برأس المختار إلى عبد الله بن الزبير فوُضع بين يديه، قال: ما من شيء حدّثَنيهِ كعبُ الأحبار إلا قد رأيته، غير هذا؛ فإنه قال لي: يقتلك شابٌّ من ثقيف. فأراني قد قتلتُه!

وقال محمد بن سيرين لما بلغه هذا الحديث: لم يعلم ابنُ الزبير أن أبا محمد قد خُبِيء له.

ولما قَتل مصعب المختار بن أبي عبيد ودانت له العراق كلها، والكوفةُ والبصرة، قال فيه عبد الله بن قيس الرقيات:

كيف نومي على الفراش ولمّا تشمَلِ الشامَ غارةٌ شعْواءُ[1]
تُذْهِلُ الشيخَ عن بنيه وتُبدي عن خِدام العقيلَة العذراءُ[2]
إنما مُصعبٌ شِهابٌ مِنَ اللهِ تَجلَّت عن وجههِ الظَّلْماءُ

وتزوّج مصعب لما ملك العراق، عائشة بنت طلحة، وسكينة بنت الحسين؛ ولم يكن لهما نظير في زمانهما.

وقَتل مصعب امرأةَ المختار، وهي ابنةُ النعمان بن بشير الأنصاري، فقال فيها عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

إنّ مِن أعظمِ المصائبِ عندي قَتْلَ حوْراءَ غادةٍ عَيْطبول[3]
قُتِلت باطِلا على غيْرِ ذنبٍ إنَّ للهِ درّها من قتيلِ
كُتِب القَتْلُ والقِتالُ علينا وعلى الغانِيات جرُّ الذُّيولِ

مقتل عمرو بن سعيد الأشدق

أبو عبيد عن حجاج عن أبي معشر، قال: لما قدم مصعب بوجوه أهل العراق على أخيه عبد الله بن الزبير فلم يُعطهم شيئا، أبغضوا ابنَ الزبير، وكاتبوا عبد الملك بن مروان، فخرج يريد مصعب بن الزبير فلما أخذ في جهازه وأراد الخروج، أقبلت عاتكة ابنة يزيد بن معاوية في جواريها وقد تزينت بالحلى، فقالت: يا أمير المؤمنين، لو قعدت في ظلال مُلكك ووجهت إليه كلبا من كلابك لكفاك أمره! فقال: هيهات، أما سمعت قول الأول:

قومٌ إذا ما غزَوْا شدُّوا مآزِرهُم دونَ النساءِ ولو باتتْ بأطهارِ

فلما أبى عليها وعزم بكت وبكى معها جواريها، فقال عبد الملك: قاتلُ الله ابن أبي ربيعة، كأنه ينظر إلينا حيث يقول:

---

(١) الشعواء: المنتشرة المتفرقة الفاشية.

(٢) الخدام: الخلخال. والعقيلة: الكريمة المخدرة.

(٣) العيطبول: المرأة الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق.

إذا ما أرادَ الغزْو لم يثنِ همَّهُ   حَصانٌ عليها نظمُ درٍ يزَينُها [1]
نَهتْهُ فلما لم ترَ النَّهْيَ عاقهُ   بكتْ فبكَى مِما دهاها قطِينُها [2]

ثم خرج يريد مصعب، فلما كان من دمشق على ثلاث مراحل أغلق عمرو بن سعيد دمشق وخالف عليه، قيل له: ما تصنع؟ أتريد العراق وتدع دمشق؟ أهلُ الشام أشدُّ عليك من أهل العراق! فرجع مكانه فحاصر أهلَ دمشق حتى صالح عمرو بن سعيد على أنه الخليفة بعده وأن له مع كل عامل عاملا، ففتح له دمشق، وكان بيت المال بيد عمرو بن سعيد، فأرسل إليه عبد الملك أن أخرِج للحرس أرزاقهم فقال: إذا كان لك حرسٌ فإن لنا حرساً أيضا! فقال عبد الملك: أخرج لحرسك أيضا أرزاقهم! فلما كان يوم من الأيام أرسل عبد الملك إلى عمرو بن سعيد نصف النهار أن ائتني أبا أمية حتى أُدبر معك أمورا. فقالت له امرأته. يا أبا أمية، لا تذهب إليه؛ فإنني أتخوّف عليك منه! فقال: أبو الذباب! والله لو كنت نائما ما أيقظني! قالت: والله ما آمَنهُ عليك، وإني لأجد ريحَ دمٍ مسفوح. فما زالت به حتى ضربها بقائم سيفه فشجها، فخرج وخرج معه أربعة آلاف من أبطال أهل الشام الذين لا يُقْدَر على مثلهم مسلَّحين، فأحدقوا بخضراء دمشق وفيها عبد الملك، فقالوا: يا أبا امية، إن رابك ريب فأسمعنا صوتك، قال: فدخل فجعلوا يصيحون: أبا أمية أسمِعْنا صوتك، وكان معه غلام أسحم شجاع، فقال له: آذهب إلى الناس فقل لهم: ليس عليه بأس. فقال له عبد الملك: أمكراً عند الموت أبا أمية؟ خذوه. فأخذوه. فقال له عبد الملك: إني أقسمت إن أمكنتْني منك يدٌ أن أجعل في عنقك جامعة[3]، وهذه جامعة من فضة أريد أن أُبرَّ بها قسمي! قال: فطرح في رقبته الجامعة، ثم طرحه إلى الأرض بيده فانكسرت ثنيته[4]؛ فجعل عبد الملك ينظر إليه، فقال عمرو: لا عليك يا أمير المؤمنين، عظمٌ انكسر! قال: وجاء المؤذنون فقالوا: الصلاة

(١) حصان: عفيفة.
(٢) القطين: الإماء والخدم والأتباع.
(٣) الجامعة: الغلّ.
(٤) الثنيّة: إحدى الأسنان الأربع التي في مقدم الفم.

يا أمير المؤمنين. لصلاة الظهر، فقال لعبد العزيز بن مروان: اقتله حتى أرجع إليك من الصلاة. فلما أراد عبد العزيز أن يضرب عنقه، قال له عمرو، أنشدتك بالرحم يا عبد العزيز أن لا تقتلني من بينهم! فجاء عبد الملك فرآه جالسا، فقال: مالك لم تقتله؟ لعنك الله ولعن أُماً ولدتْك! ثم قال: قدِّموه إليّ. فأخذ الحربة بيده فقال: فعلتَها يا بنَ الزرقاء، فقال له عبد الملك: إني لو علمت أنك تبقى ويصلحُ لي ملكي لفديتك بدم الناظر[1]، ولكن قلّما اجتمع فحلان في ذَوْدٍ[2] إلا عَدَا أحدُهما على الآخر. ثم رفع إليه الحربة فقتله، وقعد عبد الملك يُرعَد، ثم أمر به فأُدرج في بساط وأدخل تحت السرير. وأرسل إلى قبيصة بن ذؤيب الخزاعي فدخل عليه، فقال: كيف رأيُك في عمرو بن سعيد الأشدق؟ قال ـ وأبصر قبيصة رِجلَ عمرو تحت السرير، فقال: اضرب عنقه يا أمير المؤمنين! قال: جزاك الله خيرا، ما علمتُ إنك لَمُوَفَّق، قال قبيصة: اطرح رأسه وآنثر على الناس الدنانير يتشاغلون بها. ففعل.

وآفترق الناس، وهرب يحي بن سعيد بن العاص حتى لحق بعبد الله بن الزبير بمكة فكان معه.

وأرسل عبد الملك بن مروان بعد قتله عمروَ بن سعيد إلى رجل كان يستشيره ويُصْدِر عن رأيه إذا ضاق عليه الأمر، فقال له: ما ترى ما كان من فعلي بعمرو بن سعيد؟ قال: أمر قد فات دَركه[3]. قال: لتقولنَّ. قال: حزمٌ لو قتلتَه وحييتَ أنت! قال: أو لستُ بحيّ؟ قال: هيهات، ليس بحيّ من أوقف نفسه موقفاً لا يوثق منه بعهد ولا عقد. قال: كلام لو تقدّم سماعُه فعلي لأمسكت!

ولما بلغ عبدَ الله بن الزبير قتلُ عمرو بن سعيد، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

---

(١) الناظر: العين.
(٢) الذود: معتلف الدابة.
(٣) الدرك: التبعة.

أيها الناس، إنّ عبد الملك بن مروان قتل لطيم الشيطان ﴿كذلك نُوَلِّي بعضَ الظالمينَ بعضاً بما كانوا يكسِبونَ﴾ [١] .

مقتل مصعب بن الزبير

فلما استقرّت البيعة لعبد الملك بن مروان أراد الخروج إلى مصعب بن الزبير، فجعل يستنفر أهل الشام فيبطئون عليه، فقال له الحجاج بن يوسف: سلِّطني عليهم، فوالله لأخرجنَّهم معك! قال له: قد سلطتُك عليهم. فكان الحجاج لا يمرّ على باب رجل من أهل الشام قد تخلف عن الخروج إلا أحرق عليه داره. فلما رأى ذلك أهلُ الشام خرجوا.

وسار عبد الملك حتى دنا من العراق، وخرج مصعب بأهل البصرة والكوفة، فالتقوا بين الشام والعراق؛ وقد كان عبد الملك كتب كتباً إلى رجال من وجوه أهل العراق يدعوهم فيها إلى نفسه ويجعل لهم الأموال، وكتب إلى إبراهيم بن الأشتر بمثل ذلك، على أن يخذلوا مصعباً إذا التقوا؛ فقال إبراهيم بن الأشتر لمصعب: إنّ عبد الملك قد كتب إليّ هذا الكتاب، وقد كتب إلى أصحابي بمثل ذلك، فادْعُهم الساعة فاضرب أعناقهم. قال: ما كنت لأفعل ذلك حتى يستبين لي أمرُهم. قال: فأخرى... قال: ما هي؟ قال: احبسهم حتى يستبين لك ذلك. قال: ما كنتُ لأفعل. قال: فعليك السلام، والله لا تراني بعدُ في مجلسك هذا أبدا. وقد كان قال له: دعني أدعو أهلَ الكوفة بما شرطه الله. فقال: لا والله، قتلتُهم أمس وأستنصر بهم اليومَ. قال: فما هو إلا أن التقوا فحوّلوا وجوههم وصاروا إلى عبد الملك؛ وبقي مصعب في شرذمة قليلة، فجاءه عبيدُ الله بن زياد بن ظبيان ـ وكان مع مصعب ـ فقال: أين الناسُ أيها الأمير؟ فقال: قد غدرتم يا أهل العراق. فرفع عبيد الله السيف ليضرب مصعبا، فبدره مصعب فضربه بالسيف على البيضة [٢] ، فنشب السيف في

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٩ .

(٢) البيضة: الخوذة .

البيضة؛ فجاء غلام لعبيد الله بن ظبيان فضرب مصعباً بالسيف فقتله، ثم جاء عبيد الله برأسه إلى عبد الملك بن مروان وهو يقول:

نُطِيعُ ملوكَ الأرضِ ما أقسَطوا لنا   وليس علينا قتلُهم بمُحرَّمِ

قال: فلما نظر عبد الملك إلى رأس مصعب خرَّ ساجدا، فقال عبد الله بن ظبيان، وكان من فُتَّاكِ العرب: ما ندمتُ على شيء قطُّ ندمي على عبد الملك بن مروان إذ أتيته برأس مصعب فخرّ ساجداً أن لا أكون ضربتُ عنقهَ، فأكون قد قتلت ملِكَي العرب في يوم واحد!

وقال في ذلك عبيد الله بن زياد بن ظبيان.

هَمَمْتُ ولم أفْعلْ وكِدْتُ وليْتني   فعلتُ فأدمنتُ البُكا لأقاربِهْ

فأَوردْتُها في النار بكْرَ بنَ وائلٍ   وألحقْتُ مَن قد خَرَّ شكْراً بصاحِبهْ

الرياشي عن الأصمعي قال: لما أُتي عبدُ الملك برأس مصعب بن الزبير، نظر إليه مليا. ثم قال: متى تلد قريش مثلك! وقال: هذا سيد شباب قريش.

وقيل لعبد الملك: أكان مصعب يشرب الطلاء[1]؟ فقال: لو علم مصعب أنّ الماء يفسد مروءته لما شربه!

ولما قُتل مصعب دخل الناسُ على عبد الملك يهنئونه، ودخل معهم شاعرٌ فأنشده:

اللهُ أَعطاكَ التي لا فوْقها   وقد أرادَ الملْحِدونَ عوْقَها..

عنكَ، ويأَبى اللهُ إلا سوْقَها   إليكَ، حتى قلَّدوكَ طوْقَها

فأمر له بعشرة آلاف درهم.

وقالوا: كان مصعب أجلَّ الناس، وأسخى الناس، وأشجع الناس؛ وكان تحته عَقيلتا قريش: عائشة بنت طلحة، وسُكيْنة بنت الحسين.

---

(١) الطلاء: الخمر.

ولما قتل مصعب خرجت سُكينة بنتُ الحسين تريد المدينة، فأطاف بها أهل العراق، وقالوا: أحسن الله صحابتَكِ يا أبنةَ رسول الله! فقالت: لاجزاكم الله عني خيرا، ولا أخلف عليكم بخير مِن أهل بلد! قتلتم أبي وجدّي وعمي وزوجي! أيتمتموني صغيرة، وأرملتموني كبيرة!

ولما بلغ عبد الله بن الزبير قتل مصعب، صعد المنبر فجلس عليه، ثم سكت فجعل لونه يحمّر مرة ويصفرّ مرة؛ فقال رجل من قريش لرجل إلى جنبه: ماله لا يتكلم، فوالله إنه لَلْخطيب اللبيب. فقال له الرجل: لعله يريد أن يذكر مقتل سيِّد العرب فيشتدّ ذلك عليه، وغيرُ ملوم! ثم تكلم فقال:

الحمد لله الذي له الخلق والأمر، و[مُلْكُ] الدنيا والآخرة ﴿يُؤتِي الملكَ من يشاء، ويَنزعُ الملكَ ممن يشاء، ويُعزُّ من يشاء، ويُذِلُّ من يشاء﴾ [١].

أمّا بعد: فإنه لم يَعِزَّ من كان الباطل معه ولو كان معه الأنامُ طُراًّ، ولم يَذِلَّ من كان الحقُّ معه ولو كانَ فردا؛ ألا وإنّ خبراً من العراق أتانا فأحزننا وأفرحنا؛ فأمّا الذي أحزننا؛ فإن لفراقِ الحميم لوعةً يجدُها حميمُه، ثم يرعوي ذوو الألباب إلى الصبر وكريم الأجر؛ وأمّا الذي أفرحنا فإن قتل مصعب له شهادة ولنا ذخيرة.

أسلمه الطَّغام [٢]، الصم الآذان، أهل العراق، وباعوه بأقل من الثمن الذي كانوا يأخذون منه، فإن يقتل فقد قُتل أخوه وأبوه وابن عمه، وكانوا الخيارَ الصالحين؛ إنّا والله لا نموت حَتْفَ [٣] أنوفنا كما يموت بنو مروان، ولكن قُعْصاً [٤] بالرماح وموتا تحت ظلال السيوف، فإن تُقْبل الدنيا عليّ لم آخذها مأخذ الأشِر [٥] البَطِر [٦]، وإن تدبر عني لم أبكِ عليها بكاءَ الخرْف الزائل العقل.

---

(١) سورة آل عمران الآية ٢٦.
(٢) الطّغام: أرذل الناس وأوغادهم.
(٣) مات حتف أنفه: أي مات على فراشه.
(٤) مات قعصاً: أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه.
(٥) الأشر: البطر والمستكبر. (٦) البطر: الذي غلا في المرح والزهو.

ولما توطد لابن الزبير أمرُه وملَكَ الحرمين والعراقين، أظهر بعضُ بني هاشم الطعن عليه؛ وذلك بعد موت الحسن والحسين؛ فدعا عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية وجماعةً من بني هاشم إلى بيعته، فأبوا عليه، فجعل يشتمهم ويتناولهم على المنبر، وأسقط ذِكرَ النبي ﷺ من خطبته، فعوتب في ذلك، فقال: والله ما يمنعني من ذِكره علانية أني لأذكره سرا وأصلي عليه، ولكن رأيت هذا الحي من بَنيّ هاشم إذا سمعوا ذكرهَ سرا وأصلي عليه، ولكن رأيت هذا الحي من بَني هاشم إذا سمعوا ذكرَه اشرأبّت أعناقهم، وأبغضُ الأشياء إليّ ما يسرُّهم، ثم قال لتُبايِعُنّ أو لأُحْرِقَنَّكُمْ بالنار! فأبوا عليه، فحبس محمد بن الحنفية في خمسة عشر من بني هاشم في السجن، وكان السجن الذي حبسهم فيه يقال له سجن عارم[1]؛ فقال في ذلك كُثَيِّر عزة - وكان ابن الزبير يدعى العائذ، لأنه عاذ بالبيت -:

تُخَبِّـرُ مـن لاقَيْـت أنـكَ عـائـذٌ ... بل العائِذُ المظْلومُ في سجنِ عارِمِ[2]
سَمِـيُّ النَّبِيِّ المصْطَفـى وابنُ عَمِّـهِ ... وفكّـاكُ أغْلالٍ وقـاضي مَغـارم

وكان أيضا يدعى المُحِل، لإحلاله القتال في الحرم، وفي ذلك يقول رجل من الشعراء في رملة بنت الزبير:

ألا مَـنْ لِقَلْـبِ مُعنى غَـزِلْ ... بِـذكْـرِ المُحِلةِ أخْـتِ المُحِـلّ

ثم إن المختار بنَ أبي عبيد وجّه رجالا يثق بهم من الشيعة يكمنون النهار ويسيرون الليل، حتى كسروا سجن عارم واستخرجوا منه بني هاشم؛ ثم ساروا بهم إلى مأمنهم.

وخطب عبد الله بن الزبير بعد موت الحسن والحسين، فقال:

أيها الناس، إن فيكم رجلا قد أعمى الله قلبه كما أعمى بصره، قاتل أمَّ المؤمنين وحواريَّ رسول الله ﷺ، وأفتى بتزويج المتعة.

---

(١) سجن عارم: سجن بالكوفة.

(٢) العائذ: الملتجيء، والمعتصِم.

وعبدُ الله بن عباس في المسجد؛ فقام وقال لعكرمة: أقم وجهي نحوه يا عكرمة. ثم قال هذا البيت:

إنْ يـأخُـذِ اللهُ مـن عَيْنيَّ نـورَهُما ... ففِـي فـؤادي وعقْلي مِنهما نُـورُ

وأما قولك يا ابن الزبير: إني قاتلت أم المؤمنين، فأنت أخرجْتَها وأبوك وخالك، وبنا سُمِّيتْ أمَّ المؤمنين، فكنّا لها خيرَ بنين، فتجاوز الله عنها، وقاتلتَ أنتَ وأبوك علياً؛ فإن كان عليٌّ مؤمنا فقد ضللتم بقتالكم المؤمنين، وإن كان كافراً فقد بؤتم بسخطٍ من الله بفراركم من الزَّحفْ؛ وأما المتعة فإني سمعت عليْ بنَ أبي طالب يَقول: سمعت رسولَ الله ﷺ رخَّص فيها فأفتيت بها، ثم سمعتُه ينهي عنها [فنهيتُ عنها] وأول مِجْمَر[1] سطع في المتعة مجمرُ آل الزبير.

مقتل عبد الله بن الزبير

أبو عبيدُ عن حجاج عن أبي معشر قال: لما بايع الناس عبدَ الملك بن مروان بعد قتل مصعب بن الزبير ودخل الكوفة، قال له الحجاج: إني رأيت في المنام كأني أسلخ ابن الزبير من رأسه إلى قدميه. فقال له عبد الملك: أنت له فاخرج إليه. فخرج إليه الحجاج في ألف وخمسمائة حتى نزل الطائف، وجعل عبد الملك يرسل إليه الجيوش رسَلاً[2] بعد رَسَل، حتى توافى إليه الناس قدْرَ ما يظن أنه يقوى على قتال ابن الزبير، وكان ذلك في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين؛ فسار الحجاج من الطائف حتى نزل منى، فحج بالناس وابنُ الزبير محصور، ثم نصب الحجاج المجانيق على أبي قبيس وعلى قعيقعان ونواحي مكة كلها يرمي أهل مكة بالحجارة. فلما كانت الليلة التي قتل في صبيحتها ابن الزبير، جمع ابن الزبير من كان معه من القرشيين؛ فقال: ما ترون؟ فقال رجل من بني مخزوم من آل بني ربيعة: والله لقد قاتلنا معك حتى لا نجد مقيلا، ولئن صبرنا معك ما نزيد على أن نموت وإنما هي إحدى خصلتين: إما أن تأذن لنا

---

(١) المجمر: ما يوضع فيه الجمر مع البخور.

(٢) الرسل: القطيع من كل شيء.

فنأخذ الأمان لأنفسنا، وإما أن تأذن لنا فنخرج. فقال ابن الزبير: لقد كنتُ عاهدتُ الله لا يبايعني أحدٌ فأقيله بيعته إلا ابن صفوان، فقال له ابن صفوان: أمّا أنا فإني أقاتل معك حتى أموت بموتك، وإنها لتأخذني الحفيظة أن أُسْلمك في مثل هذه الحالة! قال له رجل آخر: اكتب إلى عبد الملك بن مروان. فقال له: كيف أكتب: من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الملك بن مروان؟ فوالله لا يقبل هذا أبداً؛ أم أكتب: لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير؟ فوالله لأن تقع الخضراء[1] على الغبراء[2] أحبُّ إليَّ من ذلك! فقال عروة بن الزبير وهو جالس معه على السرير: يا أمير المؤمنين قد جعل الله لك أسوة. قال: من هو؟ قال: حسن بن عليّ، خلع نفسه وبايع معاوية. فرفع ابن الزبير رجله فضرب بها عروة حتى ألقاه عن السرير، وقال: يا عروة، قلبي إذاً مثلُ قلبك، والله لو قبلتُ ما يقولون ما عشتُ إلا قليلاً وقد أخذتُ الدنيَّة، وإن ضربةً بسيف في عزٍّ خيرٌ من لطمةٍ في ذُل.

فلما أصبح دخل عليه بعض نسائه ـ وهي أم هاشم بنت منصور بن زياد الفزارية ـ فقال لها: اصنعي لنا طعاماً. فصنعت له كبداً وسناماً، فأخذ منها لقمة فلاكها ثم لفظها[3]؛ ثم قال: اسقوني لبناً. فأتي بلبن، فشرب منه، ثم قال: هيئوا لي غُسْلا! فاغتسل ثم تحنط وتطيَّب، ثم نام نومة وخرج.

ودخل على أمه أسماء ابنة أبي بكر ذات النطاقين[4]، وهي عمياء وقد بلغت مائة سنة، فقال: يا أُماه، ما تَرَيْن؟ قد خذلني الناس وخذلني أهلُ بيتي! فقالت: لا يلعبنَّ بك صبيانُ بني أمية: عش كريماً ومُت كريماً!

فخرج فأسند ظهره إلى الكعبة ومعه نفر يسير فجعل يقاتلهم ويهزمهم وهو يقول: وَيْلُمِّه! يا له فتحا لو كان له رجال! فناداه الحجاج: قد كان لك رجال فضيَّعتَهم!

---

(١) الخضراء: السماء؛ للونها الأخضر.

(٢) الغبراء: الأرض.

(٣) لفظ: رمى وطرح.

(٤) النطاقين: النطاق: حزام يشدّ به الوسط.

وجعل ينظر إلى أبواب المسجد والناس يهجمون عليه، فيقول: من هؤلاء؟ فيقال له: أهل مصر. قال: قتلة عثمان! فحمل عليهم، وكان فيهم رجل من أهل الشام، يقال له خُلبوب، فقال لأهل الشام. أما تستطيعون إذا ولى[1] ابن الزبير أن تأخذوه بأيديكم؟ قالوا: ويمكنك أنت أن تأخذه بيدك؟ قال: نعم. قالوا: فشأنَك. فأقبل وهو يريد أن يحتضنه، وابنُ الزبير يرتجز ويقول:

لو كان قِرْني واحِداً كفيْتُه

فضربه ابن الزبير بالسيف فقطع يده، فقال خُلبوب: حس! قال ابن الزبير: اصبر خلبوب.

قال: وجاءه حجر من حجارة المنجنيق، فأصاب قفاه، فسقط؛ فاقتحم أهل الشام عليه، فما همّوا بقتله حتى سمعوا جارية تبكي وتقول: وا أمير المؤمنيناه! فحزّوا رأسه وذهبوا به إلى الحجاج.

وقُتل معه: عبد الله بن صفوان، وعمارة بن حزم، وعبد الله بن مطيع.

قال أبو معشر: وبعث الحجاج برءوسهم إلى المدينة، فنصبوها للناس، فجعلوا يقرّبون رأسَ ابن صفوان إلى رأس ابن الزبير كأنه يسارّه ويلعبون بذلك؛ ثم بعث برؤسهم إلى عبد الملك بن مروان.

فخرجت أسماء إلى الحجاج فقالت له: أتأذن لي أن أدفنه، فقد قضيت أرَبك منه؟ قال: لا! ثم قال لها: ما ظنُّك برجل قتل عبد الله بن الزبير؟ قالت: حسيبه[2] الله! فلما منعها أن تدفنه قالت. أما إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: يخرج من ثقيف رجلان: الكذاب والمبير! فأما الكذاب فالمختار، وأما المبير[3] فأنت. فقال الحجاج: اللهم مبير لا كذاب.

---

(١) ولى: أدبر.

(٢) حسيب الله: أي انتقم الله منه.

(٣) المبير: المهلك.

ومن غير رواية أبي عبيد قال: لما نصب الحجاج المجانيق لقتال عبد الله بن الزبير، أظلتهم سحابة فأرعدت وأبرقت وأرسلت الصواعق؛ ففزع الناس وأمسكوا عن القتال، فقام فيهم الحجاج فقال: أيها الناس، لا يهولنَّكُمْ هذا؛ فإني أنا الحجاج ابن يوسف وقد أصحرْتُ[1] لربي، فلو ركبْنا عظيماً لحال بيننا وبينه ولكنها جبال تهامة لم تزل الصواعق تنزل بها. ثم أمر بكرسي فطرح له، ثم قال: يا أهل الشام، قاتلوا على أعطيات أمير المؤمنين. فكان أهل الشام إذا رموا الكعبة يرتجزون ويقولون هذا:

خَطَّارةٌ مثلُ الفَنيقِ المُزْبِدِ يُرْمى بها عُواذُ أهلِ المسجدِ[2]

ويقولون أيضاً: درِّي عُقاب[3]، بلبن وأشخاب[4]. فلما رأى ذلك ابن الزبير خرج إليهم بسيفه فقاتلهم حيناً، فناداه الحجاج: ويلك يا بن ذات النطاقين! اقبل الأمان وادخل في طاعة أمير المؤمنين، فدخل على أمه أسماء، فقال لها: سمعت رحمك الله ما يقول القوم، وما يدعونني إليه من الأمان؟ قالت: سمعتهم لعنهم الله، فما أجهلهم واعجبْ منهم إذ يعيِّرونك بذات النطاقين؛ ولو علموا ذلك لكان ذلك أعظم فخرك عندهم. قال: وما ذاك يا أُماه؟

قالت: خرج رسول الله ﷺ في بعض أسفاره مع أبي بكر فهيأت لهما سفرة، فطلبا شيئاً يربطانها بها فما وجداه، فقطعت من مئزري لذلك ما احتاجا إليه، فقال رسول الله ﷺ: أما إن لك به نطاقين في الجنة!

فقال عبد الله: الحمد لله حمداً كثيراً، فما تأمريني به، فإنهم قد أعطوني الأمان؟
قالت: أرى أن تموت كريماً ولا تتبع فاسقاً لئيماً، وأن يكون آخر نهارك أكرم من أوّله.

---

(١) أصحر: برز.
(٢) الخطارة: الناقة تخطر بذنبها في السير نشاطا. والفنيق: الفحل المكرم من الابل الذي لا يركب ولا يهان لكرامته عليهم.
(٣) عقاب: اسم ناقة. (٤) اشخاب: جمع شخب، وهو ما امتد من اللبن.

فقبَّل رأسها وودعها، وضمته إلى نفسها، ثم خرج من عندها فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس، إن الموت قد تغشَّاكم سحابُه، وأحدق بكم رَبابُه[1]، واجتمع بعد تفرُّق، وٱرْجَحَنّ بعد تَمشُّقٍ، ورجَس[2] نحوكم رعده، وهو مُفْرِغٌ عليكم ودقَه[3]، وقائد إليكم البلايا تتبعها المنايا، فاجعلوا السيوف لها غرضاً، واستعينوا عليها بالصبر. وتمثل بأبيات، ثم اقتحم يقاتل وهو يقول:

قد جَدّ أصحابُك ضرْب الأعناقْ وقامت الحربُ لها على ساقْ

ثم جعل يقاتل وحده ولا يهدّه شيء، كلما اجتمع عليه القوم فرّقهم وذادهم، حتى أُثْخِن بالجراحات ولم يستطع النهوض، فدخل عليه الحجاج فدعا بالنطع فحز رأسه هو بنفسه في داخل مسجد الكعبة، لا رحم الله الحجاج! ثم بعث برأسه إلى عبد الملك بن مروان، وقَتل من أصحابه مَن ظفِر به؛ ثم أقبل فاستأذن على أمه أسماء بنت أبي بكر ليعزيها، فأذنت له، فقالت له: يا حجاج، قتلت عبد الله؟ قال: يا بنة أبي بكر، إني قاتل الملحدين. قالت: بل قاتل المؤمنين الموحدين. قال لها: كيف رأيت ما صنعت بابنك؟ قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك، ولا ضير أن أكرمه الله على يديك، فقد أُهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل!

هشام بن عروة عن أبيه قال: كان عثمان استخلف عبد الله بن الزبير على الدار يوم الدار، فبذلك ادّعى ابن الزبير الخلافة.

محمد بن سعيد قال: لما نصب الحجاج راية الأمان وتصرَّم الناس عن ابن الزبير، قال لعبد الله بن صفوان: قد أقلتُك بيعتي وجعلتك في سعة[4]، فخذ لنفسك أماناً.

---

(١) الرباب: السحاب الأبيض.

(٢) رجس: اشتد.

(٣) الودق: المطر. (٤) السعة: الدعة والغنى والرفاهية.

فقال: مه! والله ما أعطيتك إياها حتى رأيتك أهلاً لها، وما رأيت أحداً أولى بها منك، فلا تضرب هذه الصلعة فتيان بني أمية أبداً. وأشار إلى رأسه. قال: فحدثت سليمان بن عبد الملك حديثه فقال: إن كنت لأراه أعرج جباناً!.

فلما كانت الليلة التي قُتل في صباحها ابن الزبير، أقبل عبد الله بن صفوان وقد دنا أهل الشام من المسجد فاستأذن، فقالت الجارية: هو نائم! فقال أو ليلة نوم هذه؟ أيقظيه! فلم تفعل، فأقام ثم استأذن، فقالت: هو نائم! فانصرف، ثم رجع آخر الليل وقد هجم القوم على المسجد؛ فخرج إليه فقال: والله ما نمت منذ عَقَلْت الصلاة نومي هذه الليلة وليلة الجمل! ثم دعا بالسواك[1] فاستاك متمكنا، ثم توضأ متمكنا، ولبس ثيابه؛ ثم قال: أنظرني حتى أودع أمّ عبد الله فلم يبق شيء! وكان يكره أن يأتيها فتعزم عليه أن يأخذ الأمان؛ فدخل عليها وقد كُفَّ بصرها فسلم، فقالت: من هذا؟ فقال: عبد الله! فتشمَّمته ثم قالت: يا بنيَّ، مُتْ كريماً! فقال لها: إن هذا قد أمّنني. يعني الحجاج. قالت: يا بنيَّ لا ترض الدنية، فإن الموت لا بدَّ منه! قال: إني أخاف أن يمثّل بي. قالت: إن الكبش إذا ذبح لم يأ[لَمْ] مِن السلخ!

قال: فخرج فقاتل قتالاً شديداً، فجعل يهزمهم ثم يرجع ويقول: يا له فتحاً لو كان له رجال. لو كان المصعب أخي حياً.

فلما حضرت الصلاة صلى صلاته، ثم قال: أين باب أهل مصر؟ حنقا لعثمان فقاتل حتى قتل، وقُتل معه عبد الله بن صفوان.

وأُتي برأسه الحجاج وهو فاتح عينيه وفاه، فقال: هذا رجل لم يكن يعرف القتل ولا ما يصير إليه؛ فلذلك فتح عينيه وفاه.

هشام بن عروة عن أبيه، أن عبد الله بن الزبير كان أول مولود وُلد في الإسلام، فلما ولد كبَّر النبي ﷺ وأصحابه، ولما قُتل كبَّر الحجاج بن يوسف وأهل الشام معه؛ فقال ابن عمرو: ما هذا؟ قالوا: كبَّر أهل الشام لقتل عبد الله بن الزبير! قال:

---

(١) السواك: عود يتخذ من شجر الأراك ونحوه يستاك به.

الذين كبَّروا لمولده خيرٌ من الذين كبروا لقتله .

أيوب عن أبي قلابة قال: شهدت ابنة أبي بكر غَسَّلت ابنها ابن الزبير بعد شهر، وقد تقطعت أوصاله وذُهب برأسه، وكفَّنته، وصلت عليه .

هشام بن عروة قال: قال عبد الله بن عباس للجائز به: جنِّبني خشبة ابن الزبير. فلم يشعر ليلة حتى عثر فيها، فقال: ما هذا؟ فقال: خشبة ابن الزبير. فوقف ودعا له، وقال: لئن علتك رجلاك لطالما وقفت عليهما في صلاتك! ثم قال لأصحابه: أما والله ما عرفته إلا صوّاماً قوّاماً، ولكنني ما زلت أخاف عليه منذ رأيته تعجبَه بغلات معاوية الشُّهب[1]. قال: وكان معاوية قد حج فدخل المدينة وخلفه خمس عشرة بغلة شهباء عليها رحائل[2] الأرجوان، فيها الجواري عليهن الجلابيب والمعصفرات[3]، ففتن الناس .

أولاد عبد الملك بن مروان

الوليد، وسليمان بن العبسية، ويزيد، وهشام، وأبو بكر، ومسلمة، وسعد الخير وعبد الله، وعنبسة، والحجاج، والمنذر، ومروان الأكبر، ومروان الأصغر - ولم يعقب مروان الأكبر - ويزيد، ومعاوية، دَرَج[4].

وفاة عبد الملك بن مروان

توفى عبد الملك بن مروان بدمشق للنصف من شوال سنة ست وثمانين وهو ابن ثلاث وستين، وصلى عليه الوليد بن عبد الملك؛ ووُلد عبد الملك في المدينة في دار مروان سنة ثلاث وعشرين .

---

(١) الشهب: جمع شهباء: وهي التي فيها شعر يخالف بالبياض .
(٢) الرحائل: الأحمال .
(٣) معصفرات: التي صبغت بالعصفر، وهو نبات يصبغ به .
(٤) درج فلان: أي لم يخلف نسلاً .

وكتب عبد الملك إلى هشام بن إسماعيل المخزومي، وكان عامله على المدينة أن يدعو الناس إلى البيعة لابنيه الوليد وسليمان؛ فبايع الناس غير سعيد بن المسيب، فإنه أبى وقال: لا أبايع وعبد الملك حيٌّ، فضربه هشام ضرباً مبرِّحاً وألبسه المَسُوح (١)، وأرسله إلى ثنية (٢) بالمدينة يقتلونه عندها ويصلبونه؛ فلما انتهوا به إلى الموضع ردوه، فقال سعيد: لو علمت أنهم لا يصلبونني ما لبست لهم التُّبَّان (٣). وبلغ عبد الملك خبره فقال: قبح الله هشاماً؛ مثل سعيد بن المسيب يُضرب بالسياط! إنما كان ينبغي له أن يدعوَه إلى البيعة، فإن أبى يضرب عنقه.

وقال للوليد: إذا أنا متُّ فضعني في قبري ولا تعصر عليَّ عينيك عصر الأَمَة، ولكن شمِّر وائتزر، والبس جلد النمر؛ فمن قال برأسه كذا، فقل بسيفك كذا!

ولاية الوليد بن عبد الملك

ثم بويع للوليد بن عبد الملك في النصف من شوال سنة ست وثمانين. وأم الوليد ولادة بنت العباس بن جَزء بن الحارث بن زهير بن جذيمة العبسي.

وكان على شرطته كعب بن حماد، ثم عزله وولى أبا نائل بن رباح بن عبدة الغساني.

ومات الوليد يوم السبت في النصف من شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين وهو ابن أربع وأربعين، وصلى عليه سليمان. وكانت ولايته عشر سنين غير شهور.

ولد الوليد

عبد العزيز، ومحمد، وعنبسة، ولم يعقبوا؛ وأمهم أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان؛ والعباس، وبه كان يكنى، ويقال إنه كان أكبرهم؛ وعمر، وبشر، وروح،

---

(١) المسوح: كساء من شعر.

(٢) الثنية: إحدى الاسنان الأربع التي في مقدم الفم. (٣) التبّان: سراويل صغيرة يستر العورة المغلظة.

وتمام، ومبشر، وحَزْم، وخالد، ويزيد، ويحيى، وإبراهيم، وأبو عبيدة، ومسرور، ومنصور، ومروان، ومحمد، وصدقة، لأمهات أولاد. وأم أبي عبيدة فرارية، وكان أبو عبيدة ضعيفاً.

وولي الخلافة من ولد الوليد: إبراهيم، شهرين ثم خلع ووليَ يزيد الكاملُ شهراً ثم مات. وكان تمام ضعيفاً، هجاه رجلٌ فقال:

بنُو الوليد كِرامٌ في أرُومَتِهم ... نالوا المَكارِمَ طُرّاً غيرَ تَمّامِ (١)

ومسرور بن الوليد كان ناسكاً، وكانت عنده بنت الحجاج. وكان بشر من فتيانهم، وروْح من غلمانهم، والعباس من فرسانهم؛ وفيه يقول الفرزدق:

إنّ أبا الحارثِ العباسَ نائلُهُ ... مِثْلُ السِّماكِ الذي لا يُخْلِفُ المطَرَا (٢)

وكان تحته بنت قطَريِّ بن الفجاءة، سباهاً وتزوجها، وله منها المؤمل، والحارث؛ وكان عمرو من رجالهم، كان له تسعون ولداً، ستون منهم كانوا يركبون معه إذا ركب.

وقال رجل من أهل الشام: ليس من ولد الوليد أحدٌ إلا ومن رآه يحسب أنه من أفضل أهل بيته.

ولو وُزن بهم أجمعين عبد العزيز لرجحهم، وفيه يقول جرير:

وبنو الوليد مِنَ الوليد بمنزلٍ ... كالبدرِ حُفَّ بواضِحاتِ الأنجمُ

وعبد العزيز بن الوليد، أراد أبوه أن يبايع له سليمان، فأبى عليه سليمان.

وحدث الهيثم بن عدي عن ابن عباس، قال: لما أراد الوليد أن يبايع لابنه عبد العزيز بعد سليمان، أبى ذلك سليمان وشنع عليه؛ وقيلَ للوليد: لو أمرتَ الشعراء أن يقولوا في ذلك، لعله كان يسكت فيُشْهَد عليه بذلك. فدعا الأُقبيل القيني فقال له:

---

(١) الأرومة: الأصل.

(٢) السِّماك: أحد النجمين النيرين: الرامح والأعزل.

ارتجز بذلك وهو يسمع. فدعا سليمان فسايره، والأقيبلُ خلفه، فرفع صوته وقال:

إنّ وليَّ العهـدِ لآبنُ أُمّـهْ ثم آبنـهُ وليُّ عهـدِ عمِّـهْ
قد رضِيَ الناسُ بـه فسمِّـه فهو يضُمُّ المُلْكَ في مِضمِّـهْ
يا ليْتَها قد خرجَتْ من فمِّهْ

فالتفت إليه سليمان، وقال: ابن الخبيثة! من رضي بهذا؟

أخبار الوليد

أبو الحسن المدائني قال: كان الوليد أسنّ ولدِ عبد الملك، وكان يحبه، فتراخى في تأديبه لشدة حبه إياه فكان لحّاناً[1].

وقال عبد الملك: أضرنا في الوليد حبُّنا له فلم نُوجِّهْه إلى البادية.

وقال الوليد يوماً وعنده عمر بن عبد العزيز: يا غلام، آدع لي صالح. فقال الغلام: يا صالحاً! فقال له الوليد: آنقص ألفاً. فقال له عمر بن عبد العزيز: وأنت يا أمير المؤمنين فزدْ ألفِاً!.

وكان الوليد عند أهل الشام أفضلَ خلفائهم وأكثرهم فتوحاً وأعظمَهم نفقة في سبيل الله، بنى مسجد دمشق، ومسجد المدينة، ووَضَع المنابر وأعطى المجذومين[2] حتى أغناهم عن سؤال الناس، وأعطى كل مُقْعَد خادماً وكلَّ ضرير قائداً، وكان يمر بالبقال فيتناول قبضة فيقول: بكُـمْ هذه؟ فيقول: بفلس. فيقول: زد فيها فإنك تربح..

ومرّ الوليد بمعلم كتّاب فوجد عنده صَبيّة، فقال: ما تصنع هذه عندك؟ فقال أعَلّمها الكتابة والقرآن. قال: فاجعل الذي يعلمها أصغرَ منها سنّاً.

وشكا رجل من بني مخزوم دَيْناً لزمه، فقـال: نقْضِـه عنـك إن كنـت لـذلـك

---

(١) اللحان: الذي يخطيء الاعراب ويخالف وجه الصواب في النحو.
(٢) المجذومين: جمع المجذوم، وهو الذي قطعت إحدى أطرافه.

مستحقاً. قال: يا أمير المؤمنين، وكيف لا أكون مستحقاً في منزلتي وقرابتي؟ قال: قرأتَ القرآن؟ قال. لا! قال: آدن مني. فدنا منه؛ فنزع العمامة عن رأسه بقضيب في يده، ثم قرعه[1] به قرْعة، وقال لرجل من جلسائه: ضمَّ إليك هذا العلج[2] ولا تفارقه حتى يقرأ القرآن. فقام إليه آخر فقال يا أمير المؤمنين، اقض ديني! فقال له: أتقرَأ القرآن؟ قال: نعم. فاستقرأه عشراً من الأنفال وعشراً من براءة؛ فقرأ، فقال: نعم، نقضي دينك وأنت أهلٌ لذلك.

وركب الوليدُ بعيراً وحادٍ يحدو بين يديه، والوليد يقول:

يـأيها البكْـر الذي أراكـا ويْحَـكَ تعلمُ الذي علاَكـا
خليفةُ اللهِ الذي آمتطـاكـا لم يُحْبَ بكرٌ مِثل ما حَباكا

ولاية سليمان بن عبد الملك

أبو الحسن المدائني قال: ثم بويع سليمان بن عبد الملك في ربيع الأول سنة ست وتسعين.

ومات سنة تسع وتسعين بدابق يوم الجمعة لعشر خلون من صفر، وهو ابن ثلاث وأربعين، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز. وكانت ولايته سنتين وعشرة أشهر ونصفاً.

ولد سليمان بن عبد الملك بالمدينة في بني حُديلة، ومات بدابق من أرض قنسرين وكان سليمان فصيحاً جميلاً وسيماً، نشأ بالبادية عند أخواله بني عبس.

وكانت ولايته يمناً وبركة، افتتحها بخير وختمها بخير: فأما افتتاحه فيها بخير فردّ المظالم وأخرج المسجونين، وبغزاة مسلمة بن عبد الملك الصائفة حتى بلغ القسطنطينية؛ أما ختمها بخير فاستخلافه عمر بن عبد العزيز.

---

(١) قرع: ضرب. (٢) العلِج: كل جاف شديد من الرجال.

ولبس يوماً واعتم بعمامة، وكانت عنده جارية حجازية، فقال لها: كيف ترين الهيئة؟ فقال: أنت أجمل العرب لولا . . . قال: عليّ ذلك لتقولنّ. قالت:

أنت نِعمَ المتاعُ لو كنتَ تبقَى غيْرَ أن لا بقاءَ للإنسانِ
أنتَ خلْوٌ من العيوب ومِمَّا يكْرَهُ الناسُ غير أنك فانِ!

قال: فتنغص عليه ما كان فيه، فما لبث بعدها إلا أياماً حتى توفي رحمه الله!

وتفاخر ولد لعمر بن عبد العزيز وولد لسليمان بن عبد الملك، فذكر ولد عمر فضل أبيه وخاله، فقال له ولد سليمان: إن شئت أقِلَّ وإن شئت أكثر؛ فما كان أبوك إلا حسنةً من حسنات أبي.

محمد بن سليمان قال: فعل سليمان في يوم واحد ما لم يفعله عمر بن عبد العزيز في طول عمره: أعتق سبعين ألفاً ما بين مملوك ومملوكة وبتّتهم ـ أي كساهم ـ والبَتُّ: الكسوة.

ولد لسليمان: أيوب، وأمه أم أبان بنت الحكم بن العاص، وهو أكبر ولد سليمان وولي عهده، فمات في حياة سليمان، وله يقول جرير:

إنّ الإمامَ الذي تُرجَى فواضِلُهُ بعدَ الإمامِ وليُّ العهدِ أيُّوبُ

وعبد الواحد، وعبد العزيز، أمهما أم عامر بنت عبد الله بن خالد بن أسيد وفي عبد الواحد يقول القطامي:

أهلُ المدينةِ لا يَحْزُنك حالُهم إذا تخطَّأ عبدَ الواحدِ الأجلُ
قد يُدركُ المُتأني بعض حاجتِه وقد يكونُ مع المُستعجِلِ الزَّلَلُ[1]

ولما مات أيوب وليُّ عهد سليمان بن عبد الملك؛ قال ابن عبد الأعلى يرثيه، وكان من خواصه:

ولقد أقولُ لذي الشماتةِ إذ رأَى جزَعي ومَن يَذُقِ الحوادثَ يَجزَعِ

(١) الزلل: الخطيئة.

أبشرْ فقد قَرَعَ الحوادثُ مَـرْوَتِـي وآفـرحْ بمَرْوتِـكَ التي لم تُقْـرَعِ [1]
إنْ عِشتَ تُفْجَعْ بـالأحبَّـةِ كلِّهـمْ أو يُفجَعوا بكَ إنْ بِهم لم تُفجَـعِ
أيّوبُ مَن يَشمَتْ بموتِـك لم يُطِـقْ عن نفسه دفْعاً وهل مِـن مَـدْفَـعِ

أخبار سليمان بن عبد الملك

أبو الحسن المدائني قال: لما بلغ قتيبةَ بن مسلم أنّ سليمان بن عبد الملك عزله عن خراسان واستعمل يزيد بن المهلب، كتب إليه ثلاث صحف، وقال للرسول: ادفع إليه هذه، فإن دفعها إلى يزيد فادفع إليه هذه، فإن شتمني فادفع هذه. فلما سار الرسول إليه دفع الكتاب إليه، وفيه: يا أمير المؤمنين، إنّ من بلائي في طاعة أبيك وأخيك كيت وكيت. فدفع كتابه إلى يزيد، فأعطاه الرسول الكتاب الثاني، وفيه: يا أمير المؤمنين، كيف تأمن ابن رحمةَ على أسرارك وأبوه لم يأمنه على أمّهات أولاده؟ فلما قرأ الكتاب شتمه وناوله ليزيد، فأعطاه الثالث، وفيه: من قتيبة بن مسلم إلى سليمان بن عبد الملك، سلام على من اتبع الهدى، أمّا بعد: فوالله لأوثِّقن له آخِيَّة[2] لا ينزعها المُهر الأَرن[3]! فلما قرأها قال سليمان: عجِلنا على قُتيبة! يا غلام، جدّد له عهداً على خراسان.

ودخل يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج على سليمان، فقال له سليمان: أترى الحجاج استقرّ في قعر جهنم، أم هو يهوي فيها؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ الحجاج يأتي يوم القيامة بين أبيك وأخيك، فضعه من النار حيث شئت! قال: فأمر به إلى الحبس، فكان فيه طولَ ولايته.

قال محمد بن يزيد الأنصاري: فلما ولي عمر بن عبد العزيز، بعثني فأخرجتُ من السجن مَن حَبَسَ سليمانُ ما خلا يزيد بن أبي مسلم فقد ردّ...

---

(١) قرع: ضرب.
(٢) الآخية: عود يعرض في حائط ويدفن طرفاه فيه يصير وسطه كالعروة تشد إليه الدابة.
(٣) الأرن: النشيط.

فلما مات عمر بن عبد العزيز ولاه يزيد بن عبد الملك أفريقية وأنا فيها، فأُخِذْتُ فأُتي بي إليه في شهر رمضان عند الليل، فقال: محمد بن يزيد؟ قلت: نعم. قال: الحمد لله الذي مكنني منك بلا عهد ولا عقد، فطالما سألت الله أن يمكنني منك! قلت: وأنا والله طالما استعذت بالله منك! قال: فوالله ما أعاذك الله مني، ولو أنّ مَلَكَ الموت سابقني إليك لسبقتُه! قال: فأُقيمت صلاة المغرب، فصلى ركعة فثارت عليه الجند فقتلوه، وقالوا لي: خذ إلى الطريق أيِّ طريق شئت.

وأراد سليمان بن عبد الملك أن يحجر على يزيد بن عبد الملك، وذلك أنه تزوّج سعدى بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان فأصدقها عشرين ألف دينار، واشترى جارية بأربعة آلاف دينار؛ فقال سليمان: لقد هممتُ أن أضرب على يدِ هذا السفيه، ولكن كيف أصنع بوصية أمير المؤمنين بأبَنيْ عاتكة: يزيد ومروان؟

وحَبَس سليمانُ بن عبد الملك، موسى بن نصير، وأوحَى إليه: اغرم[1] ديتَك خمسين مرة! فقال موسى: ما عندي ما أغرمه. فقال: والله لتغرمنّها مائة مرة فحملها عنه يزيد بن المهلب، وشكر ما كان من موسى إلى أبيه المهلب أيام بشر بن مروان؛ وذلك أن بشراً هم بالمهلب؛ فكتب إليه موسى يحذّره، فتمارض المهلب ولم يأتِه حين أرسل إليه.

وكان خالد بن عبد الله القسري والياً على المدينة للوليد ثم أقرّه سليمان؛ وكان قاضي مكة طلحة بن هرم؛ فاختصم إليه رجل من بني شيبة الذين إليهم مفتاح الكعبة يقال له الأعجم، مع ابن أخ له في أرض لهما، فقضى للشيخ على ابن أخيه، وكان متصلاً بخالد بن عبد الله، فأقبل إلى خالد فأخبره؛ فحال خالد بين الشيخ وبين ما قضى له القاضي؛ فكتب القاضي كتاباً إلى سليمان يشكو له خالداً. ووجّه الكتاب إليه مع محمد بن طلحة؛ فكتب سليمان إلى خالد: لا سبيل لك على الأعجم ولا ولده. فقدم محمد بن طلحة بالكتاب على خالد وقال لا سبيل لك علينا؛ هذا كتاب أمير

(١) أغرم ديتك: التزم دفعها.

المؤمنين. فأمر به خالد فضرب مائة سوط قبل أن يقرأ كتاب سليمان؛ فبعث القاضي ابنه المضروب إلى سليمان؛ وبعث ثيابه التي ضرب فيها بدمائها؛ فأمر سليمان بقطع يد خالد فكلمه يزيد بن المهلب وقال: إن كان ضربه يا أمير المؤمنين بعد ما قرأ الكتاب تقطع يده، وإن كان ضربه قبل ذلك فعفو أمير المؤمنين أولى بذلك. فكتب سليمان إلى داود بن طلحة بن هرم: إن كان ضَرب الشيخَ بعد ما قرأ الكتاب الذي أرسلته فاقطع يده، وإن كان ضربه قبل أن يقرأ كتابي فاضربه مائة سوط. فأخذ داود بن طلحة ـ لما قرأ الكتاب ـ خالداً فضربه مائة سوط؛ فجزع خالد من الضرب فجعل يرفع يديه؛ فقال له الفرزدق: ضم إليك يديك يا بن النصرانية! فقال خالد: ليهنأ الفرزدق، وضمّ يديه. وقال الفرزدق:

لَعَمري لقد صُبَّتْ على مَتْن خالدٍ ... شآبيبُ لم يُصبَبْن مِن صيِّب القَطْرِ[1]
فلولا يَزيدُ بنُ المُهلَّب حلَّقتْ ... بكفِّكَ فتْخاءُ الجَناحِ إلى الوَكْرِ[2]

فردّت أمّ خالد عليه تقول:

لعمْري لقد باعَ الفَرَزْدَقُ عِرْضَه ... بخَسْفٍ وصلى وجهه حامِيَ الجَمْر
فكيف يُساوي خالداً أو يَشِينُه ... خَميصٌ من التَّقْوى بَطينٌ من الخمْرِ[3]

وقال الفرزدق أيضاً في خالد القسري:

سَلوا خالداً، لا قدَّسَ اللهُ خالداً ... متى ملَكَتْ قَسْرٌ قريشاً تَدِينُها؟
أقبْلَ رسول الله أو بعدَ عهْدِه؟ ... فتلكَ قريشٌ قد أغَثَّ سَمِينُها
رجوْنا هُداه؛ لا هَدَى اللهُ قلبَه ... وما أُمُّه بالأمِّ يُهدَى جَنينها

فلم يزل خالد محبوساً بمكة حتى حج سليمان وكلمه فيه المفضَّل بن المهلب؛ فقال سليمان: لاطت[4] بك الرحم أبا عثمان؛ إن خالداً جرَّعني غيظاً! قال: يا أمير

(١) شآبيب: جمع شؤبوب: وهي الدفعة من المطر.
(٢) الفتخاء: الناقة ونحوها ترتفع أخلافها قبل بطنها.
(٣) الخميص: الذي خلا بطنه وضمر.
(٤) لاط بالشيء: لصق به.

المؤمنين، هبني ما كان من ذنبه. قال: قد فعلتُ، ولا بدّ أن يمشي إلى الشام راجلاً! فمشى خالد إلى الشام راجلاً.

وقال الفرزدق يمدح سليمان بن عبد الملك:

سليمانُ غيْثُ المُمْحِلين ومَن به ... عن البائِس المسكين حُلَّت سلاسِلُهْ
وما قامَ من بعدِ النبيِّ محمدٍ ... وعثمانَ فوقَ الأرض راعٍ يُماثله
جعَلتَ مكان الجوْر في الأرض مثله ... من العدْلِ إذ صارت إليك مَحامِله
وقد علِموا أنْ لن يَميلَ بك الهوى ... وما قلتَ من شيءٍ فإنك فاعله

زياد عن مالك، أن سليمان بن عبد الملك قال يوماً لعمر بن عبد العزيز: كذبتَ! قال: والله ما كذبتُ منذ شددتُ عليَّ إزاري، وإن في غير هذا المجلس لَسَعة! وقام مغضباً فتجهز يريد مصر! فأرسل إليه سليمان فدخل عليه؛ فقال له: يا بن عمي، إن المعاتبة تشُقّ عليَّ، ولكن والله ما أهمني أمر قط من ديني ودنياي إلا كنتَ أوّل من أذكرُه لك.

وفاة سليمان بن عبد الملك

قال رجاء بن حَيْوة: قال لي سليمان: إلى من ترى أن أعهد؟ فقلت: إلى عمر بن عبد العزيز! قال: كيف نصنع بوصية أمير المؤمنين بإبني عاتكة مَن كان منهما حيا؟ قلت: تجعل الأمر بعده ليزيد. قال: صدقت. قال: فكتب عهده لعمر ثم ليزيد بعده.

ولما ثقل سليمان قال: ائتوني بقمْص بنيَّ أنظر إليها! فأُتى بها فنشرها فرآها قصارا، فقال:

إن بَنيَّ صِبْيةٌ صِغارُ ... أَفلح مَن كان له كِبارُ

فقال له عمر ﴿أَفْلحَ مَن تَزكّى وذَكَر اسمَ ربِّه فصلّى﴾ [1].

(١) سورة الأعلى الآية ١٤ و ١٥.

وكان سبب موت سليمان بن عبد الملك، أن نصرانيا أتاه وهو بدابق بزنبيل[1] مملوء بيضاً وآخر مملوء تيناً، فقال: قشِّروا. فقشروا، فجعل يأكل بيضة وتينة، حتى أتى على الزنبيلين، ثم أتوه بقعصة مملوءة مخا بسكر، فأكله، فأتخم فمرض فمات.

ولما حج سليمان تأذى بحرّ مكة، فقال له عمر بن عبد العزيز: لو أتيتَ الطائف! فأتاها، فلما كان بَسحْق لقيه ابن أبي الزهير، فقال: يا أمير المؤمنين، اجعل منزلك عليَّ. قال: كلَّ منزلي. فرمى بنفسه على الرمل، فقيل له: يساق إليك الوطاء. فقال: الرمل أحبُّ إليَّ. وأعجبه بردُه، فالزق بالرمل بطنه، قال: فأتى إليه بخمس رمانات فأكلها، فقال: أعندكم غير هذه؟ فجعلوا يأتونه بخمس بعد خمس، حتى أكل سبعين رمانة؛ ثم أتوه بجدْي وست دجاجات، فأكلهن؛ وأتوه بزبيب من زبيب الطائف فنُثر بين يديه، فأكل عامته[2]؛ ونعس، فلما انتبه أتوه بالغداء، فأكل كما أكل الناس، فأقام يومه: ومن غد قال لعمر: أرانا قد أضررنا بالقوم. وقال لابن أبي الزهير: اتبعني إلى مكة. فلم يفعل، فقالوا له: لو أتيته! فقال: أقول ماذا؟ أعطني ثمن قِراي[3] الذي قربتُه!؟

العتبي عن أبيه عن الشمردل وكيل آل عمرو بن العاص، قال. لما قدم سليمان بن عبد الملك الطائف، دخل هو وعمر بن عبد العزيز وأيوب ابنه بستانا لعمرو، قال: فجال في البستان ساعة، ثم قال: ناهيك بمالِكم هذا مالا! ثم ألقى صدره على غصن وقال: ويلك يا شمردل! ما عندك شيء تطعمني؟ قلت: بلى والله، عندي جَدْيٌ كانت تغدو عليه بقرة وتروح أخرى. قال: عجل به ويحك! فأتيته به كأنه عُكّة سمن، فأكله وما دعا عُمر ولا ابنَه، حتى إذا بقي الفخذ قال: هلم أبا حفص. قال: أنا صائم. فأتى عليه، ثم قال: ويلك يا شمردل! ما عندل شيء تطعمني؟ قلت: بلى والله، دجاجتان هنديتان كأنهما رألا[4] النعام. فأتيته بهما، فكان يأخذ برجل

(١) الزنبيل: القفّة.

(٢) عامته: أكثره، معظمه.

(٣) القرى: ما يقدم إلى الضيف. (٤) الرأل: ولد النعام.

الدجاجة فيُلقي عظامَها نقية، حتى أتى عليهما؛ ثم رفع رأسه فقال: ويلك يا شمردل! ما عندك شيء تطعمني؟ قلت: بلى، عندي حَريرة[1] كأنها قراضة ذهب. قال: عجل بها ويلك! فأتيته بعُسّ يغيب فيه الرأس، فجعل يتلقَّمها بيده ويشرب، فلما فرغ تجشأ، فكأنما صاح في جب: ثم قال: يا غلام، أفرغت من غذائي؟ قال: نعم. قال: وما هو؟ قال: ثمانون قِدرا! قال: ائتني بها قدرا قدرا. قال: فأكثرُ ما أكل من كل قدر ثلاثُ لقم، وأقلُّ ما أكل لقمة؛ ثم مسح يده واستلقى على فراشه، ثم أذن للناس؛ ووُضعت الخِوانات[2]، وقعد يأكل فما أنكرت شيئا من أكله.

خلافة عمر بن عبد العزيز

المدائني قال: هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم. وكنيته أبو حفص. وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. وولي الخلافة يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين. ومات يوم الجمعة لست بقين من رجب، بدير شمعان من أرض دمشق، سنة إحدى ومائة. وصلى عليه يزيد بن عبد الملك.

علي بن زيد قال. سمعت عمر بن عبد العزيز يقول: تمت حُجة الله على ابن الأربعين. ومات لها.

وكان على شرطته يزيد بن بشير الكناني، وعلى حرسه عمرو بن المهاجر، ويقال أبو العباس الهلالي؛ وكان كاتبه على الرسائل ابن أبي رقية، وكاتبه أيضا إسماعيل بن أبي حكيم، وعلى خاتم الخلافة نعيم بن أبي سلامة، وعلى الخراج والجند صالح بن أبي جبير، وعلى إذنه أبو عبيدة الأسود مولاه.

يعقوب بن داود الثقفي عن أشياخ من ثقيف قال: قريء عهد عمر بالخلافة وعمرُ في ناحية، فقام رجل من ثقيف يقال له سالم من أخوال عمر، فأخذ بضَبْعيه[3]

---

(١) الحريرة: ضرب من الطعام يتخذ من الدقيق يطبخ بلبن أو دسم.
(٢) الخوان: ما يؤكل عليه. (٣) ضبعيه: مثنى الضبع، وهو العضد كلها. أو وسطها.

فأقامه؛ فقال عمر: أما واللهِ ما اللهَ أردتَ بهذا. ولن تصيب بها مني دنيا.

أبو بشر الخراساني قال: خطب عمر بن عبد العزيز الناس حين استخلف، فقال:

أيها الناس، والله ما سألت الله هذا الأمر قط في سرٍ ولا علانية، فمن كان كارها لشيء مما ولِيتُه فالآن.

فقال سعيد بن عبد الملك: ذلك أسرع فيما نكره أتريد أن نختلف ويضرب بعضنا بعضا؟ قال رجل: سبحان الله! ولِيها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ولم يقولوا هذا؛ ويقوله عمر.

أخبار عمر بن عبد العزيز

بشر بن عبد الله بن عمر قال: كان عمر يخلو بنفسه ويبكي فنسمع نحيبه بالبكاء وهو يقول: أبَعْدَ الثلاثة الذين واريتهم بيدي: عبد الملك، والوليد، وسليمان.

وقدم رجل من خراسان على عمر بن عبد العزيز حين استخلف، فقال: يا أمير المؤمنين، إني رأيت في منامي قائلا يقول: إذا وَلِي الأشجُّ[1] من بني أمية يملأ الأرض عدلا كما مُلئت جورا؛ فوليَ الوليد، فسألت عنه فقيل لي: ليس بأشج؛ ثم ولي سليمان، فسألت عنه فقيل: ليس بأشج؛ ووليت أنتَ فكنت الأشج. فقال عمر: تقرأ كتابَ الله؟ قال: نعم. قال: فبالذي أنعم عليك به، أحق ما أخبرتَني؟ قال: نعمْ. فأمره أن يقيم في دار الضيافة، فمكث نحواً من شهرين، ثم أرسل إليه عمر فقال: هل تدري لِم احتبسناك؟ قال: لا. قال: أرسلنا إلى بلدك لنسأل عنك فإذا ثناءُ صديقِك وعدوّك عليك سواء؛ فانصرِف راشدا.

وكان عمر بن عبد العزيز لا يأخذ من بيت المال شيئا، ولا يُجري على نفسه من الفيء درهما: وكان عمر بن الخطاب يجري على نفسه من ذلك درهمين في كل يوم؛

(١) الأشجع: الذي في جبينه أثر الشجة.

فقيل لعمر بن عبد العزيز: لو أخذت ما كان يأخذ عمر بن الخطاب؟ فقال: إن عمر ابن الخطاب لم يكن له مال، وأنا مالي يغنيني!.

ولما ولي عمر بن العزيز قام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين أعْدِني على هذا وأشار إلى رجل، قال: فيم؟ قال: أخذ مالي وضرب ظهري. فدعا به عمر فقال ما يقول هذا؟ قال: صدق، إنه كتب إلى الوليد بن عبد الملك: «وطاعتكم فريضة» قال: كذبتَ! لا طاعة لنا عليكم إلا في طاعة الله. وأمر بالأرض فردّت إلى صاحبها.

عبد الله بن المبارك عن رجل أخبره، قال: كنت مع خالد بن يزيد بن معاوية في صحن بيت المقدس، فلقينا عمر بن عبد العزيز ولا أعرفه، فأخذ بيد خالد وقال: يا خالد، أعلَينا عَين؟ قلت: عليكما من الله عينٌ بصيرة وأُذنٌ سميعة! قال: فاستلَّ يده من يد خالد وأُرعد[1] ودمعت عيناه ومضى، فقلت لخالد: من هذا؟ قال: هذا عمرُ ابن عبد العزيز، وإن عاش فيوشك أن يكون إماما عدْلا.

وقال رباح بن عبيدة: اشتريتُ لعمر قبل الخلافةِ مِطْرفا بخمسمائة، فاستخشنه وقال: لقد اشتريتَه خَشِنا جداً! واشتريت له بعد الخلافة كساء بثمانية دراهم، فاستلانه وقال: لقد اشتريتَه ليّنا جدا!.

ودخل مسلمة بن عبد الملك على عمر وعليه رَيطة[2] من رياط مصر: فقال: بكم أخذت هذا يا أبا سعيد؟ قال: بكذا وكذا. قال: فلو نقصتَ من ثمنها ما كان ناقصا من شرفك. قال مسلمة: إن أفضل الاقتصاد ما كان بعد الجِدَة، وأفضل العفو ما كان بعد القدرة، وأفضل اللّين ما كان بعد الولاية.

وكان لعمر غلامٌ يقال له درهم يحتطب له، فقال له يوما: ما يقول الناس يا درهم؟ قال: وما يقولون؟ الناسُ كلهم بخير، وأنا وأنت بشر! قال: وكيف ذلك؟

---

(١) أرعد: أخذته الرعدة.

(٢) الريطة: كل ثوب لين رقيق.

قال: إني عهدتك قبل الخلافة عطِراً، لبَّاساً، فاره[1] المركب، طيِّبَ الطعام؛ فلما وليتَ رجوتُ أن أستريحَ وأتخلص، فزاد عملي شدة، وصرتَ أنت في بلاء! قال فأنت حرٌّ، فاذهب عني ودعني وما أنا فيه حتى يجعل الله لي منه مخرجا!

ميمون بن مِهْران قال: كنت عند عمر، فكثر بكاؤه ومسألتُه ربَّه الموتَ، فقلت: لِم تسأل الموت وقد صنع الله على يديك خيرا كثيرا: أحيا بك سُنَنا، وأمات بك بدعا قال: أفلا أكون مثل العبد الصالح أقر الله عينه وجمع له أمره قال: ﴿ربِّ قد آتيْتنِي منَ المُلكِ وعلَّمتَني منْ تأْويلِ الأحاديثِ فاطِرَ السَّمواتِ والأرضِ أنت وليِّ في الدُّنيا والآخرة تَوَفَّني مُسْلِماً وألحِقْني بالصَّالحينَ﴾[2] !

ولما ولي عمر بن عبد العزيز قال: إن فَدَك كانت مما أفاه الله على رسوله فسألَتْها فاطمة رسول الله، فقال لها: ما لكِ أن تسأليني، ولا لي أن أعطيك! فكان رسول الله ﷺ يصنع فيها حيث أمره الله، ثم أبو بكر وعمر وعثمان، كانوا يضعونها المواضع التي وضعها رسول الله ﷺ، ثم ولي معاوية فأقطعها مروان، ووهبها مروان لعبد الملك وعبد العزيز، فقسمناها بيننا أثلاثا: أنا والوليد وسليمان؛ فلما ولي الوليد سألتُه نصيبَه فوهبه لي، وما كان لي مال أحَبُّ إلي منها؛ وأنا أُشهدكم أني قد رددتها إلى ما كانت عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال عمر: الأمور ثلاثة: أمرٌ استبان رشدُه فاّتبعْه؛ وأمر استبان ضرُّه[3] فاجتنِبْه؛ وأمرٌ أشكل أمرهُ عليك فرُدَّه إلى الله.

وكتب عمر إلى بعض عماله: الموالي ثلاثة: مولى رحِم، ومولى عتاقة، ومولى عَقد؛ فمولى الرحم يرث ويُورَث، ومولى العتاقة يُورثَ ولا يرث، ومولى العقد لا يَرث ولا يُورث وميراثه لعصَبته.

---

(١) فاره المركب: الحاذق والماهر والنشيط.

(٢) سورة يوسف الآية ١٠١.

(٣) ضره: ضرره.

وكتب عمر إلى عماله: مُرُوا من كان على غير الإسلام أن يضعوا العمائم ويلبسوا الأكسية[1] ولا يتشبَّهوا بشيء من الإسلام، ولا تتركوا أحداً من الكفار يستخدم أحداً من المسلمين.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاةُ عامله على العراق: إذا أمكنتك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق القادر عليك، واعلم أن ما لك عند الله أكثر مما لك عند الناس.

وكتب عمرو بن عبد العزيز إلى عماله:

مُرُوا من كان قبلكم فلا يبقى أحد من أحرارهم ولا مماليكهم صغيراً ولا كبيراً، ذكراً ولا أنثى، إلا أخرج عنه صدقة فطر رمضان: مُدَّيْن من قمح، أو صاعاً[2] من تمر، أو قيمة ذلك نصف درهم؛ فأما أهل العطاء فيؤخذ ذلك من أعطياتهم عن أنفسهم وعيالاتهم، واستعملوا على ذلك رجلين من أهل الأمانة يقبضان ما اجتمع من ذلك ثم يقسمانه في مساكين أهل الحاضرة، ولا يُقسَم على أهل البادية.

وكتب عبد الحميد بن عبد الرحمن إلى عمر: إنّ رجلا شتمك فأردت أن أقتله.

فكتب إليه: لو قتلتَه لأقدْتُك به، فإنه لا يُقتل أحدٌ بشَتْم أحدٍ إلا رجل شَتم نبيّا.

وكتب رجل من عمال عمر إلى عمر: إنا أُتينا بساحرة، فألقيناها في الماء، فطفت على الماء؛ فما ترى فيها؟

فكتب إليه: لسنا من الماء في شيء، إن قامت عليها بينة وإلا فخل سبيلها.

وكان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن عامله على المدينة في المظالم فيرادُّه فيها، فكتب إليه:

---

(١) الأكسية: جمع كساء وهو الثوب.
(٢) الصاع: أربعة أمداد.

إنه يخيَّل لي أني لو كتبت لك أن تعطيَ رجلا شاةً لكتبت إليَّ: أذكر أم أنثى؟ ولو كتبت إليك بأحدهما لكتبت إليَّ: أصغيرة أم كبيرة؟ ولو كتبتُ بأحدهما لكتبتَ: ضائنة [1] أم مِعزى؟ فإذا كتبت إليك فنفِّذْ ولا تردّ عليَّ، والسلام.

وخطب عمر فقال:

أيها الناس، لا تستصغروا الذنوب، والتمسوا تمحيص ما سلف منها بالتوبة منها؛ ﴿إن الحسناتِ يُذْهبن السيآت، وذلك ذكرى للذاكرين﴾ [2]، وقال عز وجل: ﴿والذين إذا فعَلوا فاحِشَةً أو ظلَموا أنْفسهم ذكروا الله فاستْغفَروا لِذُنوبِهم ومنْ يغفر الذنوب إلا اللهُ ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يَعْلمونَ﴾ [3].

وقال عمر لبني مروان: أدُّوا ما في أيديكم من حقوق الناس ولا تُلْجئوني إلى ما أكره فأحملكم على ما تكرهون! فلم يجبه أحد منهم، فقال: أجيبوني. فقال رجل منهم: والله لا نخرج من أموالنا التي صارت إلينا من آبائنا، فنُفْقِر أبناءنا، ونكفر آباءنا، حتى تزايل رءوسنا فقال عمر: أما والله لولا أن تستعينوا عليَّ بمن أطلب هذا الحق له لأضرعتُ [4] خدودكم عاجلا، ولكنني أخاف الفتنة. ولئن أبقاني الله لأردَّنَّ إلى كل ذي حق حقه إن شاء الله!.

وكان عمر إذا نظر إلى بعض بني أمية قال: إني أرى رقابا سترد إلى أربابها.

ولما مات عمر بن عبد العزيز قعد مسْلمة على قبره فقال: أما والله ما أمنْتُ الرِّقَّ حتى رأيت هذا القبر.

العتبي قال: لما انصرف عمر بن عبد العزيز من دفن سليمان بن الملك تبعه الأمويون، فلما دخل إلى منزله قال له الحاجب: الأمويون بالباب. قال: وما يريدون؟ قال: ما عوّدَتهم الخلفاء قبلك. قال ابنه عبد الملك وهو إذ ذاك ابن أربع

---

(١) الضائن: ذو الصوف من الغنم.

(٢) سورة هود الآية ١١٤.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٣٥.

(٤) أضرع الله خدّه: أذلّه.

عشرة سنة: ائذن لي في إبلاغهم عنك. قال: وما تبلغهم؟ قال: أقول: أبي يُقرئكم السلام ويقول لكم ﴿إني أخاف إن عصيتَ ربي عذاب يوم عظيم﴾ (١).

زياد عن مالك قال: قال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه: يا أبت، مالك لا تُنفذ الأمور؟ فوالله ما أبالي لو أن القدور غلت بي وبك في الحق! قال له عمر: لا تعجل يا بنيّ؛ فإنّ الله ذمّ الخمر في القرآن مرتين وحرّمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعونه جملة ويكون من ذلك فتنة.

ولما نزل بعبد الملك بن عمر بن عبد العزيز الموت قال له عمر: كيف تجدك يا بنيّ؟ قال أجدني في الموت، فاحتسبْني، فثواب الله خير لك مني، فقال: يا بني، والله لأنْ تكون في ميزاني أحبُّ إليّ من أن أكون في ميزانك. قال: أما والله لأن يكون ما تحب، أحبُّ إليّ من أن يكون ما أُحب! ثم مات، فلما فرغ من دفنه وقف على قبره وقال: يرحمك الله يا بنيّ فلقد كنت سارّا مولودا، وبارّا ناشئا، وما أحب أني دعوتك فأجبتني؛ فرحم الله كل عبد، من حر أو عبد، ذكر أو أنثى دعا لك برحمة! فكان الناس يترحمون على عبد الملك ليدخلوا في دعوة عمر؛ ثم انصرف، فدخل الناس يعزونه، فقال: إن الذي نزل بعبد الملك أمر لم نزل نعرفه، فلما وقع لم ننكره!

وتوفيت أخت لعمر بن عبد العزيز، فلما فرغ من دفنها دنا إليه رجل فعزاه، فلم يردّ عليه، ثم آخر فلم يردّ عليه؛ فلما رأى الناس ذلك أمسكوا، ومشوا معه فلما دخل الباب أقبل على الناس بوجهه، فقال: أدركت الناس وهم لا يُعزّون في المرأة إلا أن تكون أُماًّ.

وفاة عمر بن عبد العزيز

مرض عمر بن عبد العزيز بأرض حمص، ومات بدير شِمعان. فيرى الناس أن يزيد بن عبد الملك سمه. دسّ إلى خادم كان يخدمه، فوضع السم على ظفر إبهامه فلما

(١) سورة يونس الآية ١٥.

استسقى عمر غمس إبهامه في الماء ثم سقاه؛ فمرض مرضه الذي مات فيه، فدخل عليه مسلمة بن عبد الملك فوقف عند رأسه فقال: جزاك الله يا أمير المؤمنين عنا خيراً؛ فلقد عطفت علينا قلوبا كانت عنا نافرة، وجعلت لنا في الصالحين ذِكرا.

زياد عن مالك قال: دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في المَرْضة التي مات فيها، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال، وتركتهم عالة. ولا بدّ لهم من شيء يصلحهم، فلو أوصيت بهم إليّ أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مئونتهم إن شاء الله. فقال عمر أجلسوني. فأجلسوه، فقال: الحمد لله، أبالفقر تخوِّفني يا مسلمة؟ أما ما ذكرت أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة، فإني لم أمنعْهم حقاً هو لهم، ولم أعطهم حقا هو لغيرهم؛ وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي، فإن وَصيتي بهم إلى الله الذي نزَّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين؛ وإنما بنو عمر أحد رجلين: رجلٌ اتقى الله فجعل الله له من أمره يسراً ورزقه من حيث لا يتحسب، ورجل غيرَّ وفجرَ[1] فلا يكون عمرُ أول من أعانه على ارتكابه. ادعوا لي بَنِيَّ - فدعوْهم، وهم يومئذ اثنا عشر غلاما، فجعل يُصعِّدُ بصرَه فيهم ويصوِّبه حتى اغْرَوْرقَتْ عيناه بالدمع - ثم قال: بنفسي فتية تركتهم ولا مالَ لهم! يا بَني، إني قد تركتكم من الله بخير، إنكم لا تمرُّون على مسلم ولا معاهَد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله، يا بَنيَّ، ميَّلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيرا من دخول أبيكم يوما واحداً في النار؛ قوموا يا بَنيَّ عصمكم الله ورزقكم!

قال: فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر.

واشترى عمر بن عبد العزيز من صاحب دير شِمعان موضعَ قبره بأربعين درهما ومرض تسعة أيام ومات رضي الله عنه يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة إحدى

(١) فجر: انبعث في المعاصي غير مكترث.

ومائة، وصلى عليه يزيد بن عبد الملك.

وقال جرير بن الخطفي يرثي عمر بن عبد العزيز:

يَنعَى النعاةُ أميرَ المؤمنين لنا ... يا خيْرَ مَن حَجَّ بيتَ الله وآعتَمرا
حُمِّلْتَ أمراً عظِيما فاصطَبَرتَ له ... وسِرْتَ فينا بِحكمِ الله يا عُمرَا [١]
فالشمسُ طالعةٌ ليَست بكاسفَةٍ ... تبكي عليكَ نجوم الليلِ والقمَرا

أنشد أبو عبيد الأعرابي في عمر بن عبد العزيز:

مُقابل الأعراق [٢] في الطِّيبِ الطابْ ... بين أبي العاصِ وآلِ الخطَّابْ

قال أبو عبيدة: طيِّبٌ وطابٌ، كما يقال: ذَيم وذامٌ [٣].

خلافة يزيد بن عبد الملك

ثم ولي يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية، يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة.

ومات ببلاد البلقاء [٤] يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة، وهو ابن أربع وثلاثين سنة، صلى عليه أخوه هشام بن عبد الملك؛ وكانت ولايته أربع سنين وشهرا. وفيه يقول جرير:

سُرْبِلْتَ سِرْبَالَ مُلْكٍ غَيْر مُغْتصبِ ... قَبْلَ الثلاثين إنَّ المُلْكَ مُؤتشبِ [٥]

وكان على شرطته كعب بن مالك العبسي؛ وعلى الحرس غيلان أبو سعيد مولاه؛ وعلى خاتم الخلافة مطر مولاه، وكان فاسقا؛ وعلى الخاتم الصغير بكير أبو الحجاج؛

---

(١) اصطبرت: صبرت.
(٢) مقابل الأعراق: أي شريف من قبل أبيه وأمه.
(٣) الذيم والذام: العيب.
(٤) البلقاء: موضع بين الشام ووادي القرى.
(٥) المؤتشب: غير الخالص: المخلوط غير الصحيح في نسبه.

وعلى الرسائل والجند والخراج صالح بن جبير الهمداني، ثم عزله واستعمل أسامة بن زيد مولى كلب؛ وعلى الخزائن وبيوت الأموال هشام بن مصاد؛ وحاجبه خالد مولاه.

وكان يزيد بن عبد الملك صاحب لهو ولذات، وهو صاحب حَبابة وسلاّمة[1]؛ وفي ولايته خرج يزيد بن المهلب.

أسماء ولد يزيد

الوليد، ويحيى، وعبد الله، والغَمر، وعبد الجبار، وسليمان، وأبو سفيان، وهاشم، وداود ولا عقب له، والعوّام ولا عقب له[2].

وكتب يزيد بن عبد الملك إلى عمال عمر بن عبد العزيز:

أما بعد، فإن عمر كان مغروراً، غررتموه أنتم وأصحابكم وقد رأيت كتبكم إليه في انكسار الخراج والضريبة؛ فإذا أتاكم كتابي هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى، أخصَبوا أم أجدَبوا، أحبُّوا أم كرهوا، حَيُوا أم ماتوا! والسلام.

أبو الحسن المدائني قال: لما ولي يزيد بن عبد الملك، وجه الجيوش إلى يزيد بن المهلب، فعقد لمسلمة بن عبد الملك على الجيش وللعباس بن الوليد على أهل دمشق خاصة؛ فقال له العباس: يا أمير المؤمنين، إن العراق قومُ إرجاف[3]، وقد خرجنا إليهم محاربين، والأحداث تحدث؛ فلو عهدتَ إلى عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك، قال: غداً إن شاء الله.

وبلغ مسلمةَ الخبر، فأتاه فقال له: يا أمير المؤمنين، أولاد عبد الملك أحب إليك أم أولاد الوليد، قال: ولد عبد الملك، قال: فأخوك أحق بالخلافة أم ابنُ أخيك؟

---

(١) حبابة وسلامة: مغنيتان.
(٢) لا عقب له: لا ولد له.
(٣) قوم إرجاف: الذين يخوضون في الأخبار السيئة وذكر الفتن.

قال: بل أخي، إذا لم يكن ولدي، أحقّ بها من أبن أخي. قال: يا أمير المؤمنين، فإن ابنك لم يبلغ؛ فبايع لهشام بن عبد الملك ولايتك الوليد من بعده، قال: غداً إن شاء الله. فلما كان من الغد بايع لهشام ولابنه الوليد من بعده. والوليد يومئذ ابن إحدى عشرة سنة، فلما انقضى أمرُ يزيد بن المهلب وأدرك الوليدُ ندم يزيد على استخلاف هشام، فكان إذا نظر إلى ابنه الوليد قال: اللهُ بيني وبين من جعل هشاماً بيني وبينك!

قال: ولما قُتل يزيد بن المهلب، جمع يزيدُ بن عبد الملك العراقَ لأخيه مسلمة بن عبد الملك؛ فبعث هلال بن أحوز المازني إلى قندابيل[١] في طلب آل المهلب، فالتقوا، فقتل المفضل بن المهلب وانهزم الناس، وقُتل هلال بن أحوز خمسة من ولد المهلب ولم يُفتش النساء ولم يعرض لهن، وبعث العيالَ والأسرى إلى يزيد بن عبد الملك.

قال: حدثني جابر بن مسلم قال: لما دخلوا عليه قام كُثيرّ بن أبي جُمعة الذي يقال له كُثيِّر عزة، فقال:

حليمٌ إذا ما نالَ عاقبَ مُجملاً ... أشدّ عِقاب أو عفا لم يُثَرِّبِ[٢]
فعفْواً أميرَ المؤمنين وحِسبةً ... فما تكْتَسِبْ من صالحٍ لك يُكتبِ
أساءوا فإن تغفِرْ فإنك قادرٌ ... وأعظمُ حِلم حِسْبةً حلمُ مُغضبِ
نفَتْهم قريْشٌ عن أباطِحِ مكةٍ ... وذو يَمَنٍ بالمشْرَفيِّ المُشَطَّبِ[٣]

فقال يزيد: لاطت[٤] بك الرّحم، لا سبيل إلى ذلك؛ من كان له قِبل آل المهلب دمٌ فليقم! فدفعهم إليهم حتى قتل نحو ثمانين.

قال: وبلغ يزيد بن عبد الملك أن هشاما يتنقّصه، فكتب إليه:

---

(١) قندابيل: مدنية بالسند.
(٢) يثرّب: يفسد ويقبح.
(٣) المشطّب: المشرّح.
(٤) لاطت: يقال لاط بالشيء: أي لصق به.

إن مثَلي ومثلك كما قال الأول:

تَمنَّى رجالٌ أن أمـوتَ وإن أمُـتْ فتِلك سبيلٌ لستُ فيهـا بـأَوْحَـدِ
لعلَّ الذي يبغي ردَايَ ويَـر تَجـي به قبلَ موتِي أن يكونَ هـو الرَّدي[1]

فكتب إليه هشام: إن مثَلي ومثَلك كما قال الأول:

ومن لم يُغمِّض عينَهُ عـن صـديقـهِ وعن بعض ما فيه يَمُت وهو عاتِبُ
ومَـن يتتَبَّـع جـاهِـداً كـلَّ عَثرةٍ يَجدها، ولا يبقَى له الدَّهرَ صاحِبُ[2]

فكتب إليه يزيد: نحن مغتفرون ما كان منك، ومكذّبون ما بلغنا عنك، مع حفظ وصية أبينا عبد الملك، وما حضَّ عليه من صلاح ذات البين، وإني لأعلم أنك كما قال معن بن أوس:

لعمْـرُك مـا أدري وإني لأوْجَـلُ على أيِّنـا تعـدُو المنيّـة أوّلُ
وإني على أشيـاء منـك تَـريبُني قديماً ولا صُلْـحٌ على ذاك يَجمُـلُ
ستُقْطَـعُ في الدُّنيـا إذا مـا قطَعْتَني يَمينُـكَ فـانظـر أيَّ كـفٍ تبـدَّلُ
إذا سُؤْتني يوماً صفحتُ إلى غـدٍ ليُعقِبَ يـومـاً منـكَ آخـرُ مُقْبـلُ
إذا أنت لم تُنصِف أخاك وجـدتَـهُ على طرَف الهِجران إن كان يعقِـلُ
ويَركبُ حدَّ السيفِ مَن أن تُضيمـه إذا لم يكن عن شفرَةِ السيفِ مَزْحَل[3]
وفي الناس إن رثَّت حِبالُك واصِلٌ وفي الأرض عن دارِ القِلى مُتَحـوَّل[4]

فلما جاء الكتاب رحل هشام إليه، فلم يزل في جواره إلى أن مات يزيد وهو معه في عسكره مخافة أهل البغي.

محمد بن الغاز قال: حدّثنا أبو سعيد عبد الله بن شيب قال: حدّثني الزبير بن بكار قال: كان يزيد بن عبد الملك كلِفاً[5] بحبابة كلفاً شديداً، فلما توفيت أكبَّ عليها

---

(١) الردي: الهالك. (٢) عثرة: هفوة.

(٣) المزحَل: المكان يزحل إليه، وقد يكون مصدراً.

(٤) القلى: البغض والهجران. (٥) كلفاً: محبا.

يتشمّمها أياما حتى أنتنت، فأخذها في جهازها، وخرج بين يدي نعشها، حتى إذا بلغ القبر نزل فيه فلما فرغ من دفنها لصق به مسلمة أخوه يعزيه ويؤنسه، فقال: قاتل الله ابن أبي جمعة، كأنه كان يرى ما نحن فيه حيث يقول:

فإن تسْلُ عنك النَّفْسُ أو تَـدَعِ الهوَى ... فباليأسِ تسْلو عنْكِ لا بـالتجلَّـدِ
وكلُّ خليـل زارنـي فهـو قـائـلٌ ... منَ آجلكِ هذا ميّتُ اليومِ أو غدِ!

قال: وطُعِن[1] في جنازتها فدفناه إلى سبعة عشر يوما.

خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان

ثم بويع هشام بن عبد الملك بن مروان، ويكنى أبا الوليد: وأمّه أم هشام بنت إسماعيل بن هشام المخزومي، يوم الجمعة لخمس ليال بقين من شعبان سنة خمس ومائة.

ومات بالرصافة يوم الأربعاء لثلاث خلون من ربيع الأول سنة خمس وعشرين ومائة، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، وصلى عليه الوليد بن يزيد، وكانت خلافته عشرين سنة.

أسماء ولد هشام بن عبد الملك

معاوية، وخلف، ومسلمة، ومحمد، وسليمان، وسعيد، وعبد الله، ويزيد، وهو الأبكـم؛ ومروان، وإبراهيم، ويحيى، ومنذر، وعبد الملك، والوليد، وقريش، وعبد الرحمن.

وكان على شرطته: كعب بن عامر العبسي، وعلى الرسائل: سالم مولاه، وعلى خاتم الخلافة: الربيع: مولى لبني الحريش، وهو الربيع بن سابور؛ وعلى الخاتم الصغير: أبو الزبير مولاه، وعلى ديوان الخراج والجند: أسامة بن زيد، ثم عزله وولّى الحُشحاث؛ وعلى إذنه غالبْ بن مسعود مولاه.

(١) طعن: أصابه الطاعون.

أخبار هشام بن عبد الملك

أبو الحسن المدائني قال: كان عبد الملك بن مروان رأى في منامه أن عائشة بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي فلقت[١] رأسه فقطعته عشرين قطعة، فغمَّه ذلك، فأرسل إلى سعيد بن المسيب فقصها عليه، فقال سعيد: تلد غلاماً يملك عشرين سنة.

وكانت عائشة أمّ هشام حَمقاء، فطلقها عبد الملك لحمقها، وولدت هشاماً وهي طالق، ولم يكن في ولد عبد الملك أكملُ من هشام.

قال خالد بن صفوان: دخلت على هشام بن عبد الملك بعد أن سخط[٢] على خالد ابن عبد الله القسري وسلط عليه يوسف بن عمر عامله على العراق، فلما دخلت عليه استدناني[٣] حتى كنت أقرب الناس إليه فتنفس الصعداء، ثم قال: يا خالد، رب خالدٍ قعد مقعدك هذا أشهى إليّ حديثاً منك! فعلمت أنه يريد خالد بن عبد الله القسري، قلت: يا أمير المؤمنين، أفلا تعيده؟ قال: هيهات، إنّ خالداً أدلَّ فأملَّ، وأوجف[٤] فأعجف[٥]، ولم يَدَعْ لُمراجع مرجعاً؛ على أنه ما سألني حاجة قط! فقلت: يا أمير المؤمنين، فلو أدنيته فتفضلتَ عليه! قال: هيهات، وأنشد:

إذا آنصرَفتْ نفسي عن الشيءِ لم تكـن ... عليه بـوجـهٍ آخِـر الدَّهـر تُقْبِـلُ

قال أصبغ بن الفرج: لم يكن في بني مروان من ملوكها أعطر ولا ألبس من هشام؛ خرج حاجّاً فحمل ثياب طُهره على ستمائة جمل.

ودخل المدينة، فقال لرجل: انظر من في المسجد. فقال: رجل طويلٌ آدمُ أدْلم[٦]. قال: هذا سالم بن عبد الله، آدعه. فأتاه فقال: أجب أمير المؤمنين، وإن

---

(١) فلق: شق.
(٢) سخط: غضب.
(٣) استدناني: أمرني أن أدنو منه.
(٤) أوجف: أسرع.
(٥) أعجف: هزل.
(٦) الأدلم: الأدم: الشديد السواد.

شئت أرسِلْ فتؤتى بثيابك. فقال: ويحك! أتيتُ الله زائراً في رداء وقميص ولا أدخل بهما على هشام! فدخل عليه، فوصله بعشرة آلاف، ثم قدم مكة فقضى حجه، فلما رجع إلى المدينة قيل له: إن سالماً شديدُ الوجع. فدخل عليه وسأله عن حاله. ومات سالم فصلى عليه هشام وقال: ما أدري بأي الأمرين أنا أسرُّ: بحجتي أم بصلاتي على سالم.

قال: ووقف هشام يوماً قريباً من حائط فيه زيتون له، فسمع نفض الزيتون، فقال لرجل: انطلق إليهم فقل لهم: التقطوه ولا تنفضوه، فتفقئوا عيونه، وتكسروا غصونه.

وخرج هشام هارباً من الطاعون، فانتهى إلى دير فيه راهب، فأدخله الراهب بستانَه، فجعل ينتقي له أطايب الفاكهة والبالغ منها، فقال هشام: يا راهب، هبني بستانك هذا! فلم يُجبْه، فقال: مالك لا تتكلم؟ فقال: وددْت أنّ الناسَ كلَّهم ماتوا غيرك! قال: ولم؟ قال: لعلك أن تشبع! فالتفت هشام إلى الأبرش فقال: أتسمع ما يقول؟ قال الأبرش: بلى، والله ما لقيك حرٌّ غيره.

العتبي قال: إني لقاعد عند قاضي هشام بن عبد الملك إذ أقبل إبراهيم بن محمد بن طلحة، وصاحبُ حرس هشام، حتى قعدا بين يديه، فقال الحَرَسيُّ[1]: إن أمير المؤمنين جرّاني[2] في خُصومة بينه وبين إبراهيم. قال القاضي: شاهدَيك على الجراية[3]. فقال: أتراني قلت على أمير المؤمنين ما لم يقل وليس بيني وبينه إلا هذه السترة؟ قال: لا، ولكنه لا يثبت الحق لك ولا عليك إلا ببينة. قال: فقام، فلم يلبث حتى قعقعت الأبواب وخرج الحرسي فقال: هذا أمير المؤمنين. قال: فقام القاضي فأشار إليه فقعد، وبُسط له مصلى فقعد عليه هو وإبراهيم؛ وكنا حيث نسمع بعض كلامهما ويخفى علينا البعض، قال: فتكلما وأُحضرت البينة، فقضى القاضي على

---

(١) الحرسيّ: واحد حرس السلطان.

(٢) جرّاني: ارسلني وكيلاً. (٣) الجراية: الوكالة.

هشام، فتكلم إبراهيم بكلمة فيها بعض الخرْق، فقال: الحمد لله الذي أبان للناس ظلمك! فقال هشام: لقد هممتُ أن أضْربَك ضربة ينثر منها لحمُك عن عظمك! قال: أما والله لئن فعلتَ لتفعلنَّه بشيخ كبير السنّ، قريب القرابة، واجب الحق. قال له: استرها عليّ يا إبراهيم! قال: لا ستر الله عليَّ ذنبي إذاً يوم القيامة. قال: إني معطيك عليها مائةِ ألف... قال إبراهيم: فسترتها عليه طول حياته ثمناً لما أخذتُ منه، وأذعتُها عنه بعد موته تزييناً له.

وذكروا عن الهيثم بن عدي قال: كان سعيد بنُ هشام بن عبد الملك عاملاً لأبيه على حمص، وكان يُرمَى بالنساء والشراب، فقدم حِمْصيٌّ لهشام، فلقيه أبو جعد الطائي في طريق، فقال له: هل ترى أن أُعطيَك هذه الفرس ـ فإني لا أعلم بمكان مثلها ـ على أن تبلغ هذا الكتاب أمير المؤمنين، ليس فيه حاجة بمسألة دينار ولا درهم؟ فأخذها وأخذ الكتاب، فلما قدم على هشام سأله: ما قصة هذا الفرس؟ فأخبره؛ فقال: هات الكتاب، فإذا فيه:

أبلِغْ إليكَ أميرَ المؤمنين فقدْ أمْدَدْتَنا بأميرٍ ليس عِنِّينا[1]
طوْراً يُخالِفُ عَمْراً في حَليلته وعند ساحَته يُسقي الطِّلا دِينا[2]

فلما قرأ الكتاب بعث إلى سعيد فأشخصه؛ فلما قدم عليه علاه بالخيزرانة وقال: يا بن الخبيثة، تزني وأنت ابن أمير المؤمنين! ويلك! أعجزتَ أن تفجر فجورَ قريش؟ أو تدري ما فجور قريش لا أُم لك؟ قَتل هذا، وأخذ مالِ هذا؛ والله لا تلي لي عملاً حتى تموت! قال: قال: فما ولِيَ له عملاً حتى مات.

أحمد بن عبيد قال: أخبرني هشام الكلبي عن أبي محمد بن سُفيان القرشيّ عن أبيه قال: كنا عند هشام بن عبد الملك وقد وفد عليه وفد أهل الحجاز، وكان شباب الكتاب إذا قدم الوفد حضروا لآستماع بلاغة خطبائهم، فحضرت كلامهم، حتى قام

---

(١) العنّين: العاجز عن الجماع.

(٢) الطلا: الخمر.

محمد بن أبي الجهم بن حُذيفة العدويّ، وكان أعظمَ القوم قدراً، وأكبَرهم سناً؛ فقال:

أصلح الله أمير المؤمنين، إن خطباء قريش قد قالت فيك ما قالت؛ وأكثرت وأطنبت؛ والله ما بلغ قائلهم قدرَك، ولا أحصى خطيبُهم فضلك، وإن أذنت في القول قلت. قال: قل وأوجز. قال: تولاك الله يا أمير المؤمنين بالحسنى؛ وزيَّنك بالتقوى؛ وجمعَ لك خيرَ الآخرة والأولى؛ إن لي حوائج، أفأذكرها؟. قال: هاتها. قال: كَبرتْ سنِّي، ونال الدهرُ مني؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يَجْبُرَ كسري، وينفيَ فقري، فعل. قال: وما الذي ينفي فقرك ويجبر كسرك؟ قال: ألفُ دينار، وألفُ دينار، وألف دينار. قال: فأطرق هشام طويلاً ثم قال: يا بنَ أبي الجهم، بيتُ المال لا يحتمل ما ذكرتَ. ثم قال له: هيه! قال: ما هيه؟ أما والله إن الأمر لواحد، ولكنّ الله آثرك لمجلسك؛ فإن تعطنا فحقَّنا أديت، وإن تمنعْنا نسأل الله الذي بيده ما حويت؛ يا أمير المؤمنين، إن الله جعل العطاء محبة والمنع مَبْغَضة. والله لأن أُحِبَّك أحَبُّ إليَّ من أن أُبغضك؛ قال: فألف دينار لماذا؟ قال: أقضي بها دْيناً قد حُمَّ قضاؤه![1] وعناني حمله، وأضرَّ بي أهله. قال: فلا بأس، تنفس كربة، وتؤدي أمانة. وألف دينار لماذا؟ قال: أُزوِّج بها من بلغ من ولدي. قال: نعم المسلك سلكت، أغضضتَ بصراً، وأعففتَ ذَكراً، وأَمَّرت[2] نسلاً. وألف دينار لماذا؟ قال: أشتري بها أرضاً يعيش بها ولدي، وأستعين بفضلها على نوائب[3] دهري، وتكون ذُخراً لمَن بعدي. قال: فإنا قد أمرنا لك بما سألت. قال: فالمحمود الله على ذلك، وخرج.

فأتبعه هشام بصره، وقال: إذا كان القرشي فليكن مثلَ هذا، ما رأيتُ رجلاً أوجزَ في مقال ولا أبلغَ في بيان منه، ثم قال: أما والله إنا لنعرف الحق إذا نزل،

---

(١) حم قضاؤه: استحق عليه دفعه.

(٢) أمرت: أكثرت. (٣) النوائب: المصائب والشدائد.

ونكره الإسراف والبَخَل، وما نعطي تبذيراً، ولا نمنع تقتيراً، وما نحن إلا خُزّانُ الله في بلاده، وأمناؤه على عباده، فإذا أذن أعطَيْنا، وإذا منع أبيْنَا، ولو كان كل قائل يصدُق، وكل سائل يستحق، ما جبهْنا[1] قائلاً، ولا رددنا سائلاً؛ ونسأل الذي بيده ما استحفظَنا أن يُجْرِيَه على أيدينا، فإنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إنه بعباده خبيرٌ بصير.

فقالوا يا أمير المؤمنين، لقد تكلمت فأبلغت، وما بلغ كلامُه ما قصصت.

قال: إنه مبتديء، وليس المبتديء كالمُقتدي.

وذكروا أن العباس بن الوليد وجماعة من بني مروان اجتمعوا عند هشام، فذكروا الوليد بن يزيد وعابوه وذموه، وكان هشام يبغضه، ودخل الوليد، فقال له العباس: يا وليد، كيف حبُّك للروميات، فإن أباك كان مشغوفاً بهن؟ قال: كيف لا يكون وهن يلدن مثلك! قال: ألا تسكت يا ابن البظراء؟ قال: حسبك أيها المفتخر علينا بختان أمّك!

وقال له هشام: ما شرابك يا وليد؟ قال: شرابك يا أمير المؤمنين... وقام يخرج، فقال لهم هشام: هذا الذي زعمتموه أحمق.

وقرّب الوليد بن يزيد فرسه فجمع جراميزه[2] ووثب على سرجه، ثم التفت إلى ولد هشام، وقال له: هل يقدر أبوك أن يصنع مثل هذا؟ قال: لأبي مائة عبد يصنعون مثل هذا. فقال الناس: لم ينصفه في الجواب.

العتبي عن أبيه، قال: سمعت معاوية بن عمرو بن عُتبة يحدث قال: إني لقاعد بباب هشام بن عبد الملك، وكان الناس يتقرّبون إليه بعيب الوليد بن يزيد، قال فسمعت قوماً يعيبونه، فقلت: دعونا من عَيْبِ من يلزمنا مدحُه، ووضعِ من يجب علينا رفعُه. وكانت للوليد بن يزيد عيون لا يبرحون بباب هشام، فنقلوا إليه

---

(١) جبهنا، دفعنا.

(٢) جراميز الرجل: جسده وأعضاؤه.

كلامي وكلامَ القوم، فلم ألبث إلا يسيراً حتى راح إليّ مولى للوليد قد التحف على ألف دينار، فقال لي: يقول لك مولاي: أنفق هذه في يومك وغداً أمامك قال: فملئت رُعْباً من هشام وخشيت سطوته، ورماه الله بالعلّة، فدفنّاه لثمانية عشر يوماً بعد ذلك اليوم.

فلما قام الوليد بعده دخلت عليه، فقال لي: يا ابن عتبة، أتُراني ناسياً قعودَك بباب الأحول[1]، يَهْدِمُني وتَبْنيني، ويضعُني وترفعُني؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، شاركتَ قومك في الإحسان، وتفردت دونهم بإحسانك إلي، فلست أحمد لك نفسي في اجتهاد، ولا أعذرها في تقصير، وتشهد بذلك ألسنة الجائزين بنا، ويصدقُ قولَهم الفعالُ منا. قال: كذلك أنتم لنا آل أبي سفيان، وقد أقطعتك مالي بالبَثَنِيَّة[2] وما أعلم لقرشي مثله.

وقال عبد الله بن عبد الحكم فقيه مصر: سمعت الأشياخ يقولون: سنة خمس وعشرين ومائة، أُديل من الشرف، وذهبت المروءة. وذلك عند موت هشام بن عبد الملك.

قال أبو الحسن المدائني: مات هشام بن عبد الملك بالذُّبحة يوم الأربعاء بالرصافة في ربيع الآخر لِستٍ خَلَوْن منه سنة خمس وعشرين ومائة، وصلى عليه سَلمة بن هشام أو بعض ولده، وآشترىَ له كفر[3] من السوق.

خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك

بويع للوليد بن يزيد بن عبد الملك يوم الأربعاء لستٍّ خلون من ربيع الآخرة سنة خمس وعشرين ومائة؛ وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف، أخي الحجاج بن يوسف.

---

(١) يريد هشام بن عبد الملك.

(٢) البثنية: ناحية من نواحي دمشق. (٣) الكفر: الخشبة الغليظة القصيرة.

وقُتل بالبَخراء من تدمر على ثلاثة أميال، يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادي الآخرة سنة ست وعشرين ومائة، وهو ابن خمس وثلاثين أو ست وثلاثين. قال حاتم بن مسلم: ابن خمس وأربعين وأشهر.

وكانت ولايته سنة وشهرين واثنين وعشرين يوماً.

فأول شيء نظر فيه الوليد أن كتَبَ إلى العباس بن الوليد بن عبد الملك أن يأتي الرصافة يحصي ما فيها من أموال هشام وولده، ويأخذ عماله وحشمه[1]، إلا مسلمة ابن هشام، فإنه كتب إليه أن لا يعرض له ولا يدخل منزله؛ وكان مسلمة كثيراً ما يكلم أباه في الرفق بالوليد. ففعل العباس ما أمره به.

وكتب الوليد بن يزيد إلى يوسف بن عمر، فقدم عليه من العراق، فدفع إليه خالد بن عبد الله القسري، محمداً وإبراهيم ابني هشام بن إسماعيل المخزومي، وأمر بقتلهم. فحدّث أبو بشر بن السري قال: رأيتهم حين قدم بهم يوسف بن عمر الحيرة، وخالد في عباءة في شق محمل، فعذبهم حتى قتلهم.

ثم عكف الوليد على البطالة وحب القيان والملاهي والشراب ومعاشقة النساء، فتعشَّق سُعدى بنت سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان فتزوجها؛ ثم تعشق أختها سلمى فطلق أختها سعدى وتزوج سلمى، فرجعت سعدى إلى المدينة فتزوجت بشر ابن الوليد بن عبد الملك، ثم ندم الوليد على فراقها وكلف بحبها، فدخل عليه أشعبُ المضحك، فقال له الوليد: هل لك أن تبلغ سعدى عني رسالة ولك عشرون ألف درهم؟ قال: هاتها. فدفعها إليه، فقبضها وقال: ما رسالتك؟ قال: إذا قدمت المدينة فاستأذن عليها وقل لها: يقول لك الوليد:

أَسُعْدَى ما إليكِ لنا سَبيلُ ... ولا حَتى القِيامةِ من تلاقِ
بَلى ولعَلَّ دَهْراً أن يُؤَاتِي ... بموتِ من حَليلِكِ أو فِرَاقِ

(١) الحشم: حشم الرجل: خاصته الذين يغضبون لغضبه ولما يصيبه من مكروه، من عبيد أو أهل أو جيرة.

فأتاها أشعب فاستأذن عليها، وكان نساء المدينة لا يحتجبن عنه؛ فقالت له: ما بدا لك في زيارتنا يا أشعب؟ قال: يا سيدتي، أرسلني إليك الوليد برسالة. قالت: هاتها. فأنشدها البيتين، فقالت لجواريها: خذن هذا الخبيث... وقالت: ما جرَّأك على مثل هذه الرسالة؟ قال: إنها بعشرين ألفاً معجلة مقبوضة! قالت والله لأجلدنك أوَ لتبلغنّه عني كما أبلغتني عنه. قال: فاجعلي لي جُعلاً[1]. قالت: بساطي هذا. قال: فقومي عنه. فقامت عنه، وطوى البساط وضمه، ثم قال: هاتي رسالتك .فقالتله: قل له:

أَتْبكي على سُعْدَى وأنتَ تَـركْتَهـا ... فقد ذَهَبتْ سُعْدَى، فما أنتَ صانـعُ

فلما بلَّغه الرسالة كظم الغيظ على أشعب، وقال: اختر إحدى ثلاث خصال، ولا بد لك من إحداها: إما أن أقتلك، وإما أن أطرحك للسباع فتأكلك، وإما أن ألقيك من هذا القصر! فقال أشعب، يا سيدي، ما كنت لتعذب عينين نظرتا إلى سعدى! فضحك وخلى سبيله.

وأقامت عنده سلمى حتى قُتل عنها، وهو القائل في سلمى:

شـاع شِعْـري في سُلَيمَـى وظَهَـرْ ... ورَواهُ كـلُّ بَـدْو وحَضَـرْ
وتَهـادَتْـهُ الغَـوانِـي بيْنَهـا ... وتَغَنَّيْـنَ بـه حتى انتشَـرْ
لـو رَأَيْنـا مـن سُلَيمَـى أثـراً ... لسجَـدْنـا ألْـفَ ألْـفٍ للأثـر
واتخذْنـاهـا إمـامـاً مُـرْتضًـى ... ولكـانَـت حجَّنَـا والمعْتَمـر
إنما بنـتُ سُعَيْـدٍ قمـرٌ ... هـل حَرِجْنا أن سَجَـدْنـا لِلقَمـر

وفيها يقول قبل تزوجه لها:

حَـدَّثـوا أنَّ سُليْمَـى ... خـرجـت يـومَ المُصَلَّـى
فـإذا طيْـرٌ مَليـحٌ ... فـوْقَ غُصْـن يَتَفلَّـى[2]

---

(١) الجعل: الجعالة: ما يجعل على العمل من أجر أو رشوة.

(٢) يتفلىّ: يتأمل.

قلتُ يا طَيرُ آدْنُ منّي ... فدَنا ثم تَدلّى
قلْتُ هل تَعْرفُ سَلْمى ... قال لا ثمّ تَولّى
فنَكا في القلْبِ كَلْماً ... باطِناً ثمّ تخلى[1]

وقال في سلمى قبل تزوجه لها:

لعَلَّ الله يَجْمَعنِي بسلْمى ... أليسَ اللهُ يَفْعلُ ما يشاءُ
ويأتي بي ويَطْرحُني عليها ... فيوقظني وقد قُضيَ القضاءُ
ويُرسِلُ دِيمةً من بعد هذا ... فتَغْسِلنا وليس بنا عناءُ[2]

وقال فيها بعد تزوجه لها:

أنا في يُمنَى يَدْيها ... وهْيَ في يُسْرى يَديَّهْ
إنَّ هذا لقضاءٌ ... غيرُ عدْلٍ يا أُخيَّهْ
ليْت من لامَ مُحبّا ... في الهوى لاقى مَنِيَّهْ
فاستراح الناس منه ... مِيتَةً غيرَ سَويَّهْ

قال: ولهج الوليد بالنساء والشراب والصيد، فأرسل إلى المدينة فحملوا له المغنين، فلما قرّبوا إليه أمر أن يدخلوا العسكر ليلاً، وكره أن يراهم الناس، فأقاموا حتى أمسوا غير محمد بن عائشة فإنه دخل نهاراً، فأمر الوليد بحبسه، فلم يزل محبوساً حتى شرب الوليد يوماً فطرب فكلمه معبد، فأمر الوليد بإخراجه، ودعاه فغناه فقال:

أنت ابن مُسْلَنْطِحِ البِطاحِ ولم ... تعطِف عليك الحُنِيُّ والوُلَجُ[3]

فرضي عنه؛ وكان سعيد الأحوص ومعبد، قدما على الوليد ونزلا في الطريق على غدير وجارية تستقي، فزاغت، فانكسرت الجرّة، فجلست تغني:

يا بيْت عاتِكةَ الذي أتغَزّلُ ... حَذَر العِدا وبه الفؤاد مُوَكلُ

(١) نكأ: جرح.
(٢) الديمة: المطر يطول زمانه في سكون.
(٣) الاسلنطح: الطول والعرض. والحنى: الأزقة. والولج: معاطف الوادي.

فقال: يا جارية، لمن أنت؟ فقالت: كنت لآل الوليد بن عقبة بالمدينة، فاشتراني مولاي، وهو من بني عامر بن صعصعة أحد بني الوحيد من بني كلاب، وعنده بنت عم له، فوهبني لها، فأمرتني أن أستقي لها. فقال لها: فلمن الشعر؟ قالت: سمعت بالمدينة أن الشعر للأحوص والغناء لمعبد. فقال معبد للأحوص: قل شيئاً أغني عليه. فقال:

إنّ زيْن الغدير منْ كسَرَ الجِـرّ   وغَنّى غناءَ فَحْلٍ مُجيدِ
قلت: من أنت يا مليحَةُ؟ قالت: كنت فيما مضى لآلِ الوليدِ
ثم قد صِرْت بعد عزٍّ قريشٍ   في بني عامرٍ لآلِ الوحيد
وغنائِي لمعْبدٍ ونشيدي   لفتَى الناس الأحوَصِ الصِّنْديد(١)
فتضاحكْتُ ثم قلت أنا الأحْـوصُ   والشيْخُ معبدٌ فأعيدِي
فأعادتْ وأحْسَنتْ ثم ولتْ   تَتهادى فقلت أمّ سعيد
يَقْصُرُ المالُ عن شِرَاك ولكن   أنتِ في ذمّة الإمام الوليد

وأم سعيد كانت للأحوص بالمدينة.

فغنى معبد على الشعر، فقال: ما هذا؟ فأخبراه، فاشتراها الوليد.

قال أبو الحسن: وقال ابن أبي الزناد: إني كنت عند هشام وعنده الزهري، فذكرا الوليد فتنقّصاه وعاباه عيباً شديداً، ولم أعرض لشيء مما كان فيه، فاستأذن فأُذن له، فدخل وأنا أعرف الغضب في وجهه، فجلس قليلاً ثم قام؛ فلما مات هشام كتب فيّ، فَحُملت إليه، فرحب بي وقال: كيف حالك يا بن ذكوان؟ وألطف المسألة، ثم قال: أتذكر هشاماً الأحول وعنده الفاسق الزهري وهما يعيباني؟ فقلت: أذكر ذلك، ولم أعرض لشيء مما كانا فيه. قال: صدقت، أرأيت الغلام الذي كان على رأس هشام قائماً؟ قلت: نعم. قال: فإنه نمَّ إليّ بما قالاه، وآيم الله لو بقي الفاسق الزهري لقتلته. قلت: قد عرفت الغضب في وجهك حين دخلت. قال: يا بن ذكوان، ذهب الأحول!

---

(١) الصنديد: الشديد.

قلت: يطيل الله عمرك، ويمتع الأمة ببقائك. ودعا بالعشاء فتعشينا، وجاءت المغرب فصلينا، وجلس فقال: اسقني. فجاءوا بإناء مغطى، وجيء بثلاث جوار، فصُففن بيني وبينه حتى شرب، وذَهَبْن فتحدثنا، واستسقى[١]، فصنعوا مثل ذلك، فما زال كذلك: يستسقي ويتحدث ويصنعون مثل ذلك، حتى طلع الفجر؛ فأحصيت له سبعين قدحاً.

علي بن عياش قال: إني عند الوليد بن يزيد في خلافته إذ أُتِيَ بشُراعة من الكوفة؛ فوالله ما سأله عن نفسه ولا عن مسيره حتى قال له: يا شراعة. أنا والله ما بعثت إليك لأسألك عن كتاب الله وسنة رسوله. قال: والله لو سألتني عنهما لوجدتَني فيهما حماراً. قال: إنما أرسلت إليك لأسألك عن القهوة! قال: دهقانها[٢] الخبير، ولقمانها الحكيم، وطبيبها العليم! قال: فأخبرني عن الشراب. قال: يسأل أمير المؤمنين عما بدا له. قال: ما تقول في الماء؟ قال: لا بد لي منه، والحمار شريكي فيه! قال: ما تقول في اللبن؟ قال: ما رأيته قط إلا استحييت من أمي لطول ما أرضعتْني به! قال: ما تقول في السويق[٣]؟ قال: شراب الحزين والمستعجل والمريض. قال: فنبيذ التمر؟ قال: سريع المَلء، سريع الانفشاش. قال: فنبيذ الزبيب؟ قال: تَلهَّوا به عن الشراب. قال: ما تقول في الخمر؟ قال: أوّه! تلك صديقة روحي. قال: وأنت والله صديق روحي، فأي المجالس أحب؟ قال: ما شُرب الكأس قط على وجه أحسن من السماء.

قال أبو الحسن: كان أبو كامل مضحكاً غَزِلا مغنيا، فغنى الوليد يوماً فطرب فأعطاه قلنسوة بَرُدا[٤] كانت عليه؛ فكان أبو كامل لا يلبسها إلا في عيد، ويقول: كسانيها أمير المؤمنين، فأنا أصونها؛ وقد أمرت أهلي إذا متُّ أن توضع في أكفاني، وله يقول الوليد:

---

(١) استسقى: أمرأن يُسقى.

(٢) الدهقان: القوي على التصرف مع حدة.

(٣) السويق: طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير. (٤) أي ليس فيها زئبر.

مَن مُبْلغٌ عني أبا كامل   أني إذا ما غابَ كالهابلِ
وزادني شوْقاً إلى قُربه   ما قد مضى مِن دهْرنا الحائِل
إني إذا عاطيْتُه مُزَّة   ظلْتُ بيوْم الفرَحِ الجاذِل[1]

قال: وجلس الوليد يوماً وجارية تغنيه؛ فأنشدت الوليد:

قَيْنة في يَمينِها إبريقُ

فأنشده حماد الراوية:

ثم نادى ألاَ آصْبحوني فقامت   قَيْنةٌ في يَمينِها إبريق
فدَّمَته على عُقارِ كعيْنِ الدِّيك صَفَّى سُلافه الرَّاوُوق[2]
مُزَّة قبل مَزْجها، فإذا ما   مُزِجَت لذَّ طعْمُها من يَذوقُ

وكتب الوليد إلى المدينة فحُمل إليه أشعب، فألبسه سراويل جلد قرد له ذنب؛ وقال له: ارقص وغنِّ صوتاً يعجبني؛ فإن فعلت أعطيتُك ألف درهم. فرقص وغنى فأعجبه؛ فأعطاه ألف درهم:

وأنشد الوليد هذا:

علِّلاني وآسقِياني   من شَرابٍ أصفِهاني
من شَراب الشيْخِ كسرى   أو شرابِ الهُرْمُزانِ[3]
إنّ بالكأس لمسْكاً   أو بكفَّيْ مَن سَقاني
إنما الكأس ربيعٌ   يُتعاطى بالبنان[4]

وقال أيضاً:

وصَفراءُ في الكأس كالزعفران   سَباها الدَّهاقين من عَسْقَلان

---

(١) مزة: خمرة غير ممزوجة.
(٢) فدمته: وضعت في فمه الفدام، والفدام: ما يوضع في فم الابريق كالمصفاة والعُقار: الخمر.
(٣) الهرمزان: الكبير من ملوك العجم.
(٤) البنان: طرف الإصبع.

لها حَبَبٌ كلما صُفِّقتْ تَراها كلمْعَة بَرقٍ يَماني

وقال أيضاً:

ليْت حظّي اليوم من كلّ معاشٍ لي وزادِ
قهوةٌ أبذُلُ فيها طارِفي بعد تِلادي [1]
فيظلُّ القلبُ منها هائماً في كلِّ وادي
إنّ في ذاك فلاَحي وصلاحي ورشادي! [2]

وقال:

آمدح الكأس ومن أعْملَها وآهْجُ قوماً قتلونا بالعطَشْ
إنما الكأس ربيعٌ باكرٌ فإذا ما لم نَذُقها لم نعِشْ

وبلغ الوليد أن الناس يعيبونه ويتنقّصونه بالشراب وطلب اللذات، فقال في ذلك:

ولقد قضيْتُ ولم يُجلِّل لِمتي شيْبٌ على رغم العِدا لذّاتي [3]
مِن كاعِباتٍ كالدُّمى ومَناصِفٍ ومراكبٍ للصيْد والنّشواتِ [4]
في فِتيةٍ تأبى الهوانَ وجوهُهُم شُمِّ الأنوفِ جَحاجِحٍ سادات [5]
إنْ يطْلبوا بتِراتِهم يُعطوْا بها أو يُطلَبوا لا يُدْركوا بتِراتِ

وقال معاوية بن عمرو بن عتبة للوليد بن يزيد حين تغير له الناس وطعنوا [6] عليه: يا أمير المؤمنين، إنه ينطقني الأنس بك، وتُسكتني إليك الهيبة لك، وأراك تأمن أشياءَ أخافُها عليك، أفأسكتُ مطيعاً أم أقول مشفقاً؟ قال كلٌ مقبولٌ منك ولله فينا علم غيب نحن صائرون إليه. فقتل بعد ذلك، بأيام.

---

(١) الطارف: ضرب من الثياب.
(٢) الفلاح: النجاح.
(٣) اللمة: شعر الرأس المجاور شحمة الأذن.
(٤) الكاعب: التي نهد ثديها.
(٥) جحاجح: جمع جحجاح: السيد السمح الكريم.
(٦) طعنوا عليه: ثلبوه وعابوه.

وقال إذ كثر القول فيه:

خذوا مُلْكَكم لاثبَّتَ الله مُلْكَكم ... ثباتاً يُساوي ما حَييتُ عِقالا [1]
دعوا لي سُليْمى مَعْ طلاءٍ وقيْنةٍ ... وكأسٍ، ألا حَسْبي بذلك مالا [2]
أبالمُلْكِ أرجو أنْ أُخلَّدَ فيكم ... ألا رُبَّ مُلْكٍ قد أُزيل فزالا
ألا رُبَّ دارِ قد تَحمَّل أهلها ... فأضحَتْ قِفاراً والقفار حِلالا [3]

قال إسحاق بن محمد الأزرق: دخلت على منصور بن جُمهور الكلبي بعد قتل الوليد بن يزيد، وعنده جاريتان من جواري الوليد، فقال لي: اسمع من هاتين الجاريتين ما يقولان: قالتا: قد حدّثناك. قال: بل حدّثاه كما حدثتماني. قالت إحداهما: كنا أعزَّ جواريه عنده، فنكح هذه وجاء المؤذنون يؤذنونه بالصلاة، فأخرجها وهي سكرى جنبة متلثِّمة، فصلَّت بالناس.

مقتل الوليد بن يزيد

إسماعيل بن إبراهيم قال: حدّثني عبد الله بن واقد الجرمي وكان شهد قتل الوليد، قال: لما أجمعوا على قتله، قلدوا أمرَهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك، فخرج يزيد بن الوليد بن عبد الملك، فأتى أخاه العباس ليلا فشاوره في قتل الوليد، فنهاه عن ذلك، فأقبل يزيد ليلا حتى دخل دمشق في أربعين رجلا، فكسروا باب المقصورة، ودخلوا على واليها فأوثقوه، وحمل يزيد الأموال على العَجل إلى باب المضمار، وعقد لعبد العزيز بن الحجاج، ونادى مناديه: من انتدَب إلى الوليد فله ألفان، فانتدب معه ألفا رجل وضمّ مع عبد العزيز بن الحجاج يعقوب بن عبد الرحمن، ومنصور بن جُمهور، وبلغ الوليد بن يزيد ذلك فتوجه من البلقاءَ إلى حمص، وكتب إلى العباس بن الوليد أن يأتيه في جند من أهل حمص، وهو منها قريب؛ وخرج الوليد حتى انتهى إلى قصر في برية ورمل من تدمر على أميال، وصبَّحت الخيل الوليدَ بالبخراء؛ وقدم

---

(١) العقال: الحبل الذي يعقل به البعير.
(٢) الطلاء: الخمر. (٣) تحمل: رحل.

العباس بن الوليد بغير خيل، فحبسه عبد العزيز بن الحجاج خلفه، ونادى منادي عبد العزيز: من أتى العباس بن الوليد فهو آمن وهو بيننا وبينكم، وظن الناس أن العباس مع عبد العزيز، فتفرقوا عن الوليد، وهجم عليه الناس. فكان أول من هجم عليه السري بن زياد بن أبي كبشة السكسكي، وعبد السلام اللخمي؛ فأهوى إليه السري بالسيف. وضربه عبد السلام على قرنه[1]، فقُتل.

قال إسماعيل: وحدثني عبد الله بن واقد قال: حدثني يزيد بن أبي فروة مولى بني أمية قال: لما أُتي يزيدُ برأس الوليد بن يزيد، قال لي: انصبه للناس. قلت، لا أفعل: إنما ينصب رأسُ الخارج. فحلف ليُنْصبن ولا ينصِبه غيري؛ فوُضع على رمح ونصب على درج مسجد دمشق؛ ثم قال: اذهب فطُف به في مدينة دمشق.

خليفة بن خياط قال: حدثني الوليد بن هشام عن أبيه قال: لما أحاطوا بالوليد أخذ المصحف وقال: أُقتل كما قتل ابن عمي عثمان.

أبو الحسن المدائني قال: كان الوليد صاحب لهو وصيد وشراب ولذات، فلما ولِيَ الأمر جعل يكره المواضع التي يراه الناس فيها؛ فلم يدخل مدينة من مدائن الشام حتى قُتل، ولم يزل يتنقل ويتصيد حتى ثقل على الناس وعلى جنده، واشتد على بني هشام وأضرَّ بهم، وضرب سليمان بن هشام مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغرّبه إلى عمان، فلم يزل محبوساً حتى قُتِل الوليد؛ وحبس يزيد بن هشام وهو الأفقم؛ فرماه بنو هشام وبنو الوليد، وكان أشدّهم قولا فيه يزيد بن الوليد وكان الناس إلى قوله أمْيَل؛ لأنه كان يظهر النسك.

ولما دفع الوليدُ خالدَ بن عبد الله القسري إلى يوسف بن عمر فقتله، غضب له اليمانية وغيرهم؛ فأتت يزيد بن الوليد بن عبد الملك، فأرادوه على البيعة وخلْع الوليد، فامتنع عليهم وخاف أن لا تبايعه الناس؛ ثم لم يزل الناس به حتى بايعوه سرا.

---

(١) قرن الرحل: موضع القرن من رأسه.

ولما قُتل الوليد بن يزيد قام يزيد بن الوليد خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إني والله ما خرجت أشَراً ولا بطراً[1]، ولا حِرْصاً على الدنيا ولا رغبةً في الملك؛ وما بي إطراء نفسي، ولا تزكيةُ عملي، وإني لظلوم لنفسي إن لم يرحمني ربي؛ ولكني خرجت غضباً لله ودينه، وداعياً إلى كتاب الله وسنة نبيه، حين درستْ[2] معالمُ الهدى، وطُفِيءَ نورُ أهل التقوى؛ وظهر الجبان العنيد، المستحل للحرمةِ، والراكب للبدعةِ، والمغيِّر للسنةِ؛ فلما رأيتُ ذلك أشفقتُ إن غشيتكم ظلمة لا تقلع عنكم، على كثرة من ذنوبكم، وقسوة من قلوبكم؛ وأشفقت أن يدعوَ كثيرا من الناس إلى ما هو عليه، فيجيبه من أجابه منكم؛ فاستخرت الله في أمري، وسألته أن لا يكلني إلى نفسي، ودعوت إلى ذلك من أجابني من أهلي وأهل ولايتي - وهو ابن عمي في نسبي، وكفئي في حسبي - فأراح الله منه العباد، وطهّر منه البلاد، ولايةً من الله وعوناً، بلا حول [منا] ولا قوة، ولكن بحول الله وقوته وولايته وعونه.

أيها الناس، إن لكم عليّ إن ولِيتُ أموركم، أن لا أضع لبنة على لبنة[3]، ولا حجراً على حجر، ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد حتى أسدَّ ثغره، وأقسم بين أهله ما يقوون به؛ فإن فضل رددته إلى أهل البلد الذي يليه ومَن هو أحوج إليه؛ حتى تستقيم المعيشة بين المسلمين وتكونوا فيه سواء؛ ولا أجَمِّركم[4] في بعوثِكم فتُفتنوا ويُفْتَن أهاليكم؛ فإن أردتم بيعتي على الذي بذلت لكم فأنا لكم به، وإن ملت فلا بيعة لي عليكم؛ وإن رأيتم أحدا هو أقوى عليها مني فأردتم بيعته فأنا أول من بايع ودخل في طاعته؛ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

وقال خلف بن خليفة في قتل الوليد بن يزيد: لقتل خالد بن عبد الله:

---

(١) الأشر: البطر، والبطر: كثير الزهو.

(٢) درست: امحت.

(٣) اللّبنة: واحدة اللّبن: وهو المضروب من الطين يبنى به دون أن يطبخ.

(٤) حجّر الجيش: حبسه في أرض العدو ولم يقفله.

لقد سكّنَت كلبٌ وأسياف مِذْحـجٍ صدًى كان يَزقو لَيْلَهُ غير راقـد[1]
تــركنـــا أمير المؤمنين بخالـــدٍ مُكِبًا على خيْشومِه غير ساجـدِ[2]
فـإن تقطعـوا منـــا مَنــاط قلادَةٍ قطعْنـا بها منكـم منــاطَ قلائـِـد
وإن تَشْغلـونـا عـن أذانٍ فـإنَّنـا شغلْنا الوليـدَ عـن غِنـاءِ الولائـد

ولاية يزيد الناقص

ثم بويع يزيد بن الوليد بن عبد الملك في أول رجب سنة ست وعشرين ومائة؛ وأمه ابنة يزدجرد بن كسرى، سباها قتيبة بن مسلم بخراسان وبعث بها إلى الحجاج بن يوسف، فبعث بها الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك، فاتخذها، فولدت له يزيد الناقص ولم تلد غيره.

ومات يزيد بن الوليد بدمشق لعشر بقين من ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة، وهو ابن خمس وثلاثين سنة، وصلى عليه أخوه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك.

قال عبد العزيز: بويع وهو ابن تسع وثلاثين سنة، ومات ولم يبلغ الأربعين.

وعلى شرطته بكير بن الشماخ اللَّخمي، وكاتب الرسائل أبن سليمان بن سعد؛ وعلى الخراج والجند والخاتم الصغير والحرس النصر بن عمرو من أهل اليمن، وعلى خاتم الخلافة عبد الرحمن بن حميد الكلبي، ويقال: قطن مولاه.

وكتب يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد بالجزيرة وبلغه عنه تلكُّؤٌ[3] في بيعته.

أما بعد: فإني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت، والسلام.

---

(١) يزقو: يصيح.
(٢) الخيشوم: أقصى الأنف.
(٣) التلكؤ: التقاعس.

ثم قطع إليه البعوث[1] وأمر لهم بالعطاء: فلم ينقص عطاؤه حتى مات يزيد.

ولما بلغ مروان أن يزيد قطع البعوث إليه كتب ببيعته، وبعث وفداً عليهم سليمان ابن علاثة العقيلي، فخرج، فلما قطعوا الفرات لقيهم بريد بموت يزيد، فانصرفوا إلى مروان. والله أعلم.

ولاية إبراهيم بن الوليد المخلوع

العلاء بن يزيد بن سنان قال: حدّثني أبي قال: حضرت يزيد بن الوليد حين حضرته الوفاة، فأتاه قطن فقال: أنا رسول مَن وراءَ بابك، يسألونك بحق الله لو وليت أمرهم أخاك إبراهيم بن الوليد! فغضب وضرب بيده على جبهته وقال: أنا أُولّي إبراهيم؟ ثم قال لي: يا أبا العلاء، إلى من ترى أن أعهد؟ قلت أمرٌ نهيتك عن الدخول في أوله، فلا أشير عليك في الدخول في آخره. قال: فأصابته إغماءة حتى ظننت أنه قد مات، ففعل ذلك غير مرة، ثم خرجت من عنده.

فقعد قطن وافتعل عهداً على لسان يزيد بن الوليد لإبراهيم بن الوليد، ودعا ناسا فأشهدهم عليه. قال: والله ما عهد إليه يزيد ولا إلى أحد من الناس.

وقال يزيد في مرضه لو كان سعيد بن عبد الملك قريبا مني لرأيتُ فيه رأيي.

وفي رواية أبي الحسن المدائني، قال: لما مرض يزيد قيل له: لو بايعت لأخيك إبراهيم ولعبد العزيز بن الحجاج بعده! فقال له قيس بن هانيء العبسي: اتق الله يا أمير المؤمنين وانظر نفسك وأَرْضِ الله في عباده، فاجعل وليَّ عهدك عبد الملك بن عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك. فقال يزيد: لا يسألني الله عن ذلك، ولو كان سعيد بن عبد الملك مني قريباً لرأيتُ فيه رأيي!... وكان يزيد يرى رأْيَ القَدَرية[2] ويقول بقول غيلان، فألحت القدرية عليه وقالوا: لا يحل لك إهمالُ أمر الأمّة، فبايع

---

(١) البعوث: جمع بعث: وهو الجيش.

(٢) القدرية: قوم ينكرون القدر، ويقولون إن كل إنسان خالق لفعله.

لأخيك إبراهيم بن الوليد ولعبد العزيز من بعده. فلم يزالوا به حتى بايع لإبراهيم بن الوليد ولعبد العزيز من بعده.

ومات يزيد لعشر بقين من ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة، وكانت ولايته خمسة أشهر واثنى عشر يوما.

فلما قدم مروان نبش يزيدَ من قبره وصلبه. وكان يُقرأ في الكتب القديمة يا مبذر الكنوز، يا سجادُ في الأسحار، كانت ولايتك لهم رحمة، وعليهم حجة، نبشوك فصلبوك!

وبويع إبراهيم بن الوليد، وأمّه بربرية، فلم يتم له الأمر، وكان يدخل عليه قوم فيسلمون بالخلافة، وقوم يسلمون بالإمرة، وقوم لا يسلمون بخلافة ولا بإمرة، وجماعة تبايع، وجماعة يأبون أن يبايعوا، فمكث أربعة أشهر حتى قدم مروان بن محمد فخلع إبراهيم وقتل عبد العزيز بن الحجاج، ووَلِيَ الأمر بنفسه.

وفي رواية خليفة بن خياط قال: لما أتى مروانَ بن محمد وفاةُ يزيد بن الوليد، دعا قيساً وربيعة، ففرض لستة وعشرين ألفاً من قيس، وسبعةِ آلاف من ربيعة، وأعطاهم أعطياتهم، وولى على قيس إسحاقَ بن مسلم العقيلي، وعلى ربيعة المساورَ بن عقبة؛ ثم خرج يريد الشام، واستخلف على الجزيرة أخاه عبد العزيز بن محمد بن مروان، فتلقاه وجوه قيس: الوثيق بن الهذيل بن زفر، ويزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري، وأبو الورد بن الهذيل بن زفر، وعاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي، في خمسة آلاف من قيس، فساروا معه حتى قدم حلب، وبها بشر ومسرور ابنا الوليد بن عبد الملك، أرسلهما إبراهيم بن الوليد حين بلغه مسير مروان بن محمد، فالتقوا، فانهزم بشر ومسرور من ابن محمد من غير قتال، فأخذهما مروان فحبسهما عنده، ثم سار مروان حتى أتى حمص، فدعاهم للمسير معه والبيعة وولّى العهدَ الحكمَ وعثمانَ ابنى الوليد. ابن يزيد، وهما محبوسان عند إبراهيم بن الوليد بدمشق؛ فبايعوه، وخرجوا معه حتى أتى عسكرَ سليمان بن هشام بن عبد الملك [فانهزم جندُ سليمان وفرّ

إلى دمشق] بعد قتال شديد؛ وبلغ عبدَ العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ما لقي سليمان، وهو معسكر في ناحية عين الجرّ[1]؛ فأقبل إلى دمشق، وخرج إبراهيم بن الوليد من دمشق ونزل بباب الجابية، وتهيأ للقتال ومعه الأموال على العجل، ودعا الناس فخذلوه؛ وأقبل عبد العزيز بن الحجاج وسليمان بن الوليد، فدخلا مدينة دمشق يريدان قتل الحكم وعثمان بن الوليد وهما في السجن؛ وجاء يزيد بن خالد بن عبد الله القسري فدخل السجن فقتل يوسف بن عمر، والحكم وعثمان ابني الوليد بن يزيد، وهما الحَمَلان؛ وأتاهم رسول إبراهيم؛ فتوجه عبد العزيز بن الحجاج إلى داره ليخرج عياله، فثار به أهل دمشق فقتلوه، واحتزوا رأسه فأتوا به أبا محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية، وكان محبوساً مع يوسف بن عمر وأصحابه، فأخرجوه ووضعوه على المنبر في قيوده، ورأس عبد العزيز بين يديه، وحلّوا قيوده وهو على المنبر، فخطبهم وبايع لمروان، وشتم يزيدَ وإبراهيم ابني الوليد، وأمر بجثة عبد العزيز فصُلبت على باب الجابية منكوساً، وبعث برأسه إلى مروان بن محمد؛ واستأمن أبو محمد لأهل دمشق، فأمّنهم مروانُ ورضي عنهم؛ وبلغ [ذلك] إبراهيمَ فخرج هارباً حتى أتى مروان، فبايعه وخلع نفسه، فقبل منه وأمنه، فسار إبراهيم فنزل الرَّقة على شاطىء الفرات؛ ثم أتاه كتاب سليمان بن هشام يستأمنه فأمّنه، فأتاه فبايعه. واستقامت لمروان بن محمد.

وكانت ولاية إبراهيم بن الوليد المخلوع أشهراً. قال أبو الحسن: شهرين ونصفا.

ولاية مروان بن محمد بن مروان

ثم بويع مروان بن محمد بن مروان بن الحكم. أمّه بنت إبراهيم بن الأشتر. قال بعضهم: بل كانت أمّه لخبازٍ لمصعب بن الزبير، أولاً لآبن الأشتر، واسم الخباز: رزبا؛ وقال بعضهم: كان رزبا عبداً لمسلم بن عمرو الباهلي.

---

(١) عين الجرّ: موضع بالبقاع بين بعلبك ودمشق.

وقال أبو العباس الهلالي حين دخل على أبي العباس السفاح: الحمد لله الذي أبدلنا بحمار الجزيرة وابن أَمَة النخع، ابنَ عم رسول الله ﷺ وابن عبد المطلب.

وكان مروان بن محمد أحزم بني مروان وأنجدهم وأبلغهم، ولكنه ولي الخلافةَ والأمرُ مدْبر عنهم.

ودُفع إلى مروان أبياتٌ قالها الحكم بن الوليد وهو محبوس، وهي:

أَلا فِتيانَ من مُضَرٍ فيحْموا ... أُسارَى في الحديدِ مُكبَّلينا
أَتذهَبُ عامرٌ بدَمي ومُلكي ... فلا غثّاً أصبْتُ ولا سمينا
فإنْ أَهلِكْ أنا ووليُّ عهدي ... فمرْوان أميرُ المؤمنينا
فأدّبْ لاعِدمتُكَ حربَ قيسٍ ... فتُخرجَ منهمُ الداءَ الدَّفينا
أَلا مَن مُبْلغٌ مرْوانَ عني ... وعمّي الغمْرَ طال بذا حَنينا
بأني قد ظُلمتُ وطال حبْسي ... لَدى البخراء في لِحْفٍ مَهينا

وقتل مروانُ ببوصير من أرض مصر في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

الوليد بن هشام عن أبيه، وعبد الله بن المغيرة عن أبيه، وأبو اليقظان، قالوا: وُلد مروان بالجزيرة سنة اثنتين وسبعين، وقتل بقرية من قرى مصر يقال لها بوصير يوم الخميس لخمس بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة. وكانت ولايته خمس سنين وستة أشهر وعشرة أيام. وأمّ مروان أَمَة لمصعب بن الزبير، وقتل وهو ابن ستين سنة.

ولد مروان

عبد الملك، ومحمد، وعبد العزيز، وعبيد الله، وعبد الله، وأبان، ويزيد، ومحمد الأصغر، وأبو عثمان.

وكاتبه عبد الحميد بن يحيى بن سعيد مولى بني عامر بن لؤى، وكان معلما.

وكان على القضاء سليمان بن عبد الله بن علاثة.

وعلى شرطته الكوثر بن عتبة وأبو الأسود الغنوي.

وكان للحرس نُوب، في كل ثلاثة أيام نوبة، يلي ذلك صاحب النوبة.

وعلى حجابته صقلا ومقلاص.

وعلى الخاتم الصغير عبد الأعلى بن ميمون بن مهران.

وعلى ديوان الجند عمران بن صالح مولى بني هذيل.

مقتل مروان بن محمد بن مروان

قال: والتقى مروان وعامر بن إسماعيل ببوصير من أرض مصر، فقاتلوهم ليلا، وعبد الله وعبيد الله ابنا مروان واقفان في ناحية في جمع من أهل الشام، فحمل عليهم أهل خراسان فأزالوهم عن مراكزهم، ثم كرّوا عليهم فهزموهم حتى ردّوهم إلى عسكرهم، ورجعوا إلى موقفهم؛ ثم إنّ أهل الشام بدءوهم فحملوا على أهل خراسان فكشفوا كشفاً قبيحا، ثم رجعوا إلى أماكنهم وقد مضى عبيد الله وعبد الله، فلم يروا أحداً من أصحابهم، فمضوا على وجوههم وذلك في السحر.

وقتل مروان وانهزم الناس، وأخذوا عسكر مروان وما كان فيه، وأصبحوا فاتبعوا الفلّ[1]، وتفرّق الناس؛ فجعلوا يقتلون من قدروا عليه، ورجع أهل خراسان عنهم.

فلما كان الغد لحق الناس بعبد الله وعبيد الله ابني مروان، وجعلوا يأتونهما متقطعين العشرة والعشرين وأكثر وأقل؛ فيقولان: كيف أمير المؤمنين؟ فيقول بعضهم: تركناه يقاتلهم. ويقول بعضهم: انحاز وثاب إليه قوم ولا يتبعونه. حتى أتوا

---

(١) الفلّ: المنهزم.

الحرون، فقال، كنت معه أنا ومولى له، فصرع فجررت برجله، فقال: أوجعتَني! فقاتلت أنا ومولاه عنه؛ وعلموا أنه مروان فألحوا عليه، فتركتُه ولحقتُ بكم. فبكى عبد الله، فقال له أخوه عبيد الله: يا ألأم الناس! فررتَ عنه وتبكي عليه؟ ومضوا، فقال بعضهم: كانوا أربعة آلاف. وقال بعضهم: كانوا ألفين، فأتوا بلادَ النوبة، فأجرى عليهم ملكُ النوبة ما يصلحهم، ومعهم أم خالد بنت يزيد، وأم الحكم بنت عبيد الله ـ صبية جاء بها رجل من عسكر مروان حين انهزموا ـ فدفعها إلى أبيها.

ثم أجمع ابنا مروان على أن يأتيا اليمن، وقالا: نأتيها قبل أن يأتيها المسوَّدة[1] فنتحصَّن في حصونها وندعو الناس. فقال لهم صاحب النوبة لا تفعلوا إنكم في بلاد السودان وهم في عدد كثير، ولا آمن عليكم؛ فأقيموا. فأبوا، قال: فاكتبوا لي كتابا، فكتبوا له: إنا قدمنا بلادك فأحسنت مثوانا، وأشرتَ علينا أن لا نخرج من بلادك، فأبينا، وخرجنا من عندك وافرين راضين شاكرين لك بطيب أنفسنا.

وخرجوا فأخذوا في بلاد العدو، فكانوا ربما عرضوا لهم ولا يأخذون منهم إلا السلاح، وأكثر من ذلك لا يعرضون له؛ حتى أتوا بعض بلادهم فتلقاهم عظيمهم فاحتبسهم، فطلبوا الماء فمنعهم، ولم يقاتلهم ولم يخلِّهم وعطشهم، وكان يبيعهم القربة بخمسين درهما، حتى أخذ منهم مالا عظيما.

ثم خرجوا فساروا حتى عرض لهم جبل عظيم بين طريقين فسلك عبد الله أحدهما في طائفة، وسلك عبيد الله الآخر في طائفة أخرى، وظنوا أن للجبل غاية يقطعونها ثم يجتمعون عند آخرها، فلم يلتقوا.

وعرض قوم من العدو لعبيد الله وأصحابه فقاتلوهم، فقُتل عبيد الله، وأخذت أم الحكم بنته وهي صبية، وقُتل رجل من أصحابه، وكفْوا عن الباقين وأخذوا سلاحهم.

---

(١) المسّودة: يريد جماعة العباسيين لانهم يلبسون الثياب السوداء.

وتقطع الجيش، يتنكبون[1] العمران، فيأتون الماء فيقيمون عليه الأيام، فتمضي طائفة وتقيم الأخرى، حتى بلغ العطش منهم؛ فكانوا يتحرون الدابة فيقطعون أكراشها فيشربونه، حتى وصلوا إلى البحر بحيال المَنْدَب؛ ووافاهم عبد الله وعليه مِقْرَمة[2] قد جاء بها، فكانوا جميعاً خمسين أو أربعين رجلا، فيهم الحجاج بن قتيبة ابن مسلم الحرون، وعفان مولى بني هاشم، فعبروا إليهم البحر في السفن، فمشوا إلى المندب، فأقاموا بها شهراً فلم تحملهم، فخرجوا إلى مكة. وقال بعضهم: أُعلِمَ بهم العاملُ، فخرجوا مع الحجاج عليهم ثياب غلاظ وجِباب الأكْرِياء[3]، حتى وافوا جدة وقد تقطعت أرجلهم من المشي، فمرُّوا بقوم فرَقُّوا لهم فحملوهم، وفارق عبد الله الحجاج بجدة، ثم حجوا وخرجوا من مكة إلى تبالة.

وكان على عبد الله فصّ[4] أحمر كان قد غيَّبه حين عبر إلى المندب، فلما أمن استخرجه، وكانت قيمته ألف دينار، وكان يقول وهو يمشي: ليت به دابة! حتى صار في مِقْرمة تكون عليه بالنهار فيلبسها بالليل؛ فقالوا: ما رأينا مثل عبد الله، قاتل فكان أشد الناس، ومشوا فكان أقواهم؛ وجاعوا فكان أصبرهم وعَرُوا فكان أحسنَهم عُريا! وبعث وهو بالمندب إلى العدو الذين أخذوا أم الحكم بنت أخيه عبيد الله، ففداها وردّها إليه؛ فكانت معه.

ثم أُخذ عبد الله فقُدِمَ به على المهدي، فجاءت آمرأته بنت يزيد بن محمد بن مروان بن الحكم، فكلمت العباس بن يعقوب كاتب عيسى بن علي وأعطته لؤلؤا، ليكلم فيه عيسى: فكلمه وأعلمه بما أعطته؛ فلم يكلم فيه عيسى بن علي المهديَّ؛ وأراد المهدي أن يقتله؛ فقال له عيسى: إن له في أعناقنا بيعة؛ وقد أعطى كاتبي قيمة ثلاثين ألف درهم. فحبسه المهدي.

---

(١) يتنكبون العمران: يتجنبونه.

(٢) المقرمة: ثوب من صوف ملون فيه الوان من العهن.

(٣) الأكرياء: جمع الكري : الأجير، والذي يكريك دابته.

(٤) الفصّ: ما يركّب في الخاتم من الحجارة الكريمة وغيرها.

وكان عبد الله بن مروان تزوج أم يزيد ابنة يزيد بن محمد بن مروان؛ وكانت في الحبس، فلما أخرجهم العباس خرجت إلى مكة فأقامت بها، وقدم عبد الله بن مروان سرّا فتزوجها.

وقال مولى مروان: كنت مع مروان وهو هارب؛ فقال لي يوما: أين عزبت[١] عنا حلومنا في نسائنا؟ ألا زوّجناهم من أكفائهن من قريش فكُفِينا مؤنتهن اليوم.

وقال بعض آل مروان: ما كان شيء أنفعَ لنا في هربنا من الجوهر الخفيف الثمن الذي يساوي خمسة دنانير فما دونها: كان يخرجه الصبي والخادم فيبيعه، وكنا لا نستطيع أن نظهر الجوهر الثمين الذي له قيمة كثيرة.

وقال مصعب بن الربيع الخثعمي كاتب مروان بن محمد: لما انهزم مروان وظهر عبد الله بن علي على أهل الشام، طلبت الإذن؛ فأنا عنده جالس وهو متكيء، إذ ذكر مروان وانهزامه فقال: أشهدتَ القتال؟ قلت: نعم أصلح الله الأمير. قال لي مروان: آحزُر[٢] القوم. فقلت: إنما أنا صاحبُ قلم ولست بصاحبِ حرب. فأخذ يمنة ويسرة فقال لي: هم آثنا عشر ألف رجل.

وقال مصعب: قيل لمروان: قد انتُهب بيت المال الصغير! فانصرف يريد بيت المال، فقيل له: قد انتُهب بيت المال الأكبر، انتهبه أهل الشام.

وقال أبو الجارود السلمي: حدثني رجل من أهل خراسان قال: لقينا مروان على الزاب، فحمل علينا أهل الشام كأنهم جبال حديد، فجثونا على الرُّكب[٣] وأشرعنا[٤] الرماح، فزالوا عنا كأنهم سحابة، ومنحَنا الله أكتافهم وانقطع الجسر مما يليهم حين عبروا، فبقي عليه رجل من أهل الشام، فخرج إليه رجل منا، فقتله الشامي؛ ثم خرج إليه آخر، فقتله؛ حتى والى بين ثلاثة؛ فقال رجل منا: اطلبوا لي

(١) عزب: بعد وخفي.

(٢) أحزر القوم: قدّرهم حقّ قدرهم.

(٣) الركب: جمع ركبة. (٤) أشرعنا الرماح: سدّدناها.

سيفا قاطعا وترسا صلبا . فأعطيناه ومشى إليه ، فضربه الشامي فاتَّقاه بالترس وضرب رجله فقطعها ، وقتله ورجع ، فحملناه وكبرنا ، فإذا هو عبيد الله الكابلي .

سمر المنصور ذات ليلة ، فذكر خلفاء بني أمية وسيرهم، وأنهم لم يزالوا على استقامة حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين، وكانت همتهم مع عظم شأن الملك وجلالةِ قدره ، قصد الشهوات وإيثار اللذات والدخول في معاصي الله ومساخطه جَهْلا باستدراج الله وأمْنا لمكره؛ فسلبهم الله العز ونقل عنهم النعمة . فقال له صالح ابن علي : يا أمير المؤمنين، إن عبد الله بن مروان لما دخل النوبة هاربا فيمن تبعه ، سأل ملكُ النوبة عنهم فأُخبر ، فركب إلى عبد الله فكلمه بكلام عجيب في هذا النحو لا أحفظه ، وأزعجه[1] عن بلده؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به من الحبس بحضرتنا في هذه الليلة ويسأله عن ذلك! فأمر المنصور بإحضاره وسأله عن القصة، فقال :

يا أمير المؤمنين، قدمنا أرض النوبة وقد خبِّرَ الملك بأمرنا ، فدخل عليّ رجلٌ أقنى[2] الأنف طُوالٌ حسنُ الوجه فقعد على الأرض ولم يقرب الثياب، فقلت: ما يمنعك أن تقعد على ثيابنا ؟

قال: لأني ملك ، ويحق على الملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه الله ! ثم قال لأي شيء تشربون الخمر وهي محرمة عليكم؟

قلت: اجترأ على ذلك عبيدنا وغلماننا وأتباعنا ، لأن المُلْك قد زال عنا .

قال: فلِمَ تطئون الزروع بدوابكم والفسادُ محرم عليكم في كتابكم؟

قلت: يفعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم .

قال: فلمَ تلبسون الديباج والحرير وتستعملون الذهب والفضة وذلك محرَّمٌ عليكم؟

---

(١) أزعجه عن بلده: طرده .

(٢) أقنى الأنف: أي ارتفع وسط قصبته وضاق منخراه .

قلت: ذهب الملك عنا وقل أنصارنا فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا.

قال: فأطرق مليا وجعل يقلب يده وينكت الأرض ويقول عبيدنا وأتباعنا، وقوم دخلوا في ديننا، وزال الملكُ عنا!! يردده مرارا، ثم قال: ليس ذلك كذلك: بل أنتم قوم قد استحللتم ما حرم الله، وركبتم ما نهاكم عنه وظلمتم من ملكتم، فسلبكم الله العِز، وألبسكم الذل بذنوبكم، ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتَها؛ وأخاف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدي فيصيبَني معكم، وإنما الضيافة ثلاثة أيام، فتزوّدوا ما احتجتم وارتحِلوا عن بلدي.

أخبار الدولة العباسية

الهيثم بن عدي قال: حدثني عيّاش قال: حدثني بكير أبو هاشم مولى مسلمة قال: لم يزل لبني هاشم بيعة سرٍّ ودعوةٌ باطنة منذ قُتل الحسين بن عليّ بن أبي طالب، ولم نزل نسمع بخروج الرايات السود من خراسان وزوال ملك بني أمية، حتى صار ذلك.

وقيل لبعض بني أمية: ما كان سبب زوال ملككم؟ قال: اختلاف فيما بيننا واجتماع المختلفين علينا!

الهيثم بن عدي قال: حدثني غير واحد ممن أدركت من المشايخ أن عليّ بن أبي طالب أصار الأمر إلى الحسن، فأصاره الحسن إلى معاوية، وكره ذلك الحسين ومحمد ابن الحنفية. فلما قتل الحسين بن عليّ صار أمر الشيعة إلى محمد بن الحنفية. وقال بعضهم: إلى عليّ بن الحسين، ثم إلى محمد بن علي ثم إلى جعفر بن محمد. والذي عليه الأكثر أن محمد بن الحنفية أوصى إلى أبي هاشم ابنه: عبد الله بن محمد بن الحنفية، ولم يزل قائماً بأمر الشيعة يأتونه ويقوم بأمرهم ويؤدّون إليه الخراج حتى استخلف سليمان ابن عبد الملك، فأتاه وافداً ومعه عدة من الشيعة، فلما كلمه سليمان قال: ما كلمت قط قرشياً يشبه هذا؛ وما نظن الذي كنا نحدَّث عنه إلا حقاً! فأجازه وقضى حوائجه وحوائج من معه. ثم شخص وهو يريد فلسطين، فلما كان ببلاد لخم وجذام، ضربوا

له أبنية في الطريق ومعهم اللبن المسموم، فكلما مر بقوم قالوا: هل لكم في الشراب! قالوا: جُزيتم خيراً! ثم بآخرين فعرضوا عليه فقال: هاتوا. فلما شرب واستقر بجوفه، قال لأصحابه: إني ميت، فانظروا من القوم! فنظروا فإذا هم قد قوّضوا[1] أبنيتهم وذهبوا، فقال: ميلوا بي إلى ابن عمي وما أحسبني أُدركه! فأسرعوا حتى أتوا الحُمَيْمَة[2] من أرض الشراة، وبها محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، فنزل بها، فقال: يا بن عمي، إني ميت؛ وقد صرت إليك؛ وأنت صاحب هذا الأمر، وولدك القائم به، ثم أخوه من بعده، والله ليُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى تخرج الرايات السود من قعر خراسان، ثم ليغلِبنَّ على ما بين حضرموت وأقصى أفريقية، وما بين الهند وأقصى فَرغانة[3]، فعليك بهؤلاء الشيعة واستوص بهم خيراً، فهم دعاتك وأنصارك، ولتكن دعوتك خراسان لا تعدوها، لا سيما مرو، واستبطن هذا الحيّ من اليمن فإن كان مُلك لا يقوم به فمصيره إلى انتقاض[4]، وانظر هذا الحي من ربيعة فألحقهم بهم، فإنهم معهم في كل أمر؛ وانظر هذا الحيّ من قيس وتميم فأقصهم إلا من عصم الله منهم، وذلك قليل ثم مُرْهم أن يرجعوا فليجعلوا اثني عشر نقيباً، وبعدهم سبعين نقيبا؛ فإن الله لم يصلح أمر بني إسرائيل إلا بهم، وقد فعل ذلك النبي ﷺ، فإذا مضت سَنَة الحمار فوجه رسلك من خراسان، منهم مَن يُقتل ومنهم من ينجو، حتى يُظهر الله دعوتكم. قال محمد بن علي: يا أبا هاشم، وما سنة الحمار؟ قال: إنه لم تمض مائة سنة من نبوّة قط إلا انتقض أمرها، لقول الله عز وجل: ﴿أوْ كالذي مَرَّ على قرْيَةٍ وهي خاويَةٌ على عُروشِها قال أنّى يُحْيي هذه ٱللهُ بعد موْتِها فأماتهُ اللهُ مائةَ عامٍ ثمّ بعَثه قال كَم لبثْتَ قال لبثْتُ يوماً أوْ بعض يومٍ قال بل لبثْتَ مائة عامٍ فانظر إلى طعامِك وشرابِك لم يتَسَنَّهْ وانظر إلى حِمارِك ولِنجْعَلَك آيةً للناس﴾[5].

---

(١) قوضوا: هدموا.

(٢) الحميمة: بلد من أرض الشراة من أعمال عمان في أطراف الشام.

(٣) فرغانة: مدينة واسعة متاخمة لبلاد تركستان.

(٤) انتقض الشيء: فسد بعد إحكامه. (٥) سورة البقرة الآية ٢٥٩.

واعلم أن صاحب هذا الأمر من ولدك عبد الله بن الحارثية، ثم عبد الله أخوه.

ولم يكن لمحمد بن علي في ذلك الحين ولدٌ يسمى عبد الله، فولد له من الحارثية ولدان، سمى كل واحد منهما عبد الله، وكنى الأكبر أبا العباس، والأصغر أبا جعفر، فوليا جميعاً للخلافة.

ثم مات أبو هاشم وقام محمد بن علي بالأمر بعد، واختلفت الشيعة[1] إليه؛ فلما وُلد أبو العباس أخرجه إليهم في خرقة، وقال لهم: هذا صاحبكم. فجلسوا يلحسون أطرافه.

ووُلد أبو العباس في أيام عمر بن عبد العزيز.

ثم قدم الشيعة على محمد بن علي فأخبروه أنهم حُبسوا بخراسان في السجن، وكان يخدمهم فيه غلام من السرَّاجين[2] ما رأوا قط مثل عقله وظرفه ومحبته في أهل بيت رسول الله، يقال له أبا مسلم. قال: أحُرٌّ أم عبد؟ قالوا: أما عيسى فيزعم أنه عبد، وأما هو فيزعم أنه حُر. قال: فاشتروه وأعتِقوه واجعَلوه بينكم إذا رضيتموه. وأعطو محمد بن علي مائتي ألف كانت معهم.

فلما انقضت المائة سنة بعث محمد بن علي رسله إلى خراسان فغرسوا بها غرساً، وأبو مسلم المقدم عليهم؛ وثارت الفتنة في خراسان بين المضرية واليمانية فتمكن أبو مسلم وفرق رسله في كور خراسان يدعو الناس إلى آل الرسول، فأجابوه؛ ونصر بن سيار عامل خُراسان لهشام بن عبد الملك، فكان يكتب لهشام بخبرهم، وتمضي كتبه إلى ابن هبيرة صاحب العراق ليُنفِذها إلى أمير المؤمنين، فكان يحبسها ولا يُنفذها، لئلا يقوم لنصر بن سيار قائمة عند الخليفة ـ وكان في ابن هبيرة حسد شديد ـ فلما طال بنصر بن سيار ذلك ولم يأته جوابٌ من عند هشام، كتب كتاباً وأمضاه إلى

(١) يريد شيعة بني العباس.

(٢) السراجون: بائعو السروج وصانعوها.

هشام على غير طريق ابن هبيرة، وفي جوف الكتاب هذه الأبيات مُدرجة[١] يقول فيها:

أرى خَلَل الرَّماد ومِيض جُمْرٍ فيُوشِك أنْ يكون لها ضِرامُ[٢]
فإنّ النار بالعُوديْن تُذْكى وإنّ الحربَ أوّلها الكلامُ[٣]
فإنْ لم تُطفِئوها تَجْن حرْباً مُشَمِّرةً يَشِيبُ لها الغلام
فقلت منَ التَّعجُّب: ليت شِعْري أأيْقاظ أُميَّة أم نيام؟
فإنْ كانوا لحِينِهم نياماً فقل قوموا فقد حان القيامُ
ففِرِّي عن رحالِكِ ثم قولي على الإسلام والعَرب السَّلام

فكتب إليه هشام أن احسِم ذلك الثُّؤلول[٤] الذي نجم عندكم. قال نصر: وكيف لنا بحَسْمه.

وقال نصر بن سيار يخاطب المضرية واليمانية ويحذِّرهم هذا العدوّ الداخل عليهم، بقوله:

أبلغْ ربيعةَ في مَرْو وإخْوتَهم فلْيغْضَبوا قبل أنْ لا ينفَعَ الغضَبُ
ولينْصِبوا الحرب إنّ القوْم قد نَصَبوا حرباً يُحرَّق في حافاتِها الحطَبُ
ما بالُكمْ تَلقحون الحرْب بينكم كأنّ أهل الحِجَا عن رأْيهم عَزَبوا[٥]
وتَترُكون عدوّاً قد أظلَّكُم ممّا تأشَّبَ لا دينٌ ولا حسبُ[٦]
قِدْماً يَدينون ديناً ما سَمِعْت به عن الرَّسول ولم تَنزل به الكتُبُ
فمن يكنْ سائلاً عنْ أصلِ دينِهم فإنّ دِينَهم أنْ تُقْتَل العربُ

---

(١) مدرجة: أي جعلت في طيّه.
(٢) ضرام: اشتعال.
(٣) النار تذكي: تشتعل ويشتد لهيبها.
(٤) الثؤلول: بثر صغير صلب مستدير على صور شتى.
(٥) أهل الحجا: ذوي العقول.
(٦) تأشب القوم: أختلطوا.

ومات محمد بن علي في أيام الوليد بن يزيد، وأوصى إلى ولده إبراهيم بن محمد؛ فقام بأمر الشيعة، وقدَّم عليهم أبو مسلم السرّاج وسليمان بن كثيّر؛ وقال لأبي مسلم: إن استطعت أن لا تدع بخراسان لساناً عربيّاً فافعل، ومن شككت في أمره فاقتله.

فلما استعلى أمر أبي مسلم بخراسان وأجابته الكوَر كلها، كتب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد بخبر أبي مسلم وكثرة من تبعه، وأنه قد خاف أن يستولي على خراسان وأن يدعو إلى إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس. فأتى الكتاب مروان وقد أتاه رسول أبي مسلم بجواب إبراهيم إلى أبي مسلم؛ فكتب مروان إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك بن مروان وهو عامله على دمشق، أن اكتب إلى عاملك بالبلقاء ليسير إلى الحُميمة فيأخذ إبراهيم بن محمد فيشده وثاقاً ثم يبعث به إليك، ثم وجِّهْه إليَّ. فحُمل إلى مروان، وتبعه من أهله عبد الله ابن علي، وعيسى بن موسى؛ فأُدخل على مروان، فأمر به إلى الحبس.

قال الهيثم: حدثني أبو عُبيدة قال: كنت آتيه في السجن، ومعه فيه سعيد بن [هشام بن] عبد الملك، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز؛ فوالله إني ذات ليلة في سقيفة[١] السجن بين النائم واليقظان، إذا بمولى لمروان قد استفتح الباب ومعه عشرون رجلاً من موالي مروان الأعاجم، ومعهم صاحب السجن، فأصبحنا وسعيد وعبد الله وإبراهيم قد ماتوا.

قال الهيثم: حدثني أبو عبيدة قال: حدثني وصيف عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الذي كان يخدمه في الحبس: أنه غمّ[٢] عبدَ الله مولاه بِمرْفقه[٣]، وإبراهيم بن محمد بجراب نُورة[٤]، وسعيدُ بن عبد الملك أخرجه صاحب السجن، فلقيه بعض حرس مروان في ظلمة الليل، فوطئته الخيل وهم لا يعرفون من هو، فمات.

(١) السقيفة: كل حجر عريض يستطاع أن يسقف به حفرة ونحوها. والعريش يستظل به.

(٢) غمّ: ألقم فمه ومنخريه الغمامة.

(٣) المرفقة: المخدة. (٤) نورة: الهناء.

ثم استولى أبو مسلم على خراسان كلها، فأرسل إلى نصر بن سيار، فهرب هو وولده وكاتبه داود، حتى انتهوا إلى الريّ، فمات نصر بن سيار بساوة[١] وتفرّق أصحابه، ولحق داود بالكوفة وولده جميعاً.

واستعمل أبو مسلم عماله على خراسان ومرو وسمرقند وأحوازها[٢]؛ ثم أخرج الرايات السود، وقطع البعوث، وجهز الخيل والرجال، عليهم قحطبة بن شبيب، وعامر بن إسماعيل، ومحرز بن إبراهيم في عدّة من القواد، فلقوا مَنْ بِطوس[٣]، فانهزموا؛ ومن مات في الزحام أكثر ممن قتل، فبلغ القتلى بضعة عشر ألفاً.

ثم مضى قحطبة إلى العراق، فبدأ بجرجان وعليها نباته بن حنظلة الكلابي، وكان قحطبة يقول لأصحابه: والله ليُقتلن عامرُ بن ضُبارة، وينهزمنَّ ابن هبيرة، ولكني أخاف أن أموت قبل أن أبلغ ثأري، وأخاف أن أكون الذي يغرق في الفرات، فإن الإمام محمد بن علي قال لي ذلك.

قال الهيثم: فقدم قحطبة جرجان فقَتل ابن نُباتة ودخل جرجان فانتهبها، وقسم ما أصاب بين أصحابه؛ ثم سار إلى عامر بن ضبارة بأصبهان فلقيه، فقُتل ابن ضبارة وقُتل أصحابه، ولم ينجُ منهم إلا الشريد، ولحق فلُّهم بابن هبيرة.

وقال قحطبة لما قتل ابن ضبارة: ما شيء رأيتُه ولا عدوٌّ قتلتُه إلا وقد حدّثني به الإمامُ صلوات الله عليه، إلا أنه حدّثني أني لا أعبر الفرات.

وسار قحطبة حتى نزل بحلوان[٤] ووجه أبا عون في نحوٍ من ثلاثين ألفاً إلى مروان بن محمد، فأخذ على شهرزور حتى أتى الزّاب، وذلك برأي أبي مُسلم.

فحدث أبو عون عبد الملك بن يزيد: قال لي أبو هاشم بكير بن ماهان: أنت والله

---

(١) ساوة: مدينة بين الريّ وهمذان.

(٢) الحوز: ما يختاره الإنسان لنفسه ويبين حدوده ويقيم عليه الحواجز والحوزة: الناحية.

(٣) طوس: مدينة بخراسان. (٤) المراد حلوان العراق.

الذي تسير إلى مروان، ولتَبعثنَّ إليه غلاماً من مذحج يقال له عامر فليقتلنَّه فأمضيتُ والله عامر بن إسماعيل على مقدمتي، فلقي مروان فقتله.

ثم سار قحطبة من حلوان إلى ابن هبيرة بالعراق، فالتقوا بالفرات، فاقتتلوا حتى اختلط الظلام، وقُتل قحطبة في المعركة وهو لا يُعرف، فقال بعضهم: غرق في الفرات.

ثم انهزم ابن هبيرة حتى لحق بواسط، وأصبح المسوِّدةُ وقد فقدوا أميرهم، فقدَّموا الحسن بن قحطبة. ولما بلغ مروانَ قتلُ قحطبة وهزيمة ابن هبيرة قال: هذا والله الإدبار، وإلا فمتى رأيتم ميتاً هَزم حيّاً!

وأقام ابن هبيرة بواسط وغَلبت المسوِّدة على العراق، وبايعوا لأبي العباس عبد الله ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة. ووجه عمّه عبد الله بن علي لقتال مروان وأهل الشام، وقدمه على أبي عون وأصحابه؛ ووجه أخاه أبا جعفر إلى واسط لقتال ابن هُبيرة، وأقام أبو العباس بالكوفة حتى جاءته هزيمة مروان بالزاب. وأمضى عبدُ الله بن علي أبا عون في طلبه، وأقام على دمشق ومدائن الشام يأخذ بيعتها لأبي العباس.

وكان أبو سلمة الخلال. واسمه حفص بن سليمان. يُدْعَى وزيرَ آل محمد، وكان أبو مسلم يدعى أمينَ آل محمد؛ فقتل أبو العباس أبا سلمة الخلال، واتهمه بحب بني فاطمة وأنه كان يحطِب[1] في حبالهم؛ وقتَل أبو جعفر أبا مسلم.

وكان أبو مسلم يقول لقواده إذا أخرجهم: لا تكلموا الناس إلا رمْزاً، ولا تلحظوهم إلا شزْراً[2]: لتمتلىء صدورُهم من هيبتكم.

---

(١) حطب في حبل فلان: أعانه ومال إلى رأيه وهواه.

(٢) شزراً: استهانة أو غضباً أو إعراضاً.

مقتل زيد بن علي أيام هشام بن عبد الملك

كتب يوسف بن عمر إلى هشام بن عبد الملك: إن خالد بن عبد الله أودع زيد بن حسين بن علي بن أبي طالب مالاً كثيراً. فبعث هشام إلى زيد فقدم عليه فسأله عن ذلك فأنكر، فاستحلفه فحلف؛ فخلّى سبيله. وأقام عند هشام بعد ذلك سنة، ثم دخل عليه في بعض الأيام، فقال له هشام: بلغني أنك تحدّث نفسك بالخلافة ولا تصلح لها لأنك ابن أمة! قال: أما قولك إني أحدث نفسي بالخلافة، فلا يعلم الغيب إلا الله؛ وأما قولك إني ابن أمة فهذا إسماعيل ﷺ ابن أمة، أخرج الله من صلبه خيرَ البشر محمداً ﷺ، وإسحاق ابنُ حرة، أخرج الله من صلبه القِردة والخنازير وعبدة الطاغوت[1]. وخرج زيد مغضباً، فقال زيد: ما أحَبَّ أحدٌ الحياة إلا ذلَّ! قال له الحاجب: لا يسمعْ هذا الكلام منك أحد. وخرج زيد حتى قدم الكوفة، فقال:

شـرَّدُه الخـوفُ وأزْرَى بـه ... كذاكَ مَـن يكـرَهُ حـرَّ الجِلادْ[2]
مُنْخـرقُ الخُفيْـنِ يشكـو الوجَـى ... تنكُبُـهُ أطـرافُ مَـرْوٍ حـدادْ[3]
قـد كـان في الموتِ لـه راحـةٌ ... والموتُ حتْـمٌ في رقـابِ العبـادْ

ثم خرج بخراسان، فوجه يوسفُ بن عمر إليه الخيلَ وخرج في أثرهم حتى لقيه، فقاتله، فرُمي زيد في آخر النهار بنشابة من نحره فمات، فدفنه أصحابه في حمأة كانت قريبة منهم، وتتبّع أصحاب زيد، فانهزم من انهزم وقُتل من قتل، ثم أُتي يوسف فقيل له: إن زيداً دُفن في حمأة. فاستخرجه وبعث برأسه إلى هشام، ثم صلبه في سوق الكُناسة[4]، فقال في ذلك أعورُ كلب، وكان مع يوسف في جيش أهل الشام:

---

(١) الطاغوت: الشيطان والساحر وكل ما عبد من دون الله.

(٢) الجلاد: جمع جليد: وهو الصابر على المكروه.

(٣) المرو: حجارة بيض رقاق.

(٤) الكناسة: محلة بالكوفة.

نصبنا لكم زيْداً على جِذعِ نخلَةٍ   وما كان مهدِيٌّ على الجِذْع يُنصب

الشيباني قال: لما نزل عبد الله بن علي نهر أبي فُطْرُس[١]، حضر الناس بابَه للإذن، وحضر اثنان وثمانون رجلاً من بني أمية، فخرج الآذن فقال: يا أهل خراسان، قوموا. فقاموا سماطين[٢] في مجلسه، ثم أذن لبني أمية فأخذتْ سيوفهم ودخلوا عليه. قال أبو محمد العبدي الشاعر: وخرج الحاجب فأدخلني فسلمت عليه فرد عليَّ السلام، ثم قال: أنشدني قولك:

وقفَ المُتَيَّمُ في رسومِ دِيارِ

فأنشدته حتى انتهيت إلى قولي:

أمّا الدُّعاةُ إلى الجِنان فهاشِمٌ   وبنو أُميَّةَ من دُعاةِ النَّارِ
مَن كان يفخرُ بالمكارِمِ والعُلا   فلها يتِمُّ المجدُ غير فخارِ

والغَمر بن يزيد بن عبد الملك جالس معه على المصلى، وبنو أمية على الكراسي فألقى إليَّ صرة حرير خضراء فيها خمسمائة دينار، وقال: لك عندنا عشرة آلاف درهم وجارية وبرذون[٣] وغلام وتخت ثياب، قال: فوَفَى والله بذلك كله ثم أنشأ عبد الله بن علي يقول:

حسِبتْ أُميَّةُ أن سيَرْضَى هاشِم   عنها ويذهَب زيْدُها وحُسيْنُها
كلا وربِّ مُحَمَّدٍ وإلهِهِ   حتى تُباحَ سُهولها وحزونها[٤]

ثم أخذ قلنسوته من رأسه فضرب بها الأرض، فأقبل أولئك الجند على بني أمية فخبطوهم بالسيوف والعَمد، وقال الكلبي الذي كان بينهم وكان من أتباعهم: أيها الأمير، إني والله ما أنا منهم! فقال عبد الله بن علي:

---

(١) نهر أبي فطرس: قرب الرملة بأرض فلسطين.

(٢) السماط: الصف.

(٣) البرذون: كل ما هو غير عربي من البغال والخيل.

(٤) الحزون: جمع الحزن: وهو ما غلظ من الأرض أو من خشنت معاملته من الناس.

ومُدخِلٍ رأْسه لم يَدْعُهُ أحدٌ   بين الفريقَيْنِ حتى لزَّهُ القَرَن[1]

اضربوا عنقه! ثم أقبل على الغمر فقال: ما أحسب لك في الحياة بعد هؤلاء خيراً! فقال: أجل. قال: يا غلام، اضرب عنقه، فأقيم من المصلى فضُرب عنقه، ثم أمر ببساط فطرح عليهم، ودعا بالطعام فجعل يأكل وأنين بعضهم تحت البساط.

وفي رواية أخرى، قال: لما قدم الغَمر بن يزيد بن عبد الملك على أبي العباس السفاح في ثمانين رجلاً من بني أمية، وُضعت لهم الكراسي، ووضعت لهم نمارق[2] وأُجلسوا عليها، وأُجلس الغمرَ مع نفسه في المصلى، ثم أذن لشيعته فدخلوا، ودخل فيهم سُديف بن ميمون، وكان متوشحاً سيفاً، متنكباً قوساً، وكان طويلاً آدم[3]، فقام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيزعم الضُّلّالُ بما حبطت أعمالهم أنّ غير آل محمد أولى بالخلافة؟ فلِمَ وبِمَ أيها الناس؟ لكم الفضل بالصحابة، دون حق ذوي القرابة، الشركاء في النسب، الأكفاء في الحسب، الخاصة في الحياة، الوُفاة عند الوَفاة، مع ضرْبهم على الأمر جاهلَكم، وإطعامِهم في اللأواء[4] جائعَكم، فكم قصم الله بهم من جبار باغ، وفاسق ظالم، لم يُسمَع بمثل العباس، لم تخضع له أمّة بواجب حق، أبو رسول الله ﷺ بعد أبيه، وجلدة ما بين عينيه، أمينُه ليلة العقَبة، ورسوله إلى أهل مكة، وحاميه يوم حُنين، لا يَرُدُّ له رأيا، ولا يخالِفُ له قسَماً؛ إنكم والله معاشرَ قريش ما اخترتم لأنفسكم من حيث ما اختاره الله لكم، تَيْميٌّ مرة، وعديّ مرة، وكنتم بين ظهرانَيْ قوم قد آثروا العاجل على الآجل، والفانيَ على الباقي، وجعلوا الصدقاتِ في الشهوات، والفيءَ في اللذات والغناء. والمغانم في المحارم، إذا ذُكِّروا بالله لم يَذكروا، وإذا قُدِّموا بالحق أدبروا، فذلك زمانهم، وبذلك كان يعمل سلطانهم.

---

(١) القرن: الحبل يقرن به البعير.

(٢) النمارق: جمع نمرق: وهي الوسادة الصغيرة يتكأ عليها.

(٣) آدم: الذي اشتدت سمرته.

(٤) اللأواء: ضيق المعيشة، أو شدة المرض.

فلما كان الغد أذن لهم فدخلوا، ودخل فيهم شبل، فلما جلسوا قام شبل فاستأذن في الإنشاد، فأذن له، فأنشد:

أصبحَ المُلكُ ثابتَ الآساسِ ... بالبَهاليلِ من بني العبّاسِ [1]
طلَبوا وتْرَ هاشمٍ فلَقُوها ... بعدَ ميْلٍ من الزمانِ ويَاس
لا تُقيلنّ عبدَ شمسٍ عِثاراً ... واقطَعَنْ كلَّ نَخلةٍ وغِراس [2]
لقد غاظَني وغاظَ سوائِي ... قربُهم من مَنابرٍ وكراسي
واذكروا مصرَع الحسينِ وزيداً ... وقتيلا بجانِب المِهْراسِ [3]
وقتيلا بجوْفِ حَرّانَ أضْحَى ... تحْجل الطَّير حوْله في الكنَاس [4]
نعمْ شِبلُ الهِراش صوْلاك شِبلٌ ... لو نَجا من حبائِل الإفلاس

ثم قام وقاموا، ثم أذن لهم بعدُ، فدخلوا ودخل الشيعة، فلما جلسوا قام. سديف بن ميمون، فأنشد:

قد أتتكَ الوُفودُ من عبدِ شمسٍ ... مستعدّين يُوجِعون المَطِيّا [5]
غفوة أيُّها الخليفة لا عن ... طاعةٍ بل تَخَوَّفوا المَشْرَفِيّا [6]
لا يَغرّنْك ما تَرى من رجالٍ ... إن تَحتَ الضُّلوعِ داءً دَويّا
فضعِ السيفَ وارفعِ السوْط حتى ... لا تَرى فوقَ ظهْرها أُمَوِيّا

ثم قام خلف بن خليفة الأقطع فأنشد:

إنْ تَجاوزْ فقدْ قدَرْتَ عليهمْ ... أو تُعاقِبْ فلمْ تعاقبْ بَريّا
أو تعاتبْهمْ على رقّةِ الدّيـ ... ـنِ فقدْ كان دِينُهم سامِريّا

---

(١) البهاليل: جمع بهلول: وهو السيد الجامع لصفات الخير. المرح الضحّاك.
(٢) العثار: الشر، وما عثر عليه.
(٣) المهراس: ماء بجبل أحد عنده دفن حمزة رضي الله عنه.
(٤) الكناس: مولج في الشجر يأوي إليه الظبي ليستتر.
(٥) المطيّ: كل ما يمتطى من الدواب.
(٦) المشرفي: سيف يجلب من المشارف منسوب إليها.

فالتفت أبو العباس إلى الغمر فقال: كيف ترى هذا الشعر؟ قال: والله إنّ هذا لشاعر، ولقد قال شاعرنا ما هو أشعر من هذا. قال: وما قال؟ فأنشده:

شمْسُ العداوةِ حتى يُستقادَ لهمْ ... وأعظم الناسِ أحلاماً إذا قدَروا

فشرق وجه أبي العباس بالدم وقال: كذبتَ يا بنَ اللخناء[1]! إني لأرى الخيلاء في رأسك بعد! ثم قاموا، وأمر بهم فدُفعوا إلى الشيعة فاقتسموهم فضربوا أعناقهم، ثمّ جرّوا بأرجلهم حتى ألقَوْهم في الصحراء بالأنبار وعليهم سراويلات الوشي، فوقف عليهم سديف مع الشيعة، وقال:

طمِعتْ أُميّة أنْ سيَرْضَى هاشمٌ ... عنها ويَذْهَب زيدُها وحُسيْنُها

كلا وربِّ محمدٍ وإلٰهِه ... حتى يُباد كَفورُها وخَئونها

وكان أشدّ الناس على بني أمية عبد الله بن عليّ، وأحنّهم عليهم سليمان بن علي، وهو الذي كان يسميه أبو مسلم: كنفَ الأمان! وكان يجير كلّ من استجار به.

وكتب إلى أبي العباس:

يا أمير المؤمنين، إنا لم نحارب بني أمية على أرحامهم، وإنما حاربناهم على عقوقهم، وقد دفت إليّ منهم دافّة[2] لم يشهروا سلاحاً ولم يكثروا جمعاً، فأحب أن تكتب لهم منشورَ أمان.

فكتب لهم منشورَ أمان وأنفذه إليهم، فمات سليمان بن عليّ وعنده بضع وثمانون حرمة لبني أمية.

خلفاء بني أمية بالأندلس

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام

أوّل خلفاء الأندلس من بني أمية: عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ولِيَ المُلْك يوم الجمعة لعشر خلون من ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة، وهو ابن

(١) اللخناء: المرأة التي نتنت أرفاغها.

(٢) الدّامة: الجماعة من الناس تقبل من بلد الى بلد.

ثمان وعشرين سنة. وتوفي في عشرة من جمادي الأولى سنة اثنتين وسبعين ومائة، فكان ملكه اثنتين وثلاثين سنة وخمسة أشهر، وكان يقال له صقر قريش، وذلك أنّ أبا جعفر المنصور قال لأصحابه: أخبروني عن صقر قريش من هو؟ قالوا: أمير المؤمنين الذي راض المُلك، وسكَّن الزلازل، وحسم الأدواء، وأباد الأعداء. قال: ما صنعتم شيئاً. قالوا: فمعاوية. قال: ولا هذا. قالوا: فعبد الملك بن مروان. قال: ولا هذا. قالوا: فمَنْ يا أمير المؤمنين؟ قال: عبد الرحمن بن معاوية، الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلداً أعجمياً مفرداً. فمصَّر الأمصار، وجند الأجناد، ودوّن الدواوين، وأقام ملكاً بعد انقطاعه، بحسن تدبيره، وشدّة شكيمته[1]، إنّ معاوية نهض بمركب حمله عليه عُمر وعثمان وذللا له صعبه، وعبد الملك ببيعة تقدّم له عقدها، وأمير المؤمنين بطلب عشيرته واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفرد بنفسه، مؤيد برأيه، مستصحب لعزمه.

وقالوا لما توطد ملك عبد الرحمن بن معاوية عمل هذه الأبيات وأخرجها إلى وزرائه فاستغربت من قوله إذ صدقها فعله، وهي:

ما حقُّ مَن قام ذا آمتعاضٍ   مُنتَضِيَ الشَّفْرتيْن نَصْلا
فبَزَّ ملْكاً وساد عِزّاً   ومنبَراً للخِطاب فصْلا[2]
فجازَ قفْراً وشَقَّ بَحْراً   مُسامِياً لُجَّةً ومَحْلا[3]
وجنَّد الجُنْدَ حين أوْدَى   ومصَّر المِصرَ حين أجْلى[4]
ثم دعا أهله جميعاً   حيثُ آنتأَوْا أنْ هلمَّ أهلا[5]
فجاءَ هذا طريدَ جوعٍ   شريدَ سيْفٍ أبيد قتْلا
فحَلَّ أمْناً ونال شِبْعاً   وحاز مالا وضمَّ شَملا
ألمْ يكنْ حقُّ ذا على ذا   أوْجَبَ مِن مُنعِمٍ ومولى؟

(١) شدة الشكيمة: الأنف والإباء.
(٢) بزّ: غلب. (٣) اللّجة: معظم البحر وتردد أمواجه.
(٤) أودى: هلك. (٥) انتأوا: بعدوا.

وكتب أمية بن يزيد عنه كتاباً إلى بعض عماله يستقصره فيما فرّط فيه من عمله، فأكثر وأطال الكتاب، فلما لحظه عبد الرحمن أمر بقطعه [١]، وكتب:

أمّا بعد، فإن يكن التقصير لك مقدّماً يعدّ الاكتفاء أن يكون لك مؤخراً، وقد علمت بما تقدّمت، فاعتمد على أيهما أحببت.

وكان ثار عليه ثائر بغربيّ بلْدة [٢]، فغزاه به وأسره، فبينما هو منصرف وقد حُمل الثائر على بغل مكبولاً، نظر إليه عبد الرحمن بن معاوية وتحته فرس له، فقنّع [٣] رأسه بالقناة، وقال: يا بغل، ماذا تحمل من الشقاق والنفاق! قال الثائر: يا فرس، ماذا تحمل من العفو والرحمة! فقال له عبد الرحمن: والله لا تذوق موتاً على يدي أبداً.

هشام بن عبد الرحمن

ثم ولي هشام بن عبد الرحمن لسبع خلون من جمادي الآخرة سنة اثنتين وسبعين ومائة. ومات في صفر سنة ثمانين ومائة. وكانت ولايته سبع سنين وعشرة أشهر. ومات وهو ابن إحدى وثلاثين سنة.

وهو أحسن الناس وجهاً، وأشرفهم نفساً، الكامل المروءة، الحاكم بالكتاب والسنة، الذي أخذ الزكاة على حِلها، ووضعها في حقها، لم يُعرف منه هفوةٌ في حداثته، ولا زلة في أيام صباه، ورآه يوماً أبوه وهو مقبل ممتلىء شباباً فأعجبه فقال:
يا ليت نساء بني هاشم أبصرنه حتى يَعُدْنَ فوارك [٤].

وكان هشام يصر الصُّرر بالأموال في ليالي المطر والظُّلمة، ويبعث بها إلى المساجد فيُعطى مَن وُجد فيها؛ يريد بذلك عمارة المساجد.

---

(١) قطعه: يريد تمزيقه. (٢) بلدة: مدينة بالأندلس.

(٣) أي غشاه بها.

(٤) فوارك: جمع فارك: وهي المرأة تبغض زوجها.

وأوصى رجل في زمن هشام بمال في فك سبيّة من أرض العدو، فطُلبت فلم توجد، احتراساً منه للثغر؛ واستنقاذاً لأهل السبي.

الحكم بن هشام

ثم ولي الخلافة الحكم بن هشام في صفر سنة ثمانين ومائة؛ وكانت ولايته ستا وعشرين سنة وإحدى عشر شهرا. ومات يوم الخميس لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ست ومائتين وهو ابن اثنتين وخمسين سنة.

وكانت فيه بطالة إلا أنه كان شجاع النفس، باسط الكف، عظيم العفة متخيراً لأهل عمله ولأحكام رعيته، أورع من يقدر عليه وأفضلهم، فيسلّطهم على نفسه، فضلا عن ولده وسائر خاصته.

وكان له قاض قد كفاه أمور رعيته، بفضله وعدله وورعه وزهده، فمرض مرضا شديداً، واغتم له الحكم غما شديداً؛ فذكر يزيدُ فتاه: أنه أرِقَ يوما وليلة وبعدُ عنه نومه وجعل يتململ على فراشه، فقلت: أصلح الله الأمير، إني أراك متململا وقد زال النوم عنك، فلم أدر ما عرض لك! قال: ويحك، إني سمعت نائحة هذه الليلة، وقاضينا مريض، فما أراه إلا قد قضى نحبه، وأين لنا بمثله؟ ومن يقوم للرعية مقامه؟ ثم إن القاضي مات، واستقضى الحكمُ بعده سعيدَ بن بشير؛ فكان أقصد الناس إلى الحق، وآخذهم بعدل، وأبعدهم من هوى، وأنقذهم لحكم:

رفع إليه رجل من أهل كورة جيان أن عاملاً للحكم اغتصبه جارية وعمل في تصييرها إلى الحَكَم، فوقعت من قلبه كل موقع، وأن الرجل أثبت أمره عند القاضي، وأتاه ببينة[1] يشهدون على معرفة ما تظلّم منه، وعلى عين الجارية ومعرفتهم بها، وأوجب البينةُ أن تحضر الجارية؛ فاستأذن القاضي على الحَكَم، فأذن له فلما دخل عليه قال: إنه لا يتم عدل في العامة دون إفاضته في الخاصة. وحَكى له أمرَ الجارية،

---

(١) البيّنة: الحجة الواضحة، وقد يريد الشهود.

وخيَّره في إبرازها إليه، أو عزله عن القضاء! فقال له: ألا أدعوك إلى خير من ذلك؟ تبتاع الجارية من صاحبها بأنفس ثمن وأبلغ ما يسأله فيها. فقال: إن الشهود قد شخصوا من كروة جيان يطلبون الحق في مظانه [1]، فلما صاروا ببابك تصرفهم دون إنقاذ الحق لأهله! ولعل قائلا أن يقول: باع ما يملك بيع مُقْتَسَر على أمره. فلما رأى عزمه أمر بإخراج الجارية من قصره، وشهد الشهود على عينها، وقضى بها لصاحبها.

وكان سعيد بن بشير القاضي إذا خرج إلى المسجد أو جلس في مجلس الحَكَم، جلس في رداء معصفر [2] وشعر مفرق إلى شحمة أذنيه؛ فإذا طُلب ما عنده وُجد أورع الناس وأفضلَهم.

وكانت للحكم ألف فرس مربوطة بباب قصره على جانب النهر، عليها عشرة عرفاء، تحت يد كل عريف منها مائة فرس لا تندب ولا تبرح، فإذا بلغه عن ثائر في طرف من أطرافه عاجله قبل استحكام أمره، فلا يشعر حتى يُحاط به.

وأتاه الخبر: أن جابر بن لبيد يحاصر جيان وهو يلعب بالصولجان في الجسر، فدعا بعريف من أولئك فأشار إليه أن يخرج من تحت يده إلى جابر بن لبيد، ثم فعل مثل ذلك بأصحابه من العرفاء. فلم يشعر ابن لبيد حتى تساقطوا عليه متساوين، فلما رأى ذلك عدوُّه سُقِط في أيديهم وظنوا أن الدنيا قد حشرت لديهم، فولوا مدبرين.

وقال الحكم يوم الهيجاء بعد وقعة الرَّبَض:

رأيْتُ صُدُوعَ الأرضِ بالسَّيفِ راقِعاً ... وقِدْما رأيتُ الشَّعْبَ مُذْ كنْتُ يافِعا
فسائِل ثُغُوري هل بها اليوم ثغـرَةٌ ... أُبادِرُها مُسْتَنْضِـيَ السيـفِ دارعـا
وشافِـه على أرض القضـاء جماجماً ... كأقحاف شَرْيانِ الهبيدِ لوامعـا [3]

(١) المظانّ: المواقع التي ينشد فيها الباحث طلبته. والمظان: جمع مظنة؛ وهي الموضع الذي يُظن كون الشيء فيه.

(٢) المعصفر: الذي صبغ بالعُصفر.

(٣) شريان الهبيد: شجر الحنظل.

تُنَبِّئْكَ أني لم أكـن عـن قـراعهـم بوانٍ وأني كنت بالسيف قارعـا (١)
ولما تسـاقيْنـا سِجـالَ حُـروبنـا سقَيْتُهمُ سُمًّا مـنَ الموتِ نـاقعـا (٢)
وهل زِدْتُ أن وَفّيْتُهُمْ صاع قرْضِهِمْ فوافَوا منايـا قـدِّرتْ ومَصـارِعـا

قال عثمان بن المثنى المؤدب: قدم علينا عباس بن ناصح من الجزيرة أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم، فاستنشدني شعر الحكم، فأنشدته، فلما انتهيت إلى قوله:

وهل زدتُ أن وفَّيْتُهُم صاعَ قرضِهِمْ

قال: لو جُوثِيَ الحَكم في حكومة لأهل الربض لقام بعذره هذا البيت.

عبد الرحمن بن الحكم

ثم وَلِيَ بعده عبد الرحمن بن الحكم، أندى الناس كفا، وأكرمهم عطفاً، وأوسعهم فضلا، في ذي الحجة سنة ست ومائتين: فملك إحدى وثلاثين سنة وخمسة أشهر، ومات ليلة الخميس لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين ومائتين، وهو ابن اثنتين وستين سنة.

وكتب إليه بعض عماله، يسأله عملا رفيعا لم يكن من شاكلته؛ فوقَّع في أسفل كتابه:

من لم يُصِبْ وجْهَ مَطلبِهِ، كان الحِرْمانُ أوْلى بهِ.

محمد بن عبد الرحمن

ثم ولي الملك محمد بن عبد الرحمن، يوم الخميس لثلاث [خلون] من شهر ربيع الأخر سنة ثمان وثلاثين ومائتين، فملك أربعا وثلاثين سنة، وتوفي يوم الجمعة مستهلَّ ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين، وهو ابن سبع وستين سنة.

---

(١) وان: متقاعس. (٢) السجال: جمع السَّجل: وهو الضرع العظيم، أو النصيب من الشيء.

وكتب عبد الرحمن بن الشمر إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن في حياة أبيه عبد الرحمن ـ وكان يتجنب الوقوف ببابه مخافة نصرٍ الفتى ـ فلما مات نصر كتب ابن الشمر هذه الأبيات إلى محمد يقول فيها:

لئِن غابَ وجهي عنكَ إنّ مودَّتي ... لشاهِدَةٌ في كلِّ يوم تسلِّمُ
وما عاقنِي إلا عدَوٌّ مسلَّطٌ ... يُذلُّ ويقصِي من يشاءُ ويُرغِم
ولم يستَطِل إلا بكم وبعزِّكم ... ولا ينبَغي أن يُمنَحَ العِزَّ مجرِم
فمَكنْتُمُوه فاستطالَ عليكُمُ ... وكادتْ بنا نِيرانُهُ تتضَرَّم
كذلِكَ كلبُ السّوءِ إن يشْبعِ انبرى ... لُمشْبعه مُسْتشْلِياً يتَرمْرَم[1]
فَجمَّع إخواناً لُصُوصاً أراذِلا ... ومنَّاهم أن يقْتُلونا ويغْنَمُوا
رأى بأَمِين آللهِ سُقْماً فغرّهُ ... ولم يكُ يدري أنَّه يتقدّم
فنحْمَدُ رباً سرَّنا بهلاكِهِ ... فما زال بالإحْسانِ والطَّول ينْعِمُ
أَرَادَ يكيدُ الله نصْرٌ فكادَهُ ... ولله كيدٌ يغْلِبُ الكيدَ، مُبرَم
بكى الكُفْرُ والشَّيطانُ نصراً فأَعْولا ... كما ضحِكَتْ شوقاً إليه جهَنَّم
وكانت له في كلِّ شهْرِ جبايةٌ ... جبايةُ آلاف تُعَدُ وتخْتَم
فهل حائِطُ الإسلامِ يوماً يُسومهم ... بَما اجْترَمُوا يوماً عليهِ وأَقْدَموا[2]
ويُنْهِبُنا أمْوالهم وهْو فاعلٌ ... فإني أرى الدُّنيا له تتبَسْم
ألا أيُّها النَّاسُ آسْمعوا قولَ ناصحٍ ... حَريص علَيكُمْ مُشْفِقٍ وتفَهَّموا
محَمَّدُ نورٌ يُستضاءُ بِوجْهِهِ ... وسيْفٌ بكفِّ آللهِ ماضٍ مُصمَّ
فكونوا له مِثْلَ البنينَ يكَن لكُمْ ... أباً حَدِباً في الرحْم بل هو أَرْحَم[3]
فيا بن أَمين آللهِ لا زلتَ سالماً ... مُعافَى فإنا ما سَلَمتَ سنَسْلَم
ألستَ المُرَجَّى من أُمية والذي ... له المجدُ منها الأتلدُ المتقدِّمُ[4]

---

(١) مستشليا: غاضباً. ويترمرم: يتحرك.

(٢) اجترم: ارتكب جرماً.

(٣) الرحم: الرقة والتعطف. (٤) الأتلد: القديم.

وأنـت لأهـل الخيْـر روْحٌ ورحْمةً نعَم، ولأهل الشّرِّ صابٌ وعلْقـمُ[١]

وحدث بقي بن مخلد الفقيه قال: ما كلمت أحداً من الملوك أكمل عقلا، ولا أبلغ لفظاً من الأمير محمد؛ دخلت عليه يوما في مجلس خلافته فافتتح الكلام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ، ثم ذكر الخلفاء خليفة خليفة؛ فحكى كل واحد منهم بحليته ونعته ووصفه، وذكره مآثره ومناقبه، بأفصح لسان، وأبين بيان، حتى انتهى إلى نفسه فسكت.

وخرج الأمير محمد يوما متنزها إلى الرصافة ومعه هاشم بن عبد العزيز، فكان بها صدر نهاره على لذّاته، فلما أمسى واختلط الظلام رجع منصرفا إلى القصر وبه اختلاط؛ فأخبرني من سمعه وهاشم يقول له: يا سيدي يا بن الخلائف، ما أطيب الدنيا لولا، قال له: لولا ماذا؟ قال: لولا الموت! قال له: يا بن اللخناء لحنت[٢] في كلامك؛ وهل مَلكنا هذا الملك الذي نحن فيه إلا بالموت، ولولا الموت ما ملكناه أبدا.

وكان الأمير محمد غزّاء لأهل الشرك والخلاف، وربما أوغل في بلاد العدوّ الستة الأشهر أو أكثر، يحرق وينسف، وله في العدوّ وقيعة وادي سليط، وهي من أمهات الوقائع؛ لم يعرف مثلها في الأندلس قبلها، وفيها يقول عباس بن فرناس، وشعره يكفينا من صفتها:

ومختلِفِ الأصواتِ مُؤتلفِ الزّحْـف لهُوم الفَلا عَبْل القبائـل مُلْتـفِّ[٣]
إذا أومضَتْ فيه الصّـوارمُ خِلْتَهـا بُروقاً تَراءَى في الجَهام وتَستْخفـي[٤]
كـأنّ ذُرَى الأعلام في سَيَلانِـهِ فراقِدُ يَمٍ قد عجزن عن القذف[٥]

(١) الصاب: شجر مرّ له عصارة بيضاء كاللبن بالغة المرارة.
(٢) لحن في كلامه: أخطأ الاعراب وخالف وجه الصواب في النحو.
(٣) لهمه: ابتلعه بمره.
(٤) الجهام: السحاب الذي لا ماء فيه.
(٥) فراقد: جمع فرقد: وهو النجم القريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريباً ولذا يهتدى به.

وإنْ طحَنت أركانُه كان قُطبُها حِجَى مَلِك نَجْدٍ شمائله عفّ
سَمِيّ ختام الأنبياء محمدٍ إذا وُصف الأملاكُ جلّ عن الوصف
فمن أجله يوم الثلاثاء غُدوةً وقد نقَضَ الإصْباح عَقْدعُرَى السَّجْف (١)
بكى جبَلا وادي سليطٍ فأَعْولا على النفر العُبْدان والعُصْبة الغلْف (٢)
دعاهم صريخُ الحيْن فاجتمَعوا له كما اجتمع الجُعْلان للبَعْر في قفّ (٣)
فما كان إلاّ أنْ رماهم ببعضها فولّوْا على أعقاب مهزومة كُشْف (٤)
كأنَّ مَساعير الموالي عليهم شواهين جادْت للغرانيق بالسَّيْف (٥)
بنفسي تنانيرَ الوَغى حين صَمَّمَتْ إلى الجبل المشحون صفاً على صفّ
يقول آبن بُلْيوسٍ لموسَى وقدْ وَنَى أرى الموتَ قُدّامي وتحتي ومن خلفي
قتلناهُمُ ألفاً وألفاً ومثلها وألفاً وألفاً بعد ألفٍ إلى ألفِ
سِوى من طواهُ النهر في مُسْتلَجِّه فأُغْرق فيه أو تدأدأ من جرْف (٦)

المنذر بن محمد

ثم ولي المنذر بن محمد، يوم الأحد لثلاث خلون من ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين. ومات يوم السبت في غزاة له على بُبَشتر (٧) لثلاث عشرة بقيت من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين، وهو ابن ست وأربعين سنة.

وكان أشدّ الناس شكيمة، وأمضاهم عزيمة؛ ولما ولي الملك بعث إليه أهل طليطلة بجبايتهم كاملة، فردّها عليهم وقال: استعينوا بها في حربكم، فأنا سائر إليكم إن شاء الله.

---

(١) السّجف: أحد السترين المقرونين بينهما فرجة.
(٢) الغلف: جمع أغلف، وهو الذي لا يعي.
(٣) الجعل: الدويبة. والقفّ: ما ارتفع من الأرض.
(٤) الكشف: المهزومون في الحرب.
(٥) الشواهين: من سباع الطير. والغرنوق: طير أبيض من طير الماء.
(٦) تدأدأ: تدحرج.
(٧) ببشتر: حصن بالأندلس بينه وبين قرطبة ثلاثون فرسخاً.

ثم غزا إلى المارق الموتر عمرو بن حفصون، وهو بحصن قامرة فأحدق به بخيله ورجله، فلم يجد الفاسق منفذاً ولا متنفَّساً، فأعمل الحيلة، ولاذ بالمكر والخديعة، وأظهر الإنابة والإجابة، وأن يكون من مستوطني قرطبة بأهله وولده، وسأل إلحاق أولاده في الموالي: فأجابه الأمير إلى كل ما سأل، وكتب له الأمانات، وقطعت لأولاده الثياب، وخُرزت له الخِفاف؛ ثم سأل مائة بغل يحمل عليها ماله ومتاعه إلى قرطبة، فأمر الأمير بها، وطُلبت البغال ومضت إلى بُبَشتر وعليها عشرة من العرفاء، وانحل العسكر عن الحصن بعض الانحلال، وعكف القاضي وجماعة من الفقهاء على تمام الصلح فيما حسبوا فلما رأى الفاسق الفرصة، انتهزها؛ ففسق ليلا وخرج، فلقى العرفاء بالبغال، فقتلهم وأخذ البغال، وعاد إلى سيرته الأولى؛ فعقد المنذر على نفسه عقدا أن لا أعطاه صلحاً ولا عهداً إلا أن يُلقى بيده، وينزل على عهده وحكمه، ثم غزاه الغزاة التي توفى فيها، فأمر بالبنيان والسكنى عليه. وأن يردّ سوق قرطبة عليه؛ فعاجله أجله عن ذلك.

عبد الله بن محمد

ثم تولى عبد الله بن محمد التقي النقي العابد الزاهد، التالي لكتاب الله، والقائم بحدود الله، يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين فبنى الساباط[1]، وخرج إلى الجامع والتزم الصلاة إلى جانب المنبر حتى أتاه أجله رحمه الله يوم الثلاثاء لليلة بقيت من صفر سنة ثلثمائة.

وكانت له غزوات، منها غزاة بلى، التي أنست كل غزاةتقدمتها، وذلك أن المرثد ابن حفصون ألَّب عليه كوَر الأندلس، فنزل حصن بلى[2]، وخرج إليه الأمير عبد الله بن محمد في أربعة عشر ألفاً من أهل قرطبة خاصة، وأربعة آلاف من حشمه ومواليه؛ فبرز إليه الفاسق وقد كردس كراديسه[3] في سفح الجبل، وناهضه الأمير

(١) الساباط: طريق مسقوف. (٢) بلى: ناحية بالأندلس.

(٣) الكراديس: جمع الكردوس: وهو كل عظم تام ضخم، وكل عظمين التقيا في مفصل.

عبد الله بجمهور عسكره، فلم يكن لهم فيه إلا صدمة صادقة، أزالوهم بها عن عسكرهم، فلم يقدروا أن يتراجعوا إليه؛ ونظر الفاسق إلى معسكر عبد الله الأمير، فإذا بمدد مقبل مثل الليل، في انحدار السيل. لا ينقطع؛ فخشَعَت نفسه، وعطف إلى الحصن يظهر إخراج من بقي فيه، فثلم[1] ثلمة وخرج منها في خمسة معه، وقد طار بهم جناح الفرار؛ فلما انتهى ذلك إلى أهل عسكره، ولَّوْا مدبرين لا يلوي أحدٌ على أحد، فعملت الرماح على أكتافهم، والسيوف في طُلى[2] أعناقهم، حتى أفنوهم أو كادوا، وكان منهم جماعة قد افترقوا في عسكر الأمير عبد الله، فقعد الأمير في المظلة وأمر بالتقاطهم، وأن لا يمر أحد على أحد منهم إلا قتله. فقُتل منهم ألف رجل صبراً بين يدي الأمير.

عبد الرحمن بن محمد أمير المؤمنين

ثم ولي الملك القمر الأزهر، الأسد الغضنفر، الميمون النقيبة،[3] المحمود الضريبة، سيد الخلفاء، وأنجب النجباء، عبد الرحمن بن محمد أمير المؤمنين، صبيحة هلال ربيع الأول سنة ثلثمائة، فقلت فيه:

بـدَا الهلالُ جـديـداً والمُلْكُ غضٌّ جـديـد
يـا نعمـةَ ٱللهِ زيـدي ما كان فيـه مـزيـد

وهي عدة أبيات، فتولى الملك وهي جمرة تحتدم، ونار تضطرم، وشقاق ونفاق، فأخمد نيرانها، وسكن زلزالها، وافتتحها عَوْداً كما افتتحها بدءًا سميُّه عبد الرحمن بن معاوية رحمه الله.

وقد قلت وقيل في غزواته كلها أشعار قد جالت في الأمصار، وشردت في البلدان، حتى أتهمت وأنجدت وأعرقت، ولولا أن الناس متكتفون بما في أيديهم منها

---

(١) ثلم الشيء: صارت فيه ثلمة؛ والثلمة: الشق.

(٢) الطلى: جمع طلاة: العنق أو صفحته.

(٣) النقيبة: سجية الرجل وطبيعته.

لأعدنا ذكرَها أو ذكر بعضها، ولكنا سنذكر ما سبق إلينا من مناقبه التي لم يتقدمه إليها متقدّم ولا أخت لها ولا نظير. فمن ذلك أول غزاة غزاها، وهي الغزاة المعروفة بغزاة المنتلون، افتتح بها سبعين حصناً، كلُّ حصن منها قد نكبت عنه الطوائف، وأعيا على الخلائف، وفيها أقول:

قد أوْضـح الله للإسلامِ منهـاجـا ... والناس قد دخلوا في الدِّين أفواجـا
وقـد تَـزيَّنـتِ الدُّنيـا لسـاكنِهـا ... كـأنما أُلبِسـتْ وشْيـاً وديبـاجـا
يا بن الخلائف إنّ المُزْن لو علِمتْ ... نَداك ما كان منها الماءُ ثَجَّاجا [1]
والحربُ لو علِمتْ بأساً تصولُ بـه ... ما هيَّجَت من حُمَيَّاك الذي اهتاجا [2]
مات النَّفاقُ وأعطَى الكفْـرُ ذِمّتَـه ... وذلَّـت الخيْـلُ إلجامـاً وإسراجـا
وأصبـح النصرُ معْقـوداً بـألْـويـةٍ ... تطوي المراحلَ تَهجيراً وإدْلاجا [3]
أدخَلْـت في قبَّـةِ الإسلام مـارقـةً ... أخرَجْتَها من ديار الشِّرْك إخراجـا [4]
بجحْفل تشْرق الأرض الفضاءُ بـه ... كالبحر يَقْذِف بالأمواجِ أمواجـا
يقودُه البـدرُ يَسري في كـواكِبـهِ ... عرَمْرَماً كسوادِ الليـلِ رَجْـراجَـا [5]
تَـروقُ فيـه بُـروقُ الموتِ لامِعـةً ... ويسمعـونَ بـه لِلـرَّعـدِ أهْـزاجـا
غادَرْت في عَقْوَتَيْ جيَّـان ملْحَمـةً ... أبكيْت منها بأرضِ الشِّرْكِ أعلاجا [6]
في نصفِ شهْرٍ تركْتَ الأرضَ ساكنةً ... مِن بعدِ ما كان فيها الجوْر قد ماجا
وجدْت في الخَبر المأْثـور مُنْصِلتـا ... مِنَ الخلائفِ خـرّاجـاً وولاَّجـا [7]
تُمْلا بك الأرضُ عدْلا مِثل ما مُلِئتْ ... جوْراً وتوضِحُ لِلمعروفِ مِنهاجـا
يا بدَر ظُلمْتها، يا شَمسَ صُبْحتِهـا ... يا ليْثَ حوْمتِها إنْ هائجٌ هاجـا [8]

---

(١) الثّجاج: الشديد الانصباب. (٢) الحميا: شدة الغضب.

(٣) الإدلاج: السير من أول الليل. والإدّلاج: السير من آخره.

(٤) المارقة: الخوارج. (٥) الرجراج: المهتز المضطرب.

(٦) العقوة: ما حول الدار والمحلة وجيّان مدينة لها كورة واسعة بالاندلس.

(٧) ولج الشيء: دخل فيه والولاّج: كثير الولوج.

(٨) الحومة: من البحر والماء والرمل وغيرها. معظمه والحومة من القتال: أشد موضع فيه.

إنَّ الخلافةَ لَن تَرضَى ولا رضِيَتْ حتى عقَدْت لها في رأسِك التَّاجا

ولم يكن مثل هذه الغزاة لملك من الملوك في الجاهلية والإسلام.

وله غزاة مارشن[١] التي كانت أخت بدر وحنين، وقد ذكرناها على وجهها في الأرجوزة التي نظمتها في مغازيه كلها من سنة إحدى وثلثمائة إلى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة، وأوقفناها.

ومن مناقبه أن الملوك لم تزل تبني على أقدارها، ويُقضى عليها بآثارها، وأنه بنى في المدة القليلة ما لم تبن الخلفاء في المدة الطويلة، نعم: لم يبق في القصر الذي فيه مصانع أجداده ومعالم أوليته بنيَّة[٢] إلا وله فيها أثر محدث، إما تزييد أو تجديد.

ومن مناقبه أنه أول من سُمى أمير المؤمنين من خلفاء بني أمية بالأندلس.

ومن مناقبه التي لا أخت لها ولا نظير، ما أعجز فيه من بعده، وفات فيه من قبله، من الجود الذي لم يُعرف لأحد من أجواد الجاهلية والإسلام إلا له؛ وقد ذكرت ذلك في شعري الذي أقول فيه:

يـا بنَ الخلائـفِ والعُلا لِلمُعتَلِـي والجودُ يُعـرفُ فضلـهُ لِلمُفضـلِ
نَوَّهْـتَ بـالخُلفـاءِ بـل أخْمَلْتَهُـمْ حتى كـأنّ نبيلَهُـم لم ينبُـلِ
أذكَرْت بل أنسَيْتَ ما ذكـر الأُلىٰ مـنْ فِعلهـم فكـأنـه لم يُفْعـلِ
وأتيْتَ آخرَهُـمّ وشأْوُكَ فـائـتٌ للآخِـريـن ومُـدركٌ للأوّل
ألآنَ سُمِّيَـتِ الخلافـةُ بـاسْمِهـا كالبدرِ يُقْرَنُ بالسِّماكِ الأعـزل[٣]
تـأبـى فِعـالُـك أن تقِـرّ لآخِـر مِنهُـمْ وَجـودُك أن يكـونَ لأوّل

وهذه الأرجوزة التي ذكرت جميع مغازيه وما فتح الله عليه فيها في كل غزاة، وهي:

---

(١) مارشن: من أعمال جيّان.

(٢) البنيّة: كل ما يبنى.

(٣) السماك: أحد النجمين النيرين أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب.

سُبحانَ مَنْ لم تَحوِهِ أقطارُ ... ولم تكن تُدْرِكُهُ الأبصارُ
ومَنْ عنَت لوجهِهِ الْوُجوهُ ... فما لهُ نِدٌّ ولا شبيهُ
سُبحانَهُ مِن خالِقٍ قديرِ ... وعالمٍ بخلْقِهِ بصيرِ
وأوّلٍ ليسَ لهُ ابتِداءُ ... وآخِرٍ ليس لهُ انتِهاءُ
أوسَعَنا إحسانَهُ وفضْلَهُ ... وعزَّ أن يكونَ شيءٌ مِثْلَهُ
وجلَّ أن تُدركهُ العيونُ ... أو يَحويَاهُ الوهْمُ والظُّنونُ
لكِنَّهُ يُدرَكُ بالقريحَهْ ... والعقلِ والأبينَةِ الصَّحيحةِ (١)
وهذه من أثبَتِ المعارِفِ ... في الأوجُهِ الغامضةِ اللَّطائفِ
معرفةُ العقلِ مَنَ الإنسانِ ... أثبتُ من معرفةِ العِيانِ
فالحمدُ للهِ على نعْمائِهْ ... حَمْداً جزيلاً وعلى آلائِهْ (٢)
وبعدَ حَمدِ اللهِ والتَّمجيدِ ... وبعدَ شُكرِ المُبديءِ المُعيدِ
أقولُ في أيامِ خيْرِ الناسِ ... ومَن تَحلَّى بالنَّدى والْباسِ
ومَن أبادَ الكُفْرَ والنِّفاقا ... وشرَّدَ الفِتنةَ والشِّقاقا
ونحنُ في حنادِسٍ كالليلِ ... وفِتنةٍ مثلِ غُثاءِ السَّيلِ (٣)
حتى تَولَّى عابدُ الرَّحْمنِ ... ذاك الأعزُّ من بني مروانِ
مُؤيَّدٌ حكَّمَ في عُداتِهِ ... سيْفاً يسيلُ الموتُ من ظُباتِهِ (٤)
وصبَّحَ المُلْكَ مع الهِلالِ ... فأصبحا نِدَّينِ في الجمالِ
واحتملَ التَّقْوىَ على جبينِهِ ... والدِّينَ والدنيا على يمينِهِ
قَدْ أشرقتْ بنورِه البلادُ ... وانقطعَ التشغيبُ والفسادُ
هذا على حينَ طغى النِّفاقُ ... واستفحلَ النكَّاثُ والمُرّاقُ (٥)

---

(١) القريحة من الانسان: طبيعته التي جبل عليها.

(٢) الآلائه: نعمه.

(٣) حنادس: جمع حندس: الظلمة الشديد.

(٤) الظبات: جمع الظبَة: وهي حدّ السيف والسنان والخنجر وما شابهها.

(٥) النكاث: جمع ناكث وهو الذي ينكث العهد.

وضاقــت الأرضُ على سُكـانها | وأذْلَـت الحربُ لظـى نيرانِهـا
ونحنُ في عَشـــواء مدلهمّـة | وظُلمـة مـا مثلُهـا مـن ظُلمـهْ
تأخـذُنـا الصَّيحـة كُـلَّ يـومِ | فما تَلـــذُّ مُقْلـــةٌ بنَـــوْمِ
وقد نُصلي العيـدَ بـالنـواظِـر | مخافـةً مـن العـدوّ الثـائـرِ[1]
حتى أتانا الغـوثُ مـن ضِيـاءِ | طَبَّــق بين الأرْض والسماءِ[2]
خَليفـــة الله الذي أصطفــاه | على جَميـع الخَلــق وآجْتبــاه
مِن مَعدن الوحي وبَيتْ الحِكمة | وخيْــر مَنســـوب إلى الأئمة
تَكِلُّ عن مَعـروفـه الجَنـائـبُ | وتَسْتَحي من جُوده السحائب[3]
في وَجهه مـن نُـوره بـرهـانُ | وكفُّــه تَقْبيلُهــا قُــرْبــانُ
أَحْيا الذي مات مـن المكـارِم | من عَهد كَعْبٍ وزَمـان حـاتِـم
مكارمٌ يَقصُـرُ عنهـا الوَصْـفُ | وغُرَّة يَحْسرُ عنها الطَّـرفُ[4]
وشِيمـةٌ كـالصّـاب أو كـالماء | وَهِمَّـة تَـرقَـى إلى السماء[5]
وآنظر إلى الرفيع مـن بُنيـانـه | يُريك بِدْعـاً مـن عَظيم شَـانِـه
لو خايل البحـرُ نَـدَى يَـديْـهِ | إذَا لَجَـت عُفـاتُـه إلَيْـهِ[6]
لغـاضَ أو لكـاد أن يَغِيضَـا | ولا آستَحى من بعدُ أن يفِيضَا[7]
مَن أَسبغ النُّعمى وكانت مَحْقَـا | وفتَّـق الدُّنيـا وكـانـت رَتقـا
هو الذي جمّـع شمْـلَ الأُمـهْ | وجاب عنها دامسـاتِ الظُلْمَـة
وجَدَّد المُلك الذي قـد أَخْلَقـا | حتى رَسَت أوتادُه وآسْتَـوسقَـا
وجمّـع العُـدّة والعَـديــدا | وكَثَّـفَ الأَجْنـاد والحُشــودا

(١) الناظور: الحارس. (٢) الغوث: الإعانة والنصرة.
(٣) الجنائب: جمع جنوب: وهي ريح تخالف الشمال.
(٤) الغرة من الرجل: وجهه.
(٥) الصاب: المطر بقدر ما ينفع ولا يؤذي.
(٦) المخايلة: المباراة.
(٧) غاض: نقص.

أول غزاة غزاها أمير المؤمنين

عبد الرحمن بن محمد

ثم ٱنتحى جَيَّان في غزاتِه بعسكرٍ يسعرُ من حُماته
فاستْنزلَ الوحشَ مِنَ الهضاب كأنما حطَّتْ مِنَ السَّحاب
فأذعنَتْ مُرَّاقُها سِراعا وأقبلَتْ حُصونُها تَداعَى[1]
لمّا رماها بسيوفِ العزْمِ مشحوذَةً على دروعِ الحزمِ
كادْت لها أنفسُهم تجودُ وكادت الأرضُ بهم تَميد[2]
لولا الإلٰهُ زُلْزِلت زلزالها وأخرَجت من رهبةٍ أثقالها
فأنزل الناسَ إلى البسيطِ وقطع البيْنَ منَ الخليطِ
وافتتحَ الحصونَ حِصناً حصنا وأوسعَ الناسَ جميعاً أمْنا
ولم يَزلْ حتى ٱنتحى جيَّانا فلم يَدع بأرضِها شيطانا
فأصبحَ الناسُ جميعاً أُمّهْ قد عقدَ الإلَّ لهم والذِّمّهْ[3]
ثم انتحى من فوره إلبيرهْ وهْيَ بكلِّ آفةٍ مشهورَهْ[4]
فداسها بخيْلهِ ورجْلِه حتى توطَّا خدّها بنعْله
ولم يَدع من جنِّها مَريدا بها ولا من إنْسِها عنيدا[5]
إلاَّ كساهُ الذُّل والصَّغارا وعمَّهُ وأهلَهُ دمارا
فما رأيتُ مِثل ذاك العامِ ومثلَ صُنعِ ٱللهِ للإسلامِ
فانصرفَ الأميرُ من غزاته وقد شفاهُ الله من عُداتهْ
وقبلها ما خضعَت وأذعنَت إستِجَّة وطالما قد صنعتْ[6]
وبعدها مدينةُ الشِّئيلِ ما أذعنَتْ لِلصَّارِمِ الصَّقيلِ[7]

---

(١) أذعنت: رضخت .

(٢) تميد بهم الأرض: تدور كأنها تضطرب به .

(٣) الإلّ: العهد .

(٤) البيرة: كورة كبيرة من الأندلس . (٥) المريد: الشديد العتو، والخبيث المتمرد .

(٦) إستجة: كورة بالاندلس . (٧) الشئيل: أحد نهري غرناطة .

لَمّا غــزاهــا قــائــدُ الأميرِ   باليمُــنِ في لــوائــه المنصــور
فأسلمــت ولم تكُــن بــالمُسلِمــهْ   وزال عنهــا أحمدُ بن مَسلَمــهْ
وبعـدَهــا في آخــر الشهــور   من ذلك العــام الزكــيِّ النُّــورِ
أرْجفــتِ القلاعُ والحصــونُ   كــأنما ســاوَرهــا المَنــونُ
وأقبلــتْ رجــالها وُفــودا   تبغي لدى إمــامهــا السُّعــودا
وليس مــن ذي عــزةٍ وشــدّةْ   إلا تَوافوْا عند باب السُّــدّهْ[1]
قلــوبُهــم بــاخعــة بــالطــاعــهْ   قد أجمعوا الدخولَ في الجماعــهْ[2]

سنة إحدى وثلثمائة

ثم غزا في عقْــب عــام قــابــلِ   فحال في شذَونَةٍ والسَّاحــلِ[3]
ولم يــدعْ مَــريَّــة الجزيــرهْ   حتى كوَى أكْلُبَهــا الهريــره[4]
حتى أنــاخ بــذرَى قــرْمــونَــهْ   بكلْكلٍ كمدْرة الطاحونَــهْ[5]
على الذي خالف فيها وٱنتَــزى   يُعزى إلى ســوادةِ إذا ٱعتَــزى
فســال أن يُمهلــه شهــورا   ثم يكــون عبــده المأمــورا
فأسعَــف الأميرُ منــه مــا ســألْ   وعاد بالفضْــل عليــه وقفَــلْ[6]

سنة اثنتين وثلثمائة

كــان بها القُفــول عنــد الجيْئَــهْ   من غــزْو إحــدى وثلثمائــهْ[7]
فلم يكــن يُــدرَك في بــاقيهــا   غــزوٌ ولا بعــثٌ يكــون فيهــا

---

(١) توافوا : توافدوا .
(٢) بخع : تذلل وأطاع وأقر .
(٣) شذونه : مدينة بالأندلس .
(٤) الهريرة : الكراهية .
(٥) قرمونة : مدينة بالأندلس .
(٦) قفل : رجع .
(٧) الجيئة : الإتيان والحضور .

سنة ثلاث وثلثمائة

ثُمَّتْ أغْـزَى في الثلاث عَمَّـهْ — وقـد كسـاه عـزْمَـه وحـزمـهْ
فسار في جيشِ شديد البٰاسِ — وقـائـدِ الجيش أبـو العبّـاسِ
حتى تَـرقَّـى بـذُرَى بُبَشتَـر — وجال في ساحتِها بـالعسْكـر
فلم يـدعْ زرْعـا ولا ثِمارا — لهم ولا علْفـاً ولا عَقـارا
وقطعَ الكـرومَ منهـا والشجـرْ — ولم يُبايع عِلْجُهـا ولا ظهـرْ[1]
ثم انثنَى مـن بعـد ذاك قـافلا — وقـد أبـاد الزرع والمآكِلا
فـأيقـن الخنـزيـرُ عنـد ذاكـا — أن لا بقـاءَ يُـرتَجـى هنـاكـا
فكـاتَـب الإمـامَ بـالإجـابـهْ — والسَّمْـعِ والطـاعـة والإنـابَـهْ
فـأخْمَـد اللهُ شهـابَ الفتنـهْ — وأصبح النـاسُ معـاً في هـدنَـهْ
وآرتعتِ الشـاةُ معـاً والذِّيـبُ — إذْ وضَعتْ أوزارهـا الحروبُ

سنة أربع وثلثمائة

وبعدها كـانـت غَـزاة أربـعِ — فأيَّ صُنْعٍ ربُّنا لم يصنـعِ . . .
. . . فيها، ببسْط الملِـك الأوّاهِ — كلْتـا يـديْـه في سبيـل اللهِ
وذاك أنْ قـوَّدَ قـائِـديْـن — بالنَّصر والتـأييـد ظـاهـريْـن
هـذا إلى الثَّغْـر ومـا يليـهِ — على عـدوِّ الشِّـرْك أو ذَويـهِ
وذا إلى شمِّ الرُّبا مـن مُـرسيَـهْ — وما مضى جرى إلى بَلَنْسيـهْ[2]
فكـان مَـن وجَّهـه للسـاحـلِ — القُـرشيَّ القـائِـدَ القُنـابـلِ[3]
وآبنَ أبي عبـدةَ نَحـو الشِّـركِ — في خيْـر مـا تعْبيـةٍ وشِـكِّ[4]
فـأقْبَلا بكـلِّ فتْـحٍ شـامـلِ — وكـلِّ ثُكْـلٍ للعـدوِّ ثـاكـلِ
وبعـد هٰـذي الغـزوةِ الغـرّاءِ — كان آفتتـاحُ ليلـةَ الحمـراءِ[5]

---

(١) العلج: كل جاف شديد من الرجال.

(٢) مرسيه وبلنسيه: مدينتان اندلسيتان.

(٣) القُنابل: الرجل الغليظ الشديد والعظيم الرأس.

(٤) الشَّك: السلاح. (٥) ليله الحمراء: قصبة كورة بالأندلس.

أغْزَى بجندٍ نَحوها مولاهْ … في عقْبِ هذا العامِ لا سواهُ
بَدْراً ، فضَمَّ جانبيْه ضمَّهْ … وغَمَّها حتى أجابتْ حُكمهْ
وأسلمتْ صاحبَها مقْهوراً … حتى أتى بَدْرٌ به مأسورا

سنة خمس وثلثمائة

وبعدها كانت غَزاة خَمْسِ … إلى السَّواديِّ عقيد النّحْسِ
لمّا طغى وجاوز الحدُودا … ونقَض الميثاق والعهودا
ونابَذ السُّلطان من شقائِهْ … ومن تعدِّيه وسوءِ رائِهْ
أغْزى إليه القرشيَّ القائدا … إذ صار عن قصْد السبيْل حائدا
ثُمَّتَ شدَّ أزره ببدْرِ … فكان كالشَّفْعِ لهذا الوِتْرِ[1]
أحْدقها بالخيلِ والرجالِ … مُشمِّراً وجدَّ في القتالِ
فنازلَ الحصْنَ العظيمَ الشَّانِ … بالرَّجْلِ والرُّماة والفُرسانِ
فلم يزلْ بدرٌ بها مُحاصِرا … كذا على قتاله مُثابِرا
والكلب في تَهوُّرٍ قد انغمس … وضيَّق الحلْقَ عليه والنَّفَسْ
فافتَرق الأصحابُ عن لِوائِه … وفتَحوا الأبوابَ دون رائِه
واقتحمَ العسكرُ في المدينهْ … وهو بها كهيئة الظَّعينهْ[2]
مستسلِماً للذلِّ والصَّغارِ … ومُلْقياً يديه للإسارِ
فنَزع الحاجبُ تاجَ مُلْكهْ … وقاده مكتَّفاً لهُلْكهْ[3]
وكان في آخر هذا العامِ … نكْبُ أبي العبّاس بالإسلامِ
غزا فكان أنجدَ الأنجادِ … وقائداً من أفحل القوّادِ
فسار في غير رجال الحربِ … الضاربين عند وقْت الضرْبِ
مُحارباً في غير ما مُحاربِ … والحشَم الجمهور عند الحاجبِ

(١) الشفع والوتر: المزدوج والمفرد.
(٢) الظعينة: الراحلة يرتحل عليها.
(٣) الهُلك: الهلاك.

وٱجتمعتْ إليه أخلاطُ الكُوَرْ وغاب ذو التَّحصيل عنه والنظرْ [1]
حتى إذا أوْغـل في العـدوِّ فكـان بين البُعـد والدُّنُـوِّ
أسلَمه أهلُ القلوب القاسيـهْ وأفـرَدوه للكلاب العـاويَـهْ
فـاستشْهـدَ القـائِـدُ في أبـرارِ قد وهَبـوا نفـوسَهـم للبـاري
في غير تـأْخيرِ ولا فِـرارِ إلا شـديـدَ الضرْبِ للكفْـارِ

سنة ست وثلثمائة

قـم أقاد اللهُ مـن أعـدائِـهِ وأحكـمَ النصرَ لأوليـائِـهِ
في مبدأ العامِ الذي من قابـلِ أزْهق فيه الحقُّ نفْسَ البـاطِـلِ
فكان من رأْي الإمـام الماجـدِ وخير مـولـودٍ وخير والدِ
أن ٱحتمَي للـواحـد القهّـارِ وفاض مـن غيـظٍ على الكفّـارِ
فجمـع الأجْنـاد والحُشـودا ونفَّـر السيِّـدَ والمَسـودا
وحشَـر الأطْـرافَ والثُّغـورا ورفَـض اللَّـذَّةَ والحُبُـورا [2]
حتى إذا مـا وافَـتِ الجنـودُ وٱجتمـعَ الحُشّـادُ والحُشـودُ
قوَّدَ بَدْراً أمْرَ تلـك الطـائفـةْ وكانـت النفسُ عليـه خـائفـهْ
فسار في كتـائـبٍ كـالسَّيْـلِ وعسكـر مثْـل سـواد الليـلِ
حتى إذا حـلَّ على مُطنِيَّـهْ وكان فيها أخبـثُ البَـرِّيـهْ [3]
نـاصَبَهـم حـربـاً لها شَـرارُ كـأنما أُضرِمَ فيهـا النـارُ
وجَـدَّ مـن بينِهـم القتـالُ وأحـدقـتْ حـولهم الرجـالُ
فحـارَبـوا يـومَهـمُ وبـاتـوا وقـد نفـتْ نَـوْمَهـمُ الرُّمـاةُ
فهمْ طَوالَ الليـل كـالطَّلائـحِ جِراحُهم تَنْغَـلُ في الجَوارحِ [4]
ثم مضـوْا في حـربهمْ أيّـامـاً حتى بَـدا الموتَ لهم زُؤامـا

---

(١) الأخلاط: جمع الخلط: وهو المختلط النسب.

(٢) الحبور: السرور.

(٣) مطنيّة: اسم موضع.

(٤) الطلائح: الإبل أعيت وتعبت. ونغل الجرح: فسد.

لمّا رأَوْا سَحائبَ المَنيَّهْ تُمْطِرُهمْ صَواعِقَ البليهْ
تغلْغلَ العُجمُ بأرض العَجمِ وانحشَدوا من تَحتِ كلِّ نَجْمِ
فأَقبلَ العِلْجُ لهم مُغيثا يومَ الخميس مُسرعا حثِيثا[1]
بين يديه الرَّجْلِ والفوارسُ وحوْله الصُّلْبانُ والنَّواقسُ
وكان يرجو أنْ يُزيلَ العَسكرا عن جانب الحِصن الذي قد دُمِّرا
فاعتاقه بدرٌ بمن لديْهِ مُسْتبصراً في زحْفِه إليهِ
حتى الْتقَتْ مَيمَنَةٌ بميْسرهْ وآعتَلتِ الأرواحُ عند الحنْجَرهْ
ففازَ حزْبُ اللهِ بالعلْجَان وانهزَمَتْ بطانةُ الشيطان
فقتِلوا قتْلاً ذريعاً فاشيا وأدْبَر العِلْجُ ذمياً خازيا
وانصرف الناس إلى القُليعة فصبَّحوا العدوّ يومَ الجمعهْ
ثم التقى العلْجانِ في الطريقِ البنْبَلونيُّ مع الجلِّيقي
فأعقدا على انتِهابِ العسكَرِ وأن يموتا قبل ذاكَ المحْضَرِ
وأقْسَا بالجبْتِ والطاغُوتِ لا يُهزَما دون لِقاءِ الموت[2]
فأقبَلوا بأعظم الطُّغيان قد جَلَّلوا الجبالَ بالفُرسان
حتى تداعَى الناسُ يومَ السْبتِ فكان وقتاً يا له من وقْتِ
فأَشرعتْ بينَهُمُ الرماحُ وقد علا التَّكبيرُ والصِّياحُ
وفارقَتْ أغمادَها السُّيوفُ وفغَرتْ أفواهها الحتُوف[3]
والتقَتِ الرجالُ بالرجال وانغَمَسوا في غمرةِ القتال
في موقفٍ زاغت به الأبصارُ وقصرَتْ في طولِه الأعمارُ
وهبَّ أهلُ الصبر والبصائرِ فأوعقوا على العَدُوِّ الكافرِ[4]

---

(١) العلج: كل جاف شديد من الرجال.
(٢) الجبت: كل ما يعبد من دون الله.
(٣) فغر: فتح. والحتوف: المنايا.
(٤) أوعق الغارة: بثها.

حتى بدت هـزيمةُ البْشكنْس ... كأنَّه مُخْتَضِبٌ بالورْسِ [1]

فانقضَّتِ العِقْبانُ والسلالِقَهْ ... زعْقاً على مُقدِّمِ الجلالِقَهْ [2]

عِقْبانُ موتٍ تخطِفُ الأرواحا ... وتُشْبِعُ السُّيوفَ والرماحا

فانهزَمَ الخِنزيرُ عندَ ذاكا ... وانكشَفت عورَتُه هُناكَ

فقُتِلوا في بطنِ كلِّ وادي ... وجاءَتِ الرُّءوسُ في الأعوادِ

وقدّم القائدُ ألْفَ راسِ ... مِنَ الجلاليق ذوي العَمّاسِ [3]

فتمَّ صُنْعُ اللهِ للإسلامِ ... وعمَّنا سُرورُ ذاكَ العامِ

وخيْرُ ما فيه من السُّرورِ ... موتُ ابن حفْصُونَ به الخِنْزيرِ

فاتَّصلَ الفَتْحُ بفتحٍ ثانِ ... والنَّصرُ بالنَّصْرِ من الرَّحْمٰنِ

وهٰذِهِ الغَزاةُ تدعى القاضِيهْ ... وقد أَتَتْهُمْ بعد ذاكَ الداهيهْ

سنة سبع وثلثمائة

وبعدها كانت غَزاةُ بلدهْ ... وهِيَ التي أوْدت بأهْلِ الرَّدَّهْ [4]

وبَدْؤُها أنّ الإمامَ المصْطفى ... أصْدَقَ أهلِ الأرضِ عدْلاً ووفا

لما أتته ميتةُ الخنزيرِ ... وأنه صارَ إلى السَّعيرِ

كاتَبَهْ أولادُه بالطاعهْ ... وبالدُّخول مدخَلَ الجماعهْ

وأن يُقِرَّهم على الولايه ... على وُرودِ الخرْجِ والجبايه

فاختارَ ذلك الإمامُ المفْضِلُ ... ولم يزل من رأيه التَّفضُّلُ

ثم لوى الشيطانُ رأسَ جعْفَرِ ... وصار منه نافخاً في المِنْخَرِ

فنقَضَ العُهُودَ والميثاقا ... واستعْمَلَ التَّشْغيبَ والنْفاقا [5]

---

(١) البشكنس: سكان الأندلس.

(٢) زعقه: ذعره.

(٣) ذوي العماس: ذوي الشدة والباس.

(٤) بلدة: مدينة بالأندلس.

(٥) التشغيب: تصنع الشغب.

وضَمَّ أهْلَ النَّكْثِ والخلافِ ... مِن غير ما كافٍ وغير وافي

فاعْتاقه الخليفةُ المؤيَّدُ ... وهْو الذي يشقِي به ويسعَدُ[1]

ومن عليْهِ من عُيونِ اللهِ ... حوافظ من كلِّ أمْرٍ داهِ

فجنَّدَ الجنودَ والكتائبا ... وقوَّدَ القوّادَ والمقانبا[2]

ثم غزا في أكثرِ العديدِ ... مُستْصحباً بالنَّصرِ والتأْييدِ

حتى إذا مرَّ بحصنِ بَلَده ... خلف فيه قائداً في عدّهْ

يمنَعْهمْ من انتشارِ خيْلِهْم ... وحارساً في يومهمْ وليلهمْ

ثمّ مَضى يستنزِلُ الحصُونا ... ويَبعثُ الطّلاعَ والعيونا

حتى أتاه باشرٌ من بلْدهْ ... يعدو برأسِ رأْسِها في صَعْدَهْ[3]

فقدّمَ الخيلَ إليها مُسرِعا ... واحتلّها من يومهِ تسرُّعا

فحفَّها بالخيلِ والرُّماةِ ... وجُملةِ الحُماةِ والكُماةِ[4]

فأَطْلعَ الرْجلَ على أنقابها ... واقتحِم الجنْدَ على أبوابها[5]

فأذْعنت ولم تكن بمُذْعِنة ... وآستسلَمت كافرةٌ لمؤْمنَهْ

فقُدِّمَت كُفارُها للسيفِ ... وقُتِّلوا بالحقِّ لا بالحيْفِ[6]

وذاك من يُمنِ الإمام المرتضَى ... وخيرِ مَن بقي وخيرِ من مضى

ثم انتحى من فوْره برْ بشْتَرا ... فلم يدَعْ بها قضيباً أخضرا

وحطَّم النَّبات والزُّروعا ... وهَتَكَ الرباعَ والرُّبوعا

فإذْ رأى الكلْبُ الذي رآه ... من عزْمهِ في قطعِ مُنْتواهُ[7]

---

(١) اعتاقه: صرفه وثبطه.

(٢) المقانب: جمع مقنب وهي الجماعة من الفرسان دون المائة.

(٣) الباشر: المبشّر.

(٤) الكماة: الفوارس.

(٥) انقابها: مداخلها ومنافذها وطرقها.

(٦) الحيف: الظلم.

(٧) المنتوى: صاحب الأمر والنهي.

ألقى إليه باليدَيْن ضارعا وسال أن يبقي عليه وادعا
وأن يكون عاملا في طاعتِهْ على دُرُورِ الخرْجِ من جِبايتِه
فوثِق الإمام من رِهانِه كيلا يكون في عمًى من شانه
وقبل الإمامُ ذاكَ منه فضلاً وإحساناً وسار عنه

سنة ثمان وثلثمائة

ثم غزا الإمام دارَ الحرْبِ فكان خطباً يا له من خطْبِ
فحُشِدت إليه أعلامُ الكُورْ ومن له في النار ذِكرٌ وخطر[1]
إلى ذَوي الديوانِ والرايات وكلِّ مَنْسوبٍ إلى الشاماتِ
وكلِّ من أخلَصَ للرَّحْمٰنِ بطاعةٍ في السر والإعلان
وكلِّ من طاوع بالجهاد أو ضمه سرجٌ على الجياد
فكان حشداً يا له من حشْدِ من كلِّ حُرٍّ عندنا وعبدِ
فتحسِبُ الناسَ جرَاداً منتشِر كما يقولُ ربُّنا فيمن حُشِرْ
ثم مضى المُظفَّر المنصورُ على جبينِه الهدى والنُّورُ
أمامَه جُنْدٌ من الملائكه آخذةٌ لربِّها وتاركه
حتى إذا فوّزَ في العدوّ جنَّبهُ الرحْمٰنُ كل سو[2]
وأنزلَ الجزية والدواهِي على الذين أشركوا بالله
فزلزِلتْ أقدامُهم بالرُّعبِ واستنفَروا من خوف نارِ الحرب
واقتحموا الشِّعابَ والمكامِنا وأسْلَموا الحصون والمدائنا[3]
فما تبقَّى من جنابِ دورِ من بيعةٍ لراهبٍ أو ديرِ
إلا وقد صيَّرها هباءَ كالنارِ إذ وافقتِ الأباءَ[4]
وزعزَعتْ كتائبُ السُّلطان بكلِّ ما فيها من البنيان
فكان من أوّل حصنٍ زعْزَعوا ومن به من العدوِّ أوقَعوا

---

(١) الكور: جمع الكورة: وهي الناحية.

(٢) فوّز: مضى.

(٣) الشّعاب: الطرق. (٤) الأباء: القصب.

مـدينـة معـرُوفـة بـوخْشمَـهْ فغادرُوهـا فَحْمَـة مُسخَّمـهْ [1]
ثم ارتَقَـوْا منهـا إلى حَـواضر فغادروهـا مثْـل أمسِ الدابـرِ
ثم مضـوْا والعِلْـجُ يحتَـذِيهمْ بجيشـــهِ يمشي ويقْتفيهـــمْ
حتى انتهـوْا منه لـوادِي ديٍّ ففيه عفَّى الرُّشـدُ سُبْـلَ الغَـيِّ
لمّا التقـوْا بمَجْمَـعِ الجوزَيْـن واجتمَعـت كتـائـبُ العِلْجين
مـن أهـلِ اليُـونَ وبَنْبَلُـونَـه وأهل أَرْنيـط وبَـرْشِلـونَـهْ [2]
تضـافَـرَ الكفـرُ مـع الإلحادِ واجتمعـوا مـن سـائِـر البلادِ
فاضْطَربوا في سفحِ طوْدٍ عـالِ وصففّـوا تعبيَـةَ القتـال [3]
فبـادرت إليهـم المقـدّمَـهْ سـاميـةً في خيلِهـا المُسَـوَّمَـه
وردُّهـــا متَصِـــل بـــرِدّ يَمُدُّهْ بحـرٌ عظيـم المـدّ [4]
فـانهزمَ العِلجـان في علاج ولبسوا ثوبـاً مـن العَجـاجِ [5]
كلاهُما ينظُـرُ حيْنـاً خلْفَـهُ فهْوَ يَرى في كلِّ وجْـهٍ حتْفَـهُ
والبيضُ في آثـارهـم والسُّمْـرُ والقتلُ ماضٍ فيهـم والأسرُ [6]
فلم يكـن للنَّـاسِ مـن بَـراحِ وجـاءَتِ الرؤوس في الرِّمـاحِ
فـأمَـرَ الأميرُ بـالتَّقْـويـض وأسْـرعَ العسْكَـرُ في النُّهـوض
فصادَفوا الجمهورَ لمّا هُـزمـوا وعاينوا قُوّادَهم تُخُـرِّمـوا [7]
فـدخَلـوا حـديقـةً للمـوْتِ إذ طمِعوا في حِصْنِها بالفَـوْتِ
فيـا لها حـديقــةً ويــا لَهــا وافت بها نُفـوسُهُـم آجـالَهـا

---

(١) مسخّمة: سوداء.
(٢) أليون: ليون: وهي قاعدة من قواعد قشتالة. وبنبلونه وأرنيط: مدينتان بالأندلس.
(٣) الطود: الجبل.
(٤) الرّد: امتلاء الضرع من اللبن قبل النتاج.
(٥) العجاج: الغبار.
(٦) البيض: السيوف.. والسمر: الرماح.
(٧) تُخُرموا: فنوا.

تَحصَّنوا إذ عاينوا الأهْـوالا ... بمعْقِـل كـان لهم عِقـالا
وصَخْرةٍ كانت عليهم صَيْلَما ... وانقلَبـوا منهـا إلى جَهنما [1]
تَسـاقـوا يَسْتطعِمـون الماءَ ... فـأُخـرجَـتْ أرواحُهـم ظِماءَ
فكـم لسيْـفِ الله مـن جَـزورِ ... في مأدب الغِرْبان والنُّسـورِ [2]
وكم بـه قتْلى مـنَ القسـاوس ... تنْـدَب للصُّلْبـان والنَّـواقِسِ
ثم ثنَـى عِنـانَـه الأمير ... وحـوْلـه التَّهْليـل والتَّكْبيرُ
مُصمِّماً بحرب دار الحربِ ... قَـدَّامَـه كَتـائـبٌ مـن عُـرْبِ
فـداسَهـا وسـامَهـا بـالخسْـف ... والهِتْك والسَّفْـك لها والنَّسْـف
فحرَّقوا ومـزَّقـوا الحصـونـا ... وأسْخنوا مـن أهلهـا العيـونـا
فـانظُـر عـن اليمين واليسـار ... فما تَـرى إلا لهيـبَ النـار
وأصبحَـتْ ديـارُهـم بَلاقِعـا ... فما ترى إلا دُخاناً سـاطعَـا [3]
ونصرِ الإمـام فيهـا المصطفـى ... وقد شفَى من العـدُوِّ واشتفَـى

غزوة سنة تسع وثلثمائة

وبعدها كـانـت غَـزاة طَـرَّش ... سَمَت إليها جيشُـه لم يُنْهش [4]
وأَحدَقـتْ بحصِنْهـا الأفـاعـي ... وكلُّ صـلٍّ أسْـودُ شُجـاعِ [5]
ثم بنـى حصنـاً عليهـا راتبـا ... يَعْتـورِ القـوّادَ فيـه دائبـا
حتى أنـابـت عَنْـوةً جنَّـانُهـا ... وغاب عن يافوخِها شيْطـانُهـا
فـأذعنَـتْ لسيِّـد السـادات ... وأكـرمِ الأحيـاءِ والأمـوات
خليفـةِ الله على عبـادِهْ ... وخير مـن يَحكُـمُ في بلادهْ

---

(١) الصيلم: الأمر الشديد.

(٢) الجزور: ما يصلح لأن يذبح من الأبل.

(٣) البلقع: الخالي من كل شيء.

(٤) طرش: ناحية بالأندلس. ولم ينهش: لم يعيَ ولم يجهد.

(٥) الصّل: الحية من أخبث الحيات.

وكـان مـوْتُ بـدْرِ آبن أحمدِ   بعـد قُفـول الملِـكِ المؤيَّـدِ
واستَحجَب الإمام خيْرَ حاجبِ   وخيْرَ مصحوبِ وخيْرَ صاحبِ
موسى الأغَرَّ مـن بني جُـديْـر   عقيـدَ كـلِّ رأفـةٍ وخَيرِ

سنة عشر وثلثمائة

وبعـدهـا غَـزاة عَشْـرِ غَـزْوهْ   بها آفتتـاحُ منتلـون عَنْـوهْ
غزَا الإمـام في ذوي السُّلْطـان   يَؤمُّ أهل النَّكْث والطُّغيـانِ (١)
فاحتلَّ حصنَ منتلـون قـاطعـا   أسبابَ من أصبحَ فيه خـالعـا
سـار إليـه وبنى عليـه   حتى أتـاه مُلْقيـاً يـديْـه
ثم انثنَـى عنـه إلى شَـذونَـهْ   فعاضَها سهلا مـن الحُزونَـهْ(٢)
وسـاقَهـا بـالأهـل والولـدان   إلى لـزوم قُبَّـةِ الإيمان
ولم يـدعْ صعبـاً ولا منيعـاً   إلا وقـد أذلهم جميعـا
ثم انثنَـى بـأطيـب القفـول   كما مضى بـأحسـن الفصـول

سنة إحدى عشر وثلثمائة

وبعدَها غَـزاة إحـدى عشْـرهْ   كم نبّهتْ مـن نـائمٍ في سَكْـرَهْ
غـزا الإمـام يَنْتحي بُبَشْتَـرا   في عسكرٍ أعظِمْ بذاك عسكَـرا
فـاحتـلَّ مـن بُبشْترٍ ذُراهـا   وجال في شاطٍ وفي سواهـا(٣)
فخـرّب العُمْـران مـن بُبَشْتَـر   وأذْعَنتْ شاطُ لربِّ العسكـر(٤)
فـأدخَـلَ العُـدّة والعَـديـدا   فيهـا ولم يَتركْ بها عنيـدا
ثم انتحى بعدُ حُصـونَ العُجـم   فداسها بالقَضْم بعدَ الخَضْـم(٥)
ما كان في سواحـلِ البُحـور   منهـا وفي الغـابـات والوُعـور

---

(١) يؤم: يقصد.   (٢) شذونة: مدينة بالأندلس.
(٣) ببشتر: حصن بالاندلس.   (٤) شاط: حصن بالأندلس.
(٥) القضم: الأكل بأطراف الأسنان. والخضم: الأكل بأقصى الأضراس.

وأدخَـلَ الطَّـاعــةَ في مكــان ... لم يَـدْر قـطُّ طـاعـةَ السُّلطـان

ثم رمـى الثَّغـر بخيْـر قـائــد ... وذادهُـمْ منهـا بخيْـر ذائـد[1]

بــه قما الله ذوي الإشْــراكِ ... وأنقـذ الثّغـرَ مــن الهلاك[2]

وآنتاش مـن مَهْـواتِهـا تُطيلـهْ ... وقد ثوَتْ دماؤها مطلـولـهْ[3]

وسهّــل الثّغـــر ومـــا يليــه ... من شيعـةِ الكُفْـر ومـن ذويـه

ثم انثنَـى بـالفتـحِ والنجـاحِ ... قـد غيَّـر الفسـادَ بــالصلاحِ

سنة اثنتي عشر وثلثمائة

وبعـدهـا غَـزاة ثِنْتَـى عشْـرَهْ ... وكم بها مـن حسْـرةٍ وعبْـرهْ

غـزا الإمـامُ حـولـه كتـائبُـهْ ... كالبدر مَحْفوفاً به كواكبُـهْ[4]

غـزا وسيْـفُ النصر في يمينِـه ... وطـالـعُ السعــدِ على جبينـــهْ

وصـاحـبُ العسكـر والتَّـدْبير ... موسى الأغرُّ حاجـب الأمير[5]

فـدَمَّـر الحصْـونَ مـن تُـدْمير ... وآستَنزل الوحشَ من الصُّخور[6]

فاجتمَعـتْ عليـه كـلُّ الأمّــهْ ... وبــايعتــه أُمــراءُ الفتنــهْ

حتى إذا أوْعَب من حُصونِهـا ... وحَمَّـل الحقَّ على مُتـونِهـا[7]

مضى وسار في ظِلال العسكـر ... تحت لـواءِ الأسـد الغضَنْفَـر

رجـالُ تُـدْميرِ ومَــن يليهــم ... من كلِّ صِنْفٍ يَعتَـزي إليهـم

حتى إذا حـــلَّ على تُطِيلـــهْ ... بكـت على دمـائها المَطْـولــهْ

وعُظْـم مـا لاقـت مـن العـدوِّ ... والحرب في الرَّواحِ والغُـــدُوِّ

فهَـمَّ أنْ يُـديـــخَ دارَ الحرب ... وأن يكـونَ ردْأةً في الدَّرْب[8]

---

(١) الثغر: كل موضع قريب من أرض العدو.

(٢) قما: قمع.

(٣) تطيله: مدينة بالأندلس.

(٤) الكتائب: جمع كتيبة: وهي الفرقة العظيمة من الجيش.

(٥) الأغر: السيد الشريف. (٦) تدمير: كورة بالأندلس شرقي قرطبة.

(٧) أوعب الشي: أخذه أجمع. (٨) يديخ: أي يقهرها ويستولي عليها.

ثم آستشار ذا النُّهَى والحِجْر   من صَحْبه ومن رجال الثَّغْر

فكلُّهُم أشار أنْ لا يُدْربا   ولا يجوز الجبلَ المُؤشَّبا

لأنه في عسكرٍ قد آنخرمْ   بندْب كلِّ العُرَفاء والحشَمْ

وشنَّعوا أنَّ وراءَ الفَجِّ   خمسين ألفاً منْ رجال العِلْجِ

فقال لا بُدّ من الدُّخول   وما إلى حاشاهُ من سبيلِ

وأنْ أُديخ أرضَ بَنْبَلونَه   وساحةَ المدينةِ الملْعونَهْ

وكان رأياً لم يكن من صاحب   ساعَدَه عليه غير الحاجب

وآستَنصر الله وعَبَّى ودخلْ   فكان فتْحاً لم يكن له مثَل[١]

لمّا مضى وجاز الدُّرُوبا   وآدّرَع الهيْجاءَ والحروبا[٢]

عَبَّى له عِلْجٌ من الأعلاجِ   كتائباً غطَّتْ على الفِجَاجِ[٣]

فاستَنصرَ الإمامُ ربَّ الناس   ثم آستعان بالنَّدى والبَاسِ

وعاذ بالرَّغْبة والدعاء   وآستنزل النَّصْرَ من السَّماء

فقدَم القُوّادَ بالحُشود   وأتبعَ المُدود بالمُدودِ

فانهزَم العِلْجُ وكانت مَلْحَمهْ   جاوزَ فيها السَّاقةُ المقَدِّمهْ[٤]

فقتلوا مقْتلةَ الفناء   فارْتَوتِ البيضُ من الدِّماء

ثم أمالَ نحو بَنبلونَه   وآقتحَم العسكرُ في المدينهْ

حتى إذا جاسوا خلال دُورها   وأسرَع الخرابُ في مَعْمورها

بكتْ على ما فاتَها النَّواظِرُ   إذ جُعِلَت تدقّها الحوافِر

لفقْد منْ قتّل من رجالِها   وذُلِّ من أيْتم من أطفالها

فكم بها وحوْلها مِن أغْلَفِ   تَهمِي عليه الدمعَ عين الأسقَفِ[٥]

---

(١) عبأ الشيء: هيأه. وعبّى: عبأ. والمراد هنا تعبئة الجيوش وتهيأتها للحرب.

(٢) ادّرع الحروب: خاض غمارها.

(٣) الفجاج: جمع الفَجّ، وهو الطريق الواسع البعيد.

(٤) الساقة من الجيش: مؤخّرُهُ.

(٥) الأغلف: الذي لا يعي.

وكم بها حَقّر من كنائس ... بَدّلت الأذان بالنّواقِس
يبكي لها النّاقوسُ والصّليبُ ... كلاهُما فرْضٌ له النّحيب
وانصرف الإمامُ بالنَّجاحِ ... والنصْرِ والتأْييدِ والفلاحِ
ثم ثنَى الرّايات في طريقهْ ... إلى بَني ذي النُّون من توْفيقهْ
فأصبحوا من بسطِهم في قبْض ... قد أُلصقت خُدودُهم بالأرض[1]
حتى بَدوْا إليه بالبرْهان ... من أكبر الآباء والوِلدان
فالحمدُ لله على تأْييدِهْ ... حمداً كثيراً وعلى تسديدِهْ

سنة ثلاث عشرة وثلثمائة

ثم غزا بيُمنه أشونا ... وقد أشادوا حوْلها حُصونَا[2]
وحفّها بالخيْلِ والرِّجالِ ... وقاتلوهُمْ أبلغَ القِتال
حتى إذا ما عايَنوا الهلاكا ... تبادَروا بالطّوْع حينذاكا
وأسلَموا حِصْنَهُم المنيعا ... وسمَحوا بخَرْجهِمْ خُضوعا
وقبْلهم في هذِه الغمزاةِ ... ما هُدمتْ معاقل العُصاة
وأحكَم الإمامُ في تدبيرهْ ... على بَني هابلَ في مسيرهْ
ومن سِواهم من ذَوي العشيرَهْ ... وأُمراء الفِتنة المُغيرهْ
إذ حبسوا مراقَباً عليهم ... حتى أتوْا بكلِّ ما لديهم
منَ البنينَ والعيالِ والحشَمْ ... وكلِّ من لاذ بهم منَ الخدمْ
فهبطُوا من أجمَعِ البُلْدانِ ... وأُسكِنوا مدينة السُّلطانِ
فكان في آخر هذا العامِ ... بعدَ خضوعِ الكُفرِ للإسلامِ
مشاهِدٌ من أعظم المشاهِد ... على يديْ عبد الحميدِ القائِدِ
لمّا غزا إلى بني ذي النونِ ... فكان فتحاً لم يكُن بالدُّون[3]

---

(١) القبض: التجمع والإنطواء.
(٢) أشونا: حصن بالأندلس. (٣) الدّون: الحقير.

إذ جاوزَوا في الظلمِ والطُّغيان ... بقتلِهم لعامِلِ السُّلطان
وحاوَلوا الدخولَ في الأذيَّهْ ... حتى غزاهُمْ أنجدُ البَريَّهْ
فعاقهُم عن كلِّ ما رجوْهُ ... بنقضِهِ كلَّ الذي بنوْهُ
وضبْطِه الحِصنَ العظيمَ الشَّان ... أشْنين بالرَّجْلِ والفُرسان
ثم مضى الليْثُ إليهم زحْفا ... يختطِف الأرواحَ منهمْ خطْفا
فانهزموا هزيمةً لن تُرْقدا ... وأسلَموا صِنْوهُم مُحمَّدا (١)
وغيره من أوجُهِ الفُرسان ... مغرّب في مأتَمِ الغِربان
مُقطَّع الأوصال بالسَّنابِك ... من بعدِ ما مُزِّق بالنّيازكِ (٢)
ثم لجُوا إلى طِلاب الأمنِ ... وبذلِهم ودائعاً من رهْنِ
فقُبِضت رِهانُهم وأُمِّنوا ... وأنغَضوا رؤسَهُم وأذْعنوا
ثم مضى القائدُ بالتَّأييدِ ... والنصرِ من ذِي العرشِ والتسديد
حتى أَتى حِصن بني عمارَهْ ... والحربُ بالتدبير والإداره
فافتتَح الحِصنَ وخلَّى صاحِبه ... وأمِنَ الناسُ جميعاً جانبهْ

سنة أربع عشرة وثلثمائة

لم يغزَ فيها وغزتْ قُوّاده ... واعتوَرت بُبشترا أجنادُهْ
فكلْهم أبْلى وأغنَى واكتفى ... وكلَّهم شفَى الصُّدور واشتفَى
ثم تلاهم بعدُ ليثُ الغيلِ ... عبدُ الحميدِ من بني بسيل (٣)
هو الذي قامَ مقام الضَّيْغَم ... وجاء في غزاتِه بالصَّيْلم (٤)
برأسِ جالوت النِّفاق والحسدْ ... مَن جُمِّع الخِنزيرُ فيه والأسد
فهاكهُ من صحبه في عُدّه ... مصلَّين عند باب آلسُّدّه

---

(١) الصنو: النظير والمثل، والفسيلة المتفرعة مع غيرها من أصل شجرة واحدة.
(٢) السنابك: جمع السنبك، والسنبك من السيف طرف حليته. والنيازك: جمع النيزك: وهو الرمح القصير.
(٣) الغيل: موضع الأسد. أو الوادي فيه ماء.
(٤) الصيلم: الداهية والأمر الشديد.

قَـدِ امتطـى مطيَّـةً لا تبرحُ … صـائمةً قـائمةً لا تَـرمـح (١)
مطيَّـةً إن يعْـرُهـا انكسـارُ … يطلبُهـا النَّجَّـار لا البيْطـار
كـأنـه مـن فـوقِهـا أُسـوارُ … عينـاه في كلْتيْهِا مِسمار (٢)
مبـاشراً للشّمسِ والرِّيـاحِ … على جَـوادٍ غير ذي جِماحِ
يقـول للخـاطـرِ بـالطَّـريـقِ … قوْل مُحبٍ نـاصحٍ شفيـقِ
هـذا مقـامُ خـادمِ الشَّيطـان … ومَـن عصى خليفـةَ الرّحْمـن
فما رأينـا واعِظـاً لا ينطِـق … أصدقَ منه في الذي لا يصـدقُ
قفـل لِمـن غُـرَّ بسـوءِ رائِـه … يَمُـت إذا شـاءَ بِمثـل دائِـه
كم مـارقٍ مضى وكم مُنـافـق … قدِ آرتقَى في مثلِ ذاك الحالقِ
وعاد وهـو في العصى مُصلـبُ … ورأسـه في جـذْعِـه مُـركَّـب
فكيـف لا يعتبر المخـالِـفُ … لحال مَـن تطلبُـه الخلائـفُ
أمـا رآه مـن هـوانٍ يـرتـعُ … معتبَـرا لمن يَـرى ويسمـع

سنة خمس عشرة وثلثمائة

فيهـا غَـزا معتَـزمـاً بُبشتَـرا … فجـال في سـاحتِهـا ودمَّـرا
ثم غـــزا طلْجيرَةً عليهــا … وهْيَ الشَّجَى من بينِ أخدعيْها (٣)
وآمتـدّهـا بـابنِ السَّليم راتِبـا … مُشمِّرا عـن سـاقـهِ محاربـا (٤)
حتى رأى حفصٌ سبيل رُشدِه … بعد بلوغِ غـايـةٍ مـن جُهـده
فدان للإمامِ قصـداً خـاضعـا … وأسلَـم الحِصـن إليـه طـائعـا

سنة ست عشرة وثلثمائة

لم يغـزُ وآنتحَـى بُبَشترا … فـرمّهـا بما رأى ودبَّـرا (٥)

---

(١) تراحموا : أي تطاعنوا بالرماح .
(٢) الأسوار : قائد الفرس .
(٣) الأخدع : أحد عرقين في جانبي العنق .
(٤) الربت : الشدة والانصباب .   (٥) رمّ : سكت .

وآحتلّهـا بـالعِـزّ والتمكين ... ومَحْـو آثـار بني حفْصـونِ
وعاضها الصّلاح من فسادِهـم ... وطهَّر القبورَ مـن أجسادهـم
حتى خلا ملْحـودُ كـلّ قبرِ ... من كـلّ مُـرْتـدٍ عظيم الكفـرِ
عصابـة مـن شيعـة الشّيْطان ... عـدوةً للهِ والسُّلْطـان
فخـرمـت أجسـادُهـا تخرُّمـا ... وأُصليـت أرواحُهـم جهنّما [1]
ووجّـه الإمـام في ذا العـامِ ... عبدَ الحميد وهو كالضِّـرغام
إلى آبن داود الذي تقلّعـا ... في جبْلَـىْ شَـذونـةٍ تمنّعـا
فحطّـه منهـا إلى البسيـطِ ... كطـائـرٍ آذنَ بـالسُّقـوط
ثم أتـى بـه إلى الإمـامِ ... إلى وفـيِّ العهـد والذِّمـام

سنة سبع عشرة وثلثمائة

وبعـد سبْـع عشرة وفيهـا ... غـزا بطلْيـوسَ ومـا يلِيهـا [2]
فلم يـزلْ يسومُهـا بـالخَسْف ... وينْتحيهـا بسيـوفِ الحتْـف
حتى إذا مـا ضمّ جـانبيهـا ... مُحـاصرا ثم بنَـى عليهـا
خلّى ابن إسحاق عليهـا راتِبـا ... مُثابـراً في حـرْبـه مُـواظبـا
ومرّ يستقْصِي حصون الغـرْبِ ... ويبتَليهـا بـوبيـلِ الحرب
حتى قضى منهُنّ كـلّ حـاجـه ... وآفتتِحتْ أكشونَيه وبـاجـه [3]
وبعد فتْح الغرب وآستقصـائـه ... وحسْمه الأدواءَ مـن أعـدائـه
لجّت بطلْيـوسَ على نفـاقهـا ... وغزها اللّجاجُ من مُرّاقهـا [4]
حتى إذا شـافهـتِ الحُتـوفـا ... وشامت الرِّمـاح والسّيـوفـا [5]
دعـا آبن مـروانَ إلى السُّلطـان ... وجـاءه بـالعهـدِ والأمـان

---

(١) خرمت: ثقبت وقطعت وشقت.
(٢) بطليوس: مدينة كبيرة بالأندلس.
(٣) اكشونية مدينة بالأندلس، وباجة: موضع في الأندلس.
(٤) المراق: الخوارج. (٥) شامت الرماح: ظهرت.

فصار في توْسعةِ الإمام وساكناً في قُبّة الإسلام

سنة ثمان عشرة وثلثمائة

فيها غزا بعزمه طُلَيْطُلَهْ وآمتنعوا بمعقِلٍ لا مِثلَ له
حتى بنَى جرنْكشه بجنبها حِصنا منيعاً كافلاً بحرْبها
وشدّها بابن سليمٍ قائدا مُجالِداً لأهلها مجاهدا
فجاسها في طول ذاك العام بالخسْف والنَّسف وضرْب الهام[1]

سنة تسع عشرة وثلثمائة

ثم أتى ردْفاً له دُرِّيٌّ في عسكرٍ قضاؤه مقضِيٌّ[2]
فحاصروها عام تسعَ عشرَهْ بكلِّ محبوكِ القُوى ذي مِرَّهْ
ثم أتاهُم بعد بالرِّجال فقاتلوها أبلَغ القِتالِ

سنة عشرين وثلثمائة

حتى إذا ما سلَفتْ شهورُ من عام عشرين لها ثُبورُ[3]
ألقتْ يديها للإمام طائعهْ وآستسلمتْ قسراً إليه باخعهْ
فأذعنتْ وقبْلها لم تُذعِن ولم تُقِد من نفسها وتُمكِن
ولم تَدِنْ لربِّها بدِينِ سبعاً وسبعين من السِّنينِ
ومُبتدا عشرين مات الحاجبُ موسى الذي كان الشِّهاب الثاقبُ
وبَرز الإمام بالتأييدِ في عُدّةٍ منه وفي عديدِ
صَمْداً إلى المدينة اللعينهْ أتعسها الرحمن من مدينهْ
مدينة الشِّقاق والنِّفاق وموئل الفُسَّاق والمرّاق[4]
حتى إذا ما كان منها بالأَمَمْ وقد ذكا حرُّ الهجير وآحتدمْ

---

(١) يقال جاس الديار: تردد بينها بالافساد وطلب ما فيها.
(٢) أتى ردفاً له: أي حضر خليفته.
(٣) الثبور: الهلاك. (٤) موئل: معقل.

أتـاه والِيهـا وأشيـاخ البلـدْ مستَسْلمين للإمـام المُعتمَـد
فوافَقوا الرَّحْبَ من الإمـامِ وأنـزلـوا في البِـرِّ والإكـرامِ
ووجَّـه الإمـام في الظهيرهْ خيلاً لكي تدخـل في الجزيـرهْ
جـريـدةٌ قـائـدهـا ذرِّيُّ يلمـع في مُتـونِها المـاذيُّ[1]
فاقتحَموا في وعرهـا وسهلهـا وذاك حين غفلـةٍ مـن أهلهـا
ولم يكـن للقـوم مـن دفـاعِ بخيْـلِ درى ولا امتنـاعِ
وفـوضى الإمـام عنـد ذلِكـا وقامِ صنْديداً بما هنـالكـا[2]
حتى إذا مـا حـل في المدينـهْ وأهلُهـا ذليلـة مَهينـهْ
أَقْمعهـا بـالخيـل والرجـال من غير مـا حـربٍ ولا قتـال
وكـان مـن أول شيءٍ نظَـرا فيـه ومـا رَوى لـه ودبَّـرا
تَهـدُّمٌ لِبـابِهـا والسُّـورِ وكـان ذاك أحسـنَ التـدبيرِ
حتى إذا صيَّـرهـا بَـراحـا وعايَنـوا حـريمها مُبـاحـا[3]
أقـرَّ بـالتشييـد والتـأسيسِ في الجبل النامي إلى عَمروسِ[4]
حتى استوى فيها بناءٌ مُحكَـمُ فحلَّـه عـاملُـهُ والحَشَمُ
فعند ذاك أسلمتْ وآستسلمـتْ مدينة الدماء بعد مـا عتـتْ[5]

سنة إحدى وعشرين وثلثمائة

فيهـا مضى عبدُ الحميـد ملتئمْ في أُهبـةٍ وعُـدّةٍ مـن الحشمْ[6]
حتى أتى الحصـنَ الذي تقلّعـا يَحيَى بنُ ذي النونِ به وآمتنَعـا
فحطَّـه مـن هضبـاتٍ ولـبِ مـن غير تعنيـت وغير حـربِ

(١) الجريدة: خيل لا رجالة فيها.
(٢) الصنديد: الشديد.
(٣) البراح: المتسع من الأرض، لا زرع فيه ولا شجر.
(٤) العمروس: الغلام السمين في غلظ.
(٥) عتت: استكبرت وجاوزت الحدّ.
(٦) ملتئم: أي مصلحاً أمر نفسه مستعدا.

إلا بترغيبٍ له في الطاعهْ   وفي الدخول مدخَلَ الجماعهْ
حتى أتى به الإمامَ راغبا   في الصَّفحِ عن ذنوبه وتائبا
فصفَح الإمامُ عن جنايتهْ   وقبِل المبذولَ من إنابتهْ
وردّه إلى الحصون ثانيا   مُسجِّلا له عليها والِيا

سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة

ثم غزا الإمامُ ذو المجدْين   في مُبتدا عشرين واثنتين
في فيلَق مجمهرٍ لُهامِ   مُدكدِكِ الرءُوس والآكامِ (١)
جابَ الرُّبا لزْحفه يجيشُ   تَجيش في حافاتِه الجيوشُ
كأنهم جنٌّ على سَعالِ   وكلُّهم أمضى من الرِّئْبالِ (٢)
فاقتحَموا مُلوندةً وَرومهْ   ومَن حواليها حُصون حيمهْ (٣)
حتى أتاه المارِق التُّجيبِي   مستجْدياً كالتائب المُنيبِ
فخصَّه الإمام بالترحيب   والصَّفْحِ والغفران للذُّنوب
ثم حَباه وكَساه ووصلْ   بشاحجٍ وصاهِلٍ لا يَمتثَل (٤)
كلاهما من مركَب الخلائفِ   في حِلْيةٍ تُعجزُ وصْفَ الواصفِ (٥)
فقال كنْ منّا وأَوطِنْ قُرطبهْ   نُرقِيك فيها في أجلِّ مرتَبهْ
تكنْ وزيراً أعظم الناس خطرْ   وقائِداً تَجبي لنا هذا الثَّغَر
فقال إني ناقِهٌ من علَّتي   وقد ترى تغيُّري وصُفرتِي (٦)
فإنْ رأيتَ سيِّدي إمْهالي   حتى أرمَّ من صَلاحِ حالي
ثم أُوافيكَ على آستعجالِ   بالأهل والأولاد والعيالِ

---

(١) الفيلق: الكتيبة العظيمة من الجيش.
(٢) السعالي: جمع السعلى: الغول.
(٣) ملوندة: من حصون سرقسطة بالاندلس.
(٤) الشاحج: البغل، والحمار.
(٥) الخلائف: جمع خليفة وهو السلطان.
(٦) نقه من مرضه: برىء ولا يزال به ضعف.

وأوثَـقَ الإمـامَ بـالعُهـودِ ... وجَعـل اللّهَ مـن الشْهـودِ
فقبـلَ الإمـامُ مـن أيْمانِـهْ ... وردّه عفـواً إلى مكـانِـهْ
ثم أتتْـه ربّـةُ البَشـاقِـصِ ... تُدلِي إليه بـالـوِداد الخالـصِ
وأنها مُـرسَلـةٌ مـن عنـدهِ ... وجَـدُّهـا مُتَّصِـلٌ بجَدِّهِ
واكْتفَلـتْ بكـلِّ بنْبَلـونِـي ... وأطلقتْ أسرَى بني ذي النـونِ
فـأوعـد الإمـام في تـأمينهـا ... ونكب العَسكر مـن حُصـونها
ثم مضى بـالعـزِّ والتمكينِ ... ونـاصراً لأهـل هـذا الدِّيـن
في جُملةِ الرايـاتِ والعسـاكِـرِ ... وفي رجـالِ الصبر والبصـائِـر
إلى عِـدا اللهِ مـن الجَلالِـق ... وعابدِي المخلوقِ دون الخالـق
فـدمَّـروا السهـولَ والقِلاعـا ... وهَتَكـوا الزُّروعَ والرِّبـاعـا
وخَـرّبـوا الحصـون والمدائنـا ... وأقفَروا من أهلهـا المساكِنـا
فليس في الدِّيـار مـن دَيَّـارِ ... ولا بها مـن نـافـخٍ للنـارَ
فغـادَروا عُمـرانها خَـرابـا ... وبـدّلـوا رُبـوعَهـا يَبـابـا[1]
وبالقِلاع أحـرَقـوا الحصُـونَـا ... وأسْخَنوا من أهلها العُيونـا[2]
ثم ثنـى الإمـامُ مـن عِنـانِـهْ ... وقد شَفَى الشجيَّ من أشجانـه
وامَّـنَ القِفـارَ مـن أنجاسِهـا ... وظهَّـر البلادَ مـن أرجـاسِهـا

انتهت الأرجوزة

وكمل كتاب العسجدة الثانية من أخبار الخلفاء

---

(١) اليباب: اليباس.

(٢) يقال: أسخن عينه: إذا أنزل به ما يبكيه.

كتاب اليتيمة الثانية
في أخبار زياد والحجاج والطالبين والبرامكة

فرش كتاب أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة.

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه رضي الله تعالى عنه:

قد مضى قولنا في أخبار الخلفاء وتواريخهم وأيامهم وما تصرفت به دولهم: ونحن قائلون بعون الله في أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة، وماسحون[1] على شيء من أخبار الدولة؛ إذ كان هؤلاء الذين جرّدنا لهم كتابنا هذا، قطبَ[2] الملك الذي عليه مدار السياسة، ومعادن التدبير، وينابيع البلاغة، وجوامع البيان؛ هم راضوا الصعاب حتى لانت مقاودها، وخزموا[3] الأنوف حتى سكنت شواردها، ومارسوا الأمور، وجرّبوا الدهور، فاحتملوا أعباءها، واستفتحوا مغالقها، حتى استقرّت قواعد الملك، وانتظمت قلائد الحكم، ونفذت عزائم السلطان.

أخبار زياد

كانت سُمَيّة أمّ زياد قد وهبها أبو الخير بن عمرو الكندي للحارث بن كَلَدة، وكان طبيبا يعالجه، فولدت له على فراشه نافعا، ثم ولدت أبا بكَرة، فأنكر لونه. وقيل: [قيل] له: إنّ جاريتك بغيّ! فانتفى من أبي بكَرة ومن نافع، وزوّجها عُبيدا: عبداً لابنته، فولدت على فراشه زيادا، فلما كان يوم الطائف نادى منادي رسول الله ﷺ: أيّما عبدٍ نزل فهو حرٌّ وولاؤه لله ورسوله. فنزل أبو بكرة وأسلم

(١) مسح: مرّ مراً خفيفاً.

(٢) قطب الشيء: قوامه ومداره. (٣) خزم أنف فلان: أذلّه وسخّره.

ولحق بالنبي ﷺ ؛ فقال الحارث بن كلدة لنافع: أنت ابني فلا تفعل كما فعل هذا. يريد أبا بكرة؛ فلحق به، فهو ينتسب إلى الحارث بن كلدة.

وكانت البغايا في الجاهلية لهن رايات يُعرفن بها وينتحيها الفتيان، وكان أكثر الناس يكرهون إماءهم على البغاء والخروج إلى تلك الرايات؛ يبتغون بذلك عرض[1] الحياة الدنيا، فنهى الله تعالى في كتابه عن ذلك بقوله جل وعز: ﴿ولا تُكْرِهُوا فَتياتِكُمْ على البَغاءِ إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنا لتَبتَغوا عَرَضَ الحَياةِ الدُّنيا ومَن يُكْرِهْهُنَّ﴾[2] يريد في الجاهلية ﴿فإنَّ اللهَ مِن بعْدِ إكراهِهِنَّ غَفُورٌ رحِيمٌ﴾[3] يُريد في الإسلام.

فيقال إن أبا سفيان خرج يوما وهو ثمل إلى تلك الرايات، فقال لصاحبةِ الراية: هل عندك مِن بغيّ؟ فقالت: ما عندي إلا سمية. قال: هاتيها على نتن[4] إبْطيها! فوقع بها، فولدت له زياداً على فراش عُبيد.

ووجّه عاملٌ من عمال عمر بن الخطاب زياداً إلى عمر بفتح فتحه الله على المسلمين؛ فأمره عمر أن يخطب الناس به على المنبر، فأحسن في خطبته وجوّد، وعند أصل المنبر أبو سفيان بن حرب وعليّ بن أبي طالب، فقال أبو سفيان لعلي: أيعجبك ما سمعت من هذا الفتى؟ قال: نعم. قال: أما إنه ابن عمك! قال: وكيف ذلك؟ قال: أنا قذفته في رحِم أمّه سمية. قال: فما يمنعك أن تدّعيه؟ قال: أخشى هذا القاعد على المنبر ـ يعني عمرَ بن الخطاب ـ أن يفسد عليّ إهابي.

فبهذا الخبر استلحق معاوية زياداً وشهد له الشهود بذلك، وهذا خلاف حكم رسول الله ﷺ في قوله: «الولد للفِراش وللعاهر الحجَر»[5].

العتبي عن أبيه قال: لما شهد الشهود لزياد، قام في أعقابهم، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

---

(١) العرض: المتاع.

(٢) سورة النور الآية ٣٢. (٣) سورة النور الآية ٣٣.

(٤) النتن: خبث الرائحة. (٥) الحجر: الخيبة والحرمان.

هذا أمر لم أشهد أوله، ولا علم لي بآخره؛ وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم، وشهد الشهود بما سمعتم؛ فالحمد لله الذي رفع منا ما وضع الناس وحفِظ منا ما ضيَّعوا؛ وأما عُبيد فإنما هو والد مبرور، أو ربيب[1] مشكور، ثم جلس.

وقال زياد: ما هُجيت ببيت قطّ أشدَّ عليّ من قول الشاعر:

فكِّر ففي ذاكَ إن فكَّرتَ مُعْتَبَرُ ... هل نِلتَ مكرُمَةً إلا بتأميرِ

عاشَتْ سُميَّةُ ما عاشت وما عَلِمتْ ... أنَّ ٱبنَها من قريشٍ في الجماهيرِ

سُبْحان من مُلك عَبَّاد بقدْرَتِهِ ... لا يدفعُ الناسُ أسبابَ المقاديرِ

وكان زياد عاملا لعليّ بن أبي طالب على فارس، فلما مات علي رضي الله عنه وبايع الحسن معاويةَ عام الجماعة، بقي زيادٌ بفارس وقد ملكها وضبط قِلاعها، فاغتم به معاوية، فأرسل إلى المغيرة بن شعبة، فلما دخل عليه قال: لكل نبأ مستقرّ، ولكل سر مستودع، وأنت موضع سري وغاية ثقتي. فقال المغيرة: يا أمير المؤمنين إن تستودعني سرك تستودعْه ناصحا شفيقا، ورعا رفيقا؛ فما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: ذكرتُ زياداً واعتصامه بأرض فارس ومقامه بها، وهو داهية العرب، ومعه الأموال، وقد تحصن بأرض فارس وقلاعها يدبر الأمور؛ فما يُؤمنني أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت، فإذا هو قد أعادها جَذَعة[2]! قال له المغيرة: أتأذن لي يا أمير المؤمنين في إتيانه؟ قال: نعم. فخرج إليه، فلما دخل عليه وجده وهو قاعد في بيت له مستقبل الشمس؛ فقام إليه زياد ورحَّب به وسُرَّ بقدومه، وكان له صديقا؛ وذلك أن زياداً كان أحدَ الشهود الأربعة الذين شهدوا على المغيرة، وهو الذي تلجلج[3] في شهادته عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فنجا المغيرة وجُلد الثلاثةُ من الشهود، وفيهم أبو بكرة أخو زياد، فحلف [أبو بكرة] أن لا يكلم زياداً أبدا.

فلما تفاوضا في الحديث قال له المغيرة: أعلمتَ أن معاوية استخفَّه الوجَل[4] حتى

---

(١) الربيب: زوج الأم.
(٢) أعادها جذعة: أي أول ما يبتدأ فيها.
(٣) تلجلج: تردد في كلامه ولم يبن.
(٤) الوجل: الخوف والفزع.

بعثني إليك؟ ولا نعلم أحداً يمدُّ يده إلى هذا الأمر غير الحسن، وقد بايع معاوية، فخذ لنفسك قبل التَّوطين فيستغني عنك معاوية. قال: أشِرْ عليّ وآرم الغرض الأقصى، فإن المستشار مؤتمن. قال: أرى أن تصل حبلك بحبله وتسير إليه، وتعير الناس أذنا صماء وعينا عمياء! قال: يا ابنَ شعبة، لقد قلت قولا لا يكون غرْسُه في غير منبته، ولا مَدَرة[1] تغذيه، ولا ماء يسقيه، كما قال زهير:

وهل ينبُتُ الخطِّيَّ إلا وشيجُه وتُغرَس الا في مَنابتِها النَّخْلُ[2]؟

ثم قال: أرى ويقضي الله.

وذكر عمرُ بن عبد العزيز زياداً فقال: سعى لأهل العراق سعى الأُمِّ البرةَّ، وجمع لهم جمعَ الذرّة.

وقال غيره: تشبَّه زيادٌ بعمر فأفرط، وتشبَّه الحجاج بزياد فأهلك الناس.

وقالوا: الدهاة أربعة: معاوية للرويَّة، وعمرو بن العاص للبديهة، والمغيرة للمعضِلات، وزياد لكل صغيرة وكبيرة.

ولما قدم زياد العراق قال: مَن على حَرسِكم؟ قالوا: بلَج. قال: إنما يُحترس من مثل بلَج فكيف يكون حارسا.

أخذه الشاعر فقال:

وحارسٌ من مِثلِهِ يُحْتَرَسُ

العتبي قال: كان في مجلس زياد مكتوباً: الشدّة في غير عنف، واللين في غير ضعف. المحسن يُجازي بإحسانه، والمسيء يعاقبُ بإساءته. الأعطيات في أيامها. لا احتجاب عن طارق ليل، ولا صاحبِ ثغر.

---

(١) مدرة: الطين اللزج المتماسك.

(٢) الوشيج: ما نبت من القنا والقصب ملتفاً.

وبعث زياد إلى رجال من بني تميم ورجال من بني بكر، وقال: دلُّوني على صُلَحاء كل ناحية ومن يطاع فيها، فدلوه فضمَّنهم الطريق وحدّ لكل رجل منهم حدّاً؛ فكان يقول: لو ضاع حبل بيني وبين خراسان عرفت من آخذ به.

وكان زياد يقول: من سقى صبياً خمراً حدَدْناه، ومن نقب[1] بيتاً نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبراً دفناه فيه حيا.

وكان يقول: اثنان لا تقاتلوا فيهما العدوّ: الشتاء، وبطون الأودية.

وأول من جُمعت له العراق زياد، ثم ابنه عبيد الله بن زياد؛ لم تجتمع لقرشي قط غيرهما.

وعبيد الله بن زياد أول من جمع له العراق وسجستان وخراسان والبحران وعمان، وإنما كان البحران وعمان إلى عمال أهل الحجاز.

وهو أول من عرف العرفاء[2]، ودعا النقباء، ونكّب[3] المناكب، وحصل الدواوين، ومُشِيَ بين يديه بالعَمد[4]، ووضع الكراسي، وعمل المقصورة، ولبس الزيادي، وربّع الأرباع بالكوفة، وخمّس الأخماس بالبصرة، وأعطى في يوم واحد للمقاتلة والذرية من أهل البصرة والكوفة، وبلغ بالمقاتلِة من أهل الكوفة ستين ألفا، ومقاتلة البصرة ثمانين ألفا، والذرية مائة ألف وعشرين ألفا. وضبط زياد وابنه عبيد الله العراق بأهل العراق.

قال عبد الله بن مروان لعباد بن زياد: أين كانت سيرة زياد من سيرة الحجاج؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن زيادا قدم العراق وهي جمرة تشتعل فسلّ أحقادهم، وداوى أدواءهم، وضبط أهل العراق بأهل العراق؛ وقدِمها الحجاج؛ فكسر الخراج، وأفسد

(١) نقب: خرق.
(٢) العرفاء: جمع عريف، وهو القيم بأمر القوم وسيدهم.
(٣) المناكب: جمع منكب، وهو عريف القوم.
(٤) العمد: جمع عمود.

قلوب الناس ولم يضبطهم بأهل الشام فضلا عن أهل العراق ولو رام منهم ما رامه زياد لم يفجأك إلا على قَعود يوجف[1] به.

وقال نافع لزياد: استعملت أولاد أبي بكرة وتركت أولادي؟ قال: اني رأيت أولادك كُزْماً[2] قصارا، ورأيت أولاد أبي بكرة نجباء طوالا.

ودخل عبد الله بن عامر على معاوية، فقال له: حتى متى تذهب بخراج العراق؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ما تقول هذا لمن هو أبعد مني رحما! ثم خرج فدخل على يزيد فأخبره وشكا إليه، فقال له: لعلك أغضبت زيادا! قال: قد فعلت. قال: فإنه لا يَرضى حتى تُرضِيَ زياداً عنك! فانطلق ابن عامر فاستأذن على زياد، فأذن له وألطفه، فقال له ابن عامر: إن شئت فصلحٌ بعتاب، وإن شئت فصلح بغير عتاب، فإنه أسلم للصدر...، ثم راح زياد إلى معاوية فأخبره وأصبح ابن عامر غاديا إلى معاوية، فلما دخل عليه، قال: مرحباً بأبي عبد الرحمن. ههنا. وأجلسه إلى جنبه فقال له: يا أبا عبد الرحمن:

لنا سياق ولكم سياق ... وقد علمت ذلك الرفاق

الحسن بن أبي الحسن قال: ثقل أبو بكرة، فأرسل زيادٌ إليه أنس بن مالك ليصالحه ويكلمه، فانطلقت معه، فإذا هو مُوَلّ وجهه إلى الجدار، فلما قعد قال له: كيف تجدك أبا كبرة؟ فقال صالحاً: كيف أنت أبا حمزة؟ فقال له أنس: اتق الله أبا بكرة في زيادٍ أخيك؛ فإن الحياة يكون فيها ما يكون؛ فأما عند فراق الدنيا فليستغفر الله أحدكما لصاحبه، فوالله ما علمت إنه لوَصولٌ للرّحِم؛ هذا عبد الرحمن ابنك على الأُبلَّة، وهذا داود على مدينة الرِّزق، وهذا عبد الله على فارس كلها؛ والله ما أعلمه إلا مجتهدا. قال: أقعِدوني. فأقعدوه، فقال: أخبرني ما قلت في آخر كلامك. فأعاد عليه القول، فقال: يا انس، وأهل حروراء قد اجتهدوا، فأصابوا أو

(١) وجف: اضطرب.

(٢) الأكزم: المتجمع القصير.

أخطئوا؛ والله لا أكلمه أبدا ولا يصلّي عليّ! فلما رجع أنس إلى زياد أخبره بما قال، وقال له: إنه قبيحٌ أن يموت مثل أبي بكرة بالبصرة، فلا تصلي عليه ولا تقوم على قبره؛ فاركب دوابك والحق بالكوفة. قال: ففعل. ومات أبو بكرة بالغد عند صلاة الظهر، فصلى عليه أنس بن مالك.

وقدم شريح مع زياد من الكوفة لقضاء البصرة، فكان زياد يجلسه إلى جنبه ويقول له: إن حكمت بشيء ترى غيره أقرب إلى الحق منه فأعلِمنيه. فكان زياد يحكم فلا يرد شريح عليه، فيقول زياد لشريح: ما ترى؟ فيقول: هذا الحكم، حتى أتاه رجل من الأنصار فقال: إني قدمت البصرة والخطط[1] موجودة، فأردت أن أختط لي، فقال لي بنو عمي وقد اختطوا ونزلوا: أين تخرج عنا؟ أقم معنا واختط عندنا فوَّسعوا لي، فاتخذت فيهم داراً وتزوّجت؛ ثم نزغ[2] الشيطان بيننا، فقالوا لي: اخرج عنا! فقال زياد: ليس ذلك لكم، منعتموه أن يختط والخطط موجودة وفي أيديكم فضل فأعطيتموه، حتى إذا ضاقت الخطط أخرجتموه وأردتم الإضرار به؟ لا يخرج من منزله! فقال شريح: يا مستعير القِدرِ آردُدها. فقال زياد: يا مستعير القدْر آحبسها ولا ترددها! فقال محمد بن سيرين: القضاء بما قال شريح، وقول زياد حَسَن.

وقال زياد: ما غلبني أمير المؤمنين معاوية إلا في واحدة: طلبت رجلا فلجأ إليه وتحرَّم[3] به، فكتب إليه: إن هذا فسادٌ لعملي: إذا طلبت أحداً لجأ إليك فتحرم بك، فكتب إليّ: إنه لا ينبغي لنا أن نسوس الناس بسياسة واحدة، فيكون مقامُنا مقام رجل واحد؛ ولكن تكون أنت للشدة والغلظة، وأكون أنا للرأفة والرحمة، فيستريح الناس فيما بيننا.

ولما عَزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه زياداً من كتابة أبي موسى، قال له: أعن

---

(١) الخطط: جمع خطة: وهي الأمر أو الحالة.

(٢) نزغ: أفسد وحمل بعضهم على بعض.

(٣) تحرم به: تحمى وتمنع.

عجز أم عن خيانة؟ قال: لا عن واحدة منهما، ولكني كرهت أن أحمل على العامة فضل [1] عقلك.

وكتب الحسن بن عليّ رضي الله عنه إلى زياد في رجل من أهل شيعته قد عَرَض له زياد وحال بينه وبين جميع ما يملكه، وكان عنوان كتابه: «من الحسن بن عليّ إلى زياد»؛ فغضب زياد إذ قدّم نفسَه عليه ولم ينسبه إلى أبي سفيان، وكتب إليه:

من زياد بن أبي سفيان إلى حسن: أما بعد، فإنك كتبت إليّ في فاسق لا يُؤويه إلا الفُسَّاق، وآيم الله لأطلبنه ولو بين جلدك ولحمك، فإنّ أحبَّ لحمٍ إليّ أنْ آكله لحمٌ أنت منه.

فكتب الحسن إلى معاوية يشتكي زياداً، وأدرج كتاب زياد في داخل كتابه. فلما قرأه معاوية أكثر التعجب من زياد، وكتب إليه.

أما بعد، فإن لك رأيين: أحدهما من أبي سفيان، والآخر من سمية؛ فأما الذي من أبي سفيان فحزم وعزم، وأما الذي من سمية فكما يكون رأي مثلها؛ وإن الحسن ابن عليّ كتب إليّ يذكر أنك عرَضت لرجل من أصحابه، وقد حجزناه عنك ونظراءه، فليس لك على واحد منهم سبيل ولا عليه حُكم؛ وعجبت منك حين كتبت إلى الحسن لا تنسبه إلى أبيه، أفإلى أمه وكلْتَه لا أمّ لك؟ فهو ابن فاطمة الزهراء ابنة رسول الله ﷺ؛ فالآن حين اخترت له.

وكتب زياد إلى معاوية: إن عبد الله بن عباس يفسد الناس عليّ، فإن أذنت لي أن أتوعَّده فعلت. فكتب إليه: إن أبا الفضل وأبا سفيان كانا في الجاهلية في مسلاخ [2] واحد، وذلك حِلف لا يَحلُّه سوءُ رأيك!

واستأذن زيادٌ معاوية في الحج، فأذن له، وبلغ ذلك أبا بكرة، فأقبل حتى دخل على زياد وقد أجلس له بنيه، فسلم عليهم ولم يسلم على زياد، ثم قال: يا بني أخي، إن

---

(١) فضل الشيء: ما بقي منه.

(٢) يقال: في المدح أو الذم: هو ملك أو حمار في مسلاخ إنسان والمسلاخ: الجلد.

أباكم ركب أمراً عظيماً في الإسلام بادِّعائه إلى أبي سفيان؛ فوالله ما علمت سميَّة بَغَتْ قط؛ وقد استأذن أمير المؤمنين في الحج، وهو مارٌّ بالمدينة لا محالة، وبها أمُّ حبيبة ابنة أبي سفيان زوج النبي ﷺ، ولا بد له من الاستئذان عليها، فإن أذنت له فقعد منها مقعد الأخ من أخته، فقد انتَهك من رسول الله ﷺ حُرْمةً عظيمة، وإن لم تأذن له فهو عارُ الأبد. ثم خرج، فقال له زياد: جزاك الله خيراً من أخ فما تدع النصيحة على حال. وكتب إلى معاوية يستقيله، فأقاله.

وكتب زياد إلى معاوية: إني قد أخذت العراق بيميني، وبقيت شمالي فارغة. وهو يعرِّض له بالحجاز. فبلغ ذلك عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فقال: اللهم اكفنا شماله! فعرضت له قرحةٌ في شماله فقتلته.

ولما بلغ عبد الله بن عمر موت زياد قال: اذهب إليك ابن سمية، لا يداً رَفعْت عن حرام ولا دنيا تملَّيت[1].

قال زياد لعجلان حاجبه: كيف تأذن للناس؟ قال: على البيوتات، ثم على الأنساب، ثم على الآداب. قال: فمن تؤخر؟ قال: من لا يعبأ الله بهم. قال: ومن هم؟ قال: الذين يلبسون كسوة الشتاء في الصيف، وكسوة الصيف في الشتاء.

وقال زياد لحاجبه: وليتُك حجابتي وعزلتك عن أربع: هذا المنادي إلى الله في الصلاة والفلاح، لا تعُوجنّه[2] فلا سلطان لك عليه؛ وطارق الليل لا تحجبه فشر ما جاء به، ولو كان خيراً ما جاء في تلك الساعة؛ ورسول الله صاحب الثغر[3]، فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سَنة؛ وصاحب الطعام، فإن الطعام إذا أُعيد تسخينه فسد.

وقال عجلان حاجب زياد: صار لي في يوم واحد مائة ألف دينار وألف سيف قيل له: وكيف ذلك؟ قال: أعطى زيادٌ ألف رجل مائتي ألف دينار وسيفاً سيفاً، فأعطاني كل رجل منهم نصف عطائه وسيفه.

---

(١) تمليت: استمتعت.

(٢) تعوجنّه: تعطفنّه. (٣) الثغر: كل موضع قريب من أرض العدو.

أخبار الحجاج

دخل المغيرة بن شعبة على زوجته فارعة، فوجدها تتخلل[١] حين انفتلت[٢] من صلاة الغداة، فقال لها: إن كنت تتخللين من طعام البارحة، فإنك قذرة، وإن كان من طعام اليوم إنك لنهِمة؛ كنتِ فبنتِ[٣]! قالت: والله ما فرحنا إذ كنا، ولا أسفنا إذ بنّا؛ وما هو بشيء مما ظننت، ولكني استكْتُ فأردت أن أتخلل للسواك! فندم المغيرة على ما بدر منه، فخرج أسِفاً، فلقي يوسف بن أبي عقيل، فقال له: هل لك إلى شيء أدعوك إليه؟ قال: وما ذاك؟ قال: إني نزلت الساعة عن سيدة نساء ثقيف، فتزوّجْها، فإنها تُنجب لك. فتزوّجها فولدت له الحجاج.

ومما رواه عبد الله بن مسلم بن قتيبة قال: إن الحجاج بن يوسف كان يعلّم الصبيان بالطائف، واسمه كليب؛ وأبوه يوسف معلم أيضاً. وفي ذلك يقول مالك بن الرَّيب:

فماذا عسى الحجـاجُ يبلـغُ جُهْـدَه ... إذا نحن جـاوزْنـا حَفِير زِيـادِ
فلولا بنو مَرْوان كان ابن يوسُـفٍ ... كما كـان عبـداً مـن عبيـدِ إيَـادِ
زمـانَ هـو العبْـد المُقِـرُّ بـذلِّـهِ ... يُراوح صِبيانَ القُـرى ويُغـادي[٤]

ثم لحق الحجاج بن يوسف برَوح بن زنباع وزير عبد الملك بن مروان، فكان في عديد شرطته، إلى أن شكا عبد الملك بن مروان ما رأى من انحلال العسكر، وأن الناس لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله. فقال روح بن زنباع: يا أمير المؤمنين، إن في شرطتي رجلاً لو قلَّده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحلهم برحيله وأنزلهم بنزوله. يقال له الحجاج بن يوسف! قال: فإنا قد قلَّدناه ذلك. فكان لا يقدر أحد [أن] يتخلف عن الرحيل والنزول، إلا أعوان روحِ بن زنباع؛ فوقف عليهم يوماً

---

(١) تخلل: أخرج ما بين أسنانه من بقية الطعام.

(٢) انفتلت: أنصرفت.

(٣) بنت: انفصلت بطلاق (٤) يغادي: يباكر.

وقد رحلِ الناس وهم على طعام يأكلون، فقال لهم: ما منعكـم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين؟ فقال له: انزل يا آبن اللخناء[1] فكُلْ معنا. فقال: هيهات. ذهب ما هنالك. ثم أمر بهم فُجلدوا بالسياط وطوّفهم في العسكر، وأمر بفساطيط[2] روح بن زنباع فأُحرقت بالنار؛ فدخل بن زنباع على عبد الملك بن مروان باكياً، فقال له: مالك؟ فقال يا أمير المؤمنين، الحجاجُ بن يوسف الذي كان في عديد شرطتي، ضرب عبيدي وأحرق فساطيطي! قال: عليَّ به. فلما دخل عليه قال: ما حملك على ما فعلتَ؟ قال: ما أنا فعلتُه يا أمير المؤمنين! قال: ومن فعله؟ قال أنت والله فعلته؛ إنما يدي يدُك، وسوطي سوطُك؛ وما على أمير المؤمنين أن يُخلِفَ على روح بن زنباع للفسطاط فسطاطين وللغلام غلامين، ولا يكسرني فيما قدّمني له؟ فأخلَف لروح بن زنباع ما ذهب له وتقدم الحجاج في منزلته، وكان ذلك أولَ ما عرف من كفايته.

قال أبو الحسن المدائني: كانت أم الحجاج الفارعة بنت همَّار. فقال: كان الحجاج ابن يوسف يضع كل يوم ألف خِوان[3] في رمضان وفي سائر الأيام خمسمائة خِوان، على كل خِوان عشرة أنفس، وعشرة ألوان، وسمكة مشوية طرية، وأرزة بسكر، وكان يُحمل في محفّة[4] ويُدار به على موائده يتفقدها، فإذا رأى أرزة ليس عليها سكر وسعى الخباز ليجيء بسكرها فأبطأ حتى أكلت الأرزة بلا سكر، أمر به فضُرب مائتي سوط؛ فكانوا بعد ذلك لا يمشون إلا متأبِّطي خرائط السكر.

قال: وكان يوسف بن عمر والي العراق في أيام هشام بن عبد الملك يضع خمسمائة خوان، فكان طعام الحجاج لأهل الشام خاصة، وطعام يوسف بن عمر لمن حضره؛ فكان عند الناس أحمدَ.

العتبي قال: دخل على الحجاج سليك بن سلكة، فقال: أصلح الله الأمير، أعرْني سمعك، واغضض عني بصرك، واكفف عني غرْبك[5]؛ فإن سمعت خطأ أو زللاً

---

(١) اللخناء: المرأة قبح كلامها.

(٢) فساطيط: جمع فسطاط، وهو البيت يتخذ من الشعر. (٣) الخوان: ما يؤكل عليه.

(٤) المحفّة: هودج لا قبه له. (٥) الغرْب: الحدّة.

فدونك والعقوبة. فقال: قل. فقال: عصى عاصٍ من عُرض العشيرة، فحُلِّق عليّ اسمي[1]، وهُدِمت داري؛ وحُرِمْتُ عطائي. قال: هيهات، أما سمعت قول الشاعر:

جانيكَ مَن يَجني عليكَ وقد تُعدِي الصِّحاحَ مَبارِكُ الجُربِ[2]
ولَرُبَّ مأخوذ بذَنب عشيرِه ونَجا المقارِفُ صاحبُ الذَّنبِ[3]

قال: أصلح الله الأمير، إني سمعت الله قال غير هذا. قال: وما ذاك؟ قال: قال ﴿يا أيُّها العزيزُ إنّ له أباً شيْخاً كبيراً فخُذ أحدنَا مكانَه إنا نَراكَ منَ المُحسنينَ. قال معاذَ اللهِ أن تأخُذَ إلاَّ مَن وجدْنا متاعَنا عِنْدَهُ إنَّا إذاً لظالمُونَ﴾[4] فقال الحجاج: عليّ بيزيد بن أبي مسلم. فأتى به، فمثل بين يديه، فقال: افكُكْ لهذا عن اسمه، واصككْ له بعطائه، وابنِ له منزله، ومر منادياً ينادي في الناس: صدق الله وكذب الشاعر:

أُتي الحجاج بامرأة عبد الرحمن بن الأشعث بعد دير الجماجم، فقال لحرسيّ قل لها: يا عدوّةَ الله، أين مالُ الله الذي جعلتيه تحت ذيلك؟ فقال: يا عدوة الله، أين مال الله الذي جعلتيه تحت استك؟ فقال له: كذبت، ما هكذا قلت، أرسلْها: فخلّى عنها.

الأصمعي قال: ماتت رققة يا لشَّجي - والشَّجي ربو من الأرض في بطن فلج[5] فشجى به الوادي فسمى شج - فقال الحجاج: إني أراهم قد تضرعوا إذ نزل بهم الموت، فاحفروا في مكانهم. فحفروا، فأمر الحجاج رجلاً يقال له عضيدة يحفر البئر، فلما أنبطها[6] حمل منها قربتين إلى الحجاج بواسط، فلما قدم بهما عليه قال: يا

---

(١) أي عمل عليه حلقة من المداد.
(٢) الجرب: جمع أجرب: وهو الذي أصابه الجرب.
(٣) المقارف: الذي اقترف ذنبا.
(٤) سورة يوسف الآية ٧٨.
(٥) الفلج: النهر الصغير.
(٦) النبط: الماء الذي يخرج من البئر أول ما يحفر.

عضيدة لقد تجاوزت مياهاً عذباً، أخَسَفْتَ[١] أم أوشلت؟ قال: لا واحد منها، ولكن نبطا بين الماءين. قال: وكيف يكون قدره؟ قال: مرت بنا رفقة فيها خمسة وعشرون جملاً، فرويت الإبل وأهلها. قال: أو للإبل حفرتها؟ إنما حفرتها للناس. إن الإبل ضُمْرٌ خُسف[٢]، ما جُشِّمت تجشَّمت.

بعث عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف والياً على العراق، وأمره أن يحشر الناس إلى المهلب في حرب الأزارقة، فلما أتى الكوفة صعد المنبر متلثماً متنكباً قوسه، فجلس واضعاً إبهامه على فيه، فنظر محمد بن عُمير بن عُطارد التميمي، فقال: لعن الله هذا ولعن من أرسله إلينا؛ أرسَل غلاماً لا يستطيع أن ينطق عيّاً، وأخذ حصاة بيده ليحصبه[٣] بها، فقال له جليسه: لا تعجل حتى ننظر ما يصنع. فقام الحجاج فكشف لثامه عن وجهه وقال:

أنـا ابن جَلا وطلاّعُ الثَّنَـايـا ... متى أضعِ العِمامةَ تعرفونـي[٤]
صَليبُ العُودِ من سَلَفـي نِـزارِ ... كنَصْلِ السيفِ وضّـاح الجبين
أخُو خَمسينَ مُجتمـعٌ أَشُـدِّي ... ونَجَّـذَني مُـداورَةُ الشُّئـون[٥]

أما والله إني لا أحمل الشر بثقله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله؛ أما والله إني لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها، وكأني أرى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق:

هـذا أوانُ الشـدِّ فـاشتـدِّي زِيَـمْ ... قد لفَّها الليـلُ بسَـوّاقٍ حُطَـمْ[٦]
ليس بـراعــي إبــلٍ ولا غنَـــمْ ... ولا بجزّارٍ على ظَهـرِ وضَـــمْ[٧]

---

(١) خسف البئر: اذا حفرها في حجارة فتبعث بماء كثيرة.
(٢) خسف: هزيلة.
(٣) حصب: رمى بالحصباء ونحوها.
(٤) الثنايا: جمع ثنيّة: وهي الطريق في الجبل. وطلاع الثنايا: جلد يتحمل المشاق، أو ساع لمعالي الأمور.
(٥) المنجذ: المجرب والذي أصابته البلايا.
(٦) زيم: ناقة أو فرس. واشتدي: اسرعي. والحطم: الراعي إذا كان عنيفاً.
(٧) الوضم: كل شيء يوضع عليه اللحم.

ألا وإنّ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان كبَّ [١] كنانته فعجم عيدانها، فوجدني أصلبها عوداً، فوجّعني إليكم؛ فإنكم طالما سعيتم في الضلالة، وسننتم سنن البغي؛ أما والله لألْحُوَنَّكم [٢] لحْوَ العصا، ولأعصبنكم عصْب السَّلمة [٣]، ولأقرعنّكم قرع المروة [٤]، ولأضربنَّكم ضرب غرائب الإبل؛ والله ما أخلق إلا فَريت [٥]، ولا أعد إلا وفيت، ولا أغمز تَغماز التين، ولا يُقَعْقَع لي بالشِّنان [٦]. إياي وهذه الزرافاتِ والجماعات، وقيلَ وقال وما تقول، وفيم أنتم ونحو هذا؛ ومن وجدتُه بعد ثالثة من بعْث المهلب ضربتُ عنقَه.

ثم قال: يا غلام، اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين. فقرأ عليهم:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين، سلام عليكم.

فلم يقل أحد شيئاً، فقال الحجاج: آسكت يا غلام، هذا أدب ابن نِهْيَة؛ والله لأؤدّبنهم غير هذا الأدب أو ليستقيمُنّ؛ اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين. فلما بلغ إلى قوله: سلام عليكم، لم يبق أحد في المسجد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام.

ثم نزل فأتاه عمير بن ضابيء فقال: أيها الأمير، إني شيخ كبير عليل، وهذا ابني أقوى على الغزو مني. قال: أجيزوا ابنه عنه؛ فإنّ الحدثَ [٧] أحبُّ إلينا من الشيخ. فلما ولى الرجل قال له عنبسة بن سعيد: أيها الأمير، هذا الذي ركض [٨] عثمانَ برجله وهو مقتول. فقال: ردّوا الشيخ. فردّوه، فقال: اضربوا عنقه! فقال فيه الشاعر:

---

(١) كبّ: طرح.

(٢) لألحونكم: لأقشرنكم.

(٣) السلمة: شجر لا شوك فيه.

(٤) المروة: جمع مرو: وهو نبات عطر طي.

(٥) فريت: قطعت.

(٦) القعقعة: التحريك، والشنان: القرب البالية.

(٧) الحدث: الشاب.

(٨) ركض برجله: ضرب بها.

تَجهّزْ فإمّــا أنْ تَـزورَ ٱبْنَ ضــابِيءٍ عُمَيْـراً ، وإمّــا أن تـزورَ المُهلّبـا
هما خُطّتــا خَسْــفٍ نجاؤُكَ منهما ركوبُكَ حَوْلِيّاً من الثلجِ أشْهَبـا [1]

ثم قال: دلوني على رجل أوليه الشرطة. فقيل له: أيَّ الرجال تريد؟ قال: أريد دائم العبوس، طويل الجلوس، سمين الأمانة، أعجف[2] الخيانة، لا يُحنَق في الحق على حرّ أو حرّة، يهون عليه سِبالُ[3] الأشراف في الشفاعة. فقيل: عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمي فأرسل إليه يستعمله، فقال له: لست أقبلها إلا أن تكفيني عيالك وولدك وحاشيتك. فقال الحجاج: يا غلام، ناد: من طلب إليه منهم حاجة فقد برئت الذمّة منه. قال الشعبي: فوالله ما رأيت قط صاحبَ شرطة مثلَه، كان لا يحبس إلا في دين، وكان إذا أُتِيَ برجل نقب على قوم، وضع منقبته[4] في بطنه حتى تخرج من ظهره، وكان إذا أُتِيَ برجل نباش حفر له قبراً ودفنه فيه حياً، وإذا أتي برجل قاتَل بحديدة أو شَهَر سلاحاً قطع يده؛ فربما أقام أربعين يوماً لا يؤتي إليه بأحد، فضم الحجاج إليه شرطة البصرة مع شرطة الكوفة.

ولما قدم عبد الملك بن مروان المدينة نزل دار مروان، فمرّ الحجاج بخالد بن يزيد بن معاوية وهو جالس في المسجد، وعلى الحجاج سيف محلى وهو يخطر متبختراً في المسجد، فقال رجل من قريش لخالد: من هذا التختارة[5]؟ فقال: بخٍ بخٍ! هذا عمرو بن العاص! فسمعه الحجاج: فمال إليه فقال: قلتَ: هذا عمرو بن العاص! والله ما سرَّني أنّ العاص ولدني ولا ولدتُه ولكن إن شئت أخبرتك من أنا: أنا ابن الأشياخ من ثقيف، والعقائِل[6] من قريش، والذي ضرب بسيفه هذا كلهم يشهدون على

---

(١) الأشهب: المجدب، أو ذو برد وريح.

(٢) أعجف: رقيق.

(٣) السبال: جمع سبلة، وهي طرف الشارب من الشعر.

(٤) مِنقبة: ما ينقب به.

(٥) التختارة: الذي يمشي مشية الكسلان.

(٦) العقائل: جمع عقلية وهي الزوجة المحذرة والسيدة الكريمة.

أبيك بالكفر وشرْب الخمر حتى أقرّوا أنه خليفة . ثم ولّى وهو يقول: هذا عمرو بن العاص .

الأصمعي قال: بعث الحجاج إلى يحي بن يعمر، فقال له: أنت الذي تقول: إنّ الحسن بن عليّ، ابنُ رسول الله ﷺ ؟ والله لتأتيني بالمخرج أو لأضربن عنقك! فقال له: فإن أتيت بالمخرج فأنا آمن؟ قال: نعم. قال له: اقرأ ﴿وتلك حُجَّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ نَرفعُ درجاتٍ مَن نشاءُ إنّ ربَّك حكيمٌ عليمٌ. ووَهبْنا له إسحقَ ويعقوبَ كُلاًّ هَدَينا ونوحا هَدَينا من قبل ومن ذُرّيَّتِه داودَ وسليمانَ وأيوبَ ويوسف وموسى وهٰرونَ وكذلك نَجزي المحسنين وزكريّا ويَحيَى وعيسى﴾ [1] فمن أقربُ، عيسى إلى إبراهيم، وإنما هو ابن ابنته، أو الحسن إلى محمد؟ قال الحجاج: فوالله لكأني ما قرأت هذه الآية قط! وولاه قضاء بلده، فلم يزل بها قاضياً حتى مات .

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: كان عبد الملك بن مروان سِنان [2] قريش وسيفَها رأياً وحزماً، وعابدَها قبل أن يُستخلف ورعاً وزهداً؛ فجلس يوماً في خاصّته فقبض على لحيته فشمّها ملياً، ثم اجترَّ [3] نفَسَه، ونفخ نفخة أطالها، ثم نظر في وجوه القوم فقال: ما أقول يومَ ذي المسألة عن ابن أمّ الحجاج، وأدحض المُحتج على العليم بما طوته الحُجب؟ أما إنّ تمليكي له قرن بي لوعةً يحشها [4] التذكار! كيف وقد علمتُ فتعاميت، وسمعت فتصاممت، وحمله الكرامُ الكاتبون! والله لكأني إلْف ذي الضِّغن على نفسي، وقد نَعَتِ الأيامُ بتصرُّفها أنفساً حُقَّ لها الوعيدُ بتصرُّم الدُّول، وما أبقت الشبهة للباقي متعلَّقاً، وما هو إلا الغِل [5] الكامن من النفس بحوبائها [6]، والغيظ المندمل؛ اللهم أنت لي أوسع، غيرَ منتصِر ولا معتذر. يا كاتب، هات الدواة والقرطاس. فقعد كاتبه بين يديه وأملى عليه:

---

(١) سورة الأنعام الآية ٨٤ .

(٢) السنان: نصل الرمح .

(٣) اجترّ: أخرج جرّته . (٤) يحش: يذكي ويلهب .

(٥) الغل: الحقد والبغض . (٦) الحوباء: روع القلب .

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله، عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف: أمّا بعد، فقد أصبحتُ بأمرك بَرِماً[١]، يُقْعدني الإشفاق، ويقيمني الرجاء، وإذا عجزتُ في دار السعة وتوسُّط الملك وحين المهَل واجتماع الفكر أن ألتمس العذرَ في أمرك؛ فأنا لعمرُ الله في دار الجزاء وعدمِ السلطان واشتغال الحامّة[٢] والركون إلى الذلة من نفسي والتوقع لما طُويت عليه الصحف أعجز؛ وقد كنت أشركتُك فيما طوّقني الله عز وجل حملَه ولاث[٣] بحَقوى من أمانته في هذا الخَلق المرعيّ، فدُللتَ منك على الحزم والجدّ في إماتة بدعة وإنعاش سنة، فقعدتَ عن تلك ونهضت بما عاندها، حتى صرتَ حجة الغائب، وعذر اللاعن والشاهد القائم.

فلعن الله أبا عَقيل وما نَجَل[٤]، فألأَمُ والدٍ وأخبث نسل، فلعمري ما ظلمكم الزمان، ولا قعدتْ بكم المراتب، فقد ألبستكم ملبَسكم، وأقعدتكم على روابي خُططكم، وأحلَّتكم أعلى منَعتكم، فمن حافرٍ وناقل وماتح[٥] للقُلُب المُقْعدة في القيافي المُتهفيهقة[٦]، ما تقدّم فيكم الإسلامُ ولقد تأخرتم، وما الطائف منا ببعيد يُجهَل أهلُه؛ ثم قمتَ بنفسك، وطمحت بهمّتك، وسرّك انتضاءُ سيفك، فاستخرجك أميرُ المؤمنين من أعوان روح بن زنباع وشرطته، وأنت على معاونته يومئذ محسود، فهفا[٧] أميرُ المؤمنين والله يُصلح بالتوبة والغفران زَلَّته، وكأني بك وكأن ما لو لم يكن لكان خيراً مما كان؛ كلُّ ذلك من تجاسُرك وتحامُلك على المخالفة لرأي أمير المؤمنين، فصدعتَ صَفاتَنا، وهتكت حجبنا، وبسطتَ يديك تحفن[٨] بهما من كرائم ذوي الحقوق اللازمة والأرحام الواشجة، في أوعية ثقيف؛ فاستغفر الله لذنب ماله عذر، فلئن استقال أميرُ المؤمنين فيك الرأيَ، فلقد جالت البصيرة في ثقيف بصالحِ النبيِّ ﷺ، إذ ائتمنه على الصدقات وكان عبدَه، فهرب بها عنه، وما هو إلا اختيار

---

(١) البرم: الضجر، والملول.
(٢) الحامّة: الخاصة من الأهل والولد.
(٣) لاث: لفّ وعصب.
(٤) نَجَل الولد: نسله.
(٥) الماتح: المستخرج الماء من البئر. والقلب: جمع جمع قليب، وهو البئر.
(٦) المتفيهقة: الواسعة.
(٧) هفا: ارتكب هفوة.
(٨) تحفن: تعطي.

للثقة، والمطّلب لمواضع الكفاية: فقعد فيه الرجاء كما قعد بأمير المؤمنين فيما نصبك له، فكأنّ هذا ألبسَ أميرَ المؤمنين ثوب العزاء، ونهض بعُذره إلى استنشاق نسيم الرَّوح؛ فاعتزل عملَ أمير المؤمنين وآظعن عنه باللغنة اللازمة، والعقوبة الناهكة إن شاء الله، إذ استحكم لأمير المؤمنين ما يحاول من رأيه، والسلام.

ودعا عبد الملك مولى له يقال له نُباتة، له لسان وفضل رأي، فناوله الكتاب، ثم قال له: يا نباتة، العجَل ثم العجل، حتى تأتي العراق، فضع هذا الكتاب في يد الحجاج، وترقب ما يكون منه، فإذا أجْبَلَ[١] عند قراءته وآستيعابِ ما فيه، فآقلعه عن عمله وانقلع معه حتى تأتي به، وهدِّن[٢] الناس حتى يأتيهم أمري، بما تصفني به في حين انقلاعك، مِن حبِّي لهم السلامة؛ وإن هش للجواب ولم تكتنفْه أُرْبة[٣] الحيرة، فخذ منه ما يجيب به وأقرِرْه على عمله، ثم اعْجَل عليّ بجوابه.

قال نباتة: فخرجت قاصداً إلى العراق، فضمتني الصحارى والفيافي، واحتواني القرّ، وأخذ مني السفرُ، حتى وصلتُ؛ فلما وردته أُدخلت عليه في يوم ما يحضُره فيه الملأ، وعلى شحوبُ مُضْنًى، وقد توسط خدمَه من نواحيه وتدثر بمطرف خز ادكن[٤]، ولاث به الناس من بين قائم وقاعد؛ فلما نظر إليّ ـ وكان لي عارفاً ـ قعد، ثم تبسَّم تبسُّم الوجل، ثم قال: أهلاً بك يا نباتة، أهلاً بمولى أمير المؤمنين لقد أثّر فيك سفرك، وأعرف أمير المؤمنين بك ضنينا، فليت شعري ما دهمك أو دهمني عنده؟ قال: فسلّمت وقعدت، فسأل: ما حال أمير المؤمنين وخوَلِه؟... فلما هدأ أخرجت له الكتاب فناولتُه إياه، فأخذه مني مسرعاً ويده ترعد، ثم نظر في وجوه الناس فما شعرت إلا وأنا معه ليس معنا ثالث، وصار كل من يُطيف به من خدمه يلقاه جانباً، لا يسمعون منا الصوت؛ ففك الكتاب فقرأه، وجعل يتثاءب ويردد تثاؤبه، ويسيل العرق على جبينه وصدغيه ـ على شدة البرد ـ من تحت قلنسوته من

---

(١) أجبل: انقطع. (٢) هدّن: أسكن.
(٣) الأربة: العقدة التي لا تنحل حتى تحل حلاً. (٤) أدكن: الذي اغبرّ لونه.

شدة الفرق[١]، وعلى رأسه عمامة خزٍّ خضراء، وجعل يَشخص إليّ ببصره ساعةً كالمتوهم، ثم يعود إلى قراءة الكتاب ويلاحظني النظر كالمتفهِّم، إلا أنه واجم[٢]؛ ثم يعاود الكتاب، وإني لأقول: ما أراه يُثبت حروفَه؛ من شدة اضطراب يده، حتى استقصى قراءته؛ ثم مالت يده حتى وقع الكتاب على الفراش، ورجع إليه ذهنه، فمسح العرق عن جبينه ثم قال متمثلاً:

وإذا المنِيّـةُ أنْشَبـتْ أظفـارَهـا ألفَيـتَ كـل تَميمَـةٍ لا تنْفَـعُ[٣]

ثم قال: قَبُح والله منا الحسن يا نباتة، وتواكلتْنا عند أمير المؤمنين الألسن، وما هذا إلا سانح فكرة نمقها مرْصِدِ يكلَب بقصتنا، مع حسن رأي أمير المؤمنين فينا. يا غلام! فتبادر الغلمان الصيحة، فملىء علينا منهم المجلس، حتى دفأتني[٤] منهم الأنفاس، فقال: الدواةَ والقرطاس. فأُتي بداوةٍ وقرطاس، فكتب بيده، وما رفع القلم مستمِداً حتى سطر مثل خد الفرس، فلما فرغ قال لي يا نباتة، هل علمت ما جئت به فنُسمعَك ما كتبنا؟ قلت: لا. قال: إذاً حسبك منا مثله. ثم ناولني الجواب، وأمر لي بجائزة فأجزل، وجرّد لي كساءً ودعا لي بطعام فأكلت ثم قال: نَكلُك[٥] إلى ما أمِرت به من عجلة أو توانٍ، وإني لأحب مقارنتك والأُنسَ برؤيتك. فقلت: كان معي قُفل مفتاحُه عندك، ومفتاح قفلك عندي، فأُحدثت لك العافية بأمرين: فاقفلتَ المكروه وفتحت العافية، وما ساءني ذلك وما أُحب أن أزيدك بيانا، وحسْبك من استعجال القيام.

ثم نهضت وقام مودعاً لي، فالتزمني وقال: بأبي أنت وأمي، رب لفظةٍ مسموعة ومحتقر نافع؛ فكن كما أظن.

فخرجت مستقبلاً وجهي حتى وردتُ أمير المؤمنين، فوجدته منصرفاً من صلاة

---

(١) الفرق: الفزع.

(٢) واجم: العابس لشدة الحزن أو الفزع.

(٣) التميمة: ما يعلق في العنق لدفع العين.

(٤) دفأتني: اسخنتني. (٥) نكلك: نسلمك.

العصر، فلما رآني قال: ما احتواك المضجع يا نباتة! فقلت: من خاف من وجه الصباح أدلج[١]. فسلمت وانتبذت عنه فتركني حتى سكن جأشي، ثم قال: مَهيَم[٢]. فدفعت إليه الكتاب فقرأه متبسماً، فلما مضى فيه ضحك حتى بدت له سنٌّ سوداء ثم استقصاه فانصرف إليّ فقال: كيف رأيت إشفاقه؟ قال: فقصصت عليه ما رأيت منه فقال: صلوات الله على الصادق الأمين: إن من البيان لسحراً. ثم قذف الكتاب إليّ فقال: اقرأ. فقرأته فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد الله أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين، المؤيّدِ بالولاية، المعصوم من خطل القول وزلل الفعل، بكفالة الله الواجبة لذوي أمره؛ من عبد اكتنفته الزَّلة[٣]، ومدّ به الصَّغار[٤] إلى وخيم المرتع، ووبيل المكرع[٥]، من جليل فادح ومعتد قادح؛ والسلام عليك ورحمة الله التي اتسعت فوسِعَتْ، وكان بها إلى أهل التقوى عائداً؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، راجياً لعطفك بعطفه.

أما بعد، كان الله لك بالدَّعة في دار الزوال، والأمن في دار الزلزال، فإنه من عُنيتْ به فكرتك يا أمير المؤمنين مخصوصاً، فما هو إلا سعيد يؤثر، أو شقي يوتَر[٦]؛ وقد حجبني عن نواظر السعد لسان مرصد ونافس حَقِد، انتهز به الشيطان حين الفكرة، فافتتح به أبواب الوسواس بما تحنق به الصدور؛ فواغوثاه آستعاذةً بأمير المؤمنين من رجيم إنما سلطانه على الذين يتولونه، واعتصاماً بالتوكل على من خصه بما أجزل له من قسْم الإيمان وصادق السنة، فقد أراد اللعين أن يفتُق لأوليائه فتقا نبا عنه كيده، وكثر عليه تحسره، بلية قَرع بها فكر أمير المؤمنين مُلبساً

(١) أدلج: سار في أول الليل.
(٢) مهيم: أي ما حالك وما شأنك، أو ما وراءك.
(٣) الزلة: الخطأ.
(٤) الصَّغار: الذلّ والوضاعة.
(٥) المكرع: الموضع حيث الماء.
(٦) يوتر: يقتل حميمه أو يدركه مكروه.

وكادحاً ومؤرّشاً[1]، ليفلّ من عزمه الذي نصبني، ويصيب تأراً لم يزل به موتوراً، وذكر قديمَ ما مُنى به الأوائل حتى لحقْتُ بمثله منهم وما كنت أبلوه من خسة أقدار، ومزاولة أعمال، إلى أن وصلت ذلك بالتشرُّط لروح بن زنباع. وقد علم أمير المؤمنين بفضل ما اختار الله له تبارك وتعالى من العلم المأثور الماضي، بأن الذي غُيِّر به القوم من مصانعهم من أشد ماكان يزاوله أهل القُدْمة[2] الذين اجتبى الله منهم، وقد اعتصموا وامتعضوا من ذكر ما كان، وارتفعوا بما يكون، وما جهِلَ أمير المؤمنين - للبيان موقعُه، غير محتج ولا مُتعدٍّ - أن متابعة روح بن زنباع طريقُ الوسيلة لمن أراد مَن فوقه، وأن رَوْحا لم يُلْبسني العزم الذي به رفعني أمير المؤمنين عن خوله؛ وقد ألصقتْني بروح بن زنباع همةٌ لم تزل نواظرها ترمي بي البعيد، وتطالع الأعلام. وقد أخذت من أمير المؤمنين نصيباً اقتسمه الإشفاق من سَخطته والمواظبة على موافقته، فما بقي لنا بعد إلا صُبابة إرث، به تجول النفس وتطرِف النواظر، ولقد سرت بعين أمير المؤمنين سيرَ المثبِّط لمن يتلوه، المتطاول لمن تقدمه، غير مُبتّ[3] موجف، ولا متثاقل مجحف؛ ففتّ الطالب، ولحقت الهارب، حتى سادت السنَّة، وبادت البدعة، وخَشىء الشيطان، وحُملت الأديان إلى الجادة العظمى والطريقة المثلى؛ فها أنا ذا يا أمير المؤمنين، نصب المسألة لمن رامني، وقد عقدت الحبوة[4]، وقرنت الوظيفتين لقائل محتج، أو لائمٍ مُلتجّ؛ وأمير المؤمنين ولي المظلوم، ومعقل الخائف؛ وستظهِر له المحنة نبأ أمري؛ ولكل نبإٍ مستقر؛ وما حَفَنت[5] يا أمير المؤمنين في أوعية ثقيف حتى رَوي الظمآن، وبطن الغَرْثان[6]، وغصَّت الأوعية، وآنقدّت[7] الأوكية[8] في

(١) المؤرش: الذي يوقد النار أو الحرب، أو يغري بعض الناس ببعض.

(٢) القدمة: السابقة في الأمر.

(٣) أبت بعيره: إذا أجهده وأتعبه في السير حتى قطعه.

(٤) الحبوة: ما يحتبى به من ثوب وغيره.

(٥) حفن: جرف بكلتا يديه، وحفن الماء: القاه.

(٦) الغرثان: الجائع. (٧) انقدت: انقطعت.

(٨) الأوكية: جمع وكاء: وهو الخيط الذي تشد به الصرة أو الكيس.

آل مروان، فأخذتْ ثقيفٌ فضلاً صار لها، لولاهم للقطتْه السابلة[1]؛ ولقد كان ما أنكره أمير المؤمنين من تحاملي، وكان مالو لم يكن لعظم الخطب فوق ما كان؛ وإن أمير المؤمنين لرابع أربعة: أحدهم ابنة شعيب النبي ﷺ؛ إذ رمت بالظن غرضَ اليقين تفرّساً في النجيِّ المصطفى بالرسالة، فحقّ لها فيه الرجاء، وزالت شبهةُ الشك بالاختبار؛ وقبْلها العزيز في يوسف؛ ثم الصدّيق في الفاروق، رحمة الله عليهما؛ وأمير المؤمنين في الحجاج. وما حَسد الشيطان يا أمير المؤمنين خاملاً، ولا شرق[2] بغير شجى؛ فكم غبطة يا أمير المؤمنين للرجيم أدبر منها وله عُواء وقد قلت حيلته، ووَهَن كيده يوم كيت وكيت؛ ولا أظن أذْكَر لها من أمير المؤمنين. ولقد سمعت لأمير المؤمنين في صالحٍ - صلوات الله عليه - وفي ثقيف مقالاً، هجم بي الرجاءُ لعذله عليه بالحجة في ردّه، بمحكم التنزيل في لسان ابن عمه خاتم النبيين وسيد المرسلين؛ ﷺ. فقد أخبر عن الله عز وجل؛ وحكاية غُرِّ الملأ من قريش عند الاختيار والافتخار، وقد نفخ الشيطان في مناخرهم، فلم يدَعوا خلف ما قصدوا إليه مرمًى، فقالوا ﴿لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القَرْيَتَيْنِ عظيمٍ﴾[3]. فوقع اختيارُهم - عند المباهاة بنفخة الكفر، وكبرِ الجاهلية، على الوليد بن المغيرة المخزومي، وأبي مسعود الثقفي؛ فصارا في الافتخار بهما صنْوين، ما أنكر اجتماعَهما من الأمة منكر في خبر القرآن ومبلّغ الوحي، وإن كان ليقال للوليد في الأمة يومئذ: ريحانة قريش؛ وما ردّ ذلك العزيز تعالى إلا بالرحمة الشاملة في القسم السابق، فقال عز وجل: ﴿أَهُمْ يَقْسِمونَ رحْمَةَ ربّكَ؟ نحن قسَمْنا بينهم معيشتَهُمْ في الحياةِ الدُّنيا﴾[4]. وما قدمتْني يا أمير المؤمنين ثقيف في الاحتجاج لها، وإن لها مقالاً رحباً، ومعاندةً قديمة؛ إلا أن هذا من أيسر ما يحتج به العبد المشفِق على سيده المغضَب، والأمر إلى أمير المؤمنين، عَزَل أم أقرّ، وكلاهما عدل مُتبَع، وصواب مُعتقِد. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله.

---

(١) السابلة: الذين يمرّون على السابلة، وهي الطريق المسلوك. (٢) شرق: غصّ.

(٣) سورة الزخرف الآية ٣١. (٤) سورة الزخرف الآية ٣٢.

قال نباتة: فأتيت على الكتاب بمحضر أمير المؤمنين عبد الملك، فلما استوعبته سارقتُه النظر على الهيبة منه، فصادف لحظي لحظه، فقال: آقطعه ولا تُعْلِمنّ بما كان أحداً. فلما مات عبد الملك فشا عني الخبر بعد موته.

الحجاج وابن المنتشر في ذمي:

محمد بن المنتشر بن الأجدع الهمداني قال: دفع إلي الحجاج رجلا ذِمِّيا[1]، وأمرني بالتشديد عليه والاستخراج منه، فلما انطلقت به قال لي: يا محمد، إن لك لشَرَفاً ودينا. إني لا أعطى على القسر شيئا، فاستأذني وآرفق بي. قال: ففعلت فأدّى إليّ في أسبوع خمسمائة ألف، فبلغ ذلك الحجاج فأغضبه، فانتزعه من يدي ودفعه إلى الذي كان يتولى له العذاب، فدق يديه ورجليه ولم يعطه شيئا. قال محمد ابن المنتشر: فإني لسائر يوما في السوق، إذ صائح بي: يا محمد، فالتفتّ، فإذا أنا به معترضاً على حمار مدقوق اليدين والرجلين، فخفت الحجاج إن أتيته وتذمَّمتُ[2] منه، فملت إليه، فقال لي: إنك ولِيت مني ما ولِيَ هؤلاء، فرفقت بي وأحسنت إليَّ، وإنهم صنعوا بي ما ترى، ولي خمسمائة ألف عند فلان، فخذها مكافأة لما أحسنت إليّ. فقلت: ما كنت لآخذ منك على معروفي أجرا، ولا لأرزأك[3] على هذه الحالة شيئاً! قال: فأما إذ أبيت فاسمع مني حديثاً أحدِّثُك به، حدَّثَنيه بعض أهل دينك عن نبيك ﷺ: إذا رضي الله عن قوم أنزل عليهم المطر في وقته، وجعل المال في سمحائهم، واستعمل عليهم خيارَهم؛ وإذا سخِط على قوم أنزل عليهم المطر في غير وقته، وجعل المال في بُخَلائهم، واستعمل عليهم شِرارَهم.

فانصرفت، فما وضعت ثوبي حتى أتاني رسول الحجاج، فسرت إليه، فألفيته جالساً على فراشه والسيف مصلت بيده، فقال لي: آدن. فدنوت شيئاً، ثم قال لي: آدن فدنوت شيئا، ثم قال لي الثالثة: آدن، لا أبالك! فقلت: ما بي إلى الدنوّ من حاجة،

---

(١) ذمياً: من أهل الذمة.

(٢) تذممت: استحييت. (٣) أرزأك: أصابك بمكروه.

وفي يد الأمير ما أرى! فضحك وأغمد سيفه. وقال: اجلس، ما كان من حديث الخبيث؟ فقلت له: أيها الأمير، والله ما غَشَشْتُك منذ استصحبتَني ولا كذبتك منذ استخبرتني، ولا خنتك منذ ائتمنتني؛ ثم حدثته؛ فلما صرت إلى ذكر الرجل الذي المال عنده أعرض عني بوجهه، وأومأ[1] إلي بيده، وقال: لا تُسمَّه. ثم قال: إن للخبيث نفساً، وقد سمع الأحاديث.

شيء عن الحجاج:

ويقال: إن الحجاج كان إذا استغرب ضَحِكا والى بين استغفار، وكان إذا صعد المنبر تلفع بمطرفه[2]، ثم تكلم رويداً فلا يكاد يُسمع، حتى يتزايد في الكلام فيُخرج يده من مُطرفه، ثم يزجر الزجرة فيقرع بها أقصى مَن في المسجد.

خالد القسري في شأن الحجاج:

صعد خالد بن عبدالله القسري المنبر في يوم الجمعة وهو إذ ذاك على مكة؛ فذكر الحجاج، فحمد طاعته وأثنى عليه خيرا؛ فلما كان في الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك، يأمره فيه بشتم الحجاج ونشر عيوبه وإظهار البراءة منه: فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

إن إبليس كان ملكا من الملائكة، وكان يُظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له به فضلا، وكان الله قد علم من غِشّه وخُبثه ما خفي على ملائكته، فلما أراد الله فضيحتَه أمره بالسجود لآدم، فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم، فلعنوه؛ وإن الحجاج كان يُظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلا، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غشه وخبثه على ما خفي عنا؛ فلما أراد الله فضيحته أجرى ذلك على يدي أمير المؤمنين؛ فلعنَه، فالعنوه لعنه الله! ثم نزل.

---

(١) أومأ: أشار.

(٢) المطرف: رداء من خزّ مربع ذو أعلام.

الحجاج وامرأة ابن الأشعث:

ولما أُتِي الحجاج بامرأة ابن الأشعث قال للحرسي: قل لها: يا عدوّة الله، أين مال الله الذي جعلته تحت ذيلك؟ فقال لها الحرسي: يا عدوّة الله أين مال الله الذي جعلته تحت استك؟ قال الحجاج: كذبت؛ ما هكذا قلت؛ أرسِلْها . فخلّي سبيلها .

الحجاج وأبو وائل:

أبو عَوانةِ عن عاصم عن أبي وائل قال: أرسل الحجاج إليّ . فقال لي: ما اسمك؟ قلت: ما أرسل الأمير إليّ حتى عَرَف اسمي! قال لي: متى هبطت هذه الأرض؟ قلت: حين ساكنت أهلها . قال: كم تقرأ من القرآن؟ قلت: أقرأ منه ما إن اتبعتُه كفاني . قال: إني أريد أن أستعين بك على بعض عملي؟ قلت: إن تستعين بي تستعن بكبير أخرق[1] ضعيف، يخاف أعوان السوء. وإن تدَعْني فهو أحبُ إليّ، وإن تُقْحِمْني أتقَحَّمْ. قال: إن لم أجد غيرك أقحمتك وإن وجدت غيرك لم أُقحمك . قلت وأخرى أكرم الله الأمير: إني ما علمت الناس هابوا أميراً قط هيبتَهم لك؛ والله إني لأتعارّ[2] من الليل فأذكرك فما يأتيني النوم حتى أُصبح؛ هذا، ولست لك على عمل! فأعجبه ذلك وقال: هيه! كيف قلت؟ فأعدت عليه الحديث . فقال: إني والله ما أعلم اليوم رجلا على وجه الأرض هو أجرأ على دمٍ مني! قال: فقمت فعدلت عن الطريق عمداً كأني لا أُبصر، فقال: آهدوا الشيخ، أرشدوا الشيخ .

الحجاج وابن أبي ليلى:

أبو بكر بن أبي شيبة قال: دخل عبد الرحمن بن أبي ليلى على الحجاج، فقال لجلسائه: إذا أردتم أن تنظروا إلى رجل يسب أمير المؤمنين عثمان فانظروا إلى هذا . فقال عبد الرحمن: معاذ الله أيها الأمير أن أكون أسُبَّ عثمان؛ إنه ليحْجُزني[3] عن

---

(١) الأخرق: الأحمق .

(٢) التعار: السهر والتقلب على الفراش ليلاً مع كلام .

(٣) يحجزني: يمنعني .

ذلك [ثلاث] آيات في كتاب الله تعالى [قال الله تعالى]: ﴿للفقراءِ المُهاجرينَ الذين أُخْرِجُوا منْ ديارِهمْ وأموالِهمْ يبْتغُونَ فضلاً منَ الله ورضْواناً ويَنْصُرون اللهَ ورسولهُ، أُولئك هُمُ الصّادقونَ﴾ (١) . فكان عثمان منهم، ثم قال: ﴿والذين تبوّءُوا الدّار والإيمانَ منْ قبْلِهم يُحبُّون منَ هاجرَ إليهم ولا يجدُون في صُدورهم حاجةً ممّا أُوتُوا ويُؤْثِرونَ على أنفُسهم ولوْ كان بهم خَصَاصةٌ﴾ (٢) . فكان أبي منهم ثم قال: ﴿والذين جاءُوا من بعْدهِمْ يقولون ربَّنا آغفرْ لنا ولإخْوانِنا الذينَ سبَقونا بالإيمان﴾ (٣) . فكنت أنا منهم. قال: صدقت.

ابن أبي ليلى في لعن علي وابن الزبير والمختار:

أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي معاوية عن الأعمش قال: رأيت عبد الرحمن بن أبي ليلى ضربه الحجاج وأوقفه على باب المسجد، فجعلوا يقولون له: العن الكاذبِين: عليّ ابن أبي طالب، وعبد الله بن الزبير، والمختار بن أبي عبيد. فقال: لعن الله الكاذبين ثم قال: عليٌّ بن أبي طالب، وعبد الله بن الزبير، والمختار بن أبي عبيد - بالرفع - فعرفت حين سكت ثم ابتدأ فرفع، أنه ليس يريدهم.

الحجاج والشعبي:

قال الشعبي: أُتِيَ بي الحجاج مُوثقا، فلما جئت باب القصر لقيني يزيد بن أبي مسلم كاتبه، فقال: إنا لله يا شعبيّ لما بين دفتيك من العلم، وليس اليوم بيوم شفاعة! قلت له: فما المخرج؟ قال: بُؤْ (٤) للأمير بالشرك والنفاق على نفسك، وبالحرى أن تنجو. ثم لقبني محمد بن الحجاج، فقال لي مثل مقالة يزيد: فلما دخلت على الحجاج قال لي: وأنت يا شعبي فيمن خرج علينا وكفر؟ قلت: أصلح الله الأمير، نبا (٥) بنا المنزل، وأجدب بنا الجناب (٦) ، واستحلَسنا (٧) الخوفُ، واكتحلْنا السهر، وضاق

---

(١) سورة الحشر الآية ٨ . (٢) سورة الحشر الآية ٩ . (٣) سورة الحشر الآية ١٠ .

(٤) بؤ: عد . (٥) نبا: بعد .

(٦) الجناب: الناحية . (٧) استحلسنا الخوف: لم يفارقنا .

المسلك، وخبطتنا فتنةٌ لم نكن فيها بررةً أتقياء، ولا فجرة أقوياء! قال: صدق والله، ما برُّوا بخروجهم علينا، ولا قَوُوا؛ أطلقوا عنه. فاحتاج إليّ في فريضة بعد ذلك، فأرسل إليّ فقال: ما تقول في أمٍ وأخت وجَدٍ؟ فقلت: اختلف فيها خمسة من أصحاب محمد ﷺ: عبد الله بن مسعود، وعليّ، وعثمان وزيد، وابن عباس. قال: فما قال فيها ابن عباس، إن كان لِمَنْقَباً[1]. قلت: جعل الجد أباً ولم يُعْط الأخت شيئا، وأعطى الأمّ الثلث. قال: فما قال فيها ابن مسعود؟ قلت جعلها من ستة، فأعطى الجدَّ ثلاثة، وأعطى الأمّ اثنين، وأعطى الأخت سهماً. قال: فما قال زيد؟ قلت: جعلها من تسعة، فأعطى الأمّ ثلاثة، وأعطى الجدَّ أربعة، وأعطى الأخت اثنين؛ فجعل الجد معها أخا. قال: فما قال فيها أمير المؤمنين عثمان؟ قلت: جعلها أثلاثا. قال: فما قال فيها أبو تُراب؟ قلت: جعلها من ستة، فأعطى الأخت ثلاثة، وأعطى الأم اثنين وأعطى الجد سهما، قال: مُرِ القاضي فليُمْضها على ما أمضاها أمير المؤمنين.

... فبينما أنا عنده إذ جاءه الحاجب فقال له: إن بالباب رسلا. فقال: إيذن لهم. قال: فدخلوا، وعمائمهم على أوساطهم، وسيوفهم على عواتقهم، وكتبهم بأيمانهم، وجاء رجل من بني سُلَيم يقال له شبابة بن عاصم، فقال له: من أين؟ قال: من الشام، قال: كيف تركتَ أمير المؤمنين؟ وكيف تركت حشمه؟ فأخبره، قال: هل وراءك من غيث؟ قال: نعم، أصابتني فيما بيني وبين الأمير ثلاث سحائب. قال: فانعت لي، كيف كان وقع المطر وتباشيره؟ قال: أصابتني سحابة بحُوّارين[2]، فوقع قَطر صغار وقَطر كبار، فكانت الصغار لُحمة للكبار؛ ووقع نشيطا ومتداركا، وهو السَّيح[3] الذي سمعتَ به، فواد سائل، وواد نازح؛ وأرض مُقبلة، وأرض مدبرة. وأصابتني سحابة بَسراء[4] فلبّدت الدِّماث[5]، وأسالت العَزَاز[6]، وأدحضت التلاع، وصدعت

---

(١) المنقب: العالم بالأشياء، الكثير البحث والتنقيب.

(٢) حوارين: من قرى حلب.

(٣) السيح: الجاري الظاهر.

(٤) البسراء: التي أمطرت قبل أوانها.

(٥) الدماث: جمع دمث: وهي المكان السهل اللين.

(٦) العزاز: الأرض الصلبة.

عن الكمأة أماكنها ؛ وأصابتني سحابة بالقَريتين . فقاءت الأرض بعد الريّ ، وامتلأت الأخاديد [١] ، وأفعمت الأودية ، وجئتك في مثل وجار [٢] الضبعُ .

ثم قال : إيذن . فدخل رجل من بني أسد ، فقال : هل وراءك من غيث ؟ قال : لا ، كثُر والله الإعصار ، وأغبرت البلاد ، وأيقنّا أنه عام سَنة [٣] . قال : بئس المُخبر أنت . قال : أخبرتك الذي كان .

ثم قال : إيذن . فدخل رجل من أهل اليمامة ، قال : هل وراءك من غيث ؟ قال : نعم ، سمعت الروّاد يدعون إلى الماء ، وسمعت قائل يقول : هلم ظعنكم إلى محلة تطفأ فيها النيران ، وتشتكي فيها النساء ، وتنافشُ فيها المعزى . قال الشعبي : فلم يدر الحجاج ما قال ، فقال له : تبّا لك . إنما تحدّث أهل الشام فأفهِمهم . قال : أصلح الله الأمير ، أخصب الناس ، فكثر التمر والسمن والزبد واللبن ، فلا توقد نار يُختبز بها ؛ وأمّا تشكَى النساء ، فإنّ المرأة تظل تُربق [٤] بَهمها ، وتمخض لبنها ، فتبيت : ولها أنين من عضدها وأمّا تنافُشُ [٥] المعزى ، فإنها ترى من أنواع التَّمر وأنواع الشجر ونَور النبات ، ما يشبع بطونَها ولا يُشبع عيونها ، فتبيت وقد امتلأت أكراشها ، ولها من الكظة [٦] جرّة ، فتبقى الجرّة حتى تستنزل الدرّة .

ثم قال : إيذن . فدخل رجل من الموالي كان من أشدّ الناس في ذلك الزمان ، فقال له : هل وراءك من غيث ؟ قال : نعم ، ولكني لا أحسن أن أقول ما يقول هؤلاء . قال : فما تحسن ؟ قال : أصابتني سحابة بحُلوان ، فلم أزل أطأُ في آثارها حتى دخلتُ عليك . فقال : لئن كنت أقصرهم في المطر خُطبة ، إنك لأطولهم بالسيف خُطوة .

---

(١) الأخدود : الشق المستطيل في الأرض .
(٢) الوجار : حجر الضبع والأسد والذئب .
(٣) سنة : جدب .
(٤) تربق : تجعل رأسه في الربقة .
(٥) تنافش : تفرق .
(٦) الكظة : البطنة .

عبد الملك والحجاج وابن عمر:

إبراهيم بن مرزوق عن سعيد بن جويرية قال: لما كان عام الجماعة، كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج: انظر ابنَ عمر فاقتد به وخذ عنه. يعني في المناسك، قال: فلما كان عشية عرفة، سار الحجاج بين يدي عبد الله ابن عمر وسالم آبنه، فقال له سالم: إن أردت أن تُصيب السُّنة[١] اليوم فأوجز الخُطبة وعجّل الصلاة. قال: فقطَّب ونظر إلى عبد الله بن عمر، فقال: صدقت. فلما كان عند الزوال مرَّ عبد الله بن عمر بسرادقه وقال: الرواح[٢] فما لبث أن خرج ورأسه يقطر كأنه قد اغتسل، فلما أفاض[٣] الناس رأيت الدم يتحدر من النجيبة[٤] التي عليها ابنُ عمر، فقلت: أبا عبد الرحمن، عقرت النجيبة! قال: أنا عُقرت ليس النجيبة. وكان أصابه زج[٥] رمح بين أصبعين من قدمه، فلما صرنا بمكة دخل عليه الحجاج عائدا فقال: يا أبا عبد الرحمن، لو علمتُ مَن أصابك لفعلتُ وفعلت، قال له: أنت أصبتَني. قال غفر الله لك، لمَ تقول هذا؟ قال: حملتَ السلاح في يوم لا يُحمل فيه السلاح، وفي بلد لا يحمل فيه السلام.

من أخبار الحجاج:

أبو الحسن المدائني قال: أخبرني من دخل المسجد والحجاج على المنبر وقد ملأ صوتُه المسجد بأبيات سُويد بن أبي كاهل اليشكُري حيث يقول:

ربَّ مَن أنْضجتُ غيْظا صدْرَه ... قد تمنَّى لي موتاً لم يُطَعْ

ساءَ ما ظَنُّوا وقد أبليْتُهم ... عند غاياتِ المدَى كيف أقعْ[٦]

---

(١) السنة: السيرة، والعمل المحمود في الدين مما ليس فرضاً ولا واجباً.

(٢) الرواح: الراحة: أو الوقت من زوال الشمس إلى الليل، ويقابله الصباح.

(٣) أفاض الحجاج: إنصرفوا إلى منى بعد انقضاء الموقف في عرفات.

(٤) يقال نجائب الأبل أي خيارها. ونجائب، جمع نجيبه.

(٥) الزَّج: الحديدة في أسفل الرمح.

(٦) أبليتهم: أي عرفوا مني واستيقنوا والمدى: الغاية.

كيفَ يـرجـون سِقـاطـي بعـدمـا شمِـل الرأس مَشيــبٌ وصلَــعْ

كتب الوليد إلى الحجاج. أن صف لي سيرتك، فكتب إليه: إني أيقظت رأيي، وأنمت هواي، فأدنيت السيد المطاع في قومه، ووليت الحربَ الحازمَ في أمره، وقلدت الخراج الموفِّر لأمانته، وصرفت السيف إلى النَّطِف[1] المسيء، والثواب إلى المحسن البريء؛ فخاف المُريب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب.

الحجاج وقارىء

قرأ الحجاج في سورة هود: ﴿قال يا نوحُ إنه ليسَ من أهلِكَ إنه عَمَلٌ غيرُ صالحٍ﴾[2]؛ فلم يدر كيف يقرأ: عَمَلٌ بالضم والتنوين، أو عَمِلَ بالفتح؛ فبعث حرسيًا فقال: إيتني بقارىء. فأتى به وقد ارتفع الحجاج عن مجلسه، فحبسه ونسيه حتى عرض الحجاج حبسَه بعد ستة أشهر؛ فلما انتهى إليه قال له: فيم حُبستَ؟ قال: في ابن نوح، أصلح الله الأمير! فأمر بإطلاقه.

عبد الملك والحجاج وأنس:

إبراهيم بن مرزوق قال: حدّثني سعيد بن جُويرية قال: خرجتْ خارجة على الحجاج بن يوسف، فأرسل إلى أنس بن مالك يخرج معه، فأبى، فكتب إليه يشتمه، فكتب أنس بن مالك إلى عبد الملك بن مروان يشكوه وأدرج كتاب الحجاج في جوف كتابه.

قال إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر: بعث إليّ عبد الملك بن مروان في ساعة لم يكن يبعث إليّ في مثلها، فدخلت عليه وهو أشدّ ما كان حنقاً وغيظا، فقال: يا إسماعيل: ما أشدّ عليّ أن تقول الرعية: ضعفُ أمير المؤمنين، وضاق ذرعُه في رجل من أصحاب النبي ﷺ! لا يقبل له حسنة، ولا يتجاوز له عن سيئة، فقلت: ومَا ذاك يا أمير المؤمنين قال أنس بن مالك: خادم رسول الله ﷺ، كتب إليّ يذكر أنّ

(١) النطف: الرجل المريب. (٢) سورة يونس الآية ٤٦.

الحجاج قد أضرّ بـ وأساء جواره. وقد كتبت في ذلك كتابين، كتابا إلى أنس بن مالك، والآخر إلى الحجاج؛ فاقبضهما ثم آخرج على البريد فإذا وردت العراق فابدأ بأنس بن مالك فادفع له كتابي، وقل له: اشتدّ على أمير المؤمنين ما كان من الحجاج إليك، ولن يأتيَ إليك أمرٌ تكرهه إن شاء الله، ثم ائت الحجاج فادفع إليه كتابه، وقل له: قد اغتررت بأمير المؤمنين غِرّة[1] لا أظنه يخطئك شرُّها. ثم افهم ما يتكلم به وما يكون منه، حتى تُفهِمني إياه إذا قدمتَ عليّ إن شاء الله.

قال إسماعيل: فقبضت الكتابين وخرجت على البريد، حتى قدمت العراق فبدأت بأنس بن مالك في منزله، فدفعت إليه كتاب أمير المؤمنين، وأبلغته رسالته؛ فدعا له وجزاه خيرا؛ فلما فرغ من قراءة الكتاب قلت له: أبا حمزة، إنّ الحجاج عامل، ولو وُضع لك في جامعة[2] لقدر أن يضرك وينفعك؛ فأنا أريد أن تصالحه. قال: ذلك إليك، لا أخرج عن رأيك. ثم أتيت الحجاج؛ فلما رآني رحب وقال: والله لقد كنتُ أحبُّ أن أراك في بلدي هذا! قلت: وأنا والله قد كنت أحب أن أراك وأقدمَ عليك بغير الذي أرسلت به إليك! قال: وما ذاك؟ قلت: فارقتُ الخليفةَ وهو أغضبُ الناس عليك! قال: ولم؟ قال: فدفعت إليه الكتاب، فجعل يقرؤه وجبينهُ يعرق فيمسحه بيمينه، ثم قال: آركب بنا إلى أنس بن مالك. قلت له: لا تفعل، فإني سأتلطف به حتى يكون هو الذي يأتيك - وذلك للذي أشرتُ عليه من مصالحته - قال: فألقى كتابَ أمير المؤمنين، فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف، أمّا بعد فإنك عبد طَمَتْ[3] بك الأمور فطغيْتَ، وعلوْتَ فيها حتى جُزت قدرَك، وعدَوْتَ طورك، وآيم ٱلله يابن المُستفرمة[4] بعَجم زبيب الطائف، لأغمزنّك[5]

---

(١) اغتر: غفل، والغرّة: غفلة في اليقظة. (٢) الجامعة: الغل.

(٣) طمى: طغى، أو ارتفع، أو اشتدّ.

(٤) المستفرمة: التي تجعل الدوراء في متاعها ليضيق.

(٥) الغمزات: جمع غمزة: وهي الشدة والزحمة، أو الضلالة التي تغمر صاحبها.

كبعض غمزات الليوث للثعالب، ولأركضنّك ركضة تدخل منها في وَجعاء[1] أمك؛ آذكر مكاسب آبائك بالطائف، إذ كانوا ينقلون الحجارة على أكتافهم، ويحفرون الآبار في المناهل بأيديهم؛ فقد نسيت ما كنت عليه أنت وآباؤك من الدناءة واللؤم والضراعة؛ وقد بلغ أميرَ المؤمنين استطالةٌ منك على أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، جرأةً منك على أمير المؤمنين، وغِرّةً بمعرفة غِيرِهَ ونقماته وسطواته على من خالف سبيله وعمد إلى غير محبته، ونزل عند سخطته، وأظنك أردت أن تروزه[2] بها لتعلم ما عنده من التغيير والتنكير فيها، فإن سُوِّغتها مضيت قُدما، وإن بُغِّضتها وليت دُبرا. فعليك لعنة الله من عبد أخفس[3] العينين؛ أصلك[4] الرجلين؛ ممسوح الجاعرتين[5]، وآيم الله لو أن أمير المؤمنين علم أنك آجترمت منه جُرما وانتهكت له عرضاً فيما كتب به إلى أمير المؤمنين، لبعث إليك من يسبحك ظهراً لبطن حتى ينتهي بك إلى أنس بن مالك، فيحكم فيك بما أحب، ولن يخفى على أمير المؤمنين نبؤك[6]، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون.

قال إسمعيل: فانطلقت إلى أنس فلم أزل به حتى انطلق معي إلى الحجاج؛ فلما دخلنا عليه قال: يغفر الله لك أبا حمزة: عَجِلت بالائمة، وأغضبت علينا أمير المؤمنين. ثم أخذ بيده فأجلسه معه على السرير، فقال: أنس: إنك كنت تزعم أنا الأشرار! والله سمّانا الأناصر، وقلت: إنا من أبخل الناس! ونحن الذين قال الله فيهم: ﴿ويُؤْثِرون على أنفسِهم ولو كانَ بِهمْ خَصاصَةٌ﴾[7] وزعمت أنّا أهل نفاق! والله تعالى يقول فينا: ﴿والذينَ تبوَّءُوا الدَّارَ والإيمان مِنْ قبْلِهمْ يُحبُّونَ منْ هاجَرَ إليهم ولا يجِدُون في صُدُورهِم حاجَةً ممَّا أُوتُوا﴾[8] فكان المفزع والمشتكى في ذلك

---

(١) الوجعاء: السافلة وهي الدبر. (٢) تروزه: تجربه.

(٣) الأخفس: الذي ينطق بالقبيح. (٤) اصلك الرجلين: مضطرب الركبتين والعرقوبين.

(٥) الجاعرة: حرف الورك المشرف على الفخذ، وهما جاعرتان.

(٦) نَبْؤك: خَبَرُكَ. (٧) سورة الحشر الآية ٩.

(٨) سورة الحشر الآية ١٠.

إلى الله وإلى أمير المؤمنين؛ فتولى من ذلك ما ولاه الله، وعرف من حقنا ما جهلتَ، وحفظ منا ما ضيَّعْت؛ وسيحكم في ذلك ربٌّ هو أرضى للمُرضِي، وأسخط للمسخِط، وأقدر على المغير، في يوم لا يشوبُ الحقَّ عنده الباطل، ولا النورَ الظلمة، ولا الهدى الضلالة؛ والله لولا أن اليهود أو النصارى رأت مَن خَدم موسى بن عمران أو عيسى ابن مريم يوماً واحداً لرأت له ما لم تروا لي في خدمة رسول الله ﷺ عشر سنين.

قال: فاعتذر إليه الحجاج وترضاه حتى قبلَ عذره ورضي عنه، وكتب برضاه وقبوله عذرَه، ولم يزل الحجاج له معظِّماً هائباً له حتى هلك، رضي الله عنه.

وكتب الحجاج إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان:

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: أصلح الله أمير المؤمنين وأبقاه، وسهل حظه وحاطه ولا أعدمناه، فإن إسماعيل بن أبي المهاجر رسول أمير المؤمنين ـ أعز الله نصره ـ قدِمَ عليّ بكتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، وجعلني من كل مكروه فداءه، يذكر شتيمتي وتوبيخي بآبائي، وتعييري بما كان قبل نزول النعمة بي من عند أمير المؤمني، أتم الله نعمتَه عليه، وإحسانه إليه، ويذكر أمير المؤمنين، جعلني الله فداه، استطالةً مني على أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، جرأة على أمير المؤمنين، وغرة بمعرفة غِيره ونقماته وسطواته على من خالف سبيله وعمد إلى غير محبته ونزل عند سخطته وأمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ في قرابته من محمد رسول الله ﷺ، إمام الهدى وخاتم الأنبياء ـ أحق من أقال عَثْرَتي وعفا عن ذنبي، فأمهلني ولم يعجلني عند هفوتي للذي جُبل عليه من كريم طبائعه، وما قلده الله من أمور عباده؛ فرأى أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ في تسكين ورعيّ وإفراح كربتي، فقد مُلئت رعباً وفرقا من سطوته، وفجاءة نقمته، وأمير المؤمنين ـ أقاله[1] الله العثرات،

---

(١) أقال الله عثرته: صفح عنه وتجاوز.

وتجاوز له [عن] السيئات، وضاعف له الحسنات، وأعلى له الدرجات ـ أحق من صفح وعفا، وتغمد[1] وأبقى، ولم يشمت بي عدوا مكبا[2] ولا حسوداً مضبا[3]، ولم يجرّعني غُصصاً؛ والذي وصف أمير المؤمنين من صنيعته إلي، وتنويهه لي بما أسند إلي من عمله، وأوطاني من رقاب رعيته، فصادق فيه، مجزى بالشكر عليه، والتوسل مني إليه بالولاية والتقرب له بالكفاية.

وقد عاين إسماعيل بن أبي المهاجر رسول أمير المؤمنين وحاملُ كتابه نزولي عند مسرة أنس بن مالك، وخضوعي لكتاب أمير المؤمنين، وإقلاقه إياي، ودخوله علي بالمصيبة، على ما سيعلمه أمير المؤمنين وينهيه إليه؛ فإن أرى أمير المؤمنين ـ طوّقني الله شكره، وأعانني على تأدية حقه، وبلّغني إلى ما فيه موافقةُ مرضاته ومدّ لي في أجله ـ أمر لي بكتاب من رضاه وسلامة صدره، يؤمِّنني به من سفك دمي، ويردّ ما شرد من نومي، ويطمئن به قلبي، [فعلَ]؛ فقد ورد عليّ أمرٌ جليل خطبُه، عظيم أمره شديدٌ عليّ كربُه، أسأل الله أن لا يُسخِط أمير المؤمنين [علي]، وأن يبتليه في حزمه وعزمه، وسياسته وفراسته، ومواليه وحشمه، وعماله وصنائعه، ما يحمدَ به حسنَ رأيه، وبعد همته، إنه ولي أمير المؤمنين والذابُّ عن سلطانه، والصانع له في أمره، والسلام.

فحدث إسماعيل أنه لما قرأ أمير المؤمنين الكتاب، قال: يا كاتب، أَفْرخ[4] رُوعَ أبي محمد. فكتب إليه بالرضا عنه.

سليمان والحجاج:

كان سليمان بن عبد الملك يكتب إلى الحجاج في أيام أخيه الوليد بن عبد الملك كتبا فلا ينظر له فيها، فكتب:

---

(١) تغمد: ستر.

(٢) اكبّ عليه: لزمه ولم يعدل عنه.

(٣) مضباً: مضمراً الغل والحقد. (٤) أفرخ فؤاده: أكشف عنه الفزع.

بسم الله الرحمن الرحيم، من سليمان بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف، سلام على أهل الطاعة من عباد الله، أما بعد؛ فإنك امرؤٌ مهتوك عنه حجابُ الحق، مولعٌ بما عليك لا لك، منصرف عن منافعك، تارك لحظك، مستخف بحق الله وحق أوليائه، لا ما سلف إليك من خير يَعطفك، ولا ما عليك لآلك يصرفك في مبهمة من أمرك مغمور منكوس مُعْصوصِرٌ [1] عن الحق اعْصِيصارا، لا تتنكّب [2] عن قبيح، ولا ترعوي [3] عن إساءة، ولا ترجو لله وقارا؛ حتى دُعيت فاحشا سباباً، فقِس شِبرك بفترِك، وآحذُ زمام نِعلٍ بحذو مثِله فايم الله لئن أمكنني الله منك لأدوسنك دوسة تلين منها فرائصك [4]، ولأجعلنك شريداً في الجبال. تلوذ بأطراف الشمال، ولأعلقن الرومية الحمراءَ بثدييها، علم الله ذلك مني وقضى لي به عليّ، فقِدْماً غرّتك العافية. وانتحيت [5] أعراض الرجال؛ فإنك قدَرت فبذِخت، وظفرت فتعدَّيت؛ فُرويدَك حتى تنظر كيف يكون مصيرُك إن كانت بي وبك مدة أتعلق بها. وإن تكن الأخرى فأرجو أن تئول إلى مَذلة ذليلة، وخزية طويلة، ويجعل مصيرك في الآخرة شرّ مصير! والسلام.

فكتب إليه الحجاج: بسم الله الرحمن الرحيم. من الحجاج بن يوسف إلى سليمان بن عبد الملك، سلام على من أتبع الهدى، أما بعد، فإنك كتبت إلي تذكر أني آمرؤ مهتوك عني حجابُ الحق، مولع بما عليّ لا لي، منصرف عن منافعي، تارك لحظي، مستخف بحق الله وحق وليَّ الحق؛ وتذكر أنك ذو مصاوَلة [6]؛ ولعمري إنك لصَبيٌّ حديثُ السن، تُعذر بقلة عقلك، وحداثة سنك ويَرقب فيك غيرُك.

---

(١) معصوصر: ممنوع محبوس.

(٢) تتنكب عن قبيح: تتنحى وتعرض.

(٣) ترعوي: تستحي.

(٤) الفرائص: جمع فريصة: وهي لحمة بين الكتف والصدر ترتعد عند الفزع.

(٥) انتحاه: اعتمده بالكلام وقصده.

(٦) المصاولة: المغالبة والمنافسة.

فأما كتابك إليّ فلعمري لقد ضعف فيه عقلك، واستخف به حلمك، فلله أبوك! أفلا انتصرت بقضاء الله دون قضائك، ورجاء الله دون رجائك وأمتّ غيظَك وأمنت عدوك، وسترت عنه تدبيرك، ولم تنبِّهه فيلتمس من مكايدتك ما تلتمس من مكايدته؟ ولكنك لم تستشفّ[1] الأمور علما، ولم تُرزق من أمرك حزما، جمعت أموراً دلاّك فيها الشيطان على أسوأ أمرك، فكان الجفاء من خليقتك، والحمّقُ من طبيعتك، وأقبل الشيطانُ بك وأدبر، وحدّثك أنك لن تكون كاملا حتى تتعاطى ما يعيبك، فتحذلقت حنجرتُك لقوله، واتسع جوانبها لكِذبه، وأما قولك لو ملكك اللهُ لعلّقت زينب ابنة يوسف يثدييها؛ فأرجو أن يُكْرِمَها الله بهوانك وأن لا يوفق ذلك لك إن كان ذلك من رأيك؛ مع أني أعرف أنك كتبت إلي والشيطانُ بين كفيك، فشرٌّ مملٍ علي شرٍّ كاتب راض بالخسف[2]، فأحرِ بالحق أن لا يدلك على هدى، ولا يردّك إلا إلى ردىً؛ وتحلب فوك للخلافة، فأنت شامخ البصر، طامح النظر تظن أنك حين تملكها لا تنقطع عنك مدتُها؛ إنها للَقْطَة الله، أسأل الله أن يلهمك فيها الشكر. مع أني أرجو أن ترغب فيما رغب فيه أبوك وأخوك فأكون لك مثلي لهما، وإن نفخ الشيطان في منخريك فهو أمر أراد الله نزعه عنك وإخراجه إلى من هو أكمل به منك؛ ولعمري إنها النصيحة فإن تقبلها فمثلُها قُبِل، وإن تردّها علي اقتطعتُها دونك وأنا الحجاج.

الحجاج والوليد وأم البنين:

قدم الحجاج على الوليد بن عبد الملك، فدخل عليه وعليه درع وعمامة سوداء وقوس عربية، وكنانة[3]؛ فبعثتْ إليه أُمُّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان: منَ هذا الأعرابي المستلئم في السلاح عندك وأنت في غلالة[4]؟ فبعث إليها: هذا الحجاج بن

---

(١) لم تستشف: لم تستوعب.

(٢) الخسف: الظلم.

(٣) الكنانة: جعبة صغيرة من أدم للنبل.

(٤) الغلالة: ثوب رقيق يلبس تحت الدثار.

يوسف. فأعادت الرسول إليه تقول: والله لأن يخلو بك ملك الموت أحبُّ إليّ من أن يَخْلو بك الحجاج! فأخبره الوليد بذلك وهو يمازحه؛ فقال: يا أمير المؤمنين، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة[1]؛ فلا تطلعها على سرك ومُكايدة عدوك. فلما دخل الوليد عليها أخبرها بمقالة الحجاج؛ فقالت: يا أمير المؤمنين، حاجتي أن تأمره غداً يأتيني مستلئما[2]. ففعل ذلك؛ فأتاها الحجاج فحجبته، فلم يزل قائما؛ ثم قالت له: إيه يا حجاج! أنت الممتنّ على أمير المؤمنين بقتلك عبد الله بن الزبير وابن الأشعث؟ أما والله لولا أن الله علم أنك من شرار خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة، وقتْل ابن ذات النطاقين، أول مولود ولد في الإسلام؛ وأما نهيُك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء وبلوغِ أوطاره منهن؛ فإن كن ينفرجن عن مثلك فما أحقه بالأخذ عنك، وإن كن ينفرجن عن مثله فغيرُ قابلٍ لقولك: أما والله لقد نقض نساءُ أمير المؤمنين الطيب عن غدائرهن فبعْنَه في أعطية أهل الشام حين كنت في أضيق من الفرق[3]، قد أظللتك رماحهم، وأثخنك كفاحهم؛ وحين كان أمير المؤمنين أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم؛ فما نجّاك الله من عدو أمير المؤمنين إلا بحبهم إياه، ولله در القائل إذ نظر إليك وسنان غزالة[4] بين كتفيك:

أسدٌ عليّ وفي الحروبِ نعامةٌ ... رَبْواءُ تجفِلُ من صفيرِ الصافرِ[5]
هلا بَرزْتَ إلى غزالة في الوغى ... بل كان قلبُك في مخالبِ طائرِ
صَدَعتْ غزالةُ جَمْعَهُ بعساكِرِ ... ترَكتْ كتائبهُ كأمْسِ الدابرِ

ثم قالت: أخرج! فخرج مذموماً مدحورا.

---

(١) قهرمانه: مدبّرة البيت ومتولية شؤونه. والقهرمان: المسيطر الحفيظ على ما تحت يديه.
(٢) استلأم: لبس لأمته، واللأمة: أداة الحرب كلها.
(٣) الفرق: الشديد الفزع.
(٤) يريد غزالة الحرورية.
(٥) ربأ في مشيته: تثاقل في مشيه.

عبد الملك والحجاج وعروة ابن الزبير:

كان عروة بن الزبير عاملا على اليمن لعبد الملك بن مروان، فاتصل به أن الحجاج مُجْمِع على مطالبته بالأموال التي بيده وعزله عن عمله؛ ففر إلى عبد الملك وعاذ به تخوُّفا من الحجاج واستدفاعا لضرره وشرِّه؛ فلما بلغ ذلك الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان:

أما بعد فإن لِواذ المعترضين بك، وحلول الجانحين إلى المكث بساحتك، واستلانتهم دمث[1] أخلاقك وسعة عفوك، كالعارض المبرق لأعدائه لا يعدم له شائما، رجاءَ استمالةِ عفوك؛ وإذا أُدْنِيَ الناسُ بالصفح عن الجرائم، كان ذلك تمرينا لهم على إضاعة الحقوق مع كل والٍ والناس عبيد العصا، هم على الشدة أشدُّ استباقا منهم على اللين، ولنا قِبَل عروة بن الزبير مال من مال الله، وفي استخراجه منه قطعٌ لطمع غيره، فليبعث به أمير المؤمنين إن رأى ذلك، والسلام.

فلما قرأ الكتاب، بعث إلى عروة ثم قال له: إن كتاب الحجاج قد ورد فيك، وقد أبى إلا إشخاصَك إليه. ثم قال لرسول الحجاج: شأنَك به. فالتفت إليه عروة مقبلا عليه، وقال: أما والله ما ذلَّ وخزيَ من مات، ولكن ذل وخزي مَن ملكتموه؛ والله لئن كان المُلك بجواز الأمر ونفاذ النهي، إن الحجاج لسلطانٌ عليك، ينفذ أموره دون أمورك؛ إنك لتريد الأمر يزينك عاجله ويبقى لك أُكرومةً[2] آجلهُ، فيجذبك عنه ويلقاه دونك، ليتولى من ذلك الحكم فيه، فيحظى بشرف عفو إن كان، أو يجرم عقوبة إن كانت؛ وما حاربك من حاربك إلا على أمرٍ هذا بعضهُ.

قال: فنظر في كتاب الحجاج مرة ورفع بصره إلى عروة تارة، ثم دعا بدواة وقرطاس فكتب إليه:

أما بعد، فإن أمير المؤمنين رآك مع ثقته بنصيحتك، خابطا في السياسة خبط

---

(١) دَمْثُ الأخلاق: سهلُها ولينُها.

(٢) الأكرومة: الفعلة الكريمة.

عشواء[١] الليل؛ فإنّ رأيك الذي يسولّ لك أن الناس عبيد العصا، هو الذي أخرج رجالات العرب إلى الوثوب عليك، وإذا أحرجت العامة بعنف السياسة، كانوا أوشك وثوبا عليك عند الفرصة، ثم لا يلتفتون إلى ضلال الداعي ولا هداه، إذا رجوا بذلك إدراك الثأر منك؛ وقد وليت العراق قبلك ساسة، وهم يومئذ أحمى أنوفا، وأقرب من عمياء الجاهلية، وكانوا عليهم أصلحَ منك عليهم، وللشدة واللين أهلون، والإفراط في العفو أفضل من الإفراط في العقوبة، والسلام.

ابن شهاب والحجاج في ضعف بصره:

زكريا بن عيسى عن ابن شهاب قال: خرجنا مع الحجاج حُجاجا، فلما انتهينا إلى البيداء وافيا ليلة الهلال هلال ذي الحجة فقال لنا الحجاج: تبصَّروا الهلال؟ فأما أنا ففي بصري عاهة. فقال له نوفل بن مساحق: أوتدري لِمَ ذلك أصلح الله الأمير؟ قال: لكثرة نظرك في الدفاتر.

الأصمعي قال: عُرضَتِ السجونُ بعد الحجاج، فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً لم يجب على واحد منهم قتلٌ ولا صلب ووُجد فيهم أعرابي أُخذ يبول في أصل مدينة واسط، فكان فيمن أُطلق؛ فأنشأ الأعرابي يقول:

إذا نحنُ جاوزنا مدينةَ واسِطٍ ... خَرينَا وبُلنا لا نخافُ عِقابا

عدة من قتل الحجاج:

أبو داود المصحفي عن النضر بن شَميل، قال: سمعت هشاما يقول: أَحَصوا من قتل الحجاجُ صبراً فوجدوهم مائة ألف وعشرين ألفاً.

خطبة للحجاج في أهل العراق:

وخطب الحجاج أهل العراق فقال: يا أهل العراق، بلغني أنكم تروون عن نبيكم

---

(١) العشواء: الناقة التي بعينها سوء.

أنه قال: «من مَلك على عشرة رقاب من المسلمين جيء به يوم القيامة مغلولة يداهُ إلى عنقه، حتى يفكه العدلُ أو يُوبقه[1] الجور»! وآيم آلله إني لأحَب إليَّ أن أُحشر مع أبي بكر وعمر مغلولا من أن أحشر معكم مطلقا.

الحجاج يخطب أهل العراق بعد مرضه:

ومرض الحجاج، ففرح أهل العراق وقالوا: مات الحجاج! مات الحجاج! فلما أفاق صعد المنبر وخطب الناسَ فقال:

يأهل العراق، يأهل الشقاق والنفاق، مرضت فقلتم: مات الحجاج! أما والله لأحب إليَّ أن أموت من أن لا أموت، وهل أرجو الخير كله إلا بعد الموت؟ وما رأيت الله رضى بالخلود في الدنيا، لأحد من خلقه إلا لأبغضِ خلقه إليه وأهونِهم عليه: إبليس؛ ولقد رأيت العبد الصالح يسأل ربه فقال: ﴿رَبِّ هب لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأحَدٍ مِن بَعْدِي﴾[2] ففعل، ثم اضمحل ذلك فكأنه لم يكن.

وله حين أراد الحج واستخلف ولده:

وأراد الحجاج أن يحج، فاستخلف محمداً ولده على أهل العراق، ثم خطب، فقال:

يأهل العراق، يأهل الشقاق والنفاق، إني أردت الحج، وقد استخلفت عليكم محمداً ولدي، وأوصيتُه فيكم بخلاف ما أُوصي به رسولُ الله ﷺ في الأنصار؛ فإنه أوصى فيهم أن يقبل من محسنهم، ويُتجاوز عن مسيئهم؛ وإني أوصيتهُ أن يَقبل من محسنكم، وأن لا يتجاوز عن مسيئكم! ألا وإنكم قائلون بعدي مقالة لا يمنعكم من إظهارها إلا خوفي: لا أحسن الله له الصحابة! وأنا أعجل لكم الجواب: فلا أحسن الله عليكم الخلافة! ثم نزل.

---

(١) أوبق: أهلك.

(٢) سورة ص الآية ٣٥.

وله في وفاة ابنه:

فلما كان غداة الجمعة مات محمد بن الحجاج، فلما كان بالعشي أتاه بريد من اليمن بوفاة محمد أخيه: ففرح أهل العراق، وقالوا: انقطع ظهر الحجاج وهِيض[1] جناحه فخرج فصعد المنبر ثم خطب الناس. فقال:

أيها الناس، محمدان في يوم واحد! أما والله ما كنت أحب أنهما معي في الحياة الدنيا لِمَا أرجو من ثواب الله لهما في الآخرة؛ وآيم الله ليوشكن الباقي مني ومنكم أن يَفنى. والجديد أن يبلى، والحيُّ مني ومنكم أن يموت، وأن تُدال[2] الأرض منا كما أدلنا منها فتأكل من لحومنا، وتشرب من دمائنا. كما مشينا على ظهرها، وأكلنا من ثمارها، وشربنا من مائها. ثم نكون كما قال الله تعالى: ﴿ونُفِخَ في الصُّورِ فإذا هُمْ منَ الأجْداثِ إلى ربِّهِمْ يَنْسِلونَ﴾[3]. ثم تمثل بهذين البيتين:

عـزائـي نبيُّ الله مـنْ كـلِّ ميِّـتٍ ... وحسبي ثوابُ اللهِ من كلِّ هالِـك
إذا مـا لقِيـتُ آللهَ عنّـيَ راضيـاً ... فـإنّ سُـرورَ النَّفْس فيما هُنـالـك

ثم نزل، وأذن للناس فدخلوا عليه يعزونه. ودخل فيهم الفرزدق. فلما نظر إليه قال: يا فرزدق، أما رثَيت محمداً ومحمدا؟ قال: نعم أيها الأمير وأنشد:

لئن جَزِع الحجَّاجُ، ما مِن مُصيبةٍ ... تكونُ لمحزونٍ أمضَّ وأوْجعا..[4]
.. من المصطفى والمنتَقى مِن نِقايَـةِ ... جَنـاحـاهُ لمَّا فـارقـاهُ وودّعـا
جَنـاحَـا عتيـق فـارقـاهُ كلاهُما ... ولو نَزعا مـنْ غيرهِ لتَضَعْضَعـا[5]
ولو أنّ يَـوْمَـيْ جُمْعَتيْـه تتـابعـا ... على شامخٍ صَعْب الذُّرى لتصَدّعـا
سَمِيَّـا رسـول اللهِ سَمَّـاهُما بـه ... أبٌ لم يكن عند الحوادثِ أخْضعـا

---

(١) هيض الجناح: أي كسر بعدما كاد ينجبر.

(٢) دالت: انتقلت من حال إلى حال.

(٣) سورة يس الآية ٥١.

(٤) أمضّ: أشد ألماً ووجعا.

(٥) العتيق من الطير: الجارح.

قال: أحسنت. وأمر له بصلة. فخرج وهو يقول: والله لو كلّفني الحجاج بيتاً سادساً لضُرب عنقي قبل أن آتيه به. وذلك أنه دخل ولم يُهيء شيئا.

قولهم في الحجاج

للعتبي عن أبيه في الحجاج:

الرياشي عن العتبي عن أبيه، قال: ما رأيت مثل الحجاج. كان زِيه زيَّ شاطر[1]، وكلامه كلام خارجيّ، وصولته صولةَ جبار. فسألته عن زِيه فقال: كان يرجّل[2] شعره ويخضب أطرافه.

ولأبن مهران فيه:

كثير بن هشام عن جعفر بن بُرقان، قال: سألت ميمون بن مهران، فقلت: كيف ترى في الصلاة خلف رجل يذكر أنه خارجي؟ فقال: إنك لا تصلي له، إنما تصلي لله، قد كنا نصلي الحجاج وهو حروري أزرقي! قال: فنظرت إليه، فقال: أتدري ما الحروري الأزرقي؟ هو الذي إن خالفت رأيَه سماك كافراً واستحلَّ دمك؛ وكان الحجاج كذلك.

ولعمر فيه:

أبو أمية عن أبي مُسهر قال: حدثنا هشام بن يحي عن أبيه قال: قال عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كل أمة بمنافقيها، وجئنا بالحجاج لفضلناهم.

الحسن وحانف في شأن الحجاج:

وحلف رجل بطلاق امرأته: أن الحجاج في النار، فأتى امرأتَه فمنعتْه نفسَها فسأل الحسن بن أبي الحسن البصري، فقال: لا عليك يا بن أخي، فإنه إن لم يكن

---

(١) الشاطر: من أعيا أهله خبثاً. (٢) رجّل الشعر: سواه وزيّنه.

الحجاج في النار، فما يضرك أن تكون مع امرأتك على زنى.

علي بن زيد في موت الحجاج:

أبو أمية عن إسحاق بن هشام عن عثمان بن عبد الرحمن الجمحي عن علي بن زيد، قال: لما مات الحجاج أتيت الحسن فأخبرته، فخرّ ساجدا.

لإبراهيم في الحجاج:

علي بن عبد العزيز عن إسحاق عن جرير بن عبد الحميد عن منصور بن المعتمر قال: قلت لإبراهيم: ما ترى في لعن الحجاج؟ قال: ألم تسمع لقول الله تعالى: ﴿ألا لعْنَةُ اللهِ على الظَّالمين﴾ (١)؟ فأشهد أن الحجاج كان منهم.

جابر والحجاج:

وكيع عن سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله، قال: دخلت على الحجاج فما سلمت عليه.

الرقاشي والحسن في الحجاج:

وكيع عن سفيان قال: قال يزيد الرقاشي عند الحسن: إني لأرجو للحجاج. قال الحسن: إني لأرجو أن يخلف (٢) الله رجاءك.

أنس وابن سيرين في دراهم الحجاج:

ميمون بن مهران قال: كان أنس وابن سيرين لا يبيعان ولا يشتريان بهذه الدراهم الحَجَّاجيَّة.

قال عبد الملك بن مروان للحجاج: ليس من أحد إلا وهو يعرف عيبَ نفسه،

---

(١) سورة هود الآية ١٨.

(٢) أخلف: جعل شيئاً بعد آخر ذهب منه.

فصِف لي عيوبك. قال: أعْفِني يا أمير المؤمنين. قال: لابد أن تقول. قال: أنا لجوج[1] حسود حقود. قال: ما في إبليس شر من هذا.

ابن عمر في ولاية الحجاج:

أبو بكر بن أبي شيبة قال: قيل لعبدالله بن عمر: هذا الحجاج قد وليَ الحرمين. قال: إن كان خيراً شكرْنا، وإن كان شرا صبرنا.

للحسن في قتال الحجاج:

ابن أبي شيبة قال: قيل للحسن: ما تقول في قتال الحجاج؟ قال: إن الحجاج عقوبة من الله، فلا تستقبلوا عقوبة الله بالسيف.

الحجاج وصلب ماهان:

ابن فضيل قال: حدثنا أبو نعيم قال: أمر الحجاج بماهان أن يُصلب على بابه، فرأيته حين رُفعت خشبتُه يسبح ويهلل ويكبر ويعقد بيده، حتى بلغ تسعا وتسعين؛ وطعنه رجل على تلك الحال، فلقد رأينا بعد شهر في يده[2]. قال: وكنا نرى عند خشبته بالليل شبيها بالسراج.

عدة قتلى الحجاج:

أبو داود المُصحفي عن النضر بن شميل، قال: سمعت هشاما يقول: أحصَوا من قتل الحجاج صبراً فوجدوهم مائة وعشرين ألفاً.

من زعم أن الحجاج كان كافرا

ميمون بن مهران عن الأجلح، قال: قلت للشعبي: يزعم الناس أن الحجاج مؤمن.

---

(١) اللجوح: الذي يلازم الأمر ويأبى أن ينصرف عنه.

(٢) أي أنه رآه عاقداً يده بعد هذا الشهر.

قال مؤمن بالجبت [1] والطاغوت، كافر بالله.

علي بن عبد العزيز عن إسحاق بن يحيي عن الأعمش، قال: اختلفوا في الحجاج فقالوا: بمن ترضَون؟ قالوا: بمجاهد. فأتوه فقالوا: إنا قد اختلفنا في الحجاج. فقال: أجئتم تسألوني عن الشيخ الكافر؟

محمد بن كثير عن الأوزاعي، قال: سمعت القاسم بن محمد يقول: كان الحجاج بن يوسف ينتقض عُرى الإسلام عُروة عروة.

عطاء بن السائب، قال: كنت جالسا مع أبي البختري والحجاجُ يخطب، فقال في خطبته:

إن مثل عثمان عند الله كمثل عيسى ابن مريم: قال الله فيه: ﴿إني مُتوفَيك ورافِعُك إليّ ومُطهِّرُك منَ الذين كفَروا وجاعِلُ الذين اتّبعوك فوْق الذين كفَروا إلى يوْم القيامةِ﴾ [2].

فقال أبو البختري: كفر وربِّ الكعبة.

ومما كفَّرت به العلماءُ الحجاج، قوله ورأى الناس يطوفون بقبر رسول الله ﷺ ومنبره؛ إنما يطوفون بأعواد ورمّة [3].

الشيباني عن الهيثم عن أبي عياش قال: كنا عند عبد الملك بن مروان إذ أتاه كتاب الحجاج يعظم فيه أمر الخلافة، ويزعم أنْ ما قامت السموات والأرض إلا بها وأن الخليفة عند الله أفضل من الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين. وذلك أن الله خلق آدم بيده، وأسجد له الملائكة، وأسكنه جنته، ثم أهبطه إلى الأرض وجعله خليفته، وجعل الملائكة رسلا إليه. فأُعجب عبد الملك بذلك، وقال: لوددت أن عندي بعض

---

(١) الجبت والطاغوت: كل ما عبد من دون الله.

(٢) سورة آل عمران الآية ٥٥.

(٣) الرمة: القطعة من الحبل البالية، والعظام البالية.

الخوارج بهذا الكتاب! فانصرف عبد الله بن يزيد إلى منزله، فجلس مع ضيفانه وحدّثهم الحديث، فقال له حُوار بن زيد الضبي، وكان هاربا من الحجاج: تَوَثَّقْ لي منه ثم أعلمني به. فذكر ذلك لعبد الملك بن مروان، فقال: هو آمنٌ على كل ما يخاف. فانصرف عبد الله إلى حُوار فأخبره بذلك، فقال: بالغداة إن شاء الله. فلما أصبح اغتسل ولبس ثوبين، ثم تحنَّط وحضر باب عبد الملك، فقال: هذا الرجل بالباب. فقال: أدخله يا غلام. فدخل رجل عليه ثياب بيض يوجد عليه ريح الحنوط، ثم قال: السلام عليكم. ثم جلس؛ فقال عبد الملك: إيت بكتاب أبي محمد يا غلام. فأتاه به، فقال: اقرأ. فقرأ حتى أتى على آخره، فقال حوار: أراه قد جعلك في موضعٍ ملَكاً وفي موضعٍ نبياً وفي موضع خليفة؛ فإن كنت ملكا فمن أنزلك؟ وإن كنت نبيا فمن أرسلك؟ وإن كنت خليفة فمن استخلفك؟ أعَن مشورةٍ من المسلمين، أم ابتززت الناس أمورهم بالسيف؟

فقال عبد الملك: قد أمناك ولا سبيل إليك، والله لا تجاورني في بلدٍ أبدا؛ فارحل حيث شئت. قال: فإني قد اخترت مصر. فلم يزل بها حتى مات عبد الملك.

علي بن عبد العزيز عن إسحاق بن إسماعيل الطالقاني، قال: حدّثنا جرير عن مُغيرة عن الربيع قال: قال الحجاج في كلام له: ويْحَكم! أخليفةُ أحدكم في أهله أكرمُ عليه أم رسوله إليهم؟ قال: ففهمت ما أراد، فقلت له: لله عليّ ألاّ أصلي خلفك صلاة أبدا، ولئن وجدت قوما يقاتلونك لقاتلتك معهم. فقاتل في الجماجم حتى قتل.

قيل للحجاج: كيف وجدتَ منزلك بالعراق؟ قال: خيرَ منزل لو أدركتُ بها أربعةَ [نفَر] فتقرّبتُ إلى الله بدمائهم، قيل: ومن هم؟ قال: مقاتل بن مِسمع، ولي سجستانَ فأتاه الناس فأعطاهم الأموال، فلما قدم البصرة بسط الناسُ له أرديتهم. فقال: لمثل هذا فليعمل العاملون.

وعبيد الله بن ظبيان، قام فخطب خطبة أوجز فيها، فنادى الناسُ من أعراض

المسجد: أكثر الله فينا أمثالك! قال: لقد سألتم الله شططا[1].

ومعبد بن زُرارة، كان ذات يوم جالساً على الطريق، فمرّت به امرأة فقالت: يا عبد الله، أين الطريق إلى مكان كذا؟ فغضب وقال: أمِثلي يقال له يا عبد الله؟

وأبو سماكٍ الحنفي، أضلَّ ناقتَه فقال: والله لئن لم يردّها عليّ لا صليت له أبداً فلما وجدها قال: علِمَ أنّ يميني كانت بَرَّة[2]!

قال ناقل الحديث: ونسي الحجاج نفسه وهو خامس الأربعة، بل هو أفسقُهم وأطغاهم وأعظمُهم إلحاداً وأكفرهم في كتابه إلى عبد الملك ابن مروان:

إنّ خليفة الله في أرضه أكرمُ عليه من رسوله إليهم.

وكتابه إليه وبلغه أنه عطس يوما فحمد الله وشمَّته أصحابه فردّ عليه ودعا لهم.

فكتب إليه:

بلغني ما كان من عطاس أمير المؤمنين، ومن تشميت أصحابه له وردّه عليهم؛ فيا ليتني كنت معهم فأفوز غوزاً عظيما.

الحجاج وأسرى الجماجم:

وكان عبد الملك كتب إلى الحجاج في أسرى الجماجم أن يعرضهم على السيف، «فمن أقرّ منهم بالكفر بخروجه علينا فخلِّ سبيلهَ، ومن زعم أنه مؤمن فاضرب عنقه» ففعل، فلما عرضهم أُتي بشيخ وشاب، فقال للشاب: أمؤمن أنت أم كافر؟ قال: بل كافر. فقال الحجاج: لكن الشيخ لا يرضى بالكفر! فقال له الشيخ: أعَن نفسي تخادعني يا حجاج؟ والله لو كان شيء أعظم من الكفر لرضيتُ به! فضحك الحجاج وخلى سبيلهما.

---

(١) الشطَط: البعد، ومجاوزة الحدّ، والجور.

(٢) اليمين كانت برّة: أي صادقة.

ثم قدِّم إليه رجل، فقال له: على دينِ مَن أنت؟ قال: على دين إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. فقال: آضربوا عنقه.

ثم قدِّم آخر، فقال له: على دين مَن أنت؟ قال: على دين أبيك الشيخ يوسف! فقال: أما والله لقد كان صوّاما قوّاما، خلّ عنه يا غلام! فلما خليَّ عنه انصرف إليه فقال له: يا حجاج، سألتَ صاحبي: على دين من أنت؟ فقال: على دين إبراهيم حنيفا، وما كان من المشركين؛ فأمرتَ به فقُتل؛ وسألني: على دين من أنت؟ فقلت: على دين أبيك الشيخ يوسف، فقلتَ: أما والله لقد كان صوّاما قوّاما؛ فأمرتَ بتخلية سبيلي؛ والله لو لم يكن لأبيك من السيئات إلا أنه وَلد مثلَك لكفاه! فأمر به فقُتل.

ثم أتي بعمران بن عصام العَنزي، فقال: عمران! قال: نعم. قال: ألم أوفدك على أمير المؤمنين ولا يوفَدُ مثلُك؟ قال: بلى. قال: ألم أزوّجْك مارية بنت مسمع سيدة قومها ولم تكن لها أهلا؟ قال: بلى. قال: فما حملك على الخروج علينا؟ قال: أخرجني باذان. قال: فأين كنت من حُجة أهلك؟ قال: أخرجني باذان. فأمر رجلا فكشف العمامة عن رأسه، فإذا هو محلوق؛ قال: ومحلوق أيضا؟ لا أقالني الله إن لم أقتلك! فأمر به فضُرب عنقه، فسأل عبدُ الملك بعد ذلك عن عمران بن عصام، فقيل له: قتله الحجاج. فقال ولِمَ؟ قال: بخروجه مع ابن الأشعث. قال: ما كان ينبغي له أن يقتله بعد قوله [فيه]:

وبعَثتَ مِن وَلد الأغـرِّ مُعَتَّـبِ ... صقْراً يَلوذ حَمامُه بالعوْسَـجِ (1)
فإذا طبخـتَ بنـاره أنضجْتهـا ... وإذا طبختَ بغيرها لم تُنْضِـجِ
وهو الهِزَبْرُ، إذا أراد فـريسـةً ... لم يُنجِها منه صريخُ الهَجْهَجِ (2)

ثم أُتِيَ بعامر الشعبي ومطرف بن عبد الله الشِّخّير، وسعيد بن جبير؛ وكان الشعبي

---

(1) العوسج: ضرب من الشجر.
(2) الهجهج: صياح الرجل بالأسد.

ومطرِّف يريان التورية، وكان سعيد بن جبير لا يرى ذلك؛ فلما قدِّم له الشعبي قال: أكافر أنت أم مؤمن؟ قال: أصلح الله الأمير، نبا بنا المنزل، وأجدب بنا الجناب[1]، واستحلَسنا[2] الخوف، واكتحلنا السهر، وخبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء. قال الحجاج: صدق والله، ما بَرُّوا بخروجهم علينا ولا قَوُوا، خلّيا عنه.

ثم قدِّم إليه مطرِّف بن عبد الله، فقال ل: أكافر أنت أم مؤمن؟ قال: أصلح الله الأمير، إن مَن شق العصا، ونكث البيعة، وفارق الجماعة، وأخاف المسلمين - لجديرٌ بالكفر. فقال: صدق، خليا عنه.

ثم أُتِيَ بسعيد بن جبير، فقال له: أنت سعيد بن جبير؟ قال: نعم. قال: لا، بل شقي ابن كسير! قال: أمي أعلمُ بآسمي منك. قال: شقيتَ وشقيتْ أمّك. قال: الشقاءُ لأهل النار! قال: أكافرٌ أنت أم مؤمن؟ قال: ما كفرتُ بالله منذ آمنتُ به. قال: اضربوا عنقه.

موت الحجاج

مات الحجاج في آخر أيام الوليد بن عبد الملك؛ فتفجَّع عليه وولّى مكانه يزيدَ ابن أبي مسلم كاتب الحجاج، فاكتفى وجاوز؛ فقال الوليد: مات الحجاج ووليت مكانه يزد بن أبي مسلم، فكنت كمن سقط منه درهمٌ فأصاب دينارا.

وكان الوليد بن عبد الملك يقول: ألا إن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول: الحجاج جلدة ما بين عيني وأنفي؛ وأنا أقول: إنه جلدة وجهي كله.

عمر بن عبد العزيز وموت الحجاج:

ولما بلغ عمرَ بن عبد العزيز موتُ الحجاج خرّ ساجدا؛ وكان يدعو الله أن يكون

(١) الجناب: يقال: أنا في جناب فلان: كنفه ورعايته، وفلان رحب الجناب وخصيب الجناب: سخيّ.
(٢) استحلسنا الخوف: لم يفارقنا.

موتُه على فراشه، ليكون أشدَّ لعذابه في الآخرة.

يزيد على قبر الحجاج:

أبو بكر بن عياش قال: سُمعَ صياحُ الحجاج في قبره؛ فأتوا إلى يزيد بن أبي مسلم فأخبروه؛ فركب في أهل الشام فوقف على قبره، فسمع؛ فقال: يرحمك الله يا أبا محمد: فما تدع القراءة حياً وميتا.

يزيد ورجل في الحجاج:

الرياشي عن الأصمعي قال: أقبل رجلٌ إلى يزيد بن أبي مسلم فقال له: إني كنت أرى الحجاج في المنام، فكنت أقول له: ما فعل الله بك؟ قال: قتلني بكل قتيل قتلتُه قتْلة، وأنا منتظر ما ينتظره الموحدون. ثم قال: رأيتُه بعد الحول، فقلت: ما صنع الله بك؟ فقال يا عاضَّ بظر أُمّه! أما سألتَني عن هذا عام أوّل فأخبرتُك؟ فقال يزيد ابن أبي مسلم: أشهد أنك رأيت أبا محمد حقا.

وقال الفرزدق: يرثي الحجاج ليرضى بذلك الوليد بن عبد الملك:

لِيبْكِ على الحجاجِ مَن كان باكياً ... على الدِّين مِن مُستوحِشِ الليلِ خائِف

وأرملَــة لمّا أتــاهــا نعيُّــه ... فجادتْ له بالواكِفاتِ الذَّوارِف[1]

وقــالــت لعبْديْهــا أَنِيخـا فعجِّلا ... فقد مات راعي ذوْدِنا بالتنائِف[2]

فليت الأكفَّ الدافناتِ ابنَ يوسُفٍ ... يُقطَّعْنَ إذْ يَحْثِين فوق السقائـف[3]

فما ذَرَفــتْ عيْنــان بعــد محمدٍ ... على مثْله إلا نفـوسِ الخلائـف[4]

---

(١) الواكفات: يريد العيون.

(٢) الذّود: القطيع من الإبل من الثلاث إلى العشر.

والتنائف: جمع التنوفة: وهي القلاة لا ماء فيها ولا أنيس.

(٣) حثا التراب: انهال.

(٤) الخلائق: جمع خليقة، وهو السلطان.

قال ابن عياش: فلقيت الفرزدق في الكوفة، فقلت له: أَخبرني عن قولك:

فليت الأكفَّ الدافنات ابنَ يوسفٍ يقطَّعـــنَ . . . . .

ما معناك في ذلك؟ فقال: وددت والله أن أَرجلهم تقطع مع أيديهم.

للفرزدق في ابن المهلب:

قال ابن عياش: فلما هلك الوليد واستخلف سليمان استعمل يزيد بن المهلب على العراق وأَمره بقتل آل أَبي عقيل فقتلهم، فأنشأ الفرزدق يقول:

لئِن نفر الحجَّاج آلُ مُعتّبِ لقُوا دولةً كان العدُو يدالُها
لقد أصبحَ الأحياءُ منهم أذلةً وموتاهُمُ في النار كُلْحاً سِبالها[1]
وكانوا يَروْنَ الدائِرات بغيْرِهِم فصار عليهم بالعذاب انتِقالها
وكنَّا إذا قلنا اتَّقِ اللهَ شمّرَتْ به عِزّةٌ لا يُستطاعُ جِدالها[2]
أَلِكْنِي إلى مَن كان بالصِّين أورمَتْ به الهِندَ ألواحاً عليها جِلالها[3]
هلُمَّ إلى الإسلام والعدْل عندنا فقد مات مِن أرضِ العِراق خَبالها
ألا تَشْكُرون الله إذ فكَّ عنكُم أداهِمَ بالمهدِيِّ صُماً ثقالها
وشِيمت به عنكم سُيوفٌ عليكم صَباحَ مساءَ بالعذاب استلالها[4]
وإذ أنتمُ مَن لم يقل أنا كافرٌ تَردّى نهاراً عثرة لا يُقالها

قال ابن عياش: فقلت للفرزدق: ما أدري بأي قوليك نأخذ؛ أبمدحك في الحجاج حياته؛ أم هجوك له بعد موته؟ قال: إنما نكون مع أحدهم ما كان الله معه؛ فإذا تخلى عنه تخلينا عنه.

---

(١) كلح: عبس، والسبال: الثياب.

(٢) العزّة: القوة والغلبة، أو الحمية والأنفة.

(٣) لكى به: لكيً: أولع به ولزمه. وقال: لكي بالمكان: إذا أقام فيه.

(٤) شام السيف: غمده أو إستله.

لعمر بن عبد العزيز في الحجاج:

ولما مات الحجاج دخل الناس على الوليد يعزّونه ويثنون على الحجاج خيرا ، وعنده عمر بن عبد العزيز: فالتفت إليه ليقول فيه ما يقول الناس، فقال: يا أمير المؤمنين، وهل كان الحجاج إلا رجلا منا؟ فرضِيها منه .

أخبار البرامكة

لابن هارون فيهم:

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، حدثني سهل بن هرون، قال: والله إن كانوا سجعوا الخطب، وقرضوا القريض لعيالٌ على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر ابن يحيى؛ ولو كان كلام يتصور درّا ، أو يحيله المنطق السري جوهرا ، لكان كلامهما والمنتقى من لفظهما؛ ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد وبديهته وتوقيعاته في كتبه ـ فدمين[1] عَيِيَّيْن ، وجاهليين أُمّيين ؛ ولقد عُمِّرْتُ معهم وأدركت طبقة المتكلمين في أيامهم؛ وهم يرون أن البلاغة لم تستكمل إلا فيهم، ولم تكن مقصورة إلا عليهم، ولا انقادت إلا لهم؛ وأنهم محضُ الأيام، ولبابُ[2] الكرام وملح الأنام، عِتْق[3] منظروجودةَ مَخبر ، وجزالة منطق، وسهولة لفظ، ونزاعة أنفس، واكتمال خصال؛ حتى لو فاخرتَ الدنيا بقليل أيامهم والمأثور من خصالهم كثيرَ أيامِ سواهم من لدن آدم أبيهم إلى النفخ في الصور وانبعاث أهل القبور ـ حاشا أنبياء الله المكرمين، وأهل وحيه المرسلين لمّا باهت[4] إلا بهم، ولا عوّلت إلا عليهم، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم، وكريم أعراقهم، وسعة آفاقهم، ورونق سياقهم، ومعسول مذاقهم، وبهاء إشراقهم، ونقاوة أعراضهم، وتهذيب أغراضهم، واكتمال الخير فيهم ـ في جنب محاسن الرشيد كالنقطة في البحر، والخردلة في المهمه[5] القفر .

---

(١) رجل فدم: ثقيل الفهم: عيي .

(٢) اللباب: خالص كل شيء .

(٣) العتق: النجابة .

(٤) باهت: ضجّت .

(٥) المهمة: المفازة البعيدة والبلد المقفر .

قال سهل بن هارون: إني لأحصّلُ أرزاق العامة بين يدي يحيى بن خالد في بناء خلا به داخل سرادقه، وهو مع الرشيد بالرقة وهو يعقدها جملا بكفه، إذ عشيته سآمةٌ فأخذته سِنةٌ[١] فغلبته عيناه، فقال: ويحك يا سهل! طَرَق النومُ شفْري[٢]، وحلت السَّنَةُ جفنَيّ، فما ذلك؟ قلت: ضيف كريم، إن قريْته روّحك وإن منعته عنّتك، وإن طردته طلبك، وإن أقصيتَه أدركك، وإن غالبته غلبك! قال: فنام أقلَّ من فُواق[٣] بكية، أو نزع ركيّة[٤]؛ ثم انتبه مذعورا، فقال: يا سهل لأمرٍ ما كان! والله لقد ذَهب مُلكنا، وولى عِزّنا، وانتقصت أيامُ دولتنا! قلت: وما ذاك أصلح الله الوزير؟ قال: كأنّ منشداً أنشدني:

كأنْ لم يكن بين الحجُونِ إلى الصّفا ... أنيسٌ ولم يسْمُـر بمكـةَ سـامِـرُ[٥]

فأجبته من غير روية ولا إجالة فكرة:

بلى نحنُ كنـا أهْلهـا فـأبـادَنـا ... صُرُوفُ الليالي والجدودُ العواثِر

قال: فوالله ما زلت أعرفها منه وأراها ظاهرة فيه إلى الثالث من يومه ذلك فإني لفي مقعدي بين يديه أكتب توقيعاتٍ في أسافل كتبه لطلاب الحاجات إليه، قد كلفني إكمال معانيها بإقامة الوزن فيها، إذ وجدت رجلا سعى إليه حتى ارتمى مكبا عليه، فرفع رأسه فقال: مهلا ويحك! ما اكتتم خيرٌ ولا استتر شرٌّ. قال: قتلَ أميرُ المؤمنين جعفراً الساعة! قال: أوقد فعل؟ قال: نعم. قال: فما زاد أن رمى القلم من يده، وقال: هكذا تقوم الساعة بغتة.

قال سهل بن هارون: فلو انكفأت[٦] السماء على الأرض ما زاد. فتبرأ منهم الحميم واستبعد عن نسبهم القريب، وجحد ولاءهم المولى واستعبرت لفقدهم الدنيا، فلا لسانَ يخطر بذكرهم، ولا طرف ناظر يُشير إليهم.

---

(١) السنة: النعاس. (٢) الشَفر: حرف كل شيء. وشغر الجفن: حرفه الذي ينبت عليه الهدب.
(٣) الفواق: ما بين الحلبتين من الوقت. (٤) الركيّة: البئر.
(٥) الحجون: جبل بأعلى مكة. (٦) انكفأت السماء: مالت.

يحي بعد مقتل جعفر:

وضم يحي بن خالد وقته ذلك الفضل ومحمداً وخالداً بنيه، وعبد الملك ويحي وخالداً بني جعفر بن يحي، والعاصي ومزيداً وخالداً ومعمراً بني الفضل بن يحي، ويحي وجعفراً وزيداً بني محمد بن يحي، وإبراهيم ومالكاً وجعفراً وعمرَ ومعمراً بني خالد بن يحي، ومن لفَّ لفهم أو هجس بصدرِه أملٌ فيهم.

الرشيد وسهل بعد مقتل جعفر:

[قال سهل]: وبعث إليّ الرشيد، فوالله لقد أُعجلْتُ عن النظر، فلبست ثياب أحزاني، وأعظم رغبتي إلى الله إلا راحة بالسيف وألا تُعبَثَ بي عَبثَ جعفر، فلما دخلت عليه عرف الذعر في تجرُّض[1] ريقي وشخوصي إلى السيف المشهور ببصري فقال: إيها يا سهل، من غمط[2] نعمتي وتعدّى وصيتي وجانب موافقتي أعجلته عقوبتي قال: فوالله ما وجدتُ جوابها حتى قال: يُفْرِخْ روعُك ويسكن جأشُك وتطيب نفسُك وتطمئن حواسُّك؛ فإن الحاجة إليك قربت منك، وأبقت عليك بما يَبسط منقبضك؛ ويُطلق معقولك، فما اقْتُصر على الإشارة دون اللسان، فإنه الحاكم الفاصل، والحسام الباتر. وأشار إلى مصرع جعفر فقال:

مــن لم يُــؤَدِّبْـــهُ الجميـــــلُ ففي عقوبتِـه صلاحُـه

قال سهل: والله ما أعلم أني عييت بجواب أحد قط غير جواب الرشيد يومئذ فما عوّلتُ في الشكر إلا على تقبيل باطن يديه ورجليه.

ثم قال: اذهب فقد أحللتك محلَّ يحي، ووهبتك ما ضُمِّنَتْه أفنيته[3] وما حواه سرادقه؛ فاقبض الدواوين، وأحص جباءه وجباء جعفر لنأمرك بقبضه إن شاء الله.

---

(١) جرض بريقه: غصّ به.

(٢) غمط النعمة: أنكرها.

(٣) الأفنية: جمع الفناء: وهي الساحة في الدار أو بجانبها.

قال سهل: فكنت كمن نُشر[١] عن كفن وأُخرج من حبس؛ وأحصيت حباءهما فوجدته عشرين ألف ألف دينار، ثم قفلت راجعاً إلى بغداد.

وفرّق البُردُ[٢] إلى الأمصار بقبض أموالهم وغلاتهم، وأمر بجيفة جعفر وجثته ففصلت على ثلاثة جذوع: رأسه في جذع على رأس الجسر مستقبل الصِّراة[٣]، وبعض جسده على جذع بالجزيرة، وسائره في جذع على آخر الجسر الثاني مما يلي باب بغداد.

فلما دنونا من بغداد، طلع الجسر الذي فيه وجه جعفر، واستقبلنا وجهه واستقبلته الشمس؛ فواللهِ لِخَلْتُها تطلع من بين حاجبيه؛ فأنا عن يمينه وعبد الملك بن الفضل الحاجب عن يساره، فلما نظر إليه الرشيد ـ وكأنما قنأَ[٤] شعره وطلى بنور بشره ـ اربدّ[٥] وجهُه وأغضى بصره؛ فقال عبد الملك بن الفضل: لقد عظم ذنب لم يسعْه أمير المؤمنين! قال الرشيد: من يَرِدْ غير مائة يصدر بمثل دائه، ومن أراد فهم ذنبه يوشك أن يقوم على مثل راحلته؛ عليّ بالنضاحات[٦]. فنضح عليها حتى احترقت عن آخرها وهو يقول: لئن ذهب أثرك لقد بقي خبرُك، ولئن حط قدرُك لقد علا ذِكرك!

قال سهل بن هارون: وأمر بضم أموالهم، فوجد من العشرين ألف ألف التي كانت مبلغ جبايتهم، اثنى عشر ألف ألف مكتوباً على بِدَرِها[٧] صكوكٌ مختومة تفسيرها رقيماً حَبَوا بها. فما كان منها حِباء على غريبة، أو استطراف مُلحة؛ تصدق به يحي وأثبت ذلك في ديوانها على تواريخ أيامها، فكان ديوان إنفاق واكتساب فائدة.

---

(١) نشر: بعث. (٢) البرد: جمع بريد وهي الرسائل.

(٣) الصراة: نهر بالعراق.

(٤) قنأ شعره: سوّده بالخضاب.

(٥) اربدّ وجهه: أحمر.

(٦) النضاحة: آلة تسوى من النحاس للنفط.

(٧) البدر: جمع بدرة، وهي كيس فيه مقدار من المال يتعامل به، ويقدم في العطايا.

وقبض من سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وستمائة ألف وستة وسبعين ألفاً، إلى سائر ضياعهم وغلاتهم ودورهم ورياشهم والدقيقِ والجليل من مواهبهم، فإنه لا يوصف أقلّه، ولا يعرف أيسره إلا من أحصى الأعمال وعرف منتهى الآجال.

وأُبرزت حرمُه إلى دار البانوقة ابنة المهدي؛ فوالله ما علمته عاش ولا عشْنَ إلا من صدقات من لم يزل متصدقاً عليه؛ وما رأوا مثل موجدة الرشيد فيما يُعلم من ملك قبله على أحد ملكه.

بين أم جعفر والرشيد:

وكانت أم جعفر بن يحي، وهي فاطمة ابنة محمد بن الحسين بن قحطبة، أرضعت الرشيدَ مع جعفر؛ لأنه كان رُبِّي في حجرها وغذي برسلها[1]، لأن أمه ماتت عن مهده، فكان الرشيد يشاورها مظهراً لإكرامها والتبرُّك برأيها، وكان آلى وهو في كفالتها أن لا يحجبها، ولا استشفعته لأحد إلا شفعها، وآلت عليه أم جعفر أن لا دخلت عليه إلا مأذوناً لها، ولا شفعت لأحد لغرض دنيا. قال سهل: فكم أسير فكَّت، ومبهم عنده فتحت، ومستغلق منه فرَّجت. واحتجب الرشيد بعد قدومه، فطلبت الإذن عليه من دار الباقونة، ومتَّت بوسائلها إليه؛ فلم يأذن لها ولا أمر بشيء فيها؛ فلما طال ذلك بها خرجت كاشفةً وجهها واضعة لثامها محتفية في مشيها، حتى صارت بباب قصر الرشيد؛ فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب، فقال: ظِئرُ[2] أمير المؤمنين بالباب، في حالة تقلب شماتة الحاسد إلى شفقة أم الواحد! فقال الرشيد: ويحك يا عبد الملك! أوَ ساعية؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين حافية! قال أدخلها يا عبد الملك، فرُبَّ كبدٍ غذتها، وكربة فرجتها، وعورة سترتها! قال سهل: فما شككتُ يومئذ في النجاة بطلبتها، وإسعافِها بحاجتها. فدخلت، فلما نظر الرشيد إليها داخلة محتفية، قام محتفياً حتى تلقَّاها بين عَمد المجلس، وأكب على تقبيل رأسها ومواضع

(١) الرّسل: الذي فيه لين واسترخاء.

(٢) الظئر: المرضعة.

ثدييها؛ ثم أجلسها معه، فقالت: يا أمير المؤمنين، أيعدو علينا الزمان ويجفونا خوفاً لك الأعوان، ويحردك[1] عنا البهتان وقد ربيتك في حجري، وأخذتُ برضاعك الأمان من عدوي ودهري؟ فقال لها: وما ذلك يا أم الرشيد؟ قال سهل: فآيسني من رأفته، بتركه كنيتها آخِراً ما كان أطمعَني من برِّه بها أولاً، قالت: ظئرك[2] يحي وأبوك بعد أبيك، ولا أصفه بأكثر مما عرَفه به أميرُ المؤمنين من نصيحته، وإشفاقه عليه، وتعرُّضه للحتف في شأن موسى أخيه. قال لها: يا أمَّ الرشيد، أمرٌ سَبَق، وقضاءٌ حُمَّ، وغضبٌ من الله نفذ! قالت: يا أمير المؤمنين، يمحوُ الله ما يشاءُ ويُثبت وعنده أمُّ الكتاب، قال: صدقت. فهذا مما لم يمحُه الله! فقالت: الغيب محجوب عن النبيين، فكيف عنك يا أمير المؤمنين؟ قال سهل بن هارون: فأطرق الرشيد ملياً، ثم قال:

وإذا المنِيَّةُ أنشَبت أظفارَها ... ألفَيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

فقالت بغير روية: ما أنا ليحي بتميمة يا أمير المؤمنين، وقد قال الأول:

وإذا افتَقَرتَ إلى الذخائر لم تجد ... ذُخراً يكونُ كصالِحِ الأعمالِ

هذا بعد قول الله عز وجل: ﴿والكاظِمِينَ الغيْظَ والعافِينَ عنِ النَّاسِ والله يُحِب المحسِنينَ﴾[3]. فأطرق هرونُ مليا، ثم قال: يا أمَّ الرشيد، أقول،

إذا انصَرفتْ نفسِي عن الشيءِ لم تكد ... إليهِ بوجهٍ آخِرَ آلدَّهرِ تُقبِلُ

فقالت: يا أمير المؤمنين، وأقول:

ستَقطعُ في الدُّنيا إذا ما قطَعْتَني ... يمينَكَ، فانظُر أيَّ كف تبدَّلُ

قال هارون: رضيت! قالت: فهبه لي يا أمير المؤمنين؛ فقد قال رسول الله ﷺ: مَن تَرك شيئاً للهِ لم يُوجدهُ آللهُ لِفقدِهِ. فأكب هارون مليا، ثم رفع رأسه يقول: لله

---

(١) يحردك: يمنعك.

(٢) ظئرك: زوج مرضعتك.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٣٤.

الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ! قالت: يا أمير المؤمنين، ﴿ويومَئِذٍ يَفرحُ المؤمِنون بنصرِ آللهِ يَنصرُ مَن يَشاءُ وهُو العزيزُ الرَّحيمُ﴾ [1]؛ واذكر يا أمير المؤمنين أليّتَك [2]. ما استشفعتُ إلا شفعتني! قال: واذكري يا أم الرشيد أليّتَك لا شفعت لمقترف ذنباً. قال سهل بن هارون: فلما رأته صرَّح بمنعها ولاذ عن مطلبها، أخرجتْ حُقا [3] من زبرجدة خضراء فوضعتْه بين يديه؛ فقال الرشيد: ما هذا؟ ففتحتْ عنه قفلا من ذهب فأخرجتْ منه قميصه وذوائبه [4] وثناياه، قد غَمست جميع ذلك في المسك؛ فقالت: يا أمير المؤمنين، أستشفع إليك وأستعين بالله عليك وبما صار معي من كريم جسدك وطيب جوارحك ليحيي عبدِك. فأخذ هارون ذلك فلثِمه، ثم استعبر وبكى بكاء شديداً، وبكى أهل المجلس، ومر البشيرُ إلى يحيى وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمةٌ له ورجوعٌ عنه، فلما أفاق رمى جميع ذلك في الحُقِّ، وقال لها: لحسناً ما حفظت الوديعة! قالت: وأهلٌ للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين!

فسكت وأقفل الحق ودفعه إليها، وقال: ﴿إنّ الله يَأْمُرُكُـمْ أنْ تُؤدُّوا الأماناتِ إلى أهْلِها﴾ [5]. قالت: والله يقول: ﴿وإذا حَكَمْتُم بيْنَ النَّاسِ أنْ تحكُمُوا بالعَدْلِ﴾ [6]. ويقول: ﴿وأوْفُوا بعَهدِ الله إذا عاهَدْتُمْ﴾ [7]. قال: وما ذلك يا أم الرشيد؟ قالت: ما أقسمت لي به أن لا تحجبني ولا تجبهني قال: أحب يا أم الرشيد أن تشتريه محكَّمةً فيه. قالت: أنصفت يا أمير المؤمنين، وقد فعلتُ غير مستقيلةٍ لك، ولا راجعةٍ عنك. قال: بكـم؟ قالت: برضاك عمن لم يُسْخِطْك! قال: يا أم الرشيد، أمالي عليك من الحق مثلُ الذي لهم؟ فتحكَّمي في تمنِيَةٍ بغيرهم. قالت: بلى قد

---

(١) سورة الروم الآية ٤.

(٢) الألية: اليمين.

(٣) الحقّ: وعاء صغير ذو غطاء.

(٤) الذوائب: جمع ذؤابة: وهي شعر مقدم الرأس. وثناياه. اسنانه الأربعة التي في مقدم الفم.

(٥) سورة النساء الآية ٥٨.

(٦) المرجع نفسه.

(٧) سورة النحل الآية ٩١.

وهبتُكه وجعلتُك في حِلٍّ منه؟ وقامت عنه، وبقي مبهوتاً ما يُحِير لفظه. قال سهل: وخرجت فلم تعُد، ولا والله ما رأيت لها عبرة ولا سمعت لها أنَّة.

قال سهل: وكان الأمين محمد بن زُبيدة رضيع يحيى بن جعفر، فمتّ[1] إليه يحيى ابن خالد بذلك، فوعده استيهاب أُمَّه إياهم وتكلمها فيهم؛ ثم شغله اللهو عنهم، فكتب إليه يحيى، ويقال: إنها لسليمان الأعمى أخي مسلم بن الوليد، وكان منقطعاً إلى البرامكة ـ يقول:

يـا ملاذي وعِصْمَتِـي وعِمَـادِي ... ومُجيري مِـنَ الخُطُـوب الشِّـدَادِ
بـكَ قـام الرَّجـاءُ في كـلِّ قلْـبِ ... زاد فيــهِ البَلاءُ كــلَّ مَــزاد
إنما أَنــتَ نِعْمــةٌ أعْقَبَتْهــا ... نِعــمٌ نَفْعُهــا لِكــلِّ العِبــادِ
وعْـدَ مـولاك أتممْنْهُ فـأَبى الدَّ ... رُّ مـا زيـد حُسْنُـهُ بـانعقـادِ
ما أَظَلَّـتْ سَحَـائِـبُ اليَـأْسِ إلاَّ ... كـانَ في كشفِهـا عليـكَ اعتمادي
إن تَـراخـتْ يـداكَ عني فُـوَاقـاً ... أكلتْنِـي الأيـامُ أكـلَ الجرادِ[2]

وبعث بها الأمين محمد، فبعث بها الأمين محمد إلى أمه زبيدة، فأعطتها هارون وهو في موضع لذته وعند إقبال أريحَيّته، وتهيأت للاستشفاع لهم، وعبّأت جواريَها ومغنِّياتِها وأمرتهن بالقيام معها إذا قامت؛ فلما فرغ الرشيد من قراءتها لم ينقض حبوتُه حتى وقَّع في أسفلها: عِظَمُ ذنبكَ أماتَ خواطرَ العفوِ عنك! ورمى بها إلى زبيدة، فلما رأت توقيعه علمت أنه لا يرجع عنه.

الرشيد وإسحاق بن علي في البرامكة:

وقال بعض الهاشميين: أخبرني إسحاق بن علي بن عبد الله بن العباس، قال: كنت أُساير الرشيد يوماً والأمينُ عن يمينه والمأمون عن شماله؛ فاستدْناني وقدّمها أمامه، فسايرْته، فجعل يحدثني، ثم بدأ يشاورني في أمر البرامكة، وأخبرني بما أضمر عليه

(١) متّ إليه: توسل.
(٢) الفواق: ما بين الحلبتين من الوقت.

لهم، فإنهم استوحشوه من أنفسهم، وإني عنده بالموضع الذي لا يكتمني شيئاً من أمرهم. فقلت: يا أمير المؤمنين، لا تنقلني من السّعة إلى الضيق! فقال الرشيد: إلا أن تقول؛ فإني لا أتهمك في نصيحة ولا أخافك على رأي ولا مشورة! فقلت: يا أمير المؤمنين، إني أرى نفاستك عليهم بما صاروا إليه من النعمة والسّعة، ولك أن تأمر وتنهَى، وهم عبيد لك بإنباتك إياهم؛ فهل ذلك كلّه إلا بك؟- قال: وكنت أحطب في حبال البرامكة - فقال لي: فضِياعهم ليس لولدي مثلُها وتطيبُ نفسي بذلك لهم! فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الملِك لا يَحْسُد، ولا يَحْقِد، ولا يُنْعِمُ نعمةً ثم يُفْسد نعمتَه. قال: فرأيته قد كرِه قولي وزوى[1] وجهه عني.

قال إسحاق: فعلمت أنه سيُوقِعُ بهم، ثم انصرفتُ فكتمت الخبر فلم يسمع به أحد، وتجنبت لقاء يحيى والبرامكة خوفاً أن يظن أني أُفضي إليهم بسرِّه، حتى قتلهم، وكان أشدّ ما كان إكراماً لهم؛ وكان قتلهم بعد ست سنين من تاريخ ذلك اليوم.

يحيى ومنكة الهندي:

وكان يحيى بن خالد بن برمك قد اعتلَّ قبل النازلة التي نزلت بهم، فبعث إلى منكة الهندي فقال: ماذا ترى في هذه العلة؟ فقال منكة: داء كبير دواؤه يسير، والصبر أيسر؛ وكان متفنِّناً. فقال له يحيى: ربما ثقل على السمع[2] خطْرَةُ الحق به، وإذا كان ذلك كان الهجر له ألزمَ من المفاوضة [فيه]. قال منكة: لكنني أرى في الطالع أثراً والأمَدُ فيه قريب، وأنت قسيمٌ في المعرفة، وربما كانت صورة النجم عقيمةً لا نتاج لها، ولكن الأخذ بالحزم أوفى لحظِّ الطالبين. قال يحيى: الأمور منصرفة إلى العواقب، وما حُتِمَ فلا بد أن يقع، والمنَعة بمُسالمة الأيام نُهزة[3]، فاقصد ما دعوتك له من هذا الأثر الموجود بالمزاج. قال منكة: هي الصفراء مازجتْها

---

(١) زوى وجهه: نحاه وصرفه.

(٢) الخطرة: ما يخطر، أو الحين.

(٣) نُهزة: فرصة.

مائية البلغم، فحدث لذلك ما يحدث من اللهب عند مُماسّة رطوبة الماء من الاشتعال؛ فخذ ماء الرمان فدق فيه إهليلجة(١) سوداء تُنهضك مجلساً أو مجلسين، ويسكن ذلك التوقد إن شاء الله.

فلما كان من أمرهم ما كان، تلطّف منكة حتى دخل الحبس، فوجد يحيى قاعداً على لبْد، والفضل بين يديه يخدمه، فاستعبر منكة باكياً، وقال: كنتُ ناديتُ لو أسرعتَ الإجابة. قال له يحيى: أتُراك كنت علمت من ذلك شيئاً جهلته؟ قال: كلا كان الرجاء للسلامة بالبراءة من الذنب أغلب من الشَّفق(٢)، وكانت مزايلة القدْر الخطير عنا أقل ما تُنْقض تُنهض به التُّهمة، فقد كانت نقمة أرجو أن يكون أوّلُها صبراً، وآخرها أجراً. قال: فما تقول في هذا الداء؟ قال: منكة: ما أرى له دواء أنفعَ من الصبر، ولو كان يُفدى بمالٍ أو بمفارقة عضو كان ذلك مما يجب لك. قال يحيى: قد شكرت لك ما ذكرت، فإن أمكنك تعاهدنا فافعل. قال منكة: لو أمكنني تخليف الروح عندك ما بخلت به، فإنما كانت الأيام تحسن بسلامتك.

وكتب يحيى بن خالد في الحبس إلى هارون الرشيد:

من يحيى في حبسه إلى الرشيد:

لأمير المؤمنين، وخليفة المهديّين، وإمام المسلمين، وخليفة رب العالمين، من عبد أسلمتْه ذنوبه، وأوبقتْه(٣) عيوبه، وخذله شقيقه، ورفضه صديقه، ومال به الزمان، ونزل به الحدثان(٤)، [فحلّ في الضِّيق بعد السعَة] وعالج البؤس بعد الدَّعة(٥) وافترش السخط بعد الرضا، واكتحل السهاد بعد الهجود(٦)، ساعتُه شهر، وليلتُه

(١) إهليلجة: ثمر منه أصفر ومنه أسود وهو اليانع النضج.

(٢) الشفق: الإشفاق.

(٣) أوبقته: أهلكته أو حبسته. أو ذللته.

(٤) الحدثان: نوائب الدهر.

(٥) الدعة: السعة في العيش.

(٦) الهجود: النوم.

دهر، وقد عاين الموت، وشارف الفَوْت [١]، جزعاً لموجِدَتك يا أمير المؤمنين، وأسفا على ما فات من قربك، لا على شيء من المواهب؛ لأن الأهل والمال إنما كانا لك، وبك وكانا في يديّ عارية، والعارية مردُودة؛ وأما ما أُصبتُ به من ولدي فبذنبه، ولا أخشى عليك الخطأ في أمره، ولا أن تكون تجاوزت به فوق حده.

تفَكَّرْ في أمري، جعلني الله فداك، وليَمِلِ هواك بالعفو عن ذنب إن كان فمن مثلي الزلل ومن مثلك الإقالة [٢]؛ وإنما أعتذر إليك بإقرار ما يجب به الإقرار حتى ترضى، فإذا رضيت رجوت إن شاء الله أن يتبين لك من أمري وبراءة ساحتي ما لا يتعاظمُك بعده ذنب أن تغفره. مدّ الله لي في عمرك وجعل يومي قبل يومك!

وكتب إليه بهذه الأبيات:

قل للخليفةِ ذي الصَّنيـعةِ والعطايا الفاشيَهْ
وابن الخلائِف من قريْـشٍ والملوكِ العاليَهْ
إنَّ البرامكةَ الذيـن رُمُو لديْك بداهيَهْ
صُفْرُ الوُجوهِ عليهمُ   خِلَعُ المذَلَّةَ باديهْ
فكأنهم مما بهمْ   أَعجازُ نخلٍ خاويهْ [٣]
عمَّتْهم لك سَخْطةٌ   لم تُبْقِ منهم باقيه
بعد الإمارةِ والوزا   رة والأمورِ الساميهْ
ومنازلٍ كانت لهمْ   فوق المنازلِ عاليه
أضحَوْا وجُلُّ مُناهُمُ   منك الرِّضا والعافيَهْ
يا من يَودُّ ليَ الرّدى   يكفيك مني ما بيَهْ [٤]
يكفيك ما أبصرْتَ من   ذُلّي وذُلِّ مكانيه

---

(١) الفوت: المضيّ.
(٢) الإقالة: الصفح.
(٣) أعجاز النخل: أصولها.
(٤) الردى: الهلاك.

وبُكـاءُ فـاطمـةَ الكئيـــبةِ والمدامعُ جـاريـهْ
ومقـالها بتـوَجُّـعٍ يـا سـوْأتِـي وشَقـائيـه
من لي وقـد غضِـب الزَّمـا نُ على جميـعِ رجـاليـه
يـا لهْف نفسي لهْفَهـا ما للـزَّمـانِ ومـاليـه
يـا عطفـةَ الملِـكِ الرِّضـا عُـودِي علينـا ثـانيـه

فلم يكن له جواب من الرشيد .

عهد يحي إلى الرشيد:

واعتلَّ يحي في الحبس، فلما أشفى[1] دعا برقعة فكتب في عنوانها: ينفذ أمير المؤمنين عهد مولاه يحي بن خالد . وفيها مكتوب:

بسم الله الرحمن الرحيم . قد تقدّم الخصم إلى موقف الفصل، وأنت على الأثر، واللهُ حكَـمٌ عدْل، وستَقْدَم فتعلم .

فلما ثقل[2] قال للسجان: هذا عهدي توصِّله إلى أمير المؤمنين، فإنه وليُّ نعمتي، وأحق من نفّذ وصيتي .

فلما مات يحي أوصل السجان عهده إلى الرشيد .

جواب الرشيد:

قال سهل بن هارون: وأنا عند الرشيد إذ وصلت الرقعة إليه، فلما قرأها جعل يكتب في أسفلها ولا أدري لمن الرقعة، فقلت له: يا أمير المؤمنين، ألا أكفيك؟ قال: كلا، إني أخاف عادة الراحة أن تُقوِّيَ سلطان العجز! فيحكـم بالغفلة ويقضي بالبلادة! ووقع فيها: الحكَـمُ الذي رضيت به في الآخرة لك هو أعدى الخصوم عليك، وهو من لا ينقض حكمه، ولا يُرَدُّ قضاؤه . قال: ثم رمى بالصك إليّ فلما

(١) أشفى: اقترب من الشفاء .

(٢) ثقل: اشتد مرضه .

رأيته علمت أنه ليحيي، وأن الرشيد أراد أن يؤثر الجواب عنه .

وقال دعبل يرثي بني برمك:

ولمّا رأيت السيْـفَ جَلّـل جَعْفـراً ... ونادى مُنـادٍ للخليفـة في يحيَـى [1]
بكيْـتُ على الدنيـا وأيقنْـتُ أنما ... قُصَارى الفتَى يوما مُفارَقة الدُّنيـا

وقال سليمان الأعمى يرثي بني برمك:

هَدا الخالونَ عن شجْوى وناموا ... وعيْني لا يُلائمهـا المنـام [2]
ومـا سَهَـرى بـأني مُستَهـامٌ ... إذا سهِـرَ المحِـبُّ المستَهـامُ
ولكـنّ الحوادثَ أرّقتْنى ... فبي أَرَقٌ إذا هَجَـع النِّيـامُ
أُصِبْتُ بسادةٍ كـانـوا عُيـونـا ... بهم نُسقَى إذا انقطَـع الغمام [3]
فقلـت وفي الفـؤادِ ضريمُ نـارٍ ... وللعَبراتِ مـن عيْني انسِجـام
على المعـروف والدنيـا جميعـاً ... ودولـةِ آلِ بـرمـك السَّلام
جزِعْتُ عليك يا فضلُ بن يَحيَى ... ومـن يَجـزَعْ عليـك فلا يُلامُ
هوَتْ بك أنجُم المعروفِ فينـا ... وعـزّ بفقْـدِك القـومُ اللِّئـامُ
وما ظلَـم الإلـهُ أخـاك لكـن ... قضـاءٌ كـان سبّبـه اجترام [4]
عقـابُ خليفـةِ الرّحمنِ فخـرٌ ... لمن بـالسيْـفِ صَبّحَـه الحمامُ
عجبْت لمَا دها فضل بن يَحيَـى ... وما عَجبي وقد غضِـب الإمـام
جرى في الليْلِ طائرهُمْ بنحْسٍ ... وصَبّح جعفراً منـه اصطِلامُ [5]
ولم أرَ قبل قتْلِك يا بن يَحيَـى ... حُسَامـاً قـدّهُ السيـفُ الحُسـام
بـريْـن الحادثـاتُ لـه سِهـامـا ... فغـالتْـه الحوادثُ والسِّهـام [6]

(١) جلّل: غطى .

(٢) هدا: هدأ .

(٣) عيوناً: جمع عين: وهي ينبوع الماء .

(٤) اجترم: ارتكب جرماً .

(٥) اصطلم: قطع .

(٦) غالته الحوادث: وصل اليه منها شراً .

لِيَهْنِ الحاسدين بأنّ يَحيَى أسيرٌ لا يضيمُ ويُستضامُ
وأنّ الفضل بعد رداء عِزٍّ غدًا ورداؤهُ ذالٌ ولامُ [١]
فقل للشّامتين بهم جميعاً لكم أمثالُها عامٌ فعَامُ
أمينَ اللهِ في الفضلِ بن يَحيَى رضيعِكَ والرَّضيعُ له ذمام
أبا العبَّاس، إنّ لكلِّ همٍّ وإنْ طال انقِراضٌ وانصرام
أرى سببَ الرِّضاء له قَبولٌ على الله الزِّيادة والتَّمام
وقد آليْتُ فيه بصومِ شهرٍ فإنْ تَمَّ الرِّضا وجب الصِّيام
وقد آليت مُعتزماً بنذْرٍ ولِي فيما نَذرتُ به آعتِزام
بأنْ لا ذُقْتُ بعدكم مُداماً وموْتي أن يُفارقني المُدام
أألْهُوا بعدكم وأقَرُّ عيناً؟ عليَّ اللّهوُ بعدكم حرام
وكيف يطيب لي عيشٌ! وفضلٌ أسيرٌ دونَه البلد الشَّآم
وجعفر ثاوياً بالجسر أبْلَت محاسنَه السمائمُ والقُتام [٢]
أمُرُّ به فيَغلُبني بُكائي ولكنّ البكاءَ له آكتِتام
أقول وقمت مُنْتصباً لديه إلى أن كاد يفضحُني القيام
أما والله لولا خوفُ واشٍ وعينٌ للخليفةِ لا تنام
لثمنا رُكنَ جذْعِك واستلَمنا كما للناس بالحجَر استِلامُ

وقال بعض الشعراء يُغري هارون ببني برمك:

قل للخليفةِ باكتفائهْ دون الأنامِ بحسن رائهْ
إمّا بدأتَ بجعفرٍ فآسق البرامكَ من إنائهْ
ما بَرْمكي بعده تقف الظنونُ على وفائه
إني وقصْد البرمكيِّ إلى انتكاثٍ من شَقائهْ [٣]

(١) الذال واللام: الذلّ.

(٢) السمائم: جمع سموم: وهي الريح الحارة تهب غالباً بمصر في شهر مايو وتكون غالباً في النهار. أو الحر الشديد النافذ في المسام. والقتام: الغبار الأسود.

(٣) الانتكاث: الانتقاض. أو الهزال بعد السمنة.

فلقد رفعت لجعفرٍ ذِكْريْنِ قَلاّ في جزائه
فارفع ليحيي مثله ما العودُ إلا مِن لحائه
واخضِب بصدرِ مُهنَّدٍ عُثْنونَ يحي من دمائهْ[1]

ابن المهدي وجعفر وعبد الملك:

إبراهيم بن المهدي قال: قال لي جعفر بن يحي يوماً: إنني استأذنت أمير المؤمنين في الحجامة، وأردت أن أخلو بنفسي وأفرّ من أشغال الناس وأتوحَّد، فهل أنت مساعدي؟ قلت: جعلني الله فداك، أنا أسعد بمساعدتك وآنَسُ بمخالاتك. فقال: بكّر إليّ بكور الغراب. قال: فأتيت عند الفجر الثاني فوجدت الشمعة بين يديه وهو قاعد ينتظرني للميعاد. قال: فصلينا ثم أفضنا في الحديث، حتى أتى وقتُ الحِجامة، فأتى الحجَّام، فحجمَنا في ساعة واحدة، ثم قُدِّم إلينا الطعام فطعِمْنا فلما غسلنا أيدينا خُلع علينا ثياب المنادمة وضمخنا بالخَلوق[2]، وظللنا بأسرِّ يوم مَرَّ بنا؛ ثم إنه تذكر حاجة، فدعا الحاجب فقال له: إذا جاء عبد الملك القهرمان[3] فأْذن له. فنسي الحاجب وجاء عبد الملك بن صالح الهاشمي على جلالته وسنِّه وقدره وأدبه، فأذن له الحاجب، فما راعنا إلا طلعة عبد الملك بن صالح، فتغيَّر لذلك وجه جعفر بن يحي، وتنغَّص عليه ما كان فيه؛ فلما نظر إليه عبد الملك على تلك الحالة، دعا غلامه، فدفع إليه سيفَه وسوادَه وعمامته، ثم جاء فوقف على باب المجلس، فقال: اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم! قال: فجاء الغلام فطرح عليه ثياب المنادمة؛ ودعا بطعام فطعم؛ ثم دعا بالشراب فشرب ثلاثا، ثم قال: ليخفِّف عني، فإنه شيء ما شربتُه قط! فتهلل وجه جعفر فرحاً، وقد كان الرشيد حاور عبد الملك على المنادمة فأبى ذلك وتنزّه عنه؛ ثم قال له جعفر بن يحي: جعلني الله فداك؛ قد تفضلتَ وتطوّلت[4]، فهل من

(١) العثنون: ما نبت على الذقن وتحته سفلاً.
(٢) الخلوق: الخلاق: ضرب من الطيب.
(٣) القهرمان: امين الملك ووكيله الخاص.
(٤) تطولت: تفضلت.

حاجة تبلُغها مقدرتي، وتحيط بها نعمتي، فأقضيها لك مكافأةً لما صنعت؟ قال: بلى، إن قلب أمير المؤمنين عاتبٌ عليّ، فتسأله الرضا عني. فقال قد رضي عنك أمير المؤمنين! ثم قال [عبد الملك]: وعليّ أربعة آلاف دينار. قال: هي حاضرةٌ، ولكن من مال أمير المؤمنين أحبُّ إليَّ من مالي. قال: وابني إبراهيم أُحبُّ أنْ أشدّ ظهرَه بمصاهرة أمير المؤمنين. قال: قد زوَّجه أميرُ المؤمنين ابنته عائشة الغالية. قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه بولاية. قال: وقد ولاه أميرُ المؤمنين مصر!

قال: فانصرف عبد الملك ونحن نَعجب من إقدام جعفر على الرشيد من غير استئذان، فلما كان الغدُ وقفنا على باب أمير المؤمنين، ودخل جعفر فلم يلبث أن دعا بأبي يوسف القاضي، ومحمد بن الحسن، وإبراهيم بن عبد الملك فعقد له النكاح، وحُملت البدَر إلى عبد الملك، وكتب سجل إبراهيم على مصر؛ وخرج جعفر، فأشار إلينا، فلما صار إلى منزله ونحن خلفه نزل ونزلنا بنزوله، فالتفت إلينا فقال: تعلَّقت قلوبكم بأول أمر عبد الملك فأحببتم أن تعرفوا آخره وإني لمّا دخلْت على أمير المؤمنين ومثَلتُ بين يديه سألني عن أمسي، فابتدأت أحدثه بالقصة من أوّلها إلى آخرها، فجعل يقول أحسنَ والله! أحسن والله! ثم قال: فما أجبتَه؟ فجعلت أُخبره، وهو يقول في كل شيء: أحسنتَ! وخرج إبراهيم والياً على مصر.

من أخبار الطالبيين

حفاوة السفاح:

حدَّث عبدُ العزيز بن عبد الله البصري، عن عثمان بن سعيد بن سعد المدني، قال: لما ولي الخلافة أبو العباس السفاح قدم عليه بنو الحسن بن علي بن أبي طالب، فأعطاهم الأموال وقطع لهم القطائع (١)، ثم قال لعبد الله بن الحسن: احتكِم عليَّ. قال: يا أمير المؤمنين، بألف ألف درهم، فإني لم أرها قط. فاستقرضها أبو العباس من ابن أبي مقرِّن الصيرفي، وأمر له بها.

---

(١) القطائع: جمع قطيعة، وهي الجزء من الأرض يملكه الحاكم لمن يريد من أتباعه منحه.

قال عبد العزيز: لم يكن يومئذ بيت مال.

ثم إن أبا العباس أتى بجوهر مروان فجعل يقلبه وعبد الله بن الحسن عنده، فبكى عبد الله، فقال له: ما يبكيك يا أبا محمد؟ قال: هذا عند بنات مروان وما رأتْ بناتُ عمك مثلَه قط؟ قال: فحباه[1] به، ثم أمر ابن مقرّن الصيرفيَّ أن يصل إليه ويبتاعه منه، فاشتراه منه بثمانين ألف دينار. ثم حضر خروج بني حسن فأرسل معهم رجلاً من ثقاته، ثم قال له: قم بإنزالهم ولا تألُ في إلطافهم؛ وكلما خلوت معهم فأظهر الميل إليهم والتحامل علينا وعلى ناحيتنا، وأنهم أحق بالأمر منا، وأحْصِ لي ما يقولون وما يكون منهم في مسيرهم ومقدَمهم.

استيحاش السفاح من ابن حسن:

ومما كان خشن قلب أبي العباس حتى أساء بهم الظن، أنه لما بنى مدينة الأنبار دخلها مع أبي جعفر أخيه وعبدِ الله بن الحسن، وهو يسير بينهما ويريهما بنيانه وما أقام فيها من المصانع والقصور؛ فظهرت من عبد الله بن الحسن فلتة، فجعل يتمثل بهذه الأبيات:

ألم تَر جَوْشَناً قد صار يَبني ... قُصوراً نفعُها لِبَني نُفيْله[2]
يُؤَمِّلُ أن يُعمَّرَ عُمْرَ نوحٍ ... وأَمْرُ اللهِ يَحْدُثُ كلَّ ليْله!

قال: فتغير وجه أبي العباس؛ وقال له أبو جعفر: أتراهما ابنيك أبا محمدٍ والأمر إليهما صائر لا محالة؟ قال: لا والله ما ذهبتُ هذا المذهب ولا أردتُه، ولا كانت إلا كلمة جرت على لساني لم أُلق لها بالاً.

فأوحشتْ تلك الكلمةُ أبا العباس.

---

(١) حباه به: أعطاه إياه.

(٢) الجوشن: الصدر والدرع.

فلما قدم المدينة عبدُ الله بن الحسن، اجتمع إليه الفاطميون وجعل يفرّق فيهم الأموال التي بعث بها أبو العباس، فعظم بها سرورهم؛ فقال لهم عبد الله ابن الحسن: فرحتم؟ قالوا: وما لنا لا نفرح بما كان محجوباً عنا بأيدي بني مروان حتى أتى الله بقرابتنا وبني عمنا فأصاروه إلينا؟ قال لهم: أفَرَضيتم أن تنالوا هذا من تحت أيدي قوم آخرين؟

فخرج الرجل الذي كان وكله أبو العباس بأخبارهم، فأخبره بما سمع من قولهم وقوله؛ فأخبر أبو العباس أبا جعفر بذلك، فزادت الأمورُ شرّاً.

أبو جعفر وابن حسن:

ثم مات أبو العباس وقام أبو جعفر بالأمر بعده، فبعث بعطاء أهل المدينة وكتب إلى عامله، أن أعطِ الناس في أيديهم ولا تبعث إلى أحد بعطائه، وتفقَّد بني هاشم ومن تخلّف منهم ممن حضر، وتحفظ بمحمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن. ففعل وكتب: إنه لم يتخلف أحد عن العطاء إلا محمد وابراهيم ابنا عبد الله ابن الحسن، فإنهما لم يحضرا. فكتب أبو جعفر إلى عبد الله بن الحسن، وذلك مبدأ سنة تسع وثلاثين ومائة، يسأله عنهما ويأمره بإظهارهما ويخبره أنه غير عاذره. فكتب إليه عبد الله أنه لا يدري أين هما ولا أين توجها. وأن غيبتهما غيرُ معروفة؛ فلم يلبث أبو جعفر ـ وكان قد أذكى العيونَ[1] ووضع الأرصاد[2] ـ حتى جاءه كتاب من بعض ثقاته يخبره أن رسولاً لعبد الله ومحمد وإبراهيم خرج بكتب إلى رجال بخراسان يستدعيهم إليهم؛ فأمر أبو جعفر برسولهم فأتي به وبكتبه، فردها إلى عبد الله بن الحسن بطوابعها، لم يفتح منها كتاباً، وردّ إليه رسوله وكتب إليه:

إني أُتيتُ برسولك والكتب التي معه فرددتها إليك بطوابعها، كراهيةَ أن أطّلع منها على ما يغيّر لك قلبي؛ فلا تدعُ إلى التقاطع بعد التواصل، ولا إلى الفُرقة بعد

(١) العيون: الجواسيس.
(٢) الأرصاد: يريد: الرقباء.

الاجتماع، وأظهر لي ابنيك فإنهما سيصيران بحيث تحب من الولاية والقرابة وتعظيم الشرف.

فكتب إليه عبد الله بن الحسن يعتذر إليه ويتنصل في كتابه، ويُعْلِمه أن ذلك من عدوّ أراد تشتيت ما بينهم بعد التئامه. ثم جاءه كتاب ثقة من ثقاته يذكر أن الرسول بعينه خرج بالكتب بأعيانها على طريق البصرة، وأنه نازل على فلان المهلّبي؛ فإن أراده أمير المؤمنين فليضع عليه رصده. فوضع عليه أبو جعفر رصده، فأتي به إليه ومعه الكتب، فحبس الرسول وأمضى الكتب إلى خراسان مع رسول الله من عنده من أهل ثقاته، فقدِمَت عليه الجوابات بما كره؛ واستبان له الأمر، فكتب إلى عبد الله بن الحسن يقول:

أُريدُ حياتَهُ ويُريدُ قتْلِي عذِيركَ من خَليلِك من مُرادِ[1]

أما بعد فقد قرأت كُتُبك وكُتب ابنيْك وأنفذتُها إلى خراسان، وجاءتني جواباتُها بتصديقها، وقد استقرّ عندي أنك مغيِّب لابنيك تعرفُ مكانهما، فأظهرهما لي، فإن لك عليّ أن أُعظِم صلتهما وجوائزهما وأضعهما بحيث وضعتهما قرابتهما؛ فتدارك الأمور قبل تفاقمها.

فكتب إليه عبد الله بن الحسن:

وكيف أُريدُ ذاك وأنت مِنِّي وزنْدُك حين تقْدح من زنادي
وكيف أُريدُ ذاك وأنت مني بمنْزلةِ النِّياطِ منَ الفؤادِ[2]

وكتب إليه أنه لا يدري أين توجّها من بلاد الله، ولا يدري أين صاروا، وأنه لا يعرف الكتب ولا يشك أنها مُفْتعلة.

فلما اختلفت الأمور على أبي جعفر، بعث سَلْم بن قُتيبة الباهلي، وبعث معه بمال

(١) العذير: النصير.
(٢) النياط: عرق غليظ علق به القلب إلى الرئتين.

وأمره بأمره، وقال له: إني إنما أُدخلك بين جلدي وعظمي؛ فلا تُوطئنّي عَشواء[1]، ولا تُخْفِ عني أمراً تعلمه. فخرج سلم بن قتيبة حتى قدم المدينة، وكان عبد الله يبسط له في رخام المنبر في الروضة، وكان مجلسه فيه؛ فجلس إليه وأظهر له المحبة والميل إلى ناحيته؛ ثم قال له حين أنس إليه: إن نفراً من أهل خراسان، وهم فلان وفلان ـ وسمّى له رجالاً يعرفهم ممن كان يكاتِب، ممن استقرّ عند أبي جعفر أمرهم ـ قد بعثوا إليك معي مالاً، وكتبوا إليك كتاباً فقبل الكتاب والمال، وكان المال عشرة آلاف دينار.

ثم أقام معه ما شاء الله حتى ازداد به أُنساً وإليه استنامة[2]، ثم قال له: إني قد بُعثت بكتابين إلى أمير المؤمنين محمد، وإلى وليّ عهده إبراهيم؛ وأُمرت أن لا أُوصل ذلك إلا في أيديهما، فإن أوصلتَني إليهما وأدخلتني عليهما؛ أوصلتُ إليهما الكتابين والمال، ورحلت إلى القوم بما يُثْلج صدورهم، وتقبله قلوبهم، فأنا عندهم بموضع الصدق والأمانة، وإن كان أَمرهما مظلماً؛ وإن لم تكن تعرف مكانهما، لم يخاطروا بدينهم وأموالهم ومُهَجهم. فلما رأى عبدُ الله أنّ الأمور تفسد عليه من حيث يرجو صلاحَها، [وأنه لا سبيل إلى ما معه] إلا بإيصاله إليهما وإظهارهما له، أوصَله ـ فدفع الكتابين مع أربعين ألف درهم ـ ثم قال: هذا محمد، وهذا إبراهيم. فقال لهم: إنَ من ورائي لم يبعثوني ولهم ورائي غاية، وليس مثلي ينصرف إلى قوم إلا بجملة ما يحتاجون إليه، ومحمدٌ إنما صار إلى هذه الخطة، ووجبت له هذه الدعوة، لقرابته من رسول الله ﷺ؛ وها هنا مَن هو أقرب من رسول الله رحماً وأوجب حقاً منه قال: ومن هو؟ قال: أنت! إلا أن يكون عند ابنك محمدٍ أثرٌ ليس عندك في نفسك! قال: فكذلك الأمر عندي. قال له: فإن القوم يقتدون بك في جميع أمورهم، ولا يريدون أن يبذلوا دينهم وأموالهم وأنفسهم إلا بحجّة يرجون بها لمن قُتل منهم الشهادة؛ فإن أنت خلعتَ أبا جعفر وبايعتَ محمداً اقتدَوْا بك، وإن أبيتَ اقتدوْا بك أيضاً في

(١) العشواء: الناقة التي في عينها مرض. ويقال: أوطئتني عشواءَ: أي أمراً ملتبساً.

(٢) الاستنامة: الاستقرار.

تركك ذلك؛ ثقة بك؛ لقرابتك من رسول الله ﷺ، وموضِعك الذي وضعك الله فيه. قال: فإني أفعل!

فبايَع محمداً وخلع أبا جعفر، وبايعه سلْم من بعده، وأخذ كتُبَه وكتُبَ إبراهيم ومحمد، فخرج فقدم على أبي جعفر وقد حضر الموسم، فأخبره بحقيقة الأمر ويقينه.

فلما دخل أبو جعفر المدينة، أرسل إلى بني الحسن فجمعهم، وقال لسلم: إذا رأيت عبدَ الله عندي فقم على رأسي وأشر إليّ بالسلاح، ففعل، فلما رآه عبد الله سُقط[1] في يده وتغيّر وجههُ، قال له أبو جعفر: مالك أبا محمد؟ أتعرفه؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، فأقلني وصَلَتْك رَحِم! فقال له أبو جعفر: هل علمت أنك تعرف موضع ولديك، وأنه لا عذر لك؟ وقد باح السر؛ فأظهِرْهما لي، ولك أن أَصِلَ رَحَمِك ورحمهما، وأن أُعْظِمَ ولا يتَهما، وأُعْطِيَ كلَّ واحد منهما ألفَ ألفِ درهم، فتراجع عبد الله حتى انكفأ[2] على ظهره، وبنو حسن اثنا عشر رجلاً، فأمر بحبسهم جميعاً.

وخرج أبو جعفر فعسكر من ليلته على ثلاثة أميال من المدينة، وعبّى[3] على القتال، ولم يشكّ أن أهل المدينة سيقاتلونه في بني حسن، فعبّى ميمنة وميسرة وقلبا، وتهيأ للحرب، وأجلس في مسجد النبي ﷺ عشرين مُعطيا يُعطون العطايا، فلم يتحرّك عليه منهم أحد ثم مضى بهم إلى مكة.

كتاب أبي جعفر إلى محمد بن عبد الله:

فلما انصرف أبو جعفر إلى العراق، خرج محمد بن عبد الله بالمدينة، فكتب إليه أبو جعفر:

من عبد الله أمير المؤمنين، إلى محمد بن عبد الله: ﴿إنما جزاءُ الذين يُحاربون اللهَ

---

(١) سُقط في يده: ندم وتحيّر.

(٢) انكفأ على ظهره: مال.

(٣) عبّى: هيأ.

ورسولَه ويَسْعوْنَ في الأرض فساداً أنْ يُقتَّلوا أو يُصلَّبوا أو تُقطَّعَ أيديهمْ وأرجلُهم من خلافٍ أو يُنفوْا من الأرض، ذلك لهم خِزْيٌ في الدنيا ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيم، إلا الذين تابوا من قبل أنْ تقْدِروا عليهم فاعلموا أنّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ﴾ [1] ولك عهد الله وميثاقُه وذمّةُ الله وذمّة نبيه إن أنتما أتيتُما وتبتما ورجعتما من قبلْ أن أقدر عليكما وأن يقع بيني وبينكما سفكُ الدماء ـ أن أؤمِّنكما وجميعَ ولدِكما ومن شايعكما وتابعكما على دمائكـم وأموالكـم، وأُسوِّغَكـم [2] ما أصبتم من دم أو مال، وأعطيكما ألف ألف درهم لكل واحد منكما، وما سألتما من الحوائج؛ وأبوِّئكما من البلاد حيث شئتما، وأطلق من الحبس جميع ولد أبيكما، ثم لا أتعقب واحداً منكما بذنب سلف منه أبداً؛ فلا تُشمِت بنا وبك عدوّنا من قريش؛ فإن أحببت أن تتَوَثَّق من نفسك بما عرضتُ عليك، فوجِّه إليَّ من أحببت ليأخذ لك من الأمان والعهود والمواثيق. ما تأمن به وتطمئن إليه إن شاء والسلام.

فأجابه محمد بن عبد الله: من محمد بن عبد الله أمير المؤمنين، إلى عبد الله ابن محمد: ﴿طسم، تلك آياتُ الكتاب المُبين، نتْلو عليك من نبإ موسى وفرعونَ بالحقِّ لقومٍ يؤمنونَ. إنّ فرعون عَلا في الأرض وجعَل أهلَها شِيعاً يستضعِفُ طائفةً يُذَبِّحُ أبناءَهم ويستحْيي نساءَهم إنه كان من المفسِدين. ونريدُ أن نَمُنَّ على الذين استُضعِفوا في الأرض ونَجعلَهم أَئمّةً ونجعلَهم الوارثين. ونمكِّنَ لهم في الأرض ونُرِيَ فرعونَ وهامان وجودَهما منهم ما كانوا يَحْذَرونَ﴾ [3]. وأنا أعرض عليك من الأمان ما عرضتَ؛ فإنّ الحق معنا، وإنما ادّعيتم هذا الأمرَ بنا وخرجتم إليه بشيعتنا، وحظِيتم بفضلنا، وإن أبانا علياً رحمه الله كان الإمام؛ فكيف ورثتم ولايةَ ولده، وقد علمتم أنه لم يَطلب هذا الأمرَ أحدٌ بمثل نسبنا ولا شرفنا، وأنا لسنا من أبناء الظّئار [4]. ولا من أبناء الطَلَقاء [5]؛ وأنه ليس يمُتُّ أحد بمثل ما نَمُتُّ به من القرابة والسابقة

---

(١) سورة المائدة ٣٣.
(٢) أسوّغ: أبيح.
(٣) سورة القصص الآية ٣ ـ ٦.
(٤) الظئار: اتخاذ المرأة ولداً ترضعه.
(٥) الطلقاء: الذين خليّ عنهم يوم فتح مكة واطلقوا ولم يسترقوا.

والفضل، وأنَّا بنو أمِّ أبي رسول الله ﷺ فاطمةَ بنت عمرو في الجاهلية، وبنو فاطمة ابنته في الإسلام دونكـم؛ وإن الله اختارنا واختار لنا، فوالدنا من النبيين أفضلُهم. ومن السلف أوَّلهم إسلاماً عليّ بنُ أبي طالب، ومن النساء أفضلهنّ خديجة بنتُ خويلد، أولُ من صلى إلى القبلة منهنّ، ومن البنات فاطمة سيدة نساءِ أهل الجنة، ولدت الحسنَ والحسينَ سيِّدَيْ شباب أهل الجنة صلوات الله عليهما؛ وإنّ هاشماً ولد عليّا مرتين، وإنّ عبدَ المطلب ولد حسناً مرتين، وإن النبي ﷺ ولدني مرتين، وإني من أوسط[1] بني هاشمٍ نسباً وأشرفِهم أباً وأمّاً، ولم تُعرِق[2] فيَّ العجم، ولم تَنازع فيَّ أمّهات الأولاد؛ فما زال الله بمنِّه وفضله يختار لي الأمّهات في الجاهلية والإسلام، حتى اختار لي في النار. فأنا ابنُ أرفعُ الناس درجة في الجنة، ومن أهونهم عذاباً في النار، وأبي خيرُ أهلِ الجنة، وأبي خيرُ أهل النار؛ فأنا ابن خيرِ الأخيار وابن خير الأشرار؛ فلك اللهُ إن دخلتَ في طاعتي، وأحببتَ دعوتي، أن أؤمِّنَك على نفسك ومالك ودمك وكلِّ أمرٍ أحدثتَه، إلا حدّا من حدود الله، أو حقَّ امريء مسلم أو معاهَد؛ فقد علمتَ ما يلزمك في ذلك؛ وأنا أولى بالأمر منك، وأوفى بالعهد؛ لأنك لا تعطِي من العهد أكثرَ مما أعطيتَ رجالاً قبلي؛ فأيَّ الأمانات تعطيني؟ أمانَ ابن هبيرة؟ أو أمان عمك عبد الله بن علي؟ أو أمانَ أبي مسلم؟ والسلام.

فكتب إليه أبو جعفر المنصور:

من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله بن حسن: أمّا بعد، فقد بلغني كتابُك، وفهمتُ كلامَك؛ فإذا جلُّ فخرك بقرابة النساء، لتُضِلَّ به الغوغاء[3]، ولم يجعل الله النساء كالعمومةِ والآباء، ولا كالعَصَبة والأولياء؛ لأن الله جعل العم أباً، وبدأ به في القرآن على الوالد الأدنى.

---

(١) أوسطهم: خيرهم.

(٢) أعرق بالشيء: كان له أصل فيه.

(٣) الغوغاء: الصوت والجلبة، والسفلة من الناس لكثرة لغطهم وصياحهم.

ولو كان اختيار الله لهنّ على قدر قرابتهنّ، لكانت آمنة أقربَهنّ رحماً، وأعظمَهنّ حقاً، وأولَ من يدخل الجنة غداً؛ ولكن اختيار الله لخلقه على قدر علمه الماضي لهنّ؛ فأما ما ذكرت من فاطمة جدّة النبي ﷺ وولادتها لك، فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها دين الإسلام، ولو أن أحداً من ولدها رُزق الإسلامَ بالقرابة لكان عبدُ الله ابن عبد المطلب أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة؛ ولكن الأمر لله، يختار لدينه من يشاء، وقد قال جل ثناؤه: ﴿إنك لا تَهدي من أحببْتَ ولكنّ الله يهدي مَن يشاءُ، وهو أعلم بالمهتدِين﴾ [1]. وقد بعث الله محمداً ﷺ وله عمومة أربعة، فأنزل الله عليه: ﴿وأَنْذِرْ عَشِيرَتَك الأقْرَبين﴾ [2]؛ فدعاهم فأنذرهم؛ فأجابه اثنان، أحدهما أبي؛ وأبى عليه اثنان، أحدهما أبوك؛ فقطع الله ولا يتَهما منه، ولم يجعل بينهما إلاًّ [3] ولا ذمّة ولا ميراثا.

وقد زعمت أنك ابن أخف أهل النار عذاباً، وابن خير الأشرار؛ وليس في الشر خيار، ولا فخر في النار، وستَردُ فتعلم ﴿وسيعْلمُ الذين ظَلموا أيَّ مُنقلَبٍ ينقلِبون﴾ [4].

وأمّا ما فخرتَ به من فاطمة أُمّ عليّ، وأنّ هاشماً وَلَدَ عليّا مرتين، فخير الأوّلين والآخرين رسول الله ﷺ لم يلده هاشم إلا مرة واحدة، ولا عبدُ المطلب إلا مرة.

وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسباً، وأكرمهم أباً وأُماً، وأنك لم تلدك العجم، ولم تُعرق فيك أُمّهات الأولاد؛ فقد رأيتك فخَرْت على بني هاشم طُرّاً [5]، فانظر أين أنت ـ ويحك ـ من الله غداً؟ فإنك قد تعديت طورَك، وفخرت على من هو خيرٌ منك نفساً وأباً وأولاً وآخراً؛ فخرت على إبراهيم ولدِ النبي ﷺ، وهل خيارُ ولدِ

(١) سورة القصص الآية ٥٦.

(٢) سورة الشعراء الآية ٢١٤.

(٣) الإلّ: العهد.

(٤) سورة الشعراء الآية ٢٢٧.

(٥) طراً: قاطبة.

أبيك خاصة وأهل الفضل منهم إلا بنو أمهات أولاد؟ وما وُلد منكم بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضل من عليّ ابن الحسين وهو لأمّ ولد، وهو خير من جدك حسن بن حسن، وما كان فيكم بعده مثلُ ابنه محمد بن علي وجدّته أمُّ ولد، وهو خير من أبيك، ولا مثلُ ابنه جعفر، وهو خير منك، وجدّته أم ولد.

وأما قولك: إنا بنو رسول الله ﷺ؛ فإن الله يقول: ﴿ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالِكُمْ ولكِن رسُول اللهِ وخاتَم النَّبيِّين﴾ (١)؛ ولكنكم بنو ابنته، وهي امرأة لا تَحوز ميراثاً، ولا ترث الولاية، ولا يحل لها أن تؤمّ؛ فكيف تورَث بها إمامة؟ ولقد ظلمها أبوك بكل وجه؛ فأخرجها نهاراً، ومرضها سراً، ودفنها ليلاً؛ فأبى الناس إلا الشيخين لتفضيلها؛ ولقد كانت السُّنة التي لا اختلاف فيها أن الجدّ أبا الأم والخال والخالة، لا يرثون.

وأما ما فخرتَ به من عليّ وسابقتِه، فقد حضرتِ النبي ﷺ الوفاةُ، فأمر غيره بالصلاة، ثم أُخذ الناس رَجُلا بعد فما أخذوه؛ وكان في الستة من أصحاب الشورى، فتركوه كلهم؛ رفضه عبدُ الرحمن بن عوف، وقاتله طلحة والزبير، وأَبَى سعدٌ بيعته وأغلق بابه دونه وبايع معاويةَ بعده؛ ثم طلبها بكل وجه، فقاتل عليها، ثم حكم الحكمين ورضي بهما وأعطاهما عهد الله وميثاقه، فاجتمعا على خلعه واختلفا في معاوية؛ ثم قام جدك الحسن فباعها بخِرَقٍ ودراهم، ولحق بالحجاز وأسلم شيعته بيد معاوية، ودفع الأمورَ إلى غير أهلها، وأخذ مالاً من غير ولائه؛ فإن كان لكم فيها حق فقد بعتموه وأخذتم ثمنه؛ ثم خرج عمك الحسين على ابن مرجانة، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه؛ ثم خرجتم على بني أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل وأحرقوكم بالنيران ونَفَوْكم من البلدان، حتى قتل يحي بن زياد بأرض خراسان، وقتلوا رجالكم وأسروا الصِّبية والنساء وحملوهم كالسبي المجلوب إلى الشام.

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٠.

حتى خرجنا عليهم، فطلبنا بثأركم، وأدركنا بدمائكم، وأورثناكم أرضَهم وديارهم وأموالهم؛ وأردنا إشراككم في ملكنا، فأبيتم إلا الخروج علينا؛ وظننت ما رأيتَ ذكرنا أباك وتفضيلنا إياه، لتَقَدُّمِه على العباس وحمزة وجعفر، وليس كما ظننت، ولكن هؤلاء سالمون، مُسلَّم منهم مجتمَع بالفضل عليهم، وابتُلي بالحرب أبوك، فكانت بنو أمية تلعنه على المنابر كما تلعن أهل الكفر في الصلاة المكتوبة؛ فاحتجَينا له، وذكرنا فضله، وعنَّفناهم، وظلمناهم فيما نالوا منه.

وقد علمت أن المكرمة في الجاهلية سقاية الحاج الأعظم وولاية بئر زمزم، وكانت للعباس من بين إخوته، وقد نازعَنا فيها أبوك فقضى لنا بها رسول الله ﷺ، فلم نزل نلِيها في الجاهلية والإسلام؛ وقد علمتَ أنه لم يبق أحد من بعد النبي ﷺ من بني عبد المطلب غير العباس وحده، فكان وارثه من بين إخوته، ثم طلب هذا الأمرَ غيرُ واحد من بني هاشم فلم ينله إلا ولده، فالسقاية سقايتنا، وميراث النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ميراثُنا، والخلافة بأيدينا، فلم يبق فضل ولا شرفٌ في الجاهلية والإسلام إلا والعباس وارثه ومُوَرِّثه، والسلام.

مقتل محمد وإبراهيم:

فلما خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة، بايعه أهل المدينة وأهل مكة، وخرج أخوه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بالبصرة في شهر رمضان، فاجتمع الناس إليه، فنهض إلى دار الإمارة وبها سفيان بن محمد بن المهلب فسلَّم إليه البصرة بغير قتال؛ وأرسل إبراهيم بن عبد الله بن الحسن إلى الأهواز جيشاً فأخذها بعد قتال شديد، وأرسل جيشاً إلى واسط فأخذها.

ثم إن أبا جعفر المنصور جهز إليهم عيسى بن موسى، فخرج إلى المدينة، فلقيه محمد بن عبد الله، فانهزم بأصحابه وقتل.

ثم مضى عيسى بن موسى إلى البصرة فلقى إبراهيم بن الحسن فقتله وبعث برأسه إلى أبي جعفر.

كتاب المنصور إلى ابن عبيدة:

وقال رجل من أهل مكة: كنا جلوساً مع عمر بن عبيد بالمسجد، فأتاه رجل بكتاب المنصور على لسان محمد بن عبد الله بن الحسن يدعوه إلى نفسه، فقرأه ثم وضعه؛ فقال الرسول: الجواب! فقال: ليس له جواب؛ قل لصاحبك يدعنا نجلس في الظل ونشرب من هذا الماء البارد حتى تأتينا آجالنا.

المبيضة وأسر إسماعيل ابن علي وأخيه:

مروان بن شجاع مولى بني أمية قال: كنت مع إسماعيل بن علي بفارس أؤدب ولده، فلما لقيتْه المبيِّضة[1] فظفر بهم، أتى منهم بأربعمائة أسير؛ فقال له أخوه عبد الصمد، وكان على شرطته: اضرب أعناقهم! فقال: ما تقول يا مروان؟ فقلت: أصلح الله الأمير، أول من سنّ قتال أهل القبلة عليٌّ بن أبي طالب، فرأى أن لا يُقتلَ أسير، ولا يُجهزَ على جريح، ولا يُتْبعَ مُولٍّ. قال: خذ بيعتهم وخَلِّ سبيلهم.

محمد بن علي في قلة إخوته:

قيل لمحمد بن علي بن الحسين: ما أقلّ ولد أبيك! قال: إني لأعجب كيف وُلدتُ له! قيل له: وكيف ذلك؟ قال: إنه كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة فمتى كان يتفرّغ للنساء.

وصية المنصور لابن موسى في حرب بني عبد الله:

ولما وجه المنصور عيسى بن موسى في محاربة بني عبد الله بن الحسن قال: يا أبا موسى، إذا صرت إلى المدينة فادعُ محمد بن عبد الله بن الحسن إلى الطاعة والدخول في الجماعة؛ فإن أجابك فاقبل منه، وإن هرب منك فلا تتبعْه؛ وإن أبى إلا الحرب فناجزْه[2] واستعن بالله عليه، فإذا ظفرت به فلا تخيفَن أهل المدينة وعمَّهم بالعفو؛ فإنهم الأصل والعشيرة، وذرية المهاجرين والأنصار، وجيران قبرِ النبي ﷺ؛ فهذه

---

(١) المبيضة: هم أصحاب المقنع، سموا بذلك لتبييضهم ثيابهم مخالفة للمسودة من العباسيين.

(٢) فناجزه: فنازلة وقاتله، وعاجله.

وصيتي إياك، لا كما أوصى بها يزيد بن معاوية مسلمَ بن عقبة حين وجهه إلى المدينة وأمره أن يقتل من ظهر إلى ثنيَّة الوداع، وأن يبيحها ثلاثة أيام، ففعل، فلما بلغ يزيد ما فعله تمثل بقول ابن الزبعرَى في يوم أُحد، حيث قال.

ليتَ أشياخِي ببدْرٍ شهِدُوا جزَعَ الخزرجِ من وقْعِ الأسَلْ[1]

ثم اكتب إلى أهل مكة بالعفو عنهم والصفح، فإنهم آلُ الله وجيرانه وسكانُ حرمه وأمنه، ومنبت القوم والعشيرة، وعظماء البيت والحرم، لا تُلحد فيه بظلم؛ فإنه حرم الله الذي بعث منه محمداً نبيه ﷺ، وشرف به آباءنا بتشريف الله إيانا؛ فهذه وصيتي، لا كما أوصى به الذي وجَّه الحجاج إلى مكة، فأمره أن يضع المجانيق على الكعبة، وأن يُلحد في الحرم بظلم، ففعل ذلك، فلما بلغه الخبر تمثل بقول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يَجْهلَنْ أحدٌ علينا فنجْهلَ فوقَ جَهْلِ الجاهِلينا
لنا الدنْيا ومن أضْحى عليها ونبْطِشُ حين نبطِشُ قادِرينا

عيسى بن موسى ووصيته المنصور:

الرياشي قال: قال عيسى بن موسى: لما وجَّهني المنصور إلى المدينة في حرب بني عبد الله بن الحسن، جعل يوصيني ويُكثر، فقلت: يا أمير المؤمنين، إلى كم توصيني؟

إني أنا السيْفُ الحسامُ الهندِي أكلتُ جَفْني وفَريتُ غِمْدِي[2]
فكلُّ ما تطْلُبُ مني عِنْدِي

تفضيل معاوية للحسن:

وقال معاوية يوماً لجلسائه: من أكرمُ الناس أباً وأمّاً، وجدّاً وجدة، وعمّاً وعمة، وخالاً وخالة؟ فقالوا: أمير المؤمنين أعلم. فأخذ بيد الحسن بن علي وقال: هذا؛ أبوه

(١) الأسل: الرماح والنبل. (٢) فرى: فتت.

علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة ابنةُ محمد، وجدّه رسول الله ﷺ، وجدّته خديجة، وعمه جعفر، وعمته هالة بنت أبي طالب، وخاله القاسم بن محمد، وخالته زينب بنت محمد صلى الله عليه وسلم.

لسديف في قتل المنصور لابني عبد الله:

الرياشي عن الأصمعي قال: لما خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة، فبايعه أهل المدينة وأهل مكة وخرج إبراهيم أخوه بالبصرة فتغلب على البصرة والأهواز وواسط ـ قال سديف بن ميمون في ذلك:

إنّ الحمامةَ يومَ الشِّعْب من حَضَن ... هاجتْ فؤادَ مُحِبٍّ دائمِ الحزَن [1]
إنا لنأملُ أن تَرْتَدَّ أُلفتُنا ... بعد التباعُد والشَّحْناءِ والإحَن [2]
وتَنقضي دوْلةٌ أحكام قادتِها ... فيها كأحكام قوْمٍ عابِدي وثَن
فانهض ببيْعتِكم نَنهَضْ بطاعتنا ... إنّ الخلافة فيكم يا بني حسَن
لا عَزَّ ركنُ نزارٍ عند نائبةٍ ... إن أسلموك ولا ركنٌ لذي يَمَن
ألستَ أكرمَهم يوماً إذا انتسبوا ... عُوداً، وأنقاهُمُ ثوباً من الدَّرَن [3]
وأعظمَ الناس عند الله منزلةً ... وأبعدَ الناس مِن عجزٍ ومِن أَفَن [4]

فلما سمع أبو جعفر هذه الأبيات آستُطير بها، فكتب إلى عبد الصمد بن علي أن يأخذ سُديفاً فيدفنه حيّاً، ففعل.

الرياشي والبغدادي في مقتل سديف:

قال الرياشي: فذكرت هذه الأبيات لأبي جعفر، شيخٍ من أهل بغداد، فقال: هذا باطل؛ الأبيات لعبد الله بن مصعب، وإنما كان سبب قتل سديف أنه قال أبياتاً

(١) الحضن: جبل بأعلى نجد.
(٢) إحن: أحقاد.
(٣) الدّرن: الوسخ.
(٤) الأفن: نقص العقل.

مبهمة، وكتب بها إلى أبي جعفر وهي هذه:

أَسْرفْت في قتْل الرَّعيَّة ظالماً فاكْفُفْ يديْك أضلَّها مَهْدِيُّها
فلتأْتينَّك رايةٌ حَسَنِيَّةٌ جَرّارةٌ يَقتادُها حَسَنيُّها

فالتفت أبو جعفر، فقال لحازم بن خزيمة: تهيأ بهيئة السفر متنكراً، حتى إذا لم يبق إلا أن تضع رجلك في الغرز[1] ائتني، ففعل، فقال: إذا أتيت المدينة فادخل مسجد النبي ﷺ، فدع سارية؛ وثانية فإنك تنظر عند الثالثة إلى شيخ آدم يكثر التلفت، طويلٍ كبير، فاجلس معه فتوجعْ لآل أبي طالب، واذكر شدّة الزمان عليهم، ثلاثة أيام؛ ثم قل في الرابع: من يقول هذه الأبيات؟

أَسْرفْت في قتْلِ الرَّعيَّة ظالمًا

قال: ففعل، فقال له الشيخ: إن شئت نبأتك من أنت؟ أنت حازم بن خزيمة، بعثك إليَّ أمير المؤمنين لتعرف من قال هذا الشعر؛ فقل له: جُعِلْت فداك. والله ما قلتُه ولا قاله إلا سديف بن ميمون، فإني أنا القائل وقد دعَوني إلى الخروج مع محمد بن عبد الله:

دعَوْني وقد سالت لإبليس رايةٌ وأُوقِد للغاوينَ نارُ الحُباحِبِ[2]
أبالَّليْث تعترُّون يَحمي عرينَه وتلْقُون جهلاً أُسْدَهُ بالثعالب
فلا نَفعَتني السِّنُّ إن لم يَؤزَّكم ولا أحكمتْني صادِقات التجارِبِ[3]

قال: وإذا الشيخ إبراهيم بن هرمة. قال: فقدمت على المنصور فأخبرته الخبر، فكتب إلى عبد الصمد بن علي، وكان سديف في حبسه، فأخذه فدفنه حياً.

---

(١) الغرز: ركاب الرحل من جلد مخروز يعتمد عليه في الركوب.

(٢) الحباحب: ما اقتدح من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة.

(٣) الأزّ: الحركة الشديدة.

ابن عبد الحميد وابن أبي حفصة:

قال الرياشي: سمعت محمد بن عبد الحميد يقول: قلت لابن أبي حفصة: ما أغراك ببني علي؟ قال: ما أحدٌ أحبَّ إليَّ منهم، ولكني لم أجد شيئاً أنفع عند القوم منه.

هشام وزيد بن علي:

لما دخل زيد بن علي بن أبي طالب على هشام، قال: بلغني أنك تحدِّث نفسك بالخلافة، ولا تصلح لها لأنك ابن أَمة! قال: أما قولك: إني أحدِّث نفسي بالخلافة، فلا يعلم الغيب إلا الله. وأما قولك: إني ابن أمة، فهذا إسماعيل بن أمَة، أخرج الله من صلبه محمداً ﷺ؛ وإسحاق ابن حُرّة، أخرج الله من صلبه القِردة والخنازير وعبَدَ الطاغوت! وخرج من عنده فقال: ما أَحبَّ أحدٌ الحياة إلا ذَلَّ. فقال له الحاجب: لا يسمع هذا الكلام منك أحد.

وقال زيد بن علي عند خروجه من عند هشام بن عبد الملك:

شَـرَّده الخوْفُ وأزْرَى بـه ... كذاك مَن يَكرهُ حَـرّ الجِلادْ[1]
مُحْتفِي الرِّجلَين يشكو الوَجا ... تقْرَعُه أطرافُ مَرْوٍ حِـدَادْ[2]
قد كـان في الموْت لـه راحـة ... والموْت حتمٌ في رقـاب العبـادْ

ثم خرج بخراسان فقتل وصلب.

وفيه يقول سديف لأبي العباس يُغريه ببني أُمية حيث يقول:

واذكروا مَصْرع الحسيْنِ وزيـداً ... وقتيلاً بجانـب المهْـراس[3]

يريد إبراهيم الإمام، أخا أبي العباس.

---

(١) الجلاد: الطّعان.

(٢) المرو: حجارة بيض رقاق براقة تقدح منها النار.

(٣) المهراس: ماء بجبل أحد.

باب من فضائل علي بن أبي طالب

رضي الله عنه

ابن هشام وشيخ في علي ابن أبي طالب:

عوانة بن الحكم قال: حج محمد بن هشام، ونزلت رفقه، فإذا فيها شيخ كبير قد احتوشه[1] الناس وهو يأمر وينهى؛ فقال محمد بن هشام لمن حوله: تجدون الشيخ عراقيا فاسقا! فقال له بعض أصحابه: نعم، وكوفيا منافقا! فقال محمد، عليّ به. فأُتي بالشيخ، فقال له: أعِراقِيٌّ أنت؟ قال له: نعم عراقي. قال: وكوفيٌّ؟ قال: وكوفي. قال: وترابيٌّ؟ قال: وترابي، من التراب خُلقت، وإليه أصير. قال: أنت ممن يهوى أبا تراب؟ قال: ومن أبو تراب؟ قال: عليُّ بن أبي طالب. قال: أتعني ابن عمِّ رسول الله ﷺ، وزوج فاطمة ابنتِه، وأبا الحسن والحسين؟ قال: نعم، فما قولك فيه؟ قال: قد رأيت من يقول خيراً ويحمد، ورأيت من يقول شراً ويذم. قال: فأيها أفضل عندك: أهو أم عثمان؟ قال: وما أنا وذاك؟ والله لو أن علياً جاء بوزن الجبال حسناتٍ ما نفعني، ولو جاء بوزنها سيئات ما ضرَّني؛ وعثمان مثل ذلك. قال: فاشتم أبا تراب! قال: أو ما ترضى مني بما رضي به من هو خير منك ممن هو خيرٌ مني فيمن هو شر من عليّ؟ قال: وما ذاك؟ قال: رضيّ الله وهو خير منك، من عيسى وهو خير مني، في النصارى وهم شر من عليّ، إذ قال: ﴿إنْ تُعذِّبْهم فإنهم عبادُك وإنْ تغْفِر لهم فإنك أنت العزيزُ الحكيم﴾[2].

حمزة وابن له في علي:

الرياشي قال: انتقص ابنٌ لحمزة بن عبد الله بن الزبير علياً، فقال له أبوه: يا بني، إنه والله ما بنت الدنيا شيئاً إلا هدمه الدِّين، وما بنى الدين شيئاً فهدمته الدنيا؛ أما ترى علياً وما يُظهر بعض الناس من بُغضه ولعْنه على المنابر فكأنما والله يأخذون

(١) احتوشه الناس: جعلوه وسطهم.

(٢) سورة المائدة الآية ١١٨.

بناصيته رفعاً إلى السماء، وما ترى بني مروان وما يندبون به موتاهم من المدح بين الناس؛ فكأنما يكشفون عن الجيف!

الوليد وشعر الفضل في علي:

قدم الوليد مكة فجعل يطوف بالبيت والفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب يستقي من زمزم وهو يقول:

يــأيها الســائــل عـــن عليّ   تسأل عـن بـدرٍ لنا بـدريّ
مُـــرَدَّدٍ في المجـدِ أبطحِـــيّ   سـائلةٍ غُـرّتُـه مُضِـيّ[1]

فلم ينكر عليه أحد.

لمسلمة في جعفر:

العتبي قال: قيل يوماً لمسلمة بن هلال العبدي: خطب جعفر بن سليمان الهاشمي خطبة لم يُسمع مثلها قط، وما درينا أوجهُه كان أحسن أم كلامه! قال: أولئك قومٌ بنور الخلافة يَشرقون[2]، وبلسان النبوّة ينطقون.

وكتب عوام صاحب أبي نواس إلى بعض عُمال ديار ربيعة:

بحقِّ النبيِّ بحق الوصيِّ   بحق الحسيْـــن بحق الحسَـــن
بحق التي ظلِمـــت حقَّهـــا   ووالدهـا خيْـرُ ميْـتٍ دُفْـن
تَـرفَّـقْ بـأَرْزاقِنـا في الخرا   جِ بتَـرفيههـا وبحطِّ المؤنْ

قال: فأسقط عنه الخراج طول ولايته.

احتجاج المأمون على الفقهاء في فضل عليّ

إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل عن حماد بن زيد قال: بعث إليّ يحيى بن أكثم وإلى

---

(١) أبطحيّ: أي من قريش البطاح الذين ينزلون أباطح مكة. (٢) يشرقون: يستدفئون.

عدّة من أصحابي، وهو يومئذ قاضي القضاة، فقال: إن أمير المؤمنين أمرني أن أحضر معي غداً مع الفجر أربعين رجلاً كلهم فقيهٌ يَفْقه[1] ما يقال له ويُحسن الجواب؛ فسمُّوا من تظنُّونه يصلح لما يطلب أمير المؤمنين. فسمَّينا له عدة، وذكر هو عدة، حتى تم العدد الذي أراد، وكتب تسمية القوم، وأمر بالبكور[2] في السحر، وبعث إلى من لم يحضر، فأمره بذلك؛ فغدونا عليه قبل طلوع الفجر، فوجدناه قد لبس ثيابه وهو جالس ينتظرنا، فركب وركبنا معه حتى صرنا إلى الباب، فإذا بخادم واقف؛ فلما نظر إلينا قال: يا أبا محمد، أميرُ المؤمنين ينتظرك. فأدخلنا، فأمرنا بالصلاة فأخذنا فيها، فلم نستتم حتى خرج الرسول فقال: ادخلوا. فدخلنا فإذا أميرُ المؤمنين جالس على فراشه، وعليه سواده وطيلسانه[3] والطويلة وعمامته، فوقفنا وسلَّمنا، فردّ السلام وأمر لنا بالجلوس، فلما استقرّ بنا المجلس انحدر عن فراشه ونزع عمامته وطيلسانه ووضع قلنسوته[4]، ثم أقبل علينا فقال: إنما فعلت ما رأيتم لتفعلوا مثل ذلك، وأما الخفُّ فمَنَعَ من خلعه علة، من قد عرفها منكم فقد عرفها، ومن لم يعرفها فسأُعرِّفه بها. ومدّ رجله وقال: انزعوا قلانسكم وخِفافكم وطيالستَكم. قال: فأمسكنا، فقال لنا يحيى: انتهوا إلى ما أمركم به أمير المؤمنين. فتنحينا فنزعْنا أخفافنا وطيالستنا وقلانسنا ورجعنا؛ فلما استقر بنا المجلس قال: إنما بعثتُ إليكم معشرَ القوم في المناظرة، فمن كان به شيء من الأخبثين[5] لم ينتفع بنفسه ولم يفقه ما يقول؛ فمن أراد منكم الخلاء فهناك. وأشار بيده، فدعونا له. ثم ألقى مسألة من الفقه، فقال: يا محمد، قل، وليقل القومُ من بعدك. فأجابه يحيى، ثم الذي يلي يحيى، ثم الذي يليه، حتى أجاب آخرنا، في العلة

(١) يفقه: يفهم.

(٢) البكور: الإسراع.

(٣) الطيلسان: ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف، أو يحيط بالبدن، خال عن التفصيل والخياطة. أو هو ما يعرف بالعامية المصرية بالشال.

(٤) القلنسوة: لباس للرأس، مختلف الأنواع والأشكال.

(٥) الأخبثين: البول والغائط.

وعلة العلة؛ وهو مُطرِق لا يتكلم، حتى إذا انقطع الكلام التفت إلى يحيى فقال: يا أبا محمد، أصبت الجواب وتركت الصواب في العلة. ثم لم يزل يردُّ على كل واحد منا مقالته، ويخطِّئُ بعضنا ويُصوِّب بعضنا؛ حتى أتى على آخرنا، ثم قال: إني لم أبعث فيكم لهذا، ولكنني أحببت أن أُنبئكم أن أمير المؤمنين أراد مناظرتكم في مذهبه الذي هو عليه والذي يدين الله به. قلنا: فليفعل أمير المؤمنين وفقه الله. فقال: ان أمير المؤمنين يدين الله على أنّ عليّ بن أبي طالب خيرُ خلق الله بعد رسوله ﷺ وأولى الناس بالخلافة له. قال إسحاق: فقلت يا أمير المؤمنين، إن فينا من لا يعرف ما ذكر أميرُ المؤمنين في عليّ، وقد دعانا أمير المؤمنين للمناظرة. فقال يا إسحاق، اختر، إن شئتَ سألتُك أسألك، وإن شئت أن تسألَ فقلْ. قال إسحاق: فاغتنمتُها منه، فقلت: بل أسألك يا أميرَ المؤمنين. قال: سل. قلت: من أين قال أمير المؤمنين إن علي بن أبي طالب أفضلُ الناس بعد رسول الله وأحقهم بالخلافة بعده؟ قال: يا إسحاق، خبِّرني عن الناس: بم يتفاضلون حتى يقال فلانٌ أفضل من فلان؟ قلت: بالأعمال الصالحة: قال: صدقت، قال: فأخبرني عمن فضَلَ صاحبَه على عهد رسول الله ﷺ، ثم إن المفضول عمِل بعد وفاة رسول الله بأفضل من عمل الفاضل على عهد رسول الله - أيُلْحق به؟ قال: فأطرقت، فقال لي: يا إسحاق، لا تقل نعم؛ فإنك إن قلت نعم أوجدتُك في دهرنا هذا من هو أكثر منه جهاداً وحجاً وصياماً وصلاة وصدقة. فقلت أجل يا أمير المؤمنين، لا يلحق المفضولُ على عهد رسول الله ﷺ الفاضلَ أبداً. قال: يا إسحاق، فانظر ما رواه لك أصحابُك ومن أخذت عنهم دينك وجعلتهم قُدْوتك من فضائل عليَّ بن أبي طالب؛ فقِس عليها ما أتوك به من فضائل أبي بكر، فإن رأيت فضائل أبي بكر تشاكل فضائل علي، فقل إنه أفضل منه؛ لا والله، ولكن فقِس إلى فضائله ما رُوي لك من فضائل أبي بكر وعمر، فإن وجدت لهما من الفضائل ما لعلي وحده، فقل إنهما أفضل منه؛ ولا والله، ولكن قِس إلى فضائله فضائلَ أبي بكر وعمر وعثمان، فإن وجدتها مثل فضائل عليّ، فقل إنهم أفضل منه؛ لا والله، ولكن قس بفضائل العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ

بالجنة، فإن وجدتها تشاكل فضائله فقل إنهم أفضل منه.

قال: يا إسحاق، أيّ الأعمال كانت أفضل يوم بعث الله رسوله؟ قلت: الإخلاص بالشهادة. قال: أليس السبقُ إلى الإسلام؟ قلت: نعم. قال: اقرأ ذلك في كتاب الله تعالى يقول: ﴿والسَّابقونَ السَّابِقون أُولئكَ المُقَرَّبون﴾ (١)، إنما عَنى من سبق إلى الإسلام، فهل علمتَ أحداً سبق علياً إلى الإسلام؟ قلت: يا أمير المؤمنين، إن علياً أسلم وهو حديث السن لا يجوز عليه الحكم، وأبو بكر أسلم وهو مستكمل يجوز عليه الحكم. قال: أخبرني أيهما أسلم قبلُ، ثم أناظرك من بعده في الحداثة والكمال. قلت: عليٌّ أسلم قبل أبي بكر على هذه الشريطة. فقال: نعم، فأخبرني عن إسلام عليّ حين أسلم: لا يخلو من أن يكون رسول الله ﷺ دعاه إلى الإسلام، أو يكون إلهاماً من الله؟ قال: فأطرقتُ؛ فقال لي: يا إسحاق؛ لا تقل إلهاماً فتقدِّمَه على رسول الله ﷺ؛ لأنّ رسول الله لم يعرف الإسلام حتى أتاه جبريل عن الله تعالى. قلت: أجل، بل دعاه رسول الله إلى الإسلام. قال: يا إسحاق فهل يخلو رسول الله ﷺ حين دعاه إلى الإسلام من أن يكون دعاه بأمر الله أو تكلّف ذلك من نفسه؟ قال: فأطرقت؛ فقال: يا إسحاق، لا تنسب رسول الله إلى التكلف؛ فإن الله يقول: ﴿وما أَنا مِنَ المُتَكَلِّفين﴾ (٢). قلت: أجل يا أمير المؤمنين، بل دعاه بأمر الله. قال: فهل من صفة الجبار جل ثناؤه أن يكلِّف رُسلَه دعاءَ من لا يجوز عليه حكمٌ؟ قلت: أعوذ بالله! فقال: أفتراه في قياس قولك يا إسحاق: «إن علياً أسلم صبيّاً لا يجوز عليه الحُكُم» قد كلف رسول الله ﷺ من دعاء الصبيان ما لا يطيقون، فهو يدعوهم الساعة ويرتدُّون بعد ساعة، فلا يجب عليهم في ارتدادهم شيء ولا يجوز عليهم حكم الرسول عليه السلام، أترى هذا جائزاً عندك أن تنسبه إلى الله عزّ وجلّ؟ قلت: أعوذ بالله! قال: يا إسحاق، فأراك إنما قصدتَ لفضيلة فضّل بها رسول الله ﷺ علياً على هذا الخلق، أبانه بها منهم ليُعرفَ مكانُه وفضلُه، ولو كان

---

(١) سورة الواقعة الآية ١٠.

(٢) سورة ص الآية ٨٦.

الله تبارك وتعالى أمره بدعاء الصبيان لدعاهم كما دعا علياً؟ قلت: بلى. قال: فهل بلغك أن الرسول ﷺ دعا أحداً من الصبيان من أهله وقرابته ـ لئلا تقول إن علياً ابن عمه ـ؟ قلت: لا أعلم ولا أدري فعلَ أو لم يفعل. قال: يا إسحاق، أرأيت ما لم تدره ولم تعلمه هل تُسأل عنه؟ قلت: لا. قال: فدع ما قد وضعه الله عنا وعنك.

قال: ثم أيّ الأعمال كانت أفضلَ بعد السبق إلى الإسلام؟ قلت: الجهاد في سبيل الله. قال: صدقت، فهل تجد لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ ما تجد لعلي في الجهاد؟ قلت: في أي وقت؟ قال: في أي الأوقات شئت! قلت: بدر؟ قال: لا أريد غيرها، فهل تجد لأحد إلا دون ما تجد لعليّ يوم بدر؟ أخبرني: كم قَتْلى بدر؟ قلت: نيف وستون رجلاً من المشركين. قال: فكم قَتل عليّ وحده؟ قلت: لا أدري. قال: ثلاثة وعشرين، أو اثنين وعشرين؛ والأربعون لسائر الناس. قلت: يا أمير المؤمنين كان أبو بكر مع رسول الله ﷺ في عريشه[1]. قال: يصنع ماذا؟ قلت: يدبِّر، قال: ويحك! يدبِّر دون رسول الله أو معه شريكاً، أو افتقاراً من رسول الله ﷺ إلى رأيه؟ أي الثلاث أحب إليك؟ قلت: أعوذ بالله أن يدبر أبو بكر دون رسول الله ﷺ أو يكون معه شريكاً، أو أن يكون برسول الله ﷺ افتقارٌ إلى رأيه. قال: فما الفضيلة بالعريش إذا كان الأمر كذلك؟ أليس من ضَرب بسيفه بين يدي رسول الله أفضلَ ممن هو جالس؟ قلت: يا أمير المؤمنين، كلٌّ الجيش كان مجاهداً. قال: صدقت، كلٌّ مجاهد؛ ولكن الضارب بالسيف المحامي عن رسول الله ﷺ وعن الجالس، أفضلُ من الجالس؛ أما قرأتَ كتاب الله: ﴿لا يسْتَوي القاعِدونَ مِنَ المُؤمنين غيرُ أُولِي الضَّرَرِ والمُجاهِدون في سبيلِ آللهِ بأموالِهم وأَنفُسِهم فضَّلَ اللهُ المُجاهدينَ بأموالِهم وأنفُسِهم على القاعدينَ درجَةً وكُلاًّ وعَدَ آللهُ الحُسنَى، وفضَّلَ اللهُ المجاهدينَ على القاعِدين أجراً عظيماً﴾[2]. قلت: وكان أبو بكر وعمر مجاهدَين قال: فهل كان لأبي بكر وعمر فضلٌ على مَن لم يشهد ذلك المشهد؟ قلت: نعم. قال:

---

(١) العريش: ما يستظل به. والسقف.

(٢) سورة النساء الآية ٩٥.

فكذلك! سَبَقَ الباذِلُ نفسهُ فضْلَ أبي بكر وعمر، قلت: أجل.

قال: يا إسحاق، هل تقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: اقرأ عليَّ ﴿هل أتى على الإنسانِ حينٌ مِنَ الدَّهرِ لم يكُن شيئاً مَذْكوراً﴾ [1] فقرأت منها حتى بلغت: ﴿يشرَبون من كأسٍ كان مِزاجُها كافوراً﴾ [2] إلى قوله: ﴿ويُطْعِمون الطَّعام على حُبِّه مِسكيناً ويتيماً وأَسيراً﴾ [3] قال: على رِسْلِك؛ فِيمن أُنزلت هذه الآيات؟ قلت: في عليّ. قال: فهل بلغك أن علياً حين أطعَم المسكين واليتيم والأسير. قال إنما نطعمكم لوجه الله؟ وهل سمعت الله وصف في كتابه أحداً بمثل ما وَصف به علياً؟ قلت: لا. قال: صدقت! لأن الله جل ثناؤه عرف سيرته. يا إسحاق، ألست تشهد أن العشرة في الجنة؟ قلتُ: بلى يا أمير المؤمنين. قال: أرأيت لو أنّ رجلاً قال: والله ما أدري هذا الحديث صحيح أم لا، ولا أدري إن كان رسول الله قاله أم لم يقله: أكان عندك كافراً؟ قلت: أعوذ بالله! قال: أرأيت لو أنه قال: ما أدري هذه السورة من كتاب الله أم لا، كان كافراً؟ قلت: نعم. قال: يا إسحاق، أرى بينهما فرقاً. يا إسحاق، أتروي الحديث؟ قلت: نعم. قال: فهل تعرف حديث الطير؟ قلت: نعم. قال: فحدّثني به. قال: فحدّثته الحديث، فقال: يا إسحاق، إني كنت أكلمك وأنا أظنك غيرَ معاند للحق، فأمّا الآن فقد بان لي عنادُك؛ إنك تُوقِن أن هذا الحديث صحيح. قلت: نعم؛ رواه من لا يمكنني ردّه. قال: أفرأيت من أيقن أن هذا الحديث صحيح، ثم زعم أن أحداً أفضلُ من عليّ ـ لا يخلو من إحدى ثلاثة: من أن تكون دعوةُ رسول الله ﷺ عنده مردودة عليه، أو أن يقول عرف الفاضل من خلقه وكان المفضولُ أحب إليه، أو أن يقول إن الله عز وجل لم يعرف الفاضلَ من المفضول؛ فأي الثلاثة أحب إليك أن تقول؟ فأطرقت... ثم قال: يا إسحق، لا تقل منها شيئاً؛ فإنك إن قلت منها شيئاً استتبْتُك [4]؛ وإن كان للحديث عندك

(١) سورة الانسان الآية ١.
(٢) سورة الانسان الآية ٥.
(٣) سورة الإنسان الآية ٨.
(٤) استتبتك: أنبتك، أقمتك مقامي.

تأويل غير هذه الثلاثة الأوجه فقُله. قلت: لا أعلم، وإن لأبي بكر فضلاً. قال: أجل، لولا أن له فضلاً لما قيل إن علياً أفضل منه؛ فما فضلُه الذي قصدتَ له الساعة؟ قلت: قول الله عز وجل: ﴿ثانيَ آثنين إذ هما في الغارِ إذ يقول لصاحبه لا تحزَنْ إنّ اللهَ معَنا﴾ (١)، فنسبه إلى صحبته. قال: يا إسحاق، أما إني لا أحملك على الوعْر من طريقك؛ إني وجدت الله تعالى نسب إلى صحبة مَن رضيَه ورضي عنه كافراً، وهو قوله: ﴿فقال له صاحبُه وهو يُحاورُه أكفرتَ بالذي خلقك من ترابٍ ثم من نُطْفةٍ ثم سَوّاك رجلاً، لٰكِنّا هو اللهُ ربي ولا أشرِكُ بربي أحداً﴾ (٢). قلت: إن ذلك صاحبٌ كان كافراً، وأبو بكر مؤمن. قال: فإذا جاز أن يَنسب إلى صحبةِ مَن رضيه كافراً، جاز أن يَنسب إلى صحبة نبيه مؤمناً، وليس بأفضل المؤمنين ولا الثانيَ ولا الثالث. قلت: يا أمير المؤمنين، إن قدْر الآية عظيم، إن الله يقول: ﴿ثانيَ آثنين إذ هما في الغار إذ يقولُ لصاحبه لا تحزَنْ إنَّ الله معَنا﴾ (٣)! قال: يا إسحاق، تأبى الآن إلا أن أخرج إلى الاستقصاء عليك! أخبرني عن حزن أبي بكر: أكان رضاً أم سخطاً؟ قلت: إن أبا بكر إنما حزن من أجل رسول الله ﷺ خوفاً عليه وغماً، أن يصل إلى رسول الله شيءٌ من المكروه. قال: ليس هذا جوابي، إنما كان جوابي أن تقول: رضاً، أم سخط. قلت: بل كان رضاً لله. قال: فكأن الله جل ذكرُه بعث إلينا رسولاً ينهى عن رضا الله عز وجل وعن طاعته! قلت: أعوذ بالله! قال: أو ليس قد زعمتَ أن حزن أبي بكر رضاً لله؟ قلت: بلى. قال: أو لم تجد أن القرآن يشهد أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحزن»، نهياً له عن الحزن؟ قلت: أعوذ بالله! قال: يا إسحاق، إن مذهبي الرفقُ بك، لعل الله يردّك إلى الحق ويعدل بك عن الباطل، لكثرة ما تستعيذ به. وحدِّثني عن قول الله: ﴿فأنزَل اللهُ سَكِينَتَه عليه﴾ (٤)، من عَنى بذلك؛ رسولَ الله أم أبا بكر؟ قلت: بل رسولَ الله. قال: صدقت!

---

(١) سورة التوبة الآية ٤٠.

(٢) سورة الكهف الآية ٣٧.

(٣) سورة التوبة الآية ٤٠.

(٤) المصدر نفسه.

قال: حدثني عن قول الله عز وجل: ﴿ويوم حُنينٍ إذ أعجبتْكم كثرتُكم﴾ [١] إلى قوله: ﴿ثم أنزلَ الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ [٢]. أتعلم مَن المؤمنون الذين أراد الله في هذا الموضوع؟ قلت: لا أدري يا أمير المؤمنين؛ قال: الناس جميعاً انهزموا يوم حنين، فلم يبق مع رسول الله ﷺ إلا سبعةُ نفر من بني هاشم: علي يضرب بسيفه بين يدي رسول الله، والعباس آخذٌ بلجام بغلة رسول الله، والخمسة محدقون به خوفاً من أن يناله من جِراح القوم شيء، حتى أعطى اللهُ لرسوله الظَّفَر؛ فالمؤمنون في هذا الموضع عليٌّ خاصة، ثم مَن حضره من بني هاشم، قال: فمن أفضلُ: من كان مع رسول الله ﷺ في ذلك الوقت، أم من انهزم عنه ولم يَره الله موضعاً ليُنزلها عليه؟ قلت: بل من أُنزلت عليه السكينة.

قال: يا إسحاق، من أفضل: من كان معه في الغار، أم من نام على فراشه ووقاه بنفسه، حتى تَمَّ لرسول الله ﷺ ما أراد من الهجرة؟ إن الله تبارك وتعالى أمر رسوله أن يأمر علياً بالنوم على فراشه، وأن يَقيَ [٣] رسولَ الله ﷺ بنفسه؛ فأمره رسولُ الله ﷺ بذلك، فبكى عليٌّ رضي الله عنه؛ فقال له رسول الله ﷺ: ما يُبكيك يا عليُّ، أجزعاً من الموت؟ قال: لا، والذي بعثك بالحق يا رسول الله، ولكن خوفاً عليك؛ أفتَسلَم يا رسول الله؟ قال: نعم. قال: سمعاً وطاعة وطيبة نفسي بالفْداء لك يا رسول الله. ثم أتى مضجعه واضطجع، وتسجَّى [٤] بثوبه، وجاء المشركون من قريش فحفَّوا [٥] به، لا يشكُّون أنه رسول الله ﷺ، وقد أجمعوا أن يضربه من كل بطن من بطون قريش رجلٌ ضربةً بالسيف، لئلا يطلب الهاشميون من البطون بطناً بدَمِه؛ وعليٌّ يسمع ما القومُ فيه من إتلاف نفسه، ولم يدْعُه ذلك إلى الجزع كما جزع صاحبُه في الغار؛ ولم يزل عليٌّ صابراً محتسباً؛ فبعث الله ملائكته

(١) سورة التوبة الآية ٢٥.

(٢) سورة التوبة الآية ٤٠.

(٣) يقي: يحمي.

(٤) تسجىّ: تغطى.

(٥) حفّوا به: استداروا حوله وأحدقوا به.

فمنعتْه من مشركي قريش حتى أصبح، فلما أصبح قام فنظر القوم إليه فقالوا: أين محمد؟ قال: وما عِلمي بمحمد أين هو؟ قالوا: فلا نراك إلا مغرِّراً بنفسك منذ ليلتنا، فلم يزل على أفضلِ ما بدأ به يزيد، ولا ينقص، حتى قبضه الله إليه.

يا إسحاق، هل تروي حديث الولاية؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: آروه، ففعلت قال: يا إسحاق، أرأيت هذا الحديث هل أوجب على أبي بكر وعمر ما لم يُوجب لهما عليه؟ قلت: إن الناس ذكروا أن الحديث إنما كان بسبب زيد بن حارثة لشيء جرى بينه وبين علي، وأنكر ولاءَ علي، فقال رسول الله ﷺ: «من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه؛ اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه». قال: في أي موضع قال هذا، أليس بعد مُنصَرفه من حجة الوداع؟ قلت: أجل. قال: فإنَّ قتل زيد بن حارثة قبل الغدير؛ كيف رضيت لنفسك بهذا؟ أخبرني: لو رأيت آبناً لك قد أتت عليه خمس عشرة سنة يقول: مولاي مولى ابن عمي، أيها الناس فاعلموا ذلك؛ أكنت منكراً ذلك عليه: تعريفَه الناس ما لا ينكرون ولا يجهلون؟ فقلت: اللهم نعم، قال: يا إسحاق، أفتنزِّه ابنَك عما لا تنزه عنه رسول الله ﷺ؟ ويحكم! لا تجعلوا فقهاءكم أربابكم[1]؛ إن الله جل ذكره قال في كتابه: ﴿اتَّخَذوا أحْبارَهم ورُهْبانَهم أَرْباباً من دُونِ اللهِ﴾[2]. ولم يصلُّوا لهم ولا صاموا ولا زعموا أنهم أرباب، ولكن أمَروهم فأطاعوا أمْرهم؛ يا إسحاق، أتروي حديث: «أنت مني بمنزلة هارونَ من موسى»؟ قلت: نعم يا أميرَ المؤمنين، قد سمعتُه وسمعتُ من صَحَّحه وجَحَده. قال: فمن أوثقُ عندك: من سمعتَ منه فصحَّحه، أو مَن جحَده؟ قلت: من صحَّحه. قال: فهل يمكن أن يكون الرسول ﷺ مزح بهذا القول؟ قلت: أعوذ بالله! قال: فقال قولاً لا معنى له فلا يوقف عليه؟ قلت: أعوذ بالله! قال: أفما تعلم أن هارونَ كان أخا موسى لأبيه وأمّه؟ قلت: بلى. قال: فعليٌّ أخو رسولِ الله لأبيه وأمّه؟ قلت: لا. قال: أو ليس هارون كان نبيّاً وعليٌّ غيرُ نبيّ؟ قلت: بلى.

---

(١) الأرباب: جمع ربّ وهو الاله أو الصاحب.

(٢) سورة التوبة الآية ٣١.

قال: فهذان الحالان معدومان في عليّ وقد كانا في هارون؛ فما معنى قوله: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»؟ قلت له: إنما أراد أن يُطيّب بذلك نفسَ عليّ لمّا قال المنافقون إنه خلّفه استثقالاً له. قال: فأراد أن يطيّب نفسه بقول لا معنى له؟ قال: فأطرقت، قال: يا إسحاق، له معنى في كتاب الله بيّن. قلت: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: قوله عز وجل حكايةً عن موسى أنه قال لأخيه هارون: ﴿آخلُفْني في قوْمي وأصْلحْ ولا تتّبعْ سبيلَ المُفْسِدينَ﴾ [1]. قلت: يا أمير المؤمنين، إن موسى خلّف هارونَ في قومه وهو حيٌّ، ومضى إلى ربه، وإن رسول الله ﷺ خلّف علياً كذلك حين خرج إلى غزاته. قال: كلا، ليس كما قلت؛ أخبرني عن موسى حين خلف هارون: هل كان معه حين ذهب إلى ربه أحدٌ من أصحابه أو أحدٌ من بني إسرائيل؟ قلت: لا. قال: أو ليس استخلفه على جماعتهم؟ قلت: نعم. قال: فأخبرني عن رسول الله ﷺ حين خرج إلى غزاته: هل خلف إلا الضعفاءَ والنساء والصبيان؛ فأنّي يكون مثلُ ذلك؟ وله عندي تأويل آخر من كتاب الله يدل على استخلافه إياه، لا يقدر أحد أن يحتج فيه، ولا أعلم أحداً احتج به وأرجو أن يكون توفيقاً من الله. قلت: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: قوله عز وجل حين حكى عن موسى قوله: ﴿واَجعَلْ لِي وزيراً منْ أهْلي هرُونَ أخي آشْدُدْ بهِ أزْري وأشْرِكْهُ في أمْرِي كيْ نُسبِّحَكَ كثِيراً ونَذْكُرَكَ كثيراً إنّكَ كُنتَ بنا بَصِيراً﴾ [2] «فأنت مني يا عليٌّ بمنزلة هارون من موسى: وزيري من أهلي، وأخي، شدّ الله به أزري، وأشْرَكه في أمري، كي نسبح الله كثيراً، ونذكرَه كثيراً» فهل يقدر أحدٌ أن يُدخل في هذا شيئاً غير هذا ولم يكن ليبطل قولَ النبي ﷺ وأن يكون لا معنى له؟

قال: فطال المجلس وارتفع النهار؛ فقال يحيى بن أكثم القاضي: يا أمير المؤمنين، قد أوضحتَ الحق لمن أراد الله به الخير، وأثبت ما يقدر أحد أن يدفعه. قال إسحق: فأقبل علينا وقال: ما تقولون؟ فقلنا: كلنا نقول بقول أمير المؤمنين أعزه

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٤٢.

(٢) سورة طه الآية ٣٥.

الله، فقال: والله لولا أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال اقبلوا القولَ من الناس، ما كنتُ لأقبلَ منكـم القول؛ اللهم قد نصحت لهم القول، اللهم إني قد أخرجت الأمر من عنقي، اللهم إني أدينك بالتقرب إليك بحب عليٍّ وولايته!

المساحقي والدعوة إلى المأمون:

وكتب المأمون إلى عبد الجبار بن سعد المساحقي عامله على المدينة، أن آخطب الناس وآدعهم إلى بيعة الرضا عليّ بن موسى، فقام خطيباً فقال:

يا أيها الناس هذا الأمر الذي كنتم فيه ترغبون، والعدلُ الذي كنتم تنتظرون، والخيرُ الذي كنتم ترجون؛ هذا عليٌّ بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب، ستةآباءٍ هم ما هم، من خيرِ مَن يَشرب صَوب [1] الغمام.

المأمون والرضى:

وقال المأمون لعلي بن موسى: علام تدّعون هذا الأمر؟ قال: بقرابة علي وفاطمة من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. فقال له المأمون: إن لم تكن إلا القرابة فقد خلف رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من أهل بيته من هو أقرب إليه من عليّ، أو من هو في قُعدده [2]، وإن ذهبت إلى قرابة فاطمة من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإن الأمر بعدها للحسن والحسين، فقد ابتزّهما عليٌّ حقهما وهما حيّان صحيحان، فاستولى على ما لاحق له فيه.

فلم يجد عليٌّ بن موسى له جواباً.

---

(١) الصوب: المطر تبدر ما ينفع ولا يؤذي.

(٢) في قعدده: أي في قرب آبائه من الجد الأكبر.

باب من أخبار الدولة العباسية

علي ومعاوية في مولود لابن عباس:

روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه افتقد عبد الله بن عباس وقت صلاة الظهر، فقال لأصحابه: ما بالُ أبي العباس لم يحضر؟ قالوا: وُلِد له مولود فلما صلى عليٌّ الظهر قال: انقلبوا بنا إليه. فأتاه فهنّأه فقال له: شكرت الواهب وبُورك لك في الموهوب؛ فما سمَّيْتَه؟ قال: لا يجوز لي أن أُسميه حتى تسمِّيهِ أنت. فأمر به فأُخرج إليه، فأخذه فحنَّكه[1] ودعا له ورده، وقال: خذه إليك أبا الأملاك، وقد سميتُه علياً وكنيْتُه أبا الحسن. قال: فلما قدم معاوية قال لابن عباس: لك آسمُه وقد كنّيتُه أبا محمد. فجرت عليه.

من أخبار علي ابن عبد الله ابن عباس:

وكان عليٌّ سيداً شريفاً عابداً زاهداً، وكان يصلي في كل يوم ألف ركعة، وضُرِب مرتين، كلتاهما ضربه الوليد، فإحداهما في تَزوُّجِهِ لبابة بنت عبد الله بن جعفر؛ وكانت عند عبد الملك بن مروان، فعض تفاحة ورمى بها إليها، وكان أبخر[2]؛ فدعت بسكين، فقال: ما تصنعين به؟ قالت: أُميط[3] عنها الأذى! فطلقها، فتزوجها عليٌّ بن عبد الله بن عباس، فضربه الوليد وقال: إنما تتزوج أمهاتِ أولاد الخلفاء لتضع منهم - لأن مروان بن الحكم إنما تزوج أم خالد بن يزيد ليضع منه - فقال علي بن عبد الله بن عباس: إنما أرادت الخروج من هذه البلدة، وأنا ابن عمها، فتزوجتُها لأن أكون لها محْرَماً.

وأما ضربُه إياه في المرة الثانية، فإن محمد بن يزيد قال: حدثني من رآه مضروباً يُطاف به على بعير ووجهه مما يلي ذنبَ البعير، وصائح يصيح عليه: هذا علي بن عبد

---

(١) حنّك الطفل: دلك حنكه.

(٢) أبخر: الذي أنتنت ريحه.

(٣) أميط: أبعد.

الله الكذاب! قال: فأتيته فقلت: ما هذا الذي نسبوك فيه إلى الكذب؟ قال: بلغهم أني أقول: هذا الأمر سيكون في ولدي ووالله ليكونن فيهم حتى يملكهم عبيدُهم، الصغار العيون، العراض الوجوه، الذين كأن وجوههم المجانّ[1] المطرقة.

وفي حديث آخر أن علي بن عبد الله دخل على هشام بن عبد الملك ومعه ابناهُ: أبو العباس، وأبو جعفر؛ فشكا إليه دَيْناً لزِمَهُ، فقال له: كـم دينُك؟ قال: ثلاثون ألفاً. فأمر له بقضائه، فشكر له عليه، وقال له وصَلْتَ رَحِماً، وأنا أريد أن تستوصي بآبنيَّ هذين خيراً. قال: نعم. فلما تولى قال هشام لأصحابه: إن هذا الشيخ قد هتر[2] وأسنّ وخُولط[3]، فصار يقول إن هذا الأمر سيُنقل إلى ولده. فسمعه علْي بن عبد الله بن العباس، فقال: والله ليكونن ذلك، وليملكنَّ ابناي هذان ما تملكه.

زواج علي بن عبد الله:

قال محمد بن يزيد: وحدثني جعفر بن عيسى بن جعفر الهاشمي قال: حضر علي بن عبد الله مجلسَ عبد الملك بن مروان، وكان مكرماً له، وقد أُهديت له من خراسانَ جاريةٌ وفص خاتم وسيف، فقال: يا أبا محمد، إن حاضر الهدية شريك فيها، فاختر من الثلاثة واحداً. فاختار الجارية، وكانت تسمى سعدى، وهي من سبى الصغد من رهط عجيف بن عنبسة، فأولدها سليمانَ بن علي، وصالح بن علي.

وذكر جعفر بن عيسى أنه لما أولدها سليمانَ اجتنبت فراشه، فمرض سليمان من جدري خرج عليه، فانصرف عليٌّ من مُصلاَّه، فإذا بها على فراشه! فقال: مرحباً بك يا أم سليمان: فوقع عليها فأولدها صالحاً، فاجتنبت فراشه، فسألها عن ذلك، فقالت: خفت أن يموت سليمان في مرضه، فينقطع النسبُ بيني وبين رسول الله ﷺ؛ فالآن

(١) المجان: جمع مجنّ، وهو الترس.
(٢) هتر: حمق وجهل.
(٣) خولط: اضطرب عقله.

إذ ولدت صالحاً فبالحري إن ذهب أحدهما بقي الآخر، وليس مثلي وطيئةَ الرجال.

وزعم جعفر أنه كانت في سليمان رُتَّة[1]، وفي صالح مثلها، وأنها موجودة في آل سليمان وصالح.

وصية علي لابنيه سليمان وصالح:

وكان علي يقول: أكره أن أُوصى إلى محمد ولدي ـ وكان سيدَ ولدِه وكبيرَهم ـ فأشينه بالوصية. فأوصى إلى سليمان، فلما دُفنَ عليٌّ جاء محمد إلى سعدى ليلاً، فقال: أخْرِجي لي وصية أبي قالت: إن أباك أجلُّ من أن تخرَجَ وصيته ليلاً، ولكن تأتي غُدوة إن شاء الله. فلما أصبح غَدَا عليه سليمانُ بالوصية، فقال: يا أبي ويا أخي، هذه وصية أبيك. فقال: جزاك الله من ابن وأخ خيراً، ما كنت لأُثَرِّب[2] على أبي موته كما لم أُثَرِّبْ عليه في حياته.

وصاة معاوية في موته:

العتبي عن أبيه عن جده قال: لما آشتكى معاوية شَكاتَه التي هلك فيها، أرسل إلى ناس من جملة بني أمية ولم يحضرها سفيانيٌّ غيري وغير عثمان بن محمد؛ فقال: يا معشر بني أمية، إني لما خفت أن يسبقكم الموت إليّ سبقتُه بالموعظة إليكم، لا لأرُدّ قدَراً، ولكن لأُبْلغ عُذْراً، إن الذي أُخلِّف لكم من دنياي أمرٌ ستشاركون فيه وتُغْلبون عليه، والذي أُخلِّف لكم من رأي أمرٌ مقصورٌ لكم نفعُه إن فعلتموه، مَخوف عليكم ضررُه إن ضيَّعتموه؛ إن قريشا شاركتكم في أنسابكم، وانفردتم دونها بأفعالكم، فقدمكم ما تقدّمْتم له، إذ أخر غيركم ما تأخروا عنه؛ ولقد جُهِل[3] بي فحلُمت ونقر[4] لي ففهمت حتى كأني أنظر إلى أبنائكم بعدكم

(١) رتة: عجمة.

(٢) أثرب: ألوم.

(٣) جهل فلان على غيره: جفا وتسافه.

(٤) نقر فلاناً: عابه واغتابه.

كنظري إلى آبائهم قبلهم؛ إن دولتكم ستطول، وكلُّ طويلٍ مملول؛ وكلُّ مملول مخذول، فإذا كان ذلك كذلك، كان سببه اختلافكم فيما بينكم، واجتماع المخلفين عليكم، فيُدبر الأمر بضدٍّ ما أقبل له، فلست أذكر جسماً يُركب منكم ولا قبيحاً يُنتَهك فيكم، إلا والذي أُمسك عن ذكره أكثرُ وأعظمُ؛ ولا معوَّل عليه عند ذلك أفضل من الصبر واحتساب الأجر، فيُمادكم القوم دولتهم امتداد العنانين في عنق الجواد، حتى إذا بلغ الله بالأمر مداه، وجاء الوقت المبلول بريق النبي ﷺ، مع الخلقة المطبوعة على ملالة الشيء المحبوب، كانت الدولة كالإناء[1] المكْفأ فعندها أوصيكم بتقوى الله الذي لم يتقِه غيركم فيكم، فجعل العاقبة لكم، والعاقبة للمتقين.

قال عمرو بن عتبة: فدخلت عليه يوماً آخر فقال: يا عمرو، أوَعيْت كلامي؟ قلت: وعيْتُ. قال: أعد عليّ كلامي، فلقد كلمتكم وما أراني أُمسي من يومكم ذلك.

شبيب وعبد الله:

قال شبيب بن شيبة الأهتمي حَجَجْت عام هَلَك هشام وولي الوليد بن يزيد، وذلك سنة خمس وعشرين ومائة، فبينما أنا مريح ناحية من المسجد، إذ طلع من بعض أبواب المسجد فتى أسمرُ رقيق السُّمرة، مُوَفر اللِّمَّة[2]، خفيف اللِّحية، رحب الجبهة، أقنى[3] بين القَنا، أعْين كأن عينيه لسانان ينطقان، يَخلق أُبَّهة الأملاك بزِي النساك، تقبله القلوب، وتتبعه العيون، يُعْرف الشرف في تواضعه والعتق في صورته، والُّلب في مِشيته؛ فما ملكت نفسي أن نهضت في أثره سائلاً عن خبره، وسبقني فتحرّم بالطواف، فلما سبَّع قصد المقام فركع، وأنا أرعاه ببصري، ثم نهض.

(١) الإناء المكفأ: المقلوب.

(٢) اللمة: شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن.

(٣) الأقنى: الذي ارتفع وسط قصبة أنفه وضاق منخراه.

منصرفاً، فكأن عيناً أصابته، فكبا[1] كبوة دميت لها أصبعه، فقعد لها القرفصاء، فدنوْت منه متوجعاً لما ناله، متصلاً به، أمسح رجله من عفر التراب، فلا يمتنع علي، ثم شققْت حاشية ثوبه فعصبت بها أصبعَه وما يُنكر ذلك ولا يدفعه، ثم نهض متوكئاً عليّ، وآنقدت له أماشيه، حتى إذا أتى دارا بأعلى مكة ابتدره رجلان تكاد صدورهما تنفرج من هيبته، ففتحا له الباب فدخل واجتذبني فدخلت بدخوله؛ ثم خلى يدي وأقبل على القبلة، فصلى ركعتين أوجز فيهما في تمام، ثم استوى في صدر مجلسه، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ أتم صلاة وأطيبها، ثم قال: لم يَخْفَ عليّ مكانُك منذ اليوم ولا فعلك بي؛ فمن تكون يرحمك الله؟ قلت: شبيب بن شيبة التميمي، قال: الأهتمي؟ قلت: نعم. قال: فرحَّب وقرّب، ووصف قومي بأبين بيان وأفصح لسان، فقلت له: أنا أجلك ـ أصلحك الله ـ عن المسألة، وأحِبُّ المعرفة! فتبسم وقال: لطف أهل العراق! أنا عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس. فقلت: بأبي أنت وأمي، ما اشبَهك بنسبك وأدلَّك على منصبك! ولقد سبق إلى قلبي من محبتك ما لا أبْلُغه بوصفي لك! قال: فآحمد الله يا أخا بني تميم فإنّا قوم إنما يُسعِد الله بحبِّنا مَن أحبَّه؛ ويُشقي ببغضنا من أبغضَه، ولن يصل الإيمان إلى قلب أحدكـم حتى يحب آلله ويحب رسوله؛ ومهما ضعفنا عن جزائه قوي الله على أدائه. فقلت له: أنت توصف بالعلم وأنا من حَمَلتِه، وأيام الموسم ضيقة، وشغل أهل مكة كثير، وفي نفسي أشياء أحِبُّ أن أسأل عنها؛ أفتأذن لي فيها جُعلت فداك؟ قال: نحن من أكثر الناس مستوحشون، وأرجو أن تكون للسرِّ موضعاً، وللأمانة واعياً؛ فإن كنت كما رجوت فافعل. قال: فقدّمت من وثائق القول والأيمان ما سكن إليه، فتلا قول الله: ﴿قلْ أيُّ شيءٍ أكْبَر شَهادةً؟ قل اللهُ شهيدٌ بيْني وبيْنَكُـمْ﴾[2].

ثم قال: سل عما بدالك.

---

(١) كبا الرجل: عثر، وكبا الحيوان: انكبّ على وجهه.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٩.

قلت: ما ترى فيمن على الموسم؟ وكان عليه يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي خال الوليد؛ فتنفس الصعداء وقال: عن الصلاة خلفه تسألني، أم كرهت أن يتأمّر على آل الله من ليس منهم؟ قلت: عن كلا الأمرين. قال: إن هذا عند الله لعظيم؛ فأما الصلاة ففرض لله تعبّدَ به خلقَه، فأدِّ ما فرض الله تعالى عليك في كل وقت مع كلِّ أحد وعلى كل حال؛ فإن الذي ندبك لحجِّ بيته وحضور جماعته وأعياده لم يخبرك في كتابه بأنه لا يقبل منك نسكاً إلا مع أكمل المؤمنين إيماناً، رحمةً منه لك؛ ولو فعل ذلك بك ضاق الأمر عليك؛ فاسمح يُسمَح[1] لك.

قال: ثم كررت في السؤال عليه، فما احتجت أن أسأل عن أمر دينٍ أحداً بعده. ثم قلت: يزعم أهل العلم أنها ستكون لكم دولة. فقال: لا شك فيها، تطلع طُلوع الشمس وتظهر ظهورها؛ فنسأل الله خيْرَها، ونعوذ بالله من شرِّها؛ فخذ بحظ لسانك ويدك منها إن أدركتها. قلت: أو يتخلف عنها أحد من العرب وأنتم سادتُها؟ قال: نعم، قومٌ يأبوْن إلا الوفاء لمن اصطنعهم، ونأبى إلا طلَباً بحقنا، فنُنْصر ويُخذَلون، كما نصر بأوّلنا أوّلهم، ويُخذل بمخالفتنا مَن خالف منهم قال: فاسترجعت، فقال: سهُل عليك الأمر ﴿سُنّةَ اللهِ التي قد خَلَتْ مِن قبْلُ ولَنْ تَجِدَ لِسُنّةِ الله تبديلا﴾[2]. وليس ما يكون لهم بحاجز لنا عن صلة أرحامهم وحفظ أعقابهم وتجديد الصَّنيعة عندهم. قلت: كيف تسلم لهم قلوبكم وقد قاتلوكم مع عدوِّكم؟ قال: نحن قوم حُبِّبَ إلينا الوفاء وإن كان علينا؛ وبُغِّض إلينا الغدر وإن كان لنا، وإنما يشذُّ عنا منهم الأقل؛ فأما أنصار دولتنا ونقباءُ شيعتنا وأمراء جيوشنا فهم مواليهم، وموالي القوم من أنفسهم؛ فإذا وضعَت الحرب أوزارها صفحنا بالمحسن عن المسيء، ووهبنا للرجل قومه ومن اتصل بأسبابه؛ فتذهب النَّائرة[3]، وتخبو الفتنة، وتطمئن القلوب. قلت، ويقال، إنه يُبتلي بكم من أخلص لكم المحبة. قال: قد روى: إن البلاء أسرع إلى محبينا من الماء إلى قراره[4]. قلت: لم أُردْ هذا. قال: فمه؟ قلت: تعقُّون

(١) سمح: جاد وكرم. (٢) سورة الأحزاب: ٦٢.

(٣) النائرة: العداوة والشحناء. (٤) القرار: المكان المنخفض يجتمع فيه الماء.

الوليّ وتُحْظُون العدوّ! قال: من يسعد بنا من الأولياء أكثر، ومن يسلم لنا من الأعداء أقلّ وأيسر؛ وإنما نحن بشر وأكثرنا أُذن[1]، ولا يعلم الغيب إلا الله، وربما استترت عنا الأمور فنقع بما لا نريد وإن لنا لإحساناً يأسُو الله به ما نكلم، ويرمّ به ما نَثْلم، ونستغفر الله مما لا نعلم، وما أنكرت من أن يكون الأمر على ما بلغك، مع الوليِّ التعزز والإدلال، والثقة والاسترسال؛ ومع العدو التحرّز والاحتيال، والتذلل والاغتيال، وربما أمَلّ المدلِ، وأخلَّ المسترسل، وتجانب المتقرّب؛ ومع المِقَة[2] تكون الثقة؛ على أن العاقبة لنا على عدوِّنا، وهي لولينا؛ وإنك لسئول يا أخا بني تميم. قلت: إني أخاف أن لا أراك بعد اليوم! قال: إني لأرجو أن أراك وتراني كما تحب عن قريب إن شاء الله تعالى! قلت: عجّل الله ذلك. قال: آمين. قلت: ووهب لي السلامة منكم فإني من محبيكم! قال: آمين. وتبسم وقال: لا بأس عليك ما أعاذك الله من ثلاث. قلت: وما هي؟ قال: قدحٌ في الدين، أو هتك للمُلْك، أو تُهمَة في حرمة، ثم قال: احفظ عني ما أقول لك، آصْدُقْ وإن ضَرّك الصِّدق، وانصَحْ وإن باعدَك النُّصْح، ولا تجالس عدوّنا وإن أحظيناه، فإنه مخذول؛ ولا تَخذُل ولينا، فإنه منصور؛ وآصبحنا بترك المماكرة، وتواضع إذا رفعوك، وصِلْ إذا قطعوك، ولا تسخف فيمقتوك، ولا تنقبض فيتحشموك، ولا تبدأ حتى يبدءوك، ولا تخطبِ الأعمال، ولا تتعرض للأموال؛ وأنا رائحٌ من عشيَّتي هذه؛ فهل من حاجة؟

فنهضت لوداعه فودعتُه، ثم قلت: أترقَّب لظهور الأمر وقتاً؟ قال: الله المُقَدِّر المُوَقِّت، فإذا قامت النَّوحتان بالشام فهما آخر العلامات. قلت: وما هما؟ قال: موت هشام العام، وموت محمد بن علي مستهلَّ ذي القعدة، وعليه أُخْلِفَت وما بلغتكم حتى أنضيت، قلت: فهل أوْصى؟ قال: نعم، إلى ابنه إبراهيم.

قال: فلما خرجت إذا مولى له يتبعني، حتى عرف منزلي، ثم أتاني بكسوة من

---

(١) الأذن: الخير.

(٢) المقة: المحبة.

كسوته، فقال: يأمرك أبو جعفر أن تصلي في هذه. قال: وافترقنا.

قال: فوالله ما رأيته إلا وحرسيان[1] قابضان عليَّ يدنياني منه في جماعة من قومي لأبايعه، فلما نظر إليَّ اثبتني، فقال: خليا عمن صَحَّت مودتُه، وتقدّمت حُرْمتُه، وأُخِذَتْ قبل اليوم بيعتُه. قال: فأكبر الناس ذلك من قوله، ووجدته على أول عهده لي؛ ثم قال لي: أين كنت عني في أيام أخي أبي العباس؟ فذهبت أعتذر، قال: أمْسِكْ؛ فإن لكل شيء وقتاً لا يعدوه، ولن يفوتَك إن شاء الله حظٌّ مودتِك وحق مسابقتك، فاختر بين رزق يسعُك، أو عمل يرفعك. قلت: أنا حافظٌ لوصيتك! قال: وأنا لها أحفظ، إنما نهيتك أن تخطب الأعمال ولم أنهك عن قبولِها. قلت: الرزقُ مع قرب أمير المؤمنين أحبُّ إليّ. قال: ذلك لك وهو أجمُّ[2] لقلبك وأودعُ لك، وأعْفَى إن شاء الله. ثم قال: هل زدتَ في عيالك بعدي شيئاً؟ وكان قد سألني عنهم، فذكرتهم له فعجبت من حفظه.

قلت: الفرس والخادم.

قال: قد ألحقنا عيالك بعيالنا، وخادمَكَ بخادمنا، وفرسك بخيلنا، ولو وسعني لحملتُ إليك من بيت المال، وقد ضممتك إلى المهدي، وأنا أوصيه بك، فإنه أفرغُ لك مني.

الأحوص وأيمن وابن حزم مع الوليد:

قال الأحوص بن محمد الشاعر الأنصاري، من بني عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الذي حمت لحمه الدَّبْر[3]، يشبِّب بامرأة يقال لها أمَّ جعفر، فقال فيها:

أدورُ ولـولا أن أرَى أمَّ جعفـرٍ بأبيـاتِكـم مـا دُرْتُ حيـث أدورُ

(١) حرسيّان: حارسان.

(٢) أجم: أطلب وأفضل.

(٣) الدّبر: جماعة النحل والزنابير.

وكان لأمِّ جعفر أخٌ يقال له أيمن، فاستَعدى عليه ابن حزم الأنصاري وهو والي المدينة للوليد بن عبد الملك ـ وهو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ـ فبعث ابنُ حزم إلى الأحوص فأتاه، وكان ابن حزم يبغضه؛ فقال: ما تقول فيما يقول هذا؟ قال: وما يقول؟ قال: يزعم أنك تُشبِّب بأخته وقد فضحتَه وشهرت أخته بالشعر. فأنكر ذلك، فقال لهما: قد اشتبه عليَّ أمرُكما، ولكني أدفع إلى كل واحد منكما سوطاً، ثم اجتلدا! وكان الأحوص قصيراً نحيفاً؛ وكان أيمن طويلاً ضخماً جلداً، فغلب أيمنُ الأحوصَ فضربه حتى صرعه[1] وأثخنه؛ فقال أيمن:

لقد مَنع المعروفَ من أُمِّ جعفرٍ ... أَشَمُّ طويلُ الساعِدَيْن غيورُ
علاكَ بِمتنِ السَّوْط حتى اتَّقَيْتَهُ ... بأصفَرَ من ماءِ الصّفاقِ يفورُ[2]

قال: فلما رأى الأحوص تحامُلَ ابن حزم عليه، امتدح الوليد ثم شخص إليه إلى الشام، فدخل عليه فأنشده:

لا تَرْثِيَنّ لِحَزْمِيٍّ رأيتَ بهِ ... ضُرّاً، ولو أُلقِيَ الحزْمِيُّ في النارِ
الناخسين لِمروانٍ بِذِي خُشُبٍ ... المُدْخِلين على عُثمانَ في الدارِ[3]

قال له: صدقت والله، لقد كنا غَفلنا عن حزم وآل حزم. ثم دعا كاتبه فقال: اكتب عهد عثمانَ بن حيان المُرِّي على المدينة، واعزل ابنَ حزم، واكتب بقبض أموال حزم وآل حزم وإسقاطهم أجمعين من الديوان، ولا يأخذوا لأموي عطاءً أبداً. ففعل ذلك، فلم يزالوا في الحرمان للعطاء مع ذهاب الأموال والضياع، حتى انقضت دولة بني أمية وجاءت دولة بن العباس؛ فلما قام أبو جعفر المنصور بأمر الدولة، قدم عليه أهل المدينة، فجلس لهم، فأمر حاجبه أن يتقدم إلى كلِّ رجل منهم أن ينتسب له إذا قام بين يديه؛ فلم يزالوا على ذلك يفعلون، حتى دخل عليه رجلٌ قصير قبيحُ

(١) صرعه: طرحه على الأرض.

(٢) الصَّفاق: جلد البطن.

(٣) ذو خشب: واد على مسيرة ليلة من المدينة.

الوجه، فلما مَثَل بين يديه قال له: يا أمير المؤمنين، أنا ابنُ حزم الأنصاري الذي يقول فينا الأحوص:

لا ترْثِيَن لِحَزْمِيٍّ رأيتَ به ضُرا ولو أُلقِيَ الحزْمِيُّ في النارِ
الناخسين لِمروانٍ بِذي خُشُبٍ والمدخِلين على عثمانَ في الدارِ

ثم قال: يا أمير المؤمنين، حُرِمْنا العطاءَ منذ سنين، قُبضت أموالنا وضياعُنا فقال له المنصور: أعِدْ عليّ البيتين. فأعادهما عليه، فقال: أما والله لئن كان ذلك ضرَّكم في ذلك الحين لينفعنَّكم اليوم! ثم قال: عليَّ بسليمان الكاتب. فأتاه أبو أيوب الخوزي، فقال: اكتب إلى عامل المدينة أن يردّ جميع ما اقتطعه بنُو أمية من ضياع بني حزم وأموالهم، ويحسب لهم ما فاتهم من عطائهم، وما استغلّ من غلاتهم من يومئذ إلى اليوم؛ فيُخلف لهم جميع ذلك من ضياع بني مروان، ويُفْرَضُ لكل واحد منهم في شرف العطاء ـ وكان شرف العطاء يومئذ مائتي ألف دينار في السنة ـ ثم قال: عليَّ الساعة بعشرة آلاف درهم تُدفع إلى هذا الفتى لنفقته.

فخرج الفتى من عنده بما لم يخرج به أحدٌ ممن دخل عليه.

ذكر خلفاء بني العباس

وصفاتهم ووزرائهم وحجابهم

أبو العباس السفاح

وُلِد أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب مستهلَّ رجب سنة أربع ومائة.

وبويع له بالكوفة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

وتوفى بالأنبار لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة، فكانت خلافته أربع سنين وثمانية أشهر.

وأمه ريطة بنت عبد الله بن عبد الله بن عبد المدان، وكان أبيض طويلاً أقنى[1] الأنف حسن الوجه حسن اللحية جعْدَها .

نقش خاتمه : الله ثقة عبد الله وبه يؤمن .

وصلى عليه عمّه عيسى بن علي، ورزق من الولد اثنين : محمد، من أم ولد، ومات صغيراً؛ وابنة سماها ريطة، من أم ولد، تزوجها المهدي وأولدها علياً وعبيد الله .

ووزر له أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال؛ وهو أول من لقب بالوزارة، فقتله أبو العباس واستوزر بعده بن برمك إلى آخر أيامه، وكان حاجبه أبو غسان صالح ابن الهيثم، وقاضيه يحيي بن سعيد الأنصاري .

المنصور

وبويع أبو جعفر المنصور. واسمه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، في اليوم الذي توفي فيه أخوه، لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة .

وكان مولده بالشَّراة[2] لسبع خلون من ذي الحجة سنة خمس وتسعين؛ وتوفي بمكة قبل التَّروية[3] بيوم، لسبع خَلَوْن من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة، وهو مُحْرِم، ودفن بالحجون[4]، وصلى عليه إبراهيم بن يحيي بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس؛ وكانت مدة خلافته اثنتين وعشرين سنة إلا ثمانية أيام وكانت سنة ثلاثاً وستين سنة .

وأُمُّه أَمة اسمها سلامة، وجنسها بربرية؛ وكان أسمر طوالا نحيف الجسم خفيف العارضين يخضب بالسواد، ونقش خاتمه : « الله ثقة عبد الله وبه يؤمن » .

---

(١) الأقنى : الذي ارتفع وسط قصبة أنفه وضاق منخراه .

(٢) الشراة : صقع بالشام بين دمشق والمدينة .

(٣) يوم التروية : يوم قبل يوم عرفة .

(٤) الحجون : جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها .

وتزوج أرْوَى بنت منصور الحميرية، وولدت له: محمداً وهو المهدي، وجعفراً وكانت شرطت عليه ألا يتزوج ولا يتسرَّى[1] إلا عن أمرها، وكان قد ابتاع جاريته أم علي وجعلها قيّماً في داره على أم موسى وأولادها، فحظيت عند أم موسى وسألتْه التسرِّي بها لِمَا رأت من فضلها، فواقعَها فأولدها علياً، وتوفي قبل استكمال سَنة؛ ثم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله، فولدت له سليمان وعيسى ويعقوب، ورُزق من أمهات الأولاد: صالحاً والعالية وجعفراً والقاسم والعباس وعبد العزيز.

ووزر له ابن عطية الباهلي، ثم أبو أيوب المورياني، ثم الربيع مولاه؛ وكان حاجبه عيسى بن روضة مولاه، ثم أبو الحصيب مولاه؛ وكان قاضيه عبد الله بن محمد بن صفوان، ثم شريك بن عبد الله، والحسن بن عمار، والحجاج بن أرطأة.

المهدي

ثم بويع ابنه أبو عبد الله محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، صبيحة اليوم الذي توفى فيه أبوه، لستّ خلون من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة.

وكان مولده بالجُميمة يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادي الآخرة سنة ست وعشرين ومائة. وتوفى بما سَبذان في المحرّم سنة تسع وستين ومائة، وصلى عليه ابنه الرشيد.

فكانت خلافته عشر سنين وخمسة وأربعين يوماً، وكان سنه إحدى وأربعين سنة وثمانية أشهر ويومين.

وكان أسمر طويلاً معتدل الخلق جعد الشعر بعينه اليمنى نكتة[2] بياض، نقش خاتمه: «الله ثقة محمد وبه يؤمن».

---

(١) تسرى بها: زال ما به من هم.

(٢) النكتة: النقطة في الشيء تخالف لونه.

وتزوّج ريطة بنت السفاح وأولدها علياً وعبيد الله . وأوّل جارية ابتاعها محياة، فرزق منها ولداً مات قبل استكمال سنة، وكان يبتاع الجواري باسمها وتقربهنّ إليه، وأول من حظي منهنّ عنده رحيم ولدت له العباسة ثم الخيزران فولدت له موسى وهارون والبانوقة، ثم حللة وحسنة، فكانتا مغنيتين محسنتين؛ وتزوج سنة تسع وخمسين ومائة أمّ عبد الله بنت صالح بن علي، أخت الفضل وعبد الله؛ وأعتق الخيزران في السنة وتزوجها .

ووزر له أبو عبد الله معاوية بن عبد الله الأشعري، ثم يعقوب بن داود السلمي، ثم الفيض بن أبي صالح .

واستحجب سَلامان الأبرش، واستخلف على القضاء محمد بن عبد الله بن علاثة، وعافية بن يزيد؛ كانا يقضيان معاً في مسجد الرصافة .

الهادي

ثم بويع ابنه أبو محمد موسى الهادي بن المهدي؛ مستهلّ صفر سنة تسع وستين ومائة .

وتوفي ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة بعيساباذ[1]؛ وصلى عليه أخوه الرشيد .

وكانت خلافته سنة وشهرين إلا أياماً، وكانت سنة ستا وعشرين سنة .

وكان أبيض طويلاً جسيماً، بشفته العليا تقلُّص . نقش خاتمه : « الله ربي » .

وتزوج أمة العزيز فأولدها عيسى، ثم رحيم، فأولدها جعفراً، ثم سعوف فأولدها العباس، واشترى جاريته حسنة بألف درهم ـ وكانت شاعرة ـ فرُزق منها عدّة بنات، منهم أم عيسى، تزوجها المأمون، وكان له من أمهات الأولاد: عبد الله، وإسحاق وموسى وكان أعمى .

---

(١) عيساباذ: محلة كانت بشرقي بغداد تنسب إلى عيسى بن المهدي .

ووزر له الربيع بن يونس، ثم عمر بن بَزيع؛ واستحجب الفضلَ بن الربيع. وولى القضاء: أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم، في الجانب الغربي، وسعيد بن عبد الرحمن الجمحي، بالجانب الشرقي.

هارون الرشيد

ثم بويع أخوه أبو محمد هارون الرشيد في اليوم الذي توفي فيه أخوه، يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة. وفي هذه الليلة ولد عبد الله المأمون، ولم يكن في سائر الزمان ليلة ولد فيها خليفة وتوفى فيها خليفة وقام فيها خليفة غيرها.

وكان مولد الرشيد في المحرّم سنة ثمان وأربعين ومائة.

وتوفى في جمادي الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائة، ودفن بطوس [1]. وصلى عليه ابنه صالح.

فكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وشهراً وستة عشر يوماً، وكانت سنه ستا وأربعين سنة وخمسة أشهر؛ ولما أفضت إليه الخلافة سلم عليه عمه سليمان بن المنصور، والعباس بن محمد عم أبيه، وعبد الصمد بن علي عم جدّه؛ فعبد الصمد عم العباس، والعباس عم سليمان، وسليمان عم هارون.

وكان الرشيد أبيض جسيماً طويلاً جميلاً، وقد وخطه الشيب، نقش خاتمه: لا إله إلا الله. وخاتم آخر: كن من الله على حذر.

وتزوج زبيدة، واسمها أمة العزيز، وتكنى أمّ الواحد، وزبيدة لقب لها؛ وهي ابنة جعفر بن المنصور، أولدها محمداً الأمين؛ ثم مراجل، فأولدها عبد الله المأمون؛ ومارِدة، أولدها محمداً المعتصم؛ ونادر ولدت له صالحاً؛ وشَجا، ولدت له خديجة

(١) طوس: مدينة بخراسان.

ولبابة؛ وسريرة، ولدت محمداً، وبربرية، ولدت له أبا عيسى ثم القاسم، وهو المؤتمن، وسكينة؛ وحث، فولدت له إسحاق وأبا العباس.

ووزر له جعفر بن يحيي بن خالد البرمكي وقتلَه، ثم الفضل بن الربيع؛ واستحجب بشر بن ميمون مولاه، ثم محمد بن خالد بن برمك؛ واستخلف على قضاء الجانب الغربي نوح بن دراج، وحفص بن غياث.

الأمين

ثم بويع أبو عبد الله محمد الامين في جمادي الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة.
وقتل يوم الأحد لخمس بقين من المحرّم سنة ثمان وتسعين ومائة.

وكان مولده بالرصافة سنة احدى وسبعين ومائة في شوّال؛ فكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر وأياما، ضفا له الامر من جملتها سنتين وشهرا، وكانت الفتنة بينه وبين أخيه سنتين.

وكان طويلا جسيما جميلا حسن الوجه بعيد ما بين المنكبين اشقر سبطا صغير العينين، به أثر جدري، نقش خاتمة: «محمد واثق بالله».

ورزق من الولد موسى من أمّ ولد تدعى نظم. ولقبه: الناطق بالحق؛ وضرب اسمه على الدراهم.

وذكر الصولي قال: حدثني من قرأ على درهم:

كلّ عزٍ ومَفخَرِ فلموسى المظفَّرِ
ملِكٌ خُطَّ ذِكرُه في الكتاب المسطَّرِ

وماتت نظم فاشتدّ جزعه عليها، فدخلت زبيدة معزية له، فقالت:

نفْسي فِداؤكَ لا يذهبْ بك التلَفُ ففي بقائِك ممَّن قد مضى خلَفُ
عُوِّضْتَ موسى فكانت كلُّ مَرْزِئةٍ ما بعْدَ موسى على مفقودة أسَفُ

وبايع لابنه موسى في حياته، ولاخيه عبد الله، وأمّه أمّ ولد، ونقش اسمه أيضاً على الدراهم.

وكان لجعفر بن موسى الهادي جارية اسمها بذل، فطلبها الامين منه فأبى عليه، وكان شديد الوجد بها؛ فزاره الامين يوماً، فسر به وزاد عليه في الشرب حتى ثمل، فانصرف واخذ الجارية، فلما اصبح جعفر ندم على ما جرى ولم يدر ما يصنع فدخل على الامين، فلما مثل بين يديه، قال له: احسنت والله يا جعفر بدفعك بذلَ إلينا وما احسنًا. وأقر رزقه على عشرين الف الف درهم.

ووزر للامين الفضل بن الربيع إلى اخر ايامه، وكان حاجبه العباس بن الفضل بن الربيع، ثم علي بن صالح صاحب المصلى، ثم السندي بن شاهك.

المأمون

ثم بويع أبو العباس عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بعد قتْل أخيه، يوم الخميس لخمس خلون من صفر سنة ثمان وتسعين ومائة، وكان مولده بالياسرية[١] في ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول سنة سبعين ومائة.

وتوفي بالبذندون[٢] سنة ثماني عشرة ومائتين لثمان خلون من رجب، ودفن بطرَسوس[٣]؛ فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة اشهر وثلاثة عشر يوماً، وكان سنه ثمانياً وأربعين سنة وأربعة اشهر إلا أياماً.

وكان أبيض تعلوه شقرة، أجنأ[٤] أعْين، طويل اللحية رقيقها، ضيق الجبين، بخده خال أسود، وكان قد وخطه[٥] الشيب. نقش خاتمة. «سِل الله يُعْطِك».

---

(١) الياسيرية: قرية كبيرة على ضفة نهر عيسى بينها وبين بغداد.

(٢) البذندون: قرية بينها وبين طرسوس يوم.

(٣) طرسوس: مدينة بثغور الشام بين انطاكية وحلب.

(٤) الأجنأ: الذي أشرف كاهله على صدره.

(٥) وخطه الشيب: فشا فيه، أو استوى سواده وبياضه.

وكان الرشيد حدّ المأمون. وذلك أنه دخل على الرشيد وعنده مغنية تغنيه، فلحنتْ، فكسر المأمون عينه عند استماعه اللحن، فتغير لون الجارية، وفطن الرشيد لذلك، فقال: اعلمتَها بما صنعت؟ قال: لا والله يا مولاي! قال: ولا أومأتَ إليها؟ قال: قد كان ذلك، فقال: كن مني بمرأى ومسمع، فإذا خرج اليك امري فانته اليه. ثم اخذ دواة وقرطاسا وكتب اليه:

يـا آخـذَ اللحْـنِ على ال قَيْنَـةِ عنـد الطـرَبِ
تـريـدُ أن تُفْهِمَهـا حـدّ لغـاتِ العـرب
أُقسمُ بـالله ومـا سَطـر أهـلُ الكتـبِ
للْكلـبُ خيرٌ أدَبـاً مِـن بعْـضِ أهـلِ الادبِ

إذا قرأت ما كتبتُ به اليك، فأمر من يضربك عشرين مقرعة[1] جيادا! فدعا المأمون النوابين ثم امرهم ببطحه وضربه، فامتنعوا، فأقسم عليهم؛ فامتثلوا أمره.

ورزق من الولد محمدا الاصغر، وعُبيد الله بن أم عيسى بنت موسى الهادي وتزوج بوران بنت الحسن بن سهل، بنى بها سنة عشر ومائتين، ووهب لابيها عشرة آلاف درهم، ولولده الف ألف درهم؛ وكان له عدة اولاد من بنين وبنات

ووزر له الفضل بن سهل ذو الرياستين ثم الحسن بن سهل، ثم احمد بن ابي خالد الاحول، ثم احمد بن يوسف، ثم ثابت بن يحيي، ثم محمد بن يزداد، واستحجب عبد الحميد بن شبيب، ثم محمداً وعلياً ابني صالح مولى المنصور.

المعتصم بالله

ثم بويع اخوه ابو اسحق المعتصم بن الرشيد يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة ثماني عشرة ومائتين، وكان مولده في شهر رمضان سنة ثمان وسبعين ومائة.

---

(١) المقرعة: خشبة يضرب بها.

وتوفي بسرَّ مَن رأى يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الاول سنة سبع وعشرين ومائتين، وصلى عليه ابنه هارون الواثق.

وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر؛ وأمه وأمٌّ ولد يقال لها ماردة.

وكان ابيض اصهب اللحية طويلها مربوعها مشرب اللون حمرة؛ نقش خاتمة: «الله ثقة ابي اسحاق بن الرشيد وبه يؤمن»؛ وكان شديد البأس، حمل بابا من حديد فيه سبعمائة وخمسون رطلا وفوقه عِكام[1] فيه مائتان وخمسون رطلا، وخطا خُطا كثيرة؛ وكان يسمى ما بين أصبعي المعتصم: المِقطرة[2]، لشدته؛ وانه اعتمد يوما على غلام فدقه، وذكر الصولي أنه كان يسمى المثمّن، وذلك أنه الثامن من خلفائهم.

ومولده سنة ثمان وسبعين ومائة، وولي الامر في سنة ثمان عشرة ومائتين.

ومات وله ثمان وأربعون سنة، وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية اشهر؛ ورزق من الولد الذكور ثمانية، ومن الإناث ثمانيا؛ وغزا ثمان غزوات وخلف في بيت ماله ثمانية آلاف دينار، ومن الورِق ثمانية آلاف درهم.

ووزر له الفضل بن مروان، ثم أحمد بن عمار، ثم محمد بن عبد الملك الزيات، واستحجب وصيفا مولاه، ثم محمد بن حماد بن دَنفش.

الواثق

ثم بويع ابنه أبو جعفر هارون الواثق، صبيحة اليوم الذي توفي فيه ابوه يوم الخميس لاحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الاول سنة سبع وعشرين ومائتين.

وكان مولده يوم الاثنين لعشرة بقين من شعبان سنة ست وتسعين ومائة

وتوفي بسرَّ من رأى يوم الأربعاء لستّ بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين

---

(١) العكام: العدل.

(٢) المقطرة: خشبة فيها خروق على قدر سعة رجل المحبوسين.

ومائتين، وصلى عليه اخوه المتوكل، فكانت خلافته خمس سنين وتسعة اشهر وثلاثة عشر يوماً وكانت سنُّه ستا وثلاثين سنة وأربعة اشهر وأياما .

وكان ابيض الى الصفرة، حسن الوجه جسيما، في عينه اليمنى نكتة[1] بياض. نقش خاتمة: « محمد رسول الله » . وخاتم اخر: « الواثق بالله » .

ورزق من الولد محمد المهتدي، وأمه وأم ولد يقال لها قرب؛ وعبد الله، وأبا العباس أحمد، وأبا اسحق محمدا، وابا اسحق ابراهيم .

ووزر له محمد بن عبد الملك الزيات، وحاجبه اتاح، ثم وصيف مولاه، ثم ابن دنفش؛ وقاضيه ابن أبي داود .

المتوكل

ثم بويع اخوه ابو الفضل جعفر المتوكل يوم الاربعاء لست بقين من ذي الحجة اثنتين وثلاثين ومائتين .

وكان مولده يوم الاربعاء لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ست ومائتين .

وقتل ليلة الاربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين، ودفن في القصر الجعفري، وصلى عليه ابنه المنتصر ولي عهده؛ فكانت مدة خلافته اربع عشرة سنة وتسعة اشهر وتسعة ايام؛ وكان سنه أربعين سنة الا ثمانية ايام .

وكان أسمر كبير العينين نحيف الجسم خفيف العارضين. نقش خاتمه: « على إلهي اتكالي » . وكان كثير الولد .

وزر له محمد بن عبد الملك الزيات، ثم محمد بن الفضل الجرجاني، ثم عبيد الله بن يحي بن خاقان، واستحجب وصيفا التركي، ثم محمد بن عاصم، ثم ابراهيم بن سهل؛ وكان خليفته على القضاء يحي بن أكثم

---

(١) النكتة: النقطة في الشيء تخالف لونه .

المنتصر

ثم بويع ابنُه أبو جعفر محمد المنتصر لاربع خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين.

وكان مولده يوم الخميس لست خلون من شهر ربيع الاخر سنة اثنتين وعشرين ومائتين.

ومات ليلة السبت لثلاث خلون من ربيع الاخر سنة. ثمان وأربعين ومائتين. فكانت خلافته ستة أشهر، وسنه ستة وعشرين سنة إلا ثلاثة أيام.

وكان قصيراً اسمر ضخمَ الهامة [1] عظيم البطن جسيما، على عينه اليمنى أثر. نقش خاتمه: «يؤتَى الحذِرُ من مأمنه»، وعلى خاتم آخر: «أنا من آل محمد، الله وليٌّ ومحمد».

ورزق من الولد عليا وعبد الوهاب وعبد الله واحمد.

ووزر له احمد بن الخصيب، وحاجبه وصيف، ثم بغا، ثم ابن المرزبان، ثم أوتامش.

المستعين

ثم بويع المستعينُ أبو العباس احمد بن محمد المعتصم، يوم الاثنين لأربع خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين.

وخلع نفسه ـ بموافقة المعتز بوساطة أبي جعفر المعروف بابن الكُردية ـ يوم الجمعة لاربع خلون من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين. وكانت خلافته ثلاث سنين وتسعة اشهر.

---

(١) الهامة: الرأس.

وكان مولده يوم الثلاثاء لأربع خلون من رجب سنة احدى وعشرين ومائتين .

وقتل بالقادسية بعد خلعه نفسه بتسعة اشهر، وأمه أم ولد يقال لها مخارق .

وكان مربوعا، احمر الوجه، أشقر، مُسمنا[1]، عريض المنكبين، ضخم الكراديس[2]، خفيف العارضين، بوجهه أثر جدري، ألثغ بالسين، نقش خاتمه: « في الاعتبار غِنىً عن الاخبار » .

وزر له احمد بن الخَصيب فنكبه، وقلد مكانه ابن يزداد، ثم شجاع بن القاسم كاتب أُتامش، وأتامش هذا حاجبه، وكانت سنه احدى وثلاثين سنة الا ثمانية ايام .

المعتز

ثم ولى أبو عبد الله بن المتوكل، يوم الجمعة لاربع خلون من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين، وكانت الفتنة قبل ذلك بينه وبين المستعين سنة .

وقتل عشية يوم الجمعة لليلةٍ خلت من شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين .

وكان مولده يوم الخميس لاحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الاخر سنة اثنتين وثلاثين ومائتين .

وكانت خلافته منذ بويع له، واجتمعت الكلمة عليه ثلاث سنين وستة اشهر وثلاثة وعشرين يوماً، ومنذ بايعه أهل سرَّ مَن رأى إلى ان قتل، اربع سنين وستة أشهر وخمسة عشر يوماً، وقتله صالح بن وصيف .

وكان أبيض شديد البياض، ربعة[3]، حسن الجسم، على خده الايسر خال اسود الشعر . نقش خاتمه: « الحمد لله رب كل شيء وخالق كل شيء » .

---

(١) المسمن: السمين خلقة .

(٢) الكراديس: جمع كردوسة، وهي كل عظمين التقيا في مفصل .

(٣) الربعة: الوسيط القامة .

وزر لهم جعفر بن محمود الإسكافي، ثم عيسى بن فرخان شاه، ثم احمد بن اسرائيل الانباري.

وحاجبه سماء بن صالح بن وصيف. وكان سنه أربعا وعشرين سنة وشهرين وأياما.

المهتدي

ثم بويع المهتدي أبو عبد الله محمد بن الواثق بِسرَّ من رأى، يوم الاربعاء لليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين.

كان مولده يوم الاحد لخمس خلون من شهر ربيع الاول سنة تسع عشرة ومائتين. وقتل بسرّ من رأى بسهم لحقه يوم الثلاثاء لأربعة عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين؛ فكانت خلافته احد عشر شهراً واربعة عشر يوماً. وكانت سنه سبعا وثلاثين سنة وأربعة اشهر وأحد عشر يوما.

وكان أبيض مشربا حُمرة، صغير العينين، أقنى الانف، في عارضيه شيب؛ وخضَب لما وليَ الخلافة. نقش خاتمه: «من تعدّى الحق ضاق مذهبُه».

وزر له ابو ايوب سليمان بن وهب. وحاجبه باك باك.

المعتمد

ثم بويع أبو العباس احمد المعتمد بن المتوكل، يوم الثلاثاء لاربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين.

وكان مولده يوم الثلاثاء لثمان بقين من المحرم سنة تسع وعشرين ومائتين.

وتوفي ببغداد لاربع عشرة ليلة خلت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين؛

فكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة؛ وكان سنه خمسين وخمسة اشهر واثنين وعشرين يوما.

ومات أخوه ووليّ عهده طلحة الموفق في أيامه، في صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين؛ وكان قد غلب على الامر لميل الناس اليه، وكان المعتمد قد عقد لولده جعفر - ولقبه المفوّض - وبعده لابي احمد طلحة الموفق، فاشتد امر الموفق وقتل صاحب الزنج في سنة سبعين ومائتين ومال الناس اليه واسمه الناصر لدين الله وكان يدعي له على المنبر في ايام المعتمد.

وكان الموفق حبس ابنه أبا العباس المعتضد، فلما حضرته الوفاة أطلقه للقيام بالأمر، وأجرى المعتمد امره على ما كان يجري عليه امر ابيه الموفق، وأفرده بولاية العهد، وامر بكتب الكتب لخلع ابنه المفوّض، وأفرد المعتضد بالعهد وجعله الخليفة بعده.

وكان المعتمد اسمر مربوعاً نحيف الجسم حسن العينين مدوّر الوجه، على وجهه أثر جدري. نقش خاتمه: «السعيد من كُفي بغيره».

ووزر له عبيد الله بن يحيى بن خاقان، ثم سليمان بن وهب، ثم الحسن بن مخلد، ثم صاعد بن مخلد، ثم أبو الصقر اسماعيل بن بلبل.

حاجبه موسى بن بغا، ثم جعفر بن بغا، ثم بكتمر

المعتضد

بويع المعتضد ابو العباس احمد بن الموفق في رجب سنة تسع وسبعين ومائتين.

وكان مولده في جمادي الاخرة سنة ثلاث واربعين ومائتين، وتوفي ببغداد ليلة الثلاث لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين، وصلى عليه ابو عمر القاضي.

فكانت خلافته تسع سنين وتسعة اشهر وأربعة ايام؛ وكان سنه خمسا وأربعين سنة وتسعة أشهر وأياما.

وأمه ضرار، وكان نحيف الجسم معتدل القامة طويل اللحية اسمر. نقش خاتمه: «الاضطرار يزيل الاختيار».

ووزر له عبيد الله بن سليمان بن وهب؛ ثم ابنه القاسم بن عبيد الله.

وحاجبه صالح الأمين

المكتفي

ثم بويع ابنه أبو محمد علي بن المعتضد يوم الثلاثاء لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين.

وكان مولده في رجب سنة أربع وستين ومائتين.

وتوفي ببغداد فدفن عند قبر ابيه ليلة الاحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين.

وكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وعشرين يوما؛ وكان سنه احدى وثلاثين سنة وأربعة اشهر وأياما.

وأمه جيجق، وقيل خاضع.

وكان ربعة حسن الوجه أسْودَ الشعر وافر اللحية عريضها، ولم يَشِبْ إلى ان مات.

نقش خاتَمه: «بالله علي بن أحمد يثق».

وخلّف في بيت ماله [من الذهب] ستة عشر ألف ألف دينار، ومن الورق ثلاثين ألف ألف درهم.

ووزر له القاسم بن عبيد الله، ثم العباس بن الحسن، ثم الحسن بن أيوب.

وحاجبه خفيف السَّمرقندي، ثم سوسن مولاه.

المقتدر

ثم بويع المقتدر وهو أبو الفصل جعفر بن المعتضد في اليوم الذي توفي فيه أخوه يوم الاحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين وخُلع في خلافته دفعتين: الاولى بعد جلوسه بأربعة أشهر وأيام، بابن المعتز، وبطل الامر من يومه؛ والدفعة الثانية بعد احدى وعشرين سنة وشهرين ويومين من خلافته، وخلع نفسه وأشهد عليه، وأجلس القاهر يومين وبعض اليوم الثالث، ووقع الخلف بين العسكرين وعاد المقتدر إلى حاله.

وكان مولده لثمان بقين من شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين ومائتين.

وقتل بالشماسية[1] يوم الأربعاء لثلاث بقين من شوال سنة عشرين وثلثمائة. فكانت خلافته خمسا وعشرين سنة الا خمسة عشر يوما، وكانت سنة ثمانيا وثلاثين سنة وشهرا وعشرين يوما.

وكان أبيض مشرَباً بحمرة، حسن الخُلُق، ضخم الجسم، بعيد ما بين المنكبين جعد الشعر، مدوّر الوجه، قد كثر الشيب في وجهه.

نقْش خاتَمه: «الحمد لله الذي ليس كمثله شيء وهو على كل شيء قدير».

ووزر له العباس بن الحسن، ثم علي بن محمد بن موسى بن الفرات، ثم عبيد الله بن خاقان، ثم ابو الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح، ثم حامد بن العباس، ثم احمد بن عبيد الله الخصيبي، ثم محمد بن علي بن مقلة، ثم سليمان بن الحسن بن مخلد بن الجراح، ثم عبيد الله بن محمد الكلوذاني، ثم الحسين بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن

---

(١) الشماسية: مجاورة لدار الروم التي في أعلى مدينة بغداد.

وهب، ثم الفضل بن جعفر بن موسى بن الفرات .

واستحجب سوسنا ، مولى المكتفي، ونصراً القشوري، ويـاقـوتـا المعتضـدي، وإبراهيم ومحمدا ، ابني رائق .

القاهر

ثم بويع اخوه ابو منصور محمد القاهر بن المعتضد يوم الخميس لليلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلثمائة .

وخُلِعَ وسُمِلَ[1] يوم الأربعاء لخمس خلون من جمادي الاولى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة .

وكان مولده لخمس خلون من جمادي الاولى سنة سبع وثمانين ومائتين .

وكانت خلافته سنة وستة أشهر وستة ايام وعاش الى ايام المطيع، وكانت سنة . ...[2]

وكان ربعة أسمر اللون، معتدل القامة، اصهب[3] الشعر.

ووزر له أبو علي محمد بن مقلة، ثم محمد بن القاسم بن عبيد الله، بن أحمد بن عبيد الله الخصيبي .

واستحجب على بن يلبق مولي يونس، ثم سلامة الطولوني .

الراضي

ثم بويع الراضي ابو العباس احمد بن المقتدر يوم الاربعاء لست خلون من جمادي الاولى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة .

---

(١) سمل: فقأت عيناه بمسار أو حديدة محماة .

(٢) هنا بياض بالاصل .

(٣) الأصهب: ذو اللون الأصفر الضارب إلى شيء من الحمرة والبياض .

وكان مولده في رجب سنة سبع وتسعين ومائتين.

ومات في بغداد ليلة السبت لأربع عشرة بقيت من شهر ربيع الاول من سنة تسع وعشرين وثلثمائة ودفن بالرَّصافة.

وكانت خلافته ست سنين وثمانية أشهر وعشرة ايام، وكانت سنه احدى وثلاثين سنة وثمانية أشهر وأياما.

وأمه أم ولد يقال لها ظلوم؛ وكان قصير القامة نحيف الجسم اسود الشعر رقيق السمرة في وجهه طول.

نقش خاتمه: «محمد رسول الله».

ووزر له ابو علي محمد بن مقلة، ثم ابنه ابو الحسين علي بن محمد، ثم عبد الرحمن ابن عيسى بن داود بن الجراح، ثم محمد بن القاسم الكرخي، ثم سليمان بن الحسن بن محمد بن الجراح، ثم الفضل بن جعفر بن الفرات، ثم ابو عبيد الله احمد بن محمد اليزيديّ.

استحجب محمد بن ياقوت؛ ثم دكيا مولاه.

المتقي

ثم بويع اخوه المتقي ابو اسحاق ابراهيم بن المقتدر، يوم الاربعاء لعشر بقين من شهر ربيع الاول سنة تسع وعشرين وثلثمائة.

وخُلع وسُمل يوم السبت لثمان خلون من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة.

وكان مولده في شعبان سنة سبع وتسعين ومائتين.

وكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهراً إلا أياما

وكان ابيض تعلوه حمرة، اصهب شعر اللحية، كث اللحية، بفكه الادنى عوج نقش خاتمه: «محمد رسول الله».

ووزر له احمد بن محمد بن ميمون، ثم اليزيدي، ثم سليمان بن الحسن بن مخلد، ثم ابو اسحاق محمد بن احمد القراريطي. ثم محمد بن القاسم الكرخي، ثم احمد بن عبد الله الاصبهاني، ثم علي بن محمد بن مقلة.

واستحجب سلامة مولي خُمارويه بن أحمد الطولونيّ، ثم بدراً الخرشني، ثم عبد الرحمن بن أحمد بن خاقان المُفلحي.

المستكفي

ثم بويع أبو القاسم عبد الله بن المستكفي في صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة بالسندية[١] عقيب كسوف القمر.

وخلع في شعبان سنة أربع وثلاثين وثلثمائة، فكانت خلافته سنة واحدة وستة اشهر واياما.

كان مولده مستهل سنتة اثنتين وتسعين ومائتين. وتوفي سنة تسع وثلاثين وثلثمائة. وكانت سنه سبعاً وأربعين سنة، وأمُّه أم ولد يقال لها غصن، وكان أبيض تعلوه حمرة، ضخم الجسم، تام الطول، خفيف العارضين كبير العينين؛ أشهل[٢]، جهوري الصوت. نقش خاتمه «محمد رسول الله».

وزر له محمد بن علي السر من رائيّ. واستكتب بعده أبا أحمد الفضل بن عبد الله الشيرازي. واستحجب أحمد بن حاقان.

---

(١) السندية: قرية من قرى بغداد.

(٢) الأشهل: الذي كان في عينيه شهلة، وهي أن يصيب إنسان العين حمرة.

المطيع

ثم بويع المطيع ابو القاسم الفضل بن المقتدر لسبع بقين من شعبان سنة أربع وثلاثين وثلثمائة .

وخلع نفسه ببغداد لسبع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ثلاث وستين وثلثمائة .

وكان مولده في النصف من ذي القعدة سنة احدى وثلثمائة وتوفي في ...[١] فكانت خلافته تسعاً وعشرين سنة وثلاثة اشهر وعشرين يوما .

وأمه أم ولد تدعى مشعلة . وكان سنه ....[٢] .

وكان شديد البياض أسود شعر الرأس واللحية .

وزر له علي بن محمد بن مقلة ، والناظر في الامور ابو جعفر الضيمري كاتب احمد بن بويه ، ثم استولى على اسم الوزارة ؛ وكتب للمطيع الفضل بن عبد الرحمن الشيرازي ، ومات ، وقام مقامه ابو محمد الحسن بن محمد المهلبي .

وحاجبه عز الدولة بختيار بن معز الدولة .

تم الجزء الخامس
من العقد الفريد لابن عبد ربه
ويليه ـ إن شاء الله ـ الجزء السادس
وأوله : كتاب الدرة الثانية ، في ايام العرب ووقائعها

---

(١) بياض بالأصل : وكانت وفاة المطيع سنة ٣٦٤ .

(٢) بياض بالأصل ، وقد كان عمره قريباً من ثلاث وخمسين سنة .

فهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع
٣١٧	**أخبار البرامكة .**
٣١٩	يحيى بعد مقتل جعفر .
	الرشيد وسهل بعد مقتل جعفر .
٣٢١	بين أم جعفر والرشيد .
٣٢٤	الرشيد وإسحاق بن علي في البرامكة .
٣٢٥	يحيى ومنكة الهندي .
٣٢٦	من يحيى في حبسه إلى الرشيد .
٣٢٨	عهد يحيى إلى الرشيد .
٣٢٩	جواب الرشيد . لدعبل في البرامكة . لسليمان الأعمى .
٣٣٠	لشاعر في إثارة الرشيد على بني برمك .
٣٣١	ابن المهدي وجعفر وعبد الملك .
٣٣٢	من أخبار الطالبين حفاوة السفاح .
٣٣٣	استيحاش السفاح من ابن حسن .
٣٣٤	أبو جعفر وابن حسن .
٣٣٧	كتاب أبي جعفر إلى محمد بن عبد الله جواب محمد .
	رد أبي جعفر .
٣٤٢	مقتل محمد وإبراهيم .
٣٤٣	كتاب المنصور إلى ابن عبيدة . المبيضة وأسر إسماعيل بن علي وأخيه . محمد ابن علي وقلة إخوته . وصية المنصور لأبي موسى في حرب بني عبد الله .
	عيسى بن موسى ووصيته للمنصور .
٣٤٤	تفضيل معاوية للحسن .
٣٤٥	لسديف في قتل المنصور لابني عبد الله .
	الرياشي والبغدادي في مقتل سديف .
٣٤٧	ابن عبد الحميد وابن أبي حفصة .
	هشام ويزيد بن علي .
٣٤٨	من فضائل علي بن أبي طالب .
	ابن هشام وشيخ في علي بن أبي طالب .
	حمزة وابن له في علي .
٣٤٩	الوليد وشعر الفضل في علي . لمسلمة في جعفر .
	احتجاج المأمون على العلماء في فضل علي .
٣٥٩	المساحقي والدعوة إلى المأمون . المأمون والرضى .
٣٦٠	**باب من أخبار الدولة العباسية .**
	علي ومعاوية في مولود لابن عباس .
	من أخبار علي بن عبد الله بن عباس .
٣٦١	زواج عليّ بن عبد الله .
٣٦٢	وصية علي لابنيه سليمان وصالح .
٣٦٣	وصاة معاوية في موته .
٣٦٣	شبيب وعبد الله .
٣٦٧	الأحوص وابن أيمن وابن حزم مع الوليد .
٣٦٩	**ذكر خلفاء بني العباس .**
	أبو العباس السفاح مولده . بيعته . وفاته . أمه وصفته . خاتمه . أولاده . وزراؤه .
٣٧٠	المنصور . بيعته . مولده ووفاته . أمه

العقد الفريد

تأليف

الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
المتوفى سنة ٣٢٨هـ

بتحقيق

دكتور
عبد المجيد الترحيني

الجزء السادس

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م

يطلب من: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان
صندوق بريد ٩٤٢٤ ـ ١١ . هاتف ٨٠١٣٣٢ ـ ٨٠٥٦٠٤
الرملة البيضاء ـ بناية ملكارت سنتر

كتاب الدرة الثانية
في أيام العرب ووقائعهم

قال الفقيه ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه رضي الله عنه: قد مضى قولنا في أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في أيام العرب ووقائعهم؛ فإنها مآثر الجاهلية، ومكارم الاخلاق السنية.

قيل لبعض أصحاب رسول الله ﷺ: ما كنتم تتحدثون به اذا خلوتم في مجالسكم؟

قال: كنا نتناشد الشعر ونتحدث بأخبار جاهليتنا.

وقال بعضهم: وددت أن لنا مع إسلامنا كرم أخلاق آبائنا في الجاهلية: الا ترى ان عنترة الفوارس جاهلي لا دين له، والحسنَ بن هانيء إسلامي له دين؛ فمنعَ عنترة كرمهُ ما لم يمنع الحسنَ بن هانىء دينُه، فقال عنترة في ذلك:

وأغضُّ طرْفي إن بَدتْ لي جارتي   حتى يُواريَ جارتي مأْواها

وقال الحسن بن هانىء مع اسلامه:

كان الشبابُ مَطيَّةَ الجهلِ   ومُحسِّن الضَّحكاتِ والهزْلِ
والباعِثي والناسُ قد رقَدوا   حتى أَتيْتُ حَليلةَ البعْلِ[1]

(١) الحليلة: الزوجة.

حروب قيس في الجاهلية

يوم منعج[١] : لغنيّ على عبس

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: يوم مَنعج يقال له يوم الرَّدْهة[٢]، وفيه قتل شاس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسي بمنعج على الردهة، وذلك أنّ شاس ابن زهير أقبلِ من عند النعمان بن المنذر، وكان قد حباه بحِباء جزيل، وكان فيما حباه قطيفة[٣] حمراء ذات هدبٍ، وطيلسان وطيب. فورد منعج وهو ماء لغنِيّ، فأناخ راحلته الى جانب الردهة وعليها خباء لرياح بن الأسل الغنوى، وجعل يغتسل وامرأةُ رياح تنظر إليه وهو مثل الثور الابيض؛ فانتزع[٤] له رياح سهماً فقتله، ونحر ناقته فأكلها، وضم متاعه، وَغَيَّب أثرَه. وفُقد شاسُ بن زهير حتى وجدوا القطيفة الحمراء بسوق عكاظ، فقد سامتْها امرأةُ رياح بن الأسل؛ فعلموا أنَّ رياحا صاحب ثأرهم، فغزت بنو عبس غنيّا قبل أن يطلبوا قَوَداً[٥] أودية، مع الحُصين بن زهير بن جذيمة، والحصين بن أسيد بن جَذيمة؛ فلما بلغ ذلك غنيّاً قالوا لرياح: آنْجُ لعلنا نصالحُ القوم على شيء فخرج رياح رديفاً لرجل من بني كلاب، لا يريان إلا أنهما قد خالفا وجهة القوم، فمرّ صُرَدٌ[٦] على رؤسهما فصَرْصَرَ[٧]، فقال: ما هذا؟ فما راعهما إلا خيل بني عبس؛ فقال الكلابي لرياح: انحدر من خلفي والتمس نفقا في الأرض، فإني شاغل القوم عنك. فانحدر رياحٌ عن عجز الجمل، حتى أتى صَعدة[٨] فاحتفر تحتها مثلَ مكان الأرنب وولج فيه، ومضى صاحبه، فسألوه فحدَّثهم، وقال: هذه غنيٌّ جامعة، وقد استمكنتم منهم. فصدَّقوه وخلوا سبيله؛ فلما ولى رأوا مركب الرجل خلفه، فقالوا: من الذي كان خلفك؟ فقال: لا أكذب، رياح بنُ الأسل، وهو في تلك

---

(١) منعج: واد يأخذ بين حفر أبي موسى والنباج، ويدفع في بطن فلج.

(٢) الردهة: النقرة في صخرة يستنقع فيها الماء.

(٣) القطيفة: كساء له أهداب.

(٤) انتزع له سهماً: رماه به

(٥) القود: القصاص.

(٦) الصرد: طائر اكبر من العصفور كانوا يتشاءمون به

(٧) صرصر: صاح بصوت شديد متقطع.

(٨) صعدة: مرتفع من الأرض.

الصَّعدات. فقال الحُصينان لمن معهما: قد امكننا الله من ثأرنا، ولا نريد أن يَشركنا فيه أحد. فوقفوا عنهما، ومضيا فجعلا يريغان رياح بن الأسل بالصَّعدات، فقال لهما رياح: هذا غزالكما الذي تُريغانه[١]. فابتدراه، فرمى أحدهما بسهم فأقصده[٢]، وطعنه الآخر قبل أن يرميه فأخطأه، ومرت به الفرس، واستدبره رياح بسهم فقتله، ثم نجا حتى أتى قومَه، وانصرفوا خائبين موتورين[٣]؛ وفي ذلك يقول الكميْتُ بنُ زيد الأسدي، وكان له أُمّان من غنّي:

أنــا آبــنُ غنّــيٍ والِــديَ ... لأُمّيْنِ منهم في الفُروعِ وفي الأصْـلِ
همُ آستودَعوا زُهراً بسيبَ بن سالمٍ ... وهمْ عدَلوا بين الحُصيْنيْن بالنَّبْـلِ
وهمْ قتَلوا شاسَ الملوكِ وأرغَمـوا ... أبـاه زُهيراً بـالمذَلّـةِ والثّكْـلِ[٤]

يوم النفراوات: لبني عامر على بني عبس

فيه قتل زهير بن جذيمة بن رواحة العبسي، وكانت هوازن تؤدّي إليه إتاوة، وهي الخراج، فأتته يوما عجوزٌ من بني نصر بن معاوية بسَمن في نحْيٍ[٥] وآعتذرت إليه وشكتْ سنين تتابعت على الناس؛ فذاقه فلم يرضَ طعمَه، فدَعسها[٦] بقوس في يده عُطُلٍ في صدرها، فاستلقت على قفاها منكشفة، فتألّى خالد بن جعفر، وقال: والله لأجعلن ذراعي في عُنقه حتى يُقتل أو أُقتل! وكان زهير عَدوساً مقداماً لا يبالي ما أَقدم عليه؛ فاستقل ـ أي انفرد من قومه ـ بابنيه وبني أخويه أسيد وزنباع، يرعى الغيث في عُشَراوات[٧] له وشَول[٨] فأتاه الحارث بن الشَّريد، وكانت تماضر بنت الشريد تحت زهير؛ فلما عرف الحارث مكانه أنذر بني عامر بن صعصعة، رهط خالد

---

(١) أراغ: أراد وطلب
(٢) أقصده: لم يخطئه
(٣) الموتور: الذي قتل حميمه.
(٤) الثكل: فقد الحبيب
(٥) النحي: الزق
(٦) دعسها: طعنها
(٧) عشراوات: النوق التي مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية.
(٨) الشول: الإبل التي خف لبنها وارتفع ضرعها

ابن جعفر؛ فركب منهم ستة فوارس، فيهم خالد بن جعفر، وصخر بن الشريد، وحُندج بن البكّاء، ومعوية بن عُبادة بن عقيل، فارس الهزاز، ويقال لمعاوية: الأخيل، وهو جد ليلى الأخيلية، وثلاثة فوارس من سائر بني عامر؛ فقال أسيد لزهير: أعلمتني راعيةُ غنمي أنها رأتْ على رأس الثنية أشباحاً، ولا أحسبها إلا خيلَ بني عامر؛ فالحق بنا بقومنا. فقال زهير: «كلُّ أَزَبَّ[١] نَفور» وكان أسيد أشعر القفا. فذهبت مثلا؛ فتحمل أسيد بمن معه، وبقي زهير وابناه: ورقاء، والحارث؛ وصبَّحتْهم الفوارس، فتمرّدتْ بزهير فرسُه القعساء، ولحقه خالد ومعاوية الأخيل، فطعن معوية القعساء، فقلبت زهيرا، وخرّ خالد فوقه فرفع المغفر عن رأس زهير، وقال: يا آل عامر، أقْبِلوا جميعا! فأقبل معاوية فضرب زهيراً على مفرق رأسه ضربة بلغت الدِّماغ، وأقبل ورقاء بن زهير فضرب خالدا وعليه درعان، فلم يُغْنِ شيئا، وأجهض[٢] ابنا زهير القومَ عن زهير، واحتملاه وقد اثخنتْه الضربة، فمنعوه الماء، فقال: أميتٌ أنا عطشا! اسقوني الماء وإن كان فيه نفسي! فسقوه فمات بعد ثلاثة ايام؛ فقال في ذلك ورقاء بن زهير:

رأيتُ زُهيْراً تحت كلْكَلِ خالدٍ ... فأقبلْتُ أسْعى كالعَجول أُبادِرُ[٣]
إلى بطَلَيْنِ ينهضانِ كلاهما ... يُريدان نَصْلَ السيفِ والسيفُ نادرُ[٤]
فشلّتْ يميني يومَ أضربُ خالداً ... يمنَعه مني الحديدُ المُظاهِر
فياليْتَ أني قبلَ أيامِ خالد ... ويوم زُهيْرٍ لم تلِدْني تماضر
لعمْري لقد بشرْتِ بي إذ ولَدْتِني ... فماذا الذي رَدّت عليك البشائر

وقال خالد بن جعفر في قتله زهيراً:

بل كيف تكْفرُني هَوازنُ بعدَما ... أعْتقْتهم فتوالَدوا أحْرارا
وقتلتُ ربّهمُ زهيْراً بعدما ... جَدَعَ الأُنوفُ وأكثرَ الأوْتارا[٥]

---

(١) الأزب: البعير الذي يكثر شعر حاجبيه

(٢) أجهض: نحى (٣) العجول: الواله التي فقدت ولدها.

(٤) نادر: ساقط (٥) جدع فلاناً: قطع أنفه أو أحد أطرافه.

وجَعلــــت مَهَـــر بنــــاتِهـــمْ   عَقْلَ الملوكِ هَجائِنـاً ولِكـاراً[١]

يوم بطن عاقل: لذبيان علي عامر

فيه قتل خالد بن جعفر ببطن عاقل[٢]، وذلك أنّ خالداً قدِمَ الأسود بن المنذر، أخي النعمان بن المنذر، ومع خالد عروة الرَّحال بن عتبة بن جعفر، فالتقى خالد بن جعفر والحارث بن ظالم بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان، عند الأسود بن المنذر، قال: فدعا لهما الأسود بتمر، فجيء به على نِطْع[٣] فجُعِل بين أيديهم، فجعل خالد يقول للحارث بن ظالم: يا حارث، ألا تشكر يدي عندك أن قتلت عنك سيد قومك زهيراً وتركتك سيدَهم؟ قال: سأجزيك شكرَ ذلك! فلما خرج الحرث قال الأسود لخالد: ما دعاك إلى أن تحترش بهذا الكلب وأنت ضيفي؟ فقال له خالد إنما هو عبد من عبيدي، لو وجدني نائماً ما أيقظني! وانصرف خالد إلى قبته، فلامه عروة الرحال، ثم ناما وقد أشرجت[٤] عليهما القبة، ومع الحرث تبيع له من بني محارب يقال له خراش، فلما هدأت العيون أخرج الحرث ناقته وقال لخراش: كن لي بمكان كذا، فإن طلع كوكب الصبح ولم آتك فانظر أي البلاد أحبَّ إليك فاعْمِدْ لها. ثم انطلق الحرث حتى أتى قبة خالد، فهتك شرَجها ثم ولجها[٥]، وقال لعروة: اسكت فلا بأس عليك.

وزعم أبو عبيدة أنه لم يشعر به حتى أتى خالداً وهو نائم فقتله، ونادى عروة عند ذلك: واِجوارَ الملك! فأقبل إليه الناس، وسمع الهتاف الاسودُ بن المنذر وعنده امرأة من بني عامر، يقال لها المتجردة، فشقت جيبها وصرخت وفي ذلك يقول عبد الله بن جعدة:

شقَّتْ علْيكَ العامـريّـةُ جَيبَهـا   أسفاً وما تبكِي عليـكَ ضلالا

---

(١) العقل: الدية   (٢) بطن عاقل: موضع على طريق حاج البصرة

(٣) النطع: بساط من الجلد. كثيراً ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل.

(٤) الشرج: العري   (٥) ولج: دخل

يا حار لو نبّهتَه لوجَدْتَهُ ... لا طائشاً رَعشاً ولا معزَالا[1]
وآغرَوْرَقتْ عينايَ لما أُخبرت ... بالجعفَريِّ وأسبَلتْ إسْبالا[2]
فلنَقْتُلنَّ بخالِد سَرواتِكُمْ ... ولنجْعَلنْ للظالمينَ نَكالا[3]
فإذا رأيتمْ عارِضاً متهللا ... منّا فإنا لا نحاولُ مالا[4]

يوم رحرحان[5]: لعامر على تميم

قال: وهرب الحرث بن ظالم ونبتْ به البلاد فلجأ إلى معبد بن زرارة ـ وقد هلك زرارة ـ فأجاره؟ فقالت بنو تميم لمعبد: مالكَ آويتَ هذا المشئوم الأنكد وأغريت بنا الاسوَد وخذلوه، غير بني دُماويّة، وبني عبد الله بن دارم، وفي ذلك يقول لقيط بن زرارة:

فأمّا نَهشَلٌ وبنو نعيْمٍ ... فلم يَصبِر لنا منهُمْ صبُورُ
فإن تعْمدْ طُهَيْةُ في أُمُورٍ ... تَجدْها ثَمَّ ليس لها نصير[6]
ويربُوعٌ بأسفَل ذي طُلوحٍ ... وعمرو لا تحِلُّ ولا تسير[7]
أُسيْد والهجيمُ لها حُصاصٌ ... وأقوامٌ من الجعْراءِ عُور[8]
وأسلبْنا قبائِلَ من تَميمٍ ... لها عَدَد إذا حُسِبوا كثير
وأمّا الآثِمانِ بنو عَديّ ... وتيْمٍ إذ تُدُبِّرَتِ الأمُور
فلا تنعَم بهم فتْيانُ حرْبٍ ... إذا ما الحيُّ صبّحَهُمْ نذير
إذا ذهَبَتْ رماحُهُمُ بزيْدٍ ... فإنّ رماح تيم لا تَضيرُ

---

(١) المعزال: الذي لا سلاح معه. (٢) يقال: أسبل دمعه: أذا هطل.
(٣) السروات: جمع سراة: وسراة كل شيء: أعلاه.
(٤) العارض: السحاب الذي يعترض في الأفق.
(٥) رحرحان: اسم جبل قريب من عكاظ خلف عرفات.
(٦) يقال: طها الأمر: أجاده وأحكمه. (٧) ذي طلوح: في حزن بني يربوع
(٨) الحصاص: شدة العدو في سرعة. والجعراء بنو العنبر بن عمرو بن تميم.

قال: وبلغ الأحوص بن جعفر بن كلاب، مكان الحارث بن ظالم عند معبد فأغزا معبداً، فالتقوا برحرحان، فانهزمت بنو تميم، وأُسر معبد بن زرارة، أسره عامر والطفيل ابنا مالك بن جعفر بن كلاب فوفد لقيط بن زرارة عليهم في فدائه، فقال لهما: لكما عندي مائتا بعير. فقالا: يا أبا نهشل، أنت سيد الناس وأخوك معبد سيد مضر، فلا نقبل فيه إلا دية ملِك! فأبى أن يزيدهم، وقال لهم: إن أبانا أوصانا أن لا نزيد أحداً في دِيَّتِهِ على مائتي بعير. فقال معبد للقيط: لا تَدَعْني يا لقيط! فوالله لئن تركتني لا تراني بعدها أبداً! قال: صبراً أبا القعقاع، فأين وَصاةُ أبينا ان لا تُؤكِلوا العربَ أنفسَكم ولا تزيدوا بفدائكم على فداء رجل منكم، فتذؤب بكم ذُؤبان العرب؟[1].

ورحل لقيط عن القوم، قال: فمنعوا معبد الماء وضارُّهُ حتى مات هزالا.

وقيل: أبى معبد أن يَطعَم شيئاً أو يشرب حتى مات هزالا؛ ففي ذلك يقول عامر ابن الطفيل:

قضينا الحزْنَ من عبْس وكانتْ ... منِيّةُ معبَدٍ فينا هُزالا

وقال جرير:

وليلةَ وادِي رحرحانَ فرَرْتمُ ... فِراراً ولم تلْوُوا زفيفَ النّعائِم[2]

تركتم أبا القعْقاعِ في الغلِّ مُصفَداً ... وأيَّ أخ لم تُسْلِموا في الأداهِم[3]

وقال:

وبرْحرَحانَ غداةَ كبِّل معبد ... نكحوا بناتِكم بغيْرِ مُهور

يوم شعب جبلة[4]: لعامر وعبس على ذبيان وتميم

قال أبو عبيدة: يوم شعب جبلة أعظم أيام العرب؛ وذلك أنه لما انقضت وقعة

---

(١) ذأب فلان: فعل فعل الذئب. (٢) الزفيف: أول عدو النعام

(٣) الغلّ: القيد

(٤) جبلة: هضبة حمراء بنجد بين الشريف والشرف. الشريف ماء لبني نمير. والشرف ماء لبني طالب.

رحرحان، جمع لقيط بن زرارة لبني عامر، وألّب عليهم، وبين أيام رحرحان ويوم جبلة سنة كاملة.

وكان يوم شعب جبلة قبل الإسلام بأربعين سنة، وهو عام وُلِدَ النبي ﷺ، وكانت بنو عبس يومئذ في بني عامر حلفاء لهم، فاستعدى لقيط بني ذبيان لعداوتهم لبني عبس من أجل حرب داحس، فأجابته غطفان كلها غير بني بدر، وتجمعت لهم تميم كلها غير بني سعد، وخرجت معه بنو أسد لحلف كان بينهم وبين غطفان، حتى أتى لقيطٌ الجونَ الكلبي، وهو ملك هَجَر[1]، وكان يجبي من بها من العرب، فقال له: هل لك في قوم عادين قد ملأوا الأرض نعما وشاء فترسل معي ابنيك، فما أصبنا من مال وسبي فلهما، وما أصبنا من دم فلي؟ فأجابه الجون إلى ذلك، وجعل له موعداً رأس، الحول، ثم أتى لقيطٌ النعمان بن المنذر فاستنجده وأطمعه في الغنائم، فأجابه؛ وكان لقيط وجيها عند الملوك؛ فلما كان على قرن الحول[2] من يوم رحرحان. انهلّت الجيوش إلى لقيط؛ وأقبل سنان بن أبي حارثة المرّي في غطفان، وهو والد هرم بن سنان الجواد؛ وجاءت بنو أسد، وأرسل الجون ابنيه معاوية وعمرا، وأرسل النعمان أخاه لأمه حسان بن وبرة الكلبيّ؛ فلما توافوا خرجوا إلى بني عامر وقد أُنذروا بهم وتأهبوا لهم، فقال الأحوص بن جعفر، وهو يومئذ رحا هوازن[3]، لقيس بن زهير: ما ترى، فإنك تزعم أنه لم يعرض لك أمران إلا وجدت في أحدهما الفرج؟ فقال قيس بن زهير: الرأي أن نرتحل بالعيال والأموال حتى ندخل شعب جبلة، فنقاتل القوم دونها من وجه واحد؛ فإنهم داخلون عليك الشعب[4]، وإن لقيطا رجل فيه طيش، فسيقتحم عليك الجبل؛ فأرى لك أن تأمر بالإبل فلا تُرعى ولا تُسقى وتعقل[5]، ثم تجعل الذراري[6] وراء ظهورنا، وتأمر

(١) هجر: اسم موضع. (٢) قرن الحول: أواخر السنة

(٣) رحا هوازن: سيدهم الذي يصدرون عن رأيه وينتهون الى أمره.

(٤) الشعب: الطرق.

(٥) تعقل الابل: تضم رسغ كل منها الى يدها الى عضدها ويربطا معاً بالعقال لتبقى باركة.

(٦) الذراري: الأعالي

الرجال فتأخذ بأذناب الإبل، فإذا دخلوا علينا الشعبَ حلّت الرجالةُ عُقُل الإبل ثم لزمت أذنابَها، فإنها تنحدر عليهم وتحن إلى مرعاها ووردها ولا يردّ وجوهَها شيء، وتخرج الفرسان في أثر الرجالة الذين خلْف الإبل، فإنها تحطم ما لقيتْ، وتقبل عليهم الخيل وقد حطموا من علٍ!

قال الاحوص: نِعم ما رأيت! فأخذ برأيه، ومع بني عامر يومئذ بنو عبس وغني في بني كلاب، وباهلة في بني كعب، والأبناء ابناء صعصعة، وكان رهط المعقر البارقي يومئذ في بني نمير بن عامر، وكانت قبائل بجيلة كلها فيهم غير قَسر.

قال أبو عبيدة: وأقبل لقيط والملوك ومن معهم، فوجدوا بني عامر قد دخلوا شِعب جبلة، فنزلوا على فم الشِّعب، فقال لهم رجل من بني أسد: خُذوا عليهم فم الشعب حتى يعطشوا ويخرجوا، فوالله ليتساقطُنَّ عليكم تساقط البعْر من أست البعير!

فأتوا حتى دخلوا الشعب عليهم وقد عقلوا الإبل وعطشوها ثلاثة اخماس[1]، وذلك اثنتا عشر ليلة، ولم تطعم شيئا؛ فلما دخلوا حلوا عُقلها، فأقبلت تهوي، فسمع القوم دويِّها في الشعب، فظنوا أن الشعب قد هدم عليهم، والرجالة في أثرها آخذين بأذنابها؛ فدقَّت كل ما لقيت، وفيها بعير أعور يتلوه غلام أعسر[2] آخذ بذنبه وهو يرتجز ويقول:

أنا الغلامُ الاعسَرْ ★ الخيرُ فيّ والشرّ ★ والشرُّ فيّ أكثرْ

فانهزموا لا يلوون على أحد؛ وقتل لقيط بن زرارة، وأُسر حاجب بن زرارة أسره ذو الرُّقيبة؛ وأُسر سنان بن أبي حارثة المري أسره عروة الرحال، فجز ناصيته[3] وأطلقه فلم تشنه، وأُسر عمرو بن عمرو بن عُدَس، أسره قيس بن المنتفق فجزَّ

(١) أخماس: جمع خمس، وهن من أظماء الأبل، وذلك أن ترعى ثلاثة أيام وترد في الرابع

(٢) الأعسر: الذي يطعن بيده اليسرى

(٣) الناصية: شعر مقدم الرأس اذا طال

ناصيته وخلاه طمعا في المكافأة، فلم يفعل؛ وقتل معاوية بن الجون، ومنقذ ابن طريف الأسدي، ومالك بن ربعي بن جندل بن نهشل؛ فقال جرير:

كأنك لم تشَهـدْ لقيطـاً وحـاجبـاً وعمرَو بنَ عمرٍ إذ دعـا يـالـدارم
ويومَ الصَّفـا كنتمْ عبيـداً لعـامـرٍ وبالحزْنِ أصبحتُم عبيدَ اللهازم(١)

يعني بالحزن: يوم الوَقيط.

وقال جرير أيضاً في بني دارم:

ويوم الشِّعبِ قد تَركوا لقيطـاً كـأن عليـه حُلـة أرجُـوانِ
وكُبِّـل حـاجـبٌ بشمامَ حـولاً فحكَّمَ ذا الرَّقيبَةِ وهْو عـانِ(٢)

وقالت دُختَنوس بنت لقيط ترثي لقيطا:

قـزتْ بنـو أسـدٍ وخـ ـرَّ الطيْرُ عـن أربـابِهـا
عـن خير خُنْدَفَ كلّهـا مـن كهلِهـا وشبـابِهـا
وأتَمِّهـا حسَبـاً إذا نُصَّـتْ إلى أحْسـابها

وقال المعقر البارقي:

أمِنْ آل شعثاءَ الحمولُ البـواكـرُ مـع الصُّبح أمْ زالتْ قُبيـلُ الأبـاعِـرُ
وحلَّت سُلَيْمـى في هِضـابٍ وأيكـةٍ فليس عليهـا يـومَ ذلـك قـادرُ
وألقتْ عصاها وآستقَرت بها النَّوى كما قرَّ عيناً إذا بالإياب المسافـر(٣)
وصبَّحهـا أملاكهـا بكتيبـةٍ عليهـا إذا أمسـت مـن اللهِ نـاظـر
معـاويـةُ بن الجوْن ذُبيـانُ حـولـهُ وحسّـانُ في جمع الرِّبـاب مُكـاثـر
وقد زحفت دُودانُ تبْغي لثـأرهـا وجاشـت تميمٌ كـالفُحـول تخاطِـر
وقـد جمعـوا جَمْعـاً كـأنّ زُهـاءَهُ جَرادٌ هَفـا في هَبـوَةٍ مُتطـايـرُ(٤)
فمروا بأطنـاب البُيـوتِ فـردّهُـم رجالٌ بأطنابِ البيوتِ مسـاعِـرُ(٥)

---

(١) اللهازم: لقب بني تيم الله بن ثعلبة.
(٢) شمام: جبل لباهلة.
(٣) النوى: البعد
(٤) الهبوة: الغبرة.
(٥) مساعر: جمع مسعر. وهو الشديد الطويل.

فبـاتـوا لنـا ضَيفـاً وبتنـا بنعْمَـةٍ　　لنا مُسْمِعات بالدفُّـوفِ وزَامِـرُ
فلم نُقْرِهِـم شيئـاً ولكـن قِـراهُـمُ　　صبوحٌ لديْنا مَطلعَ الشّمس حازرُ (١)
وصبّحَهُم عنـد الشروق كتـائـبٌ　　كأركانِ سَلْمى سَيْرُهـا مُتـواتِـرُ
كـأنّ نعَـام الدَّوِّ بـاضَ عليهـم　　وأعيُنُهم تحت الحبيـك خـوازرُ (٢)
منَ الضاربين الهامَ يمشون مقْـدَمـا　　إذا غُصَّ بالرِّيق القليـل الحنـاجِـرُ
أظنَّ سَراةَ القوْم أن لـنْ يُقـاتلـوا　　إذا دعيتْ بالسفحِ عبْسٌ وعـامِـرُ
ضَرَبنا حَبكَ البيض في غمْرِ لُجَّـةٍ　　فلم يَنج في الناجين منهـم مُفـاخِـرُ
هَوَى زهْدَم تحت العجاج لعـامـر　　كما آنقَضّ باز أقتُم الرِّيش كاسر (٣)
يفـرِّج عنـا كـلَّ ثَغـر نخافـه　　مِسَحّ كسرْحانِ الفصيمةِ ضامـر (٤)
وكـل طمـوح في العنـان كـأنها　　إذا آغتَمَسَت في الماء فتْخاءُ كاسِـرُ (٥)
لها ناهِضٌ في الوكْر قد مَهدَت لـه　　كما مَهدَت للبَعْل حسناءُ عاقـر (٦)
تخافُ نســاءٌ يبْتــززْن حليلَهـــا　　مُحرِّبة قد أحردَتْهـا الضَّـرائـر (٧)

استعار هذا البيت « فألقت عصاها » من المعقر البارقي . إذ كان مثلا في الناس - راشد بن عبد ربه السُّلَمى ، وكان رسول الله ﷺ قد استعمل أبا سفيان بن حرب على نجران فولاه الصلاة والحرب ، ووجه راشد ابن عبد ربه السلمي أميراً على المظالم والقضاء ؛ فقال راشد بن عبد ربه :

صحَا القلبُ عن سلْمى وأقْصر شأْوُه　　وردّت عليـه تبتغيـه تّماضُـر (٨)

---

(١) حازر : الحامض من اللبن .
(٢) يقال خزرت العين : اذا صغرت وضاقت خلقة .
(٣) أقتم الريش : أسوده . والكاسر : الذي يكسر جناحيه ويضمهما اذا أراد السقوط
(٤) المسح : الفرس الجواد السريع . والقصيمة : رملة تنبت الغضا .
(٥) الفتخاء الكاسر : العقاب . والفتخ : اللين في المفاصل وغيرها
(٦) الناهض : الفرخ الذي وقرجناحاه متى استقل للنهوض
(٧) محربة : شديدة الغضب　　(٨) الشأو : الشوط ، أو الأمد والغاية

وحلمه شيْبُ القَذَال عن الصِّبا ... ولَلشيْبُ عن بعض الغوايَةِ زاجِرُ[1]
فأقصرَ جهلي اليومَ وآرتدَّ باطلي ... عن اللهو لمّا آبيضّ مني الغدائر
على أنه قد هاجَه بعد صَحوَةٍ ... بمعرض ذي الآجام عِسّ بواكِرُ[2]
ولما دنتْ من جانب الغُوط أخصبتْ ... وحلَّت فلاقاها سُلَيْمٌ وعامر
وخبّرَها الرُكبانُ أن ليس بينَها ... وبين قُرى بُصْرَى ونَجْران كافر
فألقت عصاها وآستقرّت بها النّوى ... كما قرّ عيْناً بالإياب المُسافر[3]

فاستعار هذا البيت الأخير من المعقر البارقي، ولا أحسبه استجاز ذلك إلا لاستعمال العامة له وتَّمثلهم به.

يوم مقتل الحارق بن ظالم بالخَرَبَة[4]

قال أبو عبيدة: لما قَتل الحارثُ بن ظالم خالد بن جعفر الكلابي، أتى صديقا له من كندة فالتف عليه، فطلبه الملك فخفى ذكرُه حتى شخص من عند الكندي، وأضمرتْه[5] البلاد حتى استجار بزياد أحد بني عجل بن لجيم، فقام بنو ذهل بن ثعلبة وبنو عمرو بن شيبان فقالوا لعجل: أخرجوا هذا الرجل من بين أظهركم؛ فإنه لا طاقة لنا بالشهباء ودوسر ـ وهما كتيبتان للأسود بن المنذر ـ ولا بمحاربة الملك فأبت ذلك عليهم عجل، فلما رأى ذلك الحارث بن ظالم كره أن تقع بينهم فتنة بسببه، فارتحل من بني عجل إلى جبلَي طيء، فأجاروه، فقال في ذلك:

لَعمْري لقد حَلّت بي اليوْمَ ناقتي ... على ناصرٍ من طيِّىء غير خاذِلِ
فأصبحْتُ جاراً للمَجَرّة فيهم ... على باذخٍ يعلو يدَ المُتطاول[6]
إذا أَجا لفَّتْ عليَّ شِعابها ... وسَلْمى فأنَّى أنتم مِن تناوُلي[7]

---

(١) القذال: جماع مؤخر الرأس (٢) العيس: الإبل
(٣) الإياب: العودة والرجوع.
(٤) الخربة: مما يلي ضربة (٥) أضمرته: أهزلته وأضعفته
(٦) المجرّة: مجموعة كبيرة من النجوم.
(٧) أجأ وسلمى: جبلان عن يسار سميراء وبينهما سير ليلتين.

فمكث عندهم حينا، ثم إن الاسود بن المنذر لما اعجزه أمره أرسل إلى جارات كن للحارث بن ظالم، فاستاقهنّ وأموالهن، فبلغ ذلك الحارث بن ظالم، فخرج من الحين فاندس الحارث بن ظالم في الناس حتى علم مكان جاراته ومرعى إبلهنّ، فأتاهـنّ فاستنقذهنّ واستاق إبلهنّ، فألحقهنّ بقومهنّ؛ واندس في بلاد غطفان، حتى أتى سنان بن أبي حارثة المُري ـ وهو ابو هرم الذي كان يمدحه زهير ـ وكان الاسود بن المنذر قد استرضع ابنه شرحبيل عند سلمى امرأة سنان وهي من بني غنم بن دودان بن أسد، فكانت لا تأمن على ابن الملكِ أحداً؛ فاستعار الحارث بن ظالم سرج سنان وهو في ناحية الشربة[1]، لا يعلم سنانٌ ما يريد، وأتى بالسرج امرأة سنان وقال لها: يقول لك بعلك آبعثي ابنك مع الحارث، فإني أريد أن استأمن له الملك؛ وهذا سرجه آية ذلك. قال: فزيَّنته سلمى ورفعته إليه فأتى به ناحية من الشربة فقتله؛ وقال في ذلك:

أَخُصْـي حمار بـات يَكـدِم نجمـة أتوكل جـاراتي وجـارُك سـالم[2]
علوْتُ بذِي الحيّات مفْرِقَ رأُسِـه ولا يركبُ المكروه إلا الأكـارمُ[3]
فتكـتُ بـه كما فتكْـت بخالـدٍ وكان سلاحي تجتويـهِ الجماجِـمُ[4]
بـدأْتُ بـذاك وآنثنيْـت بهذه وثـالثـة تبْيـضُّ منهـا المَقـادِم

قال: وهرب الحارث من فوره ذلك، وهرب سنان بن أبي حارثة، فلما بلغ الاسود قتل ابنه شرحبيل، غزا بني ذبيان، فقتل وسبي وأخذ الأموال، وأغار على بني دودان رهط سلمى التي كان شرحبيل في حجرها؛ فقتلهم وسباهم فنشط لذلك، قال: فوجد بعد ذلك نعلي شرحبيل في ناحية الشربة عند بني محارب بن خصفة، فغزاهم الملك، ثم أسرهن، ثم أحمى الصفا[5]، وقال: إني أحذيكم نعالا فأمشاهم على ذلك الصفا، فتساقطت أقدامهم، ثم إن سيار بن عمرو بن جابر الفزاري، احتمل للاسود

---

(١) الشّربة: موضع بين السلسلة والربذة.

(٢) النجمة: واحدة النجم، وهو من النبات ما لا ساق له.

(٣) ذو الحيات: اسم سيف الحارث. (٤) تجتويه: لا يوافقها

(٥) الصفا: جمع الصفاة، وهو الحجر العريض الأملس.

دية ابنه ألف بعير، وهي دية الملوك، ورهنه بها قوسه فوفاه بها، فقال في ذلك:

ونحن رهَنّا القوْسَ ثُمَّتَ فُوديَتْ ... بألْف على ظهر الفزاري أقْرعا[1]
بعشرِ مِئين للملوك وفَى بها ... ليَحمد سيّار بن عمرو فأسرعا

فكان هذا قبل قوس حاجب، فقال في ذلك أيضاً:

هل وجدتم حاملاً كحاملي ... إذا رهَن القوْس بألفٍ كامل
بديَةِ ابن المَلِك الحُلاحِلِ ... فآفْتكّها من قبل عامٍ قابل
سيّارٌ المُوفِي بها ذو النائل

وهرب الحارث فلحق بمعبد بن زارة فاستجار به فأجاره، وكان من سببه وقعة رحرحان التي تقدّم ذكرها؛ ثم هرب الحارث حتى لحق بمكة وقريش؛ لأنه يقال إن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان، إنما هو مرة بن عوف بن لؤي بن غالب؛ فتوسل اليهم بهذه القرابة، وقال في ذلك:

إذا فارَقْتُ ثعلبةَ بن سعدٍ ... وإخوتَهم نُسِبتُ إلى لؤيٍّ
إلى نسب كريم غير دَغلٍ ... وحيّ من أكارِم كلِّ حيّ[2]
فإن يك منهم أصلي فمنهم ... قرابين الإله بنو قُصيّ

فقالوا: هذه رحم كرْشاء[3] إذا استغنيتم عنها لن يَترِكم[4]. قال: فشخص الحارث عنهم غضبان. وقال في ذلك:

ألا لستمُ منا ولا نحن منكم ... برئنا إليكم من لؤيّ بن غالب
غدوْنا على نَشزِ الحجاز وأنتمُ ... بِمنْشعِبِ البطحاء بين الاخاشِب[5]

وتوجه الحارث بن ظالم إلى الشام، فلحق بيزيد بن عمرو الغساني فأجاره وأكرمه،

---

(١) ألف أقرع: أي تام.
(٢) الدغل: عيب في الأمر يفسده
(٣) كرشاء: بعيدة (٤) لن يترِكم: أي لن ينقصكم ذلك
(٥) النشز: المرتفع من الأرض. والبطحاء: بطحاء مكة والأخاشب: جبال مكة وجبال منى.

وكان ليزيد ناقة مُحماة[1] ، في عنقها مدية وزنادة وصرَّة ملح؛ وإنما كان يمتحن بها رعيته لينظر من يجترىء عليه، فوحمت امرأة الحارث فاشتهت شحما في وحمها؛ فانطلق الحارث إلى ناقة الملك فانتحرها، وأتاها بشحمها، وفقدت الناقة، فأرسل الملك إلى الحمْس التغلبي وكان كاهنا، فسأله عن الناقة؛ فأخبره أن الحارث صاحبها، فهمّ الملك به، ثم تذمّم[2] من ذلك؛ وأوجس الحارث في نفسه شرا فأتى الخِمس التغلبي فقتله. فلما فعـل ذلك دعا به الملك فأمر بقتله، فقال: أيها الملك إنك قد أجرْتني فلا تغدِرَنّ بي! فقال الملك: لا ضَيْر، إن غدرت بك مرة فقد غدرت بي مراراً! وأمر ابن الخِمس فقتله، وأخذ ابن الخمس سيف الحارث فأتى به عكاظ في الاشهر الحُرُم، فأراه قيس بن زهير العبسي، فضربه قيس فقتله، وقال يرثي الحارث بن ظالم:

وما قصَرَت من حاضِنٍ سِتْر بيتهـا   أبَرَّ وأوْفى منك حـار بن ظـالم[3]
اعـزَّ وأحمى عنـد جـارٍ وذمّـة   وأضربُ في كابٍ مِن النّقْع قـاتم[4]

حرب داحس والغبراء: وهي من حروب قيس

قال ابو عبيدة: حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ابني بغيض بن ريث بن غطفان؛ وكان السبب الذي هاجها أن قيس بن زهير، وحَمَل بن بدر، تراهنا على داحس والغبراء أيهما يكون له السبْق، وكان داحس فحلا لقيس بن زهير، والغبراء حِجْراً[5] لحمل بن بدر، وتواضعا الرهان على مائة بعير، وجعلا منتهى الغاية مائة غلوة[6] ، والإضمار[7] أربعين ليلة؛ ثم قادوهما إلى رأس الميدان بعـد أن أضمـروهما

(١) محماة: محمية
(٢) تزمم: استنكف
(٣) قصرت الستر: أرخته
(٤) النقع: الغبار الساطع
(٥) الحجر: الفرس
(٦) الغلوة: مقدار رمية بسهم.
(٧) الاضمار: أن تشد على الخيل سروجها وتجعل بالأجلة حتى تعرق تحتها فيذهب رهلها ويشتد لحمها ويحمل عليها غلمان خفاف، يجرونها ولا يعنقون بها، فاذا فعل ذلك أمن عليها البهر الشديد عند حضرها ولم يقطعها الشدّ.

أربعين ليلة، وفي طرف الغاية شعاب كثيرة، فأكمن حَملَ بن بدر في تلك الشعاب فتيانا على طريق الفرسين، وأمرهم إن جاء داحس سابقاً يردُّوا وجهه عن الغاية.

قال: فأرسلوهما فأحضرا[1]، فلما أُحضرا خرجت الانثى من الفحل، فقال حمل بن بدر: سبقتك يا قيس! فقال قيس: رويداً يعْدُوَان الجدَدَ[2] إلى الوعْث وترشح أعطاف الفحل. قال: فلما أوغلا في الجدَد وخرجا إلى الوعث، برز داحس عن الغبراء، فقال قيس: جري المذكيات[3] غِلاء[4]. فذهبت مثلا، فلما شارف داحس الغاية ودنا من الفِتية، وثبوا في وجه داحس فردُّوه عن الغاية؛ ففي ذلك يقول قيس ابن زهير:

وما لاقَيْتُ من حَمَلِ بن بـدرٍ　　وإخوَتِـه على ذات الإصـادِ[5]
هُمُ فخَـرُوا علَـيَّ بغيْـر فخْـر　　ورَدوا دونَ غـايتِـه جَـوادِي

وثارت الحرب بين عبس وذبيان ابني بغيض، فبقيت أربعين سنة لم تُنتَجْ لهم ناقة ولا فرس، لاشتغالهم بالحرب، فبعث حذيفةُ بن بدر ابنه مالكا إلى قيس بن زهير يطلب منه حق السبق، فقال قيس: كلا لا مطلتك به. ثم أخذ الرمح فطعنه به فدق صلبه، ورجعت فرسه عارية؛ فاجتمع الناس فاحتملوا دية مالك مائة عُشراء - وزعموا أن الربيع بن زياد العبسي حملها وحده - فقبضها حذيفة، وسكن الناس.

ثم ان مالك بن زهير نزل اللّقاطة[6] من أرض الشربة، فأخبر حُذيفة بمكانه، فعدا عليه فقتله. ففي ذلك يقول عنترة الفوارس:

فلله عيْنا مَنْ رأَى مثلَ مالِـك　　عقيرَةَ قوْمٍ أن جرَى فرسانِ[7]

---

(١) الإحضار: ارتفاع الفرس في عدوه.
(٢) الجدد: قضاء لا نبت فيه، والوعث السهل الكثير الدهس تغيب فيه الأقدام.
(٣) المذكيات من الخيل: التي قد أتى عليها بعد تروحها سنة أو سنتان.
(٤) غلاء: جمع غلوة: أي أن جريها يكون غلوات، أي مغالبة
(٥) الإصاد: الماء الذي لطم عليه داحس.
(٦) اللقاطة: الموضع الذي قتل فيه مالك بن زهير
(٧) العقيرة: الرجل الشريف يقتل.

فليْتَهما لم يَجْرِيا قيدَ غَلْوَةٍ   وليْتَهما لم يُرسَلا لرِهانِ

فقالت بنو عبس: مالك بن زهير بمالك بن حذيفة، وردُوا علينا مالنا. فأبى حذيفة أن يرد شيئاً؛ وكان الربيع بن زياد مجاوراً لبني فزارة، ولم يكن في العرب مِثله ومثلُ إخوته، وكان يقال لهم: الكَمَلَة؛ وكان مشاحناً[1] لقيس بن زهير من سبب درع لقيس غلبه عليها الربيع بين زياد؛ فاطرد قيس لبوناً لبني زياد فأتى بها مكة، فعاوَض بها عبد الله بن جدعان بسلاح؛ وفي ذلك يقول قيس بن زهير:

أَلم يبلغك والأنباءُ تنمِي   بما لاقَتْ لبونُ بنِي زِيادِ
ومَحْبِسها على القُرَشِيِّ تُشْرَى   بأَدراعٍ وأسيافٍ حِداد
وكنتُ إذا بُلِيتُ بخصْمِ سوءٍ   دلَفْتُ له بداهِيَةٍ نآدِ[2]

ولما قُتل مالك بن زهير، قامت بنو غزارة يسألون ويقولون: ما فعل حمارُكم؟ قالوا: صدناه! فقال الربيع: ما هذا الوحي؟ قالوا: قتلْنا مالك بن زهير. قال: بئس ما فعلتم بقومكم؛ قبلتم الدية ثم رضيتم بها وغدرتم! قالوا: لولا أنك جارُنا لقتلناك! وكانت خُفرة[3] الجار ثلاثا: فقالوا له: بعد ثلاث ليال آخرج عنا. فخرج واتبعوه، فلم يلحقوه حتى لحق بقومه، وأتاه قيس بن زهير فعاقده، وفي ذلك يقول الربيع:

فإن تكُ حرْبُكم أَمستْ عَوانا   فإني لم أكُن مِمن جناها[4]
ولكن ولْدُ سوْدَةَ أرّثوها   وحَشوا نارَها لِمَن اصطلاها[5]
فإني غيْرُ خاذِلكم ولكِنْ   سأسْعَى الآن إذ بلغَتْ مدَاها

ثم نهضت بنو عبس وحلفاؤهم بنو عبد الله بن غطفان إلى بني فزارة وذبيان؛ ورئيسهم الربيع بن زياد، ورئيس بن فزارة حذيفة بن بدر.

---

(١) المشاحن: الحاقد. (٢) النآد: الداهية
(٣) أي اذا أجاره ومنعه وأمنه.
(٤) العوان: هي من الحروب التي قوتل فيها مرة.
(٥) ولد سودة: هم بني بدر بن عمرو

يوم المريقب: لبني عبس على فزارة

فالتقوا بذي المريقب من أرض الشَّربَّة فاقتتلوا، فكانت الشوكة في بني فزارة؛ قُتل منهم عوفُ بن زيد بن عمرو بن أبي الحصين، أحد بني عدي بن فزارة؛ وضمضم أبـو الحصين المرِّي، قتلـه عنترةُ الفـوارس، ونفـرٌ كثير ممن لا يُعــرف اسماؤهم؛ فبلغ عنترةَ أن حصيناً وهرما ابنيْ ضمضم يشتمانه ويوعدانه، فقال في قصيدته التي أوّلها:

هـل غـادرَ الشعـراءُ مــن مُتَرَدَّمِ ... أمْ هل عرفْت الدارَ بعد تَوَهُّـم[1]
يـا دار عبْلــةَ بالجواءِ تكلَّمــي ... وعمِي صباحاً دار عبلةَ وآسلمـي[2]
ولقد خشيتُ بأن أمـوتَ ولم تَـدُرْ ... للحرب دائـرةٌ على آبنيْ ضمضم[3]
الشـاتَمـيْ عِـرْضِــي ولم أشتُمْهُما ... والنَّــاذِرَيْــنِ إذا لم آلقَهُما دمِــي
إنْ يفعَلا فلقـد تـركـتُ أبــاهُما ... جزر السِّباع وكـلِّ نسْـرٍ قشعَـم[4]
لَمَّا رآني قــد نــزلــتُ أُريــدُه ... أبْـدى نـواجـذَهُ لغيْـر تبسُّـمِ[5]

وفي هذه الوقعة يقول عنترة الفوارس:

فلتعلمـنّ إذ التَقَـتْ فُـرْســانـنــا ... يـومَ المُرَيْقِـبِ أنّ ظنَّـكَ أحْمَـقُ

يوم ذي حُسًّى: لذبيان على عبس

ثم إن ذبيان تجمعت لِمَا أصابت منهم يوم المريقب فزارة بنُ ذبيان ومرةُ بن عوف بن سعد بن ذبيان وأحلافَهم، فنزلوا فتوافوا بذي حُسًّى ـ وهو وادي الصفا من أرض الشربة وبينها وبين قَطن[6] ثلاث ليال، وبينها وبين اليَعمريّة[7] ليلة.

(١) المتردم: الذي يتعقب ويطلع على ما فيه فلان من الناس.

(٢) الجواء: واد في ديار عبس وأسد.

(٣) هما حصين وهرم ابني ضمضم.

(٤) جزر السباع: قطعاً. والقشعم: الكبير من النسور

(٥) النواجذ: الأضراس. (٦) قطن: موضع من أرض الشربة.

(٧) اليعمرية: ماء بواد من بطن نخلة من الشربة

فهربت بنو عبس، وخافت أن لا تقوم بجماعة بني ذبيان، واتبعوهم حتى لحقوهم، فقالوا: التفاني أو تُقيدونا[1]. فأشار قيسُ بن زهير على الربيع بن زياد أن لا يناجزوهم، وأن يعطوهم رهائن من أبنائهم حتى ينظروا في أمرهم؛ فتراضوا أن تكون رُهُنهم عند سبيع بن عمرو، أحد بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان؛ فدفعوا إليه ثمانية من الصبيان وانصرفوا وتكافَّ الناس، وكان رأيُ الربيع مناجزَتُهم[2] فصرفه قيس عن ذلك، فقال الربيع:

أقــولُ ولم أمْلِــك لقَيْسٍ نصيحَــةً   فقد حشَّ جاني الحربِ ناراً تضَرَّمُ[3]

فمكث رهنهم عند سبيع بن عمرو حتى حضرته الوفاة، فقال لابنه مالك بن سبيع: إن عندك مكرُمةً لا تبيد إن أنت حفظتَ هؤلاء الأغَيْلَمة؛ فكأني بك لو مِتُّ أتاك خالك حذيفة بن بدر فعصر[4] لك عينيه وقال: هلك سيدُنا! ثم خدعك عنهم حتى تدفعهم إليه فيقتلهم، فلا تَشْرُفُ بعدها أبداً، فإن خفت ذلك فاذهب بهم إلى قومهم. فلما هلك سبيع أطاف حذيفة بابنه مالك وخدعه حتى دفعهم إليه، فأتى بهم اليعمرية، فجعل يُبرز كل يوم غلاماً فينصبه غرضا، ويقول: ناد أباك! فينادي أباه حتى يقتله.

يوم اليعمرية: لعبس على ذبيان

فلما بلغ ذلك من فعل حذيفة بني عبس اتوهم باليعمريّة، فلقوهم بالحرّة - حَرة اليعمرية - فقتلوا منهم اثني عشر رجلا؛ منهم مالكُ بن سبيع الذي رمَى بالغِلمة إلى حُذيفة، وأخوه يزيد بن سبيع، وعامر بن لوذان، والحرث بن زيد، وهرم بن ضمضم أخو حصين. ويقال ليوم اليعمرية: يوم نفر؛ لأن بينهما أقل من نصف يوم.

---

(١) تقيدونا: أي تعطونا القاتل نقتله بمن قتل.

(٢) المناجزة: المقاتلة والمحاربة

(٣) حش النار: اسعرها.

(٤) عصر عينيه: يقال عصر الشيء: اذا استخرج ما فيه من دهن أو ماء ونحوه.

يوم الهباءة: لعبس على ذبيان

ثم اجتمعوا فالتقوا في يوم قائظ إلى جنب جفر الهبَاءة[1]، واقتتلوا من بُكرةٍ حتى انتصف النهار، وحجز الحَرُّ بينهم؛ وكان حذيفة بن بدر يحرق فخذيه الركض، فقال قيس بن زهير: يا بني عبس، إن حذيفة غداً إذا احتدمت الوديقة[2] مستنقعٌ في جفر الهباءة فعليكم بها. فخرجوا حتى وقعوا على أثر صارف، فرس حذيفة، والحنفاء، فرس حمل بن بدر؛ فقال قيس بن زهير: هذا اثر الحنفاء وصارف، فقفوا أثرهما حتى توافوا مع الظهيرة على الهباءة. فبصُرَ بهم حمل بن بدر، فقال لهم: مَن أبغضُ الناس إليكم أن يقف على رؤسكم؟ قالوا: قيس بن زهير، والربيع بن زياد، فقال: هذا قيس بن زهير قد أتاكم فلم ينقض كلامه حتى وقف قيس وأصحابه على جفر الهباءة، وقيس يقول: لبيكم لبيكم! يعني إجابة الصَّبية الذين كانوا ينادونهم إذ يُقتلون! وفى حذيفة وحمل ابنا بدر ومالك بن بدر، وورقاء بن خلال من بني ثعلبة ابن سعد، وحَنَس بن وهب، فوقف عليهم شدّدا بن معاوية العبسي، وهو فارس جروة، وجروة فرسه، ولها يقول:

ومَن يَكُ سائلا عني فإني ... وجرْوَةَ كالشَّجا تَحت الوَريدِ[3]
أُقوِّتُها بقُوتي إنْ شَتَوْنا ... وأَلْحَفُها رِدائي في الجَليد

فحال بينهم وبين خيليهم، ثم توافت فرسان بني عبس، فقال حمل: ناشدتك الله والرحِم يا قيس! فقال: لبيكم لبيكم! فعرف حذيفة أنه لن يدعهم، فانتهر حملا وقال: إياك والمأثورَ من الكلام! فذهبتْ مثلا، وقال لقيس: لئن قتلتني لا تصلح غطفان بعدها! فقال قيس: أبعدها الله ولا أصلحها! وجاءه قِراوش بِمعْبلةٍ[4] فقصم صلبه، وابتدره الحارث بن زهير وعمرو بن الأسلع، فضربا بسيفهما حتى ذَفَّفا[5]

---

(١) جفر الهباءة: مستنقع في بلاد غطفان

(٢) الوديقة: حرّ نصف النهار.

(٣) الشجا: ما اعترض ونشب في الحلق من عظم أو نحوه.

(٤) المعبلة: نصل طويل عريض. (٥) ذفَّف عليه: أجهز عليه

عليه، وقَتل الربيعُ بن زياد حملَ بدر، فقال قيس بن زهير يرثيه:

تعلَّم أنَّ خيرَ الناس ميْتٌ على جفْر الهباءَةِ ما يَريمُ
ولولا ظُلمه ما زلتُ أبكي عليه الدهرَ ما طَلع النُّجومُ
ولكنَ الفتَّى حَمْلَ بنَ بدر بغى والبغْيُ مَرتَعُه وخِيم[1]
أظنّ الحلَم دلَّ عليَّ قومي وقد يُستضعَفُ الرجلُ الحليم
ومارَسْتُ الرجالَ ومارَسوني فمُعوج عليَّ ومُستقيم

ومثَّلوا بحذيفة بن بدر كما مثَّل هو بالغلمة، فقطعوا مذاكيره وجعلوها في فيه، وجعلوا لسانه في استه؛ وفيه يقول قائلهم:

فإن قتيلا بالهباءَة في آستِه صحيفتُه إنْ عاد للظلم ظالمُ
متى تقرَءُوها تَهدِكم عن ضلالكم وتُعرَفْ إذا ما فضَّ عنها الخواتِم

وقال في ذلك عقيل بن عُلَّقة المزي:

ويُوقِدُ عوْفٌ للعشيرةِ نارَه فهلاّ على جفْرِ الهباءَة أوْقَدا
فإنَّ على جفْر الهباءة هامَةً تُنادِي بني بَدْرٍ وعاراً مخلَّداً[2]
وإنّ أبا وَرْدٍ حُذيفَةَ مُثفرٌ بأير على جفْر الهباءة أسْودَا[3]

وقال الربيع بن قعنب:

خَلقَ المخازي غير أنّ بذي حُسى لبَني فزارةَ خِزْيَة لا تَخلَقُ[4]
تبيان ذلك أنّ في آست أبيهمُ شنعاء من صُحِف المخازي تَبْرُق

وقال عمر بن الاسلع:

إن السماء وان الارض شاهدةٌ والله يشهَدُ والانسان والبلدُ

---

(١) وخيم: لا تحمد عقباه

(٢) كانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لم يدرك بثأره تصير هامة فتزقو عند قبره تقول: اسقوني اسقوني. فاذا ادرك بثأره طارت.

(٣) مثغرّ بأير: أي قد احتشي به

(٤) ذو حسى: واد بأرض الشربة من ديار عبس وذبيان.

أنّي جَزيتُ بني بدرٍ بسعيهمُ ... على الهباءةِ قتْلا مالَه قَودُ[1]
لمّا التقينْا على أرجاءِ جُمَّتِها ... والمَشرَفيَّة في أيمانِنا تَقِد[2]
عَلَوْتُه بحُسامٍ ثم قلتُ له ... خذْها إليك فأنت السيدُ الصمد[3]

فلما اصيب أهل الهباءة واستعظمت غطفانُ قتلَ حذيفة، تجمعوا، وعرفت بنو عبس أن ليس لهم مقام بأرض غطفان، فخرجوا إلى اليمامة فنزلوا بأخوالهم بني حنيفة، ثم رحلوا عنهم فنزلوا ببني سعد بن زيد بن مناة.

يوم الفروق

ثم ان بني سعد غدروا بجوارهم فأتوا معاوية بن الجون فاستجاشوه[4] وأرادوا أكلهم، فبلغ ذلك بني عبس، ففرّوا ليلاً، وقدَّموا ظعنهم[5]، ووقف فرسانهم بموضع يقال له الفَروق[6]، وأغارت بنو سعد ومن معهم من جنود الملك على محلتهم، فلم يجدوا إلا مواقد النيران، فاتبعوهم حتى أتوا الفروق، فإذا بالخيل والفرسان وقد توارت الظعن عنهم، فانصرفوا عنهم، ومضى بنو عبس فنزلوا ببني ضبة فأقاموا فيهم، وكان بنو جَذيمة من بني عبس يسمَّوْن بني رواحة، وبني بدر بن فزارة يسمون بني سودة؛ ثم رجعوا إلى قومهم فصالحوهم.

وكان أوّلَ من سعى في الحمالة حرملة بن الأشعر بن صرمة بن مرة، فمات؛ فسعى فيها هاشم بن حرملة ابنُه، وله يقول الشاعر:

أحْيا أباه هاشمُ بنُ حَرْمَلَهْ ... يومَ الهباتيْن ويومَ اليَعْمَلَهْ

(١) القود: القصاص. (٢) الجمة: الماء. يريد مستنقع الهباءة.
(٣) الصمد: المقصود لقضاء الحاجات
(٤) استجاشوه: طلبوا منه جيشاً.
(٥) ظعنهم: النساء ما بقين في الهوادج
(٦) الفروق: عقبة دون هجر الى نجد

تَرى الملوكَ حولـه مُـرَعْبَلـهْ يَقْتلُ ذا الذَّنْب ومَن لا ذنْب لـه[١]

يوم قطن

فلما توافوا للصلح، وقفت بنو عبس بقَطن، وأقبل حصين بن ضمضم، فلقي تَيحان أحد بني مخزوم بن مالك فقتله بأبيه ضمضم، وكان عنترة بن شدّاد قتله بذي المريقب، فأشارت بنو عبس وحلفاؤهم بنو عبد الله بن غطفان، وقالوا: لا نصالحُكم ما بلَّ البحرُ صُوفة[٢]، وقد غدرتم بنا غير مرة. وتناهض القوم: عبس وذبيان، فالتقوا بقطن[٣]، فقَتل يومئذ عمرو بن الأسلع عيينة، ثم سفرت[٤] السفراء بينهم؛ وأتى خارجة بن سنان أبا تيحان بابنه فدفعه إليه، فقال: في هذا وفاءٌ من ابنك! فأخذه فكان عنده أياما، ثم حمل خارجة لأبي تيحان مائة بعير قادها إليه، واصطلحوا وتعاقدوا.

يوم غدير قلهى

قال أبو عبيدة: فاصطلح الحيان، إلا بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان، فإنهم أبَوْا ذلك وقالوا: لا نرضى حتى يُودُوا قتلاناً أو يُهدَر دمُ من قتلها فخرجوا من قطن حتى وردوا غدير قلهى، فسبقهم بنو عبس إلى الماء، فمنعوهم حتى كادوا يموتون عطشا ودوابّهم، فأصلح بينهم عوف ومعقل ابنا سبيع من بني ثعلبة، وإياهما يعني زهير بقوله:

تَداركْتُما عبْساً وذبْيانَ بعـدمـا تفانوا ودَقُّوا بينَهم عِطرَ مَنْشَـم[٥]

فوردوا حرباً وأخرجوا عنه سلما.

تم حرب داحس والغبراء.

---

(١) مرعبلة: ممزقة. (٢) صوف البحر: شيء على شكل الصوف الحيواني. واحدته: صوفة.
(٣) قطن: موضع من أرض الشربة. (٤) سفرت: أصلحت
(٥) منشم: امرأة كانت تنتجع العرب وتبيعهم عطرها، فأغار عليها قوم من العرب.

يوم الرقم: لغطفان على بني عامر

غزت بنو عامر فأغاروا على بلاد غطفان بالرَّقَم[1] ـ وهو ماء لبني مرة ـ وعلى بني عامرٍ: عامرُ بن الطفيل ـ ويقال يزيد بن الصعق ـ فركب عيينة بن حصن في بني فزارة، ويزيد بن سنان في بني مرة ـ ويقال الحارث بن عوف ـ فانهزمت بنو عامر، وجعل يقاتل عامر بن الطفيل ويقول: يا لقيس لا تقتلي تموتي! فزعمت بنو غطفان أنهم أصابوا من بني عامر يومئذ أربعة وثمانين رجلا، فدفعوهم إلى أهل بيت من أشجع كانت بنو عامر قد أصابوا فيهم، فقتلوهم أجمعين؛ وآنهزم الحكم بن الطفيل في نفر من أصحابه، فيهم جراب بن كعب، حتى انتهوا إلى ماء يقال له المروزات، فقطع العطش اعناقهم فماتوا، وخنق نفسَه الحكمُ بن الطفيل تحت شجرة مخافة المُثلة[2]؛ وقال في ذلك عروة بن الورد:

عجبتُ لهم لِمْ يَخنقـونَ نفـوسَهـم ومقتَلهم تحت الوغَى كان أجـدرا

يوم النتأة: لعبس على بني عامر

خرجت بنو عامر تريد أن تدرك بثأرها يوم الرقم، فجمعوا على بني عبس بالنَّتأة وقد أُنذروا بهم، فالتقوا وعلى بني عامر: عامر بن الطفيل، وعلى بني عبس: الربيع بن زياد؛ فاقتتلوا قتالا شديدا، فانهزمت بنو عامر، وقتل منهم صفوان بن مرة. قتلة الأحنف بن مالك؛ ونهشل بن عبيدة بن جعفر، قتله أبو زغبة بن حارث؛ وعبد الله بن أنس بن خالد؛ وطَعن ضبيعة بن الحارث عامرَ بن الطفيل فلم يضرّه ونجا عامر، وهُزمت بنو عامر هزيمة قبيحة، فقال خراشة بن عمرو العبسي:

وسـاروا على أظْمائهم وتَـواعَـدوا مِياهـاً تَحـامتهـا تَميمٌ وعـامـرُ[3]

(١) الرقم: جبال دون مكة بديار غطفان، وماء عندها أيضاً.

(٢) المثلة: العقوبة والتنكيل.

(٣) الأظماء: جمع الظمء: وهو ما بين الشربتين والوردين.

كأن لم يكنْ بينَ الذناب وواسِطٍ ... إلى المنْحَنَى من ذِي الأراكةِ حاضرُ[١]
ألا أبْلغا عني خليلَي عامراً ... أتنسى سُعادَ اليوم أم أنت ذَاكرُ
وصدَّتْكَ أطرافُ الرماحِ عنِ الهوى ... ورَدْتَ أُموراً ليس فيها مصادِر
وغادرْت هِزَّان الرئيسَ ونهشَلا ... فللّه عيْنا عامرٍ مَن يُغادر[٢]
وأسلتَ عبدَ الله لما عَرفْتهُم ... ونجّاكَ وثّابُ الجراميز ضامر[٣]
قذفتَهم في اليمَّ ثم خذلتهم ... فلا وألتْ نفسٌ عليك تحاذِر[٤]

وقال أبو عبيدة: إن عامر بن الطفيل هو الذي طعن ضبيعة بن الحارث ثم نجا من طعنته، وقال في ذلك:

فإن تنْجُ منها يا ضُبيعُ فإنني ... وجدِّكَ لم أعقِل عليكَ التمائِما[٥]

يوم شواحط[٦]: لبني محارب على بني عامر

غزت سرية من بني عامر بن صعصعة بلاد غطفان، فأغارت على إبل لبني محارب ابن خصفة؛ فأدركهم الطلب، فقتلوا من بني كلاب سبعة وارتدوا إبلهم؛ فلما رجعوا من عندهم وثب بنو كلاب على جَسر، وهم من بني محارب كانوا حاربوا إخْوتهم فخرجوا عنهم وحالفوا بني عامر بن صعصعة ـ فقالوا: نقتلهم بقتل بني محارب مَن قتلوا منا. فقام خداش بن زهير دونهم حتى منعهم من ذلك، وقال:

أيا راكباً إمَّا عرضتَ فبلِّغَنْ ... عقيلا وأبْلغْ إنْ لقيتَ أبا بكرِ
فيا أخويْنا من أبينا وأمّنا ... إلكُمْ إليكم لا سبيلَ إلى حشْر
دَعُوا جانبي إني سأتركُ جانباً ... لَكم واسعاً بين اليمامَةِ والقهْر[٧]

---

(١) الذناب: واد لبني مرة بن عوف كثير النخل غزير الماء. وذو الأراكة: نخل بموضع من اليمامة لبني عجل.
(٢) هزان: هو ابن مرة بن أنس. (٣) الجراميز: القوائم والجسد.
(٤) اليم: البحر. وألت: أي نجت ولجأت الى حمى وموئل
(٥) التمام: جمع تميمة: وهي خرزات كان الأعراب يعلقونها على أولادهم يتقون بها النفس والعين بزعمهم.
(٦) شواحط: جبل مشهور قرب المدينة
(٧) القهر: أسافل الحجاز مما يلي نجداً من قبل الطائف

أنا فارس الضحْياءِ عمـرو بن عـامـر   أبَى الذَّمَّ واختار الوفـاءَ على الغـدْر[١]

يوم حوزة[٢] الأول: لسليم على غطفان

قال أبو عبيدة: كان بين معاوية بن عمرو بن الشريد وبين هاشم بن حرملة أحد بني مرة بن غطفان، كلام بعكاظ، فقال معاوية: لوددت والله أني قد سمعت بظعائن[٣] يندبنك! فقال هاشم: والله لوددت أني قد تَرَّبت الرطبة - وهي جُمة[٤] معاوية، وكانت الدهرَ تنظف ماء ودهناً وإن لم تدهن - فلما كان بعد [حينٍ] تهيأ معاوية ليغزو هاشماً، فنهاه أخوه صخر فقال: كأني بك إن غزوتهم علق بجمتك حسك العُرقط[٥] . فقال: فأبى معاوية وغزاهم يوم حوزة فرآه هاشم بن حرملة قبل أن يراه معاوية، وكان هاشم ناقهاً من مرض أصابه، فقال لأخيه دريد بن حرملة: إن هذا إن رآني لم آمن أن يشدّ عليّ. وأنا حديث عهد بشَكِيَّة[٦] ؛ فاستطرِدْ له دوني حتى تجعله بيني وبينك. ففعل، فحمل عليه معاوية وأردفه هاشم فاختلفا طعنتين؛ فأردى معاوية هاشماً عن فرسه الشماء، وأنفذ هاشمٌ سنانه من عانة معاوية. قال: وكرّ عليه دريد فظنه قد أردى هاشماً، فضرب معاوية بالسيف فقتله، وشد خُفاف بن عمير على مالك بن حارث الفزاري قال: وعادت الشماء فرس هاشم حتى دخلت في جيش بني سليم فأخذوها وظنوها فرس الفزاري الذي قتله خُفاف، ورجع الجيش حتى دنوا من صخر أخي معاوية، فقالوا: أنعم صباحاً أبا حسان! قال: حُيّيتم بذلك، ما صنع معاوية؟ قالوا: قُتل! قال: فما هذه الفرس؟ قالوا: قتلنا صاحبها! قـال: إذاً قد أدركتم ثأركـم؛ هذه فرس هاشم بن حرملة.

قال: فلما دخل رجب، ركب صخر بن عمرو الشماء صبيحة يوم حرام، فأتى بني

---

(١) الضحياء: فرس عمرو بن عامر جدّ خداش.

(٢) حوزة: واد بالحجاز.

(٣) ظعائن: جمع ظعينة، وهي المرأة ما دامت في الهودج.

(٤) الجمة: مجتمع شعر الرأس.

(٥) العرقط: شجر من العضاة.

(٦) الشكية: البقية من الشيء، أو ما يشتكى منه.

مرة، فلما رأوه قال لهم هاشم: هذا صخر فحيُّوه وقولوا له خيراً. وهاشم مريض من الطعنة التي طعنه معاوية؛ فقال: مَن قتل أخي؟ فسكتوا، فقال: لمن هذه الفرس التي تحتي؟ فسكتوا، فقال هاشم: هلمّ أبا حسّان إلى من يُخبرك! قال: من قتل أخي؟ فقال هاشم: إذا أصبتني أو دريداً فقد أصبت ثأرك! قال فهل كفنتموه؟ قال: نعم، في بردين: أحدهما بخمس وعشرين بكرة[1]. قال: فأروني قبره. فأروه إياه، فلما رأى القبر جزع عنده، ثم قال: كأنكم قد أنكرتم ما رأيتم من جزعي؛ فوالله ما بتُّ منذ عقلت إلا واتراً أو موتوراً، أو طالباً أو مطلوباً، حتى قُتل معاوية، فما ذقت طعم نوم بعده!

يوم حوزة الثاني

قال: ثم غزاهم صخر، فلما دنا منهم مضى على الشماء، وكانت غراء مُحجَّلَة[2]، فسوّد غرتها وتحجيلها، فرأته بنت لهاشم، فقالت لعمها دريد: أين الشماء؟ قال: هي في بني سليم، قالت: ما أشبهها بهذه الفرس! فاستوى جالساً فقال: هذه فرس بهيم، والشماء غراء محجلة. وعاد فاضطجع، فلم يشعر حتى طعنه صخر. قال: فثاروا وتناذروا، وولى صخر وطلبته غطفان عامةَ يومها، وعارض دونه أبو شجرة ابو عبد العزى، وكانت أمه خنساء أخت صخر، وصخر خاله؛ فردّ الخيل عنه حتى أراح فرسه ونجا إلى قومه، فقال خفاف بن ندبة لما قتل معاوية: قتلني الله إن برحت من مكاني حتى أثأر به فشد على مالك سيد بني جُمح فقتله، فقال في ذلك:

فإن تكُ خَيلي قد أُصيبَ صميمُها ... فعمْداً على عيْنٍ تيمَّمْتُ مالكا[3]
نصَبْتُ له عَلْوَى وقد خان صُحْبَتي ... لأَبنِيَ مجداً او لأثأرَ هالكا[4]

---

(١) البكرة: الفتية من الابل.

(٢) محجلة: التي يكون البياض منها في موضع الخلاخيل والقيود.

(٣) يقال: فعلت ذلك على عين أو عمد عين، أي بجد ويقين.

(٤) علوى: فرس خفاف بن عمير.

أقـولُ لـه والرُمْـح يـأطِـرُ متْنُـه   تأمَّل خُفـافـاً، إنني أنـا ذلكـا[١]

وقال صخر يرثي معاوية، وكان قال له قومه: آهْجُ بني مرة! فقال: مابيننا أجلُّ من القذع [ولو لم أُمسك عن سبِّهم إلا صيانةً للساني عن الخنا[٢] لفعلت! ثم خاف أن يُظنَّ به عِيّ] وأنشأ يقول:

وعـاذلـةٍ هبَّـت بليـلِ   ألا لا تلوميني كفى اللوم ما بيا
تقولُ ألا تَهجو فوارِس هاشمٍ   ومالِيَ أن أهجـوهُـمُ ثم مـاليـا
أبَى الذَّمَّ أني قد أصابوا كريمتي   وأنْ ليس إهداءُ الخَنا من شماليا
إذا ما امْرؤٌ أهدَى لِمَيتٍ تحيّـةً   فحياكَ ربُّ الناسِ عني مُعاويا
وهوّنَ وجدِي أنني لم أقـل لـه   كذبـتَ، ولم أبخل عليـه بماليـا
وذِي إخوةٍ قطعْتُ أقران بينِهـم   كما تركوني واحداً لا أخاليا[٣]

وقال في قتل دريد:

ولقد دفعـتُ إلى دريْـدٍ طعنـةً   نجلاءَ توغرُ مثلَ غطِّ المِنخـرِ[٤]
ولقد قتلتُكُـمُ ثُناءَ ومـوحـداً   وتركْتُ مُرَّةَ مثلَ أَمْس الدابـرِ[٥]

قال أبو عبيدة: وأما هاشم بن حرملة فإنه خرج منتجعاً فلقيه عمرو بن قيس الجشمي فتبعه وقال: هذا قاتل معاوية، لا وألت نفسي إن وألَ[٦] ! فلما نزل هاشم كمن له عمرو بن قيس بين الشجر، حتى إذا دنا منه أرسل عليه معبلة[٧] ففلق قحفـه فقتله، وقال في ذلك:

لقد قتلـتُ هـاشمَ بن حـرمَلـه   إذ الملـوكُ حـولـه مُغـربلـه
يقتُلُ ذا الذَّنب ومن لا ذنبَ له

---

(١) يأطر: يثني ويعطف. (٢) الخنا: الفحش في الكلام.
(٣) أقران بينهم: وصل بينهم. والأقران: الحبال
(٤) توغر: تصوت في حلبة. (٥) ثناءَ: اي اثنين اثنين.
(٦) الوأل: الموئل: مستقر السيل. ووأل: لجأ وخلص.
(٧) المعبلة: نصل طويل عريض.

يوم ذات الأثل[1]

قال أبو عبيدة: ثم غزا صخر بن عمرو بن الشريد بن أسد بن خزيمة واكتسح إبلهم، فأتى الصريخ بن اسد، فركبوا حتى تلاحقوا بذات الأثل، فاقتتلوا قتالا شديداً؛ فطعن ربيعة بن ثور الأسدي صخراً في جنبه، وفات القوم بالغنيمة، وجوى[2] صخر من الطعنة، فكان مريضاً قريباً من الحول. حتى مله أهله، فسمع امرأة من جاراته تسأل سلمى امرأته كيف بعلك؟ قالت: لاحيٌّ فيرجى، ولا ميِّتٌ فينسى، لقد لقينا منه الأمرين! وكانت تسأل أمّه: كيف صخر؟ فتقول: أرجو له العافية إن شاء الله! فقال في ذلك:

أرى أمَّ صخْــرٍ لا تملُّ عيـــادتي ... وملَّت سُليمـى مضجعـي ومكـاني
فأيُّ ٱمـرئٍ سـاوى بـأُمٍ حليلـةً ... فلا عاش إلا في شقـاً وهـوان[3]
وما كنتُ أخشَى أن أكون جنـازةً ... عليــكِ ومَــن يغترُّ بــالحدثــان
لَعَمْري لقد نبَّهْتِ من كـان نـائماً ... وأسمعْتِ مـن كـانـت لـه أُذُنـان
أهُـمُّ بـأمـر الحزْم لـو أستطيعُـــه ... وقد حِيلَ بين العَيْـر والنَّـزَوان[4]

فلما طال عليه البلاء وقد نتأت قطعة من جنبه مثل اليد في موضع الطعنة، قالوا له: لوقطعتَهالرجونا أن تبرأ. فقال: شأنَكم! فقطعوها فمات، فقالت الخنساء أخته ترثيه:

فما بـــالُ عيْني مـــا بـــالُهـــا ... لقد أخْضَـلَ الدمـعُ سر بـالها
أمِن بعد صخرٍ مِنَ ال الشريـدِ ... حلَّـت بـه الأرض أثقـــالها[5]
فـآلَيْـت أبكـي على هـالــكٍ ... وأســأَل نــــائحــــةً مــــالها
هممْـت بنفْسيَ كـلَّ الهمــوم ... فـأوْلـــى لنفْســـي أوْلــى لها
لأحمــل نفْســـي على آلـــةٍ ... فــإمّـــا عليهـــا وإمّـــا لها[6]

---

(١) ذات الأثل: موضع في بلاد تيم الله بن ثعلبة

(٢) الجوى: تطاول المرض

(٣) الحليلة: الزوجة.

(٤) النزوان: السَّودة والحدّة.

(٥) الأثقال: أجساد بني آدم.

(٦) الآلة: الشدة والخطة والحالة.

وقالت ترثيه:

وقائلةٍ والنَّفْسُ قد فات خَطوُها ... لِتُدركه: يا لهف نفْسي على صخرِ!
ألا ثكِلَت أمُّ الذين غدوْا به ... إلى القبر، ماذا يحملون إلى القبر!

يوم عدنية: هو يوم ملحان[1]

قال أبو عبيدة: هذا اليوم قبل ذات الأثل، وذلك أن صخراً غزا بقومه وترك الحيَّ خِلْواً، فأغارت عليهم غطفان، فثارت إليهم غلمانهم ومن كان تخلف منهم؛ فقتل من غطفان نفرٌ وانهزم الباقون؛ فقال في ذلك صخر:

جزى الله خيراً قوْمَنا إذ دعاهم ... بعَدْنيَّة الحي الخلوفُ المُصبَّحُ[2]
وغِلمانُنا كانوا أُسُود خَفِيَّةٍ ... وحُقَّ علينا أن يُثابوا ويُمدَحوا
هُمُ نَفَّروا أقْرانَهم بمُضَرِّسٍ ... وسعرٍ وذادوا الجيش حتى تزحزحوا[3]
كأنهمُ إذ يَطْردون عشِيَّةً ... بقُنَّة مِلْحان نعامٌ مُرَوِّحُ

يوم اللوى[4]: لغطفان على هوازن

قال أبو عبيدة: غزا عبد الله بن الصمة ـ واسم الصمة: معاوية الأصغر ـ من بني غزيَّة بن جثم بن معاوية بن بكر بن هوازن ـ وكان لعبد الله ثلاثة اسماء وثلاث كنى؛ فاسمه: عبد الله، وخالد، ومعبد؛ وكنيته: أبو فرغان، وأبو دفاقة وأبو وفاء؛ وهو أخو دريد بن الصمة لأبيه وأمه ـ فأغار على غطفان، فأصاب منهم إبلا عظيمة فاطَّردها؛ فقال له أخوه دريد: النجباءَ فقد ظفرْت. فأبى عليه وقال: لا أبرح حتى أنتقع نقيعتي ـ والنقيعة: ناقة ينحرها من وسط الإبل فيصنع منها طعاماً لأصحابه، ويقسم ما أصاب على أصحابه فأقام وعصى أخاه؛ فتبعته فزارة فقاتلوه، وهو بمكان

(١) ملحان: جبل في ديار بني سليم بالحجاز.

(٢) الخلوف: الذي تغيّر وفسُد

(٣) المضرس: المنجذ الذي حارب وقاتل. وسعر: رمى بلهيب الموت.

(٤) اللوى: واد من أودية بني سليم

يقال له اللوى، فقتل عبد الله، وارتُثَّ[١] دريدٌ فبقي في القتلى فلما كان في بعض الليل أتاه فارسان، فقال أحدهما لصاحبه: أني أرى عينيه تَبِصّ[٢]، فانزل فانظر إلى سُبَّته[٣]. فنزل فكشف ثوبه فإذا هي تَرمِزّ[٤] فطعنه، فخرج دم قد كان احتقن.

قال دريد: فأفقت عندها، فلما جاوزوني نهضت. قال: فما شعرت إلا وأنا عند عرقوب[٥] جَمَل امرأة من هوازن، فقالت: من أنت؟ أعوذ بالله من شرك! قلت: لا، بل مَن انت؟ ويلك! قالت: امرأة من هوازن سيارة. قلت: وأنا من هوازن، وأنا دريد بن الصمَّة. قال: وكانت في قوم مجتازين لا يشعرون بالوقعة، فضمته وعالجته حتى أفاق.

فقال دريد يرثي عبد الله أخاه، ويذكر عصيانه له وعصيان قومه، بقوله:

أعاذلُ إنّ الرُّزْءَ في مِثْل خالِد ... ولا رُزْءَ فيما أهلك المرء عن يَدِ[٦]
وقلتُ لعارضٍ وأصحاب عارضٍ ... ورهْطِ بني السَّوداءِ والقوْمُ شُهدي[٧]
علانيةً ظنُّوا بألفيْ مُدجّجٍ ... سَراتهم في الفارسيِّ المُسَرَّدِ[٨]
أمرتهم أمري بمنقطع اللِّوى ... فلم يَسْتبينوا الرُشد إلاّ ضُحى الغدِ
فلما عصوْني كنتُ منهم وقد أرى ... غَوايتَهم أو أنّني غيْرُ مُهتَدِ
وما أنا إلا من غَزِيَّةَ إن غوَتْ ... غوَيتُ وإنْ ترْشَد غزيةُ أرشُدِ[٩]
فإن تُعْقِب الأيامُ والدهرُ تعلَموا ... بني غالبٍ أنا غِضابٌ لمعبد
تنادوْا فقالوا أرْدَت الخيْل فارسا ... فقلت أعبد الله ذلِكم الرّدِي

---

(١) ارتث: أي حمل جريحاً ضعيفاً وقد أثخنته الجراح.
(٢) تبصّ: تبرق وتلمع. (٣) السَّبة: الاست.
(٤) ترمز: تضطرب
(٥) العرقوب من الدابة: ما يكون في رجلها بمنزلة الركبة في يدها.
(٦) الرزء: المصيبة.
(٧) بنو السوداء: أصحاب أخيه عبد الله. وشهدي: شهودي.
(٨) ظنوا: أي أيقنوا. والفارسي المسرّد: الدروع المتتابعة الحلق في نسجها.
(٩) غزية: قبيلة من هوازن، وهم رهط دريدبن الصمة.

فإنْ يـك عبـد الله خَلَّـى مكـانـهُ | فما كان وقّـافـاً ولا طـائش اليَـدِ
ولا بَرما إذْ مـا الريـاح تنـاوحَـتْ | برطْبِ العِضاهِ والضَّريعِ المعضّـد[1]
كميْشُ الإزارِ خارجٌ نصف ساقِـه | صبورٌ على الضرّاء طَلاَّعُ أنْجُـدِ[2]
قليل التَّشكي للمصـائـبِ حـافـظ | من اليوْم أعقاب الأحاديثِ في غـدِ
وهَـوّنَ وجـدِي أنني لم أقـل لـه | كذَبْت ولم أبخل بما ملَكـتْ يـدي

أبو حاتم عن أبي عبيدة قال: خرج دريد بن الصمة في فوارس من بني جشم حتى إذا كانوا في وادٍ لبني كنانة يقال له الأخرم[3]، وهم يريدون الغارة على بني كنانة إذ رُفع له رجل في ناحية الوادي معه طَعينة؛ فلما نظر إليه قال لفارس من أصحابه: صِحْ به: خَلِّ عن الظعينة[4] وآنج بنفسك، فانتهى إليه الفارس وصاح به وألحَّ عليه فألقى زمام الناقة وقال للظعينة:

سيري على رِسلِكِ سَيْـر الآمـن | سَيْر ردَاحٍ ذات جأشٍ ساكِـنِ[5]
إنّ آنثِنـائـي دون قِـرْني شـائني | أبْلي بلائـي وآخبُـري وعـايني

ثم حمل عليه فصرعه وأخذ فرسه فأعطاه للظعينة؛ فبعث دريد فارسا آخر لينظر ما صنع صاحبُه، فلما انتهى إليه ورأى ما صنع، صاح به فتصامم[6] عنه كأن لم يسمع، فظن أنه لم يسمع، فغشيه، فألقى زمام الراحلة إلى الظعينة، ثم خرج وهو يقول:

خَـلِّ سبيـل الحُرَّة المنيعـهْ | إنـك لاقٍ دونَهـا ربيعـهْ
في كفِّـه خطِّيَّـةٌ مُطيعـهْ | أولا فخـذهـا طعْنـةً سريعـهْ[7]
والطعن مني في الوغى شريعه

---

(١) البرم: الضجر. والمعضد: المكسر.
(٢) كميش: الازار: أي مشمر مجد.
(٣) الأخرم: جبل في طرف الدهناء.
(٤) الظعينة: المرأة ما دامت في الهودج.
(٥) الرداح: العجزاء الثقيلة الأوراك التامة الخلق.
(٦) تصامم: تصرّف كالأصم (٧) خطية: ضرب من الرماح.

ثم حمل عليه فصرعه؛ فلما أبطآ على دريد بعث فارسا لينظر ما صنعا؛ فلما انتهى اليهما وجدهما صريعين، ونظر إليه يقود ظعينته ويجر رمحه، فقال له الفارس: خَلِّ عن الظعينة! فقال للظعينة: آقصِدي قصد البيوت، ثم أقبل عليه فقال:

ماذا تريدُ من شَتِيم عابس ... ألم تر الفارس بعد الفارس[1]

أرْدهُما عامل رُمْح يابس

ثم حمل عليه فصرعه، وانكسر رمحه.

وارتاب دريد، وظنّ أنهم قد أخذوا الظعينة وقتلوا الرجل؛ فلحق دريد ربيعة وقد دنا من الحي، ووجد اصحابه قد قتِلوا: فقال: أيها الفارس، إنّ مثلك لا يُقتل، ولا أرى معك رُمْحك، والخيل ثائرة بأصحابها [وأراك حديث السنّ] فدونك هذا الرمح، فإني منصرف إلى أصحابي فمُثَبِّطُهم عنك.

فانصرف إلى اصحابه فقال: إن فارس الظعينة قد حماها وقتل اصحابكم وانتزع رمحي، ولا مطمع لكم فيه! فانصرف القوم؛ وقال دريد في ذلك:

ما إنْ رأيتُ ولا سمعْتُ بمثْلِه ... حامي الظَّعينةِ فارساً لم يُقْتِل

أَرْدَى فوارسَ لم يكونوا نُهْزةً ... ثم آستمرّ كأنه لم يفعل[2]

مُتَهلِّلا تبدو أسِرَّةُ وجهِه ... مثْل الحُسام جلَتْه كفُّ الصَّيْقَل[3]

يُزْجي ظعينتَه ويسْحَب رُمْحه ... مُتوَجِّها يُمناه نحو المنزل

وتُرى الفوارسُ من مهابةِ رُمْحه ... مِثْل البُغاث خَشين وقع الأجدل[4]

يا ليْت شِعْري مَن أَبوه وأُمُّه ... يا صاحِ من يك مِثْله لا يُجهَل

وقال ابن مكدم:

---

(١) الشتيم: الأسد العابس.

(٢) النهزة: الشيء الذي هو لك معرض كالغنيمة.

(٣) الضيقل: الذي يصقل السيوف ويشحذها

(٤) البغاث من الطير: ألأمها وشرارها. والأجدل: الصقر.

إنْ كان ينفَعُـك اليقين فسـائلي | عن الظَّعينةَ يوم وادي الأخرم[1]
إذ هِيْ لأوّل من أتـاهـا نُهْـزَةٌ | لولا طِعانُ ربيعـةَ بن مُكـدّمِ
إذ قال لي أدنى الفوارِس منهـم | خلِّ الظّعينـة طـائعـاً لا تَنْـدَم
فصرفْتُ راحلـة الظعينـة نحوَه | عمْـداً ليعْلم بعـض مـا لم يعْلم
وهَتكْتُ بالرُّمْح الطويل إهابـهُ | فهوى صريعاً لليـدَيْـن وللفَـم
ومنْحتُ آخـرَ بعـده جَيَّـاشَـةً | نجلاء فاغِرَةً كشِدقِ الأضجَم[2]
ولقـد شفَعْتُها بـآخـر ثـالـثٍ | وأبَى الفِرارَ عنِ العِداةِ تَكرُّمي

ثم لم يلبث بنو كنانة [رهط ربيعة بن مكدّم] أن أغارت على بني جُشَم [رهطدُريد]، فقتلوا [وأسَروا وغَنموا]، وأسروا دُرَيْدَ بن الصِّمة، فأخفى نسبه، فبينما هو عندهم محبوس، إذ جاءت نسوة يتهادين[3] إليه، فصاحت إحداهن فقالت: هلكتم وأهلكتم، ماذا جرّ علينا قومـنا؟ هذا والله الذي أعطى ربيعةَ رمحهَ يوم الظعينة! ثم ألقت عليه ثوبها، وقالت يا آل فراس أنا جارة له منكـم، هذا صاحبنا يوم الوادي! فسألوه: من هو؟ فقال أنا دُريد بن الصمة، فمن صاحبي؟ قالوا: ربيعةُ بن مكدم. قال: فما فعل؟ قالوا: قتلته بنو سُليم! قال: فا فعلت الظعينة؟ قالت المرأة: أنا هي، وأنا امرأته! فحبسه القوم وآمروا أنفسهم، فقال بعضهم: لا ينبغي لدريد أن تُكفَرَ نعمتُه على صاحبنا! وقال الآخرون لا والله لا يخرج من أيدينا إلا برضا الـمُخارق الذي أسره، فانبعثت المرأة في الليل ـ وهي ريطة بنت جزل الطعان ـ فقالت:

سَنجزي دُرَيْداً عـن ربيعـةَ نعمـةً | وكلُّ آمرِىءٍ يُجزَى بما كان قدّمـا
فإنْ كان خيراً كـان خيراً جـزاؤه | وإن كان شَـرّاً كـان شرّاً مُـذَمَّما
سنجـزِه نُعْمَـى لم تكــن بصَغيرةٍ | بإهدائه الرُّمْحَ الطويلَ المُقـوّمـا[4]

---

(١) الأخرم: جبل في طرف الدهناء.
(٢) جياشة: أي تتدنق بالدم. ونجلاء: واسعة والأضجم: الذي في فمه عوج وميل.
(٣) تهادى: تمايل في مشيه. (٤) المقوّم: الذي لا اعوجاج فيه.

فلا تكْفُـرُوه حـــقّ نُعْماهُ فيكـــمُ ولا تَركبوا تلـك التي تَملأُ الفَما[1]
فإن كـان حيّـا لم يضِـق بثـوابـه ذِراعاً، غنيّاً كان أو كان مُعْـدَمـا
ففُكّوا دُرَيْداً من إسـار مُخـارِقٍ ولا تجعلـوا البـؤسى إلى الشرِّ سُلّما

فلما أصبحوا أطلقوه، فكسته وجهزته ولحق بقومه، فلم يزل كافّا عن حرب بني فراس حتى هلك.

يوم الصلعاء[2]: لهوازن على غطفان

فلما كان في العام المقبل غزاهم دريد بن الصمَّة بالصَّلعاء، فخرجت إليه غطفان فقال دريد لصاحبه: ما ترى؟ قال أرى خيلا عليها رجالٌ كانهم الصبيان، أسِنْتُها عند آذان خيلها. قال: هذه فزارة. ثم قال: انظر ما ترى؟ قال: أرى قوما كأنّ عليهم ثياباً غمست في الجاديِّ[3]. قال: هذه اشجع. ثم قال انظر ما ترى؟ قال: أرى قوماً يهزون رماحهم، سوداً، يخدّون[4] الأرض بأقدامهم. قال: هذه عبس، أتاكم الموت الزؤام فاثبُتوا! فالتقَوا بالصلعاء، فكان الظفر لهوازن على غطفان وقَتل دريدُ ذوأبَ بن أسماء بن زيد بن قارب.

حرب قيس وكنانة

يوم الكديد[5]: لسليم على كنانة

فيه قُتل ربيعةُ بن مكدّم فارس كنانة، وهو من بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة، وهم أنجد العرب، وكان الرجل منهم يعدل بعشرة من غيرهم؛ وفيهم يقول علي بن أبي طالب لأهل الكوفة: ودِدْتُ والله أن لي بجميعكـم وأنتم مائةُ ألف ثلثمائـةٍ من بني فراس بن غنم.

---

(١) التي تملأ الفما: أي تجعلكم حديث الناس.

(٢) الصلعاء: رابية في ديار بني غطفان.

(٣) الجاديّ: الزعفران. (٤) يخدّ الأرض: يحفرها.

(٥) الكديد: موضع على اثنين واربعين ميلاً من مكة.

وكان ربيعة بن مكدمُ يُعقر[١] على قبره في الجاهلية: ولم يُعقر على قبر أحد غيره؛ ومرَّ به حسانُ بن ثابت وقتلته بنو سليم يوم الكديد، ولم يحضر يومَ الكديد أحدٌ من بني الشريد.

يوم برزة[٢]: لكنانة على سليم

قال ابو عبيدة: لما قَتلت بنو سليم ربيعةَ بن مكدم فارس كنانة ورجعوا، أقاموا ما شاء الله، ثم إن ذا التاج، مالك بن خالد بن صخر بن واسم الشريد عمرو، وكانت بنو سليم قد توَّجوا مالكاً وأمَّروه عليهم - فغزا بني كنانة، فأغار على بني فراس ببَرْزَة، ورئيسُ بني فراس عبد الله بن جذل؛ فدعا عبدُ الله إلى البراز، فبرز اليه هند ابن خالد بن صخر بن الشريد، فقال له عبد الله: من أنت؟ قال: أنا هند بن خالد بن صخر، فقال عبد الله: أخوك أسنُّ منك. يريد مالك بن خالد، فرجع فأحضر أخاه، فبرز له، فجعل عبدالله بن جذل يرتجز ويقول:

آدنوا بني قِرَفِ إذا الموتُ كنَعْ[٣]
لا أستغيثُ بالجَزَعْ

ثم شدّ على مالك بن خالد فقتله، فبرز إليه أخوه كرز بن خالد بن صخر، فشدّ عليه عبد الله بن جذل فقتله أيضاً، فشدّ عليه أخوهما عمرُو بن خالد بن صخر بن الشريد، فتخالفا طعنتين، فجرح كلٌّ واحد منهما صاحبَه وتحاجزا، وكان عمرو قد نهى أخاه مالكا عن غزو بني فراس، فعصاه وانصرف للغزو عنهم، فقال عبد الله بن جذل:

تَجنَّبْتُ هِنداً رغبةً عن قِتالِه ... إلى مالِكٍ أعشُو إلى ضوءِ مالِكِ[٤]
فأيقنْتُ أني ثائرٌ بابنِ مُكْدَمِ ... غَداةَ إذٍ أو هالِكٌ في الهوالك

---

(١) عقر الحيوان: ذبحه.

(٢) برزة: شعبة تدفع على بئر الرويثة العذبة.

(٣) القرف: الوسخ الذي ينتج عن اللبن. والكنع: ما يوضع في فم السقاء والزق.

(٤) أعشو: أقصد.

فأنفذْتَـهْ بـالـرُّمـحِ حين طعنْتُـه ... معانقة ليست بطعنةِ بـاتِـكِ [1]
وأثنـي لِكـرْز في الغُبـار بطعنـةٍ ... عَلتْ جِلْدَهُ منها بأحْمَرَ عاتِـك [2]
قتلْنـا سُلَيْمًـا غَثَّهـا وسمينَهـا ... فصبراً سُلَيْمٌ قد صبَـرْنـا لـذلـك
فإن تَكُ نِسْواني بكَيْنَ فقد بكـت ... كما قد بكـتْ أمّ لِكُـرز ومـالـك

وقال عبد الله بن جذل أيضاً:

قتلْنـا مـالِكـا فبَكْـوا عليـه ... وهل يُغني منَ الجزعِ البُكـاءُ؟
وكُرْزاً قـد تَـركنـاهُ صريعـاً ... تسيـلُ على تَـرائبـه الدِّمـاءُ [3]
فإن تَجزعْ لِـذاك بنـو سُلَيْـم ... فقد - وأبيهِمُ - غلَـب العـزاءُ
فصبراً يـا سُلَيْـمُ كما صبَـرْنـا ... وما فيكم لِواحِـدِنـا كِفـاءُ [4]
فلا تبعُـدْ ربيعـة مـن نـديم ... أخـو الهُلاَّكِ إن ذمّ الشّتـاءُ
وكم من غـارَةٍ ورعيـلِ خَيْـل ... تداركها وقد حَمِسَ اللقـاءُ [5]

يوم الفيفاء [6]: لسليم على كنانة

قال أبو عبيدة: ثم إن بني الشريد حرَّموا على أنفسهم النساء والدهن [7]، حتى يُدْركوا بثأرهم من بني كنانة، فغزا عمرُو بن خالد بن صخر بن الشريد بقومه حتى أغار على بني فراس، فقتل منهم نفراً، منهم عاصم بن المعلي، وفضلة، والمعارك، وعمرو بن مالك، وحصن، وشريح؛ وسبى سبياً فيهم ابنة مكدم أخت ربيعة بن مكدم، فقال عباس بن مرداس في ذلك يردّ على ابن جذل في كلمته التي قالها يوم بَرزة:

ألا أبلِغا عني ٱبنَ جـذلٍ ورهطَـهُ ... فكيفَ طلبْناكم بكُرْز ومالـكِ؟ [8]

---

(١) الباتك: القاطع من السيوف (٢) أحمرعاتك: شديد الحمرة؛ يريد الدم.

(٣) الترائب: عظام الصدر.

(٤) كفاء: أي كفؤ

(٥) الرعيل: القطعة من الخيل. وحمس: صلب واشتد.

(٦) الفيفاء: الصحراء الملساء. (٧) الدهن: يريد التطيب.

(٨) الرهط: الجماعة

غداةَ فجعناكم بحِصن وبابنه | وبابن المعلَّى عاصمٍ والمعاركِ
ثمانيةً منهم ثأرناهُم به | جميعاً وما كانوا بواءً بمالك (١)
نُذيقُكم والموتُ يبْني سُرادِقاً | عليكم، شباحَدّ السُّيوفِ البواتك (٢)
تلوحُ بأيدينا كما لاح بارقٌ | تلألأ في داجٍ مِنَ الليلِ حالِك
صبحْناكم العوجَ العناجيجَ بالضّحى | تمُرُّ بنا مَرَّ الرِّياحِ السَّواهكِ (٣)
إذا خرجَتْ من هبْوةٍ بعد هبْوةٍ | سَمتْ نحوَ مُلتفٍّ من الموتِ شائكِ

وقال هند بن خالد بن صخر بن الشريد:

قتلْتُ بمالكٍ عَمْراً وحِصْناً | وخَلَّيْت القَتامَ على الْخُدودِ (٤)
وكُرْزاً قد أبَأتُ به شريْحاً | على أثَرِ الْفوارِسِ بالكَديدِ (٥)
جزيْناهم بما انتَهكُوا وزدْنا | عليْه ما وجَدْنا مِنْ مزيدِ
جلبْنا من جنُوب الْعودِ جُرْداً | كطيْرِ الماء غَلّسَ للوُرُدِ (٦)

قال: فلما ذكر هندُ بن خالد يوم الكديد وافتخر به، ولم يشهده أحدٌ من بني الشريد، غضب من ذلك نُبيشة بن حبيب، فأنشأ يقول:

تُبخِّلُ صُنعنا في كلِّ يومٍ | كمخضوب البَنانِ ولا يَصيدُ
وتأكلُ ما يَعافُ الكلبُ منه | وتَزعُمُ أن والِدَكَ الشَّريدُ
أبَى لي أنْ أُقِرَّ الضَّيْمَ قيسٌ | وصاحِبُه المَزُورُ به الكَديدُ (٧)

---

(١) البواء: الكفء
(٢) شبا: علا
(٣) العوج: الخيل. والعنجوج: الرائع من الخيل. والسواهك من الرياح: الشديدة المرور.
(٤) القتام: الغبار الأسود.
(٥) أبأت به: قتلت به.
(٦) غلس: ورد الماء أول ما ينفجر الصبح.
(٧) الكديد: موضع على اثنين واربعين ميلاً من مكة.

حرب قيس وتميم

يوم السوبان [١] : لبني عامر على بني تميم

قال أبو عبيدة: أغارت بنو عامر على بني تميم وضبة فاقتتلوا، ورئيس ضبة حسان ابن وبرة، وهو أخو النعمان لأمّه، فأسره يزيد بن الصعق، وانهزمت تميم؛ فلما رأى ذلك عامرُ بن مالك بن جعفر، حسده، فشدَّ على ضرار بن عمرو الضّبي، وهو الرديم، فقال لآبنه إذ همّ: أغنِه عني. فشدّ عليه فطعنه، فتحوّل عن سرجه إلى جنب أبدائه [٢] ، ثم لحقه، فقال لأحد بنيه: أغنه عني. ففعل مثل ذلك، ثم لحقه، فقال لابن له آخر: أغنه عني. ففعل مثل ذلك، فقال: ما هذا إلا مُلاعب الأسنَّة، فسُمِّيَ عامر من يومئذ مُلاعبَ الأسنة؛ فلما دنا منه قال له ضرار: إني لأعلم ما تريد، أتريد اللبن؟ قال: نعم! قال: إنك لن تَصِلَ إليَّ ومن هؤلاء عين تَطرف، كلهم بنيَّ. قال له عامر: فأحلني عن غيرك. فدلَّه على حبيش بن الدلف، وقال: عليك بذلك الفارس. فشدّ عليه فأسره، فلما رأى سواده، وقِصَرَه، جعل يتفكر؛ وخاف ابن الدلف ان يقتله، فقال: ألست تريد اللبن؟ قال: بلى. قال: فأنى لك به. ونادى حسان بنُ وبرة نفسه من يزيد بن الصعق بألف بعير فداء الملوك، فكثر مال يزيد وبما؛ ثم أغار بعد ذلك يزيد بن الصعق على عصافير النعمان [٣] بذي لِيان، وذو لِيان: عن يمين القريتين [٤] .

يوم أقرُن [٥] : لبني عبس على بني دارم

غزا عمرو بن عمرو بن عدس من بني دارم وهو فارس بني مالك بن حنظلة، فأغار على بني عبس وأخذ إبلا وشاء ثم أقبل، حتى إذا كان أسفل من ثنية أقرن، نزل فابتنى بجارية من السبي، ولحقه الطلب فاقتتلوا، فقَتل أنسُ الفوارس ابنُ زياد

---

(١) السوبان: واد في ديار العرب.

(٢) الأبداء: المفاصل.

(٣) عصافير النعمام: نجائب كانت له.

(٤) القريتان: قريبة من النباج في طريق مكة من البصرة.

(٥) أقرن: اسم موضع.

العبسي عمْرا، وانهزمت بنو مالك بن حنظلة، وقتلت بنو عبس أيضاً حنظلةَ بنَ عمرو ـ وقال بعضُهم: قُتِلَ في غير هذا اليوم ـ وارتدّوا ما كان في أيدي بني مالك، فنعى ذلك جريرٌ على بني دارم، فقال:

هل تذكـرون لَـدَى ثنيَّـة أقـرُنٍ أَنَسَ الفوارس حين يهوِي الأسْلَعُ [١]

وكان عمرو أسلع، أي أبرص. وكان لسماعة بن عمرو، خالٌ من بني عبس، فزاره يوماً فقتله بأبيه عمرو.

يوم المرّوت [٢] : لبني العنبر على بني قشير

أغار بَحير بن سلمة بن قشير على بني العنبر بن عمرو بن تميم، فاتبعوه حتى لحقوه وقد نزل المروت وهو يقسم المِرباع [٣] ويعطى مَن معه، فتلاحق القوم واقتتلوا، فطعن قعنب بن عتاب الهيثَم بن عامر القشيري فصرعه فأسره، وحمل الكدامُ ـ وهو يزيد بن أزهر المازني ـ على بحير بن سلمة فطعنه فأرداه عن فرسه، ثم نزل إليه فأسَرَه؛ فأبصره قعنب بن عتاب، فحمل عليه بالسيف فضربه فقتله، فانهزم بنو عـامر وقُتل رجالهم؛ فقال يزيد بن الصَّعِق يرثي بحيراً:

أَواردةٌ عَلَيَّ بنـــو رَيَـــاحٍ بفخْرهـم وقـد قتَلـوا بحيرًا؟

فأجابته العوراء من بني سليط بن يربوع:

قَعيـدَكَ يـا يَـزيـدُ أَبـا قُبَيْسٍ أَتُنـذِرُ كـي تُلاقِينـا النُّـذورا [٤]
وتُـوضِـعُ تُخبر الرُّكْبـانَ أَنَّـا وُجدنا في مِراس الحرب خُـورا [٥]
أَلَمْ تَعلمْ قعيـدك يـا يـزيـد بـأنـا نَقمَـع الشيـخَ الفَخـورا
ونَفْقَـأُ نـاظـريْـه ولا نُبـالي ونَجعـل فـوق هـامَتـه الدرُورا

---

(١) الثنيّة: الطريق.
(٢) المروت: نهر، وقيل وادياً لعالية
(٣) المرباع: ربع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية.
(٤) قعيدك: أي قعيدك الله
(٥) توضع: من الإيضاع وهو السير بين القوم.

فـأبلْغ إن عـرَضـتَ بني كلابٍ   فـإنَّـا نحن أقعصنـا بَحيرا [1]
وضرَّجْنـا عبيـدةَ بـالعـوالي   فـأصبَـح مُـوثَقـاً فينـا أسيرا
أفخْـراً في الخلاءِ بغير فخـر   وعنـد الحربِ خَـوَّاراً ضَجـورا

يوم دارة مأسل[2] : لتميم ـى قيس

غزا عتبة بن شتير بن خالد الكلابي بني ضبة، فاستاق نَعَمَهم، وقتل حصين بن ضرار الضبي، أبا زيد الفوارس، فجمع أبوه ضرارٌ قومَه وخرج ثائراً بابنه حصين، وزيد الفوارس يومئذ حَدَثٌ لم يُدرك، فأغار على بني عمرو بن كلاب، وأفلت منه عتبة بن شتير وأسر أباه شتيرَ بن خالد، وكان شيخاً كبيراً أعور، فأتى به قومه، فقال: يا شتير، آختَرْ واحدةً من ثلاث. قال: اعرضها عليَّ. قال: إمّا أن تردّ ابني حصينا! قال: فإني لا أنشرُ[3] الموتى! قال: وإمّا أن تدفع إليَّ آبنك عتبةَ أقتله به! قال: لا ترضى بذلك بنو عامر: أن يدفعوا فارسهم شابا مقتبلا بشيخ اعور، هامةِ اليوم أو غداً[4]. قال: وإمّا أن أقتلك قال: أما هذه فنعم! قال: فأمر ضرارٌ ابنَه أدهمَ أن يقتله، فلما قدمه ليضرب عنقه، نادى شتير: يا آل عامر، صبراً[5] بصبيّ! كأنه أنف أن يُقتل بصبي، فقال في ذلك شَمعلة في كلمة له طويلة:

وخيَّـرْنـا شُتيراً في ثلاثٍ   ومـا كـان الثلاث لـه خِيـارا
جَعلتُ السيفَ بين اللّيْـتِ منـه   وبين قِصاص لِمَّتِه عِـذارا [6]

وقال الفرزدق يفخر بأيام ضبة:

ومغبـوقـةٍ قبـل القِيـان كـأنها   جراد إذا أجْلى على القزع الفَجْرُ [7]

(١) أقعصه: قتله مكانه.
(٢) دارة مأسل: ماء لعقيل.
(٣) أنشر: أحيي
(٤) هامة اليوم أو غداً: يموت اليوم أو غداً
(٥) أي أقتل صبراً، والصبر: نصب الإنسان للقتل.
(٦) القصاص: الناصية. والليت: صفحة العنق. والعذار: جانب اللحية.
(٧) المغبوقة: الخيل تؤثر بالغبوق، وهو شرب العشي. وأجلى: وضح. والقزع: السحاب المتفرق.

عَوابس مـا تَنفـكُّ تحت بطـونِهـا سرابيل أبطالٍ بنـائِقهـا حُمْـر[1]
تَركْن ابنَ ذي الجدَّيْـن يَنْشجُ مُسْنَـداً وليس لـــه إلا ألاءتـــه قبر[2]
وهـنّ على خـدَّي شتير بن خـالـد أثير عجاج مِـن سنـابكهـا كـدْر
إذا سُوِّمتْ للبأس يغشى ظهورهـا أُسودٌ عليها البيض عادتها الهصْـر[3]
يَهـزُّون أرْمـاحـا طِـوالا مُتـونها بهنّ الغِنـى يـومَ الكَـريهةِ والفقـر

أيام بكر على تميم

يوم الوقيط

قال فراس بن خندف: تجمعت اللهازم[4] لتُغير على تميم وهم غازون، فرأى ذلك ناشب الأعور بن بَشامة العنبري، وهو أسير في بني سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس ابن ثعلبة؛ فقال لهم: أعطوني رسولا أرسله إلى بني العنبر، أُوصيهم بصاحبكم خيراً ليولُوه مثل الذي تُوَلّوني من البرِّ به والإحسان إليه. وكان حنظلة بن الطفيل المرثدي أسيراً في بني العنبر، فقالوا له: على أن توصيه ونحن حضور. قال: نعم. فأتوه بغلام لهم، فقال: لقد أتيتموني أحمق. وما أراه مُبْلِغا عني! قال الغلام: لا والله ما أنا بأحمـق، وقـل ما شئت فإني مبلغه. فملأ الأعور كفه من الرمل، فقال: كـم هذا الذي في كفي من الرمل؟ قال الغلام: شيء لا يُحصَى كثرةً. ثم أومأ إلى الشمس، وقال: ما تلك؟ قال: هي الشمس! قال: فاذهب إلى قومي فأبلغهم عني التحية، وقـل لهم يحسنوا إلي أسيرهم ويكرموه؛ فإني عند قوم محسنين إليّ مكرمين لي؛ وقل لهم يَقروا جملي الأحمر، ويركبوا ناقتي العيساء[5]، بآية ما أكلت معهم حَيْسا[6]، ويرعوا

(١) البنائق: جمع بنيقة: وهو طوق الثوب الذي يضم النحر وما حوله.
(٢) ابن ذي الجدين: بسطام بن مسعود. والألاءة: شجرة تشبه الآس لا تغير في القيظ.
(٣) الهصر: الطعن بشدة.
(٤) اللهازم: يريد متوسط النسب والقبيلة
(٥) العيساء: الناقة يخالط بياضها شقرة
(٦) الحيس: تمر يخلط بسمن وأقط

حاجتي في أُبَيْنِـي مالك؛ وأخبرهـم أن العـوسـج [١] قـد أوْرق، وأن النسـاء قـد تشَكتْ [٢]؛ وليعصوا همام بن بشامة، فإنه مشئوم محدود [٣]؛ ويطيعوا هذيل بن الأخنس، فإنه حازم ميمون.

فأتاهم الرسول فأبلغهم؛ فقال بنو عمرو بن تميم: ما نعرف هذا الكلام، ولقد جُنّ الأعورُ بعدنا، فوالله ما نعـرف لـه نـاقـة عيسـاء، ولا جملا أحمر! فشخـص الرسولُ، ثم ناداهم هذيل: يا بني العنبر، قد بين لكم صاحبكم؛ أما الرمل الذي قبض عليه، فإنه يخبركـم أنه أتاكـم عدد لا يُحصى وأما الشمس التي أومأ إليها، فإنه يقول إن ذلك أوضح من الشمس وأما جَمله الأحمر، فإنه هو الصمّان [٤]، يأمركم أن تعروه [٥]؛ وأما ناقته العيساء، فهي الدهناء [٦]، يأمركم أن تنذروا بني مالك بن مالـك ابن زيد مناة ما حذّركـم، وأن تمسكوا الحلف بينكـم وبينهم؛ وأما العوسج الذي أورق، فيخبركم أن القوم قد لبسوا السلاح؛ وأما تشكّي النساء، فيخبركم بأنهنّ قد عملن شِكاءً [٧] يغزون به. قال: وقوله «بآية ما أكلت معكـم حيسا» يريد أخلاطا من الناس قد غزوكـم.

قال: فتحرزت عمرو فركبت الدهناء؛ وأنذروا بني مالك، فقالوا: لسنا ندري ما يقول بنو عمرو، ولسنا متحولين لِما قال صاحبكم. قال: فصبّحت اللهازم بني حنظلة، فوجدوا عمْراً قد خلت، وإنما أرادوهم على الوقيط، وعلى الجيش أبجر بن جابر العجلي؛ وشهدها ناس من تيم اللات، وشهدها الغزر بن الأسود بن شريد من بني سنان؛ فاقتتلوا، فأُسِر ضرار بن القعقاع بن معبد بن زرارة، وتنازع في أسره

(١) العوسج: شوك.

(٢) تشكت: حملت السلاح أو اشتكت، أو صنعت السلاح.

(٣) محدود: ممنوع من الخير.

(٤) الصمّان: جبل أحمر في أرض بني تميم

(٥) تعروه: ترتحلوا عنه.

(٦) الدهناء: سبعة أجبل من الرمل، وهي ديار لبني تميم.

(٧) الشكاء: جمع شكوة: وهي وعاء من أدم فيه الماء ويحبس فيه اللبن

بشر بن السوراء من تيم اللات، والغزر بن الأسود فجزا ناصيته[١] وخلاّ سربه[٢] من تحت الليل؛ وأُسر عمرو بن قيس من بني ربيعة بن عجل، وأُسر عثجل بن شيبان بن علقمة من بني زرارة، ومُنّ عليه، وأُسِرَتْ غمامة بنت طوق بن عبيد بن زرارة، واشترك في أسرها الحطيم بن خلال، وظربان بن زياد، وقيس بن خالد؛ وردّوها إلى أهلها؛ وعيَّر جرير بن الخطفي بني دارم بأسر ضرار وعثجلي وبني غمامة، فقال:

أغمامُ لو شَهدَ الوقيط فوارسي ... ما فيه يُقْتَلُ عنجلٌ وضرارُ

فأُسر حنظلة المأمون بن شيبان بن علقمة، أسره طيسلة بن زياد أحد بني ربيعة، وأسر جويرية بن بدر من بني عبد الله بن دارم، فلم يزل في الوثاق حتى قال أبياتا يمدح فيها بني عجل، وأنشأ يتغنى بها رافعاً عقيرته[٣]:

وقائلةٍ ما غاله أن يزورَها ... وقد كنتُ عن تلك الزِّيارةِ في شُغلِ
وقد أدركَتْني والحوادِث جمّةٌ ... مخالِبُ قومٍ لا ضعافٍ لا عُزْلِ
سِراعٍ إلى الداعي، بطاءٍ عنِ الخنا ... رزانٍ لَدى النادِيِّ من غير ما جهْلِ[٤]
لعلهُمُ أن يُمطِروني بنعمةٍ ... كما طاب ماءُ المُزْنِ في البلدِ المحلِ[٥]
فقد ينعشُ اللهُ الفتى بعد عُسْرةٍ ... وقد يتبدِي الحسنَى سُراةُ بني عِجْلِ

فلما سمعوه أطلقوه؛ وأُسر نعيم بن القعقاع بن معبد بن زرارة، وعمرو ابن ناشب؛ وأُسِر سنان بن عمرو أخو بني سلامة بن كندة من بني دارم، وأُسر حاضر بن ضمرة، وأُسر الهيثم بن صعصعة، وهرب عوف بن القعقاع عن إخوته، وقتل حكيم النهشلي، وذلك أنه لم يزل يقاتل وهو يرتجز ويقول:

كلُّ امرىء مُصَبَّحٌ في أهلِه ... والموتُ أدنى من شراكِ نعلِه

---

(١) الناصية: شعر مقدم الرأس اذا كان طويلاً.

(٢) السرب: السبيل.

(٣) عقيرته: صوته. (٤) الخنا: الفحش في الكلام.

(٥) المزن: السحاب يحمل الماء.

وفيه يقول عنترة الفوارس:

وغـادرنـــا حكيما في مجالٍ صريعاً قد سلبنـاهُ الإزارا

يوم النباج وثيتل [1]: لتميم على بكر

الخشني قال: أخبرنا أبو غسان العبدي - واسمه رفيع - عن أبي عبيدة معمر بن المثني، قال: غدا قيس بن قاسم في مقاعس وهو رئيس عليها - ومقاعس هو صريم، وربيع، وعبيد، بنو الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم - ومعه سلامـة بن ظرب بن نمر الحماني في الأحازب وهم حمان، وربيعة، ومالك، والأعرج - بنو كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم فغزوا بكر بن وائل فوجدوا بني ذهل بن ثعلبة بن عكابة، واللهازم، وهم: بنو قيس وتيم اللات بن ثعلبة، وعجل بن لجيم، وعنزة بن أسد بن ربيعة - بالنباج وثيتَل، وبينهما روحة؛ فتنازع قيس بن عاصم وسلامة بن ظرب في الإغارة، ثم اتفقا على أن يُغِير قيس على أهل النِّباج، ويُغير سلامةُ على أهل الثيتل. قال. فبعث قيس بن عاصم سنانَ بن سُمَيّ الأهتم شيِّفةً له - والشَّيِّفَة الطليعة - فأتاه الخبر، فلما أصبح قيسٌ سقى خيله ثم أطلق أفواه الرَّوايا، وقال قومه: قاتلوا، فإن الموت بين أيديكـم، والفلاة من ورائكم! فلما دَنوْا من القوم صُبحاً سمعوا ساقيا من بكر يقول لصاحبه: يا قيس أوردْ فتفاءلوا به؛ فأغاروا على النباج قبل الصبح، فقاتلوهم قتالا شديد، ثم إن بكراً انهزمت، فأسر الأهتم حمران بن بشر بن عمرو بن مرثد، وأصابوا غنائم كثيرة؛ فقال قيس لأصحابه: لا مقام دون الثيتل، فالنجاة. فأتوا ثيتل ولم يغز سلامةُ ولا أصحابه بعد، فأغار عليهم قيس بن عاصم، فقاتلوه ثم انهزموا، فأصاب إبلا كثيرة؛ فقال سلامة: إنكـم أغرتم على ما كان أمره إليّ! فتلاحوا [2] في ذلك، ثم اتفقوا على أن سلموا إليه غنائم ثيتل، ففي ذلك يقول ربيعة بن ظريف:

---

(١) ثيتل: ماء على عشرة مراحل من البصرة، ويسمى يوم النباج.

(٢) يقال: تلوّح الأمر: أي بان ووضح

فلا يُبعِدَنْـك الله قيس بن عـاصمٍ		فأنـت لنـا عِـز عـزيـزٌ ومـوئـل
وأنت الذي خوّيت بكر بن وائـلٍ		وقد عضّلت منها النباجُ وثيتـل[1]
غداةَ دعت يـا آل شيبـانَ إذْ رأت		كـراديس يهديهنّ وردٌ محجَّـل[2]
وظلت عُقابُ الموتِ تهفوا عليهـم		وشُعثُ النواصي لحمهنّ تصلصل[3]
فما منكـم أبنـاءَ بكـرِ بن وائـل		لغـارتنـا إلا رَكــوبٌ مـذلـلُ

وقال جرير يصف ما كان من إطلاق قيس بن عاصم أفواهَ المزاد[4] بقوله:

وفي يــومِ الكلابِ ويــوم قيسٍ		هــراقَ على مُسلّحـــة المزادا[5]

وقال قرة بن قيس بن عاصم:

أنا ابن الذي شقّ المزاد وقـد رأى		بثيتـل أحيـاءَ اللهــازم حصَّــرا
وصبّحهم بالجيش قيس بن عـاصمٍ		ولم يجدوا إلا الأسنّـــة مصـــدرا
على الجردِ يعلُكْنَ الشكيمَ عـوابسـا		إذا الماءُ مــن أعطـافهـنّ تحدّرا[6]
فلم يَــرهـــا الراؤون إلا فجــاءَةٍ		يُثِرن عجاجاً بالسنابكِ أكـدرا[7]
سقاهم بها الذيفانَ قيس بن عـاصم		وكان إذا ما أوردَ الأمر أصدرا[8]
وحُمـران أدّتـه إلينـا رمـاحُنـا		يُنازعُ غُلاً من ذراعيْـهِ أسمـرا[9]
وجشـامـةَ الذهلـيَّ قـدنـاه عَنْـوة		إلى الحي مصفود اليدينِ مفكّـرا[10]

---

(١) عضلت: ضاقت.
(٢) كراديس: جمع كردوسة: وهي الطائفة العظيمة من الخيل أو الجيش. ويهديهن: يسوقهن.
(٣) صلصل: صوت صوتاً فيه ترجيع
(٤) أفواه المزاد: أفواه الروايا: جمع مزادة، وهي الوعاء يحمل فيه الماء في السفر كالقربة ونحوها.
(٥) مسلحة: موضح.
(٦) الجرد: جمع أجرد، وهو الفرس القصير الشعر. والشكيم: جمع شكيمة وهي من اللجام الحديدة المعترضة في فم الفرس ـ وعلك الشكيم: تحريكه في افواهها.
(٧) العجاج: الغبار. (٨) الذيفان: السم الناقع.
(٩) الغُلّ: طوق من حديد أو جلد يجعل في عنق الاسير أو المجرم أو في أيديها.
(١٠) مصفود اليدين: مكبل اليدين.

يوم زرود: لبني يربوع على بني تغلب

أغار خزيمة بن طارق التغلبي على بني يربوع وهم بزرود، فنذروا به [1]، فالتقوا فاقتتلوا قتالا شديداً؛ ثم انهزمت بنو تغلب وأُسر خزيمة بن طارق، أسره أنيف بن جبلة الضبي ـ وهو فارس الشّيط [2]، وكان يومئذ معتلاً في بني يربوع وأسيد بن حِناءة السليطي؛ فتنازعا فيه، فحكما بينهما الحرث بن قراد ـ وأمّ الحارث امرأة من بني سعد بن ضبة ـ فحكم بناصية خزيمة للأنيف بن جبلة، على أن لأسيد على أنيف مائةً من الإبل. قال: ففدى خزيمة نفسه بمائتي بعير وفرس. قال أنيف:

أخذتُك قسراً يا خزيم بن طـارقٍ ولاقيـتَ مني الموتَ يـوم زرودِ
وعانقته والخيلُ تدمَى نُحُورُها فـأنـزلتُه بـالقـاعِ غير حَميـد

أيام يربوع على بكر

وهذه أيام كلها لبني يربوع على بني بكر: من ذلك يوم ذي طلوح [3]، وهو يوم أَوْد؛ ويوم الحائر، ويوم ملهم؛ ويوم القُحقح، وهو يوم مالّة ويوم رأس عين، ويوم طخفة، ويوم الغَبيط، ويوم مُخطّط، ويوم جَدود، ويوم الجبابات ويوم زرود الثاني.

يوم ذي طلوح: لبني يربوع على بكر

كان عميرة بن طارق بن حصينة بن أريم بن عبيد بن ثعلبة؛ تزوج مُريّة بنت جابر، أخت أبجر بن جابر العجلي؛ فخرج حتى ابتنى بها في بني عجل، فأتى أبجرُ أختَه مزنة امرأة عميرة يزورها فقال لها: إني لأرجو أن آتيكِ ببنتِ النطف امرأة عميرة التي في قومها! فقال له عميرة: أترضى أن تحارِبَني وتسببيني؟ فندم أبجر وقال لعميرة: ما كنت لأَغزُوَ قومك! ثم غزا أبجر والحوفزان متساندَين؛ هذا فيمن تبعه

---

(١) نذر بالشيء: علمه فحذره.

(٢) الشيط: فرس أنيق.

(٣) ذو طلوح: موضع في حزن بني يربوع.

من بني شيبان، وهذا فيمن تبعه من بني اللهازم؛ وساروا بعميرة معهم قد وكل به أبجر أخاه حُرفصة بن جابر؛ فقال له عميرة: لو رجعت إلى أهلي فاحتملتُهم! فقال حرفصة: آفعل. فكر عميرة على ناقته، ثم نكل[1] عن الجيش، فسار يومين وليلة حتى أتى بني يربوع، وأنذرهم الجيش؛ فاجتمعوا حتى التقَوْا بأسفل ذي طلوح، فأوّل ما كان فارس طلع عليهم عميرة، فنادى: يا أبجر هلمّ! فقال: من أنت؟ قال: أنا عميرة! فكذبه، فسفر عن وجهه، فعرفه، فأقبل إليه، والتقت الخيل بالخيل، فأُسر الجيش إلاّ أقلهم.

وأسر حنظلة بن بشر بن عمرو بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم - وكان في بني يربوع - الحوفزان بن شريك، وأخذه معه مكبلا، وأُخذ ابن طارق سوادة بن يزيد بن بُجير بن عم أبجر، وأُخذ ابن عنمة الضبي الشاعر، وكان مع بني شيبان، فافتكه متمِّم بن نويرة؛ فقال ابن عَنمة يمدح مُتمم بن نويرة:

جـزى الله ربَّ النـاس عني مُتمِّما ... بخيْـر جزاءٍ، مـا أعَـف وأمْجـدا
أُجيرتْ بـه آبـاؤنـا وبنـاتنـا ... وشـارَك في إطْلاقِنـا وتفـرّدا
أبا نَهْشَـل إني لكـم غير كـافـرٍ ... ولا جاعلٍ من دونِك المالَ مُرصـدا

وأُسر سُويد بن الحوفزان، وأُسر سويد وفلْحس، وهما من بني سعد بن همام فقال جرير في ذلك يذكر ذي طُلوح:

ولمّا لقينـا خيْـل أَبجَر يَـدعـي ... بدعوى لُجَيْمٍ غير ميلِ العواتـقِ
صبَرْنـا وكـان الصبرُ منّـا سجيّـة ... بـأسيـافِنـا تحت الظِّلال الخوافِـق
فلما رأَوْا لا هَـوادةَ عنـدَنـا ... دعوْا بعد كرْب يا عُميْر بن طـارق

يوم الحائر: وهو يوم ملهم[2]. لبني يربوع على بكر

وذلك أن أبا مُليل عبد الله بن الحارث بن عاصم بن حميد، وعلقمة أخاه، انطلقا

---

(١) نكل فلان عن الشيء: أي نحاه عنه

(٢) ملهم: قرية باليمامة لبني يشكر وأخلاط من بني بكر. والحائر: الحوض يصب اليه مسيل من الماء من الأمطار.

يطلبان إبلا لهما، حتى وردا ملهَم من أرض اليمامة؛ فخرج عليهما نفر من بني يشكر، فقتلوا علقمة وأخذوا أبا مُليل، فكان عندهم ما شاء الله، ثم خلّوا سبيله، وأخذوا عليه عهدا وميثاقا أن لا يخبر بأمر اخيه أحدا؛ فأتى قومه، فسألوه عن أمر أخيه، فلم يخبرهم؛ فقال وبرة بن حمزة: هذا رجل قد أُخذ عليه عهد وميثاق! فخرجوا يقصُّون أثرَه، ورئيسهم شهاب بن عبد القيس، حتى وردوا ملهم؛ فلما رآهم اهل ملهم تحصنوا، فخرقت بني يربوع بعض زرعهم وقتل عمرو بن صابر صبرا [1]، ضربوا عنقه، وقَتَل عيينة بن الحارث بن شهب بن مُثَلَّم بن عبيد بن عمرو، رجلا آخر منهم؛ وقتل مالك بن نويرة حُمران بن عبد الله، وقال:

طلبْنـا بيـومٍ مثـل يـوْمـك علقما لَعَمْري لَمَن يسعى بها كان أكْرمـا
قتلْنا بجنبِ العِرْض عمرَو بن صابـر وحمْرانَ أقْصَـدنـاهما والمثَلما [2]
فلله عيْنـا مَـن رأى مثْـل خيْلنـا وما أَدركَتْ من خيْلهم يـوم مَلْهَما

يوم القحقح: وهو يوم مالة. لبني يربوع على بني بكر

أغارت بنو أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان على بني يربوع، ورئيسهم مجبه بن ربيعة ابن ذهل، فأخذوا إبلا لعاصم بن قرط أحد بني عُبيد، وانطلقوا: فطلبهم بنو يربوع، فناوشوهم، فكانت الدائرة على بني ربيعة؛ وقَتل المنهال بن عصمة المجبه بن ربيعة؛ فقال في ذلك نِمران الرياحي:

وإذا لقيتَ القـوْم فـاطْعـن فيهـم يـوْم اللّقـاء كطعْنـة المنهـال
تـرَك المُجبَّه للضِّبـاعِ مُنكَّسـا وللقومُ بين سـوافِـلٍ وعَـوالِ [3]

يوم رأس العين: لبني يربوع على بكر

أغارت طوائف من بني يربوع على بني أبي ربيعة برأس العين، فاطّردوا النعم

(١) الصبر: نصب الانسان ليقتل، ويقال قتل صبراً.
(٢) العِرْض: واد باليمامة.
(٣) المنكس: المتأخر الذي لا يلحق بأقرانه.

فاتبعهم معاوية بن فراس في بني أبي ربيعة، فأدركوهم؛ فقتل معاوية بن فراس وفاتوا[١] بالإبل، وقال سحيم في ذلك:

أليس الأكرمونَ بنو رياح نَمَوْني منهم عمي وخالي
هُمُ قتلوا المُجَبَّةَ وابن تيْمٍ تنوحُ عليهما سُودُ اللّيالي
وهُمْ قتَلوا عميدَ بني فِراس برأس العيْن في الحِجج الخوالي[٢]
وذادوا يوْم طِخفَةَ عن حِماهم ذِياد غرائبِ الإبلِ النِّهالِ[٣]

يوم العظالى[٤]: لبني يربوع على بكر

قال أبو عبيدة: وهو يوم أعشاش[٥]، ويوم الأُفاقة[٦]، ويوم الإياد، ويوم مُليحة[٧].

قال وكانت بكر بن وائل تحت يد كسرى وفارس، وكانوا يجيرونهم ويجهزونهم، فأقبلوا من عند عامل عين التمر[٨] في ثلثمائة فارس متساندين، يتوقعون انحدار بني يربوع في الحَزْن ـ وكانوا يَشْتون[٩] خُفافا[١٠]، فإذا انقطع الشتاء انحدروا إلى الحزن ـ قال: فاحتمل بنو عُتيبة، وبنو عبيد، وبنو زبيد من بني سليط، من أول الحي، حتى استهلوا ببطن مُليحة؛ فطلعت بنو زبيد في الحزن حتى حلّوا الحُديقة[١١] والأُفاقة، وحلت بنو عُتيبة وبنو عبيد بعين بروضة الثَّمَد[١٢].

---

(١) فاتوا: مضوا ومرّوا

(٢) الحجج الخوالي: يريد الأعوام الماضية.

(٣) طخفة: موضع بعد النباج في طريق البصرة الى مكة.

(٤) وسمي بذلك لأن الناس فيه ركب الاثنان والثلاثة الدابة الواحدة.

(٥) أعشاش: موضع في بلاد بني تميم، لبني يربوع بن حنظلة.

(٦) الأفاقة: ماء لبني يربوع (٧) مليحة: موضع في بلاد تميم.

(٨) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة.

(٩) يقال: شتا بالبلد وشتى: اذا أقام به شتاء.

(١٠) خفاف: موضع. (١١) موضع.

(١٢) روضة الثمد والحضي: موضعان.

قال: وأقبل الجيشِ حتى نزلوا خضبة الخصِيّ ، ثم بعثوا رئيسهم ، فصادفوا غلاما شابا من بني عبيدة يقال له قرط بن أهبط ، فعرفه بسطام ـ وقد كان عرفه عامة غُلمان بني ثعلبة حين أسره عتيبة ؛ قال: وقال سليط: بل هو المطوّح بن قرواش ـ فقال له بسطام: أخبرني، ماذاك السواد الذي بالحديقة؟ قال: هم بنو زبيد، قال: أفيهم أسيد بن حِنَّاءة؟ قال: نعم. قال: كم هم؟ قال: خمسون بيتا. قال: فأين بنو عُتيبة؟ وأين بنو أزنم؟ قال: نزلوا روضة الثمـد. قال: فأين سائر الناس؟ قال: هم محتجزون بخفاف. قال: فمن هناك من بني عاصم؟ قال الاحيمر، وقعنب ومعدان، آبنا عِصْمة. قال: فمن فيهم من بني الحارث بن عاصم؟ قال: حصين بن عبد الله. فقال بسطام لقومه: أطيعوني تقبضوا على هذا الحي من زبيد وتصبحوا سالمين غانمين. قالوا: وما يغني عنا بنو زبيد لا يودون رحلتنا. قال: إن السلامة إحدى الغنيمتين. فقال له مفروق: انتفخ تتحول يا أبا الصهباء. وقال له هانىء: أحيْنا! فقال لهم: ويلكم! إن أسيدا لم يظلّه بيت قط شاتيا ولا قائظا، إنما بيته القفر، فإذا أحس بكـم أجال على الشقراء فركض حتى يشرف على مليحة، فينادي: يا آل يربوع! فتركـب، فليقـاكـم طعـن ينسيكـم الغنيمـة، ولا يُبصر احـدكـم مصرع صاحبه؛ وقد جئتموني وأنا أتابعكم، وقد أخبرتكـم ما أنتم لاقون غداً! فقالوا: نلتقط بني زبيد، ثم نلتقط بني عبيدة وبني عتيبة، كما نلتقط الكمأة[1]، ونبعث فارسين فيكونان بطريق أسيد، فيحولان بينه وبين يربوع. ففعلوا، فلما أحس بهم أسيد ركب الشقراء، ثم خرج نحو بني يربوع، فابتدره الفارسان، فطعن أحدهما فألقى نفسه في شق فأخطأه. ثم كرّر راجعاً حتى أشرف على مليحة، فنادى: يا صباحاه! يا آل يربوع! غُشيتم! فتلاحقت الخيل حتى توافوا بالغطفان، فاقتتلوا؛ فكانت الدائرة على بني بكر، قتل منهم: مفروق بن عمرو، فدفن بثينة[2] يقال لها ثينة مفروق، والمقـاعس الشيبـاني، وزهير بن الحَزور الشيبـاني، وعمـــرو بن الحزوَر الشيبـــاني،

(١) الكمأة: الكمء: فطر من الفصيلة الكمئية

(٢) الثينة: الطريق في الجبل.

والهَيْش بن المِقْعاس، وعمير بن الودّاك، والضُريس؛ وأما بسطام فألح عليه فارسان من بني يربوع، وكان دارعاً[1] على ذات النُّسوع[2]، وكانت إذا أجدّت[3] لم يتعلق بها شيء من خيلهم، وإذا أوعثت[4] كادوا يلحقونها؛ فلما رأى ثقل درعه وضعها بين يديه على القرَبوس[5]؛ وكره أن يرمي بها، وخاف أن يلحق في الوعث. فلم يزل ديدنه وديدن طالبيه، حتى حميت الشمس وخاف اللحاق، فمر بوجار[6] ضبع، فرمى الدرع فيه. فمد بعضها بعضا حتى غابت في الوجار. فلما خففت عن الفرس نشطت ففاتت الطلب وكان آخرَ من أتى قومه؛ وقد كان رجع إلى درعه لما رجع عنه القوم فأخذها. فقال العوام في بسطام وأصحابه:

وإنْ يكُ في يوم الغَبيطِ مَلامة ... فيوم العظالى كان أخزى وألوَمَا
أناخُوا يُريدون الصباحَ فصُبِّحوا ... وكانوا على الغازين غُدوةَ أشْأما
فررْتم ولم تُلوُوا على مُجْحريكم ... لو الحارثُ الحرّاب يُدعَى لأقْدما[7]
ولو أنّ بسْطاماً أُطيعَ لأمره ... لأدّى إلى الأحياء بالحِنْو مغنَما
ففرّ أبو الصهباء إذ حَمَى الوغى ... وألقى بأبدان السلاحِ وسلّما
وأيقَن أنْ الخيلَ إن تلتبسْ به ... يَعُدْ غانِماً أو يَملإِ البيتَ مأتما
ولو أنها عصفورة لحسِبْتُها ... مُسوّمةً تَدعو عُبَيداً وأزْنَما[8]
أَبى لك قيْدٌ بالغَبيطِ لقاءَهم ... ويومُ العَظالى إن فخرتَ مكلَّما
فأفلَتَ بسْطامٌ حريصاً بنفسه ... وغادر في كرْشاءَ لَدْناً مُقوما[9]

---

(1) الدارع: الذي عليه درعه.

(2) ذات النسوع: فرس بسطام

(3) أجدت: سلكت الجدد، وهي الأرض الغليظة المستوية

(4) أوعثت: سلكت الوعث، وهي المكان السهل تغيب فيه الأقدام.

(5) القربوس: حنو السرج.

(6) الوجار: جحر الضبع.

(7) المجحر: الملجأ والمكمن

(8) أزنم: بطن من بني يربوع.

(9) الكرشاء: القدم التي كثر لحمها واستوى أخمصها وقصرت أصابعها. وقد يريد كرشاء بن عمر الشيباني.

وقـاظ أَسيراً هـانـيءٌ وكـأنما مَفارقُ مفروقٍ تَغشَّيْنَ عَنـدمـا[1]

قال: ثم إنّ خانئاً فدى نفسه وأسرَى قومه؛ فقال العوام في ذلك:

إنّ الفتى هـانئـاً لاقـى بشِكَّتـه ولم يَجم عن قتالِ القومِ إذ نَزلا[2]
ثمَّتَ سـارَعَ في الأسرى ففكَّهـم حامى الذِّمار حَقيقٌ بـالـذي فعلا

يوم الغبيط[3] لبني يربوع على بني بكر

قال أبو عبيدة: يقال لهذا اليوم: يوم الغبيط، ويوم الثعالب ـ والثعالب أسماء قبائل اجتمعت فيه ـ ويقال له: يوم صحراء فَلْج.

وقال أبو عبيدة: حدّثني سليط بن سعد، زبَّان الصُّبيريّ، وجهم بن حسان السَّليطي، قالوا: غزا بِسطام بن قيس، ومفروق بن عمرو، والحارث بن شريك ـ وهو الحوفزان ـ بلاد بني تميم ـ وهذا اليوم قبل يوم العُظالي ـ فأغاروا على بني ثعلبة بن يربوع، وثعلبة بن سعد بن ضبة، وثعلبة بن عدي بن فزارة، وثعلبة بن سعد بن ذبيان؛ فذلك قيل له يوم الثعالب، وكان هؤلاء جميعاً متجاورين بصحراء فلج فاقتتلوا، فانهزمت الثعالب فأصابوا فيهم واستاقوا إبلا من نَعمهم، ولم يشهد عتيبة ابن الحارث بن شهاب هذه الوقعة؛ لأنه كان نازلا يومئذ في بني مالك بن حنظلة؛ ثم امترّوا[4] على بني مالك، وهم بين صحراء فلج وبين الغبيط، فاكتسحوا إبلهم؛ فركبت عليهم بنو مالك، فيهم عتيبة بن الحارث بن شهاب، ومعه فرسان من بني يربوع يأثفهم ـ أي صار معهم مثل الأثافي[5] المرماد ـ وتألّف إليهم الأحيمر بن عبد الله، والأسيد بن حِنّاءة، وأبو مرحب، وجرو بن سعد الرياحي وهو رئيس بني

---

(١) العندم: صبغ أحمر، يريد الدم

(٢) الشّكة: ما يحمل أو يلبس من السلاح

(٣) الغبيط: واد يقع أول الدهناء.

(٤) امترّوا: كرّوا

(٥) الأثافي: أحجار ثلاثة توضع عليها القدر.

يربوع - وربيع، والخليس، وعمارة، وبنو عتيبة بن الحارث، ومعدان وعصمة ابنا قعنب، ومالك بن نويرة، والمنهال بن عصمة أحد بني رياح بن يربوع، وهو الذي يقول فيه متّمم بن نويرة في شعره الذي يرثي فيه مالكا أخاه:

لقد غيّب المنهالُ تحت لوائِه ... فتىً غير مِبطان العشية أرْوعا [1]

فأدركهم بغبيط المَدَرة [2]، فقاتلوهم حتى هزموهم، وأدركوا ما كانوا استاقوا من أموالهم؛ وألح عتيبة والأسيد والأحيمر على بسطام، فلحقه عتيبة فقال: استأسِر لي يا أبا الصهباء! فقال: ومن أنت؟ قال: أنا عتيبة، وأنا خيرٌ لك من الفلاة والعطش! فأسره عتيبة. ونادى القومُ بِجاداً أخا بسطام: كرّ على أخيك! وهم يرجون أن يأسروه، فناداه بسطام: إن كررت فأنا حَنيف [3]. وكان بسطام نصرانيا، فلحق نجاد بقومه، فلم يزل بسطام عند عتيبة حتى فادى نفسه.

قال أبو عبيدة: فزعم أبو عمرو بن العلاء أنه فدى نفسه بأربعمائة بعير وثلاثين فرسا، ولم يكن عربي عكاظي أعلى فداءً منه، على أن جز ناصيته وعاهده أن لا يغزو بني شهاب أبدا؛ فقال عتيبة بن الحارث بن شهاب:

أبلغْ سَرَاة بني شيْبان مألكةً ... أني أبأتُ بعبدِ الله بسْطاما [4]
قاظَ الشربّة في قيدٍ وسلسلةٍ ... صوتُ الحديدِ يُغَنّيه إذا قاما [5]

يوم مخطط: لبني يربوع على بكر

قال أبو عبيدة: غزا بسطام بن قيس والحوفزان الحرثُ متساندَين يقودان بكر بن وائل، حتى وردوا على بني يربوع بالفِردوس، وهو بطن لإياد، وبينه وبين مخطط

---

(١) المبطان: الضخم البطن من كثرة الأكل.

(٢) غبيط المدرة: أرض لبني يربوع

(٣) الحنيف: الذي يتحنف في الأديان.

(٤) المألكة: الرسالة. وأبأته به: أي عاقبته به.

(٥) قاظ الشربة: أقام بها زمن القيظ. والشربة: موضع.

ليلة، وقد نذرت بهم بنو يربوع فالتقوا بالمخطط، فاقتتلوا، فانهزمت بكر بن وائل، وهرب الحوفزان وبسطام ففاتا ركضا، وقُتل شريك بن الحوفزان، قتله شهاب بن الحارث أخو عتيبة، وأسر الأحيمر بن عبد الله بن الضريس الشيباني؛ فقال في ذلك مالك بن نويرة ولم يشهد هذا اليوم:

إلاَّ أكن لاقيْتُ يومَ مُخطَّطٍ ... فقد خبّرَ الرُّكْبانُ ما أتودّدُ
بأفْناء حيّ من قبائل مالكٍ ... وعمرو بن يربوعٍ أقاموا فأخلَدوا
فقال الرئيسُ الحوْفزان تبيَّنوا ... بني الحِصنِ قد شارفْتم ثم حَرِّدوا (١)
فما فَتِئوا حتى رأوْنا كأننا ... مع الصبحِ آذِيٌّ من البحر مُزْبد (٢)
بمَلْمومة شهْباءَ يَبرُقُ خالُها ... تَرى الشمسَ فيها حين دارتْ توقُّد (٣)
فما بَرحوا حتى علَتْهم كتائبٌ ... إذا طُعنت فرسانها لا تُعرَد (٤)
فأقررتُ عيني يوم ظلُّوا كأنهم ... ببطْن غَبيطٍ خُشْب أَثْلٍ مُسنَّد (٥)
صَريعٌ عليه الطيرُ يَحْجِلُ فوْقَه ... وآخَرُ مكْبولُ اليديْن مُقيَّد (٦)
وكان لهم في أهلِهم ونسائِهم ... مَبيتٌ ولم يَدْروا بما يُحدِثُ الغد
وقد كان لآبن الحوْفزان لو آنتهى ... شَريكٌ وبسْطامٌ عن الشرِّ مقْعَد

يوم جدود (٧)

غزا الحوفزان، وهو الحارث بن شريك، فأغار على من بالقاعة (٨) من بني سعد

---

(١) حردوا: أقصدوا (٢) الآذي: الموج الشديد.

(٣) بملمومة: أي كتيبة مجتمعة مضموم بعضها الى بعض. وشهباء، لما فيها من بياض السلاح، والحديد في حال السواد.

(٤) لا تعرد: لا تفرّ.

(٥) الأثل: شجر طويل مستقيم يعمر، جيد الخشب كثير الأغصان دقيق الورق. واحدته: أثلة.

(٦) يحجل: يتبختر.

(٧) الجدود: اسم موضع من أرض بني تميم.

(٨) القاعة: من بلاد سعد بن زيد مناة بن تميم.

ابن زيد مناة؛ فأخذ نَعما كثيرا، وسبى فيهنّ الزرقاء من بني ربيع بن الحارث، فأعجب بها وأعجبت به، وكانت خرقاء، فلم يتمالك أن وقع بها؛ فلما انتهى إلى جَدود، منعتهم بنو يربوع بن حنظلة أن يردوا الماء، ورئيسُهم عتيبة بن الحارث بن شهاب، فقاتلوهم، فلم يكن لبني بكر بهم يدُ، فصالحوهم على أن يعطوا بني يربوع بعض غنائمهم، على أن يخلُّوهم [أنْ] يردوا الماء، فقبلوا ذلك وأجازوهم؛ فبلغ ذلك بني سعد، فقال قيس بن عاصم في ذلك:

جزى اللهُ يربُوعاً بأَسـوأ سعْيهـا ... إذا ذُكرتْ في النائبـاتِ أُمـورُهـا
ويـومَ جَـدودٍ قـد فضَحْتمْ أبـاكمُ ... وسالمْتمُ والخيلُ تَـدْمَـى نُحـورُهـا

فأجابه مالك:

سأَسأل مَن لاقَـى فـوارِسَ مُنقِـذٍ ... رِقابَ إماءٍ كيف كان نكِيرُهـا(١)

ولما أتى الصريخُ بني سعد، ركب قيس بن عاصم في أثر القوم حتى أدركهم بالأشْيَمَيْن، فألح قيس على الحوفزان وقد حمل الزرقاء، وكان الحوفزان قد خرج في طليعة، فلقيه قيس بن عاصم فسأله من هو؛ فقال: لا تَكاتُم اليوم، أنا الحوفزان، فمن أنت؟ قال: أنا أبو علي. ومضى، ورجع الحوفزان إلى أصحابه، فقال: لقيت رجلا أزرق كأنّ لحيته ضريبة(٢) صوف فقال: أنا أبو علي. فقالت عجوز من السبي: بأبي أبو علي! ومن لنا بأبي علي؟ فقال لها: ومن أبو علي؟ قالت: قيس بن عاصم! فقال لأصحابه: النجاء! وأردف الزرقاء خلفه وهو على فرسه الزَّبِد، وعقد شعرها إلى صدره ونجا بها. وكانت فرس قيس إذا أوعثت(٣) قصَّرت وتَمطر عليها الزَّبد، فلما أجدّت(٤) لحقتْ بحيث يُكلم الحوفزان، فقال قيس له: يا أبا حمار، أنا خير لك من الفلاة والعطش! قال له الحوفزان: ما شاء الزبِد. فلما رأى قيس أن فرسه لا يلحقه، نادى الزرقاء فقال: ميلي به يا جعار! فلما سمعه الحوفزان، دفعها

(١) النكير: الانكار، والعقوبة الرادعة.

(٢) الضريبة: القطعة. (٣) أوعثت: وقعت في الوعث.

(٤) أجدّت: سلكت الجدد.

بمرفقه وجزّ قرونها بسيفه، فألقاها عن عجز فرسه، وخاف قيس أن لا يلحقه فنجله[1] بالرمح في خُرابة وركه[2]، فلم يقصده وعَرج منها وردَّ قيس الزرقاء إلى بني الربيع، فقال سوّار بن حيّان المِنقري:

ونحن حَفَـزْنـا الحوْفـزان بطعْنــةٍ   تَمُجُّ نجيعاً مـن دمِ الجوْفِ أشْكلا[3]

يوم سفوان[4]

قال أبو عبيدة: التقت بنو مازن وبنو شيبان على ماء يقال له سفوان فزعمت بنو شيبان أنه لهم، وأرادوا أن يُجلوا تميا عنه، فاقتتلوا قتالا شديدا، فظهرت عليهم بنو تميم، وذادوهم حتى وردوا المحدّث[5]، وكانوا يتوعَّدون بني مازن قبل ذلك، فقال في ذلك وذاك المازني:

رُويداً بني شيبَـان بعـضَ وعيـدِكم   تُلاقــوا غــداً خيلي على سفوان
تلاقوا جياداً لا تَحيد عـن الوغَـى   إذا الخيلُ جالت في القنا المتدانِـي
عليها الكُماة الغُـرُّ مـن آل مـازنٍ   ليوثُ طعان كـلَّ يـومِ طعـان[6]
تلاقوهم فتْعرفـوا كيـف صبرُهْـم   على ما جنـت فيهـم يـدُ الحدّثـان
مقاديمُ وصَّالون في الروع خطوَهُـم   بكـلِّ رقيــق الشَّفْــرتين يمان[7]
إذا استُنجدوا لم يسألوا من دعاهـم   لأيَّــة حـــربٍ أم لإيٍّ مكــان

يوم السلي

قال أبو عبيدة: كان من حديث يوم السلي أن بني مازن أغارت على بني يشكر

---

(١) نجله: طعنه.

(٢) خرابة الورك: ثقب رأس الورك.

(٣) حفزنا: طعنا. وأشكل: أحمر.

(٤) سفوان: ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة.

(٥) المحدث: ماء. (٦) الكماة: الفرسان.

(٧) يريد السيف اليماني أي الذي صنع في اليمن.

فأصابوا منهم، وشدّ زاهر بن عبد الله بن مالك على تميم بن ثعلبة اليشكري فقتله، فقال في ذلك:

لله تيمٌ أيَّ رُمـــح طـــرادِ ... لاقـى الحِمام وأي نصــل جلادِ [1]
ومحش حــربٍ مقــدمٌ متعــرّضٌ ... للمــوتِ غيرُ معــرّدٍ حيَّــاد [2]

وقال حاجب بن ذبيان المازني:

سلي يشكـراً عني وأبنـاءَ وائــلٍ ... لهازِمَهــا طــراً وجمع الأراقــمِ
ألم تعلمي أنّــا إذا الحربُ شُمـرت ... سِهامٌ على أعـدائنــا في الحلاقــم
عُتـاةٌ قـراةٌ في الشّتـاء مسـاعِــرٌ ... حُماةٌ كماةٌ كالليوثِ الضراغـم [3]
بـأيـديهِمُ سُمـرٌ مـن الخطِّ لـدْنـةٌ ... وبيضٌ تجلى عن فراخِ الجماجـمِ [4]
أُولئِكَ قـومٌ إن فخـرتُ بعـزّهـم ... فخرتُ بِعِزّ في اللّهـى والغَلاصم [5]
هُمُ أنزلـوا يـوم السليّ عـزيـزَهـا ... بسُمْرِ العوالي والسُّيوفِ الصَّـوارِمِ

يوم نقا [6] الحسن: وهو يوم السقيفة لبني ضبة على شيبان

قال أبو عبيدة: غزا بسطام بن قيس بن مسعود بن قيس بن خالد - وقيس بن مسعود هو ذو الجدّين وأخوه، السليل بن قيس بن ضبة بن أد بن طابخة - فأغار على ألف بعير لمالك بن المنتفق فيها فحلها قد فقأ عينه، وفي الإبل مالك بن المنتفق، فركب فرساً له ونجا ركضا، حتى إذا دنا من قومه نادى: يا صباحاه! فركبت بنو ضبة، وتداعت بنو تميم، فتلاحقوا بالنقا، فقال عاصم بن خليفة لرجل من فرسان

(١) الجلاد: القوي
(٢) محش حرب: موقد نارها ومؤرثها. والمعرد: الذي ينكل عن قرنه ويحجم ويفر.
(٣) المساعر: جمع المسعر: وهو ما تحرك به النار من حديد أو خشب.
(٤) السمر: الرماح. والبيض: السيوف.
(٥) اللهى: جمع لهاة: وهي لحمة حمراء في الحنك معلقة على عكرة اللسان. والغلاصم: جمع غلصمة: وهي الموضع الناتيء في الحلق.
(٦) النقا: القطعة من الرمل محدودبة. والحسن: جبل رملي. ونقا الحسن: في بلاد بني ضبة.

قومه أيُّهم رئيس القوم؟ قال: حاميتهم صاحب الفرس الأدهم يعني بسطاما، فعلا عاصمٌ عليه بالرمح فعارضه، حتى إذا كانَ بحذائه رمى بالقوس وجمع يديه في رمحه فطعنه، فلم تخطيء صماخ أذنه، حتى خرج الرمح من الناحية الأخرى، وخرّ على الألاءة - والألاءة شجرة - فلما رأى ذلك بنو شيبان خلَّوا سبيل النعم وولوا الأدبار؛ فمن قتيل وأسير؛ وأسر بنو ثعلبة بجاد بن قيس بن مسعود أخا بسطام في سبعين من بني شيبان، فقال ابن غنمة الضبي، وهو مجاورٌ يومئذ في بني شيبان يرثي بسطاما وخاف أن يقتلوه، فقال:

لأمِّ الأرضِ ويلٌ ما أجنَّت ... بحيثُ أضرَّ بالحسنِ السبيلُ(١)
نقَسم ماله فينا ونَدعو ... أبا الصهباءِ إذ جَنح الأصيل(٢)
كأنكِ لم تَريه ولم تريه ... تخُبُّ به عُذافرةٌ ذَمول(٣)
حقيبةُ رحَّلها بدنٌ وسرْجٌ ... تعارضُها مربَّبة دءُول(٤)
إلى مسعادِ أرْعَنَ مكفهِرٍ ... تُضَمَّرُ في جوانبه الخيُول(٥)
لك المرْباعُ منها والصَّفايا ... وحُكمُك والنشيطَة والفُضول(٦)
لقد ضمِنت بنو زيد بن عمرو ... ولا يوفي ببسطامٍ قتيل
فخرّ على الألاءةِ لم يوسَّد ... كأنّ جبينَه سيفٌ صقيلُ(٧)
فإن تَجزَع عليه بنو أبيهِ ... فقد فُجِعوا وحلَّ بهم جليل
بمطعامٍ إذا الأشوالُ راحت ... إلى الحجراتِ ليس لها فصيل(٨)

---

(١) الحسن: جبل رمل. (٢) ابو الصهباء: كنية بسطام.

(٣) العذافرة: الغليظة. والذمول: السريعة.

(٤) الحقيبة: ما يجعل وراء الرحل، والبدن: الدرع. والمربية: السمينة. والدءول: نوع من السير.

(٥) الأرعن: الجبل الكثيف. وتضمر: تعلف القوت القليل.

(٦) المرباع: ربع الغنيمة. والصفية: ما يصطفيه الرئيس من خيار ما يغنم. والنشيطة: ما أصابة الجيش في طريقه قبل أن يصل الى مقصده. والفضول: ما فضل ولم يقسم.

(٧) الألاءة: جمعها الألاء: وهي شجر حسن المنظر مر الطعم دائم الاخضرار.

(٨) الأشوال: النوق التي خف لبنها وارتفع ضرعها.

وقال شمعلة بن الأخضر بن هُبيرة:

ويومَ شقائِقِ الحسَنَيْنِ لاقت بنو شيبانَ آجالا قِصاراً[1]

شككْنا بالرماحِ وهُنّ زورٌ صماخَي كبشِهم حتى استدارا[2]

وأوخَذْناه أسمرَ ذا كعوبٍ يشبّه طولهُ مسَداً مُغارا[3]

وقال محرز بن المكعبر الضبي:

أطلقتُ من شيبانَ سبعينَ راكباً فآبوا جميعاً كلُهم ليس يشكر[4]

إذا كنتَ في أفنانِ شيبانَ مُنعِماً فجُزَّ اللحى إنّ النواصي تَكفر[5]

فلا شكرهم أبغي إذا كنتُ مُنعِما ولا ودّهُم في آخر الدهر أُضْمِر

أيام بكر على تميم

يوم الزُّوَيرَين

قال أبو عبيدة: كانت بكر بن وائل تنتجع أرض تميم في الجاهلية ترعى بها إذا أجدبوا، فإذا أرادوا الرجوع لم يدعوا عورة يصيبونها ولا شيئا يظفرون به إلا اكتسحوه؛ فقالت بنو تميم: امنعوا هؤلاء القوم من رعْي أرضكم وما يأتون إليكم فحشدت تميم، وحشدت بكر واجتمعت؛ فلم يتخلف منهم إلا الحوفزان بن شريك في أناس من بني ذهل بن شيبان وكان غازيا؛ فقدّمت بكر عليهم عمراً الأصم أبا مفروق ـ قال: وهو عمرو بن قيس بن مسعود أبو عمر بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان ـ فحسد سائر ربيعة الأصم على الرياسة، فأتوه فقالوا: يا أبا مفروق، إنا قد زحفنا لتميم وزحفوا لنا أكثر ما كنا وكانوا قط. قال: فما تريدون؟ قالوا: نريد أن نجعل كل حي على حياله، ونجعل عليهم رجلا منهم؛ فنعرف غَناء كل قبيلة، فإنه

(١) الحسنان: كثيبان معروفان في بلاد بني ضبّة.

(٢) زور: مائلة. (٣) مغاراً: مفتولاً.

(٤) آب: عاد.

(٥) النواصي: جمع ناصية، وهي خصلة من الشعر في مقدم الرأس.

أشدّ لاجتهاد الناس! قال: والله إني لأبغض الخلاف عليكم، ولكن يأتي مفروق فينظر فيما قلتم. فلما جاء مفروق شاوره أبوه ـ وذلك أول يوم ذُكر فيه مفروق بن عمرو ـ فقال له مفروق: ليس هذا أرادوا، وإنما أرادوا أن يخدعوك عن رأيك وحسدوك على رياستك؛ والله لئن لقيت القوم فظفرت لا يزال الفضلُ لنا بذلك أبدا، ولئن ظفر بك لا تزال لنا رياسة نُعرف بها! فقال الأصم: يا قوم، قد استشرت مفروقا فرأيته مخالفا لكم، ولست مخالفا رأيه وما أشار إليه. فأقبلت تميم بجملين مجللين مقرونين مقيدين، وقالوا: لا نولّي حتى يولي هذان الجملان، وهما الزويران. فأخبرت بكر بقولهم الأصمَّ، فقال: وأنا زويركم، إن حشّوهما فحشّوني[1]، وإن عقروهما فاعقروني! قال: والتقى القوم، فاقتتلوا قتالا شديدا.

قال: وأسرت القوم بنو تميم، حرّاث بن مالك أخا مرة بن همام، فركض به رجل منهم وقد أردفه، واتبعه ابنه قتادة بن حراث، حتى لحق الفارس الذي أسر أباه، فطعنه فأراده عن فرسه، واستنقذ أباه؛ ثم استحرّ بين الفريقين القتال، فانهزمت بنو تميم؛ فقتل منهم مقتلة عظيمة. فممن قتل منهم: أبو الرئيس النهشلي. وأخذت بكر الزويرين، أخذتها بنو سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة، فنحروا أحدهما فأكلوه وافتحلوا الآخر، وكان نجيبا، فقال رجل من بني سدوس:

يا سَلْمُ إن تسألِي عنّا فلا كشفٌ ... عند اللّقاءِ ولسنا بالمقاريفِ
نحنُ الذين هزمنا يوم صبَّحنا ... جيشَ الزُّويرين في جمعِ الأحاليف
ظلّوا وظلنا نِكر الخيلَ وسطُهم ... بالشِّيبِ منّا وبالمرْدِ الغطاريفِ[2]

وقال الأغلب بن جُشم العجلي:

جاءُوا بزويرهم وجئْنا بالأصمّ ... شيخٌ لنا قد كان من عهدِ إرمْ
يكرُّ بالسّيفِ إذا الرمحُ انحطمْ ... كهمّةِ الليْثِ إذا ما الليثُ همّْ

---

(١) حشّ الدابة: علفها الحشيش.

(٢) المرد: جمع أمرد: وهو الذي طرّ شاربه وبلغ خروج لحيته ولم تبد.

كـانـت تَميمٌ معشراً ذوي كـرمْ   غلصمـةً مـن الغَلاصيم العظـم[1]
قد نَفخُوا لـو ينفُخْـون في فَحـمْ   وصَبرُوا لـو صَبروا على أَمَـمْ[2]
إذا ركِبَـتْ ضَبَّـةُ أَعجـازَ النَّعـمْ   فلمْ نَـدَعْ سـاقـاً لها ولا قـدمْ

يوم الشيطين[3] : لبكر على تميم

قال أبو عبيدة: لما ظهر الإسلام ـ قبل أن يسلم أهل نجد والعراق ـ سارت بكر ابن وائل إلى السواد، وقالت: نغير على تميم بالشيِّطَين؛ فإن في دين ابن عبدالمطلب: من قتل نفساً قُتل بها: فنغير هذا العام ثم نسلم عليها! فارتحلوا من لعلع[4] بالذراري والأموال: فأتوا الشيطين في أربع، وبينهما مسيرة ثمانية أميال، فسبقوا كل خير حتى صبحوهم وهم لا يشعرون، ورئيسهم يومئذ بشر بن مسعود بن قيس بن خالد ذي الجدين؛ فقَتلوا بني تميم قتلا ذريعاً، وأخذوا أموالهم؛ واستحرّ[5] القتل في بني العنبر وبني ضبة وبني يربوع، دون بني مالك بن حنظلة.

قال أبو عبيدة: حدثنا أبو الحمناء العنبري؛ قال قتل من بني تميم يوم الشيِّطَين ستّمائة رجل. قال: فوفد وفد بني تميم على النبي ﷺ؛ فقالوا: ادعُ الله على بكر بن وائل! فأبى رسول الله ﷺ، فقال رُشَيد ابن رميص العنبري:

وما كـانَ بيْـن الشيِّطَيْـنِ ولعْلَـعٍ   لُسـوقنـا إلاَّ مَـراجِـعُ أربـعُ
فجئنا بجمـعٍ لم يَـرَ النَّـاسُ مِثلـهُ   يَكادُ لهُ ظهـرُ الوريعـة يَضلَـعُ[6]
بأَرْعَنَ دَهْـمٍ شيّـد البُلْـق وسْطـهُ   له عـارِضٌ فيـه الأسِنَّـةُ تلمـعُ[7]
صَبَحنْا بهِ سعداً وعَمْـراً ومـالكـا   فكـان لهم يـومٌ مِـنَ الشَّـرِّ أشنـعُ
فخَلَّوْا لنـا صحـنَ العِـراقِ وإنَّـه   حِمـىً منهـم لا يُستطـاعُ مُمنَّـعُ

---

(١) الغلصمة: الصفيحة الغضروفية عند أصل اللسان.
(٢) الأمم: اليسير.   (٣) الشيّطان: واديان.
(٤) لعلع: موض وقيل جبل.   (٥) استحرّ القتل: اشتد.
(٦) الوريعة: فرس.   (٧) الأرعن: العظيم الجرّار

يوم صعفوق[1]: لبكر على تميم

أغارت بنو أبي ربيعة على بني سليط بن يربوع يوم صعفوق، فأصابوا منهم أسرى، فأتى طريفُ بن تميم العنبري فروة بن مسعود، وهو يومئذ سيد بني أبي ربيعة، ففدى منهم أسرى بني سليط ورهَنهم ابنه؛ فأبطأ عليهم فقتلوا ابنه، فقال:

لا تـأمَنَـنَّ سُليْمـى أَنْ أُفـارقَهـا صرمى الظعائن بعد اليوْم صُعْفوق[2]
أَعطيْتُ أَعـداءَهُ طـوْعـاً بـرُمَّتـهِ ثم آنصرفْتُ وظني غيرُ مـوْثـوق

يوم مبايض: لبكر على تميم

قال أبو عبيدة: كانت الفرسان إذا كانت أيام عكاظ في الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضا، تقنَّعوا كي لا يُعرفوا، وكان طريف بن تميم العنبري لا يتقنَّع كما يتقنعون، فوافى عكاظ وقد كشفت بكر بن وائل، وكان طريف قتل شراحيل الشيباني أحد بني عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان، فقال حصيصة: أروني طريفا. فأروه إياه، فجعل كلما مر به تأمله ونظر إليه ففطن طريف، فقال: مالَك تنظر إليّ؟ فقال: أترسَّمك لأعرفك: فلله عليّ إن لقيتُك أن أقْتلك أو تقتلَني! فقال طريف في ذلك:

أوَ كلما وردتْ عِكـاظ قبيلـةٌ بعثـوا إليّ عَـريفَهـم يتـوسَّـمُ
فتـوَسَّمُـوني إنني أنـا ذلكـم شاكي سِلاحي في الحوادثِ مُعْلَمُ[3]
تَحتي الأغرُّ وفـوْق جلـدي نَثْـرةٌ زغْفٌ تَردُّ السَّيْـف وهـو مُثَلَّـم[4]
حـوْلي أسيِّـد والهُجَيْـم ومـازنَ وإذا حللتُ فحوْل بيتَي خَضَّـم[5]

---

(١) صعفوق: قرية باليمامة.

(٢) الظعائن: جمع ظعينة، وهي المرأة ما دامت في الهودج

(٣) شك السلاح: أي تسربل به

(٤) النثرة: الدرع. والزغف: اللينة الواسعة المحكمة من الدروع.

(٥) الخضّم: الجمع الكثير من الناس. والمراد هنا: العنبر بن عمرو بن تميم.

قال: فمضى لذلك ما شاء الله، ثم إن بني عائذة حلفاء بني أبي ربيعة بن ذهل بن أبي شيبان ـ وهم يزعمون أنهم من قريش، وأن عائذة بن لؤي بن غالب ـ خرج منهم رجلان يصيدان، فعرض لهما رجل من بني شيبان، فذعر عليهما صيدَهما، فوثبا عليه فقتلاه؛ فثارت بنو مرة بن ذهل بن شيبان يريدون قتلهما فأبت بنو ربيعة عليهم ذلك؛ فقال هانيء بن مسعود: يا بني ربيعة، إن إخوتكم قد أرادوا طلبكم فانمازوا[1] عنهم. قال: ففارقوهم وساروا حتى نزلوا بمبايض، ماء لهم ـ ومبايض علم من وراء الدهناء ـ فأبق عبدٌ لرجل من بني أبي ربيعة، فسار إلى بلاد تميم، فأخبرهم أن حياً جديدا من بني بكر بن وائل نُزولٌ على مبايض؛ وهم بنو أبي ربيعة والحي الجديد المنتقى من قومه؛ فقال طريف العنبري: هؤلاء ثأري يا آل تميم، إنما هم أُكلة رأس[2]. وأقبل في بني عمرو بن تميم، وأقبل معه أبو الجدعاء، أحد بني طُهية، وجاءه فدكي بن أعبد المِنقري في جمع من بني سعد بن زيد مناة؛ فنذِرت بهم بنو أبي ربيعة، فانحاز بهم هانيء بن مسعود وهو رئيسهم، إلى علم مبايض؛ فأقاموا عليه وشرقوا[3] بالأموال والسَّرح[4]، وصبَّحتهم بنو تميم؛ فقال لهم طريف: أطيعوني وافرغوا من هؤلاء الأكلب يصْفُ لكم ما وراءهم. فقال له أبو الجدعاء رئيس بني حنظلة، فدكي رئيس بن سعد بن مناة: أنقاتل أكلبا أحرزوا نفوسهم ونترك أموالهم؟ ما هذا برأى، وأبَوْا عليه. فقال هانيء لأصحابه: لا يقاتل رجل منكم ولحقت تميم بالنعم والبغال فأغاروا عليها، فلما ملئوا أيديَهم من الغنيمة قال هانيء بن مسعود لأصحابة: احملوا عليهم. فهزموهم وقتلوا طريفا العنبري، قتله حَمَصيصة الشيباني، وقال:

ولقد دعوتَ طريفَ دعْوَةَ جاهلٍ   سفَهاً وأنت بمعْلم قد تعْلَمُ
وأتيْتَ حيا في الحروبِ محَلّهم   والجيْشُ باسم أبيهم يُستقْدمُ

---

(١) انمازوا: امتازوا

(٢) ألكة رأس: أي قليل يشبعهم رأس واحد.

(٣) شرق: أخذ في ناحية المشرق.

(٤) السرح: المال الراعي.

فوجدْتَ قوْمـا يمنعـون ذِمـارَهُـم ... بُسلا، إذا هابَ الفوارِسُ أقدَموا [1]
وإذا دُعـوا أَبني ربيعـةَ! شمَّـروا ... بكتـــائـــبٍ دون السماءِ تلملم [2]
حشَدوا عليك وعجّلـوا بقـراهُـم ... وحَموا ذِمـار أبيهـم أنْ يُشتَمـوا
سلبـوك درعَـك والأغــرَّ كلاهما ... وبنو أُسيْـد أسْلمـوك وخَضَّـم [3]

يوم فيحان [4] : لبكر على تميم

قال أبو عبيدة: لما بدى بسطام بن قيس من عُتيبة بن الحارث إذ أُسر يوم الغبيط بأربعمائة بعير، قال: لأدركن عقْل إبلي! فأغار بفيحان؛ فأخذ الربيع بن عتيبة واستاق ماله، فلما سار يومين شُغل عن الربيع بالشراب، وقد مال الربيع على قدِّه حتى لان، ثم خلعه وانحلَّ منه. ثم جال في متن ذات النسوع - فرس بسطام - وهرب، فركبوا في أثره؛ فلما يئسوا منه ناداه بسطام: ياربيع، هلم طليقا! فأبى. قال: وأتى نادِيَ قومه يحدثهم، فجعل يقول في أثناء حديثه: إيها يا ربيع! انج ربيع! وكان معه رئي.

قال: وأقبل ربيع حتى انتهى إلى أدنى بني يربوع، فإذا هو براع، فاستسقاه وضربت الفرس برأسها فماتت. فُسمي ذلك المكان إلى اليوم: هبير [5] الفرس. قال له أبو عُتيبة: أما إذ نجوت بنفسك فإني مخلفٌ لك مالك.

يوم ذي قار الأول: لبكر على تميم

قال أبو عبيدة: فخرج عتيبة في نحو خمسة عشر فارسا من بين يربوع فكمن في

---

(١) البسل: جمع باسل، وهو الشجاع. والذمار.
(٢) شمّر: خفّ ونهض وتهيأ.
(٣) خضّم: هو العنبر بن عمرو بن تميم.
(٤) فيحان: موضع في بلاد بني سعد.
(٥) الهبير من الأرض: أن يكون مطمئنا وما حوله أرفع منه.

حمى ذي قار، حتى مرت به إبل بني الحصين بالفَداوية، اسم ماء لهم، فصاحوا بمن بها من الحامية والرِّعاء، ثم استاقوها.

فأخلف للربيع ما ذهب له، وقال:

ألم تَـرنِـي أفـأتُ على ربيـعٍ جِلاداً في مَبارِكِها وخُـورا [1]
وأني قـد تَـركْـت بني حُصيْـنٍ بـذي قـارٍ يَـرمُّـون الأمـوار

يوم الحاجز [2] : لبكر على تميم

قال أبو عبيدة: خرج وائل بن صريم اليشكري من اليمامة، فلقيه بنو أسيد بن عمرو بن تميم، فأخذوه أسيراً، فجعلوا يغمسونه في الرّكيّة [3] ويقولون:

يا أيها الماتحُ دَلْوِي دُونَكا [4]

حتى قتلوه؛ فغزاهم أخوه باعث بن صريم يوم حاجز، فأخذ ثمامة بن باعث بن صريم رجلا من بني أسيد كان وجيهاً فيهم فقتله، وقتل على الظنّة مائة منهم، فقال باعث بن صريم:

سائلْ أُسيْداً هل ثـأرْتُ بـوائـلٍ أمْ هل شَفَيتُ النَّفْس من بَلْبـالِهـا [5]
إذ أرسلـونيَ مـاتِحـاً لـدِلاتِهم فملأْتُهـا عَلَقـاً إلى أسبـالها [6]
إني ومَـن سمَـك السَّماءَ مكـانَهـا والبـدرَ ليلـةَ نصفِهـا وهِلالِهـا [7]
آليـتُ أَثقَـفُ منهـم ذا لحيَـةٍ أبـداً فتنظـر عيْنُـه في مـالها

---

(١) الجلاد من الابل: التي لا أولاد لها ولا ألبان. والخور: الغزيرات اللبن.

(٢) الحاجز: موضع قبل معدن النقرة.

(٣) الركيّة: البئر لم تطو.

(٤) الماتح: الذي ينزل في البئر اذا قلّ الماء فيملأ الدلو.

(٥) البلبال: شدة الهم والوسواس.

(٦) العلق: الدمّ. وأسبال الدلو: شفاهها.

(٧) سمك: علا وارتفع.

وقال:

سائلْ أُسْداً هل ثأرتُ بِوائل ... أم هل أتيتُهم بأمر مُبرمِ
إذ أرسلوني ماتِحاً لِدِلائهم ... فَملأْتُهن إلى العراق بالدَّم![1]

يوم الشقيق[2]: لبكر على تميم

قال أبو عبيدة: أغار أبجر بن جابر العجلي على بني مالك بن حنظلة، فسبي سُلَيْمى بنت محصن، فولدت له أبجر. ففي ذلك يقول أبو النجم:

ولقد كرَرُتُ على طُهيَّة كَرةَ ... حتى طَرقْتُ نساءَها بمَساء

حرب البسوس

وهي حرب بكر وتغلب، ابني وائل

أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب قال: لم تجتمع معد كلها الا على ثلاثة رهط من رؤساء العرب، وهم عامر، وربيعة، وكليب.

فالاول: عامر بن الظرب بن عمرو بن بكر بن يشكر بن الحارث، وهو عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان، وهو الناس بن مضر. وعامر بن الظرب هو قائد معدّ يوم البيداء[3]، حين تمذحجت مذحج وسارت إلى تهامة، وهي أول وقعة كانت بين تهامة واليمن

والثاني: ربيعة بن الحارث بن مرة بن زهير بن جشم بن بكر بن حُبَيب بنْ كعب، هو قائد معد يوم السُّلاَّن[4]، وهو يوم كان بين اهل تهامة واليمن.

والثالث: كليب بن ربيعة، وهو الذي يقال فيه: أعز من كليب وائل. وقاد معدّ

(١) متح الدلو: جذب رشاءها.

(٢) الشقيق: ماء لبني أسيد بن عمرو بن تميم.

(٣) البيداء: اسم لأرض ملساء بين مكة والمدينة.

(٤) السلان: مما يلي الحجاز واليمن.

كلها يوم خَزَاز[١]، ففض جموع اليمن وهزمهم، فاجتمعت عليه معد كلها، وجعلوا له قَسْم الملك وتاجه ونجيبته[٢] وطاعته فغبر بذلك حينا من دهره. ثم دخله زهو شديد، وبغى على قومه لما هو فيه من عزه، وانقيادِ معدّ له؛ حتى بلغ من بغيه انه كان يحمي مواقع السحاب فلا يُرعى حماه، ويجير على الدهر فلا تُخفر ذمّته، ويقول: وحش ارض كذا في جواري! فلا يهاج، ولا تورد إبل احد مع ابله، ولا توقد نار مع ناره، حتى قالت العرب: اعز من كليب وائل.

وكانت بنو جشم وبنو شيبان في دار واحدة بتهامة، وكان كليب بن وائل قد تزوّج جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان، وأخوها جساس بن مرة؛ وكانت البسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرة، وكانت نازلة في بني شيبان مجاورة لجساس، وكان لها ناقة يقال لها سراب، ولها تقول العرب: أشأم من سراب، وأشأم من البسوس! فمرّت إبل لكليب بسراب ناقة البسوس، وهي معقولة بفناء بيتها، جوار جساس بن مرة؛ فلما رأت سرابُ الابل نازعت عقالها حتى قطعته، وتبعت الإبل واختلطت بها، حتى انتهت إلى كليب وهو على الحوض، معه قوس وكنانة؛ فلما رآها أنكرها، فانتزع[٣] لها سهما فخرم[٤] ضرعها فنفرت الناقة وهي ترغو، فلما رأتها البسوس قذفت خمارها عن رأسها وصاحت: واذُلاَّه! واجاراه! واخرجت.

مقتل كليب بن وائل

فأحمست جسّاسا، فركب فرساً له مغروراً به، فأخذ آلته، وتبعه عمرو بن الحارث بن ذهل بن شيبان على فرسه، ومعه رمحه، حتى دخلا على كليب الحمى، فقال له: يا أبا الماجدة، عمدت إلى ناقة جارتي، فعقرتَها! فقال له: أتراك ما نِعِي

---

(١) خزاز: جبل بطخفة ما بين البصرة الى مكة.

(٢) النجيبة: الفاضلة على مثلها النفيسة في نوعها.

(٣) انتزع لها سهماً: رماها به

(٤) خرم: ثقب وشقّ.

أن أذبَّ[1] عن حِمايَ؟ فأحمسه الغضب، فطعنه جساس فقصم صلبه، وطعنه عمرو ابن الحارث من خلفه فقطع قَطنه[2]؛ فوقَع كليب وهو يفحص برجله؛ قال لجساس: أغِثني بشربة من ماء! فقال: تجاوزت شبيثاً والأحصّ[3]: ففي ذلك يقول عمرو بن الاهتم:

وإنّ كُليْباً كان يَظلم قومَه ... فأدرَكَه مثلُ الذي تَريَانِ
فلما حشاه الرُّمح كفُّ ابن عمه ... تَذكَّرَ ظلمَ الأهلِ أيّ أوانِ
وقال لجَسَّاس أغثْني بشَربةٍ ... وإلا فخبِّر مَن رأيتَ مكاني
فقال تجاوزتَ الأحَصَّ وماءَه ... وبطنَ شُبيثٍ وهو غيرُ دفانِ

وقال نابغة بني جعدة:

أبْلِغْ عِقالا أن خُطةَ داحِسٍ ... بكفَّيكَ فاستأخرْ لها أو تقدَّمِ
كليْبٌ لعمري كان أكثرَ ناصراً ... وأيسَرَ ذنباً منكَ ضُرِّج بالدَّم
رمَى ضِرْعَ ناب فاستمَرّ بطعْنة ... كحاشيةِ البُرْدِ اليماني المُسهَّم[4]
وقال لجسَّاس اغثني بشربةٍ ... تَدارَكْ بها مَنَّا عليَّ وأنعِم
فقال تجاوزتَ الأحَصَّ وماءَه ... وبطنَ شبيثٍ وهو ذو مُتَرسَّم[5]

فلما قُتل كليب ارتحلت بنو شيبان حتى نزلوا بماء يقال له النِّهِيّ؛ وتشمر المهلهل اخو كليب ـ واسمه عدي بن ربيعة، وانما قيل المهلهل لانه اول من هلهل الشعر، اي ارقَّه ـ واستعد لحرب بكر، وترك النساء والغزل، وحرّم القمار والشراب، وجمع اليه قومه، فأرسل رجلا منهم إلى بني شيبان يُعذر إليهم فيما وقع من الامر؛ فأتوا مرة ابن ذهل بن شيبان وهو في نادي قومه، فقالوا له: إنكم أتيتم عظيماً بقتلكم كليباً

---

(١) أذبّ: احمي وأدافع.
(٢) القطن: أسفل الظهر من الانسان.
(٣) شبيث والأحصّ: غديران في منازل ربيعة بنجد.
(٤) المسهم: المخطط بصور على شكل السهام.
(٥) المترسّم: موضع الماء لمن طلبه.

بناب من الإبل، فقطعتم الرحم، وانتهكتم الحرمة؛ وإنا كرهنا العجلة عليكم دون الإعذار إليكم؛ ونحن نعرض عليكم خلالا أربعا، لكم فيها مخرج، ولنا مقنع. فقال مرة: وما هي؟ قال: تحيي لنا كليبا، او تدفع الينا جساساً قاتِلَه فنقتله به، أو همَّاما فإنه كفء له، أو تمكننا من نفسك، فإن فيك وفاءً من دمه! فقال: أما إحيائي كليباً فهذا ما لا يكون، وأما جساس فإنه غلام طعن طعنة على عجل ثم ركب فرسه فلا أدري أيَّ البلاد احتوى عليه، وأمّا همام فانه ابو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة، كلهم فرسان قومهم فلن يسلموه إليّ فادفعه اليكم يُقتَل بجريرة غيره. واما انا فهل هو إلا ان تجول الخيل جولة غداً فأكون اوّلَ قتيلٍ فيها، فما أتعجل من الموت؟ ولكنْ لكم عندي خصلتان: أمّا إحداهما فهؤلاء بنيّ الباقون، فعلقوا في عنق ايهم شئتم نسعة[1] فانطلقوا به إلى رحالكم فاذبحوه ذبح الجزور، وإلا فالف ناقة سوداء المقل أقيم لكم بها كفيلا من بني وائل! فغضب القوم وقالوا: لقد أسأت، تُرذل[2] لنا ولدك وتسومنا اللبن من دم كليب.

ووقعت الحرب بينهم.

ولحقت جليلة زوجة كليب بأبيها وقومها، ودعت تغلبُ النمر بن قاسط[3] فانضمت إلى بني كليب وصاروا يداً معهم على بكر؛ ولحقت بهم غُفيلة بن قاسط، واعتزلت قبائل بكر بن وائل وكرهوا مجامعة بني شيبان ومساعدتهم على قتال إخوته، وأعظموا قتل جساس كليباً بنابٍ من الإبل؛ فظعنت[4] لجيم عنهم، وكفت يشكر عن نصرتهم، وانقبض الحارث بن عباد في أهل بيته، وهو أبو بجير وفارسُ النعامة. وقال المهلهل يرثي كليبا:

بــتُّ ليلي بـــالأنعمينَ طـــويلا   أرقُبُ النجمَ ساهـراً أن يـزولا[5]

---

(١) النسعة: القطعة من النسع، وهو سير عريض طويل من جلد.

(٢) ترذل: أي تعطينا الرذل من ولدك.

(٣) النمر بن قاسط: بطن في ربيعة.

(٤) ظعنت: رحلت.   (٥) الأنعمان: واديان.

كيـف أهـدأ ولا يـزال قتيـل مِـنْ بني وائِـل يُنسِّـي قتيلا
غيَّبـتْ دارُنـا تِهامـةَ في الدهْـ ـرِ وفيهـا بنـو مَعَـدٍّ حُلـولا
فتَسـاقـوْا كـأسـاً أُمِـرَّت عليهـم بينهـم يقتـل العـزيـز الذليلا
فصبحْنـا بنـي لجيـمٍ بضـربٍ يَترك الهام وقعـه معلـولا
لم يُطيقـوا ان يَنـزلـوا ونَـزلنـا وأخو الحرب مـن أطـاق النـزولا
انتَضـوْا مَعْجِس القِسِّي وأبْـرقـْ ناكـِـا تُوعِد الفحـولُ الفحـولا[1]
قَتلـوا ربَّهـم كُليْبـاً سفـاهـا ثم قـالـوا مـا إن نَخـاف عَـويلا
كـذبـوا والحرامِ والحلِّ حتى يُسلَب الخدْرُ بيْضَـه المحْجـولا[2]
ويَمـوتَ الجنينُ في عـاطِـفِ الرحـ ـمِ ونُـروي رمـاحَنـا والخيـولا

وقال ايضاً يرثيه:

كليْبُ لا خير في الدنيا ومَن فيهـا إذ أنـت خلَّيتَهـا فيـمـن يُخلّيهـا
كليـب أيُّ فتَـى عـزّ ومكرمةٍ تحت السقائف إذ يعْلوك سـافيهـا[3]
نعَـى النعـاة كليْبـاً لي فقلـتُ لهم مالت بنا الارضُ أو زالت رواسيهـا
الحزْمُ والعزم كـانـا مـن صنيعتـه ما كـلُّ آلائِـه يـا قـومُ أُحصيهـا
القـائـدُ الخيـلَ تـرْدي في أعنِتهـا زهواً إذا الخيلُ لَجَّـت في تَعـاديها
من خيل تَغلِبَ مـا تُلفَـى أسنَّتهـا إلا وقـد خَضَبـوهـا مـن أعـادِيها
يُهزْهِـزون مـن الخطِّـيِّ مُـدمَجـةً كمُتاً أنابيبُهـا زرقـا عَـواليهـا[4]
ترى الرماحَ بـأيـدينـا فنُـورِدُهـا بيضاً ونُصدِرُهـا حُمْـراً أعـاليهـا
ليتَ السماءَ على مَن تحتَـها وقعـتْ وآنشقَّت الارضُ فانجابت بمن فيهـا
لا أصلَح الله منَّا مَن يُصـالُحكـم ما لاحَـت الشمسُ في أعلى مجاريها

(١) المعجس: المقبض. (٢) البيضة: المرأة.
(٣) السقائف: يريد حجارة القبر.
(٤) كمتاً: جمع كميت، وهو ما كان من الخيل لونه بين الأسود والأحمر.

يوم النهي

قال أبو المنذر: أخبرني خراش أنّ اول وقعة كانت بينهم يوم النَّهي، فالتقوا بماء يقال له النّهي، كانت بنو شيبان نازلة عليه، ورئيسُ تغلب المهلهل، ورئيس شيبان الحارث بن مرة؛ فكانت الدائرة لبني تغلب، وكانت الشوكة في شيبان؛ واستحر القتل فيهم إلا انه لم يُقتل في ذلك اليوم احدٌ من بني مرة.

يوم الذنائب[1]

ثم التقوا بالذنائب، وهو اعظم وقعة لهم؛ فظفرت بنو تغلب، وقَتلت بكراً مقتلة عظيمة، وفيها قتل شراحيل بن مرة بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان ـ وهو جدّ الحوفزان، وهو جد معن بن زائدة، والحوفزان هو الحرث بن شريك بن عمرو بن قيس بن شراحيل ـ قتله عتاب بن سعد بن زهير بن جشم، وقُتل الحرث بن مرة بن ذهل بن شيبان، قتله كعب بن زهير بن جشم، وقتل من بني ذهل بن ثعلبة عمرو بن سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة. وقتل من بني تيم الله: جميل بن مالك بن تيم الله، وعبيد الله بن مالك بن تيم الله وقتل من بني قيس بن ثعلبة: سعد بن ضبيعة بن قيس، وتميم بن قيس بن ثعلبة، وهو احد الخرفين، وكان شيخاً كبيراً، فحمل في هودج، فلحقه عمرو بن مالك ابن الفدوكس بن حشم، وهو جد الاخطل، فقتله. هؤلاء مَن أصيب من رؤساء بكر يوم الذئاب.

يوم واردات[2]

ثم التقوا بواردات، وعلى الناس رؤساؤهم الذين سمينا؛ فظفرت بنو تغلب واستحرّ القتل في بني بكر، فيومئذقتل الشعثمان شعثم وعبد شمس ابنا معاوية بن

---

(١) الذنائب: ثلاث هضبات بنجد.

(٢) واردات: عن يسار مكة.

عامر بن ذهل بن ثعلبة، وسيار بن الحرث بن سيار؛ وفيه قُتل همام مُرَّة بن ذهــل بن شيبان، أخو جساس لأمه وأبيه؛ فمر به مهلهل مقتولا، فقال: والله ما قتل بعد كليب قتيلٌ أعز عليّ فقداً منك! وقتله ناشرة؛ وكان همام ربّاه وكفله، كما كان ربّى حذيفة بن بدر قرواشا فقتله يوم الهباءة.

يوم عنيزة[1]

ثم التقوا بعنيزة، فظفرت بنو تغلب؛ ثم كانت بينهم معاودة ووقائع كثيرة، كل ذلك كانت الدائرة فيه لبني تغلب على بني بكر: فمنها يوم الحِنو، ويوم عُويرضات، ويوم أنيق، ويوم ضِرِيَّة، ويوم القُصيبات، هذه الايام كلها لتغلب على بكر، أصيبت فيها بكر، حتى ظنوا أن ليس يستقبلون أمرهم.

وقال مهلهل يصف هذه الايام وينعاها على بكر، في قصيدة طويلة أولها:

أليلَتَنــا بـــذي حُسُــمٍ أنيري ... إذا أنتِ انقضَيتِ فلا تَحـوري[2]
فإن يكُ بـالـذَّنـائـبِ طـال ليلِي ... فقـد أبكـى مـن اللَّيـل القصيرِ[3]

وفيها يقول:

فلـو نُبش المقـابـرُ عـن كليْــبٍ ... لأخبَـرَ بـالـذَّنـائــبِ أيّ زيــرِ
كــأنـــا غُـــدوةً وبني أبينـــا ... بجنـبِ عنيـزةٍ رحيَـا مُـديــرِ[4]
وإني قـد تـركــتُ بـــواردات ... بُجيراً في دمٍ مثـــــلِ العبير
هتكْـتُ بـــه بيـــوتَ بني عُبـــادٍ ... وبعـضُ القَتـلِ أشفـى للصُّدور
على أنْ ليس عـدلا مـــن كليْــبٍ ... إذا بـــرزت مُخبَّـــأةُ الخدور
ولولا الريــحُ أسمــعَ مـن بُحجُـرٍ ... صليل البيض تُقرعُ بالـذكـور[5]

---

(١) عنيزة: موضع بين البصرة ومكة. (٢) ذو حسم: موضع. ولا تحوري: ترجعي.
(٣) الذنائب: ثلاث هضبات بنجد.
(٤) الرحيا: من معدن واحد، واذا أديرت أثرت احداهما في الأخرى.
(٥) حجر: قصبة باليمامة. والصليل: الصوت والذكور: السيوف.

وقال مهلهل لما أسرف في الدماء:

أكثرتُ قتـل بني بكـرٍ بِـربِّهـمُ   حتى بكيتُ ومـا يبكـي لهم أحـدُ
آليـتُ بـالله لا أرضى بقتلهِـمُ   حتى أبهرجَ بكـراً أينما وُجـدوا

وقال أبو حاتم: أبهرج: أدعهم بهرجا: لا يقتل فيه قتيل، ولا يؤخذ لهم دية. وقال: البهرج من الدراهم من هذا.

وقال المهلهل:

يـا لبَكْـرٍ أُنشروا لي كُليْبـاً   يـا لبكـر أيـن الفِـرارُ؟[1]
تلـك شيبـانٌ تقـول لبكْـر   صـرح الشرُ وبـان السِّـرار
وبنـو عِجْـل تقـولُ لقيس   ولِتَيْـم اللاتِ سيروا فسـاروا

وقال:

قتَلـوا كليْباً ثم قـالـوا أربِعـوا   كذَبُـوا وربِّ الحلِّ والإحـرامِ[2]
حتى تبيـدَ قبـائـلٌ وقبيلـةٌ   ويعـضُّ كـلُ مثقَّـف بـالهام
وتقـومُ ربَّـاتُ الخدورِ حـواسراً   يمسحْنَ عرض ذوائـبِ الأيتـامِ[3]
حتى يَعـضَّ الشيـخ بعـدَ حميمِـهِ   مما يـرى نَـدمـا على الإبهام[4]

يوم قضة[5]

ثم إن مهلهلا أسرف في القتل ولم يبال بأي قبيلة من قبائل بكر أوقع؛ وكان أكثر بكر قعدت عن نصرة بني شيبان، لقتلهم كليب بن وائل؛ وكان الحارث بن عباد قد اعتزل تلك الحروب، حتى قتل ابنه بجير بن الحارث، ويقال إنه كان ابن

(١) أنشروا: أحيوا.
(٢) أربعوا: يقال: أربعت الإبل: إذا تركت ترد الماء متى شاءت.
(٣) الذوائب: جمع ذؤابة: وهي شعر مقدم الرأس.
(٤) يعضّ: يقال: عض على يده: أي ندم.
(٥) قضة: عقبة بعارض اليمامة.

اخيه؛ فلما بلغ الحرثَ قتله قال: نعمَ القتيلُ قتيلٌ أصلح بين ابني وائل! وظن ان المهلهل قد أدرك به ثأر كليب وجعله كفْئاً له؛ فقيل له: إنما قتله بشسع نعل كليب؛ وذلك أن المهلهل لما قتل بجيراً قال: بُؤ بشسع نعل كليب! فغضب الحرث بن عباد، وكان له فرس يقال له النعامة، فركبها وتولى أمْر بكر؛ فقاتل تغلب حتى هرب المهلهل وتفرقت قبائل تغلب فقال في ذلك الحارث ابن عباد:

قـرّبـا مـربط النعـامـةِ مني — لقحَتْ حرب وائل عـن حِيـالي [١]

لم أكـنْ مـن جُنـاتِـها علم الله — وإني بحرّهـا اليـوم صـالي

وفيه أسر الحارث بن عباد المهلهل وهو لا يعرفه ـ واسمه عدي بن ربيعة ـ فقال له: دلّني على عدي بن ربيعة وأخلي عنك. فقال له عدي: عليك العهودُ بذلك إن دللتك عليه؟ قال: نعم: قال: فأنا عدي! فجز ناصيته [٣] وتركه، وقال فيه:

لهفَ نفسي على عـدِي ولم أعـ — رف عدِيًّا إذ امكنتْني اليـدان

وفيه قتل عمرو وعامر التغلبيان، قتلهما جحدر بن ضبيعة، طعن احدهما بسنان رمحه، والآخر بزجه؛ ثم إن المهلهل فارق قومه ونزل في بني جَنب ـ وجنبَ في مذحج ـ فخطبوا إليه ابنته فمنعهم، فأجبروه على تزويجها وساقوا إليه في صداقها جلودا من أدم؛ فقال في ذلك:

أعـزِزْ على تغلـب بما لقيـتْ — أُخت بني الأكـرمينَ مـن جُشمِ

انْكحها فقـدُهـا الأراقـمَ في — جنـب وكـان الحبـاءُ مـن أدم [٤]

لـو بِـأبـانيْـنِ جـاء يخطبُهـا — زُمِّل ما أنـفُ خـاطِـب بـدمِ! [٥]

---

(١) لقحت: حملت. والحيال: مصدر حالت الأنثى، اذا لم تحمل.

(٢) أسوق: جمعْ ساق: أي يوم تكشف النساء عن سيقانها فزعاً ورعبا. وتلفّ: تجمع. والأفواج: الجماعات والنعم: الإبل.

(٣) الناصية: شعر مقدم الرأس.

(٤) الحباء: المهر. (٥) أبانان: جبلان.

الكلاب[1] الأول

قال أبو عبيدة: لما تسافهت بكر بن وائل وغلبها سفهاؤها، وتقاطعت أرحامها، ارتأى رؤساؤهم، فقالوا: إن سفهاءنا قد غلبوا على أمرنا، فأكل القويُّ الضعيف؛ ولا نستطيع تغيير ذلك؛ فنرى أن نُملِّك علينا ملِكا نعطيه الشاء والبعير، فيأخذ للضعيف من القوي، ويردَّ على المظلوم من الظالم؛ ولا يمكن أن يكون من بعض قبائلنا، فيأباه الآخرون، فتفسُد ذات بيننا، ولكنا نأتي تُبّعاً فنملِّكه علينا. فأتوه، فذكروا له أمَرهـم، فملَّك عليهم الحارث بن عمرو آكل المرار الكندي، فقدِم فنزل بطن عاقل[2].

ثم غزا بكـَر بن وائل، حتى انتزع عامة ما في أيدي ملوك الحيرة اللخميين، وملوكِ الشام الغسانيين، وردّهم إلى أقاصي أعمالهم. ثم طُعن في نَيْطيه[3] ـ أي مات، فدفن ببطن عاقل؛ واختلف ابناه شُرحبيل وسلمة في الملك، فتواعدا الكلاب، فأقبل شرحبيل في ضبة والرِّباب كلها، وبني يربوع، وبكر بن وائل؛ وأقبل سلمة في تغلب، والنمر، وبهراء ومن تبعه من بني مالك بن حنظلة؛ وعليهم سيفان بن مجاشع؛ وعلى تغلب السفاح؛ وإنما قيل له السفاح لأنه سفح أوعية قومه وقال لهم: انذروا إلى ماء الكلاب. فسبقوا ونزلوا عليه، وإنما خرجت بكر بن وائل مع شُرحبيل لعداوتها لبني تغلب؛ فالتقوا على الكلاب، واستحرَّ االقتلُ في بني يربوع، وشد أبو حنَش على شُرحبيل فقتله؛ وكان شرحبيل قتلَ حنشاً، فأراد أبو حنش أن يأتي برأسه إلى مسلمة، فخافه، فبعثه مع عَسيف[4] له، فلما رآه مسلمة دمعت عيناه وقال ه: أنت قتلته؟ قال لا، ولكنه قتله أبو حنش. فقال: إنما أدفع الثواب إلى قاتله! وهرب أبو حنش عنه، فقال سلمة:

---

(١) الكلاب: ما بين الكوفة والبصرة (٢) عاقل: جبل، وقيل واد بنجد.

(٣) النيط: العرق الذي للقلب متعلق به.

(٤) العسيف: الأجير.

ألا أبْلِغ أبا حنشٍ رَسُولاً   فمالَكَ لا تجيءُ إلى الثَّواب
تَعلَّمْ أنَّ خَيْرَ الناسِ مَيْتاً   قتيلٌ بينَ أحجارِ الكُلاب
تَدَاعتْ حَولَهُ جُشَمُ بنُ بكرٍ   وأسلَمهُ جَعاسيسُ الربابِ[1]

ومما يدل على أن بكراً كانت مع شرحبيل قولُ الأخطل:

أبا غَسَّانَ إنَّك لم تُهنِّي   ولكنْ قد أَهَنْتَ بني شِهابِ
تَرَقَّوْا في النخيلِ وأنسِئُونا   دماءَ سَرَاتِكُم يومَ الكُلابِ[2]

يوم الصفقة: ويوم الكلاب الثاني

قال أبو عبيدة: أخبرنا أبو عمرو بن العلاء قال: كان يومُ الكلاب متصلا بيوم الصفقة؛ وكان من حديث الصفقة أن كسرى الملك كان قد أوقع ببني تميم فأخذ الاموال وسبى الذراري بمدينة هجر. وذلك أنهم أغاروا على لطيمةٍ[3] له فيها مسك وعنبر وجوهر كثير؛ فسمِّيت تلك الوقعة يوم الصفقة، ثم إن بني تميم أداروا أمرهم، فقال ذو الحجى منهم: إنكم قد أغضبتم الملك، وقد أوقع بكم حتى وهنتم، وتسامعتْ بما لقيتم القبائل، فلا تأمنون دورانَ العرب!

فجمعوا سبعةَ رؤساء منهم، وشاوروهم في أمرهم، وهم: أكثم بن صيفي الأَسيدي، والأعيمر بن يزيد بن مُرة المازني، وقيس بن عاصم المنقري، وأُبير بن عِصمة التيمي، والنعمان بن الحسحاس التيمي، وأُبَيْر بن عمرو والسعدي، والزبرقان ابن بدر السعدي؛ فقالوا لهم: ماذا ترون؟ فقال اكثم بن صيفي، وكان يكني أبا حنش: إن الناس قد بلغهم ما قد لقينا، نحن نخاف أن يطمعوا فينا. ثم مسح بيده على قلبه وقال: إني قد نيّفت على التسعين، وانما قلبي بضعة من جسمي، وقد نحل كل جسمي؛ وإني أخاف ان لا يدرك ذهني الرأي لكم؛ وأنتم قوم قد شاع في الناس

(١) الجعاسيس: جمع جعوس، وهو القصير الذميم. والرّباب: أحياء ضبة.
(٢) النسيء: التأخير
(٣) لطيمة: عير تحمل المسك والبرّ وغيرها للتجارة.

أمركـم، وإنما كان قوامُكـم أسيفا وعسيفا ـ يريد العبد والاجير ـ وصرتم اليوم إنما ترعى لكـم بناتُكـم؛ فليعرض عليَّ كلٌّ رجل منكم رأيَه وما يحضره؛ فاني متى أسمع الحزمَ أعرفه. فقال كل رجل منهم ما رأى، وأكثم ساكتٌ لا يتكلم، حتى قام النعمان ابن الحسحاس، فقال: يا قوم، انظروا ماءً يجمعكـم ولا يعلم الناس بأي ماء أنتم، حتى تنفرج الحلقة عنكـم وقد جممتم[1] وصلحت أحوالكـم وانجبر كسيركـم وقوي ضعيفكـم؛ ولا أعلم ماء يجمعكم إلا قِدَّة[2]؛ فارتحِلوا وانزلوا قِدَّة. وهو موضع يقال له الكلاب؛ فلما سمع أكثم بن صيفي كلام النعمان، قال: هذا هو الرأي! فارتحَلوا حتى نزلوا الكلاب، وبين أدناه وأقصاه مسيرة يوم، وأعلاه مما يلي اليمن، وأسفله مما يلي العراق؛ فنزلت سعد الرِّباب بأعلى الوادي، ونزلت حنظلة بأسفله.

قال أبو عبيدة: وكانوا لا يخافون أن يغزوا في القيظ، ولا يسافر فيه أحد، ولا يستطيع أحد ان يقطع تلك الصحارى، لبُعْد مسافتها، وليس بها ماء! ولشدة حرها.

فأقاموا بقية القيظ لا يعلم أحدٌ بمكانهم! حتى إذا تهور القيظ ـ أي ذهب ـ بعث الله ذا العينين، وهو من أهل مدينة هجر، فمر بقدة وصحرائها، فرأى ما بها من النعم، فانطلق حتى أتى أهل هجر. فقال لهم: هل لكم في جارية عذراء، ومهرة شوهاء[3]، وبكرة[4] حمراء، ليس دونها نكبة؟ فقالوا: ومن لنا بذلك؟ قال: تلكـم تميم ألقاءٌ مطروحون بِقدّة. قالوا: إي والله!

فمشي بعضهم إلى بعض، وقالوا: اغتنموها من بني تميم! فأخرجوا منهم أربعة أملاك، يقال لهم اليزيديون: يزيد بن هوبر، ويزيد بن عبد المدان، ويزيد بن المأمور، ويزيد بن المخرم، وكلهم حارثيون؛ ومعهم عبد يغوث الحارثي؛ فكان كل

(١) جمّ: عفا من تعبة.
(٢) قدّة: ماء بالكلاب.
(٣) الشوهاء: الطويلة الرائعة.
(٤) البكرة: الفتية من الإبل.

واحد منهم على ألفين، والجماعة ثمانية الاف، فلا يُعلم جيش في الجاهلية كان أكبَر منه، ومن جيش يوم كسرى يومِ ذي قار، ويوم شعب جبلة ـ فمضوا؛ حتى إذا كانوا ببلاد باهلة، قال جزء بن جزء بن جزء الباهلي لابنه: يا بني، هل لك في أكرومة لا يصاب أبداً مثلُها؟ قال: وما ذاك؟ قال: هذا الحيُّ من تميم قد ولجوا هناك مخافةً، وقد قصصت أثر الجيش يريدونهم؛ فاركب جملي الأرْحَبِيّ[1]، وسر سيراً رويداً عقبة من الليل ـ يعني ساعة ـ ثم حلَّ عنه حبليه وأنِخْهُ وتوسَّدْ ذراعه، فإذا سمعتَه قد أفاض بجرَّتِهِ وبال فاستنقعت ثِفناته[2] في بوله، فشدَّ عليه حبله، ثم ضع السَّوْطَ عليه، فإنك لا تسأل جملك شيئاً من السير الا اعطاك، حتى تصبَّحَ القوم. ففعل ما أمره به.

قال الباهلي: فحللت بالكلاب قبل الجيش وأنا أنظر إلى ابن ذكاء ـ يعني الصبح ـ فناديت: يا صباحاه! فانهم ليثبون إليَّ ليسألوني من انت، إذ أقبل رجل منهم من بني شقيق على مُهر قد كان في النعم، فنادى: يا صباحاه! قد أُتي على النعم! ثم كر راجعا نحو الجيش، فلقيه عبد يغوث الحارثي وهو أول الرعيل، فطعنه في رأس معدته فسبق اللبنُ الدم، وكان قد اصطبح[3]، فقال عبد يغوث: اطيعوني وامضوا بالنعم وخلوا العجائز من تميم ساقطة افواهها: قالوا: اما دون ان تُنكَح بناتُهم فلا!

وقال ضمرة بن لبيد الحِماسي، ثم المذحجي الكاهن: انظروا إذا سُقتم النعم[4]، فإن أتتكم الخيل عصبا [عصبا]، العصبة تنتظر الاخرى حتى تلحق بها، فإن أمْرَ القوم هيِّن؛ وإن لحق بكم القوم ولم ينتظر بعضُهم بعضاً حتى يردُّوا وجوه النعم، فإنّ أمرَهم شديد.

---

(١) الأرحبيّ: نسبة الى بني أرحب، بطن من همدان.

(٢) الثفنات: ما يقع على الأرض من أعضاء البعير والناقة اذا استناخ.

(٣) اصطبح: شرب الصبوح.

(٤) النعم: الإبل.

وتقدمت سعد والرباب في أوائل الخيل، فالتقوا بالقوم فلم يلتفتوا إليهم، واستقبلوا النَّعم ولم ينتظر بعضهم بعضاً. ورئيسُ الرباب النعمانُ بن الحسحاس، ورئيس بني سعد قيس بن عاثم؛ وأجمع العلماء أن قيس بن عاصم كان رئيسَ بني تميم.

فالتقى القوم، فكان أول صريع النعمان بن الحسحاس، واقتتل القوم بقية يومهم، وثبت بعضهم لبعض حتى حجز الليل بينهم؛ ثم أصبحوا على راياتهم، فنادى قيس بن عاصم: يا آل سعد! ونادى عبد يغوث: يا آل سعد! قيسٌ يدعو سعد بن زيد مناة، وعبد يغوث يدعو سعد العشيرة؛ فلما سمع ذلك قيس نادى: يا آل كعب! فنادى عبد يغوث: يا آل كعب! قيسٌ يدعو كعب بن سعد، وعبد يغوث يدعو كعب بن مالك؛ فلما رأى ذلك قيس نادى: يا آل كعب مقاعس فلما سمعه وعلة بن عبد الله الجرمي - وكان صاحب لواء اهل اليمن - نادى: يا لُمقاعس! تفاءل به فطرح له اللواء، وكان أول من انهزم؛ فحملت عليهم بنو سعد الرباب فهزموهم، ونادى قيس بن عاصم: يا آل تميم، لا تقتلوا إلا فارساً فإن الرجَّالة لكم! ثم جعل يرتجز ويقول:

لما تـولَّـوا عُصَبـاً هَـواربَـا   أقسمْتُ لا أطعَنُ إلا راكبـا[1]

إن وجدْتُ الطعْنَ فيهم صائبا

وقال أبو عبيدة: أمر قيس بن عاصم أن يتبعوا المنهزمة ويقطعوا عرقوب من لحقوا ولا يشتغلوا بقتلهم عن اتّباعهم فجزُّوا دوابرهم، فذلك قول وعلة:

فِدى لكم أهلي وأُمـي ووالدي   غَداةَ كُلاَب إذ تُجَزُّ الدَّوابرُ[2]

وسنكتب هذه القصيدة على وجهها. وحمى عبد يغوث اصحابه فلم يوصل إلى الجانب الذي هو فيه؛ فألظَّ[3] به مَصاد بن ربيعة بن الحارث، فلما لحقه مصادٌ طعَنهُ فألقاه عن الفرس فأسره، وكان مصادٌ قد أصابته طعنة في مأبضه[4]، وكان عرقه

(١) العُصَب: جمع العصبة، وهي الجماعة من الناس.

(٢) جزّ: قطع.   (٣) ألظ به: لازمه.

(٤) المأبض: باطن الركبة.

يهمي ـ أي يسيل ـ فعصبه، وكتفه ـ يعني عبد يغوث ـ ثم أردفه خلفه، فنزفه الدم، فمال عن فرسه مقلوبا. فلما رأى ذلك عبد يغوث قطع كتافه وأجهز عليه وانطلق على فرسه، وذلك أول النهار، ثم ظفر به بعد في آخره. ونادى مناد قتل اليزيدون. وشد قبيضة بن ضرار الضبي على ضمرة بن لبيد الحماسي الكاهن فطعنه فخرّ صريعا، فقال له قبيصة: ألا أخبرَك تابعُك بمصرعك اليوم! وأُسر عبد يغوث، وأسره عصمة بن أُبير التيمي.

قال أبو عبيدة: انتهى عصمةُ بن أبير إلى مصادٍ وقد أمعنوا في الطلب، فوجده صريعاً، وقد كان قبل ذلك رأى عبدَ يغوث أسيراً في يديه، فعرف أنه هو الذي اجهز عليه، فاقتص أثره، فلما لحقه قال له: ويحك! إني رجل أُحب اللين، وأنا خير لك من الفلاة والعطش! قال عبد يغوث: ومن أنت؟ قال: عصمةُ بن أبير. قال عبيد يغوث: أو عندك مَنْعَة؟ قال: نعم، فألقى يده في يده، فانطلق به عصمة حتى خبأه عند الاهتم، على ان جعل له مِن فِداه جُعلا[1] فوضعه الاهتم عند امرأته العبشمية[2]، فأعجبها جماله وكمال خلُقه، وكان عصمة الذي أسره غلاما نحيفا، فقالت لعبد يغوث: من أنت؟ قال: انا سيِّدُ القوم! فضحكت، وقالت: قبحك الله سيدَ قوم حين أسرَك مثلُ هذا. ولذلك يقول عبد يغوث:

وتضحَكُ مني شيْخـةٌ عبْشَمِيَّـةٌ ... كأن لم ترَ قبْلِـي أسيراً يَمانِيـا

فاجتمعت الرباب الى الاهتم فقالت: ثأرنا عندك، وقد قُتل مَصاد والنعمان، فأخرجه إلينا! فأبى الاهتم ان يخرجه اليهم. فكاد ان يكون بين الحيين: الرباب وسعد، فتنة، حتى أقبل قيس بن عاصم المنقري، فقال: أيُؤتَى قطع حلف الربّاب من قِبلنا؟ وضرب فمه بقوس فهتمه[3] فسمِّي الأهتم، فقال الاهتم: انما دفعه إليَّ عصمةُ ابن أبير، ولا أدفعه إلا لمن دفعه إليّ، فليجيءْ فيأخذه. فأتوا عصمة فقالوا: يا

(١) الجعل: جمع جعال، وهو ما جعل على العمل من أجر.

(٢) العبشمية: من بني عبد شمس.

(٣) الأهتم: الذي تكسرت ثناياه من أصلها.

عصمة، قُتل سيدُنا النعمان، وفرسُنا، مصاد، وثأرُنا أسيرك وفي يدك؛ فما ينبغي لك أن تستحبيَه! فقال: إني مُمْحِل [1]، وقد أصبت الغنى في نفسي، ولا تطيب نفسي عن أسيري! فاشتراه بنو الحَسحاس بمائة بعير. وقال رؤبة بن العجاج: بل أرضوه بثلاثين من حواشي النَّعم؛ فدفعه إليهم، فخشوا ان يَهْجُوَهم، فشدوا على لسانه نِسعة [2]؛ فقال إنكـم قاتليّ ولا بدّ، فدعوني أذمَّ أصحابي وأنوح على نفسي! فقالوا: إنك شاعر ونخاف أن تهجُوَنا! فعقد لهم أن لا يفعل، فأطلقوا لسانه وأمهلوه حتى قال قصيدته التي أولها:

ألاَلا تلوماني كفَى اللّومَ ما بيا ... فما لكما في اللّومِ خيرٌ ولا لِيا
ألم تَعلَما أنَّ المَلامة نفْعُها ... قليل وما لوْمي أخي من شَمَاليا [3]
فيا راكباً إمّا عَرضْتَ فبلِّغنْ ... نَداماي من نجرانَ أنْ لا تَلاقيا [4]
أبا كَربٍ والأيْهميْن كليْهما ... وقيْساً بأعلى حضْرموْتَ اليمانِيا [5]
جزى الله قوْمي بالكلاب مَلامةً ... صريحَهُم والآخرين المَواليا [6]
ولو شئتُ نجّتْني منَ القَوم نَهدَةٌ ... ترى خلفَها الجُرْد الجِيادَ تَواليا [7]
ولكنني أحمى ذِمار أبيكم ... وكاد الرِّماح يَختطِفن المحاميا [8]
أحقًّا عباد ٱلله أن لست سامعاً ... نشيدَ الرِّعاء المُعزِبين المثاليا [9]
أقول وقد شَدّوا لساني بنِسعةٍ ... أمعشرَ تيْمٍ أطلِقوا عن لسانيا

---

(١) ممحل: أصابة المحل أي الفقر.

(٢) النسعة: القطعة من النسع، وهو سير يضفر من جلد.

(٣) الشمال: الخلق.

(٤) عرضت: أتيت العروض، وهي مكة والمدينة وما حولها.

(٥) أبو كرب: هو بشر بن علقمة بن الحارث.

(٦) الصريح: الخالصة. والموالي: الخلفاء المنتمون اليهم.

(٧) النهدة: المرتفعة الخلق. والجرد: القصار الشعر.

(٨) الذمار: ما يجب حفظه من منعه جار أو طلب ثأر.

(٩) الرعاء: جمع راع. والمعزب: المنتحي بابله. والمثالي: التي نتج بعضها وبقي بعض.

وتَضحـــك مني شيْخـــةٌ عَبْشميَّـــةٌ كأنْ لم تَريْ قَبْلي أسيراً يمانيا [١]
أمعشر تيْـمٍ قـد ملَكْتم فـأسجحوا فإنّ أخاكم لم يكن من بَوائيا [٢]
وقـد علمـتْ عِـرسِـي مُليْكـة أنني أنا اللّيْثُ معْدوًّا عليه وعاديا
وقد كنتُ نَحَّار الجَزور ومُعمِل المـ ـطِيّ وأمضِي حيثُ لا حيَّ ماضيـا
وأعقرُ للشّـرْب الكـرام مطيّتي وأصدعُ بين القَيْنتيْن ردائيا [٣]
وكنتُ إذا ما الخيْـل شمّطَهـا القَنـا لبيقاً بتصرْيف القَناةِ بَنانيا [٤]
وعـــاديـــةٍ سَـــومَ الجراد وزعْتُهـا برُمْحي وقد أنْحَوا إليَّ العَواليا [٥]
كـأنَّـي لم أركَـب جَـواداً ولم أقـل لخيْليَ كرِّي قاتلي عن رِجاليا
ولم أسْبـــإِ الزِّقَّ الّرويَّ ولم أقـــل لأيْسار صِدْقٍ أعظِموا ضوْءَ ناريا [٦]

قال ابو عبيدة: فلما ضُربت عنقه قالت ابنة مصاد: بُؤْ بمصاد! فقال بنو النعمان: يالكاع! نحن نشتريه بأموالنا ويبوء بمصاد؟ فوقع بينهم في ذلك الشر، ثم اصطلحوا؛ وكان الغَناء كله يوم الكلاب من الرباب لتيم، ومن بني سعد لمقاعس.

وقال وعلة الجَرمي وكان أول منهزم انهزم يوم الكُلاب، وكان بيده لواء القوم:

ومَـــنّ عليَّ الله مَنّـــا شكـــرْتُـــه غَداةَ الكلابِ إذ تُجَز الدّوابرُ
ولمّا رأيـتُ الخيْـل تَتْـرى أثابجـاً علمتُ بأنّ اليوْمَ أحمَس فاجرُ [٧]
نجوْتُ نَجـــاءً ليس فيــــه وثيرةٌ كأني عُقابٌ عند تَيْمن كاسِرُ [٨]
خُـداريَّـةٌ سَفْعـــاءُ لبَّـــد ريشَهـــا بطخفةَ يومٌ ذو أهاضيبَ ماطِرُ [٩]

---

(١) عبشمية: نسبة الى عبد شمس.

(٢) اسجحوا: سهلوا أو يسروا في أمري. والبواء: السواء

(٣) الشرب: جمع شارب. وأصدع: أشق. والقينة: الأمة مغنية كانت ام غير مغنية.

(٤) اللبيق: الحاذق. (٥) عادية يريد خيلاً عادية. أنحوا: وجهوا إليّ.

(٦) لم اسبأ: لم اشتر الخمر. والروي: الممتلىء.

(٧) الأثابج: الجماعات العظيمة.

(٨) الوثيرة: الذحل أو الظلم. وتيمن: بلاد بني تيم. والكاسر: التي تكسر جناحيها وتضمها اذا أرادت السقوط.

(٩) خدارية: سوداء. والأهاضيب: جلبات القطر بعد القطر

لها ناهضٌ في الوَكْر قد مَهَدتْ لـه ... كما مَهَدتْ للبعْـل حسنـاءُ عـاقـر
كأنّـا وقـد حـالـت حُذَتَّـهُ دونَنـا ... نعَامٌ تلاهُ فارسٌ مُتواتر[1]
فمَـنْ يـك يَـرجـو في تميمٍ هَـوادةً ... فليس لجرْم في تميمٍ أواصر
ولمّا سمعْتُ الخيل تَـدْعـو مُقـاعِسـاً ... تَنازَعَني من ثَغرةِ النحر ناحر
فإنْ أستطيـع لا تَلْتبس بي مقـاعسٌ ... ولا ترني بيداؤهُمْ والمحاضر[2]
ولا أكُ في جـرّارة مُضـريّـة ... إذا ما غدتْ قُوت العِيال تُبادرُ[3]
وقد قلت للنّهْدِيِّ هل أنـت مُـرْدِفي ... وكيف رِداف الفَلّ أُمّك عاثر[4]
يُـذكّـرُني بـالإلّ بيني وبينـه ... وقد كان في جرْمٍ ونَهدٍ تَدابُر[5]

وقال مُحرز بن المعكبر الضبي ـ ولم يشهدها وكان مجاورا في بكر بن وائل ـ لما بلغه الخبر :

فِدًى لقومِيَ ما جَمّعْـتُ مـن نَشـبٍ ... إذ ساقتِ الحربُ أقواماً لأقوامِ[6]
إذ حُدِّثتُ مِذْحَجٌ عنا وقد كُذِبـتْ ... أنْ لا يُذَبِّب عن أحسابنا حامِ
دارت رَحـانـا قليلا ثم واجهَهُـم ... ضَرْبٌ تصدّعُ منه جلدةُ الهام[7]
ظلّـت ضبـاعٌ مُجيرات تُجـرِّرُهـم ... وألحموهُنَّ منهم أيَّ إلحام[8]
حتى حـذُنّـة لم نَترك بها ضَبُعـا ... إلاّ لها جَزَرٌ من شِلْوِ مِقْدام[9]

---

(١) موضع قرب اليمامة .
(٢) البيداء : الأرض المستويه الملساء .
(٣) جرارة : أي كتيبة جرارة ، وهي الثقيلة السير لكثرتها .
(٤) الفلى : المنهزم . والمردف : الذي جعله يركب خلفه .
(٥) جرم ونهد : موضعان . (٦) النشب : المال الأصيل .
(٧) دوران الرحى : أي بداية الحرب
(٨) المجيرات : هضبات حمر تنسب اليها الضباع . وألحموهن : أطعموهن اللحم .
(٩) الجزر : ما جزر . والشلو : بقية المقتول والميت .

ظلَّت تـدوس بني كعـب بكلْكلِهـا وهَمَّ يومُ بني نَهدٍ بإظلام[1]

قال أبو عبيدة: حدثني المنتجع بن نبهان قال: وقف رؤبة بن العجَاج على التيم بمسجد الحرورية، فقال: يا معشر تيم، إني سمرت عند الامير تلك الليلة، فتذاكرنا يوم الكلاب، فقال: يا معشر تيم، إن الكلاب ليس كما ذكرتم فأعفونا من قصيدتَي صاحبينا ـ يعني عبد يغوث ووعلة الجرمي ـ ومن قصيد ابن المعكبر صاحبكم، وهاتوا غير ذلك؛ فأنتم اكثر الناس كلاما وهجاء.

قال رؤبة: فأنشدناه في ذلك اليوم شعرا كثيرا، فجعل يقول: هذه إسلاميةٌ كلها.

يوم طِحَفة[2]

كانت الرَّدافة[3]، ردافة الملِك، لعتّاب بن هرميّ بن رياح؛ ثم كانت لقيس بن عتاب، فسأل حاجب بن زرارة النعمان أن يجعلها للحارث بن مرط بن سفيان بن مجاشع؛ فسألها النعمان بني يربوع، وقال: أعقِبوا إخوتَكم في الردَّافة. قالوا: إنهم لا حاجة لهم فيها، وانما سألها حاجبٌ حسداً لنا. وأتوا عليه. فقال الحارث بن شهاب وهو عند النعمان: إن بني يربوع لا يسلمون ردافتهم إلى غيرهم. وقال حاجب: إن بعث إليهم الملك جيشاً لم يمنعوه، ولم يمتنعوا. فبعث إليهم النعمان قابوساً ابنه، وحسان بن المنذر؛ فكان قابوس على الناس، وكان حسان على المقدمة. وبعث معهم الصنائع والوضائع ـ فالصنائع من كان يأتيه من العرب، والوضائع المقيمون بالحيرة ـ فالتقوا بطُخفة، فانهزم قابوس ومن معه، وضَرب طارق بن عميرة فرس قابوس فعقره، وأخذه ليجز ناصيته[4]، فقال قابوس: إن الملك لا تَجُزُّ نواصيها! فجهزه

---

(١) الكلكل: الصدر العظيم.

(٢) طخفة: موضع بعد النباج في طريق البصرة الى مكة.

(٣) الردافة: فعل ردف الملك: جليسه.

(٤) الناصية: شعر مقدم الرأس.

وأرسله إلى أبيه، وأما حسان بن المنذر، فأسره بشر بن عمرو الرياحي، ثم منّ عليه وأرسله، فقال مالك بن نويرة:

ونحن عقَرْنا مُهْر قابوس بعدما رأى القومُ منه الموت والخيل تُلْحبُ[1]
عليه دِلاصٌ ذات نسجٍ وسيفَه جُرازٌ من الهِنْديِّ أبيضُ مقضَبُ[2]
طلبنا بها إنا مَداريكُ قبْلَها إذا طَلَب الشَّأو البعيدَ المُغَرِّبُ

يوم فيف الريح[3]

قال أبو عبيدة: تجمعت قبائل مذحج، وأكثرها بنو الحارث بن كعب، وقبائل من مراد وجعفي وزبيد وخثعم؛ وعليهم أنس بن مدركة؛ وعلى بني الحارث الحصين؛ فأغاروا على بني عامر بن صعصعة بفَيْف الريح، وعلى بني عامرٍ، عامرُ بن مالك ملاعب الاسنة.

قال: فاقتتل القوم فكثروهم[4]. وارفضت قبائل من بني عامر، وصبرت بنو نمير، فما شبهوا إلا الكلاب المتعاظلة[5] حول اللواء؛ وأقبل عامر بن الطفيل وخلفه دَعِيّ بن جعفر، فقال: يا معشر الفتيان، من ضرب ضربة او طعن طعنة فليُشْهدني فكان الفارس إذا ضرب ضربة او طعن طعنة قال عند ذلك: يا أبا علي! فبينما هو كذلك إذ أتاه مسهر بن يزيد الحارثي، فقال له من ورائه: عندك يا عامر! والرمح عند أذنه، فوهصه - أي طعنه فأصاب عينه - فوثب عامر عن فرسه، ونجا على رجليه؛ وأخذ مسهر رمح عامر. ففي ذلك يقول عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر:

لعَمْري وما عَمْري عليْ بهَيِّنٍ لقد شانَ حُر الوجهِ طعنةُ مُسْهِر

---

(١) تلحب: تجهد وتلقي ما يؤذيها.
(٢) الدلاص من الدروع: اللينة البراقة الملساء. والجراز من السيوف: الماضي النافذ. ومقضب: قطّاع.
(٣) فيف الريح: بأعالي نجد. (٤) كثروهم: غلبوهم بكثرتهم.
(٥) الكلاب المتعاظلة: التي لزم بعضها بعضاً.

أعـاذِلُ لـو كـانَ البِـداد لقـوتِلـوا ولكنْ نزونا بالعديدِ المجَمْهر[١]
ولـو كـان جَمْـعٌ مِثلنـا لم يبـزّنـا ولكن أتتْنا أُسرةٌ ذاتُ مَفْخرِ[٢]
أتـوْنـا ببهراءِ ومـذْحـجَ كلِّهـا وأكْلُبَ طُرًّا في جِنان السَّنورِ[٣]

وقال مُسهر، وزعم أنهم أخذوا آمرأة عامر بن الطفيل:

وهَصْتُ بخرص الرُّمحِ مُقلَة عـامـر فأضحى نحيفاً في الفوارِس أعْورَا[٤]
وغـادرَ فينـا رُمْحـهُ وسلاحـه وأدْبَر يدعو في الهوالِكِ جعفرَا
وكنّـا إذا قيسيَّـةٌ دُهيـتْ بنـا جرَى دمعُها من عينِها فتحَدّرا
مخافـةَ مـالاقـتْ حليلَـةُ عـامـر مِنَ الشَّرِّ إذ سرْبالُها قد تعفَّرا

قال: وامتنّتْ بنو نمير على بني كلاب بصبرهم يوم فيف الريح، فقال عامر:

تَمنّـون بـالنُعما ولـولا مكَـرُنـا بمنعرَجِ الفيْفا لكنتُم مَواليا
ونحنُ تـدارَكنـا فـوارسَ وحْـوحٍ عشيَّةَ لاقيْنا الحُصيْنَ آليَمانيا

وحوح: من بني نمير، وكان عامر استنقذهم؛ وأُسر حنظلة بن الطفيل يومئذ.

قال أبو عبيدة: كانت وقعةُ فيف الريح وقد بُعث النبي ﷺ بمكة، وأدرك مُسْهِر ابن يزيد الإسلام فأسلم.

يوم تِياس[٥]

كانت أفناء قبائل من بني سعد بن زيد مناة وأفناء قبائل من بني عمرو بن تميم التقت بتِياس، فقطع غيلان بن مالك بن عمرو بن تميم رِجل الحارث بن كعب بن سعد بن زيد مناة. فطلبوا القِصاص، فأقسم غيلان أن لا يعقلها ولا يُقَصّ بها حتى تُحشَى عيناه تراباً! وقال:

---

(١) البداد: أي فرادى. (٢) برّ: فاق.
(٣) السنور: لبوس يلبس في الحرب كالدرع، أو هو جملة السلاح.
(٤) خرص الرمح: سنانه. (٥) تياس: ماء العرب بين الحجاز والبصرة

لا نعقِـــلُ الرِّجْـــلَ ولا نِـــديها حتى تَروْا داهيةً تُنْسيها

فالتقوا فاقتتلوا فجرحوا غيلان حتى ظنوا انهم قد قتلوه، ورئيسُ عمرو، كعب بن عمرو، ولواؤه مع ابنه ذؤيت وهو القائل لأبيه:

يـــا كعـــبُ إن أخـــاك مُنحمِـــقٌ إن لم يكن بِك مرَّة كعب
جـانِبـكَ مـن يَجني عليـك وقـد تُعدِي الصِّحاحَ مَبارِكُ الجُربِ[1]
والحربُ قـد تضطـرُّ جـانبَهـا نحو المضيقِ ودونهُ الرَّحْبُ

يوم زرود[2] الأول

غزا الحوفزانُ حتى انتهى إلى زَورد خلف جبل من جبالها، فأغاروا على نعم كثير صادر عن الماء لبني عبس، فاحْتازوه، وأتى الصريخ بني عبس، فركبوا، ولحق عمارة ابن زياد العبسي الحوفزانَ فعرفه ـ وكانت أم عمارة قد أرضعت مضر بن شريك، وهو أخو الحوفزان ـ فقال عمارة: يا بني شريك، قد علمتم ما بيننا وبينكـم! قال الحوفزان، وهو الحارث بن شريك: صدقت يا عمارة، فانظر كل شيء هُو لك فخُذْه! فقال عمارة: لقد علمت نساء بني بكر بن وائل أني لم أملأ أيدي أزواجهن وأبنائهن شفقة عليهـن مـن الموت! فحمـل عمارة ليعـارض النعـم[3] ليردّه، وحـال الحوفزان بينه وبين النعم، فعثرت بعمارة فرسُه فطعنه الحوفزان، ولحق به نعامة بن عبد الله بن شريك فطعنه أيضاً؛ وقال نعامة: ما كرهتُ الرمح في كفلِ[4] رجل قط أشدّ من كفل عمارة! وأُسِر آبنا عمارة: سنان وشداد، وكان بني عبس رجلان من طيء ابنان لأوس بن حارثة، مجاورين لهم، وكان لهما أخ أسير في بني يشكر، فأصابا رجلا من بني مرة يقال له: معدان بن محرب، فذهبا به فدفناه[5] تحت شجرة، فلما

---

(١) في البيت إقواء.

(٢) زورد: رمال بين الثعلبية والخزيمة بطريق الحاج من الكوفة.

(٣) النعم: الإبل.

(٤) الكفل: العَجُزْ للإنسان والدابّة.

(٥) الدفن: الستر والمواراة.

فقدته بنو شيبان نادوا: يا ثارات معدان! فعند ذلك قتلوا ابنَيْ عمارة، وهرب الطائيان بأسيرهما فلما برىء عمارة من جراحه أتى طيّا فقال: ادفعوا إليّ هذا الكلب الذي قُتلنا به! فقال الطائي لأوس: ادفع إلى بني عبس صاحبَهم. فقال لهم أوس: أتأمرونني أن أعطي بني عبس قطرةً من دمي، وإن ابني أسير في بني يشكر؟ فوالله ما أرجو فكاكه إلا بهذا! فلما قفل الحوفزان من غزوه بعث إلى بني يشكر في ابن أوس، فبعثوا به إليه؛ فافتكّ به معدان.

وقال نعامة بن شريك:

استنزلتْ رِماحُنا سِنانا وشيخَه بطخفَةِ عِيانا

ثم أخوهُ قد رأى هَوانا لـمَّا فقدنا بيننا مَعدانا

يوم غول[1] الثاني: وهو يوم كنهل[2]

قال أبو عبيدة: أقبل ابنا هُجيمة ـ وهما من بني غسان ـ في جيش، فنزلا في بني يربوع، فجاوَرا طارقَ بن عوف بن عاصم بن ثعلبة بن يربوع، فنزلا معه على ماء يقال له كنهل، فأغار عليهما أناس من ثعلبة بن يربوع، فاستاقوا نَعمهما وأسروا من كان في النعم؛ فركب قيس بن هجيمة بخيلِه حتى أدرك بني ثعلبة، فكرّ عليه عتيبة ابن الحارث، فقال له قيس: هل لك يا عتيبة إلى البراز؟ فقال: ما كنتُ لأسأله وأدعه! فبارزه، قال عُتيبة: فما رأيت فارساً أملأ لعيني منه يومَ رأيتُه، فرماني بقوسه، فما رأيت شيئاً أكره إليَّ منه، فطعنني فأصاب قربوس[3] سرجي، حتى وجدتُ مَسَّ السنان في باطن فخذي، فتجنبت؛ قال: ثم أرسل الرمح وقبض بيدي وهو يرى أن قد أثبتني وانصرف، فأتبعته الفرس، فلما سمع زجلها رجع جانحا على قربوس سرجه، وبدا لي فرج الدرع ومعي رمح مُعلَّب[4] بالقِدِّ والعصب كنا نصطاد

(١) غول: ماء معروف للضباب بجوف طخفة.

(٢) كنهل: ماء لبني تميم. (٣) قربوس السرج: حنوه.

(٤) معلّب: حز مقبضها بعلباء البعير، وهي ممدود عصب العنق.

به الوحش، فرميته بالقوس، وطعنته بالرمح، فقتلته وانصرفت؛ فلحقت النعم، وأقبل الهرماس بن هجيمة فوقف على أخيه قتيلا، ثم اتبعني، وقال: هل لك في البراز؟ فقلت: لعل الرجعة لك خير! قال: أبعدَ قيس؟ ثم شدّ عليَّ فضربني على البيضة[1]، فخلص السيف إلى رأسي، وضربته فقتلته؛ فقال سحيم بن وَثيل يُعيِّر طارقا فقتل جارَيه:

لقد كنت جارَ بني هجيْمـةَ قبلَهـا — فلم تُغْنِ شيئـاً غيـرَ قتْـل المجـاورِ

وقال جرير:

وساقَ ٱبنَـيْ هجيْمـةَ يـومَ غـوْلٍ — إلـى أسيافِنـا قـدرُ الحِمـامُ

يوم الجبات[2]

قال أبو عبيدة: خرج بنو ثعلبة بن يربوع فمرّوا بناس من طوائف بني بكر بن وائل بالجُبّات، خرجوا سُفّارا، فنزلوا وسرحوا إبلهم ترعى، وفيها نفر منهم يرعونها: منهم سوادة بن يزيد بن بُجير العجلي. ورجل من بني شيبان، وكان محموما؛ فمرّت بنو ثعلبة بن يربوع بالإبل، فاطْردوها، وأخذوا الرجلين فسألوهما: من معكما؟ فقالا: معنا شيخ من يزيد بن بجيل العجلي في عصابة من بني بكر بن وائل، خرجوا سُفارا يريدون البحرين. فقال الربيع ودعموص ابنا عتيبة بن الحارث بن شهاب: لن نذهب بهذين الرجلين وبهذه الإبل ولم يعلموا من أخذها؟ ارجعوا بنا حتى يعلموا من اخذ إبلهم وصاحبيهم ليعنيهم ذلك. فقال لهما عميرة: ما وراءكما إلا شيخ بن يزيد قد أخذتما أخاه وأطردتما ماله، دعاه، فأبيا ورجعا، فوقفا عليهم وأخبراهم وتَسَميا لهم، فركب شيخ بن يزيد فٱتبعهما وقد وَلّيا، فلحق دعموصا فأسره ومضى ربيع حتى أتى عميرةَ فأخبره أنّ أخاه قد قتل، فرجع عميرة على فرس يقال له الخنساء، حتى لحق القوم، فافتكّ منهم دعموصاً على أن يردّ عليهم أخاهم

---

(١) البيضة: الخوذة. (٢) الجبات: موضع قريب من ذي قار.

وإبلهم؛ فردّها عليهم؛ فكفَر ابنا عتيبة ولم يشكرا عميرة، فقال:

ألم تَرَ دُعْموصاً يَصُدّ بوجهه إذا ما رآني مُقبلا لم يُسلِّمِ
ألم تعْلما يابْنَيْ عتيْبةَ مُقدَمِي على ساقطٍ بين الأسِنَّةِ مُسْلِم
فعارَضتُ فيه القومَ حتى انتزعْته جِهاراً ولم أنظُرْ له بالتَّلوُّم[١]

يوم إراب[٢]

غزا الهذيل بن هبيرة بن حسان التغلبي، فأغار على بني يربوع بإراب فقتل فيهم قتلا ذريعا، فأصاب نعما كثيرة وسَبى سبياً كثيراً، فيهم زينب بنت حمير بن الحارث ابن همام بن رباح بن يربوع، وهي يومئذ عقيلة نساء بني تميم وكان الهذيل يسمى مِجْدعا، وكان بنو تميم يُفزعون به أولادهم، وسبى أيضاً طابية بنت جزء بن سعد الرياحي، ففداها أبوها؛ وركب عتيبة بن الحارث في أسراهم ففكهم أجمعين.

يوم الشعب

غزا قيس بن شرفاء التغلبي، فأغار على بني يربوع بالشعب، فاقتتلوا، فانهزمت بنو يربوع، فزعم أبو هدبة أنها كانت اختطافا، فأسر سحيم بن وَثيل الرياحي، ففي ذلك يقول سحيم:

أقول لهم بالشِّعْب إذ يأسِرونني ألم تعلَموا أني ابنُ فارسَ زَهْدَمِ[٣]

ففدى نفسه. وأُسر يومئذ متمِّم بن نويرة، فوفد مالك بن نويرة على قيس بن شرفاء في فدائه فقال:

هل أنتَ يا قيسَ بنَ شَرْفاءَ مُنْعِمٌ أو الجهْد إن أعطيتُه أنت قابلُه

فلما رأى وسامَته[٤] وحسنَ شارته، قال: بل مُنْعم. فأطلقه له.

---

(١) التلوّم: التعرض للأمة في الفعل السيء.

(٢) إراب: من مياه البادية. (٣) زهدم: فرس لوالد سحيم. (٤) وسامته: جماله.

يوم غول[١] الأول

فيه قتل طريف بن شراحيل وعمرو بن مرثد المُحلَّمي.

غزا طريف بن تميم في بني العنبر وطوائفَ من بني عمرو بن تميم، فأغار على بني بكر بن وائل بغَول، فاقتتلوا، ثم إنّ بكراً انهزمت، فقُتل طريف بن شراحيل أحد بني ربيعة، وقُتل أيضاً عمرو بن مرثد المحلَّمي، وقتل المحسَّر، فقال في ذلك ربيعة ابن طريف:

يـا راكبـاً بَلِّغَـنْ عني مُغلْغَلـة — بنِي الخَصيب وشرُّ المنطِق الفَنَـدُ[٢]
هلاَّ شراحيـلُ إذ مـال الحِزام بـه — وسْطَ العَجاجِ فلم يغضَبْ له أحد[٣]
أَو المحسَّـرُ أو عمـرٌ تَحيَّفَهـم — منّا فوارسُ هيْجَا نصرُهم حَشَد[٤]
إذ يُلحَظـونَ بـزُرْقٍ مـن أسنتَّنـا — يُشفَى بهنّ الشَّنا والعُجْبُ والكمد[٥]
وقد قتَلنـاكـم صبراً ونـأسِـرُكـم — وقد طَردناكـم لـو ينفـع الطَّـرد[٦]
حتى استغاثَ بنا أدنَـى شريـدِكـم — مِن بعـدما مسـه الضـراءُ والنكـد

وقال نضلة السلمي في يوم غَول، وكان حقيراً دميما، وكان ذا نجدة:

ألم تَسَـلِ الفـوارسُ يـومَ غَـول — بنَضْلَةَ وهـو موْتـورٌ مُشيـحُ؟-
رأوْه فـازدَروْه وهـو حُـرٌّ — ويَنفـعُ أهلـه الرجـلُ القبيـح
فشـدَّ عليهـمُ بـالسيـفِ صَلتـاً — كما عَضَّ الشبَـا الفـرَسُ الجَموح[٧]
فـأطلـق غـلَّ صـاحبـه وأرْدَى — قتيـلا منهـمُ ونَجـا جريـح
ولم يَخشـوْا مَصـالَتـه عليهـم — وتحت الرِّغـوَةِ اللبَـنُ الصريـح[٨]

---

(١) غول: ماء معروف للضباب بجوف طخفة.

(٢) الفند: الرأي الخاطىء.

(٣) العجاج: الغبار. (٤) تحيفهم: تنقصهم.

(٥) الشنا: الشناء: البغض والكراهية.

(٦) صبراً؛ يقال: قتله صبراً: حبسه حتى مات.

(٧) الشبا: الطحلب. (٨) مصالته: صولته.

يوم الخندمة[1]

كان رجل من مشركي قريش يُحدّ حربة يوم فتح مكة، فقالت له امرأته: ما تصنع بهذه؟ قال: أعددتها لمحمد وأصحابه! قالت: والله ما أرى [أنه] يقوم لمحمد وأصحابه شيء! فقال: والله إني لأرجو أن أُخْدِمَكِ بعضَ نسائهم! وأنشأ يقول:

إن يُقبِلوا اليومَ فما بي عِلَّة ... هذا سلاح كاملٌ وأَلَّهْ[2]
وذو غِرارَيْنِ سريعُ السَّلَّةْ[3]

فلما لقيهم خالد بن الوليد يوم الخندمة انهزم الرجل لا يلوي على شيء فلامته امرأته؛ فقال:

إنكِ لو شهِدتِ يومَ الخندَمَهْ ... إذ فرّ صَفوان وفرّ عِكرِمَهْ
ولقِيَتْنا بالسيوفِ المُسْلِمهْ ... يَفلِقْنَ كلَّ ساعد وجُمجُمَهْ[4]
ضرْباً فلا تُسمَعُ إلا غمغَمَهْ ... لم تَنطِقي في اللوْم أدنَى كَلِمَهْ[5]!

يوم اللهياء[6]

قال أبو عبيدة: كان سبب الحرب التي كانت بين عمرو بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل، وبين بني عبد بن عدي بن الدُّئِل بن بكر بن عبد مناة، أن قيس بن عامر بن غريب أخا بني عمرو بن عدي، وأخاه سالما، خرجا يريدان بني عمرو بن الحارث، على فرسين، يقال لاحدهما اللَّعاب، والأخرى عفزر؛ فباتا عند رجل من بني نفاثة، فقال النفاثي لقيس وأخيه: أطيعاني وأرجعا، لأعرفنّ رماحَكُما تُكسَر في قتاد نُعمان[7]. قالا: إن رماحنا لا تُكسر إلا في صدور الرجال! قال: لا يضركما،

(١) الخندمة: جبل بمكة.
(٢) الألّة: الحربة
(٣) ذو غرارين: يعني سيفاً.
(٤) يفلقن: يقطعن
(٥) غمغمة: كلام لا يبين.
(٦) اللهياء: موضع بنعمان الأراك بين الطائف ومكة.
(٧) القتاد: الشجر الصلب له شوك.

وستحمدان أمري. فأصبحا غاديين، فلما شارفا متن اللهيما من نعمان، وبنو عمرو بن الحارث فُويق ذلك، بموضع يقال له أديمة [1]، أغارا على غنم جندب بن أبي عُميس، وفيها جندب؛ فتقدم إليه قيس، فرماه جندب في حلمة ثديه، وبعجه قيس بالسيف فأصابت ظُبَةُ [2] السيف وجه جندب، وخرّ قيس؛ ونفرت الغنم نحو الدار، فتبعها، وحمل سالم على جندب بفرسه عفزر، فضرب جندب خطم [3] عفزر بالسيف فقطعه، وضربه سالم فاتقاه بيده فقطع أحد زنديه، فخر جندب وذفَّف [4] عليه سالم، وأدرك العِشي سالما، فخرج وترك سيفه في المعركة، وثوبه بحقويه، لم ينج إلا بجفن سيفه ومئْزره؛ فقال في ذلك حماد بن عامر:

لعمـرُكَ مـا وفي آبن ابي عميسٍ ... ومـا خـان القتـالَ ومـا أضـاعـا
سما بِقـرابـه حتى إذا مـا ... أتـاهُ قـرنُـه بـذَل المِصـاعـا [5]
فـإن أك نـائبـاً عنـه فـإني ... سُـرْرتُ بـأنـه غُبنَ البيـاعـا
وأفلـتَ سـالمٌ منهـا جَـريضـاً ... وقـد كلمَ الذُّبـابَـة والذِّراعـا [6]
ولـو سَلِمـت لـه يُمنَـى يـديـه ... لعمـرُ أبيـكَ اطعمَـك السِّبـاعـا

وقال حذيفة بن أنس:

ألا بلِّغا جُـلَّ السـواري وجـابـراً ... وبلغ بني ذِي السَهمِ عنا ويَعمـرا [7]
كشفْـتُ غطـاءَ الحربِ لما رأيتُهـا ... تميل على صفوٍ من الليلِ أكـدرا [8]
أخو الحرب إن عضَّت به الحربُ عضها ... وإن شمرت عن ساقِها الحرب شمرا [9]

---

(١) أديمه: جبل بالحجاز.

(٢) الظبّة: شفرة السيف. (٣) الخطم: الأنف أو مقدمه.

(٤) ذفف عليه: أجهز عليه.

(٥) القران: النبال والسيوف، جمع قرن. والمصاع: المقاتلة.

(٦) الجريض: يبتلع ريقه على جهد من الهم. وذبابة السيف: حدّه أو طرفة.

(٧) السواري: قوم يقال لهم بنو سارية. ويعمر: قبيلة من بني نفاثة.

(٨) على صقو: على ميل.

(٩) عضها: أي لم يفتر لغمزها إن غمزته. وشمرت: قلصت ولقحت واشتد أمرها.

ويمشي إذا ما الموتُ كـان أمـامـه كذا الشِّبلُ يحمي الانف أن يتأخَّرا [١]
نجا ســالمٌ والنفسُ منـه بشــدْقــه ولم ينجُ إلا جفْنَ سيفٍ ومئـزَرا [٢]
وطاب عــنِ اللَّعــاب نفسـا وربِّـه وغـادر قيسـا في المكـرِّ وعفْـزَرا

يوم خزاز [٣]

قال أبو عبيدة تنازع عامر ومِسمع ابنا عبد الملك، وخالد بن جبلة، وإبراهيم بن محمد بن نوح العطاردي، وغسان بن عبد الحميد، وعبد الله بن سلم الباهلي، ونفر من وجوه أهل البصرة كانوا يتجالسونَ يوم الجمعة ويتفاخرون ويتنازعون في الرياسة يوم خزاز؛ فقال خالد بن جبلة؛ كان الأحوص بن جعفر الرئيس. وقال عامر ومسمع: كان الرئيس كليب بن وائل. وقال بن نوح: كان الرئيس زرارة بن عدس. وهذا في مجلس أبي عمرو بن العلاء، فتحاكموا إلى أبي عمرو، فقال: ما شهدها عامر بن صعصعة، ولا دارم بن مالك، ولا جشم بن بكر؛ اليومُ أقدم من ذلك، ولقد سألت عنه منذ ستين سنة فما وجدت أحداً من القوم يعلم من رئيسهم ومَن الملك؛ غير أن أهل اليمن كان الرجل منهم يأتي ومعه كاتب وطنفسة [٤] يقعد عليها، فيأخذ من أموال نزار ما شاء، كعمال صدقاتهم اليوم. وكان أول يوم امتنعت معدٌّ عن الملوك ملوك حِمْير، وكانت نزار لم تكثر بعد، فأوقدوا ناراً على خزاز ثلاث ليال، ودخنوا ثلاثة أيام... فقيل له: وما خزاز؟ قال: هو جبل قريب من أمرة على يسار الطريق، خلفه صحراء مَنْعِج [٥]، يناوحه كور وكُوير [٦]، إذا قطعت بطن عاقل؛ ففي ذلك اليوم امتنعت نزار من أهل اليمن أن يأكلوهم، ولولا قول عمرو بن كلثوم ما عرف ذلك اليوم، حيث يقول:

---

(١) يحمي الأنف: أي لا يهرب. ويأنف من التأخر.
(٢) جفن السيف: غمده.
(٣) خزاز: موضع.
(٤) طنفسة: مخدة.
(٥) منعج: واد يدفع في بطن فلج.
(٦) كور وكوير: جبلان

ونحنُ غـداةَ أُوقِـدَ في خَـزاز رفـدْنـا فـوق رِفـد الرافـدينـا
فكنّـا الأيمنِين إذا التقينـا وكـان الأيسريـنَ بنـو أبينـا [1]
فصالـوا صـولـةً فيما يليهـم وصُلنـا صـولـةً فيمـن يلينـا
فـآبـوا بـالنهـابِ وبـالسَّبـايـا وأُبنـا بـالملـوكِ مصفَّـدينـا [2]

قال أبو عمرو بن العلاء: ولو كان جدُّه كليب بن وائل قائدهم ورئيسهم ما ادعى الرِّفادة وترك الرياسة، وما رأيت أحداً عرف هذا اليوم ولا ذكره في شعره قبله ولا بعده!

يوم المعا [3]

قال أبو عبيدة: أغار المنبطح الأسدي على بني عبّاد بن ضبيعة، فأخذ نعما لبني لحرب بن عباد، وهي ألف بعير؛ فمر ببني سعد بن مالك بن ضبيعة، وبني عجل بن لجيم؛ فتبعوه حتى انتزعوها منه، ورئيس بني سعدٍ حمران بن عبد عمرو، فأسر أفتل ابن حسان العجليُّ المنبطحَ الأسدي، ففداه قومه، ولا أدري كم كان فداؤه، واستنقذوا السبي، فقال حُجر بن خالد بن محمود في يوم المعا:

ومُنبطِـح الغـواضر قـد أذَقنـا بنـاعِجـةَ المِعا حَـرّ الجلادِ [4]
تنفَّـذنـا أخـاذيـذاً فـرُدّت على سكـنٍ وجمعِ بني عُبـاد

سكن: ابن باعث بن الحرث بن عباد؛ والأخائذ: من أُخذ من النساء. وقال حُمران بن عبد عمرو:

إن الفـوارسَ يـوم نـاعِجـة المعـا نعـمَ الفـوارسُ مـن بني سيـارِ
لم يُلهِهـم عقـدُ الأصـرّة خلفهـم وحنينُ مُنهلـةِ الضروعِ عشـارِ [5]

---

(١) الايمنون: المتقدمون. والأيسرون: المتأخرون.
(٢) مصفدين: مغلولين. وآب: عاد ورجع.
(٣) المعا: جانب من الصمان. (٤) الناعجة: الأرض المستوية السهلة.
(٥) الأصرة: جمع صرار: وهو ما تشد به أخلاف النوق.

لحِقوا على قبِّ الأياطلِ كالقنا ... شُعثٌ تعدُّ لكلِّ يومِ عوار[1]
حتى حبوْن أخا الغواضر طعنةً ... وفككن منه القِدّ بعد إسار
سالت عليه من الشِّعاب خوانفٌ ... وردَ الغُطاط تبلُّج الأسحار[2]

يوم النِّسار[3]

قال أبو عبيدة: حالفت أسد وطيء وغطفان، ولحقت بهم ضبة وعدي؛ فغزوا بني عامر فقتلوهم قتلاً شديداً؛ فغضبت بنو تميم لقتل عامر؛ فتجمعوا حتى لحقوا طيئاً وغطفان وحلفاءهم من بني ضبة وعدي يوم الجِفار[4]، فقتلت تميم طيئاً أشدّ مما قتلت عامر يوم النِّسار. فقال في ذلك بشر بن أبي خازم:

غضبت تميمٌ أن تُقتل عامرٌ ... يوم النِّسار فأعتبوا بالصَّيلمِ[5]

يوم ذات الشقوق[6]

فحلف ضمرة بن النهشلي. فقال: الخمر عليّ حرام حتى يكون له يوم يكافئه! فأغار عليهم ضمرة يوم ذات الشقوق فقتلهم، وقال في ذلك:

الآن ساغَ ليَ الشرابُ ولم أكن ... آتي التِّجار ولا أشدّ تَكلمي
حتى صبحتُ على الشُّقوق بغارةٍ ... كالتمر يُنثر في حرير الحُرّم
وأبأت يوما بالجِفار بمثلهِ ... وأجرتُ نصفاً من حديثِ الموسمِ
ومشت نساءٌ كالظباء عواطلا ... من بينِ عارفةِ السِّباء وأيِّمِ[7]

---

(١) قبّ: جمع أقب: وهو الضامر. والأياطل: جمع أيطل، وهو المنقطع الأضلاع من الحجة؛ وقيل: الخاصرة.

(٢) خوانف: جمع خانف. وهو الذي يميل رأسه الى الزمام، ويفعل ذلك من نشاطه. والغطاط: القطا.

(٣) النسار: جبال صغيرة، وقيل ماء لبني عامر بن صعصعة.

(٤) الجفار: ماء لبني تميم وتدّعيه ضبّة.

(٥) الصيلم: السيف. (٦) الشقوق: من مياه ضبّة بأرض اليمامة.

(٧) العواطل: جمع عاطل: وهي المرأة التي خلت من الحلى.

ذهب الرِّماحِ بزوجها فتركنَه في صدرِ مُعتدلِ القَناةِ مُقوّم

يوم خوّ[1]

قال أبو عبيدة: أغارت بنو أسد على بني يربوع فاكتسحوا إبلهم؛ فأتى الصريخ الحيّ، فلم يتلاحقوا إلا مساء بموضع يقال له خوّ، وكان ذؤاب بن ربيعة الأسدي على فرس أنثى، وكان عُتيبة بن الحارث بن شهاب على حصان؛ فجعل الحصان يستنشق ريح الأنثى في سواد الليل ويتبعها، فلم يعلم عتيبة إلا وقد أقحم فرسه على ذؤاب بن ربيعة الأسدي، وعتيبة غافل لا يبصر ما بين يديه في ظلمة الليل، وكان عتيبة قد لبس درعه وغفل عن جُربّانها[2] حتى أتى الصَّريخ فلم يشدّه، ورآه ذؤاب فأقبل بالرمح إلى ثغرة نحره فخر صريعاً قتيلاً؛ ولحق الربيع بن عتيبة فشد على ذؤاب فأسره وهو لا يعلم أنه قاتل أبيه، فكان عنده أسيراً حتى فاداه أبوه ربيعة بإبل معلومة قاطعه عليها، وتواعدا سوق عكاظ في الأشهر الحرم أن يأتي هذا بالإبل ويأتي هذا بالأسير؛ وأقبل أبو ذؤاب بالإبل، وشُغل الربيع بن عتيبة فلم يحضر سوق عكاظ، فلما رأى ذلك ربيعة أبو ذؤاب لم يشك أن ذؤابا قد قتلوه بأبيهم عتيبة، فرثاه وقال:

أَبلِغْ قبائِلَ جعفرٍ مخصُوصةً ما إنْ أُحاولُ جعفرَ بنِ كلابِ
إنَّ المودَّةَ والهوادَةَ بَيْنَنا حَلَقٌ كسَحْقِ الرَّيْطَةِ المنجابِ[3]
ولقد عَلمتُ على التَّجلُّدِ والأسَى أَنَّ الرَّزِيةَ كان يومَ ذؤابِ[4]
إنْ يَقتُلُوك فقدْ هَتكتَ بُيُوتِهِمْ بعُتَيْبةَ بنِ الحرثِ بن شِهابِ
بأحَبِّهم فقْداً إلى أعدائِهِ وأشدِّهم فقْداً على الأصحاب

فلما بلغهم الشعرُ قتلوا ذؤاب بن ربيعة.

---

(١) خوّ: واد لبني أسد. (٢) الجربّان: الجيب.

(٣) الريطة: الرائطة: الملاءة كلها نسج واحد وقطعة واحدة.

(٤) الرزية: المصيبة.

وقالت آمنة بنت عُتيبة ترثي أباها:

على مِثْل آبن مَيةَ فانعَياهُ   بِشقّ نواعِم البَشرِ الجُيُوبا
وكان أبي عُتَيْبة شمَّريّاً   فلا تَلقاهُ يَدَّخِرُ النَّصِيبا
ضَرُوبا للكمِيّ إذا آشمَعلّتْ   عوانُ الحرْبِ لا ورِعاً هَيُوبا[1]

أيام الفجار الأول

قال أبو عبيدة: أيام الفجار عدة، وهذا أولها؛ وهو بين كنانة وهوازن، وكان الذي هاجه أن بدر بن معشر أحد بني غِفار بن مُليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة ابن كنانة، جُعل له مجلس بسوق عكاظ، وكان حدثاً منيعاً في نفسه، فقام في المجلس وقام على رأسه قائم، وأنشأ يقول:

نحنُ بنُو مُدركَةَ بن خِندِفِ   مَن يطعنُوا في عيْنِه لم يَطرفِ
ومن يكُونُوا قوْمه يُغطرِفِ   كأنهمْ لُجَّةُ بحر مُسْدفِ[2]

قال: ومدَّ رِجْله وقال: أنا أعز العرب، فمن زعم أنه أعز مني فليضربها! فضربها الأحمير بن مازن أحد بني دهمان بن نصر بن معاوية، فأندرها[3] من الركبة، وقال:

خذها إليك أيها المخندف

قال أبو عبيدة: إنما خَرَصها[4] خُريصة يسيرة وقال في ذلك:

نحن بنُو دهْمانُ ذُو التَغَطرُفِ   بحرٌ لِبحْرٍ زاخرٍ لم ينزف
نَبني على الأحياءِ بالمعرّفِ

قال أبو عبيدة: فتحاور الحيان عند ذلك حتى كاد أن يكون بينهما الدماء؛ ثم تراجعوا ورأوا أن الخطب يسير.

---

(١) اشمعلت: تفرقت. (٢) مسدف: مظلم.
(٣) أندرها: اسقطها.
(٤) الخرصة: الشجة تشق الجلد قليلاً.

الفجار الثاني

كان الفجار الثاني بين قريش وهوازن، وكان الذي هاجه أن فتية من قريش قعدوا إلى امرأة من بني عامر بن صعصعة وضيئة[1] وحسانة بسوق عكاظ. وقالوا: بل طاف بها شباب من بني كنانة وعليها برقع وهي في درع[2] فضل، فأعجبهم ما رأوا من هيئتها، فسألوها أن تسفر عن وجهها فأبت عليهم، فأتى أحدُهم من خلفها فشد دُبُرَ دِرعِها بشوكة إلى ظهرها وهي لا تدري، فلما قامت تقلص الدرع عن دبرها، فضحكوا وقالوا: منعتنا النظرَ إلى وجهها فقد رأينا دبرها! فنادت المرأة يا آل عامر! فتحاور الناس، وكان بينهم قتال ودماء يسيرة، فحملها حرب بن أمية وأصلح بينهم.

الفجار الثالث

وهو بين كنانة وهوازن: وكان الذي هاجه أن رجلاً من بني كنانة كان عليه دين لرجل من بني نصر بن معاوية؛ فأعدم الكناني، فوافى النصري بسوق عكاظ بقرد فأوقفه في سوق عكاظ، وقال: من يبيعني مثل هذا بمالي على فلان! حتى أكثر من ذلك؛ وإنما فعل ذلك النصري تعييراً للكناني ولقومه؛ فمرّ به رجل من بني كنانة فضرب القرد بسيفه فقتله، فهتف النصري: يا آل هوازن! وهتف الكناني: يا آل كنانة! فتهايج الناس حتى كاد أن يكون بينهم قتال، ثم رأوا الخطب يسيراً فتراجعوا ولم يفقم الشر بينهم.

قال أبو عبيدة: فهذه الأيام تسمى فجاراً، لأنها كانت في الأشهر الحرم، وهي الشهور التي يحرّمونها ففجروا فيها، فلذلك سميت فجاراً وهذه يقال لها الفجار الأول.

---

(١) وضيئة: الحسنة الجميلة.

(٢) درع المرأة: القميص الذي يلي جسدها.

الفجار الآخر

وهو بين قريش وكنانة كلها وهوازن؛ وإنما هاجها البرَّاض بقتله عروة الرّحال ابن عتبة بن جعفر بن كلاب؛ فأبت أن تَقتل بعروة: البراض؛ لأن عروة سيد هوازن، والبراض خليع من بني كنانة؛ أرادوا أن يقتلوا به سيداً من قريش.

وهذه الحروب كانت قبل مبعث النبي ﷺ بست وعشرين سنة وقد شهدها النبي ﷺ وهو ابن أربع عشرة سنة مع أعمامه. وقال النبي عليه الصلاة والسلام: كنت أنبل على أعمامي يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة يعني أناولهم النبل.

وكان سبب هذه الحرب أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث [إلى] سوق عكاظ في كل عام لطيمة[1] في جوار رجل شريف من أشراف العرب، يجيرها له حتى تباع هناك ويشترى له بثمنها من أدَمِ الطائف ما يحتاج إليه، وكانت سوق عكاظ تقوم في أول يوم من ذي القعدة، فيتسوّقون إلى حضور الحج، ثم يحجون؛ وكانت الأشهر الحرم أربعة أشهر: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب؛ وعكاظ بين نخلة والطائف، وبينها وبين الطائف نحو من عشرة أميال؛ وكانت العرب تجتمع فيها للتجارة والتَّهيُّؤ للحج، من أول ذي القعدة إلى وقت الحج، ويأمن بعضها بعضاً؛ فجهز النعمان: عِيرَ اللطيمة، ثم قال: من يجيرها؟ فقال البراض بن قيس الضّمري: أنا أجيرها على بني كنانة. فقال النعمان ما أريد إلا رجلاً يجيرها على أهل نجد وتهامة. فقال عروة الرحّال، وهو يومئذ رجل هوازن: أَكلْبُ خليع يجيرها لك؟ أبَيتَ اللعن أنا أجيرها لك على أهل الشيح[2] والقيصوم[3] من أهل نجد وتهامة! فقال البراض: أعلَى بني كنانة تجيرها يا عروة؟ قال: وعلى الناس كلهم! فدفعها النعمان إلى عروة، فخرج بها وتبعه البراض، وعروة لا يخشى منه شيئاً، لأنه كان بين ظهرانَي

---

(١) اللطيمة: عير تحمل المسك والبزّ وغيرهما للتجارة. أو وعاء المسك.

(٢) الشيح: نبات يتخذ من بعضه المكانس

(٣) القيصوم: نبات طعمه مر ورائحته طيبة، وورقه هدب وله نورة صفراء وهي تنهض على ساق.

قومه من غطفان إلى جانب فَدَك[١]، وإلى أرض يقال لها أوارة[٢]؛ فنزل بها عروة فشرب من الخمر وغنته قينة، ثم قام فنام، فجاء البراض فدخل عليه، فناشده عروة وقال: كانت مني زلّة، وكان الفعلة مني ضلة! فقتله وخرج يرتجز ويقول:

قد كانتِ الفعْلة مني ضلّهْ هلاّ على غيري جعلتَ الزَّلّهْ

فسوف أعلو بالحُسام القُلّهْ[٣]

وقال:

وداهيَة يُهال الناسُ منها شدَدْت لها بني بكْرٍ ضُلوعي

هتكْتُ بها بيوتَ بني كِلاب وأرضعْتُ المواليَ بالضُّروع

جَمَعْت له يديَّ بنصْلِ سيْف أفَلّ فخرَّ كالجذعِ الصَّريعِ[٤]

واستاق اللطيمة إلى خيبر، واتبعه المساور بن مالك الغطفاني، وأسد بن خيثم الغنَوي، حتى دخل خيبر! فكان البراض أول من لقيهما، فقال لهما: من الرجلان؟ قالا: من غطفان وغنّي. قال البراض: ما شأن غطفان وغنّي بهذه البلدة؟ قالا: ومن أنت؟ قال: من أهل خيبر. قالا: ألك علم بالبراض؟ قال: دخل علينا طريداً خليعاً فلم يُؤوه أحدٌ بخيبر ولا أدخله بيتاً. قالا: فأين يكون؟ قال: وهل لكما به طاقة إن دللتكما عليه؟ قالا: نعم. قال: فانزلا! فنزلا وعقلا راحلتيهما. قال: فأيكما أجرأ عليه وأمضى مقدَما وأحدُّ سيفا؟ قال الغطفاني: أنا! قال البراض: فانطلق أدُلّك عليه، ويحفظ صاحبك راحلتيكما ففعل، فانطلق البراض يمشي بين يدي الغطفاني حتى انتهى إلى خربة في جانب خيبر خارجةٍ عن البيوت. فقال البراض: هو في هذه الخربة وإليها يأوي، فأنظِرْني حتى أنظر أثَمّ هو أم لا. فوقف له ودخل البراض، ثم خرج إليه وقال: هو نائم في البيت الأقصى خلف هذا الجدار، عن يمينك إذا دخلت،

---

(١) فدك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان.

(٢) أوارة: موضع في بلاد بني تميم.

(٣) القلة: قلة كل شيء: قمته وأعلاه.

(٤) السيف الأفل: أي في حده كسور من كثرْب الضرب به.

فهل عندك سيف فيه صرامة؟ قال: نعم. قال: هات سيفك أنظر إليه أصارمٌ هو؟ فأعطاه إياه، فهزه البراض ثم ضربه به حتى قتله، ووضع السيف خلف الباب؛ وأقبل على الغنوي، فقال: ما وراءك؟ قال: لم أر أجبَنَ من صاحبك، تركته قائماً في الباب الذي فيه الرجل، والرجل نائم، لا يتقدم إليه ولا يتأخر عنه! قال الغنوي: يا لهفاه! لو كان أحد ينظر راحلتينا! قال البراض: هما عليّ إن ذهبتا، فانطلق الغنوي. والبراض خلفه، حتى إذا جاوز الغنوي باب الخربة أخذ البراض السيف من خلف الباب ثم ضربه به حتى قتله؛ وأخذ سلاحيهما وراحلتيهما ثم انطلق.

وبلغ قريشاً خبر البراض بسوق عكاظ، فخلصوا نجيا، واتبعتهم قيس لما بلغهم أن البراض قتل عروة الرّحال، وعَلُم قيس أبو براء عامر بن مالك، فأدركوهم وقد دخلوا الحرم؛ ونادوهم: يا معشر قريش، إنا نعاهد الله أن لا نبطل دم عروة الرحال أبداً ونقتل به عظيماً منكم، وميعادنا وإياكم هذه الليالي من العام المقبل؛ فقال حرب بن أمية لأبي سفيان ابنه: قل لهم إن موعدكم قابل في هذا اليوم. فقال خداش بن زهير في هذا اليوم، وهو يوم نخلة:

يا شَدّةً ما شَدَدْنا غير كاذبةٍ ... على سَخِينةَ لولا البيت والحُرَمُ
لما رأوْا خيْلَنا تُزجِي أوائلَها ... آسادُ غِيلٍ حَمى أشبالها الأجَمُ(١)
واستُقْبلوا بضرابٍ لا كِفاءَ له ... يُبْدي من الغُزُل الأكفال ما كتَموا(٢)
ولّوْا شلالاً وعظْم الخيْل لا حقَة ... كما تخُبُّ إلى أوطانِها النعم(٣)
ولت بهم كل مِحْضارٍ مُلملمة ... كأنها لِقْوَةٌ بجنبها ضَرم(٤)

وكانت العرب تسمي قريشاً سخينة لأكلها السخن.

---

(١) الأجم: جمع الأجمة: وهي الشجر الكثير الملتف.

(٢) الغزل: جمع أغزل أو غزلاء: أي المسترخي.

(٣) الشلال: القوم المتفرقون.

(٤) ململمة: أي صلبة. واللقوة: العقاب الخفيفة السريعة الاختطاف.

يوم شَمطة[1]

وهي من يوم الفجار الآخر، ويوم نخلة منه أيضاً؛ قال: فجمعت كنانة قريشها وعبد مناتها والأحابيش[2] ومن لحق بهم من بني أسد بن خزيمة، وسلّح يومئذ عبد الله ابن جدعان مائة كميٍّ[3] بأداة كاملة، سوى من سلح من قومه والأحابيش بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة. قال: وجمعت سليم وهوازن جموعها وأحلافها ـ غير كلاب وبني كعب، فإنهما لم يشهدا يوماً من أيام الفجار غير يوم نخلة ـ فاجتمعوا بشَمْطة من عكاظ في الأيام التي تواعدوا فيها على قرن الحول، وعلى كل قبيلة من قريش وكنانة سيدُها. وكذلك على قبائل قيس، غير أن أمر كنانة كلها إلى حرب ابن أمية، وعلى إحدى مجنبتيها عبد الله بن جدعان، وعلى الأخرى كريز بن ربيعة. وحرب بن أمية في القلب، وأمر هوازن كلها إلى مسعود بن معتب الثقفي. فتناهض الناس وزحف بعضهم إلى بعض. فكانت الدائرة في أول النهار لكنانة على هوازن، حتى إذا كان آخر النهار تداعت هوازن وصابرت، وانقشعت كنانة فاستحر القتل فيهم؛ فقتل منهم تحت رايتهم مائة رجل، وقيل ثمانون، ولم يُقتل من قريش يومئذ أحدٌ يُذكر؛ فكان يوم شمطة لهوازن على كنانة.

يوم العَبْلاء[4]

ثم جمع هؤلاء وأولئك، فالتقوا على قرن الحول في اليوم الثالث من أيام عكاظ، والرؤساء على هؤلاء وأولئك الذين ذكرنا في يوم شمطة، وكذلك على المجنبتين؛ فكان هذا اليوم أيضاً لهوازن على كنانة؛ وفي ذلك يقول خداش بن زهير:

---

(١) شمطة: موضع قريب من عكاظ

(٢) الأحابيش: وسموا كذلك لأنهم تحالفوا بالله أنهم يد على غيرهم ما سجا ليل أو وضح نهار أو ما رسا جيش،

(٣) الكميّ: الفارس.

(٤) العبلاء: علم على صخرة بيضاء، جانب عكاظ

أَلم يبْلغـك مـا لقيَـتْ قـريشٌ وحيٌّ بني كنـانـة إذ أُبيروا[١]
دَهَمْنـاهـم بـأرْعَـن مُكْفَهِـرٍّ فظـلَّ لنـا بعَقْـوتِهـم زئير[٢]

وفي هذا اليوم قُتل العوّام بن خويلد، والد الزبير بن العوّام، قتله مرة بن معتب الثقفي؛ فقال رجل من ثقيف:

منّـا الذي تـركَ العـوّام مُنْجـدِلاً تنْتـابُـه الطيرُ لحماً بينَ أحجـارِ[٣]

يوم شرِبَ[٤]

ثم جمع هؤلاء وأولئك؛ فالتقوا على قرن الحول في اليوم الثالث من أيام عكاظ؛ فالتقوا بشرب، ولم يكن بينهم يوم أعظمُ منه، والرؤساء على هؤلاء وأولئك الذين ذكرنا، وكذلك على المجنبتين؛ وحَمل ابن جدعان يومئذ مائة رجل على مائة بعير، ممن لم تكن له حمولة؛ فالتقوا وقد كان لهوازن على كنانة يومان متواليان: يوم شمطة، ويوم العبلاء؛ فحميت قريش وكنانة؛ وصابرت بنو مخزوم وبنو بكر فانهزمت هوازن وقُتلت قتلاً ذريعاً؛ وقال عبد الله بن الزبعرى يمدح بني المغيرة:

أَلا للهِ قـــــــومٌ وَ لـدتْ أُخـتُ بني سهـم
هِشـــامٌ وأبـــو عبـــدِ منـافٍ مِـدْرهُ الخصْـم[٥]
فهٰــــذانِ يَـــــذودانِ وذا مـن كثَـبٍ يَـرْمِـي[٦]

وأبو عبد مناف: قصي، وهشامٌ. آبنُ المغيرة، وذو الرمحين: أبو ربيعة بن المغيرة، قاتل يوم شرب برمحين، وأمهم رَيطة بنت سعد بنْ سهم.

---

(١) أبيروا: أهلكوا

(٢) الأرعن: أنف الجبل. يشبه به الجيش. والمكفهر: المسود لركوب بعضه بعضا. والعقوة: الساحة والمحلة.

(٣) تنتابه: تزوره. (٤) شرب: موضع قرب مكة.

(٥) المدره: السيد الشريف، أو الزعيم.

(٦) من كثب: من قرب.

فقال في ذلك جذل الطعان:

جاءَت هوازِن أرسالاً وإخوتُها ... بنو سُليمٍ، فهابوا الموتَ وانصرَفوا
فاستُقبلوا بضِرابٍ فَضّ جمعَهُمُ ... مثلِ الحريقِ فما عاجوا ولا عطَفوا (١)

يوم الحُريرة (٢)

قال: ثم جمع هؤلاء وأولئك ثم التقوا على رأس الحول بالحُريْرة، وهي حرّة إلى جنب عكاظ، والرؤساء على هؤلاء وأولئك هم الذين كانوا في سائر الأيام، وكذلك على المجنبتين، إلا أن أبا مساحق بلعاء بن قيس اليعمري قد كان مات، فكان من بعده على بكر بن عبد مناة بن كنانة، وأخوه جثامة بن قيس؛ فكان يوم الحريرة لهوازن على كنانة، وكان آخرَ الأيام الخمسة التي تزاحفوا فيها، قال: فقتل يومئذ أبو سفيان بن أمية أخو حرب بن أمية، وقُتل من كنانة ثمانية نفر، قتلهم عثمان بن أُسيد بن مالك، من بني عامر بن صعصعة، وقُتل أبو كنف وابنا إياس، وعمر بن أيوب؛ فقال خِداش بن زهير:

إني مِنَ النَّفَرِ المُحمَرِّ أعيُنُهُمْ ... أهلِ السوامِ وأهلِ الصخْرِواللّوبِ (٣)
الطاعنينَ نحورَ الخيْلِ مُقْبِلةً ... بكلِّ سَمراءَ لم تُعلب ومعلوبِ (٤)
وقد بلَوتم فأبلَوْكم بلاءَهم ... يومَ الحُريرةِ ضرباً غيرَ مكذوبِ (٥)
لاقتْكمُ مِنهُمُ آسادُ مَلْحمةٍ ... ليْسوا بزارعةٍ عُوجِ العراقيبِ (٦)
فالآن إن تُقبِلوا نأخذْ نُحورَكم ... وإن تُباهوا فإني غيرُ مغلوبِ (٧)

وقال الحارث بن كلَدة الثقفي:

---

(١) عاج: مال، أقام، انحرف.

(٢) الحريرة: موضع بين الأبواء ومكة، قرب نخلة.

(٣) اللوب: الحرات، الوحدة لوبة.

(٤) سمراء: أي قناة. ومعلوب: أي رمح (٥) البلاء: المحنة.

(٦) العراقيب: جمع عرقوب: وهو وتر غليظ فوق عقب الانسان

(٧) النحر: أعلى الصدر.

تـركـتُ الفـارسَ البـذّاخ منهـم ... تَمـجُّ عـروقُـه علقـاً عبيطَـا[1]
دعَسْـتُ لَبـانَـهُ بـالـرُّمـحِ حتى ... سمِعْـتُ لِمَتْنـهِ فيـه أطِيطـا[2]
لقد أردَيْتَ قومَك يـا ابن صَخْـرٍ ... وقـد جشَّمْتَهـم أمْـراً سليطـا
وكم أسلمـتُ منكـم مـن كَمِـيّ ... جريحاً قد سمِعْـتُ لـه غطِيطـا[3]

مضت أيام الفجار الآخِر، وهي خمسة أيام في أربع سنين؛ أولها يوم نخلة، ولم يكن لواحد منهما على صاحبه؛ ثم يوم شمطة لهوازن على كنانة، وهو أعظم أيامهم؛ ثم يوم العبلاء، ثم يوم شرب، وكان لكنانة على هوازن؛ ثم يوم الحريرة لهوازن على كنانة.

قال أبو عبيدة: ثم تداعى الناس إلى السلم على أن يذروا الفضل ويتعاهدوا ويتواثقوا.

يوم عين أباغ

وبعده أيام ذي قار

قال أبو عبيدة: كان ملك العرب المنذر الأكبر ابن ماء السماء، ثم مات فملك ابنه عمرو بن المنذر، وأمه هند وإليها ينسب؛ ثم هلك فملك أخوه قابوس، وأمه هند أيضاً، فكان ملكُه أربع سنين، وذلك في مملكة كسرى بن هرمز؛ ثم مات فملك بعده أخوه المنذر بن المنذر بن ماء السماء، وذلك في مملكة كسرى بن هرمز؛ فغزاه الحارث الغساني، وكان بالشام من تحت يد قيصر، فالتقوا بعين أباغ، فقُتل المنـذر، فطلب كسرى رجلاً يجعله مكانه، فأشار إليه عدي بن زيد ـ وكان من تراجمة كسرى ـ بالنعمان بن المنذر، وكان صديقاً له فأحب أن ينفعه، وهو أصغر بني المنذر بن المنذر بن ماء السماء، فولاه كسرى على ما كان عليه أبوه، وأتاه عدي بن

(١) علق عبيط: دم عبيط، أي طريّ.
(٢) دعست: طعنت. (٣) الكمي: الفارس.

زيد فمكّنه النعمام، ثم سُعي بينهما فحبسه حتى أتى على نفسه، وهو القائل:

أبلِــغِ النُّعمان عني مــألُكــا ... أنهُ قد طال حَبْسي وانتظـاري

لــو بغْيـر الماءِ حَلقِــي شرِق ... كنت كالغصَّان بالماءِ اعْتِصـاري[1]

وعُـداتِــي شُمَّــتٌ أعجبَهُـــمْ ... أنّني غُيِّبـت عنهـم في إسـاري

لأمـرِيءِ لم يبْـلُ مني سقْطَــة ... إن أصابتْهُ مُلِمَّـاتُ العِثـار[2]

فلئِــن دهْــرٌ تــوَلى خيْـــرُه ... وجرَتْ بالنَّحْسِ لي منه الجواري

لبِمَـا مِنـه قضيْنــا حــاجــة ... وحياةُ المرْءِ كـالشَّـيءِ المُعـارِ

فلما قَتل النعمان عديَّ بن زيد العبادي ـ وهو من بني امريء القيس بن سعد بن زيد مناة بن تميم ـ سار ابنه زيد بن عدي إلى كسرى فكان من تراجمته وكان النعمان عند كسرى، فحمله عليه، فهرب النعمان حتى لحق ببني رواحة من عبس، واستعمـل كسرى على العرب إياسَ بن قبيصة الطائي؛ ثم إن النعمان تجول حيناً في أحياء العرب، ثم أشارت عليه امرأته المتجردةُ أن يأتي كسرى ويعتذر إليه، ففعل، فحبسه بساباط[3] حتى هلك، ويقال أوطأه الفِيَلة.

وكان النعمان إذا شخص إلى كسرى أودع حلقته وهي ثمانمائة درع وسلاحاً كثيراً، هانيءَ بن مسعود الشيباني؛ وجعل عنده ابنتَه هند التي تسمى حُرَقة؛ فلما قُتل النعمان قالت فيه الشعراء؛ فقال فيه زهير بن أبي سلمى المزنيّ:

ألم تَــر للنُّعمانِ كــان بنجْـوَةٍ ... مِنَ الشرِّ لو أنّ آمرءًا كان باقيـا[4]

فلم أرَ مخذولاً لــه مثــلُ مُلْكــهِ ... أقـلَّ صـديقـاً أو خليلاً مُـوافيـا

خلاَ أنّ حيّاً من رواحةَ حـافظـوا ... وكانوا أُناساً يتَّقـونَ المخـزِيـا[5]

فقـالَ لهم خيْـراً وأثنَــى عليهـمُ ... وودّعهُـم تـوْديـعَ أن لا تلاقِنـا

(١) شرق: غصّ.
(٢) العِثار: الشرّ.
(٣) ساباط: بالمدائن.
(٤) النجوة: الارتفاع عن الأرض.
(٥) رواحة: من عبس

يوم ذي قار

قال أبو عبيدة: يوم ذي قار هو يوم ذي الحِنْو، ويوم قراقر، ويوم الجبايات، ويوم ذات العُجرُم، ويوم بطحاء ذي قار؛ وكلهن حول ذي قار؛ وقد ذكرتهن الشعراء.

قال أبو عبيدة: لم يكن هانيء بن مسعود المستودع حلقة النعمان، وإنما هو ابن ابنه، واسمه هانيء بن قبيصة بن هانيء بن مسعود؛ لأن وقعة ذي قار كانت وقد بُعث النبيُّ ﷺ، وخبَّر أصحابه بها فقال: اليوم أولُ يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبي نصروا.

فكتب كسرى إلى إياس بن قبيصة يأمره أن يضم ما كان للنعمان؛ فأبى هانيء بن قبيصة أن يسلم ذلك إليه، فغضب كسرى وأراد استئصال بكر بن وائل.

وقدم عليه النعمان بن زرعة التغلبي وقد طمع في هلاك بكر بن وائل، فقال: يا خير الملوك، ألا أدلك على غِرة[1] بكر؟ قال: بلى. قال: أقرِها وأظهر الإضراب عنها حتى يُجليها القيظ ويدنيها منك؛ فإنهم لو قاظوا[2] تساقطوا عليك بماءهم واديا يقال له ذو قار تَسَاقُطَ الفراش في النار، فأقرهم، حتى إذا قاظوا جاءت بكر بن وائل حتى نزلوا الحنو حِنو ذي قار، فأرسل إليهم كسرى النعمان بن زرعة يخيِّرهم بين ثلاث خصال: إمّا أن يُسلموا الحلقة، وإمّا أن يُعروا الديار، وإما أن يأذنوا بحرب! فتنازعت بكر بينها، فهمَّ هانيء بن قبيصة بركوب الفلاة، وأشار به على بكر، وقال: لا طاقة لكم بجموع الملك! فلم تُرَ من هانيء سقطة قبلها.

وقال حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي: لا أرى غيرَ القتال، فإنَّا إن ركبنا الفلاة متنا عطشاً، وإن أعطينا بأدينا تُقتل مقاتلتُنا وتُسبى ذرارينا[3]. فراسلت بكر بينها

---

(١) الغِرّة: الغفلة في اليقظة.

(٢) قاظ بالمكان: أقام به أيام الحرّ. (٣) الذراري: يريد نساؤنا.

وتوافت بذي قار، ولم يشهدها أحد من بني حنيفة؛ ورؤساءُ بني بكر يومئذ ثلاثة نفر: هانيء بن قبيصة، ويزيد بن مسهر الشيباني، وحنظلة بن ثعلبة العجلي.

وقال مسمع بن عبد الملك العجلي بن لُجيم بن صَعب بن علي بن بكر بن وائل: لا والله ما كان لهم رئيس، وإنما غزوا في ديارهم فثار الناس إليهم من بيوتهم.

وقال حنظلة بن ثعلبة لهانيء بن قبيصة: يا أبا أمامة، إنّ ذمّتكم ذمّتنا عامّة، وإنه لن يُوصَل إليك حتى تفنى أرواحُنا؛ فأخرِج هذه الحلقة ففرّقها في قومك، فإن تظفر فستُردّ عليك، وإن تهلك فأهوَن مفقود. فأمر بها فأُخرجت وفرِّقت بينهم. وقال للنعمان: لولا أنك رسول ما أُبْتَ[1] إلى قومك سالماً!

قال أبو المنذر: فعقد كسرى للنعمان بن زرعة على تغلب والنمر، وعقد لخالد بن يزيد البهراني على قضاعة وإياد، وعقد لإياس بن قبيصة على جميع العرب، ومعه كتيبتاه الشهباء والدوسر؛ وعقد للهامرز التستري ـ وكان على مسلحة كسري بالسواد ـ على ألف من الأساورة، وكتب إلى قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ذي الجدّين ـ وكان عامله على الطَّفِّ[2] طفَّ سفوان ـ وأمره أن يوافي إياس بن قبيصة، ففعل.

وسار إياس بمن معه من جنده من طيء، ومعه الهامرز، والنعمان بن زرعة وخالد ابن يزيد، وقيس بن مسعود، كل واحد منهم على قومه؛ فلما دنا من بكر انسلَّ قيس إلى قومه ليلاً، فأتى هانئاً فأشار عليهم كيف يصنعون، وأمرهم بالصبر ثم رجع.

فلما التقى الزحفان وتقارب القوم، قام حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي، فقال: يا معشر بكر، إنّ النُّشّاب[3] الذي مع هؤلاء الأعاجم تفرّقكم؛ فعاجلوهم اللقاء وابدءوهم بالشدّة.

وقال هانيء بن مسعود: يا قوم مهلك مقدور، خير من منجى مغرور؛ إنّ الجزع

---

(١) أُبْتَ: عُدتَ. (٢) الطفّ: ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق.

(٣) النشّاب: النبل، واحدته نشّابة.

لا يردّ القَدَر، وإنّ الصبر من أسباب الظفر. المنيَّة خير من الدَّنية، واستقبال الموت خير من استدباره، فالجدّ الجِدّ، فما من الموت بدّ.

ثم قام حنظلة بن ثعلبة فقطع وُضُنَ[1] النساء فسقطن إلى الأرض، وقال: لِيقاتلْ كل رجل منكـم عن حليلته[2]. فسُمي مقطع الوضن.

قال: وقطع يومئذ سبعُمائة رجل من بني شيبان أيديَ أقبيتهم من مناكبها لتخف أيديهم لضرب السيوف، وعلى ميمنتهم بكر يزيد بن مسهر الشيباني، وعلى ميسرتهم حنظلة بن ثعلبة العجلي وهانيء بن قبيصة، ويقال ابن مسعود في القلب؛ فتجالد القوم، وقتل يزيد بن حارثة اليشكري الهامرزَ مبارزةً، ثم قُتل يزيد بعد ذلك؛ ويقال إنّ الحوافزان بن شريك شدّ على الهامرز فقتله؛ وقال بعضهم: لم يدرك الحوفزان يوم ذي قار، وإنما قتله يزيد بن حارثة.

وضرب الله وجوهَ الفرْس فانهزموا، فاتَّبعهم بكر حتى دخلوا السواد في طلبهم يقتلونهم؛ وأُسر النعمان بن زرعة التغلبي.

ونجا إياس بن قبيصة على فرسه الحمامة؛ فكان أولَ من انصرف إلى كسرى بالهزيمة إياسُ بن قبيصة وكان كسرى لا يأتيه أحدٌ بهزيمة جيش إلا نزع كتفيه، فلما أتاه ابنُ قبيصة، سأله عن الجيش، فقال: هَزمنا بكرَ بن وائل وأتيناك ببناتِهم! فعجب بذلك كسرى وأمر له بكسوة؛ ثم استأذنه إياس فقال: أخي قيس بن قبيصة مريض بعين التمر، فأردت أن آتِيه. فأذن له.

ثم أتى كسرى رجلٌ من أهل الحيرة وهو بالخورنق، فسأل: هل دخل على الملك أحد؟ فقالوا: إياس. فظنّ أنه حدّثه الخبر، فدخل عليه وأخبره بهزيمة القوم وقتْلهم، فأمر به فنُزعت كتفاه.

---

(١) وُضُن: جمع وضين، وهو الحزام يشد به الرحل على البعير.

(٢) الحليلة: الزوجة.

قال أبو عبيدة: لما كان يوم ذي قار، كان في بكر أسرى من تميم قريباً من مائتي أسير، أكثرهم من بني رياح بن يربوع، فقالوا: خلّوا عنا نقاتل معكم، فإنما نذب[١] عن أنفسنا! فقالوا: إنا نخاف أن لا تُناصحونا! قالوا: فدعونا نعلم حتى تَروْا مكاننا وغَناءنا.

وفي ذلك قول جرير:

منَّا فوارسُ ذي بَهْدَى وذي نَجَبٍ   والمُعْلَمونَ صباحاً يومَ ذي قارِ[٢]

قال أبو عبيدة: سئل عمرو بن العلاء ـ وتنافر إليه عجلي ويشكري، فزعم العجلي أنه لم يشهد يومَ ذي قار غيرُ شيباني وعجلي، وقال اليشكري: بل شهدتْها قبائلُ بكر وحلفاؤهم.

فقال عمرو: قد فصل بينكما التغلبي حيث يقول:

ولقد رأيتُ أخاك عمْراً أَمْرةً   يقضِي وضِيعَيْه بذات العُجْرُم[٣]
في غَمْرةِ الموتِ التي لا تشتكِي   غَمَراتِها الأبطالُ غير تَغمْغُم
وكأنما أقدامُهم وأكفهم   سِربٌ تَساقَطَ في خليجٍ مُفْعَم
لَمّا سمعتُ دعاءَ مُرَّةَ قد علا   وأتى ربيعة في العَجاجِ الأقتَم[٤]
ومُحلّمٌ يمشون تحت لوائِهم   والموتُ تحت لواءِ آل مُحلّم
لا يَصدِفونَ عن الوغَى بوجوههم   في كلِّ سابغةٍ كلوْن العِظْلَم[٥]
ودعَتْ بنو أُمِّ الرِّقاعِ فأقبلوا   عند اللِّقاءِ بكلِّ شاك مُعْلَم
وسمعتُ يَشكرَ تدّعي بخبَيِّبٍ   تحت العَجاجة وهي تَقْطر بالدم[٦]

(١) نذبّ: ندافع.

(٢) ذو بهدى: قرية ذات نخل باليمامة. وذو نجب: موضع كانت فيه وقعة لبني تميم على بني عامر.

(٣) الأمرة: المرة الواحدة من الأمر. والعجرم: موضع بعينه ويضاف اليه ذو

(٤) العجاج: الغبار.

(٥) العظلم: عصارة شجر لونه كالنيل أخضر الى الكدرة.

(٦) الخبيب: بطن الوادي، والحفرة المستطيلة

يَمشون في حِلَقِ الحديد كما مشتْ أُسْدُ العَريـن بيـوْم نَحسٍ مُظلم[١]
والجمعُ من ذهَـل كـأن زُهـاءَهـم جرْبُ الجِمال يقودُهـا آبنـا قَشْعَـم
والخيلُ من تحت العجاجِ عَـوابسـاً وعلى سنابكها منـاسـجُ مـن دَم[٢]

وقال العديل بن الفرخ العجلي:
ما أوْقَد الناسُ مـن نـار لمكـرُمـة إلا آصطلَيْنا وكنا مُـوقِـدي النـارِ
وما يَعُدّون مـن يـوم سمعْـت بـه للناس أفضلَ من يـوم بـذي قـار
جئنا بـأسلابِهـم والخيـلُ عـابسـةٌ لَمّا آستَلبْنا لكِسْرَى كلَّ إسْـوار[٣]

قال: وقالت عجل: لنا يوم ذي قار. فقيل لهم: من المستودع، ومن المطلوب، ومن نائب الملك، ومن الرئيس؟ فهو إذاً لهم، كانت الرياسة لهانيء وكان حنظلة يشير بالرأي.

وقال شاعرهم:
إن كنتِ ساقيةً يـومـاً ذوي كـرَم فاسقي الفوارسَ من ذهْلِ بن شيْبانا
وآسقي فوارسَ حامَوْا عن ذِمارِهـمُ وآعْلي مَفارِقهم مِسْكـا وريْحـانـا

وقال أعشى بكر:
أمّـا تَميمُ فقـد ذاقـتْ عـداوتَنـا وقيسُ عيْلانَ مَسَّ الخِزْيُ والأسَفُ
وجُنْدُ كسْرَى غداةَ الحِنْو صبَّحهـم مناغَطاريفُتُزْجِيالموتَوآنصرَفوا[٤]
لقـوا مُلَمْلَمَـةً شهباءَ يَقْـدُمُهـا للموْتِ لا عاجزٌ فيها ولا خَرِف[٥]
فـرْعٌ نَمتْـه فـروعٌ غيرُ نـاقصـةٍ مُـوَفَّـقٌ حـازمٌ في أمـره أنـف
فيهـا فـوارسُ محمودٌ لقـاؤهـمُ مثْـلُ الأسنَّـة لا مِيـلٌ ولا كشُـف

(١) العرين: مأوى الأسد والضبع والذئب
(٢) سنابك: جمع سنبك وهو طرف الحافر.
(٣) الاسوار: الفارس المقاتل من فرسان الفرس.
(٤) غطاريف: جمع غطريف: وهو السيد الكريم.
(٥) ململمة: صلبة.

بِيضُ الوجوه غَداةَ الروْعِ تَحسَبُهم جِنانَ عَبْس عليها البِيضُ والزَّغَفُ[١]
لمّا التقينا كشفْنا عن جَماجمنا ليَعلَموا أننا بَكْرٌ فينصَرفوا
قالوا البقيَّة والهِنْدِيُّ يحصدُهُم ولا بقيةَ إلا السيفُ فانكشَفوا
لو أنّ كلّ معدٍّ كان شاركَنا في يوم ذي قارٍ ما أخطاهم الشرف
لما أمالوا إلى النشَّابِ أيدِيَهُمْ ملنا ببيضٍ فظلَّ الهامُ يُختَطفُ[٢]
إذا عطفنا عليهم عطْفة صبَرَتْ حتى تولت وكادَ اليومَ ينتصِف
بطارقٌ وبنو ملْك مرازِبة من الأعاجِم في آذانِها النّطف[٣]
من كلِّ مَرْجانةٍ في البحرِ أحرزَها تيّارُها ووقاها طِينها الصدَف
كأنما الآلُ في حافاتِ جمعِهمُ والبِيضُ برقٌ بدا في عارض يكِف[٤]
ما في الخدودِ صُدودٌ عن سُيوفهمُ ولا عنِ الطَّعنِ في اللبَّاتِ منحرَف

وقال الأعشى يلوم قيس بن مسعود:

أقيسَ بن مسعودِ بن قيس بن خالدٍ وأنت امرُؤٌ ترجو شبابكَ وائلُ
أطوْرين في عامٍ غزاةً ورحْلةً ألا ليت قيساً غرقته القوابل[٥]
لقد كان في شيْبانَ لو كنت عالماً قبابُ وحيّ حلة وقنابل
ورجْراجة تُعشي النواظرَ فحمةٌ وجُردٌ على أكتافهنّ آلرَّواحل[٦]
رحلتَ ولم تنظر وأنت عميدُهُم فلا يبلُغنّي عنك ما أنت فاعل
فعرِّيت من أهلٍ ومالٍ جمعْتَهُ كما عرِيتْ مما تُمرُّ المغازل
شفى النفس قتلى لم توسّد خُدُودُها وساداً ولم تُعْضَضْ عليها الأنامل
بعينيك يوم الحنْوِ إذ صبَّحتهم كتائبُ موتٍ، لم تعُقْها العواذل

(١) الزّغف: الدرع الواسعة الطويلة.
(٢) البيض: السيوف. (٣) النطف: جمع نطفة وهي القرط.
(٤) الآل: آل الرجل: أهله وعياله.
(٥) يقال للصبي اذا مات في بطن أمه: غرقته القوابل.
(٦) الرجراجة: يريد كتيبة رجراجة، التي لا تكاد تسير لكثرتها.

ولما بلغ كسرى خبر قيس بن مسعود إذ انسل إلى قومه، حبَسه حتى مات في حبسه؛ وفيه يقول الأعشى:

وعرِّيت من أهلٍ ومالٍ جمعْته ... كما عريَتْ مما تمرُّ المغازلُ

وكتب لقيط الإيادي إلى بني شيبان في يوم ذي قار شعراً يقول في بعضه:

قوموا قياماً على أمشاطِ أرجُلكم ... ثم آفزعوا قد ينالُ الأمنَ من فزعا
وقلِّدوا أمركم للهِ درُّكم ... رحْبَ الذِّراعِ بأمرِ الحربِ مضطلعا
لا مُترفاً إن رخاءُ العيشِ ساعدهُ ... ولا إذا عضَّ مكروهٌ به خشعا
ما زال يحلِبُ هذا الدهرَ أشطرهُ ... يكون مُتَّبعاً طوْراً ومتبَعا
حتى آستمرّ على شزْرٍ مريرتُه ... مُستحكم الرأي لا قحْماً ولا ضرِعا (1)

وهذه الأبيات نظير قول عبد العزيز بن زرارة:

قد عشتُ في الدهرِ أطواراً على طُرق ... شتَّى فصادفتُ منه اللينَ والفظعا
كلاًّ بلوتُ فلا النعماءُ تبْطرني ... ولا تخشَّعْتُ من لأوائه جزعا (2)
لا يملأُ الأمر صدْري قبل موْقعه ... ولا أضيق به ذرعاً إذا وقعا

★★★

(1) الشزر: الغضب والاستهانة.

(2) اللأواء: ضيق المعيشة أو شدة المرض.

كتاب الزُمُرّدة في المواعظ والزهد

فرش كتاب الزمردة الثانية في فضائل الشعر

قال الفقيه أبو عمر بن محمد بن عبد ربه رحمه الله:

قد مضى قولنا في أيام العرب ووقائعها وأخبارها، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه؛ إذ كان الشعر ديوان خاصة العرب والمنظوم من كلامها، والمقيِّد لأيامها، والشاهد على حُكامها؛ حتى لقد بلغ من كلَف[1] العرب به، وتفضيلها له، أن عمدت إلى سبع قصائد تَخيَّرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطِيّ المدرجة، وعلقتها بين أستار الكعبة؛ فمنه يقال: مذهبة امريء القيس، ومذهبة زهير. والمذهبات سبع، وقد يقال لها المعلقات.

قال بعض المحدثين قصيدةً له، ويشبهها بعض هذه القصائد التي ذكرت.

بـرْزَة تـذكَـرُ في الحسْـ ـنِ من الشِّعـرِ المعَلّـقْ[2]
كـلُّ حـرف نـادرٍ مـ ـنها لـه وجـهٌ مُعشّـق

المعلقات

لامريء القيس: قفانبْكِ من ذكْرى حبيبٍ ومنزلِ.
ولزهير: أمن أُمِّ أوفى دِمنةٌ لم تكلّم.

---

(١) الكلف بالشيء: شدة التعلق به.
(٢) برزة: أي بارزة الحسن.

ولطرفة: لخَوْلةَ أطلالٌ ببُرقةِ ثَهْمَدِ.

ولعنترة: يا دارَ عبْلةَ بالجواءِ تكلَّمي.

ولعمرو بن كلثوم: ألا هُبى بصحْنِكِ فاصبحِينا.

وللبيد: عفَتِ الديارُ محلُّها فمُقامُها.

وللحارث بن حلزة: آذنتنا ببَيْنِها أسماءُ.

اختلاف الناس في أشعر الشعراء

قال النبي ﷺ وذكر عنده امرؤ القيس بن حُجر: «هو قائدُ الشعراء وصاحب لوائهم».

وقال عمر بن الخطاب للوفد الذين قدموا عليه من غطفان: مَن الذي يقول:

حلفتُ فلم أتـرُكْ لنفسِـكَ ريبـةً ... وليس وراءَ اللهِ للمرءِ مذهـبُ[(١)]

قالوا: نابغة بني ذبيان: قال لهم: فمن الذي يقول هذا الشعر:

أتيتُـك عـاريـاً خلقـا ثِيـابي ... على وجـلٍ تُظـن بيَ الظنـونُ[(٢)]

فـألفيـت الأمـانـةَ لم تخنْهـا ... كـذلـك كـان نـوحٌ لا يخون

قالوا: هو النابغة. قال هو أشعر شعرائكـم. وما أحسب عمر ذهب إلا إلى أنه أشعر شعراء غطفان، ويدل على ذلك قوله: هو أشعر شعرائكـم.

وقد قال عمر لابن عباس: أنشدني لأشعر الناس، الذي لا يعاظِل[(٣)] بين القوافي ولا يتبع حوشيَّ[(٤)] الكلام. قال: من ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير بن أبي سلمى فلم يزل ينشده من شعره حتى أصبح.

---

(١) الريبة: الظن والشك والتهمة.

(٢) الخلق: البالي.

(٣) يعاظل: أي يعقده ويوالي بعضه فوق بعض

(٤) الحوشيّ من الكلام: الغريب الوحشي.

وكان زهير لا يمدح إلا مستحِقا، كمدحه لسنان بن أبي حارثة، وهرم بن سنان وهو القائل:

وإنّ أشعر بيـت أنـتَ قـائلـهُ ... بيتٌ يُقال إذا أنشدتَه: صدَقـا

وكذلك أحسنُ القولِ ما صدّقه الفعل.

قالت بنو تميم لسلامة بن جندل: مَجِّدنا بشعرك. قال: افعلوا حتى أقول.

وقيل للبيد: من أشعر الشعراء؟ قال: صاحب القروح - يريد امرأ القيس - قيل له: فبعدَه مَن؟ قال: ابن العشرين - يعني طَرَفة - قيل له: فبعده مَن؟ قال: أنا.

وقيل للحطيئة: من أشعر الناس؟ قال: الذي يقول:

مـن يسـألِ النـاسَ يَحْـرِمـوهُ ... وسـائـلُ الله لا يَخيـبُ

يريد عبيد بن الأبرص. قيل له: فبعده من؟ فأخرج لسانه وقال: هذا إذا رغب.

وقيل لبعض الشعراء: من أشعر الناس؟ قال: النابغة إذا رهب، وزهيرٌ إذا رغب، وجرير إذا غضب.

وقال أبو عمرو بن العلاء: طرفةُ أشعرُهم واحدة. يعني قصيدته:

لخوْلَةَ أطلالٌ ببُرقةِ ثَمْهَدِ

وفيها يقول:

ستبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ... ويأتيـكَ بـالأخبـارِ مـن لم تُـزوّدِ

وأُنشد هذا البيت للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقال: هذا من كلام النبوّة!

وسمع عبد الله بن عمر رجلا يُنشد بيت الحطيئة:

متى تـأتِـه تعشـو إلى ضـوءِ نـارِه ... تَجد خير نار عندها خيرُ موقـدِ (١)

فقال: ذاك رسول الله! إعجاباً بالبيت، يعني أن مثل هذا المدح لا يستحقه إلا رسول الله ﷺ.

---

(١) تعشو: يقال عشا النار: أي رآها ليلا فقصدها مستضيئاً بها.

سئل الأصمعي عن شعر النابغة، فقال: إن قلتُ ألين من الحرير صدقت وإن قلت أشدّ من الحديد صدقت.

وسئل عن شعر الجعدي: فقال: مطرَف بألف وخمار بوافٍ[1].

وسئل حماد الراوية عن شعر ابن أبي ربيعة، فقال: ذلك الفستق المقشر الذي لا يُشبَع منه.

وقالوا في عمرو بن الأهتم: كأنّ شعره حُللٌ منشّرة.

وسئل عمرو بن العلاء عن جرير والفرزدق، فقال: هما بازيان، يصيدان ما بين الفيل والعندليب.

وقال جرير: أنا مدينة الشعر والفرزدق نبْعته.

وقال بلال بن جرير: قلت لأبي: يا أبت، إنك لم تهجُ قوماً قط إلا وضعتهم إلا بني لجأ. قال: إني لم أجد شرفاً فأضعه ولا بناء فأهدمه.

أشعر نصف بيت:

واختلف الناس في أشعر نصف بيت قالته العرب، فقال بعضهم: قول أبي ذؤيب الهذلي:

والدَّهرُ ليس بمسعِفٍ من يَجزَعُ[2]

وقال بعضهم: قول حميد بن ثور الهلالي:

نُوكّلُ بالأدنى وإن جلَّ ما يَمضي

وقال بعضهم: قول زميل:

ومن يكُ رهنا للحوادثِ يغلَقِ

وهذا ما لا يُدرَك غايته ولا يوقَف على حدّ منه، والشعر لا يفوت به أحد ولا يأتي به بديع إلا أتى ما هو أبدع منه؛ ولله درُّ القائل: أشعرُ الناس من أبدع في

---

(١) الوافي: درهم وأربعة دوانق. والمطرف: ثوب من خز.

(٢) المسعف: الذي يقضي الحاجة.

شعره، ألا ترى مروانَ بن أبي حفصة على موضعه من الشعر وبُعد صيته فيه ومعرفته وسمته ـ أنشدوه لامريء القيس فقال: هذا أشعر الناس.

في شعر حسان:

وقد قالوا: لحسان بن ثابت أفخرُ بيت قالته العرب وأحكم بيت قالته العرب؛ فأما أفخر بيت قالته العرب فقوله:

وبيوم بدر إذ يرُدُّ وجوهَهم جِبريلُ تحت لوائنا ومحمدُ

وأما أحكم بيت قالته العرب فقوله:

فإنّ آمرأً أمسى وأصبح سالماً من الناسِ إلاّ ما جنَى لَسعيدُ

في شعر جرير:

وقالوا: أهجي بيت قالته العرب قول جرير:

والتَّغْلِبيُّ إذا تنحْنَح للقِرَى حكَّ آسْته وتَمثَّل الأمثالا[1]

ولما قال جرير هذا البيت قال: والله لقد هجوت بني تغلب ببيت لو طعنوا في أستاهِهم بالرماح ما حكّوها!

في شعر أبي ذؤيب:

ويقال: إن أبدع بيت قالته العرب: قول أبي ذؤيب الهذلي:

والنَّفْس راغبةٌ إذا رغَّبْتَها وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تَقْنعُ

فيقال إنّ أصدق بيت قالته العرب قول لبيد:

ألاَ كلُّ شيءٍ ما خلا آلله باطلُ وكلُّ نعيم لا محالةَ زائل

وذُكر الشعر عند عبد الملك بن مروان فقال: إذا أردتم الشعر الجيِّد فعليكم

---

(١) تمثل الشيء: تصور مثاله.

بالزرق من بني قيس بن ثعلبة ـ وهم رهط أعشى بكر ـ، وبأصحاب النخل من يثرب ـ يريد الأوس والخزرج ـ، وأصحاب الشعف من هذيل. والشعف: رءوس الجبال.

فضائل الشعر

ومن الدليل على عِظم قدر الشعر عند العرب وجليل خطبه في قلوبهم: أنه لما بُعث النبي ﷺ بالقرآن المعجز نظمُه، المحكم تأليفه، وأعجب قريشاً ما سمعوا منه، قالوا: ما هذا إلا سحرٌ! وقالوا في النبي ﷺ: ﴿شاعر نتربّص به ريب المنون﴾[١]. وكذلك قال النبي ﷺ في عمرو بن الأهتم لما أعجبه كلامه: إنّ من البيان لَسِحْراً.

وقال الراجز:

لقد خشِيتُ أن تكونَ ساحِرَاً   راويةً مَرّاً ومَرا شاعِرَا[٢]

وقال النبي ﷺ: إنّ من الشِّعر لحكمة.

وقال كعب الأحبار: إنا نجد قوماً في التوراة أناجيلهم في صدورهم، تنطق ألسنتهم بالحكمة؛ وأظنهم الشعراء.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أفضل صناعات الرجل الأبياتُ من الشعر يقدّمها في حاجاته، يستعطف بها قلب الكريم، ويستميل بها قلب اللئيم.

وقال الحجاج للمساور بن هند: مالك تقول الشعر وقد بلغت من العمر ما بلغت؟ قال: أرعى به الكلأ، وأشرب به الماء، وتُقْضى لي به الحاجة؛ فإن كفيتني ذلك تركته!

---

(١) سورة الطور الآية ٣٠

(٢) مراً: يريد مرة.

وقال عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده: رَوِّهِم الشعر، روِّهم الشعر: يَمجدوا ويَنجدوا!

وقالت عائشة: رَوُّوا أولادكـم الشعر تعذُبْ ألسنتهم.

وبعث زياد بولده إلى معاوية، فكاشفه عن فنون من العلم فوجده عالماً بكل ما سأله عنه، ثم استنشده الشعر، فقال: لم أرو منه شيئاً! فكتب معاوية إلى زياد؟ ما منعك أن تُرَوِّيَه الشعر؟ فوالله إن كان العاق[1] ليَرْويه فيبَرّ، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل.

وكان علي رضي الله عنه إذا أراد المبارزة في الحرب أنشأ يقول:

أيَّ يـوْمـيَّ مـن الموت أفــرّ   يـومَ لا يُقْـدر أم يـومَ قُـدِرْ
يــوم لا يُقْــدَر لا أرْهَبُــــه   ومن المقْـدور لا ينْجـو الحذِرْ

وقال المقداد بن الأسود: ما كنت أعلم أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ أعلم بشعر ولا فريضة من عائشة رضي الله عنها!

وفي رواية الخشني عن أبي عاصم عن عبد الله بن لاحق عن ابن أبي مليكة قال: قالت عائشة: رحم الله لبيداً كان يقول:

قَضِّ اللُّبانـة لا أبَـا لـك واذهـبِ   والحقْ بأُسرتك الكـرام الغُيَّـبِ[2]
ذهب الذيـن يُعـاشُ في أكنـافِهـم   وبقِيتُ في خلَفٍ كجلد الأجربِ[3]

فكيف لو أدرك زماننا هذا! ثم قالت: إني لأروي ألف بيت له، وإنه أقل ما أروي لغيره.

وقال الشعبي: ما أنا لشيء من العلم أقلّ مني روايةً للشعر، ولو شئت أن أُنشد شِعْراً شهراً لا أُعيد بيتاً لفعلت.

---

(١) العاق: الذي استخف بأبيه وعصاه وترك الإحسان اليه.

(٢) اللبانة: الحاجة.

(٣) الأجرب: الذي أصابه الجرب.

وسمع النبي ﷺ عائشة وهي تنشد شعر زهير بن جناب .

ٱرفعْ ضعيفَك لا يحلْ بك ضَعفُه يوماً فتدركه عواقب ماجنَي
يَجزيك أو يُثني عليك فإنّ مَن أثْنى عليك بما فعَلْت كمن جزى

فقال النبي ﷺ : صدق يا عائشة ، لا شَكَر الله من لا يشكر الناس .

يزيد بن عمر بن مسلم الخزاعي ، عن أبيه عن جده قال : دخلت على النبي ﷺ ومنشدٌ يُنشده قول سُويد بن عامر المصطلقي :

لا تأْمنَنَّ وإنْ أمسيْتَ في حرمٍ إنّ المنايا بِجنْبيْ كلّ إنسانِ
فٱسلك طريقَك تمشي غير مُخْتشعٍ حتى تُلاقي الذي منيَّ لك الماني
فكلّ ذي صاحبٍ يوماً مُفارقه وكلّ زادٍ وإنْ أبقيْتَه فان
والخيْر والشَّرُّ مقرونان في قرَنٍ بكلّ ذلك يأتيك الجديدانِ [(١)]

فقال النبي ﷺ : لو أدرك هذا الإسلام لأسلم .

أبو حاتم عن الاصمعي قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : أُنشدك يا رسول الله ، قال : نعم ، فأنشده :

تركْت القِيان وعزْف القِيانِ وأدمنْتَ تصليةَ وابتِهالا
وكَرّ المُشقَر في حُومةٍ وشَنى على المشركين القتالا [(٢)]
أيا ربّ لا أُغبنَنّ صَفْقتي فقد بعْت مالي وأهلي بدالا

فقال النبي ﷺ : ربح البيع . ربح البيع .

وقدم أبو ليلى النابغة الجعدي على رسول الله ﷺ ، فأنشده شعره الذي يقول فيه :

بلَغْنا السماءَ مَجدُنا وجدودُنا وإنا لنرجو فوق ذلك مَظْهرا

---

(١) القَرَن : الحبل يقرن به البعيران .

(٢) المشقّر : الذي فيه حمرة صافية مع ميل البشرة الى البياض ، ويريد ضرب من الخيل .

فقال النبي ﷺ: إلى أين يا أبا ليلى؟ فقال: إلى الجنة يا رسول الله بك! فقال النبي ﷺ: إلى الجنة إن شاء الله! فلما بلغ قوله وانتهى وهو يقول:

ولا خيْـر في حلْـم إذا لم تكـن لــه بوادرُ تَحمي صَفْوهُ أن يكدّرا
ولا خيْر في جهـلٍ إذا لم يكـن لـه حليم إذا ما أورد الأمرَ أصدرا[(١)]

قال النبي ﷺ: لا يَفضُض[(٢)] الله فاك. فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنغض[(٣)] له ثنية[(٤)].

سفيان الثوري عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال: إنها لكلمة نبيّ يعني قول الشاعر:

ستبْدي لك الأيام ما كنـت جـاهلا ويأتيك وبالاخبار من لم تُزوِّدِ

وسمع كعبٌ قول الحطيئة:

من يفعل الخيْـر لا يعـدمْ جـوازيَه لا يذهبُ العُرْفُ بين الله والناس

قال: إنه في التوراة حرف بحرف؛ يقول الله تعالى: من يفعل الخير يجده عندي، لا يذهب الخير بيني وبين عبدي.

للنبي ﷺ:

ابن عباس قال: أنشدت النبي ﷺ أبياتاً لامية بن أبي الصلت يذكر فيها حملة العرش، وهي:

رجـلٌ وثـورٌ تحت رجـلِ يمينـه والتَّيْس للأخرى وليْثٌ مُرْصد[(٥)]
والشمس تَطْلُع كـل آخـر ليلـةٍ فجراً ويصبح لونها يتوقّدُ

(١) أصدر الأمر: أنفذه وأذاعه.
(٢) لا يفضض: يدعو له لئلا تنثر اسنانه وتكسر.
(٣) تنغض: تتحرك.
(٤) الثنية: احدى الاسنان الاربعة الى في مقدم الفم.
(٥) مرصد: الذي يرصد ليثب.

تبـــدو فما تبـــدو لهم في وقتِهـــا إلا مُعَذَّبةً وإلا تُجْلد

فتبسم النبي ﷺ كالمصدِّق له.

ومن حديث ابن ابي شيبة: أن النبي ﷺ أردف الشريد، فقال النبي ﷺ: تَروي من شعر امية بن ابي الصلت شيئاً قلت: نعم. قال: فأنشدني. فأنشدته، فجعل يقول بين كلِ قافيتين: هيه! حتى أنشدته مائة قافية، فقال: هذا رجل آمن لسانُه وكفر قلبُه!

ولو لم يكن من فضائل الشعر إلا أنه أعظم جند يجنِّده رسول الله ﷺ على المشركين... يدلّ على ذلك قوله لحسان: شن الغطاريف[1] على بني عبد مناف؛ فوالله لَشِعْرُك أشدُّ عليهم من وقع السهام في غَلَس الظلام؛ وتَحَفَّظْ بيتي فيهم. قال: والذي بعثك بالحق نبيا، لأَسُلّنّك منهم سَلَّ الشعرةِ من العجين! ثم أخرج لسانه فضرب به أرنبة أنفه، وقال: والله يا رسول الله إنه ليُخيّل لي أني لو وضعتُه على حجر لفلقه[2]، أو على شَعر لحلقه! فقال النبي ﷺ: أيّد الله حساناً في هجوه بروح القُدس.

إسلام دوس

وقال ابن سيرين: بلغني أن دوْساً إنما أسلمتْ فرَقاً[3] من كعب بن مالك صاحب النبي ﷺ حيث يقول:

قضينـا مـن تِهـامـةَ كـلَّ نَحـبٍ وخيْبَر ثمَّ أغْمَدْنا السُّيوفا[4]
نُخيرُهـا ولـو نطَقَـت لقـالـت قواضِبُهُنّ: دوْساً أو ثقيفا[5]

قال النبي ﷺ لحسان بن ثابت: لقد شكر الله قولك حيث تقول:

زعَمَتْ سخينَـة أن ستغلـبُ ربّهـا وليُغْلَبَنَّ مُغالبُ الغُلاَّب

---

(١) الغطاريف: جمع غطريف، وهو السيد الكريم.
(٢) فلق: شقّ. (٣) الفرق: الفزع.
(٤) النحب: النذر. (٥) القواضب.

ولو لم يكن من فضائل الشعر إلا انه أعظم الوسائل عند رسول الله ﷺ . . .

فمن ذلك أنه قال لعبد الله بن رواحة : أخبرني مـــا الشعر يا عبد الله ؟ قال : شيء يختلج في صدري فينطق به لساني . قال : فأنشدني . فأنشده شعرَه الذي يقول فيه :

فثبَّـتَ الله مــا آتــاك مــن حســنٍ ... قفَوْتَ عيسى بإذنِ الله والقدرِ

فقال النبي ﷺ : وإياك ثبَّت الله ، وإياك ثبَّت الله ، وإياك ثبَّت الله .

شعر قتيلة بنت الحارث

ومن ذلك ما رواه ابن اسحاق صاحب المغازي وابن هشام: قال ابن اسحاق: لما نزل رسول الله ﷺ الصفراء[١] ـ قال ابن هشام: الأثيل[٢] ـ أمر عليا فضرب عنق النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف صبرا بين يدي رسول الله ﷺ ؛ فقالت أخته قتيلةُ بنت الحارث ترثيه :

يــا راكبــاً إنّ الأثَيــلَ مَظِنَّـــةٌ ... من صُبحِ خامسةٍ وأنت مُوَفّقُ
أبلِــغْ بها مَيْتــاً بــأنّ تحيَّـــةً ... ما إن تزالُ بها النجائبُ تخفقُ[٣]
منـى عليـكَ وعبْــرةً مسفــوحَــةً ... جادت بواكِفِها وأُخرى تخنُق
هــل يسمَعــنّ النَّضْـرُ إن نــاديْتــه ... أم كيفَ يسمعُ ميِّتٌ لا ينطِق
أمُحمّـدٌ يــا خيْــرَ ضِــنْءِ كــريمة ... في قومِها والفحلُ فحلٌ مُعْرِق[٤]
مــا كــان ضَــرّك لــو مننْــتَ وربُما ... مَنَّ الفتى وهو المغيظُ المحنِق
والنضْرُ أقربُ مَــن أسَــرت قــرابــة ... وأحقُّهم إن كان عِتقاً يُعتَق

---

(١) الصفراء : واد من ناحية المدينة في طريق الحاج .

(٢) الأثيل : موضع قرب المدينة .

(٣) نجائب الابل : خيارها ، وواحدتها النجيبة .

(٤) الضنء من كل شيء : نسله .

ظلّتْ سيوفُ بني أبيه تَنوشُه   لله أرحامٌ هُناك تَمزَّق[1]
صبْراً يُقادُ إلى المنيَّةِ مُتعَباً   رسْف المقيَّدِ وهْو عانٍ مُوثَق[2]

قال ابن هشام: قال النبي ﷺ لما بلغه هذا الشعر: لو بلغني قبل قتله ما قتلتُه.

بين النبي وأبي جرول يوم حنين

من حديث زياد بن طارق الجُشمي قال: حدّثني أبو جرول الجشمي ـ وكان رئيس قومه ـ قال: أسرنا النبي ﷺ يوم حنين، فبينما هو يميز الرجال من النساء، إذ وثبتُ فوقفت بين يديه وأنشدته:

آمْنُن علينا رسول الله في كَرَمٍ   فإنك المرْءُ نرجوهُ وننتَظِرُ
آمنن على نِسْوة قد كنت تَرضعُها   يا أرجح الناس حِلماً حين يُختبَرُ
إنا لنشْكُر لِلنُّعْما إذا كُفِرَتْ   وعندنا بعدَ هذا اليومِ مُدّخَرُ

فذكَّرْته حين نشأ في هوازن وأرضعوه؛ فقال عليه الصلاة والسلام: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لله ولكم. فقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لله ولرسوله. فردّت الانصار ما كان في أيديها من الذراري والأموال!

فإذا كان هذا مقام الشعر عند النبي ﷺ، فأيُّ وسيلة تبلغُه أو تعسره؟

فتح مكة

وكان الذي هاج فتح مكة أن عمرو بن مالك الخُزاعي، ثم أحد بني كعب خرج من مكة حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة؛ وكانت خُزاعة في حِلف النبي ﷺ في عهده وعقده؛ فلما انتقضت عليهم قريش بمكة وأصابوا منهم ما أصابوا، أقبل عمرو بن سالم الخزاعي بأبيات قالها، فوقف على رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد بين أظهر الناس؛ فقال:

---

(١) تنوشه: تناوله أو تصيبه به.

(٢) قتل صبراً: أي قتل وهو في السجن أو قتل وهو في القيد.

يـــا ربِّ إني نـــاشِـــدٌ محمَّدَا ‏ ‏ ‏ حِلْفَ أبينا وأبيه الأتْلَدا[١]
قـــد كنتمُ وُلْـــداً وكنَّـــا ولِـــداً ‏ ‏ ‏ وزعَموا أنْ لستُ أدعو أحدَا
إنّ قـــريشـــاً أخلفـــوك الموعِـــدا ‏ ‏ ‏ ونقضوا ميثاقك المؤكَّدا
وجعلـــوا لي في كَـــداء رصـــدَا ‏ ‏ ‏ وزعموا أن لستُ أدعو أحدا[٢]
وهـــم أذلُّ وأقـــل عـــددَا ‏ ‏ ‏ هُمْ بيتُونا بالوتيرِ هُجَّدا[٣]
وقتلـــونـــا رُكَّعـــاً وسجَّـــدا ‏ ‏ ‏ فانصر هداكَ الله نصراً أيِّدا
وادعُ عبـــاد الله يـــأتـــوا مـــددَا ‏ ‏ ‏ فيهم رسولُ الله قد تجرّدا
إن سِيم خسْفـــاً وجهـــه تَـــربَّـــدا ‏ ‏ ‏ في فيْلَقٍ كالبحرِ يجري مُزْبِدا[٤]

قال ابن هشام: فقال رسول الله ﷺ، نُصرتَ يا عمرو بن مالك، ثم عرض عارض من السماء، فقال رسول الله ﷺ! إنّ هذه السحابة تستهلُّ بنصر بني كعب.

وقال عمر بن الخطاب: الشعر جذل من كلام العرب، يسكُن به الغيظ، وتطفأ به النائرة، ويتبلَّغ به القوم في ناديهم، ويعطى به السائل.

فقال ابن عباس. الشعر علم العرب وديوانُها؛ فتعلموه، وعليكم بشعر الحجاز فأحسبه ذهب إلى شعر الحجاز وحض عليه؛ إذ لغتهم أوسط اللغات.

وقال معاوية لعبد الرحمن بن الحكم: يا اخي، إنك شُهِرْتَ بالشعر؛ فإياك والتشبيب[٥] بالنساء، فإنك تعرّ الشريفة في قومها، والعفيفة في نفسها ـ؛ والهجاء فإنك لا تعدو أن تعادي به كريما او تستثير به لئيما؛ ولكن آفخر بمآثر قومك، وقل من الأمثـال ما توقّر به نفسك، وتؤدب به غيرك.

---

(١) الأتلد: القديم.
(٢) كداء: بأعلى مكة عند المحصب.
(٣) الوتير: ماء بأسفل مكة.
(٤) الفيلق: الكتيبة العظيمة من الجيش.
(٥) التشبيب: اظهار محاسن المرأة وجمالها شعراً.

وسئل مالك بن أنس: من أين شاطر عمر بن الخطاب عماله؟ فقال: اموال كثيرة ظهرت عليهم، وإن شاعرا كتب إليه يقول:

نَحُجُّ إذا حجّوا ونغزو إذا غزوْا ... فأنى لهم وفْرٌ ولسنا بذي وفْر؟
إذا التاجرُ الهنديُّ جاءَ بفارة ... من المسكِ راحت في مفارقهم تَجري [1]
فدونكَ مال الله حيثُ وجدتَه ... سيَرْضون إن شاطرْتَهم ـ منك بالشطْر

قال: فشاطرهم عمر أموالهم.

وأنشد عمر بن الخطاب قول زهير:

فإنّ الحقَّ مقطعُه ثلاثٌ ... يمينٌ أو نِفارٌ أو جلاءُ

فجعل يعجب بمعرفته بمقاطع الحقوق وتفصيلها، وإنما أراد: مقطع الحقوق يمين أو حكومة أو بينة.

وأنشد عمر قول عبدة بن الطبيب:

والعيْشُ شُحٌ وإشفاقٌ وتأميل

فقال: على هذا بُنيَتِ الدنيا.

للنبي ﷺ وأصحابه في وباء المدينة

ولما هاجر النبي ﷺ وسلم الى المدينة وهاجر أصحابه، مسهم وباء [2] المدينة، فمرض أبو بكر وبلال. قالت عائشة: فدخلت عليهما. فقلت: يا أبت كيف تجدك؟ ويا بلال، كيف تجدك؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كلُّ امرىءٍ مُصَبَّحٌ في أهلهِ ... والموتُ أدنَى من شِراكِ نعْله

قالت: وكان بلال إذا أقلعتْ عنه يرفع عقيرته [3] ويقول:

---

(١) فارة المسك: رائحته أو وعاؤه

(٢) الوباء: المرض المنتشر والمعدي. (٣) عقيرته: صوته.

ألا ليتَ شعري هل أبيتَنَّ ليلة   بوادٍ وحوْلي إذخِرٌ وجَليلُ[1]
وهل أرِدَنْ يوماً مياهْ مَجَنَّةٍ   وهل يبدوَنْ لي شامةٌ وطَفِيل[2]

قالت عائشة: وكان عامر بن فهيرة يقول:

وقد رأيتُ الموتَ قبل ذوْقه   إنّ الجبانَ حتْفه من فوْقه
كالثوْر يَحْمي جلدَه بروْقِه[3]

قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته؛ فقال: اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبِّنا مكة وأشدّ، وصححها، وبارك لنا في صاعها ومُدّها، وانقل حُمَّاها فاجعلها بالجُحفة[4].

ومن حديث البراء بن عازب: قال: لما كان يومُ حنين رأيت النبي ﷺ، والعباس وأبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وهما آخذان بلجام بغلته. وهو يقول:

أنا النبيُّ لا كَذِبْ   أنا ابنُ عبدِ المطلبْ

ومن حديث أبي بكر بن أبي شيبة عن سفيان بن عيينة يرفعه إلى النبي ﷺ: أنه لما دخل الغار نُكب[5]، فقال:

« هل أنتِ إلا أُصْبُعٍ دَمِيتِ، وفي سبيلِ الله ما لقِيتِ ».

فهذا من المنثور الذي يوافق المنظوم وإن لم يتعمّد به قائلة المنظوم. ومثل هذا من كلام الناس كثير يأخذه الوزن، مثل قول عبد مملوك لمواليه:

« اذهبوا بي إلى الطبيب وقولوا قد اكتوى ».

ومثله كثير مما يأخذه الوزن ولا يراد به الشعر، ولا يسمّى قولُ النبي ﷺ ـ وإن

---

(١) الاذخر: حشيش طيب الريح. والجليل: الثمام.

(٢) المجنة: جبل لبني الدئل خاصة. وشامة وطفيل: جبلان قرب مكة.

(٣) الرّوق: قرن الدابة.

(٤) الجحفة: كانت قرية كبيرة على طريق المدينة.

(٥) نكب: أي نالت الحجارة إصبعه.

كان موزونا ـ شعراً لانه لا يراد به الشعر.

ومثله في آي الكتاب: ﴿ومن الليل فَسَبِّحْهُ وإدبارَ النجومِ﴾[1].

ومنه: ﴿وجِفانٍ كالجوَابِ، وقُدورٌ راسِياتٍ﴾[2].

ومثله: ﴿ويُخْزِهم وينصرْكم عليهم، ويَشْفِ صدورَ قومٍ مؤمنين﴾[3].

ومنه: ﴿فذلك الذي يَدُعُّ اليتيمَ﴾[4].

ولو تطلبت في رسائل الناس وكلامهم لوجدتَ فيه ما يحتمل الوزن كثيراً، ولا يسمّى شعرا. من ذلك قول القائل: مَن يشتَري باذِنجان. تقطيعه: مستفعلن مفعولات، وهذا كثير.

من قال الشعر

من الصحابة والتابعين والعلماء المشهورين

كان شعراء النبي ﷺ: حسان، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة.

وقال سعيد بن المسيب: كان أبو بكر شاعرا، وعمرُ شاعرا، وعليٌّ أشعرَ الثلاثة.

ومن قول علي كرم الله وجهه بصِفين:

لمن رايةٌ يَخْفِقُ ظلُّها ... إذا قيل قدِّمها حُضَينُ تقدَّما

يقدّمها في الصف حتى يُذيدها ... حِياضَ تقْطُر السم والدما[5]

جَزَى الله عني والجزاءُ بكفِّه ... ربيعةَ خيراً، ما أعَف وأكرَما

---

(١) سورة الطور الآية ٤٩

(٢) سورة سبأ الآية ١٣

(٣) سورة التوبة الآية ١٤

(٤) سورة الماعون الآية ٢

(٥) الحياض: جمع حوض، وهو القطعة المحدودة من الأرض.

وقال أنس بن مالك خادم النبي ﷺ: قدم علينا رسولُ الله ﷺ وما في الأنصار بيتٌ إلا وهو يقول الشعر. قيل له: وأنت أبا حمزة؟ قال: وأنا

وقال عمرو بن العاص يوم صفّين:

شبّت الحربُ فأعددْتُ لها ... مُفرّعَ الحارك مَحبوك الثَّبَج[1]
يَصِلُ الشّدّ بشدٍّ فإذا ... ونَتِ الخيلُ عن الشّ مَعَجْ[2]
جُرْشُعٌ أعظَمُه جُفْرَتُه ... فإذا ٱبتَلَّ من الماء خَرَجْ[3]

وقال عبد لله بن عمرو بن العاص:

فلو شَهدتْ جُمْلٌ مَقامي ومَشهَدِي ... بِصفَّينَ يوما شابَ منها الذوائبُ
عشيّةَ جَا أهلُ العراقِ كأنهم ... سحاب ربيعٍ زعْزعتْها الجنائب[4]
وجئناهُم نُرْدِي كأنّ صفوفَنا ... من البحر مدّ موْجُه متراكب
إذا قلتُ قد ولّوْا سراعا بَدتْ لنا ... كتائب منهم فارجَحَنَّت كتائب[5]
فدارتْ رحَانا وٱستدارت رَحاهُم ... سراةَ النهار ما توالى المناكب
وقالوا لنا إن نَرَى ان تُبايِعوا ... عليًّا فقلنا بل نَرى أن نُضارب

ومن شعراء التابعين

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ، وهو أحد السبعة من فقهاء المدينة، وله يقول سعيد بن المسيب: أنت الفقيه الشاعر؟ [قال]: لا بدّ للمصدور أن ينفث. يعني أنه من كان في صدره زكام فلا بدّ أن ينفث به زكمة صدره: يريد أن كل من اختلج في صدره شيء من شعر أو غيره ظهر على لسانه.

---

(١) الثبج: ما بين الكاهل والظهر.
(٢) الشدّ: الحضر والعدو. والمعج: سرعة المر
(٣) الجرشع: عظم الصدر. والجفرة: جوف الصدر.
(٤) الجنائب: جمع جنوب: وهي ريح تهب من الجنوب.
(٥) ارجحنّ: اتسع وانبسط.

وقال عمر بن عبد العزيز: وددت لو أني لي مجلساً من عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود بدينار.

قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: ما أحسنَ الحسنات في أثر السيئات، وأقبحَ السيئات في أثر الحسنات! وأحسنُ من هذا وأقبحُ من ذلك: الحسناتُ في أثر الحسنات، والسيئات في أثر السيئات!

عروةُ بن أذينة، وكان من ثقات أصحاب حديث رسول الله ﷺ، يَروي عنه مالك.

وقال ابن شبرمة: كان عروة بن أذينة يخرج في الثلث الأخير من الليل إلى سكك البصرة فينادي: يا أهل البصرة، ﴿أفأمن أهلُ القرى أن يأتيَهم بأسُنا ضُحىً وهم يلعَبون؟﴾[1] الصلاةَ الصلاة!

ومن شعراء الفقهاء المبرزين

عبد الله بن المبارك صاحب الرقائق[2] وقال حِبّان: خرجنا مع ابن المبارك مرابطين إلى الشام، فلما نظر إلى ما فيه القوم من التعبد والغزو والسرايا كل يوم، التفت إليّ وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون على أعمارٍ أفنيناها، وليال وأيام قطعناها في علم الخلية[3] والبَريَّة وتركنا هاهنا أبواب الجنة مفتوحة! قال: فبينما هو يمشي وأنا معه في أزقة المصِّيصة[4]، إذ لقي سكرانا قد رفع عقيرته[5] يتغنى ويقول.

أذلَّنيَ الهوى فــأنــا الذليــلُ   وليس إلى الذي أهوَى سبيلُ

---

(١) سورة الأعراف الآية ٩٨

(٢) الرقائق: يريد الرقائق من نسيبه.

(٣) الخلية: كلمة تطلق بها المرأة. يقال لها: أنت برية وخلية.

(٤) المصيصة: مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام.

(٥) عقيرته: صوته.

قال: فأخرج برنامجاً[١] من كمه فكتب البيت؛ فقلنا له: أتكتب بيت شعر سمعتَه من سكران؟ قال: أما سمعتم المثل: رُبَّ جوهرة في مزبلة؟ قالوا: نعم. قال: فهذه جوهرة في مزبلة!

وبلغ عبيدَ الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عمر بن عبد العزيز بعضُ ما يكره؛ فكتب إليه:

أتاني عنكَ هذا اليوم قولٌ ... فضِقتُ به وضاق به جَوابي
أبا حفصٍ فلا أدري أَرَغْمِي ... تريدُ بما تحاولُ أم عتابي
فإن تك عاتباً تُعتَب وإلا ... فما عُودي إذاً بيراع غاب
وقد فارقتُ أعظَمَ منك رزْءًا ... وواريْتُ الأحبةَ في التراب[٢]
وقد عزّو عليّ إذَا أسلَموني ... معاً فلبسْت بعدهُم ثيابي

وقد ذكر شعر عبيدالله بن عبدالله بن عتبة، وعروة بن أذينة في الباب الذي يتلو هذا، وهو « قولهم في الغزل ».

راشد بن عبد ربه

حدّث فرج بن سلام قال: حدثنا عبد الله بن الحكم الواسطي عن بعض أشياخ الشام قال: استعمل رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب على نجران، فولاه الصلاة والحرب، ووجه راشد بن عبد ربه السُّلمي أميرا على القضاء والمظالم؛ فقال راشد بن عبد ربه:

صحا القلْبُ عن سلمى وأقصرَ شأْوُهُ ... وردّت عليه ما نعتْه تماضرُ
وحكَّمهُ شيبُ القذالِ عن الصّبا ... وللشيبُ عن بعضِ الغوايةِ زاجر[٣]

---

(١) البرنامج: الورقة الجامعة للحساب

(٢) الرزء: المصيبة.

(٣) القذال: جماع مؤخر الرأس من الانسان.

فـأقصرَ جهلي اليـوم وآرتـدَّ بـاطلي ... عن اللهوِ لما آبيضَّ مني الغدائِر[1]
على أنـه قـد هـاجـهُ بعـد صحـوه ... بمعرِضِ ذي الآجام عيسٌ بواكر[2]
ولما دنت من جانِبِ الفرضِ أخصَبَتْ ... وحَلت ولاقاها سُليمٌ وعامر
وخبَّـرهـا الركبـانُ أن ليس بينَهـا ... وبين قُرى بصرى ونَجرانَ كافر
فألقت عصاهـا وآستقـرّ بها النَّـوى ... كما قرّ عيناً بالإيابِ المسافر[3]

لابن عمر في ولده سالم

وكان عبد الله بن عمر يحب ولده سالما حُبًّا مُفرطا، فلامه الناس في ذلك، فقال:

يلومونـنـي في سـالمٍ وألـومُهـم ... وجلدةُ بين العينِ والانفِ سالمُ

وقال: إن ابني سالما يحب الله حباً لو لم يخفْه ما عصاه.

وكان علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إذا برز للقتال أنشد:

أي يـومـيَّ مـن الموتِ أفـرّ ... يومَ لا يقدَرُ أم يومَ قُدِرْ
يـوم لا يُقْـدر لا أرهبُـهُ ... ومن المقدورِ لا ينجو الحذِر

وكان إذا سار بأرض الكوفة يرتجز ويقول:

يـا حبّـذا السيْـرُ بـأرض الكـوفـهْ ... أرضٌ سواءٌ سهلة معروفة
تعرِفُها جِمالنا المعلوفهْ

وكان ابن عباس في طريقه من البصرة إلى الكوفة يحدو الإبل، ويقول:

أوبـي إلى أهلِـكِ يـا ربـابُ ... أوبي فقد حان لكِ الإيابُ[4]

وقال ابن عباس لما كُفَّ بصره:

---

(١) الغدائر: جمع غديرة، وهي الذؤابة المضفورة من الشعر.
(٢) عيس: جمع أعيس، وهو من الإبل الذي يخالط بياضة شقرة.
(٣) النوى: البعد. واستقرت به النوى: أقام.
(٤) الإياب: العودة.

إن يـأخُـذِ الله مـــن عينيَّ نُـــورهُما ففي لساني وقلبي مِنهما نورُ
قلبي ذكـــيٌّ وعقلي غير ذي دخَـــلٍ وفي فمي صارمٌ كالسيفِ مشهور[1]

قولهم في الغزل

قال رجل لمحمد بن سيرين: ما تقول في الغزل الرقيق يُنشده الإنسان في المسجد؟ فسكت عنه حتى أقيمت الصلاة وتقدم إلى المحراب، فالتفت إليه فقال:

وتُبردُ بـــــــردَ رداء العـــــــرو س في الصيف رقرقْتَ فيه العبيرا
ونُسْخــــنُ ليلـــةَ لا يستطيـــعُ نُباحاً بها الكلبُ إلا هريرا

ثم قال: الله أكبر.

الحجاج وأبو هريرة

وقال الحجاج: دخلت المدينة فقصدت إلى مسجد النبي ﷺ: فإذا بأبي هريرة قد أكبَّ الناس عليه يسألونه، فقلت: هكذا! افرجوا لي عن وجهه. فأفرج لي عنه، فقلت له: إني إنما أقول هذا:

طـــاف الخيـــالان فهـــاجـــا سقما خيالُ أروى وخيال تُكتَّما
تـريـكَ وجهـاً ضـــاحكـــا ومِعصما وساعداً عبلا وكفَّا أدْرما[2]

فما تقول فيه؟ قال: لقد كان رسول الله ﷺ ينشَدُ مثل هذا في المسجد فلا يُنكره.

ودخل كعب بن زهير على النبيِّ ﷺ قبل صلاة الصبح، فمثل بين يديه وأنشده:

بـانـت سُعـادُ فقلبي اليـوم متبـــولُ متيمٌ إثرَها لم يفدَ مكبولُ
ومـا سُعـاد غـداةَ البينِ إذ رحلـوا إلا أغنُ غضيضُ الطرفِ مكحولُ[3]

---

(١) الدخل: الفساد والريبة.

(٢) الأدرم: الذي لا حجم لعظامه. (٣) الأغن: الذي في صوته غنّه.

هيفاءُ مقبلةً عجراءُ مُدبرةً ... لا يُشتكى قصرٌ منها ولا طول (١)
ما إن تدُومُ على حالٍ تكونُ بها ... كما تلوّنُ في أبثوابها الغول
ولا تمسّكُ بالوعدِ الذي وعدَتْ ... إلا كما يُمسِك الماءَ الغرابيل
كانت مواعيدُ عرقوبٍ لها مثلا ... وما مواعيدها إلا الاباطيل
فلا يغرّنْكَ ما منتْ وما وعدت ... إنّ الأمانيَّ والأحلامَ تضليل

ثم خرج من هذا إلى مدح النبي ﷺ، فكساه برداً اشتراه منه معاوية بعشرين ألفا .

ومن قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود في الغزل :

كتمتَ الهوى حتى أضرَّ بك الكتْمُ ... ولامكَ أقوامٌ ولومُهُم ظلمُ
ونمَّ عليك الكاشحون وقبلَ ذا ... عليكَ الهوى قد نمَّ لو نفَعَ النّمُّ (٢)
فيامن لِنفسٍ لا تموتُ فينقَضي ... عَناها، ولا تحيا حياةً لها طعمُ
تجنّبت إتيانَ الحبيبِ تأثُّماً ... ألا إنّ هِجران الحبيبِ هو الإثم

ومن شعر عروة بن أذينة، وهو من فقهاء المدينة وعُبادها، وكان من أرق الناس تشبيبا :

قالت وأبثَثْتُها وجدِي وبحتُ به ... قد كنتَ عِندي تحت السِّترِ فاستَتِرِ (٣)
أأنت تُبصرُ من حولي؟ فقلت لها ... غطّى هواكِ وما ألقي على بصري

وقد وقفت عليه آمرأةٌ، فقالت له: أنت الذي يقال فيك الرجل الصالح وأنت القائل :

إذا وجدتُ أُوارَ الحبِّ في كبدِي ... غدوْتُ نحو سقاء الماء أبتَردُ
هَبْني بَردتُ ببردِ الماءِ ظاهرهُ ... فمن لنارٍ على الأحشاء تتّقدُ!

---

(١) العجراء: الحدباء.

(٢) الكاشح: العدو المبغض. (٣) بثه الوجد : أطلعه عليه.

والله ما قال هذا رجل صالح. وكذبت عدوة الله عليها لعنة الله؛ بل لم يكن مرائياً ولكنه كان مصدوراً[١] فنفَث!

وقدم عروة بن أذينة على هشام بن عبد الملك في رجال من أهل المدينة، فلما دخلوا عليه ذكروا حوائجهم فقضاها ثم التفت إلى عروة، فقال له: ألست القائل:

لقد علِمتُ وخيْرُ القول أصدَقُه ... بأنّ رزقي وإن لم آت يأتيني
أسعى له فيُعنّيني تطلُّبُه ... ولو قَعدْتُ أتاني لا يُعنّيني[٢]

قال: فما أراك إلا قد سعيت له! قال: سأنظر في أمري يا أمير المؤمنين. وخرج عنه فجعل وجهته إلى المدينة، فبعث إليه بألف دينار، وكشف عنه فقيل له: قد توجه إلى المدينة! فبعث إليه بالألف دينار، فلما قدم عليه بها الرسول، قال له: أبلغ امير المؤمنين السلام، وقل له أنا كما قلت: قد سعيت وعييت في طلبه، وقعدت عنه فأتاني لا يعنّيني.

ومن قول عبد الله بن المبارك، وكان فقيهاً ناسكاً شاعراً رقيق النسيب معجب التّشبيب حيث يقول:

زعموها سَألتْ جارتَها ... وتعرَّت ذات يومٍ تَبْترِدْ[٣]
أكما يَنعَتُني تُبصرْنني ... عَمْركُنّ الله أمْ لا يقتصدْ
فتضاحكن وقد قلْن لها ... حسنٌ في كلِّ عيْنٍ من يُودّ
حسَداً حُمِّلْنه من شأنها ... وقديماً في الحبِّ الحسدْ

وقال شريح القاضي. وكان من جلّة التابعين، والعلماء المتقدمين، استقضاه علي رحمه الله ومعاوية. وكان يزوج امرأة من بني تميم تسمى زينب، فنقم عليها فضربها، ثم ندم، فقال

رأيت رجالاً يَضربونَ نساءَهم ... فشُلَّت يَميني يوم أضربُ زيْنبا

(١) المصدور: من كان في صدره زكام.
(٢) يعنيني: يعييني. (٣) تبترد: تغتسل بالماء البارد

أأضرِبُهـا في غير ذنـبٍ أتـت بـه   فما العدل مني ضَربُ من ليس أذْنَبا
فزينـبُ شمسٌ والنسـاءُ كـواكـبٌ   إذا. بَرَزتْ لم تُبْدِ منهنّ كوكبا (١)

الرشيد وشاعر مدحه

قال: حج الرشيد وزميله أبو يوسف القاضي؛ قال شراحيل بن زائدة: وكان كثيراً ما أسايره، فبينما أنا أسايره إذ عرض له اعرابي من بني أسد فأنشده شعراً مدحه فيه وعرضه، فقال هل الرشيد: ألم أنهك عن مثل هذا في شعرك يا أخا بني أسد؟ إذ أنت قلت فقل كما قال مروان بن أبي حفصة في أبي هذا، وأشار إليّ يقول:

بنـو مطـرٍ يـوم اللقـاءِ كـأنهم   أسودٌ لها في غِيل خَفانَ أَشبُـلُ (٢)
هُـمُ يمنعـون الجارَ حتى كـأنما   لجارِهم بين السِّماكيْن منـزلُ (٣)
بهاليلُ الإسلام سادوا ولم يكـن   كـأوّلهم في الجاهليَّـــة أوّلُ (٤)
هُمُ القومُ إن قالوا أصابوا، وإن دُعُوا   أجابوا، وإن أعطَوْا أطابوا وأجزلوا
وما يستطيعُ الفاعلـونْ فَعـالهم   وإنْ أحسَنوا في النائبات وأجمَلوا

ابن شماس يمدح عمر بن عبد العزيز

وقال عتبة بن شماس يمدح عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى:

إنّ أوْلى بـالحقّ في كـلّ حـقٍ   ثم أحْرَى بـأن يكـون حقيقـا
مَنْ أبوه عبد العزيـز بن مَـروْا   نَ ومَن كـان جـدُّه الفـاروقـا
ثم دامـوا لنـا علينـا وكـانـوا   في ذُرا شاهقٍ تَفوتُ الانوقا (٥)

---

(١) برزت: ظهرت.

(٢) الغيل: موضع الأسد.

(٣) السماكان: نجمان نيران. احدهما في الشمال وهو السماك الرامح والآخرين في الجنوب وهو الأعزل.

(٤) البهاليل: جمع بهلول: وهو السيد الجامع لصفات الخير.

(٥) شاهق: مرتفع.

الرسول ﷺ وابن مرداس

مدح عباس بن مرداس رسول الله ﷺ ، فكساه حلة؛ ومدحه كعب بن زهير، فكساه بُرْداً اشتراه منه معاوية بعشرين ألف درهم، وإن ذلك البرد لعند الخلفاء إلى اليوم.

عمر بن الخطاب وابن عباس في شعر زهير

وقال ابن عباس: قال لي عمر بن الخطاب: أنشِدْني قول زهير. فأنشدته قوله في هرم بن سنان بن حارثة حيث يقول:

قومٌ أبـوهـم سِنـانٌ حين تَنسُبُهـم ... طابوا وطابَ من الأفلاذ ما ولَـدوا
لو كان يقعُد فوق الشمس من كرم ... قـومٌ بـأوّلِهـم أو مجدِهـم قعَـدوا
جنٌّ إذا فزعـوا، إنْسٌ إذا أمنـوا ... مُـرَزَّءُون بهاليـلُ إذا ٱحتشـدوا
مُحَسَّدون على مـا كـان مـن نِعـم ... لا يَنزعُ الله منهم مـالـه حُسِـدوا

فقال له عمر: ماكان أحبَّ إليَّ لو كان هذا الشعر في أهل بيت رسول الله ﷺ! انظر إلى ضنانة عمر بالشعر، كيف لم ير أحداً يستحق هذا المدح إلا أهل بيت محمد عليه الصلاة والسلام؟

ابن عمرو وبعضهم في بيت للحطيئة

وأسمع رجلٌ عبد الله بن عمر بيت الحطيئة:

متى تـأتِـه تعْشُـو إلى ضَوْءِ نـارِه ... تجدْ خيْرَ نارٍ عندها خيْرُ مُوقِـد[1]

فقال: ذلك رسول الله ﷺ. فلم ير أحداً يستحق هذا المدح غير رسول الله ﷺ.

---

(١) تعشو: يقال: عشا النار: أي رآها ليلا فقصدها مستضيئا بها.

عمر بن عبد العزيز ونصيب وجرير ودكين

واستأذن نصيب بن رباح على عمر بن عبد العزيز فلم يأذن له، فقال: أعلِموا أمير المؤمنين أني قلت شعرا أوله الحمد لله. فأعلموه، فأذن له؛ فأدخل عليه وهو يقول:

الحمد لله، أما بعد يا عمرُ ... فقد أتتْنا بك الحاجاتُ والقَدَرُ
فأنت رأسُ قريشٍ وابن سيِّدها ... والرأسُ فيه يكون السمع والبصَرُ

فأمر له بحليّة سيفه.

ومدحه جرير بشعره الذي يقول فيه:

هذي الأراملُ قد قَضّيْت حاجتَها ... فَمنْ لحاجةِ هذا الأرملِ الذكَرِ؟

فأمر له بثلثماية درهم.

ومدحه دكين الراجز، فأمر له بخمس عشرة ناقة.

ابن جعفر ونصيب

ومدح نصيب بن رياح عبد الله بن جعفر، فأمر له بمال كثير وكسوة ورواحل. فقيل له: تفعل هذا بمثل هذا العبد الاسود؟ فقال: أما والله لئن كان عبداً إن شِعرَه لحُرّ، وإن كان أسود إن ثناءه لأبيض. وإنما أخذ مالاً يَفنى، وثيابا تَبلى، ورواحل تُنضي (١)، وأعطي مديحا يُروي، وثناء يَبْقى.

ودخل ابن هرم بن سنان على عمر بن الخطاب، فقال له: من أنت: قال: أنا ابن هرم بن سنان، قال: صاحب زهير؟ قال: نعم. قال: أما إنه كان يقول فيكم فيُحْسن! قال: كذلك كنا نعطيه فنُجْزل! قال: ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم.

ابو جعفر وطريح

وكان طريح الثقفي ناسكا شاعراً، فلما قال في أبي جعفر المنصور قوله:

(١) تنضي الرواحل: تسبقها وتتقدمها.

أنــت ٱبن مُسْلَنْطَحِ البِطــاحِ ولم تعْطِف عليـك الحُنِيُّ والوُلُــج[1]
لو قلت للسَّيْلِ دعْ طريقَـك والموْ جُ عليــه كـالليــل يعْتلــجُ[2]
لَهــمَّ أو كــاد أو لكــان لـــه في ســائـر الارض عنك مُنعـرجُ
طوبَي لفـرعيْـك مـن هُنـا وهُنـا طـوبَـي لأعــراقــك التي تَشـج

قال أبو جعفر: بلغني عن هذا الرجل أنه يتأله، فكيف يقول: دع طريقك؟ فبلغ ذلك، فقال: الله يعلم أني إنما أردت يا رب، لو قلت للسيل: دع طريقك

الحطيئة في سجن عمر

وقال الحطيئة لما حبسه عمر بن الخطاب في هجائه للزبرقان بن بدر ـ أبياتاً يمدح فيها عمر ويستعطفه؛ فلما قرأها عمر عطف له وأمر بإطلاقه وعفا عما سلف منه؛ والأبيات:

ماذا تقـولُ لأفْـراخٍ بـذي مـرخ زُغْبِ الحواصِلِ لا ماءٌ ولا شجرُ[3]
ألقيْتَ كـاسِبَهـم في قعـر مُظْلِمـةٍ فاغفـرْ عليـك سلام الله يـا عمـرُ
أنت الإمام الذي من بَعد صاحبِـه ألقَى إليـك مقـاليـد النُهـى البشر
مـا آثَـرُوك بها إذا قـدّمـوك لها لكن لأنفسِهم كانـت بها الإثـر[4]

ابن دارة وابن حاتم

ودخل ابن دارة على عدي بن حاتم صاحب رسول الله ﷺ، فقال: إني مدحتك! قال: أمسِك حتى آتيك بمالي ثم امدحني على حسبه؛ فإني أكره أن لا أُعطيك ثمن ما تقول. لي ألف شاة، وألف درهم، وثلاثة أعبد، وثلاث إماء، وفرسي هذا حبيس في سبيل الله؛ فامدحني على حسب ما أخبرتك، فقال:

تَحِــن قلُــوصي في مَعَــدٍّ وإنما تَلاقي الربيعَ في ديـار بني ثعَـلْ[5]

---

(١) الحنى والولَج: الأزقة. (٢) يعتلج: يلتطم.
(٣) ذو مرخ: واد بين فدك والوابشية.
(٤) الإثر: أي الخيرة والإيثار. (٥) القلوص: الناقة.

وأبقى الليالي من عـدِيِّ بن حـاتمٍ حُساماً كنصل السيفِ سُلَّ مِن الخِلل[1]
أبـوك جـوَادٌ لا يُشَـقُّ غُبـارُه وأنت جوادٌ ليس يُعذر بالعِلـل[2]
فـإن تفعلـوا شرًّا فمثلُكـم اتَّقـى وإن تفعلوا خيْـراً فمثلُكـم فعَـل

قال عدي: أمسِك؛ لا يبلغ مالي إلى أكثر من هذا.

قولهم في الهجاء

قال الله تبارك وتعالى في هجو المشركين: ﴿والشُّعراءُ يتبعُهم الغاوُون، ألم تَر أنهمْ في كل وادٍ يهيمونَ، وأنهُمْ يقولونَ ما لا يفعلونَ، إلا الذين آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ وذكروا الله كثيراً وانتَصروا من بعدِ ما ظُلِموا، وسيعْلَمُ الذين ظَلَموا أيَّ مُنْقَلبٍ ينقلِبونَ﴾ [3].

فأرخص الله للشعراء بهذه الآية في هجائهم لمن تعرض لهم.

الرسول ﷺ ورجل في أبي سفيان

يزيد بن عمرو بن تميم الخزاعي عن أبيه عن جده، أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أبا سفيان يهجوك! فقال رسول الله ﷺ: اللهم إنه هجاني وإني لا أقول الشعر؛ فاهجُه عني، فقام إليه عبدالله بن رواحة فقال: يا رسول إيـــذن لي فيه.

فقال أنت القائل:

فثبّت الله ما آتاك من حسنٍ

قال: نعم. قال: وإياك فثَبَّت الله. ثم قام إليه كعب بن مالك فقال: إيذن لي فيه.

(١) الخلل: جمع خِلّة: وهي جفن السيف بالأدم.
(٢) أعذر: اعتذر اعتذاراً يعذر به
(٣) سورة الشعراء الآية ٢٢٤

قال: أنت القائل: «همّتْ»؟ قال: نعم. قال: لست له. ثم قام حسان بن ثابت، فقال يا رسول الله ائذن لي فيه. وأخرج لسانه فضرب به أرنبة[١] أنفه وقال: والله يا رسول الله إنه ليُخَيَّل لي أني لو وضعتُه على حجر لفلقه، أو شَعر لحلَقُه! فقال أنت له؛ اذهب إلى أبي بكر يخبرك بمثالب القوم، ثم اهجهم وجبريلُ معك. فقال يردُّ على أبي سفيان:

ألا أبْلــغ أبــا سُفيـــان عني ... مُغلغلةً فقــد بَـرِح الخفــاءُ[٢]
هجـوْتَ محمداً فـأجبْتُ عنـه ... وعنـــــد الله في ذاك الجزاءُ
أتهْجُـوه ولســتَ لــه بنِـدٍّ ... فشرُّكُما لخيْـــرِكما الفِـــداءُ
فمنْ يَهجو رسـول الله منكـم ... ويُطْـريـه ويمدحُـه ســواءُ
لنــا في كــلِّ يــومٍ مــن مَعــدّ ... سِبـابٌ أو قِتـــالٌ أو هِجــاءُ
لِسـاني صـارمٌ لا عيْـبَ فيــه ... وبَحْــري لا تُكــدِّرهُ الدلاءُ
فـإن أبي ووَالِده وعــرْضِـي ... لِعـرْضِ محمدٍ منكــم وِقــاءُ

ابن ياسر ويمني

وقال رجل من أهل اليمن: دخلت الكوفة فأتيت المسجد، فإذا بعمار بن ياسر ورجل ينشده هجاء معاوية وعمرو بن العاص، وهو يقول: ألصق بالعجوزين![٣] قلت له: سبحان الله! أتقول هذا وأنتم أصحاب محمد ﷺ؟ قال: إن شئت فاجلس وإن شئت فاذهب! فجلست، فقال: أتدري ما كان يقول لنا رسول الله ﷺ لما هجانا اهل مكة؟ قلت: لا أدري. قال: كان يقول لنا: قولوا لهم مثل ما يقولون لكم.

وقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت: لقد شكر الله لك بيتاً قلته وهو:

زعَمَتْ سخينةُ ان تُغالبَ ربَّهــا ... وليُغْلبنَّ مُغـــالـــبُ الغُلاّب

---

(١) أرنبة الأنف: طرفه.

(٢) المغلغلة: الرسالة المحمولة من بلد الى بلد

(٣) العجوزان: هما معاوية وعمرو. يريد الصق هجاءك بهما.

هذيل وسؤالها حل الزنا

وسألت هذيل رسول الله ﷺ أن يُحلَّ لها الزنا، فقال حسان في ذلك:

سأَلتْ هُذيلُ رسولَ الله فاحشةً ضلَّت هُذَيْلُ بما سالتْ ولم تُصِبِ [١]

وقال عبد الملك بن مروان: ماهُجِيَ أحد بأوجع من بيت هُجي به ابن الزبير، وهو:

فإن تُصِبْك من الأيامِ جائحة لم تَبكِ منكَ على دنيا ولا دينِ! [٢]

وقيل لعقيل بن عُلَّفَة: ما لك لا تُطيلُ الهجاء؟ قال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق.

وقال رجل من ثقيف لمحمد بن مُناذر: ما بال هجائك أكثرُ من مدحك؟ قال: ذلك مما أغراني به قومُك، واضطرني إليه لؤمُك.

وقال أبو عمرو بن العلاء: قلت لجرير: إنك لعفيف الفَرج كثيرُ الصدقة، فلِمَ تسبُّ الناس؟ قال: يبدءُوني ثم لا أغفر لهم. وكان جرير يقول: لست بمبتدىء ولكني مُعْتد. يريد أنه يُسرف في القصاص.

ومثله قول الشاعر:

بني عَمِّنا لا تَنطِقوا الشِّعرَ بعدَما دفنتُم بأفناءِ العُذيبِ القوافِيا

فلسْنا كَمَنْ قد كنتُم تظْلِمونه فيقبلُ ضيماً أو يُحكِّمُ قاضيَا [٣]

ولكنّ حُكمَ السيْفِ فيكم مُسلَّط فنَرضى إذا ما أصبحَ السيْفُ راضيا

فإن قلتُم إنا ظُلِمْنا فلم نكن ظَلَمْنا ولكنّا أسأنا التّقاضيا

وكان عمر بن الخطاب يقول: واحدة بأخرى والبادىء أظلم

---

(١) سالت: سألت. (٢) الجائحة: المصيبة تحل بالرجل في ماله.

(٣) الضيم: المظلوم والذليل.

عبد الملك وجرير والأخطل

وقيل: وفد جرير على عبد الملك بن مروان، فقال عبد الملك للأخطل: أتعرف هذا؟ قال: لا. قال: هذا جرير. قال الأخطل: والذي أعمى رأيك يا جرير ما عرفتُك! قال له جرير: والذي أعمى بصيرتك وأدام خَزْيتك لقد عرفتك: لسيماك سيما أهلِ النار.

كثير والأخطل عند عبد الملك

ابن الاعرابي قال: دخل كُثيّرُ عزَّة على عبد الملك فأنشده وعنده رجل لا يعرفه؛ فقال لعبد الملك: هذا شعر حجازي، دعني أضغَمه لك ضغْمة[1]. قال كثيِّرُ: من هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا الأخطل. قال: فالتفت إليه فقال له: هل ضغَمت الذي يقول:

والتَّغْلبيُّ إذا تنْحنحَ للقِرَى ... حكَّ اَسْتَهُ وتَمثل الأمثالا
تلقاهُم حُلَماء عن أعدائِهم ... وعلى الصَّديقِ تَراهم جُهَّالا[2]

حصين وصديق له

حدثنا يحيى بن عبد العزيز قال: حدثنا محمد بن عبد الحكم بمصر: كان رجل له صديق يقال له حُصين، فولى موضعاً يقال له السابَين، فطلب إليه حاجة فاعتل فيها، فكتب إليه:

اَذهبْ إليكَ فإنّ وُدّك طالقٌ ... مني وليَس طلاقَ ذاتِ البيْنِ
فإذا ارعوَيْتَ فإنها تطْليقةٌ ... ويُقيم ودُّك لي على ثِنتيْنِ[3]
وإذا أبيتَ شفَعْتها بمثالِها ... فيكونُ تطليقَيْنِ في حيْضيْنِ[4]

---

(١) الضغم: العض غير النهش

(٢) جهالا: جمع جاهل، وهو المستخف به.

(٣) ارعويت: كففت وارتدعت.

(٤) شفعتها: جلعها زوجاً.

وإن الثلاثُ أتَتْك مني بتَّةً لم تُغْن عنكَ ولايةُ السَّابيْنِ
ولَم آرضَ أن أهجو حُصيْناً وحده حتى أُسَوِّد وجهَ كلِّ حُصَيْنِ

طلب دعبل بن علي حاجة إلى بعض الملوك فصرح بمنعه؛ فكتب إليه:

أحَسِبتَ أرض اللهِ ضيِّقةً عني؟ فأرضُ اللهِ لم تضِقِ
وحسِبتني فقْعاً بقرقَرةٍ فوطِئتني وطْئاً على حَنَقِ (١)
فإذا سألتُك حاجةً أبداً فاضْرِب بها قفْلاً على غلقِ
وأعِدَّ لي غُلاً وجامعةً فاجمعْ يديَّ بها إلى عُنُقي (٢)
ثم آرم بي في قعْرِ مُظْلِمةٍ إن عُدتُ بعد اليومِ في الحمقِ (٣)
ما أطولَ الدنيا وأوسَعها وأدلَّني بمسالِكِ الطُّرقِ

ومثل هذا قول أبي زبيد:

إن كان رزْقي إليك فآرم به في ناظِرَي حبةٍ على رصَدِ (٤)
ليْتَك أدبَتَني بواحدةٍ تجعلُها منك آخرِ الأبدِ
تحلِفُ أن لا تبرّني أبداً فإنَّ فيها برداً على كَبدي

وقال زياد: ما هجيت ببيتٍ قط أشدّ عليّ من قول الشاعر:

فكِّرْ ففي ذاك إن فكرْتَ مُعتَبرٌ هل نِلْت مكرمةً إلا بتأْمير
عاشتْ سُميَّة ما عاشت وما علِمت أنّ آبنَها من قريشٍ في الجماهير (٥)
سُبحانَ من مُلْك عبّاد بقدرتِه لا يَدفعُ الخلق محتومَ المقادير

وقال بلال بن جرير: سألت أبي: أيَّ شيء هُجيتَ به أشدَّ عليك؟ قال: قولُ العيث:

---

(١) الفقع: ضرب من أردأ الكمأة يطلع من الأرض فيظهر أبيض. والقرقرة: الأرض اللينة.

(٢) الجامعة: الغل. (٣) الحمق: قلة العقل.

(٤) على رصد: أي ترصد المارة في الطريق لتلسع

(٥) سمية: هي أم زياد.

ألستَ كليْبيًّا إذا سِيمَ خُطَّةً   أقرّ كإقرار الحليلةِ للبعْلِ
كلّ كليبيٍّ صحيفةُ وجهه   أذلُّ لأقدام الرجال من النَّعلِ

وكان بلال بن جرير شاعراً ابن شاعر ابن شاعر؛ لأنّ الخطَفي كان شاعرا، وهو يقول:

ما زال عصيانُنا لله يُسْلمنا   حتى دُفعْنا إلى يَحيَى ودينارِ
إلى عُليْجيْن لم تُقطعْ ثمارُهما   قد طالما سجَدا للشمس والنارِ[1]

ومن أخبث الهجاء قول جميل:

أبوكَ حبابٌ سارق الضيف بُردَه   وجدّيَ يا شمَّاخ فارس شمَّرا
بنو الصالحين الصالحونَ ومَن يكن   لآباء سوءٍ يلقَهم حيث سيِّرا[2]
فإن تغضَبوا من قِسمة الله فيكُم   فلله إذ لم يرْضكم كان أبصَرا

وقال كثيِّر في نُصيب، وكان أسود، ويكنى ابا الحجناء:

رأيتُ أبا الحَجْنا في الناس حائراً   ولون أبي الحجناء لون البَهائِمِ
تَراه على مالاحَه من سواده   وإن كان مظلوما، له وجه ظالم!

وكان يقال لسعد بن أبي وقاص: المستجاب؛ لقول النبي ﷺ: اتقوا دعوة سعد. فقال رجل بالقادسية فيه:

ألم تَرَ أن اللهَ أنزل نصرَه   وسعدٌ بباب القادسيَّة مُعصِمُ[3]
فأُبْنا وقد آمَتْ نساءٌ كثيرةٌ   ونِسوة سعدٍ ليس فهنّ أيِّمُ[4]

فقال سعد: اللهم! اكفني يدَه ولسانه. فخرس لسانه، وضربتْ يدُه فقطِعتْ.

وذُكر عند المبرّد محمد بن يزيد النحوي رجلٌ من الشعراء، فقال: لقد هجاني

(١) العليج: تصغر العلج، وهو الحمار.
(٢) حيث سيّرا: أنى سار.
(٣) معصم: معتصم
(٤) الأيم: المرأة التي فقدت زوجها.

ببيتين أنضج بهما كبدي! فاستنشدوه، فأنشدهم هذين البيتين:

سألنا عن ثُمالةَ كُلَ حَيّ ... فكُلٌّ قد أجاب ومَن ثُماله
فقلتُ محمد بن يزيدَ منهم ... فقالوا الآن زِدْتها جَهاله

ولم يَقل أحدٌ في القبيح أحسنَ من قول أبي نُوَاس:

وقائلةٍ لها في وَجْه نُصْحٍ ... علامَ قتلتِ هذا المُستهامَا
فكان جوابُها في حُسن مَيْس ... أأجمع وجهَ هذا والحَراما[1]

وكان جرير يقول: إذا هجوتَ فأضحك. ويُنشَد له:

إذا سَلمتْ فتاةُ بَني نُمير ... تلقَّمَ بابُ عِصْرِطها التُّرابا[2]
تَرى بَرصاً بمَجمع إسكَتيها ... كعَنْفَقَة الفَرزدق حين شابَا[3]

وقوله أيضاً:

وتقول إذ نَزعوا الإزارَ عن آستها ... هذي دواةُ مُعلِّم الكُتَّابِ

وقوله أيضاً:

أحين صِرْتَ سَماماً يابني لجأ ... وخاطرتْ بِيَ عَن أحسابها مُضَرُ
هيأتُم عُمَرا يحمي ديارَكم ... كما يُهيّأ لأست الخاري الحَجر

وقال عليٌّ بن الجهم يهجو محمدَ بن عبد الملك الزيَّات وزيرَ المتوكل:

أحسن من سبعين بيتاً سُدًى ... جمعُك إياهنّ في بَيْتِ
ما أحوجَ المَلْكَ إلى ديمةٍ ... تَغسل عنه وضَرَ الزيتِ[4]

ومن أخبث الهجاء قول زياد الأعجم:

---

(١) الميس: التبختر والاختيال.

(٢) العصرط: الخط الذي من الفرج الى الدّبر.

(٣) الاسكتان: جانبا الفرج. والعنفقة: ما نبت على الشفة السفلى من الشعر.

(٤) الوضر: الوسخ من الدسم أو غيره

قالوا الأشاقِر تَهجوني فقلت لهم ... ما كنت أحسبهم كانوا ولا خُلقوا[1]
وهم من الحسَب الذاكي بمنزلةٍ ... كطحْلب الماءِ لا أصلٌ ولا ورَق[2]
لا يَكثرون وإن طالت حياتُهمُ ... ولو يَبول عليهم ثعلب غَرِقوا

وقوله أيضاً:

قضَى الله خلْق الناس ثم خُلقتُم ... بقيَّة خلْق الله آخِرَ آخِر
فلم تَسمَعوا إلا الذي كان قبلَكم ... ولم تُدرِكوا إلا مَدَقَّ الحوافِر[3]

وقال فيهم:

قُبِّيلةٌ خيرها شرُّها ... وأصْدقها الكاذب الآثِمُ
وضيْفهم وسْط أبياتِهم ... وإن لم يكن صائماً صائم

ونظير هذا قول الطرمّاح:

وما خُلقْت تَيْم وزيْد مَناتِها ... وضَبَّة إلا بعد خلْق القبائلِ

ومن أخبث الهجاء قول الطرمّاح في بني تميم:

لو حان وِرْد تميمٍ ثم قيل لهم ... حوْضُ الرسول عليه الأزْد لم تَرِدِ
أو أنزل الله وحياً أن يعذِّبها ... إن لم تَعدْ لقتالِ الأزْد لم تَعد
وكلُّ لؤْمٍ أَباد الله سُبّته ... ولؤْم ضَبَّة لم يَنقص ولم يَزد[4]
لو كان يَخفَى على الرحمٰن خافية ... من خلْقه خفِيتْ عنه بنو أَسَد
قوْم أقامَ بدار الذلِّ أوّلهم ... كما أقامت عليه جِذْمة الوَتدِ[5]

ومن قول المساور بن هند:

ما سرَّني أن قوْمي من بني أسَدٍ ... وأن ربي يُنجِّيني من النار

(١) الأشاقر: هم بنو عائذ بن دوس.
(٢) الطحلب: خضرة تعلو الماء الآسن.
(٣) مدقّ: يريد وقع الحوافر
(٤) السُّبّة: العار. (٥) الجذمة: القطعة.

وأنهم زوّجوني من بناتِهم   وأن لي كل يومٍ ألفَ دينار

ومن أَخبث الهجاء من غير إقذاع[1] :

بلاد نأى عني الصَّديق وسَبَّني   بها عَنزيٌّ ثم لم أتكلَّم

وقال عبَيد :

يا أَبا جعفر كتبْتكَ سَمْحاً   فاستَطالَ المِداد فالمِيم لامُ
لا تَلْمني على الهِجاء فلم يَهْـ   ـجُكَ إلا المِداد والأقلام[2]

وقال سليمان بن أبي شيخ : كان أبو سعيد الراني يماري اهل الكوفة ويفضل أهل المدينة ، فجاءه رجل من أهل الكوفة وسماه شرشيرا ، وقال : كلب في جهنم يسمى شرشيرا ، فقال :

عندي مَسائل لا شرِشير يعرفها   إنْ سِيلَ عنها ولا أصحاب شرشِير
وليس يَعرف هذا الدِّين معرفةً   إلا حَنيفيَّةٌ كوفيَّة الدُّور
لا تَسأَلَنَّ مَدينيًّا فتكْفرَه   إلا عن البَمِّ والمَثْنى أو الزِّير[3]

فكتب أبو سعيد إلى اهل المدينة : إنكم قد هُجيتم فردّوا . فردّ عليه رجل من أهل المدينة يقول :

لقد عَجبْتُ لغاوٍ ساقَه قَدر   وكل أمر إذا ما حُمَّ مقْدورُ
قالوا المدينة أرضٌ لا يكون بها   إلا الغِناءُ وإلا البُّم والزِّير
لقد كذَبتَ لَعَمْر الله إنَّ بها   قبرَ النبيِّ وخير الناس مقبور

قال : فما انتصر ولا انتصِر به ، فليته لم يقل شيئا .

وقال مساور الوراق في أهل القياس :

كنَّا من الدِّين قبلَ اليوم في سَعةٍ   حتى بُلينا بأصحاب المقاييس[4]

---

(١) الإقذاع : الشتم .   (٢) المداد : الحبر

(٣) البمّ : الوتر الغليظ من أوتار العود .

(٤) المقاييس : جمع القياس : وهو حمل فرع على أصل لعلة مشتركة بينهما (في الفقه)

قاموا من السُّوق إذ قلَّت مكاسبهم فاستَعمَلوا الرأيَ بعد الجُهد والبوس[1]
أمَّا الغريب فأمسَوْا لا عطاء لهم وفي الموالي علامات المفاليس

فلقيه ابو حنيفة، فقال له: هجوتنا! نحن نرضيك. فبعث إليه بدراهم، فكف عنه وقال:

إذا ما الناسُ يوماً قايَسونا بمسألة من الفُتيا ظريفَهْ[2]
أتيناهُم بِمقياسٍ صحيحٍ بديعٍ من طرازِ أبي حنيفَه
إذا سمعَ الفقيهُ بها وعاها وأثبتَها بحبر في صحيفَهْ

ومن خبيث الهجاء قول الشاعر:

عجبْتُ لعبْدانٍ هجوني سفاهةً أن اَصطبحُوا من شائِهم وتفيَّلوا[3]
بجادٌ وريسانٌ وفِهرٌ وغالبٌ وعونٌ وهدمٌ وابن صفوةَ أخيلُ[4]
فأمّا الذي يُحصيهُم فمكثِّرٌ وأمّا الذي يُطريهمُ فمقلِّلُ

وقال أبو العتاهية في عبد الله بن معن بن زائدة:

قال آبن معنٍ وجلى نفسَهُ على القرباتِ من الأهلِ
هل في جواري الحيِّ من وائلٍ جاريةٌ واحدةٌ مثلي
أكنَى أبا الفضل فيامن رأى جاريةً تُكنَى أبا الفضلِ
قد نقطَت في خدِّها نقطةً مخافةَ العين من الكحلِ

مداراة الشعراء وتقيتهم[5]

سليمان والخليل وبعض المادحين

أبو جعفر البغدادي قال: مدح قومٌ من الشعراء جعفر بن سليمان بن علي بن عبد

(١) البوس: البؤس.
(٢) قايس: قدّر
(٣) تفيّل: ضعف رأيه، أو سمن حتى صار كالفيل.
(٤) الأخيل: المختال. (٥) التقية: الاتقاء

الله بن عباس، فماطلهم بالجائزة؛ وكان الخليلُ بن أحمد صديقَه، وكان وقتَ مدحهم إياه غائباً، فلما قدم الخليل أتَوه فأخبروه، فاستعانوا به عليه؛ فكتب إليه:

لا تقبلـــنَّ الشعــر ثمّ تعُقَّـــه وتنـامُ والشعـراءُ غير نِيـام[1]
واعلم بـأنّهـم إذا لم يُنصَفــوا حكموا لأنفُسهم على الحكّام
وجنـايــةُ الجاني عليهـم تنقضي وعقـابُهـم بـاق على الايــامِ

فأجازهم وأحسن اليهم.

النبي ﷺ وابن مرداس

وقال النبي ﷺ لما مدحه عباس بن مرداس: اقطعوا عني لسانه. قالوا: بماذا يا رسول الله؟ فأمر له بحلة قطع بها لسانه.

ومدح ربيعة الرقّيُّ يزيد بن حاتم وهو والي مصر، فتشاغل عنه ببعض الامور واستبطأه ربيعة فشخص من مصر، وقال:

أرانِـي ولا كُفــرانَ لله راجعــاً بُخُفَّيْ حُنيْن من نوالِ آبن حاتمِ[2]

فبلغ قوله يزيد بن حاتم، فأرسل في طلبه وردّه، فلما دخل عليه قال له: انت القائل:

أراني ولا كفــران الله راجعـــاً بخفـي حُنين مـن نـوال ابن حـاتم

قال: نعم. قال: هل قلت غير هذا؟ قال: لا. قال: والله لترجعن بخفَّيْ حنين مملؤة مالا! فأمر بخلع خُفَّيه، وأن تملآ له مالا؛ ثم قال: أصلح ما أفسدت من قولك؛ فقال فيه لما عزل عن مصر وولي مكانه يزيد بن السلمي:

بكى اهلُ مصرٍ بالدموعِ السواجِـم غداةَ غدا منها الأغرُّ آبن حـاتم[3]

(١) عقّ الشيء: جعله غير مرغوب فيه.

(٢) النوال: النصيب والعطاء.

(٣) السواجم: التي تسيل.

لشتانَ ما بين اليزيدَيْـن في النـدى   يزيدِ سُليمٍ والأغـر ابنِ حـاتمِ [1]
فهـمٌّ الفتى الأزْدِيِّ إنفـاقُ مـالـهِ   وهـمٌّ الفتى القيسيِّ جمعُ الدراهـمِ
فلا يحسَـب التَّمْتـامُ أني هجـوتُـه   ولكنّني فضلْـتُ أهــلَ المكــارم

واعلم أن تقية الشعراء من حفظ الأعراض التي أمر الله تعالى بحفظها ؛ وقد وضعنا في هذا الكتاب باباً فيمن وضعه الهجاء، ومن رفعه المدح .

تيم عامل زياد ومادح له

وكان لزياد عامل على الاهواز يقال له تَيم، فمدحه رجل من الشعراء، فلم يُعطه شيئاً، فقال الشاعر: اما اني لا أهجوك، ولكني أقول فيك ما هو شر عليك من الهجاء . فدخل على زياد فأسمعه شعراً مدحه فيه، وقال في بعضه:

وكـائِـن عنـد تيمٍ مـن بُـدورٍ   إذا ما صُفّـدتْ تـدعـو زيـادا [2]
دعتـهُ كـي يُجيـبَ لها وشيكـا   وقد مُلئت حناجـرُهـا صفـادا [3]

فقال زياد: لبّيكِ يا بدور! ثم أرسل فيه فأغرمه مائة ألف .

باب في رواة الشعر

قال الأصمعي: ما بلغت الحلمَ [4] حتى رويت اثنى عشر ألف أرجوزة للأعراب .
كان خلف الأحمر أروى الناس للشعر وأعلمهم بجيِّده .
قال مروان بن أبي حفصة: لما مدحتُ المهدي بشعري الذي أوله:

طَرقَتْكَ زائِرةً فحـيِّ خيـالَهـا   بيضـاءُ تخلِـطُ بـالحيـاء دلالها

أردت أن أعرضه على قرّاء البصرة، فدخلت المسجد الجامع، فتصفحت الحلَق فلم

(١) الندى: الكرم
(٢) صفّدت: جعلت في الأصفاد: غلّت وحبست .
(٣) الصِّفاد: ما يوثق به من قيد وغلّ .
(٤) بلغ الحلم: بلغ مبلغ الرجال .

أر حلَقة أعظمَ من حلْقة[1] يونس النحْوي، فجلست إليه، فقلت له: إني مدحت المهدي بشعر، وأردت ألا أرفعه حتى أعرضَه على بصرائكم، وإني تصفحت الحلَق فلم أر حلقة أحفل من حلقتك؛ فإن رأيت أن تسمعه مني فافعل. فقال: يا ابن أخي، إن ههنا خلفا، ولا يمكن أحدنا أن يسمع شعراً حتى يحضر، فإذا حضر فأسمعْه. فجلست حتى أقبل خلف الأحمر، فلما جلس جلست إليه، ثم قلت له ما قلت ليونس؛ فقال: أنشدْ يا بن أخي؛ فأنشدته حتى أتيت على آخره فقال لي: أنت والله كأعشى بكر، بل أنت أشعر منه حيث يقول:

رحلت سُميَّةُ غدوةً أجمالها غضْبَى عليكَ فما تقولُ بَداها

وكان خلف مع روايته وحفظه يقول الشعر فيُحسن وينحله[2] الشعراء. ويقال إن الشعر المنسوب إلى ابن أخت تأبط شرّاً، وهو:

إنّ بالشعبِ الذي دون سلعٍ لقتيلا دمُه ما يُطلّ[3]

لخلف الأحمر، وإنما ينحله إياه.

وكذلك كان يفعل حمادٌ الراوية: يخلط الشعر القديم بأبيات له.

قال حماد: ما من شاعر إلا قد زدت في شعره أبياتاً فجازت عليه، إلا الأعشى، أعشى بكر؛ فإني لم أزد في شعره قط غير بيت فأفسدت عليه الشعر. قيل له: وما البيت الذي أدخلته في شعر الأعشى؟ فقال:

وأنكرَتْني وما كان الذي نَكِرت من الحوادثِ إلا الشيبَ والصَّلعا

قال حماد الراوية: أرسل إليّ أبو مسلم ليلاً، فراعني ذلك، فلبست أكفاني ومضيت؛ فلما دخلت عليه تركني حتى سكن جاشي[4]، ثم قال لي: ما شعرٌ فيه

---

(١) الحلقة: مجلس العلم.

(٢) ينحل: ينسب اليه القول وليس بقائله

(٣) سلع: موضع بقرب المدينة

(٤) الجأش: الاضطراب من حزن أو فزع.

أوتاد؟[1] قلت: من قائله أصلح الله الأمير؟ قال: لا أدري. قلت: فمِن شعراء الجاهلية أم شعراء الإسلام؟ قال: لا أدري. قال: فأطرقت حيناً أفكِّر فيه، حتى بدر إلى وهمي شعر الأفوه الازدي حيث يقول:

لا يصلُح الناسُ فوضى لاسَراةَ لهم ... ولا سَراةَ إذا جُهّالهم سادوا[2]
والبيتُ لا يبتَنى إلا له عمدٌ ... ولا عِمادَ إذا لم تُرسَ أوْتاد
فإن تجمّعَ أوتادٌ وأعمدةٌ ... يوماً فقد بلغوا الأمرَ الذي كادوا

فقلت: هو قول الأفوه الأزدي أصلح الله الأمير، وأنشدته الأبيات، فقال: صدقت، انصرف إذا شئت! فقمت، فلما خطوت الباب لحقني أعوان له ومعهم بدرة،[3] فصحبوني إلى الباب؛ فلما أردت أن أقبضها منهم، قالوا: لا بد من إدخالها إلى موضع منامك! فدخلوا معي، فعرضت أن أعطيهم منها شيئاً، فقالوا: لا تقدم على الأمير.

الأصمعي قال: أقبل فتيانٌ إلى أبي ضمضم بعد العشاء، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا نتحدث إليك. قال: كذبتم يا خبثاء! ولكن قلتم: كبر الشيخ فهلُم بنا عسى أن نأخذ عليه سقطة[4]! قال: فأنشدهم لمائة شاعر كلهم اسمه عمرو. قال الأصمعي: تحدثت أنا وخلف الأحمر فلم نزد على أكثر من ثلاثين.

وقال الشعبي: لست لشيء من العلوم أقل رواية من الشعر، ولو شئت لأنشدتُ شهراً ولا أُعيد بيتاً!

وكان الخليل بن أحمد أروى[5] الناس للشعر ولا يقول بيتاً.

---

(١) يريد فيه لفظة «أوتاد».
(٢) السَّراة: جمع سري: وهو الشريف.
(٣) البدرة: كيس فيه مبلغ من المال يعطى كجائزة.
(٤) سقطة: زلّة.
(٥) الأروى: الأكثر رواية.

وكذلك كان الأصمعي. وقيل للأصمعي: ما يمنعك من قول الشعر؟ قال: نظري لجيِّده.

وقيل للخليل: مالك لا تقول الشعر؟ قال: الذي أريده لا أجده، والذي أجدُه لا أريدُه.

وقل لآخر: مالك تروي الشعر ولا تقوله؟ قال: لأني كالمِسَنِّ: أشْحَذ ولا أقطع.

وقال الحسن بن هانيء: رويت أربعة آلاف شعر، وقلت أربعة آلاف شعر، فما رزأت [١] لشاعر شيئاً.

الرشيد والأصمعي:

القاسم بن محمد السّلاميّ قال: حدثنا أحمد بن بشر الأُطروش قال: حدثني يحيى بن سعيد قال: أخبرني الأصمعي قال: تصرفتْ بِيَ الأسباب [٢] إلى باب الرشيد مؤملاً للظفر، بما كان في الهمة دفينا، أترقب به طالع سعد، فاتصل بي ذلك إلى أن صرت للحرس مؤانساً بما استملت به مودّتهم، فكنت كالضيف عند أهل المبرّة، فطرفهم متوجهة بإتحافي، وطاولتني الغايات بما كدت به أن أصير إلى ملالة، غير أني لم أزل مُحْيياً للأمل بمذاكرته عند اعتراض الفترة، وقلت في ذلك:

وأيُّ فتًى أُعِيرَ ثباتَ قلب ... وساع ما تضيق به المعاني
تَجاذَبُه المواهبُ عن إباء ... ألا بل لا تُواتيه الأماني
فرُبّ مُعَرِّسٍ لليأس أجلى ... عن الدَّرْكِ الحميد لدى الرِّهان [٣]
وأيُّ فتى أناف على سُمُوٍ ... من الهِمَّات ملتهب الجَنان
بغير توسُّع في الصدر ماض ... على العزَمات والعَضْب اليماني [٤]

فلم نَبْعد أن خرج علينا خادم في ليلة نثرت السعادة والتوفيق فيها الأرقَ بين

---

(١) رزأت: نقصت. (٢) الأسباب: الحيل، والطرق.
(٣) المعرّس: الذي لزم القتال ولم يبرحه.
(٤) العضْب: السيف القاطع أو اللسان الحاد.

أجفان الرشيد، فقال: هل بالحضرة أحد يحسن الشعر؟ فقلت: الله أكبر! رب قيد مضيقة قد فكه التيسير للإنعام! أنا صاحبك إن كان صاحبك من طلب فأدمن، وحفظ فأتقن. فأخذ بيدي. ثم قال: ادخل أن يختم الله لك بالإحسان لديه والتصويب، فلعلها أن تكون ليلة تعوِّض صاحبتها الغنى. قلت: بشّرك الله بالخير! قال: ودخلت، فواجهت الرشيد في البهو جالساً كأنما ركب البدر فوق أزراره جمالاً، والفضل بن يحيى إلى جانبه، والشمع يحدق به على قضب المنابر، والخدم فوق فرشه وقوف؛ فوقف بي الخادم حيث يسمع تسليمي، ثم قال: سلِّم! فسلمت، فردّ؛ ثم قال: يُنحَّى قليلاً روعُه، إن وجد لروعه حسّاً. فقعدت حتى سكن جأشي قليلاً، ثم أُقْدِمت، فقلت: يا أمير المؤمنين، إضاءة كرمك، وبهاءُ مجدك، مجيران لمن نظر إليك من اعتراض أذية له؛ أيسألني أمير المؤمنين فأجيب، أم أبتدىء فأصيب، بيُمن أمير المؤمنين وفضله؟ قال: فتبسم الفضل، ثم قال: ما أحسن ما استدعى الاختبار استسهل به المفاتحة؛ وأجدر به أن يكون محسِناً. ثم قال الفضل: والله يا أمير المؤمنين لقد تقدّم مبرِّزاً محسناً في استشهاده على براءته من الحيرة، وأرجو أن يكون ممتعاً. قال: أرجو. ثم قال: آدن. فدنوت، فقال: أشاعر أم راوية؟ قلت: راوية يا أمير المؤمنين. قال: لمن؟ قلت: لذي جدّ وهزل بعد أن يكون محسناً. قال: والله ما رأيت أدعى لعلم، ولا أخبَرَ بمحاسن بيان فتقتْه[1] الأذهان منك؛ ولئن صرت حامداً أثرك لتعرفن الإفضال متوجّهاً إليك سريعاً. قلت: أنا على الميدان يا أمير المؤمنين، فيطلق أمير المؤمنين من عقالي مُجيبا فيما أحبه قال:

قد أنصف القارةَ من راماها

ثم قال: ما معنى المثل في هذه الكلمة بديّاً؟ قلت: ذكرت العرب يا أمير المؤمنين أن التبابعة كانت لهم رُماة لا تقع سهامهم في غير الحدق، فكانت تكون في الموكب الذي يكون فيه الملك، على الجياد البُلْق[2]، بأيديهم الأسورة وفي أعناقهم الأطواق؛

---

(١) فتق: قوّم ووسّع.

(٢) الجياد البُلق: التي فيها سواد وبياض.

فخرج من موكب الصُّغد فارس مُعْلَم[1] بعذبات[2] سود في قلنسوته، قد وضع نشابته في الوتر، ثم صاح: أين رماة الحرب؟ قالوا: قد أنصف القارة من راماها. والملك أبو حسان إذ ذاك المضاف إليه.

قال الرشيد: أحسنت؛ أرويت للعجاج ورؤبة شيئاً؟ قلت: هما يا أمير المؤمنين يتناشدان لك بالقوافي وإن غابا عنك بالأشخاص. فمد يده فأخرج من تحت فراشه رقعة، ثم قال: أسمعني. فقلت:

أرَّقَني طارقُ همٍ طَرَقا

فمضيت فيها مُضيَّ الجواد في سَنَن ميدانه، تَهدر بها أشداقي، حتى إذا صرت إلى مدح بني أمية ثنيت عنان اللسان إلى امتداحه المنصور في قوله:

قلت لزيرٍ لم تصله مريَمُهْ[3]

قال: أعن حيرة أم عن عمد؟ قلت: عن عمْد؛ تركت كذِبَه إلى صدقه فيما وصف به المنصور من مجده. قال الفضل: أحسنت بارك الله فيك، مثلك يؤمل لهذا الموقف. قال الرشيد: ارجع إلى أول هذا الشعر. فأخذت من أوله حتى صرت إلى صفة الجمل فأطلت، فقال الفضل: مالك تضيِّق علينا كلَّ ما اتسع لنا من مساعدة السَّهر في ليلتنا هذه بذكر جمل أجرب؟ صِره إلى امتداح المنصور حتى تأتي على آخره. فقال الرشيد: اسكت، هي التي أخرجتك من دارك، وأزعجتك من قرارك، وسلبتك تاجَ مُلكك؛ ثم ماتت، فعُمل جلودُها سياطا تضرب بها قومُك ضرب العبيد! ثم قهقه، ثم قال: لا تدع نفسك والتعرض لما تكره. فقال الفضل: لقد عوقبت على غير ذنب، والحمد لله! قال الرشيد: أخطأت في كلامك يرحمك الله! لو قلت: وأستغفر الله! قلت صوابا، إنما يحمد الله على النِّعم. ثم صرف وجهه إليّ وقال: ما

(١) الفارس المعلم: الذي له علامة في الحرب.

(٢) العذبات: جمع عذبة، وهي طرف الشيء. يريد أسبل لعمامته عذبتين من خلفها.

(٣) زير، أي زير نساء. ومريمه: امرأة.

أحسن ما أدّيت في قدر ما سئلت! أسمعني كلمة عدي بن الرقاع في الوليد بن يزيد ابن عبدالملك، قوله:

عرف الديارَ توهُّما فاعتادها

فقال الفضل. يا أمير المؤمنين، ألبستنا ثوب السهر ليلتَنا هذه لاستماع الكذب! لم تأمره يُسمعك ما قالت الشعراء فيك وفي آبائك؟ قال: ويحك! إنه أدب وقلما يُعتاض عن مثله؛ ولأن أسمع من ثقيف بعبارة تشغله العناية بها عمره، أحبُّ إليّ من أن تشافهني به الرسوم؛ وللممتدَح بهذا الشعر حركاتٌ سترد عليك، ولا تقدر أن تصدر من غير انتفاع بها؛ ولا أكون أول مستنٍّ طريقة ذكر لم تؤدها الرواية. قال الفضل: قد والله يا أمير المؤمنين شاركتك في الشوْق، وأعنتك على التَّوْق، ثم التفت إليّ الفضل فقال: آحدُبنا ليلتك منشداً، هذا سيدي أمير المؤمنين قد أصغى إليك مستمعاً، فمرّ ويحك في عنان الإنشاد، فهي ليلة دهرك لم تنصرف إلا غانما. قال الرشيد: أما إذ قطعت علي فاحلف لتشركني في الجزاء؛ فما كان لي في هذا شيء لم تقاسمنيه. قال الفضل: قد والله يا أمير المؤمنين وطنت[1] نفسي على ذلك متقدماً فلا تجعلنّه وعيداً، قال الرشيد: لا أجعله وعيداً. قال الأصمعي: الآن ألبس رداء التِّيه على العرب كلِّها، وإني أرى الخليفة والوزير وهما يتناظران في المواهب لي، فمررت في سنن الإنشاد حتى بلغت إلى قوله:

تُـزْجـي أَغَـنّ كـأنّ إبـرةَ رَوْقِـه   قلمٌ أصاب من الدَّواةِ مـدادَهـا[2]

فاستوى جالساً، ثم قال: أتحفظ في هذا شيئاً؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين؛ كان الفرزدق لما قال عدي:

تزْجى أغَنّ كأنّ إبرةَ روْقِه

---

(١) وطّن نفسه: عوّدها.

(٢) الأغنّ: الذي في صوته غنّه.

قلت لجرير: أيُّ شيء تراه يناسب هذا تشبيها ؟ فقال جرير:

قلمٌ أصاب من آلدَّواةِ مدادَها

فما رجع الجواب حتى قال عدي:

قلمٌ أصابَ من آلدَّواة مدادَها

فقلت لجرير: ويحك لكأن سمعَك مخبوءٌ في فؤاده! فقال جرير: اسكت، شغلني سبُّك عن جيِّد الكلام!

ثم قال الرشيد: مُرَّ في إنشادك. فمضيت حتى بلغت إلى قوله:

ولقـــد أراد آلله إذ ولاَّكهـــا   مـن أُمّـةٍ إصلاحَها ورشـادَهـا

قال الفضل: كذب وما برّ. قال الرشيد: ماذا صنع إذ سمع هذا البيت؟ قلت: ذكرَت الرواة يا أمير المؤمنين أنه قال: لا حول ولا قوة إلا بالله! قال: مُرَّ في إنشادك، فمضيت حتى بلغت إلى قوله:

تـأتيـه أسلابُ الأغـرّةِ عَنْـوةً   عُصَباً ويَجمع للحروب عَتادَهـا[1]

قال الرشيد: لقد وصفه بحزم وعزم لا يعرض بينهما وكل[2] ولا استذلال: قال: فماذا صنع؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ذكرت الرواة أنه قال: ما شاء الله! قال: أحسبك واهماً. قلت: يا أمير المؤمنين، أنت أولى بالهداية، فليردّني أميرُ المؤمنين إلى الصواب. قال: إنما هذا عند قوله:

ولقـــد أراد اللهُ إذ ولاّكَهـــا   من أُمّةٍ إصلاحَهـا ورشـادَهـا

ثم قال: والله ما قلت هذا عن سمع، ولكنني أعلم أنّ الرجل لم يكن يخطىء في مثل هذا. قال الأصمعي: وهو والله الصواب. ثم قال: مر في إنشادك. فمضيتُ حتى بلغت إلى قوله:

---

(١) الأغرة: جمع الغرير، وهو الشاب لا تجربة له.

(٢) الوكل: العجز والجبن.

وعَلِمتُ حتى لا أُسائل واحداً ... عن حرْفِ واحدةٍ لكي أزدادَها

قال: وكان من خبرهم ماذا؟ قلت: ذكرت الرواة أنّ جريراً لما أنشد عدي هذا البيت، قال: بلى والله وعشر مئين[1]. قال عدي: وقر[2] في سمعك أثقل من الرصاص؛ هذا والله يا أمير المؤمنين المديح المنتقى. قال الرشيد: والله إنه لنقيّ الكلام في مدحه وتشبيبه. قال الفضل: يا أمير المؤمنين، لا يحسن عدي أن يقول:

شُمْسُ العداوة حتى يُستقادَ لهم ... وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قدَروا

قال الرشيد: بلى قد أحسن. ثم التفت إليّ فقال: ما حفظت له في هذا الشعر شيئاً حين قال:

أطفأتَ نيرانَ الحروب وأُوقِدتْ ... نارٌ قدحتَ براحتيْكَ زنادَها[3]

قلت: ذكرت الرواة أنه يا أمير المؤمنين حك يميناً بشمال مقتدحا بذلك، ثم قال: الحمد لله على هبة الإنعام. ثم قال الرشيد: رويت لذي الرُّمّة شيئاً؟ قلت: الأكثر يا أمير المؤمنين. قال: والله لا أسألك سؤال امتحان، ولا كان هذا عليك، ولكنني أجعله سبباً للمذاكرة، فإن وقع عن عرفانك، وإلا فلا ضيقَ عليك بذلك عندي؛ فماذا أراد بقوله:

مُمَرٌّ أَمرَّتْ مَتْنَه أَسَدِيَّة ... يمانيَّةٌ حلاّلةٌ بالمصانعِ[4]

قلت: وصف يا أمير المؤمنين حماراً وحشيّاً أسمنه بقلُ روضة تشابكت فروعه، ثم تواشجت عروقه، من قطر سحابة كانت في نوء الأسد، ثم في الذراع منه. قال: أصبت، أفترى القوم علموا هذا من النجوم، بنظرهم، إذ هو شيء قلما يُستخرج بغير أسباب للذين رُويتْ لهم أصوله، أو أدّتهم إليه الأوهام والظنون؟ فالله أعلم بذلك.

(١) مئين: جمع مئة. (٢) وَقْرت الأذن: ثقل سمعها.

(٣) الراحة: باطن اليد.

(٤) ممر: مدمج الخلق مفتول. وأمرت متنه: أدمجته. وأسدية: سحابة بنؤ الأسد.

قلت: يا أمير المؤمنين، هذا كثير في كلامهم، ولا أحسبه إلا عن أثر[1] أُلقيَ إليهم. قال: قلما أجد الأشياء لا تثيرها إلا الفِكرُ في القلوب، فإن ذهبتَ إلى أنه هبة الله. قال: ذهبتَ إلى ما أدّتهم إليه الأوهام. ثم قال: أرويت للشماخ شيئاً؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: يعجبني منه قوله:

إذا رُدّ من ثِنْي الزِّمام ثنتْ له   جِراناً كخُوط الخيزُران المموَّجِ[2]

قلت: يا أمير المؤمنين، هي عروسُ كلامه. قال: فأيها الحسن الآن من كلامه؟ قلت: الرائية. وأنشدته أبياتاً منها، قال: أمسك؛ ثم قال: أستغفر الله ثلاثا؛ أرح قليلا واجلس، فقد أمتعتَ منشداً، ووجدناك محسناً في أدبك، معبراً عن سرائر حفظك، ثم التفت إلى الفضل، فقال: لكلام هؤلاء ومن نقدّم من الشعراء، ديباج الكلام الخسرواني[3] يزيد على القِدم جدّة وحُسنا، فإذا جاءك الكلام الزيَّن بالبديع، جاءك الحرير الصيني المذهب، يبقى على المحادثة في أفواه الرُّواة، فإذا كان له رونق صواب، وعتْه الأسماع، ولذَّ في القلوب، ولكن في الأقل منه؛ ثم قال: يُعجبني مثل قول مسلم في أبيك وأخيك الذي افتتحه بمخاطبة حليلته مفتخراً عليها بطول السُّرَى في اكتساب المغانم حيث قال:

أجَدكِ هل تدْرين أنْ رُبَّ ليلةٍ   كأنّ دُجاها من قرونِكِ يُنْشَرُ[4]
صبَرتُ لها حتى تجلَّت بغُرَّةٍ   كغرّة يَحيَى حين يُذكر جعفرُ[5]

أفرأيت؟ ما ألطف ما جعلهما معدناً لكمال الصفات ومحاسنها! ثم التفت إليّ فقال: أجدُ مَلالة، ولعل أبا العباس يكون لذلك أنشط، وهو لنا ضيفٌ في ليلتنا هذه، فأقم معه مسامراً له! ثم نهض، فتبادر الخدم، فأمسكوا بيده حتى نزل عن فرشه، ثم

---

(١) الأثر: ما خلفه السابقون.
(٢) الخوط: الغصن الناعم، أو القضيب. والجران: باطن العنق من البعير وغيره.
(٣) الخسرواني: نوع من الثياب.
(٤) القرن: موضع القرن من رأس الانسان
(٥) الغرّة: الطلعة.

قدمت النعلُ، فلما وضع قدمه فيها جعَل الخادم يسوّي عقب النعل في رجله، فقال: آرفق ويحك، حسْبك قد عقرتني!

قال الفضل: لله درّ العجم ما أحكـم صنعتَهم، لو كانت سنديَّة ما احتجتَ إلى هذه الكلفة! قال: هذه نعلي ونعلُ آبائي رحمة الله عليهم، وتلك نعلك ونعل آبائك، لا تزال تعارضني في الشيء ولا أدعك بغير جواب يُمِضُّك[1] ثم قال: يا غلام، عليّ بصالح الخادم. فقال: يؤمَر له بتعجيل ثلاثين ألف درهم في ليلته هذه.

قال الفضل: لولا أنه مجلس أمير المؤمنين ولا يأمر فيه أحدٌ غيره، لدعوت له بمثل ما أمر به أميرُ المؤمنين، فدعا له بمثل ما أمر إلا ألفَ درهم ويصبح من غدٍ فيلقى الخازن إن شاء الله.

قال الأصمعي: فما صليت الظهر إلا وفي منزلي تسعة وخمسون ألف درهم.

وقال دعبل بن علي الخزاعي:

يموتُ رديءُ الشِّعر من قبـل أهلـه   وجيِّـدُه يَبقـى وإن مـات قـائلُـهْ

وقال أيضاً:

إني إذا قلـتُ بيتـاً مـات قـائلـه   ومَن يُقـال لـه، والبيـتُ لم يَمـت

باب من استعدى عليه من الشعراء

عمر بن الخطاب بين الحطيئة والزبرقان:

لما هجا الحطيئة الزبرقانَ بن بدر بالشعر الذي يقول فيه:

دعِ المكـارمَ لا تَـرحـلْ لبُغيَتِهـا   وآقعد فإنكَ أنت الطاعِـم الكـاسي

استعدى عليه[2] عمرَ بن الخطاب، وأنشده البيت، فقال: ما أرى به بأسا! قال

(١) يمضّ: يؤلم.

(٢) استعدى عليه: استنصر عليه.

الزبرقان: والله يا أمير المؤمنين، ما هُجيتُ ببيت قط أشدّ عليّ منه! فبعث إلى حسان ابن ثابت وقال: انظر إن كان هجاه. فقال: ما هجاه، ولكن سلَح عليه!ـ ولم يكن عمر يجهل موضع الهجاء في هذا البيت، ولكنه كره أن يتعرّض لشأنه، فبعث إلى شاعر مثله ـ وأمر بالحطيئة إلى الحبس، وقال: يا خبيث، لأشغلنَّك عن أعراض المسلمين. فكتب إليه من الحبس يقول:

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذي مَرَخٍ   زُغْبِ الحواصِلِ لا ماءٌ ولا شجر[1]
أَلْقيْتَ كاسِبَهم في قعْر مُظلمةٍ   فاغفْر عليك سلامُ الله يا عُمر
أنت الإمام الذي من بَعد صاحبه   أَلقتْ إليك مقاليدَ النُّهَى البشَر
ما آثَروك بها إذ قدّموك لها   لكنْ لأنفسِهم قد كانت الإثَر[2]

فأمر بإطلاقه وأخذ عليه ألاّ يهجوَ رجلاً مسلماً.

عمر والنجاشي ورهط ابن مقبل:

ولما هجا النجاشيَّ رهطَ تميم بن مقبل، استعْدَوْا عليه عمرَ بن الخطاب، وقالوا: يا أمير المؤمنين، إنه هجانا! قال: وما قال فيكم؟ قالوا: قال:

إذا ٱللّهُ عادَى أهلَ لؤمٍ ورقَةٍ   فعادَى بني عجلانَ رهْط ابن مُقْبلِ

قال عمر: هذا رجل دعا؛ فإن كان مظلوماً استُجيب له، وإن لم يكن مظلوماً لم يُسْتَجب له.

قالوا: فإنه قد قال بعد هذا:

قبيلتُه لا يَخفِرونَ بذِمَّةٍ   ولا يَظلمون الناسَ حبَّةَ خَرْدَلِ[3]

قال عمر: ليت آل الخطاب مثل هؤلاء. قالوا: فإنه يقول بعد هذ:

---

(١) ذو مرخ: واد بين فدك والوابشية.
(٢) الإثر: الخيرة والاستئثار.
(٣) حبة الخردل: يضرب بها المثل في الصغر، والخردل: نبات عشبي تستعمل بزوره في الطب.

ولا يَـــــرِدُون الماءَ إلا عشيَّـــــةً إذا صَدَرَ الورَّاد عن كل مَنهَـلِ [1]

قال عمر: فإن ذلك أجم[2] لهم وأمكن. قالوا فإنه يقول بعد هذا:

ومـا سُمِّـــى العجلانَ إلا لقـــولهم خُذِ القعب واحْلبْ أيُّها العبدُو اعْجل [3].

قال عمر: سيد القوم خادمهم. فما أرى بهذا بأساً.

معاوية وأبو بردة وعقيبة:

ونظير هذا قول معاوية لأبي بردة بن أبي موسى؛ وكان دخل حماماً فزحمه رجلٌ، فرفع الرجلُ يده فلطم بها أبا بردة فأثر في وجهه، فقال فيه عُقيبة الأسدي:

فلا يصرمُ اللهُ اليمينَ التي لها بوجهِكَ يا بن الأشعرِين نُـدوبُ [4]

قال: فاستعدى عليه معاوية، وقال: إنه هجاني! قال: وما قال فيك؟ قال. فأنشده البيت؛ قال معاوية: هذا رجل دعا ولم يقل إلا خيراً. قال: فقد قال غير هذا. قال: وما قال؟ فأنشده:

وأنت امْرؤٌ في الأشعرِين مُقـابَـلٌ وفي البيتِ والبطحاءِ أنتَ غريبُ [5]

قال معاوية: وإذا كنت مقابلاً في قومك فما عليك أن لا تكون مقابلاً في غيرهم؟ قال: فقد قال غير هذا. قال: وما قال؟ قال: قال:

وما أنا من حداث أمِّك بالضُّحـى ولا مَـن يُـزكيهـا بظهـر مَغيـــبِ

قال: إنما قال: ما أنا من حدّاث أمك. فلو قال إنه من حُدَّاثها لكان ينبغي لك أن تغضب؛ والذي قال لي أشدُّ من هذا. قال: وما قال لك يا أمير المؤمنين؟ قال: قال:

مُعـاوِيَ إننـا بشَـرٌ فـأسْجِـعْ فلسنـا بـالجبـالِ ولا الحديـدِ [6]

---

(١) المنهل: الورد: أي الموضع الذي فيه المشرب.

(٢) أجمّ لهم: اكثر إراحة.

(٣) القعب: القدح الضخم الغليظ

(٤) صرم: قطع

(٥) المقابل: الكريم من كلا طرفيه.

(٦) اسجح: أرفق، وأحسن العفو وتكرم.

أكلتم أرضَنــا وجـــذَذْتموهـــا فهل مــن قــائِـمٍ أو مــن حَصيــد
فهَبنـا أُمــةً هلَكــت ضيــاعـا يــزيــدُ أميرُهــا وأبــو يــزيــد
أتطمــعُ بــالخلــودِ إذا هلكنــا وليسَ لنــا ولا لــكَ مــن خلــود
ذَروا جــورَ الخلافــةِ واستقيمــوا وتــأمير الأراذِلِ والعبيـــد[1]

قال: فما منعك يا أمير المؤمنين أن تبعث إليه من يضرب عنقه؟ قال: أفلا خير من ذلك؟ قال: وما هو؟ قال: نجتمع أنا وأنت فنرفع أيدينا إلى السماء وندعو عليه. فما زاد على أن أزري[2] به.

زياد والفرزدق في قوم هجاهم:

استعدى قوم زياداً على الفرزدق وزعموا أنه هجاهم، فأرسل فيه وعرض له أن يعطيَه، فهرب منه وأنشد:

دعــاني زيــادٌ للعطـــاءِ ولم أكـــنْ لأقربه ما ساقَ ذو حسبٍ وفْــرا[3]
وعندَ زيادٍ لــو يــريــدُ عطـاءَهُــم رجــالٌ كثيرٌ قــد يَــرى بهم فقــرا
فلما خشِيــتُ أن يكــون عطـــاؤه أداهِمَ سودا أو مُحدْرجةً سُمــرا[4]
نهضْـــتُ إلى عنْس تخوّن نِيَّهـــا سُرى الليلِ واستِعراضُها البلدَ القفْرا[5]
يــؤُمّ بها المومــاة مَــنْ لا تــرى لــه لَدَى ابن أبي سُفيانَ جاهاً ولا عُذرا

ثم لحق بسعيد بن العاص وهو والي المدينة، فاستجار به وأنشده شعرَه الذي يقول فيه:

إليــكَ فــررتُ مِنــكَ ومــن زِيــادٍ ولم أحسِـــبْ دمـــي لكما حلالا
فــإنْ يكــنِ الهجــاءُ أحــلَّ قتلِــي فقــد قُلنــا لشــاعِــرِكم وقــالا

---

(١) الأراذل: جمع الأرذل: وهو الخسيس، أو الرديء من كل شيء.
(٢) أزرى به: تهاون به وقصرَ. (٣) الوفر: التام من كل شيء.
(٤) الأداهم: القيود. والمحدرجة: السياط المغارة المفتولة.
(٥) العنس: الناقة القوية، شبهت بالصخرة لصلابتها.

ترى الغُرَّ السَّوابقَ من قريشٍ إذا ما الأمرُ بالحدَثانِ عالا[1]
قياماً ينظُرون إلى سعيدٍ كأنهمُ يروْن به هِلالا

يزيد والأخطل في هجاء الانصار

ولما وقع التهاجي بين عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن أم الحكم أرسل يزيدُ ابن معاوية إلى كعب بن جعيل، فقال له: إن عبدَ الرحمن بن حسان فضح عبد الرحمن ابن الحكم فاْهْجُ الانصاري. فقال: أرادِّي أنت إلى الإشراك بعد الإيمان؟ لا أهجو قوماً نصروا رسول الله ﷺ، ولكن أدلُّك على غلام مناصري. فدله على الأخطل فأرسل إليه فهجا الأنصاري، وقال فيه:

ذَهَبت قريشٌ بالمكارِم كلِّها واللؤمُ تحت عمائِمِ الانصارِ
قومٌ إذا حضرَ العصيرُ رأيتَهم حُمراً عيونُهُمُ من المسطارِ[2]
وإذا نسبتَ إلى الفريعةِ خلتَهُ كالجحشِ بين حمارة وحمار
فدَعُو المكارِم لستُمُ من اهلِها وخُذوا مساحيَكم بني النجار[3]

وكان مع معاوية النعمان بن بشير الانصار، فلما بلغه الشعر أقبل حتى دخل على معاوية، ثم حسر العمامة عن رأسه وقال: يا معاوية، هل ترى من لؤوم؟ قال: ما أرى إلا كرما. قال: فما الذي يقول فينا عبد الأراقم:

ذهبت قريشٌ بالمكارِم كلِّها واللؤمُ تحتَ عمائمِ الانصارِ!

قال قد حكمتك فيه. قال: والله لا رضيت إلا بقطع لسانه، ثم قال:

معاويَ إلا تُعطِنا الحقَّ تعتَرفْ لِحي الازدِ مشدوداً عليها العمائمُ
أيَشْتُمُنا عبدُ الاراقم ضلَّة وما الذي تجدي عليك الاراقم[4]
فمالِيَ ثأرٌ دون قطعِ لسانِه فدونكَ من ترضيهِ عنكَ الدَّراهِم

---

(١) الحدثان: نوائب الدهر ومصائبه، أو الليل والنهار.

(٢) المسطار: ضرب من الشراب فيه حموضة.

(٣) المساحي: جمع مسحاة، وهي آله يسحى بها الطين عن وجه الأرض، أي يجرف.

(٤) الأراقم: جمع الأرقم: وهو ذكر الحيات أو أخبثها

فقال معاوية: قد وهبتك لسانه. وبلغ الاخطل، فلجأ إلى يزيد بن معاوية، فركب يزيد إلى النعمان فاستوهبه إياه، فوهبه له.

ومن قول عبد الرحمن بن حسان في عبد الرحمن بن أُم الحكم:

وأمّا قولُك الخلفاءُ منَّا ... فهم مَنعوا وريدكَ من وِداجي (١)
ولولاهُم لطحْتُ كحوتِ بَحْرٍ ... هوى في مُظلِمِ الغمراتِ داجِ (٢)
وهم دُعْجٌ وولْدُ أبيك زُرق ... كأنّ عيونَهم قطعُ الزجاجِ (٣)

وقال يزيد لابيه: إن عبد الرحمن بن حسان يشبب بابنتك رملة. قال: وما يقول فيها؟ قال: يقول:

هيَ بيضاءُ مثلُ لؤلؤةِ الغَوّا ... صِ صيغَت من لؤلؤٍ مكنونِ

قال صدق! قال: ويقول:

وإذا ما نسبتَها لم تجِدْها ... في ثناء من المكارم دون

قال: صدق أيضاً! قال: ويقول:

تجعل المسكَ واليلنْجُو ... جَ صِلاءَ لها على الكانون (٤)

قال: صدق قال: فانه يقول:

ثم خاصرتها إلى القبة الخضراء ... تمشي في مَرْمَرٍ مسنون (٥)

قال: كذب! قال: ويقول:

قبة من مراجلٍ ضربوها ... عند برد الشتاء في قيطون (٦)

قال: ما في هذا شيء. قال: تبعث إليه مَن يأتيك برأسه. قال: يا بنيّ، لو فعلت

---

(١) ودجه: قطع وداجه، وهو عرق في العنق.
(٢) طحت: تهت.
(٣) دعج: جمع أدعج: وهو الذي اشتد سواد عينه وبياضها.
(٤) البلنجوج: عود جيد.
(٥) المسنون: المصبوب على استواء.
(٦) المراجل: من ثياب اليمن. والقيطون. البيت في جوف بيت.

ذلك لكان أشدّ عليك؛ لانه يكون سبباً للخوض في ذكره، فيُكثر مُكثِر ويزيد زائد، آضرب عن هذا صفحا، وآطو دونه كشْحا.

يزيد وابن الرقيات في تشببه بعاتكة

ومن قول عبيد الله بن قيس. المعروف بالرقيات. يشبب بعاتكة بنت يزيد بن معاوية:

أعاتكَ يا بنتَ الخلائِف عاتكا ... أنيلي فتى امسى بحبِّك هالكا
تبدت وأترابا لها فقتلنني ... كذلك يُقتلن الرجالَ كذلك [1]
يُقلِّبن ألحاظا لهنَّ فواترا ... ويحمِلن ما فوق النِّعال السبائكا [2]
إذا غفَلت عنّا العيون التي نَرى ... سلكْن بنا حيثُ اشتهين المسالكا
وقلنَ لنا لو نستطيعُ لزَارَكم ... طبيبانِ منا عالمانِ بدائكا
فهل من طبيبٍ بالعراقِ لعله ... يُداوي سقيما هالكا مُتهالكا

فلم يعرض له يزيد، للذي تقدم من وصاية ابيه معاوية في رملة.

الحجاج وابن نمير في زينب

تحدثت الرواة ان الحجاج رأى محمد بن عبد الله بن نمير الثقفي، وكان يشبب بزينب بنت يوسف أُخت الحجاج، فارتاع من نظر الحجاج إليه، فدعا به، فلما وقف بين يديه قال:

فداكَ أبي ضاقت بيَ الارضُ رُحبها ... وإن كنت قد طوّقتُ كلّ مكان
وإن كنتُ بالعَنْقاء أو بتُخومها ... ظنَنتُك إلا أن يُصدّ تراني [3]

فقال: لا عليك، فوالله إن قلت الا خيراً! إنما قلت هذا الشعر:

يُخَبِّئن أطراف البَنان من التُقى ... ويَخرُجْن وسْط الليْل مُعْتجِرات [4]

---

(١) الأتراب: جمع ترب: وهو المماثل في السن، واكثر ما يستعمل في المؤنث.

(٢) السبائك: الخلاخيل.

(٣) التخوم: جمع التخم: وهو الحد الفاصل بين أرضين.

(٤) معتجرات: جمع معتجرة، وهي التي اختمرت بالعجار، ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها.

ولكن أخبرني عن قولك:

ولمّا رأت ركْبَ النُميْريِّ أعرَضَت ... وكُنّ من آنْ يَلقيْنه حَذِرات

في كم كنت؟ قال: والله إن كنت الا على حمار هزيل، ومعي رفيق على أتان مثله! قال: فتبسم الحجاج ولم يعرض له.

وهذه الابيات قالها ابن نمير في زينب بنت يوسف:

ولم تر عيْني مثل سِرْبٍ رأيتُه ... خَرَجْن من التنْعيم مُعْتمِراتِ[1]
مَرَرْن بفخٍ ثم رُحْن عشيةً ... يُلبِّين للرحمن مؤْتجراتِ[2]
تضوَّع مِسْكا بَطنُ نَعمانَ إذ مَشتْ ... به زينبٌ في نِسْوةٍ خفِرات
ولما رأت ركْبَ النُّمَيْريَّ أعرضت ... وكُنَّ مَن آنْ يَلقَيْنه حَذِرات
دعَت نسوَة شُمّ الَرانين بُدّنا ... نواضِرَ لاشُعْثا ولا غَبرات
فأدنيْنَ لما قمن يَحجُبْن دونَها ... حجابا من القسِّيِّ والحبَرات[3]
أحَلّ الذي فوق السموات عرشُه ... أوانِسَ بالبَطحاءِ مُعْتمرات
يُخبِّئْن أطرافَ البنان من التُّقى ... ويَخرُجْن وسْط الليل مُعْتجرات

هشام والفرزدق

وكان الفرزدق قد عرّض بهشام بن عبد الملك في شعره، والبيت الذي عرّض به فيه قوله:

يُقلّبُ عيْنا لم تكن لخليفة ... مُشوّهة حوْلاءَ جمّا عيوبُها[4]

فكتب هشام إلى خالد بن عبد الله القسري عامله على العراق يأمره بحبسه، فحبسه، حتى دخل جرير على هشام فقال: يا أمير المؤمنين، انك تريد أن تبسط يدك على بادِي مُضَرَ وحاضرَها، فأطلق لها شاعرَها وسيدَها الفرزدق. فقال له هشام: أو ما يسرك ما أخزاه الله؟ قال: ما أريد ان يخزيه الله إلا على يدي! فأمر باطلاقه.

---

(١) السرب: الفريق من الطير والحيوان. ويقال سرب من النساء على التشبيه بسرب الظباء.
(٢) فخّ: موضع بينه وبين مكة والمدينة ثلاثة أميال.
(٣) القسيّ: نسبة الى القس: مدينة على ساحل البحر قريبا من تنيس.
(٤) جمّاً: الجمّ: الكثير من كل شيء.

أي بيت تقوله العرب أشعر

قيل لابي عمرو بن العلاء: اي بيت تقوله العرب أشعر؟ قال: البيت الذي إذا سمعه سامعه سوّلت له نفسه ان يقول مثله، ولأن يخدش أنفه بظفر كلب أهونُ عليه من أن يقول مثله.

وقيل للاصمعي: أي بيت تقوله العرب اشعر؟ قال: الذي يسابق لفظه معناه

وقيل للخليل: أي بيت تقوله العرب اشعر؟ قال: البيت الذي يكون في أوله دليل على قافيته.

وقيل لغيره: أي بيت تقوله العرب أشعر؟ قال: البيت الذي لا يحجبه عن القلب شيء.

وأحسن من هذا كله قول زهير:

وإنّ أحسَن بيتٍ أنت قائلُه بيت يُقال إذا أنشدْتَه: صَدَقا

أحسن ما يجتلب به الشعر

قالت الحكماء: لم يُستدع شارد الشعر بأحسن من الماء الجاري، والمكان الخالي، والشرف العالي.

ابو العتاهية وابن هانىء

وتأوّل بعضهم «الخالي» يريد الحالي بالنُّوار، يعني الرياض، وهو توجيه حسن ولقي ابو العتاهية الحسن بن هانىء، فقال له: أنت الذي لا تقول الشعر حتى تؤتَى بالرياحين والزهور فتوضع بين يديك؟ قال: وكيف ينبغي للشعر أن يقال إلا على هكذا؟ قال: أما إني اقوله على الكنيف[1]! قال: ولذلك توجد فيه الرائحة.

قال عبد الملك بن مروان لأرطاة بن سُهَيّة: هل تقول الآن شعراً؟ قال: ما

---

(١) الكنيف: المرحاض.

أشربُ ولا أطرَبُ ولا أغضب؛ فلا يقال الشعر الا بواحدة من هذه.

وقيل للحطئة: من أشعر الناس؟ فأخرج لسانا رقيقا كأنه لسان حية وقال: هذا إذا طمع.

وقيل لكثير عَزة: لِمَ تركت الشعر؟ قال: ذهب الشباب فما أعجب، وماتت عزة فما أطرب، ومات ابن ابي ليلى فما أرغب، يريد عبد العزيز بن مروان.

وقالوا: أشعر الناس النابغة إذا رهب، وزهير إذا غضب، وجرير إذا رغب.

وقال عمرو بن هند لعبيد بن الأبرص، ولقيه في يوم بؤسه: أنشِدني من شعرك. قال: حال الجريض[(١)] دون القريض. وقد يمتنع الشعر على قائله ولا يسلس حتى يبعثه خاطر أو صوت حمامة.

وقال الفرزدق: أنا أشعر الناس عند الناس، وقد يأتي عليَّ الحين وقلع ضرس عندي أهون من قول بيت شعر.

وقال الراجز:

إنما الشعْـــــر بنـــــاءٌ　　يَبْتَنِيــــه المُبْتنـــونـــا
فـــإذا مـــا نَسَّقـــوه　　كـــان غثـــا أو سمينـــا
ربما واتــــاك حِينـــا　　ثم يَسْتصعِــــبُ حينـــا

وأسلس ما يكون الشعر في أول الليل قبل الكرى[(٢)]، وأول النهار قبل الغذاء وعند مناجاة النفس واجتماع الفكر، وأقوى ما يكون الشعر عندي على قدر قوة أسباب الرغبة والرهبة.

قيل للخُرَيمي: ما بال مدائحك لمحمد بن منصور أحسن من مراثيك قال: كنا حينئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون[(٣)] بعيد.

---

(١) الجريض: «حال الجريض دون القريض». مثل يضرب لأمر يعوق دونه عائق. والجريض: الغصة.
(٢) الكرى: النعاس والنوم.　　(٣) البون: المسافة ما بين الشيئين.

والدليل على صحة هذا المعنى وصدق هذا القياس، أن كثيِّر عزة والكميت بن زيد كانا شيعيَّيْن غالين، في التشيُّع، وكانت مدائحهما في بني امية أشرف وأجود منها في بني هاشم؛ وما لذلك علة الا قوة أسباب الطمع.

وقيل لكثير عزة: يا أبا صخر، كيف تصنع إذا عسر عليك الشعر؟ قال: أطوف في الرباع(1) المحيلة والرياض المعشبة؛ فإن نفرت عنك القوافي وأعيت عليك المعاني، فروّح قلبك، وأجمَّ ذهنك؛ وارتصد لقولك فَراغ بالك وسعة ذهنك، فإنك تجد في تلك الساعة ما يمتنع عليك يومك الأطول وليلك الأجمع.

من رفعه المدح ووضعه الهجاء

جرير وابنه

قال بلال بن جرير: سألت أبي جريراً فقلت له: إنك لم تهج قوما قط الا وضعتهم غير بني لَجَأ! قال: يا بني إني لم أجد شرفا فأضعه، ولا بناً فأهدمه.

وقد يكون الشيء مدحا فيجعله الشعر ذمًّا، ويكون ذما فيجعله الشعر مدحا.

قال حبيب الطائي في هذا المعنى:

ولولا خِلالٌ سَنَّها الشِّعْـر مـادري ... بُغاةُ العلا من أين تُـؤتَـى المكـارمُ
يُرى حكمةً ما فيه وهـو فُكـاهـةٌ ... ويُقضَـى بما يَقضي بـه وهـو ظـالم

ألا ترى إلى بني عبد المدان الحارثيين كانوا يفخرون بطول أجسامهم وقديم شرفهم حتى قال فيهم حسان بن ثابت:

لا بأسَ بالقومِ من طول ومن غِلَـظٍ ... جسمُ البغالِ وأحلامُ العصـافير(2)

فقالوا له: والله يا أبا الوليد لقد تركتنا ونحن نستحي من ذكر اجسامنا بعد ان كنا نفخر بها! فقال لهم: سأصلح منكم ما أفسدت، فقال فيهم:

---

(1) الرباع: جمع الربع: وهو المنزل أو الحي، أو ما حول الدار.

(2) أحلام: جمع حلم: وهو ما يراه النائم في نومه. أو العقل.

وقــد كنــا نقــول إذا رأينــا   لِــذي جسمٍ يُعَــدُّ ذي بيــان
كــأنــك أيها المعْطَــى لســانــا   وجسما مــــن بني عبــــد المُدان

وكان بنو حنظلة بن قُريع بن عوف بن كعب يقال لهم بنو أنف الناقة يُسَبُّون بهذا الاسم في الجاهلية، وسبب ذلك أن أباهم نحر جزوراً وقسم اللحم، فجاء حنظلة وقد فرغ اللحم وبقي الرأس، وكان صبيا، فجعل يجرّه؛ فقيل له: ما هذا؟ فقال: أنف الناقة. فلقِّب به، وكانوا يغضبون منه حتى قال فيهم الحطيئة:

سِيري أُمامَ فإنّ الأكثريــن حصًــى   والأكــرمِين إذا مــا يُنسَبــون أبــا
قومٌ همُ الانفُ والاذنــاب غيرهــمُ   ومَن يُسوِّي بأنــف النــاقــة الذنَبــا

فعاد هذا الاسم فخراً لهم وشرفاً فيهم.

جرير وبنو نمير

وكان بنو نُمير أشراف قيس وذوائبها حتى قال جرير فيهم:

فغُــضَّ الطَّــرْفَ إنــكَ مــن نُميرٍ   فلا كعْبــاً بلغْــتَ ولا كِلابَــا(١)

فما بقي نميريٌّ إلا طأطأ رأسه.

وقال حبيب:

فسوْف يَــزيــدكم ضَعــةً هجــائِــي   كما وضَــع الهجــاءُ بني نميْــرِ

الأعشى والمحلق

وقد كان المحلق بن حَنتَم بن شدّاد خاملا لا يُذكر، حتى طرقه الأعشى في فِتية وليس عنده إلا ناقة، فأتى أُمّه فقال: إنّ فتية طرقونا الليلة. فإن رأيت أن تأذني في نحر الناقة! قالت: نعم يا بُني. فنحرها واشترى لهم ببعض لحمها شرابا، وشوى لهم بعض لحمها؛ فأصبح الاعشى ومن معه غادين، فلم يشعر المحلّق حتى أتته القصيدة التي أوّلها:

أرِقــتُ ومــا هــذا السُّهــادُ المؤرِّقُ   وما بِيَ من سُقْــمٍ ومــا بي مَعْشَــقُ

---

(١) غضّ الطرف: خفضه استحياء وخزيا.

لَعمْري لقد لاحتْ عيونٌ كثيرةٌ إلى ضوءِ نارٍ في بقَاعٍ تحرّق[1]
تُشَبُّ لمقْروريْن يَصطليانها وبات على النار النّدَى والمحلَق[2]
رَضيعيْ لبانِ ثدْي أم تقاسَما بأسْحَمَ داجٍ عَوْضُ لا نتفرّق[3]
ترى الجودَ يسري سائلا فوق وجهه كما زان متنَ الهُندُوانيِّ رونَق

فلما أتته القصيدة جعلت الاشراف تخطب اليه، ويقول القائل:

وبات على النار الندى والمحلق

وقوله: «تقاسما بأسحم داجٍ»؛ يقول: تحالفا على الرماد، وهذا شيء تفعله الفرس لئلا يفترقوا أبداً. والعَوْضُ: الدهر.

ما يعاب من الشعر وليس بعيب

لحماد

قال الاصمعي: سمعت حماد الراوية وأنشد رجلٌ بيتاً لحسان:

يُغشَوْن حتى ما تَهِرُّ كلابُهم لا يَسألون عن السَّواد المُقْبِل[4]

فقال: ما يُعرف هذا الا في كلاب الحانات.

وأنشده آخر قول الشاعر:

لمن منزل بين المَذانِب والجُسْر[5]

فقال: ما يعرف هذا الا دار الياسيريين[6].

---

(١) تحرّق: توقد وتلتهب.

(٢) المقرور: الذي أصابه البرد.

(٣) بأسحم داج: يريد سواد حلمة ثدي أمه. ويقال: عوض لا أفعله، يحلف الدهر والزمان.

(٤) تهرّ الكلاب: تنبح وتكشر عن أنيابها.

(٥) المذانب: جمع مذنب، وهو مسيل الماء.

(٦) معنى هذا اللفظ غير واضح.

بيت للفرزدق

ومما يعاب من الشعر وليس بعيب قول الفرزدق:

أيـابنـة عبـدِ الله وابنـةَ مـالـك ... ويا بنتَ ذي البرْدين والفـرس الوَرْدِ

فقال من جهل المعنى ولم يعرف الخبر [لم يدرك] ما في هذا من المدح: ان يمدح رجلا بلباس البردين وركوب فرس ورد؛ إنما معناه: ما قال ابو عبيدة: إن وفود العرب اجتمعت عند النعمان، فأخرج إليهم بردَي محرّق، وقال: ليقم اعز العرب قبيلة فليلبسهما. فقام عامر بن احيمر بن بهدلة فاتَّزر بأحدهما وتردّى بالآخر، فقال له النعما: أنت اعز العرب قبيلة؟ قال: العز والعدد من العرب في معدّ، ثم في نزار، ثم في مضر، ثم في خندف، ثم في تميم، ثم في سعد، ثم في كعب، ثم في عوف، ثم في بهدلة؛ فمن أنكر هذا من العرب فلينافِرني[1]، فسكت الناس، فقال النعمان. هذه [حالك في] عشيرتك فكيف أنت كما تزعم في نفسك وأهل بيتك؟ فقال: أنا ابو عشرة، وعم عشرة، وخال عشرة؛ وأمّا انا في نفسي فهذا شاهدي. ثم وضع قدمه في الارض، وقال: من أزالها فله مائة من الابل! فلم يتعاطَ ذلك احد؛ فذهب بالبردين، فسُمي ذا البردين؛ وفيه يقول الفرزدق:

فما تَـمَّ في سعـد ولا آل مـالـك ... فلامٌ إذا سِيـــل لم يتبهْــدَلِ
لهم وهَـب النعمانُ بُـردى مُحـرِّق ... لمجـدٍ معَـدّ والعَـديـد المُحصّـل

بيت للأعشى

ومما يعاب من الشعر وليس بعيب، قول الاعشى في فرس النعمان، وكان يسمى اليحموم:

ويـأمُـرُ لليحْمـوم كـل عشيـة ... بقتٍّ وتعليق فقـد كـاد يَسْنَـقُ[2]

فقالوا: ما يمدح به أحد من السوقة فضلا عن الملوك: ان يقوم بفرس ويأمر له

---

(١) ينافر: يخاصم ويفاخر.

(٢) القتّ: الفصفصة اليابسة ويسنق من الطعام: يبشم ويتخم.

بالعلف حتى كاد يسنق. وليس هذا معناه؛ وإنما المعنى فيه ما قال أبو عبيدة: أن ملوك العرب بلغ من حزمها ونظرها في العواقب ان احدهم لا يبيت الا وفرسه موقوف بسرجه ولجامه بين يديه قريبا منه، مخافة عدو يفجؤه أو حالة تصعب عليه؛ فكان للنعمان فرس يقال له اليحموم، فيتعاهده كل عشية؛ وهذا مما يتَمادح به العرب من القيام بالخيل وارتباطها بأفنية البيوت.

بيت لزهير

ومما عابوه وليس بعيب، قول زهير:

قِفْ بالدِّيار التي لم يَعْفُها القِدَمُ   بَلى وغيّرها الأرْياحْ والدِّيَمُ [١]

فنَفَى ثم حقق في معنى واحد، فنقض في عجز هذا البيت ما قال في صدره، لانه زعم ان الديار لم يعفها القدم، ثم انه انتبه من مرقده فقال: بلى، عفاها وغيّرها أيضاً الارياح والديم! وليس هذا معناه الذي ذهب اليه؛ وإنما معناه أن الديار لم تعف في عينه، من طريق محبته لها وشغفه بمن كان فيها.

بيت لبعض الشعراء

وقال غيره في هذا المعنى ما هو أبْين من هذا، وهو:

ألا ليْت المنازل قد بَلِينا   فلا يَرمِين عن شَزْرٍ حَزينا [٢]

فقوله: ألا ليت المنازل قد بلينا. أي. بَلَى ذكرها؛ ولكنها تتجدّد على طول البلى بتجدّد ذكرها.

وقال الحسن بن هانىء: في هذا المعنى فلخصه وأوضحه وشنَّفه[٣] وقرّطْه حيث يقول:

---

(١) الديم: جمع الديمة: وهي المطر يطول زمانه في سكون.

(٢) الشزر: نظرة الإعراض أو الغضب أو الاستهانة.

(٣) شنّف: زيّن.

لِمـن دِمَـنٌ تَـزداد طَـول نسيمِ على طول ما أَقْوَتْ وحسْنَ رسُـومِ [1]
تَجـافَـي البلى عنهـم حتى كـأنما لَبِسْـنَ على الاقـوَاء ثـوبَ نعيم [2]

مروان وابن يزيد

ومما عيب من الشعر بعيب، ما يروى عن مروان بن الحكم أنه قال لخالد بن يزيد ابن معاوية وقد استنشده من شعره فأنشده:

فلـو بَقيَـتْ خَلائـف آل حـرْبٍ ولم يُلَبِّسْهـم الدهـر المَنـونَـا
لأَصبَحَ مـاءُ أهـل الارض عـذْبـاً وأصبـح لحمُ دنيـاهـم سمِينـا

فقال له مروان: «منونا» و«سمينا» والله إنها لقافية ما اضطرّك إليها الا العجز. وهذا مما لا عجزِ فيه ولا عابه أحد في قوافي الشعر، وما أرى العيب فيه إلا على ما رآه عيبا، لأن الياء والواو يتعاقبان في أشعار العرب كلِّها قديمها وحديثها؛ قال عبيد ابن الابرص:

وكـلُّ ذي غيْبـةٍ يَـئـوبُ وغائب الموت لا يئـوبُ [3]
مَن يسـألِ النـاس يَـرمـوه وسـائـلُ الله لا يَخيـب

ومثله من المحدثين:

أجـارةَ بيْتَيْنـا أبـوك غَيُـورُ وميْسور ما يُرجَـى لـديْـك عسِيرُ

بيت لذي الرمة

ومما عيب من الشعر وليس بعيب. قولُ ذي الرمة:

رأيـتُ النـاسَ يَنتجعـون غيْثـاً فقلتُ لِصَيْـدَحَ: آنتجِعي بِلالا [4]

ولما أنشد هذا الشعر بلال بن ابي بردة قال: يا غلام مُرْ لصيدح بقتّ وعلَف،

---

(١) الدمن: جمع الدمنة: وهي آثار الناس وما سودوا، وآثار الدار وغير ذلك.
(٢) الأقواء: جمع القواء: وهي القفر من الأرض.
(٣) يئوب: يرجع.
(٤) انتجع القوم: ذهبوا لطلب الكلأ.

فإنها هي انتجعتْنا . وهذا من التعنُّت الذي لا انصاف معه؛ لان قوله: انتجعي بلالا، إنما اراد نفسه، ومثله في كتاب الله تعالى: ﴿وَآسألِ القَرية التي كنَّا فيها والعيرَ التي أقبلنا فيها﴾ [1]، وإنما أراد أهلَ القرية وأهل العير.

وكان عمر بن الخطاب يقول في بعض ما يرتجز به من شعره:

إليــكَ يعْــدُو قلعــاً وضينُهــا مخالفاً ديــنَ النصـارى دينُهــا [2]

فجعل الدين للناقة، وإنما اراد صاحب الناقة.

ولم تزل الشعراء في أماديحها تصف النوق وزيارتها لمن تمدحه، ولكن من طلب تعنتنا وجده، أو تجنيا على الشاعر أدركه عليه؛ كما فعل صريع الغواني بالحسن ابن هانيء حين لقيه، فقال له: ما يسلم لك بيت عندي من سقط! قال: فأي بيت أسقطت فيه، قال: أنشدني أي بيت شئت. فأنشده:

ذكرَ الصَّبوحَ بسحـرةٍ فـارْتـاحـا وأَملَّـهُ ديـكُ الصَّبـاحِ صبـاحـا

فقال له: قد ناقضت في قولك؛ كيف يمله ديكُ الصباح صياحا، وإنما يبشره بالصبوح الذي ارتاح له! فقال له الحسن: فأنشدني أنت. من قولك. فأنشده:

عاصَـى العـزاء فـراحَ غيرَ مُفنّـدِ وأقـــامَ بين عـــزيمةٍ وتجلُّـــدِ

قال له: قد ناقضت في قولك؛ إنك قلت:

عاصى العزاء فراح غير مفند

ثم قلت:

وأقام بين عزيمة وتجلد

فجعلته رائحا مقيما في مقام واحد؛ والرائح غير المقيم.

والبيتان جميعاً مؤتلفان، ولكن من طلب عيباً وجده.

---

(١) سورة يوسف الآية ٨٢

(٢) الوضين: بطان منسوب بعضه على بعض يشدّ به الرجل على البعير.

بيت للمرقش

ومما عابه ابن قُتيبة وليس بعيب، قول المرقش الاصغر:

صحا قلبُهُ عنها على أَنَّ ذِكرَها ... إذا ذُكرتْ دارتْ به الأرضُ قائما

فقال له: كيف يصحو من كانت هذه صفته. والمعنى صحيح، وإنما ذهب إلى أن حاله هذه، على ما تقدم من سوء حاله، حالُ صحو عنده؛ ومثل هذا في الشعر كثير، لأن بعض الشر أهونُ من بعض. وقال النبي ﷺ في عمه أبي طالب: إنه أخف الناس عذاباً يوم القيامة، يحذى نعلين من نار يغلي منهما دماغه! وهذا من العذاب الشديد، وإنما صار خفيفاً عند ما هو أشد منه؛ فزعم المرقِّش أنه عند نفسه صاح. إذ تبدُّلُ حاله أسهل مما كان فيه.

بيت لابن هانىء

وقد عاب الناس قول الحسن بن هانيء:

وأخفْتَ أهل الشِّرْكِ حتى إنه ... لتخافكَ النُّطَفُ التي لم تخلَق

فقالوا: كيف تخافه النطف التي لم تخلق؟ ومجاز هذا قريب إذا لحظ أن من خاف شيئاً خافه بجوارحه وسمعه وبصره ولحمه وروحه؛ والنطف داخلة في هذه الجملة؛ فهو إذا أخاف أهل الشرك أخاف النطف التي في أصلابها.

وقال الشاعر:

ألا تَرِثي ... يُحبُّكَ لحمُهُ ودمُهُ

وقال المكفوف:

أُحبُّكمُ حُبّا على اللهِ أجْرهُ ... تضَمَّنَهُ الأحشاءُ واللحْمُ والدمُ

العتابي ومنصور النميري

ولقى العتابي منصوراً النميري، فسأله عن حاله فقال: إني لمدهوش[1]: وذلك أني

---

(١) الدهش: ذهاب العقل من الذهل والوله والفزع.

تركت امرأتي وقد عسر عليها ولادُها . فقال له العتابي: ألا أدلك على ما يُسهِّل عليها! قال: وما هو؟ قال: اكتُبْ على رحِمِها: «هارون». قال: وما معناك في هذا؟ قال: ألست القائل فيه:

إنْ أَخلفَ القطرُ لم تُخلِفْ مواهبُـهُ ... أو ضـاق أمـرٌ ذكـرنـاه فيتسِـعُ

فقال: أبا الخلفاء تعرّض وفيهم تقع وإياهم تعيب؟ فيقال إنه دخل على هارون فأعلمه ما كان من قول العتابي، فكتب إلى عبدالصمد عمه يأمره بقتله. فكتب إليه عبدالصمد يشفع له، فوهبه له.

تقبيح الحسن وتحسين القبيح

سئل بعض علماء الشعر: من أشعر الناس؟ قال: الذي يصوّر الباطل في صورة الحق، والحقَّ في صورة الباطل، بلطف معناه، ودقة فطنته، فيقبِّح الحسن الذي لا أحسن منه، ويُحسّن القبيح الذي لا أقبح منه.

فمن تحسين القبيح قول الحارث بن هشام يعتذر من فراره يوم بدر.

اللهُ أعلمُ مـا تَـركـتُ قتـالهم ... حتى رمـوا مُهري بأشقرَ مـزبدِ
وعلِمـتُ أني إن أُقـاتـلْ واحـداً ... أُقتَلْ ولا يضـرر عـدُوِّي مشهَدي
فصـدفـتُ عنهـم والأحبَّـةُ فيهـمُ ... طمعاً لهـم بعقابِ يـومٍ مـرصَدِ(١)

وهذا الذي سمعه صاحب رُتْبيل فقال: يا معشر العرب، حسّنتم كل شيء فحسُن حتى الفرار

ومن تقبيح الحسن قول بشار العقيلي في سليمان بن علي وكان وصل رجلا فأحسن:

يا سوأةً يُكثر الشيطانُ ما ذُكـرت ... منها التَّعجُّبَ جـاءت مـن سُليمانـا
لا تعجبَـنَّ لخير زلَّ عـن يـدهِ ... فكوكبُ النحسِ يسقي الأرضَ أحيانا(٢)

وقال غيره في تقبيح الحسن:

---

(١) صدفتُ: أعرضتُ وملْتُ

(٢) زلّ الخير عن يده: ذهب

يقولون لي إن بخيلٌ بنائِلي ... وللبخْلُ خير من سؤالِ بخيلِ

وقال المتلمس في تقبيح الحسن:

وحبس المال خيرٌ من بُغاهُ ... وضربٌ في البلاد بغير زاد

وإصلاح القليل يزيد فيه ... ولا يبقى الكثير مع الفساد

وقال محمود الوراق في تحسين القبيح:

يا عائب الفقْرِ ألا تزدجِر ... عيبُ الغِنى أكبرُ لو تعتبِرْ[1]

من شرف الفقرِ ومن فضلهِ ... على الغِنى إن صحَّ منكَ النظَر

أنكَ تعصِي كي تنالَ الغِنى ... ولستَ تَعصِي الله كي تفتَقِرا!

ومن تحسين القبيح أنه قيل لجذيمة الأبرص: ما هذا الوضح[2] الذي بك؟ قال: سيف الله الذي جلاه.

وقال ابن حسان وكان به برص:

لا تحسبَنَّ بياضا فيّ منقصةً ... إنّ اللهاميم في أقرابها بَلَقُ[3]

وقال محمود الورّاق يمدح الشيب:

وعائبٍ عابَني بشيْبي ... لم يعد لما ألَمَّ وقتهْ

فقلتُ للعائبي بشيْبي: ... يا عائبَ الشيبِ لا بلغتَهْ

وقال آخر:

يقولون هل بعدَ الثلاثين ملعبُ؟ ... فقلت: وهل قبلَ الثلاثين ملعبُ؟

لقد جلَّ قدرُ الشيبِ إن كان كلّما ... بدت شيبةٌ يعْرَى من اللهْوِ مركب

---

(١) ازدجر: زجر.

(٢) الوضح: البياض، والغرة، والبرص.

(٣) اللهاميم: جمع لهموم، وهو الجواد السابق يجري أمام الخيل. والأقراب: جمع قرب، وهي الخاصرة. والبلق: التحجيل الى الفخذين.

وقال أعرابي في عجوز:

أبى القلـبُ إلا أمَّ عمـرٍو وحُبَّهـا عجوزاً ومن يحْبِب عجوزاً يُفنَّدِ (١)
كبُـردِ يمانٍ قـد تقـادمَ عهـدُه ورُقعتُه ما شيبَ في العينِ واليـدِ (٢)

وقال بشار العقيلي في سوداء:

أشبَهـكَ المسـكُ وأشبَهْتِـه قـائمةً في لـونِـه قـاعـدهْ
لا شـكَّ إذ لـونُكما واحـدٌ أنّكما مـن طينـةٍ واحـدهْ

الاستعارة

لم تزل الاستعارة قديماً تستعمل في المنظوم والمنثور، وأحسن ما تكون أن يُستعار المنثور من المنظوم، والمنظوم من المنثور؛ وهذه الاستعارة خفية لا يؤبه بها لأنك قد نقلت الكلام من حال إلى حال، وأكثر ما يجتلبه الشعراء، ويتصرف فيه البلغاء، إنما يجري فيه الآخر على السنن الأول، وأقل ما يأتي لهم معنى لم يسبق إليه أحداً، إما في منظوم وإما في منثور؛ لأن الكلام بعضه من بعض؛ ولذلك قالوا في الأمثال: ما تَرك الأولُ للآخِرِ شيئا. ألا ترى أن كعب بن زهير، وهو في الرعيل الأول والصدر المتقدم، قد قال في شعره:

مـا أرانـا نقُـولُ إلا مُعـاراً أو مُعاداً مِـن قولِنـا مَكرُوراً

ولكن قولهم: إن الآخر إذا أخذ من الأول المعنى فزاد فيه ما يحسِّنه ويقرِّبه ويوضحه فهو أولى به من الأول، وذلك كقول الأعشى:

وكـأسٍ شَـرِبْـتُ على لـذّةٍ وأُخرَى تَداويْـتُ منهـا بِهـا

فأخذ هذا المعنى الحسنُ بن هانيء فحسنه وقرّبه إذ قال:

دعْ عنك لوْمي فإنّ اللـوْمَ إغـراءُ وداوِني بـالتي كـانـت هـي الدّاءُ

---

(١) يُفند: يضمر ويهزل. (٢) البرد: ضرب من الثياب.

وقال القطامي:

والناسُ مَن يَلْقَ خيْراً قائلـون لـه ... ما يَشتَهي، ولأمِّ المخطِيء الهَبـلُ[(١)]

أخذه من قول المرقِّش:

ومن يَلق خيْراً يَحمَدِ الناسُ أمـرَهُ ... ومن يَغوَ لا يَعْـدمْ على الغـيِّ لائما

وقال قيس بن الخطيم:

تَبدّتْ لنـا كـالشمسْ تحتَ غَمامـة ... بدا حاجِبٌ منها وضنّتْ بحاجِبِ[(٢)]

أخذه بعض المحدثين فقال:

فشبَهْتُهـا بـدراً بَـدَا منـه شقُّـه ... وقد سَتَرَتْ خداً فأبْدتْ لنا خـدّا

وأذرتْ على الخدّيـن دمْعـاً كـأنـه ... تَناثر دُرٍّ أو ندًى واقـعَ الورْدا[(٣)]

وأخذه آخر فقال:

يا قمـراً للنِّصـف مـن شهْـرِه ... أبْـدَى ضِيـاءً لثمان بقِينْ

وأخذه بشار فقال:

صَـدّتْ بخدّ وجَلَـتْ عـن خـدٍّ ... ثمّ انْثنـتْ كـالنّفَسِ المرْتـدِّ

فلم يُفسد الآخرُ قول الأول، ولم يكن الأولُ بالمعنى أولى من الآخر.

وقد قلنا في هذا المعنى ما هو أحسن من كل ما تقدم أو مثله، وهو قولي:

كأنّ التي يـومَ الوَداعِ تَعـرّضـتْ ... هلالٌ بـدا مَحْقـاً على أنـهُ تـمُّ[(٤)]

وأما الاستعارة إذا كانت من المنثور في المنظوم، ومن المنظوم في المنثور، فإنها أحسنُ استعارة.

---

(١) الهبل: الكذب والخداع. (٢) ضنّت: بخلت أو سترت.

(٣) واقع الوردا: حاربها أو داناها، أو جامعها.

(٤) محق القمر: دخل في المحاق، وهو ما يرى في القمر من نقص في جرمه وضوئه بعد انتهاء ليالي اكتماله.

الرشيد وسهل:

دخل سهل بن هارون على الرشيد وهو يضاحك ابنه المأمون؛ فقال سهل: اللهم زده من الخيرات، وآبسط له من البركات، حتى يكون بكل يوم من أيامه مُوفيا على أمسه، مقصراً عن غده! فقال له الرشيد: يا سهل، من روى من الشعر أفصحه ومن الحديث أوضحه، إذا رام أن يقول لم يُعجزْه! قال: يا أمير المؤمنين، ما أعلم أحداً سبقني إلى هذا المعنى. قال: بلى سبقك أعشى همدان، حيث يقول:

رأيتــك أمْسِ خيْــرَ بني مَعــدٍّ ... وأنــت اليـوْمَ خيْـرٌ منــكَ أمسِ
وأَنتَ غداً تَزيـدُ الضِّعْـفَ خيْـراً ... كذاكَ تـزيـدُ سـادةُ عبْـدِ شمس

وقد يكون مثل هذا وما أشبهه عن موافقة.

وقد سئل الأصمعي عن الشاعرين يتفقان في المعنى الواحد ولم يسمع أحدُهما قول صاحبه فقال: عقول الرجال تَوافت[1] على ألسنتها.

اختلاف الشعراء في المعنى الواحد

وقد تختلف الشعراء في المعنى الواحد، وكل واحد منهم محسنٌ في مذهبه جارٍ في توجيهه، وإن كان بعضُه أحسنَ من بعض.

ألا ترى أن الشماخ بن ضرار يقول في ناقته:

إذا بلَّغتِنِــــي وحَملْــــتِ رَحْلي ... عرابةَ فآشَرقــــي بـــدَمِ الوتِين[2]

وقال الحسن بن هانيء في ضد هذا المعنى ما هو أحسن منه في محمد الأمين:

فـــإذا المطِـــيُّ بنـــا بَلغْـــنَ محمَّداً ... فظهُـــورهُـــنَّ على آلرجـال حـرامُ

وقال أيضاً:

---

(١) توافى القوم: تناموا.

(٢) عرابة: هو ابن أوس بن قيظى الحارثي الأنصاري. واشرقي: غصيّ. والوتين: عرق في القلب اذا انقطع مات صاحبه.

أقــــول لنـــــاقتي إذا أبلغتْني لقــد أصبحْــتِ مِني بـــاليمين
فلمْ أجعلْــكِ للغُــــربـــان نُحْلا ولا قلت اشْـرَقـي بـدمِ الوَتِين[1]

فقد عاب بعض الرواة قول الشماخ، واحتجَّ في ذلك بقول النبي ﷺ للأنصارية المأسورة التي نجت على ناقة النبي ﷺ [وقالت] : إني نذرت يا رسول الله إن نجاني الله عليها أن أنحرها . قال: « بئسما جزَيتيها ! ولا نذر لأحد في مِلك غيره » .

وقد قالت الشعراء، فلم تزل تمدح حسن الهيئة وطيب الرائحة وإسبال الثوب قال الفرزدق :

بنو دارمٍ قوْمي، ترى حُجُزاتِهـم عِتاقاً حَواشيها رِقاقـاً نعـالُهـا[2]
يجُرُّون هُــــدّاب اليمان كـــــأنهم سُيوفٌ جَلا الأطباع عنها صِقـالها

وأول من سبق إلى هذا المعنى النابغة الذبياني في قوله :

رِقـاقُ النِّعـال طيِّـبٌ حجـزاتهم يحيَّوْن بالرَّيحان يوم السَّبـاسـب[3]

وقال طرَفة :

ثم راحــــوا عَبِــــق المســـك بهم يَلحَقـون الأرض هُـدّاب الأُزُرْ

وقال كثِّير عزة في إسبال الذيول يمدح بني أُمية :

أشَم مــن الغـاديــن في كـلِّ حُلـةٍ يَميسون في صِبْغٍ من العصْبِ مُتْقَن
لهم أُزُرٌ حُمْـرٌ الحواشي بُطـونَهـا بأقدامِهم في الحضْرميِّ المُلَسَّـن[4]

وقال فيه أيضاً :

إذا حُلَلُ العصْـبِ اليماني أجـادَهـا أكُفُّ أسـاتيـذٍ على النسْـج دُرَّب

---

(١) النَّحل : الهبة والعطيّة .

(٢) الحجزات : جمع حجزة ، السروال والإزار وكنى بعتق الحواشي ورقة النعال عن أنهم سادة من السروات .

(٣) كنى بطيب الحجزات عن عفتهم عن الفجور . ويوم السباسب : عيد للنصارى .

(٤) الحضرمي : النعل المنسوبة الى حضرموت .

أتاهم بها الجابي فراحوا عليهم		تمائمُ من فَضْفاضِهِنّ المكعَّبِ (١)
لها طُرَرٌ تحت البَنائق أُدنيت		إلى مُرْهفات الحضرميّ المعقرب (٢)

وقال آخر:

معي كل فَضْفاض القميص كأنه		إذا ما سرَت فيه المُدامُ فَنيقُ (٣)

وخالفهم فيه صريعُ الغواني فقال:

لا يعبقُ الطيب خدَّيْه ومَفْرِقِه		ولا يُمسِّحُ عيْنيْه من الكُحْل

وقال دُرَيد بن الصِّمَّة يرثي أخاه عبد الله بن الصِّمة ويصفه بتشمير الثوب:

كميشُ الإزارِ خارجٌ نصف ساقِه		بعيدٌ من السَّوْءات طَلاَّعُ أنجُدِ

مثل قول الحجاج:

أنا ابن جَلا وطلاَّعُ الثَّنايا		متى أضع العمامةَ تعرِفوني (٤)

وقد يُحمل معناهم في تشمير الثوب وسحبه واختلافهم فيه على وجهين: أحدهما أن يَستحسن بعضهم ما يستقبح بعض، والوجه الثاني يشبه أن يكون لتشمير الثوب موضع ولسحبه موضع كما قال عمرو بن معديكرب:

فيوْماً ترانا في الخُزور نَجرُّها		ويوماً ترانا في الحديدِ عوابسا (٥)
ويوماً ترانا في الثريدِ نَدوسُه		ويوماً ترانا نَكْسِرِ الكعك يابسا (٦)

وقال أعشى بكر لعمرو بن معديكرب:

---

(١) المكعب: الموشى.
(٢) البنائق: جمع البنيقة: وهي الزيق يخاط في جيب القميص، تثبت فيه الأزرار.
(٣) الفنيق من الابل: الفحل، والفنيقة من النساء، المنعمة.
(٤) الثنايا: جمع ثنية، وهي الطريق في الجبل.
(٥) الخزوز: جمع الخز: وهو ما ينسج من صوف وإبريسم.
(٦) الثريد: ما يثرد من الخبز، أو زبد الخمر.

وإذا تجيءُ كتيبــةٌ مكــروهــــةٌ ملمومةٌ يَخشى الكماة نـزالَهـا [1]
كنـتُ المقـدّمَ غير لابسِ جُبَّـةٍ بـالسيـف تضربُ مُعلَما أبطـالها

وقال مسلم بن الوليد في يزيد بن مزيد خلاف هذا كلّه، وهو:

تراه في الأمْن في دِرْعٍ مُضـاعفـةٍ لا يأمن الدهرَ أن يُدْعى على عَجلِ

ولما أنشده يزيد بن مزيد قال له: ألا قلت كما قال الأعشى. فأنشده البيتين؛ فقال: قوْلي أحسن من قوله؛ إنه وصفه بالخرق، وأنا وصفتُك بالحزم.

وقال عبد الملك بن مروان لأسيلم بن الأحنف الأسدي: ما أحسن شيء مُدحْت به؟ قال: قول الشاعر:

أُسيْلِمُ ذاكُـم لا خَفـاً بمكــانِــه لعيْـن تَـرجِّـي أو لأُذْن تَسمَّـع
من النَّفَـر الشمِ الذيـن إذا اعتَـزوْا وهاب رجالٌ حَلقة الباب قَعْقَعوا [2]
جلاَ الإذْفَر الأحْوى من المسك فَرْقَـه وطيَّب دُهناً رأسَـه فهـو أنـزع [3]
إذا النَّفر السُّودُ اليمانـونَ حـاوَلـوا له حول بُـرْديْـه أدقُّـوا وأوسَعـوا

فقال عبد الملك: أحسن من هذا قول قبيس بن الأسلت:

قـد حصَّـتِ البيْضَـة رأسي فما أطعـم نـوْمـا غير تَهجـاعِ [4]
أسعـى على جُـل بني مـالـك كـل امـريء في شأنـه ساعـي

وقال بعضهم:

سـألـت المحبِّين الذيـن تحمَّلـوا تباريخ هذا الحبِّ في سالف الدهـر [5]
فقالوا: شفاءُ الحبِّ حُـبٌّ يُـزيلـه لأخرى، وطولٌ للتمادي على الهجـرِ

---

(١) الكماة: جمع الكام: الفارس الذي ستر نفسه بالدرع والبيضة.
(٢) قعقع: احدث صوتاً عند التحريك أو التحرك.
(٣) جلا: كشف. الإذفر: الذكيّ الريح. والأحوى: الذي يضرب الى السواد. والفرق: موضع الفرق من الرأس. والأفزع: الذي انحسر مقدم شعر رأسه عن جانبي الجبهة.
(٤) حصّت: أذهبت شعره. والبيضة: الخوذة.
(٥) تباريح الشوق: توهجه.

وقال الحمدوني ما هو أحسن من هذا المعنى في ضدِّه، وهو قوله:

زعَموا أنّ من تشاغل بالحبِّ سلا عن حبيبه وأفَاقا
كذَبوا، ما كذَا بلَوْنا ولكن لم يكونوا فيما أرى عُشّاقا
كيف أسْلو بلذَّةٍ عنك واللّذّاتُ يُحدِثْن لي إليك اشتِياقا
كلما رُمتُ سَلْوةً تُذهِب الحُرْقةَ زادت قلبي عليك احتراقا [1]

وقال كثيِّر عزَّة:

أُريد لأنسى ذكرَها فكأنما تمثَّل لي ليْلي بكلِّ سبيل!.

وقال بعض الناس: إن كان يحبها فلماذا ينسى ذكرها؟ ألا قال كما قال مجنون بني عامر:

فلا خفَّف الرحمنُ ما بي من الهوى ولا قطع الرحمن عن حبِّها قلبي
فما سرَّني أني خليٌّ من الهوى ولو أنّ لي ما بين شرق إلى غرب

وذهب أكثرهم أن بُعد العهد يُسلي المحب عن حبيبه، وقالوا فيه:

إذا ما شئت أن تسْلو حبيباً فأكثِر دونَه عدد الليالي

وقال العباس بن الأحنف:

إذا كنت لا يُسْليك عمن تُحبُّه تناءٍ ولا يَشفيك طولُ تلاقِ [2]
فما أنت إلا مستعيرٌ حُشاشةً لمُهْجةِ نفْسٍ آذنَتْ بفِراق

وقال كثيِّر عزة:

فإن تَسْلُ عنك النفسُ أو تَدعِ الهوى فباليأس تسلو عنك لا بالتجلُّدِ [3]

ومثله قول بشار:

من حُبِّها أتمنى أن يُلاقيَني من نحو بلدتِها ناعٍ فيَنعاها!

---

(١) رمت: طلبت.

(٢) التنائي: البعد. (٣) التجلّد: الصبر.

كما أقول: فراقٌ لا لقاءَ له ... وتُضمِر النَّفْس يأساً ثم تسْلاها

وهذه المذاهب كلها خارجة في معناها، جارية في مجراها.

وقال عبد الله بن جندب:

ألا يا عباد الله، هذا أخوكم ... قتيلا فهل منكم له اليومَ واتِرُ
خُذوا بدمي إن مِتُّ كلَّ خريدةٍ ... مريضةِ جَفْن العين والطَّرْف ساهِرُ[1]

وقال صريع الغواني في ضد هذا:

أدِيرا عليَّ الرَّاح لا تشربا قبْلي ... ولا تطلبا من عند قاتِلتي ذَحْلي[2]

وقول عبد الله بن جُندب أحسن في هذا المعنى؛ لأنه إنما أراد أن يدل على موضع ثأره واسم قاتله، ولم يُرد الطلب بالثأر؛ ولأنه لا ثأر له.

وقد قال عبد الله بن عباس؛ ونظر إلى رجل مدنف[3] عِشْقا: هذا قتيل الحب. لا عقلٌ ولا قوَدٌ[4].

وقال الفرزدق وأراد مذهب ابن جندب فلم تؤاته رقة الطبع، فخرج إلى جفاء القول وقبحه فقال:

يا أُخت ناجِيَة بن سامةَ إنني ... أخشى عليك بَنيَّ إن طلبوا دمي
لن يتركوكِ وقد قتلتِ أباهُمُ ... ولو ارتقيت إلى السماء بسُلّم

وقال ابن أخت تأبط شراً يرثي خاله وقتلتْه هُذيل:

شامِسٌ في القُرّ حتى إذا ما ... ذَكَت الشِّعْرَى فَبرْدٌ وظِلّ[5]
ظاعِنٌ بالحزم حتى إذا ما ... حَلَّ حَلَّ الحزمُ حيث يَحِلّ

---

(١) الخريدة: اللؤلؤة لم تثقب

(٢) الذّحل: الثأر والحقد.

(٣) المدنف: الذي اشتد مرضه.

(٤) القَوَد: القصاص.

(٥) شامس: ذو شمس.

أخذ معنى البيت الأوّل أعرابي فسهل معناه وحسن ديباجته، فقال:

إذا نـزل الشتـاءُ فـأنـت شمسٌ وإن نـزل المصيـف فـأنـت ظـلّ

وأخذ معنى البيت الثاني الحسن بن هانيء فقال في الخصيب:

فما جـازَه جـودٌ ولا حـلَّ دونَـه ولكـنْ يصيرُ الجودُ حيـث يصيرُ

وقالوا في الخيال فحيّوه ورحّبوا به. فمن ذلك قول مروان بن أبي حفصة:

طرَقتك زائرةً فحيِّ خيالَها

وقال:

طرَق الخيالَ فحيِّه بسلامِ

وعلى هذا بُنيت أشعارهم؛ وخالفهم جرير فطرد الخيال، فقال:

طرقتك صائِدة القلـوب وليس ذا وقـت الزيـارة فـارجعـي بسلامِ

وأوّل من طرد الخيال طرفة فقال:

فقـل لخيـالِ الحنظليـة ينقلـبْ إليها، فإني واصلٌ حبلَ مَن وَصـلْ

وأعجب من هذا قول الراعي الذي هجا الخيال فقال:

طاف الخيالُ بأصحـابي فقلـتُ لهم أأُمّ شَـذْرة زارتْني أمِ الغُـولُ

لا مرحباً بابنةِ الأقْيالِ إذ طرَقـتْ كأن مَحجَرَها بالفار مكْحـول (١)

وقد يختلف معنى الشاعر أيضاً في شعر واحد يقوله، ألا ترى أنّ امرأ القيس قال في شعره:

وإن تكُ قد سـاءَتْـكِ مني خَليقـة فسُلِّي ثيابي من ثيـابـكِ تَنْسُـلِ (٢)

---

(١) المحْجِر في العين: ما أحاط بها.

(٢) الخليقة: الطبيعة التي يخلق المرء بها.

فوصف نفسه بالصبر والجلد والقوّة على التهالك، ثم أدركتْه الرقة والاشتياق في البيت الذي بعده:

أغَـرّكِ مني أنّ حبَّـكِ قـاتِلي ... وأنكِ مهما تأمُري القلبَ يفعـل

مستدركاً قوله في البيت الأول:

فسُلِّي ثيابي من ثيابكِ تنسَل

ولم يزل مَن تقدّم من الشعراء وغيرهم مجمعين على ذمّ الغراب والتشاؤم به، وكان اسمه مشتقاً من الغُربة، فسموه غرابَ البين، وزعموا أنه إذا صاح في الديار أقْوَتْ[1] من أهلها؛ وخالفهم أبو الشِّيص فقال ما هو أحسن من هذا وأصدق من ذلك كله، قوله:

مـا فـرَّق الأحبـابُ بعْـ ... ـد اللهِ إلا الإبـلُ
والنـاسُ يَلْحَـون غـرا ... بَ البيْـن لمَّا جَهلـوا[2]
ومـا إذا صبـاحَ غـراب ... بٌ في الديـار آحتمَلـوا
ومـا على ظهْـر غـرا ... ب البيْـن تُطوى الرحـل
ومـا غـرابُ البيْـن إلاّ ... نـاقـة أو جمَـل

وقال آخر في هذا المعنى وذكر الإبل:

لحنّ الوَجَى إذ كنّ عوناً على النَّـوَى ... ولا زال منهـا ظـالـع وكسِيرُ[3]
وما الشؤْمُ في نَعْب الغراب ونَعْقـه ... ومـا الشـؤْمُ إلا نـاقـة وبعير

ومن قولنا في هذا المعنى:

نَعَبَ الغرابُ فقلتُ أكذبُ طائـرٍ ... إن لم يُصـدِّقْـه رغـاءُ بعير
رِدُّ الجمالِ هـو المحقّـق للنَّـوْى ... بـل شرُّ أَحْلاسٍ لهنَّ وكـور[4]

---

(١) أقوت الدار من أهلها: خلت (٢) يلحون: يلومون ويعذلون.

(٣) الوجى: رقة القدم أو الحافر أو الخفّ من كثرة المشي.

(٤) الرِّد: الظهر. وأحلاس: جمع حلس، وهو كل شيء ولي ظهر البعير والدابة تحت الرحل والقتب والسرج. والكور: الرحل.

وقد يأتي من الشعر ما هو خارج عن طبقة الشعراء، منفرد في غرائبه وبديع صنعته ولطيف تشبيهه، كقول جعفر بن جِدار كاتب ابن طولون:

كـم بيـن بـاري وبيـن بَمَّـا ... وبيـن بَـوْنٍ إلى دِمَّـا[١]
مَـن رَشـإٍ أبيـضِ التراقـي ... أغيـدَ ذي غُنَّـةٍ أَحَمَّـا[٢]
وطَفْلـةٍ رخْصـةِ المرائِـي ... ليسـتْ تُحلَّـى ولا تُسمَّـى
إلا وسِلْـكٌ مـن اللآلي ... يُعجز مَـن يُخرج المعمَّـى
صُغْـرَى وكبرَى إلى ثلاثٍ ... مثـل التَّعـاليـل أو أتَمّا
وكـم بَبَـمٍّ وأرض بَـمٍّ ... وكم بِـرَمٍّ وأرض رمَّـا[٣]
مـن طَفلـةٍ بَضَّـةٍ لَعـوبٍ ... تلْقـاك بـالحُسْـنِ مُسْتَتِمّا
منهـنّ رَيَّـا وكيـف ريَّـا ... ريَّـا إذا لاقـت المَشَما
لـو شمَّهـا طـائِـرٌ بـدَوّ ... لَخَـرَّ في الترب أو لَهمَّـا
تَسحَـبُ ثـوبين مـن خَلـوق ... قـد أفنيـا زعفَـران قُمَّـا[٤]
كـأنما جُلِّيـا عليهـا ... من طِيـبِ مـا بَاشَـرا وشمّـا
فـألْفَيـا زَعفـرانَ قـمٍّ ... فـانغمسـا فيـه وٱستحَمَا
فهـي نَظير ٱسمِهـا المُعَلَّـى ... يَفوحُ لا مِـرطـها المُدمَّـا[٥]
هيْهـات يـا أُخْـتَ أهـل بمٍّ ... غَلِطْـتُ في الآسم والمُسمَّـى
لـو كـان هـذا وقيـل سمٌّ ... مـات إذاً مَـن يقـول سَمّـا
قـد قلـتُ إذ أقبلـتْ تَهـادَى ... كطلعـة البـدر أو أتَمّا
تُـومِـي بـأُسْـروعـة وتُخفـي ... بالبُرْد مثـل القـداحِ حُمَّـا[٦]

---

(١) باري: قرية من أعمال كلواذا من نواحي بغداد. وبم: مدينة من مدن كرمان. ودما: قرية كبيرة على الفرات قرب بغداد. والبون: بليدة بين هراة ونيستور.

(٢) الأحم: الأسود. (٣) رمّ: موضع بفارس.

(٤) قُم: بين أصبهان وساوة.

(٥) المرط: كساء من صوف أو خز أو كتان. والمدم: أي المطلي بالزعفران.

(٦) الأسروعة: يريد اصبع المرأة.

لــو كنــتُ ممَّن لكنــت ممَّا   لكني قــد كبــرتُ عمَّــا . . .
عـاتبَني الدهــرُ في عِــذاري   بـأحـرُفٍ فـآرعـوَيـتُ لمَّا [١]
قــوَّسَ مــا كــان مستقيما   وآبيـضَّ مـا كـان مُـدْلَهِمَّـا
وكيف تَصبوا آلدّمـى إلى مَـن   كـان أخـاً ثم صـار عمَّـا
لي عنـكِ يـا أُختَ أهــلَ بمٍّ   شُغْــلٌ بما قــد دنَــا مُهِما
فلســتُ من وجهك المفــدّى   ولســتُ مـن قـدِّكَ المُحَمَّــى
أذهلَني عنـكَ خــوف يــومٍ   يَحيـا لــه كـلُّ مــن ألَما
مـا كسَبَتْــه يــدايَ وهْنــاً   خيــراً وشــرّاً أصبَــتُ ثَمّا
تُحشَــر فيــه الجنــان زَقّــاً   وتُحشر النـارُ فيـه زَمّـا [٢]
تقــولُ هٰــذِي لطــالبيهــا   هَيْــتَ وهٰــذِي لهم هَلُمَّــا
نفسيَ أَوْلى بـــأن أَذُمّـــا   من أمْرهـا كـلَّ مـا آستُـذِمّا
يـــا نفسُ كم تُخـــدَعين عما   بلُبس داجٍ وأكْــــل لَما [٣]
رعيْتِ مِن ذي الحطام مَـرْعَـى   جَمعــتِ أكْلاً لــه وذمَّــا
ويحكِ فـاستيْقِظـي لِيــومٍ   يحيـا لـه كـلُّ مـن أرَمَّـا [٤]
ألم تَـريْ يـونسَ بن عبـد الأ   على غــدًا صــامِتــاً فصمّا
في حُفـرةٍ مـا يُحيرُ حــرْفـا   قـد دُكَّ مـن فـوقهـا وطُما
والمُزَنـــيّ الذي إليــــه   نَعْشُـو إذا دهْـرنـا آدَهما [٥]
أخْفَـى فـؤادي لـه عـزائِــي   لٰكــنْ زَفيري عليــه نَما
كـأنما خُـوِّفـا فخـافـا   أو حُـذِّرا غـاشماً فصُما
أقبـل سهــمٌ مــن الرزايَـا   فخَـصَّ أعلامَنـا وعَما

---

(١) العذار : جانب اللحية .

(٢) الزّم : الملأ . والصوت .

(٣) داج : أي صابغ .   (٤) أرمّ : بلي وفني .

(٥) المزني : هو ابو ابراهيم اسماعيل بن يحي بن اسماعيل .

دَكْـدَكَ منـا ذُرا جبـال ... شـامخةٍ في السمـاء شُمـا[1]
وخَصّنـا دون مَـن عليهـا ... وزاد همـا بنا وغَمـا
قـد قـرُب الموتُ يـا بنَ أُمّـا ... فبـادِرِ الموتَ يـا بن أُمّـا
وآعلم بـأنْ مَـن عَصـاكَ جهلا ... مـن التّقـي لم يُطِعـكَ هِما[2]
هـو الهُدَى والرّدَى فـإمّـا ... أتيـتَ آتي الرّدى وإمّـا[3]
هـأنـذا فـاعتبِـر بحالي ... في طَبَـق مُـوصـدٍ مُعَمّـى
قـد أسكنتْني الذنـوبُ بيتـاً ... يخالُـه الإلْـفُ مُستحَمّـا
فهـل إلى تـوبـة سبيـلٌ ... تكـون فيهـا الهمـوم هَمّا
فتشكـر اللهَ لا سـواهُ ... لعـلَّ نعمـاه أن تَتِمّـا
يـا نفسُ جـدّي ولا تميلـي ... فـأفضـلُ البِـرِّ مـا آستتما
أو ابحثـي عـن فُـلِ ابن فُـلٍّ ... تَـرَيْـه تحت التراب رمّـا
لبئس عبـدٌ يـروح بغيـاً ... مـع المسـاوي تـراه دَوْمـا
في غمـرة العيش لا يبـالي ... أحْمَـدَهُ الجـار أم أدمّـا
كم بين هـذا وبين عبـدٍ ... يغدو خميـصَ الحشَى هضما[4]
يقطـع آنـاءه صـلاة ... ودهـره بـالصلاح صـومـا[5]
إن بهـذا الكـلامِ نُصْحـاً ... إن لم يـوافِ القلـوبَ صُما
يـا ربِّ لي ألـفُ ألـفِ ذنـبٍ ... إن تعف يـا ربِّ فـآعـف جَما
فـآبـرِد بعفـوِ غليـلَ قلـبٍ ... كـأنّ فيـه رسيسَ حُمّـى[6]

وقال الغزال:

لعمرى مـا ملّكـتُ مِقْـودِيَ الصِّبـا ... فأمطُوَ للذاتِ في السهل والوعرِ[7]

(١) دكدك: هدّم.
(٢) الهِمّ: الشيخ البالي.
(٣) الرّدى: الهلاك.
(٤) خميص الحشا: الذي ضمرت بطنه.
(٥) الآناء: ساعات الليل.
(٦) رسيس: الذي دخلت فيه الحمى وثبتت.
(٧) أمطو: أي أسرع

ولا أنـا ممن يـؤثـر اللهـو قلبُـه فأُمسيَ في سُكر وأصبح في سكر

ولا قـارعٌ بـاب اليهـوديَّ مَـوْهنـاً وقد هجع النُّوام من شهوة الخمر

وأَوتغَـهُ الشيطـان حتى أصـارهُ من الغيِّ في بحر أضل من البحر[1]

أُغذّ السّرى فيها إذا الشَّرب أنكـروا ورهني عند العِلج ثوبي من الفجر[2]

كـأنيَ لم أسمـع كتـاب محمد وما جاء في التنزيل فيه من الزجر

كفانيَ مـن كـل الذي اعجبـوا بـه قُلَيلةُ ماءٍ تستقي لي من النهر

ففيها شرابي إن عطشت وكـل مـا يُريد عيالي للعجين وللقِدر

بخبـز وبَقـل ليس لحماً وانني عليـه كثيـر الحمـد لله والشـكر

فيا صاحبَ اللُّحان والخمر هل تـرى بوجهي إذا عاينتَ وجهي من ضُرِّ[3]

وبـالله لـو عُمِّـرتُ تسعين حجـةً إلى مثلها ما اشتقت فيها إلى خمر

ولا طـربـتْ نفسي إلى مـزهـر ولا تحنَّن قلبي نحو عود ولا زَمْر

وقـد حـدّثـوني أن فيهـا مـرارةً وما حاجة الإنسان في الشرب للمرّ

أخـي عُـدَّ مـا قـاسيتـه وتقلبـت عليك به الدنيا من الخير والشر

فهل لك في الدنيا سوى الساعة التي تكون بها السراء او حاضرُ الضر

فما سـاق منهـا لا يُحس ولا يُـرى وما لم يكن منها عميٌّ عن الفكر

فطـوبـى لعبـدٍ اخـرج الله روحَـه إليه من الدنيا على عمل البر

ولكنني حُـدّثـت أنّ نفـوسهـم هنالك في جاه جليل وفي قدر

وأجسادهم لا يـأكـل التراب لحمهـا هنالك لا تبلى الى اخر الدهر

وقال أيضاً:

كتبـت وشـوقٌ لا يفـارق مُهجتي ووجدي بكم مستحكم وتذكري[4]

---

(١) وأوتغه: أي قاده الى التهلكة.

(٢) العلج: كل جاف شديد من الرجال

(٣) اللحان: الذي كثر لحم بدنه. أو اللحم. (٤) الوجد: الشوق الشديد.

بقـــرطبـــةٍ قلبي وجسمـــي ببلـــدة	نأيت بها عن أهل ودِّي ومعشري[1]
سقى الله من مـزن السحـائـب ثـرَّةً	ديارِكمُ اللاتي حوت كل جُؤذر[2]
بحق الهوى أقـــــر السلام على التي	اهيم بها عشقاً إلى يوم محشري
لئن غبت عنها فـالهوى غير غـائـب	مقيم بقلب الهائم المنفطر
كـأن لم أبـت في ثـوبها طـول ليلـة	إلى أن بدا وجه الصباح المنوَّرِ
وعـانقـت غُصنـاً فيـه رمّـان فضّـة	وقبلـتُ ثغـراً ريقـه ريـق سُكـر
أأنسى ولا أنسى عنـاقـك خـاليـاً	وضمّي ونقلي نظم دُرٍّ وجوهر
فـواحـزني أن فـرّق الدهـر بيننـا	وكدّر وصلا منك غيرَ مكدّر
لقـد غـرّرت نفسي بحبـك ضلـةً	ولو علمت عُقبى الهوى لم تغرّر[3]
بكيت فما أَغنى البكـا عنـد صحبتي	وشوقي إلى رئم من الإنس أحْور[4]
سلام سلام ألــف ألــف يكـــرر	ويا حاملا عني الرسالة كرِّر
ألا يـا نسيم الريــح بلِّــغ سلامنـا	وصفْ كلَّ ما يلقى الغريب وخبِّر
وقــل لشعــاع الشمس بلِّــغ تحيتي	سَمِيِّكَ واَقرأها على آل جعفر

وقال أيضاً:

أَقـر السلام على إلـفٍ كَلِفـتُ بـه	قدرُمْت صبراً وطولُ الشوق لم يرم
ظبيٌ تباعدَ عـن قـربي وعـن نظـري	فالنفسُ والهةٌ من شدة الالم
كنـا كـرُوحين في جسم غـــذاؤهما	ماء المحبة من هامٍ ومنسجم
إلفين هـــذا بهذا مغـــرم كِلـــفٌ	لا واحدٌ في الهوى منا بمتَّهَم[5]
لله تلــــك الليـــالي والسرور بها	كأنما أبصرتها العين في الحلم
ففـــرق الدهـــر شملا كـــان ملتئما	منا وجمَّع شملا غير ملتئم

---

(١) نأيت: ابتعدت.
(٢) الثَّرة: الصبَّة. يقال ثرّت السحابة ماءها: أي صبته.
(٣) عقبى الهوى: عاقبته.
(٤) الرئم: الظبي الخالص البياض، أو ولد الظبي. وتشبه به الحسناء.
(٥) الكَلِف: الصبّ.

ما زلت أرعـى نجوم الليـل طـالعـةً أرجو السلوّ بها إذ غِبتُ عن نجمي
نَجم من الحسن مـا يجري بـه فلـك كأنه الدر والياقوت في النظم
ذاك الذي حـاز حُسنـا لا نظير لـه كالبدر نوراً علا في منزل النعم
وقـد تنـاظـر والبـرجْيـس في شرفٍ وقارن الزَّهرةَ البيضاء في تَوم[1]
فـذاك يُشبهـه في حُسـن صـورتـه وذا يزيد بخط الشعر والقلم
أشكـو إلى الله مـا ألقـى لفـرَقتـه شكوى محبٍ سقيم حافظ الذمم
لو كنت أشكو إلى صمّ الهضـاب إذاً تفطرتْ للذي أبديه من ألم
يا غادراً لم يزل بـالغـدر مُـرتـديـاً أين الوفاء أبِنْ لي غير محتشم
إن غاب جسمُك عن عيني وعن نظري فما يغيب عن الأسرار والوهم
إني سأبكيك مـا نـاحـت مُطـوّقـة تبكي أليفا على فرع من النَّشم[2]

ما يجوز في الشعر مما لا يجوز في الكلام

قال أبو حاتم: أُبيح للشاعر ما لم يُبحْ للمتكلم، من قصر الممدود، ومد المقصور، وتحريك الساكن، وتسكين المتحرك، وصرف ما لا ينصرف، وحذف الكلمة ما لم تلتبس بأخرى، كقولهم: فل، من فلان؛ وحَم، من حمام.

قال الشاعر:

وجـاءتْ حـوادثُ مـن مِثلِهـا يقال لمثلِك: ويْهاً فُلُ

وقال مسلم بن الوليد:

سلِ النـاسَ إني سـائـلُ الله وحـدهُ وصائِن وجْهي عن فلانٍ وعن فل

وقال آخر:

دُعاء حمامات تُجاوبُها حَم

---

(١) البرجيس: نجم، قيل هو المشتري وقيل المريخ

(٢) النشم: شجر جبلي تتخذ منه القسي.

ومن المحذوف أيضاً قول الشاعر:[1]

لها أشـــاريـــرُ مـــن لحمٍ تُتمـــِّـــره   من الثَّعالي ووخْزٌ من أرانيها[2]

يريد « من الثعالب » . ومثله قول الشاعر:

ولضَفادي جمَّة نقانقُ

يريد « الضفادع » .

ومن المحذوف قول كعب بن زهير:

ويلمها خلــةً لـــو أنها صـــدقَـــتْ   في وعدها أو لو آنَّ النُّصح مقبولُ

يريد: ويل لأمها . ومنه قولهم: لاهِ أبوك، يريدون: لله أبوك . وقال الشاعر:

لاهِ ابــنُ عمِّـــــكَ لا يخـــا   فُ المبدِياتِ من العواقِبْ

وكذلك الزيادة أيضاً إذا احتاجوا إليها في الشعر، فمن ذلك قول زهير:

ثم استمـرُّوا وقـالـوا إنّ مـوعِـدَكم   ماءٌ بشرقيِّ سلمى فَيْدُ أوْ رَككُ[3]

قال الاصمعي: سألت نجيبات فيدٍ عن ركك فقيل: ماء هاهنا يسمى رَكّا؛ فعلمت أن زهيرا احتاج فضعّف .

ومنه قول القطامي:

وقـــوْلُ المرءِ ينفـــذ بعـــد حينٍ   مواضع ليس ينْفذها الإبارُ[4]

ومثله قولهم: كلكال، من كلل . ونظير هذا كثير في الشعر لمن تتبعه .

وأما قصرهم الممدودَ فجائز في أشعارهم، ومدّ المقصور عندهم قبيح .

---

(١) هو أبو كاهل اليشكري .

(٢) الأشارير: جمع إشرارة: وهي القطعة من القديد . والتتميز: التقديد . والوخز: شيء ليس بالكثير .

(٣) سلمى: أحد جبلي طيء، وثانيهما أجأ . وفيد: نجد قريب منها .

(٤) الإبار أو الأبر: جمع إبرة، وهي مسلة حديد .

وقد يُستجاد في الشعر على قبحه، مثل قول حسان بن ثابت:

قَفَـاؤُكَ أَحْسَــنُ مــن وَجْهِــه   وأُمُّكَ خيْرٌ من المُنْذِرِ

وأنشد أبو عبيدة:

يـا لَـكَ مـن تَمـر ومـن شيشـاء   ينشَـبُ في الحلْـق وفي اللّهـاءِ(1)

فمدّ اللها، وهو جمع لهاة. كما قالوا: قطاة وقطاً، ونواة ونوى.

وأما تحريك الساكن وتسكين المتحرك، فمن ذلك قول لبيد بن ربيعة:

تَـرَّاكُ أمكِنَــةٍ إذا لم أرضَهـا   أو يرتَبطْ بعضَ النُّفوسِ حمامُها

ومثله قول امرىء القيس:

فـاليـوْمَ أشرَبْ غير مستحقِـبٍ   إثماً من الله ولا واغِلِ (2)

وقال أمية بن ابي الصلت:

تـأبَـى فما تطلُـعْ لهم في وقتِهـا   إلا مُعَذَّبَةً وإلا تُجْلَدُ

ومن قولهم في تحريك الساكن:

اَضرِبْ عنـك الهُمـومَ طـارقَهـا   ضَربَكَ بالسَّوْطِ قوْنَسَ الفرَسِ (3)

وأمـا صرف مـالا ينصرف عنـدهـم فكثير، والقبيـح عنـدهـم أن لا يُصرف المنصرف، وقد يستجاد في الشعر على قبحه؛ قال عباس بن مرداس:

ومـا كـان بـدرٌ ولا حـابِسٌ   يفُوقانِ مِرْداسَ في المجمَعِ

ومن قولهم في تسكين المتحرّك وقد استشهد به سيبويه في كتابه:

عجِـبَ النـاسُ وقـالـوا   شِعـرُ وضّـاح اليماني

(1) الشيشاء: التمر الذي لا يشتد نواه.

(2) غير مستحقب: غير محتمل. والواغل: الآثم.

(3) قونس الفرس: ما بين أذنيه، وقيل عظم ناتىء بين اذنيه.

إنما شِعـــــريَ قنْـــــد قـــد خُلِـــطْ بجُلجُلان [1]

ولو حرَّك «خلط» اجتمع خمس حركات.

باب ما أدرك على الشعراء

قال أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة: أدركت العلماء بالشعر على امرىء القيس قوله:

أغـــرَك منِّـــي أنّ حُبَّـــكِ قــاتِلي وأنكِ مَهما تأمُري القلبَ يَفعَلِ

وقالوا: إذا لم يغرّ هذا فما الذي يغرّ؟ ومعناه في هذا البيت يناقض البيت الذي قبله حيث يقول:

وإن كنت قد ساءَتْـكِ مني خَليقَـةٌ فسُلّي ثيــابي من ثيابِكِ تَنسَلِ

لأنه آدعى في هذا البيت فضلا للتجلد وقوة الصبر بقوله:

فسلّي ثيابي من ثيابِك تنسَلِ

وزعم في البيت الثاني أنه لا تحمُّل فيه للصبر ولا قوة على التمالك بقوله:

وأنكِ مهما تأمري القلبَ يَفعلِ

وأقبحُ من هذا عندي قولُه:

فظَـلَّ العذارى يـــرتمين بلَحمِهـــا وشَحمٍ كهُداب الدِّمقْس المفتلِ [2]

ومما ادرك على زهير قوله في الضفادع:

يَخرُجنَ من شَرَباتٍ ماؤها طحِـلٌ على الجذُوعِ يَخفْن الغمَّ والغرَقا [3]

---

(١) القند: عصارة قصب السكر اذا جمد. والجلجلان: حبّ الكزبرة وقيل هو السمسم

(٢) الدّمقس: الحرير.

(٣) الشربات: حياض تحفّ في أصول النخل من شقّ واحد ممتلىء ماء. وطحل: قد أخضر مما يصب فيه من الماء. وقيل: طحل: كدر.

وقالوا: ليس خروج الضفادع من الماء مخافة الغم والغرق، وإنما ذلك لانهن يبتن في الشطوط.

ومما أُدرك على النابغة قوله يصف الثور:

يَحيدُ عن أستَنٍ سودٍ أسافلُه ... مثلَ الإماءِ الغوادي تحمِلُ الحزَما [1]

قال الاصمعي: إنما توصف الإماء في مثل هذا الموضع بالرواح لا بالغدوّ؛ لانهن يجئن بالحطب إذا رُحن. قال الأخنس التغلبي:

تظَلُّ بها رُبْدُ النَّعامِ كأنها ... إماءٌ يَرُحن بالعشِيِّ حواطبُ [2]

وأخذ عليه [3] في وصف السيف قوله:

يَقُدُّ السلوقي المضاعف نسجُه ... ويوقِد بالصفاح نار الحباحِب [4]

فزعم أنه يقدّ الدرع المضاعفة، والفارس، والفرس، ثم يقع في الأرض فيقدح النار من الحجارة؛ وهذا من الإفراط القبيح. وأقبح عندي من هذا في وصف المرأة قوله:

ليست منَ السُّود أعقاباً إذا انصرفتْ ... ولا تبيعُ بأعلى مكة البُرَما [5]

ومما أُخذ عليه قوله:

خطاطيف حُجْن في حِبالٍ متينةٍ ... تُمَدُّ بها أيْد إليك نوازع

فشبه نفسه بالدَّلو، وشبه النعمان بخطاطيف حجن، يريد خطاطيف معوجة تمدّ بها الدلو. وكان الأصمعي يكثر التعجب من قوله:

وغيّرتْني بنو ذُبْيانَ خَشْيَتَه ... وهل علي بأن أخشاك من عارِ

---

(١) الأستن: شجر يفشو في منابته ويكثر، اذا نظر الناظر اليه من بعد شبهه بشخوص الناس.

(٢) رُبْد: جمع أربد وربداء، وهو ما اختلط سواده بكدرة.

(٣) يعود الضمير في عليه الى النابغة.

(٤) السلوقي: الدرع المنسوبة الى سلوق، قرية باليمن. والصفاح: الحجر البريض. ونار الحباحب: ما اقتدح من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة.

(٥) البرم: جمع برمة، وهي القدر من النحاس، يريد أنها مصونة مخدرة.

ومما أُدرك على المتلمِّس قوله:

وقد أتناسَى الهمَّ عند احتضارِه ... بناجٍ عليه الصَّيْعرية مُكْدَم[1]

والصيعرية: سمة النوق، فجعلها صفة للفحل؛ وسمعه طرفة وهو صبي ينشد هذا البيت، فقال: استنْوَق الجمل! فضحك الناس، وصارت مثلا.

أُخذ عليه أيضاً قوله:

أحارثُ انا لو تُساط دماؤنا ... تَزايلْن حتى لا يَمَسَّ دمٌ دما[2]

وهذا من الكذب المحال.

ومما أدرك على طرفة قوله:

أُسْدُ غِيلٍ فإذا ما شربوا ... وهَبُوا كل أمُون وطِمِرْ

ثم راحوا عَبِقَ المسك بهم ... يَلحَفون الأرض هُدَّاب الأُزُرْ

فذكر أنهم يُعطون إذا سكروا، ولم يشترط لهم ذلك إذا صحوا كما قال عنترة:

وإذا شربتُ فإنني مُستهلك ... مالي، وعِرْضي وافرٌ لم يُكلم

وإذا صحوْتُ فما أُقصرِّ عن نَدًى ... وكما علِمتِ شمائلي وتكرُّمي[3]

ومما أُدرك على عدي بن زيد قوله في صفة الفرس:

فضافَ يُفرِّي جُلَّه عن سَراتِه ... يَبُذُّ الجيادَ فارهاً مُتتابعاً[4]

ولا يقال للفرس فاره، وإنما يقال له جواد وعتيق، ويقال للبِرْذَوْن والبغل والحمار: فاره.

ومما أُدرك عليه وصفه الخمر بالخضرة، ولا يعلم أحد وصفها بذلك؛ فقال:

---

(١) الصيعرية: سمة في عنق الناقة خاصة، أو اعتراض في السير، وقيل هي وسم لأهل اليمن.

(٢) تساط: تخلط. والتزايل: التباين.

(٣) الندى: الكرم. (٤) ضاف: مال ودنا. ويبذّ: يبعد.

والمشْـــرف الهنـــديّ يسقـــى بـــه أخضرَ مطموثاً بمإ الخَريص[1]

ومما أدرك على أعشى بكر قوله:

وقـد غَـدوْتُ إلى الحانـــوت يتْبعُني شاوٍ مِشَلّ شَلولٌ شُلْشُـلٌ شـوِلُ[2]

وهذه الالفاظ الاربعة في معنى واحد.

ومما أدرك على لبيد قوله:

ومَقـــام ضيِّـــق فـــرّجْتُـــه بمقـــامـــي ولســـاني وجـــدَلْ

لـــو يقـــوم الفيـــل أو فيّـــالُـــه زَلّ عن مثْل مَقامي وزَحلْ

فظن أن الفيَّال أقوى الناس، كما أن الفيل أقوى البهائم.

ومما أُدرك على عمرو بن أحمر الباهلي قوله يصف المرأة:

لم تَـدْر مـا نَسْـج اليَـرنْـدجِ قبلَهـا ودِراسُ أعوصَ دارسٍ متجدِّدِ[3]

اليرندج: جلود سود. فظن أنه شيء يُنسج، ودراس أعوص: يريد انها لم تُدارس الناس عويص الكلام الذي يخفى أحياناً ويتبين احيانا. وقد اتى ابن احمر في شعره بأربعة ألفاظ لم تعرف في كلام العرب: منها أنه سمى النار ماموسة، ولا يعرف ذلك، قال:

كما تطايحَ عن مامُوسةَ الشَّرَرُ

وسمى حُوار الناقة بابوساً، ولا يعرف ذلك، فقال:

حنَّتْ قلُوصي إلى بابوسهـا جـزَعـا فما حنينُك أمّا أنت والذكر[4]

---

(١) المشرف: إناء كانوا يشربون به. والمطموث: الممسوس. والخريص: شبه حوض واسع ينبثق فيه الماء من النهر ثم يعود اليه.

(٢) الشاوي: الذي يشوي. والمشل: الجيد السوق للإبل، وهو الخفيف. والشلشل: المتحرك. والشول: الذي يحمل الأشياء.

(٣) متجدد: أي ما يظهر منه جديدٌ وما لم يظهر دارس.

(٤) البابوس: ولد الناقة، وقيل: الحوار.

وفي بيت آخر يذكر فيه البقرة:

... وبَنَّس عنها فرْقدْ خَصِر

أي تأخر، ولا يُعرف التبنس، وقال:

وتَقنَّع الحِرْباءُ أُرْنَته

يريد مالُفّ على الرأس، ولا تعرف الأرنة إلا في شعره.

ومما أدرك على نصيب بن ربَاح قوله:

أهيم بِدَعْدٍ ما حَييت فإن امت فواكَبدي من ذا يَهيم بها بَعدي

تلهف على من يهيم بها بعده.

ومما أُدرك على الراعي قوله في المرأة:

تكْسو المفارقَ واللَّبّات ذا أرَجٍ من قُصْبِ مُعْتِلفِ الكافور دَرّاج[1]

أراد المسك، فجعله من قصب، والقصب: المعَي فجعل المسك من قصب دابة تعتلف الكافور فيتولد عنها المسك.

ومما أدرك على جرير قوله في بني الفَدَوْكس رهط الاخطل:

هذا ابن عمي في دمشقِ خليفةً لو شئتُ ساقكُمُ إليَّ قطينا

القطين في هذا الموضع: العبيد الإماء. وقيل له: أبا حَزرة، ما وجدت في تميم شيئاً تفخر به عليهم حتى فخرت بالخلافة؟ لا والله ما صنعت في هجائهم شيئاً.

ومما أدرك على الفرزدق قوله:

وعض زمانٌ يابن مَرْوان لم يَدَعْ من المال إلا مُسْحِتاً او مُجلّف[2]

---

(١) ذو أرج: تفوح منه رائحة الطيب.

(٢) المسحت: المهلك. والمجلف: الذي بقيت منه بقية.

وقد أكثرالنحويون الاحتيال لهذا البيت ولم يأتوا فيه بشيء يُرضي ومثل ذلك قوله:

غَـداةَ أُحلَّـــت لابن أصرمَ طعْنَـــةٌ   حُصيْن عبِيطاتِ السدائفِ والخمر[(١)]

وكان حصين بن أصرم قد حلف ألا يأكل لحما ولا يشرب خمرا حتى يدرك ثأره؛ فأدركه في هذا اليوم الذي ذكره؛ فقال: عبيطات السدائف. فنصب «عبيطات السدائف» ورفع «الخمر». وإنما هي معطوفة عليها وكان وجهها النصب، فكأنه أراد: وأُحلّت له الخمر.

ومما أدرك على الأخطل قوله في عبد الملك بن مروان:

وقـــد جَعـــل الله الخلافـــة منهـــم   لأبيضَ لاعاري الخِوانِ ولا جَدْبِ[(٢)]

وهذا مما لا يُمدح به خليفة.

وأُخذ عليه قوله في رجل من بني أسد يمدحه، وكان يعرف بالقَين ولم يكن قينا، فقال فيه:

نعـــمَ المجير سماكٌ مـــن بني أســـدٍ   بالمرْج إذا قتلت جِيرانَها مُضَرُ[(٣)]

قـــد كنـــتُ أحسبـــه قينـــاً وأُنبِـــؤه   فالآن طيِّر عن أثوابِه الشَّرر

وهذا مدح كالهاجاء.

ومما أُدرك على ذي الرُّمة:

تُصْغي إذا شدّها بالكـــور جـــارحـــةً   حتى إذا ما استوى في غَرْزها تَثِبُ[(٤)]

وسمعه اعرابي ينشده فقال: صرع والله الرجل! ألا قلت كما قال عمك الراعي:

---

(١) السدائف: جمع السديف: وهو لحم السنام.

(٢) الخوان: ما يؤكل عليه.

(٣) وهو سماك بن مخرمة، أحد بني عمرو بن سعد.

(٤) تصغي: أي تميل كأنها تسمع الى حركة من يريد أن يشد عليها الرحل. وجانحة: مائلة لاصقة. والغرز: سير كالركاب توضع فيه الرجل عند الركوب.

وواضعــةٍ خَــدَّهَــا للـــزِّمـــا م فالخدُّ منها له أصْعَرَ[١]
فلا تَعْجلِ المرءَ قبـل الرُّكـو ب وهــي بــرِكْبَتِــه أبصرُ
وهـي إذا قـام في غــرْزِهــا كمثْــلِ السفينــةِ أو أوْقــر

ومما أدرك عليه أيضاً قوله:

حتى إذا دوَّمَت في الأرض راجعَـه كبرٌ ولو شـاد نَجّـى نفسَـه الهربُ

قالـوا: التـدويم إنما يكـون في الجوّ، يقـال: دوم الطـائـر في السماء، إذا حلـق واستدار؛ ودوّى في الأرض، إذا استدار فيها.

ومما أُدرك على أبي الطَّمحان القيني قوله:

لَمّا تَحمّلَــت الحُمــولُ حسبتُهــا دوْمــاً بــأيْلـةَ نــاعماً مكمــومــا

الدوم: شجر المُقل، وهو لا يكمّ، وإنما يكم النخل[٢].

ومما أخذ على العجاج قوله:

كـــأنّ عينيــــه مـــن الغئـــور قَلْتانِ أو حَوْجَلتـا قـارُور[٣]
صَيَّــرتَــا بــالنَّضْــجِ والتصْيير صلاصــلَ الزيــت إلى الشُّطــور

الحوجلتان: القارورتان، جعل الزجاج ينضح ويرشح.

ومما أدرك على رؤبة قوله:

كنْتم كمن أدخَل في حُجْرٍ يَـدا فأخطأَ الأفعى ولاقى الأسْـودا

جعل الأفعى دون الأسود، وهي فوقه في المضرّة. وأُخذ عليه في قوله في وصف الظليم:

وكلُّ زَجّـاءَ سُخـامِ الخَمْـلِ تَبري له في زَعِلات خُطْـل[٤]

(١) أصعر خدّه: أماله عجباً وكبرا.
(٢) كمّ الشيء: غطّاه وستره.
(٣) الغئور: دخول العين في الرأس. (٤) تبري له: أي تنبري له. وزعلات: نشيطات.

فجعل للظليم عدّة إناث، كما يكون للحمار؛ وليس للظليم إلا أنثى واحدة.

وأخذ عليه قوله يصف الراعي:

لا يَلتوي من عاطسٍ ولا نَغَقْ(١)

إنما هو النغيق والنُّغاق وإنما يصف الرامي؛ وأدرك عليه قوله:

أَقفرتِ الوعْثاءُ والعَثاعثُ من أهلها والبُرْقُ البرارثُ(٢)

إنما هي البِراث جمع بَرث، وهي الارض اللينة. وأدرك عليه قوله:

يا ليْتنا والدهرَ جرْيُ السُّمَّهِ

انما يقال: السُّمَّهَى: أي في الباطل وأخذ عليه قوله:

أو فضةٌ أو ذهَب كِبريتُ

قال: فسمع بالكبريت أنه احمر فظنّ انه ذهب.

ومما يستقبح من تشبيهه قوله في النساء:

يَلبسن من لِين الثِّياب نِيما

والنيم: الفروْ القصير، وأخذ عليه قوله في قوائم الفرس:

يَهوِينَ شَتَّى ويَقَعْن وقْفا

وأنشده مسلم بن قتيبة، فقال له: أخطأت يا أبا الجحاف، جعلتَه مقيَّدا. قال له رؤبة: أدنِني من ذنَب البعير.

ومما أُدرك على أبي نُخيلة الراجز قوله في وصف المرأة.

مُريَّة لم تلبس المَرَقَّقا ولم تَذقْ من البُقول الفُسْتُقا(٣)

---

(١) لا يلتوي: لا يتطير أن يسمع عاطساً. ولا نغق: أي ان سمع صوت غراب لم يتطير أيضاً.

(٢) الوعثاء: ما وطيء من الأرض وذلل. والعثاعث: ما سهل ولان. والبرق: الأراضي ذات الرمل، وربما كانت من طين أو حجارة.

(٣) المرقق: يريد ما رقق من الثياب.

فجعل الفستق من البقول، وإنما هو شجر.

تَسبح أُخراه ويَطفو أوّلَهْ

قال الاصمعي: إذا كان كذلك فحمار الكسّاح أسرع منه: لأنّ اضطراب مؤخره قبيح؛ وإنما الوجه فيه ما قال أعرابي في وصف فرس أبي الاعور السلمي:

مَـرَّ كلمـعِ البرْق سـامٍ نـاظـرُهْ　　تَسْبـح أُولاه ويَطْفـو آخـرهْ

فما يَمَسُّ الأرضَ منه حافرهْ

وأُخذ عليه أيضاً في الورود قوله:

جاءَت تَساقَـى في الرعيـل الأوّلِ　　والظِّلُّ عـن أخفـافهـا لم يَفْضُـلِ

فوصف أنها وردت في الهاجرة، وإنما خير الورود غلساً[1] والماءُ بارد ، كما قال الآخر:

فورَدتْ قبْل الصباحِ الفائقِ [2]

وكقول لبيد بن ربيعة العامري:

إنّ مِن ورْدِي لتغليس النّهلْ [3]

وقال آخر:

فورَدنَ قبْل تبيُّن الألوانِ

وأُنشد بشار الأعمى قولَ كثيّر عزة:

أَلا إنما ليلى عصـا خيـزُرانـةٍ　　إذا غَمـزوهـا بـالأكـفِّ تَلين [4]

فقال: لله أبو صخر! جعلها عصا خيزرانة، فوالله لو جعلها عصا زبد لهجّنها، ألا قال كما قلتُ:

---

(١) الغلس: ظلمة آخر الليل اذا اختلطت بضوء الصباح.

(٢) يقال ورد الماء: اذا أشرف عليه.

(٣) النهل: الشرب الأول، وما أكل من الطعام.

(٤) غمزها: جسّها ليعرف سمنها من هزالها.

وبيْضاء المحاجر من مَعَدّ كأنّ حديثها قِطَعَ الجُمان [1]
إذا قامت لحاجتِها تثنّت كأن عظامَها من خيزُران

ودخل العتابيّ على الرشيد فأنشده في وصف الفرس:

كأن أُذنيْه إذا تشوَّفا قادمة او قلما محرّفا

فعلم الناس أنه لحن، ولم يهتد احد منهم الى اصلاح البيت غير الرشيد؛ فانه قال: قل:

تَخال أُذنيه إذا تشوّفا

والراجز وإن كان لحن فإنه اصاب التشبيه.

كثير وابن أبي عتيق وابن معاذ

حدّث أبو عبد الله بن عرفة بواسط، قال: حدثني احمد بن محمد بن يحي عن الزبير ابن بكار عن سليمان بن عباس السعدي عن السائب رواية كثيِّر عزة، قال: قال لي كثير عزة يوما: قم بنا إلى ابن ابي عتيق نتحدّث عنده. قال: فجئناه فوجدناه عند ابن معاذ المغني، فلما رأى كثيِّراً قال لابن أبي عتيق: ألا أُغنيك شعر كثير عزة؟ قال: نعم. فغناه:

أبائنةٌ سُعْدَى نعم ستبينُ كما آنبتَّ من حبل القَرين قرينُ [2]
أأنْ زُمَّ أَجْمالٌ وفارَق جيرةٌ وصاح غرابُ البيْن أنت حزينُ
كأنك لم تَسمع ولم تَرَ قبلها تفرُّقَ أُلاَّفٍ لهن حنين
فأخلَفنَ ميعادي وخُنّ أمانتي وليس لمن خان الامانةَ دِين

فالتفت ابن ابي عتيق إلى كثيِّر فقال: وللدين صحبتهم يابن أبي جمعة! ذلك والله أشبه بهنّ وأدعى للقلوب إليهنّ، وإنما يوصفن بالبخل والآمتناع، وليس بالوفاء والأمانة؛ ذو الرقيّات أشعرُ منك حيث يقول:

---

(١) الجمان: اللؤلؤ. (٢) انبتَّ: انقطع.

حبَّـــذا الإدلالُ والغَنَـــجُ والتي في طــرْفهــا دَعَــجُ[١]
والتي إن حــدّثــت كــذَبــتْ والتي في ثغْــرهــا فَلَـــجُ[٢]
خَبِّـــروني هـــل على رجُـــلٍ عـــاشـــق في قُبلـــةٍ حَـــرَج

فقال كثيِّر: قم بنا من عند هذا.

عمارة وابن ابي السمط

عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير، قال: اني بباب المأمون إذ خرج عبد الله بن السمط، فقال لي: علمتُ أنّ امير المؤمنين على كماله لا يعرف الشعر! قلت له: وبِمَ علمتَ ذلك؟ قال: اسمعتُه الساعة بيتاً لو شاطرني مُلْكه عليه لكان قليلا، فنظر إلى نظراً شزْراً كاد يصطلمني[٣]. قلت له: وما البيت؟ فأنشد:

أضحى إمامُ الهدَى المأمــون مُشتغلا بالدِّين، والناسُ بالدنيا مَشاغِيلُ

قلت له: والله لقد حلم عليك إذ لم يؤدّبك عليه، ويلك! وإذا لم يشتغل هو بالدنيا فمن يدبِّر أمرها؟ ألا قلتَ كما قال جدي في عبد العزيز بن مروان:

فلا هــو في الدنيــا مُضِيــعٌ نصيبَـــه ولا عَرَضُ الدنيا عن الدِّين شاغِلُهْ[٤]

فقال: الآن علمتُ أنني أخطأت.

البعيث وجملة من الشعراء والوليد

الهيثم بن عدي قال: دخل رجل من أصحاب الوليد بن عبد الملـك عليه فقال: يا أمير المؤمنين، لقد رأيت ببابك جماعة من الشعراء لا احسبهم اجتمعوا بباب احد من الخلفاء، فلو أذنتَ لهم حتى يُنشدوك! فأذن لهم، فأنشدوه، وكان فيهم الفرزدق، وجرير، والاخطل، والاشهب بن رميلة، وتَرك البعيث فلم يأذن له، فقال الرجل

---

(١) الدّعج: جمع دعجاء وأدعج: وهو الذي اشتد سواد عينه وبياضها.

(٢) فلّجت المرأة أسنانها: فرقت بينها للزينة.

(٣) الاصطلام: الابادة والقطع.

(٤) عَرَضُ الدنيا: متاعها قلّ أو كثر.

المستأذِن لهم: لو أذنت للبعيث! فلم يأذن له، وقال: ليس كهؤلاء؛ إنما قال من الشعر يسيراً. قال: والله يا أمير المؤمنين إنه لشاعر. فأذن له، فلما مثل بين يديه، قال: يا أمير المؤمنين. إن هؤلاء ومن ببابك قد ظنوا أنك انما أذنت لهم دوني لفضلٍ لهم عليَّ. قال: أولستَ تعلم ذلك؟ قال: لا والله، ولا علِمه الله لي، قال: فأنشدْني من شعرك. قال: أما والله حتى أُنشدك من شعر كل رجل منهم ما يفضحه! فأقبل على الفرزدق، فقال: قال هذا الشيخ الاحمق لعبد بني كليب:

بـأيِّ رِشـاء يـا جـريـرُ ومـاتِـحٍ ... تدلَّيتَ في حوماتِ تلك القَماقِمِ [1]

فجعله تَدَلى عليه وعلى قومه من علٍ وإنما يأتيه من تحته لو كان يعقل.

وقد قال هذا كلبُ بني كليب:

لَقـومـيَ أحمَى للحقيقـةِ منكـم ... وأضربُ للجبَّار والنقْعُ ساطعُ [2]

وأوثـقُ عنـدَ المردفـاتِ عشيَّـةً ... لحاقا إذا ما جرد السَّيف لامعُ [3]

فجعل نساءه لا يثقن بلحاقه إلا عشيةً وقد نُكحن وفُضحن.

وقال هذا النصرانيُّ ومدح رجلا يسمى قينا فهجاه ولم يشعر، فقال:

قد كنتُ أحسَبهُ قينـاً وأنبـؤُه ... فالآن طيّر عن أثوابـه الشَّـررُ

وقال ابن رُمية ودفع أخاه إلى مالك بن ربيعيّ بن سلمى فقتل، فقال:

مددْنا وكانت ضلةً من حُلومِنـا ... تبدي إلى أولادِ ضمرَةَ أقطعـا

فمن يرجو خيره وقد فعل بأخيه ما فعل؟ فجعل الوليد يَعجب من حفظه لمثالب القوم وقوة قلبه؛ وقال له: قد كشفتَ عن مساوىء القوم، فأنشِدني من شعرك. فأنشده، فاستحسن قوله ووصله وأجزل له.

---

(١) حومات: جمع حومة، وهي اكثر موضع في البحر ماء وأغمره. والقماقم: جمع قمقام، وهو البحر.

(٢) النقع: الغبار الساطع.

(٣) يقال: لمع سيفه، اذا أشار به للانذار؟ وهو أن يحركه ليراه غيره فيجره اليه.

ومما عِيبَ على الحسن بن هانىء قوله في بعض بني العباس:

كيـف لا يُـدنيـكَ مـن أمـلٍ ... مَـن رسـولُ الله مِـن نفـرِه

فقالوا: من حق رسول الله ﷺ، ان يضاف إليه ولا يضاف هو إلى غيره؛ ولو اتسع متسع فأجازه لكان له مجاز حَسَن، وذلك ان يقول القائل من بني هاشم لغيره من أبناء قريش: منا رسول الله ﷺ. يريد أنه من القبيلة التي نحن منها، كما قال حسان بن ثابت:

وما زال في الإسلامِ مـن آل هـاشم ... دعائمُ عِزٍّ لا تُرامُ ومفْخرُ

بهاليـلُ منهـم جَعفـرٌ، وابن أُمّـه ... علي، ومنهم أحمدُ المتخَيّرُ[(١)]

فقال: منهم، كما قال هذا: من نفره.

ومما أُدرك عليه قوله في البعير:

أخنسُ في مثل الكظامِ مِخطمُه[(٢)]

والاخنس: القصير المشافر، وهو عيب له؛ وإنما توصف المشافر بالسبوطة.

ومما أدرك على أبي ذؤيب قوله في وصف الدُّرّة:

فجاءَ بها ماشئـتَ مـن لطَميّـة ... يدورُ الفُراتُ فوقها وتَمـوجُ[(٣)]

قالوا: والدُّرة لا تكون في الماء الفرات إنما تكون في الماء المالح.

جرير وابن لجأ

اجتمع جرير بن الخطفي وعمر بن لَجأ التيمي عند المهاجر بن عبد الله والي اليمامة، فأنشده عمر بن لجأ أرجوزته التي يقول فيها:

---

(١) البهاليل: جمع البهلول: وهو السيد الجامع لصفات الخير.

(٢) الكظام: جمع كظامة، وهي حبل يكظمون به خطم البعير.

(٣) لطمية: نسبة الى اللطمية، وهي الجمال التي تحمل العطر والنجرَ غير الميرة.

تصطــك أَحِيهـــا على دِلائها   تلاطـمَ الأزْدِ على عطــائها [1]

حتى انتهى إلى قوله:

تُجَـرُّ بـالأهـونِ مـن إدنـائها   جرَّ العجوزِ الثِّنْيَ من خفائها [2]

فقال جرير: ألا قلت:

جــرّ الفتــاةِ طـــرْفيْ ردائها

فقال. والله ما أردتُ إلا ضَعف العجوز، وقد قلت أنت أعجبَ من هذا، وهو قولك:

وأوثقُ عنـد المردفـاتِ عشيّـةً   لحاقاً إذا ما جرّدَ السيفَ لامـعُ

والله لئن لم يُلحقن إلا عشية، ما لحقن حتى نُكحن وأُحبلن. ووقع الشر بينهما.

ابن أبي ربيعة والاحوص ونصيب وكثير

وقدم عمر بن أبي ربيعة المدينـة، فـأقبـل إليـه الاحـوص ونصيـب، فجعلـوا يتحدثون، ثم سألهما عمر عن كثيّر عزة، فقالوا: هو ههنا قريب. قال: فلو أرسلنا اليه! قالا: هو أشد بأوا [3] من ذلك! قال: فاذهبا بنا إليه. فقاموا نحوه، فألفوه جالسا في خيمة له، فوالله ما قام للقرشي ولا وسع له؛ فجعلوا يتحدثون ساعة، فالتفت إلى عمر بن أبي ربيعة، فقال له: إنك لشاعر، لولا أنك تشبِّب بالمرأة ثم تدعها وتشبِّب بنفسك! أخبرني عن قولك:

ثَمَّ اسبَطـرَّتْ تشتـدُّ في أثـري   تسألُ أهل الطَّوافِ عن عمْرِ [4]

والله لو وصفت بهذا هرة اهلك لكان كثيرا؛ ألا قلت كما قال هذا، يعني الأحوص:

---

(١) الألحي: جمع لحى، وهو ما ينبت عليه العارض.

(٢) يقال: فلان يجر الإبل: أي يسوقها سوقاً رويدا. والخفاء: رداء تلبسه العروس على ثوبها فتخفيه به.

(٣) البأو: الكبر والعظمة.   (٤) اسبطرّت: أسرعت.

أدورُ، ولـــولا أن أرى أمَّ جعفــرٍ بأبياتِكم ما دُرتُ حيث أدورُ
ومــا كنــت زوّاراً ولكــنَّ ذا الهوى وإنْ لم يزرْ لا بدّ أن سيَزور

قال: فانكسرت نخوة عمر بن أبي ربيعة ودخلت الاحوص زهْوة، ثم التفت إلى الاحوص فقال: أخبرني عن قولك:

فإن تصلِي أصلْكِ وإن تبينِـي بهجْرك بعد وصْلِك ما أبالي(١)

أما والله لو كنت حراً لباليت ولو كُسر أنفك: ألا قلت كما قال هذا الاسود وأشار إلى نصيب:

بزينبَ ألمم قبلَ أن يرحلَ الركــبُ وقــل إن تَمَلّينــا فما ملّــكِ القلــبُ

قال: فانكسر الاحوص ودخلت نُصيبا زهوة؛ ثم التفت إلى نصيب فقال له: أخبرني عن قولك:

أهيمُ بِدعدٍ ما حييتُ فإن أمُــت فواكبِدي مَن ذا يَهيم بها بَعدي!

أهمَّك ويحك من يفعلُ بها بعدك؟ فقال القوم: الله أكبر! استوت الفِرق قوموا بنا من عند هذا.

كثير وسكينة

ودخل كثيّر عزة على سُكينة بنت الحسين، فقالت له: يابن أبي جمعة، أخبرني عن قولك في عزة:

ومــا روضــةً بــالحَزنِ طيّبــةُ الثرى يَمجُّ النّدى جَثجاثُها وعَرارُهــا(٢)
بأَطيــبَ مــن أرْدانِ عــزّة مَــوهِنــا وقد أُوْقدت بالمندَل الرطْبِ نارها(٣)

ويحك! وهل على الارض زَنجية منتنة الإبْطين، توقد بالمندل الرطب نارها إلا

---

(١) تبيني: تبعدي وتنفصلي.

(٢) الجثجاث: نبات سهلي ربيعي. والعرار: بهار البر، وهو نبت طيب الريح.

(٣) أردان: جمع ردن: وهو الكم. والمندل: العود الطيب الرائحة.

طاب ريحها؟ ألا قلت كما قال عمك امرؤ القيس:

ألم تَرياني كلما جئِت طارقاً ... وجدتُ بها طيباً وإن لم تطيَّبِ

عبد الملك وكثير

سمر عبد الملك بن مروان ذات ليلة وعنده كثيّر عزة، فقال له: أنشدني بعض ما قلت في عزة. فأنشده إلى هذا البيت:

همَمْت وهمَّت، ثم هابت وهبْتها ... حياءً، ومثلي بالحياء حقيق

فقال له عبد الملك: أما والله لولا بيتٌ أنشدتنيه قبل هذا لحرمتك جائزتك! قال: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: لأنك شركتَها معك في الهيبة، ثم استأثرت بالحياء دونها. قال: فأي بيت عفوت عني به يا امير المؤمنين؟ قال قولك:

دعوني لا أُريد بها سواها ... دعوني هائماً فيمنْ يَهيم

ومما أُدرك على الحسن بن هانىء قولُه في وصف الاسد حيث يقول:

كأنما عيْنُه إذا التفتتْ ... بارزةَ الجفْنِ عينُ مخنُوق

وإنما يوصف الاسد بغؤور العينين، كما قال العجاج:

كأن عيْنيْه من الغئورِ ... قلتانِ حوْجلتا قارورِ[1]

وقال أبو زبيد:

كأن عينيه نقْباوان في حَجَر

ومن قولنا في وصف الاسد ما هو أشبه به من هذا:

ولرُبّ خافقةِ الذوائِب قد غدتْ ... معْقودةً بلِوائه المنْصورِ

يَرمي بها الآفاق كلّ شرَ نَبثٍ ... كفاهُ غيْر مُقلمِ الأظفورِ[2]

ليْثٌ تطِير له القلوبُ مخافةً ... من بين هَمهَمةٍ له وزئير

---

(١) الحوجلتان: القارورتان.

(٢) الشرنبث: الغليظ الكفين.

وكأنما يُومي إليك بطَرْفه ... عن جَمْرَتيْن بجلمدٍ مَنْقورِ[1]

باب من أخبار الشعراء

حدث دعبل الشاعر أنه اجتمع هو ومسلم وأبو الشيص وأبو نواس في مجلس، فقال لهم أبو نواس: إن مجلسنا هذا قد شهر باجتماعنا فيه، ولهذا اليوم ما بعده فليأت كلُّ واحد منكم بأحسن ما قال فلينشده. فأنشده أبو الشيص فقال:

وقف الهوى بي حيْثُ أنْتِ فليْس لي ... مُتأَخَّرٌ عنه ولا مُتقدَّمُ
أَجِدُ الملامة في هواكِ لذيذة ... حُبَّا لِذكْركِ فلْيلُمْني اللوّمُ
وأهَنتِني فأهنتُ نفْسي صاغِراً ... ما مَن يهونُ عليكِ مِمنْ أُكرم
أَشْبَهتِ أعدائي فصِرْتُ أُحِبُّهُم ... إذ كان حَظّي منك حظِّي منهم

قال: فجعل أبو نواس يعجب من حسن الشعر حتى ما كاد ينقضي عجبه، ثم أنشده مسلم أبياتاً من شعره الذي يقول فيه:

فأقسِمُ أنسَى الدّاعياتِ إلى الصِّبا ... يميناً وقد فاجأتُ والسِّتْرُ واقعُ
فغطّتْ بأيديها ثمارَ نحورِها ... كأيدي الأَسارى أثقلَتها الجوامعُ[2]

قال دعبل: فقال لي أبو نواس: هات أبا علي، وكأني بك قد جئتنا بأم القلادة. فقلت: يا سيدي، ومن يباهيك بها غيري فأنشدته:

أَين الشَّبابُ وأيَّةً سَلكا ... أمْ أَينَ يطلبُ ضَلَّ أم هلكا
لا تعْجَبي يا سَلْمُ من رجُلٍ ... ضحِكَ المشيبُ برأْسَه فبكى
ياليْتَ شِعري كيف صبْرُكما ... يا صاحبَيَّ إذا دَمي سُفكا
لا تطْلُبا بظُلامَتي أحداً ... قلبي وطرْفي في دمي آشتركا

ثم سألناه أن يُنْشد، فأنشد أبو نواس:

---

(١) الجلمد: الصخر.

(٢) الجوامع: جمع جامعة: وهي الغل يجمع اليدين الى العنق.

لا تبْكِ هِنداً ولا تطْرَبْ إلى دَعْدِ وآشرب على الوِرْدِ من حَمراءَ كالورد
كأساً إذا آنحدرتْ في حَلْقِ شارِبها وجدتَ حمرتَها في العيْنِ والخدِّ
فالخمر ياقوتةٌ والكأس لؤلؤةٌ في كفِّ جاريةٍ ممْشوقةِ القدِّ
تُسقيك من عيْنِها خمراً ومن يدِها خمراً، فمالك من سُكْرَين من بُدِّ
لي نَشْوتانِ وللنَّدمانِ واحدةٌ شيء خُصِصْتُ به من بينهم وحْدي

فقاموا كلهم فسجدوا له؛ فقال: افَعلتموها أعجميَّة؟ لا كلمتكم ثلاثا ولا ثلاثا ولا ثلاثا! ثم قال: تسعة أيام في هجر الاخوان كثير، وفي هجر بعض يوم استصلاح للفساد وعقوبة على الهفوة. ثم التفت فقال: أعلمتم أن حكيما عتب على حكيم، فكتب المعتوب عليه إلى العاتب: يا أخي، إن أيام العمر أقلُّ من أن تحتمل الهجر.

المعتز والزبير

محمد بن الحسن المديني قال: أخبرني الزبير بن أبي بكر قال: دخلت على المعتز بالله أمير المؤمنين، فسلمت عليه، فقال: يا أبا عبد الله إني قد قلت في ليلتي هذه أبياتاً، وقد أعيا عليّ اجازة بعضها. قلت: أنشدني. فأنشدني ـ وكان محموما ـ يقول:

إني عرفْتُ علاج القلب من وجعِ وما عرفت علاج الحبِّ والخُدَعِ
جزعْتُ للحبِّ، والحُمى صبَرْت لها إني لأعجب من صبري ومن جزَعي
من كان يشغَلُه عن حبِّه وجعٌ فليس يشغَلُني عن حبِّكم وجعي

قال أبو عبد الله: فقلت:

وما أمَلّ حبيبي ليلةً أبداً مع الحبيب، ويا ليْت الحبيبَ معي

فأمر لي على البيت بألف دينار.

أبو نواس ومسلم وأبو العتاهية

اجتمع الحسن بن هانىء، وصريع الغواني، وأبو العتاهية، في مجلس بالكوفة فقيل لابي العتاهية: أنشدنا. فأنشد:

أسيِّدتي هاتي ـ فديْتُك ـ ما جرْمِـي   فأَنزلَ فيما تشتهين من الحكمِ
كفـاكِ بحقِّ الله مـا قـد ظَلمْتني   فهذا مقام المُستجير من الظُلمِ

وقيل لصريع الغواني: أنشِدنا فأنشأ يقول:

قـد اطّلعْـت على سرِّي وإعلاني   فاذهب لشأنك ليس الجهلُ من شاني
إنّ التي كنت أرجو قصْد سيرتِهـا   أعطتْ رِضاً وأطاعت بعد عصيان

ثم قيل للحسن بن هانىء: أنشِدنا. فأنشد:

يـا ابنـة الشيْـخ اَصبحينـا   مـا الذي تنْتظـرينـا
قـد جـرى في عـوده المـا   ءُ فـأجـرِي الخمـر فينـا

قيل: هذا الهزل. فهات الجد. فأنشأ:

لمن طلَـلٌ عـاري المحَـلِّ دفين   عفـا عهـدَه إلا روائمُ جُـونُ[1]
كما اَفتَـرقـت عنـد المبيـتِ حمائمٌ   غريباتُ مَمسًى ما لهنّ وُكـونُ[2]
ديـارُ التي أمّـا جَنَـى رشفـاتِهـا   فخلُوٌ وأما مسُّها فيَلين
وما أنصفَت، أمّا الشُّحوبُ فظاهـرٌ   بوجهي، وأما وجهُها فمصونُ

فقام صريع الغواني يجر ذيله، وخرج وهو يقول: إن هذا مجلس ما جلسته أبداً.

الرشيد والمأمون في الصلاة على موتى

هشام بن عبد الملك الخزاعي قال: كنا بالرَّقة مع هارون الرشيد، فكتب إليه صاحب الخبر بموت الكسائي، وإبراهيم الموصلي، والعباس بن الاحنف، في وقت واحد؛ فقال لابنه المأمون: اخرج فصلِّ عليهم. فخرج المأمون في وجوه قواده وأهل خاصته، وقد صفُّوا له. فقالوا له: من ترى أن يقدم؟ قال: الذي يقول:

يـا بعيـد الدَّار عـن وطنِـه   هـائماً يبكـي على شجَنـه[3]

---

(١) الروائم: جمع الرئم: وهو الظبي الخالص البياض.

(٢) وكون: جمع واكن وواكنة: وهي، من الطير، التي تحضن بيضها. (٣) الشجن: الهم والحزن.

كلما جــدّ البكـــاءُ بـــه   زادتِ الاسقــامُ في بــدنــهْ

قيل له: هذا. وأشار إلى العباس بن الاحنف؛ فقال قدِّموهْ! فقدِّم عليهم.

ابو عمرو وجرير

أبو عمرو بن العلاء قال: نزل جريرٌ وهو مقبل من عند هشام بن عبد الملك فبات عندي إلى الصبح؛ فلما أصبح شخص وخرجت معه أشيِّعه، فلما خرجنا من أطناب البيوت التفت إليّ فقال: أنشدني من قول مجنون بني الملوَّح، فأنشدته:

وأدْنيتِني حتى إذا مـــــا سَبيْتِني   بقولٍ يحلُّ العُصْمَ سهلِ الأباطِـح
... تجافيـتِ عني حين لا ليَ حيلـةٌ   وغادرْتِ ما غادرْتِ بين الجوانح[1]

فقال: والله لولا أنه لا يَحسن بشيخ مثلي الصراخ، لصرخت صرخة سمعها هشام على سريره.

وهذا من أرق الشعر كله وألطفه، لولا التضمين الذي فيه، والتضمين: أن يكون البيت معلّقاً بالبيت الثاني، لا يتم معناه إلا به، وإنما يُحمد البيت إذا كان قائماً بنفسه.

ابن الاحنف وابن الملوح

وقال العباس بن الاحنف نظير قول المجنون بلا تضمين، وهو قوله:

أشكو الذين أذاقوني مَـودّتَهـم   حتى إذا أيقظوني بالهوى رقَدوا

الرشيد والاصمعي

وقال الاصمعي: دخلت على هارون الرشيد، فوجدته منغمساً في الفرش، فقال: مَا أبطأ بك يا أصمعي؟ قلت: احتجمت يا أمير المؤمنين. قال: فما اكلت عليها؟ قلت: سكباجة وطباهجَة[2]، قال: رميتها بجحرها! أتشرب؟ فقلت. نعم؛ وقلت.

---

(١) الجوانح: جمع جانحة: وهي الضلع القصيرة مما يلي الصدر.
(٢) الطباهجة: ضرب من قلي اللحم.

اَسقِني حتى تــراني مــائلا وترى عُمْران ديني قـد خَـرِبْ

قال: يا مسرور، أيُّ شيء معك؟ قال: ألف درهم. قال: ادفعها للاصمعي.

ابن داود ويهودي

كان يصحب علي بن داود الهاشمي يهودي ظريف مؤنس أديب شاعر أريب[(١)]، فلما أراد الحج أراد ان يستصحبه فكتب إليه اليهودي يقول:

إني أعـوذُ بـداوُد وحُفْـرتِـه من أن أحُجَّ بكُـرْه يـابن داود
نُبئت أنّ طريق الحجِّ مُصْـردةٌ عن النَّبيذ وما عيْشي بتصْريد[(٢)]
والله ما فيَّ مـن اجـر فتطْلُبَـه فيما علِمـت ولا دِيني بمحمــود
أما أبوكَ فذاكَ الجودُ يعـرفُـه وأنت أشبـه خلْـق الله بـالجودِ
كأنّ ديباجتَيْ خدَّيه من ذهـب إذا تَعصبَ في أثـوابِـه السُّود

السويقي في ضر ناله

حدث أبو اسحاق يحي بن محمد الحواري، قال: سمعت شيخاً من اهل البصرة يقول: قال ابراهيم السويقي مولي المهالبة: تتابعت عليَّ سُنون ضيِّقة، وألحَّ عليّ العسْر وكثرة العيال وقلّةُ ذات اليد؛ وكنت مشتهراً بالشعر أقصد به الإخوان وأهل الاقدار وغيرهم، حتى جفاني كلُّ صديق، وملَّني من كنت أقصده؛ فأضرَّ بي ذلك جداً؛ فبينما أنا ذات يوم جالس مع امرأتي في يوم شديد البرد، إذ قالت: يا هذا، قد طال علينا الفقر، وأضر بنا الجهد؛ وقد بقيت في بيتي كأنك زَمِنٌ[(٣)]، هذا مع كثرة الولد؛ فأخرج عني واكفني نفسك، ودعني مع هؤلاء الصبيان أقوم بهم مرة وأقعد بهم أخرى. وألحَّت عليّ في الخصومة، وقالت لي: يا مشئوم، تعلمت صناعة لا تُجدي

---

(١) الأريب: الماهر البصير.

(٢) مصردة: مبعده ومنهية. والتصريد: التقليل.

(٣) زَمِنْ: ضعيف.

عليك شيئاً! فضجرت منها ومن قولها، وخرجت على وجهي في ذلك البرد والريح، وليس عليّ إلا فروٌ خلق[1]، ليس فوقه دثار، ولا تحته شعار، إلا ازار على عنقي؛ ثم جاءت ريح شديدة، فذهبت به عن يدي، وتفرّقت أجزاؤه عني من بلاه وكثرة رقاعه، وعلى عنقي طيلسان[2] ليس عليّ منه إلا رسمُه.

فخرجت والله متحيرا لا ادري أين أقصد ولا حيث أذهب؛ فبينما أنا أُجيل الفكرة، إذ أخذتني سماءٌ بقَطرٍ متدارك، فدفعت على دار على بابها روَشن[3] مُطلّ ودكان نظيف وليس عليه أحد؛ فقلت: أستتِر بالروشن إلى أن يسكن المطر. فقصدت قصد الـدار، فإذا بجارية قاعدة، قد لزمتْ باب الدار كالحافظة عليه؛ فقالت لي: إليك يا شيخ عن بابنا. فقلت: أنا - ويحك - لست بسائل، ولا أنا ممن تتخوّف ناحيته! فجلست على الدكان، فلما سكنت نفسي سمعت نغمة رخيمة من وراء الباب، تدلُّ على نغمة امرأة: فأصغيت، فإذا بكلام يدل على عتاب؛ ثم سمعت نغمة اخرى مثل تلك، وهي تقول فعلتِ وفعلت! والاخرى تقول: بل انت فعلتِ وفعلتِ! إلى أن قالت إحداهما: أنا - جُعلت فداك - إن كنتُ أسأت فاغفري؛ واحفظي فيَّ بيتين لمولانا ابراهيم السويقي! فقالت الاخرى: وما قال؟ فانه يبلغني عنه اشعار ظريفة. فأنشدتها تقول:

هبيني يـا مُعـذِّبتي أسـأْت ... وبـالهجـران قبلَكـم بـدأْتُ
فأين الفضْلُ منكِ فدتْـكِ نفسي ... عليَّ إذا أسـأْتِ كما أسـأْتُ

فقالت: ظَرف والله وأحسن! فلما سمعتُ ذكري وذكر «مولانا» علمت أنهما من بعض نساء المهالبة؛ فلم أتمالك أن دفعت الباب وهجمت عليهما، فصاحتا: وراءك يا شيخُ عنّا حتى نستتر! وتوهّمَتا أنني من أهل الدار؛ فقلت لهما. جُعلتُ فداكما، لا تحتشما مني؛ فإني أنا ابراهيم السويقي؛ فبالله، وبحق حرمتي منكنّ، إلاّ شفَّعتني فيها،

(١) الخلق: البالي.

(٢) الطيلسان: «الشال» بالعامية المصرية.

(٣) الروشن: الرفّ، وقيل الكوة.

ووهبتِ لي ذنبها، واسمعي مني فأنا الذي أقول:

خُذي بيَدي من الحُزْن الطويـل ... فقد يعْفو الخليلُ عـن الخليـلِ
أَسأْتُ فأَجْمِلي تَفـديـكِ نفسي ... فما يأْتي الجميلَ سوَى الجميـل

فقالت: قد فعلتُ وصفحتُ عن زلّتها[١]؛ ثم قالت: يا أبا إسحاق، مالي أراك بهذه الهيئة الرثة والبزّة الخلقة! فقلت: يا مولاتي، تعدّى عليّ الدهر، ولم يُنصفْني الزمان، وجفاني الاخوان، وكسدت بضاعتي. فقالـت: عـزَّ عليَّ ذلـك وأومـأت[٢] إلى الأخـرى؛ فضربـت بيـدهـا على كمهـا، فسلّـت دُمْلجـا[٣] مـن سـاعـدهـا، ثم ثنت باليد الاخرى، فسلت منها دملجاً آخر؛ فقالت: يا أبا اسحاق، خذ هذا واقعد على الباب مكانك وانتظر الجارية حتى تأتيك. ثم قالت: يا جارية، سكن المطر؟ قالت: نعم. فقامَتا، وخرجتُ وقعدتُ مكاني؛ فما شعرتُ إلا والجارية قد وافت بمنديل فيه خمسة أثواب وُصرَّةٍ فيها ألف درهم؛ وقالت: تقول لك مولاتي: أنفق هذه، فإذا ٱحتجْت فصِرْ إلينا حتى نزيدَك إن شاء الله! فأخذت ذلك وقمت وقلت في نفسي: إن ذهبت بالدمْلجين إلى امرأتي، قالت: هذا لِبناتي، وكابرتني عليهما؛ فدخلت السوق فبعتهما بخمسين ديناراً وأقبلت؛ فلما فتحتُ الباب صاحت امرأتي وقالت: قد جئت أيضاً بشؤمك! فطرحت الدنانير والدراهم بين يديها والثياب؛ فقالت: من أين هذا؟ قلت: من الذي تشاءمتِ به وزعمت أنه بضاعتي التي لا تُجدي! فقالت: قد كانت عندي في غاية الشؤم، وهي اليوم في غاية البركة!

نوادر من الشعر

المأمون وابن الجهم

قال المأمون لمحمد بن الجهم: أنشِدني بيتاً أوله ذم وآخره مدح؛ أُوَلِّك به كورة. فأنشده:

---

(١) الزلّة: الهفوة. (٢) أومأت: أشارت بيدها.
(٣) الدملج: السوار يحيط بالعضد.

قُبحتْ مناظِرُهم فحين خبَرتُهم   حسُنت منا مناظِرُهم لحسْن المخبَر

فقال له: زدني. فأنشده:

أرادوا ليُخْفوا قبرَه عن عدوِّه   فطِيبُ تراب القبر دَلَّ على القبر

فولاّه الدِّينَوَر.

الرشيد والضبي

وقال هارون الرشيد للمفضل الضبي: أنشِدنا بيتاً أوله أعرابي في شمْلته هبَّ من نوْمته، وآخِره مدني رقيق، غُذي بماء العقيق. قال المفضل: هوّلتَ عليّ يا أمير المؤمنين، فليت شعري بأي مهر نفتضّ عروس هذا الخدر؟... قال هارون: هو بيتُ جميل حيث يقول:

أَلا أَيها النُّوَّامُ ويْحكم هُبوا   أُسائلكم: هل يَقتُلُ الرجلَ الحبُّ

فقال له المفضل: فأخبرني يا أمير المؤمنين عن بيت أوله أكثمُ بن صيفي في إصابة الرأي، وآخِره بقراطُ الطبيب في معرفته بالداء والدواء. قال له هارون: ما هو؟ قال: هو بيت الحسن بن هانىء حيث يقول:

دعْ عنكَ لوْمي فإنّ اللّوْمَ إغراءُ   وداوِني بالتي كانت هي الداءُ

قال: صدقت.

المنصور في الرضمة

قال الربيع: خرجنا مع المنصور منصرَفَنا من الحج، فنزلنا الرَّضْمة[1]، ثم راح المنصور ورحنا معه في يوم شديد الحرّ، وقد قابلتْه الشمس، وعليه جبة وشي؛ فالتفت إلينا وقال: إني أقول بيتاً من شعر، فمن أجازه منكم فله جبتي هذه! قلنا: يقول أمير المؤمنين. فقال:

---

(١) الرضمة: من نواحي المدينة

وهـاجــرةٍ نصبــتُ لها جَبيني   يُقطِّعُ حَرُّها ظهْرَ العَظايَـهْ[١]

فبدر بشار الاعمى فقال:

وقفت بهاالقلوص ففاض دَمْعــي   على خدِّي وأقصَرَ واعِظايَـهْ[٢]

فخرج له من الجبة، فلقيته بعد ذلك فقلت له: ما فعلتَ بالجُبة؟ قال: بعتها بأربعة آلاف درهم!

عائشة بنت المهدي والشعراء

خرج رسول عائشة بنت المهدي ـ وكانت شاعرة ـ إلى الشعراء وفيهم صريع الغواني، فقال: تقرئكم سيدتي السلام وتقول لكم: من أجاز هذا البيت فله مائة دينار. فقالوا: هاتِه. فأنشدهم:

أَنيلِـي نـوالا وجُــودي لنــا   فقد بلَغتْ نفسيَ التَّـرْقُـوَهْ[٣]

فقال صريع:

وإنيَ كـالـدَّلْـوِ في حُبِّكــم   هَوَيْتُ إذ انقطعتْ عَرْقُـوَهْ[٤]

فأخذ المائة الدينار.

الحسن البصري والفرزدق

وكان الفرزدق يجلس الى الحسن البصري، وجريرٌ يجلس إلى ابن سيري؛ لتباعد ما بين الرجلين ـ وكان موتهما في عام واحد، وذلك سنة عشر ومائة ـ فبينما الفرزدق جالس عند الحسن، إذ جاءه رجلٌ فقال: يا أبا سعيد، إنا نكون في هذه البعوث

---

(١) الهاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحر.

(٢) القلوص من الابل: الفتية المجتمعة الخلق.

(٣) الترقوة: عظمة مشرفة بين ثغرة النحر والعاتق.

(٤) العرقوة: احدى الخشبتين اللتين تعترضان على فوهة الدلو كالصليب.

والسرايا، فنُصيب المرأة من العدوِّ وهي ذات زوج، أفتحل لنا من غير أن يطلقها زوجُها؟

قال الفرزدق: قد قلت أنا مثل هذا في شعري. قال الحسن: وما قلت؟ قال: قلت:

وذات حَليلٍ أنْكحتْها رماحُنا حلالٌ لمن يبنِي بها لم تُطَلَّقِ

قال الحسن: صدقت.

ثم أقبل إليه رجل آخر، فقال: يا ابا سعيد، ما تقول في الرجل يشك في الشخص يبدو له فيقول: والله هذا فلان! ثم لا يكون هو: ما تَرى في يمينه؟ فقال الفرزدق: وقد قلت أنا مثل هذا. قال الحسن: وما قلت؟ قال: قلت:

ولستَ بمأخوذٍ بقوْلٍ تقولُه إذا لم تعنِه عاقداتُ العزائمِ

قال الحسن: صدقت.

عباد ورؤبة بين زوجين

استعدت امرأة على زوجها عباد بن منصور، وزعمتْ أنه لا ينفق عليها، فقال لرؤبة: احكم بينهما. فقالت

فطلِّق إذا ما كنتَ لستَ بمنْفقٍ فما الناسُ إلا مُنفقٌ أو مطلِّقُ

بشار بين شاعرين

كان رجل يدّعي الشعر، ويستبردُه قومُه؛ فقال لهم: إنما تستبردوني من طريق الحسد. قالوا: فبيننا وبينك بشار العقيلي، فارتفعوا إليه، فقال له: أنشدني. فأنشده؛ فلما فرغ قال له بشار: إني لأظنّك من أهل بيت النبوّة! قال له: وما ذلك؟ قال: إنّ الله تعالى يقول ﴿وما علّمناه الشِّعْرَ وما ينبغِي له﴾ [1] فضحك القوم وخرجوا عنه.

وقال أبو دُلَف

(١) سورة يس الآية ٦٩

أتَى أبو دلَف المُبْـدِي بقـافيـةٍ جوابُها يُهلِك الداعي من الغيـظِ
مَن زاد فيها لـه رَحْلي وراحلَتي وخاتَمي، والمَدَى فيها إلى القيْظِ

فأجابه ابن عبد ربه:

قد زِدتُ فيها وإن أَضحى أبو دلَفٍ والنفسُ قد أَشرفتْ منه على الغيظِ!

لبعض الشعراء في حضرة سليمان

سمر الفرزدق والأخطل وجرير عند سليمان بن عبد الملك ليلة، فبينما هم حوله إذ خَفَقَ[1] فقالوا: نعس أمير المؤمنين! وهموا بالقيام؛ فقال لهم سليمان: لا تقوموا حتى تقولوا في هذا شعرا. فقال الأخطل:

رماه الكَرَى في رأسه فكـأنـه صريعٌ تَرَوَّى بين أصحابِه خمْرا

فقال له: ويحك! سكرانَ جعلتَني! ثم قال جرير بن الخطفي:

رمـاهُ الكَـرى في رأْسـه فكـأنما يَرى في سَوادِ الليْلِ قَنبُـرةً حمْرا[2]

فقال له: ويحك! أجعلتني أعمى! ثم قال الفرزدق بعد هذا:

رماهُ الكَرَى في رأْسِـه فكـأنما أَميمُ جَلاميدٍ تَـركـنَ بـه وقْـراً[3]

قال له ويحك! جعلتني مشجوجا، ثم أذن لهم فانقلبوا فحباهم وأعطاهم.

في شعر ابن ابي ربيعة

كان عمر بن ابي ربيعة القرشي غزلا مشبِّبا بالنساء الحَواجّ، رقيق الغزل؛ وكان الاصمعي يقول في شعره: الفستق المقشر الذي لا يُشبع منه! وكان جرير يستبرده ويقول: شعر حجازي، لو اتخذ في تموز لوُجد البرد فيه فلما أُنشد له:

---

(٢) خفق فلان: نام.

(١) الكرى: النعاس، والنوم.

(٢) الأميم: الحجر يشدخ به الرأس.

فلما تَلاقيْنـــا عَــرفْـــتُ الذي بها   كمثْلِ الذي حَذوَكَ النَّعْلَ بالنَّعـلِ

قال: ما زال يهذي حتى قال الشعر!

وقالت العلماء: ما عُصيَ اللهُ بشعرٍ ما عُصيَ بشعر عمر بن ابي ربيعة!

ووُلد عمر بن أبي ربيعة يوم مات عمر بن الخطاب، فسمِّي باسمه؛ فقالت العلماء: أي خير رُفع، وأيُّ شرّ وُضعَ! ثم إنه تاب في اخر ايامه وتنسك، ونذر لله أن يُعتق لله رقبة لكل بيت يقوله؛ وانه حج، فبينما هو يطوف بالبيت اذ نظر إلى فتى من نُمير يلاحظ جارية في الطّواف؛ فلما رأى ذلك منه مرار، أتاه، فقال له يا فتى، أما رأيت تصنع؟ فقال له الفتى: يا أبا الخطاب لا تعجل عليّ؛ فإن هذه ابنةُ عمي، وقد سُمِّيتْ لي، ولستُ أَقدِرُ على صداقها، ولا اظفر منها بأكثر مما ترى؛ وانا فلان بن فلان، وهذه فلانة ابنة فلان. فعرفهما عمر، فقال له: اقعد يا ابن أخي عند هذه الساريـة[1] حتى يأتيَك رسولي. ثم ركب دابته حتى أتى منزل عمِّ الفتى، فقرع الباب فخرج اليه الرجل، فقال: ما جاء بك يا ابا الخطاب في مثل هذه الساعة؟ قال: حاجةٌ عرضت قِبلَك في هذه الساعة. قال: هي مقضية. قال عمر: كائنةً ما كانت؟ قال: نعم! قال: فإني قد زوّجت ابنتَك فلانة من ابن اخيك فلان: قال: فإني قد أجزتُ ذلك. فنزل عمر عن دابته، ثم أرسل غلاماً إلى داره فأتاه بألف درهم فساقها عن الفتى، ثم أرسل إلى الفتى فأتاه، فقال لابي الجارية: أقسمتُ عليك إلا ما ابْتَنَى بها هذه الليلة! قال له: نعم فلما أدخلت على الفتى انصرف عمر الى داره مسروراً بما صنع، فرمى بنفسه على فراشه وجعل يتململ[2]، ووليدة له عند رأسه، فقالت: يا سيدي، أرقت هذه الليلة أرقا لا أدري ما دهمك؟ فأنشأ يقول:

تقــولُ وليــدتِــــي لمّا رأتْني   طَرِبْتُ وكنتُ قد أقصرْتُ حينَا

---

(١) السارية: الأسطوانة، والقائمة.

(٢) يتململ: يتقلب على فراشه متألماً من مرض أو غم أو نحو هما.

أراكَ اليومَ قد أحْدثْتَ شوقـا وهـاجَ لـكَ الهوى داءً دَفينـا
وكنتَ زعمْـتَ أنـكَ ذا عزاءٍ إذا ما شئتَ فارَقـتَ القَـرينـا
بعيْشِك هل رأيـتَ لها رسـولا فشاقَكَ أم لقِيتَ لها خَدينـا؟ (١)
فقلْـتُ: شَكـا إليَّ أخٌ مُحِـبٌّ كبعـضِ زمـانِنـا إذ تَعلَمِينـا
فقَـصَّ عليّ مـا يَلْقـى بهنـدٍ يُذكِّرُ بعـضَ مـا كنَّـا نَسينـا
وذو القلبِ المُصابِ وإن تعـزَّى مشُوقٌ حينَ يَلقَـى العـاشِقينـا

ثم ذكر يمينَه، فاستغفر الله، وأعتق رقبةً لكل بيت.

الأخطل والأعور بن بنان

دعا الاعورُ بن بَنان التغلبيُّ الاخطل الشاعر إلى منزله، فأدخله بيتاً قد نجد بالفُرش الشريفة والوطاء العجيب، وله امرأة تسمى برَّة في غاية الحسن والجمال؛ فقال له: أبا مالك، إنك رجل تدخل على الملوك في مجالسهم؛ فعهل ترى في بيتي عيبـاً؟ فقال له: ما أرى في بيتك عيباً غيرك! فقال له: إنما اعجب من نفسي إذ كنت أدْخلُ مثلك بيتي! آخرُجْ عليك لعنةُ الله! فخرج الاخطل وهو يقول:

وكيف يُداويني الطّبيـبُ مـن الجوى وبرَّةُ عندَ الاعورِ بن بَنان
ويُلصِـقُ بطنـاً مُنتِـنَ الريـحِ مجْرزاً إلى بَطنِ خَودٍ دائمِ الخفَقان (٢)

باب من الشعر

يخرج معناه في المدح والهجاء

قال الشاعر في خياط أعور يسمى عَمرا:

خـاطَ لي عَمْـرو قبـاء ليـت عيْنيْـه سَـواءُ
فـاسـأَلِ النـاسَ جميعـاً أمَـديـحٌ أمْ هجـاءُ

---

(١) الخدين: الصديق.

(٢) مجرز: مهزول. والخود: الشابة الناعمة الحسنة الخلق.

ومنه قول حبيب في مرثية بني حُميد حيث يقول:

لو خَرّ سيفٌ من العيُّوق مُنصَلِتا ... ما كان إلا على هاماتِهِمْ يَقعْ[1]

فلو هجوا بهذا رجلا على أنه أنحس خلق الله، لجاز فيه؛ ولو مُدح به على مذهب قول الشاعر:

وإنا لتستَحْلِي المَنَايـا نُفـوسُنـا ... ونتْرُكُ أُخْرى مُرَّةً ما نذوقهـا

وقول الآخر:

ونحنُ أُناسٌ لا نَرى القتلَ سُبَّـة ... إذا مـا رأتْـهُ عـامـرٌ وسَلـولُ
يُقرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنا لنـا ... وتَكـرَهُـه آجـالُهـم فتطُـول
وما ماتَ منّا سيّد في فـراشِـه ... ولا طلَّ منّا حيثُ كـان قَتيـل[2]
تَسيلُ على حدّ السُّيوفِ دِماؤنـا ... وليس على غيرِ السُّيوفِ تَسيـل

لجاز ذلك.

ومثله لحبيب:

آنظر فحيثُ تَرى السُّيوفَ لـوامِعـاً ... أبداً ففوْقَ رؤوسِهِمْ تتألق

ما قالوه في تثنية الواحد

قال الفرزدق في تثنية الواحد:

[ألَمْ تعلَموا أني ابن صاحبِ صَوْأَر] ... وعِندي حُساما سيفِهِ وحمائِله[3]

وقال جرير:

لَمّا تَـذكـرتُ بـالـدّيـرَيْـنِ أرقَني ... صوْتُ الدّجاجِ وقرعٌ بالنَواقِيسِ

---

(١) العيوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن، يتلو الثريا لا يتقدمها، ويطلع قبل الجوزاء.

(٢) طلّ: هدر دمه ولم يثأر به ولم تؤخذ ديته.

(٣) صوأر: موضع عاقر فيه سحيم بن وثيل الرياحي غالب بن صعصعة أبا الفرزدق.

وإنما هو دير الوليد، معروف بالشام؛ وأراد بالدجاج: الديَكة.

وقال قيس بن الحطيم في الدرع:

مُضاعفَة يُغْشي الأنامِلَ ريعُها . كأنّ قتيريها عُيونُ الجنادِبِ[١]

يريد: قتيرها.

وقال آخر:

وقالَ لبوّابيهِ لا تُدخِلنّهُ وسدّ خَصاصَ البابِ عن كلِّ مَنظرِ[٢]

وقال أهل التفسير في قول الله عز وجل: ﴿ألقِيا في جَهنَّمَ كلَّ كفّارٍ عنيدٍ﴾[٣] أنه أراد واحداً فثنّاه:

وكذلك قول معاوية للجلْواز الذي كان وكله برَوح بن زنباع لما اعتذر إليه روْحٌ واستعطفه: خلّيا عنه.

قولهم في جمع الاثنين والواحد

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فإنْ كان له إخْوةٌ فلأمّهِ السُّدُسُ﴾[٤]. يريد: أخوين فصاعدا.

وقوله: ﴿إنَّ الذينَ ينادُونَكَ منْ وراءِ الحُجراتِ اكْثرُهم لا يَعقِلونَ﴾[٥]، وإنما ناداه رجلٌ من بني تميم.

وقوله: ﴿وألقَى الألْواحَ﴾[٦]، وإنما هي لَوحان.

(١) ربع الدرع: فضل كميها على أطراف الأنامل. والقتير: أول ما يظهر من الشيب.

(٢) خصاص الباب: جمع خصاصة وهي الفرجة أو الخلل.

(٣) سورة ق الآية ٢٤

(٤) سورة النساء الآية ١١

(٥) سورة الحجرات الآية ٤

(٦) سورة الأعراف الآية ١٥٠

وقال الشاعر:

لـولا الرَّجـاءُ لأمـرِ ليس يعْلَمُـهُ　　خَلْقٌ سِواكَ لَمَا ذَلَّتْ لكم عُنُقـي

ومثل هذا كثير في الشعر القديم والمحدث.

وقولهم في إفراد الجمع والاثنين

وأما قولهم في إفراد الجمع فهو أقل من هذا الذي ذكرناه. وكذلك في إفراد الاثنين؛ فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخرِجُكمْ طِفْلاً﴾ (١).

وقوله: ﴿فأْتيَا فِرْعونَ فقُولا إنّا رسُولُ رَبِّ العالَمينَ﴾ (٢).

وقوله: ﴿فما مِنْكُم مِن أحدٍ عنهُ حاجِزِينَ﴾ (٣).

وقال جرير:

هذي الأراملُ قد قضَّيْتَ حاجَتَهـا　　فَمن لحاجَةِ هذا الأرمَـلِ الذَّكَـرِ!

وقال آخر:

وكـأنَّ بـالعيْنَينِ حَـبَّ قَـرَنفُـلٍ　　أو فلفُـلٍ كُحلـتْ بـه فـانهلَّـتِ

ولم يقل: فانهلتا.

وقال مسلم بن الوليد:

ألا أنِفَ الكـواعـبُ عـن وصـالي　　غَـداةَ بـدا لها شيْـبُ القَــذالِ (٤)

وقال جرير:

وقُلنا للنِّساء به أقِيمي

---

(١) سورة غافر الآية ٦٧

(٢) سورة الشعراء الآية ١٦

(٣) سورة الحاقة الآية ٤٧

(٤) الكواعب: جمع كاعب، وهي الفتاة التي نهد ثديها.

قولهم في تذكير المؤنث وتأنيث المذكر

قال مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري في شعره الذي أوله:

حَبَّذا ليْلُنا بتلِّ بَونا [1]

ومررْنا بنسْوةٍ عطِراتٍ وسَماع وقَرقفٍ فنزلنا [2]
ما لَهُمْ لا يُبارِكُ اللهُ فيهِمْ حينَ يُسألنَ منَحْنا ما فعلْنا

وقال آخر، وقد استشهد به سيبويه في كتابه:

فلا دِيمَة ودَقَتْ ودْقَها ولا أرْض أبْقَلَ إبْقالَها [3]

فذَّكر الأرض.

وقال نصيب:

إنّ السَّماحَةَ والمروءَةَ ضُمِّنا قبراً بِمرْو على الطريقِ الواضِح

وقالت أعرابية:

قامتْ تُبكِّيهِ على قبرهِ من لي مِن بعْدِكَ يا عامِرُ [4]
تركتَني في الدارِ وحْشيَةً قد ذلَّ من ليْسَ لهُ ناصِرُ

وقال أبو نواس:

كمنَ الشّنْآنُ فيه لنا ككُمُونِ النارِ في حُجَرهْ [5]

وإنما ذكرت هذا الباب في كتاب الشعر، لاحتياج الشاعر إليه في شعره واتساعه فيه.

---

(١) تل بونا: من قرى الكوفة.

(٢) القرقف: الخمر، وهو اسم لها.

(٣) الودق: المطر شديدة ولينة، وودقت: قطرت.

(٤) عامر، هو ابنها.

(٥) الشنآن: المبغض.

باب ما غلط فيه على الشعراء

وأكثر ما أُدرك على الشعراء له مجاز وتوجيه حسن، ولكن أصحاب اللغة لا يُنصفونهم، وربما غلطوا عليهم وتأوّلوا غير معانيهم التي ذهبوا إليها؛ فمن ذلك قول سيبويه واستشهد ببيت في كتابه في إعراب الشيء على المعنى لا على اللفظ وأخطأ فيه:

مُعَـاوي إنَّنـا بشرٌ فـأَسْجِـحْ   فلْسنـا بـالجبـال ولا الحدِيـدَا[1]

كذا رواه سيبويه على النصب، وزعم أن إعرابه على معنى الخبر الذي في «ليس»، وإنما قاله الشاعر على الخفض، والشعر كله مخفوض، فما كان يضطره أن ينصب هذا البيت ويحتال على إعرابه بهذه الحيلة الضعيفة، وإنما الشعر:

مُعَـاويَ إنّنـا بشرٌ فـأَسْجِـحْ   فلْسنـا بـالجبـال ولا الحدِيـدِ
أَكلتُـم أرضَنـا فجـرَدْتموهـا   فهـلْ مِـن قـائمٍ أو مـن حصيـدِ
أَتطْمعُ في الخلُـودِ إذا هلَكْنـا   وليس لنا ولا لـكَ مـن خُلـودِ
فهَبْنـا أُمّـةً هَلكـتْ ضَيـاعـاً   يـزيـدُ أميرُهـا وأبـو يـزيـدِ

ونظير هذا البيت ما ذكره في كتابه أيضا واحتج به في باب النون الخفيفة:

ثبَتّم ثَباتَ الخيْـزُرانِـيَّ في الثَّـرى   حديثاً متَى ما يأْتكَ الخير ينْفَعـا[2]

وهذا البيت للنجاشي، وقد ذكره عمرو بن بحر الجاحظ في فخر قحطان على عدنان في شعر كله مخفوض وهو:

أيَا راكبـاً إمّـا عَـرَضْـتَ فبلِّغَـنْ   بني عامرٍ عنّي يزيـدَ بنَ صعْصَـعِ
ثبَتّم ثباتَ الخيـزُرانِـي في الثَّـرى   حديثاً متَى ما يـأْتِـكَ الخير ينْفَـعِ

---

(١) أسجح: أحسن العفو وتكرم.

(٢) الثرى: الأرض

ومثله قول محمد بن يزيد النحوي المعروف بالمبرّد في كتاب الروضة وأدرك على الحسن بن هانيء قوله:

وما لبكْرِ بنِ وائلٍ عُصْمٌ إلا لِحَمْقائِها وكاذِبِها [(١)]

فزعم أنه أراد بحمقائها هَبَنّقَةَ القيس، ولا يقال في الرجل حمقاء، وإنما أراد دُغَةَ العجلية، وعجلٌ في بكر، وبها يضرب المثل في الحُمق.

باب من مقاطع الشعر ومخارجه

اعلم بأنك متى ما نظرت بعين الإنصاف، وقطعت بحجة العقل، علمت أن لكل ذي فضلٍ فضلَه، ولا ينفع المتقدم تقدُّمه، ولا يضرُّ المتأخر تأخُّرُه؛ فأما من أساء النظم ولم يحسن التأليف فكثير، كقول القائل:

شرّ يومَيْها وأغْواهُ لها ركِبَتْ هنْدٌ بحِدْجٍ جَمَلا [(٢)]

شرّ يوميها، نُصب على الحال، وإنما معناه: ركبت هند جملا بحدج في شرّ يوميها.

وكقول الفرزدق:

وما مثْلُه في الناسِ إلا مُمَلَّكا أبو أُمِّهِ حيٌّ أبوهُ يُقارِبُهْ

معناه: ما مثل هذا الممدوح في الناس إلا الخليفة الذي هو خاله، فقال:

أبو أُمّه حيٌّ أبُوهُ يُقاربُهْ

فبّعد المعنى القريب، ووعّر الطريقَ السهل، ولبّس المعنى بتوعُّر اللفظ وقبح البنية حتى ما يكاد يُفهم.

(١) عُصم: جمع أعصم: وهو من كان في ذراعيه أو احداهما بياض وسائرة أسود أو أحمر.

(٢) الحدج: مركب من مراكب النساء نحو الهودج. وعنز: امرأة من طسم سبيت في حرب كانت بين طسم وجديس.

ومثل هذا إلا أنه أقرب منه إلى الفهم قول القائد :

بينما ظِــلٌّ ظليــلٌ نــاعــمٌ طلَعتْ شمسٌ عليه فاضْمَحَـلْ

يريد : حتى طلعت شمس عليه :

ومثله قول الآخر:

إنّ الكــريمَ وأبيــك يعْتَمِــلْ إن لم يجدْ يوماً على مَـن يتّكِـلْ (١)

يريد : من يتكل عليه .

ولله در الأعشى حيث قال:

لم تمْشِ مِيلاً ولم تركبْ على جَمـل ولم تــرَ الشمس إلا دُونَهـا الكِلَـلُ

وأبْيَن منه قول النابغة :

ليست منَ السُّودِ أعقاباً إذا انْصَرَفَـتْ ولا تَبيـعُ بـأعلىَ مكّـةَ البَـرمَـا (٢)

وقد حذا على مثال قول النابغة بعض المبرّزين من أهل العصر، فقال .

ليست منَ الرَّمْصِ أشفاراً إذا نظَرَتْ ولا تبيعُ بفوْقِ الصّخَرةِ الرُّغفـا (٣)

فقيل له : ما معناك في هذا ؟ قال: هو مثل قول النابغة . وأنشد البيت وقال: ما الفرق بين أن تبيع البرم أو تبيع الرغف، وبين أن تكون رمصاء العينين أو سوداء العِقبين .

وانظر إلى سهولة معنى الحسن بن هانيء وعذوبة ألفاظه في قوله:

حَذَرَ آمْرِيء ضَرِبَتْ يداه على العِدَا كالـدَّهْـرِ فيـه شراسـةٌ وليَـانُ (٤)

وإلى خشونة ألفاظ حبيب الطائي في هذا المعنى حيث يقول:

---

(١) اعتمل الرجل: عمل بنفسه .

(٢) البرم: الكحل المذاب، وحبّ العنب أول ما يظهر .

(٣) الرّمص: وسخ أبيض جامد يجتمع في موق العين .

(٤) ليان، اللين .

شَرِسْتَ بل لِنْتَ بل قابلْت ذاك بِذَا   فأنت لا شك فيـه السهـلُ والجبـلُ

وقد يأتي من الشعر ما لا فائدة له ولا معنى، كقول القائل:

اللّيـلُ ليـلٌ، والنهـارُ نَهـارُ   والأرضُ فيهـا الماءُ والأشجـارُ!

وقال الأعشى:

إنْ محلاًّ وإنْ مُـرْتحلا   وإنْ في السَّفْـرِ إذ مَضَـى مثلا (١)

وقال إبراهيم الشيباني الكاتب: قد تكون الكلمة إذا كانت مفردة حوشية بشِعَة، حتى إذا وضعت في موضعها وقُرِنَتْ مع إخوتها حُسُنَتْ؛ كقول الحسن بن هانيء:

ذو حَصَرٍ أَفْلَتَ منْ كَرِّ القُبَل

والكرّ كلمة خسيسة، ولا سيما في الرقيق والغزل والنسيب، غير أنها لما وُضعت في موضعها حسنت.

وكذلك الكلمة الرقيقة العذبة ربما قبُحت ونفرت إذا لم توضع في موضعها، مثل قول الشاعر:

رأت رائحاً جوناً فقامت غَـريـرة   بمسْحاتها جُنْحِ الظَّلامِ تُبـادرُهْ (٢)

فأوقع الجافي الجلفُ هذه اللفظة غير موقعها، وبخسها حقَّها حين جعلها في غير مكانها حقا؛ لأن المساحي لا تصلح الغرائر.

واعلم أنه لا يصلح لك شيء من المنثور والمنظوم، إلا أن تجري منه على عرق وأن تتمسك منه بسبب، فأما إن كان غير مناسب لطبيعتك، وغير ملائم لقريحتك، فلا تُنْض (٣) مطيَّتك في التماسه، ولا تُتْعِب نفسك إلى انبعاثه، باستعارتك ألفاظ الناس وكلامهم، فإن ذلك غير مثمر لك ولا مُجدٍ عليك، ما لم تكن الصناعة ممازجة لذهنك، وملتحمة بطبعك.

---

(١) المحل: المقيم.   (٢) الغريرة: الشابة لا تجربة لها.

(٣) نض: حرّك.

واعلم أن من كان مرجعهُ اغتصابَ نظم من تقدمه، واستضاءتَه بكوكب مَن سبقه، وسحْبَ ذيلِ حلة غيره، ولم تكن معه أداة تولِّد له من بنات ذهنه، ونتائج فكره، الكلام الجَزْل والمعنى الحَفْل، لم يكن من الصناعة في عير ولا نفير[٤]، ولا ورْد ولا صدر؛ على أن سماع كلام الفصحاء المطبوعين، ودرْس رسائل المتقدمين، هو على كل حال مما يَفْتق اللسان، ويقوّي البيان، ويُحِد الذِّهن، ويشحذ الطبع، إن كانت فيه بقية وهناك خبيَّة.

واعلم أن العلماء شبهت المعاني بالأرواح والألفاظ بالأجساد واللباب، فإذا كتب الكاتب البليغ المعنى الجزل، وكساه لفظا حسنا، وأعاره مخرجاً سهلا، ومنحه دلاً مونقاً ـ كان في القلب أحلى، وللصدر أملى؛ ولكنه بقي عليه أن يؤلفه مع شقائقه وقرائنه، ويجمع بينه وبين أشباهه ونظائره، وينظمه في سِلْكِه، كالجوهر المنثور: الذي إذا تولى نظمَه الناظمُ الحاذق، وتعاطى تأليفَه الجوهريُّ العالم، ظهر له بأحكام الصنعة ولطيف الحكمة حُسنا هو فيه، وكساه ومنحه بهجة هي له، وكذلك كلما احلَوْلَى الكلام وعذب وراق وسهلت مخارجه، كان أسهل وُلوجاً في الأسماع، وأشدّ اتصالا بالقلوب، وأخف على الأفواه؛ لا سيما إذا كان المعنى البديع مترجماً بلفظ مونق شريف، لم يسمِهْ التكلف بميسمه، ولم يفسده التعقيد باستهلاكه، كقول ابن أبي كريمة:

قفــاه وجـــهٌ، والذي وجهــهُ مثــل قفــاه يُشْبِــهُ الشَّمْســا

فهجَّن المعنى بتعقد مخارج الألفاظ؛ وأخذه الحسن بن هانيء فأوضحه وسهله قال:

بــأبي أنــت مــن غــزالٍ غــريــرٍ بَزَّ حُسنَ الوجوه حُسْنُ قفــاكــا[٢]

(١) يقال لمن لا يصلح لمهمّ: « فلان لا في العير ولا في النفير ». فالعير: عير قريش التي أقبلت مع أبي سفيان من الشام. والنفير: من خرج مع عتبة بن ربيعة من مكة لاستنقاذها من أيدي المسلمين. فمن لم يكن في أحد الجمعين لم يعدّ في الرجال.

(٢) بزّه: فاقه، وسلبه وغلبه.

وكلاهما أخذه من حسان بن ثابت حيث يقول:

قفاؤك أحسن من وجهه ... وأُمّك خيرٌ من المُنذِر[1]

وقد يأتي من الشعر في طريق المدح ما الذمُّ أولى به من المدح، ولكنه يحل ما قبله وما بعده، ومثله قول حبيب:

لو خرّ سيفٌ من العَيْوقِ مُنْصلِتاً ... ما كان إلا على هاماتِهم يقعُ

هذا لا يجوز ظاهره في شيء من المدح، وإنما يجوز في الذم والنحس؛ لو وصفت رجلا بأنه أنحس الخلق، لم تصفه بأكثر من هذا، وليس للشجاعة فيه وجه؛ لأن قولهم «لو خر سيف من السماء لم يقع إلا على رأسه».

أن تقول: هذا رأسُ كلِّ نحس.

قولهم في رقة التشبيب

ومن الشعر المطبوع الذي يجري مع النفس رقة ويؤدي عن الضمير إبانة، مثل قول العباس بن الأحنف:

وليلة ما مثلُها ليلةٌ ... صاحبُها بالسَّعْد مفجِوع
ليلةَ جئناها على موْعدٍ ... نسْري وداعِي الشَّوْق مَتْبوعُ
لَمّا خَبَت نيرانُها وانكفا السَّامر عنها وهو مَصروعُ[2]
قامت تَثَنَّى وهْي مرعوبةٌ ... تَودُّ أنَّ الشَّمْل مجموع
حتى إذا ما حاولتْ خطْوةً ... والصَّدرُ بالأردافِ مدفوع[3]
بكى وِشاحاها على مَتْنِها ... وإنما أبكاهُما الجوع[4]
فانتبَهَ الهادونَ من أهلها ... وصار للموعِدِ مرجوع

---

(١) الى هنا ينتهي النقل عن الشيباني.

(٢) انكفأ عنه: انصرف.

(٣) الأرداف: جمع الردف: وهو الراكب خلف الراكب. أو العجز وهو المراد.

(٤) المتن: الظهر.

يـاذا الذي نَــمَّ علينــا لقــد قلـتَ ومنـك القـول مسْمـوع
لا تشغلني أبــداً بعــدَهـــا إلا ونَمَّـــامُـــكِ منــــزوعُ
ما بالُ خَلْخـالِـكِ ذا خـرْسـةٍ لسـانُ خَلْخـالِـك مقْطـوع
عـاذِلَتي في حبِّهـــا أقْصِـــري هذا لَعَمْري عنـك مـوضـوع

وفي معناه لبشار بن برد:

سيِّــدي لا تــأتِ في قمَـــر لحديـثٍ وارقُـب الدُّرُعـــا[(١)]
وتَـــوَقَّ الطِّيـــبَ ليلتنــــا إنــــه واشٍ إذا سطعـــــا

وله أيضا:

يقولان لو عزَّيتَ قلبك لارعَـــوَى فقلت وهـل للعـاشقين قلـوب[(٢)]

كثير وشعر لجميل:

الأصمعي قال: سمع كثير عزة مُنشداً ينشد شعر جميل بن معمر الذي يقول فيه:

مـا أنـتِ والوعْـدَ الذي تعـدينَني إلا كبَـرْق سحـابــةٍ لم تُمْطـر
تُقْضى الدُّيونُ ولست تقْضى عـاجلا هـذا الغـريمَ ولسـت فيـه بمُعْسِـر
يـــا ليتني ألْقـــي المنيِّـــة بغْتَـــةً إنْ كـان يـومُ لقـائكُـمْ لم يُقْـدر
يهواك ما عِشْت الفُـؤاد وإن أمُت يَتْبعْ صَداي صَـداك بين الأقْبر[(٣)]

فقال كثيِّر: هذا والله الشعر المطبوع؛ ما قال أحد مثل قول جميل، وما كنت إلا راويةً لجميل، ولقد أبقى للشعراء مثالا تَحتذي عليه.

الفرزدق وشعر لابن أبي ربيعة:

وسمع الفرزدق رجلا ينشد شعر عمر بن أبي ربيعة الذي يقول فيه:

---

(١) الدّرع: ليلة ست عشرة وسبع عشرة وثمان عشرة، الواحدة درعاء، سميت بذلك لاسوداد أوائلها وابيضاض سائرها.

(٢) ارعوى: كفّ وارتدع. (٣) الصدى: يريد الروح.

فقالت وأرْخَت جانب السِّتْر إنما معي فتحدَّث غير ذي رِقْبةٍ أهْلي
فقلت لها مالي لهم من تَرقُّبٍ ولكنّ سرَّي ليس يَحملُه مثْلي

حتى انتهى إلى قوله:

فلما تَوافقْنا عرَفْت الذي بها كمثلِ الذي بي حَذْوَك النعْلَ بالنعْلِ

فقال الفرزدق: هذا والله الذي أرادت الشعراء أن تقوله فأخطأته وبكت على الطلول. وإنما عارض بهذا الشعر جميلا في شعره الذي يقول فيه:

خليلَيَّ فيما عشْتُما هل رأيتُما قتيلاً بكى من حبِّ قاتِله قبْلي

فلم يصنع عُمر مع جميل شيئاً.

لابن عبد ربه:

ومن قولنا في رقة التشبيب والشعر المطبوع الذي ليس بدون ما تقدم ذكره:

صحا القلبُ إلاَّ خَطْرة تَبعثُ الأسى لها زَفْرةٌ موْصولةٌ بحنين
بلى ربما حلَّتْ عُرى عَزماتِه سوالفُ آرامٍ وأعيُنُ عِينِ (١)
لواقِطُ حبَات القلوب إذا رَنتْ بسِحرِ عُيونٍ وانكسارِ جُفون
ورَيْطِ متين الوَشْى أيْنعَ تحته ثِمار صُدورٍ لا ثِمار غُصونِ (٢)
بُرودٌ كأنوار الرَّبيعِ لبِسْنَها ثيابَ تَصابٍ لا ثيابَ مُجُون
فرَين أديم الليْل عن نورِ أوْجُهٍ تُجَنُّ بها الألبابُ أيَّ جُنون (٣)
وُجوهٌ جرى فيها النعيم فكلِّلتْ بوَرْد خُدودٍ يُجْتنى وعُيون
سأَلبَسُ للأيام دِرْعاً من العَزا وإن لم يكن عند اللّقا بحصين
فكيف ولي قلبٌ إذا هَبَّتِ الصَّبا أهَبَّ بشوْقٍ في الضُّلوع دفِين (٤)

---

(١) الآرام: جمع الارم: وهي الحجارة أو نحوها تنصب في المفازة ليهتدى بها.

(٢) الريط: جمع الرائطة: وهو كل ثوب لين رقيق.

(٣) فرى: شقّ واجتاز

(٤) الصَّبا: ريح مهبها من مشرق الشمس اذا استوى الليل والنهار.

ويَهتاجُ منه كلَّ ما كان ساكنا ... دُعاءُ حَمامٍ لم تَبِتْ بُوكُون[1]
وإنّ ٱرتياحي من بُكاءِ حَمامةٍ ... كذي شجَنٍ داوَيْتَه بشُجون
كأنّ حَمامَ الأيْكِ حين تجاوَبتْ ... حزينٌ بكى من رحْمةٍ لحزينِ[2]

ومما عارضت به صريع الغواني في قوله:

أدِيرا عليَّ ٱلرَّاحَ لا تشربا قبْلي ... ولا تطلُبا من عندِ قاتانلَتي ذَحلي[3]
فيا حَزَنى أني أموتُ صَبابَةً ... ولكن على من لا يَحلُّ له قتْلي
فَديتُ التي صَدّت وقالت لِترْبِها ... دعِيه، الثُّريّا منه أقربُ مِن وصْلي

فقلت على رويّه:

أتقْتُلَني ظلماً وتَجحَدُني قَتْلي ... وقد قام من عيْنيْك لي شاهدا عدْلِ
أطُلاب ذَحْلِي ليس بي غيرُ شادِنٍ ... بعيْنيْه سحرٌ فاطلبوا عندهُ ذَحْلِي[4]
أغارَ على قلبي فلما أتيتُه ... أُطالبُه فيه أغارَ على عقْلِي
بنفْسي التي ضَنّتْ بردِّ سلامِها ... ولو سألت قتلِي وهَبْت لها قتْلِي
إذا جئتُها صَدّت حياءً بوجهِها ... فتَهجُرُني هجراً ألذَّ من الوصلِ
وإن حَكَمت جارتْ عليّ بحكْمِها ... ولكن ذاك الجورَ أشْهى من العدْلِ
كَتْمت الهوى جهْدي فجدّدَه الأسى ... بماءِ البُكا هذا يَخُطُّ وذا يُمْلي
وأحببْت فيها العَذْلَ حبّاً لذِكْرِها ... فلا شيءَ أشْهى في فؤادي من العَذْلِ[5]
أقولُ لقلبي كُلّما ضامَه الأسى ... إذا ما أبيْت العزَّ فاصبِرْ على الذلِّ
برأيك لا رأْيي تَعرّضْتُ للهوى ... وأمرِك لا أمري وفعلِك لا فعْلي
وجدْتَ الهوى نَصْلا من الموت مُغْمَدا ... فجرّدْتَه ثم اتّكأت على النّصْلِ[6]

---

(١) الوكون: جمع الوكن: وهو عشّ الطائر حيث كان.

(٢) الأيك: جمع الايكة: وهي الشجر الكثير الملتف.

(٣) الذحل: الحقد، الثأر. (٤) الشادن: ولد الظبية.

(٥) العذل: اللوم والعتاب.

(٦) النصل: حديدة الرمح والسهم والسكين.

فإن كنتُ مقتولاً على غيرِ رِيبةٍ ... فأنتِ التي عرّضْتِ نفسيَ للقتلِ

فمن نظر إلى سهولة هذا الشعر، مع بديع معناه ورقة طبعه، لم يفضل شعر صريع الغواني عنده إلا بفضل التقدم، ولا سيما إذا قُرن قوله في هذا الشعر.

كتمت الذي ألْقى من الحبِّ عـذلي ... فلم يدْرِ ما بي فاستَرحْتَ من العـذل

بقولي في هذا الشعر:

أحبَبْت فيها العذْلَ حُبّاً لذِكْـرِهـا ... فلا شيءَ أشْهى في فؤادي من العـذْلِ

ومن قولنا في رقة التشبيب وحسن التشبيه:

كم سَوْسَـن لطـف الحيـاءُ بلـوْنِـه ... فـأصـارَهُ ورْداً على وجَنـاتِـه

ومثله:

يـا لـؤْلُـؤًا يَسْبِـي العقـولَ أنيقـا ... ورَشاً بتقْطِيـع القلـوبِ رفيقَـا[1]

مـا إن رأيـت ولا سَمِعْـت بمِثلـه ... دُرّاً يعـود مـن الحيـاءِ عَقِيقـا

ونظير هذا من قولنا في رقة التشبيب وحسن التشبيه والبديع الذي لا نظير له، والغريب الذي لم يسبق إليه:

حـوْراءُ داعبهـا الهوى في حُـور ... حَكَمت لواحِظُها على المقـدور[2]

نظـرتْ إليَّ بمُقلـةٍ أُدْمـانـة ... وتلَفّتـت بسـوالف اليَعْفـورِ[3]

فكـأنما غـاض الأسى بجفُـونِهـا ... حتى أتـاك بلُـؤْلـؤ منثـورِ

ونظير هذا من قولنا:

أدعـو إليـك فلا دُعـاءٌ يُسْمـعُ ... يـا مـن يَضُـرُّ بنـاظِـرَيْه وينفـعُ

للـوردِ حينٌ ليس يَطلُـعُ دونَـه ... والورد عنـدك كـلَّ حينٍ يَطلـعُ

---

(١) الرشأ: ولد الظبية اذا قوي وتحرك ومشى مع أمه.

(٢) الحوراء: التي اشتد بياض عينها وسوادها واستدارت حدقتها ورقت جفونها.

(٣) أدمانة: لغة في أدماء للظبية.

لم تنْصدعْ كبَدي عليك لضَعفِها　　لكنها ذابت فما تتصدّعُ
مَن لي بأجردَ ما يُبين لسانه　　خجلاً وسيف جفونِه ما يَقْطع[1]
منع الكلامَ سوى إشارةِ مُقْلةٍ　　فبِها يُكلِّمُني وعنها يسمع

ومثله:

جمالٌ يفوتُ الوهْمَ في غاية الفكر　　وطرْفٌ إذا مافاهَ ينطقُ بالسِّحْر
ووجْهٌ أعار البدرَ حُلَّةَ حاسدٍ　　فمنه الذي يسْود في صفْحة البدرِ

وقال بشار بن برد:

ويح قَلبي ما به من حُبِّها　　ضاق من كِتمانه حتى علنْ
لا تلُم فيها وحَسِّن حبَّها　　كل ما مرَّت به العينُ حَسَنْ

وله:

كأنها روضةٌ منوِّرةٌ　　تنفَّستْ في أواخر السَّحَر

ولبشار، وهو أشعر بيت قاله المولّدون في الغزل:

أنا والله أشتهي سحر عَينيـ　　ـك وأخشى مَصارع العشَاق

وله:

حَوراء إن نظرت إليـ　　ـك سقتْك بالعينين خمرًا
وكأنها بَرْدُ الشرا　　ب صفا ووافق منك فِطْرا.

ولأبي نواس:

وذات خدٍّ مورَّدْ　　قُوهِيَّة المُتجرّدْ[2]
تأمَّلُ العين منـ　　ـها محاسناً ليس تنفَد
فبعضه في انتهاءٍ　　وبعضه يتولّد

---

(١) الأجرد: الذي ليس في قلبه غل ولا غش.
(٢) المتجرد: الذي جدّ لأمر ما، أو الذي تعرّى.

وكلما عُـــدْت فيــــه يكــون في العــود أحمد

وله أيضاً:

ضَعيفـة كـرِّ الطَّـرف تحسـب أنها قريبة عهدٍ في الإفاقـة مـن سُقْـمِ

قولهم في النحول

قال عمر بن أبي ربيعة القرشي يصف نحول جسمه وشحوب لونه في شعره الذي يقول فيه:

رأتْ رجُلا أمّا إذا الشمسُ عارضتْ فيضْحى وأما بالعشيِّ فيَخْصَـرُ (١)
أخا سَفر جوّابَ أرضٍ تقـاذفـتْ بـه فلَـواتٌ فهـو أشْعـث أغبرُ (٢)
قليلا على ظهْـر المطِيَّـــة شخصـــه خلا ما نَفَى عنـه الرداءُ المحبَّـر (٣)

وفي هذا الشعر يقول:

فلما فقدْتُ الصوتَ منهم وأُطفئـتْ مصابيح شبَّـت بـالعِشـاء وأَنْـؤُرُ
وغاب قُميْرٌ كنتُ أرجـو غيـوبَـه وروَّحَ رُعْيــان ونـــوَّم سُمَّـــر (٤)
وخُفِّض عني الصَّوت أَقبلتُ مِشيةَ الـ ـحُبَاب وركْني خيفة القوم أَزوَر (٥)
فحيَّيـتُ إذ فـاجـأْتُهـا فتلهَّفَـــتْ وكـادتْ بمكتـوم التحيَّـة تَجهـــر
وقالت وعضَّت بالبنـان: فضحْتني وأنت امرؤ ميْسور أمْـرك أعسَـر
أَرَيْتـك إذ هُنَّـا عليـك ألم تَخـف رقيباً وحوْلي مـن عـدوِّك حُضَّـر
فوالله مـا أَدري أتعجيـل حـاجـةٍ سَرتْ بك أم قد نام من كنتَ تحذَر
فقلت لهابل قادنِي الشـوق والهوى إليكِ ومـا عينٌ مـن النـاس تنظـر

---

(١) يخصر: يضرب خاصرته.

(٢) الأشعث: الذي تغير شعره وتلبد والأغبر: الذي علاه الغبار.

(٣) المحبّر: المزين والمنمق.

(٤) القعير: البعيد القعر، يريد القمر.

(٥) الأزور: الذي أشرف أحد جانبي صدره على الآخر.

فيا لك من ليلٍ تَقاصَر طولـه ... وما كـان ليلِـي قبـل ذلـك يَقصر
ويا لك من ملهـى هنـاك ومجلسٍ ... لنـا لم يكـدِّرْه علينـا مكـدِّر
يَمـجُّ ذكـيَّ المسـك منهـا مفلَّـجٌ ... رقيق الحواشي ذو غروبٍ مؤشَّر[١]
وتَـرنـو بعينيهـا إليّ كما رَنـا ... إلى رَبرب وسْط الخميلةِ جُـؤذر[٢]
بَـروق إذا تفترُّ عنـه كـأنـه ... حصَـى بـرَدٍ أو أقحـوان منـوِّر
فلما تقضي الليـل إلا أقلَّـه ... وكـادت تَـوالي نجمِـه تتغـوَّر
أشارت بأنّ الحيَّ قـد حـان منهـمُ ... هُبوب ولكن موْعد لك غـزْوَر[٣]
فما راعني إلا منـادٍ بـرحلـةٍ ... وقد لاح مفْتوق من الصُّبح أشقَر[٤]
فلما رأت مَـن قـد تنـوّر منهـمُ ... وأيقاظَهم قالت أشِرْ كيف تـأمـر
فقلـت: أُبـاديهم فـإمّـا أفـوتهم ... وإمّـا يَنـال السيـف ثـأْراً فيثـأَر
فقالت: أتحقيقـاً لما قـال كـاشـح ... علينـا وتصـديقـاً لما كـان يُـؤثَـر
فإن كـان مـا لا بـدّ منـه فغيْـره ... من الأمـر أدنـى للخفـاء وأستَـر
أقـصُّ على أُختَـيَّ بَـدءَ حـديثنـا ... ومـاليَ مـن أن يعلَما متـأخِّـر
لعلَّهما أن يَبغيـا لـك مخرَجـاً ... وأن يرْحبا صدراً بما كنت أحصَـر
فقـالـت لأختيْهـا أَعِينـا على فتى ... أتى زائـراً والأمـر للأمـر يُقـدَر
فـأَقبلتـا فـارتـاعَتـا ثم قـالتـا ... أقِلّي عليكِ اللوم فالخطْـب أيسَـر
يقـوم فيمشي بيننـا متنكِّـراً ... فلا سرُّنـا يفشـو ولا هـو يُبصِـر
فكان مِجَنّي دون ما كنت أتَّقـي ... ثلاثَ شخوصٍ : كاعبان ومُعصِر[٥]
فلما أَجَزْنـا سـاحـةَ الحيِّ قُلْـنَ لي ... ألم تتَّـق الأعـداءَ والليـل مُقمِـر
وقُلنَ أهذا دأْبـك الدهـرَ سـادراً ... أما تستحي أم تَرعـوي أم تفكِّـر

---

(١) المؤشر: الذي حززت أسنانه خلقة أو صناعة.

(٢) الجؤذر: ولد البقرة الوحشية. والربرب: القطيع من الظباء ومن البقر الوحشي والانسي.

(٣) عزور: مكان قرب مكة.

(٤) المفتوق: الذي برز وظهر.

(٥) المجن: الترس. والكاعب: الفتاة التي نهد ثديها. والمعصر: الفتاة التي بلغت شبابها.

ويروَى أن يزيد بن معاوية لما أراد توجيه مسلم بن عقبة إلى المدينة، اعترض الناس، فمرّ به رجل من أهل الشام معه تُرس قبيح، فقال: يا أخا أهل الشام، مجنّ ابن أبي ربيعة كان أحسن من مجنِّك هذا! يريد قول عمر ابن أبي ربيعة:

فكان مجنِّي دون ما كنت أتَّقي ... ثلاثَ شخوصٍ: كاعبانِ ومُعصِر

وقال أعرابيّ في النحول:

ولو أنّ ما أبقيْتِ مني معلَّق ... بعُود ثَمام ما تأوّدَ عودُها[1]

وقال آخر:

إن تسألوني عن تباريحِ الهوى ... فأنا الهوى وأبو الهوى وأخوهُ[2]
فانظرْ إلى رجلٍ أضرَّ به الأسى ... لولا تقلُّب طرفه دفَنوه

وقال مجنون بني عامر في النحول:

ألا إنما غادرتِ يا أمَّ مالك ... صدًى أينَما تذهبْ به الريح يذهبِ

وللحسن بن هانيء:

كما لا ينقضي الأرَبُ ... كذا لا يَفتُر الطلبُ[3]
ولم يُبق الهوى إلا ... أقلِّي وهو مُحتسَب
سوى أني إلى الحيوا ... ن بالحركات أنتسب

وقال آخر وهو خالد الكاتب:

هذا مُحبُّكِ نِضْوٌ لا حَراك به ... لم يبقَ من جسمه إلا توهُّمه[4]

ومن قولنا في هذا المعنى:

سبيلُ الحبِّ أوّله اغتِرارُ ... وآخره همومٌ وادِّكارُ[5]

---

(١) تأود: تعوّج وتثنى

(٢) تباريح الشوق: توهجه.

(٣) الأرب: القصد والغاية.

(٤) النّضو: المهزول، أو المجهد من السفر.

(٥) الادّكار: التذكر.

وتلقـى العـاشقين لهم جُسـومٌ بَراها الشوق لـو نُفخـوا لطـاروا

ومثله من قولنا:

لم يبـقَ مـن جُثْمانِـه إلا حُشـاشـة مبتئِس
قـد رَقّ حتى مـا يُـرى بـل ذاب حتى مـا يُحَس

وقال الحسن بن هانيء في هذا المعنى، فأربى على الأوّلين والآخرين:

يـا مَـن تَمـوْتَ عمْـداً فكـان للعين أملَـى
وفي الشّعـوثَـةِ أرْبـى فكـان أشهـى وأحلَـى
أردتَ أن تـزدريـكَ العيـون هيهـات كلاَّ
يـا عـاقـدَ القلـبِ مني هلاَّ تَـذكَّـرتَ خَلاَّ
تَـركـت مني قليلا مـن القليـل أقلاَّ
يكـاد لا يَتجـزَّا أقـلَّ في اللفـظ مـن لا

ولأبي العتاهية:

تلاعبْتِ بي يـا عُتْـبَ ثم حَمَلْتني على مـركـب بين المنيـة والسُّقْـم
ألا في سبيـل الله جسمـي وقـوّتي ألا مُسعد حتى أنـوح على جسمـي

وله:

لم تُبْـق مني إلا القليـلَ ومـا أحسبهـا تترك الذي بقيـا

قولهم في التوديع

ابن حميد وجارية له:

قال سعيد بن حميد الكاتب وكان على الخراج بالرقة: ودعت جارية لي تسمى شفيعاً وأنا أضحك وهي تبكي، وأقول لها: إنما هي أيام قلائل! قالت: إن كنت تقدر أن تخلف مثل شفيع فنعم! فلما طال بي السفر واتصلت بي الأيام كتبتُ إليها كتاباً، وفي أسفله:

ودّعتُهـا والدَّمْـع يقطُـرُ بينَنـا وكذاكَ كـلُّ مُلـذَّعٍ بفِـراقِ

شُغِلَتْ بتفْييض الدُّموعِ شِمالَهـا ويمينُها مشْغـولـةٌ بعِنـاق

قال: فكتبتْ إليّ في طومار[1] كبير ليس فيه إلا: بسم الله الرحمن الرحيم، [في أوّله] وفي آخره: يا كذاب، وسائر الكتاب أبيض، قال: فوجهتُ الكتاب إلى ذي الرياستين الفضل بن سهل. وكتبتُ إليها كتاباً على نحو ما كتبت، ليس فيه إلا: بسم الله الرحمن الرحيم، في أوله، وفي آخره أقول:

فودّعتُها يـومَ التفـرُّقِ ضـاحِكـاً إليهـا ولم أعْلَـمْ بـأَنْ لا تَلاقِيـا
فلو كنـتُ أدري أنـهُ آخِـرُ اللّقـا بكَيْتُ وأبْكيتُ الحبيبَ المُصـافيـا

قال: فكتبتْ إليّ كتاباً آخر ليس فيه إلا: بسم الله الرحمن الرحيم، في أوله، وفي آخره: أعيذك بالله أن يكون ذلك! فوجهتُه إلى ذي الرياستين الفضل بن سهل فأشخصَني[2] إلى بغداد وصيَّرني إلى ديوان الضياع.

ابن يحيى وجاريتان:

محمد بن يزيد الرَّبعي عن الزبير عن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل قال: إنه لما نفاه المتوكل إلى جزيرة أقريطش[3] فطال مقامه بها، تمتّع بجارية رائعـة الجمال بارعة الكمال، فأنسته ما كان فيه من رونق الخلافة وتدبيرها، وكان قبل ذلك متيَّماً بجارية خلفها بالعراق، فسلا عنها؛ فبينما هو مع الأقريطشيّة في سرور وحبور، يحلف لها أنه لا يفارق البلد ما عاش، إذ قدم عليه كتاب جاريته من العراق وفيه مكتوب:

كيف بَعدي لا ذُقْتُـمُ النـوْمَ أنتُـم خبروني مُذْ بنْتُ عنكُـمْ وبِنتُـمْ[4]
بمراضِ الجفُـونِ مـن خُـرّدِ العيْــــنِ وورْدِ الخدُودِ بعْـدي فتِنْتم[5]

---

(١) الطومار: الطامور: الصحيفة.

(٢) أشخصني: أخرجني، بعث بي.

(٣) أقريطش: جزيرة في بحر العرب.

(٤) بنتم: ابتعدتم.

(٥) خرُد: جمع خريد: وهي الفتاة العذراء الحييّه.

يـــا أخِلاّيَ إنّ قلبي وإنْ بـــا   نَ، من الشوق عنْدكم حيثُ كنْتم
فـإذا مـا أبَــى الإلـٰــهُ اجتماعـاً   فـالمنـايا عليّ وحــدي وعِشْتُــم

أخذَتْ هذا المعنى من قول حاتم:

إذا مـا أتـى يـومٌ يُفـرّقُ بيْننـا   بموْت، فكُنْ أنـت الذي تتـأخَّـرُ

فلم يباشر لذة بعد كتابها، حتى رضي عنه المتوكل وصرفه إلى أحسن حالاته.

المعتز وجارية لابن رجاء:

الزبيري قال: حدثني ابن رجاء الكاتب قال: أخذ مني الخليفة المعتز جارية كنت أحبها وتحبني؛ فشربا معاً في بعض الليالي، فسكر قبلها، وبقيت وحدها ولم تبرح من المجلس هيبةً له، فذكرتْ ما كنا فيه من أيامنا، فأخذت العود فغنت عليه صوتاً حزيناً من قلب قريح وهي تقول:

لا كـان يـومُ الفِـراقِ يـومـا   لم يُبــقِ للمُقْلتيْــن نَــومـا
شَتَّـــتَ منِّـــي ومنْــكَ شَمْلا   فسَـرّ قـومـاً وسـاءَ قـومـا
يا قوم مَـن لي بـوجْـدِ قلْـبٍ   يُسـومُني في العـذاب سَـومـا
مـا لامَني النـاسُ فيـــه إلا   بكيْـــتُ كَما أَزَادَ لَـــومـا

فلما فرغت مـن صـوتها رفـع المعتـز رأسـه إليهـا والدمـوع تجري على خـديها كالفرند[1] انقطع سلكه فسألها عن الخبر وحلف لها أن يبلغها أملها، فأعلمته القصة فردها إليّ وأحسن إليها، وألحقني في ندمائه وخاصته.

أبو أحمد وجارية له:

وكان لأبي أحمد صاحب حرب المعتمد جارية، فكتبت إليه وهو مقيم على العلوي بالبصرة تقول:

---

(١) الفرند: ما يلمع في صفحته من أثر تموج الضوء.

لنا عَبَرَاتٌ بعدَكم تبعَث الأسَى ... وأنفاسُ حُزن جَمَّةٌ وزَفيرُ
ألاليت شِعْرِي بَعدنَا هل بَكيْتُمُ ... فأمّا بُكائِي بعْدَكم فكثيرُ

قال أبو أحمد: فلم يكن لي همٌّ غيرها حتى قفلتُ[1] من غزَاتي.

مروان وجارية له:

وكتب مروان بن محمد وهو منهزم نحو مصر إلى جارية له خلفها بالرّملة:

وما زالَ يَدعونِي إلى الصَّدِّ ما أَرى ... فأنأى ويَثْنيني الذي لكِ في صَدرِي[2]
وكان عزيزاً أنّ بيْني وبينَها ... حِجاباً فقد أمسَيْتُ منكِ على عَشْرِ
وأَنْكاهُما واللهِ للقلبِ فاْعلمي ... إذا ازْدَدتُ مِثلَيها فصرْتُ على شهْرِ
وأعظمُ منْ هذَيْن واللهِ أنّني ... أخافُ بأنْ لا نَلتقِي آخرَ الدّهْرِ
سأبكيكِ لا مُستَبقِياً فيْضَ عبْرةٍ ... ولا طالِباً بالصَّبْرِ عاقبةَ الصَّبْرِ

ابن بكار ورجل بالثغر:

الزبير بن بكار قال: رأيت رجلاً بالثغر[3] وعليه ذلة واستكانة وخضوع، وكان يكثر التنفس، ويخفي الشكوى، وحركات الحب لا تخفى؛ فسألتُه وقد خلوتُ به فقال وقد تحدّر دمعه:

أنا في أمرَيْ رشادِ ... بينَ غزوٍ وجهادِ
بَدنِي يَغْزو الأعادِي ... والهوى يَغْزُو فُؤادِي
يا عَليما بالعبادِ ... رُدّ إلْفِي ورُقادي[4]

وقال أعرابيٌّ يصف البين:

أَدْمَتْ أناملَها عَضّاً على البَيْنِ ... لَمّا انثَنتْ فرأَتْني دامعَ العيْنِ

---

(١) قفلت: رجعت. (٢) الصدّ: الهجران.
(٣) الثغر: المكان المتاخم لأرض العدو.
(٤) الإلف: المألوف.

وودَّعتْنِــي إيماءً ومــا نَطَقَــتْ   إلا بسَبَّـابــةٍ منهــا وعيْنيْـــن
وجْدي كوَجْدِكِ بل أضْعافُه فـإذا   عنِّي تَواريْتِ قابَ الرُّمحِ واحَيْني[1]
وإنْ سَمِعتِ بموتِي فاطْلُبي بـدمِـي   هَواك والبْينَ واَستعْـدِي على البيْـن

وقال آخر:

مـالـتْ تُـودِّعُني والدَّمـعُ يَغلِبُهـا   كما يميـل نَسيمُ الرِّيـحِ بـالغُصُـنِ
ثمَّ آستمرَّت وقالتْ وهْـي بـاكيـةٌ   يـا ليـت مَعْـرِفتي إيَّـاكَ لم تكُـنِ

وقال آخر:

أنين فـاقِـد إلْــفٍ أنّ في الغَلَس   حتى تَضايـق منـه مَخْـرَجُ النَّفَس
فكلَّما أنّ مـن شَـوْقٍ أجـالَ يـداً   على فـؤادٍ لـه بــالبيْــن مُخْتلَس

وقال آخر:

أَمُبْتكِـرٌ لِلبيْــنِ أم أنــت رائـــحُ   وقلبك ملهوفٌ ودمعـك سـافـحُ
الآن تبكــي والنَّــوى مُطْمَئِنـــةٌ   فكيف إذا بارَحْتَ مـنْ لا تبـارِحُ
فإنك لم تَبْـرَحْ ولا شَطَّـتِ النوى   ولكنّ صبري عن فؤاديَ نـازحُ[2]

وقال آخر:

إذا انفتحـت قيـودُ البيْـنِ عنِّـــي   وقيـل أُتيـحَ للنَّـائِــي سَـرَاحُ
أبـــت حلقـاتُـــهُ إلاّ انقفـــالا   ويَـــأْتي اللهُ والقـــدرُ المُتـــاح
ومـن لي بـالبقـــاءِ وكــلَّ يـــوم   لسهـمِ البيْـنِ في كبِـدي جِـراحُ

وقال محمد بن أبي أمية الكاتب:

يـا غـريبـاً يبكـي لكـلِّ غـريـب   لم يَـذُقْ قبلَهـا فِـراق حبيـب
عـزّهُ البيْـــنُ فـــاستراح إلى الدَّمْـ   ـعِ وفي الدمـعِ راحـةٌ للقلـوب
ختَلتْـــهُ حــوادثُ الدهـــرِ حتى   أقصدَتْـهُ منهـا بسهـم مُصيـب[3]

---

(١) قاب الرمح: القاب: المقدار، وقاب الرمح: كنايه عن القرب.

(٢) شطت: بعدت.   (٣) ختل: خدع.

أيَّ يـــومٍ أراك فيـــه كما كنـ ـت قريباً فـأشتَكِـي مـن قـريـب

وقال أبو الطيامير:

أقـــول لـــه يـــومَ ودَّعْتُـــهُ وكـــلٌّ بعَبْـــرتِـــه مُبلسُ[1]
لئن رجعَـتْ عنـك أجسامُنـا لقد سـافـرتْ معـك الأنْفُسُ

وقال أبو العتاهية:

أبيـتُ مُسَهَّـداً قلِقـاً وسـادِي أُروِّحُ بالدمـوعِ عـنِ الفـؤاد
فراقكَ كان آخرَ عهد نَـومـي وأوّل عهـد عيني بـالسُّهـاد
فلم أر مثـل مـا سُلِبَتْـهُ نفسي وما رجعتْ بـه مـن سـوء زادِ

وقال محمد بن يزيد التُّسْتري:

رَفعتْ جانباً إليـك مـنَ الكِلّـ ـةِ قـابلَتْـهُ طـرْفـاً كحيلا[2]
نظرتْ نظـرةَ الصَّبـابـةِ لا تَمْـ ـلـك للبين دَمعهـا أن يجولا
ثم ولّـتْ وقـد تغير ذاك الصُّـ ـبحُ من خـدِّهـا فعـاد أصيلا

وقال يزيد بن عثمان:

دَمعـــة كـــالّلُـؤْلُـؤ الرَّطْـ ـب على الخدِّ الأسِيـــل[3]
وجُفُـــون تنفُـــثُ السِّحْـ ـرَ مـن الطَّـرْفِ الكحيـل
إنما يَفْتضِـــحُ العـــا شـقُ في يـومِ الرحيـل

وقال علي بن الجهم:

يا وحشتا للغريبِ في البلـدِ النـ ـازِحِ مـاذا بنفسـه صنعـا
فـارق أحبـابَـه فما انتفعـوا بالعَيْشِ من بعدِه ومـا انتفعـا
يقـولُ في نَـأْيِـه وغُـرْبتِـه عدْلٌ مـن الله كـلُّ مـا صنَعـا

---

(١) المبلس: الذي سكت لحيرة.

(٢) الكِلّة: الضعف والتعب.

(٣) الأسيل: الذي ملس واستوى.

وقال آخر:

بانُوا وأضحى الجسُم من بعدِهمْ ... مـا تُبْصِـرُ العيْـنُ لـه فَيّـا[1]
يا أسفي منهـم ومـن قـولِهـم ... مـا ضرّك الفقـدُ لنـا شَيّـا
بـأيِّ وجـهٍ أتلقَّـاهُـمُ ... إن وجـدوني بعـدهُـمْ حيّـا

وقال آخر:

اترْحلُ عـن حبيبِـك ثم تبكـي ... عليه، فمن دعاك إلى الفِـراقِ ؟

وقال هُدْبة العذْري:

ألاَ ليـت الريـاح مسخّـراتٌ ... بحاجتنـا تُبـاكِـرُ أو تئـوبُ
فتُخْبِـرَنـا الشّمالُ إذا أتتْنـا ... وتُخْبرَ أهلنا عنَّـا الجَنـوبُ[2]
عسى الكرْبُ الذي أمسيْت فيـه ... يكون وراءَه فـرجٌ قـريـبُ[3]
فيأمـنَ خـائـفٌ ويُفـكَّ عـانٍ ... ويأتيَ أهلَـه النَّـائِـي الغـريـب

وقال آخر:

لا بـارك الله في الفِـراق ولا ... بـارك في الهجْـرِ مـا أمـرَّهُما
لو ذُبـح الهجـرُ والفِـراقُ كما ... يُـذْبـحُ ظبْـيٌ لَما رحِمْتُهُما
شربت كأس الفراقِ مُتْـرَعَـةً ... فطـار عـن مُقْلتَـيَّ نـومُهُما[4]
يـا سيِّـدي والذي أُؤَمِّلُـه ... نـاشـدْتُـك اللهَ أن تـذوقَهُما

وقال حبيب الطائي:

الموت عنـدي والفِـرا ... قُ كِلاهما مـا لا يُطـاقُ
يتعـاونـان على النْفـو ... سِ فذا الحِمامُ وذا السِّيـاقُ[5]

(١) بانوا: بعدوا وانفصلوا. وفيّا: أي فيئا بالهمز، فسهل وأدغم.

(٢) الشمال: الريح التي تهب من ناحية الشمال؛ والجنوب: الريح التي تهب من الجنوب.

(٣) الكرب: الحزن والغم يأخذ بالنفس.

(٤) مترعة: مملوءة. (٥) السِّياق: النزع والاحتضار.

لــو لم يكــن هــذا كـــذا ما قيــل مــوتٌ أو فِــراق

وقال آخر:

شتــانَ مــا قُبْلَـــة التَّلاق وقُبلـــةٌ ســاعـــةَ الفِـــراقِ
هٰـذي حيـاةٌ وتلــك مــوْتٌ بينهما راخـــــةُ العِنـــــاق

وقال سعيد بن حميد:

موقفُ البيْــن مـأتم العـاشقينـا لا ترى العيْنُ فيـه إلاَّ حـزينَـا
إنّ في البيْن فـرحتَيْــن: فـأمّـا فرحتِي بالوَداع للظَّاعِنينـا . . .
فاعتِنـاقٌ لِمَــن أُحِــبُّ وتقْبِيـــــيلٌ ولمسٌ بحضرةِ الكاشِحينا(١)
ثم لي فــرحــة إذا قَــدِمَ النَّـــا سُ لتسليمِهِـم على القـادِمينـا!

وقال أعرابي:

ليْــلُ الشَّجــيِّ على الخليِّ قصيرُ وبَلا المحبِّ على المحــبِّ يسيرُ
بــانَ الذيــن أُحِبُّهُــم فتحمَّلــوا وفِراقُ من تهوى عليـك عسيرُ
فلأبعثَــنَّ نِيـاحـةً لفـراقِهِــم فيهـا تُلَطَّـم أوجُـهٌ وصُــدورُ
ولألبَسَــنّ مَـدارعـاً مُسْــودَةَ لُبْس الثَّواكِلِ إذ دهاك مسيرُ(٢)
ولأذْكُرنّك بعد مـوْتي خـاليـاً في القبر عند منكَـرٌ ونكيرُ(٣)
ولأطلبنَّك في القيامـةِ جـاهـداً بين الخلائقِ والعبادُ نُشـور(٤)
فبِجنَّةٍ إن صِرْت صِرتُ بجنـةٍ ولئــن حَــواك سعيرُهـا فسَعير
والمُسْتهـام بكــلِّ ذاك جـديــر والذَّنْبُ يُغفَــر والإلـه شَكـور

ومن قولنا في البين:

---

(١) الكاشح: العدو المبغض.

(٢) المدارع: جمع الدراعة: وهي ثوب من صوف، أو جبة مشقوقة المقدم.

(٣) منكر ونكير: ملاكان.

(٤) نشور: أي بعثوا.

هَيَّج البيْنُ دواعِي سَقَمي ... كسا جسمي ثوب الألم
أيها البيْنُ أقِلْني مرة ... فإذا عُدْتُ فقد حَلَّ دمي [1]
يا خَليَّ الرَّوعِ نَم في غِبطةٍ ... إنّ من فارقْتَه لم ينَمِ!
ولقد هاج لقلبي سَقَماً ... ذِكْر من لو شاءَ داوى سَقمي

ومن قولنا في المعنى:

ودّعَتْني بزفرةٍ واعتناقِ ... ثم نادت: متى يكونُ التلاق؟
وتصدّت فأشْرَق الصُّبحُ منها ... بيْن تلك الجيوبِ والأطواق [2]
يا سقيمَ الجفونِ من غيْرِ سُقْمٍ ... بين عيْنيْك مَصْرعُ العُشّاقِ
إنّ يوم الفِراق أفظعُ يومٍ ... ليتَني مِتُّ قبل يوم الفِراقِ

ومن قولنا فيه:

فررْتُ من اللّقاءِ إلى الفِراقِ ... فحسبِي ما لقيتُ وما أُلاقي
سَقاني البيْن كأس الموْتِ صِرْفاً ... وما ظني أموتُ بكفِّ ساقي
فيا بَرْد اللقاءِ إلى فؤادي ... أَجِرْني اليومَ منْ حرِّ الفِراق

وقال مجنون بني عامر.

وإني لَمُفْنٍ دمْعَ عيني من البكا ... حَذاراً لأمْر لم يكن وهْو كائن
وقالوا: غداً او بعد ذاك بليْلة ... فِراقُ حبيب لم يَبِنْ وهْو بائنُ
وما كنتُ أخشى أن تكونَ منِيّتي ... بكفَّيَّ إلاّ أنّ ما حانَ حائن

وقال أبو هشام الباهلي

خليلي غداً لا شكَّ فيه مُوَدّعُ ... فوالله ما أدري غداً كيف أصْنعُ
فواحَزَناً إن لم أُوَدِّعه غَدْوَةً ... ويا أسفا إن كنتُ فيمنْ يُوَدِّع [3]

---

(١) البين: الفراق.

(٢) الأطواق: جمع طوق: وهو كل ما أحاط بشيء خلقة أو صنعة، كطوق الذهب والفضة وطوق الحمام.

(٣) الغدوة: الغداة.

فإن لم أُوَدِّعْه غداً مِتُّ بعده سريعاً وإن ودّعْت فالموتُ أسرع
أنا اليومَ أبكيهِ فكيف به غداً أنا في غدٍ والله أبكي وأجزع
لقد سَخُنتْ عيْني وجلّت مُصيبتي غَداةَ غدٍ إن كان ما أتوقَّع[1]
فيا يومُ لا أَدبَرْتَ! هل لك مَحبِسٌ؟ ويا غَدُ لا أقبَلْت! هل لك مدفَعُ

وقال بشار بن برد:

نبتْ عيني عن التغميض حتى كأنّ جفونها عنها قِصارُ
أقول وليلتي تزداد طولاً أما للّيل بعدكم نهار

وقال المعتصم لما دخل مصر وذكر جارية له:

غريبٌ في قُرى مِصْرٍ يُقاسي الهمَّ والسّقَما
للَيْلكَ كان بالميدا نِ أقصرَ منه بالفرما

وقال آخر:

وداعُكَ مثْلُ وداعِ الربيعِ وفقدُكَ مثلُ آفتِقادِ الدِّيَمْ[2]
عليكَ سلامٌ فكمْ من نَدَى فقدْناه منكَ وكم من كَرم

قولهم في الحمام

قال أبو الحسن الاخفش: قال جحدر العُكلي[3]، وكان لصّاً:

وقِدْماً هاجَني فازْدَدْتُ شوقاً بُكاءُ حمامتيْن تَجاوَبان
تجاوبَتا بلحْنٍ أعجَميّ على عودَيْن من غربٍ وبان[4]
فكان البان أن بانتْ سُليمى وفي الغربِ آغتِرابٌ غيرُ دان

وقال آخر:

---

(١) سخنت عيني: لم تقرّ
(٢) الدِّيم: جمع الديمة: وهي المطر يطول زمانه في سكون.
(٣) العكلي: نسبة الى أمة يقال لها عكل.
(٤) الغرب: شجر تتخذ منه القداح البيض. والبان: شجر له ثمر كقرون اللوبياء، طويل في استواء ونعومة.

وتفرّقُوا بعدَ الجميعِ لأنَّه ... لا بدّ ان يتفرّقَ الجيرانُ
لا تَصبرُ الإبلُ الجيادُ تفرّقتْ ... بعد الجميعِ، ويَصبِرُ الإنسان!

وقال آخر:

فهل ريبة في أن تَحنَّ نجيبةٌ ... إلى إلفِها أو أنْ يَحنّ نجيبُ[1]

وإذا رجعت الإبل الحنين كان ذلك أحسنَ صوت يهتاج له المفارِقون كما يهتاجون لنوح الحمام.

وقال عوف بن مُحلِّم:

ألا يا حَمامَ الأيْكِ إلفكَ حاضرٌ ... وغُصْنُكَ مَيّادٌ ففيمَ تَنوحُ؟[2]

وكل مطوّقة عند العرب حمامة، كالدُّبْسِي والقُمري والورَشان وما أشبه ذلك؛ وجمعها حمام، ويقال: حمامة، للذكر والانثى، كما يقال: بطة، للذكر والانثى؛ ولا يقال حمام إلاّ في الجمع، والحمامة تبكي وتغني وتنوح وتغرد وتسجع وتقرقر وتترنم؛ وإنما لها أصوات سجيع لا تُفهم فيجعله الحزين بكاء، ويجعله المسرور غناء.

قال حميد بن ثور:

وما هاج هذا الشوقَ الا حمامةٌ ... دعَتْ ساقَ حُرٍّ تَرحةً وتَرنما
مُطوّقة خطباءُ تَسجعُ كلّما ... دنا الصَّيفُ وآنزاحَ الربيعُ فأنجما[3]
تغنَّتْ على غُصنِ عشاءً فلم تَدعْ ... لنائِحةٍ في نوحِها مُتلوَّما
فلم أر مِثلي شاقه صوت مثلِها ... ولا عربياً شاقه صوتُ أعْجما

وقال مجنون بني عامر:

ألا يا حماماتِ اللِّوى عُدنَ عُدوةً ... فإني الى اصواتِكنَّ حزين
فعُدنَ، فلما عُدنَ كِدنَ يُمِتْنني ... وكدتُ بأشجاني لهنَّ أُبين

(١) النجيب من الابل: خيرها.
(٢) الأيك: جمع الأيكة: وهي الشجر الكثير الملتف.
(٣) الخطباء: التي يخالط خضرتها سواد. وأنجم المطر، أقلع.

فلم تَـــر عيني مِثلهُـــنَّ بـــواكيـــاً　　بَكيْنَ ولم تَذرِفْ لهنّ عُيون!

وقال حبيب في المعنى:

هُـنّ الحَمامُ فـإن كسَـرْتَ عيـافـةً　　من حائِهنّ فإنّهنّ حِمامُ[1]

وقال:

كما كادَ يَنسى عهدَ ظمياءَ بـاللّـوى　　ولكـــنْ أملّتــهُ عليَّ الحمائِـــمُ

بَعَثْنَ الهوى في قلب من ليسَ هـائماً　　فقلْ في فُؤادي رعْنَـهُ وهْـو هـائمُ

لها نغَمٌ ليسَت دُمُوعـاً فـإن علـت　　مَضت حيثُ لا تَمضي الدُّموعُ السواجِمُ[2]

ومن قولنا في الحمام

فكيفَ، ولي قلبٌ إذا هبّت الصّبـا　　أهاب بِشوقٍ في الضلوعِ مكينِ[3]

ويَهتاجُ منه كلَّ مـا كـان سـاكِنـا　　دُعـاءُ حمامٍ لم تَبِـت بـوُكـون

وكان ٱرتياحِـي مـن بكاءِ حمامـةٍ　　كَـذي شجَـن داويْتَـه بشُجـون

كــأنّ حمامَ الأيـكِ لما تجاوبَـت　　حزينٌ بكى من رحْمـةٍ لِحـزيـنِ

ومن قولنا في المعنى:

ونائِـح في غُصـونِ الأيْـكِ أرّقَني　　ومـا عنِيـت بشيءٍ ظَـلّ يَعنيـهِ

مُطـوّقٌ بخضـابٍ مـا يُــزايلـهُ　　حتى تُفـارقَـه إحْـدى تَـراقيـه

قد بات يَشكو بشجْوٍ ما دَريت بـه　　وبِتُّ أشْكُو بشجْـوٍ ليس يَـدْرِيـه

ومن قولنا فيه:

أناحَت حماماتُ اللّوى أم تَغنَّـتِ　　فأبـدَتْ دواعـي قلبـه مـا أجَنّـت

فدَيْت التي كانـت ولا شيْءَ غيرهـا　　مُنى النفسِ لو تُقضَى لها ما تَمنـت

ومن قولنا:

لقـد سَجعـت في جُنـحِ ليْـل حمامـةٌ　　فأيَّ أسًى هاجَت على الهائمِ الصبِّ[4]

---

(١) العيافة: الظن والحدس.

(٢) الدموع السواجم: التي تسيل.

(٣) الصَّبا: ريح مهبها من مشرق الشمس اذا استوى الليل والنهار.

(٤) الصَّب: المشتاق.

لكِ الويلُ كم هيّجت شجواً بلا جَـوى   وشكْوى بلا شكوىوكَرْباً بلا كرْبِ(١)
وأسكَبْـت دمعـا مـن جُفـونِ مُسهَّـدٍ   وما رقْرَقَتْ منك المدامعُ بـالسَّكْـبِ

وقال ذو الرمة:

رأيـتُ غُـرابـاً نـاعِبـاً فـوقَ بـانـةٍ   من القضْب لم يُنبـتْ لها ورقٌ نَضْـر(٢)
فقلـتُ غُـرابٌ لاغتِـرابٍ وبـانـةٌ   لِبينِ النّـوى هـذا العيـافـةُ والزَّجْـر

قولهم في طيب الحديث

قال عدي بن زيد:

في سماعٍ يَـأذنُ الشيخُ لـه   وحديثٍ مثلِ ماذِيٍ مُشـار(٣)

وقال القطامي:

فهنّ ينبـذْنَ مـن قـولٍ يُصِبنَ بـهِ   مواقعَ الماءِ من ذي الغلةِ الصَّـادِي(٤)

وقال جران العَوْد:

فنِلنا سِقاطاً مـن حـديـث كـأنـهُ   جنَى النَّحْلِ أو أبكارُ كرْمٍ تقطَّفُ

وقال آخر:

وإنـا لَيَجـرِي بيننـا حين نلْتقـي   حديثٌ له وشيٌ كوشيِ المطارِف(٥)

وقال بشار:

وكـأن نَشْـرَ حـديثهـا   قِطَـعُ الريـاض كُسينَ زَهـرا(٦)

وله:

لئـن عشقـتْ أُذني كلامـاً سمعتُـهُ   فقلبي إذاً لا شكّ باللحـظ أعْشَـقُ

---

(١) الجوى: اشتداد الوجد من عشق أو حزن.
(٢) القضب: كل شجرة طالت وبسطت أغصانها.
(٣) الماذيّ: العسل الجيد.
(٤) الصادي: الذي اشتد عطشه.
(٥) المطارف: جمع مطرف: وهو رداء أو ثوب من خز مربع ذو أعلام.
(٦) النّشر: الريح الطيبة.

وكيف تناسِي من كأنّ كلامه ... بأُذْني ولو عرّيتُ قرْط معلّقُ

وقال بشار أيضاً :

وبِكر كنُوّارِ الربيعِ حديثُها ... يَروقُ بوجْهٍ واضِحٍ وقوامِ [1]

وقال آخر :

كأنما عسلٌ رُجْعانُ منطِقِها ... إن كان رَجْعُ كلامٍ يُشْبه العسلا [2]

وقال آخر :

وحديث كأنه زهْرُ الرو ... ضِ وفيه الصَّفْراءُ والحمراءُ

قولهم في الرياض

أنشد أحمد بن جدار للمعلي الطائي :

كأنّ عيونَ الرَّوْض يَذْرفن بالنَّدى ... عيونٌ يُراسلْن الدموعَ على غدْرِ

وقال البحتري :

شقائق يحمِلنَ النَّدى فكأنه ... دُموع التَّصابي في خُدودِ الخرائِد [3]

ومن لؤلؤ كالاقحوانِ مُنضَّدٍ ... على نُكَت مُصْفرّةٍ كالفرائد [4]

وقال أيضاً :

وقد نبَّه النَّيْروُز في غَلَسِ الدُّجى ... أوائلَ وردٍ كنّ بالامس نوَّما

يُفَتِّقُه بردُ النّدى فكأنه ... يَبُثُّ حديثاً كان قبلُ مُكتَّما [5]

ومن شجَرٍ رَدّ الرَّبيعُ لباسَه ... عليها كما نَشَّرْت وشْياً مُنَمْنَما

وقال أعشى بكر :

ما روضة من رياض الحُسنِ مُعْشِبة ... خضراءُ جادَ عليها مُسْبلٌ هَطِلُ [6]

---

(١) النّوار : الزهر. (٢) الرجع : الصدى .

(٣) الخرائد : جمع خريدة : وهي التي لان صوتها وظهر فيه أثر الحياء .

(٤) المنضّد : الذي ضم بعضه الى بعض متّسقا .

(٥) بثّ الحديث : أظهره . والبثّ : أشد الحزن الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثه .

(٦) المسبل : المطر الهاطل .

يُضاحك الشمسَ فيها كوكبٌ شرقٌ   مُـؤزَّر بعميمِ النَّبـتِ مكتهِل ...
... يوما بأطيَبَ منها نشرَ رائحـةٍ   ولا بأحسـنَ منهـا إذ دنـا الاصـلُ

وأنشد ابن أبي الطاهر لنفسه:

فتَقَتْ جيوب الرَّوْض منهـــا ديمة   حلَّـتْ عَـواليهـا صَبـاً وقَبـولُ
ولها عيـونٌ كـالعيـونِ نـواظـرٌ   تبـدو فمنهـا أمْرَةٌ وكحيـلُ[1]

وقال الاخطل:

خلَع الرَّبيعُ على الثَّرى مـن وَشْيـه   حُللا يَظَـلُّ بها الثرى يُتخيَّـلُ
نَور إذا مَرَت الصَّبـا فيـه النـدى   خِلْتَ الزَّبرجدَ بالفَريد يُفَصَّـل[2]
فكـأنها طَـوْراً عُيـونٌ كُحَّـلٌ   وكـأنها طـوْراً عُيـونٌ هُمَّـل

وقال أبو نواس:

يـوْمٌ تَقـاصرَ وآستتـبَّ نعيمـه   في ظـلِّ مُلْتـفِّ الحدائـقِ أخضرَا
وإذا الرِّيـاح تنسَّمَـت في روْضـةٍ   نَثرتْ بـه مسكـا عليـك وعنبَـرا

وأنشد ابن مُسهر لابن أبي زرعة الدمشقي يقول:

وقد لبَستْ زهـرُ الرِّيـاض حُليَّهـا   وجُللتِ الأرضُ الفضا بالزخـارِفِ
لَجيْـنٌ وعِقْيـانٌ ودُرٌّ وجـوهـرٌ   تؤلِّفُه أيدي الربيـعِ اللطـائـف[3]

وأنشد البحتري لنفسه:

قطراتٌ من السحـابِ وروْضٌ   نثَـرتْ وردَهـا عليـه الخدودُ
وكان الحوذانَ الأقحوانَ الغضَّ   نـظْمان: لـؤلـؤٌ وفـريـدُ[4]

وأنشد ابن جدار للمعلّى:

ترى للنـدَى فيـه مجالا كـأنما   نَثَـرْت عليـه لـؤلـؤاً فتبـدّدا

وأنشد ابن الحارثي لنفسه:

---

(١) المرحه: البياض الذي تخالطه غبرة.

(٢) مَرَت: أي اسقطت وأخرجت.

(٣) اللجين: الفضة. والعقيان: ذهب متكاتف في مناجه، خالص مما يختلط به من الرمال والحجارة.

(٤) الحوذان: نبت يرتفع قدر الذراع، له زهرة حمراء في أصلها صقرة، وورقته مدورة.

وما روضةٌ عُلْويّةٌ أسديّةٌ ... مُنمنَمةُ زهراءُ ذات ثَرى جَعْدِ
سقاها الندى في عقْبِ جنْح من الدُّجَى ... فنُوّارُها يهتَزُّ بالكوكب السعدِ[1]
بأحسنَ من حرّ تَضمّن حاجةً ... لِحُرٍّ فأوْفى بالنجاحِ مع الوعدِ

وأنشد محمد بن عمار للحسن بن وهب، يقول:

طلَع الربيعُ على الرياض فبُشِّرتْ ... نورُ الرياض بجِدّةٍ وشباب
وغَدا السِّحابُ مكللاً جوَّ الثرى ... أذيالَ أسحَمَ حالِكِ الجلبابِ[2]
فترى السماءَ أحدَّ ربابُها ... فكأنما التَحفتْ جَناحَ غُرابِ[3]
وترى الغُصونَ إذا الرياحُ تناوحَت ... مُلتفَّةً كتَعانُقِ الأحبابِ

وقال حبيب بن أوس الطائي:

الروْضُ ما بين مُغْبوقٍ ومُصطبِحِ ... من ريق مكنفلاتٍ في الثرى دُلُحِ[4]
وطُفٍ إذا وكَفَت في روضةٍ طفِقتْ ... عيونُ نوّارِها تَبكي من الفرَحِ[5]

وأنشد البحتري في دمشق:

إذا أردْتَ ملأتَ العيْنَ من بلدٍ ... مُستحسنٍ وزمانٍ يُشبه البلدا
يُمسي السحابُ على أجبالِها فِرَقاً ... ويُصبح النَّبْتُ في صحْرائها بَددا
فلستَ تُبصر إلاّ واكِفاً خَضِلا ... أو يانعاً خضِراً أو طائراً غَرِد[6]
كأنما القَيْظُ ولّى بعد جَيئتِه ... أوِ الربيعُ دنا من بَعد ما بَعُدا

وأنشد ابن أبي الطاهر لأشجع:

من الكنائس والارواح مُطَّردٌ ... للعين يلعبُ فيه الطرْفُ والبصَرُ[7]

---

(١) النوّار: الزهر. (٢) أسحم: أسود.
(٣) الرباب: العهد والميثاق.
(٤) دلح: جمع دلوح، وهي السحابة المثقلة بالماء.
(٥) وطف: دائمة السح. ووكفت: سالت.
(٦) الواكف: المطر المنهمل.
(٧) الكنائس: جمع كنيسة، وهي شبه هودج، يغرز في المحمل أو في الرحل قضبان ويلقى عليه ثوب يستظل به الراكب.

في رُقعةٍ من رُقاع الارض يَعمُرُها ... قومٌ على أبوَيْهِم أجمعتْ مُضَرُ

وأنشد على بن الجهم لعلّي بن الخليل:

وروضة في ظِلال دَسْكَرةٍ ... جداولُ الماءِ في جوانبها[1]

تستَنُّ في روضة منوَّرةٍ ... يُغرِّد الطيْرُ في مَشارِبها

كأنّ فيها الحُليَّ والحُلَلَ اليَمْـنة تهدي إلى مَرازِبها[2]

وقال ابراهيم بن العباس الكاتب:

تأمّلْ سماءَ أظلّت عليك ... فيها مَصابيحُها تزهِرُ

وأرضاً تُقابلُها بالعرو ... س والمرج بينهما جعفرُ

ومَسْحَبَ نور غَداةَ الربيعِ ... أنفاسُه المسكُ والعنبر

خلالَ شقائقه أصفرُ ... وأضعافَ أصفرِه أحمر[3]

وللماء مُطرَّد بينه ... يُصفِّق باديه المصدرُ

يُشارفه البَر من جانبٍ ... ومن جانبٍ بَحرهُ الاخضر

مجالُ وحوش ومَرْقى سِفين ... فيا عَرْفَ لهو ويا منظرُ

ويا حُسنَ دنيا ويا عز مُلْكٍ ... يسوسُها السائسُ الاكبرُ

وقال ابن ابي عُيينة في بستانه:

يُذكِّرني الفردوْسَ طوْراً فأنثني ... وطوْراً يُواتيني إلى القَصْف والفَتْكِ[4]

بغرْسٍ كأبكارِ العذارى وتُربةٍ ... كأنّ ثَراها ماءُ وردٍ على مِسْك

كأنّ قصورَ الارضِ ينظرن حوْله ... إلى ملِك أوفى على مِنْبر المُلْك

يُدلُّ عليها مُستطيلا بحسْنِه ... ويَضحكُ منها وهي مُطرقة تبكي

وقال فيه:

يا جنة فاقتِ الجِنانَ فما ... تَبلُغُها قيمة ولا ثمنُ

---

(١) دسكرة: بناء القصر حوله بيوت للأعاجم فيها الشراب والملاهي.

(٢) اليمنة من أسماء اليمن.

(٣) الشقائق: الشقارى: شقائق النعمان، وهو نبات أحمر الزهر مبقع بنقط سود وله أنواع وضروب.

(٤) الفردوس: البستان الجامع لكل ما يكون في البساتين.

أَلِفْتُهـا فـاتخذتُهـا وطنـاً ... لأن قلبي لأهلِهـا وطـن
زوّجَ حِيتـانها الضبـاب بها ... فهـذه كَنَّـةٌ وذا خَتَـن(١)
فـانظر وفكّـر فيما تمُرّ بـه ... إنّ الاريـبَ المفكّـرُ الفطِـن
مـن سُفُـنٍ كـالنعَام مُقبِلةٍ ... ومـن نَعـامٍ كـأنها سُفُـنُ

وقال الخليل بن أحمد:

يا صاحبَ القصرِ نِعم القَصر والوادي ... بمنـزِل حـاضِـر إنْ شئـت أو بـادِي
تُـرْفِـي بـه السُّفْـنُ والظّلمانُ واقفـةٌ ... والنُّـونُ والضَّـبُّ والملاحُ والحادي(٢)

وقال اسماعيل بن ابراهيم الحمدوني:

بـروضـةٍ صَبَغـت أيـدي الربيـعِ لها ... بـرودَهـا وكَسَتهـا وشْيَهـا عـدَنُ
عاجتْ عليهـا مطـايـا الغيْـثُ مُسبلـةً ... لهنّ في ضَحِكـاتٍ أدمُـعٌ هُتُـن(٣)
كـأنما البيْـنُ يُبكيهـا ويُضْحِكُهـا ... وصلٌ حبَاها بـه مِـن بعـده سَكَـن(٤)
فـولّـدت صُفـراً أثـوابُهـا خضرٌ ... أحشـاؤهُـنّ لاحشـاءِ النـدى وطـنُ
من كلِّ عسجدةٍ في خِدْرِها اكتَتَمـتْ ... عذراءَ في بطنِهـا اليـاقـوتُ مُكْتمِـن

وأنشد عمرو بن بحر الجاحظ:

أيـن إخـوانُنـا على السرّاءِ ... أين أهـلُ القبـاب والدَّهْناءِ(٥)
جاوَرونا والأرضُ ملْبسـةٌ نَـوْ ... رَ الاقاحِي تُجادُ بالأنواءِ(٦)
كلَّ يـوم بـأقحُـوان جـديـدٍ ... تَضحك الأرضُ من بُكاءِ السماء

---

(١) الختن: كل من كان من قبل المرأة كابيها وأخيها. والكنّه: امرأة الابن أو الأخ.

(٢) النون: الحوت. والضبّ: حيوان من جنس الزواحف، غليظ الجسم خشنه، وله ذنب عريض حرش أعقد. والحادي: الذي يسوق الأبل.

(٣) الهُتُن: جمع الهتون: وهو الكثير المطر.

(٤) البين: الفُرقة.

(٥) الدهناء: الفلاة.

(٦) الأنواء: جمع النوى: البعد، والناحية يذهب اليها.

ومن قولنا في هذا المعنى:

وروضة عَقَدت أيـدي الربيـعِ بها نـوراً بنـور وتَـزْويجاً بتـزويـجِ
بمُلْقـح مـن سَـواريها ومُلقِحـةٍ وناتـج مِـن غَـوادِيها ومَنتـوجِ (١)
تـوشحَـت بمَلاةٍ غير مُلحَمـةٍ مـن نَورها ورداءٍ غير منسـوجِ
فألبستْ حُلـلَ الموْشِـيِّ زهْـرتَهـا وجَلَّلتْهـا بـأنماط الديـابيـجِ (٢)

ومن قولنا:

ومَـوْشيَّـة يهدي إليـك نسيمُهـا على مفرقِ الارواحِ مسكـا وعنبرا
سدَاوتها من ناصعِ اللـونِ أبيـض ولُحْمتُها من فاقِع اللون أصفَرا (٣)
يُلاحظ لحْظـاً مـن عيـونٍ كـأنها فصوصٌ من الياقوتِ كلِّمْن جوْهرا

ومثله قولنا:

وما روضةٌ بالحَزْن حاك لها النـدى بُروداً من الموشِّي حُمْـر الشَّقـائـق
يُقيم الدُّجـى أعنـاقَهـا، ويُميلُهـا شُعاعُ الضُّحى المستَنُّ في كلِّ شـارق
إذا ضاحكَتْها الشمسُ تبكي بأعيُـن مُكَحَّالة الاجفانِ صُفْـر الحمالـق (٤)
حكَتْ أرضُها لـونَ السماء وزَانَهـا نجوم كـأمثـال النجـومِ الخوافِـق
... بأطيبَ نشْراً من خلائقـه التي لها خَضعتْ في الحُسْن زهرُ الخلائق

★★★

(١) الغوادي: جمع الغادية: السحابة تنشأ فتمطر غدوة.

(٢) الديابيج: جمع الديباج: ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير.

(٣) السداوة: السدى: جمع سداة: وهي من الثوب خلاف اللحمة.

(٤) الحمالق: جمع حملاق: وهو من العين ما يسوده الكحل من باطن أجفانها.

كتابُ الجَوهَرة الثّانيَة في أعَاريضِ الشِعرِ وعِلَلِ القَوافي

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه.

ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في أعاريضه وعلله، وما يحسن ويقبح من زحافه، وما ينفك من الدوائر الخمس من الشطور التي التي قالت عليها العرب والتي لم تقل، وتلخيص جميع ذلك بمنثور من الكلام يقرّب معناه من الفهم، ومنظوم من الشعر يسهِّل حفظه على الرواة، فأكملت جميع هذه العروض في هذه الكتاب ـ الذي هو جزءان، فجزء للفرش وجزء للمِثال ـ مختصراً مبيَّناً مفسَّراً؛ فاختصرت للفرش أرجوزة، وجمعتُ فيها كلَّ ما يدخل العروضَ ويجوز في حشو الشعر من الزحاف، وبيَّنت الأسباب والأوتاد، والتعاقب والتراقب، والخرومَ والزيادة على الأجزاء، وفكّ الدوائر ـ في هذا الجزء؛ واختصرت المثال في الجزء الثاني في ثلاث وستين قطعة، على ثلاثة وستين ضرباً من ضروب العروض، وجعلت المقطّعات رقيقة غزلة، ليسهل حفظها على ألسنة الرواة؛ وضمَّنت في آخر كل مقطعة منها بيتاً قديماً متصلاً بها وداخلاً في معناها من الأبيات التي استشهد بها الخليل في عروضه، لتقوم به الحجة لمن روى هذه المقطعات واحتج بها.

مختصر الفرش

الساكن والمتحرك:

اعلم أنّ أوّل ما ينبغي لصاحب العَروض أن يبتديء به، معرفةُ الساكن

والمتحرّك؛ فإنّ الكلام كله لا يعدو أن يكون ساكناً أو متحرّكاً .

وآعلم أنّ كل ألف خفيفة، أو ألف ولام خفيفتين لا يظهران على اللسان ويثبتان في الكتابة، فإنهما يسقطان في العروض وفي تقطيع الشعر: نحو ألف « قال آبنك » أو ألف ولام نحو « قال آلرجل » وإنما يعدّ في العروض ما ظهر على اللسان .

وآعلم أنّ كل حرف مشدّد فإنه يُعدّ في العروض حرفين: أولهما ساكن، والثاني متحرّك: نحو ميم محمَّد، ولام سلاّم .

وآعلم أنّ التنوين كله يُعدّ في العَروض نوناً ساكنة ليست من أصل الكلمة .

باب الأسباب والأوتاد

آعلم أنّ مدار الشعر وفواصل العروض على ثمانية أجزاء، وهي:
فاعلن، مفعولن، مفاعيلن، فاعلاتن، مستفعلن، مُفاعَلَتنْ، متفاعلن، مفعولات .
وإنما أُلِّفت هذه الأجزاء من الأسباب والأوتاد .

فالسبب سببان: خفيف، وثقيل: فالسبب الخفيف حرفان: متحرّك، وساكن، مثل: من، وعَن، وما أشبههما؛ والسبب الثقيل حرفان متحرّكان، مثل: بكَ ولكَ، وما أشبههما .

والوتد وتدان: مفروق، ومجموع؛ فالوتد المجموع ثلاثة أحرف: متحرّكان وساكن، مثل: علَى، وإلَى، وما أشبههما؛ والوتد المفروق ثلاثة أحرف: ساكن بين متحرّكين، مثل: أيْنَ، وكيْف، وما أشبههما؛ وإنما قيل للسبب سبب؛ لأنه يضطرب، فيثبت مرة ويسقط أخرى؛ وإنما قيل للوتد وتد؛ لأنه يثبت فلا يزول .

باب الزحاف

آعلم أنّ الزِّحاف زحافان: فزحاف يسقط ثاني السبب الخفيف، وزحاف يسكن ثاني السبب الثقيل، وربما أسقَطه .

ولا يدخل الزحاف في شيء من الأوتاد، وإنما يدخل في الأسباب خاصة؛ وإنما يدخل في ثاني الجزء، ورابعه، وخامسه، وسابعه؛ فإن أردت أن تعرف موضع الزحاف من الجزء، فانظر إلى جزء من الأجزاء الثمانية التي سمَّيتُ لك؛ فإن رأيت الوتد في أول الجزء، فإنما يزحف خامسه وسابعه؛ وإن كان الوتد في آخر الجزء، فإنما يزحف ثانيه ورابعه؛ وإن كان الوتد في وسط الجزء، فإنما يزحف ثانيه وسابعه.

فللزحاف الذي يدخل في ثاني الجزء ثلاثة أسماء: الخبن، والإضمار، والوقص، فالمخبون: ما ذهب ثانيه، والمضمر: ما سكن ثانيه المتحرّك، والموقوص؛ ما ذهب ثانيه المتحرّك.

وللزحاف الذي يدخل في رابع الجزء اسم واحد: الطيّ فالمطويّ هو ما ذهب رابعه الساكن.

وللزحاف الذي يدخل في الخامس منها ثلاثة أسماء: القبض؛ والعصب، والعقل. فالمقبوض: ما ذهب خامسه الساكن، والمعصوب: ما سكن خامسه المتحرّك، والمعقول: ما ذهب خامسه المتحرّك.

[وللزحاف الذي يدخل] السابع اسم واحد: الكفّ، فالمكفوف، هو ما ذهب سابعه الساكن.

باب الزحاف المزدوج

المخبول: هو ما ذهب ثانيه ورابعه الساكنان.

والمخزول: هو ما سكن ثانيه وذهب رابعه الساكن.

والمنقوص: هو ما سكن خامسه وذهب سابعه الساكن.

والمشكول: هو ما ذهب ثانيه وسابعه الساكنان.

علل الأعاريض والضروب

المحذوف: هو ما ذهب من آخر الجزء سبب خفيف.

والمقطوف: هو ما ذهب من آخر الجزء سبب خفيف وسكن آخر ما بقي.

والمقصور: ما ذهب آخر سواكِنه وسكن آخر متحرّكاته من الجزء الذي في آخره سبب.

والمقطوع: ما ذهب أواخر سواكنه وسكن آخر متحرّكاته من الجزء الذي في آخره وتد.

والأبتر: ما حُذف ثم قطع، فكان فاعلْ من فاعلاتن وفَعْ في فعولن

والأحَذ: ما ذهب من آخر الجزء وتد مجموع.

والأصلم: ما ذهب من آخر الجزء وتد مفروق.

والموقوف: ما سكن سابعه المتحرّك.

والمكشوف: ما ذهب سابعه المتحرّك.

والمجزوء: ما ذهب من آخر الصدر جزء ومن آخر العجز جزء.

والمشطور: ما ذهب شطره.

والمنهوك: ما ذهب منه أربعة أجزاء وبقى جزآن.

الزيادات على الأجزاء

والزيادة على الأجزاء ثلاثة أشياء: المذال، وهو ما زاد على اعتدال جزئه حرف ساكن مما يكون في آخره وتد.

والمسبغ: ما زاد على اعتداله حرف ساكن مما يكون في آخره سبب.

والمرفل: ما زاد على اعتداله حرفان: متحرك وساكن، مما يكون في آخره وتد.

واعلم أن كل جزء من أجزاء العروض يكون مخالفاً لأجزاء حشوه بزحاف أو سلامة فهو المعتل؛ وما كان معتلاً فإنما هو ثلاثة أشياء: ابتداء، وفصل؛ وغاية؛ وإن

الاعتماد ليس علة؛ لأنهُ غير مخالف لأجزاء الحشو كلها، وإنما خالفها في الحسن والقبح وليس اختلاف الحسن والقبح علة، ونحن نجد الاعتماد في الشعر كثيراً؛ من ذلك البيت الذي جاء به الخليل:

أقيموا بني النُّعمانِ عنا صُدُورَكمْ   وإلا تقيمُوا صاغرينَ الرؤوسا[1]

ومنه قول امريء القيس:

أعنِّي على بَرْق ـ أراهُ ـ وميض   يُضِيءُ حَبِيًّا في شماريخَ بيضِ[2]
ويخرُجُ منه لامِعاتٌ كأنها   أكُفٌّ تَلقّى الفوْزَ عند المفيض[3]

وإنما زعم الخليل أن المعتل ما كان مخالفاً لأجزاء حشوه بزحاف أو سلامة ولم يقل بحسن أو قبح؛ أر ترى أن القبض في مفاعيلن في الطويل حسن، والكف فيه قبيح؛ والقبض في مفاعيلن في الهزج قبيح، والكف فيه حسن؛ والاعتماد في المتقارب ـ على ضد ما هو في الطويل السالم ـ فيه حُسن، والقبض فيه قبيح؟

فإذا اعتل أول البيت سمي ابتداء؛ وإذا اعتل وسطه وهو العروض سمي فصلاً، وإذا اعتل الطرف ـ وهو في القافية ـ سمي غاية؛ وإذا لم يعتل أوله ولا وسطه ولا آخره سمي حشواً كله.

وما كان من الأنصاف مستوفيا لدائرته وآخر جزء منه بمنزلة الحشو من الآخر فهو التام؛ وما كان من الأنصاف لم يذهب به الانتقاص فهو مجزوء، وما كان من الأنصاف مقفًّى فهو مصرَّع؛ فإن كانت الكلمة كلها كذلك فهو مشطور؛ فإذا لم يبق منه إلا جزآن فهو المنهوك، وإذا اختلفت القوافي واختلطت وكانت حيزاً من كلمة واحدة فهو المخمَّس؛ وإذا كانت أنصاف على قواف يجمعها قافية واحدة ثم تعاد لمثل ذلك حتى تنقضي القصيدة، فهو المسمَّط.

---

(١) الصاغر: الذي رضي بالذل والضعة.

(٢) الشماريخ: جمع الشمراخ: العثكال عليه بسر، والعنقود عليه عنب، والغصن الدقيق الرخص ينبت في أعلى الغصن الغليظ.

(٣) المقيض: الذي يجيل القداح عند القمار.

باب الخرم

اعلم أن الخرم لا يدخل إلا في كل جزء أوله وتد، وذلك ثلاثة أجزاء: فعولن، مفاعلَتن، مفاعيلن؛ وهو سقوط حركة من أول الجزء؛ وإنما منعه أن يدخل في السبب، أنك لو أسقطت من السبب حركةً بقي ساكنٌ، ولا يُبدأ بساكن أبدا.

ولا يدخل الخرم إلا في أول البيت، فإذا أدخل الخرم «فعولن» قيل له أثلم؛ فإذا دخل القبض مع الخرم قيل له أثرم؛ فإذا دخل الخرم مفاعلَتن قيل له أعضب؛ فإذا دخله العصب مع الخرم قيل له أقصم؛ فإذا دخل الخرم مفاعيلن قيل له أخرم؛ فإذا دخله الكف مع الخرم قيل له أخرب؛ فإذا دخله القبض مع الخرم قيل له أشتر؛ وكل ما لم يدخله الخرم فهو الموفور.

باب التعاقب والترقب

اعلم أن التعاقب يدخل بين السببين المتقابلين في حشو الشعر حيثما كانا، ولا يكونان مع جميع العروض إلا في أربعة أشطار: في المديد، والرمل، والخفيف، والمجتث؛ وقد بينا جميع ذلك في موضعه؛ فما عاقبه ما قبله فهو صدر، وما عاقبه ما بعده فهو عجز، وما عاقبه ما قبله وما بعده فهو طرفان، وما لم يعاقبه ما قبله ولا ما بعده فهو بريء.

والتراقب بين السببين المتقابلين من فاصلة واحدة؛ ولا يدخل التراقب من جميع العروض إلا في المضارع، والمقتضب؛ وقد فسَّرناه هنالك.

وقد نظمنا جميع ما ذكرناه من هذه الأبواب في أرجوزة، ليسهل حفظها على المتعلم؛ إذ كان حفظ المنظوم أسهلَ من حفظ المنثور؛ وقد ذكرنا فيها كل الدوائر الخمس وما ينفك من كل دائرة من عدد الشطور التي قالت عليها العرب والتي لم تقل عليها وموضع الزحاف منها.

واعلم أن الدائرة الأولى مؤلفة من أربعة أجزاء: سباعيين مع خماسيّين وهي:

فعولن، مفاعيلن، فعولن، مفاعيلن.

والدائرة الثانية من ثلاثة أجزاء سباعية، وهي:

مفاعلَتن، مفاعلتن، مفاعلتن.

والدائرة الثالثة مؤلفة من ثلاثة أجزاء سباعية، وهي:

مفاعيلن، مفاعيلن، مفاعيلن.

والدائرة الرابعة مؤلفة من ثلاثة أجزاء سباعية، وهي:

مستفعلن، مفعولاتُ، مستفعلن.

والدائرة الخامسة مؤلفة من أربعة أجزاء خماسية وهي:

فعولن، فعولن، فعولن، فعولن.

واعلم أن كل دائرة من هذه الدوائر ينفك من رأس كل سبب وكلِّ وتد فيها شطر؛ وقد بيّنا جميع ذلك في الدوائر، وأسماءَ الشطور التي تنفكُّ عنها.

وهذه أرجوزة العروض:

بـــالله نَبْـــدا وبـــه التَّمامُ ... وبـــاسْمِـــه يُفتتَـــحُ الكلامُ
يا طـالـبَ العلمِ هـو المنهـاجُ ... قد كثُرتْ من دُونِه الفِجـاجُ[1]
وكـــلُّ علْـــم فلـــهُ فُنـــون ... وكـــلُّ فـــنٍّ فلـــهُ عُيـــون
أوْلُهـــا جـــوامـــعُ البيـــانِ ... وأصلُهـا معـــرفـــة اللِّســـانِ
فـإنّ في المجازِ والتّـأويـلِ ... ضلّـتْ أسـاطيرُ ذوي العُقـول
حتى إذا عرَفْـتَ تِلـك الأبنيهْ ... واحـدَهـا وجَمعهـا والتّثنيـهْ
طلبتَ مـا شئـتَ مـن العلـومِ ... مـا بينَ منثُـورٍ إلى منظـوم
فـدَاوِ بـالإعـرابِ والعَـرُوض ... داءَكَ في الإمْلاءِ والقَريـض[2]

(١) الفجاج: جمع الفج: الطريق الواسع البعيد.

(٢) القريض: نظم الشعر.

كِلاهما طِبٌّ لِداء الشِّعرِ ... واللَّفْظِ من لَحْنٍ به وكَسْرِ
ما فلْسفَ البطْليسُ جالِينوسُ ... وصاحبُ القانونِ بَطليْمُوسُ
ولا الذي يَدعونَهُ بِهرمسِ ... وصاحبُ الأرْكنْد والأقليدسِ
فلسفةَ الخليلِ في العَروضِ ... وفي صحيحِ الشِّعرِ والمريضِ
وقد نظَرْتُ فيه فاختَصرْتُ ... إلى نظامٍ منه قد أحْكمتُ
ملخصٍ مختصَرٍ بديعِ ... والبعض قد يَكفِي عنِ الجميعِ

اختصار الفرش

هذا اخْتصارُ الفَرش من مَقالي ... وبعدَهُ أقولُ في المثالِ
أوّلُهُ واللهَ أستعينُ ... أن يُعرفَ التحريكَ والسكونُ
من كلِّ ما يَبدُو على اللسانِ ... لا كل ما تخطُّهُ اليدانِ
ويَظهرُ التضعيفُ في الثَّقيلِ ... تعدُّهُ حرفيْنِ في التفصيلِ
مُسكناً وبَعدهُ مُحرّكا ... كنونِ كُنّا وكرّاء سَرَّكا

باب الأسباب والأوتاد

وبَعد ذا الأسبابُ والأوتادُ ... فإنها لقولِنا عِمادُ
فالسببُ الخفيفُ إذ يُعدُّ ... مُحرّكٌ وساكنٌ لا يعدُو
والسبب الثقيلُ في التبْيين ... حركتان غير ذي تَنْوين
والوتدُ المفروقُ والمجموعِ ... كلاهما في حَشْوِهِ ممنوع
وإنما أعتلَّ من الأجزاء ... في الفصل والغائي والابتداء
فالوتدُ المجموع منها فافهمْ ... حركتان قبل حَرْفٍ قد سكَنْ
والوتد المفروقُ من هذين ... مُسكَّنٌ بين مُحرَّكيْن
فهذه الأوتادُ والأسبابُ ... لها ثباتٌ ولها ذَهابُ
وإنما عَروضُ كلِّ قافيَهْ ... جارٍ على أجزائِه الثمانيَهْ
وهاكَها بينةً مصوَّرهْ ... لكلِّ من عاينَها، مُفسَّره

الفواصل

فاعلن، فعولن، مستفعلن، فاعلاتن، مفاعيلن، مفاعلَتن، متفاعلن، مفعولات:

هــذِي التي بها يقـول المُنشِــد   في كلِّ ما يـرجـوه أو يُقصِّـد
كـلُّ عَـروضٍ يَعتَـزي إليهـا   وإنما مـــداره عليهــــا
منهـا خُماسيَّـــان في الهِجــاءِ   ووغيرُهــا مسَبَّـــعُ البِنـــاءِ
يدخُلها النُّقصـانُ بـالـزِّحـافِ   في الحشوِ والعروض والقـوافي
وإنما يـدخُــلُّ في الأسبــاب   لأنها تُعــرَف بــاضطــراب

باب الزحاف

فكـلُّ جـزءٍ زالَ منـه الثـــاني   من كلِّ ما يبـدو على اللســان
وكان حرفـاً شـأنـه السُّكـونُ   فـإنـه عنـدي اسمُـه مخبُــونُ
وإن وجدتَ الثانِيَ المنْقـوصـا   مُحـرَّكـا سميتَـه المـوقـوصـا
وإن يكـــن محرّكـــا فسُكِّنــا   فـذلـك المضمرُ حقّاً بيِّنــا
والرابـعُ السـاكـنُ إذ يــزولُ   فـذلـك المَطْوِيُّ لا يَحــولُ
وإن يُـزَلْ خـامسُـه المسَكَّـــن   فذلك المقبـوضُ فهـو يَحسُـن
وإن يكـن هـذا الذي يــزول   محرَّكــاً فــإنــه المعقـــولُ
وإن يكـــن محرّكــاً سكنْتَــه   فسَمِّـه المعْصـوبَ إن سمَّيْتَــه
وإن أَزلْـتَ سـابـعَ الحروفِ   سميتَـه إذ ذاك بـالمكفــوف

باب الزحاف

الذي يكون في موضعين من الجزء

كل زِحـافٍ كـان في حـرفين   حـــل مـــن الجزء بموضعَين
فـإنـه يُجْحِـف بــالأجــزاء   وهْـو يسمَّـــى أقبــح الأسماء
فكـلُّ مـا سُكِّـن منـه الثــاني   وأسقِـط الرابــع في اللســـانِ

فذلـكَ المخـزولُ وهُـو يقْبُـح　　فحيثُما كـان فليس يَصلُـح
وإن يُـزَلْ رابعُـه والثـاني　　وذا وذا في الجزء سـاكِنـان
فإنـه عنـدي اسمُـه المخبـولُ　　يقصِّـرُ الجزءَ الذي يطـول
وكل جزء في الكتـابِ يُـدرَك　　يَسكنُ منه الخامس المحـرّك..
..وأسقِطِ السابع وهْو يسكـنُ　　فذلك المنقـوصُ ليس يَحسُـن
وسـابعُ الجزءِ وثـانِيـه إذا　　كـان يُعَـدُّ سـاكنـاً ذاك وذا
فـأُسقِطـا بـأقبـحِ الزِّحـافِ　　سُمِّـيَ مشكـولاً بلا اختِلافِ
هذا الزحافُ لا سواه فاسمـع　　يُطْلَـقُ في الأجـزاءِ لم يمتنِـع

باب العلل

والعِلـلُ التي تجوزُ أجمع　　وليس في الحشْوِ لهنّ موْضِـع..
.. ثلاثةٌ، تُـدْعـى بـالابتـداءِ　　والفصلِ والغايـة في الأجـزاءِ
والاعتمادُ خـارجٌ عـن شكلِهـا　　وفعلُـه مخالـفٌ لفعلِهـا
لأنهم قـد تَـركـوا التِـزامَـهْ　　وجاز فيـه القبـضُ والسَّلامـهْ
ومثلُ ذاك جـائـز في الحشْـوِ　　فنْحـوُ هـذا غير ذاك النحـوِ
وكـلُّ مُعتـلٍّ فغيرُ جـائـزِ　　في الحشوِ والقصيدِ والأراجـزِ
وإنما أجـازَه الخليـلُ　　مُجـازفـاً إذ خـانـه الدَّليـلُ
وكـلُّ حـيٍّ مـن بني حـوّاءِ　　فغيرُ معصـومٍ مـن الخطَـاءِ
فـأوّل البيـتِ إذا مـا اعتلاَّ　　سمَّيْتَـه بـالابتـداءِ كُلاَّ
وغاية الضَّـرب تُسمَّـى غـايـهْ　　وليس في الحشـوِ لها حكـايـهْ
وكل ما يدخُـلُ في العَـروضِ　　مـن علـةٍ تجوزُ في القـريـض
فهْي تسمَّى الفصلَ عنـد ذاكـا　　وقـلَّ مَـن يَعـرِفُـه هُنـاكـا!

باب الخرم

والخَرْمُ في أوائِـلِ الأبيـاتِ　　تُعـرَف بـالأسماءِ والصِّفـاتِ

نُقْصانُ حرفٍ من أوائِل العَـدد … في كلِّ ما شَطْرٍ يُفَكُّ من وتَـدْ
خمسةُ أشطـارٍ مـن الشُّطـورِ … يُخـرَم منهـا أوّل الصُّـدور:
منهـا الطـويـل أوّلُ الدّوائـر … وأطـول البنـاء عنـد الشّاعـرِ
يَـدخلُـه الخرْمُ فيُـدْعـى أثلما … فإنْ تلاه القبض سُمِّي أثـرمـا
والوافـر الذي مَـدارُ الثـانيَـهْ … عليـه، قـد تَعيـهِ أُذْنٌ واعيـهْ
يَـدخلُـه الخرمُ في الابتـداءِ … في أوّل الجزءِ مـن الأجـزاءِ
وهو يُسمى أعْضَباً، وكـلُّ مـا … ضُمَّ إليه العَصْبُ سمِّـي أَقْصَما
وإن يكـن أَعْصَبَ ثم يُعقَـلُ … فـذلـك الأجَـمُّ ليس يُجهـلُ
والهزَج الذي هـو السِّـوار … عليـه للثـالثـةِ المدارُ
يدخُله الخَرْمَ فيُدعَى أخْـرَمـا … وهـو قبيـح فـاعلَمـنْ وافَهما
حتى إذا ما كُـفَّ بعـد الخَرْمِ … سمَّيتَـه أخْـرَبَ إذ تُسمِّـي
والأشتَـرُ المُهجِّـن العَـروضـا … ما كـان منـه آخِـرٌ مقبـوضـا
هـذا وفي الرابعـة المضـارعُ … يَدخـل فيـه الخرْمُ لا يُـدافـعُ
كمثْل ما يَدخل في شطـر الهزَجْ … وهو يسمَّى باسمـه بلا حَـرجْ
ولا يجوز الخرْمُ فيـه وحـدَهُ … إلا بقبـضٍ أو بكـف بعـدهُ
لعِلَّـةِ التراقُـب المذكـورِ … خُصَّ بـه مـن أجمعِ الشُّطـورِ
والمُتقـارب الذي في الآخِـرِ … تحلـو بـه خـامسـة الدوائـرِ
يَدخلـه مـا يَـدخـل الطـويلا … مـن خـرْمـه وليس مُستحيلا
هـذا جميـع الخرم لا سـواهُ … وهـو قبيـح عنـد مَـن سمَّـاهُ
يَـدخـل في أوائـل الأشعـارِ … ما قيل في ذي الخمسة الأشطـارِ
لأن في أوّل كـلِّ شطـرِ … حـركتين في ابتـداءِ الصَّـدْر
وإنما ينفـكُّ في أوتـادِ … فلم يَضِرْهـا الخرم في الكهادِ
لقـوّة الأوتـاد في أجـزائِهـا … وأنها تَبْـرَأُ مـن أدوائِهـا
سـالمةٌ مـن أجمعِ الزِّحـافِ … في كـلِّ مجزوءٍ وكـل وافي

والجزءُ ما لم تَرَ فيه خَرْما فإنه الموفورُ قد يُسمَّى

باب علل الأعاريض والضروب

والعللُ المسمَّيات اللاتي تعرَف بالفصولِ والغاياتِ
تَدخل في الضَّرب وفي العَروضِ وليس في الحشْوِ من القريضِ
منها الذي يُعرَف بالمحذوفِ وهو سقوطُ السبب الخفيفِ
في آخر الجزء الذي في الضرْب أو في العَروض غير قولٍ كذِبِ
ومثله المعروفُ بالمقطوفِ لو بسكون آخر الحروفِ
وكلِّ جزء في الضروب كائن أُسقِطَ منه آخرُ السَّواكن
وسَكِّن الآخرَ من باقيهِ مما يُجيزون الزِّحاف فيهِ
فذلِك المقصورُ حين يوصَفُ وإن يكن آخرَه لا يزحفُ...
من وتَدٍ يكون حين لا سببْ فذلك المقطوعُ حين ينتسبْ
وكلُّ ما يُحذفُ ثم يُقطَعُ فذلك الأبتَرُ وهو أشْنَعُ
وإن يُزَلْ من آخرِ الجزء وتَدْ إن كان مجموعا فذلك الأحدّ
أو كان مفروقا فذاك الأصلمُ كلاهما للجزء حقّاً صيْلمُ
وإن يُسكَّن سابعُ الحروفِ فإنه يُعرَف بالموقوفِ
وإن يكن مُحرَّكا فأذهِبا فذلك المكشوفُ حقّاً مُوجَبا
وبعده التشعيثُ في الخفيف في ضربه السالمِ لا المحذوف
يُقطَعُ منه الوتَدُ الموسّطُ وكلُّ شيء بعده لا يَسقطُ

باب التعاقب والتراقب

وبعذ ذا تعاقُب الجزءَين في السببيْن المتقابليْنِ
لا يسقُطان جملة في الشعرِ فإنّ ذاك من أشدّ الكسرِ
ويَثبُتان أيّما ثَباتِ وذاك من سلامة الأبياتِ
وإن ينلْ يعضَها إزالهْ عاقبَه الآخرُ لا محالهْ
فكل ما عاقَبه ما قبلهُ سميَ صدْراً فافهَمنّ أصلهُ

وكـلُّ مـا عـاقَبـه مـا بعـدهُ فهـو يسمَّـى عَجُـزاً فعُـدَّهُ
وإن يكـن هـذا وذا مُعـاقِبـا فهـو يسمَّـى طـرَفيْـن واجبـا
يدخل في الميـديـد والخفيـفِ والرَّمَـل المجزوء والمحـذوفِ
ويَدخل المجتث أيضاً أجْمعـهْ ولا يكون في سوى ذي الأربعهْ
والجزءُ إذ يخلو مـن التعـاقـبِ فهو بَريءٌ غير قـول الكـاذبِ
وهكـذا إن قستَـه التعـاقـبُ وليس مثـل ذلـك التراقـب
لانـه لم يـأْتِ مـن جـزءَيـن في السببيْـن المتجـاوريْـنِ
لكنـه جـاءَ بجزءٍ واحـدِ في أول الصدرِ مـن القصـائـدِ
والسبَبـان غيرُ مـزحـوفيْـنِ في جـزئِـه وغير سـالميْـنِ
إن زال هذا كـان ذا مكـانـهْ فاسمعْ مقالي وآفهَمـنْ بيـانـهْ
فهكـذا التراقـبُ الموصـوفُ وكلـه في شطْـره معـروف
يدخلُ أولّ المضـارعِ السبـبْ وبعده يدخلُ صدْرَ المقتَضـبْ

الزيادات على الاجزاء

ثم الزيـادات على الاجـزاء مـوجـودةٌ تَعـرفُ بالأسماءِ
وإنما تكـون في الغـايـاتِ تُـزادُ في أواخِـرِ الابيـاتِ
وكلّهـا في شطـره مـوجـودُ منها المُرفَّـلُ الذي يـزيـد...
.. حرفيْن في الجزء على اعتدالهْ محرّكـا وسـاكِنـاً في حـالِـهْ
وذاك فيما لا يجوزُ الزحْـفُ فيه ولا يُعـزَى إليـه الضَّعْـفُ
وفيـه أيضـاً يَـدخـل المُذالُ مُقيّـداً في كـلِّ مـا يُقـالُ
وهو الذي يزيدُ حرفا سـاكِنـا على آعتـدال جُـزئِـه مُبـاينـا
ومثله المسْبغ من هـذي العلـلْ حرفٌ تَريدُه على شطر الرَمَـلْ

باب نقصان الاجزاء

فإنْ رأيتَ الجُزءَ لم يَذهب مَعـا بالآنتِقاصِ فهْو وافٍ فاسْمَعـا

وإن يكن أذهَبَهُ النُّقْصانُ فٱفهَمْ ففي قولي لكَ البيانُ...
.. فذلك المجزوءُ في النِّصفيْن إذا ٱنْتقَصْتَ منهما جُزْءَيْن
والبيْتُ إن نقَصْتَ منه شَطرَهْ فذلك المشطورُ فٱفهَمْ أمرهُ
وإن نقصْتَ منهُ بعد الشّطرِ جُزءاً صحيحاً من أخيرِ الصدرِ..
.. وكان ما يَبقى على جُزْءَيْنِ فذلكَ المنهُوكُ غيرَ مَيْنِ

صفة الدوائر

فاسْمَعْ فهٰذِي صفةُ الدوائِرِ وصف عليمٍ بالعَروض خابِرِ[1]
دوائرٌ تعيا على ذِهنِ الحذقْ خَمسٌ عليهنّ الخطوطُ والحلَقْ
فما لها من الخطوط البائِنهْ دلائلٌ على الحروفِ السّاكِنهْ
والحلَقاتِ المتجوِّفاتِ علامةٌ للمتَحرّكاتِ
والنقَط التي على الخطوطِ علامةٌ تعدُّ للسُّقُوط
والحِلَقُ التي عليها تنقُط تَسكُنُ أحياناً وحيناً تسْقُطُ
والنُقطُ التي بأَجوافِ الحلَقْ لمِبْتَدا الشطورِ منها يُختَرقْ
فانظرْ تجد مِن تحتِها أسماءَها مكْتوبةً قد وُضعَتْ إزاءَها
والنّقطتَانِ موضِعُ التعاقبِ ومِثل ذاكَ موضعُ التراقُبِ
وهذهِ صُورة كل واحدهْ منها ومعنَى فسْرِها على حِدهْ
أوّلُها دائرة الطويلِ وهي ثمانٍ لذَوي التفصيلِ
مُقسَّم الشطْر على أرباع بين خماسيّ إلى سُباعِي
حُروفه عِشرون بعدَ أربعهْ قد بيّنوا الكلَّ موضِعه
يُنقلُ منها خمسةٌ شُطورُ يفْصلُها التفعِيلُ والتقْديرُ
منها الطويلُ والمديدُ بَعدَهْ ثم البسيطُ يُحكِمونَ سرْدَهْ

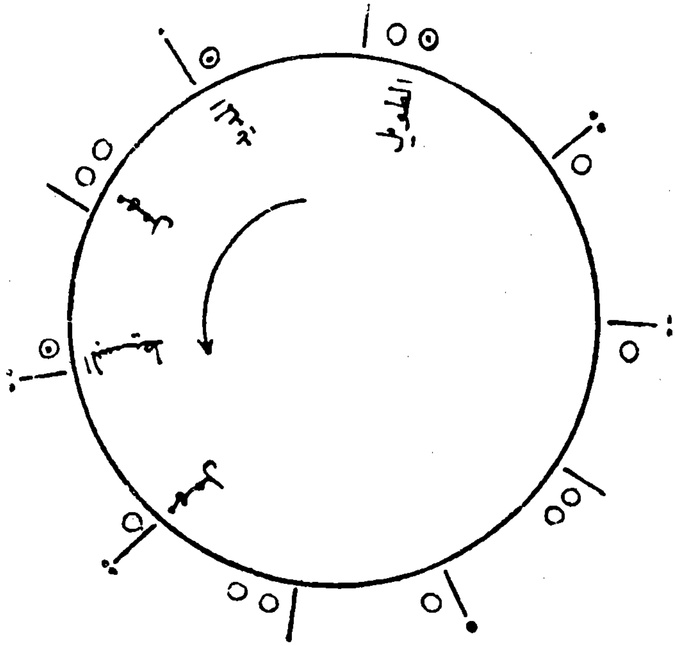
---

(١) الخابر: الخبير.

ثلاثـةٌ قـالـت عليهـا العـربُ   واثنان صدُّوا عنهما ونَكبـوا[1]
وهـذهِ صـورتُهـا كما تَـرى   وذِكـرُهـا مُبيَّنـا مُفَسَّـرا

الأولى: دائرة المختلف

الطويل: مبني على فعولن مفاعيلن ثماني مرات
المديد: مبني على فاعلاتن فاعلن، ست مرات
البسيط: مبني على مستفعلن فاعلن، ثماني مرات



وهـذه الثـانيـةُ المخصُـوصـهْ   السبـبِ الثقيـلِ والمنقوصـة
أجـزَاؤهـا مُثْلَثـةٌ مُسبَّعـة   قد كَرهوا أن يَجعلوها أربَعـه
لانَّهـا تخرجُ عـن مقـدارِهِـم   في جُملةِ الموزُونِ من أشعارهِم
فهْي على عشرينَ بَعـدَ واحـدِ   منَ الحروفِ ما بِها مـنْ زائِـدِ
ينفَـكُّ منهـا وافـر وكـامـلُ   وثالثٌ قد حـار فيـه الجاهِـلُ

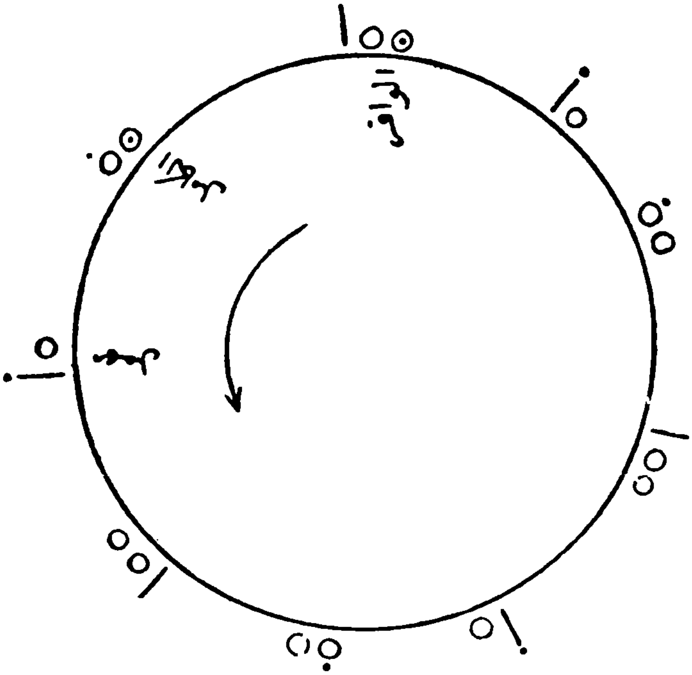
---

(١) نكب عنه: مال عنه واعتزل.

الثانية: دائرة المؤتلف

الوافر: مبني على مفاعلتن، ست مرات[١]، فقطعوا ضربه وعروضه.

الكامل: مبني على متفاعلن، ست مرات[٢].



والدائِـرة الثـالثـةُ التي حكـتْ ... في قدرِها الثـانيـة التي مَضـت

في عِـــدّةِ الأجزاء والحروفِ ... وليس في الثقيـــلِ والخفيـــفِ

يَنفـكُّ منها مثـلُ مـا ينفـكُّ ... من تلكَ حقًّـا ليس فيـه شـكُّ

ترفَلُ من دِيبـاجِهـا في حُلـلِ ... من هَزجٍ أو رجَـز أو رمَـل

وهـــذهِ صُـــورتَهـــا مُبيَّنـــهْ ... بحلْيها ووشِيِها مُـــزيَّنـــهْ[٣]

---

(١) مرات: يريد أجزاء.

(٢) مرات: يعني أجزاء.

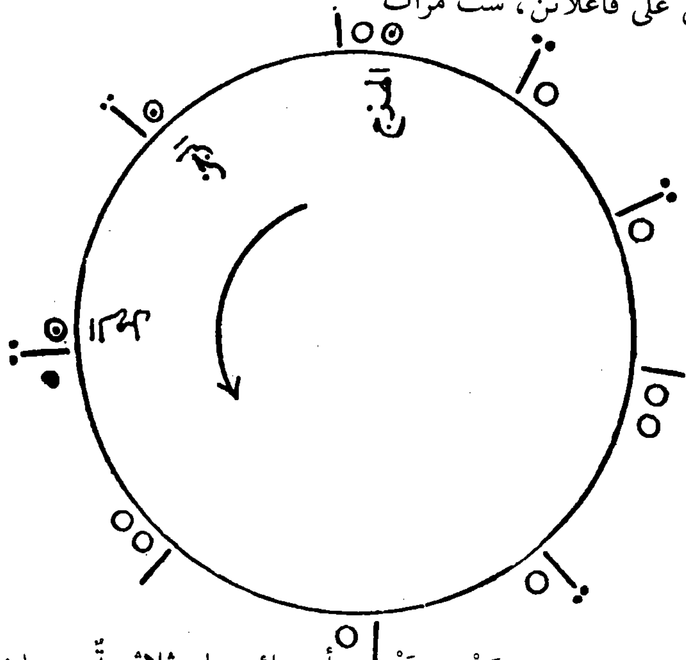
(٣) الوشي: نقش الثوب، ويكون من كل لون.

الثالثة: دائرة المجتلب

الهزج: مبني على مفاعيلن، بعد الحذف، أربع مرات[١].

الرجز: مبني على مستفعلن، ست مرات[١].

الرمل: مبني على فاعلاتن، ست مرات[١].



ورابـع الدوائِـر المَسْـرودَهْ ... أجـزاؤهـا ثلاثـةٌ معـدودهْ
عجيبةٌ قد حار فيهـا الوصـفْ ... عشرون حَرفاً عَدَّهـا وحـرفُ
مثلُ التي تقـدمـتْ مـن قبْلهـا ... وشكلُهـا مُخـالـفٌ لشكلِهـا
بـديعـة أُحْكِـمَ تـدبيرهـا ... بالوتَدِ المفروقِ في شُطـورِهـا
ينفَـكُّ منها ستَّـةٌ مَقـولَـهْ ... مـن بَينِهـا ثلاثـةٌ مجهُـولـهْ
وكلُّ هـذي السِّتَّـةِ المشطـورَهْ ... معـروفـةٌ لأهلِهـا مخبُـوره
أوّلها السريـــعُ ثم المُنسرِحْ ... ثم الخفيـفُ بعـدهُ ثم وضَـحْ
وبعـدهُ مُضـارعٌ ومُقتَضَـب ... شطران مجزوءان في قولِ العربْ
وبعدَها المُجتثُّ أحلَـى شطـرِ ... يُوجَدُ مَجزُوءاً لأهْـل الشِّعـرِ

(١) مرات: يعني اجزاء.

الرابعة: دائرة المشتبه

السريع: مبني على مستفعلن مفعولات، ست مرات.

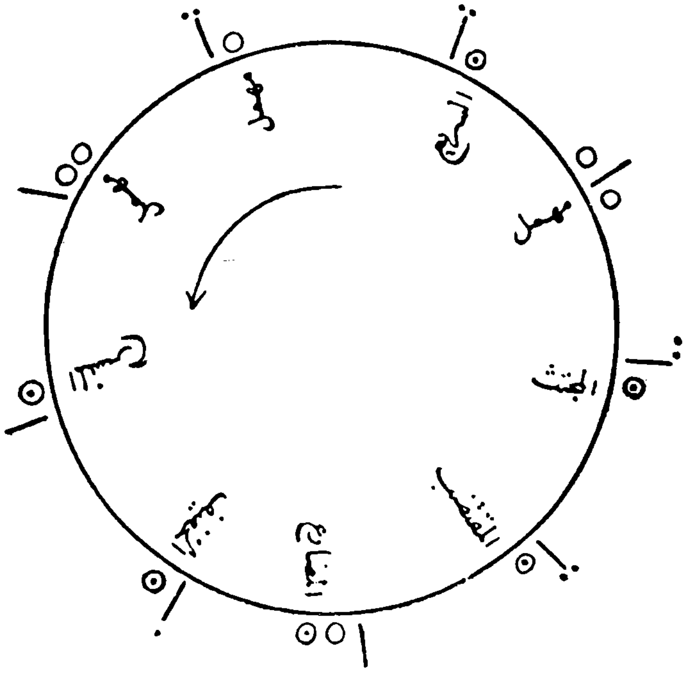
المنسرح: مبني على مستفعلن مفعولات مستفعلن، ست مرات.

الخفيف: مبني على فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن، ست مرات.

المضارع: مبني على مفاعيلن فاعلاتن ست مرات؛ فحذفوا منه جزأين فصار مربعا.

المقتضب: مبني على مفعولات مستفعلن ست مرات، فربعوه كما تقدم.

المجتث: مبني على فاعلاتن فاعلاتن. ست مرات. فربعوه كما تقدم



وبعدها خامَسةُ الدوائِر   للمتقاربِ الذي في الآخِرِ

يَنفك منها شَطْرُهُ وشطرُ   لم يأتِ في الاشعارِ منه الذِّكْرُ

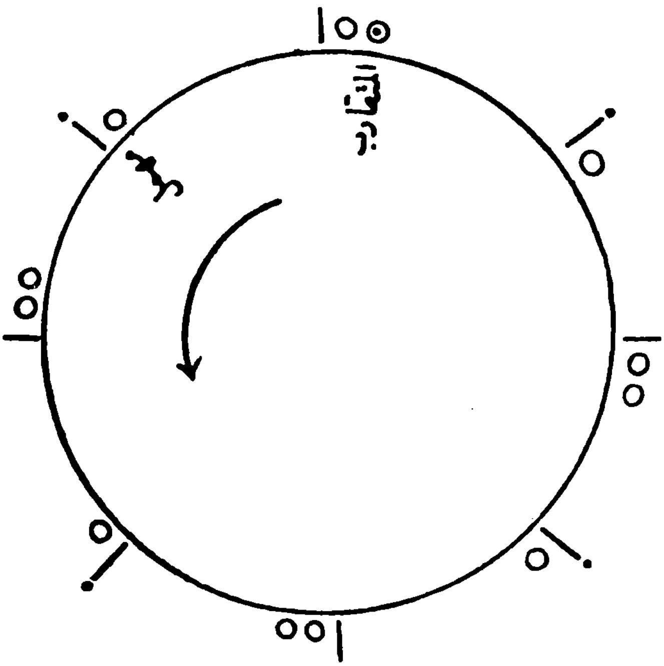
من أقصرِ الاجزاء والشطور   حروفُه عشرون في التقدير

مؤلَّـفُ الشطْـرِ على فـواصـل ... مجَسّماتٍ أربـعٍ مـواثـل
هـذا الذي جـرّبـه المُجَـرِّبُ ... من كلِّ ما قالت عليـه العـربُ
فكـلُّ شيء لم تقُـل عليـه ... فـإننـا لم نلتفـت إليـه
ولا نقولُ غير مـا قـد قـالـوا ... لانـه مـن قـولنـا مُحـالُ
وأنـه لـو جـاز في الابيـات ... خِلافـه لجاز في اللُّغـاتِ
وقـد أجـاز في الابيـات ... خِلافـه لجاز في اللُّغـاتِ
لانـه نـاقَـضَ في معنـاه ... والسيف قد يَنْبُو وفيـه مـاءُ[(١)]
إذ جعل القـولَ القـديمَ أصلَـه ... ثم أجـاز ذا وليس مثلَـه
وقـدْ يَـزل العـالِـمُ النِّحْـريـرُ ... والحَبْـرُ قـد يخونُـه التَّحْبيرُ[(٢)]
وليس للخليـل مـن نظيرِ ... في كلِّ ما يـأتي مـنَ الامـورِ
لكنَّـه فيـه نسيـجُ وحْـدِه ... مـا مثلـه مـن قبلِـه وبعـدِهْ
فـالحمـد لله على نَعمـائِـهْ ... حمداً كثيراً وعلى آلائِـهْ[(٣)]
يـا ملِكـا ذَلَّـتْ لـه الملـوكُ ... ليس لـه في مُلْكِـه شريـكُ
ثبِّـتْ لعبـدِ الله حُسْـنَ نيَّتِـه ... وآعطِفْهُ بالفضلِ على رعيَّتِـهْ

(١) نبا السيف: لم يُصِبْ.
(٢) النحرير: العالم الحاذق في علمه.
(٣) الآلاء: جمع الإلى: النعمة.

الخامسة: دائرة المتفق

المتقارب: مبني على فعولن، ثماني مرات[1].



(١) ثماني مرات: يريد ثمانية أجزاء.

ابتداء الأمثال
شطر الطويل

الطويل لـه عـروض واحـد مقبـوض، وثلاثـة ضروب: ضرب سـالم، وضرب مقبوض، وضرب محذوف معتمد.

العروض المقبوض والضرب السالم

وَروضة وَرْدٍ حُفَّ بالسوْسَن الغضِّ   تَحلَّتْ بلون السَّام والذَهبِ المحضِ (٢)
رأيتُ بها بدْراً على الأرض ماشيـاً   ولم أر بدراً قـطُّ يمشي على الأرض
إلى مثله فلْتَصْبُ إن كنتَ صـابيـاً   فقد كاد منه البعضُ يصْبُو إلى البعضِ (٣)
وكلْ وردَ خدّيْـهِ ورُمَّـانَ صـدره   بمَصٍّ على مص وعضّ على عـضِّ
وقُـلْ لِلـذي أفنَـى الفـؤادَ بحُبِّـه   على أنه يَجزي المحبةَ بـالبُغْـضِ :
« أبا مُنْذِرٍ أفنيتَ فاستَبْقِ بعضَنـا   حنانَيْكَ بعضُ الشَّرِّ أهونُ من بعـض »

تقطيعه:

فعولن، مفاعيلن، فعولن، مفاعلـن   فعولن، مفاعيلن، فعولن، مفاعيلـن

الضرب المقبوض

وحـاملـة راحًـا على راحــةِ اليــدِ   مُوَرَّدَة تسعى بلوْنٍ مُوَرَّد

---

(٢) الغضّ: الطري الحديث من كل شيء.
(٣) صبا اليه: حنّ وتشوق.

على ياسمينٍ كـاللجَيْـن ونـرجسٍ كأقراطِ دُرّ في قضيبِ زَبرْجدِ[١]
بتلـك وهـٰذي فـالـٰه ليْلـكَ كلّـه وعنها فسلْ لا تسأل الناس عن غدِ
« ستبْدي لك الايامُ ما كنتَ جـاهلا ويأتيك بالاخبارِ مَنْ لم تُزَوّدِ »

تقطيعه

فعولن مفاعيلن، فعولـن، مفـاعلـن فعولن، مفاعيلن، فعولن، مفاعلن

الضرب المحذوف المعتمد

أيقْتُلُني دائـــي وأنــــت طبيبي قريبٌ وهل مَنْ لا يُرَى بقريبِ
لئن خنتَ عهـدي إنني غيرُ خـائـنٍ وأيُّ مُحِبٍّ خان عهدَ حبيب
وسـاحِبَـةٍ فضْـلَ الذُّيُـول كـأنها قضيبٌ من الرَّيْحان فوق كثيب[٢]
إذا ما بَدتْ من خِدْرِها قال صـاحبي أطِعني وخُذ من وصلِها بنصيب
« وما كلُّ ذي لُبِّ بمؤتيك نصحُـهُ وما كلُّ مؤتٍ نُصْحَهُ بلَبيب »

تقطيعه

فعولن، مفاعيلن، فعولن، مفـاعلـن فعولن، مفاعيلن، فعول، فعولن

يجوز في حشو الطويل القبض والكف، فالقبض فيه حسن، والكف فيه قبيح؛ ويدخله الخرم في الابتداء، فيقال له: أثلم؛ فإذا دخله القبض مع الخرم قيل له: أثرم.

والخرم سقوط حركة من أول البيت، ولا يكون إلا في وتد؛ والقبض ما ذهب خامسه الساكن، والكف ما ذهب سابعه الساكن، والاعتماد [في الطويل] سقوط الخامس من فعولن التي قبل القافية، اعتمد به فقُبض، ولم تجر فيه السلامة إلا على

---

(١) اللجين: الفضّة. والزبرجد: حجر كريم يشبه الزمرد.
(٢) الكثيب: الرمل المستطيل المحدودب.

قبح، ولم يأت في الشعر الا شاذا قليلا؛ والاعتماد في المتقارب: سلامة الجزء الذي قبل القافية؛ والمحذوف ما ذهب من آخره سبب خفيف.

شطر المديد: وهو مجزوء كله

له ثلاثة أعاريض وستة ضروب، فالعروض الاول منها مجزوء وله ضرب مثله؛ والعروض الثاني محذوف لازم الثاني، له ثلاثة ضروب لازمة الثاني: ضرب مقصور لازم الثاني، وضرب محذوف لازم الثاني، وضرب أبتر لازم الثاني؛ والعروض الثالث محذوف مخبون وله ضربان: ضرب مثله، وضرب أبتر لازم الثاني.

العروض المجزوء والضرب المجزوء

يا طويلَ الهجـرِ لا تنسَ وصْلي ... واشتغالي بكَ عن كـلِّ شغـل
يـا هِلالا فـوقَ جِيـدِ غـزالٍ ... وقضيباً تحتـهُ دعْـصُ رمـل(١)
لا سلَـتْ عـاذِلتي عنـه نفسي ... أكثِـري في حُبِّـه أو أقِلِّـي
شـادِنٌ يُـزهِـي بخدٍّ وجيـدٍ ... مائس فـاتِـنِ حُسْـنٍ ودلِّ(٢)
« ومتى مـايـعِ منـك كلامـاً ... يكلِّـم فيُجبْـكَ بعقْـل »

تقطيعه:

فعلاتـن، فعلـن، فعلاتـن، ... فعلاتـن، فعلـن، فعلاتـن

العروض المحذوف اللازم الثاني

والضرب المقصور اللازم الثاني

يـا وميـضَ البَرق بين الغَمام ... لا عليهـا بـل عليـك السلامْ
إنّ في الاحـداجِ مقصـورَةً ... وجْهُهـا يهتِـكُ سِتر الظلامْ

(١) الدّعص: قطعة من الرمل مستديرة. (٢) الشادن: ولد الظبية.

تحسب الهجْر حلالاً لها   وترى الوصلَ عليها حرامْ
ما تأسِّيك لِدار خلتْ   ولشعب شَتَّ بعد التِئام
« إنما ذكرُكَ ما قد مضَى   ضلّةٌ مثلُ حديث المنام »

تقطيعه:

فاعلاتن، فعلن، فاعلن   فاعلاتن، فعلن، فاعلانْ

الضرب المحذوف اللازم الثاني

عتبٌ ظلْتُ له عاتباً   رُبَّ مطلوبٍ غَدا طالبا
مَن يتب عن حُب معشوقِه   لستُ عن حُبِّي له تائبا
فالهوى لي قدَرٌ غالبٌ   كيف أعصِي القدَرَ الغالبا
ساكِنَ القصرِ ومَن حلَّه   أصبحَ القلبُ بكم ذاهِبا
« اعلموا أني لكم حافظُ   شاهداً ما عِشْتُ أو غائبا »

تقطيعه:

فاعلاتن، فاعلن، فاعلن   فاعلاتن، فاعلن، فاعلن

الضرب الابتر

أيُّ تُفَّاحٍ ورُمّانِ   يُجتنى من خوطِ ريحانِ (١)
أيُّ وردٍ فوق خدّ بَدا   مُستنيرا بين سوسان
وثنٌ يُعبدُ في روْضهِ   صيغَ من دُرّ ومَرْجان (٢)
مَن رأى الذَّلفاءَ في خَلْوةٍ   لم يَر الحدّ على الزّاني! (٣)
« إنما الذَّلفاءُ ياقوتَةٌ   أُخرجت من كيس دهْقان » (٤)

---

(١) الخوط: الغصن الناعم.
(٢) المرجان: جنس حيوانات بحرية، أحمر يعد من الأحجار الكريمة، ويكثر في البحر الأحمر.
(٣) الذلفاء: المرأة الصغيرة الأنف.   (٤) الدهقان: التاجر.

تقطيعه:

فـاعلاتـن، فـاعلـن، فـاعلـن فـاعلاتـن، فـاعلـن، فعْلـن

العروض المجزوء المحذوف

والمخبون ضَرْبُه

مِـن مُحِـبٍ شفَّـهُ سقَمُـه وتلاشَـى لحمُـه ودَمُـه
كـاتـبٍ حنَّـتْ صحيفتُـه وبكـى مـن رحمةٍ قلَمُـهْ
يَـرفـعُ الشكـوى إلى قمـرٍ ينْجَلي عـن وجهِـه ظُلمـه
مـن لقَـرْن الشمس جَبْهتُـهُ وللَمْـعِ البَـرْق مُبْتَسمـهُ
خـلِّ عقلي يـا مُسَفِّهَـهُ إنّ عقلي لسـتُ أتهمُـه
« للفتى عقـلٌ يعيش بـه حيث تَهـدي ساقَـه قـدمُـهْ »

تقطيعه:

فـاعلاتـن، فـاعلـن، فعِلـن فـاعلاتـن، فـاعلـن، فعِلـن

الضرب الابتر اللازم الثاني

زادَني لـومُـك أضرارا إنّ لي في الحب أنصـارا
طـار قلبي مـن هـوى رَشـإ لـو دَنـا للقلـب مـا طـارا[1]
خُـذْ بكفّـي لا أمُـتْ غَـرَقـا إنّ بَحر الحبّ قـد فـارا
أنْضجـتْ نـار الهوى كبـدي ودمـوعـي تُطفـئُ النـارا
« رُبَّ نـارٍ بـتُّ أرمُقُهـا تَقضِـمُ الهنـديَّ والغـارا »[2]

---

(١) الرشأ: ولد الظبية اذا قوي وتحرك ومشى مع أمه.

(٢) الغار: شجر ينبت برياً في سواحل الشام والغور والجبال الساحلية، دائم الخضرة يصلح للتزيين.

تقطيعه:

فـاعلاتـن، فـاعلـن، فعِلـــن   فـاعلاتـن، فـاعلـن، فعْلـــن

★ ★ ★

يجوز في حشو المديد: الخبن، والكف، والشكل؛ فالمخبون: ما ذهب ثانيه الساكن، والمكفوف: ما ذهب سابعه الساكن، والمشكول: ما ذهب ثانيه وسابعه الساكنان، وهو اجتماع الخبن والكف في فاعلاتن.

ويدخله التعاقب في السببين المتقابلين بين النون من «فاعلاتن» والالف من «فاعلن» لا يسقطان جميعاً، وقد يثبتان؛ فما عاقبه ما قبله فهو صدر، وما عاقبه ما بعده فهو عجزُ، وما عاقبه وما قبله وما بعده فهو طرفان، وما لم يعاقبه شيء فهو بريء؛ والمقصور: ما ذهب آخر سواكنه وسكن آخر متحرّكاته من السبب؛ والابتر: ما حُذف ثم قُطع.

شطر البسيط

البسيط له ثلاثة أعاريض وستة أضرب:

فالعروض الاوّل مخبون تام، وله ضربان: ضرب مثله، وضرب مقطوع لازم الثاني.

والعروض الثاني مجزوء، له ثلاثة أضرب: ضرب مُذال وضرب مجزوء، وضرب مقطوع ممنوع من الطيّ.

والعروض الثالث مقطوع ممنوع من الطيّ؛ له ضرب مثله.

العروض المخبون والضرب المخبون

بين الاهلّـة بـدر مـالـه فلَـكُ   قلبي لـه سلمٌ والوجـــه مشتركُ
إذا بَـدا آنتَهبـتْ عيني محاسنـه   وذَلّ قلبي لعينيـــــه فينتهَـــك
آبتعتُ بالدين والدنيـا مـودّتَـه   فخانني، فعلى من يَرجع الدرَك

كُفُّوا بني حارثٍ ألحاظَ رِيمِكُم فكلها لفؤادي كلّه شَرَك[1]
« يا حارِ لا أُرمَيَنْ منكم بداهيةٍ لم يَلقَها سُوقةٌ قبلي ولا مَلِك »

تقطيعة:

مستفعلن، فاعلن، مستفعلن، فعِلن مستفعلن، فاعلن مستفعلن، فعلن

الضرب المقطوع اللازم الثاني

يا ليلةً ليس في ظَلْمائِها نورُ إلا وُجوهاً تضاهِيها الدنانيرُ
حُورٌ سقتْني بكأس الموت أعينُها ماذا سقتْنيه تلك الأعينُ الحور[2]
إذا آبتسَمْنَ فدُرُّ الثغر مُنتظِم وإن نطَقنَ فدرُّ اللفظ منثور
خَلِّ الصِّبا عنك وآختم بالنُّهى عمَلا فإنّ خاتِمة الاعمال تكْفِير
« والخيرُ والشرُّ مقرونانِ في قَرَنٍ فالخيرُ متَّبَع والشر محذورُ »[3]

تقطيعه:

مستفعلن، فاعلن، مستفعلن فعْلن مستفعلن، فعِلن، مستفعلن، فعْلن

العروض المجزوء والضرب المذال

يا طالباً في الهوى ما لا ينالْ وسائلا لم يَعَفْ ذلَّ السؤالْ
ولّت ليالي الصِّبا محمودةً لو أنها رجعتْ تلك الليالْ
وأعقبتْها التي واصلْتُها بالهجر لمّا رأت شيْبَ القَذالْ[4]
لا تلتمسْ وصْلةً من مُخْلِفٍ ولا تكن طالباً ما لا يُنال
« يا صاحِ قد أخلفتْ أسماءُ ما كانت تمنِّيكَ من حُسن الوصال »

---

(١) الريم: الظبي الخالص البياض.
(٢) الحَوَر: شدة بياض العين وشدة سواد سوادها.
(٣) القرن: الحبل يقرن به البعيران. (٤) القذال: جماع مؤخر الرأس من الأنسان.

تقطيعه:

مستفعلن، فـاعلـن، مستفعلـن   مستفعلن، فـاعلـن، مستفعلان

الضرب المجزوء

ظالمتـــي في الهوى لا تظلمـــي   وتَصْرِمي حبـلَ مَـن لم يصرِمِ
أهكـذا بـــاطلا عـــاقبتنِـــي   لا يَرحـمُ اللهُ مَـن لم يَـرحـمِ
قتلـتِ نفسـاً بلا نفسٍ ومـــا   ذنب بـأعظـمَ مـن سفـكِ الدم
لمثـل هـــذا بكـــت عيني ولا   للمنـــزل القفْـــرِ أو للأرْسم
« ماذا وُقوفي على رسْـمٍ عَفـا   مُخْلَوْلِق دارسٍ مُستَعجِـم »(١)

تقطيعه:

مستفعلن، فـاعلـن، مستفعلـن   مستفعلن، فـاعلـن، مستفعلـن

الضرب المقطوع الممنوع من الطيّ

ما أقرَب اليأْسَ مـن رجـائِـي   وأبعـدَ الصبرَ مـن بُكـائِـي
يا مُذْكي النـارِ في جـوانِحـي   أنـت دوائِـي وأنـت دائِـي(٢)
مَـن لي بمخُلِفـةٍ في وعْـدِهـا   تَخلِـط لي اليـأْسَ بـالـرجـاءِ
سـألتُهـا حـاجـةً فلم تفُـهْ   فيهـــا بنعْمَـــى ولا بِلاءِ
« قلـتُ آستجيبي فلما لم تُجِـبْ   سـالـت دُمـوعـي على رِدائـي

تقطيعه:

مستفعلن، فـاعلـن، مستفعلـن   مستفعلـن، فـاعلـن، فعـولـن

العروض المقطوع الممنوع من الطيّ

ضربه مثله

كـــآبـــةُ الذُّلِّ في كتـــابي   ونَخـوَةُ العِـزِّ في جـواب

---

(١) المخلولق: البالي. (٢) الجوانح: جمع جانحة: الضلع القصيرة مما يلي الصدر.

قَتلـــتَ نفْســـــاً بغير نفْسٍ   فكيـف تنجـو مـن العـــذاب
خُلِقْـت مـن بهجـةٍ وطِيـــبٍ   إذ خُلِـق النـاسُ مـن تـــراب
وَلّـــت حُمَيَّـــا الشبـــاب عني   فلَهْـــف نفْسي على الشبـــاب
« أَصبَحْت والشيْبُ قـد علاَني   يَدعو حثِيثاً إلى الخضـاب »[1]

تقطيعه:

مستفعلـن، فـاعلـن، فعـولـن   مستفعلـن، فـاعلـن، فعـولـن

يجوز في حشو البسيط: الخبن، والطي، والخبل؛ فالخبن ما ذكرناه في المديد، والطيّ ما ذهب رابعه الساكن، والمخبول ما ذهب ثانيه ورابعه الساكنان، وهو اجتماع الخبن والطيّ في « مستفعلن ».

والخبن فيه حَسَن، والطيّ فيه صالح، والخبل فيه قبيح.

والمقطوع ما ذهب آخر سواكنه وسكن آخر متحركاته من الوتد؛ والمذال ما زاد على اعتداله حرف ساكن.

[تمت الدائرة الأولى]

شطر الوافر

له عروضـان وثلاثـة أضرب: فـالعـروض الأول مقطـوف، لـه ضرب مثلـه؛ والعروض الثاني مجزوء ممنوع من العقل، له ضربان: ضرب سالم، وضرب معصوب.

العروض المقطوف: الضرب المقطوف

تجافى النومُ بَعدَك عن جُفـوني   ولكن ليس يَجفوهـا الدُّمـوعُ
يذَكِّـرُني تَبسُّمَـك الأقـاحِـي   ويَحكِي لِـي تَـوَرُّدَك الربيـعُ
يطير إليك من شـوْقٍ فـؤادي   ولكـن ليس تتركُـه الضُّلُـوعُ

---

(١) الخضاب: ما يخضب به من حنّاء ونحوه.

كأنّ الشمسَ لمّا غبْتَ غـابـت ... فليس لها على الدُّنيـا طُلـوعُ
فمالي عـن تَـذَكُّـرِك امتنـاعٌ ... ودون لِقـائـك الحِصنُ المنيـع
« إذا لم تسطعْ شيئـاً فـدعْـهُ ... وجـاوزْه إلى مـا تستطيـعُ »

تقطيعه:

مفـاعلْتن، مفـاعلْتن، فعْـولـن ... مفـاعلْتن، مفـاعلْتن، فعـولـن

العروضِ المجزوء الممنوع من العقل. الضرب السالم

غـزالٌ زانَـه الحـوْرُ ... وساعَـد طـرْفَـه القَـدَرُ[1]
يُـريـك إذا بـدا وجْهـاً ... حكـاه الشمسُ والقمَـر
بَـراهُ الله مـن نـورٍ ... فلا جِـنٌّ ولا بشَـرُ
فـذاك الهمُّ، لا طلَـلٌ ... وقفْـتَ عليـه تعْتبِـر
« أهـاجَـك منـزلٌ أقـوى ... وغَيّـر آيَـهُ الغِيَـرُ »

تقطيعه:

مفـاعلَتن، مفـاعلْتن ... مفـاعلَتن، مفـاعلَتن

الضرب المعصوب

وبـدْرٍ غيرِ مَمْحـوقِ ... مـن العِقيـان مخلـوقِ[2]
إذا أُسقِيـت فضلَتَـه ... مَـزَجْـتُ بـريقـهِ ريقـي
فيـالـك عـاشقـاً يُسْقَـى ... بقيَّـةَ كـأسِ معشـوقِ
بكيْـتُ لنـأيـه عني ... ولا أبكِـي بتَشْهِيـقِ
« لمنـزلـةٍ بها الأفـلا ... كُ أمثـال المهـارِيـق »[3]

---

(١) الحور: اشتداد بياض بياض العين واشتداد سواد سوادها.

(٢) العقيان: الذهب المتكاثف في مناجمه، الخالص مما يختلط به من الرمال والحجارة.

(٣) المهاريق: جمع مهرق: الصحيفة البيضاء يكتب فيها.

تقطيعه:

مفـــــاعلَتن، مفـــــاعلْتن مفـــــاعلْتن، مفـــــاعلْتن

يجوز في حشو الوافر: العصب، والعقل، والنقص؛ فالعصب فيه حَسَن، والنقص فيه صالح، والعقل فيه قبيح.

ويدخله الخرم في الابتداء فيسقط حركة من أول البيت فيسمى أعصب، فإذا دخله العصب مع الخرم قيل له: أقصم، فإذا دخله النقص من الخرم قيل له: أعقص، فإذا دخله العقل مع الخرم قيل له: أجمّ.

والمعصوب ما سكن خامسه المتحرك، والمنقوص ما سكن خامسه المتحرك وذهب سابعه الساكن، والمقطوف ما ذهب من آخره سبب خفيف وسكن آخر ما بقي؛ ولا يدخل القطف إلا في العروض والضرب من تمام الوافر.

شطر الكامل

الكامل له ثلاثة أعاريض وتسعة ضروب، فالعرض الأول تام، له ثلاثة ضروب: ضرب تام مثله، وضرب مقطوع ممنوع إلا من سلامة الثاني وإضماره، وضرب أحذّ مضمر.

والعروض الثاني أحذّ له ضربان: ضرب مثله وضرب مضمر.

والعروض الثالث مجزوء له أربعة ضروب: ضرب مرفَّل، وضرب مُذال، وضرب مجزوء، وضرب مقطوع ممنوع إلا من سلامة الثاني وإضماره.

العروض التام: الضرب التام

يـا وجْـهَ مُعْتـذرٍ ومُقْلـةَ ظـالم كم مـن دمٍ ظلماً سَفكْـت بلا دمِ
أوجدْتَ وصْلي في الكتابِ مُحرّمـا روجـدْتَ قتْلِـي فيـه غيرَ مُحـرّم
كم جنـةٍ لـك قـد سكَنْـت ظِلالها مُتفكّهـا في لـــذَّةٍ وتنعُّـــم

وشربْـتُ مـن خمرِ العيـون تعلُّلا   فإذا انتشيْتُ أجُودُ جُـودَ المِرْزم[1]
« وإذا ضحوْتُ فما أُقصرُ عن نَدًى   كما علِمــتَ شمائلي وتكــرُّمـــي »

تقطيعه:

متفاعلن، متفاعلن، متفـاعلـن   متفاعلن، متفاعلن، متفـاعلـن

الضرب المقطوع الممنوع إلا من الإضمار والسلامة

حـــالَ الزَّمـــانُ فبـــدَّل الآمـــالا   وكسا المَشيب مفـارقـاً وقَـذالا[2]
غنيَـتْ غَـواني الحيِّ عنــك وربما   طَلَعَـت إليـك أكِلَّــةً وحِجـالا
أضْحىٰ عليـك حلالُهُـنّ مُحـرّمـا   ولقـد يكـونُ حَـرامُهُـــنّ حلالا
إنّ الكواعـبَ إنْ رأينَـك طـاويـا   وصْل الشباب طَوَين عنك وصالا[3]
« وإذا دعَـوْنَـك عمَّهُـنّ فـــإنـــه   نسبٌ يـزيـدُك عنـدَهُـنّ خَبـالا »

تقطيعه:

متفاعلن، متفاعلن، متفـاعلـن   متفاعلن، متفـاعلـن، فَعِلاتـن

الضرب الأخذ المضمر

يـوم المحـــبِّ لطـولــه شهْــرُ   والشهــرُ يُحسَــبُ أنــه دهـــرُ
بــأبي وأُمـي غـــادةً في خـدّهـــا   سحـــر وبين جُفــونِهـــا سحـــر
الشمسُ تَحسب أنها شمسُ الضُّحَـى   والبـــدرُ يَحسِـــب أنها البـــدْر
فسَل الهوى عنها يجبْك، وإن نـأَتْ   فسـل القِفـــارَ يُجيبُــك القفْـــرُ[4]
« لَمَن الديـارُ بـرامَتَيْـن فعـاقـــلٌ   درســتْ وغيَّـر آيَهـا القَطــر »[5]

تقطيعه

متفاعلـن، متفــاعلـن، متفـاعلـن   متفــاعلـــن، متفـــاعلـــن، فعْلـــن

---

(١) المرزم: أحد المرزمين، وهما نجمان من نجوم المطر.
(٢) القذال: جماع مؤخر الرأس من الانسان
(٣) الكواعب: جمع كاعب: وهي الفتاة التي نهد ثديها.
(٤) القفر: الخلاء من الأرض لا ماء ولا ناس ولا كلأ.
(٥) رامتان: موضع لبني دارم، والعاقل: موضع لبني ابان بن دار.

العروض الأحذ ضربه مثله

أمّـا الخيـطُ فشَـدَّ مـا ذهَبـوا ... بـانـوا ولم يَقضوا الذي يَجـبُ
فـالـدارُ بعـدهـم كـوشْـم يَـدٍ ... يـا دار فِيـكِ وفيهـمُ العجـب
أيـــن التي صِيغـــتْ محاسنُهـــا ... مـــن فضَّـــةٍ شيبَـتْ بها ذهَـب
ولَّـى الشبـابُ فقلـتُ أنْـدُبُـه ... لا مثْـلَ مـا قـالـوا ولا نَـدَبـوا
« دِمَـنٌ عَفـتْ ومَحـا مَعـالِمهـا ... هَطْـلٌ أَجَشٌّ وبـارِحٌ تَـرِب »

تقطيعه:

متفاعلـن، متفـاعلـن، فعِلـن ... متْفاعلـن، متفـاعلـن، فعِلـن

الضرب الأحذ المضمر

عينيَّ كيـــف غـــررتما قلبي ... وأبَحتُماه لـــوعـــةَ الحبِّ
يا نظـرةً أذْكـتْ على كَبـدي ... نـاراً قضيْـتُ بحرِّهـا نَحبِـي
خَلّـوا جَـوَى قلبي أُكـابِـدُه ... حسْبِي مُكابَدةُ الجوَي حسبْـي
عينِي جنَت من شؤْمِ نظـرتِهـا ... ـا لا دواءَ لـــه، على قلبي
جانِيكَ من يَجنِي عليـك وقـد ... تعْدِي الصِّحاحَ مَبارِكُ الجُرْب »

تقطيعه:

متْفاعلـن، متفْـاعلـن، فعِلـن ... متْفاعلـن، متَفـاعلـن، فعْلـن

العروض المجزوء والضرب المجزوء المرفل

هتـكَ الحِجـابَ عـن الضمائـرْ ... طـرْفٌ بـه تُبلى السرائِـرْ
يـرْنُـو فيَمتَحـنُ القلـو ... بَ كأنه في القلب نـاظـر[(١)]
يـا سـاحـراً مـا كنـتُ أعْـ ... ـرفُ قبله في النـاس سـاحـر
أقْصيْتَني مـن بعـدمـا ... أدنيْتني فـالقلـب طـائِـر
« وغَـرَرْتَني وزعمـتَ أنّـ ... ـكَ لابِـنٌ بـالصيف تـامـر »

---

(١) يرنو: يديم النظر في سكون طرف.

تقطيعه:

متَفـاعلــن، متَفـاعلــن متَفـاعلــن، متْفـاعلاتــن

الضرب المذال

يـا مُقْلـةَ الرَّشـإ الغـريـ ـرِ وشقَّـةَ القمـرِ المنيرْ[1]
مـا رَنَّقـتْ عيْنـاكِ لي بينَ الأكِلَّـةِ والسُّتـور
إلا وضعـتُ يَـدي على قلبي مخافــةَ أن يطِير
هبْني كبعـضِ حَمام مكَّـ ـةَ وآستمعْ قولَ النـذيـر:
« أبُنَـيَّ لا تَظلمْ بمكَّـ ـةَ لا الصغيرَ ولا الكبير »

تقطيعه:

متَفـاعلــن، متْفـاعلــن متَفـاعلــن، متَفـاعلان

الضرب المجزوء

قل مـا بـدا لَـكَ وآفعَـلِ واقطَعْ حِبـالَـكَ أوصِـلِ
هٰــذا الربيــع فحيِّــهِ وانـزلْ بـأكـرمِ مَنـزِلِ
وصِـلِ الذي هُـو واصـلٌ فـإذا كرهْـتَ فبـدِّلِ
وإذا نبـا بـك منـزلٌ أو مسكَـنٌ فتحـوّل[2]
« وإذا افتقَـرتَ فلا تكُـن مُتخشِّعـاً وتَجمَّـلِ »[3]

تقطيعه:

متفـاعلــن، متفـاعلــن متفـاعلــن، متفـاعلــن

الضرب المقطوع الممنوع إلا من سلامة الثاني وإضماره

يـا دهـرُ مـالي أُصْفِـي وأنــتَ غيرُ مُــواتِــي

---

(١) الرشأ: ولد الظبية اذا قوي وتحرك ومشى مع أمه.

(٢) نبا: بعد (٣) تجمّل: تصبّر وتحمّل.

جـــرعْتَني غُصَصـــاً بها   كـدّرتَ صَفْـوَ حيـاتِـــي
أيــن الذيـــنَ تســابقُـــوا   في المجــدِ للغـــايـــاتِ
قـــومٌ بهمْ روحُ الحيـــا   ةِ تُـــردُّ في الأمـــوات
« وإذا هُمُوا ذكرُوا الإسـا   ءَةَ أكثرُوا الحسنـــات »

تقطيعه:

متَفـاعلــن، متفـاعلــن   متفــاعلــن، فعِلاتــن

يجوز في الكامل من الزحاف: الإضمار والوقص والخزل، فالإضمار فيه حَسن، والوقص فيه صالح، والخزل فيه قبيح.

فالمضمر ما سكن ثانيه المتحرك.

والموقوص ما ذهب ثانيه المتحرك.

والمخزول ما سكن ثانيه المتحرك وذهب رابعه الساكن.

ويدخله من العلل القطع والحذَذ، فالمقطوع ما تقدم ذكره، والأحذ ما ذهب من آخر الجزء وتد مجموع.

[تمت الدائرة الثانية]

شطر الهزج

الهزج له عروض واحد مجزوء ممنوع من القبض، وضربان: ضرب سالم، وضرب محذوف.

العروض المجزوء الممنوع من القبض ضربه مثله

أيـــا مَـــن لامَ في الحبِّ   ولم يَعلَـــمْ جَـــوى قلبي
مَلامُ الصـــبِّ يُغـــويـــهِ   ولا أغْـوى مـــنَ القلـــبِ
فأنَّـــى لـمْت في هنـــدٍ   مُحبّـــاً صـــادقَ الحبِّ

وهنـــد مـــالها شِبـــهٌ   بِشرقٍ لا ولا غـــربِ
« إلى هنـــد صَبـــا قلبي   وهِنـــدٌ مثلُهـــا يُصبي »

تقطيعه:

مفـاعيلـــن، مفـاعيلـــن   مفـاعيلـــن، مفـاعيلـــن

الضرب المجزوء المحذوف

متَـــى أشفِـــي غليلِـــي   بنيـــلٍ مـــن بَخيـــلِ
غـــزالٌ ليس لي منـــه   سـوى الحزن الطـويـلِ
جميـلُ الوجـهِ أخلانِـي   مـــن الصبرِ الجميـــلِ
حَملْـتُ الضَيّْـمَ فيـه مـن   حَســـودٍ أو عـــذولِ
« وما ظَهري لبـاغـي الضَّـــيْم بالظهـرِ الذَّلُـولِ »[1]

تقطيعه:

مفـاعيلـــن، مفـاعيلـــن   مفـاعيلـــن، فعـولـــن

يجوز في الهزج من الزحاف: القبض، والكف؛ فالكف فيه حسن، والقبض فيه قبيح؛ وقد فسرنا المقبوض والمكفوف في الطويل أيضاً؛ ويدخله الخرم في الابتداء، فيكون أخرم، فإذا دخله الكف مع الخرم قيل له: أخرب، فإذا دخله القبض مع الخرم قيل له: أشتر، والخرم كله قبيح.

شطر الرجز

الرجز له أربعة أعاريض وخمسة ضروب:

فالعروض الأول تام، له ضربان: ضرب تام مثل عروضه، وضرب مقطوع ممنوع من الطيّ.

(١) الضيّم: الظلم أو الإذلال ونحوهما.

والعروض الثاني مجزوء، له ضرب مثله مجزوء.

والعروض الثالث مشطور، له ضرب مثله؛ والعروض الرابع منهوك، له ضرب مثله.

العروض التام. الضرب التام

لم أدر جِنّيٌّ سَبـــاني أم بشرْ	أم شمسُ ظُهرٍ أشرقتْ لي أم قمرْ
أمْ ناظرٌ يُهدِي المنايا طرفهُ	حتى كأن الموتَ منه في النَّظر
يُحيي قتيلا ما له من قاتلٍ	إلاَّ سهام الطَّرْفِ ريشَت بالحَوْر[1]
ما بالُ رسمِ الوصْل أضْحى داثِراً	حتى لقد أذكَرتَني مما دَثَرْ
«دارٌ لِسلمى إذ سُليمَى جارةٌ	قفرٌ ترى آيانِها مثلَ الزُّبُرْ»[2]

تقطيعه:

مستفعلن، مستفعلن، مستفعلـن   مستفعلن، مستفعلن، مستفعلـن

الضرب المقطوع الممنوع من الطي

قلبٌ بِلوْعاتِ الهوى معمودُ	حيٌّ كَمَيْتٍ حاضرٌ مفقودُ[3]
مَن ذا يُداوي القلبَ من داءِ الهوى	إذ لا دواءٌ للهوى موجود
أم كيفَ أسلُو غادةً ما حُبُّها	إلا قضاءٌ ماله مَرْدودُ
«القلبُ منها مُستريح سالمٌ	والقلب منِّي جاهِد مجهودُ

تقطيعه:

مستفعلن، مستفعلن، مستفعلـن   مستفعلن مستفعلـن، مستفعلْ

---

(١) الحور: اشتداد بياض بياض العين واشتداد سواد سوادها.

(٢) الزُّبُر: جمع زبور: وهو الكتاب المزبور، أي المكتوب.

(٣) الكميت: ما كان لونه بين الأسود والأحمر.

العروض المجزوء . الضرب المجزوء

أعطيتُــه مـا سَــألا　　حكّمتُـه لـو عــدَلا
وهَبتـــه رُوحـــي فما　　أدري بـــه مـــا فعَلا
أسلَمتُــــه في يـــده　　عيَّشـــــــهُ أم قَتلا
قلبي بـــه في شُغُــــلٍ　　لا مَـــــلَّ ذاك الشُّغُلا
« قيَّـــــدهُ الحبُّ كما　　قيـــــدَ راعٍ جَملا »

تقطيعه:

مفتعلـــن، مفتعلـــن　　مفتعلـــن، مفتعلـــن

العروض المشطور . الضرب المشطور

يـأيها المشغـوف بـالحبِّ التَّعِـبْ　　كم أنـت في تقـريـب مـالا يَقترِبْ
دعْ وُدَّ مَنْ لا يَرْعَـوي إذا غضِـبْ　　ومَـن إذا عـاتَبْتَـهُ يـومـاً عَتــبْ
« إنك لا تَجني من الشَّوْكِ العِنَبْ »

تقطيعه:

مفتعلن، مستفعلن، مستفعلن

العروض المنهوك . الضرب المنهوك

بيـاضُ شيْـب قـد نَصَـعْ　　رَقَعْتـــه فما آرْتَقَـــعْ
إذا رأى البيـضَ انقَمَـع　　مـا بين يـأس وطمـع
للهِ أيَّـــامُ النَّخـــع　　يـا ليتني فيهـا جَـذَع
أَخُبُّ فيها وأضَع

تقطيعه:

مُتَفْعلن، مفتعلن

ويجوز في حشو الرجز: الخبن، والطي، والخبل؛ فالخبن فيه حسَن، والطيّ فيه

صالح، والخبل فيه قبيح؛ وقد مضى تفسير الطيّ والخبن والخبل في البسيط.

ويدخله من العلل القطع، وقد ذكرناه، ويكون مجزوءاً، والمجزوء ما ذهب من آخر الصدر جزء ومن آخر العجز جزء؛ ويأتي مشطوراً، والمشطور ما ذهب شطره؛ ويأتي منهوكا، والمنهوك ما ذهب من شطره جزآن وبقي على جزء.

شطر الرمل

الرمل له عروضان وستة ضروب؛ فالعروض الأول محذوف جائز فيه الخبن، له ثلاثة ضروب: ضرب متمِّم، وضرب مقصور جائز فيه الخبن، وضرب محذوف مثل عروضه؛ والعروض الثاني مجزوء له ثلاثة ضروب: ضرب مسبَّغ، وضرب مجزوء مثل عروضه الجائز فيه الخبن، وضرب محذوف جائز. فيه الخبن.

العروض المحذوف الجائز فيه الخبن لضرب المتمم

أنـا في اللَّـذاتِ مخلـوعُ العِـذارِ　　هائِمٌ في حُب ظَبْيٍ ذي احْـوِرار[1]
صُفْـرةٌ في حُمْـرةٍ في خـدِّهِ　　جَمعـتْ رَوضـةَ ورْدٍ وبَهـار
بـأبي طـاقـةَ آسٍ أقبلَـتْ　　تتثنَّـى بين حَجْـلٍ وسِـوار
قـادني طَـرْفي وقلبي للهـوى　　كيف من طرفي ومن قلبي حَذاري
«لـو بغيرِ الماءِ حلْقـي شَـرِقٌ　　كنتُ كالغَصّانِ بالماءِ اعتِصاري»

تقطيعه:

فاعلاتن، فاعلاتـن، فعلـن　　فاعلاتن، فاعلاتن، فاعلاتن

الضرب المقصور

يا مُديرَ الصَّـدْغِ في الخدِّ الأسيـلْ　　ومُجيلَ السِّحْرِ بالمطَّرفِ الكحيـلْ

---

(١) يقال: خلع فلان عذاره: اذا انهمك في الغيّ ولم يستح.

هـل لِمحـــزونٍ كئيـــبٍ قَبْلـــةٌ   منك يَشفـي بَـرْدُهـا حَـرَّ الغليـل
وقليـــــــلٌ ذاكَ إلاَّ أنـــــــه   ليس من مِثلِـك عنـدي بـالقليـل
بـــأبي أحـــوَرَ غَنَّـــى مَـــوْهِنـــاً   بغِنـاءٍ قصَّـر الليـلَ الطـويـل
«يـا بَني الصَّيْـــداء رُدُّوا فـــرسي   إنما يُفعـلُ هـــذا بـالـذَّليـل»

تقطيعه:

فاعلاتن، فاعلاتـــن، فعلـن   فاعلاتن، فعلاتن، فـاعلات

الضرب المحذوف

شـادِنٌ يَسْحَـبُ أَذْيـالَ الطَّـرَبْ   يَتثنَّـــى بين لهوٍ ولعِـــبْ[1]
بجَبين مُفْـرَغ مـــن فِضَّـــةٍ   فوق خـدٍّ مُشْرَب لَـوْنَ الذهـب
كَتَـــب الدمْـــعُ بخَدِّي عهـــدَه   للهوى والشـوْقُ يُملِـي مـا كَتَـبْ
مـــا لجهْلِـــي مـــا أراه ذاهبـــا   وسَـوادُ الرأْسِ مني قـــد ذَهـب
«قـــالـــت الخنســـاءُ لَمّا جئتُهـــا   شاب بعدي رأْسُ هذا واشتَهبْ»[2]

تقطيعه:

فاعلاتن، فاعلاتن، فاعلـن   فاعلاتن، فاعلاتن، فاعلـن

العروض االمجزوء . الضرب المسبع

يـــا هلالا في تَجَنِّيـــهْ   وقضيبـــاً في تَثَنِّيـــهْ
والذي لســـــتُ أُسمِّيـــــهِ   ولكني أُكَنِّيـــــــهْ
شـادِنٌ مـــا تَقْـدِر العيْـــــنُ   تـراهُ مـن تلالِيـــه
كلّما قـــابلَـــــه شخـــــصٌ   رأى صـورتَـه فيـه
«لاَن حتى لـو مشَـــى الذَّ   رُّ عليـه كـاد يُـدْميـه»

تقطيعه:

فـاعلاتـــن، فـــاعلاتـــن   فعلاتـــن، فـــاعلاتـــانْ

---

(١) الشادن: ولد الظبية.

(٢) اشتهب الرأس: شاب

الضرب المجزوء

يــا هلالا قــد تَجلّــى   في ثيـاب مــن حــريــر
وأميـــراً بهـــوَاهُ   قـــاهـــراً كـــلّ أمير
ما لخدّيْكَ آستَعـارا   حُمْـرَةَ الوردِ النضيرِ
ورُســوم الوصْـلِ قــد   ألبسْتَها ثـوْبَ دُثــورِ[1]
«مُقْفِـــرات دارِســـات   مثْـل آيـاتِ الزبــورِ»

تقطيعه:

فـاعلاتـــن، فـــاعلاتـــن   فـاعلاتـــن، فـــاعلاتـــن

الضرب المجزوء المحذوف الجائز فيه الخبن

يــا قتيلا مــن يَــدِهْ   ميّتـاً مــن كمــدِهْ[2]
قَـدَحـتْ للشــوْق نــارا   عيْنُـــه في كبِـــدِهْ
هـــائمٌ يَبكـــي عليـــه   رحمةً ذو حَســـــدِهِ
كـــلَّ يــومٍ هــو فيــه   مُستعيـــدٌ مــن غــدِهِ
«قلبُـــه عنـــد الثّـــريّـــا   بـائـنٌ عــن جســده»[3]

تقطيعه:

فـاعلاتـــن، فـــاعلاتـــن   فـاعلاتـــن، فعلـــن

★ ★ ★

---

(١) دثر الثوب: اتسخ.

(٢) الكمد: كَتْم الحزن، أو الذي حزن حزناً شديداً.

(٣) البائن: البعيد.

يجوز في الرمل من الزحاف: الخبن، والكف، والشكل؛ فالخبن فيه حسن والكف فيه صالح، والشكل فيه قبيح، وقد فسرنا المكفوف والمخبون.

فأما المشكول فهو ما ذهب ثانيه وسابعه الساكنان.

ويدخله التعاقب في السببين المتقابلين على حسب ما يدخل في المديد؛ ويدخله من العلل: الحذف، والقصر، والإسباغ؛ وقد فسرنا المحذوف والمقصور، وأما المسبغ فهو ما زاد على اعتدال جزئه حرف ساكن مما يكون في آخره سبب خفيف، وذلك «فاعلاتن» يزاد عليها حرف ساكن فيكون «فاعلاتان».

[تمت الدائرة الثالثة].

شطر السريع

السريع له أربعة أعاريض وسبعة أضرب.

فالعروض الاول مكشوف مطوي لازم الثاني، له ثلاثة ضروب: ضرب موقوف مطوي لازم الثاني، وضرب مكشوف مطوي لازم الثاني مثل عروضه وضرب أصلم سالم.

والعروض الثاني مخبول مكشوف، له ضربان: ضرب مثل عروضه، وضرب أصلم سالم.

والعروض الثالث مشطور موقوف ممنوع من الطيّ، ضربه مثله.

والعروض الرابع مشطور مكشوف ممنوع من الطيّ ضربه مثله.

العروض المكسوف المطوي اللازم الثاني

الضرب الموقوف المطوي اللازم الثاني

بكيْــــتُ حتى لم أدَعْ عَبْــرةً ... إذ حَملوا الهوْدجَ فوق القَلوصْ [1]
بُكـاءَ يعقـوبَ على يـوسُــفٍ ... حتى شفَـى غُلتَـه بـالقميــصْ
لا تأسفِ الدهـرَ على مـا مضى ... وآلقَ الذي ما دونَه من مَحيـص [2]
« قد يُدرِكُ المُبْطئُ من حظِّـه ... والخيرُ قد يَسبِق جُهد الحريص »

تقطيعه:

مستفعلــن، مفتعلــن، فــاعلــن ... مستفعلن، مفتعلــن، فــاعلات

الضرب المكشوف المطوى اللازم الثاني

لله دَرُّ البينِ مــــا يَفعــــلُ ... يقتُـل مـن شــاءَ ولا يُقتـلُ
بــانُـوا بمن أهْــواه في ليلــةٍ ... رُدّ على آخِـــرهـــا الأوّلُ
يا طولَ ليـلِ المبتَلَـى بـالهوى ... وصُبْحُـه مـن ليْلـهِ أطـوَل
فـالـدارُ قـد ذكـّرَني رسمُهـا ... ما كدتُ من تَـذكـارِه أُذهَـل
« هاج الهوى رسْمٌ بذاتِ الغَضَى ... مُخْلَوْلِـقٌ مُستَعجِـمٌ مُحْـول »

تقطيعه:

مستفعلن، مستفعلــن، فــاعلــن ... مستفعلن، مستفعلــن، فــاعلــن

الضرب الاصلم السالم

قلبي رهينٌ بين أضلاعـــــي ... مـــن بين إيئـــاس وإطْماعِ
من حيثما يدعـوه داعـي الهوى ... أجـابَـه لبّيْــك مـــن داعـــي
مَــنْ لِسقيمٍ مـــالــه عــائــدٌ ... وميّــتٍ ليس لـــه نــاعِـــي

---

(١) القلوص: الناقة. (٢) المحيص: المهرب.

لما رأتْ عــاذِلتي مـــا رأتْ وكـان لي مـن سَمْعِها واعـي
« قالت ولم تقصِدْ لقِيْـل الخَنـا مَهلا لقد أبْلغْـتَ أسماعـي »[١]

تقطيعه :

مستفعلن، مستفعلـن، فـاعلـن مستفعلـن، مستفعلـن، فعْلـن

العروض المخبول المكسوف

ضربه مثله

شمسٌ تجلَّـت تحت ثـوبِ ظُلَـمْ سَقيمــةُ الطــرْف بغيرِ سَقَـــمْ
ضاقتْ عليّ الارضُ مُذْ صَـرَمَـت حَبْلي فما فيهــا مكــانُ قــدم[٢]
شمــسٌ واقمــارٌ تطُــوفُ بها طوْفَ النصارى حول بيْتِ صنَـمْ
« النّشرُ مِســك والوجــوه دَنــا نيرٌ وأطــرافُ الاكُــفِّ عَنَـم »

تقطيعه :

مستفعلـن، مستفعلـن، فعِلـن مستفعلـن، مستفعلـن، فعِلـن

الضرب الاصلم السالم

أنـــت بما في نفْســـه اعلمْ فاحكم بما أَحببْـتَ أن تَحكُـمْ
ألحاظُـه في الحبِّ قـد هَتَكـتْ مكتـومــهُ والحبُ لا يُكتَــم
يــا مُقْلــةً وحشِيَّــةً قتلــتْ نفْســـاً بلا نفْسٍ ولم تَظلمْ
قــالــت تَسلَّيــتَ فقلــتُ لها مـا بــالُ قلبي هــائمٌ مُغْـرَمْ
« يــا أيها الزارِي على عُمَــر قد قلتَ فيـه غير مـا تعلمْ »[٣]

---

(١) الخنا : الفحش في الكلام .

(٢) صرم : قطع، وصرم الحبل، هجر .

(٣) الزاري : العاتب والمعيب .

تقطيعه:

مستفعلـن، مستفعلـن، فعِلـن مستفعلـن، مستفعلـن، فعْلـن

العروض المشطور الموقوف الممنوع من الطي

ضربه مثله

خلَّيْـــتُ قلبي في يـــديْ ذات الخالْ مصفَّـــــداً مُقيّـــــداً في الاغلالْ
قــد قلــتُ للبــاكــي رُســـومَ الاطلالْ «يا صاحِ ما هاجَك من رَبْعِ خـالْ»

تقطيعه:

مستفعلن، مستفعلن، مفعولانْ

العروض المشطور المكسوف الممنوع من الطي

ضربه مثله

ويحي قتيلا مـا لـه مـن عقـلِ بشادِنٍ يهتـزّ مثـلَ النَّصْـلِ [1]
مكحَّلٍ ما مسَّـه مـن كحْـلِ لا تعـــذلاني إنني في شُغْـــل
«يا صاحبَيْ رَحْلي أقِلاّ عَذْلي» [2]

تقطيعه:

مستفعلن، مستفعلن، مفعولن

★ ★ ★

يجوز في السريع من الزحاف: الخبن، والطي، والخبل؛ فالخبن فيه حَسَن، والطي صالح، والخبل فيه قبيح.

---

(١) الشادن: ولد الظبية. (٢) العذل: اللوم.

ويدخله من العلل: الكشف، والوقف، والصلم؛ فالمكشوف ما ذهب سابعه المتحرّك، والموقوف ما سكن سابعه، والاصلم ما ذهب من آخره وتد مفروق؛ والمشطور ما ذهب شطره.

شطر المنسرح

المنسرح له ثلاثة أعاريض وثلاثة ضروب؛ فالعروض الاوّل ممنوع من الخبل، له ضرب مطوي؛ والعروض الثاني منهوك موقوف ممنوع من الطيّ، له ضرب مثله؛ والعروض الثالث منهوك مكشوف ممنوع من الطيّ، له ضرب مثله.

العروض الممنوع من الخبل

الضرب المطوى

بيضاءُ مضمومةٌ مُقرْطفةٌ ينقَدّ عن نَهدها قَراطقُها[1]
كأنما باتَ ناعماً جَذِلا في جنة الخلد مَن يُعانقها
وأي شيءٍ ألذُّ من أملٍ نالته معشوقة وعاشقها
دعْني أمُت من هَوَى مُخدَّرةٍ تعلْق نفسي بها عَلائقها
«مَن لم يَمتْ عِبْطةً يَمت هَرَما الموتُ كأسٌ والمرءُ ذائقها»[2]

تقطيعه:

مستفعلن، مفْعلاتُ، مفتعلن مسْتفعلن، مفعولاتُ مفتعلن

العروض المنهوك الموقوف الممنوع من الطي

ضربه مثله

أقصرتُ بعضَ الإقصارْ عن شادنٍ نائي الدارْ

---

(١) مقرطقة: تلبس القرطق، وهو القباء.

(٢) مات عبطة: مات شاباً سليماً لم تصبه علة.

صَبَّـــرَني لمّا صـــارْ ولم أكـــن بـــالصَّبّـــارْ[1]
«وقـــال لي باستعبـــار صبْـــراً بني عبـــد الدارْ»

تقطيعه:

مستفعلن، مفعولاتْ

العروض المنهوك المكسوف الممنوع من الطي

ضربه مثله

عـاضَـتْ بـوصْـل صـدّا تـريـد قتْلي عمـــدا[2]
لما رأتْني فـــــــرْدا أبكـى وألقَـى جهْـدا
«قـالـت وأبْـدتْ ردّا وَيلم سعـــدِ سعـــدا»

تقطيعه:

مستفعلن، مفعولن

★ ★ ★

يجوز في المنسرح من الزحاف: الخبن، والطيّ، والخبل؛ فالخبن فيه حسن، والطي فيه صالح، والخبل قبيح.

ويدخله من العلل: الوقف، والكشف؛ وقد فسرناهما في السريع.

والمنهوك ما ذهب شطره ثم ذهب منه جزء بعد الشطر.

شطر الخفيف

الخفيف له ثلاثة اعاريض وخمسة ضروب:

---

(١) الصبّار: الشديد الصبر.

(٢) عاضه بكذا: أعطاه اياه بدل ما ذهب منه.

فالعروض الاول منه تامّ له ضربان: ضرب يجوز فيه التشعيث، وضرب محذوف يجوز فيه الخبن.

والعروض الثاني جائز فيه الخبن. وله ضرب مثله.

والعروض الثالث مجزوء، له ضربان: ضرب مثله مجزوء، وضرب مجزوء مقصور مخبون.

العروض التامّ. الضرب التامّ

الجائز فيه التشعيث

أنتَ دائِي وفي يديـك دوائِـي ... يا شِفائي مـن الجوَى وبلائِـي
إنّ قلبي يُحـبُّ مَـن لا أُسمِّـي ... في عَنـاءٍ أعظِـمْ بـه مـن عنائـي
كيف لا كيف أنْ ألَـذَّ بعيشٍ ... مات صبري به ومات عـزائـي
ايها اللائمـون مـاذا عليكـم ... أن تعيشوا وأن أموتَ بـدائـي
« ليس مَن مات فاستراح بميـتٍ ... إنما الميْـتُ ميِّـتُ الأحيـاءِ »

• تقطيعه:

فـاعلاتـن، مُتَفعلـن، فعِلاتـن ... فاعلاتن، متعفلـن، مفعـولـن

الضرب المحذوف يجوز فيه الخبن

ذاتُ دَلٍّ وشـاحُهـا قَلِـقُ ... من ضمُورٍ وحَجلها شَـرِقُ(١)
بَزَّتِ الشمسَ نورُها، وحَباهـا ... لَحْـظَ عينيـه شادِنٌ خَـرِق(٢)
ذَهـبٌ خَـدّهـا يَـذوبُ حيـاءً ... وسِـوَى ذاك كلِّـه وَرِق
إن أمُـتْ ميتةَ المحبِّين وجْـداً ... وفـؤادي مـن الهوى حَـرِق

---

(١) قلق: مضطرب. والحجل: الخلخال. وشرق: أي ظاهر.

(٢) الشادن: ولد الظبية.

فالمَنـايَـا مـن بين غـادٍ وسـارٍ   كـلُّ حـيّ بـرَهْنِهـا غَلـق

تقطيعه:

فاعلاتن، مستفعلن، فـاعلاتـن   فـاعلاتـن، متفعلـن، فعِلـن

الضرب المحذوف الجائز فيه الخبن

ضربه مثله

يـا غليلا كـالنـارِ في كبِـدي   واغتِراب الفؤادِ عـن جسـدي
ليـتَ مـن شَفني هـواهُ رأى   زفـراتِ الهوى على كبِـدي
غـادةٌ نـازحٌ محلّتُهـا   وكلتني بِلـوعـةِ الكمَـد[1]
« رُبَّ خرقٍ من دونِها قـذف   مـا بـه غير الجنِّ مـن أحـدِ »

تقطيعه:

فـاعلاتـن، مستفعلـن، فعِلـن   فـاعلاتـن، مستفعلـن، فعِلـن

العروض المجزوء والضرب المجزوء

مـا لِليلَـى تبـدّلـتْ   بعـدَنـا ودّ غيرنـا
أرهَقتْنـا ملامـةً   بعـد إيضـاح عُـذرِنـا
فسلـوْنـا عـن ذكـرهـا   وتسلّـتْ عـن ذكـرنـا
لم نقُـل إذ تَحـرمـتْ   واستهلّـتْ بهجـرنـا
« ليبَ شِعري مـاذا تَـرى   أمُّ عمـروفي أمـرِنـا »

---

(١) الكمد : الحزن الشديد .

تقطيعه:

فـــاعلاتـــن، مستفعلـــن فـــاعلاتـــن، مستفعلـــن

الضرب المجزوء المقصور المخبون

أشرقَـــتْ لي بُـــدُورُ في ظلامٍ تُنيرُ
طـــار قلبي بحبِّهـــا لِقلـــــبِ يَطيـــر
يـــا بُـــدوراً أنـــا بها الدهـــرَ عـــانٍ أسيرُ
إن رضِيتم بـــأن أمُـــو تَ فمـــــوتي حقيرُ
«كــل خطــب إن لم تكــو نـــــوا غَضبْتم يسيرُ»

تقطيعه:

فـــاعلاتـــن، مستفعلـــن فـــاعلاتـــن، فعـــولـــن

★ ★ ★

يجوز في الخفيف من الزحاف: الخبن، والكف، والشكل، فالخبن فيه حَسن، والكف فيه صالح، والشكل فيه قبيح.

ويدخله التعاقب بين السببين المتقابلين من مستفعلن وفاعلاتن: لا يسقطان معاً، وقد يثبتان؛ وذلك أن وتد «مُسْ تَفْعِ لنْ» في الخفيف والمجتث، كله مفروق في وسط الجزء؛ وقد بينا التعاقب في المديد.

ويدخله من العلل، التشعيث، والحذف، والقصر؛ وقد بينا المحذوف والمقصور، وأما التشعيث فهو دخول القطع في الوتد من «فاعلاتن» التي من الضرب الأول من الخفيف، فيعود «مفعولن».

شطر المضارع

المضارع له عروض واحد مجزوء ممنوع من القبض، وضرب مجزوء ممنوع من القبض مثل عروضه، وهو:

أرى لِلصِّبـا وَداعـا ولا يـذكـرُ اجتماعا
كـأن لم يكـنْ جـديـراً بحفـظِ الذي أضـاعـا
ولم يُصبِنـا سرُوراً ولم يُلهِنـا سَماعـا
فجـدّد وصـالَ صـبّ متى تعصِـه أطـاعـا
« وإن تَـدْنُ منـه شبراً يُقـرّبْك منـه بـاعـا »

تقطيعه:

مفـاعيلـن فـاعلاتـن مفـاعيلـن فـاعلاتـن

★ ★ ★

يجوز في حشو المضارع من الزحاف: القبض، والكف، في مفاعيلن، ولا يجتمعان فيه لعلة التراقب، ولا يخلو من واحد منهما؛ وقد فسرنا التراقب مع التعاقب.

ويدخله في فاعلاتن الكف؛ فأما القبض فهو ممنوع منه وتد فاع لاتن في المضارع؛ لانه مفروق وهو « فاع »؛ والتراقب في المضارع بين السببين في « مفاعيلن » في الياء والنون؛ لا يثبتان معاً ولا يسقطان معاً؛ وهو في المقتضب بين الفاء والواو من « مفعولات ».

شطر المقتضب

المقتضب له عروض واحد مجزوء مطوي. وضرب مثل عروضه، وهو:

يـا مليحـةَ الدعـجِ هل لديـكِ مـن فَـرجِ [1]

---

(١) الدّعج: التي اتسعت عينها واشتد سوادها وبياضها.

أم تُـــراكِ قـــاتلتي بـــالـــدلالِ والغنْـــج
مـن لحِسْـنِ وجهـكِ مـن سوء فِعلِـكِ السمِـجِ
عـــاذِليَّ حسبُكمـــا قـد غـرِقْـتُ في لُجَـج[1]
« هــــل عليَّ ويْحَكما إن لهوتُ مـن حـرجِ »

تقطيعه:

فـــاعلاتُ مفتعلـــن فـــاعلاتُ مفتعلـــن

★ ★ ★

يدخل التراقب في أول البيت، في السببين المتقابلين، على حسب ما ذكرناه في المضارع.

شطر المجتث

له عروض واحد مجزوء. ضربه مثله

وشـــادِنٍ ذي دلالٍ مُعصَّـــبٌ بـــالجَمالِ
يضـــنُّ أَنْ يحتـــويـــه معـــي ظلامُ الليـــالي
أو يلتَقـــي في منـــامـــي خَيـــالـــهُ مـعْ خيـــالي
غُصـنٌ نما فـوقَ دعْـصٍ يختـالُ كـلَّ اختيـال
« البطـــنُ منهـــا خميـــص والوجـــهُ مثـــلُ الهلالِ »

تقطيعه:

مستفعلـــن، فـــاعلاتـــن مستفعلـــن، فـــاعلاتـــن

★ ★ ★

يجوز في المجتث من الزحاف: الخبن، والكف، والشكل؛ فالخبن فيه حسَن، والكف فيه صالح، والشكل فيه قبيح.

---

(١) اللجج: جمع اللجة، وهي معظم البحر وتردد أمواجه.

ويدخله التعاقب بين السببين المتقابلين من مستفعلن، وفاعلاتن، على حسب ما يدخل الخفيف؛ وذلك لان وتد مستفع لن في المجتث مفروق كما هو في الخفيف مفروق وذلك « تَفْعِ » .

[تمت الدائرة الرابعة] .

شطر المتقارب

المتقارب له عروضان وخمسة أضرب .

فالعروض الاول منها تام يجوز في الحذف والقصر، له أربعة ضروب: ضرب تام مثل عروضه، وضرب مقصور، وضرب محذوف معتمد، وضرب أبتر .

والعروض الثاني مجزوء محذوف معتمد، له ضرب مثله معتمد .

العروض التام الجائز فيه الحذف والقصر

الضرب التام

لحال عـن العهـدِ لَمّا أحـالا   وزال الأحِبَّـةُ عنـه فـزالاَ
محل تَحِـلُّ عُـرَاهـا السَّحـابُ   وتَحكي الجنوبُ عليْه الشَّمالا[1]
فيـا صـاحِ مُقـامُ المُحِـبِّ   وربْعُ الحبيبِ فحُـطَّ الرَّحـالا
سلِ الرَّبْعَ عن ساكِنيه فـإنِّـي   خَرِسْتُ فما أستطيعُ السُّـؤالا
« ولا تَجْعَلَنِّي هـداك المليـكُ   فـإنَّ لكـلٍّ مقـامٍ مَقـالا »

تقطيعه:

فعولن، فعولن، فعولن، فعولن   فعولُ، فعول، فعولن، فعولـن

(١) الجنوب: الريح التي تهب من جهة الجنوب، الشمال، الريح التي تهب من جهة الشمال .

الضرب المقصور

فؤادي رَمَيْـتَ وعقلي سَبَيْـتْ   ودَمعي مَرَيْتَ ونومـي نَفَيْـتْ
يُصدُّ آصْطِباري إذا ما صدَدْتَ   وينْأى عَزائـي إذا مـا نـأيْـت
عزَمْتُ عليك بمجرى الوِشـاحِ   ومـا تحت ذلـك مما كَنَيْـتْ
وتُفـاحِ خـدٍّ ورمّـانِ صـدرٍ   ومَجْنـاهما خيـرُ شيءٍ جَنَيْـتْ
تجـدد وصْلاً عفـا رسْمُـه   فمِثْلُـكَ لمّا بَـدا لي بَنَيْـت
«على رسمِ دار قِفـار وقَفْـت   ومن ذِكْر عهدِ الحبيب بكيْـت»

تقطيعه:

فعولن، فعولن، فعولن، فعـولْ   فعولن، فعولن، فعولُ، فعـولْ

الضرب المحذوف المعتمد

أيـاويـح نفسي وويـل آمِّهـا   لِما لقيَـتْ مـن جـوَى همّهـا
فـديْـتُ التي قَتَلَـتْ مُهجَتي   ولم تتَّـق الله في دمهـا
أَغُضُّ الجُفـونَ إذا مـا بَـدتْ   وأكْنِـي إذا قيـل لي سَمِّهـا
أُداري العيونَ وأخشى الرَّقيـبَ   وأَرْصُـدُ غفْلَـةَ قَيِّمِهـا
«سَبَتْنِـي بجيـدٍ وخـدٍّ ونحْرٍ   غَـداةَ رمَتْني بـأَسْهُمِهـا»

تقطيعه:

فعولن، فعولن، فعولن، فعولن   فعولُ، فعولن، فعـولُ، فعـل

الضرب الأبتر

لا تبْـكِ ليْلَـى ولا مَيَّـهْ   ولا تنـدُبَـنْ راكبـا نيـه
وآبكِ الصِّبا إذا طَـوى ثـوبَـهُ   فلا أحـدٌ نـاشِـرٌ طَيَّـهْ
ولا القلبُ نـاسٍ لِما قـد مضى   ولا تـاركٌ أبـداً غَيَّـهْ
ودعْ عنـك يـأسـاً على أرسُمٍ   فليس الرُّسـوم بمَبْكيَّـه

« خليلَيَّ عُوجا على رسم دارٍ   خَلتْ من سُلَيْمَى ومن مَيَّه »[1]

تقطيعه:

فعولن، فعولن، فعولن، فعولن   فعولن، فعولن، فعولن، فَعْ

ضربه مثله

أأُحرَمُ منكَ الرِّضا   وتذْكرُ ما قد مضَى
وتُعرِضُ عن هائمٍ   أبى عنكَ أن يُعرِضا
قضى اللهُ بالحبِّ لي   فصَبراً على ما قضى
رَمَيْتِ فؤادي فما   تركْتِ به مَنْهَضا
فقوْسُكَ شُرْيانه   ونَبلكَ جمرُ الغَضا[2]

تقطيعه:

فعولُ، فعولن، فعُلْ   فعولُ، فعولن، فعلْ

★ ★ ★

يجوز في المتقارب من الزحاف، القبض، وهو فيه حسن؛ ويدخله الخرم في الابتداء على حسب ما يدخل الطويل.

[تمت الدوائر].

وقد أكملنا في هذا الجزء مختصر المثال في ثلاث وستين مقطعة، وهي عدد ضروب العروض، والتزمنا فيها ذكر الزحاف والعلل التي يقوم ذكرها في الجزء الاول الذي اختصرنا فيه فرش العروض؛ ليكون هذا الكتاب مكتفياً بنفسه لمن قد تأدى إليه معرفة الاسباب والاوتاد ومواضعها من الاجزاء الثمانية التي ذكرناها في مختصر الفرش.

---

(١) عاج: عطف، مال.   (٢) الغضا: اطباق الجفنين على الحدقتين.

واحتجنا بعد هذا إلى اختلاف الابيات التي استشهد بها الخليل في كتابه، لتكون حجة لمن نظر في كتابنا هذا؛ فاجتلبنا جملة الابيات السالمة والمعتلة، وما لكل شطر منها:

أبيات الطويل

العروض المقبوض. الضرب السالم

أبـا منـذر أفنيـتَ فـاستبـق بعضَنـا　　حنانيك بعضُ الشرِّ أهْون من بعـضِ

ضرب مقبوض

ستبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً　　ويأتيـك بـالأخبـار مـن لم تـزوِّدِ

أثلم مكفوف

شاقتـك أحـداجُ سُليمـي بعـائـل　　فعينـاك للبين يجودان بـالـدمـعِ

أثرم

هـاجـك ربعٌ دارس بـاللِّـوى　　لأسماء عفَّـي المُزْن والقَطْـرُ(١)

محذوف معتمد

ما كلُّ ذي لـبٍّ بمؤتيـك نُصحَهُ　　ومـا كـلُّ مـؤتٍ نصحـه بلبيـب
أقيمـوا بني النعمان عنـا صـدوركم　　وإلا تقيموا صاغريـن الرءوسـا(٢)

أبيات المديد

عروض مجزوء: ضرب مجزوء

يـا لَبكـرٍ آنشروا لي كُليبـاً　　يا لَبكـر أيـن أيـن الفـرار(٣)

(١) المزن: السحاب يحمل الماء.
(٢) الصاغر: الحقير الذليل.　(٣) انشروا فلانا: ابعثوه حياً.

ضرب مجزوء: مخبون صدر

ومتى مــــايَـــعِ كلامـــــاً   يتكلَّــمْ فيُجِبْـــك بعقـــلِ

مكفوف عجز

لـــن يـــزالَ قـــومُنـــا مُخصِبينْ   صــالحين مـا اتَّقَـوْا واستقـامـــوا

مشكول عجز

لمن الدِّيـــــارُ غيَّـــــرهُـــــنَّ   كلُّ جوْنِ المُزْنِ داني الرّبـاب[1]

مشكول طرفاه

ليت شعري هل لنا ذات يـوم   بجنـــون فـــارعٍ مــــن تلاق

العروض المحذوف اللازم الثاني

الضرب المقصور، اللازم الثاني

لا يضرنَّ آمــــرءًا عيشُــــه   كــلُّ عيش صــائــرٌ للــزوال

الضرب المحذوف، اللازم الثاني

اعلمــوا أني لكــم حــافــظ   شاهـداً مـا كنـتُ أو غـائبـا

الضرب الأبتر، اللازم الثاني

إنما الذلفـــاءُ يـــاقـــوتـــة   أُخرجتْ من كيس دهْقـان[2]

(١) الرباب: العهد والميثاق.

(٢) الذلفاء: التي صغر أنفها واستوى طرفه. والدهقان: التاجر.

العروض المحذوف المخبون

الضرب المحذوف المخبون

للفتى عقـــلٌ يعيش بِـــــه   حيـث تَهـدي ساقَـه قـدمُـهْ

الضرب الأبتر

رُبَّ نـــارٍ بِــــتُّ أرمُقُهــــا   تقضم الهِنـــديَّ والغــــارا[1]

أبيات البسيط

العروض المخبون. الضرب المخبون

يا حارِ لا أُرْمَيَنْ منكم بداهيـةٍ   لم يلْقَها سـوقَـة قَبلي ولا ملِـك

مخبون

لقد خلَتْ... صروفها عجـبٌ   فأحدثـت عبرا وأعقبـت دُولا

مطوي

ارتحلوا غدوة وانطلقوا بُكَـراً   في زُمَـرٍ منهـم تتبَعُهـا زُمَـــرُ

الضرب المقطوع

اللازم الثاني

قد أشهـد الغـارةَ الشَّعـواء تحملني   جرداءُ معروقة اللَّحييْن سُرحوب[2]
والخير والشر مقـرونـان في قَـــرَن   فـــالخير مُتَّبَـــعٌ والشر محذور[3]

---

(١) الغار: نوع من الشجر.

(٢) السرحوب: الطويل، الحسن الجسم.

(٣) القرن: القطعة من الحبل قرن بها بعيران.

العروض المجزوء

الضرب المذال

إنّـا زمنـا على مـا خيَّلَـتْ   سعد بن زيـد وعمـرا مـن تميم

مخبون

قـد جـاءكم أنكـم يـومـا إذا   فـارقتم الموتَ سـوف تبعثـون

مطوي

يا صاح قد أخلفـت أسماءُ مـا   كانت تُمَنِّيك من حُسن الوصال

الضرب المجزوء

مـاذا وقـوفي على ربْـعٍ خلاً   مُخْلولق دارسٍ مُستعجـمِ (١)

مخبون

إني لُمثْـنٍ عليهـا استمعـوا   فيهـا خصـالٌ تعـدُّ أربـعُ

مطوي

تلقَـى الهوى عـن بني صـادق   نفسي فـداه وأُمـي وأبي

الضرب المقطوع الممنوع من الطيّ

سيروا معـاً إنما ميعـادكم   يـومَ الثلاثـاء بَطـن الوادي

قلـت استجيبي فلمـا لم تجب   سـالـت دمـوعـي على ردائـي

العروض المقطوع الممنوع من الطي

مـا هيـج الشـوقَ مـن أطلالي   أضحتْ قفارا كَوَحْي الواحـي

---

(١) المخلولق: البالي .

أبيات الوافر

العروض المقطوف، الضرب المقطوف

لنـــا غنمٌ نُسَــوِّقُهــا غِــزارٌ   كـأنّ قُـرونَ جِلّتهـا العِصِــيُّ
إذا لم تستطـع شيئـا فــدعــه   وجــاوزْه إلى مــا تستطيــعُ

معقول

منـــازلٌ لفـــرتني قفـــارُ   كـــأنما رســـومُهـــا شُطـــور

أعصب

إذا نـزل الشتـاء بـدار قــوم   تجنَّـبَ جـارَ بيتهــمُ الشتـــاءُ

أقصم

مـا قـالـوا لنـا سيـدا ولكـن   تفاحَشَ قـولهم فـأتـوا بهُجـر

أجمْ

وإنك خير من ركب المطـايـا   وأكـرمهـم أبـاً وأخـا ونفسـا

العروض المجزوء الممنوع من العقل: ضربه مثله

لقـد علمـــت ربيعـــه أنَّ   حبلـك واهـــنٌ خَلَـــق[1]
أهـاجـك منـزلٌ أقــوى   وغيَّـــرَ آيَـــهُ الغِيـــرَ

الضرب المعصوب

عجبـتُ لمعشرٍ عــدَلــوا   بمعتمـــرٍ أبـــا عمـــرو

---

(١) الواهن: الضعيف.

أبيات الكامل

العروض التام: الضرب التام

وإذا صحوتُ فما أقصِّر عن نَـدًى   وكما علمـــتِ شمائلي وتكـــرُّمـــي

المضمر

إنِّي آمـرؤ مـن خير عبس منصبي   شطري وأحمي سائري بالمنصـل[1]

موقوص

يـــذبُّ عـــن حـــريمه بنبلـــه   وسيفـــه ورُمحـــه ويحتمـــي

مخزول

منـزلـة صم صـداهـا وعَفَـا   رسمهـــا إن سُئلـــت لم تجب

الضرب المقطوع، ممنوع إلا من الإضمار

وإذا دَعَـونـك عمهـنَّ فـإنـــه   نسبٌ يزيدك عنـدهـنّ خبـالا

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد   ذخرا يكون كصـالـح الأعمال

الضرب الأحذّ المضمر

لمن الديـار بـرامتَيْـن فعـاتـلٍ   درستْ وغيَّـر آيَهـا القَطْـرُ[2]

العروض الأحذّ السالم: الضرب الأحذّ المضمر

لمن الديـــار عفَـــا معـــالمهـــا   هطلٌ أجشّ وبـايـحٌ تَـربُ[3]

---

(١) المنصل: السيف.

(٢) رامتان فعاتل: موضعان.

(٣) الأجش: الذي اشتد صوته وصار فيه كالبُحَّة.

الضرب الأحذ المضمر

ولانت أشجعُ مـن أُسـامـة إذْ دُعيتْ نـَزَالِ ولـجَّ في الذعـرِ

العروض المجزوء: الضرب المرفَّل

ولقـــد سبقتهـــمُ إلـــيَّ فلِمَ نزعْتَ وأنت آخِـر

المضمر

وغـــررتني وزعمـــت أنـــــك لابنٌ في الصيف تامر[١]

موقوص

ذهبـــوا إلى أجـلٍ وكـــــل مؤجَّلٍ حتيٍ كذاهـب

الضرب المذال

جَـدَثٌ يكـون مقـامـــه أبـدا بمختلـف الريـاح

مضمر

وإذا اغتبطـت أو ابتـأســـــت حمدت ربَّ العـــالمين

موقوص

كتـــب الشقـــاء عليهما فهمـــا لـــه متيســران

مخزول

جـــاوبـــت إذا دعـــاك مُعـــالِنـــاً غير مُخـــاف

الضرب المجزوء

وإذا افتقـــرت فلا تكـــن متخشِّعـــاً وتجمَّـــلِ[٢]

---

(١) اللابن: ذو اللبن، وكثير اللبن. (٢) تجمّل: تصبّر.

مضمر

وإذا الهوى كـــره الهدى وأبي التقَى فاعْـصِ الهوى

موقوص

ولـــو آنها وزنـــت شمام بحلمـــه شـــالـــت لـــه

مخزول

خلطـــت مـــراراتها بحـــلاوة كـالعســـل

الضرب المقطوع الممنوع إلا من إضمار

وإذا هـمُ ذكـروا الإســاء ة أكثـــروا الحســنـــات

مضمر

وأبـــو الحُليس ورَبِّ مكَّـــــــةَ فـــارغ مشغــــولُ

أبيات الهزج

العروض المجزوء الممنوع من القبض: ضربه مثله

إلى هنـــد صبـــا قلبي وهنـــدٌ مثلهـــا يُصْبِـــي

مكفوف

فهـــذان يـــذودان وذا مـــن كَثَـب يَـرمـي

مقبوض

فقـــالـــت لا تخف شيئـــاً فما عنـــدك مِـــنْ بـــاس

أثرم

أعـــادوا مـــا استعـــاروه كـــذاك العيش عـــاريـــه

أحزب

ولو كان أبو بشر أميراً ما رضيناه

أبتر

وفي الذين ماتوا وفيما جمعوا عِبره

الضرب المحذوف

وما ظهري لباغي الضيم بالظهر الذلول

مثله

قتلنا سيّد الخزرج سعد بن عباده

أبيات الرجز

العروض التام: الضرب التام

دار لسلمى إذا سُليمى جارة قفرٌ ترى آياتها مثلَ الزُبر

مخبون

وطالما وطالما سَقَى بكفِّ خالد وأطعما

مطوي

فأرسل المهر على آثارهم وهيأ الرمح لطعنٍ فطَعَن

مخبول

ما ولدت والدة من ولد أكرم من عبد مناف حسبا

الضرب المقطوع الممنوع من الطي

القلب منها مستريح سالم والقلب مني جاهد مجهود

لا خير فيمن كفَّ عنا شرَّهُ إذا كان لا يُرجَى ليومٍ خيرُهُ

العروض المجزوء: الضرب المجزوء

قد هاج قلبي منزل من أمّ عمرو مقفر

مخبول

مات الفَعال كله إذ مات عبدُ ربِّهِ

مطوي

هل يستوي عندك من تهوى ومن لا تَمقه

مخبول

لامتك بنت مَطَر ما أنت وابنة مطر

العروض المشطور

الضرب المشطور

ما هاج أحزاناً وشجواً قد شجا

إنك لا تجني من الشوك العنب

مخبون

قد تعلمون أنني ابن أختكم

مطوي

ما كان من شيخك إلا عمله

مخبول

هلا سألت طللا وخيما

مطوي العروض المنهوك

يـــا ليتني فيهـــا جَـــذَعْ   أخـــبُّ فيهـــا وأضـــع

مخبون

فارقت غير وامق

مخبول

يا صاح فيما غضبوا

أبيات الرمل

العروض المحذوف والجائز فيه الخبن
الضرب المتمم

مثل سَحْق البُـردِ عفَّـى بعـدك الـــــقَطـرُ مغنـاه وتـــأويـــبُ الشَّمال

مخبون صدر

وإذا رايـــــةُ مجدٍ رُفعـــــت   نهض الصّلتُ إليهـا فَحَـواهـا

مكفوف عجز

ليس كـل مـن أراد حـاجـة   ثم جـدّ في طِلاَبها قضـاهـا

مشكول عجز

فدعوا أبـا سعيـد عـامـراً   وعليكم أخـاه فـاضربعوه

مشكول طرفان

إنّ سعــداً بطــل مُمارسٌ صابر محتسب لما أصابـه

الضرب المقصور

يـا بني الصيـداء ردّوا فـرسي إنما يُفعـل هـذا بـالـذليـلْ

أحدثْ كسري وأمسي قيصرٌ مُغلقاً من دونـه بـابُ الحديـد

الضرب المحذوف الجائز فيه الخبن

قـالـت الخنســاء لما جئتهــا شاب بعدي رأس هذا واشتَهـبْ (١)

مخبون

كيف ترجون سقوطي بعـدمـا لفـع الرأسَ مشيـبٌ وصلَـع

الضرب المشبع

يـا خليليّ اربعـا فـاستـــخبرا رسمـاً بعسفــان

مخبون

واضحــات فــارسيــا ت وأدم عـــربيـــات

الضرب المجزوء

مقفــرات دارســات مثــل آيــات الزبــور

الضرب المشبع

لان حتى لـــو مشى الذَّ رُّ عليـه كـاد يـدميـه

الضرب المحذوف الجائز فيه الخبن

مـا لما قـرّت بـه العيـ ـنان مـن هـذا ثمن

---

(١) اشتهب: شاب.

مخبون

قلبـــه عنـــد الثريـــا بـــائـــن مـــن جســـده

أبيات السريع

قد يدرك المبطـيء مـن حظِّـه والخير قد يسبق جهد الحريـص

العروض المكفوف: المطوي اللازم الثاني

الضرب الموقوف اللازم الثاني

أزمان سلمى لا يرى مثلهـا الـ ـراءون في شامٍ ولا في عـراق

مخبول

قـــالها وهــــو بها عـــارف ويحك أمثـال طـريـف قليـــل

مخبون

أَرِدْ مـن الأمـور مـا ينبغـــي ومـــا تُطيقـــه ومـــا يستقيم

الضرب المكسوف اللازم الثاني

لا تكسـع الشَّـولَ بـأغبـارهـا إنك لا تدري مـن النـاتـج[1]

هاج الهوى رسم بـذات الغضى مُخلـولـق مستعجـم مُحْـولُ

الضرب الأصلم السالم

قالت ولم تقصـد لقيـل الخفَـا مهلا فقـد أبلغـــت أسماعـــي

الضرب المخبون المكسوف

النشر مسـك والوجـــوه دنـــا نير واطـراف الأكـف عَنَـم

---

(١) الشوْل: البقيّة من اللبن في الضرع.

يـــأيها الزاري على عمـــرو قـد قلـت فيـه غير مـا تعلم[1]

العروض المشطور الموقوف الممنوع من الطيّ

يا صاح ما هاجك من ربع خال ينضحن في حافاتـه بـالأبـوال

مخبون

لا بد منه فاحذرَن وإن فَتَنْ

مشطور

يا صاحبي رحلي أقِلا عذلي

مخبون

الضرب المشطور المكسوف الممنوع من الطيّ

يا رب إن أخطأت أو نسيت

وبلدة بعيدة النياط

أبيات المنسرح

العروض الممنوع من الخبل: الضرب المطوي

إن ابن زيـد مـا زال مستعملا للخير يهدي في مصره العُـرفـا

من لم يَمُت عبطـة يمت هَـرمـا والموتُ كأسٌ والمرءُ ذائِقُها[2]

مثله

إن سميرا أرى عشيرتــــــه قد حدبوا دونه وقد أنفـوا[3]

---

(١) الزاري: العاتب والمعيب.

(٢) مات عبطة: مات شابا سليما لم تصبه علّة.

(٣) سمير: على هيئة التصغير: اسم رجل.

المطوي

منازل عفاهن بذي الأراك   كل وابل مُسبل هطل

مخبون

في بلد معروفة سمته   قطعه عابر على جمل

مخبول

صبراً بني عبد الدار

العروض المنهوك المكسوف الممنوع من الطي: ضربه مثله

ويل آمّ سعد سعدا

أبيات الخفيف

العروض التام: الضرب التام الجائز فيه التشعيث

حلّ أهلي بطنَ الغُميس فبادوا   لي وحلت عُلويّة بالسخال
ليس من مات فاستراح بميْتٍ   إنما الميت ميّتُ الأحياء

مخبون صدر

وفؤادي كعهده بسليمى   بهوى لم يزل ولم يتغير

مكفوف عجز

وأقل ما يظهر من هواكا   ونحن نستكثر حين يبدو

مشكول عجز

إن قومي جحاجحة كرام   متقادم مجدهم أخيار[1]

---

(١) الجحاجحة: جمع جحجاح: وهو السيد الكريم.

مشكول طرفان

الضرب المحذوف الجائز فيه الخبن

إن قدرنـا يـومـا على عـامـر　　نمتثـل منـه أو نـدعــه لكـم

مخبون

رب خـرق مـن دونها قــذف　　مـا بـه غير الجنّ مــن أحــد

العروض المجزوء : الضرب المجزوء

ليـت شعــري مــاذا تــرى　　أم عمـــرو في أمـــرنـــا

مثله

اسلمـــي أمَّ خـــالـــد　　رُبَّ ســاعٍ لقـــاعـــد

الضرب المقصور المخبون

كل خطب إن لم تكونوا غضبتم يسير

أبيات المضارع

العروض المجزوء الممنوع من القبض

وإن تَــدْنُ سنـــه شبرا　　يقــربــك منـــه بـــاعـــا

مقبوض

دعـــاني إلى سعـــاد　　دواعـــي هـــوى سعـــاد

أحزب

وقد رأيـت مثـل الرجـال　　فما أرى مثـــل زيـــد

أشتر

قلنـــا لهم وقـــالـــوا كـــل لـــه مقـــال

أبيات المقتضب

العروض المجزوء المنطوي: الضرب المجزوء المنطوي

هـــل علـــيّ ويحكمـــا إن لهوتُ مـــن حَـــرج

مخبون

أعـــرضـــت فلاح لها عـــارضـــان كـــالبرد

أبيات المجتث

العروض المجزوء

البطـــن منهـــا خميـــص والوجـــه مثـــل الهلال

الضرب المجزوء

ولـــو علقـــت بسلمـــى علمـــت أنْ ستمـــوت

أولئـــك خير قـــومـــي إذْ ذكـــر الخيـــار

أنت الذي ولدتك أسماء بنت الحباب

أبيات المتقارب

العروض التام الجائز فيه الحذف والقصر: الضرب التام

فـــأمـــا تميم تميم بن مـــر فألقاهم القوم رَوْبَى نيامـــا (١)

---

(١) روبى: مختلطو النفوس.

مثله

فلا تعجلَنّي هــداك المليــك   فــإن لكــل مقــام مقــالا

مقبوض

أفــاد فجــاد وســاد وزاد   وذاد وعــاد وقــاد وأفْضَــل

أثلم

رمينا قصاصا وكـان التقـاصّ   حقّـاً وعــدلاً على المسلمينـا

المجزوء المعتمد

ورَوحــك في النــادي   وتعلم مــا في غــدٍ

أثرم

قلــت ســدادا لمن جــاءي   فأحسنت قولا وأحسنتُ رأيـا

مثل الأوّل

ولــولا خــداش أخــذت دواب سعــد ولم أعطــه مــا عليهــا

الضرب المقصور

ويـأوى إلى نسـوة بـائســات   وشُعْث مراضيع مثل السِّعـالى[1]

مثله

على رسم دار قفــار وقفــتُ   ومن ذِكر عهد الحبيب بكيــتُ

من مقصور

الضرب المحذوب المعتمد

وأبني من الشعر شعرا عويصـا   يُنَسِّــى الرواة الذي قــد رَوَوْا

★★★

(١) السُّعالى: جمع السعلى، وهي الغول.

سبتني بخدّ وجيـــــد ونحر غـــداة رمتني بـــأسهمهـــا

الضرب الأبتر: غير معتمد الاعتماد في المتقارب

بإثبات النون في « فعولن » التي قبل القافية

خليليّ عُــوجــا على رسم دار خلَتْ مـن سليمـى ومـن ميَّـه

مثله

صفيـة قُـومـي ولا تعجـزي وبكِّـى النســاء على حمْـزَهْ

الضرب المحذوب

أمـــن دمنـــة أقفـــرت لسلمـــى بـــذات الغضـــا

علل القوافي

القافية حرف الرويّ الذي يُبنى عليه الشعر، ولا بد من تكريره فيكون في كل بيــت؛ والحروف التي تلـزم حـرف الرويّ أربعـة: التـأسيس، والردف، والوصــل، والخروج.

فأما التأسيس فألف يكون بينها وبين حرف الروى حرف متحرك بأي الحركات كان، وبعض العرب يسميه الدخيل، وذلك نحو قول الشاعر:

« كِليني لِهَمّ يا أُمَيْمَةُ ناصِب »

فالألف من « ناصب » تأسيس، والصاد دخيل، والباء رويّ، والياء المتولدة من كسرة الباء وصل.

وأما الردف فإنه احد حروف المدّ واللين، وهي: الياء، والواو، والألف؛ يدخله قبل حرف الرويّ؛ وحركة ما قبل الردف بالفتح إذا كان الردف ألفا، وبالضم إذا كان واواً، وبالكسر إذا كان ياءً مكسوراً ما قبلها؛ وقد تجتمع الياء والواو في شعر واحد. لأن الضمة والكسرة أختان، كما قال الشاعر:

أجـارَة بيْتَيْنـا أبـوكِ غيـورُ ... وميْسورُ ما يُرْجى لديْـكِ عسيرُ

فجاء بغيور مع عسير، ولا يجوز مع الالف غيرها، كما قال الشاعر:

بانَ الخليط ولو طوّعْت ما بَانا (١)

وجنس ثالث من الردف، وهو أن يكون الحرف قبله مفتوحاً ويكون الردف ياء أو واواً، نحو قول الشاعر:

كنتُ إذا ما جِئْتهُ من غيْبِ ... يشمُّ رأسي ويشُمُّ ثـوبي

وأما الوصل فهو إعراب القافية وإطلاقها؛ ولا تكون القافية مطلقة إلا بأربعة أحرب: ألف ساكنة مفتوح ما قبلها من الروي، وياء ساكنة مكسور ما قبلها من الرويّ، وهاء متحركة أو ساكنة مكنية ولا يكون شيء من حروف المعجم وصلا غير هذه الاربعة الاحرف: الالف، والواو، والياء، والهاء المكنية، وإنما جاز لهذه أن تكون وصلا ولم يجز لغيرها من حروف المعجم، لان الالف والياء والواو حروف إعراب ليست أصليات وإنما تتولد مع الإعراب وتشبّهت الهاءُ بهن لانها زائدة مثلهن، ووجودها يكون خلفاً منهن في قولهم: أَرَقْتُ الماء، وهَرقت الماء، وأيا زيد، وهيا زيد؛ ونحو قول الشاعر:

قد جُمِعت من أمْكِنٍ وأمكِنَهْ ... من هاهُنا وهاهنا ومن هُنَهْ

وهو يريد: هنا؛ فجعل الهاء خلفا من الألف.

وأما الخروج، فإن هاء الوصل إذا كانت متحركة بالفتح تبعتها ألف ساكنة وإذا كانت متحركة بالكسر تبعتها ياء ساكنة، وإذا كانت متحركة بالضم تبعتها واو ساكنة، فهذه الالف والياء والواو يقال لها الخروج، وإذا كانت هاء الوصل ساكنة لم يكن لها خروج، نحو قول الشاعر:

ثارَ عجاجٌ مُستطِيرٌ قَسْطَلُهْ (٢)

---

(١) الخليط: يطلق على الصاحب والشريك والجار. (٢) العجاج: الغبار.

وأما الحركات اللوازم للقـوافي فخمس، وهـي: الرس، والحذو، والتـوجيـه، والمجري، والنفاذ.

فأما الرس ففتحة الحرف الذي قبل التأسيس.

وأما الحذو ففتحة الحرف الذي قبل الردف او ضمته او كسرته.

وأما التوجيه فهو ما وجه الشاعر عليه قافيته من الفتح والضم والكسر؛ يكون مع الروى المطلق او المقيد إذا لم يكن في القافية ردف ولا تأسيس.

وأما المجرى ففتح حرف الروى المطلق او ضمته أو كسرته.

وأما النفاذ فإنه فتحة هاء الوصل أو كسرتها او ضمتها؛ ولا تجوز الفتحة مع الكسرة، ولا الكسرة مع الضمة؛ ولكن تنفرد كل حركة منها على حالها.

وقد يجتمع في القافية الواحدة: الرس، والتأسيس، والدخيل، والروي، والمجرى والوصل، والنفاذ، والخروج؛ كما قال الشاعر:

يوشك مَنْ فرّ من مَنيّتِه ... في بعـضِ غِـرّاتـه يُـوافِقُهـا

فحركة الواو الرس، والالف تأسيس، والفاء دخيل، والقاف رويّ، وحركته المجرى، والهاء هاء الوصل، وحركتها النفاذ، والالف الخروج.

ونحو قول الشاعر:

عفتِ الدِّيار محلّها فمقامُها

فحركة القاف الحذو، والالف الردف، والميم الرويّ: وحركتها المجرى، والهاء وصل، وحركتها النفاذ، والالف الخروج.

وكل هذه الحروف والحركات لازمة للقافية.

باب ما يجوز أن يكون تأسيسا

وما لا يجوز

إذا كان حرف الالف، الفِ التأسيس، في كلمة، وكان حرف الروي في كلمة أخرى منفصلة عنها؛ فليس بحرف تأسيس؛ لانفصاله من حرف الرويّ وتبعاعده منه، لأن بين حرف الروي والتأسيس حرفاً متحركاً، وليس كذلك الردف؛ لأن الردف قريب من الرويّ ليس بينهما شيء؛ فهو يجوز ان يكون في كلمة ويكون الروي في كلمة أخرى منفصلة منها، نحو قول الشاعر:

أَتَتْـهُ الخِلافـــةُ مُنقـــادةً إليـــه تُجَـــرِّرُ أذيـــالَهـــا
فلم تـــكُ تصلُـــحُ إلاّ لـــه ولم يـــكُ يصلُـــحُ إلاّ لها

فألف « إلا » ردف واللام حرف الروي، وهي في كلمة منفصلة من الردف فجاز ذلك، لقرب ما بين الردف والروي، ولم يجز في التأسيس لتباعده من الروي، نحو قول الشاعر:

فهُـنَّ يعكُفْـنَ بـه إذا حَجـا عكفَ النَّبيطِ يلعبونَ الفَنزجَا(١)

فلم يجعلها تأسيساً لتباعدها عن الروي وانفصالها منه؛ ومثله:

وطـــالَما وطـــالَما وطـــالَما غلْبت عـاداً وغَلَبْـت الأعجما

فلم يجعل الألف تأسيساً.

وقد يجوز أن تكون تأسيساً إذا كان حرف الرويّ مضمراً، كما قال زهير:

أَلا ليْت شِعْري هل يرى الناسُ ما أَرى مـن الامـر أو يَبـدو لهم مـا بـدَا ليـا

فجعل ألف بدا ليا تأسيساً وهي [في] كلمة منفصلة من القافية لما كانت القافية في مضمر؛ وكذلك قول الشاعر:

---

(١) الفنزج: يعني به رقص المجوس، وقيل رقص العجم اذا أخذ بعضهم يد بعض وهم يرقصون.

وقد ينْبُت المرْعى على دِمَنِ الثَّرى   وتبقى حَزازاتُ النُّفوس كما هيَا[1]

وأما « غلامك » و« سلامك » في قافية فلا تكون الالف إلا تأسيساً ؛ لان الكاف التي هي حرف، لا تنفصل من « غُلام » .

باب ما يجوز أن يكون حرف رويّ

وما لا يجوز أن يكونه

أعلم أن حروف الوصل كلها لا يجوز أن تكون رويا ، لانها دخلت على القوافي بعد تمامها ، فهي زوائد عليها ، ولانها تسقط في بعض الكلام؛ فإذا كان ما قبل حرف الوصل ساكناً فهو حرف الرويّ، لانها لا تكون [وصلا] وقبلها حرف الروي ساكنا ؛ نحو قول الشاعر:

أصبحَت الدنيا لأرْبابِها   مَلْهى وأصبحْتُ لها ملْهَى
كأنني أُحْرَم منها على   قدْرِ الذي نالَ أبي منها

وإذا حُرِّكت ياء الوصل أو واو الوصل ، جاز لها أن تكون رويا ، كما قال زهير :

ألا ليت شِعري هل يرى الناسُ ما أرى   من الأمر أو يَبْدو لهم ما بدا ليا

وقال عبد الله بن قيس الرّقيّات:

إنّ الحوادثَ بالمدينةِ قد   شيَّبْتني وقَرعْن مَرْوتَيهْ[2]

كذلك الهاء من طلحة وحمزة وما أشبهها ، [يجوز أن تكون وصلاو] ان تكون رويا ؛ [الجواز] أن تُطلق فتعود تاء ؛ فإذا كان ذلك فأنت فيها بالخيار: إن شئت جعلتها رويا ، أو وصلا لما قبلها ؛ وجعلها أبو النجم رويا فقال:

أقولُ إذ جِئْنَ مُرَبّجاتِ   ما أقرب الموت من الحياةِ[3]

---

(١) الدِّمن: جمع الدِّمنة: وهي آثار الناس وما سوّدوا : وآثار الدار؛ والمزبلة، أو الحقد القديم الدائم .

(٢) المرو: حجارة بيض رقاق براقة تقدح منها النار .

(٣) الرّابج: الممتلىء الريان .

كذلك التاء [من] نحو اقشعرت واستهلّت، والكاف [من] نحو مالكا وفعالكا، فقد يجوز أن تكون رويا، وقد يجوز أن تكون وصلا؛ وإنما جاز أن تكون رويا، لانها أقوى من حرف الوصل؛ وجاز أن تكون وصلا، لانها دخلت على القوافي بعد تمامها؛ وقد جعلت الخنساء التاء وصلا ولزمت ما قبلها، فقالت:

أعَيْنيَّ هلاَّ تبْكيـــــان أخـــــاكما　　　إذا الخيلُ من طَول الوجيفِ ٱقشَعَرّتِ[1]

فلزمت الراء في الشعر كله وجعلت التاء صلة. وقال آخر فجعل التاء رويا:

الحمـــــدُ لله الذي ٱستَقلّـــــتِ　　　بـــإذْنـــــهِ السَّماءُ وٱطمأنّـــــتِ

وقال حسان فجعل الكاف رويا:

دَعوْا فلجاتِ الشامِ قـد حِيـل بينهـا　　　بطعْنٍ كأفـواهِ المخـاضِ الاوارِكِ[2]

بأيْـدي رجـالٍ هـاجـروا نحو ربِّهـم　　　بـأسيـافِهِـم حقًّـا وأيـدي الملائـك

وقال:

إذا سَلكَتْ بالرَّملِ من بطنِ عالجٍ　　　فقولا لها ليس الطـريـق هُنـالـكِ

وهنالك كافها زائدة، تقول للرجل هنالكَ، وللمرأة هنالِكِ.

وقال غيره:

أيا خالِدا يا خير أهل زمانِكـا　　　لقد شغل الافواهَ حُسْنُ فعالِكـا

فجعل الكاف رويّاً، وقد يجوز أن تكون وصلا ويُلَزَم ما قبلها؛ وكذلك فعالكم وسلامكم: الميم الآخرة حرف الروي، كما قال الشاعر:

بنو أُميَّـة قـومٌ مـن عجِيبِهـم　　　أنّ المنُونَ عليهم والمنـونُ هـمُ

الميم حرف الرويّ؛ وقد جعلها بعض الشعراء وصلا مع الهاء والكاف التي قبلها،

---

(١) الوجيف: الإسراع في السير.

(٢) الفلجات: المزارع

لانهما حرفا إضمار، كالهاء والكاف، ولحقت الاسم بعد تمامه كما لحقت الهاء والكاف في نحو قوله:

زُرْ والديْكَ وقفْ على قبْـريْهِما   فكأنَّني بـك قـد نُقلْـت إليهما

ومثله لامية بن أبي الصلت:

لبَّيْكُما   لبَّيْكُما   هـــا أنــــاذا لـــديْكُما

وأما النسبة، مثل ياء قرشي وثقفي وما أشبه ذلك، إذا كانت خفيفة فأنت فيها بالخيار: إن شئت جعلتها رويا، وإن شئت وصلا، نحو قول الشاعر:

إني لَمِنْ أنكـرَني آبن اليثرِبـي   قتلْـتُ عِلْبـاء وهنـدَ الجملِـي

فجعل الياء الخفيفة رويا؛ وإذا كانت النسبة مثقلة، مثل قرشي وثقفّي، لم تكن إلا رويا.

وإذا قال شعرا على «حصاها» و«رماها»، لم تكن الهاء الا حرف الرويّ، ومن بنى شعرا على «اهتدى» فجعل الدال رويا، جاز له ان يجعل مع ذلـك «أحمدا»؛ وإن جعل الياء من «اهتدى» حرف الروي، لم يجز معها «أحمدا» وجاز له معها «بشرى، وحبلى، وعصا، وأفعى»؛ ومن ذلك قول الشاعر:

دَاينتُ أرْويَ والدُّيونُ تُقْضَـى   فمطَلَـت بعضـاً وأدّت بعضـا

فلزم الضاد من «تقضى» وجعل الياء وصلا، فشبهها بحرف المد الذي في القافية، ومثله:

ولأنتَ تَفْرِي ما خلَقْـتَ وبعـ   ضُ القوْمِ يخلُـقُ ثم لا يَفْـرِي

ومثله:

هَجَرتْك بعد تَـواصُـل دَعْـدُ   وبدا لِدَعْـدٍ بعـضُ مـا يبْـدو

و«يرمي» مع «يقضي» جائز إذا كان الياء حرف الرويّ لانها من أصل الكلمة.

ومما لا يجوز أن يكون رويـــا، الحروف المضمـــــــــــرة كلها؛ لدخولها على

القوافي بعد تمامها، مثل: اضربا، واضربوا، واضربي، لان الف «اضربا» لحقت اضرب وواو «اضربوا» لحقت اضرب، وياء «اضربي» لحقت اضرب ـ بعد تمامها، فلذلك كانت وصلا؛ ولانها زائدة مع هذا في نحو قول الشاعر:

لا يُبعِدُ اللهُ جيراناً تـركتُهُـم   لم أدرِ بعدَ غَداةِ البَيْن ما صَنَـعُ

يريد: ما صنعوا. ومثله:

يـا دارَ عَبْلَـةَ بالجواءِ تكلَّمـي   وعَمِي صباحا دارَ عبْلَـةَ واْسلمِ

يريد: واسلمي، فجعل الياء وصلا؛ وبعضهم جعلها رويا على قبح.

وأما ياء «غلامي» فهي أضعف من ياء «اسلمي»؛ لانها قد تحذف في بعض المواضع تقال: هذا غلام، تريد غلامي، وقالوا: يا غلام أقبل، في النداء وواغلاماه، فحذفوا الياء؛ وبعضهم يجعلها رويا على ضعفها، كما قال:

إني آمرؤ أَحمِي ذِمـارَ إخـوَتي   إذا رأوا كريهةً يَـرمـونْ بي

ومثله:

إذا تغـدَّيْـتُ وطـابـت نفْسي   فليس في الحيِّ غلامٌ مِثْلي

قال الاخفش: وقد كان الخليل يجيز «إخواني» مع «أصحابي» ويأبى عليه العلماء؛ ويحتج بقول الشاعر:

بازِلُ عـاميْـن حـديـثٌ سِنِّـي   لمثْـل هـذا ولـدَتْني أُمِّـي[1]

وحرف الإضمار إذا كان ساكناً كان ضعيفاً، فإذا تحرّك قوي وجاز أن يكون رويا؛ كقول الشاعر:

ألا ليْت شِعْري هل يَرى الناسُ ما أرى   مـنَ الأمـر أو يَبْـدو لهم مـا بَـدا ليـا

وإنما جاز للكاف أن يكون رويا ولم يجز ذلك للهاء وكلاهما حرف إضمار، لان

---

(١) البازل: السن تطلع وقت البزول.

الكاف أقوى عندهم من الهاء وأثبت في الكلام، وإذا خاطبت الذكر والمؤنث لا تُبدل صورتها كما تبدل الهاء في غلامه وغلامها، وإذا قلت: مررت بغلامك، ورأيت غلامك؛ فالكاف في حال واحدة، والهاء مضطربة في قولك: رأيت غلامه، ومررت بغلامِهِ؛ وإنما جاز فيها ان تكون وصلا أيضاً كما تكون الهاء، لانها تشبهت بالهاء؛ إذ كانت حرف إضمار كالهاء، ودخلت على الاسم كدخول الهاء، وكانت آسماً للحرف كما تكون الهاء؛ وإنما خالفتها بالشيء اليسير؛ وأما قولك: آرمِهِ، وآغزِهِ، فلا تكون الهاء ههنا رويا؛ لانها لحقت الاسم بعد تمامه، ولانها زوائد فيه وأنها دخلت لتبين حركة [الزاي] من آغزه والميم من آرمه؛ وقد تكون تدخل للوقف أيضاً.

واذا كانت الهاء اصلية لم تكن إلا رويا، مثل قول الشاعر:

قــالــت أبِنّــا لي وإلا أسفَــهِ   مــا السُّوءُ إلا غفلــةُ المدلَّــهِ

ومن بنى شعرا على «حيّ» جاز له فيه «طيّ» و«رمى»؛ لأنّ الياء الاولى من حيّ، ليست بردف، لانها من حرف مثقل قد ذهب مدُّه ولِينه، قال سيبويه: وإذا قال الشعر: تعالَيْ، أو تعالَوا، لم تكن الياء والواو إلا رويا؛ لانَ ما قبلهما انفتح، فلما صارت الحركة التي قبلهما غير حركتهما ذهبت قوّتهما في المدّ وأكثريتهما، وكذلك: أخشَى واخشَوا، وكل ياء أو واو انفتح ما قبلها؛ وكذلت هذه الياء والواو إذا تحرّكتا لم تكونا إلا حرف روي، لذهاب اللين والمدّ وكذلك قوله: رأيت قاضيا، وراميا، وأريدُ ان يغزو، وتدعو، في قافيتين من قصيدة.

وأمّا الميم من غلامهم وسلامهم، فقد تكون رويا، وقد تكون وصلا ويُلزم ما قبلها؛ كما قال الشاعر:

يــا قــاتَــلَ الله عُصبــةً شَهِـدوا   خِيف مِنّي لي ما كان أسرَعهـمْ
إن نَـزَلـوا لم يكـن لهم لبـــثٌ   أو رَحلوا أعجَلـوا مـودِّعَهـم
لا غفـــرَ الله للحَجيـــج إذا   كــان حبيبي إذا نـأَوْا معهـم!

فالعين هنا حرف الرويّ، والهاء والميم صلة، كحروف الإضمار كلها التي تقدّم

ذكرها، ولا يحسن أن يكون رويا إلا ما كان منها محرّكا؛ لأنّ المتحرّك أقوى من الساكن، وذلك مثل ياء الإضافة التي ذكرنا، أو ما كان منها حرفا قوياً: مثل الكاف والميم والنون؛ فإنها تكون رويا ساكنة كانت أو متحرّكة؛ وذلك مثل قول الشاعر:

قِفي لا يكن هذا تَعِلَّةَ وصْلنـا   لِبَيْن، ولا ذا حظَّنا من نَـوالِكِ

ثم قال:

أَبَــرُّ وأَوْفـى ذمّـــةً بعهـــودهِ   إذا وازنتْ شُمَّ الذُّرَى بـالحَوارِكِ

وقال آخر:

قــل لمن يَملــك الملـــو   كَ وإن كـان قــد ملــكْ
قـــد شرَيْنـــاكَ مـــرة   وبَعثنـــا إليـــك بِــكْ

وقال آخر في الهاء:

رموْني وقالوا يا خُـويْلـد لا تُـرَعْ   فقلتُ وأنكرتُ الوجـوهَ هـمُ هـمُ

ولآخر:

نَمـتْ في الكـرام بني عـامـر   فُروعي وأصْلي قـريشُ العَجَـمْ
فهُــم لي فخْــر إذا عــدّدوا   كما أنـا في النـاس فخـر لهم

وقال آخر في النون:

طَرَحتم من التَّرحـال أمـراً فعمَّنـا   فلو قد رحَلتم صبَّح الموتُ بعضَنـا

وقال آخر:

فهــل يَمنعني آرتيــادي البلا   دَمـن حـذَر الموت أن يـأْتيَـنْ
أليس أخـو الموت مُستـوثِقـاً   عليَّ فـإن قلـت قــد أنســأَن

وأمّا الهاء فقد أجمعوا ان لا تكون رويا لضعفها، إلا أن يكون ما قبلها ساكنا كما قد ذكرنا.

ومن بنى شعراً على « آخشَوْا » جاز له معها « طغَوا ، وبغَوا ، وعصَوا » ، فتكون الواو رويا لانفتاح ما قبلها وظهورها ، مع القبح ، لانها مع الضمة صلة ، ولا تكون هذه إلا رويا .

باب عيوب القوافي

السناد ، والإيطاء ، والإقواء ، والإكفاء ، والإجازة ، والتضمين ، والإصراف .

السناد على ثلاثة أوجه: الأوّل منها اختلاف الحرف الذي قبل الردف بالفتح والكسر نحو قول الشاعر:

ألم تَـرَ أنّ تغلِـبَ أهـلُ عـزّ   جبـالُ مَعـاقِـل مـا يُـرتقيْنـا
شربنـا مـن دمـاء بني تميمٍ   بـأطـرافِ القَنـا حتى رَوِينـا

والوجه الثاني اختلاف التوجيه في الروي المقيد ، وهو اجتماع الفتحة التي قبل الروي مع الكسرة والضمة كهيئتها في الحذو ، وذلك كقوله :

وقاتِـمِ الأعْماق خـاوِي المختَـرَقْ   ألّفَ شتّى ليس بالـراعـي الحمِـقْ

ومثله :

تميمُ بن مُـرّةٍ وأشيـاعُـه   وكِنْـدَة حـوْلي جميعـاً صُبُـر
إذا رَكِبوا الخيـلَ وآستَلأمُـوا   تحرّقـتِ الارضُ واليـومُ قَـر

والوجه الثالث من السناد أن يُدخل حرف الردف ثم يدعه ، نحو قول الشاعر :

وبالطوْف بالاخيار ما اصطحابـه   وما المرءُ إلا بـالتقلّـب والطّـوْفِ
فِراق حبيـبٍ وانتِهـاءٌ عـن الهوى   فلا تَعذليني قد بَدا لك ما أُخْفـي

وأمّا القافية المطلقة فليس اختلاف التوجه فيها سنادا .

وأمّا الإقواء والإكفاء فهما عند بعض العلماء شيء واحد ، وبعضهم يجعل الإقواء في العروض خاصة دون الضرب ، ويجعلون الإكفاء والإيطاء في الضروب دون

العروض؛ فالإقواء عندهم ان ينتقص قوّة العروض فيكون « مفعولن » في الكامل، ويكون في الضرب « متفاعلن » فيزيد العجز على الصدر زيادة قبيحة، فيقال: أقوَى في العروض، اي أذهَب قوتَه، نحو قول الشاعر:

لمَّا رأتْ مـاءَ السَّلَـى مَشْـروبـاً   والفَرْثَ يُعصَر في الإناءِ أرَنَّـتِ[1]

ومثله:

أفبَعد مقتل مـالـك بن زهيْـر   ترجو النساءَ عَواقبَ الإطهـار

والخليل يسمى هذا المقعر، وزعم يونس أنّ الإكفاء عند العراب هو الإقواء، وبعضهم يجعله تبديل القوافي، مثل أن يأتي بالعين مع الغين، لشبههما في الهجاء، وبالدال مع الطاء، لتقارب مخرجيهما، ويحتج بقول الشاعر:

جـاريـةٌ مـن ضَبَّـة بن أُدّ   كأنها في ذِرْعها المُنْغَـطِّ...[2]

والخليل يسمي هذا: الإجازة، وأبو عمرو يقول: الإقواء: اختلاف إعراب القوافي بالكسر والضم والفتح؛ وكذلك هو عند يونس وسيبويه؛ والإجازة عند بعضهم: اجتماع الفتح مع الضم أو الكسر في القافية، ولا تجوز الإجازة إلا فيما كان فيه الصول هاء ساكنة؛ نحو قول الشاعر:

الحمـــدُ لله الـــذي   يَعفـو ويشتـدّ انتقـامُـهْ
وربُّنـــا رَّبهـــمُ   لا يستطيعـون اهتِضـامَـهْ

ومثله:

فديْـتُ مـن أنْصفَني في الهوى   حتى إذا أحكمَـه مَلَّـهُ
أبِـنّ مـا كنـت ومَـن ذا الذي   قبلـي صَفَـا العيشُ لـه كلُّـهُ

والإكفاء: اختلاف القوافي بالكسر والضم عند جميع العلماء بالشعر، إلا ما ذكر يونس.

---

(١) أرنت المرأة: ناحت وصوتت وصاحت. (٢) المنغط: المنشق.

وأمّا المضمّن، فهو أن لا تكون القافية مستغنية عن البيت الذي يليها نحو قول الشاعر:

وهُـــم وردُوا الجِفـــارَ علـــى تميمٍ   وهم أصحابُ يومِ عِكـاظ أني[1]
شهِـدْتُ لهم مـواطِـنَ صـــالحاتٍ   تُنَبِّيهِـــمْ بِـــوُدِّ الصَّـــدْرِ منِّـــي

وهذا قبيح؛ لان البيت الاول متعلق بالبيت الثاني لا يستغني عنه، وهو كثير في الشعر.

وأما الإيطاء وهو أحسن ما يعاب به الشعر، فهو تكرير القوافي؛ وكلما تباعد الإيطاء كان أحسن، وليست المعرفة مع النكرة إيطاء؛ وكان الخليل يزعم أن كل ما اتفق لفظه من الاسماء والافعال، وإن اختلف معناه، فهو إيطاء؛ لان الإيطاء عنده إنما هو ترديد اللفظتين المتفقتين من الجنس الواحد، إذا قلت للرجل تخاطبه: أنت تضرب، وفي الحكاية عن المرأة: هي تضرب، فهو إيطاء وكذلك في قافية: أمرٌ جلَل، وأنت تريد تعظيمه، وهو في قافية أخرى: جلَلَ، وأنت تريد تهوينه ـ فهو إيطاء.

... حتى إذا كان اسم مع فعل، وإن اتفقا في الظاهر، فليس بإيطاء، مثل اسم يزيد، وهو اسم ويزيد وهو فعل.

باب ما يجوز في القافية من حروف اللين

اعلم أن القوافي التي يدخلها حروف المد، وهي حروف اللين، فهي كل قافية حُذف منها حرفٌ ساكن وحركة، فتقوم المدة مقام ما حُذف، وهو من الطويل « فعولن » المحذوف.

ومن المديد « فاعلانْ » المقصور، و« فعْلن » الأبتر.

---

(١) الجفار: جمع الجفر: وهي البئر الواسعة التي لم تبن بالحجارة.

ومن البسيط « فعْلن » المقطوع « مفعولن » المقطوع ، فأما « مستفعلان » المذال فاختلف فيه ، فأجازه قوم بغير حرف مدّ ؛ لانه قد تم وزيدَ عليه حرف بعد تمامه ، وألزمه قول المدّ ، لالتقاء الساكنين ، وقالوا : المدة بين الساكنين تقوم مقام الحركة ، وإجازته بغير حرف مدّ أحسن ، لتمامه .

وأما الوافر فلا يلزم شيء منه حرف مدّ .

وأما الكامل فيدخل منه حرف اللين في « فعلاتن » المقطوع ، وفي « متفاعلان » المذال .

وأما الهزج فلا يلزمه حرف مدّ .

وأما الرجز فيلزم « مفعولن » منه المقطوع حرفُ المدّ .

وأما الرمل فيلزم « فاعلان » وحدها ، لالتقاء الساكنين .

وأما السريع فيلزم « فاعلان » الموقوف ، لالتقاء الساكنين ، وكذلك « مفعولات » .

وأما المنسرح فيلزم « مفعولات » كما يلزم السريع .

وأما الخفيف فإنه يلزم « فعولن » المقصور وإن كان قد نقص منه حرفان وليس في المد خلف من حرفين ، ولكن لما نقص من أول الجزء حرف ، وهو سين « مستفعلن » قام ما أخلف بالمدة مقام ما نقص من آخر الجزء ، لانه بعد المدة .

وأما المضارع والمقتضب والمجتث فليس فيها حرف مدّ ؛ لتمام أواخرها وأما المتقارب فألزموا « فعول » المقصور حرف المدّ : لالتقاء الساكنين . قال سيبويه : وكل هذه القوافي قد يجوز أن تكون بغير حرف المد لأنّ رويها تام صحيح على مثل حاله بحرف المد ، وقد جاء مثل ذلك في أشعارهم ، ولكنه شاذ قليل ، وأن تكون بحرف المد احسن ، لكثرته ولزومِ الشعراء إياه .

ومما قيل بغير حرف مدّ:

ولقد رَحلتُ العيسَ ثم زجرْتُها قدماً وقلتُ عليكِ خيرَ مَعَدِّ

وقال آخر:

إن تَمنَع النومَ النسا يُمنعْن

مقطعات على حروف الهجاء وضروب العروض

ومن قولنا مقطعات على تأليف حروف الهجاء وضروب العروض:

الأول من الطويل: سالم

وأزهرَ كالعُيُّوقِ يَسعى بزهراء لنا منْهُما داءٌ وبُرءٌ من الداءِ[(١)]
ألا بأبِي صُدْغٌ حكى العيْنَ عَطفُهُ وشاربُ مسْكٍ قد حكى عطفَةَ الراءِ
فما السِّحْرُ ما يُعزَى إلى أرضِ بابلٍ ولكنْ فتُورُ اللحظ من طرْفِ حوراءِ[(٢)]
وكفّ أدارتْ مُذهَبَ اللونِ أصفَراً بِمذهبةٍ في راحةِ الكفِّ صفراءِ

الضرب الثاني من الطويل: مقبوض

مُعذِّبتي رْفقاً بقلبٍ مُعذبِ وإن كان يُرضيكِ العذابُ فعذِّبي
لعمْري لقد باعدْت غير مُباعِدٍ كما أنني قرّبتُ غيرَ مقرِّبِ
بنفسِيَ بدرٌ أخمدَ البدْرَ نورُهُ وشمسٌ متَى تبدُو إلى الشمسِ تغْرُبِ
لو آنَّ آمرأَ القيسِ بن حَجرٍ بدتْ لهُ لما قال« مُرا بي على أُمِّ جُنْدُبِ »

الضرب الثالث من الطويل

المحذوف المعتمد

مُحِبٌّ طَوى كشحاً على الزَّفراتِ وإنسانُ عينٍ خاضَ في غَمراتِ[(٣)]

---

(١) العيوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن.

(٢) الحوراء: التي اشتد بياض بياض عينها وسواد سوادها.

(٣) الكشح: ما بين الخاصرة والضلوع.

فيامن بعينَيـهِ سقـامِـي وصحتـي ... ومَن فـي يـديْـهِ ميتَتـي وحيـاتـي
بحبِّكَ عاشَـرت الهمُـومَ صبـابـةً ... كأنِّـي لهـا تِـرْبٌ وهُـنّ لـداتـي
فخدِّيَ أَرض للـدمـوعِ ومُقلتِـي ... سمـاءٌ لهـا تَنهَـلُّ بـالعَبَـرات

الضرب الأول من المديد

وهو السالم

طلَّـقَ اللَّهـوَ فُـؤادي ثلاثَـا ... لا آرتجـاعٌ لـي بعـدَ الثلاثِ
وبيـاضٌ فـي سـوادِ عِـذاري ... بـدَّلَ التَّشْبيـبَ لـي بـالمـراثِـي
غيـرَ أَنِّـي لا أُطيـقُ اصطِبـارا ... وأرانـي صـابـراً لانتِكـاثـي
بـإنـاث فـي صِفـاتِ ذُكـور ... وذُكـورٍ فـي صفـاتِ إنـاثِ

الضرب الثاني من المديد

وهو المقصور اللازم اللين

صـدَعَـتْ قلبـيَ صـدْعَ الزُّجـاجْ ... مـالـهُ مـن حِيلـة أو علاجْ
مَـزَجَـتْ روحِـيَ ألحـاظُهـا ... بـالهـوى فهُـو لـروحـي مِـزاج
يـا قَضيبـاً فـوقَ دعـصِ نَقـا ... وكثيبـاً تحـتَ تِمثـالِ عـاج(1)
أنـتَ نـوري فـي ظلامِ الدُّجَـى ... وسراجـي عنـد فقـد السِّـراج

الضرب الثالث من المديد

وهو المحذوف اللازم اللين

مُستَهـامٌ دمْعُـه سـائـحُ ... بيـنَ جنبيْـه هـوًى فـادحُ
كلمـا أمَّ سبيـلَ الهُـدى ... عـاقـهُ السـانِـحُ والبـارِح

---

(1) الدعص: قطعة من الرمل مستديرة. والكثيب: الرمل المستطيل المحدودب.

حَلَّ فيما بينَ أعدائِه   وهو عن أحْبابِه نازِح
أيُّها القادِح نارَ الهوى   آصْلَها يا أيُّها القادحُ

الضرب الرابع من المديد

وهو المحذوف المقطوع

عادَ منها كلّ مطبوخِ   غيرَ داذِيٍّ ومفضُوخِ [١]
واعْتقِدْ من أهلِ وُدِّ الحِمى   كلَّ وُدٍّ غيْرِ مَشْدُوخِ
وانْتَشِقْ رِيَّاكَ مِنْ مُلْتَقى   شاربٍ بالمِسْكِ ملطوخِ [٢]
إنّ في العِلمِ وآثارِه   ناسخاً من بعدِ منسوخِ

الضرب الخامس من المديد

وهو المحذوف المخبون

يا مجالَ الرُّوح في جسَدي   والذي يَفْتَرُّ عن بَرَدِ
وفريدَ الحُسنِ واحدَه   مُنْتَهاه مُنتهى العدَدَ
خُذْ بكَفِّي إنني غرِقٌ   في بحارٍ جَمَّةِ المدد
ورِياحُ الهجرِ قد هَدَمتْ   ما أقام الوصلُ من أَودي

الضرب السادس من المديد

وهو الأبتر

أذْكَرَتْني طيْرَ تاناذِ   فقُرَى الكَرْخِ ببغداذِ [٣]

---

(١) داذيّ: نبت، وقيل هو شيء له عنقود مستطيل، وحبه على شكل حب الشعير، يوضع منه مقدار رطل في الفرن فتعبق رائحته ويجود إسكاره.

(٢) الريّ: الريح الطيبة.

(٣) طير تاناز: موضع بين الكوفة والقادسية.

قهـــوة ليســـت ببـــاذِقـــةٍ   لا ولا بِتـــــعٍ ولا داذي [1]
مُـرَّةٌ يَهـذِي الحليـمُ بهـا   بـأبـي ذلـك مـن هـاذي
فهي أُستـاذ الشراب بنـا   والمَعـانـي دَأْبُ أُستـاذ

الضرب الأول من البسيط

وهو المخبون

نـورٌ تـولَّـدَ مـن شمسٍ ومـن قمرٍ   فـي طَـرْفِـه قـدَرٌ أمضى مـن القـدر
أَصلَى فؤادي بلا ذنبٍ جَـوَى حـرَقٍ   لم يبْقِ من مُهجَتي شيئاً ولـم يـذَرِ
لا والرَّحيقِ المُصفَّـى مـن مَـراشِفِـه   ومـا بخـديـهِ مـن ورْدٍ ومـن طُـرَرَ
ما أنصفَ الحُبُّ قلبي فـي حُكـومتِـه   ولا عفـا الشـوق عنـي عفـو مُقتـدر

الضرب الثاني من البسيط

وهو المقطوع

خرجْت أجتازُ قفْرا غيْـرَ مُجتـازِ   فصادني أشهلُ العينيـن كـالبـازي
صقـرٌ علـى كفِّـه صقـرٌ يـؤلِّفُـه   ذا فـوْق بغـل وذاك فـوق قُفَّـاز
كم موعدٍ ليَ مـن ألحـاظ مُقْلَتِـه   لو أنـه مـوعـدٌ يُقْضَـى بـإنجـاز
أبكِي ويَضحكُ منِّي طرْفُه هُـزُواً   نفسي الفِداءُ لِذاك الضاحكِ الهازي

الضرب الثالث من البسيط

وهو المجزوء المذال

يـا غصنـاً مـائِسـاً بيـن الرِّيـاط   مالي بعـدَك بـالعيشِ اغْتبـاط [2]

---

(١) الباذق: الخمر الأحمر. والبتع: نبيد يتخذ من عسل كأنه الخمر صلابة، وهي أيضا الخمر، يمانية.
(٢) المائس: المختال.

يـا مَـن إذا مـا بَـدا لـي مـاشيـاً ... ودِدْتُ أنّ لـه خـدِّي بسـاط
تتـركُ عينـاه مَـن أبصره ... مُختلِطـاً عقلُـه كـلَّ اختلاط
قلـت متـى نَلتقـي يـا سيِّـدي ... قـال غـداً نلتقـي عنـد الصراط

الضرب الرابع من البسيط

وهو المجزوء السالم

يـا سـاحـراً طـرْفُـه إذ يَلحَـظُ ... وفـاتِنـاً لفظُـه إذا يَلفِـظُ
يـا غُصُنـاً ينثنـي مـن لِينِـه ... وجهُـكَ مـن كـلِّ عيـن يُحفَـظُ
أيقـظَ طـرْفـي إذا مـا قـد بَـدا ... مـن طـرفِـه نـاعسٌ مُستيقِـظُ[1]
ظَبْـيٌ لـه وجنـةٌ مـن رِقَّـة ... تجـرَحُهـا مُقلَتـي إذ تَلحـظُ

الضرب الخامس من البسيط

وهو المقطوع

يـا مَـن دمـي دونَـه مَسفـوكْ ... وكـل حُـرّ لـه مملـوك
كـأنـه فِضَّـة مَسبـوكـة ... أو ذهـبٌ خـالـصٌ مسبـوك
مـا أطيْـب العيشَ إلاَّ أنـه ... عـن عـاجـلٍ كلُّـهُ متـروك
والخيْـرُ مسـدودة أبـوابُـه ... ولا طـريـقٌ لـه مسلـوك

العروض المقطوع: المجزوء

ضربه مثله

إليـكِ يـا غُـرَّةَ الهِلالِ ... وبِـدعـةَ الحسـنِ والجمـالِ

---

(١) الناعس: الذي فترت حواسه.

مـــدَدتُ كفّــاً بهـــا انقِبـــاضٌ   فـــأيـــن كفّـــي مـــن الهلال
شكــوْتُ مــا بــي إليْــكِ وجْــداً   فلــم تَــرقّــي ولــم تُبــالــي
أعـــاضـــكِ اللهُ عـــن قـــريـــبٍ   حـــالاً مـــنَ السُّقْـمِ مثــلَ حـــالــي

العروض الأول من الوافر: المقطوف

ضربه مثله

بنفسي مَـــن مـــراشفـــه مُـــدامُ   ومَـــن لحظـــاتُ مُقلتِـــه سِهـــام
ومـــن هـــو إن بَـــدا والبـــدرُ تِـــمٌّ   خفـــى مـــن حُسنِـــه البـــدرُ التَّمـــام
أقـــولُ لـــه وقـــد أبـــدى صُـــدوداً   فلا لفـــظٌ إلـــيَّ ولا ابتســـام
تكلـــمْ ليس يُـــوجعُـــكَ الكلام   ولا يمحـــو مَحـــاسنَـــك السلام

العروض الثاني من الوافر مجزوء سالم

ضربه مثله

سلبـــت الرُّوحَ مـــن بـــدِنـــي   ورُعْـــتَ القلـــبَ بـــالحُـــزنِ
فلِـــــي بـــــدن بِلا رُوحٍ   ولـــــي روح بِلا بـــــدنِ
قـــرَنْـــتَ مـــع الرّدَى نفسي   فنفسي وهـــو فـــي قـــرَنِ
فليـــت السحـــرَ مـــن عينيـــ   ـــك لـــم أره ولـــم يَـــرنـــي

العروض الثالث من الوافر: المجزوء المعصوب

غـــزال مـــن بنـــي العـــاصِ   أحسَّ بصـــوْتِ قنَّـــاصِ
فـــأتلـــع جِيـــدَهُ ذُعـــراً   وأشخَـــصَ أيّ إشخـــاصِ
أيـــا مَـــن أخلَصـــت نفسي   هـــواهُ كـــلَّ إخلاصِ
أطـــاعـــكَ مـــن صميـــمِ القلـــ   ـــبِ عفـــواً كـــلُّ مُعْتـــاص

العروض الأول من الكامل: التام

ضربه مثله

في الكِلّـة الصفـراء ريـمٌ أبيـضُ — يشفي القلوبَ بمقْلتيْه ويُمـرِضُ[1]
لمَّا غدا بيـن الحمـولِ مُقَـوِّضـاً — كـادَ الفـؤادُ عـن الحيـاة يُقـوِّض
صَد الكَرى عن جَفْن عينك مُعْرِضاً — لمَّـا رآهُ يصُـدُّ عنـك ويُعْــرِض
أَديْتُ مـن حُبـي إليـك فـريضـة — إن كان حُبُّ الخلْقِ مِمَّا يُفـرَضُ

الضرب الثاني: المقطوع

أومَـتْ إليـك جُفـونُهـا بـوَداعِ — خَودٍ بدتْ لك من وراءِ قنـاعِ[2]
بيضـاءُ أنمـاهـا النعيـمُ بصُفْـرةٍ — فكـأنهــا شمسٌ بغيـرِ شعـاعِ
أمـا الشبـابُ فـودّعَـتْ أيـامُـهُ — ووَداعُهــنّ مُــوكّــل بــوداع
لله أيــامُ الصِّبــا لــو أنَّهــا — كــرّت علــيَّ بلَــذَّةٍ وسمــاع

الضرب الثالث: الأحذ المضمر

أصغَـى إليـك بكـأسـهِ مُصْـغِ — صلْتُ الجبيـنِ مُعقـربُ الصُّـدْغِ
كـأس تُـؤلِّـفُ بـالمحبَّـةِ بيننــا — طـوْراً وتنــزغ أيّمــا نــزغ
في روضةٍ درجتْ بزهرَتِها الصبـا — والشمسُ درجٍ مــنَ الفــرْغِ[3]
فاشرب بكف أغـنَّ عقـرَبُ صُـدْ — غِـه للقلـبِ منـك منِيّـهُ الَّلــدْغِ

---

(١) الريم: الظبي الخالص البياض.

(٢) الخود: الشابة الناعمة الحسنة الخَلْق.

(٣) الفرغ: كوكبان، هما فرغ الدلو المقدم والمؤخر، وهما منزلان للقمر، وقد جعلها للشمس.

الضرب الرابع: الأحذ الممنوع من الإضمار

العروض الثاني

يــا دُمْيــة نُصِبَــتْ لِمُعْتَكِــفِ ... بـل ظبيَـة أَوْفـتْ علــى شرفِ
بـل دُرّة زهــراءُ مــا سَكَنَــتْ ... بحـراً ولا اكتنفَـتْ ورا صـدَفِ
أسرفــتِ فــي قتلــي بلا تِــرَةٍ ... وسمِعـتِ قـول الله فـي السَّرَف
إنــي أتــوبُ إليــك مُعْتــرفــاً ... إن كنـت تقبـلُ تـوْبَ مُعتــرف

الضرب الخامس: الأحذ المضمر

يـا فتنـة بُعِثَــتْ علــى الخلْــقِ ... مـا بينهـا والمـوتِ مــن فــرْقِ
شمسٌ بـدت لـك مـن مغـاربِها ... يفتَــرُّ مبْسمُهــا عــن البــرْقِ
مـا كنــتُ أحسِـبُ قبـل رؤيتهـا ... للشمسِ مطلعـاً سـوى الشَّــرْقِ
يـا مـن يَضِـنّ بفضـلِ نــائلــه ... لـو فـي يـديـه مفــاتــح الرِّزْق

العروض الثالث، له أربعة ضروب

الضرب السادس: المجزوء المرفل

طلعــــتْ لـــه والليـــلُ دامِسْ ... شمسٌ تجلّـت فـــي حنــادِسْ[1]
تختــالُ فـــي ليـــنِ المجـــا ... سـدِ بيـن حــارِسـة وحــارس
يـــا مَـــن لبَهْجَـــةِ وجهِـــه ... يستــأسِــرُ البطــلُ المُمــارس
لـــم يبـــق مـــن قِبلِـي سِــوى ... رسْـــم تغيَّـــر فهْـــو دارِسْ

الضرب السابع: المجزوء المذال

دع قـــــولَ واشيــــةٍ وواشْ ... وآجعلْهُمـــا كلبَـــي هِـــراشْ

---

(١) الحنادس: جمع الحندس: وهو الليل الشديد الظلمة.

وآشرب مُعتَّقـــــــــةً تسلْســـــــلُ في العظـام وفــي المُشــاش

الضرب الثامن: المجزوء الصحيح

ألحـــاظُ عينـــي تلتَهـــي   فـــي روْض وردٍ يَـــزْدَهـــي
رتعَـــتْ بهـــا وتنـــزَّهَـــتْ   فيهـــا ألـــذَّ تنـــزُّهِ
يـــا أيُّهـــا الخنِـــثُ الجُفـــو   ن بنخـــوةٍ وتكـــرُّهِ
والمُكْتَسِـــي غنجـــاً أمـــا   تَـــرْثـــي لأشعَـــث أمْـــرَهِ

الضرب التاسع: المجزوء المقطوع بسلامة الثاني

أطْفَـــتْ شرارةَ لهْـــوِي   ولـــوَتْ بشـــدَةِ عـــدْوِي
شُعَـــلٌ علَـــوْنَ مفـــارقِـــي   ومضـــتْ ببهجـــةِ سرْوِي
لمّـــا سلكـــتُ عُـــروضهـــا   ذهـــبَ الزِّحـــاف بحُـــزوي
يـــا أيهـــا الشَّـــادي صـــهِ   ليســـت بســـاعـــةِ شـــدْوِ

الهزج له عروض واحد وضربان

(الضرب المجزوء الممنوع من القبض)

ألاَ يـــا ديـــنَ قلبـــي للشَّـــ   ـبـــابِ الغـــضَّ إذ ولَّـــى
جعلْـــتُ الغـــيَّ سِـــربـــالـــي   وكـــان الرُّشـــدُ بـــي أوْلـــى
بنفسي جـــائـــر فـــي الحُـــ   ـكـــمِ يُلْفـــى جـــوْره عـــدلاَ
وليس الشهْـــدُ فـــي فيـــهِ   بـــأحلـــى عنـــده مِـــن « لا »

الضرب الثاني: المحذوف

هنـــا تَفْنـــى قـــوافـــي الشِّـــــعـــرِ فـــي هـــذا الرَّوِي
قـــوافٍ ألْبَســـت حليـــاً   مـــن الحُســـنِ البـــدِيِّ
تعـــالـــتْ عـــن جـــريـــرٍ بـــل   زُهَيْـــرٍ بـــل عـــدِيِّ

تم الجزء السادس

ويليه ـ إن شاء الله ـ الجزء السابع

وأوله كتاب الياقوتة الثانية، في علم الألحان واختلاف الناس فيه

فهــرس

العقد الفريد

تأليف

الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي

المتوفى سنة ٣٢٨هـ

بتحقيق

دكتور

عبد المجيد الترحيني

الجزء السابع

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م

يطلب من: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان
صندوق بريد ٩٤٢٤ ـ ١١ . هاتف ٨٠١٣٣٢ ـ ٨٠٥٦٠٤
الرملة البيضاء ـ بناية ملكارت سنتر

كتاب الياقوتة الثانية
في علم الألحان واختلاف الناس فيه

لابن عبد ربه

قال أبو عمر احمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في أعاريض الشعر وعلل القوافي، وفسرنا جميع ذلك بالمنظوم والمنثور.

ونحن قائلون بعون الله وإذنه في علم الالحان واختلاف الناس فيه، ومن كرهه، ولأي وجه كره؛ ومن استحسنه، ولاي وجه استحسَن؛ وكرهنا ان يكون كتابنا هذا بعد اشتماله على فنون الآداب والحكم والنوادر والامثال، عطلا من هذه الصناعة، التي هي مراد السمع، ومرتع النفس وربيع القلب، ومجال الهوى، ومسلاة الكئيب، وأُنس الوحيد، وزاد الراكب؛ لعظم موقع الصوت الحسن من القلب، وأخْذه بمجامع النفس..

ابن مسلم وابن دأب

قال ابو سعيد بن مسلم: قلت لابن دأب: قد أخذت من كل شيء بطرف غير شيء واحد، فلا أدري ما صنعت فيه. فقال: لعلك تريد الغِناء؟ قلت: أجل. قال: أما إنك لو شهدتني وأنا أترنم بشعر كثيِّر عزة حيث يقول:

وما مَرَّ من يومٍ عليَّ كيـوْمِهـا ... وإنْ عظَمت أيامُ أُخْرى وجَلَّتِ

لاسترخت تكَّتُك[1]! قال: قلت: أتقول لي هذا! قال: اي والله: وللمهدي أمير المؤمنين كنت أقوله.

---

(١) تكتك: التكة: رباط السراويل.

فصل في الصوت الحسن

للمفسرين

قال بعض أهل التفسير في قول الله تعالى: ﴿يزيد في الخَلْقِ ما يشاءُ﴾[1]: هو الصوت الحسن.

للنبي ﷺ

وقال النبي ﷺ لابي موسى الاشعري لما أعجبه حُسْنُ صوته: لقد أُوتِيت مزْماراً من مزامير آلِ داود.

لأهل الطب

وزعم أهل الطب أن الصوت الحسن يسْرِي في الجسم، ويجري في العروق، فيصفو له الدم، ويرتــاح لــه القلــب، وتنمــو لــه النفس، وتهتــز الجوارح، وتخف الحركات؛ ومن ذلك كرهوا للطفل أن ينوَّم على أثر البكاء حتى يرقُص ويطرَب.

ليلى الاخيلية والحجاج

وقالت ليلى الاخيلية للحجاج حين سألها عن ولدها وأعجبه ما رأى من شبابه: إني والله ما حملتُه سهواً، ولا وضعتُه يَتْناً، ولا أرضعته غَيلا، ولا أنمتُه تَئِقاً. تعني لم أنوِّمْه مستوحشاً باكيا؛ وقولها: ما حملته سهوا، تعني في بقايا الحيض؛ ويقال: حملت المرأة وُضْعاً وتُضْعاً، إذ حملت في استقبال الحيض؛ وقولها: ولا وضعته يتناً، تعني منكسا؛ وقولها: ولا أرضعته غيلا، تعني لبناً فاسداً.

---

(١) سورة فاطر الآية ٤.

للفلاسفة

وزعمت الفلاسفة أن النغم فضلٌ بقي من المنطق لم يقدر اللسان على استخراجه فاستخرجته الطبيعة بالالحان على الترجيع لا على التقطيع، فلما ظهر عشقتْه النفس وحنّ إليه الروح؛ ولذلك قال أفلاطون: لا ينبغي ان تمنع النفس من معاشقة بعضها بعضا؛ ألا ترى ان اهل الصناعات كلِّها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم، ترنَّمُوا بالالحان، فاستراحت لها أنفسهم.

وليس من احد كائناً من كان إلا وهو يطرب من صوت نفسه، ويعجبه طنين رأسه؛ ولو لم يكن من فضل الصوت إلا أنه ليس في الارض لذة تكتسب من مأكل أو ملبس أو مشرب أو نكاح أو صيد، إلا وفيه معاناةٌ على البدن، وتعبٌ على الجوارح . غيره، لكفى.

وقد يُتوصل بالالحان الحسان إلى خير الدنيا والآخرة؛ ذلك أنها تبعث على مكارم الاخلاق، من اصطناع المعروف، وصلة الرحم، والذبِّ عن الاعراض، والتجاوز عن الذنوب؛ وقد يبكي الرجل بها على خطيئته، ويرق القلب من قسوته، ويتذكر نعيم الملكوت ويمثله في ضميره.

وكان أبو يوسف القاضي ربما حضر مجلس الرشيد وفيه الغناء، فيجعل مكان السرور به بكاءً، كأنه يتذكر به نعيم الآخرة!.

لابن أبي داود

وقال احمد بن أبي داود إن كنت لاسمع الغناء من مُخارق عند المعتصم، فيقع علي البكاء!.

حتى إن البهائم لتحنّ إلى الصوت الحسن وتعرف فضله؛ وقال العتابي وذكر رجلا، فقال: والله إن جليسه لطِيبِ عشرته لأَطْرَبُ من الإبل على الحداء، والنحل على الغناء.

لصاحب الفلاحات

وكان صاحب الفلاحات يقول بأن النحل أطربُ الحيوان كله إلى الغناء، وإن افراخها لتُسْتنزَلُ بمثل الزَّجل والصوت الحسن.

قال الراجز:

والطَّيْرُ قد يسوقه للموْتِ   إصغاؤُهُ إلى حَنِين الصَّوْتِ

وبعد، فهل خلق الله شيئاً اوقع بالقلوب وأشدّ اختلاساً للعقول، من الصوت الحسن، لا سيما إذا كان من وجهٍ حسن، كما قال الشاعر:

رُبَّ سماع حَسَنٍ   سمعتَه من حَسَنِ
مُقَرِّبٌ من فَرح   مُبعِّدٌ من حَزنِ
لا فارَقاني أبداً   في صحةٍ من بدني

وهل على الارض رِعديد[1] مستطار الفؤاد، بتغنّى بقول جرير بن الخطفي:

قل للجبانِ إذا تأَخَّر سَرْجُه   هل أنت من شَرَكِ المنية ناجي

إلا ثاب إليه روحُه، وقوِيَ قلبه؟ أم على الارض بخيل قد تقفّعت[2] أطرافه لؤما، ثم غنى بقول حاتم الطائي:

يَرى البخيلُ سبيلَ المالِ واحدةً   إنّ الجوادَ يرى في مالِه سُبُلا

إلا انبسطتْ أناملُه ورشحتْ أطرافه؟ أم هل على الارض غريب نازح الدار بعيد المحل، يتغنى بشعر علي بن الجهم:

يا وَحشتا للغريبِ في البلدِ النَّا   زِحِ ماذا بنفسه صَنَعَا
فارقَ أحبابه فما انتفَعوا   بالعيْشِ من بعدِه ولا انتفَعا
يقولُ في نأويهِ وغُربتِه   عدلٌ مِنَ الله كلُّ ما صنعا

إلا انقطعت كبده حنينا إلى وطنه، وتشوُّقاً إلى سكنِه؟

(١) رعديد: الجبان يرتعد ويضطرب عند القتال جبناً (٢) تقفعت اطرافه: اجتمعت وتقبضت

اختلاف الناس في الغناء

اختلف الناس في الغناء، فاجازه عامةُ اهل الحجاز، وكرِهه عامة أهل العراق.

رأي من اجازه

فمن حُجَّة من اجازه أن أصله الشعرُ الذي أمر النبي ﷺ به، وحضَّ عليه، وندب اصحابه اليه، وتجند به على المشركين؛ فقال لحسان: شُنّ الغارة على بني عبد مناف، فوالله لَشِعْرُك أشدُّ عليهم من وقع السهام في غلَس الظلام. و[الشعر] هو ديوان العرب ومقيّدُ احكامها الشاهدُ على مكارمها؛ وأكثر شعر حسان بن ثابت يغنى به.

حسان وابنه

قال فرج بن سلام: حدثني الرياشي عن الاصمعي قال: شهد حسان بن ثابت مأدُبة لرجل من الأنصار وقد كُفَّ بصره، ومعه ابنه عبد الرحمن، فكلما قدِّم شيء من الطعام قال حسان لابنه عبد الرحمن: أطعامُ يدٍ أم طعام يدَين؟ فيقول له طعام يد. حتى قُدِّم الشِّواء، فقال له: هذا طعام يدين. فقبض الشيخ يده؛ فلما رُفع الطعام اندفعت قَينة تغني لهم بشعر حسان:

آنظر خليلي ببـابِ جِلّـقَ هـل ... تُبصر دونَ البلقاءِ مـن أَحـدِ[1]
جِمال شعْثاءَ إذا هبَطْنَ مِـنَ الْـ ... منْحَشِّ دون الكثبان فالسَّنـد[2]

قال: فجعل حسان يبكي، وجعل عبد الرحمن يومىء إلى القينة أن ترددِّه! قال الاصمعي: فلا أدري ما الذي اعجب عبد الرحمن من بكاء ابيه!.

لعائشة

وقالت عائشة رضي الله عنها: علِّموا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم.

---

(١) جلق: اسم دمشق. والبلقاء: كورة من اعمال دمشق. (٢) شعثاء: امرأة

النبي ﷺ والشريد

وأردف النبي ﷺ الشريد، فاستنشده من شعر امية، فأنشده مائة قافية، وهو يقول: هيه! استحساناً لها.

فلما أعياهم القدح في الشعر والقول فيه، قالوا: الشعر حسن ولا نرى ان يؤخذ بلحن حسن؛ وأجازوا ذلك في القرآن وفي الاذان؛ فإن كانت الالحان مكروهة فالقرآن والاذان أحق بالتنزيه عنها، وإن كانت غير مكروهة، فالشعر احوج إليها لإقامة الوزن واخراجه على حدِّ الخبر؛ وما الفرق بين أن ينشد الرجل:

أتعرف رسماً كاطِّرادِ المذانِب

مرسَلا، أو يرفع بها صوته مرتجلا.

وإنما جعلت العرب الشعر موزوناً لمدِّ الصوت فيه والدندنة؛ ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المنثور.

النبي ﷺ

واحتجوا في اباحة الغناء واستحسانه بقول النبي ﷺ لعائشة: اهديتم الفتاة إلى بعلها؟ قالت: نعم. قال: فبعثتم معها من يغني؟ قالت: لا. قال: أو ما علمتِ ان الانصار قوم يُعجبُهُم الغزل، ألا بعثتم معها من يقول؟

أتينـــــاكم أتينـــــاكم فحيُّـــونـــا نُحَيِّيكـــم
ولـــولا الحبَّـــة السمـــرا ءَلم نَحلـــلْ بـــواديكـــم

واحتجوا بحديث عبد الله بن أنس ابن عم مالك، وكان من أفضل رجال الزهري، قال: مر النبي ﷺ بجارية في ظل فارع[1] وهي تغني:

---

(١) فارع: حصن بالمدينة

هــــل عليَّ ويْحكـــــم إنْ لهوْتُ مــن حــرَج!

فقال النبي ﷺ: لا حرج إن شاء الله.

والذي لا ينكره اكثر الناس، غناء النصب، وهو غناء الركبان.

عمر بن الخطاب

حدّث عبد الله بن المبارك عن اسامة بن زيد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عبد الله بن عمر عن أبيه، قال: مر بنا عمرُ بن الخطاب وأنا وعاصم بن عمر نغني غناء النصب، فقال: أعيدا عليّ. فأعدنا عليه، فقال: أنتما كحماري العباديّ، قيل له: أي حماريك شرٌّ؟ قال: ذا، ثم ذا!.

أنس بن مالك

وسمع أنس بن مالك أخاه البراء بن مالك يغني، فقال: ما هذا؟ قال: أبيات عربية أنصبُها نصبا.

ابن أبي وقاص

ومن حديث الجماني عن حماد بن زيد عن سليمان بن يسار، قال: رأيت سعد بن أبي وقاص في منزل بين مكة والمدينة قد ألقي له مُصلًّى فاستلقَى عليه ووضع إحدى رجليه على الاخرى وهو يتغنى، فقلت: سبحان الله أبا إسحاق! أتفعل مثل هذا وأنت مُحرِم؟ فقال: يابن أخي، وهل تسمعني أقول هُجْراً[1].

عمر والنابغة الجعدي

ومن حديث المفضل عن قرّة بن خالد بن عبد الله بن يحي، قال: قال عمر بن الخطاب للنابغة الجعدي: أَسمِعْني بعضَ ما عفا الله لك عنه من غنائك. فاسمَعه كلمةً

(١) هجرا: الهجر: الهذيان والقبيح من القول.

له . قال: وإنك لقائلها ؟ قال: نعم . قال: لطالما غنيتُ بها خلفَ جمالِ الخطاب .

ابن جريج وعطاء

عاصم عن جريج، قال: سألت عطاء عن قراءة القرآن على الحان الغناء والحداء، قال: وما بأسُ ذلك يابنَ أخي ! .

داود عليه السلام

قال، وحدّث عبيد بن عمير الليثي، أنّ داود النبي عليه السلام، كانت له مِعزفة يضرب بها إذا قرأ الزبور لتجتمع عليه الجنّ والإنس والطير، فيَبكي ويُبكي مَن حوله؛ وأهل الكتاب يجدون هذا في كتبهم .

رأي من كرهه

ومن حجة من كره الغناء أن قال: إنه يسعر القلوب، ويستفز العقول، ويستخف الحليم، ويبعث على اللهو، ويحض على الطرب، وهو باطل في أصله . وتأولوا في ذلك قول الله عز وجل ﴿ومن الناسِ مَن يشتَري لَهْوَ الحديثِ ليُضلَّ عن سبيل الله بغير علمٍ . ويتّخذَها هُزُواً﴾[1] ، وأخطئوا في التأويل؛ إنما نزلت هذه الآية في قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السِّيَر والاحاديث القديمة ويضاهون بها القرآن ويقولون إنها أفضل منه؛ وليس من سمع الغِناء يتخذ آيات الله هزوا؛ وأعدل الوجوه في هذا أن يكون سبيلُه سبيلَ الشعر، فحسَنُه حَسن وقبيحُه قبيح .

ابن جامع وسفيان

وقد حدّث ابراهيم بن المنذر الخزاعي أنّ ابن جامع السهمي قدِمَ مكة بمال كثير، ففرّقه في ضعفاء أهلها؛ فقال سفيان بن عيينة: بلغني أنّ هذا السهمي قدمَ بمال كثير . قالوا: نعم . قال: فعلام يُعطَى؟ قالوا: يغني الملوك فيعطونه . قال: وبأي شيء

---

(١) سورة لقمان الآية ٦

يغنيهم؟ قالوا: بالشعر. قال: فكيف يقول؟ فقال له فتى من تلاميذه: يقول:

أُطوِّفُ بالبيت معْ مَن يَطـوفُ .وأرفعُ مـن مِئْـزرِي المسْبَـلِ

قال: بارك الله عليه، ما أحسن ما قال! قال: ثم ماذا؟ قال:

وأسجدُ بالليـل حتى الصبـاحِ وأتلـو مـن المحكَـم المنـزَلِ

قال: وأحسن أيضاً، أحسن الله إليه، ثم ماذا؟ قال:

عسى فارجُ الهمِّ عـن يـوسُـفٍ يُسخِّــرُ لي ربَّــةَ المحمَــلِ

قال: أمسك! امسكْ! أفسَد آخِراً ما أصلح أوّلا! ألا ترى سفيانَ بن عيينة رحمه الله حسَّن الحَسن من قوله وقبَّح القبيح؟.

وكره الغناء قومٌ على طريق الزهد في الدنيا ولذاتها، كما كره بعضهم الملاذّ ولَبِسَ العَباءَة، وكره الحوّاريَّ[1]، وأكَلَ الكشكار، وترك البُرَّ وأَكَلَ الشعير، لاعلى طريق التحريم، فإنّ ذلك وجهٌ حسن ومذهبَ جميل؛ فإنما الحلال ما أحل الله والحرام ما حرّم الله. يقول الله تعالى ﴿ولا تقولوا لِماتصف ألسنتكم الكَذِبَ هذا حلال وهذا حرام لتَفترَوا على الله الكَذِبَ، إنّ الذين يفترون على الله الكَذِبَ لا يُفلِحونَ﴾[2].

وقد يكون الرجل أيضاً جاهلا بالغناء او متجاهلا به، فلا يأمر به ولا ينكره.

للحسن البصري

قال رجل للحسن البصري: ما تقول في الغناء يا أبا سعيد؟ قال: نِعْمَ العون الغناء على طاعة الله، يصلُ الرجلُ به رَحِمَه، ويواسي به صديقه. قال الرجل: ليس عن هذا أسألُك. قال: وعمَّ سألتني؟ قال: أن يغني الرجل. قال: وكيف يغني؟ فجعل الرجل يلوي شدقيه وينفخ منخريه؛ قال الحسن: والله يابنَ أخي ما ظننت أنّ عاقلا يفعل هذا بنفسه أبداً! وإنما أنكر عليه الحسنُ تشويهَ وجهه وتعويج فمه؛ وإن كان أنكر

---

(١) الحواري: لباب الدقيق. (٢) سورة النحل الآية ١١٦.

الغناءَ فإنما هو من طريق أهل العراق، وقد ذكرنا أنهم يكرهونه.

لابن جريج وابن عبيد

قال إسحاق بن عمارة: حدثني ابو المغلس عن أبي الحارث، قال: اختُلف في الغناء عند محمد بن ابراهيم والي مكة، فأرسل إلى ابن جريج وإلى عمرو بن عبيد، فأتياه، فسألهما، فقال ابن جريج: لا بأس به، شهدت عطاء بن أبي رباح في خِتان ولده وعنده ابن سريج المغني، فكان إذا غنى لم يقل له آسكت، وإذا سكت لم يقل له غنّ، وإذا لحن ردّ عليه. وقال عمرو بن عبيد: أليس الله يقول ﴿ما يَلفِظُ من قوْلٍ إلا لديْه عتيد﴾ [1]، فأيهما يكتب الغناء، الذي عن اليمين أو الذي عن الشمال؟ فقال ابن جريج: لا يكتبه واحد منهما؛ لانه لغو كحديث الناس فيما بينهم من أخبار جاهليتهم وتناشُدِ أشعارهم.

لابي يوسف

قال اسحاق: وحدثني إبراهيم بن سعد الزهري قال: قال أبو يوسف القاضي: ما أعجب امركم يأهل المدينة في هذه الاغاني! ما منكم شريف ولا دنيء يتحاشى عنها! قال: فغضبتُ وقلتُ: قاتلكم الله يأهل العراق! ما أوضح جهلكم وأبعدَ من السداد رأيكم! متى رأيتَ أحداً سمع الغناء فظهر منه ما يظهر من سفهائكم هؤلاء الذين يشربون المسكر فيترك أحدُهم صلاته، ويطلق امرأته، ويقذف [2] المحصنة من جاراته، ويكفُر بربه؛ فأين هذا من هذا؟ مَن اختار شعراً جيداً ثم اختار جرماً حسناً فردّده عليه فأطربه وأبهجه فعفا عن الجرائم، وأعطى الرغائب...؟ فقال أبو يوسف: قطعتَني! ولم يُحِرْ جوابا.

الرشيد والزهري

قال إسحاق: وحدّثني ابراهيم بن سعد الزهري قال: قال لي الرشيد: من بالمدينة

---

(١) سورة ق الآية ١٨.　　(٢) قذف المحصنة: رماها بالزنى.

ممن يحرّم الغناء؟ قال: قلت: من قَنَّعه الله بخزْيِه، قال: بلغني أنّ مالك بن أنس يحرّمه. قلت: يا أمير المؤمنين، أولمالك أن يحرّم ويحلل؟ والله ما كان ذلك لابنِ عمِّك محمد ﷺ إلا بوحْي من ربه؛ فَمن جَعل هذا لمالك؟ فشهادتي على أبي أنه سمع مالكا في عرس ابن حنظلة الغسيل يتغنى:

سُلَيْمَـــــى أزمعـــــت بيْنـــــا ... فـــأيـــن بـــوصلِهـــا أيْنـــــا

ولو سمعت مالكاً يحرّمه ويدي تناله لاحسنتُ أدبه! قال: فتبسم الرشيد.

ابن عمر وابن جعفر

وعن أبي شعيب الحراني عن جعفر بن صالح بن كيسان عن أبيه، قال: كان عبد الله بن عمر يحب عبد الله بن جعفر، فغَدا عليه يوماً وعنده جارية في حجرها عود، فقال ابن عمر: ماذاك يا أبا محمد؟.

قال: وما تظن به يا أبا عبد الرحمن؟ فإن أصاب ظنُّك فلك الجارية.

قال: ما أراني إلا قد أخذتُها، هذا ميزان رومي!.

فضحك ابن جعفر وقال: صدقت، هذا ميزان يُوزَن به الكلام، والجارية لك؛ ثم قال: هاتِ فغنَّتْ:

أيـــا شـــوْقـــا إلى البلـــدِ الامينِ ... وحـــي بين زمـــزمَ والحُجـــونِ

ثم قال: هل ترى بأسا؟ قال: هل غير هذا؟ قال: لا. قال: فما أرى بذا بأسا.

ابن عمر وابن محرز

وسمع عبد الله بن عمر آبنَ محرز يغني:

لـــو بُـــدِّلـــتْ أعلى منـــازلِهـــا ... سُفْلا وأصبـــح سُفْلها يعلـــو

لعرفتُ مَغنـــاهـــا بما آحتَملـــتْ ... مني الضلـــوعُ لأهلهـــا قبـــلُ

فقال له عبد الله بن عمر: قل: إن شاء الله! قال: يفسد المعنى. قال: لا خير في معنى يفسده «إن شاء الله».

عمر بن عبد العزيز ومغن

حدث محمد بن زكريا الغلابي بالبصرة قال: حدثني ابن الشرفي عن الاصمعي قال سمع عمر بن عبد العزيز راكبا يغني في سفره:

فلولا ثلاثٌ هُنَّ من عيشةِ الفتى ... وجَدِّكَ لم أَحْفِلْ متى قام عُوَّدِي
فمنهنّ سَبقُ العاذِلاتِ بشربَةٍ ... كُميْتٍ متى ما تعْلُ بالماءِ تَزْبدِ (١)
وكرّي إذا نادَى المضافُ محنّباً ... كسيدِ الغضا في الطخْيةِ المتوردِ (٢)
وتقصيرُ يوم الدّجْنِ والدّجْنُ مُعجِبٌ ... ببَهكنةٍ تحت الطِّرافِ الممدَّدِ (٣)

فقال عمر بن عبد العزيز: وأنا لولا ثلاث لم أحفل متى قام عُوَّدي: لولا أن أنفر في السرية، وأقسم بالسوية، وأعدل في القضية!.

جرير والاسلمي العابد

قال جرير المدني: مررت بالأسلمي العابد وهو في مسجد رسول الله ﷺ يصلي فسلمتُ عليه، فأومأ إليّ وأشار بالجلوس، فجلست، فلما سلم أخذ بيدي وأشار إلى حلقي، وقال: كيف هو؟ قلت: أحسن ما كان قط. قال: أما والله لوددت أنه خلا لي وجهُك وأنك أسمعتَني:

يالقومي بحبلِكَ المصرُومِ ... يوم شطُّوا وأنت غيرُ ملومِ
أصبح الرَّبْعُ من أُمامةَ قفْرا ... غير مغنى معازِفٍ ورسوم

قلت: إذا شئت، قال: في غير هذا الوقت إن شاء الله.

ابن المبارك

وحدث ابو عبد الله المروزي بمكة في المسجد الحرام، قال: حدثنا حسان وسويد صاحبا ابن المبارك، قالا: لما خرج ابن المبارك إلى الشام مرابطا خرجنا معه، فلما

---

(١) الكميت: الخمر لما فيها من سواد وحمره.

(٢) الطخية: الظلمة. (٣) البهكنة: الشابة البضة الناعمة.

نظر إلى ما فيه القوم من التعبد والغزو والسرايا في كل يوم، التفت إلينا فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون على أعمار أفنيناها، وأيام وليال قد قطعناها في علم الشعر، وتركنا ههنا أبوابَ الجنة مفتوحة! قال: فبينما هو يمشي ونحن معه في أزقة المصيصَة، إذا نحن بسكران قد رفع صوته يغني:

أذَلني الهوى فــأنـــا الذَّليـــلُ وليس إلى الذي أهـوى سبيـلُ

فأخرج برنامجاً من كمه، فكتب البيت؛ فقلنا له: أتكتب بيت شعر سمعته من سكران؟ قال: أما سمعتم المثل: رُبَّ جوهرة في مزبَلة!.

الاوقص المخزومي

قال: ووليَ الأوقصُ المخزومي قضاءَ مكة، فما رؤي مثله في العفاف والنبل، فبينما هو نائم ذات ليلة في علِّية له، إذ مر به سكران يتغنى ويلحن في غنائه، فأشرف المخزومي عليه، فقال: يا هذا، شربت حراما، وأيقظتَ نياما، وغنيت خطأ: خُذْه عني! فأصلحه عليه!.

وقال الاوقص المخزومي: قالت لي أمي: أي بُنيَّ، إنك خلقتَ في صورة لا تصلح معها لمجامعة الفتيان في بيوت القِيان، فعليك بالدين، فإن الله يرفع به الخسيسة ويُتِمُّ به النقيصة، فنفعني الله بقولها.

الشعبي وبشر

وحدث عباس بن المفضل قاضي المدينة، قال: حدثني الزبير بن بكار قاضي مكة عن مصعب بـن عبـد الله قال: دخل الشعبي على بشر بن مروان وهو والي العراق لاخيه عبد الملك بن مروان، وعنده جارية في حجرها عود؛ فلما دخل الشعبي امرها فوضعت العود، فقال له الشعبي: لا ينبغي للامير ان يستحي من عبده. قال: صدقتم: ثم قال للجارية: هاتي ما عندك. فأخذت العود وغنت:

ومما شجـاني أنها يـومَ ودّعـت تولت وماءُ العين في الجفْنِ حائـرُ

فلما أعادت من بعيدٍ بنظرةٍ إليّ ٱلتفاتاً أسلَمتْهُ المحاجِر

فقال الشعبي: الصغير أكيسهما[1]. يريد الزير، ثم قال: يا هذه، أرخي من بمِّك، وشدّي من زيرك[2]. فقال له بشر: وما علمك؟ قال: أظن العمل فيهما. قال: صدقت، ومن لم ينفعه ظنُّه لم ينفعه يقينُه.

قرشي ورجل يغني في المسجد

وحُدث عن أبي عبد الله البصري قال: غَنّى رجل في المسجد الحرام وهو مستلق على قفاه صوتا، ورجلٌ من قريش يصلي في جواره؛ فسمعه خُدّامُ المسجد فقالوا: يا عدو الله، تغني في المسجد الحرام! ورفعوه إلى صاحب الشرطة، فتجوز القرشي في صلاته؛ ثم سلم واتبعه، فقال لصاحب الشرطة: كذبوا عليه أصلحك الله، إنما كان يقرأ! فقال. يا فساق، أتأتوني برجل قرأ القرآن تزعمون انه غنّى خلوا سبيلَه! فلما خلَّوه قال له القرشي: والله لولا انك أحسنت وأجدت ما شهدتُ لك، آذهب راشدا.

أبو حنيفة وجار له

وكان لابي حنيفة جارٌ من الكيالين مغرمٌ بالشراب، وكان أبو حنيفة يُحيي الليلَ بالقيام، ويحييه جاره الكيال بالشراب، ويغني على شرابه:

أضاعوني وأيَّ فتًى أضاعوا ليومِ كريهةٍ وسدادِ ثغْرِ

فأخذه العسس[3] ليلةً فوقع في الحبس، وفقد أبو حنيفة صوته واستوحش له؛ فقال لاهله: ما فعل جارنا الكيال؟ قالوا: أخذه العسس فهو في الحبس. فلما اصبح ابو حنيفة وضع الطويلة على رأسه، وخرج حتى أتى باب عيسى بن موسى، فاستأذن عليه، فأسرع في إذنه ـ وكان أبو حنيفة قليلا ما يأتي الملوك ـ فأقبل عليه عيسى

---

(١) أكيسهما: أعقلهما. (٢) الزير: الدقيق من الاوتار.

(٣) العسس: مفرده العاس: وهو من يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف اهل الريبة.

بوجهه، وقال: أمرٌ ما جاء بك أبا حنيفة! قال: نعم، أصلح الله الامير، جارٌ لي من الكيالين، أخذه عسس الامير ليلةَ كذا، فوقع في حبسك. فأمر عيسى باطلاق كل من أُخذ في تلك الليلة، إكراماً لابي حنيفة؛ فأقبل الكيال على أبي حنيفة متشكراً له، فلما رآه أبو حنيفة قال: أضعناك يا فتى؟ يعرّض له بقصيدته؛ قال: لا والله، ولكنك بررْتَ وحفِظْتَ.

الدارمي وتاجر عراقي:

الاصمعي قال: قدم عراقيٌّ بعدل[١] من خُمُر العراق الى المدينة، فباعها كلها إلا السود، فشكا ذلك الى الدارمي، وكان قد تنسك وترك الشعر ولزم المسجد فقال: ما تجعل لي على أن أحتال لك بحيلة حتى تبيعَها كلَّها على حكمك؟ قال: ما شئت!! قال: فعمد الدارمي إلى ثياب نسكه! فألقاها عنه وعاد إلى مثل شأنه الاول، وقال شعراً ورفعه إلى صديق له من المغنين، فغنى به وكان الشعر:

قل للمليحَةِ في الخمارِ الاسـودِ ماذا فعلتِ بـزاهـدٍ مُتعبِّـدِ[٢]
قد كان شمَّـرَ للصلاةِ ثيـابَـه حتى خطَرْتِ له ببابِ المسجـدِ
ردِّي عليـه صلاتَـه وصيـامَـه لا تقتُليـــه بحقِّ ديـــنِ محمدِ

فشاع هذا الغناء في المدينة: وقالوا: قد رجع الدارمي وتعشق صاحبةَ الخمار الاسود. فلم تبق مليحة بالمدينة الا اشترت خماراً اسود، وباع التاجر جميع ما كان معه؛ فجعل إخوان الدارمي من النساك يلقون الدارمي فيقولون: ماذا صنعتَ؟ فيقول: ستعلمون نبأه بعد حين. فلما أنفذ العراقي ما كان معه، رجع الدارمي إلى نسكهِ ولبس ثيابه.

عروة بن أذينة:

وحدث عبد الله بن مسلم بن قتيبة ببغداد، قال: حدثني سهلٌ عن الأصمعي قال:

---

(١) العدل: المثل والنظير، وهو نصف الحمل يكون على احد جنبي البعير.
(٢) الخمار: ثوب تغطي به المرأة رأسها.

كان عروةُ بن أُذينة يعدُّ ثقة ثبتاً في الحديث، روى عنه مالك بن أنس؛ وكان شاعراً لبقاً في شعره غزِلاً، وكان يصوغ الألحان والغناء على شعره في حداثته وينحلها المغنين؛ فمن ذلك قوله، وغنى به الحجازيون:

يـــا ديـــارَ الحيِّ بـــالأجَمَـــه   لم يُبيِّـــنْ رسمُهـــا كلِمـــه

وهو موضع صوته، ومنه قوله:

قالت وأبْثثْتُها وجْدي وبُحـتُ بـه   قد كنتَ عندي تحت السِّتْرِ فاستَتِـرِ
ألستَ تُبصرُ مَن حـولي فقلـت لها   غطِّي هَواك وما ألقـي على بَصري

قال: فوقفت عليه امرأة وحوله التلامذة، فقالت: أنت الذي يقال فيك الرجل الصالح، وأنت القائل:

إذا وجدتُ أُوار الحبِّ في كبـدِي   عمـدْتُ نحو سقـاء القـوم أبتَـرِدُ
هبني بـردتُ ببردِ الماءِ ظـاهـرَهُ   فمـن لنـارٍ على الأحشـاء تَتقِـد

لا والله ما قال هذا رجل صالح قط!

القس:

قال: وكان عبد الرحمن الملقب بالقس عند أهل مكة بمنزلة عطاء بن أبي رباح في العبادة، وإنه مر يوماً بسلامة وهي تغني، فقام يستمع غناءها، فرآه مولاها فقال له: هل لك أن تدخل فتسمع؟ فأبى، فلم يزل به حتى دخل، فقال له: أُوقِفُك في موضع بحيث تراها ولا تراك. فغنّته فأعجبتْه، فقال له مولاها: هل لك في أن أحوّلها إليك؟ فأبى ذلك عليه، فلم يزل به حتى أجابه، فلم يزل يسمعها ويلاحظها النظر حتى شغف بها؛ ولما شعرت لَحظَهُ إياها غنته:

رُبَّ رسُـــولين لنـــا بَلّغـــا   رسـالـة مِـن قبـل أن يَبرَحـا
لم يُعمِلا خُفّـاً ولا حـــافـراً   ولا لســـانـاً بـالهوى مُفصِحـا
حتى استَقلاَّ بجوابَيهِا   بـالطـائِـرِ الميمـونِ قـد أنجحـا

الطـــرفُ والطَّـــرفُ بعثْنـــاهما فقضَيـا حـاجـاً ومـا صَـــرَّحـا

قال: فأغمي عليه وكاد أن يهلك؛ فقالت له يوماً: والله إني أُحبُّكَ! قال لها: وأنا والله أُحبُّكِ! قالت: وأحب أن أضعَ فمي... قال: وأنا والله... قالت: فما يمنعك من ذلك؟ قال: أخشى أن تكون صداقةُ ما بيني وبينك [اليوم] عداوةً يوم القيامة؛ أما سمعتِ الله تعالى يقول: ﴿الأخِلاَّءُ يَومئذٍ بَعضُهمْ لبعْض عدُوٌّ إلا المتَّقينَ﴾ (١)؟ ثم نهض وعاد إلى طريقه التي كان عليها، وأنشأ يقول:

قد كنتُ أعذلُ في السفاهةِ أهلَهـا فاعجـب لما تـأْتِـي بـه الأيـامُ(٢)
فــاليــوم أعــذِرُهــمْ وأعلمُ أنما سُبــلُ الضلالــةِ والهدَى أقْســام

وله فيه:

إن سلاّمــــــــــــةَ التي أفقــدتْنِــي تجلّــدي(٣)
لــو تــراهــا وعُــودَهــا حين يَبــدو وتبْتــدي
للجـرِيــرَيــنِ والغَــريـ ـضِ وللقــرمِ مَعبَــد
خلْتَهــمْ بين عُــودِهــا والدّســاتينِ واليــد

أخبار عبد الله بن جعفر

هو ومعاوية:

حدث سعيد بن محمد العجلي بعمان، حدثني نصر بن علي عن الأصمعي، قال: كان معاوية يعيب على عبد الله بن جعفر سماع الغناء؛ فأقبل معاوية عاماً من ذلك حاجاً، فنزل المدينة، فمر ليلة بدار عبد الله بن جعفر فسمع عنده غناء على أوتار، فوقف ساعة يستمع، ثم مضى وهو يقول: أستغفر الله! أستغفر الله! فلما انصرف من آخر الليل مر بداره أيضاً، فإذا عبد الله قائم يصلي، فوقف ليستمع قراءته، فقال الحمد لله!

(١) سورة الزخرف الآية ٦٧.
(٢) أعذل: ألوم (٣) التجلد: الصبر.

ثم نهض وهو يقول: ﴿خَلَطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً عسَى اللهُ أن يتوبَ عليهم﴾ (١) .

فلما بلغ ابن جعفر ذلك أعدّ له طعاماً ودعاه إلى منزله، وأحضر ابن صيَّاد المغني، ثم تقدم إليه يقول: إذا رأيت معاوية واضعاً يده في الطعام فحرّك أوتارك وغنِّ. فلما وضع معاوية يده في الطعام حرّك ابن صياد أوتارَه وغنى بشعرِ عدي بن زيد وكان معاوية يُعجَب به.

يـا لُبيْنَـــى أوقِــدي النـــارا	إنّ مــن تَهــويْــنَ قــد حــارًا
رُبّ نـــار بِـــتُّ أرمُقُهـــا	تَقْضمُ الهِنـــديّ والغـــارا
ولها ظبْـــي يُـــؤَجِّجُهـــا	عــاقــدٌ في الخَصرِ زُنــارا (٢)

قال فأعجَب معاويةَ غِناؤه، حتى قبض يده عن الطعام، وجعل يضرب برجله الأرض طرباً؛ فقال له عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين، إنما هو مختار الشعر يُركّب عليه مختار الألحان، فهل ترى به بأساً؟ قال: لا بأس بحكمة الشعر مع حكمة الألحان.

قال: وقدم عبد الله بن جعفر على معاوية بالشام، فأنزله في دار عياله، وأظهر من إكرامه وبرِّه ما كان يستحقه؛ فغاظ ذلك فاختةَ بنت قرظة زوجة معاوية؛ فسمعت ذات ليلة غِناءً عند عبد الله بن جعفر، فجاءت إلى معاوية فقالت: هلم فاسمع ما في منزل هذا الذي جعلته بين لحمك ودمك، وأنزلتَه في حُرَمِك! فجاء معاوية فسمع شيئاً حرّكه وأطربه، فقال: والله إني لأسمع شيئاً تكاد الجبال تَخرُّ له، وما أظنه إلا من تلقيَة الجن! ثم انصرف، فلما كان من آخر الليل سمع معاوية قراءة عبد الله وهو قائم يصلي، فأنْبَهَ فاختة، وقال لها: اسمعي مكان ما أسمعْتِني، هؤلاء قومي: ملوك بالنهار، رهبانٌ بالليل!

ثم إن معاوية أرقَ ذات ليلة، فقال لخادمه حُديج: آذهب فانظر مَن عند عبد الله، وأخبِرْه بخروجي إليه. فذهب فأخبره، فأقام كلَّ من كان عنده؛ ثم جاء معاوية، فلم

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٢   (٢) يؤججها: يلهبها.

ير في المجلس غير عبد الله، فقال: مجلس من هذا؟ قال: مجلس فلان. قال معاوية: مُرْه يرجع إلى مجلسه. ثم قال: مجلس من هذا؟ قال: مجلس فلان. قال: مُرْه يرجع إلى مجلسه... حتى لم يبق إلا مجلس رجل، فقال: مجلس من هذا؟ قال: مجلس رجل يداوي الآذان، يا أمير المؤمنين! قال له معاوية: فإنّ أُذُني عليلةٌ، فمُرْه فليرجع إلى موضعه. وكان موضعَ بدَيح المغني، فأمره ابن جعفر، فرجع إلى موضعه، فقال له معاوية: داوِ أذني من عِلّتها! فتناول العود ثم غنى:

أمِـنْ أُمِّ أوفَــى دِمْنــةٌ لم تَكلَّــم بحومـانـة الدرّاجِ فـالمُتثَلـمِ [1]

فحرّك عبد الله بن جعفر رأسه، فقال معاوية: لِمَ حرّكتَ رأسك يا بن جعفر؟ قال: أرْيَحِيَّة أجدها يا أمير المؤمنين، لو لاقيت عندها لابْليْت، ولئن سُئلتُ عندها لأعطيتُ! وكان معاوية قد خُضب[2]، فقال ابن جعفر لبُدَيح: هات غير هذا. وكانت عند معاوية جاريةٌ أعزُّ جواريه عنده، كانت متوليةْ خضابه، فغناه بديح:

أليس عنــدك شُكــرٌ للتي جَعَلــت ما ابيض مِن قادماتِ الشعْرِ كالحممِ [3]
وجدّدتْ منـك مـا قـد كـان أخلَقَـه صَرْفُ الزمانِ وطولُ الدهْرِ والقـدَمِ

فطرب معاوية طرباً شديداً وجعل يحرك رجله، فقال ابن جعفر: يا أمير المؤمنين سألتني عن تحريك رأسي فأخبرتك، وأنا أسألك عن تحريك رجلك! فقال معاوية: كلُّ كريمٍ طروب. ثم قام وقال: لا يبرحْ أحدٌ منكم حتى يأتيه إذني. فبعث إلى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار، ومائة ثوب من خاص ثيابه، وإلى كل رجل منهم بألف دينار وعشرة أثواب.

هو ومغنية سمعها:

وعن ابن الكلبي والهيثم بن عدي، قالا: بينا عبد الله بن جعفر في بعض أزقة المدينة، إذ سمع غناء، فأصغى إليه، فإذا بصوت شجيٍّ رقيق لِقَيْنَة تغني:

---

(١) الدمنة: آثار الناس وما سودوا.

(٢) خُضب: غُيّر لون شعره بالخضاب. (٣) الحمم: الفحم.

قـل للكـــرام ببـــابِنـــا يِلجُـــوا   ما في التصابي على الفتَى حَـرَجُ [1]

فنزل عبد الله عن دابته، ودخل على القوم بلا إذن؛ فلما رأوه قاموا إليه إجلالاً ورفعوا مجلسه؛ ثم أقبل عليه صاحب المنزل، فقال: يا بن عم رسول الله دخلت منزلنا بلا إذن، وما كنت لهذا بخليق! فقال عبد الله: لم أدخُل إلا بإذن! قال: ومن أذِن لك؟ قال: قينتُك هذه؛ سمعتها تقول:

قل للكرام ببابنا يلجوا

فولجنا، فإن كنا كراماً فقد أُذِن لنا، وإن كنا لئاماً خرجنا مذمومين! فضحك صاحب المنزل، وقال صدقت جُعِلْتُ فداك! ما أنت إلا من أكرم الأكرمين. ثم بعث عبد الله إلى جارية من جواريه، فقال لها: غني فغنت، فطرب القوم، وطَرِب عبد الله؛ فدعا بثياب وطيب فكسا القوم وصاحب المنزل وطيّبَهم ووهب له الجارية، وقال له: هذه أحذق بالغناء من جاريتك.

أخبار ابن أبي عتيق

هو وعائشة:

ذكر رجل من أهل المدينة أنّ ابن أبي عتيق - وهو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - دخل على عائشة أم المؤمنين - وهي عمتُه - فوضع رأسه في حجرها - أو على ركبتها - ثم رفع عقيرته يتغنى:

ومُقيّـر حَجـل جَـرَرْت بـرِجْلِـه   بَعْـد الهدؤ لـه قـوائمُ أربـعُ
فأطرَب زمانَ اللهْوِ من زمنِ الصِّبـا   وانـزعْ إذا قـالـوا أبَـى لا يَنـزِعِ
فلَيـأْتيَـنّ عليـك يـومـاً مَـرّة   يبكـي عليـك مُقنّعـاً لا تَسْمـع

قالت عائشة: يا بُنيّ، فاتق ذلك اليوم.

---

(١) تصابى: تكلف الصِّبا.

هو وكثير:

حدّث أبو عبد الله محمد بن عرفة بواسط. قال: حدثني أحمد بن [محمد بن] يحي عن الزبير بن بكار عن سليمان بن عباس السعدي عن السائب راوية كثير قال: قال لي كثير يوماً: قم بنا إلى ابن أبي عتيق نتحدث عنده. قال: فجئناه، فوجدناه عنده ابن معاذ المغني، فلما رأى كثيراً، قال لابن أبي عتيق: ألا أغنيك بشعر كُثيِّر؟ [قال: بلى]، فاندفع يغني بشعره حيث يقول:

أبـائنـةٌ سُعْـدى؟ نعـمْ ستَبِين! ... كما انبَتَّ من حبْلِ القرينِ قرينُ
أإن زُمّ أجمال وفـارقَ جيرة ... وصاح غرابُ البيْنِ أنت حزيـنُ
كـأنـك لم تَسمعْ ولم تَـر قبلَهـا ... تَفـرُّق أَحبـاب لهُنَّ حَنين
فـأخلَفْـن ميعـادي وخـن أمـانتي ... وليس لمن خـان الأمـانـة دِيـن

فالتفت ابن أبي عتيق إلى كثيِّر فقال: وللدِّين صحبتهن يا بن أبي جمعة؟ ذاك والله أشبه بهن وأدعى للقلوب إليهن، وإنما يوصَفْن بالبخل والامتناع، وليس بالأمانة والوفاء؛ وابن قيس الرقيات أشعر منك حيث يقول:

حبّـذا الادْلالُ والغنَـجُ ... والتي في طَـرْفِهـا دَعَـجُ(١)
والتي إن حَـدّثـتْ كـذَبـتْ ... والتي في ثغْـرِهـا فلَـج(٢)
وخبِّـروني هـلْ على رجـل ... عـاشـقٍ في قُبْلـة حَـرج

فقال كثيِّر: قم بنا من عند هذا! ثم نهض.

هو وابن جعفر:

وقال عبد الله بن جعفر لابن أبي عتيق، لو غنتك فلانة جاريتي صوتاً ما أدركت ذكاتك! قال ابن أبي عتيق: قل لها تفعل وليس عليك إن مت ضمانٌ! فأخذ بيده عبد الله بن جعفر وأدخله منزله، ثم أمر الجارية فخرجت، وقال لها: هاتِ. فغنت:

---

(١) دعج: اشتداد سواد العين وبياضها.

(٢) فلج: يقال فلجت المرأة أسنانها: أي فرقت بينها للزينة.

بهَواكَ صيّـرَنـي العـذولُ نَكـالا وجَـد السبيـل إلى المقـالِ فقـالا
ونهيْتَ نوْمي عن جُفوني فـانتهـى وأمـرتَ ليْلِـي أن يَطـولَ فطـالا

قال: فرمى بنفسه ابن أبي عتيق إلى الأرض وقال: ﴿فإذا وجَبَت جُنوبُها فكُلوا منها وأَطعِموا القانعَ والمُعْترَّ﴾ (١).

هو وعبد الملك وابن جعفر:

أبو القاسم جعفر بن محمد قال: لما وَصَف عبد الله بن جعفر لعبد الملك بن مروان ابن أبي عتيق، وحدّثه عن إقلاله وكثرة عياله. أمره عبد الملك بن مروان أن يبعث به إليه. فأتاه ابن جعفر، فأعلمه بما دار بينه وبين عبد الملك. وبعثه إليه. فدخل ابن أبي عتيق على عبد الملك فوجده جالساً بين جاريتين قائمتين عليه، يميسان(٢) كغصنَي بان بيد كل جارية مروحة تروّح بها عليه، مكتوبٌ بالذهب في المروحة الواحدة:

إنني أجلِـبُ الرِّيـا ح وبي يلعـبُ الخجِـلْ
وحِجـابُ إذا الحبيـبُ ثَنـى الرأْسَ لِلقُبَـل
وغيـاثٌ إذا النَّـدِ يمُ تَغنـى أو آرتَجـل

وفي المروحة الأخرى:

أنـا في الكـفِّ لطيفـهْ مَسْكني قصرُ الخليفـهْ
أنـا لا أصلُـحُ إلا لظـريـفٍ أو ظـريفـه
أو وَصيـفٍ حسَنِ القَـدِّ شبيـهٍ بـالـوصيفـه

قال ابن أبي عتيق: فلما نظرت إلى الجاريتين هوّنتا الدنيا عليّ، وأنستاني سوءَ حالي؛ قلت: إن كانتا من الإنس فما نساؤنا إلا من البهائم! فكلما كررتُ بصري فيهما تذكرت الجنة، فإذا تذكرت امرأتي ـ وكنتُ لها محبا ـ تذكرتُ النار! قال: فبدأ عبدُ الملك يتوجع إليَّ بما حكى له ابن جعفر عني، ويخبرني بمالي عنده من جميل

---

(١) سورة الحج الآية ٣٦. (٢) يميسان: يتبختران ويختالان ويمجنان.

الرأي؛ فأكذبتَ له كلّ ما حكاه له ابن جعفر عني، ووصفتُ له نفسي بغاية الملاء والجِدَة؛ فامتلأ عبد الملك سروراً بما ذكرت له، وغما بتكذيبِ ابن جعفر؛ فلما عاد إليه ابن جعفر، عاتبه عبد الملك على ما حكاه عني وأخبره بما حلَّيتُ به نفسي؛ فقال: كذبَ والله يا أمير المؤمنين، وإنه أحوج أهلِ الحجاز إلى قليل فضلك، فضلاً عن كثيره! ثم خرج عبد الله فلقيني، فقال: ما حملك أن كذَّبتَني عند أمير المؤمنين؟ قلت: أفكنتَ تراني تجلسني بين شمس وقمر، ثم أتفاقَرُ عنده! لا والله ما رأيت ذلك لنفسي وإن رأيته لي! فلما أعلم بذلك عبد الله بن جعفر عبد الملك بن مروان، قال: فالجاريتان له! قال: فلما صارتا إليّ زرت عبد الله بن جعفر، فوجدته قد امتلأ فرحاً، وهو يشرب، وبين يديه عس[1] فيه عسل ممزوج بمسك وكافور، فقال: مهيم! قلت: قد والله قبضت الجاريتين. قال: فاشربْ. فتناولت العس فجرَعتُ منه جرعة، فقال لي: زِدْ؛ فأبيتُ عليه، فقال لجارية له عنده تغنيه: إن هذا قد حاز اليوم غزالتين من عند أمير المؤمنين؛ فخذي في نعتهما؛ فإنهما كما فلّكت[2] صدورُهما. فحركت الجارية العود ثم غنت:

عهدي بها في الحيِّ قد جردتْ صفراءَ مثلَ المُهْرةِ الضامِرِ
قد حجَمَ الثَّدْيُ على نحرِها في مشرِق ذي بهجة ناضرِ
لو أسندَتْ مَيْتاً إلى صدرِها قامَ ولم يُنقل إلى قابرِ
حتى يقول الناسُ مما رأَوْا يا عَجبا للميِّتِ الناشِرِ

قال: فلما سمعت الأبيات طربت، ثم تناولت العس فشربت علَلا بعد نَهَل، ورفعت عقيرتي أغني:

سقوْني وقالوا لا تُغنّ ولو سقوْا جبال حُنَيْنٍ ما سقوْني لغنَّتِ

(١) العس: القدح الكبير.

(٢) فلّكت: يقال: فلك ثدي الفتاة أي استدار فصار كالفلكة.

هو وأبو السائب:

قال: وخرج أبو السائب وابن أبي عتيق يوماً يتنزهان في بعض نواحي مكة فمال أبو السائب ليبول وعليه طويلته؛ فانصرف دونها، فقال له ابن أبي عتيق: ما فعلت طويلتك؟ قال: ذكرتُ قول كثيِّر:

أرى الإزارَ على لُبْنى فأحسدُهُ ... إن الإزارَ على ما ضمَّ محسودُ

فتصدقت بها على الشيطان الذي أجرى هذا البيت على لسانه! فأخذ ابن أبي عتيق طويلته فرمى بها، وقال: أتسبقني أنت إلى بِرِّ الشيطان!

سليمان ومغن:

سمع سليمان بن عبد الملك مغنياً في عسكره، فقال: اطلبوه. فجاءوا به، فقال: أعِدْ عليّ ما تغنيتَ به. فغنى واحتفل - وكان سليمان أغير الناس - فقال لأصحابه: كأنها والله جرجرة[1] الفحل في الشول، وما أحسب أنثى تسمع هذا إلا صَبَتْ! وأمر به فُخصي.

الفرزدق والأحوص:

وقالوا: إن الفرزدق قدم المدينة، فنزل على الأحوص بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح صاحب النبي ﷺ وهو الذي حمت لحمَه الدبر[2]، فقال [له] الأحوص: ألا أُسمِعُك غناءً؟ قال: تغنّ. فغناه:

أتنسَى إذ تُوَدِّعُنا سُلَيْمَى ... بعودِ بَشامَةٍ سُقِيَ البَشامُ

بنفسي مَن تجنُّبُهُ عزيزٌ ... عليّ ومن زيارتُهُ لمامُ

ومَن أُمسِي وأُصبِحُ لا أراه ... ويطرُقني إذا هجَعَ النِّيام[3]

قال الفرزدق: لمن هذا الشعر؟ قال: لجرير. ثم غناه:

---

(١) جرجرة: يقال: جرجر البعير: أي ردّد صوته في حنجرته.

(٢) الدبر: الزنابير. (٣) هجع: نام ليلاً

إنّ الذيـن غـدوْا بلبِّـكَ غــادَروا   وشَلا بعيْنِـك مـا يــزالُ مَعينــا
غيَّضْـنَ مـن عبراتِهـنّ وقُلْــن لي   مــاذا لقيــتَ مــن الهوى ولقينــا

فقال: لمن الشعر؟ فقال لجرير: ثم غناه:

أســري لخالِـدَةِ الخيـالِ ولا أرى   شيئـاً ألـذّ مـن الخيـالِ الطـارقِ
إنّ البلِيَّـةَ مَـن يُمَـلُّ حـديثـه   فانقعْ فؤادَك من حديث الوامـقِ

فقال: لمن هذا الشعر؟ فقال: لجرير. قال: ما أحوجه مع عفافه إلى خنوثة شعري، وما أحوجني مع فسوقي إلى رقة شعره!

وقال جرير: والله لولا ما شُغلت به من هذه الكلاب، لشببت تشبيباً تحنّ منه العجوز إلى أيام شبابها، حنين الجمل إلى عَطنه!

الأحوص ومعبد وعقيلة:

وقال الأحوص يوماً لمعبد: امض بنا إلى عقيلة حتى نتحدث إليها ونسمع من غنائها وغناء جواريها. فمضيا، فألفيا على بابها معاذا الأنصاري وابن صياد؛ فاستأذنوا عليها، فأذنت لهم إلا الأحوص، فإنها قالت: نحن على الأحوص غِضاب، فانصرف الأحوص وهو يلوم أصحابه على استبدادهم بها، وقال:

ضنَّتْ عقيلةُ عنـك اليـوم بـالـزّاد   وآثرت حاجةَ الثَّاوي على الغادي [1]
قولا لمنزِلِها: حُيِّيــت مـن طلَـلٍ   وللعقيـق: ألا حُيِّيـت مـن وادِ [2]
إني وهبـتُ نصيبي مـن مَـودّتِهـا   لمعْبَـــدٍ ومُعَــاذ وآبن صيّـــاد

قرشي ومغن في المسجد:

وجعل رجل يترنم في مسجد المدينة، ورجل من قريش يسمع؛ فأخذه بعض القوم فقالوا: يا عدوّ الله؛ أتغني في المسجد الحرام! وذهبوا به إلى صاحب الحكم، واتبعهم

---

(١) الثاوي: المقيم المستقر. والغادي الذاهب غدوة.

(٢) الطلل: ما بقي شاخصاً من آثار الديار ونحوها.

القرشي فقال لصاحب الحكم: أصلحك الله، إنما كان يقرأ! فأطلق سبيله، فقال له القرشي: والله لولا أنك أحسنتَ في غنائك وأقمت دارات معبد لكنتُ عليك أشدّ من الأعوان.

دارات معبد:

والصوت المنسوب إلى دارات معبد، قولُ أعشى بكر:

هــريــرةَ ودِّعْهـــا وإن لامَ لائمُ   غداةَ غد أم أنت للبيْنِ واجـمُ(١)

ويروى أن معبداً دخل على قتيبة بن مسلم والي خراسان وقد فتح خمس مدائن فجعل يفخر بها عند جلسائه؛ فقال له معبد: والله لقد صُغْت بعدك خمسة أصوات، إنها لأكثرُ من الخمس المدائن التي فتحْت! والأصوات: الأول:

ودِّعْ هُريرة إنّ الرّكـبَ مُـرْتَحـلُ   وهـل تُطيـقُ وداعـاً أيها الرجـلُ

والثاني:

هــريــرةَ ودِّعهـــا وإن لامَ لائمٌ   غَداة غـد أم أنـت للبيْـنِ واجـمُ

والثالث:

ودِّعْ لبـابَـــةَ قبـــل أن تترحَّلا   وآسبِـل فـإنّ سبيلَـهُ أنْ تُسْبلا

والرابع:

لعَمْري لئن شطـتْ بغنْمَـة دارُهـا   لقد كدتُ من وشْكِ الفِراق أبيحُ(٢)

والخامس:

تُغذّ بِـيَ الشَّهْبـاءُ نحو آبن جعفـرٍ   سـواءٌ عليهـا ليلهـا ونَهـارُهـا(٣)

أصل الغناء ومعدنه

قال أبو المنذر بن هشام بن الكلبي: الغناء على ثلاثة أوجه: النصب، والسناد،

---

(١) واجم: كاره.   (٢) غنمة: امرأة. وأبيح: أشفق وأجزع.   (٣) تَغذّ: تسرع.

والهزج؛ فأما النصب فغناء الركبان والقينات؛ وأما السناد فالثقيل الترجيع الكثير النغمات، وأما الهزج فالخفيف كله، وهو الذي يثير القلوب ويهيج الحليم.

وإنما كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشيا وهي: المدينة، والطائف، وخيبر، ووادي القرى، ودومة الجندل، واليمامة؛ وهذه القرى مجامع أسواق العرب.

صانع العود:

وقيل إنّ أوّل من صنع العود: لامك بن قابيل بن آدم، وبكى به على ولده.

ويقال إنّ صانعه بطليموس صاحب الموسيقي، وهو كتاب اللحون الثمانية.

أول من غنى:

وكان أول من غنى في العرب قينتان لعاد يقال لهما الجرادتان، ومن غنائهما.

أَلا يـا قَيْـلُ ويْحَـكَ قُـمْ فَهَيْنِمْ   لعـلَّ اللهَ يُصْبِحُنـا غَمامـا[1]

وإنما غنَّتا بهذا اللحن حين حُبس عنهما المطر؛ وكانت العرب تسمى القينة: الكرِينة، والعود: الكِرَان؛ والمزهر أيضاً هو العود، وهو البربط.

وكان أول من غنى في الإسلام الغناء الرقيق: طُويس، وهو علَّم ابن سريج، والدلال، ونَئومة الضحى؛ وكان يكنى أبا عبد النعيم، ومن غنائه وهو أول صوت غنى به في الإسلام:

قـد بَـرانِـي الشـوقُ حتى   كِـدْتُ مـن شـوقـي أذوبُ

أخبار المغنين

أولهم: طُـويس، وكان في أيام عثمان رضي الله عنه.

---

(١) هينم: ادعُ الله.

طويس وأبان:

حدّثنا جعفر بن محمد قال: لما ولى أبان بن عثمان بن عفان المدينة لمعاوية بن أبي سفيان، قعد في بَهو له عظيم، واصطف له الناس، فجاء طويس المغني وقد خضب[1] يديه غمساً، واشتمل على دُف له، وعليه ملاءة مصقولة؛ فسلَّم ثم قال: بأبي وأمي يا أبان، الحمد لله الذي أرانيك أميراً على المدينة؛ إني نذرتُ لله فيك نذراً إن رأيتك أن أخضب يدي غمساً وأشتمل على دفي وآتي مجلس إمارتك وأغنيك صوتاً! قال: فقال: يا طويس، ليس هذا موضع ذاك. قال: بأبي أنت وأمي يا بنَ الطيِّب أبحْني. قال: هات يا طويس. فحسر عن ذراعيه وألقى رداءه ومشى بين السماطين[2] وغنى:

مـا بـالُ أهلـك يـا رَبـابُ خُـزْراً كـأنهمُ غِضـابُ

قال: فصفق أبان بيديه، ثم قام عن مجلسه فاحتضنه وقبّل بين عينيه، وقال: يلومونني على طويس!

ثم قال له: من أسنّ، أنا أو أنت؟ قال: وعيشِك لقد شهدت زفاف أمّك المباركة إلى أبيك الطيب! انظر إلى حذقه ورقة أدبه، كيف لم يقل: أمك الطيبة إلى أبيك المبارك.

هو وبكر وسعيد:

وعن الكلبي قال: خرج عمر بن عبد العزيز إلى الحج وهو والي المدينة، وخرج الناس معه؛ وكان فيمن خرج: بكر بن إسماعيل الأنصاري، وسعيد بن عبد الرحمن ابن حسان بن ثابت؛ فلما انصرفا راجعَين مرّا بطويس المغني، فدعاهما إلى النزول عنده؛ فقال بكر بن إسماعيل: قُدِ البعير إلى منزلك. فقال له سعيد بن عبد الرحمن: أتنزل على هذا المخنَّث؟ فقال: إنما هو منزل ساعة ثم نذهب. واحتمل طويس الكلام عن سعيد، فأتيا منزله، فإذا هو قد نظفه ونجَّده، فأتاهما بفاكهة الشام

---

(١) خضّب: لوّن بالحناء. (٢) السماط: الصف.

فوضعها بين أيديها، فقال له بكر بن إسماعيل، ما بقي منك يا طويس؟ قال: بقي كلّي يا أبا عمرو! قال: أفلا تُسمعنا من بقاياك؟ قال: نعم. ثم دخل خيمته، فأخرج خريطة، وأخرج منها دُبّاً، ثم نقرَ وغنّى:

يـــا خليلي نـــابَني سُهـــدي   لم تنَـــمْ عيني ولم تَكَـــدِ
كيـف تلْحُـوني على رجـلٍ   مـؤنِس تلتـذُّه كبِـدي[1]
مِثـلُ ضـوءِ البـدرِ صـورتُـه   ليس بـالـزُّمَّيْلَـةِ النكـدِ[2]
مـــــن بني آل المُغيرةِ لا   خـامِـل نكْس ولا جَحْـدِ[3]
نظـــرتْ عيني فلا نظـــرتْ   بعـــده عين إلى أحَـــدِ

ثم ضرب بالدف الأرض والتفت إلى سعيد بن عبد الرحمن فقال: يا أبا عثمان، أتدري مَن قائل هذا الشعر؟ قال: لا. قال: قالته خولة ابنة ثابت عمتُك، في عمارة ابن الوليد بن المغيرة! ونهض، فقال له بكر: لو لم تقل ما قلته لم يُسْمِعْكَ ما أسمعَك. وبلغت القصةُ عمرَ بن عبد العزيز، فأرسل إليهما فسألهما، فأخبراه؛ فقال: واحدة بأخرى والبادي أظلم.

هو والنعمان بن بشير:

الأصمعي قال: حدّثني رجل من أهل المدينة، قال: كان طويس يتغنى في عرس رجل من الأنصار، فدخل النعمان بن بشير العرس، وطويس يتغنى:

أجَـــدّ بعَمْـــرة عُتبـــانها   فتَهجـر أمْ شـأنُنـا شـانُهـا
وعَمْـرةُ مـن سَرَواتِ النســا   ء تَنفَـح بـالمسـك أردانها[4]

فقيل له: اسكت! اسكت لأنّ عمرة أمّ النعمان بن بشير؛ فقال النعمان: إنه لم يقل بأسا، إنما قال:

(١) تلحوني: تلوموني.   (٢) النكد: الشحيح والقليل النفع.
(٣) الخامل: الخفي الساقط الذي لا نباهة له..
(٤) أردانها: أكمامها.

وعمـرةُ بن سرَوات النسـا ء تَنفـح بـالمسـك أردانها

هو وابن شريج والدلال ونومة الضحى:

وكان مع طويس بالمدينة، ابنُ سريج، والدلال، ونومة الضحى؛ ومنه تعلّموا، ثم نجم بعد هؤلاء: سلم الخاسر، وكان في صحبة عبد الله بن عبد الله بن جعفر، وعنه أخذ معبد الغناء، ثم كان ابن أبي السمح الطائي، وكان يتيماً في حجر عبد الله بن جعفر، وأخذ الغناء عن معبد، وكان لا يضرب بعود، وإنما يغني مرتجلاً، فإذا غنى لمعبد صوتاً حققه، ويقول: قال الشاعر فلان، ومططه معبد، وخففته أنا. ومن غنائه:

نـــام صحبـــي ولم أنمْ لخيـــال بِنـــا ألَـــمّ
إنّ في القصر غــــادةً كحَلـــتْ مُقْلتي بـــدمْ

معبد والغريض:

وكان معبد والغريض بمكة، ولمعبد أكثر الصناعة الثقيلة.

ولما قدمت سكينة ابنة الحسين عليهما السلام مكة أتاها الغريض ومعبد فغنياها:

عُـوجـي علينـا رَبَّـةَ الهودْجِ إنـكِ إلا تفعلي تَحـرَجِـي(١)

قالت: والله ما لكما مثَلٌ إلا الجدي الحارّ والبارد، لا ندري أيهما أطيب.

الغريض وختان:

قال إسحاق بن إبراهيم: شهد الغريض ختاناً لبعض أهله، فقال له بعض القوم: غنّ. فقال: هو ابن الزانية إن غنّى! قال له مولاه: فأنت والله ابن الزانية، فغنّ. قال: أكذلك أنا عندك؟ قال: نعم. قال: أنت أعلم. فغن:

وما أنْسَ مِ الأشياءِ لا أنسَ شادنـاً بمكـة مكحـولا أسِيلا مـدامعُـه

---

(١) عوجي علينا: أعطفي إلينا.

تشرَّب لـونَ الرازِقـيِّ بيــاضُــه   أو الزعفران خالَطَ المسـكِ رادعـه

فلوت الجنّ عنقه فمات. وقال غير إسحاق: بل غنى:

أَمِـن مكْتـومـةَ الطَّـلَـلُ   يَلـوحُ كـأنـه خَلَـلُ
لقـد نَـزلـوا قـريبـاً منـ   ـكَ لو نفَعوك إذ نَـزلـوا
تُحـــــــاولني لتقتلَني   وليس بعينِهـا حَـــوَل

ثم نجم ابن طنبورة، وأصله من اليمن، وكان أهزج الناس وأخفهم غناء؛ ومن غنائه:

وفِتْيــانٍ على شرَفٍ جميعــاً   دَلِفْتُ لهم بباطيَـةٍ هَـدُور[1]
كـأني لم أَصـدْ فيهـم ببـازِي   ولم أُطعِم بعَرْصَتِهم صُقوري[2]
فلا تشربْ بلا لهوٍ فـــــإنيّ   رأيتُ الخيـلَ تشربُ بـالصَّفير

ابن طنبورة في مجلس شريف:

ويقال: إنه حضر مجلساً لرجل من الأشراف، إلى أن دخل عليهم صاحب المدينة، فقيل له: غنّ. فغنى:

ويْلي مـــــن الحُبَيِّبَــــــهْ   ويْـلٌ ليَـهْ! ويــل لِيـهْ
قــــد عَشَّشَ الحيَّــــة في   بُيَيْتِيَـــــــهْ بُيَيْتِيَــــــهْ

فضحك صاحب المنزل ووصله.

ومنهم: حكـم الوادي، وكان في صحبة الوليد بن يزيد ويغنى بشعره، ومن غنائه:

خـفَّ مـــن دار جيرَتِــي   يـــا بنَ داود أُنْسُهـــا
قـد دنـا الصبحُ أو بَــدا   وهـي لم يُقـضَ لبْسُهـا[3]

---

(١) دلف: مشى رويداً وقارب الخطو الخطو.

(٢) العرصة: ساحة الدار والبقعة الواسعة بين الدور لا بناء فيها.

(٣) اللبس: اختلاط الظلام.

فمتَـــى تخرجِ العـــرُو س لقـــد طـــال حَبسُهـــا
خـــرجـــتْ بين نســوةٍ أكـــرمُ الجِنسِ جِنسهـــا

الغزيل

وكان بالشام أيام الوليد بن يزيد، مُغَنّ يقال له الغُزيِّل ويكنى أبا كامل، وفيه يقول الوليد بن يزيد:

مـن مُبلـغ عنّـي أبـا كـامـل أني إذا مـا غـابَ كـالهابِـلِ

ومن غنائه:

آمدحِ الكـأسَ ومـن أعْملَهـا واَهجُ قوماً قتلـونـا بـالعطَشْ
إنما الكـأسُ ربيـعٌ بـاكـرٌ فـإذا مـالم نَـذُقهـا لم نَعش

مغنو الرشيد وزامره

وكان لهارون الرشيد جماعة من المغنين، ومنهم ابراهيم الموصلي وابن جامع السهمي، ومخارق؛ وطبقة اخرى دونهم، منهم زلزل،وعمرو الغزال، وعلّوية. وكان له زامرٌ يقال له برصوما. وكان ابراهيم أشدّهم تصرفا في الغناء، وابن جامع احلاهم نغمة.

لرشيد وبرصوما

فقال الرشيد يوماً لبرصوما: ما تقول في ابن جامع؟ فقال: يا أمير المؤمنين، وما أقول في العسل الذي من حيثما ذقتَه فهو طيب؟ قال: فإبراهيم الموصلي؟ قال: هو بستانٌ فيه جميع الثمار والرياحين. قال: فعمرو الغزال؟ قال: هو حَسنُ الوجه يا امير المؤمنين.

ليوسف في المغنين

قال إسحاق: قلت ليوسف: من أحسنُ الناسِ غناء؟ قال: ابن محرز، قلت:

وكيف ذلك؟ قال: إن شئت أجملتُ وإن فصلتُ. قلت: أجمِل. قال: كان يغني كلَّ إنسان بما يشتهي، كأنه خلق من قلب كل إنسان:

وكان إبراهيم اول من وقع الإيقاع بالقضيب.

المغنون في بيت ابراهيم

وحدث يحي بن محمد قال: بينا نحن على باب الرشيد ننتظر الإذن، اذ خرج الآذن فقال لنا: أمير المؤمنين يقرئكم السلام! قال: فانصرفنا، فقال لنا إبراهيم: تصيرون إلى منزلي! قال: فانصرفنا معه، قال: فدخلت داراً لم أر اشرف منها ولا أوسع، وإذا أنا بأفرشة خز مظهرة بالسنجاب، قال: فقعدنا، ثم دعا بقدح كبير فيه نبيذ، وقال:

آسقِني بـالكبيرِ، إنـي كبيـــرُ   إنما يشربُ الصغيرَ صغيرُ

ثم قال:

آسقني قهــوةً بكـــوبٍ كبيرِ   ودعِ المأَ كلـــــةَ للحَميـــرِ

ثم شرب به، وأمر به فملىء وقال لنا: إن الخيل لا تشرب إلا بالصفير! ثم أمر بجوارِ فأحطن بالدار، فما شبهت أصواتَهن إلا بأصوات طير في أجمة[1] يتجاوبن.

المأمون وإسحاق الموصلي

وقال إسحاق بن ابراهيم الموصلي: لما أفضتِ الخلافة إلى المأمون، أقام عشرين شهراً لم يسمع حرفاً من الغناء، ثم كان أول من تغنى بحضرته أبو عيسى، ثم واظب على السماع؛ وسأل عني فجرّحني عنده بعضُ من حسدني فقال: ذلك رجل يتيه على الخلافة! فقال المأمون: ما أبقى هذا من التيه شيئاً. وأمسك عن ذكري، وجفاني كلُّ من كان يصِلُني، لما ظهر من سوء رأيه، فأضرّ ذلك بي، حتى جاءني يوماً علّوية،

(١) الأجمة: الشجر الكثير الملتف.

فقال لي: أتأذن لي اليوم في ذكرك، فإني اليوم عنده؟ فقلت: لا، ولكن غنّه بهذا الشعر، فإنه سيبعثه على أن يسألك من أين هذا؟ فينفتح لك ما تريد، ويكون الجوابُ أسهلَ عليك من الابتداء. فمضى علوية؛ فلما استقر به المجلس غناه الشعر الذي أمرته به، وهو:

يا مشرعَ الماء قد سُدّت مسالكـهُ أما إليكَ سبيلٌ غيرُ مسـدودِ [١]
لحائمٍ حـار حتى لا حيـاةَ لـه مُشرّدٍ عن طريـقِ الماءِ مطـرود

فلما سمعه المأمون قال: ويلك! لمن هذا؟ قال: يا سيدي، لعبدٍ من عبيدك جفوتَه وآطرحْته! قال: إسحاق! قلت: نعم. قال: ليحضُر الساعة. قال إسحاق: فجاءني الرسول، فسرتُ إليه؛ فلما دخلت قال: آدن. فدنوت؛ فرفع يديه مادّهما؛ فاتكأت عليه؛ فاحتضنني بيديه؛ وأظهر من اكرامي وبِرّي مالو اظهره صديقٌ لي مُواس لَسرَّني.

الرشيد وعبثر

قال: وحدثني يوسف بن عمر المدني قال: حدثني الحارث بن عبيد الله قال: سمعت إسحاق الموصلي يقول: حضر مسامرةَ الرشيد ليلةً عبثر المغني، وكان فصيحاً متأدباً، وكان مع ذلك يغني الشّعر بصوت حسن، فتذاكروا رقةَ شعرِ المدنيين، فأنشد بعض جلسائه أبياتا لابن الدمينة حيث يقول:

وأذكُـر أيـامَ الحِمـى ثم أنثَني على كبِدي من خشيةٍ أن تَصدّعا
وليست عشِيات الحمى برواجِـع عليكَ ولكن خلِّ عينيكَ تَدْمَعـا
بَكت عيني اليُمْنى فلما زجرتُهـا عنِ الجهلِ بعد الحِلمِ أسبلتَا معا

فأُعجب الرشيد برقة الابيات، فقال له عبثر: يا أمير المؤمنين، إن هذا الشعر مدني رقيق، قد غُذِي بماء العقيق، حتى رق وصفا، فصار أصفى من الهواء، ولكن

---

(١) المشرع: مورد الماء الذي يستقي منه بلا رشاء.

إن شاء أمير المؤمنين أنشدتُه ما هو أرق من هذا وأحلى، وأصلب وأقوى، لرجل من أهل البادية. قال: فإني أشاء. قال: وأترنم به يا أمير المؤمنين قال: وذلك لك. فغنى لجرير:

إنّ الذين غَدوا بلُبِّـكَ غـادروا　　وشلا بعينِـك لا يـزال مَعينـا
غيّضْنَ من عَبراتِهـنَّ وقُلـن لي　　ماذا لقيـتَ مـن الهوى ولَقينـا
راحوا العشيَّة روحةً مذكـورة　　إن حرنَ حرنا أو هُدين هُدينـا
فرمَوْا بهنّ سَـواهِماً عرض الفَلا　　إن مِتنَ مِتنـا أو حَيين حَيينـا

قال: صدقت يا عبثرة! وخلع عليه واجازه.

زرياب

وكان لابراهيم الموصلي عبدٌ أسود يقال له زرياب، وكان مطبوعاً على الغناء علمه ابراهيم؛ وكان ربما حضر به مجلس الرشيد يغني فيه، ثم إنه انتقل إلى القيروان، إلى بني الاغلب، فدخل على زيادة الله بن الاغلب، فغناه بأبيات عنترة الفوارس، حيث يقول:

فـان تَـك أُمِّـي غُـرابيـةً　　مـن ابنـاءِ حـام بها عِبتَني
فـإني لطيـفٌ ببيـض الظِّبـا　　وسُمـر العـوالي إذا جئتَني
ولـولا فـرارُكَ يـوم الوغَـى　　لقُدتُـك في الحربِ أو قُـدتَني

فغضب زيادة الله، فأمر بصفع قفاه واخراجه، وقال له: إن وجدت في شيء من بلدي بعد ثلاثة ايام ضربت عنقك! فجاز البحر إلى الاندلس، فكان عند الامير عبد الرحمن بن الحكم.

قند

وكان في المدينة في الصدر الاول مغنٍّ يقال له قند، وهو مولى سعد بن أبي وقاص، وكانت عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها تستظرفه، فضربه سعد، فحلفت

عائشة لا تكلمه حتى يرضى عنه قند، فدخل عليه سعد وهو وجعٌ من ضربه، فاسترضاه، فرضي عنه، وكلمته عائشة.

هو ومروان بن الحكم

وكان معاوية يُعقب بين مروان بن الحكم وسعيد بن العاص على المدينة: يستعمل هذا سنة وهذا سنة؛ وكانت في مروان شدة وغلظة، وفي سعيد لينُ عريكةِ وحلمٌ وصفحٌ؛ فلقي مروان بن الحكم قندا المغني، وهو معزول عن المدينة وبيده عكازة؛ فلما رآه قال:

قـل لقنـدٍ يشيِّـعُ الاظعـانــا ربَّمــا ســرَّ عيْنَنـا وكفـانـا

قال له قند: لا إله إلا الله، ما اسمجك واليا ومعزولا.

ابن عائشة والحسن

وروي ابن الكلبي عن أبيه قال: كان ابن عائشة من احسن الناس غناء، وأنبههم فيه، وأضيقهم خُلقاً، إذا قيل له غنِّ، يقول: أولمثلي يقال هذا؟ عليَّ عتِق رقبة إن غنيت يومي هذا! فإن غنى وقيل له احسنت، قال: لمثلي يقال أحسنت؟ عليَّ عتق رقبة إن غنيتُ سائرَ يومي هذا. فلما كان في بعض الايام سال وادي العقيق، فجاء بالعجب، فلم يبق بالمدينة مُخبّأة ولا شابة ولا شاب ولا كهل إلا خرج يُبصره، وكان فيمن خرج ابن عائشة المغني، وهو معتجِر[١] بفضل ردائه؛ فنظر إليه الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب عليهم السلام ـ وكان فيمن خرج إلى العقيق ـ وبين يديه أسودان كأنهما ساريتان[٢] يمشيان بين يديه أمام دابته؛ فقال لهما: أنتما حُرّان لوجه الله إن تفعلا ما آمركما به ولم أقطعكما إربا إربا؛ آذهبا إلى ذلك الرجل المعتجر بفضل ردائه، فخذا بضبعيه[٣] فإن فعل ما آمره به وإلا فاقذفا به في العقيق! قال: فمضيا

---

(١) معتجر: يقال: اعتجر فلان بالعمامة: أي لفها على رأسه وردّ طرفها على وجهه.

(٢) السارية: عمود من الخشب ينصب عليه الشراع.

(٣) الضبع: ما بين الإبط إلى نصف العضد من اعلاها.

والحسن يقفوهما، فلم يشعر ابن عائشة إلا وهما آخذان بضبعيه؛ فقال: من هذا؟ فقال له الحسن: أنا هذا يا بن عائشة! قال: لبيك وسعديك، وبأبي أنت وأمي! قال: اسمع مني ما أقول، واعلم انك مأسور في أيديهما وهما حُرّان [وقد أقسمت] إن لم تُغنِّ مائة صوت أن يطرحاك في العقيق وهما حُرّان، وإن لم يفعلا ذلك لأقطَعَنّ أيديَهما! فصاح ابن عائشة: واويلاه! وأعظم مصيبتاه! قال دع من صياحك وخذ فيما ينفعنا. قال: اقترح وأقم من يُحصي! وأقبل يُغني، فترك الناس العقيق وأقبلوا عليه، فلما تمت أصواته مائة، كبَّر الناس بلسان واحد تكبيرة واحدة ارتجت لها أقطار المدينة، وقالوا للحسن: صلى الله على جدِّك حيا وميتا؛ فما اجتمع لاهل المدينة، وقالوا للحسن: صلى الله على جدِّك حيا وميتا؛ فما اجتمع لاهل المدينة سرورٌ قط إلا بكم أهل البيت! فقال الحسن إنما فعلت هذا بك يابن عائشة لاخلاقك الشّكسَة! قال له ابن عائشة: والله ما مرتْ عليّ مصيبةٌ أعظم منها، لقد بلغت اطراف أعضائي. فكان بعد ذلك إذا قيل له: ما أشدّ ما مر عليك؟ قال: يوم العقيق.

ابن المهدي

وكان ابراهيم بن المهدي - وهو الذي يقال له ابن شَكلة - داهياً عاقلا عالما بأيام الناس شاعراً مفلقاً، وكان يَصُوغ فيَجيد.

مخالفته على المأمون

ويروى عن ابراهيم انه قد كان خالف على المأمون ودعا إلى نفسه، فظفر به المأمون فعفا عنه، وقال لما ظفر به المأمون:

ذهبْتُ من الدُّنيا كما ذهبَتْ مني ... هوى الدهر بي عنها وأهوى بها عني
فإن أَبْكِ نفسي أبْكِ نفساً عزيزةً ... وإن أحتبسْها أَحْتَبِسْها على ضَنّ[١]

هو والمأمون

فلما فتحت له أبواب الرضا من المأمون، غنى بهما بين يديه؛ فقال له المأمون:

(١) الضنّ: البخل.

أحسنت والله يا اميرالمؤمنين! فقام ابراهيم رهبة من ذلك، وقال: قتلْتني والله يا امير المؤمنين! لا والله إن جلست حتى تسمِّيَني باسمي. قال: آجلس يا إبراهيم. فكان بعد ذلك آثر الناس عند المأمون: ينادمُه ويسامره ويغنِّيه.

قصة يرويها للمأمون

فحدثه يوماً فقال: بينا انا مع أبيك يا أمير المؤمنين بطريقة مكة، إذ تخلفت عن الرفقة وانفردت وحدي، وعطِشْت وجعلت اطلب الرفقة، فأتيت إلى بئر، فإذا حبشي نائم عندها، فقلت له: يا نائم، قُم فاسقني! فقال: إن كنت عطشان فانزلْ وآستق لنفسك. فخطر صوت ببالي، فترنمت به وهو:

كفَّناني إن مـتُّ في دِرْعِ أروَى   وآسقِياني من بئرِ عُرْوَةَ مـاءَ[1]

فلما سمع قام نشيطاً مسروراً، وقال: والله هذه بئر عروة، وهذا قبره! فعجبت يا امير المؤمنين لما خطر ببالي في ذلك الموضع، ثم قال: أسقيك على أن تغنِّيني؟ قلت: نعم، فلم أزل أغنيه وهو يَجْبِذُ[2] الحبل، حتى سقاني وأروى دابّتي، ثم قال: أدلك على موضع العسكر على أن تغنِّيَني؟ قلت: نعم. فلم يزل يعدُو بين يدي وأنا اغنيه حتى أشرفنا على العسكر، فانصرف؛ وأتيت الرشيد فحدثتُه بذلك، فضحك. ثم رجعنا من حَجِّنا، فإذا هو قد تلقاني وأنا عديل الرشيد، فلما رآني قال: مُغَنّ والله! قيل له: أتقول هذا لاخي أمير المؤمنين؟ قال اي لعمر الله، لقد غناني! وأهدى إليّ أقطا[3] وتمراً، فأمرت له بصلة وكسوة، وأمر له الرشيد بكسوة أيضاً. فضحك المأمون، وقال: غنِّي الصوت. فغنيتُه فافتتن به، فكان لا يقترح عليّ غيره.

وكان مُخارق وعلّوية قد حرّفا القديم كله وصيّرا فيه نغَما فارسية؛ فإذا أتاهما الحجازي بالغناء الاول الثقيل، قالا: يحتاج غناؤك إلى فصاده! واسم علوية: يوسف مولى لبني امية.

---

(١) الدرع: قميص المرأة. والغض من العشب.   (٢) يجبذ: يجذب.

(٣) الأقط: لبن محض يجمد حتى يستحجر ويطبخ.

وكان زَلزل أضرب الناس للوَتَر، لم يكن قبله ولا بعده مثله، ولم يكن يغني، وإنما كان يضرب على ابراهيم وابن جامع وبرصوما. ومن غنائه في المأمون:

ألاَ إنما المأمونُ للناسِ عصمةٌ   مُميّزةٌ بين الضلالةِ والرُشْد
رأى الله عبدَ اللهِ خيْرَ عبادِه   فملّكه، واللهُ أعلم بالعبدِ

القيني وبعض المغنين على باب يزيد

حدث سعيد بن محمد العجلي عن الاصمعي قال: كان أبو الطمحان القيني، وهو حنظلة بن الشرقي شاعراً مجيداً، وكان مع ذلك فاسقاً، وكان قد انتجع يزيد بن عبد الملك، فطلب الإذن عليه أياماً فلم يصل، فقال لبعض المغنين: ألا أعطيك بيتين من شعري تغني بهما أمير المؤمنين، فإن سألك من قائلهما فأخبره أني بالباب، وما رزقني الله منه فهو بيني وبينك! قال: هات. فأعطاه هذين البيتين:

يكادُ الغَمام الغُرُّ يَرعدُ إن رأى   مُحَيَّا ابن مَرْوانٍ وينْهَل بارقَه
يظَلُّ فتيتُ المِسْكِ في رونقِ الضُّحى   تسيلُ به أصداغُه ومفارِقُهْ[1]

قال: فغُني بهما في وقت أريحيَّتِه، فطرب لها طرباً شديداً، وقال: لله در قائلهما! من هو؟ قال: ابو الطمحان القيني، وهو بالباب يا أمير المؤمنين. قال: وما قصة الدير؟ قال: قيل لابي الطمحان: ما أيسر ذنوبك؟ قال ليلةَ الدير! قيل له: وما ليلةُ الدير؟ قال: نزلت ذات ليلة بدير نصرانية، فأكلت عندها طفَيْشَلا[2] بلحم خنزير، وشربت من خمرها، وزنيت بها، وسرقت كساءَها، ومضيت؛ فضحك يزيد وأمر له بألفي درهم، وقال: لا يدخل علينا! فأخذها أبو الطمحان وانسلَّ بها، وخيَّب المغنِّي.

(١) الصدغ: جانب الوجه من العين إلى الاذن.
(٢) الطفيش: نوع من المرق.

المسدود وزنين ودبيس

أبو جعفر البغدادي قال: حدثني عبد الله بن محمد كاتب بغا عن أبي عكرمة قال: خرجت يوماً إلى المسجد الجامع ومعي قرطاس لاكتب فيه بعض ما استفيده من العلماء، فمررت بباب أبي عيسى بن المتوكل فإذا ببابه المسدود، وكان من احذق الناس بالغناء، فقال: أين تريد يا أبا عكرمة؟ قلت إلى المسجد الجامع، لعلي أستفيد فيه حكمة أكتبها. فقال: أدخل بنا على أبي عيسى. قال: فقلت: مثل أبي عيسى في قدره وجلالته يُدْخَلُ عليه بغير إذن! قال: فقال للحاجب: اعلم الامير بمكان أبي عكرمة. قال: فما لبث إلا ساعة حتى خرج الغلمان يحملوني حملا؛ فدخلت إلى دار لا والله ما رأيتُ احسن منها بناءً، ولا اظرف فرْشاً، ولا صباحةَ وجُوهٍ؛ فحين دخلنا نظرت إلى أبي عيسى، فلما أبصرني قال لي: ما يعيش من يحتشم! آجلس، فجلست، فقال: ما هذا القرطاسُ بيدك؟ قلت: يا سيدي حملتُه لاستفيد فيه شيئاً، وأرجو أن أُدْرك حاجتي في هذا المجلس. فمكثنا حيناً، ثم أُتينا بطعام ما رأيت أكثر منه ولا احسن، فأكلنا؛ وحانت مني التفاتة، فإذا أنا بزنين ودبيس؛ وهما من أحذق الناس بالغناء، قال: فقلت: هذا مجلس قد جمع الله فيه كلّ شيء مليحٍ. قال: ورُفِعَ الطعام وجيء بالشراب؛ وقامت جارية تسقينا شراباً ما رأيت أحسن منه، في كل كأس لا أقدر على وصفها؛ فقلت: أعزك الله، ما أشبه بقول ابراهيم بن المهدي يصف جارية بيدها خمر:

حَمْراءُ صافيةٌ في جوْفِ صافيةٍ ... يسعَى بها نحوَنا خودٌ مِنَ الحُورِ[1]
حسناءُ تحملُ حسناوَيْنِ في يدِها ... صافٍ من الرّاحِ في صافي القواريرِ[2]

وقد جلس المسدود وزنين ودبيس، ولم يكن في ذلك الزمان أحذقُ من هؤلاء الثلاثة بالغناء؛ فابتدأ المسدود فغنّى:

لما استقلَّ بأردافٍ تُجاذبُه ... وآخضرّ فوق حجابِ الدرِّ شاربُه[3]

---

(١) الخود: الشابة الناعمة الحسنة الخلق. (٢) الراح: الخمر.

(٣) الردف: العجز والكفل ومؤخر كل شيء.

وتمّ في الحُسن والتَامَتْ محاسنُه ومازجت بِدعاً فيها غرائبُه
وأشرقَ الوردُ في نسرين وجْنَتِه وآهتزّ أعلاه وارتَجّتْ حقائبُه[1]
كلمْتُه بجفونٍ غيْر ناطقةٍ فكان من ردّه مّا قال حاجبُه

ثم سكت، فغنى زنين:

الحبُّ حُلْوٌ أمرّته عواقبُهُ وصاحب الحبِّ صَبُّ القلبِ ذائبُهُ[2]
أستودِعُ الله مَنْ بالطّرْفِ ودّعَني يوم الفِراق ودمْعُ العيْنِ ساكبُهُ
ثم انصرفتُ وداعي الشوْقِ يهتِفُ بي آرفقْ بقلبِك قد عزّتْ مطالبُه

وقال:

وعاتبْتُهُ دهراً فلما رأيته إذا ازْداد ذُلاً جانبي عزَ جانبهْ
عقدتُ له في الصدرِ منّي مَودّةً وخلّيتُ عنه مُبْهماً لا أُعاتبُهْ

ثم سكت، فغنى دبيس:

بدرٌ مِنَ الإنسِ حفّتْهُ كواكبُه قد لاح عارضُه وآخضرَّ شاربُه
إن يوعِدِ الوعدَ يوماً فهو مُخلِفُه أو ينطِقُ القول يوماً فهو كاذِبه
عاطيْتُه كدَمِ الاوداجِ صافيةً فقام يشدُو وقد مالتْ جوانبُه[3]

قال أبو عكرمة: فعجبت أنهم غنّوا بلحن واحد وقافية واحدة.

قال أبو عيسى: يعجبك من هذا شيء يا أبا عكرمة؟ فقلت: يا سيدي المنى دون هذا. ثم إن القوم غنّوْا على هذا إلى انقضاء المجلس: إذا ابتدأ المسدود تبعه الرجلان بمثل ما غنى؛ فكان مما غنى المسدود:

يا ديْرَ حَنّةَ من ذاتِ الأُكيْراحِ مَنْ يصْحُ عنكِ فإني لست بالصّاحي[4]

(١) الحقائب: جمع حقيبة، وهو العَجزُ.
(٢) الصبّ: العشق الشديد.
(٣) الودج: المتواصل، والذي في منزلة الأخ.
(٤) الاكيراح: موضع بظاهر الكوفة.

يعتادُه كل مَحْفِيٍّ مفارِقُه ... مِنَ الدّهان عليه سحْقُ أمساحِ
ما يَدلفون إلى ماءٍ بآنيةٍ ... إلاّ اغترافاً مِنَ الغُدران بالرَّاحِ

ثم سكت فغنى زنين:

دعِ البساتين مِن آسٍ وتُفَّاحِ ... وآعدِلْ هُديت إلى ذاتِ الأُكيْراحِ
واعدِل إلى فتيةٍ ذابت لُحومُهُم ... مِنَ العبادةِ إلاّ نضْوُ أشياحِ
وخمرةٍ عُتِّقت في دنّها حِقباً ... كأنها دمعةٌ في جَفْنِ سيّاحِ (١)

ثم سكت فغنى دبيس:

لا تحفَلَنَّ بقول اللائمِ اللاّحي ... واشرَبْ على الوردِ من مشمولةِ الراحِ
كأساً إذا انحدَرتْ في حلقِ شاربِها ... أغناك لألاؤها عن كلِّ مصباحِ
ما زلتُ أسقي نديمي ثم ألثمُهُ ... والليلُ مُلتحفٌ في ثوب سيَّاحِ
فقام يشدوُ وقد مالت سوالِفُهُ ... يا دَيْرَ حَنّةَ من ذات الأكيْراحِ

ثم ابتدأ المسدود فغنى:

باحورار العيْنِ والدَّعجِ ... واحْمِرار الخدِّ في الضَّرَجِ (٢)
وبتُفّاحِ الخدُودِ وما ... ضمَّ من مسكٍ ومن أرَجِ
كن رقيقَ القلب إنكَ مِن ... قتْلِ مَن يَهواك في حَرَجِ

ثم سكت وغنى زنين:

كسْرَويُّ التِّيه مُعتدلٌ ... هاشميُّ الدّلِّ والغَنجِ
وله صدْغان قد عَطَفا ... ببياضِ الخدّ كالسَّبَجِ (٣)
وإذا ما افتَرّ مُبتسماً ... أطلَقَ الاسرى من المُهَجِ
ما لِما بي مِنَ من فَرَجٍ ... لا ابتلاني الله بالفَرَجِ

---

(١) السياح: الراهب المتعبد.

(٢) الدعج: اشتداد سواد العين وبياضها.

(٣) السبج: خرز أسود.

ثم سكت وغنى دبيس:

تَعمَلُ الأجفان بالدَّعَجِ ... عَمل الصهباء بالمُهجِ
بأَبي ظَبي كَلِفْتُ به ... واضحُ الخدَّين والفَلَجِ
مَرَّ بي في زيٍّ ذي خَنَثٍ ... بين ذات الضَّال من أمَجِ (١)
قلت قلبي قد فتَكتَ به ... قال ما في الدِّين من حَرَجِ

ثم سكت وغنى المسدود:

ما يُبالي اليوم ما صَنعا ... مَن بقلبي يُبْدِعُ البدَعا
كنتُ ذا نُسْكٍ وذا وَرَعٍ ... فتركتُ النُّسْكَ والورعا
كم زَجرتُ القلبَ عنكَ فلمْ ... يُصغِ لي يوماً ولا نَزَعا
لا تَدَعْني للهوى غَرَضاً ... إنّ ورْدَ الموت قد شرعا

ثم سكت وغنى دبيس:

آسقِني كأساً مُصَرَّدَةً ... إنَّ الليل قد طلَعا (٢)
قد شربْت الحبَّ شُرْبَ فتىً ... لم يَدعْ في كأسه جرَعا

ثم ابتدأ أيضاً دبيس فغنى:

يقولون في البستان للعين لذةٌ ... وفي الخمر والماء الذي غيرُ آسنِ (٣)
إذا شئت أن تلقي المحاسنَ كلَّها ... ففي وجه مَن تَهوى جميع المحاسن

فغضب المسدود لما قطع عليه دبيس، وقال: غن على غير هذه القافية واللحن، ثم نرجع إلى حالنا الاولى: فقال ابو عكرمة: قد أصبت. فابتدأ المسدود فغنى:

أدعوك من قلبي إذا لم أَرَكْ ... يا غاية الطرفِ إذا أبصرَكْ
قضى لك الله فسُبحان مَن ... أحلكَ القلبَ ومن قدَّرك
لستُ بناسيك على حالةٍ ... يا ليت ما يُذكِرني ذَكَّرك

---

(١) أمج: بلد من أعراض المدينة.

(٢) مصردة: الشرب دون الري. (٣) آسن: عفن.

صبَّـــرَني الله على مـــــا أرى　　منك مـن الهجـر مـا صبَّـرَك

قال: فقال زنين: وأنا فلا بد أن أسلك سبيلكما. قال أبو عكرمة: ثم التفت إلي فقال: ما ترى؟ فقلت. أحسنت والله. فابتدأ يغني:

يا هائم القلبِ عاصٍ مـن عـذَلـك　　مـا نلـتَ ممن هـويتَـه أملَـكَ
دعـاك داعـي الهوى بخدْعتِـــه　　حتى إذا مـا أَحببتَـه خـذَلـك
فـاحتَـلْ لـداءِ الهوى وسطْـوتِـه　　إنـــكَ إن لم تُـــداوهِ قتلـــكْ

ثم ابتدأ المسدود يغني:

شققـــتُ جيبي عليـكَ شقـا　　ومــا لِجيبي أردتُ شقـــا
أردتُ قلبي فصـــادفَتـــهُ　　يـدايَ بـالجيـبِ قـد تـوقـى
مـالـكَ رقِّـي أبيــتَ عِتقـي　　لـولاك مـا كنـتُ مُستَـرَقـا

ثم سكت وغنى زنين:

قـد ذُبـتُ شـوقـاً ومـتُّ عشقـا　　يـا زفـراتِ المحـبِّ رفقـا
ثِكلـتُ نفسـي وزرتُ رمسـي　　إن كنـت للهجـرِ مُستحقـاً

ثم سكت وغنى دبيس:

ظمئـتُ شـوقـا وبحر عشقـي　　يفيضُ عـذبـاً ولسـت أُسْقَـي
أنا الذي صرتُ مـن غـرامـي　　على فـراشِ السّقـامِ ملقـى
فمـن زفير ومـن شهيـقٍ　　ومـن دمـوع تجودُ سبْقـا

ثم ابتدأ المسدود فغنى:

مـاذا على نُجْـلِ العيـونِ لـو آنهم　　أومَوْا إليك فسلمـوا أو عـرّجُـوا[1]
أمنوا مُقـاسـاةَ الهمـوم وأيقنـوا　　أنّ المحـبَّ إلى الاحبَّـةِ يُـدلِـج

---

(١) نجل العيون: اتسعت عيونهن وحسنت.

ثم سكت وغنى دبيس:

هيَّـا فقـد بـدأ الصَّبـاحُ الأبلـجُ ... والشمسُ والبدرُ في خدّيكَ والضَرجُ [(١)]

الدر ثغـرك لـولا ان ذا بَـرَدٌ ... والحبرُ صُدغُكَ لـولا ان ذا سبـج

انضجْتَ قلبي ولو أن الورى لقيَـت ... قلوبُهم منكَ ما لاقيْتُ مـا لهجـوا [(٢)]

ثم سكت وابتدأ المسدود فغنى:

يـا صـاحـبَ المُقـلِ المِراض ... انظـر إلـيّ بعيـن راض

إن تَجفُنـي مُتعمّـداً ... لتُـذيقَني جـرعَ الحِيـاض [(٣)]

فلطـالمـا امكنْتَنـي ... منكَ المراشفَ عـن تَـراض [(٤)]

ثم سكت وغنى زنين:

هائِمٌ مُدنـف مـن الإعـراضِ ... لا سبيـل لـه إلى الإغماضِ

مُوثَقُ النومِ مُطلقُ الدمع مايعـر ... ف ملْجاً من الحُتوفِ القَـواضي

ما يَرَى جِسمه سـوى لحظـات ... أمْرضتْه مـن العيـونِ المراض

كن ساخطاً وآظْهر بـأنّـكَ راضِ ... لا تُبـديـنْ تكـرُّهَ الإعـراضِ

وآنْظـر إليّ بمقلـةِ غضْبـانـة ... إن كنـتَ لم تنظـر بمقلْـةِ راض

وآرحم جُفوناً ما تَجفُّ من البكـا ... في ليلـةٍ مسلـوبـةِ الإغمـاضِ

وآحكم فَديتُكَ بين جسمـي والهوى ... فالحكمُ منك على الجوارِحِ مـاض

ثم ابتدأ المسدود فغنى:

يـاذا الذي حـالَ عـنِ العهـدِ ... ومَـن يَـراني منـه بـالصـدِّ [(٥)]

بسُمْرةِ الخالِ وما قـد حـوى ... مـن حُمـرَةٍ في سـالـفِ الخد

---

(١) أبلج الصبح: أسفر فأنار.

(٢) تصابى: تكلّف الصِّبا.

(٣) الحياض: جمع حوض: وهو مجتمع الماء.

(٤) المرشف: موضع الرشف.

(٥) الصدّ: الهجران.

إلا تعطفْــتَ على عــاشــقٍ	مُنفـردٍ بـالبـثِّ والوجــدِ[1]

ثم سكت وغنى زنين:

أظــلُّ بِكتمانِ الهــوى وكــأنما	ألاقي الذي لاقاهُ غيري من الوجْـد
وعيبَ عليّ الشَّوْقُ والوجدُ والبكـا	ولا أنا بالشكْوى أُنفِّسُ من جهدي

ثم سكت وغنى دبيس:

تهزَّأتَ بي لما خلــوتَ مــن الوَجــدِ	ولم تَرْثِ لي لا كان عندكَ ما عِنـدي
وعِيــبَ عليَّ الشـوقُ والوجـدُ والبكـا	وأنت الذي أجْريت دمعي على خـدِّي
صــددْتَ بلا جُــرمٍ إليــك أتيتُــه	أكان عجيباً لو صددتَ عن الصـدِّ[2]
أَلا إنَّني عبـدٌ لطـرفــكَ خــاضــعٌ	وطـرفُـكَ مـولّـى لا يـرِقُ على عبدِ

ثم غنى المسدود:

أقمــتُ بِبلــدةٍ ورحلــتَ عنهــا	كِلانـا عنـدَ صاحبـهِ غـريــبُ
أقــلُّ النــاسِ في الدنيــا نَصيبــا	مُحِبٌّ قـد نـأى عنـه الحبيـب[3]

ثم سكت وغنى زنين:

ويُقنِعُني ممن أُحــبُّ كتــابُــه	ويمنَعُنيــــهِ، إنـــه لبخيــــلُ
كفى حَزناً أن لا أُطيـقَ وداعَكـم	وقد حـان منِّـي يـا ظلـومُ رحيلي

ثم سكت وغنى دبيس:

يــا واحــدَ الحســنِ الذي لحظـاتُـه	تَدعو النُّفـوسَ إلى الهوى فتُجيـبُ
مَــن وجهُـه القمـرُ المُنيرُ وحُسنُـه	غُصــنٌ نضيرٌ مُشرقٌ وكثيــب[4]
أَلنـاظـريْـك على العيـونِ رقيبـةٌ	أم هل لِطرْفِك في القلوبِ نصيـبُ

ثم ابتدأ المسدود فغنى:

---

(١) الوجد: الهيام.	(٢) الصد: الهجر.	(٣) نأى: بعد.

(٤) الكثيب: الرمل المستطيل المحدودب.

قلَـــقٌ لم يــــزُلْ وصبرٌ يَـــزولُ ورضــاً لم يَطـلْ وسُخْـطٌ يطــولُ
لم تَسِــل دَمعتي عليّ مـــن الرّحْـــــمةِ حتى رأيــتُ نفسي تسيــل
جالَ في جِسمـي السّقـام فجسمـي مُدْنـفٌ ليس فيـه رُوحٌ تَجـول [١]
يَنقضي للقتيـلِ حـــولٌ فيُنْسَـى وأنـا فيـك كـلَّ يـومٍ قتِيــل

ثم سكت وغنى زنين:

ليس إلى تَـركِـك مـن حيلـة ولا إلى الصبرِ لقلبي سبيـــــلْ
فكيْفَما شئـتَ فكـــن سَيــدي فإنّ وجْـدي بـك وجْـدٌ طـويـلْ
إن كنـتَ أَزمَعْـت على هَجْـرنــا فحسبُنــا الله ونعـــمَ الوكيـــل

قال أبو عكرمة: فأقبل أبو عيسى على المسدود فقال له غنِّ صوتاً. فغنى:

يا لُجَّة الدمْعِ هل للدّمـعِ مَـرْجـوعُ أمِ الكرى من جُفونِ العيْنِ ممنـوعُ [٢]
مــا حيلتي وفــؤادي هــائم أبـــدا بعقربِ الصُّدْغِ مـن مـوْلاي ملْسـوع
لا والذي تَلفَــت نفسي بفُـــرقتِــه فالقلبُ من حُرَقِ الهِجران مَصـدوع
مــا أرّقَ العيْـــنَ إلا حُـــبُّ مُبتَـــدعٍ ثـوْبُ الجمالِ على خـدَّيْـه مخلــوع

قال أبو عكرمة: فوالله الذي لا إله إلا هو، لقد حضرت من المجالس ما لا أحصي، فما رأيت مثل ذلك اليوم. ثم إن أبا عيسى أمر لكل واحد بجائزة وانصرفنا، ولولا أن أبا عيسى قطعهم ما انقطعوا.

من سمع صوتاً فوافقه معناه فاستخفه الطرب

حكي عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي عن أبيه قال: دخلت على هارون الرشيد فلما رأيته قد أخذ في حديث الجواري وغلبتهِنّ على الرجال، غنيته بأبيات التي يقول فيها:

---

(١) المدنفُ: الذي اشتد مرضه وأشفى على الموت.
(٢) الكرى: النعاس.

مَلَكَ الثّلاثُ الآنساتُ عِناني ... وحَلَلن من قلبي بكلِّ مكان
مالي تُطاوِعُني البريّةُ كلُّها ... وأُطيعُهُنّ وهُنّ في عصياني
ما ذاك إلا أنّ سلطانَ الهوى ... وبه قَوِينَ أعزُّ من سلطاني

فارتاح وطرب، وأمر لي بعشرة آلاف درهم.

الموصلي والأمين:

وغنى إبراهيم الموصلي محمد بن زبيدة الأمين بقول الحسن بن هانيء فيه:

رشَأ لولا مَلاحتُه ... خلَت الدُّنيا من الفِتَنِ (١)
كلَّ يومٍ يَسترِقُّ له ... حُسنُه عبْداً بلا ثمن
يا أمين اللهِ عش أبداً ... دُمْ على الأيام والزمن
أنتَ تبقى والفَناءُ لنا ... فإذا أفنيْتَنا فكنِ
سَنّ للناسِ القِرى فقَروْا ... فكأنّ البُخلَ لم يكنِ

قال: فاستخفه الطرب حتى قام من مجلسه وأكبَّ على إبراهيم يقبّل رأسَه؛ فقام إبراهيم من مجلسه يقبل أسفل رجليه وما وطئتنا من البساط؛ فأمر له بثلاثة آلاف درهم؛ فقال إبراهيم: يا سيدي، قد أجزتنِي إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم! فقال الأمين: وهل ذلك إلا خراج بعض الكور؟ (٢).

جرير والشعراء:

الرياشي عن الأصمعي؛ قال: قدم جرير المدينة، فأتاه الشعراء وغيرهم، وأتاه أشعب فيهم، فسلموا عليه وحادثوه ساعة وخرجوا، وبقي أشعب. فقال له جرير: أراك قبيحاً، وأراك لئيم الحسب؛ ففيم قعودك وقد خرج الناس؟ فقال له: أصلحك الله، إنه لم يدخل عليك اليوم أحد أنفع لك مني! قال: وكيف ذلك؟ قال: لأني آخُذُ

---

(١) الرشأ: ولد الظبية إذا قوى وتحرك ومشى مع أمه.

(٢) الكُوَر: مفردها الكورة، وهي البقعة التي يجتمع فيها قرى ومحال.

رقيق شعرك فأزيِّنه بحسن صوتي. فقال له جرير: فقل. فاندفع يغنيه:

يـا أُخـتَ نـاجِيَـةَ السَّلام عليكـم قبل الرحيلِ وقبلَ لوْمِ العُـذَّلِ (١)
لـو كنـتُ أَعلم أنّ آخـر عهـدِكم يوم الرحيلِ فعلـتُ مـا لم أفعـلِ

قال: فاستَخف جرير الطربُ لغنائه بشعره، حتى زحف إليه واعتنقه وقبَّل بين عينيه، وسأله عن حوائجه فقضاها له.

المسور وامرأ:

الزبير بن بكار قال: كان المسور بن مخرمة ذا مال كثير، فأسرع فيه على إخوانه، فذهب فسأل آمرأته ـ وكانت موسرة ـ فمنعتْه وبَخلتْ عليه؛ فخرج يريد بعض خلفاء بني أمية منتجعاً، فلما كان ببعض الطريق نزل ماءً يقال له بلا كث، فقال له غلامه: كيف يقال لهذا الماء؟ قال: يقال له بلا كث، فقال [مغنِّيا]:

بينما نحن مـن بلا كِـثَ بـالقـا ع سِراعـا والعِيسُ تَهـوي هُـوِيّـا
خَطَرتْ خطرة على القلبِ من ذِكْر راك وهْنـاً فما آستطعْـتُ مُضيّـا
قلتُ لبَيْـكِ إذ دعـاني لـكِ الشَّـوْ قُ، وللحـادِيين كُـرّا المَطيّـا

فقال: هن بُدْنٌ (٢) إن لم تكرَها رواجع. قال له: قد أشرفن على أمير المؤمنين قال: هن بُدن إن لم تكرها رواجع! فانصرف، ودخل المصلى ليلاً، فوجد رجال قريش حلَقاً يتحدثون، فقالوا له: زاد خير! فقال: زاد خير. حتى انتهى إلى داره، فقالت له امرأته: زاد خير! فأنشدها الأبيات، قالت: كل ما أملك في سبيل الله، إن لم أشاطرك مالي! فشاطرته مالها.

عمر الوادي:

وروى أبو العباس قال: حُدثت أن عمر الوادي قال: أقبلت من مكة أريد

---

(١) العذّل: جمع العاذل وهو اللائم.
(٢) بدن: جمع بدنة، وهي الناقة او البقرة تنحر بمكة قرباناً.

المدينة، فجعلت أسير في صَمْد[1] من الأرض، فسمعت غناء من الهواء لم أسمع مثله فقلت: والله لأتوصّلنّ إليه. فإذا هو عبد أسود، فقلت له: أعِدْ ما سمعت. فقال: والله لو كان عندي قِرى أقريك ما فعلت، ولكن أجعلُه قِراك؛ فإني والله ربما غنيت بهذا الصوت وأنا جائع فأشبع، وربما غنيته وأنا كسلان فأنشط وربما غنيتُه وأنا عطشان فأروَى! ثم ابتدأ فغنى:

وكنتُ متَى ما زرتُ سُعدَى بأرضِها ... أرى الأرضَ تُطوِي لي ويَدنو بعيدها
من الخَفرات البيضِ وَدَّ جليسُها ... إذا ما انقضتْ أُحْدوثةٌ لو يُعيدُها[2]

قال عمر: فحفظته منه، ثم تغنيت به على الحالات التي وصف، فإذا هو كما ذكره.

خالد صامة:

وتحدث الزبيريون عن خالد صامة بأنه كان من أحسن الناس ضرباً بعود. قال: قدمت على الوليد بن يزيد في مجلسٍ ناهيك به مجلسا، فألفيته على سريره، وبين يديه معبد، ومالك بن أبي السمح، وابن عائشة، وأبو كامل غُزَيِّل الدمشقي وكانوا يغنُّون، حتى بلغت النوبة إليّ، فغنيته:

سَرَى هَمِّي وهَمُّ المرءِ يسري ... وغابَ النَّجمُ إلا قِيدَ فِتْرِ[3]
لهَمٍّ ما أزالُ له قرينا ... كأنّ القلبَ أُودِعَ حَرّ جَمْرِ
على بكْرٍ أخي، فارقْتُ بكْرا ... وأيُّ العيْشِ يصلُح بعد بكْر

فقال: أعد يا صام. ففعلت، فقال لي: مَن يقول هذا الشعر؟ قلت: يقوله عروة ابن أذينة يرثي أخاه بكراً. قال الوليد:

وأي عيش يصلح بعد بكر!

والله لقد حَجَّر واسعاً، هذا والله العيش الذي نحن فيه، يصلح على رغم أنفه.

---

(١) الصمْد: المكان المرتفع الغليظ. (٢) الخفرات: جمع خَفِرَة: وهي التي اشتد حياؤها.
(٣) الفتر: ما بين طرف الابهام وطرف السبابة إذا فتحتها.

سكينة:

وقد قيل: إن سكينة بنت الحسين غنيت بهذا الشعر، فقالت: ومن بكر هذا! هو ذاك الأشتر الذي كان يأتينا؟ لقد طاب كلُّ شيء بعده حتى الخبز والزيت!

الرشيد وإسحاق الموصلي:

وعن عبد الصمد بن المعذّل قال: سمعت إسحاق الموصلي يتحدث، قال: حججت مع الرشيد، فلما نزلت المدينة آخيت رجلاً كانت له مُروءة ومعرفة وأدب، وكان يغنِّي، فإني ذات ليلة في منزلي إذا أنا بصوته يستأذن عليّ، فظننت أمراً قد حدث ففزع فيه إليّ، فأسرعت نحو الباب فقلت: ما جاء بك؟ قال: دعاني صديقٌ إلى طعام عتيد، ومجلس شراب قد التقى طرفاه، وشواء رَشراش[1]، وحديث ممتع، وغناء مشبع؛ فأجبته وأقمت معه إلى هذا الوقت، فأخذتْ مني حُميا الكأس مأخذها، ثم غنيت بقول نصيب:

بزيْنبَ أَلْمِمْ قبل أن يرحلَ الرَّكْـبُ وقـل إن تَمَلينـا فما مَلَـكِ القلـبُ

فكدت أطير طرباً، ثم وجدت في الطرب تنغيصاً إذا لم يكن معي من يفهم هذا كما فهمته؛ ففزعت[2] إليك لأصف لك هذه الحال ثم أرجع إلى صاحبي! وضرب بغلتَه مولّيا فقلت: قف أكلمك. فقال: ما بي إلى الوقوف إليك من حاجة.

معاوية وزيد وسائب خاثر:

وحدث أن معاوية بن أبي سفيان استمع على يزيد ذات ليلة، فسمع عنده غناء أعجبه؛ فلما أصبح قال له: من كان مُلْهِيَك البارحة؟ قال: سائل خاثر. قال: فأكثِر له من العطاء.

---

(١) رشراش: الخضل الندي.

(٢) فزعت: لجأت.

عثمان بن حيان وابن أبي عتيق في تحريم الغناء:

وكان ابن أبي عتيق من نبلاء قريش وظرفائهم؛ فمن ظريف أخباره:

أن عثمان بن حيان المرّي لما دخل المدينة والياً عليها، اجتمع إليه الأشراف من قريش والأنصار، فقالوا له: إنك لا تعمل عملاً أحرَى ولا أولى من تحريم الغناء والرثاء. ففعل، وأجّلهم ثلاثاً؛ فقدم ابن أبي عتيق في الليلة الثالثة، وكان غائباً، فحط رحله بباب سلاّمة الزرقاء، وقال: بدأْتُ بك قبل أن أصير إلى منزلي! قالت: أو ما تدري ما حدث بعدك؟ وأخبرتْه الخبر؛ فقال: أقيمي إلى السَّحَر حتى ألقاه. فلقيه، فأخبره أنه إنما أقدمه حبُّ التسليم عليه، وقال له: إن أفضل ما عملت تحريم الغناء والرثاء. فقال: إن أهلك أشاروا عليّ بذلك. فقال: إنهم وُفِّقوا ووفِّقْت، ولكني رسول امرأة إليك تقول: قد كانت هذه صناعتي فتبت إلى الله منها، وأنا أسألك أيها الأمير أن لا تحول بينها وبين مجاورة قبر النبي ﷺ! فقال عثمان: إذاً أدَعُها. فقال: إذاً لا تدَعك الناس؛ ولكن تدعو بها فتنظر إليها، فإن كان يجوز تركها تركتُها. قال: فادْع بها. فأمر ابن أبي عتيق فتنقَّبت وأخذت سُبحة[1] في يدها، وصارت إليه، فحدّثته عن مآثر آبائه، ففكِهَ بها فقال ابن أبي عتيق: أريد أن أُسمع الأمير قراءتَها. ففعلت؛ فحركه حداؤُها. ثم قال له ابن أبي عتيق: فكيف لو سمعتها في صناعتِها التي تركتها! فقال له: قل لها فلْتُغَنّ. فغنت:

شددّتُ خصاصَ البيت لما دخلْتُه ... بِكلِّ بَنانٍ واضحٍ وجبينِ[2]

فنزل عثمان عن سريرة ثم جلس بين يديها، وقال: لا والله ما مثلك يخرج عن المدينة! فقال ابن أبي عتيق: يقول الناس: أذِنَ لسلاّمة ومنع غيرها! فقال له: قد أذنتُ لهم جميعاً!

وذُكر لابن أبي عتيق أن المخنثين خُصُوا، وأنه خُصِيَ فلان فيهم ـ لواحد منهم

(١) السُّبحة: خرزات منظومة للتسبيح.

(٢) اخصاص: جمع خصاصة، وهي الفرجة او الخلل او الخرق.

كان يعرفه ـ، فقال ابن أبي عتيق: إنا لله! لئن خُصِيَ لقد كان يحسن:

لمَنْ ربــعٌ بـــذاتِ الجيْـ ـــشِ أمسَى دراسـاً خلَقـاً

ثم استقبل ابن أبي عتيق القِبلة، فلما كبَّر سلّم، ثم قال لأصحابه: أما إنه كان يحسن خفيفه، فأما ثقيله فلا. ثم كبَّر.

سليمان ومغن في عسكره:

وكان سليمان بن عبد الملك مفرط الغَيرة، فسمع مغنياً في عسكره، فقال: آطلبوه! فجاءوا به، فقال له: أعد ما تغنَّيت به. فأعاد واحتفل، فقال لأصحابه: والله لكأنها جرجرة الفحل في الشول، وما أحسب أنثى تسمع هذا إلا صَبتْ إليه! ثم أمر به فخُصِيَ.

ابن هشام ورجل صالح:

وقال أبو العباس محمد بن يزيد النحوي: رُوِيَ لنا أن رجلاً من الصالحين كان عند إبراهيم بن هشام، فانشده إبراهيم قول الشاعر:

... إذ أنتِ فينا لمَنْ ينهاكِ عاصيـةٌ وإذ أجرُّ إليكم سـادِراً رسَنِـي (١)

فقام الرجل فرمى بشقِّ ردائه وأقبل يسحبه حتى خرج من المجلس، ثم رجع إلى موضعه فجلس؛ فقال له إبراهيم: ما بالك؟ قال: إني كنت سمعت هذا الشعر فاستحسنته، فآليت أن لا أسمعه إلا جررتُ ردائي كما جر هذا الرجلُ رسنه!

شاعر ومغن:

ووقف رجل من الشعراء على رجل من المغنِّين فأنشده:

إني أتيـتُ إليــك مــن أهلي في حــاجــة يسعــى لها مثلي

لا أبتغي شيئاً لـديْـكَ سِوَى «حيِّ الحُمولَ بجانبِ الرّمـلِ»

(١) السَّادر: التائه.

قال له: انزل!

دهمان المغني:

مرّ دهمانُ المغني بقوم وعليه رداء يثربي، فقالوا له: بكـم أخذتَ الرداء؟ فقال:

ألا إنّ جيرانَنا ودّعوا بـ

أشعب وهاشمي:

وحدّثني أبو العباس أحمد بن بكر ببغداد قال: حدثني إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال: كان يقال قديماً: إذا قسا عليك قلبُ القرشي من تهامة، فغنّه بشعر عمر بن أبي ربيعة وغناء ابن سريج. وكذا فعل أشعبُ برجل من أهل مكة من بني هاشم، وكان أشعب قد انتجع أهل مكة من المدينة.

قال أشعب: فلما دخلت عليه غنيتُه بغناء أهل المدينة وأهل العقيق، فلم ينجع ذلك فيه ولم يحرِّك من طرَبه ولا أريحيَّته؛ فلما عيل صبري غنيتُه بغناء ابن سريج المكي وقول ابن أبي ربيعة القرشي:

نظـرْتُ إليهـا بـالمحصّـبِ مـن منى ... ولي نظـرٌ لـولا التحـرُّجُ عـارمُ
فقلـت أشمسٌ أم مصـابيـحُ راهـب ... بدتْ لك تحت السجْفِ أم أنت حالم(١)
بعيـدةُ مهـوَى القُـرْط إمـا لِنـوفَـلٍ ... أبـوهـا وإمـا عبـد شَمْس وهـاشمُ

قال: فحرّكت والله من طربه، وكان الذي أردتُ؛ ثم غنيته لابن أبي ربيعة القرشي أيضاً.

ولـولا أن يقـولَ لنـا قـريشٌ ... مقالَ الناصحِ الأدنى الشفيـقِ
لقلـتُ إذ التقَيْنـا قبليني ... وإن كنـا بقـارعـةِ الطـريـقِ

فقال: أحسنَ والله! هكذا يطيب التلقّي، لا بالخوف والتوقّي! قال: فلما رأيته قد

(١) السجف: أحد السترين المقرونين، بينهما فرجة.

طرب للصوتين ولم يندَّ لِي بشيء، قلت: هو الثالث وإلا فعليه السلام. قال: فغنيتُه الثالث من غناء ابن سريج قولَ عمر بن أبي ربيعة، ويقال إنها لجميل:

ما زلت أمتَحِنُ الدّساكِرَ دونها ... حتى ولِجت على خَفِيِّ المَوْلِجِ [1]
فوضعْتُ كفِّي عند مقطع خَصْرِها ... فتنفَّسَتْ نفساً ولم تتلهّجِ
قالت: وحقِّ أخي وحُرْمَةِ والدي ... لأنبِّهَنّ الحيّ إن لم تخرُجِ
فخرجتُ خِيفةَ قولِها فتبسّمت ... فعلِمت أن يَمينها لم تحرَجِ
فرشَفْتُ فاها آخذاً بقرونِها ... رشْف النزيفِ ببَرْد ماءِ الحشْرجِ

فصاح الهاشمي: أُوَّه! أحسن والله وأحسنت! وأمر لي بألف درهم وثلاثين حلة وخلعة كانت عليه.

وغنى ابن سريج رجلاً من بني هاشم بقول جرير:

بعثنَ الهوى ثم ارتميْنَ قلوبنا ... بأسهُمِ أعداءٍ وهنّ صديقُ
وما ذُقت طعم العيش منذ نأيتُم ... وما ساغ لي بين الجوانحِ ريقُ

قال: فخطف من ثوبه ذراعاً، وقال: هذا والله العقيان في نحور القِيان!

مديني وجارية تغني:

قال: وصحب شيخ من أهل المدينة شاباً في سفينة ومعهم جارية تغني، فقال له: إن معنا جارية تغني، ونحن نُجلّك؛ فإذا أذنتَ لنا فعلنا. قال: فأنا أعتزل وافعلوا ما شئتم. فتنحَّى وغنت الجارية:

حتى إذا الصُّبحُ بدا ضوْؤه ... وغابت الجوْزاءُ والمِرْزَمُ [2]
أقبلْت والوطءُ خفِيٌّ كما ... ينسابُ من مَكْمَنِه الأرقمُ [3]

فرمى الناسك بنفسه في الفرات وجعل يخبط بيديه ويقول: أنا الأرقم! فأخرجوه

(١) دساكر: جمع دسكرة، وهي بناء كالقصر حوله بيوت للاعاجم فيها الشراب والملاهي.
(٢) المرزم: اسم لعدد من النجوم.
(٣) الأرقم: ذكر الحيات أوأخبثها.

وقالوا: ما صنعت؟ فقال: والله إني أعلم من تأويله ما لا تعلمون!

قاضي مكة ومغنية:

وقال أحمد بن جعفر: حضر قاضي مكة مأدبُة لرجل من الأشراف، فلما انقضى الطعام اندفعت جارية تغني:

إلى خـالـدٍ حتى أَنَخْنـا بخالـدٍ فنِعْمَ الفتى يُرجَى ونعْم المؤمَّلُ[1]

فلم يدر القاضي ما يصنع من الطرب، حتى أخذ نعليه، ثم جثى على ركبتيه وقال: آهدوني فإني بدنة.

هاشمي ومغن:

كان رجلٌ من الهاشميين يحب السماع؛ فبعث إلى رجل من المغنين فاقترح عليه صوتاً كان كلِفا به، فغناه إياه، فطرب الهاشمي وشق ثوباً كان عليه، ثم قال للمغني: آفعل بنفسك مثل ما فعلت بنفسي! قال: أصلحك الله، إنك تجد خلَفاً من ثوبك، وإني لا أجد خلفاً من ثوبي قال: أنا أُخلف لك. قال: فأفعل وتفعل؟ قال: أخرجْتنا من حد الطرَب إلى حد السَّوم.

من قرع قلبه صوت فمات منه أو أشرف

يزيد ومغنية:

حدث أبو القاسم إسماعيل بن عبد الله المأمون في طريق الحج من العراق إلى مكة، قال: حدثني أبي، قال: كانت بالمدينة قينة من أحسن الناس وجهاً وأكملهم عقلاً وأفضلهم أدباً، قرأتِ القرآن وروتِ الأشعار وتعلمتِ العربية؛ فوقعت عند يزيد بن عبد الملك، فأخذت بمجامع قلبه، فقال لها ذات يوم: ويحك! أما لك قرابة أو أحدٌ يحْسُن أن أصطنعه أو أُسدي إليه معروفاً؟ قالت: يا أمير المؤمنين، أما قرابة فلا،

---

(١) أناخ بفلان: شكا إليه حاجته.

ولكنّ بالمدينة ثلاثة نفر كانوا أصدقاء لمولاتي، كنت أحبُّ أن ينالهم من خير ما صرتُ إليه! فكتب إلى عامله بالمدينة في إشخاصهم، وأن يعطي كل رجل منهم عشرة آلاف درهم، وأن يعجل بسراحهم إليه؛ ففعل عامل المدينة ذلك؛ فلما وصلوا إلى باب يزيد استُؤْذِن لهم، فأذن لهم وأكرمهم وسألهم [عن] حوائجهم؛ فأما الاثنان فذكرا حوائجهما فقضاها لهما وأما الثالث فسأله عن حاجته؛ فقال: يا أمير المؤمنين، مالي حاجة! قال: ويحك! ولِم؟ ألست أقدرُ على حوائجك؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين، ولكن حاجتي لا أحسبك تقضيها! قال: ويحك! فسلْني، فإنك لا تسألني حاجة أقدر عليها إلا قضيتُها. قال: وليَ الأمان يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم وكرامة، قال: إن رأيت أن تأمر جاريتك فلانة التي أكرمْتَنا لها أن تغنِّيَني ثلاثة أصوات أشرب عليها ثلاثةَ أرطال، فافعل، قال: فتغير وجه يزيد. وقام من مجلسه، فدخل على الجارية فأعلمها؛ قالت: وما عليك يا أمير المؤمنين؟ أفعلُ ذلك. فلما كان من الغد أمر بالفتى فأُحضِرَ، وأمر بثلاثة كراسي من ذهب فأُلقيت؛ فقعد يزيد على أحدها، وقعدت الجارية على الآخر، وقعد الفتى على الثالث؛ ثم دعا بطعام فتغدَّوا جميعاً، ثم دعا بصنوف الرياحين والطيب فوُضِعتْ ثم أمر بثلاثة أرطال فملِئت؛ ثم قال للفتى: قل ما بدا لك وسل حاجتك. قال: تأمرها تغني:

لا أَستطيع سُلوّاً عن مودّتها ... أو يَصنع الحبُّ بي فوق الذي صَنعا
أدعو إلى هَجرها قلبي فيُسعدُني ... حتى إذا قلتُ هذا صادقٌ نَزعا

فامرها فغنّت، فشرب يزيد وشرب الفتى، ثم شربت الجارية؛ ثم أمر بالأرطال فملئت، ثم قال للفتى: سل حاجتك. قال: تأمرها تغني:

تخيَّرتُ من نَعمانَ عُودَ أراكةٍ ... لهندٍ، ولكن مَن يبلِّغه هنْدا؟
أَلا عرِّجا بي بارك اللهُ فيكما ... وإن لم تكن هندٌ لأرضكما قصْدا

قال: فغنت بهما، وشرب يزيد ثم الفتى ثم الجارية؛ ثم أمر بالأرطال فملئت؛ ثم قال للفتى: سل حاجتك. قال: يا أمير المؤمنين مُرْها تغني:

منّا الوصالُ ومنكُم الهَجْرُ ... حتى يُفرِّق بيننا الدهرُ

والله مـــا أسلـــوكمُ أبـــداً ما لاحَ نجمٌ أو بَـــدا فجـــرُ

قال: فلم تأت على آخر الأبيات حتى خرّ الفتى مغشياً عليه؛ فقال يزيد للجارية: انظري ما حاله! فقامت إليه فحرّكته، فإذا هو ميت! فقال لها: آبكيه! قالت لا أبكيه يا أمير المؤمنين وأنت حيٌّ! قال لها: آبكية، فوالله لو عاش ما آنصرفَ إلا بكِ! فبكتْه، وأمر بالفتى فأحسن جهازَه ودفْنه.

عبد الملك وابن جعفر في الغناء:

قال: وحدّث أبو يوسف بالمدينة قال: حدّثنا إبراهيم بن المنذر الجذامي عن أبيه، أنّ عبد الله بن جعفر وفد على عبد الملك بن مروان، فأقام عنده حيناً؛ فبينا هو ذات ليلة في سمره، إذ تذاكروا الغِناء؛ فقال عبد الملك: قبح الله الغِناء! ما أوضعَه للمروءة، وأجرحَه للعِرْض، وأهدمَه للشّرَف، وأذهبَه للبهاء! وعبد الله ساكت، وإنما عرّض بعبد الله، وأعانه عليه من حضر من أصحابه ـ فقال عبد الملك: مالك أبا جعفر لا تتكلم؟ قال: ما أقول ولحمي يتمزع وعرضي يتمزق؟ قال: أما إني نُبِّئتُ أنك تغني! قال: أجل يا أمير المؤمنين، قال: أفّ لك وتُفّ! قال: لا أُفٌّ ولا تُفّ، فقد تأتي أنت بما هو أعظم من ذلك، قال: وما هو؟ قال: يأتيك الأعرابي الجافي، يقول الزُّور؛ ويقذف المحصنات؛ فتأمر له بألف دينار، وأشتري أنا الجارية الحسناء من مالي، فأختار لها من الشعر أجودَه، ومن الكلام أحسنَه، ثم تردّده عليَّ بصوت حسن؛ فهل بذلك بأس؟ قال: لا بأس، ولكن أخبرني عن هذه الأغاني ما تصنع؟

قال: نعم، اشتريت جارية باثني عشر ألف درهم مطبوعة، فكان بديحٌ وطويس يأتيانها فيطرحان عليها أغانيها، فعلِقت منها حتى غلبت عليها؛ فوُصفت ليزيد بن معاوية، فكتب إليَّ: إمّا أهديتَها إليّ، وإمّا بعتَها بحكمك. فكتبت إليه: إنها لا تخرج عن مِلكي ببيع ولا هبة! فبذل لي فيها ما كنت أحسب أنّ نفسَه لا تسخو به، فأبيتُ عليه.

فبينما هي عندي على تلك الحال، إذ ذَكرت لي عجوز من عجائزنا أنّ فتى من

أهل المدينة سَمع غناءها فعلِقها وشغف بها، وأنه يجيء في كل ليلة مستتراً يقف بالباب حتى يسمع غناءَها ثم ينصرف؛ فراعيت مجيئَه، فإذا الفتى قد أقبل مقنَّع الرأس، فأشرفت عليه وقد قعد مستخفياً، فلم أدْعُ بها تلك الليلة، وجعلتُ أتأمّل موضعه، فبات مكانه الذي هو فيه؛ فلما انشق الفجر اطلعتُ عليه، فإذا هو في موضعه، فدعوت قيِّمة الجواري فقلت لها: انطلقي الساعة فزيِّني هذه الجارية وأعجلي بها إليّ. فلما جاءت بها نزلتُ وفتحتُ الباب وحرّكتُه، فانتبه مذعوراً؛ فقلت له: لا بأس عليك! خذْ بيد هذه الجارية فهي لك، وإن هممتَ ببيعها فردَّها إليّ! فدهش وأخذه الخبَل ولبطَ به[1]؛ فدنوت من أذنه! فقلت: ويحك! قد أظفرَك ببُغيتك، فقم فانطلق بها إلى منزلك! فإذا الفتى قد فارق الدنيا، فلم أر شيئاً قط أعجب منه!

قال عبد الملك: وأنا والله ما سمعت شيئاً قط أعجبَ من هذا ولولا أنك عاينتَه ما صدّقتُ به؛ فما صنعتَ بالجارية؟ قال: تركتُها عندي، وكنت إذا ذكرتُ الفتى لم أجدْ لها مكاناً من قلبي، وكرهت أن أوجِّه بها إلى يزيد فيبلغه حالُها فيحقد عليّ، فما زالت تلك حالها حتى ماتت!

طريفة وأيوب المغني:

ووقف رجل يقال له طريفة على أيوب المغني فقال:

إني قصَدتُ إليكَ من أهلي ... في حاجةٍ يسعى لها مثْلي
لا أبتغي شيئاً لديك سِوى ... «حيِّ الحُمولَ بجانب الرَّمْل»

فقال له: آنزل، فلك ما طلبت، فنزل، فأخرج عوده ثم غناه بقول امريء القيس:

حيِّ الحُمول بجانبِ الرملِ ... إذ لا يُلائمُ شكلها شكلي

فلُبط[2] بِطريفة، فإذا هو في الأرض منجدل، فلما أفاق قام يمسح التراب عن

---

(١) لَبطَ به: صرع.

(٢) يقال لبط به، بالبناء المجهول، إذا ضرب بنفسه الأرض من داء أو أمر يغشاه مفاجأة.

وجهه؛ فقيل له: ويحك! ما كانت قصتك؟ قال: ارتفع والله من رجلي شيء حارّ، وهبط من رأسي شيء بارد، فالتقيا وتصادما؛ فوقعت لا أدري ما كانت حالي.

أخبار عنان وغيرها من القيان

حدّث محمدُ بن زكريا الغلابي بالبصرة قال: حدثنا ابراهيم بن عمر قال: كان الرشيد قد استعرض عنانَ جاريةَ الناطفي ليشتريها، وقال لها: أنا والله أُحبّك! ثم أمسك عن شرائها؛ فجلس ليلة مع سُمَّاره، فغناه بعض من حضر من المغنين بأبيات جرير حيث يقول:

إنّ الذين غَـدوْا بلُبِّـك غادروا   وشَلاً بعينك لا يـزال معَينـا(1)

قال: فطرب الرشيد لها طرباً شديداً، وأُعجب بالابيات، وقال لجلسائه: هل منكم أحد يجيز هذه الابياتَ بمثلهنّ، وله هذه البدرة؟ - وبين يديه بدرة من دنانير - قال: فلم يصنعوا شيئاً؛ فقال خادم على رأسه: أنا لك بها يا أمير المؤمنين. قال: شأنَك. فاحتمل البدرة؛ ثم أتى الناطفيَّ فقال له: استأذن لي على عنان. فأذنت له، فدخل وأخبرها الخبر؛ فقالت: ويحك! وما الابيات؟ فأنشدها إياها، فقالت له: اكتب:

هيّجـتَ بـالقـول الذي قـد قلتَـه   داءً بقلبي مـــا يـــزال كمينَـــا
قـد أينعـــتْ ثمراتُــه في طينِهـــا   وسُقِين مـن مـاء الهوى فـرَوِينـا
كذَبَ الذين تقـوّلـوا يـا سيـدي   إنّ القلـوبَ إذا هَـويـنَ هَـوينـا

فقالت له: دونك الابيات. فدفع إليها البدرة ورجع إلى هارون، فقال: ويحك! من قالها؟ قال: عنان جارية الناطفي. فقال: خلعتُ الخلافةَ من عنقي إن باتت إلا عندي! قال: فبعث إلى مولاها فاشتراها منه بثلاثين ألفاً، وباتت بقية تلك الليلة عنده!

وقال الاصمعي: ما رأيت الرشيد مبتذّلا قط إلا مرة، كتبتْ إليه عنانُ جارية الناطفى رقعة فيها:

(1) الوشل: القليل من الماء.

كنتُ في ظلِّ نعمةٍ بِهَواكا   آمناً لا أخاف جَفاكا
فسَعى بيننا الوُشاة فأقررْ   تَ عيونَ الوُشاة بي فهَناكا
ولَعمري لَغيرُ ذا كان أولى   بك في الحق يا جُعلتِ فِداكا

قال: فأخذ الرقعة بيده وعنده ابو جعفر الشطرنجي، فقال: أيكم يشير إلى المعنى الذي في نفسي فيقول فيه شعراً وله عشرة آلاف درهم؟ فظننت أنه وقع بقلبه أمر عنان، فبدر ابو جعفر:

مجلسٌ يُنسَبُ السرور إليه   لمحبّ ريحانُه ذِكراكا

فقال: يا غلام، بدرة! قال الاصمعي: وقلت:

لم يَنلكِ الرجاءُ أن تحْضريني   وتَجافت أُمنيّتي عن سِواكا

قال: أحسنت والله يا أصمعي، لها ولك بهذا البيت عشرون ألفا.

قال جرير:

كلما دارتِ الزُجاجةُ والكأْ   سُ أعارتهُ صَبْوةً فبكاكا

فقال: أنا أشعركم حيث أقول:

قد تمنيْتُ انْ يُغشّيني   الله نُعاساً لعلّ عيني تَراكا

قلنا له: صدقت والله يا امير المؤمنين.

الباهلي في امر عنان

وقال بكر بن حماد الباهلي: لما انتهى إليّ خبر عنان، وأنها ذُكرت لهارون وقيل إنها من أشعر الناس، خرجت معترضاً لها؛ فما راعني إلا الناطفي مولاها قد ضرب على عضدي، فقال لي: هل لك فيما سنح من طعام وشراب ومجالسة عنان؟ فقلت: ما بعد عنان مطلب! ومضينا حتى أتينا منزله، فعقل دابته ثم دخل فقال: هذا بكْر شاعر باهلة يريد مجالستكِ اليوم. فقالت: والله، إني كسلانة! فحمل عليها بالسوط؛ ثم قال

لي: ادخل. فدخلت ودمعُها يتحدّر كالجمان في خدها، فطمعت بها؛ فقلت:

هٰـذِي عِنـان أسْبلَـت دمْعهـا كالـدرِّ إذ ينْسـل مـن خيطِـهْ

ثم قلت: أجيزي. فقالت:

فليـتَ مَـن يَضربُهـا ظـالما تجفُّ كفَّـاه على سـوطِـهْ

فقلت لها: إن لي حاجة. فقالت: هاتها، فمن سببك أُوذينا! قلت لها: بيتٌ وجدته على ظهر كتابي، لم أقرضه ولم أقدر على إجازته. قالت: قل: فأنشدتها:

فما زال يشكـو الحبّ حتى حسبتَـه تنفَّسَ مـن أحشـائـه فتكلما

قال: فأطرقت ساعة ثم أنشدت:

ويبكي فأبكِـي رحمةً لبكـائِـه إذا ما بكي دمْعاً بكيتُ له دما!

قلتُ لها: فما عندكِ في اجازةِ هذا البيت:

بـديـعُ حُسـن بـديـع صـدِّ جعلـت خـدِّي لـه مَلاذا

فأطرقت ساعة ثم قالت:

فعـاتَبـوهُ فعنَّفـوهُ فـأوعـدوهُ، فكـان مـاذا...؟

أبو نواس وعنان

وجلس أبو نواس إلى عنان، فقالت: كيف علمُك بالعروض وتقطيع الشعر يا حسَن؟ قال: جيد. قالت تقطع هذا البيت:

أكلـت الخرْدَل الشـا مِـيّ في صفحـةِ خبَّـاز

فلما ذهب يقطّعه ضحكت به وأضحكت، فأمسك عنها وأخذ في ضروب من الاحاديث؛ ثم عاد سائلا لها، فقال: كيف علْمك بالعروض؟ قالت: حسن يا حسن فقال: قطعي هذا البيت:

حـولّـوا عنّـا كنيسَتكُـمْ يـابني حمّالـةِ الحطـب

فلما ذهبت تقطِّعه ضحك أبو نواس، فقالت: قبحك الله! ما برحتَ حتى أخذت بثأرك!.

المأمون وسوسن المغني وجارية

حدّث أبو عبد الله بن عبد البر المدني قال: حدثني إسحاق بن ابراهيم الموصلي قال: كان للمأمون جماعةٌ من المغنين، وفيهم مغنّ يسمى سوسنا، عليه وسْم جمال قال: فبينما هو عنده يغني إذ تطلعت جارية من جواريه فنظرتْ إليه فعلِقتْه، فكانت إذا حضر سوسن تسوِّي عودها وتغني:

ما مَرَرْنا بالسَّوْسنِ الغضِّ إلا   كانَ دمْعِي لمقلتي نَدِيما
حبّذا أنت والمسمّى به أنْـت   وإن كنت منه أذْكى نسيما

فإذا غاب سوسن أمسكت عن هذا الصوت وأخذت في غيره؛ فلم تزل تفعل ذلك حتى فطن المأمون، فدعا بها ودعا بالسيف والنِّطع[1]؛ ثم قال: آصدقيني أمرَكِ قالت: يا أمير المؤمنين، ينفعني عندك الصدق؟ قال لها: إن شاء الله! قالت: يا أمير المؤمنين، اطلعت من وراء الستارة فرأيته فعلقته، فأمسك المأمون عن عقوبتها، وأرسل إلى المغني فوهبها له وقال لا يربُنا!.

قال أبو الحسن: وكان الواثق إذا شرب وسكر رقد في موضعه الذي سكر فيه، ومن سكر مِن ندمائه ترك ولم يخرج؛ فشرب يوما فسكر ورقد، وانقلب أصحابه، إلا مغنياً أظهر التراقد، وبقيت معه مغنية للواثق؛ فلما خلا المجلس وقع المغني في سحاءة[2] ودفعها إليها:

إني رأيتُكِ في المنامِ كأنني   مُترشِّفُ من ريقِ فيكِ الباردِ
وكأنّ كفَّك في يَدي وكأنما   بتنا جميعاً في فراش واحِد
ثم آنتبَهتُ ومَنِكباكِ كلاهما   في راحتَيَّ وتحت خدِّكِ ساعدِي[3]

---

(١) النِّطع: بساط من الجلد، كثيراً ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل.
(٢) سحاءة: قشر كل شيء.   (٣) المنكب: رأس العضد والكتف.

فأجابته:

خيراً رأيتَ وكل ما أبصرتَهُ ستناله منّي برغم الحاسِدِ
وتَبيتُ بين خلاخِلِي ودمالِجي وتجول بين مَراسلي ومجاسِدي[1]
فنكونُ أنعمَ عاشقَينِ تَعاطيا مُلحَ الحديث بِلا مَخافةِ راصِدِ

فلما مدت يدها لترمي إليه بالسحاءة، رفع الواثق رأسه فأخذ السحاءة من يدها، وقال لهما: ما هذه؟ فحلفا له أنه لم يجرِ بينهما قبل هذا كلامٌ ولا كتابٌ ولا رسول غير اللحظ، إلا ان العِشْق قد خامرهما. فأعتقها وزوّجها منه، فلما أشهد له وتم النكاح، أقامها الواثق إلى بيت من بعض البيوت، فوقع بها ثم خرج فقال له: أردت أن تُكشِّخني[2] فيها وهي خادمتي، فقد كشختك فيها وهي زوجتك!.

يزيد ومسلمة في حبابة:

قال: ولما كلف يزيد بحبابة واشتغل بها وأضاع الرعية، دخل عليه مسلمة أخوه فقال: يا أمير المؤمنين، تركت الظهورَ للعامّة، والشهود للجمعة، واحتجبتَ مع هذه الأمَة! فارعوي قليلا وظهر للناس؛ فأوصت حبابةُ إلى الاحوص أن يقول أبياتاً يهوّن فيها على يزيد ما قال مسلمة؛ فقال وغنَّت بها حبابة:

ألا لا تَلمْهُ اليوم أن يتبلَّدا فقد مُنِع المحزونُ أن يتجَلَّدا
إذا أنت لم تَعْشقِ ولم تدرِ ما الهوى فكُن حَجرـ من يابِسِ الصخْر جلْمُدا
هل العيشُ إلا ما تَلَذ وتشتهي وإن لام فيه ذُو الشنَّانِ وفنَّدا

فلما سمعها ضرب بِجرُبَّانه[3] الارض وقال: صدقتِ صدقت؛ على مسلمة لعنة الله! ثم عاد إلى سيرته الاولى.

---

(١) الدّملج: سوار يحيط بالعضد. (٢) الكشخان: الديوث.
(٣) الجربّان: جيب القميص، او غمد السيف، أو حده.

يزيد بعد موت حبابة:

وحدث ابن الغاز قال: حدثنا أبو سعيد عبد الله بن شبيبٌ قال: حدثنا الهيثم بن أبي بكر قال: كان يزيد بن عبد الملك كلفا بحبابة كلفاً شديداً، فلما توفيت أكب عليها أياماً يترشفها ويتشممها؛؛ ثم انتنت، فقام عنها وأمر بجهازها؛ ثم خرج بين يدي نعشها؛ حتى إذا بلغ القبر نزل فيه، حتى إذا فرغ من دفنها وانصرف لصق إليه مسلمة اخوه يعزيه ويؤنسه؛ فلما أكثر عليه قال: قاتل الله ابن أبي جمعة حيث يقول:

فإن تسلُ عنكِ النفسُ أو تَـدعِ الهوى فبـاليـأسِ تسلـو عنـكِ لا بـالتجلّـدِ
وكـلُّ خليـلٍ زارني فهـو قـاتـلٌ منَ آجلكِ: هذه هامةُ اليومِ أو غَـدِ[1]

قال: وطُعِن في جنازتها، فدفنّاه إلى سبعة عشر يوماً.

المعتصم وجارية

وذكر المعتصم جارية كانت غلبت عليه وهو بمصر، ولم يكن خرج بها معه؛ فدعا مغنياً له فقال له: ويحك! اني ذكرت جارية، فأقلقني الشوق إليها؛ فهات صوتاً يشبه ما ذكرتُ لك. فأطرق ملياً ثم غنى:

وددت منَ الشوقِ المبَـرِّحِ أنني أُعارُ جنـاحَـيْ طـائـرٍ فـأطيرُ
فـما لِنعيمٍ لسـتِ فيـه بَشـاشـةٌ وما لسرورٍ لستِ فيـه سُـرور
وإنّ آمرأً في بلْدةٍ نِصفُ قلبِـه ونصفٌ بأُخرى غيرِها لصبـورُ

فقال: واد ما عدوتَ ما في نفسي! وأمر له بجائزة، ورحل من ساعته، فلما بلغ الفرما قال:

غـريـبٌ في قَـرَى مِصر يُقـاسي الهمَّ والسّـدمـا[2]
للَيْلُـكَ كـان بـالميْـدا ن آقْصَـر منه بـالفـرَمـا

---

(١) الهامة: طائر يزعم العرب انه يخرج من هامة القتيل (اي رأسه) - يقول اسقوني اسقوني حتى يؤخذ بثأره.

(٢) السدم: العشق الشديد.

وقال المأمون في قينة له:

لها في لَحْظِها لحظاتُ حتْفٍ ... تُميتُ بها وتُحيي مَن تُريدُ
فإن غضبَتْ رأيتَ الناسَ قَتْلى ... وإن ضحِكتْ فأرواحٌ تعودُ
وتَسْبي العالمين بمُقْلتيها ... كأنّ العالمين لها عبيد

وأنشد البحتري في قينة له:

أُمازحُها فتغْضبُ ثم تَرضى ... وفعل جَمالِها حسَنٌ جميلُ
فإن تغْضبْ فأحسَنُ ذاتِ دلٍّ ... وإن ترضَى فليس لها عديل

وقال المعتز في قينة له:

فأمسيْتُ في ليْليْن للشَّعرِ والدُّجا ... وشمسيْن من كأسٍ ووجهِ حبيبِ

وقال هارون الرشيد في قينة له رحمه الله:

تُبْدي صُدوداً وتُخْفي تحته مِقةً ... فالنفْسُ راضيةٌ والطرف غضبانُ(١)
يا من وضَعتُ له خدِّي فذلَّله ... وليس فوقي سوى الرحمنِ سلطان

وقال ابراهيم الشيباني: القينة لا تخلص محبةً لأحد، ولا تؤتى إلا من باب طمعٍ.

وقال علي بن الجهم: قلت لقينة:

هل تَعْلمين وراءَ الحبِّ منزلةً ... تُدْني إليك فإنّ الحبَّ أَقصاني(٢)

فقالت: تأتي من باب الذهب، وأنشدت:

اَجعل شفيعَك منقوشاً تقدِّمُه ... فلم يَزل مُذنباً مَن ليس بالداني(٣)

أشعب وقينة

وكان أشعب يختلف إلى قينة بالمدينة فجلس عندها يوماً يطارحها الغناء؛ فلما أراد الخروج قال لها: نوِّليني خاتمك أذكرك به. قالت: إنه ذهب، وأخاف ان تذهب؛

---

(١) المقة: المحبة. (٢) أقصاه: أبعده.

(٣) الشفيع: الذي يتوسل إليه بوسيلة.

ولكن هذ خذ العود، لعلك تعود! وناولتْه عوداً من الأرض!.

وكان أشعب يختلف إلى قينة بالمدينة يكلف بهاوينقطع إذا نظرها، فطلبت منه أن يُسلفها دراهم، فانقطع عنهـا وتجنـب دارهـا، فعملـت لـه دواءً ولقيتْـه بـه؛ فقـال لها: ما هذا؟ قالت: دواءٌ عملته لك تشربه لهذا الفزع الذي بك! قال: اشربيه أنتِ للطمع، فان انقطع طمعك انقطع فزعي. وأنشأ يقول:

أنـــا واللهِ أهـــواكِ ولكـــن ليس لي نَفَقَـــهْ
فـــإمّـــا كنـــتِ تَهـــوَيْني فقـــد حلَّـــتْ ليَ الَّصَـــدقَـــهْ

أبو الحارث وقينة

وقعد أبو الحارث جُمَّيز إلى قينة بالمدينة صدرَ نهاره، فجعلت تحدِّثه ولا تذكر الطعام؛ فلما طال ذلك به قال: مالي لا أسمع للطعام ذِكْراً؟ قالت: سبحان الله! أما تستحي؟ أما في وجهي ما يشغلك عن هذا؟ فقال لها: جُعِلتُ فداك، لو أن جميلا وبثينة قعدا ساعة واحدة لا يأكلان، لبصق كل واحد منهما في وجه صاحبه وافترقا!.

أبو نواس وقينة

وقال الشيباني: كانت بالعراق قينة، وكان أبو نواس يختلف إليها، فتظهر له أنها لا تحب غيره؛ وكان كلما جاءها وجد عندها فتى يجلس عندها ويتحدث إليها؛ فقال فيها:

ومُظهِـــرة لخلْـــقِ الله وُدًّا وتَلْقـــى بـــالتّحيَّـــة والسَّلامِ
أتيْـــتُ فـــؤادَهـــا أشكـــو إليـــه فلم أَخلُـص إليـه مـن الزِّحـام
فيامَـن ليس يَكفيهـا صـديـقٌ ولا خمسـونَ ألفـاً كـلَّ عـام
أراكِ بقيّةً مـن قـومِ مـوسى فهـم لا يصبِـرونَ على طعـام

ابو نواس وقيان

وقال الشيباني حضر أبو نواس مجلساً فيه قيان؛ فقلن له: ليتنا بناتُك. قال: نعم، ونحن على المجوسية.

وقال العتبي: حضرت قينة مجلساً، فتغنت فأجادت، فقام إليها شيخ من القوم فجلس بين يديها، وقال: كل مملوكٍ لي حرٌّ، وكل امرأة لي طالق، لو كانت الدنيا لي كلها صرراً في كمي لقطعتها لك؛ فأما إذا لم يكن فجعل الله كل حسنة لي لك، وكلَّ سيئة عليك عليّ. قالت: جزاك الله خيرا، فوالله ما يقوم الوالد لولده بما قمت به لنا. فقام شيخ آخر وقعد بين يديها وقال لها: كل مملوك لي حر، وكل امرأة لي طالقٌ، إن كان وهب لك شيئاً ولا حمل عنك ثقلا؛ لانه ماله حسنةٌ يهبها لك، ولا عليك سيئةٌ يحملها عنك؛ فلأيِّ شيء تحمدينه؟.

حدّث احمد بن عمر المكي قال: سمعت إسحاق بن ابراهيم الموصلي يقول: كان بالمدينة رجل جعفري، من ولد جعفر بن أبي طالب، وكان يحب الغناء، وكان بالمدينة قينة يقال لها بصيص، وكان الجعفري يتعشّقها، فقال يوما لإخوانه: قوموا معي إلى هذه الجارية حتى نكاشفها، فقد والله أيتمت ولدي، وأرملتْ نسائي، وأخربت ضيعتي. فقاموا معه، حتى إذا جاءوا إلى بابها دقّه، فخرجت إليه، فإذا هي أملح الناس دلاً وشكلا، فقال لها: يا جارية، أتغنِّين:

وكنت أحبكم فسلوت عنكم ... عليكم في دياركم السلام

فاستحيت وخجلت وبكت وقالت: يا جارية، هاتي عودي؛ والله ما أُحسن هذا ولكن أُحسن غيره. فغنت:

تحمل اهلها منها فبانوا ... على آثار من ذهب العفاءُ

قال: فاستحيا والله صاحبنا حتى تصبب عرقا، ثم قال لها: يا سيدتي، أفتحسنين أن تغني:

وأخضع للعتبى إذا كنت ظالما ... وإن ظلموا كنت الذي أتفضل

قالت: والله ما اعرف هذا ولكن غيره. فغنت:

فإن تقبلوا بالـود أقبـل بمثلـه　　وأُنزِلكـم منـا بـأكـرم منـزل

قال: فدفع الباب ودخل، وأرسل غلامه يحمل إليه حوائجه؛ وقال: لعن الله الاهل والولد والضَّيعة!.

خبر الذلفاء

قال أبو سويد: حدثني أبو زيد الاسدي قال: دخلت على سليمان بن عبد الملك بن مروان، وهو جالس على دكان مبلط بالرخام الاحمر، مفروش بالديباج[1] الأخضر، في وسط بستان ملتف، قد أثمر وأينع؛ واذا بإزاء كل شِقّ من البستان ميدان ينبت الربيع قد ازهر وعلى رأسه وصائف. كلٌّ واحدة منهن احسنُ من صاحبتها؛ وقد غابت الشمس، فنضرت الخضرة، وأضعفت في حسنها الزهرة، وغنَّت الاطيار فتجاوبت، وسفت الرياح على الاشجار فتمايلت؛ [وقد حَلِي البستانُ] بأنهار فيه قد شقّقت، ومياه قد تدفقت: فقلت: السلام عليك أيها الامير ورحمة الله وبركاته.

وكان مطرقاً، فرفع رأسه وقال: أبا زيد! في مثل هذا الحين يصاب احدٌ حيا؟

قلت: أصلح الله الامير، أو قد قامت القيامة بعدُ!.

قال: نعم، على أهل المحبة سرا والمراسلةُ بينهم خفية.

ثم أطرق مليا، ثم رفع رأسه فقال: أبا زيد، ما يطيب في يومنا هذا؟.

قلت: أعز الله الامير، قهوةٌ صفراء، في زجاجة بيضاء، تناولها مقدودة هيفاء، مضمومة لفَّاء [مكحولة] دعجاء، أشربُها من كفها، وأمسح فمي بفمها!.

فأطرق سليمان مليا لا يُحير جوابا، ينحدر من عينه عبراتٌ بلا شهيق؛ فلما رأت

---

(١) الديباج: ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير.

الوصائفُ ذلك تنحيْنَ عنه؛ ثم رفع رأسه فقال: أبا زيد، حللتَ في يوم فيه انقضاء اجلك ومنتهى مدتك وتصرُّم عمرك! والله لاضربن عنقك أو لتخبرني ما أثار هذه الصفة من قلبك.

قلت: نعم أصلح الله الامير؛ كنت جالساً عند باب اخيك سعيد بن عبد الملك، فإذا انا بجارية قد خرجت إلى باب القصر كالغزال انفلت من شبكة الصياد؛ عليها قميص اسكندراني يتبين منه بياضُ بدنها، وتدوير سرَّتها، ونقْش تكتها؛ وفي رجليها نعلان حمراوان، وقد أشرق بياضُ قدمها على حمرة نعليها؛ مضمومة بفرد ذؤابة تضرب الى حقويها وتسيل كالعثاكيل[1] على منكبيها، وطرّة[2] قد أسبلت على مثنى جبينها، وصدغان قد زينا كأنهما نونان على وجنتيها، وحاجبان قد قوّسا على محجري عينيها، وعينان مملوءتان سحراً، وأنف كأنه قصبةُ درّ، وفم كأنه جُرح يقطر دما؛ وهي تقول: عباد الله، مَن لي بدواء من لا يشتكي، وعلاج من لا ينتمي؟ طال الحجاب، وأيضاً الجواب؛ فالفؤاد طائر، والقلب عازب، والنفس والهة، والفؤاد مختلَس، والنوم محتبَس؛ رحمة الله على قوم عاشوا تجلّداً، وماتوا تبلّداً؛ ولو كان إلى الصبر حيلةٌ وإلى العزاء سبيلٌ لكان أمراً جميلا!.

ثم أطرقت طويلا، ثم رفعت رأسها؛ فقلت: أيتها الجارية، إنسية أنت أم جنيّة؟ سمائية أم أرضية؟ فقد اعجبني ذكاء عقلك؛ وأذهلني حُسْنُ منطقك!.

فسترتْ وجهها بكمها كأنها لم ترني، ثم قالت: آعذِر أيها المتكلم الاريب، فما أوحش الساعة بلا مساعد، والمقاساة لصبّ معاند! ثم انصرفت؛ فوالله ـ أصلح الله الامير ـ ما أكلت طيبا إلا غُصِصْت به لذكرها، ولا رأيت حسناً إلا سَمُج في عيني لحسنها!.

قال سليمان: أبا زيد، كاد الجهل أن يستفزني، والصبا ان يعاودني، والحلم أن

---

(١) العثاكيل: جمع عثكول: وهو ما علّق من عهن او صوف او زينة فتذبذب في الهواء.

(٢) الطرّة: طرف كل شيء وحرفه.

يعزب عني؛ لحسْن ما رأيت، وشجو ما سمعت؛ تلك هي الذلفاء التي يقول فيها الشاعر:

إنما الذَّلفــاءُ يــاقــوتــةٌ أُخرِجت من كيسِ دهْقـانِ [١]

شراؤها على أخي ألفُ أَلفِ درهم، وهي عاشقة لمن باعها، والله إني من لا يموت إلا بحزنها، ولا يدخل القبر إلا بغصَّتها، وفي الصبر سلوة، وفي توقُّع الموت نُهية؛ قم أبا زيد فاكتم المفاوضة؛ يا غلام، ثقِّله ببدرة. فأخذتها وانصرفت.

قال أبو زيد: فلما أفْضَت الخلافةُ إلى سليمان، صارت الذلفاء إليه، فأمر بفسطاط[٢]، فأُخرج على دهناء الغوطة، وضُرب في روضة خضراء مونِقة زهراء ذات حدائق بهجة، تحتها أنواع الزهر الغض، من بين أصفر فاقع، وأحمر ساطع، وأبيض ناصع؛ فهي كالثوب الحرمي وحواشي البُرد الاتحميّ[٣] يثير منها مرُّ الرياح نسيما يُربي على رائحة العنبر، وفتيت المسك الاذفر، وكان له مغن ونديم وسمير، يقال له سنان، به يأنس، وإليه يسكن، فأمره ان يضرب فسطاطه بالقرب منه، وقد كانت الذلفاء خرجت مع سليمان إلى ذلك المتنَزَّه، فلم يزل سنان يومه ذلك عند سليمان، في اكمل سرور، وأتم حبور، إلى أن انصرف مع الليل الى فسطاطه، فنزل به جماعة من اخوانه، فقالوا له: قِرانا أصلحك الله قال: وما قراكم؟ قالوا أكل وشرب وسمع. قال: أما الأكل والشرب فمباحان لكم، وأما السماع فقد عرفتم شدة غيْرَة أمير المؤمنين ونهيه إياي عنه، إلا ما كان في مجلسه. قالوا: لا حاجة لنا بطعامك وشرابك وإن لم تُسمِعْنا. قال: فاختاروا صوتاً واحداً أغنيكموه. قالوا: غنِّنا صوت كذا. قال: فرفع عقيرته يتغنى بهذه الابيات:

محجوبة سمعَـت صَـوْتي فـأرّقهـا في آخـرِ الليْـلِ لمّا ظلّهـا السحَـرُ
تثني على الخدِّ منهـا مـن مُعصفَـرَة والحَلْيُ بـادٍ على لبّاتـهـا خضرُ [٤]

(١) دهقان: تاجر. (٢) الفسطاط: بيت يتخذ من الشعر.

(٣) الأتحمي: ضرب من البرود.

(٤) معصفرة: إناء يوضع فيه العصفور، والعصفر: نبات يستخرج منه صبغ أحمر، يصبغ به الحرير ونحوه.

في ليلَةِ التِّمّ لا يدري مُضاجعُها ... أوجْهها عنده أبهى أم القمرُ
لم يحجُبِ الصَّوْت أجراسٌ ولا غلَقٌ ... فدمْعُها لطَرُوق الصَّوْتِ مُنْحَدِرُ
لو خُلِّيَتْ لَمَشَتْ نحوي على قدمٍ ... يَكاد من لينِه للمشْي ينفَطِرُ

فسمعت الذلفاء صوت سنان، فخرجت إلى وسط الفسطاط تستمع؛ فجعلت لا تسمع شيئاً من [حُسْنِ] خَلق ولطافة قدّ، إلا الذي وافق المعنى؛ ومن نعت الليل واستماع الصوت؛ إلا رأت ذلك كله في نفسها ومهبها، فحرك ذلك ساكناً في قلبها، فهملت[1] عيناها، وعلا نشيجها[2]، فانتبه سليمان فلم يجدها معه، فخرج إلى صحن الفسطاط فرآها على تلك الحال، فقال لها: ما هذا يا ذلفاء؟ فقالت:

ألا رُبَّ صوْتٍ رائعٍ من مُشوَّهٍ ... قبيحِ المُحيَّا واضعِ الأبِ والجَدّ
يَروعُك منه صوْتُه ولعلّهُ ... إلى أَمَةٍ يُعزَى معاً وإلى عبدِ

فقال سليمان: دعيني من هذا فوالله لقد خامر قلبك منه خامر! يا غلام، عليَّ بسنان. فدعت الذلفاء خادماً لها فقالت: إن سبقت رسولَ أمير المؤمنين إلى سنان، فحذِّره ولك عشرة آلاف درهم وأنت حُر لوجه الله تعالى! فخرج الرسول فسبق رسولُ سليمان؛ فلما أُتي به قال: يا سنان، ألم أنهك عن مثل هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين حملني الثمل وأنا عبد أمير المؤمنين وغَذِيُّ نعمتِه؛ فإن رأى امير المؤمنين أن لا يُضيع حظَّه من عبده فليفعل. قال: أما حظي منك فلن أُضيعه، ولكن ويلك! أما علمتَ أن الرجل إذا تغنى أصغت المرأةُ إليه، وأن الحصان إذا صهل ودقت له الفرس، وأن الفحل إذا هدر صغت له الناقة، وأن التيس إذا نبَّ[3] استحرمت له الشاة؟ وإياك والعَوْدَ إلى ما كان منك يطول غمُّك.

أبو السمراء وامرأة بالمدينة

قال إسحاق: حدثني أبو السمراء قال: حججت فبدأت بالمدينة، فإني لمنصرف من

---

(١) هملت عيناها: فاضت وسالت.

(٢) النشيج: تردد البكاء في الصدر من غير انتحاب.

(٣) نبَّ التيس: صاح.

قبر رسول الله ﷺ ، وإذا بامرأة بفناء المسجد تبيع من طرائف المدينة ، وإذا هي في ناحية وحدها وعليها ثوبان خلقان ، وإذا هي ترجِّع بصوت خفي شجي ، فالتفتُّ فرأيتُها فوقفت ، فقالت : هل من حاجة ؟ قلت تزيدين في السماع ! قالت : وأنت قائم ؟ لو قعدتَ ! فقعدت كالخَجِل ، فقالت : كيف عِلمُك بالغناء ؟ فقلت : علمٌ لا أحمده ، قالت : فعلام أنفخ بغير نار؟ ما منعك من معرفته ؟ فوالله إنه لسَحُوري وفطوري ! قلت : وكيف وضعتِه بهذا الموضع العالي ؟ قالت : يا هذا ، وهل له موضع يوضع به وهو في علوه في السماء الشاهقة ؟ قلت : فكل هؤلاء النسوة اللاتي أرى على مثل رأيك وفي مثل حالك ؟ قالت ؟ : فيهن وفيهن . . . ، ولي بينهن قصة . قلت : ومان هي ؟ قالت :

كنت أيامَ شبابي وأنا في مثل هذه الخلقة التي ترى من القبح والدمامة ، وكنت أشتهي الجماع شهوة شديدة وكان زوجي شاباً وضيئاً ، وكان لا ينتشر عليّ حتى أتحفَه وأطَيِّبه وأسكره ، فأضَرّ ذلك بي ؛ وكان قد علقتْه امرأةُ قصّار [1] تجاورني ، فزاد ذلك في غمي ؛ فشكوت إلى جارة لي ما أنا فيه ، وغلبةَ امرأةِ القصار على زوجي ؛ فقالت : أدلُّك على ما ينهضه عليك ويرد قلبه إليك ! قلت : وابِأبي أنت ! إذاً تكونين أعظمَ الخلقِ منة عليّ . قالت : اختلفي إلى مجمع مولى الزبير ، فإنه حسن الغِناء ، فاعلَقي من غنائه أصواتاً عشرة ، ثم غنِّي بها زوجك ، فإنه سيجامعك بجوارحه كلها ! قالت : فالتطت بمجمعه ، فلم أفارقه حتى رضيني حذاقة ومعرفة ؛ فكنت إذا أقبل زوجي اضطجعت ورفعت عقيرتي [2] ثم تغنيت ، فإذا غنيت صوتاً بت على نيِّف ، وإن غنيت صوتين بت على اثنين ، وان غنيت ثلاثة فثلاثة .

فكنّا كندْمانَـيْ جـذيمةَ حِقْبـةً من الدهْرِ حتى قيلَ لن يتصدّعـا

قال : فضحكتُ والله حتى أمسكت على بطني ، وقلت : يا هذه ، ما أظن أنه خُلق مثلك ! قالت : اخفض من صوتك ، قلت : ما كان أعظمَ مِنَّةً من المشورة قالت :

---

(١) القصّار : المبيض الثياب . (٢) العقيرة : الصوت .

حسبك بها منة، وحسبك بي شاكرة، قلت: ففي قلبك من تلك الشهوة شيء؟ قالت: لذعٌ في الفؤاد، وأما تلك الغلمة[1] التي كانت تنسيني الفريضة وتقطعني عن النافلة فقد ذهب تسعة أعشارها! فوقفت عليها وقلت: ألك حاجة إن أزم حالك؟ قالت: لا، أنا في فائت من العيش! فلما نهضت لاقوم قالت: على رِسْلك، لاتنصرف خائبا! ثم ترنمت بصوت تخفيه من جارتها:

ولي كبِدٌ مقروحةٌ، مَنْ يَبيعُني بها كبِداً ليسَتْ بِذَاتِ قُروحِ
أبى الناسُ كلُّ الناسِ لا يَشترونَها ومن يَشتري ذا عِلّة بصحيحِ

ابن الجهم وقينة:

أبو بكر بن جامع عن الحسين بن موسى، قال: كتب علي بن الجهم إلى قينة كان يتعشقها:

خَفي اللهَ فيمن قد تَبَلْت فؤادَهُ وتَيّمْته دهراً كأنّ به سِحْرا[2]
دَعي الهجرَ لا أسمعْ به منْكِ إنما سأَلتُكِ أمراً ليس يُعرِي لكم ظَهرَا

فكتبت إليه: صدقت، جعلت فداك؛ ليس يُعرى لنا ظهراً، ولكنه يملأ لنا بطناً!

أبو بكر الكاتب وقينة ابن حماد:

وكان أبو بكر الكاتب مفتتنا بقينة محمد بن حماد، فأهدى إليها ممسكة، فقال فيها بعض الكتاب:

أَهْدَى إليها قميصاً يَنيكُها فيهِ غيْرُهْ
فللسعادةِ حِرُها وللشّقاوةِ أيْرُهْ

---

(١) الغلمة: شدة الشهوة للجماع.

(٢) بتل فلاناً: أسقمه الحبّ وذهب بعقله.

هاشمي وقينتان ومضحك:

حدث أبو عبد الله بن عبد البر بمصر قال: حدثني إسحاق بن إبراهيم عن الهيثم بن عدي قال: كان بالمدينة رجل من بني هاشم، وكان له قينتان، يقال لإحداهما رشا، وللأخرى جؤذر؛ وكان يحب الغناء، وكان بالمدينة مضحِك لا يكاد يغيب عن مجلس أحد؛ فأرسل الهاشمي إليه ذات يوم ليضحك به، فلما أتاه قال: ما الفائدة فيك وفي لذتك ولا لذة لي؟ قال له: وما لذتُك؟ قال: تُحْضِرُ لي نبيذاً، فإنه لا يطيب لي عيش إلا به. فأمر الهاشمي بإحضار نبيذ، وأمر أن يطرح فيه سكَّر العُشَر، فلما شربه المضحك تحرك عليه بطنُه؛ وتناوم الهاشمي وغمز جواريه عليه، فلما ضاق عليه الأمر واضطر إلى التبرُّز قال في نفسه: ما أظن هاتين المغنيتين إلا يمانيتين. وأهل اليمن يسمون الكُنُفَ المراحيض فقال لهما: يا حبيبتي، أين المرحاض؟ قالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول: قالت يقول: غنياني:

رَحضْــت فــؤادي فخلَّيْتني أهيمُ من الحبِّ في كـلِّ واد[1]

فاندفعتا تغنيانه؛ فقال في نفسه: ما أراهما فهِمتا عني، أظنهما مكيَّتيْن وأهل مكة يسمونها المخارج. قال: يا حبيبتي، أين المخرج؟ قالت إحداهما للأخرى: ما يقول؟ قالت: يقول غنياني:

خرجتُ بها من بطنِ مكةَ بعـدَمـا أصاتَ المنَـادي للصلاةِ فـأعلَمَا[2]

فاندفعتا تغنيانه؛ فقال في نفسه: لم يفهما والله عني، أظنهما شاميتين، وأهل الشام يسمونها المذاهب؛ فقال لهما: يا حبيبتي، أين المذهب؟ قالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول؟ قالت: يقول: غنياني:

ذَهبْت من الهِجرانِ في غيرِ مَذْهَبِ ولم يكُ حقـاً كـلُّ هـذا التَّجنُّـبِ

فغنتاه الصوت؛ فقال في نفسه: لم يفهما عني، وما أظنهما إلا مدنيتين وأهل المدينة

---

(١) رحض: أصابته الرحضاء، والرحضاء العرق الكثير يغسل الجسد.

(٢) أصات: صاح.

يسمونها بيت الخلاء؛ فقال لها: يا حبيبتي، أين بيت الخلاء؟ قالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول؟ قالت: يسأل أن نغني:

خلّى على جوى الأحزانِ إذ ظَعنا   من بطنِ مكةَ والتسهيدَ والحزَنا[1]

قال: فغنتاه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! ما أحسب الفاسقتين إلا بصريتين وأهل البصرة يسمونها الحشوش؛ فقال لهما: أين الحشّ؟ فقالت إحداهما لصاحبتها ما يقول؟ قالت: يسأل أن نغنيه:

فلقد أوحشَ الجهيدانِ منها   فمناها فالمنزِلُ المعمُورُ[2]

فاندفعتا تغنيانه؛ فقال: ما أراهما إلا كوفيتين. وأهل الكوفة يسمونها الكنُف. قال: يا حبيبتي، أين الكنيف؟ قالت إحداهما لصاحبتها: يعيش سيدُنا، هل رأيتِ أكثر اقتراحاً من هذا الرجل؟ ما يقول؟ قالت: يسأل أن نغني.

تكنّفني الهوى طِفْلاً   فشيّبني وما اكتهلا

قال: فغلبه بطنه، وعلم أنهما تُولعان به، والهاشمي يتقطع ضحكا؛ فقال لهما: كذبتما يا زانيتان، ولكني أُعْلِمُكما ما هو. فرفع ثيابه فسلح عليهما، وانتبه الهاشمي فقال له: سبحان الله! أتسلح على وطائي؟ قال: الذي خرج من بطني أعزّ عليّ من وطائك؛ إن هاتين الزانيتين إنما حسبتا أني أسأل عن الحش للضراط، فأعلمتهما ما هو.

قولهم في العود

يزيد وعبيد الله في البربط:

قال يزيد بن عبد الملك يوماً وذُكر عنده البربط[3]، فقال: ليت شعري ما هو؟ فقال له عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: أنا أُخبرك ما هو: هو محدوب

---

(١) ظعن: ارتحل.   (٢) الجهيد: الجهد.   (٣) البربط: العود.

الظهر، أرسح البطن، له أربعة أوتار إذا حُرِّكت لم يسمعها أحد إلا حرّك أعطافه وهزّ رأسه!

مرّ إسحاق بن إبراهيم الموصلي برجل ينحت عوداً. فقال: لمن تُرْهِفُ هذا السيف؟

ومن قولنا في هذا المعنى:

يـا مجلسـاً أَيْنعَـتْ منْـه أزاهِـرُه ... يُنسيـك أوّلَـه في الحسْـنِ آخـرُهُ
لم يدْرِ هل بات فيـه نـاعماً جَـذِلا ... أو بات في جنةِ الفِردوْسِ سامِرُه[1]
فـالعـودُ يَخفـق مَثنـاه ومَثلثُـه ... والصُّبح قد غَرّرتْ فيه عصـافـرُهُ
وللحجـارةِ أهـزاجٌ إذا نطَقـتْ ... أحيا بها الكبْـرةُ المحْنيُّ نـاقـرُه[2]
وحـنّ بينهما الكَثْبـانُ عـن نغَـمٍ ... تُبدي عن الصبِّ ما تُخفِي ضمائره[3]
كـأنما العـودُ فيما بيننـا مَلِـكٌ ... يمشي الهُويْنـا وتتلـوه عسـاكِـره
كـأنـه إذ تَمطَّـى وهْـي تتبعُـه ... كسرى بن هُرْمُـزَ تقْفـوهُ أَسـاوره
ذاك المَصُون الذي لو كان مُبتـذلاً ... ما كان يَكسِر بيْتَ الشِّعرِ كـاسِـره
صوت رشيقٌ وضرْبٌ لو يُـراجِعُـه ... سَجْعُ القريضِ إذا ضَلَّت أَساطره[4]
لـو كـان زِرْيـابُ حيّـاً ثم أُسمِعَـه ... لمات مـن حسَـد إذ لا يُنـاظـره

وقال بعض الكتّاب في العود:

ونـاطـقٍ بلســانٍ لا ضمير لــه ... كـأنـه فخِـذٌ نِيطَـتْ إلى قــدَمِ
يُبدي ضميرَ سـواه في الكلام كما ... يُبـدي ضميرَ سـواه منطـقُ الكلمِ

وقال الحمدوني فيه:

وسجَّعتْ رجْع صوتٍ بين أربعـةٍ ... سرُّ الضمائِـر فيما بينهـا علَـنُ

(١) جذلاً: فرحاً.
(٢) الأهزاج: جمع هزج، وهو كل صوت فيه ترنم.
(٣) الصبّ: العشق العظيم. (٤) القريض: الشعر.

فـوَلّـدَت للنَّـدامـى بين نَغْمتِهـا وكفِّهـا فـرحـاً تفصيلـه حـزَنُ
فما تلعْثَمَ عنهـا لفْـظُ مِـزْهَـرِهـا ولا تحَير في ألحانِهـــا لحنُ
تهدِي إلى كلِّ حـرٍّ مـن طبـائِعها بَنـــانها نغَماً أثمارهـــا فِتن
وتَرتعي العين منهـا روْضَ وجنتِها طَوراً وتسرحُ في ألفـاظهـا الأذَن

وقال عكاشة بن الحصين:

مـن كَـفِّ جـاريـةٍ كـأن بنـانَهـا من فِضةٍ قـد طُـرِّفـت عُنَّـابـا[١]
وكـأنّ يُمنـاهـا إذا ضَـرَبـتْ بها تُلقِـي على يـدهـا الشمالِ حسـابـا

ومن قولنا في العود:

يا رُبَّ صـوتٍ يُصـوغُـه عصَبٌ نِيطتْ بساقٍ مـن فـوقِهـا قـدَمُ
جـوْفـاءُ مضمـومـة أصـابعُهـا مُسَكّنـــاتٌ تحريكُهـــا نغَـــمُ
أربعـــةٌ جُـــزِّئـــتْ لأربعـــةٍ أجـزاؤُهـا بـالنُّفـوسِ تلتحـم
أصغـرُهـا في القلـوبِ أكبَـرهـا يبعـثُ منهـا الشِّفـاءُ والسقَـم[٢]
إذ أرنَّـــت بغمْـــزِ لافِظِهـــا قلـــتَ حمامٌ يُجيبُهُـــنّ حَـــمُ
لها لســـانٌ بكَـــفِّ ضـــاربها يُعـرِبُ عنهـا ومـــا لهنّ فـــم

قولهم في المبرّدين في الغناء

قال أبو نواس:

قل لـزهَيْـرٍ إذا شـدَا وحَـدَا أقْلل أوَ آكثرِ فـأنـت مِهْـذارُ
سَخُنْتَ مـن شـدّةِ البرودةِ حـــتى صرتَ عندي كأنك النـار

وقال أيضاً:

لا يَعجَبِ السامعون مـن صفَتي كـذلـك الثلْـج بـاردٌ حـار

(١) العنّاب: ثمر احمر حلو لذيذ الطعم.

(٢) السقم: المرض.

وقال أيضاً:

قد نضِجْنا ونحن في الجيشِ طُـرّاً ... أنضجَتْنـا كـواكـبُ الجوْزاءِ[1]

فـأَصيبـوا لنـا حُسيْنـا ففيـه ... عِـوَضٌ مـن جليـدِ بـردِ الشتـاءِ

لـو يُغنّـي وَفـوهُ مَلآنُ خمرا ... لم يَضِـرْه مـن بـرد ذاك الغِنـاء

وله:

وكـان أبـو المُغَلس إذ يُغنّـي ... يُحاكي غـاطسـاً في عيْـنِ شمسٍ

يميـلُ بشـدْقِـه طـوْراً وطـوْراً ... كـأنّ بشـدْقِـه ضَـرَبَـانَ ضرْسِ

وقال دعبل:

ومغَـنٍّ إن تغنَّـى ... أوْرث النـدْمـانَ همَّـا

أحسـنُ الأقـوامِ حـالا ... فيـه مـن كـان أصمَّـا

وقال الحمدوني:

بينما نحن سـالمون جميعـا ... إذ أتـانـا ابن سـالمٍ مُخْتـالا

فتغنَّـى صـوتـاً فكـان خَطـاءً ... ثم ثنَّـى أيضـاً فكـان محالا

سالنـا حـاجـةً على مـا تغنـى ... فخلعْنـا على قفـاه النِّعـالا!

ولعباس الخياط:

رأيتُ نصراً شـاديـاً يَضرِبُ ... فقمـتُ مـن مجلسِنـا أهـرُب

لأنـه يَنبَـح مـن عـودِه ... عليـك مـن أوتـارِه أكلُـبُ

كـأنما تسْمـع في حلْقِـه ... دجـاجـةً يَخنقُهـا ثعلـب

مـا عجبي منـه ولكنني ... مـن الذي يسْمعُـه أعجـب

وقال آخر:

ومُغـنّ يَخـرَى على جُلسـائـه ... ضرَبَ آللهُ شِـدْقَـه بغنـائـهْ

---

(١) الجوزاء: برج من بروج السماء.

وقال مؤمن في ربيع المغنى، وكان يتغنى وينقر في الدواة:

غناؤُك يا ربيع أشدُّ بردا ... إذا حَمِيَ الهجيرُ من الصّقيعِ
ونَقْرُكَ في الدَّواةِ أشدُّ منه ... فما يصْبو إليك سوى رَقيعِ
أغثْنا في المصيفِ إذا تلظى ... ودَعْنا في الشِّتاء وفي الربيعِ

باب من الرقائق

وقد جُبل أكثر الناس على سوء الاختيار، وقلة التحصيل والنظر مع لؤم الغرائز، وضعف الهمم. وقلّ مَن يختار من الصنائع أرفعَها، ويطلب من العلوم أنفعها. ولذلك كان أثقل الأشياء عليهم وأبغضَها إليهم مئونة التحفظ، وأخفها عندهم وأسهلها عليهم إسقاط المروءة.

وقيل لبعضهم: ما أحلى الأشياء كلها؟ قال الارتكاس[1].

وقيل لعبد الله بن جعفر: ما أطيبُ العيش؟ قال: هتك الحياء واتباع الهوى.

وقيل لعمرو بن العاص: ما أطيب العيش؟ قال: ليقم مَن هنا مِن الأحداث قال: فلما قاموا، قال: [أطيب] العيش كله إسقاط المروءة.

وأي شيء أثقل على النفس من مجاهدة الهوى ومكابدة الشهوة؟ ومن ذلك كان سوء الاختيار أغلب على طبائع من حسن الاختيار.

المبرد وكتابه الروضة:

ألا ترى أن محمد بن يزيد النحوي ـ على علمه باللغة ومعرفته باللسان ـ وضع كتاباً سماه بالروضة، وقصد فيه إلى أخبار الشعراء المحدثين، فلم يختر لكل شاعر إلا أبرَدَ ما وجد له، حتى انتهى إلى الحسن بن هانيء ـ وقلما يأتي له بيت ضعيف، لرقة فطنته، وسبوطة بنيته، وعذوبة ألفاظه ـ فاستخرج له من البرد أبياتاً ما سمعناه ولا رويناها، ولا ندري من أين وقع عليها، وهي:

---

(١) الارتكاس: الاستقذار، او بروز الثدي، أو الارتداد إلى الكفر.

ألاَ لا يَلُمني في العُقارِ[1] جليسي ... ولا يَلْحَني في شُرْبِها بعُنُوسِ
تعشَّقَها قلبي فبَغَّضَ عشقُها ... إليّ من الأشياءِ كلَّ نفيسِ

وأين هذا الاختيار من اختيار عمرو بن بحر الجاحظ، حين اجتلب ذكره في كتاب الموالي، فقال: ومن الموالي الحسن بن هانيء، وهو من أقدر الناس على الشعر، وأطبعهم فيه؛ ومن قوله:

فجاء بها صفراءَ بكْراً يزُفُّها ... إليّ عروساً ذات دَلّ مُعَتّقِ
فلما جَلَتْها الكأسُ أبدَت لناظري ... محاسنَ ليْثٍ بالجمالِ مطوّق

ومن قوله:

ساعٍ بكأسٍ إلى ناسٍ على طرَبِ ... كِلاهما عجبٌ في منظرٍ عجبِ
قامت تُريك وشملُ الليلِ مُجتمعٌ ... صُبْحاً تولّد بين الماءِ والعنبِ
كأنّ صُغْرى وكبْرَى من فقاقِعها ... حَصْباءُ دُرٍّ على أرضٍ من الذهبِ

وجُلّ أشعاره في الخمريات بديعة لا نظير لها، فخطْرَفَها كلها وتخطاها إلى التي جانسته في برْدِه، فما أحسبه لحقه هذا الاسم «المبرّد» إلا لبرده؛ وقد تخيّر لأبي العتاهية أشعاراً تقتل من بردها، وشنّفها[2] وقرّطها[3] بكلامه، فقال: ومن شعر أبي العتاهية المستظرف عند الظرفاء، المتخير عند الخلفاء، قوله:

يا قُرّة العينِ كيف أمسَيْتِ ... أَعْززْ علينا بما تشكّيْتِ

وقوله:

آه من وجدي وكَرْبي[4] ... آه من لوعةِ حُبي
ما أشدّ الحُبَّ يا سُبحانكَ اللهمّ ربِّي!

---

(١) العُقار: الخمر. (٢) شنفها: زيّنها.
(٣) يقال قرّط الجارية: أي ألبسها القرط.
(٤) الكرب: الحزن.

من سوء الاختيار

ونظير هذا من سوء الاختيار، ما تخيَّره أهلُ الحذق بالغناء والصانعون للألحان من الشعر القديم والحديث؛ فإنهم تركوا منه الذي هو أرق من الماء، وأصفى من الهواء؛ وكلَّ مدني رقيق، قد غذي بماء العقيق، وغنَّوا بقول الشاعر:

فلا أنسَى حياتي ما ... عبدْتُ اللهَ لي ربا
وقلتُ لها أنيلِيني ... فقالت تعرِفُ الذّنبا! (١)
ولو تعلمُ ما بي لم ... تَرِ الذنبَ ولا العتْبا

وأقلُّ ما كان يجب في هذا الشعر، أن يُضْرَب قائله خمسمائة، وصانعه أربعمائة، والمغنِّي به ثلثمائة، والمصغي إليه مائتين! ومثله:

كأنها الشمسُ إذا ما بدَتْ ... تلك التي قلبي لها يضرِب
تلك سُلَيماي إذا ما بَدَت ... ومَن أنا في وُدِّها أرغَب
كأنّ في النفسِ لها ساحِراً ... ذاك الذي علمهُ المذْهَب

يعني المذهب الحي ومثله:

يا خليلَيْ، أنتُما عَللاني ... بين كرْمٍ مُزْهرٍ وجنانِ
خبِّراني أينَ حلت مُنايا ... يا عبادَ اللهِ لا تكتُماني
إنما حلت بوادٍ خصيب ... يُنْبت الورْسَ مع الزعفرانِ (٢)
حلَفا باللهِ لو وجَداني ... غرِقاً في البحرِ ما أنقذاني

ومثله:

أبصَرْتُ سلْمَى من منًّى ... يوماً فراجَعْت الصِّبا
يا دُرّةَ البحرِ متى ... تشهد سُوقاً يُشترى

ومثله:

يا معشَر الناسِ هذا ... أمْرٌ وربِّي شديدُ
لا تعْنفي يا فُلانَهْ ... فإنّني لا أريدُ

---

(١) أنيليني: أعطيني. (٢) الورس: نبت يستعمل لتلوين الملابس الحريرية، لاحتوائه على مادة حمراء.

ومثله :

أرقتُ فأَمْسَيْت لا أرقدُ ... وقد شفَّني البيضُ والخُوّدُ[1]
فصِرْتُ لظَبْيي بني هاشِم ... كأنيَ مُكْتَحِلٌ أرمَدُ
أُقَلِّبُ أمري لَدَى فِكْرتي ... وأهبِطُ طَوْراً فما أَصعَدُ
وأصعدُ طَوْراً ولا عِلْم لي ... على أنني قبلَكُم أرْشَدُ

ومثله :

ما أُرجِّي من حبيبٍ ... ضَنّ عني بالمِدادِ[2]
لو بكفَّيْهِ سحابٌ ... ما ٱرتَوتْ منه بلادي
أنا في وادٍ ويُمسِي ... هو لي في غيْرِ وادِ
ليْتَهُ إذ لم يَجُدْ لي ... بالهوى ردَّ فؤادي

ومثله :

ما لِسَلمى تجنَّبَتْ ... ما لها اليومَ ما لها
إن تكُنْ قد تغضَّبَتْ ... أصلَح اللهُ حالَها

باب من رقائق الغناء

لإسحاق في شعر الراعي:

قال الزبير بن بكار: سألت إسحاق: هل تغني من شعر الراعي شيئاً؟ قال: وأين أنت من قوله:

فلم أر مظلوماً على حال عِزَّةٍ ... أقلَّ ٱنتصاراً باللسانِ وباليَدِ
سِوَى ناظِرٍ ساجٍ بعينٍ مريضةٍ ... جرَتْ عبرةٌ منها ففاضت بإثمدِ[3]

---

(١) الخوّد: جمع الخوْد: الشابة الناعمة الحسنة الخلق.

(٢) ضنّ: بخل. (٣) الإثمد: عنصر معدني يكتحل به.

لابن الدمينة:

ومن شعر ابن الدمينة، وهو عبد الله بن عبيد الله، والدمينة أمُّه، وهو من أرق شعراء المدينة بعد كثيِّر عزة وقيس بن الخطيم:

بنفسي وأهلي مَن إذا عرَضُوا له ... ببعضِ الأذى لم يدْرِ كيف يُجيبُ
ولم يعتَذِر عُذْر البريء ولم تَزلْ ... له بهْتَةٌ حتى يُقال مُريب
جرَى السَّيْلُ فاستبْكانيَ السّيْلُ إذْ جرَى ... وفاضت له من مُقْلَتَيَّ غُروبُ
وما ذاكَ إلاَّ أن تيَقَّنْتُ أنهُ ... يَمُرُّ بوادٍ أنت منهُ قريبُ
يكونُ أُجاجاً قبلَكُمْ فإذا انتهى ... إليكُمْ تلقَّى طِيبَكم فيطيبُ[1]
أيا ساكِنيْ شرْقيَّ دِجْلَة كُلُّكم ... إلى القلب من أجلِ الحبيبِ حبيبُ!

ومن قول يزيد بن الطثرية، وغنى به ابن صياد المدني وغيره:

بنفسي من لو مَرَّ بردُ بنانِه ... على كبدي كانت شِفاءً أنامِلَهُ
ومن هابَنِي في كل شيءٍ وهِبْتُه ... فلا هو يُعطيني ولا أنا سائلُهُ

ومما يغني به من قول جرير:

أتذكُرُ إذ تودِّعُنا سَلَيْمَى ... بعودِ بشامَةٍ؟ سُقِيَ البَشامُ!
بنفسي مَن تَجنُّبه عزيزٌ ... عليّ ومَن زيارتُه لمَامُ
ومن أمسِي وأُصبحُ لا أراهُ ... ويطْرُقُني إذا هَجعَ النِّيامُ
متى كان الخيامُ بذي طُلوحٍ ... سُقيتِ الغيْث أيَّتُها الخيامُ

ومما غنى به نوَمة الضحى:

يا مُوقِدَ النارِ قد أعْيَتْ قوادِحُهُ ... آقبِسْ إذا شئتَ من قلبي بمقباسِ[2]
ما أوحَشَ الناسَ في عيني وأقبحَهم ... إذا نظرتُ فلم أُبصِرْكَ في الناسِ

ومما يغنَّى به من شعر ذي الرُّمة، وهو من أرق شعر يُغنى به، قوله:

---

(١) الأجاج: ما يلذع الفم بمرارته أو ملوحته، أو شدة الحر.

(٢) أقبس: أوقد. والمقباس: العود ونحوه تقبس به النار.

لئِـن كـانـتِ الدنيـا عليّ كما أرى   تباريحَ من ذِكراك فـالموتُ أروَحُ[١]

وأكثر ما كان يغني به معبدٌ بشعر الأحوص، ومن جيد ما غنَّى به له قوله:

كـأنّـي مـن تـذَكـرِ أُمِّ حفـصٍ   وحبـلُ وصـالِهـا خلَـقٌ رِمـامُ
صريـعُ مُـدامَـة غلَبـتْ عليـه   تموتُ لها المفـاصِـلُ والعِظـام
سلامُ اللهِ يـا مَطَـرٌ عليهـا   وليس عليـكَ يـا مَطـرُ السّلام
فـإن يكُـنِ النكـاحُ أحـل شيء   فـإنّ نكـاحَهـا مطـراً حـرامُ

ومن شعر المتوكل بن عبد الله بن نهشل، وكان كوفياً في عصر معاوية، وهو القائل:

لا تنْهَ عن خُلُقٍ وتأْتِيَ مثلَهُ

قِفي قبل التّفـرُّقِ يـا أُمـامـا   ورُدِّي قبل بينِكُـم السّلامـا[٢]
تُرجِّيهـا وقـد شَطـتْ نَـواهـا   ومَنّتكَ المنى عـامـاً فعـامـا[٣]
فلا وأبيـكِ لا أنسـاكِ حتى   تُحاوِبَ هامتي في القبرِ هـامـا

ومما يغنّى به من شعر عدي بن الرقاع:

تُـزجـي أغَـنَّ كـأنّ إبـرةَ روقِـهِ   قلمٌ أصـابَ مـن الدواةِ مِـدادَهـا[٤]
ولقـد أصبـتُ مـن المعيشـةِ لـذَّةً   ولقيتُ من شظف الخطوبِ شِدادهـا[٥]
وعلِمـتُ حتى مـا أُسـائِـلُ عـالمـاً   عـن حَـرف واحـدة لكـيْ أزدَادَهـا

---

(١) التباريح: الشدائد. وتباريح الشوق، توهجه. وأروح: أرحم.

(٢) بينكـم: فراقكـم.   (٣) النوى: البعد.

(٤) الروق من كل شيء: مقدمه وأوله، أو قرن الدابة. والإبرة من القرن: طرفه.

(٥) شظف الخطوب: اشتدادها.

كتاب المرجانة الثانية
في النساء وصفاتهن

قال ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه رحمه الله: قد مضى قولنا في الغناء واختلاف الناس فيه.

ونحن قائلون بعون الله تعالى وتوفيقه في النساء وصفاتهن، وما يُحمد ويذم من عشرتهن؛ إذ كان كله مقصوراً على الحليلة الصالحة والزوجة الموافقة؛ والبلاء كله موكل بالقرينة السوء، التي لا تسكن النفْسُ إلى كريم عِشرتها، ولا تقَرُّ العين برؤيتها.

لعروة بن الزبير

قال الاصمعي: حدثني ابن أبي الزناد عن عروة بن الزبير قال: ما رفع احدٌ نفسه بعد الايمان بالله بمثل مَنكحِ صِدْقٍ، ولا وضع أحدٌ نفسه بعد الكفر بالله بمثل منكحِ سوءٍ! ثم قال: لعن الله فلانة ألفت بني فلانٍ بيضاً طوالا، فقلبتهم سوداً قصاراً.

وفي حكمة سليمان بن داود عليهما السلام: المرأةُ العاقلة تَبني بيتها، والسفيهةُ تهدمه.

وقال: الجمال كاذب، والحسن مخلِف؛ وإنما تستحق المدح المرأةُ الموافقة.

الرسول ﷺ وعكاف.

مكحول، عن عطية بن بشر، عن عكّاف بن وداعة الهلاليّ، أن رسول الله ﷺ قال له؛ يا عكاف، ألك امرأة؟ قال: لا! قال: فأنت إذاً من إخوان الشياطين! إن

كنت من رهبان النصارى فالحق بهم، وإن كنت منا فانكَح، فإن من سُنَّتنا النكاح.

وقالت عائشة: النكاح رقّ[1]؛ فلينظر أحدُكم عند من يُرِقُّ كريمته[2].

وقال رسول الله ﷺ: أُوصيكم بالنساء، فإنهنّ عندكم عَوان. يعني أسيرات.

قولهم في المناكح

صعصعة وابن الظرب

خطب صعصعة بن معاوية إلى عامر بن الظَّرب حكيمِ العرب ابنتَه عمرة ـ وهي ام عامر بن صعصعة ـ فقال: يا صعصعة، إنك أتيتني تشتري من كبِدِي، فارحَمْ ولَدِي، قبلتُك أو رددتُك، والحسيب[3] كفء الحسيب، والزوج الصالح أبٌ بعدَ أب، وقد أنكحتُك خشيةَ أن لا أجد مثلك؛ أفرُّ من السرِّ إلى العلانية.. يا معشر عدوان، خرجَتْ بينِ أظهُركم كريمتُكم، من غير رغبةٍ ولا رَهْبة، وأُقسم لولا قسمُ الحظوظ على [قدر] الجدود ما ترك الأولُ للآخر ما يعيش به.

ابن حجر وابن محلم

العباس بن خالد السهمي قال: خطب عمرو بن حُجر إلى عوف بن محلم الشيباني ابنتَه أمَّ أياس، فقال: نعم، أزوّجُكها، على أن أُسمِّيَ بنيها وأزوّج بناتها. فقال عمرو ابن حجر: اما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا، واما بناتنا فننكحهن أكفاءَهن من الملوك، ولكني أُصْدِقُها عقارا في كندة، وامنحها حاجات قومها، لا تردّ لاحد منهم حاجة! فقبل ذلك منه أبوها، وأنكحه إياها؛ فلما كان بناؤه بها خلت بها أمها فقالت:

أي بنية، إنك فارقتِ بيتَك الذي منه خرجتِ، وعُشَّك الذي فيه دَرجْتِ، إلى

(١) الرق: العبودية. (٢) كريمته: ابنته.

(٣) الحسيب: ذو الحسب.

رجل لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكوني له أمة يكن لكِ عبداً، واحفظي له خصالا عشرا تكن لك ذُخْراً: أما الاولى والثانية، فالخشوع له بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة؛ وأما الثالثة والرابعة، فالتفقد لموضع عينه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيبَ ريح؛ وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه، فإن حَرارةَ الجوع ملْهبة، وتنغيصَ النوم مغَضبة؛ وأما السابعة والثامنة، فالاحتفاظ بماله، والإرعاءُ على حشمه وعياله، وملاكُ الأمر في المال حُسْنُ التقدير، وفي العيال حُسْنُ التدبير؛ وأما التاسعة والعاشرة فلا تَعصنّ له أمراً، ولا تُفْشِنّ له سرّاً؛ فإنكِ إن خالفتِ أمرَه أوغَرتِ صدره، وإن أفشيت سرَّه لم تأمني غدره؛ ثم إياك والفرحَ بين يديه إذا كان مهتما، والكآبة بين يديه إذا كان فرِحا.

فولدت له الحارث بن عمرو، جدَّ امرىء القيس الشاعر.

زرارة ولقيط وابنة ذي الجدين

الشيباني قال: حدثنا بعض أصحابنا، ان زرارة بن عدس نظر إلى ابنه لقيط فقال: مالي أراك مختالا؟ كأنك جئتني بابنة ذي الجدّين أو مائة من هجائن[٢] النعمان! فقال: والله لا يمسُّ رأسي دهنٌ حتى آتيك بهما أو أبْلي عذراً! فانطلق حتى اتى ذا الجدين ـ وهو قيس بن مسعود الشيباني ـ فوجده جالساً في نادي قومه من شيبان، فخطب إليه ابنَته علانية؛ فقال له: هلا ناجيتني؟ قال: ومن أنت؟ قال: لقيط بن زرارة، قال: لا جرم، لا تبيتن فينا عَزَباً ولا محروماً! فزوّجه وساق عنه المَهْر، وبنى بها من ليلته تلك.

ثم خرج إلى النعمان، فجاء بمائتين من هجائنه؛ وأقبل إلى أبيه وقد وفى نذره فبعث إليه قيس بن مسعود بابنته مع ولده بسطام بن قيس؛ فخرج لقيط يتلقاها في الطريق ومعه ابن عم له يقال له قراد، فقال لقيط:

---

(١) الهجائن من الابل: البيض الكرام.

هـاجـت عليَّ ديـارُ الحيِّ أشجـانـا وآستقبلوا من نَوى الجيران قُربانا [1]
تامتْ فُـؤادَك لم تَقْـضِ التي وعـدَتْ إحـدى نسـاءِ بني ذُهـل بنِ شَيبـانـا
فـانظـرْ قـرادُ وهـل في نظـرةٍ جـزَعٌ عرضَ الشقائِقِ ؛ هـل بيَّنـتَ أظعـانـا
فيهـنّ جـاريـةٌ نَضْـحُ العبيرِ بها تُكسى تَـرائبهـا دُرًّا ومَـرجـانـا
كيـف اهْتـديْـت ولا نَجـمٌ ولا علمٌ وكنت عِندي نَئومَ الليـلِ وسْنـانـا [2]

ولما رحل بها بسطام بن قيس، قالت: مُرُّوا بي على أبي أودعه! فلما ودعتْه قال لها: يا بنية، كوني له امة يكن لك عبداً وليكن أطيب طيبك الماء، ثم لا أذكرْتِ ولا أيسرتِ ؛ فإنك تلدين الأعداء، وتُقَرِّبين البُعَداء! إن زوجك فارس من فرسان مضر، [وإنه يوشك أن يُقتَل او يموت]؛ فإذا كان ذلك فلا تخمشي [عليه] وجها، ولا تحلقي شعراً.

فلما قتل لقيط تحملت إلى اهلها، ثم مالت إلى محلّة عبد الله بن دارم فقالت: نعم الأحماءُ كنتم يا بني دارم، وأنا أوصيكم بالغرائب خيرا، فلم أر مثل لقيط.

ثم لحقت بقومها، فتزوجها ابن عمٍّ لها، فكانت لا تسلو عن ذكر لقيط، فقال لها زوجها: اي يوم رأيت فيه لقيطاً احسن في عينك؟ قالت: خرج يوماً يصطاد، فطرد البقر فصرع منها، ثم أتاني مختضباً بالدماء، فضمني ضمة، ولثمني لثمة، فليتني مت ثَمَّة! فخرج زوجُها ففعل مثل ذلك، ثم أتاها، فضمها، ولثمها، ثم قال لها: من أحسن، أنا أم لقيط عندك؟ قالت: مرعى ولا كالسعدان.

قيس بن زهير والنمر

أبو الفضل عن بعض رجاله، قال: قدم قيس بن زهير ـ بعد ما قتل أهل الهباءة ـ على النمر بن قاسط، فقال:

---

(١) النوى: الناحية.

(٢) وسنان: كثير النعاس.

يا معشر النمر، نزعت إليكم غريبا حزينا، فانظروا لي امرأة اتزوّجها. قد أذلها الفقر، وأدّبها الغنى، لها حسب وجمال.

فزوّجوه على هيئة ما طلب، فقال: إني لا أُقيم فيكم حتى أُعلمكم اخلاقي: إني غيور فخور نَفور؛ ولكني لا أغار حتى أرى، ولا أفخر حتى أفعل، ولا آنف حتى أُظلَم.

فأقام فيهم حتى وُلد له غلامٌ سماه خليفة، ثم بدا له ان يرتحل عنهم، فجمعهم ثم قال:

يا معشر النمر، إن لكم عليّ حقا، وأنا أريد أن أوصيكم، فآمرَكم بخصال، وأنهاكم عن خصال: عليكم بالاناة، فإن بها تنال الفرصة؛ وسوِّدوا من لا تُعابون بسؤدَدِه؛ وعليكم بالوفاء، فإن به يعيش الناس؛ وباعطاء ما تريدون إعطاءه قبل المسألة؛ ومنعِ ما تريدون منعه قبل القسم؛ وإجارة الجار على الدهر؛ وتنفيس المنازل؛ [عن بيوت اليتامى، وخلْط الضيف بالعيال] وأنهاكم عن الرهان، فإني به ثكلت مالكا. وأنهاكم عن البغي، فإنه صرع زهيراً. وعن السرف في الدماء، فإن يوم الهباءة أورثني الذلّ، ولا تُعْطوا في الفضول فتعجزوا عن الحقوق ولا تَردّوا الأكفاء عن النساء فتُحْوِجوهُنّ إلى البلاء؛ فإن لم تجدوا الأكفاء فخير أزواجهن القبور؛ واعلموا اني اصبحت ظالما مظلوما: ظلمني بنو بدر بقتلهم مالكا، وظلَمت بقتلي من لا ذنب له.

الفاكه وزوجته هند في ريبة

كان الفاكه بن المغيرة المخزومي أحد فتيان قريش، وكان قد تزوج هند ابنة عتبة، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس فيه بلا اذن، فقال يوما في ذلك البيت وهند معه؛ ثم خرج عنها وتركها نائمة، فجاء بعض من كان يغشى البيت. فلما وجد المرأة نائمة ولّى عنها، فاستقبله الفاكه بن المغيرة، فدخل على هند وأنبهها، وقال: من هذا الخارج من عندك؟ قالت: والله ما انتبهت حتى أنبَهْتني، وما رأيت أحداً قط.

قال: الحقي بأبيك! وخاض الناس في أمرها، فقال لها أبوها: يا بنية العار وإن كان كذبا، أبثيني شأنَك، فإن كان الرجل صادقاً دسَسْت عليه من يقتله فيقطع عنك العار، وإن كان كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن. قالت: والله يا أبت إنه لكاذب! فخرج عتبة فقال: إنك رميْت ابنتي بشيء عظيم، فإما أن تَبيَّن ما قلت، وإلا فحاكمْني إلى بعض كهان اليمن. قال: ذلك لك. فخرج الفاكه في جماعة من رجال قريش، ونسوة من بني مخزوم. وخرج عتبة في رجال ونسوة من بني عبد مناف.

فلما شارفوا بلاد الكاهن تغيَّر وجه هند، وكسَف بالُها. فقال لها أبوها: أي بنية، ألاَ كان هذا قبل ان يشتهر في الناس خروجنا؟ قالت: يا أبت، والله ما ذلك لمكروهِ قَبلي، ولكنكم تأتون بَشرا يخطىء ويصيب، ولعله ان يَسِمَني بسمة تبقى على ألسنة العرب. فقال لها أبوها: صدقت. ولكني سأخبره لك فصفَّر بفرسه، فلما أدلى[1] عمد إلى حبة بر فأدخلها في إحليله، ثم اوكى عليها وسار. فلما نزلوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم، فقال له عتبة: إنا أتيناك في أمر، وقد خبأنا لك خبيئة، فما هي؟ قال: بُرَّة في كمرة. قال: أريد أبيَن من هذا. قال: حبةُ برّ في إحليل مهر. قال: صدقت. فانظر في أمر هؤلاء النسوة. فجعل يمسح رأس كل واحدة منهن، ويقول: قومي لشأنك! حتى إذا بلغ إلى هند مسح يده على رأسها، وقال: قومي غير رقْحاء ولا زانية، وستلدين ملكاً يسمى معاوية.

فلما خرجت أخذ الفاكه بيدها، فنترت[2] يده من يدها، وقالت [إليك عني!] والله لأحرِصَنّ أن يكون ذلك الولد من غيرك! فتزوجها أبو سفيان، فولدت له معاوية.

هند وزواجها من أبي سفيان

وذكروا ان هند بنت عتبة بن ربيعة قالت لابيها: يا أبت: إنك زوّجتني من هذا

---

(١) أدلى الفرس: أخرج جردانه ليبول او يضرب.

(٢) نترت يده من يدها: جذبتها بشدة.

الرجل ولم تؤامرْني في نفسي، فعرَض لي معه ما عرَض؛ فلا تزوِّجْني من احد حتى تعرض عليّ امره، وتبيِّن لي خصاله، فخطبها سهيل بن عمرو، وأبو سفيان بن حرب. فدخل عليها أبوها وهو يقول:

أتـاكِ سُهيْـلٌ وابنُ حـربٍ وفيهما ... رضاً لك يـا هِنـدَ الهنـود ومقنـع
ومـا منهما إلا يُعـاشُ بفضلِـه ... ومـا منهما إلا يضُـرُّ وينفـع
ومـا منهما إلا كـريم مُـرزَّأٌ ... وما منهما إلا أغـرُّ سَمَيْـدَع (١)
فدونَكِ فـاختـاري فـأنـت بصيرة ... ولا تُخـدَعـي إن المُخـادعَ يخدع

قالت: يا أبت، والله ما أصنع بهذا شيئاً، ولكن فسِّر لي أمرهما وبيِّن لي خصالهما، حتى أختار لنفسي أشدّهما موافقة لي. فبدأ بذكر سهيل بن عمرو، فقال: أما أحدهما ففي ثروة واسعة من العيش، إن تابعتيه تابعك، وإن مِلْتِ عنه حطَّ إليك، تحكمن عليه في أهله وماله. واما الآخر فموّسع عليه، منظور إليه، في الحسب الحسيب، والرأي الأريب، مُدْرَهُ أرُومته، وعزُّ عشيرته. شديد الغيرة، كثير الظَّهْرة، لا ينام على ضعة، ولا يرفع عصاه عن أهله.

فقالت: يا أبت، الأوّل سيدٌ مضياع للحرّة، فما عست ان تلين بعد إبائها، وتضيع تحت جناحه، إذا تابعها بعلُها فأشرت، وخافها أهلُها فأمنت، فساء عند ذلك حالها، وقبح عند ذلك دلالها، فإن جاءت بولد أحمقت، وإن أنجبتْ فعن خطأ ما أنجبتْ؛ فاطوِ ذِكرَ هذا عني، ولا تسمِّه عليَّ بعدُ. وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة، الحرَّة العفيفة، وإني للّتي لا أريب له عشيرة فتُعيره، ولا تصيِّره بذُعر فتضيره، وإني لأخلاق مثل هذا لموافِقة، فزوِّجْنيه.

فزوجها من أبي سفيان، فولدت له معاوية، وقبله يزيد؛ فقال في ذلك سهيلُ بنُ عمرو:

نُبِّئْـت هِنـداً تَبَّـرَ اللهُ سعيْهـا ... تأبّت وقالت وصفُ أهْوَجَ مـائـقِ (٢)

(١) السميدع: السيد الكريم السخيّ. (٢) المائق: الذي كاد يبكي من شدة الغيظ.

وما هَوَجي ياهِنْدُ إلا سِجيَّة ... أجُرُّ لها ذيلي بحُسْنِ الخلائق
ولو شئْت خادَعت الفتَى عن قلوصِه ... ولا طَمت بالبطْحاء في كل شارق [1]
ولكنني أكْرَمْت نفسي تكرُّماً ... ودافعْت عنها الذَّم عند الخلائق
وإني إذا ما حُرّةٌ ساءَ خُلْقُها ... صبَرْتُ عليها صبْرَ آخر عاشق
فإن هي قالت خلِّ عني تركتُها ... وأقلِلْ بتركِ من حبيبٍ مُفارق
فإن سامَحوني قلْتُ أمري إليكمُ ... وإن أبعدوني كنتُ في رأسِ حالق
فلم تنكِحي يا هِنْدُ مِثْلي وإنَّني ... لِمَنْ لم يَمِقني فاعلَمي غيْرُ وامِق [2]

فبلغ أبا سفيان، فقال: والله لو أعلم شيئاً يُرْضي أبا زيد سوى طلاق هند لفعلتُه! وألح سهيلٌ في تنقيص أبي سفيان، فقال أبو سفيان:

رأيتُ سُهَيْلا قد تفاوتَ شأوُهُ ... وفرّط في العلياء كلَّ عِنان
وأَصبحَ يسْمُو للمعالي وإنه ... لَذُو جَفْنةٍ مغْشِيةٍ وقِيان
وشَرْبُ كرامٍ من لؤَيِّ بن غالبٍ ... عراضِ المساعِي عرْضة الحدَثان
ولكنَّه يوماً إذا الحربُ شَمَّرَتْ ... وأبرزَ فيها وجهُ كلِّ حِصان [3]
تَطأطأَ فيها ما استطاع بنفسهِ ... وقَنَّعَ فيها رأسهُ ودعاني
فأكفيه ما لا يُستطاعُ دفاعُهُ ... وألقَيْتُ فيها كلْكَلي وجراني [4]

سهيل وابن له

قال: وتزوج سهيل بن عمرو امرأة، فولدت له ولداً؛ فبينا هو سائر معه إذ نظر إلى رجل يركب ناقة ويقود شاة، فقال لأبيه: يا أبت، هذه ابنةُ هذه! يريد الشاة ابنة الناقة! فقال أبوه: يرحم الله هذا! يعني ماكان من فِراستِها فيه.

---

(١) القلوص: الفتية المجتمعة الخلق من الابل، وكانوا يكنون عن الفتيات، بالقلص والقلائص.
(٢) الوامق: المحبّ. (٣) شمّرت الحرب: اشتدت.
(٤) الكلكل: الصدر. والجران: باطن العنق من البعير وغيره. ويقال: ألقى عليه جرانه: أي ثقله.

الرسول ﷺ وأم هانيء

وعن علّي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، لو تزوجتَ أم هانيء بنت أبي طالب، فقد جعل الله لها قرابة، فتكون صهراً أيضاً! فخطبها رسول الله ﷺ فقالت: والله أحبُّ إليّ من سمعي وبصري ولكن حقه عظيم، وأنا موتمة[1]؛ فإن قمتُ بحقه خفتُ أن أُضيِّعَ أيتامي، وإن قمتُ بأمرهم قصَّرْتُ عن حقه! فقال النبي ﷺ: خيرُ نساءٍ ركبْن الإبل نساءُ قريش، أحناها على ولد في صغره وأرعاها على بعل في ذات يده، ولو علمتُ أن مريم ابنةَ عمران ركبَتْ جملا لاستثنيتُها.

زواج الرسول ﷺ من حفصة

ولما تُوفيت رُقَيَّةُ بنت رسول الله ﷺ عن عثمان بن عفان، عرض عليه عمرُ ابنتَه حفصة؛ فسكت عنه عثمان ـ وقد كان بلغه أن رسول الله ﷺ يريد أن يزوِّجه ابنتَه الاخرى ـ فشكا عمر إلى رسول الله ﷺ سكوتَ عثمان عنه؛ فقال له: سيزوِّج الله ابنتَك خيرا من عثمان، ويزوِّج عثمان خيراً من ابنتك! فتزوج رسولُ الله ﷺ حفصة، وتزوَّج عثمانُ ابنته.

خطبته ﷺ لخديجة

ولما خطب رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد بن عبد العزى، ذكرت ذلك لورقة بن نوفل ـ وهو ابن عمها ـ فقال: هو الفحل لا يُقْدَعُ[2] أنفُه، تزوَّجيه.

وخطب عمر بنُ الخطاب أمَّ كلثوم بنت أبي بكر، وهي صغيرة، فأرسل [عمَرُ] إلى عائشة، فقالت: الأمر إليك. فلما ذكرت ذلك عائشة لأم كلثوم، قالت: لا حاجة لي فيه! فقالت عائشة: أترغَبين عن أمير المؤمنين؟ قالت: نعم إنه خَشِنُ العيش، شديدٌ على النساء! فأرسلتْ عائشة إلى المغيرة بن شعبة فأخبرته فقال لها: أنا أكفيك! فأتى

---

(١) أيتمت: صار اولادها يتامى. (٢) الفحل لا يقدع أنفه: الكريم.

عمر فقال: يا أمير المؤمنين، بلغني عنك أمرٌ أُعيذك بالله منه! قال: ما هو؟ قال: بلغني أنك خطبت أُمَّ كلثوم بنت أبي بكر. قال: نعم، أفرغبت بها عني، أم رغبت بي عنها؟ قال: لا واحدة منهما، ولكنها حدثة نشأت تحت كنف خليفة رسول الله في لين ورفق، وفيك غلظة، ونحن نهابك وما نقدر أن نردّك عن خُلُق من أخلاقك؛ فكيف بها؟ إن خالفَتْك في شيء فسطوت بها كنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك! فقال: كيف لي بعائشة وقد كلمتُها؟ قال: أنا لك بها؛ وأدلك على خير لك منها، أمّ كلثوم بنت عليّ من فاطمة بنت رسول الله؛ تتعلق منها بسبب من رسول الله ﷺ.

علي وعمر في ام كلثوم

وكان علي قد عزل بناته لولد جعفر بن أبي طالب؛ فلقيه عمر فقال: يا أبا الحسن، أنكحْني ابنتك ام كلثوم ابنة فاطمة بنت رسول الله ﷺ. قال: قد حبستها لابن جعفر! قال: إنه والله ما على الارض احدُ يرضيك من حسن صحبتها بما أُرضيك به، فأنكحني يا ابا الحسن. قال: قد أنكحتكها يا أمير المؤمنين!

فأقبل عمر فجلس في الروضة بين القبر والمنبر، واجتمع إليه المهاجرون والانصار؛ فقال: زفّوني! قالوا: بمن يا أمير المؤمنين؟ قال: بأمَّ كُلثوم. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلُّ سبب ونسب ينقطع يوم القيام إلا سببي ونسبي»! وقد تقدمت لي صحبةٌ، فأحببت أن يكون لي معها سبب.

فولدت له أمُّ كلثوم زيدَ بن عمر، ورقية بنت عمر؛ وزيدُ بن عمر هو الذي لطم سمرة بن جندب عند معاوية إذا تنقَّص عليا فيما يقال.

سلمان وعمر في ابنته

وخطب سلمان الفارسي إلى عمر ابنته، فوعده بها؛ فشق ذلك على عبد الله بن عمر، فلقي عمرَو بن العاص فشكا ذلك إليه؛ فقال له: فأكفيكه! فلقي سلمان فقال

له: هَنيئاً لك يا أبا عبد الله، أمير المؤمنين يتواضع لله عز وجل في تزويجك ابنتَه! فغضب سلمان وقال: لا، والله لا تزوجت إليه أبداً.

زواج بلال وأخيه

وخرج بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ مع أخيه، إلى قوم من بني ليث، يخطب إليهم لنفسه ولأخيه، فقال: أنا بلال وهذا أخي، كنا ضالَّيْن فهدانا الله، وكنا عبدين فأعتقنا الله، وكنا فقيرين فأغنانا الله؛ فإن تزوِّجونا فالحمد لله، وإن تردُّونا فالمستعان الله! قالوا: نعم وكرامة! فزوجوهما.

زواج عثمان من نائلة

قالت تماضر امرأة عبد الرحمن بن عوف لعثمان بن عفان: هل لك في ابنة عم لي، بِكر جميلة، ممتلئة الخلق، اسيلة الخد[١]، أصيلة الرأي، تتزوجها؟ قال: نعم. فذكرتْ له نائلة بنت الفرافصة الكلبية، فتزوجها وهي نصرانية، فتحنَّفت وحُملت إليه من بلاد كلب، فلما دخلت عليه قال لها: لعلك تكرهين ما ترين من شيبي؟ قالت: والله يا أمير المؤمنين، إني من نسوة أحب ازواجهن إليهن الكهل! قال: إني قد جُزت الكهول، وأنا شيخ! قالت: أذهبتَ شبابك مع رسول الله ﷺ في خير ما ذهبت فيه الاعمار! قال: أتقومين إلينا ام نقوم إليك؟ قالت: ما قطعت إليك أرض السماوة وأريد أن أنثني إلى عرض البيت! وقامت إليه: فقال: لها: انزعي ثيابك. فنزعَتْها؛ فقال: حلي مِرطك[٢]. قالت: أنت وذاك.

قال أبو الحسن: فلم تزل نائلة عند عثمان حتى قتل؛ فلما دُخِل إليه وقَتْه بيدها، فجذمت[٣] أناملها، فأرسل إليها معاوية بعد ذلك يخطبها، فأرسلت إليه: ما ترجو من امرأة جذماء!

(١) أسل: ملس واستوى.
(٢) المرط: كساء من خز أو صوف أو كتان تتلفح به المرأة.
(٣) جذمت: قطعت.

وقيل: إنها قالت لما قتل عثمان: إني رأيت الحزن يبلى كما يَبلى الثوب، وقد خشيت أن يبلى حزنُ عثمان من قلبي! فدعت بفهر فهتمت فاها، وقالت: والله لا قعدَ أحدٌ مني مقعد عثمان أبداً!.

فاطمة بنت الحسين بن علي وابن عمرو

وكانت فاطمة بنت الحسين بن علي عند حسن بن حسن بن علي، فلما احتُضر قال لبعض اهله: كأني بعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان إذا سمع بموتي قد جاء يتهادى في ازار له موردٍ قد أسبله، فيقول: جئت أشهد ابنَ عمي، وليس يريد إلا النظر إلى فاطمة، فإذا جاء فلا يدخلنّ! قال: فوالله ما هو إلا أن أغمضوه، فجاء عبد الله بن عمرو في تلك الصفة التي وصفها، فمنع ساعة؛ فقال بعض القوم: لا يدخل: وقال بعضهم: افتحوا له، فإن مثلَه لا يُردّ. ففتحوا له، ودخل؛ فلما صرنا إلى القبر قامت عليه فاطمة تبكي، ثم اطلعت إلى القبر فجعلت تصكّ وجهها بيديها حاسرة؛ قال: فدعا عبد الله بن عمرو وصيفاً له فقال: انطلق إلى هذه المرأة وقل لها: يقرئك ابن عمِّك السلام، ويقول لك: كُفِّي عن وجهك؛ فإن لنا به حاجة! فلما بلغها الرسالة أرسلت يديها فأدخلتها في كميها حتى انصرف الناس.

فتزوجها عبد الله بن عمرو بعد ذلك، فولدت له محمد بن عبد الله؛ وكان يسمى المُذهب، لجماله؛ وكانت ولدت من حسن بن حسن، عبد الله بن حسن الذي حارب أبو جعفر ولديه إبراهيمَ ومحمدا ابني عبد الله بن الحسن بن الحسن حتى قتلهما.

محمد بن عبد الله ابن عمرو

وعن سلمة بن محارب قال: ما رأيت قرشياً قط كان أكمل ولا اجمل من محمد بن عبد الله بن عمرو الذي ولدته فاطمة بنت الحسين.

وكانت له ابنة ولدَها رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير: كانت امها خديجة بنت عثمان بن عروة بن الزبير وأم عروة أسماء

بنت أبي بكر الصديق. وأم محمد فاطمة بنت الحسين بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وأم فاطمة بنت الحسين أمُّ إسحق بنت طلحة بن عبيد الله، وأم عبد الله بن عمرو بن عثمان سودةُ بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب.

شريح والشعبي في نساء تميم:

وعن الهيثم بن عدي الطائي قال: حدثنا مجالد عن الشعبي قال: قال لي شُريح: يا شعبي، عليك بنساء بني تميم، فإني رأيت لهن عقولا، قال: وما رأيت من عقولهن؟ قال: أقبلت من جنازة ظهراً،فمررت بدورهم فإذا أنا بعجوز على باب دار، والى جنبها جارية كأحسن ما رأيت من الجواري، فعدلتُ فاستسقيت ومابي عطش؛ فقالت:أي الشراب احب اليك؟ فقلت: ما تيسّر. قالت: ويحك يا جارية! ائتيه بلبن؛ فإني أظن الرجل غريباً! قلت: من هذه الجارية؟ قالت: هذه زينب ابنة جرير، إحدى نساء حنظلة. قلت: فارغة هي أم مشغولة؟ قالت: بل فارغة. قلت: زوّجينيها. قالت: إن كنت لها كفئاً - ولم تقل كفوا، وهي لغة تميم - فمضيت إلى المنزل فذهبت لاقيل، فامتنعت مني القائلة؛ فلما صليتُ الظهر أخذت بأيدي اخواني من القرّاء الاشراف: علقمة، والاسود، والمسيب، وموسى بن عرفطة؛ ومضيت أريد عمها، فاستقبل فقال: يا أبا أمية، حاجتك؟ قلت: زينب بنت أخيك. قال: ما بها رغبة عنك! فأنكحَنيها، فلما صارت في حبالي ندمتُ، وقلت: أي شيء صنعتُ بنساء بني تميم؟ وذكرت غِلظَ قلوبهن، فقلت: أطلِّقها! ثم قلت: لا، ولكن أضمها إليّ، فإن رأيت ما أُحِب وإلا كان ذلك. فلو رأيتني يا شعبي وقد أقبل نساؤهم يُهدينها حتى أُدخلت عليّ، فقلت: إن من السُّنة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم فيصلي ركعتين فيسألَ الله من خيرها ويعوذ به من شرها. فصليت وسلمت، فإذا هي من خلفي تصلي بصلاتي، فلما قضيت صلاتي أتتني جواريها، فأخذن ثيابي وألبسنني ملحفة قد صبغت في عكر العصفر.

فلما خلا البيت دنوت منها فمددت يدي إلى ناحيتها، فقالت: على رِسلك أبا أمية! كما أنت! ثم قالت:

الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأصلي على محمد وآله؛ اني امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك، فبيِّن لي ما تحب فآتيه، وما تكره فأزدجِرَ عنه... وقالت: إنه قد كان لك في قومك منكح، وفي قومي مثل ذلك، ولكن إذا قضى الله امراً كان، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله به: ﴿إمْساكٌ بِمعروف أو تسرِيحٌ بإحسانٍ﴾[1] أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولك.

قال: فأحوجتني والله يا شعبي إلى الخطبة في ذلك الموضع، فقلت:

الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأصلي على النبي وآله وأُسلم، وبعد؛ فإنك قد قلتِ كلاماً إن تَثبُتي عليه يكن ذلك حظَّك، وإن تدعيه يكن حُجةً عليك؛ أُحب كذا وأكره كذا، ونحن جميع فلا تُفَرقي، وما رأيتِ من حسنة فانشريها، وما رأيت من سيئة فاستريها.

وقالت شيئاً لم أذكره: كيف محبتُك لزيارة الاهل؟ قلت: ما احب ان يُملَّني أصهاري! قالت: فمن تحب من جيرانك أن يدخُل دارك آذنُ لهم، ومن تكرههُ أكرهه؟ قلت: بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم سوء.

قال: فبتُّ يا شعبي بأنعم ليلة، ومكثت معي حولا لا أرى إلا ما أُحب، فلما كان رأْسَ الحول جئت من مجلس القضاء، فإذا بعجوز تأمر وتنهى في الدار! فقلت: من هذه؟ قالوا: فلانة خَتَنُك[2]. فسُري عني ما كنت اجد، فلما جلست أقبلت العجوز فقالت: السلام عليك أبا أمية. قلت: وعليك السلام، من أنت؟ قالت: انا فلانة ختنك. قلت: قربك الله. قالت: كيف رأيت زوجتك؟ قلت خير زوجة. فقال لي: أبا امية، إن المرأة لا تكون أسوأ منهافي حالتين: إذا ولدت غلاما، أوحظِيت عند زوجها؛ فإن رابك ريبٌ فعليك بالسوط؛ فوالله ما جاز الرجال في بيوتهم شرًّا من المرأة المدللة. قلت: أما والله لقد أدّبْتِ فأحسنت الادب، ورضْت

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٩.

(٢) الختن: كل ما كان من قبل المرأة كأبيها وأخيها، وكذلك من زوج البنت وزوج الاخت.

فأحسنت الرياضة. قالت: تحبُّ ان يزورك ختانُك؟ قلت! متى شاءوا. قال: فكانت تأتيني في رأس كل حول توصيني تلك الوصية.

فمكثت معي عشرين سنة لم أعتب عليها في شيء، الا مرة واحدة، وكنت لها ظالماً: أخذ المؤذّن في الإقامة بعد ما صليت ركعتي الفجر، وكنت إمام الحيِّ، فإذا بعقرب تدب: فأخذت الإناء فأكفأتُه عليها؛ ثم قلت: يا زينب؛ لا تتحركي حتى آتي! فلو شهدتني يا شعبي وقد صليت ورجعت فإذا انا بالعقرب قد ضربتها، فدعوت بالسكت والملح؛ فجعلت امغث[1] أصبعها وأقرأ عليها بالحمد والمعوّذتين. وكان لي جارٌ من كندة يفزع امرأته ويضربها؛ فقلت في ذلك:

كنتمْ زعمتُـــم أنها ظلَمتْكُـــم كذَبتم وبيتِ الله بل تَظلمـونها
فإن لا تَعدُّوا أُمّها من نسائكـم فـــإنّ أباها والدّ لـــن يَشِينَهـــا
وإنّ لها أعمامَ صِـدقٍ وإخـوة وشيخـاً إذا شئتم تـأَيَّـمَ دونَهـا

قالت النوار: فإذاً لا نَشاء.

الفرزدق وأمة له:

وقال الفرزدق في أمته الزنجية:

يا رب خَودٍ من بناتِ الزنـــجِ تَنقُلُ تنُّـوراً شـديـدَ الوهـجِ
أغيرَ مثـلَ القَـــدح الخَلَنـــجِ يزدادُ طيباً بعد طُولِ الهرجِ[2]

يعلي الهذلي وطلحة الطلحات

وعن الهيثم بن عدي: عن ابن عياش قال: حدثنا يعلى الهذلي قال: كنت بسجستان مع طلحة الطلحات، فلم أر أحداً كان أسخى منه ولا أشرف نفسا؛ فكتب إليّ عمي من البصرة: إني قد كبرت، ومالي كثير، وأكره أن أُوكله غيرك فأقدم أزوّجك ابنتي وأصنع بك ما أنت أهله.

---

(١) المغث: المرت وهو ان تلوك الاصبع.

(٢) الخلنج: شجر تتخذ من خشبه الآنية.

قال: فخرجت على بغلة لي تركية، فأتيت البصرة في ثلاثين يوماً، ووافيته في صلاة العصر، فوجدته قاعداً على دكانه، فسلمت عليه، فقال لي من أنت؟ قلت له: ابن اخيك يعلي، قال: وأين ثقلك[1]؟ قلت: تعجلت إليك حين أتاني كتابُك وطربت نحوكم. قال: يابن اخي، أتدري ما قالت العرب؟ قلت: لا. قال: قالت العرب: شر الفتيان المُفْلس الطروب! قال: فقمت إلى بغلتي فأعددت سرجي عليها، فما قال لي شيئاً، ثم قال: إلى أين؟ قلت: إلى سجستان! قال: في كنَف الله.

قال: فخرجت فبتُّ في الجسر، ثم ذكرت أم طلحة، فانصرفت أسأل عنها حتى أتيت منزلها ـ وكان طلحة أبرّ الناس بها ـ فقلت: رسول طلحة، فقالت ائذنوا له. فدخلت، فقالت: ويحك! كيف آبني؟ قلت: على احسن حال. قالت: فلله الحمد! وإذا بعجوز قد تحدرت، قالت: فما جاء بك؟ قلت: كيت وكيت. قالت: يا جارية. ائتني بأربعة آلاف درهم! ثم قالت: ائت عمك فابتن بابنته، ولك عندنا ما تحب! قلت: لا والله لا أعود إليه أبداً، قالت: يا جارية ائتني ببغلة رحالتي. ثم قالت، راوح بين هذه وبغلتك حتى تأتي سجستان. قلت: آكتبي بالوصاة بي والحالة التي آستقبلتُها. فكتبت بوجعها التي كانت فيه، وبعافية الله إياها، وبالوصاة بي؛ فلم تَدعْ شيئاً. ثم دفعت حتى أتيت سجستان، فأتيت باب طلحة، وقلت للحاجب: رسول صفية بنت الحرث. وأنا عابس باسر، فدخل؛ فخرج طلحة متوشِّحا، وخلفه وصيف يسعى بكرسي، فقمت بين يديه، فقال: ويلك! كيف أمي؟ قلت: بأحسن حالة. قال: انظر كيف تقول؟ قلت: هذا كتابها. قال: فعرف الشواهد والعلامات، قلت: آقرأ كتاب وصيتها. قال: ويحك! ألم تأتني بسلامتها؟ حسبُك! فأمر لي بخمسين ألف درهم، وقال لحاجبه: اكتُبه في خاصة أهلي، قال: فوالله ما أتى عليَّ الحول حتى تم لي مائة ألف.

قال ابن عياش: فقلت له: هل لقيت عمك بعد ذلك؟ قال لا والله ولا ألقاه أبداً.

---

(١) الثقل: المتاع، أو الحمل الثقيل.

السلاماني وقريب له

وعـن الهيثم بن عـدي عـن ابن عيـاش قـال: اخبرني مـوسى السلامـاني، مـولى الحضرمي، وكان أيسر تاجر بالبصرة، قال: بينا أنا جالس إذ دخل عليَّ غلام لي فقال: هذا رجل من أهل أمِّك يستأذن عليك - وكانت أمه مولاة لعبد الرحمن بن عوف - فقلت: ائذن له. فدخل شاب حلوُ الوجه، يُعرف في هيئته انه قرشي، في طمرين[1]. فقلت: من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا عبد الحميد بن سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، خال رسول الله ﷺ. قلت: في الرحب والقرب. ثم قلت: يا غلام، برَّه وأكرمْه وألطفه، وأدخله الحمام، وآكسُه قميصاً رقيقاً، ومبطنا قوهيا، ورداء عمريا. وحذونا له نعلين حضرميين فلما نظر الشاب في عطفيه وأعجبته نفسه قال: يا هذا، آبغنِي أشرف أيِّمٍ بالبصرة أو أشرف بكربها! قلت: يابن اخي، معك مال؟ قال: أنا مال كما أنا! قلت: يابن أخي، كُفَّ عن هذا. قال: انظر ما أقوله لك! قلت: فإن أشرف ايِّم بالبصرة هند ابنة أبي صفرة. أخت عشرة، وعمة عشرة، وحالها في قومها حالها. وأشرف بكر بالبصرة الملاة بنت زرارة بن اوفى الجرشي قاضي البصرة قال اخطبها علي. قلت: يا هذا، إن اباها قاضي البصرة! قال: انطلق بنا إليه. فانطلقنا إلى المسجد فتقدم، فجلس الى القاضي، فقال له: من انت يابن اخي؟ قال له: عبد الحميد بن سهيل بن عبد الرحمن بن عوف خال رسول الله ﷺ. قال مرحباً بك، ما حاجتك؟ قال: جئت خاطباً. قال: ومن ذكرتَ؟ قال: الملاة ابنتك. قال: يابن اخي، ما بها عنك رغبة. ولكنها امرأة يُفْتات عليها [في] أمرها، فاخطبها إلى نفسها. فقام إليّ، فقلت: ما صنعت؟ قال: قال كذا وكذا. قلت: ارجع بنا ولا تخطبها. قال: اذهب بنا اليها. فدخلنا دار زرارة، فإذا دار فيها مقاصير، فاستأذَنا على أمها، فلقيتْنا بمثل كلام الشيخ، ثم قالت: وها هي في تلك الحجرة. قلت له: لا تأتها. قال: أليست بكرا؟ قلت: بلى. قال: ادخل بنا إليها. فاستأذنا، فأذنت لنا، فوجدناها جالسة وعليها ثوب قوهي رقيق معصفر، تحته

---

(١) الطمر: الثوب الخلق البالي.

سراويل يُرى منه بياضُ جسدها، ومرطُ قد جمعته على فخديها، ومصحف على كرسي بين يديها. فأشْرَجَت[1] المصحف ثم نَحته، فسلمنا، فردّت، ثم رحبت بنا، ثم قالت: من أنت؟ قال: أنا عبد الحميد بن سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري خال رسول الله ﷺ! ومدّ بها صوته، قالت: يا هذا؛ إنما يمدّ هذا الصوت للساسانيين! قال موسى: فدخل بعضي في بعض! ثم قالت: ما حاجتك؟ قال: جئت خاطباً. قالت: ومن ذكرت؟ قال: ذكرتكِ! قالت: مرحبا بك يا اخا اهل الحجاز، ما الذي بيدك؟ قال: لنا سهمان بخيبر اعطاناهما رسول الله ﷺ - ومدّ بها صوته - وعين بمصر، وعين باليمامة، ومال باليمن. قالت: يا هذا، كل هذا عنا غائب، ولكن ما الذي يحصل بأيدينا منك؟ فإني أظنك تريد أن تجعلني كشاة عكرمة، أتدري من عكرمة؟ قال: لا. قالت: عكرمة بن ربعي. فإنه كان نشأ بالسواد، ثم انتقل الى البصرة وقد تغذى باللبن. فقال لزوجته: اشتري لنا شاة نحتلبها وتصنعين لنا من لبنها شرابا وكامخا. ففعلت وكانت عندهم الشاة إلى ان استحرمت[2]، فقالت: يا جارية خذي بأُذن الشاة وانطلقي بها إلى التيَّاس. فانزي عليها! ففعلت فقال التياس: آخذ منك على النزوة درهما! فانصرفت إلى سيدتها فأعلمتها. فقالت: إنما رأينا من يرحم ويعطي، وأما من يرحم ويأخذ فلم نره!... ولكن يا أخا أهل المدينة، أردت أن تجعلني كشاة عكرمة. فلما خرجنا قلت له: ما كان أغناك عن هذا! قال: ما كنت أظن أن امرأة تجترىء على مثل هذا الكلام.

ابن علفة وعبد الملك

وعن الاصمعي قال: كان عقيل بن عُلَّفة المري غيوراً فخوراً، وكان يُصهِر إليه خلفاءُ بني أمية، فخطب إليه عبد الملك بن مروان ابنته لبعض ولده، فقال: جنبني هُجناء ولدك.

---

(١) يقال شرج الشيء، أي ضمّ اجزاءه بعضها إلى بعض.

(٢) استحرمت: أرادت الكبش.

ابن علفة وأولاده

وكان إذا خرج يمتار خرج بابنته الجرباء معه. فخرج مرة فنزلوا دَيْراً من أديرة الشام يقال له ديْرُ سعد، فلما ارتحلوا قال عقيل:

قضتْ وطَرا من دَيْـر سعـدٍ وربَّما عَلاَ عُرُضٌ ناطَحْنَه بـالجماجـمِ[(١)]

ثم قال لابنه: أجزْ يا عُميْس. فقال:

فأصبحْن بالمَوْماة يحمِلْـن فتيـةً نَشاوَى من الإدْلاجِ مِيلَ العمائمِ

ثم قال لابنته: يا جرباء أجيزي، فقالت:

كأنّ الكَرَي أسقـاهُـم صَـرْخـديَّـةً عُقارا تَمشَّتْ في المَطا والقـوائمِ[(٢)]

فقال لها: وما يدريك أنت ما نعت الخمر؟ ثم سل السيف ونهض إليها، فاستغاثت بأخيها عميس، فانتزعه بسهم فأصاب فخذه، فبرك. ومضوا وتركوه حتى إذا بلغوا ادنى المياه قالوا لهم: إنا أسقطنا جزوراً لنا فأدركوه. وخذوا معكم الماء! ففعلوا. وإذا عقيلٌ بارك وهو يقول:

إنّ بَنِـــيَّ زمَّلوني بـالـدَّمِ من يَلْق أبطال الرِّجالِ يُكلَم[(٣)]

ومـن يكـن درْءٌ بـــه يُقـوَّمِ شنشِنـةٌ أعـرِفُهـا مـن أخـزَمِ

الشنشنة: الطبيعة. وأخزم: فحل كريم. وهذا مثل للعرب.

عبد الملك وابنة عبد الرحمن

الشيباني عن عوانة قال: خطب عبد الملك بن مروان ابنة عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام، فأبت أن تتزوّجه. وقالت: والله لا تَزوَّجَني أبو الذباب! فتزوجها يحي بن الحكم. فقال عبد الملك: والله لقد تزوجت أفوَه أشْوَه. فقال يحي: أما إنها أحبت مني ما كرِهَت منك. وكان عبد الملك ردىء الفم يَدمَى فيقع عليه الذباب فسمي ابا الذباب.

---

(١) العُرُض: الجانب. (٢) صرخد: موضع نسب إليه الشراب، والعُقار: الخمر.

(٣) زمّل: لف وغطى.

أخت أبي سفيان

وعن العتبي قال: خطب قريبة ابنة حرب أخت أبي سفيان بن حرب، اربعة عشر رجلا من أهل بدر، فأبتْهم وتزوجت عَقيل بن أبي طالب. قالت: إن عَقيلا كان مع الأحبة يوم قتلوا، وإن هؤلاء كانوا عليهم! ولاحتْه يوما فقالت: يا عقيل، أين أخوالي؟ أين أعمامي؟ كأن أعناقهم أباريق الفضة! قال لها: إذا دخلت النار فخذي على يسارك.

زياد وسعيد بن العاص في ابنته

وكتب زياد إلى سعيد بن العاص يخطب إليه ابنته، وبعث إليه بمال كثير وهدايا؛ فلما قرأ الكتاب أمر حاجبه بقبض المال والهدايا، وأن يقسمها بين جلسائه؛ فقال الحاجب: إنها أكثر من ظنك. قال سعيد: أنا أكثر منها! ثم وقَّع إلى زياد في أسفل كتابه: ﴿كلاّ إنّ الإنسانَ ليَطْغى أنْ رآه آستغْنَى﴾ (١).

الحسن ورجل يزوج ابنته

وقال رجل للحسن: إن لي بنية، فمن ترى أن أزوجها؟ قال زوّجْها ممن يتقي الله فإن أحبَّها أكرمها، وإن أبغضها لم يَظلمها.

عبد الملك وعمر بن عبد العزيز

وقال عبد الملك بن مروان، لعمر بن عبد العزيز: قد زوّجَك أمير المؤمنين ابنته فاطمة، فقال عمر: وصلك الله يا أمير المؤمنين، فقد كفَيتَ المسئلة، وأجزلت في العطية.

وقيل للحسن: فلان خطب إلينا فلانة. قال: أهو موسرٌ من عقل ودين؟ قالوا: نعم. قال: فزوِّجوه.

---

(١) سورة العلق الآية ٦.

لحيوة بن شريح

وقال رجل لحيوة بن شُريح: إني أريد أن أتزوج. فماذا ترى؟ قال: كم المهر؟ قال: مائة. قال: فلا تفعل؛ تزوّج بعشرة وأبق تسعين، فإن وافقتك ربحت التسعين، وإن لم توافقك تزوجت عشرا؛ فلا بد في عشرة نسوة من واحدة توافقك.

هبنقة القيسي وراغب في الزواج

وقال رجل: أردت النكاح فقلت: لاستشيرن أول من يطلع عليّ ثم أعمل برأيه؛ فكان أول من طلع هبنقة القيسي، وتحته قصبة؛ فقلت له: أريد النكاح، فما تشير [به] علي؟ قال: البكر لك، والثيب[1] عليك، وذاتُ الولد لا تقرَبْها واحذر جوادي لا ينفحك![2].

مكثر ومقل في زواج

وعن الاصمعي قال: أخبرني رجل من بني العنبر عن رجل من اصحابه وكان مُقِلاًّ، فخطب إليه مكثِرٌ من مال مُقِلٌ من عقل، فشاور فيه رجلا يقال له ابو يزيد؛ فقال: لا تفعل، ولا تُزوِّج إلا عاقلا ديِّناً؛ فإنه إن لم يكرمها لم يظلمها. ثم شاور رجلا آخر يقال له ابو العلاء، فقال له: زوِّجْه، فإن ما له لها وحمقه على نفسه. فزوَّجه، فرأى منه ما يكره في نفسه وابنته؛ وأنشده فقال:

أَلَهْفي إذ عصيْتُ أبا يزيدٍ ... ولهفي إذا أطعْت أبا العلاءِ
وكانت هفْوَة من غيرِ ريحٍ ... وكانت زلقَة من غيْرِ ماءِ

زواج معبد بن خالد

المفضل بن محمد الضبي قال: اخبرني مِسعَر بن كدام عن معبد بن خالد الجدلي قال: خطبت امرأة من بني أسد في زمن زياد ـ وكان النساء يجلسن لخُطّابهن ـ قال:

---

(١) الثيب: غير العذراء.

(٢) يقال نفحت الدابة الشيء: ضربته بحد حافرها.

فجئت لانظر إليها ؛ وكان بيني وبيها رواق : فدعت بجفنة عظيمة من الثريد[١] مكللة باللحم ، فأتت على آخرها وألقت العظام نقية ، ثم دعت بشنّ عظيم مملوءة لبناً ، فشربته حتى أكفأته على وجهه ، وقالت : يا جارية ارفعي السجف[٢] ، فإذا هي جالسة على جلد أسد ، وإذا شابة جميلة ؛ فقالت : يا عبد الله ، أنا أسدة ، من بني أسد ، وعليّ جلدُ أسد ، وهذا طعامي وشرابي ؛ فعلام ترى ؟ فإن أحببت أن تتقدم فتقدم ، وإن أحببت أن تتأخر فتأخر ! فقلت : أستخيرُ الله في أمري وأنظر ! قال : فخرجت ولم أعُدْ ! .

جارية لأمية وراغب في زواجها

قال : وحدثنا بعض اصحابنا ان جارية لأمية بن عبدالله بن خالد بن اسيد ذات ظرف وجمال ، مرت برجل من بني سعد ، وكان شجاعاً فارساً ، فلما رآها قال : طوبى لمن كانت له امرأة مثلك ! ثم إنه أتبعَها رسولا يسألها : ألها زوج ؟ ويذكره لها ؛ فقالت للرسول : ما حرفتُه ؟ فأبلغه الرسول قولها : فقال : ارجع اليها فقل لها :

وسائلةٍ ما حرْفتي ؟ قلـت : حـرْفتي   مُقارعةُ الابطـال في كـلِّ شـارقِ
إذا عرضَت لي الخيلُ يومـاً رأيتني   أمام رعيل الخيلِ أحمي حقـائقـي
وأصبِرُ نفسي حين لا ُحرّ صـابـرٌ   على ألمِ البيـضِ الرِّقـاقِ البوارق

فأنشدها الرسول ما قال ،فقالت له : ارجع اليه وقل له : انت أسدٌ فاطلب لنفسك لبؤة ، فلست من نسائك ! وأنشدت هذه الأبيات :

ألا إنما أبغِـي جَـواداً بمالِـه   كـريماً مُحيَّاه قليـل الصدائـق
فتى همَّـه مُـذْكـان خَـودٌ كـريمةٌ   يعانقُهـا بـالليـل فـوق النمارق[٣]
ويشربُها صِـرْفـاً كُمَيْتـا مُـدامـةً   نداماهُ فيها كلُّ خِرقٍ موافـقِ[٤]

---

(١) الثريد : خبز فتّ وبلّ بالمرق .

(٢) السجف : أحد الستريين المقرونين بينهما فرجة .

(٣) النمارق : جمع النمرق : الوسادة الصغيرة يتكأ عليها .

(٤) الخرق : الفتى الكريم الخليقة .

رجل بين زوجتين

يحي بن عبد العزيز عن محمد بن الحكم عن الشافعي قال: تزوج رجل امرأة حديثة على امرأة له قديمة، فكانت جارية الحديثة تمرُّ على باب القديمة فتقول:

وما يستوى الرِّجلان رجلٌ صحيحةَ ورجلٌ رمى فيها الزمانُ فشلت

ثم تعود فتقول:

وما يستوى الثوبان ثوبٌ به البِلَى وثوْبٌ بأيدي البائعين جديدُ

فمرت جارية القديمة على الحديثة فأنشدت:

نقِّل فؤادك حيث شِئت من الهوى ما القلبُ إلا للحبيبِ الأوّل
كم منزلٍ في الارضِ يألفهُ الفتى وحنينُهُ أبداً لأوّلِ منزِل

المغيرة وغلام حارثي

وعن الشعبي قال، سمعت المغيرة بن شعبة يقول: ما غلبني احد قط إلا غلام من بني الحارث بن كعب، وذلك اني خطبت امرأة من بني الحارث،وعندي شاب منهم، فأصغى إليّ فقال: أيها الامير، لاخير لك فيها! قلت: يا ابن اخي وما لها؟ قال: إني رأيت رجلا يقبِّلها! قال: فبرئت منها؛ فبلغني أن الفتى تزوجها قلت: ألم تخبرني انك رأيت رجلا يقبِّلها؟ قال: بَلى رأيت أباها يقبلها.

أبو سعيد وابن سيرين في الزواج

أبو سعيد قال: صحبت ابن سيرين عشرين سنة، فقال لي يوما: يا أبا سعيد إن تزوجت فلا تتزوج امرأة تنظر في يدها، ولكن تزوج امرأة تنظر في يدك.

صفات النساء وأخلاقهن

لعبدة بن الطبيب

قال أبو عمرو بن العلاء: أعلم الناس بالنساء عَبَدَة بن الطبيب حيث يقول:

فـإن تسـألـوني بـالنسـاء فـإنني   عليمٌ بـأدواءِ النسـاءِ طبيـبُ
إذا شاب رأسُ المرء أو قـلَّ مـالـه   فليسَ لـه في وُدِّهِـنّ نصيـبُ
يُـرِدْنَ ثـراءَ المالِ حيـث علِمْنَـهُ   وشرْخُ الشبابِ عنـدَهُـنّ عجيـبُ

وهذه الابيات لعلقمة بن عبدة المعروف بالفحل وأول القصيدة:

طحا بك قلبٌ في الحسانِ طَرُوبُ

لمعاذ بن جبل

وعن رجاء بن حَيوة عن معاذ بن جبل قال: إنكم ابتُليتم بفتنة الضراء فصبرتم وإني اخاف عليكم فتنة السراء؛ وهي النساء، اذا تحلين بالذهب، ولبسن ريط الشام وعصب اليمن، فأتعَبن الغني، وكلّفن الفقير ما لا يطاق.

وقال عبد الملك بن مروان، من أراد ان يتخذ جارية للمتعة فليتخذها بربرية ومن أراد للولد فليتخذها فارسية، ومن أراد للخدمة فليتخذها رومية.

لابن هبيرة

وعن أبي الحسن المدائني قال: قال يزيد بن عمر بن هُبيرة: اشتروا لي جارية شقّاء مقّاء رسحاء، بعيدةَ ما بين المنكبين، ممسوحة الفخذين.

قوله: شقاء: يريد كأنها شقة جبل؛ مقاء: طويلة؛ رسحاء: صغيرة العجيزة، أرادها للولد، لان الارسح أفرَس من العظيم العجيزة.

وقال عمر بن هبيرة لرجل: ما أنت بعظيم الرأس فتكون سيداً، ولا بأرسحَ فتكون فارسا.

وقال الاصمعي وذَكر النساء: بناتُ العم اصبر، والغرائب انجب، وما ضَرَب رؤس الابطال كابن الاعجمية.

يونس ومستشير له في زواج

أبو حاتم عن الاصمعي عن يونس بن مصعب عن عثمان بن ابراهيم بن محمد قال: أتاني رجلٌ من قريش يستشيرني في امرأة يتزوجها، فقلت: يا ابن أخي، أقصيرة النسب أو طويلته؟ فلم يفهم عني؛ فقلت: يا ابنَ اخي، إني اعرف في العين إذا عَرفت، وأُنكر فيها إذا انكرت، واعرف فيها اذا لم تَعرف ولم تُنكر، أما إذا عرفت فتتحاوص[١]، واما اذا انكرت فتجحظ[٢]، واما اذا لم تعرف ولم تنكر فتسجو؛ وقد رأيت عينَك ساجية؛ فالقصيرة النسب التي إذا ذكرَت أباها اكتفت به، والطويلة النسب التي تُعرف حتى تطيلَ في نسبتها؛ فإياك أن تقع في قوم قد أصابوا كثيراً من الدنيا مع دناءة فيهم؛ فتضيع نفسك فيهم.

الوليد وعقائله

وعن العتبي قال كان عند الوليد بن عبد الملك اربع عقائل: لبابة بنت عبد الله بن عباس، وفاطمةُ بنت يزيد بن معاوية، وزينب بنت سعيد بن العاص، وأُمُّ جحش بنت عبد الرحمن بن الحرث؛ فكنّ يجتمعن على مائدته ويفترقن فيفخرن فاجتمعن يوماً، فقالت لبابة: اما والله إنك لتسويني بهنّ وانك تعرف فضلي عليهن! وقالت بنت سعيد: ما كنت ارى أن للفخر عليّ مجازا، وانا ابنة ذي العمامة إذ لا عمامةَ غيرها! وقالت بنت عبد الرحمن بن الحارث: ما احبُّ بأبي بدلا، ولو شئت لقلت فصَدقْتُ وصُدِّقت! وكانت بنت يزيد بن معاوية جاريةً حديثة السن، فلم تتكلم؛ فتكلم عنها الوليد فقال نطق مَن احتاج إلى نفسه، وسكت من اكتفى بغيره؛ اما والله لو

---

(١) احتاص في الأمر: احتاط.

(٢) يقال جحظت عينه: أي نتأت حدقتها وبرزت.

شاءت لقالت: أنا ابنةُ قادتكم في الجاهلية، وخلفائكم في الاسلام! فظهر الحديث حتى تُحُدّث به في مجلس ابن عباس، فقال: الله اعلم حيث يجعل رسالته.

للحجاج في نسوته

الشيباني عن عوانة قال: ذُكر النساء عند الحجاج، فقال عندي أربع نسوة: هند بنت المهلب، وهند بنت اسماء بن خارجة، وأم الجلاس بنت عبد الرحمن بن أسيد، وأمة الرحمن بنت جرير بن عبد الله البجلي. فأما ليلتي عند هند بنت المهلب فليلةُ فتى بين فتيان،يلعب ويلعبون؛ وأما ليلتي عند هند بنت اسماء فليلة ملك بين الملوك؛ وأما ليلتي عند ام الجلاس فليلة اعرابي مع اعراب في حديثهم وأشعارهم. وأما ليلتي عند امَة الرحمن بنت جرير فليلة عالم بين العلماء والفقهاء.

أبو الحر المخنث

وعن العتبي قال: حدثني رجل من اهل المدينة قال: كان بالمدينة مخنث يدُلُّ على النساء، يقال له أبو الحر، وكان منقطعاً إليّ، فدلني على غير ما امرأة أتزوجها، فلم أرض عن واحدة منهن، فاستقصرته يوما، فقال: والله يا مولاي لادلنّك على امرأة لم ترَ مثلها قط، فإن لم ترها كما وصفت فاحلق لحيتي! فدلني على امرأة، فتزوجتها، فلما زُفت إلي وجدتُها اكثرَ مما وصف، فلما كان في السحر إذا انسان يدق الباب، فقلت: من هذا قال: أبو الحر، وهذا الحجّام[1] معه فقلت: قد وفر الله لحيتك أبا الحر، الأمر كما قلتَ!.

للرسول ﷺ في مخنث

ابن بكير عن مالك بن هشام بن عروة عن أبيه: ان مخنّثاً كان عند أم سلَمة زوج النبي ﷺ، فقال لعبد الله بن ابي امية ورسول الله ﷺ يسمع: أبا عبد الله، إن

---

(١) الحجّام: محترف الحجامة، والحجامة هي امتصاص الدم بالمحجم.

فتح الله لكم الطائف غداً فأنا أدلّك على بنت غيلان فإنها تُقبل بأربع، وتُدبر بثمان!
فقال رسول الله ﷺ: لا يدخل عليكن هؤلاء.

قوله: تقبل بأربع وتدبر بثمان، يريد عكن[1] البطن، أنها إذا أقبلت أربع، وإذا أدبرت ثمان.

وضرب البعث على رجل من اهل الكوفة، فخرج إلى اذربيجان، فاقتاد جارية وفرسا، وكان مُملكا بابنة عمه، فكتب إليها ليُغيرها:

ألا أَبلِغــوا أُمَّ البنينَ بـأننـا غَنينـا وأغْنتْنـا الغطـارفـةُ المرد[2]
بعيدُ مَنـاطِ المنكِبَيْـنِ إذا جـرى وبيضاءُ كـالتمثـالِ زيَّنهـا العِقْـدُ
فهـذا لأيـامِ العَـدُوّ، وهـذِه لِحاجةِ نفسي حينَ ينصرفُ الجنـدُ

فلما ورد كتابُه قرأته وقالت: يا غلام، هات الدواة. فكتبت إليه تجيبه:

أَلا أقْـرِهِ السلامَ وقُـل لـهُ غَنينا ـ ففيقوا ـ بالغطـارفـةِ المُردِ
بحمْـدِ أمير المؤمنينَ أقـرّهُـم شباباً ـ وأغزاكم ـ خَوالِف في الجنْـد
إذا شِئـتُ غنَّـانِـي غُلامٌ مُـرَجِّـلٌ ونازعتـهُ مـن مـاءِ مُعتَصَـر الورْد
وإن شاءَ منهـم نـاشئٌ مَـدَّ كَفَّـهُ إلى كبدٍ مَلساءَ أو كَفَـلٍ نَهـدِ[3]
فما كنتُم تَقضونَ من حاجِ أَهلِكـم شُهوداً، قَضيناها على النّأيِ والبُعد[4]

فلما ورد كتابها، لم يزد على أن ركب فرسه وأردف الجارية، والحق بها، فكان اول شيء بدأ لها به السلام أن قال: بالله هل كنت فاعلة؟ قالت: الله اجل في قلبي وأعظم، وأنت في عيني أذلُّ وأحقر من أن أعصىَ الله فيك! فكيف ذقت طعمَ الغَيْرَة؟ فوهب لها الجارية وانصرف إلى بعثه.

(١) عكْن البطن: يقال تعكّن البطن: اي صار ذا عكن، وهو ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمناً.
(٢) الغطارفة: جمع غطريف وغطارف، وهو السيد الكريم.
(٣) الكفل: العجز. (٤) قفل: رجع.

معاوية وابن صوحان

وقال معاوية لصعصعة بن صوحان: أي النساء أشهى إليك؟ قال: المواتية لك فيما تهوى. قال: فأيهنّ أبغَض؟ قال: أبعدُهنّ مما تَرضى. قال: هذا النقد العاجل. فقال صعصعة: بالميزان العادل.

وقال صعصعة لمعاوية: يا أمير المؤمنين، كيف ننسبك إلى العقل وقد غلب عليك نصف إنسان! يريد غلَبة امرأته فاختة بنت قرظة عليه؛ فقال معاوية: إنهنّ يغلبن الكرام ويغلبُهُنّ اللئام!.

جرير البجلي وابن الخطاب

وعن سفيان بن عيينة قال: شكا جرير بن عبد الله البجلي الى عمر بن الخطاب ما يلقى من النساء، فقال: لا عليك؛ فإن التي عندي ربما خرجت من عندها فتقول: إنما تريد أن تتصنع لقيان بني عدي.

فسمع كلامَهما ابن مسعود، فقال: لا عليكما، فإن ابراهيم الخليل شكا إلى ربه رداءةً في خلق سارة، فأوحى الله إليه: أن ألبسْها على لباسها ما لم ترد في دينها وصمة. فقال عمر: إن بين جوانحك لعلما.

الحجاج وابن القرية

وكتب الحجاج إلى أيوب بن القرية: أن اخطب على عبد الملك بن الحجاج امرأةً جميلة من بعيد، مليحة من قريب، شريفة في قومها ذليلة في نفسها، مواتية لبعلها. فكتب إليه: قد أصبتها لولا عظمُ ثدييها. فكتب إليه: لا يكمل حسن المرأة حتى يعظم ثدياها، فتدفئَ الضجيع، وتَروي الرضيع.

ابو العباس وابن صفوان

وقال أبو العباس امير المؤمنين لخالد بن صفوان: يا خالد، إن الناس قد أكثروا

في النساء؛ فأيهنّ أعجب إليك؟ قال: أعجبُهنّ يا أمير المؤمنين التي ليست بالضَّرَع الصغير، ولا الفانية الكبير، وحسبك من جمالها ان تكون فخمة من بعيد، مليحة من قريب، اعلاها قضيب، وأسفلها كثيب، كانت في نعمة ثم أصابتها فاقة، فأترفها الغنى وأدّبها الفقر.

ابن صفوان وامرأة

ونظر خالد بن صفوان إلى جماعة في المسجد بالبصرة، فقال ما هذه الجماعة؟ قالوا: على امرأة تدلّ على النساء. فأتاها فقال لها: ابغني امرأة. قالت: صفها لي. قال: أريدها بكراً كثيِّب، أو ثيِّباً كبكر، حلوة من قريب، فخمة من بعيد؛ كانت في نعمة فأصابتها فاقة، فمعها أدب النعمة وذل الحاجة، فإذا اجتمعنا كنا أهل دنيا، وإذا افترقنا كنا اهل آخرة. قالت: لقد أصبتُها لك. قال: وأين هي؟ قالت: في الرفيف الاعلى من الجنة فاعْمَلْ لها!.

لأعرابي في النساء

وسئل اعرابي في النساء، وكان ذا تجربة وعِلْم بهنّ؛ فقال: أفضل النساء أطوَلهن إذا قامت، واعظمُهن إذا قَعَدتْ، وأصدقُهن إذا قالت؛ التي إذا غضبت حلمت، وإذا ضحكتْ تبسمت، وإذا صنعتْ شيئاً جَوَّدَتْ؛ التي تطيع زوجَها، وتلزم بيتها؛ العزيزةُ في قومها، الذليلة في نفسها، الودود الوَلود، وكل أمرها محمود.

غطفاني وعبد الملك

وقال عبد الملك بن مروان لرجل من غطفان: صف لي أحسنَ النساء. فقال: خذها يا أمير المؤمنين ملساءَ القدمين، ردماء[١] الكعبين، مملوءة الساقين، جماء الركبتين، لفَّاء الفخذين، مقرمدة الرفْغين[٢]، ناعمة الاليتين، منيفة المأكمتين[٣]،

---

(١) ردماء: عطوفة. (٢) القرمود: ولد الوعل ـ الرفغ كل موضع يجتمع فيه الوسخ من البدن.

(٣) المأكمة: العجيزة، والمأكمتان: اللحمتان اللتان على رؤوس الوركتين.

فعْمة العضدين، فخمة الذراعين، رخْصة الكفين، ناهدة الثديين، حمراء الخدين، كحلاء العينين، زجّاء الحاجبين، لَمياء الشفتين، بلجاء الجبين، شمّاء العِرْنين[١]، شنْباء الثغر، حالكة الشعر، غيداء العنق، عيناء العينين، مكسَّرة البطن، ناتئة الركب. فقال: ويحك! وأنّى توجد هذه؟ قال: تجدها في خالص العرب، او في خالص الفُرس.

وقال رجل لخاطب: ابغِني امرأة لا تؤنس جاراً، ولا توهن داراً، ولا تثقب ناراً.

يريد: لا تدخل على الجيران، ولا يدخل عليها الجيران، ولا تغرِي بينهم بالشر. وفي نحو هذا يقول الشاعر:

مِنَ الاوانِسِ مثْل الشمسِ لم يَرهـا　　في ساحةِ الدارِ لا بَعْـلٌ ولا جـارُ

وقال الاعشى:

لَمْ تَمشِ مِيلا ولم تركـبْ على جملٍ　　ولا تَرى الشمسَ إلا دونَها الكِلَـلُ

وقال آخر:

ٱبغني امرأة بيضاء مديدة، فرعاء جعدة؛ تقوم فلا يصيب قميصها منها إلا مُشاشة منكبيها، وحلمتي ثدييها، ورانفتي أليتيها.

وقال الشاعر:

أبـتِ الروادف والثُّـدِيُّ لِقُمْصِهـا　　مسَّ البُطـونِ وأن تَمسَّ ظهـورَا

وإذا الرِّياحُ مـع العشيِّ تنـاوحَـتْ　　نَبَّهْـنَ حـاسـدةً وهِجـن غيـورا

ولآخر:

إذا ٱنبطحَتْ فوق الاثافي رَفعْنَهـا　　بثَدْيينِ في نَحرٍ عريضٍ وكعْثَبِ[٢]

(١) العرنين: ما صلب من عظم الأنف حيث يكون الشمم.

(٢) الكعثب: الركب الضخم.

ونظر عمران بن حطان إلى امرأته، وكانت من أجمل النساء وكان من أقبح الرجال؛ فقال: إني وإياك في الجنة إن شاء الله! قالت له: كيف ذاك؟ قال: إني أُعطيتُ مثلكِ فكشرتُ، وأُعطيتَ مثلي فصَبَرْتِ.

من أخبار عائشة بنت طلحة

ونظر ابو هريرة إلى عائشة بنت طلحة؛ فقال: سبحان الله! ما احسن ما غذاك اهلُكِ! والله مارأيت وجهاً أحسنَ منك، إلا وجه معاوية على منبر رسول الله ﷺ.

وكان معاوية من احسن الناس وجهاً.

ونظر ابن أبي ذئب إلى عائشة بنت طلحة تطوف بالبيت، فقال لها: من أنت؟ فقالت:

من اللاءِ لم يَحْجُجْنَ يَبْغينَ حسبةً ولكـن لِيَقْتُلْـن البَـرِيءَ المُغَفّلا

فقال لها: صان الله ذلك الوجهَ عن النار! فقيل له: أفتنتْك أبا عبد الله؟ قال: لا، ولكن الحسْن مرحوم.

وقال يونس: اخبرني محمد بن إسحاق، قال: دخلت على عائشة بنت طلحة، فوجدتها متكئة ولو ان بختية[1] نوخت خلفها ما ظهرت!

السرّي بن إسماعيل عن الشعبي، قال: إني لفي المسجد نصف النهار، إذ سمعت باب القصر يفتح؛ فإذا بمصعب بن الزبير ومعه جماعة، فقال: يا شعبي آتبعْني. فاتبعته؛ فأتى دار موسى بن طلحة، فدخل مقصورة، ثم دخل اخرى، ثم قال: يا شعبي اتبعني؛ فاتبعته؛ فإذا امرأة جالسة، عليها من الحليّ والجواهر ما لم أر مثله، ولهِي أحسنُ من الحلي الذي عليها؛ فقال: يا شعبيّ، هذه ليلى التي يقول فيها الشاعر:

ومازلتُ من ليلى لدُن طـرَّ شـاربي إلى اليومِ أُخفي حُبَّها وأُداجِـنُ[2]
وأَحمِلُ في ليلى لقـومٍ ضغينـة وتُحمَلُ في ليلى عليَّ الضّغـائـن[3]

---

(١) البختية: الناقة الخراسانية.

(٢) يقال ادجن عليه الحبّ: أي لزمه ولم يبرحه. (٣) الضغائن: الاحقاد.

هذه عائشة ابنةُ طلحة، فقالت له: أما إذ جلوتَني عليه فأحسِنْ إليه! فقال: يا شعبي، رُحِ العشية [الى المسجد] فرُحْتُ، فقال: يا شعبي، ما ينبغي لمن جُليت عليه عائشة بنت طلحة أن ينقص عن عشرة آلاف، فأمر لي بها! وبكسوة، وقارورةِ غالية، فقيل للشعبي في ذلك اليوم: كيف الحال! قال: وكيف حال مَن صدَر عن الامير ببدرة، وكسوة، وقارورة غالية، ورؤية وجه عائشة بنت طلحة.

زواج عمر بن حجر من بنت عوف

وكان عمرو بن حُجْر ملك كندة ـ وهو جد امرىء القيس ـ أراد ان يتزوج ابنةَ عوف بن محلَّم الشيباني، الذي يقال فيه: « لا حُرَّ بوادي عوف » لإفراط عزه، وهي أم إياس، وكانت ذات جمال وكمال؛ فوجه إليها امرأة يقال لها عصام، لتنظر إليها وتمتحن ما بلغه عنها: فدخلت على امها امامة ابنة الحرث: فأعلمتها ما قدِمت له، فأرسلت إلى ابنتها [فقالت]: أي بنية، هذه خالتك أتتْ إليكِ لتنظرَ إلى بعضِ شأنك؛ فلا تستري عنها شيئاً ارادت النظر اليه، من وجه وخلق، وناطِقيها فيما استنطقتك فيه. فدخلت عصام عليها، فنظرت إلى ما لم تر عينُها مثلَه قطّ، بهجةً وحسناً وجمالا، وإذا هي أكمل الناس عقلا، وأفصحهم لساناً؛ فخرجتْ من عندها وهي تقول: « ترك الخِداع مَن كشف القِناع ». فذهبت مثلا، ثم اقبلت إلى الحرث، فقال لها: « ما وراءكِ يا عصامُ »؟ فأرسلها مثلا. قالت: « صرَّح المخضُ عن الزبد ». فذهبت مثلا. قال: أخبريني: قالت أُخبرك صدقاً وحقاً:

رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل المضفورة، إن أرسلتْه خِلْتَه السلاسل، وإن مَشَطتْه قلت عناقيد كرْم جلاها الوابل، ومع ذلك حاجبان كأنهما خُطّا بقلم، أو سُوِّدا بحُمَم، قد تقوّسا على مثل عين العبْهرة[1] التي لم يَرُعْها قانص ولم يُذْرِعها قسورة، بينهما أنف كحد السيف الصمقول، لم يخنِس به قصر، ولم يُمعن به طول، حفَّت به وجنتان كالأرجُوان، في بياض محض كالجمان،

(١) العبهرة: الممتلئة الجسم.

شق فيه فم كالخاتم، لذيذ المبتسم، فيه ثنايا غُرّ، ذوات أشر، وأسنان تبدو كالدر، وريق كالخمر، له نشر الروض بالسَحر، يتقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان، يقلّبه به عقل وافر، وجواب حاضر ، تلتقي دونه شفتان حمراوان كالورد، يجلبان ريقاً كالشهد ، تحت ذاك عنق كإبريق الفضة، رُكّب في صدر تمثال دمية يتصل به عضدان ممتلئان لحما ، مكتنزان شحما، وذراعان ليس فيهما عظمٌ يُحَس، ولا عِرق يجس، رُكبَتْ فيهما كفان دقيق قَصَبُهُما، ليّنٌ عصَبُهما، تعْقد إن شئت منهما الانامل، وتركّب الفصوص في حُفر المفاصل، وقد تربع في صدرها حُقان كأنهما رمانتان، [يَخْرِقان عليها ثيابَها]، من تحته بطن طُوي كطيّ الطباطيّ المدمجة، كسي عُكنا كالقراطيس المدْرجة، تحيط تلك العكَن بسرّة كمدهن العاج المجلوّ، كسى عَكنا كالقراطيس المدْرجة، تحيط تلك العكَن بسرّة كمدهن العاج المجلوّ، خلف ذلك ظهر كالجدول ينتهي الى خصر لولا رحمة الله لانخزل، تحته كفل يقعدها إذا نهضت، ويُنهضها إذا قعدت، كأنه دِعصٌ [1] رمل، لبّده سقوط الطل، يحمله فخذان لفاوان، كأنهما نضيد الجمان، تحملها ساقان خدَلّجتان [2] كالبَردى وُشّيتا بشعر أسود، كأنه حلق الزرد، ويحمل ذلك قدمان كحذْو اللسان، تبارك الله، مع صغرهما كيف تطيقان حمل ما فوقهما، فأما ما سوى ذلك فتركت أن أصفه غير أنه أحسن ما وصفه واصف بنظم أو نثر .

قال: فأرسل إلى أبيها يخطبها، فكان من أمرها ما تقدّم ذكره في صدر هذا الكتاب .

صفة المرأة السوء

قال النبي ﷺ : « إياكم وخضراءَ الدِّمَن » . يريد الجارية الحسناء في المَنْبِت السوء .

---

(١) الدعص: قطعة من الرمل مستديرة .

(٢) الخدلّج: الممتلىء الذراعين والساقين .

وفي حكمة داود: « المرأةُ السوءُ مثلُ شركِ الصياد، لا ينجو منها إلا من رضي الله عنه ».

الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء قال: قال عمر بن الخطاب: النساء ثلاثة: هينة عفيفة مسلمة، تعين أهلَها على العيش ولا تعين العيش على اهلها. واخرى وعاء للولد. وثالثة غَل قَمِل يلقيه الله في عنق من يشاء من عباده.

وقيل لاعرابي عالم بالنساء: صف لنا شر النساء. قال شرُّهنّ التحيفة الجسم القليلة اللحم، الطويلة السقم، المحياض الممراض الصفراء، المشئومة العسراء، السليطة الذّفراء، السريعة الوثبة، كأن لسانها حربة، تضحك من غير عجب، وتقول الكذب، وتدعو على زوجها بالحرب، أنف في السماء، وآستٌ في الماء.

وفي رواية محمد بن عبد السلام الخشني قال: إياك وكل امرأة مذكرة منكرة، حديدة العرقوب[1]؛ بادية الظّنبوب[2]، منتفخة الوريد، كلامها وعيد، وصوتها شديد؛ تدفن الحسنات، وتفشي السيئات؛ تعين الزمان على بعلها، ولا تعين بعلها على الزمان؛ ليس في قلبها له رأفة، ولا عليها منه مخافة؛ إن دخل خرجت، وان خرج دخلت، وإن ضحك بكت، وان بكى ضحكت؛ وإن طلقها كانت حرفتَه، وإن أمسكها كانت مصيبتَه؛ سفعاء ورهاء[3]، كثيرة الدعاء قليلة الإرعاء، تأكل لَمّاً، وتوسع ذما؛ صخوب غضوب، بذيّة دنية؛ ليس تَطفأ نارُها، ولا يهدأ إعصارها؛ ضيقة الباع، مهتوكة القناع، صبيها مهزول؛ وبيتها مزبول، إذا حدثت تشير بالاصابع، وتبكي في المجامع، بادية من حجابها، نباحة على بابها، تبكي وهي ظالمة، وتشهد وهي غائبة، قد دُلّيَ لسانها بالزور، وسال دمعُها بالفجور.

ابن قتيبة بين امرأة وزوجها

نافرت امرأة فضالة زوجَها إلى مسلم بن قتيبة، وهو والي خراسان فقالت: أُبْغِضه

---

(١) العرقوب من الانسان: وتر غليظ فوق عقبه.

(٢) الظنبوب: حرف الساق من قُدُم. (٣) الورهاء: المرأة الخرقاء.

والله لخلالٍ فيه. قال: وما هي؟ قالت: قليلُ الغَيْر، سريع الطيرة، شديد العتاب، كثير الحساب، قد أقبل بَخَره، وأدبر ذفُره، وهجمت عيناه، واضطربت رجلاه، يفيق سريعا، وينطق رجيعا، يصبح حلسا، ويمسي رجسا، إن جاع جزع، وإن شبع جشع.

ومن صفة المرأة السوء يقال: امرأة سِمْعَنَّةٌ نِظْرَنّة؛ وهي التي إذا تسمَّعت أو تبصّرت فلم تر شيئاً تَظَنَّته تظنِّيا.

قال أعرابي:

إنّ لنـــا لكَنّـــهْ   سِمْعِنَّـــةً نِظْـــرَنّـــهْ
مِعَنّـــةً مِفَنَّـــهْ   كالرِّيح حـــول القُنّـــهْ
إلاّ تَرَهْ تظُنّهْ

وقال يزيد بن عمر بن هبيرة: لا تنكحنّ برشاء، ولا عمشاء، ولا وقصاء[1]، ولا لثغاء؛ فيجيئك ولدٌ ألثغ؛ فوالله لَولد أعمى أحبُّ من ولد ألثغ.

وقال: آخِر عُمرِ الرجل خيرٌ من أوّله؛ يثوب حلمه، وتثقل حصاتُه، وتُحمَد سريرته، وتكْمُل تجاربه، وآخر عُمُرِ المرأة شر من أوله؛ يذهب جمالها، ويذرب لسانها، وتَعْقُم رحمها، ويسوء خُلُقها.

وعن جعفر بن محمد عليهما السلام: إذا قال لك احد: تزوجت نَصَفا؛ فاعلم ان شر النصفين ما بقي في يده! وأنشد:

وإن أَتوْك وقالـوا إنها نصَـفُ   فإنّ أطيَبَ نصفيْها الذي ذَهَبـا

وقال الحطيئة في امرأته:

أُطـوِّفُ مـا أُطـوِّف ثم آوي   إلى بيْـتٍ قعِيـدته لَكَـاعِ[2]

---

(١) الوقصاء: التي قصرت عنقها خلقة. (٢) لكاع: يقال في سب المرأة بالحمق: يا لكاع.

وقال في أمّه:

تنَحَّيْ فاجلِسي مِنّي بعيداً أراح الله منكِ العالَمينا
أغِرْبالا إذا استُودِعت سرّا وكانوناً على المُتحدِّثينا
حياتُك ما علمتُ حياةُ سوءٍ وموْتُكِ قد يُسرُّ الصالحينا

وقال زيد بن عمير في أمته:

أُعاتبُها حتى إذا قلتُ اقلَعَتْ أَبَى الله إلاَّ خِزْيَها فتعودُ
فإن طمِثَتْ قادتْ وإن طَهُرت زنتْ فهي أَبداً يُزنَى بها وتقودُ

علامة الحب والبغض

ويقال: إن المرأة إذا كانت مُبْغضة لزوجها، فعلامة ذلك ان تكون عند قربه منها مرتدة الطرف عنه، كأنها تنظر إلى انسان غيره؛ وإذا كانت مُحبة له، لا تقلع عن النظر إليه.

وقال آخر يصف امرأة لثغاء:

أوّلُ ما أسمعُ منها في السَّحَرْ تذكيرُها الأنثى وتأنيثُ الذكرْ
والسوءة السوءاءُ في ذِكرِ القمرْ

ولآخر في زوجته:

لقد كنتُ محتاجاً إلى موتِ زوْجتي ولكن قرينُ السُّوء باق مُعَمِّرُ
فياليْتَها صارتْ إلى القبْر عاجلا وعذَّبها فيه نكيرٌ ومُنكَرُ

عبد الملك وابن زنباع

كان روح بن زنباع أثيراً عند عبد الملك، فقال له يوما: أرأيت امرأتي العبشمية؟ قال: نعم. قال: بماذا شبهتَها؟ قال: بمشجب بال قد أُسيء صُنعُه. قال: صدقت، وما صنعتُ يدي عليها قط إلا كأني وضعتها على الشَّكاعي[1]، وأنا أُحب أن تقول ذلك

(١) الشكاعي: من دق النبات.

إلى ابنيها الوليد وسليمان! فقام إليه فزعا فقبل يده ورجله، وقال: أنشُدك الله يا امير المؤمنين، أن لا تعرِّضني لهما! قال: ما من ذلك بُد! وبعث من يدعوهما؛ فاعتزل روح وجلس ناحية من البيت؛ فقال لهما [عبد الملك]: أتدريان لم بعثت إليكما؟ إنما بعثت لتعرفا لهذا الشيخ حقَّه وحُرمته! ثم سكت.

ابن زنباع وزوجه

أبو الحسن المدائني: كان عند روح بن زنباع، هند بنت النعمان بن بشير، وكان شديدة الغَيْرة، فأشرفت يوما تنظر إلى وفد جذام [إذْ] كانوا عنده، فزجرها؛ فقال: والله إني لابغض الحلال من جذام؛ فكيف تخافي على الحرام فيهم.

وقالت له يوما: عجبا منك! كيف يسودك قومك؛ وفيك ثلاث خلال: أنت من جذام. وأنت جبان. وأنت غيور؟ فقال لها: اما جذام فإني في ارومتها، وحسبُ الرجل ان يكون في ارومة قومِه؛ وأما الجبن فإني مالي إلا نفسٌ واحدة، فأنا احوطها؛ فلو كانت لي نفس اخرى جدت بها؛ واما الغَيْرة فأمر لا أريد ان أُشارك فيه، وحقيق بالغيرة من كانت عنده حمقاءُ مثلك، مخافة أن تأتيَه بولد من غيره فتقذفه في حِجره! فقالت:

وهل هِنْدُ إلاَّ مُهْرَةٌ عربيّةٌ ... سليلةَ أفراسٍ تجلَّلها بغلُ
فإن أنجبت مُهْراً عريقاً فبالْحَرَى ... وإن يَكُ إقرافٌ فما أنجب الفحْلُ

رجل وامرأة تخطب له

وعن الاصمعي قال: قال ابو موسى: جاءت آمرأة إلى رجل تدله على امرأة يتزوجها، فقال:

أقولُ لها لَمّا أتتْني تَدُلُّني ... على آمرأة موْصُوفةٍ بجمالِ
أصبتِ لها والله زوْجاً كما آشتهت ... إن آحتَمَلَت منه ثلاث خِصالِ
فمنْهنّ عجْزٌ لا يُنادِي وليدهُ ... ورِقّةُ إسلامٍ وقلّةُ مالِ

صفة الحسن

عن ابي الحسن المدائني قال: الحُسْنُ أَحْمرُ، وقد تضرب فيه الصفرة مع طول المكث في الكن[1] والتضمُّخ بالطيب، كما تضرب بيضة الادحيّ واللؤلؤة المكنونة؛ وقد شبه الله عز وجل في كتابه فقال: ﴿كأنهنّ بيْضٌ مكنونٌ﴾[2].

وقال الشاعر:

كأنّ بيْضَ نعـام في ملاحِفِهـا ... إذا اجتلاهنّ قَيْـظٌ ليلُـه ومِـدُ

وقال آخر:

مَـروزيٌّ الأديمِ تغمُـرُه الصّفْـ ... ـرةُ حيناً لا يستحق آصفِـرار

وجَرى مـن دَمِ الطبيعـةِ فيـه ... لونُ ورد كسَا البيـاضَ آحمرار

وقالت امرأة خالد بن صفوان له: لقد أصبحت جميلا! فقال لها: وما رأيت من جمالي، وما فيّ رداءُ الحُسن ولا عمودهُ ولا بُرنُسه؟ قالت: وكيف ذلك؟ قال: عمود الحُسْن الشَّطاط[3]، ورداؤه البياض، وبرنسه سواد الشعر.

وقالوا: إن الوجه الرقيق البشرة الصافي الاديم، إذا خجل يحمرّ وإذا فرِق يصفر.

ومنه قولهم: ديباج الوجه؛ يريدون تلوُّنَهُ.

وقال عديّ بن زيد يصف لونَ الوجه:

حُمْرَةٌ خلطَت صُفرة في بيـاض ... مثل ما حاكَ حائكٌ ديباجـا[4]

وقال: إن الجارية الحسناءتتلون بلون الشمس، فهي بالضحى بيضاء، وبالعشي صفراء.

---

(١) الكنّ: تغطية المرأة وجهها حياء من الناس او التستر.

(٢) سورة الصافات الآية ٤٩.

(٣) الشطاط: الطول وحسن القوام واعتداله.

(٤) الديباج: ثوب لحمته وسداده من الحرير.

وقال الشاعر:

بيضاءُ ضَحْوتُها وصفْـ ـراءُ العشِيّة كالعرارَهْ [1]

وقال ذو الرمة:

بيضاءُ صفراءُ قد تنازَعها لونانِ من فضةٍ ومن ذهبِ

ومن قولنا:

بيضاءُ يحمرُّ خدّاها إذا خجلت كما جرَى ذهبٌ في صفحتيْ ورِقِ

ومن قولنا:

ما إن رَأيت ولا سَمِعْت بمثْلِه دُرًّا يعودُ من الحياء عقيقا

ومن قولنا:

كم شادِن لطفَ الحياءُ بوجْهه فأصارَهُ ورْداً على وجناته

ومن قولنا:

عقائلُ كالآرامِ أما وجوهها فَدُرَّ ولكنّ الخُدودَ عقيقُ

ومن قولهم في الجارية

جميلة من بعيد، مليحة من قريب؛ فالجميلة التي تأخذ بصرك جملة على بُعد، فإذا دنت لم تكن كذلك؛ والمليحة التي كلما كرّرت فيها بصرك زادتك حُسنا.

وقال بعضهم: الجميلة السمينة، مِن الجميل، وهو الشحم، والمليحة أيضاً من المُلحة، وهو البياض، والصبيحة مثل ذلك، يشبهونها بالصبح في بياضه.

(١) العرارة: النساء يلدن الذكور، أو سوء الخلق والشدّة.

المنجبات من النساء

قالوا: أنجبُ النساء الفَرُوك[1]، وذلك أن الرجل يغلبها على الشبق، لزهدها في الرجل.

أبو حاتم عن الأصمعي قال: النجيبة التي تنزع بالولد إلى أكرم العرْقين.

وقال عمر بن الخطاب: يا بني السائب، إنكم قد أضويتم[2]، فانكحوا في النزائع[3].

وقالت العرب: بنات العمِّ اصبر، والغرائب أنجب.

والعرب تقول: اَغتربوا لا تُضووا: أي آنكحوا في الغرائب، فإن القرائب يُضوين[4] البنين.

وقالوا: إذا أردت أن يصلب ولدُ المرأة فأغضِبها ثم قَعْ عليها؛ وكذلك الفزِعة.

وقال الشاعر:

ممنْ حملْن وهُنّ عواقدٌ   حُبُكُ النِّطاق فشبَّ غير مُهَبَّل
حَملت به في ليلةٍ مَزْءودَة   كُرهاً وعقْدُ نطاقها لم يُحلِل

قالت أم تأبط شرا: والله ما حملتُه تضعا ولا وُضعا، ولا وضعته يَتْنا، ولا أرضعتُه غَيلا، ولا أنمتُه مَئِقا.

حَملْته وضُعا وتُضْعا: وهي ان تحمله في مُقبل الحيض. ووضعتُه يتنا: وضعته منكسا، تخرج رجلاه قبلَ رأسه. وأرضعتُه غيلا: أرضعته لبنا فاسداً، وذلك ان ترضعه وهي حامل. وأنمته مئقا. اي مغضبا مغتاظا.

---

(١) الفروك: اكثر ما يستعمل في بغضة الزوجين. فهو وهي فارك وفروك

(٢) اضوى: دق وضعف.   (٣) النزائع: الغرائب.

(٤) يضوين: يلدن البنين الضعاف.

ومن امثال العرب قولهم: أنا مَئِقٌ وأنتَ نَئِق، فلا نتفق.

المئق: المغضب المغتاظ. والنئِق: الذي لا يحتمل شيئاً.

من أخبار النساء

لابن أبي ربيعة في مقتل زوجة المختار:

لما قتل مصعب بن الزبير ابنةَ النعمان بن بشير الأنصارية، زوجة المختار ابن أبي عبيد، أنكر الناسُ ذلك عليه وأعظموه؛ لأنه أتى بما نهى رسول الله ﷺ عنه في نساء المشركين؛ فقال عمر بن أبي ربيعة:

إنّ مِن أعظَم الكبائـرِ عنـدي … قَتلَ حَسناءَ غـادَةٍ عُطبُـولِ (١)
قُتِلـت بـاطلاً على غيرِ ذنـبٍ … إنّ لله دَرّهـا مـن قَتيـلِ
كتِـبَ القتـلُ والقِتـالُ علينـا … وعلى الغانِياتِ جَرُّ الذيـولِ (٢)

الخوارج وامرأة أرادوا قتلها:

ولما خرجت الخوارج بالأهواز، أخذوا امرأة فهمّوا بقتلها؛ فقالت لهم: أتقتلون من يُنَشَّأ في الحلية وهو في الخصام غيرُ مبين. فأمسكوا عنها.

باب الطلاق

الرشيد والأصمعي

محمد بن الغار قال: حدثني عبد الرحمن بن محمد ابن أخي الأصمعي قال: سمعت عمي يقول: توصّلت بالمُلَح، وأدركت بالغريب.

---

(١) عطبول: المرأة الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق.

(٢) الغانيات: جمع الغانية، وهي المرأة الغنية بحسنها وجمالها عن الزينة.

وقال عمي للرشيد في بعض حديثه: بلغني يا أمير المؤمنين أن رجلاً من العرب طلق في يومٍ خمسَ نسوة! قال إنما يجوز ملك الرجل على أربع نسوة، فكيف طلق خمسا؟ قال: كان لرجل أربع نسوة، فدخل عليهنّ يوماً فوجدهنّ متلاحيات متنازعات ـ وكان شِنْطيرا[١]، فقال: إلى متى هذا التنازع؟ ما إخال هذا الأمر إلا من قِبلك ـ يقول ذلك لامرأة منهن ـ اذهبي فأنت طالق! فقالت له صاحبتها: عجلت عليها بالطلاق، ولو أدّبتها بغير ذلك لكنت حقيقاً! فقال لها: وأنت أيضاً طالق! فقالت له الثالثة: قبحك الله! فوالله لقد كانتا إليك محسنتين، وعليك مُفضلتين! فقال: وأنت أيتها المعدّدةُ أياديَهما طالق أيضاً! فقالت له الرابعة، وكانت هلالية وفيها أناة شديدة: ضاق صدرُك عن أن تؤدب نساءك إلا بالطلاق! فقال لها: وأنت طالق أيضاً! وكان ذلك بمسمع جارة له، فأشرفت عليه وقد سمعت كلامه، فقالت: والله ما شهدَت العرب عليك وعلى قومك بالضعف إلا لما بَلوْهُ منكم ووجدوه فيكم، أبيتَ إلا طلاق نسائك في ساعة واحدة! قال: وأنت أيضاً أيتها المؤنِّبة المتكلفة طالق، إن أجاز زوجُكِ! فأجابه من داخل بيته: قد أجزت! قد أجزتُ.

المغيرة وزوجته فارعة:

ودخل المغيرة بن شعبة على زوجته فارعة الثقفية وهي تتخلل حين انفتلت من صلاة الغداة؛ فقال لها: لئن كنت تتخللين من طعامك اليوم إنكِ لجشِعة، وإن كنت تتخللين من طعام البارحة إنك لشبعة، كنتِ فبنتِ[٢]، فقالت: والله ما اغتبطنا إذ كنا، ولا أسفْنا إذ بنَّا، وما هو لِشيء مما ذكرت، ولكني آستكت[٣] فتخللت لسواك؛ فخرج المغيرة نادماً على ما كان منه، فلقيه يوسف بن أبي عقيل فقال له: إني نزلت الآن عن سيدة نساء ثقيف؛ فتزوجها فإنها ستنجب؛ فتزوجَها فولدت له الحجاج.

---

(١) الشنطير: السيء الخلق الفحاش.

(٢) يقال: بانت المرأة عن زوجها، أي انفصلت بطلاق.

(٣) استاك، نظف فمه واسنانه بالسّواك.

الحسن وعائشة بنت طلحة:

وقال الحسن بن علي بن حسين لامرأته عائشة بنت طلحة: أَمرُكِ بيدك! فقالت: قد كان عشرين سنة بيدك فأحسنت حفظه، فلم أُضيعه إذ صار بيد ساعة واحدة؛ وقد صرفته إليك! فأعجبه ذلك منها وأمسكها.

لرجل في طلاق امرأته:

وقال أبو عبيدة: طلق رجل امرأته وقال:

لقد طلَّقْتُ أُختَ بني غِلابٍ طلاقاً ما أظنُّ له آرتِدادا
ولم أكُ كالمُعدلِ أو أُويْسٍ إذا ما طلقا نَدِما فَعادا

قال أبو عبيدة: وطلاق المعدّل وأويس يضرب به المثل.

لآخر في مثله:

ونكح رجل امرأة من عدِيّ، فلما اهتداها رأت رَبعَ داره أحسنَ ربع، وشملَ عياله أجمعَ شمل؛ فقالت: أما والله لئن بقيت لهم لأشتِّتن أمرهم! وقالت في ذلك:

أَرى ناراً سأجعلُها إرِينا وأترُكُ أَهْلَها شتَّى عِزينا

فلما انتهى ذلك إلى زوجها طلقها، وقال في ذلك:

ألا قالت هَدِيٌّ بني عدِيّ أَرى ناراً سأجْعلُها إرِينا(١)
فبينِي قبل أن تَلحَيْ عَصانا ويُصبحَ أهلُنا شتى عزِينا

وقيل لابن عباس: ما تقول في رجل طلق امرأته عدد نجوم السماء؟ فقال: يكفيه من ذلك عددُ كواكب الجوزاء!

وقيل لأعرابي: هل لك في النكاح؟ قال: لو قدرتُ أن أطَلّقَ نفسي لطلقتها.

---

(١) الأرين: مفردها الإره: وهي النار.

وعن الزهري قال: قال أبو الدرداء لامرأته: إذا رأيتِني غضبتُ فتَرَضَّيْني، وإن رأيتك غضبت ترضَّيتك، وإلا لم نصطحب! قال الزهري: وهكذا تكون الإخوان.

قال الأصمعي: كنت أختلف إلى أعرابي أقتبس منه الغريب، فكنت إذا استأذنت عليه يقول: يا أُمامة ائذني له. فتقول: ادخل. فاستأذنت عليه مراراً فلم أسمعه يذكر أمامة؛ فقلت: يرحكم الله، ما أسمعك تذكر أمامة؛ قال: فوجم وجمة، فندمت على ما كان مني، ثم أنشأ يقول:

ظعَنَت أُمامةُ بالطلاق ... ونَجوتُ من غُلِّ الوثاق (١)
بانت فلم يَألم لها ... قلبي ولم تَبكِ المآقي (٢)
لو لم يُرحْ بطلاقِها ... لأَرَحتُ نفسي بالإباقِ
ودواءُ ما لا تَشتَهيـ ... ـهِ النفسُ تعجيلُ الفِراق
والعيشُ ليسَ يَطيبُ من ... إلفَينِ من غيرِ اتِّفاق

وعن الشيباني قال: طلق أبو موسى امرأته وقال فيها:

تجهّزي للطلاق وارتَحِلي ... فذَا دواءُ المجانِبِ الشرسِ
ما أنتِ بالحَنَّةِ الولُودِ ولا ... عِندَكِ نفْعٌ يُرجَى لِمُلتَمِس (٣)
لليلَتِي حين بِنتِ طالقةً ... ألذُّ عِندي من ليلةِ العُرس
بِتُّ لديها بشرِّ مَنزِلةٍ ... لا أنا في لذَّةٍ ولا أنس
تلكَ على الخسْفِ لا نظيرَ لها ... وإنني ما يسوغُ لي نَفسي

ابن زبان والزبير:

أقبل منظور بن زَبَّان بن سيار الفزاري إلى الزبير فقال: إنما زوّجناك ولم نزوّج عبد الله! قال: مالهُ؟ قال: إنها تشكوه. قال: يا عبدَ الله طلِّقها! قال عبد الله: هي طالق! قال ابن منظور: أنا ابن قهدم. قال الزبير: أنا ابنُ صفية أتريد أن يطلق

(١) ظعنت: ارتحلت. (٢) المآقي: يريد العيون.

(٣) الحنة: الزوجة.

المنذر أختها؟ قال: لا، تلك راضية بموضعها.

خديجة بين محمد وإبراهيم:

وتزوج محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان خديجة بنت عروة ابن الزبير، فذُكر لها جماله - وكان يقال له المذهب من حسنه، وكان رجلاً مطلاقاً - فقالت: محمدٌ هو الدنيا لا يدوم نعيمها. فلما طلقها خطبها إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي؛ فكتب إليها:

أُعيذُكِ بالرحمٰنِ من عيشِ شِقْوةٍ ... وأن تطمَعي يوماً إلى غير مَطمَعِ
إذا ما آبنُ مظْعونٍ تحدَّر وسْقُه ... عليكِ فُبوئي بعد ذلك أو دَعي (١)

فردّته ولم تتزوجه.

الحجاج وزواجه بابنة جعفر:

وعن العتبي عن أبيه قال: أمهر الحجاج ابنة عبد الله بن جعفر تسعين ألف دينار فبلغ ذلك خالد بن يزيد بن معاوية، فأمهل عبد الملك، حتى إذا أطبق الليل دق عليه الباب؛ فأذن له عبد الملك، ودخل عليه فقال له: ما هذا الطروق أبا يزيد؟ قال: أمرٌ والله لم يُنتظر له الصبح، هل علمتَ أن أحداً كان بينه وبين مَن عادَى ما كان بين آل أبي سفيان وآل الزبير بن العوام؟ فإني تزوجت إليهم، فما في الأرض قبيلة من قريش أحبُّ إليّ منهم؛ فكيف تركتَ الحجاج وهو سهم من سهامك يتزوج إلى بني هاشم، وقد علمتَ ما يقال فيهم في آخر الزمان؟ قال: وصلتْك رحم.

وكتب إلى الحجاج يأمره بطلاقها وألا يراجعه في ذلك. فطلقها. فأتاه الناس يعزونه، وفيهم عمرو بن عتبة؛ فجعل الحجاج يقع بخالد ويتنقّصه، ويقول: إنه صيّر الأمرَ إلى من هو أولى به منه، وإنه لم يكن لذلك أهلاً!

---

(١) بوئي: عودي.

فقال له عمرو بن عتبة: إن خالداً أدرك مَن قبله، وأتعب مَن بعده، وعلم علماً فسلَّم الأمر إلى أهله، ولو طلب بقديم لم يُغْلب عليه، أو بحديث لم يُسْبَق إليه.

فلما سمعه الحجاج استحى، فقال: يا بن عتبة، إنا نسترضيكم بأن نعتب عليكم، ونستعطفكم بأن ننال منكم؛ وقد غَلبتم على الحلم فوثقنا لكم به، وعلمنا أنكم تحبون أن تحلموا فتعرّضنا للذي تحبون.

من طلق امرأته ثم تبعتها نفسه

بين العريان وبنت عمران:

الهيثم بن عدي قال: كانت تحت العريان بن الأسود بنتُ عمٍّ له، فطلّقها، فتبعتْها نفسه؛ فكتب إليها يعرّض لها بالرجوع؛ فكتبت إليه.

إنْ كنتَ ذا حاجةٍ فاطلُبْ لها بدلاً   إنّ الغزالَ الذي ضيَّعْت مشغولُ

فكتب إليها:

مَنْ كان ذا شُغُل فاللهُ يَكْلَؤُهُ   وقد لهوْنا به والحبلُ موصولُ
وقد قضينا منَ اسْتِطْرافِه طرَفاً   وفي الليالي وفي أيّامِها طولُ!

الوليد وزوجته سعدى:

وطلق الوليد بن يزيد آمرأته سعدى، فلما تزوجت آشتد ذلك عليه، وندم على ما كان منه؛ فدخل عليه أشعب، فقال له: أبلغ سعدى عني رسالة، ولك مني خمسة آلاف درهم! فقال: عجّلها! فأمر له بها؛ فلما قبضها قال: هات رسالتك. فأنشده:

أسُعْدَى ما إليْكِ لنا سبيلُ   ولا حتى القِيامةَ مِن تلاقِ؟
بلى، ولعل دهْراً أن يُؤاتي   بموْتٍ من حَليلِكِ أو فِراقِ

فأتاها فاستأذن، فدخل عليها. فقالت له: ما بدا لك في زيارتنا يا أشعب؟ فقال: يا سيدتي، أرسلني إليك الوليد برسالة. وأنشدها الشعر؛ فقالت لجواريها: خُذْنَ هذا

الخبيث! فقال: يا سيدتي، إنه جعل لي خمسةَ آلاف درهم! قالت: والله لأعاقبنك أو لتُبلغن إليه ما أقول لك. قال: سيدتي، اجعلي لي شيئاً، قالت: لك بساطي هذا. قال: قومي عنه! فقامت عنه وألقاه على ظهره، وقال: هاتي رسالتك. فقالت: أنشده.

أتبكي على سُعْدَى وأنت تـركتَهـا فقد ذهبتْ سُعْدَى فما أنت صانـعُ

فلما بلغه وأنشده الشعر، سُقط في يده وأخذته كظمة، ثم سُرِّيَ عنه، فقال: اختر واحدة من ثلاث: إما أن نقتلك، وإما أن نطرحك من هذا القصر، وإما أن نلقيَك إلى هذه السِّباع! فتحير أشعب وأطرق حيناً؛ ثم رفع رأسه فقال: يا سيدي، ما كنت لتعذِّبَ عينين نظرتا إلى سعدى! فتبسم وخلى سبيله.

ابن أبي بكر وامرأته:

وممن طلق امرأته فتبعتها نفسه، عبد الرحمن بن أبي بكر: أمره أبوه بطلاقها، ثم دخل عليه فسمعه يتمثل:

فلم أر مثْلي طلّــقَ اليــومَ مثلَهــا ولا مثلَهـا في غيْـرِ شيءٍ تطلّــقُ

فأمره بمراجعتها.

الفرزدق ونوار:

وممن طلق امرأته فتبعتها نفسه، الفرزدق الشاعر: طلق النَّوار، ثم ندم في طلاقها وقال:

نَدمْتُ نـدامـةَ الكسَعِـيِّ لَمَّـا غَـدَتْ منِّـي مُطلّقــةً نَــوارُ
وكانت جنَّتي فخَرَجْـت منها كآدمَ حين أخرجَه الضِّـرارُ(١)
فأصبحْتُ الغَـداةَ ألـومُ نفْسي بـأمـرٍ ليس لي فيــه خِيــار

(١) الضرار: أي لا يدخل الضرر على الذي ضره ولكن يعفو عنه.

من أخبار النوار:

وكانت النوار بنت عبد الله قد خطبها رجل رضيته، وكان وليُّها غائباً، وكان الفرزدق وليَّها إلا أنه كان أبعد من الغائب؛ فجعلت أمرها إلى الفرزدق، وأشهدت له بالتفويض إليه؛ فلما توثَّق منها بالشهود، أشهدهم أنه قد زوّجها من نفسه! فأبت منه ونافرتْه إلى عبد الله بن الزبير؛ فنزل الفرزدق على حمزة بن عبد الله [ابن الزبير]، ونزلت النوار على زوجة عبد الله بن الزبير، وهي بنت منظور ابن زبان،؛ فكان كل ما أصلح حمزة من شأن الفرزدق نهاراً أفسدته المرأة ليلاً؛ حتى غلبت المرأة وقضي ابن الزبير على الفرزدق؛ فقال:

أمّا البنـونَ فلم تقْبـل شفـاعتهـم ... وشُفِّعَتْ بنـت منْظـورِ بن زَبّـانـا
ليس الشّفيعُ الذي يأتيك مُؤْتَـزِراً ... مثل الشفيعِ الذي يأتيك عُـريـانـا

وقال الفرزدق في مجلس ابن الزبير:

وما خاصَمَ الأقوامَ من ذي خُصومةٍ ... كوَرْهاءَ مَدنُـوٍ إليهـا خليلُهـا (١)
فـدونَكَهـا يـا بن الزبير فـإنها ... مُلعَّنَـةً يُـوهـي الحِجـارة قيلهـا

فقال ابن الزبير: إن هذا شاعر، وسيهجوني؛ فإن شئت ضربت عنقه وإن كرهت ذلك؛ فاختاري نكاحه وقَرِّي. فقرّت واختارت نكاحه، ومكثت عنده زماناً، ثم طلقها وندم في طلاقها.

وعن الأصمعي عن المعتمر بن سليمان عن أبي مخروم عن راوية الفرزدق، قال: قال لي الفرزدق يوماً: امض بنا إلى حلقة الحسن، فإني أريد أن أطلق النوار! فقلت له: إني أخاف أن تتبعها نفسُك، ويشهد عليك الحسن وأصحابه. قال: انهض بنا. فجئنا حتى وقفنا على الحسن، فقال [الفرزدق]: كيف أصبحت أبا سعيد؟ قال: بخير، كيف أصبحت يا أبا فراس؟ فقال: تعلمَنّ أني طلقت النوار ثلاثاً! قال الحسن

---

(١) الورهاء: الخرقاء.

وأصحابه: قد سمعنا فانطلقنا، فقال لي الفرزدق: يا هذا، إن في نفسي من النوار شيئاً! فقلت: حذرتك! فقال:

نَـدِمْـتُ نَـدامـةَ الكُسَعِـيِّ لمَّا ... غـدتْ مني مُطلَّقـةً نَـوارُ
وكانت جَنَّتي فخرجْـتُ منهـا ... كـآدم حين أخـرجَـه الضِّرار
ولـو أني مَلَكـت بها يميني ... لكـان عليَّ للقَـدَر الخِيـار

قيس بن ذريح وطلاق امرأته:

وممن طلق امرأته وتبعتها نفسُه، قيس بن الذريح؛ وكان أبوه أمره بطلاقها فطلقها وندم؛ فقال في ذلك:

فواكَبِـدي على تسريـح لُبْنَـى ... فكان فِـراق لُبْنـى كـالخِداعِ
تكنَّفَني الوُشـاةُ فـأزعجـوني ... فيـا للنـاس للـواشي المطـاعِ
فأصبحْتُ الغـداةُ ألـومُ نفْسي ... على أمـرٍ وليس بمستطـاعِ
كمغْبـونٍ يعَـضُّ على يـديـه ... تبيَّـن غَبْنَـهُ بعـد البَيـاع

وطلق رجل امرأته، فقالت: أبعْدَ صحبة خمسين سنة؟ فقال: مالك عندنا ذنبٌ غيره!

ابن أم الحكم بين رجل وامرأته:

العتبي قال: جاء رجل بآمرأة كأنها بُرْج فضة، إلى عبد الرحمن بن أم الحكم وهو على الكوفة، فقال: إن امرأتي هذه شجَّتْني! فقال لها: أنتِ فعلت به؟ قالت: نعم، غير متعمِّدة لذلك؛ كنت أعالج طيبا، فوقع الفهر من يدي على رأسه؛ وليس عندي عقل، ولا تقوى يدي على القصاص! فقال عبد الرحمن للرجل: يا هذا، علام تحبسها وقد فعلت بك ما أرى؟ قال: أصدقتها أربعة آلاف درهم، ولا تطيب نفسي بفراقها! قال: فإن أعطيتُها لك أتفارقها؟ قال: نعم. قال: فهي لك. قال: هي طالق إذاً! فقال عبد الرحمن: احبسي علينا نفسَك. ثم أنشأ يقول:

يا شيْخُ ويحَكَ مَـن دلاّك بـالعَـزَل ... قد كنت يا شيْخُ عن هذا بمعتـزَلِ
رُضْتَ الصِّعابَ فلم تُحسِن رياضَتَها ... فاعمِدْ لنفْسِك نحو الجِلّـةِ الذُّلُـل

في مكر النساء وغدرهنّ

في حكمة داود عليه السلام؛ وجدت من الرجال واحداً في ألفْ، ولم أجد واحدة في النساء جميعاً.

الغنائي والكندي وهند:

وقال الهيثم بن عدي: غزا الغسانيُّ الحارث بن عمرو آكل المرار الكندي، فلم يصبه في منزله، فأخذ ما وجد له واستاق امرأته؛ فلما أصابها أُعجبت به، فقالت له: آنجُ، فوالله لكأني أنظر إليه يتبعك فاغرا فاه كأنه بعيرٌ آكل مُرار! وبلغ الحارث، فأقبل يتبعه حتى لحقه فقتله، وأخذ ما كان معه وأخذ امرأته، فقال لها: هل أصابك؟ قالت: نعم والله ما اشتملت النساء على مثله قط! فأمر بها فأوقفت بين فرسين، ثم استحضرهما حتى تقطعت. ثم قال:

كلُّ أُنثى وإن بـدا لـك منهـا ... آيـة الوُدِّ حُبُّهـا خَيْثَعـورُ (١)
إن مَـن غَـرَّهُ النِّسـاءُ بِـوُدٍّ ... بعـدَ هنـدٍ لجاهـلٌ مغـرور (٢)

وقالت الحكماء: لا تثق بامرأة، ولا تغترَّ بمال وإن كثر.

وقالوا: النساء حبائل الشيطان.

وقال الشاعر:

تمتَّع بها ما ساعفَتْـك، ولا تكـن ... جُزوعاً إذا بـانـت، فسـوف تبينُ
وصُنها وإن كانت تفِي لـك، إنها ... على مَـدِ الأيـام سـوف تخُون
وإن هـي أعطتْـك اللّيـانَ فـإنها ... لآخـــرَ مـــن طُلاَّبها ستَلين

---

(١) خيثعور: المرأة لا يدوم ودّها.

(٢) الود: الحبّ.

وإن حَلفَتْ لا ينقُضُ النأيُ عهدَهـا فليس لمخضـوب البَنـان يمين[1]
وإن أسبَلَت يومَ الفِراقِ دُمـوعَهـا فليس لعَمْـــرُ اللهِ ذاك يقين

وقالت الحكماء: لم تُنْه امرأةٌ قط عن شيء إلا فعلتْه.

وقال طفيل الغنوي:

إنّ النِّساءَ متى يُنْهيْـن عـن خُلـقٍ فـإنــه واقــعٌ لا بُــدّ مفعــولُ

وعن الهيثم بن عدي عن ابن عياش قال: أرسل عبد الله بن همام السلولي شاباً إلى امرأة ليخطبها عليه. فقالت له: فما يمنعك أنت؟ فقال لها: ولي طمع فيك! قالت: ما عنك رغبةٌ! فتزوجها؛ ثم انصرف إلى ابن همام، فقال له: ما صنعت؟ قال والله ما تزوجَتْني إلا بعد شرط! قال: أو لهذا بعثتُك؟ فقال ابن همام في ذلك:

رأت غلامـاً على شَـرط الطّلابـةِ لا يَعيـا بـإرْقـاص بـرْديِّ الخلاخيـلِ
مُبطَّنـاً بـدَخيسِ اللحـمِ تحسَبُـه مما يُصـوّر في تلـك التَّماثيـلِ[2]
أكفا من الكُفْءِ في عقدِ النِّكاحِ ومـا يَعْيـا بـه حَـلُّ هميـان السَّـراويـلِ
تـركتُهـا والأيـامَـى غير واحـدةٍ فاحبِسْه عن بيتِهـا يـا حـابس الفيـلِ

السلولي وامرأة خطبها:

وعن الهيثم بن عدي عن ابن عياش، قال: كان النساء يجلسن لخطابهن، فكانت امرأة من بني سلول تخطب، وكان عبد الله بن همام السلولي يخطبها؛ فإذا دخل عليها تقول له: فداك أبي وأمي! وتقبل عليه تحدثه، وكان شاب من بني سلول يخطبها، فإذا دخل عليها الشاب وعندها عبد الله بن همام قالت للشاب قم إلى النار! وأقبلت بوجهها وحديثها على عبد الله؛ ثم إن الشاب تزوّجها، فلما بلغ ذلك عبد الله بن همام قال:

---

(١) النأي: البعد.

(٢) دخيس اللحم: أي الصلب المكتنز.

أَوْدى بحبِّ سُلَيْمى فاتكٌ لقِنٌ   كحيَّةٍ برزَتْ من بين أحجارِ
إذا رأتْني تُفَدِّيني وتَجعلُه   في النارِ، يا ليْتني المجعولُ في النارِ

وله فيها:

ماذا تظنُّ سُلَيْمى إنْ أَلَمَّ بها   مُرَجَّلُ الرأسِ ذُو بُرْدَيْنِ مَزَّاحُ(١)
حُلْوٌ فُكاهَتُهُ، خَزٌّ عِمَامَتُهُ   في كفِّهِ مِن رُقَى الشيطانِ مِفتاحُ!(٢)

في السراري

إبراهيم عليه السلام وهاجر:

تسرَّى الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام هاجَر، فولدت له إسماعيل عليه السلام.

وتسرَّى النبي عليه الصلاة والسلام مارية القبطية، فولدت له إبراهيم.

ولما صارت إليه صفية بنت حُيّ، كان أزواجه يعيِّرْنها باليهودية، فشكت ذلك إليه، فقال لها: أما إنكِ لو شئت لقلتِ فصدَقْتِ وصُدِّقت: أبي إسحاقُ، وجَدِّي إبراهيم، وعمي إسماعيل، وأخي يوسف.

هشام وزيد بن علي:

ودخل زيد بن عليّ على هشام بن عبد الملك، فقال له [هشام]: بلغني أنك تحدِّث نفسك بالخلافة، ولا تصلح لها، لأنك ابن أمة! فقال له: أما قولك إني أحدّث نفسي بالخلافة فلا يعلم الغيب إلا الله، وأما قولك إني ابن أمة، فإسماعيل ابن أمة، أخرج الله من صلبه خيرَ البشر محمداً ﷺ، وإسحاق بن حرّة، أخرج الله من صلبه القردة والخنازير.

---

(١) المرجل: الذي فيه صور الرجال.

(٢) الخزّ: ما ينسج من صوف وابريسم.

الرغبة في السراري:

قال الأصمعي: وكان أكثر أهل المدينة يكرهون الإماء، حتى نشأ منهم علي بن الحسين، والقاسم بن محمد [بن أبي بكر]، وسالم بن عبد الله [بن عمر]؛ ففاقوا أهل المدينة فقها وعلماً وورعاً؛ فرغب الناس في السراري.

عبد الملك وابن الحسين في جارية تزوجها:

وتزوج علي بن الحسين جارية له وأعتقها، فبلغ ذلك عبد الملك، فكتب إليه يؤنّبه، فكتب إليه عليّ: إن الله رفع بالإسلام الخسيسة، وأتم به النقيصة وأكرم به من اللؤم؛ فلا عار على مسلم؛ وهذا رسول الله ﷺ قد تزوج أمته وامرأةَ عبدِه! فقال عبد الملك: إن عليّ بن الحسين يشْرُف من حيث يتّضع الناس.

وقال الشاعر:

لا تشتُمَنّ آمرءًا في أن تكون له ... أُمٌّ من الرُّوم أو سوداءُ عجْماءُ
فإنما أمّهاتُ القومِ أوعِيَةٌ ... مُستودَعاتٌ، وللأحسابِ آباءُ

وقال بعضهم: عجبت لمن لبس القصير كيف يلبس الطويل؛ ولمن أحفى[1] شعره كيف أعفاه، وعجباً لمن عرف الإماء كيف يقدم على الحرائر.

وقالوا: الأمة تُشترى بالعين وتُردّ بالعيب؛ والحرّة غُل[2] في عنق من صارت إليه.

الهُجناء

للعرب والفرس:

العرب تسمي العجميّ إذا أسلم: المسلماني؛ ومنه يقال: مُسالِمة السواد، والهجين

---

(١) احفى شعره: أي استأصله.

(٢) غُل: طوق من حديد او جلد يجعل في عنق الأسير أو المجرم.

عندهم: الذي أبوه عربي وأمه أعجمية؛ والمُذَرّع: الذي أمه عربية وأبوه أعجمي وقال الفرزدق:

إذا باهِلِيٌّ أنجبَتْ حنظَلِيَّةٌ ... له ولداً منها؛ فذاكَ المُذَرَّعُ

والعجمي: النصراني ونحوه وإن كان فصيحاً. والأعجمي: الأخرس اللسان وإن كان مسلماً.

ومنه قيل: زياد الأعجم؛ وكان في لسانه لكنة.

والفُرْس تسمى الهجين: دوشن؛ والعبد: واشْ ونجاش. ومن تزوّج أمَة: نفاش، وهو الذي يكون العهد دونه، وسمي أيضاً: بوركان.

والعرب تُسمِّي العبد الذي لا يخدم إلا ما دامت عليه عين مولاه: عبد العين.

وكان العرب في الجاهلية لا تورث الهجين.

وكانت الفرس تطرح الهجين ولا تعدُّه، ولو وجدوا أُمّا أمَة على رأس ثلاثين أُما، ما أفلح [ولدُها] عندهم ولا كان آزاد، ولا كان بيدهه مزاد. والآزاد عندهم: الحرّ، والمزاد: الريحان.

وقال ابن الزبير لعبد الرحمن بن أم الحكم:

تبلَّغْتَ لَمّا أن أتيْتَ بلادَهم ... وفي أرضنا أنت الهُمامُ القلمَّسُ(١)

ألستَ ببغْلٍ أُمُّه عربيَّةٌ ... أبوهُ حِمارٌ أدبر الظهرِ يُنْخَس؟(٢)

وشبه المذرع بالبغل؛ إذ قيل له: من أبوك؟ قال: أمي الفرس!

ومما احتجت به الهُجَناءُ: أن النبي ﷺ زوّج ضُباعةَ بنت الزبير بن عبد المطلب من المقداد بن الأسود، وزوّج خالدةَ بنت أبي لهب من عثمان بن أبي العاص الثقفي.

وبذلك احتج عبد الله بن جعفر إذ زوّج ابنته زينب من الحجاج بن يوسف فعيَّره

---

(١) القلمّس: السيد العظيم.

(٢) نخس: طعن مؤخر الدابة أو جنبها بالمنخاس لتنشط.

الوليد بن عبد الملك، فقال عبد الله بن جعفر: سيف أبيك زوّجَه! والله ما فديت بها إلا خيط رقبتي. وأخرى: أن النبي ﷺ قد زوّج ضباعة من المقداد، وخالدة من عثمان بن أبي العاص، ففيه قدوة وأُسوة.

وزوّج أبو سفيان ابنته أم الحكم بالطائف في ثقيف.

وقال لهذم الكاتب في عبد الله بن الأهتم وسأله فحرمه:

وما بنُو الأهتَمِ إلا كالرَّخِمْ ... لا شيءَ إلا أنهم لحمٌ ودَمْ
جاءَت به جُذامُ من أَرضِ العَجمْ ... أهتَمَ سلاَّحٍ على ظهرِ القدَمْ
مُقابلٌ في اللُّؤم من خالٍ وعَمّ

بنو أمية وأولاد الإماء:

وكانت بنو أمية لا تستخلف بني الإماء، وقالوا لا تصلح لهم العرب.

زياد بن يحي قال: حدّثنا جبلة بن عبد الملك: قالوا: سابق عبد الملك [بين] سليمان ومسلمة، فسبق سليمان مسلمة، فقال عبد الملك:

أَلم أنهكُمْ أن تحمِلُوا هُجَناءَكم ... على خيْلِكم يومَ الرِّهان فتُدْرَكُ!
وما يستوي المرْءان، هٰذا ابنُ حُرّة ... وهذا ٱبنُ أخرَى ظهرُها مُتشرّك
وتَضْعُفُ عضداهُ ويقصرُ سوْطُه ... وتقصُرُ رِجلاهُ فلا يتحرّك
وأدركهُ خالاتُه فنزَعْنهُ ... ألاَ إنّ عِرقَ السُّوءِ لا بُدّ يُدرك

ثم أقبل عبد الملك على مصقلة بن هبيرة الشيباني فقال: أتدري من يقول هذا؟ قال: لا أدري. قال: يقوله أخوك الشَّنّيّ.

قال مسلمة: يا أمير المؤمنين، ما هكذا قال حاتم الطائي. قال عبد الملك: وماذا قال حاتم؟ فقال مسلمة: قال حاتم:

وما أنكَحونا طائعينَ بناتِهم ... ولكِن خطَبْناها بأسيافِنا قسْرَا
فما زادها فينا السِّباءُ مذلّةً ... ولا كُلِّفت خُبزاً ولا طبخت قِدْرا
ولكن خَلطْناها بخيْرِ نِسائنا ... فجاءَت بهم بِيضاً وجُوهُهم زُهْرا

وكائن تَـرى فينـا مـنَ ابنِ سبيّـة　　إذا لقِيَ الأبطـالَ يطعنُهـم شـزْرَا
ويـأخـذُ رايـاتِ الطِّعـانِ بكفِّـه　　فيُوردُها بيضاً؛ ويُصْدِرُها حُمْـرا
أَغَـرُّ إذا اَغْبَـرّ اللثـام رأيتَـه　　إذ ما سرَى ليْل الدُّجى قَمراً بـدرَا

فقال عبد الملك كالمستحي:

ومـا شرُّ الثلاثـةِ أُمَّ عمـرٍو　　بصـاحبِـكِ الذي لا تصْبحينـا

بنو أمية في أولاد الأمهات:

قال الأصمعي: كانت بنو أمية لا تبايع لبني أمهات الأولاد؛ فكان الناس يرون أن ذلك لاستهانةٍ بهم، ولم يكن لذلك، ولكن لِمَا كانوا يرون أن زوال ملكهم على يد ابن أم ولد؛ فلما ولِيَ الناقص ظن الناس أنه الذي يذهب ملك بني أمية على يديه ـ وكانت أمه بنت يزدجرد بن كسرى ـ فلم يلبث إلا سبعة أشهر حتى مات؛ ووثب مكانه مروان بن محمد ـ وأمه كردية ـ فكانت الرواية عليه. ولم يكن لعبد الملك اَبنٌ أسدُّ رأيا، ولا أذكى عقلاً، ولا أشجع قلباً، ولا أسمح نفساً، ولا أسخى كفّاً من مسلمة؛ وإنما تركوه لهذا المعنى.

شيء عن يحي ابن أبي حفصة:

وكان يحي بن أبي حفصة أخو مروان بن أبي حفصة يهودياً، أسلم على يد عثمان بن عفان، فكثر ماله، فتزوّج خولة بنت مُقاتل بن قيس بن عاصم، ونقدها خمسين ألفاً. وفيه يقول القُلاخ:

رأيـتُ مُقـاتِـلَ الطَّلبـات حَلـى　　نُحُـور بنـاتِـه كمـرَ الموالي(١)
فلا تفخـرْ بقيْسٍ، إنّ قيْسـاً　　خَـرِيتُـم فـوق أَعْظُمِـه البـوالي!

وله فيه:

نُبِّئتُ خوْلة قـالـت حين أنكَحَهـا　　لطالَما كنـتُ مِنْـكَ العـارَ أنتَظِـرُ

---

(١) الكمر: جمع كمرة، وهي رأس الذكر.

أنكحت عبْدَين ترجُو فضل مـالِهما في فيكَ مما رجَوْتَ التُّرابُ والحجرُ
لله درُّ جيـادٍ أنـت سـائسُهـا بَرْذنتَها وبها التَّحجيـلُ والغـرَرُ[1]

فقال مقاتل يردّ عليه:

وما تَرَكتْ خمسون ألفـاً لقـائـلٍ عليكَ - فلا تحفِل - مَقالـةَ لائِـمِ
فإن قُلتُم زوّجْت مولى؛ فقد مَضت بـهِ سُنّـةٌ قبلي وحُـبُّ الدراهِـم

ويقال: إن غيره قال ذلك.

باب في الادعياء

زياد بن عبيد

أول دَعِيّ كان في الإسلام واشتهر، زياد بن عبيد، دعِيّ معاوية؛ وكان من قصته انه وجهه بعض عمال عمر بن الخطاب رضي الله عنه على العراق الى عمر بفتح كان، فلما قدم واخبر عمر بالفتح في احسن بيان وأفصح لسان، قال له عمر: أتقدر على مثل هذا الكلام في جماعة الناس على المنبر؟ قال: نعم، وعلى احسنَ منه، وانا لك أهيب! فأمر عمرُ بالصلاة جامعة؛ فاجتمع الناس، ثم قال لزياد: قم فاخطب وقُص على الناس ما فتح الله على إخوانهم المسلمين. ففعل وأحسن وجوّد، وعند أصل المنبر علي بن ابي طالب، وأبو سفيان بن حرب فقال أبو سفيان لعليّ: أيعجبك ما سمعتَ من هذا الفتى؟ قال: نعم. قال: أما إنه ابن عمك؟ قال: فكيف ذلك؟ قال: أنا قذفته في رحم أُمّه سمية! قال: فما يمنعك أن تدّعيه؟ قال: أخاف هذا الجالس على المنبر - يعني عمر - أن يُفْسد عليَّ إهابي. فلما ولي معاوية استلحقه بهذا الحديث، واقام له شهوداً عليه؛ فلما شهد الشهود قام زياد على اعقابهم خطيبا، فحمد الله واثنى عليه، ثم قال: هذا أمرٌ لم اشهد اوله، ولا علم لي بآخره؛ وقد قال امير المؤمنين ما بلغكم، وشهد الشهود بما قد سمعتم، والحمد لله الذي رفع منا ما وضع الناس، وحفظ منا ما ضيّعوا؛ فأما عبيد فإنما هو والد مبرور، أو ربيب مشكور. ثم جلس.

---

(١) يقال برذن الرجل: أي ركب برذوناً أو ملكه.

فقال فيه عبد الرحمن بن حسان بن ثابت:

ألا أبلِـغ مُعـاويـةَ بن حـربٍ فقد ضـاقـتْ بما يـأتي اليـدان
أتغضبُ ان يُقالَ أبوكَ عـف وتَرضى أن يقـال أبـوك زان؟
وأشهدُ أن قـربَـكَ مـن زيـادٍ كقربِ الفيلِ من ولدِ الاتـان

وقال زياد: ما هجيتُ ببيت قط أشدّ عليَّ من قول يزيد بن مفرغ الحميري:

فكِّر ففي ذاك إن فكَّـرتَ مُعتَبَـرُ هـل نِلـتَ مَكْـرمـةً إلا بتـأمير؟
عاشت سُميّةُ ما عاشت وما علمـتْ أنّ آبنَها مـن قـريشٍ في الجماهير
سُبحان مَن مُلْـكُ عَبّـاد بقـدرتـه لا يدفعُ النـاسُ محتـومَ المقـادِيـر

وكان ولدُ سمية: زيادا: وأبا بكرة، ونافعا؛ فكان زياد ينسب في قريش، وأبو بكرة في العرب، ونافع في الموالي؛ فقال فيهم يزيد بن مفرغ:

إن زيـــاداً ونـــافعـــاً وأبـــا بَكْرَةَ عندي من أعجب العجَـبِ
إن رجـــالاً ثلاثـــة خُلقـــوا من رحمِ أُنثى مُخالِفي النَّسـبِ...
ذا قُـــرشيٌّ، فيما يقـــولُ، وذا مَـولىً وهــذا ابنُ أُمـهِ عــرَبي!

وقال بعض العراقيين في ابي مُسهر الكاتب:

حمارٌ في الكتـابـةِ يـدَّعيهـا كدعوى آلِ حَـربٍ في زيـادِ
فدَعْ عنكَ الكتابة لستَ منهـا ولـو غَـرّقـتَ ثوبك بـالمداد

وقال آخر في دعيّ:

لعينٌ يـورِثُ الابنـاءَ لعنـاً ويَلطخُ كـلَّ ذي نسـبٍ صحيـحِ

عبد الله بن حجاج

ولما طالت خصومة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ونصر بن حجاج عند معاوية، في عبد الله بن حجاج، مولى خالد بن الوليد ـ أمر معاوية حاجبه أن يؤخر أمرهما حتى يحتفل مجلسُه، فجلس معاوية وقد تلفَّع بمطرف خزّ أخضر، وأمر بحجر فأدني

منه، وألقى عليه طرف المطرف، ثم اذن لهما وقد احتفل المجلس فقال نصر بن حجاج: أخي وابن ابي، عهد إليّ أنه منه. وقال عبد الرحمن: مولاي وابن عبد أبي وامتِه، وُلد على فراشه. فقال معاوية: يا حرسيّ، خذ هذا الحجر ـ وكشف عنه ـ فادفعه إلى نصر بن حجاج. وقال يا نصر، هذا مالـك في حكم رسول الله ﷺ، فإنه قال: «الولد للفراش وللعاهر الحَجر». فقال نصر: أفلا أجْريت هذا الحكم في زياد يا أمير المؤمنين؟ قال ذاك حكم معاوية وهذا حكم رسول الله ﷺ.

وليس في الارض احمى من الادعياء؛ لتستحق بذلك العربية.

قال الشاعر:

دعــيٌّ واحـدٌ أجـدىَ عليهـم — من آلفيْ عالمٍ مثـلِ ابنِ دابِ
ككلْبِ السَّوءِ يحرسُ جـانبيْـه — وليس عــــدوّهُ غيرَ الكلاب

للاصمعي في دعي

وقال الاصمعي: استمشى رجل من الادعياء، فدخل عليه رجل من اصحابه فوجد عنده شيحاً[1] وقيصوما[2]؛ فقال له: ما هذا؟ فقال، ورفع صوته: الطبيعة تتوق إليه! يريد أن طبيعته من طباع العرب؛ فقال فيه الشاعر:

يَشمُّ الشَّيــــح والقيْصُــــو — مَ كـي يستــوجِـبُ النَّسبــا
وليــس ضميــرُهُ في الصّــدْ — رِ إلا التِّيـــنَ والعِنبـــا

ابو سعيد المخزومي

وعن اسماعيل بن احمد قال: أرأيت على أبي سعيد الشاعر المخزومـي كُردوانيا مصبوغا بتوريد، فقلت: أبا سعيد، هذا خز؟ قال: لا ولكنه دعِيٌّ على دعيّ وكان أبو سعيد دعيًّا في بني مخزوم؛ وفيه قال الشاعر:

متَــى تــاهَ على النـــاسِ — شريــفٌ يــا أبــا سعْــدِ

---

(١) الشيح: نبت سهلي، رائحته طيبة، ترعاه الماشية.

(٢) القيصوم: نبات قريب من نوع الشيح، كثير في البادية. وقال: «فلان يمضغ الشيح او القيصوم» لمن خلصت بدويته.

فتِــهْ مــا شئــت إذ كنــتَ   بلا أبٍ ولا جَــــــــدِّ
وإذا حظَّــــك في النِّســــبَــةِ بين الحــرّ والعبــدِ
وإن قـــارَفَـــكَ الفحشُ   ففـي أمْــنٍ مــن الحــدّ

تزوج ابن عبد العزيز في عبد القيس

وعن احمد بن عبد العزيز قال: نزلت في دار رجل من بني عبد القيس بالبُحرين فقال لي: بلغني أنك خاطبٌ؟ قلت نعم. قال: فأنا أزوّجك. قلت له: إني مولى. قال: اسكت وأنا أفعل! فقال ابو بجير فيهم:

أمِــن قلةٍ صرتم إلى أن قبلتُــــمُ   دعــاوةَ زرّاعٍ وآخَــرَ تــاجِــرِ
وأصهبَ رُومـيٍّ وأسـودَ فـاحـمٍ   وأبيضَ جَعدٍ من سراة الاحـامِـرِ
شُكُـولُهـمُ شتى وكــلٌّ نَسيبُكــم   لقد جِئتُم في الناسِ إحدَى المناكـر
متى قـال إنِّـي منكـم فَمُصــدَّقٌ   وإن كـان زَنجيّاً غليـظَ المشـافــر
أكُلُّهُـم وافَــى النِّســاء جَــدودُه   وكَلُهُـمُ أوفـى بصـدْقِ المعـاذِرِ؟
وكلهــمً قــد كــان في أوّليَّــةٍ   لهُ نِسبـةٌ معـروفـةٌ في العشـائـر؟
على عِلمِكُم ان سوفَ ينكحُ فيكُـم   فجدْعاً ورغماً لِلأنوفِ الصَّواغِرِ(١)
فهلا أبَيْتم عِفَّـــةً وتكـــرُّمــاً   وهَلاَّ وجِلتمْ من مَقالةِ شـاعِـرِ؟(٢)
تعيبُونَ أمراً ظـاهـراً في بنـاتِكـم   وفخرُكم قــد جـاز كـلَّ مَفـاخِـر
متى شاءَ منكم مُغـرَمٌ كـان جَـدّهُ   عِمارة عبسٍ خيرَ تلــك العمائــر
وحِصـنُ بن بـدر أو زُرارةُ دارِمٍ   وزبّـانُ زَبّـان الرئيسُ ابن جـابــر
فقد صرتُ لا أدري وإن كنتُ ناسباً   لعلَّ نجاراً مــن هلالِ بنِ عـامِـر
وعلَّ رجالَ التركِ من آلِ مِـذحـج   وعـلِ تميا عُصبـةٌ مِــن يُحــابِـر
وعلَّ رجالَ العُجْم من آلِ عـالـجٍ   وعل البوادِي بُدِّلـت بـالحواضِـر
زعمتم بـأنّ الهِنـدَ أولادَ خنــدفٍ   وبينكـم قُـربَــى وبين البرابــر

---

(١) الصواغر: جمع صاغر، وهو الذليل المهان.

(٢) وجلتم: استحييتم.

وديلَم من نسل ابن ضَبَةَ باسِلٍ ... وبُرجانَ من أولادِ عَمرو بنِ عامِرِ
بنو الاصفرِ الامْلاكُ أكرمُ منكُم ... وأولى بقربانا مُلوكُ الاكاسِرِ
أأُطْمعُ في صهري دَعيًّا مُجاهِراً ... ولم نَر شرا في دعِيّ مُجاهر[١]
ويَشتُمُ لؤما عرضه وعشيرَهُ ... ويمدحُ جَهلا طاهراً وابنَ طاهِرِ

وقال زرارة بن ثروان، أحد بني عامر بن ربيعة بن عامر:

قدِ اختلَطَ الأسافِلُ بالأعالي ... وباح الناسُ واختلَط النِّجارُ
وصار العبدُ مثلَ أبي قُبَيْس ... وسيق مع المعلهجة العِشارُ[٢]
وإنك لن يَضيرَكَ بعد حوْل ... أطرْفٌ ناك أمَّكَ أمْ حمارُ

وقال عقيل بن عُلَّفة:

وكنا بني غَيْظٍ رجالا فأصبحتْ ... بنو مالك غيْظاً، وصرْنا لمالكِ
لحَي اللهُ دهراً ذَعْذَعَ المالَ كلَّه ... وسوّد أستاهَ الإمإ الفَوارِكِ[٣]

جعفر بن سليمان وولده أحمد

وذكر جعفر بن سليمان بن علي يوماً ولده، وأنهم ليسوا كما يحب، فقال له ولده احمد بن جعفر: عمدتَ إلى فاسقات المدينة ومكة وإماء الحجاز، فأوعيت فيهم نُطفَك، ثم تريد أن يُنْجبنَ! ألا فعلت في ولدك ما فعل ابوك فيك حين اختار لك عقيلةَ قومها.

الاشعث وعلي

ودخل الاشعث بن قيس على عليّ بن أبي طالب، فوجد بين يديه صبية تدرج؛ فقال: من هذه يا أمير المؤمنين؟ قال هذه زينب بنت أمير المؤمنين. قال زوِّجْنيها يا امير المؤمنين! قال: أعزب، بفيك الكِثكِث[٤]، ولك الاثلب! أغرّك ابنُ أبي قحافة حين زوَّجك أم فروة؟ إنها لم تكن من الفواطم ولا العواتك من سليم. فقال: قد

---

(١) الّدعيّ: المتهم في نسبه.
(٢) المعلهجة: التي ليست بخالصة النسب، والتي ولدت من جنسين مختلفين.
(٣) ذعذع: بدّد. (٤) الكثكث: دقاق التراب وفتات الحجارة.

زوّجتم أخملَ مني حسباً، وأوضع مني نسباً: المقدادَ بن عمرو، وإن شئت فالمقداد بن الاسود. قال عليّ: ذلك رسول الله ﷺ فعَله، وهو أعلم بما فعل؛ ولئن عدت إلى مثلها لأسوأنك.

وفي هذا المعنى قال الكميت بن زيد:

وما وجدتْ بنات بني نزار ... حلائل أسودين وأحمرينا
وما حَملوا الحَميرَ على عِتاقٍ ... مُطهّمة فيلْفَوْا مُبْغِلينا
بني الاعمامِ انكَحْنا الأيامَى ... وبالآباء سُمِّينا البَنينا

أراد تزويج أبرهة الحبشي في كندة.

عن العتبي: قال: أنشدني أبو إسحاق ابراهيم بن خداش لخالد النجار:

اليومَ من هاشم بَخْ، وأنت غداً ... مَوْلى، وبعدَ غد حِلْفٌ من العربِ
إن صح هذا فأنت الناسُ كلُّهُمُ ... يا هاشِميَّ، ويا مولى، ويا عربِي

قال: وكان الهيثم بن عديّ فيما زعموا دعيا، فقال فيه الشاعر:

الهيثمُ بنُ عديّ من تَنَقّلَه ... في كلِّ يوم له رَحْلٌ على حَسَب
إذا اجْتَدَى مَعشراً من فضلِ نِسبتِهمْ ... فلم يُنيلوه عدّاهم إلى نَسَبِ
فما يزال له حلٌّ ومُرْتَحلٌ ... إلى النصارى وأحياناً إلى العرب
إذا نَسَبْتَ عديًّا في بني ثعل ... فقدِّم الدالَ قبل العيْنِ في النسب!

وقال بشّار العقيلي:

إنّ عَمْرواً، فآعرفوه ... عربيٌّ من زُجاجِ
مُظْلِمُ النِّسبة لا يُعْـ ... ـرفُ إلاّ بالسِّراجِ!

وقال فيه:

آرفقْ بنسبة عمرو، حين تُسْبُبه ... فإنه عربيٌّ من قَوارير
ما زال في كيرِ حدّادٍ يُردِّدُه ... حتى بَدا عربيًّا مُظْلِمَ النُّورِ

وقال أيضاً في أدعياء:

هم قعدوا فانتقوْا لهم حَسَباً ... يدخلُ بعد العِشاءِ في العرب

والناس قد أصبحوا صيارفةً أعلَمَ شيءٍ بزائفِ الحسب

وقال أبو نواس في أشجع بن عمرو:

قل لمن يَدَّعِي سُلَيْمَى سفاهاً لستَ منها ولا قلامةَ ظُفْرِ
إنما انت من سُلَيمى كواوٍ أُلْحِقَتْ في الهِجاءِ ظُلْماً بعمرو

وقال فيه:

أيَا مُتَحيّراً فيه لمن يتعجبُ العجبُ
لأسماءٍ تَعلَّمَهُنَّ أشجعُ حين ينتسِبُ

ولاحمد بن أبي الحارث الخراز في حبيب الطائي:

لوَ انَّكَ إذ جعلتَ أباك أوْساً جعلتَ الجَدّ حارثةَ بنَ لامِ
وسَمَّيْتَ التي ولدتك سُعْدَى فكنتَ مقابِلاً بين الكرام!

وله فيه:

أنت عِندي عربيٌّ ليس في ذاك كلامُ
شعرُ فخذيْك وساقيـ ـك خُزامَي وثمام(1)
وضُلوعُ الصدرِ من جسمك نبعٌ وبَشام
وقذَى عينيك صَمْغٌ ونَواصيك ثَغام(2)
لوْ تحرّكْت كذا لا نجَفَلْت منك نَعام
وظِباءٌ سانِحاتٌ ويرابيعٌ عِظام(3)
وحَمامٌ يَتغنّى حبّذا ذاك الحمام
أنا ما ذنبي إن كـ ـذّبني فيك الكرام
القفا يَشهد أدماً عَرَفت فيك الانام

---

(1) الخزامى: جنس نبات من الفصيلة الشفوية أنواعه عطرة.

(2) الثغام: جمع ثغامة: شجرة بيضاء الثمر والزهر.

(3) اليربوع: حيوان على هيئة الجرذ الصغير، له ذنب طويل ينتهي بخصلة من الشعر، وهو قصير اليدين طويل الرجلين.

كـذّبـوا مـا أنـت إلاّ عـــربيٌّ والســلام!

وقال في المعلى الطائي:

مُعَلّــى لســت مــن طَـــيٍّ فــإنْ قَبلَتْــك فــآرهَنهــا
وإبنــك فــأرم في أجــأٍ فلا تَــرغــبْ بــه عنهــا
كــأنّ دَمــاملاَ جُمِعــت فصُــورٍ وجهُــه منهــا

ولآخر:

تعلّمهـــا وإخـــوتَـــهُ فكلّهــــــم بهـــا درِبُ
لقــد ربــوا عَجُــوزهُــم ولــو زيّنتَهــا غَضِبُــوا
فيــالَــكِ عُصْبَــةً إن حــدّ ثُوا عـن أصلِهـم كـذبُـوا
لهم في بيتِهـــم نســـبٌ وفي وســطِ الملا نسَـــبُ
كما لم تَخــفَ ســافــرةٌ وتَخفَــى حيــن تنتقِــبُ

وقال خلف بن خليفة في الادعياء:

فقُــل للاكــرَمين بني نِــزآر وعنــد كــرائِـم العــرب الشّفــاءُ
أآخِـرَ مَـرّتيْـنِ سبَيْتُمـونـا وفي الإسلامِ ما كُـره السِّبـــاءُ؟
إذا آستحْللْتُـم هــذا وهــذا فليس لنـــا على ذاكــم بقــاءُ
فلا تــأمَــنْ على حــالٍ دعيًّــا فليس لـــه على حـــالٍ وفـــاءُ

في الباه وما قيل فيه

ذُكر عند مالك بن أنسٍ الباهُ، فقال: هو نورُ وجهِك، ومُخُّ ساقك؛ فأقِلَّ منه أو أكثِرْ.

وقال معاوية: ما رأيت نهماً في النساء إلا عرَفْت ذلك في وجهه.

وقال الحجاج لابن شماخ العكلي: ما عندك للنساء؟ قال: أُطيلُ الظماء[1]، وأرِدُ فلا أشرب.

(١) الظماء: الظمأ: العطش.

وقيل لرؤبة: ما عندك يا أبا الجحّاف؟ قال: يمتد ولا يشتدّ، ويرِد ولا يشرب.

وقيل لآخر: ما عندك لهن؟ قال: ما يقطعُ حجَّتها، ويشفي غُلْمتَها[1].

وقال كسرى: كنت أراني إذا كبرت انهن لا يُحْبِبْنني، فإذا أنا لا أُحِبُّهُن!

وأنشد الرياشي لأعرابيٍ من بني أسد:

تمنَّيْت لو عادَ شرْخُ الشبابِ ... ومن ذا على الدَّهرِ يعطي المُنى
وكنت مكيناً لدَى الغانياتِ ... فلا شيءَ عندي لها مُمكِناً[2]
فأمّا الحِسانُ فيأبَيْنَني ... وأما القِباحُ فآبى أنا

ودخل عيسى بن موسى على جارية، فلم يقدر على شيء، فقال:

النفسُ تطمعُ والأسبابُ عاجزةٌ ... والنفسُ تَهلكُ بين اليأسِ والطمَعِ

وخلا ثمامة بن أشرس بجارية له، فعجز؛ فقال: ويحكِ! ما أوسع حِرك! فقالت:

أنت الفِداءُ لِمَنْ قد كان يَملَؤهُ ... ويستَكي الضِّيقَ منه حين يلقاهُ

وقال آخر لجاريته:

ويُعجبُني منكِ عند الجِماع ... حياةُ الكلامِ وموتُ النَّظَرْ

وقال آخر:

شفاءُ الحبِّ تقبيلٌ ولَمْسٌ ... وسَبْحٌ بالبُطون على البطونِ
ورهْزٌ تذرف العيْنان منه ... وأخذٌ بالذَّوائب والقُرونِ

عائشة بنت طلحة

وقالت امرأة كوفية: دخلت على عائشة بنت طلحة، فسألت عنها، فقيل هي مع

---

(١) الغلمة: شدة الشهوة الى الجماع.
(٢) الغانية، التي استغنت بجمالها وحسنها عن الزينة.

زوجها في القيطون؛ فسمعت زفيراً ونخيراً لم يُسمع قط مثله. ثم خرجت وجبينها يتفصّدُ[1] عرقاً؛ فقلت لها: ما ظننت ان حرّة تفعل مثل هذا! فقالت: إن الخيل العِتاق تشرب بالصفير.

وقيل لأعرابيّ: ما عندك للنساء؟ فأشار إلى متاعه وقال:

وتـراه بعـد ثلاث عشْـرة قـائماً   نظـرَ المؤذّن شـكّ يـوم سحـاب!

وقال الفرزدق:

أنـا شيـخٌ ولي آمـرأةٌ عجـوزُ   تُـراوِدُني على مـا لا يجوزُ
وقـالـت: رقّ أيْـرُكَ مُـذْ كبرنـا   فقلت لها: بـلِ آتسـعَ القفيـزُ[2]

وقال الراجز:

لا يُعقِبُ التّقبيـل إلاّ زبّـي   ولا يـداوي مـن صميم الحبِّ
إلا احتِضـانِ الرّكـب الأزبِّ   يُنزع منه الاير نزع آلضـبِّ[3]

روى زياد عن مالك عن محمد بن يحي بن حسان، ان جدته عاتبت جدّه في قلة اتيانه إياها؛ فقال لها: أمَا وأنت على قضاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه؟ قالت: وما قضاء عمر؟ قال: قضي ان الرجل إذا اتى امرأته عند كلِّ طهُر فقد أدّى حقها. قالت: أفترَك الناس كلهم قضاءَ عمر واقمت وأنا وأنت عليه.

وقال اعرابيٌّ حين كبِر وعجَز:

عجِبْتُ مـن أيْـرِيَ كيـف يصنـعُ   أدفعُـهُ بـأصبُعـي ويـرجِـعُ
يقوم بعد النّشرِ ثم يُصْرَعُ

---

(١) فصد جبينه عرقاً: يريد يتفصد عرق جبينه: أي يسيل.

(٢) القفيز: مكيال كان يكال به قديماً.

(٣) الضب: حيوان من جنس الزواحف غليظ الجسم خشنه.

كثير وعزة

ودخلت عزّة صاحبة كثيِّر على ام البنين زوج عبد الملك بن مروان، فقالت لها: أخبريني عن قول كثير:

قضَى كلُّ ذي دين فوفى غريمَهُ   وعزّة ممطولٌ مُعَنّ غريمُها

ما هذا الدينُ الذي طلبك به؟ قالت: وعدتُه بقُبلة فتحرّجت منها. قالت: أنجزيها وعليّ إثمها.

عن أبي البيداء

علي بن عبد العزيز قال: كان ابو البيداء رجلا عِنِّيناً، وكان يتجلد ويقول لقومه: زوِّجوني امرأتين. فقالوا له: إن في واحدة كفاية. قال: أمّا لي فلا. فقالوا: نزوّجك واحدة فإن كفتك وإلا نزوِّجك أخرى. فزوّجوه اعرابية؛ فلما دخل بها اقام معها اسبوعا، فلما كان في اليوم السابع اتوه فقالوا له: ماكان من امرك في اليوم الاول؟ قال: عظيم جداً.. فقالوا: ففي اليوم الثالث؟ قال: لا تسلوني فاستجابت امرأته من وراء الستر فقالت:

كان أبو البيداء ينزو في الوهقْ   حتى إذا أُدخل في بيت أنِق[1]

فيه غزال حسن الدّلّ خرِق   مارسَهُ حتى إذا ارفضّ العرق

انكسر المفتاح وآنسدّ الغَلق

حماد عجرد وجارية

اهديت جارية إلى حماد عجرد، وهو جالس مع أصحابه على لذة، فتركهم وقام بها إلى مجلس له فافتضها، وكتب إليهم:

قد فتَحْت الحِصْن بعد امتناعِ   بسِنانٍ فاتح للقلاعِ

---

(١) أنق: أنيق.

ظفِرت كفّي بتفريقِ جَمْعٍ   جاءَنا تفرقُهُ باجتماعِ
وإذا شمْلِيَ وشمل خليلي   إنما يلْتامُ بعد آنصِداع

آخر:

لم توافِق طِباعُ هذي طِباعي   فأنا وهْي دهْرنا في صِراع
وتحرّيت أن أنالَ رضاها   فأبَت غير جَفْوةَ وآمتناعِ
فتفكّرْتُ لِمْ بُليت بهذا؟   فإذا أنّ ذا لضَعْف المتاع!

وقع بين رجل وامرأته شرٌّ، فجعل يحيل عليها بالجماع، فقالت: فعل الله بك! كلما وقع بيننا شيء جئتني بشفيع لا أقدر على ردِّه.

وأقبل رجلٌ إلى علي بن ابي طالب رضي الله عنه، فقال: إن لي امرأة كلما غشِيتُها تقول: قتلْتَني قتلتني، قال: آقتلْها وعليّ إثمها.

نساء كلب

وقال هشام بن عبد الملك للابرش الكلبي: زوِّجْني امرأة من كلب. ففعل وصارت عنده، فقال له هشام ودخل عليه: لقد وجدنا في نساء كلب سَعة! فقال له الابرش: إن نساء كلب خُلقْن لرجال كلب.

وقالوا: من ناك لنفسه لم يضعُف أبداً ولم ينقطع، ومن فعل ذلك لغيره فذاك الذي يُصْفي وينقطع.

يعنون: من فعل ذلك ليبلغ اقصى شهْوة المرأة ويطلب الذِّكر عندها....

وقال الشاعر.

من ناك للذكرِ أصفَى قبل مُدّتِه   لا يقطع النَّيْك إلاّ كلَّ منهُومِ

في النكاح

وقالوا: من قل جماعُه فهو أصحُّ بدناً وأطول عُمُراً ويعتبرون ذلك بذكر

الحيوان، وذلك انه ليس في الحيوان اطول عمراً من البغل، ولا أقصر عمراً من العصافير؛ وهي أكثر سفادا . والله اعلم .

كتاب الجمانة الثانية
في المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في النساء والأدعياء، وما قيل في ذلك من الشعر.

ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في كتابنا هذا ذِكر المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين؛ فإن أخبارَهم حدائق مونقةٌ، ورياض زاهرة، لما فيها من طُرفة ونادرة، فكأنها أنوارٌ مزخرفة، أو حُلل منشرة، دانية القطوف من جاني ثمرتها، قريبة المسافة لمن طلبها؛ فإذا تأملها الناظر، وأصغى إليها السامع، وجدها ملهى للسمع، ومرتعاً للنظر، وسكناً للروح، ولقاحاً للعقل، وسميراً في الوحدة وأنيساً في الوحْشة، وصاحباً في السفر، وأنيساً في الحضر.

المهدي ومدع للنبوة:

قال أبو الطيب اليزيدي: أُخِذَ رجل ادعى النبوّة أيامَ المهدي، فأُدْخِل عليه فقال له: أنت نبيّ؟ قال: نعم! قال: وإلى من بُعثت؟ قال: أو تركتموني أذهب إلى أحد؟ ساعةَ بُعثت وضعتموني في الحيس! فضحك منه المهدي وخلّى سبيله.

سليمان بن علي وآخر:

ادّعى رجل النبوّة بالبصرة، فأُتي به سليمان بن علي مقيّداً، فقال له: أنت نبيٌّ مرسل؟ قال: أما الساعةَ فإني مقيد! قال: ويحك! من بعثك؟ قال: أبهذا يخاطَب

الأنبياء يا ضعيف؟ والله لولا أني مقيد لأمرت جبريل يدمدمها[1] عليكم! قال: فالمقيَّد لا تجاب له دعوة؟ قال: نعم؛ الأنبياء خاصة إذا قُيدت لم يرتفع دعاؤها! فضحك سليمان، وقال له أنا أُطْلِقُك وأْمر جبريل، فإن أطاعك آمَنا بك وصدّقناك. قال: صدق الله: ﴿فلا يُؤْمنوا حتى يَرُوا العذابَ الأليمَ﴾[2]! فضحك سليمان، وسأل عنه فشُهِدَ عنده أنه ممرور[3]، فخلى سبيله.

المأمون وآخر:

قال ثمامة بن أشرس: شهِدت المأمون أُتِيَ برجل ادّعى النبوّة وأنه إبراهيم الخليل، فقال المأمون: ما سمعت أجْرأ على الله من هذا. قلت: أكلّمه. قال: شأنُكَ به. فقلت له: يا هذا، إنّ إبراهيم كانت له براهين. قال: وما براهينُه؟ قلت: أضرمت له نارٌ وأُلْقِيَ فيها فصارت برداً وسلاماً؛ فنحن نضرم لك ناراً ونطرحك فيها، فإن كانت عليك برداً كما كانت على إبراهيم آمنّا بك وصدقناك. قال: هات ما هو ألْين عليّ من هذا. قال: براهين موسى. قال: وما كانت براهينُ موسى؟ قال: عصاه التي ألقاها فصارت حية تسعى تلقف[4] ما يأفكون، وضرب بها البحر فانفلق؛ وبياض يده من غير سوء. قال: هذا أصعب؛ هات ما هو ألين من هذا. قلت: براهين عيسى. قال: وما براهين عيسى؟ قلت: كان يُحيي الموتى، ويمشي على الماء، ويُبريء الأكمه والأبرص. فقال في براهين عيسى جئت بالطامة الكبرى! قلت: لا بدّ من برهان! فقال: ما معي شيء من هذا؛ قد قلت لجبريل: إنكم توجّهوني إلى شياطين، فأعطوني حجة أذهب بها إليهم، وأحتجَّ عليهم؛ فغضب وقال: بدأت أنت بالشر قبل كل شيء، اذهب الآن فانظر ما يقول لك القوم. وقال: هذا من الأنبياء لا يصلح إلا للحُمُر. فقلت: يا أمير المؤمنين، هذا هاج به مرار، وأعلام ذلك فيه. قال: صدقت؛ دَعْهُ.

---

(١) دمدم عليهم: طحنهم فأهلكهم. (٢) سورة يونس الآية ٨٨.

(٣) الممرور: الذي غلبت عليه المرّة وهاجت.

(٤) تلقف الشيء: تأخذها بفمها وتبتلعه.

المهدي وآخر:

آدّعى رجل النبوّة في أيام المهدي، فأدخل عليه؛ فقال له: أنت نبيّ؟ قال: نعم. قال: ومتى نُبئت؟ قال: وما تصنع بالتاريخ؟ قال: ففي أي المواضع جاءتك النبوّة؟ قال: وقعنا والله في شغل! ليس هذا من مسائل الأنبياء؛ إن كان رأيك أن تصدقني في كل ما قلت لك فاعمل بقولي؛ وإن كنت عزمت على تكذيبي فدعني أذهبْ عنك! فقال المهدي: هذا ما لا يجوز؛ إذ كان فيه فساد الدين. قال: واعجباً لك! تغضب لدينك لفساده، ولا أغضب أنا لفساد نبؤتي؟ أنت والله ما قويت عليّ إلا بمعن بن زائدة والحسن بن قحطبة وما أشبههما من قوادك. وعلى يمين المهدي شريك القاضي؛ قال: ما تقول في هذا النبي يا شريك؟ قال [المتنبِّيء]: شاورت هذا في أمري وتركت أن تشاورني! قال: هات ما عندك؟ قال: أحاكمك فيما جاء به مَن قبلي من الرسل. قال: رضيت. قال: أكافرٌ أنا عندك أم مؤمن؟ قال: كافر. قال: فإنّ الله يقول: ﴿ولا تُطِعِ الكافرين والمنافقين ودَعْ أذاهم﴾ (١)؛ فلا تطعني ولا تؤذني؛ ودعني أذهب إلى الضعفاء والمساكين؛ فإنهم أتباع الأنبياء؛ وأدع الملوك والجبابرة؛ فإنهم حطب جهنم! فضحك المهدي وخلى سبيله.

القسري وآخر:

قال خلف بن خليفة: ادّعى رجل النبوّة في زمن خالد بن عبد الله القسري، وعارض القرآن؛ فأُتِيَ به خالد؛ فقال له: ما تقول: قال: عارضت في القرآن ما يقول الله تعالى: ﴿إنَّا أَعطيْناكَ الكوْثَر، فصلِّ لربِّك وانحَرْ، إن شانِئَك هو الأبتَرُ﴾ (٢) فقلت أنا ما هو أحسن من هذا: إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر، ولا تطع كل ساحر وكافر. فأمر به خالدٌ فضُربت عنقُه وصلب على خشبة؛ فمرّ به خلف بن خليفة الشاعر، وقال: إنا أعطيناك العمود، فصل لربك على عود، وأنا ضامن أن لا تعود!

---

(١) سورة الاحزاب الآية ٤٨.
(٢) سورة الكوثر الآية ١ ـ ٣.

ابن حازم وآخر:

قال: وإني لقاعد على مجلس عبد الله بن خازم وهو على الجسر ببغداد، فإذا بجماعة قد أحاطت برجل ادّعى النبوّة، فقدّم إلى عبد الله؛ فقال له: أنت نبي؟ قال: نعم. قال: وإلى من بُعِثتَ؟ قال: وما عليك؟ بعثت إلى الشيطان! فضحك عبد الله بن حازم وقال: دعوه يذهب إلى الشيطان الرجيم!

ابن أشرس وآخر:

وقال ثمامة بن أشرس: كنت في الحبس، فأُدخل علينا رجل ذو هيئة وبزة ومنظر، فقلت له: من أنت جُعلت فداك؟ وما ذنبك؟ - وفي يدي كأس دعوت بها لأشربها - قال: جاءوا بي هؤلاء السفهاء لأني جئت بالحق من عند ربي، أنا نبيٌّ مرسَل! قلت: جعلت فداك! معك دليل؟ قال: نعم، معي أكبر الأدلة؛ ادفعوا إليّ امرأة أُحبلها لكم، فتأتي بمولود يشهد بصدقي! قال ثمامة: فناولتُه الكأس وقلت له: اشرب، صلى الله عليك!

ابن عتاب وآخر:

محمد بن عتاب قال: رأيت بالرقة أيامَ الرشيد جماعة أحاطت برجل، فأشرفتُ عليه، فإذا رجل له جَهارة[1] وبنية، قلت: ما قصة هذا؟ قالوا: ادّعى النبوّة. قلت: كذبتم عليه، مثل هذا لا يدّعي الباطل! فرفع رأسه إليّ فقال: وما علمك أنهم قالوا عليّ الباطل؟ قلت له: وأنت نبيٌّ؟ قال: نعم. قلت له: ما دليلك؟ قال: دليلي أنك ولدُ زنا! قلت: نبيٌّ يقذف المحصنات؟ قال: بهذا بُعثت! قلت: أنا كافر بما بُعثت به! قال: ومن كفر فعليه كفرُه. فإذا حصاة عائرة[2] جاءت حتى صكت صلعته، قال: ما رماها إلا ابنُ الزانية، ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: ما أردتم بي خيراً حين طرحتموني في يدي هؤلاء الجهال.

---

(١) جهارة: حسن المنظر والهيئة. (٢) عائرة: لا يدرى من رماها.

المأمون وابن أكثم مع آخر:

ادّعى رجلٌ النبوّة في أيام المأمون، فقال ليحيي بن أكثم: آمض بنا مستترين حتى ننظر إلى هذا المتنبيء وإلى دعواه. [قال يحيي]: فركبنا متنكرين ومعنا خادم، حتى صرنا إليه، وكان مستتراً بمذهبة، فخرج آذنه وقال: من أنتما؟ فقلنا: رجلان يريدان أن يسلما على يديه. فأذن لهما ودخلا، فجلس المأمون عن يمينه، ويحيي عن يساره؛ فالتفت إليه المأمون فقال له: إلى مَن بُعثت؟ قال: إلى الناس كافة. قال: فيوحَى إليك، أم ترى في المنام، أم يُنْفَث في قلبك، أم تُناجَى، أم تكلم؟ قال: بل أناجَى وأُكلَّم. قال: ومن يأتيك بذلك؟ قال: جبريل، قال: فمتى كان عندك؟ قال: قبل أن تأتيني بساعة! قال: فما أوحَى إليك؟ قال: أوحى إليّ أنه سيدخل عليّ رجلان، فيجلس أحدهما عن يميني والآخر عن يساري؛ فالذي عن يساري أَلْوَطُ خلق الله! قال المأمون: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله! وخرجا يتضاحكان.

ابن عباس ومتنبيء:

تنبأ رجل بالكوفة وأحل الخمر، ولقي ابنَ عياش، وكان مغرماً بالشراب، فقال له: أشعرْت أنه بُعث نبي يحلّ الخمر؟ قال: إذاً لا يُقبل منه حتى يبرىء الأكمه والأبرص. وأتى به عامل الكوفة، فاستتابه فأبى أن يتوب ويرجع، فأتته أمّه تبكي، فقال لها: تنحَّيْ ربَط الله على قلبك كما ربط على قلب أمّ موسى! وأتاه أبوه يطلب إليه، فقال له: تنحَّ يا آزر! فأمر به العامل فقُتل وصُلب.

بعض الكوفيين مع آخر:

وذكر بعض الكوفيين قال: بينا أنا جالس بالكوفة في منزلي، إذ جاءني صديق لي، فقال لي: إنه ظهر في الكوفة رجل يدّعي النبوّة، فقم بنا إليه نكلِّمْه ونعرف ما عنده. فقمت معه، فصرنا إلى باب داره، فقرعنا الباب وسألْنا الدخولَ عليه، فأخذ علينا العهودَ والمواثيق إذا دخلنا عليه وكلمناه وسألناه، إن كان على حق اتبعناه، وإن كان على غير ذلك كتمناعليه ولم نؤذِه؛ فدخلنا فإذا شيخ خراساني أخبثُ من رأيت

على وجه الأرض، وإذا هو أصلع؛ فقال صاحبي وكان أعور: دعني حتى أسائله. قلت: دونك. قال: جُعلت فداك، ما أنت؟ قال: نبي! قال: وما دليلك؟ قال: أنت أعورُ عينك اليمنى، فأقلع عينك اليسرى تصير أعمى؛ ثم أدعو الله فيردّ عليك بصرك! فقلت لصاحبي: أنصفَك الرجل! قال: فاقلع أنت عينيك جميعاً! وخرجنا نضحك.

المأمون وآخر:

وأُتي المأمون بإنسان متنبيء، فقال له: ألك علامة؟ قال: نعم. علامتي أني أعلم ما في نفسك. قال: قرّبتَ عليّ؛ ما في نفسي؟ قال له: في نفسك أني كذاب! قال: صدقت! وأمر به إلى الحبس فأقام به أياماً؛ ثم أخرجه فقال: أُوحي إليك بشيء؟ قال: لا. قال: ولم؟ قال: لأن الملائكة لا تدخل الحبس! فضحك المأمون وأطلقه.

متنبيء اسمه نوح:

وتنبأ إنسان وسمى نفسه نوحاً صاحبَ الفُلك؛ وذَكر أنه سيكون طوفان على يديه [يَهلِك به الناسُ] إلا من اتبعه، ومعه صاحب له قد آمن به وصدّقه، فأُتِيَ به الوالي فاستتابه فلم يتب، فأمر به فصلب، واستتاب صاحبَه فتاب؛ فناداه [المتنبيء] من الخشبة: يا فلان، أتسلمني الآن في مثل هذه الحالة؟ فقال: يا نوحُ قد علمت أنه لا يصحبك من السفينة إلا الصاري(١)!

المأمون وثمامة مع متنبيء:

قال: وحُمل إلى المأمون من أذربيجان رجل قد تنبأ، فقال: يا ثمامة، ناظِرْهُ. فقال: ما أكثر الأنبياء في دولتك يا أمير المؤمنين! ثم التفت إلى المتنبيء فقال له: ما شاهدك على النبوّة؟ قال: تحضر لي يا ثمامة امرأتك أنكحها بين يديك، فتلد غلاماً ينطق في المهد يخبرك أني نبي! فقال ثمامة: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله!

---

(١) الصاري: عمود يقام في السفينة يشد عليه الشراع.

فقال المأمون: ما أسرع ما آمنتَ به! قال: وأنت يا أمير المؤمنين ما أهون عليك أن تتناول امرأتي على فراشك! فضحك المأمون وأطلقه.

أخبار الممرورين والمجانين

من أخبار عليان:

قال أبو الحسن: كان بالبصرة ممرور يقال له عَليان بن أبي مالك، وكانت العلماء تستنطقه لتسمع جوابه وكلامه، وكان راوية للشعر بصيراً بجيده؛ فذُكر عن عبد الله ابن إدريس صاحب الحديث.

قال [ابن إدريس]: أخرجه الصبيان مرة حتى هجم علينا في الدار؛ فقال لي الخادم: هذا عليان قد هجم علينا، والصبيان في طلبه. فقلت: ادفع الباب في وجوه الصبيان، وأخْرِجْ إليه طعاماً وطبقاً عليه رطب مُشان[١] وملبقات[٢] وأرغفة. فلما وضعه بين يديه حمد الله وأثنى عليه، وقال: هذا رحمةُ الله ـ وأشار إلى الطعام ـ كما أن أولئك من عذاب الله ـ وأشار إلى الصبيان ـ ثم جعل يأكل والصبيان يرجمون الباب، وهو يقول: ﴿فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبله العذاب﴾[٣]! قال: ابن إدريس: فلما انقضى طعامه قلت له يا عليان، مالك تروي الشعر ولا تقوله؟ قال: إني كالمِسنّ: أشحذُ ولا أقطع! وكان بصيراً بالشعر، فقلت: أي بيت تقوله العرب أشعر؟ قال: البيت الذي لا يُحجب عن القلب. قلت: مثل ماذا؟ قال: مثل قول جميل:

ألا أيُّهـا النُّـوَّامُ ويحَكـم هُبُّـوا   أُسائِلكُم: هل يَقتُل الرجـلَ الحبُّ؟

قال: فأنشد النصف الأول بصوت ضعيف، وأنشد النصف الآخر بصوت رفيع؛

---

(١) مشان: نوع من التمر.

(٢) الملبق: الشديد التثريد الملين بالدسم. (٣) سورة الحديد الآية ١٣.

ثم قال: ألا ترى النصف الأوّل كيف استأذن على القلب فلم يأذن له، والنصف الثاني استأذن على القلب فأذن له؟ قلت: وماذا؟ قال: مثل قول الشاعر:

نَدْمت على ما كـان مُنـذ فقَـدتِني كما نَـدم المغبُـون حين يَبيـع

قال: ألا تستطيب قوله «فقدتني» بالله يا ابن إدريس؟ قلت: بلى. فضرب بيده على فخذي وقال: قم يثبت الله لك قرنك! وابن إدريس يومئذ ابن ثمانين سنة.

وحُكي عنه ابن إدريس قال: مررت به في مربعة كندة، وهو جالس على رماد وبيده قطعة من جص وهو يخبط بها في الرماد؛ فقلت له: ما تصنع ههنا يا ابنَ أبي مالك؟ قال: ما كان يصنع صاحبنا. قلت: ومن صاحبك؟ قال: مجنون بني عامر. قلت: وما كان يصنع؟ قال: أما سمعتَه يقول:

عشيَّـةَ مـالي حيلـةٌ غيرَ أنني بلقْطِ الحصى والجِصِّ في الدارِ مُـولَـعُ

قلت: ما سمعتُه! فرفع رأسه إليّ متضاحكاً، فقال: ما يقول الله عز وجل: ﴿ألم تَر إلى ربِّكَ كيفَ مدّ الظِّلَّ ولو شاءَ لَجَعلهُ ساكناً﴾ [1] فأنت سمعته أو رأيته هذا كلام من كلام العرب ولا علم لك به.

قلت: يا بنَ أبي مالك، متى تقومُ القيامة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، غير أنه من مات قامت قيامتُه.

قلت: فالمصلوبُ يعذَّب عذابَ القبر؟ قال: إن حقت عليه كلمةُ العذاب يعذب، وما يدريك لعل جسده في عذاب من عذاب الله لا تدركه أبصارُنا ولا أسماعُنا، فإن لله لطفاً لا يُدرك.

قلت: ما تقول في النبيذ حلال أم حرام؟ قال: حلال. قلت: أتشربه؟ قال إن شربتُه فقد شرِبَه وكيع، وهو قدوة. قلت: أتقتدي بوكيع في تحليله ولا تقتدي بي

---

(١) سورة الفرقان الآية ٤٥.

في تحريمه، وأنا أسنُّ منه؟ قال: إن قولَ وكيع مع اتفاق أهل البلد عليه أحبُّ إليّ من قولك مع اختلاف أهل البلدة عليك.

قلت: فما تقول في الغِناء؟ قال: قد غنى البراءُ ابنُ عازب، وعبد الله ابن رواحة؛ وسمع الغناءَ عبد الله بن عمر، وكان عبد الله بن جعفر... قلت: أيش كان عبد الله ابن جعفر؟ قال: إنما سألتني عن الغناء ولم تسألني عن ضرب العيدان.

مجنون بالبصرة:

وكان بالبصرة مجنونٌ يأوى إلى دكان خياط، وفي يده قصبة قد جعل في رأسها أكرة[1] ولف عليها خرقة، لئلا يؤذي بها الناس؛ فكان إذا أحْرده الصبيان، التفت إلى الخياط وقال له: قد حمي الوطيس، وطاب اللقاء! فما ترى؟ فيقول: شأنُك بهم. فيشدّ عليهم ويقول:

أشـدُّ على الكتيبـةِ لا أُبـالي أحَتْفي كان فيهـا أمْ سِـواهـا

فإذا أدرك منهم صبياً رمى بنفسه إلى الأرض وأبدى له عورتَه، فيتركه وينصرف؛ ويقول: عورة المؤمن حِمًى، ولولا ذلك لتَلِفَت نفسُ عمرِو بن العاص يوم صفين! ثم يقول وينادي:

أنا الرجُلُ الضَّرْبُ الذي يَعرِفـونني خَشاشٌ[2] كرأسِ الحيّةِ المتوقّـدِ!

ثم يرجع إلى دكان الخياط، ويُلقي العصا من يده ويقول:

فألقت عَصاها وٱستَقرت بها النّـوى كما قَرّ عينـاً بـالإيـابِ المُسـافِـرُ

عليان وتاجر بالبصرة:

وكان بالبصرة رجل من التجار يكنى أبا سعيد، وكانت له جارية تدعى جيرين، وكان بها كلفا، فمر يوماً بعليان وقد أحاط به الناس، فقالوا له: هذا أبو سعيد

---

(١) أكرة: كُره. (٢) الخشاش: البردة الخفيفة اللطيفة.

صاحب جيرين. فناداه: أبا سعيد! قال: نعم. قال: أتحب جيرين؟ قال: نعم. قال: وتحبك؟ قال: نعم فأنشأ يقول:

نُبِّئتُها عَشِقت حَشّا فقلت لهم ... ما يَعشِقُ الحشَّ إلا كلُّ كنَّاسِ[1]

فضحك الناس من أبي سعيد ومضى.

صباح الموسوس:

ومر ابنُ أبي الزرقاء صاحب شرطة ابنِ أبي هبيرة بصبَاح الموسوس، فقال له: ابن أبي الزرقاء، أسمنت بِرْذَوْنَكَ، وأهزلتَ دينَك! أما والله إن أمامك عقبةً لا يجاوزها إلا المُخِفّ! فوقف ابن أبي الزرقاء، فقيل له: هو صَباح الموسوس. قال: ما هذا بموسْوس!

بهلول المجنون:

وقال إبراهيم الشيباني: مررت ببهلول المجنون وهو يأكل خبيصاً؛ فقلت: أطعمني. قال: ليس هو لي، إنما هو لعاتكة بنت الخليفة، بعثته إليّ لآكله لها.

وكان البهلول هذا يتشيع، فقيل له: اشتُم فاطمة وأعطيك درهماً! فقال: بل أشتُم عائشة وأعطني نصف درهم!

أمارات الحمق:

وقال ابن عبد الملك: يُعرف حمقُ الرجل في أربعٍ: لحيتِه، وشناعةِ كنيته، وإفراط شهوته، ونقشِ خاتمه. دخل عليه شيخ طويل العثنون؛ فقال، أما هذا فقد أتاكم بواحدة، فانظروا أين هو من الثلاث. فقيل له: ما كنيتُك؟ قال: أبو الياقوت. قيل: فنقش خاتمك؟ قال: ﴿وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد﴾[2]، قيل: أي الطعام تشتهي؟ قال: خلنجبين.

---

(١) الحش: البستان أو الكنيف. والكناس: من حرفته الكنس.

(٢) سورة النمل الآية ٢٧.

ابن عبد العزيز ومجنون:

وسمع عمر بن عبد العزيز رجلاً ينادي: يا أبا العُمَرين، فقال: لو كان عاقلاً لكفاه أحدهما.

وقيل لداود المصاب في مصيبة نزلت به: لا تتهم الله في قضائه. قال: أقول لك شيئاً على الأمانة؟ قال: قل. قال: والله ما بي غيره!

من أخبار أبي عتاب:

ودخل أبو عتاب على عمرو بن هذاب وقد كُفَّ بصره والناس يعزونه، فقال له: أبا يزيد، لا يسوءك فقدُهما، فإنك لو درَيْت بثوابهما تمنيتَ أن الله قطع يديك ورجليك ودق عنقك.

ودخل على قوم يعود مريضاً لهم، فبدأ يُعزِّيهم! قالوا: إنه لم يمتْ! فخرج وهو يقول: يموت إن شاء الله! يموت إن شاء الله.

ووقع بين أبي عتاب وبين ابنه كلام، فقال: لولا أنك أبي، وأسنُّ مني لعرفت.

أبو حاتم عن الأصمعي عن نافع قال: كان الغاضريّ من أحمق الناس. فقيل له: ما رأيت من حُمْقِهِ؟ فسكت، فلما أكثر عليه قال: قال لي مرة: البحر من حفره؟ وأين ترابه الذي خرج منه؟ وهل يقدر الأمير أن يحفر مثله في ثلاثة أيام.

الشعبي ورجل من النوكى:

ودخل رجل من النَّوكى على الشعبي وهو جالس مع امرأته، فقال: أيكم الشعبي؟ فقال [الشعبي]: هذه [وأشار إلى امرأته]! فقال: ما تقول أصلحك الله في رجل شتمني أولَ يوم من رمضان، هل يؤجَر؟ قال: إن كان قال لك «يا أحمق» فإني أرجو له.

الشعبي ومجنون آخر:

وسأل رجل آخرُ الشعبيَّ فقال: ما تقول في رجل في الصلاة أدخل أصبعه في أنفه فخرج عليها دمٌ، أترى له أن يحتجم؟ فقال الشعبي: الحمد لله الذي نقَلنا من الفقه إلى الحجامة.

وقال له آخر: كيف تسمي امرأةَ إبليس؟ قال: ذاك نكاحٌ ما شهدناه.

صوفي في أيام المهدي:

العتبي قال: سمعت أبا عبد الرحمن بشراً يقول: كان في زمن المهدي رجل صوفي، وكان عاقلاً عاملاً ورعاً، فتحمَّق ليجد السبيل إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وكان يركب قصبة في كل جمعة يومين: الأثنين والخميس، فإذا ركب في هذين اليومين فليس لمعلم على صبيانه حكمٌ ولا طاعة، فيخرج ويخرج معه الرجال والنساء والصبيان، فيصعد تلاً وينادي بأعلى صوته: ما فعل النبيون والمرسلون، أليسوا في أعلى عليين؟ فيقولون: نعم.

قال: هاتوا أبا بكر الصديق. فأُخذ غلام فأجلس بين يديه؛ فيقول: جزاك الله خيراً أبا بكر عن الرعية، فقد عدلت وقمت بالقسط، وخلفت محمداً عليه الصلاة والسلام فأحسنت الخلافة، ووصلت حبلَ الدين بعد حلٍّ وتنازع، وفرغت منه إلى أوثقِ عُروة وأحسن الخلافة، ووصلت حبلَ الدين بعد حلٍّ وتنازع، وفرغت منه إلى أوثقِ عُروة وأحسن ثقة؛ اذهبوا به إلى أعلى عليين.

ثم ينادي: هاتوا عمر. فأُجلس بين يديه غلام، فقال: جزاك الله خيراً أبا حفص عن الإسلام، قد فتحت الفتوح، ووسَعْت الفيء، وسلكت سبيل الصالحين، وعدلت في الرعية؛ اذهبوا به إلى أعلى عليين بحذاء أبي بكر.

ثم يقول: هاتوا عثمان. فأتِيَ بغلام فأُجلس بين يديه، فيقول له: خلطت في تلك السنين، ولكن الله تعالى يقول: ﴿خَلَطوا عملاً صالحاً وآخَرَ سيِّئاً عسى اللهُ أن يتوبَ

عليهم﴾ (١)! ثم يقول: اذهبوا به إلى صاحبيه في أعلى عليين!

ثم يقول: هاتوا عليَّ بن أبي طالب. فأُجلس غلام بين يديه، فيقول: جزاك الله عن الأمة خيراً أبا الحسن، فأنت الوصي ووليّ النبي، بسطت العدل وزهِدْتَ في الدنيا، واعتزلت الفيءَ فلم تخمش فيه بناب ولا ظفر، وأنت أبو الذرية المباركة، وزوج الزكية الطاهرة؛ آذهبوا به إلى أعلى عليين الفردوس.

ثم يقول: هاتوا معاوية. فأُجلس بين يديه صبيٌّ، فقال له: أنت القاتل عمارَ بنَ ياسر، وخزيمةَ بن ثابت ذا الشهادتين، وحُجْرَ بن الأدبر الكندي الذي أخلقت وجهه العبادة؛ وأنت الذي جعل الخلافة مُلْكاً، واستأثر بالفيء، وحكم بالهوى، واستنصر بالظلمة؛ وأنت أول من غيّر سنة رسول الله ﷺ، ونقض أحكامه، وقام بالبغي، اذهبوا به فأوُقفوه مع الظلمة!

ثم قال: هاتوا يزيد. فأُجلس بين يديه غلام، فقال له: يا قوّاد! أنت الذي قتلت أهل الحرّة، وأبحت المدينةَ ثلاثةَ أيام، وانتهكت حُرَمَ رسول الله ﷺ، وآويتَ الملحدين، وبُؤْتَ باللعنة على لسان رسول الله ﷺ، وتمثلتَ بشعر الجاهلية.

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا   جَزَعَ الخَزْرَج من وقْعِ الأَسَلْ (٢)

وقتلت حُسَيناً، وحملتَ بنات رسول الله ﷺ سبايا على حقائب الإبل؛ اذهبوا به إلى الدرك الأسفل من النار.

ولا يزال يذكر والياً بعد وال، حتى بلغ إلى عمر بن عبد العزيز، فقَال: هاتوا عمر. فأتى بغلام فأجلس بين يديه، فقال: جزاك الله خيراً عن الإسلام، فقد أحييتَ العدل بعد موته، وألفْتَ القلوب القاسية، وقام بك عمودُ الدين على ساق، بعد شقاق ونفاق؛ اذهبوا به فألحقوه بالصديقين.

ثم ذكر من كان بعده من الخلفاء إلى أن بلغ دولة بني العباس، فسكت فقيل له:

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٢   (٢) الأسل: الرماح والنبل.

هذا أبو العباس أميرُ المؤمنين. قال: فبلغ أمرنا إلى بني هاشم؟ ارفعوا حساب هؤلاء جملة واقذفوا بهم في النار جميعاً.

من أخبار عيناوة

ومن مجانين الكوفة: عيناوة وطاق البصل. قيل لعيناوة: مَن أحسن، أنت أو طاق البصل؟ قال: أنا شيء وطاق البصل شيء.

من أخبار طاق البصل

وكان طاق البصل يغني بقيراط ويسكت بدانق، وكان عيناوة جيد القفا، فربما مر به من يعبث فيصفعه، فحشا قفاه خراء وقعد على قارعة الطريق، فإذا صفعه احد قال: شمَّ يدك يا فتى! فلم يصفعه أحد بعد ذلك.

رجل وأحمق

ووعد رجلٌ رجلاً من الحمقى أن يُهدِيَ له نعلا حضرمية، فطال عليه انتظارُها فبال في قارورة وأتى الطبيبَ وقال: انظر في هذا الماء إن كان يُهدِيَ إليَّ بعضُ إخواني نعلا مضرمية.

من أخبار مجيبة

وكان بالكوفة امرأة حمقاء يقال لها مجيبة فقفد[1] عيناوةُ فتى كان أرضعتْه مجيبة، فقال له لما وجده: كيف لا تكون أرعن ومجيبة أرضعتك؟ فوالله لقد زقَّت لي فرخا ما زلت أرى الرعونة[2] في طيرانه!.

هبنقة وجرنفش

ومن المجانين: هبنقة القيسي، وجرنفش السدوسي، واسم هبنقة: يزيد بن ثروان، وكنيته: ابو نافع، وكان يحسن من إبله إلى السمان ويسيء إلى المهازيل، فسئل عن

---

(١) قفدة: صفع قفاه ببطن كفه. (٢) الأرعن: المضطرب والأهوج.

ذلك فقال إنما اكْرِم ما أكرم الله، وأُهينُ ما أهان الله.

وشرد بعير له، فجعل بعيرين لمن دلّ عليه، فقيل له: أتجعل بعيرين في بعير؟ قال: إنكم لا تعرفون فرحة من وجد ضالته!

وافترس الذئب له شاة، فقال لرجل: خلِّصها من الذئب وخذها، فان فعلت فأنت والذئب واحد.

وساوم رجل هبنقة[1] فقال: اشتريتها بستة، وهي خير من سبعة، وأُعطيت فيها ثمانية، وإن أردتَها بتسعة، وإلا فزن عشرة!

وكان باقل الذي يُضرب به المثل في العيّ، اشترى شاة بأحد عشر درهما فسئل: بكم اشتريتَ الشاة؟ ففتح يديه جميعاً وأشار بأصابعه وأخرج لسانه، ليتمّ العدد أحد عشر.

الفرزدق والجرنفش

ولما قرّب الفرزدق رأسَ بغلته من الماء، قال له الجرنفش: نحِّ رأسَ بغلتِك حلق الله شأفتك! قال: لماذا عافاك الله؟ قال لانك كذوب الحنجرة زاني الكمرة، فصاح الفرزدق: يا بني سدود. فاجتمعوا إليه، فقال: سوِّدوا الجرنفش عليكم، فما رأيت فيكم أعقلَ منه.

الجرنفش وهبنقة

قال الاصمعي: سُوبِقَ بين الجرنفش وهبنقة، أيُهما أجنُّ وأحمق، فجاء جرنفش بحجارة خِفاف من جص، وجاء هبنقة بحجارة ثقال وترْس، فبدأ الجرنفش فقبض على حجر. ثم قال: درِّي عقاب، بلبن وأشخاب! ثم رفع صوته وقال: الترس! فرمى الترس فأصابه، فانهزم هبنقة، فقيل له: لم انهزمتَ؟ فقال: إنه قال: الترس! ورمى الترس فلم يخطئهُ، فلو أنه قال العين ورماها أما كان يصيب عيني؟

---

(١) هبنّق: أحمق.

ابن المعتمر وامرأة

وتبع داود بن المعتمر امرأة ظنَّها من الفواسد، فقال لها: لولا ما رأيتُ عليك من سيما الخير ما تبعتُك. فضحكت المرأة وقالت: إنما يعتصم مثلي من مثلك بسيما الخير. فأما إذا صارت سيما الخير من سيما الشر فاللهُ المستعان.

بينه وبين اخرى

ووقع داود هذا بجارية، فلما أمعن في الفعل قال لها: أثيِّبُ أم بِكْر؟ فقالت له: سل المجرِّب.

بين غزوان وأمه

قالت ام غزوان الرقاشي لابنها، وهو يقرأ في المصحف: يا غزوان، لعلك تجد في هذا المصحف حماراً كان أبوك في الجاهلية فَقَدَه! فقال: يا أماه، بل اجد فيه وعداً حسناً ووعيداً شديداً.

رجل من النوكى وشيخ في الحمام

ونظر رجل من النوكى إلى شيخ في الحمام وعليه سُرَّة كأنها مدهن عاج، فقال له: يا شيخ، دعني اجعل ذكَري في سرَّتك! فقال له: يابن أخي، وأين يكون استك حينئذ؟

مجانين القصاص

قال ابو دحية القاص: ليس فيّ خير ولا فيكم، فتَبلّغوا بي حتى تجدوا خيرا مني.

وقال في قصصه يوما: كان اسمُ الذئب الذي أكل يوسُفَ كذا! قالوا: إن يوسف لم يأكله الذئب. قال: فهذا اسمُ الذئب الذي لم يأكل يوسف.

وقال ثمامة بن أشرس، سمعتُ قاصا ببغداد يقول: اللهم ارزُقني الشهادة أنا وجميعَ المسلمين.

ووقع الذباب على وجهه، فقال: ما لكـم، كثَّر الله بكـم القبور.

قال: ورأيت قاصا يحدِّث الناس بقتل حمزة، فقال: ولما بقرتْ هندٌ عن كبد حمزة واستخرجتها فعضتها ولاكتها ولم تزدردها، فقال النبي ﷺ: لو ازدردتها ما مستْها النار! ثم رفع القاص يديه إلى السماء وقال: اللهم اطعِمنا من كبدِ حمزة.

باب نوكى الاشراف.

ابن زيد مناة

من النوكى المتقدمين: مالك بن زيد مناة بن تميم، لما دخل على امرأته ناجية مغضباً، فلما رأت ما به من الجهل والجفاء قالت: ضع شملتك. قال جسدي أحفظ لها! قالت: آخلع نعليك. قال: رجلاي أحقُ بهما! فلما رأت ذلك قامت وجلست إليه، فلما شم رائحةَ الطيِّب وثب عليها.

ابن لجيم

ومن النوكى: عجل بن لجيم، قال أبو عبيدة: أرسل ابنٌ لعجل بن لجيم فرسا في حلبة فجاء سابقا، فقال لابيه: كيف ترى أن أسمِّيَه يا أبت؟ قال: افقأ إحدى عينيه وسمِّه الأعور.

قال الشاعر:

رمتْني بنـو عِجْـلٍ بـداءِ أبيهـمُ وأيُّ عبـادِ اللهِ أَنْـوَكُ مـن عِجْـلِ؟
أليسَ أبُـوهـم عـارَ عيْـنَ جـوادِهِ فأضحَت به الامثالُ تضربُ في الجهلِ؟

ومن بني عجل: دُغَة التي يضرب بها المثل في الحُمق، وقد ذكرنا نسبَها وخبرها في كتاب الامثال.

عبيد الله بن مروان

ومن نوكى الاشراف: عبيد الله بن مروان عم الوليد بن عبد الملك، بعث إلى الوليد قطيفة حمراء، وكتب إليه: إني قد بعثتُ إليك قطيفة حمراء. فكتب إليه: قد وصلت القطيفة وأنت والله يا عمِّ أحمقُ أحمق.

معاوية بن مروان

ومنهم معاوية بن مروان، وقف على باب طحان، فرأى حماراً يدور بالرحا وفي عنقه جلجل، فقال للطحان؛ لم جعلت الجلجل في عُنق الحمار؟ قال: ربما ادركتْني سآمة أو نعاس، فإذا لم أسمع صوت الجلجل علمت أنه وقف فصحت به فانبعث. قال: أفرأيت إن وقف وحرّك رأسه بالجلجل وقال هكذا وهكذا - وحرك رأسه - [فما عِلمُك أنه واقف]؟ فقال له: ومن لي بحمار يكون عقله مثل عقل الامير؟

وهو القائل وضاع له باز: أغلقوا أبواب المدينة لا يخرج البازي!

وأقبل إليه قوم من جيرانه فقالوا: مات جارك أبو فلان، فمُرْ له بكفن! فقال: ما عندنا اليومَ شيء، ولكن عودوا إلينا إذا نُبش.

وأقبل إليه رجلٌ أحمقُ منه، فقال له: تعيرُنا أصلحك الله ثوبا نكفن فيه ميتا؟ قال: أخشى أنه يُنجسه، فلا تلبسه إياه حتى يغسل ويطهر!

عيينة بن حصن

ومن النوكى الاشراف: عيينة بن حصن، دخل على عثمان بغير اذن، وكانت عنده ابنته، فقال له عثمان، ألا استأذنت! قال: ما ظننت ان هنا من احتاج ان استأذن عليه؛ قال: ادنُ فتعشَّ. فقال: انا صائم. قال: تصوم الليل وتفطر النهار! وكان النبي ﷺ يسميه السفيه المطاع.

أبان بن عثمان

ومن حمقى قريش: ابان بن عثمان بن عفان، قال الشعبي: قدم أبان على معاوية

فقال: يا امير المؤمنين، زوّجني ابنتك. قال: ياآبن اخي، هما اثنتان: إحداهما عند ابن عامر، والاخرى عند اخيك عمرو. قال: كنت أظن ان لك ثالثة! قال: ياابن اخي، تخطب إليّ ولا تدري لي بنت ام لا! رحم الله أباك.

معاوية بن مروان أيضاً

ومرّ معاوية بن مروان بحقل له فلم ير فيها ما يعجبه؛ فقال: ما كذب من قال: كل حقل لا ترى آست صاحبها لا تُفلح أبداً، ثم نزل عن دابته وأحدث فيها ثم ركب.

وهو الذي يقول لابي امرأته: ملأتني البارحة ابنتُك دماً! قال: إنها من نسوة يخبأن ذلك لازواجهن [وقال له أيضاً يوماً آخر: لقد نكحت ابنتك بعصَبَةٍ ما رأت مثلها قط! قال]: لو كنت خصيا ما زوَجناك، وعلى الذي غرّنا بك لعنة الله!

أبو العاج

وكان ابو العاج واليا بواسط، فأتاه صاحب شرطته بقوّادة، فقال: ما هذه؟ قال: قوادة؛ قال: وما تصنع؟ قال: تجمع بين الرجال والنساء! قال: وإنما جئتني بها لتعرِّفها بداري؟ خلِّ عنها لعنك الله ولعنها.

الربيع العامري

وكان الربيع العامري واليا باليمامة، فأُتى بكلب قد عقَرَ كلباً، فأقاده؛ فقال فيه الشاعر:

شهِـدتُ بـأنّ الله حـقٌّ لِقـاؤهُ   وأن الربيـعَ العـامِـريّ رقيـعُ
أقادَ لنا كلباً بكلْـب فلم يَـدَعْ   دِماءَ كلابِ العـامِـرِيّ تضيـعُ

وقال عوانة: استعمل معاوية رجلا من كلب، فذكر يوما المجوس وعنده النار،

فقال: لعن الله المجوس ينكحون أمّاتهم، والله لو أعطيت مائة الف درهم ما نكحتُ أمي [فبلغ ذلك معاوية، فقال قَبحه الله أتَرَوْنه لو زادوا فَعل، وعَزله].

ثلاثة اخوة من بني عتاب

وكان بالبصرة ثلاثة اخوة من بني عتاب بن أسيد، كان أحدهم يحج عن حمزة ويقول: استشهد قبل أن يَحُج! وكان الآخر يضحّي عن أبي بكر وعمر، ويقول أخطآ السُّنة في ترك الأضْحية، وكان الثالث يُفطِرُ أيام التشريق[١] عن عائشة، ويقول: غلطت رحمها الله صومها أيام التشريق.

الرشيد ورجل من النوكى

ولعب رجل من النوكى بين يدي الرشيد بالشطرنج، فلما رآه قد استجاد لعبه قال له: يا أمير المؤمنين، ولّني نهر بوق. فقال له: ويلك! أولّيك نصفه، اكتبوا عهده على بوق. قال: فولّني أرمينية. قال: إذاً يبطىء على امير المؤمنين خبرُك.

أهل العي والجهل المشبهون بالمجانين

ابن أبي سود

خطب وكيع بن أبي سود وهو والي خراسان، فقال في خطبته: إن الله خلق السموات والارض في ستة أشهر! فقالوا له: بل في ستة أيام! فقال: والله لقد قلتها وأنا أستقلها.

عدي بن زياد

وخطب عدي بن زياد الإيادي فقال في خطبته: أقول لكم ما قال العبد الصالح

---

(١) التشريق: أيام التشريق: ثلاثة أيام بعد يوم النحر.

لقومه: ﴿ما أريكم إلاّ ما أرى وأهْدِيكم إلاّ سبيل الرّشادِ﴾ [1] فقالوا له: إن هذا ليس من قول العبد الصالح، إنما هو من قول فرعون! فقال: من قاله فقد أحسن!

ابن ورقاء

وخطب عتاب بن ورقاء الرياحي فقال: أقول لكم كما قال الله في كتابه:

كُتِب القتْلُ والقتالُ علينا ... وعلى الغانياتِ جَرُّ الذُّيولِ

والي باليمامة

وخطب والٍ باليمامة فقال في خُطبته: إن الله تبارك وتعالى لا يعاون عباده على المعاصي، وقد اهلك امة عظيمة على ناقة ما كانت تساوي مائتي درهم. فسُميَ مقوِّم الناقة

ابن سنان

وبكى حول ابن سنان أولادهُ وأهله حين ودّعوه وهو يريد مكة حاجا؛ فقال: لا تبكوا، فإني أرجو أن أضحِّيَ عندكم!

كردم السدوسي

ودخل قوم دارَ كردم السدوسي فقالوا له: أين القبلة في دارك هذه؟ فقال: إنما سكنَّاها منذ ستة أشهر.

ودخل كردم السدوسي على رجل، فدعاه إلى الغِذاء؛ فقال: قد أكلت. قال: وما أكلت؟ قال: قليل أرزٍ فأكثرت منه!

عناق

وقيل لابي عبد الملك عناق: بأي شيء تزعمون أن أبا علي الاسواري أفضل من

(١) سورة غافر الآية ٢٩.

سلام أبي المنذر؟ قال: لانه لما مات سلام ابو المنذر مشى أبو عليّ في جنازته، فلما مات أبو عليّ لم يمش في جنازته!

كردم

ومرض كردم، فقال له عمه: أيَّ شيء تشتهي؟ فقال: رأس كبشين! قال: لا يكون. قال: فرأسي كبش! قال: لا يكون: فقال: لست أشتهي شيئاً.

ابن طارق

وقال مسعدة بن طارق الذرّاع: إنا لوقوفٌ على حدود دار نقسمها، إذ أقبل عيص سيدُ بني تميم والمصلي على جنائزهم، ونحن في خصومة لنصلح بينهم؛ فقال: خبروني عن هذه الدار هل ضم بعضها إلى بعض أحدٌ؟... فأنا منذ ستين سنة أُفكِّر في كلامه فما أُدرك له معنى ولا مجازا.

وأقبل كردوم السدوسي إلى قوم ليكسر لهم دوراً، فوجد دارا منها فيها زنقة[1] فقال: ليست هذه الدارُ لكم. فقالوا: بلى، والله ما نازعنا أحدٌ قط فيها. قال: فليست الزنقة لكم. قالوا: فكسر ما صح عندك أنه لنا ودع الزنقة. فكسر صحن الدار، فقال: عشرون في عشرين مائتان! قالوا: من هذا المعنى لم تكن الزنقة عندك لنا؛ عشرون في عشرين مائتان.

فرضي

وسئل آخر كان ينظر في الفرائض عن فريضة لم يعرفها، فالتمسها في كتابه فلم يجدها؛ فقال: لم يمت هذا الرجل بعد، ولو مات لوجدت فريضته في كتابي.

وعزى قوماً فقال: أجَرَكم الله وأعظم أجوركم وأَجرَكم، فقيل له في ذلك، فقال: مثل قول مروان بن الحكم: بارك الله فيكم وبارك لكم وبارك عليكم.

---

(١) زنقة: السكة الضيقة فيها التواء.

أبو ادريس السمان

وكان ابو إدريس السمان يكتب: فلا صحبك الله إلا بالعافية، ولا حيا وجهك إلا بالكرامة!

رجل ووكيله

العتبي قال: بعث رجل وكيله إلى رجل من الوجوه يقتضيه ما عليه، فرجع إليه مضروبا؛ فقال: ما لك ويلك؟ قال: سبك فسببته فضربني. قال: وبأي شيء سبني؟ قال: [قال:]: هن الحمار في حِرِ آمّ الذي أرسلك! قال له: دعني من افترائه عليّ؛ وأخبرْني أنت كيف جعلت لاير الحمار من الحرمة ما لم تجعل لحر آمي؟ هلا قلت: أيرُ الحمار في هن أمّ من ارسلك!

أبو نواس ووراق

وقال أبو نواس: قلت لاحد الوراقين الذين يكتبون بباب البطوني: إيُّما أسنّ أنت أم أخوك؟ قال: إذا جاء رمضان استوينا!

المأمون وابن اشرس

قال ثمامة بن أشرس للمأمون: مررت في غِبِّ مطر والارض ندِية والسماء متغيمة والريح شمال، وإذا بشخص أصفر كأنه جرادة، وقد قعد على قارعة الطريق، وحجّامٌ يحجمه على كاهله وأَخْدَعيْه بمحاجم كأنها قِعاب[1] وقد مص دمه حتى كاد يستفرغه، فقلت: يا شيخ، لم تحتجم في هذا البرد؟ قال: لهذا الصَّفار الذي بي.

أبو عتاب وبره بأمه

وقيل لابي عتاب: كيف بِرُّك بأمّك؟ قال: والله ما قرعتُها بسوط قط!

---

(١) القعاب: مفردها قعب، وهو القدح الضخم الغليظ.

النوكى من نساء الأشراف

دغة العجلية، وجَهيزة، وشولة، وذَراعة، وسارية الليل، وريطة بنت كعب، وهي التي نقضت غزلها أنكاثا، وفيها يقال في المثل: خرقاء وجدت صوفا.

وقال عمرو بن عثمان: شيعت القاضي عبد العزيز بن عبد المطّلب المخزومي قاضي مكة إلى منزله، وبباب المسجد حمقاء تصفق بيديها وتقول:

أرَّقَ عينيَّ ضراطُ القاضي

فقال لي: يا أبا حفص، أراها تعني قاضي مكة؟

من حكم المجانين

وقد يأتِي لهؤلاء المجانين كلام نادر محكم لا يُسمع بمثله، كما قالوا: ربّ رميةٍ من غير رامٍ.

قيل لدغة: أي بنيكِ أحَبْ إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يُفيق، والغائب حتى يرجع.

ومن أخبار اهل العي المشبهين بالمجانين

أبو طالب

دخل أبو طالب صاحب الحنطة على هاشمية جارية حمدونة بنت الرشيد، ليشتري طعاماً من طعامهم؛ فقال لها: قد رأيت متاعك وقلبته، قالت له: هلا قلتَ طعامكِ يا أبا طالب! قال: قد أدخلت يدي فيه فوجدته قد حَمِيَ وصار مثل الجيفة، قالت: يا أبا طالب، الست قد قلَّبت الشعير فأعطنا به ما شئت وإن كان فاسداً.

رجلان من النوكى وعبد لهما

قال الاصمعي: كان بين رجلين من النَّوكى عبدٌ. فقام أحدهما يضربه، فقال له شريكه: ما تصنع؟ قال: أنا أضرب نصيبي منه! قال: وأنا أضرب حصتي فيه! وقام فضربه؛ فكان من رأى العبد أن سَلَحَ عليهما وقال: آقسما هذه على قدْر الحصص.

باكية على قبر

ومرّ بعضُهم بامرأة قاعدة على قبر وهي تبكي، فقال لها: ما هذا الميِّتُ منك؟ قالت: زوجي! قال: وما كان عمله؟ قالت: كان يحفر القبور! قال: أبعَده الله، أما علم أنه من حفر حفرة وقع فيها.

ابن أشرس ورجل من النوكى

وطلب رجل من النَّوكى من ثمامة بن أشرس أن يُسلفه مالا ويؤخِّره به؛ قال: هاتان حاجتان، وأنا أقضي لك إحداهما. قال: رضيت. قال: أنا أؤخرك ما شئتَ ولا أُسلفك.

امرأة ابي رافع وصيرفي

وكان ابو رافع مولى رسول الله ﷺ؛ وآلُ أبي رافع من فضلاء أهل المدينة وخيارهم، مع بَلَه فيهم وعِيّ شديد؛ فمن ذلك: أن امرأة ابي رافع رأته في نومها بعد موته، فقال لها: أتعرفين فلانا الصيرفي؟ قالت له: نعم. قال: فإن لي عليه مائتي دينار.

فلما انتبهت غدتْ إلى الصيرفي فأخبرته الخبر، وسألته عن المائتي دينار؛ فقال رحم الله أبا رافع، والله ما جرتْ بيني وبينه معامَلَة قط! فأقبلت إلى مسجد المدينة، فوجدت مشايخ من آل أبي رافع، كلهم مقبول القول، جائز الشهادة؛ فقصت عليهم الرؤيا، وأخبرتهم خبرها مع الصيرفي وإنكارَه لما ادّعاه أبو رافع؛ قالوا: ما كان أبو رافع ليكذب في نوم ولا يقظة! قرِّبي صاحبك إلى السلطان، ونحن نشهد لك عليه!

فلما علم الصيرفي عَزْم القوم على الشهادة لها، وعلم أنهم إن شهدوا عليه لم يبرح حتى يؤدّيها: قال لهم: إن رأيتم أن تصلحوا بيني وبين هذه المرأة على ما ترونه فافعلوا. قالوا: نعم والصلح خير، ونِعْمَ الصلحُ الشطر؛ فأدّ إليها مائة دينار من المائتين! فقال لهم: أفعل، ولكن اكتبوا بيني وبينها كتابا يكون وثيقة لي. قالوا: وكيف تكون هذه الوثيقة؟ قال: تكتبون لي عليها انها قبضت مني مائة دينار صلحاً على المائتي دينار التي ادّعاها ابو رافع عليّ في نومها، وأنها قد أبرأتني منها، وشرطتْ على نفسها ان لا ترى أبا رافع في نومها مرة اخرى، فيدعي عليّ بغير هذه المائتي دينار، فتجيء بفلان وفلان يشهدان عليّ لها! فلما سمعوا الوثيقة انتبه القوم لانفسهم، وقالوا: قبحك الله وقبح ما جئتَ به.

عامر بن عبد الله

ومنهم عامر بن عبد الله بن الزبير، أُتِيَ بعطائه وهو في المسجد، فقام ونسيه في موضعه؛ فلما أتى البيت ذكره، فقال: يا غلام، ائتني بعطائي الذي نسيتُ في المسجد! قال: وأين يوجد وقد دخل المسجد بعدك جماعة؟ وبقي أحد يأخذ ما ليس له!؟

وسُرقت نعله مرة، فلم يلبس نعلا بعدها حتى مات، وقال: أكره أن أتخذ نعلا يجيء من يسرقها فيأثم!

وفي هذا الضرب يقول أبو أيوب السختياني: من أصحابي من أرجو بركته ودعاءه ولا أقبلُ شهادتَه.

عابد في بني اسرائيل

قال الاصمعي: كان الشعبي يحدّث انه كان في بني إسرائيل عابدٌ جاهل قد ترهّب في صومعته، وله حمار يرعى حول الصومعة؛ فاطّلع عليه من الصومعة فرآه يرعى، فرفع يده إلى السماء فقال: يا رب، لو كان لك حمار كنت أرعاه مع حماري وما كان

يشق عليّ! فهمَّ به نبيٌّ كان فيهم في ذلك الزمان، فأوحى الله إليه: دَعهُ، فإنما أثيب كل إنسان على قدر عقله.

ابن سيرين ومجنون

هشام بن حسان قال: أقبل رجل إلى محمد بن سيرين فقال: ما تقول في رؤيا رأيتُها! قال: وما رأيتَ؟ قال كنت أرى ان لي غنما، فكنت أُعطي بها ثمانيةَ دراهم، فأبيت من البيع ففتحت عيني فلم أر شيئاً، فأغلقتها ومددتُ يدي؟ وقلت: هاتوا أربعة. فلم أُعْطَ شيئاً فقال له ابن سيرين: لعل القوم اطلعوا على عيب في الغنم فكرهوها! قال: يمكن الذي ذكرتَ.

شعراء المجانين

منهم أبو ياسين الحاسب، وجعيفران، وجرنفش، وأبو حية النميري، وريسيموس، وصالح بن شرزاد الكاتب.

وكان أبو حية أجنّ الناس وأشعرَ الناس، وهو القائل:

ألاَ حيِّ أطلالَ الرسومِ البَوالِيا ... لبِسنَ البِلَى مما لبِسْنَ اللّياليا
إذا ما تقاضَى المرْءَ يومٌ وليلةٌ ... تقاضاه أمْرٌ لا يملُّ التّقاضِيا

وهو القائل أيضاً:

فلأبعَثنّ مع الرِّياحِ قصيدةً ... مني مُغلْغلةً إلى القَعْقاع
تَرِدُ المنازِلَ لا تزالُ غريبةً ... في القومِ بعد تمتُّع وسماع

وهو القائل أيضاً:

فأبْدتْ قِناعاً دُونَه الشمسِ واتّقتْ ... بأحسنِ مَوصولَيْنِ كَفٍّ ومِعصمِ

وأما جعيفران الموسوس الشاعر، وهو من مجانين الكوفة، فإنه لقى رجلاً فأعطاه درهماً وقال له: قل شعراً على الجيم فقال:

عـادني الهمُّ فـاعْتَلَـجْ ... كـلُّ هـمّ إلى فـرَجْ
سـلِّ عنـك الهمـومَ بـالـكـأسِ والراحِ تنْفـرِج

وهو القائل:

مـا جعْفَـرٌ لأبيـهِ ... ولا لـه بشبيـهِ
أضحـى لقـوْم كثيرٍ ... فكلُهـمْ يـدَّعيـهِ
هٰـذا يقـولُ بُنـيَّ ... وذا يُخـاصمُ فيـه
والأمُّ تضحـك مِنهـم ... لعلمِهـا بـأبِيـه

قال أبو الحسن: استأذن جعيفران على بعض الملوك، فأذن له، وحضر غداؤه، فتغذى معه؛ فلما كان من الغد استأذن فحجبه، ثم أتاه في الثالثة فحجمه، فنادى بأعلى صوته:

عليـكَ إذنٌ فـإنـا قـد تغـذيْنـا ... لسنا نعـودُ، وإن عـدنـا تعـدّيْنـا
يا أكْلَـةً ذهبـتْ أبقَـت حـرارتها ... داءً بقلْبـكَ مـا صُمْنـا وصلَّينـا!

أبو وائل:

العتبي قال: قال أبو وائل لأبي: إن فيّ حماقة، ولكن إن طلبتَ الشِّعر وجدت عندي منه علماً. قال: وهل تقول منه شيئاً؟ قال: نعم، أقول أجود من قولك، وأنا الذي أقول:

لـو أنّ جـومَـلَ كلّمتْني بعـدَ مـا ... نسِيَت جـوانِحـيَ البكـاءَ وأُقْبَـرُ
لحسِبْتُ ميِّـتَ أعظُمـي سَيُجيبُهـا ... أو أنّ بـاليهـا الرَّحيم سيُنشَـرُ[1]

قال له أبي: أما الشعر فحسن، إلا أن اسم المرأة قبيح. قال: الآن اسم المرأة جمل، ولكنني ملحته بجومل! فقال له: إن هذا من الحماقة التي بريء إلينا منها.

قال العتبي: قال أبي وأنشدني أبو وائل:

---

(١) سينشر: سيبعث حياً.

ما أوجعَ البيْنَ من غريبِ فكيف إنْ كان من حَبيب[1]
يكادُ من شوقِه فُؤادِي إذا تذكرْتُه يَموتُ

فقال له أبي: إن هذا باء وهذا تاء. قال: لا تنقط أنت شيئاً. قلت: يا هذا إن البيت الأول مخفوض وهذا مرفوع. قال: أنا أقول لا تنقط: وهو يشكل!

ولما توفيت أم سليمان بن وهب الكاتب، أخي الحسن بن وهب، دخل عليه رجل من نَوكى الكتاب يسمى صالح بن شيرزاد، بشعر يرثيها فيه، فأنشده:

لأمِّ سُليمانٍ علينا مُصيبةٌ مُغلْغلةٌ مثل الحُسامِ البواتِر
وكنتِ سِراجَ البيتِ يا أُمَّ سالمٍ فأمْسى سراجُ البيتِ وسْط المقابرِ

فقال سليمان: ما نزل بأحد ما نزل بي: ماتت أُمي، ورُثيتْ بمثل هذا الشعر ونُقل اسمي من سليمان إلى سالم!

ومن قول صالح بن شيرزاد هذا:

لا تعدِلَنَّ دواءً بالنساء فإن كان الضراك فذاك الآذر يطوسُ[2]

أبو الواسع ومجنون:

ودخل بعض شعراء المجانين على أبي الواسع وحوله بنوه، فاستأذنه في الإنشاد فاستعفى، فلم يزل به حتى أذن له؛ فأنشده شعراً، فلما انتهى فيه إلى قوله:

وكيفَ تُنفَى وأنتَ اليوم رأْسُهُمُ وحولَكَ الغُرُّ من أبنائِكَ الصَّيد[3]

قال له: ليتك تركتنا رأسا برأس.

---

(١) البين: الفراق.

(٢) الآذريطوس: دواء يوناني معرب.

(٣) الصيد: جمع الأصيد، وهو كل ذي حول وطول من ذوي السلطان.

ابن سيار ومجنون:

وقيل: وفد أعرابي من شعراء المجانين إلى نصر بن سيار بشعر تغزل فيه بمائة بيت، ومدحه ببيتين؛ فقال له: والله ما تركت قافية لطيفة ولا معنى إلا شَغلت به نسيبَك دون مدحك. قال: سأقول غير هذا. فغدا عليه بشعر يقول فيه:

هـــل تَعـــرِفُ الدارَ لأمِّ الغمـــرِ دع ذا وحَبِّـرْ مِـدحـةً في نَصرِ (١)

فقال له نصر: لا ذا ولا ذاك.

وقال بعض العلماء: ما شبَّهتُ تأويل الرافضة في قبح مذهبهم إلا بتأويل رجل من مجانين أهل مكة للشعر؛ فإنه قال: ما سمعت بأكذب من بني تميم؛ زعموا أن قول القائل:

بيـتٌ زُرَارةُ مُحْتَـبٍ بِفِنـائِـه ومُجاشِعٌ وأبو الفوارِسِ نَهشَـلُ

... زعموا أن هذه أسماء رجال منهم! قال بعض أهل الأدب: قلت له: وما عندك أنت فيه؟ قال: البيت بيت الله، وزرارة الحجر، ومجاشع زمزم جَشِعت بالماء، وأبو الفوارس هو أبو قبيس جبل مكة! قلت له: فنهشل؟ قال نهشل...؟ وفكر فيه ساعة، ثم قال: قد أصبته؛ وهو مصباح الكعبة طويل أسود؛ فذلك النهشل!

من أخبار مجانين دير هزقل:

قال المبرد محمد بن يزيد النحوي: خرجنا من بغداد نريد واسطاً، فملنا إلى دير هِزْقِل ننظر إلى المجانين، فإذا المجانين كلهم قد رأونا، ونظرنا إلى فتى منهم قد غسل ثوبه ونظفه وجلس ناحية عنهم؛ فقلنا: إن كان فهذا فوقفنا به، فسلمنا عليه فلم يردّ السلام؛ فقلنا له: ما تجد؟ فقال:

اللهُ يعلـمُ أننـــي كمـــدُ لا أستطيعُ أبُـثُّ مـا أجِـدُ (٣)

---

(١) حبّر: كتب.

(٢) احتبى: جلس على أليته وضمّ فخديه وساقيه الى بطنه بذراعيه ليستند.

(٣) ما أجد: ما عندي من الوجد.

نفْســـانِ لي نفسٌ تضمَّنهـــا بَلـدٌ وأخـرى حـازَهـا بَلـــد
وأرى المُقيمـــةَ ليس ينفَعهـــا صبرٌ وليس بَفـوقُهـا جَلَـــدُ
وأظَـنُّ غـائِبتي كشـاهِـدتِـــي فكــأنَّهـا تجدُ الذي أجــــد

فقلت له: أحسنتَ والله! فأومأ إلى شيء ليرمينا به، وقال: أمثلي يقال له أحسنت! قال: فولّيْنا عنه هاربين، فقال: أسألكـم بالله ألا ما رجعتم حتى أنشدكـم فإن أحسنتُ قلتم لي أحسنت، وإن أسأت قلتم لي أسأت. قال: فرجعنا ووقفنا، وقلنا له: قل. فأنشأ يقول:

لما أنـاخُـوا قُبيْـلَ الصبْـحِ عِيسهُـم ورحّلوها وسارتْ بالـدُّمَـى الإبِـلُ[1]
وقلّبتْ من خلالِ السّجفِ نـاظـرَهـا تَـرنـو إليَّ ودَمـعُ العيْـن مُنهمِـلُ[2]
وودَّعـــتْ ببنَـــانٍ عقْـــدَهُ عنَـــمٌ ناديتُ: لا حَمَلتْ رِجلاكَ يا جَمَـلُ[3]
ويْلي مـنَ البيْـنِ! مـاذا حَـلَّ بي وبِها من نازلِ البينِ؟ حلَّ البينُ وارتحلوا[4]
يا راحِلَ العِيسِ عـرِّج كـي أُودِّعهُـم يا راحِلَ العيسِ في تَرحالِكَ الأجلُ[5]
إني على العهـدِ لم أنقُـض مـودَّتهـم يا ليتَ شعري بطولِ العهدِ ما فَعلوا

قال: فقلنا له: ماتوا! فصاح وقال: وأنا والله أموت: وتربع وتمدد فمات، فما برحنا حتى دفناه.

وقال محمد بن يزيد المبرِّد: دخلنا دير هِزْقل، فإذا بمجنون بيده حَجَر، وقد تفرّق الناس عنه، وهو يقول: يا معشَر إخواني، اسمعوا مني. ثم أنشأ يقول:

وذي نَفَسٍ صـــاعـــدِ يَئِـــن بلا عـــائِـــدِ
يَكـــرُّ على جَحفَـــلٍ ويضعُـفُ عـن واحِـدِ[6]

---

(١) العيس: النوق.
(٢) السجف: أحد الستارين المقرونين بينهما فرجة.
(٣) العنم: نبات تحمل اوراقاً متقابلة تشبه ورق الزيتون، وأزهاره قرمزية يتخذ منها خضاب.
(٤) البين: الفراق. (٥) عرج: مال.
(٦) الجحفل: الجيش.

وأنشد أبو العباس لمان الموسوس:

لـهُ وجَنـاتٌ في بيـاضٍ وحُمـرةٍ   فحافاتُها بِيضٌ وأوسـاطُها حُمـرُ
رِقـاقٌ يجولُ الماءُ فيهـا كـأنها   زُجاجٌ أُريقت في جَوانِبِهـا الخمـر

وقال محمد بن يزيد: أصابتنا سحابة جود، ثم أقلعت سريعاً، فمر بي مان الموسوس فقال:

لا تظـنَّ الذي جـرى   مطـراً كـان مُمطـرَا
إنمـا ذاكَ كلُّـهُ   دمـعُ عيني تَحـدَّرا[1]
وتـوالت غُيـومُهـا   مـن هُمـومـي تَفكّـرا
هكـذا حـالُ مـن يَـرى   مـن حبيـبٍ تغيُّـرا

وقف مان الموسوس على أبي دلف، فأنشده:

كـرّاتُ عينِـكَ في العـدَا   تُغنيـكَ عـن سَـلِّ السُّيـوفِ

فقال أبو دلف: والله ما مُدحت قط بمثل هذا البيت! وأمر له بعشرة آلاف درهم، فأبى أن يقبضها وقال: نقنع من هذا بنصف درهم في هريسة.

ولمان الموسوس:

من الظبـاءِ ظِبـاءٌ همُّهـا السُّخُـبُ   وحَلْيُها الدُّرُّ والياقـوتُ والذهـبُ
يا حُسْنَ ما سرَقت عيْني وما آنتهَبتْ   والعينُ تسرِقُ أحيـانـاً وتَنهِـب
إذا يـدٌ سرقـت فـالحدُّ يقطعهـا   والحدُّ في سرقـةِ العينين لا يَجب

أبو الجهم ومبرسم:

ومرّ عليّ بن الجهم بمبرسم قد اجتمع الناس عليه، وتحلّقوا حوله؛ فلما رآه المبرسم قصد نحوه، وأخذ بعنانه، ثم أنشأ يقول:

لا تَحلِفَـنَّ بمعشـر الـ   ـهمـجِ الذيـن أراهـمُ

---

(١) تحدر: سال.

فوحقِّ مَن أبْلَى بهم نفسي ومن عافاهم
لو قِيس موتاهم بهم كانوا هُمُ موتاهم

ثم نظر حوله فرأى غلاماً جميل الهيئة حسن الوجه، فشق ثيابه وقال:

هذا السعيدُ لديهِمُ قد صار بي أشْقاهُمُ

أبو فحمة:

قال أبو البْحتري الشاعر: كان يبلغني أن ببغداد مجنوناً يكنى أبا فحمة، له بديهة حسنة، فتعرضتُ له، فأتيح لي لقاؤهُ في بعض سكك بغداد؛ فقلت له: كيف أصبحت أبا فحمة؟ فأنشأ يقول:

أصبحتُ منك على شَفا جُرُفِ متعرِّضاً لِمَوارِدِ التَّلَفِ[1]
وأراك نحوي غيرَ ملتفِتٍ متحرِّفاً عن غيرِ مُنحرَف
يا مَن أطال بهَجرِه كَلَفي أسفي عليك أشدُّ من كلفي

قال أبو البحتري: فأخرجت له قبصة نرجس كانت في كُمِّي فحيّيته بها، فجعل يشمها ملياً، ثم أنشأ يقول:

لَمّا تزوجتِ الجنوبُ بهاطِلٍ جَوْنٍ هَتونٍ زِبْرِجٍ دَلاَّحِ[2]
أضحى يُلقِّحُها بوَسْمِي الصَّبا فاستثقلت حَمْلا بغير نِكاحِ[3]
حتى إذا حان المَخاضُ تفجّرتْ فأتت بولدان بِلا أرواحِ
حاك الربيعُ لها ثِياباً وشِّيَت بيد النَّدَى وأنامِلِ الأرواح
من أصفرٍ في أزهر قد زانَهُ تبرٌ على ورقٍ من الأوضاحِ
رُكِّبْنَ في عَمدِ الزَّبَرْجد فاغتدَى نحو الغزالة ناظراً بمِلاح

---

(١) الجُرُف: شق الوادي أذا حفر الماء في أسفله.

(٢) الزبرج: السحاب الرقيق فيه حمرة.

(٣) الصبّا: ريح مهبها من مشرق الشمس اذا استوى الليل والنهار.

من شعر ماني:

قال الحسن بن هانيء: لقيت مانياً الموسوس، فأنشدني:

شِعْرُ حيّ أتاك من لفظِ ميْت ... صار بين الحياةِ والموتِ وقْفا
قد بَرَتْ جسمَه الحوادثُ حتى ... كاد عن أعيُنِ البَريَّةِ يَخفَى
لو تأمَّلْتَني لِتُبْصِرَ شخصي ... لم تبيَّنْ من المحاسنِ حَرْفا

من شعر جعيفران:

ثم مضيت فأتيت جعيفران الموسوس، وهو شيخٌ من بني هاشم أرتّ[1] اللسان، وعليه قيد من فضة، وفي عنقه غل من ذهب؛ فقال لي: من أين دببت يا حسن؟ قلت: من بيت مانويه. فقال: في حرآم مانويه. فدعا بدواة وقرطاس، وقال لي: اكتب.

ما غرَّد الديكُ ليْلاً في دُجُنّتِه ... إلا حَثَثت إليك السيْرَ مجهودَا[2]
ولا هَدَتْ كلُّ عينٍ لذّ راقدُها ... بنومةٍ في لذيذِ العيش ممْهودا
إلا آمتَطيت الدُّجا شوْقاً إليك ولو ... أصبحتُ في حِلَقِ الأقيادِ مصْفودا[3]
أسعى مُخاطرةً بالنَّفْسِ يا أملي ... والليلُ مُدَّرِعٌ أثوابَه السُّودا
فلم تَرِقّ ولم تَرْثِ لمكْتَئِبٍ ... زوَّدْتَه حركاتِ القلبِ تزويدا
هيهاتَ لا غدرَ في جنٍّ ولا بشر ... من الخلائق إلا فيك موجودا

من شعر عدرد:

ثم قال: خرق رقعة مانويه. فخرقتها ثم مضيت، فلقيت عدرد المصاب وحوله الصبيان، وهو يلطم وجهه ويبكي، وينادي: أيها الناس، الفراق مُرٌّ المذاق! فقلت له: أبا محمد، من أين أقبلت؟ قال: شيعتُ الحاج. قلت، وما الذي حملك على

---

(١) أرت: في لسانه رُتّه، والرته: عجلة في الكلام وقلة أناة.

(٢) الدجنة: السواد والظلمة. (٣) صفده: شده وأوثقه.

تشييعهم؟ فقال: لي فيهم سَكَن[١] . قلت: فهل قلت فيهم شيئاً؟ قال: نعم. وأنشدني:

هـمُ رحلـوا يـومَ الخميس عشيَّـةً   فـودّعتهـم لمّا آستقلـوا وودّعـوا
فلما تـولّـوْا ولّـتِ النفسُ معْهـمُ   فقلتُ ارجعي قالت إلى أين أرجع؟
إلى جسـدٍ مـا فيـه لحمٌ ولا دمٌ   ومـا هـو إلا أعظُـمٌ تتقعقـعُ
وعينـان قـد أعيـاهُما كثْرَةُ البُكـا   وأُذنٌ عصَت عـذّالَهـا ليس تسمـع

أديب ذاهب العقل:

أبو بكر الوراق قال: حدثني صديقٌ لي؛ قال: رأيت رجلاً من أهل الأدب قد ذهب عقله بالمحبة، وخلفه دابة له تدور معه، فاستوقفتُه وقلت له: يا فلان، ما حالك؟ وأين النعمة؟ قال: تغير قلبي فتغيرتِ النعمة! قلت: بم تغيّر؟ قال: بالحب! ثم بكى وأنشأ يقول:

أرى التجمُّل شيئـاً لسـت أُحْسِنـه   وكيف أُخْفي الهوى والدَّمْعُ يُعْلِنُه[٢]
أم كيف صبرُ مُحـبٍّ قلبُـه دَنِـفٌ   الهجرُ يُنْحِلُه والشَّوْقُ يحزنـه؟[٣]
وإنـه حين لا وصـلٌ يُسـاعِفُـه   يَهوَى السُّلوَّ، ولكن ليس يُمْكِنُـه
وكيف يَنسى الهوى مَنْ أنت هِمَّتُـه   وفترةُ اللحْظِ مـن عينيـك تَفْتِنُـه؟

فقلت: أحسنت والله! فقال: قف قليلاً، فوالله لأطرحنّ في أذنيك أثقلَ من الرصاص وأخف على الفؤاد من ريش الحواصل! وأنشد:

للحـبِّ نـارٌ على عينَـيَ مضرَمَـةٌ   لم تبلُغِ النـارُ منهـا عُشرَ مِعْشـارِ
الماءُ ينبعُ منهـا مـن مَحـاجـرهـا   يا للرِّجـال لِماءٍ فـاض مـن نـار!

ثم وقف وأنشد:

أعـاد الصُّـدودَ فـأحيـا العَليلا   وأبـدَى الجفـاءَ فصبراً جميلا[٤]

---

(١) السكن: أهل الدار.
(٢) التجمل: تكلف الحسن والجمال.
(٣) الدنف: الذي اشتد مرضه. (٤) الصد: الهجر.

وَرَدّ الكتابَ ولم يَقْرَهْ لئلاَّ أردّ إليه الرسولا
وأحسِبُ نفسي على ما تَرى ستَلقى من الهَجر همّاً طويلا
وأحسِبُ قلبي على ما أرى سيذهبُ سِنّي قليلا قليلا!

ثم ترك يدي ومضى:

وحكى أبو العباس المبرد قال: دخل عمرو بن مسعدة على المأمون وبين يديه جام[1] زجاج فيه سكر طبرزذ وملح جريش؛ قال: فسلمتُ، فرد وعرض عليّ الأكل؛ فقلت: ما أُريد شيئاً، هنَّأك اللهُ يا أمير المؤمنين، فلقد باكرت بالغداء فإني بتُّ جائعاً. ثم أطرق ورفع رأسه وهو يقول:

اعرِضْ طعامَكَ وابْذُلْهُ لمنْ دخلا واحلِفْ على مَن أبى، واشكرْ لمنْ أكلا
فلا تكنْ سابريّ العِرضِ مُحتشِما من القليلِ، فلستَ الدهرَ محتفلا[2]

ودعا برطل؛ ودخل رجل من أجلة الفقهاء، فمد يده إليه، فقال؛ والله يا أمير المؤمنين ما شربتُها ناشئا، فلا تسقنيها شيخا! فردّ يده إلى عمرو بن مسعدة فأخذها منه، وقال: يا أمير المؤمنين، الله الله! إني عاهدت الله في الكعبة أن لا أشربها أبداً! ففكر طويلاً؛ والكأس في يد عمرو بن مسعدة، حتى لقد ظن أنه سيأمر فيها؛ ثم قال:

رُدَّا عليَّ الكأسَ إنّكما لا تعْلَمانِ الكأسَ ما تُجْدِي
لو ذُقتُما ما ذُقتُ ما آمتزجت إلا بدمْعِكما منَ الوَجْدِ[3]
خَوفتُمانِي آللهَ ربّكما وكخيفَتِيهِ رجاؤُهُ عندِي
إنْ كُنتما لا تَشربانِ معي خَوْفَ العِقابِ شرِبتُها وحدِي!

ابن أوس ومان في غلام:

محمد بن يزيد الأسدي قال: حدثني حبيب بن أوس قال: كنت في غرفة لي على

---

(١) الجام: إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها.

(٢) السابري: الرقيق من الثياب. (٣) الوجد: العشق الشديد.

شاطىء دجلة في وقت الخريف، فإذا بغلام كنت أعرفه بجمال، قد تجرد من ثيابه وألقى نفسه في الدجلة يسبحُ فيها، وقد احمرَّ جلدُه من برْد الماء؛ وإذا مان الموسوس يرمقه ببصره، فلما خرج من الماء قال:

خَمَشَ الماءَ جلــدَهُ الرطــبَ حتى   خِلْتُـهُ لابِســاً غلالــةَ خَمْــرِ[1]

قلت له: لعنك الله يا ماني! أبَعْدَ الجهاد والغزو تحبّ غلاماً قد بات مؤخراً في الحانات؟ فقال لي: ليس مثلك يُخاطَب يا أحمق، وإنما يخاطب هذا وأشار إلى السماء، وقال:

بكفَّيــكَ تَقليــبُ القلــوبِ وإنني   لَفــي تَــرح مِمَّا أُلاقــي فما ذَنْبي؟
خلقْتَ وجـوهـاً كـالمصـابيـحِ فتنـة   وقلتَ اهْجر وهاعزَّ ذلك منْ خطْبِ![2]
فإمـا أبَحـت الصبَّ مـا قـد خلَقتـهُ   وإما زجرْتَ القلبَ عن لوْعـةِ الحُبِّ!

أخذ هذا المعنى يزيد بن عثمان فقال:

أيـا ربِّ تخلُـقُ مـا تخلُـقُ   وتنهـي عبـادَك أنْ يعشِقـوا؟
إلهي، خلقتَ حسـانَ الوجـوهِ   فـأيُّ عبـادِك لا يَعشِـقُ

وقال أبو بكر الموسوس في نصراني:

أبصرتُ شخْصَكَ في نومِي يُعـانقُني   كما تُعـانـقُ لام الكـاتـبِ الأَلِفـا
يا من إذا درَسَ الإنجيـلَ ظـلَّ لـهُ   قلبُ الحنِيفِ عن الإسلامِ منصرفا!

وله فيه:

زُنَّـــارُهُ في خصرِهِ معقــود   كـأنـه مِـن كبـدي مقـدُود

أخبار البخلاء

بخل أهل مرو، ولأبن أشرس فيهم:

أجمع الناس على بخل أهل مرو، ثم أهل خراسان

---

(١) خمش: خدش.   (٢) الخطب: المصيبة.

قال ثمامة بن أشرس: ما رأيت الديك قط في بلدة إلا وهو يدعو الدجاج ويثير الحب إليها ويلطف بها، إلا في مرو، فإني رأيته يأكل وحده، فعلمت أن لؤمهم في المآكل.

ورأيت في مرو طفلاً صغيراً في يده بيضة، فقلت له: أعطني هذه البيضة. فقال: ليس تسعُ يدُك! فعلمت أن اللؤم والمنع فيهم بالطبع المركب والجبلّة[1] المفطورة.

مروزي اشتكى سعالا:

واشتكى رجل مروزيٌّ ضررا من سعال؛ فدلّوه على سويق اللوز، فاستثقل النفقة ورأى الصبر على الوجع أخف عليه؛ فلم يزل يماطل الأيام ويدافع الأوقات حتى أُتيح له بعض الموفقين، فدله على ماء النخالة، وقال له: إنه يجلو الصدر. فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب ماءها، فجلا صدره.

ووجدُه بعضهم، فلما حضر غداؤه أمر به فرُفع إلى العشاء وقال لأم عياله اطبخي لأهل بيتنا النخالة، فإني وجدت ماءها يعصم ويجلي الصدر فقالت له زوجته: قد جمع الله لك في هذا الدواء دواء وغذاء!

لابن صبيح:

وقال خاقان بن صبيح: دخلت على رجل ليلاً من أهل خراسان فإذا هو قد أُتي بمسرجة فيها فتيل رقيق، وقد ألقى في دهن المسرجة شيئاً من ملح، وقد علق فيها عودا بخيط معقود إلى المسرجة، فإذا غشا المصباحُ أخرج به رأس الفتيل؛ فقلت: ما بال هذا العود مربوطاً؟ فقال: هذا عود قد شرب الدهن، فإذا لم نحفظه وضاع احتجنا إلى غيره فلا نجده إلا عطشان، فإذا كان هذا دأبنا ضاع من دهننا في الشهر بقدر كفايتنا ليلة.

---

(١) الجبلّة: الخلقة.

قال: فبينا أنا أتعجب وأسأل الله العافية، إذ دخل علينا شيخ من أهل مرو ونظر إلى العود فقال: أبا فلان، فررتَ من شيء ووقعتَ فيما هو شرٌّ منه؛ أما علمت أن الشمس والريح تأخذان من سائر الأشياء؟ أو ليس [قد] كان البارحة هذا العودُ عند إطفاء السراج أروَى؛ وهو عند إسراجك الليلة أعطَش؟ قد كنت أنا جاهلاً مثلك زماناً، حتى وفقني الله إلى ما [هو] أرشد؛ اَربط عافاك الله مكان العود إبرة كبيرة أو مسلة صغيرة؛ فإن الحديد أبقى، وهو مع ذلك غير نشاف؛ والعود والقصبة ربما تعلقت بهما العشرة من قطن الفتيلة فتشخص معها؛ وربما كان ذلك سبباً لانطفائها! قال الخراساني: ألا وإنك لا تعلم أنك من المسرفين حتى تعمل بأعمال المصلحين.

للجزامي:

قال الأصمعي: قال لي أبو محمد الجزامي، واسمه عبد الله بن كاسب، ونحن في العسكر؛ إن للشيب سُهْكَة[1] وبياض الشعر الأسود هو موته، كما أن سواده حياتُه، ألا ترى أن موضع دبَرةِ الحمار الأسود لا ينبت فيها إلا شعر أبيض، والناس لا يرضون منا في هذا العسكر إلا بالعناق والمشامّة والطيب غال ممتنع الجانب، فلست أرى شيئاً هو أحسن بنا من اتخاذ مشط صندل؛ فإن ريحه طيِّبة، والشعر سريع القبول [منه]؛ وأقل ما تصنع أن ما ينفي سَهَك الشيب؛ حتى يكون حالٌ لا لنا ولا علينا.

لابن أشرس:

وكان ثمامة بن أشرس يقول: إياكم وأعداءَ الخبز أن تأتدموا بها، واعلموا أن أعدي عدوّ له المملوك، فلولا أن الله أعان عليه بالماء لأهلك الحرث والنسل!

وكان يقول: كلوا الباقلاءَ بقشره، فإن الباقلاة تقول: من أكلني بقشري فقد أكلني، ومن أكلني بغير قشري فقد أكلته!

---

(١) السهكة: الرائحة الكريهة.

من بخل هشام بن عبد الملك:

ومن البخلاء هشام بن عبد الملك: قال خالد بن صفوان: دخلت على هشام فأطرفته وحدثته، فقال: سل حاجتك. فقلت: يا أمير المؤمنين، تزيد في عطائي عشرة دنانير. فأطرق حيناً وقال: فيم؟ ولِمَ؟ وبِمَ؟ ألعبادة أحدثتَها أم لبلاء حسن أبليتَه في أمير المؤمنين؟ ألا لا يا آبن صفوان، ولو كان لكَثُرَ السؤال ولم يحتمله بيت المال! فقلت: وفقك الله يا أمير المؤمنين وسدّد؛ فأنت والله كما قال أخو خزاعة:

إذا المالُ لم يوجبْ عليك عطاءَهُ صنيعةُ قرْبَى أو صديقٌ توافقُهْ
مَنعت وبعضُ المنعِ حزمٌ وقوّةٌ ولم يستلِبْكَ المالَ إلا حَقائقُهْ

قيل لخالد بن صفوان: ما حَملك على تزيين البخل له؟ قال: أحببت أن يمنع غيري فيكثُر من يلومه.

وخرج هشام بن عبد الملك متنزهاً ومعه الأبرش الكلبي، فمر براهب في دير، فعدل إليه، فأدخله الراهب بستاناً له، وجعل يجتني له أطايبَ الفاكهة؛ فقال له هشام: يا راهب؛ بِعني بستانَك! فسكت عنه الراهب، ثم أعاد عليه، فسكت عنه؛ فقال له: مالك لا تجيبني؟ فقال: وددت أن الناس كلهم ماتوا غيرَك! قال: لماذا ويحك؟ قال: لعلك أن تشبعَ! فالتفت هشام إلى الأبرش فقال: أما سمعتَ ما قال هذا؟ قال: والله إن لقِيَك حرٌّ غيرُه.

من بخل ابن الزبير:

ومن البخلاء عبد الله بن الزبير، وكانت تكفيه أكلةٌ لأيام، ويقول: إنما بطني شِبر في شبر، فما عسى أن تكفيه أكلة.

وقال فيه أبو وجرة مولى الزبير:

لو كان بطْنُكَ شِبراً قد شَبِعْت وقد أبقَيْتَ فضلاً كبيراً للمساكينِ
فإن تُصِبْك مَن الأيام جائِحةٌ لم نبْكِ منك على دُنيا ولا دينِ

ما زلتَ في سورةِ الأعرافِ تَدرُسَها حتى فؤادي كمِثْلِ الخزِّ في اللِّين
إنّ امْرأً كنتُ مولاهُ فضيَّعني يَرْجُو الفَلاَحَ لَعبدٌ عيْنُ مغبونِ

وابن الزبير هو الذي قال: أكلتم تمري وعصيتم أمري! فقال فيه الشاعر:
رأيتُ أبا بكرٍ، وربُّك غالبٌ على أمرِهِ، يبغي الخلافة بالتَّمْرِ!

وأقبل إليه أعرابيٌّ فقال: أعطني وأقاتل عنك أهل الشام. فقال له: اذهب فقاتل، فإن أغنيتَ أعطيناك! قال: أراك تجعلُ روحي نقداً ودراهمك نسيئة!

وأتاه أعرابي يسأله جملاً، ويذكر أن ناقته نقبت[1]؛ فقال؛ آنعلها من النعال السبتية، وآخصفها بهُلب! قال له الأعرابي: إنما أتيتُك مستوصلاً ولم آتِكَ مستوصفاً؛ فلا حُملتْ ناقةٌ حملتني إليك! قال: إنّ وصاحبَها.

من بخل ابن الجهم:

ومن رؤساء أهل البخل محمد بن الجهم، وهو الذي قال: وددت أن عشرة من الفقهاء، وعشرة من الشعراء، وعشرة من الخطباء، وعشرة من الأدباء ـ تواطئوا على ذمِّي، واستهلوا بشتمي، حتى يُنشر ذلك عنهم في الآفاق، حتى لا يمتدّ إليَّ أَمَلُ آمِلٍ، ولا ينبسط نحوي رجاءُ راجٍ.

وقال له أصحابه: إنما نخشى أن نقعد عندك فوق مقدار شهوتك، فلو جعلت لنا علامة نعرف بها وقت استحسانك لقيامنا! قال: علامة ذلك أن أقول: يا غلام، هاتِ الغداء.

وذكر ثمامةُ بن أشرس محمد بن الجهم فقال: لم يطمع أحدٌ قط في ماله إلا شغَله عن الطمع في غيره، ولا شفع في صديق، ولا تكلم في حاجة مُحْرِم، إلا ليلقن المسئول حُجَّة المنع، ويفتح على السائل باب الحرمان!

---

(١) نقبت الناقة: رقّت اخضافها.

من بخل ابن أبي حفصة:

ومن البخلاء اللئام مروان بن أبي حفصة الشاعر؛ قال أبو عبيدة عن ابن الجهم قال: أتيت اليمامة فنزلت على مروان بن أبي حفصة، فقدّم إليّ تمراً، وأرسل غلامَه بفلس وسكرُّجة يشتري زيتاً، فأتى الغلام بالزيت، فقال له: خنتَني وسرقتني! قال: وفيم كنت أخونك وأسرقك في فلس؟ قال: أخذت الفلس لنفسك واستوهبت الزيت.

من بخل الصيرفي:

ومن البخلاء: زبيدة بن حُميد الصيرفي؛ استلف من بقال على بابه درهمين وقيراطاً، فمطله بها ستة أشهر، ثم قضاه درهمين وثلاث حبات [شعير]؛ فاغتاظ البقال وقال: سبحان الله! أنت صاحب مائة ألف دينار، وأنا بقال لا أملك مائة فَلس، وإنما أعيش بكدي، واستقضي الحبة في بابك والحبتين؛ صاحَ على بابك حمال، [والمالُ لم يحْضُرْك] ولا يحضر تلك الساعة وكيلُك، فأعنتْك وأسلفتُك درهمين وأربع شعيرات، فتقضيني بعد ستة أشهر درهمين وثلاث شعيرات؟ فقال زبيدة: يا مجنون، أسلفتني في الصيف وقضيتك في الشتاء، وثلاث شعيرات شتوية أوْزَنُ من أربع صيفية؛ لأن هذه ندية وتلك يابسة، وما أشك أن معك بعد هذا كله فضلاً!

للأصمعي في بخيل:

قال الأصمعي: كنت عند رجل من ألأم الناس وأبخلهم، وكان عنده لبن كثير، فسمع به رجل ظريف، فقال: الموت أو أشرب من لبنه! فأقبل مع صاحب له، حتى إذا كان بباب صاحب اللبن، تغاشَى وتماوت، فقعد صاحبه عند رأسه يسترجع، فخرج إليه صاحب اللبن؛ فقال ما باله يا سيدي؟ قال: هذا سيد بني تميم، أتاه أمر الله ههنا. وكان قال لي: اسقني لبناً! قال صاحب اللبن: هذا هين موجود؛ ائتني يا غلام بعلبة من لبن. فأتاه به فأسنده صاحبُه إلى صدره وسقاه، حتى أتى عليها، ثم

تجشأ، فقال صاحبه لصاحب اللبن: أترى هذه الجشأة راحة الموت؟ قال: أماتك الله وإياه!

ومن أمثال العرب في البخل قولهم: ما هو إلا أُبنة[1] عصا أو عقدة رِشاء[2]؛ لأن عقدة الرِّشاء المبلول لا تكاد تنحل.

قيل لمدنية: ما الجرحُ الذي لا يندمل؟ قالت: حاجةٌ الكريم إلى اللئيم ثم يردّه! قيل لها: فما الذل؟ قالت: وقوف الشريف بباب الدنيء ثم لا يؤذن له! قيل لها: فما الشرف؟ قالت: اتخاذ المِنَن في رقاب الرجال.

والعرب تقول لمن لم يظفر بحاجته وجاء خائباً: جاء فلان على غُبيراء الظهر وجاء على حاجبه صوفة، وجاء بخفَّيْ حنين.

وقال أبو عطاء السندي، في يزيد بن عمرة بن هبيرة:

ثلاثٌ حُكْتُهُنّ لقَرْم قيسٍ   طلَبْتُ بها الأخوةَ والسَّناءَ
رجعْنَ على حواجبهنّ صُوفٌ   وعندَ ٱلله أحتَسِبُ الجزاءَ

طعام البخلاء

لمروزي وزواره

قال الاصمعي: كان المروزيُّ يقول لزوّاره إذا أتوه: هل تغدَّيتم اليوم؟ فإن قالوا: نعم. قال: والله لولا انكم تغديتم لاطعمتكم لونا ما أكلتُم مثله، ولكن ذهب اولُ الطعام بشهوتكم! وإن قالوا: لا. قال: والله لولا انكم لم تتغدّوا لسقيتكم أقداحاً من نبيذ الزينب ماشربتم مثله! فلا يصير في أيديهم منه شيء

من نجل ثمامة

وكان ثمامة إذا دخل عليه اصحابه وقد تعشّوا عنده قال لهم: كيف كان

---

(١) الأبنة: العقدة.

(٢) الرشأ: ولد الظبيه اذا قوي وتحرك ومشى مع أمه، أو شجر يسمو فوق القامة لا يثمر ولا يؤكل.

مبيتكم ومنامكم؟ فإن قال احدهم إنه نام ليلته في هدوء وسكون، قال: النفس إذا اخذت قوتَها أطمأنت! وإذا قال احدهم إنه لم ينم ليلته قال: إنه من افراط الكِظّة[(١)] والإسراف في البطنة! ثم يقول: كيف كان شربُكم للماء؟ فإن قال أحدهم: كثيراً. قال: التراب الكثير لا يبله إلا الماء الكثير وإن قال: قليلا. قال: ما تركت للماء مدخلا!

وكان إذا اطعم اصحابه استلقى على قفاه ثم يتلو قوله تعالى: ﴿إنما نُطْعِمكم لوجه الله لا نُريدُ منكم جزاءً ولا شكوراً﴾[(٢)].

ودخل عليه رجل وبين يديه طبق فراريج، فغطى الطبق بذيله، وأدخل رأسه في جيبه، وقال للرجل الداخل: آدخل في البيت الآخر حتى أفرغ من بَخُوري.

أبو جعفر

وشوي لابي جعفر الهاشمي دجاج ففقد فخذاً من دجاجة، فأمر فنودي في منزله: من هذا الذي تعاطى فعقَر! والله لا أخبز في التنور شهراً أو تُردّ! فقال ابنه الاكبر: يا أبت، لا تؤاخذْنا بما فعَل السفهاءُ منا.

سهل بن هارون

وقال دعبل الشاعر: كنا يوماً عند سهل بن هرون، فأطلنا الحديث حتى أضرَّ به الجوع، فدعا بغذائه، فإذا بصحفة عُدْمَلِيّة[(٣)] فيها مرق لحم ديك قد هرِم، لا تحز فيه السكين، ولا تؤثر فيه الضرس[فأخذ قطعة خبز فقلب بها جميع ما في الصحفة، ففَقد الرأس، فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه إلى الغلام، وقال: أين الرأس؟ قال: رميتُ به. قال: لِمَ؟ قال: لم أظنك تأكله ولا تسأل عنه. قال: ولأي شيء ظننتَ ذلك؟ فوالله إني لابغِض من يرمي برجله فضلا عن رأسه، والرأس رئيس الاعضاء،

---

(١) الكظة: البطنة.   (٢) سورة الإنسان الآية ٩.

(٣) عدملية: قديمة.

وفيه الحواس الخمس، ومنه يصيح الديك! وفيه العين التي يضرب بها المثل في الصفاء، فيقال: شراب مثل عين الديك؛ ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم يُرَ قط عظم أهش من عظم رأسه، فإن كان بلغ من جهلك أن لا تأكله فعندنا من يأكله، انظر أين هو؟ قال: والله ما أدري أين رميتُه. قال: لكني والله أدري، رميتَ به في بطنك!

زياد بن عبد الله

وأهدى رجل من قريش لزياد بن عبيد الله وهو على المدينة طعاماً فثقل عليه ذلك، فقال: اجمعوا المساكين وأطعموهم إياه! فجمعوا، وكشف عن الطعام، فإذا طعام له بال، فندم على الإرسال للمساكين، وقال للغلام: انطلق إلى هؤلاء المساكين وقل لهم: إنكم تجتمعون في المسجد فتفسون فيه فتؤذون الناس! لا اعلم انه اجتمع فيه منكم اثنان!

عبد الله بن يحي

وقال: دخلت على عبد الله بن يحي بن خالد بن أمية، وقوم يأكلون عنده، فمدّ يده إلى رغيف من الخوان فرفعه، وجعل يَرطُله[1] بيد ويقول: يزعمون أن خبزي صغير، فمن هذا الزاني ابن الزانية الذي يأكل نصف رغيف منه.

قال: ودخلت عليه يوماً والمائدة موضوعة، والقوم يأكلون، وقد رفع بضعهم يده، فممدتُ يدي لآكل، فقال: اجهز على الجرحى، ولا تتعرض للاصحاء! يقول: تعرّض للدجاجة التي قد نِيل منها، والفرخِ المأخوذ منه؛ فأما الصحيح فلا تتعرض له. هذا معناه في الجرحى [والاصحاء].

(١) رطل الشيء: رازه ليعلم وزنه.

لجمين في بخيل

وسأل يحيي بن خالد ابا الحارث جُمَّين عن طعام رجل، فقال: أما مائدته فمقبَّبة، وأما صحافه فمخروطة من حب الخردل، وبين الرغيف والرغيف فترة نبي. قال: فمن يحضرها؟ قال: الكرامُ الكاتبون. قال: فمن يأكل معه؟ قال: الذباب. قال له يحيي: وأرى ثوبك مخرقا، أفلا يكسوك ثوباً وأنت في صحبته؟ قال: جعلت فداك، والله لو ملك بيتاً من بغداد إلى الكوفة مملوءًا إبرا، وفي كل ابرة منها خيط، وجاءه يعقوب يسأله إبرة منها يَخيط بها قميص يوسفَ ابنه الذي قدَّ من دُبُر، ومعه جبريل وميكائيل يضمنان عنده، لم يفعل.

لابن مسلمة

أخذ هذا المعنى محمد بن مسلمة، فقال يهجو ابن الاغلب:

لو أنّ قصرَك يا ابنَ أغلبَ كلَّهُ   إبرٌ يضيقُ بِهِن رَبُ المنزلِ
وأتاك يوسفُ يَستعِيرُكَ إبرةً   ليخيطَ قدّ قميصِهِ لم تَفعلِ ! (١)

وقيل لجمَّين: أتغذيت عند فلان! قال: لا، ولكنني مررت به يتغذى! قيل: فكيف علمت أنه يتغذى؟ قال رأيتُ غلمانه ببابه في أيديهم قسى البندق يرمون الذباب في الهواء!

وقال أبو الحارث جُمَّين: دخلتُ على فلان، فوضع بين أيدينا مائدةً ـ كنا أشوقَ إلى الطعام إذ رفعت منا إليه إذ وُضعت ـ!

اعرابي على مائدة هشام

وحضر اعرابي سُفرة هشام بن عبد الملك، فبينا هو يأكل إذ تعلقت شعرة في لقمة الاعرابي، فقال له هشام: عندك شعرة في لقمنك يا اعرابي! قال: وإنكِ لتلاحظني

(١) القد: الشيء المقدود.

ملاحظة من يرى الشعرة في لقمتي! والله لا اكلت عندك أبداً! وخرج وهو يقول:

وللموتُ خيرٌ من زيـارةِ بـاخِـلٍ يُلاحِظ أطرافَ الاكيل على عمْـدِ

وقال آخر:

ولو عليـكَ اتّكـالي في الغـداءِ إذاً لكُنـتُ أوّلَ مقتـول مـن الجوعِ
يَقولُ عِند دُعـاءِ الضَّيـفِ مُبتـدِئـاً صوت ضعيفٌ وداعٍ غيرُ مسمُـوعِ

المغيرة وبخله

قال المدائني: كان للمغيرة بن عبد الله الثقفي وهو والي الكوفة، جديٌ يوضع على مائدته بعد الطعام، لا يمسه هو ولا احد ممن يحضر، فحضر مائدتَه أعرابيّ، فبسط يده، وأسرع في الأكل، فقال: يا اعرابي، إنك لتأكل الجدي بحرد[1] كأنّ أمه نطحتْك، فقال له الاعرابي: أصلحك الله، وانت تُشفِق عليه كأنّ أمَّه أرضعتك! ثم بسط الاعرابي يده إلى بيضة بين يده، فقال: خذها فإنها بيضة العُقر! فلم يحضر طعامه بعد ذلك.

أشعب ووالي المدينة

ودخل أشعب على والي المدينة، فحضر طعامه، وكان له جديٌ على مائدته يتحاماه كل من حضر، فبدر إليه أشعب فمزقه، فقال له: يا أشعب، إن اهل السجن ليس لهم إمامٌ يصلى بهم، فإن رأيت ان تكون لهم إماماً تصلي بهم، فإن في ذلك أجراً! فقال: والله ما احبُّ هذا الأجر، ولكن زوجتي طالق إنأكلتلحم جَدْيٍ عندك حتى ألقى الله!

الكندي

قال عمرو بن ميمون: تغدّيت يوما عند الكندي، فدخل عليه رجل كان جاراً وصديقاً له، فلم يَعرض عليه الطعام، ونحن نأكل، فاستحيت أنا منه، فقلت: سبحان

---

(١) بحرد: بغضب.

الله ، لو دنوتَ فأصبتَ معنا! قال: قد والله فعلتُ. قال الكندي: ما بعد الله شيء! قال: فكنفَه والله كِتافاً لو بسط يده لأكلٍ بعده لكان كافرا!

قال: ومررت ببعض طرق الكوفة، فإذا أنا برجل يخاصم جاراً له، فقلت: ما بالُكما؟ فقال احدهما: إن صديقاً لي زارني واشتهى عليّ رأساً، فاشتريته له وتغدينا. فأخذت عظامه فوضعتها عند باب داري اتجمل بها عند جيراني، فجاء هذا وأخذها ووضعها على باب داره، يوهم الناس أنه هو الذي أكل الرأس.

بخيل وولده

قال رجل من البخلاء لولده: اشتروا لي لحما، فاشتروا له، وأمر بطبخه حتى تهرّأ، فأكل منه حتى انتهت نفسه [ولم يبق إلا العظم]، وشرعت إليه عيون ولده، فقال: ما أنا مطعمُه أحداً منكم إلا من أحسن صفة أكله! فقال الاكبر: أتعرّقه[١] يا أبت، حتى لا أدع للذرّة فيه مقيلا! قال: لست بصاحبه! فقال الاوسط: أتعرّقه يا أبت حتى لا يُدرَى ألعامه هو أم لعامٍ أول! قال: لست بصاحبه! فقال الاصغر: أتعرّقه يا أبت، ثم أدقه دقا، وأسفه سفا؟ قال: أنت صاحبُه، وهو لك دونهم.

الثوري

وقال عمرو بن بحر الجاحظ: كان ابو عبد الرحمن الثوري يعجبه الرءوس ويصفها، وكان يسمّي الرأس عرساً لما فيه من الالوان الطيبة، وربما سماه الكامل والجامع؛ ويقول: الرأس شيء واحد، وهو ذو الوان عجيبة وطعوم مختلفة، والرأس فيه الدماغ، وطعمه مفرد، وفيه العينان، وطعمهما مفرد، والشحمة التي بين أصل الاذن ومؤخر العين، وطعمها مفرد، على أن هذه الشحمة خاصة أطيبُ من المخ، وأرطب من الزبد، وأدسم من السلاء؛ وفي الرأس اللسان، وطعمه مفرد، والخيشوم، والغضروف، ولحم الخدين، وكل شيء من هذه طعمه مفرد؛ والرأس سيد البدن،

(١) تعرّق: أي أكل ما عليه من اللحم نهشاً بأسنانه.

والدماغ هو معدِنُ العقل، وحاسة الحواس وبه قوام البدن، وفيه يقول الشاعر:

إذا نزعوا رأْسِـي، وفي الرأس أكثري وغودر عند الملْتقَـى ثَـمّ سـائِـري . . .

لاعرابي في الرأس

وقيل لاعرابي: اتحسن أن تأكل الرأس؟ قال: نعم؛ أعض العينين، وأفك لحييه، وأنقي خديه، وأرمي بالدماغ إلى من هو أحق مني، وكانوا يكرهون أكل الدماغ، ولذا يقول قائلهم.

ولا أبتغي المُخَّ الذي في الجماجمِ

نصيحة ابي عبد الرحمن لابنه

وكان أبو عبد الرحمن يجلس مع ابنه يوم الرأس ويقول له: إياك ونهم الصبيان وبغر[1] السباع، واخلاق النوائح، ونهش الاعراب، وكل ما بين يديك، فإنما حظك منه ما قابلك، واعلم أنه إذا كان في الطعام شيء ظريف، من لقمة كريمة، او مضغة شهية، فانما ذلك للشيخ المعظم، والصبي المدلل، ولست بواحد منهما، وقد قالوا. مُدمِنُ اللحم كمدمِن الخمر؛ أي بُنيَّ، لا تخضم خضم البراذين، ولا تُدمِن الأكل إدمان النعاج، ولا تلقم لقم الجمال، ولا تنهش نهش السباع، وعوِّد نفسك الأُثرة[2]، ومجاهدةَ الهوى والشهوة؛ فإن الله جعلك إنساناً فلا تجعل نفسك بهيمة، واحذر سرعة الكظة وسرَف البطنة، فقد قال بعض الحكماء: إذا كنْت نَهما فعدّ نفسك من الزَّمْنَى؛ واعلم أن الشَّبَع داعيةُ البشم، والبشم داعية السقَم، والسقَم داعية الموت. ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة؛ لانه قاتلُ نفسه، وقاتل نفسه الأمُ من قاتل غيره أي بني، والله ما أدى حق الركوع والسجود ذو كِظة ولا خشع لله ذو بطنة، والصوم صحة؛ والوجَبات عيشُ الصالحين أي بني، لأمرٍ ما طالت أعمارُ الرهبان، وصحت

---

(١) بغر: شرب فلم يرو فأخذه داء من الشرب.

(٢) الأُثرة: المكرمة المتوارثة.

أبدان الاعراب؛ لله درّ الحارث بن كلدة حيث زعم أن الدواء هو الأزْم[1]، وان الداء كله هو من فضول الطعام؛ فكيف لا ترغب في شيء يجمعُ لك صحة البدن، وذكاء الذهن، وصلاح الدين والدنيا، والقرب من عيش الملائكة؟ أي بنيّ، ما صار الضبُّ أطول شيء عمراً إلا أنه يَتبَلَّغ بالنسيم؛ وما زعم الرسول أن الصوم وِجاء[2] إلا انه جعله حاجزاً دون الشهوات: فافهم تأديبَ الله وتأديبَ الرسول؛ أي بني، قد بلغت تسعين عاماً ما نغض لي سنّ، ولا انتشر لي عصب، ولا عرفت وكف انف، ولا سيلان عين، ولا سلس بول؛ وما لذلك علة إلا التخفف من الزاد؛ فإن كنت تحب الحياة فهذه سبيلُ الحياة، وإن كنت تحب الموت فلا أبعد الله غيرَك.

ابو الاسود الدؤلي

ومن البخلاء: أبو الأسود الدؤلي: وقفت عليه امرأة وهو في فسطاط وبين يديه طبق تمر، فقالت: السلام عليك! قال ابو الاسود: كلمة مقبولة.

ووقف عليه اعرابي، وهو يأكل فقال الاعرابي: أَدخُلُ؟ قال وراءك أوسع لك! قال: الرمضاء احرقتْ رجلي! قال: بُل عليهما تبردان! قال أتأذن لي ان آكل معك؟ قال: سيأتيك ما قُدِّر لك! قال: تالله ما رأيت رجلا الأم منك. قال: بلى قد رأيتَ إلا انك نسيت! ثم اقبل ابو الاسود يأكل، حتى [إذا] لم يبق في الطبق الا تميرات يسيرة نبذها له، فوقعت تمرة منها، فأخذها الاعرابي ومسحها بكسائه، فقال ابو الاسود. يا هذا، إن الذي تمسحها به أقذر من الذي تمسحها له. قال: كرهتُ ان ادعها للشيطان! قال: لا والله، ولا لجبريل وميكائيل ما كنت لتدعَها.

الاصمعي قال: مرّ رجلٌ بأبي الاسود الدؤلي وهو يقول: من يعشّي الجائع؟ فقال ابو الاسود: عليّ به، فأتاه بعشاء كثير. وقال: كلْ حتى تشبع! فلما اكل ذهب ليخرج؛ قال: أين تريد؟ قال: أريد اهلي. قال: لا ادعك تؤذي المسلمين الليلة

---

(١) الأزم: ترك الاكل، وألاّ تدخل طعام على طعام.

(٢) الوجاء: يقال وجأ فلانا أي دفعه بجمع كفه في الصدر أو العنق.

بسؤالك! اطرحوه في الادهم[١]! فبات عنده مكبولا حتى اصبح!

ابن ابي حفصة وضيف

قال الهيثم بن عدي: نزل بابن أبي حفصة ضيف باليمامة، فأخلى له المنزل ثم هرب عنه، مخافة ان يلزمه قِرَاه تلك الليلة؛ فخرج الضيف فاشترى ما يحتاجه، ثم رجع وكتب إليه.

يـأيُّهـا الخارج مـن بيتـه ... وهـاربـاً مـن شـدّةِ الخوف
ضيْفُـك قـد جـاء بـزادٍ لـه ... فارجعْ تكن ضيفاً على الضَّيف!

وقال آخر:

بِـتُّ ضيفـاً لِهشـامٍ ... في شَـرابي وطعـامـي
وسِـراجـي الكـوكـبُ الدُّ ... رِّيُّ في داجِ الظلامِ[٢]
لا حـرامـا أجـدُ الخـ ... ـبـزَ ولا غير الحرام!

وله:

بـت ضيفـا لِهشـامٍ ... فشكـا الجوعَ! عدِمْتُـهْ!
وبكـى ـ لا صنَـع اللهُ ... لـه ـ حتى رِحْمتـه

وكان شيخ من البخلاء يأتي ابن المقفع، فيلحُّ عليه أن يتغدَّى عنده في منزله، فيمطله ابن المقفع، فيقول: أتراني أتكلف لك شيئاً؟ لا والله، لا أقدم لك إلا ما عندي، فلا تتثاقل عليَّ! فلم يزل به حتى أجابه، وأتى به إلى منزله، فإذا ليس عنده إلا كِسَرٌ يابسة وملح جريش، فقدمه له؛ ووقف سائل بالباب، فقال له: بورك فيك! فألح في السؤال، فقال: والله لئن خرجت إليك لأدقَّنَّ ساقيك! فقال ابن المقفع للسائل: أرِحْ نفسك وانجُ وَالله لو علمتَ من صدق وعيده ما علمتُ أنا من صدق وعده ما وقفتَ ساعة ولا راجعتَه كلمة.

---

(١) الادهم: القيد.

(٢) الدريّ: الكوكب المتلألىء الضوء.

وانتقل رجل من البخلاء إلى دار فابتاعها، فلما حلها وقف سائلٌ، فقال له: صنع الله لك! ثم وقف ثان، فقال له مثل ذلك، ثم وقف ثالث، فقال له مثل ذلك؛ فقال لابنته: ما أكثر السؤالَ في هذا المكان! فقالت له: يا أبتِ، ما تمسكتَ لهم بهذا القول فما تبالي كثروا ام قلوا؟

الاصمعي: تقول العرب: ما علمتك إلا بَرَما قَرونا. البرم: الذي يأكل مع اصحابه ولا يجعل لهم شيئاً، والقَرون: الذي يأكل تمرتين تمرتين.

حميد الارقط

وألأم اللئام وأبخل البخلاء حميد الارقط، الذي يقال له هجّاء الاضياف؛ وهو القائل في ضيف نزل به وآكله:

ما بين لُقْمتِه الاولى إذا انحدرَتْ ... وبين أُخرى تَليها قِيدُ أُظْفورِ[1]

وله:

تُجهِّز كفّاه ويحدُرُ حَلْقَه ... إلى الزَّوْرِ ما ضمَّتْ عليه الأناملُ

أتانا وما سواه سَحبانُ وائلٍ ... بياناً وعلماً بالذي هو قائل

فما زال عنه اللّقْمُ حتى كأنه ... من العِيِّ لما ان تكلم باقل

وله في الاضياف:

لا مرحباً بوُجوهِ القوم إذ دخلوا ... دسْمَ العمائمِ تَحكيها الشياطينُ

باتوا وَجُلَّة تمْر حلّ بينهم ... كأنّ أيديَهم فيها السكاكين

فأصبحوا والنوى عالي مُعَرَّسِهِم ... وليسَ كلّ النَّوى تلقَى المساكين[2]

ما قالت الشعراء في طعام البخلاء

فمن اهجى ما قيل في طعام البخلاء قول جرير في بني تغلب:

(١) أظفور: مادة قرنية في أطراف الأصابع. جمع أظافير وأظافر.

(٢) النوى: الدار أو البعد.

والتغلبيُّ إذا تنَحْنَحَ للقِرَى حَكَّ آستَهُ وتمثَّلَ الأمْثالا

وقوله فيهم:

قومٌ إذا أكلوا أَخْفَوْا كلامَهم وآستوثقوا من رِتَاجِ البابِ والدارِ(١)
قومٌ إذا آستنبَحَ الاضيافُ كلبَهُمُ قالوا لأُمِّهمُ بُولي على النار

وقال الراعي:

اللاقِطينَ النّوى تحت الشياهِ كما نحت كرادِمَ دهم في مخاليها(٢)

فأين هؤلاء من قول الآخر:

أبْلَجُ بين حاجبيه نورُهُ إذا تغدَّى رُفِعت سُتُورُهُ

ولآخر:

أبو نوحٍ، أتيْتُ إليه يوماً فغَدَّانِي برائحةِ الطعامِ
وجاءَ بلحمٍ لا شيءٍ سمينٍ فقَدَّمَه على طبَقِ الكلامِ
فلما أنْ رَفَعتُ يدي سقانِي كُئوساً حَشْوها ريحُ المُدامِ
فكنت كمَنْ سقَى ظَمْآن آلاً وكنت كمن تغدَّى في المَنامِ(٣)

ولآخر:

تَراهمْ خَشية الاضيافِ خُرْساً يُصَلُّون الصلاةَ بِلا أذانِ

ولحماد بن جعفر:

حديثُ أبي الصلت ذو خبرةٍ بما يُصْلِحُ المِعدةَ الفاسِدهْ
تخوَّفَ تُخمة إخوانِهِ فعَوَّدَهُمْ أكلةً واحدهْ

ولآخر:

(١) الرتاج: الباب العظيم.

(٢) كرادم: جمع كردم، وهو الرجل القصير الضخم.

(٣) الآل: السراب.

أتـانـا بخُبْـز لـه حـامِـضٍ   كمِثْـلِ الدراهِـمِ في رِقَّتِـهْ
إذا مـا تنفَّسَ حـولَ الخِوَانِ   تطـايَـرَ في البيـت مِـن خِفَّتِـه
فنحـنُ كظُـومٌ لـه كُلنـا   نُـرَدُّ التنفس مِـن خَشيتِـهْ
فيَكْلِمُـهُ اللَّحْـظُ مِـن رِقَّـة   ويـأكُلُـهُ الوهْـمُ مِـن قِلَّتِـهْ

نزل رجل من العرب ببخيل، فقدَّم إليه جراداً، فعافه وأمر برفعه، وقال:

لَحَا الله بيتـاً ضَمَّني بعـدَ هَجْعـة   إليه دجَوْجِـيٌّ مِـن الليـلِ مُظْلِـمُ
فأَبصَرْتُ شيخـا قـاعِـدا بفنـائـه   هـو العيْـرُ إلا أنـه يتكلمُ
أتانـا ببُـرْقـان الدَّبَـى في إنـائِـهِ   ولم يَـكُ بُـرْقـان الدَّبى لي مَطْعَـمُ
فقلت لـه غَيِّـبْ إنـاءَكَ وآعتَـزِلْ   فهـذا وهـذا لا أبَـا لـكَ مُسْلِـمُ

ضاف القطامي الشاعر في ليلةِ ريح ممطرة عجوزاً من محارب، فلم تُقْرِه شيئاً؛ فرحل عنها وقال:

تضيَّفْـتُ في بَـرْدٍ وريـح تَلَفُّني   وفي طِـرْمِسـاء غيرِ ذاتِ كـواكِـبِ
إلى حَيْزبـونٍ تُـوقِـدُ النـارَ بعْـدَمـا   تَلفَّعـتِ الظَّلْماء مِـن كـلِّ جـانـب
تصلى بها بَـرْدَ العشـاء ولم تكـن   تَخالُ ومِيضَ النـارِ يبـدو لِـراكِـب
فما رَاعَهـا إلا بغَـامُ مَطِيَّتي   تريحُ بمَحسُورٍ من الصوْتِ لاغِبِ[1]
فجنَّتْ جُنـونـاً مـن دِلاَثٍ مُنـاخـةٍ   ومِن رجلٍ عارِي الأشاجعِ شاحِبِ[2]
سَـرى في جَليـدِ الليـلِ حتى كـأنما   تَخَرَّمَ بالأطرافِ شـوكُ العقـارِبِ[3]
تقولُ وقد قَـرَّبْـتُ كـوري ونـاقتِـي   إليـكَ فلا تُـذْعِـرْ عليَّ رَكـائـبي
فسَلَّمْـتُ والتسليم ليس يَسُـرُّهـا   ولكنـه حـقٌّ على كـلِّ جـانـب[4]
فردّت سلامـاً كـارِهـاً ثم أعْـرَضـتْ   كما انحاشـتِ الأفعَـى مخافـة ضـارب
فلما تنـازَعْنـا الحديـثَ سـألْتُهـا   مَنِ الحيُّ؟ قالـت: معشرٌ مِـن محارِبِ

(١) تريح بمحسور: أي تخرج نفسها، والمحسور: الضعيف.
(٢) الدلاث: الناقة الماضية.
(٣) تخرم بالأطراف: أي أدخل فيها.   (٤) الجانب: الغريب.

مـن المُشْتـويـنَ القـدَّ في كـلِّ شتْـوة ... وإن كان عامُ النـاسِ ليس بنـاصِب
فلما بَـدا حِـرْمـانها الضيْـفَ لم يَكُـنْ ... عليّ مَبيـتُ السُّـوءِ ضَـرْبَـةَ لازِب
وقمـتُ إلى مُهْـرِيَّـة قـد تعـوّدتْ ... يـداهـا ورجْلاهـا حثِيـثَ المَواكِـب
ألا إنها نيرانُ قيس إذا شتَـوْا ... لطـارقِ ليـلٍ مثـل نـارِ الحبـاحِـبِ

وقال الخليل بن أحمد:

كفّـاهُ لم تَخْلَقـا للنـدَى ... ولم يـكُ بخْلُهما بـدعَـهْ
فكَـف عـنِ الخيرِ مقبـوضـةٌ ... كما نقصَـتِ مـائـة سبعَـهْ
وكـفٌّ ثلاثـةُ آلافِهـا ... وتِسـعُ مئـاتٍ لها شِـرعَـهْ

وقال غيره:

وجيرةٍ لا تـرى في النـاس مثلَهـم ... إذا يكـونُ لهم عيـد وإفطـار
إنْ يوقِدوا يُوسِعونـا مـنْ دُخـانهم ... وليس يَبلَغُنـا مـا تُنضِـجُ النـارُ

وقال احمد بن نعيم السلمي في بني حسان:

إذا احتفَلوا للضيْفِ لَهَوجَ قِدْرهُـم ... جـرادِيم أشبـاه النُّخـاعـة تُبلـعُ(١)
تُبـلّ جيـارَ الضيـفِ حتى تـرُدّهُ ... وتصبـحُ مـن عينِ آسْتِـهِ تتَطلّـعُ
ويُقريكَ منْ أكرهتَه مِن سوادهـمْ ... قِرى الحيِّ أو أدنى لجوعٍ وأبشـعُ
عِظاما وأرْواثـا وبعْـراً وإن يكـن ... لدَى القومِ نارٌ يشْتَوي لك ضِفدعْ

ولآخر:

فبتنـا كـأنـا بينَهـم أهـلُ مـأتمٍ ... على ميِّتٍ مُسْتـودَعٍ بطـنَ ملحَـدِ
يُحـدِّثُ بعـضٌ بعضَنـا بمصـابِـه ... ويأمُرُ بعضٌ بعضَنا بـالتجلُّـدِ!(٢)

ولآخر:

ذهـبَ الكِـرامُ فلا كِـرام ... وبقـي الغطـاريـف اللِّئـامُ

---

(١) لهوج الطعام: لم ينضجه. (٢) التجلد: الصبر.

مَـــن لا يُقِيـــلُ ولا يُنيـــلُ، ولا يُشَمُّ لـــه طَعَـــام

ولآخر:

صـدِّق أليَتَـهُ إن قـــال مجتَهـدا ً لا والرغيفِ، فذاكَ البرُّ من قَسَمِهْ
فإن هَممتَ بـهِ فـافتـكْ بخُبـزتِـه فـإنَّ مـوقِعَهـا مـن لحمِـه ودَمِـهْ
قـد كـان يُعجبُني لـو أنَّ غيرتَـهُ على جرادتِه كـانـت على حرمِـهِ

ولآخر:

إنّ هـــذا الفتى يصـــونُ رغيفـــاً مـا إليـه لنـاظِـرٍ مـــن سبيـــلِ
هـو في سُفْـرتينِ مـن أدَمِ الطّـــا ئِـفِ في سلتين في مِنـــديـــلِ
في جرابٍ في جَوْفِ تابوتِ مـوسى والمفـاتيـحُ عنـد ميكـائيـلِ

وقال ابو نواس في فضل الرقاشي:

رأيتُ قدورَ الناسِ سُوداً من الطِّلا وقِدرُ الرَّقاشِيِّين زهْـراءُ كـالبـدرِ
يَضيقُ بحيزُومِ البَعوضةِ صدرُهـا ويخرجُ مـا فيهـا على قلمِ الظُّفْـرِ
إذا ما تنادَوْا للـرَّحيـلِ سَعـى بها أمـامهـمُ الحوْلـيُّ مـن ولـدِ الذرِّ

وقال في إسماعيل الكاتب:

خُبـزُ إسماعيـلَ كـالـوشْـــيِ إذا مـا آنشقَّ يُـرْفَـا[1]
عَجبـــاً مـــن أثـــرِ الصنْـــعةِ فيـــه كيـــف يخفـــى
إن رقـــاءَكَ هـــــذا ألطـــفُ الامّـــةِ كفـــا
فـــإذا قـــابـــلَ بـــالنِّصـــفِ مـــن الجرْدقِ نصفـــاً[2]
أحكـــمَ الصّنعـــةَ حتى مـــا يُـــرى مِغـــرَزُ إشفـــى

ولآخر:

آرفـعْ يمينَـك مـن طعـامِـهْ إنْ كنـتَ تـرغـبُ في كلامِـهْ

---

(١) الوشي: نقش الثوب. (٢) الجردق: الغليظ من الخبز.

سِيــانِ كسْــرُ رغيفِـــهْ   أو كسْرُ عظــمٍ مــن عطافهْ

ولآخر:

رأيــتُ الخبــزَ عــزّ لــديــكَ حتى   حسِبتُ الخبزَ في جوفِ السحـابِ
ومــا روَّحتنْــا لتــذُبّ عنّــا   ولكــن خِفـت مَـرْزِئـةَ الذُّبــابِ

ولآخر:

يحذَرْ ـأنْ تُتخَـم إخــوانــه   إنّ أذى التخمـــةِ محذُورُ
ويَشتهـي أنْ يـؤجَـروا عنـده   بـالصّـومِ والصـائم مـأجـورُ

ومن قولنا في نحوه:

لا يُفطِـرُ الصـائمُ مـن أكلـه   لكنـه صــومٌ لمنْ أفطــرا
في وجهِه مـن لُـؤمِـه شـاهـدٌ   يُكفى بـه الشـاهـدُ أن يُخبرا
لم يَعـرفِ المعـروف أفعـالُـه   قــطٌّ كما لم ينكِــرِ المنكَــرا

وقال آخر:

خَليلَيّ مـن كعـبٍ أعينا أخـاكُما   على دهــرهِ إن الكـــريم مُعِينُ
ولا تبخلا بُخـلَ ابن فـرعَـةَ إنـه   مخافـةَ أنْ يُـرجَـى نـداهُ حَـزيـنُ
كـأن عُبيـد اللهِ لم يلْـق مـاجــداً   ولم يـدرِ أنّ المكـرُمـات تكــونُ
فقـل لأبي يحيي متى تـدرِكِ العلا   وفي كـل معــروفٍ عليــك يمينُ
إذا جِئْتَـهُ في حـاجـةٍ سَـدّ بـابـهُ   فلم تلقَـــه إلا وأنــــت كمين

باب من اخبار البخلاء

بين بخيلين

الرياشي قال: صاحب رجلٌ رجلاً من البخلاء، فقال له: احملني! فقال: ما كنت لانزل واحملك! قال. ما انت بحاتم حيث يقول:

انخَهـا فـأردِفهـا ، فـإنْ حملَتكما فذاك؛ وإن كان العقابُ فعاقِبِ[1]

قال: ما فيها محمل، ولابي طاقة على المشي.

وقد قال شاعرهم حاتم:

أمـاويَّ إمّـا مـانـعٌ فمُبيِّـنٌ وإما عطاءٌ لا يُنَهنِهُ الزجر[2]

وقال كثير عزة:

مهينُ تلادِ المالِ فيما ينـوبُـه منوعٌ إذا ما منعه كان أحْزمـا[3]

سأل عبد الرحمن بن حسان بن ثابت من بعض الولاة حاجة، فلم يقضها، فتشفع إليه برجل فقضاها؛ فقال:

ذمْتَ ولم تُحمدْ، وأدركت حـاجتي تولّى سِواكم أجْرَها واصْطنـاعَهـا
أبى لك كسْبَ المجدِ رأيٌ مُقَصِّـرُ ونفسٌ أضاقَ الله بـالخيْـرِ بـاعَهـا
إذا هـي حثتـه على الخيْـرِ مـرَّةً عصاها، وإن هَمَّتْ بشرٍّ أطـاعهـا

احتاج ابو الاسود الدؤلي مرة، فبعث إلى جار له موسر يستسلفه، وكان حسَن الظن به، فاعتل عليه ورده؛ فقال:

لا تُشعِـرَنَّ النَّفسَ يـأسـاً فـإنما يعيش بجدٍّ حـازِمٌ وبليـدُ
ولا تطمَعَنْ في مالِ جـارٍ لقُـرْبِـه فكـلُّ قـريـبٍ لا يُنـالُ بعيـدُ

وكتب إلى آخر يستسلفه، فكتب إليه: المؤنة كثيرة، والفائدة قليلة، والمال مكذوبٌ عليه. فكتب إليه ابو الاسود: إن كنت كاذباً فجعلك الله صادقاً، وإن كنت صادقاً فجعلك الله كاذباً!

وقال بعض الشعراء في بخيل:

---

(١) العقاب: أي يركبُ كل منهما عقب الآخر.

(٢) يقال: نهنه فلاناً عن الشيء: أي كفّه عنه وزجره.

(٣) التلاد: القديم.

ميّتٌ مـاتَ وهْـو في كنـفِ العيْـ ـشِ مُقيمٌ في مظـلِّ عيْشٍ ظليـلِ
في عِدادِ الموْتى، وفي عامِـرِ الدُّنـ ـيا أبـو جعفـر أخـي وخليلِـي
لم يَمُـتْ ميتَـةَ الحيـاةِ ولكِـنْ ماتَ عـن كـلِّ صـالـحٍ وجميـلِ

ولآخر:

فـأمّـا قِـراهُ كلـه فلِنفسـه ومال يـزيـدِ كلُّه ليَـزيـدِ(١)

ولآخر:

له يومانِ: يومُ نـدى، ويـومٌ يَسُلُّ السيْفَ فيه مِنَ القِـرابِ(٢)
فأمّـا جـودُهُ فعلَـى النَّصـارَى وأمّـا بـأسُـه فعَلَـى الكِلاب

ولآخر:

قدَحتُ بأظفاري، وأعملْتُ مِعْـوَلِـي فصادفتُ جُلْموداً منَ الصَّخْرِ أملَسـا(٣)
تجهَّـمَ لمّا قمـتُ في وجـه حـاجَتي وأَطرَق حتى قلتُ: قد مـات أو عسى
فـأجمعْـتُ أن أنعـاهُ لمّا رأيتـه يفوقَ فـواق الموتِ حتى تنفّسـا

وأنشد أبو جعفر البغدادي للجُولديّ:

جاءَ بـديـنـاريْـنِ لي صـالـحٌ أصلَحـه اللهُ وأخـزاهما
أدنـاهما تحمِلـه ذرّةٌ وتلعـبُ الريـحُ بـأقـواهُما
بـل لـو وزنّـا لـك ظِلَّيْهِما ثم عَمـدْنـا فـوزَنّـاهما
لكـان لا كـانـا ولا أفلَحـا عليْهِما يَـرجـحُ ظِلاّهُما

ولحماد عجرد:

أَورِقْ بخيرك تُؤملْ للجـزيـل، فما تُرْجَى الثّمارُ إذا لم يـورقِ العـودُ
وللبخيـلِ على أمـوالِه عِلَـلٌ زُرْقُ العيونِ عليهـا أوجُـهُ سـودُ
إنّ الكريمَ تُـرى في النـاسِ عِفّتُـه حتى يُقـال غنيٌّ وهْـو مجهـودُ(٤)

---

(١) القرى: ما يقدم إلى الضيف.

(٢) القراب: غمد السيف ونحوه. (٣) كدح: خمش.

(٤) المجهود: الذي ضاق عيشه واشتد.

وأنشد:

جـادَ آبنُ مُـوسى مـن دنـانيرِه ... لنـا بـدينـارَيْـنِ إسرارًا
كِلاهما في الكـفِّ مـن خِفّـةٍ ... لو نُفِخا مـن فـرْسخٍ طـارا
قلـتُ، وقلبي لهما مُنْكِـرٌ: ... أدِّهما للخُبْـرِ قَسْطـارا[1]
فكـان هـذا عنـدهُ بهْرجـاً ... وكـان هـذا عِنْـدَه بـارا
ثم وزنّـا واحِـداً منهما ... كـان لـه القَسطـارُ مختـارًا
فكـان في كِفَّـةِ ميـزانـه ... ينقُـصُ قيراطـاً ودينـارا

باب ما قيل في البخلاء

سمع رجل أبا العتاهية ينشد:

فارْمِـي بطـرْفِـك حيـثُ شئْـ ... ـت فلَـنْ تـرى إلاّ بخيلا

فقال له: بخّلْتَ الناس كلَّهم! قال: فأرني واحداً سمحاً!

وقال ابن أبي حازم:

وقالوا لو مدَحْت فتى كـريماً! ... فقلتُ وأينَ لي بفَتًـى كـريمِ؟
بلَوْتُ ومَرّ بي خمسـونَ عـامـاً ... وحسْبُكَ بـالمجـرِّبِ مـن عليمِ
فلا أحـدٌ يُعَـدُّ ليـوْمِ خيْـرٍ ... ولا أحـدٌ يعـودُ على عـديمِ

ولآخر:

لمّا رآنـا فـرّ بـوابُـه ... وارتـدَّ مـن غيْـرِ يـدٍ بـابُـه
كلْبٌ له مـن بغْضِـه حـاجـبٌ ... يَحْجُبُـه إن غـاب حُجّـابـه

ومن قولنا:

جعـلَ آللهُ رزقَ كـلِّ عـدُوٍّ ... لي بكفٍّ لبعضِ مَن لا أُسَمِّي
كفَّ من لا يَهُزّ عِطْفيْه يـومـاً ... لِمَـديـحٍ، ولا يُنـالُ بِـذَمّ
يتلقّـى الرجـاءَ منـه بـوجـه ... رائـحِ الخدِّ والجبينِ بِسمّ

---

(١) القسطار: منتقد الدراهم.

جئتُه زائراً، فما زال يشكو لي حتى حسِبْتُه سيُدَمِّي
ألِفَ اللّومَ فيه من كلِّ طرْفٍ مُعْرِقاً فيه بين خالٍ وعمِّ
قد نهاني النَّصِيحُ عنه مراراً بأبي أنت من نصيحٍ وأُمّي

ومن قولنا:

يَراعةٌ غرَّني منها وميضُ سَنا حتى مددْتُ إليه الكفّ مُقْتبسَا[1]
فصادَفتْ حَجراً لو كنتَ تضربُه من لؤمِه بعصا مُوسى لما انبَجسا[2]
كأنما صِيغ من بُخلٍ ومن كذِبٍ فكان ذاكَ له روحاً وذا نفَسَا
كلْبٌ يهِرُّ إذا ما جاءَ زائِره حتى إذا جاءَ مُهْدِي تُحْفَةٍ نبَسَا[3]

ومن قولنا:

صحيفةٌ طابَعُها اللّومُ عُنْوانُها بالبخلِ مختُومُ
أهداكَها والخُلْفُ في طيِّها والمطْلُ والتَّسويفُ واللومُ
من وجهُهُ نحسٌ، ومَن قرْبُه رِجسٌ، ومَن عِرْفانه شومُ
لا تهتضِمِ إن كنت ضيْفاً له فخُبْزُه في الجوْف هاضومُ[4]
تكْلِمُهُ الألحاظُ من رقَّةٍ فهْوَ بلَحْظِ العيْنِ مكلومُ
لا تأتَدِمْ شيئاً على أكلِه فإنه بالجوعِ مأدُومُ[5]

احتجاج البخلاء

الأصمعي قال: قال أبو الأسود الدؤلي: لو أطعمنا المساكين أموالنا لكنا أسوأ حالاً منهم!

---

(١) اليراع: ذباب يطير بالليل كأنه نار، الواحدة يراعة.

(٢) انبجس: انفجر. (٣) نبس: تحركت شفتاه بشيء.

(٤) الهاضوم: كل دواء يهضم الطعام.

(٥) ائتدم فلان: أكل خبزه بالإدام.

وقال لبنيه: لا تطيعوا المساكين في أموالكـم، فإنهم لا يقنعون منكـم حتى يروكـم مثلهم!

وقال لهم أيضاً: لا تجاوِدوا الله، فإنه لو شاء أن يغني الناس كلهم لفعل، ولكنه علم أن قوماً لا يصلحهم الغنى ولا يصلح لهم إلا الفقر، وقوماً لا يصلحهم الفقر ولا يصلح لهم إلا الغنى!

وقال سهل بن هارون: لو قسمتُ في الناس مائة ألف لكان الأكثر لائمي.

ونحوه قول ابن الجهم: منعُ الجميعِ أرْضَى للجميع.

كندي وتغلبي:

وقال رجل من تغلب: أتيت رجلاً من كندة أسأله، فقال: يا أخا بني تغلب إني لن أصِلك حتى أحرم من هو أقرب إليّ منك، وإني والله لو مكنت من داري لنقضوها طوبة طوبة، والله يا أخا بني تغلب ما بقي بيدي من مالي وأهلي وعِرضي إلا ما منعتُه من الناس.

وقال آخر: من أعطى من الفضول قصَّرَ عن الحقوق.

ابن هارون وسائل:

وقال رجل لسهل بن هارون: هبني ما لا مرْزِئةَ عليك فيه، قال: وما ذاك يا ابن أخي؟ قال: درهم واحد! قال: يا ابن أخي لقد هَوَّنتَ الدرهم وهو طائع الله في أرضه الذي لا يُعصى، والدرهم ويحك عشر العشرة، والعشرة عشر المائة، والمائة عشر الألف، والألف دية المسلم! ألا ترى يا ابن أخي إلى أين انتهاء الدرهم الذي هوَّنْتَه؟ وهل بيوت المال إلا درهم على درهم.

من وصية لقمان لابنه:

ورُوي عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: يا بنيّ، أوصيك باثنتين ما تزال بخير ما

تمسكْت بهما: درهمك لمعاشك، ودينَك لمعادك.

وقال أبو الأسود: إمساكك ما بيدك، خيرٌ من طلبك ما بيد غيرك. وأنشد في المعنى:

يَلومُونَني في البُخلِ جَهلاً وضَلَّةً ... ولَلبُخلُ خيرٌ من سُؤالِ بَخيلِ

ونظيره قول المتلمس:

وحبسُ المالِ خيرٌ من نَفادٍ ... وضربٍ في البلادِ بِغيرِ زادِ

وإصلاحُ القليلِ يَزيدُ فيه ... ولا يَبقى الكثيرُ مع الفسادِ

وقيل لخالد بن صفوان: مالك لا تنفق فإن مالك عريض؟ قال: الدهر أعرض منه! قيل له: كأنك تؤمل أن تعيش الدهر كله! قال: لا، ولكن أخاف أن لا أموت في أوله!

الجاحظ والحزامي:

وقال الجاحظ للحزامي: أترضى أن يقال لك بخيل؟ قال: لا أعدمني الله هذا الاسم؛ لأنه لا يقال لي بخيل إلا وأنا ذو مال، فسلِّم لِيَ المال وسَمِّني بأي اسم شئت!

فقال: جمع الله لاسمِ السخاء المالَ والحمد، وجمع لاسم البخلِ المالَ والذم.

قال: بينهما فرق عجيب وبون بعيد: إن في قولهم بخيل، سبباً لمكث المال؛ وفي قولهم سخي، سبباً لخروج المال عن ملكي؛ واسم البخيل فيه حفظ وذمّ، واسم السخي فيه تضييع وحمد، والمال ناض نافع، ومكرم لأهله، والحمد ريح وسخرية، ومسمعة وطَرمذة[1]؛ وما أقل غَناءَ الحمد عنه إذا جاع بطنه، وعري ظهره، وضاع عياله، وشمت به عدوه!

وقال محمد بن الجهم: من شأن من استغنى عنك أن لا يقيم عليك، ومن احتاج

(١) الطرمذة: المفاخرة والصلف.

إليك أن لا يزول عنك؛ فمِن حبك لصديقك وضنك بمودته أن لا تبذل له ما يغنيه عنك، وأن تتلطف له فيما يحوجه إليك وقد قيل في مثل هذا: أجعْ كلبك يَتبَعْك، وسَمِّنه يأكلك؛ فمن أغنى صديقه فقد أعانه على الغدر، وقطع أسبابه من الشكر؛ والمعين على الغدر شريكُ الغادر، كما أن مزَيِّنَ الفجور شريك الفاجر.

من وصية الأسدي لبنيه:

وقال يزيد بن عمر الأسدي لبنيه: يا بنيّ، تعلموا الردّ؛ فإنه أسدّ من العطاء ولأن تعلم بنو تميم أن عند أحدكم مائة ألف درهم، أعظمُ له في أعينهم من أن يقسمها عليهم؛ ولأن يقال لأحدكم بخيل وهو غني، خير له من أن يقال سخيٌّ وهو فقير.

وقال الحزامي: يقولون: ثوبك على صاحبك أحسن منه عليك؛ فما ظنك إن كان أقصر مني، أليس يتخيّل في قميصي؟ وإن كان أطول مني، أليس يصير آية للسابلين، فمن أسوأ أثراً على صديقه ممن جعله ضُحْكة؟ فما ينبغي لي أن أكسُوهُ حتى أعلمَ أنه فيه مثلي؛ ومتى يتفق هذا؟

أبو نواس وفقيه:

وقال أبو نواس: كان معنا في السفينة ونحن نريد بغداد، رجل من أهل خراسان، وكان من فقهائهم وعقلائهم، وكان يأكل وحده، فقلت له: لم تأكل وحدك؟ فقال: ليس عليّ في هذا مسألة؛ إنما المسألة على من أكل مع الجماعة لأنه يتكلف، وأكلي وحدي هو الأصل، وأكلي مع الجماعة تكلّفُ ما ليس عليّ.

ووقع درهم بيد سليمان بن مزاحم، فجعل يقلبه ويقول. في شِق: لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ وفي شق آخر: قل هو الله أحد؛ ما ينبغي لهذا أن يكون إلا تعويذةً ورُقية! ورمي به في الصندوق.

وكان أبو عيسى بخيلاً، وكان إذا وقع الدرهم بيده طنَّه[١] بظفره وقال: يا درهم

(١) طنّ: صوت ورنّ.

كـم من مدينة دخلتها؟ وأيدٍ دوَّختَها؟ فالآن استقرّ بك القرار، واطمأنت بك الدار! ثم رمى به في الصندوق.

ابن أشرس وسائل:

وقال رجل لثمامة بن أشرس: إن لي إليك حاجة... قال: وأنا لي إليك حاجة! قال: وما حاجتك إليّ؟ قال: لا أذكرها حتى تضمنَ قضاءَها! قال: قد فعلتُ. قال: فإن حاجتي لك أن لا تسألني حاجة! فانصرف الرجل عنه.

وكان ثمامة يقول: ما بالُ أحدِكـم إذا قال له الرجل آسقني، أتى بإناء على قدر اليد أو أصغر، وإذا قال أطعمني، أتاه من الخبز بما يفضل عن الجماعة، والطعام والشراب أخوان! أما إنه لولا رِخَصُ الماء وغلاءُ الخبز ما كلبوا على الخبز وزهدوا في الماء؛ الناس أرغب شيء في المأكول إذا كثر ثمنه، أو كان قليلاً في منبته؛ ألا ترى الباقلا الأخضر أطيب من الكمثري، والباذنجان أطيب من الكمأة[1]؛ ولكن أهل التحصيل والنظر قليل، وإنما يشتهون قدر الثمن!

وكان يقول: إياكـم وأعداء الخبز أن تأتدموا بها، وأعدى عدو له المالح، فلولا أن الله أعان عليه بالماء لأهلك الحرث والنسل.

وكان يقول: كلوا الباقلا بقشره، فإن الباقلاَّ يقول: من أكلني بقشري فقد أكلني، ومن أكلني بغير قشري فقد أكلتُه؛ فما حاجتكـم أن تصيروا طعاماً لطعامكـم؟

ابن هبيرة وعقيلي:

الأصمعي قال قد جاء رجل من بني عُقيل إلى عمر بن هبيرة، فمتّ إليه بقرابة وسأله أن يعطيَه، فلم يعطه شيئاً؛ ثم عاد إليه بعد أيام فقال: أنا العقيلي الذي سألتك

---

(١) الكمأة: جمع الكمء: فطر من الفصيلة الكمشية، تؤكل مطبوخة.

منذ أيام! فقال له ابن هبيرة: وأنا الفزاري الذي منعك منذ أيام! فقال معذرة إليك، إني سألتك وأنا أظنك يزيد بن هبيرة المحاربي! قال: ذلك ألأم لك عندي، وأهون بك عليّ؛ نشأ في قومك مثلي فلم تعرفه، ومات مثل يزيد ولم تعلم به! يا حرسيّ، آسفع[1] بيده!

ومن أشعار البخلاء التي يتمثلون بها:

وزهّـدَني في كـلِّ خيرٍ صنَعتُـه　　إلى الناسِ ما جَرّبتُ من قِلةِ الشكرِ

ولآخر:

ارْقع قميصَكَ ما اهتَـديـتَ لجيبـهِ　　فـإذا أضلَّـك جَيبُـه فـاستَبـدِلِ

ولابن هرمة:

قد يُـدرِكَ الشَّـرَفَ الفتى ورِداؤُه　　خلَـقٌ وجيْـبُ قميصـه مَـرْقـوعُ

ومن أمثالهم في البخل وخلف الوعد قولهم: تختلف الأقوال إذا اختلفت الإخوان؛ وقولهم:

كلامُ الليلِ يمحوهُ النهارُ

وقولهم:

بُروقُ الصيفِ كاذبةُ الوعودِ

رسالة سهل بن هارون في البخل

بسم الله الرحمن الرحيم، أصلح الله أمركـم، وجمع شَمْلكـم، وعلمكـم الخير وجعلكـم من أهله؛ قال الأحنف بن قيس: يا معشر بني تميم، لا تسرعوا إلى الفتنة فإن أسرع الناس إلى القتال أقلهم حياء من الفرار. وقد كانوا يقولون: إذا أردت أن ترى العيوب جمة فتأمل عيّابا، فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب، ومن

(١) سفع بيده: قبض على شيء ما فاجتذبه وجره.

أعيب العيب أن تعيب ما ليس بعيب، وقبيح أن تنهي مرشداً وأن تغريَ بمشفق.

وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم، وإصلاح فاسِدكم، وإبقاءَ النعمة عليكم، ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم فما أخطأنا سبيل حُسن النية فيما بيننا وبينكم؛ وقد تعلمون أنا ما أوصيناكم إلا بما اخترناه لكم، ولأنفسنا قبلكم وشُهرنا به في الآفاق دونكم؛ ثم نقول في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه: ﴿وما أُريدُ أن أُخالِفَكم إلى ما أنهاكم عنه، إن أُريدُ إلا الإصلاح ما استطعتُ وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلتُ وإليه أُنيبُ﴾[1]؛ فما كان أحقنا بكم في حرمتنا بكم أن تَرعَوْا حقَّ قصدنا بذلك إليكم على ما رعيناه من واجب حقكم، فلا العذرَ المبسوط بلغتم ولا بواجب الحرمة قمتم، ولو كان ذكر العيوب بِرّا وفخراً لرأينا في أنفسنا عن ذلك شُغُلا.

عبتموني بقولي لخادمي: أجيدِي العجين، فهوأطيب لطَمعه، وأزيد في ريعه؛ وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أملكوا[2] العجين، فإنه أحدُ الريعين.

وعبتموني حين ختمت على سدٍّ عظيم[3]، وفيه شيء ثمين من فاكهة رطبة نفيسة؛ ومن رطبة غريبة، على عبدٍ نهم، وصبيٍّ جشع، وأمَة لكعاء، وزوجة مضيعة؛ وليس من أصل الأدب، ولا في ترتيب الحكم، ولا في عادة القادة، ولا في تدبير السادة، أن يستوي في نفيس المأكول، وغريب المشروب، وثمين الملبوس، وخطير المركوب - التابعُ والمتبوع، والسيدُ والمسود؛ كما لا تستوي مواضعهم في المجالس، ومواقع أسمائهم في العنوان؛ ومن شاء أطعم كلبَه الدجاج السمين، وعَلَفَ حمارَه السمسم المقشّر!

فعبتموني بالختم، وقد ختم بعض الأئمة على مِزْوَدِ سَوِيق، وعلى كيس فارغ،

(١) سورة هود الآية ٨٨.

(٢) ملكوا العجين: أنعموا عجنه.

(٣) السد: سلة تتخذ من قضبان، لها أطباق.

وقال: طينة خيرٌ من ظِنّة، فأمسكتم عمن ختم على لا شيء، وعبتم مَنْ ختم على شيء!

وعبتموني أن قلت للغلام: إذا زدت في المرق فزِدْ في الإنضاج، ليجتمع مع التأدم باللحم طيب المَرَق؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا طبخ أحدكم لحماً فليزد من الماء، فمن لم يصب لحماً أصاب مرقاً».

وعبتموني بخصف[1] النعل، وبتصدير القميص، وحين زعمتُ أن المخصوفة من النعل أبقى وأقوى وأشبه بالنُّسُك، وأن الترقيع من الحزم، والتفرُّقَ مع التضييع؛ والاجتماع مع الحفظ. وقد كان رسول الله ﷺ يخصف نعله، ويرقَعُ ثوبه؛ ويلعق أصابعه، ويقول: «لو أُهْديَ إليّ ذراع لقبلت، ولو دعيتُ إلى كراع لأجَبْت». وقال عليه الصلاة والسلام: «من لم يستحي من الحلال خَفَّتْ مئونته، وقل كِبْرُه»؛ وقالت الحكماء: لا جديد لمن لم يلبس الخَلَق. وبعث زياد رجلاً يرتاد له محدِّثاً، واشترط عليه أن يكون عاقلاً، فأتاه به موافقاً، فقال له: أكنت به ذا معرفة؟ قال: لا، ولكنني رأيته في يوم قائظ يلبس خَلَقا ويَلَبسُ الناس جديداً؛ فتفرّست فيه العقل والأدب، وقد علمت أن الخلق في موضعه مثل الجديد في موضعه؛ وقد جعل الله لكل شيء قدراً وسما به موضعاً؛ كما جعل لك زمان رجالاً، ولكل مقام مقالاً؛ وقد أحيا الله بالسم، وأمات بالدواء، وأغصّ بالماء؛ وقد زعموا أن الإصلاح أحدُ الكَسْبَيْن، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليَسارين؛ وقد جبر الأحنف بن قيس يدَ عنز، وأمر مالك بن أنس بفرك النعل؛ وقال عمر بن الخطاب: من أكل بيضة فقد أكل دجاجة؛ ولَبِس سالم بن عبد الله بجلد أُضحية[2]؛ وقال رجل لبعض الحكماء: أريد أن أُهدي إليك دجاجة. فقال: إن كان لا بد فاجعلها بَيُوضاً.

وعبتموني حين قلت: من لم يعرف مواضع السرَف في الموجود الرخيص لم يعرف مواضع الاقتصاد في الممتنع الغالي؛ فلقد أُتيت بماء للوضوء على مبلغ الكفاية وأشفِّ

---

(١) خصف النعل: خرزها بالمخصف. والمخصف: المخرز.

(٢) أضحية: شاة ونحوها يضحى بها في عيد الأضحى.

من الكفاية؛ فلما صرتُ إلى تفريق أجزائه على الأعضاء، وإلى التوفير عليها من وظيفة الماء[1]، وجدت في الأعضاء فضلاً على الماء؛ فعلمتُ أنْ لو كنتُ سلكتُ الاقتصاد في أوائله لخرج آخره على كفاية أوّله، ولكان نصيب [العضو] الأول كنصيب الآخِرِ؛ فعبتموني بذاك وشنعتم عليّ؛ وقد قال الحسن وذكر السَّرَف: أما إنه ليكون في الماء والكلأ؛ فلم يرض بذكر الماء حتى أردفه بالكلأ.

وعبتموني أن قلت: لا يغترَّنَّ أحدكـم بطول عُمُره، وتقوُّسِ ظهره، ورقة عظمه، ووهن قوته، وأن يرى نحوه أكثر ذريته؛ فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يده، وتحويلِه إلى مِلْكِ غيره، وإلى تحكيم السرف فيه، وتسليط الشهوات عليه؛ فلعله أن يكون معمراً؛ وهو لا يدري، وممدوداً له في السنّ وهو لا يشعر؛ ولعله أن يرزق الولدَ على اليأس، أو يحدث عليه من آفات الدهر ما لا يخطر على بال ولا يدركه عقل، فيستردّه ممن لا يردّه، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه؛ أصعبَ ما كان عليه الطلب، وأقبح ما كان به أن يطلب؛ فعبتموني بذلك وقد قال عمرو بن العاص: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً.

وعبتموني بأن قلت بأن السرف والتبذيـر إلى مـال المواريـث وأمـوال الملـوك [أسْرَع] وأن الحفظ للمال المكتسب، والغنى المجتلب، وإلى ما يعرض فيه لذهاب الدين، واهتضام العرض، ونَصب البدن، واهتمام القلب - أسرع؛ ومن لم يحسب نفقته لم يحسب دخله، ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل، ومن لم يعرف للغِنى قدره فقد أذن بالفقر، وطاب نفساً بالذل.

وعبتموني بأن قلت: إن كسب الحلال يضمن الإنفاق في الحلال، وأن الخبيث ينزع إلى الخبيث، وأن الطيب يدعو إلى الطيب، وأن الإنفاق في الهوى حجازٌ دون الحقوق؛ فعبتم عليّ هذا القول؛ وقد قال معاوية: لم أر تبذيراً قط إلا وإلى جنبه تضييع. وقد قال الحسن: إن أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجلُ ماله، فانظروا

(١) الوظيفة: ما يقدر لك في اليوم من طعام أو رزق أو نحوه.

فيما ذا ينفقه، فإن الخبيثَ إنما يُنْفَق في السرف.

وقلت لكم بالشفقة عليكم وحسن النظر مني لكم: أنتم في دار الآفات، والجوائح غير مأمونات؛ فإن أحاطت بمال أحدكم آفة لم يرجع إلى بقيّة، فاحذروا النقم واختلاف الأمكنة؛ فإن البلية لا تجري في الجميع إلا بموت الجميع؛ و[قد] قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العبد والأمة والشاة والبعير: فرّقوا بين المنايا واجعلوا الرأس رأسين. وقال ابن سيرين [لبعض البْحريّين]: كيف تصنعون بأموالكم؟ قالوا: نفرِّقها في السفن، فإن عطِب بعض سَلِمَ بعض، ولولا أن السلامة أكثرُ، ما حَمَلْنا أموالنا في البحر. قال ابن سيرين: تحسبها خَرقاء وهي صَنَاع.

وعبتموني بأن قلت لكم عند إشفاقي عليكم: إن للغِنى لسُكراً، وللمال لَنَزْوة؛ فمن لم يحفظ الغنى من سكره فقد أضاعه، ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر فقد أهمله؛ فعبتموني بذلك؛ وقد قال زيد بن جبَلة: ليس أحد أقصر عقلاً من غنيٍّ أَمِنَ الفقر. وسُكر الغنى أكثر من سكر الخمر.

وقال الشاعر في يحيى بن خالد بن برمك:

وهُوب تِلاد المالِ فيما ينوبُهُ ... منوعٌ إذا ما منْعُه كان أحزما(١)

وعبتموني حين زعمتُ أني أقدِّم المال على العلم؛ لأن المال به يفاد العلم، وبه تقوم النفس قبل أن يُعرف فضلُ العلم فهو أصل، والأصلُ أحق بالتفضيل من الفرع؛ فقلتم: كيف هذا؟ وقد قيل لرئيس الحكماء: آلأغنياء أفضلُ أم العلماء؟ قال: العلماء، قيل له: فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتي الأغنياء أبواب العلماء؟ قال: ذلك لمعرفة العلماء بفضل المال، وجهلِ الأغنياء بحقِّ العلم؛ فقلت: حالهما هي القاضية بينهما، وكيف يستوي شيء حاجةُ العامة إليه، وشيء يغنى فيه بعضهم عن بعض؛ وكان النبي ﷺ يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم، والفقراء باتخاذ الدجاج؛ وقال أبو

(١) التلاد: المال الأصلي القديم.

بكر رضي الله عنه: إني لأبغِض أهل بيت ينفقون نفقة الأيام في اليوم الواحد، وكان أبو الأسود الدؤلي يقول لولده: إذا بسط اللهُ لك الرزق فابسط، وإذا قبض فاقبض.

وعبتموني حين قلت: [إن] فضل الغني على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في البيت، إن احتيج إليها استُعملت، وإن استُغنى عنها كانت عُدّة، وقد قال الحضين بن المنذر: وددت أن لي مثلَ أُحدٍ ذهباً لا أنتفع منه بشيء! قيل له: فما كنت تصنع به؟ قال: لكثرة من كان يخدمني عليه، لأن المال مخدوم؛ وقد قال بعض الحكماء: عليك بطلب الغنى، فلو لم يكن [لك] فيه إلا أنه عزٌّ في قلبك، وذلٌّ في قلب عدوّك، لكان الحظ فيه جسيماً، والنفعُ فيه عظيماً.

ولسنا ندع سيرة الأنبياء، وتعليمَ الخلفاء، وتأديب الحكماء لأصحاب اللهو؛ ولستم عليّ تردّون، ولا رأيي تُفنِّدون، فقدِّموا النظر قبل العزم، وادَّكِرُوا ما عليكم قبل أن تدركوا مالكم، والسلام عليكم.

ومن اللؤم: التطفيل، وهو التعرّض للطعام من غير أن يُدْعى إليه.

أخبار الطفيليين

طفيل العرائس:

أولهم طفيل العرائس، وإليه نسب الطفيليون. وقال لأصحابه: إذا دخل أحدكم عرساً فلا يتلفَّت تلفتَ المُريب، وليتخير المجالس؛ وإن كان العرس كثير الزحام فلْيمض ولا ينظر في عيون الناس، ليظنّ أهل المرأة أنه من أهل الرجل؛ ويظن أهل الرجل أنه من أهل المرأة؛ فإن كان البواب غليظاً وقاحاً فتبدأ به وتأمره وتنهاه، من غير أن تعنف عليه، ولكن بين النصيحة والإدلال.

قال: يقول الطفيليون: ليس في الأرض عودٌ أكرمَ من ثلاثة أعواد: عصا موسى، وخشب منبر الخليفة، وخوانُ الطعام.

أبو العرقين:

وكان أبو العرقين الطفيلي قد نقش في خاتمه: « اللؤم شؤم »، فقيل له: هذا رأس التطفيل!

طفيلي بالبصرة:

أحمد بن علي الحاسب قال: مرّ طفيليٌّ بسكة النخع بالبصرة على قوم وعندهم وليمة، فاقتحم عليهم وأخذ مجلسه مع من دُعِيَ، فأنكره صاحبُ المجلس فقالوا له: لو تأنيتَ أو وقفت حتى يُؤذن لك أو يبعث إليك! قال: إنما اتَّخذت البيوتُ ليُدخَلَ فيها، ووُضِعتِ الموائدُ ليؤكلَ عليها، وما وجهت بهدية فأتوقَّع الدعوة، والحشمة قطيعة، وطرحُها صلة؛ وقد جاء في الأثر: صِلْ مَنْ قطعَك، وأعط من حرَمَك؛ وأنشد:

كـلَّ يـومٍ أدورُ في عَـرصَـةِ الدا ... رِ أشمُّ القُتـــارَ شمَّ الذُّبـــابِ[1]

فـإذا مـا رأيـتُ آثـار عُـرسٍ ... أو دُخـانٍ أو دعــوَةً لصحــاب

لم أُعَـــرِّجْ دونَ التقحُّـــمِ لا أَر ... هَـبُ طعنـاً أو لكْـزَةَ البــواب

مستَهينـــاً بمن دخلْـــتُ عليهـــمْ ... غير مستـــــأذِنٍ ولا هيَّـــــاب

فتراِنـي أَلـفُّ بـالـرغـم منهـمْ ... كلَّ ما قـدمُـوهُ لَـفَّ العُقَـابِ[2]

ومنهم أشعب الطماع؛ قيل له: ما بلغ من طمعك؟ قال: لم أنظر إلى اثنين يتسارّان إلا ظننتهما يأمران لي بشيء! وفيه يقال: « أطمع من أشعب ».

أشعب الطماع:

وقف أشعب إلى رجل يعمل طبقاً، فقال له: أسألُك بالله ألا ما زدتَ في سَعته طوقاً أو طوقين! فقال له: وما معناك في ذلك؟ قال: لعلَّ يُهدى إليَّ فيه شيء!

---

(١) القتار: دخان ذو رائحة خاصة ينبعث من الطبيخ أو الشواء.

(٢) العقاب: طائر من كواسر الطير قويّ المخالب.

ساوم أشعبُ رجلاً في قوس عربية، فسأله ديناراً فقال له: والله لو أنها إذا رُمي بها طائرٌ في جوّ السماء وقع مشوياً بين رغيفين، ما أعطيتك بها ديناراً!

وبينا قوم جلوس عند رجل من أهل المدينة يأكلون عنده حيتاناً، إذ استأذن عليهم أشعب؛ فقال أحدهم: إن من شأن أشعب البسطَ إلى أجل الطعام فاجعلوا كبار هذه الحيتان في قصعة بناحية، ويأكل معنا الصغار. ففعلوا وأُذن له، فقالوا له: كيف رأيُك في الحيتان؟ فقال: والله إن لي عليها لحرداً شديداً وحنقاً، لأن أبي مات في البحر وأكلتْه الحيتان! قالوا له: فدونك خذ بثأر أبيك! فجلس ومد يده إلى حوت منها صغير، ثم وضعه عند أذنه ـ وقد نظر إلى القصعة التي فيها الحيتان في زاوية المجلس ـ فقال: أتدرون ما يقول لي هذا الحوت؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: إنه لم يحضر موتَ أبي ولم يُدْركه؛ لأن سنه يصغر عن ذلك، ولكن قال لي: عليك بتلك الكبار التي في زاوية البيت، فهي أدركت أباك وأكلته!

أمير وطفيلي

وكان رجل من لامراء يستظرف طفيلياً يحضر طعامه وشرابه، وكان الطفيلي اكولا شروبا، فلما رأى الامير كثرةَ أكلهِ وشربه اطرحه وجفاه، فكتب إليه الطفيلي:

قـــد قـــلّ أَكلي وقـــلّ شرْبي   وصرتُ مـن بـابــة الاميرِ[1]
فليـدْعُ بي وهْـو في أمـان   أنْ أَشْـرَبَ الراح بـالكبيرِ

طفيلي في صنيع

وأقبل طفيلي إلى صنيع[2]، فوجد بابا قد أُرتج ولا سبيل إلى الوصول؛ فسأل عن صاحب الصنيع إن كان له ولد غائب او شريك في سفر؟ فأخبر عنه أن له ولد بلد كذا، فأخذ رقا أبيض وطواه وطبع عليه، ثم أقبل متدلِّلاً فقعقع الباب قعقعة

(١) من بابته: أي ممن يصلح له.   (٢) الصنيع: الطعام.

شديدة واستفتح، وذكر أنه رسول من عند ولد الرجل؛ ففُتح له الباب، وتلقاه الرجل فَرحا فقال: كيف فارقت ولدي؟ قال: له بأحسن حال، وما أقدر ان اكلمك من الجوع! فأمر بالطعام فقدم إليه، وجعل يأكل؛ ثم قال له الرجل: ما كتب كتابا معك؟ قال: نعم. ودفع إليه الكتاب، فوجد الطين طريا، فقال له: ارى الطين طريا! قال: نعم وأريدُك انه من الكدِّ ما كتب فيه شيئاً! فقال: أطفيلي انت؟ قال: نعم أصلحك الله! قال: كلْ لا هنأك الله!

اشعب على ثريدة

وقيل لاشعب: ما تقول في ثرْده مغمور بالزبد مشققة باللحم؟ قال فأُضرَبُ كم؟ قيل له: بل تأكلها من غير ضرب. قال: هذا ما لا يكون، ولكن كم الضرب فأتقدم على بصيرة!

وقيل لمزبَّد المديني، وقد أكل طعاما كظَّه: قِيْ نَقاً[1] ولحم جدي! امرأتي طالق لو وجدتُها قيئاً لأكلتها!

وقيل لطفيلي: ما أبغضُ الطعامِ اليك؟ قال: القريض[2]. قيل له: ولم ذا؟ قال: لانه يؤخر إلى يوم آخر.

طفيلي وكتبة

ومر طفيلي بقوم من الكتبة في مشربة لهم، فسلم ثم وضع يده يأكلُ معهم؛ قالوا: أعرفت فينا احدا؟ قال: نعم، عرفت هذا. وأشار إلى الطعام! فقالوا: قولوا بنا فيه شعراً:

فقال الأول:

لم أرَ مثل سَرْطِهِ ومطِّه[3]

---

(١) النقى: مخ العظم. (٢) القريض: ضرب من الأدم.

(٣) سرطه: ابتلاعه.

وقال الثاني:

ولَفِّه دَجاجَهْ ببَطه

وقال الثالث:

كأنَّ جالِينوسَ تحت إبطِه

فقال الاثنان للثالث: أما الذي وصفناه من فعله فمفهوم، فما يصنع جالينوس تحت إبطه؟ قال: يُلْقِمُه الجوارش كلما خاف عليه التخمة؛ تهضم بها طعامه!

الجماز وطفيلي

ومرّ طُفيلي على الجماز؛ فقال له ما تأكل؟ قال: [قَيء] كلبٍ في قحف خنزير!

ودخل طُفيلي على قوم يأكلون فقال: ما تأكلون؟ فقالوا من بغضه: سُمًّا! فأدخل يده وقال: الحياةُ حرامٌ بعدَكم!

ومرّ طفيلي على قوم كانوا يأكلون وقد أغلقوا الباب دونه، فتَسوّر عليهم من الجدار وقال: منعتموني من الارض فجئتكـم من السماء!

وقيل لطفيلي: كـم اثنان في اثنين؟ قال: أربعة أرغفة.

وقيل لآخر: كم كان اصحاب النبي ﷺ يوم بدر؟ قال: كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر درهما.

طفيلي وزنادقة حملوا للمأمون

قال محمد بن احمد الكوفي: حدثنا الحسين بن عبد الرحمن عن أبيه قال: أمر المأمون أن يُحمل إليه عشرة من الزنادقة سُمُّوا له بالبصرة؛ فجُمعوا، وأبصرهم طُفَيلي، فقال: ما اجتمع هؤلاء إلا لصنيع! فانسلَّ فدخل وسطهم، ومضى بهم المتوكلون حتى انتهوا بهم إلى زورق قد أُعِدَّ لهم، فدخلوا الزورق، فقال الطفيلي: هي نزهة! فدخل معهم، فلم يكن بأسرع من أن قُيِّدوا وقيِّدَ معهم الطفيلي، ثم سِير بهم إلى بغداد، فأدخِلوا على المأمون، فجعل يدعو بأسمائهم رجلا رجلا، فيأمر بضرب رقابهم، حتى

وصل إلى الطفيلي وقد استوفى العِدَّة، فقال للموكلين: ما هذا؟ قالوا والله ما ندري، غير أنا وجدناه مع القوم، فجئنا به. فقال له المأمون: ما قصتُك ويلك؟ قال: يا أمير المؤمنين، امرأته طالق إن كان يعرف من احوالهم شيئاً، ولا مما يدينون الله به؛ إنما انا رجل طفيلي رأيتُهم مجتمعين فظننتهم ذاهبين لدعوة! فضحك المأمون وقال: يؤدَّب! وكان ابراهيم بن المهدي قائما على رأس المأمون، فقال: يا أمير المؤمنين، هب لي ذنْبه، واحدِّثك عن حديث عجيب عن نفسي. قال: قل يا ابراهيم، قال: خرجتُ يا امير المؤمنين من عندك يوما؛ فطفتُ في سكك بغداد متطرِّبا، فانتهيت إلى موضع، فشممتُ روائح أبازير قدورٍ قد فاح طيبُها، فتاقت نفسي إليها وإلى طيب ريحِها، فوقفت على خياط فقلت: لمن هذه الدار؟ قال: لرجل من التجار من البزازين. قلت: ما اسمه؟ قال: فلان ابن فلان. فنظرت إلى الدار، فإذا بشباك فيها مطلّ، فنظرت إلى كف قد خرجت من الشباك قابضة على عضد ومعصم، فشغلني يا امير المؤمنين حُسْنُ الكفِّ والمِعْصَم عن رائحة القدور، وبقيت باهتا ساعة؛ ثم أدركني ذهني، فقلت للخياط: أهو ممن يشرب؟ قال: نعم، وأحسب ان عنده اليوم دعوة، وليس ينادمه إلا تجار عملٌ مستورون. فبينا أنا كذلك إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدرب، فقال الخياط: هؤلاء منادِموه. فقلت: ما اسماهما وما كناهما؟ قال: فلان وفلان. فحركتُ دابتي وداخلتُهما، وقلت: جُعِلتُ فداكما، قد استبطأكما ابو غلان أعزه الله. وسايرتُهما حتى بلغا الباب، فأدخلاني وقدَّماني، فدخلنا؛ فلما رآني صاحب المنزل لم يشك أني منهما بسبيل، أو قادم قدمتُ عليهما من موضع؛ فرحّب بي، وأُجلِسْتُ في أفضل المواضع؛ فجيء بالمائدة وعليها خبز نظيف، وأُتينا بتلك الالوان، فكان طعمُها أطيبَ من ريحها؛ فقلت في نفسي: هذه الالوان قد أكلتها، وبقي الكف والمِعصم، كيف اصل إلى صاحبتها؟ ثم رُفِع الطعام، وجاءونا بوضوء، فتوضأنا وصرنا إلى بيت المنادمة، فإذا أشكلُ بيت يا أمير المؤمنين، وجعل صاحبُ المنزل يلطف بي ويميل عليَّ بالحديث. وجعلوا لا يشكون أن ذلك منه على معرفة متقدمة؛ حتى إذا شربنا أقداحا، خرجت علينا جارية كأنها بانٌ،

تنثني كالخيزران فأقبلت فسلمتّ غير خجلة، وثنيت لها وسادة فجلست، وأتى بالعود فوضع في حِجرِها فجسته، فاستَبَنت في جسِّها حِذقها، ثم اندفعت تغني:

توهّمَها طرْفي فأصبح خـدّهـا   وفيه مكان الوهْم من نظري أثرْ
وصافحهـا كفّـي فـآلم كفَّهـا   فمِن مسِّ كفي في أنامِلها عَقْـر

فجعلت يا امير المؤمنين بلابلي تطرب لحسن شعرها، ثم اندفعت تغني:

أشرتُ إليها: هل عرفـت مـدّتي؟   فردّت بطرف العين: إني على العهْـدِ
فحِدْتُ عن الإظهار عمداً لسرِّهـا   وحادتْ عن الإظهار أيضاً على عمْد

فصحت: يا سلام! وجاءني من الطرب ما لا املك نفسي معه؛ ثم اندفعتْ فغنت الثالث:

أليس عجيبـاً أن بيتـاً يضُمُّني   وإيـاك لا نخلـو ولا نتكلمُ؟
سوى أعين تشكو الهوى بجفونِهـا   وتقطيعِ أنفاسٍ على النـار تضرَم
إشـارة أفـواهٍ وغمـزُ حـواجـب   وتكسيرُ أجفـان وكـف يسلِّـم

فحسدتها يا امير المؤمنين على حذقها ومعرفتها بالغناء، وإصابتها لمعنى الشعر، وأنها لم تخرج عن الفنّ الذي ابتدأتْ به؛ فقلت: بقي عليك يا جارية!

فضربتْ بعودها الارض وقالت: متى كنتم تُحْضِرونَ مجالسكم البغضاء!

فندمتُ على ما كان مني، ورأيت القوم كأنهم تغيروا لي؛ فقلت: أما عندكم عود غير هذا؟

قالوا: بلى.

فأتيت بعود، فأصلحت من شأنه، ثم غنيت:

ما للمنازلِ لا يُجبْـنَ حَـزينـا   أصُمِمْنَ أم قـدُم المدَى فبلِينـا
راحوا العشيَّةَ روْحةً منكـورةً   إن مِتنَ متنـا أو حَيِن حيينـا

فلما أتممته حتى قامت الجارية فأكبَّت على رجلي تقبلها، وقالت: معذرةً إليك فوالله ما سمعت أحداً يغني هذا الصوت غِناءَك! وقام مولاها وأهل المجلس ففعلوا كفعلها، وطرب القوم والله واستحثوا الشراب، فشربوا بالكاسات والطاسات؛ ثم اندفعتُ أغني:

أبَـى الله أن تَمشي ولا تَـذكـريني ... وقد سفَحتْ عيناي من ذِكرك الدَّما
فردّي مُصابَ القلـب أنـتِ قتلتِـه ... ولا تتركيه ذاحـلَ العقـل مغـرَمـا
إلى الله أشكـو بُخلَهـا وسماحَتي ... لها عَسـلٌ مني وتبـذُلُ علقَما[1]
إلى الله أشكـو انها مـداريّـة ... وإني لها بالودِّ ما عشتُ مُكـرِمـا

فطرب القوم حتى خرجوا من عقولهم، فأمسكتُ عنهم ساعة حتى تراجعوا ثم اندفعت أغني الثالث:

هـذا محبُّـكِ مطـويٌّ على كمـدِهْ ... حرّى مدامعُه تجري على جسـدهْ[2]
لـه يـدٌ تسـألُ الرحمنَ راحتـه ... مما جنَى، ويدٌ أُخـرى على كبـده

فجعلت الجارية تصيح: هذا الغناء والله يا سيدي لا ما كنا فيه!

وسكر القوم، وكان صاحب المنزل حسَن الشرب صحيح العقل، فأمر غلمانه أن يخرجوهم ويحفظوهم إلى منازلهم، وخلوتُ معه؛ فلما شربنا اقداحا قال: يا هذا! ذهب ما مضى من أيامي ضياعا إذ كنتُ لا اعرفك؛ فمن انت يا مولاي؟

ولم يزل يلحُّ حتى أخبرته الخبر، فقام وقبّل رأسي وقال: وأنا اعجب يا سيدي أن يكون هذا الادب إلا لمثلك، وأنَّى لي أن اجالس الخلفاء ولا اشعر؟

ثم سألني عن قصتي فأخبرته، حتى بلغت خبرَ الكف والمعصم؛ فقال للجارية: قومي فقولي لفلانة تنزل...

---

(١) السماحة: الجود. (٢) الكمد: الحزن الشديد.

ثم لم يزل يُنزِل جواريَه واحدة بعد اخرى، وأنظر إلى كفها ومعصمها وأقول: ليست هي! حتى قال: والله ما بقي غير زوجتي واختي، والله لانزلنَّهما إليك.

فعجبت من كرمه وسَعة صدره، فقلت: جُعلتُ فداءك، آبدأ بالاخت قبل الزوجة فعساها هي.

فبرزت، فلما رأيت كفَّها ومعصمها قلت: هي هذه! فأمر غلمانه فمضوا إلى عشرة مشايخ من جلة جيرانه، فأقبلوا بهم؛ وأمر ببدرتين فيهما عشرون ألف درهم، فقال للمشايخ: هذه اختي فلانة، أُشهدكم اني قد زوجتُها من سيدي إبراهيم بن المهدي، وامهرتُها عنه عشرين ألفاً! فرضيت النكاح، فدفع إليها بالبدرة، وفرق الاخرى على المشايخ، وقال لهم: انصرفوا. ثم قال: يا سيدي امهد لك بعض البيوت فتنام مع اهلك! فاحتشمني[1] ما رأيت من كرمه، فقلت: بل احْضِرُ عمارية وأحملها إلى منزلي. قال: ما شئت. فأحضرت عمارية وحملتُها إلى منزلي؛ فوالله يا امير المؤمنين، لقد أتبعَهَا من الجهاز ما ضاق عنه بعضُ بيوتنا؛ فأولدتها هذا القائم على رأس امير المؤمنين.

فعجب المأمون من كرم الرجل، وأطلق الطفيليَّ وأجازه، وألحق الرجل في أهل خاصته.

طفيلي وقوم يتغدون

ومرَّ طفيليّ بقوم يتغدّون، فقال: سلام عليكم معشر اللئام! فقالوا: لا والله، بل كرام. فثنى رجله وجلس، وقال: اللهم اجعلهم من الصادقين واجعلني من الكاذبين!

الفضل بن يحي وطفيلي

ودخل طفيليّ من اهل المدينة على الفضل بن يحي وبيده تفاحة، فألقاها إليه وقال: حيَّاك الله يا مدني، أتأكل التحيات؟ قال: أي والله، والزاكياتِ الطيبات كنت آكلها!

---

(١) احتشمني: أخجلني.

ابراهيم الموصلي وطفيلي

وقال ابراهيم الموصلي في طفيلي كان يصحبه:

نِعـمَ النَّـديمُ نـديمٌ لا يُكلِّفُني ذبْحَ الدَّجاجِ ولا ذبح الفراريجِ
يكفيهِ لَوْنان من كشكٍ ومن عدَسٍ وإن يشاءُ فزيتونٌ بِطَسُّوجِ (١)

وقال طفيليّ في نفسه:

نحنُ قومٌ إذا دُعِينا أجبنا ومتى نُنْسَ يَدْعُنا التَّطْفيلُ
ونقُلْ: علَّنا دُعينا فغِبنا وأتانا فلم يَجِدْنا الرسُولُ!

وقال آخر وأتى طعاماً لم يُدع إليه، فقيل له: من دعاك؟ فأنشأ:

دعوْتُ نفسي حينَ لم تَدْعُني فالحمدُ لي لا لَكَ في الدعوَهْ
وكان ذا أحسَن من مَوْعِد مُخْلفَه يدعو إلى الجَفْوهْ

ودخل طُفيليّ في صنيع رجل من القِبط، فقال له: من أرسل إليك؟ فأنشأ:

أزورُكم لا أُكافيكم بجفْوَتِكم إنّ المحبَّ إذا ما لم يُزَرْ زارا

فقال القبطي: زرزارا! ليس ندري من هو؟ آخرُجْ من بيتي!

طفيلي وزنادقة

ونظر رجل من الطفيليين إلى قوم من الزنادقة يُسارُ بهم إلى القتل: فرأى لهم هيئة حسنة وثياباً نقية، فظنهم يُدْعَوْن إلى وليمة، فتلطف حتى دخل في لفيفهم وصار واحداً منهم، فلما بلغ صاحبُ الشرطة قال: أصلحك الله، لستُ والله منهم، وإنما أنا طفيلي ظننتهم يُدْعَون إلى صنيع فدخلت في جملتهم! فقال: ليس هذا ما يُنجيك مني، اضربوا عنقه! فقال: أصلحك الله، إن كنت ولا بدّ فاعلا فأْمُرِ السياف ان يضرب بطني بالسيف، فإنه هو الذي ورّطني هذه الورطة! فضحك صاحب الشرطة، وكشف عنه، فأخبروه أنه طفيلي معروف، فخلّى سبيله.

---

(١) الطسوج: ربع الدانق.

وقال طفيلي:

ألا ليْتَ خُبْزاً تسرْبَل رائباً ... وخيْلا من البرْنيِّ فُرْسانها الزُّبدُ
فأطلبُ فيما بيْنَهُنَّ شهادةً ... بموْتِ كريمٍ لا يُشَقُّ له الحدُ

وكان أشعب يختلف إلى قينة بالمدينة يطارحها الغناء، فلما أراد الخروج إلى مكة قال لها: ناوليني هذا الخاتم الذي في أصبُعِكِ لاذكرك به! قالت: إنه ذهب، وأخاف ان تذهب؛ ولكن خذ هذا العود، لعلك تعود.

شيخ وحدث

اصطحَب شيخٌ وحدَثٌ من الاعراب، فكان لهما قرص في كل يوم، وكان الشيخ متخلع الاضراس بطيء الأكل، فكان الحدث يَبْطِش بالقرص ثم يقعد يشتكي العشق، ويتضور الشيخ جوعاً، وكان اسم الحدث جعفراً، فقال الشيخ فيه:

لقد رابَني من جعفرٍ أن جعفراً ... يطيشُ بقُرْصِي ثم يبكي على جُمْلِ
فقلتُ له مسَّكَ الحبُّ لم تبِتْ ... سميناً وأنساكَ الهوى شِدّةَ الأكلِ

وقال الحدث:

إذا كان في بطْني طعامٌ ذكرْتُها ... وإن جُعْتُ يوماً لم تكن لي على ذِكرِ
ويزدادُ حُبِّي إنْ شبعْتُ تجدُّداً ... وإن جُعْت غابت عن فؤادي وعن فِكري

أشعب وجارية

وكان أشعب يختلف إلى جارية في المدينة، ويُظْهِرُ لها التعاشق، إلى ان سألته سلفة نصف درهم، فانقطع عنها، وكان إذا لقيها في طريق سلك طريقاً أخرى، فصنعت له نشوقاً وأقبلت به إليه، فقال لها: ما هذا؟ قالت: نشوق[1] عملتُه لك لهذا الفزع الذي بك! فقال: اشربيه انت للطمع [الذي بكِ]؛ فلو انقطع طمَعُك انقطع فزعي! وأنشأ يقول:

---

(١) نشوق: السَّعوط: كل دواء يصب في الأنف أو يشم.

أخلِفي ما شئتِ وعدي وآمنَحيني كلَّ صدٍّ
قد سلا بعدَكِ قلبي فاعْشِقي مَن شئتِ بعدي
إنّي آليتُ لا أعْـ ـشِقُ مَن يعشِقُ نقد نُقْدي!

لأشعب في الغناء

وقيل لاشعب: ما احسنُ الغناء؟ قال: نشيشُ[1] المقلى! قيل له. فما اطيب الزمان؟ قال: إذا كان عندك ما تنفق!

وكان أشعب يغني:

ألا أُخبِرْتُ أخبارا أتت في زمَنِ الشِّدة:
وكان الحبُّ في القلْبِ فصار الحبُّ في المِعْدَهْ

وقال آخر في طُفيلي من اهل الكوفة:

زرعنا، فلما تمَّمَ الله زرْعنا وأوفى عليه مِنْجَل بحصادِ
بُلينا بكفيّ حليف مجاعةٍ أضرَّ بزرْع من دَبَى وجرادِ

وقال هشام اخو ذي الرُّمة لرجل اراد سفرا: إن لكل رفْقة كلبا يشركهم في فضلة الزاد، فإن استطعت ان لا تكون كلب الرفاق فافعل.

أبو نواس وشطار

وخرج ابو نواس متنزها مع شطار من اصحابه، فنزلوا روضة ووضعوا شرابا، فمر بهم طفيليّ، فتطارح عليهم؛ فقال له أبو نُواس. ما آسمك؟ قال: ابو الخير. فرحب به وقعد معهم؛ ثم مرت بهم جارية فسلمت، فردّ عليها، وقال لها: ما اسمك؟ قالت: زانة. قال ابو نواس لاصحابه: آسرقوا الياء من ابو الخير، فأعطوها زانة، فتكون زانية، ويكون ابو الخير ابا الخر كما هو ففعلوا . . . .

---

(١) النشيش: صوت الماء وغيره اذا غلى.

الجاحظ وغيره من صنيع:

الجاحظ قال: دعا أبو عبيد الله الواسطي إلى صنيع، فدعاني، فدعوت أبا الفَلَوْسَكيّ، فلما كان من الغد صبح الفلَوسكي الجاحظ فقال له: أما تذهب بنا هناك يا أبا عثمان؟ قال: نعم. قال فذهبنا حتى أتينا دار صاحب الصنيع، ولم يكن علينا كسوة رائعة ولا تحتنا دواب فتدخل تجاهنا، فوجدنا البواب ذا غلَظٍ وجفاء، فمنعنا، فانحدرنا في جانب الإيوان ننتظر احد يُعْلِمُ أبا عبد الله الواسطي بنا؛ فلما أُخبر خرج إلينا يتلقانا، فتقدمني الفلوسكي وتقدمه حتى أتى صدر المجلس؛ فقعد فيه؛ ثم قال لي: ههنا عندنا يا أبا عثمان! فلما خلونا ثلاثتنا قلت للفلوسكي: كيف تسمي العرب من أمالت إلي أنفسها؟ قال الفلوسكي: تسميه ضيفاً. فقال له الجاحظ: وكيف تسمي من أماله الضيف؟ قال: تسميه ضيفناً. قال الجاحظ: وكيف تسمي من أماله الضيفن؟ قال: ما لمثل هذا عند العرب تسمية. قال الجاحظ: فقلت: قد رضيتَ أن تكون في منزلة من التطفيل لم تجد لها العرب اسماً، ثم تتحكم تحكُّمَ صاحبِ البيت.

باب من أخبار المحارفين

منهم أبو الشمقمق الشاعر، وكان أديباً ظريفاً ومحارفاً[1]، وكان صعلوكاً متبرماً بالناس، وقد لزم بيته في أطمار مسحوقة، وكان إذا استفتح عليه أحدٌ بابه، خرج فينظر من فروج الباب، فإن أعجبه الواقف فتح له وإلا سكت عنه؛ فأقبل إليه يوماً بعض إخوانه الملطفين له، فدخل عليه فلما رأى سوء حاله قال له: أبشر أبا الشمقمق، فإنا روينا في بعض الحديث: «إن العارين في الدنيا هم الكاسون يوم القيامة». فقال: إن صح والله هذا الحديث كنت أنا في ذلك اليوم بَزَّازا[2]! ثم أنشأ يقول:

أنا في حالٍ تعالى اللهُ ربِّي أيَّ حالِ
ليس لي شيْءٌ إذا قيل لمنْ ذا قلتُ ذا لي

---

(١) المحارف: الذي اذا طلب لا يرزق.

(٢) البزاز: بائع البزّ، والبز نوع من الثياب أو السلاح.

ولقـــد أهــزلـــتُ حتى … محَتِ الشمْسُ خيـــــالي
ولقـــد أفلسْـــتُ حتى … حَـــــلَّ أكلي لِعيـالي

وله:

أتراني أرى من الدهْـرِ يـومـاً … لِيَ فيـه مَطيـةٌ غيرُ رجلــي؟
كلما كنتُ في جميـعٍ فقـالـوا … قرِّبوا للرحِّيلِ، قرِّبـتُ نعلي!
حيثما كنـتُ لا أُخلِّـفُ رحْلا … مـن رآني فقـد رآني ورَحْلي!

وقال ابو الشمقمق أيضاً:

[لو] قد رأيتَ سَريري كنتَ تَرحَمُني … الله يعلمُ مـــالِـــي فيــــه تَلبيسُ
والله يعلمُ مـــالي فيـــه شـــائِبـــة … إلا الحصِيرةُ والأطمارُ والدِّيس (١)

وقال أيضاً:

برزْتُ مـن المنـازِلِ والقبـابِ … فلم يَعسُـرْ على احـدٍ حِجـابي
فمنزِلِيَ الفضـاءُ، وسَقـفُ بيتي … سماءُ اللهِ أو قِطـعُ السَّحـابِ
فأنـتَ إذا أردتَ دخَلـتَ بيتي … عليّ مُسَلماً مـــن غيرِ بـــابِ
لأني لم اجـد مِصراعَ بـــابٍ … يكون منَ السحـابِ إلى التراب
ولا انشَقَّ الثَّرى عن عـودِ نحتٍ … أُؤَمِّـلُ أن أشـارِيَــه ببـابي
ولا خِفتُ الإباقَ على عبيـدِي … ولا خِفـتُ الهلاكَ على دوابي (٢)
ولا حاسَبتُ يومـاً قهـرَمـانـا … محاسبة فـأغلِـطَ في حســابي
وفي ذا راحـة وفـراغُ بـالٍ … فدأْبُ الدَّهر ذا أبـداً ودابِـي

وقال أيضاً:

لو ركبتُ البِحارَ صارتْ فِجاجـا … لا تَـرى في مُتونِهـا أمـواجـا
فلـو آنّـي وضعـتُ ياقـوتةً حمْراءَ … في راحَتِي لصـارتْ زُجـاجـا

---

(١) الدِّيس: الشجاع الشديد الذي يدوس كل من نازله.
(٢) الإباق: هرب العبيد وذهابهم من غير خوف ولا كدّ عمل.

ولـو أنّـي وردت عـذبـاً فُـراتـاً عادَ لا شـكّ فيـه مِلحـاً أُجاجـا
فـإلى الله أشتَكـي وإلى الفضـل فقد أصبحَـتْ بُـزاتِـي دَجاجـا

وقال عمر بن الهدير:

وقفْـت، فلا أدري إلى أيـنَ أذهـبُ وأيَّ أُمـوري بـالعـزيمةِ أركـبُ
عَجبـتُ لأقـدار عليّ تتـابَعـتْ بنحْس فأفنى طُولَ دهـري التعَجُّـبُ
ولما التَمَسـتُ الرِّزْقَ فـانحلَّ حبلُـه ولم يَصْفُ لي من بحرِه العـذْبِ مَشرَب
خطبتُ إلى الإعـدام إحـدى بنـاتِـه لِدقْعِ الغِنى إيَّايَ إذْ جئتُ ومِشجَب(١)
فـأَوْلـدْتُهـا الحُزنَ النَّقـي، فما لـهُ على الارضِ غيري والِد حينُ ينسَـب
فلو تِهـتُ في البيـداءِ والليـلُ مُسبـلٌ عليّ ديَـاجيـهِ لَما لاحَ كـوكـب
ولو خفـتُ شَـراً فـاستتَـرتُ بظُلمـة لأقبلَ ضَوْءُ الشمسِ من حيثُ تغـرُب
ولـو جـادَ إنسـان عليّ بـدِرهـمٍ لرُحْتُ إلى رَحلي وفي الكف عقرَب(٢)
ولـو يُمطَـرُ النـاسُ الدنـانيرَ لم يكـنْ بشيْ سوى الحصباءِ رأسِـيَ يُحصَـب
ولـو لمسـتْ كفَّـايَ عِقـداً مُنظَّماً من الدُّرِّ أضحى وهُو ودْعٌ مُثقّـبُ(٣)
وإن يقتَـرفْ ذنبـاً ببرقة مُذنِبٌ فإنّ برأسي ذلـك الذنـبَ يَعْصـب(٤)
وإن أرَ خيراً في المنـامِ فنـازحٌ وإن أر شَـرًّا فهُـو مني مُقـرّب
ولم أغْـدُ في أمـر أُريـدُ نَجـاحَـهُ فقـابَلَني إلا غُـرابٌ وأرنَـب
أمامِي مـنَ الحرمـانِ جَيشٌ عَـرَمْـرَمٌ ومنـهُ ورائـي جَحفَـلٌ حين أركـب!

وقال آخر:

ليس إغْلاقـي لِبـابي أنّ لي فيه ما أخشَـى عليـهِ السَّـرَقـا
إنما اغْلقتُـه كـي لا يَـرى سُوءَ حالي مَـن يَمـرُّ الطُـرقـا
منـزلٌ أُوطِنـهُ الفقْـرُ فلـو يدخُلُ السـارقُ فيـه سُـرِقـا!

---

(١) المشجب: ما تعلق عليه الثياب ونحوها.

(٢) جاد: تكرم.

(٣) الودع: خرز بيض مجوف. (٤) عصب: اشتد.

وقال الحسن بن هانىء في هذا المعنى:

الحمــــد لله ليسَ لي نشَـــبُ فخففَّ ظهري وقـلّ زُوّاري[1]
مـن نَظـرتْ عينُـهُ إليَ فقــد أحـاطَ علِماً بما حَـــوتْ داري
جَمْرِيَ في البيتِ كامـنٌ وعلى مَـدَرَجــةِ الرائِحينَ أسرارِي

وقال بعض المحارفين:

لـزِمتني حـرْفـة مـا تَنقَضِـي أبـداً حتى أُوارَى في الجدث
كلُـــزومِ الطـــوْق إلا أنها تَسجِدُ الدهرَ والطوق يَـرث[2]

(١) النشب: المال او العقار. (٢) رث: بلي.

كتاب الزبرجدة الثانية
في بيان طبائع الانسان وسائر الحيوان

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه رحمه الله: قد مضى قولنا في المتنبئين، والممرورين والبخلاء، والطفيليين.

ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في طبائع الإنسان وسائر الحيوان، وتفاضل البلدان، والنعمة والسرور؛ إذ لم يكن مدارُ الدنيا إلا عليها، ولا قِوامُ الأبدان إلا بها؛ وإذ هي نمو الفراسة، وتركيب الغريزة، واختلاف الهمم، وطيب الشيم وتفاضل الطعوم.

وقد تكلم الناس في النعمة والسرور، على تباين أحوالهم، واختلاف هممهم وتفاوت عقولهم، وما يجانس كل رجل منهم في طبعه، ويؤلفه في نفسه، ويميل إليه في وهمه؛ وإنما اختلف الناس في هذا المذهب لاختلاف أنفسهم، فمنهم من نفسه غضبية، فإنما همه منافسة الأكفاء، ومغالبة الأقران، ومكاثرة العشيرة ومنهم من نفسه ملكية، فإنما همه اليقين في العلوم، وإدراك الحقائق، والنظر في العواقب؛ ومنهم مَن نفسُه بهيمية، فإنما همه طلبُ الراحة، وانهماك النفس على الشهوة من الطعام والشراب والنكاح؛ وعلى هذه الطبيعة البهيمية قَسمَت الفرس دهرَها كلَّه، فقالوا: يوم المطر للشرب، ويوم الريح للنوم، ويوم الدجْن للصيد، ويوم الصحو للجلوس. وهي أغلب الطبائع على الإنسان، لأخذها بمجامع هواه، وإيثار الراحة وقلة العمل، فمنه قولهم: الرأي نائمٌ والهوى يقظان؛ وقولهم: الهوى إلهٌ معبود؛ وقولهم: ربيعُ القلب ما اشتهى، وقولهم: لا عيشَ كطيبِ النفس.

النفس الملكية

قيل لضرار بن عمرو: ما السرور؟ قال: إقامة الحجة وإدحاضُ الشبهة.

وقيل لآخر: ما السرور؟ قال: إحياءُ السنة وإماتة البدعة.

وقيل لآخر: ما السرور؟ قال: إدراكُ الحقيقة، واستنباطُ الدقيقة.

وقال الحجاج بن يوسف لخريم الناعم: ما النعمة؟ قال: الأمنُ، فإني رأيت الخائف لا ينتفع بعيش. قال له زدني. قال: فالصحة فأني رأيت المريض لا ينتفع بعيش. قال له: زدني. قال له: الغنى، فإني رأيت الفقير لا ينتفع [بعيش]. قال له: زدني. قال: فالشباب، فإني رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش. قال له: زدني، قال: ما أجد مزيداً.

وقيل لأعرابي: ما السرور؟ قال: الأمنُ والعافية.

النفس الغضبية

قيل لحضين بن المنذر: ما السرور؟ قال لواء منشور، والجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير.

وقيل للحسن بن سهل: ما السرور؟ قال: توقيعٌ جائز، وأمرٌ نافذ.

وقيل لعبد الله بن الأهتم: ما السرور؟ قال: رفع الأولياء، ووضع الأعداء، وطول البقاء، مع الصحة والنماء.

وقيل لزياد: ما السرور؟ قال: من طال عمره، ورأى في عدوه ما يسرّه.

وقيل لأبي مسلم صاحب الدعوة: ما السرور؟ قال: ركوب الهماجة[1]، وقتل الجبابرة. وقيل له: ما اللذة؟ قال إقبال الزمان، وعز السلطان.

---

(١) الهماجة: جمع هملاج: الدابة الحسنة السير في سرعة وتبختر.

النفس البهيمية

قيل لأمريء القيس: ما السرور؟ قال: بيضاءُ رعبوبة[1]، بالطِّيبِ مشبوبة، باللحم مكروبة[2]. وكان مفتوناً بالنساء.

وقيل لأعشى بكر: ما السرور؟ قال: صهباء صافية، تمزجها ساقية، من صوب غادية. وكان مغرماً بالشراب.

وقيل لطرفة: ما السرور؟ فقال: مطعم هنيّ، ومشرب رِويّ، وملبس دفيّ، ومركب وطيّ. وكان يؤثر الخفض والدعة.

وقال طرفة:

فلـولا ثلاثٌ هُـنَّ مـن عيشـةِ الفتَـى ... وربِّـك لم أحفِـلْ متى قـام عُـوَّدِي
فمنهُـنَّ سبْقِـي العـاذِلاتِ بشَـرْبـةٍ ... كُمَيْت متى ما تُعْـلَ بـالماءِ تُـزْبِـدِ[3]
وكـرِّي إذا نـادَى المُضـافُ مُحنّبـاً ... كسِيد الغَضـا في الطّخْيـةِ المُتَـورِّدِ[4]
وتقصيرُ يوم الدَّجْنِ، والدَّجْنُ مُعْجِبٌ ... ببَهْكنـةٍ تحت الخِبـاءِ المُمَـدَّدِ

وسمع هذه الأبيات عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فقال: وأنا والله لولا ثلاث لم أحفل متى قام عودي، لولا أن أعدلَ في الرعية، وأقسِمَ بالسوية، وأنفر في السِرية.

وقال عبد الله بن نهيك:

فلولا ثلاثٌ هُـنَّ مـن عيشـةِ الفتى ... وربِّـك لم أحفِـل متى قـام رامِسُ
فمنهـنّ سبْـقُ العاذلات بشـربـة ... كأن أخاها مطلعُ الشمسِ نـاعسُ
ومنهـنّ تقـريـطُ الجَوادِ عِنـانَـهُ ... إذا ابتَدر الشخصَ الكمِيَّ الفوارسُ

---

(١) رعبوبة: البيضاء الحلوة الناعمة، أو الغضة الطويلة الممتلئة الجسم.

(٢) مكروبة: مشدودة.

(٣) العاذلات جمع العاذلة: اللائمة. (٤) الطخية: الظلمة الشديدة.

ومنهنّ تجريدُ الكواعبِ كالدُّمى إذا ابتزَّ عَنْ أكفالِهنّ الملابس

وقيل ليزيد بن مزيد: ما السرور؟ قال: قبلة على غفلة. وكان صاحب وصائف.

وقيل لحُرقة بنت النعمان: ما كانت لذة أبيك؟ قالت: شرب الجِريال[1]، ومحادثة الرجال.

وقيل لحضين بن المنذر: ما السرور؟ قال: دار قوراء[2]، وجارية حوراء، وفرس مرتبط بالفناء.

وقيل للحسن بن هانيء: ما السرور؟ قال: مجالسة الفتيان، في بيوت القيان، ومنادمة الإخوان، على قضب الريحان، وأنشأ يقول:

قلتُ بالعينِ لموسَى ونَدامايَ نِيامُ
يا رضيعِي ثدْي أُمّ ليس لي عنه فِطام
إنما العيشُ سماعٌ ومُدامٌ ونِدام
فإذا فاتكَ هذا فعلى الدنيا السلام

معاوية وابن جعفر:

وقال معاوية لعبد الله بن جعفر: ما أطيبُ العيش؟ قال: ليس هذا من مسائلك يا أمير المؤمنين! قال: عزمت عليك لتقولنَّ. قال: هتكُ الحيا، واتباعُ الهوى.

معاوية وابن العاص:

وقال معاوية لعمرو بن العاص: ما العيش؟ قال ليخرج مَن هنا من الأحداث! فخرجوا، فقال: العيش كله في إسقاط المروءة!

وقال هشام بن عبد الملك: ألذُّ الأشياء كلها جليس مساعد يسقط عني مئونة التحفظ.

قيل لأعرابي: ما السرور؟ قال لبسُ البالي في الصيف، والجديد في الشتاء.

---

(١) الجريال: صبغ أحمر. (٢) قوراء: واسعة.

وقيل لآخر: ما النعيم؟ قال: الماءُ الحارُّ في الشتاء، والبارد في الصيف.

البنيان

قال النبي ﷺ: «من بنَى بُنيانا فليُتْقِنْهُ».

وقالت الحكماء: لذة الطعام والشراب ساعة، ولذة الثوب يوم، ولذة المرأة شهر، ولذة البنيان دهر، كلما نظرتَ إليه تجددت لذته في قلبك، وحسنُه في عينك.

وقالوا: دار الرجل جنتُه في الدنيا.

وقالوا: ينبغي للدار أن تكون أولَ ما يُبتاع وآخر ما يُباع.

يحي وابنه جعفر:

وقال يحي بن خالد لابنه جعفر بن يحي حين اختط داره ليبنيها: هي قميصك إن شئت فضيق وإن شئت فوسع.

الرشيد وعبد الملك:

وقال هارون الرشيد لعبد الملك بن صالح: كيف منزلك بمنْبِج؟ قال دون منازل أهلي، وفوق منازل أهلها. قال: وكيف ذلك وقدرُك فوق أقدارهم؟ قال: ذلك خُلُقُ أمير المؤمنين أحتذي مثاله.

الرشيد وابن صالح:

ولما دخل هارون منبجا قال لعبد الملك بن صالح: هذا منزلك؟ قال: هو لأمير المؤمنين ولي به! قال: كيف ماؤُهُ؟ قال: أطيبُ ماء. قال: كيف هواؤه؟ قال: أفسحُ هواء.

وذكر عند جعفر بن يحي الدارُ الفسيحة الجوّ الطيبة النسيم، فقال رجل عنده: لقد دخلتُ الطائف فكأني كنت أبشر، وكان قلبي ينضج بالسرور، ولا أجد لذلك علة إلا طيبَ نسيمها وانفساح هوائها.

وقيل للحسن بن سهل: كيف نزلت الأطراف؟ قال: لأنها منازل الأشراف، ينالون فيها ما أرادوا بالقدرة؛ وينالهم فيها من أرادهم بالحاجة.

قولهم في الدار الضيقة

ما هي إلا قرارُ حافر؛ وما هي إلا وِجارُ[1] ضَبُع، وما هي إلا قترة قانص؛ وما هي إلا مَفْحَص[2] قطاة.

وقالوا: ما هي إلا حملة يعسوب[3] برأس سنان.

ومن مات في دار ضيقة قيل فيه: خرج من قبر إلى قبر.

من كره البنيان

كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في بناء بيته، فقال: ابن ما يُكنك عن الهواجر وأذى المطر.

وكتب عامل لعمر بن عبد العزيز يستأذنه في بناء مدينة، فكتب إليه: ابنِها بالعدل، ونقِّ طرقها من الظلم.

ومر عمر بن الخطاب ببناء يُبنى بآجُر وجص؛ فقال: لمن هذا؟ فقيل: لعامل من عمالك. فقال: أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها! وأرسل إليه من يشاطره ماله.

وقيل ليزيد بن المهلب: مالك لا تبني؟ قال: منزلي دار الإمارة أو الحبس!

ومر رجلٌ من الخوارج بدار تُبنى فقال: من هذا الذي يقيم كفيلاً؟ والخوارج تقول: كل مال لا يخرج بخروجك ويرجع برجوعك فإنما هو كفيل بك.

ولما بنى أبو جعفر داره بالأنبار، دخلها مع عبد الله بن الحسن، فجعل يريه بنيانه فيها وما شيد من المصانع والقصور؛ فتمثل عبد الله بن الحسن بهذه الأبيات:

---

(١) الوجار: حجر الضبع والأسد والذئب والثعلب.

(٢) المفحص: الأفحوص: حفرة تحفرها القطاة أو الدجاجة في الأرض لتبيض وترقد فيها.

(٣) اليعسوب: رئيس القوم وسيدهم.

أَلم تَر حَوْشباً أضحى يُبَنِّي قُصوراً نَفْعُها لِبني بُقَيْلَهْ؟
يُؤَمِّلُ أن يُعَمَّرَ عُمْرَ نوحٍ وأَمْرُ اللهِ يحدُثُ كلَّ ليْلهْ!

وقالوا في الحجاج بن يوسف إذ بنى مدينة واسط: بناها في غير بلده، وأورثها غير ولده.

اللباس

إسماعيل بن عبد الله بن جعفر عن أبيه، قال: رأيت النبي ﷺ وعليه ثوبان مصبوغان بالزعفران: رداءٌ وعِمامة.

علي بن عاصم عن أبي إسحاق الشيباني قال: مررت بمحمد بن الحنفية واقفاً بعرفات، على بِرْذَوْنٍ، وعليه مطرف خزٍّ أصفرُ.

الشيباني عن ابن جُريج أن ابن عباس كان يرتدي رداء بألف.

أبو حاتم عن الأصمعي أن ابن عون اشترى برنساً، فمر على معاذة العدوية فقالت: مثلك يَلبَس هذا؟ قال: فذكرتُ ذلك لابن سيرين فقال: ألا أخبرتها أن تميما الداريَّ اشترى حلة بألف يصلي فيها.

أيوب السختياني:

وقال معمر: رأيتُ قميص أيوب السختياني يكاد يمس الأرض، فسألته عن ذلك، فقال: إن الشهرة كانت فيما مضى في تذييل القميص، وإنها اليوم في تشميره.

رسول الله ﷺ ورجل في خلقين:

وفي موطأ مالك بن أنس رضي الله عنه، أن جابر بن عبد الله قال: خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة أنمار، فبينا أنا نازل تحت شجرة إذا رسول الله ﷺ، فقلت: هَلُمَّ يا رسول الله إلى الظل. فنزل رسول الله ﷺ؛ قال جابر: وعندنا صاحبٌ له نجهزه يذهب يرعى ظهرَنا، قال: فجهزته، ثم أدبر يذهب إلى الظَّهر،

وعليه ثوبان، قد أخلقا فنظر إليه رسول الله ﷺ، فقال: ماله ثوبان غيرُ هذين؟ قلت: بلى يا رسول الله، له ثوبان في العيد كسوته إياهما. قال: فادعُه فمُرْهُ فليلبَسهما. قال: فدعوته فلبسهما ثم ولى، فقال رسول الله ﷺ: ماله، ضرب الله عنقه! أليس هذا خيراً له؟ فسمعه الرجل، فقال: في سبيل الله يا رسول الله! فقُتل الرجل في سبيل الله.

الربيع بن زياد وعلي:

العتبي قال: أصابت الربيع بن زياد الحارثي نشابة[١] على جبينه، فكانت تنتقض عليه في كل يوم، فأتاه عليٌّ بن أبي طالب عائداً، فقال: كيف تجدك يا أبا عبد الرحمن قال: أجدني لو كان لا يُذهب ما بي إلا ذهابُ بصري لتمنيتُ ذهابَه! قال له: وما قيمة بصرك عندك! قال: لو كانت لي الدنيا فديتُه بها! قال: لا جرم، ليعطينَّك الله على قدرِ ذلك إن شاء الله، إن الله يعطي على قدر الألم والمصيبة، وعنده بعدُ تضعيف كثير!

قال له الربيع: يا أمير المؤمنين، ألا أشكو إليك عاصم بن زياد؟ قال: وماله؟ قال: لبس العباء، وترك الملاء، وغمَّ أهله، وأحزن ولده! فقال: عليّ عاصماً! فلما أتاه عبس في وجهه، وقال: ويلك يا عاصم، أترى الله أباح لك اللذات وهو يكره أخذَك منها؟ لأنت أهونُ على الله من ذلك؛ أو ما سمعته يقول: ﴿مرجَ البَحْريْنِ يلتقِيان بيْنَهما برزَخٌ لا يبْغِيان﴾[٢]، ثم قال: ﴿يَخرُجُ منهُما اللُؤلُؤُ والمَرْجانُ﴾[٣]؛ وقولَه: ﴿ومن كلٍّ تأكلونَ لحماً طَرِياً وتَسْتخرجُونَ حِلْية تلْبسُونَها﴾[٤]؟ أما والله إن ابتذال نعم الله بالفعال، أحبُّ إليه من ابتذالها بالمقال وقد سمعتَه عز وجل يقول: ﴿وأمّا بِنعْمَة ربِّكَ فَحدِّثْ﴾[٥]، ويقول: ﴿قُلْ مَن حرّمَ زِينةَ اللهِ التي أَخْرَجَ لِعبادِهِ

---

(١) نشابة: واحدة النشاب وهي السهام.

(٢) سورة الرحمن الآية ١٩ و ٢٠.   (٣) سورة الرحمن الآية ٢٢.

(٤) سورة فاطر الآية ٣٥.   (٥) سورة الضحى الآية ١.

والطَّيبات مِن الرِّزْق﴾[1]، وإن الله عز وجل خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين، فقال: ﴿يا أَيُّها الذينَ آمنوا كلوا من طيِّباتِ ما رَزقنَاكم﴾[2]، وقال: ﴿يا أَيُّها الرُّسُلُ كلوا مِنَ الطيباتِ واعْمَلوا صالحاً إني بما تَعمَلونَ عَليمٌ﴾[3]. فقال عاصم: فعلام اقتصرتَ أنت يا أميرَ المؤمنين على لبس الخشن وأكل الجَشِب؟ قال: إن الله افترض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بالعوام لئلا يشنع على الفقير فقرُه، قال: فما برح حتى لبس الملاء ونبذ العباء.

لباس الصوف

حماد وفرقد:

قدم حماد بن سلمة البصرة فجاء فرقد السبخي وعليه ثياب صوف، فقال له حماد: ضع عنك نصرانيَّتك هذه، فلقد رأيتُنا ننتظر إبراهيم، فيخرج علينا وعليه معصفرة، ونحن نرى أن الميتة قد حلت له!

ابن واسع وقتيبة:

قال أبو الحسن المدائني: دخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم والي خراسان وعليه مِدْرعة[4] صوفٍ، فقال له قتيبة: [ما يدعوك إلى لبس هذه؟ فسكت؛ فقال له قتيبة]: أكلمك فلا تجيبني! قال: أكره أن أقول زُهداً فأُزكي نفسي، أو أقول فقراً فأشكو ربي.

وقال ابن السماك لأصحاب الصوف: والله لئن كان لباسكم وفْقاً لسرائركم لقد أحببتم أن يطلع الناس عليها، ولئن كان مخالفاً لها قد هلكتم.

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٢ (٢) سورة البقرة الآية ١٧٢.

(٣) سورة المؤمنون الآية ٥١.

(٤) المدرعة: ضرب من الثياب لا يكون الا من الصوف.

وكان القاسم بن محمد يلبس الخز، وسالم بن عبد الله يلبس الصوف، ومقعدُهما واحد في مسجد المدينة. فلا ينكر بعضهما على بعض شيئاً.

وقال محمود الوراق في أصحاب الصوف:

تصوَّفَ كي يقالَ له أمينٌ ... وما يعنِي التصوُّفَ والأمانهْ؟
ولم يُرِدِ الإلهَ به ولكنْ ... أرادَ به الطريقَ إلى الخيانهْ

التزين والتطيب

دخل رجل على محمد بن المنكدر يسأله عن التزين والطيب فوجده قاعداً على حشايا مصبغة، وجارية تغلفه بالغالية؛ فقال له: يرحمك الله، جئت أسألك عن شيء فوجدتك فيه!

قال: على هكذا أدركتُ الناس.

وفي حديث: أنّ النبي ﷺ قال: «إياكم والشعَث، حتى لو لم يجد أحدكم إلا زيتونة فليعْصرها وليدَّهِنْ بها».

وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة: «ما لي أراكِ شعثاء، مرْهاء[1]، سلتاء[2]؟».

قالت: يا رسول الله، أو لسْنا من العرب؟.

قال: «بلى، ربما أُنْسِيَتِ العربُ الكلمة فيعلمُنيها جبريل».

الشعثاء: التي لا تدهن. والمرهاء: التي لا تكتحل. والسلتاء: التي لا تختضب.

وقال ﷺ: «ما نلت من دنياكم إلا النساء والطيب».

وروى مالك عن يحي بن سعيد، أن أبا قتادة الأنصاري قال: يا رسول الله، إن لي جُمَّة[3]، أفأُرَجِّلها يا رسول الله؟.

قال «نعم، وأكرمْها».

---

(١) المرهاء: الشديدة البياض.

(٢) السلقاء: المرأة التي لا تختضب.

(٣) جمّة: مجتمع شعر ناصية الإنسان.

قال: فكان أبو قتادة ربما دهنها في اليوم مرتين.

وروى مالك عن زيد بن أسلم، أن عطاء بن يسار أخبره قال: كان رسول الله ﷺ في المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية؛ فأشار إليه رسول الله ﷺ أن اخرج فأصلح رأسَك ولحيتك! ففعل، ثم رجع؛ فقال رسول الله ﷺ: أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان؟

وقد تمادحت العرب بحسن الهيئة وطيب الرائحة، فقال النابغة:

رِقاق النِّعال طيِّبٌ حُجُزاتهم ... يحيَّوْنَ بالرَّيحان يومَ السَّباسِبِ[1]
يُحيِّيهمُ بيضُ الولائِد بينهم ... وأكِسية الإضريج بين المساجِب[2]
يصونونَ أجساداً قديماً نعيمُها ... بخالصة الأرْدان خُضر المناكب

وقال الفرزدق:

بنو دارِمٍ قُومي ترى حُجزاتهم ... عتاقاً حواشيها رِقاقاً نعالُها
يجرّون هُدّابَ اليمان كأنهم ... سيوفٌ جلا الأطباعَ عنها صِقالها

وقال طرفة:

أُسْدُ غِيلٍ فإذا ما شربوا ... وهَبوا كلَّ أمُونٍ وطمَرْ
ثم راحوا عَبَقُ المسْكِ بهم ... يلحَفون الأرضَ هُدّاب الأزُر

وقال كثيِّر عزة:

أشمُّ من الغادين في كلِّ حُلَّةٍ ... يميسون في صبْغ من العصْب مُتْقِن
لهم أُزُرٌ حُمْرُ الحواشي يَطوْنها ... بأقدامهم في الحضرَميّ الملسّن

وقال آخر:

من النفر السمِّ الذين إذا اعتَزوْا ... وهابَ الرجالُ حلقةَ الباب قَعْقَعوا

---

(١) يوم السباسب: يوم عيد عند النصارى.

(٢) الاضريج: الخز الأحمر.

جَلا الإذفَرُ الأحوى من المسْكِ فَرْقَه ... وطِيبُ الدِّهانِ رأسَه فهو أنْزع[1]
إذا النَّفَرُ السُّودُ اليَمانونَ حاوَلوا ... له حوْكَ بُرْديْه أرَقُّوا وأوْسَعوا

وقال آخر:
يُشبَّهونَ ملوكاً في مَجلَّتهم ... وطول أنضِيَة الأعناق واللِّممِ[2]
إذا غدَا المسكُ يجري في مَفارقهم ... راحو كأنهمُ مَرْضَى من الكرم

وقال آخر في عليّ بن داود الهاشمي:
أمّا أبوكَ فذاك الجودُ نعرفه ... وأنت أشبه خلق الله بالجودِ
كأن ديباجتَيْ خدّيه من ذهبٍ ... إذا تعصَّبَ في أثوابه السُّود

الرحلة والركوب

عمرو بن العاص ورجل:

سمع عمرو بن العاص رجلاً يقول: الرحلة قطعة من العذاب. فقال له: لم تحسن، بل العذاب قطعة من الرحلة.

هارون وزبيدة في طريقها إلى مكة:

ولما مشى هارون إلى مكة ومشت معه زبيدة، كانت تُبْسَط الدرانك[3] أمامهم وتُطوَى خلفهم؛ فلما أعيا، دعا بخادم له فألقى ذراعه عليه وتأوه، وقال: والله لركوب حمار منهوس خير من المشي على الدرانك.

قال الشاعر:
وما عن رضَى صار الحمارُ مطيّتي ... ولكنّ مَن يمشي سيرضَى بما ركبْ

---

(١) يقال مسك أذفر: أي جيد للغاية.
(٢) المجلة: الجلال.
(٣) الدرانك، أنواع من البسط.

وقال أعرابي:

يا ليت لي نعلين من جلـد الضبُـعْ   كلَّ الحذاءِ يَحتـذي الحافي الوقـعْ

الخيل

قد مضى من قولنا في وصف الخيل وفضائلها في كتاب الحروبِ ما كفى من إعادتها هنا.

البغال

قال مسلمة بن عبد الملك: ما ركب الناس مثل بغلة طويلة العنان، قصيرة العذار[1]، سفواء[2] العرف، حصاء الذنب، سوطها عنانها، وهمها أمامها.

الفضل وهاشمي:

وعاتب الفضل بن الربيع بعضَ الهاشميين في ركوب بغلة، فقال: هذا مركب تصاغر عن خُيَلاء الفَرس وارتفع عن ذلة الحمار، وخيرُ الأمور أوساطها.

الحمير

قيل للفضل الرقاشي: إنك لتُؤْثِرُ الحمير على سائر الدواب! قال: لأنها أرفق وأوفق. قلت: ولم ذلك؟ قال: لا يستدل بالمكان على طول الزمان؛ ثم هي أقل داء، وأيسر دواء، وأخفض مهوى، وأسلم صريعا، وأقل جماحا؛ وأشهر فارها، وأقل تطيرا؛ يزهى راكبه وقد تواضع بركوبه، ويعدّ مقتصداً وقد أسرف في ثمنه.

وقال جرير بن عبد الله: لا تركبْ حماراً؛ إن كان حديداً أتعبَ يديك، وإن كان بليداً أتعبَ رجليك.

(١) العذار: جانب اللحية.

(٢) سفواء العرف: خفيفة شعر العنق.

طباع الإنسان وسائر الحيوان

زعم علماء الطب أن في الجسد من الطبائع الأربع اثني عشر رطلاً: فللدم منها ستة أرطال، وللمرّة الصفراء والسوداء والبلغم ستة أرطال؛ فإن غلب الدم الثلاث طبائع تغير منه الوجه وورم، ويخرج ذلك إلى الجذام؛ وإن غلب الثلاث طبائع الدم آنبث المد، فإذا خاف الإنسان غلبة هذه الطبائع بعضها بعضاً فليعدل جسده بالافتصاد، وينقيه بالمشي؛ فإن لم يفعل اعتراه ما وصفنا؛ إمّا جذام[١] وإما مدّ[٢]. أسأل الله العافية.

ولا بأس بعلاج الجسد في جميع الأزمان، إلا في النصف من تموز إلى النصف من آب؛ فذلك ثلاثون يوماً لا يصلح فيها علاج، إلا أن ينزل مرضٌ لا بدّ من مداواته.

جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم قال: الغلام يشب كل سنة أربع أصابع.

في التوراة:

حدّثني عبد الرحمن بن عبد المنعم عن أبيه عن وهب بن منبه، أنه قرأ في التوراة أن الله عز وجل حين خلق آدم ركب جسده من أربعة أشياء، ثم جعلها وراثة في ولده تنمى في أجسادهم وينمون عليها إلى يوم القيامة: رطب ويابس، وسخن، وبارد؛ قال: وذلك أني خلقتُه من تراب وماء، وجعلت فيه نفساً [ورُوحاً]؛ فيُبُوسة كل جسد من قِبل التراب، ورطوبتُه من قِبل الماء، وحراراته من قبل النفس، وبرودته من قبل الروح؛ ثم خلقت للجسد بعد هذا الخلقِ الأولِ أربعةَ أنواع أخر، وهي مِلاك الجسد وقوامُه بإذني، لا يقوم الجسد إلا بهن، ولا تقوم واحدة إلا بالأخرى: المرّة السوداء، والمرة الصفراء، والدم الرطبَ الحار، والبلغم البارد؛ ثم

---

(١) الجذام: علة تتأكل منها الأعضاء وتتساقط.

(٢) المد: كثرة الماء.

أسكنتُ بعض هذا الخلق في بعض، فجعلت مسكن اليبوسة في المرة السوداء، ومسكن الرطوبة في الدم، ومسكن البرودة في البلغم، ومسكن الحرارة في المرة الصفراء؛ فأيما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع وكانت كل واحدة فيه وفقاً لا تزيد ولا تنقص، كملت صحته، واعتدلت بنيته؛ وإن زادت واحدة منهن غلبتهن وقهرتهن ومالت بهن، ودخل على أخواتها السقم من ناحيتها بقدر ما زادت،؛ وإن كانت ناقصة عنهن؛ مِلْن بها وعَلَوْنها وأدخلن عليها السقم من نواحيهن، لقلتها عنهن حتى تضعف عن طاقتهن وتعجز عن مقاومتهن.

قال وهب بن منبه: وجعل عقله في دماغه، وشرهه في كليته، وغضبه في كبده، وصرامته في قلبه، ورعبه في رئته، وضحكه في طحاله، وحزنه وفرحه في وجهه؛ وجعل فيه ثلثمائة وستين مَفصلاً.

الأصمعي: من لم يخفّ شعره قبل الثلاثين لم يصلع أبداً ومن لم يحمل اللحم قبل الثلاثين لم يحمله أبداً.

للنبي صلى الله عليه وسلم:

حدث زيد بن أخزم قال: حدثني بشر بن عمر عن أبي الزناد [عن أبيه] عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: «كل ابن آدم تأكل الأرضُ إلا عَجْبَ الذنب، ومنه خُلق ومنه يُركَّب».

وقالت الحكماء: الخنَث يعتري الأعراب والأكراد والزنج والمجانين وكل صنف، إلا الخصيان؛ فإنه لا يكون خصي مخنَّثا.

وقالوا: كل ذي ريح منتنة وذفر كالتيس وما أشبهه، إذا خصي نقص ريحه وذهب صُنانه، غير الإنسان، فإنه إذا خصي زاد نتنه واشتد صنانه وخبث عرقه وريحه.

قالوا: وكل شيء من الحيوان يخصَى فإن عظمه يرق، وإذا رق عظمه استرخى

لحمه، إلا الإنسان؛ فإنه إذا خُصي طال عظمه وعرُض.

وقالوا: الخصي والمرأة لا يَصلعان أبداً، والخصي تطول قدمه وتعظم.

وبلغني أنه كان لمحمد بن الجهم برذون[1] رقيق الحافر فخصاه؛ فجاد حافره وحسُن.

قالوا: والخصي تلين معاقد عصبه وتسترخي، ويعتريه الاعوجاج والفدَع[2] في أصابعه، وتسرع دمْعَتُه، وَيتخدّد جلده، ويسرع غضبه ورضاه، ويضيق صدره عن كتمان السر.

وزعم قوم أن أعمارَهم تطول لترك الجماع كما تطول أعمارُ البغال.

وقالوا: إن قلة أعمار العصافير من كثرة الجماع.

وقالوا: في الغلمان من لا يحتلم أبداً، وفي النساء من لا تحيض أبداً؛ وذلك عيب.

ومن الناس من لا يسقط ثَغْرُهُ ولا يستبدل منه، منهم عبد الصمد بن علي، ذكروا أنه دخل قبره برَواضعه[3]!

وقالوا الضبُّ والخنزير لا يلقيان من أسنانهما أبداً.

وقالت الحكماء: إنه ليس شيء من الحيوان يستطيع أن ينظر إلى أديم السماء غير الإنسان، كرمه الله بذلك.

وقالوا: إن الجنين يغتذي بدم الحيض يسيل إليه من قبل السرة؛ ولذلك لا تحيض الحوامل إلا القليل. وقد رأينا من الحوامل من تحيض؛ وذلك لكثرة الدم. وتقول العرب: حملت المرأة سهواً؛ إذا حاضت عليه. وقال الهذلي:

وَمُبَرَّإٍ مـن كـلِّ غُبَّـر حَيْضَـة   وفسـادِ مُـرْضِعـةٍ وداءٍ مُغْيـل

---

(١) البرذون: يطلق على غير العربي من الخيل والبغال.

(٢) الفدع: الاعوجاج.

(٣) الرواضع: ما نبت من اسنان الصبي ثم سقط في عهد الرضاع.

يعني أنها لم تر عليه دمَ حيض في حملها به .

قالوا : فإذا خرج الولد من الرحم دفعت الطبيعة ذلك الدم الذي كان الجنين يغتذيه إلى الثديين ؛ وهما عضوان ناهدان عصبيان يصيِّرانه لبناً خالصاً سائغاً للشاربين .

وقالوا : يعيش الإنسان حيث تعيش النار ، ويتلف حيث لا تبقى النار .

وأصحاب المعادن والحفائر إذا هجموا على نفَقٍ في بطن الأرض أو مغارة قدّموا شمعة في طرف قَناة ، فإن عاشت النار وثبتت دخلوا في طلبها ، وإلا أمسكوا .

والعرب تتشاءم ببِكر ولدِ الرجل إذا كان ذكراً . وكان قيس بن زهير أزرقَ بكرا ٱبن بكرين .

وحدث محمد بن عائشة عن حماد عن قتادة عن عبد الله بن حارث بن نوفل ، قال : بكر البِكرين شيطان مخلّد لا يموت إلى يوم القيامة . يعني من الشياطين .

قالوا : وابن المذكَّرة من النساء والمؤنثِ من الرجال أخبثُ ما يكون ، لأنه يأخذ بأخبث خصال أبيه وخصال أمه .

والعرب تَذْكُرُ أن الغَيرى لا تنجبُ : وقال عمرو بن معديكرب :

ألستَ تصيرُ إذا ما نُسبْـ ـتَ بين المُغارةِ والأحمقِ

وقالت الحكماء : كل امرأة أو دابة تبطيء عن الحمل ، إن واقعها الفحل في الأيام التي يجري فيها الماء في العود فإنها تحمل بإذن الله .

وقالت الحكماء : الزنج شِرار الخلق وأردؤهم تركيباً ، لأن بلادهم سخنتْ جداً فأحرقتهم في الأرحام ، وكذلك من بردت بلاده فلم تُنضِجْه الرحم ؛ وإنما فضل أهل بابل لعلة الاعتدال ؛ والشمس هي التي شَيَّطت شعور الزنج فقبَّضتها ؛ والشعر إن أدنيته من النار تقبَّض ، فإن زدته شيئاً تَفلفل ، فإن زدته احترق .

وقالوا: أطيب الأمم أفواهاً الزنج وإن لم تستنّ[1]، وذلك لرطوبة أفواهها وكثرة الريق فيها؛ وكذلك الكلاب من سائر الحيوان أطْيبها أفواهاً. لكثرة الماء فيها، وخلُوفُ[2] فمِ الصائم يكون لقلة الريق، وكذلك الخلوف في آخر الليل.

وقالت الحكماء أيضاً: كل الحيوان إذا ألقى في الماء سبَحَ: إلا الإنسان والقرد والفرس الأعسر، فإن هذه تغرق ولا تسبح.

قالوا: وليس في الأرض هارب من حرب أو غيرها يستعمل الحُضر إلا أخذ على يساره؛ ولذلك قالوا: فمال على وحشيِّه، وأنحى على شؤمى يديه.

وقالوا: كل ذي عين من ذوات الأربع، السباع والبهائم الوحشية والإنسية فإنما الأشفار منها بجفنها الأعلى، إلا الإنسان، فإن الأشفار - يعني الهدب.. بجفنيه معاً: الأعلى والأسفل.

وقالوا: كل جلد ينسلخ إلا [جلد] الإنسان، فإن جلده لا ينسلخ.

عمر بين رجلين في غلام:

وحدث أبو حاتم عن الأصمعي قال: اختصم رجلان إلى عمر رضي الله عنه في غلام، كلاهما يدعيه؛ فسأل عمر أُمّه؛ فقالت: غشِيني أحدهما ثم هرَقْتُ دماً ثم غشيني الآخر. فدعا عمر بالرجلين فسألها، فقال أحدهما: أَعْلنْ أم أُسرّ؟ قال: أَسِرّ. قال: اشتركنا فيه! فضربه عمر حتى اضطجع: ثم سأل الآخر، فقال مثل ذلك؛ فقال عمر: ما كنت أرى مثل هذا يكون، ولقد علمتُ أن الكلبةَ يَسفدُها[3] الكلابُ؛ فتؤدي إلى كل كلب نجله.

ورُكَب الناس في أرجلهم، وركب ذوات الأربع في أيديها؛ وكل طائر كفه [في] رجله.

---

(١) تستن: تستعمل السواك.

(٢) خلوف: الذي تغير وفسد. (٣) سفد الكلبة: نزا عليها.

الليث ابن سعد عن ابن عجلان، أن امرأته حملت [له مرَّة]، فأقامت حاملاً خمس سنين ثم ولدت، وحملت له مرة أخرى فأقامت حاملاً ثلاث سنين ثم ولدت.

وولد الضحّاك بن مزاحم وهو ابن ثلاثة عشرة شهراً.

وقال جُوَيبر: وُلد الضحاك لسنتين، [ووِلد] شعبة لسنتين.

ما نقص من خلقة الحيوان

حدَّث أبو حاتم عن أبي عبيدة والأصمعي وأبو زيد قالوا: الفرس لا طِحال له، والبعير لا مرارة له، والظليم لا مخ له.

وقال زهير:

[كأن الرَّحلَ منها فوق صَعْلٍ][1] مـن الظّلْمان جُـؤْجُـؤه هـواءُ

وكذلك طير الماء والحيتان لا ألسنة لها، ولا أدمغة لها؛ وصَفن البعير لا بيضة فيه، والسمكة لا رئة لها، و[لذلك] لا تتنفس، وكل ذي رئة يتنفس.

المشتركات من الحيوان

الراعي بين الورَشان والحمامة. والجوامز من الإبل بين العِراب والفوالج. والحمير الأخدرية من الأخدر - فرس كان لأردشير كسرى، توحش واجتمع بعانات حمير فضرب فيها - وأعمارها كأعمار الخيل. والزرافة بين الناقة من نوق الحبش وبين البقرة الوحشية وبين الضّبعان، واسمها آشتُرْ كاوْبَلَنْكَ[2]، [أي بين الجمل والكركند]، وذلك أن الضَبعان ببلاد الحبشة يَسْفِد الناقة فتجيء بولد خَلقه بين خلق الناقة والضبعان، فإن كان ولدُ الناقة ذَكراً عرَض للمَهاة[3] فألقحها زَرافة، وسُميت

(١) الصعل: كل من كان دقيق الرأس والعنق. أو الطويل.

(٢) اشتركا وبلنك: أشتر: بعير. وكاو: بقرة. وبلنك: نمر.

(٣) المهاة: البقرة الوحشية.

زرافة لأنها جماعة وهي واحدة كأنها جمل وبقرة وضبع؛ والزرافة في كلام العرب: الجماعة. وقال صاحب المنطق: الكلاب تسفدها الذئاب في أرض سَلوق، فيكون منها الكلاب السَّلوقية.

الأنعام

حدّث يزيد بن عمرو عن عبد العزيز الباهلي عن الأسود بن عبد الرحمن عن أبيه عن جدّه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما خَلَق الله دابة أكرم من النعجة». وذلك أنه ستر حَياها دون حيا غيرها.

وحدَّث أبو حاتم عن الأصمعي عن أبان بن عمر قال: كان لنا جمل يعرف كشْح الحامل من غير أن يشمّها.

وقيل لابنة الخُسّ: ما تقولين في مائة من المعز؟ قالت: قنِي. قيل: فمائة من الضأن؟ قالت: غِنى؟ قيل: فمائة من الإبل؟ قالت: مُنى.

والعربُ تضرب المثل في الصّرد[1] بالمعزى، فتقول: أصْرد من عنز جَرباء.

سئل دَغفل العلامة عن بني مخزوم، فقال: مِعزى مَطيرة، عليها قُشعريرة، إلا بني المغيرة؛ فإن فيهم تشادُق الكلام، ومصاهرة الكرام.

ومما تقوله الأعراب على ألسنة البهائم: تقول المعزى: الآسْتُ جَهْوَى[2]، والذنَب ألْوَى[3]، والجلد زُقاق[4]، والشعر دُقاق[5].

والضأن تضع مرة في السنة، وتُفرِد ولا تتئم، والماعز قد تلد مرتين في السنة وتضع الثلاثة وأكثر وأقل.

والنماء والعدد والبركة في الضأن؛ ونحو هذا الخنازير؛ ربما تضع الأنثى عشرين

---

(١) الصّرد: البرد. (٢) جهوى: مكشوفة.

(٣) ألوى: ملتو. (٤) زقاق: جمع زق، وهو السقاء.

(٥) الرقاق: حبل يشد في عنق البعير إلى رسغه.

خنزيراً ، ولا نماء فيها ولا بركة .

ويقال: الجواميس ضأن البقر، والبُخت ضأن الإبل، والبراذين ضأن الخيل، والجرذان ضأن الفأر، والدُّلدُل ضأن القنافذ، والنمل ضأن الذّرّ.

وتقول الأطباء في لحم المعز: إنه يورث الهم، ويحرّك السوداء، ويورث النسيان، ويخبِّل الأولاد، ويفسد الدم؛ ولحم الضأن يضرُّ بمن يُصرَع من المرة إضراراً شديداً، حتى يصرعهم في غير أوان الصرع: [وأوان الصرع] الأهلَّة وأنصاف الشهور؛ وهذان الوقتان هما وقت مدِّ البحر وزيادة الماء؛ ولزيادة القمر إلى أن يصير بدراً اثر بيِّن في زيادة الدماغ والدم وجميع الرطوبات، قال الشاعر:

كأن القومَ عُشُّوا لحمَ ضأنٍ فهم نَعِجُونَ قد مالت طُلاهُمْ[1]

وفي الماعز أيضاً: إنها ترضع من خِلفها وهي محفَّلة حتى تأتي على كل ما في ضرعها؛ وقال ابن أحمر:

إني وجدتُ بني أَعْيا وجامِلَهم كالعنز تعطِف روْقَيْها فترتضِعُ

وإذا رعت الماعزة في فضل نبت ما تأكله الضائنة، ولم ينبت ما تأكله الماعزة، لأن الضائنة تقرضه بأسنانها والماعزة تقلعه وتجذبه من أصله. وإذا حملت الماعزة أنزلت اللبن في أوّل الحمل إلى الضرع، والضائنة لا تُنزل اللبن إلا عند الولادة؛ ولذلك تقول العرب: رمَّدَت[2] المعزى فرَنِّق رنِّق، ورمَّدت الضأن فربِّق ربِّق[3].

وذكور كل شيء أحسن من إناثه، إلا التيوس؛ فإن الصَّفايا أحسن منها.

وأصواتُ ذكور كلِّ شيء أجهر وأغلظ، إلا إناث البقر؛ فإنها أجهر أصواتاً من ذكورها.

---

(١) النعج: الذي أكل لحم الضأن مثقل على قلبه. الطلى: الأعناق.

(٢) رمدت ترميداً: استبان حملها وعظم ضرعها.

(٣) التربيق: تهيئة الأرباق، وهي الحبال.

وقرأت في كتاب للروم: إذا أردت أن تعرف ما لون جنين النعجة، فانظر إلى لسانها، فإن الجنين يكون على لونه.

وقرأت فيه: إن الإبل تتحامى أمهاتِها [وأخواتها] فلا تسفدها.

وقالوا: كل ثور أفطس، وكل بعير أعلم[١]، وكل ذباب أقرح[٢].

وقالوا: البعير إذا صعب وخافوه استعانوا عليه حتى يبرك ويُعقل، ثم يركبه فحل آخر فيذل؛ وقد يُفعل ذلك بالثور.

وقال بعض القُصاص: مما فضل الله به الكبش أن جعله مستور العورة من قبل ومن دُبر، ومما أهان به التيس أن جعله مهتوك الستر مكشوفَ القُبل والدبر.

وفي مناجاة عزير: اللهم إنك اخترت من الأنعام الضائنة، ومن الطير الحمامة، ومن النبات الحبة، ومن البيوت مكة وإيلياء، ومن إيلياء بيت المقدس.

وفي الحديث: «إن الغنم إذا أقبلت اقبلت، وإذا أدبرت أقبلت؛ والإبل إذا أدبرت أدبرت، وإذا أقبلت أدبرت، ولا يأتي نفعها إلا من جانبها الأشْأم[٣]».

والأقط قد يكون من المعزى. قال آمرؤ القيس:

لنا غنَمٌ نُسوِّقها غِزار كأن قرون جلّتِها عِصيٌّ
فتملأ بيتَنا أقطا وسمْنا وحسبُك من غنًى شِبَعٌ ورِيٌّ[٤]

النعام

قالوا في الظليم: إن الصيف إذا أقبل وابتدأ بالحمرة ابتدأ لون وظيفيْه [بالحمرة، ولا يزالان يتلوَّنان ويزدادان حمرة] إلى أن تنتهي حمرة البُسرة[٥] ولذلك قيل له: خاضب، وللنعام: خواضب.

---

(١) الأعلم: المشقوق الشفة العليا.

(٢) الأقرح: الذي في وجهه قرحة.

(٣) الأشأم: أي الشمال.

(٤) الأقط: لبن محض يجمد حتى يستحجر ويطبخ.

(٥) البسرة: النبتة أول ظهورها.

وفي الظليم: إن كل ذي رجلين إذا انكسرت إحدى رجليه نهض على الأخرى، والظليم إذا انكسرت إحدى رجليه جثَم؛ ولذا قال الشاعر في نفسه وأخيه:

[فإني وإياه كرِجْلَيْ نعامةٍ ... على ما بِنا من ذي غنًى وفقيرِ

يقول: لا غِنى بواحدٍ منا عن الأخر.

[وقال آخر]:

إذا انكسرتْ رجلُ النعامة لم تجد ... على أُختِها نَهضاً ولا دونَها صبرا

قالوا: وعلة ذلك أنه لا مخ في عظمه، وكل عظم كُسر يُجبر، إلا عظماً لا مخ فيه.

والظليم يغتذي المَرْوَ والصخر فتذيبه قانصتُه بطبعها حتى يصير كالماء.

وفي النعامة: إنها أخذت من البعير المنسمَ والوظيف والعنق والخِزامة، ومن الطير الريشَ والجناحين والمِنقار؛ فهي لا بعير ولا طائر.

وقال الأحمير السعدي: كنت ممن خلعني قومي وأطلَّ السلطان دمي وهربت وتردّدت في البوادي، حتى ظننتُ أني قد جزت نخلَ وبار أو قريباً منه، وذلك أني كنت أرى النوى في رجْع الذئاب، وكنت أغشى الذئاب وغيرها من بهائم الوحش ولا تنفر مني، لأنها لم تر أحداً قبلي، وكنت أمشي إلى الظبي السمين فآخذه [وعلى ذلك رأيتُ جميع تلك الوحوش] إلا النعام، فإني لم أره قط إلا نافراً فَزِعاً.

الطير

بلغني عن مكحول أنه قال: كان من دعاء داود النبي عليه السلام: يا رازق النعّاب[1] في عُشه. وذلك أن الغراب إذا فقس عن فراخه خرجت بيضاء، فإذا رآها كذلك نفر عنها؛ وتفتح أفواهها فيرسل الله ذباباً يدخل في أفواهها فيكون ذلك غذاءَها حتى تسودّ، فإذا اسودّت عاد الغراب إليها فغذاها ورفع الله الذباب عنها!

(١) النعاب: فرخ الغراب.

وقال الرياشي: ليس شيء تغيب أذناه من جميع الحيوان إلا وهو يبيض، وليس شيء تظهر أذناه إلا وهو يلد. قال: وهذا يروَى عن عليٍّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل أربعة من الطير: الصُرَد[1]، والهدهد، والذرّة، والنحلة.

وقالوا: الطير ثلاثة أضرب: بهائم الطير، وهو مالقط الحبوب والبزور؛ وسباع الطير، وهي التي تتغذى باللحم؛ والمشترك، وهو مثل العصفور، يشارك بهائم الطير في أنه ليس بذي مخلب ولا منسر، وإذا سقط العصفور على عود قدّم أصابعه الثلاثَ وأخّر الدابرة، وسباع الطير تقدم أُصبعين وتؤخر أصبعين ويشارك سباع الطير فإنه يُلقِم فراخه ولا يزقّها، وأنه يأكل اللحم ويصطاد الجراد والنمل.

قالوا: والعصفور شديد الوطء، والفيل خفيف الوطء.

وقال صاحب الفلاحة: العُقاب والحدأة يتبدَّلان، فيصير العقاب حدأة[2] والحدأة عقاباً؛ والأرانب تتبدل فتصير الأنثى ذكراً والذكر أنثى؛ وذكر الغربان لا يحضن، وكذلك ذكر الإوز وذكر الدجاج.

وقال كعب الأحبار: ما ذهب طائر في السماء قط أكثر من اثنى عشر ميلاً.

ومن حديث سفيان الثوري عن أنس بن مالك، قال: عمر الذباب أربعون يوماً، والبعوضة ثلاثة أيام، والبرغوث خمسة أيام.

قال: والحمام تعجب بالكمُّون وتألف الموضع الذي يكون فيه، وكذلك العدس، ولا سيما إذا نقع في عصير حلو، ومما يصلحن عليه ويكثرن أن تدخَّن بيوتهن بالعِلك، وأيمن مواضعها وأصلحها أن يُبنى لها بيت على أساطين خشب ويُجعَل فيه ثلاثُ

---

(١) الصُرَد: طائر اكبر من العصفور ضخم الرأس والمنقار يصيد صغار الحشرات.

(٢) الحدأة: طائر من الجوارح ينقض على الجرذان والدواجن والاطعمة ونحوها.

كُوًى: كوّة في سمك البيت[1]، وكوّة من قبل المغرب، وكوّة من قِبل المشرق، وباب من قبل الجنوب.

قال: والسذاب[2] إذ أُلقي في اللبن تحامته السنانير البرية.

هشام بن محمد قال: حدثني ابن الكلبي قال: أسماءُ نساءِ بني نوح ﷺ إذا كُتبن في زوايا بيت البرج سلمت الفراخ ونمت وسلمت من الآفات قال هشام: فجربته أنا وغيري فوجدناه كما قال: واسم امرأة سام بن نوح: محلت محم، واسم امرأة حام: نف نسا، واسم امرأة يافث: فالر.

والطير الذي يخرج من وكره بالليل، البومة والصدى والهامة والضوَع والوطواط والخفاش وغراب الليل.

قالوا: وإذا خرج فرخ الحمامة نفخ أبواه في حلقه، لتتسع الحوصلة بعد التحامها وتنفتق؛ فإذا اتسعت زَقّاه عند ذلك اللعاب، [ثم زقاه صاروج[3] صروح الحيطان ليدبغا به الحوصلة]، ثم زقاه بعد ذلك الحب.

قال المثنى بن زهير: لم أر شيئاً قط في رجل أو امرأة إلا رأيته في الحمام: رأيت حمامة لا تمنع شيئاً من الذكور، ورأيت حمامة لا تَقمَط[4] إلا بعد شدة الطلب، ورأيت حمامة تتزين للذكر ساعةَ يريدها، ورأيت حمامة تقمط الذكر، ورأيت ذكراً يقمط كل ما لقي ولا يزاوِج، ورأيت ذكراً له أنثيان يحضن مع هذه وهذه. [ويزُقّ مع هذه وهذه].

قالوا: ومن عجائب الخفاش أنه لا يبصر في الضوء الشديد ولا في الظلمة الشديدة وتحبل [الأنثى] وتلد وتحيض وترضع، وتطير بلا ريش، وتحمل ولدها تحت

---

(١) سمك البيت: سقفه. (٢) السذاب: جنس نباتات طبية.

(٣) الصاروج: خليط يستعمل في طلاء الجدران والأحواض.

(٤) تقمط: يقال: قمط الطائر الانثى أي سندها.

جناحها، وربما قبضت عليها بفيها، وربما ولدت وهي تطير؛ ولها أذنان وأسنان وجناحان متصلان برجليها.

قالوا: والخطاف يتبع الربيع حيث كان، وتقلّع إحدى عينيه فترجع.

البيض

قالوا: والبيض يكون من أربعة أشياء: منه ما يكون من السفاد، ومنه ما يكون من التراب، ومنه ما يكون من نسيم ريح يصل إلى أرحامها، ومنه شيء يعتري الحَجَلَ وما شاكله في الطبيعة: فربما كانت الأنثى [منه] على سُفالة الريح التي تهب [من شِق الذكَر] في بعض الزمان فتحتشي لذلك بيضا، وكذلك النخلة التي تكون [بجنب] الفُحال[1] وتحت ريحه فتلقم تلك الرائحة وتكتفي بذلك؛ والدجاجة إذا هرمت لم يكن لبيضها مُحٌّ وإذا لم يكن لها مُح لم يكن لبيضها فرخ، لأن الفرخ يخلق من بياض البيض وغذاؤه الصفرة.

السباع

يقال: إنه ليس في السباع أطيبُ أفواهاً من الكلاب، ولا في الوحش أطيب أفواهاً من الظباء. ويقال: ليس [شيء] أشد بخراً من الأسد والصقر، ولا في السباع أسبح من كلب؛ وليس في الأرض فحل من سائر الحيوان لذكَره حجم إلا الإنسان والكلب؛ والأسد لا يأكل الحارّ ولا الحامض، ولا يدنو من النار؛ وكذلك أكثر السباع.

وتقول الروم: الأسد يُذعَر لصوت الذئب؛ ولا يدنو من المرأة الطامث والأسد إذا بال شغر كما يشغر الكلب وهو قليل الشرب ونجْوُه كنجو الكلب؛ ودواء عضته كدواء عضة الكلب.

---

(١) الفحّال: ذكر النخل.

قالوا: والعيون التي تضيء بالليل: عيون الأُسْد والنمور والأفاعي والسنانير.
وقالوا: ثلاثة من الحيوان ترجع في قيئها: الأسد والكلب والسِّنَّور.

وقالوا: تمام حمل الكلبة ستون يوماً، فإن وضعت قبل ذلك لم تكد أولادها تعيش؛ وإناث الكلاب تحيض كل سبعة أيام يوماً، وعلامة ذلك أن يَرِمَ ثفر[1] الكلبة، ولا تريد السفاد في ذلك الوقت، وذكور السلوقية تعيش عشرين سنة، وتعيش إناثها اثنتي عشرة سنة؛ وليس يُلقي الكلب من أسنانه إلا النابين، والذئاب تسفد[2] والكلاب في أرض سلوق، فتكون منها الكلاب السلوقية؛ والكلب من الحيوان يحتلم كما يحتلم الإنسان.

وقالوا في طبع الذئب محبة الدم: ويبلغ بطبعه أن يرى ذئباً مثله قد دمي، فيثب عليه فيمزقه؛ قال الشاعر:

وكُنتَ كذِئبِ السوءِ لمّا رأى دَماً بصاحِبِهِ يوْماً أحالَ على الدّمِ

ويقولون: ربما ينام الذئب بإحدى عينيه ويفتح الأخرى؛ قال حُميد ابن ثور:
يَنامُ بإحْدَى مُقلتَيْهِ ويَتَّقي بأخْرَى الأعادي فهْو يَقْظانُ نائمُ[3]

قالوا: والذئب أشد السباع مطالبة، وإذا عجز عوى عواء استغاثة فتسامعت به الذئاب فأقبلت حتى تجتمع على الإنسان أو غيره فتأكله؛ وليس شيء من السباع يفعل ذلك غيرها.

وقضيب الذكر من الأرانب [ربما كان] من عظم، وكذلك قضيب الثعلب والأرنب تنام مفتوحة العين.

وليس لشيء من ذكر الحيوان ثدي في صدره إلا الإنسان والفيل، ولسان الفيل

(١) الثفر: الفرج (للسباع وذوات المخالب).
(٢) تسفد: تنزو. (٣) المقلة: العين كلها.

مقلوب طرفه إلى داخل، وزعمت الهند أن نابي الفيل [هما] قرناه؛ يخرجان مستبطنين حتى يخرقا الحنك ويخرجان منكسين.

وقال صاحب المنطق: ظهر فيل عاش أربعمائة سنة. وحدثني شيخ لنا عن الزيادي قال: رأيت فيلاً أيام أبي جعفر قيل إنه سجد لسابور ذي الأكتاف ولأبي جعفر. والفيَلة تضع في سبع سنين.

الحيوان الذي لا يصلح إلا بأمير

الناس والفأر والغرانيق والكراكي والنحل والحشرات.

قتادة عن ابن عمر قال: الفأرة يهودية، ولو سقيتها ألبان الإبل ما شربتها، والفأر أصناف: منها الزَّباب، وهو أصم لا يسمع؛ والخلد، وهو أعمى؛ وتقول العرب هو أسرقُ من زَبابة وفأرة البيش، والبيشُ سم قاتل؛ ويقال: هو قرون السُّنْبُل؛ وله فأرة تغتذيه لا تأكل غيره، وفأرة المسك من غير هذا، وفارة الإبل: أرواحها إذا عرقت.

قالوا: والأفعى إذا نفثت في فيها حُمَّاض الأترج[1] وأطبقت لحييها الأعلى على الأسفل لم تقتل بعضتها أياماً.

قالوا: الثوم والملح وبعر الغنم نافع جداً إذا وضع على موضع لسعة الحية.

والحيات تُقتل بريح السذاب والشيح، وتعجب باللفاح[2] والبسباس[3] والبطيخ والخردل والحرف[4] واللبن والخمر.

وليس في الأرض حيوان أصبر على الجوع من الحية، ثم الضب بعدها؛ وإذا هرمت الحية صغُر بدنُها، وقنعت بالنسيم.

---

(١) الأترج: نوع من النبات.

(٢) اللفاح: نبت له ثمر في حجم التفاح.

(٣) البسباس: جمع البسبسة: وهي شجرة من فصيلة جوز الطيب لها بزور واغلفة بزور عطرية منبهة.

(٤) الحرف: حب الرشاد.

قالوا: وكل شيء يأكل فهو يحرك فكه الأسفل، ما عدا التمساح؛ فإنه يحرك فكه الأعلى.

وبمصر سمكة يقال لها الرعاد، من اصطادها لم تزل يده ترعد ما دامت في شبكته.

والجُعَل[1] إذا دفنته في الورد سكنت حركته حتى تحسبه ميتاً، فإذا دفنته في الروث تحركت ورجعت نفسه!

والبعير إذا ابتلع خنفساء قتلته إذا وصلت [إلى] جوفه حية.

والضب يُذبح ثم يمكث ليلة، ثم يقرَّب من النار فيتحرك.

والأفعى تذبح فتبقى أياماً تتحرك، وإذا وطئها أحد نهشته، ويقطع ثلثها الأسفل فتعيش وينبت ذلك المقطوع.

قالوا: وللضب ذكران، وللضبة حِرَان، حكاه أبو حاتم عن الأصمعي؛ ويقال لذكره: النِّزك، وأنشد:

سِبَحْلٌ له نِزكانِ كانا فضيلةً على كل حافٍ في البلادِ وناعِلِ[2]

وسامٌّ أبرص لا يدخل بيتاً فيه زعفران.

ومن عضه كلبٌ كَلِب احتاج أن يستر وجهه من الذباب لئلا يسقط عليه.

وخرطوم الذباب يده ومنه يغَني، وفيه يجري الصوت كما يجري الزامر الصوت في القصبة بالنفخ!

والسلحفاة إذا أكلت أفعى أكلت سَعْتَراً جبلياً.

وابن عرس إذا قاتل الحية أكل السذاب[3].

والكلاب إذا كان في أجوافها داء أكلت سنبل القمح.

والأيْلُ[4] إذا نهشته الحية أكل السراطين قال ابن ماسويه: فلذلك يظن أن

---

(١) الجعل: حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع الندية.

(٢) السبحل: الضخم.

(٣) السذاب: نوع من النباتات الطبية.

(٤) الأيل: الذكر من الأوعال.

السراطين صالحة لمن نهشته الحية .

قال صاحب المنطق: الحية إذا اشتكت كبدها من وقع الأرانب والثعالب تعالجت بأكل الكمأة حتى تبرأ .

وبعض الناس يعملون من الأوزاغ سماً أنفذ من البِيش ومن ريق الأفاعي .

وإذا زرع في نواحي الزرع خردل يجتنبه دَبَى الجراد .

وإذا أخذ المراد اسنج وخلط بعجين ثم طرح للفأر وأكل منه مات وكذلك برادة الحديد .

وإذا أخذ الأفيون والشونيز والبارزذ وقرون الأيل وبابونج وظلف من أظلاف العنز، فخلط ذلك جميعاً ، ثم يدق وينخل نخلاً جيداً ويعجن بخل عتيق ثم يقطع قطعاً ، فيدخَّن بقطعة منه هربت الحيات والهوام والنمل والعقارب من ريحه .

والبعوض تهرب من دخان الكبريت والعلك .

وقالت الحكماء: لحم ابن عرس نافع من الصرع، ولحم القنفذ نافع من الجذام والسل والشنج ووجع الكلى؛ يجفف ويشوى ويطعمه العليل مطبوخاً ويُضمد به المتشنج .

وعين الأفعى وعين الجراد لا تدورانَ .

وإنما تنسج من العناكب الأنثى من ساعة تولد .

والقمل يُخلق في الرءوس على لون الشعر إن كان أسود أو أبيض أو مصبوغاً .

وأم حُبين لا تقيم بمكان تكون فيه السرفة، وهي دويبَّة يضرب بها المثل في الصنعة ، فيقال: أصنع من سُرْفة(١) .

أبو حاتم عن الأصمعي قال: قال أبو بكر الهجري: ما من شيء يضر إلا وفيه منفعة .

وقيل لبعض الأطباء إن فلاناً يقول: إنما أنا مثل العقرب، أضر ولا أنفع فقال:

---

(١) السّرفة : دودة القز .

ما أقل علمه بها، إنها لتنفع إذا شق بطنها ووضعت على مكان اللدغة، وقد تجعل في جوف فخار مسدود الرأس مطيّن الجوانب، ثم يوضع الفخار في تنور، فإذا صارت العقرب رماداً سُقى مِن ذلك الرماد مثل نصف دانق مَنْ به حصاة فتّتَها من غير أن يضر سائر الأعضاء، وقد تَلسع من به حُمى عتيقة فتقلع عنه، وقد تلسع المفلوج فيذهب عنه الفالج، وقد تُلقى العقرب في الدهن وتترك فيه حتى يأخذ الدهن منها ويجتذب قواها، فيكون ذلك الدهن مُفرِّقاً للأورام الغليظة.

وقال المأمون: قال لي بختيشوع وسلمويه وابن ماسويه: إن الذباب إذا دُلِكَ على [موضع] لسعة الزنبور سكنَ ألمها؛ فلسعني زنبور، فحككت على موضع لسعته عشرين ذبابة؛ فما سكن إلا في قدر الحين الذي يسكن فيه من غير علاج! فلم يبق في يدي منهم إلا أن قالوا: كان هذا الزنبور حَتْفا، ولولا هذا العلاج له لقتلك.

وقال محمد بن الجهم: لا تتهاونوا بكثير مما ترون من علاج العجائز، فإن كثيراً منه وقع إليهن من قدماء الأطباء؛ كالذباب يلقى في الإثمدِ فيسحق معه، فيزيد في نور البصر، ويشد مراكز شعر الأجفان في حافات الجفون.

قالوا: وللسع الأفاعي والحيات ينفع ورق الآس الرطب، يُعصر ويسقى من مائة قدر نصف رطل.

مصايد الطير

قال صاحب الفلاحة: من أراد أن يحتال للطير والدجاج حتى يتحيرن ويغشى عليهن فيصيدهن، عمد إلى الحِلتيت[1]. أذِبْه بالماء ثم اجعل فيه شيئاً من عسل، وأنقع فيه بُرّاً[2] يوماً وليلة، ثم ألقه إلى الطير، فإذا لقطه تحير وغشيَ عليه، فلا يقدر على الطيران إلا أن يُسقَى لبناً خالطه سمن. قال: وإن عُمد إلى طحين برٍّ غير منخول فعُجن بخمر ثم طُرح للطير والحجل فأكلْن منه تحيرن وأُخذنَ.

---

(١) الحلتيت: صمغ راتنجي يستعمل في الطب. (٢) البر: حب القمح.

ومما يُصاد به الكراكيّ وغيرها من الطير، أن يوضع لهنّ في مواقعهن إناء فيه خمر، ويجعل فيه خَربق[1] أسود، ويُنقع فيه شعير، ثم يلقَى لهنّ، فإذا أكلن منه أخذهنّ الصائد كيف شاء.

وقال غيره: تصاد العصافير بأيسر حيلة: تؤخذ شبكة في صورة المحبرة [اليهودية المنكوسة]، ويجعل في جوفها عصفور، فتنقضّ عليه العصافير وتدخل عليه، فما دخل لم يقدر على الخروج، فيصيد الرجل منها في يومه ما شاء وهو وادع.

وقال: ويصاد طيرُ الماء الساكن بالقرعة، وذلك أن تؤخذ قرعة يابسة صحيحة فيُرمى بها في الماء، فإنها تتحرّك بتحرّك ذلك الماء، فإذا أبصرها الطير تتحرّك فزع، فإذا كثر ذلك عليه أنسَ حتى ربما سقط عليها، ثم تؤخذ قرعة مثلها فيقطع رأسها، ويفتق فيها موضع عينين ثم يدخل الصائد رأسه فيها، ويدخل الماءَ ويمشي رويداً، وكلما دنا من الطائر مدّ يده تحت الماء حتى يقبض عليه ويغمس يده به تحت الماء ويكسر جناحيه، ويخليه فيبقى طافياً على الماء يسبح برجليه ولا يطيق الطيران، وسائر الطير لا تنكر انغماسه في الماء، فإذا فرغ من صيد ما يريد رمى بالقرعة ثم التقطه وحمله.

مصايد السباع

السباع العاديَة تصاد بالزُّبَى والمغوّيات[2]، وهي آبار تحفر في أنشاز[3] الأرض، ولذلك يقال: قد بلغ السيل الزبَى.

قال صاحب الفلاحة: ومما تصاد به السباع العادية، أن يؤخذ سمك من سمك البحر الكبار السمان، فتُقطع قطعاً، ثم تشرح وتكتل كتلاً، ثم تؤجج نارٌ في غائط من الأرض تقرب منه السباع، ثم تُقذف تلك الكتل فيها واحدة بعد أخرى، حتى ينتشر

---

(١) الخربق: نبت ورقه كلسان الحمل الأبيض، والافراط في تناوله مهلك.

(٢) المغواة: حفرة يجعل فيها جدي اذا نظر الذئب اليه سقط عليه يريده فيصطاد.

(٣) الأنشاز: جمع النشر: وهو ما ارتفع وظهر من الأرض.

دخان تلك النار، وقُتارُ[1] تلك الكتل في تلك الأرض؛ ثم تُطرح حول تلك النار قطعٌ من لحم قد جُعل فيه الخربق الأسود والأفيون، وتكون تلك النار في موضع لا تُرى فيه حتى تُقبل تلك السباع لريح القتار وهي آمنة، فتأكل من قطع ذلك اللحم، ويُغشى عليها، فيصيدها الكامنون لها كيف شاءوا

تفاضل البلدان

الأصمعي يرفعه إلى قتادة قال: الدنيا كلها أربعة وعشرون ألف فرسخ، فبلد السودان منها آثنا عشر ألف فرسخ، وبلد الروم ثمانية آلاف فرسخ، وبلد الفرس ثلاثة آلاف فرسخ، وبلد العرب ألف.

الأصمعي قال: جزيرة العرب ما بين نجران إلى العُذيب.

وقال غيره: أرض العرب ما بين بحر القُلزم وبحر الهند.

قالوا: وسواد البصرة: الأهواز، وفارس؛ وسواد الكوفة: كسكر إلى الزاب إلى عمل حلوان إلى القادسية؛ وهذه كلها من عمل العراق؛ وعمل العراق من هيت إلى الصين والهند والسند، ثم كذلك إلى الري، وخراسان كلها إلى بلد الديلم والجبال؛ وأصفَهان سُرة العراق، افتتحها أبو موسى الأشعري؛ والجزيرة ليست من عمل العراق، وهي ما بين الدجلة والفرات، والموصل من الجزيرة، ومكة والمدينة ومصر ليست من عمل العراق.

الأصمعي قال: البصرة كلها عثمانية، والكوفة كلها علوية، والشام كلها أموية، والجزيرة خارجية، والحجاز سُنية، وإنما صارت البصرة عثمانية من يوم الجمل؛ إذ قاموا مع عائشة وطلحة والزبير؛ فقتلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقيل لرجل من أهل البصرة: أتحب علياً؟ قال: كيف أحبُّ رجلاً قَتل من قومي من لدن كانت الشمس هكذا... إلى أن صارت هكذا... ثلاثين ألفاً.

والكوفة علوية، لأنها وطن علي رضي الله عنه وداره.

---

(١) القتار: دخان ذو رائحة خاصة ينبعث من الطبيخ أو الشواء. أو العظم المحروق(٢) الخربق: ضرب النبات.

والشام أموية، لأنها مركز مُلك بني أمية وبَيضتهم.

والجزيرة خارجية، لأنها مسكن ربيعة، وهي رأس كل فتنة، وأكثرها نصارى وخوارج، ومنازلهم الخابور، وهو واد بالجزيرة.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لبني تغلب: يا خنازيرَ العرب! والله لئن صار هذا الأمر إليّ لأضعنّ عليكم الجزية!

وقال هارون الرشيد ليزيد بن مزيد: ما أكثرَ الخلفاءَ في ربيعة! قال: بلى، ولكنّ منابرَهم الجذوع!

الأعمش عن سليم قال: ذَكر عمر بن الخطاب الكوفة فقال: جمجمة العرب، وكنز الإيمان، ورمح الله في الأرض، ومادة الأمصار.

علي بن محمد المديني قال: الكوفة جارية حسناء تصنَّعُ لزوجها، فكلما رآها سَرته.

وقال محمد بن عمير بن عطارد: الكوفة سفلت عن الشام ورُباها، وارتفعت عن البصرة وعمقها، فهي مريئة مَريعة، عذية[1] ندية؛ وإذا أتتنا الشمال هبت على مسيرة شهر على مثل رَضراض[2] الكافور، وإذا هبت الجنوب[3] جاءت بريح السواد ووردِه وياسمينه وأترُجِّه؛ فماؤها عذب، وعيشها خصب.

قال ابن عياش الهمداني لأبي بكر الهذلي [يوم فاخره] عند أبي العباس - وذُكرت عنده الكوفة والبصرة - فقال: إنما مَثل الكوفة مثل اللهاة من البدن، يأتيها الماء ببرْده وعذوبته؛ ومثل البصرة مثل المثانة يأتيها الماء بعد تغيُّر وفساد.

وقال الحجاج: الكوفة بِكرٌ حسناء، والبصرة عجوز بَخْراء[4] أوتيتْ من كل حَلْي وزينة.

وقال جعفر بن سليمان: العراق عين الدنيا، والبصرة عينُ العراق. والمربد عين

---

(١) عذيّه: سهلة مريئة بعيدة عن الاحساء والنزوز والريف.

(٢) الرضراض: الحصى الصغير في مجاري المياه، ويريد به الفتات.

(٣) الجنوب: الريح التي تهب من جهة الجنوب.

(٤) البخراء: التي أنتن ريحها.

البصرة، ودارينُ عينِ المربد.

وقال الأصمعي: تذكروا عند زياد الكوفة والبصرة، فقال زياد: لو أضللتُ البصرة لجعلت الكوفة لمن دلني عليها!

وقال حذيفة: أهل البصرة لا يفتحون بابَ هُدًى، ولا يُغْلِقون باب ضلالة، وقد رُفع الطاعونُ عن جميع أهل الأرض إلا عن أهل البصرة!

ومما نُقم على أهل الكوفة أنهم أغدر الناس: طعنوا الحسن بن علي وانتهكوا عسكره، وخذلوا الحسين بن علي بعد أن استدعَوه حتى قُتل، وشكوا سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب وزعموا أنه لا يحسن أن يصلي، فدعا عليهم أن لا يرضيَهم اللهُ عن والٍ ولا يرضيَ والياً عنهم، وقد دعا عليهم عليٌّ بن أبي طالب فقال: اللهم أرمِهم بالغلام الثقفي - يعني الحجاج بن يوسف، وشكوا عمار بن ياسر والمغيرةَ بن شعبة، وطردوا سعيد بن العاص، وخذلوا زيد بن عليّ، وادعى النبوّة منهم غيرُ واحد، منهم المختار بن أبي عبيد. وكتب المختار إلى الأحنف بلغني أنكم تكذبونني وتكذبون رسلي، وقد كذِّبت الأنبياء من قبلي، ولست بخير من كثير منهم!

لعبد الله بن عمر في المختار:

وقيل لعبد الله بن عمر: إن المختار يزعم أنه يُوحَى إليه! قال: صدق؛ الشياطين يوحون إلى أوليائهم.

سكينة وأهل الكوفة:

ولما أرادت سكينة بنت الحسين بن علي رضي الله عنهم الرحيلَ من الكوفة إلى المدينة بعد قتل زوجها المصعَب، حف بها أهل الكوفة وقالوا: أحسن الله صحابتك يا ابنة رسول الله ﷺ! فقالت: لا جزاكم اللهُ خيراً من قوم، ولا أحسن الخلافة عليكم، قتلتمْ أبي، وجدّي، وأخي، وعمي، وزوجي، أيتمتُموني صغيرة، وأيّمتموني كبيرة![1]

---

(١) أيمتها: جعلها أيماً، وهي التي مات عنها زوجها.

عبد الملك وأهل الكوفة:

ولما دخل عبد الملك بن مروان الكوفة بعد قتل المصعب، أقبل إليه جماعة فقال: مَن هؤلاء؟ قالوا أمراؤك أهل الكوفة. قال: قتلةُ عثمان! قالوا: نعم، وقتلة عليّ! قال: هذه بهذه.

بين الكواء ومعاوية:

قدم عبد الله بن الكواء على معاوية، فقال: أخبِرْني عن أهل البصرة. قال: يُقبلون ويُدبرون شتى. قال: فأخبرني عن أهل الكوفة. قال: أنْظَرُ الناس في صغيرة وأوقفُهم في كبيرة. قال: فأخبرني عن أهل المدينة. قال: أحرصُ الناس على الفتنة وأعجزُهم عنها! قال فأخبرني عن أهل مصر. قال: لقمةُ آكل. قال: فأخبرني عن أهل الجزيرة. قال: كناسة بين حشّين[1]، قال: فأخبرني عن أهل الشام. قال: جند أمير المؤمنين، ولا أقول فيهم شيئاً! قال: لتقولن. قال: أطوع خلقِ الله لمخلوق، وأعصاهم للخالق، ولا يخشَوْنَ في السماء ساكناً.

قتادة قال: قيست البصرة في زمن خالد بن عبد الله القسري، فوجدوا طولها فرسخين وعرضها فرسخين.

الأصمعي قال: قال ابن شهاب الزهري: من قدم أرضاً فأخذ من ترابها فجعله في مائها ثم شربه، عوفي من وبائها.

الأصمعي قال: دخلت الطائف فكأني كنت أبشر، وكأن قلبي ينضح بالسرور؛ وما أجد لذلك علة إلا انفساخَ جوها وطِيب نسيمها.

ودخل سليمان بن عبد الملك الطائف فنظر إلى بيادر الزبيب، فقال: ما تلك الجرار السود؟ قيل له: ليست بجرار يا أمير المؤمنين، ولكنها بيادر الزبيب. قال: لله درُّ قسيّ، في أي عش أودَع فراخه! يريد بقَسِيٍّ ثقيفاً؛ كذلك كان اسمه.

---

(١) الحشّ: البستان، أو النخل المجتمع.

الأصمعي قال: من أمثال العامة يقولون: حُمّى خيبر، وطِحال البحرين، ودماميل الجزيرة، وطواعين الشام.

الأصمعي قال: ذكروا أن على باب سمرقند مكتوب: بين هذه المدينة وبين صنعاء ألف فرسخ. قال الأصمعي: بين بغداد وأفريقية ألف فرسخ، وبين البصرة والكوفة ثمانون فرسخاً، وواسط بينهما متوسطة، فلذلك سميت واسط.

الشامات

أول حدّ الشام من طريق مصر أمج، ثم غزة، ثم الرملة رملة فلسطين، ومدينتها العظمى فلسطين. وعسقلان، وبها بيت المقدس، وفلسطين هي الشام الأولى.

ثم الشام الثانية وهي الأردن، ومدينتها العظمى طَبَرية، وهي التي على شاطىء البحيرة، والغور واليرموك، وبيسان، فيما بين فلسطين والأردن.

ثم الشام الثالثة الغُوطة، ومدينتها العظمى دمشق، ومن سواحلها طرابْلس ثم الشام الرابعة، وهي أرض حمص.

ثم الشام الخامسة وهي قنّسرين، ومدينتها العظمى حيث السلطان: حلب، وبين قنسرين وحلب أربعة فراسخ، وساحلها أنطاكية، مدينة عظيمة على شاطىء البحر، في داخلها البساتين والأنهار والمزارع، وهي مدينة حبيب النجار، الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، وبها مسجد ينسب إلى حبيب النجار.

ومن ثغور الشام الخامسة: المصيِّصة، وطرسوس، ونهرا جَيحان وسَيحان.

الجزيرة

ثم الجزيرة، وهي ما بين دجلة والفرات، وبها نهران يقال لهما الخابور والبليخ ومخرجهما من رأس العين، [وهي] مدينة عظيمة بالجزيرة في داخلها عين هي عنصر الخابور والبليخ، وعلى الخابور منازل ربيعة، وأكثرها نصارى وخوارج ونصيبين من

الجزيرة، وهي مدينة عظيمة مطلة على جبل الجوديّ. والموصل من الجزيرة أيضاً. والرقة وحران من الجزيرة أيضاً.

ومن ثغور الجزيرة في جهة عمُّورية من أرض الروم: زبطرة وملَطية. وفي جوف الفرات جزائر فيها مدن يقال لها عانة وعانات؛ وعلى شط الفراتِ مما يلي الجزيرة قرْقيسْيا، ومما يلي الشام: الرَّحْبة، رحبة مالك بن طوق.

العراقان

هما البصرة والكوفة، وقد تقدم ذكرهما واختلاف الناس فيهما.

وفيما أحدثت خلفاء بني هاشم بالعراق: الأنبار، وهي مدينة أبي العباس، أول من ولي الخلافة من بني هاشم، ابتناها واتخذها دار خلافته؛ ثم ولي أخوه أبو جعفر المنصور، فانتقل إلى بغداد، وهي مدينة السلام. وابتنى بها الكرخ في جوف بغداد، وهي دار خلافة بني هاشم، حتى قام المعتصم محمد بن هارون، فانتقل منها إلى سامَرَّا، وتفسير سامرا أن سام بن نوح عليه السلام بناها، وإنما هو بالسريانية، وهي دار الخلافة إلى الآن.

فارس

منها الأهواز، مدينة عظيمة، وبلدها واسع جداً، وهي من سواد البصرة؛ وتُسْتَر مدينة يعمل فيها التستري، وهي ملاحف؛ ومدينة يقال لها جُور، وإليها ينسب ماء الورد الجوري، ومدينة يقال لها إصطخر، بها تعمل الأكسية الإصطخرية الجياد السود؛ ومدينة يقال لها السوس، بها تعمل الثياب السوسية من الخز وغيره؛ ومدينة يقال لها العسكر، وإليها تنسب الثياب العسكرية؛ ومدينة يقال لها الأفساسار، وبها تُعمل الأكسية الأفساسارية الجياد، ومدينة يقال لها دسْتوا، وبها تعمل الثياب الدستوائية؛ ومدينة يقال لها الدسكرة، دسكرة الملك كانت لكسرى؛ ومدينة يقال لها حُلوان، وهي أول الجبال من خراسان وآخر العراق.

خراسان

أول مدنها الري، وهي آخر الجبال من خراسان، وإليها ينسب من الرجال الرازي، ومن خراسان مرو، وهي دار خلافة المأمون، ومنها خرج أبو مسلم صاحب الدعوة، ومَن ينسب إليها من الرجال، يقال له مروزي، ومن الثياب مروي؛ ومدينة يقال لها قومَس، وإليها تنسب الطيقان[1] القومسية؛ ومدينة يقال لها هراة، إليها ينسب الهرَوي من الرجال والمتاع؛ ومدينة يقال لها بلخ، وإليها ينسب البلخي، وبها معادن البجادي[2] العتيق، وهو جنس من الفصوص تسميه العامة البزادي؛ ومدينة يقال لها خوارزم، وإليها ينسب الخوارزمي، وهي على شط البحر المحيط؛ وبلخ على شط النهر العظيم، الذي يقال له جيحون بخراسان، ثم جرجان، وهي مدينة عظيمة على شط البحر المحيط، وإليها ينسب الوشي الجرجاني والمتاع، ثم قوهى، وهي مدينة عظيمة إليها ينسب القوهي من الثياب: ثم كابُل، وهي مدينة يؤتى منها بالإهليلج[3] الكابُليّ، ثم سمرقند، وهي مدينة عظيمة، إليها ينسب السمرقندي من الثياب، وبين بغداد وبينهما مسيرة ستة أشهر، وهي مما يلي كرمان، وهي على بطائح السند. وبلاد السند من آخر خراسان، ما بين المغرب والمشرق من جهة القبلة؛ وآخر مدن خراسان مدينة يقال لها تُبَّت، وهي من أرض الترك وبها مجمع المسك؛ ومدينة يقال لها فرمانة، وأهلها جنس من العجم يقال لهم الصُّغد، وهم الذين يقطعون آذانهم من الحزن إذا مات لهم كبير.

ومن المدن التي في صدر خراسان على الجبال، مدينة يقال لها قرْمِيسين، ثم الدِّينَوَر، وإليها ينسب الدينوري؛ ومدينة همذان، مدينة عظيمة؛ وطبرستان مدينة عظيمة، فيها تعمل الأكسية الطبرية؛ ثم قُمّ، وهي مدينة عظيمة، منها يؤتى بالزعفران؛ ثم أصبهان، وهي مدينة عظيمة؛ ثم طوس، وهي من ثغور الجبال.

---

(١) الطيقان: جمع طاق، وهو ضرب من الثياب.

(٢) البجادي: حجر يشبه الياقوت.

(٣) الإهليلج: شجر ينبت في الهند، ثمره على هيئة حب الصنوبر الكبار.

من ناحية الشام: الفسطاط، وهي مدينة بها منبران ومسجدان، يجمع فيهما العسكر حيث السلطان؛ وعين شمس، بها منبر، وكانت مدينة فرعون، وفيها بنيانه قائم؛ والفرمان، لها منبر؛ والعريش الذي يقال له عريش مصر، له منبر، وهي آخر مصر وأول الشام.

ومن أسفل الأرض: بوصير، لها منبر؛ وتنيس، لها منبر، وإليها تنسب الثياب التنيسية، وبها طراز للخليفة؛ وشطا، لها منبر، وإليها ينسب الشطوي؛ ودَبيق، لها منبر، وإليها ينسب الدبِيقي من الثياب؛ والإسكندرية، لها منبر.

ومن ناحية الحجاز، القُلزم، لها منبر؛ وأيلة، لها منبر.

ومن ناحية الصعيد: القَيس وإليها ينسب القيسي من الثياب؛ والصَّفَن، وإليها تنسب الأكسية الصفنية الحمر، ودَلاَص، لها منبر، وهي مجمع سحرة مصر؛ والفيوم، مدينة لها منبر، تؤدِّي كل يوم ألف دينار؛ وخلف ذلك قوص وبها تكون معادن الذهب والجوهر والزبرجد.

صفة المسجد الحرام

صحنه كبير واسع، ذرعُه طولاً من باب بني جمع إلى باب بني هاشم الذي يقابل دار العباس بن عبد المطلب، أربعمائة ذراع وأربع أذرع؛ وذرعه عرضاً من باب الصفا إلى دار الندوة لاصقاً بوجه الكعبة الشرقي، ثلثمائة ذراع وأربع أذرع؛ وله ثلاث بلاطات محدقة به من جهاته كلها منتظم بعضها ببعض، وهي داخلة في الذرع الذي ذكرْت، فوقها سماوتُها[1] مُذْهبة، وحافاتها على عمد رخام بيض، عددها في طوله من الشرق إلى الغرب مع وجه الصحن، خمسون عموداً، وفي عرضه ثلاثون

---

(١) السماوة من البيت وغيره: سقفه.

عموداً، بين كل عمودين مثل عشر أذرع، وجملة عمد المسجد أربعمائة وأربعة وثلاثون عموداً، طولُ كل عمود منهما عشر أذرع، ودَوره ثلاث أذرع، والمذَهبة من رؤس العمد ثلثمائة وعشرون رأساً وسور المسجد كله من داخله مزخرف بالفسيفساء، وأبوابه على عمد رخام ما بين الأربعة إلى الثلاثة إلى الاثنين، وهي ثلاثة وعشرون باباً لا غَلَق عليها، يُصعد عليها في عدةٍ مِن دَرج.

صفة الكعبة

وبيت الله الحرام بوسط المسجد، كان ارتفاعه في عهد إبراهيم عليه السلام فيما يقال - والله أعلم - تسع أذرع، وطوله في الأرض ثلاثون ذراعاً وعرضه اثنتان وعشرون ذراعاً؛ وكان له ثلاثة سقوف؛ ثم بنتْه قريش في الجاهلية فاقتصرت على قواعد إبراهيم، ورفعته ثماني عشرة ذراعاً، ونقصت من طوله في الأرض ست أذرع وشبراً تركتْه في الحجر، فلما هدمه ابن الزبير ردَّه على قواعد إبراهيم ورفعه سبعاً وعشرين ذراعاً، وفتح له بابين: باباً إلى الشرق، وباباً إلى الغرب، يدخل على الشرقي ويخرج على الغربي، فكان كذلك حتى قُتل، فلما تغلب الحجاج على مكة استأذن عبدَ الملك بن مروان في هدم ما كان ابن الزبير زاده من الحجر في الكعبة، فأذن له، فردّه على قواعد قريش وسدّ الباب الغربي ولم ينقص من ارتفاعه شيئاً.

فذرْع وجهِه القبلي اليوم من الركن الأسود إلى الركن اليماني، عشرون ذراعاً؛ ووجهه الجنوبي من الركن العراقي إلى الركن الشامي - وهو الذي يلي الحجر - إحدى وعشرون ذراعاً؛ ووجهه الشرقي من الركن العراقي إلى الركن الذي فيه الحجر الأسود، خمس وعشرون ذراعاً؛ ووجهه الغربي من الركن اليماني إلى الركن الشامي، خمس وعشرون ذراعاً.

وحول البيت - كله إلا موضعَ الركن الأسود - درجة مجصصة يكون ارتفاعها عظم الذراع في عرض مثله، وقاية للبيت من السيل؛ وباب البيت في وجهه الشرقي على قدر القامة من الأرض، طوله ست أذرع وعشر أصابع، وعرضه ثلاث أذرع

وثمان عشرة إصبعاً، والباب من ساج[1]، غلِظ كل باب ثلاثُ أصابع، ظاهرها مُلبس بالذهب، وباطها بالفضة، في كل باب ستٌّ عوارض، ولها عروتان يضرب فيهما قُفلٌ من ذهب.

وحواجبه كلها مذهبة ما عدا الحاجب الأيمن؛ فإن العلَويَّ الثائر لما تغلب على مكة قلع ذهبه فتُرك على حاله؛ وتحت العتبة العليا عتبة مذهبة، والبابان من ورائهما، والعتبة السفلى مستورة بالديباج إلى الأرض، وبين الركن الأسود والباب خمس أذرع أو نحوها، وهو الملتَزَم فيما يُذكر عن ابن عباس.

والحجر الأسود على رأس صخرتين من وجه الأرض، قد نحت من الصخر مقدارُ ما أُدخل فيه الحجر، وأشفت الصخرة الثالثة عليهما مثل أصبعين والحجر أملس مجزّع[2] حالك السواد في قدر الكف المحنيّة قد لزّ من جوانبه بمسامير الفضة، وفيه صدوع، وفي جانب منه صفيحة فضة، حسبتُها شظيةً منه شُظِيت فجبرت بها، وصخر الركن الأسود أحرش، أكبر من صخرنا قليلاً.

وللبيت سقفان: سقف دون سقف، وفيهما أربع رَوازِن[3] ينفذ بعضها إلى بعض للضوء، وللسقف الأسفل ثلاث جوائز من ساج منقشة مذهبة.

وفي داخل البيت في الحائط الغربي قبالة الباب، الجزعة على ست أذرع من قاع البيت، وهي سوداء مخططة ببياض، طولها اثنتا عشرة إصبعاً في مثل ذلك وحولها طوق من ذهب عرضه ثلاث أصابع، ذُكر أن النبي ﷺ جعلها على حاجبه الأيمن حين صلى في البيت.

والحجر بجوفي البيت محَجور من الركن العراقي الشامي تحجيراً محنياً غير مرتفع، قد انقطع طرفاه دون الركنين اللذين يليانه بمثل ذراعين، للدخول والخروج، يكون

---

(١) الساج: ضرب من الشجر يعظم جداً ويذهب طولاً وعرضاً وله ورق كبير

(٢) مجزع: ما كان فيه بياض وحمرة.

(٣) روازن: جمع روزنة، وهي الكوة غير النافذة.

ما بين مُوسطةُ جنبي التحجير والبيت كما بين الركنين، وارتفاع التحجير نصف قامة، وهو ملبس بالرخام من داخله وخارجه وأعلاه، وجُعل بين كل رخامتين عمود من رصاص؛ وقاع الحجر كله مفروش بالرخام، ومصب الميزاب فيه، وقبلتها إليه، والميزاب مُوسطة أعلى جدار الكعبة، وخارجاً عنه مثل أربعة أذرع في سعته، وارتفاع حيطانه ثمان أصابع، ملبس ظاهره وباطنه بصفائح الذهب، والصفائح مسمرة بمسامير مروّسة من ذهب.

والبيت كله مستور إلا الركن الأسود، فإن الأستار تُفرج عنه مثل القامة ونصف، وإذا دنا وقت الموسم كُسي القباطيّ، وهي ديباج أبيض خراساني، فيكون بتلك الكسوة ما كان الناس مُحرمين، فإذا أحلَّ الناسُ، وذلك يوم النحر حلَّ البيت فكُسي الديباج الأحمر الخراساني، وفيه دارات مكتوب فيها حمدُ الله وتسبيحه وتكبيره وتعظيمه، فيكون كذلك إلى العام القابل، ثم يكسى أيضاً على حال ما وصفت، فإذا كثرت الكسوة وخُشِيَ على البيت من ثقلها خُفف منها، فأخذ ذلك سدنةُ البيت، وهم بنو شيبة.

وذكر بعض المصريين أنه حضر كشف البيت سنة خمس وستين، فرأى ملاطه الزعفران واللُّوبان.

وذُكِر أيضاً عن بعض المكيين حديثٌ يرفعونه إلى مشايخهم أنهم نظروا إلى الحجر الأسود إذ هدم ابنُ الزبير البيتَ وزاد فيه، فقدَّروا طوله ثلاث أذرع، وهو ناصع البياض ـ فيما ذكروا ـ إلا وجهه الظاهر؛ واسوداده فيما ذكروه ـ والله أعلم ـ لاستلام الجاهلية إياه ولطخه بالدم.

والمقام بشرقي البيت على سبع وعشرين ذراعاً منه، وجه المصلِّي خلفه مستقبلَ البيت إلى الغرب، والركن العراقي على يمينه، والباب والركن الأسود على يساره وهو فيما ذَكَرَ مَنْ رآه حجرٌ غيرُ مربوع يكون ذراعاً في ذراع، وفيه أثرُ قدمِ إبراهيم عليه السلام، وطول القدم مثلُ عَظْم الذراع، والحجر موضوع على منبر لئلا يمرَّ به السيل،

فإذا كان وقت الموسم وضع عليه تابوت حديد مثقب لئلا تناله الأيدي .

وحول البيت كله سوارٍ ستٌّ غلاظ مربعة من حديد مذهبة، ورءوسها مذهبة أيضاً، يوقد عليها بالليل للطائِفين، بين كل عمود منها والبيتِ نحو ما بين المقام والبيت .

وزمزم بشرقي الركن الأسود، بينهما مثل الثلاثين ذراعاً، وهي بئر واسعة، تُنُّورها من حجر مطوَّق أعلاه بالخشب، وسقفها قبوٌ مزخرف بالفسيفساء على أربعة أركان تحت كل ركن منها عمودان من رخام متلاصقان، وقد سد ما بين كل ركنين منها بشرجب[1] خشب، وردّ إلى باب من جهة المشرق، وحول القبو كله مثل البُرْطُلة[2]، وبشرقي زمزم بيت مقدر، سقفه مزخرف بالفسيفساء أيضاً مقفل عليه، وشرقي هذا البيت بيت كبير مربع له ثلاثة أقباء، وفي كل وجه منه باب .

وحَمَام المسجد كثير أنيس، يكاد الإنسان أن يطأه بقدمه، لأُنسه بالناس؛ وهو في لون حمام الأبرجة عندنا، إلا أنه أقدر منه، وليس منه حمامة تجلس على البيت ولا تطير عليه، ولقد همني ذلك، فرأيتها حين تكاد أن تحاذي البيت وهي مستعلية في طيرانها ذلك، غطست حتى تصير دونه، وأخذت عن يمينه أو يساره، وزَرْقها ظاهر بارز على البيوت التي في المسجد، إلا بيت الله الحرام فانه نقى ليس فيه ولا عليه أثر، فسبحان مُعَظِّمِه ومُقدِّسِه ومُطهِّره، وتعالى علواً كبيراً !

وبين باب الصفا ـ وهو بقبلي البيت ـ والصفا، الشارع، وهو ببطن الوادي؛ وبعد الشارع فِناءٌ كبير فيه الباعة، ثم الصفا في أصل جبل أبي قُبيس، قد أحدق به البناء إلا من الوجه الذي يُرقى إليها منه، والرقِي إليها على ثلاث درج مبنية بالصخر، والواقف على الصفا مستقبل الجوف ينظر إلى البيت من باب الصفا .

والمروة بشرقي المسجد، وهي من الصفا بين المشرق والمغرب، قد أحدق بها البناء

---

(١) الشرجب: لفت الفرس .　　(٢) البُرطلة: المظلة .

أيضاً إلا من وجه المصعد إليها، وهو من أعلى القصور، بينها وبين المسجد الحرام الزقاق الضيق، فالواقف على المروة مستقبِلَ البيت تجاه الفرجة يرى الميزاب وما اتصل به من البيت، وبين الصفا والمروة شبيه بما بين باب السقاية والمسجد الجامع، والساعي بينهما إذا هبط من الصفا يريد المروة سلك في الشارع وهو بطن الوادي، عن يمينه القصور، وعن يساره المسجد؛ ويعترضه بطن واد إذا انصب فيه أرقل[1] حتى يخرج عن آخره، وله علمان أخضران في جانبي الوادي، أحدهما وهو الأوّل خلف باب الصفا لاصقٌ بالسور، والثاني أمامه بائن، عن السور جُعلا ليُفهم بهما حدُّ الوادي الذي يرمل فيه.

ومِنى قرية بشرقي مكة، تنحو إلى القبلة قليلاً خارجة عن الحرم، على نحو الفرسخ منها؛ وفيها بنيان وسقايات، وأول ما يلقى منها الخارج من مكة إليها، جمرةَ العقبة، بعد يوم النحر، أيام التشريق؛ وبها مسجد أكبر من جامع قرطبة، وهو مسجد الخَيف، له مما يلي المحراب أربع بلاطات معترضة، سقفها من جرائد النخل، وعمدها مجصَّصة[2]، والمنبر على يسار المحراب، والباب الذي يخرج منه الإمام عن يمينه، وفي وسط صحن المسجد منارة، وفي كل جانب منها سقيفة.

والمزدلفة، وهي المشعر الحرام، بين منى وعرفة، وهي من منى على نحو الفرسخين، ولها مسجد مجصَّص لا بناء فيه إلا الحائط الذي فيه المحراب، والباب الذي يخرج منه الإمام عن يمينه، وفي الوسط صحن المسجد؛ وليس فيها ساكن.

وعرفة بشرقي منى على نحو الفرسخين منها، ليس بها ساكن ولا بناء، إلا سقايات وقنوات يجري فيها الماء، وليس بمسجدها بنيان إلا الحائط الذي فيه المحراب؛ وموقف الناس يوم عرفة بعرفة في الجبل وما يليه مما تحته؛ والجبل بين المشرق والجوف من مسجدها، وفي الموضع الذي يقف فيه الإمام ماءٌ جارٍ. ومحراب منى وعرفة والمزدلفة إلى نحو المغرب.

---

(١) أرقل في سيره: أسرع.

(٢) المجصصة: التي طليت بالجص.

صفة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم

بلاطاته في قبلته معترضة من الشرق إلى الغرب، في كل صف من صفوف عمدها سبعة عشر عموداً، ما بين كل عمودين منها فجوة كبيرة واسعة، والعُمُد التي في البلاطات القبلية بيض مجصصة شاطّة[1] جدّاً، وسائر عمد المسجد رخام؛ والعمد المجصصة على قواعدَ عظيمةٍ مربعة، ورءوسها مُذهبة عليها نجف[2] منقشة مذهبة، ثم السماوات على النجف، وهي أيضاً منقشة مذهبة؛ وقبالة المحراب مُوسَطة[3] البلاطات، بلاط مذهب، كله شقت به البلاطات من الصحن إلى أن ينتهي إلى البلاط الذي بالمحراب ولا يشقه، وفي البلاط الذي يلي المحراب تذهيبٌ كثير، وفي وسطه سماء كالترس المقدّر مجوّف كالمحار[4]، مذهب؛ وقد أخذ وجه السور القبلي من داخل المسجد بإزار رخام من أساسه إلى قدر القامة منه، ولف على الإزار بطوق رخام في غلظ الأصبع، ثم من فوقه إزار دونه في العرض مخلّق بالخَلوق، ثم فوقه إزار مثلُ الأوّل فيه أربعة عشر باباً في صف من الشرق إلى الغرب في تقدير كُوَى المسجد الجامع بقرطبة، منقشة مذهبة، ثم فوقه إزار رخام أيضاً؛ فيه صنيفة سماوية فيها خمسة سطور مكتوبة بالذهب بكتاب ثخين غلظه قدر أصبع، من سُوَر قِصار المفصَّل، ثم فوقه إزار رخام مثل الأوّل الأسفل، فيه ترسة[5] من ذهب منقشة، وبين كل ترسين منها عمود أخضر في حافاته قضبان من ذهب، ثم فوقه إزار رخام فيه صنيفة منقشة، عرضها مثل عظم الذراع، لها قضبان وأوراق من ذهب، ثم فوقه إزار فسيفساء عريض، ثم السماوات عليه؛ والمحراب في مُوسطة السور القبلي، على قوسه قُصّة من ذهب ناتئة غليظة، في وسطها مرآة مربعة ذكر أنها كانت لعائشة رضي الله عنها.

---

(١) شاطة: عالية مرتفعة.

(٢) النَّجف جمع النجيف: السهم العريض النصل.

(٣) الموسطة: ما كان في الوسط. (٤) المحار: الصدف.

(٥) الترسة: الترس: ما كان يتوقى به في الحرب.

وقبو المحراب مقدّر جدّاً، وفيه دارات بعضها مذهبة وبعضها حُمرٌ وسود، وتحت القبو صنيفة ذهب منقشة، تحتها صفائح ذهب مثمنة، فيها جزعة مثل جمجمة الصبي الصغير مسمرة؛ ثم تحتها إلى الأرض إزار رخام مخلّق بالخَلوق، فيه الوتد الذي كان النبي ﷺ يتوكأ عليه في المحراب الأوّل عند قيامه من السجود فيما ذُكر، والله أعلم.

وعن يمين المحراب باب يدخل منه الإمام ويخرج، وعن يساره باب صغير مشطرج، قد سُدَّ بعوارض من حديد، وبين هذين البابين والمحراب ممشى مسطح لطيف.

والمقصورة من السور الغربي لاصقة بالباب إلى الفصيل اللاصق بالسور الشرقي، ومن هذا الفصيل يُصعد إلى ظهر المسجد، وهي قديمة مختصرة العمل، لها شرفات وأربعة أبواب، وخارج المقصورة قريب منها عن يسار المحراب سَرَبٌ في الأرض يُهبط فيه درج يُفضي منها إلى دار عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

والمنبر عن يمين المحراب في أول البلاط الثالث من المحراب في روضة مفروشة من الرخام مجوز حولها به، وله درج، وسمر في أعلاه لوح لئلا يجلس أحد على الدرجة التي كان رسول الله ﷺ يجلس عليها، وهو مختصر، ليس فيه من النقوش ودقة العمل ما في منابر زماننا الآن، والجذع أمام المنبر، وشرقي المنبر تابوت يُستر به مقعد رسول الله ﷺ.

وقبره صلوات الله عليه وسلامه بشرقي المسجد في آخر مسقّفه القبلي مما يلي الصحن، بينه وبين السور الشرقي مثل عشر أذرع، قد حُظر حوله بحائط بينه وبين السقف مثل ثلاث أذرع، وله ستة أركان، ولُبِّس بإزار رخام أكثر من قامة، وما فوق القامة مخلق بالخلوق.

قال رسول الله ﷺ: ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة؛ ومنبري على ترعة من ترع الجنة.

وعلى ظهر المسجد حذاء القبر حجر محجور لئلا يُمشى عليه، والبلاطات الجنوبية والغربية أربع، منتظم بعضها فوق بعض في طولها مع وجه الصحن من القبلة إلى الجوف ثمانية عشر عموداً، وحنايا المسجد كلها مما يلي الصحن مشدودة من جهاتها الأربع إلى مناكب العمد بخشب منقش.

وللمسجد ثلاث منارات: اثنتان للجنوب وواحدة للمشرق؛ وحيطان المسجد كلها من داخله مزخرفة بالرخام والذهب والفسيفساء، أولها وآخرها، وله ثمانية عشر باباً، عتبها مذهبة، وهي أبواب عظيمة لا غلق عليها، أربعة منها في الجنوب، وسبعة في الشرق، وسبعة في الغرب.

وقاع المسجد كله مفروش بالحصى وليس له حصر، ووجه سور المسجد كله من خارج منقش بالكذّان[1]، وكذلك الشرفات.

فينبغي للداخل في المسجد أن يأتي الروضة التي قال فيها رسول الله ﷺ: «إنها روضة من رياض الجنة»، فيصلي فيها ركعتين، ثم يأتي قبر النبي ﷺ من قبل وجهه، فيستدبر القبلة ويستقبل القبر، ويسلم عليه ﷺ، وعلى أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، ولا يَلصَق بالقبر، فإنه من فعل الجهال، وقد كُره ذلك، فإذا فعل ما ذُكر استقبل القبلة ودعا بما أمكنه بعد الصلاة على النبي، ﷺ، وعرّفَنا به، ورزقنا شفاعته برحمته، آمين!

صفة مسجد بيت المقدس

وما فيه من آثار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

طول المسجد سبعمائة ذراع وأربع وثمانون ذراعاً، وعرضه أربعمائة ذراع وخمس وخمسون ذراعاً بذراع الإمام، ويُسرَج في المسجد ألفٌ وخمسمائة قنديل، وعدّة ما فيه من الخشب ستة آلاف خشبة وتسعمائة خشبة، وعدد ما فيه من الأبواب خمسون باباً،

(١) الكذان: الحجارة الرخوة النخرة.

وعدد ما فيه من العمد ستمائة وأربعة وثمانون عموداً، والعمد التي داخل الصخرة ثلاثون عمداً، والعمد التي خارج الصخرة ثمانية عشر عموداً، وفيه الصخرة الملبسة صفائح الرصاص، عليها ثلاثة آلاف صفيحة، وثلثمائة واثنتان وتسعون صفيحة، ومن فوق ذلك صفائح النحاس مطلية بالذهب، يكون عليها عشرة آلاف صفيحة، ومائتان وعشر صفائح؛ وجميع ما يُسرَج في الصخرة من القناديل أربعمائة قنديل وأربعة وستون قنديلاً، بمعاليق النحاس وسلاسل النحاس؛ وكان طول صخرة بيت المقدس في السماء اثنى عشر ميلاً، وكان أهل أريحاء يستظلون بظلها، وأهل عَمواس مثل ذلك؛ وكان عليها ياقوتة حمراء تضيء لأهل البلقاء، وكان يَغزل في ضوئها أهلُ البلقاء.

وفي المسجد ثلاث مقاصير للنساء، طول كل مقصورة ثمانون ذراعاً في عرض خمسين ذراعاً، وفيه من السلاسل لتعليق القناديل ستمائة سلسلة، طول كل سلسلة ثمان عشرة ذراعاً، وفيه من غرابيل النحاس سبعون غربالاً، وفيه من الصنوبر التي للقناديل سبع صنوبرات، وفيه من المصاحف الجامعة سبعون مصحفاً، وفيه من الكبار التي في الورقة منها جلد، ستة مصاحف على كراسي تجعل فيها؛ وفيه من المحاريب عشرة، ومن القباب خمس عشرة قبة، وفيه أربعة وعشرون جباً[1] للماء، وفيه أربع مناور للمؤذِّنين، وجيمع سطوح المسجد والقباب والمنارات ملبَّسة صفائح مذهبة، وله من الخدم بعيالاتهم مائتا مملوك وثلاثون مملوكا، يقبضون الرزق من بيت مال المسلمين؛ ووظيفته في كل شهر من الزيت سبعمائة قسط بالإبراهيمي، وزْن القسط[2] رطل ونصف بالكبير؛ ووظيفته في كل عام من الحصر ثمانية آلاف، ووظيفته في كل عام من السُّرافة لفتائل القناديل اثنا عشر ديناراً ولزجاج القناديل ثلاثة وثلاثون ديناراً، ولصُناع يعملون في سطوح المسجد في كل عام خمسة عشر ديناراً.

---

(١) الجب: البئر. (٢) القسط: مكيال قدر نصف صاع.

آثار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

ببيت المقدس

مربط البراق الذي ركبه النبي ﷺ، تحت ركن المسجد؛ وفي المسجد باب داود عليه الصلاة والسلام وباب سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام وباب حِطة التي ذكرها الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وقولوا حطَّةٌ﴾[1]، وهي قول لا إله إلا الله؛ فقالوا: حنطة، وهم يسخرون، فلعنهم الله بكفرهم؛ وبابُ محمدٍ ﷺ، وبابُ التوبة الذي تاب الله فيه على داود، وباب الرحمة التي ذكرها الله تعالى في كتابه: ﴿له بابٌ باطِنُهُ فيه الرَّحْمةُ وظاهِرُهُ من قبَلِهِ العذابُ﴾[2] يعني واد جهنم الذي بشرقي بيت المقدس، وأبواب الأسباط أسباط بني إسرائيل وهي ستة أبواب؛ وباب الوليد، وباب الهاشمي، وباب الخضر، وباب السكينة وفيه محراب مريم ابنة عمران رضي الله عنها، الذي كانت الملائكة تأتيها فيه بفاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء؛ ومحراب زكريا الذي بشرته فيه الملائكة بيحيي وهو قائم يصلي في المحراب، ومحراب يعقوب، وكرسي سليمان صلوات الله عليه، الذي كان يدعو الله عليه، ومغارة إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام التي كان يتخلى فيها للعبادة، والقبة التي عرج النبي ﷺ منها إلى السماء، والقبة التي صلى فيها النبي ﷺ بالنبيين، والقبة التي كانت السلسة تهبط فيها زمان بني إسرائيل للقضاء بينهم، ومصلى جبريل عليه السلام، ومصلى الخضر عليه السلام.

فإذا دخلت الصخرة فصلِّ في ثلاثة أركانها، وصلِّ على البلاطة التي تُسامت الصخرة، فإنها على باب من أبواب الجنة.

ومولد عيسى بن مريم على ثلاثة أميال من المسجد، ومسجد إبراهيم عليه السلام وقبره على ثمانية عشر ميلاً من المدينة، ومحراب المسجد بغربيه.

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٦١.

(٢) سورة الحديد الآية ١٣.

فضائل بيت المقدس

ينصب الصراط ببيت المقدس، ويؤتى بجهنم - نعوذ بالله منها - إلى بيت المقدس وتُزف الجنةُ يوم القيامة مثل العروس إلى بيت المقدس، وتزف الكعبة بحاجِّها بها إلى بيت المقدس، ويقال لها مرحبا بالزائرة والمَزُورة؛ ويزف الحجر الأسود إلى بيت المقدس، والحجر يومئذ أعظمُ من جبل أبي قبيس.

ومن فضائل بيت المقدس أن الله رفع نبيه ﷺ إلى السماء من بيت المقدس، ورفع عيسى ابن مريم عليه السلام إلى السماء من بيت المقدس ويَغلب المسيخُ الدجالُ على الأرض كلِّها إلا بيت المقدس، وحرم الله على يأجوج ومأجوج أن يدخلوا بيت المقدس، والأنبياء كلهم من بيت المقدس، والأبدال[١] كلهم من بيت المقدس، وأوصى آدمُ وموسى ويوسف وجميع أنبياء بني إسرائيل صلوات الله عليهم أن يُدفنوا ببيت المقدس.

نتف من الأخبار

لابن المغيرة في المرزباني:

فرج بن سلام قال: حدثني سليمان بن المغيرة قال: كنت أجد من أبي أيوب المرزباني رائحة طيبة، ليست برائحة شراب ولا رائحة طيب؛ فقلت له: أخبرني عن هذه الرائحة. فقال: عفص آمر به فيُدق وينخل، فألتّه بقطران شامي، ثم آخذ منه كل غداة على إصبعي فأدلك به أسناني وعُمورَها[٢]، فتطيب نكهتها وتشتد لثتها وعُمورها.

الرياشي قال: كانوا إذا أرادوا جارية، مضغت نصف جوزة وأكلتها؛ فلا تزال طيبة النكهة سائر ليلتها.

(١) الأبدال: الزهاد.

(٢) عمور الأسنان: اللحم الذي بين مغارسها.

لابن عبد العزيز في ساحرة:

عبد الصمد بن همام قال: كتب عامل عمان إلى عمر بن عبد العزيز. إنا أُتينا بساحرة، فألقيناها في الماء فطفَت على الماء. فكتب إليه: لسنا من الماء في شيء، إن قامت عليها بينة وإلا فَخَلِّ عنها!

بين الحسن ورجل:

وقال رجل للحسن: أبا سعيد، الملائكة خيرٌ أم الأنبياء؟ قال: قال الله جل ثناؤه: ﴿قلْ لا أَقولُ لكم عِنْدِي خَزَائنُ اللهِ ولا أَعْلَمُ الغَيْبَ ولا أَقولُ لكم إني مَلَكٌ﴾ (١)، وقال: ﴿لَنْ يَستنْكِفَ المسيحُ أَنْ يكُونَ عَبْداً لله ولا الملائكَةُ المُقَرَّبُونَ﴾ (٢)، وقال: ﴿ما نَهاكُما ربُّكما عنْ هٰذِهِ الشَّجَرةِ إلا أنْ تكونا ملكين أو تكونا منَ الخالِدينَ﴾ (٣).

للضحاك:

العتبي قال: حدثني أبو النصر عن جرير عن الضحاك قال: من سمع الأذان في بيته فقام فصلى فقد أجاب.

أبو حاتم عن العتبي قال: سُمي المحرم [مُحَرّما]، لأنه جُعل حراماً؛ وصَفَرُ لإصفار مكة من أهلها؛ والربيعان؛ للخصب فيهما، والجُمادِيان، لجمود الماء فهما من شدة البرد، ورجب، لترجيب(٤) العرب أسنتها؛ وشعبان، لأنه شعب(٥) بين رجب ورمضان؛ ورمضان لإرماض الأرض من الحر؛ وشوال، لأن الإبل شالت بأذنابها فيه لحملها؛ وذو القعدة، لقعودهم فيه عن الغزو من أجل الحج؛ وذو الحجة، للحج.

---

(١) سورة الأنعام الآية ٥٠. (٢) سورة النساء الآية ١٧٢.
(٣) سورة الأعراف الآية ٢٠. (٤) الترجيب: التعظيم.
(٥) شعب: فرق وفصل.

يونس ورؤبة:

الرياشي عن محمد بن سلام عن يونس النحوي قال: قال لي رؤبة وأنا أسأله عن الغريب؛ حتى متى تسألني عن هذه الأباطيل وأزوّقها لك؟ أما ترى الشيب قد أخذ في عارضيك ولحيتك؟

وقال الخليل بن أحمد: إنك لا تعرف خطأ معلمك حتى تجلس عند غيره.

الرياشي عن الأصمعي قال: لا تكون حُطمة[١] حتى يكون قبلها بُريق تأتي فتحطم.

ومن حديث أبي رافع، عن أبي ذرّ قال: قلت يا رسول الله صلى الله عليك كم عدد النبيين؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً.

أبو بكر بن عياش عن العجلي عن قتادة قال: طول الدنيا مائة ألف وأربعة وعشرون ألف فرسخ.

ومن حديث عبد الله بن عمر قال: العرش مطوّق بحية، والوحي ينزل في السلاسل.

ومن حديث ابن أبي شيبة: أن العباس بن عبد المطلب، كان أقرب شحمة أُذن إلى السماء، وكان إذا طاف بالبيت يشبه الفسطاط العظيم، وإذا مشى بين قوم تحسبه راكباً.

ومن حديث عروة بن الزبير عن عائشة عن النبي ﷺ قال: خلق الله الملائكةَ من نور، والجانَّ من نار، وآدم من تراب.

وسأل أعرابيٌّ رسول الله ﷺ: متى القيامة؟

فقال له: وما أعددتَ لها؟

قال: لا شيء والله، غير أني أُحبُّ اللهَ ورسوله.

قال: المرء مع من أحب.

---

(١) الحطمة: السنة الشديدة.

زياد عن مالك أن النبي ﷺ قال: إياكـم والشركَ الأصغر.

قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟

قال: الرياء!

زياد عن مالك قال: إذا لم يكن في الرجل خير لنفسه لم يكن فيه خير لغيره، وإذا رأيت الرجل يستحل مال عدوّه فلا تأمنْه على مال صديقه.

وقال بعضهم: سمعت حذيفة يحلف لعثمان في شيء بلغه عنه، ما قاله، ولقد سمعته يقوله؛ فسألته عن ذلك، فقال: يا بن أخي، أشتري ديني بعضَه ببعض لئلا يذهب كله!

أخذه الشاعر فقال:

نرقِّعُ دُنيـانـا بتمـزيـق دِيننـا فلا دِينُنا يبقى ولا مـا نـرقِّـعُ

زياد عن مالك أن النبي ﷺ قال: الغَيْرة من الإيمان، والمِراء من النفاق.

الأصمعي قال: سأل عليٌّ بن أبي طالب الحسنَ ابنه رضوان الله عليهما: كم بين الإيمان واليقين؟

قال: أربع أصابع.

قال: وكيف ذلك؟

قال: الإيمان كلُّ ما سمعتْه أذناك وصدّقه قلبُك، واليقين ما رأتْه عيناك فأيقنَ به قلبك؛ وليس بين العين والأذنين إلا أربع أصابع.

الرياشي قال: ضرب عليٌّ كرم الله وجهه بيده زانياً فأوجعه إيجاعاً شديداً، فقال له عمُّ المضروب: بعْضَ هذا الضرب فقد قتلته!

فقال علي رضي الله عنه: إنه وَتَر[1] مَن ولدَها مِن قِبل أبيها وأمّها من النبيين والصالحين إلى آدم!

(١) وَتَرَ: أدرك بمكروه.

قال الرياشي: فكنت أعجب من شنْعة حدّ الرجم، فلما سمعت شنعة الذنب هان عليّ الحدّ!

الأصمعي عن أبي عمرو قال: دم الحيض غذاء المولود.

أقبل أعرابي إلى النبي ﷺ [في المسجد] يَنشد ضالةً له، فقال له النبي ﷺ: لا وجدتَها! إنما المساجد لما بُنيت له!

الأصمعي عن أبي عمرو قال: أعرق الناس في الخلافة: عاتكة بنت يزيد بن معاوية؛ أبوها خليفة، وجدُّها خليفة، وأخوها معاوية بن يزيد خليفة، وزوجها عبد الملك بن مروان خليفة، وولدها يزيد بن عبد الملك خليفة، وأربّاؤها الوليد وسليمان وهشام، خلفاء.

النبي ﷺ في فتح مكة:

قتادة عن أنس بن مالك قال: أمن النبي ﷺ الناسَ يوم فتح مكة إلا أربعة، فإنه قال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة؛ وهم: عبد العزى بن يزيد بن خطل، ومِقْبس بن صُبابة الكندي، وعبد الله [بن سعد] بن أبي سرح وسارة؛ فأما عبد العزى فإنه قُتل وهو متعلق بأستار الكعبة، وأما عبد الله [بن سعد] بن أبي سرح: فإنه كان أخا عثمان بن عفان من الرضاعة، فأتى به النبيَّ ﷺ فبايعه وشفع له عنده، وأما مِقْيس؛ فإنه كان له أخ مع رسول الله ﷺ فقُتل خطأ، فبعث مع رسول الله ﷺ رجلاً من بني فهر، ليأخذ له عقْله من الأنصار، فلما اجتمع له العقل(١) أخذه وانصرف مع الفهري، فنام الفهري في بعض الطريق، فوثب عليه مقيس فقتله، ثم أقبل وهو يقول:

شفَى النفسَ مَن قد مات بالقاع مُسنَداً ... يُضَرِّجُ ثوْبَيْه دماءُ الأخادع
قتلتُ به فِهْراً، وأغرَمْتُ عقلَه ... سَراةَ بني النجّار أربابَ فارعِ(٢)
حَللتُ به نذري وأدركتُ ثُؤْرَتي ... وكنتُ إلى الأوثان أول راجعِ!(٣)

---

(١) العقل: الدية. (٢) فارع، حصن بالمدينة. (٣) التؤرة: الثأر.

وأما سارة فإنها كانت مولاة لقريش، فأتت رسول الله ﷺ واشتكت إليه الحاجة، فأعطاها شيئاً؛ ثم أتاها رجل فبعث معها كتاباً إلى أهل مكة يتقرّب به إليهم ليُحفظ في عياله، وكان عياله بمكة، فأخبرَ جبريلُ النبيَّ ﷺ، فبعث النبيُّ ﷺ في أثرها عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، فلحقاها، ففتشاها فلم يقدرا على شيء، فأقبلا راجعيْن، ثم قال أحدهما لصاحبه: والله ما كذَبنا ولا كُذِبنا، آرجع بنا إليها!

فرجعا إليها، فسلا سيفيهما، ثم قالا: لتدعِنَّ إلينا الكتاب أو لنذيقنك الموت! فأنكرته، ثم قالت: أدفعه إليكما على أن لا تردّاني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقبلا منها ذلك، فحلّت عِقاصَ[1] رأسها وأخرجت الكتاب من قرن من قرونها؛ فرجعا بالكتاب إلى النبي ﷺ، فدفعاه إليه؛ فدعا الرجلَ وقال له: ما هذا الكتاب؟

فقال له: أخبرك يا رسول الله، إنه ليس ممن معك أحد إلا وله بمكة من يحفظه في عياله غيري؛ فكتبتُ بهذا الكتاب ليكافئوني في عيالي! فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتّخذوا عدوّي وعدوّكـم أولياءَ تُلْقون إليهم بالمودَّة﴾[2].

المصعب وقتل مرة:

أمر المصعب بن الزبير رجلاً من بني أسد بن خزيمة بقتل مرة بن محكان السعدي، فقال مرة:

بني أَسَـدٍ إن تقتلـوني تحاربـوا   تميما إذا الحربُ العَوان اشمعلَّـتِ[3]
ولسـتُ وإن كـانـت إليَّ حبيبـةً   ببـاكٍ على الدنيـا إذا مـا تـولَّـتِ

---

(١) العقاص: خيط تشد به أطراف الذوائب.

(٢) سورة الممتحنة الآية الأولى.

(٣) اشمعلّتِ: تفرقت وانتشرت.

لجرير في ابن سعد الأسدي:

كان ابن سعد الأسدي قد تولى صدقات الأعراب لعمر بن عبد العزيز وأعطياتهم، فقال فيه جرير يشكوه إلى عمر:

حرمْت عيالاً لا فواكهَ عندهم ... وعند ابن سعد سكَّرٌ وزبيبُ
وقد كان ظني بابن سعدٍ سعادةً ... وما الظنّ إلا مخطيءٌ ومُصيب
فإن تَرجعوا رزقي إليَّ فإنه ... متاع ليالٍ والأداءُ قريب
تُحَيّا العظامُ الراجعاتُ من البِلى ... وليس لداءِ الركبتين طبيب

الرسول صلى الله عليه وسلم:

لما توجه رسول الله ﷺ إلى تبوك، كان أبو خيثمة فيمن تخلف عنه. فأقبل، وكانت له امرأتان، وقد أعدت كل واحدة منهما من طيِّب ثمر بستانها، ومهدت له في ظل حائط؛ فقال: ظِل ممدود، وثمرة رطبة طيبة، وماءٌ بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله ﷺ في الضِّح والريح، ما هذا بخير!

ثم ركب ناقته ومضى في أثره؛ فقالوا: يا رسول الله، نرى رجلاً يرفعه الآل(١).

فقال: كن أبا خيثمة! فكانَه.

الضح: الشمس، تقول العرب في أمثالها: جاء فلان بالضح والريح، إذا أقبل بخير كثير.

نتف من الطب

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تزالون أصحاءَ ما نزعتم ونزوتم.

يريد: ما نزعتم عن القسيّ، ونزوتم على ظهور الخيل؛ وإنما أراد الحركة، والله أعلم، كما قال النبي ﷺ: سافروا تصِحوا.

---

(١) الآل: السراب

وقال بعض الحكماء: لا ينبغي للعاقل أن يخلي نفسه من ثلاث في غير إفراط: الأكل، والمشي، والجماع؛ فأما الأكل، فإن الأمعاء تضيق لتركه؛ وأما المشي، فإن من لم يتعاهده أوشك أن يطلبه فلا يجده؛ وأما الجماع، فإنه كالبئر، إن نُزِحَت جَمَّت[1]، وإن تركت يخثر[2] ماؤها. وحق هذا كله القصد فيه.

وقال النبي ﷺ: «من استقل برأيه فلا يتداوى، فربَّ دواء يورث الداء».

وقالت الحكماء: إياك وشربَ الدواء ما حملتْك الصحة.

وقالوا: مثَل الدواء في البدن مثل الصابون في الثوب: ينقيه ويُخلقه.

الأصمعي عن رجل عن عمه، قال: لقيتُ طبيبَ كسري شيخاً كبيراً قد شدّ حاجبيه بخرقة، فسألته عن دواء المشي[3]، فقال: سهم يُرمى به في جوفك أصاب أم أخطأ.

وفي كتاب التفصيل للهند: الدواء من فوق، والدواء من تحت، والدواء لا من فوق ولا من تحت.

تفسيره: من كان داؤه فوق سرته سقي الدواء، ومن كان داؤه تحت سرته حقن بالدواء، ومن لم يكن له داء لا من فوق ولا من تحت لم يُسق الدواء ولم يحقن به.

للنبي ﷺ في السنا:

وقال النبي ﷺ لأسماء بنت عميس: بِمَ كنت تستمشين في الجاهلية؟ قالت: بالشبرم[4]. قال: حار حار. ثم قالت: استمشيت بالسنا[5]. قال: لو أن شيئاً يرد القدر لردّه السنا.

ومن حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ خرج عليهم وهم يتذاكرون الكمأة ويقولون

---

(١) جمت: كثر ماؤها. (٢) الخثورة: نقيض الرقة.

(٣) المشي: استطلاق البطن.

(٤) الشبرم: ضرب من الشيح. وقيل ضرب من النبات.

(٥) السنا: نبات شجيري من الفصيلة القرنية. يتداوى بورقه وثمره واجوده الحجازي ويعرف بالسنار المكي.

فيها : جدري الأرض . فقال: إن الكمأة من المنّ، وماؤها شفاء للعين، وهي شفعا من السم .

وأهدى تميم الداري إلى النبي ﷺ زبيبا، فلما وضعه بين يديه قال لأصحابه: كلوا، فنعم الطعام الزبيب، يُذهب النصب، ويشد العصب، ويطفيء الغضب، ويصفي اللون، ويطيب النكهة، ويرضى الرب .

وقال طلحة بن عبيد الله: دخلت على النبي ﷺ، وهو جالس في جماعة من أصحابه، وفي يده سفرجلة يقلبها، فلما جلست إليه دحرج بها نحوي، وقال: دونَكها أبا محمد، فإنها تشد القلب، وتطيب النفس، وتذهب بطَخاء[1] الصدر .

وقال النبي ﷺ : « أربع من النُّشر: شرب العسل نُشرة[2]، والنظر إلى الماء نشرة، والنظر إلى الخضرة نشرة، والنظر إلى الوجه الحسن نشرة »

وقالِ عثمان بن عفان: سمعت النبي ﷺ يقول: من بلغ الخمسين أمِن الأدواءَ الثلاث: الجنون، والجذام، والبرص .

ومن حديث زيد بن أسلم أن النبي ﷺ قال: ما أنزل الله من داء إلا أنزل له دواء، علِمه من علمه وجَهِلَه من جهله .

ومن حديث أبي سعيد الخدري: أن النبي ﷺ قال: أنزل الدواءَ الذي أنزلَ الداء .

ومن حديث زيد بن أسلم أن رجلاً أصابه جرح في بعض مغازي رسول الله ﷺ، فدعا له رجلين من بني أنمار، فقال: أيكما أطبُّ؟ فقال له رجل من أصحابه: في الطب خيرٌ؟ قال: إن الذي أنزل الداء أنزل الدواء .

وقال النبي ﷺ : عليكم بهذا العود الهندي، فإن فيه سبعة أشفية، يُسعَط به من

---

(١) البطخاء: الثقل والكرب .

(٢) النشرة: ضرب من الرقية والعلاج .

العذرة[1]، ويُلَدُّ به من ذات الجنب[2].

يريد القُسط الهندي، وهو الذي تسميه العامة: الكست.

وقال النبي ﷺ: عليكم بهذه الحبة السوداء، فإن فيها دواء من كل داء إلا السام.

يعني الشونيز.

وفي مسند ابن أبي شيبة أن النبي ﷺ قال: عليكم بالإِثْمِدِ[3] عند النوم، فإنه يُحِدُّ البصر، وينبت الشعر.

وفيه أن عبد الله بن مسعود قال: عليكم بالشفاءين: القرآن، والعسل.

الأصمعي قال: ثلاث ربما صرعَتْ أهلَ بيت عن آخرهم: الجرادُ، ولحومُ الإبل، والفُطْر. وهو الفَقع.

ويقول أهل الطب: إن أردأ الفطر ما ينبت في ظلال الشجر، ولا سيما في ظلال الزيتون، فإنه قَتَّال.

وقال وهب بن منبه: إذا صام الرجل زاغ بصره، فإذا أفطر على الحلوى رجع إليه بصره.

وأقبل رجل على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني كنت في الجاهلية ذا فطنة وذا ذهن، وأنكرت نفسي في الإسلام! فقال له: أكنت تنام في القائلة! قال: نعم. قال: فعد إلى ما كنت عليه من نوم القائلة.

وقال النبي ﷺ: عليكم بالشجرة التي كلم الله منها موسى بن عمران، زيت الزيتون فادَّهنوا به، فإن فيه شفاء من الباسور.

---

(١) العذرة: داء في الحلق.

(٢) لده: سقاه اللدود، وهو ما يصب من الدواء بمسعط في أحد شقي الفم.

(٣) الإثمد: عنصر معدني بلوري الشكل قصديري اللون، صلب، هش، يوجد في حالة نقية، وغالبا متحداً مع غيره من العناصر، يكتحل به.

وقال: في الزيتونة يقول الله: ﴿وشجرةً تخرُجُ مِنْ طورِ سَيْناءَ تنبُتُ بالدُّهْنِ وصِبْغ للآكِلينَ﴾ (١).

وتقول الأطباء: إذا خرج الطعم(٢) من قبل ست ساعات فهو من ضرر، وإذا أقام في الجوف أكثر من أربع وعشرين ساعة فهو من ضرر.

معاوية والمغيرة:

دخل المغيرة بن شعبة على معاوية فقال له معاوية: أنكرتُ من نفسي خصلتين: قلَّ طُعمي، ورقَّ عظمي؛ فإن تدثرتُ بالثقيل أثقلني، وإن تدثرتُ بالخفيف أصابني البرد. قال: نم يا أمير المؤمنين بين جاريتين سمينتين، يُدفئانك بشحومهما، ويحملان عنك ثقل الدثار بمناكبهما، وأكثِرْ من الألوان، وكلْ من كلِّ لون ولو لقمة؛ فإن ذلك إذا اجتمع كثيرُه نَفَعَ. فدخل عليه بعد ذلك فقال له معاوية: يا أعور، قد جربنا ما قلتَ فوجدناه موافقاً.

التعويذ والرقي

أبو بكر بن أبي شيبة عن عقبة عن شعبة عن أبي عصمة قال: سألت سعيد بن المسيَّب عن تعليق التعويذ، قال: لا بأس به.

وكان مجاهد يكتب للصبيان التعويذ ويعلقه عليهم.

وقال النبي ﷺ: من قال إذا أصبح: أعوذ بكلمات الله التامة، من كل عين لامة، ومن كل شيطان وهامة؛ لم يضره عين ولا حية ولا عقرب.

وفي مسند ابن أبي شيبة أن خالدَ بنَ الوليد كان يفزع في نومه، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال له: أخبرَني جبريل أن عفريتاً من الجن يكيدك، فقل: أعوذ بكلمات الله التامات المباركات التي لا يجاوزهن بَر ولا فاجر، من شر ما ينزل من

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٢٠. (٢) الطعم: الطعام.

السماء وما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض وما يخرج منها، ومن شر كلِّ ذي شر. فقالهن خالد، فذهب ذلك عنه.

وفي مسند ابن أبي شيبة أن النبي ﷺ بينا هو يصلي ذات ليلة، إذ وضع يده على الأرض فلدغته عقرب، فتناول نعلَه فقتلها؛ فلما انصرف قال: لعن الله العقرب، ما تدع نبياً ولاغيره! ثم دعا بماء ومِلْح فجعله في إناء، ثم صب على إصبعه منه، ومسحها وعوّذها بالمعوّذتين.

وفي مسند ابن أبي شيبة أن النبي ﷺ قال: لا رقية إلا من عين أو حُمة. والحمة: السم.

سفيان بن عيينة قال: بينا عبد الله بن مسعود جالساً تعرض عليه المصاحف، إذ أقبلت أعرابية فقال: أبا فلان - لرجل جالس إليه - لقد لُدغ مُهْرُك، وتركته كأنه يدور في فَلَك، فقم فاسترْق له. فقال له ابن مسعود: لا تسترق له، واذهب فانفث في منخره الأيمن أربعاً، وفي الأيسر ثلاثاً، وقل: اذْهِب الباس يا رب الناس، فإنه لا يذهبه إلا أنت. ففعل، فلم يبرح حتى أكل وشرب وبال وراث.

دخل أبو بكر على عائشة وهي تشكو ويهودية ترقيها، فقال لها: ارقيها بكتاب الله.

الحجامة والكي

قال عبدالله بن عباس: احتجم النبي ﷺ في رأسه من أذَى كان به.

وفي مسند ابن أبي شيبة: ان عيينة بن حصن دخل على رسول الله ﷺ وهو يحتجم في فأس رأسه، فقال: ما هذا؟ قال: هذا خير ا ما تداويتم به.

وفي مسند ابن أبي شيبة أن النبي ﷺ قال: خير ما تداويتم به الحجامة(١) والقُسط

(١) الحجامة: امتصاص الدم بالمحجم.

العربي، ولا تعذبوا صبيانكم بالغمز من العُذرة[١].

وفيه أن النبي ﷺ قال: خير يوم تحتجمون فيه، سبعة عشر، وتسعة عشر؛ وأحد وعشرون.

وفيه أنه قال: إن كان في شيء مما تعالجون به خير ففي شرطة من محجم، أو لذعة من نار تواقع ألماً، أو شربة من عسل؛ وما أُحب أن أكتوي.

السم والسحر

النبي ﷺ والشاة المسمومة

في مسند ابن أبي شيبة: أن يهود خيبر أهْدَوْا إلى رسول الله ﷺ شاة مسمومة، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا لي مَن ههنا من اليهود. فجمعوا له، فقال لهم: هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟ قالوا: نعم! قال: ما حملكم على ذلك؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك السم.

وقال النبي ﷺ: «ما زالت أكلة خيبر تعاودني[٢]، فهذا أوان قَطَعتْ أبهري»[٣].

أبو بكر وابن كلدة

الليث بن سعد عن الزهري قال: أُهدِيَ لأبي بكر طعام، وعنده الحارس بن كلدة طبيب العرب؛ فأكلا منه، فقال الحارث لأبي بكر: لقد أكلنا والله في هذا الطعام سُم سَنة، وإني وإياك لميتان عند رأس الحول، فماتا جميعاً عند انقضاء السنة.

النبي ﷺ ويهودي ساحر

وفي مسند ابن أبي شيبة: أن رجلاً من اليهود سَحَر النبي ﷺ فاشتكى لذلك أياماً:

(١) الغمز: الشدّه والعذرة: الخصلة من الشعر.

(٢) تعاودني: تراجعني ويعاودني ألم سمّها.

(٣) الأبهر: وريد العنق.

فأتاه جبريل فقال له: إن رجلا من اليهود سحرك، عقد لك عقداً وجعلها في مكان كذا. فأرسل عليا رضي الله عنه فاستخرجها وجاء بها فجعل يحلها، فكلما حل عقدة وجد رسول الله ﷺ خِفة؛ ثم قام رسول الله ﷺ كأنما أُنشط[1] من عقال.

وفي مسند ابن أبي شيبة عن عبدالرحمن بن أبي ليلى أنه قال: طُبَّ رسول الله ﷺ - والطب: السحر - فبعث إلى رجل فرقاه.

العين

تقول العرب: رجل مَعين، إذا أُخذ بالعين.

وقال النبي ﷺ: لو سبق القدر شيءٌ لسبقَته العين!

وتقول العرب: إن العين تسرع بالإبل إلى أوصامها[2]، وبالرجال إلى أسقامها.

ونظر عامر بن أبي ربيعة إلى سهل بن حنيف يستحم، فقال: ما رأيت كاليوم ولا جِلد مخبأة! قال: فلُبط[3] به، فأمر النبي ﷺ عامرَ بن أبي ربيعة أن يتوضأ له ثم يطهره بمائة، ففعل، فقام سهل بن حنيف كأنما أنشط من عقال.

أبيات في الطب وجدناها في كتاب فرج بن سلام

النــافجــاء بشيرَجٍ ملتــوتٍ   فيـه شِفـاءٌ للـريـاحِ مُميــت
يغلى لـذلـك حلْبـةً في مــائها   يُسقاهُ مُصطَحِبـاً وحينَ يَبيبـتُ

وقال:

ليسَ شيءٌ أنفَى عن الجِسم   للريح منَ الأنجدان والمَحْروت.

وقال:

فِي الحُرفِ سَبْعُونَ دواءٌ وفي الكمّونِ فيما قبل سِتّونا[4]

---

(١) أنشط: حلّ.
(٢) الوصم: المرض.
(٣) لبط به: صرع من عين أو حمى.
(٤) الحرف: حب الرشاد.

قد قالهُ هُرْمُسُ في كُتبِهِ　　فلا تَدعْ حُرفاً وكَمُّونـا

وقال:

بسعتر بَـــرٍ داوِ كـــل مُبلغَـــم　　وذا المرّةِ الصَّفـراء بـالـرازيـانِـق
وذو المرَّةِ السَّــوْداءِ ذاكَ علاجُــهُ　　تعاهُدُ فصْدِ العِرقِ من كفِّ حـاذق
وذو الدَّمِ فليُكثِر لِـذاكَ حِجـامَـةً　　فما غَيرُهـا شيءٌ لَــه بِمــوافــق

وقال:

لا تكنْ عندَ أَكلِ سُخـنٍ وبهرٍ　　ودُخـولِ الحمامِ تشرَبُ مــاءَ
فـإذا مـا آجْتنبـتَ ذلـكَ منـهُ　　لم تَخف ما حييتَ في الجوف داء

وقال:

إن أردْتَ الرُّقادَ في الليلِ فاجعـلْ　　قَطْنَـــةً عنـــدَه على الأذُنْينِ
فبِـــه تظْهــرُ السلامَـــةُ لِلأذْ　　نينِ مما يَضُـــرُّ بـــالعَينَيْــــن

وقال:

لا تَشرَبِ الماءِ بعدَ النَّومِ من ظمـإٍ　　ولا تَبِتْ أبداً مـن غير منتفـض(١)
فجوفُ مَن باتَ من ماءٍ ومن ثِقَـلٍ　　ومـن رِيـاحٍ دَعـا كلاًّ إلى مـرضِ

وقال:

أُحْسنُ في الحمامِ مـاء مُسخَنـاً　　وليَكُنْ ذلكَ في البيتِ السّخـنْ
يسلَـمُ البطْــنُ مــنَ الدَّاءِ ولا　　يعتَـريـهِ وجـعٌ طـولَ الزَّمَــنْ

---

(١) المنتفض: يقال استنفض الذكر، أي استبرأه مما فيه من بقية البول.

وقال:

إن دخلتَ الحمام فضرِب على رأْ سِكَ بالماء السُّخْن سبْعَ مِرارِ
فبه تَظهَرُ السلامةُ من كلِّ صُداعٍ بِقدرَةِ الجبار

وقال:

لا تجامِع، ولا تَمطى، ولا تَدْ خَل - إذا ما شَبِعْتَ - في الحمامِ
فهُو دفعٌ لكلِّ ما يتَقيهِ الـ ـمَرْءُ من فالجٍ وكلِّ سقام

وقال:

ما كان في الرأس أَخْرِجْهُ بغَرْغَرةٍ والقَيْءُ يُخرِجُ ما في الصدر من عَفَنِ[1]
وكلَّ ما كان في صلب فذلِكَ لا يسيلُ إلا بأخلاط مِنَ الحقَنِ

وقال:

على الريقِ في البردِ أحْسنُ ماء مُسخَّناً وفي الصيفِ ماء بارداً حين تصبحُ
وذلك فيما قيل فيه مَصَحَّةٌ وذاكَ على إدمانِهِ الجسمُ يَصلح

وقال:

إنّ من باكرَ الغَداءَ وبَعدَ الْـ ـعصْرِ منه تعاهُدٌ للعشاء
فبإذْنِ الإلهِ يبقى صحيحاً سالما في الحياةِ من كلِّ داء

---

(١) الغرغرة: ترديد الدواء أو الماء في الحلق.

وقال:

إنّ رأْسَ الطّـــبِّ أن تَـــــد لـكَ بـالـزِّئْبَــقِ دَلْكــا . . .
. . . باطِنِ الرِّجْليْنِ عندَ النومِ يَنفـــى السّقْـــمَ عَنْكـــا

وقال:

شجرُ البَراغيثِ الكَريـهُ مَشمُّـه يُبري بإذنِ الله مـن داءِ الحَبَن(١)

وقال:

إنّ السِّـواكَ ليُسْتَحـبُّ لِسنّـة ولأنـه مما يَطيــبُ بــه الفَـمُ
لم تخْشَ مـن حَفَـرٍ إذا أدْمنْتَـهُ وبه يسيلُ مـن اللَّهـاةِ البلغـم(٢)

وقال:

آحْتَجِمْ بينَ كلِّ شهريـنِ وْلتُلْـ ـفِ على أثــرةٍ مــن الأيــامِ
سبْعة منـكَ للـزّبيـبِ بلا عجـ ـمٍ تُبَـدِّيـهِ قبـلَ كـلِّ طعــام
فهْــو للعينِ واللَّهــاةِ وللحَلـ ـقِ أمـانٌ لها مَـن الأسقـام(٣)

وقال:

ولا تَغـط الرأْسَ في وقـتِ مـا تخرُجْ من الحمامِ وآخْشَ الضَـرر
إنّ بخار الرّأسِ في وقـتِ مـا وَصفْتـهُ داءٌ يُصيـــبُ البصَـــرْ

وقال:

إنّ الجِماعَ على الحمامِ مَصَحَّـــةٌ ولـذاذَةٌ تـاهـت على اللـــذّاتِ

---

(١) الحبن: داء في البطن يعظم منه ويرم.

(٢) الحفر: سلاف في أصول الأسنان أو صفرة تعلوها.

(٣) الأسقام: الأمراض.

وقال:

السمَكُ المالِحُ إن لم يكنْ ... بُدٌّ من الأكلِ له فانعِمِ ...
... بالطّبخِ أكثِرْ زَيْتَهُ ثم كُلِ ... من قبلُ مأدُوماً منَ المطعَمِ

وقال:

أَطِلِ منكَ الشعْرَ كلَّ ... أربعاءٍ لا يدورْ
ولْيكنْ غَسْلُك بالبْا ... رِدِ منهُ والطّهُور
إنه يَزْعَرُ منهُ ... شَعَرُ الجسمِ الكثير
إنني طَبٌّ بما يَجـ ... ـهَلهُ الناسُ خبير[1]

الرسول ﷺ وشاكية من زوجها

وحدّث محمد بن ابراهيم الورّاق قال: حدثني محمد بن عبيد الله بن الحارث بن إسحاق بمصر قال: حدثنا محمد داود بن ناجية قال: حدثنا زياد بن يونس الحضرمي عن محمد بن هلال المدني عن أبيه عن أبي هريرة قال:

جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تشتكي زوجها، فقال: إنها تذكر كثرة الجماع؛ قال: يا رسول الله، أفأزني، قال لا، ولكن إذا جاءنا سَبْيٌ فتعال حتى نُعطيَك جارية. فقدم عليه سبيٌ؛ فجاء إليه فقال له: يا رسول الله، وعْدي. فقال له: اختر! فقال له: اختر لي. فقال: خذ هذه، فإني أراها زرقاء[2]، فلعلها... قال: فما لبثنا أن جاءت المرأة فقالت: يا رسول الله، ما زاده الأمر إلا تجدُّداً. فقال له النبي ﷺ: ما هذا؟ فقال: يا رسول الله، أفأزني! قال: لا. ثم قال له رسول الله ﷺ: لعلك تكثر

(١) الطّب: الخبير بالشيء العالم به.
(٢) الزرقاء: البيضاء، أو التي في عينها زرقه.

الاطّلاء . قال : نعم . قال : فأقل طلاءك[1] يقلَّ جماعُك .

قال محمد : قال لي ابن ناجية : وأنا كما تراني شيخ كبير ، قد أتى عليّ ثمانون سنة ، إذا أحببت الوطء اطّليت في كل خمس عشرة ليلة .

الهدايا

كتب سعيد » بن حميد إلى بعض أهل السلطان في يوم النيروز :

« لأَها السيد الشريف ، عشتَ أطوال الأعمار بزيادة من العمر موصولة بقرائنها من الشكر ، لا ينقضي حق نعمة حتى يجدد لك أخرى ، ولا يمرّ بك يوم إلا كان مقصراً عما بعده ، موفياً عما قبله . إني تصفحت أحوال الأتباع الذين تجب عليهم الهدايا إلى السادة [في مثل هذا اليوم] ، فالتمست التأسّي بهم في الإهداء ، وإن قصرت بي الحال عن الواجب ، [فرأيت] أني إن أهديت نفسي فهو ملكٌ لك ، لاحظ فيها لغيرك ؛ ورميت بطرْفي إلى كرائم مالي ، فوجدتها منك ، فكنت إن أهديت منها شيئاً كالمهدي مالك إليك ؛ وفزعتُ إلى مودتي فوجدتها خالصة لك قديمة غير مستحدثة ، فرأيتني إن جعلتها هديتي لم أجدد لهذا اليوم الجديد بِرّاً ولا لطفاً ؛ ولم أميز منزلة من الشكر بمنزلة من نعمتك ، إلا كان الشكرُ مقصراً عن الحق ، والنعمة زائدة على ما تبلغه الطاقة ؛ فجعلت الاعتراف بالتقصير عن حقك هدية إليك ، والإقرار بما يجب لك بِرّاً أتوصل به إليك ؛ وقلت في ذلك :

إن أُهْدِ مالا فهْو واهِبه ... وهْو الحقيقُ عليهِ بالشكرِ
أو أُهدِ شكْري فهوْ مُرْتهنٌ ... بجميلِ فعلِكَ آخرَ الدهرِ
والشمْسُ تستَغْني إذا طلعَتْ ... أنْ تَستضِيءَ بِسُنّةِ البدرِ[2]

(١) الإطلاء : أراد به استعمال مادة يطلي بها عضوه .

(٢) السنة : الوجه أو دائرته .

وكتب بعض الكتاب إلى بعض الملوك:

النفسُ لك، والمال منك، والرجاء موقوفٌ عليك، والأمل مصروف نحوك؛ فما عسى أن أُهدي إليك في هذا اليومِ، وهو يوم سهلت فيه العادة، سبيل الهدايا للسادة؛ وكرهت أن نخيله من سنته، فنكون من المقصرين؛ أو أن ندعى أن في وسعنا ما يفي بحقك علينا، فنكون من الكاذبين؛ فاقتصرنا على هدية تقتضي بعضَ الحق، وتنْفي بعض الجفوة وتقومُ عندك مقامَ أجملِ البر؛ ولا زلت أيها الأمير دائمَ السرور والغبطة، في أتم أحوال العافية، وأعلى منازل الكرامة، تمرُّ بك الأعياد الصالحة والأيام المفرحة، فتُخْلِقَها وأنت جديد تستقبل أمثالها، فتلقاك ببهائها وجمالها؛ وقد بعثت الرسول بالسكَّر لطيبه وحلاوته، وتركت السفرجل لفأله، والدرهم لبغائه على كل من ملكه[1]؛ ولا زلتَ حلوَ المذاق على أوليائك، مُرّاً على أعدائك، متقدّماً عند خلفاء الله الذين تليق بهم خدمتُك، وتحسن أفنِيتُهم بمثلك.

وقد جمعنا في هذه القصيدة ثناء ومسرَّة واعتذاراً وتهنئة وهي:

عاطِ في المهرجان كأساً شَمولاً ... وأطعْني ولا تَطيعنْ عَذولا

فهو يومٌ قد كان آباؤك الغُـ ... ـرُّ يُحِلُّونَه محلاً جليلا

إن للصيف دولةً قد تقضَّت ... وأراك الشتاءُ وجهاً جميلا

وتجلَّت لك الرياضُ عن النَّو ... ر فكانت عن كل شيء بَديلا

فتمتَع باللهو، لا زلتَ جذْلا ... نَ وطرف الزمان عنك كليلا

لم أجدْ لي هديَّة حين حصّلـ ... ـتُ كثيراً ملكْتُه وقليلا

يَعدل الشكرَ والثناءَ، وإن لم ... يكُ شكري لِما أُتيتَ عديلا

فجعلتُ الذي أطيقُ من الشكـ ... ـر ما عجزتُ عنه دليلا

يا لها من هديَّة تُقنِع المهـ ... ـدَى إليه ولا تَعنِّي الرسولا

وكتب بعض الشعراء إلى بعض أهل السلطان في المهرجان:

هذه أيام جرت فيها العادة، بإلطاف العبيد للسادة، وإن كانت البضاعة تقصِّر عما تبلغه الهمة، فكرهت أن أُهدِيَ فلا أبلغ مقدار الواجب: فجعلت هديتي هذه الأبيات، وهي:

ولمّا أن رأيتُ ذوي التصابي   تباروْا في هدايا المِهرجانِ
جعلتُ هديَّتي ردًّا مُقيما   على مرِّ الحوادث والزمان
وعبداً حين تكْرِمُه ذليلا   ولكنْ لا يَقَرُّ على الهوان[1]
يَزيدك حين تَعطيه خَضوعا   ويَرضَى من نَوالك بالأماني![2]

وأهدى أبو العتاهية إلى بعض الملوك نعلا وكتب معها:

نعلٌ بعثتُ بها لتلْبسها   رجلٌ بها تسعى إلى المجد
لو كان يصلحُ أن أُشرّكها   خدّي جعلتُ شراكها خدّي[3]

وأهدى عليّ بن الجهم كلبا، وكتب:

آستوصِ خيراً به، فإن له   عندي يَداً لا أزال أحَمدُها
يدلّ ضيفي عليّ في غَسَق الليـ   ـل إذا النار نام مُوقدها

أهدى أحمد بن يوسف ملحاً مطيَّباً إلى إبراهيم بن المهدي، وكتب إليه:
الثقة بك سهّلت السبيلَ إليك، فأهديتُ هدية من لا يحتشم، إلى من لا يغتنم.

وأهدى إبراهيم بن المهدي إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلي جراب ملح وجراب أشنان[4]، وكتب إليه:

لولا أن القلة قصّرت عن بلوغ الهمة لأتعبت السابقين إلى برّك، ولكن البضاعة قعدت بالهمة، وكرهتُ أن تُطوى صحيفة البر، وليس لي فيها ذكر؛ فبعت بالمبتدإ به

(١) يقر: يقيم ويستقر.   (٢) الأماني: جمع أمنية.
(٣) الشراك: سير النعل.
(٤) أشنان: نبت من الحمض تغسل به الأيدي.

ليُمْنه وبركته، والمختوم به لطيبه ونظافته؛ وأمّا ما سوى ذلك فالمعبّر عنا فيه كتاب الله تعالى إذ يقول: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضَى ولا على الذين لا يَجدون ما يُنفقون حرجٌ...﴾ [1] إلى آخر الآية.

وكتب إبراهيم بن المهدي إلى صديق له:

لو كانت التحفة على حسب ما يوجبه حقُّك، لأجحف بنا أدنى حقوقِك؛ ولكنه على قدر ما يُخرج الوحشة ويُوجب الأنس، وقد بعثتُ بكذا وكذا.

وكتب رجل الى المتوكل على الله وقد أهدى إليه قارورة من دهن الأترج:

إن الهدية يا أمير المؤمنين، إذا كانت من الصغير إلى الكبير فكلما لطفت ودقت كانت أبهى وأحسن، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير فكلما عظمت وجلّت كانت أنفعَ وأوقع؛ وأرجو أن لا تكون قصُرتْ بي همةٌ أصارتْني إليك، ولا أخرَّني رشادٌ دلني عليك، وأقول:

ما قصَّرتْ همـةٌ بلغـتُ بها ... بابك يا ذا الندَى وذا الكرمِ
حسبْي بودِّيك إن ظفرتُ به ... ذخراً وعزًّا يا واحد الأمـم

أهدى حبيب بن أوس الطائي إلى الحسن بن وهب قلما، وكتب معه إليه هذه الأبيات:

قد بَعثنا إليك أكرمك اللهُ بشيء فكـن لـه ذا قَبـولِ
لا تَقسْه إلى نَدا كفِّك الغَمْر ولا نيْلك الكثير الجزيـل
فاستْجزْ قلَّةَ الهديَّـة مني ... فقليل المُقـلِّ غير قليـل

ومن قولنا في هذا المعنى وقد أهديتُ سلة عنب ومعها:

أهدْيتُ بيضاً وسُـوداً في تلـوُّنهـا ... كـأنها مـن بنـات الروم والحَبشِ
عذراء تُؤكَل أحيـانـاً وتُشرب أحْـ ... ـياناً فتَعصم من جوعِ ومـن عطش

---

(١) سورة التوبة الآية ٩١.

وأهديت حُوتين وكتبت معهما:

أَهديتُ أزرقَ مقروناً بـزرقـاء ... كالماء لم يغْذُها شيء سـوى الماء
ذَكاتها الأخْذ، ما تنفكّ طاهـرةً ... بالبرِّ والبحر أمواتاً كأحيـاء[١]

وأهديتُ طبقَ وردٍ ومعه:

وريـاحينُ أُهـديها لـريحانـة المُنَـى ... جنْتها يد التَّخجيل من حُمـرة الخدِّ
وورد بـه حيِّيـتُ غـرّة مـاجـدٍ ... شمائلـه أذْكـى نسيما مـن الورد[٢]
ووشْيُ ربيعٍ مشرق اللـون نـاضر ... يَلوح عليه ثوب وشْي مـن الحمـد
بَعثتُ بها زهراءَ مـن فـوق زهـرةٍ ... كتركيب معشوقيْن خـدًّا على خـدّ

وكتبت على كأس:

آشربْ على منظـر أنيـقِ ... وآمزُج بريق الحبيب ريقـي
وآحلُلْ وشاح الكَعاب رفقـاً ... وآحذرْ على خَصرها الرقيـق
وقـل لمن لام في التَّصـابي ... إليك! خلّى عن الطريـق

وأنشد أحمد بن أبي طاهر في هذا المعنى:

مـا تَـرى في هـديَّة مـن فقير ... حِيـل مـا بينـه وبين اليسـار
تَـرك المالَ والهدايـا إلى النـا ... س، وأهدَى غرائبَ الأشعـار
مُحكمات كـأنها قِطـع الروْ ... ض تحلّت أنـواره بـالبَهار[٣]

وأنشد ابن يزيد المهلبي في المعتمد.

سيَبقى فيك مـا يُهـدِي لسـاني ... إذا فنيت هـدايـا المهـرجـانِ
قصـائـد تَملأ الآفـاقَ مما ... أحـلَّ اللهُ مـن سحـر البيـان

وقال آخر:

جُعلتَ فـداك، للنيْـروز حـقّ ... لكـان جميعـه لـك مُستَـرقـاً

---

(١) الذكاة: الذبح. (٢) الشمائل: الصفات.
(٣) البهار: نبت طيب الرائحة.

وأهـديـتُ الثنـاءَ بنظـم شعـر ... وكنـتَ لـذاك منـى مستحقـا
لأن هـديـةَ الألطـاف تفنَـى ... وإن هـديـة الأشعـار تبقـى[1]

وقال حبيب:

فـوالله لا أنفـكُّ أُهـدِي شـوارداً ... إليـك يُحمَّلَـن الثنـاءَ المنخَّلا
ألذَّ مـن السلـوى وأطيـبَ نفحـةً ... من المسك مفتوقـاً وأيسر مَحْملا[2]

وقال مروان بن أبي حفصة:

بدولةِ جعفر حُمِـدَ الزمـان ... لنا بك كلَّ يومٍ مهـرجـان
جعلتُ هديتي لك فيه وشْيـاً ... وخير الوشْي ما نَسَج اللسـان

وقال أحمد بن أبي طاهر:

مِـن سُنَّـة الأملاك فيما مضى ... مـن سـالـف الدهـر وإقبـالـهْ
هـديـة العبـد إلى ربّـه ... في جِـدَّة الدهـر وأحـوالهْ
فقلتُ ما أُهـدى إلى سيـدي؟ ... حالي وما خُوِّلـتُ مـن حـالـه
إن أُهدِ نفسي فهي مـن نفسـه ... أو أُهد ما لي فهـو مـن مـالـه
فليس إلا الحمـدُ والشكـر والـ ... ـمـدح الذي يبقَـى لأمثـالـه

وقال الحمدوني وأهدى إليه سعيد بن حُميد أُضحيّة مهزولة:

لِسعيـد شُـوَيهةٌ ... نـالها الضَـرّ والعَجَـف[3]
فتغنّـت وأبصرتْ ... رجلا حـاملا عَلَـف:
«بـأبي مَـن بكفِّـه ... بُرْءُ دائي من الدَّنف»[4]
فـأتـاهـا مطمِّعـا ... فـأتْتـه لتعتلِـف
ثم ولَّـى فـأقبلـتْ ... تتغنَّـى مـن الأسَـف:

---

(١) الألطاف: جمع لطف وهو الهدية.

(٢) المفتوق: يقال فتق المسك أي خلط به ما يذكيه.

(٣) العجف: الهزال. (٤) الدنف: المرض المثقل.

«لَيْتَـه لم يكُـن وقـــفْ   عذَّبَ القلبَ وانصرف»

وقال الحمدوني: كتبتُ إلى الحسن بن إبراهيم، وكان كل سنة يبعث إليّ بأُضحية، فتأخرت عني سنة، فكتبتُ إليه:

سيّــدي أعــرَض عني   وتنــاسَـــى الوُدَّ مني
مرّ بي أضحى وأضحـى   أخلَفـاني فيــه ظنــي
لا يَــــراني فيها أهْـ   ـلا لظِلْــفِ ولقَــرن
فتعــذَّيــتُ بيــأسٍ   ثم ضحّيـــــتُ بجني
واصطَبحتُ الراحَ يومـاً   ثم أنشـدتُ أغنــي[1]
لا لجُرْمٍ صـــدَّ عني   صـدَّ عني بــالتجنّــي

من جارية للمأمون:

أهدت جارية من جواري المأمون تُفاحة له، وكتبت إليه:

إني يا أمير المؤمنين لما رأيت تنافُس الرعية في الهدايا إليك، وتواتَر ألطافهم عليك، فكرت في هدية تخف مؤونتها، وتهون كلفتها، ويَعظم خطرها، ويجلُّ موقعُها؛ فلم أجد ما يجتمع فيه هذا النعت، ويكْمُل فيه هذا الوصف، إلا التفاح؛ فأهديت إليك منها واحدة في العَدد، كثيرة في التصرُّف؛ وأحببت يا أمير المؤمنين أن أُعرب لك عن فضلها، وأكشف لك عن محاسِنها، وأشرح لك لطيف معانيها، وما قالت الأطباءُ فيها، وتفنَّن الشعراء في أوصافها، حتى ترمقَها بعين الجلالة، وتلحظَها بمقلة الصيانة؛ فقد قال أبوك الرشيد رضي الله عنه: أحسنُ الفاكهة التفاح، اجتمع فيه الصفرة الدُّرِّيَّة، والحمرة الخَمْرِية، والشُّقْرَةَ الذهبية، وبياض الفضة، ولون التبر؛ يَلذ بها من الحواس: العينُ ببهجتها، والأنفُ بريحها، والفمُ بطعمها. وقال أرسطاطاليس الفيلسوف عند حضوره الوفاة، واجتمع إليه تلاميذه: التمسوا لي تفاحة أعتصم

(١) الراح: الخمر.

بريحها، وأقضي وطري من النظر إليها. وقال إبراهيم بن هانىء: ما عُلِّلَ المريض المبتلَى، ولا سكنت حرارة الثكلى[1]، ولا رُدَّت شهوة الحبلى، ولا جُمعت فكرة الحيران، ولا سكنت حنْقة الغضبان، ولا تَحَيَّت الفتيان في بيوت القيان، بمثل التفاح. والتفاحة يا أمير المؤمنين، إن حملتَها لم تُؤْذِكَ، وإن رُميتَ بها لم تُؤْلمك؛ وقد اجتمع فيها ألوان قوس قزح، من الخضرة والحمرة والصفرة؛ وقال فيها الشاعر:

حُمْـرةُ التّفـاحِ مـع خُضرتـه أقربُ الأشياء من قوْسِ قُـزَحْ
فعلَـى التفـاحِ فـاشربْ قهـوةً وآسقِنيهـا بنشـاطٍ وفـرح
ثم غنّـي لِكَـيْ تطـرِبَني طرْفُك الفتّـانُ قلبي قـد جـرحَ

فإذا وصلتْ إليك يا أمير المؤمنين، فتناولها بيمينك، وآصرِفْ إليها بغيتك، وتأمل حسنَها بطرفك، ولا تخدشها بظفرك، ولا تبعدها عن عينك، ولا تبذلها لِخَدمِك؛ فإذا طال لُبثُها عندَك، ومُقامُها بين يديك، وخفتَ أن يرميها الدهر بسهمه، ويَقصِدها بصرفه، فتذهبَ بهجتُها، وتحِيل نضرتها، فكأنها:

هنيئاً مريئاً غيرَ داءٍ مُخامِر

والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

للعباس الهمداني:

وكتب العباس الهمداني إلى المأمون في يوم نيروز:

أَهْـدَى لـك النـاسُ آلمرا كِبَ والوَصـائـفَ والذَّهَـبْ[2]
وهـدَّيتي حُلْـوُ القَصـا ئِـدِ والمَدائِـح والخُطَـبِ
فـاسلَـمْ سلِمْـتَ على الزمـا نِ مـنَ الحوادِث والعَطَـب

فقال المأمون: احملوا إليه كلَّ ما أُهدِيَ لنا في هذا اليوم!

---

(١) الثكلى: المرأة التي فقدت ولدها.

(٢) المراكب: اسم لما يركب من الدواب.

تمَّ الجزء السابع

ويليه إن شاء الله الجزء الثامن، وهو الأخير

وأوله: كتاب الفريدة الثانية في الطعام والشراب

فهرس

من قولهم في الجارية

الصفحة الموضوع

الصفحة الموضوع

الصفحة | الموضوع

الصفحة | الموضوع

العقد الفريد

تأليف

الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
المتوفى سنة ٣٢٨هـ

بتحقيق

دكتور
عبد المجيد الترحيني

الجزء الثامن

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م

يطلب من: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
صندوق بريد ٩٤٢٤ - ١١ . هاتف ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤
الرملة البيضاء - بناية ملكارت سنتر

كتاب الفريدة الثانية
في الطعام والشراب

قال الفقيه أبو عمر بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان والنتف.

ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الطعام والشراب اللذين بهما تنمو الفِراسة وهما قوام الأبدان، وعليهما بقاء الأرواح.

قال المسيح عليه الصلاة والسلام في الماء: هذا أبي. وفي الخبز: هذا أمي. يريد أنهما يغذيان الأبدان كما يغذيها الأبوان.

وهذا الكتاب جزآن: جزء في الطعام، وجزء في الشراب.

فالذي في الطعام منهما متقصٍّ جميعَ ما يتم ويتصرف به أغذية الطعام من المنافع والمضار، وتعاهُد الأبدان بما يصلحها من ذلك في أقواته وضروب حالاته، واختلاف الأغذية مع اختلاف الأزمنة بما لا يخلي المعدة وما لا يكظُّها، فقد جعل الله لكل شيء قدراً.

والذي في الشراب منهما مشتملٌ على صنوف الأشربة، وما اختلف الناس فيه في الأنبذة[1]، ومحمود ذلك ومذمومه، فإنا نجد النبيذ قد أجازه قوم صالحون، وقد وضعنا لكل شيء من ذلك بابا فيحتاط كل رجل لنفسه بمبلغ تحصيله، ومنتهى نظره؛ فإن الرائد لا يكذب أهلَه.

(١) الأنبذة: جمع النبيذ، وهو شراب مسكر يتخذ من عصير العنب او التمر او غيرهما.

أطعمة العرب

الوشيقة من اللحم: وهو أن يغلى إغلاءة ثم يرفع، يقال منه: وشَقت أشَقُ وشقا. قال الحسن بن هانيء:

حتى رفعْنا قِدْرنا بضِرامِها والَّلحمُ بين مُوَذَّمٍ ومُوَشَّقِ (١)

والصفيف مثله، ويقال هو القديد، يقال: صَفَفتُه أصفه صفًّا.

والربيكة: شيء يطبخ من بُرّ وتمر، ويقال منه: ربَكته أربكه ربكا.

والبَسيسة: كلُّ شيء خلطتَه بغيره، مثل السويق بالأقط، ثم تلته بالسمن أو بالزيت؛ أو مثل الشعير بالنوى للإبل، ويقال: بَسَسْتُه أَبُسُّه بَسًّا.

والعَبيثة (بالعين غير معجمة) طعمٌ يطبخ ويجعل فيه جراد؛ وهو الغثيمة أيضاً.

والبَغيث والغليث: الطعام المخلوط بالشعير؛ فإذا كان فيه الزُّؤان فهو المغلوث.

والبكيلة، والبَكالة جميعاً: وهي الدقيق يخلط بالسويق ثم يبل بماء أو سمن أو زيت، يقال: بكَلته أبكُله بكلا.

والفريقة: شيء يعمل من اللبن.

فإذا قطعت اللحم صغاراً قلت: كتَّفته تكتيفا.

أبو زيد قال: إذا جعلت اللحم على الجمر قلت: حسحسته، وهو أن تَقْشِرَ عنه الرماد بعد أن يخرج من الجمر؛ فإذا أدخلته النار ولم تبالغ في طبخه قلت: ضهَّبْته وهو مُضَهَّب.

والمَضيرة: سميت بذلك لأنها طبخت باللبن الماضر، وهو الحامض. والهريسة، لانها تهرس. والعصيدة(٢)، لأنها تعصد. واللفيتة لأنها تلفت.

---

(١) المؤذم: المقطع

(٢) العصيدة: دقيق يلت بالسمن ويطبخ.

والفالوذ ـ وهو السرطراط ،ومن أسماء الفالوذ أيضاً: السريط ـ لأنه يُستَرط، مثل يُزدرد؛ ويقال: لا تكن حلواً فتُسترط[1]، ولا مُرًّا فتُعقي. يقال: أعقى الشيءُ: اشتدت مرارته.

الرغيدة: اللبن الحليب يُغلى ثم يذَرّ عليه الدقيق حتى يختلط فيُلعَق لعقاً.

الحريرة: الحساء من الدسم والدقيق.

والسخينة: حساءٌ كانت تعمله قريش في الجاهلية فسميت به، قال حسان:

زعمتْ سخينة أن ستغْلِب ربَّها   وليُغلبَنّ مغالب الغلاَّبِ

والعَكيس: الدقيق يُصب عليه الماء ثم يُشرب. قال منظور الأسدي:

ولما سَقيناها العَكيسَ تَمذَّحت   خواصرُها وآزداد رشْحاً وريدها[2]

أسماء الطعام

الوليمة: طعام العرس. والنَّقيعة: طعام الإملاك[3]. والإعذار: طعام الختان والخُرس: طعام الولادة. والعقيقة: طعام سابع الولادة. والنقيعة: طعام يصنع عند قدوم الرجل من سفره، ويقال: أنقعت إنقاعا. والوكيرة: طعام يُصنع عند البناء يبنيه الرجل في داره. والمأدبة: كل طعام يصنع لدعوة، يقال: آدبت أُودب إيدابا، وأدَبْت أدبا، قال طرفة:

نحن في المَشْتاة نَدعو الجفْلى   لا ترى الآدِبَ فينا يَنتقِرْ

الآدب: صاحب المأدبة. والجفلى: دعوة العامة. والنَّقَرى: دعوة الخاصة.

والسُّلفة: طعام يُعلل به قبل الغداء.

والقَفِيّ: الطعام الذي يكرَم به الرجل يقال منه: قفوته فأنا أقفوه قفوا؛ والقَفاوة: ما يُرفع من المرق للإنسان، قال الشاعر:

(١) يقال: استرط الطعام في حلقه: أي سار فيه سيراً سهلا.

(٢) تمذَّحت خواصرها: انتفخت.   (٣) الاملاك: التزويج.

ونُقْفِي وليد الحيّ إن كان جائعاً ونُحْسِبُه إن كان ليس بجائِـع[1]

صفة الطعام وفضله

قال النبي ﷺ: «أكرموا الخبز، فإن الله سخر له السموات والأرض، وكلوا سَقَط[2] المائدة».

وقال الحسن البصري: ليس في الطعام سَرَفٌ. وتلا قوله تعالى: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ جُناحٌ فيما طَعِموا﴾[3].

وقال الاصمعي: الكبادات أربع: العصيدة، والهريسة، والحيس، والسّمِيذ.

أبو حاتم: والسويق طعام المسافر، والعجلان، والمريض، والنفساء، وطعام من لا يشتهي الطعام.

أبو خالد عن الأصمعي قال: قال أبو صوارة: الأرز الأبيض بالسمن المسلي والسكر الطَّبَرْزذ[4]، ليس من طعام أهل الدنيا!

وقال مالك بن أنس عن ربيعة بن أبي عبدالرحمن: أكل الخبيص يزيد في الدماغ.

وقال الحسن لفرقد: بلغني أنك لا تأكل الفالوذج. قال: يا أبا سعد، أخاف أن لا أؤدي شكره! قال: يا لَكَع! وهل تؤدي شكر الماء البارد في الصيف والحار في الشتاء؟ أما سمعت قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزَقْناكم﴾[5].

---

(١) نحسبه: نعطيه حتى يقول حسبي.

(٢) السقط: ما يسقط ولا يعتد به.

(٣) سورة المائدة الآية ٩٣.

(٤) الطبرزذ: السكر كأنه نحت من نواحيه بفأس.

(٥) سورة البقرة الآية ٢٦٧

وسمع الحسن رجلا يعيب الفالوذج، فقال: لباب البُـرّ بلعـاب النحـل بخالـص السمن؛ ما عاب هذا مسلم!

وقال رجل في مجلس الأحنف: ما شيءٌ أبغض إليّ من الزبد والكمأة[١]. فقال الاحنف: رُبَّ مَلومٍ لا ذنب له.

وقيل لشريح القاضي: أيهما أطيب. اللوزينق أو الجوزينق؟ فقال: لا أحكم على غائب.

وُلد لعبدالرحمن بن أبي ليلى مولود فصنع الأجبصة، ودعا الناس، وفيهم مُساور الورّاق، فلما أكلوا قال مساور الورّاق:

مَن لم يُدسِّمْ بـالثريـد سِبـالَنـا بعد الخبيصِ فلا هَناهُ الفـارسُ

الرقاشي قال: أخبرنا أبو هفان أن رقبة بن مصقلة طرح نفسه بقرب حماد الراوية في المسجد، فقال له حماد: مالك؟ قال صريع فالوذج. قال له حماد: عند من؟ فطالما كنت صريع سمك مملوح خبيث! قال: عند من حكم في الفرقة وفصل في الجماعة قال: وما أكلت عنده؟ قال: أتانا بالأبيض المنضود، والملوز المعقود، والذليل الرعديد، والماضي المودود.

طعام عبدالأعلى

محمد بن سلام الجمحي قال: قال بلال بن أبي بردة وهو أمير على البصرة للجارود ابن أبي سَبُرة الهذلي: أتحضر طعام هذا الشيخ؟ يعني عبد الأعلى بن عبدالله بن عامر؟ قال: نعم. قال: فصفه لي. قال: نأتيه فنجده مُتصبِّحاً[٢] ـ يعني نائماً ـ فنجلس حتى يستيقظ، فيأذن لنا فنساقطه الحديث؛ فإن حدثناه أحسن الاستماع، وإن حدثنا أحسن الحديث؛ ثم يدعو بمائدته، وقد تقدّم إلى جواريه وأمهات أولاده أن لا تلطفه واحدة

(١) الكمأة: جمع الكمء: فطر من الفصيلة الكمئية، تجنى من الارض وتؤكل مطبوخة، ويختلف حجمها بحسب الانواع.
(٢) التصبح: النوم بالغداة.

منهن إلا إذا وُضعت مائدته؛ ثم يقبل خبازه فيمثل بين يديه، فيقول: ما عندك اليوم؟ فيقول: عندي كذا، عندي كذا... فيعدد كل ما عنده، ويصفه؛ يريد بذلك أن يحبس كلَّ رجل نفسه وشهوته على ما يريد من الطعام، وتقبل الألطاف من ههنا وههنا، وتوضع على المائدة؛ ثم يؤتَى بثريدة شهباء من الفلفل، رقطاء من الحمص، ذات حِفافين من العُراق[1]؛ فنأكل معه، حتى إذا ظن أن القوم قد كادوا يمتلئون، جثا على ركبتيه ثم استأنف الأكل معهم. فقال [ابن] أبي بردة: لله درُّ عبد الأعلى، ما أربط جأشه على وقع الأضراس.

وحضر أعرابيٌّ طعام عبدالأعلى، فلما وقف الخباز بين يديه ووصف ما عنده قال: أصلحك الله، أتأمر غلامك يسقيني ماء، فقد شبعت من وصف هذا الخباز!

وقال له عبدالأعلى يوماً: ما تقول يا أعرابي، لو أمرت الطباخ فعمل لون كذا، ولون كذا؟ قال: أصلحك الله، لو كانت هذه الصفة في القرآن لكانت موضع سجود.

الفرزدق وابن الحصين

أبو عبيدة قال: مر الفرزدق بيحيى [بن الحصين] بن المنذر الرقاشي فقال له: هل لك أبا فراس في جدْي رضيع، ونبيذ من شراب الزبيب؟ قال: وهل يأبى هذا إلا ابن المراغة[2].

وقال الأحوص لجرير لما قدم المدينة. ماذا ترى أن نَعِدَّ لك؟ قال: شواء وطلاء[3] وغناء. قال: قد أُعدّ لك.

وقال مساور الورّاق في وصف الطعام:

آسمع بنَعْتي للملوك ولا تكن   فيما سمعْتَ كميِّتِ الأحياء
إنّ الملوك لهم طعامٌ طيبٌ   يستأثِرون به على الفقراء

(١) العراق: جمع العرق، وهي القدرة من اللحم.
(٢) المراغة: الأتان.   (٣) الطلاء: ما يطبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه.

إني نعَـتُّ لـذيـذ عيشي كلَّــه ... والعيْش ليس لـذيـذُهُ بسـواء
ثم اختصَصْت من اللذيذ وعيْشـه ... صفة الطعامِ لشهـوةِ الحلـواء
فبدأْتُ بالعسل الشديد بياضُـه ... شهْـدٌ تَبـــاكــــرُه بماء سماء
إني سمعت لقـول ربـك فيهما ... فجمَعْـت بين مُبـاركٍ وشفـاء
أيامَ أنت هنـاك بين عِصـابـةٍ ... حضروا ليـومٍ تنعُّـمٍ أكفـــاء
لا ينطِقون إذا جلْسـت إليهـم ... فيمـا يكـون بلفظـةٍ عَـوراء(١)
مُتَنسمين ريـاح كـلِّ هبـوبـة ... بين النخيـل بغـرْفةٍ فيْحـاء(٢)
فقَعْدتُ ثم دعوتُ لي بمبَـذْرقٍ ... مُتشمِّـــر يسعـــى بغير رِداء(٣)
قـد لـفَّ كمَّيْـه على عضلاتـه ... قلصِ القميصِ مُشمّـرٍ سَعَّــاء
فـأتـى بُخْبـز كـالملاء مُنقّـط ... فبناه فوق أخـاونِ الشِّيـزاء(٤)
حتى مَلاها ثم تَرْجَـم عنـدهـا ... بالفـارسيّـة داعيـا بـوَحـاء(٥)
فإذا القِصَاعُ من الخَلَنْجِ لـديهم ... تبدو جـوانبُهـا مـع الوُصَفـاء
أرفع وضعْ وهنا وهاك وههنـا ... قَصْف الملـوك ونَهمـة القـرّاء
يُؤتوْن ثَمَّ بلَون كلِّ طـريفـةٍ ... قد خـالَفتـه مـوائـد الخلفـاء
من كلِّ فَرْنِيّ وجَدْي راضع ... ودجاجةٍ مَـرْبُـوبـة عَشْـواء
ومَصُوصٍ دُرّاجٍ كثير طيِّـب ... ونواهِض يؤتَّـى بهنّ شِـواء(٦)
وثَريدةٍ ملمـومـة قـد سُقِّفـتْ ... من فوقها بأطـايـب الأعضـاء
وتـزيَّنـت بتـوابـل معلـومـة ... وخُبيِّصـات كـالجُمَـان نقـاء
هذا الثَّريـد ومـا سـواه تعلَّـلٌ ... ذهب الثريد بنهمتي وهـوائـي
ولقد كلِفْتُ بنعْتِ جَدْي راضع ... قد صُنْتُه شهـريـن بين رِعـاء

---

(١) العوراء: القبيحة. (٢) الفيحاء: الواسعة. (٣) المبذرق: الخفير.
(٤) الشيزى: خشب تعمل منه القصاع. (٥) الوحاء: السرعة.
(٦) المصوص: لحم ينقع في الخل ويطبخ. والدراج: ضرب من الطير. والنواهض: جمع ناهض: وهو فرخ الطير الذي استقل للنهوض.

قـد نال من لبنٍ كثير طيِّـب — حتى تَفتَّق مـن رضـاعِ الشّـاء
من كلِّ أحمرَ لا يَقرُّ إذا ارتوى — مـن بين رقْـص دائم ونُـزاء[1]
مُتعكِّنِ الجنبَيْن صافٍ لـونـه — عَبْلِ القوائم من غـذاء رَخـاء
فإذا مرِضْت فداوني بلحومهـا — إني وجـدت لحومهُـنّ دوائـي
ودَعِ الطبيب ولا تثق بـدوائـه — ما حالفَتْك رواضِـع الأجـداء
إنّ الطبيبَ إذا حَبـاك بشربـة — تركَتـك بين مَخـافـة ورجـاء
وإذا تنطـع في دواء صـديقِـه — لم يعْدُ ما في جُونـةِ الرَّقّـاء[2]
نَعَت الطبيبُ هَليلَجاً وبليلجـاً — ونعـتٌ غيرهما مـن الأدْواء[3]
رُطب المُشان مَجزَّعاً يُؤتـى بها — والرازِقـيَّ فما هما بسـواء[4]
وبَنانيـاً زُرْقـاً كـأنّ بُطـونَهـا — قطَع الثّلـوجِ نقيّـة الأمعـاء[5]
ليست بآكلـةِ الحشيش ولا التي — يَبتـاعُهـا الخنّـاق في الظلماء

باب آداب الأكل والطعام

قال النبي ﷺ: « الأكل في السوق دَناءة ».

وقال ﷺ: « إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ويشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ».

وقال ﷺ: « سَمُّوا إذا أكلتم، وآحَمدوا إذا فرَغتم ». وكان يلعق أصابعه بعد الطعام.

وقال ﷺ: « الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر، وبعد الطعام ينفي اللمم »[6].

ومن الأدب في الوضوء أن يبدأ صاحبُ البيت فيغسل يده قبل الطعام ويتقدم أصحابَه الى الطعام.

---

(١) النزاء: الوثب. (٢) الجونة: السلة.

(٣) الاهليلج: ثمرة شجرة هندية.

(٤) المشان: ضرب من اجود التمر. والرازقي ضرب من العنب.

(٥) البناني: نوع من السمك. (٦) ا الجنون.

وقال النبي ﷺ: « طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة ».

وقال ﷺ: « أملكوا[1] العجين فإنه أحد الرَّيعين »[2].

وكان فرقد يقول لأصحابه: إذا أكلتم فشدُّوا الأُزُرَ على أوساطكم، وصغِّروا اللقم، وشدِّدُوا المضغ، ومصوا الماء [مَصًّا]، ولا يَحل أحدُكم إزارَه فيتسع مِعاه، وليأكل كلٌّ واحد من بين يديه.

وقالوا: كان ابن هبيرة يباكر الغداء؛ فسئل عن ذلك، فقال: إن فيه ثلاثَ خصال: أما الواحدة فإنه ينشف المِرَّة، والثانية أنه يطيِّب النكهة والثالثة: أنه يعين على المروءة: قيل: وكيف يعين على المروءة؟ قال: إذا خرجت من بيتي وقد تغديت لم أتطلع إلى طعامِ أحدٍ من الناس.

البطنة وقولهم فيها

قالوا: البِطنة تُذْهِب الفطنة.

وقال مسلمة بن عبدالملك لملك الروم: ما تعُدُّون الأحمق فيكم؟ قال الذي يملأ بطنه من كل ما وجد.

وحضر أبو بكرة سفرةَ معاوية، ومعه ولده عبدالرحمن، فرآه يلتقم لَقماً شديـداً؛ فلما كان بالعشي راح إليه أبو بكرة، فقال له معاوية: ما فعل آبنك التلقامَة[3]؟ قال: آعتل، قال: مثله لا يعدم العلة.

ورأى أبو الأسود الدؤلي رجلا يلقم لقْماً منكراً، فقال [له]: كيف اسمك؟ قال: لقمان. قال: صدق الذي سماك!

ورأى أعرابيٌّ رجلا سميناً، فقال له: أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك!

---

(١) ملك العجين: انعم عجنه.

(٢) الريع: الزيادة.

(٣) التلقامة: العظيم اللقم.

وقعد أعرابي على مائدة المغيرة، فجعل ينهش ويتعرَّق، فقال المغيرة: يا غلام ناوله سكيناً، قال الاعرابي: كل امرىء سِكينه[1] في رأسه.

لأعرابي

قال أعرابيٌّ: كنت أشتهى ثريدة دكناء من الفلفل، رقطاء من الحمص، ذات حِفافين [من اللحم، لها جناحان] من العُراق: فأضربُ فيها كما يضرب وليُّ السوء في مال اليتيم!

وقال أعرابي:

ألا ليتَ لي خُبـزاً تَسربَـلَ رائبـاً ... وخَيْلا من البَرْنِيِّ فُرْسانُها الزُّبْـدُ[2]

فـأطلُـبَ فيما بينَهُـنَّ شَهـادةً ... بموتِ كـريمٍ لا يُعـدُّ لـه لَحْـدُ

واصطحب شيخ وحدثٌ من الأعراب في سفر، وكان لهما قرص في كل يوم وكان الشيخ مخلع الأضراس، وكان الحدَثُ يبطش بالقرص ويقعد يشكو العشق، والشيخ يتضوّرُ جوعاً؛ وكان الحدَث يسمى جعفرا، فقال الشيخ فيه:

لقد رابَنى من جعفـرٍ أنّ جَعْفَـراً ... يَطيشُ بقُرْصِي ثم يَبكي على جُمْلِ

فقلْتُ له لو مَسَّـكَ الحُبُّ لم تبِـتْ ... بَطينا ونسّاك الهوى شِـدَّة الأكـل

الأصمعي قال: تقول العرب في الرجل الأكول: إنه بَرِمٌ قرُون.

البرم: الذي يأكل مع الجماعة ولا يجعل شيئاً. والقَرون: الذي يأكل تمرتين تمرتين ويأكل أصحابه تمرة تمرة. وقد نهى النبي ﷺ عن القِران.

وكان عبدالله بن الزبير: إذا قدم التمر إلى أصحابه [قال]: قال عبدالله بن عمر: إياكم والقران، فإن النبي ﷺ نهى عنه.

وقيل لميسرة الأكول: كم تأكل كلَّ يوم؟ قال: من مالي أو من مالي غيري؟ قيل

---

(١) يريد اسنانه.

(٢) البرني: ضرب من اجود التمر.

له: من مالك. قال مكّوك[1]. قيل: فمن مال غيرك؟ قال: آخبزوا وآطرحوا!

وقال رجل من العراق في قينة حفص الكاتب:

قَيْنَةُ حفص ويلَها فيها خِصالٌ عَشَرهْ
أوّلها أنّ لها وجْهاً قبيحَ المنْظَرَهْ
ودارُها في وهْدَةٍ أوْسَعُ منها القنْطرهْ
تأكلُ في قعدَتِها ثوْراً وتَخرى بقَرَهْ

قال تأبّط شراً: ما أحببت شيئاً قطُّ حبي ثلاثة: أكل اللحم، وركوب اللحم، وحكّ اللحم باللحم.

وقال أبو اليقظان: كان هلال بن الأسعر التميمي أكولا، فيزعمون أنه أكل فصيلا وأكلت امرأته فصيلا؛ فلما أراد أن يجامعها لم يصل إليها، فقالت له: وكيف تصل إليّ وبيني وبينك بعيران!

وكان الواثق، واسمه هارون بن محمد بن هارون، أكولا، وكان مفتوناً بحب الباذنجان، وكان يأكل في أكلة واحدة أربعين باذنجانة؛ فأوصى إليه أبوه، وكان وليّ عهده: ويلك! متى رأيتَ خليفة أعمى؟ فقال للرسول: أعْلِم أمير المؤمنين أني تصدقت بعينيّ جميعاً على الباذنجان!

نهم سليمان بن عبدالملك

وكان سليمان بن عبدالملك من الأكلَة، حدث عنه العتبي عن أبيه عن الشمرد وكيل عمرو بن العاص قال: لما قدم سليمان الطائف، دخل هو وعمر بن عبدالعزيز وأيوبُ ابنه بستاناً لعمرو بن العاص، فجال فيه ساعة، ثم قال: ناهيكم بمالكم هذا مالا! ثم ألقى صدره على غُصن، وقال: ويلك يا شمردل ما عندك شيءٌ تطعِمُني؟ قال: بلى، إن عندي جدياً كانت تغدو عليه بقرة وتروح أخرى. قال: عجل به. فأتيتُه به كأنه عُكة سمن، فأكله وما دعا عُمَرَ ولا ابنَه، حتى إذا بقي الفخذ قال: هلم أبا حفص.

---

(١) المكوك: صاع ونصف.

قال: إني صائم. فأتى عليه، ثم قال: ويلك يا شمردل! ما عندك شيء تطعمني؟ قال: بلى والله، عندي خمس دجاجات هنديات كأنهنّ رِئلانُ[1] النعام. قال: فأتيته بهن، فكأن يأخذ برجلي الدجاجة فيلقى عظامها نقية، حتى أتى عليهن؛ ثم قال: يا شمردل، ما عندك شيء تطعمني؟ قلت: بلى والله، إن عندي حريرة[2] كأنها قراضة الذهب. فقال: عجل بها. فأتيته بعُسٍّ يشيب فيه الرأس، فجعل يلاقيها بيده ويشرب؛ فلما فرغ تجشّأ، فكأنما صاح في جُب، ثم قال: يا غلام، أفرغت من غذائي؟ قال: نعم قال: وما هو؟ قال: ثمانون قدراً. قال: ائتني بها قِدراً قدرا. قال: فأكثرُ ما أكل من كل قدر ثلاثُ لقم، وأقلّ ما أكل لقمة؛ ثم مسح يده واستلقى على فراشه، ثم أذن للناس ووضعت المائدة وقعد فأكل مع الناس، فما أنكرتُ من أكله شيئاً.

نهم مزرد

وقال الأصمعي: كنت يوماً عند هارون الرشيد، فقدمت إليه فالوذجة، فقال: يا أصمعي، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: حدثني بحديث مُزَرِّد أخي الشماخ. قلت: نعم يا أمير المؤمنين، إن مزرداً كان رجلا جَشِعاً نَهِما، وكانت أمه تؤثر عيالها بالزاد عليه؛ وكان ذلك مما يَضُرُّ به ويُحفِظه؛ فذهبت يوما في بعض حقوق أهلها، وخلفت مزرداً في بيتها ورحلها، فدخل الخيمة، فأخذ صاعين من دقيق، وصاعا من عجوة، وصاعا من سمن؛ فضرب بعضه ببعض فأكله، ثم أنشأ يقول:

ولما مضتْ أُمِّي تزورُ عِيالها … أغَرتُ على العِكمِ الذي كان يُمنع[3]
خلطْتُ بصاعَيْ حنْطةٍ صاع عجوةٍ … إلى صاعِ سمنٍ فوقُه يتريّع
ودَبّلتُ أمثالَ الأثافي كأنها … رُءوسُ رِخالٍ قُطّعتْ لا تجمّع[4]
وقلتُ لبطني: أبشِر اليوم إنه … حِمى أُمِّنا مما تُفيدُ وتَجْمَع

---

(١) الرئلان: جمع رأل، وهو فرخ النعام.

(٢) حريرة: دقيق يطبخ بلبن او دسم.

(٣) العكم: ما شد به المتاع وربط.

(٤) دبل اللقمة تدبيلا: كبرها. والرخال: جمع رخل، وهي الانثى من ولد الضأن.

فـإن كنـتَ مصفـوراً فهـذا دواؤهُ   وإن كنتَ غرثانـا فـذا يـومَ تشبـعِ[1]

قال: فاستضحك هارون حتى أمسك بطنه واستلقى على ظهره، ثم قعد فمدّ يده وقال: خذ، فذا يوم تشبع يا أصمعي!

وقال حميد الأرقط ـ وهو الذي هجا الأضياف ـ يصف أكلَ الضيف:

مـا بينَ لقْمتِـهِ الأولى إذا ٱنحَدَرتْ   وبين أُخْـرى تَليهـا قَيـدُ أُظْفـور

وقال أيضاً:

تجهَّـز كفَّـاه ويحدر حلْقـه   إلى الزَّوْر ما ضمَّت عليه الانامـلُ
أتانا ومـا سـاواه سَحْبـانُ وائـل   بيـانـاً وعِلما بـالـذي هـو قـائـل
فما زال عنـه اللّقْمُ حتى كـأنـه   مـن العِـيّ لمّا أن تكلَّم بـاقـل

وقال:

لا أُبغض الضيفَ ما بي جُلّ مأكلـه   إلا تنفُّجَـه حـولي إذا قعـدا[2]
مـا زال ينفـخُ جنبيـه وحبْـوتَـه   حتى أقول لعلّ الضيفَ قد وَلَـدا[3]

وقال:

لا مرحباً بوجوه القوم إذ نـزلـوا   دُسْـمَ العمائم تحكيهـا الشيـاطينُ
أَلقيْـتُ جُلّتنـا شطـريـن بينهـمُ   كأن أظفـارَهـم فيهـا السكـاكين
فأصبَحوا والنّوى عالى مُعـرّسهـمْ   وليس كلَّ النوَى تُلقي المسـاكين[4]

موت سليمان بن عبد الملك:

أبو الحسن المدائني قال: أقبل نصراني إلى سليمان بن عبد الملك، وهو بدابق، بسلّين، أحدهما مملوء بيضا، والآخر مملوء تينا، فقال: آقشروا. فجعل يأكل بيضة وتينة حتى فرغ من السلين؛ ثم أتوْه بقصعة مملوءة مُخّاً بسكر؛ فأكله، فأتخم ومرض فمات.

---

(١) الغرثان: الجائع.   (٢) التنفج: ارتفاع البطن.
(٣) الحبوة: ما يحتبى به من ثوب وغيره.   (٤) النوى: البعد.

عيب الحمية:

والأكَلة كلهم يعيبون الحِمية، ويقولون، الحمية إحدى العلتين.

وقالوا: من احتمى فهو على يقين من المكروه وهو في شك من العافية!

وقالوا: الحمية للصحيح ضارّة وللعليل نافعة.

الحمية وقولهم فيها

قيل لبقراط: مالك تُقل الأكلَ جداً؟

قال: إني إنما آكل لأحيا، وغيري يحيا ليأكل!

وأجمعت الأطباء على أن رأس الداء كلّه إدخال الطعام على الطعام.

وقالوا: احذروا إدخال اللحم على اللحم؛ فإنه ربما قتل السباع في القفر.

وأكثر العلل كلها إنما يتولد من فضول الطعام.

والحمية مأخوذة عن النبي ﷺ: رأى صهيباً يأكل تمراً وبه رمد، فقال «أتأكل تمراً وأنت أرمد؟».

ودخل على عليّ رضي الله عنه وهو عليل، وبيده عنقود عنب، فنزعه من يده.

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تُكرِهوا مرضاكم على الطعام والشراب، فإن الله يطعمهم ويسقيهم».

وقيل للحارث بن كلدة طبيب العرب: ما أفضل الدواء؟

قال: الأزْم[1].

يريد قلة الأكل، ومنه قيل للحمية: الأزمة، وللكثير أزمات.

وقيل لآخر: ما أفضل الدواء؟

قال: أن ترفع يدك عن الطعام وأنت تشتهيه.

أبو الأشهب عن أبي الحسن قال: قيل لسُمرة بن جندب: إن ابنك إذا أكل طعاماً كظَّه[2] حتى كاد أن يقتله.

قال: لو مات ما صليتُ عليه!

---

(١) الأزم: الحمية.

(٢) كظه الطعام: اصبح لا يكاد يطيق التنفس.

عبد الملك ومدعو إلى غدائه:

ودعا عبد الملك بن مروان رجلاً إلى الغداء، فقال. ما فيَّ فضلٌ يا أمير المؤمنين.

قال: لا خير في الرجل يأكل حتى لا يكون فيه فضل!

فقال: يا أمير المؤمنين، عندي مستزاد، ولكن أكره أن أصير إلى الحال التي استقبحها أمير المؤمنين.

وقال الأحنف بن قيس: جنِّبوا مجالسنا ذكرَ النساء والطعام، فإني أُبغض الرجلِ يكون وصّافا لبطنه وفرْجه.

وقيل لبعض الحكماء: أي الطعام أطيب؟

قال: الجوع؛ ما ألقيتَ إليه من شيء قَبله.

وقال رجل من أهل الشام لرجل من أهل المدينة: عجبتُ منكم أن فقهاءكم أظرف من فقهائنا، ومجانينكم أظرف من مجانيننا!

قال: أو تدري من أين ذلك؟

قال: لا أدري.

قال: من الجوع، ألا ترى أن العود إنما صفا صوته لمّا خلا جوفه!

الثوري في ابنه:

وقال الجاحظ: كان أبو عثمان الثوري يُجلس ابنه معه ويقول له: إياك يا بنيّ ونهم الصبيان، وأخلاق النوائح، ونهش الأعراب؛ وكُلْ مما يَليك، واعلم أنه إذا كان في الطعام لقمةٌ كريمة، أو مضغةٌ شهيّة، أو شيء مستطرف، فإنما ذلك للشيخ المعظَّم، أو للصبي المدلَّل، ولستَ بواحد منهما، وقد قالوا: مُدمن اللحم كمدمن الخمر.

أي بنيّ، عوّد نفسك الأثرة، ومجاهدة الهوى والشهوة، ولا تنهش نهش السباع، ولا تخضم خضم البراذين، ولا تُدمن الأكل إدمان النعاج، ولا تلقَم لقْم الجمال؛ فإن الله جعلك إنساناً فلا تجعل نفسك بهيمة، واحذر سرعة الكِظة، وسَرَف البطنة؛ فقد قال بعض الحكماء: إذا كنت نَهِماً فعُدَّ نفسك من الزَّمْنى؛ واعلم أن الشِّبَع داعية البشَم[1]، والبشم داعية السقم، والسقم داعية الموت؛ ومن مات هذه الِميتة فقد مات

(١) البشم: التخمة.

مِيتة لئيمة، لأنه قاتل نفسه، وقاتل نفسه ألأم من قاتل غيره.

أي بنيّ، والله ما أدّى حقَّ الركوعِ والسجود ذو كظة، ولا خشع لله ذو بطنة، والصوم مَصَحّة، والوجَبات[1] عيش الصالحين.

أي بنيّ، لأمر ما طالت أعمارُ الهند، وصحتْ أبدان العرب؛ ولله درّ الحارث بن كلدة إذ زعم أن الدواء هو الأزْم، فالداء كله من فضول الطعام؛ فكيف لا ترغب في شيء يجمع لك صحة البدن، وذكاء الذهن، وصلاح الدين والدنيا، والقرب من عيش الملائكة!

أي بني، لِمَ صار الضب أطول عمراً؟ إلا لأنه يتبلغ بالنسيم؛ ولِمَ قال الرسول عليه الصلاة والسلام: إن الصوم وِجاء[2]؟ إلا لأنه جعله حجاباً دون الشهوات؛ فافهم تأديب الله عز وجل، وتأديب رسوله عليه الصلاة والسلام.

أي بني، قد بلغتُ تسعين عاماً ما نغضتْ لي سنّ، ولا انتشر لي عصب، ولا عرفت ذَنين[3] أنف، ولا سيلان عين، ولا سَلس بول؛ ما لذلك علة إلا التخفيف من الزاد؛ فإن كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة، وإن كنت تحب الموت فلا أبعد الله غيرك!

سياسة الأبدان بما يصلحها

الحجاج وطبيبه:

قال الحجاج بن يوسف للباذون طبيبه: صف لي صفة آخذ بها في نفسي ولا أعدوها.

قال له: لا تتزوّج من النساء إلا شابة. ولا تأكل من اللحم إلا فتيّا، ولا تأكله حتى تُنعِمَ طبخه، ولا تشرب دواءً إلا من علة، ولا تأكل من الفاكهة إلا نضيجَها، ولا تأكل طعاماً إلا أجدْت مضغه، وكلْ ما أحببت من الطعام واشرب عليه، فإذا

(١) الوجبة: اكلة واحدة في اليوم والليلة.

(٢) الوجاء: اي ان تدق عروق الخصيتين بين حجرين، وهما بحالها.

(٣) ذنين الانف: سيلان مخاطه.

شربت فلا تأكل ولا تحبس الغائط ولا البول، وإذا أكلت بالنهار فنَم، وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة.

وسُئل يهود خيبر: بم صَحَحْتم على وباء خيبر؟

قالوا: بأكل الثوم، وشرب الخمر، وسُكنى اليفاع[(١)]، وتجنّب بطون الأودية والخروج من خيبر عند طلوع النجم[(٢)] وعند سقوطه.

وقال قيصر لقسّ بن ساعدة: صف لي مقدار الأطعمة؛ فقال: الإمساك عن غاية الإكثار، والبُقْيا على البدن عند الشهوة. قال: فما أفضل الحكمة؟ قال: معرفة الإنسان قدره. قال: فما أفضل العقل؟ قال: وقوف الإنسان عند علمه.

عبد الملك وأبو الزعيزعة:

وسأل عبد الملك بن مروان أبا المفوز: هل أتخمْتَ قط؟ قال: لا. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنّا إذا طبخنا أنضجنا، وإذا مضغنا دققنا، ولا نَكِظَّ المعدة ولا نُخليها.

وقيل لبزرجمهر: أي وقت فيه الطعام أصلَح؟ قال: أما لِمَنْ قدر فإذا جاع، و[أما] لمن لم يقدر فإذا وَجد!

وقال: أربع تهدم العمر وربما قتلن: الحمّام على البِطنة. والمجامعة على الامتلاء، وأكلُ القديد الجافّ، وشربُ الماء البارد على الريق.

وقال إبراهيم النظام: ثلاثة أشياء تُفْسد العقل: طولُ النظر في المرآة، والاستغراق في الضحك، ودوام النظر في البحر.

هارون والأطباء:

الأصمعي قال: جمع هارون من الأطباء أربعة: عراقياً، ورومياً، وهندياً، ويونانياً؛ فقال: ليصفْ لي كلٌّ واحد منكم الدواء الذي لا داء معه. فقال العراقي:

---

(١) اليفاع: ما اشرف وعلا من الارض.

(٢) النجم هو الثريا.

الدواء الذي لا داء معه حبُّ الرشاد الأبيض. وقال الهندي: الهليلج الأسود. وقال الرومي: الماء الحارّ، وقال اليوناني وكان أطبَّهم: حب الرشاد الأبيض يولد الرطوبة، والماء الحارّ يرخي المعدة، والهليلج الأسود يُرِق المعدة؛ ولكن الدواء الذي لا داء معه: أن تقعد على الطعام وأنت تشتهيه.

تدبير الصحة

ثم نذكر بعد هذا من وصف الطعام وحالاته، وما يدخل على الناس من ضروب آفاته، بابا في تدبير الصحة الذي لا تقوم الأبدان إلا به، ولا تُنَمَّى النفوسُ إلا عليه. وقد قال الشافعي: العلم علمان: علم الأديان، وعلم الأبدان؛ ولم نجد بدّاً - إذ كانت جملة هذه المطاعم التي بها نمو الغراسة[1]، وعليها مدار الأغذية تضرُّ في حالة وتنفع في أخرى - مِن ذكر ما ينفع منها ومقدارِ نفعه، وما يضرُّ منها ومبلغ ضرِّه؛ وأن نحكم على كل ضرب منها بالأغلب عليه من طبائعه.

وقلما نجد شيئاً ينفع في حالة إلا وهو ضار في الأخرى؛ ألا ترى أن الغيث الذي جعله الله رحمة لخلقه، وحياةً لأرضه، قد يكون منه السيول المهلكة، والخراب المخيف؟ وأن الرياح التي سخرها الله مبشراتٍ بين يدي رحمته، قد أهلك بها قوماً وانتقم من قوم؟ وفي هذا المعنى قال حبيب الطائي:

ولم تَر نفْعاً عند مَن ليس ضائِراً ولم تر ضرّاً عند مَن ليس يَنفعُ

قال خالد بن صفوان [يوماً] لخادمه: أطعِمنا جُبْنا، فإنه يشهِّي الطعام، ويهَيج المعدة، وهو حمض العرب. قال: ما عندنا منه شيء. فقال: لا بأس عليك، فإنه يقدح[2] الأسنان، ويشد البطن.

ولما كانت أبدان الناس دائبة التحلل، لما فيها من الحرارة الغريزية من داخل، وحرارة الهواء المحيط بها من خارج - احتاجت إلى أن يُخلَف عليها ما تحلل، واضطرت لذلك إلى الأطعمة والأشربة، وجُعلت فيها قوةُ الشهوة ليُعلَم بها وقتُ

---

(١) الغراسة: فسيل النخل. (٢) يقدح: يحدث فيها اكالا.

الحاجة منها إليها، ومقدارُ ما يتناول منها، والنوع الذي يُحتاج إليه؛ ولأنه لا يَخلف الشيءَ الذي يتحلل ولا يقوم مقامه إلا مثله، وليس تستطيع القوةُ التي تُحيل الطعامَ والشراب في بدن الإنسان أن تحيل إلا ما شاكل البدنَ وقاربه؛ فإذا كان هذا هكذا فلا بد لمن أراد حفظ الصحة أن يقصد لوجهين: أحدهما أن يُدخل على البدن الأغذية الموافقة لما يتحلل منه، والأخرى أن ينفي عنه ما يتولد فيه من فضول الأغذية.

ما يصلح لكل طبيعة من الأغذية

وينبغي لك أن تعرف اختلاف طبائع الأبدان وحالاتها، لتعرف بذلك موافقةَ كلِّ نوع من الأطعمة لكل صنف من الناس؛ وذلك أن الأغذية مختلفة؛ منها معتدلة، كالتي يتولد منها الدم الخالص النقيّ؛ ومنها غير معتدلة، كالتي يتولد منها البلغم والمِرَّة الصفراء والسوداء والرياح الغليظة؛ ومنها لطيفة ومنها غليظة؛ ومنها ما يتولد عنه كَيموس[1] لزج وكيموس غير لزج؛ ومنها ما له خاصة منفعة أو مضرة في بعض الأعضاء دون بعض.

وكذلك الأبدان أيضاً، منها معتدل مستولٍ عليه في طبيعته الدمُ الخالص النقي، ومنها غير معتدل يغلب عليه البلغم أو إحدى المِرّتين، ومنها متخلخل سريع التحلل، ومنها مستحصف[2] عسر التحلل، ومنها ما يكون في بعض أعضائها دون بعض؛ فقد يجب متى كان المستولي على البدن الدم النقي أن تكون أغذيته قصداً في قَدْرها، معتدلة في طبائعها؛ ومتى كان الغالب عليه البلغم، فيجب أن تكون مُسخنة، أو يغتذي بما يزيد في الحرارة ويقمع في الرطوبة؛ ومتى كان الغالب عليه المرّةُ السوداء فينبغي له أن يغتذي بالأغذية الحارة الرطبة؛ ومتى كان الغالب عليه المرة الصفراء فيغتذي بالأغذية الباردة الرطبة، ومتى كان بدنه مستحصفاً[3]، عسر التحلل فينبغي أن يغتذي بأغذية يسيرة لطيفة جافة، ومتى كان متخلخلاً فينبغي له أن يغتذي بأغذية لزجة، لكثرة ما يتحلل من البدن.

---

(١) الكيموس: الخلط. (٢) مستحصف: مشتد.

(٣) المستحصف: الذي خرج البثر في جلده.

فهذا التدبير ينبغي أن يُلتزم، ما لم يكن في بعض أعضاء البدن ألم، فينبغي أن يُستعمل النظرُ في الأغذية الموافقة للعضو الألِم؛ لأنا ربما اضطررنا إلى استعمال ما يوافق العضو الألم، وإن كان مخالفاً لسائر البدن؛ كما أنه لو كانت الكبد باردة ضيقة المجاري، احتجنا إلى استعمال الأغذية اللطيفة وتجنُّب الأغذية الغليظة، وإن كان سائرُ البدن غير محتاج إليها لضَعف أو نحافة؛ لئلا تُحدث الغليظة في الكبد سددا؛ وربما كانت الكبد حارة، فتحذر الأغذية الحلوة وإن احتاج إليها [البدن] لسرعة استحالتها إلى المرة الصفراء، وربما كانت المعدة ضعيفة، فتحتاج إلى ما يقوِّيها من الأغذية؛ وربما كان يُولد الطعام فيها بلغماً، فتحتاج إلى ما يجلوه ويقطعه؛ وربما كان يتولد فيها المرة الصفراء سريعاً، فتحتاج إلى ما يقمع الصفراء وإلى تجنُّب الأشياء المولدة لها؛ وربما كان الطعام يبقى على رأس المعدة طافياً، فيستعمل الأغذية الغليظة الراسبة، ليثقل بثقلها إلى أسفل المعدة؛ وتأمره بحركة يسيرة بعد الطعام، لينحط الطعام عن رأس المعدة. وربما كان فضل الطعام بطيء الانحدار عن المعدة والأمعاء، فتحتاج إلى ما يحدره ويُلين البطن؛ وربما كان رأس المعدة حاراً قابلاً للحار، فيتجنب الأغذية الحارة وإن احتاج إليها سائر البدن.

الحركة والنوم مع الطعام

وينبغي ألا تقتصر على ما ذكرنا دون النظر في مقدار الحركة قبل الطعام، والنوم بعده؛ فمتى كانت الحركة قبل الطعام كثيرةغذيناه بأغذية غليظة لزجة إلى اليبس مما هي بطيئة التحلل، ولم نأمره بالحمية لقلة الحاجة إليها، ومتى لم تكن قبل الطعام حركة، أو كانت يسيرة، فينبغي أن لا يقتصر على الحمية بقلة الطعام ولطافته، دون أن يستعين على تخفيف ما يتولد في البدن من الفضول باستفراغ الأدوية المسهلة، وبالحمّام، وبإخراج الدم؛ ومتى كانت الحركة كافية استعملنا الأغذية المعتدلة في كثرتها، وقدر لطافتها وغلظها؛ ومتى كان النوم بعد الطعام كثيراً احتجنا إلى استعمال أغذية كثيرة غزيرة بالغذاء، لطول الليل وكثرة النوم؛ ومتى كان النوم قليلاً احتجنا إلى الطعام الخفيف اللطيف، كالذي يُغتذَى به في الصيف، لقصر الليل وقلة النوم.

تقدير الطعام وما يقدم منه وما يؤخر

ويجب في الطعام أن يقدر فيه أربعة أنحاء:

أولها: ملاءمة الطعام لبدن المغتذِي به في الوقت الذي يغتذي به فيه، كما ذكرنا أيضاً أنه متى كان الغالب على البدن الحرارة احتاج إلى الأغذية الباردة، ومتى كان الغالب عليه البرد احتاج إلى الأغذية الحارة، ومتى كان معتدلاً احتاج إلى الأغذية المعتدلة المشاكلة له.

والنحو الثاني: تقدير الطعام، بأن يكون على مقدار قوة الهضم؛ لأنه وإن كان في نفسه محموداً، وكان ملائماً للبدن، وكان أكثر من قدر احتمال قوة الهضم، ولم يستحكم هضمه، تولد منه غذاءٌ رديء.

والنحو الثالث: تقديم ما ينبغي أن يقدّم من الطعام، وتأخير ما ينبغي أن يؤخر منه؛ ومثل ذلك أنه ربما جمع الإنسان في أكلة واحدة طعاماً يُلين البطن وطعاماً يحبسه، فإن هو قدم الملين وأتبعه الآخر، سهل انحدار الطعام منه: ومتى قدم الطعام الحابس وأتبعه الملين، لم ينحدر وفسدا جميعاً. وذلك أن الملين حال فيما بينه وبين نزول الطعام الحابس، فبقي في المعدة بعد انهضامه، ففسد به الطعام الآخر. ومتى كان الطعام الملين قبل الحابس انحدر الملين بعد انهضامه، وسهل الطريق لانحدار الحابس. وكذلك أيضاً لو جمع أحد في أكلة واحدة طعاماً سريع الانهضام وآخر بطيء الانهضام، فينبغي له أن يقدّم البطيء الانهضام ويُتبعه السريع الانهضام، ليصير البطيء الانهضام في قعر المعدة. لأن قعر المعدة أسخن، وهو أقوى على الهضم، لكثرة ما فيه من أجزاء اللحم المخالطة له، وأعلى المعدة عصبي بارد لطيف ضعيف الهضم، ولذلك إذا طفا الطعام على رأس المعدة لم ينهضم.

والنحو الرابع: أن يتناول الطعام الثاني بعد انحدار الأول وقد قدّم قبله حركة كافية وأتبعه بنوم كاف، استمراءه؛ ومن أخذ الطعام وقد بقي في معدته أو أمعائه بقية من الطعام الأول غير منهضمة، فسد الطعام الثاني ببقية الأوّل.

باب الحركة والنوم مع الطعام

ومن أكل الطعام بعد حركة كافية وأخذه على حاجة من البّدن إليه، وافى الطعام الحركة الغريزية قد اشتعلت. ومن تناول طعاماً من غير حركة وأخذه مع غير حاجة من البدن إليه، وافى الطعام الحركة الغريزية خامدة بمنزلة النار الكامنة في الزناد. ومن أتبع الطعام بنوم، بطنت الحرارة الغريزية فيه فاجتمعت في باطن البدن فهضمت طعامه. ومن أتبع الطعام بحركة، انحدر عن معدته غير منهضم وانبث في العروق غير مستحكـم، فأحدث سدداً وعللاً في الكبد والكلى وسائر الأعضاء.

وربما كانت الأطعمة لضعف المعدة تطفو فيها وتصير في أعلاها، فلا تأمره بالنوم حتى ينحدر الطعام عن المعدة بعض الانحدار ويصير في قعر المعدة. وربما أمرنا بحركة يسيرة كما ذكرنا آنفاً، لانحدار الطعام عن المعدة بعض الانحدار.

وإن أكثرَ الشرابَ منع الطعام من الانهضام، لأنه يحول فيما بين جرم[1] المعدة وبين الطعام، وإذا لم تلق المعدة الطعام لم تحِلْه إلى مشاكلة البدن وموافقته، فيبقى فيها غير منهضم. فيجب لذلك على من أخذ الطعام أن يتناول معه من الشراب ما يسكن به حرّ العطش ويصبر على قدر احتماله من العطش، ويصبر حتى ينهضم، ثم يتناول بعد ذلك من الشراب ما أحب، فإنه بعد ذلك يعين على انحدار الطعام وترقيقه لتنفيذه في المجاري الدِّقاق.

ويجب أيضاً أن يكون أخذه للطعام في وقت حركة الشهوة؛ وذلك أنه إذا تحركت الشهوة ولم يبادر بأخذ الطعام، اجتذبت المعدة من فضول البدن ما إذا صار في المعدة أبطل الشهوة، وأفسد الطعام إذا خالطه.

الأوقات التي يصلح فيها الطعام

أجود الأوقات كلها للطعام الأوقات الباردة. لجمعها الحرارة في باطن البدن فأما الأوقات الحارة فينبغي أن يجتنب أخذ الطعام فيها، لأن حرارة الهواء تجذب الحرارة

(١) الجرم: بكسر الجيم، الجسد، وبضمه، الذنب.

الباطنة الغريزية إلى ظاهر البدن ويخلو منها باطنه، فتضعف الحرارة في باطنه عن هضمه. فلذلك كانت القدماء تفضل العشاء على الغداء لمّا يلحق العشاء من اجتماع الحرارة على باطن البدن، لبرد الليل والنوم، ولأن الحرارة في النوم تبطيء، ويسخن باطن البدن ويبرد ظاهره. واليقظة على خلاف ذلك، لأن الحرارة تنتشر في ظاهر البدن وتضعف في باطنه. والذي يحتاج إلى كثرة الغذاء من الناس من كان الغالب على بدنه الحرارة، وكانت معدته لحرارتها سريعة الانهضام، وكانت كبده لحرارتها سريعة التوليد للمرة الصفراء؛ فلذلك يحتاج إلى الأطعمة الغليظة البطيئة الانهضام ويستمرئها، ويستمريء لحم البقر ولا يستمريء لحم الدجاج وما أشبهه من الأطعمة الخفيفة.

ولا يصلح شيء من هذه إلا في وقت تحرّك الشهوة، فإنه أفضل وقت يؤخذ فيه الطعام؛ وللعادة في هذا حظ عظيم. ألا ترى أنه من اعتاد الغداء فتركه واقتصر على العشاء عَظُم ضرر ذلك عليه؟ ومن كانت عادته أكلة واحدة فجعلها أكلتين لم يستمريء طعامه، ومن كانت عادته أن يجعل طعامه في وقت من الأوقات فنقله إلى غير ذلك الوقت أضر ذلك به، وإن كان قد نقله إلى وقت محمود؛ فيجب لذلك أن يتبع العادة إذا تقادمت فطالت، وإن كانت ليست بصواب، إذا لم يجد شيئاً اضطره إلى نقله؛ لأن العادة طبيعة ثانية كما ذكر الحكيم أبقراط، فإن حدث شيء يدعوه إلى الانتقال عنها فأوفق الأمور في ذلك أن ينقل عنها قليلاً قليلاً.

وللشهوة أيضاً في استمراء الطعام أعظم الحظ؛ لأنها دليل على الموافقة والملاءمة، فمتى كان طعامان متساويان في الجودة، وكانت شهوة المحتاج إليهما إلى أحدهما أمْيل، رأينا إيثار المشتهي على الآخر، لأنه أوفق للطبيعة، وأسهل عليها في الاستمراء. ومتى كان أحدهما أجود من الآخر، وكانت شهوة المحتاج إليهما أمْيل إلى أردئهما. اخترناه على الأجود إذا لم نخَف منه ضرراً لكثير ما ينال منه من المنفعة، لقبول المعدة له واستمرائها إياه.

فقد بان أنه يُحتاج في حال الأغذية وجودة تخير الأطعمة إلى معرفة اختلاف الطبائع وحالاتها؛ فقد بينت اختلاف طبائع الأبدان وحالاتها، وما يجب على كل

واحدة منها من أنواع الأطعمة والأشربة؛ وبقي أن نبين اختلاف قوى الأطعمة والأشربة. وأن أصف أنواع الأغذية وأسمّى ما في كل صنف منها إن شاء الله تعالى.

الأطعمة اللطيفة

هي التي يتولد منها دم لطيف، فمنها لباب خبز الحنطة، والحب المقشور، ولحم الفراريج، ولحم الدُّراج[1] والطَّهيوج[2] والحجَل، وفراخ الحجل، وأجنحة الطيور، وما لان لحمه من صغار السمك ولم تكن فيه لزوجة، والقرع، والماش[3]؛ وما أشبه.

وهذا الجنس من الأطعمة نافع لمن ليست له حركة وكانت الحرارة الغريزية في بدنه ضعيفة ولم يأمن أن يتولد في بدنه كَيموس غليظ، أو يتولد في كبده أو طحاله سدد، أو في كلاه، أو في صدره، أو في دماغه، أو في شيء من مفاصله من البلغم.

الاطعمة اللطيفة في نفسها الملطفة لغيرها

هي التي يكون ما يتولد منها لطيفاً، ويلطِّف ما يلقاه من الكيموس اللزج الغليظ في البدن.

وهذا الجنس من الأطعمة أربعة أصناف: صنف منها حلو لطيف لما فيه من قوة الجلاء، مثل: ماء الشعير، والبطيخ، والتين اليابس، والجوز، والعسل والفستق وما يعمل منه من الناطف.

وهذا الجنس من منفعته من جنس الأول من الأطعمة اللطيفة، إلا أنه أبلغ في تلطيف البدن.

والصنف الثاني حار، حرّيف، كالحُرف، والثوم، والكراث، والكرفس

---

(١) الدّراج: نوع من الطير يدرج في مشيه.

(٢) الطهيوج: طائر، وهو ذكر السَّلكان.

(٣) الماش: حبّ، وهو معرب او مولّد.

والكرنب، والصَّعتر، والنعنع، والرازيانج، والشرب الأصفر اللطيف العتيق الحار.

وهذا كله نافع لمن احتاج إلى فتح السدد التي في الكبد، والطحال، والصدر والدماغ، وتقطيع البلغم وترقيقه.

ولا ينبغي لأحد أن يكثر استعماله، لأنه يرقق الدم أولاً ويصيره مائياً، فيقل لذلك غذاء البدن ويضعف، ثم إنه يُسخن البدن سخونة مفرطة، فيصير أكثره مِرة صفراء، ثم إنه بعد ذلك إذا تمادى مستعمِله في استعماله حلل لطيف الدم وترك غليظه، فصار أكثره مرة سوداء، وربما تولد من ذلك حجارة في الكلى؛ ومضرة هذا الصنف أشد ما تكون على من كانت المرة الصفراء غالبة عليه.

والصنف الثالث: يذهب ويلطف بملوحته، كالمُري[1] وما لان لحمه وقل شحمه من السمك إذا ملح، والسلق، وماء الجبن، وكلٍّ ما جعل فيه من الأطعمة الملح، والمري، البورق.

ومنافع هذا الصنف ومضاره قريبة من منافع الأشياء الحريفة ومضارّها، إلا أن هذا الصنف في تنقية المعدة والأمعاء وتليين الطبيعة أبلغ.

والصنف الرابع: يقطع ويلطف بحموضته، كالخل، والسكنجبين، وحُماض[2] الأترجّ، وماء الرمان الحاض، وكل ما يتخذ بها من الأطعمة.

وهذا الصنف نافع لمن كانت معدته وسائر بدنه حاراً إذا تولد فيه بلغم من غلِظ ما يتناول من الأغذية ومن كثرتها.

الاطعمة الغليظة في نفسها الملطفة لغيرها

منها: البصل، والجزر، والفجل، والسلجم[3]، وما أشبه ذلك.

فهذه الأطعمة في نفسها غليظة وتلطِّف ما تلقى من الشيء الغليظ بما فيها من الحدّة

---

(١) المري: ضرب من الادوية القديمة.

(٢) حماض الاترج: ما في جوفه. والاترج ضرب من الفاكهة.

(٣) السلجم: اللفت.

والحرافة؛ وهي تولد كيموساً غليظاً، ومتى ما طبخ شيء منها أو شوي ذهب عنه قوة الحرافة والتقطيع، وبقي جرمه غليظاً رديئاً؛ وقد يُتناول للمنفعة بتقطيع هذه الأطعمة وتلطيفها، ويسلم من غلظ جرمها، على إحدى ثلاث جهات: إما أن تطبخ فتلطف، كالذي يفعل بالبصل؛ وإما أن تعصر أو تطبخ ثم يستعمل ماؤها؛ وإما أن تؤكل نيئة فتقطع البلغم، كالذي يفعل بهما جميعاً.

الاطعمة الغليظة

الغالب على الأطعمة الغليظة كلها اليبس واللزوجة؛ فمنها شيء يكون اليبس واللزوجة من طبعه، ومنها ما يَكتسب اليبسَ من غيره.

فالذي يكون اليبس من طبعه. العدس، ولحم الأرانب، والبلوط، والشاه بلوط، والكمأة، والباقلي المقلوّ؛ هذه كلها غليظة، لأن اليبس في طبائعها.

وأما الذي يكتسب اليبس من غيره، فالكبود[١]، والبيض المسلوق، والمشوي وما قلي، واللبن المطبوخ طبخاً كثيراً، والضروع، وعصير العنب المطبوخ، لا سيما إن كان العصير غليظاً؛ فهذه كلها غليظة، لأن الحرارة بالطبخ أحدثت لها يبساً وانعقاداً.

وأما لحوم الإبل، ولحوم التيوس، ولحوم البقر، والكروش، والأمعاء، فإنها غليظة بصلابتها؛ وكذلك الترمس، وثمر الصنوبر، والسلجم[٢]، واللوبيا، وما خُبز على الفرن؛ فإن ظاهره غليظ، لما أحدثت به النار من اليبس، وباطنه غليظ، لما فيه من اللزوجة؛ وكذلك كل ما لم يُجَد عجنُه أو خبزه أو إنضاجه من خبز التنور، وكل ما خبز على الطابق بدهن أو غيره، والفطير، والشهد، واللبن، والأدمغة؛ فإنها كلها غليظة، لِلزُوجة فيها طبيعية.

وأما الفالوذج فإنه غليظ لِلُزُوجته والانعقادِ الحادث له من الطبخ.

---

(١) الكبود: جمع كبد، وتجمع على اكباد.

(٢) السلجم: اللفت.

وأما الباذنجان فإنه غليظ لليبس وللّزُوجة في طبعه .
وأما الخبز فإنه غليظ لاجتماع الحالات الثلاث فيه .
فأما السمكُ الصلب اللزج فإنه غليظ لاجتماع الصلابة واللزوجة فيه .

وأما الآذان والشِّفاه وأطراف العضو، فإنها تولد كيموساً لزجاً ليس بالغليظ وقد تولَد ما يعرض من الأغذية الباردة عن هضمها وتلطيفها، كالذي يعرض من أكل الفاكهة قبل نضجها، ومن أكل الخيار والقثاء، وشحم الأترج واللبن الحامض .

فهذه الأطعمة الغليظة كلها إن صادفت بدناً حاراً كثيرَ التعب قليلَ الطعام كثير النوم بعيد الطعام انهضمت وغذتِ البدن غِذاء كثيراً نافعاً، وقوَّتْه تقوية كثيرة .

وأَحْمَدُ ما تستعمل هذه الأغذية في الشتاء، لاجتماع الحرارة في باطن البدن وطول النوم؛ ومتى أحس أحد في نومه نقصاناً بيِّنا وأكلها من يجد الحرارة في بدنه قليلة ولا سيما في معدته، ومَن تعبه قليل ونومه بعد الطعام قليل - لم يستحكم انهضامها، وتولد منها في البدن كيموس غليظ حار يابس، يتولد منه سدة في الكبد والطحال؛ فلذلك ينبغي لمن أكل طعاماً غليظاً من غير حاجة إليه لِعلة أو شهوة أن يُقِلَّ منه ولا يُعَوّده، ولا يدمِنه .

وما كان من الأطعمة الغليظة له مع غلظه لُزُوجة، فهو أغذاها للبدن؛ فإن لم ينهضم فهو أكثرها توليداً للسدد .

الأطعمة المتوسطة بين اللطيفة والغليظة

تصلح لمن كان بدنه معتدلاً صحيحاً، ولم يكن تعبه كثيراً؛ وأجود الأغذية له المتوسطة، لأنها لا تنهكه ولا تضعفه كاللطيفة، ولا تولد خاما[1] ولا سُدداً كالغليظة .

---

(١) الخام: غير الدم .

وهي كل ما أحكم صنعه من الخبز، ولحوم البقر، والدجاج، والجداء، والحولية من المعز.

وأما لحوم الخرفان والضأن كلها فرطْبة لزجة.

وأما لحم فراخ الحمام والقطا فهو يولد دماً سخناً وأغلظ من الدم المعتدل.

وأما فراخ الوراشين[١] فإنها مثل فراخ الحمام والقطا[٢] والإوز، فأجنحتها معتدلة وسائر البدن كثير الفضول.

وكل ما كثرَت حركته من الطير وكان مرعاه في موضع جيد الغذاء صافي الهواء، كان أجودَ غِذاء وألطف؛ وكل ما كان على خلاف ذلك فهو أردأُ غذاء وأوسخ.

وكل ما لم يستحكم نضجه من البيض، وخاصة ما أُلقي على الماء الحار وأُخذ من قبل أن يشتد، فهو معتدل.

وكل ما كان من لحم السمك ليس بصلب ولا كثير اللزوجة، والزهومة[٣]،

وما كان مرعاه نقياً من الأوساخ والحمأة، فهو معتدل جيِّد الغذاء.

ومن الفواكه التين والعنب إذا استحكم نضجها على الشجر وأسرعت الانحدار إلى الجوف، كان ما يتولد منها معتدلاً، فإن لم تسرع الانحدار فلا خير فيها.

ومن البقول الهندبا، والخس، والهليون.

ومن الأشربة كلها ما كان لونه ياقوتياً صافياً ولم يكن عتيقاً جداً.

الأطعمة الحارّة

يحتاج إليها من كان الغالب عليه البرودة، في الأوقات والبلاد الباردَين؛ وينبغي أن يتجنبها من كان حارّ البدن، وفي الأوقات الحارّة والبلاد الحارة.

---

(١) الوارشين: جمع الورشان، وهو طائر من الفصيلة الحمامية، اكبر قليلا من الحمام.

(٢) القطا: جمع القطاة: نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء.

(٣) الزهومة: الريح النتنة.

منها: الحنطة المطبوخة، والخبز المتخذ من الحنطة، والحمص، والحلبة، والسمسم، والشهدانج، والعنب الحلو، والكرفس، والجرجير، والفجل، والسلجم، والخردل، والثوم، والبصل، والكراث، والخمر العتيق.

وأسخن الأشربة الحارّة العتيق الأصفر.

الأطعمة الباردة

ينبغي أن يستعملها من كان حارّ البدن، وفي الأوقات الحارّة والبلد الحارّ.

وهي: الشعير وما يتخذ منه، والجاوَرس، والدُّخْن، والقرع، والبطيخ، والخيار، والقثاء، والإجاص، والخوخ، والجمار، وما بين الحموضة والعفوصة[1]، من العنب، والزبيب، والطلع[2]، والبلح، والخس، والهندبا، والبقلة الحمقاء، والخشخاش، والتفاح، والكمثري، والرمان.

فما كان من الرمان عفصا فهو بارد غليظ، وما كان حامضاً فهو بارد لطيف.

فأما الخل فهو بارد لطيف، وهو ضارّ بالعصب.

وما كان أيضاً من الشراب عفصاً فهو أقل حرارة، وما كان من ذلك حديثاً غليظاً فهو بارد.

الأطعمة اليابسة

يحتاج إلى الأطعمة اليابسة من كان الغالب على بدنه الرطوبة، وفي الأوقات الرطبة والبلد الرطب.

منها العدس، والكرنب، والسويق، وكل ما يشوى ويطبخ ويقلى، وكل ما أكثر فيه السَّذَاب والمري والخل والإبزار والخردل، ولحم المسنّ من جميع الحيوان.

---

(١) العفوصة: المرارة والقبض.

(٢) الطلع:

الأطعمة الرطبة

يحتاج إلى الأطعمة الرطبة من أفرط عليه اليبس، وفي الأوقات اليابسة والبلاد اليابسة.

وهي: الشعير، والقرع، والبطيخ، والقثّاء، والخيار، والجوز الرطب، والعنب، والنبق، والإجاص، والتوت، والجمار، والخس، والبقلة اليمانية، والقِطف[1]، والباقلي[2] الرطب، والحمص الرطب، واللوبيا الرطبة وكل ما يطبخ بالماء ويسلق به وتقل فيه الإبزار والخل والمري والسذاب، وجميع لحوم صغار الحيوان.

الأطعمة القليلة الفضول

أجنحة الطيور، وأكارع المواشي ورقابها، ما يربى في البر[3] من الحيوان في المواضع الجافة.

الأطعمة الكثيرة الفضول

منها لحم الأوز خلا الأجنحة، والأكباد كلها من جميع الحيوان، والنخاع، والدماغ، والطيور التي في الفيافي والآجام، والحمص الطري، والباقلي الطري، ولحم الضأن، ولحم المراضع من كل الحيوان، ولحم كل ساكن غير سريع النهوض، وما كان من السمك على ما ذكرنا صَلْباً لزِجاً.

الأطعمة التي غذاؤها كثير

كل ما غلظ من الأطعمة إذا انهضم غذى كثيراً، وكل ما كان له فضول كان غذاؤه كثيراً.

---

(١) القطف: بقلة تشبه الرجلة.

(٢) الباقلي: الفول.

(٣) البرّ: حب القمح.

وقد يحتاج إلى الأطعمة الكثيرة الغذاء من احتاج إلى أن يأخذ طعاماً قليلاً يغذّي غذاء كثيراً، كالناقة والمسافر، وكالذي يثقل معدتَه الكثير من الطعام وبدنه يحتاج إلى غذاء كثير.

فمن ذلك لحم البقر، والأدمغة، والأفئدة، وحواصل الطير كلها، والسمك الغليظ اللوح، والسميذ، والباقلي، والحمص، واللوبيا، والترمس، والعدس، والتمر، والبلّوط، والشاة بلّوط[1]، والسَّلْجم، تغذو غذاء كثيراً لغلظها ـ واللبن الحليب، والشراب الأحمر. وغذاء اللبن كله أغلظه وأرقه، أقلّ غذاء.

وأغلظ اللبن لبن البقر ولبن النعاج، وأرقه لبن الاتن[2] وألبان اللِّقاح، وألبان الماعز متوسطة بين ذلك.

وأغذى الأشربة النبيذ الأحمر الغليظ الحلو، ثم الغليظ الأسود الحلو، ثم الغليظ الأبيض الحلو، ثم من بعد هذه الأشربة العفصة الغليظة الحلوة وكل ما مال إلى الحمرة والحلاوة كان أغذى، والأبيض أقلها غذاء.

الأطعمة التي غذاؤها قليل

كل ما كان من الأطعمة لطيفاً كان غذاؤه قليلاً، وكل ما أفرط فيه اليبس أو الرطوبة، أو كثرة الفضل، قل غذاؤه، كالأكارع، والكروش، والمصارين، والشحم، والآذان، والرئة، ولحم الطير كله، وما ملح من الحيوان ـ قليل الغذاء لليبس الذي فيه ـ وكذلك الزيتون، والفستق، والجوز، واللوز، والبندق، والغُبيرا[3]، والزّعرور[4]، والخرّوب، والبُطم[5]، والكمثري العَفِص، والزبيب العفِص؛ فإنما قلَّ غذاؤها للعفوصة.

(١) الشاه بلوط: شجر يسمى بالفسطل.

(٢) الاتن: جمع أتان، وهي انثى الحمار.

(٣) الغبيرا: هو ما يسمى بالقراصيا.

(٤) الزعرور: ويسمى ايضا «التفاح الجبلي»؛ (٥) البطم: الحبة الخضراء، ثمرها شبيه بالفستق.

وأما السمك، والقرع، والرمان، والتوت، والإجاص، والمشمش، فإنما قل لكثرة رطوبتها؛ وغذاؤها غير باق سريع التحلل.

وأما خبز الشعير، والخُشْكار[1]. والباقلي الرطب؛ وجميع البقول، مثل الكرنب، والسلق، والحماض، والبقلة الحمقاء، والفجل، والخردل، والحُرْف، والجزر - فقليل الغذاء، لكثرة الفضل فيها.

وأما البصل، والثوم، والكراث؛ فإنها إذا أكلت نيئة لم تغذ، وإذا طُبخت غذَّت غذاء يسيراً.

وأما التين، والعنب، فإنهما بين ما قل غذاؤه وما كثر غذاؤه.

الأطعمة التي تولد كيموساً جيداً

كل ما كان معتدلاً من الأطعمة لم تفرط فيه قوّة ولم يجاوز القدر فيه، ولد دماً خالصاً نقياً صحيحاً، وكل ما كان كذلك فهو موافق لجميع الأبدان وفي جميع الأوقات، وهو لجميع الأبدان المعتدلة في جميع الأوقات، وفي الأوقات المعتدلة أوفق؛ لأن ما تجاوز الاعتدال من الأبدان يحتاج من الأطعمة إلى ما فيه قوّة تجاوز الاعتدال؛ وكذلك الأبدان المعتدلة في الأوقات التي ليست بمعتدلة.

وفي الأطعمة ما هو غليظ وما هو لطيف وما هو بين ذلك، وأجودُها لجميع الناس ما كان معتدلاً منها، بين الغليظ واللطيف، وما هو بين ذلك.

وقد وصفنا الأطعمة الغليظة واللطيفة والمتوسطة. ومتى يصلح كل صنف منها؛ فبقي علينا أن نخبر بجملة الأطعمة المولدة الكَيموس الجيِّد، وقسمتها على ما قسمناها.

فمن ذلك خبز الحنطة النقي المحكم الصنعة إن كان من يومه، ولحم الدجاج،

---

(١) الخشكار: الدقيق الخشن الذي لم ينخل.

والجداء، وحولية الماعز، وما كان من السمك ليس بصلب ولا كثير اللزوجة، وما لم يكن له زهومة[١] ولم يكن له سمن كثير، وما كان مرعاه فيما ليس فيه أوساخ ولا حمأة ولم يكن سريع العفونة، وكل ما اشتد واستحكم نضجه من البيض، وكل شراب طيب الريح ياقوتي اللون ليست فيه حلاوة - كل ذلك يولد كيموساً[٢] معتدلاً بين اللطيف والغليظ.

وأما الدراج[٣]، والفراريج وأجنحة جميع الطير، وما صغر من السمك وكان مرعاه على ما وصفنا، وما أُلقيَ عليه من السمك الملح فصار رخصا وذهبت لزوجته، وماء كشْك الشعير، والشراب الطيب الرائحة الاحمر - فكل ذلك جيد الكيموس لطيف.

واما اللبن الحليب فإنه جيد الكيموس، إلا ان فيه غلظا؛ ولذلك ربما تجبن في المعدة؛ فلهذه العلة يخلط به العسل والملح، ويرق بالماء.

وأجود اللبن واعدله لبن الماعز؛ لانه ألطف من لبن الضأن والبقر، وأغلظ من لبن الأتن واللِّقاح[٤].

وينبغي للبن أن يؤخذ من حيوان صحيح شابّ جيد الغذاء.

ولا يحتلب في وقت ما يضع الحيوان، ولا بعد ذلك بزمان طويل لأن اللبن من الحيوان في وقت ما يضع غليظ، ثم يرق بعد ذلك قليلا قليلا حتى يصير مائيا، فلذلك كان أوّله وآخره رديئا.

وأجود ما يؤخذ من اللبن ساعة يحلب، قبل ان يغيره الهواء؛ لانه سريع الاستحالة.

---

(١) زهومة: الريح النتنة.

(٢) الكيموس: الخلاصة الغذائية.

(٣) الدراج: جمع الدراجة: طائر ظاهر جناحية اغبر وباطنهما اسود يشبه القطا، الا انه الطف منه.

(٤) اللقاح: جمع لقحة، وهي الناقة الحلوب.

وأما الخشكار[1] من الخبز الرطب، وكل ما لم تحكم صنعته من الخبز السميذ، وخبز الفرن، ولحم العجل؛ ومن اجزاء الغنم الضرع والكبد والفؤاد، ومن الحبوب الباقلي، ومن الشراب ما كان طيب الرائحة حلوا ـ فكل ذلك يولد كيموساً غليظاً جدّاً .

الأطعمة التي تولد كيموسا[2] رديئا

كل ما لم يكن معتدلا من الاغذية لم يولّد دما خالصا صافيا .

والأطعمة الرديئة الكيموس ثلاثة أصناف: منها ما يزيد في البلغم، ومنها ما يزيد في الصفراء، ومنها ما يزيد في السوداء .

وينبغي لجميع الناس ان يجتنبوا الإكثار منها وادمان استعمالها وإن كانوا لها مستمرئين؛ لأنها وإن لم يتبين لها ضرر في عاجل الامر، يجتمع منها في بدنِ مدمن استعمالها مع طول الزمان كيموسٌ رديء، وكذا امراض رديئة، واولى الناس بتَجَنُّب كل صنف من أصنافها مَن كان الغالبُ على بدنه ما يزيد فيه ذلك الصنف .

فأقول: إن كل ما يتخذ من الخبز من دقيق كثير النخالة، أو ما عتق من الحنطة ـ رديء الكيموس يزيد في السوداء .

ولحم الضأن كله يزيد في البلغم، ولحم الماعز المسن كله يزيد في السوداء، وأردؤه لحم التيوس . ولحم البقر والجزور والارانب والظباء والايايل[3] ـ كل هذا يزيد في السوداء؛ وشرّ هذه اللحوم لحم الجزور، وبعده لحم التيوس، لاسيما ما لم يُخْصَ منها، وبعده لحم المسن من الضأن، وبعده لحم البقر؛ وكل ما خُصي من هذه كان أجودَ غذاء .

---

(١) الخشكار: الخبز الاسمر غير النقي .

(٢) الكيموس: الخلاصة الغذائية .

(٣) الأيايل: جمع ايل: وهو الوعل .

وأما لحوم الارانب والظباء والايايل، فهو دون جميع ما ذكرنا من الرداءة. ومن أعضاء الحيوان: الكلى، رديئة الكيموس، لزهومتها وما استفادت من رداءة البول.

والدماغ يزيد في البلغم، وكل البطون يزيد في البلغم، لكثرة الزلال فيها.

والبيض المطجَّن[1] يولد غذاء غليظاً فاسداً، وكذلك الجبن، ولاسيما ما عتق منها. والعدس يزيد في السوداء.

والدخن[2] والجاورس يولدان دما غليظاً.

وما صلب لحمه من السمك وغلبت عليه اللزوجة يولد البلغم، فإن ملح وعتق يولد السوداء.

والتين اليابس إن اكثر اكله ولد فضلا عفنا يكثر منه القمل.

والكمثري والتفاح إن اكلا غير نضجين ولدا كيموساً رديئاً، وكذلك القثاء والخيار؛ فأما البطيخ والقرع فربما انهضما ولم يحدثا في البدن حدثاً رديئاً، وربما فسدا في المعدة فولّدا كيموساً رديئاً، ولا سيما إن صادفا في المعدة فضلا رديئاً؛ فلذلك تَعرض الهيضةُ[3] كثيراً من أكل البطيخ.

والبقول كلها رديئة الكيموس، لكثرة الفضل فيها وقلة الغذاء.

وأما البصل والثوم والكراث والفجل والجوز والسلجم، فرديئة لما فيها من الحرارة والحرافة، وربما زادت في الصفراء، وربما زادت في السوداء أيضاً كما ذكرت آنفاً، إلا انها إن طبخت وصب ماؤها وطبخت بماء ثان، ذهبت الحرافة والرداءة عنها.

والباذَروج[4] يسخِّن الدم ويجففه تجفيفاً شديداً.

---

(١) المطجن: المقلو في الطاجن.

(٢) الدخن: نبات عشي من النجيليات، حبه صغير املس كحب السمسم.

(٣) الهيضة: معاودة الهم والحزن او المرض.

(٤) الباذروج: بقلة تسمى الريحان الاحمر.

والكرنب[1] يولد السوداء، وكذلك جميع البقول الرديئة.

الاطعمة المتوسطة الكيموس

وهي بين ما يولد الكيموس الجيد وما يولد الكيموس الرديء. فمنها خبز الخشكار، ولحم الخصيان من المعز والضأن.

ومن الأعضاء: اللسان والامعاء والذنب.

ومن الفاكهة: العنب والبطيخ ـ والمعلق من العنب أجود ـ والتين، واليابس من الجوز، والشاه بلوط.

ومن البقول الخس، وبعده الهندبا، وبعده الخبازي، وبعده القطف والبقلة الحمقاء اليمانية، والحامض، وما لم يكن فيه حدّة كثيرة من الأصول.

الاطعمة السريعة الانهضام

إنما يسرع الانهضام لاحد وجهين: فالوجه الاول منها إذا كانت الاطعمة غير يابسة كالعدس، ولا صلبة كالترمس، ولا لزجة كالحنطة، ولا خشنة كالسمسم، ولا كريهة كالسذاب، ولا كثيرة الفضول كالأرز، ولا يغلب عليها برد شديد كاللبن الحامض، ولا حرٌّ شديد كالعسل.

والوجه الثاني لطبيعة البطن المستمرىء لها، وذلك لاحد وجهين: الاول موافقة الأغذية، ومشاكلة الأبدان الطبيعية، كالأطعمة التي يشتهيها ويلذها الإنسان؛ فقد تجد الناس يختلفون في شهواتهم، ويستمرىء كل واحد منهم ما شهْوته إليه أَميَل، وإن كان الذي لا يشتهيه احمد من الذي يشتهيه. والوجه الثاني: لمزاجٍ عارض يصادف من الاطعمة مضادة، كالذي ترى ان من غلب عليه الحر لعلة من العلل، كان للاطعمة الباردة أشد استمراء، لما يطفىء من حرارة البدن، ويعدل البدن؛ ومن غلب عليه البرد

---

(١) الكرنب: نبات يسمى في بلاد الشام «الملفوف».

استمرأ الحارّ ولم يستمرىء البارد؛ ومن رَطُبَ بدنه كله أو معدته استمرأ الأطعمة الجافة ولم يستمرىء الرطبة؛ وم عرض له اليبس خلاف ذلك.

فقد بان بما ذكرناه ان الاطعمة اللطيفة والمتوسطة في نفسها سريعة الانهضام وقد يجوز ان تكون الاطعمة الغليظة أسرعَ انهضاما في بعض الابدان أيضاً؛ فقشر الخبز المحكم، ولحم الدجاج، والفراريج، والدراج، والحجل، وكبود الاوز، واجنحتها - سريعة الهضم.

وفي الجملة الجناحُ من كل طائرَ أسرع انهضاماً من سائره، وليس في الطير كلها أسرع انهضاماً من المواشي؛ وكل ما كان من الحيوان يابساً فصغيرُه أسرعُ انهضاماً؛، وكذلك لحم العجاجيل[1] أسرع من لحم البقر، ولحم الجدي الحولي اسرع انهضاماً من لحم المسن من الماعز؛ وكل ما كان من الحيوان أرطب فكبيره من قبل أن يسن أسرع انهضاماً من صغيره؛ الا ترى ان الحولي من الضأن اسرع انهضاماً من الخروف؟ وكل ما كان مرعاه من المواضع اليابسة كان اسرع انهضاماً مما مرعاه في المواضع الرطبة؛ وكل ما كان جرمه[2] متخلخلا فهو أسرع انهضاماً مما كان جرمه متلزِّزاً، ولذلك كان الجوز أسرعَ انهضاماً من البندق، والبيض الحارّ أَمْرَأ من البيض البارد، والشراب الحلو أمرأ من العَفص[3].

الاطعمة البطيئة الانهضام

إنما يعسر الانهضام من الطبيعة في الطعام إذا كان يابساً، او صلباً، او لزجاً، او متلزِّزاً[4]، او كثير الدسم، أو كثير الفضول، أو كريه الطعم، أو الحرافةُ فيه مفرطة، او البردُ، او الحر، او مخالفاً للمزاج الطبيعي إذا لم يُشتَهَ.

(١) العجاجيل: جمع عجل، وهو ولد البقرة، ويجمع على عجول ايضا.

(٢) الجرم: يكسر الجيم، الجسد.

(٣) العفص: ما كان فيه العفوصة، وهي المرارة والقبض.

(٤) المتلزز: المجتمع الشديد.

فلحم البقر، ولحم الإبل، والكروش، والامعاء، والاوز، والآذان من جميع الحيوان، والجبن، والبيض البارد ـ عسرة الانهضام، ليبسها وصلابتها.

وكذلك من الطير: الوراشين، والفواخت[1]، والطواويس، والقوانص من جميع الطير ـ عسرة الانهضام.

ومن الحبوب: الارز، والتُّرمس، والعـدس، والدُّخـن، والجاوَرس، والبلّـوط، والشاه بلّوط.

وأما لحم التيوس وأكارع البقر، فعَسِرَة الانهضام لزهومتها[2] وكراهتها.

وأما لحم الضأن، والكبـود من جميع الحيوان، والاوز ـ فلكثرة الفضول فيها.

وأما الجبن الحامض فلبردِه.

وأما الحنطة المصلوفة فللزوجتها وتلززها.

وأما الباقلاء واللوبياء فلكثرة النفخ فيها.

وأما السمسم فلكثرة دهنه.

وأما العنب والتين وسائر الفواكه إذا لم يستحكم نضجها، والاترج والباذَورج[3]، والسلجم، والجوز، والشراب الحديث الغليظ ـ فلكثرة الفضول فيها.

الاطعمة الضارة للمعدة

السِّلق رديء للمعدة، للذعه إياها ولما فيه من الحدة البورقية.

والباذورج والسلجم ما لم يُستقص طبخها، للذعٍ فيهما.

---

(١) الفواخت: جمع الفاخته: ضرب من الحمام المطوف اذا مشى توسع في مشيه وباعد بين جناحيه وابطيه وتمايل.

(٢) الزهومة: الرائحة النتنة.

(٣) الباذروج: بقلة تسمى الريحان الاحمر.

والبقلة اليمانية والقطف، للزوجتها . فلذلك ينبغي ان يؤكلا بالخل، والمُرْي .

والحلبة رديئة للمعدة للذعها إياها .

والسمسم رديء للمعدة، للزوجته وكثرة دهنه .

واللبن لسرعة استحالته في المعدة .

والعسل ما اكثر منه لذع المعدة وغثاها .

والبطيخ أيضاً يُغثي، إذا لم ينضج في المعدة ولد كيموساً رديئاً : فينبغي بعد أكل البطيخ أن يأكل طعاماً كثيراً جيد الكيموس .

والادمغة ايضاً كلها رديئة للمعدة، فلذلك ينبغي أن تؤكل بالصعتر والفوذنج البرّي والخردل، والملح، وكذلك المخاخ .

والنبيذ الحديث الغليظ الاسود العفص يسرع الحموضة في المعدة ويُغثي .

الاطعمة التي تفسد في المعدة

المشمش، والسمسم، والتوت، والبطيخ - إذا لم يسرع انحدارها عن المعدة وصادفت كيموساً رديئاً أسرع إليها الفساد؛ فيجب ان تؤكل قبل الطعام والمعدة نقية ليسرع انحدارها عنها ويسهل الطريق لما يؤكل بعدها من الطعام، فإن أكلت بعد الطعام فسدت لبقائها في المعدة، وأفسدت سائر الطعام بفسادها، وربما بلغ الفساد بها إلى أن تصير بمنزلة السم القاتل .

الاطعمة التي لا يسرع إليها الفساد في المعدة

من كان يفسد طعامه في معدته، فأجود الاطعمة له ما كان غليظاً بطيء الانحدار مثل لحم البقر وأكارعها، وما أشبه ذلك مما ذكرناه من الاطعمة الغليظة .

الاطعمة الملينة المسهلة للبطن

كل ما كان من الاطعمة فيه حلاوة او حدّة او ملوحة أو لزوجة ؛ فمن ذلك ماء العدس وماء الكرنب، يُلينان الطبع، وجرمهما يمسك البطن؛ وكذلك مرقة الهرمة، وخبز الخشكار[1] مع العسل، وزيتون الماء إذا كان قبل الطعام مع مري - ليِّن البطن؛ فإذا كان أيضاً مع الطعام بلا مري، فإنه يقوي المعدة على دفع الطعام لعفوصته. وكذلك ما عمل بالخل منه - وكل طعام عفص فإنه دابغ للمعدة مقوٍّ لها - فأما اللبن وماء الجبن فيلينان البطن، ولا سيما إذا خلط بهما الملح.

ولحم الصغير من الحيوان، والسلق، والقطف، والبقلة اليمانية، والقرع، والبطيخ، والتين، والزبيب الحلو؛ والتوت الحلو، والجوز الرطب، والإجاص الرطب والسَّكَنْجَبِين[2]، والنبيذ الحلو - ملين للبطن.

الاطعمة التي تحبس البطن

إذا كان الطعام ينحدر عن المعدة قبل انهضامه احتجنا إلى الاطعمة الممسكة الحابسة للبطن.

وكل ما غلب عليه من الاطعمة اليبس او العفوصة او الغلظ، كالسفرجل، والكمثري، وحب الآس، وثمر العوسج، وجِرم[3] العدس، والبلّوط، والشاه بلّوط، والنبيذ العفص - يمسك البطن، لعفوصته وقبضه.

والجاورس، والدخن، وسويق الشعير - تمسك البطن بيبوستها.

ولحم الارانب، والكرنب المطبوخ بعد صب مائه الاول عنه ثم يطبخ بماء ثان - فإنه يمسك البطن ليبسه.

---

(١) الخشكار: الدقيق الخشن الذي لم ينخل.

(٢) السكنجبين: كل شراب حلو حامض، يتخذ دواء للصفراء.

(٣) جرم العدس: اي جسمه ومادته لا ماؤه.

واللبن المطبوخ، والجبن ـ كلاهما يمسك البطن لغلظه؛ وذلك ان يطبخ اللبن حتى تفنى مائيتَّه، ويبقى جرمه، وربما ولد سدداً في الكبد وحجارة في الكلى.

وأما الاشياء الحامضة، كالتفاح الحامض، والرمان الحامض ـ فإن صادفت في المعدة كيموساً غليظاً قطعته وحدرته ولينت البطن، وإن صادفت المعدة نقية امسكت البطن.

الاطعمة التي تولد السدد

اللبن الغليظ، والجبن ـ ربما احدثا سدداً في الكبد وحجارة في الكلى لمن اكثر استعمالهما وكانت كلاه وكبده مستعدة لقبول الآفات.

وجميع الاطعمة الحلوة رديئة للكبد والطحال، فإذا اكل معها الفوذنج الجبلي والصعتر، والفلفل ـ فتح سدد الكبد، والطحال.

والرطب، والتمر، وجميع ما يتخذ من الحنطة سوى الخبز الجيد المضغة، والاشربة الحلوة أيضاً ـ تولّد سدداً في الكبد، وحجارة في الكلى، وتغلظ الطحال.

الاطعمة التي تجلو المعدة وتفتح السدد

ماء الكشك، كشك الشعير، يجلو المعدة ويفتح السدد.

والحلبة، والبطيخ، والزبيب الحلو، والبقلاء، والحمص الاسود ـ ينقي الكلى ويفتت الحجارة المتولدة فيها.

والكَبَر[١] بالخل، والعسل إذا اكل قبل الطعام ـ فإنه يجلو وينقي المعدة والامعاء، ويفتح السدد.

والسلق أيضاً يجلو ويفتح السدد في الكبد، لا سيما إذا اكل بخردل.

(١) الكَبَر: نبات له شوك.

والبصل، والثوم، والكراث، والفجل - يقطع ويلطف الكيموس[١] الغليظ.

والتين، رطبه ويابسه، يجلو وينقي الكلى.

واللوز كله! ولا سيما المرّ منه - فإنه يجلو ويلطف ويفتح سدد الكبد والطحال، ويعين على نفث الرطوبة من الصدر والرئة.

والفستق يقوي الكبد، ويفتح سدد الكبد، وينقي الصدر والرئة.

والنبيذ اللطيف إذا كانت له حدة وحرافة - يصفي اللون، وينقي العروق من الكيموس الغليظ، وينتفع به من كان يجد في بدنه كيموساً غليظاً بارداً.

وأما النبيذ الرقيق فإنه يعين على نفث الرطوبة من الرئة، بتقويته الاعضاء وتلطيف ما فيها من الفضل الغليظة، وقد يفعل ذلك النبيذ الحلو.

الاطعمة التي تنفخ

الحمص، والباقلاء، ولا سيما إن طبخ بقشره، فإن طبخ مقشراً او مسحوقاً كان أقل نفخاً، وإن قلي أيـضاً كان أقل نفخاً، وبعد هذه اللوبياء، والماش، والعدس، والشعير، إذا لم ينعم طبخها.

والنَّعناع، والانُجذان، والحِلْتيت[٢]؛ والتين الرطب يولّد نفخا إلا انه ينحل سريعاً لسرعة انحداره.

وما استحكم نضجه من التين والعنب كان أقل نفخاً، ويابس التين اقل نفخاً من رطبه.

---

(١) الكيموس: خلاصة الاغذية. (٢) الحلتيت: هو صمغ الانجذان.

واللبن يولّد رياحاً في المعدة.
والعسل إذا طبخ ونزعت رغوته قل نفخه.
والنبيذ الحلو العفص يولد نفخاً.

ما يذهب النفخ من الاطعمة

كل طعام نافخ إذا احكَمتْ صنعته وأجيد طبخه وإنضاجه قل نفخه، وكل ما قلي منه قل نفخه، وكل ما خلط به الابازير المحللة للرياح، كالكمون، والسذاب والانيسون، والكاشم[1] - يقل نفخه؛ والخل الممزوج بالعسل يلطف الرياح.

كتاب إسحاق بن عمران إلى بعض اخوانه

كتب إسحاق بن عمران المعروف بسمّ ساعة إلى رجل من اخوانه:

اعلمك - رحمك الله - ان الخام والبلغم يظهران على الدم والمِرة بعد الاربعين سنة فيأكلانها، وهما عدوا الجسد وهادماه، ولا ينبغي لمن خلف الاربعين سنة ان يحرك طبيعة من طبائعه غير الخام والبلغم، ويقوّي الدم جاهداً، غير أنه ينبغي له في كل سبع سنين ان يفجر من دمه شيئاً، ومن المرة مثل ذلك، لقلة صبره على الطعام اللذيذ والمشروب الرويّ، فتعاهد اصلحك الله ذلك من نفسك، واعلم ان الصحة خير من المال والاهل والولد، ولا شيء بعد تقوى الله سبحانه وتعالى خير من العافية. ومما تأخذ به نفسك وتحفظ به صحتك، ان تلزم ما اكتب به إليك:

في شهر ينير[2]: لا تأكل السلق، واشرب شراباً شديداً كل غداة.

---

(١) الكاشم: نبت يشبه السذاب.
(٢) ينير: اي شهر كانون الثاني.

وفي شهر فبرير: لا تأكل السلق.
وفي مارس: لا تأكل الحلواء كلها وتشرب الأفسنتين[١] في الحلاوة.
وفي أبريل: لا تأكل شيئاً من الاصول التي تنبت في الأرض، ولا الفجل.
وفي مايه: لا تأكل رأس شيء من الحيوان.
وفي يونيه: تشرب الماء البارد بعد ما تطبخه وتبرده على الريق.
وفي يوليه: تجنب الوطء.
وفي أغشت: لا تأكل الحيتان.
وفي سبتمبر: تشرب اللبن البقري.
وفي أكتوبر: لا تأكل الكراث نيئاً ولا مطبوخاً.
وفي نبنبر: لا تدخل الحمام.
وفي دجنبر: لا تأكل الارانب.

زعم علماء الطب ان في الجسد من الطبائع الاربع اثني عشر رطلا فللدم منها ستة أرطال، وللمرة والسوداء والبلغم ستة أرطال، فإن غلب الدم والطبائع تغير منه الوجه وورم، وخرج ذلك إلى الجذام؛ وإن غلبت تلك الطبائع الدم أنبتت المرّة.

قال: فإذا خاف الإنسان غلبة هذه الطبائع بعضها بعضا، فليعدل جسده بالاقتصاد وينقيه بالمشي. فإنه إن لم يفعل اعتراه ما وصفناه، إما جذام وإما مِرة، نسأل الله العافية.

ولا بأس بعلاج الجسد في جميع الازمان إلا ايام السُموم، إلا أن ينزل فيها مرض شديد لا بدّ من مداواته، او يظهر فيها مُومٌ[٢]، أو ذاتُ الجنب، فإنه ينبغي للطبيب أن يعانيه[٣] بفصاد او شيء خفيف، فإنها ايام ثقيلة، وهي [من] خمسة عشر يوماً من تموز إلى النصف من آب، فذلك ثلاثون يوماً لا يصلح فيها علاج - وكان

(١) الافسنتين: نبت له ورق كالصعتر.
(٢) الموم: اشد الجدري. (٣) المعاناة: حسن السياسة.

بقراطيس يجعلها تسعة وأربعين يوماً - يقطع الغَرر والخطر في ايام القيظ، فإذا مضى لايلول ثلاثة أيام طاب التداوي كله.

وأمر جالينوس في الربيع بالحجامة، والنورة، وأكل الحلاوة وشربها؛ ونهى عن القطانيّ[1]، واللبن الرائب، وعتيق الجبن، والمالح، والفاكهة اليابسة إلا ما كان مصلوقاً....

وفي القيظ - وهو زمان المرة الحمراء - يأكل البارد الرطب على قدر قوّة الرجل في طبعه وسنه، وترك الجماع، وأكل الحوت الطري، والفاكهة الرطبة، والبقول؛ ولحم البقر والمعز؛ ومن القطاني العدس، ومن الاشربة المربب بالورد والسُّكُرْكة[2] من الشعير، والسكر بالماء المطبوخ، وأكل الكزبرة الخضراء في الاطعمة، وأكل الخيار والبطيخ، ولزوم دهن الورد وماء الورد، ورش الماء وبسط البيت بورق الشجر، ومن الدواء السكر بالمصطَكا، يسحقهما مثلا بمثل ويأخذهما على الريق قدر الدرهم أو اكثر قليلا...

وفي زمان الخريف - وهو زمان السوداء، وهو أثقل الازمنة على اهل تلك الطبيعة - من الطعام والشراب بالحار الرطب، مثل الاحساء بالحلاوة، وأكل العسل وشربه؛ ونَهى فيه عن الجماع، وأكل لحم المعز والبقر، وأمر بأكل صنوف حيوان البر والبحر، وحسو البيض، والدهن قبل الحمام، وإتيان النساء على غير شبع في آخر الليل وفي أول النهار، والتماس الولد على الريق من الرجل والمرأة فإن اولاد ذلك الزمان اشد وأقوى تركيباً، من غيرهم، كما قالت الحكماء.

الخمر المحرمة في الكتاب

اجمع الناس على إن الخمر المحرمة في الكتاب خمرُ العنب، وهي ما غلي وقَذف

---

(١) القطاني: جمع قطنية، وهي من الحبوب ما كان مثل العدس والفول والحمص واللوبيا.
(٢) السكركة: اصلها شراب الذرة.

الزبَد من عصير العنب، من غير أن تمسه نار، ولا يزال خمرا حتى يصير خلا ، وذلك إذا غلبت عليه الحموضة وفارقتها النشوة؛ لأن الخمر ليست محرَّمة العين كما حُرمت عين الخنزير، وإنما حرمت لعرَض دخَل لها ، فإذا زايلها ذلك العرَض عادت حلالا كما كانت قبل الغليان حلالا ، وعينها في كل ذلك واحدة، وإنما انتقلت أعراضها من حلاوة إلى مرارة، ومن مرارة إلى حموضة ، كما ينتقل طعم الثمرة إذا أينعت من حموضة إلى حلاوة والعين قائمة، وكما ينتقل طعم الماء بطول المكث فيتغير طعمه وريحه والعين قائمة .

ونظير الخمر فيما يحل ويحرم بعرَضَ: المسك الذي هو دم عبيط[(١)] حرام، ثم يجف ويجدد رائحة فيصير حلالا طيباً، فهذه الخمر بعينها المجمَع على تحريمها ؛ وأصحاب النبيذ إنما يدورون حولها ويتعللون أنهم يشربون ما دون المسكر، ولا لذة لهم دون موافقة المسكر كما قال الشاعر:

يدُورُون حولَ الشَّيْخِ يلتمِسونَهْ بأَشْرِبة شَتى هي الخمرُ تطلَبُ

وقول القائل:

إياكِ أَعني فاسمعي يا جارَهْ

قيل للاحنف بن قيس: أي الشراب اطيب؟ فقال: الخمر. قيل له: وكيف علمتَ ذلك وأنت لم تشربها ؟ قال: إني رأيت من أُحلت له لا يتعدّاها ، ومن حرمت عليه إنما يدور حولها!

وقال ابن شُبرمة :

ونبيذُ الزَّبيبِ، ما اشتَدَّ منه فهو للخَمرِ والطِّلاء نسيبُ[(٢)]

---

(١) دم عبيط: اي طريّ.

(٢) الطلاء: الخمر الذي يطبخ من عصير العنب.

وقال عبد الله بن القعقاع:

أتانا بها صفراءَ يزعُمُ أنَّها زبيبٌ، فصَدقْناهُ وهْوَ كذوبُ
فهل هي إلا ساعةٌ غابَ نَحْسُها أُصَلِّي لربي بعْدَها وأتوبُ

وقال ابن شبرمة: أتانا الفرزدق، فقال: آسقوني. فقلنا: وما تريد أن نسقِيَك؟ قال: أقربه إلى الثمانين. يعني حدّ الخمر.

أنواع الشراب

وقال قيصر لقس بن ساعدة: أي الاشربة أفضلُ عاقبَةً في البدن؟ قال: ما صفا في العين، واشتدّ على اللسان، وطابت رائحتُه في الانف من شراب الكرم. قيل له: فما تقول في مطبوخِه؟ فقال: مرعًى ولا كالسعدان. قيل له: فما تقول في نبيذ التمر؟ قال: ميت احيا فيه بعض المنعة، ولا يكاد يحيا من مات مرة. قيل له: فما تقول في العسل؟ قال: نِعم شرابُ الشيخ ذي الابرِدة[1] والمعدة الفاسدة.

الوليد وابن شراعة

علي بن عياش قال: إني عند الوليد بن يزيد في خلافته، إذا أُتِيَ بابن شراعة من الكوفة، فوالله ما سأله عن نفسه ولا سفره حتى قال له: يا ابن شرّاعة، إني والله ما بعثت إليك لأسألك عن كتاب الله ولا سنة رسوله. قال: فوالله لو سألتني عنهما لالفيتني فيهما حمارا! قال: وإنما أرسلتُ إليك لأسألك عن القهوة، قال: دِهقانها[2] الخبير، وطبيبها العليم! قال: فاخبرني عن الطعام؟ قال: ليس لصاحب الشراب على الطعام حكم، غير ان انفعه واشهاه أمرَؤهُ. قال: فما تقول في الشراب؟ قال: ليسألْ أمير المؤمنين عما بدا له. قال: فما تقول في الماء؟ قال: لا بد لي منه! والحمار شريكي فيه. قال: فما تقول في السّويق[3]؟ قال: شراب الحزين والمستعجل والمريض. قال:

(١) الابردة: علة من غلبة البرد والرطوبة، تفتر عن الجماع.

(٢) الدهقان: التاجر.

(٣) السويق: طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير.

فما تقول في اللبن؟ قال: ما رأيته قط الا استحييت من أمي! من طول ما أرضعتني به قال: فنبيذ التمر؟ قال: سريع الامتلاء سريع الانفشاش. قال: فنبيذ الزبيب؟ قال: جاموا به على الشراب. قال: ما تقول في الخمر؟ قال: أوَّه! تلك صديقة روحي! قال: وانت والله صديق روحي. [ثم] قال: وأيّ المجالس أحسن؟ قال: ما شرب الناس على وجه قط أحسنَ من السماء!

الرشيد والاصمعي

قال الاصمعي: دخلت على الرشيد وهو في الفرش. منغمس كما ولدته امه؛ فقال لي: يا أصمعي، من أين طرقت اليوم؟ قال: قلت: احتجمت. قال: وأي شيء اكلت عليها؟ قلت: سكباجة[1] وطباهجة[2]. قال: رميتَها بِحَجرها. [ثم] قال: هل تشرب؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين.

آسقِني حتى تَـــراني مـــائِلا   وتَرى عُمرَانَ دِيني قد خـرِبْ

قال: يا مسروق، أي شيء معك؟ قال: ألف دينار. قال: ادفعها إليه!.

آفات الخمر وخبائثها

أول ذلك انها تُذهِبُ العقل، وأفضل ما في الإنسان عقله، وتحسن القبيح وتُقبح الحسن.

قال أبو نواس:

آسقني حتى تـــــــراني   حســـن عنــدِي القَبيـــح

وقال أيضاً:

آسقني صِـــرفـــا حُمَيَّـــا   تترُك الشيـــخَ صَبيـــا

---

(١) السكباج: لحم يعالج بالخل والتوابل.

(٢) الطباهجة: ضرب من اللحم المقلي، وهو ما يسمى بالكباب.

وتُـــريــــهِ الغَـــيَّ رُشْـــداً   وتـــريـــه الرُّشْـــدَ غيـــا !

وقال أيضاً:

عُتِّقــتْ في آلــدّنِّ حــولا   فهْـــيَ في رقـــةِ ديني[1]

وقال الناطق بالحق:

تَـركـتُ النَّبيـذَ وأصحـابَـهُ   وصِرْتُ خدينـاً لمنْ عـابَـهُ[2]
شرابٌ يُضِـلُّ سبيـلَ الرشـادِ   ويفْتَـح للشَّـرِّ أبــوابــه

وإنما قيل لمشارب الرجل: نديم، من الندامة؛ لان معاقر الكأس إذا سكر تكلم بما يندم عليه؛ فقيل لمن شارَبَه: نادَمه؛ لأنه فعل مثل ما فعله، فهو نديم له؛ كما يقال: جالسه فهو جليس له؛ والمعاقر: المدمِن، كأنه لزم عُقر الشيء أي فِناءه.

وقال ابو الاسود الدؤلي:

دعِ الخمـر يشربْهـا الغُـواةُ فـإنني   رأيـتُ أخـاهـا مُغنيـاً بمكـانِهـا
فـإن لا تَكُنهـا او تكنْـهُ فـإنَّـه   أخوهـا غَـذَتْـهُ أُمُّـهُ بِلبـانِهـا[3]

أصحاب الشراب

وقد شهر اصحابُ الشراب بسوء العهد. وقلة الحِفَاظ، وأنهم صديقك ما استغنيت حتى تفتقر، وما عوفيتَ حتى تُنكب. وما غلب دنانُك حتى تُنزَف، وما رأوك بعيونهم حتى يفقدوك؛ قال الشاعر:

أرَى كلّ قومٍ يحفظون حـريمَهـمْ   وليس لاصحـابِ النَّبيــذ حــريمُ
إخاؤهُمُ مـا دارتِ الكـأسُ بينهـم   وكلُّهُــمُ رَثُّ الحِبـال سَئــوم
إذا جِئْتَهُمْ حَيَّوْكَ ألفـاً ورحَّبـوا   وإن غِبـتَ عنهـم سـاعـةً فـذميم
فهـذا بيــاني لم أَقُــلْ بجَهــالــة   ولكنَّني بـــــالفـــــاسقين عليم

(١) الدن: وعاء لشرب الخمر.   (٢) الخدين: الصديق.
(٣) اللبان: ما يرتضع الصبي من ثدي أمه.

وقال قصيّ بن كلاب لبنيه: اجتنبوا الخمر، فإنها تصلح الأبدان، وتُفسد الاذهان.

وقيل لعدي بن حاتم: مالك لا تشرب الخمر؟ قال: لا أشرب ما يَشرب عقلي!

وقيل له: مالك لا تشرب النبيذ؟ قال: معاذ الله أن أصبح حليم قومي وأُمسي سفيههم!

وقال يزيد بن الوليد: النشوة تحلُّ الحَبوة[1].

وقيل لعثمان بن عفان رضي الله عنه: ما منعك من شرب الخمر في الجاهلية ولا حرج عليك فيها؟ قال: إني رأيتُها تُذهب العقل جملة، وما رأيت شيئاً يَذهبُ جملة ويعود جملة.

وقال أيضاً: ما تغنَّيت، ولا تفتَّيت[2]، ولا شربت خمراً، ولا مسست فرجي بيدي، بعد أن خططتُ بها المفصَّل[3].

عبد العزيز بن مروان ونصيب

وقال عبد العزيز بن مروان لنُصيب بن رباح: هل لك فيما يُثمر المحادثة؟ يريد المنادمة. قال: أصلح الله الامير، الشعر مفلفل، واللون مرمْدَ، ولم أقعد إليك بكرم عنصر، ولا بحسن منظر، وإنما هو عقلي ولساني، فإن رأيتَ أن لا تفرِّق بينهما فافعل!

وربما ذهبت الكأسُ بالبيان، وغيرت الخلقة، فيعظم أنف الرجل ويحمّر ويترهَّل.

وقال جرير في الأخطل:

---

(١) الحبوة: ما يحتبى به من ثوب وغيره.

(٢) تفتى: صنع صنع الصبيان.

(٣) المفصل: بعض سور القرآن من الحجرات الى آخره.

وشِـربـتَ بعد أبي ظهير وابنِـه سَكَرَ الدّنان كأنّ انفَـك دُمـلُ[1]

شُبه بالدم في ورمه وحمرته.

وقال آخر في حماد الراوية:

نِعْمَ الفتَى لو كان يَعـرِفُ وجهَـه ويُقيمُ وقـتَ صلاتِـه حمّـادُ
هَدلتْ مَشـافـرَهُ الدِّنـان، فـأنْفُـه مثـلُ القَـدوم يَسنُّهـا الحدّاد
وآبيضّ من شرب المدامـةِ وجهُـه فبيـاضُـه يـومَ الحسـابِ سَـواد

في أمية بن عبد الله وعبد الملك

ودخل أمية بن عبد الله [بن خالد] بن أسيد على عبد الملك بن مروان وبوجهه أثر، فقال: ما هذا؟ فقال: قمتُ بالليل فأصاب البابُ وجهي! فقال عبد الملك:

رأتني صريعَ الخمرِ يوماً بسوئِهـا وللشّـاربيهـا المدْمِنيهـا مَصـارِعُ

[قال] فقلت: لا آخذ الله أمير المؤمنين بسوء ظنه! فقال! بل: آخذكَ اللهُ بسوء مصرعك!.

وقال حسان بن ثابت:

تقولُ شعثـاءُ: لـو صَحـوتَ عـنِ الـ ـكـأس لاصبحـتَ مُثْـريَ العـددِ
أُنسِي حديثُ النُّدمان في فَلَـق الصُّبْـ ـحِ وصـوتُ المسـامِـرِ الغـرد
لا أَحْـدِسُ الحدسَ الجليسِ ولا يَخشى نَـديمي إذا آنتَشَيْـتُ يـدي

وقال ابن الموصلي:

سلامٌ على سيْرِ القلاصِ مـع الرَّكْـب ووصلِ الغَواني والمُدامةِ والشّرْبِ[2]
سلامَ امـرِىءٍ لم تَبْـق منـه بقيَّـةٌ سِوى نظرِ العينيْـنِ أو شهـوةِ القلـب
لَعَمري لئن نُكبْتُ عن مَنهـلِ الصِّبـا لقـد كنـتُ ورّاداً لِمنهلِـه العـذب

---

(١) السكر: الخمر.

(٢) القلاص: جمع قلوص، وهي الناقة.

ليــاليَ أمشي بين بُـــرْدَيَّ لا هِيـــاً   أميسُ كغصنِ البانةِ الناعمِ الرَّطْــب[1]

الحسن بن زيد وابراهيم بن هرمة

ويروى أن الحسن بن زيد لما ولي المدينة قال لابـراهيم بن هَـرْمـة: لا تحسبني كمـن بـاع لك دينه رجاءَ مدحِك وخوفَ ذمِّك، فقد رزقني الله بولادةِ نبيِّه المادح وجنَّبني القبائح، وإن من حقه عليّ أن لا أُغضي على تقصير في حقّه وإني اقسم لئن أُتيت بك سكران لأضربنَّك حدين: حدَّ الخمر، وحدَّ السكر؛ ولازيدنك لموضع حرمتك بي، فليكن تركك لها لله تُعَن عليه، ولا تجعله للناس فتُوكَل إليهم، فنهض ابن هرمة وقال:

نَهانـي آبنُ الرسـولِ عـنِ المُدامِ   وأدَّبَني بـــآدابِ الكِـــرامِ
وقال ليَ آصطبِرْ عنهـا ودعْهـا   لِخـوْفِ اللهِ لا خـوْفِ الأنــام
وكيـف تَصبُّـري عنهـــا وحُبِّـــي   لها حُــبٌّ تمكَّـــن في عِظـــامـي
أَرَى طيـــبَ الحلالِ عليَّ خُبْثـــاً   وطيـبَ النفسِ في خُبْـثِ الحرام

زياد وحارثة ابن بدر

وذركروا ان حَارثة بن بدر الغداني كان فارس بني تميم، وكان قد غلب على زياد، وكان الشراب قد غلب عليه؛ فقيل لزياد: إن هذا قد غلب عليك، وهو رجل مستهتر بالشراب! فقال لهم: كيف اطِّراحي لرجل ما راكبني قط فمست ركبتي ركبته، ولا تقدمني فنظرت إلى قفاه، ولا تأخر عني فلويت إليه عنقي، ولا سألته عن شيء قط إلا وجدتُ عِلْمَه عنده!.

فلما مات زياد جفاه ولده عبيد الله بن زياد؛ قال له حارثة: أيها الامير، ما هذا الجفاء مع معرفتك بحالي عند أبي المغيرة؟ فقال له عبيد الله: إن أبا المغيرة قد برع بروعاً لا يلحقه معه عيب؛ وأنا حدث، وإنما أُنسب إلى من تغلب عليّ، وانت تُديم

(١) يميس: يتبختر ويختال.

الشراب، فدع النبيذ وكن أول داخلٍ وآخر خارج. فقال حارثة: أنا لم أدعه لله، أفأدَعُه لك؟ قال: فاختر من عملي ما شئت. قال: ولني رامَهُرْمُز؛ فإنها أرض عذية[١]، أو سُرّق؛ فإن بها شراباً وُصف لي عنها. فولاه إياها، فلما خرج شيعه الناس، وكتب إليه أنس بن أبي أنيس:

أَحارِ بن بدرٍ قد وليت ولايةً … فكن جُرْذاً فيها تخون وتَسرقُ
ولا تَحقرَنْ يا حارِ شيئاً تخونه … فحظك من مُلْكِ العراقيْن سُرَّقُ
وبارِ تميما بالغنَى إنَّ للغنى … لساناً به المرءُ الهيُوبةُ يَنطقُ[٢]
فإنّ جميع الناس إمّا مُكذَّبٌ … يقول بما يهوَى وإمّا مُصدّق
يقولون أقوالا ولا يعْلمونها … ولو قيل يوماً حققوا لم يُحقِّقوا

وقّع حارثة في أسفل كتابه: لا بَعُد عنك الرشد.

حارثة بن بدر في حرب الازارقة

ولما خرجت الازارقة على اهل البصرة، لاقاهم حارثة بن بدر وتولى حربَهم في أصحابه من فرسان بني يربوع، حتى أصيب في تلك الحروب. وقال فيه الشاعر:

فلولا ابن بدرٍ للعراقين لم يقم … لما قام فيه للعراقين إنسانُ
إذا قيل مَن حامي الحقيقة أو مأتْ … إليه مَعَدٌّ بالأكفِّ وقحطان

وقال الشاعر:

شربنا من الدَّاذِيِّ حتى كأننا … ملوكٌ لهم في كلِّ ناحيةٍ وفْرُ[٣]
فلما اعتلَت شمسُ النهار رأيتنا … تَخلّى الغنَى عنا وعاودَنا الفقر

وكان أبو الهندي من ولد شَبَث بن ربعيّ الرياحي من بني يربوع وكان قد غلب

(١) العذيّة: الطيبة البعيدة عن الماء والوخم.

(٢) الهيوبة: الذي يهاب.

(٣) الداذي: نبت حبه على شكل الشعير.

عليه الشراب على كريم منصبه، حتى كاد يبطله، وكان قد ضاف[1] على راع يسمى سالماً، فسقاه قدحا من لبن، فكرهه وقال:

سيغْنِي أبا الهنديِّ عن وطْب سالمٍ　　أبارقُ كالغزْلان بيضٌ نَحورُها
مُفدّمةً قَزًّا كأن رقابَها　　رقابُ كراكٍ أفزعتْها صُقورها[2]
فما ذرّ قرنُ الشمس حتى كأنما　　أرى قريةً حولي تُزلزل دورها

وكان عجيباً بالجواب، فجلس إليه رجل كان صُلبَ أبوه في جناية، فجعل يعرِّض له بالشراب، فقال ابو الهندي: احدهم يبصر القذى في عين أخيه ولا يبصر الجِذع المعترض في آست ابيه.

ولقيه نصر بن سيار والي خراسان وهو يميد سكراً، فقال له: أفسدْت مروءتك وشرفك! قال لو لم أُفسد مُروْتي لم تكن أنت والي خراسان!.

ومرض ابو الهندي، فلما وجد فقْد الشراب جعل يبكي ويقول:

رضيع المَدام فارقَ الراحُ رُوحَه　　فظلَّ عليها مستهلَّ المدامعِ
أدِيرا عليّ الكأس إني فقدْتُها　　كما فقد المفطومُ دَرّ المراضعِ

وكان يشرب مع قيس بن أبي الوليد الكناني، وكان أبو الوليد ناسكاً؛ فاستعدى عليه وعلى ابنه، فهرب منه، وقال فيه ابو الهندي:

قل للسَّرِيِّ آبن هند ظَلت تَواعدُنا　　ودارنا أصبحتْ من داركم صددَا
أبا الوليد أما والله لو عملَتْ　　فيك الشَّمُولُ لَما فارقتَها أبدا[3]
ولا نسيت حُمَيّاها ولذّتَها　　ولا عدَلت بها مالاً ولا ولدا[4]

وشرب أبو الهندي في غرفة مع نديم له، فاطّلع منها فإذا بميّتٍ يُزفّ به على

---

(١) اي نزل عليه ضيفاً.
(٢) الكراكي: جمع كركي: ضرب من الطير.
(٣) الشمول: رِيح الشمال والخمر.　　(٤) الحميا: سورة الكأس واخذها بالرأس.

شَرجع[1]، فالتفت إلى صاحبه فقال:

اصبُبْ على قلبك من بـرْدِهـا إنـي أرى النـاس يموتـونـا

فكان هذا القول منه [أمارة] على [عدم] اتعاظه بالموت.

وقال عبد الرحمن بن ام الحكم:

وكأس تَرى بين الأثـافِـي وبينهـا قَذى العين، قد نازعْتُ أمّ أبان[2]
ترى شـاربيهـا حين يَعبَـق ريحُهـا يميلان أحيـانـاً ويعْتـدلان
فما ظـنُّ ذا الواشِي بأروعَ مـاجـدٍ وعـذراءَ خَـود حين يلتقيـان...
دعتْني اخاهـا أمُّ عمـرو ولم أكـن اخـاهـا ولم أرضـعْ لها بلبـان
دعتْني اخاها بعـد مـا كـان بيننـا من الامـر ما لا يفعـل الاخـوان

وقال:

لا هنيئـاً بما شربـت مـريئـاً ثم قـم صـاغـراً وغيرَ كـريم
لا أحـبُّ النَّـديم يـومِـضُ بـالعيْـــن إذا ما انثنـى لعُـرسِ النـديم

المأمون وابن مسعدة

وقال ابو العباس المبرد: دخل عمرو بن مسعدة على المأمون، وبين يديه جام[3] زجاج فيه سكر طبرزذ وملح جريش؛ قال: فسلمت عليه، فردّ وعرض عليَّ الاكل، فقلت: ما أريد شيئاً هنأك الله يا أمير المؤمنين، فلقد باكرت الغداء قال: بتَّ جائعاً؟ ثم أطرق ورفع رأسه وهو يقول:

آعرض طعامَك وآبـذُلْـه لمن دخلا واعزم على من أبَى واشكر لمن أكلا
ولا تكن سابِريَّ العِـرْضِ مُحتشما من القليل فلستَ الدهـرَ محتفلا[4]

(١) الشرجع: النعش.

(٢) قذى العين: مثل في الصغر والقلة والخفاء.

(٣) الجام: اناء للطعام والشراب من فضة ونحوها.

(٤) السابري: ضرب من الثياب رقيق.

ودعا برطل، ودخل شيخ من جِلة الفقهاء فمدّ يده إليه، فقال: والله يا امير المؤمنين ما شربتُها ناشئاً، فلا تسقنيها شيخا. فردّ يده إلى عمرو بن مسعدة، فأخذها منه وقال: يا امير المؤمنين، [اللهَ! الله!] فإني عاهدت الله في الكعبة ان لا أشربها أبداً! ففكر طويلا والكأس في يد عمرو بن مسعدة. فقال:

رُدّا علـيّ الكـأس إنكمـا ... لا تعلمان الكأس مـا تُجْـدِي
لو ذقتما مـا ذقـتُ مـا آمتـزجتْ ... إلا بـدمعكما مـن الوجـدِ
خـوَّفتمـاني الله ربَّكمـا ... وكخيفتيـهِ رجـاؤه عنـدي
إنْ كنتما لا تشربـان معـي ... خوْف العقـاب شَرِبتُهـا وحـدي

المأمون وابن أكثم وابن طاهر

شرب المأمون ويحي بن أكثم وعبدالله بن ، فتغامز المأمون وعبدالله على سكر ابن يحي، فغمز الساقي، فأسكره، وكان بين أيديهم رِزم[1] من وردٍ ورياحين، فأمر المأمون فشُق له لحدٌ في الورد والرياحين، وصيروه فيه، وعمل بيتين في شعر ودعا قينة، فجلست عند رأسه وحرّكت العود وغنت:

نادَيتُـه وهْـو حـيٌّ لا حَـراك بـه ... مكفَّـنٌ في ثيـابٍ مـن ريـاحين
فقلت قم، قال رجْلِي لا تطـاوعني ... فقلت خذ، قال كفـي لا تـواتيني

فانتبه يحي لرنة العود، وقال مجيباً لها:

يـا سيّـدي وأمير النـاس كلِّهـم ... قد جار في حُكمه من كـان يَسقيني
إني غفلْتُ عـن السـاقـي فصيرَني ... كما تـراني سليـبَ العقْـل والدِّيـن
لا أستطيع نهوضاً قد وهَى جسَـدي ... ولا أُجيبُ المنـادى حين يدعـوني
فاختَر لبغْـدادَ قـاضٍ إنني رجـلٌ ... الراحُ يقتُلني والعـودُ يُحييني!

(١) الرزم: جمع رزمة، وهي الباقة.

وعود السكارى

حدثنا ابو جعفر البغدادي قال: كان بالجزيرة رجل يبيع نبيذاً في ناجودٍ[1] له وكان بيته من قصب، وكان يأتيه قوم يشربون عنده، فإذا عمل فيهم الشراب قال بعضهم لبعض: أما ترون بيت هذا النَّبّاذ من قصب! فيقول بعضهم: عليّ الآجر! ويقول الآخر: علي الجصّ! ويقول الآخر: عليّ اجرة العامل! فإذا اصبحوا لم يعملوا شيئاً. فلما طال ذلك على النبّاذ قال:

لنا بيتٌ يُهدم كلَّ يومٍ ويُصبح حين يُصبحُ جَذْمَ خُصِّ[2]
إذا ما دارت الاقداحُ قالوا غداً نبْني بآجُرّ وجِصِّ[3]
وكيف يُشيِّدُ البُنيان قومٌ يمرّون الشتاء بغير قُمص!

حارثة بن بدر وزياد

ودخل حارثة بن بدر على زياد وبوجهه أثر فقال له: ما هذا؟ قال. ركبت فرسي الاشقر فصرعني. قال: أما إنك لو ركبت الاشهب ما صرعك.

أراد حارثة بالاشقر: النبيذ! وأراد زياد بالاشهب: اللبن.

وكان قيس بن عاصم يأتيه في جاهليته تاجر خمر، فيبتاع منه، ولا يزال الخمار في جواره حتى ينفذ ما عنده؛ فشرب قيس ذات يوم فسكر سكرا قبيحاً، فجذب ابنته وتناول ثوبها، ورأى القمر فتكلم بشيء، ثم انتهب مال الخمار، وأنشأ يقول:

منْ تاجرٍ فاجرٍ جاء الالهُ به كأن لِحيتَه أذْنابُ أجمال
جاءَ الخبيثُ ببيسانيةٍ تركتْ صَحبي وأهلي بلا عَقْل ولا مال[4]

فلما صحا أُخبر بما صنع، وما قال، فآلى ان لا يذوق خمراً أبداً.

---

(١) الناجود: اناء يجعل فيه الخمر. (٢) الجذم: الأصل.
(٣) الآجر والجص: من مواد البناء.
(٤) البيسانية: الخمر المنسوبة الى بيسان.

وربما بلغت جناية الكأس إلى عقب الرجل ونجله؛ قال المأمون: يا نُطف الخمار، وترائع الظئور، وأشباه الخئولة.

وقال الشاعر:

لَمَّا رأيـتُ الحظَّ حَـظَّ الجاهـلِ ولم أرَ المغبُـون غيرَ العـاقِـلِ
رحلْتُ عيسـا مـن كـرومِ بـابِـلِ فبِتُّ مـن عَقْلي على مـراحِـلِ![1]

وقال آخر يصف السكر:

أقبلتُ مـن عِنْـد زيـادٍ كـالخرِفْ أجـرُّ رِجْلي بخطٍّ مُخْتَلِـفْ
كأنما يُكتّبان لامَ آلفْ

وقال آخر يصف السكر:

شربْنـا شَـرْبـة مـن ذاتِ عِـرْق بـأطـرافِ الزُّجـاجِ مـن العصيرِ
وأُخْـرى بـالمروَّح، ثم رُحنـا نـرى العُصْفـورَ أعظـمَ مـن بعير
كـأن الدِّيـك ديك بني تميمٍ أميرُ المؤمنينَ على السريـر
كـأنّ دجـاجَهُـم في الدّارِ رُقطـا بنـاتُ الرُّومِ في قمـص الحريـر
فبِـتُّ أرى الكـواكـبَ دانيـاتٍ يَنَلـنَ أنـامِـلَ الرَّجُـلِ القصير
أُدافعُهُـنْ بـالكفّيْـنِ عنّـي وألثُمُ لَبّـةَ القَمـرِ المنيـرِ[2]

وقال الشاعر:

دَعِ النبيذَ تكُنْ عدْلا، وإن كثرتْ فيكَ العيُوبُ، وقل ما شِئت يُحْتَملُ
هو المشيدُ بـأخبـارِ الرجـالِ؛ فما يخفى على الناسِ ما قالوا وما فعلوا
كم زلّةٍ مـن كـريم ظـلَّ يشهـرُهـا من دُونِها تستر الابـوابُ والكِلَـلُ
أضْحتْ كنارٍ على عليـاءَ مـوقـدَة مـا يستسـنُّ لها سهـلٌ ولا جبَـلُ
والعقْلُ عقل مصُونٌ لو يبـاعْ لقـد ألفيْت بياعَهْ أضعـافَ مـا سـألـوا

---

(١) يقال: رحل البعير: شد عليه الرحل.
(٢) اللبة: موضع القلادة من النحر.

فأعجبْ لقومٍ مُناهُم في عقـولِهـم ... أنْ يُذهِبوها بعَلٍّ بعـدَهْ نَهـل[1]
قد عُقدَتْ بخمارِ الكـأسِ ألسُنُهُـمْ ... عن الصـواب ولم يُصبِـح بها عِلَـل
وزُرِّرت بسنـاتِ النـوْمِ أعيُنهُـم ... كأنّ أحداقَها حُولٌ ومـا حَـولـوا
تَخالُ رائِحَهم من بعْـدِ غَـدْوتِهم ... حُبْلَـى أضرَّ بها في مشيهـا الحبَـل
فـإن تكلَّـمَ لم يقْصِـد لحاجتِـه ... وإن مَشى قلـت مجنـونٌ بـهِ خَبـلُ

وقال:

أخـو الشَّـراب ضـائـعُ الصلاةِ ... وضـائـعُ الحرمـةِ والحاجـاتِ
وحـالـهُ مـن أقبَـح الحالاتِ ... في نفْسِـه والعِـرْسِ والبنـاتِ
أُفّ لـه، أُف، إلى أُفّـاتِ ... خمسـة آلاف مُـؤلفـاتِ

من حدّ من الاشراف في الخمر وشهر بها

منهم يزيد بن معاوية، وكان يقال له: يزيد الخمور وبلغه أن مسْور بن مخرمة يرميه بشرب الخمر، فكتب إلى عامله بالمدينة ان يجلد مسوراً حدّ الخمر، ففعل؛ فقال مِسْور:

أيشربُهـا صرفـا بِطينِ دنـانها ... أبو خالدٍ ويُضرَب الحدّ مِسْورُ؟[2]

وممن حُدَّ في الشراب: الوليد بنُ عقبة بن أبي مُعَيط، أخو عثمان بن عفان لامه؛ شهد أهل الكوفة عليه انه صلى بهم الصبح ثلاث ركعات وهو سكران ثم التفت إليهم فقال: إن شئتم زدتُكم! فجلده عليٌّ بن ابي طالب بين يدي عثمان وفيه يقول الحطيئة ـ وكان نديمه أبو زيد الطائي:

شهدَ الحُطيئةُ يـومَ يلقـى ربَّـهُ ... أنّ الوليـدَ أحـقُّ بـالعـذْرِ
نـادَى وقـد تَمـتْ صلاتَهـمُ ... لِيـزيـدَهـم خيراً ولا يَـدري

---

(١) علّ، شرب ثانية، ونهل: شرب الشرب الاول.

(٢) طين الدن: اي الطين الذي يختم به وعاء الخمر.

ليزيدهم خيراً، ولو قَبلوا لجمَعْتَ بين الشَّفْعِ والوتر[1]
كَبَحُوا عِنانَك إذ جَرَيْتَ ولو تركوا عِنانكَ لم تَزلْ تَجري!

ومنهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، شرب بمصر، فحدّه هناك عمرو بن العاص سرّا؛ فلما قدم على عمر جلده حدّاً اخر علانية!.

ومنهم العباس [بن علي] بن عبد الله بن عباس، كان ممن شهر بالشراب ومنادمة الاخطل، وفيه يقول الاخطل:

ولقد غَدَوْت على التِّجَارِ بمنبِجٍ هَرَّت عواذِلُه هَريرَ الأكلَبِ[2]
لبّاس أرْدِيةِ الملوكِ يَروقه من كلِّ مُرْتَقَبٍ عيونُ الرَّبْرَبِ[3]

ومنهم قدامة بن مظعون، من اصحاب رسول الله ﷺ، جلده عمر بن الخطاب بشهادة علقمة الخصي وغيره في الشراب.

ومنهم عبدالرحمن بن عمر بن الخطاب المعروف بأبي شحمة، حدّه أبوه في الشراب وفي أمر أنكره عليه؛ [فمات تحت حدِّه]!.

ومنهم عبد الله بن عروة بن الزبير، حدّه هشام بن إسماعيل المخزومي في الشراب.

ومنهم عاصم بن عمر بن الخطاب، حدّه بعض ولاة المدينة في الشراب.

ومنهم عبد العزيز بن مروان، حده عمرو [بن سعيد] الأشدق.

وممن فضح بالشراب بلال بن أبي بردة الأشعري، وفيه يقول يحي بن نوفل الحميري:

وأمّا بلالٌ فذاك الذي يميلُ الشرابُ بهِ حيثُ مالا

---

(١) الشفع: المزدوج، والوتر: المفرد.

(٢) غدوت: ذهبت غدوة.

(٣) الربرب: القطيع من الظباء ومن البقر الوحشي والانسي.

يَبيــتُ يَمُصُّ عتيــقَ الشراب		كمصِّ الوليدِ يَخافُ الفِصالا (١)
ويُصبِـحُ مُضطـربـاً نـاعسـاً		تخالُ منَ السُّكرِ فيـه آحـولالا
ويَمشي ضعيفاً كمشْيِ النزيـفِ		تخالُ به حين يَمشي شِكـالا (٢)

وممن شهر بالشراب عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي القاضي بالكوفة، وفضح بمنادمة سعد بن هبَّار، وفيه يقول حارثة بن بدر:

نهارُهُ في قضـايـا غيرِ عـادلـةٍ		وليلُـه في هـوى سعـدِ بن هبّـارِ
ما يسمَعُ الناسُ أصواتاً لهم عَرَضت		إلا دَويًّـا، دويّ النحـلِ في الغـار
يـديـنُ أَصحـابَـه فيما يـدينُهُـم		كأساً بكـأسٍ وتَكـراراً بتكـرار
فأصبح الناسُ اطلاحا أضَـرَّ بِهـم		حث المطِيِّ وما كانـوا بسُقّـار (٣)

ومنهم أبو مِحْجن الثقفي، وكان مغرما بالشراب، وقد حده سعد بن أبي وقاص في الخمر مراراً، وشهد القادسية مع سعد، وأبلى فيها بلاء حسنا؛ وهو القائل:

إذا مِت فادفنّـي إلى ظـلِّ كـرمـةٍ		تُروِّي عظامِي بعد موتي عُـرُوقهـا
ولا تـــدفِنني في الفلاةِ، فـــإنني		أخافُ إذا مـا مـت أن لا أذوقهـا

ثم حلف بالقادسية ألا يشرب خمراً أبداً، وأنشأ يقول:

إن كانتِ الخمرُ قد عزّت وقد مُنِعـت		وحـالَ مـــن دونِهـــا الإسلامُ والحرجُ
فقـد أُبـاكـرُهـا صَهْبـاءَ صــافيــةً		طوْراً، وأشرَبُها صِـرفـاً وأمْتـزج (٤)
وقـــد تقــومُ على رأسِـــي مُغنِّيـــةٌ		فيهـا إذا رفعـت مـن صـوتِهـا غنـجُ
فتخفِضُ الصـوْتَ أحيـانـاً وتَـرْفعـه		كما يطِـــنُّ ذُبـــابُ الرَّوضــــةِ الهزِج

ومنهم عبد الملك بن مروان، وكان يسمى حمامة المسجد، لاجتهاده في العبادة قبل

---

(١) الفصال: الفطام.
(٢) الشكال: حبل تشد به قوائم الدابة.
(٣) الاطلاح: جمع طلح، وهو المعي الذي أدركه الكلال.
(٤) الصهباء: الخمر.

الخلافة؛ فلما أفضت إليه الخلافة شرب الطِّلاء[1].

وقال له سعيد بن المسيب: بلغني يا أمير المؤمنين أنك شربت بعدي الطلا ؟ فقال: إي والله، وقتلت النفس!.

ومنهم الوليد بن يزيد، ذهب به الشراب كل مذهب حتى خُلع وقتل؛ وهو القائل:

خُذوا مُلككم لاثبَّت الله مُلْككم ... ثباتا يُساوي ماحَييتُ عِقالا[2]
دَعوا لي سُلَيمى والنَّبيذَ وقيْنَةً ... وكأسا، ألا حسبي بذلك مالا
أبالمُلْكِ أرجو أن أُخلَّدَ فيكم؟ ... ألا رُبَّ مُلكٍ قد أُزيلَ فزالا

وسقى قومٌ أعرابية مسكراً، فقالت: أيشرب نساؤكم مثلَ هذا؟ قالوا: نعم. قالت: فما يدري أحدكم مَن أبوه!.

ومنهم إبراهيم بن هرمة، وكان مغرما بالشراب، وحدّه عليه جماعة من عمال المدينة، فلما الحوا عليه وضاق ذرعهُ بهم، دخل إلى المهدي بشعره الذي يقول فيه:

له لحظاتٌ عن خِفافَيْ سريرةٍ ... إذا كرّها فيها عقابٌ ونائلُ[3]
لهم تُرْبةٌ بيضاءُ من آلِ هاشمٍ ... إذا اسودَّ من لؤمِ الترابِ القبائلُ
إذا ما أتى شيئاً مَضى كالذي أتى ... وإن قال: إني فاعلٌ، فهو فاعِل

فأعجب المهدي بشعره، وقال: سل حاجتك. قال: تأمر لي بكتاب إلى عامل المدينة أن لا يحدّني على شراب! فقال له: ويلك! كيف نأمر بذلك؟ لو سألتني عزل عامل المدينة وتوليتَك مكانه لفعلت. قال: يا أمير المؤمنين لو عزلت عامل المدينة ووليتني مكانه أما كنت تعزلني أيضاً وتولي غيري؟ قال: بلى قال: فكنت أرجع إلى سيرتي الاولى [فأُحدّ] . . فقال المهدي لوزرائه: ما تقولون في حاجة ابن هرمة، وما

---

(١) الطلاء: ما يطبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه.

(٢) العقال: الحبل الذي يعقل به البعير.

(٣) العُقاب: طائر من كواسر الطير، قوي المخالب، له منقار قصير، اعقف.

عندكم [فيها] من التلطف؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، إنه يطلب ما لا سبيل إليه. إسقاط حدّ من حدود الله، قال المهدي: إن عندي له حيلة، إذا أعيتكم حيلته؛ اكتبوا إلى عامل المدينة: من اتاك بابن هرمة سكرانَ فاضرب ابن هرمة ثمانين واضرب الذي يأتيك به مائة! فكان ابن هرمة إذا مشى في أزقة المدينة، يقول: من يشترى مائة بثمانين...؟.

وكان بأمَج رجل يقال له حميد، وكان مفتونا بالخمر، فهجاه ابن عم له:

حُمَيـدُ الذي أَمَـجٌ دارُه أخو الخمرِ ذو الشّيْبةِ الأصلعُ[1]

عَلاه المشيبُ على شُربِها وكان كريما - فما يَنزِع

ودخل حميد يوماً على عمر بن عبد العزيز، فقال له: من أنت؟ قال: أنا حميد. قال: حميد الذي....؟ قال: والله يا أمير المؤمنين ما شربت مُسكراً منذ عشرين سنة، فصدّقه بعض جلسائه؛ فقال له: إنما داعبناك.

الفرق بين الخمر والنبيذ

الخمر والنبيذ

أول ذلك ان تحريم الخمر مجمعٌ عليه لا اختلاف فيه بين اثنين من الأئمة والعلماء، وتحريم النبيذ مختلَف فيه بين الاكابر من اصحاب النبي ﷺ والتابعين، حتى لقد اضطر محمد بن سيرين مع علمه وورعه أن يسأل عَبيدة السَّلماني عن النبيذ، فقال له عبيدة: اختلف علينا في النبيذ. وعَبيدة ممن أدرك أبا بكر وعمر؛ فما ظنك بشيء اختلف فيه الناس وأصحاب النبي عليه الصلاة والسلام متوافرون، فمن بين مُطلِق له ومحظر عليه، وكل واحد منهم مقيم الحجج لمذهبه والشواهد على قوله؟.

والنبيذ كل ما ينبذ في الدُّبّاءِ[2] والمزفَّت فاشتد حتى يسكر كثيره، وما لم يشتد

---

(١) الأمجّ: شدة الحرّ. (٢) الدباء: القرع.

فلا يسمى نبيذا، كما أنه ما لم يعمل من عصير العنب حتى يشتد لا يسمى خمرا، كما قال الشاعر:

نبيـذٌ إذا مَـرَّ الذُّبـابُ بـدَنِّـهِ تقطَّرَ أو خرّ الذبابُ وقِيـذَا[1]

وقيل لسفيان الثوري وقد دعا بنبيذ فشرب منه ووضعه بين يديه: يا أبا عبد الله، أتخشى الذباب أن يقع في النبيذ؟ قال: قبحه الله إن لم يذبّ عن نفسه!.

وقال حفص بن غياث: كنت عند الاعمش وبين يديه نبيذ، فاستأذن عليه قوم من طلبة الحديث، فسترتُه، فقال لي: لِمَ سترتَه؟ فكرهت أن أقول: لئلا يراه من يدخل، فقلت: كرهت أن يقع فيه الذباب. فقال لي: هيهات إنه أمنع من ذلك جانباً!.

ولو كان النبيذ هو الخمر التي حرمها الله في كتابه، ما اختلف في تحريمه اثنان من الأمة.

حدث محمد بن وضّاح قال: سألت سُحْنونا، فقلت: ما تقول فيمن حلف بطلاق زوجته أن المطبوخ من عصير العنب هو الخمر التي حرمها الله في كتابه؟ قال: بانت[2] زوجتُه منه.

وذكر ابن قتيبة في كتاب الاشربة ان الله تعالى حرّم علينا الخمر بالكتاب، والمسْكرَ بالسنة، فكان فيه فسحة؛ فما كان محرَّما بالكتاب فلا يحل منه لا قليلٌ ولا كثير، وما كان محرَّما بالسُّنة فإن فيه فسحة أو بعضِه، كالقليل من الديباج والحرير يكون في الثوب، والحرير محرّم بالسنة؛ وكالتفريط في صلاة الوتر وركعتي الفجر، وهما سنة؛ فلا نقول إن تاركها كتارك الفرائض من الظهر والعصر.

وقد استأذن عبد الرحمن بن عوف رسول الله ﷺ في لباس الحرير لبليّة كانت به.

---

(١) تقطر: صرع وسقط، والوقيظ: المضروب حتى يموت.

(٢) بانت زوجته: طُلقت.

وأذن لعرفجة بن سعد ـ وكان أُصيب أنفه يوم الكلاب ـ باتخاذ أنف من الذهب.

وقد جعل الله فيما أحلَّ عِوضاً مما حرّم، فحرّم الربا وأحل البيع، وحرم السفاح[١] وأحل النكاح، وحرم الديباج[٢] وأحل الوشْي، وحرم الخمر وأحل النبيذ غيرَ المسكر؛ والمسكر منه ما أسكرك.

مناقشة ابن قتيبة في قوله في الاشربة

قال في كتابه: فإن قال قائل: إن المنكَر هي الشربة المسكِرة، اكذبه النظر؛ لان القدح الاخير إنما أسكَر بالاول، وكذلك اللقمة الاخيرة إنما اشبعتْ بالاولى. ومن قال السكر حرام، قال: فإنما ذلك مجاز من القول، وإنما يريد: ما يكون منه السكرُ حرامٌ، وكذلك التخمة حرام.

وهذا الشاهد الذي استشهد به في تحريمه قليلَ ما أسكر كثيرُه، وتشبيهه ذلك بالتخمة ـ شاهدٌ عليه لا شاهد له؛ لأن الناس مجمعون على أن قليل الطعام الذي تكون منه التخمة، حلال؛ وأن التخمة حرام؛ وكذلك ينبغي ان يكون قليل النبيذ الذي يُسكر كثيره حلالا، وكثيرُه حراما، وأن الشربة الاخيرة المسكِرة هي المحرّمة.

ومثل الاربعة أقداح التي يُسكر منها القدحُ الرابع، مثل أربعة رجال اجتمعوا على رجل، فشجّه احدهم مُوضِحة[٣]، ثم شجه الثاني منقلة[٤]، ثم شجه الثالث مأمومة[٥]، ثم أقبل الرابع فأجهز عليه؛ فلا نقول إن الاول، هو قاتله، ولا الثاني، ولا الثالث، وإنما قتله الرابع الذي اجهز عليه وعليه القَوَد[٦].

---

(١) السفاح: الزنا والفجور.

(٢) الديباج: ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير.

(٣) الموضحة: التي توضح عن العظم.

(٤) المنقلة: التي تنقل العظم.

(٥) المأمومة: التي تبلغ أم الدماغ. (٦) القَوَد: القصاص.

وذكر ابن قتيبة في كتابه: بعد ان ذكر اختلاف الناس في النبيذ وما أدلى به كل قوم من الحجة، فقال: وأعدلُ القول عندي ان تحريم الخمر بالكتاب، وتحريم النبيذ بالسنة. وكراهية ما تغيّر وخدَّر من الاشربة تأديب...

ثم زعم في هذا الكتاب بعينه أن الخمر نوعان: فنوع منهما أُجْمع على تحريمه: وهو خمرُ العنب من غير ان تمسه نار، لا يحل منه لا قليل ولا كثير؛ ونوع آخر مختلَف فيه، وهو نبيذ الزبيب إذا اشتد، ونبيذ التمر إذا صلب، ولا يسمى سَكراً إلا نبيذ التمر خاصة.

وقال بعض الناس: نبيذ التمر حلِ وليس بخمر واحتجوا بقول عمر: فما انتزع بالماء فهو حلال، وما انتزع بغير الماء فهو حرام.

قال ابن قتيبة: وقال آخرون: هو خمر حرام كله. وهذا هو القول عندي؛ لأنَ تحريم الخمر نزل وجمهور ا لناس مختلفة، وكلها يقع عليها هذا الإسم في ذلك الوقت.

خمور البلاد

وذكر ان ابا موسى قال: خمر المدينة من البسر والتمر، وخمر اهل فارس من العنب، وخمر اهل اليمن من البِتْع، وهو نبيذ العسل؛ وخمر الحبشة السكركة وهي من الذرة؛ وخمر التمر يقال له: البتع، والفضيخ.

مم يصنع الخمر

وذكر ان عمر قال: الخمر من خمسة أشياء: من البر، والشعير، والتمْر، والزبيب. والعسل. والخمر ما خامر العقل. ولأهل اليمن أيضاً شراب من الشعير يقال له المِزْر. ويزعم ههنا ابن قتيبة ان هذه الاشربة كلها خمر، وقال: هذا هو القول عندي. وقد تقدم له في صدر الكتاب ان النبيذ لا يسمى نبيذاً حتى يشتدّ ويُسكر كثيره، كما أن

عصير العنب لا يسمى خمراً حتى يشتد. وان صدر هذه الامة والائمة في الدين لم يختلفوا في شيء كاختلافهم في النبيذ وكيفيته...

ثم قال فيما حَكم بين الفريقين: أما الذين ذهبوا إلى تحريمه كلِّه ولم يفرقوا بين الخمر وبين نبيذ التمر، وبين ما طبخ وبين ما أُنقع، فإنهم غلوا في القول جداً، ونحلوا قوما من أصحاب رسول الله ﷺ وسلم البَدريِّين، وقوماً من خيار التابعين، وائمةً من السلف المتقدمين، شرب الخمر، وزيَّنوا ذلك بأن قالوا: شربوها على التأويل وغلطوا في ذلك، فاتهموا نظرهم ونحلوهم الخطأ، وبرّءُوا أنفسهم منه.

فعجبت منه كيف يعيب هذا المذهب، ثم يتقلده، ويطعن على قائله ثم يقول به! إلا اني نظرت إلى كتابه، فرأيته قد طال جداً. فاحسبه أُنسي في آخره ما ذهب اليه في أوله؛ والقول الاول من قوله هو المذهب الصحيح الذي تأنس إليه القلوب وتقبله العقول، لا قوله الآخر الذي غلط فيه!.

احتجاج المحرمين لقليل النبيذ وكثيره

ذهبوا اجمعون إلى ان ما اسكر كثيره من الشراب فقليله حرام كتحريم الخمر وقال بعضهم: بل هو الخمر بعينها، ولم يفرقوا بين ما طبخ وبين أُنقع، وقضوا عليه كله أنه حرام؛ وذهبوا من الاثر إلى حديث رواه عبد الله بن قتيبة عن محمد بن خالد ابن خداش عن ابيه عن حماد بن زيد عن أيوب عن نافع عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «كل مسكر حرام، وكل مسكر خمر». وحديث رواه ابن قتيبة عن إسحاق بن راهَويه عن المعتمر بن سليمان عن ميمون بن مهدي عن أبي عثمان الانصاري عن القاسم عن عائشة: ان النبي ﷺ قال: «كل مسكر حرام، وما أسكر منه الفَرق فالحسْوة منه حرام».

والفرق ستة عشر رطلاً. وللعرب أربعة مكاييل مشهورة: أصغرها المُدّ وهو رطل وثلث في قول الحجازيين، ورطلان في قول العراقيين. وكان النبي ﷺ يتوضأ بالمدّ.

والصاع: وهو أربعة أمداد، خمسة أرطال وثلث في قول الحجازيين، وثمانية أرطال في قول العراقيين. وكان رسول الله ﷺ يغتسل بالصاع.

والقِسْط: وهو رطلان وثلثان في قول الناس جميعاً.

والفَرَق: وهو ستة عشر رطلاً، ستة أقساط في قول الناس أجمعين.

... وذهبوا إلى حديث رواه ابن قتيبة عن محمد بن عبيد عن ابن عيينة عن الزهري عن أبي سلمة عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «كل شراب أسكر فهو حرام». مع أشياء كهذا من الحديث، يطول الكتاب باستقصائها إلا أن هذه أغلظها في التحريم وأبعدها من حيلة المتأوّل.

قالوا: والشاهد على ذلك من النظر، أن الخمر إنما حرِّمت لإسكارها وجناياتِها على شاربها، ولأنها رجس كما قال الله.

ثم ذكروا من جنايات الخمر ما قد ذكرناه في صدر كتابنا هذا من آفات الخمر وجناياتها، ثم قالوا: والعلة التي لها حُرمت الخمر من الإسكار والصداع والصد عن ذكر الله وعن الصلاة، قائمة بعينها في النبيذ كلّه المسكر، فسبيله سبيل الخمر، لا فرق بينهما في الدليل الواضح والقياس الصحيح؛ كما أن حديث النبي ﷺ في الفأرة إذا وقعت في السمن: أنه إن كان جامداً أُلقيت وألقي ما حولها، وإن كان جارياً أريق السمن؛ فحملت العلماء الزيت ونحوه محمل السمن بالدليل الصحيح.

وعلمت أن النبي ﷺ لم يقصد إلى السمن خاصة بنجس الفأرة، وإنما سئل عن الفأرة تقع في السمن فأفتى فيه، فقاس العلماء الزيت وغيره بالسمن...

... وكما أمر بالاستنجاء بثلاثة أحجار للتنقية من الأذى، فأجازوا كل ما أنقى من الخزف والخرق وغير ذلك، وحملوه محمل الأحجار الثلاثة، ولما حرمت الخمر بعلّة هي قائمة في النبيذ المسكر، حُمل النبيذ محمل الخمر في التحريم.

قالوا: ووجدناهم يقولون لمن غلب عليه غَنثُ[١] النفس وصداع الرأس من الخمر: مخمور، وبه خُمَار، ويقال مثل ذلك في شارب النبيذ، ولا يقولون: منبوذ ولا به نُباذ. والخمار مأخوذ من الخمر، كما يقال الكبَاد في وجع الكبد، والصدار في وجع الصدر.

... وذهبوا في تحريم النبيذ إلى حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: أنه نهى أن ينبذ في الدباء والمزفَّت[٢].

... وقالوا: لمن أجاز قليل ما أسكر كثيره: إنه ليس بين شارب المسكر وموافقة السكر حد يُنتهى إليه ولا يوقَف عنده، ولا يعلم شارب المسكر متى يسكر، كما لا يعلم الناس متى يرقد؛ وقد يشرب الرجل من الشراب المسكر قدحين وثلاثة أقداح ولا يسكر، ويشرب منه غيره قدحاً واحداً فيسكر؛ لأنه قد يختلف طبع الرجل في نفسه، فيسكر مرة من القدحين، ويشرب مرة أخرى ثلاثة أقداح فلا يسكر.

رسالة عمر بن عبد العزيز إلى أهل الأمصار
في الأنبذة

«أما بعد فإن الناس كان منهم في هذا الشراب المحرّم أمر ساءت فيه رِعَة[٣] كثير منهم، [وجَمعوا مما يغشون به مما حرم الله حراماً كثيراً نهوا عنه] عند سَفَه أحلامِهم، وذهاب عقولهم، فاستُحلّ به الدم الحرام، والفرْجُ الحرام؛ وأن رجالاً

---

(١) غنثت نفسه: مالت الى القيء.

(٢) الدباء: القرع. (٣) رعة: الحرج والتوقيّ عن المحارم.

منهم ممن يصيب ذلك الشراب يقولون: شربنا طِلاء، فلا بأس علينا في شربه! ولعمري فيما قرّب مما حرّم الله بأساً، وإن في الأشربة التي أحل الله، ومن العسل والسويق، والنبيذ والتمر، لمندوحة عن الأشربة الحرام، غير أن كل ما كان من نبيذ العسل والتمر والزبيب فلا ينبذ إلا في أسقية الأدم التي لازفت فيها، ولا يشرب منها ما يُسكر! فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ نهى عن شرب ما جُعل في الجِرار والدُّباء والظروف المزفتة، وقال: «كل مسكر حرام»؛ فاستغنوا بما أحلّ لكم عما حرّم عليكم؛ وقد أردت بالذي نَهيت عنه من شرب الخمر وما ضارع الخمر من الطلاء، وما جعل في الدباء والجرار والظروف المزفتة، وكل مسكر ـ اتخاذ الحجة عليكم؛ فمن يُطع منكم فهو خير له، ومن يخالف إلى ما نهى عنه نعاقبه على العلانية، ويكفينا الله ما أسرَّ، فإنه على كل شيء رقيب؛ ومن استخفى بذلك عنا فإن الله أشد بأساً وأشد تنكيلاً!».

احتجاج المحلين للنبيذ كله

قال المحلّون لكل ما أسكر كثيره من النبيذ: إنما حُرّمت الخمر بعينها، خمر العنب خاصة، بالكتاب، وهي معقولة مفهومة، لا يمتري[1] فيها أحد من المسلمين، وإنما حرمها الله تعبُّداً، لا لعلة الإسكار كما ذكرتم، ولا لأنها رجس كما زعمتم؛ ولو كان ذلك كذلك لما أحلها الله للأنبياء المتقدمين، والأمم السالفين، ولا شربها نوح بعد خروجه من السفينة، ولا عيسى ليلة رفع، ولا شربها أصحاب محمد ﷺ في صدر الإسلام.

وأما قولكم إنها رجس، فقد صدقتم في اللفظ وغلطتم في المعنى؛ إذا كنتم أردتم أنها منتنة؛ فإن الخمر ليست منتنة، ولا قذرة ولا وصَفَها أحد بنتن ولا قذر وإنما جعلها الله رجساً بالتحريم، كما جعل الزنا فاحشة ومقتا[2]، أي معصية وإثماً

(١) يمتري: يجمع الميرة: وهي الطعام يجمع للسفر ونحوه.

(٢) المقت: البغض الشديد.

بالتحريم؛ وإنما هو جماع كجماع النكاح، وهو عن تراض وبذْل، كما أن النكاح عن تراض وبذل؛ وقد يبذل في السفاح ما لا يبذل في النكاح؛ ولذلك سمَّى الله تبارك وتعالى المحرّمات كلها خبائث فقال تعالى: ﴿ويُحرِّمُ عليهِم الخبائث﴾[1]؛ وسمى المحلّلات كلها طيبات، فقال: ﴿يسألونكَ ماذا أُحلّ لهم قل أُحلّ لكم الطَّيِّبات﴾[2]؛ وسمى كل ما جاوز أمره أو قصر عنه سَرَفا، وإن اقتصد فيه.

وقد ذَكر الخمر فيما امتنَّ به على عباده قبل تحريمها. فقال تعالى: ﴿ومن ثمرَاتِ النّخيلِ والأعنْابِ تتَّخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً﴾[3]. ولو أنها رجس على ما تأولتم ما جعلها الله في جنته وسماها لذة للشاربين. وإن قلتم إن خمر الجنة ليست كخمر الدنيا، لأن الله نفى عنها عيوب خمر الدنيا فقال تعالى: ﴿لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنزَفون﴾[4]، فكذلك قوله في فاكهة الجنة: ﴿لا مقْطوعَةٍ ولا ممنوعة﴾[5]. فنفى عنها عيوب فواكه الدنيا، لأنها تأتي في وقت وتنقطع في وقت، ولأنها ممنوعة إلا بالثمن، ولها آفات كثيرة، وليس في فواكه الجنة آفة.

وما سمعنا أحداً وصف الخمر إلا بضد ما ذكرتم، من طيب النسيم، وذكاء الرائحة. وقال الأخطل:

كأنها المسكُ نُهْبَى بين أَرحُلِنا   وقد تضَوَّع من ناجُودِها الجارِي[6]

وقال آخر:

فتنفَّسَت في البيت إذ مُزِجت   كتنفُّس الرَّيْحان في الأنف

وقال أبو نواس:

نحن نُخفيها فيأبى   طِيبُ ريحٍ فتفوحُ

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٧.   (٢) سورة المائدة الآية ٤.
(٣) سورة النحل الآية ٦٧.   (٤) سورة الواقعة الآية ١٩.
(٥) سورة الواقعة الآية ٣٣.
(٦) النهبى: اسم ما ينهب، والناجود، اول ما يخرج من الخمر اذا شق دنها

... وإنما قوله فيها رجْسٌ، كقوله تعالى: ﴿وأمّا الذين في قلوبِهم مرضٌ فزادَتْهم رِجْساً إلى رجسِهِم﴾ [١] أي كفراً إلى كفرهم.

وأما منافعها التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿يسْألونكَ عن الخمْرِ والميْسِرِ قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناس وإثمهُما من نفعِهما﴾ [٢] فإنها كثيرة لا تحصى: فمنها أنها تدرّ الدم، وتقوّي المعدة، وتصفي اللون، وتبعث النشاط، وتفتق اللسان، ما أُخذ منها بقدر الحاجة ولم يجاوز المقدار، فإذا جاوز ذلك عاد نفعها ضرراً.

وقال ابن قتيبة في كتاب الأشربة: كانت بنو وائل تقول: الخمر حبيبة الروح، ولذلك اشتق لها اسم من الروح، فسميت راحا، وربما سميت روحا. وقال إبراهيم النظام:

ما زلتُ آخُذ رُوحَ الدَّنِّ في لَطَفٍ   وأستبيحُ دماً من غير مذبوحِ [٣]
حتى انثنيتُ ولي رُوحانِ في جَسدي   والدَّنُّ مُطَّرَحٌ، جسمٌ بلا روح

وقد تسمى دماً، لأنها تزيد في الدم؛ قال مسلم بن الوليد الأنصاري:

مَزَجْنا دماً من كَرْمةٍ بدمائنا   فأظهرَ في الألوان منّا الدمَ الدمُ

قال ابن قتيبة: وحدّثني الرياشي أن عبيداً راوية الأعشى قال: سألت الأعشى عن قوله:

وسُلافةٍ مما تعتّق بابلٌ   كدم الذبيحِ سلبْتها جِرْيالَها [٤]

فقال: شربتها حمراء، وبُلتها بيضاء. يريد أن حمرتها صارت دماً.

ومن منافع الخمر أنها تزيد في القوّة، وتولد الحرارة، وتَهيج الأنفة، وتسخّي البخيل، وتشجع الجبان.

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٥.   (٢) سورة البقرة الآية ٢١٩.
(٣) روح الدنّ: الخمر.   (٤) الجريال: لون الخمر.

قال حسان بن ثابت:

ونشْربُها فتتْركنا مُلوكا وأُسْداً ما يُنهْنهُنا اللقاءُ[١]

وقال طرفة:

وإذا ما شربُوها وانتشوْا وهَبوا كلَّ أمُون وطِمرّ[٢]
ثم راحُو عَبق المِسكِ بهم يلْحفون الأرضَ هُدّابَ الأُزُرْ

وقال مسلم بن الوليد:

تصدّ بنفْس الخمر عما يغمُّه وتُنطق بالمعروف ألسنة البخلِ[٣]

وقال الحسن بن هانيء:

إذا ما أتتْ دون اللّهاةِ من الفتَى دعا همّه من صدره برحيلِ

ومن تسخيتها للبخيل المجبول قول بعض المحدثين:

كساني قميصاً مرتين إذا انتشى وينزعُه عني إذا كان صاحيا
فلي فرحةٌ في سُكره بقميصه وفي الصحْو روْعات تُشيب النواصيا[٤]
فيا ليت حظّي من سروري وتَرْحتي ومن جُوده ألاَّ عليَّ ولا ليا[٥]

قالوا: ولولا أن الله تعالى حرّم الخمر في كتابه لكانت سيدة الأشربة؛ وما ظنك بشرابٍ الشربة الثانية منه أطيب من الأولى، والثالثة أطيب من الثانية، حتى يؤدّيك إلى أرفق الأشياء وهو النوم؛ وكل شراب سواها فالشربة الأولى أطيب من الثانية، والثانية أطيب من الثالثة، حتى تمله وتكرهه!

---

(١) نهنه فلاناً عن الشيء: كفّه عن وزجره.

(٢) الأمون: الناقة الوثيقة الخلق التي يؤمن عثارها. والطمر الجواد المتوثب.

(٣) اي تحمل على الجواد.

(٤) النواصيا: جمع ناصية، وهي شعر مقدم الرأس اذا طال.

(٥) الترح: الحزن.

وسقى قوم أعرابياً كئوساً، ثم قالوا: كيف تجدُك؟ قال: أجدني أُسَرّ، وأجدكم تُحبّبون إليّ.

وقالوا: ما حرّم الله شيئاً إلا عوّضنا ما هو خيرٌ منه أو مثله، وقد جعل الله النبيذ عوضاً من الخمر، نأخذ منه ما يطيب النفس، ويُصفي اللون، ويهضم الطعام، ولا نبلغ منه إلى ما يُذهب العقل، ويصدع الرأس، ويُغثي النفس، ويشرك الخمر في آفاتها وعظيم خبائثها.

قالوا: وأما قولكم إن الخمر كلّ ما خمر، والنبيذ كله يخمّر فهو خمر، فإن الأسماء قد تتشاكل في بعض المعاني، فتسمى ببعضها لعلة فيها وهي في آخر، ولا يُطلَق ذلك الاسم على الآخر؛ ألا ترى أن اللبن قد يخمرونه بروبة تُلقى فيه، ولا يسمى خمراً؟ وأن العجين قد يخمر فيسمى خميراً ولا يسمى خمراً؟ وأن نقيع التمر يسمى سكراً لإسكاره، ولا يسمى غيره من النبيذ سكراً وإن كان مسكراً؟ وهذا أكثر في كلام العرب من أن يُحاط به؛ وقد رأيت اللبن يسكر إسكار كسكر النبيذ، ويقال: قوم ملبونون وقوم رَوْبَى، إذا شربوا الرائب فسكروا منه؛ وقال بشر بن أبي حازم:

فأما تميمٌ تميمُ بن مُرٍّ فألفاهُمُ القومُ رَوْبَى نِياما

وأما قولكم: الرجل مخمور، وبه خمار، إذا أصابه صداع من الخمر؛ وقد يقال مثل ذلك لمن أصابه صداع من النبيذ، فيقال: به خمار، ولا يقال به نُباذ؛ فإن حجتنا في ذلك أن الخمار إنما يكون مما أسكر من النبيذ، وذلك حرام، لا فرق بينه وبين الخمر عندنا، فيقال فيه: ما يقال في الخمر، وإنما كان شَرَبَة[1] النبيذ من أسلافنا يشربون منه اليسير على الغداء والعشاء، ومما لا يعرض منه خمار.

وقد فرقت الشعراء بين النبيذ والخمر، فقال الأقيشر، وكان مغرماً بالشراب:

وصهباءَ جُرجانيةٍ لم يَطُفْ بها حنيفٌ، ولم تنْغَر بها ساعةً قِدْرُ[2]

---

(١) شربة: جمع شارب. (٢) نغرت القدر: غلت.

أتـاني بها يَحْيي وقـد نِمـتُ نـومـةً   وقد غارتِ الشِّعرى وقد خَفقَ النَّسر[1]
فقلتُ اصطبِحْها أو لغيري فـأهْـدِهـا   فما أنا بعـدَ الشَّيْـبِ ويلَـكَ والخمـر!
إذا المرْءُ وافـى الأربَعينَ ولم يكُـن   لـه دُون مـا يـأتي حيـاءٌ ولا سِتر
فـدَعْـهُ ولا تنْكِـر عليـه الذي أتـى   وإن جَـرَّ أرسـانَ الحيـاةِ لـه الدهْـرُ

فأعلمك أن الخمر هي التي لم تغلِ بها القدور.

أدعياء النسك:

وأما قول بعض الشعراء في شاربي النبيذ وما عابوهم به من قلة الوفاء ونقض العهد، فقد قالوا أقبح من ذلك في تارك النبيذ، قال حيص بيص:

ألا لا يَغـرنْـكَ ذو سجـدَةٍ   يَظَـلُّ بها دائماً يَخْـدَعُ
[كـأن بجبهتـه حليـة   يسبِّـح طـوراً ويسترجـعُ]
ومـا للتُّقـى لَـزِمَـتْ وجْهـهُ   ولكـنْ ليـأتِـيَ مُستـوْدِعُ
ثلاثون ألفا حَـواهـا السُّجـودُ   فليسـت إلى ربِّهـا تـرجـع
وردَّ أخو الكـأسِ مـا عنْـدَه   ومـا كنـتُ في ردِّهِ أطمَـع

وقال آخر:

أمّا النَّبيـذ فلا يـذعَـرْك شـاربُـه   واحفـظ ثيـابـكَ ممن يشرب الماءَ
قـومٌ يـورُّونَ عما في نفـوسِهِـمُ   حتى إذا استمكنوا كانوا هُـمُ الدّاءَ
مُشمِّـريـن إلى أنصـافِ سُـوقِهِـمُ   هُمُ الذِّئابُ وقـد يُـدْعـوْنَ قـرّاءَ

وقال أعرابيّ:

صلّى فأزعجَني وصامَ فـراعَني   نحِّ القَلوصَ عن المُصلِّي الصائِم!

وقال:

شمِّـر ثيـابَـكَ واستَعِـدَّ لقـائـلٍ   واحكُكْ جَبينَـكَ للقضـاء بِثـومِ

(١) الشِّعرى: كوكب نيّر يطلع عند شدة الحر.

وامْشِ الدبيبَ إذا مشَيتَ لحاجةٍ حتى تُصيبَ وديعةً لِيتيم[١]

وقال بعض الظرفاء:

أظْهروا والله سَمْتاً وعلى المنقوش داروا[٢]
وله صلَّوْا وصاموا وله حجُّوا وزاروا
لو يُرى فوقَ الثّريّا ولهم ريشٌ لطاروا!

فهؤلاء المراءون بأعمالهم، العاملون للناس والتاركون للناس، هم شرار الخلق وأراذل البرية.

وقد فضل شَرَبَةُ النبيذ عليهم بإرسال الأنفس على السجية، وإظهار المروءة ولست أصف بهذا منهم إلا ديناً، فليس في الناس صنف إلا ولهم حشو.

ومن احتجاج المحلين للنبيذ

ما رواه مالك بن أنس في موطئه من حديث أبي سعيد الخدري: أنه قدم من سفر فقدّم إليه لحم من لحوم الأضاحي، فقال: ألم يكن رسول الله ﷺ نهاكم عن هذا بعد ثلاثة أيام؟ فقالوا: قد كان بعدك من رسول الله ﷺ فيها أمر. فخرج إلى الناس فسألهم، فأخبروه أن رسول الله قال: « كنت نهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاثة أيام، فكلوا وادّخروا وتصدقوا؛ وكنت نهيتكم عن الانتباذ في الدباء والمزفّت، فانتبذوا وكل مسكر حرام؛ وكنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها ولا تقولوا هُجرا ». والحديثان صحيحان، رواهما مالك بن أنس وأثبتهما في موطئه، وإنما هو ناسخ ومنسوخ؛ وإنما كان نهيه أن يُنتبذ في الدباء والمزفت، نهيا عن النبيذ الشديد؛ لأن الأشربة فيهما تشتد؛ ولا معنى للدباء والمزفت غير هذا. وقوله بعد هذا: « كنت نهيتكم عن الانتباذ فانتبذوا، وكل مسكر حرام » - إباحة لما كان حظر عليهم من النبيذ الشديد. وقوله ﷺ: « كل مسكر حرام »، ينهاكم بذلك أن تشربوا حتى

---

(١) الدبيب: المشي البطيء. (٢) السمت: السكينة والوقار.

تسكروا، وإنما المسكر ما أسكرك، ولا يُسمى القليل الذي لا يُسكر مُسكراً، ولو كان ما يسكر كثيره يسمى قليله مسكراً، ما أباح لنا منه شيئاً: والدليل على ذلك أن النبي ﷺ شرب من سقاية العباس، فوجده شديداً، فقطب بين حاجبيه، ثم دعا بذَنوب[١] من ماء زمزم فصب عليه، ثم قال: إذا اغتلمت[٢] أشربتكم فاكسروها بالماء. ولو كان حراماً لأراقه، ولما صب عليه ماء ثم شربه.

وقالوا في قول رسول الله ﷺ: «كل مسكر خمر»: هو ما أسكر الفرقُ[٣] منه فملء الكف حرام؛ فإن هذا كله منسوخ، نسخه شربه للصُّلب[٤] يوم حجة الوداع.

قالوا: ومن الدليل على ذلك أنه كان ينهى وفد عبد القيس عن شرب المسكر فوفدوا إليه بعد، فرآهم مصفرةً ألوانهم، سيئة حالهم؛ فسألهم عن قصتهم، فأعلموه أنه كان لهم شراب فيه قوام أبدانهم فمنعهم من ذلك؛ فأذن لهم في شربه.

... وأن ابن مسعود قال: شهدنا التحريم وشهدتم، وشهدنا التحليل وغبتم. وأنه كان يشرب الصُّلب من النبيذ التمر، حتى كثرت الروايات به عنه وشُهرت وأذيعت، وأتبعه عامة التابعين من الكوفيين وجعلوه أعظم حُجَجِهم، وقال في ذلك شاعرهم:

مَن ذا يُحرِّمُ ماءَ المُزْنِ خالطَهُ ... في جوفِ خابيةٍ ماءُ العناقيدِ؟[٥]
إني لأكرهُ تشديدَ الرواةِ لنا ... فيه، ويعجبني قَولُ ابنِ مسعود!

وإنما أراد أنهم كانوا يعمدون إلى الرُّب الذي ذهب ثلثاه وبقي ثلثه، فيزيدون عليه من الماء قدرَ ما ذهب منه، ثم يتركونه حتى يغلي ويسكن جأشه، ثم يشربونه.

وكان عمر يشرب على طعامه الصلب، ويقول: يقطع هذا اللحمَ في بطوننا.

واحتجوا بحديث زيد بن أخزم عن أبي داود عن شعبة عن مسعر بن كدام عن ابن

---

(١) الذَّنوب: الدلو العظيمة.

(٢) اغتلمت: جاوزت حدها الذي لا يسكر الى حدها الذي يسكر.

(٣) الفرق: مكيال ضخم. (٤) الصلب: الذي اشتد.

(٥) المزن: السحاب يحمل الماء.

عون الثقفي عن عبدالله بن شداد عن ابن عباس أنه قال: حُرمت الخمر بعينها والسكر من كلِّ شراب.

وبحديث رواه عبدالرحمن بن سليمان عن يزيد بن أبي زياد عن عكرمة عن ابن عباس: أن النبي ﷺ طاف وهو شاكٍ[1] على بعير ومعه محجن[2]، فلما مر بالحجر استلمه بالمحجن، حتى إذا انقضى طوافه نزل فصلى ركعتين ثم أتى السقاية[3] فقال: اسقوني من هذا. فقال له العباس: ألا نسقيك مما يصنع في البيوت؟ قال: لا، ولكن اسقوني مما يشرب الناس. فأُتي بقدح من نبيذ فذاقه، فقطّب، وقال: هلمُّوا فصبُّوا فيه الماء. ثم قال: زد فيه، مرة أو مرتين أو ثلاثا. ثم قال: إذا صنع أحد بكم هذا فاصنعوا به هكذا.

والحديث رواه يحي بن اليمان عن الثوري عن منصور بن خالد عن سعيد عن ابن مسعود الأنصاري: أنّ النبي ﷺ عطش وهو يطوف بالبيت، فأُتي بنبيذ من السقاية، فشمّه، فقطب، ثم دعا بذنوب من ماء زمزم، فصُبّ عليه ثم شربه، فقال له رجل: أحرام هذا يا رسول الله؟ فقال: لا.

وقال الشعبي: شرب أعرابي من إداوة عمر[4]، فانتشى، فحدّه عمر؛ وإنما حدّه للسكر لا للشراب.

ودخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قوم يشربون ويوقدون في الأخصاص؛ فقال: نهيتكم عن معاقرة الشراب فعاقرتم، وعن الإيقاد في الأخصاص[5] فأوقدتم.

وهمّ بتأديبهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، نهاك الله عن التجسس فتجسست،

---

(١) يقال شك الدابة: أي لزق عضده بجنبيها فعرجت.

(٢) المحجن: كل معوج الرأس كالصولجان.

(٣) السقاية: هي ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء.

(٤) الإداوة: إناء صغير يحمل فيه الماء.

(٥) الاخصاص: جمع خص، وهو بيت من قصب.

ونهاك عن الدخول بغير إذن فدخلت!

فقال: هاتان بهاتين.

وانصرف وهو يقول: كل الناس أَفقَهُ منك يا عمر!

وإنما نهاهم عن المعاقرة وعن إدمان الشراب حتى يسكروا، ولم ينههم عن الشراب - وأصل المعاقرة من عُقْر الحوض، وهو مقام الشاربة - ولو كان عنده ما شربوا خمراً لحدّهم.

وبلغه عن عامل له بميسان أنه قال:

ألا أبلِـغِ الحسنـاءَ أن حليلَهـا ... بمَيْسان يُسقَى في زجاجٍ وحَنتَمِ[1]

إذا شئـتُ غنتني دهـاقِينُ قـريـةٍ ... وصنّـاجـةٌ تشـدْو على كـلِّ منسم

فإن كنتَ ندماني فبـالأكبر اسقِني ... ولا تَسْقِنـي بـالأصغـر المُتثلِّـم[2]

لعـلّ أميرَ المؤمنين يسـوءُه ... تنـادمُنـا في الجوسْـق المتهـدِّم

فقال: إي والله، إنه ليسوءني ذلك!

فعزله وقال: والله لا عَمِلَ لي عملا أبداً! وإنما أنكر عليه المدام، وشُربَه بالكبير، والصنج، والرقص، وشُغلَه باللهو عما فوّض إليه من أمور الرعية، ولو كان ما شَرب عنده خمراً لحدَّه.

مالك بن دينار والنبيذ

محمد بن وضاح عن سعيد بن نصر عن يسار عن جعفر قال: سمعت مالك بن دينار، وسُئل عن النبيذ: أحرام هو؟ فقال: انظرْ ثمنَ التمر من أين هو، ولا تسأل عن النبيذ أحلال هو أم حرام!

وعوتب سعيد بن زيد في النبيذ، فقال: أما أنا فلا أدعه حتى يكون شرَّ عملي.

وقيل لمحمد بن واسع: أتشرب النبيذ؟

---

(١) الحنتم: الجرة الخضراء.

(٢) المثلم: الذي صار فيه ثلمة.

فقال: نعم.

فقيل: وكيف تشربه؟

فقال: عند غذائي وعشائي، وعند ظمَئي.

قيل: فما تركتَ منه؟

قال: التّكأة[1] ومحادثة الإخوان.

وقال المأمون: اشرب النبيذ ما استبشعته، فإذا سهل عليك فدْعه.

وإنما أراد أنه يَسهل على شاربه إذا أخذ في الإسكار.

وقيل لسعيد بن أسلم: أتشرب النبيذ؟

فقال: لا.

قيل: ولِمَ؟

قال: تركت كثيره لله، وقليله للناس!

وكان سفيان الثوري يشرب النبيذ الصلب الذي تحمرّ منه وجنتاه.

واحتجوا من جهة النظر، أن الأشياء كلها حلال إلا ما حرّم الله؛ قالوا: فلا نزيل نفس الحلال بالاختلاف ولو كان المحلّلون فرقة من الناس، فكيف وهم أكثر الفرق؟

وأهل الكوفة أجمعون على التحليل، لا يختلفون فيه، وتلوا قول الله عز وجل: ﴿قلْ أَرأَيتم ما أنزل الله لكم من رزقٍ فجعَلتم منه حراماً وحلالاً، قلْ آلله أذن لكم أم على اللهِ تفتَرونَ؟﴾ [2].

قول وكيع

حدث إسحاق بن راهويه قال: سمعت وكيعاً يقول: النبيذ أحلُّ من الماء!

وعابه بعض الناس في ذلك، وقالوا: كيف يكون أحلَّ من الماء، وهو وإن كان حلالا فهو بمنزلة الماء؟

---

(١) التكأة: الطعام. (٢) سورة يونس الآية ٥٩.

وليس على وكيع في هذا الموضع عيب ولا يرجع عليه فيه كذب! لأن كلمته خرجت مخرج كلام العرب في مبالغتهم، كما يقولون، هو أشهر من الصبح، وأسرع من البرق، وأبعد من النجم، وأحلى من العسل، وأحرّ من النار.

ابن إدريس الكوفي

ولم يكن أحد من الكوفيين يحرّم النبيذ غير عبدالله بن إدريس، وكان بذلك مَعيبا.

وقيل لابن إدريس: مَن خيار أهل الكوفة؟

فقال: هؤلاء الذين يشربون النبيذ!

قيل: وكيف وهم يشربون ما يَحرمُ عندك؟

قال: ذلك مبلغهم من العلم.

وكان ابن المبارك يكره شرب النبيذ ويخالف فيه رأي المشايخ وأهل البصرة.

وقال أبو بكر بن عياش: [قلت له]: من أين جئت بهذا القول في كراهيتك النبيذَ ومخالفتِك أهلَ بلدك؟

قال: هو شيء اخترتُه لنفسي.

قلت: فتعيب مَن شربه؟

قال: لا.

قلت: أنت وما اخترت.

وكان عبدالله بن داود يقول: ما هو عندي وماء الفرات إلا سواء.

وكان يقول: أكره إدارة القدح، وأكره نقبع الزبيب، وأكره المعتّق.

قال: ومن أدار القدحَ لم تجُزْ شهادته.

وشهد رجل عند سوّار القاضي، فردّ شهادته لأنه كان يشرب النبيذ؛ فقال:

أمَّا الشرابُ فإني غير تاركِه ولا شهادةَ لي ما عاش سوّارُ

حدث شبابة قال: حدثني غسان بن أبي صباح الكوفي عن أبي سلمة يحيى بن دينار عن أبي المظهر الورّاق قال: بينما زيد بن علـيّ في بعض أزقّة الكوفة: إذ مرّ به رجل من الشيعة، فدعاه إلى منزله، وأحضر طعاماً؛ فتسامعت به الشيعة، فدخلوا عليه حتى غَص المجلس بهم، فأكلوا معه، ثم استسقى، فقيل له: أيّ الشراب نَسْقيك يا بنَ رسول الله؟

قال: أصلبَه وأشدَّه.

فأتوْه بعسّ من نبيذ، فشرب وأدار العس عليهم فشربوا؛ ثم قالوا: يا بن رسول الله، لو حدثتنا في هذا النبيذ بحديث رويتَه عن أبيك عن جدِّك؛ فإن العلماء يختلفون فيه!

قال: نعم حدثني أبي عن جدي أنّ النبي ﷺ قال: لتركبنّ طبقة بني إسرائيل حَذْوَ القُذّة[1] بالقُذّة والنعل بالنعل. ألا وإنّ الله ابتلى بني إسرائيل بنهر طالوت، أحل منه الغُرفة والغرفتين وحرّم منه الريّ؛ وقد ابتلاكم بهذا النبيذ، أحلّ منه القليل وحرّم منه الكثير.

وكان أهل الكوفة يسمون النبيذ: نهر طالوت؛ وقال فيه شاعرهم:

أشرب على طرَبٍ من نهر طالـوتِ — حمراءَ صـافيـةً في لـون يـاقـوتِ
من كفِّ ساحـرة العينين شـاطـرةٍ — تُرْبِي على سحر هاروتٍ وماروت[2]
لها تَهاويـــتُ ألحاظٍ إذا نظـــرتْ — فنارُ قلبك مـن تلـك التّهاويـت[3]

حديث الحارث بن كلدة طبيب العرب مع كسرى أنوشروان الفارسي

رُوي أن الحارث بن كلدة الثقفي وفد على كسرى أنوشروان، فأذن له بالدخول،

(١) القذة: واحدة القذذ: ريش السهم.

(٢) هاروت وماروت: ملكان هبطا ببابل فعلما الناس السحر.

(٣) ماوت صاحبه: أي صابره وثابته.

فانتصب بين يديه، فقال له كسرى: من أنت؟ قال: أنا الحارث بن كلدة. قال: أعربيّ؟ قال: نعم، من صميمها. قال: فما صناعتك؟ قال: طبيب. قال: وما تصنع العرب بالطبيب مع جهلها، وضعف عقولها، وقلة قبولها، وسوء غذائها، فقال: ذلك أجدر أيها الملك، إذا كانت بهذه الصفة، أن تحتاج إله ما يُصْلح جهلَها، ويقيم عِوَجَها، ويسوس أبدانها، ويعدل أمشاجها[1]؛ [فإن العاقل يعرف ذلك من نفسه]. قال الملك: وكيف لها بأن نعرف ما تُورِده عليها، ولو عرفت الحق لم تنسب إلى الجهل. قال: الحارث: أيها الملك، إن الله جل اسمه قسم العقول بين العباد كما قسم الأرزاق، وأخذ القوم نصيبهم؛ ففيهم ما في الناس من جاهل وعالم، وعاجز وحازم. قال الملك: فما الذي يُحمد من أخلاقهم، ويُحفظ من مذاهبهم؟ قال الحارث: لهم أنفسٌ سخية، وقلوب جريّة، وعقول صحية مرضيَّة، وأحساب نقية، يمرق الكلام من أفواههم مروق السهم العائر[2]، ألين من الماء، وأعذب من الهواء؛ يطعِمون الطعام، ويضربون الهام، وعزُّهم لا يرام، وجارهم لا يضام، ولا يُروَّع إذا نام؛ لا يُقِرُّون بفضل أحد من الأقوام، ما خلا الملك الهمام، الذي لا يقاس به أحد من الأنام! قال: فاستوى كسرى جالساً. ثم التفت إلى من حوله فقال: أطرى قومه، فلولا أن تداركه عقله لذمّ قومه، غير أني أراه ذا عَمًى. ثم أذن له بالجلوس. فقال: كيف بصرَك بالطب؟ قال: ناهيك! قال: فما أصل الطب؟ قال: ضبط الشفتين، والرفق باليدين. قال: أصبت، فما الداء الدوي[3]؟ قال: إدخال الطعام على الطعام، هو الذي أفنى البرية، وقتَل السباع في البريَّة. قال: أصبت. فما الجمرة التي تلهَّب منها الأدواء؟ قال: هي التخمة، إن بقيت في الجوف قتلتْ، وإن تحللت أسقمتْ. قال: فما تقول في إخراج الدم؟ قال: في نقصان الهلال، في يوم صحوٍ لا غيم فيه، والنفس طيبة، والسرور حاضر. قال: فما تقول في الحمّام؟ قال: لا تدخل الحمام شبعان، ولا تغش

---

(١) الأمشاج: اخلاط البدن من الدم والبلغم.

(٢) السهم العائر: الذي لا يدرى من رماه.

(٣) الداء الدويّ: المرض الشديد.

أهلك سكران، ولا تنم بالليل عريان، وارفق بجسمك يكن أرجى لنسلك. قال: فما تقول في شرب الدواء؟ قال: اجتنب الدواء ما لزمتْك الصحة، فإذا أحسست بحركة الداء فاحسمه بما يردعه؛ فإن البدن بمنزلة الأرض، إن أصلحتها عمرت، وإن فسدتها خربت. قال: فما تقول في الشراب؟ قال: أطيبه أهناه، وأرقُّه أمراه؛ ولا تشرب صِرفا يورثك صداعا، ويثير عليك من الداء أنواعا. قال: فأي اللّحمان أحمد؟ قال: الضأن الفتّي، أسمنه وأبذله، واجتنب أكل القديد والمالح، والمعز والبقر. قال: فما تقول في الفاكهة. قال: كلها في إقبال دولتها واتركها إذا أدبرت وولت وانقضى زمانها؛ وأفضل الفاكهة الرمان والأترجّ، وأفضل البقول الهندبا والخس، وأفضل الرياحين الورد والبنفسج. قال: فما تقول في شرب الماء؟ قال: هو حياة البدن، وبه قوته، وينفع ما شُرب منه بقدَر، وشربه بعد النوم ضَرر. وأفضل المياه مياه الأنهار العظام، أبرده وأصفاه. قال: فما طعمه؟ قال: شيء لا يوصف و[هو] مشتق من الحياة. قال: فما لونه؟ قال: اشتبه على الأبصار لونه، يحكي لون كل شيء يكون فيه. قال: فأخبِرْني عن أصل الإنسان ما هو؟ قال: أصله من حيث يشرب الماء. يعني رأسه. قال: فما هو النور تُبصَر به الأشياء؟ قال: العين مركبة من [ثلاثة] أشياء، فالبياض شحمة، والسواد مائع، [والناظر ريح]. قال: فعلى كم طُبع هذا البدن؟ قال: أربع طبائع: على المرة السوداء، وهي باردة يابسة؛ والمرة الصفراء، وهي حارة يابسة؛ والدم، وهو حار رطب؛ والبلغم، وهو بارد رطب قال: فلم لم يكن من طبع واحد؟ قال: لو خلق من شيء واحد لم ينحل ولم يمرض ولم يمت. قال: فمن طبعين ما حال الاقتصار عليهما؟ قال: لم يجز، لأنهما ضدان يقتتلان؛ ولذلك لم يجز من ثلاثة: موافقَين ومخالف. قال: فأجمل إلي الحارّ والبارد في أحرفٍ جامعة. قال: كل حلو حار وكل حامض بارد، وكل حرّيف حار، وكل مر معتدل، وفي المرّ حار وبارد. قال: فما أفضل ما عولج به المرة السوداء. قال: بكل حار لين. قال: فالمرة الصفراء؟ قال: كل بارد ليّن: فالبلغم؟ قال: كل حار يابس. قال: فالدم؟ قال: إخراجه إذا زاد، وتطفئته إذا سخن بالأشياء الباردة. قال: فالرياح؟ قال: بالحقن اللينة

والأدهان الحارّة اللينة . قال: أفتأمر بالحقن؟ قال: نعم، قرأت في بعض الكتب أن الحقنة تنقي الجوف وتكسح الأدواء عنه؛ وعجبت لمن احتقن كيف يهرم أو يعدم الولد! وإن الجاهل كان الجاهل من أكل ما قد عرف مضرته، فيؤثر شهوته على راحة بدنه . قال: فما الحِمية؟ قال: الاقتصاد في كل شيء، فإنه إذا أكل فوق المقدار ضيَّق على الروح ساحته. قال: فما تقول في إتيان النساء؟ قال: كثرة غشيانهن رديء؛ [وإياك] وإتيان المرأة المولية[1] ، فإنها كالشن[2] البالي، تُسْقم بدنك وتَجذِب قوّتك؛ ماؤها سم قاتل، ونفسها موت عاجل، تأخذ منك ولا تعطيك؛ وعليك بإتيان الشباب: فإن الشابة ماؤها عذبٌ زلال، ومعانقتها غنج ودلال، فُوها بارد، [وريقها عذب]، وريحها طيب، ورحمها حرِج[3] تزيدك قوّة [إلى قوتك] ونشاطا [إلى نشاطك] . قال: فأي النساء القلب لها أبسَط، والعين برؤيتها آنس؟ قال: إن أصبتها مديدة القامة عظيمة الهامة، واسعة الجبين، عريضة الصدر، مليحة النحر، ناهدة الثديين، لطيفة الخصر والقدمين، بيضاء فرعاء، جعدة غضة، تخالها في الظلمة بدراً زاهراً تبسم عن أقحوان باهر، وإن تكشف تكشف عن بيضة مكنونة، وإن تعانق تعانق ما هو ألين من الزبد، وأحلى من الشهد، وأبرد من القند[4]، وأعظم من الفردوس والخلد، وأذكى ريحا من الياسمين والورد. قال: فاستضحك كسرى حتى اختلجت كتفاه. قال: فأي الأوقات [إتيانهن] أفضل؟ قال: عند إدبار الليل يكون الجوف أخلى، والنفس أشهى والرحم أدفى. قال: فأي الأوقات ألذ وأطرب؟ قال: نهارا، يزيدك النظر انتشاراً! قال كسرى لله درك من عربيّ، لقد أُعطِيت علما، وخُصِصْت بُه من بين الحمقى، وفطنة وفهما! ثم أمر بإعطائه وصلته، وقضى حوائجه.

ابن أبي الحواري وصالح العباسي

وحضر ابن أبي الحواري بالشام ـ وكان معروفاً بالرقائق والزهد ـ مائدة صالح

---

(١) المولية: التي أدبر شبابها.

(٢) الشن: القربة الصغيرة يكون الماء فيها ابرد من غيرها.

(٣) الحرج: الضيق. (٤) القند: عسل قصب السكر اذا جمد.

العباس مع فقهاء البلد، فحدثني البحتري عن عبادة، وكان ممن حضر المجلس أنه بُعث إليه بقدح نبيذ فشربه، ثم بعث إليه بثان فامتنع من شربه! فأخذه الناس بألسنتهم، وقالوا: شربت المسكر على أخونة هؤلاء وصرت لهم حجة! قال: حسبكم! أردتم أن أكون ممن قال الله تعالى: فيهم ﴿يستَخْفون من الناسِ ولا يستَخْفون من اللهِ وهُوَ معهم﴾ (١)! فكيف أدعه لكم وأشربه بعين الله!

. بين قاض وشارب نبيذ

وقال بعض القضاة لرجل كان يعذله: بلغني أنك تشرب المسكر! فقال: ما أشرب المسكر ولكني أشرب النبيذ الصلب.

ألوان من التزهد

فأين هؤلاء في ترك الرياء والتصنع، من رجل سُرقت نعله فلم يشتر نعلا حتى مات، وعوتب في ذلك فقال: أخشى أن أشتري نعلا فيسرقها أحدٌ فيأثم!

وآخر لما نظر أهل عرفات قال: ما أظن الله إلا قد غفر لهم لولا أني كنت فيهم!

وآخر أمر له عمر بن الخطاب بكيس، فقال: آخذ الكيس والخيط؟ فقال عمر: دع الكيس!

ورجل سأل ابن المبارك فقال إني قاسمت إخوتي، وبيننا مُبْرَزٌ غير مقسوم وفيَّ بطر(٢) أفترى لي أن أدخله أكثر مما يدخله شركائي؟

وآخر قال: أفطرت البارحة على رغيف وزيتونة ونصف، أو زيتونة وثلث أو زيتونة وربع، أو ما علم الله من زيتونة أخرى! فقال له بعض من حضر: أجلس يا فتى، إنه بلغنا أن من الورع ما يبغضه الله، وأظنه ورعك هذا!

---

(١) سورة النساء الآية ١٠٨ . (٢) البطر: النشاط.

الأعمش قال: أتاني عبدالله بن سعيد بن أبي بكر فقال لي: ألا تعجب؟ جاءني رجل فقال: دلني على شيء إذا أكلته أمرضني، فقد استبطأت العلة وأحببت أن أعتل فأوجَر! فقلت له: سل الله العافية، واستدم النعمة، فإن من شكر على النعمة كمن صبر على البلية. فألح عليّ، فقلت له: كل السمك، واشرب نبيذ الزبيب، ونم في الشمس، واستمرض اللهَ يمرضك إن شاء الله!

هارون بن داود قال شرب رجل عند خمار نصراني، فأصبح ميتاً؛ فاجتمع عليه الناس وقالوا للخمار: أنت قتلته! قال: لا والله، ولكن قتله استعمالُه قوله:

وأُخرى تداويْتُ منها بها

***

كتاب اللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، تغمده الله برحمته: قد مضى قولنا في الطعام والشراب وما يتولد منهما، وينسب إليهما.

ونحن قائلون بما ألّفناه في كتابنا هذا من الفكاهات والمُلح التي هي نزهة النفس، وربيع القلب، ومرتع السمع، ومجلب الراحة، ومعدن السرور.

قال النبي ﷺ: «رَوِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كَلَّتْ عَمِيَتْ».

وقال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه: أَجِمُوا[1] هذه القلوب، والتمسوا لها طُرف الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان، والنفس مؤثرة للهوى، آخذة بالهوينى، جانحة إلى اللهو، أمارة بالسوء، مستوطنة للعجز، طالبة للراحة، نافرة عن العمل، فإن أكرهتها أنضيتها[2]، وإنْ أهملتها أردَيْتها.

ودخل عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز على أبيه وهو ينام نومة الضحى فقال: يا أبت! أتنام وأصحاب الحوائج واقفون ببابك؟ قال: يا بنيّ، إن نفسي مطيتي، فإن أنضيتها قطعتها، ومن قطع المطيّ لم يبلغ الغاية!

---

(١) أجموا : أريحوا.

(٢) الانضاء: الابلاء والاخلاق.

أخبار في الضحك

وكان النبي ﷺ يضحك حتى تبدو نواجذه[١] .

وكان محمد بن سيرين يضحك حتى يسيل لعابه .

وقال ﷺ : « لا خير فيمن لا يَطرَب » .

وقال : « كل كريم طروب » .

وقال هشام بن عبدالملك : قد أكلت الحلو والحامض حتى ما أجد لواحد منها طعماً ، وشممت الطيِّب حتى ما أجد له رائحة ، وأتيت النساء حتى ما أبالي امرأةً أتيتُ أم حائطاً ؛ فما وجدت شيئاً ألذ من جليس يسقط بيني وبينه مئونة التحفظ .

وقيل لعمرو بن العاص : ما ألذّ الأشياء ؟ قال : ليخرجْ مَن هاهنا من الأحداث . فخرجوا ، فقال : ألذّ الأشياء إسقاطُ المروءة !

وقيل لمسلمة بن عبدالملك : ما ألذ الأشياء ؟ فقال : هتكُ الحيا ، واتّباع الهوى . وهذه المنزلة من أعمال النفس وهتكِ الحياة قبيحة ، كما أن المنزلة الأخرى من الغلو في الدِّين والتعسف في الهيبة قبيحة أيضاً ؛ وإنما المحمود منها التوسط ، وأن يكون لهذا موضعه ولهذا موضعه .

وقال مطوف بن عبدالله لولده : يا بنيّ ، إن الحسنة بين السيئتين ـ يريد بين المجاوزة والتقصير ـ وخيرُ الأمور أوساطُها ، وشرُّ السير الحقحقة[٢] .

وقال النبي ﷺ : « أن هذا الدينَ متين فأوغل فيه برفق ، فإن المنبَتَّ[٣] لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى » .

خبر بعض الحواريين

وفي بعض الكتب المترجمة : أن يوحنا وشمعون كانا من الحواريّين ، وكانا يوحنا

---

(١) النواجذ : ناجذ ، وهو الضرس .

(٢) الحقحقة : شدة السير .   (٢) المنبت : الذي أتعب دابته حتى عطبت .

لا يجلس مجلساً إلا ضحك وأضحكَ من حوله، وكان شمعون لا يجلس مجلساً إلا بكى وأبكى من حوله؛ فقال شمعون ليوحنا: ما أكثرَ ضحكك! كأنك قد فَرَغت من عملك! فقال له يوحنا: ما أكثرَ بُكاءَك! كأنك قد يئستَ من ربك! فأوحى الله إلى المسيح: إن أحبَّ السيرتين إليَّ سيرةُ يوحنا.

المسيح ويحي بن زكريا

وفي بعض الكتب أيضاً: أن عيسى ابن مريم لقى يحي بن زكريا عليهم الصلاة والسلام، فتبسم إليه يحي، فقال له عيسى: إنك لتبسم تبسم آمن! فقال له يحي: إنك لتعبس عبوس قانط! فأوحى الله إلى عيسى: إن الذي يفعل يحي أحبُّ إليّ.

وقال النبي ﷺ: يدخل نُعَيمان الجنة ضاحكاً، لأنه كان يَضحكني. وذلك أن النبي ﷺ دخل عليه وهو أرمد فوجده يأكل تمراً، فقال له: أتأكل تمراً وأنت أرمد؟ فقال: إنما آكلُ من الجانب الآخر! فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه.

وكانت سويداء[1] لبعض الأنصار تختلف إلى عائشة فتلعب بين يديها وتضحكها، وربما دخل النبي ﷺ على عائشة فيجدها عندها فيضحكان جميعاً؛ ثم إن النبي ﷺ فقدها، فقال: يا عائشة، ما فعلت السويداء قالت له: إنها مريضة! فجاءها النبي ﷺ يعودها، فوجدها في الموت! فقال لأهلها: إذا توفيتْ فآذنوني. فلما توفيتْ آذنوه، فشهدها وصلى عليها وقال: اللهم إنها حريصة على أن تُضحكني، فأضْحِكْها فرَحاً.

الأصمعي وأبو عبيدة

وقيل لأبي نُواس: قد بعثوا إلى أبي عبيدة والأصمعي ليجمعوا بينهما. فقال: أما أبو عبيدة فإن خَلوه وسِفْرَه قرأ عليهم أساطير الأولين والآخرين، وأما الأصمعي فبلبل في قفص يُطْرِبُهُمْ بصفيره.

---

(١) السويداء: تصغير السوداء.

قال ابن إسحق: وقد طرب الصالحون وضحكوا ومزحوا. وإن مدحت العربُ رجلا قالوا: هو ضَحُوك السن، بَسَّام الثنيات، هش إلى الضيف فإذا ذَمَّتْه قالوا: هو عبوس الوجه، جَهم المحيّا، كريه المنظر، حامض الدجنة، كأنما وجهه بالخل منضوج، كأنما أُسعط[1] خيشومه بالخردل.

وكتب يحي بن خالد إلى الفضل ابنه وهو بخراسان: يا بنيَّ، لا تُغْفِل نصيبَك من الكسل!

وهذا جزء جامع لكل ما قصدنا إليه من هذا المعنى، لأن بالكسل تكون الراحة، وبالراحة يكون مُثابُ[2] النشاط، وبالنشاط يصفو الذهن، ويصدق الحس، ويكثر الصواب. قال الشاعر:

إنما لِلنَّاسِ مِنَّا حُسنُ خُلْق ومزاح
ولنا ما كان فِينا مِنْ فسادٍ وصَلاح

ملح هشام بن عروة

الهيثم بن عديّ قال: رأيت هشام بن عروة قد اجتمع إليه أصحاب الحديث يسألونه، فقال لهم: يا قوم، أما ما كان عندي من الحلال والحرام والسنَّة فإني لا أستحلّ أن أمنعكموه، وأما مُلَحي فلا أعطيكموها ولا كرامة.

باب من المفاكهات

حديث عباس بن الأحنف

حدث أبو العباس محمد بن يزيد المبرد قال: حدثنا محمد بن عامر الحنفي، وكان من سادات بكر بن وائل، وأدركتُه شيخاً كبيراً مملقاً، وكان إذا أفاد على إملاقه[3] شيئاً

(١) أسعط بالخردل، أدخل في أنفه.

(٢) مثاب النشاط: رجوعه.

(٣) الإملاق: الافتقار.

جاد به، وقد كان قديماً ولي شرطة البصرة، فحدثني هذا الحديث الذي أذكره، ووقع إليّ من غير ناحيته، ولا أذكر ما بينهما من الزيادة والنقصان، إلا أن معاني الحديث مجموعة فيما أذكر لك:

ذَكر أن فتيانا كانوا مجتمعين في نظام واحد، كلهم ابن نعمة، وكلهم قد شَرَدَ عن أهله وقنع بأصحابه، فذكر ذاكرٌ منهم قال:

كنا قد اكترينا[١] داراً شارعة على أحد طرق بغداد المعمورة بالناس، وكنا نُفْلِس أحياناً ونُوسر أحياناً، على مقدار ما يمكن الواحدَ من أهله، وكنا لا ننكر أن تقع مئونتُنا على واحد منا إذا أمكنه، ويبقى الواحد منا لا يقدر على شيء، فيقوم به أصحابُه الدهرَ الأطول، وكنا إذا أيسرنا أكلنا من الطعام أليَنَه، ودعونا المُلْهِينَ والملهيات، وكان جلوسنا في أسفل الدار، فإذا عدمنا الطربَ جلسنا في غرفة لنا نتمتع منها بالنظر إلى الناس؛ وكنا لا نَخلّ بالنبيذ في عسر ولا يسر؛ فإنا لَكذلك يوماً إذا بفتى يستأذن علينا، فقلنا له: اصعد. فإذا رجل نظيف، حلو الوجه، سريّ الهيئة، ينيء روَاؤه[٢] على أنه من أبناء النعم؛ فأقبل علينا فقال: إني سمعت مجتمَعَكم، وحُسْنَ منادمتكم! وصحة ألفتكم، حتى كأنكم أدرجتم جميعاً في قالب واحد: فأحببت أن أكون واحداً منكم فلا تحتشموا.

قال: وصادف ذلك منا إقتاراً من القوت؛ وكثرة من النبيذ، وقد كان قال لغلام له: أول ما يأذنون لي أن أكون كأحدهم، هات ما عندك. فغاب الغلام عنا غير كثير، ثم أتانا بسلّة خيزران، فيها طعام المطبخ، من جدي، ودجاج، وفراخ، ورقاق[٣]، وأشنان، ومحلب[٤]، وأخلة[٥]؛ فأصبنا من ذلك، ثم أفضْنا في شرابنا.

---

(١) اكترى داراً: استأجرها.

(٢) الرواء الذي ينظر في الشيء ويتعقبه ولا يعجل بجواب.

(٣) الرقاق: الخبز المنبسط الرقيق.

(٤) المحلب: شجر له حبّ يجعل في الطيب.

(٥) الاخلة: جمع خلال: وهو ما تخلل به الاسنان.

وانبسط الرجل، فإذا هو أحلى خلق الله إذا حدّث، وأحسنهم استماعاً إذا حُدِّث، وأمسكهُم عن ملاحاةٍ إذا خولف؛ ثم أفضينا منه إلى أكرمِ مخالقة، وأجمل مساعدة؛ وكنا ربما امتحناه بأن ندعوه إلى الشيء الذي نعلم أنه يكرهه، فيُظهر لنا أنه لا يحب غيره، ويُرى ذلك في إشراق وجهه؛ فكنا نَغني به عن حسن الغناء، ونتدارس أخباره وآدابه؛ فشغلنا ذلك عن تعرُّف اسمه ونسبه، فلم يكن منا إلا تعرّف الكنية، فإنا سألناه عنها فقال: أبو الفضل.

فقال لنا يوماً بعد اتصال الأنس: ألا أخبركم بِمَ عرفتكم؟ قلنا: إنا لنحب ذلك. قال: أحببت جارية في جواركم، وكانت سيدتها ذات حبائب(1)؛ فكنت أجلس لها في الطريق ألتمس اجتيازها، فأراها؛ حتى أخلقّني الجلوس على الطريق ورأيت غرفتكم هذه، فسألت عن خبرها، فخُبرت عن ائتلافكم وتمالئكم، ومساعدة بعضكم بعضاً؛ فكان الدخول فيما أنتم فيه أسرّ عندي من الجارية. فسألناه عنها فخبرها، فقلنا له: نحن نختدعها حتى نظْفِرَك بها! فقال: يا إخواني، إني والله على ما تَرْونَ مني من شدة الشغف والكلف بها، ما قدّرت فيها حراما قط ولا تقديري إلا مطاولتها ومصابرتها إلى أن يَمُنَّ الله بثروة فأشتريها!

فأقام معنا شهرين، ونحن على غاية الاغتباط بقربه، والسرور بصحبته، إلى أن اختلُس منا، فنالنا بفراقه ثكلٌ مُمضّ، ولوعة مؤلمة، ولم نعرف له منزلا نلتمسه فيه؛ فكدر علينا من العيش ما كان طاب لنا به، وقُبح عندنا ما كان حسن بقربه، وجعلنا لا نرى سروراً ولا غمّاً إلا ما ذكرناه، لاتصال السرور بصحبته وحضوره، والغمِّ بمفارقته؛ فكنا فيه كما قال الشاعر:

يُذكِّرنيهم كلُّ خير رأيتُهُ　　　وشرّ، فما أنفكّ منهم على ذكر

فغاب عنا زهاء عشرين يوماً، فبينما نحن مجتازون يوماً من الرصافة، إذا به قد طلع في موكب نبيل، وزيٍّ جليل، فلما بُصر بنا انحط عن دابته وانحط غِلمانه، ثم

(١) حبائب: جمع حبيبة.

قال: يا إخواني، والله ما هَنَأني عيش بعدكم، ولست أُماطلُكم بخبري حتى آتى المنزل، ولكن ميلوا بنا إلى المسجد. فملنا معه، فقال: أُعرِّفكم أولا بنفسي، أنا العباس بن الأحنف؛ وكان من خبري بعدكم أني خرجت إلى منزلي من عندكم؛ فإذا المسوِّدة محيطة بي، فمُضِيَ بي إلى دار أمير المؤمنين، فصرت إلى يحي بن خالد، فقال لي: ويحك يا عباس! إنما اخترتك من ظرفاء الشعراء، لقرب مأخذك، وحُسن تأتِّيك! وإن الذي ندبتك له من شأنك؛ وقد عرفت خطرات الخلفاء، وإني أخبرك أنّ ماردة هي الغالبة على أمير المؤمنين اليوم، وأنه جرى بينهما عتب؛ فهي بدالة المعشوق تأبى أن تعتذر، وهو بعز الخلافة وشرفِ الملك يأبى ذلك؛ وقد رُمت الأمر من قِبلها فأعياني، وهو أحرى أن تستعزّه[1] الصبابة؛ فقل شعراً يسهِّل عليه هذه السبيل. فقضى كلامه.

ثم دعاني إلى أمير المؤمنين، فصرت إليه وأُعطيت قرطاساً ودواة، فاعتراني الزَّمَع[2] وأذهب عني ما أريد الاستحثاثُ؛ فتعذرت عليّ كلُّ عَروض[3]، ونفرَتْ عني كل قافية؛ ثم انفتح لي شيء، والرسل تعنتني؛ فجاءتني أربعة أبيات رضيتُها، وقعتْ صحيحةَ المعنى، سهلة الألفاظ، ملائمة لما طُلب مني؛ فقلت لأحد الرسل: أبلغ الوزير أني قلت أربعة أبيات، فإن كان بها مَقنع ووجهتُ بها. فرجع إليّ الرسول بأن هاتِها، ففي أقل منها مقنع. وفي ذهاب الرسول ورجوعه قلت بيتين من غير ذلك الرويّ، فكتبت الأبيات الأربعة في صدر الرقعة، وعقّبت بالبيتين، فقلت:

العاشِقان كلاهما مُتغضِّبُ ... وكلاهما مُتوجِّدٌ مُتعتِّبُ
صدّت مُغاضبةً وصد مُغاضباً ... وكلاهما مما يعالج مُتْعبُ
راجع أحِبتك الذين هجرْتَهُم ... إن المُتيَّمَ قلما يتجنَّب
إنَّ التجنُّبَ إن تطاول مِنكما ... دَبّ السَّلُّو لهُ فعِزّ المطلبُ

ثم كتبت تحت ذلك:

(١) تستعزه: تغلبه.

(٢) الزمع: الدهش والخوف، وشبه الرعدة تأخذ الانسان.

(٣) العروض ميزان الشعر.

لا بُدّ للعاشِـقِ مـن وقفـةٍ   تكونُ بين الهَجرِ والصرمِ[1]
حتى إذا الهجـرُ تَمادى بـه   راجَعَ من يهوى على رغـم

ثم وجهت بالكتاب إلى يحي بن خالد، فدفعه إلى الرشيد، فقال: والله ما رأيت شعراً أشبهَ بما نحن فيه من هذا، والله لكأني قصِدْتُ به! فقال له يحي: وأنت والله يا أمير المؤمنين المقصود به؛ هذا يقوله العباس [ابن الأحنف] في هذه القصة، فلما قرأ البيتين وأفضى إلى قوله:

راجَعَ مَن يَهوى على رغمِ

استغرب[2] ضاحكاً حتى سمعت ضَحِكه، ثم قال: إي والله، أراجع على رغم! يا غلام، هات نعلي. فنهض، وأذهله السرور عن أن يأمر لي بشيء؛ فدعاني يحي وقال: إن شعركَ قد وقع بغاية الموافقة، وأذهـل أمير المؤمنين السرور عـن أن يـأمـر لـك بشيء. قلت: لكن هذا الخبر ما وقع مني بغاية الموافقة!

ثم جاء غلام فسارّه، فنهض وثبت مكاني ثم نهضت بنهوضه؛ فقال لي: يا عباس، أمسيت أنبل الناس! أتدري ما سارّني به هذا الرسول؟ قلت لا. قال: ذَكر لي أن ماردة تلقّت أمير المؤمنين لما علمت بمجئيه، ثم قالت: يا أمير المؤمنين، كيف كان هذا؟ فناولها الشعر، وقال: هذا أتى بي إليك! قالت: فمن يقوله؟ قال: عباس بن الأحنف. قالت: فيمَ كوفيء؟ قال: ما فعلت شيئاً بعدُ. قالت: إذاً والله لا أجلس حتى يكافأ! قال: فأمير المؤمنين قائمٌ لقيامها وأنا قائم لقيام أمير المؤمنين، وهما يتناظران في صلتك، فهذا كله لك. قلت: مالي من هذا إلا الصلة! فقال: هذا أحسنُ من شعرك.

قال: فأمر لي أمير المؤمنين بمال كثير، وأمرت لي ماردة بمال دونه، وأمر لي الوزير بمال دون ما أمرت به! وحُملتُ على ما ترون من الظَّهر! ثم قال الوزير: من

---

(١) الصرم: الهجر.

(٢) استغرب في الضحك: اكثر منه وبالغ فيه.

تمام اليدِ عندك أن لا تخرج من الدار حتى يؤهِّل لك هذا المال ضياعاً. فاشتريتْ لي ضياعٌ بعشرين ألف درهم، ودُفع إليّ بقية المال.

فهذا الخبر الذي عاقَني عنكم، فهلموا حتى أُقاسمكم الضِّياع، وأفرق فيكم المال قلنا له: هنأك الله، فكل منا يرجع إلى نعمةٍ من أبيه. فأقسم وأقسمنا فقال: [فتكونون] أُسْوتي فيه. فقلنا: أما هذه فنعمَ. قال: فامضوا بنا إلى الجارية حتى نشتريها. فمشينا إلى صاحبها، وكانت جارية جميلة حلوة، لا تحسن شيئاً، أكثر ما فيها ظرف اللسان وتأدية الرسائل، وكانت تساوي على وجهها خمسين ومائة دينار؛ فلما رأى مولاَها ميل المشتري استام بها خمسمائة، فأجبناه بالعجب فحط مائة، ثم قال العباس: يا فتيان، إني والله أحتشم أن أقول بعدما قلتم، ولكنها حاجة في نفسي، بها يتم سروري، فإن ساعدتم فعلت. قلنا له: قل قال هذه الجارية أنا أعاينها منذ دهر، وأريد إيثارَ نفسي بها؛ فأكره أن تنظر إليّ بعين مَن قد ماكس في ثمنها! دعوني أعطيه بها خمسمائة دينار كما سأل! قلنا له: وإنه قد حط مائتين. قال: وإن فعل. قال: فصادفت من مولاها رجلا حرّاً، فأخذ ثلثمائة وجهزها بالمائتين!

فما زال إلينا محسنا حتى فرق الموت بيننا.

حديث المجرّد

قال إسحاق بن إبراهيم: قال لي ابن وهب الشاعر: والله لأحدثنك حديثاً ما سمعه مني أحدٌ قط، وهو بأمانةٍ أن يسمعه أحد منك ما دمت حيا. قلت: ﴿إنا عرضنا الأمانةَ على السموات والأرض والجبال فأبيْنَ أن يحملْنَها﴾[1] قال: يا أبا محمد إنه حديث ما طَنَّ في أذنك أعجب منه! قلت: كم هذا التعقيد بالأمانة؟ آخُذه على ما أحببت!

قال: بينا أَنا بسوق الكيل بمكة بعد أيام الموسم، إذ أنا بامرأة من نساء مكة، معها صبي يبكي، وهي تسكته فيأبى أن يسكت، فسفرتْ، فأخرجت من فيها كسرة

(١) سورة الاحزاب الآية ٧٢.

درهم فدفعتها إلى الصبيّ فسكت؛ فإذا وجه رقيق كأنه كوكب دريّ، وإذا شكلٌ رطْب ولسانٌ فصيح؛ فلما رأتني أُحِدُّ النظر إليها، قالت: اتبعني! فقلت: إن شريطتي الحلال! قالت: ارجع في حِرِ أمك! ومن يريديك على حرام؟ فخجلت، وغلبتني نفسي على رأيي، فتبعتُها، فدخلت زقاق العطارين فصعدتْ درجة وقالت: اصعد! فصعدتُ، فقالت: أنا مشغولة وزوجي رجل من بني مخزوم، وأنا امرأة من زهرة! ولكن عندي حِرٍ ضيِّق، عليه وجه أحسن من العافية، في مثل خلق ابن سريج، وتَرنم معبد، وتيه ابن عائشة؛ أجمع لك هذا كله في بدن واحد بأشقر سليم. قلت: وما أشقر سليم؟ قالت: بدينار واحد يومَك وليلَتك، فإذا قمتَ جعلت الدينار وظيفة وتزويجاً صحيحاً. قلت: فذلك لك إن اجتمع لي ما ذكرتِ. قال: فصفقت بيدها إلى جاريتها، فاستجابت لها، قالت: قولي لفلانة: البسي عليك ثيابك وعجِّلي، وبالله لا تمسِّي غمراً[1] ولا طيباً، فحسبُك بدلالك وعطرك.

قال: فإذا جاريةٌ أقبلت ما أحسب أن الشمس وقعت عليها، كأنها دُمية، فسلمت وقعدت كالخجلة.

فقالت: لها الأولى: إن هذا الذي ذكرته لك، وهو في هذه الهيئة التي تَرين. قالت: حيَّاه الله وقرّب داره. قالت: وقد بذل لك من الصداق ديناراً. فقالت: أي أمّ، أخبرتيه بشريطتي؟ قالت: لا والله يا بنية، لقد نسيتها. ثم نظرت إليّ فغمزتني وقالت: أتدري ما شريطتها؟ قلت: لا. قالت: أقول لك بحضورها ما إخالها تكرهه، هي والله أفتك من عمرو بن معد يكرب، وأشجع من ربيعة بن مكدّم، ولستَ بواصل إليها حتى تَسكر وتَغلب على عقلها، فإذا بلغتْ تلك الحال ففيها مطمع. قلت: ما أهونَ هذا وأسهله!

قالت الجارية: وتركتِ شيئاً آخر! قالت: نعم والله، أعلم أنك لن تصل إليها حتى تتجرد لها، وتراك مجرّداً مُقبلا ومدبراً. قلت: وهذا أيضاً أفعله! قالت: هلمّ دينارَك! فأخرجتُ ديناراً فنبذته إليها؛ فصفقت صفقة أخرى، فأجابتها امرأة؛

---

(١) الغمر: طلاء تطلى به العروس يتخذ من الورس.

قالت: قولي لأبي الحسن وأبي الحسين: هلمّا الساعة! فقلت في نفسي: أبو الحسن وأبو الحسين، هو عليّ بن أبي طالب!

قال: فإذا شيخان خاضبان نبيلان قد أقبلا، فصعدا، فقصت المرأة عليهما القصة، فخطب أحدهما وأجاب الآخر، وأقررْت بالتزويج وأقرّت المرأة؛ فدعَوَا بالبركة ثم نهضا، فاستحييت أن أحمِّل المرأة شيئاً من المئونة، فأخرجت ديناراً آخر فدفعتُه إليها، وقلت: اجعلي هذا لِطيبك. قالت: يا أخي، لست ممن يمسّ طيباً لرجل، إنما أتطيَّب لنفسي إذا خلوت. قلت: فاجعلي هذا لغدائنا اليوم. قالت: أما هذا فنعَم.

فنهضت الجارية، وأمرتْ بإصلاح ما يُحتاج إليه، ثم عادت، وتغدّينا، وجاءت بأداةٍ وقضيب، وقعدت تجاهي؛ ودعت بنبيذ فأعدّته، واندفعت تغني بصوت لم أسمع مثله قط، فإني ألفت القَينات نحواً من ثلاثين سنة، ما سمعت مثل ترنُّمها قط؛ فكدت أُجَنّ سروراً وطرباً، فجعلتُ أُريغ(١) أن تدنو مني فتأبى، إلى أن غنّت بشعر لم أعرفه، وهو:

راحُوا يصيدون الظَّبـاءَ، وإنني　　لأرى تصيّدهـا عليّ حـرامـا!
أَعْـزِزْ عليّ بـأنْ أروِّعُ شِبهها　　أو أنْ تَذوق على يديّ حِمامـا!

فقلت: جُعلت فِداك! من يغنّي هذا؟ قالت: اشترك فيه جماعة، هو لمعبد، وتغنى به ابن سريج وابن عائشة...

فلما نُعِيَ إلينا النهار وجاءت المغرب، تغنّت بصوت لم أفهمه، للشقاء الذي كُتب عليّ، فقالت:

كـأني بـالمجرّد قـد عَلَتْـه　　نِعال القوم أو خَشب السواري(٢)

قلت: جُعلتُ فداك! ما أفهم هذا البيت ولا أحسبه مما يُتغنى به. قالت: أنا أوّل من تغنى به. قلت: فإنما وهو بيتٌ عابر لا صاحبَ له؟ قالت: معه آخر ليس هذا وقتَه، هو آخر ما أتغنى به؟

---

(١) أريغ: احاول. (٢) المجرد: يريد الذي جرّد من ثيابه.

قال: وجعلت لا أنازعها في شيء إجلالا لها، فلما أمسينا وصَلّينا المغرب وجاءت العشاء الأخيرة، وضعَت القضيب، فقمت فصليت العشاء وما أدري كم صليت، عجلةً وشوقاً؛ فلما صليتُ قلت: تأذنين جُعلت فداك في الدنوِّ منك؟ قالت: تجرّد! وأشارت إلى ثيابها كأنها تريد أن تتجرّد؛ فكدت أن أشق ثيابي عجلةً للخروج منها؛ فتجرّدت، وقمت بين يديها مكفِّراً لها؛ قالت: آمض الى زاوية البيت وأقبلْ وأدبرْ، حتى أراك مقبلا ومدبراً.

قال: وإذا حصير في الغرفة، عليه طريق إلى زاوية البيت، فخطرتُ عليه، وإذا تحته خرْق[1] إلى السوق، فإذا أنا في السوق قائماً مجرّداً مُنعِظاً[2]! وإذا الشيخان الشاهدان قد أَعدا لي نعالها، وكمنا لي في ناحية، فلما هبطت عليهما بادرا إليَّ فقطعا نعالها على قفاي[3]، واستعانا بأهل السوق؛ فضُربت والله يا أبا محمد حتى نسيتُ اسمي؛ فبينا أنا أُضرب بنعال مخصوفة وأيد شديدة، إذا صوت يغنّي به من فوق البيت، وهو:

ولو عَلِم المجرّد ما أردْنا   لحاربَنا المجرّد بالصحارِي

فقلت في نفسي: هذا والله وقت هذا البيت! فنجوت إلى رحلي وما فيَّ عظم صحيح؛ فسألت عنها فقيل لي: إنها امرأة من آل أبي لهب! فقلت: لعنها الله ولعن الذي هي منه!

يوم دارة جلجل

قال الفرزدق: أصابنا بالبصرة ليلا مطرٌ جَود، فلما أصبحت ركبت بغلتي وسرت إلى المِربد، فإذا أنا بآثار دواب وقد خرجتْ إلى ناحية البرية، فظننت أنهم قوم خرجوا للنزهة، وهم خُلْقاء أن يكون معهم سُفرة، فاتبعتُ آثارهم حتى انتهيت إلى بغال عليهم رحائل موقوفةٍ على غديرٍ، فأسرعت إلى الغدير، فإذا فيه نسوة

(١) الخرق: الثقب في الحائط أو غيره.

(٢) المنعظ: الذي نعظ ذكره، اي قام وانتشر.

(٣) النعال المخصوفة: التي خرزت بالخصف، وهو المخرز.

مستنقعات في الماء، فقلت: لم أرَ كاليوم قط، ولا يوم دارة جلجل. وانصرفت مستحييا.

فنادْينني: يا صاحب البغلة، ارجعْ نسألْك عن شيء.

فرجعتُ إليهنّ، فقعدن في الماء إلى حلوقهن، ثم قلن: بالله إلا ما أخبرتَنا ما كان من حديث دارة جلجل.

قلت: حدثني جدّي ـ أنا يومئذ غلامٌ حافظ ـ أن امرأ القيس كان عاشقاً لابنة عمه، ويقال لها عنيزة؛ وأنه طلبها زمانا فلم يصل إليها، حتى كان يوم الغدير، وهو يوم دارة جلجل؛ وذلك أنّ الحيّ تحمّلوا، فتقدم الرجال، وتخلف النساء والخدم والثقل[١]؛ فلما رأى ذلك امرؤ القيس، تخلف بعدما سار مع رجال قومه غَلوة، فكمن في غيابة من الأرض، حتى مرّ به النساء وفيهنّ عُنيزة، فلما وردن الغدير قلن: لو نزلنا واغتسلنا في هذا الغدير فذهب عنا بعض الكلال. فنزلن في الغدير، ونحَّين العبيد، ثم تجرّدن فوقعن فيه، فأتاهنّ امرؤ القيس فأخذ ثيابهنّ، فجمعها وقعد عليها، وقال: والله لا أعطي جارية منكنّ ثوبها ولو قعدتْ في الغدير يومَها، حتى تخرج متجرِّدة فتأخذ ثوبها! فأبينَ ذلك عليه، حتى تعالى النهار وخشين أن يقصرن عن المنزل الذي يُردنه، فخرجن جميعاً غير عنيزة؛ فناشدتْه اللهَ أن يطرح ثوبها، فأبى، فخرجت؛ فنظر إليها مقبلة ومدبرة.

وأقبلن عليه فقلن له: إنك عذبتنا وحبستنا وأجعْتنا! قال: فإن نحرتُ لكنّ ناقتي أتأكلن معي؟ قلن: نعم. فجرّد سيفه فعرقبها ونحرها، ثم كشطها، وجمع الخدمُ حطباً كثيراً، فأجَّجْنَ ناراً عظيمة، فجعل يقطع أطايبها ويلقي على الجمر، ويأكلن ويأكل معهنّ، ويشرب من فضلة كانت معه ويسقيهنّ، وينبذ إلى العبيد من الكباب.

فلما أرادوا الرحيل قالت إحداهنّ: أنا أحمل طنفسته[٢]. وقالت الأخرى: أنا

(١) الثقل: متاع المسافر وحشمه.

(٢) الطنفسه: البساط: والنمرقة فوق الرحل.

أحمل رحْله وأَنساعه[١] . فتقسّمْن متاعه وزاده؛ وبقيت عنيزة لم تحمل له شيئاً؛ فقال لها: يا بنت الكرام، لا بد أن تحمليني معك؛ فإني لا أطيق المشي، فحملْته على غارب[٢] بعيرها، فكان يجنح إليها فيُدخل رأسَه في خدرها فيقبِّلها، فإذا امتنعت مال حِدْجها[٣] ، فتقول: عقرتَ بعيري فانزل! ففي ذلك يقول:

[ألا رُبَّ يومٍ لي من البِيض صالحٍ ولا سيّما يوم بِدارة جُلْجَل]
ويوم عَقرتُ للعذارى مطّيتي فيا عجبنا من رحْلها المتحمِّل
فظَلّ العذارى يَرتمين بلحْمها وشحْم كهُدّاب الدِّمقْس المُفتَّل.
تقول وقد مال الغَبيط بنا معاً عَقرتَ بعيري يا آمرأ القيس فانزل[٤]
فقلت لها سِيري وأرْخي زمامه ولا تُبعديني من جَناك المُعلَّل

وكان الفرزدق أروى الناس لأخبار امرىء القيس وأشعاره، وذلك أنّ امرأ القيس رأى من أبيه جفوة، فلحق بعمه شرحبيل بن الحارث، وكان مسترضعاً في بني دارم فأقام فيهم، وهم رهط الفرزدق.

خبر دعبل وصريع الغواني

حدثنا أبو سويد بن أبي عتاهية عن دعبل بن علي الشاعر قال: بينا أنا ذات يوم بباب الكرخ وأنا سائر، وقد احتوى الفكر على قلبي في أبيات شعر قد نطق بها اللسان من غير اعتقاد جنان، فقلت:

دموعُ عيني لها انبساطٌ ونوم عيني به انقباضُ

فإذا أنا بجارية فائقة الجمال حوراء الطرف، يقصر عن نعتها الوصف؛ لها وجه زاهر، ونور باهر، فهي كما قال الشاعر:

كأنما أُفرغت في قشر لؤلؤةٍ في كل جارحةٍ منها لها قَمرُ

(١) الأنساع: جمع نسع، وهو سير ينسج عريضاً تشد به الرحال.
(٢) غارب البعير: ما بين السنام والعنق.
(٣) الحدج: الهودج.
(٤) الغبيط: ما يوضع على ظهر البعير لتركب المرأة فيه.

وهي تسمعني، فقالت:

هــذا قليــلٌ لمنْ دهتــه بلحْظهــا الأعينُ المِراض

فأجبتها:

فهــل لمولايَ عطــفُ قلــبٍ أو لِلّذي في الحشا انقـراضُ؟

فأجابتني فقالت:

إنْ كنتَ تَبغـي الودادَ منّـا فالوُدّ في ديننـا قِـراضُ[1]

قال دعبل: فلم أَعَلمني [قبْلها] خاطبتُ جارية تقطع الأنفاس بعذوبة ألفاظها وتختلس الأرواح ببراعة منطقها، وتُذهل الألباب برخيم نغمتها، مع تلاعة جيد[2]، ورشاقة قدّ، وكمال عقل، وبراعة شكل، واعتدال خَلق؛ فحار والله البصر، وذهب اللّب، وجل الخطب، وتلجلج اللسان، وتغللت الرِّجلان؛ وما ظنك بالحلفاء[3] إذا دنت من النار؟ ثم ثاب إليّ عقلي، وراجعني حلمي، فذكرتُ قول بشار:

لا يمنَعنّــك مــن مُخــدّرةٍ قـولٌ تغلّظــه وإن جَــرحـا

عُسْــرُ النســاءِ إلى مُيــاسرةٍ والصّعْبُ يمكن بعدما جمحا[4]

هذا لمن حاول ما دون الطمع فيه اليأس منه، فكيف بمن وعد قبل المسألة، وبذل قبل الطلبة؟ فقلت مسمِعاً لها:

أتــرى الزمــانَ يسُـرنّـا بتلاقٍ ويضمُ مُشتـاقـاً إلى مُشتــاق؟

فقالت مجيبة لي في أسرع من نفَس:

مـا للـزّمـان يُقـال فيـه وإنما أنــت الزمـان فسُـرّنـا بتلاق!

قال دعبل: فلحظتها ومضيت وتبعتني، وذلك في أيام إملاقي، فقلت: مالي إلا منزل مسلمٍ صريع الغواني، فسرتُ إلى بابه، فاستوقفتُها وناديته، فخرج: فقلت له:

---

(١) أي مقارضة ومجازاة.

(٢) التلاعة: الطول.

(٣) الحلفاء: نبت اطرافه محددة كأطراف سعف النخل،

(٤) جمح الرجل: ركب هواه فلا يمكن ردّه.

اكمِل الخير، معي وجه صبيح، يعدل الدنيا بما فيها، وقد حصل على ضيقة وعسر! فقال: قد شكوتَ ما كدت أُباديك بشكواه! ائت بها. فلما دخلت قال: والله لا أملك غير هذا المنديل! فقلت: هو البُغية فناولنيه. فقال: خذه لا بارك الله لك فيه! فأخذته، فبعته بدينار وكسر، فاشتريت لحماً وخبزاً ونبيذاً، وصرت إليه: فإذا هما يتساقطان حديثاً كأنه قطع الروض المعطور؛ قال: ما صنعت؟ فأخبرته؛ قال: كيف يصلح طعام وشراب وجلوس مع وجه نظيف بلا نقل ولا ريحان ولا طيب؟ اذهب فآلطُف لتمام ما كنتَ أوَّلَه.

قال: فخرجت فاضطربت في ذلك حتى اتيت به، فألفيت باب الدار مفتوحاً، فدخلت؛ فإذا لا يُرَى لهما ولا لشيء مما أتيت به أثرٌ، فسُقِطَ[١] في يدي، وقلت: أرى صاحب الربع أخذهما! فبقيت متلهفاً حائراً، أرجُمُ الظنون وأجيلُ الفكر سائر يومي؛ فلما أمسيتُ قلت في نفسي: أفلا أدور في البيت لعل الطلب يوقفني على أثر؟ ففعلت، فوقفت على باب سرداب له، وإذا هما قد هبطا فيه، وأنزلا معهما جميع ما يحتاجان إليه، فأكلا وشربا وتنعَّما؛ فلما أحسستهُما دليتُ رأسي ثم ناديتُ: مسلم! ويلك! فلم يجبني، حتى ناديت ثلاثاً؛ فكان من إجابته لي أن غرّد بصوت يقول فيه:

بِتُّ في دِرْعِها وبات رفيقي ... جُنُبَ القلبِ طاهِرَ الأطرافِ[٢]

ثم قال: دعبل، ويلك! من يقول هذا؟ قلت:

مَن له من حِرٍ آمَّه ألْفُ قَرْنٍ ... قد أنافتْ على عُلَوٍّ مَنافِ[٣]

قال: فضحك، ثم سكتا، واستجلبت كلامهما فلم يجيباني، وأخذا في لذتهما، وبتُّ بليلة يقصر عمر الدهر عن ساعة منها طولا وغما! حتى إذا أصبحت ولم أكد، خرج إليّ مسلم، فجعلت أؤنبه، فقال لي: يا صفيق الوجه! منزلي، ومنديلي، وطعامي، وشرابي؛ فما شأنك في الوسط؟ قلت له: حقُّ القيادة والفضولُ والله لا غير! فولى

---

(١) سُقط في يده: ندم وتحير.

(٢) الدرع: قميص المرأة. (٣) المناف: المرتقى.

وجهه إليها وقال: بحياتي إلا أعطيتيه حق قيادته وفضوله! قالت: أما حق قيادته فعرَك أذنِه، وأما حق فضوله فصفْع قفاه! فاستقبلني مسلم فعرك أذني وصفعني، فقلت: ما هذا؟ فقال: جرى الحكم عليك بما جرى لك من العذل والاستحقاق!

الخدم والقيان

الحسين بن الضحاك وشفيع خادم المتوكل

حدثنا عيسى بن أحمد الكاتب قال: قال الحسين بن الضحاك: دخلت على جعفر المتوكل، وشفيع الخادم ينضد وردا بين يديه - ولم يُعرف في ذلك الزمان خادمٌ كان أحسن منه ولا أجمل - وعليه ثياب مُوَرَّدَة، فأمره أن يسقيني ويغمز كفي؛ ثم قال لي: يا حسين، قل في شفيع. وقد كان حيَّا المتوكل بوردة، فجعل المتوكلُ يشربُ ويشمُّ الوردة؛ فقلت:

وكالدُّرَّةِ الحْمراءِ حيَّا بأحمرٍ   مَن الوردِ يَمشي في قراطِقَ كالوردِ[1]
ويَغْمِزُ كفَّي عند كلِّ تحيَّةٍ   بكفَّيه تَستدعي الشجِيَّ إلى الوردِ[2]
سقاني بكفَّيْهِ وعينيه شَربة   فأذكرَني ما قد نسيتُ من العهدِ
سقى اللهُ دهْراً لم أبتْ فيه ليلة   من الدَّهرِ إلا من حبيب على وعْدِ!

فأمر المتوكل شفيعاً أن يسقيني، وبعث معه إلي بتحايا في عبير وشمّامات[3]

وروي أن محمد بن عبدالملك الزيات وزير المتوكل كان يتعشق خادماً للمتوكل يقال له شفيع، وكان الحسن بن وهب كاتبُه كِلفا بذلك الخادم: فلقيه الحسن بن وهب يوماً، فسأله عن خبره، فأخبره أنه يريد أن يحتجم؛ فلم يبق بالعراق غريبة إلا بعث بها إليه، ولا ظريفٌ من الأشربة إلا أدخله عليه، وكتب إليه بهذه الابيات:

ليت شِعري يا أملحَ الناسِ عندي   هل تعالَجْتَ بالحِجامةِ بعدي؟

(١) القراطق: القباء.
(٢) يقال: غمز فلاناً بالعين أو الجفن أو الحاجب: أي اشار اليه بها.
(٣) الشمامات: ما يتشمم من الروائح الطيبة.

قد كتمتُ الهوى بمبلغ جُهْدي ... ففشا منه بعضُ ما كنتُ أبدي
وخلعتُ العِذارَ فليَعْلمِ النا ... سُ بأني إليكَ أصْفي بوُدّي(١)
مَن عذيري من مُقلتيْك ومن إشْـ ... ـراقِ وجه من حوْلِ حُمْرَةِ خَدِّ

فصادف رسوله رسولا لمحمد بن عبدالملك الزيات الوزير، فرأى رقعة الحسن، فاحتال لها حتى أخذها، وأوصلها إلى محمد بن عبدالملك، فلما قرأها كتب إلى كاتبه الحسن بن وهب:

ليت شعري عن ليت شعرك هذا ... أبهزْلٍ تقولُه أمْ بجدِّ؟
فلئِنْ كان ما تقولُ بجدٍّ ... يا آبن وهبٍ لقد تفتَّيْتَ بعدي(٢)
وتشبّهْتَ بي وكنتُ أرى ... أنّي أنا الهائمُ المتيَّمُ وحْدي
لا أرى القصدَ في الأمور، ولولا ... غَمَراتُ الصبا لأبصرْتَ قصدي
سيِّدي سيدي، ومولايَ مَن ألـ ... بسني ذِلَّةً وأخلَفَ وعدي
لا أُحِبُّ الذي يلومُ وإن كا ... ن حريصاً على صلاحي ورُشْدي
وأحب آلأخَ المُشارِكَ في الحبِّ ... وإن لم يكن به مثلُ وجدي(٣)
كصديقي أبَى عليَّ وحاشا ... لِصديقي مِن مثلِ شِقْوةِ جَدِّي
إنّ مولايَ عبد عبدي ولولا ... شُؤْمُ جَدِّي لَكان مولاي عبدي

فلما التقى ابن الزيات الوزير وكاتبه الحسن بن وهب في بيت الديوان، تداعبا في ذلك، وسأله ابن الزيات أن يتجافى له عنه، فقال له الحسن: طاعتك واجبة في المحبوب والمكروه، ولكن الرئيس أدام الله عزه كان أولى بالفضل! فقال له ابن الزيات: هيهات، هذه علة نفسانية تؤدي إلى التلف، فتنحّ عن نصيبك مني! فقال الحسن: إن كان هذا هكذا سمعنا وأطعنا، وأنشد:

شهيدي على ما في فؤادي منَ الهوى ... دُموعٌ تُباري المستهلَّ منَ القَطْرِ
فأسلَمَني مَنْ كان بالأمس مُسعِدي ... وصار الهوى عُوناً عليّ مع الدَّهرِ

---

(١) خلع فلان عذاره: انهمك في الغي ولم يستح.

(٢) تفتيت: تصابيت. (٣) الوجد: الشوق.

المتوكل وعلي بن الجهم

قال عليّ بن الجهم: دخلت يوماً على المتوكل، فقال: يا علي! قلت: لبيك أمير المؤمنين. قال: دخلت الساعة إلى قبيحةَ، وقد كتبت على خدِّها بالمسك اسمي، فوآلله ما رأيت سواداً في بياض أحسنَ منه في ذلك الخدّ؛ فقل فيه شعراً. فقلت: يا أمير المؤمنين، أمظلومة معي؟ قال: نعم. ومظلومة خلف الستارة، فدعت بدواة وبدرْت بالقول، فقالت:

وكاتبةٍ بالمسكِ في الخدِّ «جعفراً» ... بنفسي مَخَطُّ المسكِ من حيثُ أثّرَا
لئن أَوْدعتْ سطراً من المسك خدّها ... لقد أودعتْ قلبي من الحبِّ أسْطُرا
فيا من لمْملوك تَملّك مالكا ... مُطيعاً له فيما أسَرّ وأظهرا
ويا من مُناها في السرائر جعفر ... سَقى آلله من صوْبِ الغمامةِ جعفرا[1]

قال: وأُفحِمْتُ فلم أنطق، وتغلبت على خواطري فما قدرت على حرف أقوله، فضحك أمير المؤمنين.

الأصمعي والرشيد

الأصمعي قال: دخلت على هارون أمير المؤمنين، وبين يديه جارية حسناء عليها لِمَّة[2] جعدة، وذؤابة تضرب الحِقو منها، وهلال بين عينيها مكتوب عليه بالذهب: هذا ما عمل في طراز الله! فقال: يا أصمعي، صفها، فأنشأت أقول:

كِنانيَّةُ الأطراف سعْديّة الحشا ... هلاليّةُ العيْنيْن طائيّة الفَمِ
لها حكم لقمان، وصورةُ يوسفٍ ... ونغْمةُ داودٍ، وعِفّة مريم

فقال: أحسنت والله يا أصمعي؛ فعل عرفت اسمها؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين فقال اسمها دنيا. فأطرقت ساعة ثم قالت.

إنّ دُنيا هي التي ... تَملِك القلبَ قاهِرَهْ

---

(١) الصوب: المطر بقدر ما ينفع ولا يؤذي.
(٢) اللّمة: شعر الرأس المجاور شحمة الاذن.

ظلموها شطر آسمِها فهْي دُنيا وآخره

قال الأصمعي: فأمر لي بعشرة آلاف درهم.

الرشيد وإسحاق الموصلي

إسحاق بن ابراهيم الموصلي قال: دخلت على الرشيد، وعنده جارية، قد أُهديت له، ماجنةٌ شاعرة أديبة، وبين يديه طبق فيه ورد، فقال لي: أما ترى حُسن هذا الورد ونضرة لونه؟ قلت: بك والله حَسُن ذلك يا أمير المؤمنين. قال: قل فيه بيتاً يشبهه. فأطرقت ساعة، ثم قلت:

كأنه خدُّ مَومُوق يُقبِّلُه فمُ الحبيب وقد أبدى به خَجَلا[1]

فاعترضتني الجارية فقالت:

كأنه لونُ خدِّي حين تدفعُني كفُّ الرشيد لأمر يوجب الغسلا

فقال الرشيد: قم يا إسحاق، فقد حركتني هذه الفاسقة!

وحدثنا أيضاً قال: كان هارون الرشيد جالساً بين جاريتين من جواريه، فقال لهما: من يبيت عندي هذه الليلة منكما؟ فقالت إحداهما: أنا! فقالت الأخرى: لا، بل أنا! فقال للأولى: ما حجتك فيما ادعيت؟ قالت: قول الله: ﴿والسّابقونَ السّابقونَ أولئك المقرّبونَ﴾[2] ثم قال للثانية: وما حجتك أنت؟ قالت: قول الله: ﴿وللآخرةُ خيْرٌ لك من الأُولى﴾[3]! فقال: لتقل كل واحدة منكما شعراً في الغزل، فمن كانت أرقَّ شعراً باتت عندي. فقالت: الأولى:

أنا التي أمشي كما يمشي الوَجِي يكاد أن يَصْرَعني تغَنُّجي[4]

من جنةِ الفردْوس كان مخْرجي

وقالت الأخرى:

---

(١) مومُوق: محبوب.

(٢) سورة الواقعة الآية ١١. (٣) سورة الضحى الآية ٤.

(٤) الوجى: الذي رقّت قدمه من كثرة المشي.

أنـا التي لم يـــر مثلي بشَـــرُ   كلامـيَ اللّـؤلــؤ حين يُنثَـر
أسْحَر من شئتُ ولست أُسحَـر   إن سمع الناس كلامي كفروا[1]

فقال لها: قد أحسنتما وأجدتما، وما لواحدة منكما فضيلة على صاحبتها، ولكن أبيت بينكما!

الرشيد بين جاريتين

أخبرنا أبو الطيب الكاتب أن أمير المؤمنين هارون الرشيد كان ليلة بين جاريتين: مدنية، وكوفية؛ فجعلت الكوفية تغمز يديه، والمدنية تغمز رجليه، فجعلت المدنية ترتفع إلى فخذيه، حتى ضربت بيدها إلى متاعه، وحرّكته حتى أنعظ. فقالت الكوفية: نحن شركاءك في البضاعة، وأراك قد انفردت دوننا برأس المال وحدك، فأنيلي منه! فقالت المدنية: حدثني مالك عن هشام بن عروة عن أبيه قال: «من أحيا أرضاً مواتاً فهي له ولعقبه»! قال: فاستقبلتها الكوفية ودفعتها، ثم أخذته بيديها جميعاً وقالت: حدثنا الأعمش عن خيثمة عن ابن مسعود أنه قال: «الصيد لمن صاده لا لمن أثاره»!

المتوكل وجارية

أخبرنا الانطاكي: أن المتوكل طلب من محمود الوراق جارية مغنية، وأعطاه بها عشرة آلاف درهم، فأبى فلما مات محمود اشتراها من ميراثه بخمسة آلاف، وقال لها: كنا أعطينا مولاك بك عشرة آلاف، وقد اشتريناك من ميراثه بخمسة آلاف! قالت: يا أمير المؤمنين، إذا كانت الخلفاء تتربص بلذاتها المواريث فسنُشترَى بأرخص مما اشتريت!

الرشيد يقامر جاريته

أخبرنا اسحاق بن إبراهيم الموصلي قال: لاعب هارون الرشيد جارية من جواريه

---

(١) التكفير: اظهار التعظيم والاجلال.

على إمرة مطاعة فقمرتْه[1]. فقال لها: تمنَّي! قالت: تقوم فتقطع فرداً. فقام فقضى فيها وطره، ثم لاعبها فقمرته، فقال لها: تمنَّي! فقالت: المعاودة، فغشيها، ثم لاعبته فقمرته. فقالت: قم لميعادك! فقال: لا أقدر على ذلك! قالت: فاكتب لي به عليك كتاباً آخذ به متى شئت! قال: ذلك لك. فدعت بدواة وقرطاس، ثم كتبت: هذا «كتاب فلانة على مولاها أمير المؤمنين: إن لي عليك قرضاً آخذك به متى شئت وأنى شئت من ليل أو نهار... وكان على رأسها وصيفة، فقالت: تزيّدي في الكتاب، فإنك لا تأمنين الحدثان! ومن قام بهذا الذكر حق قيامه فهو وليُّ ما فيه! فضحك الرشيد حتى استلقى على فراشه، واستظرفها، وأمر بأن تنزل مقصورة وأن يُجرى عليها رزقٌ سنيّ، وشغف بها، ويقال: إنها مراجل أم المأمون.

بين الأمين وجلسائه

تنفس محمد بن هارون الأمين يوماً في مجلسه أيام الحصار، فالتفت إلى جليس له ـ وهو محمد بن سلاّم صاحب المظالم ـ فقال له: ويحك يا محمد! أتراني؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، ذكرت قول الشاعر:

ذكَـر الهوى فتنفَس المُشتــاق وبـدا عليـه الذُّلُّ والإطــراقُ
يا مـن يُصيِّـرُني لأصبر بعـده الصبر ليس يُطيقُــه العشــاق

فقال: لا والله ما نكأتها[2]. ثم التفت إلى جليس له آخر. فقال: ويحك! أتراني؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، ذكرت قول ابن الأحنف:

تذكـرتُ بـالـرْيحان منـك شمائلا بالراحِ عذْباً من مُقَبّلك العـذْبِ[3]

فقال: لا والله ما نكأتها ثم التفت إلى كوثر الخادم، فقال: ويحك، أتراني؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين، ذكرت قول ابن نفيلة الغساني:

إن كان دهرُ بني ساسان فرقَهـم فإنما الدهرُ أطوارٌ دهـاريـرُ[4]

(١) قمرته: غلبته في اللعب.
(٢) أي لم تُصِبْ. (٣) الراح: الخمر.
(٤) دهارير: مختلفة.

وربما أصبحوا يوماً بمنزلةٍ   تَهاب صولتها الأسْدُ المهاصير

قال: صدقت!

علي بن الجهم وجارية

وكتبت جارية عليّ بن الجهم له رقعة، فأجاب فيها:

ما رُقْعة جاءَتْك مختومة   كأنها خدٌّ على خد
تبدو سَوَاداً في بياضٍ كما   ذُرَّ فتيتُ المسكِ في الوردِ
ساهِمةٌ الأسطر مصروفة   عن جهةِ الهزل الى الجدِّ
يا كاتباً أسلَمني عَتبُه   إليه حسْبي منك ما عندي

وكتبت أيضاً:

قلبٌ يُملُّ على لسان ناطق   ويدٌ تخُطُّ رسالةً من عاشقِ
مُزج المدادُ بعبرة شهِدتْ له   من كلِّ جارحةٍ بقلبٍ صادق
فيمينُه تحكى الوسادَ، لخدِّه   ويسارُه فوق الفؤاد الخافق(١)

المهدي وجارية

أهدتْ جاريةٌ من جواري المهدي تفاحة إلى المهدي مطيَّبة وكتبت فيها:

هديَّةٌ مني إلى المهدِي   تفَّاحةٌ تُقطف من خدِّي
مَحَمرَّةٌ مُصفَرّةٌ طيّبت   كأنها من جَنةِ الخلد

فأجابها المهدي:

تُفاحةٌ من عند تُفاحةٍ   جاءت، فماذا صَنعتْ بالفؤادْ
واللهِ ما أدري أأبصرْتُها   يقظانَ، أم أبصرتها في الرُّقادْ

مدام جارية المازني

وكتب بعض الكتّاب إلى مُدام ـ جارية المازني ـ وبعث إليها بقنينة من مُدام(٢)

---

(١) الوساد: المخدة.   (٢) المدام: الخمر.

قــل لمن يملــك الفــؤا دَ وإن كــان قــد مُلِــكْ
قـــد شربْنـــاك مُـــدَّةً وبعثنـــا إليـــك بِـــك

وقال علي بن الجهم: دخلت على أبي عثمان المازني، وعنده جارية كأنها شقَّة قمر، وبيدها تفاحة معضوضة؛ فقالت: عرفتَ ما أراد الشاعر بقوله:

خبِّـريني مــن الرســول إليــكِ وآجعليـه مَـن لا ينِـمُّ عليـكِ

قلت: ما أعرفه. قالت: هو هذه. ورمَتْ إلي بالتفاحة؛ فوالله ما وجدت لها جوابا من نظير كلامها.

وقال شيخ من أهل البصرة: لقيت الحسن بن وهب؛ فأردت أن أمتحن سلامة طبعه - ومعي تفاحة - فأريته إياها وسألته أن يصفها؛ فقال لي: نحن على طريق، ولكن ملْ بنا إلى المسجد. فملنا إليه، فأخذها وقلبها بيده، وقال:

يـا رُبَّ تفـاحـةٍ خلَـوْتُ بها تُشْعِلُ نـارَ الهوى على كبـدي
قــد بــتُّ في ليلتي أُقلِّبُهـــا أشكـو إليهـا تطـاوُلَ الكمـدِ
لو أنّ تفـاحـة بكـتْ لبكـت مـن رحمةٍ هـذه التي بيـــدي!

عتب جارية على المأمون:

وعد المأمون جارية أن يبيت عندها وأخلفها الوعد، فكتبت إليه:

أرقـــتْ عيني ونـــامـــت عيْـنُ مَـن هُنْـــتُ عليـــهِ
إنّ نفسِـي فـآعـــذِرَنْهـــا أصبَحـــتْ في راحتيْـــه
رحِـــــمَ الله رحيمـــا دلَّ عينـــــيّ عليـــــه

فلما قرأ رقعتها ضحك ولم يبت ليلتَه إلا عندها.

عتب المأمون على جارية

عتب المأمون عى جارية من جواريه وكان كَلِفا بها - فأعرض عنها وأعرضت عنه، ثم أسلمه الهوى وأقلقه الشوق، حتى أرسل يطلب مراجعتَها، وأبطأ عليه

الرسول، فلما رجع أنشأ يقول:

بعثْتُكَ مـرتـاداً ففُـزتَ بنظـرةٍ ... وأغفلتَني حتى أسـأتُ بـك الظنّـا

وناجيتَ مـن أهـوى وكنـتُ مقـرَّبـاً ... فيا ليت شعري عن دُنُـوِّكَ مـا أغنَـى

ونَزّهْـتَ طـرفـا في محاسِـنِ وجهِهـا ... ومتَّعْـتَ بـاستطـرافِ نغْمتهـا أُذْنـا

أرى أثـراً منهـا بعينيْـكَ لم يكـن ... لقد سَرقتْ عيناكَ من وجهها حُسنا!

فيـا ليتني كنـتُ الرسـولَ وكنتَني ... وكنتَ الذي يُقصى وكنـتُ أنـا المدْني

ثم إن المأمون أقبل مسترضياً لها، فسلم عليها فلم تردّ عليه السلام، وكلمها فلم تَجبْهُ، فأنشأ يقول:

تكلّمْ، ليس يُـوجعُـكَ الكلامُ ... ولا يُـؤذْي محاسنَـكَ السلامُ

أنـا المأمـونُ والملـكُ الهُمام ... ولكني بحبِّـكَ مستهـام

يَحـقُّ عليـكِ أن لا تَقْتليني ... فيبقَى النّـاسُ ليس لهم إمـام!

كتبت امرأةُ عمر بن عبدالعزيز إلى عمر لما اشتغل عنها بالعبادة:

ألا أيُّهـا الملِـكُ الذي قـد ... سَبَـى عقلي وهـامَ بـه فـؤادي

أراكَ وسِعْتَ كل الناسِ عـدلا ... وجُـرْتَ عليَّ مـن بين العبـادِ

وأعطيتَ الرعيّة كـلّ فضـلٍ ... ومـا أعطيتَني غيرَ السُّهـاد!

فصرف ◦ ـه إليها.

الرشيد وزبيدة وجارية

قعد الرشيد يوماً عند زبيدة. وعندها جواريها، فنظر إلى جارية واقفة عند رأسها، فأشار إليها أن تقبّله، فاعتلّت بشفتيها، فدعا بدواة وقرطاس فوقع فيه:

قبّلتُـهُ مـن بعيـدٍ ... فـاعتـلّ مـن شفَتيْـهِ

ثم ناولها القرطاس، فوقعت فيه:

فما بَـرَحْـتُ مكـاني ... حتى وثبـتُ عليـه!

فلما قرأ ما كتبت استوهبها من زبيدة، فوهبتها له، فمضى بها وأقام معها أسبوعاً لا يُدرى مكانُها، فكتبت إليه زُبيدة:

وعاشقٍ صبّ بمعشوقهِ كأنما قلباهما قلبُ
روحاهما روحٌ ونفساهما نفسٌ، كذا فليكن الحبٌّ

الأمين ووعد جارية

حدث أبو جعفر قال: بينا محمد بن زبيدة الأمين يطوف في قصر له، إذ مر بجارية له سَكْرى، وعليها كساءُ خزّ تسحب أذياله، فراودها عن نفسها، فقالت: يا أمير المؤمنين، أنا على ما ترى، ولكن إذا كان في غدٍ إن شاء الله!

فلما كان من الغد مضى إليها فقال لها: الوعد! فقالت يا أمير المؤمنين، أما علمت أن كلام الليل يمحوه النهار؟ فضحك وخرج إلى مجلسه فقال: من بالباب من شعراء الكوفة؟ فقيل له: مصعب، والرقاشي، وأبو نواس. فأمر بهم فأدخلوا عليه. فلما جلسوا بين يديه قال: ليقل كل واحدٍ منكم شعراً يكون آخره.

كلام الليل يمحوه النهار

فأنشأ الرقاشي يقول:

متى تَصْحو وقلبُك مُستطارُ وقد مُنعَ القرارُ فلا قرار
وقد تَركْتكَ صَبًّا مستهاماً فتاةٌ لا تزورُ ولا تُزار[1]
إذا آستنجزْتَ منها الوعدَ قالت كلامُ الليل يمحوه النهار

وقال مصعب:

أتعذلُني وقلبُكَ مستطارُ كئيبٌ لا يقرُّ له قرارُ
بحبٍّ مليحةٍ صادت فؤادي بألحاظ يُخالطها آحورار[2]
ولما أن مَدَدْتُ يدي إليها لألمِسها بدا منها نِفار
فقلتُ لها عِديني منكِ وعداً فقالت: في غد منك المزار
فلما جئتُ مُقتضِياً أجابت: كلام الليل يمحوه النهار

---

(١) الصبّ: المشتاق. (٢) الاحورار: شدة سواد العين وشدة بياض بياضها.

وقال أبو نواس:

وخَوْدٍ أقبلتْ في القصرِ سَكْرى ... ولكن زيَّـنَ السُّكـر الوقـارُ[1]
وهــزَّ المشيُ أردافـا ثِقـالا ... وغُصنـا فيـه رُمـانٌ صغـار
وقد سقَط الرِّدا عـن منكبيْهـا ... مـن التخميشِ وآنحلَّ الإزار
فقلتُ الوعدَ سيّدتي، فقالـت: ... كلامُ الليـل يمحـوه النهـار

فقال له: أخزاك الله! أكنتَ معنا ومطلعا علينا؟ فقال يا أمير المؤمنين عرفت ما في نفسك، فأعربتُ عما في ضميرك. فأمر له بأربعة آلاف درهم، ولصاحبيه بمثلها.

وقال بعض الورّاقين:

غضِبْتَ من قبلة بالكرْهِ جُـدت بها ... فها أنا جئت فـاقتصِّيـه أضعـافاً
لم يـأمْـر الله إلا بـالقصـاص فلا ... تستْجوِري ما رآه الله إنصافـا![2]

بين الرشيد وماردة

عتبت ماردة على هارون الرشيد، فكانت تظهر له االكراهة وتضمر المحبة، فقال فيها:

تبدي صُدوداً وتخفـى تحتـه صلـةً ... فالنفسُ راضيةٌ والطّـرْفُ غضبـانُ
يا مَن وضعتُ لـه خـدِّي فـذَلّلـهُ ... ولَيس فوقي سوى الرحْمنِ سُلطانُ

حديث الحسن بن هانىء مع الأسود

أو بكر الورّاق قال: قال الحسن بن هانيء: حججتُ مع الفضل بن الربيع، حتى إذا كنا ببلاد فزارة ـ وذلك إبّان الربيع ـ نزلنا منزلا بإزاء ماء لبنى تميم، ذا روض أريض[3]، ونبتٍ غريض[4]، تخضع لبهجته الزرابي[5] المبثوثة، والنمارق[6] المصفوفة، فقرّت بنضرتها العيون، وارتاحت إلى حسنها القلوب، وانفرجت لبهائها الصدور، فلم نلبث أن أقبلت السماء فانشق غمامها، وتدانى من الأرض رُكامُها، حتى إذا كانت كما

---

(١) الخوْد: الشابة الحسنة الخلق.
(٢) لا تستجوريه: أي لا تعديه جوراً.
(٣) الأريض: الزكي المعجب للعين.
(٤) الغريض: الطري.
(٥) الزرابي: جمع زربى، وهو كل ما بسط واتكيء عليه.
(٦) النمارق: جمع نمرقه، وهي الوسادة الصغيرة.

قال أوس بن حجر حيث يقول:

دانٍ مُسِفٌّ فويقَ الأرض هَيدبُهُ   يَكاد يَدفعه مَن قام بالراحِ[١]

همت بِرذاذ، ثم بطش، ثم برش، ثم بوابل، ثم أقلعت وقد غادرت الغدران مترعة تتدفق، والقيعان تتألق، رياض مونقة، ونوافح من ريحها عبقة فسرَّحتُ طرفي راتعاً منها في أحسن منظر، ونشقت من رباها أطيب من المسك الأذفر.

قال: فلما انتهينا إلى أوائلها، إذا نحن بخباء على بابه جارية مشرقة، ترنو بطرف مريض الجفون، وسنان النظر، أشعرتْ حماليقه[٢] فترة وملئت سحرا، فقلت لزميلي: استنطقها. قال: وكيف السبيل إلى ذلك؟ قلت: استسقها. فاستسقاها، فقالت: نعمْ ونَعْمَى عيْن، وإن نزلتم ففي الرحب والسعة!

ثم مضت تتهادى كأنها خوط بان[٣]، أو قضيب خيزران، فراعني ما رأيت منها؛ ثم أتت بالماء فشربت منه، وصببت باقيَه على يدي.

ثم قلت: وصاحبي أيضاً عطشان! فأخذتِ الإناء فذهبت، فقلت لصاحبي: من الذي يقول:

إذا بارك اللهُ في ملْبس   فلا بارك اللهُ في البُرقعِ[٤]
يُريك عيونَ الدُّمَى غِرّةً   ويكشفُ عن منظر أشنعِ

قال: وسمعتْ كلامي، فأتت وقد نزعت البرقع ولبست خماراً أسود، وهي تقول:

ألا حَيِّ ربعيْ معشرٍ قد أراهما   أقاما، فما أن يعرفا مُبتْغاهما
هما آستَسقَيا ماءً على غير ظمأةٍ   ليْستمتعا باللَّحظ ممن سقاهما

فشبّهت كلامها بعقد درّ وَهَى فانتثر، فنغْمة عذبة رقيقة رخيمة، لو خوطب بها صمّ الصلاب لانبجست، مع وجه يُظلم من نوره ضياءُ العقول، وتَتلف من روعته مُهج النفوس، وتخف في محاسنه رزانة الحليم، ويَحار في بهائه طرْف البصير؛ فرقت

(١) الهيدب: السحاب المتدلي الذي يدنو من الارض ويرى كأنه خيوط عند انصبابه.

(٢) الحماليق، جمع حملاق، وهو ما يسوده الكحل من باطن الاجفان.

(٣) الخوط: الغصن الناعم. (٤) البرقع: قناع النساء.

وزلت، واستبطرت وأكملت، فلو جُنَّ إنسان من الحُسن جُننت؛ فلم أتمالك أن خررتُ ساجداً فأطلتُ من غير تسبيح.

فقالت: ارفع رأسك غير مأجور؛ لا تذمّ بعدها برقعاً، فلربما انكشف عما يصرف الكرى، ويحلّ القُوى، ويُطيل الجوى، من غير بلوغ إرادة، ولا دَرك طَلِبة، ولا قضاءِ وطَر؛ ليس إلا للحَين المجلوب، والقدَر المكتوب، والأهل المكذوب!

فبقيت والله معقولَ اللسان عن الجواب، حيران لا أهتدي لطريق، فالتفتَ إليّ صاحبي فقال: ما هذا الجهد بوجه برقتْ لك منه بارقة لا تدري ما تحته؟ أما سمعت قول ذي الرمّة:

على وجه ميٍّ مسْحة من ملاحةٍ   وتحت الثياب العارُ لو كان بادياً!

فقالت: أمّا ذهبتَ إليه فلا أبالك، والله لأنا بقول الشاعر:

مُنعّمة حوْراءُ يجري وِشاحُها   على كشْحٍ مُرتجٍّ الروادف أهضَم[1]
لها أثرٌ صافٍ وعينٍ مريضة   وأحسن إبهامٍ وأحسن مِعصم
خزاعيّة الأطراف سعدْية الحَشا   فزاريّة العينيْن طائيّة الفم

... أشبه من قولك الآخر، ثم رفعت ثيابها حتى بلغتْ بها نحرها. وجاوزت منْكبيها، فإذا قضيب فضة قد أُشرب ماءَ الذهب، يهتز مثل كثيب نقا، وصدر كالوذيلة[2] عليه كالرمانتين، وخصر لو رمت عقده لانعقد، منطوي الاندماج، على كفل رجراج، وسرّة مستديرة، يقصر فهمي عن بلوغ نعتها، من تحتها أرنب جاثم، جبهته أسد خادر، وفخذان مدملجان، وساقان خَدَلَّجان[3] يخرسان الخلاخيل، وقدمان كأنهما لسانان.

ثم قالت: أعاراً ترى لا أبالك؟

قلت: لا والله، ولكن سبب القدَر المُتاح، ومقرّبي من الموت الذباح، يضيق على الضريح، ويتركني جسداً بغير روح!

---

(١) الاهضم: من خمص بطنه ولطف كشحه.

(٢) الوذيلة: المرآة.   (٣) خدلجان: ممتلئان.

فخرجتْ عجوز من الخباء فقالت له: آمض لشأنك، فإن قتيلها مطلول لا يودَى، وأسير مكبول لا يُفدى!

فقالت لها: دعيه، فإنّ له مثل قولا غيلان:

وإن لم يكن إلا تعلّـل سـاعـةٍ قليلا فـإني نـافـعٌ لي قليلهـا

فولّت العجوز وهي تقول:

وما نلتَ منها غيرَ أنك نـائـلٌ بعينيـك عينيهـا وأَيْـرُك خـائـبُ

فنحن كذلك حتى ضرب الطبل للرحيل، فانصرفتُ بكمد قاتل، وكرب خابل، وأنا أقول:

يا حسْـرتـا مما يُجـن فـؤادي أزِفَ الرحيل بعَبْرتي وبعـادي

فلما قضينا حجنا وانصرفنا راجعين، مررنا بذلك المنزل وقد تضاعف حُسنه، وتمتْ بهجته؛ فقلت لصاحبي: آمض بنا إلى صاحبتنا!

فلما أشرفنا على الخيام، وصعدْنا ربوة ونزلنا وهدة، إذا هي تتهادى بين خمس ما تصلح أن تكون خادماً لأدناهنّ، وهنّ يجنين من نَوْر ذلك الزهر.

فلما رأيننا وقفنا وقلنا: السلام عليكنّ. فقالت من بينهنّ: وعليك السلام، ألست صاحبي؟ قلت: بلى! قلن: وتعرفينه؟ قالت: نعم! وقصت عليهنّ القصة ما خرمت حرفا.

قلن لها: ويحك! ما زوّديته شيئاً يعلل به! قالت: بلى زوّدته لحداً ضامراً، وموتاً حاضراً!

فانبرت لها أنضرهنّ خدّاً، وأرشقهنّ قدّاً، وأسحرهنّ طرفا، وأبرعهنّ شكلا؛ فقالت: والله ما أحسنت بدءًا، ولا أجملت عوداً، ولقد أسأت في الردّ، ولم تكافئيه على الودّ: فما عليك لو أسعفتِه بطلبته، وأنصفته في مودّته، وإنّ المكان لخال، وإن معك من لا ينم عليك؟

فقالت: أما والله لا أفعل من ذلك شيئاً أو تشركيني في حلوه ومره!

قالت لها: تلك إذاً قسمة ضِيزى[1]. تعشقين أنت وأُناك أنا!

قالت أخرى منهنّ: قد أطلتن الخطاب في غير أدب، فسلن الرجل عن نيته، وقصده وبغيته، فلعله لغير ما أنتن فيه قصدَ.

فقلن: حيّاك الله وأنعم عينا، ممن تكون؟ وممن أنت، وما تعاني؟ وإلام قصدت؟

فقلت: أمّا الاسم فالحسن بن هانيء، من اليمن، ثم من سعد العشيرة؛وخير شعراء السلطان الأعظم، ومن يُدنَى مجلسه؛ ويُتّقى لسانه، ويُرهب جانبه؛ وأمّا قصدي فتبريد غلة، وإطفاء لوعة قد أحرقت الكبد وأذابتها!

قالت: لقد أضفتَ إلى حُسن المنظر كرم المخبر، وأرجو أن يُبلغك الله أمنيتك، وتنال بغيتك!

ثم أقبلت عليهنّ فقالت: ما واحدة منكنّ غير ملتمسة مرغّبة؛ فتعالين نشترك فيه ونتقارع عليه، فمن واقعتها القرعة منا كانت هي البادئة! فاقترعن فوقعت القرعة على المليحة التي قامت بأمري...

فعلّق إزارٌ على باب الغار، وأُدخلتْ فيه وأبطأتْ عليّ؛ وجعلت أتشوّف لدخول إحداهنّ عليّ، إذ دخل عليّ أسود كأنه سارية، وبيده شيء كالهراوة قد أنعظ بمثل رأس الحنيذ! قلت: ما تريد؟ قال: أنيكك! ثم صحت بصاحبي وكان متأنّياً مع الجواري؛ فوالله ما تخلصت منه حتى خرجنا من الغار، وإذا هنّ يتضاحكن ويتهادين إلى الخيمات!

فقلت لصاحبي: من أين أقبل الأسود؟ قال: كان يرعى غنماً إلى جانب الغار، فدعونه فوسوسن إليه شيئاً فدخل عليك. فقلت: أتراه كان يفعل بي شيئاً؟ فقال:

(١) قسمة ضيزى: قسمة جائرة.

أتراك خلصت منه! فانصرفت وأنا أخزى الناس .

قال إسماعيل: فقلت: ناكك والله الأسود! فقال: مالك أبعدك الله! فوالله لقد كتمت هذا الحديث مخافة هذا التأويل، حتى ضاق به صدري فرأيتك موضعاً له! فبحقي عليك إن أذعته! قال إسماعيل: فما فهت به حتى مات .

خبر ذي الرمة

قال أبو صالح الفزاري: ذكرنا ذا الرُّمة، فقال عصمة بن عبدالملك ـ شيخ منا قد بلغ عشرين ومائة سنة ـ : إياي فاسألوا عنه؛ كان من أظرف الناس، آدم، خفيف العارضين، حسن الضحك، حلو المنطق، وإذا أنشد جَشَّ صوته، وإذا راجعك لم تسأم حديثه وكلامه .

وكان له إخوة يقولون الشعر، منهم مسعود، وهشام وأوفى، وكانوا يقولون القصيدة فيزيد عليها الابيات فتذهب له .

فجمعني وإياه مُرْتَبَع، فأتاني يوماً، فقال لي: هيا: [يا عصمة]؛ إنّ مية مِنقرية، وبنو منقر أخبث حيّ، وأقفى للأثر، فهل عندك ناقة نردار عليها مية؟ قلت: والله إنّ عندي الجؤذر. قال: عليّ بها .

فركبنا جميعاً وخرجنا حتى أشرفنا على بيوت الحيّ، وإذا ببيت فيه ناحية، والقوم خُلوف[1]، والنساء في الرحال، فعرفن ذا الرمّة فتقوّض[2] النساء إلى مية؛ وجئنا ثم أَنخْنا، ثم دنونا، فسلمنا وقعدنا نتحدّث؛ فإذا هي جارية أملود[3]، واردة[4]

---

(١) الخلوف: جمع خلف: وهم القوم الذين ذهبوا من الحي يستقون وخلفوا اثقالهم .

(٢) تقوص: جاء وذهب في غير استقرار .

(٣) أملود: ناعمة مستوية القامة .

(٤) الشعر الوارد: المسترسل .ـ

الشعر، بيضاء تغمرها صفرة، وعليها ثوب أصفر، وطاق أخضر؛ فقلن: أنشدنا يا ذا الرمّة؛ فقال: أنشدهنّ يا عصمة. فأنشدتهنّ:

نظـرتُ إلى أظْعـان مـيٍّ كـأنها ... ذُرا النخل أو أثْـل تَميـل ذوائبُـهْ
فأعـربـتِ العينـان والصـدر كـاتم ... بمُغـرورْقٍ نمّت عليـه سـواكبُـهْ
بُكا وامقٍ خاف الفراق ولم تَجُـلْ ... جَـوائلهـا أسراره ومَغـايبـه

فقالت ظريفة منهنّ: لكن الآن فلنجُل. قال: فنظرت إليها مية متكرهة، ثم مضيت في القصيدة، حتى انتهيت إلى قوله:

إذا سرحتْ من حُبّ ميّ سـوارحٌ ... على القلـب آبتْـه جميعـاً عـوازبُـه

فقالت [لها] الظريفة: قتلته قاتلك الله! قالت مية: ما أصحه وهنيئاً له! فتنفس ذو الرمّة تنفساً ظننت معه أنّ فؤاده قد انصدع؛ ومضيت فيها حتى انتهيت إلى قوله:

وقد حلفتْ بالله ميّـة مـا الذي ... أقول لها إلا الذي أنـا كـاذبُـهْ
إذاً فرماني الله من حيث لا أرى ... ولا زالَ في أرضي عدوٌّ أُحاربُه

فالتفتت إليه [مَيَّةُ] فقالت: خَفْ عواقبَ الله! ومضيتُ في القصيدة حتى انتهيت إلى قوله:

إذا راجعتك القـولَ مَيّـةُ أو بَـدَا ... لك الوجهُ منها أو نَضا الثَّوبَ سالبُهْ
فيا لك مـن خـدٍّ أسِيـل ومَنطِـقٍ ... رَخيم ومِن خَلق تعَلَّـلَ جـادِبُـهُ(١)

فقالت الظريفة: أما هذه فقد راجعتك، وقد بدا لك الوجهُ منها، فمن لك بأن ينضو الدرعَ سالبه؟ فالتفتت مية إليها فقالت: قاتلك الله، ما أنكرَ ما تجيبين به!

فتحدثنَ ساعة، ثم قالت الظريفة للنساء: إن لهذين شأناً، فقمن بنا [عنهما. فقامت، وقُمن معها] وقمتُ معهنّ: فجلست في بيت أراهما منه، فما رأيته برح من مقعده ولا قعدته؛ فسمعتها قالت له: كذبتَ والله! ولا أدري ما قال لها.

---

(١) الجادب: العائب.

فلبثت قليلا ثم جاءني ومعه قارورة فيها دهن ومعه قلائد، فقال: هذا دهن طيب أُتْحفنا به، وهذه قلائد للجؤذر؛ ولا والله ما أقلدهن بعيراً أبداً! وشدّ بهن ذوائب سيفه، وانصرفنا؛ فكنا نختلف إليها حتى انقضى الربيع ودعا الناسَ المصيف؛ فأتاني فقال: هَيَا عصمة، رحلتْ ولم يبق إلا الآثار والرسوم من الديار! وأنشدني:

ألا يا آسْلَمِي يـا دار مَيَّ على البِلى ولا زال مُنْهَلاًّ بجرعـائِـك القَطْـرُ

المأمون ويحيى بن أكثم

خرج المأمون في يوم عيد وقد ركب الجند أمامه، ومعه يحيى بن أكثم يضاحكه ويحادثه، إذ نظر إلى غلام من الجند في غاية الفراهة[1]، عليه ثوب حرير أخضر، وثوب موشى مزرَّر بالذهب، فالتفت إلى يحيى بن أكثم فقال له: يا يحيى، ما تقول في هذه البضاعة؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا لقبيحٌ من إمام مثلك مع فقيه مثلي! قال: فمن الذي يقول:

قـاضٍ يـرى الحدَّ في الزِّنـاء ولا يَرى على من يلـوط مـن بـاسِ[2]

فقال: دعبل الذي يقول:

ولا أرى الجَور ينقضي وعلى العـامَّـة والٍ لآل عبـاس

قال: يُنفى إلى السند، وإنما داعبناك. ثم أنشأ المأمون يقول:

أيها الراكـبُ ثَـوبـا هُ حـريـرٌ وحـديـدٌ
جئـت للعبـد وفي وجـ ـهـك للأعين عيـد
أنـت جنـديٌّ ولكـنْ فيـك للحسـن جنـود

الفضل والأمين

الفضل بن الربيع قال: قعد المخلوع للناس يوماً وعليه طيلسان[3] أزرق، وتحته

(١) الفراهة: الحذق والنشاط.

(٢) يلوط: يعمل عمل قوم لوط. (٣) الطيلسان: العجمي

لبد أبيض، فوقَّع في ثمانمائة قصة، فوالله لقد أصاب فما أخطأ، وأسرع فما أبطأ؛ ثم قال لي: يا فضل، أتراني لا أُحْسِن التدبير والسياسة، ولكني وجدتُ شمّ الآس، وشرْب الكاس، واستلقاء من غير نُعاس، أشهى إليّ من ذلك!

أبو عيسى وأبو نواس

قال ابن قتيبة: خرج أبو عيسى جبريل بن أبي عيسى إلى متنزه له بالقُفْص[١]، ومعه الحسن بن هانىء، في آخر شعبان: فلما كان اليوم الذي أوفى به الشهر ثلاثين يوماً، قيل له: إن هذا يوم شك، وبعض أهل العلم يصومه. فقال: لا عليك، ليس الشك حجة على اليقين، حدثنا أبو جعفر عن النبي ﷺ قال: صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته. ثم قال لابن أبي عيسى:

لو شئتَ لم نبرحْ مِنْ القُفْص ... نشربُها حمراء كالحُص[٢]

نسرق هذا اليومَ من شهرنا ... واللهُ قد يعفو عن اللِّصَّ!

أبو نواس في مجلس شراب

وذكروا أن أبا عيسى خرج إلى القفص متنزهاً ومعه الحسن بن هانىء، فحمله وخلع عليه، فأقام فيها أسبوعا، ثم قال له: بحياتي صف مجلسنا والأيام كلها. فقال في ذلك:

يا طِيبنا بقصورِ القُفْصِ مُشْرِفةً ... بها آلدَّساكِرُ والأنهارُ تَطَّرِدُ

لَمّا أخذنا بها الصَّهْباءَ صافيةً ... كأنَّها النارُ وسْطَ الكأسِ تتقِدُ

جاءتْك من بيتِ خَمّارٍ بطِينتِها ... صَفراءَ مثلَ شُعاعِ الشمس تَرْتعِدُ

وقام كالبدْرِ مشدوداً قَراطِقهُ ... ظبيٌ يكادُ من التَّهْييفِ يَنعقدُ[٣]

فصبَّها من فمِ الإبريق، فانبعثتْ ... مثلَ اللسان جرى وآستَمسَك الجَسد

---

(١) القفص: قرية بين بغداد وعكبراء، تنسب اليها الخمور الجيدة والخانات الكثيرة.

(٢) الحص: الورس او الزعفران.

(٣) قراطق: جمع قرطق: القباء.

فلم نزلْ في صباحِ السبتِ نأخذُهـا والليلُ يأخذهـا حتى بَـدَا الأحـد
واستشرقتْ غُـرَّةُ الإثنين واضحـةً والجَدْيُ معترِض والطَّالِع الأسـد(١)
وفي الثلاثـاء أعمَلْنـا المَطِـيَّ بها صَهْباءَ مـا قَـرعَتْهـا بـالمِزاجِ يـد
والأربعـاءُ صفـا فيـه النَّعيمُ لنـا والكأسُ تضحكُ في حافاتِها الزَّبَـد
ثُمَّ الخميسُ وصَلنـاه بليْلَتِـه وتَمَّ فيـه لنـا بـالجمعـةِ العـدد
يا حُسْنَنا وبحارُ القَصْف تَغْمُـرنُـا في لجَةِ الليلِ والأوْتـارُ تَجتلِـدُ
في مجلسٍ حوْلَهُ الأشجارُ مُحْدِقـةٌ وفي جـوانبـه الأطيـارُ تَغترِد
لا نَستخِـف بسـاقِينـا لِعـزّتِـهِ ولا يُـردُّ عليـه حُكمَـه أحـد
عند الهُمامِ أبي عيسى الذي كُملتْ أخلاقه، فهْي كـالأوراق تُنْتقَـد

أبو عيشونة الخياط

أبو جعفر البغدادي قال: حدثنا أبو محمد الدمشقي قال: مررت ذات ليلة أيام فتنة المستعين، والقمر يزهر بباب الشام، فإذا أنا بشيخ غليظ اصلع نشوان، قد توشح في إزار أحمر، ومال على شقة الأيمن، وفي يده خوصة يشمها ويقول:

عشرون ألفَ فتًى مـا منهـمُ أحـدٌ إلاَّ كألـفِ فتًـى مِقـدامـةٍ بَطَـلِ
أَضحتْ مَـزاودُهُـمْ مملـوءةً نَشَبـاً ففرَّغوها وأوكَوْها على الأمـل(٢)

فقلت له: أحسنت، لله أنت! فقال: أتحب رقيقة؟ فقلت: ما أحوجني إليها.
فقال:

إنما هَيَّـــجَ البلا يوْمَ عَـضَّ السَّفَـرْجَلا
وعلا الوردُ وجْنَتَيـ ـهِ فـأبـدى التَّخجُّلا
يَفضَـحُ البـدرَ في الكَما لِ إذا البـدرُ أُكملا

---

(١) الغرة من كل شيء: أوله وأكرمه.
(٢) مزاود: جمع مزود، وهو وعاء الزاد.

ولقد قام لَحْظَ عيـ ـنِي على القلبِ بالقِلى

قلت له: أبو مَن أعزك الله؟ قال: أبو عيشونة الخياط، شهدت حروب ابن زبيدة كلها، وجاريت الفتيان في غاية كل مَيْدان، واعترفَ لي كلُّ فاتك، وأذعن لي كل شاطر، ونزلتُ تلك الدارَ عشرين سنة ـ وأومأ إلى سجن بغداد ـ ثم تنفس الصعداء، وقال: أنا الذي أقول:

لي فؤادٌ مُستْهامُ وجُفونٌ لا تنامُ
ودُموعٌ آخِرَ الدَّهْـ ـرِ لعَيْنيَّ سِجامُ(١)
وحبيبٌ كلَّما خا طبْتُه قال سلامُ
فإذا ما قلتُ زرْني قال لي: ذاك حرام!

ثم بكى، فلما أفاق قلت: ما يُبكيك؟ قال: وكيف لا أبكي ولي حبيب بالبصرة عَلِقْتُه وهو ابن سبع عشرة سنة، ثم غبتُ عنه ثلاثاً وثلاثين سنة، فلما عيل صبري خرجتُ إلى البصرة فطفت في شوارعها حتى رأيتُه، فما رأيت وجهاً أحسنَ منظراً ولا أزهى منه. ثم أنشأ يقول:

مُرَدَّدٌ في كَمَدِه مُعذَّبٌ في سُهدِهْ(٢)
خلا به السّقْمُ، فما أسرعَهُ في جسدِه
يرحُمه لِما بدَا من ضُرِّهِ ذو حسدِه.

ثم ودعني ومضيت.

جارية في الطواف

وحدث أبو الفضل قال: إني بالطواف أمام الحجر، إذا سمعت حنيناً يخرج من بين الأستار، وإذا بقائل يقول:

عفا الله عمّنْ يَحفَظُ الوُدّ جُهدَهُ ولا كان عفوُ اللهِ للنّاقضِ العهدِ

(١) سجم الدمع: أي سال.

(٢) الكمد: الحزن الشديد.

وضعْتُ على الأستار خـدِّي ذَليلـةً   ليجمعَني مع منْ وضعتُ له خـدِّي

قال: فرفعتُ الأستار، فإذا جارية منفردة، كأنها شمسٌ تجلت عنها غمامة؛ فقلت: يا هذه، لو سألتِ اللهَ الجنة مع هذا التضرع والبكاء ما حرَمَكِ إياها! قال: فسترَتْ وجهَها وقالت: سبحان من خلق فسوّى، ولم يهتك العلانيَة والنجوى[1]؛ أما والله إني لفقيرة إلى رحمةِ ربي، وقد سألته أكبر الأمرين عندي، رجاء فضله، واتكالا على عفوه! ثم ولت عني، فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم.

مسلم بن عبدالله وزبان

حدث مسلم بن عبدالله بن مسلم بن جندب قال: خرجت أنا وزبّان السواق إلى العقيق، فلقينا نسوة نازلات من العقيق، لهن جمال وشارة، وفيهنّ جارية حُسَّانة العينين[2]، فلما رآها زبان قال لي: يابن الكرام، دَمُ أبيك والله في ثيابها فلا تطلب أثراً بعد عين! وأنشد قول [أبيه] أبي مسلم بن جندب:

ألا يـا عبـادَ اللهِ، هــذا أخــوكم   قتيلٌ، فهل منكم له اليومَ ثـائـر؟
خذوا بدمِي إن متُّ كـلَّ مليحـةٍ   مريضةِ جَفن العيْن والطرْفُ ساحـرُ

قال: فقالت لي الجارية: أنت ابن جُندب؟ قلت: نعم. قالت: فاغتنم نفسك واحتسب أباك: فإن قتيلنا لا يُودَى وأسيرنا لا يُفدَى.

الزبير بن بكار عن عبدالله بن مسلم بن جندب قال: قلت:

تعـالْـوا أعينـوني على الليْـل إنـه   على كـل عيْـنٍ لا تنـام طـويــل

قال: فطرقني عيسى بن طلحة؛ قال: إني سمعت قولك فجئت أُعينُك! فقلت: يرحمك الله، أغفلت الإجابة حتى أتى الله بالفرج.

---

(١) النجوى: اسرار الحديث.

(٢) حسّانة العينين: حسنتها.

مي صاحبة ذي الرمة

أبو المهلهل الخزاعي قال: ارتحلت إلى الدهناء، فسألت عن ميّ صاحبة ذي الرمّة، فدفعتُ إلى خيمة فيها عجوز هيفاء[1]، فسلمت عليها وقلت: أين منزل ميّ؟ فقالت: ها أنا ميّ. فقلت: عجباً من ذي الرمّة وكثرة قوله فيك! قالت: لا تعجب، فإني سأقوم بعذره. ثم قالت: فلانة. فخرجت من الخيمة جارية ناهد[2] عليها برقع؛ فقالت لها؛ أسفِري. فلما أسفرت تحيرت لما رأيت من حسنها وجمالها. فقالت: علقني ذو الرمّة وأنا في سنّ هذه، وكلُّ جديدٍ إلى بِلى. قلت: عذرتَه والله! واستنشدتُها من شعره، فأنشدتْني.

ما يكتب على العصائب وغيرها

أبو الحسن قال: دخلت على هارون الرشيد وعلى رأسه جَوار كالتماثيل، فرأيت عصابة منظمة بالدر والياقوت مكتوباً عليها بصفائح الذهب:

ظلمْتَني في الحبِّ يـا ظـالم   والله فيما بينـنـا حـاكم

قال: ورأيت في عصابة أخرى:

مالي رمْيتُ فلم تُصبْك سِهامـي   ورميْتَني فـأصبتني يـا رامـي؟

قال: ورأيت على أخرى:

وضْعُ الخدِّ للهوى عزّ

قال: ورأيت في صدر أخرى هلالا مكتوباً عليه:

أفلـتُّ مـن حُـور الجِنـانِ   وخَلِقـتُ فتنـةَ مـن يَـراني

قال إسحاق بن ابراهيم: دخلت على الامين محمد بن زبيدة، وعلى رأسه وصائف

---

(١) الهيفاء: التي دق خصرها وضمر بطنها.

(٢) الناهد: المرأة التي نهد ثديها.

في قراطق[1] مفروجة، بيد وصيفةٍ منهن مِروحةٌ مكتوب عليها:

بيَ طاب العيشُ في الصيْف، وبي طاب السُّرورُ
ممسكي يَنفى أذى الحرِّ إذا آشتد الحَرور[2]
النَّدى والجودُ في وجه أمين الله نور[3]
ملكٌ أسلَمه الشِّبْهُ وأخلاه النَّظير

وفي عصابة:

ألاَ باللهِ قولوا يا رجال أشْمَسٌ في العصابة أم هلالُ

وفي أخرى:

أتهْوَوْنَ الحياةَ بلا جُنون فكفوا عن مُلاحظة العيونِ

وكتبت وردُ جارية الماهاني على عصابتها، وكانت تجيد الغناء مع فصاحتها وبراعتها:

تمتْ وتم الحُسْن في وجهِها فكلُّ شيءٍ ما سواها مُحالْ
للناس في الشهر هلالٌ ولي في وجهِها في كلِّ يوم هلالْ

وكتبت في عصابتها بيتين من شعر الحسن بن هانيء، وهما:

يا رامياً ليس يدري ما الذي فعلا عليك عقلي، فإنّ السهمَ قد قتَلا[4]
أجرَيتَه في مجاري الرُّوحِ من بدني فالنفْسُ في تعَب والقلب قد شُغلا

قال علي بن الجهم: خرجت علينا عالج جارية خالصة، كأنها خوط بان وهي تميس في رقة، وعلى طرَّتها مكتوب بالغالية، وكانت من مُجان أهل بغداد مع علمها بالغناء:

يا هلالا من القصور تجلَّى صام طرْفي لمقلتيْك وصلَّى
لست أدري ليلي أم لا كيف يدري بذاك من يتقلّى[5]

---

(١) القراطق: جمع قرطق: القباء.
(٢) الحرور: حرّ الشمس. (٣) الجود: الكرم.
(٤) العقل: الدية. (٥) يتقلى: يتقلب في فراشه.

لـو تفـرَّغـت لاستِطـالـة ليلي ولِرَعْـي النجـوم كنـت مُحِلا

قال: وخرجت إلينا مَنال وعليها درع خام، على جانبه الأيمن مكتوب:

كتب الطرفُ في فؤادي كتابـا هو بـالشـوْقِ والهوى مختـوم

وعلى الأيسر مكتوب:

كـان طـرْفي على فـؤادي بلاءً إنّ طـرْفي على فـؤادي مَشُـومُ

قال: وكان على عصابة ظبي، جارية سعيد الفارسي، مكتوب بالذهب:

العُينُ قـــارئـــةٌ لما كتبـــت في وجْنتيَّ أنـامـلُ الشجَـنِ (١)

قال: وحدثني الحسن بن وهب قال: كتبت شعب على قلنسوة جاريتها شكل:

لم ألـق ذا شجـن يبـوحُ بحبِّـه إلا حسِبْتُـك ذلـك المحبـوبـا

حَذراً عليك، وإنني بك واثـقٌ ألاّ ينالَ سـوايَ منـك نصيبـا

وكتب شفيع، خادم المتوكل، على عاتق قبائه الأيمن:

بـــدرٌ على غَصـــن نضير شِـرقُ الترائـبِ بـالعبير(٢)

وعلى عاتقه الأيسر:

خطَّـتْ صحيفـةُ وجهِـه في صفحـة القمـرِ المنير

وكتبت وصيف، جارية الطائي، على عصابتها:

فما زال يشكو الحبَّ حتى حسِبْتُـه تنفَّس في أحشـــائـــه وتكلما

فـأبكـــي لـديـه رحمةً لبُكـــائـــه إذا ما بكى دمعاً بكيْـتُ لـه دَمـا

وكان على عصابة مزاج، وهي من مواجن أهل بغداد وفُتّاكها:

قالوا عليك دُروعُ الصبر قلـت لهم هيهات إنّ سبيل الصبرِ قد ضـاقـا

ما يرجع الطرْفُ عنها حين يُبصرها حتى يعود إليهـا الطـرف مُشتـاقـا

وكتبت عنان جارية الناطفي على عصابتها:

الكُفرُ والسِّحْر في عيني إذا نظـرتْ فاغْرُب بعيْنيْك يا مغرور عـن عيني

فإنّ لي سيـف لحْظٍ لسـت أُغْمـدُه من صنعةِ الله لا من صنعة القَيْـنِ

(١) الشجن: الهم والحزن. (٢) شرق الترائب: لون موضع القلادة بحمرة.

وكتبت حدائق في كفها بالحناء:

ليس حُسْنُ الخِضاب زيّن كفّي حُسْن كفي زيْنٌ لكلِّ خِضابِ

قال: وخرجت علينا جارية حمدان، وقد تقلدت سيفاً محلى، وعلى رأسها قلنسوة مكتوب عليها:

تأمّل حُسْنَ جاريةٍ يَحارُ بوَصفِها البصر
مُذكَّرة مؤنثّةٍ فهي أُنثى وهي ذكر

وعلى حمائل سيفها مكتوب بالذهب:

لم يكْفهِ سيف بعينَيه يقتُل من شاءَ بحديه
حتى تَردّى مُرْهَفاً صارماً فكيف أبقَى بين سيْفيْهِ
فلو تراه لابساً درعَه يخطُر فيها بين صَفيه
علِمتُ أنَ السيف من طرْفه أقتَلُ من سيفٍ بكفيْه

وكتبت واجد على منطقة جاريتها منصف الكوفية:

تكتّي من غمزة العيْن إذا ما مِسْتُ تنحَل[1]
وفؤادي رَقّ حتى كاد من صدريَ ينسلّ
بعض ما بي يَصدْع القلبَ. فما ظنّك بالكل

ومن قولي فيما كتبت على كأس مذهبة:

اشرب على منظرٍ أنيق وامْزُج بريقِ الحبيبِ ريقي
واحلل وشاح الكعابِ رفقاً واحذرْ على خصْرِها الدقيق[2]
وقل لمن لامَ في التّصابي إليك خلّي عن الطريق

وقف صريع الغواني بباب محمد بن منصور فاستسقى، فأمر وصيفاً له فأخرج إليه خمراً في كأس مذهبة، فلما نظر إليها في راحته قال:

ذهبٌ في ذهبِ را ح بها غصنُ لُجَيْنِ

---

(١) ماس يميس: تبختر في مشيه.

(٢) الكعاب: الكاعب: التي نهد ثديها.

فـأتــت قُــرَّة عيْني   مِن يـدِيْ قُـرةِ عيْـنِ
قمـر يحمــل شمســاً   مـرحبـاً بـالقمـرَيْــن
لا جَــــرَى بيني ولا   بينهُما طــائــرُ بيْـــن
وبقينـــا مـــا بقِينـــا   أبـــداً مُتفِقيْــــــن
في غَبـوقٍ وصَبــوحٍ   لم نَبعْ نقـداً بـديْـن[1]

محمد بن اسحاق قال: حدثني أحمد بن عبدالله قال: رأيت على مروحة مكتوباً:

الحمــد لله ووحـــدَهْ   وللخيفـــةِ بعـــدَهْ
وللمحـــبّ إذا مـــا   حبيبـهُ بـات عنـده

وقال: ورأيت في مجلس سريراً مكتوباً عليه بالذهب:

أشهى وأعذبُ مِن راحٍ ومِـن وردْ   إلفان قـد وضَعـا خـدًّا على خـدِّ
وضمَّ أحـدهما أحشـاءَ صـاحبـه   حتى كـأنهما للقــرب في عِقْــد
هـذا يبـوح بما يلقـاه مـن حَـزَنٍ   وذاك يُظهِر ما يخفي من الوجْـد[2]

وفي عصابة أخرى:

وإن يَحجُبوها بالنهار فمَـنْ لهم   بأن يَحجُبوا بالليل عني خيـالها

قال أبو عبيدة: ورأيت [جارية] على جبينها مكتوباً:

كتَبــــتْ في جبينهــــا   بعبير على قمَـــــــرْ
في سُطـــور ثلاثـــةٍ:   لعــنَ اللهُ مَــن عَــذَرْ
وتنـــاولـــتُ كفّهـــا   ثم قلــت اسمعــي الخبر
كـلُّ شيء ســوى الخيـا   نـــةِ في الحبِّ يُغتفــــر

قال الأصمعي: رأيت على باب الرشيد وصائف على عصابة واحدة منهن مكتوباً:

نحنُ حـورٌ نَــواعِــمٌ   مــن أراضِ مقـدّسـة

---

(١) الغبوق ما يشرب بالعشي.
(٢) الوجد: الشوق الشديد.

أحســـنَ الله رزقَنـــا ليس فينـــا مُنحســـه
فـــاتـــق الله يـــا فتى لا تـدَعْني مُـوسـوسـه

الكرماني والمأمون

وقال أبو جعفر الكرماني يوماً للمأمون: أتأذن لي في دعابة؟ قال: هاتها ويحك، فما العيش إلا فيها؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنك ظلمتني وظلمت غسان ابن عباد. قال: وكيف ذلك ويلك؟ قال: رفعت غسان فوق قدره، ووضعْتني دون قدري، إلا أنك لغسان أشدُّ ظلماً. قال: وكيف؟ قال: لأنك أقمته مقام هر، وأقمتني مقام رخمة. فاستظرف ذلك منه ورفع درجته.

بين عطاء وعبدالملك

أبو زيد قال: كان عطاء بن أبي رباح مع ابن الزبير، وكان أملح الناس جواباً فلما قتل ابن الزبير أمّنه عبدالملك بن مروان، فقدم عليها فسأل الإذن، فقال عبدالملك: لا أريده يُضحكني، قد أمّنته فلينصرف.

قال أصحابه: فنحن نتقدم اليه ألا يفعل. فأذن له عبدالملك، فدخل وسلم عليه وبايعه، ثم ولّى، فلم يصبر عبدالملك أن صاح به: يا عطاء، أما وجدت أمُّك آسما إلا عطاء؟ قال: قد والله استنكرتُ من ذلك ما استنكرتَه يا أمير المؤمنين لو كانت سمتني باسم المباركة صلوات الله عليها مريم! فضحك عبدالملك، وقال: اخرج.

هارون ولاعب شطرنج

لعب رجل بين يدي هارون بالشطرنج، فلما رآه قد استجاد لعبَه وفاوضه الكلام قال: ولِّني نهر بوق. قال: بل أوليك نصفه؛ اكتبوا عهده على بوق. قال: فولّني على أرمينية. قال: أخشى أن يبطىء عليَّ خبرك. قال: فغيرها. قال: لا أريد أن أبعدك عن نفسي.

سعد بن الرابية وزياد

اختصم إلى زياد بنو راسب وبنو طفاوة في غلام آدعوه، وأقاموا جميعاً البينة عند زياد؛ فأشكل على زياد أمره، فقال سعد الرابية من بني عمرو بن يربوع أصلح الله الأمير، قد تبين لي في هذا الغلام القضاء؛ ولقد شهدَت البينة لبني راسب والطفاوة، فولني الحكم بينهما. قال: وما عندك في ذلك؟ قال: أرى أن يُلقَى في النهر، فإن رسب فهو لبني راسب، وإن طفا فهو لبني الطفاوة، فأخذ زياد نعليه وقام وقد غلبه الضحك، ثم أرسل إليه: إني أنهاك عن المزاح في مجلسي. قال: أصلح الله الأمير، حضرني أمرٌ خِفْت أن أنساه. فضحك زياد وقال: لا تعودن.

أفصح أهل البصرة وأجلهم

أبو زيد قال: لم يكن بالبصرة أفصح لساناً ولا أظهرُ جمالا من الحسن بن أبي الحسن البصري، وزرعةَ بن أبي حمزة الهلالي.

المتوكل وعبادة المخنث

قال: وأخبرني الوليد بن عبيد البحتري الشاعر قال: كنا عند المتوكل يوماً وبين يديه عُبادة المخنث، فأمر به فأُلقي في بعض البرك في الشتاء، فابتل وكاد يموت برداً؛ قال: أُخرج من البركة وكسي، وجُعل في ناحية في المجلس، فقال له: يا عبادة، كيف أنت؟ وما حالك؟ قال: يا أمير المؤمنين، جئت من الآخرة! فقال له: كيف تركت أخي الواثق؟ قال: لم أَجُزْ بجهنم! فضحك المتوكل وأمر له بصلة.

نوادر أشعب

قال أشعب: فيّ وفي أبي الزناد عَجب؛ كنت أنا وهو في كفالة عائشة بنت عثمان، فما زال يعلو وأسفل حتى بلغنا غايتَنا هذه!

قيل لأشعب: لو أنك حفظت الحديث حِفظَك هذه النوادر لكان أولى بك. قال: قد فعلت: قالوا له: فما حفظت من الحديث؟ قال: حدثني نافع عن ابن عمر عن النبي

ﷺ قال: «من كان فيه خصلتان كُتب عند الله خالصاً مخلصاً». قالوا إن هذا حديث حسن؛ فما هاتان الخصلتان؟ قال: نسي نافع واحدة! ونسيت أنا الأخرى!

وقال أشعب: رأيت رؤيا نصفها حق ونصفها باطل. قالوا كيف ذلك؟ قال: رأيتني أحمل بدرة[١]، فمن شدة ثقلها عليّ كنت اسلح في ثيابي، ثم انتهيت، فإذا أنا بالسلح ولا بدرة!

ساوم أشعب رجلا بقوس، فقال: أقلُّ ثمنها دينار. قال أشعب: والله لو أنك إذا رميت بها طائراً في السماء وقع مشوياً بين رغيفين، ما اشتريتها منك بدينار أبداً!

وقيل لأشعب: خففت صلاتك. قال: لأنها صلاة لا يخالطها رياء!

وضرب الحجاج أعرابياً سبعمائة سوط، وهو يقول عند كل سوط: شكراً لك يا رب! فلقيه أشعب فقال: أتدري لم ضربك الحجاج سبعمائة سوط؟ قال: ما أدري. قال: لكثرة شكرك؛ الله تعالى يقول: ﴿لئن شَكْرتم لأزيدنَّكم﴾[٢] فقال:

يـــا ربِّ لاشكر فلا تَـــزدني   أسأتُ في شكرك فاعـفُ عني

باعِد ثوابَ الشاكرينَ مني

وسأل رجلٌ أشعبَ أن يُسلفه ويؤخّره، فقال هاتان حاجتان، فإذا قضيت لك إحداهما فقد أنصفتُ. قال الرجل: رضيت. قال: فأنا أؤخرك ما شئت ولا أُسلفك!

أبو حاتم عن الأصمعي عن أبي القعقاع قال: رأيت أشعب في السوق يبيع قطيفه[٣] ويقول للمشتري: أريد أن أبرأ إليك من عيب. قال: وما ذاك؟ قال: يحترق تحتها من دفن فيها.

قال أشعب: من بال ولم يضرط كتب من الكاظمين الغيظ.

وقيل لأشعب: هل خُلق خلق أطمعُ منك؟ قال: نعم، أمّي، فإني كنت إذا جئتها

---

(١) البدرة: كيس فيه مقدار من المال يتعامل به: ويقدم في العطايا.

(٢) سورة ابراهيم الآية ٧.

(٣) القطيفة: كساءله أهداب، ودثار او فراش ذو اهداب كأهداب الطنافس.

بفائدة قد أُعطيتها قالت: ما جئت به؟ فأتهجى لها الشيء حرفاً حرفاً! ولقد أُهدي لنا مرة غلام، فقالت: ما أُهدي لنا؟ قلت: « غَين »؛ قالت: ثم ماذا؟ قلت: « لام »، قالت: ثم ماذا؟ قلت: « ألف »، قالت: ثم ماذا؟ قلت: « ميم »؛ فأغمى عليها وجعلت تضرط، ولو أجملت لها الحروف لماتت فرحاً!

وقيل له: ما بلغ من طمعك؟ قال: لم أنظر إلى اثنين يتسارّان إلا حسبت أنهما يأمران لي بشيء!

ونظر أشعب إلى شيخ قبيح الوجه، فقال: ألم ينهكم سليمان بن داود عن أن تخرجوا بالنهار!

ومر أشعب على رجل نجار يعمل طبقا، فقال له: زد فيه طوقاً واحداً تتفضل به علي! قال: وما يدخل عليك؟ قال: لعل يوماً يُهدى إليَّ فيه شيء!

قال الأصمعي، أخبرني هارون بن زكريا عن أشعب قال: أدركت الناس يقولون قتل عثمان.

قال الأصمعي: وعاش أشعب إلى زمان المهدي ورأيته.

نوادر أبي محمد الأعمش

دخل رجل على الأعمش يسأله عن مسألة، فردّ عليه فلم يسمع؛ فقال له: زدني في السماع. قال: ما ذلك لك ولا كرامة. قال: فبيني وبينك رجل من المسلمين قال: فخرجا إلى الطريق، فمر بهما شريك القاضي؛ فقال [الأعمش]: إني حدثت هذا بحديث فلم يسمع، فسألني أن أزيده في السماع لأنه ثقيل السمع، وزعم أن ذلك واجب له، فأَبيت. قال له شريك: عليك أن تزيده، لأنك تقدر أن تزيد في صوتك؛ ولا يقدر أن يزيد في سمعه!

أتت ليلة الشك من رمضان، فكثر الناس عند الأعمش يسألونه عن الصوم فضجر، ثم بعث إلى بيته فجيء إليه برمانة، فشقها ووضعها بين يديه، فكان إذا نظر

الى رجل قد أقبل يريد أن يسأله، تناول حبة فأكلها، فيكفي الرجلَ السؤال ونفسَه الردّ!

قال رقبة بن مصقلة: سَفِهَ علينا الأعمش يوماً، فقالت امرأته من وراء ستر: احملوا عنه، فوالله ما يمنعه من الحج منذ ثلاثين سنة إلا مخافة أن يلطم كريّه[١] أو يشتَم رفيقه.

طلبت بنت الأعمش من الأعمش حاجة، فحجبها بالردّ، فقالت: والله ما أعجب منك، ولكني أعجب من قوم زوّجوك!

ودخل رقبة بن مصقلة على الأعمش، فقال: والله إنا لنأتيك فما تنفعنا، ونتخلف عنك فما تضرُّنا، وإن الوقوف إليك لذَلّ، وإن تركك لحسرة؛ تُسأَل الحكمة فكأنما تُسعَط[٢] الخردل، وما أشبهك إلا بالصماخيفون[٣]، فإنه كريه الشربة نافع للمعدة! فرفع الأعمش رأسه وقال: من هذا المتكلم؟ فقيل له: رقبة بن مصقلة فنكس رأسه.

وقال رجل من تلاميذ الأعمش: صنعت للأعمش طعاماً ثم دعوته، فمضى معي وأنا أقوده، حتى سقطت رجله في حفرة يعملها الصبيان للكرة، فقال: ما هذا؟ قلت حفرة يعملها الصبيان للكرة. قال: لا. ولكنك حفرتها لتقع رجلي فيها! والله لا أكلتُ عندك يومي هذا طعاماً! قال: فحملت الطعام إليه، ثم صنعت له بعد ذلك طعاماً ودعوته إليه، فقال: ادخل بنا الحمام قبل ذلك. فأدخلته الحمام، فلما جئت لأصُبّ الماءَ الحارّ على رأسه، قال: ما دعاك إلى هذا أردت أن تسلخ قفاي! والله لا أكلتُ عندك يومي هذا طعاماً! قال: فحملت الطعام إليه!

وكثر الشعرُ على الأعمش، فقلت له: لم لا تأخذ من شَعرك؟ قال: لا أجد حجّاماً يسكت حتى يفرغ. قلنا له: فإنا نأتيك بحجام ونتقدّم إليه أن يسكت حتى يفرغ. قال: فافعلوا!

---

(١) كريّه: المكاري.

(٢) يسعط الخردل: اي يدخل الخردل في انفه.

(٣) لم نقع على هذه الكلمة من لسان العرب، وقد يكون اسماً لدواء معين.

قال: فأتيناه بحجام واعذرنا إليه ألا يتكلم حتى ينقضي أمره فبدأ الحجام بحلقه، فلما أمعن في حلقه سأله عن مسألة، فنفض ثيابه وقام بنصف رأسه محلوقاً حتى دخل بيته، ثم جئناه بغير، فقال: لا والله لا أخرج إليه حتى تُحلفوه! فحلّفناه ألاّ يسأله عن شيء؛ فخرج إليه.

نوادر محمد بن مطروح الأعرج

ولمحمد بن مطروح الأعرج من التبرم والملح والضجر والترفّع ما هو أحسن من هذا وأوقع.

قال له رجَل يوماً: ما تقول يرحمك الله في رجل مات يوم الجمعة، أيعذب عذاب القبر؟ قال: يعذَّب يوم السبت!

وقال له آخر: أتجد في بعض الحديث أنّ جهنم تَخرب؟ قال: ما أشقاك إن اتكلت على خرابها!

واستسقى بالناس يوماً فأسرع بالصلاة قبل أن يتوافى الناس: فلما انصرف تلقاه بعض الوزراء فقال له: أسرعت أبا عبدالله. قال: ليس علينا أن ننتظر حتى تشربوا وتأكلوا!

وكانت لقومس الكاتب منه منزلة وجِوار، وكان يتحفه ويتفقده بما أمكنه من الهدايا، وكانت صلاته معه في الجامع، والأعرج صاحب الصلاة، فإذا حضرت الصلاة ولم يحضر قومس، قال لبعض القَوَمة: أنت يا شيطان، كلِّم هؤلاء الكلاب لا يقيمون الصلاة حتى يأتي ذلك الخنزير.

فكان برُّه في حبس الصلاة عليه برّاً العقوق خير منه.

وكان يجلس إليه خصي لزرياب، قد حج وتنسك ولزم الجامع، فيتحدّث في مجلسه بأخبار زرياب، ويقول: كان أبو الحسن رحمة الله يقول كذا وكذا. فقال له

الأعرج: من أبو الحسن هذا؟ قال: زرياب. قال: بلغني أنه كان أخرق الناس لاستِ خَصِيّ!

وسأله مرة وقال له: ما تقول في الكبش الأعرج، أيجوز في الأضحية؟ قال: نعم، والخصيُّ أيضاً مثلك!

نوادر شتى

وسمع أبو يعقوب الخريميُّ منصورَ بن عمار صاحب المجالس، يقول في دعائه: اللهم اغفر لأعظمنا ذنباً، وأقسانا قلباً، وأقربنا بالخطيئة عهداً، وأشدّنا على الدنيا حرصاً! فقال له: امرأتي طالق إن كنت دعوت إلا لإبليس!

الأصمعي قال: حدّثنا بعض شيوخنا عن ابن طاوس قال: أقبلت إلى عبدالله بن الحسن. فأدخلني بيتاً قد نُجِّد بالرهاوى والميساني، وكل فِرْشة شريفة؛ قال: فبسطت نطعاً وجلست عليه، وابناه محمد وإبراهيم صبيّان يلعبان، فلما نظرا إليّ قال أحدهما لصاحبه: «ميم». فقال الآخر: «جيم». فقلت أنا: «نون، واو، نون» فاستغربا ضحِكا، وخرجا إلى أبيهما.

أبو زيد قال: سكر حائك من الزُّطّ، فحلف بالطلاق ليغنِّيه أبو علي الأشرس، فمضى معه جماعة إلى أبي علي، فأخبروه، وقالوا: سكر فابتُلي، وحلف بالطلاق لتغنّيّه، فأقبل على الحائك فقال: «يا مُردسَبْز، يا مُرْدخُش، يا مُرْدتَرْ، إياك أن تعود!».

قال أبو زيد: تفسيره: يا سمينٌ أخضر، يا سمين طيب، يا سمين رطب.

وكان شيخ من البخلاء يأتي ابن المقفع، فألح عليه يسأله الغداء عنده، وفي كل ذلك يقول له: أترى أنك تراني أتكلف لك شيئاً؟ لا والله، لا أُقدم لك إلا ما عندي! فأجابه يوماً، فلما أتاه إذا ليس عنده ولا في منزله إلا كسرة يابسة وملح جريش؛ ووقف سائل بالباب، فقال له: بورك فيك! فألحّ عليه بالسؤال، فقال له:

لئن خرجتُ إليك لأدُقَّنّ ساقيك! فقال ابن المقفع للسائل: أنت والله لو علمتَ من صدق وعيده ما علمتُ من صدق موعوده، لم تراده كلمة ولا وقفت طرفَة عين!

مرّ برقبة بن مصقلة رجل زاهد غليظ الرقبة، فقال: هذا رجل زاهد والعلامات فيه بخلاف ذلك. فقال له رجل: أكلِّمه بذلك أصلحك الله! لئلا يكون غيبة؟ قال: كلمْه حتى يكون نميمة!

قال شريك بن عبدالله القاضي: سبعٌ من العجائب: عمياء منتقبة[1]، وسوداء مختضبة، وخصيّ له امرأة، ومخنث يؤمّ قوماً، وشيعيّ أشعريّ، ونخعيّ مُرْجي، وعربيّ أشقر، ثم قال شريك: من المحال عربيٌّ أشقر.

قالوا: كانت في أبي عمرو وضرار بن عمرو ثلاثة من المحال: كان كوفياً معتزلا، وكان من بني عبدالله بن غطفان ويرى رأي الشعوبية، ومحال أن يكون عربي شعوبياً، ومات وهو ابن سبعين سنة...

وقيل لشريح القاضي: أيها أطيب: اللوزينق أو الجوزينق[2]؟ فقال: لا أحكم على غائب!

وسأل رجل عمر بن قيس عن الحصاة من حصى المسجد يجدها الإنسان في ثوبه أو خفه أو جبهته! فقال له: آرم بها. فقال الرجل: زعموا أنها تصيح حتى تُردّ إلى المسجد. قال: دعها تصيح حتى ينشقّ حلقها! قال الرجل: أوَلها حلق؟ قال: فمن أين تصيح؟

وسئل عامر الشعبي عن المسجد الخراب أيُجامَع فيه؟ قال: نعم ويُخرأ فيه؟

الأصمعي قال: وَلي رجل قضاء الأهواز، فأبطأت عليه أرزاقه وليس عنده ما يضحّي به ولا ما يُنفق؛ فشكا ذلك إلى امرأته، وأخبرها ما هو فيه من الضيق، وأنه

---

(١) منتقبة: التي شدت النقاب على وجهها والنقاب: القناع.

(٢) اللوزينق اللوز ينج: ضرب من الحلوى، شبه القطائف يؤدم بدهن اللوز. والجوزنيق: ضرب آخر يؤدم بالجوز.

لا يقدر على أُضحيةٍ؛ فقالت له: لا تغتم، فإنّ عندي ديكا عظيماً قد سمّنْتُه، فإذا كان يوم الأضحى ذبحناه. فبلغ جيرانَه الخبر، فأهدْوا له ثلاثين كبشاً وهو في المصلى لا يعلم؛ فلما صار إلى منزله ورأى ما فيه من الأضاحي، قال لامرأته: من أين هذا؟ قالت: أهدى لنا فلان، وفلان، وفلان... حتى سمتْ له جماعة. فقال لها: يا هذه، تحفَّظي بديكنا هذا، فلهو أكرم على الله من إسحاق بن إبراهيم؛ إنه فدى ذلك بكبش واحد، وفدى ديكنا هذا بثلاثين كبشاً!

نوادر أبي دلامة

خرج أبو دلامة مع المهدي في مَصادٍ لهم، فعنّ لهم ظبي، فرماه المهدي فأصابه، ورمى عليٌّ بن سليمان فأخطأ وأصاب الكلبَ؛ فضحك المهدي وقال لأبي دلامة: قل. فقال:

قد رَمى المهديُّ ظبْياً ... شكّ بالسهم فؤادَهْ
وعليُّ بن سليما ... ن رَمى كلْباً فصاده
فهنيئاً لهما كـ ... ـلّ امرىءٍ يأكل زاده!

وكتب أبو دلامة إلى عيسى بن موسى، وهو والي الكوفة رقعة فيها هذه الأبيات:

إذا جئت الأميرَ فقلْ سلام ... عليك ورحمة الله الرحيم
وأمّا بعد ذاك فلي غريمٌ ... من الأعراب قُبِّحَ من غريم
لزومٌ ما علِمت بباب داري ... لزومَ الكلب أصحابَ الرقيم
له مائةٌ عليّ ونصفُ أُخرى ... ونصفُ النصف في صكّ قديم
دراهمُ ما انتفعتُ بها ولكنْ ... حبوْتُ بها شيوخَ بني تميم

ودخل أبو دلامة على المهدي وعنده محمدُ بن الجهم وزيره، وكان المهديّ يستثقله، فقال لأبي دلامة: والله لا تبرح مكانك حتى تهجو أَحد الثلاثة! فهمَّ أبو دلامة بهجاء ابن الجهم، خاف شرَّه، فرأى أن هجاءَ نفسه أقل ضرراً عليه، فقال:

ألا أَبلِغْ لديك أبا دُلامَهْ ... فليس من الكِرامِ ولا كرامهْ
إذا لبس العِمامةَ كان قرْداً ... وخنزيراً إذا وضع العِمامه

وإن لبس العمامةَ كان فيها   كثَورٍ لا تفارِقُه الكِمامه

وعرض أبو دلامة ليزيد بن مزيد، وهو قادم من الريّ، فأخذ بعنان فرسه وأنشد:

إنّي نَذَرْتُ لئِنْ رأيتُك سالِماً   بِقُرى العِراقِ وأنت ذو وفْرِ
لَتُصَلِّيَنّ على النبيِّ مُحمّدٍ   ولَتَمْلأنّ دَراهِما حِجري!

فقال له: أما الصلاة على محمد فصلى الله على محمد، وأما الدراهم فإلى أن أرجع إن شاء الله. فقال له: لا تفرِّق بينهما، لا فرَّق الله بينك وبين محمد في الجنة! فاقترضها من أصحابه وصبَّها في حجره حتى أثقلتْه.

ودخل أبو دلامة على المهدي فأسمعه مديحاً، فأعجبه وقال له: سل حاجتك! قال: كلب صيد أصطاد به. قال: قد أمرنا لك بكلب تصطاد به. قال: وغلام يقود الكلب. قال: قد أمرنا لك بغلام. قال: وخادم تطبخ لنا الصيد. قال: وأمرنا لك بخادم. قال: ودار نأوي إليها. قال: وأمرنا لك بدار. قال: بقي الآن المعاش. قال: قد أقطعناك ألف جريب[1] عامرة وألف جريب غامرة. قال: وما الغامرة؟ قال: التي لا تعمر. قال: فأنا أُقطع أمير المؤمنين خمسين ألفاً من فيافي بني أسد! قال: فإنَّا نجعلها عامرة كلها. قال: فيأذن أمير المؤمنين في تقبيل يده. قال: أما هذه فدعها، قال: ما منعتَني شيئاً أيسر على أُمِّ عيالي فقداً منه!

المضحكات

خاطب يزكيه وسيط:

أبو الحسن المدائني قال: خطب رجلٌ من بني كلاب امرأةً، فقالت أمها: دعني حتى أسأل عنك. فانصرف الرجلُ فسأل عن أكرم الحيّ عليها؛ فدُلَّ على شيخ منهم كان يُحسنُ التوسط في الأمر، فأتاه يسأله أن يُحسن عليه الثناء، وانتسب له فعرفه؛

(١) الجريب: مكيال قدر اربعة اقفزة.

ثم إن العجوزَ غدت عليه فسألته عن الرجل، فقال: أنا أعرف الناس به. قالت: فكيف لسانُه؟ قال: مِدْرَهُ[1] قومه وخطيبهم! قالت: فكيف شجاعتُه؟ قال: منيع الجار حامي الذمار! قالت: فكيف سماحتُه؟ قال: ثِمال[2] قومه وربيعهم! وأقبل الفتى، فقال الشيخ: ما أحسن والله ما أقبل! ما انثنى ولا انحنى. ودنا الفتى فسلّم، فقال: ما أحسن والله ما سلّم! ما جَأر ولا خار. ثم جلس، فقال: ما أحسن والله ما جلس! ما دنا ولا نأى. وذهب الفتى ليتحرّك فضرط، فقال الشيخ: ما أحسن والله ما ضرط! ما أظنَّها ولا أغنَّها، ولا بَرْبَرها ولا قرْقَرَها. ونهض الفتى خجلاً، فقال: ما أحسن والله ما نهض! [ما انفتل ولا انخزل. وأسرع الفتى، فقال: ما أحسن والله ما خطا]! ما ازورّ ولا اقطوطى[3] فقالت العجوز: حسبك يا هذا! وجِّه إليه من يردُّه، فوالله لو سلح في ثيابه لزوّجناه!

خاطب من أهل المجون:

وخطب رجل امرأة، فجعل يخطبها ويُنعظ، فضرب رأس ذَكره بيده وقال: مَهْ! إليك يساق الحديث.

لأبي تمام في غلام وحمار:

أبو سويد قال: كان لحبيب بن أوس حمارٌ حصان، وغلام مؤنَّث، فإذا نزل أخذ الحمار ينهق والغلام يَمْجُن في كلامه؛ فقلنا له: إنما أنت فضيحة، فهل قلت فيهما شيئاً؟ قال:

لي حمارٌ وغلامٌ وهمـــا مختلفـــان
أَيـــر ذا يُنْعِـــظُ للنَّيـ ـكِ وذا رخْـو العنـان
لـو بهذا عــفَّ هــذا لاستراح الثَّقَلان

---

(١) المدره: السيد الشريف، وزعيم القوم وخطيبهم المتكلم عنهم، والمحامي.

(٢) الثمال: الملجأ والغياث.

(٣) اقطوطى: قارب في خطوه.

محمد بن الحجاج البزَّاز ـ وكان راوية بشار ـ قال: قال بشار ذات يوم، وهو يعبث، وكان مات له حمار قبل ذلك، قال: رأيت حماري البارحةَ في النوم، فقلت له: ويلك! مالك مُتّ؟ قال: إنك ركبتني يوم كذا وكذا، فمررنا على باب الأصبهَاني، فرأيت أتانا[1] عند بابه، فعشقتها فمت! وأنشد:

سيّدي خُذْ لي أمانا من أتان الأصبهاني
إنّ بالباب أتاناً فَضلتْ كلَّ أتان
تيَّمَتْني يومَ رُحْنا بثَنَاياها الحِسان
وبغُنْج ودَلال سلَّ جسمي وبَرَاني
ولها خدٌّ أسيلٌ مثلُ خدِّ الشَيْقران
فبها متُّ ولو عِشْتُ إذاً طال هَواني!

فقال له رجل من القوم: يا أبا معاذ، ما الشيقران؟ قال: هو شيء يتحدّث به الحمير. فإذا لقيت حماراً فاسأله.

وقيل لأعرابي وهو واقف على ركيّة[2] مالحة: كيف هذا الماء؟ قال: يخطيء القلب، ويصيب الاست.

وأُخذ رجلٌ شرب، فأتى به الوالي فقال: استنكهوه. فقالوا: إن نكهته لا تُبين عنه. قال: فقيئوه. فقال الشارب: فإن لم أقيء شراباً فمن يضمن لي عَشائي؟

رافق أعرابي أعرابياً في سفر فقال: أنا والله أشتهي كَشْكِيَّة[3]. ومدّ بها صوته فضرط، فقال له صاحبه: ما نَفَخَتْك يا بن عمّ!

أبو الخطاب قال: كان عندنا رجل أحدب فسقط في بئر فذهبت حدبتُه وصار آدَر، فدخلوا ليهنئوه، فقال: الذي جاء شرٌّ من الذي ذهب.

أبو حاتم قال: رُمي رجل أعور بنشابة، فأصابت عينه الصحيحة، فقال: أمسينا وأمسى الملك لله.

---

(١) الأتان: انثى الحمار.
(٢) الركيّة: البئر لم تطو. (٣) الكشكية: نسبة الى الكشك.

وقال رجل للجماز: ولدت امرأتي لستة أشهر. فقال: لقد كان إناؤها ضاريا.

قالوا: أُتي الحجاج بسفَط قد أُصيب في بعض خزائن كسرى، مقفل؛ فأمر بالقفل فكسر، فإذا فيه سفط[1] آخر مقفل؛ فقال الحجاج: من يشتري مني هذا السفط بما فيه؟ فتزايد فيه أصحابه، حتى بلغ خمسة آلاف دينار، فأخذه الحجاج ونظر فيه فقال: ما عسى أن يكون فيه إلا حماقة من حماقات العَجَم! ثم أنفذ البيع وعزم على المشتري أن يفتحه ويريه ما فيه؛ ففتحه بين يديه، فإذا فيه رقعة مكتوب فيها: من أراد أن تطول لحيته فليمشطها من أسفل.

الزبير بن بكار قال: جاءت امرأة إلى ابن الزبير تستعدي على زوجها وتزعم أنه يصيب جاريتها؛ فأمر به فأُحضر، فسأله عما ادعت، فقال: هي سوداء وجاريتها سوداء، وفي بصري ضعف، ويضرب الليل برواقه[2]، فأنا آخذ مَن دنا مني.

قال: وخطب رجل خطبة نكاح وأعرابي حاضر، فقال: الحمد لله، أحمده وأستعينه وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. حي على الصلاة، حي على الفلاح. فقال الأعرابي: لا تُقم الصلاة، فإني على غير وضوء.

وقال: سمعت أبا موسى عيسى الضَّمريّ يقول: دخلت الحمام فإذا بأعمى قد ركب أعمى؛ فقال له: ما هذا؟ قال: ظلمات بعضها فوق بعض.

قال العوّام بن حوشب: قال لي عيسى بن موسى: من أرضعتْك؟ قلت: ما أرضعني إلا أمي. قال: قد علمت أن ذلك الوجه القبيح لا يصبر عليه سوى أمِّك.

وكان رجل مَقِيت[3] قد تنسّك وتشبه بالحسن البصري، فشهد جنازة، فوقف على

---

(١) السَّفط: وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه، من ادوات النساء.

(٢) رواق الليل: مقدمه وجانبه.

(٣) المقيت: البغيض.

القبر وإلى جانبه رجل مليح، فضحك، فقال له الناسك: ما أعددت لهذه الحفرة يا فلان؟ قال: قذْفك فيها الساعة.

ودخل أعرابي الحمام فضرط، فقال نبطيٌّ كان في الحمام: صُبحان الله. فقال له الأعرابي: يا بن اللخناء، ضرطتي أفصح من تسبيحك.

وقيل لأعرابي: مالك لا تجاهد؟ قال: والله إني أبغض الموت على فراشي، فكيف أسعى إليه ركضاً.

شهادة أعرابي:

واستُشهد أعرابيٌّ على رجل وامرأة زَنيا، فقيل له، أرأيته داخلاً وخارجاً كالمِرْود في المكحلة؟ فقال: والله لو كنت جلدة استها ما رأيت هذا.

وجُد منبوذ بضفّة العراق وعند رأسه مائة دينار، ورقعة مكتوب فيها: أنا ابن الشقي وابن الشقية، وابن القدح والرطليّة، وابن البغي والبغيَّة، من كفَلني فله هذه الميّة.

السندي بن شاهك والحجام:

السندي بن شاهك قال: بعث إليَّ المأمون بريداً وأنا بخراسان، فطويت المراحل حتى أتيت باب أمير المؤمنين وقد هاج بي الدم، فوجدته نائماً، فأعلمت الحاجب بقصتي وقدّمت إليه عذري وما هاج بي من الدم، وانصرفت إلى منزلي فقلت: أحضروا إليَّ الحجّام. قالوا: هو محموم. قلت: فهاتوا حجاماً غيره ولا يكون فضوليا. فأتوني به، فما هو إلا أن دارت يده على وجهي حتى قال: جُعلت فداك! هذا وجه لا أعرفه، فمن أنت؟ قلت: السندي بن شاهك. قال: ومن أين قدمت، فإني أرى أثر السفر عليك؟ قلت: من خراسان. قال: وأيُّ شيء أقدمك؟ قلت: وجه إليّ أمير المؤمنين بريداً... ولكن إذا فرغت فسأخبرك بالقصة على وجهها. قال: وتعرِّفني بالمنازل والسكك التي جئت عليها؟ قلت: نعم.

قال: فما هو إلا أن فرغ حتى دخل رسول الله أمير المؤمنين ومعه كركي[1]، فقال: إن أمير المؤمنين يقرئك السلام وهو يعذرك فيما هاج بك من الدم، وقد أمرك بالتخلف في منزلك إلى أن تغدو عليه إن شاء الله، ويقول: ما أُهديَ إلينا اليوم غير هذا الكركي. فشأنك به. قال: فالتفت السندي إلى جلسائه فقال: ما يضع بهذا الكركي؟ فقال الحجام: يُطبخ سكباجا[2]. قال السندي: يُصنع كما قال. وحلف على الحجام الآّ يبرح؛ فحضر الغذاءُ فتغدّينا وهو ينظر، ثم قُدِّم الشراب، فلما دارت الأقدام قلت: يعلّق الحجام من العقِبين[3]! ثم قلت: جُعلت فداك! سألني عن المنازل والسكك[4] التي قدمت عليها وأنا مشغول في ذلك الوقت؛ وأنا أقصها عليك [الآن] فاستمع: خرجت من خراسان وقت كذا، فنزلت كذا... يا غلام، اضرب! فضربه عشرة أسواط؛ ثم قلت: وخرجت منه إلى مكان كذا... يا غلام، أوجع! فضربه عشرة أسواط أخرى؛ ولم يزل يضربه لكل سكة عشرة، حتى انتهى إلى سبعين سوطاً فالتفت إليّ الحجام وقال: يا سيدي، سألتك بالله، إلى أين تريد أن تبلغ؟ قلت: إلى بغداد. قال: لست تبلغ حتى تقتلني. قلت: فأتركك على ألاّ تعود؟ قال: والله لا أعود أبداً. قال: فتركته، وأمرت له بسبعين درهماً: فلما دخلت على المأمون أخبرته الخبر؛ فقال: وددت أنك بلغت به إلى أن تأتي على نفسه.

فتوى أبي ضمضم:

أتت جاريةٌ أبا ضمضم فقالت: إن هذا قبّلني. فقال قبِّليه، فإنّ الله يقول: ﴿والجُروح قصاصٌ﴾[5].

وارتفع رجلان إلى أبي ضمضم، فقال أحدهما: أبقاك الله، إن هذا قتل ابني.

(١) الكركي: طائر كبير، اغبر اللون، طويل العنق والرجلين، ابتر الذنب، قليل اللحم، يأوي الى الماء احياناً.

(٢) السكباج: طعام يعمل من اللحم والخل مع توابل وافاوية.

(٣) العقابان: خشبتان يشبح الرجل بينهما ليجلد.

(٤) السكك، جمع سكة: الطريق المستوي.

(٥) سورة المائدة الآية ٤٥.

قال: هل لابنك أم؟ قال: نعم. قال: ادفعها إليه حتى يولدها لك ولداً مثل ولدك، ويربيه حتى يبلغ مثل ولدك، ويبرأ به إليك.

حيطة أعمى:

وكان بالمدينة أعمى يكنى أبا عبد الله، أتى يوماً يغتسل من عين، فدخل بثيابه؛ فقيل له: بللت ثيابك. قال: تبتلّ عليّ أحبُّ إليّ من أن تجف على غيري.

طبع الناسك:

وفي كتاب الهند أن ناسكاً كان له سمنٌ في جرّة معلقة على سريره، ففكر يوماً وهو مضطجع على سريره وبيده عكاز؛ فقال: أبيع الجرة بعشرة دراهم، فأشتري بها خمس أعنز، فأُدهن في كل سنة مرتين؛ حتى تبلغ ثمانين وأبيعهن، فأبتاع بكل عشرة بقرة، ثم ينمى المال بيدي، فأبتاع العبيد والإماء، ويولد لي ولد فآخذ به في الأدب، فإن عصاني ضربته بهذه العصا. وأشار بالعصا فأصاب الجرة، فانكسرت وانصبَّ السمن على وجهه ورأسه.

شهادة الحمير:

الزبير قال: حدثنا بكار بن رباح قال: كان بمكة رجل يجمع بين الرجال والنساء ويحمل لهم الشراب، فشُكِيَ إلى عامل مكة، فنفاه إلى عرفات، فبنى بها منزلاً وأرسل إلى إخوانه فقال: ما منعكم أن تعاودوا ما كنتم فيه؟ قالوا: وأين بك وأنت في عرفات؟ قال: حمارٌ بدرهم وقد صرتم على الأمن والنزهة. ففعلوا فكانوا يركبون إليه حتى فسدت أحداث مكة؛ فأعادوا شكايته إلى والي مكة. فأرسل إليه فأُتي به، فقال: يا عدوّ الله! طردتك فصرت تفسد في المشعر الحرام قال: يكذبون عليّ أصلح الله الأمير. فقالوا: أصلحك الله، الدليل على صحة ما نقول أن تأمر بجمع حمير مكة فترسل بها أمناء إلى عرفات فيرسلوها، فإن تَهتدِ إلى منزله دون المنازل كعادتها فنحن غير مبطلين. فقال الوالي: إن في هذا لدليلاً وشاهداً عدلاً.

فأمر بحمير من حُمُر مكة التي للكراء فأرسلت، فصارت إلى منزله كما هي بغير دليل، فأعلمه بذلك أمناؤه، فقال: ما بعد هذا شيء؛ جرّدوه! فلما نظر إلى السياط قال: لا بد أصلحك الله من ضربي؟ قال: نعم يا عدوّ الله. قال: والله ما في ذلك شيء هو أشدّ عليَّ من أن يشمت بنا أهل العراق ويضحكون منا ويقولون: أهل مكة يجيزون شهادة الحمير! قال: فضحك الوالي وخلَّى سبيله.

هنأ رجلٌ رجلاً في أعرابية. فقال: باليمن والبركة، وشدّة الحركة، والظفر في المعركة.

وصف حمار:

الهيثم بن عدي قال: بينا أنا بكُناسة الكوفة. إذا برجل مكفوف البصر قد وقف على نخاس يسوق الدواب، فقال له: أبغني حماراً لا بالصغير المحتقر، ولا بالكبير المشتهر، إذا خلا له الطريق تدفق، وإذا كثر الزحام توفق، وإن أقللت علفه صبر، وإن أكثرته شكر، وإذا ركبته هام، وإن ركبه غيري نام. قال له النخاس: يا عبدالله اصبر، فإذا مَسخ الله القاضي حماراً أصبتَ حاجتك إن شاء الله!

وصف فرس:

قال: ودخل رجل السوق في شراء فرس، فقال له النخاس: صفه لي. فقال: أريدُه حسنَ القميص، جيِّد الفصوص[1]، وثيق العصب، نقي القصب، يشير بأُذنيه ويتشوّف برأسه، ويخطر بيده، ويدحُو[2] برجليه، كأنه موج في لجة، أو سيل في حَدور، أو منحطٌّ من جبل! فقال له النخاس: نعم، كذلك كان صلوات الله عليه! قال: إنما أصف لك فرساً. قال: ما حسبتُك إلا في وصف نبيّ منذ اليوم.

هجاء أبي نخيلة لليمن:

قال ودخل ابن نخيلة اليمن، فلم ير بها أحداً حسناً، ورأى نفسه ـ وكان قبيحاً ـ

---

(١) الفصّ: ملتقى كل عظمين.

(٢) يقال: دحا الفرس: اي رمى بيديه رميا. لا يرفع سنبكه عن الأرض كثيراً.

أحسن من بها فقال:

لـم أر غيري حسنـــــاً مُنْـذُ دخلـــتُ اليمنـــا
ففـــي حـــر آمٍّ بلـــدةِ أحسـنُ مـــا فيهـــا أنـــا!

كناس الكوفة:

محمد بن إسحاق قال: قال سفيان بن عيينة: دخلت الكوفة في يوم فيه رذاذ من مطر، فإذا أنا بكنَّاس فتح كنيفا ووقف على رأس البئر وهو يقول:

بَلـد طيِّـــبٌ ويـــومٌ مطيرُ هذه روضة وهــذا غَـديـر

ثم قال لصاحبه: انزل فيها. فأبى عليه؛ فنزل وهو يقول:

لم يُطيقوا أن يَنزلـوا ونـزلنـا وأخو الحربِ من أطاق النُّـزولا

كناس آخر:

الأصمعي قال: بينا أنا سائر بالفيفاء، إذ سمعت صوتاً يقول[1]:

جنِّبُونِي ديـارَ هِنـد وسُعـدى ليس مثلي يحُلُّ دار الهوانِ

قال: فالتفتّ يَمْنة وشِمالاً، فإذا الصوت خارج من حشّ[2]؛ فأقبلت حتى وقفت عليه، فإذا بكناس وبيده فأس؛ فقلت: يا سبحان الله! أنت تكنس عذرة وتقول:

ليس مثلي يحل دار الهوان

فأنَّى ذلك؟ وأيّ هوان أكثر مما أنت فيه؟ قال: فرفع رأسه إليّ وقال:

لا تلُمني فـــإنني نشـــوانُ أنا في الملكِ مـا سقَتْني الدِّنـانُ

فقلت: ما هو إلا كقول الآخر:

من قرَّ عينا بعيْشِهِ نفعَهْ

---

(١) الفيفاء: اسم موضع. (٢) الحش: البستان.

ولعلي بن الجهم:

أعظـــمُ ذَنْبي عنـــدكم وُدِّي فليْـت هـذا ذَنبُكـم عِنـدي

يا حسْرَتـا أهلِـكُ وجْـدا بمن لا يَعرِفُ الشكوى من الوَجْـدِ

خبر الجعدين:

حماد الراوية قال: أتيت مكة، فجلست في حلقة منها فيها عمر بن أبي ربيعة القرشي، وإذا هم يتذاكرون العُذريين وعشقهم وصبابتهم، فقال عمر بن أبي ربيعة، أحدِّثكـم عن بعض ذلك.

كان لي خليلٌ من عُذرة، [يقال له الجعد بن مهجع، و] يكنى أبا مسهر وكان مشتهراً بأحاديث النساء، يُشبّب بهن وينشد فيهن، على أنه كان لا عاهر الخلوة، ولا حديث السلوة؛ وكان يوافي الموسم في كل سنة، فإذا أبطأ ترجمت له الأخبار، واستُوقفتْ له السُّفّارة(١).

وإنه غاب عني ذات سنةٍ خبره، حتى قدم وفد عذرة، فأتيت القوم أنشدُ صاحبي، فإذا رجلُ يتنفس الصعداء؛ فقال: عن أبي مسهر تسأل؟ قلت: نعم. قال: هيهات هيهات! أصبح والله أبـو مسهر لا حيّاً يُرجى، ولا ميتاً ينسى، ولكنه كما قال الشاعر:

لعمرُكَ ما هـذا الغـرامُ بتـارِكـي صحيحاً ولا أقضِـي بـه فـأمـوتُ

فقلت: وما الذي به؟ قال: مثل الذي بك من آنهاككما في الضلال، وجرّكما أذيال الخسران، كأنكما لم تسمعا بجنة ولا نار! قلت: ما أنت منه يا بن أخي؟ قال: أخوه. قلت: والله [ما يمنعك أن تسلك مسلكه الذي سلك إلا] أنك وأخاك كالوشي والبجاد(٢)، لا يرقعك ولا ترقعه! ثم انطلقت وأنا أقول:

أرائحـةٌ حُجّـاجُ عُـذْرَةَ رَوْحَـةً ولما يَرُح في القومِ جعدُ بن مِهجـع

---

(١) السُّفارة: الكناسة.

(٢) البجاد: كساء مخطط.

خليلان نَشكو ما نُلاقي مـن الهوى ... ومهما يقُل أسمَعْ وإن قلت يسمَـعِ
ألا ليت شعري أي خَطْب أصابـهُ ... فلي زفراتٌ هْجنَ مـا بينِ أضلُـع
فلا يُبعِــدَنــك الله خِلا فــإنني ... سألقى كما لاقيتَ في الحبِّ مصرعي

قال: فلما حججت ووقفت بعرفات، إذا به قد أقبل، وقد تغير لونه وساءت هيئته، وما عرفته إلا بناقته؛ فأقبل [فأدنى ناقته من ناقتي] حتى خالف بين أعناقها، ثم اعتنقني وجعل يبكي، فقلت له: ما الذي دهاك؟ قال: بَرح الخفاء وكشف الغِطاء ثم أنشد يقول:

لئـن كـانـت عُـديلـةُ ذات مَطْـل ... لقـد علمــت بــأنّ الحبّ داءُ(١)
[ألم تنظـــــــر إلى تغبير جِمسي ... وأنّـــي لا يفـــارقني البُكـــاء]
وإنـــكَ لـــو تكلفـــت الذي بي ... لـزالَ السِّتْـرُ وانكشــف الغطــاء
وإن معــاشري ورجــالَ قـــومـــي ... حُتـــوفهـــم الصّبـــابـــة واللقـــاء
إذا العُـذْريُّ مـات بحتْـفِ أنــف ... فــذاكَ العبــدُ تحكيـــه الرِّشـــاء

فقلت: يا أبا مسهر، إنها ساعة عظيمة، تُضرب فيها أكبادُ الإبل من شرق الأرض وغربها، فلو دعوتَ الله كنت قمِنا أن تظفَرَ بحاجتك، وتنصرَ على عدوّك فجعل يدعو، حتى إذا مالت الشمس للغروب، وهم الناس أن يُفيضوا سمعتُه يُهينِم بشيء، فأصغيت مسمعاً، فجعل يقول:

يــا ربِّ كـــلِّ غـــدْوةٍ وروحَـــهْ ... من مُحْرِم يشكو الضِّبا ونَوحَـه(٢)
أنت حسيبُ الخلقِ يوم الدوحهْ

فقلت له وما يوم الدوحة؟ قال: سأخبرك إن شاء الله، ولو لم تسلْني. فيممنا نحو المزدلفة، فأقبل عليّ وقال: إني رجل ذو مال كثير، من نَعم وشاء، وإني خشيت على مالي عامَ أوّل التلف، فأتيت أخوالي كلبا، فأوسعوا لي عن صدر المجلس وسقَوني

---

(١) المطل: تأجيل موعد الوفاء مرة بعد اخرى.
(٢) الغدوة: الغداة: ما بين الفجر وطلوع الشمس.

جمة البئر[1]، وكنت منهم في خير أخوال؛ ثم إني عزمت على مواقعة إبلي بماء لهم يقال له الحوادث؛ فركبت يوماً فرسي، وعلقت معي شراباً أهداه إلي بعض الكلبيين، فانطلقت؛ حتى إذا كنت بين الحي ومرعى النعم، رفعت لي دوحةٌ عظيمة، فقلت: لو نزلت تحت هذه الشجرة ثم تروّحت مبرداً! ففعلت، فشددت فرسي ببعض أغصانها، ثم جلست تحتها، فإذا بغبار [قد] سطع من ناحية الحي، ثم تبينت، فبدت لي شخوص ثلاثة، فإذا فارس يطرد مسحلاً[2] وأتانا، فلما قرُب مني إذا عليه درع أصفر وعمامة خز سوداء؛ فما لبث أن لحق المسحل فطعنه فصرعه، ثم ثنى طعنة للأتان، وأقبل وهو يقول:

نطعنُهُـم سُلْكـى ومخلـوجـةً   كـرك لأمَيْـنِ على نـابِـلِ[3]

فقلت له: إنك قد تعبت وأتعبْت، فلو نزلت، فثنى رجله ونزل وشدّ فرسه ببعض أغصان الشجرة؛ ثم أقبل حتى جلس، فجعل يحدثني حديثاً ذكرت به قول الشاعر:

وإنّ حـديثـا منـكِ لـو تبـذلينَـه   جنى النحلِ في ألبانِ عوذٍ مطافِـل[4]

فبينا هو كذلك، إذ نكت بالسوق على ثنيتيه، فما ملكت نفسي أن قبضت على السوط وقلت: مه! فقال: ولم؟ قلت: إني خائفٌ أن تكسرها؛ إنهما رقيقتان عذبتان. قال: فرفع عقيرته وجعل يقول:

إذا قبّـلَ الإنسـانُ آخـرَ يَشتهـي   ثنـايـاهُ لم يـأثم وكـان لـه أجـرُ

وقال: ما هذا الذي جعلت في سرجك؟ قلت: شرابٌ أهداه إليّ بعضُ أهلك. فهل لك فيه؟ قال: ما نكرهه إذا كُره. فأتيتُه به، فوضعتُه بيني وبينه، فلما شرب منه شيئاً نظرت إلى عينيه كأنهما عينا مهاة قد أضلت ولدَها؛ ثم رفع عقيرته يتغنى:

---

(١) جمة البئر: ما جُمّ منها وارتفع.

(٢) المسحل: الحمار الوحشي.

(٣) سلكى: مستقيمة، لأمين: سهمين عليهما ريشهما.

(٤) عوذ: جمع عائذة وهي الناقة الحديثة العهد بالنتاج، والمطافل: التي جاءت بطفل.

إنّ العيونَ التي في طَرْفِها مرض قتَلْنَنا ثمَّ لم يُحْيِين قتْلانا
يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حتى لا حَراك به وهُنَّ أضعفُ خلقِ اللهِ إنسانا

ثم قمت لأُصْلحَ من أمر فرسي، فرجعت وقد حسر العمامة عن رأسه؛ وإذا غلامٌ كأنّ وجهَه دينار هرقلي، فقلت: سبحانك اللهم! ما أعظمَ قدرتك! قال: فكيف؟ قلت: ذلك مما راعني من نورك، وبهرني من جمالك! قال: وما الذي يروعك من زرق العيون وحبيس التراب، ثم لا تدري أيَنعَمُ بعدَك أم يَبْأَسُ؟ قلت: لا يصنع الله بك إلا خيراً.

ثم قام إلى فرسه، فلما أقبل برقت لي بارقة من تحت الدرع، فإذا ثديٌ كأنه حُقّ[1] عاج، قلت: نشدتك الله، آمرأةٌ أنت؟ قالت: إي والله، وتكرهُ العُهْر، وتحب الغَزَل! قلت: وأنا والله كذلك! فجلست والله تحدثني ما أُنْكِرُ من أمرها شيئاً، حتى مالت على الدوحة سَكرى؛ فاستحسنت والله يا ابن أبي ربيعة الغدر، وزُيِّن في عيني؛ ثم إن الله عصمني؛ فما لبثتْ أن انتبهت مذعورة، فلاثت عمامتها برأسها، وأخذت الرمح، وجالت في متن فرسها؛ فقلت: مضيت ولم تزوِّديني منك زاداً! فأعطتْني بنانها فشممت والله منها كالنبات الممطور زُهر[2] الثلج؛ ثم قلت: أين الموعد؟ قالت: إن لي إخوة شُرْساً[3] وأبا غيوراً، والله لأن أَسرّك أحبُّ إليّ من أن أضرّك! ثم مضت فكان والله آخرَ العهد بها إلى يومي هذا، وهي التي بلّغتْني هذا المبلغ وأحلّتْني هذا المحل!

قال: فدخلتني له رقّة؛ فلما انقضى الموسم شددتُ على ناقتي وشدّ على ناقته، وحملت غلاماً لي على بعير، وحملت عليه قبة حمراء من أَدَم كانت لأبي ربيعة،

---

(١) الحُقّ: وعاء صغير ذو غطاء يتخذ من عاج او زجاج او غيرهما.
(٢) الزهر: جمع أزهر، وهو الأبيض.
(٣) شرساً: جمع أشرس: وهو العسر الخلق الشديد الخلاف.

وأخذت معي ألف دينار، ومطْرَفَ[1] خزّ؛ ثم خرجنا حتى أتينا بلاد كلب، فإذا الشيخ في نادي الحيّ، فسلمتُ عليه، فقال: وعليك السلام، من أنت؟ فقلت: عمرُ بنُ أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي. قال: المعروف غير المنكور، فما الذي جاء بك؟ قلت: جئتك خاطباً، قال: أنت الكُفءُ لا يُرغَب عن وصله، والرجل الذي لا يُردّ عن حاجته. قال: قلت: إني لم آتك لنفسي وإن كنتَ في موضع الرغبة، ولكنني أتيتكم لابن أختِكم العُذري. قال: والله إنه لكفءُ الحَسب، كريمُ النسب؛ غير أن بناتي لم يعرفن هذا الحي من قريش.

قال: فعرف الجزع من ذلك في وجهي؛ فقال: أما إني أصنع في ذلك ما لم أصنعْه قط لغيرك؛ أُخيِّرُها في نفسها، فهي وما اختارت. فقلت: خيِّرْها. فأرسل إليها: إن من الأمر كذا وكذا، فالرأيُ رأيُك.

فقالت: ما كنت لأستبدّ برأي دون رأي القرشي، خياري ما اختار. قال: قد ردّتِ الأمرَ إليك. فحمدت الله وصليت على النبي ﷺ، وقلت: قد زوجْتُها العذريّ [الجعد بن] مهجع. وأصدقتُها عنه الألف دينار، وجعلت تكرمتَها العبد والبعيرَ والقبّة، وكسوتُ الشيخ المِطْرَف، فسُرّ به، وسألته أن يبني بها من ليلته، فأجابني إلى ذلك؛ فضربت القبة في وسط الحيّ، وأُهديت إليه ليلاً، وبت عند الشيخ في خير مبيت، فلما أصبحت غدوت فقمت بباب القبة، فخرج إليّ وقد تبين الجذل فيه، فقلت: كيف كنت بعدي أبا مُسْهر؟ قال: أبدت لي كثيراً مما كانت تُخْفيه يوم رأيتُها. فقلت: أقِمْ عند أهلك بارك الله لك! ثم انطلقت إلى أهلي وأنا أقول:

كَفيت الفتى العُذْريَّ ما كان نابَـهُ ... ومِثلِي لأثقالِ النَّوائـبِ يَحمِـلُ[2]
أمَا استحسَنتْ منِّي المكـارمُ والعُلا ... إذا صَرَّحـتْ أنِّـي أقـول وأفعـل

---

(١) المطرف: رداء او ثوب من خز مربع ذو اعلام.

(٢) النوائب: المصائب.

زواج المأمون ببوران

حدث أبو محمد الشعبي الورّاق ـ وكان عند باب خراسان عند باب الجسر الأول ـ عن حماد بن إسحاق عن أبيه إسحاق بن إبراهيم بن ميمون الموصلي، قال:

بينا أنا ذات يوم عند المأمون وقد خلا وجهه وطابت نفسه، إذ قال لي: يا إسحاق، هذا يوم خلوة وطيب. فقلت: طيَّب الله عيش أمير المؤمنين، ودام سرورُه وفرحه! فقال: يا غلمان، خذوا علينا الباب وأحضروا الشراب. قال: ثم أخذ بيدي وأدخلني في مجلس غير المجالس التي كنا فيها، وإذا قد نُصبت الموائد، وأُصلح ما كان يحتاج إليه الحال، حتى كأنه شيء قد كان تقدَّم فيه؛ قال: فأكلنا وأخذنا في الشراب، فأقبلت السَّتِيراتُ[1] من كل ناحية بضروب من الغناء وصنوف من اللهو؛ فلم نزل على ذلك إلى آخر النهار.

فلما غربت الشمس قال لي: يا إسحق، خير أيام الفتى أيام الطرب! قلت: هو والله ذاك يا أمير المؤمنين. قال: فإني فكَّرت في شيء فهل لك فيه؟ قلت: لا أتأخر عن رأي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه! قال: لعلنا نباكر الصبوح في غدوتنا هذه، وقد عزمت على دخلة إلى الحرم، فكن بمكانك ولا ترِمْ،[2] فإني أوافيك عن قريب. قلت: السمع والطاعة. ثم نهض إلى دار السلام، فما عُرف له خبر إلى أن ذهب من الليل عامَّتُه.

قال إسحاق: وكان المأمون من أشغف خلق الله بالنساء، وأشدِّهم ميلاً إليهن واستهتاراً بهنّ، وعلمت أن النبيذ قد غلب عليه، وأنهن قد أنسَيْنَه أمري وما كان تقدم إليّ ووعدني من رجوعه، فقلت في نفسي: هو في لذته وأنا ههنا في غير شيء، وفيّ بقية، وعندي صبية كنت قد اشتريتها؛ ونفسي متطلعة إلى افتضاضها. فقمت مسرعاً عند ذكرها، فقال الخدم: على أيٍّ عزمت وإلى أين تريد؟ قلت: أريد الانصراف. قالوا: فإن طلبك أمير المؤمنين؟ قلت هو في سروره قد شغله الطربُ

(١) الستيرات: المستورات. (٢) ولا ترم: اي لا تهم بشيء.

ولذةُ ما هو فيه عن طلبي، وقد كان بيني وبينه موعدٌ قد جاز وقته، ولا وجهَ لجلوسي.

قال: وكنت مقدَّمَ الأمر في دار المأمون، مقبولَ القول فيه، لا أعارَضُ في شيء، إذا أومأتُ إليه؛ فخرجت مبادِراً إلى باب الدار، فلقيني غلمان الدار وأصحاب النوبة[1]، فقالوا: إن غلمانك قد انصرفوا، وكانوا قد جاءوك بدابة، فلما علموا بمبيتك انصرفوا. فقلت: لا ضير، أنا أتمشى إلى البيت وحدي. قالوا: نحْضِرُك دابةً من دواب النوبة؟ قلت: لا حاجة لي في ذلك. قالوا: فنمضي بين يديك بمشعل؟ قلت: لا، ولا أريد أيضاً.

وأقبلت نحو البيت، حتى إذا صرت ببعض الطريق أحسست بحرقة البول، فعدلت إلى بعض الأزقة، لئلا يجوز أحدٌ من العوام فيراني أبول على الطريق؛ فبُلت، حتى إذا قمت إلى المسح ببعض الحيطان، إذا بشيء معلق من تلك الدار إلى الزقاق، فما تمالكت أن تمسَّحت، ثم دنوت إلى ذلك الشيء لأعرف ما هو، فإذا بزنبيل[2] كبير معلق بأربعة مقابض، مُلبس ديباجاً[3]، وفيه أربعة أحبُل ابرَيسم، فلما نظرت إليه وتبينته قلت: والله إن لهذا لسبباً، وإن له لأمراً. فأقمت ساعة أتروّى في أمري وأفكر فيه، حتى إذا طال ذلك بي قلت: والله لأتجاسرنّ ولأجلسنّ فيه كائناً ما كان...

ثم لففت رأسي بردائي وجلست في جوف الزنبيل، فلما أحس من كان على ظهر الحائط بثقله، جذبوا الزنبيل إليهم حتى انتهوا إلى رأس الحائط، فإذا بأربع جوار، فقلن: انزل بالرحب والسعة، أصديقٌ أم جديد؟ فقلت: لا، بل جديد! فقلن: يا جارية، هاتي الشمعة. فابتدرت إحداهن إلى طست فيه شمعة، وأقبلت بين يديّ، حتى نزلت إلى دار نظيفة، فهما من الحسن والظّرف ما حِرْت له، ثم أدخلتني إلى

(١) النوبة: اسم من المناوبة، او جماعة من الناس.

(٢) الزنبيل: الجراب.

(٣) الديباج: ضرب من الثياب. سداه ولحمته من حرير.

مجالس مفروشة، ومناصّ[1] مرصوصة، [فيها من] صُنوف الفرش ما لم أر مثله إلا في دار الخليفة.

فجلست في أدنى مجلس من تلك المجالس، فما شعرت بعد ذلك إلا بضجة وجلبة، وستور قد رفعت في ناحية من نواحي الدار، وإذا بوصائف يتسابقن في أيدي بعضهنّ الشمع، وبعضهنّ المجامر يبخرن فيها العود والندّ؛ وبينهن جارية كأنها تمثال عاج، تتهادى بينهن كالبدر الطالع، بقدٍّ يزري على الغصون؛ فما تمالكت عند رؤيتها أن نهضت، فقالت: مرحباً بك من زائرٍ أتى وليست تلك عادته. وجلست، ورفعت مجلسي عن الموضع الذي كنت فيه، فقالت: كيف كان ذا والله لي ولك، ولا علم كان وقع إليّ؛ فما السبب؟ قال: قلت: انصرفت من عند بعض إخواني، وظننت أني على وقت، فخرجت في وقت ضيق، وأخذني البول فأخذت إلى هذا الطريق، فعدلت إلى هذا الزقاق، فوجدت زنبيلاً معلقاً، فحملني النبيذ فجلست فيه، فإن كان خطأ فالنبيذ أكْسبنيه، وإن كان صواباً فالله ألهمَنيه قالت: لا ضير إن شاء الله، وأرجو أن تحمد عواقب أمرك؛ فما صناعتك؟ قلت: بزّاز[2]. قالت: وأين مولدك؟ قلت: بغداد. قالت: ومن أيِّ الناس أنت؟ قلت: من أماثلهم وأوساطهم. قالت: حيَّاك الله وقرّب دارك!... قالت: فهل رويت من الأشعار شيئاً؟ قلت: شيئاً يسيراً. قالت: فذاكِرنا بشيء مما حفظت قلت: جعلت فداك. إن للداخل دهشة، وفيَّ انقباض؛ ولكن تبتدئين بشيء من ذلك، فالشيء يأتي بالمذاكرة. قالت: لعمري لقد صدقت، فهل تحفظ لفلان قصيدته التي يقول فيها كذا وكذا...؟

ثم أنشدتني لجماعة من الشعراء، القدماء والمحدثين، من أحسن أشعارهم، وأجود أقاويلهم، وأنا مستمع أنظر من أي أحوالها أعجب، من ضبطها، أم من حسن لفظها، أم من حسن أدبها، أم من حسن [روايتها و] جودة ضبطها للغريب، أم من

---

(١) مناصّ: جمع منصة، وهي كرسي مرتفع او سرير يعد للخطيب او للعروس.

(٢) البزاز: بائع البزّ. وهو نوع من الثياب.

اقتدارها على النحو ومعرفة أوزان الشعر؟ ثم قالت: أرجو أن يكون ذهب عنك بعض ما كان من الحصر والانقباض والحشمة[1]. فقلت: إن شاء الله لقد كان ذلك. قالت: فإن رأيت أن تنشدنا من بعض ما تحفظ فافعل.

قال: فاندفعت أُنشد لجماعة من الشعراء؛ فاستحسنت نشيدي وأقبلت تسألني عن أشياء في شعري كالمختبرة لي، وأنا أجيبها بما أعرف في ذلك، وهي مصغية إليّ، ومستحسِنة لما آتى به؛ حتى أتيت على ما فيه مَقْنع؛ قالت: والله ما قصَّرت ولا توهمت في عوام التجار وأبناء السوقة مثل ما معك؛ فكيف معرفتك بالأخبار وأيام الناس؟ قلت: قد نظرت أيضاً في شيء من ذلك. فقالت: يا جارية أحضرينا ما عندك. فما غابت عنا حيناً حتى قدّمت إلينا مائدة لطيفة، قد جمع عليها غرائب الطعام السري؛ فقالت: إن المهالجة أول الرضاع، فتقدمت، فأقبلت أعذِّر بعض التعذير، وهي معي تقطع وتضع بين يديّ، وأنا أغتنم ما أرى من ظرفها وحسن أدبها، حتى رُفعت المائدة.

وأُحضرت آنية النبيذ، فوضعت بين يديّ صينية وقدح ومغسل، وبين يديها مثل ذلك، وفي وسط المجلس من صنوف الرياحين وغرائب الفواكه ما لم أره اجتمع لأحد إلا لوليّ عهد أو سلطان، وقد عبِّيء أحسن تعبئة، وهُيِّيء أحسن تهيئة. قال إسحاق: فتثاقلت عن الشراب لتكون هي المبتدئة، فقالت: مالي أراك متوقفاً عن الشراب؟ قلت: انتظاراً لك، جُعلت فداك! فسكبت قدحاً آخر فشربت.

ثم قالت: هذا أوان المذاكرة، فإن المذاكرة بالأخبار وذكر أيام الناس مما يطرب. قلت: لعمري إن هذا لمن أوقاته. فاندفعت، فقلت: بلغني أنه كذا وكذا... وكان رجل من الملوك يقال له فلان بن فلان... وكان من قصته كذا وكذا...، حتى مررت بعدة أخبار حِسان من أخبار الملوك، وما لا يُتحدث به إلا عند ملك أو خليفة؛ فسُرّت بذلك سروراً شديداً، ثم قالت: والله لقد حدّثتني

---

(١) الحشمة: الحياء، والمسلك الوسط المحمود.

بأحاديث حِسان، ولقد كثر تعجبي من أن يكون أحد من التجار يحفظ مثل هذا، وإنما هذا من أحاديث الملوك، وما لا يُتحدّث به إلا عند ملك أو خليفة. فقلت: جعلت فداك، كان لي جار ينادم بعض الملوك، وكان حسن المعرفة كثير الحفظ؛ فكان ربما تعطل عن نوبته التي كان يذهب فيها إلى دار صاحبه؛ لشغل يمنعه من ذلك، أو لأمر يقطع، فأمضي إليه، وأعزم عليه، وأُصيِّره إلى منزلي؛ فربما أخبرني من هذه الأحاديث شيئاً، إلى أن صرت من خاصة أخدانه وممن كان لا يفارقه؛ فما سمعت مني فمنه أخذته، وعنه استفدته. فقالت: يجب أن يكون هذا كذا. ولعمري لقد حفظت فأحسنت الحفظ، وما هذا إلا لقريحة جيدة وطبع كريم. قال إسحاق: وأخذنا في الشراب والمذاكرة: أبتديء الحديث، فإذا فرغت ابتدأتْ هي في آخَر، حتى قطعنا بذلك عامة الليل، والندّ[1] وفائق البخور يُجدّد، وأنا في حالة لو توهمها المأمون أو تأملها لاستطار سروراً وفرحاً.

ثم قالت لي: يا فلان ـ وكنت قد غيرت عليها اسمي وكنيتي ـ والله إني لأراك كاملاً، وإنك في الرجال لفاضل، وإنك لوضيءُ الوجه، مليح الشكل، بارع الأدب؛ وما بقي عليك إلا شيء واحد حتى تكون قد بَرَّزْت وبَرَعْت. فقلت: وما هو يا سيدتي، دفع الله الأسواء عنك؟ قالت: لو كنت تحرّك بعض الملاهي، أو تترنم ببعض الأشعار. فقلت: والله [إني كنت] قديماً أشتهيه، وطالما كلِفت به وحرَصْت عليه، فلم أُرزَقه ولا يعلق بي شيء منه؛ فلما طال عنائي به، وكلما تقدمت في طلبه كنت منه أبعد وعنه أذهب، تركته وأعرضت عنه، وإن في قلبي من ذلك لحرقة، وإني لمستهتَر به مائل إليه، وما أكره أن أسمع في مجلسي هذا من جيّده شيئاً؛ لتكمل ليلتي ويطيب عيشي! قالت: كأنك قد عرّضت بنا. قلت: لا والله ما هو تعريض، وما هو إلا تصريح؛ وأنت بدأت بالفضل، وأنت أولى مَن أتمّ ما بدأ به. فقالت: يا جارية: عود. فأحضرت عوداً، فأخذته، فما هو إلا أن جَسّته حتى ظننت أن الدار قد سارت بي وبمن فيها، واندفعت تغني، مع صحة أداء وجودة صوت.

---

(١) الندّ: ضرب من النبات يتبخر بعوده.

فقلت: والله لقد جمع الله لكِ خِلال[1] الفضل، وحباكِ بالكمال الرائع، والعقل الزائد، والأخلاق المرضية، والأفعال السنية. فقالت: أما تعرف لمن هذا الصوت ومن غنَّى به؟ قلت: لا والله. قالت: الغناء لإسحاق، والشعر لفلان، وكان سببه كذا وكذا . . . فقلت: هذا والله أحسن من الغناء.

فلم تزل تلك حالها في كل صوت تغنيه، ومع ذلك تشرب وأشرب؛ حتى إذا كان عند انشقاق الفجر، جاءت عجوز كأنها داية[2] لها، فقالت: أي بُنية، إن الوقت قد حضر، فإذا شئت فانهضي. فلما سمعت مقالها نهضت؛ فقالت: عزمت؟ قلت: إي والله. فقالت: مُصاحبا للسلامة، [عزَمْت] عليك لتسترنّ ما كنا فيه، فإن المجالس بالأمانة. فقلت جعلت فداك، أفأحتاج إلى وصية في ذلك؟

فودعتها وودعتني، وقالت: يا جارية، بين يديه. فأُتي بي باب في ناحية الدار ففُتح لي وأُخرجت منه إلى طريق مختصرة، وبادرت البيت، فصليت ووضعت رأسي، فما انتبهت إلا ورُسُل الخليفة على الباب؛ فقمت فركبت فسرت إليه، فلما مثلت بين يديه قال لي: يا إسحاق، جفوناك بما كنا ضمنّاه لك، وتشاغلنا عنك. فقلت: يا سيدي، ليس شيء آثر عندي وأسرَّ إلى قلبي من سرور يدخل على أمير المؤمنين فإذا كمل سروره وطاب عيشه فعيشنا يَطيب وسرورنا يتصل بسروره. ثم قال: ما كانت حالتك؟ قلت: يا سيدي كنت اشتريت من السوق صبية، وكنت متعلق القلب بها، فلما تشاغل أمير المؤمنين عني، وقد كانت فيَّ بقية طالبتني نفسي بها، فمضيت مسرعاً وأحضرتها، وأحضرت نبيذاً فسقيتها وشربت معها، وغلب عليّ السكر فقُطعت عما أردت، وذهب بي النوم إلى أن أصبحت. فقال لي: ما أكثر ما يتهيأ على الناس من هذا. فهل لك في مثل ما كنا فيه أمس؟ فقلت: يا أمير المؤمنين وهل أحدٌ يمتنع من ذلك؟ قال: فإذا شئت [فانهض بنا] فنهض ونهضت، فصرنا إلى المجلس الذي كنا

---

(١) الخلال: السمات والصفات.

(٢) الدّاية: المرضع الاجنبية او الحاضنة او القابلة.

فيه بالأمس، على مثل حالنا وأفضل، حتى إذا كان ذلك الوقت وثب قائماً، ثم قال يا إسحاق، لا تَرِم[1]، فإني أجيئك، وقد عزمت على الصبحة. فما هو إلا أن فارقني حتى تصوّر لي ما كنت فيه، فإذا هو شيء لا يصبر عنه إلا جاهل فنهضت. فقال لي الغلمان: الله الله. وإنه أنكر علينا تخليتَك وطالبنا بك، وقال، لِمَ تركتموه؟ ولا نحسبك إلا تحب الإيقاع بنا. فقلت: والله لا نال أحدكم بسببي مكروهٌ أبداً. ولكن أبادر بحاجتي، والله لا كان لي حبس ولا تريُّث، وأمير المؤمنين أطال الله بقاءه إذا دخل أبطأ، وأنا مُوافيكم قبل خروجه إن شاء الله.

قال: فمضيت، فما شعرت إلا وأنا في الزقاق، فوافيت الزنبيل على ما كان عليه فأقعدت فيه وأُصعدْت، وصرت إلى الموضع [الذي كنت فيه البارحة]، فلم ألبث إلا هنيهة وإذا بها قد طلعت، فقالت: ضيفُنا؟ قلت: إي والله. قالت: أو قد عاودْت؟ قلت: نعم، وأظنُّ أني قد أثقلت. فقالت: مادحُ نفسه يقرئك السلام فقلت: هفوة، فمُني بالصفح، قالت: قد فعلنا فلا تَعدُ، قلت: إن شاء الله.

ثم جلست، وأخذنا فيما كنا فيه من المذاكرة والإنشاد والشرب، ولم نزل على تلك الحال وأفضل، وقد أنِست وانبسطت بعض الانبساط، وهي مع ذلك لا تزال تقول: لو كنت على ما أنت عليه أحكمت من تلك الصنعة شيئاً، لقد تناهيت وبرعت. فأقول: والله لقد حرصت على ذلك وجهدت فيه فما رُزِقتُه ولا قدرت عليه. ثم قلت: جعلت فداك، لا تخلينا مما كان من فضلك البارحة. فأخذت في الأغاني، وكلما مر صوت طيب قالت: أتدري لمن هذا؟ فأقول: لا! فتقول: لإسحاق! فأقول: وإسحاق هكذا في الحذق! فتقول. بخ إسحاق في هذا البيت بديع الصوت، وعميق الغناء. فأقول: سبحان الله! لقد أُعطي إسحاق هذا ما لم يعطه أحد! فتقول: لو سمعت هذا منه لكنت أشدّ استحساناً له وكلفاً به.

حتى إذا كان ذلك الوقت وجاءت العجوز، نهضت وودعتها، وبادرت جارية ففتحت الباب فخرجت منه.

---

(١) لا ترم: لا تهم بشيء.

وبادرت المنزل فتوضأت للصلاة وصليت الصبح، ووضعت رأسي فنمت، فما انتبهت إلا ورُسلُ أمير المؤمنين يطلبونني؛ فركبت إلى الدار فما هو إلا أن مثلت بين يديه فقال لي: يا إسحاق، أبَيت إلا مكافأة لنا ومعاملة بمثل ما عاملناك. قلت: لا والله يا أمير المؤمنين، ما إلى ذلك ذهبت، ولا إليه قصدْت، ولكنني ظننت أن أمير المؤمنين تشاغل عني بلذته وأغفل أمري، وجاء الشيطان فأذكرني أمر الجارية، فبادرت، فقال: وكان من أمرك ماذا؟ قلت: قضيت الحاجة وفرغت [مِن] الأمر. فقال: قد انقضى ما كان بقلبك منها وواحدة بواحدة والبادي أظلم. فقلت: أنا يا أمير المؤمنين ألْوَم وأظلم، والمعذرة إليك فقال: لا تثريب عليك، هل لك في مثل حالنا الأول؟ قلت: إي والله! قال: فانهض بنا. فقمنا حتى صرنا إلى الموضع الذي كنا فيه، فأخذْنا في لذتنا؛ حتى إذا كان الوقتُ قال لي: يا إسحق ما عزمت؟ قلت لا عزم لي يا أمير المؤمنين! قال: عزمت عليك لتجلسنّ حتى أخرج إليك لتصطبح؛ فإني عازم على الصبوح وقد نغّصْتَ عليّ منذ يومين! قلت: إن شاء الله!

وقام، فما هو إلا أن توارى، حتى قمت وقعدت، وجالت وساوسي، وجعلت أفكر في مجلسي معها وأفكر فيها، وفي الخروج عن طاعة المأمون وما يخرجني من سخطه ومَوجدته؛ فسَهُل [عليّ] كلُّ صعب إذ فكرتُ في أمرها؛ فقمت مبادراً، فاجتمع عليّ جندُ الدار فقالوا: أين تريد؟ فقلت الله الله! إن لي قصة، وأنا معلّق القلب ببعض مَن في منزلي، وأحتاج إلى مطالعتهم في بعض الأمر. فقالوا: ليس إلى تركك سبيل! فلم أزل أَرفق بهذا، وأقبِّل رأس هذا، ووهبت لواحد خاتمي، ولآخر ردائي، حتى تركوني؛ فلما خرجت عن جملتهم لم أرتد عنها جاسراً حتى وافيت الزنبيل وصعدت السطح وصرت إلى الموضع؛ فلما رأتني قالت: ضيفنا؟ قلت: نعم. قالت: جعلتَها دار مُقام! قلت: جعلت فداك، حق الضيافة ثلاثة أيام، فإن عدت بعدها فأنت في حِل من دمي! قالت: والله لقد أتيتَ بحجة.

ثم جلسنا، وأخذنا في مثل حالنا الأول من الشرب والإنشاد، والمذاكرة، حتى إذا علمت أن الوقت قد قارب، فكرتُ في قصتي، وأن المأمون لا يفارقني على هذا

وأنني لا أتخلص منه إلا بشرح قصتي وأكشف له عن حالي، وعلمت أني إن قلت له ذلك طالبني بمعرفة الموضع والمسير إليه، مع ما كان غلب عليه من الميل إلى النساء؛ فقلت لها: أتأذنين في ذكر شيء خطر ببالي؟ قالت: قل ما بدا لك. قلت: جعلت فداك، إني أراك ممن يقول بالغناء، ويعجب به وبالأدب ولي ابن عم هو أحسن مني وجهاً، وأشرف قدراً، وأكثر أدباً، وأعز معرفة، وأنا تلميذ من تلاميذه، وحَسنةٌ من حسنانه؛ وهو أعرف الناس بغناء إسحق! قالت: طفيلي ومقترِح! لم ترض أن سمحنا لك ثلاثة أيام، حتى طلبت أن تأتي معك بآخَر؟ فقلت لها: جعلت فداك، ذكرتُه لتكوني أنت المحكمَّة، فإن أذنت وأردت ذلك وإلا فلا أذكره. فقالت: إن كان ابنُ عمك هذا على ما ذكرتَ فلا نَكرة أن نَعرِفه، فقلت: هو والله أكثرُ مما وصفت! فقالت: إن شئت فالليلة الآتية أئت به.

ثم حضر الوقت فنهضت حتى وافيت منزلي، وإذا برسل الخليفة قد هجموا على منزلي وأصحاب الشرطة؛ فلما بصروا بي سُحبت على ما بي بحالتي تلك، حتى انتهوا بي إلى الدار؛ فإذا المأمون جالس على كرسي وسط الدار، مغتاظ حَرِد[1]؛ فقال: أخروجاً عن الطاعة؟ قلت: لا والله يا أمير المؤمنين، إنه كانت لي قصة أحتاج فيها إلى الخلوة. فأومأ إلى من كان واقفاً فتنحَّوا، فلما خلونا قلت: كان من خبري كذا وكذا، وفعلت وصنعت...

فوالله ما فرغت من حديثها حتى قال: يا إسحق، أتدري ما تقول؟ فقلت: إي والله! إني لأدري! فقال: ويحك! كيف لي مشاهدة ما شاهدتَ؟ قلت: ما إلى ذلك سبيل! قال: لا بد أن تتلطف وتوصِّلني إليها؛ فهذا ما بقي لي صبر عنه! قلت: والله إني قد تفكرت في قصتها وفيما قدمت عليه من عصيانك، وعلمت أنه لا ينجيني إلا الصدقُ وكشْف الحال، وعلمت أنك تطالبني به أشدّ مطالبة فقدّمْت لها ذِكرك، ووعدتني في أمرك بكذا وكذا. قال: أحسنت والله لولا ذلك لنالك مني كلُّ مكروه! قلت: فالحمد لله الذي سَلَّمَ.

(١) الحرد: الغضبان.

ثم نهض ونهضت إلى مجلسنا، وأخذنا في لذتنا، وهو مع ذلك يقول: يا إسحق، صف لي حالها، واشرح لي أمرها!

فقطعْنا يومنا في مذاكرتها إلى أن مضى النهار، فلما أن مضى من الليل هدْأة[1] جعل يقول: ما جاء الوقت! وأنا أقول بقي قليل؛ والقلق غالب عليه، حتى جاء الوقت، فنهضنا وخرجنا من بعض أبواب القصر؛ معنا غلام، وهو على حمار وأنا على حمار. فلما صرنا بالقرب من منزلها نزلنا، ثم سلمنا الحمارين للغلام، وقلنا له: انصرف، فإذا كان الفجر فكن ههنا بالحمارين وأقبلنا نمشي متنكرَين وأنا أقول: يجب أن تُظهر بِرِّي بحضرتها وإكرامي. وتطرحَ نخوة[2] الخلافة وتجبُّرَ الملك، بل كن كأنك تبع لي! وهو يقول: نعم أو يحتاج أن توصيني؟ ثم قال: ويحك يا إسحق! فإن قلت لي غنِّ كيف أصنع؟ قلت: أنا أكفيك وأدفعها عنك برفق.

فلما صرنا إلى الزقاق إذا بزنبيلين[3] معلقين بثمان حبال، فقعد كل منا في واحد وجذبنا الجواري، وإذا نحن في السطح؛ وبادرْن بين أيدينا حتى انتهينا إلى المجلس، فأقبل المأمون يتأمل الفرش والدار والزِّي، ويتعجب عجباً شديداً؛ ثم قعدت في موضعي الذي كنت أقعد فيه، وقعد المأمون دوني في المرتبة، ثم أقبلتْ فسلمتْ، فما تمالكَ أن بُهت من حسنها، فقالت حيّا اللهُ ضيفَنا! فوالله ما أنصفتَ ابن عمك، ألا رفعتَ مجلسه؟ فقلت ذلك إليك، جعلت فداءك! فقالت [له]: ارتفع فديتُك فأنت جديد، وهذا قد صار من أهل البيت، ولكل جديد لذة!

فنهض المأمون حتى صار في صدر المجلس، ثم أقبلت عليه تذاكره وتناشده وتمازحه، وهو يأخذ معها في كل فن، ويفخمها قال ثم التفتت إلي وقالت: وفيت بوعدك وصدقت في قولك ووجب شكرُك على صنيعك! قال: ثم أحضر نبيذ وأخذنا في الشراب، وهي مع ذلك مقبلة عليه وهو مقبل عليها، ومسرورة به

---

(١) الهدأة: الهدأ: الهزيع من الليل وهو من أوله الى ثلثه.

(٢) النخوة: التعظم والافتخار.

(٣) الزنبيل: الجراب.

ومسرور بها؛ فقالت لي: ابن عمك هذا من أبناء التجار؟ قلت: نعم، فديتُك نحن لا نعرف إلا التجارة! قالت وإنكما فيها لغريبان! ثم قالت: موعدَك! فقلت: لعمري إنه لجيب، ولكن حتى نسمع شيئاً. قالت: لك ذاك. فأخذت العود فغنت صوتاً، فشربنا عليه رطلاً؛ ثم غنت بصوت كان المأمون يقترحه عليّ، فشربنا عليه رطلاً.

فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال، داخله الفرح والارتياح وقال: يا إسحق؛ فوالله لقد رأيته ينظر إليّ نظر الأسدِ إلى فريسته؛ فنهضت وقلت: لبّيك يا أمير المؤمنين! قال: غنني بهذا الصوت!

فلما رآتني قمت بين يديه وأخذتُ العود ووقفتُ بين يديه أغنيه، علمت أنه الخليفة وأني إسحق؛ فنهضت فقالت؛ ههنا! وأومأت إلى كِلةٍ[1] مضروبة، فدخلتها؛ ثم فرغت من ذلك الصوت وشرب رطلاً، وقال لي: ويحك يا إسحق! انظر مَن ربُّ هذه الدار! فخرجت إلى تلك العجوز فسألتها عن صاحب الدار فقالت: الحسن بن سهل. قلت: ومن هذه؟ قالت: بوران ابنته فرجعت وأعلمته.

قال؛ ثم انصرفنا، فقال لي: يا إسحق، اكتم هذا الأمر ولا تتفوّه به. ومضينا إلى دار الخلافة؛ فلما كان الصباح وحضر الحسن بن سهل على عادته، قال له المأمون: ألك بنت؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال ما اسمها؟ قال: بوران. قال: فإني أخطبها إليك قال هـي أمَتك يا أمير المؤمنين، وأمرُها إليك قال فإني قد تزوجتها على نقد ثلاثين ألف دينار: فإذا قبضت المال فاحملها إلينا.

ثم تزوجها، وكانت أحظى نسائه عنده، وآثَرهن لديه؛ وكنت أستر هذا الحديث إلى أن مات المأمون.

[قال إسحق]: فما اجتمع لأحد ما اجتمع لي في تلك الأربعة الأيام، إذ كنت أنصرف من مجلس أمير المؤمنين إلى مجلسها، ووالله ما رأيت من الرجال وملوكهم

(١) الكِلّة: ستر رقيق مثقب يتوقى به من البعوض وغيره.

وخلفائهم أحداً يفي بالمأمون، ولا شاهدت من النساء امرأة كبُوران في عقلها؛ وأما معرفتها وأدبها فما أظن من يتهيّأ له أن يقف من العلوم على ما وقفت عليه ولقد سألت بعض من يتولى خدمتَها من العجائز: ما حَمَلها على ما أرى؟ فقالت: إنها تفعل ذلك منذ كذا وكذا سنة، ولقد عاشرَت الظرفاء والملاح والأدباء أكثر من أن يقع عليه إحصاء، ولم يكن جرى بينها وبين أحد مكروه ولا خَنَا[1] ولا كلمة قبيحة؛ ولم يكن مذهبها في ذلك إلا حب الأدب والمذاكرة، ومعاشرة الظرفاء وأهل المروءة والأقدار والنُّبل والأخطار، لا لريبة تظهر، ولا لحالة تُنكَر. قال: فوالله لقد تضاعف قدرُها عندي، وعظم خطرُها في نفسي، وعلمت شرفَ همتها وفضلَها.

فهذا خبر بوران صحيحاً على الحقيقة، وسبب تزوُّج المأمون بها.

فتى من بني حنيفة وجارية

قال هشام بن الكلبي والهيثم بن عدي: إن ناساً من بني حنيفة خرجوا يتنزهون إلى جبل لهم، فرأى فتى منهم في طريقه جارية، فرمقها وقال لأصحابه: لا أنصرف والله حتى أُرسل إليها وأُخبرها بحبي لها! فطلبوا إليه أن يكف فأبى، وأقبل يراسل الجارية؛ وتمكن حبها من قلبه، فانصرف أصحابه وأقام الفتى في ذلك الجبل، فمضى إليها ليلة متقلداً سيفاً وهي بين أخوين لها نائمة، فأيقظها؛ فقالت: انصرف لئلا ينتبه أخواي فيقتلاك! فقال: الموت أهونُ والله مما أنا فيه، ولكن أعطيني يدك أضعها على قلبي وأنصرف! فأعطته يدها، فوضعها على قلبه وانصرف؛ فلما كانت الليلة الثانية، أتاها وهي على مثل تلك الحال، فأيقظها، فقالت له مثل مقالها الأوّل، فقال: لك الله إن أمكنتِني من شفتيك أرشفهما أن أنصرف! فأمكنتْه فرشفهما ثم انصرف؛ فوقع في قلبها من حبه مثل ما كان به...

وفشا خبرهما في الحيّ، فقال أهل الجارية: ما مُقام هذا الفاسق في هذا الجبل؟

(١) الخنا: الفحش في الكلام.

امضوا بنا إليه الليلة! فبعثت إليه الجارية: إن القوم سيأتونك الليلة، فاحذر على نفسك! فلما أمسى قعد على مرقاة ومعه قوسه وسهمه، ووقع بالحيّ في الليل مطر، فاشتغلوا عنه؛ فلما كان آخر الليل وانقشع السحاب وطلع القمر، اشتاقته الجارية فخرجت تريده ومعها صاحبة لها من الحي كانت تثق بها؛ فنظر الفتى إليهما فظن أنهما يطلبانه، فرمى فما أخطأ قلب الجارية، فوقعت ميتة، وصاحت الأخرى ورجعت؛ فانحدر الفتى من الجبل فإذا الجارية ميتة، فقال:

نَعبَ الغُرَابُ بما كرهْـ ـتُ ولا إزالةَ للقـدر
تبكي وأنتَ قتلتَها فاصبر وإلا فانتَحِرْ

ثم وجأ بمشاقصه[1] في أوداجه حتى مات؛ فجاء أهل المرأة فوجدوهما ميّتين، فدفنوهما في قبر واحد!

باب اللغز

كانت في أبي عطاء السندي لثغة قبيحة، فاجتمع يوماً في مجلس بالكوفة فيه حماد الراوية، وحماد عجرد، وحماد بن الزبرقان، وبكر بن مصعب؛ فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: ما بقي شيء إلا وقد تهيأ في مجلسنا هذا، فلو بعثنا إلى أبي عطاء السندي! فأرسلوا إليه، فأقبل يقول: مرْهباً مرهباً! هياكم الله! وقد كان قال أحدهم. من يحتال لأبي عطاء حتى يقول: جرادة، وزُج[2]؟ وشيطان! فقال حماد الراوية: أنا! فقال: يا أبا عطاء؛ كيف عِلمك باللغز؟ قال: هَسَن، يريد: حسن، فقال له:

فما صَفراءُ تُكنى أُمَّ عوفٍ كأنّ سُويقتيها مِنجَلان[3]

قال: زَرارة. فقال: أصبت، ثم قال:

---

(١) وجأ بالمشقص: دفع بجمع كفه سهما عريض النصل في عنقه.

(٢) الزج: الحديدة في اسفل الرمح.

(٣) السّاق: الرباط، أو القيد.

أتعـــرِفُ مَسجـــداً لبني تَميم   فُوَيْق الميـلِ دون بني أبـانِ ؟

قال: في بني سيْتَان. فقال: أصبت، ثم قال:

فما اسمُ حَديدة في الرمحِ ترمـى   دُوَيْن الصدْرِ ليست بالسنـانِ ؟

فقال: زُزّ. فقال: أصبت.

وقال المأمون يصف خاتماً:

وأبيـض أمّـا جسمُـهُ فمُـدَوَّرٌ   نقـيٌّ وأمّـا رأسُـهُ فمعـار
ولمْ يكتَسَبْ إلا ليسكُنَ وسْطَـه   مـؤنثـةٌ لم تُكْسَ قـطّ خمار
لها أخواتٌ أربـعٌ هُـنَّ مثْلُهـا   ولكنها الصُّغـرى وهُـن كِبـار

وقال آخر في أرنب:

لهوْتُ بـذاتِ رأسٍ والتِيـاثِ   كرفعِ الإصبَعَيْـنِ على الثلاثِ[1]
إذا السّبّابـةُ ارتفعـت مـع الخِنْـ   ـصَرِ اجتَمَعَ الثلاثُ بلا انتكـاث
لهوْتُ بها تطيرُ بلا جَنـاحِ   وتُنسَبُ في الذُّكـورِ وفي الإنـاث

وقال:

ربّ ثورٍ رأيـتُ في جُحْـرِ نَمـل   وقطـاةٍ تحمَّـلُ الأثقـالا
ونُسـورٍ تمشي بغيرِ رُءوس   لا ولا ريش تحمِـل الأبطـالا
وعجـوزٍ رأيـتُ في بطـنِ كلـب   جُعِـل الكلـبُ للأميرِ جمالا
وغُلامٍ رأيتُـهُ صـار كلبـاً   ثم مِـن بعـدِ ذاكَ صـار غـزالاً
وأتـانٍ رأيـتُ واردَةَ المـا   ء زمـانـاً ومـا تـذوقُ بَلالا
وعُقَـابٍ تطير مـن غيرِ ريش   وعُقـابٍ مقيمَـة أحْـوالا

الثور: النمل الذي يخرج التراب من الجحر العظيم بفيه. والقطاة: موضع الردف من الفرس. والنسور: بطون الحوافر. والعجوز: السيف. وبطن الكلب: الجلد الذي

(١) الالتياث: الالتفات والقوة والسمن.

يعمل منه غمد السيف. وصار كلباً: ضم كلبا، أخذه من صار يصور، من قول الله: ﴿فصُرهُنَّ إليْكَ﴾[1] والأتان: الصخرة. والعقاب التي تطير من غير ريش: البكرة. والمقيمة أحوالاً: اللواء.

وقال آخر في البيضة:

ألا قل لأهل الرأي والعلمِ والأدبْ ... وكلِّ بصيرٍ بالأمورِ أخي أَرَبْ[2]
ألا خبروني أي شيء رأيتم ... من الطير في أرضِ الأعاجِم والعرب
قديمٌ حديثٌ قد بَدا وهو حاضرٌ ... يُصادُ بلا صيدٍ وإن جدَّ في الطَّلَب
ويُؤكل أحياناً طبيخاً وتارةً ... قلِيّاً ومشويّاً إذا دُسَّ في اللهَب
وليس له لحمٌ وليس له دمٌ ... وليس له عظمٌ وليس له عصبْ
وليس له رجلٌ وليس له يدٌ ... وليس له رأْسٌ وليس له ذَنبْ
ولا هو حيٌّ لا ولا هُو ميِّتٌ ... ألا خبروني إنّ هذا هو العجَبْ

وقال غيره:

إني رأيتُ عجوزاً بين حاجِبها ... ونابِها حَبَشِيٌّ قائمٌ رجُلُ[3]
له ثلاثونَ عيناً بين مرفقِهِ ... وبين عاتِقه في رجْله قزَل[4]
في ظهرِه حيَّةٌ حمراءُ قانيةٌ ... في ظهره رجلٌ في ظهره رجُل

العجوز: الناقة. والحبشي الذي بين حاجبها ونابها: الأسود الحابس بالخطام. وقوله: له ثلاثون عيناً بين عاتقه ومرفقه: مثاقيل كانت مصورة في عضده. وقوله: في ظهره حية حمراء قانية: كان عليه برنس فيه تصاوير بعضها داخل في بعض.

وقال آخر في القلم:

فلا هو يمشي لا ولا هو مُقعدٌ ... وما إن له رأس ولا كفٌّ لامِس

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٠.
(٢) الأرب: القصد والغاية.
(٣) رُجْلُ: جمع ارجل، هو عظيم الرِّجل.
(٤) القزل: اسوأ العرج وأشده.

ولا هـــو حـــيٌّ لا ولا هـــو ميِّــتٌ   ولكنَّـه شخـصٌ يُـرى في المجــالس
يـزيـدُ على سمِّ الأفـاعــي لعــابُــه   يـدِبُّ دبيبـاً في الدُّجــى والحنــادِس
يفــرِّقُ أوصـــالا لصمـــتٍ يُجبْنَــهُ   وتُفـــري بـــه الأوداجُ تحت القلانِس
إذا مـا رأتــه العينُ تحقِــرُ شــأنــه   وهيهات يبدو النِّقْسُ عند الكـرادِس[1]

وقال آخر فيه:

ضئيـــــل الرُّواء كبير العنــــاء   مــن البحـرِ في المنصب الأخضرِ
عليـــه كهيئِـــة مَــرِّ الشجـــا   عِ في دِعْــصِ محنيــةٍ أعفَــر[2]
إذا رأسُــــهُ صـــح لم ينْبعِـــثْ   وحـــاد السبيـــلَ ولم يبصِـــر
وإن مُـدْيـةٌ صــدعـــتْ رأسَــه   جـرى جـرْيَ صـائـب لم يُقصِـر
يقضي لبـــــانتـــــه مُقبلاً   ويَحسِمـــه هيئـــة المزبـــر[3]
جـــريء بكَـــفٍّ فتى كفُّـــه   تســـوقُ الثراءَ إلى المقْتِـــر

أبيات من الشعر المحدث

مـــاءُ النعيمِ بـــوجهـــه مُتحيِّـــرُ   والصُّدغُ منه كمعطف للـرّائـي[4]
وكــأنما نهكـت قـوى أجفــانـــه   بـالـراحِ أوقـد شيـب بـالإغفـاء
لــو بـــاشر الماءَ القـــراح بكفِّـــهِ   لجرت أنـــامِلُـــه بنبـــعِ الماء

وقال المؤمِّل:

عجبـــتُ لمن يُطيِّبني بمســـك   وبي يتطيّـــب المســـكُ الفَتيـــتُ
خـــلاخيـــل النِّســـاء لها وجيـــبٌ   ووسْواسِـي وخلْخـالي صمـوت[5]

---

(١) الكرادس: جمع كردوس: كل عظمتين التقيا في مفصل.
(٢) الشجاع: الحية.   (٣) المزبر: القلم.
(٤) الرائي: المتكبر.
(٥) الوجيب: الخفوق والاضطراب.

ولــو أنّ النِّســاءَ غنينَ يــومــاً   عــن المســك الذكــيِّ كما غنيــت
لأصبــحَ كــل عطّــار فقيراً   قليلاً مــالــه مــا يستبِيــت[1]

★★★

تم الجزء الثامن من العقد الفريد وبه تم الكتاب

(١) البيت: بالكسر: القوت.

فهرس

الصفحة	الموضوع

فهارس

العقد الفريد

اعداد
جماعة من الأساتذة باشراف الناشر

تشمل هذه الفهارس:

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م

يطلب من: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
صندوق بريد ٩٤٢٤ - ١١ - هاتف ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤
الرملة البيضاء - بناية ملكارت سنتر

ا

فهرس الاعلام

حرف الهمزة

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين.

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

٢

فهرس

الأمكنة والبلدان والقبائل والجماعات

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

٣

فهرس القوافي

الهمزة

صدر البيت	قافيته	بحره	ج	ص
إذا رزق	يشاء	وافر	٢ :	٢٥٣
إذا	السماء	وافر	٣ :	٢٤٣
لعل	يشاء	وافر	٥ :	٢٠١
قتلنا	البكاء	وافر	٦ :	٣٩
فإن	جلاء	وافر	٦ :	١٣١
ألا	الخفاء	وافر	٦ :	١٤٦
تحمل	ألعفاء	وافر	٧ :	٧٠
فقل	الشفاء	وافر	٧ :	١٥١
كأن	هواء	وافر	٧ :	٢٦١
ونشربها	اللقاء	وافر	٨ :	٧٥
لئن	داء	وافر	٨ :	١٥٢
ثلاث	والسناء	وافر	٧ :	١٩٩
أهفي	العلاء	وافر	٧ :	١٠٨
أدب	الماء	كامل	٢ :	٢٦٢
إذا	والفتاء	كامل	٢ :	٣٦٩
كانت	والإمساء	كامل	٢ :	٣٧١
إبا	أكفاء	كامل	٣ :	٢٨٤
كثرت	الأطباء	كامل	٤ :	٥٤
يومون	الرقباء	كامل	٢ :	١٣٤
		و	٤ :	١٢٣
أنت	نسائها	كامل	٥ :	١٤٨
قل	رائه	كامل	٥ :	٣٣١
ولقد	بمساء	كامل	٦ :	٦٩

صدر البيت	قافيته	بحره	ج	ص
أسمع	الأحياء	كامل	٨ :	٨
ماء	للرائي	كامل	٨ :	١٧١
يالك	اللهاء	رجز	٦ :	٢٠٣
تصطك	عطائها	رجز	٦ :	٢٠٤
تجرّ	حبائها	رجز	٦ :	٢١٧
ثم	بالأسماء	رجز	٦ :	
خاط	سواء	رمل	٦ :	٢٣٢
إنّ	يرزؤها	منسرح	٢ :	٣١١
إنما	الظلماء	خفيف	٢ :	٣٦٢
ولداتي	إمراء	خفيف	٢ :	٣٦٢
كيف	شعواء	خفيف	٥ :	١٥٦
وحديث	والحمراء	خفيف	٦ :	٢٦٤
ما على	الإخاء	خفيف	١ :	٣٤٣
ظلم	عزاء	خفيف	٣ :	٢٣٧
كفاني	ماء	خفيف	٧ :	٤٠
لا تكن	ماء	خفيف	٧ :	٣٠٧
مالكي	ضياء	خفيف	١ :	٢٠٠
يا صديقي	أحشائي	خفيف	٢ :	٢٣٠
يوضح	الأنواء	خفيف	٣ :	١٤٣
أين	والدهناء	خفيف	٤ :	٥٤
			و٦ :	٢٦٨
أوجب	الأنواء	خفيف	٤ :	٣١٠
أنت	وبلائي	خفيف	٦ :	٣١٢

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

صدر البيت	قافيته	بحره	ج	ص
			و٤	٢٤٦
			و٦	١٤١
			و٧	٨٧
قصد	حميدا	كامل	٣	٢٠٨
ولقد	ورشادها	كامل	٦	١٦٣
				و١٦٣
لم	عتادها	كامل	٦	١٦٣
أطفأت	زنادها	كامل	٦	١٦٤
وكتيبة	يدي	كامل	١	١٢٥
الله	مزبد	كامل	١	١٢٥
			و٦	١٨٣
ليس	المتحمد	كامل	١	١٩٧
صدت	المرتد	كامل	١	٢٠٧
كعب	وتليد	كامل	١	٢٤٦
لله	والسودد	كامل	١	٢٦٤
طويت	الخدّ	كامل	١	٢٧١
أيسومني	محمد	كامل	٢	٦٨
خلت	بالسودد	كامل	٢	١٤٨
وإذا	حسود	كامل	٢	١٤٧
إن	الوالد	كامل	٢	١٧٨
إنّ	أبدي	كامل	٢	١٨٦
ونعود	بالعوّاد	كامل	٢	٢٨٢
اقرأ	دد	كامل	٢	٣١٤

صدر البيت	قافيته	بحره	ج	ص
يا غافلا	مشاهد	كامل	٣	١٢٨
غدر	معرد	كامل	٣	٢٣١
			و٥	٧٣
خدّي	خدّي	كامل	٣	٢٥٧
ماذا	إياد	كامل	٣	٢٦٧
فيم	ومبلد	كامل	٤	١٠٠
يا رقعة	خد	كامل	٤	٢٨٥
متقلدين	يولد	كامل	٤	٢٩٧
لله	جلاد	كامل	٦	٦٠
وبيوم	ومحمد	كامل	٦	١٢٢
عاصي	وتجلد	كامل	٦	١٨٢
لم	متجدد	كامل	٦	٢٠٧
ولقد	معد	كامل	٦	٣٥٨
قل	متعبد	كامل	٧	١٧
إني	البارد	كامل	٧	٦٥
خيرا	الحاسد	كامل	٧	٦٦
ردّا	تجدي	كامل	٧	١٩٢
			و٨	٥٨
نعل	المجد	كامل	٧	٣١٣
نعم	حماد	كامل	٨	٥٣
يا حسرتا	وبعادي	كامل	٨	١١٩
ولقد	وقد	كامل	١	١٥٠

حرف الزاى

حرف السين

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

صدر البيت	قافيته	بحره	ج	ص
ألا	وجليل	طويل	٦ :	١٣٢
عجبت	وتقيلوا	طويل	٦ :	١٥٤
يموت	قائله	طويل	٦ :	١٦٦
ولا يردون	منهل	طويل	٦ :	١٦٨
وما سمى	وأعجل	طويل	٦ :	١٦٨
فلا	شاغله	طويل	٦ :	٢١٤
ونحن	وسلول	طويل	٦ :	٢٣٣
ألم	وحمائله	طويل	٦ :	٢٣٣
أحببت	العذل	طويل	٦ :	٢٤٦
ويقنعني	لبخيل	طويل	٧ :	٤٨
إلى	المؤمل	طويل	٧ .	٥٨
فإن	منزل	طويل	٧ :	٧١
وأخضع	أتفضل	طويل	٧ :	٧٠
وهل	بغل	طويل	٧ :	١٢٤
وما	خليها	طويل	٧ :	١٣٥
تجهز	الأنامل	طويل	٧ :	٢٠٨
			و٨ :	١٥
وإن لم	قليلها	طويل	٨ :	١١٩
تعالوا	طويل	طويل	٨ :	١٢٧
كفيت	يحمل	طويل	٨ :	١٥٥
سأترك	قليلا	طويل	١ :	٦٩
إذا قال	فصلا	طويل	٢ :	١٢٧
إذا	كهلا	طويل	٢ :	٣٢٨

صدر البيت	قافيته	بحره	ج	ص
خذوا	عقالا	طويل	٥ :	٢٠٦
			و٨ :	٦٤
ونحن	أشكلا	طويل	٦ :	٥٩
من	المغفلا	طويل	٧ :	١١٨
فوالله	التجملا	طويل	٧ :	٣١٦
وإن	خيالها	طويل	٨ :	١٣٢
فقالت	أهلي	طويل	١ :	٦٣
			و٦ :	٢٤٤
أتيتك	نائلك	طويل	١ :	٧٠
وجيش	وقنابل	طويل	١ :	١٠١
دفعتكم	بالأنامل	طويل	١ :	١٠٧
			و٢ :	٢٧٦
له	تتفل	طويل	١ :	١٤٢
كريم	لنوال	طويل	١ :	٢٠٠
تأن	بخل	طويل	١ :	٢١٣
لله	الأول	طويل	١ :	٣١٣
خليلي	قبلي	طويل	١ :	٣٢٢
			و٦ :	٢٤٤
وما	باطل	طويل	١ :	٣٣٥
أديرا	ذحلي	طويل	٢ :	٥٥
	و٦ : ١٦٧		و	٢١١
إذا	الوحل	طويل	٢ :	٥٥
فلما تم	يتبهدل	طويل	٢ :	٦٧

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

حرف الألف اللينة